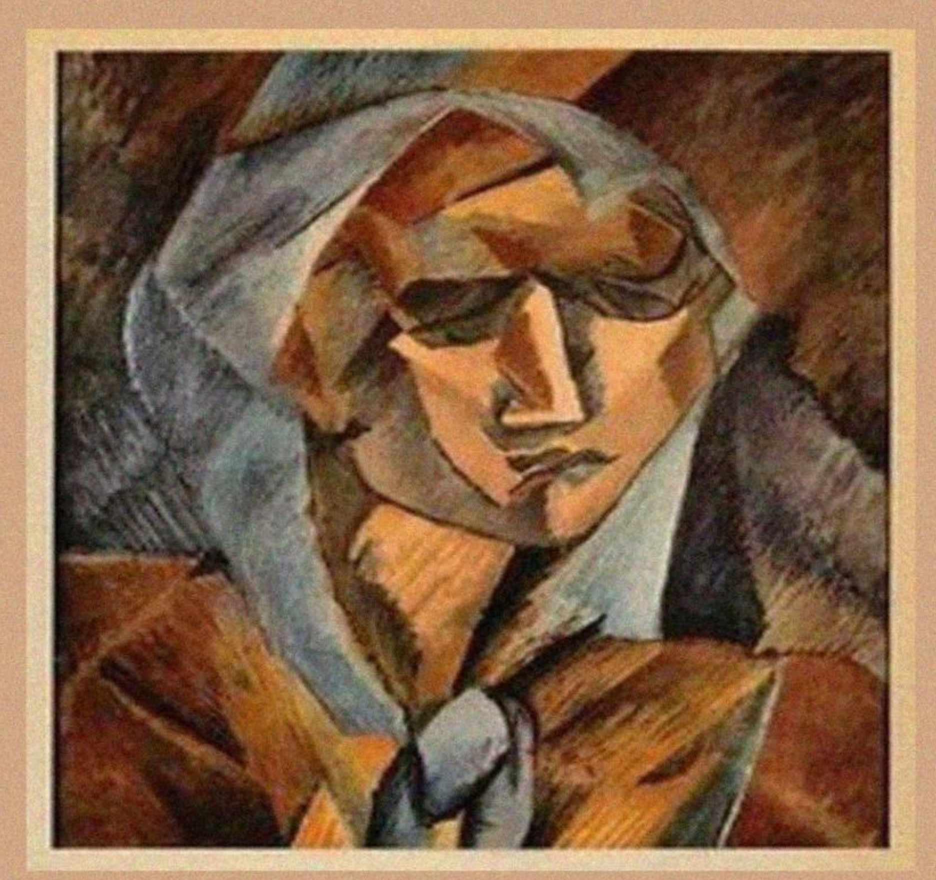
الاعمال الكاملة

يوسف إدريس



الروايات 1

دار الشروق

تصميم غلاف : علي مولا

يوسف إدريس

الروايات

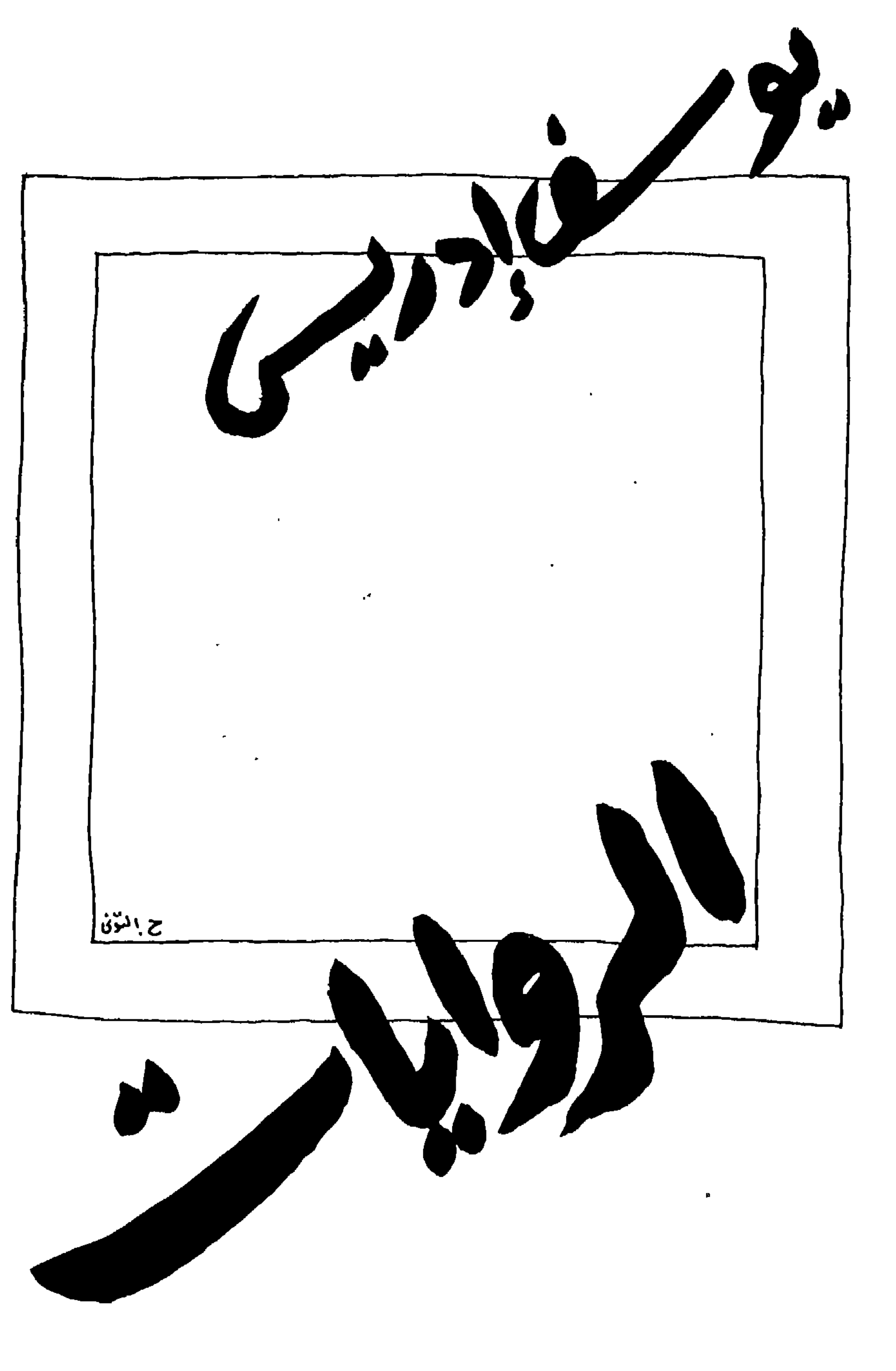
الطبعـة الأولى
١٩٨٧م - ١٤٠٧هـ

دار الشروق

بيروت : ص.ب : ٦٤ - ٨ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣ - برقياً : داشروق
تلكس : SHOROK 20175 LE

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٤٥٧٨ - برقياً : شروق
تلكس : 93091 SHROK UN

SHOROUK INTERNATIONAL; 316/318 REGENT STREET, LONDON W1, UK, TEL: 637 2743/4
TELEX: SHOROK 25779G


يوسف إدريس
الروايات
ح. التوني

نيويورك

ح . اللبّاني

نيويورك ٨٠ ـ فيينا ٦٠

١

هو: من فضلك يا مدام. . بالمناسبة. . أهذه هي الطريقة الصحيحة في الحديث الى السيدات. أم يجب أن اقول يا «مام»؟

(نظرة مفاجئة منها، ثم دهشة، ثم امتعاض قليل).

هي: ولماذا لا؟. . فليكن. . قلها سيدتي إن شئت أو «مام» إن شئت. . لم لا؟. هذه طريقة شائعة جداً هنا.

هو: سيدتي. . من الواضح أنك. . أنك. .

هي: أجل. . أجل. . لأختصر وقتي ووقتك، أنا(Call Girl) أتعرف معنى هذا؟. . لأختصر وقتي أكثر. أنا ممن يسمونهم (المومسات).

رغم أن الاجابة لم تكن مفاجأة له. . إلا أن الطريقة كانت منقضة سريعة. . وعقله يعمل بسرعة البرق. . يردد السؤال أو الاجابة عدة مرات لا ليتأكد بل ليستوعب. . بعد ما استوعب وأنب نفسه على أنه هو الذي خجل. . رفع رأسه وواجهها. . كان وجهها يصنع زاوية ٤٥ أفقياً ورأسياً. أما عيناه فقد كانتا في محجريهما، هذا صحيح، ولكن زاويتهما كانت في وضع المسقط الرأسي حيث الحدقة إلى أعلى، ولكنه كان كمن أصبح يرى ببياض عينيه.

هو: (مونولوج داخلي) مومس؟!.. لماذا يسمى كل شيء هنا باسمه تماماً على حقيقته؟ ألا يخجلون؟.. على أية حال نحن أكثر أدباً، سموه نفاقاً أوادعاء،ولكنه أرحم من الحقيقة الصارخة، والأسماء التي بالضبط على مسماها. مومس!. الكلمة بشعة بأية لغة تقال حتى لو كانت الفرنسية ومومس سارترها الفاضلة، مومس. وابل من «التابوهات» والتابلوهات والمناظر يتساقط متوحشاً كمطر نيويورك.

ولكن هناك حقاً.

والحق يجب أن يقال.

سيدته تلك التي خاطبها لا تمت الى البغي شكلاً أو موضوعاً بأية صلة، ترتدي منظاراً غيرشمسي (نظارة نظر) على آخر صيحة، وهو يعبد مرتديات النظارات. عيون مرتدياتها في العادة تتضح وتدق وتفصح عن مكنونها من اخمص القدم الى أدق شعيرات النوازع التي غالباً ما تتعلق بنيتها نحو الرجل.

مومس!.

جديدة في الكار حتماً، يبدو وكأنها لم تبدأ احترافها إلاّ منذ الأمس فقط. ولكن المحدد والمؤكد أن هذه فتاة داخلها مغناطيس قوي غير محترف يشدها الى جنس الرجل، حتى قبل أن يشد الرجل اليها.

هو: (مونولوج خارجي) سيدتي.. أو ما تنطقونه بالأميركية «مام»؟ اريد أن أقول لك شيئاً واضحاً قوياً ومنذ الآن. أنا جالس هنا قبلك. وقد لاحظت أنك حين جئت فتشت المكان بناظريك ورغم خلو معظم المقاعد اخترت الكنبة التي اجلس على طرف منها لتجلسي على الطرف الآخر. ثم لاحظت ثلاثة رجال على التوالي تركوا جلساتهم الانفرادية على البار وحاولوا التودد اليك. عن عمد كنت ألاحظك، بل بلغ من

ملاحظتي أني رثيت لك وحمدت الله أنه لم يخلقني أنثى، ولم أختر من أنوثتي أن أكون نديمةرجال،فقد كان الرجل الأخير سميناً مجعلصاً، لا يصلح الا للضرب على القفا، وقد لاحظت ايضاً انه يغريك ويذكر اسم الشركة ذات السمعة العالمية الرهيبة التيْ يعمل بها.

هي: (مقاطعة) وكانت له رائحة.

هو: شيء مؤسف ومقزز. ولكنك حرة، وأنت اخترت أن يختارك الرجال أو يفرضون عليك اختيارهم. وأنت أيضاً حرة، ولكن حريتك لابد أن تتوقف هنا حيث أقول لك. إني ايضاً لاحظت أنك رفضت الرجال وكان أغلبهم منتفخي المحافظ والأوداج لأنك وضعت عينك عليّ. بل اختلست أكثر من نظرة لي أو ناحيتي. وأنا أحب أن أكون صريحاً معك الى آخر حدود الصراحة. أنا أحتقر تماماً نوعك.. ولا أستطيع أن أتصور أن إنسانة تبيع جسدها مهما بلغت حاجتها الى النقود، وأنت لا يبدو أنك تتضورين جوعاً، بالعكس في أصبعك خاتم من البلاتين لا يقل ثمنه عن الألف دولار. نوعك أشمئز منه، أحتقره، أتقيؤه وأنا أنظر اليه. وبصراحة أكثر أنا لا أنتظر أحداً، لا صديقاً ولا صديقة، ولكني متعب تماماً وجلستي على طرف الكنبة مريحة وغير مستعد أبداً لتغييرها.

(عجيب أمرها.. تسمع.. تستوعب.. لا تغضب، وكأن الكلام تماماً غير موجه إليها.. خذي إذن).

هو: (مواصلاً) أحتقر نوعك إلى الحد الذي لا يمكن أن يتصوره عقل كعقلك لا ينفعل حتى بالشتائم. وبلا لف أو دوران، لقد رفضت المتقدمين السابقين لك لأنك ـ لا أعرف لماذا؟ ـ واضعة عينك علي. وبكل وضوح أقول لك إني مستعد أن أصحب غوريللا ولا أصحبك أو حتى أكلمك فالمسألة عندي مسألة مبدأ،وأنت ومثيلاتك أعتبرهن أعداء.

لو كنت مجرماً بالسليقة لقتلتهن. لست زبونك اذن ولن أكون، فإما أن تغادري المكان، وإما ابحثي عن زبون، فأنا يضايقني أن أكون السبب في خديعة حتى ولو كانت لمخلوقة مثلك.

استدارت ناحيته تماماً. . شده. . المحترفات عنده كائنات ملطخات الوجوه بالماكياج المبالغ فيه، والشعر لابد باروكة أو مصفف بطريقة تلفت النظر، هكذا كان يراهن ومن على بعد كيلو يتعرف على سحناتهن في القاهرة أو في أي عاصمة دنيوية اخرى. هذه الجالسة بجواره لا تضع إلاّ القليل جداً من الماكياج. وجهها طبيعي تماماً أو يكاد. منظارها في استدارة أنثوية صارخة ،ولكنها غير مقصودة. لو صادفتها في مكان آخر لحسبتها نائبة رئيس العلاقات العامة في هيئة الأمم المتحدة (نائبة وليست رئيسة. فهي أبداً لا يمكن أن تكون إلا بين الخامسة والعشرين والثلاثين). لا ابتسامة دعوة صريحة لزبون. لا اهتمام صارخ بما يفعل أو يقول،أنفة وكبرياء دون افتعال. محترمة وكأنها تقدس عملها المحترم.

بشبح ابتسامة ارجوانية تتواءم تواؤماً أنيقاً مع (روجها) غير اللامع. تقول:

هي: أفهم من هذا أنك تريدني أن أغادر مكاني؟

هو: أبداً أنا لم أقل هذا.

هي: اذن لماذا لا تغادر أنت كنبتي؟

هو: هذه ليست لك وليست لي، إنها ملك الكافتيريا البار، وليس في نيتي أن أغير أبداً مقعدي.

هي: المسألة إذن أنك لا تحب البغايا.

نيويورك

هو: لا هن ولا شبيهاتهن ولا حتى التي تقبل الحب لقاء عشاء أو هدية. إنه لشيء بغيض بغيض وحتى لا يمت إلى الحيوانة نفسها.

أدرك أنها تستعمل طرف لسانها الناعم. لا. لا يمكن أن تكون قد بدأت الاحتراف من أمس. إنها أستاذة احتراف. الجملة التالية ستسحب الاجابة من لسانه مهما قاوم وعصلج. ماذا يفعل؟ هذه أول مرة في حياته يجلس فيها كتفاً في كتف الى محترفة، بله يبادلها الحديث. في اقامته في عاصمته وأسفاره تعرض للكثيرات، للهاويات بهدايا وللمحترفات بنقود ولكنهن كن دائماً خجولات، حساسات، ما أن يشيح بوجهه، أو تبدو عليه سيماء الامتعاض حتى ينصرفن عنه، إما بالنظر الى الجهة الأخرى أو البحث بقرون الاستشعار الخفية عن زبون آخر، أو في أحيان بمغادرة الجلسة أو المكان، هذه نوع جديد. إما أنها واثقة من نفسها ولا ثقة (نيرون)، وإما أنه النوع الذي لايخجل، ولكنه يخفف وطء التحايل. أو ربما لديها وقت تريد ازجاءه.. أو.. هذا هو الاحتمال الذي يرضي الغرور حقيقة، فضلته أو تريد تفضيله. لا تداعب غرورك (أنت وليست هي) يا ولد.

هي: حقيقة لماذا لا تحب المحترفات؟!

هو: لأني أومن أن الحب.. حتى الجسدي.. لا يشترى بمقابل.

ضحكة طويلة.. فورية جداً.. لا تشبه أبداً حتى ضحكات نساء نادي الجزيرة.. أكثر تحفظاً بكثير.. على الأقل نابعة من القلب. يعقبها مباشرة، نفس جملته السابقة:

هو: لأني أومن أن الحب.. حتى الجسدي.. لا يشترى بمقابل.

ضحكة اخرى.. كمية السخرية فيها أوضح، وموضوع تحتها خطمن رموش عينيها، وكأنها تضحك على عبيط.. أو على الأقل كلام عبيط.

هو: أفندم. (بالعربي)؟
هي: نعم. . ماذا تقول؟
هو: أفندم؟
هي: أية لغة هذه؟
هو: لغة.
هي: جريكي؟
هو: لا.
هي: بولندي؟
هو: لا.
هي: من أي بلد أنت؟

(لا أريد أن أنساق. . طرف لسانهايتندى،وكأنما بسائل معطر منزلق. . خشونة لسانه بدأ ريقها يزداد تمهيداً لما هو أخطر وأفدح. . أن يجف تماماً. لا يمكن أن يحدث هذا. . تلك امرأة تبيع أعز ما تملك المرأة بنقود. . تعامل جسدها على أنه كومة بطاطس. أو حزمة فجل. الاحتقار يتصاعد من جوفه ليملأ حلقه. . حتى رائحتها «برفانها» ورائحته استحالتا الى رائحة كرائحة سوق الخضار واللحمة في باريس «معدة باريس»، بل تهدد بأن تتحول الى رائحة كرائحة رصيف الجلود على امتداد الطريق الخلفي لميناء الاسكندرية).

هو: أفندم؟
هي: من أي بلد أنت؟
(جاوبها يا خجول بغلظة لكي تجلو).
هو: من مكان ما من العالم.
هي: وماذا تعمل؟

هو: أي عمل.

هي: ماذا تعني أي عمل؟ كل انسان لابـد له من عمـل. ما عملك أنت؟

هو: عمل من الأعمـال التـي يقـوم بهـا هؤلاء الأنيقـون الحليقـون المكومون أمامك على مناضد الكافتيريا البار.

هي: بزنس مان؟

هو: مان من غير بزنس.

هي: تحاول أن تبدو غامضاً لماذا؟

هو: لأني لا أأتمنك.

هي: حتى على نوع عملك؟

هو: حتى على نوع عملي.

واجهته تماماً. . يا ألطاف الله! أجمل أنثى. ليس في الكافتيريا البار فقط ، ولكن منذ وقت طويل لم يلمح (بله أن يتحدث ويجاور ويحاور ويترازل على فتاة بهذا الجمال)، لا ليست عيوناًخضراءوشعراً ذهبياً وفما كفم برجيت باردو. . لونها قمحي فاتح أحمر. . ملامحها. . صاغها عقل حساس قاذف لاقط. ذلك الجمال الذي صاغـه الله بحـلاوة، وصاغتـه صاحبته وشكلـت ملامحـه بأحـد ما يكون الـذكاء بحيث مغنطتـه. تراه فتتجذب عيناك ولا تريم. فتاة كان تماماً لابد يحبها، بل من أجلها يترك أدق مهامه، فمن أجلها وأجل مثيلاتها يستضاع العمل ويضيع الرجل.

ولكنها تبيع جسدها. هذه التحفة معروضة للبيع.

فجـأة ينبثـق من داخلـه حب استطـلاع ذئبـي تاجـر، كالسيدات

المصريات المتجولات في أكسفورد استريت يحببن في التو أن يعرفن كم الثمن، وآخر ما يفكرن فيه الشراء.

هو: كم ثمنك؟!

هي: لمرة أو لساعة أو لليلة أو لشهر؟

هو: يا نهار أبوك أسود!

هي: أنت تتكلم الانجليزية بطلاقة، فلماذا هذه اللغة الغريبة؟ أأنت خائف أن تواجهني أيها.. الـ.. رجل الذي لا يحتمل فكرة أن تعرض عليه سيدة نفسها بمنتهى الصراحة والمواجهة والوضوح.

هو: كنت أسبك.

(بمنتهى بذل الجهد قالها).

هي: (بمنتهى البساطة والتفتح): أي نوع من السباب. لدينا في نيويورك أشهر أنواع السباب. (بول شيت) - أي - تبويلة الثور -، الى كافة انواع الافرازات والفتحات والنتوءات.

هو: (مكملا): وأجساد الأمهات والاباء والأخوات.

هي: لا أفهمك.

هو: (مهاجماً): وهل تبويلة الثور مفهومة.. كل الشتائم أصلها غير مفهوم.. وحبذا لو لم تكن مفهومة لأنها حينئذ تصبح أقذع أنواع الشتائم.

هي: وهل كنت تشتمني؟

هو: كنت أندهش شاتماً.

وقرر أن يصمت، مهما حاولت لن يتكلم، استدار الى الكافتيريا البار. معظم النساء الحاضرات لا تعرف إن كن محترفات أو غير

محترفات. (لم يعد ثمة فارق على الأقل في هذا المكان الغاص). احتقر النساء الحاضرات والغائبات والجميلات والقبيحات.

كل منهن استعار منها (أو أعارها هو) **قناعاً** منها، فقد كان من الواضح أنها تملك سبعين قناعاً.

(نظرت ناحيته. أطالت النظر. الابتسامة تحولت الى ابتسامة (شغل) أو (شبه شغل).

هي: كنت تسأل عن ثمني؟

احتار.. يجيب ويفتح باب حديث واربه تمهيداً لاغلاقه؟! شيطان داخلي صغير جداً من حب الاستطلاع ينقركتكوتاً قشرة ارادته التي لا تزال رقيقة كقشرة بيضة نيئة).

(صمت).

(أجابت بابتسامة أدركت بذكائها أنها حملتها أكثر مما ينبغي الموقف من (بيزنس). رغم النور الخافت والمخفت والمصوب لمح في عينيها شيئاً دقيقاً جداً. واهناًجداً،ولكنه قطعاً وبالتأكيد يمت اليه).

رئيس الجرسونات.. بدلة سوداء أنيقة خليقة بسير مايلز لامبسون آخر مندوب سام لبريطانيا في مصر، ولكنه أكثر منه وسامة ونحافة واستقامة. وجهه صخري وكأنه كبير القضاة في محكمة نقض. جاد. أقبل عليها. ظنه على طريقة زملائه في عواصمنا جاء يطردها أو يستدعيها، فقد لمح أجمل شعر فضي ـ أجمل من شعر عمر الشريف ـ يهمس له من مقعده العالي في زاوية البار البعيدة. كان قفاه وشعره الخلفي المفضض المفلفل هو الذي يواجهه إذ بعد همسته (للميتر دي بلاس) استدار مواجهاً رجلاً سميناً بيضاوياً أسمر يضع فوق رأسه غطاء أسيوياً).

جاء الكونت جرسون، بوجهه الجاد الدءوب. انحنى على أذنها. بضع كلمات. استمعت. ابتسمت. هزت رأسها رافضة ببطء، ونظرات موجهة الى مقعد الداعي البعيد ومؤدبة أيضاً ومبتسمة رفضت.

(من الواضح أن اختيارها تم، وأنها استقرت عليه ـ نقبك على شونه ـ يا سيدتي المومس المحترمة).

ناحيته.. بلا ابتسام.

هي: كنت تسأل عن ثمني؟

(كسر الكتكوت المستطلع قشر البيضة وأطل برأسه اطلالة مرعوبة اطلالة أول مرة تتفتح عليها عين كتكوت ما رأى العالم ولا أرى شيئاً أبداً وفجأة عليه أن يسأل ويعرف ثمن البغي الجالسة في بار الكافتيريا النيويوركية احتراماً واحتشاماً من ـ على الأقل ـ جاكلين أوناسيس، بل وأكثر جاذبية وجمالاً. من ذلك النوع يتحول فيه كتكوته المدهوش الى ذئب كازانوفي جيجولي مستعد لكسر القشرة الأرضية كلها، والدخول في الحال الى منطقة فقدان الوزن والجاذبية الأرضية والشمسية والقمرية والمجربة حتى).

هو: نعم.. كم ثمنك؟

هي: للمرة مائة دولار.. لليلة ثلاثمائة.

هو: (مواصلا وكأنه عادل امام أو فؤاد المهندس، فالريحاني رحمه الله كانت ستفر من عينه دموع المسكنة). وثمنك لشهر بأكمله؟

هي: إذا أعجبتك ثلاثة آلاف (السعر هنا مخفض لأنه كما ترى بمعدل مائة دولار في الليلة الكاملة الواحدة).

هو: واذا لم تعجبيني؟

هي: أعتقد أني أتحدث الى رجل ذكي. . كيف لا أعجبك لليلة وتريد السؤال عن ثمن شهر؟

(نبتت نقطة عرق باردة واحدة في أخدود رقبته من الخلف، وكأن شعر قفاه أمطرها رذة صيف).

(إنه أمام ذكية جداً. . هذا ليس حوار بغايا. أول مرة رآهن كان طالباً في الجامعة، وكان زميله في الشقة يغواهن مثل أبيه، بل أحياناً كان الأب والابن يشتركان معاً. واشتهر هو بحجرته واشتهرت كذلك شقتهم بين بغايا شارع قصر العيني والمنيرة وحتى المدبح، وكانت فتيات آخر الليل على الأقل أولئك اللاتي لم يظفرن بزبائن. قصيرات نحيفات متواضعات الملابس والهيئة معظمهن فيما كان يعتقد يعانين من أمراض سرية، بل أنه عالج واحدة منهن من الجرب، وظلت الشقة تحفل برائحة الكبريت زمناً. كن يأتين. . ثلاثاً. . أربعاً وربما خمساً ينمن في الصالة. . على البلاط. . بلا غطاء. . على الأقل هذا مأوى أحسن من الشارع وعمود النور. . ما أن يضعن رءوسهن على البلاط حتى يذهبن في نوم عميق. . واحدة منهن كانت تستيقظ وتوقظهن فزعة تصرخ من كابوس مزعج. . فسرته لهم في لحظة رعب أنه عمها الذي رباها واعتاد أن يضربها وينالها. . ولماذا الصراخ؟ لأني اعتدت على أن أنام مضروبة معتدى عليها، ولماذا الفزع؟ لأن النوم العادي يسبب لي الكوابيس؟ أجل. كابوس أن أموت، فالضرب يشعرني أني حية، والاعتداء يجعلني أهفو وأحلم وأعيش على أمل ليلة اخرى).

لك الله يا عوض، دفعه حب الاستطلاع ذات مرة لتفتيش كيس نقود واحدة منهن (فلم يكن لأيهن سوى واحدة ـ اسمها تحية ـ حقيبة يد) في

الكيس خمسة قروش وتعويذة زرقاء.. وبضعة (بنسات شعر) وخطاب قديم جداً من أخيها ليس فيه سوى اهداء السلام، أما المحير فهو زجاجة صغيرة مملوءة لآخرها بصبغة يود مركزة، حسبها تستعملها للتطهير بعد مزاولة الشغل، ولكن، في الصباح كان حب الاستطلاع أقوى، فصبغة اليود كاوية لاهبة، اعترف لها بتفتيش الكيس، وسألها عن صبغة اليود الزجاجة. بلا دراما مستقاة من الأفلام، وبلا انفعال قالت:

- هذه لأشربها اذا أمسكوني.

- من؟!

- بوليس الآداب.

- ولماذا تشربينها؟ ان هي الا بضعة أيام حبس ولا تستدعي الانتحار.

قالت:

- معظمنا لدينا زجاجات مثلها، ومن علمتني الكار علمتني احتياطياً حمل الزجاجة.

- لتنتحري؟

- وايه يعني؟

- تموتين؟!

- انـي اعيش كالكلبة، ولا يجري ورائي سوى كلاب الصائدين (تقصد أفقر صائدين، أفقر من الكلاب الضالة).

- اذن لماذا لا تزالين تعيشين، ولماذا لم تشربيها الى الان؟

- الروح حلوة، وهذه آخر ملجأ.

- هل استعملتها؟

- لا.. واحدة زميلتي عملتها.

- وأفاقت؟!

ـ لا تزال بالمستشفى. وعلى العموم ماذا يحدث؟ . سيحدث واحد من اثنين اذا انزنقت. . إما أن أشربها وأموت وأستريح من لف الشوارع ونوم البلاط والكي بأعقاب السجائر جلباً للمتع الجنسية الشاذة، وإما ألا أموت ويأخذوني إلى المستشفى ـ بوليس آداب القسم غصب عنه يأخذني إلى المستشفى ـ ورغم ما يصورونه من دخول أنبوبة غسيل المعدة فهو كله أنابيب وكله سوائل وإدخال وغسيل، إنما المهم أني سأضمن أن أقضي عدة أيام بالمستشفى، أكل وشرب ونوم، ولا توجد رائحة رجال.

ـ ولكنك ستخرجين مرة اخرى للكلاب الصائدين.

ـ أي نعم ولكني أنتهز فرصة وجودي بالمستشفى وأعبيء زجاجة أخرى من صبغة اليوم المركزة.

ـ من يعبئها لك؟

ـ التومرجي.

ـ ببلاش؟

ـ لا شيء ببلاش خمس دقائق مع التومرجي في مرحاض من مراحيض قصر العيني الكثيرة.

* * *

هي: انك تبدو ذكياً جداً. فراستك لم ارها في انسان. ولكنك احياناً تقول أشياء. . آه. . أشياء لا تتفق مع ذكائك. . آه فهمت، أنت عالم أستاذ جامعة انت. لا. أنت أصغر من أستاذ. مخرج مسرح. . كنت سأقول انك ممثل. ولكني لم ألحظ أنك أديت معي لحظة واحدة من التمثيل. من أنت بالضبط؟ ومن أي بلد ؟ وماذا تعمل ؟

(مصرة هي أن ينزلق).

هو: وماذا يهمك يا سيدتي من أكون أو ماذا أعمل؟ لم أصبح بعد ولن أصبح زبوناً ينزلق فماذا يفيدك أن تعرفي من أكون؟

هي: لأننا نتحدث.. اننا تحدثنا الآن نصف ساعة بأكملها، ولقد عرفت أنت من أنا.. وللآن أنا لم اعرف من أنت.. وهذا.. وهذا..

هو: قلة ذوق.

هي: لا. اسمح لي هناك كلمة أليق.. الخوف.. أنت خائف مني الى غضاريف مفاصلك. أشعر بمشدات ركبك الداخلية ترتجف.. ماذا يرعبك؟

هو: صيغة اليود المركزة.

هي: صبغة اليود المركزة؟

هو: نعم. في حقيبة مومس مثلك.

حقيبتي ليس فيها من سوائل غير رائحة (الاستيلويدر) أحدث وأروع بارفان في العالم اليوم. شم.

(فتحت الحقيبة.. أخرجت زجاجة البارفان.. فتحتها. أمسكت يده فجأة صبت على ظهر يده نقطة. اشتعلت النار في الجلد. كان يطلق صرخة تعبر الأطلنطي على متن كونكورد.. بدا الألم المروع واضحاً على معالمه).

هي: شمها، انها أعظم بارفان اكتشفته سونيا ماجدلينا.. شم.

شم رائحة تحت الأبطلسيدة لم تعتد النظافة، ورغم هذا فالجو يحفل خارج ـ نقطة جلده ـ ببارفان تسكر رائحته وتعم جو الكافتيريا البار، وتحيل رائحة المشروبات (وفواكه البحر) والدخان المتصاعد من

نيويورك

السجائر والسيجار الى بخور في معبد هندي لا يدخله إلا الرهبان ليستعينوا بما تشيعه الرائحة من قدم ضارب في أعماق الكهنوت والأسرار القدم جنباً الى جنب مع حداثة حملت الانسان الى القمر وأطلقته أثيراً في أثير، ولكن بقعة جلده يعيد شمها (مصدر هذا كله) فلا يجد سوى رائحة تحت الأبط الحامض بالعرق، وينتقل البواخ المتصاعد منه يجعد ملامح وجهه ويغلق طاقتي أنفه ويحس بالمعدة وصلت للهاة اللسان.

تنظر هي الى ملامحه مرة، تتحسس بفمها شماً رائحة المكان تضعه على ظهر يدها وتستسلم للرائحة تدغدغ وتخدر خياشيمها الفراشية يستحيل وجهها هو الآخر الى أثير، ثم يندك فجأة الى سابع أرض أثر لمحة الى ملامحه.

هي: انه أغلى عطر في العالم. ألا تعرف هذا؟

هو: أعرف.

هي: اتعرف كم ثمنه؟

هو: أجل.

هي: كم؟

هو: خمس دقائق في مرحاض من مراحيض قصر العيني.

٢

هي: أنت «معقد» يا عزيزي عقدة خطيرة، أتعرف لماذا تكره تماماً أن تزاول الحب مع امرأة محترفة؟

(أن تتحدث مع شخص، حتى لو كنت تكرهه، وتمضي في الحديث فانه يحدث رغماً عنك وعنه نوع من المعرفة، والمعرفة تقلل رغماً عنكما العداوة، أو بالأصح تدفع بها الى مناطق عدم الانفعال المباشر. يعرف لماذ يكره المحترفات ولا حاجة به أن يعرف المزيد).

هو: لأني أقدس الجسم البشري وبالتالي روح الانسان.

هي: ماذا تعني بتقديس الجسم البشري؟ أم تقصد الجنس البشري.

هو: (لنفسه) يا بنت الحرام وربيبة الحرام. كفى عن تدقيق المعاني فلا أنت برتراند رسل، ولا رئيس المجمع اللغوي للتعبيرات السكس جسدية. نعم لأني أقدس الجنس البشري، وبالتالي أقدس الجسم نفسه والعقل نفسه والاحساس البشري نفسه فأنا لست ثوراً، والمرأة ليست معزة أو بقرة، ولأني لست كلباً ضالاً والمرأة ليست كلبة مصابة بسعار.

هو: (لها) أفهمت ما لم أنطقه؟

هي: أنت نصف مثقف. رغم أني أعرف الان عنك على الأقل ثلاثة أشياء!

أولاً: أنت كاتب.
ثانياً: أنت ما زلت طفلاً عاطفياً ونفسياً.
ثالثاً: ويبدو أن السبب الحقيقي أنك استكثرت ثمني.

هو: تريدين أن تزاولي طريقتكم المحببة: الهجوم والاتهام لأقف أنا موقف المدافع قليل الحيلة.

هي: لا أريد أن أثبت لك أني أنا المرأة المحترفة أفهم في الطبيعة البشرية أضعاف ما فهمت أنت بكل خبرتك ودراستك وموهبتك.

هو: أنت المرأة المحترفة بيع جسدها.

(قالها باشمئزاز من تخيل أنها تعرض لحمها الحي في فترينة (ديب فريزر) في سوبر ماركت حديث، ولحمها ملفوف في ورق نايلون ومقطع قطعاً، الساعة بمائة دولار والليلة بثلاثمائة وهكذا).

مرة اخرى أقول لك. المرأة المحترفة بيع جسدها.

هي: تسمونها هكذا في بلادكم. من أي البلاد أنت؟ ملامحك لا شرقية ولا غربية ولكنها مست في شيئاً.

هو: لن أقول لك أبداً من أنا وماذا أعمل، وحديثنا طال، ولكن الغريب أني لم أزهده، مع أني بصراحة محتقر مبدأ الحديث.

هي: أنت لم تزهده لأنك تحس أنه يقترب بسرعة كبيرة من تعريفك من تكون أنت بالضبط.

هو: أنا انسان هذا العالم وهذا العصر.
هي: أنت انسان أمك وأبيك وعائلتك ومجتمعك وتوقف نموك العاطفي والوجودي.

(أهو يحلم؟ «مومس» بكل معنى الكلمة تتكلم بكل معنى ومنطق وحتى مصطلحات، ليست مثقفة عادية، ولا حتى طبيبة نفسية، ولكن هذا فوق الاحتمال).

هو: (وكأنه أهين) تقولين توقف نموي العاطفي النفسي؟ (لم تقل هذا التعبير،ولكنه اضافة من عنده ليكون فوق كل ذي علم عليم).

هي: أجل أنت مكسح.

(علمه المجتمع الاوربي الامريكي الغربي، بل ربما كافة المجتمعات، انك اذا لم تهاجم هوجمت، واذا ملكت فصاحة وحدة الهجوم كسبت القضية. أدبنا الزائدومعاملتنا الدمثةاكتسبناهما من كثرة ما تحدثنا بصوت خافت جداً، لا نسمعه حتى لا يسمعه طغاتنا. في الحقيقة غاظته كلمة توقف نموك)..

هو: هل ترينني قزماً؟

هي: جسدك فارع، وقد لمست فخذك من غير قصد، عضلاتك ليست لينة يكسوها دهن الحياة اللينة التي يبدو أنك أصبحت تحياها. عضلاتك كل عضلاتك هي الرجل الناضج الوحيد فيك.

هو: أنا كاتب أيتها الـ..

(التردد هنا معناه أنه بدأ يشك في الوصف والصفة).

هي: قلها. أتحسب أني أخجل منها؟ الجميع هنا يعرفون اني مومس. أنا أقدم نفسي هكذا. ولماذا أخجل؟ أنا هكذا فعلا مومس. وهل يخجل أحد من وظيفته؟

هو: ولكن مهنتك مخجلة. فاللص يعمل لصاً،ولكنه لا يفخر بعمله الى درجة تقديمه لنفسه على أنه لص.

نيويورك

هي: لأن اللص كلمة لا يطلقها على نفسه، وانما الناس هم الذين يصفونه بها. ثم ان اللص يسرق ما لايملك،وأنا أعطي ما أملك. الحقيقة أن الناس هم الذين يسرقون مني وليس العكس. وحتى معظم الناس يعتبرونها أحياناً مجرد تعبير آخر لمهنة (رجل أعمال). وأنا أيضاً (سيدة أعمال) بطريقتي. وأنت الآخر (رجل أعمال).

(كالأمطار الهادرة الغزيرة تكاثرت عليه الخواطر. فجأة دوى في الخارج أعنف انفجار سمعه في حياته. خيل إليه أن الكرة الأرضية نفسها اصطدمت بكوكب ضال في الفضاء. ولم يكن الأمر سوى رعد نيويورك والساحل الشرقي. رعد يزلزل طبول الآذان فتدق دقات الرعب والهلع. رعد لم يسمع بمثله في حياته، وبرق حقيقي لم يره إلاّ في أفلام السينما. هو لأول مرة بخلفية وأمامية من رعد وبرق يقف مجرداً من كل هالاته أمام امرأة عملها أن تتعرى، ومع هذا فهي أمامه في كامل ملامحها وملابسها وهو الذي يرتجف برداً ورعداً، وبصراحة رعباً وخوفاً. في بلده يكفي أن يقول فلان حتى تنحني الأفكار وتنطق النظرات بآيات التمجيد والتسليم. خلال عشرات الأعوام تكونت له قلعة من أفكاره وشخصيته وعقله وفراسته وذكائه وموهبته. يخجل حين تنحني النظرات أمام قلعته، ولكن حين يصبح الخجل عادة والتسليم هو القاعدة يستحيل الى نوع من الجبروت المطلق والفرعنة، وفيه، وفي كل انسان فرعون محبوس ينتهز الفرصة ليتسيد.

هذه امرأة عرفته تماماً ولم تعرفه أبداً. حادثها وكان الحديث محاكمة واضح أنه فيها المتهم. هو دائماً حين يتكلم تنبع الكلمات من مصدر في داخله يعرفه تماماً. مصدر التلقائية والصدق. هذه المرة، الكلمات رداً على صراحتها، موضوعيتها، وقاحتها، تخرج كالعادة تلقائية وصادقة

ولكن المصدر المصدر ـ الذي كان دائماً متأكداً من صادق وجوده وصفاء صدقه، بدأ يهتز ايمانه به. اختلطت الكلمات بعروق الصدق والكذب لم يعد بالضبط يدرك. الارتباك يهدد بأن يصبح شبه تام.

فليمسح هذه المرأة من على ظهر الوجود، وجوده على الأقل، بل فليسمح المكان نفسه من الوجود).

هو: (بصوت مبحوح بالغيظ ومشروع جريمة) اسمعي يا بروفسيرة.

هي: نعم أيها. . أيها الطالب. (ضحكة ذات ذيل).

هو: دعيك من هذا العبث الذي ضيع وقتي ووقتك. لقد جئت الى هذا المكان متعباً بعد يوم حافل شاق اريد ساندويتشاً و «جنجرايل». وقلت لك مراراً وتكراراً اني لست ولن أكون زبوناً لك أو لأي ممن هن على شاكلتك، حتى لو قالوا لي أنك في الأصل ملكة أو ابنة ملك، حتى لو قالوا ان لم تفعلها فستنتحرين. اسمعي. أنا بالتأكيد أعرف أنك أضعت وقتي، ولكنني لست متأكداً تماماً أني أضعت وقتك. ورغم هذا، ولوجود هذا الاحتمال فاني سأقدم لك مشروباً أعوضك به عن الوقت الضائع.

هي: أنت غير مضطر لهذا ابداً. وأنا أرفض، أنا لم أكن معك في «بيزنس» أو عمل، لقد كنت أزاول حديثاً مع صديق أو شبه صديق، لا ثمن له.

هو: تريدين أن تقنعيني أنه لا تزال لديكم بعض الاعتبارات؟ ان ما أزعجني في كلامك أني تبينت منه، بل وضعت أصبعي على نوع من التحلل المروع، لا أقول حضارتكم، ولكن أخطر ما في هذه الحضارة وأي حضارة، المرأة فيكم. أنتن نساء مخربات روحياً وعقلياً وفلسفة.

والذي يذهلني أنكن تستطعن وجود الزبائن من الرجال. رجال نشئوا في مجتمع مفروض أنه راق وأنه غادر تلك المراحل البدائية التجارية الحريمية من علاقة الرجل بالمرأة. . كيف يقبل رجل يعيش في أرقى بلاد العالم في النصف الثاني من القرن العشرين أن يحصل على امرأة، جسد امرأة، بصرف النظر عن أي احساس آخر لديها، مقابل بضعة دولارات ينقدها إياها ثمناً لأنها قبلت أن تتعرى له من داخلها وخارجها. إني لمشمئز من حضارة تصعد بسمو علمها الى القمر وما زالت تنحطبجسدها الى مدارك الرقيق الأبيض والأسود. مشمئز لامرأة مثلك. وأنت لست سوى واحدة من جيش عرموم، امرأة ذكية مثقفة، واسعة الاطلاع والخبرة، جميلة، أجمل من ممثلات أي سينما، أن تزاول عملاً يمكن أن تفعله أي متخلفة عقلياً، فهو لا يحتاج إلا. . . طبعاً أنت تدركين ما أعني. كيف تقبلين أنت التي تبدو حساسة ومرهفة الحس، أن يحتويك بكلكله وربما بكرشه وعرقه ولزوجته ورائحة فمه المخمور في مقابل، في مقابل ماذا؟ إن أي مبلغ من المال لا يساوي لحظة واحدة يسقطالانسان فيها روحه الى هذه المجاري الشعورية النتنة.

تتحدثين بمنطق وذكاء وخبرة، ولكنها أشياء جمعتها من فوق ملاءات الأسرة القذرة، جمعتها مما لحقك ولحق روحك من كدمات وجروح ذكاء من باع نفسه ليشتري عقلاً يقتل به البقية الباقية من روحه وجسده. . لقد بدأت حديثي معك مشمئزاً منك، والآن أحس أني مشمئز من نفسي مشمئز أني أضعت كل هذا الوقت مع انسانة نظيفة الخارج تماماً، موبوءة الداخل. وأقذر شيء ليس هو أن يبدو الانسان قذراً من خارجه، فربما نظافته الداخلية تضفي على روحه اشعاعاً يغفر له بقع الخارج.

هي: اسمع. . سأقضي معك الليلة كلها لقاء مائة دولار.

(دون أن يجيب وبوجه يعرف أنه إذا تجمد بدا قاسياً مرعباً في قسوته بدأ يجمع أشياءه وهو يحس باشمئزاز للجنس البشري كلـه، للصناعـة والنهضة والفلاسفة والفن وصناع الأخلاق، فما فائدة هذا كله؟ وانسانة مثلها يبدو أنها قرأتهم جميعاً ومع هذا فلم يفلح أي منهم، وربما لم يكن أي منهم صادقاً الى الدرجة التي كان لابد أن تقنع انسانةمثلها .أن الانسان شيء آخر غير عربات الرش والمراحيض).

هو: أولاً إن كل ما معي عشرون دولاراً، ولو كان معي عشرون ألفاً أو عشرون مليوناً وطلبت أنت دولاراً واحداً لقاء الليلة لآثـرت أن ألمع به حذائي، فعلى الأقل سأنظف به شيئاً ولو كان حذاء.

هي: اسمع، دعنا نتكلم «بيزنس». جرب. من أجلك سآخذ عشرين دولاراً فقط، على شرط اذا أمتعتك تعطيني مائة.

هو: أنت قطعاً متخلفة عقلياً. . ألم تفهمي بعد أن المسألة الجسدية المحضة لا تعني أية متعة بالنسبة لانسان مثلي.

هي: ولكنك لا تستمتع بها لأنك لم تنضج بعد للمتعة بها، وأنا التي سوف أنضجك.

هو: لم أنضج بعد للمتعـة بهـا؟! إن الـذي يستمتـع بهـذا الشـيء الجسدي المحض هو المراهق وحـده، ولـكن إنسـاناً في قمـة تفتحـه العاطفي والوجداني والاحساسي لا يمكن أن تمتعه مجرد تجربة جسدية لا علاقة لها بالشعور المتبادل او الاحساس.

هي: ذلك لأنك كما قلت لك لم تنضج بعد، إن العاطفية والاحساس المتبادل وما تسمونه الحب قبل التلامس كلها أعراض طفولة الرجـل أو

المرأة، والنضج الحقيقي هو لمزاولة الحسية والاستمتاع بها دون أي مقدمات.

هو: اسمعي أيتها البروفسيرة، أراؤك تلك احتفظي بها لنفسك. فأنت في رأيي إنسانة فعلاً محترفة لا علاقة لها بالاحساس أو بالشعور أو حتى بالانسانية.

هي: اسمح لي.

هو: لن أسمح أو أسمع لك. أنا صحيح أومن بمبدأ، ولكني إنسان عادل، وكان ممكناً أن تكسبي مع غيري في المدة التي استغرقها هذا الحديث، ولكن تقديري أنا لوقتك وما أضعته من وقتي، يجعلني أحس أن العشرين دولاراً كرم مني زائد عن الحد. ها هي ذي. والى غير لقاء.

٣

(في الفندق تعليمات تقضي بأن (تتربس) باب الحجرة جيداً ولا تفتح لطارق إلاّ بعد مكالمة تليفونية من الاستقبال، واذا فتحت الباب أن تبقيه (مشنكلاً) بحيث يسمح لك برؤية الطارق من خلال الباب الموارب، كل هذا لم يكن موجوداً في الستينات، في السبعينات والثمانينات، مع موجات العنف وجرائم العدوان حتى على رواد الفنادق، جاءت هذه التعليمات).

(طرق على باب حجرته).

هو: من الطارق؟

صوت: أنا.

هو: من أنت؟

صوت: المدير الليلي للفندق.

هو: ولكنك سيدة.

الصوت: أنا المديرة السيدة.

هو: لا يا سيدتي المديرة. أنت هي. ولا داعي للكذب الساذج.. أنا بملابس النوم وقد سئمت المطاردة، واذا لم تتركيني سأنادي المدير الليلي للفندق فعلاً. وسأستعين بالأمن وربما البوليس ايضاً.

هي: أرجوك.. أنا لم آت كمحترفة.. لقد جئت كصاحبة رسالة.. وانت رجل مهم، مسألة حيوية تماماً أن تقتنع برسالتي. أنا أخاطب وأرجو الفنان الذي فيك.

هو: لست فناناً.. أنا الآن حيوان غاضب، فاحذري غضبي.

هي: عليك أنت أن تحذر رضاي، فكما قلت لك أني صاحبة رسالة ورسالتي أهم لدي من أية كرامة شخصية..

هو: من فضلك.. صبري نفد.. ورسالتك مهما كانت فانها لا تهمني في شيء.

هي: بل تهمك جداً.

هو: قلت لك صبري نفد.

هي: بل شجاعتك هي التي نفدت. أتخاف من امرأة صاحبة رسالة!

هو: اذا كانت امرأة رسالتها التجارة في جسدها، فهي قطعاً تخيف.

هي: ولكني لست كذلك.. أنا رسالتي تضميد جروح الرجال.. أنا طبيبة.

هو: طبيبة بيطرية؟

هي: بل طبيبة ومعالجة نفسية. وأرجوك، هذه بطاقتي، اقرأها بسرعة فثمة أناس قادمون.. وأنا لا أريد مشاكل لي أو لك.

(تدفع بالبطاقة. البطاقة لا يمكن تزويرها. عليها صورتها بالألوان. مستشفى سنترال بارك. باميللا جراهام. سيكولوجست معالجة نفسية) المستشفى واحد من أكبر مستشفيات نيويورك، بل أمريكا، البطاقة حقيقية. المرأة هي امرأة الكافتيريا البار فعلاً. مجرد وجود البطاقة قلب

الأمور رأساً على عقب. ما كان يبدو تبذلاً خفياً في ملامحها أصبح له عمق ثقافي. الاحتقار الهائل توقف وانتفضت الحيرة كنافورة مياه ساخنة طال اختزانها تحت سطح الأرض.

أول خاطر داهمه أن حديثها معه الليلة لم يكن وليد الصدفة المحضة، وأنها مسائل مرتبة. ووجود انسان من العالم الثالث في مثل تلك المجتمعات المتقدمة، حتى في جرائمها متقدمة، يجعله طوال الوقت يعيش حالة التوجس القصوى.

إذن هي مسلطة عليه، أو ربما اختيرت خصيصاً لاغتياله، فهم بارعون حقاً يعرفون أن نصف عقل الرجل الشرقي يطير لمجرد أن هذه امرأة وأن النصف الآخر من السهل الغاؤه إذا داعبت، حتى باصبعها الخنصر جلده.

أما أن كونها امرأة فيعني أنها وسيلة غير مضمونة للقتل أو لما هو أدهى، فتلك أيضاً خدعة أخرى. فالمرأة، في مثل هذا المجتمع الشرس المتقدم تعلمت من الرجل الشراسة، بل أصبحت هي التي تسقيه إياها.

(فجأة يضحك ضحكة، نصفها حقيقي صادر من القلب، ونصفها كذب مبالغ فيه يغطي به خوفه).

هو: (محدثاً نفسه) ولماذا يفكر أحد في قتلي هنا؟ ولماذا يلجئون الى طبيبة نفسية متنكرة على هيئة فتاة ليل، أو فتاة ليل متنكرة على هيئة طبيبة نفسية، لتنفيذ مؤامرة اغتياله، وقد كان هناك ما هو أبسط؟

ثم لماذا يقتلونه اصلاً؟!

ومن هم الذين يهمهم قتله؟

بل حتى اذا كان السبب السرقة فهو لا يملك الآن سوى سبعة دولارات وبعض أرباع الدولار، ثم «شيكات سياحية» لا يستطيع أحد صرفها سواه.

فعلاً.. انسان قادم من العالم الثالث بكل هواجسه ووساوسه، وله كل الحق، تجاه عالم أول متقدم، وأكثر وأعظم علامات تقدمه سهولة ارتكاب الجرائم فيه، رغم كل احتياطات الأمن ونعيق بوم عربات البوليس والاسعاف والمطافي. كلما نعق البوليس ازدادت المطاوي والمسدسات وكثر قطاع الطرق، الانسان العادي، والغريب بالذات، مشدود العقل والأعصاب بين بوليس ينعق بلا فائدة، وجرائم ترتكب في صمت وبيد مجهول، وهكذا المهزلة، البوليس معروف ينعق، والمجرم كامن ينقض لا يعرف أحد متى ولا كيف يظهر.

أو أحياناً إذا ظهر، ظهر على هيئة.. هيئة بطاقة.. تنكر آخر. لم لا يكون طبيباً أو طبيبة.. أو امعاناً في التنكر معالجة سيكولوجية؟!

لحظة، جزء من لحظة، فاصل حاد كنصل الموسى، بين طفل كان مدرس العربي يخبطه على رأسه المحلوقة ويقول له: اقعد يا أصفر يابو علة. ومدرس الرسم يعلق رسوماته في الفصل شهراً ليسخر من بشاعتها التلامذة والمدرسون وحتى عم رجب الفراش. تلميذ كانت تقول عنه امرأة أبيه: لو نفعت أبقى أحلق مقصوصي. من بذور حشائشه تنمو هلعاً ورعباً وخوفاً من الأشجار العالية المنقبة الباسقة فتتسلل متخفية تحت الأرض، واذا واتتها نوبة جرأة عاتية وتغلبت على خجلها وترددها تظل ترتعش من الحشرات والديدان «وأبو» قردان، وإذا كبرت حصدها الموت المبكر أو حفر قنال السويس، أو حرب يساقون اليها بلا محاولة واحدة

لشرح كنهها أو أحياناً بمجرد الجري وراء الأوتوبيس، حشائش كانت أجياله وأجيالنا، مجرد مرعى للثيران، مزود للأحصنة والحمير، وطعام للخرفان والديكة التركية المنفوخة.

وهو، وحده، مع امرأة كهذه من (حضارات متقدمة كونية) تفخر أنها بغي. لا ذرة واحدة من الخجل أو التأنيب. هو الخجول لأنها لا تخجل لا منه ولا من مهنتها ولا مما فعلته معه، ولا حتى لكونها في النهاية تفعل هذا كله وهي طبيبة معالجة، يسمونها في بلاده قلة أدب، وعيب وعيون فاجرة ينذب فيها الرصاص... يسمونها كذا وكذا وكذا...

ولكن للقواعد شواذها، وهو الذي بدأ حشيشاً متخفياً في الأرض تجاسر ورفع ذرات التراب وأكوام الطين، وشق برأسه السطح. قاوم الشجر السامق واعتلى جذوره ثم سيقانه ثم استقل لتصبح له أساساته ويستقيم وتستطيل جذوعه، ولا يمضي طويل وقت حتى يصبح أطول من الكافور وأشداستقامة،وأوراقه أحد من أوراق الصنوبر.

وفي الرحلة من تحت الأرض الى فوقها، الى متسع السماء، الى الهيمنة على الغابة ركبته الأمراض والعلل، وكادت الجذوع الضخمة تقتلعه خنقاً. فإذا نجا منها نالته الأعشاب المحليةالمتطفلة،وهزم السامق والمتطفل والزاحف والقاهر والظافر، وحفر الأرض وشق الهواء وأصبح أطول سار لأكبر سفينة، وعدى البحر وخاض المعارك وأفرج عن الأسرى واحتجز السبايا من الملكات الى الجاريات ليصبحن حريمه.. بقوة خارقة كامنة فيه فعل هذا كله، بساعده الأيسر والأيمن والأوسط والأعلى واسفل، أتخيفه بعد هذا امرأة؟

ولكنه فعلاً خائف، لأول مرة خائف.

حتى لو كانت مومساً بكارنيه طبيبة، أو طبيبة بكارنيه ضابط بوليس آداب.

فهو خائف.

فهم لم يأتوه هذه المرة بمن على شاكلته أو هواه.

ولكنهم جاءوا له بنقيض.

بنقيضته.

نقيضة تشمله من أول الرجل الشرقي الكامن فيه يسحره البنطلون الطويل والقصير والبنطلون الأقصر الساخن. يسحره المايوه ترتديه أنثى بيضاء، ذات جسد، وكأنما عبقري المقاييس، تلبس قبقاب الزحلقة على العجلات، وبرقصات باليرينا تتأرجح وسط الشارع الخامس والسادس والثالث. تتراقص ذات اليمين وذات اليسار، تتمايل مع موسيقى لا يسمعها احد فهي تتلقاها من راديو ترانزستور خفي لا تظهر منه سوى سماعات ستريو فونيك تضعها فوق أذنيها، تمنع عنها ضجيج الشارع وتسرى بموسيقاها خلال (القد الملبني المياس) فترى أنت المار أو الواقف الموسيقى، تراها معزوفة فوق الجسد ذي المايوه والقبقاب الراقص. تراها واقفاً فتسير، وسائراً فتقف، فالجسد الراقص قد تحول الى اشارات مرور حمراء وصفراء وخضراء توقف المرور وتسير المرور وتوقف شعر الرأس وتدير الرأس. ويل للأعين وهي ترى السيقان تتباعد وتتسع لتعود تنحسر وتضيق، تراها تتقدم باليمين وتتأخر باليسار، ويميل الجذع الى الأمام ليعود يتقوس الى الخلف ليتقوس العالم حتى لا تفوته انحناءة من انحناءات قوس الجسد..

وبكامل خوفه ورغبته فتح الباب. ودخلت.

هي: أممكن أن أخلع معطفي؟!

حتى لو كانت قاتلة، وسلطوها عليك لتقتلك، أليس هناك ميتة أبدع وأروع من هذه؟ هذا إذا كنت ستموت، والتي أمامك ليست قاتلة، بل هي فيما يبدو طالبة هوى مهما كان الثمن.

ولكن ما أنت متأكد منه تماماً أنها قد تقتلك وقد تفعل أي شيء ولكن المحال المحال أن تنالك كرجل، فهذا هو الأبشع من الموت قتلا أو ذبحاً.

يتأملها بعيون مليئة بألف احتمال.

وهو: اذن أنت لا تزالين مصرة؟!

هي: على ماذا؟

هو: أتتساذجين؟

هي: أعذرك تماماً، وأنا فعلاً لا أزال مصرة، ولكن الهدف تغير نهائياً.

هو: أأكون على حق اذا فهمت أنك صرفت النظر عني كزبون؟

هي: ضعها كما تشاء، فمشكلتك ومشكلتي معك أننا لا نتحدث نفس اللغة، ولكن على أية حال تغير هدفي.

هو: وأنا الاخر لم أصدق بطاقة تحقيق شخصيتك وحكاية أنك اخصائية علاج نفسي. . أي جهة. . (هم بأن يقول: أي مخابرات زورت لك هذه البطاقة ذلك التزوير المتقن، ولكنه آثر أن يمثل وكأن اللعبة قد انطلت عليه، فإذا كانت تمثل مخابرات، ما سي. آي. ايه، أو أف بي آي، أو الموساد (المخابرات الاسرائيلية) أو ال ك. ج. بي الروسية فالذكاء يحتم عليه أن يتجنب كشف أوراقها وأفهامها أنه فاهم. .).

هي: جهة؟ ماذا؟! أنت تشك في. . عينيك رغم خضرتهما البحرية

الهائجة تقول هذا. .أستطيع قراءتهماالى القاع كما ترى قطعة النقود خلال ماء البحيرة المستتب تماماً. . ماذا بالضبطيدور في عقلك تجاهي؟

هو: اقرئيه. . أنت تقولين أنك تخترقين عينيَّ إلى قاعهما السحيق: فلماذا السؤال؟

هي: لأتأكد فقطمن صدق احساسي.

هو: وماذا يقول احساسك؟

هي: إنك في باديء لقائنا كنت ضيقاً بي ورافضاً مجرد مناقشتي. . الآن أرى أنك بدأت تخاف مني.

(يضحك ضحكة يدرك هو نفسه انها أعلى مما يجب، وجوفاء تماماً).

هو: أنا؟! أخاف من امرأة؟! وتحت رحمتي وأخاف منها؟ ها ها ها.

(بدأ فعلا يخاف).

هو: ما الحكاية؟

هي: أممكن أن أجلس هكذا. . (تضع ساقاً فوق ساق فينكشف ثوبها عن كل فخدها الأعلى وساقها).

هو: تفضلي. . تفضلي. .

(ثم مواصلاً):

ما دمت تقولين ان الهدف تغير. . وأنك لم تحضري لتتمي الصفقة. . ثم اظهارك هذه البطاقة. . ما هو هدفك من المجيء بالضبط اذن؟

هي: (تتمدد الى الوراء في مقعدها وفقطوهي تأخذ وضعها المريح فوق (الفوتيه) يكتشف أنها، مع حقيبة اليد تحمل كتاباً ضخماً مجلداً بأناقة شديدة).

(ومع جلوسها يبدأ سكون وكأنما السؤال هو: من أين يبدأ؟ وكأنما السؤال عندها : فعلاً لماذا أنا مهتمة جداً بهذا الرجل؟).

(أخيراً تنطق).

(بسرعة المختلس المتلصص يمد يده الى حيث وضعت حقيبة يدها والكتاب وبضعة كتيبات. . الكتاب كرسائل الدكتوراه المطبوعة والمعدة للتداول. مكتوب على الآلة الكاتبة ومجلد. عنوانه غريب: السلوك الانساني عند الحيوان. والمؤلفة: باميللا. . جراهام. . قائمة بأسماء الشهادات تحت الاسم لم يفهم من اختصاراتها الا B A وهي الشهادة المعادلة لليسانس الآداب عندنا).

هي: عرفت الآن فقط جنسيتك.

- هو (مشغول بمشكلة أن يلقي نظرة على حقيبة يدها، ضمير الرجال يعترض بشدة) يسقط الحقيبة من يده، تنفتح تجمع هي وهو محتوياتها عرفت ماذا؟!

هي: جنسيتك.

هو: ما هي؟

هي: لن أقول لك. .

(مونولوج طويل منها، لم يفهم منه حرفاً. فقد كان الصراع في نفسه يتزايد ثم يحسم.

يتأمل ساقيها الطويلتين، هذا القوام الفارع نحن غير معتادين عليه في بلادنا. فتياتنا ونساؤنا الجميلات غالباً صغيرات الحجم، أما هذه الأرجل الطويلة، هذه الأفخاذ المسحوبة وكأنها لفرس عربي أصيل، وكأنها منحوتة مشدودة، لا انبعاجة دهن، لا حبيبة شباب حتى القوام الفارع جعل جاكتة بيجامته التي استعارتها تبدو قصيرة لا تخفي الا ما ليس هناك فائدة من اخفائه. .).

(رائعة. . . هكذا بدت وهي واضعة ساقاً عارية فوق ساعد مغطاة).

(نيويورك مدينة تعدت مرحلة الأساطير، ناطحات سحاباتها ترعب يسمونها الغابة المتوحشة الحديثة، والمرعب فيها أن الانسان ضئيل ضئيل، والأجهزة قوية ومخيفة، والغنى فاحش، والفقر ايضاً فاحش. انك لا يمكن أن ترى هذا العدد من البغايا في اي عاصمة من عواصم العالم.

ولا تجد في اي عاصمة من عواصم العالم هذا العدد الوافر من بيوت التدليك وما يسمى بحمامات السونْا، والفتيات يعلن عنهن،وكأن المدينة تحولت الى ماخور كبير. لهذا كان من المحتم على بطل هذه الرواية أن يلتقي بواحدة منهن، ورغم كل عقائده واستنكاراته تفرض عليه نفسها الى هذه الدرجة).

(ولكن. هل المسألة مجرد بغاء وبغي؟، أم أنها عميلة لجهة ما؟).

(مرة اخرى يدق الخاطر في رأسه)

هو: هل من الممكن أن أسألك سؤالاً وقحاً؟

هي: أنت لا تفعل سوى هذا من أول لحظة.

هو: هل أنت عميلة لجهة ما؟

(على ملامحها ارتسمت علامات وكأنما أعجبها السؤال، استملحته واستعذبته،بل وأخذت عضلات وجهها تستطعمه على مهل).

هي: ولو فرض أني عميلة، أتعتقد أني وصلت في عشقك الى الدرجة التي أعترف لك فيها أني مدسوسة عليك؟ ثم أحب أن أقول لك. أنا ليس لدي مانع مطلقاً أن أعمل مع أي جهة تدفع بسخاء. فالنقود أصبحت هي الولاء الأعظم، وحياة الترف حلم أي امرأة مسحوقة هنا في نيويورك وأي رجل. حتى لو كان الكرسي الكهربائي في نهايتها. ثم.. هل انت مهم الى هذه الدرجة؟

هو: (سائلاً نفسه) صحيح . . . ما أهميتي حقاً حتى يوكلوا أمري الى عميلة تتنكر على أبشع صورة أراها للمرأة . . صورة المومس؟ (ثم لها) كل إنسان يبدو لنفسه على الأقل مهماً.

هي: أعني هل لديك أسرار هامة؟ . . لا أعتقد هذا . . .

هو: (لنفسه) صحيح . . . ماذا لديه من أسرار تستحق عناء المحاولة؟ . . أن كل اسراره مكتوبة ومنشورة ويعرفها الجميع . .

هي: أتقول شيئاً؟

هو: لا أهمية لما أغمغم به، فكثيراً ما أغمغم لنفسي كالمجانين. لا تلقي بالاً . .

هي: أنا أيضاً أفعل هذا في أحيان . . أتعرف أني اكتشفت أن الناس متشابهون الى حدود لا يمكن أن يتصوروها هم أنفسهم؟

هو: (كأنما تذكر فجأة امراً مخيفاً) اسمك فعلا . . باميللا جراهام.

هي: (بدهشة) ما الغريب في هذا . إنه اسمي فعلاً.

هو: اذن هذا الكتاب . ؟!

هي: آه . . تقصد هذه المخطوطة . . لقد كانت أطروحة . . ولكني عدلت فيها وأضفت لها وأحاول نشرها.

هو: وهي جزء أيضاً من «عدة الشغل»؟

هي: ماذا تقصد؟

هو: كانت البغايا في الزمن الغابر يحاولن أن يبالغن في مكياجهن وبهرجة ملابسهن ليظهرن مختلفات عن ربات البيوت . . الموضة الان أن تبدو البغي مثقفة وتحمل، وهي قادمة الى البار أو مكان العمل، مسودة كتاب . .

هي: لست من الغباء بحيث أغضب لكلامك، ولن تصدق أبداً أن المسألة حدثت بطريق الصدفة المحضة، فقد تركت هذه (مشيرة الى المخطوطة والمطبوعات) عند صديقي البارمان من عدة أيام، لأن (شغلاً) جاءني وأنا على غير استعداد بالمرة، اذ كنت في طريقي الى حجرتي بعد مقابلتي لوكيلتي الأدبية. ولم اشأ الرفض، وخجلت أن آخذ الأشياء معي فتركتها عند «جو»، والليلة هو الذي ذكرني بها.

(لم يكن يبدو عليها مطلقاً أنها تكذب).

هو: اذن ارتدي ملابسك فوراً ولنهبط الى الكافتيريا البار.

فجأة ينتصب الرجل الذي فيه وكأنه المارد قد خرج من القمقم، وكأن مسودة الكتاب هي الأنثى.. الدكتورة المجلدة المكتوبة فقرة وراءها وجدولاً في اثر جدول، العالمة فيها هيجت العالم فيه، وأيقظ العالم الرجل، فالتهبت عيون الذكر ولم يعرف بالضبط أهي العالمة هي التي قرأت بعقلها الرسالة ثم ترجمتها الى لغة الاحساس والجسد، أم أن الجسد فيها هو الذي رفع، متأخراً كثيراً فحوى العيون الملتهبة الى مستوى الادراك. طويلة باسقة ترتدي جاكتة البيجاما دون بنطلون حين وقفت تبحث عن ثقاب تشعل بها سيجارتها لمس كتفها كتفه، ولأول مرة وهو الطويل يحس بكتف امرأة في مثل طول كتفه. بنصفه الأعلى عار بدون جاكته، وبنصفها الأسفل عار بدون بنطلون. أفلت الزمام تماماً على الأقل من يده، أما هي فقد انهار الزمام وهوت بركبتيها على الأرض تحيط خصره بيديها مقبلة كل ما يستطيع فمها أن يصل اليه من جسده مغمغمة وكأنما تحلم متكلمة أو تتكلم حالمة قائلة:

هي: حسناً! لقد سحقتني تماماً وأنسيتني عملي، وأنا التي سأدفع. كم تأخذ؟

الرجل الغائر الغائر فيه تجمد وكأنما بجملتها حولت أعماقه بضغطة من زر الى لوح من الثلج. كم يأخذ؟ تبدأ الليلة بكم تأخذ هي، وتنتهي بكم يأخذ هو.

مودعاً جسدها الطويل الفارع وصدرها النافر في تحد، وكأنما هو مفارقهما الى الأبد. بلوعة الوداع ودموع المرارة وحسرة الأسف أمسكها بكل ما يملك من قوة من إبطيها وأنهضها، وبكلمات كلكمات حبذا لو كانت رجلاً لتتلقاها فعلاً الكمات قال:

هو: في لحظة واحدة.. ارتدي ثيابك فوراً.

هي: ماذا؟ ماذا حدث؟.. ماذا أغضبك؟.. سأدفع لك كثيراً جداً.. كل ما تطلب، وليس الليلة فقط. كل ليلة لو أردت.. لقد ملكتني.. سمها أحببتك.. أحببتك.. أرجوك.. أرجوك..

وفتحت حقيبة يدها تخرج حافظة نقودها الداخلية، وروعت فعلاً وهي ترى نية القتل في عينيه. وشحبت تماماً وكأنما تحولت الى تمثال من الشمع لا يرتدي ملابسه ولكنه يغطي نفسه بهلع، وكأنما ثانية عري واحدة ستكون فيها نهايته.

مشدوها، مشدوهة الى درجة الخوف أن يفترقا، مرة اخرى الى مقعديهما في الكافتيريا البار.

فلابد ـ حتى لا يجن ـ أن يعود الحديث الى الاتصال.

* * *

الان هما قد هبطا الى البار الكافتيريا والصمت مطبق ومشحون. مخطوف الخواطر والهواجس لا يزال. حين يجلسان.

هو: طبعاً أنت تتوقعين أني كالعادة سأكذبك في أن ما تحملينه هو رسالة دكتوراه حصلت عليها من وقت قصير، أو على أقل تقدير ستحصلين عليها حالاً. تتوقعين أني لا أصدق أنك سيكولوجست معالجة نفسية حاملة دكتوراه. لا أنا أصدقك فعلاً، ولكن أرجوك، أرجوك حتى لا أجن، أعطيني جواباً مقنعاً عن هذا السؤال البسيط.

هي: عن السلوك الانساني عند الحيوان (موضوع رسالتها)؟

هو: (بانفجار) بالعكس. عن السلوك الحيواني لدى الانسان. . سلوك انسانة مثلك. . دارسة وعارفة ومدركة ومثقفة ولا تتضور جوعاً وتقبل، بل وبارادة راغبة تماماً أن تعمل مومساً، وحتى اذا رغبت مومست من ترغبه.

(اندهاشته طازجة ودائماً طازجة وغريبةوبريئة، وكأنه لأول مرة يدرك أو يستنكر بعض الروايات والأفلام المصرية. كان يفتح فم عقله مذهولاً أن تقبل، بل تفخر انسانة أنها مومس، وأبداً أبداً لا يستطيع أن يهضم أن يرضي رجل أن يعاشر بل مجرد أن يلمس انسانة يعرف أنها كالخرقة طوال يومها تتداولها الأيدي والأفواه والأبدان بطريقة تفقد فيها، لابد أن تفقد فيها، خصوصيتها التي تصنع انسانيتها، وبالتالي أنوثتها وآدميتها. دستوفسكي البغايا عنده ضحايا ومريمات، مريمات مجدليات داهمتهن الظروف وأرغمتهن إرغاماً على بيع الجسد، هو مستعد أن يقبل هذا ويغفره. أما أن تفخر بكونها بغيا وتوغل في فخرها بمهنتها الى حد أن تتباهى بها على الأخريات وعلى الناس وعلى رءوس الأشهاد، أما أن تتحول عاطفتها نفسها اذا استبدت إلى مومسة، فمسألة ابداً ابداً ما تصور إمكان حدوثها أو وجود نساء على نحو كهذا. بل أن يفسد خلق المرأة أو

الرجل ويخون أو تخون، وحتى يفعل هذا ليل نهار، جريمة هذا صحيح ولكن عملية البيع، بيع الجسد بمقابل نقدي فوري مدفوع مسألة أخرى تماماً.

وهذه ليست فتاة مضحوكاً عليها في فيلم مصري، أو ضحية من ضحايا ذئاب دستوفسكي البشرية، هذه حاملة دكتوراه مؤلفة كاتبة واضح حتى من عنوان كتابها أنها مكتشفة، وأنها ممكن أن توضع في مصاف فرويد ومدام كوري.

هو: (مردداً وبصوت أعلى) كيف؟! كيف؟!

هي: (معدة نفسها لجلسة استرخاء تامة تجلس على «الفوتيه» ناقلة ساقها العليا السامقة كأصابع الموز الامريكي الهائلة التناسق والطول فوق الساق الأخرى محدقة ناحيته وقد قبلت التحدي). ماذا أقول لك؟ نكبر ومع هذا نظل نفكر وكأننا أطفال لا نزال. لا تستنكر فقط أن أعمل بغياً، ولكن تستنكر أي عمل آخر قد يعن لي أو لغيري أو يقوم به، وكأنني أمك التي سوف تراها خاطئة. منذ فجر التاريخ يا عزيزي والعلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة صفقة، ولابد أن تكون صفقة. من الذي يدفع غير مهم، في أزمان كانت المرأة هي التي تدفع للرجل الثمن، وفي أزمان اخرى كزماننا ينقلب الوضع. الدوطة وما تسمونه عندكم المهر والشبكة والهدايا، في حقيقتها الواضحة جداً، ما هي؟ اليست ثمناً؟ لقد درست شرائع الزواج في كل الأديان، السماوية والوضعية. في كل منها يوجد مقابل مادي لكي يكون الزواج حقيقياً ورسمياً.

هو: انها كذلك ولكنها صفقة العمر، اتفاق الأزل، فارق كبير بينه وبين..

هي: وبين ماذا؟

هو: أن تصبح المسألة حرفة وتجارة.

هي: اذن المسألة ليست مبدأ. المسألة عدد مرات البيع والشراء، فقد سلمت بالمبدأ.

هو: لم أسلم تماماً.

هي: حسن فلنأخذك حسب رومانسيتك التي من الواضح انها تؤرقك، لنفترض المسألة حباً. عاطفة ملتهبة وغرام روميو بجوليت وبيرتون باليزابيث تايلور.

أنت تدعو الحبيبة للعشاء والرقص والنادي الليلي، وبيرتون يقدم لها خاتماً ماسياً بمليون دولار، أليس كذلك؟..

هو: أدعوها وتدعوني، أو بالطريقة الانجليزية نقتسم.

هي: وتقتسمون ولا أحد يشتري أحداً، ولكنك في نهاية الأمر تفكر في اسعادها وحتماً تفكر في شراء هدية. بالضبط ما معناها؟ معناها أنك تقول: في مقابل ما منحته أيتها العزيزة من متعة. هاك. أو خذ أيها الحبيب مقابل حبك.

هو: هدية.

هي: ثمناً. اسمه العلمي ثمن. ولكل متعة ثمن. ولكل سعادة تمنح مقابل، فالمبدأ إذن قائم وموجود.

هو: ولكن هذه علاقات خاصة، مصحوبة بعواطف خاصة جداً. فرق كبير بين أن أكتب لحبيبتي قصيدة غرام وبين أن أصنع منها نسخاً بالفوتوكوبي وأوزعها على العشرات.

هي: أبداً، لا فرق. المسألة مسألة وقت.

هو: وقت؟!

هي: كانت قصة الحب تستغرق رواية بأكملها، والرواية تستغرق عمراً بأكمله، قصرت قصص الحب، وصلت عند فرنسوا ساجان الى ستة أشهر. عندي أطولها تأخذ ليلة.

هو: ولكنك لا تحبين. أنت تتاجرين.

هي: ابداً.. معلوماتك عن البغايا قديمة جداً.. نحن في عصرنا البغايا (الالترا مودرن) أنت بنفسك رأيت أنني رفضت ثلاثة عروض.. وكان ممكناً أن أرفض أكثر. ولولا مفهومك المتأخر، لكنت أنت قد استمتعت كما لم تستمتع في حياتك.

أنا أنتقي من يروقني.

هو: تنتقين؟

هي: طبعاً فهدفي هو أولاً متعتي.

هو: الانسان يا آنسة أو يا مدام أو يا دكتورة. هو في النهاية بعض القيم.. خلاص.. انتهت عندكم القيمة تماماً في نيويورك حتى لم يبق إلا الدولار قيمة والمتعة الأنانية الذاتية هي الهدف.

هي: الدولار قيمة هذا صحيح. أما المتعة فما الضرر أن أستمتع طالما أني أمتع طرفاً آخر ولا أضر أحداً؟

هو: ألم تفكري أبداً وأنت الحاصلة على دكتوراه ثقافة، في هذا المدعو الجنس البشري؟. لو فعلت كل النساء ما تفعلين اليس في هذا بداية النهاية لهذا الجنس؟

هي: أبداً.. أبداً.. ربما بداية النهاية لكثير جداً من النفاق الذي

يعوق تقدم البشرية. . فاذا كان تكويني النفسي كما شرحت لك وأرغمني الجنس البشري أن أتزوج وأنجب و (أخلص) لزوجي، فالنتيجة أني سأرتكب عدداً من الخيانات الزوجية أكثر من شعر رأس زوجي وسأنجب أبناء لا أريدهم ولن يريدوني، وبالتالي سنضيف اسرة تعيسة اخرى تنتج اجيالاً تعيسة اخرى لهذا المحترم الجنس البشري.

المسألة اختيارية تماماً، وذاتية جداً، بعض النساء يحببن أن يكن زوجات وأمهات، ومثلك لا يتصورون ابداً تعدد العلاقات. حسن جداً. هؤلاء هن الزوجات الصالحات فعلاً اللائي حين يتزوجن ويخلفن يضفن لجنس الانسان أطفالاً أصحاء مرغوبين، يضفن فعلاً للجنس البشري نوعاً وكماً. لماذا هو محتم أن كل النساء يتزوجن كل الرجال، وكل النساء والرجال يخلفون اطفالاً؟ ما الذي وضع هذا النموذج الواحد للوجود الانساني؟ لماذا لا يوجد نموذج آخر يفضل كل فيه ما يشاء. الذي يحب النساء يحب النساء، والذي يحب نفس جنسه يحب نفس الجنس والتي لا تريد الزواج نتركها لرغبتها، والتي تستمع بوحدانية العلاقة والرغبة في الامومة نتركها تزاول هذا في سلام.

لماذا هذا الهوس غير البشري وغير الانساني بتطبيق طريقة حياة واحدة على أربعة آلاف مليون كائن لا يتشابه منها اثنان. مجرد اثنين.

(هذه الدعوات الزاعقة الى الحرية الشخصية للرجل والمرأة ليست غريبة عليه منذ الستينات، وهو يخوضها مناقشات ومساجلات وخناقات في اوربا وأمريكا وحتى في روسيا نفسها، بل وفي بعض بلاد الجزيرة العربية: ولكن اطلاق الحريات الشخصية الى نهاياتها شيء وقبض أثمان للحرية الشخصية شيء آخر).

هو: (ترجم لها المونولوج العربي الداخلي بانجليزية عالية باهرة).

هي: انت اخلاقي جداً.

هو: وهذا منتهى التحضر في رأيي، فالأخلاق، قمة الأخلاق، قمة التحضر، هي الصدق مع النفس.

هي: وعلى هذا المقياس نفسه فأنا الأخرى أخلاقية جداً.

هو: كيف وأنت..؟

هي: لا أنا ولا أنت.. المسألة يا عزيزي أن عملي كما عرفت الآن يسمونه معالجة نفسية.. طبعاً تعرف ماذا تعني معالجة نفسية.

هو: أكاد أخمن أنها التي تتولى تطبيق العلاج اليومي الذي يشير به الطبيب النفسي..

هي: شيء كهذا.. وكان تخصصي ولا يزال هو علاج (عدم القدرة) عند الرجال.

هو: عدم القدرة؟!

هي: أجل.. في السنوات الأخيرة كثرت هذه الحالات جداً حتى لقد تخصصت فيها عيادات بأكملها، اذ يبدو أنه مع تحرر المرأة الغربية وربما المرأة في كل مكان، وأخذها الارادة الأعلى فوق ارادة الرجل، قد بدأ يعمل عمله في قدرة الرجال الجنسية إذ أخذت في الانحدار، فكان عملي كمعالجة نفسية أن أساعد هؤلاء الرجال على استرداد قدراتهم.

هو: (بحب استطلاع فهو لأول مرة يسمع أن هناك عيادات بأكملها مخصصة لهذا النوع من العلاج النفسي، ولأول مرة يعرف أن طبيبات ومعالجات يقمن بهذا العمل) وكيف كنت تساعدينهم؟

هي: أولاً هناك بعض حقائق لا أعرف إذا كنت على علم بها. ولكن

لا يوجد مرض اسمه عدم القدرة عند الرجل إلاّ إذا كان مريضاً عضوياً فعدم القدرة هو مسألة نفسية بحتة، إذ علمياً يستطيع الرجل أن يزاول الجنس طالما هو حي، طبعاً تقل القدرة والمرات،ولكنها أبداً لا تنعدم. نحن كنا نتولى علاجاً نفسياً و (فزيكياً) يعيد لكثير جداً منهم القدرة. وكان علمي أنا أن أقوم بالجانب الجسدي باعتباره تخصصي. ولا تتصور مقدار السعادة التي كنت أحس بها كلما استعاد مريض من مرضاي قدرته مرة أخرى، لقد كان امتنانهم يصل إلى حد دعوتي في احتفالاتهم الثلاثينية وأحياناً الخمسينية بزواجهم وإغراقي بالعواطف والهدايا.

هو: ولكن هذا يعتبر عملاً علمياً إنسانياً رائعاً جداً ومفيداً تماماً.

هي: وهل تجد فارقاً كبيراً بين عملي الان الذي تسميه مومس وبين ما كنت أقوم به في العيادة النفسية؟

هو: طبعاً. ذلك كان علماً وعلاجاً.

هي: وماذا أفعل الآن؟ أليس ما أقوم به في أحيان كثيرة، بل في معظم الأحيان علماً وعلاجاً؟ معك حق. هناك فرق واحد بين العملين، ذلك الفرق الذي دفعني لتفضيل عملي الحالي.

هو: اي فرق؟!

هي: كان اجري في العيادة يعادل بالضبط خمسة دولارات في الساعة. الآن الساعة عندي بمائة دولار وربما أكثر.

قالت هذا وضحكت.

ويندهش هو برهة وكأنما داهمه ضوء كاشف مفاجيء، ثم لا يلبث أن ينفجر ضاحكاً. يقهقه وكأنه سيموت ضحكاً ويخبط فخذيه ويتلوى ويضحك وبكل ما يملك من قوة وعصبية واكتشاف يضحك، حتى لقد بدأت منضدتهما تسترعي الانتباه رغم ازدحام المكان.

(أخيراً يسكت.. ثم بهدوء شديد).

هو: فعلاً.. ما الفارق؟.. أو بالأحرى.. الفارق كبير.. كبير جداً.. (ثم يصمت.. يصمت طويلاً... في الحقيقة يعم الصمت بينهما حتى ليصمت المكان المكتظ.. والمدينة الماردة الكبيرة في الخارج.. وكأن كل شيء مات فجأة وصمت. ثم على مهل شديد يبدأ ينطق).

ولكن.. فعلاً.. هناك فارق.. أن تعالجي بهدف العلاج شيء وبهدف النقود شيء آخر.. ذلك يسمونه العمل.. وهذا يسمونه البغاء.

هي: اختلاف في التسمية.. هه.. (بول شيت).

هو: (مواصلاً كلامه الذي لم يعد مجرد كلام ،ولكنه فعلاً ما يؤمن به في الحياة) الأنثى التي كلفت الحياة ملايين السنين من الايغار في التعديل والتبديل حتى اصبحت قمة الكون النامية، الأنثوية الانسانية أرقى ابداع للخالق.. بقرار احمق ليس طفلياً ،بل تافهاً وحقيراً فالأطفال أعظم بكثير وأكثر براءة ونظافة.. بقرار كهذا تلغى ملايين السنين من التطور وتقذف نفسها ساقطة هاوية الى حيث توقف التطور بالقططوالكلاب والفئران، بل حتى هذه الحيوانات تحظى بالجسم ببطولة، بمعركة تدور بين الذكرين حول القطة وهي الهدية. هي الوسام، والفائز هو من فعلاً يستحقها.. إنها أبداً لا تطلب مقدماً أو مؤخراً أو (تأخذ) أي شيء، إنها، بكل الدلال والسخاء تمنح، تعطي ما نقيسه بالثمن وبالساعة نحن، لا تتحول الى بضاعة ذات سعر، وتفخرين أنت بهذا باعتبارها مهنة كسب أكبر قدر من النقود في أقصر وقت. تكسبين الدولارات هذا صحيح، ولكن الحسبة مغلوطة تماماً فأنت ـ حتى لو أوغلنا في التشبيه ـ رأس مال، تكسبين مائة عاجلةوتخسرين مئات وآلافاً من رأسمالك. «وطريقة» سهلة جداً لكسب

النقود،ولكنها كمهنة من امتهن احتساء وجرع ماء النار. . في دقيقة يأخذ مائة دولار، ولكن الكارثة هي كم ما يحدثه الداخل في أحشائه من تهرؤ وتآكل في صميم روحه وذاته، بل وفي جسده. . .

بل لا أقول أنك تخسرين كميات من نفسك رأسمالك. أنت تخسرين كل شيء. تماماً كل شيء. تخسرين نوعك نفسه.

هي: آه: جئنا للخطب والمواعظ! ماذا تقصد بقولك أخسر نوعي؟ هل أتحول الى رجل مثلا؟

هو: ولكن الرجل ايضاً يمت الى نفس النوع ، أقول تخسرين نوعك نفسه.

هي: أصبح حيوانة تريد أن تقول؟

هو: ولكن هذا الحيوان لا يفعل ما تفعلين. . لا شيء في الحياة أو الطبيعة يخلق ليكون معروضاً للبيع ، إننا نخلق لأن من صفاتنا كحياة أن نتطور دائماً وباستمرار للأسمى والأرقى.

هي: الأسمى والأرقى. . كلمات. . أعرفها تماماً. . مجرد كلمات. . كلماتك وكلمات خالي وعمي وجيراني. . دائماً تقال من وراء الظهر،وكأنها تخدش الحياء. الأسمى والأرقى، كائنات متطورة عليا. . لماذا يكون التطور من وجهة نظر سعادتك فقط؟ لماذا لا يكون التطور يحدث من وجهة نطري أنا؟

هو: وما هي وجهة نظرك، يا سيدة داروين.

هي: الأرقى عندي هو الأكثر نقوداً بأقل جهد.

هو: أنا الذي سيقول لك هذه المرة كلمات. . . مجرد كلمات. .

دعوة عظيمة كدعوة الحريـة والتحرر تصبح تبريـراً للتصرف في جسم الانسان بطريقة غير انسانية. هل هذا هو التحرر؟

هي: طبعاً.. حريتي أن أبيع نفسي.

هو: هذه ليست حرية.. حريـة أن يبيـع الانسان جسده، إنها أولاً تحويل الانسان الى تجارة، الى تاجر رقيق أبيض. ثم حتى تحويل هذا التاجر المفروض أن يتاجر في أجساد الآخرين الـى تاجر يتاجر في نفسه هو. يطرحها كأي سلعـة عليهـا بطاقـة السعـر، ومـن يدفـع ويشتـري ويحصـل، هل تتصـورين هذا؟ يحصـل عليك، عليك كلك، علـى روحك بأدق خلجاتها، إذ هو يدخل سر أسرارك.

هي: إنه يتوهمهذا ،ولكني لا أسمح لهم إلا بما أريد أنا أن أسمح لهم به.

هو: أتستطعين اذن أن توقفي الصفقة في منتصفها وتلغيها؟

هي: الى الآن لم أفعل، ولكني لحظة أريد قطعاً سأفعلها.

هو: لا يا سيـدتي. ابداً لن تفعليها، فهذه خطوة لا تأخذها انسانة تحولت الى بضاعة. هذه خطوة لكي تأخذها امرأة ما فلابد أن تكون أبية حرة، انسانة لها كيان وإرادة وأبداً ليست انسانة باعت روحها لكل من هب ودب.

هي: ولكـن كل منا في عملـه بضاعة، وهذا عمل مثل غيـره من الأعمال.

هو: مطلقاً ليس هذا مجرد عمل آخر يمارسه الانسان ليأكل به عيشه. إنه جريمة يرتكبها انسان في حق نفسه يهدر بها آدميته وقيمه، ويظل سادراً

في ارتكاب جريمته خالقاً لها آلاف المعاذير. هذا أبداً ليس عملاً، انه تبرير لسلوك انسان، وتبرير غير مستقيم حتى الطفل نفسه لا يقتنع به فالعواطف أبداً ليست للتجارة. ما سمعنا عن انسان يبكي بأجر أو يفرح بمقاولة أو يغضب بالساعة. هذا انسان وليس دمية. نحن أمام الإنسان الذي حوله عالمكم الذي يسمونه للأسف الأول، الى بضاعة، الى ترس الى سلعة، الى جزء من آلة انتاج واستهلاك كبرى اسمها المجتمع. وما دامت كل الأعمال تتشابه في رفض الانسان أصلاً لها، فيصبح الانتقال من عمل الى عمل مسألة لا تزعج احداً. ولكنك لم تنتقلي من إنسانة تعمل معالجة نفسية الى إنسانة تعمل بغياً، أنت انتقلت من عمل عظيم يبني روحك لأنك تساعدين أرواحاً معذبة الى عمل يخرب روحك، الى عمل يميتك حية. حية أسكنت روحها جسداً تستغله صاحبته شققاً مفروشة مع عشرة في المائة خدمة. جسد الخدمة فيه ممتازة جداً، فالفام دي شامبر مثقفة معالجة متعلمة قطعاً يفضل أي زبون السكن في شققها.

أنت ـ سأستعمل أخف تعبير ممكن ـ مريضة فعلاً تدعى لنفسها أنها تعالـج، وهي أكثر من زبائنها مرضاً، فهي الشقة الفارغة الباحثة عن العواطف عبثاً في أحضان زبائن لا يفعلون سوى إشعارها بالحرمان أكثر.

هي: المريضة!.. أتسمي الحب مرضاً؟
هو: أتسمين هذا الذي نتحدث عنه حباً؟
هي: اذن لماذا اخترته ولا أزال حريصة عليه؟

هو: لأنك مريضة فعلاً، فالانسان الصحيح أبداً لا يقبل أن يلمسه مجرد اللمس أحد إلا حين يسمح له بذلك. أما أنت فحين تقولين إنك

مومس أوحتى مومس لبعض الوقت، فمعنى هذا انك علقت لافتة تقول: ممكن لمس وجس واختبار المعروضات. . شرفوا تجدوا ما يسركم. . انسانة تفعل هذا بنفسها لابد أنها أُصيبت بمرض في عقلها جعلها تفعل اشياء لا يقبلها اي عقل بشري سوي.

هي: (مبتسمة في سخرية راثية) أنا اذن مريضة يا طبيبي. . السؤال هو في الحقيقة من فينا المريض؟ لماذا لا تكون انت المريض بهذه الأفكار التي تزحم بها رأسك، مريض بقيمك ومثلك، وأكون أنا الطبيبة؟ لماذا لا يكون الوضع فعلاً هكذا؟

هو: أنا يا مدام (قالها هذه المرة قاصداً) متحضر جداً، لايماني أن الانسان ليس فقط أرقى الكائنات، ولكنه أخطرها على الاطلاق. أخطرها حتى على نفسه، وأنه ما لم يزود هذا الانسان أو بالأصح ينقى من ذرات الغبار. حتى ذرات الغبار التي تعلق بهذا الشيء المخبأ خلف جبهته لاستحال من أرقى الى اخطر وأحط كائن في الوجود. لأنه في هذه الحالة يستعمل ارقى ما وصل اليه التطور الخلاق في عكس اتجاه التطور الخلاق. يدمر بادئاً أو منتهياً بنفسه ومن حوله، وكل اولئك الذين كان من الممكن أن يكونوا احباءه وأصدقاءه وحتى معارفه. .

هي: ولكنني سعيدة، وأسعد كل من تلقيه الصدفة في طريقي.

هو: تكذبين على نفسك! قطعاً أنت تعانين من اشمئزاز تلمحينه في كل وجه يلقاك، ولا يمكن أن نسعد والناس يشمئزون منا.

هي: أنا أمارس الحب فأنا موجودة.

هو: للأسف أنت موجودة، وانما ليس لأنك تمارسين الحب، في

الحقيقة أنت موجودة، مجرد موجودة لأنك لا تمارسين احلى وأروع انواع الوجود. . الوجود المحبوب المرغوب. أنا أمارس الحب فأنا موجودة؟!

هل تقبل الطفلة منطق الطفلة أن يدفع لها مقابل نقدي لقاء حبها لعروستها أو لقطتها؟ هل لا تحس بوجودها إلا وهي فقط تبيع الحب وتمتهن الجسد وتعتدي على كبريائها هي وكرامتها؟ هي المعتدية، والكبرياء المحطم كبرياؤها. . هي قطعاً إما عمياء، لا ترى شيئاً بالمرة. . أقصد عمياء سلوكياً، أو مفتحة الأعين وإنما لا ترى من الكون إلا حافظة الرجل وأجر الساعة. . هذه هي النهاية المحتمة لتقييم الرجل أو المرأة لنفسه ولغيره بحساب (الدولار ـ ساعة). ما دام قد وضعناها على أول الطريق ـ دولار ـ ساعة، فالبغاء هو النهاية المحتمة.

انسانة مثلك لا ترى ابداً وجه رجل يضع يده في حنان على كتفها وبرفق يضمها، وينظر معها إلى صورتيهما معاً في مرآتها. رجل هي التي اختارته، وانتقت ملامحه. . وحتى ما كان لا يعجبها فيه اصبحت تحبه اكثر. رجل اختارها هو الآخر وانتقاها لأنه يعتبرها أسمى وأثمن انسانة عرفها. رجل ترضيه ويرضيها وليس لها أو له من عمل إلا إرضاء نفسيهما. رجل تحترمه وهو الآخر يكن لها اعظم احترام والا ما رضى أن يقتسما اسماً. رجل بجذوره، بأرضه، بسمائه، بالهالة الكونية الكاملة المحيطة به.

أبداً أنت لا ترين وجه الطفل أو الطفلة، طفلكما إذا تسلل الى المرآة محتضناً سيقانكما. ملامحه منكما بعيونكما لو فتحا عيونه. حدة طبعه منك، والشقاوة من ذكاء أبيه، معاً عرفتماه، معاً انسجمتما وانسجم

معكما الكون والطبيعة فكانت الشرارة، وكانت اللحظة التي تتجسد الآن بينكما. لا ترين اشياء كثيرة جداً. . لا ترين نفسك انت نفسك.

هي: انك ايها الاستاذ العالم تخاطبني وكأنما تخاطب العالم من فوق برج ايفيل. الشرف والصدق والانسان المتحضر الراقي. أين؟ على سطح كرة أرضية مكونة من وحل وطين. ماذا أفعل أنا التي ولدت في غابة لم أصنعها أنا، ولكنها كائنة وموجودة، أحافظ على بقائي وأظفر بالمأوى والطعام والمتعة، وإن لم اجد اسرقها، وان لم استطع أقتل وأغتصبها؟ انت تملك ترف ان تعيش شريفاً، ولكنك غيرك حتى لو اراد لا يملك هذا الترف.

هو: انت تكذبين على نفسك. إن في اصبعك خاتماً يعول عائلة بأكملها في بلادي لثلاثة اعوام. أنت لست جائعة الى هذه الدرجة.

هي: لأن جوعكم هو ابسط انواع الجوع، جوع الحيوان الى الطعام ولكن جوعي هو جوع الانسان الى حياة الانسان. جوع الحياة بمتعة فالحياة لمجرد البقاء هي حياة حيوانات متخلفة. إني جوعى للسفر والرحلة والحياة اللذيذة. الفرق إنكم حيوانات جوعى، بينا جوعي أنا وجوع غيري هنا هو جوع الانسان، أبشع انواع الجوع، لأنه ليس جوع معدات، انه جوع مراكز عليا وخيالات وأحلام، جوع النوازع العليا استاذ.

هو: من اجل تلك النوازع العليا تنحطين بجسدك الى ما هو ادنى من مراتب الحيوان.

هي: فليكن، اني اغوص بالحيوان في، لأمتع كل ما يجعل مني انساناً.

هو: وتفقدين بهذا الحيوان والانسان معاً، فالانسان لا يرتفع فوق حيوان هابط. الانسان يصبح انساناً حين يشبع فيه الحيوان، ويحترم فيه الحيوان حيوانيته لكي يستطيع الانسان فيه بعد هذا أن يفخر ويزهو بانسانيته. ان الوحل لا يصنع اساساً لناطحة سحاب مهما حفلت أدوارها العليا بالديكورات والتحف والزينات.

هي: تقصد أساساً مما تسميه بلغتك القيم العليا.

هو: وما تسمينه أنت خصائص الحيوان.

أي حياة لذيذة تلك التي تدفعين فيها الثمن ـ كدين شيلوك ـ من لحمك ودمك! انها اذن تصبح كمدمن الهيروبين الذي يبيع كل يوم اصبعاً من أصابعه ليظفر بالجرعة. اسمحي لي سيدتي انت مريضة جداً. هيأ لك مرضك اقتناعاً كاملاً بحياة تعرفين من اعمق اعماقك انها ملفقة وكاذبة ومليئة بخداع النفس.

هي: لقد بدأت أمل حديثك.

هو: لأنه اقترب من نقطة جنونك الحساسة. لقد صغت لنفسك كما تقولين الحياة المثلى، تحبين الرجال وتغيير الرجال، وفوق هذا تكسبين نقوداً وسهرات، وكل يوم وجه وجسد جديد، ولكنك ستستيقظين ذات صباح لتجدي أنّه لا جديد بالمرة، لا وجه ولا جسد ولا حتى انسان يقول لك: صباح الخير. انت كما تبدين في الثلاثين، ترى كم انساناً سيحضر عيد ميلادك الخامس والأربعين، بل حتى الأربعين؟

هي: لقد بدأت تصبح مملاً جداً. ماذا تريد مني؟ ماذا تأخذه عليّ؟

هو: نفس ما تفخرين به، أنّك مومس.

هي: ولكنك انت الآخر مومس، وكل هؤلاء الحليقون المبتسمون المتحدثون في همس مؤدب خافت، كل من ترى من الرجال والنساء حولك مومسات ومومسون.

هو: أنا مومس؟

هي: بالتأكيد مومس. ماذا تفعل. آه. نسيت. قلت انك كاتب. وقطعاً تعمل في مؤسسة، أو تعيش في مجتمع يعولك ويدفع لك اجرك. هل تقول الحقيقة، كل ما تعتقد انه الحقيقة لهذا المجتمع، أم تقول أشياء وتخفي اشياء؟ اليس هذا مومسة؟ المحامي الذي يترافع عن انسان يعلم تماماً انه سارق او قاتل لينال اجره وأتعابه، ماذا تسمي هذا؟ السياسي الذي يعرف انه يبيع بلده أو يغمض عيناً عن مصالحها؟ ماذا تسميه؟ القاضي التاجر، الزوجة التي لا تطيق رؤية زوجها وتتأوه حباً حين يلمسها، الابن الذي يكره أباه ويحييه كل صباح: هاللو... دادي!.. ماذا تسمي هذا كله؟.. ماذا تسمي ما يقوم به العلماء الذي يخترعون قنابل الفناء، والسياسيون الذين يخوضون الحروب، والمثقفون والكتاب الذين يعرفون الحقيقة ويخافون الجهر بها؟. اليس كل هذا مومسة؟ كلكم، كلهن، بغايا، وبأجر فاحش مدفوع، ولكني أنا الوحيدة المصلوبة بينكم، أنا الوحيدة التي بخطيئة، وأنتم فقط قذاف الأحجار.

هو: كل هذا كذب على النفس، هذا صحيح، ولكن بيع الجسد شيء آخر.

هي: انه أخف انواعها، فما دمنا مومسين ومومسات، فأحسننا هو أقلنا ضرراً، وأنا على الأقل لا أضر الا نفسي، اذا سميت ما أفعله بنفسي

ضرراً. أما المومس الـذي يخدع الملايين، ويفتك بقيـم المـلايين ويسرق الملايين، ويقتل الملايين . .

(فترة صمت . . ثم تبدأ ببطء وصوت منخفض يظل يعلو) .

هي: لقد أضعت ليلتي في نقاش لا جدوى منه فأنا لا يغير حياتي نقاش رجل ألقاه ذات ليلة أو ذات صدفة. أنا قررت حياتي. وأنا للأسف أضعت الليلة معك.

هو: ربما ضاعت الليلة، ولكن من يدري، ربما أنقذنا بها عمراً.

هي: عدنا الى المواعظ.

هو: لم نعد ولن نعود. . ولكني متأكد انك ستفكرين فيما قلت.

هي: لا يهمني كلامك ابداً. أنا قررت حياتي. أنامومس، ولـكني نظيفة، فأنا لا أقول أنا مدام فلان أو صديقة علان أو أرملة تلتان، أنا نظيفة أقولها لك وللجميع : أنا مومس. وبقولي هذا على الملأ اصبح أنظف منكـم جميعاً. فأنا لا أكـذب عليكـم ولا علـى نفسي. أنتم الكـذابون والكذب أخدش للشرف من النفاق. انه المومسة فعلا، وما أفعله مومسة ولكني نظيفة.

هو: لا يا سيدتي. . لا تخدعي نفسك فأنت تفخرين انك الوحيـدة التي لا تخدعيـن نفسك. قولي أنا مومس. وأن بيع الجسد أحقر شيء يرتكبه بشر. ولـكني لا أعرف لماذا أنا أفعلـه. ولا تهربي خلف رداء العموميات. قولي لنفسك انك ستخربين نفسك وانك بحاجة الـى من يعالجك أو يأخذ بيدك.

هي: (محذرة) أنا نظيفة. . نظيفة. .

(صوتها العالي يجذب الانتباه، وبالـذات انتباه (الميتر) يقبل بقامته الفارعة ووجهه المكتئب الصارم، يبطيء الخطى حين يقترب من منضدتها ثم فجأة يبتسم ابتسامة تبدو بلهاء تماماً ولا علاقة لها بصرامة ملامحه).

الميتر: يبدو يا دكتوره انك الليلة عصبية . .
هي: أنا نظيفة (بصوت لا يزال **عالياً** جداً).

الميتر: أعرف تماماً أن أبخس أجور هي تلك التي يدفعونها في العيادات والمستشفيات الجامعية. . لماذا لا تتفرغين للعمل كل الوقت هنا مثلا أو حسبما تشائين؟ . . ان مزاولة عملين في وقت واحد أمر دائماً مزعج. . . ألست معي يا سيدي؟

هو: أأنت؟! (سائلاً إياها).

هي: أنا سأتفرغ **فعلاً**. . سأتفرغ للنظافة، فأنا نظيفة. . أنظف منكم جميعاً.

والميتر مشدوه تماماً ومشلول. هو ايضاً بدأ يضطرب. صوتها تحول الى صراخ. تقف فجأة وبعصبية شديدة تلم حقيبتها وكتابها وأوراقها وتصرخ بأعلى صوتها.

هي: أنا نظيفة. . نظيفة. . بل أنا قذرة. . قذرة جداً. . ولـكني أقولها. . هأنذا أصرخ بها. . أنا نظيفة جداً لأني قذرة جداً جداً. أنا أنظف قذرة. . أنظف منكم كلكم. (بول شيت) عليكم جميعاً.

القاعة يخيم عليها سكون مشلول تام. الذهول لبرهة طويلة على الوجوه. دبدبة خطواتها المسرعة الى الخارج هي وحدها المسموعة. بخفوت شديد يبدأ شيء وكأنه الهمس، يظل يرتفع ويرتفع وتنفك دهشته

نيويورك

الشديـدة، وتعود الـوجوه تبتسم بل وتضحك، وتمتلـيء القاعة بنفس الضجة التي كانت عليها، وكأن شيئاً ما كان).

يصنع من كفيه كأساً يملؤها بذقنه ويحدق الى ابعد نقطة في الكون ويقول:

هو: متى يا الهي تعطي بعض الرجال شجاعة بعض البغايا.

القاهرة في

يونيو ١٩٨٠

فيينا ٦٠

السيدة فيينا

أكاد الآن أتصور مصطفى، أو «درش» كما كنا نسميه، وهو واقف وقفته المشهورة في ذلك الميدان الواسع من ميادين فيينا، وكل معلوماته عن الميدان أنه لا بد أحد ميادين فيينا، وأن فيينا هذه هي عاصمة النمسا والأهم من هذا أن له فيها يومين بليلتين بخمسة جنيهات أجراً للفندق، بلا فائدة.

والميدان لم يكن واسعاً بالمعنى المفهوم من تلك الكلمة، فأوسع ميدان من ميادين فيينا لا يمكن أن تبلغ مساحته مساحة أضيق ميادين القاهرة. ميدان والسلام تحده بناءات عجوز مهيبة الطلعة، مزخرفة بعدد لا نهاية له من التجاعيد والأفاريز، ومطلية بألوان طوبية وقورة غير زاهية وكأنما اختيرت خصيصاً لتلائم الجو شبه المظلم الذي يحيا فيه أهل الشمال؛ بناءات تحس أن الذين بنوها لابد اناس أوروبيون، بشرتهم حمراء من شرب النبيذ، وعيونهم صغيرة زرقاء ماكرة. ودرش كما هو واضح من اسمه مواطن مصري سافر كما يسافر الناس الى اوروبا، موفداً في مهمة مصلحية اسماً، وللتفرج والفسحة في حقيقة الأمر. موظف في وزارة التجارة عمل ألاعيب الدنيا والآخرة، وظل اكثر من ستة شهور



يكافح ليوفد دوناً عن بقية زملائه في تلك المهمة الرسمية الخاصة بالتبادل التجاري مع هولندا، وتم له الانتصار ووقع عليه الاختيار، **وقضى** اياماً كثيــرة يجري من ادارة الجوازات الــى مراقبة النقد الــى القنصليــات والسفارات وحتى الــى مشايــخ الحارات ليستخرج (الباسبور). وركــب البواخر والقطارات، ووصل الـــى أمستردام عاصمة هولندا وأنهى مهمته الرسمية بنجاح، وغادرها، وها هو ذا في قلب فيينا بالذات. فالأمر يتطلب منا كشف ناحية من نواحي صديقنا درش لا يزال يحرص حرص الموت على اخفائها، ذلك أنه لم يأت الى أمستردام أو لاوروبا لمهمة رسميـة ولا حتى للتفرج أو الفسحة، ولكنه جاء بهدف واحد فقط للنساء، رغبته الدفينة كانت أن يجرب تلك المرأة الاوروبية ذات الشخصية، وقد شبع من نساء بلده وايقاعهن في حبائله.

ونقول أنه شبع مجازاً، فدرش لا يشبع من النساء.

هو محترم جداً في مظهره، طويـل انيـق، علــى الأقل اكثر زملائه وموظفي مصلحته أناقة، له شامة سوداء كبيـرة الـى جانب فمه، حليــق اللحيـة والشارب، لونه قمحي ومع هذا فشعره أكـرت أسود، جاد وقور يحدثك بصوت الواثق من نفسه، ويستعمل دائماً كلمة يا حبيبي، حتى اذا حادث الغرباء، وهو مصري حرك، لا يترك فرصة للقفش والتنكيـت إلا وانتهزها، وكلمة والثانية وينظر اليـك بعينيـن عسليتيـن وبزاويـة خاصة ويقول لك: ما تبقاش كروديا امال. وكأي مصري طبعاً إذا غضب يقول لك: وديني احط صوابعي في عينيك. ويـزعل وينفعل، ولكـن أقل كلمة ترضيه. وموته وموت من يحاول استكراده أو الضحك عليه. وفرق كبير

بينه في العمل وبينه في حياته الخاصة، فسمعته في المصلحة حريص عليها كل الحرص، ومعاملته للناس بالأصول،وتلك الاصول لا تمنعه طبعاً من زجر مرءوسيه أحياناً وازجاء بعض الملق لرؤسائه . . . ودرش متزوج وله ابنة صغيرة (كما جرت عادة الصحف عندنا في تعريفها للشخصيات)، هوايته هي النساء. وهي هواية سرية يزاولها في تكتم شديد، حتى ان بعض اصدقائه ليذهلون اذا عرفوا عنه تلك الهواية. هواية يمارسها بفن وحذق. ومن نظرة واحدة الى المرأة يستطيع أن يعرف أي الطرق يوصل اليها، وفي كم من المرات تقع، وهل يوقعها بتجاهلها او بالاقبال عليها أو بأن يمثل أمامها دور الفارس المغوار. وهواية النساء هواية واسعة الشعب، فهناك هواة البيض، وهواة السمر، وهواة الخادمات، وهواة نجوم السينما، وهواة التلميذات، وحتى العجائز لهن ايضاً هواة. أما درش فقد تخصص في نوع غريب على هذا كله هو النوع الخام، مزاجه كله أن يظفر بامرأة يكون هو أول ظافر بها، إذ هنا تتبدى عبقريته ويتفنن في استدراجها خطوة خطوة، وعلى مهل الصائد الماهر الذي يستمتع بكل ما في عملية الصيد من صبر وتمهل وحنكة. ومن كثرة تجاربه في ذلك المجال أصبحت له ثقة بنفسه لا حد لها، حتى ان أحد أقواله المشهورة بيننا قوله: المشكلة ابداً ليست في ايقاع المرأة، المشكلة الكبرى هي في التخلص منها.

كان درش اذن قد انتهى من النساء في مصر، وذهب وفي نيته أن يغزو أوروبا المرأة. ومن لحظة أن وضع قدميه على سلم الباخرة بدأت عيناه تزوغان هنا وهناك، كمن فقد لتوه شيئاً راح يفتش عنه في وجه كل امرأة يراها أو يلمحها.

وصحيح أنه خلال الرحلة وخلال اقامته في أمستردام، تعرف الى فتيات ونساء، ولكن الظروف كانت دائماً ضده، ولم تحن له فرصة واحدة. وفي امستردام بالذات كانت المدينة تعج بالقادمين اليها من كل مكان يحتفلون بمناسبة لا يعرف ماذا كانت، وخلال هذا الازدحام الهائل بآلاف الزوار لم تحن له ايضاً الفرصة .ولم يضايق هذا «درش»في شيء إذ هو صاحب مزاج، والحمى التي تجتاح أمستردام في أثناء الاحتفال لا يمكن أن تتيح له ذلك التلذذ الذي يريده. ولكنه عرف أين يمكن أن يتاح له هذا، فقد قابل بعض مواطنيه الشرقيين الخبراء في هذه‌المسائل،وما أسرع ما كان صريحاً معهم، ولم تكن صراحتهم أقل من صراحته، فقد قالوا له: اذا أردت النساء يا أخ فاذهب الى فيينا، وحتى بغير نصيحتهم كانت فيينا هي ضالته المنشودة، فيينا التي كان يسمع اسمهان تغني بصوتها الحلو الرنان: ليالي الأنس في فيينا. كان جسده يقشعر بأحلام لا حدود لها، أغنية وقشعريرة ربما كانتا من أهم العوامل التي جعلته يدبر هذه الرحلة.

وها هو ذا له يومان في فيينا. وتلك هي ليلته الثالثة في مدينة الأنس والأحلام ولم يحدث شيء، مع أن النساء أمامه وخلفه وحوله وفي كل مكان، نساء نمساويات فيهن تتركز روح اوروبا، نساء من مختلف الألوان والأعمار والأشكال، وكلهن بلا استثناء يتمتعن بقسط وافر من الجمال. حتى القبيحة لابد أن جسدها جميل، أو لابد أن تجدها صاحبة ذوق رفيع في اختيار ملابسها. كل واحدة فيها شيء، شيء من أوروبا وكل واحدة لها ميزة. وعقله مشتت موزع، وبصره لا يزال كما بدأ الرحلة حائراً زائغاً.

كانت الساعة تقترب من الثامنة والميدان مضيء، كل ما فيه مضيء وكانت هناك جريدة مضيئة تتوالى كلماتها فوق اعلى مبنى في الميدان تذيع آخر الأنباء، كلمات مضيئة بلغة لا يعرفها وهو الوحيد الذي يحدق فيها، اذ هو الوحيد الغريب الذي انقطعت عنه أخبار بلده منذ غادره.

قرأ كلمة مصر. ودق قلبه بانفعال فلا بد أن الجريدة تتحدث عن شيء حدث هناك. وفي غمضة خاطر واحدة كان قد احتوى مصر بكل ما فيها وما له فيها، غمضة جاءت سريعة وذهبت سريعة، ولكنها خلفته خجولاً لا يكاد يطيق النظر الى نفسه، اذ كان لا يزال واقفاً في الميدان يفتش بعينيه عن المرأة.

وتحرك. ولم تكن هذه أول مرة يتجول فيها، فله يومان وهو يتجول في المدينة سيراً على قدميه، ويقف أمام واجهات المحلات ويتناول القهوة الفرنسية التي لم يستسغها أبداً، ويجرب مع النساء كل الوسائل التي أتقنها في بلده، فيبتسم تلك الابتسامات الخفيفة الباهتة الموجهة ويهيم بعينيه بطريقة خاصة لا تلحظها إلّا المقصودة فقط، ويدعي أحياناً انه لا يعرف ثمن تذكرة الاتوبيس وينتقي اجمل راكبة بجواره ليسألها عن الثمن. ومن جهة الاحراج فان كل سيدة أو فتاة سألها كانت في غاية الأدب ولطيفة الى آخر حد! لم تكسفه واحدة، ولم تشح احداهن بوجهها وتقول: يا سم.. كن يرشدنه بدقة، ويبتسمن له بظرف، ويرددن على اسئلته بطريقة مهذبة للغاية، ويتعمد أن يقول للواحدة مثلاً محاولاً ادهاشها: أنا مصري، فتدهش صحيح وتقول: أحقاً؟ انه لشيء مثير! ولكن دهشتها لا تلبث ان تزول، ولا تلبث ابتسامة الاستئذان ان تلوح

على فمها، ثم تنسحب من أمامه أو من جواره بكل خفة ورشاقة وبرود. لقد خدعوه ما في ذلك شك، هؤلاء الملاعين الذين قالوا له: يكفي أن تمشي في الشارع بلـونك الأسمر وشعرك الأكـرت حتى تجد النساء يتساقطن تحت قدميك» بل يكفي ان تقول لأي واحدة انك مصري حتى ينتهي كل شيء.. وها هو قد قالها الى الآن الف مرة ولم يبدأ اي شيء..

ظل مصطفى يدور في الميـدان بلا هدف بل حتى دون أن يستطيـع تغييره أو الانتقال الى سواه، فهو الميدان الوحيد الذي يعرف منه الطريق الى الفندق، وهو لا يريـد ان يتوه في بلاد الناس، خاصة اذا كانت كل حصيلته من اللغات هي الكلمات الانجليزية التي ما زالت عالقة بذهنه من دراسته في كلية التجارة، وبعض جمل بالفرنسية من التي كان يحفظها في أثناء دراسته بالثانوي من أمثال: كل المراكـب من كل البلاد راسيـة في الميناء، وعلى كامل تلميذ مجتهد في المدرسة الثانوية.

وجد نفسه في طرف الميدان الآخر، ولم يجد نفسه هكذا صدفة أو لله في لله. لقد لمح من بعيد فتاة واقفة وحدها في ذلك الجزء من الميـدان فخف القدم اليها وهو يدعو الله في سره الا تتحرك أو يظهر لها زميل. وفعلا حين وصل اليها وجدها وحيدة. ليس هذا فقط، بل دهش حين اقترب منها وابتسم لها فابتسمت له، وعلى هذا وجد نفسه يقول:

ـ مساء سعيد.

فكادت تضحك وهي تقول بانجليزية ذات لكنة المانية غريبة علـى اذنيه:

ـ مساء سعيد.

وتهلل وجهه وقلبه وكل جسده بشراً . . هنا مربط الفرس. وهكذا وقف أمامها وسألها عن الساعة ـ سؤال سخيف عنف له نفسه فقد كان من الممكن أن يبدأ الحديث بطريقة اذكى، ولكنه لم يكن في حاجة الى اي ذكاء، فقد ردت عليه قائلة وهي تتمايل:

ـ ماذا يهم أن تكون الساعة، فلتكن العاشرة أو الواحدة ماذا يهم؟ .

وأدرك انها «شاربة» واستغرب، فقد كانت صغيرة لا يتعدى عمرها السادسة عشرة، وكانت حلوة جداً؛ تقاطيعها بريئة جميلة مسمسمة ودمها خفيف وجسدها يتموج أمام عينيه كالبالوظة. قال لنفسه: هيه سكرانه وحلوة وموش على بعضها، منتظر ايه ياللا!

واقترب منها جداً حتى بدأ جسداهما يتماسان، وضحك في خبث وقال لها:

ـ هل ممكن تصحبيني لنأخذ شيئاً . . هنا في المحل؟

وقالت له:

ـ غير ممكن؟

ـ ليه؟

قالت.

ـ انني انتظر صديقي.

وتعكنن.

ـ وأين صديقك؟ . .

قالت:

ـ في التواليت.

وأشارت الى باب نفق مضيء قريب لابد انه يؤدي الى التواليت.

وأمسك بذراعها قائلا في فوضوية مصرية:

ـ هيا بنا يا شيخة ودعينا من صديقك هذا.

ولكنها أصرت على موقفها وهي تتلوى وتتملص منه وتقول:

ـ غير ممكن، اني انتظر صديقي ولا يمكن ان اتركه.

ثم لم تلبث أن أضافت:

ـ ولكـن شكلك عاجبني جداً لدرجة انني اريـد ان اقبل حسنتك الجميلة هذه التي بجوار فمك.

وسرته الملاحظة، بل دفعته الى مزيد من الفوضوية فجذبها بعنف قليل ودمه كان قد بدأ يسخن، وقال:

ـ أنا حاضر وصديقك غائب.. دعينا من الغائب واكتفي بالحاضر.

وتلوت في يده كالعجينة ،ولكنها لم تتحرك.

ولمح شخصاً يصعد سلالـم النفق فترك يدها. واستمر الصاعد في طريقه تجاههما وحينئذ احس درش بالحرج، وتراجع عن قربه الشديد منها. وجاء الشاب، وقال بأدب بارد:

ـ مساء سعيد.

فأجابه درش:

ـ مساء سعيد.

ولف الشاب ذراعه حول الفتاة وقال:

ـ هيا بنا يا تيدي.

ومضت الفتاة سكرانة تتلوى، وحتى لم تلتفت لتلقي نظرة على درش وقد خلفته واقفاً وقفة لا تسر عدواً أو حبيباً.

ولكنه لم يقف طويلا . . ما لبث أن عاد الى تجواله في الميدان وهو شبه يائس، خائف جداً أن يتقدم الوقت ويفرغ الميدان من الناس، ومن النساء بالذات كما حدث في الليلتين السابقتين. ولكن الميدان لم يفـرغ والنساء والفتيـات كن لا يزلن كثيـرات كشعر الـرأس. ومشكلـة درش الحقيقية لم تكن في هذا. فحتى لو تعرف بفتاة او بامرأة فماذا يفعل وهو لا يستطيع اصطحابها الى الفندق الذي نزل فيه؟ فبوابه كئيب يبدو أنه ليس ابداً من النوع الذي يمكن أن يسمح بشيء كهذا. فأين يذهب بها وهو لا يستطيع استصحابها لبيتها؟ قد تستطيع ان تدله على بنسيون او فندق آخر ممكن أن يذهبا اليه سوياً، ولكن أن يصل به الأمر الى هذا الحد يستلزم ان تكون معرفته بها قد توثقت الى درجة كبيرة، وهو يريد ان يحدث هذا كله في ليلة واحدة، بل في جزء صغير من ليلة. فكيف يمكن ان يتعرف الى فتاة وتتوثق معرفته بها ويستصحبها الـى فندق في ظرف ساعة أو ساعتيـن؟ . . والأهم من هذا انه لا يريـد واحدة من فتيـات الأزقة أو الشوارع، اذ ما أكثر ما اعترضن طريقه وأزاحهن عن نفسه بنظراته وتكشيراته، وهو يريـد أن يتم كل هذا مع سيـدة اوروبيـة اصيلـة ذات شخصية، تريده هو ولا تريـد نقوده، وتعطيـه نفسها بارادتها . . بمطلـق ارادتها . المشكلة اذن عسيرة وحلها يكاد يكون مستحيلاً.

وفجأة بدأ مصطفى يلاحظ شيئاً. بدأ الميدان يمتلـيء بجنود بحريـة حين تمعن فيهم وجدهم شباناً صغاراً اعمارهم تتراوح بين السابعة عشرة والعشرين، ومع هذا يرتدون زي البحرية. وحين التقطت اذنه انجليزيتهم أدرك انهم امريكـان. من أيـن يجي بحارة اميركيـون لفيينا وهي ليست ميناء؟ . . سؤال وجد الاجابة عليه صعبة جداً. ممكن أن يكونوا قد جاءوا

في اجازة مثلا، أو في رحلة في اوروبا. كل شيء جائز. المهم أنه بعد قليل كان قد أدرك انهم هم الآخرين يجوبون الشوارع مثله في جماعات صغيرة وكأفراد. بل تبين أن بينهم بعض الزنوج. ولدهشته وجد أن لونهم فاتح،وليس كما تخيل دائماً أن زنوج أميركا غامقو السواد. وكانوا صغاراً هم الآخرون وفي عيون البيض والسمر والسود كان يلمح نفس النظرة هم ايضاً يبحثون عن النساء مثله. فلنر ما يحدث يا أميركان؟ قالها لنفسه ساخطاً حانقاً، فقد ظهر له من حيث لا يدري أو يتوقع مئات المنافسين الذين يبحثون مثله عن النساء،غير أنه كان مطمئناً الى حد ما،فالنوع الذي يبحث عنه هو غير النوع الذي يبحث عنه اولئك البحارة الصغار. انه يبحث عن اوروبا السيدة، وهم يبحثون عن اوروبا العابثة، وشتان ما بين الأوروبتين. ولأمر ما كان يتوقع لهم نجاحاً كثيراً، اذ كان يعتقد ان الفتيات الأوروبيات لابد انهن «ناقمات هن الأخريات على هذا الاستعمار الأميركي الجديد»، ولابد انهن سيقفن من هؤلاء البحارة العابثين موقفاً مشرفاً.

غير أنه فوجيء، ولم تكد تمضي نصف ساعة على دخول البحارة المدينة، بأن كل بحار اميركي صغير قد اصبح في صحبة فتاة نمساوية صغيرة. . بل احياناً سيدة كبيرة. كيف تعرفوا عليهن بهذه السرعة، ومن اين جاء كل هذا العدد من الفتيات والسيدات؟ . . لم يكن يدري،بل بدا واضحاً ان المعرفة ليست سطحية بالمرة، فسرعان ما بدأت عيناه تلمحان ايدي البحارة الصغار،وهي تمتد الى الخصور وفتحات الأثواب امتدادات غير بريئة، لابد أن هؤلاء الخواجات يتفاهمون مع بعضهم البعض بطرق لا نعرفها نحن الشرقيين، وكان طبيعياً جداً ان بدأت تتكون جماعات من

عدد من البحارة وعدد من الفتيات متخاصرين، سكارى، صاخبين يغنون معاً، واحياناً يرقصون في الشوارع هكذا عيني عينك.

ثم بدأ ازدحام ازواج الفتيات والبحارة يقل، وبدأ يلاحظ ان كل زوج يتسرب الى شارع مظلم أو في اتجاه المنتزه او الطرق المؤدية الى مدينة الملاهي والخالية تقريباً من المارة. . طبعاً لتحقيق كل ما يمنع النور تحقيقه. والناس أهل فيينا الكبار في السن والرجال والوقورون ذوو القبعات الغامقة والوجوه الجادة، والسيدات المسنات المتشحات بالسواد، يرون كل هذا ولا يحركون ساكناً، وكأن ما يحدث يحدث لبنات غير بناتهم، أو في مدينة غير مدينتهم، وكأنه وضع طبيعي جداً لا غرابة فيه بالمرة.

وبلغ حنق درش على أهل فيينا منتهاه، ولكنه وهو في قمة حنقة لم يفته أن يلاحظ انه هو الآخر يبحث عن امرأة، وان بعض حنقة راجع الى فشله فيما نجح فيه البحارة الأميركان. وقال لنفسه: لن يذهب هذا النحس الذي أصابني ولن ينفك كربي الا بكوبين محترمين من البيرة. قال هذا مع أنه لا يحب البيرة ولا الخمر عامة ويضيق بطعمها. ودخل الى أقرب بار وتأكد انه ليس من نوع فاخر، فكم أخذ من مقلب! وطلب من البارمان العجوز بيرة، وحين احضرها له الرجل رمق الورقة المكتوب فيها الثمن بربع عينه، ولما تبين فداحة ثمنها قرر أن يكون هذا هو الكوب الأول والأخير، ومضى يحتسيه محاولاً أن يخلق البهجة في نفسه خلقاً، ويقنع نفسه انه في اوروبا، في فيينا الساحرة الجميلة، في ليلة من لياليها. . وان هذا يحدث له حقيقة. ولابد له ان يستمتع بكل دقيقة وكل ثانية، فغداً تستحيل كل هذه الأشياء الى ذكرى لا تعود. وكان كلما حاول

هذا أحس بالشجن أكثر، وبأنه غريب وحيد. إذ حتى في البار كان لا يزال وحيداً والمشهد حوله هو نفس المشهد في اي بار: فتاة من فتيات البارات جالسة قرب الباب، ورجل في منتصف العمر ذو صلعة وكرش صغيرة يجلس الى سيدة في مثل سنه في ركن، وبينهما كأسان لا تزالان ممتلئتين، وكل منهما ينظر بتدله الى الآخر، سابحين في قصة حب غريبة، والضجة الوحيدة في المكان كانت تنبعث من رجال يقفون معه على البار بينهم سيدة متصابية تشرب وتدخن.. ولها فم سجائر طويل وتضحك بصوت مزعج. هنا ايضاً كان واضحاً انه لن يعثر على ضالته المنشودة.

وحين خرج كانت البيرة قد بدأت تعمل عملها، وكان قد بدأ يحس أن خجله وعقده ومخاوفه تتوارى في ركن من نفسه، بل كان قد بدأ ينتابه شعور اهوج جعله يضرب عرض الحائط بكل شيء، ويقول لنفسه: وايه يعني؟ البلد اللي ما حدا يعرفك فيها، اعمل اللي تعمله فيها.

وهكذا بدأ يلقي بتحيات المساء ذات اليمين وذات اليسار بصوت مرتفع ضاحك، غير مبال أن يرد عليه احد. واذا توجه بتحية الى امرأة وأشاحت بوجهها في استنكار وتقزز، أخرج لها لسانه وكاد يقول: يلعن ابوكم. يعني ما ينفعش الا الأمريكان؟.

أما الأمريكان فعددهم كان قد خف كثيراً.. والظاهر أن ميعاد اوبتهم كان قد حان، فبدءوا يقفون على محطات الأوتوبيس مع فتياتهم لتوصيلهن.. والسكر كان قد بلغ ببعضهم حد الثمل فبدءوا يصخبون بطريقة مزعجة، وبدأت التكسيات تقف ويحمل الفائقون زملاءهم السكارى فيها حملاً. بل بدأ يشهد مناظر وداع بين الفتيات والبحارة

الصغار. . وداع ضاحك في معظم الأحيان مدوي القبلات في أحيان اخرى، ولم يخل الأمر من مشهد مؤثر واحد رآه: اميركي اسمر صغير وفتاة نمساوية صفراء الشعر قصيرة كالتلميذات وقفا على محطة الترام ساعة ويدها في يده، وعيناه هائمتان في عينيها، ودرش واقف قبالتهما يتفرج ويعجب، أهكذا ينشأ الحب ويستبد بالقلوب في ساعة زمن؟ لابد اننا حقيقة في عصر الذرة.

ولم يجد درش غضاضة فيما فعله بعد هذا، فقد كان ينتظر الى أن ينصرف الرفيق الأمريكي ثم يتبع رفيقته. ولكنه حتى وهو ليس في كامل وعيه لم يحاول ان يبدأ احداهن بالحديث، كان على الدوام ينتظر ان تلحظه هي فتتلكأ أو يبدو عليها أقل بادرة من بوادر القبول ليقدم هو. لم يكن يريد ان يجرح كرامته حتى وهو في البلد الذي لا يعرفه فيه أحد ولكن الفتيات كن ينصرفن مهرولات الى بيوتهن وكأنما شبعن واكتفين.

وحين دقت ساعة الكاتدرائية الكبيرة اثنتي عشرة دقة، كان الميدان قد خلا من البحارة الأميركان تماماً ومن الفتيات الصغيرات، ولم يبق فيه الا مجاميع صغيرة من الناس تنتظر الترام أو الاوتوبيس. ها هو ذا مرة اخرى مع الاوروبيين اهل فيينا وحدهم بلا أميركان ولا منافسين، ولكن نفسه لم تكن تحفل بانتعاش اول الليل. كان اليأس قد بدأ يزحف عليه بلا شفقة فبالأمس وأول الأمس حدث مثلما حدث له الليلة تماماً. وعاد في آخر الأمر الى فندقه وحيداً في الشوارع الضيقة المهيبة التي يعرفها، ونام والغيظ يملؤه. . وكل الظواهر تدل على أنه ملاق الليلة نفس ما لاقاه بالأمس.

ومن جديد راح درش يجوب الميدان ويتصفح وجوه المارة والواقفين



لعله يعثر على ضالته . . وجوه كثيرة متشابهة، وكأنها نسخ مكررة لوجه واحد. أناس أنوفهم تنحدر من الجبهة بنفس الزاوية، وعيونهم يكاد يكون لها جميعاً نفس اللون والبريق. أناس يعرفون بعضهم، ويفهمون ولغتهم الألمانية ذات (الناخت) و (الفوخت) و (الأنين) تسري بينهم كالأسلاك الكهربائية الخفية، تربطهم وتجمعهم وتجعلهم يبدون كالجسد الواحد المتجانس الكبير. وهو الوحيد الغريب اللون والأنف والشعر واللغة. . هو الوحيد النشاز. ولم تكن هذه هي المرة الاولى التي يعاوده فيها احساسه بالحنين الى بلده. كلما شم رائحة السجق ،وهو يقلى، كلما سمع رطانة المانية لا يفهم منها حرفاً، كلما حدق في سيدة ولم تأبه له. . عاوده الحنين الى بلده وشقته المحندقة في شارع ابن خلدون، وزوجته النقية الصافية كدعوات المجاذيب في حي الحسين الطيبة الراقدة الآن تغط في نوم عميق وتحلم برجوعه وتنتظره. . تماماً كما كانت تنتظره كل ليلة ،وهو عائد من سهراته المتأخرة كالولد العاق، كلما عاوده الحنين إلى ابنته الصغيرة التي تسنن. وبالذات إلى سنتيها الأماميتين الصغيرتين اللتين تطلان من فمها كلما فتحته لتقبله حين يقول لها بوسة بابا،. وإلى صندلها الصغير الذي اشتراه لها من زمن ،وكاد يبلى صوفه الأحمر، ومع هذا فنعله لا يزال جديداً لأنه لم يلامس الأرض قط وهو هنا، في قلب فيينا، يبحث عن امرأة يجرب طعمها الأوروبي ،والساعة قد جاوزت منتصف الليل!

ونفض رأسه بعنف . . نفضه حقيقة وهو ماش في الشارع . فليكن هذا كله ،ولكنه لا يمكن أن يحول بينه وبين الشيء الوحيد الذي أراده وجهز له عاماً طويلا، لقد فعل المستحيل لتتاح له هذه الفرصة، فهل يضيعها بعد أن أتيحت له؟ لابد أن يستغل الفرصة أولا، وهو عارف أن ضميره سيؤنبه

حتماً، وسيؤنبه كثيراً، ولكن فليحدث هـذا التأنيب في مصر بعد عودتـه فساعتها سيكون لديه الوقت الكافي لمحاسبة نفسه.. أما الآن فلم يبق لديه وقت، الدقائق تتسرب من ساعته بسرعة مجنونة، والليـل يوغل في التقدم، ولا وقت حتى لتأنيب الضمير.

وفي زاوية من الميدان لمح مجموعة لا بأس بها من الفتيات لها نفس الوجوه والبلوزات التي رآها تجوب الشوارع مع البحارة الأميركان، وأقبل عليها بخطى محترسة، غير أنه لم يقبل كثيراً، فما لبث أن توقف عن اقترابه ومضى يحملق فيهن وعلى فمه ابتسامة استنكار لا تخلـو من رثاء. كان يتوسط المجموعة شاب بدا لأمر ما وكأنه الرئيس، يقف مرفوع الـرأس يرتدي ملابس الفتوات النمساويين الجدد.. بنطلون محزق يضيق جداً حين يصل الى الأقدام، وبلوفر جلد، وشوشة العصر الحديـث تطل من رأسه، ونظرة وقحة وقاحة مصطنعة ومبالـغ فيها كثيـراً تطل من عـينيـه والفتى صغير السن يكاد لا يتعدى العشرين، ومع هذا، فقد كان مشتبكاً في نقاش متنمر مع البنات ومع زميليـن له. والتقطت أذنه كلمات: اميركان.. دولارات وشتائم من كل نوع بالانجليزيـة والألمانيـة ولغات الفئة والحي التي لا يفهمها سوى الخبير بالمهنة. وكـان واضحاً أن في المسألة تجارة وخلافاً خطيراً حول المكسب، أخيب نهاية لقصة منافسيه الأفاضل البحارة الأميركان.

وحين تحرك درش من مكـانه وقد بدأت المسألـة تتطور من معركـة بالألسن الى صراع متوحش بالأيدي والبواني، كان قد صمم على أن يغير ذلك الميدان النحس وليكن ما يكون. وانتقى أوسع الشوارع المتفرعة من الميدان ومشى فيه. لم تكن المدينة قد خلت بعد من الناس.. كان المارة

لا يزالون كثيرين ، وكان مطر خفيف جداً قد بدأ يتساقط. وتردد درش برهة بين ارتداء المعطف البلاستيك الرخيص الذي اشتراه ليقي أوجه حلله من أمطار الصيف في أوروبا، وبين ان يسير بلا معطف. فاذا ارتداه فقد يقلل المعطف من قيمته في عيـون النساء، واذا لم يرتده فقد تتلف الستـرة خاصة وهي اكثر ستراته جميعاً أناقة، وعلـى الأقل دفع في كيها بالأمس الشيء الفلاني، وآثر السلامة وارتدى المعطف.

كانت «فتارين» الشارع مضاءة كلها، فتارين حافلة بما يسيل له لعاب كل مسافر، كاميرات وأجهزة تسجيـل، وتحف دقيقة الصنع وولاعات. وكان درش في أزمة، فرغبته في التفرج على محتويات الفتارين، ومقارنة الأسعار الموضوعة علــى المعروضات بأسعار القاهرة، وانتقاء احسن الأنواع وارخصها، كانت رغبة ملحة لا يكاد يستطيع مقاومتها. ومع هذا فله يومان وهو يقاومها بعنف، فشيء من اثنين اما أن يتفرغ لها، أو يتفرغ للمهمة التي أوفد نفسه الى أوروبا من أجلها. وكان وهو سائر في الشارع الواسع يتألم ألماً حقيقياً، فالمعروضات في أضوائها الليلية التي تفنن أهل فيينا في زخرفتها وتنسيقها تكاد تخطف البصر. درش مخطوف كله وموجه الى رواد الشارع القليلين، يكاد ينظر بأربع عيون، عين على الرصيف المقابل، وعين على الرصيف الممتد من أمامه تستكشف، وعيـن علـى الشارع الممتد من خلفه تفتش، لعل شيئاً قد مر غير ملحوظ من عيـونه الثلاث الأخرى. . وعيـونه كلها تميـز في الكائن أول ما تميـز ملابسـه لتفرق بين الرجل والمرأة. وحين بدأ المطر يتساقط اصبح همه الأول ان يميز مظلة السيدة ومظلة الرجل، فاذا ما تم له هذا كان عليه ان يدقق ليميز نوع هذه المرأة، العجوز ينبذها كالرجال، والطفلة طبعاً يتركها، وكذلك كل من يشتبه أن تكون من المتبرجات فتيات الليل. وهكذا تبقى امامه نسبة

ضئيلة جداً عليه أن يوجه اهتمامه اليها، ومن أجل هذا كانت طريقة سيره في الشارع اعجب طريقه، فهو يسير على الرصيف مثلاً، وفجأة ينتقل الى الرصيف الآخر، ويسير الى الأمام مثلا وفجأة تجده قد استدار وسار في عكس اتجاهه، وهذا كله يحدث مصحوباً بحركة خلع للبالطو البلاستيك الرخيص وارتدائه قائمة على قدم وساق، كلما تبين في الشبح القادم امرأة خلع البالطو، فاذا لم تكن من النوع المطلوب عاد وارتداه، فاذا لمح على الرصيف المقابل واحدة تصلح انتقل اليه . . وانتقل البالطو هو الآخر من بده الى اكتافه.

وعلى هذا حين لمح درش شبحاً مشكوكاً في أمره قادماً من بعيد تجهز لكافة الاحتمالات فخلع البالطو ووضع يده فوق رأسه ليطمئن على هيئة شعره، وتأنى في مشيته وجعلها تبدو رشيقة في وقار تنم عن جاه وشخصية. وحين اقترب الشبح تبين انه كان على حق، وانه امرأة فعلا وأنها فوق هذا من النوع المطلوب. وطبعاً لم يتوقع درش أن يتغير الحال معها كثيراً عما جرى عليه منذ أول الليل.

تخطى درش الشارع متجهاً إلى الرصيف الآخر الذي كانت تمشي عليه السيدة المقبلة وسار في اتجاهها. . ومن كثرة ما تدربت عيناه على الرؤية كانت قد تكونت لديه قدرة مؤقتة على معرفة الملامح الجميلة حتى من لون الفستان الذي ترتديه صاحبته. . . وكان واضحاً أن القادمة ليست باهرة الجمال ولكنها على الأقل وسيمة، طريقة مشيها، الزاوية التي تمسك بها المظلة، حتى إمساكها للمظلة نفسه وقد كف المطر.

المرأة الجميلة وحدها هي التي تبالغ في الحرص على ملابسها ومساحيقها، وكل ما يمت إلى جمالها بصلة.

وقبل أن يلتقيا حاول درش أن يجذب أنظارها حتى تمتد أمامها فرصة رؤيته. . ولكنه لم ينجح، فلم تره الا حين اصبح وجهه في وجهها.

وبينما كان درش يلتهمها بعينيه، لم تفعل هي أكثر من أن ألقت عليه نظرة خاطفة سريعة لا تعني شيئاً، نظرة مثل آلاف النظرات غير المحبة للاستطلاع التي كانت تلقى عليه في اي مكان ذهب اليه في أوروبا. القت عليه النظرة واستمرت في طريقها لا تلوي على شيء. لم تكن بالجمال الذي كان يطلبه أو يحلم به. . كانت طويلة تدانيه تقريباً في الطول ترتدي معطفاً من الصوف البيج ذا ياقة عالية، وشعرها طويل على عكس المودة السائدة وغزير ايضاً، وكان وجهها طيباً وأنيقاً في الوقت نفسه، ولا تضع غير الروج (أو على الأقل هكذا خيل اليه). ولم تكن تبتسم وكذلك لم يكن بوجهها اي عبوس. امرأة تصلح ان تكون ربة بيت ممتازة أو طبيبة او عازفة «فيولنسل» في اوركسترا من الدرجة الثانية.

ودون اي قصد أو هدف الا المحاولة لعل وعسى، غير درش من وجهته وسار وراءها بعدما جاوزته، وأسرع في خطوه. وحين اقترب منها كثيراً حتى كاد يحاذيها تردد كالعادة بين أن يتجاوزها أو أن يتبعها. وآثر أن يتبعها اذ في هذه الحال سيكون هو سيد الموقف، واستمرت المرأة سائرة في طريقها، وعند منعطف يؤدي الى شارع جانبي غيرت وجهتها.

واستمر درش في متابعتها، ويبدو أن المرأة أحست أن انساناً ما يتبعها. . فالشارع الذي دخلا فيه كان قليل المارة ساكن الحركة نوعاً ما. . يبدو أنها أحست بشيء كهذا فقد أسرعت في خطوها.

ومع أن«درش» لم يكن يعرف أبداً ما يمكن أن تؤدي إليه تلك المطاردة الا انه أسرع هو الآخر في خطوه حتى لا تختفي عن نظره. ولكنه في نفس

الوقت لم يشأ أن يضيع نفسه، فقد كان دائم الفحص والحفظ لجغرافية الشارع وموقعه وعلاماته حتى لا يتوه في طريــق عودته بعد أن تفشل المطاردة.

والغريب أنه كان مقدراً تماماً أنه سيفشل. أما لماذا كان مصراً على متابعة التجربة مع علمهبفشلها ،فذلك أمر قد يدفعنا الى التفكير في طبيعة الانسان نفسه. . الانسان الذي حين ييأس من النجاح يعوض هذا بالاكثار من تجاربه الفاشلة، ففشل واحد يعد فشلا، أما فشلان أو ثلاثة أو عشرة فممكن ان تعتبر ربع نجاح أو نصفه.

ما علينا من هذا، فقد خطر لدرش خاطر، نفس الخاطر الـذي كان يواتيه وينفذه كلما طارد امرأة، أن يكلمها. وعلـى هذا اسرع في خطوه حتى حاذاها. وابتلع ريقه مرة وأدب صوته اكثر من اللازم وروضه، وسألها بلهجة انجليزية حاول أن تكون سليمة ومنخفضة في الوقت نفسه، سألها عن الطريق الى فندق «زاخر».

وطبعاً لم يكن في حاجة لسؤالها عن شيء كهذا، اذ هو اولا لا ينزل في «فندق زاخر» لأنه من فنادق الـدرجة الاولـى العريقة التى تغوص الأقدام في ابسطتها العجمية الأصلية الفاخرة. ثم ثانياً لأنه يعرف الطريق جيداً إلى فندق فيكتوريا المتواضع الذي ينزل فيه.

كل ما في الأمر انه أحب بسؤاله هذا أن يفهمها ويفهم كل من سألهن من النساء ثلاثة اشياء: يفهمها أنه أجنبي، وأنه أجنبي من النوع الفاخـر والثالثة انه ضال وفي حاجـة لمساعدة. يعني يفتح الباب على مصراعيه امام اية واحدة لديها اقل رغبة في المغامرة.

ورد الفعل الذي حدث كان مفاجئاً! فقد التفتت المرأة الى الناحيـة الاخرى وكأنها خافت، ولكن روعها سكن في لحظة، وسكن في اللحظة التي كان درش يتم سؤاله بصوت أكثر امتلاءً واعتداداً. .

ويبدو ان حالـة الخوف والمفاجأة كانت لا تزال تتملـكها، فالساعة كانت تقترب من الثانيـة عشرة والنصف، والشارع نوره قليـل، والسؤال غريب ومن غريب، اذ قالت بكلمات انجليزية مدشدشة النهايات ملخبطة الفاعل والمفعول انها لم تفهم.

وللمرة الثالثة أعاد درش سؤاله وقد كاد يزهق ويتركها وينصرف، فامرأة تخاف فقط من مجرد التوجه إليها بسؤال، لا يمكن أن تكون لديها الجرأة للقيام بمغامرة. . أي مغامرة.

وفقط بعدما انتهى درش من سؤالـه للمرة الثالثة تنفست ملامحها الصعداء وتهلل وجهها وقالــت: يا. . . يا. . . (أي: ، نعم. . نعم) وأوقفته، وأخذت المسألـة جداً ومضت يـداها تشيران ومظلتها توضح ولسانها يتلجلج بالانجليزية في عجز الأخرس حين يريد أن ينطق، محاولة أن تريه الطريق الى فندق زاخر.

ودرش لم يكن في هذا كلـه فاهماً، كان يهز لها رأسه بحماس،وهو يتابع شرحها مدعياً أنه فاهم كل الفهم، ولكنه يقرأ ملامحها بعين خبيـر محاولاً أن يعثر على الشيء الذي يعرفه جيـداً. . الشيء الـذي تنطق به ملامح المرأة حين تريد الرجل أو لا تريده. . ولكنه لم يجد شيئاً من هذا. ملامحها كانت جادة لا هزل فيها، وحماسها الصادق لارشاده هو كل ما هنالك.

وبالابتسامة الباردة المعهودة استأذنت منه وما لبثت ان تابعت طريقها. ودرش هو الآخر لم يلبث أن تابع طريقه خلفها ضارباً بكل ارشاداتها عرض الحائط. وحاول أن يعثر في مشيتها من الخلف على الشيء الذي لم يجده في ملامحها من أمام. حاول أن يضبط ارتباكاً ما في خطوتها لأنه يتبعها ولأنها تحس انه لا يزال ـ رغم ارشاداتها ـ يتبعها ولكنه لم يعثر على أي هزة أو ارتباك. كل ما حدث أن المرأة حين وصلت الى عسكري كان واقفاً على ناصية الشارع بقبعته المعهودة وقفت وحدثته سريعاً بالألمانية مشيرة الى درش الذي كان قرر التلكؤ نهائياً على بعد وتجهيز نفسه لأي اتهام قد يوجهه له العسكري.

وقبل أن يكيل درش ما شاء من لعنات للمرأة النمساوية التي خدعته هكذا واشتكته الى العسكري كما تفعل أي واحدة بملاءة لف في القاهرة اقترب منه الرجل وحياه بأدب وابتسامة ودخل في الموضوع مباشرة وراح يصف له بلغة سليمة الطريق الصحيح الى فندق زاخر.

وهدأ قلب درش بين ضلوعه، المرأة بريئة، فواضح أنها اعتقدت انه ظل يتابعها لأنه لم يفهم شرحها، وعهدت للعسكري بالمهمة.

وعلى أحر من الجمر انتظر درش الى أن انتهى العسكري من شرحه المؤدب الطويل، بينما عيناه زائغتان ترصدان تحركات المرأة بدقة لتكمل متابعتها بعد التخلص من هذا المأزق.

وفعلاً ما كاد العسكري يدير ظهره حتى دلف مصطفى إلى شارع جانبي آخر. إلى الشارع الذي اعتقد أن المرأة فقد سارت فيه. وهنأ نفسه على

ذكائه وحداقته فما أسرع ما تلقت أذنه دقات كعب حذائها العالي على أحجار الشارع المربعة. وفي تلك اللحظة فقط أدرك أن الشيء الذي خافه كثيراً قد وقع، إذ أدرك أنه في هذه المرة ـ وبحق وحقيق ـ قد ضل الطريق، وويله من تلك الشوارع المتشابهة ذات المنازل المتشابهة والأسماء المتشابهة والغموض حين يتوه فيها إلى ما شاء الله.

غير أنه لم يقلق كثيراً. فاذا حدث وسدت في وجهه كل أبواب الأمل فما عليه إلا أن يركب تاكسياً وليطالب السائق بما يشاء من شلنات نمساوية: الشلن منها ثمنه أكثر من عشرة قروش، بل وصل به الأمر إلى حد الضحك. فهل إذا كان قد دأب على سؤال النساء عن الطريق إلى الفندق وهو يعرف الطريق، فها هي ذي الحجة تصبح حقيقة واقعة، وها هو ذا فعلاً مظلوم تائه في حاجة إلى مساعدة حقيقية. حبذا لو جاءت من تلك المرأة التي يتبعها بالذات، والتي ترن دقات كعبها على حجر الشارع رنيناً حلواً يتصاعد في سكون الليل.. ويهيج كامن أشجانه، ويجعله ينتظر بعد كل دقة من الكعب دقته المثيرة التالية.

وأحياناً كان يفيق ويتهم نفسه بالجنون فهو يرتب الأمور في نفسه ترتيباً جميلاً جداً، مع أن المرأة مثلها مثل غيرها لم يكن قد بدا عليها أبداً أقل لمحه ممكن أن تفسر على أنها علامة قبول، بل حتى لم يكن بدر منها ما يدل على الشعور بوجوده.

الاحتمال الأكيد هو فشله الحتمي.. بل لو سلم جدلاً بأنه قد ينجح في محادثتها فالوقت متأخر، وهي على ما يبدو عليها ذاهبة إلى بيتها. بل لو حدث المستحيل وأخذ منها ميعاداً مثلا وقابلها في الغد فماذا يمكن أن

يحدث في ذلك الميعاد سوى جلسة في بار أو في مقهى، وقهوة فرنسية سخيفة الطعم له، ومشروب فادح الثمن لها، ثم ضغطات على اليد وبضع ابتسامات وينتهي كل شيء؟

بتلك المرأة أو بغيرها هذه الليلة. ولابد سيقضي معها أجمل الأوقات في مكان مغلق أمنية مستحيلة التحقيق، ولكنه مصر عليها وكأنها وشيكة الوقوع ،نفس الاصرار الذي دفعه للمجيء إلى أوروبا وهو متأكد لسبب ما ـ أن ما يريده اصرارنا نحن المصريين العنيد الغريب، اصرار الأب الجائع الذي لا يكاد يجد اللقمة على أن يجعل من ابنه الطفل الذي يلعب الذباب الاستغماية حول عينيه مهندساً أو طبيباً، اصرار الفلاح الذي يريد سقي مساحة شاسعة من الأرض بشادوف يحمل في كل دفعة حفنة ماء والغريب أنه اصرار لا يخيب. . فالأب فعلاً يظل يعاند حظه وحاجته وطبقته حتى يجعل من ابنه مهندساً أو طبيباً، والفلاح يظل ينحني ويعتدل ألف مرة. . مليون مرة. . عدداً لا نهاية له من المرات، حتى ينجح في ري الأرض.

درش هو الآخر كان لا يزال على اصراره وقد بدأت المسافة بينه وبين المرأة تتناقص، بينما أفكاره وخططه تتزايد. إذ كان عليه أن يتقدم خطوات اخرى. ووجد أن أحسن طريقة هي أن ينتقل إلى الرصيف الآخر ويسبقها ثم يعود من نفس رصيفها ويقابلها وجهاً لوجه، فلابد أن يشعرها بوجوده وبأنه لا يزال يتبعها وليرما يحدث، وعبر الشارع واستدار وقابلها. وقبل أن يصبح في مواجهتها تماماً توقف وادعى أنه فوجيء وقال:

ـ ها نحن مرة اخرى، عالم صغير، أليس كذلك؟

وواجهته بملامح فيها هي الاخرى بعض المفاجأة وخالية من أية

فينا ١٠

نوايا، وفعلت هذا كله وهي ماضية في طريقها دون أن تنطق بكلمة أو حتى تشير بايماءة.

وكان قرار درش قاطعاً بعد خطوتين، أن يتوجه توا إلى أي شارع رئيسي ويأخذ تاكسياً وينطلق إلى فندقه، وكفى ما كان. بل لابد أن المرأة الآن تعتقد أنه من الغرباء المصابين بلوثة، أو من يدري ربما تستدعي له البوليس بجد في المرة القادمة. ولكن قراره لم ينطبق إلا على عشر خطوات خطاها أصبح بعدها القرار في خبر كان، فما لبث أن استدار وتابع سيره وراء المرأة، ولكنه آثر أن يترك مسافة اطول بينهما على سبيل الاحتياط.

وظلت هي ماضية في طريقها، وهو وراءها يلوم نفسه أحياناً وأحياناً ينظر في ساعته فيجد أن المسافة كلها لم تأخذ سوى دقائق، مع أنه خيل اليه أنه ظل يتبعها لعشرات الكيلو مترات، حتى خرجت السيدة من الشارع الضيق إلى ميدان غير فسيح يشبه كثيراً ميدان الخازندار في القاهرة فواجهته محل كبير قبة تحتل ضلعاً من أضلاعه، ومحطات كثيرة للاتوبيس والترام تتناثر فيه، ولم يكن في الميدان وقوف كثيرون. . مجرد خليطمتنافر غريب من زبائن آخر ترام وأوتوبيس. ووقفت المرأة على محطة. وظل هو سائراً في طريقه يتطلع هنا وهناك وفي الهواء، متخذاً هيئة من يحاول أن يحل لغزاً استعصى عليه حله، حتى وصل إلى ذات المحطة، ووقف في طرفها الآخر. وقف قليلا ثم ما لبث أن غير الهيئة ووضع يديه في جيوب بنطلونه، وعوج رقبته إلى ناحية، متخذاً هيئة من يترقب شيئاً ويتمشى جيئة وذهاباً في انتظاره. وكان يغير من هيئته وطريقته وكأن عيناً غير مرئية تراقبه وتحصي عليه حركاته وسكناته وتحاسبه وهو يرد على حسابها له، ويقنعها

أنه بريء لا مقصد له، مع أن أحداً في الميدان لا يكاد يلحظ وجوده، حتى ولا السيدة التي كان يتبعها. كانت واقفة مرتكزة على مظلتها ولا يبدو عليها أي شيء سوى القلـق الممل الـذي يصاحب انتظار الاوتوبيسات والتراموايات حين لا تجيء.. إلى أن وصل درش إلى خطوة أو خطوتين منها. إلى هنا كان قد تم له ما أراد، وها هو ذا أصبح قريباً منها، وبعد؟ أدخل يديه في جيوبه وأخرجها أكثر من مرة. وغير من اتجاه وجهه أكثر من مرة، وحدق ناحيتها طويلاً لعل عينيها تلتقيان بعينيه. ولكن شيئاً من هذا لم يحدث. وأصبح عليـه أن يقدم على عمل ايجابي أكثر، وفجأة ومرة واحدة عاودته حالة اللامبالاة التامة واقترب منها حتى وقف أمامها وابتسم كثيراً قبل أن يقول:

ـ هل تسمحين لي بسؤال؟

ولم ينتظر اجابتها، انطلق من فوره يقول:

ـ أنا غريب هنا كما ترين ولا اعرف الألمانية، وكـانت فرصة عظيمة انك تعرفين الانجليزية، فهل من الممكن أن أسألك عن بعض الأشياء هنا؟.

أتم الجملـة وأحس بسيـال من الخجل الحقيقي يسحب روحه من صدره، ويكاد يسقطها بين قدميه، حتى انه لم يرفع عينيه ويحس بروحه تعود إلى مقرها بين جنبيه إلا حين جاءه ردها:

ـ ماذا تريد أن تعرف؟

وتطلع إليها، وتفاءل. كانت هناك ابتسامة.. صحيح ابتسامة لا معنى لها بالمرة، ولكنها خير على أية حال من تكشيرة أو كلمة نابية عليه أن ينتهي إلى رأي بسرعة في أمر هذه المرأة فإما فيه أو ما فيش. ويكفي ما أصابه

من كسوف. ولكن كان عليه قبل أي شيء أن يسألها عما يريد معرفته. قال مثلا موعد آخر ترام. سؤال بدا له سخيفاً جداً أسخف من أي شيء قاله في حياته، ولكنها أجابته بنفس ابتسامتها التي لا تعني شيئاً:

ـ الواحدة إلا ربعاً.

وخجل لسبب غير ظاهر وارتبك، وما لبث أن غير خطته وقال:

ـ إني أردت فقط أن أتحدث معك قليلا.. أممكن هذا؟.

وقبل أن تجيب كان هو يعمل عقله بسرعة ويفكر في الأمر من زاوية جديدة. فما لا شك فيه أنها عرفته وعرفت أنه ذلك الأجنبي ذو الشعر الأسود الذي سألها عن الطريق إلى فندق زاخر. والذي لم يحفل بأخذ الطريق إليه ومضى يتبعها. معنى هذا أنها لم تغضب منه. إذن فهي لم تستنكر سيره وراءها ولا مطاردته لها على هذا النحو. أو يجوز أن حب الاستطلاع فقط هو الذي يجعلها تستمع صابرة إلى أسئلته السخيفة هذه وهو نفسه الذي لا يزال يرسم على ملامحها تلك الابتسامة التي لا معنى لها.

وقالت رداً على سؤاله:

ـ أبداً.

هيه ها هي ذي تقول له أن ليس لديها مانع من الحديث. فتكلم يا درش.. تكلم.

وحاول درش أن يتكلم ويختلق موضوعات للحديث. وصمت برهة كي يستجمع كل ذكائه ولباقته، وتمخض هذا عن سؤاله:

ـ أنت طبعاً لا تعرفين جنسيتي.

فقالت:

- طبعاً!.

فقال وهو يبتسم ويحاول أن يمزح:

- أتستطعين تخمينها؟.

صمتت برهة وكأنها لا تحس للسؤال ولا لشخص سائله بأهمية، ثم قالت:

- برتغالي؟.

وكاد أن يقهقه قهقهة حشاشية عالية، ولكنه قطعها فجأة، فقد تذكر أنه في اوروبا وقال: لا.

قالت وكأن لا حول لها ولا قوة:

- لا أعرف.

فقال لها مزهواً:

- أنا من مصر.

وضايقته جداً حين قالت:

- حقيقة؟! أمر غريب.

قالت (أمر غريب) بطريقة لا غرابة فيها بالمرة، إذ هي نفس الكلمات التي لابد أن يقولها اي انسان في أي موقف كهذا، ولكنه التقط الكلمة وأمعن فيها وسألها:

أمر غريب! لماذا؟

ولم تتكلم، ابتسامتها التي لا معنى لها ظلت مرتسمة على ملامحها بلا أي اندهاش، أو انفعال، أو رغبة خفيـة كانت أو ظاهرة في متابعة الحديث.

وأحس درش أنه لو استمر أكثر من هذا فسوف تكون كل ثانية علـى

حساب كرامته وكبريـــائه، وأن أحسن طريقة هي أن يلايمها وينصرف.
وفعلا قال:

ـ أنا سعيد جداً بلقائك. وذهب.

ذهب إلى الطرف الآخر من المحطة، وعندما وجد نفسه يقف فقد واتاه خاطر: محتمل أن يكون حديثها إليه ناشئاً عن حب الاستطلاع، ولكنها لو كانت راغبة عن الحديث لأشعرته بذلك. ما الذي منعه إذاً من مواصلة الحديث.. ولماذا لا يعيد الكرة؟ يعيدها كيف؟ وبأي وجه يكلمها وهو الذي ودعها وانصرف. فليختلق سبباً ذكياً هذه المرة. ودار على عقبية عائداً، وحين اقترب منها بدأ يتكلم قائلا:

ـ أرجو أن أكون غير متطفل عليك. ولكن اسمحي لي هل أنت متأكدة أن آخر ترام يأتي في الواحدة الا ربعاً.

قال هذا وهو يتفرس في ملامحها، واطمأن بعض الشيء حين لم يجد فيها أي استنكار لعودته او لسؤاله الذي حاول أن يكون ذكياً فجاء أغبى ما يكون.

وقالت له:

ـ أجل. في الواحدة إلا ربعاً تماماً. وإذا أردت الذهاب إلى فندق زاخر يمكنك أخذ الاوتوبيس الذي يقف هناك. سيجيء بعد دقائق.

وقال لها:

ـ أشكرك كثيراً.

وسكت، ولكنه لم يتحرك. ولم تتغير ملامحها هي الأخرى أو تتحرك وفجأة سألها:

ـ نمساوية أليس كذلك؟

قالت:

ـ أجل طبعاً.

ـ تنتظرين الاوتوبيس؟

ـ الترام.

ـ ذاهبة بعيداً؟

ـ الى الضاحية.

كان يسألها محاولاً أن يجد خيطاً واحداً يجذبه ليمتد الحديث، ووجد في اجابتها الأخيرة فرصة. فقال لها:

ـ الضاحية بعيدة؟

ـ نصف ساعة.

ـ ياه... مسافة طويلة.

قالها وهو يرسم اندهاشاً اكثر من اللازم على ملامحه. وقال لنفسه: امض خطوة اخرى وليكن ما يكون.

وهكذا مضى يحدثها ذلك الحديث الذي أتقنه كثيراً في الباخرة والقطارات والفنادق التي حل بها، الحديث الذي يدور بين أي أجنبي وأي صاحب بلد. الجو. كم هو رائع في مصر! ويا لفظاعة اوروبا في الشتاء! النمسا عانت من الاحتلال طويلا، والآن أصبحت بلداً مستقلا.. نحن أيضاً أصبحنا بلداً مستقلاً. المصريون يحبون النمساويين جداً، ونحن ايضاً نسمع عن مصر والمصريين.

وطوال الحديث وبينما كان درش يسأل ويجيب وينكت؟ كانت حاسته السادسة ـ والحاسة السادسة عند درش حاسة جنسية مائة في المائة وظيفتها استقبال اي تجاوب يبدو من اية امرأة تحادثه ـ.

كـانت تلك الحاسة تحاول أن تستقريء طيف انفعال، أو لمحة أو بادرة تدل علـى أن هناك أي استجابة. . تحاول بلا فائدة، فقد عجزت تلك الحاسة تماماً عن معرفة كنه موقفها الحقيقي، وهل هو رغبة أو رفض، وكأن ملامحها مكتوبة هي الأخرى بلغة المانية لا يستطيع فهمها أو ادراكها. بل خيل اليه أنه كان من الممكن أن تتحدث هكذا مع أي انسان غيره حتى ولو لم يكن أجنبياً أو بشعر أسود أكرت مثله، مع أن الحديث كان قد تكفل بتشكيل ابتسامتها وتغيير ملامحها فأصبحت تضحك أحياناً وأحياناً تدهش. وتصغي وأحياناً يبدو عليها الاهتمام.

وتضايق درش فمع أن أهدافه منها كانت قد تبلورت في اجراء حديث ما معها، الى ان يأتي ترامها وتمضي، إلا أن هذا الموقف منها قد ضايقـه بل جعلـه يحس مرة أخرى بالـلامبالاة حتى لو غضبت منه. انها لحظة خاطفة يقضيها معها، ولن يرى وجهها بعدها ابداً. فليحدث ما يحدث. . اذن فها هو ذا اخيراً وبعد كل تلك الجهود المضنية الضائعة قريب من امرأة نمساوية أصيلة تحادثه ويحادثها، وتضحك لكلامه وتصغي اليه. وكادت لامبالاته تبلغ به حد أن يطلب منها مثلا أن ترافقه إلى فندقه.

ولـكنه لم يفعل، ففي تلك اللحظة جاء ترامها ووقف، وبنفس ابتسامتها غادرته وهي تشيـر له لتريـه المحطة التي يمكـن أن يأخذ منها الاوتوبيس الـى فندق زاخر. صعدت الـى الترام المضيء ذي الركـاب القليلين،وبقى هو واقفاً على المحطة لا يدري ماذا يفعل. ينظر لها عبر نافذة الترام ويبتسم، وهي أيضاً تنظر اليه وتبتسم، وأشار لها اشارة السلامة فأومأت برأسها مجيبة. وكان معنى هذا أن خلاص. انتهت تلك المعرفة الخاطفة، وعلى كل منهما أن يذهب لحال سبيله.

ولكـن. . . فجأة وجد درش نفسه يصعد الـى الترام ويجلس علـى المقعد الذي بجوارها وبدا عليها انزعاج، لم يكن ـ كما توقع ـ انزعاجاً كبيراً مذهلاً. وقالت له:

ـ ولكن هذا الترام ليس ذاهباً إلى فندق زاخر، انه ذاهب في الاتجاه المضاد.

فقال لها بكلمات انجليزية وبابتسامة مصرية ماكرة:

ـ ولو.

فعادت تسأله بدهشة:

ـ إلى أين أنت ذاهب اذن؟

وتردد قليلاً ،ولكنه ما لبث أن قال:

ـ ذاهب إلى حيث تذهبين.

وقالت له ،وثمة قلق بدأ ينتاب ملامحها:

ـ ولكني ذاهبة إلى بيتي في الضواحي.

ـ حسناً! سأذهب معك.

وازداد الانزعاج في وجهها وقالت:

ـ اعذرني، ولكن تصرفك هذا شاذ.

فقال لها، وهو سادر في مصريته:

ـ اعذريني. إنه ليس تصرفاً شاذاً. . إنه في الحقيقة تصرف مجانين.

وأصبح انزعاجها خوفاً، أو بمعنى أصح بوادر خوف، فقد انكمشت بعيدا عنه في المقعد وسكتت، وكان واضحاً أن سكوتها سكوت عجز. . اذ ماذا يمكن أن تقول أو تفعل؟

وطبعاً درش لم يكن مجنوناً أو شاذاً أو به خبل. كل ما في الأمر أنه

كان في تلك اللحظات يتصرف بوحي من احساسه أو بوحي من حاسته السادسة،تلك التي كانت تعمل بلا هوادة، ومنفعلة الـى اقصى حد. لم يكن قد ظهر في تصرفات المرأة اي شيء يدل على أي شيء، ولكنه كان يعمل كمستكشفي البترول الذيــن تقول لهم أجهزتهم اذا حفرتم هنا وجدتم الذهب الأسود. هو ايضاً كان شيء ما. . شيء اعمق من احساسه وتفكيره وفراسته يهيب به أن يداوم على اصراره وأن يمضي في الطريق إلى نهايته، والطريـق كخط الترام محطات، وها هو ذا قد غادر المحطة الأولى بركوبه الى جوارها في الترام. عليه الآن أن يتبين إن كانت هناك محطات اخرى. . كيف يعرف طريقه اذن؟ ومن اين يبدأ؟ .

وقال لها:

ـ أنت ذاهبة الى بيتك اذن؟

كانت في تلك اللحظة تنظر من نافذة الترام، والترام بدأ يتحرك وقطع في تحركه شوطاً، فالتفتت إليه،وكأنها لم تسمع ما قالـه، وأبان السؤال فقالت بوجه جاد:

ـ أجل.

وضايقه جدها في تلك اللحظة، ولكنه مضى بخبث هذه المرة يسأل:

ـ تقطنين مع عائلتك. أليس كذلك؟

فقالت ببراءة:

ـ أجل.

ـ متزوجة؟ أعتقد هذا.

ـ طبعاً متزوجة.

وكـاد لسانه يزلف ويقول. أنا الآخر متزوج وعندي بنت صغيـرة لها

صندل احمر وسنتان أماميتان، ولكنه رد لسانه الى حلقه فلا داعي لتعقيد الأمور، ومضى يسألها:

ـ لك أولاد طبعاً؟

فقالت، ولأول مرة منذ أن ركبا الترام قد عادت ابتسامتها التي لا معنى لها الى وجهها:

ـ اجل ولدان وبنت.

وقال لنفسه: لو كانت لا تريدني لقالت أجل واكتفت بهذا، ولكنها استرسلت تعد اولادها، فمعنى هذا أنها تريد الحديث. ولكنه استدرك أن حديث الآباء أو الأمهات عن اولادهم شيء طبيعي جداً، يفرحون له ولا يملونه، فليطرق هذا الباب إذن عله يؤدي إلى شيء.

وسألها: كبار في السن؟..

قالت:

ـ تومي الكبير عمره ست سنوات، والصغيرة ستة شهور.

غمغم لنفسه: عظيم! ها هي ذي تتحدث وهذا شيء طيب. وابنها الكبير ست سنوات، معنى هذا أنها في حوالي الثلاثين، هذا شيء عظيم.. امرأة ناضجة خبيرة مستوفاة بكل معنى الكلمة.

وكان حرياً بضمير درش أن يتحرك في هذه اللحظة فيذكره بأنه يحادث امرأة متزوجة وأما، وأنه يهدف من حديثه إلى أشياء يجب أن يتحرك لها الضمير. ولكن ضمير درش لم يكن يتحرك ابداً لمثل هذه الأشياء، فهو لا يؤمن بأي قانون يحكم هذا العالم الا قانون ما يريده، ما يريده هو الحلال وهو الصواب. أما أن يكون ما يريده هذا بعيد المنال أو يمت الى غيره أو الى اي شيء من هذا القبيل، فتلك امور لا تهم «درش» في قليل أو كثير.

كل ما كان يفكر فيه في تلك اللحظة هو كيف يجعل الحديث يستمر ولا ينقطع.

قال لها:

ـ اسمحي لي. فقد تعتبرينني مرة اخرى متطفلا عليك، ولكن هذا شيء يحيرني فالنساء عندنا في مصر لا يخرجن وحدهن في تلك الساعة المتأخرة من الليل.

وضحكت (وحين ضحكت اطمأن) وقالت:

ـ أبداً. كنت في الأوبرا مع صديقة لي.

وغمغم قائلا وكأنما يداري خجله من سؤاله:

ـ ظننتك تعملين، والعمل هو الذي أخرك.

فقالت:

ـ عملي ينتهي في الثامنة.

وحملق فيها بعينين واسعتين وكأنما اندهش، وقال:

ـ انت تعملين اذن؟

فقالت:

ـ طبعاً.

ـ شيء جميل.

ـ أبداً شيء عادي جداً. معظم النساء يعملن هنا.

ـ أعرف هذا. . أعرفه.

كان يردد الجملة الأخيرة وهو يفكر في سؤاله التالي، حين فاجأته قائلة:

ـ ولكنك بهذه الطريقة تبتعد عن فندقك كثيراً.

فابتسم وقال لها:

ـ لا يهم.

فقالت بدهشة حقيقية:

ـ اين ستبيت اذن؟ . .

فقال بغير دهشة:

ـ لا يهم في اي مكان.

وهزت كتفيها ،وعادت مرة اخرى تنظر من نافذة الترام، وكان معنى هذا أن الحديث سوف يؤدي الى سكون، والسكون عدوه الأكبر ،فعليه أن يتابع الحديث، خاصة والاضطراب قد استبد به الـى درجة انه راح يهز ساقه هزات عصبية غيـر ملحوظة. . فقد بدا واضحاً أن حاسته السادسة قد خانته، فالمرأة واضح أنها زوجة وربةبيت، ومن إجابتها وطريقه حديثها يبدو أنها مثقفة ورزينة الى حد كبير، والملابسات كلها تشير إلى أن عليه أن ييأس إذ ليس هناك أبداً أي بادرة تدل على النجاح. وفعلا كان اليأس قد بدأ يصبغ كل حركاته وأفكاره وحتى نظراته. وكان وعيه قد بدأ يرتد إليه ويهيب به أن يهبطفي أول محطة ويستعد لرحلة تخبطفي طريقه إلى فندق فيكتوريا. فقطكان عليه أن يقول شيئاً يختتم به الحديث ويكون الوسيلة إلى تبادل الأسماء وأرقام التليفون. . فحتى هذا الوقت لم يكن قد عرف اسمها ولم تكن قد عرفت اسمه. وبهذا تصبح المسألة كلها واحدة من عشرات الحالات المماثلة التي التقى بها، والتي انتهت بكتابة الأسمـاء بحروف واضحة فيمفكرته ،وبجوارهـا أرقـام التليفونـات والعنـاوين. . أسماء وعناوين يعلم سلفاً أنه لن يرى أصحابها أبداً ولن يراسلهم.

أجل عليه الآن أن يختم حديثه معها بأية حيلـة. وسألها بلا قصد: صحيح أنت متزوجة؟ . .

وعادت من التفاتتها وضحكت وقالت:

ـ طبعاً! ألا يبدو عليّ أني كذلك؟

فقال وهو يحاول إطراءها:

ـ الحقيقة لا يبدو عليك شيء من هذا.

وحين أحس أنها سعدت باطرائه قال مواصلاً كلامه:

ـ أنا أتكلم جاداً. . صحيح أنت متزوجة ولك أولاد؟ . .

قالت وهي تكبت الضحك:

ـ طبعاً! ألم أقل لك هذا؟ أنا متزوجة ولكن. . .

ودق قلب درش بين ضلوعه وكاد يحبس أنفاسه انتظاراً لما يكن أن يكون وراء لكن هذه.

ولم يطل انتظاره فسرعان ما أردفت قائلة:

ـ ولكني في الآونة الحاضرة لا أقيم مع زوجي.

وتوالت دقات قلبه عالية مملوءة بالفرح والانفعال. . وضحك.

ضحك هكذا بلا مناسبة. واحدة من تلك الضحكات التي نخفي بها انفعالاتنا. . ولم يفرح درش وينفعل لأنها لا تقيم مع زوجها، ولكن لأنها قالت هذا. ولو كانت لا تريده لاكتفت بقولها انها متزوجة، وما حاولت أن تطلعه على أمر خاص بها وحدها.

وكان لا يزال في دوامة النشوة حين تطلعت هي من النافذة وقالت:

ـ نحن الآن في ليوبولد بلاتس. . انك تبتعد عن فندقك كثيراً.

فقال لها وهو يطوح برأسه الى الوراء:

ـ لا يهم!

ـ أنصحك أن تهبط في المحطة التاليـة فلا يزال هناك أمل أن تلحق بآخر أوتوبيس.

ـ لا يهم.
ـ أين ستبيت اذن؟
ـ أعرف تماماً أين سأبيت.

قال هذا وهو ينظر اليها مخفضاً عينيه، محاولاً قدر طاقته أن يضغط على حروف كلماته واتجاه نظراته. ليحمل الكلمات والنظرات فوق ما تحتمل.

وسكتت هي مستسلمة مبتسمة، وسكت هو الآخر سكوتاً مؤقتاً. فقد بدأ يتحرك في مكانه تحركات خفية هدفها أن يتزحزح ليقترب منها، وسواء أكانت لاحظت هذا أم لم تلاحظه، فالذي حدث انها واصلت سكوتها وصمتها.

ودرش هو الآخر لم يكن يتحدث، فقد كان يحلم أحلاماً رائعة للغاية.. فهو إلى الآن لم يكن قد عرف عنها أكثر من أنها لا تقيم مع زوجها، ورغم هذا راح يحلم ويؤكد لنفسه انه حتماً سيقضي الليلة معها. وأن هذه مسألة مفروغ منها.

وهكذا دون أن يتوقع تحقق له الحلم الأكبر الذي كاد يؤمن باستحالة وقوعه. وتحقق ببساطة منقطعة النظير. الحلم الذي جاء به الى أوروبا ها هو ذا الآن يحياه.. وها هي ذي المرأة التي طالما تصورها. ها هي ذي حقيقة من دم ولحم وابتسامات بجواره، يراقبها ويتأملها بدقة وعلى مهل كما تتأمل القطة الفأر، وقد اطمأنت الى وقوعه بين مخالبها. وهو سعيد بتأمله لها، سعيد بالتهامها بنظراته والغوص بها في أحلامه، ولا أحد يستطيع لومه اذا كان قد فضل أن يبقى هكذا لبعض الوقت، يستمتع بخياله الملتهب، عن أن يستأنف فوراً مواصلة الجهود للاستحواذ عليها.

غير أن أمراً مفاجئاً قطع عليه أحلامه. فقد تبين له أن من الغريب أن تكون السيدة متزوجة وفي نفس الوقت لا تكون مقيمة مع زوجها.

وكالعادة ما كاد السؤال يخطر بباله حتى قفز الى لسانه وقال:

ـ اعذريني، ليس هذا محاولة مني للتدخل في شئونك الخاصة ولكن لماذا لا يقيم زوجك معك؟

وتلكأت قبل أن تفتح فمها لتجيب، ومع أنه لم يعرفها الا من دقائق قليلة، الا انه كان قد بدأ يدرك بعض عاداتها. وعلى هذا عرف أن تلكؤها معناه أنها محرجة وأن لا داعي للسؤال.

وهكذا ولينقذ الموقف. . ولينقذ هذا النسيج الدقيق الواهي الذي يربطه بها ولا يريده أبداً أن ينقطع، والذي قد يقطعه سؤال سخيف محرج أو كلمة غير مناسبة. أتبع بسؤال آخر عن كنه عملها.

وقالت له انها تعمل سكرتيرة مدير احدى الشركات الكبرى التي تنتج الأدوات الكهربائية والالكترونية. وليزيل كل ما تبقى من الحرج قال لها وقد استبدت به القفشة المصرية:

ـ آه. لعل هذا هو السبب في أني أحس أني مكهرب وأنا جالس بجوارك.

فضحكت وقالت:

ـ حذار اذن فقد تصاب بصدمة.

وبتلك الجملة منها أصبح درش كالهبلة حين تمسك الطبلة. فقد رد عليها قائلا وهو يزداد التصاقاً بها:

ـ المصيبة اني المريض الوحيد في العالم الذي يتمنى لو يصاب بها.
وحين طقطقت بشفتيها محتجة، ازداد التصاقاً بها وهو يقول:

ـ أعتقد أني فعلا في حاجة الى صدمة اخرى.

وكـل هذا يحدث في غمرة الخجل من جانبها والخجل من جانبـه وأنصاف الكلمات، والوجوه التي تتفادى أن تلتقي حتى لا ترتبـك الـى آخره.

ومن تلك اللحظة بدأ درش يعاملها كما لو كان قد عرفها من عام فالكلفة رفعت نهائياً، وأصبح لا يهتم بوقـع أسئلته عليهـا ما يمكن أن تأخذه عليه، ولكنه في واقع الأمر كان يفعل هذا في الظاهر فقط، أما في أعماق نفسه فقد كان لا يزال مرتبكاً ولا يزال غير متأكد إن كانت قد رضيت به وقبلته فعلا، أو أن ما يراه منها إن هو الا سلوك عادي لا يمكن أبداً أن يؤدي إلى الشيء الذي يحلم به.

وكالعادة ترك درش تحديد الوضع للأحداث المقبلة فمحطتها لا شك تقترب، وقد انتوى أن يهبط معها في نفس المحطة.

وهي التي سوف تتولى بنفسها تحديد كل شيء.

وفعلاً، بعد قليل بدأت تستعد لمغادرة الترام، وقالت:
ـ أتركك هنا وحدك.

وابتسم ولـم يعلـق بشيء، وآثر ألا يصرح لها بما انتواه، فقد يجره التصريح الى نقاش واختلاف، هو في غنى عنهما. كل ما حدث أنه حين وقف الترام وقامت هي لتهبط هم هو الآخر، وعندما نزلت نزل وراءها.

وكان يتوقع منها أي تصرف الا ما حدث. فلم تفعل شيئاً حين رأته قد غادر الترام وأصبح يمشي بجوارها الا أن هزت كتفها وابتسمت.

وبعد قليل سألته:

- إلى أين؟

ولم يجب درش.

فعادت تقول:

- إلى أين؟

وأيضاً لم يشأ أن يجيب، فالوضع لن يحسمه الكلام.. الوضع يحسمه العمل.. وعلى هذا لف يده حول يدها وسارا سوياً. كانت كل الشواهد تدل على أنها لا مانع لديها من أن يرافقها الى بيتها، ولكنه لم يكن مطمئناً أبداً ولا مصدقاً أن يكون كل شيء قد تم بمثل تلك السهولة والبساطة التي لا يتصورها العقل.

- البيت بعيد؟

قالها وكأنه يسألها سؤالا عابراً لا يحتمل تأويلاً.

فقالت:

- هناك بعد قليل.

وانتابه شعور خاطف.. فهذه المرأة تكاد تفجر عقله من الحيرة. لم يعد يدري إن كانت شيطاناً أو ملاكاً، ساذجة أو ماكرة، تضحك عليه أم هي معجبة به.

وقال لنفسه: لف يدك حول وسطها ولنر ما يكون.

ولف يده حول وسطها، ولم يصدق أبداً أن اليد التي التفت حول وسطه هو.. هي يدها. وقال لها في صمت هامس مبحوح:

ـ هل معك أحد في البيت؟
قالت:
ـ طبعاً أولادي.
وعاد يقول كمن لا يعرف:
ـ كبار في السن.
ـ ألم أقل لك؟ تومي الكبير عمره ست سنوات، والصغيرة ستة شهور.
ـ أتعلمين شيئاً؟ أنا ذاهب معك الى المنزل.

وابتسمت نفس ابتسامتها التي لا معنى لها، وهزت كتفيها نفس الهزة التي قد تعني لا.. وأيضاً تعني نعم.

وقال لنفسه: لابد مما ليس منه بد.. قبلها، فان رضيت ارتاح بالك وإن لم ترض كان لك معها شأن آخر.

وفعلا بدأ يرفع يده قليلا حتى احتوت عنقها، ثم أوقفها وضمها بشدة وقبلها.

ولم يعرف أبداً رأيها في قبلته، ولا إن كانت ـ حتى ـ راضية أم ساخطة. كل ما حدث أنها انتظرت برهة، ثم دفعته برفق قليل وهي تقول:

ـ ستكسر ظهري يا افريقي.

وأهاجته كلماتها حتى بدأ وعيه يغرق في الدماء الساخنة التي تصاعدت الى رأسه.

كان الشارع الذي يسيران فيه طويلا على جانبيه مصابيح بالغة الطول، والطريق بشكل عام كأنه أحد الطرق المؤدية الى مصر الجديدة. ولأول مرة منذ أن التقى بها سار،وقد بدأ يضمن انها له في تلك الليلة ما في

ذلك شك ولا ريب. ولأول مرة يحس بالاطمئنان، وبأنه لم يعد ثمة داع للسرعة واللهوجة.. وعليه أن يثق في نفسه وتصرفاته، ثقة الظافر الـذي اطمأن الى استكانة الفريسة بين مخالبه.

ولكن شيئاً ما بدأ يستبد به.. شيء صغيـر رفيـع لا يدري من أيـن جاءه، ودفعه لأن يتساءل: لماذا رضيت به السيـدة هكـذا ببساطة؟ كان واضحاً أنها ليست من ذوات الأخلاق اللينة. ولا يبدو عليها أنها ـ حتى ـ صاحبت أي رجل آخر غيـر زوجها. بل لم تكـن حتى امرأة «ستاتي» أو حريمي خالصة. كان لها طابع من يعملن.. طريقة مشيها وكـلامها، وحتى ابتسامتها،فيها طريقة المرأة الجد الدوغري التي تعودت الاختلاط بالناس والرجال، ومعاملتهم معاملة الند للند، فلماذا تهاونت ورضيـت به؟..

خواطر كهذه سرعان ما بدأت تدور في عقله. وكلما دارت بدأ الشك يخالجه، بل جاءت عليه لحظة بدأ يحس فيها أن شعوره يخونه، وأن من الممكن أن تكون المرأة بريئة كل البراءة، وأنه هو الذي يصور الأشياء كما يحلـو له. بل دفعه الخوف إلـى أن يتأكـد.. وهكـذا ازداد التصاقاً بها واقترب بفمة من رقبتها، ثم ظل يلامس رقبتها بشفتيه حتى احس بجلدها يقشعر تحت لفح انفاسه، وحينئذ رفع فمه قليـلاً والتقت شفتاه بشفتيها وقبلها.. وفوجيء بها تضمه هي الأخرى وتقبله.

وغمغم يقول:

ـ أريد أن أقبلك مرة اخرى.

وغمغمت هي الاخرى:

ـ وأنا أيضاً.

وفارت الدماء في عروقه. . هذه هي المرأة والا فلا. النساء في الشرق جثث لا نستطيع أن ننالهن الا رغماً عنهن، حتى لو كن يذبن غراماً فيك. لا يرضيهن الا أن يؤخذن عنوة، ولكـن المرأة هنا يا سلام تقبل المرأة فتقبلك، تحضنها فتحضنك، تأخذها فتأخذك. هذا هو الشغل المضبوط، هذه هي المساواة الحقيقية بين الرجل والمرأة. وأمسك بيدها يعبث بها وقد بدأ يحس ناحيتها بألفة وحنان، واسترعت اصابعها الرفيعـة القوية من الضرب على مفاتيـح الآلـة الكـاتبة حتمـاً انتباهه ومن لمس الأصابع احس بلحظة زمالة غريبة تربطه بها.

ووجد نفسه يسألها:

ـ البيت بعيد؟؟.

ـ هنا بعد قليل.

كانا قد قطعا شوطاً كبيراً، والشارع بدأت المصابيح التي فيه تقل وبدأ الظلام يكثر، وعلى عكس ما كان يتوقع درش أحس للظلام بألفة عجيبـة فقد كان كستار أسود كبير مسدل على البقعة وعلى النمسا، وحتى علـى اوروبا كلها، يكاد يحجبها ويجعله ينسى احساسه بالغربة.

سار مسافة اخرى طويلة ولـم يبد علـى ملامحها أنهما قد اقتربا من البيت، وبدأ درش يحس بالقلق لطول المسافة، فالموقف بينهما ـ وكان قد بلغ درجة من السخونة ـ اذا طالت المدة عليه ربما يبرد، وربما يؤدي الطول الى حديث،والحديث في موقف كهذا غير مستحب، بل في الواقع بالغ الضرر.

ـ لابد أن بيتك في آخر الدنيا!

ـ اذن فقد وصلنا الى آخر الدنيا.

وضحك . . وضحكت هي الاخرى وهي تقول ان البيت في الشارع الجانبي القادم. وتنفس درش الصعداء، فحقيقة بعد خطوات قليلة دلفا إلـى شارع متفرع ضيـق، ومع ضيقه فقد كان يكتنفه صفان من أشجار طويلة جداً، ربما تكون أشجار الصنوبر التي درسها في الجغرافيا. وكان الشارع سكنياً صرفاً مكوناً من بيوت منخفضة متقاربة.

وظلا سائرين إلى أن وصلا إلى بنايـة ضخمة مكـونة من عدة أدوار وعدد من «البلوكات»، وأشارت هي إلى البناية وقالت:

ـ هنا أسكن في البلوك الى اليمين.

وأضافت: أتعرف أن كل هذا يملكه مالك واحد؟

ولكنه أحس من اضافتها أنها تريد أن تخفي شيئاً، وفطن إلى أنها ربما تريد أن تخفي عنه أن المالك الواحد هو الحكومة مثلا، وأنها بيوت مقامة لصغار الموظفين. عبيـطة! حـتى لو كانت تسكـن في عشة فالمشكلـة ليست في سكنها. المهم فيها هي.

ودخلت المبنى الثالث الذي كان يحفل مدخله بعدد غيـر قليـل من البسكليتات. . ودخل وراءها. كان المدخل مظلماً وهمس لها:

ـ في اي دور؟ . .

ـ هنا.

قالت هذا وهي تصعد بضع درجات الى الدور الأول، ثم تقف عند باب الشقة المواجهة للمدخل.

وخيل لدرش أن كل ما يدور أمامه غير حقيقي. . لابد أنه يحلـم أو يخرف. ولكن المصيبة أنه لم يكن يحلم أو يخرف، فقد تمهلـت عند

الباب قليلا، ثم أدارت المفتاح، وانفتح باب الشقة، وتركت الباب مفتوحاً. لم تكن الشقة مظلمة من الداخل. . كان يضيئها مصباح كهربائي خافت الضوء. وأحس درش برهبة ودارت بعقله الظنون. . لماذا لا تكون هذه المرأة واحدة من عصابة تستدرج الناس والغرباء من أمثاله بوجه خاص لتقتلهم، كما كانت تفعل ريا وسكينة في مصر؟ خاطر تافه صحيح. . ولكن ماذا يمنع أن يكون حقيقياً؟ واقترب من باب الشقة يتسمع مصمماً أن يطلق ساقيه للريح لو سمع كلاماً في الداخل أو صوتاً ولكنه لم يسمع شيئاً. وغابت. . كان مفروضاً أن تدعوه للدخول، فلماذا غابت في الداخل؟ لابد أن هناك أمراً يدبر.

- لماذا لا تدخل؟ . .

ثم أردفت هامسة: ادخل.

ودق قلبه بلا خوف، وأحس باضطراب وهو يدلف من الباب، وخطا الى الداخل بخطوات شديدة الحذر وكأنه يسير على حافة هاوية، وكانت هي تسير أمامه. . والغريب أنها كانت تسير عادية جداً بلا أي خوف أو حذر.

لم تكن الصالة واسعة. . كانت صغيرة محندقة، كل ملليمتر فيها مستغل. ورغم الضوء الباهت فقد استطاع أن يميز قطع الأثاث ونوعها. لم تكن جديدة ولكنها أيضاً لم تكن تبدو وكأنها استعملت لفترة طويلة. ثم الصالة. . والبيت كله له رائحة خاصة، رائحة بيت العائلة الصغيرة حين تدخله لأول مرة. وكأن لكل عائلة رائحة خاصة لا يدركها الا القادم الغريب.

وقالت له وهي تهمس من بعيد همساً عالياً يكاد يصل إلى مستوى

ـ ألا تنوي أن تغلق الباب وراءك؟

وأدرك مرتبكاً أنه نسي أن يقفل الباب الخارجي، وحتى لم يعرف كيف يغلقه. وجاءت هي تساعده، وقالت له بعدما انتهيا من اغلاق الباب:

ـ لا تحدث صوتاً.

وكان في غير حاجة الى نصيحتها ،فهو لم يكن يحدث صوتاً ولا حساً ولم يكن في الواقع يحدث أي شيء بالمرة، كان الموقف غريباً عليه تماماً لا لأنها متزوجة، فهو قد عرف في حياته ومغامراته كثيرات متزوجات ولكنه كان يقابلهن في أمكنة اخرى غير بيوتهن.

ولم يكن ارتباكه لاحساسه بأنه ينتهك حرمة بيت أو شيء من هذا.. فكلمات مثل حرمات البيوت والأربطة المقدسة لم يكن لها أي مكان في قاموسه الخاص. كل ما في الأمر أن الوضع كان غريباً عليه.. وجديداً في الوقت نفسه ،بل أكثر من هذا كان بعض التزايد في دقات قلبه مرجعه الى أن غرابة الوضع قد استثارته أكثر. فها هو ذا لا ينال امرأة أوروبية فقط، ولكنه ينالها في ظروف جديدة مثيرة.

ودخلت باباً في نهاية الصالة يقابل الباب الخارجي، وفهم من هذا أن عليه أن يتبعها، وبينما كان يعبر الصالة بدأت أذنه تتلقف صوتاً خافتاً منتظماً.

وتوقف وتسمع برهة، كان غطيطاً ما في ذلك شك. غطيط صادر من الحجرة ذات الباب الموارب على اليسار.. وابتسم في طفولة، فقد كان

الغطيط رفيعاً صغيراً منخفضاً كغطيط القطط. لابد أنه غطيط أحد أولادها.

وخرجت هي من باب الحجرة التي دخلتها، وقالت بصوت لم تحاول أبداً أن تحيله الى همس أو تخفضه:

ـ لماذا لم تدخل. أهناك شيء؟.
ـ أبداً. أبداً.

قال هذا وهو يستغرب، فالواقع أنها منذ أن دخلت الشقة تحولت إلى كائن آخر غير الذي عرفه. أصبحت تتصرف بحرية وبطريقة عملية وبجرأة.. ربما لاحساسها أنها في بيتها. أما هو فلم يعد سيد الموقف أبداً، أصبح هو الذي ينتظر حركتها ليتحرك، أصبح هو المقاد الذي يتهيب اي شيء ويحدق في كل شيء وكأن كل شيء يحدق فيه ويحاول ضبطه.

ودخلت الحجرة مرة أخرى، وبهياب أكثر دخل وراءها.

ومنذ أول نظرة كان واضحاً أنها حجرة نوم، أو على وجه الدقة حجرة نومها بالذات؛ ففي جانب منها سرير. سرير يستلفت النظر فعلاً. فلا يستطيع الانسان أن يعتبره سريراً لشخصين أو لشخص واحد، سرير بين بين وكأنما صنع ليتسع لشخص ونصف شخص. وبجواره منضدة مزدحمة بآلاف الأشياء: أدوية ومنبه وأدوات تواليت وكتب وفرش وابر تريكو وشفرات حلاقة وأشياء لا تخطر على بال. وبجانب الحائط المقابل كان هنا سرير أطفال على هيئة أرجوحة.. وفي السرير طفل صغير لا تعرف ان كان بنتاً أم ولداً..

وحين رأته يطيل النظر الى السرير الصغير قالت:
ـ هذه فيولا الصغيرة.. ستة شهور.
ـ حقيقة؟.

خرجت الـكلمة من فمه والـدهشة تسبقها وتتبعها، فالطفلـة كانت كبيرة، حجمها يوازي حجم ابنته ذات العام والنصف العام. . عجيب أمر هؤلاء الناس، أبناؤهم دائماً أصحاء أقوياء ملظلظون وأبناؤنا دائماً يعانون المغص والاسهال وعشرات اللفف والعيون الحاسدة. ولكن أهم من تلك المقارنة التي راح يعقدها خفية بين ابنته وابنتها كان عليه أن يفكر في حل لهذه الفيولا الصغيرة الضخمة، فلابد من نقلها من الحجرة، وأمر حرج غاية الحرج أن يطلب من أمها هذا.

وفوجيء حين قالت الأم بطريقة عملية جداً وبلهجة خالية من الآهات أو الحسرات:

ـ ماذا نفعل بها؟ أعتقد أن علينا أن ننقلها إلى الحجرة الأخرى التي ينام فيها الولدان.

فوجيء درش الى الدرجة التي سألها ببطء:

ننقل من؟.

وبسرعة قالت له:

ـ ننقل فيولا طبعاًـ هذه حجرة النوم كما تعلـم، وطبعاً لابد من نقل فيولا إلى الحجرة الأخرى. ألا تعتقد أن هذا ضروري؟

وابتسم ابتسامة بلهاء لا معنى لها، ولكي يعوض لخمته والغباء الذي ادعاه لصنع المرح والخفة قال:

ـ طبعاً طبعاً. . يجب هذا طبعاً، هيا بنا. سأحمل أنا من هنا.

واتجه إلى طرف من السرير وحملـه قبل أن تحمل هي من الناحيـة الأخرى. ويبدو أنه فعل هذا بحماس أكثر من اللازم، إذ سرعان ما قالت له:

ـ احترس! ليس بهذا الشكل. قد تستيقظ وتأخذ مدة طويلة لكي تعود الى النوم. لا ترفع الا اذا رفعت أنا.. هيه.

ورفعا السرير وراحا يسيران به في بطء واحتراس زائدين. هي بظهرها وهو بوجهه. وكان انتباهه طوال الوقت مركزاً تركيزاً خطيراً فوق وجه الطفلة النائمة في براءة الملائكة علـه يلمح أي تغير بسيط يحدث لملامحها وينبيء عن قرب يقظتها، اذ كان خائفاً خوف الموت أن تستيقظ، لا لأنها ستأخذ وقتاً طويلاً لكي تعود إلى النوم، ولكن لأنه خيل إليه أنها لو استيقظت فستفسد الليلة كلها وتثور أعصابه ويتعكر مزاجه.

ولكنه كان احياناً يرفع وجهه عن وجه البنت ويحدق في ملامح الأم محاولاً أن يقرأ انفعالاتها. فالذي يحدث أمر غير عادي بالمرة.. أم تساعد طارق ليل مثله في نقل ابنتها ليخلو لهما الجو. أمر غير عادي تماماً.. ولكن العجيب أنه لم يستطع أن يتبين أي تغيير خطير في ملامح الأم. كل ما استطاع أن يلاحظه أنها هي الأخرى تركز انتباهها على وجه البنت مخافة أن تستيقظ. ربما هذه طريقة النمساويين في الخجل..

ولحسن الحظ لم تستيقظ فيولا، رغم ارتطام السرير مرة بمنضدة الطعام القائمة في ناحية من الصالة. وحين وصل الموكب الى باب حجرة نوم الطفلين، دلفت هي اولا من الباب، ودخل هو بحذر أشد. وفجأة غمغم صوت صغير حافل بالنوم:

ـ مامي...

وفي لمحة كان درش قد أنزل السرير من يده، وفي قفزة واحدة كان قد أصبح في الصالة، ومن ثم في حجرة النوم الاخرى التي كان بها منذ

هنيهة. ولم يلتقط نفسه التالي إلا بعد أن أغلق الباب ووقف خلفه يتسمع أدق الأصوات، ويتنفس ببطء شديد وبهدوء حتى لا يطغى صوت تنفسه على سمعه. حدث كل هذا في لمحة خاطفة، وكأن الصوت الذي قال مامي كان صوت الزوج أو صوت رئيس عصابة مسلح بمدفع رشاش.

وبقلب يدق بالهلع مضى درش يتسمع. والتقطت أذناه المرهفتان حديثاً قصيراً خافتاً بين الأم التي استطاع أن يميز صوتها وبين أحد أطفالها، ربما البنت وربما الولد لم يكن يعرف أيهما، ولكنه لأمر ما تمنى أن تكون التي استيقظت هي البنت..

وخيل إليه أن ساعة طويلة قد مضت قبل أن تتحرك أكرة الباب الذي يحتمي خلفه، وتدخل المرأة وهي تكاد تموت على نفسها من الضحك.

وقالت له باستغراب:

ـ ما الذي اخافك؟

وأحس بالخجل، فقد أدرك لحظة سؤالها فقط أن ما فعله كان عملا دل على رعبه الشديد، وقال:

ـ أبداً. أنا خفت؟ أبداً. فقط كما تعلمين، لا أريد احراجك اذا كان احد الأطفال قد اكتشف وجودي. طبعاً هذا لا يصح.. اليس كذلك؟

فقالت وقد جلست فوق السرير ومدت يدها تخلع حذاءها:

ـ اطمئن، هم لا يدركون شيئاً. والآن لا تخف لقد اصبحنا وحدنا. اليس كذلك؟ أنا وأنت فقط.

وأعجبته كلماتها، كانت أول كلمات تقولها منذ أن تعارفا ـ ويحس منها أنها فعلا تريده بصراحة ووضوح ودون أدنى مواربة . .

وكان السؤال لا يزال يؤرقه، فهو خبير بالنساء، ويستطيع أن يقسم على كل مقدس أن هذه المرأة خام مائة في المائة،وأنها ليست عابثة ولا مغامرة. فلماذا رضيت به؟ وحتى لو كان قد أعجبها وسحرها لماذا قبلت وهي الزوجة والأم أن يصحبها إلى شقتها بمثل تلك الصورة؟ لهذا حين نطقت كلماتها السابقة اطمأن وأحس أنه لو سألها أي سؤال، حتى ذلك السؤال، فلن تغضب ولن تتحرج من الاجابة عليه.

ورأى أنه من اللائق أن يخرج سؤاله بطريقة بريئة ومؤثرة لا تجعله يبدو في نظرها ساذجاً أو محباً للاستطلاع، فمن صفات الرجل الكامل في نظره ألا يكون ساذجاً أو محباً للاستطلاع. وهكذا وقف أمامها وهي تخلع جوربها، ووضع يديه في جيب بنطلونه وقال بلهجة مغرية وبنبرة آسرة.

ـ أنا كما ترين أحب الصراحة،وهناك أمر يحيرني جداً وأحب أن تكوني صريحة معي فيه.

فسألته بقلق بريء:

ـ ما هو؟.

ـ السؤال هو بصراحة: لماذا قبلتنى؟ أنا أعلم أنك لم تفعلي هذا على سبيل اللهو أو العبث. وأعلم كذلك أنك لا يمكن أن تكوني قد وقعت في حبي من أول نظرة. السؤال محرج جداً، وقد أبدو سخيفاً في نظرك ولكني استحلفك أن تقولي لي لماذا؟

وضحكت بل خجلت، وتأكد أن خجلها خجل حقيقي فعلاً مثل

خجل المرأة في القاهرة وفي كل مكان، فقد كان مصحوباً باحمرار خديها وسقوط أجفانها فوق عينيها.

ـ أبداً ليس محرجاً بالمرة.. ولك حق فيه. ولا أعرف كيف أقول لك ما أريد قوله. ولكن.. أنت تعلم.. لا تؤنبني على هذا ولكنه الحقيقة: الحقيقة أننا هنا في الغرب نسمع عن الشرق كثيراً، وعن غموضه ورجاله وسحره، وطالما داعب خيالي الأمير الشرقي الأسمر. داعب خيالي وأنا بنت مراهقة.. وحتى أوأنامتزوجة وأم. وحين رأيتك خيل إلي أني عثرت عليه وأنها فرصة العمر. لا تلمني أرجوك، ولكنها فرصة العمر، ولولم تكن أنت قد صعدت الى الترام ورائي لهبطت أنا في المحطة التالية وعدت اليك. وقد كذبت عليك.. اني اقيم مع زوجي فعلا، ولكنه سافر إلى كوبنهاجن من اسبوع وهو موظف في الخطوط الجوية الاسكندنافية.

كانت تقول هذا وعيناه منخفضتان حائرتان بين تتبع عملية خلع جواربها وبين استراق النظر الى ساقيه المنتصبتين امامها. وكان كلامها لا ينساب انسياباً طبيعياً، أحياناً تتوقف.. وأحياناً تتردد.. وأحياناً تدغم الكلمات. وتوقفت برهة ثم رفعت اليه عينيها وواجهته قائلة:

ـ هل أجبت عن سؤالك يا أميري الشرقي؟

ـ أجل يا امرأة احلامي الاوروبية.

قال درش هذا وقلبه يخفق خفقات يعرفها تماماً، تلك الخفقات التي يحسها حين يقدم على أمر رائع خطير، هي الأخرى كانت لها أحلامها في الرجل الشرقي الممتليء بالرجولة ذي الجواري والحريم، وهو جاء خصيصاً ليبحث عن المرأة الاوروبية ذات الشخصية والحضارة، فيا له من لقاء.

انه ينتظر منها الكثير، وهي بدورها لابد تنتظر منه الكثير. فمن اين يبدأ المقدمات؟. لابد من عمل قليل من المقدمات. وبدأ درش يهيىء نفسه ولم يكن هذا سهلاً،فالأحداث كانت كثيرة ومتتابعة. . ولم يكن لديه اي وقت لاستيعابها. ولا يزال لا يصدق كيف أن المرأة التي قابلها في الشارع منذ ساعة بلا أي أمل حتى في الحديث معها، كيف أصبحت الآن طوع بنانه. ولكن سواء استوعب عقله الوضع أم لم يستوعبه، عليه أن يظل سيد الموقف، عليه أن يحدد بالضبط متى يبدأ في المقدمات.

ولكنه وجد نفسه بعد ثانية واحدة في غير حاجة الى المقدمات بالمرة، اذ هي لم تكتف بخلع الجوارب، فقد خلعت كل ملابسها، ووقفت أمامه كما ولدتها أمها.

ولم يكن الانزعاج الذي أحس به درش انزعاجاً عادياً. كان واقفاً فجلس على الكرسي وراح يحدق في جسدها العاري وقد تبخرت من عقله كل مشاكل المقدمات. أيه ما هي حكاية هذه المرأة بالضبط؟ فلتكن قد حلمت بأميرها الشرقي كما يحلو لها، ولكن هل هذه هي الطريقة المثلى لمعاملة الأمراء الشرقيين؟

وفك رباط عنقه وخلع جاكتته ليريها انه ليس أقل منها جرأة. غير أنه بعد أن فعل هذا وجد نفسه يسألها:

ـ أريد الذهاب إلى الحمام. . ممكن؟

لماذا الحمام؟ لم يكن يدري. كل ما كان يريده في تلك اللحظة هو بضع ثوان يلتقط فيها أنفاسه ويهضم ما حدث.

وقالت له وهي تغلق عينيها:

ـ أول باب على يمينك.

وخرج . . وكان صحيحاً ما قالته ، فأول باب على يمينه كان باب حمام فعلاً. فتحه ودخل ، وظل يعسعس على مفتاح النور حتى وجده وأضاءه ووقف يدير رأسه في كل اتجاه. كان الحمام صغيراً جداً، تماماً مثل الحمامات في مصر،وكأن ذمم اصحاب البيوت ضيقها واحد في كل زمان ومكان . . حمام تحس أنه يمت ايضاً الى عائلة تسكن في شقة مزدحمة صغيرة. ولم يتفرج درش على الحمام طويلاً فقد راح يهيىء نفسه لاستعمال التواليت مع أنه كان متأكداً تماماً أنه ليست به حاجة الى استعماله ، كل ما في الأمر انه ما دام قد قال لها أنه يرغب في الذهاب الى الحمام فعليه أن يستعمل الحمام فعلاً ، وكأنها ستراقبه من مكانها البعيد لتعرف إن كان قد ضحك عليها أم قال لها الحقيقة .

وبدأ درش يلاحظ أنه هناك في حذاء وجهه تماماً يوجد حبل غسيل صغير ممتد بين حائطي الحمام، وهز كتفيه كمن يقول: كأننا يا بدر لا رحنا ولا جئنا. ففي حمام بيتهم ايضاً يوجد حبل غسيل مثل هذا تعلق عليه زوجته ملابس ابنتهما الداخلية. ما فائدة اوروبا اذن إذا كان أناسها يستعملون نفس الأشياء التي نستعملها؟

غير أن ما استرعى انتباهه حقيقة هو أنه وجد الحبل يزدحم بعدد لا يحصى من الملابس الداخلية للأطفال اكثر من عشرين قطعة في حجم الكف، وكأنها صنعت لترتديها عرائس أطفال. لابد أن هذه المرأة نظيفة ونشيطة. . كيف يا ترى تجد الوقت الذي توفق فيه بين عملها في الصباح والمساء وبين بيتها وهذه العناية التي توليها أولادها.

غير أن اعجابه بالمرأة لم يستمر طويلا فقد لسعه شيء ما. . في هذه اللحظة فقط أدرك أن المرأة التي اصطحبته الى منزلها حقيقة أم. وشيء غريب هذا! لقد نقل معها ابنتها، وحدثته طويلا عن أبنائها ،ولكنه أبداً لم

يؤمن أنها أم الا حين رأى العدد الكبير من ملابس الأطفال الداخلية. هي أم ولها بيت وزوج وأولاد، والأعجب من هذا أنه ربما للمرة الأولى في حياته أيضاً يدرك في تلك اللحظة بالذات انه هو الآخر أب له بيت وزوجة وابنة لها ملابس داخلية مثل تلك الملابس التي تلاصق وجهه والتي تنفذ منها رائحة الصابون الذي غسلت به الى خياشيمه.

وأحس أنه لم يعد في حاجة لاستعمال التواليت، فخرج، وذهب الى حجرة النوم.

وحين فتح الباب ودخل لم يجدها عارية، كانت قد تمددت فوق السرير الذي صنع لشخص ونصف شخص وغطت نفسها بملاءة السرير البيضاء، ولم يبق ظاهراً منها إلا وجهها وعيناها فقط. أو على وجه الدقة لم يبق ظاهراً منها إلا انفعال واحد التقطه درش من لحظة أن وضع قدميه في الحجرة.. انفعال تختلط فيه الرغبة بالاستسلام والأماني بالحقائق.

ودلف الى جوارها في السرير وتأمل وجهها المبتسم.. كان به نمش صغير كرءوس الدبابيس لا يرى الا عن قرب، وسمع دقاً عالياً يتصاعد بجوار أذنه ويقلقه، والتفت.. كان المنبه الصغير هو الذي يرسل دقاته فقال لها:

ـ هل باستطاعتنا أن نخرج هذا الشيء المزعج من الحجرة؟

وبدا أنها أفاقت قليلا من هيامها، وما لبثت أن قالت:

ـ لقد كدت انسى. لابد لي من ضبطه على السادسة. هل نسيت؟ لابد لكي أصل إلى المكتب في الثامنة أن استيقظ في السادسة.

ومضت تملأ جرس المنبه.. وقالت بدلال وهي تضبط عقربه:

ـ الساعة الآن الثانية.

وحين انتهت أخذ منها المنبه ولفه في فوطة وجه ليخفي صوته، وقام من الفراش ووضعه في ركن الغرفة البعيد ليخمد أنفاسه نهائياً، وعاد إلى رقدته بجوارها. غير أنه ما كاد يستريح هنيهة حتى جاءته دقات المنبه منتظمة عالية في انتظامها؛ بل خيل اليه انها اعلى مما كانت.

وتولته حالة عصبية. واحتضنها بقوة فقالت:

ـ ستكسر ظهري يا افريقي.

أفريقي مين؟ لا ريب أنها تقول هذا لتستثير رجولته، أو بالأحرى ما تتخيله هي عن فحولة الأفريقي الشرقي المعهودة. لابد اذن من أن يرفع درش رأس افريقيا والشرق عاليا، والا خيب آمالها وجعل رقبة افريقيا كالسمسمة. وكاد درش يضحك وقد خيل اليه أن شعوب افريقيا مثلا قد اجتمعت كلها وانتخبته ليمثل رجالها في تلك المباراة، بين رجل افريقيا وامرأة أوروبا، ولكنه لم يضحك.. نظر إلى جسده هذا الذي سيدخل المباراة الخالدة فلم يجد فيه من علامات الافريقيين شيئاً كثيراً.. فلا هو زنجي اللون، ولا قامته طول أشجار جوز الهند، ولا صدره مليىء بالشعر الكث كألياف النخيل، وقال لها:

هل تعتقدين أن الشرقيين والأفريقيين يعني..؟!

قالت وهي تموء:

ـ ألا تعتقد أنت هذا؟

وضمها درش بحنان أول الأمر، ولكنه تذكر أن عليه أن يكون (أفريقياً) فقساً في ضمته وقبلها قبلة متوحشة.. فما كان منها الا أن ضمته هي الأخرى بقسوة وقبلته.

وتضايق بعض الشيء.. لماذا ترقد مستسلمة وتدع له مهمة الرجل؟ لماذا لا تتمنع قليلا؟ ان التمنع يضفي على الأنثى أنوثة ويكسب الرجل رجولة، وايجابيتها هذه الزائدة عن الحد تضفي على انوثتها رجولة، وعلى رجولته سلبية الأنثى.. ولكن، اليس هذا هو ما اردته يا درش تماماً؟ الم ترد أمرأة ايجابية تعطي نفسها بكل قوتها وارادتها؟

وحدثت ضجة موسيقية في الصالة، ودقت الساعة نصف الساعة. فقال لها:

ـ يبدو أن الساعات هنا اكثر من اللازم.

ولكنه في نفس الوقت كان يفكر في شيء آخر. معنى هذه الدقة الثانية والنصف، الوقت يمضي بسرعة وهي موظفة، ودرش هو الآخر موظف ويعلم أهمية المواظبة على مواعيد الحضور. بل من المحتمل جداً أن يكون رئيسها في الشركة مثل رئيسه الدكتور نوفل ذي الشعر المشوش الذي يحمل دكتوراه لا يدري أحد فيم؟ والذي كل همه أن يراجع كشف الحضور والانصراف بنفسه، وكأنه أخذ الدكتوراه في مراجعة تلك الكشوف.

ولا يدري درش لم ألقى نظرة جانبية أخرى عليها؟ كانت «صحيح» عارية ولها ابتسامة لا معنى لها وبشرة صلبة بعض الشيء وأصابع رفيعة أنهكتها الكتابة على الآلة الكاتبة، ولكنها موظفة مثله.

وفي الثانية التالية كان ثائراً على نفسه، فالطريق الذي كانت تسلكه أفكاره طريقاً اذا داوم على السير فيه لانتهى الأمر بكارثة. عليه أن يركز خواطره ولا يجعلها تتشتت وتتبعثر. عليه أن يصم أذنيه ويغمض عينيه ولتكن موظفة أو عاطلة، المهم أنها الآن أمامه انثى عارية من دم ولحم

على فراش واحد معه في حجرة مغلقة وقد عثر عليها بعد طول عناء وطول يأس.

وبدأ درش يعاملها كأنثى، أخذ يدها وقبلها ووضعها على خده وأحس ببرودة معدنية تنغمش جلده فرفع يدها. . كان في أصبعها البنصر دبلة فترك هذه اليد وتناول الأخرى وراج يجريها على خده. ولكنه في نفس الوقت كان يفكر في زوجها، لابد أنه هو الشخص الذي رأى صورته موضوعة في برواز الكومودينو المجاور للسرير. وتحرك رأسه حتى أصبح في استطاعته أن يواجهه. . كان سميناً بعض الشيء ويبتسم في سذاجة اذ لم يكن هناك أبداً أي داع للابتسام. . وكان حليق اللحية والشارب وشعره خفيف، وقال لها:

ـ أنت متأكدة أن زوجك لن يأتي الليلة؟

ـ طبعاً متأكدة. . هو لن يأتي الا في الأسبوع القادم، ذكر لي هذا في خطابه الذي وصلني امس.

ومضت تتكلم عن الخطاب.

ولم يصغ اليها، كان في ذلك الوقت يلعن نفسه. . ما له هو وما لزوجها وخطابه؟ لماذا يخرج عن (الموضوع) باستمرار. الزمن الذي أمامه محدد وقد أضاع وقتاً كثيراً، وهي كانت أذكى منه، فهي لم تسأله أبداً عن شخصه ولا شغلت نفسها كثيراً بأحواله ولا يهمها إن كان متزوجاً أم أرمل، كل ما يهمها أنها الآن معه في حجرة مغلقة واحدة.

وحل صمت.

أثقل صمت. وحاول درش أن يقطعه بحركة، بضمة أو حتى بقبلة

حتى هدأت تماماً ونسيت ما كان . وما كاد هذا يحدث حتى هبطعليه خاطر عبقري فسألها :

ـ هل عندك مشروبات؟

ـ مشروبات؟

ـ أجل، نبيذ، براندي، ويسكي أو بيرة حتى.

وضمت حاجبيها مفكرة بينما كان هو قد بدأ يرتجف بعصبية حادة كأنما مصيره معلق بالكلمة التي سوف تخرج من فمها. وبدا عليه الارتياح الشديد حين قالت :

ـ أعتقد أن عندي بعض البراندي.

ـ أين؟ .

ـ هنا.

قالت هذا وهي تشير له دون أن تتحرك إلى دولاب صغير قائم في ركن الغرفة. وبابتهاج زائد قام وفتح الدولاب وجرد محتوياته بنظرة، وفي قاعه عثرعلى زجاجة البراندي. لم يكن بها الكثير، كأسان أو ثلاث تعوم فوقها فلينة ساقطة. وبينما كانت تقول له الكوب فوق الدولاب كان هو قد رفع الزجاجة الى فمه، ودلق محتوياتها في جوفه مع أنه لا يطيق طعمها.

وطبعاً لم يسر مفعولها في جسده حالا . . كان الأمر يستلـزم بعض الوقت، ولكنه أحس بنفسه منتشياً حتى قبل أن يصل الخمر إلى رأسه. فجأة بدا له الأمر في غاية الروعة، أمرأة جميلة، وليلة سوف يذكرها الى آخر العمر، وجسد عار أبيض مشرب بحمرة، تماماً مثلما يريده، وأبواب الجنة مفتوحة على مصاريعها أمامه. فماذا ينتظر؟

وذهب اليها في الفراش. واحتضنها وهو جالس، ورفع رأسها حتى أصبحت في متناول فمه، ومضى يقبلها ويمعن في اثارتها بتقبيلها في عنقها وأذنيها، ولم تكن هي في حاجة لكل هذا.

وقبل أن يسمع هو شيئاً قالت له:

ـ الطفلة..

وقبل أن يسألها عادت تقول:

ـ اسمع.

ومن بعيد وصلت الى اذنيه ضجة صغيرة مكتومة يعرفها تمام المعرفة.. ضجة الطفل حين يصحو من النوم باكياً فجأة، وبلا سابق انذار.

وقالت، وكأنها لا تدري حقيقة ما تفعل:

ـ ماذا أفعل؟

غير أنها قامت ولفت الملاءة البيضاء حول جسدها حتى بدت كالشبح الأبيض، ثم خرجت ملهوفة من الغرفة..

وما أن أغلقت الباب وراءها حتى أحس بنوع خفي من الارتياح ومضى يدور في الغرفة على غير هدى ويعبث بمحتوياتها بحب استطلاع الأطفال حين يتركون وحدهم في البيت الخالي. وحتى حقيبة يدها فتحها، كانت تفوح منها رائحة غريبة.. خليط من العطر القديم المختلط برائحة الجلد والعرق والبودرة، وكانت فيها بطاقتها الشخصية وكانت تبدو كالمراهقة في الصورة الصغيرة الملصقة بالبطاقة، ثم قبضة مفاتيح كثيرة كل ما كان يميزها عن مفاتيح أي ربة بيت ان بينها مفتاحاً أدرك أنه مفتاح

درج مكتبها في العمل. فقد كان يشبه إلى حد كبير مفتاح درج مكتبه «البيل». بل انه أخرج سلسلة مفاتيحه من جيبه وقارن بين المفتاحين وضحك. فمجرد التشابه بين المفتاحين أضحكه، اذ في ذلك الوقت كان قد بدأ يحس بالسخونة تسري في رأسه، وبشيء يملأ تلك الحفرة الواسعة التي كان يشعر بها طوال الوقت عميقة جوفاء في صدره. وعادت وهي لا تزال ملتفة بالملاءة البيضاء، ولو كانت قد بقيت على حالها لمضى في اقدامه الى نهايته، ولكنها حتى قبل أن تصل الى الفراش رفعت الملاءة عن جسدها وألقتها جانباً. وبدت سخية في عريها. وأكمل طريقه إليها واحتواها بحماس مكسور الحدة. وقبل أن يحدث شيء آخر لمحها تبتسم وكأنها تريد أن تضحك، فسألها، بانفعال:

ـ ماذا يضحكك؟

ـ البنت كانت تريد الذهاب الى التواليت. .

وقال في سره وهو يلعنها: وماذا يضحك في شيء طبيعي كهذا؟ ولكنه ـ مجاملة لها ـ جاراها في ضحكها، وقالت هي:

ـ الفريد هو الذي يفعل هذا في العادة.

ـ ألفريد مين؟

ـ الفريد زوجي. هو الذي يستيقظ على بكائهم ويذهب بهم إلى التواليت. ولم تكد تقول هذا حتى كان درش يقهقه، وأخذت تتأمله وهو ينثني ويعتدل ويضحك ثم سألته بعد أن انتهى:

ـ لماذا تضحك؟

فقال وهو يكاد يموت من الضحك:

ـ لأنني أحسن من ألفريد.

ـ لماذا؟

وكاد يقول لها: لأنني ليس من مهامي كزوج أن أذهب بالأولاد إلى التواليت. ولكنه لم يقلها. ليس هذا وقته الوقت وقت الفراش. .

وفي الفراش حاول درش جاهداً أن يطرد عن نفسه كل الأفكار التي أرادت أن تأخذ بمجامع عقله، ولـكنه فشل. كان أحيـاناً يحيـا معها في الموقف، وأحياناً يحـس بأن عقله قد انفصل عنه ووقف قريباً من سقف الغرفة يراقبها ويراقبه. لا شك أن المشهد حينئذ سيكون مسلياً للغاية. هو شرقي وهي اوروبية وكلاهما متزوج، وكلاهما موظف، وكلاهما قد طال غيابه عن زوجه ورفيقه، وكلاهما يحاول أن ينال الآخر، ويبذل في سبيل ذلك جهد المستميت.

وكـل شيء يدور في صمت. . الأعصاب تتوتر وترتجف، والعرق الصغير ينبت ويتبخر، والنظرات تخجل أن تلتقي فاذا التقت بدت جريئة لا خجل فيها، والضغطات الهينة أحياناً المجنونة في أحيان اخرى، وعيناه حين ارتفع صراخ طفلها مرة اخرى. . عيناه حين راحتا تأمرانها وترجوانها أن تلزم مكانها وألا تقوم وهو يحاول أن يجد في تفضيلها له على طفلها علامة حب أو رغبة خاصة. وتفضله على طفلها وتبقى فيتمنى لو كانت قد حاولت فعلا أن تقوم ومنعها هو بالقوة.

كل شيء يدور في صمت لا تقطعه سوى دقات المنبه العنيـدة التي كانت تشق نسيج الثوب الملفوف حوله وتعبر فضاء الحجرة وتصر علـى الوصول إلى فتحتي أذنيه فتملؤهما، وساعته في يده مقلوبة، ولكنه دائماً يحاول عدلها لكي يعرف الوقت، والـدقائق تمضي بطيئة جداً، ومع هذا فالوقت يمضي بسرعة هوجاء ويقترب اقتراباً جنونيـاً من السادسة حيـث يجب عليها أن تستعد لمغادرة البيت.

كـان هذا كلـه فوق احتمالـه، وأيضاً فوق احتمالها. لقد حاولا المستحيل.. حاول درش أن يغمض عينيه عن العالم كله الا عنها وعما يدور في الغرفة، وحاولت هي بكل طاقاتها أن تساعده في اغماض عينيـه وليتها لم تحاول، ليتها لـم تحاول مساعدته، ليتها فقطتكف عن ابتسامتها الممدودة المرتسمة اكثر من اللازم على فمها.. بل والسائلة من فمها ايضاً كروج أسيىء وضعه. ليتها حاولت هذا، فبعد كفاح رهيب كان درش لا يزال يتصبب عرقاً وخزيا، ولا يزال يلهث، وهي لا تزال تساعده وتبتسم.

وقال درش:

ـ لندخن سيجارة.

ـ أجل ندخن.

وأعطاها سيجارة، أشعلتها بعد أن أدارتها لتعرف ماركتها، وبدت مسرورة بماركتها الثمينة، وأشعل هو سيجارة من الناحية التي فيها الفم الفل. ولـو كان قد حدث هذا في أول الليـل لألقـى السيجارة وأشعل غيرها، ولكن لم يعد ثمة داع للتظاهر.. قطع الفم وأشعلها مرة أخرى.

وجلسا يدخنان.

وحاول أن يفكر بهدوء فيها؛ فوجد أن من المستحيل عليه حتى أن يفكر فيها. فكلما فكر فيها تأزم أكثر وعمقت الحفرة التي يحسها كائنة في صدره. بل ما حدث هو أنه وجد أنه كلما بعد عنها بأفكاره ارتاح، كلما احس أنه هو نفسه، وأنه طبيعي جداً، وان ارادته وأعصابه وجسده ملكه.

وهكـذا وجد درش نفسه يفكـر في نونسته، ونونسته هي أنيسة التي يسميها أحيـاناً نوسته ونونوسته وسنسنته الـى آخر عشرات الأسماء التي ابتكرها لها... نونسته التي تركها هناك في شقة متواضعة من شقق شارع

ابن خلدون ، بل ووجد نفسه يفكر بالذات في وقفتها بالمطبخ حين يجيىء هو بهدوء من الخلف ويلف ذراعيه حولها ، فتنزعج لثانية واحدة وتخاف ولكنها في الثانية التالية تأمن اليه، وتحس حينئذ أنه الرجل الوحيد في العالم ،وأنها المرأة الوحيدة التي تصلح له.

ولبرهة خاطفة ظن درش أنه يحلم، ولكنه كان فعلا يحيط امرأة بذراعيه وكان يغمض عينيه، وخاف لو تحركت المرأة أن تطير نوسة من خياله فأمرها ألا تتحرك، بل غمغم بكلمات لا تكاد تسمع، وحبذاً لو أطفأت النور.

ولم ير شيئاً، فقد كان لا يزال مغمضاً عينيه، فقط سمع تكة زر النور المعلق بجوار الفراش وهو يطفأ، وحتى بعد أن أطمأن إلى أن الظلمة قد سادت الحجرة لم يفتح عينيه. كان لا يريد أن يرى شيئاً، فهو لا يرى الا فراشه ونوسته، ولا يسمع الا همساتها الرقيقة له، وأصوات بائعي الفول (الحراتي) حين ينادون عليه من بعيد في شارع ابن خلدون.

* * *

وتنفس الصعداء وهو يربط حذاءه. . كان قد ارتدى كل ملابسه ولم يبق الا أن يمر بالمشط على شعره ويغادر الحجرة والبيت، وكل ما كان يفكر فيه في تلك اللحظة هو مشكلة وصوله الى فندقه. فالساعة كانت قد جاوزت الخامسة، وكيف يستطيع في مثل تلك الساعة، ومن تلك الضاحية البعيدة أن يصل الى قلب فيينا حيث فندق فيكتوريا الذي ينزل فيه؟

وسألها، قالت:

ـ في آخر الشارع يوجد موقف للتاكسي.ـ

ونظر اليها وهي تجيب، ولأول مرة احس انه ينظر لها بقوة وسيطرة. . كان قد اجتاز الأزمة بتفوق، كان وجهها هادئاً مستريحاً يحفل بالاكتفاء والابتسامة الزائدة عن حدها قد اختفت تماماً من ملامحه.

وكاد يؤنبها بينه وبين نفسه على هذا الاحساس، لولا أنه كان قد انتهى تماماً منها ولم تعد تهمه في شيء.

وبعد أن مر بالمشط على شعره، وتحسس كالعادة علبة سجائره وسلسلة مفاتيحه واطمأن إلى أن كل شيء على ما يرام، لم يبق أمامه إلا أن يغادر البيت وتنتهي الليلة. . خاصة وأنها كانت قد انتهت فعلا وبدأت أضواء الصباح النابتة الزرقاء تمتد إلى الحجرة مخترقة حجب الشيش والزجاج.

ولكنه لا يدري لم وقف محرجاً يتردد بين الخروج والبقاء؟ لقد تم له ـ ولو بعد مآس كثيرة ـ كل ما أراده، فما الداعي لكل هذا التردد بين الذهاب والبقاء؟

وأي شيء يريده؟ هو نفسه لم يكن يدري. . ولكنه كان يحس بشيء يؤرقه. لا لم تكن خيبة الأمل، ولم يكن كذلك تأنيب الضمير، كان بالتأكيد شيئاً آخر.

لقد كان طول الوقت الذي مضى مع نوسة زوجته، كان معها بجسده وعقله وكل ذرة فيه. ولولا هذا لما استطاع أن يلعب دور الرجل، بل دور الافريقي. وهذه المرأة الراقدة تجتر احساسها بالشبع كانت تظن انه معها. لا وحياتك لم أكن معك. . أما أنت يا نوسة فلو عرفت ما حدث لظننت أني قد أخللت بعهدي لك، هراء لم يحدث شيء من هذا، لقد كنت طول الوقت معك.

أفكار صغيرة دقيقة لم يكن يستطيع أن يقبض احداها بمفرده، ولكنها كانت لا تكف عن مهاجمته ووخز جنبات عقلـه وخزاً رفيعاً حاداً لا يدمى. . ولكنه يوجع ويؤلم.

ربما لهذا السبب أقدم علـى هذا القول الذي بدا في الحقيقة سخيفاً لا معنى له. . طرأ له أن يقول للمرأة أنه لم يكن معها، ولكنه كان مع زوجته. وأول الأمر استنكر الأمر بشدة. . ولكن عدم المبالاة كان قد استولى عليه وأصبح يحس أن باستطاعته أن يتصرف معها بمطلق حريته. يقول لها كل ما طرأ له، ويفعل كل ما يريد فعله، ثم انه لن يراها بعد الآن وهي ايضاً لن تراه، هذا آخر لقاء يتم بينهما في الحياة فلماذا لا يقول لها الحقيقة؟ وماذا يهمه لو غضبت وبكت ما دام ما يقوله صحيحاً، وما دام حقيقياً، وما دام سيريح به ضميره؟

وهم أن يقول لها هذا، ولكـن يبدو أن الجرأة قد خانته في آخر لحظة. . فقد خرجت كلمات اخرى من فمه. طلب منها ان تعطيه رقم تليفونها ووعدها بأن يتصل بها في المساء، وطبعاً لم تكن لديه أية نيـة للاتصال بها.

وكانت عيناه مغمضتين وهي تمليه، ولكنها بعد أن انتهت ولم تحدث حركـة في الحجرة تنبيء عن خروجه ولا بدرت منه كلمة وداع، فتحت عينيها. . ولما رأته واقفاً تلك الـوقفة الغريبة ابتسـمت له نفس ابتسامتها الممدودة.

وأحس أنها محرجة هي الأخرى أن تسأله عن الداعي لبقائه، وكـل شيء يهيب به أن يذهب.

وما أن لمح ابتسامتها الممدودة حتى زايله التردد، وبدأ يستجمع نفسه ليقول لها الحقيقة.

غير أنه فوجيء بابتسامتها تتسع وتتسع حتى تغمر وجهها كله، ثم تنقلب إلى ضحكة بدت غريبة باردة في تلك الساعة المبكرة من الصباح.. وبعد ليلة حافلة كتلك. وعلى هذا بدلا من أن يقول لها ذلك الشيء سألها عما يدفعها إلى الضحك، فقالت وقد عادت إلى اغلاق عينيها.

ـ إنه لأمر مخجل.

ـ قوليه.

ـ مخجل جداً..

كان يقول هذا بلهجة الأمر، ولكنه خاف أن تستنكر لهجته فلا تجيبه.

فعاد يقول:

ـ أرجوك، أعتقد أنه لم يعد بيننا ثمة مجال للخجل ـ قوليه.

ولم تجب.

فتحت عينيها واستدارت وهي لا تزال راقدة وراحت تحدق في صورة زوجها الموضوعة على المنضدة القريبة من الفراش، تحدق عن عمد فيها، وما لبثت أن أخرجت يدها العارية من تحت الملاءة وتناولت الصورة وقربتها إليها.

وحينئذ نطقت وقالت:

ـ أتعلم أني كنت معه.

ـ مع من؟

ـ مع الفريد.
ـ متى؟
ـ حين كنت معك.

وأكملت اجابتها بضحكة، نفس الضحكة التي بدأت بها الحديث.

وظلت ممسكة بالصورة بيدها وقد حجبت الصورة وجهها، ولم يعد بادياً منها إلا ذراعها الذي بدا في ذلك الخليط من النور الكهربائي وضوء ما قبل الشروق باهتا شاحباً يكسوه شعر أصفر خفيف.

وقبلته.

قبلت صورة الفريد، وما لبثت أن أعادتها إلى مكانها. . وقالت وهي تستدير في الفراش ليصبح وجهها إلى الحائط وظهرها إلى درش ـ وكأنما هي الأخرى لم يعد يهمها من أمره شيء ـ قالت في شبه غمغمة نائمة:

ـ لم أكن أعلم أنه رجلي الافريقي الذي كنت أبحث عنه.

ولم ير درش شيئاً بعد هذا، فقد أحس بغليان يملأ رأسه، واستدار على أعقابه فجأة وخرج من المنزل غاضباً وكأنه أهين.

كانت الدنيا في الخارج تحفل بزهزهة ما قبل الشروق. كل شيء هادىء وساكن يتحفز مستعداً للنهار الجديد القادم. كل شيء جديد. . اليوم جديد. . والناس جدد. . وحتى الهواء طازج لم يتنفسه أحد بعد. وكانت البقعة لا تزال خالية من المارة، والضوء الرمادي يكتسح أمامه أضواء مصابيح الشارع فيخمد بريقها ويجعلها تبدو كالثمار التي فات أوانها.

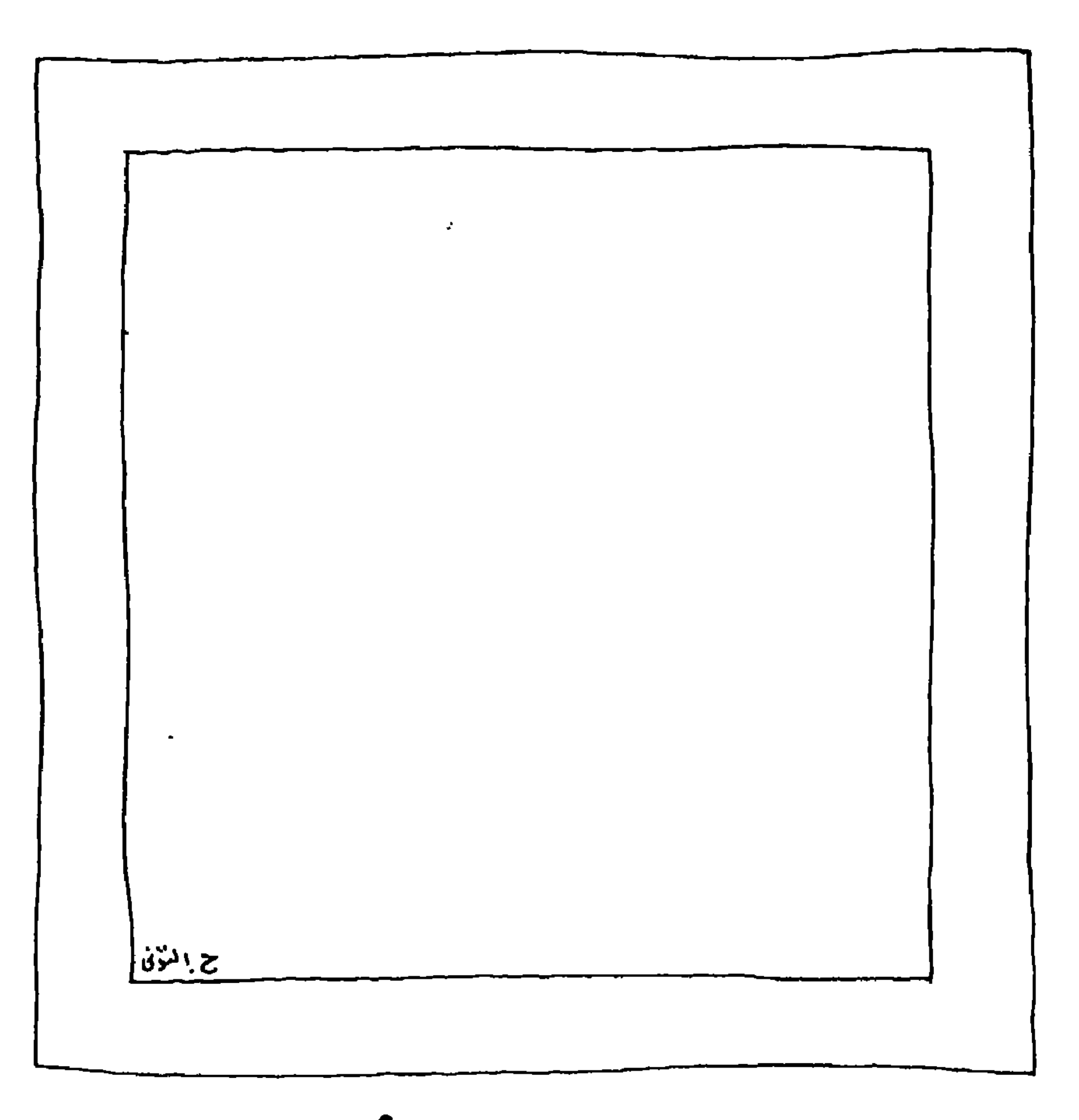
وقبل أن يجتاز آخر بلوك في المبنى سمع درش جرس منبه يدق من

بعيـــد في اصرار مكتوم. لا شك أنه منبهها، ولا شك أنها الآن تناضل ارهاقها وسهرها والـــدفء، وتحاول أن تغادر فراشها لتلحق بعملها ودنياها.

وأحس درش أنه لم يعد غاضباً عليها، وحتى لم يعد غاضباً علـى نفسه. كل ما أصبح يشغله في تلك اللحظة هو شعور كان قد بدأ ينبثق في نفسه وحنين غريب جارف إلى بلده.. وعائلته الصغيرة.. والدنيا الواسعة العريضة التي جاء منها.

القاهرة

يونيو ١٩٦٠



العسكري الأسود

١

حين أتحدث عن السر الذي كان يحيرني في «شوقي» ولا أعـرف له سبباً أو تفسيراً، لا أقصد ابتسامته المشهورة عنه، التي كان لا يبتسم ليعبر بها عن شيء بقدر ما يستعملها كقناع داخلي يخرجه من فمـه حين يريد ليغطي به ملامحه ويخفي وجهه الحقيقي عن الناس. ولا أقصد أيضاً نظرته. .

النظرة التي كان يطليها بزيت تعبيري معين دون أن يجعل بصرك ينزلق عن عينيه ولا يستقر لحظة، وكأنما لو استقر لأدركت سره وعرفت ما به. ولا أقصد أيضاً الطريقة الغريبة التـي كان يتصـرف بهـا. . انبثاقـة الانفعـال المفاجئة التي يدهش بها الحاضرين كلما ضمه مجلس، وأفلتت من أحد الموجودين كلمة ما أثارت تعليقاً ما، وإذا بك بعد ثوان قليلة من ضيقه المباغت تجده على قدميه وقد افتعـل عذراً لا يهمـه إدراك الحاضـرين لوجاهته، وغادر المكان إلى الخارج الطلق إلى أي مكان. هذه أيضاً لا أقصدها. ما أقصده شيء بالضبط لا أستطيع التعبير عنـه، بل ولا حتـى نجحت في اكتشافه بعد الحادث الهائل الـذي قدر لي أن أكون شاهـد عيانه. . الحادث الذي كثيراً ما جلست وحدي أستعيد دقائقه لعلي ألمح هذا الشيء الواهي المروع الذي كان «شوقي» يضم عليه جوانحه. وأشهد

أني في أحيان قليلة جداً استطعت بالكاد محاصرته، وإن فشلت في تحديده ومعرفته. بل لكي أكون صادقاً مع نفسي أعترف أني في جلوسي لكتابة ما حدث، ليس لي من هدف سوى أمل واحد: أن أوفق عن طريق الكتابة فيما فشلت فيه عن طريق الخيال، بصراحة أكثر أقامر ـ إذ من يدري ـ لعلي إذا انتهيت أكون قد فسرت كل شيء، ووصلت إلى الحقيقة التي دوختني محاولة الوصول إليها. .

٢

بدايتنا متواضعة جداً، لم أكن أتصور أبداً أن باستطاعتي أن أصل منها إلى سر ما، خطير أو غير خطير. البداية مكتب حكيمباشي المحافظة في بناية المحافظة القديمة التي تهدمت الآن. كنت كلما وجدت نفسي في ميدان باب الخلق، بساعته المعهودة، وواجهة دار الكتب ومئذنة الجامع القائم في وسطه كالنافورة العالية التي جف ماؤها، تذكرت «شوقي». . وكلما تذكرته وجدت نفسي مدفوعاً بشكل تلقائي للذهاب إليه خاصة إذا كان الوقت بعد الظهر، إذ أن «شوقي» كان يعمل في المكتب الطبي للمحافظة. وكان لأسباب ليس هنا مجال تقصيها قد اختار فترة بعد الظهر ليكون النوبتجي فيها. . أسباب لعل أحدها وأهمها أن الطبيب حين يعمل في تلك الفترة كان ينفرد بالعمل في المكتب ويصبح هو رئيسه فالحكيمباشي لا يعمل إلا في الصباح. . ورئاسة المكتب الطبي والجلوس على كرسي الحكيمباشي وتلقي تحيات المراسلة والمستخدمين متعة لا بد أن ترضي غرور أي طبيب شاب. أما حين يعمل في الصباح فلا يصبح أكثر من مجرد مرءوس واحد بين أربعة أو خمسة زملاء. .

ونفس هذا المكتب هو الذي كان يضمنا حين ألقى عبد الله التومرجي

بتلك الجملة التي قلبت جلستنا. . بل علاقتنا كلها رأساً على عقب، قال:

ـ ده خلاص يا بيه. . الراجل بقى يهبهب زي الكلاب ويعوي زي الديابة.

حسبتها أول الأمر إحدى مبالغاته، ومبالغات عبد الله التومرجي كانت شيئاً مشهوراً في المكتب، خاصة في تقدير أثمان القهوة والشاي وحساب السندوتشات. وعبد الله لم يكن تمرجياً أصلاً، كان عسكرياً في القسم الطبي بالجيش. وحين دخل البوليس جعلوه مراسلة للمكتب الطبي ولكنهم وجدوه أكثر لحلحة وذكاء من التومرجي الأصلي فأعطوه دوره وأصبح بجلبابه «الدمور» الميري وطاقيته ذات الحائط العالي وجبهته العريضة اللامعة المائلة في خجل خبيث دائم. . وبالذات حين يخفضها ويقول بلهجة خضوع عسكري ظاهر: أفندم! كلمة ذات وقع على آذان الأطباء المدنيين تتيح لهم بعض متع العسكرية ودفء سطوتها. أصبح عبد الله بهذا وبقبقابه الذي كان لا يتناسب أبداً مع حركته الكثيرة علامة من علامات المكتب الرئيسية. . كما أصبحت وقفته أمام باب الحكيمباشي نصف المغلق، وشخطه في الرواد القادمين متأخرين والتحايل لإبعادهم علامة رئيسية من علامات جلستي مع «شوقي».

ولولا رنة دخيلة صادقة في جملته، ما التفت «شوقي» أو التفتّ إليها. كنت قد تعودت إذا بدأ «شوقي» يتحدث في العمل مع عبد الله أو غيره، أو يزاوله أن أنصرف كلية لأفكاري وتأملاتي. . الجملة استخرجتني منها وجعلتني أسأل عن هذا الذي يعوي كالذئاب ويهبهب كالكلاب؟ وأجد أنه «دوسيه»، أو على وجه أصح صاحب الدوسيه الضخم الذي كان موضوعاً فوق مكتب «شوقي». . كانت الساعة تقترب من الرابعة

والنصف، وكنا في الصيف والحجرة قد خلت من روادها، ورواد الحجرة معظمهم من مجتمع القاهرة السفلى، متسولون ومتشردون، ومجاذيب وذوو عاهات، ومدعون ومتشاجرون، فرادى وجماعات، في سلاسل وكلابشات. وأحياناً مربَّطو الجلابيب حتى لا يغافل أحدهم العساكر وينسل هارباً. . رواد بمحاضر وخطابات من الأقسام لتوقيع الكشف الطبي عليهم لتقدير أعمارهم وعاهاتهم، تمهيداً لسلسلة الإجراءات الطويلة التي تتخذ معهم. . ولا يخلو الأمر من متشاجر أنيق، أو تهمة بهتك عرض، أو بنت ذوات. . هذا عدا العساكر طالبي الإجازات وأحياناً شاويشية وضباط، عدد ضخم كان طابوره يبدأ من باب المحافظة ويملأ فناءها الواسع، وينتهي عند ذراع عبد الله الممتدة تسد باب المكتب الطبي المفتوح، وعند صوته المبحوح المطالب عبثاً باحترام الدور. . العجيب أن «شوقي» كان ينتهي من طابور بعد الظهر كله فيما لا يزيد على الساعة، ولكن أي ساعة! حتى حين تخلو الحجرة بعدهم ويوصد عبد الله الباب يبقى الجو مشبعاً بأشباح تكاد تتدخل في الحديث الدائر بيني وبينه، أشباح أشخاصهم ومآسيهم، وأشباح روائحهم أيضاً روائح خاصة ليست مقززة كما يتبادر إلى الذهن، ولكنها مختلفة بالتأكيد عن رائحة الأفندية مثلاً، أو جموع الفلاحين، رائحة لا تصبح مقززة إلا حين تختلطبرائحة الفنيك الذي ترش به الأرض، والـد. د. ت. ، وعرق المبنى العتيق، والأثاث الذي بقرت مسانده. . وتتجمع هذه كلها، ويأتي عليها ظهر يوم صيف كيوم الصيف ذاك وما بعده، فيحولها إلى بواخ يملأ الحجرة وينعقد حتى سقفها العالي. . بواخ يخنقنا ويكاد يدفعنا لمغادرة المكان. ولكنا لم نكن نفعل. بالعكس كان إحساسنا بالاختناق الخارجي ذاك يوفر علينا الكثير من إحساسنا بالاختناق الداخلي.

كنت و «شوقي» شابين من شباب الجيل الذي اصطلحوا على تسميته بالجيل الحائر. صديقين بلا سبب يدعونا للصداقة أو حتى الانتساب إلى جيل واحد، تفتقت عنا الحرب العالمية الثانية لنجد أنفسنا هكذا زملاء في كلية أو جامعة واحدة، بنزعات سياسية وآراء في الناس والحياة لا يمكن أن يربطبينهارابط ،ومع هذا فكنا أصدقاء لا لأننا كنا هازلين في خلافاتنا إذ الحقيقة أننا كنا فيها أكثر من جادين، وتمسك كل منا برأيه ووجهة نظره كان يصل أحياناً إلى حد ارتكاب الجريمة. ربما السبب في الصداقة المهيمنة الكبيرة التي جمعتنا أننا كنا جميعاً نؤمن ـ رغم اختلاف طرقنا ووسائلنا ـ أن لنا رسالة واحدة نحن مبعوثو العناية لتحقيقها. . إنقاذ بلادنا وتغيير مصير شعبنا تغييراً جذرياً وإلى الأبد. وهكذا بدأت واستمرت علاقتي بشوقي.

كان تعارفنا في مؤتمر للطلبة عقدناه في الكلية ونتيجة تشاتم في الرأي ولا أقول خلافاً. . تشاتم كاد يصل إلى حد التشابك. ولكننا حين خرجنا من المؤتمر كنا قد نسيناالخلاف،وكنا نتعازم على الشاي. . وصرح لي ونحن جلوس على المقهى أنه ـ بينه وبيني ـ كان يوافقني في الرأي لولا الموقف الذي كان عليه فيه أن يناصر زملاءه أعضاء الجماعة التي كان ينتمي إليها. ولكنها نقطة واحدة هي التي كنا متفقين فيها، فقد كان استنكاره لما أؤمن به لا يقل عن استنكاري لآرائه ومعتقداته. ولم تفعل الأيام التي تلت أكثر من أن تزيد كلاً منا استنكاراً لآراء الآخر، ولا أعرف مع هذا لماذا كانت في نفس الوقت تزيد من علاقة كل منا بالآخر؟ الجيل واحد صحيح، ولكنه شيع واهتمامات. . أناس منا كانوا يمرحون ويقضون الليالي حول موائد البوكر الذي يلعب بقروش ويسمونه قماراً وشلل أخرى «تزوغ» من المحاضرات وتدمن حفلات السينما الصباحية

وفرق همها الرياضة والجري بالفانلات حول الملاعب، وجماعات للاغتيال والإرهاب، ونحن المهتمون بالسياسة والمؤتمرات والخطب.. نحن الذين نبادل الآخرين الرياضيين وأصحاب النزوات الاحتقار، ونرد على اتهامهم لنا بأننا مهاويس باتهامنا لهم بأنهم منحلون.. وفيما بيننا أيضاً نتبادل التهم، التعصب يرد عليه بالإلحاد، والفاشية يرد عليها بالشيوعية، ومع ذلك ـ وربما من أجل ذلك ـ يظل يجمعنا ذلك القوس العريض الذي كنا نطلق عليه برهبة وتقديس.. السياسة. «شوقي» بالذات كنت شديد الضيق منه قبل أن أعرفه، يذكرني إذا ما قام ليخطب بباعة «الشرب» وخالعي الأسنان في الأسواق! بل حتى شكله لم أكن أستلطفه كان شاحب الوجه لسبب غير معلوم وبطريقة يبدو معها شاربه الغزير أكثر سواداً من حقيقته، شاربه الذي ما هضمت أبداً أسباب وجوده.. ولا استطعت أن أفسر هذا التناقض الواقع بينه وبين ذقنه. فهو غزير، وذقنه ملساء ناعمة نادرة الشعر كذقون المراهقين. كان نحيفاً متوسط القامة جاد الملامح إلى درجة لا تملك معها إلا الاستخفاف بجده. كان أحد زعماء الكلية وأحد زعماء مذهبه، ولكنه أبداً لم يكن ذلك المتهوس الأحمق الذي لا يفلح معه تفاهم أو نقاش.. كان دائماً على استعداد لمناقشة أكثر الآراء بعداً عن رأيه، يرحب بالجدل بابتسامة واثقة، ولا يثور.. وكثيراً ما كنت أتحسر وأعتبر أن عيبه الأكبر أنه في المعسكر الآخر، وأحلم بأني يوماً استطعت إقناعه، وبأننا يوماً ما اتفقنا على رأي. ولكنها أحلام، مجرد أحلام! فقد كان «شوقي» يتمتع بطاقة إرادة هائلة، وكأنه ولد وهو يعرف بالضبط ما يريد، ومتأكد أنه واصل إليه لا محالة. وكان يبدو وكأن إرادته تلك ترسب إيمانه في قلبه طبقة فوقها طبقة، وكل يوم تزيده عمقاً وتسبعاً بطريقة محال معها من أن يتزلزل إيمانه ذلك بإيمان جديد.

إلى أن حدث ذلك الحادث السياسي الذي هز البلاد كلها، وقبض على «شوقي» وأدخل السجن تمهيداً لمحاكمته. وربما لفرط إيماني به كزعيم من زعماء جيلنا وتقديري له، عجبت للأسف القليل الذي أعقب اختفاءه من الكلية، حتى بين البقية الباقية من أفراد جماعته. وكنت كلما سألت عنه ظفرت بإجابات غامضة عن مصيره ـ بل ولكي أسجل الحقيقة تنصلاً من الإجابات الحقيقية ـ عن مصيره ومصير المقبوض عليهم من زملائه وغير زملائه.

ولا أعرف إذا كنتم ما زلتم تذكرون تلك الفترة من تاريخنا القريب ولكني متأكد أن جيلنا أبداً لن ينساها.. جيلنا الحائر وعامي ٤٧ و٤٨ والأحكام العرفية، وعهود الإرهاب البشع المخيف.

تلك الفترة كانت أول ضربة جدية تلقاها جيلنا.. خرجنا من الحرب لنجد جيوش الاحتلال ترتع في أرضنا، ثرنا فحاولوا الضحك علينا والجلاء الصوري إلى القنال وفايد، ثرنا مرة أخرى مطالبين بالجلاء الكامل والكفاح المسلح، وهذه المرة ضربونا.. جاءوا بدولة الباشا وضربنا علقة كوبري عباس، وحاول أن يضرب أكثر فقتل، فجاءوا بدولة باشا آخر ليكمل العلقة، وأكملها.. فتح السجون على آخرها، سلط الإرهاب بكل أشكاله، كمم الأفواه، أخمد الأصوات، أطلق العملاء وبعد أن كانت كليتنا تموج بالمؤتمرات والخطب والثوار أصبحت تموج بالبوليس السياسي والإشاعات والخوف وحرب الأعصاب. وتشتت شمل الجيل.. دخل السجن بعضه، والبعض اختفى وهرب في الأرياف والمدن البعيدة، وأحياناً داخل نفسه.. حفر حفرة عميقة في صدره دفن فيها ثورته ومعتقداته وردم عليها، وأصبح همه الوحيد أن يردم عليها أكثر وأكثر ويدعي عكس ما يعتقد. في تلك الأثناء

شاعت قصص التعذيب، وطار صيت العسكري الأسود وما يفعله بالمساجين المعتقلين، وأصبح رمزاً لكل ما يناله جيلنا من ضربات وأصبح هو مبعث رعب الجيل. ذلك العسكري الذي كان يرقد «دوسيهه» بعد سنوات كثيرة وسنوات على مكتب «شوقي»، والذي كان مقدراً لنا أن نراه بعد هذه المدة الطويلة، وبطريقة لم نحلم بها أبداً.

٣

وليست هذه محاولـة لسـرد تاريخ، إن هي إلا لمحـة نعـود بعدهـا لشوقي. إذ بعـد شهـور طويلـة من انقطـاع الصلـة بيننـا لم أره إلا يوم الامتحان. . فوجئت به يدخل علينا الخيمة ومعه جمع من زملائه مكبلين بالحديد،ومعهم جيش من الحراس ببنادق وكونستبلات.يومها عبر اللجنة وأوراق الأسئلة تبادلنا ابتسامات راعينا أن تكون خفية، وكأن عيونـاً غير مرئية ستلحظها وتسجلها. ألم أقل أننا كنا في فترة إرهاب؟ وماذا يفعـل الإرهاب أكثر من أن ينجح في جعل كل منا يتولى إرهاب نفسه بنفسـه فيقوم هو باسكاتها واخضاعها للأمر الواقع الرهيب؟

المفاجـأة التـي لم أكن أتوقعهـا، كانـت أنـي عرفـت حين ظهرت النتيجـة أن «شوقـي» قد نجـح. كيف ذاكر وعلـوم الطب تحتـاج الـى الخبـرة العملية والمـران؟ وكيف أجـاب وكيف نجح؟ لا أعرف. المهم أنه نجح، ومع هذا ظل مسجوناً لا يفرج عنه ولا يقدم للمحاكمة ولا يواجه بتهمة. أشياء لا تحدث إلا في عصور مظلمـة أو في بلاد رغم العالم المضيء لا تزال تحيا في تلك العصور. . لم يفرج عنه إلا بعد انقضاء فترة طويلة، ولم أعـرف بالخبر إلا حين كنـت ماراً بالقسم الذي أعمل به في المستشفى الكبير بعد تخرجي، فلمحته جالساً

في غرفة الحكيمة وعليه سيماء الترددوالحرج، وكأنه قادم لزيارة مريض والمفاجأة الكبرى التي كانت تنتظرني أني عرفت أنه قد عين في نفس المستشفى، بل أكثر من هذا في نفس القسم الذي أعمل فيه. ورغم انشغالي بضجة الترحيب به لم يفتني أن ألاحظ أن أشياء كثيرة جداً تغيرت فيه إلى درجة حسبته للوهلة الأولى إنساناً آخر، خاصة وجسده نفسه كان قد تغير وأصابه ما يصاب به المسجونون من ترهل، وحتى ذقنه نبت وغزر وأكسب لونه سمرة. ولكني على أية حال قابلته كما يقابل البطل العائد من معركة، والمكافح الخارج من سجن بعد اتهام خطير. وكذلك ظللت أعامله، ولم أكن وحدي.. زملاؤنا الأطباء وممرضات القسم، وبعض مرضاه ممن عرفوا قصة الطبيب الجديد.. كلنا ظللنا نعامله ونتوقع منه دور البطل، ونتقبل تصرفاته خلال الأيام الأولى لالتحاقه بالعمل على أنها نوع من التواضع وإنكار الذات.. كان التخرج قد عمل عمله في نظرتي للناس والأشياء، وخفف من حدة اعتدادي برأيي وإيماني، وأصبحت أؤمن بالحسن أنّى وجد الحسن، وبالبطولة أنّى وجدت البطولة، وأصبحت أحتفل بكل عمل مخلص حتى لو صدر عن مخالف في الرأي وعدو في العقيدة.. وكان أقصى آمالي أن أتحين اللحظة المناسبة لأجلس جلستي التاريخية مع «شوقي» ويقص عليّ فيها كل ما دار له في رحلته التاريخية المليئة لا بد بالمواقف والبطولات.. والحقيقة حانت أكثر من لحظة وأكثر من مناسبة وألقيت على «شوقي» أكثر من سؤال، وكانت النتيجة أني لم أظفر منه فقط بأي جواب، بل كان يحدث «لشوقي» حالة أحس معها أنه يبدو عليه وكأنه ينكر أصلاً أنه سمع السؤال. أعتقدت أول الأمر أنها مغالاة من «شوقي» لتجنب الحديث أمام المرضى أو على مسمع من الزملاء أو الحكيمات.. أنه على أسوأ الفروض يؤجل الحديث إلى زمن قادم

قريب. ولكن الزمن كان يمضي والأيام تنقضي فلا تزيده إلا استمساكاً بموقفه. مشكلة أخذتها أول الأمر ببساطة ولم أعتقد أبداً أنها يمكن أن تقودني إلى اكتشاف.. بساطة لم تمنعني من أن أبدأ بطريقة لاشعورية أنتبه لشوقي، وهدفي طول الوقت أن أستخلصه من تلك التي اعتقدت أنها «حالة» انتابته بعد خروجه من السجن، والتي كان من الطبيعي جداً أن تنتابه. أستخلصه ليعود مرة أخرى ذلك البطل الوطني الذي عرفته، ولو حتى سار في طريق تختلف كلية عن طريقي. كنت متأكدا أن«شوقي»ليس من النوع الذي تكفي بضعة شهور من السجن لكي تغيره وتدفعه للتنازل عن رأيه، مع أن أيامها كثيراً ما كنا نقابل زملاء ومعارف دخلوا متحمسين وخرجوا وقد طلقوا السياسة والوطنية وكل ما يمت إليهما بصلة، وكأنما كان السجن هو الحجة التي ينتظرونها لينفضوا يدهم من المعركة.

أقول بدأت أنتبه لشوقي، وكان أول ما لاحظته أن نظرته اكتسبت طابعاً آخر لم يكن لها. كان في عينيه دائماً بريق يشع ويكسب ملامحه جاذبية خاصة.. جاذبية المؤمن بحقيقة تضيء نفسه، وتفضح ملامحه الضوء الداخلي وتشعه، ويتركز النور في عينيه، وينقل للعالم صورة نفسه المؤمنة. ذلك البريق كان قد اختفى وكأنما اجتث من جذوره، ولم يبق لعينيه حتى اللمعة التي تميز عيني كل كائن حي! كنت كلما نظرت في عينيه أحس بإحساس غريب خاص يضايقني أني لا أستطيع إدراك كنهه وأنّى لي أن أعرف أني أستطيع أن أدرك كنه ذلك الإحساس إلا هناك بعد أعوام طويلة، وفي زمان ومكان كان مستحيلاً أن يخطرا على البال.

ثم بدأت أعي أن صوت «شوقي» نفسه قد تغير فأصبح لا يتحدث إلا همساً، همس مؤدب خافت كمن يتوقع دائماً أن ترفض طلبه.. ثم هاتان النظارتان ـ لا أقصد النظارات الطبية، أقصد تلك التي تركب للخيل لكي

لا ترى إلا في اتجاه واحد ـ هاتان النظارتان الخفيتان اللتان لا تجعلانه يرى إلا ما أمامه، وما أمامه فقط. أين هذا من «شوقي» المتلفت دائماً حوله، الباحث المنقب في كل شيء من أمور الدنيا والناس، الغاضب الثائر إذا وقعت عينه على الخطأ، المهدد بالويل والتغيير وإخضاعها لما يريد؟

شيئاً فشيئاً طوال شهرين أو ثلاثة عملنا فيها معاً، أيقنت أن محاولاتي لاستثارة «شوقي» البطل داخل هذا «الشوقي» الجديد محاولات لا فائدة منها. بل حتى أملي في أن يخرج عن صمته مرة ويحدثني عما لاقاه خلف القضبان تضاءل وانعدم تحت تأثير الموقف الواحد الغريب الذي كان يلتزمه. وكان لا بد أن يأتي اليوم الذي أبدأ أؤمن أن «شوقي» لم يتغير فقط، ولكنه أصبح بالتأكيد انسانا آخر غير شوقي الذي عرفته. كم من مرة ضبطته يتآمر مؤامرات صغيرة في القسم ليتاح له مثلاً أن يحظى بعملية «فتق» أكثر مني ومن زملائه! كثيراً ما سمعته ينافق «النائب» الذي لا يكبرنا في العمر أو في الوظيفة إلا بعام واحد من أجل أن يقرضه كتاباً أو يدعه يلقي نظرة في «المنظار»، ويكذب.. يكذب باستمرار وبلا سبب وبطريقة ساذجة مكشوفة تدفع للاشمئزاز. ولم أصدق الاشاعة التي أطلقتها الحكيمة عليه إلا بعد أن رأيت بعيني.. رأيت كيف يحضر المرضى في «كشك» الغيار ويساومهم مساومات رخيصة على أن «يتوصى» بهم في العلاج، ويأخذ في مقابل هذا بضعة قروش هي كل ما يمتلكه المريض الراقد في عنبر المستشفى.

أكثر من هذا لاحظ عليه زملاؤنا في «بيت الامتياز» الذي نقيم فيه، أنه ما من مرة دخل فيها حجرة أحدهم إلا واختفى بعد خروجه شيء من محتوياتها ـ أي شيء ـ ولو كان فرشاة أسنان قديمة، حتى أطلقت في

البيت حكمة تقول: إذا حياك شوقي باليمين فتحسس محفظتك باليسار وعلى عادة الأطباء حديثي التخرج كثيراً ما عقدت مؤتمرات لمناقشة حالة شوقي.. وكثيراً ما أجمع الكل على أنه مصاب بالكليبتومانيا أو جنون السرقة.. وكان عسيراً عليّ أن أشهد مؤتمرات كتلك وأن أرى شوقي الذي طالما قدره هؤلاء الأطباء أنفسهم وهم طلبة باعتباره الزعيم والمكافح يصبح ليس محطسخريتهم فقط،وانما محطاشمئزازهم واحتقارهم أيضاً من بين مائة طبيب أو يزيد يصبح هو، الزعيم، أحقرهم وأصغرهم شأناً.

لا أريد أن أسرد كل ما كان يفعله شوقي في سنة الامتياز أو بعدها.. العيادات التي افتتحها والنصب والابتزاز والنظرة الأفعوانية الغريبة التي كان ينظر بها إلى المرضى والناس، وكيف قاطع عائلته بعد التخرج وأبى أن يساعدهم بمليم، وكيف، ومن، والطريقة البالغة الشذوذ التي تزوج بها والتي حصل بها على الدبلوم، و «سعى» حتى عين في هذه الوظيفة في مكتب حكيمباشي المحافظة. لا ولا بأي أسلوب وحشي كان يعامل رواد المكتب، وخاصة رواده من العساكر طالبي الإجازات.. شاهدت مرة عسكرياً يبكي أمامه بدموع حقيقية، يستحلفه ويرجوه ألا يكتب أنه متمارض حتى لا يحاكم ويخصم من مرتبه أيام. ولا يفعل الرجاء والإلحاح، ولا تفعل الذلة والدموع أكثر من أن تجعل شوقي يبتسم وتومض ملامحه في غبطة، خطورتها أنها كانت حقيقية أيضاً.

السؤال الذي لا بد أن يلح على القارىء هنا.. لماذا بعد كل ما ذكرت ظللت مبقياً على علاقتي بشوقي؟

والإجابة صعبة، فصحيح كان شوقي قد تحول من زعيم طلبة إلى كائن مزعج مؤذ أصابني شخصياً بمثل ما أصاب غيري من ازعاج وإيذاء

ولكنني لم أكن أرى المسألة هكذا، ولا أعتبرها حالة «كليبتومانيا»، ولا تغييراً في شخصية شوقي تسبب عن فترة سجنه. كنت وكأنما أرفض أن أصدق أن بضعة شهور من السجن تحيل إنساناً ـ مهما كان ـ من النقيض إلى النقيض. وكأنما أرفض أن أعتقد أن شوقي القديم قد مات وانتهى ولم يبق منه إلا ابتسامة واسعة تدرب على استعمالها، ابتسامة مهما بالغ فيها تبدو دائماً فاترة صادرة عن الشفتين فقط. يقول بها للمريض في عيادته الخاصة أهلاً وسهلاً، ولزوجته صباح الخير، ويرد بها على تحية عبد الله التومرجي، ويخفي بها ملامحه إذا أحرجته بسؤال.. ابتسامة في جملتها تحمل ملخصاً وافياً لحياة ناجحة بالمعنى الفاتر الواسع السطحي للنجاح.. لم أكن أرى المسألة هكذا! كنت لا أزال أؤمن أن شوقي لم يضع ضياعا نهائياً وأن كل ما يبدو من تصرفاته إن هو إلا انعكاسات قشرية محضة صادرة عن قشرة صدأ ألم بشخصيته، وأنها آجلاً أم عاجلاً ستزول والمسألة تتوقف عليّ وعلى مجهودي معه. باستطاعتي أن أتركه وشأنه يغرق ويتلاشى، وباستطاعتي أن أظل محتفظاً بعلاقتنا أحاول بلا يأس أن أعود به مرة أخرى ذلك الكائن الثائر النافع لشعبه وبلده. كان الواقع يؤكد لي أن شيئاً خطيراً قد حدث.. أنظر إلى شوقي وأدقق فيه شخصيته فأحس وكأنه مجروح، لا ليس جرحاً صغيراً في الصدر أو الرأس وإنما جرح جرحاً شاملاً من قمة رأسه إلى أظافر قدمي شخصيته، وأن ما أمامي ليس شوقي، ولكنه الندبة الضخمة التي تخلفت عن الجرح. أنظر إليه وأزداد عناداً وايماناً بأن كل خطأ ممكن إصلاحه وكل جرح ممكن أن يشفى ويندمل. ولم يكن مبعث تفاؤلي هو أملي الخاص فقط. هناك في الغلاف الخامس أو السادس لنفس شوقي من الداخل كانت منطقة لا أستطيع أن أحدد أبعادها أو كنهها بسهولة، كل ما أستطيع قوله عنها أنها

كانت منطقة استماع ربما، أو رغبة عارمة مخنوقة للاستماع لا تجد لها متنفساً إلا من خلالي، أو على وجه أصح إلا من خلال تلك الزيارات المتباعدة التي كنت ألقاه فيها، في عيادته أحياناً وفي مكتبه بالمحافظة أحياناً . . هناك حيث نجلس طويلاً نتبادل أتفه الأحاديث عن مصير الزملاء والكادر الجديد، ولكن كان يحدث دائماً أن يلتفت شوقي مرة إلى الناحية الأخرى وكأنما يخفي علي بهذه الحركة انفعاله، ويسألني عن الحالة سؤالاً أحس معه بتلك المنطقة جوعي تكاد تتشقق ظمأ ولهفة . . وما كنت في اجابتي آتي بالنادر أو الجديد، كنت أتحدث ذلك الحديث الذي نجيده جميعاً في السياسة بأنواعها وأشكالها، وأحلل ما يجري منها في الداخل والخارج . . ومن الصعيد الشخصي المحض إلى صعيد القوى العالمية الرحبة المتصارعة في عالمنا، ورغم أن شوقي كان يرفض دائماً أن يتحدث هو أو يعلن، بل ويتعمد أن يبدو حين أتحدث أنا وكأن لا صلة له بالموضوع أو الحديث، أو ليس له علاقة مباشرة أو غير مباشرة بكل ما يمت إلى كائن أو قوة خارجة عنه. رغم هذا إلا أني كنت ألحظ دائماً أنه رغم كل تمثيله يستمع، ويستمع بلذة ملهوفة ينجح في اخفائها معظم الأحيان . . حتى إذا سكت استثار سكوتي بسؤال جانبي، أو بجذبة نفس من سيجارة أخرى يشعلها ويبتلع دخانها بطريقة من يود أن يطفىء بدخانها ظمأ بلغ درجة الحريق ـ هو الذي طالما ألقى عليّ ونحن طلبة المحاضرات في مضار التدخين ودلالته الخلقية المشينة، هو الذي أصبحت أظافر يمناه ويسراه والعقد الأخيرة من أصابعه بنية محترقة من لون التبغ. وتطول الجلسة وأنا أفضفض عن نفسي بالحديث، وشوقي يفضفض عن نفسه في حذر عظيم بالاستماع. وكثير جدا ما كنت أتأمل المشهد بروح منفصلة محايدة فأرانا فردين من أفراد جيلنا الحائر الذي

حمل الرسالة فوق كتفيه حتى كاد أن يسحقه الحمل، فردان جالسان في حجرة كشف مغلقة، أو في مكتب حافل بالروائح، ندخن بكثرة وكأنما ننوي الانتحار مدخنين، ونشحن المكان بسحب متكاثفة لا نعرف أن كانت من احتراق السجائر أم من احتراق الصدور. ولكنا مع هذا لا نكف بل نمضي نحرق اللفائف وتحرقنا، ونملأ الجو بدخان يضغط على صدورنا لتخرج دخاناً أكثر، وأملنا أن ينجح الضغط المتكاثف المتزايد في افراغها مما تحفل به. . من كتل الحديد والرصاص والمآسي المترسبة في أعماقنا تجذب أرواحنا إلى أسفل وتحني ظهورنا قبل الأوان. ونحن اثنان أبعدتنا المقادير عن جيلنا كما أبعدت جيلنا عن بعضه، وقذفت بنا داخل هذه القماقم المتداخلة من الجدران والأدخنة والمخاوف، وبيننا مطاردة لا تنتهي. أنا ـ الغريق ـ أحاول انتشال شوقي وجذبه، وشوقي يرفض مذعوراً أن ينجو، وأنا أواصل محاولاتي وكأنما تبلورت أهدافي ومعتقداتي في محاولة إنقاذه، وهو كأنما تبلورت رسالته في محاولة إغراق نفسه أكثر، وإذا استطاع اغراقي أيضاً، ويا للسخرية! لقد كنا بالأمس نعمل، وأملنا مؤكد أننا سننقذ الشعب كله، فإذا كل منا اليوم غير قادر أن ينقذ نفسه بالساعات كنا نجلس هكذا لا ننتبه إلى الوقت إلا بمؤثر من الخارج، بليل يهبط أو تليفون ملح يدق، أو حدث غير عادي يقع، كتلك الجملة التي نطق بها عبد الله التومرجي وهو يشير إلى الدوسيه. . جملة لم أكن أعرف أنها ستقودني وستقود شوقي إلى هذا الذي كان ينتظرنا بعد ظهر يوم الصيف ذاك.

٤

لم يقل عبد الله أول الأمر أنه العسكري الأسود. . كل ما قاله رداً على استفسار شوقي:

ـ ده يا بيه مشكلته معقدة وحالتـه حال. . ما لنـا احنـا بيه ما تسيبه للحكيمباشي لما ييجي الصبح يعرف شغله معاه.

كان شوقي في ذلك الوقت مشغولاً بإحدى عملياته الصغيرة. . كان يبحث في دفتر الإشارات التليفونية التي ترسل للمكتب لتطلب توقيع الكشف على العساكر أو الضباط المرضى، وكان يفعل هذا لحكمة ومصلحة. . فقد جرت عادته أن يجرد الإشارات ليختار منها واحدة يكون العنوان المذكور فيها قريباً من عيادته إذا كان يريد الذهاب للعيادة، أو من بيته، ويختارها هكذا لكي يوفر على نفسه ركوب الترام أو الأتوبيس أو استعمال عربته الخاصة، إذ في هذه الحالة تقوم عربة المكتب الحكومية «الاستيشن واجن» بتوصيله خلسة بعد الانتهاء من المهمة. . في محاولة بحثه عن الإشارات عثر على الدوسيه، وبسؤال عبد الله عنه تطوع الرجل بذكر حكاية العواء والهبهبة، وما لبث أن أعقبها بتلك النصيحة. . ونصائح عبد الله لم تكن مجرد نصائح. . كانت في معظم الأحيان أوامر واجبة النفاذ، إذ رغم أنه تومرجي المكتب الذي بالكاد يجيد القراءة

والكتابة إلا أنه لطول عهده بالعمل كان هو الحافظ الوحيد تقريباً لكل لوائح وقوانين القسم الطبي، وبالتالي المرجع الأساسي لحل المعضلات إذا نشبت معضلات، وفتواه هي النافذة إذ كان يثبت في النهاية ومهما ثار الحكيمباشي والأطباء عليه أن رأيه هو الصحيح، وهو الذي ينطبق تماماً مع كل ما جرت به اللوائح والقوانين. . وشوقي بالذات كان لا يناقشه إذ كان أخوف ما يخافه أن تحل الكارثة مرة فيخطىء في حق لائحة من اللوائح أو قانون من القوانين، هو الذي بدا عدواً لكل قانون، أصبحت المسئولية هي عدوه الوحيد اللدود يفعل المستحيل ليتجنبها، ومستعد أن يسير أميالاً إذا كان في السير ما يجنبه فقرة واحدة يتحمل فيها درهم مسئولية. . إلى درجة كان يخيل إلي فيها أحياناً أنه يود لو يشف جسده ويشف حتى يصبح كائناً أثيرياً لا يتحمل مسئولية ايجاد مكان له فوق سطح الأرض، أو نظرة يلقيها عليه انسان. ومع هذا تعجب لتمسكه بالحياة ونهمه إلى الدنيا بطريقة يكاد معها أن يبتلعها ـ لو استطاع ـ داخل جوفه.

أي كائن بالغ التعقيد كان قد أصبحه شوقي!

المهم، انتهزت فرصة النقاش الدائر بين عبد الله وشوقي ومددت يدي وتناولت الدوسيه، ملف خدمة ذلك العسكري. . تناولته وقد انبثق في نفسي حب الاستطلاع الكامن تجاه هذا النوع من الدوسيهات. كثيراً ما رأيتها في أقسام المستخدمين، وقد دمغت بكلمة «سري جداً»، وكثيراً ما أردت تقليبها، ووقف النظام الذي يقضي بألا يطلع عليها إلا الرؤساء ـ وفي حالات الضرورة القصوى ـ حائلاً بيني وبين ما أريد. . رحت أقلب صفحات الدوسيه الكثيرة أكثر من مائتي صفحة في أولها شهادة ميلاد وتوافق مضحك أن أجد أن عباس محمود الزنفلي صاحبها وصاحب الدوسيه قد ولد في نفس العام الذي ولدت فيه، والذي يسبق مولد شوقي

بأشهر. كنت أتصور صاحب الملف عجوزاً أو على الأقل في الأربعين فإذا به لدهشتي من نفس جيلنا الحائر التعس. مضيت أقلب الصفحات.. ما كان أشبه الملف بكتاب ضخم، عن حياة انسان.. كان واضحاً أنها من أولها مضطربة غير مستقرة لم تمش أبداً على الصراط المستقيم. خدمته نصفها الأول كله جزاءات تتراوح بين الخصم والتكدير وتقارير تمس السلوك (رغم الشهادة المرفقة بالمسوغات والتي يقر فيها اثنان من الموظفين أنه حسن السير والسلوك). ثم فصول أخرى تتعدد فيها حركته وتكثر التنقلات والانتدابات، وينتهي بذلك الخطاب المتوج بشعار مجلس الوزراء الذي يطلب نقله إلى حرس الوزراء. ومن تلك الصفحة لا خصوم ولا انذار، وإنما تفاجأ بقرارات بعلاوات، ثم أمر بترقيته إلى رتبة أومباشي، بعدها قرار آخر بترقيته استثنائياً إلى شاويش، ثم صورة من خطاب شكر وتقدير من وزير الداخلية. ثم صورة قرار آخر بمنحه نوط الواجب من الدرجة الثانية «تقديراً للجهد المشكور الذي بذله في أداء واجبه والتفاني في خدمة مصالح الدولة العليا».

ولكن هذا كله لم يستغرق من الدوسيه إلا أقله، إذ أغلب الصفحات كانت ما تلت.. وكلها طلبات بإجازات مرضية، وخطابات متبادلة بين الحكمدارية ووزارة الداخلية وقومسيون طبي المحافظة مؤرخ أولها في نوفمبر ٤٩ وآخرها بعد سنوات. وبالتحديد في اليوم السابق لذلك اليوم الذي كنت فيه مع شوقي في مكتبه، ورد خطاب أرسلته المحافظة إلى الحكيمباشي تطلب فيه توقيع الكشف الطبي على نفس عباس محمود الزنفلي لاثبات عجزه الكامل تمهيداً لفصله من الخدمة.

وما كدت أنتهي من اغلاق الصفحة الأخيرة حتى كانت أذني تلتقط

أخريات الحوار الدائر بين شوقي والتومرجي، والأخير يقول وكأنه يهم باطلاعه على سر:

- عارفشي حضرتك عباس محمود الزنفلي يبقى مين؟

وقبل أن ينطق شوقي أو يسأل، وجدت عبد الله يقول:

- ما هو ده اللي كانوا بيسموه العسكري الأسود يا بيه. حضرتك ما سمعتش عليه واللا ايه؟

ولم يجب شوقي.. كل ما حدث أنه ثبت على وضعه وثبتت ملامحه على تعبيرها السابق.. لم يقل شيئاً ولم يدهش أو يستنكر، ظل هكذا وقتاً ثم دون أن يغير من وضعه أو يتحرك شيء في ملامحه مد يده وتناول مني الدوسيه ومضى يقلب صفحاته صفحة صفحة وبامعان تقرأ عيناه كل سطر.. وأيضاً دون أن يختلج وجهه أو لسانه أو وضعه بانفعال. كم من الوقت مضى على شوقي وهو يقرأ، الله وحده يعلم! إذ كنت في الحقيقة مشغولاً عن الوقت بما هو أعظم، بالاهتمام البالغ الذي لفرط خطورته غير باد على شوقي ،ولكنك تحس وجوده، تكاد تلمسه، تعتقد لا بد أن شوقي تحول إلى كتلة اهتمام رابضة تقرأ وتقلب الصفحات.. أول مرة في علاقتنا طوال سنين أراه يكرس نفسه كلية لشيء، فنفسه دائماً كانت كالأشعة المارة من خلال عدسة مقعرة لا تسقط على شيء بذاته أو لذاته ولا تتركز في نقطة، وكلما حاولت تبددت وتفرقت، وكأنما هناك تنافر مشحون بين أجزائها يمنعها أن تلتقي أو تتوحد. كان دائماً معك ومع نفسه ومع أشياء أخرى لا تمت بصلة إلى الزمان أو المكان.

٥

الحقيقة كنت أشعر بسرور صبياني الطعم وأنا جالس بجوار شوقي في المقعد الخلفي للعربة الحكومية، وسائقها يستغل سترته الرسمية في ارتكاب ما شاء من مخالفات، وفي المضي بسرعة مجنونة غير حافل بشتائم المارة والسائقين، أو مجيباً عليها في سره ـ تأدباً ـ بأقبح منها. وبجواره عبد الله التومرجي لا يكف عن الحديث، ولا يكف عن الحاحه المقيت بأن نترك الموضوع للغد وللحكيمباشي والضيق بالمهمة باد عليه. وكأن الكشف على زميل له «لتشريكه» وفصله مسألة تزعجه، ويأبى أن يشهدها أو يكون طرفاً فيها. . والصامت الوحيد تماماً فينا كان شوقي. كان قد نحى الابتسامة التي كان يعقم بها ملامحه كي لا تنم عن انفعال أو حماس، ومضى ـ ربما للمرة الأولى وأنا معه ـ يفكر ولا أظن أنه كان يفكر، ولكن عقله بالتأكيد كان يقوم بعمل ما في تلك الدقائق التي استغرقتها الرحلة إلى «قلعة الكبش» حيث كنا ذاهبين. . عمل جاد خطير ما في ذلك شك، تحس إذا نظرت إليه أنه يحرك أعماقه ويرجها بطريقة تئن معها أنيناً صامتاً وتتلوى، تلك التي قد ظننت أنها مثل قلب الشجرة أو النخلة حين يجف قد يبست من زمن وماتت. . .

ولم يكن سروري بغير مبرر. كنت رغم كل ما كتبته الجرائد عن

العسكري الأسود لا أكاد أصدق احتمال وجوده الحقيقي، بل حتى لم أكن قد صدقت عبد الله وهو يؤكد لنا أن«عباس»هذا هو العسكري الأسود. لأمر ما كنت أوقف ايماني بوجوده وحقيقته إلى أن أراه رأي العين وأحادثه ولهذا ارتضيت، بل طلبت من شوقي أن أصحبه، ولم تكن المرة الأولى التي أصحبه،ولكنها الأولى التي أطلب فيها أن أصحبه. ولم يكن الأمر مجرد حب استطلاع، كان أكثره أن العسكري الأسود، مثله مثل السجون والإرهاب والأمجاد والكفاح المسلح، علامة رئيسية من علامات جيلنا كيف تفوتني رؤيتها؟

أردت أن أسأل شوقي عن حقيقة دور العسكري الأسود ـ هو الذي سجن ولا بد أن لديه الحقيقة. أردت رغم كل تجاربي السابقة الفاشلة معه، إذ في كل مرة كان يرى السؤال يتراقص على لساني أو يتخذ شكل الكلمات، كنت أفاجأ بنظارة الخيل التي تهبط في الحال ومن مكان خفي وتجعله يشغل نفسه مشغولية عظمى بما في يده أو بالمريض الذي يسحب له السائل من بطنه. وبتلك الطريقة يبدو وكأنه ينكر، ليس علي وإنما على نفسه، أنه سمع مجرد السؤال. . هذه المرة ورغم الظرف الحاد تنكر أيضاً للسؤال ولاذ بالعملية الغريبة الدائرة في عقله. ولكني لم أيأس أعدت السؤال وألححت، وظللت أبسط ما أريد وأسهله إلى الحد الذي أصبح مجرد أن أعرف أن كان قد قدر لشوقي في أثناء سجنه أن يرى العسكري أو يمر به. وراحة عميقة ممزوجة بالدهشة والوجل والاستنكار، وأوله استنكار نجاحي، هو ما أحسسته وشوقي أخيراً ينطق ويجيب:

ـ أيوه. . حصل.

راحة كراحة وكيل النيابة حين يظفر، لا بعدليلة ،وإنما بعد مئات

الليالي، بعد سنين، ببارقة كلمة ينطقها شاهد، أو يلمح شبح اعتراف وفي الحال سألته:

ـ يعني كلام الجرائد كان صحيح؟

قال شوقي بعد وقفة تردد:

ـ جايز. . إنما العسكري الأسود كان بالنسبة لنا شيء تاني. . شيء غير الحاجات الجنسية والكلام الفارغ اللي سمعت عليه. . شيء تاني خالص.

وهذا الشيء الثاني هو ما رحت مستعملاً كل مقدرتي على الاستدراج أسأل شوقي عنه، وأزداد الحاحاً. ساعتها لم أظفر منه إلا بكلمات قليلة ومعظم الأحيان أصوات مدغومة صادرة عن انسان مشغول بما هو أخطر مما تنقله له أذناه، أو كل حواسه. ولم يقدر لي أن أعرف إلا فيما تلا ذلك من أيام، وإلا من النتف المتفرقة التي استطعت أن أختلس النظر إليها في البحث السري الذي انشغل شوقي بكتابته وتعمد أن يخفيه عني. ولا أريد أن أصور الأمر على أن ما عرفته كان التفسير الكامل لسلوك شوقي الغريب بعد خروجه من السجن، فالحكاية حينئذ تبدو ساذجة كحكايات الأفلام وتمثيليات الإذاعة. انسان يدخل سجناً بشخصية ويخرج بشخصية أخرى مختلفة، ويظل سر هذا التغير يؤرق صديقاً له إلى أن يبدأ شيء يحدث وتنفك العقدة، ويتكلم البطل ويفسر اللغز وتنتهي المشكلة.

ليت الانسان كان كذلك، ليته كان كمسائل الحساب أو تمارين الهندسة يخضع لقانون واحد أو تفسره بضع نظريات. . ليته لم يكن ذلك الكائن الذي لا تزيدنا معرفتنا به إلا تصعيباً لمهمة فهمه، وأي حقيقة نكتشفها عنه ويخيل إلينا أننا بها وصلنا إلى سره لا تفعل أكثر من أن تضيء

الطريق إلى مناطق كنا نجهلها. . مناطق في حاجة إلى اكتشافات أخرى لا يفعل اكتشافها إلا أن يزيد من حاجتنا لكشف حقائق أكثر. . التغير الذي حدث لشوقي لم يكن من ذلك النوع الذي يرجع لسبب معين أو وراءه سر، ولم يكن سكوت شوقي وعزوفه عن الحديث في السياسة أو مزاولتها مثلاً بسبب عقدة نفسية تكونت له أو خوف. كان ما حدث لشوقي شيئاً آخر، شيئاً يشبه خروج الفراشة من دودة الشرنقة، أو تحول الخشب بفعل النار إلى رماد. . وليس معنى هذا أيضاً أنه كان قد تحلل وفسد بالاختصار كنت قد بدأت ـ خاصة في الفترات الأخيرة ـ أتبين أني كنت على خطأ، وأن محاولاتي «لانقاذ» شوقي كان لا يمكن أن تأتي بنتيجة، إذ كنت أقوم بها باعتبار أن ما حدث لشوقي كان مجرد تغيير أصابه، من الممكن جداً أن يشفى منه. . الحقيقة بدأت أدرك أنها غير ما كنت أتصور تماماً، فشوقي الذي دخل السجن لم يخرج منه، وإنما الذي خرج شخص آخر له مزايا ومضار أخرى،وأقول «شخص»كنوع من التبسيط لا أكثر. فالذي خرج علينا كان كائناً غريباً أخطر ما فيه أنه لا يختلف كثيراً عن شوقي الذي دخل، ولا عن ملايين البشر الذين كان يحفل بهم سطح الأرض حين انضم إليهم شوقي بعد خروجه، فهو يتكلم مثلهم ويغضب ويدبر أمور المستقبل ويحب، وحتى حين تتحاشى الخوض في مواضع بعينها لا يختلف عنهم. . الفرق لا يتضح إلا هناك وبعد طول دراسة ومعاشرة واهتمام غير عادي بالموضوع. . هناك حيث تدرك، مثلما أدركت، أن الخلاف بين شوقي الجديد وبقية الناس يكمن عميقاً، أعمق من طبقات التصوف، في الدافع ربما، هناك تدرك أن شوقي وأن ظل في ظواهره بشرا، فهو في حقيقته لم يعد يمت إلى البشر ولا إلى أنواع

الآدميين المتعارف عليها من عقلاء أو مجانين أو مرضى أو شواذ باستطاعتك أن تقول أنه خرج ليكون نوعاً جديداً قائماً بذاته، إذ قد خرج ليحيا بدافع جديد تماماً على الجنس البشري.. فهو لا يحيا ليتكاثر أو يتطور، وإنما دافعه للحياة كان أن يهرب ويفر، وكأنه لم يعد يرى في الجنس البشري كله سوى جن وعفاريت، همها أن تنقض عليه وتعقره وتفتك به. هم جميعاً شياطين، وهو وحده الإنسان. أو هم جميعاً بشر وهو وحده الشيطان الذي يعادونه ويتربصون به ولن يهدءوا حتى يقضوا عليه.. ومأساته كانت أن عليه أن يظل يحيا على ظهر الأرض مع هؤلاء الذين يخاف منهم ويرهبهم. عليه أن يعاملهم ويتصرفوا في أمره ويتصرف في أمورهم ويصادقهم ويزاملهم، هو الذي ينتفض رعباً منهم. لم يعد لحياته خطة أو ارادة أو هدف بعيد يسعى لتحقيقه ويدفعه للبقاء حياً، دافعه للبقاء أصبح أن يهرب، ليس مجرد هرب بسيط يمكنه معه أن يتنصل من تبعات الإنسان العادي فيطرحها جميعاً ويسير كالمجاذيب بلاد الله لخلق الله. أبداً! عليه أن يهرب وهو موجود بينهم. الفرار حينئذ يصبح عملية معقدة بالغة التعقيد قد تستغرق العمر بأكمله. ما أغربه من كائن فقد أمنه البشري وكأنما عقره كلب من نفس الجنس، وخيل إليه أنه نفذ بجلده من العقرة الأولى فجند نفسه وحياته ليتحاشى العقرة الثانية وأصبح لا يرى في البشر غير قطيع من ذئاب أو كلاب أو شياطين لا يستطيع أن يهرب من أرضها إلى كوكب آخر، أو يعتزلها في جزيرة نائية. قطيع يتربص به في كل مكان، عليه أن يلقى أفراده في كل وقت، ويحادثهم ويربط مصيره بمصيرهم، وعليه أن يفعل هذا دون أن يبدو عليه الذعر عليه أن يسير بينهم كما تمر بالمكان الذي يعج بالوحوش الخطرة ترتجف من الذعر، آذانك منتصبة تتلقى أوهى الأصوات، وكيانك كله مهيأ للجري

في أية لحظة. ومع هذا فعليك أن تخفي كل ما بك، عليك أن تسير وتحيا دون أن يبدو منك أقل الخوف. تسير طبيعياً جداً مطمئناً جداً تؤكد بنظراتك وتعبيراتك أنك غير خائف أومهتم، وأنك مبتسم وأنك فرحان أحياناًوغاضب أحياناً أخرى، وأنك مثلهم بشر، أو مثل الكلاب كلب. بل حبذا لو بدوت أقوى وأقدر وأكثر ثقة بنفسك وقواك.. حياته لا هدف لها ولا خطة ولا ارادة لهفيها،ولا يريد من خلالها أن يصل إلى أي مأرب بعيد أو قريب، إذ مأربه الوحيد أن يتجنب الخطر المتربص به كل لحظة، فيحيا اللحظة بلحظاتها، ويبني حياته لا عن طريق أعمال يضعها فوق بعضها ليكون هرماً شخصياً، ولكنه يبنيها إلى أسفل.. يحفرها تحت الأرض كجحور متشعبة ملتوية معقدة كلما أحس في جحر منها بالخطر فر وانطلق يكون جحراً آخر. وغاية وقتية سفلية هروبية أخرى.. أنه يعرفك ويقيم معك الصداقة أو الزمالة امعاناً في الهرب منك، ويجاذبك أطراف الحديث ليلهيك عن نفسه، وينافقك أو يصنع معك المعروف لكي يرشوك ويتزوج كي يهرب من مسئولية عدم الزواج، ويعمل في قومسيون طبي المحافظة لكي يفر من البوليس والمباحث حتى ولو كان الفرار إلى قلب البوليس. وهو لادراكه أنه محاصر بالجنس الخطر في كل زمان ومكان يواجهه وحيداً، إذا صرخ أو استغاث فلن يخف أحد لنجدته. بالعكس سيدركون جميعاً أنه وقع ويلتهمونه حياً. لهذا فاعتماده الكامل على نفسه هو أصدق أصدقائه، وصدره أنسب مكان لأسراره، وعليه أن يعمل جاهداً لكي يبقى أكبر جزء من نفسه، بل كل نفسه ورغباته وحذره وخوفه بعيداً جداً عن الأنظار، داخل نفسه. وعليه أيضاً ألا يبدو وكأنه يخفي شيئاً حبذا لو بدا كثيفاً لا يظهر منه شيء على الاطلاق! حبذا لو احتوى كل دنياه داخله واختفى بكل ما يحتويه عن الدنيا! كائن غريب ليس له نفسية

المجرم مثلاً، فهو لا يكره الناس أو يحقد عليهم ولا يريد أن يؤذي أحداً أو حتى كالمعقور المصاب بداء الكلب البشري همه أن يعقر الآخرين. أبداً، همه فقط أن ينجو، وإذا اضطر لايذاء أحد فهو يفعلها بخبث شديد ويختار بعناية تامة ضحيته. ولا يفعلها انتقاماً أو ليخيف بها أحداً ممن يحيطونه من المردة والجن، ولا حتى يقوم بالايذاء دفاعاً عن نفسه كما يفعل أي مجرم. أنه يؤذي فقط لكي يموه على من حوله من جان وكلاب ويثبت لهم انه جني هو الآخر. ليتنكر في زي الشياطين عسى أن ينجح في إخفاء حقيقة نفسه عن الأنظار، تلك الحقيقة التي لا يعرفها سواه. آه لو عرفوها! آه لو أدركوا رغبته العارمة في البقاء حياً! رغبة أكبر من رغباتهم مجتمعين، رغبة عارمة في الحياة يؤرقها دائماً الخوف الهائل المجنون من الأحياء.

ذلك هو الكائن الذي خرج من السجن وله نفس الاسم «شوقي». الكائن الذي له كل مظاهر البشر، وفي قرارة نفسه لا يمت بصلة إلى البشر، بل يستعمل عقله البشري وكل ما منحته الحياة للانسان من مزايا ليفر من البشر، ليبعد، ليختلف جذرياً عنهم، ليبذل طاقات خارقة كي يعمق هذا الاختلاف بمثل ما يبذل من طاقات خارقة أخرى كي يخفيه وكي يبدو في الظاهر أكثر شبهاً بغيره من الناس، وأقرب إلى البشر من البشر نفسهم.

من حقهم أن تسألوني كيف عرفت، وكيف وصلت إلى حقيقة شوقي واكتشفتها هكذا؟ ولن أبالغ وأدعي أني أدركت كل هذا بنفسي ومجهودي فصحيح أنني بذلت جهداً خلال معرفتي الطويلة به كي أخمن أشياء وأبحث وراء المعاني المختفية لكلماته، وأدقق في تصرفاته التي كانت ـ مهما أجاد في اضفاء الأقنعة الطبيعية عليها ـ تتناقض أحياناً وتتضارب

وينتج عن تضاربها شرارات تضيء وتدفع المهتم إلى الاستقصاء والتنقيب وجمع الدلالات والخروج بنتائج . .

صحيح كان شيء كثير من هذا قد حدث، ولكن الصورة لم تكتمل في خاطري، ولم أبدأ أدرك وأعي أني كنت في ظنوني وتخميناتي على حق، إلا عن طريق لم يحدث أن خطر ببالي أبداً، من مصدر لم يكن بينه وبين شوقي أدنى صلة. فهل يمكن أن يتصور أحد أن توجد صلة بين الدكتور شوقي وبين «نور» زوجة عباس محمود الزنفلي، أو على وجه أصح ما روته نور عن عباس؟ أيمكن أن يتصور أحد أنه خلال قصة تحكيها عن زوجها تبدأ الخيوط المهملة في ذهني والناقصة والمنسية تتكامل وتنتظم وتتضح، بحيث ما أن تنتهي حتى أكون قد وصلت إلى التصور الكامل لذلك الكائن غير البشري الذي أصبحه شوقي؟!

ولكنها الحقيقة، ولنعد إلى ما حدث . .

٦

وإن يكن شوقي قد لاذ ساعة أن سألته، بالعملية الغريبة الدائرة في عقله، إلا أني في مرات أخرى بعد حادثة اللقاء ظفرت من بعض زملائه القدامى الذين التقيت بهم صدفة عنده.. ظفرت بأشياء، فيها الغموض أيضاً. ولكنها رغم غموضها استطاعت أن تحدد الملامح الرئيسية لدور العسكري الأسود في حياة شوقي وزملائه.. دوره الخطير الثاني الذي لا يمت بصلة إلى الاشاعات الجنسية التي أطلقتها بعض الصحف عليه حين انكشف أمره، وبعد زوال حكم الارهاب وبداية مراجعة الجرائم التي ارتكبت في ظله. كان عمل عباس محمود الزنفلي هذا أن يضربهم.. يضرب بعضهم لكي يعترف، وآخرين لمجرد الضرب وهد الكيان.. الضرب بمختلف أشكال الضرب، بالعصى، بالكرابيج، بالحذاء بالنبوت، باليد العارية المجردة. ولم يكن أسود كما وصفته الصحف وأفاضت، كان فقط غامق السمرة ومن الصعيد، وكان مجرد مرآه بالهالة المحيطة به من أبشع القصص يثير الذعر في القلوب. كان طويلاً أطول من قامة الكثيرين،ولكنه ليس فارع الطول، وكان يبدو دائماً مزهواً بنفسه وبقوته حتى على زملائه. إذا سلم على الواحد منهم ظل يضغط على يده ـ لمجرد الضغط ـ حتى يتأوه صارخاً ويجثو. وحين يضرب كان من يراه

لا يظن أبداً أنه يمت إلى الانسان أو الحيوان بصلة، بل ولا حتى للآلة. فالآلة لا تبدو على وجهها المتعة المتوحشة وهي تضرب. ويا للحظات قدومه ودخوله العنبر ودوران مفتاحه في القفل، كانوا يعرفونها تماماً وباستطاعتهم أن يميزوها عن غيرها حتى في الحلم، ويستيقظون ـ رغم خفوتها ـ على وقعها. ومع كل دورة من دوراتها تدور دوامات سريعة في صدر كل منهم يسقط فيها قلبه ويهوي.. ترى من عليه الدور؟ صوت خطواته وهو يجتاز الفناء الأسفل! التسمع الرهيب لو قعها! آذانهم وكيف تعلمت، علمها الذعر الأعظم، أن تتركز فيها الحياة كلها ويتضخم دورها ليصبح كل العقل، ولتستطيع أن تميز بين الخطوات الذاهبة إلى زنزانة ٧ في الدور الأول والأخرى المتجهة عبر الفناء إلى السلم حيث الدور الثاني. ومن أول وقع لأول خطوة على أول سلمة عليها أن تعرف إلى أي دور في نيته أن يصعد. فإذا اختار الدور عليها أن تدرك في ومضة خاطفة أي الزنازن يقصد، كي تعد نفسها إما إلى الرعب الهائل المقيم، أقصى درجات الرعب، وإما إلى استرخاءه مرعوبة هي الأخرى وتنهيدة حمداً لله.

ويا لخسة ضربه! في الحياة العادية حين يتشابك الناس ويتضاربون ليس هذا بضرب، فاحساس المضروب أن باستطاعته أن يرد الضربة يخفف كثيراً من وقع ما يتلقاه، والألم الذي ينتج عنها يتبخر في الحال ويستحيل إلى حافز يدفع صاحبه للهجوم والانقضاض. بالاختصار أنت لا تشعر بالضرب حين تكون حراً أن تردّه.. أنت تشعر به هناك حين يكون عليك فقط أن تتلقاه ولا حرية لك ولا حق ولا قدرة لديك على ردّه.. هناك تجرب الاحساس الحقيقي بالضرب، بألم الضرب، لا مجرد الألم الموضعي للضربة أو الألم العام الناتج عنها، إنما بألم آخر مصاحب

أبشع . . أقوى، ألم الاهانة، حين تحس أن كل ضربة توجه إلى جزء من جسدك توجه معها ضربة أخرى إلى كيانك كله، إلى احساسك وكرامتك كإنسان. ضربة ألمها مبرح لأنها تصيب نفسك من الداخل اصابة مباشرة لا يحجبها أو يخفف منها جلد أو لحم أو عظام أو حرية أو حق الانسان أن يتصرف كالانسان ويرد، وهذه كلها دروع لو تعلمون عظيمة. إن حرية الانسان. . حقه أن يرفض أو يقبل أو يرد الاعتداء، جزء لا يتجزأ من جسده وكيانه ولحمه وجلده وأنسجته الواقية الحية. هي وليست ملابسه أو جدران بيته التي تحفظ عليه ماء حياته كإنسان، وتحميه. وهي التي إذا انتزعت منه لا يموت كما يحدث للسلحفاة إذا انتزع غطاؤها، ليته كان يموت، ولكنه يبقى إنساناً منزوع الحق في حماية نفسه والدفاع عنها، فما بالك إذا كان يرغم على أن ينتزع هو بنفسه هذا الغطاء، وتجبره القوة الغاشمة على السكوت، على تلقي الألم والسكوت، على التنازل عن انسانيته وحتى عن خصائص الحيوان فيه والسكوت؟ حين يستحيل إلى كومة عارية من لحم خائف مذعور لا تستطيع أن تعض أو ترفس، عليها أن تتلقى الألم وتسكت عليه، والسكوت على الألم أشد إيلاماً وإيذاءً من الألم نفسه، خاصة إذا كنت أنت من تتولى اسكات نفسك. . الضرب هذا النوع من الضرب، حين لا يبقى أمامك لكي تمنع ألمه وعاره إلا أن تحتمل وتصبر، أو تقتل نفسك وتنتحر، عمل لا يستطيعه ويقدر عليه معظم الناس. وحتى إذا قدروا فقانون الحياة نفسه يرفضه ويمنعهم من إتيانه، إذ كيف يعقل وأنت في موقف تدافع فيه عن نفسك ووجودك أن تشرع في قتل نفسك ومحو وجودك؟ بالعكس، إن أبشع ما في الأمر أنك لا تحتمل فقط وتصبر، ولكنك تزداد استمساكاً بالحياة، وتصل بك حلاوة الروح إلى درجة مخجلة في شدتها وقوتها. وهكذا في مقابل كل ضربة

هائلة الألم عارمة القسوة مهينة تتلقاها من الخارج، تنهال عليك من داخلك وذات نفسك ألف لعنة، ألف طعنة، ألف إحساس مخجل مهين تمزق أحشاءك وتذيب كماء النار روحك، لأنك لا تموت ولا تريد الموت ولا تزال حياً تتمسك ذليلاً بالحياة.

والأبشع هو مرآه.. مرأى الزنفلي عباس... العسكري الصعيدي الأسود.. وهو يضرب، ومنظره وهو يستمتع بتخريب كائن حي وانسان والمضروب يتحول أمامه إلى كتلة اللحم المذعورة التي تصرخ في فزع أعمى فلا يفعل مشهدها أكثر من أن يغريه بالضرب أكثر، والتمتع بلذة الهدم أكثر، فيمضي يضرب ويضرب سعياً وراء الفرحة الكبرى، كمن هدم جزءاً من بناء ويسعى بمتعة وحشية كي يأتي عليه تماماً.. الضرب ذلك النوع من الضرب، حين يتحول المضروب إلى أنقاض إنسان مذعورة، أنقاض تتألم، وبوعي تحس بنفسها وهي تتقوض إلى أسفل وبإرادتها الخائفة تمنع نفسها من أن ترد. ويتحول فيها الضارب إلى أنقاض إنسان من نوع آخر، وكأنه إنسان يتهدم إلى أعلى، يسعده الألم الذي يحدثه في ابن جنسه، ويستمتع بإرادة، وبإرادة أيضاً يقتل الاستجابة البشرية للألم في نفسه فلا يكف إلا ببلوغ ضحيته أبشع درجات التهدم والتقوض، وبلوغه هو أخس مراحل النشوة المجرمة التي لا يستطيعها من المخلوقات جميعها ولا يستمتع بها غير الإنسان المنحط في الإنسان.

٧

كنا قد وصلنا في رحلتنا إلى حارة لا تسمح بمرور العربة، رغم كل محاولات السائق لاستعراض براعته وارغامها على المرور، فهبطنا. وبينما وقف السائق يذب عن الاستيشن واجن جيوش الأطفال التي تجمعت عليها، سرنا نحن الثلاثة.. عبد الله بنفس قبقابه يحمل الدوسيه وحقيبة الكشف ويرينا الطريق، وشوقي بجواري، ومع كل خطوة يتضاعف شغفي وحب استطلاعي لرؤية هذا المارد الأسود الذي أرعب صفوة بأكملها من أبناء جيلنا الموعود. تراه كيف يبدو وقد دالت دولته من زمن وضاق عليه المصير؟ شغف جعلني أسهو عن شوقي وأصمت مثلما صمت، وأرحب بمحاولات عبد الله للتكاسل حتى يوازينا ويلقي في أسماعنا بجملة أو بذكرى يحملها لعباس محمود الزنفلي. كان واضحاً أن تأففه من مهمة تشريك زميل له قد انتهى أو كاد، وكان واضحاً أيضاً أنه وقد ذهب الجرح عاد ليأخذ دوره المفضل، دور العارف بكل شيء، الحريص على أن يرينا أنه حتى في العسكري الأسود يعرف ما لا نعرف، ويتطوع أيضاً بالنصيحة وبتقديم المعلومات.

ـ دا شاف عز يا بيه ولا العز اللي شافه فاروق.. دا كان يدخل المحافظة ناقص يضربوا له نوبة سلام.. كان يقدر ضابط من الضباط

يكلمه وهو قاعد. . كان ينقله على طول. . حد منا كان يستجري يبص له واللا يهوب ناحيته؟ دا مرة والله العظيم وشرفك إنت يا سعادة البيه وقع منه قدام عيني دي نص ريال ما رضي أبداً يوطي ويجيبه. . والله لما كنت تشوفه راكب جنب سواق رئيس الوزراء، واللا دولة الباشا. . وكان جبار. أعوذ بالله. . والله بعيني دي مرة شفته قفلوا عليه الأوضة اللي في الدور الثاني بتاع المحافظة اللي قصاد المكتب الطبي على طول هو وواحد من السياسيين، وقعد يضرب فيه من صباحة ربنا، والجدع يقول آي!. . ولا هو سائل فيه، ولغاية ما روحنا أحنا الساعة خمسة وشرفك سبناه بيضرب فيه. .

ـ بطل كلام يا عبد الله. . البيت فين؟

كان القائل شوقي. فوجئت وفوجىء عبد الله أيضاً بصوته يرتفع بالكلمات أعلى مما يجب بكثير، صوت لا أذكر أن شوقي تحدث به أمامي أبداً. كان كلامه دائماً يخرج وكأنه لا يريدك أن تحسب أنه قائله، صوت جعل عبد الله يسكت في الحال وترتد إلى وجهه تلك الصرامة النظامية التي كان كثيراً ما يرفعها أمام الدكاترة الشبان. . ونظرت إلى شوقي، لم يكن عابس الوجه أو مقطب الملامح. كان يبتسم بطريقة غريبة وكأنه يبتسم بنصف وجهه الأسفل فقط ابتسامة من يستمع إلى هاتف بعيد. قلت له هامساً:

ـ ايه. . افتكرت حاجة؟

بنفس الابتسامة قال:

ـ أبداً. . ح افتكر ايه؟

وهممت بالعودة لتأمل الدكاكين التي نمر بها، والاطفال وهم

يتجمعون حول موكبنا. ولكني بهت حين وجدت شوقي يتخلى فجأة عن وقاره التقليدي ويمسك بذراعي ويجذبني بعصبية قوية ناحيته، ويهمس في أذني كطفل قرر لأمر ما أن يفضي إليّ بسر:

ـ إنت عارف مين اللي كان بيضربه العسكري الأسود في المحافظة ده م الصبح للمغرب؟ عارف مين؟

والتقت أبصارنا لومضة كنت خمنت فيها الاجابة، وبينما أشعة ضاحكة سعيدة تخرج من عينيه خرجت كلمة لتؤكد:

ـ كنت أنا..

وآخر ما كنت أتوقعه حدث، إذ مرة أخرى وجدته يترك يدي وجانبي ويميل ناحية عبد الله ويقول:

ـ هيه. وايه كمان يا عبد الله سمعته عن عباس الزنفلي؟

ونظر عبد الله إلى رئيسه نظرة تساؤل انقلب إلى قلق وعدم ارتياح وسكت كأنما خوفاً.

وقال شوقي بلهفة وكأنما يستحثه:

ـ ايه سمعته كمان؟ قول.

وكأنما أيقن عبد الله أخيراً أنها فرصة، فاندفع يتحدث ويدلل على صدق أحاديثه بأنه أحياناً رأى بنفسه، وأحياناً أخرى جاءته الأنباء من صاحب أو زميل.. كيف رآه رئيس وزراء ذلك الحين في المحافظة مرة وأعجبه فضمه لحرسه، وكيف أدرك من رؤيته له واحتكاكه به أنه ضالته المنشودة، وأن له في القسوة وتحجر القلب باعاً، فأعطاه هدية للبوليس السياسي. وكان عباس نعم الهدية، فمن بين جميع الذين كان يعهد إليهم بضرب السياسيين كان هو أكثرهم توحشاً وتفانياً لا في تنفيذ الأوامر فقط

وإنما في اختراع وسائل أقسى وأنجع للتنفيذ. وكانوا يقولـون أنـه حين يضرب يفقد وعيه وصوابه ويصبح كالسكران أو المجنون إلى درجـة لم يكونوا يجرءون على تركه وحده مع الضحايا، فيلازمه في عملية الضرب رقيبان عملهما التدخل في الوقت المناسب لانتزاع المتهم حتى لا يفتك به عباس. وكانوا لا يستطيعون استخلاصه إلا بصعوبة وإلا رغماً عن أنف عباس، وأحياناً بالتكاثر عليه وشل حركته وتكتيفه. ولهـذا كان الرقيبـان يختاران دائماً من عساكر أقوياء أشداء. ورغم هذا ففي مرات كان يحدث أن يثور عباس عليهما ويأبى تسليم الضحية وينهال عليهما ضرباً إن حاولا منعه. . وكان يأتي في الصباح مع الباشا في عربته، وبعد انتهاء مهامه في سجن الاستئناف والمحافظة، وأحياناً نادرة في نفس غرفـة رئيس البوليس السياسي، كان يعود ليركب بجوار سائق عربـة رئيس الـوزراء في أثنـاء موكب العودة، وقد تمنطق بالمسـدس الضخـم ذي الـكردون الأحمـر. ويقولون أنه كان في بيت رئيس الوزراء كأحد أهله، يأكل هناك، ويأخذ البقشيش من الهانم الكبيرة، ويجود عليه الباشا بالمنح السـخية وعلـب السجاير الفاخرة، والعهدة على الرواة، ولكنهم كانوا يقولون أن الباشـا بالذات كان معجباً أشد الاعجاب بقوامه الفارع المستقيم، وكان يعتبره نموذجاً للرجل الكامـل. وكثيراً ما كان يأمـر بإحضـاره أمـام ضيوفـه في الصالون، والأجانب منهم بصفة خاصة، ليفرجهم عليه، ويجعله يقف يستعرض قوامه وبناءه وعضلاتـه أمامهـم، فخـوراً به باعتبـاره اكتشافـه الخاص، وكم من تأوهات كانت تصدر عن السيدات الزائرات لمرآه. .

وإلى هنا لا أدري لماذا سكت عبد الله عن حديثه، ربما لادراكه أنه تكلم أكثر مما يجب أو فيما لا يجب، ربما لفراغ ما في جعبتـه، ربمـا للنظرة المختلسة التي ألقاها على الدكتور شوقـي ورأى منهـا أن شغفـه

بالاستماع كان قد هبط إلى درجة الانصراف عنه، وعنا كلية، وعـاد مرة أخرى يبتسم بنصف وجهه الأسفل ابتسامة من يحاول الإنصات إلى هاتف بعيد.

٨

كان الباب الذي أوقفنا عنده عبد الله التومرجي لا يمكن أبداً أن يمت لبيت، فهو لا يشبه بيوت المدينة الفقيرة، وكذلك لم يكن كوخاً أو داراً من دور القرى المبنية بالطين. لكأنه الحلقة المفقودة بين الكوخ والبيت ومنازل القرية والمدينة. ولم نكن قد وصلنا إليه إلا بقطع عدد لا يحصى من الأزقة والحواري، بعضها تهبط إليه بسلالم، وبعضها تصله بعد أن تجتاز أكواماً عالية من تراب، هي في الحقيقة أطلال بيوت تهدمت وسقطت ولم تجد أحداً يزيل أنقاضها وبقاياها، فتحولت إلى تلال تسد حارة أو تصنع هضبة بين شارعين.

دق عبد الله الباب، وطال دقه دون أن نظفر بجواب حتى خيل إلينا أن لا أحد هناك.. وبدأنا نشك أن يكون هو البيت المقصود، ولكن عبد الله راح يؤكد لنا أنه لا يمكن أن يكون قد أخطأ، وزيادة في التأكيد مضى يدق بجماع يده، وخيل إلينا أخيراً أننا نسمع أصواتاً مختلطة في الداخل. وارتفع دق عبد الله حتى وجدنا الباب تحت تأثير الدق ينهار وينفتح من تلقاء نفسه، ومن الباب المفتوح رأينا صالة واسعة كفناء دوار عمدة أقيم في قلب القاهرة، صالة خالية من كل شيء إلا من كنبة بلدي «شلتة» أو مساند تحتل أحد الأركان، وفي وسط الصالة تقريباً «طشت» غسيل مقلوب

تقف عليه دجاجة تنقب بمنقارها في التراب والطين القليل اللاصق بقاعه علّها تظفر بغذاء، فلا يفعل تنقيبها إلا أن يجعل منقارها يرتطم بالطشت الرنان في دقات منتظمة مملة، تصاعد رفيعة ملحة رنانة، لا تفعل أكثر من أن تزيد الكآبة في الصالة الواسعة الخالية.

لم يبق الحال هكذا ولا بقينا واقفين مترددين بين العودة والبقاء طويلاً، فقد فتح باب جانبي وخرجت منه امرأة نحيفة قصيرة بيضاء ذات عيون سود غائرة كعيون نساء شمال الدلتا ومنطقة البحيرات، وإن كان الوشم المثلث تحت شفتها السفلى على ذقنهاعلامة صعيدية أكيدة.. عيون فيها بريق يفهمه الذكر وحده، ولكنها هزيلة شاحبة بالتأكيد لا تزيد نسبة الهيموجلوبين في دمها على الربع،وفي وجهها «قوبة» في حجم الريال.وكانت حافية،قدماهاصغيرتان كأقدام الأطفال أو الصينيات، ترتدي في عز الصيف جلباباً كزي الفلاحات من الكستور. جلباباً مهرأ يظهر قميص نوم أصفر نظيفاً. خرجت من الحجرة مندفعة وكأنما هاربة من شر وحين لمحت الباب الخارجي مفتوحاً ورأتنا، ثلاثة رجال طوال يسدون فتحته شهقت، وفي الحال اختفت داخل حجرة أخرى، وتركتنا واقفين نعجب ونقلب الأنظار في الصالة، بينما الدجاجة التي كان قد أفزعها خروج المرأة ما لبثت أن عادت بعد اختفائها تعتلي الطشت، وعاد منقارها يصدر ذلك الدق المنتظم الرنان الكئيب.

وبزهق رفع عبد الله كفه وأهوى بها على الباب المفتوح في ضربة قاصمة، انزعجت لها الدجاجة، وشتتت شمل السكون، وارتفع صوته فارغ الصبر مزعجاً هو الآخر يقول:

ياللي هنا.

وفتح الباب وخرجت المرأة الصغيرة وقد ارتدت ثوباً مهلهلاً أسود

بينما لفت رأسها بثوبها الكستور الذي كانت ترتديه، ومضت ناحيتنا تتعثر في مشيتها وتقول:

ـ اتفضلوا.

وباختصار، وقبل أن تصلنا أو تشرع في الدخول كان عبد الله قد شرح لها السبب في حضورنا، ولدهشتي وجدته قد ضمني إلى البعثة وأخذ يتحدث عنا باعتبارنا «قومسيون طبي المحافظة» وقد جاء «بكامل هيئته».

واستغربت أن تفهم المرأة كل شيء لأول وهلة. لا بد أننا لم نكن أول «قومسيون» ندخل البيت وأن بدا واضحاً أننا آخرهم.

وحين انتهى من إخبارها لم تفعل أكثر من أنها أطرقت مستسلمة، ومرة أخرى قالت:

ـ اتفضلوا.

ـ انتي مراته؟

ـ أيوه يا سيدي.

ـ وهوه فين؟

ـ نايم جوه.

وللمرة الثالثة قالت:

ـ اتفضلوا.

وبلهجة آمرة قال عبد الله:

ـ قدام البهوات.. وزيهم السكة.

ولكنها بدلاً من هذا وقفت لا تعرف ماذا تقول، وأخيراً قالت مشيرة إلى الكنبة في ركن الصالة:

ـ بس والنبي تستريحوا هنا دقيقة.. دقيقة واحدة.

ولم نعرف لطلبها هذا سبباً. ومع ذلك وجدنا أنفسنا نأخذ طريقاً إلى ركن الكنبة، وبينما قررت أن أخضع للأمر الواقع وأجلس آثر شوقي أن يظل واقفاً، وبالتالي أجبر عبد الله أن يظل كذلك.

وكانت المرأة قد تركتنا ودخلت الباب الأول، وسمعناها تتحدث دون أن يجيبها صوت، ثم رأيناها تخرج وتختفي في الحجرة الثانية وتحضر شيئاً تواريه في ثوبها عنا وتدخل به نفس الباب الأول، وتظل خارجة داخلة،ونحن صامتون نتابعها بأنظارنا، والسكون مخيم لا يقطعه سوى دقات الدجاجة المنتظمة على صفيح «الطشت» وقد أصبح لا يزعجها أو يوقفها عن الدق دخول أو خروج.

وأخيراً بدا أن المرأة قد انتهت من رحلاتها، إذ جاءت ووقفت قريباً منا. وقال عبد الله بتأنيب شديد:

ـ مش خلاص؟ الدكاترة مستعجلين.. احنا ورانا قومسيونات تانية كتير.

وأخفت فمها في جلبابها الطرحة وهي تقول:

ـ أيوه.. حاضر.. دقيقة واحدة بس.

وانفجر عبد الله:

ـ هي دقيقتكم ايه.. ساعة؟ واللا باينها يوم!

وظلت المرأة واقفة لا تتحرك ولا تجيب، ثم بدا وكأن هذه الوقفة القصيرة قد أرهقتها، إذ ما لبثت أن سحبت جسدها إلى أسفل وجلست القرفصاء مسندة ظهرها إلى الحائط.

٩

لم نكن نعرف لهذا الانتظار كله سبباً واضحاً، ولكن لا بد كان له سبب. والمحرج في الأمر كان هو الصمت الذي شملنا وامتد حتى ابتلع دقات الدجاجة وأنسانا إياها. ولأمر ما أحسست وكأني مسئول عما نحن فيه من حرج، وعن ازالة هذا الصمت الكئيب. وهكذا بدأت أتحدث إلى الزوجة وأسألها. . حديثاً لم أكن أقدر له أكثر من دقائق قليلة إذ كانت لهفتي الأساسية أن أرى «العسكري الأسود». ورغم أنها بردها على أسئلتي بدأت تجيبني إجابات مقتضبة لا تنطقها إلا بعد تفرس خجل سريع في ملامحي ونواياي، إلا أن اجابتها تلك بدأت تسترعي انتباهي. . وليس انتباهي وحدي، شوقي الذي كنت أدرك رغم انعدام الكلمات بيننا أن لهفته لرؤية عباس لا تقل عن لهفتي، والذي وضح ضيقه من أول لحظة بأسئلتي وإضاعة الوقت بفتح مجال للحديث بدأ هو الآخر ينتبه، ويكاد لفرط متابعته يهم بإلقاء أسئلة أخرى لولا أنه كان يتراجع قبل نطقها ويحجم. وهكذا امتدت الدقائق إلى ربع ساعة وإلى مرحلة بدأت الأسئلة فيها تقلب المواجع على «نور» الزوجة فتبكي وتدمع وهي تجيب. ولكني ظللت أتابع حتى تعدى الحديث مرحلة البكاء إلى مرحلة بدأت تجيب فيها الزوجة بصراحة وصدق، وقلب كأنما تريد فتحه وإفراغه وقد ناء بما

يحتويه، أو ربما اعتقدت أنها بالصراحة قد تخفف الحكم الذي نوشك أن نصدره على زوجها.

وأصبح شغفي باستخلاص كل ما يمكن استخلاصه من «نور» يكاد يطغى على شغفي لرؤية زوجها، بل طغى،وأيضاً لم أكن وحدي.. وجدنا أنفسنا نحن الثلاثة ننسى اللهفة والوقت والرجل الراقد في الحجرة ونستمع إليها. وكأنما عداها هي الأخرى اهتمامنا ونسيت الحاضر والراقد، وراحت تعيش بكيانها كله فيما كان.

والقصة كما استخلصتها من «نور» الزوجة تختلف بطبيعة الحال كثيراً عن قصة «العسكري الأسود» كما تطوع بها عبد الله، وعن صورته كما رآها شوقي، وكل من كان في السجن وقدر له أن يقع تحت طائلته. قصة الفلاح حين يشب قوياً أقوى وأصلب عوداً من كل أقرانه فتصبح له في البلدة شهرة، ويصبح لقوته سلطان ومستلزمات ليس أقلها جلباباً من حرير، و«لاثة» من السكروتة، وطقماً يخطر به ساعة العصر ويقتحم به السوق ويتربع به في مجالس الرجال، ويزغلل به وبنفسه أنظار البنات والمطلقات وأنظارها هي بالذات، بنت عمه وأحلى البنات. قصة الفنونة والمراهنات على حمل أكياس القطن وأجولة الكيماوي والمعارك والنبابيت والخناقات، ومع هذا فما كان أسعدها ـ كما تقول ـ بالزواج به واستعدادها لا لكي تنتظره أعوام «الجهادية» الخمسة، وانما العمر كله ولكنه جاء بعد مدة الجيش وأخذها وسكن بها في مصر، في نفس هذا البيت الذي لم يغيره الزمن. واشتغل في البوليس،ولم ترزق منه«صحيح» بأطفال.. مشكلة كانت تلح عليه وتضايقه، ولكن فرحتها به كانت على الدوام أكبر من أي ضنك أو قسوة أو انعدام خلف. أخذها للدكتور مرة ولم يجد الطبيب فيهاعيباً،وقال له إبحث عن نفسك أنت. ولكنه كان دائماً

مشغولاً بالبحث عن السلطة والتسلط ،دائم المشاحنات مع رؤسائه، دائم الثورة على وضعه وزملائه، حتـى قدر له في النهـاية أن يختـاره الباشـا ويمسك بهذه الوظيفة التي بدا وكأنها باب السعد والهنا. فما من يوم يعود فيه إلى البيت إلا ومعه سبت خضار ولحمة، وضحك يجلجل في الصالة إلى ساعة النوم. والبيت يزدحم عليهم بالناس والزوار والسهـرات التي تمتد إلى ما بعد منتصف الليل. و «الحتة» كلها قد عرفـت سر الوظيفـة الخطيرة، وكثيرون رأوه في جلسته الفاخرة أمام الباشا، بل لم تلبث عربة الباشا نفسه أن بدأت توصله إلى الحي ويراها الجيران رأي العين مجعوصاً فيها، حتى أم على «الحسادة» تراه وتأتي لتصف لها ما رأته والشهقات التي كانت تتبعه أينما سارت به العربة ،وأينما وضع قدمه ،وتطلب منها أن ترقيه من عيون نساء الحي ورجاله، فترقيه «نور» أول ما ترقيه من «أم علـي» وتقوم من الفجر لتدعو وتطلب من الله أن يقيهم شر الناس ويديم عليهم الستر. والناس في بيتهم الداخل لا يعرف الخارج، ومع الخارج والداخل والزائر والقريب والغريب عرائض وشكاوى وطلبات وظائف وترقيات، بل ويا للسخرية شفاعات ورجوات لعباس كي يتوسط لدى الباشا للافراج عن معتقلين ومتهمين. كان يقبل ويخدم الكل، ما عدا طلبات الافراج التي كان يضيق بها أشد الضيق ويزجر أصحابها، وأحياناً يبلغ عنهم البوليس السياسي. حالة واحدة فقطهي التي قبل أن يتوسطفيها حين فوجئوا بعمدة بلدهم بنفسه، البيه الرسمي، أحمد بك مروان ومعه والده المسن ووفد ضخم من عائلة مروان يطرق باب بيتهـم، نفس هذا البيت، ويشـرب قهوتهم ويخاطب «عباس» بقوله: يا فندم! وأحياناً يقـول: البـركة فيك يا عباس أفندي، وأحياناً أخرى يا حضرة الضابط. بل ويصل الأمر إلى درجة

يقبل فيها يده، بعينها رأته «نور» من خلال الباب المـوارب يتشبـث بيد عباس وينحني عليها ويقسم يمين الحرام أن يقبلها، فلا يملك عباس إلا أن يوافق وإلا بأن يعد أنه سيبذل كل ما في استطاعته لرجاء دولة الباشـا والافراج عن بسيوني شقيق العمدة، الطالب المعتقل. وينجح في الافراج عنه ويهديه البيه خمسين جنيها وخروفاً، نقود وما أكثر ما دخل جيبه من النقود. مع كل عريضة تندس اليد في جيبه وتترك ما فيه القسمة. ويصرف عباس ويبعزق ولا يتحرك إلا في جمع من الحي والبلديات. على القهوة يحيطونه ويؤنسونه. وفي البيت، وفي نفس تلك الصالة الواسعـة ينعقـد مجلسهم كل ليلة. أيام حافلة عارمة، وإن كان كل ما يأتيهم فيها كان يذهب ويتبخر ولا يبقى منه. ولـم يبق من أيام العز كلهـا سوى مائتـي جنيه في صندوق التوفير بالبريد. . أيام عامرة ولكنها قليلة، ولا تستطيع «نور» رغم الأسئلة الملحة ومحاولات التذكير أن تحدد بالضبط ماذا حدث، أو متى؟ كل ما لاحظته أول الأمر أن «عباس» كان حين يذهب عنه الأصدقاء والزوار ويصبح البيت خالياً إلا منه ومنها يذهب عنه المرح والضحك الذي كان غارقاً فيه، ويستمر على جلسته المتربعة منكس الرأس إلى أسفل، سادراً في حزن مفاجىء لا تعرف سببه. يبقى هكذا بالساعة والساعتين لا يتحرك ولا يحدثها ولا يغير من وضعه، إنما كان يحدث بين كل حين طويل وحين أن يرفع رأسه فجأة مستلاً من صدره تنهيدة عميقة قائلاً: ايه. . حكم! ثم يعود رأسه يسقط ويعود إلى الحزن الشارد الذي كان فيه. حتى إذا طال الأمر وواتتها الجرأة على سؤاله عما به لم تظفر منه بجواب. أو إذا رفع رأسه وأجاب لا يقول أكثر من: معلهش! كله منه. . بكره تتعدل. كانت واثقة أن ليس في الأمر زوجة أخرى أو شاغل من شواغل المعيشة، ولهذا كانت لا تلح وتسكت، خاصة والحالة لا تحدث إلا نادراً وكل بضع ليال

مرة. ولكنها ما لبثت أن تكاثرت حتى أصبحت تتكرر كل ليلة تقريباً وتطول، ويطول غياب عباس في «الشغل» ويعود إذا غاب مضعضعاً مطحوناً كالمضروب علقة. ينام بغير عشاء، وإذا تعشى استيقظت على صوته المخنوق يصرخ من كابوس، ثم بدأت محنة الأفيون. كانت تعلم أنه يأخذه، ولكنه كان يفعل هذا للمزاج ليس إلا، بتوالي النوبات والاستغراق في «الشغل» تعلق به وأدمن فيه وأصبح يأخذه في كل وقت.. قبل النوم وفي منتصف الليل، وحتى في الصباح على الريق. وإذا فتحت فمها أو اعترضت رماها بنظرة تخلخل مفاصلها وتدفعها إلى ابتلاع الريق والكلمات، وتغلي وهي صامتة وتتمزق نفسها من الخوف منه وعليه. تضع أمامه الطعام وتعود لتحمله كما وضعته، وينام.. أصبح لا يأتي إلى البيت إلا لكي ينام، ولا يحتمل أن يبقى فيه وحده مستيقظاً. ينام ويطلب منها أن تصحيه في ساعة مبكرة، فإذا جاء الصباح ونادته ليستيقظ زجرها فإذا مضت في محاولتها يكاد يقتلها ليسكتها وليستمر نائماً. وجاء عليه اليوم الذي لم يذهب فيه إلى القهوة، وإذا حضر أصحابه وسألوا عنه أمرها أن توزعهم وتدعي لهم أنه غير موجود. كانت تقول لنفسها كلما ووجهت بجديد إن هي إلا عوارض لن تستمر، وأنه لن يلبث أن يعود إلى نفسه وإلى عباس الذي كانه زمان، ولكن كل يوم يقبل كان يجيء معه بتغيير إلى أسوأ، حتى ليصبح منتهى أملها أن يعود مثل الأمس فقط. بل حين يئست من هذا أيضاً أصبح كل ما تطلبه من الله أن يبقى على ما انتهى إليه، هو ذلك الشخص المكشر الملامح، الغاضب دائماً، الضيق الخلق الذي يثور لأتفه سبب، وبلا سبب. والذي لم يعد ينفق على البيت أو عليها، ورغم كل ما يكسبه فمحفظته تحت المخدة دائماً خاوية وكأنه يلقي بما يكسب في بلاعة لا تنسد، شخص سائر في طريق لا تدري إلى أين، ولكنه يبعد

عنها، وعن الناس حتى أصبح لا يلقي السلام على أحد. وكأن السلام مشقة، ويتحاشى الناس وكأنهم أعداء. له كل يوم واقعة شتم أو سب أو تماسك وضرب، مع الجار وصبي البقال وراكب البسكليت إذا دق الجرس، حتى كاد يخاصم الناس كلهم. . وأجمع الكل على أن البعد عنه غنيمة. فإذا ضاق بنفسه ووحدته مرة، وأرسل في طلب أصدقاء زمان وجاءوا، يأتون مكرهين، ويجلسون مكرهين، ويستمعون إلى حديثه الذي يفرضه عليهم فرضاً، حديث مملوء بمواقف هو دائماً فيها البطل، وبقصص لا بد كسر فيها ذراع واحد من الساسة بضربة، أو هشم أسنان آخر ببونية، وماذا قال له دولة الباشا وماذا أعاد، حتى إذا لمح أي عطف في ملامح سامع أو بدت كلمة نقد لما تفعله الحكومة، اندفع يتحدث بفظاظة عن الحكومة ودولة الباشا والعهد، وكأنه أحد أصحابه والقائمين به، وكثيراً ما يقول: إحنا عملنا واحنا كان لازم نسوي، أو يصف السياسيين والمعارضين بقوله: دول أعداءنا. لا تستمر الجلسة طويلاً إذ لا يلبث أفرادها أن يتسللوا واحداً وراء الآخر متذرعين بحجج، واهية في معظمها، ويظل بعد ذهابهم يلعنهم ويلعن الحي والناس، يلعنهم لنفسه وهو يحدث نفسه. وحديثه لنفسه كان طارئاً أول الأمر، ولكنه لم يلبث أن أصبح عادة. تكون في الصالة أو الحجرة الأخرى فتسمعه يتحدث أو يزعق أو يشتم أو يزفر زفرة حارة ويتنهد قائلاً بأعلى صوته: ايه. . آه. . أيوه. . كله منه. . حكم. . ملعون أبو الدنيا. . ملعون أبوهم كلك واحد واحد.

وأيضاً لا تعرف «نور» كيف أو متى جاء اليوم الذي فطنت إلى الحقيقة التي دوخها اكتشافها. . أن عباس لم يعد عباس. . لقد أصبح رجلاً آخر لم تره أبداً ولم تعرفه. . رجلاً آخر بطبائع أخرى ومزاج آخر. . غريباً. . لا

تحس أبداً أنه زوجها الذي تزوجته.. ومن الواضح أنه هو أيضاً، وقد عادى كل من كان يعرفهم وتغير ولم يكن قد سواها بجانبه، كان واضحاً أنه هو الآخر يستغربها، وينكرها، ولا يرعى شعوراً، ولا يهمه من أين تنفق أو كيف تدبر الأمور.. «أم علي الحسادة» تقول لها أن الأفيون قد غيره ولكنها هي العليمة الخبيرة به تعرف أن الأفيون، كضيق خلقه، كشروده ونفوره من الناس، عرض وليس سبباً، السبب أكبر أو أبعد من أن تستطيع وحدها ادراكه.. لقد كانوا يحيون ككل خلق الله، فماذا حدث؟ قالت لنفسها أنها العين، وعين أم علي بالذات، وأخذت من «سملها» ورقت وبخرت وقالت أنه عمل، وذهبت لشيخ العمولات ودفعت الأجر وذبحت الديك الأسود وجربت كل علاج ودواء.. وحاله لا تسير إلا إلى أسوأ. خاصة هجره لها في الفراش ذلك الذي طال وطال حتى اعتقدت أنه ممنوع عليها بسحر، التمست فكه وفكته، وظل مع هذا ذلك الشخص الغريب الذي لولا الشبه الذي لم يتغير لما عرفته، وظل هو يبعد عنها ويبعد ولا يكاد يحس بوجودها أو يأبه له.

وما كان أسودها من ليلة قررت فيها أن تعتمد على نفسها وتنفض أقنعة الخجل وتواجهه. ليتها ما فعلت! فلقد ظل يسمع صامتاً حتى أفرغت كل ما عندها ولم يبق سوى الدموع فبكت. وبدلاً من عباس رجلها وابن عمها الذي تعرفه، أطبق عليها وحش غرس أظافره في لحمها، ممسكاً إياها بكلتا يديه مجيباً على ما قالت بأخس وأقبح الفاظ سمعتها في حياتها.. ألفاظ ما خرجت من فمه قبل ليلتها قط، وما كانت تعتقد أن باستطاعته أن يعرفها أو ينطقها. ولا تدري ماذا منعه من ضربها وسحقها أو قتلها، فلأسباب أو هي وأقل لم يكن قد ترك إنساناً يعرفه دون أن يمد عليه يده. ماذا أبقى تلك اليد مغروسة الأظافر في لحم ذراعها لا ترتفع

وتصفعها ولا تهوي بقبضتها الحديدية عليها وتحطمها؟ إنها لا تعرف ولكنها تؤمن عن يقين أنها قد كتب لها عمر جديد.

وكأنما كان ينتظر ليلة كتلك لينفلت عياره إلى آخر مدى، وليصل إلى درجة تدفعها للتفكير في الهرب والهيام على وجهها في الطرقات، إذ ما كان هناك حل آخر. فلو غضبت وسافرت إلى القرية فلن يكون عقابها أقل من القتل. فكرت ودبرت وأخذت تراقبه لكي تحدد الساعة وتنطلق. كان عباس يبدو كمن جن، يصحو صارخاً مرعوباً إذا نام، وإذا انفرد بنفسه تجده فجأة قد انهال عليها ـ على نفسه ـ شتائم وسباباً، نفس شتائمه ذات الألفاظ الداعرة. بل رأته مرة ينهي شتائمه لنفسه بصفعة من يده يهوي بها على وجهه، وقررت يومها أن لا بد من التعجيل بالفرار.

غير أن الأيام كانت تدبر شيئاً آخر. كان عباس قد عاد من العمل مبكراً على غير العادة في الضحى ونام وظل نائماً إلى اليوم التالي. وقبل أن يرقد سمعته يقول لها شيئاً لم تفهمه، وخافت أن تستعيده ما قال. وفي أثناء نومه جاءتها أم ثابت والحاجة كريمة وأم علي وأخبرنها أن الباشا الذي يعمل معه عباس ترك الكرسي وأنهم سيعملون انتخابات ليجيئوا بباشا آخر. وحين استيقظ عباس حاولت أن تفتح باب الحديث لكي تستطيع إخباره، ولكنه كان عازفاً عن الحديث، ذوب قطعة المر وتجرعها وأعطاها ورقة ووصف لها كيف تذهب بها، وعاد للنوم.

كانت ورقة طلب إجازة مرضية، الورقة الأولى من عشرات ومئات لم تكن تدري أنها ستتوالى بعدها ولا تكف عن التوالي.

كانت «نور» لا تزال جالسة القرفصاء قريباً من الكنبة، وصوتها الصعيدي الناعم المحشرج يخرج على دفعات متقطعة يحكي ويكاد يهز

المكان بحرقته وصدق نبراته، وشوقي قد أرغمه تتبعه المحموم على الجلوس على طرف الكنبة والهبوط برأسه قريباً من رأس «نور» حتى لا تفوته الكلمة، وإحجامه قد ذهب وأصبح يسمع، ويشمل المرأة بنظرة نافذة كأبر بذل النخاع تحاول استخراج كل ما لا تستطيع المرأة قوله أو تملك القدرة على التعبير عنه. وبين الحين والحين ينطلق منه السؤال كالقذيفة التي لا يريدها أن تخطىء. والحديث استبد حتى بعبد الله التومرجي نفسه إلى درجة جعلته يترك الرسميات جانباً، ويجلس القرفصاء أيضاً بجوار المرأة يسمع، وبين الحين والحين يهش بيده دون أن يتلفت أو ينظر، يزجر الدجاجة ويخيفها في محاولات كثيرة فاشلة لاقصائها عن المكان تماماً.

وقبل أن تكتمل القصة ونعرف منها كيف مرض مرضه الأخير، وماذا بالضبط حدث له، فوجئنا بشيء روعنا حقاً، وأنا لا أذكر أني من وقت أن غادرت مرحلة الطفولة وكفرت بالجن والعفاريت والأماكن المسكونة . . لا أذكر أني خفت حقيقياً. كثيراً ما اضطربت مثلاً أو دق قلبي بانفعال خائف ولكن لم يحدث أبداً أن جزعت وذعرت. ولكني لحظتها خفت، بل بلغ رعبي حداً كاد يدفعني لترك المكان والجري بكل قواي. ما فوجئنا به كان صرخة، أو هكذا ظنناها أول الأمر، ولكنها لم تلبث أن طالت وتغير نوعها وتحولت إلى ما يشبه العواء، ولو كنا في غابة أو حقل لما روعنا ولحسبنا العواء لذئب. . ولكننا كنا في قلب القاهرة، وداخل بيت، والعواء عواء ذئب ولكنك تدرك أنه صادر عن رجل. . وعن رجل لا يمزح أو يحاول أخافتك،ولكنه يعوي حقيقة ويعبر بعوائه عن أشياء مكتومة داخله تتقطع نفسه وهو ينتزعها على هيئة عواء متصل مستمر لا يمكن أن تفرق بينه وبين العواء الحقيقي لذئب.

ولم أكن وحدي الذي خفت! حين عدت ألتقط أنفاسي وجدت أني كنت دون وعي قد وقفت، ووجدت أن الآخرين جميعاً قد وقفوا، أعينهم مفتحة وفي حدقاتهم رعب. وكانت المرأة أول من تحرك، تركتنا واقفين مشلولين واندفعت إلى باب الحجرة التي تصاعد منها العواء بلا خوف أو وجل، وكأن العواء صرخة طفل رضيع هي أمه. . وما أن دخلت حتى تصاعد الصوت مرة أخرى ،ولكنه لم يستمر،وما لبث أن انقطع وكأنه فطم وارتفع على أثره نحيب. . لولا خشونته القليلة لحسبته نحيب طفل.

وقال عبد الله في رجاء يكاد يتحول إلى بكاء:

ـ ما نخليها يا دكتور للحكيمباشي. . إعمل معروف.

ولمحت شوقي أصفر زائغ العينين يتطلع إلى الباب، ثم الى عبد الله وإليَّ متردداً

في تلك اللحظة بالذات كنت أمر بحالة الخجل الذي يعقب خوفنا من شيء، خجل لأننا ونحن رجال قد خفنا. . ذلك الخجل الذي يدفع الانسان في الحال لتحدي ما يخيفه والاستهانة به واقتحامه. ويبدو أن شوقي كان قرأ في عيني ما جعله يحاول باستماتة أن يؤكد لي أنه هو الآخر غير خائف، وأننا لا بد أن نمضي في المهمة إلى نهايتها.

وهكذا دخلنا الحجرة.

كان الوقت قد تأخر! لا نعرف إن كانت الشمس قد غابت أم لا تزال على وشك المغيب، والحجرة لم يكن يضيئها غير نافذة صغيرة جداً قريبة من السقف كنوافذ الزنازين والسجون، وكدنا لا نرى شيئاً لحظة دخولنا. بدت لنا الحجرة كمخزن مملوء بظلام قديم مهمل، آذاننا فقط هي التي

استطاعت أن تميز وتسمع وتدرك أن شهقات مكتومة تتردد في الجو المشبع بزفرات مبللة بالدموع.

لحظات قليلة هي التي استغرقتها المفاجأة، بعدها وجدنا أن باستطاعتنا أن نرى ونرى بسهولة، وكأن عيوننا قد بالغت في التقدير أو أعماها مجرد الدخول. كانت الحجرة واسعة، أشبه بالصالة الثانية، وأثاثها قليل، «حصيرة» كبيرة تغطي الأرض، ودولاب عرس قديم طال استعماله.. في الركن، وإلى اليمين سرير بأربعة عمدان، فوقه مرتبة ممزقة الكيس، وقطنها أسود ظاهر، وكذلك المخدات والرائحة مقبضة تخاف معها أن تتنفس فتلهث.

كان عباس الزنفلي يرقد نصف رقدة على الفراش والزوجة تسنده وكان يبدو كمن كف لتوه عن البكاء. ومن الصعب أن أحاول وصف الحالة التي كان عليها، فمفروض أن تبدو على المريض آيات الضعف والهزال، وأن تتغير سحنته وتنقلب، ذلك التغير الذي يجعلنا ندرك أن الشخص مريض. من هذه الوجهة كانت تبدو على عباس آيات المرض لكن لم تكن هذه الآيات أخطر ما به.. أخطر ما به كان في عينيه. أو بتحديد أكثر في نظرته، فمفروض أن الجسد حين يضعف أو يمرض ويشحب جلده ولونه تبرق عينا صاحبه وتتوهجان وكان شحوب العينين يبدو على هيئة بريق. والمجانين مثلاً لهم نظراتهم وكأن الشخص حين يجن تجن عيناه أيضاً، كما يخرف بتفكيره يخرف بنظراته،فتصبح كأن لا معنى لها ولا إرادة وراءها. نظرات عباس لم تكن مريضة أو متوهجة أو مجنونة، كانت ساكنة سكوناً مستمراً مستتباً كسكون الموت، وشاملة أيضاً. فيها ذلك الشمول الذي تحسه للمحيطحين تقف على شاطىء له ولا تستطيع لفرط اتسعه وامتداده أن تتصور أن له شاطئاً آخر. في الحقيقة

كان سكوتها المستمر وشمولها وامتدادها يجعل النظرات كسطح بحر لا يتحرك. وكأنما هو موجود في عالم مفرغ من الهواء، وبلا شروق أو غروب، وبلا بداية أو نهاية أو زمن.

دخلنا وفوجئنا بعبد الله يقول بلا مناسبة وبصوت متهدج: سلام عليكم! موجها تحيته إلى عباس، ولا أعرف أن كان الأخير قد شعر بنا وبدخولنا أو لم يشعر، إذ حتى السلام الذي ألقاه عبد الله لم يكلف نفسه مشقة الرد عليه.

ومن لحظة أن دخلنا وبدأت أعتاد المكان وجدت أن اهتمامي لم يعد مركزاً على عباس وحالته فقط، أصبح اهتمامي موزعاً بينه وبين شوقي كان شوقي في أثناء سماعه لنور وسؤالها، وبعدما سمع ما سمع وقبل أن يدخل الحجرة، وحين دخل وأصبح يضمه مكان واحد مع عباس باستطاعته أن يراه فيه رأي العين ويتثبت من وجوده، كان قد انتابته حالة لم أره عليها من قبل.. حالة ما كدت ألحظها حتى خيل إلي ،وكأنما أضاء النور فجأة في عقلي، وكأنما بدأت أعي بشيء كنت أراه ولفرط تعودي رؤيته لم أعد أراه. تماماً مثلما لا تستطيع أن تدرك أن شخصاً ما كان تعساً طول الوقت إلا حين تراه فجأة يبتسم، أو أنه كان راضياً إلا حين تراه فجأة يغضب. هكذا انتابت شوقي تلك الحالة، حين بدأت أشياء في نفسه تصطرع وتعبر ملامحه وعضلات وجهه عن صراعها.. حين بدأت انفعالاته تتلون وتتشكل ويخاف ويدهش ويرغب ويستطلع ويتردد.. حين أسقط فجأة بسمته الخالدة فبدا كما لو كان قد أسقط قناعاً كان يحجب به نفسه عني وحتى عن نفسه.. حين لمحت وكأن الحياة قد بدأت تتدفق بسرعة وقوة واندفاع إلى كيانه، وأدركت لحظتها فقط ـ مذهولاً ـ أني كنت

خلال السنين الطويلة التي صاحبته فيها بعد خروجه من السجن كنت أصاحب شوقي آخر دون أن أدري وأن ظنوني كانت على حق وتخميناتي عنه كانت صحيحة. إذ في تلك اللحظة بدا وكأن شوقي القديم. . شوقي الذي كنت أبحث عنه بلا جدوى في شوقي، شوقي الثائر الحي قد دبت فيه الحياة من جديد وصحا وكأنه كان ميتاً محنطاً في مكان ما من جسده. . في ابتسامته المرسومة ربما تلك الابتسامة التي أدركت لحظتها أيضاً أنها كانت ابتسامة ميت على وجه حي. . ابتسامة تحس إذا دققت فيها التأمل والنظر أنها البقية الباقية من شخص مات وشبع موتاً. . ابتسامة ذكرتني نظرة عباس الزنفلي بها وعرفت منها سر الإحساس الذي كان ينتابني كلما رأيتها. إذ أدركت أني كنت وكأني أتطلع إلى سطح بحر هامد شامل لا تتحرك فيه موجة ولا تصدر عنه نأمة، وكأنه البحر إذا وجد في عالم مفرغ من الهواء. حالة انتابت شوقي وأحدثت في عقلي دوامات أفكار وتأملات وأحاسيس، ولكني رغم كل ما كان يدور في عقلي وجدت نفسي على وشك أن أحس بفرحة طاغية، إذ تصورت أنه قد آن الأوان لينفض شوقي عن نفسه شخصية الكائن المذعور المعقور، وأنه لا بد في طريقه إلى العودة. . لا بد أنه عائد، ولا بد أني لن أغادر الحجرة إلا وفي صحبتي شوقي الذي فشلت جهودي لإعادة الروح إليه، ويئست ولم يعد في جعبتي أي أمل.

وبشغف متزايد مضاعف رحت أتابع ما يحدث. والآن وأنا أحاول تسجيل ما دار واستعادة الصورة وإبقاءها بطيئة أتفحصها على مهل وكما أريد، الآن باستطاعتي التحكم في الزمن وتتابع الصور. ساعتها لم أكن في وضع أنا فيه المسيطر، كانت الأشياء تحدث في لمحات سريعة بالكاد أستطيع متابعتها أو تبينها، بالكاد أملك القدرة على استرجاع ما سبق

اللحظة أو الحركة من تاريخ. فالمهم في مواقف كتلك ليس فقط أن تتابع ما يدورفيها، ولكن أن تتابعه وأنت فاهم مدرك لكل ما سبقه، وأنت حافظ لتاريخ حياة الموقف إذ هو الذي من خلاله تستطيع أن تفرق بين المهم وغير المهم، بين الكلمة الواحدة حين يصبح لها قوة الحدث الهائل وبين الحدث الظاهر الهائل حين لا يستحق الذكر.

بخطوات يعرف صاحبها لماذا يخطوها. . لا يبدو اضطراب أو وجل فيها، تقدم شوقي من فراش عباس، وبعيون كأنما انقطع عنها النظر من سنين ثم استعادت القدرة عليه فجأة شمله بنظرة قوية فاحصة لا ذعر فيها كل ما فيها من اهتزاز مرجعه ربما لوجودي ووجود عبد الله. . نظرة لا كره فيها ولا حقد ولا شماتة، كل ما يبهرك فيها هي الإرادة، إرادة أن تنظر ولا تخفى عليها خافية. وبمقام من مقامات صوته لم أسمع شوقي ينطق به قال:

ـ أنت عباس. .

ودون أن يرفع الرجل الهيكل رأسه سكب على شوقي كمية ما من نظراته الميتة الوقع والطعم والادراك.

ـ عيان ؟بايه؟

أطلقها شوقي حامية، وكأنما من صدر حولته حرارة ما يدور فيه من انفعالات إلى تنور. وأيضاً لم يتحرك الرجل الجالس نصف جلسة ولا بدا عليه أنه سمع.

ـ عباس محمود الزنفلي؟

خرجت من فم شوقي كالصرخة، كالنداء الهادر، أعقبها بصرخة أخرى:

ـ انطق.

لم أكن قد سمعت شوقي يرفع صوته أبداً إلى درجة الصراخ، ولم يحدث أبداً أن فقد اتزانه.

وبدأت الفرحة في نفسي تزداد والأمل يكاد ينقلب إلى حقيقة. أفرحني ذلك الصوت الذي افتقدته سنين وأزعجني، فقد كان يتوهج نفس التوهج الصادر من عيني شوقي حتى بدأت فرحتي تمتزج بخوف أن يحدث شيء أكثر، مثل أن نفاجأ بشوقي ينهال على الرجل الهيكل ضرباً وركلاً وخنقاً. وتدخلت طالباً من شوقي أن يتذكر مهمته، ويعامل الرجل بمثل ما يعامل الطبيب مريضه.

ولكن شوقي لم يأبه لتدخلي، بل بدا وكأنه لم يحس به أصلاً أو يسمعه، كان وكأنه يعاني من جنون الفرحة المغلولة التي تنتابنا حين تحين فرصة العمر.

وقالت نور الزوجة:

ـ بالراحة عليه يا دكتور. . دا عيان.

ـ انت عباس الزنفلي؟

ورفع الرجل رأسه وأبقى نظرته الميتة معلقة على ملامح شوقي تتلقى الرذاذ الخارج من فمه، ويصفعها زفيره المحموم الذي كان واضحاً أنه ينتزعه من أعماق سحيقة. . من جروح بالغة القدم بالغة الألم، أعمارها سنين، وقروحها حية لا تزال رغم كل العمق والزمن. .

ـ ما تستعبطش. . ما تعملش انك ناسي. . مش فاكر العنبر؟ مش فاكر علق الساعة خمسة؟ مش فاكر دور تسعة؟ مش فاكر النبابيت؟ مش فاكر الكرباج؟ مش فاكر الدم؟ فين كرباجك وديته فين؟ فين صراخك يا وحش

فين؟ فين نعل جزمتك الحديد؟ فين كفك؟ فين صوابعك؟ فين النار فين؟ بص لي وانطق واتكلم وصرخ. . صرّخ زي زمان. . سمعني صوتك. . صرخ يا عسكري يا أسود. . بص لي وانطق واتكلم وصرّخ. . ما تعملش ناسي وان عملت أفكرك. . حالاً أفكرك. .

ولا أعرف كيف استطاع شوقي في تلك الومضة المتناهية الصغر من الزمن أن يخلع جاكتته وقميصه، ويرفع فانلته ويكشف ظهره، ويا لهول ما وقعت عليه أبصارنا. لم يكن في ظهره مكان واحد له شكل الجلد أو مظهره. كل جلده كان ندوباً بشعة تمتد بالطول والعرض وتتجمع في هضاب مندملة وتكشف عن مناطق غائرة، في قاعها تكاد تبدو عظام الضلوع. مشهد بشع يجعل القشعريرة تسري في جسدك، لا لمجرد مرآه وإنما لتساؤلك عن القسوة المتوحشة التي أحدثت كل ما تراه. لكأن ذئباً مجنوناً أو غولاً قد أعمل أنيابه وأظافره في ظهر شوقي نهشاً وتقطيعاً وفتكاً.

في جزء من الثانية كان قد فعل هذا، فعله وهو يستدير ليواجه «عباس» بنظره وصراخه لا يكف:

ـ إذا كنت نسيتني فمش ممكن حتنسى ده. . مش رح تنسى اللي عملته. دلوقتي افتكرت؟

وكما بدأ فجأة كف فجأة عن عرض ظهره واستدار وهو يصرخ.

ـ لازم تفتكر كويس ما تنساش، أنا مش ناسي، ولا حد ناسي، ولا حد حينسى، انطق واتكلم وصرّخ وقول انك فاكر، انطق.

وروعت لما حدث. . للطريقة التي كان شوقي يصرخ بها، للصوت العالي المزعج، للهدير، للصراخ وكيف ظل يعلو، وللكلمات المفهومة وقد بدأت تصبح غير مفهومة أو متبينة. ثم كيف، لعلوها بدأت تفقد شكل

الكلمات ،ويصبح كل ما يصدر عنه آخر الأمر مجرد خيط متصل طويل مكون من أشياء لا ندري إن كانت حقداً أو أنيناً أو تألماً وبكاء، وكيف بدأ خيطها يلتوي ويستحيل إلى شيء يشبه العواء، بل إلى عواء حقيقي، عواء مرتجف مستغيث لا يستطيع الكائن الحي أن يطلقه إلا وهو يعاني أقصى وأحد درجات الألم. . الألم الذي لا يحتمله بشر، الألم الذي لا تصرخ معه الحنجرة ،وإنما الصارخ هو الجسد نفسه، لحم الجسد وعظامه وأعصابه وكأنما يجبرها الألم أن تطلق صرختها المستميتة الأخيرة.

والشيء المخيف أن كل هذا كان يصدر عن شوقي، وأننا كنا أنا وعبد الله والزوجة قد أصابنا الشلل لا نعرف ماذا نفعل، ومنظر شوقي يجعلنا نؤمن أن لا قوة في الوجود تستطيع إيقافه، لا عن الصراخ والعواء ولا عن قتل عباس الزنفلي، ولا عن قتل أي منا لو أراد.

أما عباس فقد ظل يسكب على شوقي نظراته الميتة ولا يتحرك له جفن، ولكن ما كاد صراخ شوقي يستحيل إلى عواء حتى رأينا كأن بارقة ادراك قد تحركت فوق سطح العيون الميتة، أعقبتها في الحال اهتزازات عاصفة لم تلبث أن تكشفت عن نظرة ذعر راحت تتعمق وتتعمق وتصبح رعباً هائلاً مقيماً. . رعباً جعل الحياة تدب أيضاً في الجالس المكوم نصف جالس وتدب على هيئة خوف، فبدأ ينكمش على نفسه وينكمش. ويزحف بزوجته بعيداً إلى آخر الفراش، ويصغر حجمه ويتكور. ولم أكن أتصور أن الإنسان في انكماشه يستطيع أن يصل إلى هذه الدرجة التي تكاد تعتقد معها أنه لو استمر ينكمش بنفس السرعة لتلاشى حالاً واختفت الكرة الانسان عن الوجود. وربما رعبه هذا وانكماشه هو الذي جعل شوقي يطارده ويتقدم في اتجاهه ويتضخم كلما رآه ينكمش، ويقترب

كلما ابتعد مطاردة لم يوقفها الفراش فقد ارتقاه شوقي واستمر يتعقبه ويصرح فيه ويعوي ولا يكف. ربما رعبه الهائل ذاك هو الذي حال من ناحية أخرى بين شوقي وبين الانقضاض عليه وإزهاق روحه.

لم يكف شوقي عن تقدمه وعوائه إلا حين فجأة فتحت الكرة البشرية الملتصقة بالحائط، والتي لم يعد لها مجال للتراجع، فتحت فمها وأطلقت ذلك العواء المزعج الذي أخافنا ونحن في الصالة، عواء اختلط بعواء شوقي وعلا حتى أسكته، وحتى أوقفه في مكانه لا يتكلم أو يصرخ أو يصدر عنه صوت. عواء مرعوب أول الأمر يستغيث، ثم باك، ثم عال مجنون مرتفع. ثم.. ثم فوجئنا بما لم نكن نتوقع أبداً بالعواء ينقلب إلى هبهبة كهبهبة الكلب، وبالكرة البشرية تنفرد ويمتد منها فم طويل وينفتح وينغلق في كل اتجاه ويهبهب هاو هاو هاو.. وامتد الفم مرة وكاد يقضم كتف شوقي، وجزع الأخير وبدا وكأنما قد عاد إليه وعيه، وفي قفزة كان قد غادر مكانه فوق الفراش ليصبح بعيداً عن متناول الفم الطويل المفتوح على آخره. ولم تنقطع الهبهبة، بل حدث ما هو أكثر.. أطبق الفم المفتوح على يد الزوجة القريبة منه وبدأ يلوكها بين أسنانه ويضغط كمن يهم بالتهامها. واحتملت الزوجة قليلاً، وهي ترجوه أن يتركها، ولكننا وجدناها فجأة ـ وكأنما أدركت أن يدها على وشك أن تتمزق ـ تطلق صرخة أعلى من كل عواء وهبهبة، تعقبها بصرخات سمعنا على أثرها دق الجيران على الباب، بل فوجئنا ببعضهم وقد اقتحم الحجرة ودخل.. أكثر من رجل وامرأة وفي أذيالهم أطفال. ورغم وجودهم ووجودنا لم يجرؤ أحد على الاقتراب من عباس وانتزاع يد نور من الفم المطبق عليها، ولم ينقذها إلا عودة الفم للهبهبة وزوال إطباقته. ووقفنا جميعاً وقد انضمت الزوجة

الدامعة إلينا، وبيننا وبين الفراش مسافة، ترقب ما يحدث. . ترقب «عباس» وقد بدأ يضرب الفراش ويهبهب ويعوي ويغرس أظافره وأنيابه في قماش المرتبة ويمزقه، ويمضغ القطن، ويزداد هياجه ويبدأ بضرب وجهه بكفه كمن يلطم، ويعمل أظافره في جلده تجريحاً وتمزيقاً. ونحن ننظر إليه ونعتقد أنه في الدقيقة التالية سيهدأ فلا يهدأ، وكل ثانية تمر تزيده هياجاً إلى درجة أرعبتنا وجعلت كلاً منا يفكر في مغادرة الحجرة، لولا أن «عباس» أهوى بفمه على لحم ذراعه النحيلة التي كانت تبدو من كم الجلباب الممزق، وظل يضغط وينظر إلينا بعيون ملتهبة تحترق، ويضغط، ولعابه قد غطى الذراع العارية ومن كثرته بدأ يتساقط ويسيل، وهو لا يكف عن النهش والضغط، وكأنما هو لا يحس أو يتألم، أو كأنما يدفعه إلى مزيد من الهياج وغرس أسنانه في اللحم. وكان لا بد أن يحدث ما حدث، وأن تدير النساء وجوههن، وأن ندير وجوهنا معهن، ما عدا شوقي فقد لمحته لا يستدير، وإنما يظل يتفرس في وقفة مستمتعة مريضة بما يراه، وحين عدنا مرة أخرى نواجه «عباس» تبين أننا لم نكن قد تحاشينا الكثير باستدارتنا، فقد وجدنا وجهه قد ارتفع عن الذراع حقيقة، ولكن الدم كان يتساقط من فمه ويختلط بلعابه! إذ بين أسنان الفم التي كانت قد انفرجت عنها الشفاه كانت هناك قطعة لحم مدماة، القطعة التي كان قد نجح في نهشها من ذراعه ذراعه التي كانت لا تزال في مكانها فوق ركبته، ومكان العضة فيها قد أصبح جرحاً متهتكاً بشعاً. وكان عباس الزنفلي لا يزال رغم وجود قطعة اللحم بين أسنانه يعوي ويهبهب بصوت مكتوم، وكأنه ينزف من صوته والدم قد بلل عواءه وخنقه.

الغريب أني كنت في تلك اللحظة بالذات قد اكتشفت أن على الحائط المجاور للفراش بروازاً فيه شهادة معلقة، حروفها تلمع تحت الزجاج

المتسخ، والأغرب أني وجدت نفسي أترك كل ما يدور في الغرفة وأنهمك في قراءة ما في الشهادة. ولم تكن شهادة.. كانت براءة نيشان الواجب من الدرجة الثانية، فيها نفس الكلمات التي قرأتها في نفس الملف، والتي كان بصري قد ألغى كل شيء حوله وتوقف عندها، وبالذات عند كلماتها «تقديرا لتفانيه في خدمة مصالح الوطن العليا»!

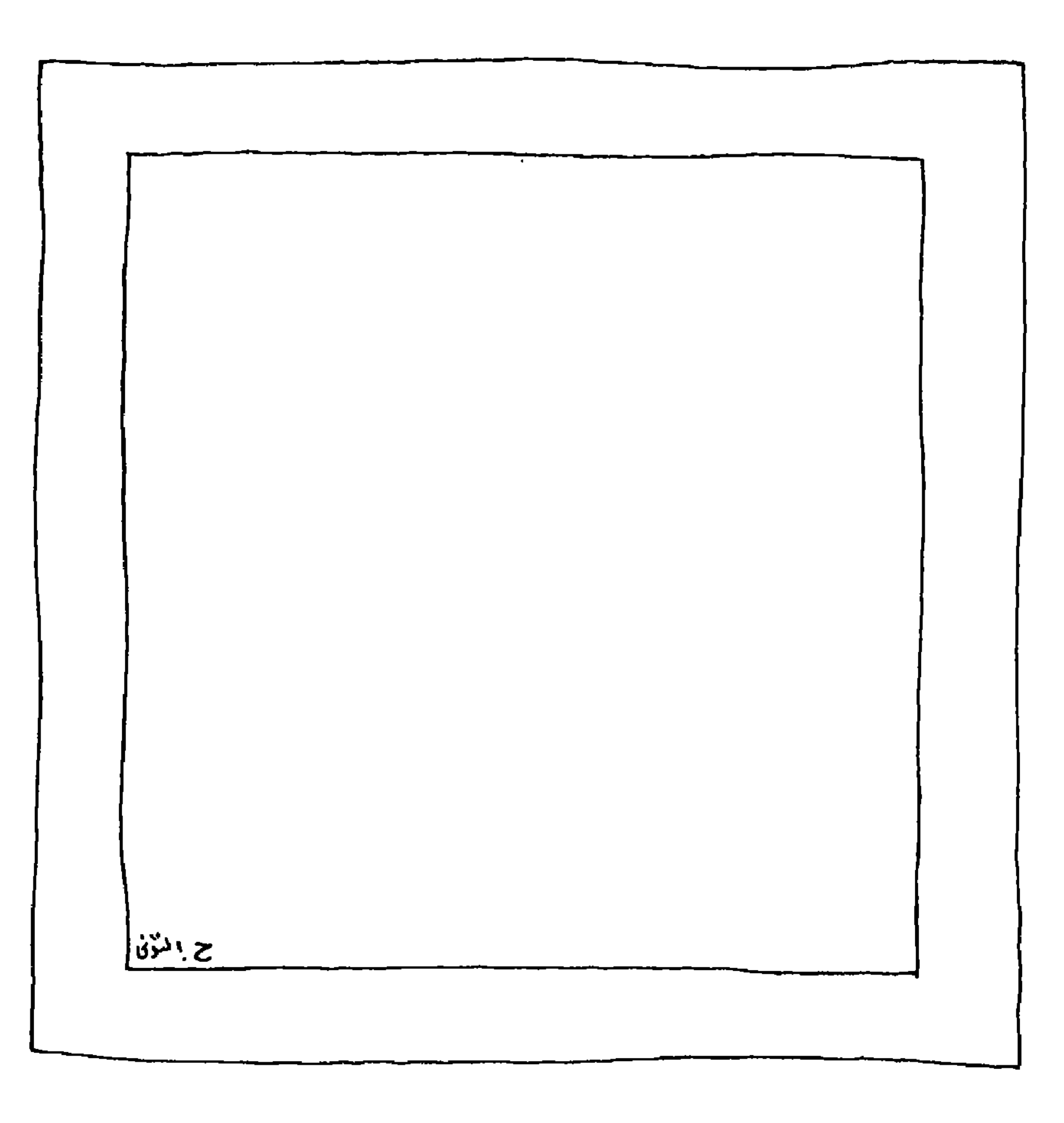
كان هذا آخر عهدي أو عهد شوقي بالعسكري الأسود، إذ يومها غادرنا المكان حتى دون أن يكتب شوقي قراره إذ ترك المهمة للحكيمباشي، ولم أستطع فيما تلا هذا من أيام أن أخمن ما حدث لشوقي، ووقع اللقاء وما حدث فيه عليه. كنت قد وضعت خططاً كثيرة لمعاودة المجهود مع شوقي، وقد أجج أملي تلك الدقائق القليلة التي رأيته فيها على حالته الأولى، خاصة وقد بدا خلال الأيام القليلة التي تلت ذلك شغوفا بإثارة الموضوع بمناسبة وبلا مناسبة، دائب التفكير فيه، يفاجئني مرة بقوله: أتعرف أنك حين تؤذي غيرك تؤذي نفسك دون أن تدري؟ ومرة يسرح ويضحك فجأة ويقول: دع الضارب يضرب فيده التي تضرب تمتد أيضاً إلى ذات نفسه. ولم يقتصر الأمر على التفكير، دخلت عليه يوماً فوجدته منهمكاً في الكتابة، وما أن رآني حتى جمع الأوراق محاولاً أن يخفيها ولكني من بين أصابعه استطعت ان أقرأ عناوين فقرات.. فلسفة العلقة.. الايلام سلاح ذو حدين.. وعناوين أخرى كثيرة. وسألته فقال إنه بحث قد يطلعني عليه يوماً ما.

وفيما عدا هذا كفتني بضع جلسات مع شوقي أن أؤمن أن الحالة التي رأيته عليها وملأتني بالأمل كانت كصحوة ما قبل الموت، وأن ما حدث له من تغيير، والكائن الجديد الغريب الذي أصبحه طريق لا يمكن الرجوع منه، لا يمكن أن يعود الجلد الطبيعي مكان الندبات التي يحفل بها ظهره.

أجل! أدركت ما فاتني إدراكه طوال سنين.. أدركت أن شوقي وقد فقد أمنه البشري مرة لن يعود أبداً مثلنا بشراً مرة أخرى.

ولا أعرف لماذا كلما راجعت ما حدث لا أستطيع أن أنسى رغم كل ما رأيته وشاهدته، كلمة خيل إلي أنها عادية جداً وطبيعية ساعة أن سمعتها تقال، ولكني لا أعرف لماذا ظلت تلح علي ولا تتركني. الكلمة قالتها امرأة من اللاتي حضرن على صراخ نور.. إمرأة لعلها «أم علي الحسادة». وقالت ونحن نتأهب لمغادرة الحجرة، وقد أصبح البقاء فيها أمراً لا يتحمله العقل، وقطعة لحم عباس بين أسنانه، ودماؤه تكاد تصبغ كل ما تقع عليه العين. سمعت المرأة تمصمص بشفتيها وتهمس للواقفة بجوارها: لحم الناس يا بنتي.. اللي يدوقه ما يسلاه.. يفضل يعض انشا الله ما يلقاش إلا لحمه.. الطف يا رب بعبيدك!

سمعتها ورنت في أذني رنين الكلام الفارغ الذي نسمعه من خالاتنا العجائز لنسخر منه.. ولكن لا أعرف لماذا لا تزال تلح عليّ.



العيب

العيب

١

ثلاث مرات في تاريخ المصلحة ازدحمت مثل هذا الازدحام.. يوم توفي سعد زغلول ونعاه الناعي، ويوم طرد الملك، واليوم الذي عينت فيه سناء. ففي ذلك اليوم تم تعيين خمس من زميلاتها الناجحات في المسابقة، وفي نفسه أيضاً انقلب المستحيل حقيقة وانقلبت المصلحة سوقاً أرخص ما فيها الكلام، بل لا شيء فيها غير الكلام. المصلحة من يوم انشائها والعاملون فيها رجال في رجال. الرجال هم الذين أنشئوها ووضعوا لها اللوائح والقوانين، وهم الذين تولوا طوال تاريخها التنفيذ وهم الذين بنوها طوبة طوبة ورسموا التقاليد. رجال. كلهم رجال! حين يشيخ منهم جيل ويودع العمل يحل محله جيل جديد، شبان صغار بآراء جديدة ودم جديد، ولكنهم مع ذلك أيضاً رجال. ربما لهذا لم يصدق أحد البتة تلك الإشاعة التي سرت ذات يوم، وقالت إن النية قد اتجهت إلى تعيين «بنات»! كيف يصدقها أحد والمصلحة من يومها ـ ككل مصلحة ـ وكر رجالي لا تسمع فيه إلا أصواتهم وشكاياتهم، ولا تشم فيه سوى روائحهم ووقع خطواتهم.. طالعين هابطين، دارسين لأسرار العمل العظمى والكادر وأمزجة الرؤساء؟

ولم تكن استحالة التصور تحيزاً ضد المرأة، ولكنها استحالة أن يعتقد

أحدهم أو يهضم أن تستطيع فتاة أو سيدة ما في الوجود أن تجد لها مكاناً داخل هذه المؤسسة الرجالية الخالصة . . تماماً كما لا تستطيع أن تتصور أن توجد فتاة أو سيدة في جناح الملابس الداخلية الخاصة بالرجال مثلاً فهنا مكان رجالي مزدحم ـ لا بحكم اللوائح ـ ولكن بحكم الكتلة ونوع الكتلة وكتلة الكتلة. تماماً كما لا تستطيع أن تتصور وجود لوزة سوداء مع لوز القطن الأبيض، أو وجود رجل ـ أي رجل ـ في مكان خاص بالسيدات مهما كان السبب في تجمعهن، حتى ولو كان سبباً لا يمت إلى الجنسين بصلة.

لهذا فالإشاعات حين سرت قبل بضعة شهور عن اتجاه النية لتعيين بعض الفتيات في المصلحة، لم تقابل بأي تعليق على الاطلاق. وأي تعليق بامكانك أن تدلي به لو قالوا مثلاً أن النية متجهة لتعيين أطفال للتدريس في مدارس روضة الأطفال!

الضجة التي لم تحدث إلا حين ذهبوا إلى عملهم ذات يوم كالمعتاد لا بهم ولا عليهم، فوجدوا في أكثر من حجرة من حجرات المصلحة فتيات، وأكثر من هذا وجدوا قرارات بسرعة قد كتبت على الآلة الكاتبة في أقسام المستخدمين، ومكاتب جديدة ـ وخطان تحت جديدة هذه ـ أعدت وجلست عليها الفتيات.

ولا يهمنا ما حدث في الحجرات الأخرى، يكفي جداً أن نختار مكتب التصاريح الذي قدر أن تعمل به «سناء» من بين الخمس فتيات اللاتي عين كدفعة أولى ـ وخطان تحت أولى هذه.

يومها وبعد ما بقيت في الردهة فترة تسأل عن محيي أفندي الذي قيل لها أن تذهب إليه بالورقة التي معها، وفي الطرقة الطويلة نسيت اسمه ووقفت حائرة تسأل الساعي الجالس فوق كرسي واضعاً ساقاً على ساق

ومن تحت شاربه الكث غير المشذب تخرج كميات هائلة من الدخان أكثر بكثير من التي يجذبها تباعاً من السيجارة النحيفة التي لا تكاد تظهر بين أصابعه . . تسأله عن محيى أفندي والساعي يحتسي القهوة من الكوب الزجاجي الرفيع باستمتاع، ويؤكد لها أن لا أحد في قسمهم له هذا الاسم. وبعدها تحايلت على التذكر بأن طلبت منه في لباقة ـ وبابتسامة لجأت إلى أنوثتها كي تجعلها ساحرة ـ أن يعدد لها أسماء الموظفين. وتفعل الابتسامة فعلها ويكر الساعي الأسماء، وبهذا وحده تعثر كالغريقة على اسم محيي أفندي، وبعد قليل تعثر عليه شخصياً. ويدخلها الساعي وهو لا يعلم من تكون، بل وكاد يفقد عقله وظل أكثر من ربع ساعة يضرب كفاً بكف ـ لا تدري لماذا ـ حين عرف أنها موظفة جديدة عينت في المكتب، ولا يصدق. . ولا يصدق حتى وهو يقطع احتساءه للقهوة ويحمل لها على كاهله من المخزن مكتباً جديداً أنيقاً ويضعه كيفما اتفق في حجرة الموظفين ذات الأربعة مكاتب، ويعاني الأمرين وهو يضعه وكل منهم يشير عليه أن يضعه في مكان، والمشير والمشار إليه لا يزالان غير مصدقين أو مقتنعين أو مؤمنين بأن ما يدور أمامهما وأمام الآخرين حدث حقيقي سيظل موجوداً غداً مثلاً وبعد غد وإلى وقت القيام بالإجازة السنوية، حتى حين استقرت سناء على مكتبها الذي جاء وضعه في أسوأ مكان في الحجرة، فالحجرة لها أربعة أركان، وكل موظف فيها قد اختار له ركناً تشبث به واحتمى، واحتله احتلالاً أبدياً. وكل ما يميز ركن الباشكاتب رئيس الثلاثة، أن مكتبه أكبر قليلاً ومتقدم قليلاً بحيث يواجه الداخل إلى الحجرة. المكتب الجديد وضعوه هكذا بجوار الباب مباشرة ودون أن يتنازل أيهم ويزحزح مكتبه، حتى بدا وضعه نشازاً، وبدا وكأنه متطفل على الحجرة ـ فللحجرة أربعة أركان، وفيها أربعة مكاتب قائمة

وثابتة ومشغولة، ما حاجتها إلى موظف أو موظفة جديدة أو ركن خامس؟ ولم تكن هذه كل سيئات الوضع الجديد للمكتب، فبوجوده بجوار الباب يعرض الجالس عليه ـ أقصد الجالسة ـ للخبطكلما فتح الباب، حتى حين حاولت سناء جهدها أن تعدل من الوضع بحيث يتلقى مكتبها أقل الخبط باءت جهودها بالفشل.

كل هذه تفاصيل صغيرة وغير مهمة، فالمهم أن الساعة ما كادت تشرف على التاسعة حتى كانت سناء قد استقرت تماماً على كرسيها ووضعت يديها أمامها فوق المكتب كعادتها إذا جلست إلى ترابيزة لجنة الامتحان قبل توزيع الأسئلة. كانت تنتظر ما سوف يعهد إليها به من عمل، فهي لم تنم ليلة الأمس إلا نادراً، وقضت الساعات الطويلة تحلم بما سوف يحدث في الغد بتفاصيله الصغيرة حتى. كانت تحلم بدخولها المكتب، برئيسها، بالطريقة التي تقابل بها زملاءها، ثم أخيراً بالعمل. لم تكن تعرف بالضبطماذا ستعمل، ولكن أحلامها ظلت تدور في غموض مثير حول هذه النقطة بالذات، ويدق قلبها بالانفعال وكأنها ستزف إلى العمل مثلاً. . إلى ذلك الشيء الغامض المحير الذي له رائحة الرجال ولملامحه جديتهم وصرامتهم. مهما كان فهي تريده، وها هي ذي تحلم وتتلوى وتحتضن المخدة مفكرة فيه محاولة أن تتخيل نوعه ووقعه وأهميته، وتصرفاتها ازاءه.

وحين جاء الصباح أخيراً وتم كل شيء تقريباً كما تخيلت، لا تزال برغم وجودها فوق كرسي وأمام مكتب وفي حضرة رئيس وزملاء، تحلم وتتصور وتبتلع ريقها مراراً في انتظار ما ستكشف عنه اللحظات القليلة الخطيرة المقبلة.

٢

اللحظات القليلة المقبلة لم تتكشف عن شيء ذي بال بالنسبة لسناء. الحقيقة تكشفت عن أشياء بالنسبة لزملائها الموظفين! إذ في ذلك اليوم ورغم مضي ساعة على بدء العمل لم يبدأ العمل، وإن وجد كل منهم نفسه مشغولاً بترتيب أوراق، والتحدث إلى الرئيس الباشكاتب في مسائل تتعلق بالعمل، مستعملاً في حديثه اصطلاحات وتعبيرات تكنيكية خاصة، مدسوسة من عمد. ولكن أحداً منهم ـ حتى الباشكاتب نفسه ـ لم يكن قد فكر لثانية واحدة في العمل. وفي الفترات التي كانوا يكفون فيها عن التفكير في العمل ـ وهي ليست قليلة بالمناسبة خلال اليوم الواحد ـ كانوا في العادة يتحدثون عبر المكاتب ويتناقشون. في تلك الساعة لم يعملوا، ووجدوا أنفسهم غير قادرين لسبب ما على التحدث عبر المكاتب كما اعتادوا، لا لوجود سناء أو لخجلهم منها ولا لأي سبب معلوم. كل ما في الأمر أن أمنية كل منهم كانت قد تركزت دون أن يشعر حول أن يتاح لهم أن ينفردوا بأنفسهم قليلاً ليعودوا أربعة مثل ما كانوا حتى يصبح باستطاعتهم التفكير أو الحديث. وأيضاً لم يكن يعرف أي منهم بالضبط ما يريد قوله. أشياء كثيرة يحس بها، ولكنه لم يكن يعرف بالضبط ما هي أو كيف يعبر عنها. وحتى تلك اللحظة لم يكن أي منهم قد

ألقى نظرة متطلعة أو متعمقة إلى زميلتهم الجديدة، ولا حتى رأى إن كان شكلها يعجبه، أو حاول معرفة اسمها أو ماذا ستقوم به من عمل. كان يؤجل هذا كله إلى أن يعود نفسه أولاً. . أن يمسك بزمام كيانه ليستطيع أن يتكلم أو يرى أو يسمع أو يعرف. كل شيء ظل يؤجله إلى أن تغادر القادمة الجديدة الحجرة، ولو حتى للحظة.

ولكن سناء لم تغادر الحجرة، بل وكانت هي الأخرى لا تستطيع أن ترى أو تسمع أو تحس بما حولها، وإن كانت لا تزال جالسة ويداها فوق المكتب وعقلها في حالة سكون تام في انتظار أن يقول أحد له تحرك ليتحرك. خيالها فقط هو الذي كان يتحرك. . وحتى لم يكن يذهب بعيداً كان يتحرك «محلك سر». يترقب أن يعرف أخيراً هذا الشيء المجهول الذي تعبت سناء وأتعبت أهلها معها وتعلمت ونجحت ليتاح لها أن تأتي إلى هذا المكان وتعرفه.

وفقط حين انتقل عقرب دقائق الساعة المثبتة فوق رأس الباشكاتب إلى علامة النصف بعد الثانية «فالساعة كانت ثمة خمس ساعات فرق بينها وبين التوقيت المحلي للقاهرة»، حين تحرك العقرب ليشير إلى التاسعة والنصف ولم تتحرك سناء أو تغادر الحجرة، بدأ الأربعة يتململون ولم يعد باستطاعتهم الصبر. واستأذن أحمد وخرج، وما لبث شفيق أن تبعه والتقى الاثنان على الباب، وقبل أن يحدث أي شيء آخر وجدا نفسيهما يقهقهان ويتصافحان بعنف، وكأن أحدهما قد انتهى لفوره من القاء نكتة أعجبت الآخر، وجعلته يتطوح ويتلوى «ويدق» على كف زميله مرة ومرات.

قال أحمد:

ـ شفت يا عم؟

وضحك شفيــق وهو يأخذه من ذراعه ويبتعد عن الحجرة حتى لا تتسرب ضحكاتهما إلى الداخل. ولـم يذهبا بعيـداً فقرب البوفيـه وجدا اسماعيل وصفوت و«أبو»النجا من قلم المراجعة في حالة مؤتمر ضاحك. دخل عليهم أحمد بقامته الرفيعة الطويلة وصديريه الذي يتهدل من ناحية ويبدو في هذه الناحية بالذات أوسع من صدره وقميصه، وطوق صفوت واسماعيل بذراعيه قائلاً:

ـ شفتوا اللي حصل؟

ـ دا احنا لسه نا بنتكلم.

ـ كفك على كده.

وتصاعدت من الخمسة قهقهة غطت علـى كل الضجة الصادرة من البوفيه. . قهقهة انزعجت لها لا بد أبنية المصلحة العالية الـوقورة. وما لبثت الطرقة والصالة وحجرة الموظفين في قسم الأرشيف ـ الوحيدة التي بقيت على حالها رجالية محضة ـ أن امتلأت بموظفي المصلحة وكأنهم في حالة فسحة أو اضراب. . جماعات متفرقة وشلل وأقسام بأكملها على هيئة مؤتمر. وحتى حجرات الرؤساء ذات السجاجيد كنت تجد بعضهم قد سعى إلى الآخر وطلب القهوة وجلس وبدأ الحديث.

في تلك الساعات الأولى من اليوم الأول لم تكن الآراء محددة، بل لم تكن هناك آراء على الاطلاق! ضحكـات وقهقهات كنت تجد تريقة كنت تجد، لا على الموظفات الجديدات ولكن على أنفسهم، أو على وجه أصح على الضعفاء منهم، وبالذات تلك النماذج الغلبانة التي ليس باستطاعتها التريقة أو قول النكات. أحدهم يقترح على عم فرج موظف الخزنة أن يذهب ويبحث لنفسه عن عمل آخر، إذ هم في الطريق إلـى فصله من عمله بسبب شكله القبيح وتعيين موظفة خزنة من طراز مارلين

مونرو. والنكات تنهال على الحاج ابراهيم الفراش ذي اللحية. بكره الست تبعتك تشتري خضار يا حاج.. واللا ترضع النونو. ومين عارف يمكن تقصدك مرة ترجع الكورسيه! وذلك الذي يقترح على متعهد البوفيه أن يفتح فاترينة للروج والريميل! إلى آخر ما استطاعت عقول الموظفين ابتكاره من أبواب القافية والتنكيت.

وفي طواف أحمد وشفيق بالمصلحة، والمصلحة كلها كانت في حالة طواف ببعضها البعض، التقيا بالباشكاتب وسلما عليه بحرارة وكأنهما يقابلانه بعد سفر، وهو الآخر أخذهما بالأحضان وكأنه نجا لتوه من حادث. وقال له أحمد:

ـ هيه.. ايه رأيك؟

ـ قالوا اللي يعيش ياما يشوف.. وياما لسه حنشوف!

واكتشف الثلاثة بعد برهة أن «الجندي» ليس موجوداً في طرقات المصلحة ولا ردهاتها، وأنه لا بد قد عسكر في الحجرة لم يبرحها، وزمانه في تلك اللحظة هو و«الست» وحدهما. وأن يترك الجندي مع سيدة بمفردها في حجرة تقابل عندهم أن يترك المراهق مع سيجارة، أو المراهقة مع تليفون، وضع معناه كارثة محققة.

٣

وليس لهذا الأمر وحده عادوا جميعاً إلى الحجرة. كانوا بعد ما شبعوا ضحكاً وتهليلاً وأفرغوا كل ما عندهم من نكات، قد اكتشفوا أن أحداً منهم أو من غيرهم ممن كتب عليهم أن يرزءوا بفتاة من الفتيات الخمس لم يكن قد رأى «الست» أو تفرج عليها. اكتشفوا أن انفعالهم كان لمجرد الخبر المؤكد الذي ليس اشاعة أو نية أو اتجاهاً، ولكن حقيقة واقعة أصبح لها مكاتب، وصدرت من أجلها قرارات. أليس من الواجب أن يروا كنه تلك الحقيقة ويتأملوها؟

وصح ما توقعوه، فما أن فتح أحمد الباب وتراجع ليدخل الباشكاتب أولاً، حتى تناهى إلى سمعهم صوت محمد الجندي الأخنف قليلاً يقول:

ـ يعني لسه ما تشرفناش باسم حضرتك.

ولأول مرة يتعالى في حجرتهم صوت حريمي يقول:

ـ سناء.

يقولها في خجل متلعثم سريع لا يليق بزميلة. هنا تلكأ الباشكاتب في الدخول وبقي الباب مفتوحاً، وجاءهم صوت محمد الجندي مرة أخرى يقول بطريقة ليست غريبة عليهم.

ـ تشرفنا. . أهلاً وسهلاً. . ثناء وانت صحيح ثناء.

ـ أنا اسمي سناء. . سناء بالسين.

وإلى هنا لم تحتمل الأعصاب، وهجم الثلاثة داخلين في كتلة مندفعة ذات ثلاثة أحجام مختلفة ما لبثت أن انقسمت وتمكتبت. وصوبت ستة أزواج من العيون التقت كالأنوار الكاشفة النهارية على وجه محمد الجندي، وكأنما لتضبطه وتصب عليه ستين زوجاً من اللعنات. .لعنات الباشكاتب معروفة بترفعها واحتقارها لأساليب الجندي، ولعنات أحمد الطويل فيها قرف من لزاجة الجندي المعهودة، ولعنات شفيق لم تكن في حقيقتها لعنات. كانت مجرد تأنيب دقيق كامضائه لا تتبينه بسهولة كتأشيراته، كآرائه في الناس والحياة.

وفعل كل هذا فعله في الجندي، فما لبث أن اختفى وجهه عن الأنظار اللاهثة الكاشفة وانكفأ يكتب، أو على الأصح يحرك القلم على هيئة كتابة.

ولكن الأنظار ظلت مسلطةعليه،وكأنما لتتأكد من صدق توبته، ثم ما لبثت في أزمنة متفاوتة، وبسرعات متفاوتة، وتردد وأدب وقلة أدب وقوة ابصار متفاوتة أيضاً، أن استدارت إلى «الست» تتفحصها وتحلل ملابسها إلى عواملها الأولية وأثمانها، ووجهها إلى أنف وعيون ونوع بودرة وطريقة تصفيف شعر، وحذاءها الواضح من تحت المكتب لتحدد إلى أي الطبقات الاجتماعية تنتمي.

والظاهر أنهم اندمجوا في الاستطلاع والتحليل إلى درجة لم يشعروا فيها بعيون محمد الجندي، وهي تنضم إلى وليمة العيون بلا حرج ولا تكليف، وبطريقته الدنيئة اللزجة الخاصة.

وغير مهم الزمن الذي استغرقته عملية الفحص، فهم وإن كانت مشاربهم وشخصياتهم وأهواؤهم مختلفة متباعدة إلا أنهم جميعاً -بمن فيهم الجندي - خرجوا برأي واحد. . الواضح أن الزميلة العزيزة جميلة التقاطيع، مسمسمة، سمراء قليلاً، ومن كل أدوات الزينة لا تستعمل سوى الروج، ليس غامقاً كالسمراوات حين يضعنه، ولكنه روج مؤدب هو الآخر ليس هدفه أن يبرز جمال الشفاه، إنما هدفه فقط أن يدل على وجودها ويحددها، وكان واضحاً أنها ليست مؤدبة فقط، ولكن أدبها من النوع الذي لا يمكن التحول عنه، فهي لا تستعمله لأنها مع رجال مثلاً أو تخاف على سمعتها، ولكنه أدب حقيقي نابع من طبعها.

غير أن الجندي لم يفته أن يلاحظ أنها قد طلت قدميها بالمانيكير، وقد أسعده اكتشافه هذا سعادة لا توصف، فهو في نظراته لجنس النساء عامة كان دائماً يحاول أن يجد فيهن أو في شخصياتهن ما يسميه هو بعلامة «الرضاء الموارب»، وسناء كان من الواضح أنها من النوع المحصن المغلق الحصين، ما عدا هذا الطلاء الذي لا يكاد يرى في أصابع قدميها.

لعل وعسى يصلح علامة للرضاء الموارب. من يدري؟ لعل وعسى.

٤

وفي حوالي الحادية عشرة بدأت تحدث في المصلحة ـ وعلى نطاق أضيق ـ حركة تجوال أخرى وتطواف هدفها تكوين فكرة ما عن الموظفات الجديدات. واثنان من موظفي الحجرة هما اللذان خرجا هذه المرة. . كان أولهما محمد الجندي الذي اتجه فوراً إلى إدارة التفتيش، حيث قد سمع عرضاً من الساعي أن الموظفة التي عينت هناك مثل «المهلبية». فعلاً وجدها كذلك وبطريقة تسيل اللعاب، فقد كانت تبتسم على الفاضي والمليان ولكل من هب ودب، وتحادث كل راغب في الحديث، وكل شوية وشوية تمد أصابعها بسرعة لتطمئن على «القصة» وتفرد شعراتها أو تجذبها الى أسفل لتعيدها الى فوق جبهتها. ولكنه أيضاً لم يتوقف كثيرا في ادارة التفتيش فقد كان عليه أن يطوف بالمكاتب الثلاثة الباقية، لتكون فكرته عن الزميلات الجديدات كاملة ومبنية على أساس من المشاهدة الشخصية التي لا تقبل الجدل.

وأكثر من «جندي» كنت تجدهم كذلك، وأكثر من جماعة تكونت أعضاؤها من السعداء الذين عينت في أقسامهم فتيات يتبادلون الرأي حولهن ويقارنون بينهن ويختلفون حول أيهن تتوج ملكة الجمال على الخمس؟ وأيهن أكثر أناقة؟ ومن ملكة السيقان؟ ولم يخل الأمر من

جماعات مشتركة من سعداء الحظ وتعسائه، أولئك الذين ظلت مكاتبهم رجاليــة خشنة في تلك الجماعات، وبعد أن كان أعضاؤها ينتهون من التحسر أو التفاخر كان يبدأ حديث ما عن المستقبل، وبالذات عن مستقبل الفتيات! وعند هذه النقطة كانت تتفق آراء الجميع على أنها مسألة أيام فهن قد نجحن حقيقة في اقتحام ذلك المعقل الرجالي، واغتصاب مكاتب بقرارات، ولكن المشكلة ليست في الاقتحام.. المشكلة في الصمود في العمل نفسه، فمما لا شك فيه ولا نقض أنهن لن يستطعن بأي حال أن يمارسن العمل، لا لصعوبته، ولكن لاحتياجه إلى عقلية الرجل وتصرفه وشخصيته.. وهكـذا كان أكثر المتفائليــن تفاؤلاً لا يعطيهن سوى شهر واحد مهلة، بعده ستضطر المصلحة حتماً لأن تطلب نقلهن إلـى أعمال أخرى في الوزارة، أو حتى خارج الوزارة كلية.. والدلائل كانت تشيـر إلى أن شيئاً من هذا وشيك الحدوث، فالمصلحة لتلك اللحظة حائرة لا تعرف ماذا تعهد إليهن به، والفتيــات لا يزلن جالسات لا يفعلن إلا الانتظار، بينما موظفة التفتيش نادمة علــى أنها لم تحضر معها الابر والتريكــو إذ كان باستطاعتها خلال السبع الساعات التي قضتها جالسة تنش الذباب أن تنتهي بسهولة من البلوفر الذي بدأته.

يومها، ذلك اليوم الأول، عادت سناء إلى البيـت باحساس تلميـذة أولى ابتدائي حين تعود بعد أول يوم دراسي في حياتها، وكـل ما داعب خيالها من أحلام حول الدراسة قد تبخر في أثناء جلستها الطويلـة علـى المقعد بلا حصص ولا كتب جديدة ولا مسائل حساب.

ولكن ذلك كان في اليوم الأول فقط. فما كاد يمضي يوم آخر إلا وسناء قد وجدت نفسها غارقة في العمل، ضائعة مشتتة، وكـأنها تقرأ أسئلــة امتحان جاءت كلها خارج المقرر. لقد ظل الباشكاتب يشرح لها ما يجب

عليها عمله أكثر من ساعة، ويسألها بعد نهاية كل شرح أن كانت قد فهمت فتهز رأسها بالإيجاب. ولكنها حين يعهد إليها بالموضوع على سبيل التجربة تجد كل ما قاله يطير من عقلها ويتشتت، وتجد نفسها عاجزة عن تنفيذ ما طلبه أو فهمه، تحدق في يأس قاتل ناحية أحمد وشفيق وحتى محمد الجندي، وتجدهم جميعاً منكبين يعملون بسرعة وبساطة، فتكاد تبكي وهي تحس بهم عباقرة مشتعلي الذكاء، وبنفسها غبية حمقاء لا يمكن أبداً أن يأتي عليها يوم يصبح لها فيه نفس قدرتهم الخارقة تلك.

والغريب أنها بعد بضعة أسابيع حين أدركت أن كل المعميات التي كان مطلوباً منها أن تنجزها، لم تكن تتعدى تحرير التصريح وتتبعه حتى يختم بخاتم المصلحة، كانت تضحك على نفسها ولخمتها! ولكنه شيء لم يحدث إلا بعد بضعة أسابيع، أما في تلك الأيام الأولى فحدث ولا حرج عن العرق، والمنديل الصغير وهو ينتقل في سرعة واضطراب كمنديل الحاوي المبتدىء من باطن احدى اليدين إلى الجبهة، والخجل المشل للقلب المعشى للبصر. والدموع.. الدموع الداخلية غير المرئية التي لاتني عن سكبها في المصلحة، والدموع الظاهرة التي تتفجر بارادتها في البيت. حالة ليتها كانت تملك معها القدرة على الرثاء لنفسها. فالعكس هو الصحيح، إذ كانت لا تكف عن لوم نفسها رغم كل هدهدات الأم ومحاولاتها للتخفيف والتبرير، رغم كل ابتسامات زملائها في الحجرة والعمل ونظرات الإشفاق التي يغمرونها بها حتى لا تتعثر فيها وتكاد تنزلق، رغم صبر الباشكاتب وطول باله واحتماله لها وهي تكرر الخطأ نفسه مرة، وتحاول بعناد أن تتلافاه فتجد نفسها تكرره مرة أخرى، وأية أخطاء! أخطاء تصل إلى أنها وهي خريجة التجارة تجد نفسها أحياناً عاجزة عن تحويل المبلغ المرقوم أمامها إلى مبلغ مكتوب، وتشك وتخاف ألف

مرة قبل أن تضع العلامة العشرية.

ولكنها الأيام الأولى ـ كأية أيام أولى ـ كان يجب أن تمر وتحمل معها كل الذكريات المحرجة الأليمة، ومواقف الاعتذار، وعشرات المرات التي يئست فيها تماماً وفقدت الأمل.. كان يجب أن تمر لكي تصل سناء إلى المرحلة التي أصبحت تجتازها بنجاح، مراحل الفهم الأولى والاحاطة بالثغرات والمزالق تلك التي تشبه مرحلة الانطلاق في تعلم ركوب الدراجات، المرحلة التي يصبح في مقدرة المرء فيها أن يبدل ويسير دون أن تسقط به الدراجة بعد بضعة أمتار.

ونفس الشيء حدث لكل ما هو خارج العمل وعلى هوامشه فزملاؤها في الحجرة الذين كانوا يبدون لها ـ رغم كل ما بينهم من اختلافات ـ متشابهين إلى درجة لا تملك التفرقة بينهم، كانت قد استطاعت أن تحفظ أسماءهم، وحتى نوع العمل الذي يؤديه كل منهم.. وأكثر من هذا بعض خصاله. ولقد اطمأنت لهم جميعاً، وفي وجودهم لم يكن جهاز رادارها الأنثوي ينقل إليها أية نوايا ذكرية خافية، جميعاً ما عدا الجندي فقد كان الجهاز الكامن في أعماقها يدق كلما حاول أن يقترب منها أكثر من اللازم.. كلما فضل ألا يتنحى جانباً ليفسح لها طريق الخروج.. كلما اتكأ بمرفقه على مكتبها وهو يحادثها حديث عمل في الظاهر، بينما عيونه التي يتأرجح لونها بين الصفرة والخضرة تجوب سطح المكتب ويديها، وتتأمل عقل أصابعها وخاتمها وجلد رقبتها وكل ملليمتر مربع من شفتيها، في فحص وقح خرب الذمة، لا يرده عن تصور أي شيء قد يخطر بباله وازع أو خجل، ولكنها لم تكن دقات خوف.. على وجه أخص خوف أنثى من ذكر، أو فتاة من رجل يطاردها.. كانت دقات

اشمئزاز واستنكار، فلا أحد ممن تضمهم الحجرة كان قد راق أو استوقف عينيها، خاصة الجندي فلا شكله كان عجبها، ولا طريقته في معاملتها ولا علاقته بزملائه، ولا أي رأي قاله أو كلمة خرجت من فمه. حتى عادته في تدخين سجائره نفرت منها، فقد كان يبتلع النفس ثم يفتح فمه ويترك الدخان يخرج منه وحده دون أن ينفثه أو يبذل جهداً في اخراجه، فكان يبدو وكأن الدخان الخارج من فمه مجرد رائحة منفرة خارجة على هيئة دخان، كأن في بطنه عقب سيجارة تركه أحدهم لينطفيء وحده ويخنق أنفاس المحيطين برائحة شياطه. وهي لا تدري لماذا حرص كل من زميليه الآخرين أن يخبرها ـ خلسة ـ عن حياة الجندي الزوجية الخاصة، وكيف أن له زوجتين والثالثة تقاضى منها ثمن الطلاق.. وكم استبشع عقلها الذي كان لا يزال بناتياً حالماً في آرائه كل ما سمعت، وكم أصبح الجندي في رأيها بشعاً إلى درجة تتقزز فيها من مجرد أن تراه يقطع عمله ويتحدث أو يضحك، أو يروي نكتة لا يقهقه لها أحد، كم تمنت في لحظاتها لو كانت رجلاً لتلكمه بشدة وتعلمه الادب. وكم تضايقت بينها وبين نفسها من سكوت زميليه والباشكاتب عنه واحتمالهم لسخافاته. كم ضايقها ذلك وأرق من جلستها إلـى المكتب.. تلك التي جاءت لسوء الحظ في مواجهته، والتي حتمت عليها أن تمتنع نهائياً عن النظر أمامها طول النهار وحتى لو استوجب الوضع أن تنظر إلى الأمام.

مضايقات طالما تمنت لو كان أبوها الحنون لا يزال حياً لتشكو إليه منها، فأمها رغم كل حدبها لا تفهم ولا تستطيع هي التي قضت حياتها ربة البيت ورهينة المطبخ، أن تدرك تلك الأنواع الجديدة من المشاكل.

عمها، أو بالتحديد عمها «حسن أفندي» إبن عم والدها الذي كان يبسط على عائلتهم الصغيرة ظل الرجل وحمايته، ويأتي بانتظام دقيق

لزيارتهم كل أسبوع مرة، كان يدرك تلك المشاكل، كان هو نفسه موظفاً في الدرجة الخامسة، وقد وصلها خلال خمسة وعشرين عاماً بادئاً من التاسعة، كان يسألها ويبدو فاهماً حين تحدثه عن تفاصيل كل شيء وأكثر فهماً حين تحدثه عن علاقاتها بمن معها من الموظفين. حتى مشكلة الجندي واستثقالها لظله وكل وجوده كان يفهمها، ويقول لها معلقاً ـ ولا يخلو تعليقه من حكمة أو خبرة ـ أن مضايقات العمل جزء لا يتجزأ من العمل، لا تحاولي حلها بعواطفك فالعواطف لا تحل شيئاً، حليها كمشاكل العمل بعقلك فالعقل وحده هو القادر على حلها. . العمل ومضايقاته مثل مسائل الحساب لا يمكن للعواطف مهما بلغت حرارتها أن تحلها، الحل بالعقل، بإعمال العقل، بالتفكير وتبريد الانفعالات والتدبير. أنا مثلاً كنت. .

ويحكي لها. . ولكن يبدو كل ما يحكيه بسيطاً جداً بالمقارنة إلى ما هي فيه، إذ يبدو وكأنها مشاكل خلقت وفصلت خصيصاً من أجلها ولإغاظتها، ولإحاطتها بجو لا تستطيع التخلص منه. . جو من الارتباك والاضطراب وعدم القدرة على الإتيان بأي حل.

ولكن الأمر لم يكن يخلو أيضاً من سعادات: جمهور المكتب المتردد عليها حين يرجوها ويمتثل لكلماتها، حين يقف الرجل العريض أمامها باحترام بالغ وينحني بسرعة ورضوخ قائلاً بأدب جم: أيوه يا افندم! تسعد هي في سرها وتضحك وتحس بنشوة السلطة والأهمية، ويضيع معها شعورها بأنها مبتدئة وأنها منذ دقائق كانت تقف وستقف أمام الباشكاتب ومدير الإدارة موقف تلميذة الإعدادي أمام الناظرة. هؤلاء المترددون جميعاً لا يعرفون عنها أبداً ذلك الموقف، والدليل بسيط. ها هم يعاملونها وكأن لها كل خبرة الباشكاتب وأهميته وأقدميته.

ويـا لسعادتها يوم اكتشفت خطأ في الاستمارة التي حررها الجندي الأقدم منها بسنين، وذهبت في حماس بالغ تلفت نظر الباشكـاتب إلـى الخطأ مدعيـة التواضع وقلـة الاهتمام باكتشافها الهائل. صحيـح أنها دهشت لأن الباشكاتب لم يشنق يومها الجندي ولا حتى عنفه، ولكن ذلك لم يثبط من الإحساس الغامر بالتفوق الذي صاحبها طول اليوم.

وهناك حين مضت الشهور الثلاثة الأولى وأصبح من حقها أن تقبض ماهيتها المجمدة، وذهبت إلى الصراف في اليوم الأول من الشهر، وبدلاً من اجابة النفي التي تعودها أومأ لها بغير حماس كثير إلـى اسمها في القائمة، ورأته بعينيها وتأكـدت منه. وحيـن فك رزمة الأوراق من فئة الخمسة جنيهات وجعلها توقع باسمها الكامل ومضى يعد، ثم يكمل لها المبلغ من رزمة الجنيهات وأرباعها. . هناك حين غادرت الخزينة وفي حقيبتها أول ثلاث ماهيـات، وحيـن غادرت المصلحة، ثم وهي تعبر الشارع وترى الناس وتدخل البيت بصرخة فرح بناتية قائلة أنها جوعـى مدبرة أن تفاجىء أمها بالنقود رزمة واحدة. . هناك وأمها تفرح وتهم أن تزغرد وتقبل الماهيـة وتقبلها، وتمسك النقود بيـدها وتدعو لها. . هناك وهما تجلسان بعد الغداء تتحدثان فيما يجب عمله بالنقود وتدبران أمور العيش على أساسها، بينما أخوها الطالب الأصغر يقطع المذاكرة ويطل عليهما بين الحين والحين متلصصاً، وبطريقة تحس سناء معها أن جلستها مع أمها جلسة كبار، وحديثها حديث كبار. . حديث وجلسة ومواضيـع تعيد لذاكرة سناء صوراً باهتة عن أبيها المرحوم حين كان يقبض وتراه آتياً يومها كالمنتصر، له حق رفع الصوت على أمها وفرض الرأي. . صوراً عن الأيام الماضية والكلمات الغامضة التي كانت ترن في مخيلتها الطفلة رنين الخطوة الغريبة على أرض خام لم تطأها قدم بشر. . أكل العيش وعرق

الجبين والماهية، ماهيتي يا ست أم سناء. . عمرك لن تدركي كيف أشقى لأحصل عليها، كيف أحرق دمي لأتقاضاها، الماهيــة يا أم سنـاء والفلوس. . كلمات كانت سناء الطفلة تدرك بطريقة ما ما تعنيه، ولكنها أبداً لم تشعر بمعناها الحقيقي، بأنها ليست مجرد كلمات، إلا هناك حين اشتغلت هي وتحملت الفشل والضيق، وعرقت وخجلت وغلا دمها غضباً وتجمد خجلاً، لتقبض آخر الأمر. ليتحول هذا كله إلى نقود، تبدو لها على كثرتها مثلما كانت تبدو لأبيها قليلة، كل قرش منها لا يقدر تعبها في الحصول عليه بمال.

٥

الذيـن راهنوا خسروا الـرهان، والذيـن كانوا لا يصدقون اضطروا للتسليم، وأسابيع كثيرة مضت و«البنات» قد ثبتت أقدامهن في العمـل ومكـاتبهن التي كانت موضوعة علـى هوامش الحجرات ـ وضع الشيء المؤقت ـ زحفت زحفاً غيـر منظور وابتعدت عن الأبواب، واستطاعت بطريقة ما أن تخلق لها أركاناً ثابتة حصينة تكاد تجعل من الحجرة ذات الأربعة أركـان حجرة بخمسة، وقد أضيف إليها ركن جديد لا يقل أهمية وخلودا عن الأركان الأربعة الأصيلة. وكأنما باستطاعتك دائماً أن تحيل المثلث إلى مربع، والمربع إلى مسدس له أصالة المربع، وكأن لا ثابت هناك ولا خالد، والغباء فقط لمن يتصور الثبات والخلود. .

والزمن مع سناء وزميلاتها باستمرار، وكل يوم يمضي يضيف جديداً ويزيدها فهماً ووعياً. وبغير أن تبذل مجهوداً كبيراً كانت قد استطاعت أن تعرف عن قسمهم وعن زملائها فيه كل ما تريد معرفته، ثم بدأت معلوماتها تتعدى نطاق الحجرة وأصبحت تعرف علـى وجه الـدقة كنه التركيـب الخارجي للمصلحة، وكذلك وإلى درجة ما استطاعت بتبادل الرأي مع زميلاتها، وبالنصيحة الخالصة لوجه الله التي كان يتفضل بها بين الحين والحين زميل، أن تتبين فيما يشبه الصباح المضبب كنه التركيب الداخلي

للمصلحة، ومن بيده النقل والانتداب والعلاوة، ومن الـذي يقرر البدل والأوفرتايم، ومن باستطاعته الدس لدى المدير، وبيـن التركيبيـن وبيـن العالمين، استطاعت أيضاً أن تدرك أن ثمة شخصاً واحداً يقف، وحول شخصه وموقفه تلتف علامة استفهام كبرى لم تعرف كيف تفسرها أو تحلها. فموظفو المصلحةبمن فيهم الكبار، كانوا ينضوون بشكل أو بآخر تحت أي من التركيبين. هناك المدير ونوابه مديرو الإدارات والمفتشون إلى آخر قائمة الـوظائف والألقاب، هؤلاء مع ما بينهم من صراع وتنازع اختصاصات يكونون الهيكل الخارجي للمصلحة. أما الإدارة الفعـليـة أما لماذا ينقل هذا ولماذا يرضى عن ذاك، أما التيار الحقيقي الجاري في قلب المصلحة يحرك الأمور ويوجهها فقد كان يقوم على أناس قد تجد بينهم سكرتيـر المديـر مثلاً، أو موظفاً في الـدرجة السابعة في قسم المستخدمين، وآخر عجوزاً في مكتب المراقب العام قربت احالته على المعاش، مع كل ابتساماتهم المؤدبة، مع كل محافظاتهم على الشكـل الخارجي وأداء عملهم في حدود وظائفهم لا يتعدونها، إلا أن نفوذهم بالغ الخطورة، تحدّ أحدهم وانتظر ما يحدث لك. وبين الوجهين يقف هذا الشخص ـ الجندي ـ لا يعمل طول اليوم بمليم، ودائم الغياب والتـأخير وكثير الأخطاء، يخرج من الواقعة، حتى إذا بلغت الواقعة المدير، خروج الشعرة من العجين دون أن يمسه مجرد لفت النظر، أو على الأقل هذا هو ما خرجت به سناء بعد تجربتها الخطيرة معه. فلم يكد يمضي على وجودها في المصلحة أسبوع ويـذهب طعم الضيـافة عنها، حتى بدأت مطاردته لها. ولم تكن سناء في الحقيقة تتصور ـ رغم كل ما ذكره لها عمها ـ أن تبلغ الوقاحة حد أن يبدأ زميل لها في العمل يغازلها مغازلات علنية سمجة فاضحة، تدخل في الصباح وما تكاد تلقي على زملائها التحية حتى يرفع

هو الدوسيه ليحجب وجهه عن الباقين، وينسكب اصفرار عينيه ملقاً سائلاً رخيصاً وزلفى كما ينسكب صفار البيضة، ويقول بهمس لا يقل زيتية عن نظراته: صباح الخير يا حلو. . يا مدوخني إنت يا حلو. . والنبي أنا دايخ وحاقع. . دانا خلاص وقعت.

ولا تعرف ماذا كان يلجم لسانها، أكثر من هذا يلجم حواسها كلها وعقلها عن أن تثور أو تنفجر صائحة غاضبة. أهو الخجل؟ ربما كان هذا صحيحاً في المرات الأولى. أو هو الاشمئزاز؟ ربما كان في الشهر الأول. أهو الغثيان الذي كان يطفح من أعماقها حتى ليعميها أن ترى أو تسمع؟ أم هو كل ذلك معاً؟ جائز. ولكن الواقع أنها كانت تسكت، وللإنصاف أيضاً كان يتبدى على ملامحها الساكتة كل ما لم تكن تنطق به أو تقول. ولكن الوضع أصبح لا يطاق حين تعدى صاحبنا حدود الغزل ودخل في عروض الزواج، أجل عروض الزواج! خلف الدوسيه سالت كلماته:

ـ هو أنا لا سمح الله نيتي وحشة؟ . . أنا هدفي شريف. . أنا راجل بتاع سنة الله ورسوله. . ومستعد من دلوقتي وبالشروط اللي تطلبيها. . أصلي بصراحة دايب. . وواقع. . ومش لاقي اللي يسمى عليّ . .

٦

حين أصبح الأمر وكأنه كل مشكلتها. . أمر لا تستطيع عرضه على عمها أو مصارحة أمها أو احدى زميلاتها به، فكرت سناء لفرط ما وجدت نفسها محاصرة ومخنوقة أن تترك العمل وتستقيل. ولكن فكرة أخرى عنت لها. .

لماذا تيأس هكذا من أول عقبة؟

ولماذا تسلم بالهزيمة أمام انسان تشمئز منه وتحتقره؟ لماذا لا توقفه عند حده؟ لماذا لا تتصرف التصرف اللائق بوضعها وقد أصبحت موظفة وتشكوه؟

وليلة بطولها قضتها إلى الثانية عشرة تكتب وتمزق وتفشل وتبكي وينتابها الغيظ، وأخيراً بدا وكأنها استقرت على الصيغة المناسبة للشكوى. وفي الصباح لم تذهب بالعريضة إلى الباشكاتب رئيسهم وإنما مباشرة إلى مدير الإدارة. دقت على الباب ودخلت وحيته وقدمت له «البوستة» ليوقعها وكانت قد وضعت الشكوى في آخرها. وحين انتهى المدير من التأشير على بقية الخطابات ورأت خطها يطل من العريضة والمدير يهم بتوقيعها هي الأخرى اقتربت منه، وترددت، ورجته أن يقرأها فهي شكوى منها. وخيل إليها بعد دهشة الرجل الأولى أنه قد أخذ وقتاً أكثر

من الـلازم في قراءتها، وأن قهقهته حيـن انتهى كانت سخريـة منها. واشتدت سمرة وجهها فجأة ووجدت نفسها تبكي. حينئذ فقطكف المدير عن الضحك واتخذت ملامحه طابعاً أبوياً مصطنعاً وإن حاول أن يطليه بطبقة حزم حادة، وسمح لنفسه أن يهدهد على كتفها مؤكداً لها أنه لا بد أن يوقف الجندي عند حده، غيـر أن هذا لم يمنعه أن يعود للابتسام وهو يطلب منها أن تحاول في المرات القادمة أن تتعلـم أساليـب الشكـاوي الرسمية، إذ ليس فيها محل لعبارات كثيرة جاءت بشكواها من أمثال «كلام تحمر له خدود العذارى»، و «موظفة مثلي ذات أصل وحسب». ثم بلهجة شبه حادة هذه المرة أفهمها ألا توقع الشكاوى الرسمية أو المكاتبات بتعبير مثل «المخلصة» سناء عبد الله، فللرسميات لغتها الأخرى.

ورغم كل هذا الدرس الجانبي فقد عاد المدير يؤكد لها أنه سيوقف الجندي عند حده، تأكيداً دفعها لأن تعود إلى الحجرة وفي نظراتها رضاء سافر، وحيـن جلست كان في جلستها تماسك من أن له في النهايـة أن ينتصر ويستريح. وهي التي ابتسمت هذه المرة ابتسامة حقيقية حين لم تكد تمضي دقيقة حتى جاء ساعي مدير الادارة يستدعي الجندي، وبعد أكثر من ربع ساعة عاد مصفر الوجـه بطريقـة جعلـت لجلـده لون عينيه وأكسبته بشاعة، ولكنه يضحك أو على الأقل كان فكه الأسفل قد تهاوى في سقطة مهـددة ضاحـكة. . ومـن خلف الـدوسيه جاءتهـا كلمـاته بتشتكيني ؟. . هو أنا من بتوع الكلام ده ؟. . طيب. . بكره نشوف.

وقبل أن ينتهي كانت هي في انفعال حقيقي غاضب قد شرعت تكتب شكوى عاجلة أخرى تثبت فيها ما قاله، وتجري حاملة اياها إلى المدير الذي ما كاد يعرف محتواها حتى استدعى الجندي وقد تملكته شياطيـن الـرئاسة والاحساس المضاعف بالهيبة المخدوشة. وجاء الجندي ويـا

لدناءته! يا للاستنكار الكاذب الهائل الذي قابل به شكواها! وقسمه وتأكيده لقسمه وأيمان الطلاق التي توالت من فمه،وهو يؤكد أن شيئاً مما قالته لم يحدث، وأنها تتبلى عليه، وأنها هي التي تتمحك فيه وتناوشه على أمل ـ أن تتزوج منه، وأنه مظلوم. . أي والله مظلوم لا يدري ما يفعل في هذه البلاوي التي تتساقطمن حيث لا يعلم فوق رأسه. يا بيه عيب. . أنا راجل متجوز وعندي تسع عيال. . ما تخليها تشوف حد تاني تتلقح عليه. يا سعادة البيه ده أنا. . أنا. .

وبلغ الاشمئزاز بسناء حداً جعلها تتمنى أن ينتهي المشهد بسرعة وعلى أي وجه، حتى لو جاءت النهاية ضدها وفصلوها من المصلحة أو أرسلوها إلى السجن. إنها لم تر أبداً في حياتها منذ وعت أناساً كهذا الجندي يكذبون عيني عينك بلا خجل أو حياء أو ارتباك، مجرمين في كذبهم إلى حد ممكن فعلاً أن يقلب الباطل حقاً والحق باطلاً.

ولكن الأمر لم ينته تلك النهاية. . فالمدير حتى لم يكلف نفسه عناء النظر إلى سناء أو سؤالها عما لديها من أقوال. ظل طوال الوقت يحدق بنظرة غير مفهومة إلى الجندي وهو يقسم ويتفتف ويرفع عقيرته بالخطب والأقوال ـ على الأقل لم تفهمها سناء ـ وحين انتهى أمره بصوت حاسم خفيض ألا يتعرض مرة أخرى لها أو يحادثها حتى في العمل. . لهجة حيرت سناء، فقد كان واضحاً أن المدير يدرك خطأه ويعلم سفالته، ولكن لهجته في أمره لم تكن تتناسب أبداً مع هذا الإدراك. والأغرب من هذا أن يمتثل الجندي ويتعهد أن يقوم بكل ما يريده المدير أن يقوم به.

ولقد نفذ الجندي تعهده، ولكن التنفيذ لم يدم إلا ليوم واحد، أو على وجه الدقة بقية ذلك اليوم الذي بدأته سناء بشكواها. في اليوم التالي

مباشرة صبحها بنظراته، وبعده بيوم ـ بأقل من يوم ـ عادت ابتساماته، وما لبث أن أردفها بتعليقاته الهامسة التي كان يلقيها ثم يعود ليبتلعها ويخفيها. وأخيراً وجدته سناء يوماً يرفع الدوسيه، وفي الحال قررت أن تذهب إلى المدير وتشكوه، ولكنها ترددت فماذا فعل بشكواها الأولى لتلجأ إليه ثانية؟ ثم أليس من المحتمل أن تبدو في نظر المدير بكثرة لجوئها إلى الشكوى طفلة أو تلميذة؟ بل أليس من الممكن أن يصدق أنها بشكواها الكثيرة تناوش الجندي كما ادعى؟ لقد جربت عمها ونصيحته وجربت المدير، فلماذا لا تجرب نفسها؟ لماذا لا تواجه الجندي، أو على وجه أصح لماذا لا تكف عن مواجهته والاهتمام بأمره وبكلامه؟ لماذا حتى تشمئز منه وتحتقره؟ إن انفعالها به هو اعتراف بوجوده، لماذا لا تهبط في احتقارها له درجة أخرى، وتلغيه كلية من تفكيرها ووعيها؟



٧

وهو بالضبط ما فعلته سناء وهو بالضبط ما كاد يقتل الجندي ويدفعه إلى الجنون. إنها هي نفسها لم تكن تعتقد أن باستطاعتها أن تتجاهل وجود انسان على مبعدة منها إلى تلك الدرجة، فما بالك برجل يزاملها ثماني ساعات كل يوم ومكتبه يكاد يلمس مكتبها؟ ولكن يا لقدرة النساء الكامنة فيهن على التجاهل! لكأنما أصبحت الحجرة في نظرها بمكاتب أربعة لا خامس لها بالمرة، لكأنما مات الجندي أو ما ولد قط. ويا للروعة التي سار بها كل شيء وعلى أتم ما تريده من مرام! إلى ذلك اليوم.. ليت ذلك اليوم لم يأت قط. ليتها قطعت لسانها بيدها قبل أن يزلف وتخبر روحية زميلتها بالمشكلة! ولكنه درس تعلمته وستوصي أحفاد أحفادها بتفاديه. المشكلة عادية وبسيطة ومن النوع الذي تقرأ عنه في الجرائد ويرد أحياناً في السينما، وتلوكه صباح مساء تمثيليات الإذاعة. مشكلة المصاريف التي لم تدفع وحلول موعد دفعها، وتوقف حضور الامتحان على هذا الدفع. والمصاريف مصاريف أخيها، القسط الثاني وقدره عشرة جنيهات. كان اشتغالها قد اقتطع من المعاش الذي كانوا يتقاضونه قيمة نصيبها فيه، وكان تراكم مطالبها قبل تسلم العمل وبعده قد أثر في ميزانيتهم الصغيرة وأنهكها حتى أصبحت أعجز من أن تسدد القسط

الثاني. أمر لولا اشتغال سناء ما كان يمكــن أن يحدث، فالنقود كانت توزن.. تزنها مدبرة بيتهم ومدبرة حياتهم ـ أمها ـ وتوزعها بالمليم، ولم يحدث يوماً أي ارتباك. ولقد ظلت سناء تعاني من ضغط الموقف الذي لم ينقلب إلى مشكلة إلا بعد أن طرقت الأبواب جميعاً فلم تلن أو تستجـب حتى عمها الناصح الأمين ما أكثر ما سهل عليهم المأمورية لدى عرضها أمامه، وما أكثر ما تحجج حين تأزم الوضع واقترب موعد الامتحان.

في تلك الآونة الخانقة وفي ساعة ضعف، عرضت سناء المشكلـة على روحية عرضاً لا طائل من ورائه إلا لمجرد الشكوى والتفريـج عن النفس. ومن تلك اللحظة أصبحت الكلمة الدائمة على لسان روحيـة: هيه، عملتم ايه في مصاريف أسامة؟ ورغم أن اجابة سناء الدائمة كانت هز كتفيها علامة اللاحل، إلا أن ضيقها كان يتعاظم في كل مرة تسألهـا وكل مرة تصمم أن تصارحها بما يعتمل في صدرها لمجرد السؤال، ولكنها تعود وتلتمس لها العذر وتسكت. غير أنها لا يمكن أبداً أن تعذرها لما فعلته ذلك الصباح حين جاءت لتمر عليها بالمكتب، وجلست وتحدثت قليلاً، ورحب بها الجندي ترحيباً ملحاً مبالغاً فيه، وطلـب علـى حسابه مشروبات وألح وأقسم، وانشغل عن كل شيء إلا حديثه إليها وبطريقة لم تجد معها روحيـة فرصة تتبادل فيها كلمة واحدة مع سناء، وأول كلمة تبادلتها معها كانت حين سألتها كالعادة:

ـ هيه عملتم ايه في مصاريف أخوكي؟

صمتت سناء كالمصعوقة لا تجيـب، بينما وجد فيها الجندي فرصة فتحت له فيها أبواب السماء وأبواب الحديث، وبكل ما يمكنه اصطناعه من نخوة سأل ما هي المشكلة؟ وببساطة وبرغم نارية النظرات الخارجة

من عيني سناء مضت روحية تحكي بكل براءة مقصودة، حكاية القسط الثاني والحرمان، يا عيني، من الامتحان.

وربما كانت تلك أول كلمات تقال في الحجرة وتشير إلى حقيقة ما عن حياة سناء الخاصة التي عمدت منذ تسلمها العمل إلى اخفائها بنفس الطريقة التي تخفي بها ذيل «الكومبليزون» تحت الفستان، أو «ركبتها» التي أحكمت اخفاءها عن العيون النهمة بأن سدت فتحة المكتب الأمامية بقطعة من الورق المقوى. حقيقة ألقتها روحية بسذاجة أو بخبث ولكنها جعلت سناء تذوب خجلاً وتتمنى لو اختفت بكلها خلف ورق المكتب المقوى. حقيقة قيلت وارتفع لها رأس الجندي من طيات الورق وطقطقت لها أذناه في تنصت مشدود متحفز هائل. وما كاد يفطن إلى المقصود حتى هم بأن يلقي بنفسه في الحديث كعادته، ولكنه للوهلة الثانية انداحت في وجهه ابتسامة صفراوية ما، وخنس وسكت.

لقد قضى أياماً تعسة طويلة يبحث في أثنائها عن نقطة ضعف ولا يجد. أيكون ما قالته روحية هو النقطة التي فاتته؟ وحتى إذا لم يكن كذلك فهو لا يدري لماذا أحس بتغيير أو باقتراب تغيير، كالليل حين يلونه الفجر، كاليأس الكامل حين تسقط في قلبه قطرة ،مجرد قطرة واحدة، من طعم مخالف اسمه الأمل. كان كل مناه ان يعرف عنها شيئاً واحداً تحرص على اخفائه والباقي في رأيه بسيط ، ولم يكن أبداً يتصور ان تهديه الأقدار بهذا الشيء غير العادي الذي عرفه . . إن حكمته الخالدة المشهورة عنه أن الفلوس يا حبيبي . . is the master ker هي كل شيء . . مفتاح السعادة ، ومفتاح الدنيا ، وبالذات مفتاح قلب كل امرأة على سطح الأرض . . حتى لو كانت المرأة سناء.

وردّ الفعل الساحق الذي حدث، والذي لم تكن سناء تعتقد أبداً أن باستطاعتها أن تنساه أو تشفى منه ـ لدهشتها الشديدة ـ كان مفعوله بعد ساعات قد زال أو كاد، وكانت قد عادت تتمالك نفسها وتنظر إلى ما حدث وتطمئن النفس بقولها.. وربما فاتت الكلمة دون أن يسمعها أحد، والجندي بالذات يدعي أن سمعه ثقيل، ثم هو لم يتدخل ولم يعلق، خاصة وليس من عادته أن يفلت فرصة كهذه دون تدخل أو تعليق.

ولكنها كانت واهمة، فلو قد أتيح لها أن تنظر ـ مجرد أن تصوب واحدة من تلك النظرات النافذة التي تقتحم صدور الناس وكيانهم وتظهر كالأشعة السينية ما تخفيه ـ نظرة كانت غير قادرة عليها بالمرة، لا بالنسبة للجندي ولا بالنسبة لأي رجل ربما لمجرد كونه رجلاً.. لو أتيح لها أن تلقي نظرة لوجدت الجندي في حالة ما بعد النشوة، حالة قل أن يوجد عليها انسان إذ هي احدى البقية من أحاسيس الحيوان الذي تفصله عنا ملايين من السنين.. حالة الإحساس بالفريسة رهن الإشارة وعلى مدى انقضاضه حالة السعادة البدائية الجامحة التي تدعو القط وبه من الجوع أن يصبر على صرخاته ويتجاهلها ليستمتع بما هو أكثر امتاعاً من اشباع أية غريزة بمفردها، ليستمتع بنفسه والفأر قد أصبح حبيس ارادته ونظراته، يرى ارتباكه الأعظم، ورهبته ورغبته العارمة في النجاة، وتحفزه الهائل للهرب، وعجزه الهائل عن الفرار، الحالة التي تشبع في بعض الناس غريزة الغرائز وتنتشي بها حيوانية الانسان..

أجل.. من أين آكلك يا سناء؟

٨

كان العمل قد أصبح أمره بالنسبة لسناء وزميلاتها عادة سهلة، ولكن المشكلة لم تكن أبداً في العمل ولا في كتابة بضعة سطور وتنفيذ بعض تأشيرات. المشكلة كانت فيما هو خارج نطاق العمل في المصلحة، في الموظفين، في الأسرار التي لم تتوقف عن التشكيك يوماً واحداً. لا يكاد يوم يمضي حتى يكون قد انتهى باكتشاف أمر من أمور المصلحة جديد عليهن كل الجدة، لاكتشافه فرحة العثور على السر المنيع. والأسرار تبدو كثيرة وكأن لا نهاية لها، وكأن أسفل البناء الضخم الذي أنفق الرجال عشرات السنين في اقامته سراديب خفية، حفروها وجعلوا لها أبواباً محصنة سرية لا يمكن أن يفطن لها غريب، ولا تفتح إلا على كلمات سر معينة تقال.. عشرات السنين من العمل الدائب لبناء الهيكل من الخارج والدنيا الخفية من الداخل. والعمليتان ماضيتان معاً، وكل ارتفاع في البنيان تقابله وعورة في الممرات وفي السراديب السرية، والسرية جداً السرية جداً جداً.

هذا العالم الخفي لم يكن ليكشف عن نفسه هكذا ببساطة للموظف الجديد، فما بالك والجديد موظفة وأنثى، والأسرار أسرار تتكشف ببطء شديد وبالقطارة، ولا تتكشف من تلقاء نفسها.. لا بد من بذل جهود وعقد صداقات وشحذ ذكاء.

وهكذا كان لا بد ـ طال الوقت أم قصر ـ أن تدرك سناء أن ثمة عملية أخرى يقوم بها المكتب الذي تعمل فيه . . استخراج التراخيص، ذلك هو العمل الرسمي للمكتب، أهون العملين وأقلهما شأناً واهتماماً وأبطؤهما سرعة انجاز. بل هو في الواقع لم يكن أكثر من مجرد لافتة رسمية معلقة لتدل الزبائن على المكان الذي باستطاعتهم أن يتوجهوا إليه لنهو العمل الثاني، العمل الحقيقي الدائب. . بيع التراخيص، بيعها بأثمان لم تحددها المصلحة ولا الوزارة وإنما حددتها تقاليد ورثها الموظفون جيلاً عن جيل وباشكاتباً عن باشكاتب. أسعار تَخضع لكل ما يطرأ على حياتنا من تغيير، ارتفعت في أثناء الحرب مع ارتفاع الأسعار، وكلما زاد الغلاء ازداد ارتفاعها. والشيء نفسه ينطبق على نسبة التوزيع. . الباشكاتب ٣٠ في المائة، بقية الموظفين في مرءوسيه ٣٠ في المائة، والأربعون في المائة الباقية تذهب إلى رأس كبير في المصلحة. ويقال أن معظمها يذهب إلى رءوس مماثلة في الوزارة نفسها، عملية تجري مجرى اللوائح والقوانين تتم سراً معظم الأحيان، وبحرص شديد من الزبون وبجرأة غريبة من الموظفين، والطريق إليها معروف، والواسطة خفاجى ذلك الساعي ذو الشارب الكث وسحب الدخان الغزيرة، الواقف على باب المكتب «ليفنط» الزبائن و «يوزع» غير المرغوب فيهم، ويفتح الباب «للسالكين».

ورغم كل ذكائها لم تكن سناء قد أدركت طبعاً، ولا كان لها أن تدرك ذلك الاجتماع الخفي الذي تم بين الباشكاتب وزملائها يوم تعيينها، ولا ما دار فيه من نقاش، وكيف كان رأي الباشكاتب أكبرهم نصيباً وأكثرهم خوفاً أن يتوقف العمل الثاني في ذلك اليوم إلى أن يجسوا نبض هذه القادمة الخام الجديدة، وكيف كان من رأي الجندي أن يستمر العمل وكأن

شيئاً لم يحدث، فلا يمكن لبنت مثلها لا تزال مغلقة العينين كالقطط المولودة أن تستنتج أموراً لا يستطيع الجن الأحمر نفسه ادراكها إلا إذا اشترك فيها. ولم يكن غريباً أن ينتصر رأي الجندي. ففي ذلك العمل الثاني كان هو الذي يقبض، وهو الذي يتولى التوزيع، وأهم من ذلك كان هو الصلة الوحيدة بين المكتب وبين الرءوس الكبيرة يخصم لها النسبة ويتولى ايصالها، ويحتفظ وحده بأسمائها لا يعرفها سواه، ومن هنا كان نفوذه لا في المكتب وحده ولكن في الوزارة كلها، ذلك النفوذ الذي استطاع به أن يمنع نفسه من النقل أو حتى الترقية أو ترك المكتب بأية وسيلة لخمسة عشر عاماً متواصلة قضاها ينظم ذلك العمل ويشرف عليه.

صحيح أن انشغاله بأمر سناء قد جعل اضطراباً ما يحدث للعمل ولكنه ظل يواصله. وصحيح أنه تساءل مرة أو مرتين ـ ونادراً جداً ما كان يسأل نفسه عن أمر ـ ماذا يحدث لو عرفت سناء ما يقوم به، هي التي يبدو أنها نقية مثالية كالقماش الأبيض، بالتأكيد يمرضها بل يحتمل أن يقتلها معرفة أشياء كهذه؟ ولكنها أيضاً مجرد تساؤلات متباعدة تدق دقاً خافتاً جداً على احساس جامد متصلب ولا تتوقف عنده طويلاً.

في ذلك اليوم وقد جاءت سناء متحفزة لقرار التجاهل التام، أحست حين دخلت الحجرة أنها تدخل على جو مريب. كان زبون بادي الثراء والأناقة من زبائن المكتب يجلس أمام الباشكاتب، وثمة كوكاكولا قد انتهى من شربها وقهوة في الطريق إليه وحديث كان يبدو أن دخولها السبب الوحيد في قطعه. لم تلق بالاً كثيراً أول الأمر إذ كانت لا تزال تحيا وتتشبث بقرارها الخاص، ولكن الصمت. الصمت الذي تتخلله كلمات مقتضبة أشد ريبة من الصمت نفسه، والوجوه. الوجوه المستديرة عنها والموجهة بارتباك إليها والمندسة في الأوراق، والاستغاثات الملحة

بالسؤال عن صحتها ومزاجها وكيف تبدو الدنيا في الخارج، بجماع هذا كله، أو في الحقيقة بالفراغ الكامن بين هذا كلـه، استطاعت أن تخمن مخلوعة القلب شبه مرتجفة أن هناك شيئاً آخر غير العمل يحدث في المكتب، ويحدث باتفاق الجميع وباشتراك الجميع، وأن الجميع يبذلون جهدهم كي يغلقوا عينيها عن أن ترى وحواسها عن أن تشم وتسمع.

وكان طبيعياً أن يفوتها وهي فيما هي فيه من وجل وارتباك أن تدرك أن بعض العيون الثماني التي تزاملها قد استوقفتها حالتها، وكفتها لمحة لتتأكد ـ العيون ـ أنها، سناء، قد عرفت.

وتلاقت العيون حينئذ تسترق التشاور، وبدا أن ومضاتها ما لبثت أن اتفقت على رأي لم يكن قد بقي على تنفيذه إلا اجتماع عاجل يعقد وطريقة تختار.

وفي المقهى ـ في المساء ـ وتحت ظليلة من دخان الحشيش ورشفات أكواب الشاي، استقر الرأي على أنها ما دامت قد عرفت أو خمنت فلا بد من اشراكها. وتطوع الجندي وأخذ على عاتقه مهمة جر رجلها وتوظيفها ـ وأمره إلى الله ـ في العمل الثاني على شرط أن يكون هذا مقابل أبخس نسبة ممكنة. ورغم أن الآخرين لم يبدوا حماساً للفكرة.. فكرة أن يكون الجندي بالذات هو رسولهم إليها، إلا أنه أصر وأقسم لهم وأكد وتمسك بطريقة لم يجدوا معها بداً من الرضوخ. كان بينه وبين نفسه وقد سدت في وجهه كل الأبواب الأخرى يطمح أن يتقرب إليها من هذا الباب، وأن يجرب معها هذا المفتاح السحري وقد وضع في اعتباره ما تعانيه هي وأسرتها من أزمة وحاجة إلى المصاريف.

من هنا وبهذا السلاح قرر أن يأكلها.

٩

كانت خطة الجندي رغم عبطه الظاهر ماكرة خبيثة، فقد ظل يرتب الأمر بحيث خلت الحجرة إلا منه ومن نفس «الزبون» البادي الثراء، بينما وقف خفاجى على الباب يمنع الدخول بحجة أن هناك لجنة، وإن كانت شياطين الشغف تستبد به أحياناً حتى ليكاد ينحني ليختلس النظر أو يلصق أذنه بالباب علها تلتقط كلمة. جلس الزبون محرجاً أول الأمر يرد على تحيات الجندي المتعاقبة بجهد وتكلف، وبين الحين والحين ينظر ناحية سناء ويعود ينظر إليه متسائلاً متشككاً. وتركه الجندي في حيرته وظل يراقب سناء من طرف خفي إلى أن لمحها تترك انهماكها المتعمد فيما أمامها من عمل، وتبدأ من طرف خفي أيضاً تدرك وجود الزبون أمام الجندي، وتدرك وهذا هو المهم ارتباكه وحيرته، بمعنى أوضح تدرك أن هناك أمراً يتحرج الزبون من الخوض فيه أمامها، وأن الجندي لا يريد انقاذه من هذه الحيرة. كان مفروضاً حينئذ أن تعاودها احدى نوبات الاشمئزاز الحادة التي تنتابها كلما بدر من الجندي ما يبعث على الاشمئزاز، فتنتفض في الحال واقفة وتغادر الحجرة. ولكنها هذه المرة وجدت نفسها واقعة تحت تأثير ما هو أقوى من الاشمئزاز.. حب استطلاع الأنثى. أقوى أنواع حب الاستطلاع، القادر وحده على أن يكبت

ـ إذا استبد بها ـ كل رغباتها وما يدور بأعماقها من انفعالات. وجدت نفسها تريد بأي ثمن أن تعرف إن كان ما قدرته صحيحاً أم هو من قبيل التخمينات. . أم لعل سبب بقائها هو الارتباك العنيف الـذي اجتاحها وفصد العرق من كل جسدها وسمرها في مكـانها، وكـأنها بسبيلها إلـى حضور أمر مخجل مجهول لا تعلم مدى بشاعته، أعيب عيب؛ لعل هذا هو ما دفعها إلى ابتلاع اشمئزازها والبقاء، بل ما هو أكثر من البقاء، ادعاء الانهماك الشديد في العمل. كي تترك أمامهم المجال واسعاً رحباً حتى يتسنى لها أن تسمع وترى رأي العين.

كل ما حدث أنها حين لاح عليها وكأنها ترفع رأسها مفيقة، لم يضع الجندي الفرصة الذهبية فرفع صوته يقول للزبون المرتبك المحرج:

ـ خد راحتك قوي يا عبادة بيه. . الآنسة سناء زميلتنا ومنا وعلينا. خد راحتك قوي قوي. . دي مش غريبة. . دي معانا.

ورغم أن المقطع الأخير رن في أذنها رنيناً مزعجاً غريباً، إلا أنها لم تشأ أن تنكص وقررت أن تظل منهمكة، وعادت مرة أخرى إلى الدفتر الكبير الذي كانت تسجل فيه، أو على وجه أصح تدعي التسجيل.

وكـأنما انزاح عن كاهل الـزبون عبء من جديـد، فقد أخرج علبة سجائره وقدم للجندي واحدة، بل عزم عليه بالعلبة كلها ثم قال:

ـ ما دام المسألـة كده يبقى نتكلـم بصراحة. . والصراحة انتم لازم تتوصـوا بنا شوية. . أنا ما أقدرش أدفع خمسين جنيه عالتصريح.

وبينما كان قلب سناء يدق أكثر من خمسين دقة متقاربة متتالية كانها دقة واحدة تفتت إلى دقات، ومضى الجندي يقول:

ـ ما دام صراحة بصراحة، نتكلم احنا كمان بصراحة. . يا عبادة بيه

انت نسيت أن الخمسين اللي بناخدهم بتكسب من وراهم سعادتك ألف وأكثر.

بيتهيأ لك، لو تعرف اللي فيها ما تقولشي كده. . أنت فاكر أن الحكاية تصريح وبس؟ مش عارف في المراقبة لازم برضه على الأقل خمسين وخمسين زيهم واللا ميه في الجمرك؟ ما انت عارف كل حاجة. . ايه الداعي تخليني اتكلم.

ـ ما انت كمان يا عبادة بيــه ما فيش داعي أقول لك. . أنت بتقول عليهم خمسين انما أحلف لك بايه الواحد منا ما بينوبه خمسة يمكن واللا ستة.

ـ بينوبك خمسة! أمال الباقي بيروح فين؟

ـ يا سعادة البيه احنا هنا في المكتب أربعة غير الباشكاتب، شوف كل واحد ينوبه كام، ولازم يروح للناس الي في المصلحة كام، وبتوع الوزارة كام. إن كان علي أنا أحلف لك بايه إني يمكن ما باطلع بحاجة، وشرفي ورحمة أمي أنا مجرد واسطة خير.

ولسبب ما بدا أن «عبادة بيه» الزبون لم يهمه من كل اجابة الجندي إلا نقطة واحدة رسمت الدهشة على ملامحه أول الأمر، ثم جعلته يلقي على سناء نظرة خاطفة ويطمئن إلى انهماكها في العمل قبل أن يميل على الجندي عبر المكتب ليهمس له بصوت ملؤه الدهشة وغير قليل من الاستنكار:

ـ ودي رخره بتاخد معاكم؟

ورفع الجندي صوته عن عمد وهو يكاد يقهقه قائلاً:

ـ أمال يا بيه، هو يصح نبقى زملاء في مكتب واحد وحاجة زي دي

ما نقاسمش بعض فيها؟ ده أنا إن مكانش لي خير في زميلي ما يصحش واحد زي سعادتك يعبرني أو يثق في. أمال يا سعادة البيه . . كلنا بناخد أنا وزملائي الثلاثة كلنا والباشكاتب.

وكان يقول الجملة الأخيرة وهو يدور بصوته العالي في كل اتجاه وكأنما ليشهد السقف والجدران والمكاتب الخالية على ما يقول، بينما يسدد بصره الذي لا يطرف إلى سناء.

١٠

فجأة اكتشفت سناء أنها غارقة إلى قمة رأسها في هوة كأنما حفرت داخلها في لمح البصر، ومضت بسرعة مجنونة تتسع وتعمق وتحتويها. كانت لأول مرة في حياتها تواجه بموقف حاد عاجل يتطلب منها تصرفاً حاداً عاجلاً، وهي لا قدرة لديها على القيام بأي تصرف، أو حتى النطق، مجرد النطق بكلمة. لم تكن تتصور أبداً أنها ستنقلب هكذا ـ دون أن تحس ـ من متفرجة محبة للاستطلاع على موقف، إلى مشتركة لقمة رأسها فيه وأن يكون الجندي العبيط في نظرها هو فاعل هذا ومدبره. كيف استطاع ساذج مثله أن يقلب الحديث الدائر بينه وبين «الزبون»، الحديث المفروض أنها تجهله تماماً وأن يتم خلف ظهرها ودون علمها، إلى حديث عام يرفع فيه صوته ويسمعها وكأنه في ندوة، وكأنها الطرف الثالث في «الصفقة».. بل كاد لولا بقية من حياء أن يطلب منها أن تساهم برأيها فيما تجري عليه المساومة.

بقية من حياء تثبت أنها لم تكن موجودة أصلاً، إذ ما لبثت بعد وقفة التقط فيها أنفاسه ومن السيجارة أشعل سيجارة، وبينما «الزبون» يهم بفتح فمه للرد إذا بالجندي يشير إليه مقاطعاً مصوباً نظراته إلى حيث سناء رافعاً صوته بحيث خرجت كلماته واضحة مفهومة لا تقبل اللمس.

ـ والله ايه رأيك يا آنسة سناء؟ أنا بذمتك وشرفك ببالغ؟ مش يدوب الواحد منا بيتلايمله من الخمسين اللي بناخدهم ع التصريح يدوبك على ورقة بخمسة! كده واللا لأ يا سناء؟ كده واللا لأ؟

حشدت سناء نفسها بكل قواها لترد بكل ما تملك من قدرة على الغضب، بكل ما استدعته إلى وعيها من ألفاظ السباب، بكل طاقتها على الانفعال. بوجهها الأسمر الذي من احتقانه كاد يسود، بعينيها اللتين جحظتا إلى أمام، بالارتجافة الشاملة التي اكتسحتها وأرعشت حتى المكتب الذي تستند إليه، ولكن كلمة ما لم تخرج من فمها.

ضغطت بكوعيها على حافة المكتب، واعتصرت صدرها، وتقبضت عضلات زورها وحلقها في محاولة ثانية للنطق بلا جدوى. ليس لأنها لم تكن تجد ما تقوله، ربما لتزاحم ما تريد قوله، ربما الازدحام الخانق من ألفاظ السباب التي تحفظها والتي سمعتها وتحرجت طوال حياتها عن ذكرها، وأرادت لحظتها بمثل ما لم ترد به أي شيء خلال عمرها كله أن تقولها وتنطقها وترددها مثنى وثلاث ورباع.

وكادت تجن! وهذا الضغط الهائل المحتشد داخلها يأبى أن ينطلق أو يجد له منفذاً لكأنه كابوس خانق لا يحدث لها في حلم، وإنما في واقع يجري أمامها، وكلما مضت ثانية تضاعف احساسها بالرغبة العارمة في الانفجار، وتضاعف إحساسها بالقوى القاهرة الخفية التي تبقيها رغماً عنها غير منفجرة. حتى صراخ الاستغاثة الذي يصدر من النائم، لم تكن تستطيعه. كل ما استطاعته أنها ـ من حلاوة الروح ـ وقفت فجأة كالملسوعة، وضمت قبضتين غريبتين كأنهما ليستا لها، وخبطت بهما سطح المكتب خبطة، وكأنما تقصد بها أن تحطم القبضتين وليس أن تدق المكتب.

العيب

وطوال هذا المشهد الذي برغم طوله اللانهائي الذي أحسته له ـ لم يكن قد استغرق بضع ثوان، في أثنائه كان الجندي منذ أن ألقى السؤال سائقاً العبط على الهبالة يراقبها. راقب كل حركاتها غير الإرادية الأولى وهو لا يفهم، ثم وهو يشك، ثم وهو يخاف خوفاً لا يعرف سببه، وسرعان ما تحول خوفه إلى رعب حين وجدها تفتح فمها عدة مرات دون أن يصدر عنه شيء أو صوت. ثم تحاول محاولات مستمرة مستميتة أن تبتلع ريقها بطريقة تبدو معها وكأن غصصاً أخطبوطية خفية كثيرة تتزاحم وتسد حلقها حتى لتكاد تمنعها عن أخذ النفس أو اخراجه.

وما لبث أن تولاه الذهول حين وجد الخناق الخبيث يزايلها مرة واحدة وتبكي، بكاء غير عادي بالمرة، فهو لم يبدأ كالبكاء على هيئة انفعال يتطور إلى بكاء، بدأ فجأة دافقاً غزيراً وتحت ضغط كالاناء المملوء إذا أصابه ثقب.

وجم الجندي وداخ وتاه وحاول أن يفعل شيئاً، وعلى أقل القليل أن يتكلم، ولم يعجز، ولكنه وجد نفسه يوأوىء ويهوهو ويقول كلمات على هيئة حروف قاصداً أن تكون حروف استفهام، يحاول أن يعرف بها ما الخبر وماذا ألم بها؟

أما عبادة بك «الزبون» فقد جاء انزعاجه على هيئة حركات مضى يجمع بها أوراقه ويضعها ثم يعود يخرجها من حقيبته الفاخرة وقد بدا أنه يستعد لمغادرة الحجرة.

وبنفس الغزارة الأولى رغم كل محاولاتها لايقاف الدموع، مضت سناء تبكي بكاء بدا وكأن لا قوة هناك تقدر على ايقافه. . بكاء تحس له بأضعاف أضعاف سخطها على نفسها حين عجزت عن الرد والنطق، فقد

كان البكاء أسخف تصرف ممكن أن تقوم به لحظتها، وكلما أدركت هذا وثارت عليه واستجمعت قواها لايقافه، أحست بتصميمها وارادتها تذوب وتتلاشى، ووجدت نفسها تمضي باكية سادرة في تصرف تحنق عليه حنقاً لا تجد له رداً إلا بكاء آخر. لقد أحست أنها أهينت اهانة واضحة متعمدة مدبرة، اهانة بلغت بشاعتها حداً أخرسها وأعجزها تماماً. وحين ذهب العجز والشلل وأوشكت أن تنطق وتنفجر، ها هي ذي لا تفعل إلا أن تبكي وتذرف الدموع كأي طفلة، كأي حمقاء معتوهة. تبكي؟ أيكون هذا موقفها من أخطر وأسفل اهانة وجهت لها في حياتها،بل حتى في خيالها لم يكن في حدود التصور المحض بامكانه أن يحلم بشيء كهذا. فما بالك والإهانة لم تحدث في الخيال، وهي واقعة حقيقية لم تفرغ دقائق الزمن من تسجيلها بعد. والإهانة لم تكن فقطلأنها حضرت واقعة كهذه أو شاهدتها، أو حتى لمحاولات محمد الجندي اشراكها ولو بطريق غير مباشر فيها. الإهانة الحقيقية أنه لا بد قد وضع في اعتباره وهو يرسم خطته احتمالاً شبه أكيد أنها من الممكن أن توافق. الإهانة الحقيقية هو ظنه شيئاً كهذا فيها، وليست اهانة لشرفها فقطوكرامتها، وإنما الإهانة العميقة هي أن هذا كله وجه إليها من رجل. الإهانة الأعمق والأخطر أنها فتاة أنثى ـ وأن رجلاً هو الذي ظن فيها هذا الظن، ربما لو كانت شاباً وعوملت بتلك الطريقة لما جرحت هذا الجرح العميق، لاعتبرت أن ما حدث سبة أو تهمة عادية وجهت إليها ولردتها مضاعفة، ولكنها أنثى تحس بعمق أن الإهانة التي وجهت إلى شرفها هي في الحقيقة اهانة لأنوثتها، لشرفها كأنثى، وليس لشرفها ككاتبة أو كفتاة تعمل. اهانة ليس ردها الصفع والركل وكيل أقبح الألفاظ، فمهينها رجل.. الرجل لا يهمه أن يسب أو يشتم أو تصفعه سيدة، بل حتى إذا همه وأهانه فهي اهانة لا توجه

لشرفه. قد توجه إلى شخصه أومكانته، ولكنها أبداً لا تخدش شرفه ولا تجرحه هذا الجرح الغائر الدامي. ماذا تفعل وهي تحس بشرفها الأنثوي مهاناً ومجروحاً، وهي عاجزة حتى عن الرد كرجل أهانه رجل؟ عن السب حتى أو الصفع؟ أهناك ما يقتل من الغيظ أكثر من أن تجد نفسها في موقف المعتدى على شرفها، الحرة في رد الاعتداء والعاجزة في نفس الوقت عن رده؟ بكاؤها الشيء الوحيد الذي أفلت منها يكاد يعميها غيظاً وسخطاً! فرد الإهانة التي تلحق بالشرف، ردها بمجرد البكاء اهانة في حد ذاته اهانة صادرة منها هي، وأي مأساة أن ترد عدوان غيرك واهانته لك بأن تتولى أنت الآخر اهانة نفسك أمامه. أي عار!

أخيراً جداً استطاعت سناء أن توقف سيال الدموع، أوقفته بيدها وأصابعها وقد أعياها البحث عن منديلها الصغير، وكأنما تآمر هو الآخر ليزيد من سوء وضعها ومهانته، ولم تكن تتصور أن باستطاعة انسان أن يكون صفيقاً إلى حد أنه ـ بعد ما فعل ما فعل ـ يتقدم منها وقد أدرك حيرتها وبحثها اليائس مقدماً منديله، وربما كانت هذه الحركة منه هي القشة التي قصمت ظهر غصصها الحانقة المكتومة، وقد وجدت نفسها تقذفه بالمنديل وبما أمامها من دفاتر وأوراق وأقلام، هادرة متشنجة صارخة:

ـ لو كنت راجل ما كنتش عملت كده، إنما أنت حيوان.. كلب.. قذر.. يا حقير.. يا.. ورحمة بابا لاوديك في ستين داهية يا مجرم.

وحتى وهي تقولها منحورة مغيظة شبه مجنونة. لم تحس أنها تشتم أو ترد اهانة. كل ما في الأمر أنها نطقت وانحلت العقدة، منفعلة لا لسبب إلا أن البكاء حين هدرت بالكلمات توقف.

ثم وجدت نفسها منساقة باندفاع كلماتها، لا تقوى على البقاء في

الحجرة فغادرتها مسرعة هوجاء حتى بدا وكأن خروجها ذاك أكبر وأعمق وأحط كلمة أطلقتها جعبتها.

وبخطوات عمياء متعثرة انطلقت في الصالة، غير حافلة بالأصوات التي كانت تصدر طول الوقت عن الجندي ومحاولاته للاقتراب منها واللحاق بها، ولا بالنداء المستغيث الذي كان آخر ما سمعته منه..

وبقلب واجف مخلوع، ووجه فاقد العينين هارب الدماء كأنه في طريقه إلى الموت. أسرع الجندي خلفها.

ولم تعد عيناه إلى محجريهما والدماء إلى وجناته، ولا نبتت تحت إبطيه قطرات عرق السلامة، إلا حين تأكد تماماً أنها لم تذهب بعيداً، وبعيني رأسه شاهدها وهي تتجه إلى ذلك الجزء من دورة المياه الذي خصص للموظفات، وتدخله وتغلق وراءها الباب.

١١

وبينما كلف خفاجة بمراقبة الـدورة، كان اجتماع صاخب عاجل ينعقد في الحجرة وينهي فيه الجندي لزملائه ـ مستسلماً ـ قصة فشلـه الذريع مع سناء، والكارثة التي تنتظرهم فيما لو نفذت وعيدها والدلائل كلها تشير إلى أنها حتماً ستنفذ ذلك الوعيد.

وما كاد ينتهي حتى تطايرت الاقتراحات من كل صوب.. اقتراحات بالمبادرة بالتبليغ عنها قبل أن تبلغ عنهم والباسها التهمة.. اقتراح بكتابة شكـوى تمس أخلاقها.. اقتراح بتهديـدها والضغط عليها.. وعشرات أخرى من الاقتراحات لم تتوقف إلا حين انفتح الباب فجأة وأطل منه رأس خفاجة ليهمس لهم أنها قادمة.

وعلـى عجل هيـىء المسرح لاستقبالها واتخذ كل موظف مكـانه ودوره. وبينما تصنع البعض الانهماك جلس آخر يعبث بمفاتيـح الآلـة الكاتبة، بينما الباشكاتب لم يطاوعه سنه على التمثيل فوقف مكـانه كما كان. كل ما استطاعه أن أمسك بمظروف راح يستخرج محتويـاته ببطء ويفحصها بعيداً عن أعين الزملاء.. بعيداً عن الركن الخامس.

ودخلت سناء وقد أصلحت ما أفسدته الدموع من وجهها وعينيها وإن

بقيتا منتفختين قليلاً يلونهما الاحمرار. ودون أن تنطق بكلمة توجهت إلى مكتبها وراحت تجمع الأوراق وتضعها في الأدراج وتغلقها علامة الاستعداد لمغادرة العمل، والساعة لم تكن تجاوزت الثانية عشرة إلا بقليل. وسألها الباشكاتب بطريقة عادية جداً إلى أين هي ذاهبة؟ وأجابت بطريقة حاولت هي الأخرى أن تجعلها عادية قائلة إنها متعبة طالبة منه الإذن بالمرواح. ورغم دهشة الموظفين المكتومة أذن لها الباشكاتب متمنياً لها بلهجة أبوية سرعة الشفاء.. فقط طلب منها أن تكتب ورقة صغيرة إذ هكذا ينص الروتين. وبينما مضت سناء بيد مضطربة وأفكار مشتته تحاول كتابة الورقة وتمزق المحاولة، غادر الباشكاتب مكتبه وذهب إلى مكتبها، وبروح الأب أيضاً أعفاها من التفكير وأملى عليها الصيغة. وحين وصمت أخذ منها الورقة وأعاد قراءتها، ولاحظ أنها نسيت كتابة التاريخ فكتبه، وبينما هي تتلفت في حركة غريزية قبل مغادرة الحجرة سألها الباشكاتب:

ـ انتي صحيح تعبانة يا سناء؟

وحين هزت رأسها مجيبة وقد عاودتها الرغبة السخيفة في البكاء، قال الباشكاتب:

ـ لا يا سناء، انتي مش تعبانة.. انتي زعلانة. فيه ايه؟

وبينما مضت تصر على أنها متعبة فقط ومضى هو يصر وبروح الأب أيضاً على أن هناك مشكلة، وعلى أننا كلنا زملاؤه، وكلنا لا بد أن نحمل هم بعضنا إذا ألم بالبعض منا هم. ظلت المحاورة دائرة وقتاً غير قليل حتى بدا على سناء الإعياء، وحتى بدا أنها في المرة القادمة لن تحفل بالإجابة وستترك الحجرة، حينئذ قال لها الباشكاتب:

ـ انتي زعلانة م اللي عمله الجندي أفندي. شوفي يا بنتي . .

وكان قرار سناء بينها وبين نفسها أنها لن تسمع ولن تسمح لنفسها أن يثار الموضوع أو تكون طرفاً في اثارته، ولكنها لا تعرف بالضبط ماذا أبقاها، وماذا في لهجة الباشكاتب رد لها بعض الاعتبار، ربما وضعه لها في موضع القاضي في الوقت الذي وضع نفسه وزملاءها فيه موضع المتهمين، ومنصب القضاء لا يرفض مهما بلغت وضاعة التهمة.

وحين بدأت سناء تقبل الدور وتستمع وتعي ما يقول، أحست مرة أخرى بتلك الدوامة تجتاح عقلها ووعيها وكل كيانها . . ذلك الكيان الذي صنعته حياة قوامها اثنان وعشرون عاماً من الخبرة والتعليم والمعاناة. ما إن بدأت تنصت إليه لم تكن أشياء غريبة على أذنيها فقط، ولكنها معان عاصفة مهولة كانت تهب من فم الرجل الطيب وتكاد تقتلع كل ما صنعته لنفسها من كيان، وكأنها كانت طوال حياتها لا تعيش ولا ترى الدنيا أو تحيا فيها. لكأن حياتها بكل ما كان فيها من صعوبات وقلاقل كانت لا حياة بجوار ما راحت تسمعه وتعيه، أو لكأن حياتها هي الحياة وما يقال لها إن هو إلا وصف لا يعقل لحياة شاذة منحرفة لا تمت بصلة إلى عالم الأحياء.

سألها صفوت أفندي الباشكاتب أول ما سألها عن رأيها فيه، أهو سيء؟ أفي ملامحه أو تصرفاته معها ما يوحي بالجريمة والإجرام؟ أجابت سناء بالنفي، فالباشكاتب قد بدا لها طوال عملها معه وخوفه من الله والحساب والميزان لا يقل عن خوف عالم متبحر في الدين. ما الذي يدفع رجلاً هذا شأنه إذن إلى أن يكون شريكاً في عمل قذر تأباه النفوس؟

ـ الدنيا يا سناء يا بنتي، العيشة. . أنا ماهيتي كلها بعد الخصومات ١٩ جنيهاً و ٢٣٠ مليماً ومصاريف بيتي في الشهر ما تقلش عن ٥٠ أو

ستين. عندي ولدان في الجامعة، وبنتان وولد في الثانوية، وبنت في المعهد، وعيلين صغيرين في ابتدائي، ولي أخت مطلقة وقاعدة معايا هي وولادها ثلاثة، منهم واحد طلعناه من المدارس وبيشتغل في مصنع. ساكن في بيت الناس بيحسدونا عليه ومع كده ايجاره ثمانية جنيه ونص. بند الأدوية بس بياخذ منا بالميت خمسة جنيه في الشهر غير الدكاترة. لو في مكاني تعملي ايه يا بنتي؟

ـ أعمل أي حاجة إلا كده. أعلم ولادي بفلوس حرام؟ أطلعهم من المدارس أحسن واشغلهم.

قهقه الباشكاتب بسخرية مريرة ربما لسذاجة الاقتراح:

ـ لو رضيت أنا أمهم ح ترضى؟ ولو رضيت أنا وأمهم ح يرضوا هم؟ ولو اشتغلوا حتى ح يشتغلوا ايه؟ ح يكسبوا ايه؟

ـ بس دي جريمة يا عم شكري. . سرقة. دانت راجل طيب. دا كأنك بتمد ايدك في جيب واحد لا مؤاخذة يعني. . وبتنشل منه فلوس. إزاي ترضى تعمل كده؟

ـ يا بنتي الأخلاق الكويسة حاجة، وأكل العيش حاجة تانية.

ـ أكل العيش حتى بالسرقة؟

ـ يا بنتي انتي لسة صغيرة ع البرما شيلتيش هم المسئولية. لما تكوني مسئولة عن جيش زي اللي أنا مسئول عنه، وكل يوم لازم تسدي ٢٠ بق مفتوحين لك، مش ح تسميها سرقة أبداً. أنا باسرق مين؟
ـ المواطنين.

ـ دول أغنيا. . وأنا ما باخدش غصب عنهم هم اللي بيدفعوا من نفسهم.

ـ يبقى الحكومة.

ـ الحكومة خسرانة ايه؟ هو أنا بختلس من أموالها؟ حق الحكومة محفوظ ما حدش بيقدر يمد ايده عليه.

ـ يعني رأيك ما فيهاش حاجة أبداً انك تعمل كده؟

ـ معاك إن فيها حاجات كتير. . فيها وفيها وفيها. انما حطي نفسك في موقفي تعملي ايه؟

ـ أنا شخصياً لا يمكن. . لما أموت أنا وأهلي م الجوع ما اقدرش أمد ايدي على حاجة حرام.

ـ انت ما تقدريش. . أحنا غصب عنا لازم نقدر ولازم نمد أيدينا فإيه رأيك فينا؟ ح تتصرفي معانا زي ما قلتي للجندي؟

ـ أنا قلت له كده عشان هو. . هو مش محتاج زيك وأخلاقه وحشه و. .

وهم الجندي أن يعترض وقد احتقن وجهه بالغضب، ولكن الباشكاتب أشار إليه أن يسكت ومضى يقول:

ـ بس احنا معاه.

ـ يبقى انتو أحرار.

ـ احرار ازاي؟ مش فاهم.

ـ يعني انتو في سكتكم وأنا في سكتي. . أنا ماليش دعوة بيكم. انتم كبار ومسئولين عن نفسكم قدام ربنا وقدام الناس.

ـ وليه ما تكونيش ويانا؟

ـ أنا؟ والله لما يتقطع دراعي.

ـ وليه يا بنتي التزمت ده؟ احنا عارفين برضه وعارفين أزمتك وعارفين أخوكي عايز على الأقل عشرة جنيه عشـان يمتحـن. وادي انـت شايفـه أهه. . يعني مش ح تكوني متمسكة بالأخلاق الكريمة والدين والذمة أكتر من واحد زيي. ما تخلينا سوى سوى تفكي أزمتك ونفك أزمتنـا وأهـي ماشية.

ـ يا عم شكري أفندي. . أرجوك. . أي كلام بالشكل ده بينرفزني وح يخليني أتهور. انتو في طريقكم وأنا في طريقي.

ـ وهـو كذلك. بس علـى شرط. . ما حدش منـا يتدخـل في طريق التاني.

ـ عني أنا. . خدها مني كلمة شرف.

ـ وعننا إحنا. . أعدك بشرفي. الفاتحة على كده.

ورد الجميع قائلين: الفاتحة.

وتململـت سنـاء قليلاً، واستغربـت، ماذا حدث للـدنيا؟ أيقـرءون الفاتحة لتكريس اتفاق شائن كهذا؟ماذا حدث للناس؟

ولكنها، تحت إلحاح العيون المنتظرة، هزت كتفيها ومضت تتمتـم بالفاتحة، وحين وصلت إلى منتصفها تقريباً خيل إليها أنها أخطـأت في التلاوة، فأعادت القراءة من جديد، وكالخاطر الغابر تذكرت أنها لـم تقرأ الفاتحة من زمن بعيد منذ أن كانت طفلة تصلي، وتذكرت أيضاً إلحـاح أمها عليها بالصلاة وتأجيلها التنفيذ دائماً. ماذا تقول أمها اذن وهي تسمع هؤلاء يقـرءون الفاتحـة صحيحـة سليمـة، ويقرءونهـا في اليوم مـرات ويصلون ويحجون ويسمون الرشوة أكل عيش، ترى ماذا تقول؟

ولكن الحادث على أية حال لـم يمر ببساطة ولا مرّ الاتفـاق، فلقـد ظلت سناء محط الشكوك لفترة، وكلماتها وكل حركة من حركاتها ظلـت

محل دراسة وافية ونقاش، والجميع يميلون إلى افتراض أنها تخدعهم أو في الطريق إلى خداعهم، والباشكاتب وحده يقف في صفها ويؤكد أنها لن تفعل، وأن عهد البنت وكلمتها على عكس ما يقال كلمة واحدة متى قالتها لا تتراجع عنها. ومن ناحية أخرى لم يعد الأمر يزاول بالبساطة الأولى.. مجرد علمهم أن سناء زميلتهم الموجودة معهم في مكتب واحد تعرف وتسكت ولكنها لا تشاركهم «اللعبة»، مجرد علمهم هذا أحاطهم بجو من عدم ارتياح غامض. كانت مزاولتهم لأعمال المكتب الثاني كجماعة قد أضفت على العمل نوعاً من القانونية، ومحا عنهم كل أثر للاحساس بالذنب. سناء بوجودها واشمئزازها ونظراتها جعلت احساساً جديداً يبدأ يزحف.. احساساً بخرق القانون، بارتكاب معصية! وقد تجسد هذا على هيئة ضيق شديد بسناء ووجودها ورغبة ملحة في التخلص منها، حتى الجندي دفعته تلك الأحاسيس المتضاربة إلى الكف عن الاحساس بها كفتاة، فلم يعد أبداً يختلس النظر إلى شفتيها ويزدرد ريقه كلما توقف بصره عند شفتها السفلى، وهو الذي كان لا يتصور أو يقبل أن يحاول أحد ابعاد سناء عن المكتب وحرمانهم منها بدأ يتمنى في أحيان لو ذهبت.. وبدأت رغبته في وجودها تتعادل ككفة الميزان مع رغبته في ذهابها.

إن المذنب لا يحسد البريء، أنه يكرهه، ويحس به كأنه ضميره. وكأن الضمير هو الجزء البريء في قلب المذنب، وسناء ذلك الجزء ذلك الركن الخامس البريء في المكتب كانت قد أصبحت كالضمير المقيم الذي لا يتحرك، والذي لا تخفى عليه خافية، والذي يقابل كل ما يدور أمامه بالصمت والسكون. ليتها كانت تتكلم أو تنصح أو حتى تشتم. ليتها تفعل أي شيء إلا أن تسكت. والكارثة أنها ضمير مؤنث، إن الرجل لا يخجله كثيراً أن يرتكب الخطأ أو الحماقة أمام زميله الرجل، أي

رجل.. ولكنه يخجل ببشاعة أمام الأنثى، أي أنثى.

وكان طبيعياً جداً في مثل ذلك الجو أن تحدث ارتباكات في مزاولة العملية. فمحاولات كل منهم للتخفي واستدراج الزبون بأقل ما يمكن من الضجة وبسرعة لا تثير الانتباه، وبالذات انتباه سناء، هذه المحاولات كانت غالباً ما تفشل، وكثيراً ما تصدر عن الزبون كلمة أو اشارة تفضح فيفقد الموظف أعصابه ويعدل عن الصفقة نهائياً بين عجب الزبون ودهشته، ويصر على أن يأخذ القانون مجراه، وفي اصراره ذاك يرفع صوته ويعظ ويحاضر، ويكاد يشهد الجدران والمكاتب والأثاث على ما يقول. ثم بدأت تحدث منافسات، وبدا كأن كلا منهم يريد أن يبدو أكثر من الآخر غيرة على القانون، وفي مقابل هذا بدأت تحدث اتفاقات خاصة وبينما الواحد منهم يرفض في العلن ويصر على الرفض إذا به يتفق سراً مع الزبون ويتقاضى الثمن وحده، بعيداً عن أعين الزملاء، بعيداً عن الركن الخامس.

١٢

ـ خفاجة! انت يا هباب انت ياللي اسمك خفاجة.

ـ يا فتاح يا عليم.. نعم يا محمد أفندي؟

ـ شيل القهوة دي.

ـ ليه؟ مالها يا محمد أفندي؟

ـ زفت.. قطران.. قرف شيلهالحسن وديني أرميها في وشك.

هكذا انفجر محمد الجندي في الرجل، وبعد أن وجه إليه الأوصاف الثلاثة الأول مضى يدور بأبصاره ماسحاً الحجرة بناظريه، هادراً في كل وجه من أوجه الزملاء يواجهه:

ـ دا لا قهوة نافعة ولا طيب نافع، والناس بقت عايزة الضرب بالجزم. عايزين كرباج من بتوع زمان يسوقهم. أصل احنا كده ولاد (...) مانجيش بالذوق أبداً. إن ما كانش الواحد ياخد على دماغه ما ينفعش. شيل القهوة يا حلوف.. شيلها بقولك.

ويبدو أن صوته الصارخ الزاعق وصل إلى الحجرات الأخرى، إذ ما لبثت رءوس ما أن بدت تطل، ولا تستغرق وقتاً كبيراً لتكتشف أنها نوبة أخرى من نوبات محمد الجندي، فتتراجع منسحبة خائفة أن يصيبها من شتائمه رذاذ.

ولم يكن أحد يجهل السر، فايراد المكتب الثاني كان قد بدأ ينخفض انخفاضاً ملحوظاً، وعيون الرجال الكبار في المصلحة والوزارة قد بدأت تحمر وتتلمظ وتلمح، وأحياناً تجهر بالاتهامات والشكوك، غير مستعدة أن تصدق أن السبب ممكن أن يرجع أبداً إلى وجود الموظفة الجديدة كما يدعي الجندي، غير ملقية بالاً أو اهتماماً إلى محاولة الجندي «سبك» الدور ومطالباته المستمرة بنقلها أو التخلص منها، منهية مقابلاتها معه بهزات رءوس مهددة تهديداً يعلم الجندي خطورته، بحيث تلقي كل اهتزازة رأس الرعب في أعماقه.

غير أنها نوبات مهما طالت لا بد أن تنتهي، ويعود الجندي يجلس إلى مكتبه، ويعود الهدوء يسود الحجرة. ولكن أي هدوء؟ والعمل بشقيه تقريباً توقف، وخلف الهدوء الظاهري يكمن تحفز، وتحت جلود الوجوه الطبيعية جلد أصفر شاحب شحوب الخطر وترقبه.. شحوب الحالة «ج».
حتى سناء مصدر الخطر كانت هي الأخرى قد بدأت تستشعر أن ثمة أمراً محيراً غريباً يحدث، لا من وراء ظهرها ولكن أمام عينيها وإن كانت لا تراه ولا تستطيع تحديده. ها هم جالسون مثلاً يرفرف عليهم سقف واحد وتضمهم جدران أربعة، ولكن أية حواجز هائلة قائمة تحول بينهم، أو بالتحديد بينها هي وبينهم! لأول مرة تحس بعمق أنها لا تفهم هؤلاء الرجال وأنها بينهم كالطفل الغريب اليتيم التائه في مدينة لا يعرفها. لأول مرة تحس أنهم يكونون عالماً ثانياً تجهله، وتخافه، وتحس به معقداً تعقيداً بالغ الوعورة مجرد تأمله يخيف. نفس خوفها الذي لا تجد له تفسيراً كلما اعترت محمد الجندي احدى نوبات زعيقه وهياجه وشتائمه.. محمد الجندي الذي طالما استثار اشمئزازها الصارخ، والذي طالما ألقت عليه نظرات احتقار لو أحسها لصعقه الاحساس. ما لها حين يبدأ يشخط ويهدر

حتى لو كان يخاطب خفاجة أو الحظ أو الصباح المقيت، تتوالى دقات قلبها وتخاف خوفاً يدفعها لتأمل محمد الجندي تأمل المذعور؟ تأملاً لا يحمل كرهاً أو اشمئزازاً. تأملاً لا ترى معه ملامحه سائلةصفراوية لزجة، وإنما تراهاغاضبة،وكأنما قد تجمدت سيولتها فجأة وتحولت صفرتها حمرة ـ حمرة الغضب ـ ولزاجتها صلابة، وعيونه الخضراء الشاحبة توقد فيها نار جهنمية وكأنما يوقدها الشيطان، حتى إذا ما استدار ومستها لمحة من وجهه الغاضب خافت واقشعرت وأصبحت كل أمانيها أن يهدأ ويذهب عنه الغضب ليعود ذلك الكائن الذي لا يخيف.

وأيضاً لم يكن خوفها مجرد خوف بسيط. على الأقل ليس مجرد الخوف من زميلها الغاضب، فقد كانت تحس بغضب الجندي يكشف لها ويحمل معه علامات من ذلك العالم الآخر، عالم الرجال الذين تحس بهم أكثر جرأة وأعنف انفعالاً ولغضبهم قدرة كبيرة على التحطيم والتخريب. لكأنما كلب رجالي خشن الصوت حاد الناب سيخي النظرات قد انطلق من مربطه في أعماق الرجل فجأة إلى كلماته وتصرفاته وملامحه ومضى ينبح ويهدر ويهدد.. ينشب أنيابه المسنونة في كل ما يعترض طريقه.

خوف مركب أبشع ما فيه أن سناء في الحقيقة، في ذلك الجزء الخفي من الحقيقة الذي لا يطلع عليه أحد سواها وأحياناً تخجل حتى أن تطلع نفسها عليه، لم يكن خوفها الأكبر بسبب احتمال أن يفقد الجندي وهو غاضب صوابه وينشب فيها أظافره وأنيابه، وإنما لاحتمال أغرب لا يكاد العقل يصدقه، أن يفقد صوابه ويتعرى أمامها كرجل مثلاً، أو أن ينقض عليها وقد انطلق فيه الرجل الكلب من عقاله ويغتصبها هكذا فجأة، وقبل أن يتمكن أحد من الدفاع عنها،بل حتى قبل أن تتمكن هي من الدفاع عن نفسها.

أيام لا تستطيع حصرها، لا لكثرتها أو لقلتها، ولكن لأنها كانت مجرد يوم واحد متصل طويل، تذهب فيه إلى العمل متمنية أن يكون كل شيء قد تغير، والوضع كالكابوس مر وانتهى. وبهذه الروح تدخل المصلحة في خفة وتحيي خفاجة بابتسامة واسعة وتعرف أنها مبكرة أكثر من اللازم وأن أحداً من زملائها لم يحضر بعد، فتجلس تنتظر التغير الذي تتمناه وتترقبه، محاولة أن تستشفه من طريقتهم في قول: صباح الخير. ومن الثامنة والنصف يبدءون في الحضور، ومن أول الباشكاتب إلى محمد الجندي آخر القادمين تخرج التحية فاترة لا روح فيها ولا طعم، هذا إذا لم يتشاغل بعضهم عن قولها أصلاً. لا تغيير! وكأنها هي التي أذنبت وكأنهم ليسوا هم المخطئين. وتمضي الساعات بطيئة ساكنة تكاد تكون كالقوارب في بحر لا هواء فيه. . لا تتحرك، وهي تعاني من شعور غير المرغوب فيه الحساس للكلمة، أي كلمة حين تقال وأي كلام لا يقال، قلقة تغادر مكتبها كل خمس دقائق مرة تجوب المصلحة وتزور الزميلات، وتدهش حين يحادثها الموظفون الآخرون حديث الند للند البريء إلى البريء ولكنها تعلم أنه حديث إلى حين. .ففي الحجرة مشكلتها، وعبث ذلك الحل الذي تحاول العثور عليه لدى الآخرين. كانت قد اشتهرت في المصلحة بـ «البنت القنزوحة بتاعت التراخيص» صفة كانت تحنق عليها علناً وتعجب بها سراً، وتعمل على أن تظل محتفظة بها. ورغم احساسها أن كثرة التجوال في الحجرات والمكاتب والحديث إلى من هب ودب يذهب عنها المكانة الخاصة التي تحتلها، إلا أنها كانت لا تملك منع نفسها من الحديث والتجوال لتعود منهكة بعد رحلاتها المتعاقبة إلى الحجرة، وكأنما بارادتها تعود تسجن نفسها بين الوجوه الأربعة التي تبدو لها أسمك من الجدران. سجن وإن كان يضايقها إلا أنها تأبى في أعماقها أن تتخلص منه. . فبمثل رعبها من غضب الجندي وزهقها من الزمن

الساكن المتوقف ورغبتها المتأججة أن تعرف ما يدور في أعماق سجانيها الأربعة. . بمثل هذا وأكثر منه كانت مستعدة لأن تحتمل الضيق الخانق إلى أقصى مدى،فقط لكي تعرف ماذا سيحدث بعد هذا أو ماذا يمكن أن يحدث؟ شغف كالشغف العارم لمعرفة نهاية قصة بدأت فجأة وسرعان ما ركدت أحداثها وتوقفت، ولكن لا بد أن هناك نهاية لها. لا بد.

١٣

وربما لهذا السبب تضخم احساسها بيوم الأحد وتضاعف ترقبها لـه هي التي لم تعره أول الأمر عناية ما. وحين ذكر الخبر أمامها ودعيت لم تحفل لا بالخبر ولا بالدعوة، ولا خطر لها احتمال أن تفكر في الذهاب. فما أهمية أن يكون ليسرية زميلتهن المعينة مساعدة لأمين المحفوظات عيد ميلاد يحل يوم الأحد، وتهتم به اهتماماً يدفعها إلى التفكير في حفلة وإلى دعوتهن؟ ما أهمية شيء كهذا؟

اليومان التاليان كشفا عن أهمية غير عادية للحفلة كانت ستضمهن جميعاً هن الخمس، ولأول مرة سيجمعهن مكان مغلق خارج العمل وبعيداً عن أسماع المصلحة والموظفين. وسناء كانت قد بدأت تؤمن أنها وحدها ليست ندا للموقف، وصحيح أنها كما وعدت لن تتحدث في موضوعها بالذات، ولكن ربما تحدثت أخرى، وربما تناقشن جميعاً ربما صدرت عن احداهن كلمة قد تضيء كفنار النجاة لها الطريق.

وكادت تندم على حضورها وعلى كل الآمال التي علقتها، فبعدما انقضت ساعة في بهجة مصطنعة، وكأنها تقليد غير متقن لماركة بهجة حقيقية لا بد موجودة في مكان ما على سطح الأرض، وضحك في فشله التام للتعبير عن المرح تكاد تضحك عليه، آن لهن أن ينفردن بأنفسهن وقد

ذهبت القريبات والصديقات اللدودات كلهن ما عدا واحدة داعرة القهقهة والنظرات أصرت على البقاء. وحين بدأن يتحدثن عن المصلحة والعمل حديثاً تافهاً أول الأمر يتناول وجهة نظر كل منهن في هدوء هذا الموظف أو ذاك، وفلان ده يا ختي عليه. عليه حتة طابع حسن يجنن.

بدأت الصديقة أو القريبة ـ لا أحد يعرف ـ تعلق من عندها هي الأخرى تعليقات داعرة كأنها صادرة عن امرأة كشفت عن نفسها كل حجاب، متسائلة بشغف المحرومة عن احساسهن «الجسدي» بزملائهن الموظفين، مبدية اشمئزازها من خيبتهن وكسوفهن الذي لا يليق بموظفات مثلهن يقبضن كالرجال الماهية في «آخر الشهر»، وكأنها لا ترى في العمل سوى طريق مختصر إلى الرجل أو «الذكر» في الرجل. منطق بدا لهن، حتى لبهيجة صاحبة «القصة» والضحكة واللبانة مثيراً للغثيان. والغريب أن تشترك بهيجة بالذات معهن في الشعور، فقبل بضعة أسابيع كانت يكاد يكون لها في العمل نفس الرأي، بل لم لا نقول إنه السبب الحقيقي لبحثها عن العمل وتفتيشها عن الوظيفة.. كأنما كانت تفتش عن حظيرة للرجال هم موجودون فيها بمختلف الأنواع والأشكال والأحجام بحيث تصبح كل مشكلتها أن تختار؟ ماذا حدث حتى أصبحت مشكلتها بعد بضعة أسابيع من الوجود بالحظيرة، ومن الاحتكاك بالرجل في مجال الوظيفة، وبعد موعد أو اثنين خرجت فيهما بلا حماس كبير مع زميلين لها.. ماذا حدث وأنساها هدفها الأساسي، وفقد الرجل طعمه القارص الأول وبدأت تجد له في نفسها مذاقاً جديداً لا يلدغ، ولا يجعل جسدها يقشعر، ولا يصيبها بأي إحساس يمت إلى الجنس أو الجسد بصلة؟ وأصبح كل ما يعنيها في الحظيرة أن تعرف من هو الرئيس من المرءوس ومن صاحب المستقبل، إذ هناك في مؤخرة عقلها المغامرات

قد تغيرت بقدرة قادر إلى مشاريع - كانت مشاريع - لدهشتها - زواج . . زوج تختاره بعقلها المجرد عن الهوى وبوعيها المجرد عن الشعور. بل في أقل من شهر تطورت مشاريعها تطوراً آخر وأصبح همها لا أن تسعى «للترقي» عن طريق اختيار الزوج الأرقى في الوظيفة والمستقبل ، وإنما للترقي عن طريق أن تترقى هي وتحتل الوظيفة التي يتنافس على خطبة صاحبتها المتنافسون. ولا بأس هنا من استعمال كل الطرق وأي الطرق على الوظيفة الأحسن ، بالعمل المتواصل لكسب رضاء الرؤساء ، بالشكولاتة أو البونبون أو بأنوثتها حتى. أي تطور أصابها هي التي ذهبت تفتش عن الرجال في العمل «لاشباع» أنوثتها ، فانتهت في أقل من شهرين إلى التفتيش عن العمل ونتائج العمل في الرجال ، حتى لو اضطرها الأمر «لاستعمال» أنوثتها وجعلها وسيلة للوصول ، في ذلك الميدان الجديد الذي اكتشفت في حظيرة الرجال وجوده؟

وحتى فيما وصلت إليه كانت تعليقات السيدة الجالسة واضعة فخذاً فوق فخذ تتحدث عن كل ما هو «عيب» بانطلاق زائد ، وكأنما هي العالم المتبحر يطرق موضوعه المفضل . . السيدة الغريبة التي استنكرت حين سألتها إن كانت تشتغل - مجرد السؤال - باعتبار أن العمل «عيب» لا يليق بالسيدة الفاضلة أن تترك بيتها لأجل أن تزاوله . . السيدة التي تفخر بأنها «ربة بيت» وتلتقط مواقف العيب لتخوض فيها وتتوسع ، معتقدة أنهن ما دمن يرتكبن العيب الأكبر ويعملن فلن يمانعن قطعاً في مزاولة العيوب الصغرى مثل الحديث عن العيب والنكات والقفشات العيب .

كلمات كانت وجوه البنات تخضر لها كاشارات المرور وتصفر وتحمر، ويشعرن لدى سماعها أن مسافات شاسعة الطول قد حملتهن بعيداً عن عالم «حريمي» آخر قائم وعتيد، وكن إلى أسابيع قليلة مضت

من رعاياه وعبيده . . عالم المرأة فيه في نظر الرجل، وبصراحة قد تجرح في نظر نفس المرأة أيضاً عيب متجسد يرتدي الفساتين ويتجمل بالمساحيق، وكل رغبة لها أو مطلب تحمل في ثناياها وصمة عيب أبدية . . خلقت عيباً وستظل إلى يوم مماتها عيباً. تلك هي الحقيقة الوحيدة الراسخة في عالم الحريم والرجال الذي كن يحيين فيه، وكل ما عداها من حقائق لا يفعل أكثر من أن يؤكد تلك الحقيقة الكبرى ويعمقها. من أسابيع قليلة مضت خرجن من عالم العيب هذا إلى عالم اللا عيب اللا خطأ، عالم اللا رذيلة، عالم الرجال. خرجن من عالم كل ما فيه ومن فيه حرام إلى عالم كل من فيه تطل، ولا تستغرق وقتاً كبيراً لتكتشف أنها نوبة في الأرض المحايدة، في العمل، حيث لا تسري قوانين البيت والمجتمع، حيث لا تسري قوانين الأخلاق، حيث القانون الوحيد المطاع هو قانون العمل، حيث الخطيئة الكبرى لمن لا يعمل. بضعة أسابيع أتاحت لهن أن يرين الرجال ويرين أنفسهن ـ لأول مرة ـ متجردين ومتجردات عن العيب واللاعيب، عن الحرام والحلال، بدأن بعدها يقتنعن أن للحياة قوانين أخرى وأحكاماً تختلف عن الأحكام الأزلية اختلافاً شاسعاً كبيراً، كبر المسافة الكائنة بينهن وبين السيدة الجالسة واضعة فخذاً فوق فخذ تتحدث بفخر الأسيرة بآسرها، والعبدة بسيدها ومحور حياتها، عن العيب.

ويبدو أن السيدة قد أخذت وقتاً طويلاً تضحك فيه ببحبحة وتسخسخ فيه بارادتها لدى ذكر الرجال وعالم الرجال، قبل أن تدرك أن الأخريات لا يشاركنها، وبمعنى أصح يتفرجن عليها تفرج المشمئز.

ودون أن تخجل أو تؤنب نفسها قالت:

ـ ده انتو الظاهر جد أوي. دانا مش بتاعت كلام من ده، أنا ست

بتاعت حظ وفرفشة وانتو باينكم خام أوي أوي. لا، اسمحيلي يا ختي يا يسرية أصلي أنا ما استحملش الجد أبداً. بيعمل لي ارتكاريا يا حبيبتي وأنا مش ناقصة هرش. عن أذنكم.

وكأنما انزاح عن صدورهن هم ثقيل أو كانت السيدة رجلاً يخجلن من الحديث أمامه. والتشبيه ليس من عندي، لقد جاء على لسان سناء وهي تشيع المرأة وتكاد تسمعها الكلمات.. تشبيه ضحكن له، وما لبثت «نور» خريجة التجارة أيضاً وكاتبة الآلة في السكرتارية أن علقت عليه قائلة:

ـ أهو احنا دلوقتي لا احنا ستات على ناحية ولا رجاله على ناحية، زي ما نكون عملنا جنس تالت.

فقالت سناء:

ـ ما هو لازم يحصل كده! ما احنا ستات انما بنقوم بعمل رجاله، زي الرجاله لما بيقوموا بشغل الستات.. زي الترزي اللي بنفصل عنده وزي الأسطى ابراهيم الكوافير.. مش تلاقوهم برضه ستاتي شوية.. نواعمي كده؟

ثم أضافت ضاحكة:

ـ زي احنا ما ابتدينا نخشن شوية.

ولكن مجرى الحديث تغير فجأة. مالت نور على يسرية وقالت لها شيئاً، رفعت يسرية بعده صوتها في شبه صرخة:

ـ يا نهار أبيض. وعندنا كمان!

ـ ايه هو اللي عندكم؟

ورسمت نور بابهامها وسبابتها مصطلح «الفلوس» وقالت سناء:

ـ في السكرتارية كمان؟ أنا كنت فاكرة عندنا بس.

وهكذا، وبانزلاقة فجائية وجدت سناء أنها وزميلاتها قد أصبحن فجأة في قلب المشكلة.

ولا تدري لماذا أحست بكل تلك الفرحة الطاغية التي اجتاحتها لمجرد علمها أن قسم التراخيص ليس هو الوحيد الذي يقوم بالعمل الآخر الثاني.

وشهدت الغرفة الصغيرة التي كانت مسرحاً للاحتفال المتواضع أكثر من خبطة على كف، وارتعاشات يد علامة البراءة والاستنكار، بينما الصدور تتهيأ وكأنها مقبلة على سباق لتقص كل منهن على الأخريات أغرب وأعجب واقعة رأتها في حياتها.

وبعد قصة من نور وأخرى من نجاة بدأن يدركن أن قصصهن متشابهة إلى حد بعيد، وإن لا غرابة إلا في أنها حدثت لكل منهن على انفراد، وإلا في أنها صادرة عن جنس غريم آخر.

هنا كففن عن الحكي واصدار آهات الدهشة والاستنكار، وبدأت تظهر على الواحدة منهن إذا تحدثت علامات دالة على تفكير. فالحديث كان قد اتخذ وجهة نادراً ما يتخذها حديث النساء عن الرجال، إذ هو لم يكن يدور عنهم كرجال،وإنما عنهم كأكلة عيش، وعن الوجه الآخر لعالمهم، عالم المسئولية وأكل العيش.. العالم الذي أقاموه واحتكروه واحتفظوا بمفاتيح أسراره، العالم الذي تكفل بصبهم في قوالبهم وتكوين أمزجتهم وصنع هياكل شخصياتهم وقيمهم. قالت نجاة:

ـ عندنا محمد أفندي راجل زي أولية الله تمام، حاجج مرتين وطول النهار السبحة في ايده وطول النهار يكلمنا عن اللي يصح واللي ما يصحش. والمصيبة أنه مش بيدعي، ده جد تلقيه كريم وعنده نخوة

وشرف ونبل، آخر شرف ونبل! وأعرف لك بعد كل ده قال أنه بياخد على كل استمارة جنيه. معتبرها عيب وكل حاجة، إنما يقول لك على رأيه: هادي نقره يا ولد عمي وهادي نقره.

ـ ونروح بعيد ليه؟ رئيس الادارة بتاعتكم يا سناء راجل بيلعب بوكر بدينه، وقال ايه قبل ما يلمس الورق لازم يقرأ الفاتحة.

وتدخلت نور صاحبة الحفلة:

ـ طيب أنا بعيني بقى شفت الحكاية دي. الراجل اللي ساكن تحتنا ده موظف في شركة، لو كنتم هنا امبارح كنتو سمعتوا الصراخ جايب من آخر الشارع وكل يوم والتاني مولد بالشكل ده، وعلشان ايه ده كله؟ حضرته بينزل ضرب في ابنه لما بيجي متأخر من بره، ومتأخر دي عنده يعني بعد الساعة عشرة. كويس كده؟ ايه رأيكم لينا واحد قريبنا بيشتغل معاه لما سمع الحكاية دي مات م الضحك وقال مش معقول ده، أي حد تاني معقول، إنما الراجل ده بالذات.. ده معروف عنه زي الشمس انه بيورد الستات لكل الموظفين الكبار في الشركة.

ومستغربة ليه؟ هادي نقره يا ولد عمي وهادي نقره.

وارتفعت ضحكاتهن عالية، وما لبثت سناء أن قالت مواصلة نغمة السخرية:

ـ الظاهر الرجاله دول عندهم لكل مبدأ دوسيه.. الشرف في بيته غير الشرف في عمله، والحرام في الليل غير الحرام في النهار، والفضيلة ما تمنعش الرذيلة. كله موجود مع بعض في حالة تعايش سلمي.

ثم اعتدلت جادة لتكمل آراءها «الفلسفية» بقصة حقيقية عن رئيسها عم صفوت أفندي، الرجل الذي هدهد عليها كالأب وحاول أن يقنعها

باقتسام الرشوة، والذي لا تخلو جملة من جمله من حديث شريف أو آية قرآنية. من يومين كان صفوت أفندي يحكي لي كيف اكتشف مرة أن مع ابنه الصغير أصبع طباشير ملون، سأله عن مصدره فتلجلج، وحقق معه فعرف أنه أخذه من صندوق الطباشير في حجرة الرسم دون علم المدرس.. وكيف ظل ساعة يشرح له خطأه ويوضح له الجريمة التي ارتكبها، وكيف أمره في النهاية أن يذهب في الغد إلى المدرس ويعترف له بما حدث، ويرد الأصبع. وكيف لم يفعل الولد، وكيف ضربه وأخذه من يده في الصباح وذهب معه إلى المدرسة، وجعله يعترف للمدرس أمامه بما فعله ويطلب الصفح والمغفرة. قصة من فم عم صفوت أفندي حكاها عرضاً ودون أن يكون له من وراء حكايتها هدف، وعم صفوت أفندي هذا لا يجد عيباً أبداً في الحصول بطريقة غير شريفة بالمرة على نقود تشتري آلاف أصابع الطباشير؟ وأنهت سناء قصتها قائلة أنها لا تزال إلى الآن حائرة مع صفوت أفندي لا تعرف كيف تحكم عليه.. إذ ما الحكم على نفس الشخصية والمنطق والعقل حين تنهي عن الشيء بحرارة وصدق حقيقيين في نطاق، وبحرارة وصدق ترتكبه في نطاق آخر؟ كيف تحكم عليه؟

وبدأ الحديث يتعثر وقد استغرقتهن جميعاً تأملات، وبدأ الحديث يأخذ شكل الأحكام.. أحكام تدين الرجال وتشمئز من عالمهم المنقسم على نفسه، وذواتهم التي تحيا بمائة وجه ومنطق، وأحكام أخرى تصدر وتحاول أن تجد العذر وتغلفها صاحبتها بكلمة عطف، والجميع يسيطر عليهن الشعور بأن هؤلاء الرجال وإن كانوا أكثر منهن خبرة وقدرة، إلا أنهن ها هن يكتشفن أنهم أكثر منهن قذارة أيضاً، وأنهن بعالمهن قد يكن أكثر تخلفاً وضيق أفق، إلا أنهن أيضاً أكثر نظافة.

ـ المسألة مش مسألة قذاره ونظافة يا جماعة.

ـ أمال المسألة ايه يا نجاة؟

استدرن إليها متسائلات، إذ كن بدأن يعين أن نجاة دأبت منذ بدء الجلسة على الدفاع بعطف ولباقة عن عالم الرجال المزعوم ذاك.

ورمقتها نور بنظرة ماكرة مستكشفة قائلة:

ـ سيبيكي انتي تلقيهم غمزوكي بحاجة.

قالتها نور شبه هازلة، وبهزل أيضاً ضحكن عليها. نجاة وحدها هي التي أخذتها ـ لدهشتهن ـ جداً، وما أن راحت تدافع عن نفسها وتستنكر وتبالغ في ابداء علامات النفي والاستنكار حتى بدأن يخمن شبه مروعات أنها تكذب، وأن عالم الرجال والأخلاق وأكل العيش من الواضح أنه قد نجح في ابتلاع واحدة منهن، على الأقل واحدة.

خسارة يا نجاة.

١٤

كان المفروض أن نتتبع سناء بعد خروجها من الحفلة وهي محملة بمزيج متباين من الانفعالات، إذ كانت رغم كل شيء قد سعدت بالحفلة واجتماعها بزميلاتها وكسر الروتين الذي يخطط حياتها تخطيطاً صارماً غير مسموح لها أن تخرج عليه فتاة من المدرسة للبيت، ومن البيت للمدرسة. وحين انتهت أيام الدراسة وجاءت أيام الوظيفة استمرت الحلقة المفرغة أيضاً مع استبدال المدرسة بالمصلحة، وكل ما تسمح به ظروفها من ترفيه أن تدخل السينما مرة كل أسبوع أو أسبوعين مستصحبة أخاها الصغير أو إحدى قريباتها. وحياتها العاطفية لم تزد كالعادة عن غرام صامت مع ابن الجيران أيام أن كانوا يسكنون شبرا. ثم تلك المغامرة الفاشلة الأخرى أيام المعهد.. أيام أن كانت صديقتها الصدوقة كوثر تحب، وكانت تستصحبها معها للقاء حبيبها الطالب في كلية الطب البيطري، حين وجد الحبيب أن خير حل للانفراد بكوثر أن يأتي معه بصديقه عمر الطالب بكلية دار العلوم، الذي يشبه رغم أنه من ميت غمر مشهور السينما مارلون براندو، أو على الأقل هكذا كانت تصر العزيزة كوثر. ويشبهه أو لا يشبهه فقد أحبت فيه خجله الشديد إلى درجة أنهما قضيا ثلاثة أشهر يلتقيان ويقطعان شوارع القاهرة الجانبية سيراً دون أن يلمس يدها، بل حتى دون أن يذكر كلمة واحدة تدل على شعوره ناحيتها. ورغم هذا فالصخرة التي تحطم عليها حبهما كانت الحب، ليس

ممارسة ولكن كنقاش، إذ ظل هذا الخجول الطالب بدار العلوم شبيه مارلون براندو الذي لم يجد في نفسه الشجاعة يوماً لأن يزحزح حدود النصف متر الذي كان قائماً كحد أدنى لأي مسافة بينهما، ظل يناقشها ليقنعها «بحب الجسد» باعتباره النوع المثالي للحب، بينما ظلت تصر هي على «حب الروح» وتتمسك به، وانتهى النقاش وقد انقطع كل ما بينهما من علاقات كانت بينهما.

وهناك تلك الحادثة الغريبة التي جرت لها مع زوج خالتها الشاب حين جاء لزيارتهم فوجدها وحيدة في البيت، ودون أن تدري وجدت القرصات والضغطات والكلمات الهامسة التي كان يخصها بها كلما أتيحت له الفرصة في أثناء زيارة عائلية أو من تحت طرابيزة سفرة.. . وتأخذها هي على محمل يمكن التغاضي عن براءته لزوج الخالة، حين وجدت هذه فجأة تتحول من علامات مبهمة قابلة للشك وغفران الشك إلى واقع فاجر سافر، وهي فيه بين ذراعيه القويتين اللتين أطبقتا عليها غدراً، ولكن لا المفاجأة ولا الاطباقة ولا السرعة التي حدثت بها الحادثة كانت السبب في رعبها. الرعب الذي اجتاحها وشل إرادتها وجعلها تناضله مناضلة النائم في كابوس لا يخرج عن حلقه صوت ولا يملك رفع أصبع.. هذا الرعب كان لسبب أكبر وأخطر، إنه زوج خالتها المحرم عليها، والمحرمة هي كأمه كأخته كخالته. الرعب أن يسجل رجل لنفسه ـ أي رجل ـ مهما كان سيىء السمعة والأخلاق مثله، أن يفكر مجرد تفكير في الشيء الذي لم يفكر فيه لحظتها، وإنما كان يفعله.

وصحيح أن ما حدث، وبالطريقة المجنونة الشاذة التي حدث بها لم يكن قد أفقدها ـ عدا الإهانة ـ شيئاً يذكر، إلا أن الحادث كان أبشع وأضخم حدث مر بها إلى تلك السن في حياتها. لقد ظنت أنها أبداً لن

تعود سناء التي كانتها، وان تلك العاصفة الآثمة الهوجاء سوف تجعلها تكفن نفسها إلى آخر الزمن في ثياب حداد تام.

ولكن، وهذا هو الغريب، لم تتوقف الحياة بسناء كما كانت تظن عند هذا الحدث، ولا تكونت لها مثلما يحلو لبعض الكتاب والخبراء المزعومين في النفس البشرية عقدة، فلا هي خافت من الرجال ودفعها الخوف إلى الانطواء ونبذ الدنيا ومتعها والتقوقع، ولا هي أصيبت بالعقدة الأخرى واندفعت تحت تأثير هذا الاتصال العيب المحرم في طريق الانحلال ونبذ القيم. لا شيء من هذا قد حدث، فهناك عامل نسيته سناء يومها وينساه بعض الكتاب وخبراء علم النفس في معظم الأحيان. . الزمن! ليس الزمن المجرد ولكن الزمن والانسان، والأيام وهي تقبل بيضاء وتغادرنا ماضياً ممتلئاً بالأحداث والذكريات، ونستقبلها في مرحلة ونغادرها وقد أضيف إلينا الزمن وتكون من خليطنا ـ منا ومنه ـ مزيج حي كائن جديد آخر غير الذي خاض التجربة.

الحدث الهائل كان حدثاً هائلاً بالأمس لأننا كنا نحياه ونواجهه، أما وقد مر بنا فقد أصبحنا جزءاً من تاريخه كما أصبح هو جزءاً منا، نتوءاً هنا أو أثراً لجرح هناك. . أثراً لا يختلف عن بقية كياننا وجسدنا إلا في اختلاف لونه وبروز سطحه، والألم الذي يصدر عنه إذا نحن بوعي لمسناه.

أو قد يحول إلى شيء آخر بوظيفة أخرى، مثلما حدث لسناء. فرغم نوبات الضيق الشديد والاستنكار والتقزز التي كانت تنتابها كلما رأت زوج خالتها أو جاءت سيرته ـ وأحياناً بغير أن تراه أو تأتي سيرته ـ رغم هذا فلن تستطيع أن تنكر على نفسها أن شيئاً فيها قد استجاب ووافق وارتعش لتلك التجربة الأولى التي صممت أن تكون الأخيرة، والتي في أحيان

قليلة جداً، خاصة في ليالي الصيف، كانت تجد نفسها رغماً عنها تفكر فيها وبطريقة تزعجها للغاية، إذ تفكر وكأنها تتمنى أن تعود التجربة بشرط أن يتغير البطل، وبشرط أساسي ثان. . أن يحدث كل شيء كما حدث في المرة الأولى، بغير ارادة منها. . هكذا. . عنوة واغتصاباً.

وكذلك لم تكن تجارب سناء قد توقفت عند هذه التجربة الغريبة اليتيمة، ولا ظلت طويلاً مثلها مثل يوم عرض الرشوة من محمد الجندي «أبشع وأضخم» حدث في حياتها. تلك الفتاة السمراء المسمسمة التقاطيع الجذابة المؤدبة، ظلت تجرب باستخفاء كثير ومن بعيد لبعيد وبتورط أحياناً وبفضائح محدودة الانتشار في أحيان، ولكنها دائماً في وسط الحياة ـ ودائماً داخلها يحفل بالنوازع والعواطف والأحياء ـ دائماً هناك مرشح للزواج من قبل الأهل ومرشح للحب من قبلها، فإذا فشل المرشح والمشروع بعد أيام تبدو في الأفق رائحة آخر وآخرين، ونيران تنهش صدرها للعريس اللقطة إذا طار، والعشق الصامت طالما أرق لياليها، وأقربها ذلك الإعجاب الخفي الذي تكنه لزميلها في المكتب أحمد الطويل. . الإعجاب الذي لا يفصح عن نفسه إلا بأمنية أن تحدث معجزة لتنقل مكتبه مكان محمد الجندي في مواجهتها.

ورأسها الصغير رغم شعرها الناعم الغزير مليء بالأحلام أيضاً باقتناء الملابس الفاخرة الأنيقة، بحياة الثروة والغنى، بالطموح. أحلام تتغير هي الأخرى وتتجدد. . إذ بينما كانت تحلم في العام الماضي بجوانتي من الجلد الفاخر المبطن بالفرو، في هذا العام هي تحلم بأن تبلغ في وظيفتها شأوا ومرتباً تستطيع أن تدفع منه أقساط عربة نصر ١١٠٠ وتسوقها وحدها وتفسح أمها وتذهلها بها. وكل هذا رائع وجميل وليس أسهل من ملء الصفحات به، فسناء وحياتها ونقاط حياتها إذا تقاس

بالحياة، تكون إذا أردنا ذكرها بالتفصيل ملايين الأشياء وملايينها، حتى لو نحن فقط تتبعنا سناء من لحظة أن غادرت حفلة بهيجة زميلتها، عن عمد سنغفل أشياء كثيرة، حتى لا نفقد في غمارها ذلك الخط الواهي الدقيق الذي يحدد لنا مجال حركتنا خلال القطعة الصغيرة من بحر الحياة الزاخر التي اخترناها.

وآجلاً أم عاجلاً كنا سنصل إلى يوم الأحد التالي الذي ذهبت فيه سناء إلى المكتب وقد قضت ليلة من أتعس لياليها. يوم لن ننساه أبداً، فقد كان الأحد وغده الإثنين يوم امتحان أخيها، ذلك الذي عليه فيه قبل أن يدخل الامتحان أن يدفع المصاريف ويأخذ الإيصال، وبدون هذا الإيصال لا دخول ولا امتحان.

لم تكن أول الحاضرين كعادتها في الفترة الأخيرة.. وصلت فوجدتهم جميعاً جالسين إلى مكاتبهم بنفس أنهكها التفكير ودبل خضرتها. حيتهم وجلست وقد عقدت العزم على أن تنتهز أي فرصة تلوح لتروي لهم كل شيء، ولتطلب منهم ـ هكذا ودون خجل أو تردد ـ أن يجدوا لها حلاً. يومها كانت مستعدة أن تقتل أو تسرق أو تصنع أي شيء في سبيل أن تحصل لأخيها على قيمة القسط، فليلة الأمس بكى.. لأول مرة تراه منذ أن كبر يبكي كما كان يفعل وهو طفل، كانت تتناقش مع أمها في كيفية الحصول على النقود، وطرقا بنقاشهما كل الأبواب والاحتمالات دون جدوى، حتى بات واضحاً أن النقود لن تأتيهم إلا إذا فتح الله سبحانه سقف حجرتهم وأسقط لهم من خلاله قيمة القسط. وكان النقاش قد استغرقهما الى درجة نسيا معها أن أسامة موجودة بجوارهما، ولم يفطنا لوجوده الا حين سمعتا بكاءه والتفتتا لتجدا دموعه تلمع بكثرة فوق وجهه وخيبة الأمل مرتسمة بصورة واضحة تنطقها رغم طفولتها الخرساء

ملامحه. مس مرآه هكذا شعور سناء مساً سريعاً حاسماً دامياً كقطع المشرط، ولحظتها صدر عن كل ذرة من كيانها قسم تلقائي مفاجيء غير منطوق ودون ان تعي أو تريد، قسم أنها لا بد واجدة حلاً . . لا بد صانعة المستحيل وما هو أكثر منه كي لا يذرف أسامة دمعة أخرى، أو ترتسم على وجهه هذه الصورة الخرساء لخيبة الأمل.

وأصبحت الساعة العاشرة دون أن تحين الفرصة ، ودون أمل حتى أن تحين فرصة ، وأمل سناء قد أصبح مركزاً كله في هذه الساعات القليلة التي ستقضيها بالمصلحة ، إذ ما لم تنجح في الوصول الى حل قبل الساعة الثانية فقد انتهى كل شيء. حقيقة لمحت من كثرة المرات التي ضبطت فيها عيون زملائها وهي تحدق ناحيتها، أنهم لا بد أدركوا أنها في حالة غير عادية ، ولكن أحداً منهم لم يتعد في اهتمامه بحالتها أكثر من مجرد النظر. أليس فيهم رجل أوتي ذرة من نخوة يستطيع أن يلقى اليها سؤالاً . . مجرد سؤال ؟ هل أصابهم العمى والعته؟

كان الزمن على على عكس عادته يمضي بسرعة خارقة ، فما أسرع ما أصبحت الساعة العاشرة والنصف، مضت ألف وثمانمائة ثانية دون أن يجد جديد.

ولكن في تلك اللحظة بالذات جد جديد . . فتح الباب ودخلت نور. بنت حلال حقيقة يا نور، جئتني في وقتك! حيتهم نور واتجهت الى سناء تحييها التحية الخاصة ، وتنتظر سناء أن يتحرك محمد الجندي الكلب ويصنع مظاهرته المعتادة، أو حتى حين تريثت وردت تحية نور بطريقة مهمومة مكروبة أن تسألها نور عما بها بلا جدوى . لكأنما هناك مؤامرة أو لكأن الجميع يعرفون المأزق ويتركونها عن عمد تختنق وحدهابه.

العيب

انتظرت سناء السؤال المعتاد من نور عما فعلوه لحل مشكلة مصاريف أخيها؟ ولم يأت السؤال. كل حديث نور انصب على مباراة الأمس بين الزمالك والأهلي ، وكيف أنها لو كانت رجلاً لنزلت الى الملعب وضربت الجناح الأيمن للزمالك ـ ذلك الذي ضيع المباراة على فريقه ـ علقة ساخنة . ومن المباراة استطردت تتحدث بلا مناسبة عن تليفزيونهم الجديد الذي حل موعد تسلمه اليوم ، وكيف أنها ستخرج مبكرة،وقد عهدت اليها الأسرة بمهمة احضاره و. . وبدأت نور في تشطيب الحديث والتحرك حركات القلق فوق مقعدها علامة التهيؤ للرحيل، دون أن يبدو عليها أنها تذكرت أو في سبيلها لتذكر السؤال. أكثر من هذا غادرت المقعد فعلاً وقالت: أسيبك بقى. . باي !

وكاد الأمل الذي علقته سناء على مقدمها أن يخبو تماماً وينطفىء، بل خبا فعلاً وانطفأ. حينئذ لم تستطع الصبر، وانطلقت الكلمات مستغيثة من فمها : اسمعي يا نور.

والتفتت نور، وأشارت لها سناء ان تعاود الجلوس وقد بدا واضحاً أن ثمة شيئاً هاماً تريد اخبارها به . وحتى حين فعلت ذلك كادت نور تعتذر محتجة بأوراق عاجلة عليها أن تعرضها حالاً ، غير أن سناء كانت قد قررت ألا تتراجع ، وهكذا ظلت تلح حتى عادت نور تجلس جلوساً على مضض . وكانت سناء تتوقع من كثرة ما دأبت نور على سؤالها واهتمامها بالمشكلة أن تفزع ، أو على الأقل تدهش، حين تندفع تروي لها الموقف الفاصل الرهيب الذي صار إليه الوضع . ثم أنها حرصت على أن تروي الموقف بكل تفاصيله بصوت عال كأصوات الخطباء لا يصل فقطإلى آذان زملائها، ولكن يخترقها اختراقاً وينتزعها من أي عمل. ولقد روعت سناء

للنتيجة، فقد استمعت نور باهتمام مصطنع . . . حتى وسناء تتوقف عند دموع أسامة وتسهب في وصف وقعها على نفسها لاحظت ان نور رغم اهتمامها الظاهر سرحانة، بل حتى حين جابت الحجرة وأركانها الأربعة بطرف خفي من عينيها لم تر واحداً ترك عمله واعتدل، أو ترك اعتداله وانتبه، أو حاول بسؤال أو استفسار أن يصبح طرفاً ثالثاً في الحديث.

ـ والنبي زعلتيني يا سنسن. . وانتي عارفه وحياة ماما أنا لو كان معايا القسطما كنت اتأخرت، انما ضروري حتلاقي حل ان شاء الله . عن اذنك بقى لحسن المفتش زمانه مشي وتبقى وقعتي سوده.

وقبل ان تنطق سناء كانت نور قد اخترقت الحجرة جرياً وخرجت من الباب.

والتفتت سناء الى الزملاء فوجدتهم ولا كأنهم هنا، ولا كأن أحداً سمع أو رأى.

وتسمرت في كرسيها وقد دهمها الشعور الضاغطالقاهر الذي لا بد ساور كلا منا في لحظة من حياته . . الشعور بأنها وهي وسط الدنيا المزدحمة بالناس والأصدقاء والأقارب والمعارف وحيدة منبوذة كأنها مريض مصاب بالجذام أو خاطئة يتبرأ الكل منها . . الشعور الذي يجعلنا نرثي لأنفسنا رثاء يدفعنا، حتى أقوى الأقوياء منا للبكاء .

ولكن شعور سناء كان واضحاً مكشوف الوجه صاعقاً الى درجة حرمتها حتى من نعمة البكاء، بل دفعها الى القيام بعمل لم تكن تتصور ولو في الأحلام ان تقوم به، اذ وجدت نفسها بعد قليل تذهب الى صفوت افندي وتلح عليه أن يفرغ لها قليلاً، ثم تحكي له المشكلة وتسأله إن كان

العبر

لديهحل ،وكالقاضي الذي لا أثر للعواطف في كلماته يفهمها الرجل انه لا يملك لها أي حل، وحتى السلفة على ماهيتها يلزمها اجراءات تستغرق يومين على الأقل. وسكت بينهما الحديث باستغراق متعمد آخر من جانبه في العمـل تاركاً اياها واقفة غير قادرة حتى أن تقرر ما اذا كان باستطاعتها أن تعود الى مكتبها وتجلس .

كل ما استطاعت أن تفعله أخيراً وهي في وقفتها تلك، هو أن تجوب الحجرة بنظرات مستغيثة مسلوبة الروح كانت تدرك أنها الأخيرة، وأنهـا للتـأكد ليس إلا. نظـرات مضـت تصوبهـا الـى الجـدران والـدواليب والمكاتب والوجوه المتعمدة الانكباب على الأوراق، وهي تدق بإلحاح هستيري مجنون. . النجدة! النجدة!

ومن كل اتجاه كانت نظراتها تعود بغير أن تعلق بهـا بادرة استجابـة واحدة. وكان رد الوجوه على استغاثتها تماماً مثل رد الجدران. . الصمت المطبق التام.

١٥

ولأن المعجزة الالهية لم تحدث ولا فتح السقف في الليل وتساقطت منه نقود، فقد جاء الصباح التالي ،وليس في البيت سوى الجنيه الذي كان موجوداً ليلة الأمس.

وجاءت الساعة السابعة لتجد سناء قد استصحبت أسامة الى المدرسة حاملة كل مالية الأسرة، ذلك الجنيه، مؤملة أملاً سخيفاً أن تتنازل المدرسة مثلاً في آخر لحظة عن شرط دفع المصاريف، أو أن تستكتبها تعهداً أو أي احتمال آخر يعادل في غرابته وبعده عن الواقع حكاية السقف الذي يفتح وتسقط منه النقود.

وأتعس ساعة قضتها سناء وهي ترى التلاميذ جميعاً يتهيئون لدخول الامتحان، ويحيون أسامة، وأسامة يخجل من رد التحية. ثم وهي ترى بضعة تلاميذ آخرين قد استصحبوا كأسامة أولياء أمورهم، الذين تجمعوا حول الصراف الذي كان قد وضع لنفسه تختة وكرسياً كالمحصل قريباً من مكان اللجنة. ثم وهي تكتشف أنهم جميعاً سددوا وأخذوا الايصالات وقبلوا آباءهم علامة الفرحة، وأن أسامة هو الوحيد الذي لن يدفع، وهو الوحيد الذي حين دق الجرس بقي واقفاً بجوارها يراقب زملاءه الداخلين الى العنابر والفصول ويبكي، ويمنعها بكاؤه من البكاء. ثم تفاجأ به

ينطلق من جوارها راكضاً بأقصى قوته مخترقاً باب المدرسة الى الشارع الى حيث لم تعد تعلم.

وبقيت هي وأمها على نار حامية حتى عاد لهما مطأطىء الرأس ذليلاً قرب الظهر. . ودون أن ينطق حرفاً خلع ملابسه وارتدى البيجاما ونام.

وبالضبط بعد ثلاثة أيام كان الجرح قد التأم، وأصبح يؤلم فقط حين تتحسسه سناء أو يتعرض رغماً عنها للمس. ونحن في الحياة لا ننسى ولا تلتئم جروحنا بالاستشفاء أو تغيير الجو أو بالمفاجأة السارة حين تقبل. . نحن ننسى الجرح بجروح أخرى طازجة نصاب بها وتستحوذ على اهتمامنا. وسناء في اليوم التالي وجدت مشكلة تنتظرها وتهددها في وظيفتها وعملها، مشكلة اليوم الذي تغيبته دون اذن ودون حق في اجازة عرضية أو اعتيادية. والحق الوحيد الباقي. . الحق في اجازة مرضية كان يلزم للتمتع به شهادة من طبيب تكلفها على الأقل خمسين قرشاً، أو بالدقة سبعة وثلاثين قرشاً ونصفا، فقد اقتضى الأمر نزهة لأسامة وأكلاً لحلويات وسهرة في سينما،وتصوروا أن هذه الشهادة ذات الخمسين قرشاً كادت تكلف سناء وظيفتها، لولا ما طلت به وجهها من وقاحة وجرأة وألحت على زميلاتها في المصلحة رغم اعتذارهن وتحججهن بآخر الشهر، حتى جمعت منهن ثمن الشهادة خلال يومين من السؤال الدائب المتصل!

وهكذا ما كادت تنجح في دفع هذا البلاء ويحتسب اليوم من اجازتها المرضية وتتنفس الصعداء، حتى أدركت أنها في خضم ما حدث نسيت اليوم المؤلم تماماً وأصبحت أقل حساسية لذكره، بل الحق أفاقت لتجد نوعاً من عدم المبالاة قد أصبح يصبغ تفكيرها وآراءها وتصرفاتها. وكانت اللحظة الصاعقة التي عانت فيها من الشعور بأنها مبعدة منبوذة قد جعلتها

هي الأخرى تبدأ تنبذ الناس في تفكيرها وتصرفاتها. . لم يعد مهماً أن تحظى برضائهم عنها. وبين يوم وليلة ملأها الشعور بأنها لا تملك في هذه الدنيا، ولا يجب عليها أن تراعي سوى نفسها. شعور لم يك عميقاً خافياً. . لقد ظهر حتى لزميلاتها وزملائها ولاحظوه واتخذوه مادة لتعليقاتهم.

وكل هذا شيء قد يستطيع العقل هضمه وقبوله، أما الذي لا يمكن أن يستوعب العقل وقوعه فهو ما حدث في ذلك اليوم الثالث حين فوجئت سناء بمحمد الجندي ـ وقد خفت في الآونة الأخيرة نوبات هياجه وثوراته ـ ينظر لها نظرات باسمة لا تصدر على هيئة شعاعات مبتسمة وإنما كأنها تسيل من عينيه لتختلط صفراويتها ولزاجتها بملامحه الشاحبة المفرطحة التكوين. نظرات ذكرتها بأيام العمل الأولى وبمحمد الجندي حين كان يتراءى لها أثقل دم خلق الله أجمعين، وأكثرهم استثارة للاشمئزاز والغثيان. ولكنها، وهذا هو الغريب، لم تجدها هذه المرة كذلك، لا لأن محمد الجندي كان قد تغير في نظرها أو تبدل، ولكن لأنها هي نفسها كانت قد تغيرت. الى أين وكيف؟ لم تكن تدري. كل ما تعرفه أنها لم تشمئز من نظرات محمد الجندي لها، وربما هذا ما شجعه الى أن يرفع الدوسيه بعد قليل ويبدأ يهمس لها من خلفه: ازيك يا حلو. . والنبي شفايفك دول مجنني ووحشيني. . وحشيني موت حتى وأنا جنبهم طول النهار وحشيني.

لا بد أن هذا الرجل مصاب بخلل في قواه العقلية، ذلك ما فكرت فيه سناء. لكنه لم يكن حكمها النهائي، فلسبب ما حين اختلطت صورته الحاضرة مع صورته وهو ثائر غاضب يهدر الرجل الكلب الذي فيه وينبح

ويرعبها ، ما لبث حكمها الأول أن أصيب بهزة تبعثرت على أثرها كلماته وحروفه وتطايرت ، وبقى الأمر في حاجة الى رأي جديد وحكم جديد، لا تعرف بعد كيف تصوغه أو حتى تحدد قبل صياغتها معالمه . لقد أخذ هذا الرجل من تفكيرها ما لم يأخذه أي إنسان عرفته . . تفكير حقيقة كان معظمه اشمئزازاً واجتراراً للاشمئزاز ، ولكنه تفكير فيه والسلام . ورغم كل هذا لم تستطع إلى الآن أن تخرج من تفكيرها بنتيجة .

كل الفرق أن سناء لم تجزع ولم تجفل هذه المرة من كلماته، ولم ترغم أذنيها وعينيها على صمم وعمى اجباريين حتى تنفي لنفسها نفياً باتاً أنها سمعت أصلاً أو رأت . هذه المرة لم تطرف عيناها ومضت تحدق فيه غير هيابة أو خجلة . وأغرب ما لاحظته ـ الشيء الذي كاد يفقدها الوعي ـ أنه كان لا يكذب ، وأن في نظراته ونبراته صدقاً قد يستبشعه العقل ويأبى رصده . ولكنه موجود . وقد تخطىء سناء في حكمها على عشرات الأشياء، ولكنها أبداً لا يمكن أن تخطىء رنة الصدق وهو يقول : حتى وأنا قاعد جنبك ودين النبي وحشاني .

ولنفرض جدلاً أنها أخطأت الحكم، فأي تفسير آخر تستطيع أن تفسر به آخر شيء كان باستطاعة محمد الجندي أن يفعله حين واجهته بنظرتها المحدقة الفاحصة، فإذا به حين أكمل الجملة وحاول أن يبدأ غيرها يتلجلج وتفشل محاولته ؟ ثم لا يلبث تحت وقع نظراتها أن يرتبك ولا يقوى على مواجهتها ويخفض عينيه ، ثم بحركة غريزية ، وزيادة في حجب نظراتها عنه يلصق الدوسية بوجهه ويخفيه .

كادت سناء من أعماقها تنفجر ضاحكة . محمد الجندي يخجل ؟ وممن ؟ منها ؟ بل فقطمن نظراتها ؟ لا بد أن شيئاً خطيراً مهولاً قد حدث للدنيا .

ولكنها كتمت الرغبة في الضحك وان كانت قد حلت محلها رغبة في الكلام . . . في كلام تقوله لمحمد الجندي ، وأيضاً لم تتكلم مؤثرة ان تفعل حين تلوح الفرصة .

ولاحت الفرصة قرب الظهر حين خلا المكتب إلا منه ومنها . فجأة وجدت نفسها تقول للجندي :

ـ انت إيه حكايتك بقى يا سي محمد يا جندي ؟

حملق فيها بعينين اتسعتا فجأة، فلم يكن يتوقع أبداً أن تحادثه وأن تكون البادئة ، وبالكاد استطاع عقله ان يستوعب السؤال ، وحين بدأ يجيب كان عليه أن ينظر اليها ـ ولأنه كان لا بد له حينئذ ألا يظهر ارتباكه وخجله ـ فقد استمر يواجهها بعينيه ،ولكنه في الحقيقة لم يكن يراها . . كان فقط يواجهها بعينين عطل الخجل وظيفتهما ، قال :

ـ حكايتي إيه ؟ مش عارفة حكايتي ؟ طبعاً إيه يهمك انت مني ومن حكايتي ؟

ـ لا . . أنا عارفاها كويس واشتكيتك مرة واتنين عشانها ، وعملت البدع عشان تبطلها وكنت بطلتها وخلاص . إيه اللي رجعك تاني تبص وتقول الكلام السخيف بتاعك ده ؟

ـ إذا كان ع التبطيل أنا من ناحيتي ما بطلتش ولا يوم ولا ساعة ولا ثانية ، أما سكوتي المدة اللي فاتت فده كان عشان حضرتك أهنتي كرامتي، وأنا قولي فيّ اللي قاله مالك في الخمر ، إنما كرامتي دي أهم حاجة في الدنيا . !

وضمت سناء نفسها وتماسكت بقوة ، فضحكة واحدة كانت كفيلة بأن يفلت منها الموقف الى الأبد .

واستمر الجندي يقول :

ـ أنا يمكن تشوفيني كده ، انما أنا والله إنسان حساس ، الشعرة إذا مست كرامتي أتكهرب . وأنتي يا آنسة سناء أهنتيني أكثر من مرة . إنما كله كوم ويوم ما شتمتيني كوم ، يومها قررت اني ألغيكي من حياتي ولو انتحر وفضلت كابت نفسي وساكت ، لغاية النهاردة بقى ماقدرتش، أنا . . أنا . .

ـ وانت فاكر انك كنت يومها تستاهل الشتيمة وبس ؟ انت فاكر انت أهنتني يومها أزاي ؟

ـ أنا ! لا حول ولا قوة إلا بالله . أنا كان قصدي مصلحتك، كان قصدي أخدمك. ولولا كده عمري ما كنت فتحت الموضوع ده قدامك .

ـ بقى رأيك أنها خدمة ؟

ـ أكبر خدمة . . ونروح بعيد ليه؟ لو وافقت كانت حصلت حكاية أخوكي دي؟

ـ معنى كده إنك كنت سامع .

ـ أيوه كنت سامع وعارف .

ـ طيب يا أخي بدل كلامك السخيف اللي بتقوله من وراء الدوسيه كنت سلفني القسط.

ـ آه . . جينا للكلام المهم . عندك حق. إنما تعرفي أنا بشرفي ما كان يومها معايا إلا ييجي خمسين قرش . . إنما ده مش السبب، كنت أقدر أستلفهملك حالاً ، كنت أقدر على الأقل أقول لك كلمتين حلوين يواسوكي، إنما تعرفي عملت كأني مش سامع ولا داري ليه ؟

سكتت سناء ولم تشأ أن تسأل ليه . غير أن الجندي عاد يلح ويقول:

ـ قوليلي ليه ؟

وتشبثت بسكوتها أيضاً وإن كان حب استطلاع كبير كان ينهش قلبها وأصر الجندي على سؤاله :

ـ ما تقوليلي ليه . . مش عايزه تعرفي سبب ما يخطرلكيش على بال ؟

هنا تغلب حب الاستطلاع ووجدت سناء نفسها تقول :

ـ أيوه يا سيدي . . ليه؟

وطفح البشر من ملامح الجندي وكأن مجرد موافقتها على سؤاله كانت أضخم نصر سجله خلال حياته ، ومضى يقول :

ـ قولتيلي ليه . . السبب يا ستي انك بصراحة كنتي عايشة في أوهام لسه خارجة م المدرسة ولا تفهمي حاجة من الدنيا بتاعتنا دي اللي مطلعة عنينا واللي مطلعين عنيها . كنتي ح تعرفيها إزاي إلا بكده ؟ إلا أنك تتزنقي زي ما انزنقنا وما لقيناش اللي يسمي علينا، قلت: سيبها يا واد عشان تعرف ان الفلوس هي الـ master key واللا أنا غلطان ؟

اندفعت سناء تقول:

ـ انت مش غلطان ، انت فسدان. كلكم كنتم في يوم من الأيام بني آدمين، وبعدين لقيتم حد علمكم الكلام ده وفسدكم، وخلاص دلوقتي كل همكم انكم تفسدوا الناس وتحللوا الفساد في نظركم، عشان يغلطوا ويتورطوا ويبقوا زيكم وما يصبحش فيه حد أحسن من حد. انت لازم تعرف نفسك كويس. انت صحيح لابس بدلة واسمك السيد محمد أفندي الجندي وليك مكتب ومحترم، انما إنت زيك زي أي نشال في

الشارع أو أي حرامي غسيل . سبتني عشان أتزنق، ولو كل واحد اتزنق فك زنقته بالسرقة أو بالقتل كان زمان الدنيا بقت كلها حرامية وقتالين . إنما ده ما بيحصلش لأن الناس دايماً بتساعد المزنوق ، عمرهم ما يسيبوه يقف لوحده، ولما يسيبوه عشان يدوق الزنقة يبقوا هم الغلطانين ، هم المجرمين، بالضبط حكمهم حكم اللي بيحرض على الفساد. انت كنت مش عايزني أدوق الزنقة . انت بتكذب على نفسك، انت كنت عايز تحرضني عشان أمشي في الطريق الغلط، إنما ده بعدك ! أنا نضيفة وح أفضل طول عمري إن شا الله الدنيا كلها تتوسخ ، نضيفة .

وأول ما اندهش لهذا « الخطاب» الحار المتدفق كانت سناء نفسها فكأنما هو درس وعته وحفظته عن ظهر قلب. أما ما ظل يحيرها فهو تساؤلها عن كنه هذه الخطبة . . ترى هل هي تعبر عن رأيها الحقيقي، أم مبعثها أنها تريد أن تحقر الجندي لموقفه منها، أم هو كلام تتمنى أن يكون رأيها الحقيقي ؟

أما الجندي فقد ذهل! طوال عمره ومنذ أن كف أبوه عن ضربه وعقابه وصب الأوامر والنصائح كالزيت المغلي فوق رأسه ، منذ أن مات كأنما عاهد نفسه بعدها ألا يستمع لنصيحة أحد سواء أكان مخطئاً أم مصيباً وسواء أكانت النصيحة من عاقل أم أحمق . بل لقد جعل شعاره بوعي منه وبغير وعي أن يخالف كل ما يقال له من نصائح، وهوايته الكبرى أن يعصي القوانين . إن القانون يظل عدوه اللدود الى أن ينجح في خرقه. والتعليمات تظل شيئاً لا يطاق الى أن ينجح في العثور على وسيلة يستطيع أن يتحايل بها عليها . وليست فقط القوانين واللوائح المكتوبة ، أكثر من هذا وأبعد كل ما يأخذ شكل القانون . إذا تصادف ووجد الرخام القيشاني في أي دورة مياه يدخلها لامعاً نظيفاً أنيقاً لا يستريح إلا إذا أخرج

قلمه الكوبيا وخطط وشخبط حتى يشوه من المنظر. إذا جلس على مقعد عربة الأتوبيس سرعان ما يخرج سلسلة مفاتيحه وبها المطواة الصغيرة ذات السلاح الحاد الذي يفتحه ويعمله في جلد الكرسي وفي تخف شديد يقطعه حتى يطل القطن ، ويعمله في بوية الجوانب حتى يظهر معدنها . وإذا أردته أن يكرهك كره العمى فانصحه نصيحة أو انقده نقداً .

وحين بدأت سناء تتكلم، ولم تكن أولى كلماتها توحي أنها ستمضي هكذا ترص ذلك الخطاب الطويل. . حين بدأت بدأ معها ضيقه الشديد وتذمره، ولكنه ربما لأنه وجد نفسه للمرة الأولى في حياته في موقف لا يستطيع فيه أن يرفض الاستماع ، فالمتحدثة كانت سناء والحديث كله أول حديث جاد يدور بينهما ويتطور الى أن يصبح نقاشاً عليه فيه أن ينصت جيداً ويعي ليمكنه أن يرد ، ربما لهذا وحين طال أمد انصاته واصغائه ، بلا عداء يكنه للمتكلمة ، أكثر من هذا بحب أو بعاطفة قريبة جداً من الحب.

حين حدث هذا كله وجد الجندي نفسه في محنة لم يستعد لها فحقيقة وللمرة الأولى يجعله كلام شخص آخر يبدأ يشك في صحة رأيه وطريقته وموقفه من الحياة تلك التي لم يتطرق اليه الشك فيها يوماً . على الدوام اذا كان هناك خطأ فهو حتماً وقطعاً وبلا جدال خطأ الآخرين .

حادث لا يمكن أن يقع أو يحدث، مستحيل! شيء مفروغ منه لا يحتمل جدلاً أو نقاشاً.

ولكنه مجرد شك انتابه. للانصاف أشباح شك أجل الحكم لها أو عليها الى ساعة يخلو فيها لنفسه ويفكر بعمق فيها . أما في تلك اللحظة فالحديث لا يزال متصلاً، وسناء انتهت من كلماتها وتنتظر اجابته ، فقد وجد نفسه بابتسامة غير محدودة المعنى أو الهدف يقول :

ـ كلامك كله جايز يا ست سناء، وكل اللي يهمنا انك تبقي انتي وتفضلي حلوة ونضيفة وفوق الناس كلها، ويمكن عندك حق. ايش جاب لجاب؟ انتي في السما فوق واحنا في الأرض، يمكن تحت الأرض كمان . احنا ناس حرامية حلل . . مين عارف، ما يمكن إحنا كده صحيح وما حناش عارفين ؟

كان يريد إجابة يمجد فيها من سناء ويتملقها ، ولكنه لا يدري كيف انقلبت الى كلمات ذليلة . . ذليلة وبلهجة ذليلة مست وتراً في قلب سناء كاد يطفر الدمع من عينيها . وبنفس القوة التي خافته بها حين كان يثور وجدت نفسها ، وكأن الآية انقلبت وكأنها العملاقة الضخمة وهو الدودة الزاحفة ، وجدت نفسها ترثي له دون ارادتها . وعملت الكلمات واللهجة التي كان واضحاً أنها صادقة وان قائلها يعنيها حقيقة ، عملها في الحال واحمر وجه سناء تأثراً وحرجاً ولم تدر ماذا تفعل ولا ماذا تقول ؟ حرجاً وارتباكاً لا يدانيهما إلا حرجها وارتباكها يوم أحست أن محمد الجندي أهانها أكبر وأخطر وأول اهانة من نوعها وجهت لها في حياتها.

كل ما استطاعت ان تفعله أنها غمغمت معتذرة ، ثم غادرت الحجرة بسرعة قاصدة التواليت لتنهي الموقف . . بالضبط نفس ما فعلته يومها .

وبينما كانت تصلح « فورمة » شعرها بيدها ، بينما عقلها تائه تتجاذبه انفعالات متضاربة خفية ، كان مركز الخطر الغريزي في نفسها يتخذ قراراً بلا حيثيات أو أسباب أو دوافع ، ولكنها كانت مصممة عليه بقوة : أن تنهي كل انشغال في نفسها بالجندي سواء أكان ثقل دمه أو قبح ملامحه أو فساد أخلاقه أو ذلته، وفي الحال.

وحين عادت الى البيت لتجد المناقشة التي تكررت كثيراً في الأيام

الأخيرة، بين أمها وهي تحاول أن تغري أسامة بتناول الطعام وأسامة وهو يرفض ويلح في الرفض . . المناقشات التي لم تكن تنتهي الا بتدخل سناء واحتضانها لأسامة وعبثها بشعره وتغيير المنطق الذي تحثه به ، حتى يرضى أسامة في النهاية ان يبتلع بضع لقم أخرى اكراماً لخاطر أخته . حدث نفس الشيء في ذلك اليوم ، ولكنها وذراعها تضم أسامة ويدها تعبث بشعره فطنت الى خاطر لم يطرق عقلها قبلاً . . إن ما يحدث لأسامة والاضطراب الخطير الذي اجتاح حياته بعد حرمانه من الامتحان ان هو إلا ثمن «لنظافتها» ، ثمن لم تدفعههي ،ولكن تحمله وسحق به هذا الصبي الذي لا ذنب له. إنه كالنبات النامي لا بد له من الحصول على الماء والغذاء وإلا هلك، ولا بد لأهله أن يوفروا له هذا وبأي ثمن وبأي وسيلة فهو كالنبات لا يهمه سوى مطلبه من الغذاء، لا يهمه أبداً نوع المصدر. ترى هل يغفر لها الآن أو حين يكبر- وهي المسئولة عنه وعن عائلتها الصغيرة - انها جعلته يقاسي من ضربة معطلة قاصمة فقط لتظل في نظر نفسها وفي نظر الناس محترمة نظيفة ؟ انها تعرف آباء وأمهات يحللون الحرام ليوفروا لأولادهم الغذاء والكساء. وربما محمد الجندي في كل قذارته لا يفعل أكثر من أن يوفر للجيش الجرار الذي أوجده على سطح الأرض حاجته، بمعنى آخر هو يضحي بذاته ويلوثها لينقذ أولاده، أيهما اذن أكثر نظافة؟

لقد أمضت ساعات الصباح تعطي الجندي دروساً في النظافة والصواب والخطأ، لماذا لا تواجه نفسها الان كما واجهته وتعترف بالمعنى الحقيقي لما فعلته ؟ أليس معناه الحقيقي أنها كانت أنانية الى درجة دفعتها للتمسك بذاتها وقيمها حتى ولو أدى الأمر الى تشريد أخيها الصغير وابنها وحبيبها الوحيد؟ وأليس معناه الحقيقي أيضاً أن محمد الجندي أقل منها

أنانية ، بل هو ملاك إذا قيس بها ، مسيح ضحى بذاته ولوثها ومرمطها من أجل أن ينشأ أبناؤه الذين يحبهم نظافاً صالحين ؟

أفكار تطرق عقلها لأول مرة وتقلب تفكيرها رأساً على عقب. وتجعلها تغوص وتغوص في التأمل على هدى هذه الخواطر . اننا حلقة واحدة من سلسلة طويلة نصل فيها بين آبائنا وجدودنا وبين أبنائنا وأحفادنا، ونفعل هذا برغمنا لأنه وضع لم نستشر فيه، فقد خلقنا بما ورثناه عن آبائنا وأجدادنا من علامات ، وبما سنورثه لأبنائنا وأحفادنا. من أجل هذا نحن لا نملك ان نفكر في أنفسنا كأنفسنا فقط، وإنما علينا أن نفكر فيها باعتبارها جزءاً من سلسلة ، وهمزة الوصل بين جيل مضى وجيل مقبل بحيث نعي أن القرار الذي نتخذه لا يخصنا وحدنا ولكن سيؤثر أعمق التأثير في حلقات السلسلة من بعدنا. وأولئك الذين يفكرون في أنفسهم « كأحرار» « كأنا موجود » « كأنا الكون » « كأنا البداية والنهاية » أناس مخرفون يتجاهلون ألف باء الوجود الإنساني ، بمعنى أدق يقطعون بهذا النوع من التفكير أنفسهم من سلسلة البشر، يصبحون كالسيقان والأذرع المبتورة عمرها محدد بعمر خلاياها، في حين أنهم وهم أعضاء ومكونات في السلسلة البشرية عمرهم يبدأ قبل مولدهم بملايين السنين هي عمر البشرية قبل وجودهم ، وعمرهم يظل ممتداً بعد موتهم بملايين السنين هي عمر البشرية من بعدهم. من المهم جداً إذن حين نتحدث عن أنفسنا وقيمنا والحرام والحلال والعيب واللاعيب بالنسبة الينا ان نضع في اعتبارنا أنها ستكون كذلك أيضاً بالنسبة لأبنائنا ومن بعدهم بالنسبة لأحفادنا.

١٦

لكي أكون صادقاً أحب أن أقول هنا أن أفكاراً كهذه وبمثل هذا الوضوح والتجريد لم تخطر لسناء . هي فقط أحست رغم طول جلوسها للتفكير أنها كان يجب عليها أن تراعي أخاها أسامة وتضعه في اعتبارها وهي تحدد ما يجب عليها سلوكه. وربما الفارق بينها وبين محمد الجندي أن الأخير وضع أولاده وزوجاته في اعتباره، وربما لهذا تلوث هو بينما بقيت هي في نظافة الصيني والكريستال.

أردت فقد بإيراد تلك الأفكار أن أتعمق قليلاً في الحيرة التي تملكتها وفي الاحساس العام الذي سيطر عليها وخلخل من ايمانها الراسخ في الصباح . آنذاك كانت تؤمن أنها على حق لا شك فيه ، ومحمد الجندي على باطل لا شك فيه أيضاً . الآن وفي المساء وبعد أن احتضنت أسامة وشعرت بجسده الصغير الدافيء كتلة حية مجسدة وملموسة، بدأ الشك يتسرب الى إيمانها ذاك، ولم تعد واثقة كل الثقة انها الأحسن والأنظف والأكثر شرفاً وسمواً.

والشك، هذا الشعاع الخفي الذي لا يمكن إذا تسلط أن تصمد له أقوى الحقائق وأكثرها صلابة ورسوخاً، ذلك الشك الذي بدأ على هيئة تساؤل خطر لسناء بعد ظهر ذلك اليوم ، لم يلبث بمضي بضعة أيام أن

العيب

اجتاح كل آراء سناء ومعتقداتها وحقائقها الصلبة الراسخة، الى درجة أنها في ساعات كانت تفقد القدرة تماماً على التمييز بين الخطأ والصواب . ففي كل صواب أكيد تفكر فيه كانت تجد خطأ واحتمالات خطأ ، وفي كل خطأ كانت لا تعدم ان تجد صواباً . تبلبلت تماماً ، وكأنما بفعل فاعل انفكت كل مكونات حياتها وشخصيتها الى الآف الأشياء الصغيرة والمواقف الصغيرة والقضايا الصغيرة، والعيب أصبح بقدرتها أن تحلله الى عشرات الأشياء التي تجد فيها العيب ، وعشرات الأشياء التي تجد فيها اللاعيب، وفي الحرام أجزاء كثيرة من الحلال، وفي الحلال مناطق بأسرها حرام .

وضع ما كان باستطاعتها أن تواجهه لفترة طويلة ، فالعقل فيه لا يحتمل وقد ينقصم في أية لحظة لثقل ما يحمله . وهي مثلها مثل كل الناس تواجه في كل لحظة ودقيقة بموقف يتطلب منها أن تختار فيه جانباً ، فأي جانب تختار وميزانها نفسه مفكك تماماً، الكفة في ناحية والأوزان متناثرة هنا وهناك، والمؤشر يعطي القراءات على مزاجه ؟

في تلك اللحظة كانت تلجأ مستنجدة الى أمها لا لتسألها النصح والمشورة. وإنما وهي الخبيرة العليمة بها كانت كلما ووجهت بموقف سألت نفسها ترى ماذا كانت تفعله أمي لو وجدت في مكاني؟ وقياساً على تصرفها تتصرف تصرفات كانت أشياء في نفسها تضيق بها ، ولكنها لم تملك سواها .

في تلك الأيام أيضاً كان واضحاً أن الحظ خدمها حين جعل محمد الجندي يتصرف كما لو كان يحافظ بدقة على الوعد الذي قطعه على نفسه . كانت تحس أنها فرصة من السماء أتيحت لها كي تستطيع أن تجمع شتات نفسها المبعثرة وتعود كاملة متكاملة كالعهد بها مرة أخرى .

حادثة أخيرة وقعت ، ولكنها حمدت الله أيضاً على أنها مرت بها بسرعة خاطفة ودون أن توقعها في مأزق يحتاج الى إعمال فكر وقيم . كانت قد خرجت الى التواليت لاصلاح ما أفسده اليوم والعمل من زينتها استعداداً لمغادرة المصلحة والسير في الطريق ، وحين عادت وهمت أن تغلق الدوسيه وجدت ورقة صغيرة استرعت انتباهها بلونها الوردي . . ورقة صغيرة في حجم علبة السجائر وعليها هذه الكلمات : أنا متأكد أن حبي لك حب يائس من طرف واحد لا أمل عندي فيه ، ولا أطمع ولا أطلب من الله أي شيء منك ، ولكنك تسببت لي من أول لحظة رأيتك فيها في ارتباك شديد حدث لي في حياتي وقاربت ان أنتحر لأجله . صدقيني قبل ان تضيع الفرصة وتتحملي الذنب . . لهذا كل ما أرجوه منك ان تقبلي ان أقابلك بالخارج في أحد الكازينوهات المطلة على النيل لأفضفض لك عن نفسي ، فأنا أشعر بالراحة التامة حين أتكلم معك حتى وان لم تتكلمي أنت . أرجوك وحياة أخوكي العزيز ألا ترفضي رجائي الأول والأخير . ولن أضايقك أبداً بعد هذا ، وأتسبب لك في شيء. عبدك . . محمد الجندي .

قرأت الورقة بلا اضطراب أو تردد ، وقبل أن تنتهي منها كانت وكأن شيئاً لم يحدث لها أو تفككت للحظة أجزاء عقلها وموازينه ، إذ قررت القرار في الحال ، وغادرت مكتبها في حضور الجميع وذهبت الى مكتب الجندي ومالت عليه وقالت بهمس حاسم لا راد له :

ـ اسمع يا محمد افندي! إنت يا إما عاوز تودي نفسك في داهية . . وأنا باندرك أهه ، دي آخر مرة أسمح لك فيها انك تفكر فيّ بالشكل ده ، واعمل حسابك المسألة دي مش بالعافية . دانت لما تتسخط قدامي قرد والا تموت نفسك مليون مرة ولاح يهمني . أنا لا حبيتك ولا بحبك ولا

باقبلك ، وإذا كنت جدع صحيح نفذ كلامك وانتحر. وده آخر كلام لك .

وبمنتهى الهدوء عادت الى مكتبها ـ وكأن شيئاً لم يحدث ـ وأدخلت الأوراق المهمة في الدرج وأغلقت عليها . وعلقت حقيبتها في كتفها وغادرت الحجرة.

ولم تراجع نفسها لما قالته أبداً ولا صدرت من ضميرها كلمة تأنيب فإذا كان ثمة شخص في العالم كله هي متأكدة من رأيها فيه وموقفها منه فهو الجندي، وهو الكلام الذي قالته له والذي عبرت فيه بصراحة كاملة عن رأيها فيه وفي «عواطفه» .

يومان مضيا على هذه الحادثة أو ثلاثة ، لا تذكر، ولكن المؤكد انها أيام قليلة جداً مضت. وكاد اليوم نفسه يمضي . . يوم كانت سعيدة فيه بلا شك . . إذ كان الزملاء الأربعة غائبين ، سليمان لمرضه ، وأحمد الطويل لانتدابه للعمل لمدة يومين خارج المصلحة وصفوت افندي منذ العاشرة ذهب الى مراقبة المستخدمين في لجنة لم تحفل سناء بمعرفة اسمها ونوع عملها، وخرج معه محمد الجندي الذي لم تلتق عيناه بعينيها منذ الورقة الوردية على أن ينجز شيئاً ما ويعود . وقد خرج وهي منقبضة النفس لفكرة عودته وقضائهما بقية اليوم وحيدين في مكتب خال، غير أنه لفرحتها لم يلبث أن أرسل خفاجة الساعي ليدخل أوراقه في أدراجه ويحمل له علبة سجائره ومفاتيحه وولاعته ، علامة أكيدة أنه قرر «التزويغ» .

جلست سناء تنعم بوقت تمنته كثيراً ، إذ طالما حلمت بأن تحدث معجزة تضعها في صفوف كبار الموظفين الذين لهم الحق في حجرات خاصة وتليفونات خاصة . ولم يك لديها عمل عاجل يذكر، ولولا خجلها

من فكرة ان تنتهز الفرصة وتزوغ هي الأخرى ما ترددت في تنفيذها . وبينما هي تفكر في طريقة توفق بين خوفها من الموقف المخجل امام صفوت افندي في الغد، وبين رغبتها في مغادرة العمل ودخول احدى حفلات الصباح السينمائية . . بينما هي في هذا وجدت الباب يدق والداخل عبادة «بك» . صبح وسلم وسأل عن الجندي فأخبرته بما حدث وعن صفوت افندي وأحمد الطويل وسليمان ، وبالتفصيل أجابته عن سبب غيبة كل منهم على حدة . بدا عليه الهم والقلق حينئذ وبرطم بما معناه أن اليوم الخميس والغد أجازة والتصريح إذا لم يستخرج اليوم كلفه مبالغ طائلة . أخيراً واجهها بالسؤال الذي كان بادياً أنه يفكر فيه مذ دخل الحجرة ووجدها خالية إلا منها ، فسألها إن كان باستطاعتها أن تستخرج له التصريح ؟ ودون تفكير أجابته بأنها لا تستطيع ، فليس لديها تصاريح فاضية، وحتى لو كان لديها فهي لم تزاول العملية الا بحضور زملائها والباشكاتب، ثم إن الأختام مقفول عليها في درج الأخير.

وكانت تعتقد أنها سدت كل الأبواب بطريقة لن يملك معها الرجل إلا الاستئذان منها ومغادرة الحجرة . ولكن بدا أن هذا آخر شيء ممكن أن يفكر فيه، وأنه من الصنف المثابر العنيد الذي لا ييأس أبداً. قال لها :

ـ أما عن التصاريح الفاضية فأمرها بسيط .

بكل بساطة صفق، ودخل خفاجة فطلب منه تصريحين أو ثلاثة فاضية . وتلكأ خفاجة فأشار له عبادة بك إشارة ذات معنى طالباً منه أن يذهب ويشتريها حتى إن كانت تباع فهو مستعد أن يدفع في كل منها جنيهاً .

وفي أقل من دقيقة عاد خفاجة بالتصاريح ، فأخذها الرجل وتأملها ثم بسطها على المكتب أمام سناء ، واستدار الى خفاجة قائلاً :

ـ فيه حاجة تانية يا خفاجة عشان تاخد الورقة بخمسة حتة واحدة.

تحت أمرك يا عبادة بك من غير أي حاجة ، والله يكفينا ظرف سعادتك .

ـ الأختام يا خفاجة وامضاء الباشكاتب.

ـ أجيب لسعادتك الباشكاتب بنفسه هوا .

وهذه المرة استغرق احضار الباشكاتب « بنفسه » خمس دقائق كاملة.

جاء الرجل وقد قطع اجتماع اللجنة لاهثاً، وبسرعة أنهى مهمته فقد وقع التصاريح على بياض وختمها، وطلب من سناء أن تملأها وبعد ان تنتهي تذهب الى مدير الإدارة وتحصل على توقيعه الكريم ، كذلك أخرج لها دفتر القيد لتقييدها .

أما بالنسبة لعبادة بك فقد طلب منه أن يمر يوم السبت « ليسلم» على محمد الجندي، مؤكداً أنه يجازف باعطائه التصريح قبل السلام على الجندي، ولكنه يفعل هذا اعتماداً على ثقته الكبيرة فيه . وأكد له عبادة أنه حتماً سيفعل، وطمأنه بقوله إنه رجل رقبته في أيديهم ومن العبث أن يحاول اللعب بذيله معهم.

وعلى عجل أيضاً غادر الباشكاتب الحجرة، وظل خفاجة واقفاً بضع لحظات وكأنما يؤكد دوره ووجوده، ثم حين أحس أن وجوده نفسه غير مرغوب فيه من الزبون استأذن خارجاً طالباً من سناء أن تدق الجرس فقط إذا لزمها شيء .

وهكذا وجدت سناء نفسها وقد فتحت على مصاريعها جميع الأبواب

التي سدتها، ولم يعد أمامها إلا أن تملأ خانات التصريح أو تفتعل حجة ما وترفض.

وطاوعها عقلها أخيراً على افتعال حجة، وقالت انها غير خبيرة في ملء التصاريح، وإن من المحتمل جداً أن تخطىء فيبطل مفعول التصريح، وانه لهذا السبب يستحسن أن ينتظر «الأستاذ» عبادة ليوم السبت ليملأها الجندي الخبير بها.

هنا تغيرت لهجة عبادة تماماً، وبعد مقدمات طويلة دقت قرون الاستشعار في نفسها معلنة أنه اقترب جداً من المنطقة الخطيرة التي كانت تحدثها نفسها منذ اللحظة التي رأته فيها أنه سيتقرب منها ويحاول. وبالتحديد لم تصغ بوعي إلا حين بدأ يقول:

ـ أنا فاهم إزاي واحدة ذكية مدردحة زي حضرتك قاعدة ساكتة وهي شايفه ناس أغبى منها كتير، وأقل منها كتير، وهم عمالين يبلعوا في بطونهم اللي ما بتتمليش؟ دلوقتي حدش شايفنا؟ حدش سامعنا؟ انتي عندك أمر من رئيسك انك تملي التصاريح. هو المسئول وهو اللي قالك وما عليكي إلا التنفيذ، فيها حاجة دي؟ ما فيهاش حاجة أبداً. أنا ليكي على أسكت خفاجة والباشكاتب سكوت أبدي، ولا هم ح يعرفوا انك خدتي ولا الجندي ولا حد ح يعرف. ودي فيها مصلحة متبادلة، بدل أنا ما أدفع ١٠٠ جنيه تتوزع على سبعة والا عشره، ح ادفع سبعين.. الباشكاتب وخفاجة عشرين، وانتي لوحدك خمسين، ودول تصريحين يعني انتي لوحدك ح تطلعي بميه، ميت جنيه قد ماهيتك سبع تشهر ح تاخديهم من غير ما تتحملي أي مسئولية، لمجرد انك تكتبيهم، وكل المطلوب منك انك تكتمي على الحكاية وماتقوليش للجندي ولا لحد.

أظن اللي يرفض حاجة زي كده اسمحيلي بقى يبقى ما يستاهلش المكتب اللي قاعد عليه .

وكأنما استمراراً للحديث مد عباده بك يده وفتح درج مكتبها فتحة ضيقة وأخرج من جيبه رزمة أوراق من ذات الخمسة جنيهات مثبتة معاً « بأستك» البنك ، رزمة منتفخة مغرية كالصفحات المتراصة لكتاب ثمين ، وقد يكون ألف خاطر وخاطر قد دار في عقل سناء ، وقد يكون الأمر وكأن خاطراً واحداً لم يدر فالدوران السريع يبدو كالثبات المقيم . . والألف خاطر حين تدور في جزء من الثانية لا تترك في العقل أو التصرف أثراً وتبدو وكأن خاطراً لم يدر.

كل ما حدث أن القلم في يدها كف عن الكتابة وألقت نظرة عابرة سريعة على الرزمة في قاع الدرج ، ثم عادت تحدق في خانات التصريح وقد شل عقلها تماماً ، ولم يبق متحركاً فيها وفيه غير تساؤل واحد ظل يدق باستمرار في الحاح عنيد ، كجرس الباب حين يدقه صاحب دين لحوح .

كان التساؤل هو . . ماذا يحدث لو أخذتها ؟ تساؤل هكذا يلقى ويعود يلقى دون أن تنتظر إجابة عليه . ماذا يحدث لو أخذتها؟ ماذا يحدث ؟ ماذا يحدث؟ .

كل ما كانت تريده هو مهلة خاطفة تستطيع بطريقة ما أن توقف هذا التساؤل المتواصل المزعج وتفكر فيها ، ولكن بدا وكأن عقلها نفسه لا يريد هذه المهلة ولا يريد أن يفكر، ويريدها أن تتصرف بوحي من غرائزها البدائية الأولى . . . الغرائز التي تنجذب الى الدفء والنور وتهرب من الظلام والبرد ، التي تطمع وتستنكر على الآخرين الطمع . . الغرائز التي تنجذب الى الأشياء وتنفر من الأشياء لا بحسب قيمها العليا ومعانيها

العميقة وإنما بحسب قيمها الظاهرة المحسوسة ومعانيها التي تتلخص في معنيين اثنين . . أهذا الشيء يضر جسدي حتى أهرب منه أم يفيده حتى أحصل عليه ؟

وبحكم هذه الغرائز لو كان لص قد دخل الحجرة في ذلك الوقت لاستماتت سناء دفاعاً عن الرزمة ، بحكمها كانت قد أصبحت ملكها وبحكمها أيضاً قد أصبحت المشكلة لا أن تأخذها أو لا تأخذها وإنما هي كيف تدافع عنها وتمنعها من التسرب من حوزتها .

وحتى حين كف التساؤل الملح عن التردد وأصبح بامكانها أن تستعمل عقلها، لم تشأ باراداتها هذه المرة أن تستعمله، وبسرعة كانت قد كونت لنفسها رأياً يخرج بها من اللحظة المتوقعة، إذ قالت آخذها أولاً وبعد هذا أمامي المتسع من الوقت للتفكير، بحيث اذا وصلت في تفكيري الى أن من الخطأ أخذها فمن الممكن حينئذ أن أردها لصاحبها مهما رفض وأبى.

وهكذا لم يطل توقف القلم، وسرعان ما استأنف تسديد الخانات وهي مصرة ومقتنعة ومتصرفة على أساس أن شيئاً ما لم يحدث. وانها لم تر أو تسمع أو تلاحظ أمراً غير عادي.

ولعل عبادة بك بحكم خبرته الطويلة كان يقرأ تفكيرها كالكتاب المفتوح. فلم تكن هذه أول مرة يتولى فيها إفساد ذمة موظف، ولن تكون الأخيرة، إذ بصرف النظر عن أنها بعض عمله فقد تربت لديه هواية قوامها ذلك الجزء من العمل ، هواية ككل الهوايات الشاذة كانت مزاولتها تشيع في جسده العريض القصير المترهل نوعاً من اللذة الشيطانية الوحشية دونها بكثير لذة افساد الفتاة البكر ، أو الكسب الضخم الحرام في البوكر والباكاراه . وكان يفخر أن موظفاً كبيراً أو صغيراً، مديراً أو وزيراً لم

يصمد أمامه أبداً ، وأنه يتحدى أن يصمد أحد أمامـه ، ولذتـه الكبرى كانت تبدأ تلوح إذا آنس من هذا الموظف أو ذاك مقاومة ، أو وجده عنيداً مصراً ، أو لاح وكأنه من أصحاب المبادىء. حينئذ تنشط كل مراكز الابداع والتفكير في عقل عباده بك ، وكلما زادت الصعوبات في وجهه استبشر بها ووطن نفسـه على النشـوة العظمـى يوم النصر . . إذ هو متـأكد دائماً من النصر . والفرق في نظره هو فارق زمني محض ، وحتى كلما طال الزمن طال استعذابه للتجربة والهواية . . وكانت طريقته أن يتفحص في اللقاء الأول الشخص ليصدر حكمه المبدئي عليه ، وهو فخور بأحكامه تلك يتباهـى بأن واحداً منها لـم يخب ، وبهذا الحكم يخمن نقطة الضعف في الموظف أهو المال أم النساء أم الترقية أم التهديد ؟ ثم يجمع بنفسه وبالاستعانة باثنين من موظفي مكتبه ما يمكنه جمعه من معلومات ليستطيع على هداهـا أن يحـدد «الكم» بعد أن حدد الكيف. والكم هنا لا يقل أهمية عن الكيف . إذ هو لا يعتمد أبداً على مركز الموظف أو أصله أو منصبه . كم من وزراء بكل هيلمانهم اشتراهم بعشوة أو بباقة زهور معينة استوردها من هولندا، وكم من موظفين صغار كلفه شراؤهم آلافاً .والنساء رتب، ولبابهم طلبات خاصة وتوصيات. والتهديد سلاح نادراً ما يلجأ اليه فهو يجب أن يكون أولاً محل ثقة الموظف. . ثقة مطلقة لا تشوبها شائبة. فهو الذي سيودع عنده ذمته ولا بد أن تكون ثقة الناس فيه تصل الى حد يستخدمونه كبنك مضمون لايداع الذمم . وكذلك عاين سناء في أول لقاء ، ومن معاينته استنكف طريقـة محمد الجندي المكشوفة الخشنة التي لا ذوق فيها ولا فن ، ومع هذا تظاهر باندماجه فيها فقط ليسبر غور هذه الإنسانة الجديدة التـي لا يعلـم عنهـا شيئاً . وقد علمته الأيام والتجارب أن النساء أصعب في بيع ذممهن بعشرات ومئات المرات من الرجال ، بل المرة الوحيدة التي فشل فيها وخاب كانت أمام إحدى الموظفات الكبيرات . كثـيراً ما استعمـل سلاح الحـب إذ هو

يعرف أن نقطة الضعف الوحيدة الخطيرة في أية امرأة هي الحب . ولديه لهذا عشرات من الشبان المدربين القادرين على ايقاع أشرف نساء الدنيا ، تماماً مثلما لديه عدد من الجميلات من كل جنس وملة قادرات على إيقاع أشرف رجال الأرض، والغريب أن معظم هؤلاء وأولئك هواة لا يتقاضون إذا تقاضوا إلا ما تكلف المغامرة من مصاريف.

ومما حدث يومها حيره أمر سناء ورأى أنه مقبل على مغامرة صعبة مثيرة . وغادر المصلحة يومها وهو يحاول أن يصدر حكمه المبدئي مفاضلاً بين طريق الحب وطريق المال ، وثمة شيء يؤكد له أن الطريقين لا يصلحان وأنه لا بد أن يبتكر طريقاً جديداً لهذا الجيل الجديد الذي دخل الحكومة حاملاً معه قيماً جديدة وعقليات وأفكاراً ليس من السهل التغلب عليها .

وكان بعد تفكير طويل ودراسة قد انتهى الى حل سببه استحالة مواجهة ذلك النوع الجديد بالمساومة على الشراء سافرة ، ووجوب اللجوء الى أسلوب غير مباشر ينتهي الى توريط . وأحد الاقتراحات التي فكر فيها أن يفتتح نادياً ثقافياً يضم اليه سناء ومثيلاتها وعضوات من صديقاته يستطعن بالاحتكاك والدعوات وغسل المخ والتلقين أن يفككن شخصيات هؤلاء الفتيات المتماسكة المترابطة ككتلة واحدة تضم قيمهن جميعاً . . وكلها قيم متحدة واحدة ، الحرام فيها حرام تحت مختلف الظروف والأحوال والحلال أيضاً واحد ، والعيب في العمل مثله مثل العيب في الشرف ، وما يعيب في البيت يعيب أيضاً في المصلحة . كتلة مترابطة واحدة فرق كبير بينها وبين قيم الرجال الموزعة على أدراج ودوسيهات . بحيث يحيا الرجل صادقاً بأكثر من مقياس وأكثر من شرف وأكثر من حلال أو حرام ، ويستدعي ـ اذا اضطرته الحاجة ـ المقياس الذي يناسبها . . إذا اكتشف أن ابنه يدس لأخيه عند أمه عاقبه

بشدة، وإذا ضبط نفسه وهو يدس لزميله عند الرئيس برر وشرح وأفاض في الشرح ليخرج نفسه منها كالشعرة من العجين . أبداً ليس مثل الرجل الذي باستطاعته أن يفقد إحدى قيمه دون أن يؤثر هذا على غيرها من القيم . . باستطاعته أن يكون زئر نساء لكنه في نفس الوقت تجده صادقاً وشجاعاً وأميناً . بل ربما تجده أيضاً شاعراً . ومن هنا تنشأ الصعوبة ، ومن هنا تعلم عباده بك ألا يطبق على النساء ـ على عكس ما يفعله بالرجال ـ قاعدة واحدة ، إذ قد ثبت له أن كل فتاة أو سيدة حالمة بمفردها لا تنجح معها القواعد . وحتى وهو يفكر في مشروع النادي كان غير واثق أبداً أن سناء بالذات ممكن أن يدب الى نفسها من هذا الطريق.

كانت المسألة في رأسه مجرد مشاريع ودراسات لمشاريع ، وكان مقدراً أن الأمر سيستغرق وقتاً وأنه وطن نفسه على هذا . ومع أن مجيئه اليوم كان بمشورة الجندي ونصيحته كما سنعرف، إلا أنه جاء ولا فكرة لديه عن خطوة ما يمكن أن يخطوها تجاه سناء . ماذا حدث إذن حتى جعله يقدم على هذا التصرف الذي كان كفيلاً لو لم يكن متأكداً تماماً من نجاحه ، بايداعه السجن بلا ابطاء ؟ الحقيقة أنه هو نفسه لم يكن حتى تلك اللحظة يملك إجابة شافية ، ولكنه مجرد شبح عن له وصوب تجاهه ، وكان هو أول من فوجىء بالاصابة المباشرة . أما الشبح فقد كان في كلمات سناء الأولى تلك التي أخبرته بها عن سبب تغيب الآخرين ، وليس في الكلمات الأولى بالضبط ربما قبلها بقليل ، إذ كان يتوقع بعد الذي حدث في آخر مرة كان بها في المكتب أن تلقاه سناء مواصلة نفس الموقف منه ، تلقاه باشمئزاز واضح أو خفي، ولكنه كان لا بد أن يكون موجوداً. غياب هذا العنصر دفعه للتساؤل والشك، وجاءت الكلمات الأولى لاتحمل ضغينة واضحة أو خفية. احساسه صحيح إذن! وحتى اعتراضاتها والعقبات التي أقامتها أحس أنها لم تقمها في وجهه هو بقدر ما أقامتها لنفسها . . لتمنع نفسها.

كانت اذن تريد أن تتكفل ظروف خارجة عن ارادتها بالرفض. طيب! وحين نرفع هذه الظروف الخارجة ونترك ارادتها عارية بلا دروع هي والموقف وحدهما، ماذا يحدث؟ حدث الشيء الذي توقع بالضبط أن يحدث، وقفت ارادتها لا تملك الحركة الى الأمام أو الخلف عاجزة عن التقدم وعاجزة في الوقت نفسه عن التراجع. واحتاج الوضع حينئذ لدفعة تحركها الى الأمام قبل ان يفيق الوعي، قبل ان تستجمع نفسها المشتتة وتتخذ قراراً لا بد كان سيؤدي الى التقهقر الحاسم المفاجىء. وجاءت هذه الدفعة حين أمرها صفوت افندي رئيسها بكتابة التصاريح. حينئذ وبخطى وئيدة بدأت تتحرك الى الأمام، ولكنها تتحرك في اتجاه أداء الواجب فقط وملء الخانات. ولكن من قال ان هذا الاتجاه ليس هو نفسه اتجاه بيع الذمة؟ وهل حدث لعبادة بك في كل تاريخه الحافل وثرائه، هل حدث أن تحرك موظف أو موظفة وتقدم واضعاً بيع ذمته كهدف؟ على الاطلاق لم يحدث شيء من هذا. إنه دائماً يتحرك موهماً نفسه مؤكداً ومقسماً ومؤمناً إيماناً لا يتزعزع أنه إذ يتحرك فإنما ليؤدي واجبه فقط.. لينجز عمله. عسكري المرور الذي يقبل القروش العشرة حتى لا يحرر لك محضراً يوهم نفسه، بأدلة يصنعها أو يصطنعها، إنك فعلاً لا تستحق المحضر. وإنه بالغائه انما يؤدي واجبه الذي يمليه عليه ضميره. وما العشرة القروش سوى مبلغ تطوعت أنت بدفعه سذاجة منك وعبطاً، إذ كان هو على أي الحالات لا ينوي تحرير محضر. كذلك الوزير الذي يقبل دعوتك وهو عالم انك في حاجة غداً لتوقيعه، يقبلها وهو قد انتوى نية خالصة مخلصة أنه وإن كان قد قبل إلا أنه لن يوافق غداً ويوقع إلا إذا كنت فعلاً قد استوفيت شروط الموافقة. وحين يأتي الغد وتعرض أوراقك مع أوراق الآخرين ويجد أنك مثلهم مستوفياً للشروط أو معظمها، يؤكد لنفسه أن اختياره لك دوناً عن الباقين لن يخلو

العيب

من حكمة ، إذ هو يعرفك حق المعرفة ويعرف أنك لن تخدع الحكومة ولن تسف أموالها ، بينما هو لا يعرف الآخرين ولا يضمنهم . حينئذ ولأجل مصلحة الدولة والحكومة ، بدافع هذه المصلحة العليا وحدها يؤشر على ورقك بالموافقة وعلى الآخرين بالحفظ ، مؤمناً أشد الايمان أنه بهذا العمل قد أدى أكبر الخدمات وأجلها للبلاد وللوطن .

لمح الرجل سناء اذن وهي تشرع في الكتابة وعلى سيمائها ما يؤكد لنفسها أنها تؤدي الواجب الحلال الزلال الذي لا غبار عليه. علامة يعرفها جيداً إذ الخبرة قد علمته أن الشخص حين يبدأ في إقناع نفسه أن ما يفعله أمر لا غبار عليه يكون فعلاً وحقيقة قد بدأ يدافع عن الشيء الذي عليه غبار. . مؤكداً لنفسه أن لا غبار عليه البتة، حينئذ عليك أن تضرب بسرعة ضربتك القاضية التي تطبب كفة الميزان إلى الأبد، فليس من المصلحة بقاء الشخص طويلاً من في تلك المرحلة الحرجة التي «يحاول» «إقناع» نفسه فيها . إذ قد يحدث حينئذ والأمر لا يزال نظرياً محضاً وهو لا يزال على البر، أن يتملكه خوف مفاجىء أو يتذكر حادثاً أو موقفاً أو شخصاً كان يعتبره المثل الأعلى ويغير رأيه . وصعب بل أحياناً من المستحيل إذا « حرن» الشخص في تلك المنطقة ان تستخرجه منها أو تستطيع جره . لا بد حينئذ أن تشل حرجه بوضعه أمام الأمر الواقع و«تلبيسه » التهمة. ولكنها أيضاً عملية في حاجة لحذق كبير. إذا زاولها الغشيم فمن المحتمل ان يفعلها بطريقة تفزع الشخص وتجعله يفر بجلده هارباً . أما في يد الخبير فلا خوف عليه، إذ كل المطلوب منه هنا أن يثمن الشخص بسرعة وحسم ، يضاعف الثمن أو يجعله ثلاثة أضعاف بحيث « يغرق» الشخص فيه ، بحيث ينتفي من عقله كل تفكير آخر ولا تبقى سوى الرزمة المهولة التي لم يتوقع أبداً أنها

بهذه الكثرة والضخامة، والتثمين هنا لا يعني قيمة ما يستحقه الشخص ولكنه يعني على وجه الدقة قيمة ما يطمع هو في الحصول عليه ، أي بمعنى آخر قيمة ثمنه في نظر نفسه . وعليك انت ان تثمنه بأغلى . . . أغلى بكثير مما توقع أو يستحق. ولا تخش الخسارة أو بعثرة نقودك فأنت لا تشتري امضاء لمرة . . أنت تشتري شخصاً بأكمله ووظيفة ونفوذاً الى زمن لا نهاية له . ولهذا فأي ثمن تحدده مهما بدا لك غالياً ومبالغاً فيه ، فهو لو كنت من العارفين العالمين كعبادة بك ، رخيص جد رخيص ، سوف يرتد اليك أضعافاً وأضعافاً مضاعفة .

بحكم الخبرة عرف أن خير ما يفعله أن يسكت هو الآخر ويدعي مثلها أن شيئاً لم يحدث ، وحين انتهت وتهيأت لمغادرة الحجرة للحصول على توقيع مدير الادارة كفاها هو مئونة التعب، ونادى على خفاجة يكلفه بالمهمة، ولم ينتظر أن يعود، آثر أن يتابعه. بل الحقيقة أثر ان يغادر الحجرة وقد أدرك ان خير ما يفعله هو أن يتركها فوراً ليقطع عليها آخر مراحل التردد من ناحية، ومن ناحية أخرى لتنفرد بنفسها اذ هي لا بد في شوق شديد لهذا الانفراد.

وبحرارة واحترام كبيرين سلم عليها وخرج . وحين عاد خفاجة بعد قليل وحاول أن ينتهز فرصة وحدتها ليفتح أبواباً للحديث ولم يجد منها تشجيعاً يذكر، سألها إن كانت في حاجة لشيء من البوفيه تشربه؟ وحين أجابت بالنفي وهي تتفرس في ملامحه علها تلمح بارقة تدل على أنه أدرك أو يدرك شيئاً يتعلق بالرزمة الضخمة التي لا تزال في درج المكتب . . ولم تلمح بارقة تدل على شيء . كان واضحاً فقط أنه قبض هو الآخر، والنقود التي قبضها تعميه عن رؤية أي شيء آخر، وأدركت سر تلكئه حين قال لها في النهاية :

ـ أظن عبادة بك وصى حضرتك إنك ما تجيبيش سيرة لحد.

وابتسمت بافتعال، وأجابت بما يؤكد انه وصاها وأنها ستعمل بالوصية. كل ما هنالك انها تساءلت ببراءة عن السبب الذي يدفعه لهذا التكتم وأجابها خفاجة بأنها لاتزال حسنة النية لا تعرف بعد أحوال المصلحة الخفية، وأن عبادة بك انما يفعل هذا ليخفف عن كاهله ولو لمرة «الضرائب» الباهظة التي يدفعها للكل اذا عرف الكل.

وطمأنت هذه المحاورة سناء. وطمأنت كذلك خفاجة حتى أصبح وجوده في الحجرة غير ذي موضوع.

غادرها حينذاك وهو يدعو ـ بلا مناسبة ـ لسناء بأن يصلح الله أحوالها ويرزقها بعريس ابن حلال. وأغلق الباب وراءه.

أخيراً، ها هي ذي وحدها كما تمنت. ها هو الوقت أمامها ممتد متسع باستطاعتها أن تناقش فيه كل المشاكل والقضايا.

واستعجبت حين حاولت أن تجد شيئاً يتعلق بالنقود، أي شيء يمكنها أن تفكر فيه بدون جدوى، بقي عقلها بلا تفكير، وبلا قلق أو ارهاق، بلا سعادة أو اكتئاب، بلا شيء على الاطلاق. بقي هكذا وقتاً ما لا تدري كم طوله، وحين بدأ يعمل بدأ يفكر بطريقة لم تخطر لها على بال. من أدراها أن النقود ليست فخاً نصب لها.. نصبه الجندي وزملاؤه من أجل الايقاع بها وفصلها وسجنها كي يخلو لهم الجو؟

الحقيقة كان الخاطر مفاجئاً ولاسعاً الى درجة قفزت معها سناء واقفة ودون أن تتردد لثانية واحدة أمسكت النقود كما قرأت في الروايات بمنديلها ثم وكأنها فكرت طويلاً في المخبأ السري، إذ في لمح البصر كانت قد مدت يدها أسفل الدرج الأوسط لمكتب محمد الجندي، وهناك وجدت قطعة خشب بارزة كالرف وضعت فوقها النقود، وعادت الى مكانها لاهثة.

حتى أن ضبطوها فسيحمل هو التهمة ويقع في الحفرة التي أراد لها ان تقع فيها .

وانتظرت ساعة وساعتين أن تأتي النيابة والبوليس دون أن يأتي أحد أو تبدو بادرة خطر . والى أن وصلت الى البيت في ذلك اليوم كانت قد ضبطت أكثر من عشرين مرة . وراحت في داهية أكثر من مائة مرة ، وأمسكها سائق التاكس المتخفي عشرات المرات .

ووصلت الى البيت برغبة واحدة . . أن تنام . ودون ان تلحظ أمها استخرجت الرزمة من الحقيبة ووضعتها تحت المخدة ونامت .

وأيقظتها الأم ساعة العشاء حاسبة أنها مريضة ! وبالكاد ازدردت بعض اللقم ، وهي في أثناء الطعام وقبله وبعده تحاول أن تعثر على هاتف واحد من آلاف الهواتف التي اعتقدت انها لا بد مستيقظة لديها ذات ساعة . صارخة فيها أن تعيد الرزمة الحرام الى صاحبها دون جدوى .

بدلاً من الهواتف كان ثمة احساس طاغ أن المسألة قد حدثت وانتهت وان المهم ليس النقود . . المهم هو الخطوات التي سبقت وأعقبت النقود خطوات مهما فعلت وارتفعت ودقت رأسها بالسقف وهبطت لا يمكنها التراجع عنها .

حسن جداً! فليكن ما حدث قد حدث ولتكف نفسها مئونة التفكير.

ومر صباح الجمعة وظهرها وعصرها وهي لا تريد لليوم أن ينتهي ولا تريد العودة للمصلحة أبداً . ولكن الليل ما كاد يجيء حتى بدأ حب استطلاع غير حب استطلاعها العادي . . رغبة خبيثة ماكرة في الاستطلاع تطغى عليها وتتمنى معها أن ينقضي الليل بسرعة لترى ما حدث أو ما يمكن أن يحدث في المصلحة .

ورغم انها لم تتوقع أبداً أن تجد ما وجدته، إلا أنها لدهشتها لم تستغرب حدوثه. في الواقع منذ يوم الامتحان وهي لم تعد تستغرب حدوث شيء.. أي شيء.

وجدت سر صفقة الخميس قد تسربت الى الزملاء الأعزاء... من الباشكاتب، من خفاجة. أو من عبادة نفسه.. تفصيل لا يهمها في قليل أو كثير. والغريب انها بعد برهة وجدت نفسها غير ساخطة، أكثر من هذا سعيدة بهذا التسرب. لكأن حائطاً سميكاً كان يفصلها عن سليمان وأحمد والباشكاتب والجندي قد تهدم من أساسه، ولم يسخر منها أحد ولم يحاول أحد أن يعايرها، بالعكس أقبل الجميع عليها وكأنها نجحت في امتحان وانتقلت الى خانتهم، أو لكأنها الأخت المريضة التي عوفيت وشفيت وانضمت الى العائلة. التحفظ زال والحرص في المعاملة اختفى والحجرة تحولت الى مكان عذب خفيف الروح يغري بالاقامة ويمحو الأشجان.

الشيء الغريب الذي لحظته بعد قليل أن الجندي رغم اشتراكه في موجة المرح العامة، في أعماق نفسه كان يبدو مكتئباً حزيناً. وقد احست ان الحالة سببها هو حرمانه من نصيبه في صفقة الخميس، ولكنها حين علمت أن أنصبتهم جميعاً وصلتهم وكأنهم كانوا حاضرين. خبر في حد ذاته أخذ سناء على غرة وجعلها تفطن الى أن الهدف من حكاية اخفاء الأمر عن محمد الجندي والآخرين هو مجرد خدعة من عبادة بك قصد بها أن يبث الطمأنينة في نفسها حتى تلتف حولها « الخية ». اذن دبر الرجل كل ذلك بهدف ايقاعها، ومن المحتمل انه أشرك معه الجندي والباشكاتب في التدبير. وحتى اذا كان هذا هو ما حدث فأية أهمية الآن وهي لم تأخذ النقود لبراعة التدبير؟ لقد اخذتها لأسباب لا تدريها.. وحتى قبل ان تأخذها بزمن طويل، من لحظة دق عبادة الباب ودخل وربما قبلها بكثير. فما علينا من

هذا كله ، المهم لماذا هذا الاكتئاب الذي يطفو من أعماق الجندي ويطغي على ملامحه ؟

سألته وألحت ولم يستطع الصمود، أخبرها أنها كادت منذ ذلك اليوم الذي ألقت عليه فيه خطابها الطويل أن تنجح في تغيير مجرى حياته كله وفي انقاذه، هو الجندي الذي قضى أكثر من ثلاثين عاماً يعيث في الدنيا فساداً ويؤذي نفسه ولا يستريح حتى يتأذى الآخرون، وأنه من يومها أصبحت له المثل والبطلة ، ومن شدة ثقته بها تحدى عبادة أن يوقعها. وما كان غيابه بالأمس إلا لاعطائه الفرصة كاملة. . وكان واثقاً تماماً من فشل عبادة ونجاحها، أما وقد نجح الرجل، أما وقد حدث ما حدث فهو لا يدري لماذا أحس ولا يزال يحس بالحزن والاكتئاب؟

ـ ولا يهمك .

قالتها له سناء ككلمة عابرة اختارتها بنت لحظتها لتعبر بها عن حقيقة رأيها في تلك الساعة ، ولم تكن تدري أنها ستصبح بعد هذا كلمتها المفضلة، وانها ستظل ترددها مئات المرات وآلافها كلما حاول أحد لومها أو لمحت بوادر تدل على أنها في الطريق الى لوم نفسها.

وكأن محمد الجندي كان ينتظر هذه الكلمة ليذهب عنه اكتئاب ضاق به. . اكتئاب حديث العهد بنفسه غير أصيل، اقتلعته الكلمة وأعادته في لمحة الى الجندي كما كان وكما هو كائن وكما من المحتمل ان يظل يكون.

وساد الانسجام التام الحجرة، وأرسل خفاجة في طلب مشروبات وعلب سجائر فاخرة، وعزم أحدهم على سناء بسيجارة فرفضت بغير شدة وحين أعاد العزومة قبلتها وأشعلتها ومضت تجرب باضطراب المبتدئة كيف تمسكها وتجذب أنفاسها وتتفادى الكحة .

العبر

وبلا ورقة أو مقدمات، وقبيل انتهاء اليوم بدقائق ذهب الجندي لمكتبها وانحنى بجذعه كله حتى أصبح وجهه يكاد يلمس وجهها. ولو كان يعلم أن سناء حين ستراه عن قرب هكذا ستتمسك برأيها الأزلي فيه لما اقترب منها كل هذا الاقتراب. المهم أنه بكلمات متلجلجة متقطعة لم تحتمل سناء أن تظل تنتظره وهو يلوكها ويتلكأ في نطقها أكثر من هذا فسألته :

ـ ولا يهمك . . بس قول في أي كازينو عايز ؟

ـ ايه رأيك في . . والله بيتهيألي أحسن من التاني ده.

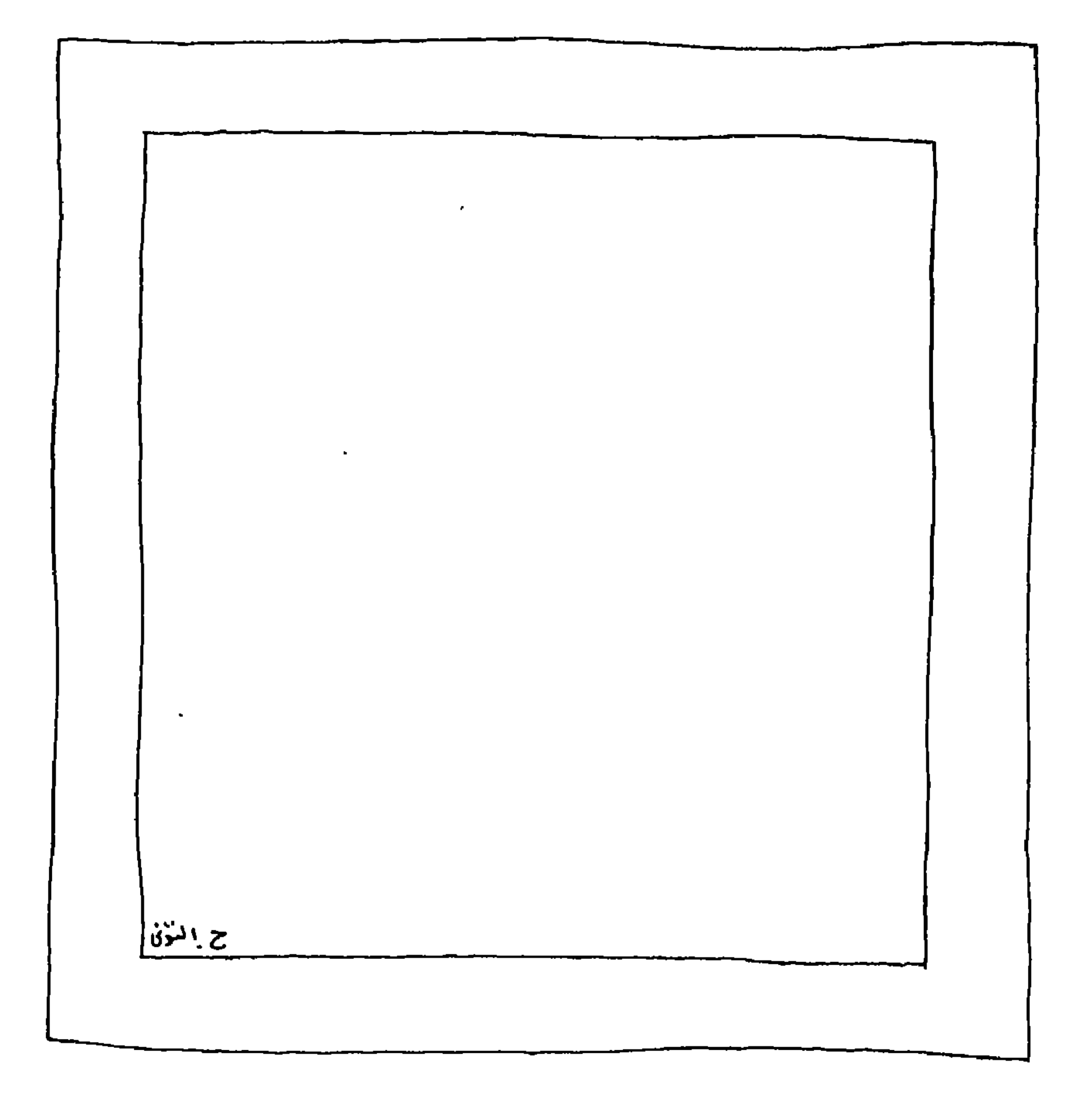
ـ يا أخي فلقتني . . كازينو الحمام . . ح تلاقيني بكره الساعة ستة هناك .

نطقت الجملة وسكتت هنيهة، وفي أثنائها اقشعر جسدها لدى صورته حين مرت بخيالها وهو يهدر هدير الكلب « الرجل» ووجدت نفسها تقول:

ـ واللا ايه رأيك؟ ما بلاش الكازينوهات لحسن حد يشوفنا .

وفتح محمد الجندي فاه مدهوشاً مروعاً مذهولاً، معتقداً لا بد أنها أصيبت بمرض أو مستها لوثة، اذ لم يكن باستطاعته أن يتخيل او يصدق أنها حقيقة تعني ما تقول.

«تمت»



الحرام

الحرام

١

في تلك البقعة من شمال الدلتا . . حيث يمتد التفتيش واسعاً عريضاً لا يكاد البصر يصل إلى مداه، كانت الدنيا تمر بلحظة السكون التام حين يكون الليل وما فيه من نقيق وصرير قد ولى، وحين لا يكون النهار الكامل بأصواته وضجيجه قد أقبل بعد. سكون تام مطبق وكأنما ستقوم القيامة بعده. سكون جليل مهيب تتردد حتى أدق الكائنات في خدشه. . لم يكن يجرؤ على خدشه إلا نصف كرة أبيض كان يغوص في ماء الترعة ثم يطفو ليعود يغوص، محدثا خرخشة تتعالى وتدوي في رحابة السكون. ظل هذا يحدث عدداً غير قليل من المرات، ثم حدث أن غاص نصف الكرة مرة وغاب اكثر من المعتاد، غير أنه لم يلبث أن طفا فجأة مخترقا الماء في ضجة عظمى. وهذه المرة وضح أن لنصف الكرة جبهة ما لبث أن وضح أن لها عينين ثم فماً، ثم لم يلبث الوجه أن تكامل واستدار الرأس آخذا طريقه إلى الحافة. وكلما تقدم ينحسر الماء عن رقبة، ثم جسد أبيض من الخلف كثيف السواد من الأمام، وقرب الحافة ظهرت الذراعان هزيلتين بالقياس إلى الجسد الضخم، ولكن على بطن الذراع اليمنى وشم فتاة ممسكة سيفا وكتابة لو دققنا النظر فيها لوجدنا أنها لاسم، والاسم هو عبد المطلب محمد البحراوي.

خرج عبد المطلب من الماء، ومع أن المنطقة بأسرها كانت خالية من الأحياء إلا أنه حين أصبح في العراء انثنى على نفسه وضم يديه يخفي بهما عورته، وبسرعة كان قد ارتدى ملابسه. ملابس كثيرة مهرأة يضمها جميعاً «بالطو» سميك مهيب أصفر اللون ذو تاريخ حافل، إذ اشترك في الحرب العالمية الأخيرة مع الحلفاء على هيئة خيمة، ثم انتهى كما ينتهي المحاربون القدماء إلى تلك النهاية.

وأخيرا صلى عبد المطلب ركعتي الصبح الحاضر والسنَّة، ولفع البندقية ذات الروحين على كتفه ومضى على جسر الترعة يخب في نعليه المصنوعين من كاوتش العربات.

وبينما كان ماضياً في طريقه إلى العزبة الكبيرة، فوجيء عبد المطلب بجسم أبيض غريب يرقد على جانب من الجسر. وفرح عبد المطلب فهو ككل الناس ما يكاد يرى على الأرض شيئاً يختلف لونه عن لون الأرض إلا ويعتقد أنه عثر على «لقية»، ويدق قلبه بالفرح.

غير أنه حين بربش بعينيه.. وعبد المطلب مع أنه خفير إلا أن نظره على قده خاصة في الضوء.. ما كاد يرى الشيء حتى تسمر في مكانه مذعوراً ومضى يصرخ: الله حي، الله حي، الله حي.

ذلك أن الشيء لم يكن إلا جنيناً حديث الولادة.

دق قلب عبد المطلب دقة عالية واحدة كالطفلة، ثم انزوى يلهث في صدره ويرتجف. فهو «صحيح» خفير، ولكن ما يراه أمامه الآن شيء مختلف تماماً عن اللصوص وقطَّاع الطرق، ولهذا فقد كان أول ما فكر فيه أن يطلق ساقية للريح ويجري، إذ للوهلة الأولى اعتقد ان ما أمامه عفريت ابن جنِّيَّة ما في ذلك شك.

غير أن عبد المطلب لم يجر، بل وجد نفسه بعد ثوان يقهقه قهقهة عالية

الحرام

أعلى من أي قهقهة اخرى أطلقها في حياته إذ كان يضحك على نفسه، فقد أدرك بطريقة ما أن ما أمامه ليس عفرياً أو شيئاً من هذا القبيل، ولكنه رضيع ابن حرام على وجه الدقة، وما كاد يتبين هذا حتى قهقه، فقد تصوّر لأمر ما أيضاً أن الجنين الذي يراه الآن هو ثمرة لليلة الماضية التي قضاها مع زوجته، ولدته بعد أن غادرها ليستحم في الترعة ويتطهّر، ثم ألقت به في الطريق.

كان الخاطر لا معنى له إذ من غير المعقول أن تحمل زوجته وتلد جنيناً كاملاً في نفس الليلة، ولكنه فكر فيه. فالإنسان وهو مرعوب قد يقف عقله ويهرب بجسده، أو قد يحدث العكس فيتسمر بجسمه في مكانه ويهرب بعقله، والعقل في جريانه المفزوع لا يتقيد بأي معقول.

وعلى أية حال لم تطل قهقهة عبد المطلب إذ قطعها عليه إحساسه المفاجيء بالمسئولية، ومع أن البقعة التي وجد فيها الرضيع ليست من اختصاصه إذ هي من اختصاص خفير الجرن، إلا أن بعض الناس أحياناً لا يكادون يجدون ثمة خطأ حتى يلصقوه بأنفسهم ويحس الواحد منهم أنه هو المسئول عنه، ويبدأ يدافع عن نفسه ليتهرب من المسئولية. وهكذا ظل عبد المطلب واقفاً أمام اللقيط يدير في رأسه خطط الدفاع عن نفسه أمام الناس وأمام مأمور التفتيش و ـ لا قدّر الله ـ أمام النيابة والمحاكم، وبينما عبد المطلب يفعل هذا كان قوس الشمس الأعلى قد بدأ يصفر ويبيض ويجوب الأفق مستكشفاً، وحين اطمأن إلى أن كل شيء على ما يرام برزت من ورائه الشمس بحجمها الأحمر الهائل، ومع بروزها بدأت الدنيا تزهزه وتدعو الكائنات إلى اليقظة والعمل، وبدأ أبو قردان يصرخ ويرفرف، وبدأ الناس يظهرون.. أفراداً متناثرين أول الأمر قادمين من الجامع بعد الصلاة، أو آخذين طريقهم إلى الترعة يغسلون وجوههم ويستحمون.

ومع زهزهة الدنيا كان عقل عبد المطلب هو الآخر قد بدأت تعود إليه رباطة جأشه وبدأ يتفتح، وكانت فكرة ما قد واتته بعد أن فشل في تخليص نفسه من المسئولية:

لم لا يلقى باللفافة في الترعة ولا من شاف ولا من دري؟ وتردد برهة بعد آه، ولاه، ثم لم يلبث أن تقدم من اللفافة باحتراس زائد.

في تلك اللحظة فوجيء بصوت خشن كفرع السنط يقول:

ـ اصباح الخير يا عبده.

وحملق فيه عبد المطلب بعينيه العمشاوين، فقد كان عبد المطلب أبيض أعمش ذا عيون صغيرة ضيقة لا ترى إلا في الليل، حملق فيه وقال جملته المشهورة عنه:

ـ أخص ع الناس، الله يكسفم!

كانت كلماته تخرج ملفوفة في سحابات صغيرة من بخار الصبح، وكان القادم «عطية» الذي لا يدري أحد متى جاء إلى التفتيش ولا من أين جاء ولم يكن له عمل معروف حتى في أثناء إقامته في التفتيش، لا ولم يكن له محل إقامة فهو ينام حيثما اتفق، تراه على الدوام ممسكاً ذيل قميصه من الخلف، مظهراً سيقانه الخالية من الشعر، فاتحاً عيناً مغلقاً الاخرى محدقاً في محدثه بوجهه النحيف الرفيع الذي لا يطمئن إليه أحد.

ظلت ذرات البخار تخرج من فم عطية لترد عليها ذرات بخار خارجة من فم عبد المطلب، وأيديهما تشير مرة الى اللفافة ومرات الى الترعة والناس والعزبة والسموات العلا إلى أن انضم إليهما الأسطى محمد. والاسطى محمد رجل الحادثات بلا منازع، ما من واقعة مهمة تحدث في التفتيش إلا ويكون هو أول من يحضرها، ولا يدري أحد كيف تصل إليه أخبارها ولكنك حتماً سوف تجده. هو عجوز تعدى السبعين ذو لحية نابتة بيضاء

الحرام

وشعر اشيب وعين يسرى لا يرتفع عنها جفنه المغلق على الدوام. كان أسطى ماكينات في التفتيش، وحين كبر على العمل فصلوه، ومع هذا فأحياناً يعهدون إليه بمهام مثل إيقاد الوابور الذي يدير ماكينة الدراس أو السهر بجوار طلمبة مياه. ولكنه على أية حال لا يزال يلقب بالأسطى، ولا يزال رجل الحادثات، ورأيه فيها لا يزال هو الرأي السديد، وهذه المرة ما أن عرف ما حدث، ورنا إلى الجنين بعينه اليمنى حتى قال:

ـ ده مش ميت يا عبده.. ده مخنوق.

واستنكر عبد المطلب هذا، ولكن الاسطى محمد ما لبث أن أقنعه وهو يشير إلى زرقة الجسد واحمرار ما حول الأنف والفم، طالباً منه أن يخلص نفسه من المسئولية ويبلغ مأمور الزراعة إذ هو الوحيد الذي يمكنه التصرف في أمثال هذه الامور.

ويبدو أن عبد المطلب اقتنع، فما لبث أن مصمص بشفتيه وقال:

ـ أيوه: أحسن طريقة نبلغ المأمور.

قال هذا دون أن تصدر سحاب بخار عن كلماته، فالشمس كانت قد بدأت تبيض، والأجساد قد بدأت تسخن والندى أخذ يزول.

٢

ولا أحد يدري كيف تسرب الخبر إلى العزبة، فالثلاثة الواقفون أصبحوا ستة، وما أسرع ما تجمهر حولهم الشغيلة السارحون إلى الغيطان وفئوسهم على أكتافهم وغداؤهم في مناديلهم، وما لبث أن انضم اليهم عمال ماكينة الدراس والمزارعون وبعض الأطفال الذين أيقظهم آباؤهم مجبرين ليزيلوا وخم النوم ويغسلوا وجوههم في الترعة.

حتى النساء كن يتركن ما في أيديهن من عجين أو خبيز أو طين ويسرعن ملهوفات إلى الخليج، ويلوثن الرجال وهن يدفعنهم ويفرقنهم ليرين ما هناك.

كل قادم كان يريد رؤية ابن الحرام هذا الذي مات لتوه، فإذا ما زاحم وزاحم حتى وصل إليه وحدق فيه وملأ عينيه من البشرة البيضاء التي ازرقت وكادت تسود، والرأس الصغير وما حوله من مشيمة ودماء.. ما إن يرى كل ذلك حتى يدير ظهره ويقفل راجعاً، وقد امتلأت نفسه وملامحه بمزيج قابض من الرهبة والغثيان.

وجاء مأمور الزراعة في النهاية، وسبقته الأيدي تدفع الواقفين وتفسح له الطريق. وكان فكري أفندي المأمور لا يقل رغبة في رؤية هذا الحادث الجديد عليه وعلى العزبة عن أي من الواقفين، ولكن كان حريصاً في الوقت

ذاته على ألا يفقده ذلك الشغف هيبته. فما إن قارب المتزاحمين حتى مد يده وأحكم اعوجاج طربوشه فوق رأسه، ثم اكتست ملامحه السمراء طابع الجد وعقص رقبته في صلف كما يجب أن تكون عليه حين يراه الفلاحون، ثم وقعت عيناه على المشهد، ولم يفلح هذه المرة في إخفاء ما اعتراه هو الآخر من رهبة وغثيان. بل بدت واضحة تمام الوضوح على وجهه وتقلبات شفتيه ثم استدارته على الفور إلى حيث يستطيع مغادرة المكان والابتعاد عنه.

وتبع المأمور في ذهابه الخولي وخفير الري وطنطاوي والاسطى محمد ونفر قليل من «التملية» والشغيلة. ساروا صامتين واجمين، والمأمور يبصق تارة في منديله الأبيض المكور وتارة على قش الطريق المبتل.

٣

وكان من الممكن أن تنتهي مهمة فكري أفندي المأمور عند هذا الحد فهو «صحيح» مسئول عن كل كبيرة وصغيرة تحدث في التفتيش، إلا أن العثور على لقيط ميت أو مقتول ومحاولة العثور على قاتله مسألة لا تدخل في اختصاصه بالمرة.

وذلك فعلاً ما كان يدور في رأسه، وهو يمشي الهوينى في الطريق إلى مباني إدارة التفتيش، وخلفه ذلك الجمع الصغير غير أن حب استطلاع ما بدأ يراوده.. ترى ابن من هذا؟

التفتيش مكون من عزب كل عزبة لا تتعدى بيوتها الثلاثين بيتاً. وهذا اللقيطوجد على خليج العزبة الكبيرة المقامة بجوار سراية اصحاب الأرض والادارة، حيث الاصطبلات والجرن والمخازن وجراجات مكن الحرث. لابد إذن أن اللّقيط ابن لواحدة من أبناء هذه العزبة الكبيرة أو بناتها والعزبة يكاد يعرف نساءها وبناتها بالواحدة، ترى أيهن هي التي فعلت هذه الفعلة؟ وترى كيف فعلتها؟. فكري أفندي طالما سمع في القصص والحواديت عن أولاد الحرام، وأحياناً كانت تبلغه فضائح مثل هذه كأخبار ليس إلا عن أناس لا يعرفهم ولا يدري أشكالهم ولا ماذا يكونون. وفي أعمق أغواره ـ وحتى لو كان قد قرأ الخبر في جريدة المقطم نفسها التي يؤمن

بكل كلمة تقولها ـ فإنه كان يجد نفسه لا يكاد يصدق الخبر. لا يكاد يصدق أن أحداثاً كبيرة شنعاء حراماً مثل هتك العرض أو الحمل سفاحاً ممكن أن تحدث فعلا. ولكنه رأى اليوم بعينه جسم جريمة كاملاً ميتاً يكاد يمد أصبعه ويضعه في عين كل من لا يصدق. كانت أحاسيس غريبة تلك التي تملكته وهو واقف يحدق في اللقيط، وكأنه يرى الشيء الحرام الذي كان يأبى أن يصدق وجوده أو استحالة إقدام الناس على فعله، يراه أمامه مجسداً راقداً على حافة الخليج. أحاسيس كثيرة عصفت به.. الحرام إذن موجود لدى الناس، أحياناً لا يستطيعون إخفاءه، ولكنه أحياناً يهزمهم وينتصر على رغبتهم في إخفائه، ويظهر متبلوراً في لقيطمسجى أو في بطن منفوخ. الحرام الذي كنت تسمع عنه يا فكري أفندي ولا تصدقه موجود، وأمامك الفرصة مواتية لترى فاعلته كما رأيته.

تلك في الواقع هي الفكرة التي كانت تلح على خاطره في أثناء رجوعه إلى مبنى الإدارة. ترى كيف تكون فاعلة ذلك الحرام؟ أو على وجه الدقة كيف تكون الزانية؟ ما من مرة ذكرت أمامه الكلمة إلا واقشعرّ بدنه، مع أنه كان له مثلما لمعظم الناس علاقات قبل أن يتزوج وحتى بعد أن تزوج. ولكن كأنما كان يستبعد أن توجد نساء في العالم يخطئن مثلما تخطيء النساء معه، وكأنما من أخطأن معه لسن زانيات.. الزانيات هن من يخطئن مع غيره.

ترى كيف تكون تلك المرأة، وهل تكون جميلة، وهل تشبه الغوازي وهل هي مثل سائر النساء أو لا ريب تنفرد بألاعيب وحركات وتأودات هي التي جعلت ذئبا من الرجال يستفرد بها ويفعل معها الحرام؟

وقف فكري أفندي في منتصف المسافة بين الخليج وبين الإدارة واستدار، واستدار الجمع الذي خلفه لاستدارته، وراح يستعرض العزبة

الكبيرةأمامه :بيوتها الداكنة والدخان الذي كان قد بدأ يتصاعد من الخروق الكثيرة في سقوفها. على رأس العزبة يقع بيت مسيحة أفندي الباشكاتب وبجواره بيت احمد سلطان الكاتب. . الشاب الأشقرذي الطربوش الغامق المعوج والبالطو الأسود النظيف، الولد الشباب الحلو الذي طالما ضبطوهو يغمز بنتاً من البنات الفائرات الكبيرات اللاتي كن احياناً يغدون للعمل في التفتيش، وغمزته دائما ما كانت تكهرب البنت منهم حتى لتجعل ثدييها تقفزان في الهواء،ولكنه لا يبحث عمن قد يصلح ليكون الأب. .هو يبحث عن الأم. فهو مستعد أن يصدق الحرام في الرجال، ولكنه لامر ما يصعب عليه ان يصدق الحرام في النساء. الرجل دوره في الحرام طياري أما المرأة فدورها أساسي. هو يبحث عن الأم. وفي بحثه هذا لم يترك احداً. حتى امرأة الباشكاتب الست أم لنده تناولها بحثه، ولكنها كانت في زيارة لزوجته في الاسبوع الماضي، ولم تكن ابداً حاملاً. ومن بيت إلى بيت تنتقل عيناه. . بيوت المزارعين الكبار الذين لدى الواحد منهم اكثر من ثلاثة ازواج من البهائم، وبيوت التملية الذين لا يملك الواحد منهم إلا فأسه. ونساء العزبة جميعاً يمررن أمام عينيه: التي يعرفها تماماً والتي لا يكاد يعرفها، التي لها ضحكة وابتسامة والتي لها قمطة حمراء أو جلابية فاقعة الألوان، البنت والعانس والعازبة والمطلقة والمشكوك في أمرها التي استجابت لهزاره مرة والتي خجلت ولم تستجب. ولم تتوقف أنظار فكري أفندي عند بيت من البيوت ولا عند واحدة بعينها من النساء. فلا أحد في العزبة يستخبي. النساء كلهن يخرجن حتى من غير أن يرتدين «الملس» الأسود فوق ثيابهن الملونة. وكلهن معروفات. . لم يلاحظ أحد على واحدة غير متزوجة حملاً أو انتفاخ بطن. لا يمكن أن تكون إحداهن هي أم ذلك اللقيط، مستحيل.

وأفاق المأمور من تأمله الطويل للعزبة ومن فيها ودار بعينيه على وجوه

الرجال القليلين الملتفين حوله ،وكان يتوقف هنيهة عند كل وجه ويحملق وعند كل توقف كان يصفر وجه ، إذ يكاد صاحبه يشك في براءة نفسه ويكاد يصعقه أن تطول تحديقه المأمور فيه مرة ثم يشير إليه قائلاً:

ـ أنت .

ولكن إدارة المأمور لوجهه وعينيه كانت إمعاناً في التفكير ليس إلا وتثبتاً من وجاهة الرأي الذي استقر عليه.

وأشار فكري أفندي فجأة بالخيزرانة التي كانت معه ، أشار إلى الفضاء الكائن خلف الاصطبلات وقال:

ـ لازم واحدة من دول.

وتطلعت العيون والقلوب إلى حيث يشير، وجاءه الجواب من أكثر الواقفين وكأنه فرحة البراءة:

ـ همَّ ، ما فيش غيرهم ، ودي عايزة كلام؟ دول غرابوة ولاد كلب.

قالوا هذا وتحفَّزوا جميعاً لأي إشارة تصدر عن المأمور.

غير أن المأمور لم يشر بشيء فقد عاد إلى حذائه الكالح يحدق فيه وعادت عصاه الخيزران تعبث برباط حذائه أحياناً وبالقش أحياناً اخرى.

ثم قال:

ـ واللا يمكن البت نبوية.

فقال صالح الخولى وقد غير رأيه على الفور:

ـ وما يمكنشي ليه؟ . . دي تاجرة بيض ولعبية.

وقال الاسطى محمد:

ـ دي بقالها عازبة زمان . . حد عارف يمكن أستغفر الله العظيم.

وقال عبد المطلب الخفير:

ـ والله ما في غيرها.

غير أن المأمور لم يمهلهم، ما لبث أن استدار ومضت عيناه تتأرجحان حتى استقرتا عند الفضاء الكائن خلف الاصطبلات وقال:

ـ أبداً! هم دول ما فيش غيرهم.

وغمغم الواقفون حوله يلعنون الغرابوة ويؤيدون.



٤

والغرابوة ليسوا من قاطني التفتيش، ولا يمكن لأحد أن يتصور أنهم من قاطني التفتيش، إذ أليسوا هم أكثر الناس فقراً في بلادهم الذين يدفعهم الفقر إلى اللجوء إلى العمل في التفاتيش البعيدة، وترك دورهم وقراهم سعياً وراء يومية لا تتعدى القروش القليلة؟ أليسوا هم ذوي الأسمال البالية والرائحة الغريبة، والخلقة الكريهة؟ لا يمكن لأحد أن يتصور أناساً كهؤلاء من قاطني التفتيش، فقاطنو التفتيش كلهم مزارعون محترمون، لكل منهم بيته وأولاده وبهائمه وجلبابه النظيف الجديد الذي يرتديه بعد انتهاء العمل ليسهر به في القهوة ويروح به في المآتم والأفراح، وليس بين قاطني التفتيش عاطل، فالعزب مبنية بحيث تستوعب المزارعين كلهم، وكأنما هي مصنع كبير خصص جزء منه لسكن عماله.. وعلى هذا فهم جميعاً يعملون، وهم جميعاً معهم نقود، والزوجة تدخل على زوجها بسرير ودولاب وأطباق صيني وأحياناً بماكينة خياطة. والعمل ليس مرهقاً إلى الدرجة التي لا يتصورها العقل، فالري بماكينات والحرث بأتومبيلات، والدراس بماكينة كبيرة جداً تحتل وحدها نصف الجرن. وصحيح أن التفتيش يأخذ معظم ما تنتجه الأرض، ولكن يبقى للفلاح ما يستره، ويكسوه، ويطعمه، ويجعله حتماً ينظر إلى الغرابوة

هؤلاء نظره إلى نفاية بشرية جائعة، مضطرة إلى الهجرة كي تعمل وتأكل وتنال حظاً من الحياة. حتى اسمهم لم يتفق عليه أحد، رجال الإدارة يسمونهم «الترحيلة»، والفلاحون يسمونهم «الغرابوة». أما هؤلاء الذين تعودوا «المقلتة» والتريقة فيسمونهم «الجلب حل الجشج عنه ما جلو يا سيد عنجلو» ومعناها «الكلب كل الكشك عنه ما كلو يا سيد (السيد البدوي) عنقلو»، إذ هكذا ينطقون الكاف، وهكذا يحتقر فلاحو التفتيش كافهم ولهجتهم وحتى مجرد وجودهم على أرض تفتيشهم.

أما الغرابوة أنفسهم فقد كانوا لا يقيمون وزناً كبيراً لتريقة الفلاحين أو نظرتهم، وكأنما هم معترفون أنهم غرابوة وأنهم ترحيلة وأنهم أي شيء قد يخطر على بال إنسان. فما دام الواحد منهم قد حظي بمكان في الترحيلة وضمن أن يعمل أكثر من ثلاثة شهور كل يوم وبأجر، فليقل عنه القائلون ما شاءوا.

والقطن يزرع في أواخر الشتاء، وما أن تولى طوبة حتى تكون بذوره قد تشققت واخترقت الأرض السمراء ونبت لكل بذرة جذر ونما لها ساق. وحين تكبر العيدان فتغطي المساحات الواسعة السوداء بطبقة خضراء جميلة ريانة، ويحل أوان الدودة ولطعها، حينئذ يدور الجدل حول الترحيلة.. يكتب فكري أفندي خطاباً للإدارة في مصر والإدارة ترد بخطاب، ثم يأتي الإذن، ويأتي المبلغ، ويستيقظ فكري أفندي ذات يوم مبكراً، ويأخذ أول قطار ويغير في طنطا، ثم تحمله عربة أومنيبوس «لا ينسى أن يقيدها في كشف الحساب عربة أجرة» إلى قرية من قرى المنوفية أو الغربية، غير مهم ففكري أفندي يعرف قرى كثيرة ومقاولين كثيرين.. قرى يسميها هو عش النمل، فالناس فيها كثيرون أكثر من اللازم، أكثر من العمل المطلوب والطعام الموجود، وكلهم ولله الحمد فقراء.. فقراء إلى الدرجة التي كان

الحرام

فكري أفندي نفسه يهز رأسه حسرة حين يراهم في بلادهم. وكيف يعيشون. المهم حالما يضع قدميه في بلدهم ينتشر خبر وصوله بطريقة سريعة غامضة خفية، فيتجمع منهم مئات ويكونون موكبه، يسيرون أمامه وخلفه وعلى جانبيه ويرمقونه في تدله وأمل وكأن لديه أجولة أعمار سيفرقها عليهم بعد حين. يحيونه ويتهافتون على لمسه ولفت نظره، والشاطر من يسلم عليه ويقبل، ويدله ألف على بيت المقاول مع أنه لا يكون في حاجة إلى دليل.. فمن أعوام وهو يهبط القرية، والطريق إلى بيت المقاول في قرية صغيرة كتلك لا يمكن أن يضل فيه إنسان كفكري أفندي حباه الله عقلاً ومعرفة وطربوشاً ونابا أزرق. هناك يجد المقاول واقفاً على عتبة البيت، إن لم تكن ضجة قدومه قد وصلت إليه وأوقفته على عتبة الشارع. وسلامات تدور من النوع الثقيل، ولا بأس من دمعة تفر من عين المقاول حسرة على الأيام الحلوة التي مضت، ويصر الرجل على أن ينادي فكري أفندي بحضرة المفتش، ويخجل فكري أفندي ويتواضع ويقول: يا سي الحج. وتطير رقاب الكثير من الحمام والبط. ويأكل المأمور ويحلي ويضطجع، ويحتسي القهوة وينفث في تلذذ دخان السيجارة التي عزم عليه بها المقاول وأقسم بالطلاق أن يدخنها، بينما الضجة خارج بيته تزداد، والنمل الكثير يخرج من حجوره إذ قد جاء الأمل في العمل. يخرجون من حجورهم ويتعانقون أمام البيت ويتصايحون:

ـ جاء الفرج يا أولاد والأشياح تبقى معدن.

ويتناقش الضيف والمضيف قليلاً أو كثيراً حول «الفيَّة» أو الجعل. المأمور يقول النفر بسبعة قروش، وقرش «فيه» يبقى بواقع ثمانية. ويصر المقاول على عشرة، ويقول المأمور:

ـ تبقى مكشوفة قدام أصحاب الأطيان.

وينتهي الأمر ربما إلى تسعة، ويخرج المأمور حافظته، ويشعر بالدفء

والفجيعة والأوراق الكبيرة الخضراء ذات المادنة تلمس يده بالكاد ليعدها ثم تختفي في كيس المقاول المصنوع من الكتان والمرسوم عليه هلال وثلاثة نجوم مكتوب تحتها ولا أحد يدري لم؟: الحكومة المصرية. وما يكاد هذا يحدث حتى يتفرق المنادون المتطوعون في البلدة:

ـ النفر بستة يا أهالي، والقبض على خمستاشر يوم، والغايب يعلم الحاضر.

مع أنه لا تكون هناك حاجة إلى منادين أو نداء، فجميع «الأهالي» موجودون متزاحمون عند بيت المقاول في الحارة وعلى الأسطح المجاورة وأمام الأبواب.

ويصبح الصباح وتأتي خمس من عربات النقل الكبيرة ذات التصاريح الخاصة بنقل الأنفار «مثلها مثل التصاريح بنقل أجولة الأرز أو المواشي» تحمل كل منها أكثر من مائة نفر من الرجال والبنات والنساء والأطفال وتحمل ايضاً صررهم وقففهم وقد ملئوها لآخرها بزوادة العيش وزلع المش والجبنة، تحملهم في كتلة ضخمة متزاحمة لا تكاد تميز فيها الرجل من المرأة ولا الولد من البلاصى. ومع انطلاق العربات تنطلق الحناجر المتلاصقة المحشورة تغني وتضحك ويصل زعيقها الفرحان إلى عنان السماء.. بينما العيون.. عيون المرضى والعجزة وكل من لا يستطيع حمل الفأس أو حتى الظهر، عيون المتخلفين الزائدين عن المطلوب، ترقب الموكب المنتصر الموكب الدالف إلى العمل والأجر ولقمة العيش، وملأ الصدر أنفاس، ترقبه في عجز باك وحسرة، وربما كلمة ذليلة يتصدق بها الجار على جاره: الصبر.

وتعلن العربات قدومها إلى التفتيش بسحابات غبار ضخمة تثيرها وتملأ بها الأفق، ومع هذا فقليلاً ما يسترعي ذلك القدوم انتباه من في التفتيش إلا

أن يقف أحدهم ويراقب العربات القادمة ويقول لمن يتصادف وجوده وهو يضحك ساخراً:

ـ الجلب جل الجشـج عنه ما جلو.

وهناك خلف الاصطبل يرص الغرابوة مقاطفهم صفوفاً وراء صفوف. وينطلقون إلى الجرن والأرض المجاورة يجمعون قش الأرز والأحجار ويصنعون منها مواقد وأفرشة.

وقبل شروق شمس اليوم التالي تطفح في الجو رائحة المش وقد فتحت أوانيه، وبين الحين والحين تسمع خشخشة بصلة تتكسر وهمهمات وصرخات بنت لم تجد زوادتها، وأصوات خيزرانة الريس. وهي تدق على قفة احدهم دقاً ملحاً متواصلاً يستعجل به إنهاء الطعام والمسير. . ولا يلبث الدق أن ينتقل من القفف إلى الأقفية والأجساد، ولكنه أيضاً لا يتعدى الدق، ثم يصرخ الريس، وحينئذ تقوم الترحيلة في كتلة ضخمة غامقة اللون، لا تلبث أن تتبعها مفردات متناثرة، ويكون موكبهم أول من يضع أقدامه فوق المشاية التي ختمها الندى، وتشرق الشمس وكل منهم قد تسلم خطاً، ولابد ظهر كل منهم محني وعيناه على اللطعة.

وقبل كل غروب يزدحم دكان جنيدي «أبو» خلف وهو الدكان الوحيد في العزبة الكبيرة، يزدحم بالأطباق الفخار والأيدي الجافة الممدودة والأصوات التي جرحتها عيدان القطن، وهي تطلب في إلحاح وبلهجتها الغرباوية المعووجة. . بتلاته ميلم زيت. . بميلم ملح. . بربع قرش عسل. . بتعريفة دفتر بافره. . ويسب جنيدي الغرابوة واليوم الذي جاءوا فيه ولكنه يبيع، ويلعن آباءهم ويبيع، وتتكوم في درجه المزيت ملاليمهم الصدئة ونكلهم، كلها ملاليم ونكل، وأكبر قطعة فئة عشرة مليمات. وفي الغروب تماماً وقبل أن تظلم الدنيا، تختلط خلف الاصطبل رائحة الزيت

المقدوح برائحة السمك الصغير المشوي برائحة الجبنة القديمة والعدس والبصل والصابون الفنيك، تختلط الروائح في مزيج نافذ غريب مكونة رائحة خاصة، من شدة دلالتها ونفاذها يسميها الفلاحون رائحة الترحيلة. تتصاعد الروائح وتتفتح البلاليص، ويوضع كل ما استطاعت اليد انتزاعه من الغيط، فجل أو سريس أو جلاوين أو خنشير، وتحشى البطون بكل هذا كما تحشى الأجولة بالقش، بينما الصمت يسود المكان. . صمت لا يسمع خلاله إلا أصوات التشدق بلقم العيش، وأصوات بعيدة لملاعق قليلة تصطدم بالأواني النحاسية وتقتلع منها ما التصق بقاعها من حبات أرز.

وتحمل الريح الضجة والرائحة الى العزبة الكبيرة وقاطنيها، فتنطلق النكات وتتصاعد القهقهات ويزداد الناس إيماناً بأنهم حقاً وصدقاً نفاية بشرية منحطة. . أولئك الناس الذين يدعونهم الترحيلة.

الحرام

٥

طمس فكري أفندي الدائرة التي كان قد رسمها بعصاه على تراب الأرض، ووضع في وسطها نقطة وأخرج منها خطوطاً إلى محيط الدائرة، بل دار بقدميه عليها حتى لم يبق منها سوى النقطة وقد خرجت منها خطوط مبتورة. . لم تكن لديه خطة واضحة، فحتى مع افتراض أنه قد حدد أن الفاعلة من الغرابوة، فماذا يمكنه أن يفعل ليعثر عليها؟ مضى يعتصر عقله ويده تدق بالخيزرانة على رجل سرواله الأصفر.وعيناه تائهتان في ملل المفكر. . إذا كانت ثمة امرأة من الغرابوة قد فعلت هذا فلابد أنها راقدة الآن عند مكان الترحيلة. لابد هذا فمن غير المعقول أن تضع الواحدة مولوداً كهذا وتقتله أو يموت منها وتذهب في الصباح التالي لتعمل وتمسك خطاً. والمسألة في يده وليس عليه إلا أن يتأكد.

تجهم وجه فكري أفندي علامة على أنه وصل إلى قرار، وتحرك ومعه الجمع الصغير إلى مكان الترحيلة. كان المكان خاوياً ليس فيه سوى القفف والمواقد وبقايا الخشب المحترق وروائح الغروب، فالأنفار كانوا قد ذهبوا قبل الشروق كالعادة إلى الغيط. أدرك فكري أفندي ومن معه هذا بنظرة واحدة عريضة ألقوها على المكان، ولكنه آثر أن يبحث بنفسه لعل وعسى. وراح يتجول مطأطيء الرأس وقد وضع يديه وإحداهما ممسكة بالخيزرانة

وراء ظهره. راح يتجول ويشمشم ويخبط القفف وأجولة الزواد بين آن وآخر من قبيل الاحتياط. ظل سائراً هكذا ووراءه الجمع حتى وصلوا في النهاية إلى «أم الترحيلة» كما كان يدعوها أطفال العزبة. والمرأة عجوز من كثرة كبرها لا تستطيع أن تحدد لها سناً، ومع هذا فهي تحرس صرر الترحيلة وحاجياتهم وترعى الأطفال حتى تعود أمهاتهم في آخر النهار. توقف المأمور أمامها وغالب ابتسامته وهو يرى العجوز وحولها عشرات الأطفال بعضهم في حضنها وبعضهم قد سبح وحبا بين الصرر، بعضهم يصيح والبعض الآخر هادىء ساكن عاقل يعبث بثوب المرأة وقدميها.. غالب الابتسامة فالمرأة كانت حائرة ملتاعة لا تعرف كيف تتصرف، ولا ماذا تقول للأطفال أو كيف تحنو عليهم، وبينها وبين خصال الأمومة ورعاية الأطفال أزمان وأحقاب.

وعبثاً حاول أن يظفر منها بجواب على كل ما وجهه إليها من اسئلة، فهي في غيبوبة السن والعجز لا تعي إلا حين يقترب بشر ما من المكان فتصرخ فيه أن يبتعد، وإلا حين تحضر الأمهات قبل الغروب وتقوم الجلبة التي تنتهي بانسلال كل أم ومعها طفلها، أو التي لا تنتهي حين تروح تتعثر في البحث مع أم عن ابنها وقد تاه بين الصرر.

ولم يكن فكري أفندي حتى في حاجة لسؤال المرأة، فلم يكن هناك أحد. ومعنى هذا شيء من اثنين: إما أن تكون الفاعلة المجرمة قد تحاملت على نفسها وذهبت مع الأنفار لتعمل حتى لا تكتشف، وإما أنها ليست من الغرابوة وقد تكون من أهل العزبة.

عند هذا الاحتمال الأخير توقف المأمور وراح مرة اخرى يحدق في الفضاء ويجوبه بعين نصف مغمضة وعين مفتوحة، وفكر قلق مخلخل. هو على يقين قاطع أن الفاعلة منهم كيقينه بيوم القيامة والنفس اللوامة، ولكن

هناك احتمالاً واهياً بسيطاً أن تكون الفاعلة من العزبة، خاصة ومكان الغرابوة نظيف. . احتمال تافه قد لا يتعدى واحداً في الألف، ولكنه احتمال والسلام عليه أن يناقشه. لقد استعرض العزبة من هنيهة وكانت النتيجة براءة نسائها جميعاً، ولكن من الجائز أنه سها أو نسى، أو فاتته واحدة تكون هي الجانية من الجائز جداً.

لم يفطن المأمور وهو يفكر إلى اقتراب صالح خولى الزراعة منه. . لم يفطن إلا حين أصبحت طاقية صالح الصوف التي يتعمم عليها تحت أنفه تماماً، والا حين رفع صالح ذيل بصره في نظرة ماكرة مقترحة وقال في همس مبتسم:

ـ ما تكونش نبوية هي اللي عملتها ليه؟

خرجت كلماته هامسة،ولكن همساته سمعها كل المرافقين. وعلت الأصوات تحتج وتؤكد انهم الغرابوة وتكاد تحلف على المصحف والربعة وتندد بالاتهام والباعث عليه، وتشرح في كلمة من هنا واخرى من هناك قصة نبوية التي كانت زوجة لعربجي من عربجية التفتيش ومات، وترك لها العربة والحصان وبنتاً وولداً. فباعت العربة والحصان وتاجرت بثمنهما في «القوطة» وأفلست، وعملت مقاولة أنفار وخبازة، وخدامة في بيت المأمور السابق، واشتغلت. اخيراً تاجرة بيض، وربت البنت والولد، بل حتى أرسلت الولد ليتعلم في الكتاب، ولم تفرط في اي منهما. ولكن مسألة تفريطها في نفسها كانت موضع أخذ ورد ومساجلات وتكهنات. ارتفعت الأصوات تندد وتحتج وتراقب أثر الكلام على وجه المأمور، ويبدو أن الواقفين حين لم تبد على ملامحه دلائل الاقتناع بدءوا يتراجعون، وبدأ واحد يقول:

ـ لا يعلم الغيب سوى الله يا جماعة.

ورد عليه آخر:

ـ الشيطان شاطر.

غير ان نبوية التي تتميز عن نساء العزبة بأرداف وارفة وخلخال فضة سميك يكاد يطبق على نهاية ساقيها المكتنزتين، نبوية هذه لم تلبث أن أخرست كل الألسن حين شاهدها المأمور ومن حوله وقد علقت «السبت» في يدها وراحت تطرق الأبواب وهي في أتم صحة وتسأل عن البيض. استدارت الأنظار حينئذ شامتة الى صالح تكاد من حدتها أن تخرق طاقيته الصوف وعمامته البيضاء وجلبابه الأسود الثقيل الذي لا يغيره أبداً. وتشاغل صالح عن الأنظار المصوبة إليه بأن مد يده في جيبه وأخرج صندوق سجائره وانتحى مكاناً بعيداً ـ من قبيل التأدب ـ ومضى يلف سيجارة. .

أما المأمور فقد غامت ملامحه لدى رؤية نبوية وأسرع بمغادرة المكان وقد بدأ صدره يضيق، وزعق بصوت مرتفع:

ـ الركوبة يا عبد المطلب.

لم يعد ثمة أمل إلا أن يجد الفاعلة بين أنفار الترحيلة الذين يعملون في الغيط.

وجاءت الركوبة بعد قليل. . حمار ناعم ممتليء لا يظهر منه عرقوب، ولا تبدو في بياضه الناصح سوادة واحدة، يرن لجامه إذا ما خطا، وخطوه خطو حصاوي أصيل.

استند المأمور إلى كتف عبد المطلب، وبدفعة قوية من جسده كاد ينخ لها الخفير ارتقى السرج المكسو الأنيق.

وما كاد الحمار يحس باستواء راكبه فوقه حتى نهق نهيقاً طويلا فيه كبرياء، ثم اندفع إلى الأمام وانطلق وراءه كل الخولة وبعض التملية وعبد المطلب الخفير والاسطى محمد العجوز.

الحر

٦

كانت الشمس إذ ذاك قد غادرت قمم أشجار الكافور العالية المزروعة كالسور المهيب حول أرض التفتيش، وبدأت تحث الخطا إلى قلب السماء. وكان الطريق الذي سلكه المأمور قفراً ليس على جانبيه شجرة، ولا حتى تنبت فوقه حشيشة، بل مجرد خط ثخين من التراب على يمينه مئات الأفدنة وعلى يساره مئات. وكان الغيط أيضاً ساكناً ذلك السكون الأبدي الذي يذكرك دائماً بوجوده فيئز ذلك الأزيز المتواصل العنيد. ولم يكن يخدش ذلك السكون سوى دقات أرجل الركوبة الأربع. وهي تدق الأرض واحدة وراء الاخرى، فتكاد تغوص في التراب تثير سحاب الغبار، والغبار ينهال على وجوه اللاهثين خلف المأمور وركوبته، غبار كالذباب لاسع وعنيد وشمس لا ترحم بدأت تشوي رءوسهم وظهورهم، حتى ذيول أثوابهم لم تفلح في منع نارها. أما فكري أفندي فقد وضع منديله أسفل الطربوش محاولاً أن يجعل منه قبعة، وكال للركوبة ضربتين بكعب حذائه وأعقبهما بنخرة من طرف خيزرانته المدببة التي وضع في آخرها مسمار صغير معد لهذا الغرض بالذات، نخزة جاءت بين الأكتاف، ولم تكن الركوبة في حاجة إلى ضرب أو نخز فقد كانت منطلقة بكل ما تملك من قوة.

ظل الركب الصغير ينهب أرض المشاية، وهو ومأموره وتابعوه وحتى

سحب الغبار التي يثيرها لا يتعدى مجرد نقطة صغيرة متحركة في ذلك المسطح الشمسي الواسع الذي لا تدرك العين مداه. ظل الركب ماضياً في صمت. . الركوبة تلهث والرجال يلهثون والعرق يسيل، حتى عرق فكري أفندي الوحيد الجالس كان هو الآخر يسيل. ظل الركب ماضياً هكذا مدة أدرك بعدها الأسطى محمد العجوز ـ وكأنما فجأة ـ أن لا ناقة له ولا جمل في الأمر، فكف عن الجري ونفض يده من حكاية اللقيط وجلس على حافة الطريق يكمل لهثه ويستريح. جلس على الحشيش القصير النابت على شاطىء الخليج، وكأنه شجيرة عجوز نبتت بينه فجأة، بل ما لبث أن فعل مثل شجيرات الحشيش الجالس عليه، فكما مدت هي جذورها إلى الماء الجاري في الخليج، مدّ هو الآخر قدميه وساقيه يبللها بالماء، وكأنما يسقي بهذا روحه التي كاد يقضي عليها لظى الشمس.

أما بقية القافلة فقد مضت في طريقها وكأنما لم تحس بتخلف العجوز وكل منهم مشغول بعرقه وشقاه وحاله.

وما من مرة امتطى فيها فكري أفندي الركوبة وسرح الغيط ـ وهو كل يوم يمتطي الركوبة ويسرح الغيط ـ إلا وأحس بمتعة، فالحمار لا يمشي ولكنه يرقص، وكل حركة منه فيها رشاقة الأصيل وكبرياؤه، ولكنه هذه المرة كان في شغل شاغل عن متعة الركوب، وحتى عن العرق والحر والرجال الذين يلهثون خلفه بتلك المشكلة التي ولدت له ذلك الصباح. كان عليه لأول مرة أن يفكر في شيء بعيد كل البعد عن مهنته كمأمور زراعة تلك التي كان لا يفكر في غيرها، كان عليه أن يفكر في شيء بعيد كل البعد عن التقاوي والسماد والأرض العطشى والأرض التي حان وقت تسميدها ووجب. أما هذا الشيء الذي كان عليه أن يفكر فيه فهو الترحيلة، لا كما اعتاد أن يفكر فيهم فالواقع أنه ما تعود أن يفكر فيهم إلا كأنفار. . أنفار يلتقطون الدودة

ويجمعون القطن ويطهرون المصارف. الشايب فيهم نفر والصغير نفر كلهم أرجل شققها الجوع والحفاء وخشنتها الأرض الصلبة، وأيد معروقة حرقتها الشمس، ووجوه متجهمة لا تعرف حزنها من فرحها ولا رجلها من امرأتها، حتى الملابس لا فرق بين ملابس الكبير أو الصغير، ولا بين جلباب الرجل وقد حال لونه وتناثرت فيه الخروق وثوب المرأة الأسود الباهت الذي تنسل الخيوط من كل مكان فيه؛ بل كثيراً ما يحدث أن يستعير الرجل منهم جلباب امرأته، وتستعير المرأة جلباب زوجها دون أن يلاحظ أحد أي فارق أو مميز.

تعود فكري أفندي أن يراهم هكذا، بل الواقع أنه بينه وبين نفسه لم يكن ليتصور أن بين هذا القطيع البشري كله امرأة واحدة! كلهم ترحيلة وغرابوة وأنفار. بل أكثر من هذا لقد افترض أن الفاعلة منهم، قال هذا للناس وذهب بنفسه وبحث خلف الاصطبل، ولكنه كان يفعل هذا وكأنه يفعله من وراء عقله. كان متأكداً أن الفاعلة منهم ومع هذا لم يكن ليصدق أن من الممكن أن توجد بين هذه المجموعة امرأة أو بنت تحمل وتلد حلالاً كان أو لقيطاً، لم يكن ليصدق وكأن التي ولدت اللقيطلم تكن امرأة بل كانت رجلاً.

هو مضطر إذن والشمس تلهب رأسه رغم المنديل والطربوش أن يصدق هذا، وأن يبدأ ينظر إلى الترحيلة من زاوية أخرى. فهم «صحيح» أنفار وغرابوة ولكن بينهم أيضاً نساء يحملن ويلدن. . بل أكثر من هذا يحملن ويلدن في الحرام.

الحقيقة لم يسترح عقل فكري أفندي أبداً لهذا التصور، فقد كان من العسير عليه أن يغير نظرته إلى الترحيلة في لحظة، وكان من

الصعب أن يستحيل النفر منهم في خاطره إلى امرأة أو بنت تنام مع الرجل وتحمل وتنجب أطفالاً. ولكن فكري أفندي كان من الصنف الذي لم يتعود قلقلة الحقائق في رأسه كثيراً قبل أن يصدقها فليكن هذا، فلتكن الفاعلة منهم، فعليه أن يعثر عليها ويراها رأي العين ويرى كيف استطاعت أن تفعل هذا. بل لم ينتظر فكري أفندي أن يصل إلى الأنفار.. بدأ خياله يسرح ويسبقه، بل ويسبق حادثة اليوم، ويتصور ـ وثمة لذة خفية تصاحب تصوره ـ القصة التي انتهت بمشهد ذلك الصباح: راح يتحسس بخياله على القصة في غير قليل من الخجل، وهو مستعد أن يكف عن تصوره في أية لحظة. راح يسبح مع قصة الحب التي لا ريب أنها نشأت بين البنت وأحد فتيان الترحيلة المفتولي العضلات المكشوفي الصدر الملوحي الوجوه وكيف تسرب إليها ذات ليلة وكان ما كان.

وتعثر الحمار وكاد يقع، ولكنه تمالك نفسه في قوة. وفي نفس الوقت تعثر خيال فكري أفندي السارح في شيء خطر له حالاً، فقد أحس باستنكار غاضب يجتاحه، معنى هذا أن الخطيئة ارتكبت فوق أرض التفتيش، وصحيح أنه ليس مالك التفتيش وليس أبداً حامي حمى الفضيلة فيه، ولكن مجرد شعوره بهذا جعله يغضب وينهال على الحمار بالعصا الخيزران ضرباً جزاء له على تعثره. ولكنه وهو في قمة انفعاله لم يفته أن يلاحظ أن اللقيط الذي عثروا عليه اليوم كامل النمو، والترحيلة لها في التفتيش ما لا يزيد على الشهرين. هنا فقط كف فكري أفندي عن ضرب الحمار ونخزه وأحس براحة داخلية تهب

عليه من صدره. الجريمة إذن لم تحدث على أرض التفتيش، فالبنت قد جاءت وهي ليست بخير، ثم لما تكامل الشر في بطنها وضعته هكذا بلا ضوضاء في سكون الليل ودون أن يشعر بها أحد، ثم خنقته حتى دون أن يكون هناك داع لخنقه.

يا لها من عاهرة!

ثم لم تكتف بهذا وإنما تحاملت على نفسها وسرحت مع الأنفار على خيوط الفجر حتى لا يتسرب إنسان إلى سرها.

يا لها من جبارة!

ولكز فكري أفندي الحمار لكزة قوية وهو يمر بيده ليمسح العرق الذي تكاثر حول فمه وتساقط من طرف أنفه، ويقول في زئير خافت:

ـ أعوذ بالله!

٧

ارتفع نهيق الركوبة ولم يكن نهيقها كأي نهيق. كان كل من بالتفتيش يعرفه وتستطيع أذنه أن تميزه من بين أصوات آلاف الحمير فكلهم يخاف ذلك النهيق ويعمل له ألف حساب.

وهذه المرة ايضاً تضايق فكري أفندي واغتاظ، فذلك النهيق كان عيب الركوبة الوحيد في نظره وكأن بينه وبين المقاولين والأنفار والخولة اتفاقاً. ما يكاد يخرجُ للمرور ليفاجئهم وهم عنه في غفلة حتى تفاجئه الركوبة وتنهق ذلك النهيق العالي الذي يصل إلى آخر الدنيا ويوقظ النومى في مضاجعهم، ويجعل كل شيء في الغيط على أتم ما يرام وعلى استعداد مجهز لاستقباله.

حين ارتفع النهيق كان الركب قد بدأ يدخل في الأرض المزروعة قطناً وقد غادر لتوه غيط القمح. كان الغيط لا آخر له بحيث يبهرك أن تعرف أن شخصاً واحداً فقط هو الذي يملكه، وبحيث تود في الحال لو كنت أنت ذلك الشخص. وشكل الغيط المزروع يذكرك حتماً بالجنة، فوأنت سائر على المشاية ترى القناة التي بجوارها صحيحاً، وترى عيدان القطن بكامل هيئتها ولوزها وأوراقها، ولكن شجيرات القطن لا تلبث كلما بعدت أن تتداخل وتتداخل وإذا بالتربيعة تبدو أمامك مجرد مستطيل أخضر. والأرض مقسمة إلى ترابيع، والترابيع

القرية محدودة المعالم وبين كل تربيعة واخرى مصرف صغير، ولكن الترابيع كلما بعدت تختفي المصارف والفواصل حتى لا يعود الإنسان يرى سوى مسطح واسع غير محدود من الظلام الأخضر الذي يضيئه عدد لا نهاية له من فوانيس أزهار القطن الصفراء.

ومن بعيد لاح خط الأنفار لا تكاد تميزه عن الخضرة المتكاثفة التي يغمق لونها كلما بعدت حتى يستحيل إلى ظلام تام.. لا تكاد تميزه إلا بأعمدة الدخان المتصاعدة من الحفر التي يحرقون فيها أوراق القطن المصابة باللطع.

وأرهق الحمار نفسه كثيراً وهو يضم رئتيه لينهق بآخر ما يستطيع ومع أن فكري أفندي لا يقرأ كثيراً لأن القراءة تتعب عينيه، وعيناه لا تستطيعان تمييز الحروف جيداً مهما قربهما من الأوراق، إلا أنه في الغيط ثاقب النظر كالصقر. وهكذا ورغم نهيق حماره استطاع أن يلحظ أن الخولة يقومون فجأة من جلستهم في الظل وراء الأنفار وترتفع خيزراناتهم في الهواء وتهوي على ظهور الأنفار أو عيدان القطن ضرباً وطرقعة، وأصواتهم تأتي صارخة من بعيد:

ـ وطي يا وله.. وطي يا بنت.

تلك تمثيلية يعرفها فكري أفندي تماماً وملّ من تكرارها، وما كاد موكبه يهل على «العمل» حتى اندفع أكثر من سائق من سائقي الأنفار يجري «وتلك في رأي فكري أفندي تمثيلية قديمة اخرى» يجري ليفوز بشرف إمساك الركوبة لحضرة المأمور وهو يهبط عنها.

قال فكري أفندي وهو يسحب منديله من تحت الطربوش ويجفف به عرقه وظهره:

ـ واد يا عرفه.

وعرفة ريس سواقي الأنفار، أي ريس الترحيلة، وهو الذي فاز بإمساك لجام الحمار هذه المرة، وهو الذي يفوز كل مرة، قال:

ـ العواف يا حضرة المأمور.

واحتار المأمور أيرد التحية فيبدو وكأن «البلفة» قد دخلت عليه أم يتجاهلها فيبدو قليل الذوق. وأيضاً لم يفعل هذه أو تلك فهو قد جاء لمهمة عليه إنجازها.. ولكي تبدو المسألة طبيعية كان عليه أن يسأل عرفة كما يسأله كل مرة.

ـ النضافة ازيّها؟

ـ ع السنجة عشرة يا سعادة البيه.

وتجاهل فكري أفندي سروره باللقب وزغر له قائلا:

ـ وإن لقيت لطعة؟

فأمال عرفة رأسه ووضع كفه على عنقه وقال:

ـ برقيتي

وقال فكري أفندي بصوت لا يعرف سامعه إن كان جاداً أم هازلاً:

ـ يلعن أبوك على أبو رقبتك.

ولأمر ما كان يخيل لفكري أفندي أن هؤلاء الناس يفرحون حقيقة حين يلعن آباءهم ويشتمهم، بل لابد أنهم يحسون بنوع من الهيبة والفخر وكأنه يمنحهم رتباً وألقاباً، إذ هي في عرفهم لابد آيات ود

وصداقة وتنازل ـ تنازل منه ـ هو مالك هذا الملك كله والآمر الناهي فيه. تلك «الأبعادية» أو «التفتيش» أو كما تسمى أحياناً «الدايرة»، أكثر **من ألفي فدان من أجود الأطيان بما عليها من ناس وبيوت وماكينات وبهائم ومحاصيل تحت تصرفه.. هو السيد الأعلى لهذا كله سيد العشرة** الخولة والباشكاتب والخمسة الكتبة والأسطوات والخفراء والأجراء والفلاحين والمزارعين. هو الذي يمكنه أن يعز من يشاء ويرفت من يشاء ويحكم بالغرامة على من يشاء. في استطاعته أن ينقل الفلاح من عزبة لعزبة، ويعطيه أو لا يعطيه أرضاً يزرعها، بل يستطيع لو شاء أن يطرده نهائياً من التفتيش دون أن يراجعه أحد أو يجرؤ أحد على معارضته، في استطاعته حتى أن يضرب من يشاء بالقلم أو باللكمية أو بالشلوت، بل أحياناً يحبس ويرسل المتهم مخفراً إلى المركز، ولا راد لقضائه. وما يرده الخوف.. وهو لا يخاف إلا من اثنين: رئيسه المفتش، وصاحب الأبعادية. والمفتش يأتي للمرور كل شهر والمالك يأتي كل شهرين أو ثلاثة، وباستثناء تلك الساعات القليلة التي يقضيانها في التفتيش فهو دائماً مالك هذا الملك كله. ألا تبدو شتيمته حينئذ لنفر من الأنفار أو سائق من السائقين منحة وتنازلاً؟

الواقع أن مجرد مرور كل تلك الخواطر في رأس فكري أفندي كاد يثنيه عن عزمه، إذ أيصح من رجل هذا شأنه الكبير أن يضيع وقته ويشغل نفسه بمهمة غريبة سخيفة ليست من قيمته كتلك المهمة التي جاء بشأنها؟ ولكنه جاء فعلا، ولن يخسر شيئاً فإن أحداً من الأنفار أو السائقين لا يعلم بالسبب الحقيقي لمجيئه. تردد برهة ولكنه وجد نفسه يقول:

ـ الأنفار كلهم موجودين يا عرفة؟

قال عرفة في حماس:

ـ بالنفر.

ـ انت متأكد؟

عليَّ الحرام بالتلاتة من بيتي كلهم موجودين.

ومع هذا لم يصدق فكري أفندي، فهؤلاء الناس من رأيه يتمتعون بحظ وافر من قلة الدين والواحد منهم مستعد أن يقسم بالطلاق من اجل أن يكسب تعريفة، وعلى هذا قال:

ـ طب عدُّهم.

وقال عرفه:

ـ حاضر. . أنا خدام.

ومضى يعدُّهم بصوت عال مرتفع، وفي أثناء العد لا يفوته أن يرى همته وحرصه على مصلحة العمل فينهال على أي ظهر محني أمامه بخيزرانته الرفيعة في ضربة تمثيلية.

عدَّ الريس عرفه الأنفار مرتين، وفي كل مرة يؤكد للناظر بلهجة بدأ الشك والخوف يتسربان إليها أن العدد مضبوط وأن الأنفار كلهم يمسكون خطوطاً ويعملون.

واستغرب فكري أفندي واندهش. كلام الريس صحيح، ولكنه متأكد أن واحدة من هؤلاء الأنفار هي التي ولدت ذلك اللقيط فكيف يتفق هذا مع وجودهم جميعاً في ذلك الطابور المنحني الطويل. لابد

الحرام

إذن أن الفاجرة غصبت على نفسها واشتغلت، ولكنها لن تفلت منه فمهما بالغت في حرصها فستبدو آثار الولادة حتماً عليها. كل ما عليه هو أن يمر عليهم أجمعين ويحاول أن يلتقط الدودة من بينهم . . المجرمة التي ولدت في الليل وقضت على ابنها وجاءت هنا تحني ظهرها وتعمل وتتلقى الضربات، وكأنها ليست بشراً وكأنها جنيّة من الجنيات أو شيخة من المشايخ.

دخل فكري أفندي في التربيعة أمام صف الأنفار ومضى يقاوم الشمس بعينيه ويتوقف قليلا لدى كل امرأة أو بنت يتأملها. العجوز يتركها والنصف يتوقف لديها، والبنت يطيل في ركنته عندها. ولأول مرة يدقق فكري أفندي في زي الغرابوة وملابسهم، ويعرف أن سراويل نسائهم طويلة جداً تصل إلى الكعبين وتنتهي بذيل مكشكش ودائماً ألوانها فاقعة.

تعدى فكري أفندي منتصف خط الأنفار دون أن تستوقفه واحدة وكاد الخط ينتهي وهو لا يعثر على ضالته المنشودة. وفجأة لمح شيئاً يبعث على الأمل. . ظهراً أنثوياً منحنياً هو الوحيد البادي عليه أنه ظهر أنثى، رفيع من الوسط ينتهي بردفين عريضين بارزين، ورأس هو الوحيد البادي عليه أنه رأس أنثى، تتعصب بقمطة ملونة تظهر شعراً اسود لامعاً غزيراً كشعور النساء.

وقال لنفسه: لابد أنها هي . . وطي يا بنت.

قال الجملة الأخيرة وهو ينهال على الظهر المحنى فعلا ـ ولا حاجة به إلى انحناء آخر ـ بضربة من خيزرانته، ضربة قاسية قاصمة

تـأوهت لها المنحنيـة ولم تتمالـك نفسها فاعتدلت لتضـع يـدهـا على ظهرها المضروب وقد أفلتت منها شهقة مستغيثـة. وحدق المـأمور في وجهها المتقبض في ألم..

كان وجهها معافى سليماً لا مـرض أو ولادة فيه، وعـلامات الألم المرتسمة على ملامحها علامات ألم حـديث سببته ضـربة العصـا ولا يمكن أن تكـون علامـات ألم بايت سببتـه ولادة. وانتقل المـأمور إلى ظهر آخر، ومن ظهـر إلى ظهر مضى يتفقـد ويحملق ويتأكـد. وانتهى خط الأنفـار وغيظ فكـري افنـدي قـد بلغ مـداه فهـو قـد خـرج من استعراضه صفر اليدين وخابت فراسته.

وفجأة وجد فكري أفندي نفسه يهدر في الريس عرفة:

ـ طلع العمل من الأرض.. وخليهم كلهـم بمـروا واحـد واحـد قدامي.

وتجمد عرفة في بله مؤقت، ولم ينطلق إلا على أثر شخطة اخرى من المأمور.

وبدا وكأن الأنفـار قد فـرحوا كثيراً بقرار خـروجهم، إذ هم على الأقل سيستريحون ولو لحظات قليلة من انحناءة ظهـورهم العارمـة في قسـوتها وحـدتها. الانحنـاءة التي تستمر أكثـر من عشـر سـاعـات في اليوم.. فرحة كبرى أن يستريح منها الإنسان دقيقة.

اعتدل الأنفار ومدوا أيديهم جميعاً وبلا استثناء تضغط على أماكن الألم في سلاسلهم الفقريـة. وحين أفاقـوا من غيبوبـة النشوة القصيـرة

الحرام

التي اعترتهم وعرفوا بقرار المأمور ابتهجت له النساء والبنات كثيراً وراحت كل واحدة تمني نفسها بألف ليلة وليلة من الأحلام، معتقدة أن اختيار المأمور حتماً سيقع عليها، وستقضي احلى الساعات وهي تخطر بخفة كخادمة في بيته حاملة الأطباق او مناولة القلة، حيث الظل الوارف، والجلوس، والطعام الكثير، وحيث لا عصا ولا خيزرانات أو سواقون، أما الرجال فإنهم مضوا غير مبالين كالمحكوم عليهم بسجن طويل..

ومر الأنفار أمام المأمور، وراح فكري أفندي يحملق في الوجوه... الكبيرة والصغيرة.. العجوزة والصبية.. القبيحة والمليحة.. الغبية والمريضة، ويتفرس في الأجساد.. الممشوقة والمنحنية، الأجساد التي تعرج والتي تقفز.. الجافة والنضرة، الأجساد التي تودع الحياة والتي تستقبلها. ولم يجد أبداً في جسد من الأجساد ولا في وجه من الوجوه واحدة من المحتمل أن تكون هي الآثمة الفاعلة.

وهدر فكري افندي يأمر عرفة بإرجاع الأنفار إلى الأرض ويلعن آباءهم وأباه، بجد وحقد هذه المرة.

وبينما كان يضع قدميه في الركاب ويستعد للقفزة التي تصعده فوق ظهر الركوبة كان يعتصر عقله بين مستحيلين:

فمستحيل أن تكون أم اللقيط من غير الترحيلة.

ومستحيل أن تكون هذه الأم بين الأنفار الذين تفحصهم لتوه.

٨

وفي طريق عودته إلى العزبة من نفس المشاية التي جاء عليها كان الاسطى محمد لا يزال وقد استحلى القعدة يمد رجليه في الماء ويلعب فيه كالأطفال بقدميه. وحين رأى الموكب هالاً من بعيد هب واقفاً من جلسته كالملسوع وأسرع ينضم إليه.. ولم يكن في حاجة لسؤال ليدرك أن الفشل كان حليف المأمور، كل ما في الأمر أنه ظل ساكتاً برهة يلهث مع اللاهثين ويتحاشى سحب الغبار ثم قال بتهتهته العجوزة المتحمسة.

ـ اعمل بقى زي ما عمل سيدنا عمر يا حضرة المأمور.

والإنسان في لحظات يأسه يتعلق بالقشاية، وجذب فكري أفندي لجام الركوبة قليلاً ليبطيء من ركضها، وحين حاذاه الاسطى محمد سأله:

ـ سيدنا عمر عمل إيه يا بوعقل فارغ؟

وقصة طويلة هي التي حكاها الاسطى العجوز، قصة استغرقت كل الطريق الى العزبة الكبيرة. بدأت بأن سيدنا عمر رضي الله عنه

كان يتجول في انحاء المدينة متخفياً ليتفقـد شئون الـرعية، وفي أثنـاء تجواله عثر على جثة شـاب في ريعان الشبـاب مقتولاً بـطعنة خنجـر. وحاول سيدنـا عمر أن يعثـر على قاتله بلا جدوى، وأخيراً وحين يئس قال له شيخ حكيم: إذا أردت العثور على القـاتل فـانتظر تسعـة أشهر وسوف تجده بين يديك. ولم يأخذ سيدنا عمر كلام الشيخ علـى محمل جاد، ولكن بعد تسعة أشهر بالضبط سرت شائعة في المدينة تقـول إن بنت فلان قد وضعت طفلا دون أن تتزوج أو يقربها إنس. وحينئذ قال الشيخ العجوز لسيدنا عمر: هاك القاتلة.. التي ولدت حتما هي التي قتلت. قـال سيدنـا عمر: كيف؟ قـال الشيخ: لابـد أن الشاب اعتـدى عليها فقتلته.

ومع أن الحكاية أعجبت فكري أفندي وكادت تخفف من غلوائـه إلا أنهـا لم يكن لها دخـل فيمـا هـو فيـه. مجـرد حكـايـة اخـرى من حكـايات الاسـطى محمـد الكثيـر الحكـاوى الـذي يؤلف لكـل شيء حكاية، وكأن» مشاكل الدنيا تحلها الحواديت.

كل الذي حدث أنه كان قد يئس تماماً من إشباع حب استطلاعـه والعثور على أم اللقيط، وصمم أن يلقي الأمر من وراء اهتمـامه ويبلغ المركز والمركز يتصرف كما يحلو له. وزيادة في الاحتيـاط أملى على مسيحة أفندي الباشكاتب صيغـة البلاغ وراعى في اختيـار كلماتـه كل الدقة حتى يخلي طرفه وطرف التفتيش من أية مسئولية.

وجاء البوليس.

وجاءت النيابة.

وجاء مفتش الصحة.

وأخليت لهم مباني الإدارة، واحتل وكيل النيابة حجرة المأمور وتناثر عساكر البوليس يشربون الجوزة ويحتسون الشاي حول المبنى ووقف مخبر مكشوف يتلكأ عند دكان جنيدي، أما سكان العزبة فقد وقفوا من بعيد يرقبون ما يحدث، ويلقون الإشاعات ويتهامسون.

أما فكري أفندي المأمور فقد كان مشغولاً حقاً، ذلك أنه رأى أن ينتهز الفرصة ويعد لرجال الأمر والنهي في المركز وليمة حافلة فمصالحه عندهم كثيرة وما أقل ما يأتون إلى التفتيش، وعلى هذا قطع المسافة بين بيته عند رأس العزبة الكبيرة وبين مباني الإدارة عشرات المرات يشرف بنفسه على الديك الرومي ويتذوق الخبز الذي أعد في بيته خصيصاً للعزومة، وكان أهالي العزبة حين يرمقونه في انبهار وهو داخل أو خارج من مبنى الإدارة يشعر هو بسعادة لا حد لها إذ هو الوحيد بينهم جميعاً الذي له حق الكلام مع المأمور والبيه الوكيل والسلام على مفتش الصحة.

وابتدأ التحقيق..

وجيىء بكل امرأة وبنت من نساء الترحيلة بعد لكزها مرات لكي تخاف وتعترف، وجيىء كذلك بنبوية وهي متعلقة بسبت البيض لا تريد تركه وفيه كما تقول رسمالها، وسئل عبد المطلب الخفير والاسطى محمد.

وانتهى التحقيق وثبت ان اللقيط مخنوق، وقيدت الجريمة ضد

مجهول، وصرحت النيابة بدفن الجثة الصغيرة في جبانة التفتيش وتطوع عبد المطلب بتكفينه وتجهيزه ودفنه.

وأكل رجال الأمر والنهي الغداء وقالوا سلاما.

وانتهى اليوم.

٩

انتهى اليوم ليسلم التفتيش ـ إدارة وفلاحين ومـوظفين ـ إلى حيرة عظمى، فهم ما إن عرفوا حكاية اللقيط حتى أراحـوا أنفسهم وقالـوا: الترحيلة. ولكن ها هي ذي الحقـائق تثبت لهم أن الترحيلة بـريئة وأن الفاعلة ليست منهم. حتى فكري افندي المأمور الذي كان مصراً على أن الفـاعلة واحدة من التـرحيلة بدأ الشـك يتسرب إلى إصـراره، ومع هـذا فكلما رأى أنفـارهم سارحين إلى الغيط أو مـروحين، رغماً عنـه تـروح عينـه تبحث بـلا وعي عن النسـاء في الأنفــار عله يلمـح على إحداهن فجأة علامات الفُجر والحرام. وكان أول الأمر يمتعض ويجفـل ولكنه بمضي الأيام أصبحت نوازع غريبة تتحرك فيه كلما رأى بنتاً أو امرأة من بنات الترحيلة. بل وجد نفسه ذات مرة يمزح مع واحدة منهن، ومرة ادعى لنفسه وللناس أنه يزغد بنتاً في صدرها ليزجرها، وارتطمت يده طبعاً بثديها، وروع قليلاً حين وجده بكراً مكتنزاً جامداً كالكرة الشراب.

أما البنت فقد دهش حين رأى وجههـا يبهت فجأة وكـأنما سحبت منه كل دمائه، ثم يغمق لونه في التـو وتحمر وجنتـاها وتجفـل وكأنهـا خجلت وغضبت. يـا ألطاف الله! أممكن أن نسـاء الترحيلة تخجـل



وتغضب هي الاخرى كبقية خلق الله؟

أما بقية الناس في التفتيش فالمسألة لم تمر هكذا بسهولة وكأنك ألقيت بحجر ضخم في ماء راكد آسن. بدأت الاتهامات والشكوك تنهال من كل صوب، حتى لم تسلم واحدة من نساء العزبة الكبيرة من الشك في أمرها مع علمهم التام أنهن جميعاً بريئات ولكن لابد لكل خطيئة من خاطئة، ولكل جريمة من فاعل، ولابد أن يكون لتلك الجريمة فاعلة، والجريمة عرفوها، ترى من تكون الفاعلة؟

بل أكثر من هذا بدأ الشك يزحف من بيوت الفلاحين المنخفضة إلى بيوت الموظفين العالية. فبدأ الفأر يلعب في عب مسيحة أفندي الباشكاتب، وبدأ يخاف أن يكون المحظور قد وقع. والحقيقة أنه كان خائفاً دائماً ان يقع المحظور، بل أكثر من هذا هو دائم الخوف من المحظور وغير المحظور.

مسيحة أفندي أرسخ الموظفين جميعاً أقداماً في التفتيش، إذ هو قد تربى فيه من أيام البرنسيسة، وتدرج من نفر بالأجرة يرسله أبوه ليتعلم مبادىء الحساب والقراءة والكتابة عند المعلم قيصر الباشكاتب القديم كاهن الحسابات الأكبر الذي يعرف أسرارها وعلمها. . يرسله أبوه حيث يجلس تحت قدمي المعلم قيصر في وجل وتقدير، منتظراً كالكلب الأمين أن يلقي إليه معلمه بين الحين والحين بحسبة من الحسب فيتلقفها مسيحة الفتى واجف القلب خائفاً خوف الموت أن

يخطيء في حلها فيغضب منه الباشكاتب ويضن عليه بأسرار الحرفة. ومن أجل هذا فهو الأطوع له من بنانه، يخدم في منزله ويذهب إلى البندر البعيد ويشتري حاجياته ويحافظ على زجاجة الزبيب أكثر من محافظته على عينه، وإذا ما همهم المعلم قيصر لينطق تفتحت أذناه كلاهما لكلامه، وإذا ما تكلم لا يصغي اليه وإنما الأدق أنه يمد أصابع نهمة من أذنيه ليلتقط كل كلمة تخرج من فمه ويدسها في رأسه بسرعة مخافة أن تضيع أو تتبدد؛ إذ من حساباته وكلماته سينتقل مسيحة من طبقة الى طبقة، ومن فتى مآله الزراعة والعمل بالفأس حتماً إلى أفندي يجلس على مكتب ويعمل بذلك الشيء الصغير الساحر: القلم.

كل كلمة يقولها المعلم قيصر كانت تثبت في عقله ويتشبع بها كالصبغة الأصلية التي لا تبهت. كل كلمة حتى النوادر التي يحكيها.. وأهم نادرة تلك التي حكاها له المرحوم ذات مساء فأصبحت بوصلة حياته.

قال المعلم قيصر: الاتنين في اتنين بكام يا بني يا مسيحة؟

فأجاب مسيحة كالتلميذ الشاطر: بأربعة يا معلمي.

ولدهشته أجابه المعلم: آه.. عمرك ما ح تبقى باشكاتب يا مسيحة.

فحزن مسيحة جداً، وسأل معلمه عن سبب هذا وهو مغموم فقال له المعلم تلك الحكاية: أراد أحد أصحاب الأرض أن يعين كاتباً عنده فأعلن هذا للناس، وصار يأتيه طلاب الوظيفة من مشارق الدنيا ومغاربها ويقابلهم واحداً واحداً. وكان لا يسألهم ابداً عن

الحرص

مؤهلاتهم أو أسمائهم أو الأماكن التي عملوا فيها، كان فقط يسأل الواحد منهم ذلك السؤال الذي سأله إياه: الاتنين في اتنين بكام؟

وكلما سأل أحدهم ذلك السؤال وقال له على الفور: أربعة. كان يقول له: اتفضل من غير مطرود. ظل هذا يحدث إلى أن دخل عليه رجل كبير في السن يحمل تحت إبطة دفتراً وفي يده جراب فيه دواية حبر وريشة كما كانت العادة في الكتبة أيام زمان. وحين أصبح الرجل أمام صاحب الأرض سأله السؤال المعتاد: الاتنين في اتنين بكام؟

فقال له الرجل: الاتنين في اتنين؟

قال: نعم.

قال له: استنى يا سيدي عليّ. أيوه أقول لحضرتك.

وجلس، وفتح الدفتر الذي معه وأخرج الدواية والريشة وكتب على الورقة أمامه: اتنين في اتنين يساوي أربعة.

ثم قال لصاحب الأرض: أيوه يا سيدي. الاتنين في اتنين بأربعة ما عدا السهو والخطأ.

حينئذ قال صاحب الأرض: بس. انت اللي تاخد الوظيفة. مبروكة عليك..

الحرص والحذر وعدم ترك الشيء للصدف ذلك ما علمه إياه المعلم قيصر قدست روحه، وذلك ما جعله يخلفه في وظيفته حين مات، وما جعله يعمل في التفتيش أكثر من أربعين عاماً ماضياً على تلك القاعدة بلا سهو أو خطأ، يقبل عليه مآمير ومفتشون ويذهبون

وتبـاع الأرض وتشتري وهـو وحدة الثابت الخالـد، قابعـاً وراء مكتبه الضخم وعلى يمينـه أكوام الـدفاتـر أقـل دفتـر منهـا يـزن عشـرة كيلو جرامات، وعلى يساره أكوام. وهو العالم الخبير بكل أحـوال التفتيش وتاريخه، يعرف كل فـلاح بالاسم والأب والأم، ويتـذكر السلفـة التي أخذها فلان حتى قبل أن يفتح الدفتـر، يعامـل الفلاحين رغم عشـرته الطويلة لهم بأبلغ الحذر ويختلط بهم ويضحك معهم ويستشيرونه في أحـوالهم وأخص خصائصهـم،ولكنه دائماً مسيحة أفندي الباشكاتب.

واللقيط جعـل الفأر يلعب في عبِّـه لأنه أدرى النـاس بالإشـاعات التي تـروج في التفتيش وخاصـة تلك التي تـروج عنـه وعن عـائلتـه. ومسيحة أفندي كان له ثلاثة أولاد اثنان منهم في ثانوي والثالث الأكبـر أخرجه من المدارس وسعى حتى جعله كاتباً في عزبـة قريبـة. وكانت لـه ابنة واحـدة جعلها تـأخـذ الابتـدائيـة ثم أقعـدهـا في البيت تنتـظر العريس، والعرسـان قليلون إذ من من أين يعلم العرسـان بهذه الغـادة الجالسة تنتظرهم في ذلك المكـان النائي الكـائن على شمال الـدنيا؟ وحتى كـونها أجمـل بنت في التفتيش لم يشفع لهـا. فبالمقـارنـة الى بنات الفلاحين كانت لنده بيضاء كالقطن المندوف. لـونها وحـده كان كافياً ليجعلها ملكة جمال، مع أنها كانت حين تسـافر الى اقـاربها في شبرا مصر مع أمها كانت الأم تسمع بأذنها همسات قريباتها والجـارات بـأن أنفها كبيـر وفمها أوسـع قليـلاً ممـايجب،وقـدهـا غيـر ممشـوق وشعرها خشن أكرت.

ولكن هذا يحدث في شبـرا مصر، أمـا في التفتيش فهي الجميلة

بلا منازع. الجميلة إلى الدرجة التي كان الشاب من شباب الفلاحين يدق قلبه بالانفعال حين يلمحها من بعيد تطل من شباك بيتهم، أو تتمشى مع عائلتها وعائلة المأمور على الترعة.

والمشكلة في عائلة المأمور هذه. فزوجته الست ام صفوت فلاحة او هكذا تبدو حين تتحدث مع الست عفيفة زوجة الباشكاتب التي تربت في مصر وتعلمت وتمدينت. ولأن الست أم صفوت كانت زوجة الرئيس فقد كانت الست عفيفة على الدوام تحرجها وتظهر لها مدى فلحها وجهلها، وتفعل هذا بلباقة شبرا وحذر زوجها مسيحة. وكانت أم صفوت تغضب وتركب حينئذ رأسها وتتحدى وتقضي الساعات الطوال تلعن عفيفة أمام نساء الفلاحين وتنال منها. والمشكلة ايضاً ليست في المأمور وعائلته.. المشكلة في ابنه الوحيد صفوت. كان في العشرين من عمره راسباً لثالث مرة في التوجيهية مدللاً من أبيه وأمه والفلاحين وكل قاطن في التفتيش. طوال النهار معلقاً البندقية الخرطوش في كتفه، مرتدياً جلباباً بلدياً أبيض مثل الجلاليب التي يرتديها الفلاحون كنوع من العياقة، وبرنيطة صفراء ومنظاراً أسود ومنقباً عن اليمام يصطاده، ولا يحلو له إلا صيد اليمام. وكان لا يحلو له الصيد إلا على الترعة المارة من أمام بيت الباشكاتب. والعلة يعرفها الجميع، فمن أعوام مضت والناس تتحدث عن الصائد واليمام، وعن سي صفوت والست لنده، والغرام المشبوب الذي تحده الترعة، ويحده عدم وجود الفرصة واختلاف الدين ويحتبس في صدر صفوت، وينغلق عليه صدر لنده بالذات، ولكنه

أحياناً يطل بذراعها حين ترتفع وكأنها تمسك حديد النافذة، ويعني ارتفاعها تحية مستخفية خجلة بصورة يقولون إن لنده تحتفظ بها في ذلك القلب الذهبي الذي يتدلى من عنقها المرمري الأبيض بخطابات يقولون إنها تتبادل عن طريق محبوب.. ومحبوب هو بوسطجي التفتيش إذ لم يكن للتفتيش مكتب بريد، محبوب هو الذي يذهب إلى محطة قطار الدلتا الكائن عند أول التفتيش، وحين يجيىء القطار الصغير المتدحرج يتشعبط هو في النافذة المخصصة للبريد ويعطي للمستخدم ما معه من خطابات مصلحية وأهلية ويتسلم منه الوارد من الخطابات، وكان محبوب قصيراً جداً. لا يكاد يبلغ طوله طول الأطفال، ولعله لهذا كان يسبق الناس ولا يمل من التنكيت على نفسه. كان صغيراً وملامحه صغيرة وساقه كانت لا تتعدى الشبر، وفي نفس الوقت أغرب بوسطجي، إذ لم يكن يعرف القراءة أو الكتابة ومع هذا ومن قلة اولئك الذين يأتي لهم خطابات في التفتيش كان يعرف بطول المران الخطاب القادم من المنصورة للمأمور، من ذلك المكتوب بالقلم الكوبيا وبخط مائل القادم من الجعفرية من قريب الشيخ شعبان له.

وهكذا كان محبوب يوزع خطاباته، يعطي لمسيحة أفندي الخطابات المصلحية ويوزع البقية على أصحابها دون أن يخطيء في شخص أو عنوان.. حتى الحقيبة التي كان يحمل فيها الخطابات كانت صغيرة جلدها كالح مجعد. كجلد وجهه. ومحبوب كان متزوجاً من زكية، واحدة من أضخم وأطول نساء التفتيش، وكان الرجال حين

لا يجدون شيئاً يفعلونه يكتفون محبوباً ويحاولون إجباره على أن يعترف لهم كيف ينام معها. ومحبوب يستغيث والرجال يضحكون لاستغاثته واعترافاته. وأغرب شيء أن زكية كانت على عكس زوجها تجيد القراءة والكتابة، حتى أنها الوحيدة من بين نساء التفتيش التي كان تستطيع قراء الجرنال.. والجرنال الوحيد الذي كان يأتي إلى التفتيش كان هو المقطم. ولا يدري أحد لم المقطم بالذات؟ ربما لأن الإدارة في مصر هي المشتركة فيه وهي التي تختار، وربما لأن المقطم كان يهتم بنشر الأخبار الزراعية أكثر من غيره، وربما لأن أصحابه كانوا هم الآخرين خواجات.

وكانت زكية مدمنة قراءة الجرنال، حتى أنها كانت تعترض طريق زوجها وهو قادم من المحطة وتنزله من فوق الحمار بالقوة وتغتصب منه الجرنال، ولا تعطيه إياه إلا بعد فراغها تماماً منه. ومحبوب واقف عاجز يخاف منها أكثر مما يخاف لو تأخر عن المأمور، فهو يستطيع إلقاء عبء التأخير على قطار الدلتا الذي ليس له مواعيد، أما زكية فأنّى له أمامها بالقدرة على اختلاق المعاذير، والعزبة التي يسكن وإياها فيها تقع قبل العزبة الكبيرة حيث الإدارة، وهي على الدوام تنتظره وتقطع عليه الطريق؟

كانوا يقولون إن الخطابات يتبادلها صفوت ولنده عن طريق محبوب... تعطيه لنده الخطاب وبدلاً من أن يذهب به لقطار الدلتا يهرول به إلى حيث طلقات بندقية صفوت ولو كانت تدوي عند آخر التفتيش، وله الحلاوة واليمام والبقشيش.

كان خبر هذا كله عند مسيحة أفندي، وكم من مرة أوقف محبوباً وفتشه مدعياً أنه يبحث عن خطاب، وكل مرة لا يجد شيئاً في حقيبة محبوب، ولا حتى في جيوبه حين يصر على تفتيش الجيوب.

واليوم وبعد هذا الحادث الغريب لعب الفأر في عب مسيحة أفندي، ولم يكن وقت انصرافه من المكتب قد حان مع أنه ليست هناك ساعات عمل محدودة، إلا أنه تعود أن يبقى في المكتب إلى وقت الغداء، ولكنه يومها قام وغادر المكتب والإدارة وعبر القنطرة الحجرية وتوجه الى بيته القائم على رأس العزبة يتلقى تحيات الفلاحين بغمغمة لا يفتح فيها فمه. ومع هذا، وفيما هو فيه لا ينسى أن يضم ذيل جلبابه ويرفعه مخافة أن تعلق قذارات الطريق. كان في زيه الدائم: الجلباب الأفرنجي الأبيض الذي ليس له ياقة،والبالطو الأبيض والطربوش، جميعها بيضاء ولكنك لا تلمح فيها بقعة. كثيراً ما عيرت أم صفوت زوجها المأمور حين يأتي لها ببنطلونه الأصفر متسخاً حاملاً في ثنية ذيله الطين والحصى والتراب، تعيره وتقول له إنه لا يساوي قلامة ظفر مسيحة أفندي الذي ما رأته أبداً وعلى ملابسه ذرة تراب. بل تبلغ بمسيحة أفندي شدة حرصه على ملابسه أنه حين يسافر ويضطر اضطراراً إلى ارتداء البدلة الوحيدة التي يملكها والتي تبدو على الدوام جديدة وكأنها بنت العام مع أن عمرها لا يقل عن العشرة الأعوام بأي حال، يبلغ حرصه درجة أن يضع منديلين حول ياقتها مخافة أن يتسرب عرق قفاه إليها إذا اكتفى بوضع منديل واحد.

بقامه قصيرة منحنية، وبوجه شاحب (إذ هو الوحيد بين سكان

التفتيش الذي يعمل معظم نهاره في ظل المكتب)، وبذقن خضراء كثة، وبملابس ملمومة نظيفة ارتقى مسيحة أفندي الدرجات القلائل التي تؤدي الى باب بيته، والباب مفتوح فلا تغلق أبواب الدور في الأرياف إلا لماماً، ودخل. وكان لمسيحة أفندي ضجة دخول معتادة ما أن يطأ عتبة الباب حتى يبدأ أسئلته واستفساراته وتعليقاته. هيه.. انتو فين؟. بتعملوا ايه؟ بعت لكم الواد بالخضار.. واتأخرتم في الغدا ليه؟. اللحمة كانت عجوزة واللا إيه؟. دي كويسه.. وانتي مالك يا لنده.. ضرسك تاعبك واللا إيه؟.

يقول هذا وهو يهز رأسه هزات من يبحث بأنفه عن شيء، وينقب بعينيه الرمادتين عما خلف كل شيء. ولكنه هذه المرة دخل صامتاً واجماً. وفي الصالة المضيئة أكثر من اللازم كانت عفيفة زوجته جالسة أمام طبلية صغيرة ومعها أم إبراهيم زوجة فقي التفتيش، ودميان سلفها أخو مسيحة أفندي، وكان الثلاثة يصنعون (شعرية)، ودميان يمسك العجينة ويفتلها بيد وبيده الاخرى كان يقرأ الفنجال لأم ابراهيم ويقول لها: ح تشوفي خير بعد نقطتين قولي يا رب.

وكاد مسيحة أفندي ينهر اخاه. ولم تكن هذه أيضاً عادته فهو يعرف مثلما يعرف كل الناس أن أخاه معتوه، وأن عقله يبدو أنه قد كف عن النمو مذ كان طفلاً، فأصبح له جسد رجل قصير كأخيه في الخامسة والثلاثين، وعقل طفل في العاشرة، وذقن سوداء كثة كفرشة الملابس لا يحلقها إلا كل حين وحين. جلبابه الكزمير لم يتغير أبداً وطاقيته ذات الحائط والمصنوعة من نفس قماش الجلباب على رأسه عمره ما خلعها، وعمله الخدمة في بيت أخيه.. ينظف النحاس

ويقيس الـدجاج، ويعلم أرجـل الكتـاكيت حتى لا تتـوه مـع كتـاكيت الجيران، ويغسل الملابس ويحضر الطلبات من الدكان ويرعى الأولاد ويمسح أحذيتهم، ويفعـل هذا كله وهـو يحيا في ملكـوت طفولي من صنعه، يقابلك في منتصف الطريق فتقول له: إزيك يا خواجة دميان؟ فيوقفك قائلاً: الله يسلمك، ثم يرفع وجهه إلى السماء وكأنـه يقرأ مـا كتب لـك، ويبلل سبابتـه وإبهامـه بلعـابـه ويضعهمـا فـوق ظهـر يـده اليسـرى، ثم يرفعهمـا ويقول لـك: إن شـاء الله سعيـد. لعبـة كبيـرة للأطفال، ولعبة صغيرة للرجـال، ولعبة رجـالي للنساء، وكـل ما كـان يهم النساء، وأحياناً، هو هل دميان ينفع النساء أم لا ينفعهن؟ بعضهن يقلن إن الست عفيفة لا تستخبي عليه وتعامله كصبي حريم. وبعضهم يقول: لا، إن ذقنه الكثة السوداء خير دليل على رجولته. ويسـألونـه: لماذا لم تتزوج يـا دميان؟ فيضحـك ضحكته الغـريبة التي تبـدو وكأن رجـلاً يحاول أن يقلد ضحكـة الأطفال ويقـول: إلهي ربنـا يخليـك. حتى لقد بلغ العبث به إلى حد أن بعضهم كان يـطلب منه أن يسلم. فكان يقول لهم: أنا مسلم وموحد بالله، ويقرأ الفاتحة وآية الـكـرسي ورغم هذا فقد كـان هناك رأي يقـول إن دميان خبيث ولكنـه يستعبط. المحرج في الأمر أن دميان كان شقيق مسيحة أفندي الباشكاتب، وأن تسخر من شقيق الباشكـاتب أمر محـرج، أو أحيانـاً أمر مبهـج، وكأن الفلاحين يبهجهم أنهم يستطيعون أن يسخروا من الإدارة في مواجهتها حين يسخرون بدميان.

عسعس مسيحـة أفنـدي بعينيـه في الصـالـة والحجـرة القـريبـة

الحرام

المفتوحة، ولكنه لم يلمح لنده. وأخيراً وحين لم يجد بدّاً سأل عنها زوجته فقالت لـه: تعبانـة شويـة.. وهب فيها مسيحـة أفندي وكـأنـه فـوجيء: تعبانة ليه؟. ما لها؟. ومـا قولتليش ليـه؟.. دي نسوان إيـه دي!. وهي فين؟

قالت له عفيفة إنها راقدة على فراشهمـا. وبخطواتـه المتدحـرجة وصل مسيحة أفنـدي إلى حجرة النـوم. حجرة نـوم عتيقة بـالية بـالغة القدم. نفس «جهاز» عفيفـة الذي دخلت بـه من أعوام كثيـرة مضت. الدولاب بلا ضلـف، والسرير جددت ألواحـه مرات، وعمـدانه عليهـا بيض ذبـاب أسود متجمـد، والنامـوسيـة معلقـة من ثـلاث نـواح فقط والرابعة مقطوعة. كانت الناموسية مسـدلة، وحتى قبـل أن يرفعهـا قال والفأر قد بدأ يزداد لعباً في عبِّه:

ـ ما لك يا لنده؟

ووجـدها نـائمة وحسب أنهـا تتناوم وازداد قلبـه اضطرابـاً، ورفـع الناموسية وواجهها. كان شعرها الأصفر المجعد الذي مـا رآه أحد إلا مرتباً وأنيقاً ومعتني به، وكأنما تدرك صاحبته بغريزتها خشونته فتحـاول باستمرار أن تجعله يبدو حريرياً ناعماً. كان شعرها منكوشاً وخصل منه تغطي جبهتها، وعينـاها منتفختـان قليلاً وكـأنما انتهت صـاحبتهما من نوبة بكاء.

سألها أبوها عما بها فقالت له: عندي مغص. ولأمر ما، ربما من

الطريقة التي قالتها بها، ربما من مرآها بشعرها هذا وعينيها المنتفختي الجفون، لأمر ما أحس مسيحة أفندي فجأة وبشكل قاطع أن بنته لنده هذه لابد أن تكون هي التي ارتكبت جريمة الصباح. إحساس دفعه لأن يتوقف عن استرساله في الكلام، ويحدق فيها وكأنما يراها وكأنها ليست ابنته، وكأنها أنثى داعرة، لأول مرة في حياته، وبين شكه في هذا ويقينه من أنها ابنته، راح مسيحة أفندي يمسحها بعينيه الضيقتين ويتحسس يدها وبطنها مدعياً أنه يسألها عما بها، وبطنها بالذات، لم تكن له ليونة بطون الوالدات ولكنه كان يوجعها.

الشك لم يكن مسيحة أفندي قد أحسه أبداً إلا تجاه الآخرين تجاه الفلاحين والمآمير والإدارة وكل الناس. لم يكن ابداً قد أحسه تجاه نفسه أو من هم في حكم نفسه.. تجاه عائلته.. تجاه ابنته لنده بالذات. حياتها علنية أمامه وأمام أمها وأمام الناس، وحتى إشاعة رسائل العيون والنظرات والإشارات بينها وبين صفوت تكاد تكون علنية هي الاخرى، وحياتها العلنية هذه هي كل حياتها، فهل من الممكن أن تكون لها حياة اخرى، حياة تزاولها مع صفوت ابن المأمور في الظلام؟ ليت الأمر جاء على شكل اسئلة حيرى تريد الإجابة. الأمر جاء على شكل حمى داخلية اجتاحت مسيحة أفندي دون أن يكون في استطاعته النطق أو التنفيس. لنده مغصها قد يكون حقيقياً وقد يكون حجة وستاراً، وزوجته عفيفة قد تكون على عهده بها كثيرة الرغي واللت والتعليق، ولكنها رفيقة عمره الوفية الأمينة وقد لا تكون

كذلك، قد تكون هي المتسترة على بنتها، بل وما أدراه أنهـا لا تتستر ايضاً على نفسها؟

لم يعد في وسع مسيحة أفندي أن يبقى بالحجرة، فقـد أحس أنه يختنق وأن ليس باستطاعته الكلام. غادرها إلى الصالة حيث الشعـرية والمجتمعون حولها، رأته عفيفة متغير السحنة فسألته عما بـه، وهمهم وغمغم ولم تفهم مما قالـه حرفـاً. نادى على دميـان أن يتبعـه وغـادر البيت وتلكـأ ليلحقه. وشهـد جسر الترعة الممتـد أمـام البيت أغـرب حوار يدور بين الأخوين. الدنيا حارة لافحة، والشمس في كبد السماء تتوهج ملايين أفرانها وترسل على الكون حممها، ومسيحة أفندي سائر وبجواره دميان يحاول لأول مرة في حياته أن يحـدثه حـديثاً جـدياً. . حديث الأخ لأخيه، يحاول أن يسألـه إن كان قـد لاحظ شيئاً أو فـطن إلى شيء. يسأله عن صفوت ولنده، والحرام والحلال، ودميـان سادر في رواية غريبة عن دجاجة كل يوم يقيسها فيجـد فيها بيضة، ولكنها لا تبيضها، مؤكداً أن البيضـة لابد فيهـا سر، وقـد تكون مفتـاح كنـز مـا خـائف إن هم ذبحـوا الدجـاجة أن يـذهب ما فيهـا من كنز وسـر، وإن هموا تركوها أن يسرقها الجيران.

وأخيراً لم يعد مسيحـة يحتمل، زجـره بعنـف وسبه وتـركه ومضى: ووقـف دميان حائراً لبعض الوقت وقد توقف عن استرساله، ثـم ما لبث أن أدرك أن أخاه سبه وشتمه، ويبدو أن تلك أول مرة كان يحدث فيها هـذا، إذ ما لبث أن راح يبكي وقـد خلع طاقيتـه يجفف بها دمـوعـه، وبدت رأسه صلعاء تقدح شرراً تحت الشمس.

١٠

في نفس ذلـك الوقت كـان صفوت ابن المـأمـور متكئاً في شبـه غيبوبة على مسند الكنبة الوحيدة في بيت أحمـد سلطان كاتب الأنفـار في التفتيش، وتلك كـانت جلسـة صفـوت المختـارة، حين ينتهـي أحمـد من عمله ويئوب إلى بيتـه، فيضـطجـع الاثنـان احيـانـاً حـول «الجوزة»، وأحياناً حول امرأة وأحياناً حول فنجـال. أحمد سلطان هـو الأعزب الوحيد بين موظفي التفتيش، وهـو ايضاً الـوحيد الـذي يقطن بمفـرده في بيته المـلاصق لبيت مسيحـة أفنـدي. ومن بين المـوظفين جميعاً فإن أحمد سلطان هو الـوحيد القـريب إلى قلب صفوت. كـان شـاباً مثله وأهم من هـذا كان أكبـر منه في السن والتجـربة والمعـرفـة الأكيدة. لم تكن صداقة بالمعنى المفهـوم هي التي تجمعهما فـأحمد سلطان في معاملته لصفوت لا ينسى ابداً انه ابن المأمور رئيسه ورئيس التفتيش، وفي معاملة صفوت لأحمـد حد معين من التحفظ. فـأحمد هذا لا يجيد سوى القراءة والكتـابة والله أعلم كيف وصـل الى وظيفته تلك، شتان بينه وبين صفوت الذي يستعـد لدخـول الجامعـة وإكمال تعليمه في القاهرة. ولكن ـ مع كل هذه الاعتبارات ـ فتآلفهمـا مضرب

الحرام

الأمثال، وأيضاً مبعث شقاء فكري أفندي المأمور الذي كان لا يطمئن أبداً إلى أحمد سلطان، ولم يفلح زجره ولا حتى الشجار العنيف في فصم هذه العلاقة.

كان صفوت متكئاً على مسند الكنبة يتبادل هو وأحمد سلطان سيجارة ملغمة، يتناوبان أخذ أنفاسها وهما حريصان في نفس الوقت على إبقاء طفيتها عالقة بالسيجارة، وكأنما لو وقعت الطفية ذهب المزاج. وكان ثمة حديث يدور.. وأهم خبر في ذلك اليوم كان هو حادث اللقيط. وطبعاً كان الحديث يدور حوله.

والواقع أن ما كان يدور لم يكن حديثاً بالمعنى المفهوم. كان صفوت في قمة انفعاله لمعرفة علاقة احمد سلطان باللقيط، وكأن قد ثبت لديه بطريقة قاطعة أن بينهما علاقة ولم يبق إلا أن يعرف كنهها. ولكنه كان لا يريد أن يبدو في عين أحمد سلطان كالطفل المحب للاستطلاع.. كان يريد أن يجعله يعتقد أن أسئلته إنما هي أسئلة رجل مجرب لرجل مجرب. ولعل هذا هو السبب في طريقة جلوسه على الكنبة حيث كعى كعية رجل مجرب ذكي خبير، ولعله أيضاً السبب في تلك الابتسامة التي قصد منها أن يقول لمحدثه: أنا كاشفك قوي! بل حتى مداعبة شاربه.. الشارب الباهت الذي لم يتعد عمره العام الواحد والذي تعمد صاحبه أن يحيطه بالرعاية وينميه لكي يبدو ابن اعوام. حتى مداعبة الشارب كانت تتم بروية وكأنها مداعبة كبير لشاربه الكبير.

وكـان أحمد سلطان ينصت وابتسـامـة كبيـرة لا تغـادر مـلامحـه. ابتسـامة كـان صفوت يحس أمـامها دائمـاً أنه مهمـا قال وتحـدث عن مغـامراتـه فهو صغيـر، مجرد تلميـذ خائب في مـدرسة احمـد سلطان ناظرها. ابتسامة يظن صفوت انها ابتسامة تهكم وسخرية، مع أنها قـد لا تكون كذلك.

ظـل صفـوت يتحـدث وأحمـد سلطان ينصت، وأخيـراً بـدأ أن صفوت قد كف عن إخراج كل ما في جرابه وأفلس، فقال لأحمد:

ـ أبو حميد.. بذمتك ابن مين ده؟

هنا قهقه احمد سلطان، واحدة من قهقهاته العـاليات التي كـانت تسمع في بيت مسيحة أفندي، وكلما سمعها مسيحة تخترق الجدران وتصـل إلى آذانه وتكـاد تخرقهـا اشمأنط ولـوى بوزه وأفلتت من فمـه كلمة سباب. ولأمر ما لم يطمئن صفوت لقهقهة سلطان، وحسبها أنها قهقهة تهكم هي الأخرى، ولعل هذا هو السبب في أنه استطرد قائلاً:

ـ تعرف انك غويط قوي. كده واللا لأ؟

وقال احمد وقد آبت قهقهته إلى ابتسام:

ـ ليه؟

ومضى صفوت يشرح له لماذا هو خبيث وغويط، وكيف يستحـل لنفسه أن يقوم بمغامرات اخرى لا يعرفها صفوت ولا تصل إلى علمـه مع أنهما في الخير والشر سواء.

وحاول احمد أن يغير الموضوع ويسأل صفوت عن آخر أخبـاره مع

الحرام

لنده. والحقيقة أن ذلك الموضوع كان هو موضوع صفوت المفضل لا يمل الحديث عنه، ولا تخلو جلسة مع أحمد سلطان منه. فعلى الرغم من كل شيء.. على الرغم من بندقية الصيد المعلقة في كتفه ومغامراته في القاهرة وعاصمة المديرية، وعلاقاته الطياري مع بعض نساء التفتيش وبناته، فقد كانت لنده تحتل من قلبه مكاناً خاصاً تحيا فيه باستمرار لم يكن قد قابلها كثيراً، وكل ما دار بينهما من حديث لم يتعد جملا تعد على الأصابع، تبادلاها خلال علاقة استمرت سنين طويلة بين عائلتيهما ولكن كان هناك شيء يحسه في نفسه تجاهها ويحسه في نظراتها تجاهه شيء غير منطوق أو مرئي ،ولكنه موجود وقائم ،يغذيه بشجن خفي يدغدغ أحاسيسه الداخلية ويجعله كلما شعر به يريد أن يبكي فعلا أو أن يضحك أو يهدم سراية التفتيش وكل مبانيه. وأحياناً حيث يتمشى على الترعة تجاه بيت مسيحة أفندي، ويجد لنده واقفة في الشباك بعيدة، يبدو وجهها ناصعاً تحوطه هالة النافذة المظلمة.. حين يراها هكذا يحس بتيار غريب قد سرى فيه وجعله يريد أن يطير ويغني، أو يقف في مكانه لا يفعل شيئاً بقية حياته إلا أن يمد بصره خلسة بين الحين الحين ليجدها تنظر ناحيته أو على الأقل ناحية الترعة. وآه لو رفع البندقية في الهواء ونقلها من كتف إلى كتف محاولاً أن يجعل من النقلة إشارة تحية، ورفعت هي يدها اليمنى وصعدتها لتمسك بها حديد الشباك من اعلى وكأنها ترد التحية.. حينئذ تميد به الأرض ويظل طوال يومه وكل ليله يتذكر اللحظة، ويعيد الحركة ببطء أمام عينيه وهو سادر بعيداً عن الدنيا وأهله والتفتيش، في غيبوبة منتشية لا يريد أن يصحو منها.

وأحمد سلطان هو مكمن سره. في حجرة نومه الخالية تقريباً من الأثاث يترك صفوت نفسه على سجيتها، ويقص على أحمد سلطان دقائق

ما حدث كلما حدث شيء، ودائماً تختتم الجلسة بذلك السؤال الحائر: ترى هل تحبه لنده؟

كلما سأل هذا لأحمد أكد له أنها تحبه، ولكن تأكيده ليس مهماً. المهم هو ابتسامته التي ينطق بها تأكيده! لو فقط يؤكد له مرة بلا ابتسامة لآمن حقيقة بصدق ما يقول.

وكان حرياً بصفوت أن يستجيب للباب الذي فتحه أحمد ويخوض معه في سيرة لنده، غير أن هذا لم يكن هدف صفوت في ذلك اليوم. كان يريد أن يعرف هو عن مغامرات صديقه، أو على الأقل تلك المغامرة التي من المحتمل أن تكون قد أدت إلى هذا اللقيط الميت.

ويبدو ان إصرار صفوت قد فعل فعله، فبعد سيجارتين انفكت العقدة عن لسان احمد سلطان ومضى يحدثه، أو بالأحرى يعترف له. وراح يقول له:

ـ وعارف مرات الحج بدوي وبنتها؟
فيقول صفوت: هيه؟
فيعود احمد سلطان يقول:

ـ وحياتك كانت واحدة منهم في الأودة هنا معايا على السرير اللي ما غيروش الزمان، والثانية مستخبية فوق السطح. وعارف البت دي اللي كانت بتشتغل مع الأنفار اللي بيفرزوا القطن. البت الهايشة دي.

فيقول صفوت:
ـ أنهي واحدة؟
ـ البت الطويلة الهايشة دي.

ـ آه. . .

ـ وحياة شرفك هي اللي قالت لي بعضمة لسانها: خدني.

ـ وعملتها؟

ـ يعني أكسفها يعني يا سي صفوت؟

وشهدت حجرة احمد سلطان في تلك الليلة روايات كاد يقف لها شعر صفوت. . روايات جعلته يعتقد انه بكل مغامراته وما فعله ليس سوى قطرة من بحر أحمد سلطان. بل الأمر لم يقتصر على هذا، ولم تقتصر اعترافات احمد سلطان على نفسه. تعدتها الاعترافات ومضت بكلمة وراءها كلمة وحقيقة إثر حقيقة، تكشف عن الوجه الآخر لحياة التفتيش، الوجه المستتر دائماً الذي لا يظهر ابداً ولا يطلع عليه احد، الوجه المعقد المتشابك الحافل بكل ما هو أغرب من الخيال، علاقات بين أبناء ونساء آبائهم، وبين فاضلات وفاسقين، وفاسقات وفاضلين، وحجاج و«تملية»، وحتى الموتى وردت في الحجرة سيرتهم.

وأخيراً وبعد مقدمة طويلة ساقها صفوت للتدليل على حياده، وعلى انه فقط يريد ان يعرف ـ بصرف النظر عن علاقته الشخصية بالمسألة ـ طرق صفوت الموضوع الذي من أجله جلس تلك الجلسة واستغرق كل تلك المدة الطويلة في جس النبض، سأل احمد سلطان وهو يستحلفه بكل مقدس وشريف أن يقول الحقيقة، سأله عما يعرفه عن الوجه الآخر للنده.

وهذه المرة وبوجه جاد وملامح لا تحتمل الشك نفى احمد سلطان أنه يعرف عنها أي شيء يدعو للخجل. وعاد صفوت يلح في سؤاله، وعاد احمد يلح في نفيه وتأكيده.

ومع هذا، وحين قام صفوت وقد بدأت الشمس تستعد للمغيب، حين

قام ليستعد هو الآخر للرجوع إلى بيتهم، كان لا يزال غير مطمئن تمام الاطمئنان إلى ما قاله أحمد سلطان عن لنده.

* * *

أما أحمد سلطان فقد ظل برهة طويلة جالساً على نفس المقعد «الجريد» ذي المساند الذي كان يجلس عليه، يحدق في سقف الحجرة ومن خلال نافذتها الوحيدة، ويتأمل. ثم بدأ لمعان غريب يتسرب إلى عينيه، لمعان كومض الجنون أو برق النشوة. ثم بدأ يتململ في كرسيه وكأن مشكلة كبرى تحيره. ولكن تململه لم يدم طويلا فما لبث أن قام من مكانه وغادر البيت. وظل وقتاً يحوم في شارع العزبة الرئيسي بحذر ـ مع أنه الوحيد بين رجال الإدارة الذي كان قد كسر قانون عدم اختلاط الموظفين بالفلاحين ـ حتى أصبح وجوده في قلب شارع العزبة أو في أحد بيوتها أمراً لا يثير اندهاشاً أو تساؤلاً. وعند باب بيت مفتوح توقف قليلاً، وبهفة من ثوبه وإشارة من يده كانت الجالسة في الداخل قد أدركت هدفه وفهمت أنه يريد لقاءها عند الجامع.

والجامع كان يقع في زاوية العزبة الغريبة، جامع مبني بناء رخيصاً من الطوب النيء، ومئذنته قصيرة تبدو كالأصبع المرفوعة المبتورة، والطريق إلى الجامع خال في أغلب الأحيان إذ نادراً ما يستعمل للصلاة إلا في يوم الجمعة، أما بقية الفروض فيؤديها الفلاحون في «المصلّي» المقام على الترعة والذي كان مقامه في أول الأمر على الخليج في مواجهة المنزل الذي يقطن فيه المأمور، ولكنه أمر بهدمه وعدم استعماله، وأقام ذلك المصلىً الآخر، إذ كان يضايقه إلى درجة الغضب مرأى الفلاحين وهم جلوس في المصلى أمام بيته «يجرحون» البيت وسكانه على حد تعبيره، والأدهى من هذا حين يقبلون في الصباح الباكر ويخلعون ملابسهم ليغطسوا في الترعة ويتطهروا.

الحرام

لم يمض وقت طويل على أحمد سلطان في ذهابه ومجيئه وراء الجامع حتى بدا له من خلال ظليمات المغرب ذلك الثوب الأسود الفضفاض الذي يعرف صاحبته. كانت أم ابراهيم زوجة فقي الجامع وخطيبه ومؤذنه، امرأة فارعة الطول قمحية ذات قدرة خارقة على وضع الكحل في عينيها وحبك المنديل على جبينها وإمساك طرف ثوبها بيدها، وهفها باليد الاخرى حين تمشي وتتمخطر.

وكانت معرفتها بأحمد سلطان وطيدة، إذ كانت من أوائل من عرف من النساء حين جاء أول ما جاء الى التفتيش، ثم تطورت تلك «المعرفة» إلى نوع من الصداقة، تطبخ له احياناً، وتهاديه بطبق قشطة أحياناً اخرى، مع انها كانت قد فقدت الأمل فيه وفي تجدد علاقتهما.

سلم عليها احمد سلطان بحرارة، وقرصها في بطنها كعادته في الأيام الغابرة، وبعد عتاب طويل منها وحجج منه قال لها:

ـ عايزك في حاجة.

ـ أؤمر. .

ـ لينده.

قال الكلمة وسكت، ولم تسأله هي أيضاً منتظرة أن يكمل، وخائفة في الوقت نفسه ألا يكمل، هي فاهمة وهو فاهم ولا داعي للتغابي.

قالت بعد وقت وبعد أن تأملت بسمته وملامحه الحلوة:

ـ بس دي صعبة ما اقدرش عليها. .

ـ إيبه. .

قال أحمد هذا وهو يقرصها مرة أخرى في بطنها، وقوست هي نفسها لتبعد بطنها عنه ولتقرب وجهها منه وتحاول أن تثنيه، ولكنها كانت تعرف أن

محاولتها فاشلة، فما صمم على أن ينال شيئاً إلا ناله، وما يقوله إن هو إلا أمر عليها أن تطيعه.

صمتت برهة ثم انفرجت ملامحها قليلاً وابتسمت ورفعت سبابتها وأشارت إلى عينها اليمنى ثم إلى عينها اليسرى وكأنها تقول: من عيني دي ومن عيني دي.

وفي ذلك الوقت جاءهما من بعيد صوت خشن مبحوح يؤذن لصلاة العشاء، صوت «أبو» إبراهيم. ومع أن صاحبه كان بعيداً عن المصلّى حيث الأذان والصلاة، إلا أن الصوت هبط عليهما فأنهى المقابلة في الحال. واستدارت أم ابراهيم تطقطق بشبشبها عائدة وكأن صوت أبي ابراهيم قد فاجأها متلبسة، أما أحمد سلطان فقد مضى على مهله، ينظر إلى العزبة والأضواء القليلة المبعثرة فيها ويشم رائحة الأرز والسمك والبصل وهي تختلط بروائح الدخان القابضة، ويتأمل الليل المحيط الكبير، ويحلم بلبينده حين تأتي ذات مساء إلى بيته، إلى حجرته العتيدة، خجلى خائفة، وكيف سيؤنس وحشتها، وسيحيل خجلها بقدرته الخارقة إلى جرأة ودلال وإقدام.

الحرام

١١

طال العشاء على غير العادة، واستمرت السهرة القصيرة التي تعقبه جزءاً أطول من الليل، وظل جنيدي فاتحاً دكانه مشعلاً «كلوبه» إلى ما بعد العاشرة، وعلى حائط القنطرة الحجرية امتدت جلسة الرجال، وكان لا حديث إلا عن اللقيط.

ولم تكن العزبة الكبيرة وحدها هي التي شغلت بالحديث، فقد انتقل الخبر إلى العزب المجاورة، بل والقرى المجاورة أيضاً، حمله إليها «الشغيلة» الذين يعملون في التفتيش ويقطنون في تلك القرى. فالحادث جلل والحياة في التفتيش تمضي سهلة لينة لا يعكر صفوها إلا خناقة تنشب بين اثنين أو سرقة صغيرة ترتكب. أما أن يعثروا ذات صباح على لقيط مقتول، فذلك أمر تنعقد له المجالس ولا تنفض، ويختلف الناس حوله ولا يتفقون، والناس في التفتيش يجيدون الكلام، تلك طبيعة جبلوا عليها واشتهروا بها، بل يقولون أن سببها هو السمك الذي يكاد يكون الطعام الرئيسي لأهل التفتيش وأهل المنطقة بأسرها. يجيد الواحد منهم حكى الحكاية وإبراز تفاصيلها، ويجيد إيراد الحجج وتفنيدها، حتى نطقهم للحروف، تجده ـ من كثرة استعمالهم للكلام ـ واضحاً لا لبس فيه. الحديث لديهم هواية، بل يكاد يكون هوايتهم الوحيدة ولهم فيه نوابغ أولئك الذين إذا حضروا مجلساً كان لسانهم أذلق لسان وتصدروه. نوابغ

كثيرون، الأسطى محمد أحدهم ومحمد أبو طلبة، وسيدهم جميعاً الشيخ عبد الوارث الكبير. والشيخ عبد الوارث لا يجيد الحديث فقط، ولكنه أيضاً يجيد الفلاحة، والفلاحة حرفة فيهاالمهرةوالكسالى، والأغبياء والأذكياء فيها الذي يحدد بنفسه ميعاد ري الأرض، وفيها من يروي أرضه فقط لأن جاره أروى. والشيخ عبد الوارث يكاد يكون أكثر أهل التفتيش حذقاً للفلاحة، بل يكاد يكون المستشار الدائم للفلاحين إذا أعيت أحدهم الحيل في أرضه. وهو بشاربه الذي ليس بالكث أو الرفيع، وعمامته النظيفة دائماً وبشرته السمراء وعينيه البنيتين الواثقتين، كانت كلماته المطمئنة البطيئة فيها القول الفصل في كل خلاف ينشأ، بل كان المأمور لا يبت في أمر من الامور الكبرى في التفتيش مثل ميعاد زرع الأرز، أو حرث أرض القمح وتسويتها لاستقبال حبات الأذرة، إلا بعد أخذ رأي الشيخ عبد الوارث، إذ رأيه دائماً فوق رأي مستشاريه من الخولة وكبار الفلاحين.

وكان الشيخ عبدالوارث يتصدر الجالسين أمام دكان جنيدي، ولأول مرة كان يبدو عليه أنه بلا رأي. كانت الآراء كلها تلاطمت واختلفت ونظر الجالسون إليه يستطلعون ملامحه وينتظرون قوله، كان لا يفعل شيئاً أكثر من أن يتنحنح كالمحرج ويقول: الله أعلم يا جماعة.

وحتى لم يطل بقاؤه معهم.. لم يلبث أن استأذن وقام مدعياً أنه لم يصل العشاء، وعليه أن يصليها قبل أن يدهمه النوم.

وبقي الجالسون مثلهم مثل الساهرين عند القنطرة أو في البيوت حائرين. والغرابوة بدا أنهم بريئون من التهمة، والعزبة لم تترك امرأة فيها أو بنتاً إلا ونوقشت سيرتها وتأكد الناس من أنها ليست الفاعلة. لم يبق إلا أن اللقيطمن عزبة مجاورة أو من قرية أخرى. ولكن السؤال كان: لماذا يكبد أحدهم أو إحداهن نفسه أو نفسها مشقة السير الطويل لإلقاء اللقيط وكان بوسعه أو بوسعها أن يتركه في قلب الغيطان؟

الحرام

بيتـان فقـط من بيوت التفتيش لم ينـاقش فيهما أمـر اللقيط أو جاءت سيرته. بيت فكري أفندي المأمور الذي سألته زوجته على الغداء عن قصة الجنين، فاكتفى بأن غمغم بضع غمغمات تعرفها أم صفوت جيداً، وتعرف أنـه لا يقولها إلا حين يود إقفال باب الحديث. وحين يريد فكري أفندي إقفال باب الحديث فمعنى هذا أن باب الحديث يجب أن يقفل، فهو رجل لم يتزوج امرأة تشاركه حياته، تزوج واحدة تخدمه، واختارها حلوة تجيد الطبيخ ولا تعرف شيئاً عن ذلك العالم الغريب الكائن بعد باب المنـزل والحافل بالشرور والآثام.

ولهذا فقد كان يجد الحرج البالغ كلما دعيت زوجته لزيارة بيت مسيحة أفندي، أو جاءت عفيفة وأولادها لزيارتهم. في عرفه أن تلك الزيارات هي الأخرى بدعة لا تجوز، والزوجة شيء خاص به لا يجـب أن يطلـع عليه احد، ولا حتى نساء غيره. الحديث عن اللقيط حينئذ مع زوجته أمر خبيث لا يجوز الخوض فيه، إذ هو شيء يمت إلى العالم البغيض الفاجر. . عالم ما وراء الباب.

أما في بيت مسيحة أفندي فلم يجسر أحـد على فتـح باب المـوضـوع فالأب كان مغموماً لا يدري أحد لم؟ ولنده راقدة لا يزال المغص رابضاً في بطنها. في المساء فقط وحين أوى مسيحـة أفنـدي وعفيفـة إلى فـراشهـما وراحت هي في النوم العميق ظل هو بعده يتأملها في رقدتها، برقبتها الرفيعة الطويلة التي كثيراً ما تلف حولها منديلاً، وشعرها الأكرت الأسود القصير الذي أورثته لأولادها. ظل مسيحـة يتأملهـا برهـة يكاد يلكزهـا بكوعـه لتستيقظ وتشاركه حيرته، غير أنه لم يفعل فالموضوع الذي يشغل باله لـم يكن يستطيع أن يصرح به لأحد، حتى لو كان هذا الأحد زوجته عفيفة. وكيف يصرح لها بالهواجس الغريبة التي تطوف في باله وتلح عليه؟

كان شكه في مرض لنده قد ازداد إلى درجة بدأ يفكر فيها أن يأخذها إلى الطبيب في المركز في اليوم التالي ليكشف عليها، لا ليرى إن كانت مريضة حقيقة،ولكن ليرى أيضاً كنه ما حل بها. البنت تعدت سن الزواج، وهي حلوة وموفورة الصحة وتحيا في فراغ كبير، ومن الجائز جداً أن يكون الشيطان قد أغواها.

كان قلب مسيحة يهبط كلما وصل الى هذا الحد من تفكيره. . كان يحس به حقيقة يهبط، وكأنه يسقط من عل. ولكن الهواجس لا ترحمه، تمضي تصور له ما يمكن أن يحدث لا قدر الله. . الفضيحة وخيبة الأمل والحيرة العظمى. فمن المحال حينئذ أن يتزوجها ابن المأمور لألف سبب وسبب تراه ماذا يصنع حينئذ، وبأي وجه يحيا في التفتيش، وبأي صورة يواجه الناس؟

وتستبد به الخواطر عنيدة فارضة نفسها عليه، تلهب عقله وتجعله يتقلب في الفراش ناظراً بحقد إلى عفيفة المستغرقة في سابع نوم، مخنوقاً بالدموع المحتبسة في حلقه التي لا تريد أن ترحمه هي الاخرى وتسيل من عينيه.

وبينما هو في خضم ذلك الكابوس الرهيب عنّ له سؤال: أليس من الجائز أن يكون مخطئاً؟ ماذا لو ثبت أن اللقيط مثلا ابن واحدة من الغرابوة ألا يعد تفكيره على هذا النحو واتهامه لابنته وطعنه شرفها ضرباً من الجنون والعته؟

تشبث مسيحة أفندي بالخاطر وكأن فيه أكسير نجاته، واندفع يبحثه على وجوهه ويقلبه، وكلما فعل هذا بدأ قلبه يعود إلى مكانه من صدره وبدأت حركته تقل وبدأ يتنفس براحة وحرية، وبدأت تثاؤبات النوم تأخذ طريقها إلى نفسه.

الحرام

وفي الصباح كان أول ما فعله حين أصبح في حجرة مكتبه أن سأل عن المأمور. فلما قيل له إنه في مكتبه دق الباب بحرصه المعتاد ودخل. وبعد تبادل التحية تفرس فيه فكري أفندي المأمور طويلا ليدرك هدفه الخبيث من تلك الزيارة الصباحية، فزيارات الباشكاتب لمكتبه قليلة ونادرة، ودائماً وراء كل زيارة هدف، والهدف على الدوام خبيث. غير أن الذي حير فكري أفندي أن مسيحة لم يقل في زيارته الشيء الكثير، ظل جالساً مدة يتحدث في الامور المعتادة، ثم سأله سؤالا عابراً عما تم في حكاية اللقيط. أجابه فكري أفندي عليه بحسن نية، ولكن ما أدهشه أن مسيحة بدأ يطعن في الغرابوة فجأة وبشدة، ويصر ويكاد يقسم على أن الفاعلة لابد واحدة منهن. ثم ما لبث أن استأذن محتجاً بالعمل، وترك فكري أفندي حائراً في تفسير هذا التحيز المفاجيء منه ضد الترحيلة. . ولم يتح لفكري أفندي أن يحتار طويلا، إذ دق بابه بعد قليل، وبشخطته المعهودة قال: ادخل. وإذا بالقادم محبوب بوسطجي التفتيش، وإذابرنيطته المصنوعة من قماش أزرق مائلة على جبهته والدموع تملأ عينيه، والشهقة ترفعه ولا تتركه إلا لشهقة أخرى تهوى به، وإذا بالمشكلة التي جاء لأجلها أغرب مشكلة:

ـ ما لك يا محبوب؟

قالها فكري أفندي وهو يغالب الضحك. .

ولم يرد محبوب. . مد يده القصيرة إلى الحافظة المتدلية بجواره والتي قصر «أبزيمها» إلى آخره ليمنعها من أن تلامس الأرض، مد يده وأخرج منها خطاباً مفتوحاً ظرفه بعناية وبلا تمزق، ولم يقل حرفاً.

تناول فكري أفندي الخطاب، وقلب الظرف فوجد مكتوباً عليه بالقلم الكوبيا: يصل ويسلم ليد أخينا المحترم عبد المنعم أفندي عواد بطنطا شارع الجامع الأحمدي نمرة ٣٤ خصوصي لحضرته.

لم يكن في العنوان ما يثير وما يمكن أن يصلح سبباً لدموع محبوب وشهقاته، حتى كاد المأمور يعيد الخطاب إليه لولا أن «محبوب» تمالك نفسه وجفف دموعه ومضى يحكي كيف بدأ يشك في الخطاب.

قال محبوب: إن سعادات زوجة الاسطى عبده سائق اللوري.. والتي تقطن في نفس العزبة الذي يقطن فيها محبوب، استوقفته وهو راكب الحمار في طريقه من العزبة الكبيرة إلى محطة الدلتا، استوقفته عند عزبتهم وطلبت منه أن يأخذ هذا الخطاب معه. ولما سألها عن صاحبه ـ إذ من غير المعقول أن تكون هي صاحبته ـ قالت له إنه من زوجها لقريب له في طنطا. لم يأخذ محبوب ويعطي معها، فهو يعرف «صحيح» أن لزوجها قريباً في طنطا وأحياناً تأتيه خطابات من هناك. صدقها ومضى في طريقه إلى القطار، ولكنه بعد أن تجاوز العزبة بقليل بدأ يحس وكأن الخطاب ـ دون بقية الخطابات التي معه ـ يشكه في جنبه ويقلقه. وعلى هذا وجد يده تمتد إلى الحقيبة ويخرج منها الخطاب ويتأمله. تأمله لثوان قليلة، ومع أنه أمي لا يعرف القراءة أو الكتابة ولا يستطيع أن يفرق بين خطوخط إلا أن «شيء إلهي قال لي إن الخطده خط مراتك يا واد يا محبوب». وفجأة بدأت تتكشف أمامه أمور لم تخطر له على بال. زكية امرأته لها قريب في طنطا كان قد أتى لزيارتهم منذ بضعة أسابيع ومكث لديهم أياماً ثلاثة ثم غادرهم. وقريبها هذا أفندي قالت له زكية إنه تلميذ في مدرسة الصنايع، ورغم أنه كان يبدو كبيراً جداً عن تلميذ بشاربه الكامل وذقنه وهيئته، إلا أنه صدق زكية وأخذ قولها بحسن نية، ولكنه الآن والخطاب في يده يحس بحروفه وكأنها ملامح زكية وتقاطيعها ورائحتها، لم يعد ثمة مجال لحسن النية. والذي حدث أن «محبوب» غير من اتجاهه، وبدلا من أن يذهب للمحطة جاء للشيخ علي أبو ابراهيم فقي التفتيش، وكان قد فتح الظرف باحتراس واخرج الخطاب الذي فيه

وطلب من الشيخ علي أن يقرأه.

أخذه الشيخ علي وأخرج منظاره السلك وأمعن فيه بصًّا وتفلية وقرأة في سره، وما أن انتهى حتى هب في محبوب:

ـ الله يقل مقامك يا بن زبيدة. إيه يا واد الكلام الفارغ ده؟

وكاد محبوب يتهاوى من طوله المتواضع القصير، فقد أيقن أنه كان في شكوكه على حق، ومال على الشيخ علي وبل يده وبللها بدموعه طالباً منه أن يصنع فيه معروفاً ويقرأ له الخطاب. وقرأه عليه الشيخ، فإذا به من زوجته زكية، وإذا به خطاب غرام منها، وإذا بها لم تكتف بهذا بل أرادت أيضاً استغفاله وأن يحمل لها هو خطابها إلى عشيقها فيما يحمل من بريد مستغلة ـ الفاجرة ـ جهله بالقراءة والكتابة.

طوال الفترة التي استغرقها محبوب في سرد حكايته كان فكري أفندي يكاد يموت من الضحك، ولم يكن حتى يبذل أي مجهود لإخفاء ضحكه بل أكثر من هذا كلما رأى «محبوب» منفعلاً ومتأثراً داهمته الرغبة في الضحك.

وحين انتهى محبوب وعاد ينخرط في بكائه وشهقاته لم يعد فكري أفندي يتمالك نفسه. انفجر في نوبة ضحك عالية، ودق جرسه واستدعى مسيحة أفندي وأحمد سلطان وكبير الخولة الذي تصادف وجوده في المكتب، وتولى نيابة عن محبوب قص الحكاية وتولوا هم نيابة عنه الضحك، ومحبوب سادر في انفعاله وبكائه.

وقال له فكري أفندي وهو يمسح الدموع عن عينيه الضاحكتين:

ـ ومارحتش ضربتها ليه يا محبوب؟

ـ اضرب مين يا حضرة المأمور؟ . . أنا قدها؟

قال محبوب هذا وانخرط في البكاء. وانخرط المتجمهرون حوله في الضحك، فهم يعرفون زكية بطولها وضخامتها وجبروتها، وأمامهم محبوب بقصره ونحافته وصوته القصير النحيف.

وحين شبعوا ضحكاً، هدهد المأمور على محبوب واعداً إياه بأنه سيؤدبها له، بل أرسل في طلبها فعلا وقال لمحبوب وكأنه يستدرك: ـ واللا تحب تطلقها يا محبوب؟

ففرت من عينيه دمعتان أخيرتان وقال:

ـ اللي تشوفه حضرتك. دي وديني وما أعبد فاجرة، وعليّ يمين الطلاق إن ما كان اللي لقيوه الصبح ده ابنها، أصلها عايزة تخلف وفاكراني مبخلفش. وديني فاجرة.

ووجد المأمور في إجابته نخنخة معناها عدم الرغبة، فعاد يؤكد له سيخصص المغربية كلها لزكية، وسيريها فيها نجوم الظهر.

* * *

ويبدو أن نجوم الظهر في ذلك الوقت كانت هي ما يشغل بال دميان. كان حاملاً سبت الطلبات في طريقه للبحث عن أكلة سمك لبيت أخيه ولكنه حين وصل إلى القنطرة الحجرية توقف في وسطها تماماً، وتطلع إلى الشمس التي تتوسط السماء. والناس في العادة إذا تطلعوا للشمس لا يحتملون ضوءها الباهر فيغلقون عيونهم، أما دميان فقد كانت لديه تلك القدرة الخارقة. . القدرة على التطلع إلى الشمس والنظر فيها دون أن يغمض عينيه.

ولم تكن تلك القدرة هي السبب في أن بعض أطفال الفلاحين التفوا يتفرجون على دميان في وقفته تلك. السبب هو أنه كان يتطلع إلى السماء

ثم يفرد كم جلبابه الأيسر ويحسب عليه بأصابع يده اليمنى ويقول لنفسه: منصورة. . ان شاء الله منصورة. .

أما من هي المنصورة، ولماذا وكيف تنتصر، فذلك أمر لم يكن دميان يقوله حتى لو كان الناس قد سألوه عنه.

وبيت المأمور يقع تماماً عبر الترعة، والواقف في نافذة بلكونته الصغيرة المطلة على العزبة كان يستطيع أن يشهد ما يدور فوق القنطرة الحجرية بوضوح، ويشهد دميان في موقفه المضحك ذاك. ولكن الواقف لم يكن واقفاً، كان واقفة! كانت الست أم صفوت زوجة المأمور ـ سيدة في الأربعين من عمرها بيضاء ممتلئة الساقين والردفين، ترتدي رغم مكانة زوجها نفس المنديل بأوية الذي ترتديه العائقات من نساء الفلاحين ونفس الثوب المشجر الواسع التفصيل. كان أمر دميان يحيرها من زمن حتى أنها سألت الست عفيفة زوجة أخيه عنه مرة، وزاغت هذه من الإجابة. واليوم، لأمر ما، ربما لهذا اللغط الكثير الذي دار حول اللقيط والحرام وما يصح وما لا يصح، فقد بلغ حب استطلاعها أشده، هي حبيسة بيتها الكبير ليل نهار، لا تزور ولا تزار إلا في النادر. . زيارات تنغص عليها عيشتها. . زيارات متكلفة عليها فيها أن تجامل زوجات الموظفين وتدعي أمامهن الرقي والتمدين، وأحياناً تتكشف ادعاءاتها فتخرج وتخجل وتنفرد بنفسها وتبكي، ويلها من فكري أفندي زوجها إذا أخطأت! فكري أفندي الذي على الرغم من مضي أكثر من عشرين عاماً على زواجهما لا تجرؤ على مناداته بغير يا فكري أفندي، أو بالكثير في لحظات التجلي لا تزيد عن قولها: يا أبو صفوت. أحياناً تحن إلى طفولتها الأولى في بيت أبيها الفلاح. أحياناً تتمنى لو كان في استطاعتها أن تفعل مثلما يفعل نساء الفلاحين وتستحم في الترعة مثلا، أو تخبز بنفسها

العيش وتخرج الرغيف مستديراً تام الاستدارة كما كانت تفعل في بيت أبيها.

فكري أفندي من بحري وهي صعيدية، رآها زوجها حين كان يزور قريبة ناظر محطتهم فأعجبته، وفي يوم وعدة ليال تزوجها. ومنذ أن تزوجها وصلتها تكاد تكون مقطوعة بأهلها، حتى أخوها حين يأتي لزيارتهم في التفتيش بلاسته الصعيدية وقفطانه وحذائه ذي الرقبة الطويلة والأستك، يخفي فكري أفندي أمر زيارته. وإذا سأله البعض عنه قال إنه من الرجال الذي يعملون عند والد الست، وأنه يأتي ليطمئن أباها عليها. وكل تلك النوازع والهواتف كانت أم صفوت لا تستطيع أبداً تحقيقها كان عليها أن تمثل دور زوجة المأمور المتكبرة المحترمة على الدوام. نزوة واحدة فقطهي التي كان يتاح لها أن تحققها دون أن يتهمها زوجها بالخطأ، ودون أن ينالها عقاب. دميان! كثيراً ما كان يأتي إلى البيت ليستعير حلة أو مصفاة أو «فروطة»، أو لينقل رسائل أم لينده إليها. وما من مرة جاءها فيها إلا وأبقته لتتحدث إليه. وتبلغ أقصى درجات السعادة وهي تتحدث إليه إذ تترك نفسها على سجينها تماماً معه. تطلب منه أن يقرأ لها الفنجال، ولا يكون طلبها إلا فاتحة للكلام والغريب أن دميان كان ينطلق لسانه معها فيحدثها مثلا عن مشاكله مع الفراخ، ومشاكله مع زوجة أخيه وأحياناً يبكي أمامها بكاء كبكاء الأطفال، ومع هذا تشاركه البكاء.

كان دميان لا يزال واقفاً في منتصف القنطرة وهي لا تزال واقفة في نافذة البلكونة، والشيء الخطير الذي يؤرقها في تلك الساعة لم يكن هو رغبتها في الحديث التافه الساذج الذي كانت تستعذبه مع دميان. . ما كان يؤرقها هو المشكلة التي طالما أرقت نساء العزبة: ترى أدميان فيه للنساء

أم لا يصلح لهن؟ كانت هذه المشكلة كلما خطرت لها اعتبرتها عيباً وحراماً لا يصح أن تسمح لنفسها بالخوض فيها، ولكن في تلك الساعة لا تدري هي نفسها لماذا تعتبر أن التفكير فيها لم يعد حراماً أو عيباً. إنها لا تريد لا سمح الله أن تخطيء مع أحد بله دميان، كل ما في الأمر أنهـا تريد أن تعرف، فهل يعد هذا حراماً؟

كلما طالت وقفتها في النافذة وطالت وقفة دميان أمـام عينيهـا علـى القنطرة، كانت الرغبة تستبد بها. . حتى وصلت الى الدرجة التي لم تعد تستطيع معها صبراً.

وهكذا نادت على فاطمة وهي إحدى البنات الكثيرات اللائي يشتغلن في البيت ويحتسبن من ضمن الأنفار الذين يعملون في الغيط. نادت على فاطمة وطلبت منها أن تذهـب وتأتـي بدميان. لم يكن في ذهنهـا خطـة واضحة لما انتوته. ولا ماذا تفعل إذا هرب هو كالعادة من الإجابة علـى السؤال؟ هل تستدرجه؟ هل تخدعه؟ هل تغريه وتمضي في نهاية إغرائه إلى نهاية الشوط لترى إن كان سيستجيب؟ لم تكن في ذهنها خطة واحـدة ولكنها كانت قد صممت أن تعرف أمر دميان ولو أدى ذلك إلى أن تفعل معه المستحيل.

جاء دميان ضاحكاً مهمهماً كعادته، السبت معلق في ذراعه واللعاب يكاد يسيل من فمه كلما طوح برأسه أو شرع في الضحك. وقابلته الست أم صفوت بترحاب، وأجلسته على الكنبة في حجرة النوم رغماً عنه إذ كان ينفر من الجلوس في حضرة الناس أشد النفور. ولـم تكن هذه أول مرة يدخل فيها دميان حجرة النوم، فدخوله فيها أمر لم يكن فيه شبهة أو عيب. جلس دميان على مضض وجلست هي بجواره، وطلبت منه أن يحسب لها

نجمها في ذلك اليوم، وشرع دميان يقلب يده ويبلل أصبعيه ويرسم بهما على ظهر يده ويحسب.

ولم تكد تمضي بضع دقائق حتى شاهد الناس دميان يندفع جارياً من بيت المأمور والسبت لا يزال معلقاً في ذراعه، وعبثاً حاول البعض إيقافه لسؤاله عن سبب جريه.

ولم يمض جريان دميان من منزل المأمور بسلام، إذ هو شيء غير عادي.. سر.. وكأنما سر لا حل له فلابد من أقوال تتناثر عنه وتفسيرات وشائعات.

وعلى العموم لم يكن هذا هو السر الوحيد الذي بدأت الأقوال تتناثر عنه وتشيع. ما أكثر الأسرار التي ارتفعت عنها أغطيتها وفاحت رائحتها وبدأت تزكم الأنوف. أيام قليلة مضت منذ اليوم الذي اكتشف فيه عبد المطلب اللقيط ولكنها كانت كافية لأن تقلب الامور في التفتيش رأساً على عقب، فثمة أمٌ لابد أن توجد لهذا اللقيط وطالما هي مجهولة فأي اتهام صحيح، وأي إشاعة قد تكون هي الحقيقة.. والإشاعات كثيرة والألسنة في التفتيش لا تهدأ.

الحرام

١٢

ولم تستدع المسألة أن ينتظر فكري أفندي المأمور تسعة شهور كما فعل سيدنا عمر، إذ بعد أقل من عشرة أيام قد عثر على الجانية. ولم يعثر عليها هكذا بطريق الصدفة، فلفطنته فضل كبير في اكتشافها. كانت لطع الدودة رغم كل مجهودات فكري أفندي قد ازدادت بشكل ينذر بالخطر وأصبحت تهدد بالفقس، ومن ثم باكتساح أرض القطن كلها، والواقع أنه من بين السبعة آلاف نسمة الذين يحيون على أرض التفتيش كان فكري أفندي هو الوحيد الذي يهمه أمر الدودة ونقاوتها. فالمزارعون الفلاحون لا يهمهم القطن في قليل أو كثير. القطن وإن كانوا يزرعونه ويحرثونه وتحتسب عليهم مصاريف جمعه ونقاوته وحتى تطهير المصارف حوله إلا أنه محصول صاحب الأرض ولا شيء غير هذا. فالفلاح يأخذ حقيقة الثلث من محصول الأرض التي يزرعها، ولكن الثلث يذهب هباء.. يذهب في تسديد مصاريف القطن ومصاريف المحاصيل الاخرى والسلفة التي اقترضها الفلاح في بحر العام ليشتري بها التقاوى ويكري الأنفار. وحتى إذا بقي للفلاح شيء بعد هذا يقيد لحسابه في العام القادم فكيف يهمه أمر القطن إذن؟ الإدارة هي التي تأخذه وهي التي عليها أن تتعهده.. والمسألة في رقبة المأمور. فالقطن غال وهو يعد المحصول

الرئيسي للأبعادية، وإذا أكلته الدودة ضاعت على الخواجة صاحب الأرض آلاف الجنيهات، بل ضاع فكري أفندي نفسه. والسبب الرئيسي لرفته من التفتيش الذي كان يعمل فيه قبل عمله هذا كان هو الدودة حين فقست منه والتهمت أوراق القطن وأضاعت المحصول. ولذا ففكري أفندي لا يخاف من شيء في الوجود قدر خوفه من اثنين: الدودة وصاحب الأرض. ولا يتبلور هذا الخوف ويصبح هلعاً إلا في موسم مقاومة الدودة وهي لا تزال لطعاً. . هو موسم الامتحان الرهيب لفكري أفندي وأعصابه وعضلاته ومستقبله وكل شيء فيه. وبين شماته الباشكاتب ومكائده وخطابات المفتش الذي يكتبها بنفسه وبخطه الماكر الحذر. . ويكتب أجزاء منها بالحبر الأحمر ويعلم تحتها بخط، وبين عدم مبالاة الفلاحين ولكاعة الأنفار والسواقين ولعبهم، يهلك فكري أفندي وهو يصحو من الفجر ويعود من الغيطبعد أذان العشاء، ويدعو الله دواماً أن يسترها معه. وأخوف ما يخافه أن تهبط المقاومة مرة فتفقس اللطع وتكون الكارثة ويرفت، ويعيش في ذلك الذل المقيت الذي يفضل الموت على تعاساته. ففكري أفندي كمعظم زملائه من مآمير التفاتيش ونظارها إذا رفتوا من التفاتيش لا يستطيعون مغادرته إلا إذا وجدوا عملاً في تفتيش آخر. وعلى هذا فحين يفصل الواحد منهم يظل يرجو صاحب الأرض حتى يبقي عائلته في بيت التفتيش الذي يسكن فيه، بينما يهيم هو على وجهه في القطر كله سائلا معارفه وأصحابه باحثاً عن عمل ولو لينقل إليه عائلته ويسكن. والمصيبة الكبرى حين تأتي عائلة الموظف الجديد بعفشها وصغارها قبل أن يجد الموظف المرفوت عملا ومن ثم محل إقامة. .

من أجل هذا فرعب فكري أفندي من الدودة اشد ضراوة من رعبه من

الموت، وحرصه على أن يتحلى بالخلق الكريم راجع إلى اعتقاده بوجود رابطة قوية بين أي إثم قد يرتكبه وبين الشياطين السوداء الزاحفة التي يطلقها الله عليه في كل عام مرة، ليمتحن بها ويعاقب العقاب الأكبر إذا أخطأ، وتنسحب ملايين الملايين من الشياطين إلى أوكارها إذا ثبتت نظافته وبراءته.

كان لفرط حرصه يخرج قبل شروق الشمس ويجوب أرض القطن كلها مشمشماً بأنفه، خائفاً لا قدر الله أن تلتقط حواسه رائحة الدودة. فاللطع لا رائحة لها، أما الدودة فأعوذ بالله من رائحتها حين يطب قلبه إذا التقطها بأنفه.. رائحة غريبة على الغيط وعلى القطن وعلى الصبح المبكر. ملايين الملايين من حيوانات صغيرة متوحشة تلتهم في طريقها كل أخضر ويابس.. كأنها رائحة القبر. رائحة الموت حين يلتهم الأحياء ويتبرزهم.. رائحة الورق الأخضر الحي وهو يموت، والموت الأسود الزاحف وهو يعيش على الأخضر الحي. كان فكري أفندي يقشعر لمجرد السيرة ولمجرد ومضة الخاطر. وآه لو شمها الخواجة صاحب الأرض.. الخواجة زغيب الذي لا يضطرب فكري أفندي لشيء قدر اضطرابه حين يعلم أنه قادم. حتى وهو يصدر الأوامر للكلافة والتملية برش ما أمام السراية والطريق وكنسه تخرج أوامره راجفة تفضح اضطرابه. ويقولون أن التفتيش كان في أول أمره ملكاً لأحدى البرنسيسات ثم باعته الأميرة للخواجة زغيب الكبير، وصاحب الأرض الحالي ابنه الأكبر. ضخم فحل ذو شعر كثيف أصفر يظهر من صدره وسواعده حين يرتدي القميص والبنطلون والبرنيطة البيضاء المصنوعة من الفل، ويخرج للمرور. طوال المرور لا يبتسم، وإنما يرقد فوق الحصان الذي لا يركبه أحد سواه، يرقد فوقه كالتمثال الأصم. وفكري أفندي هو

الذي يبدو على الركوبة بجواره كالقرد العجوز، طوال الوقت عيناه معلقتان بملامح الخواجة، ولسانه رائح غاد يتحدث ويحاول إضحاكه، ويده تشير وتلفت النظر إلى مصرف تطهر حديثاً وتعمق، أو إلى مشاية أنشأها هو بحذق ومهارة. . يده تشير وتلفت وتداري العيب أيضاً إذا كان هناك عيب، ولا بد أن يكون هناك عيب، يدعو فكري أفندي الله وملائكته ورسله ألا تقع عليه عين الخواجة، ولكن عينه دائماً تقع عليه وكأنما خلقت لا ترى إلا العيب. والفاجعة أنه لا يتكلم حين يراه. ليته يتكلم ولكنه يسكت، وما أبشع سكوته في تلك اللحظات.

كان متزوجاً من فرنسية نادراً ما كانت تأتي معه، فيحاول فكري أفندي اتحافها بسبت صغير من التوت الأحمر الذي تحبه لعلها تدلي في حقه بشهادة تبيض وجهه، ولو بتلك اللغة التي لا يفهمها والتي لا تتحدث الى الخواجة الا بها. وكانوا يقولون إن الخواجة له عشيقة غيرها، وإنه لا يخلف، وإنه لولا دينه الكاثوليكي لكان قد طلقها. . ربما ليخلف ولداً يرث هذا الملك كله. ويقولون ـ وفكري أفندي هو القائل ـ أن له في سرايته المطلة على البحر في سيدي بشر بالإسكندرية حجرة سفرة من الذهب الخالص، كراسيها مطعمة بالذهب وأطباقها وملاعقها وشوكها وسكاكينها ذهب في ذهب. يقولون إن «زغيب» الكبير اشتراها حين عزم الملك لما كان سلطاناً على العشاء عنده ويقولون اكثر من هذا. . يقولون إن الخواجة الابن قد تدهورت أحواله بعد وفاة أبيه، وأنه باع التفتيش فعلا للشركة البلجيكية للأراضي وأنه أستأجره منها وهو الآن يديره لحسابها. تلك رواية، ورواية اخرى تقول إن الأحمدي باشا مليونير المديرية يفكر في شرائه، بل ويتفاوض فعلا مع الخواجة والشركة. . ويتصعب الناس،

الحرام

فالأحمدي باشا هذا كان قبل الحرب العالمية الأولى شيالاً في مضرب ارز، وتاجر فيه وكسب واغتنى واشترى المضرب، واصبح له شُوَن وعمارات وألوف مؤلفة من الجنيهات في البنوك، ويفكر الآن في شراء تفتيش البرنسيسة، والأدهى من هذا أنهم يقولون إنه على استعداد لدفع ثمنه بالكامل نقداً.

الأقوال عن التفتيش وصاحبه الخواجة زغيب كثيرة، ولكن المهم أنه لا يزال صاحب الأرض الذي ترتجف أوصال فكري أفندي لمجرد احتمال قدومه. الساكت الذي لا يخرجه عن سكوته إلا الخطأ إذا لمحه، حينئذ لا يعرف أباه. يفصل ويرفت ويخصم وأحياناً يضرب. وآه من هذا الساعد الضخم الذي تربى على الفراخ والحمام والديوك والخمرة حين يهبد به الواحد فيطبق به قفص صدره.

كان ازدياد لطع الدودة إذن خطراً ساحقاً يجب تداركه، وازدياد اللطع كان يعني لدى فكري أفندي شيئاً واحداً: أن مقاومتها ليست على ما يرام. ومعنى هذا أن الأنفار يتكاسلون، والمشرفين عليهم من الخولة والسائقين والملاحظين يلعبون. وقد تكون هناك أسباب كثيرة لهذا ولكن فكري أفندي كان يعزوه لسبب واحد ليس هناك من سبب سواه. نهيق ركوبته.. هو الذي يكشف قدومه من بعيد ويجعلهم يمثلون أمامه رواية «وطي يا ولد.. وطي يا بنت» التي يجيدون تمثيلها تمام الإجادة. وعلى هذا الغي فكري أفندي الركوبة من مروره، وأصبح يقطع عشرات الكليلومترات سيراً على الأقدام عله يفاجىء مرءوسيه ويضبطهم متلبسين بجريمة الإهمال.

وأكثر من مرة تم لفكري ما أراد وفاجأ صفوف الأنفار من الخلف، وفي

كل مرة كان يخيب أمله بعض الشيء إذ كان يجد العمل قائماً على قدم وساق ولا إهمال هناك أو تقصير. مرة ضبط عرفة ريس الترحيلة جالساً تحت الجميزة في الظل يلعب السيجة مع الاسطى محمد العجوز، ومرة ضبط «صالح» الخولي قد ارسل نفرة من الترحيلة لتحضر غداءه من العزبة ولكن فيما خلا هذا كان العمل جارياً وكأن عرفه ليس جالساً يلعب السيجة، أو «صالح» قد استحل لنفسه أن ينقص العمل مجهود نفرة!

ولكن فكري أفندي لم ييأس فلابد أن هناك إهمالاً ما، ولابد أن يضبط ذلك الإهمال. وفي ذلك اليوم حين عثر على تلك «الظُلّيلة» مقامة بين أعواد التيل المزروعة حول تربيعة القطن، دق قلبه بفرحة الاكتشاف واعتقد أنه أخيراً عثر على الإهمال! فلا بد أن تحت تلك الظليلة أنفاراً يستريحون أو يلعبون. لم يضع جهده إذن عبثاً، ولا راح هباء ذلك الإرهاق الطويل الذي لاقاه من المرور بلا ركوبة سيراً على الأقدام.

ودون أن يسأل عرفة أو يكلمه، ما كاد يرى الظليلة حتى أسرع تجاهها ليضبط المتظللين في حالة تلبس.

كانت الظليلة مصنوعة من جوال قديم مربوط من جهاته الأربع في اربعة اعواد من التيل، وحين فرق فكري أفندي الشجيرات وأطل، فوجيء حين لم يجد انفاراً كثيرين تحت الظليلة. في الحقيقة لم يجد إلا نفراً واحداً. أو على وجه أصح نفرة واحدة. امرأة كانت راقدة على جنبها كالنائمة.

وانقلبت خيبة أمل فكري أفندي الى شراسة، وقال لعرفة وعيونه تقدح بالشرر.

ـ إيه دي؟ نايمة هنا ليه؟ مش ماسكة خطليه؟

فقال عرفة وهو يبتسم ابتسامة ضايقت المأمور اكثر:

ـ دي عزيزة يا سعادة البيه.

وبنفس الشراسة قال فكر أفندي:

ـ عزيزة إيه؟ عزيزة مين؟

ومرة اخرى قال عرفة وهو يخفض ناحية من ابتسامته ويرفع الأخرى:

ـ عزيزة اسم الله على مقامك يا سعادة البيه.

١٣

وكأنما دق جرس صديء دقة واحدة باهتة في عقل فكري أفنـدي. أممكن أن تكون هي الآثمة التي بحث عنهـا حتـى يئس ونفض يده من البحث؟ الخاطر ضعيف وواه،ولكن أوهى منه هو ذلك الخيط الممتد من ابتسامة الريس، فلو سأله مباشرة فمن المحتمل أن يخاف ويحرن كمـا تحرن الحمير إذا رأت حفرة في الطريق، وهو أعلم الناس بهؤلاء الناس حين يخفون الشيء ويخافون إظهاره. عليه أن يستعين بالمـكر وطـول البال وادعاء الجهل عساه يفلح في إخراج كل ما وراء فم الريس المضموم المبتسم هذا.

وقال فكري أفندي بنفس لهجة المأمور في حضرة الخطأ:

ـ محسوبة دي من ضمن الأنفار؟

وخاف الريس أن يكذب فيعاقب على كذبه أضعاف معاقبته علـى مغالطته فقال:

ـ محسوبة يا سعادة البيه.. وأنا محسوبك.

ـ وازاي تبقى محسوبة نفر وهي نايمة؟

قال الريس بمسكنة:

ـ غلبانة عيانة، مش قادرة تمسك الخطيا سعادة البيه المأمور.

الحرا

ورد فكري أفندي بعنف:

ـ يبقى ما تتحسبش يوميتها.

قال الريس وأمره إلى الله:

ـ ما تتحسبش يا سعادة البيه، اللي تشوفه.. ما تتحسبش.

ـ لا يا شيخ.

قالها المأمور وقد استعد أن يوجه طعنته. فهو لا يعني ما يستجد، إنه يعني ما فات.. يعني الأيام التي قضتها تلك المرأة راقدة لا تعمل واحتسبت فيها يوميتها زوراً وبهتاناً. والريس كان ايضاً يعرف هذا ويدرك أن العقاب قد يكون فصله بل ومن المحتمل سجنه. ولم يصمد الرجل طويلا.. من تلقاء نفسه قالها. ولم يقلها مباشرة بدأ بمقدمة طويلة عن الفقر والناس الغلابة وعمل الطيب وإلقائه في البحر. ثم انتهى إلى أن عزيزة هي أم اللقيط المقتول، وأنهم حين عرفوا هذا تستروا عليها، فهي ولية وكلنا لنا ولايانا، وحين أصابتها الحمى رأوا أن يرقدوها في الغيط تحت ظليلة لكي يستمر أجرها سارياً، فهي غلبانة آخر غلب، وتنفق على زوجها المريض وأولادها الثلاثة منه.

كان المأمور يستمع إليه وعلى وجهه نفس صرامته الأولى، ولكنه قرب النهاية بدأ وجهه ينفرج قليلاً قليلاً، ثم بدأت الدهشة ترتسم عليه وتأخذ مكان الصرامة، المذهل في الموضوع أنها كانت متزوجة، فلماذا تقتل ابنها وهي متزوجة؟ قال فكري أفندي هذا للريس فأجابه الرجل:

ـ حد عارف يا سعادة البيه؟.. الدنيا مليانة بلاوي.

ـ حد عارف ازاي؟! انت اتجننت واللا جرى لعقلك حاجة؟ بقى واحدة مجوّزة تموّت ابنها خبط لزق كده ويبقى اسمه الدنيا مليانة بلاوي. جوزها عايش يا وله؟

ـ عايش يا سعادة البيه.

ـ ومخلفة منه؟

ـ ومخلفة منه.

ـ كانت بتقتل ولادها قبل كده؟

ـ ابداً يا سعادة البيه.

ـ اشمعنى المرة دي؟

ـ الله أعلم يا سعادة البيه.

الريس بدا وكأنه لم يفكر أبداً في غرابة المسألة، أو أنه كان قد فكر فيها فلم يأخذها أبداً على أنها مشكلة خطيرة تستوجب إعمال الفكر. كل ما في الأمر أن الأنفار حين رجوه أن يصنع معروفاً ويجعل عزيزة ترقد تحت الظليلة في أثناء العمل، فعل هذا عن طيب خاطر، فهو يعرفها ويعرف زوجها وأباها، وكل ما كان يقلقه أن يكشف المأمور أو أحد من رجال الإدارة ما يحدث. ذلك هو كل ما كان يشغله. أما الآن فمشغوليته الكبرى هو التحايل على المأمور حتى يتجاوز عن هذه الغلطة. وهكذا عاد يرجوه ويلح في الرجاء أن يمسحها المأمور في ذقنه وأنا وقعت من السما يا سعادة البيه وانت استلقيتني.. إلى آخر هذه الأقاويل التي يجيد الريس إخراجها ونطقها في كل مأزق.

ولكن المأمور كان في شغل شاغل عنه، فأمله وإن كان قد خاب قليلاً إذ تبين أن ليس في المسألة جريمة أو زانيةولا بنت بكر ضحك عليها شاب أرعن وأغواها، أمله وإن كان قد خاب إلا أن مشكلة المرأة بدأت تستحوذ عليه بطريقة اخرى، لماذا تقتل امرأة متزوجة مثل تلك الملتفة في خرقها السوداء ابنها؟

الريس لا يبدو عليه أنه يعرف شيئاً ويخفيه، والحقيقة لا يمكن أن يعرفها إلا الله سبحانه وتعالى وعزيزة.

قال فكري أفندي للريس:

ـ سألتوها عملت كده ليه؟

قال الريس:

ـ والله ما عرفنا نطلع منها حاجة، وأهي عند سعادتك كلمها. وبغير أن يقول الريس هذا كان في نية فكري أفندي الأكيدة أن يتحرك إلى الظليلة ويتفحص هذه المرأة الذائبة. كانت راقدة في بطن قناية صغيرة من القنوات التي نروي منها الترابيع. . راقدة على جنبها وقد ضمت ركبتيها الى بطنها وامسكت رأسها بكوعيها متكورة على نفسها كالجنين في بطن أمه. ولم يكن يبدو عليها أنها تختلف قليلاً أو كثيراً عن بقية النساء في جيش الترحيلة، إذ كان واضحاً أنها سمراء غامقة السمرة، أو بالأحرى محروقة الجلد. . حرقته الشمس الكاوية التي تنصب عليه أشعتها طوال اليوم بلا حجاب أو حاجز. غير أن فكري أفندي لم يفته أن يلاحظ أن ثنية ركبتها فاتحة. وأن ثوبها الأسود المشقوق في اكثر من موضع يظهر احياناً بقعاً بيضاء كدوائر النور حين ترتسم على الأرض من ثقوب السقف.

حدق فيها فكري أفندي طويلا معتقداً أنها لابد حين تشعر بوجوده فوق رأسها سوف تجلس مثلا أو تعتدل، ولكن شيئاً من هذا لم يحدث بقيت نائمة لا يتحرك لها طرف أو جفن، وحينئذ قال لها فكري أفندي:

ـ اتعدلي يا بت.

قال لها هذا وهو يلكزها لكزة هينة ببوز حذائه.

ولم ترد أو تعتدل، فقد حولت إليه عينيها حتى واجهتاه. وليتها لم

تفعل. كان وجهها محتقناً شديد الاحتقان حتى استحال لونه الى سواد. وكان في عينيها كتل دم.. دم حقيقي لا يحول بينه وبين أن يسيل إلا ستار لامع رقيق. وكانت أسنانها تصطك وجسدها كله يرتعش ارتعاشاً تكاد العين لا تلحظه.

وبحركة تلقائية غريزية وضع فكري أفندي ظهر يده المغطى بالشعر والعرق على جبينها. وسحبها في الحال وكأنما أصيب بلسعة وهو يقول:

- دي عندها حمى يا وله.

فأجاب الريس:

- بقى لها يومين.. غلبانة.. زي ما سعادتك شايف.

- شايف إيه؟.. دي تموت كده.

ووجد الريس أن الوقت قد حان فما لبث أن أضاف:

- وعلى العموم إذا كنت سعادتك عايز تخصم يوميتها والله إللي تشوفه.

وكان التوقيت مضبوطاً فعلا، فقد هز فكري أفندي رأسه هزات كثيرة ذات اليمين وذات اليسار وهو يردد: لا حول ولا قوة إلا بالله. وكان معنى هذا أنه على الأقل قد قبل أن يتغاضى عن رقدة عزيزة، وأن يحتسب يوميتها.

ظل فكري أفندي واقفاً في مكانه طويلا كمن لا يدري ماذا يفعل ينظر إلى المرأة المتكورة في سوادها على الأرض الخشنة ذات الطوب والقلاقيل، ويعود ينظر إلى الأنفار، ثم يهيم في سكون الغيط المضيء المقيت..

وفجأة صرخت المرأة الراقدة كما يصفر القطار على حين بغته، ومدت

الحرام

يدها في وحشية واقتلعت عودين من أعواد التيل ثم انهالت عليهما عضاً بأسنانها وقرضاً وهي تقول مولولة:

ـ جدر البطاط كان السبب يا ضنايا.

ـ وتراجع فكري أفندي إلى الوراء مذعوراً، وبعد ما التقـط الـريس أنفاسه قال للمأمور:

ـ أصلها لا مؤاخذة بتخرف يا سعادة البيه. الحمى ملهلبة نافوخها. . خد من ده كتير. . طول الليل والنهار على كده. . دي بتقول كلام. . باينها شافت كتير الولية دي. . ربنا يكون في عونها.

١٤

حتى وهي في تمام صحتها لم تكن عزيزة بارعة الجمال، ولم تكن حتى جميلة. كانت طويلة رفيعة ذات أنف طويل رفيع ورقعة سوداء تعصب رأسها على الدوام، ووجه أصفر وعينين واسعتين على إحداهما نقطة بيضاء من رمد قديم. ولكنها لم تكن هكذا طيلة عمرها. كانت ذات يوم بنتا حلوة ذات أهداب وشعر ونهود، تضع الكحل وتطقطق بالشبشب إذا سارت وحاذت الشبان. كانت هكذا إلى أن زوجوها إلى عبدالله. وأيضاً كان لها ليلة حنة وفرح ودخلة ونقوط وماء ساخن حملته لها أم عبد الله في الصباحية، صباحية لم تستمر إلا صباحاً واحداً، والصباح الذي يليه كانت في الغيط. لم يكن لزوجها أرض يزرعها وحتى لم يكن له أرض يستأجرها. كان يعمل باليومية، يوم فيه وعشرة ما فيش، وعماده كله على مواسم الترحيلة حين يقبض من الحاج عبد الرحيم المقاول وتحمله عربات النقل إلى تفاتيش كثيرة من تفاتيش مصر في الدقهلية والشرقية وحتى إلى الفيوم وبني سويف كانت تحمله العربات. غير أنه من يوم أن تزوج عزيزة لم تعد العربات تحمله وحده، أصبحت تحمل معه عزيزة. وبدل اليومية الواحدة أصبح يقبض يوميتين. وسنين طوية حافلة قضاها هو وعزيزة في الغربة وبلاد الناس رأيا فيها الكثير وجمعا القليل. ولكنهما

عاشا وخلفا عبدالله الصغير وناهية وزبيدة، عاشا يقبضان القبضية من الحاج عبد الرحيم في موسم القطن ويعيشون جميعاً عليها بقية العام. يعيشون غصباً ومحايلة وبالجبنة احياناً وبالعيش الحاف والملح في أحيان، ولكنهم يعيشون والسلام. إلى أن حدث ما كان لابد أن يحدث.. مرض الزوج، بدأ الأمر بمغص في الجانب الشمال ثم انتقل إلى اليمين ثم سرى في البطن كله، ثم بدأ البطن نفسه ينتفخ بالماء. وقالوا لعبدالله اكو بالنار فكوى بالنار، وقالوا له بلهارسيا وطحال فانهدت البقية الباقية من حيله، وإبر المستشفى في المركز تندك في ذراعه وتفرغ سمها الهاري في جسده وتجعله يهوي، وتجعله يدوخ أحياناً ويرشون على وجهه الماء. ويوم فيه ويوم ما فيش! وكل يوم يذهب إلى المستشفى لابد أن يصحو من الفجر، ويكون هناك في السابعة وإلا ضاع دوره، ويعود في العصر أو في المغرب ماسكاً بردعة حمار من حمير بلدياته مستنداً إليها، أو ماشياً عشر خطوات ومستريحاً عشراً.

ومع هذا كله فقد ظل عبدالله يذبل ويذبل وكأن جسده يموت بالتدريج، ولا قوة في الأرض تستطيع أن تمنعه أو توقفه.. حتى أقعده داء المية. والواقع أن الداء لم يكن هو الذي أقعده، الحاج عبد الرحيم هو الذي هزمه حقاً وطرده من فوق عربة النقل.. ولم تفلح الوساطات أو الشفاعات لديه. إذ ماذا يفعل به والوسية بالتأكيد لن تقبل أن تحتسبه نفراً؟ وبكت عزيزة ونزلت هي الأخرى من العربة. وقال لها الناس: روحي انت فأبت وقالت: نفوتها السنة دي يمكن السنة الجاية نطلع سوا. وغضب عبد الله وقال لها: روحي انت. ولكنها أبت وقالت: وأسيبك على مين؟

وظلت عزيزة بجواره. تخبز للجيران أحياناً، وتلم روث البهائم

وتبيعه، وتسرح بالحطب الى المركز وتعود بقرش أو بقرشين، وفي كل اسبوع أو عشرة أيام تحظى بيومية. وعبدالله راقد في صحن دارهم الواطئة، بطنه عال، وصوته واهن، ويده المعروقة الصفراء تربت على عبدالله الصغير في ناحية وعلى ناهية وأختها في الناحية الاخرى، ويحس انه فعلاً مريض وأنه عاجز وأنه لولا عزيزة لماتوا جوعاً، ومع هذا لا يطاوعه ضميره فيئن وتتقبض يداه وينظر الى السقف المهبب المنهار بعينين قد كبرهما الداء ووسعهما وجعلهما تبرزان وتلمعان لمعاناً غريباً ويقول:

ـ كده يا رب! . . يرضيك مراتي توكلنا؟ . .

كان يستكثر هذا على نفسه، بل عزيزة هي الاخرى كانت تتألم، وهي تراه راقداً أصفر منفوخاً عاجزاً، ولكن الزمن. . الزمن القوي القادر ما لبث أن تكفل بكل شيء، فلم يعد عبدالله يستكثر هذا على نفسه ولا على عزيزة، ولم تعد عزيزة تنظر الى مرض عبدالله على أنه أمر غريب أو نشاز. أصبح كل شيء طبيعياً. هي تخرج في الصباح ولا تعود إلا بشيء، وهو يحرس الدار التي لا شيء فيها ويرعى الأولاد، ويتحين الفرصة ليجرع الماء الذي تحرمه عليه عزيزة حين تكون موجودة، فقد قالوا لها إن علاجه في منع الماء عنه.

أصبح الأمر طبيعياً إلى الدرجة التي قال لها عبدالله ذات يوم بدلع المريض حين يهده المرض ويجعله عصبياً كالأطفال، كثير المطالب كالولد المدلل. قال لها:

ـ نفسي في البطاطة يا عزيزة.

وطلبات المريض مجابة ومقدسة، وكأن أهله يرون فيها الشفاء، أو وداع الدنيا.

وقالت له عزيزة:

ـ يا حبيبي.. من عيني دي ومن عيني دي.

ولم تكن في البلد بطاطة. كانت هناك زرعة بطاطة في فدان قمرين ولكنها جمعت من زمن وبيعت وأرضها تهيأ للأذرة، ولكن طلب عبدالله عزيز وعليها أن تحاول، وهي تعرف أن أهل البلد ـ بعد ما جمعت البطاطة ـ قد أشبعوا أرضها حفراً وتنقيباً بحثاً عن جذر بطاطة يكون قد أخطأته فأس جامعها، وأن لم يعد في فدان قمرين أي أمل في العثور على عقلة أصبع، ولكن طلب عبدالله عزيز وغال وعليها أن تفعل المستحيل.

وحملت عزيزة فأس عبدالله التي صدئت من قلة ما تستعمل، وذهبت إلى فدان قمرين، وقصدت أقل الأمكنة حفراً وأخذت تعمل.. وحفرت إلى عمق متر ولم تجد، وانتقلت إلى مكان آخر أعملت فيه الفأس وأيضاً لم تجد. كانت تجد كل شيء.. جذور الزرع القديم وشقافة ورملا وأحياناً قطع حديد ولكنها لا تجد ابداً جذور بطاطة.

وبينما هي تعمل وتلهث وقد شمرت ثوبها الأسود وربطته حول وسطها كما يفعل الرجال، رأت خيالاً ثم سمعت صوتاً يقول:

ـ بتعملي إيه يا بت؟

وحتى قبل أن ترفع رأسها كانت قد عرفت أن صاحب الصوت هو محمد بن قمرين.

ورفعت عزيزة رأسها وعدلت ظهرها ومسحت عرقها وقالت له الحكاية، ورجته أن يسمح لها بمعاودة البحث، وقال محمد كلاماً كثيراً

عن الحفر وكيف يضعف الأرض ويخفي طميها ويبور المحصول. غير أنها عادت ترجوه وتلحف في الرجاء حتى بكت. ويبدو أنها صعبت على محمد، فلم يوافق على معاودة الحفر فقط ، ولكنه كان شهماً فقال لها :

ـ طب عنك انتي.

وخلع جلبابه وأخذ منها الفأس، وتلفت حوله بعين خبيرة ثم انتقى مكاناً ما لبث أن راح ينهال بالفأس عليه، وعزيزة قد جلست غير بعيد ترقبه وتقارن بين حفرها وحفره، والفأس في يدها هي أقوى منها وأثقل والفأس في يده هو. . هو القابض عليها. . هو المتحكم فيها. . هو الرجل. . هو الرجل الذي يذكرها بعبدالله حين كان يعمل، وتصبح له العضلات البارزة في بطن ساقه، وتتكور تلك العضلات الأخرى في بطن ذراعه، ويلهث. ليس لهث المتعب، ولكنه لهث الرجل حين يعمل لهث منتظم قوي وقور.

كان محمد بن قمرين في العشرين، وكانوا يتكلمون عن زواجه من ابنة قريبة لهم، وكان معروفاً بشراسته حتى أنه لم يكن يتورع عن سب النساء، ولكنه كان من الغيط إلى البيت ومن البيت إلى الغيط لا يعرف قهوة ولا غرزة ولا أي كلام فارغ مما يعرفه شبان القرية صياعها. حمداً لله إذن أنه عاملها برفق، حمداً لله أنه لم يشتمها، وكتر خيره أنه تطوع بأن يبحث لها عن جذر البطاطة.

خبط محمد خبطتين متواليتين ثم قال لها وهو يبتسم وصوته يضحك، وربما لأول مرة كانت تراه يبتسم أو يضحك:

ـ خدي يا ستي.

وناولها جذر بطاطة صغيراً فرحت به كاللقية، وكادت تهم بالوقوف

فضيحة ومضغة في الأفواه؟ تسكت؟ تعضه؟ حتى ملابسها التي لا تحتكم على غيرها مزقها. كل ما حدث انها ظلت تئن مذهولة مرعوبة حتى قام. وشتمته، ولكن ماذا تفيد الشتائم؟ لم يقل هو حرفاً، فقط ظل ينظر هنا وهناك. الغيط خال تماماً والبهائم والناس تروح من بعيد. وعاد إليها من جديد. وهذه المرة كان يمكن أن تقوم وتجري وتضربه بالفأس إن اضطرت، ولكنها لم تفعل. سكتت وظلت تئن أنين المظلوم الذي لا يخلي نفسه من مسئولية ظلمه.

وفرح عبدالله بالبطاطة وأكل منها الأولاد، وحتى هي نابتها قطعة، وفي الأيام القليلة التالية كانت تراودها ذكرى ما حدث، وتشيح بوجهها وتلعن نفسها وابن قمرين وجذر البطاطة وعبدالله. ولكنها تحمد الله في سرها أن أحداً لم يرها، وإن ابن قمرين تقوّل عليها فلن يصدقه أحد، ولكنها بعد أيام كانت قد نسيت كل شيء عما حدث، وأي شيء ينسى قدر البحث الدائب عن لقمة العيش. الذين لا ينسون هم الذين لديهم الوقت لكي يتذكروا ويسرحوا مع الذكرى. وعزيزة تبدأ اليوم مسعورة تجري هنا وهناك لتحصل على خبز لذلك اليوم، وتعود منهوكة مهدودة ما تكاد تضع رأسها على المخدة القش حتى يدهمها تعب أشد في مفعوله من النوم. غيبوبة طويلة يوقظها منها ذلك الهاتف الخفي الذي يوقظها كل فجر، هاتف اللقمة والدار الفارغة والأفواه المفتوحة الجائعة.

حتى المرض الشهري حين انقطع عنها لم تعره اهتماماً يذكر، فكثيراً ما كان ينقطع وينتظم ويغيب شهراً ثم يعود. لم تفطن إلا حين بدأت تحس بالحمل. ورغم كل علاماته وإشاراته فلم تصدق أنه حقيقة حمل أمن مرة واحدة أو مرتين يحدث هذا، ومن أجل جذر بطاطة؟!.

الحوار

أفظع ما في الأمر كان عبدالله.. عبدالله لم يقربها من عمر ابنتها زبيدة، والناس تعلم هذا. فماذا يقول، وماذا يقول الناس؟ هو لن يقتلها فهو عاجز عن قتلها، والناس لن يقتلوها فهم لن يستطيعوا قتلها، ولكن القتل عندها أهون من أن يعرف عبدالله ويعرف الناس.

كان لا بد إذن من التخلص من هذا الشر المستطير الذي يرقد في مكان ما من بطنها، ويكبر كل يوم ويملؤها ولن يهدأ حتى يخمد أنفاسها. وجربت عزيزة كل شيء.. أعواد الملوخية، وإدارة الرحى فوق بطنها والقفز من السطح جربته. ولكنه كان ابن حرام فعلاً فلم يزحزحه كل هذا ولميسقطه ،بل مضى يكبر كل يوم، بل بدأ يلعب، ولا يحول بينه وبين أن يفضحها على الملأ إلا هذا الحزام القوي السميك الذي تتحزم به في غل وجبروت، وكأنها تريد أن تخنقه في بطنها وتقتله قبل أن يقتلها.

كان الحزام يخفي بطنها إلى حد كبير، وكانت تترك عب جلبابها الأسود الواسع مهدلاً فوق الحزام الخارجي، وحين تمشي وحين تقف وحين تنام وحين تتحدث كانت تراعي دائماً أن تفعل هذا بطريقة لا تدع مجالاً للشك فيها، وكان هذا يؤلمها أشد الألم، وكانت تتحمل أشد الشدائد حتى دون أن يكون لها الحق في الشكوى، والشكوى أحياناً تذهب بالألم. وكانت تحتمل وتكظم، ويفيض بها الحال في ليال وتتنفس بحرية وترفع يديها وأنظارها وروحها إلى السماء وتطلب من الله أن ينقذها، إن لم يكن لأجل خاطرها فلأجل خاطر عبدالله الراقد العاجز.

كل ليلة وكل دقيقة تدعو ولا دعاء من دعواتها يستجاب، بل حدث ما هو أمر. جاء الموسم ونادى المنادي في البلد. النفر بسبعة يا أهالي والقبض على خمستاشر يوم والغايب يعلم الحاضر.

لم ترض. ولكنها ترد وتقول: ولكني لم أرفض. تضرب رأسها في الحائط وتقول: كنت عارفة إنه حرام وعيب. لم تقاوميه كما يجب. لم تصرخي وقلت الفضيحة. وها قد أتتك الفضيحة الكبرى. انفضحي إذن يا عزيزة واشبعي فضيحة، فلولا أنك ضعفت لحظة لما حدث ما حدث. لحظة.. لحظة ضعف واحدة منها هي التي قاومت طبيعتها حين رقد عبدالله رقدته التي لم يقم منها. قاومت الليالي التي كانت تريده فيها ولا تستطيع أيكون هذا هو السبب في أنها ضعفت تلك اللحظة؟ اللحظة التي أخذها فيها محمد بن قمرين.

* * *

كان عليها أن تنتظر حتى تنام الترحيلة ثم تبتعد عنهم قدر ما تستطيع وتلد. ولكن الولادة ليست بالإرادة. بدأت العواصف المتلاحقة تجتاح بطنها ولم يلبث القرن أن طش، وجيرانها في الفراش والعزال، وجيران جيرانها ومعظم الناس لا يزالون مستيقظين. جارتها تسألها ما بها وملابسها غرقى مبتلة وفي بطنها نار فتقول: رأسي..

وكان لابد مما ليس منه بد. فما لم تلحق نفسها فستلد وهي في مكانها تحت سمع الترحيلة وبصرهم أجمعين.

وقامت منحنية، ولم يأبه أحد لقيامها فقد حسبها تريد أن تفعل مثلما يفعل الناس. وما كادت تبتعد عنهم بأمتار وتغيب قليلا في الظلام حتى بدأ الطلق يثنيها ويفردها. ومع هذا فلم تنس البيضة التي استلفتها ولا قطعة الصفصاف الجافة التي احترق نصفها كانت كل منهما في يد.

وظلت تمشي حتى وصلت إلى حافة الخليج، وظلت تمشي على

الحافة حتى لم تعد قادرة على المشي. وكل هذا ولم تكن قد ابتعدت عن الترحيلة كثيراً. كانوا على مرمى السمع منها تصلها أصواتهم، ولولا الظلام الرابض بينها وبينهم لعرفوها وعرفوا ما هي مقدمة عليه.

ووضعت قطعة الصفصاف الجافة بين أسنانها، وجلست القرفصاء وكلما عوى الطلق المتلاحق في جنباتها انغرست أسنانها لآخرها في الخشب الجاف وتقبضت يدها تعتصر طين الخليج حتى تقذف به وقد، فقد ماءه وجف وتجمد.

وأيضاً لم تنس ما يجب عليها عمله. فما كاد رأس الجنين يطل حتى كسرت البيضة ومضت توزع محتوياتها الزلقة علها تفلح في زفلطة الرأس وخروجه.

وانساب الجنين في النهاية..

انساب مرة واحدة وكأنما انسابت روحها معه، فقد داخت قليلاً ثم غابت عن الوعي برهة. برهة وجيزة فقط ولكنها حين عادت الى وعيها سمعت، حقيقة سمعت زقزقة خافتة. زقزقة الجنين ما في ذلك شك. ومرة واحدة خرجت منه صرخة.. صرخة خيل إليها أنها ملأت الدنيا كلها وسمعها الناس أجمعون.

وهي لم تكن قد جهزت نفسها لهذا الوقت. كل ما كان يهمها أن تتخلص من هذا الورم الخبيث الذي أضناها طويلا.. ولتتركه بعد هذا أو ليحدث له ما يحدث. وها هو ذا الورم بعد ما تخلصت منه يصرخ ويهدد بالفضيحة الكبرى. ابن سبعة شهور، ولكنه حي ويصرخ. ومدت يداً مرتجفة غير مستقرة، وظلت تعبث بالكتلة البشرية الحية حتى وصلت إلى فمها، وانزلقت أصبعها الصغيرة رغماً عنها ووصل في الفم.. فم.. فم

كاد يوردها حتفها. بدا لها الصباح جميلاً جداً، وبدا لها أن كل شيء سوف يسير كما أرادت تماماً وكأن الله معها.

وفي طريقها إلى الغيط خرجت لأول مرة عن العزلة المقيتة التي كانت قد فرضتها على نفسها، وقد أصبحت منتشية بإحساسها أن لم يعد فيها شيء يمنعها من أن تكون مثل سائر الناس، تخالطهم ويخالطونها وتحادثهم ويضحكون معها. . .

لوية بوزها انفكت، ورأسها غسلته وسرحت شعرها ربما للمرة الاولى منذ شهور، وبدت عزيزة مرحة منطلقة على غير عادتها حتى أنها شاركت الأنفار في غنائهم في أثناء العمل، حين يشتركون في تزويج نفر منهم لبنت، وتناجيه ويناجيها ثم يزفهم الأنفار جميعاً بنشيد جماعي.

* * *

غير أن كل شيء لم يسر تماماً كما أرادت عزيزة.

فبعد يومين بدأت تسخن وتحس بدق متواصل يفتت مفاصلها.

وفي اليوم الثالث بدأت السخونة تتحول إلى نيران تتصاعد من جلدها وجوفها.

كانت قد أصيبت بحمى النفاس.

ولكنها لم تكن تعرف ماذا أصابها، ولا رأت أبداً أية علاقة ممكن أن تكون بين ولادتها في العراء على حافة الخليج وبين ما يحدث لها. كل ما أحسته أن جسدها بدأ يخونها، وأنه لم يعد يطاوعها في يقظتها أو في منامها، ولم تعد قادرة على صلب حيلها في الخط.

ولكن آلام الدنيا كلها وحرارتها كان لا يمكن أن تثنيها عن العمل

فاستمرت تسرح وتروح وتمسك الخط مثلها مثل بقية الأنفار، تدوخ وتزغلل الدنيا في ناظريها وتغم عليها نفسها، ولكنها تضغط على نفسها بجبروت وتقاوم وتنحني وتعمل.

وبالضبط لم تدرك ماذا حدث في اليوم الرابع أو الخامس. كانت في صف الأنفار يقولون لها: ما لك يا عزيزة؟ فلا ترد. وفجأة وقعت في الخط. وأفاقت لتجد نفسها تحت «الظليلة»، ولكنها ما كادت تفيق حتى بدأت تصرخ وتزعق وكأنهم يغدرون بها ويمنعونها من أن تعمل. بل قامت فعلا تريد مواصلة العمل، ولكنها داخت وارتعشت ساقاها تحتها ووقعت. وأفاقت لتجد نفسها مبلولة بالماء الذي رشوه عليها.

ورغم حلقها الجاف ورعشتها المستمرة وأزيز الحمى في جسدها فقد كانت لا تزال فرحة أن خطتها تمضي بنجاح، وأن أحداً لا يعرف ولن يعرف أنها الفاعلة.

* * *

ولكن خطتها قدر لها أن تفشل عن طريق لم تكن قد حسبت حسابه.
فالحمى باتت تشتد ..
وبدأت عزيزة تخرف.

أم الحسن جارتها في الرقاد بدأت تسمع كلاماً غير مفهوم عن جذر البطاطة وابن قمرين وعبدالله والجنين الذي لم يكن يريد أن يكف عن الصراخ.

ومن كلماتها المتناثرة وهمسات النساء واضافاتهن، تكاملت حكايتها وأصبحت خبراً.

وبدأ خبرها ينتقل من جار الى جار، ويتسلل حول القفف، ويخطي

هللت العزبة الكبيرة للخبر بفلاحيها وأسطواتها وكل موظفيها، وحتى بالسائرين في طرقاتها. وكلما التقى أحدهم بالآخر صرخ فيه: مش قلتلك؟ . . عليَّ الطلاق أنا م الأول قلت إنهم الترحيلة. جالك كلامي؟

ويؤمن الآخر على حديثه، بل ويكاد يقسم هو الآخر بيمين الطلاق وينتقل بهما الحديث من اللقيط إلى الترحيلة أنفسهم باعتبارهم أصحابه والمسئولين عنه.

ذلك هو ما حدث. فما كاد أهل العزبة يطمئنون على سلامة أنفسهم حتى بدءوا يستديرون للغرابوة الذين كانوا يتجاهلون وجودهم إلى تلك اللحظة، ويعيشون على أرض التفتيش يكاد لا يحس بهم إنسان. بدءوا كلما ذاع خبر عزيزة ولقيطها وحكايتها يصبحون محط أنظار الناس ومحل اهتمامهم، ولكن أي اهتمام؟!

الفلاحون الكبار والمزارعون لم يفعل الخبر أكثر من أن هيَّج كامن تقززهم من الغرابوة واشمئزازهم منهم، فأصبح الحديث عنهم يسبقه أو يتبعه سيل من الشتائم والبصقات. كأن الترحيلة في نظرهم حثالة آدمية تهبط على تفتيشهم مرة أو مرتين في العام كالوباء الذي لا مفر منه. فما بالك حين يكتشفون أن تلك الحثالة قد صدر عنها شيء حرام كهذا الذي حدث منذ أيام حاولت إخفاءه وإلصاقه بأهل العزبة؟ الترحيلة أنفسهم كانوا يكادون يصبحون شيئاً حراماً، وكأن الناس جميعاً مخلوقات حلال وهم وحدهم مخلوقات حرام، أية بشاعة يصبح عليها الحرام إذا ارتكب حراماً!

نساء الفلاحين هن الأخريات كان لهن آراء مثل أزواجهن وآبائهن. بل أغرب من هذا كن أكثر حماساً وأكثر تحاملاً، وكأنهن يستكثرن على

الترحيلة أن تحمل إحداهن مثلما يحملن،وأن تلد مثلما يلدن، حتى لو كان حملها وولادتها حراماً في حرام.

* * *

وفي عودة مسيحة أفندي إلى بيته في ذلك اليوم كان فرحاً على غير العادة، بل دفعه الفرح إلى التهور وآلى على زوجته أن تذبح لهم في ذلك اليوم وتوسع.

وزاط دميان للاقتراح، لا لأنه سيأكل الرءوس والجناحين كعادته كلما ذبحوا دجاجاً، ولكن لأن معنى هذا أن يتاح له أن ينظف الريش عن الطير المذبوح، وأهم من هذا سيتاح له أن يفتح «القوانص» بالسكين، وفرحته الكبرى كانت حين يخرج أحشاء الدجاجة أو البطة ويتناول منها «القونصة» ويجري عليها السكين فيقسمها نصفين، ويتحسس الحصا الأصفر الذي يعثر عليه داخلها ثم يزيل قشرتها الداخلية التي تطلع في اليد مرة واحدة دون تمزق وبلا مجهود، وتصبح القونصة بعدها نظيفة تكاد من نظافتها أن يلتهمها دميان التهاماً وهي نيئة.

وضحكت لنده لمداعبات أبيها، وقليلاً ما كان يداعبها، ووجدت الفرصة مناسبة فطلبت منه أن يسمح لها بزيارة أم ابراهيم زوجة «أبو» إبراهيم الفقي إذ مرضت المسكينة وأرسلت تطلبها. والعادة كانت قد جرت ألا تخرج لنده إلا لزيارة أسرة المأمور أو في أفراح كبار الفلاحين إذا دعيت إلى فرح، ولكن مسيحة أفندي كان في الحالة التي ممكن أن يسمح فيها بأي شيء ولو كان خارقاً للعادة. ألقى نظرة جانبية على أم لنده وكأنه يطلب رأيها، فرفعت حاجبيها حتى بدا أن رقبتها الرفيعة ترتفع هي الأخرى وتصبح أكثر طولاً وقالت:

وخلافاته ومشاحناته، ينسون حتى آباءهم وزجرهم، وينسون اليوم الشاق الآتي،وكأنهم لا يعودون يذكرون إلا أنهم أبناء لحظتهم، أبناء الليل والأرض، وإخوة الضفادع والنجوم، وأحباء ذلك القمر الحنون النظيف ويلعبون. يلعبون الاستغماية، وضربونا مونا لما عمونا، وعسكر وحرامية، والحجر دقدق، وسرح. يبدءون اللعبة وفي دورين يكونون قد زهدوا فيها، فينتقلون بخفة وبساطة إلى غيرها وغيرها، ضاحكين صاخبين لا يعكر صفوهم معكر.

في تلك الليلة اقترح واحد من الأولاد على زملائه أن يذهبوا ويتفرجوا على الترحيلة وأولادها وهم يلعبون. وفوجيء صاحب الاقتراح نفسه بالضجيج العظيم الموافق الذي لاقاه اقتراحه إذ هو قد اقترح هذا وهو خائف، ذلك أن من الامور المتعارف عليها بين الفلاحين أهل العزبة أن من المستحيل على اولادهم أن يلعبوا مع أولاد الترحيلة أو حتى يقتربوا منهم، وكأنهم سيصابون بالجذام لو فعلوا هذا. ولم يكن أحد يسأل عن سر ذلك التحريم أو يحاول مناقشته، وهل يستطيع أحد أن يناقش أباه حين يقول له هذا عيب، أو هذا حرام. حين تذكر كلمات كهذه فعلى الولد أن يطيع وليس عليه أن يقول ثلث الثلاثة كام.

هلل الأولاد لاقتراح زميلهم موافقين، مع علم كل منهم أنه شيء عيب لا تصح الموافقة عليه. وحين تبينوا أنهم جميعاً موافقون متحمسون ازدادوا خفة وحماساً لتنفيذ الاقتراح وكأنه لم يعد حراماً، وكأن الشيء الحرام إذا وافق عليه الجميع أصبح حلالاً زلالاً لا شك فيه.

وما أسرع ما أصبحوا يتسابقون ليروا أيهم يستطيع الوصول أولا إلى مكان الترحيلة وكأن معجزة تنتظرهم هناك، أو كأنهم على الأقل سيرون

تلك المـرأة التـي سمعـوا آباءهـم وأمهاتهـم ينعتونهـا بأقبـح الألـفـاظ ويصِمونها بأشنع التهم.

ولكن ما أن عبر المتسابقون القنطرة الحجرية التـي تفصـل العزبـة الكبيرة عن مباني الإدارة والسـراية والمخـازن والجـرن والاصـطبـلات ووصلوا إلى ما خلف الأخيرة، ورأوا في الظلام المقاطف والقفف والزلع مرصوصة متناثرة كشواهد وضعت خصيصاً لتدل على مكان الترحيلة. ما أن رأوا هذا حتى كفوا عن الجري ثم راحوا يتسللون الواحد وراء الآخر على أطراف أصابعهم ليصلوا الى حيث يلعب أولاد الترحيلة.. لابد في وسعاية الجرن. وكانوا خائفين جداً وهم يتسللون عبر مكان التـرحيلـة وكأنهم مارون على قبيلة من قبائل الجان حطت رحالها ونامت في ذلك المكان. ومع خوفهم الشديد فلم يستطيعوا كتم ضحكاتهم، فقد سمعوا أصوات شخير كثير متصاعد من الترحيلة.. شخير غير منتظم تماماً كنقيق الضفادع في الخليج الذي يجاورهم وأرض الأرز، والذي أضحكهم أن الضفادع كانت تنقنق فيدو وكأن الترحيلة ترد عليهـا بشخيرهـا، وكلمـا شخرت الترحيلة ردت عليها الضفادع بالنقيق.

وفعلاً كان أولاد الترحيلة يلعبون في وسعاية الجرن بعيداً عن آبائهم الراقدين متعبين، وبعيداً في الوقت نفسه عن المكان الذي يلعب فيه أولاد العزبة. لم يحرم أحد عليهم الاقتراب من اولاد العزبة وهـم يـلعبـون ولكن من مجرد معاملة الفلاحين لهم كانوا يدركون أن هذا بالتأكيد شيء محرم، وأن واجبهم أن يبتعدوا عن العزبة وأولادها قدر الطاقة.

وقف أولاد العزبة من بعيد يتفرجون.. وكانوا يتوقفون هنيهة وكأنهم يتوقعون معارضة أو زجراً، وحين لا يجدون يتقدمون. الجرن واسع كبير

عاد الأولاد يتسللون إلى مضاجعهم من سكات، وفي عزمهم الأكيد أن يذهبوا كل ليلة ويلعبوا مع أولاد الغرابوة، وفي عزمهم الأكيد ايضاً أن يخفوا هذا عن آبائهم حتى لو فتن عليهم عبد المطلب الخفير.



١٦

على ضوء لمبة نمرة خمسة نظّف زجاجها بعناية حتى لا يحجب أي قدر ولو ضئيلاً من النور، موضوعة على رف خشبي في أعلى الحائط. كانت الحجرة تبدو أنيقة مرتبة على غير ما جرت به العادة في بيوت الفلاحين. فالسرير البوصة ونصف المرتفع الذي يكاد يحتاج الى سلم للصعود عليه نظيف ومعتنى به، و «دايره» الأسفل يحجب ما تحته من كراكيب وخزين، و «دايره» الأعلى يزين الناموسية.. وفي الواجهة دولاب وإن كانت مرآته مشروخة إلا أن الشرخ رسم عليه بالاسبيداج شجرة ذات أزهار وأثمار لتخفي الشرخ. وبجوار السرير مقعد بمسندين له كسوة من قماش أبيض بولغ في تزهيره في أثناء الغسيل. والأرض وإن كانت جرداء بلا خشب أو بلاط إلا أنها مكنوسة ومرشوشة ومغطاة بطبقة رقيقة من الرمل. والقلل موضوعة في الشباك عليها أغطيتها المعدنية وفوقها شاشة زيادة في الحرص على النظافة والأناقة، بالاختصار كل شيء في الحجرة يحاول أن يبدي أحسن ما فيه.

وكان بالحجرة شخصان لا ثالث لهما، أم ابراهيم نائمة على السرير في أتم صحة وأبهى منظر،وإن كان من يشاهدها ويرى كيف تتكلم وتتأوه يظن أنها مريضة في عنفوان المرض، ولنده جالسة على الكرسي الوحيد

عنه، وتضعه كأعتى مثل للرجل والفحل والذكر. هنا بدأت لنده تخجل وتكاد تغلق أذنيها عن السماع، ولكن إلحاح أم ابراهيم كان لابد أن يتغلب على خجلها ويفتح أذنيها البكر، إلحاح خبيرة يبدو وكأنه دلال وتقل، إلحاح من تعرف كيف تتكلم ثم تصمت حين يبلغ حب الاستطلاع بسامعتها اشده، وكيف تقطع الحديث فجأة إذا رأت الخوف الحقيقي الذي يعقبه الرفض يتسرب الى سامعتها من هول ما تقول، تاركة للأيام والساعات والتأمل المنفرد والتطلع الى الشيء المحرم الجديد أن تفعل فعلها، وتلين الحديد، وتجعل من الممجوج مقبولاً ومعقولاً ومرغوباً.

وكان أن أصبحت لنده تؤمن بأشياء كثيرة، تومن بأن البنات يمكنهن ان يستمتعن بما تستمتع به النساء ويبقين مع هذا بنات، تؤمن بأنها تعيسة ومحرومة من أكبر سعادة، وأنها ستظل هكذا إلى أن تتزوج.. ومتى تتزوج؟ الله وحده يعلم. وتؤمن بأن هناك شيئاً لازماً لجسد الأنثى هو الرجل. وكانت أم ابراهيم قد تكفلت بجعلها كلما فكرت في الرجال تقرنهم في خاطرها حتماً بأحمد سلطان.

عند هذا الحد بدأت ام ابراهيم تغير النغمة، وتحمل سلامات من احمد سلطان للست لنده. سلامات كانت تعجب لها لنده أول الأمر إذ أن أحمد سلطان هذا له في التفتيش سنوات دون أن يرسل لها سلاماً أو كلاماً. ثم إن السلام الوحيد الذي كانت تهتز له لنده هو السلام حين كان يجيئها من صفوت، ونادراً ما كان يجيئها من صفوت سلامات.

ولكن ام ابراهيم كانت بارعة، فكانت توصل إليها السلام وكأنه شيء من وحي الساعة بلا هدف وبلا تدبير. ثم بدأت السلامات تصبح عن عمد، ثم فتحت أم ابراهيم للنده قلبها وأخبرتها أنها تريد أن تقول لها سراً

خفياً لا يعرفه إنس ولا جان. ولم تبدأ بإخبارها إلا بعد أن أقسمت لنده بالمسيح والإنجيل أنها لن تخبر أحداً. وأعادت القسم لكي يطمئن قلب ام ابراهيم. حينئذ قالت لها ام ابراهيم مبهورة الأنفاس وكأنها الرجل حين يعترف لفتاة، قالت لها إن أحمد سلطان يحبها حباً لا يتصوره العقل، وأنه لا مطمع له ولا هدف أبداً من وراء هذا الحب، كل ما في الأمر أنها زارته ذلك النهار حين تعبه جنبه فباح لها في نوبة ضعف بسرِّه، وطلب منها أن تكتمه دوناً عن الناس جميعاً، ودوناً عن لنده بالذات. ولكن للصداقة قيوداً وواجبات، ولم تتصور ام ابراهيم نفسها أنها تعرف شيئاً خطيراً كهذا ولا تقوله لحبيبة روحها لنده. وفي اول مرة ضحكت لنده حتى كادت تموت من الضحك، ضحكاً جعل قلب ام ابراهيم يدق بالاضطراب إذ خوفها الأكبر كان أن تأخذ لنده الأمر على محمل الهزل فيفسد تدبيرها ويفسد كل شيء. ولنده فعلاً كانت قد أخذت الأمر دون أن تلقي إليه بالا كثيراً، إذ كان شغل أحلامها الشاغل أن تتصور صفوت ابن المأمور وهو يطالعها بوجهه الحبيب الى نفسها ويقول لها هذا الكلام. ولم تكن تتوقع ابداً أن يأتيها كلام كهذا من ناحية احمد سلطان، مرءوس أبيها الذي لا يمكن أن يكون فتى أحلام بنت في مثل هيئتها ومركزها.

حين احست ام ابراهيم بهذا غيرت موضوع الحديث في الحال ولم تحاول مجادلتها أو إقناعها، ولكنها عادت الى الحديث في اليوم التالي بطريق التلميح والإشارة العابرة. وفي المساء عادت تطرق الموضوع وفي كل مرة كانت تقابل فيها لنده كانت تصف لها فيها حالة احمد سلطان وما يعانيه من وجد وهيام حتى تأكدت لنده تماماً واقتنعت فعلاً أن احمد سلطان يحبها دون أدنى شك، ولكنها لم تكن تستطيع أن تفعل من أجله شيئاً. قالت هذا لأم ابراهيم، وام ابراهيم بدورها لم تعلق على قولها

وكان لابد لحديث ما أن يدور.

ودار الحديث حول اكتشاف ام اللقيط واكتشاف انها متزوجة، وأنها حملت من وراء زوجها دون علمه. وتناست ام ابراهيم انها مريضة واعتدلت تقص على لنده حكايات عن الترحيلة وبشاعة اخلاقهم، وكيف أنهم لا يتورعون عن ارتكاب اي جريمة أو خطيئة بلا خجل أو حياء وكأنهم ليسوا بشراً، وكأنهم قطيع من حيوانات أو اغنام. وكانت لنده توافقها موافقات قلقةمضطربة ،وتؤكد لها في نهاية كل موافقة أن الله حتماً سيغفر لهم إذ هم جهلة لا يدركون ماذا يفعلون. وتصر لنده على حكاية الغفران هذه بطريقة تبعث الريبة في صدر ام ابراهيم، فتجعلها تكف عن الحديث وتغير الموضوع:

وسألت لنده عن الشيخ «أبو» إبراهيم مشيرة الى قفطانه المعلق على شماعة عند رأس السرير، فقالت ام ابراهيم إنه ذهب إلى العزبة نمره ستة ليحيي مولداً هناك، وفعلا.. ولو كانت لنده قد صعدت إلى السطح وأصاخت السمع لرأت «كلوباً» موقداً بعيداً في الناحية القبلية، ولجاءها صوت الشيخ «أبو» إبراهيم وهو ممسك حلقة الذكر على الواحدة، منسجماً مع الإمام البرعي في بردته المشهورة.

وعاد الحديث الى سكون كاد يطول، وكاد يؤدي الى جو الترقب والانفعال الذي سيطر على الحجرة منذ دخلت لنده، غير أنه لم يطل. سمعنا دقة على الباب الخارجي المفتوح.. دقة من يعلم من في الداخل بقدومه.

وقالت ام ابراهيم بصوت متمارض ممدود، وهي متأكدة تماماً من شخصية القادم:

(الحر)

ـ مين؟

وشحب وجه لنده وبدأت مسامها تتحبب وشعرها يكاد يقف.

ودخل احمد سلطان، طربوشه الغامق مائل على جبهته يكاد يخفي شعيرات حاجبه الأيمن، وجلبابه الحرير البلدي مكوي، والبالطو الأسود فوقه، وذقنه حليق والنور يطل من وجهه، وشاربه مقصر ومزوق. وقال بابتسامة واسعة مدربة، وكأنه لم يلحظ وجود لنده:

ـ مساء الخير يا ام ابراهيم. ما لك؟

فأجابت ام ابراهيم بنفس تصنعها:

ـ يسعد مساك يا احمد افندي.. ما فيش! الظاهر إني باسقطواللا إيه ما اعرفش. مش تمسي يا احمد افندي.

وبلفتة تمثيلية مبالغ فيها انحرف احمد قليلا ورفع حاجبيه إلى أعلى وكأنه فوجيء وقال:

ـ الله! الست لنده هنا؟ مش تقولي يا ام ابراهيم.

وهمّ ان يستدير على عقبيه ويغادر الحجرة تأدباً، ولكن صوت ام ابراهيم ارتفع ومضى يصر على بقائه قائلة:

ـ هو انت غريب يا خويا! ما غريب إلا الشيطان.

كل هذا ولنده جالسة في مكانها وكأنها في دوامة، لا تستطيع أن تنظر ناحية احمد سلطان، ولا ناحية ام ابراهيم، ولا في سقف الحجرة أو حتى في ارضها. وبدا أن احمد سلطان وكأنما استجاب لإلحاح أم ابراهيم فتنحنح وتقدم بضع خطوات وقال بتلعثم:

ـ اتبن بقول البيت منور ليه.. مساء الخير يا لنده هانم.

وساد وجوم قليل، وحركت لنده شفتيها بلا صوت مع أنها أرادت أن ترد، وتداركت ام ابراهيم الموقف قائلة:

مسيحة افندي من وقت قريب وهو يعجب لتلك الزيارة المفاجئة في ذلك الوقت من الليل.

ولكن عجبه الآن لابد أنه يزول، فها هي الهمهمة تصله فلا يسمع فيها إلا صوت مسيحة أفندي وهو يتحدث بلا انقطاع، وسعال أبيه وهو يستمع دون أن ينطق حرفاً. ها هي ذي فترة سكون تحل، لابد أنه يريد فيها الخطاب. ألا سحقاً له وللخطاب ولليوم الذي تحدث فيه عن لنده مع احمد سلطان يوم عثروا على اللقيط.

فبعد الحديث هاجت في قلبه الأحاسيس، وتملكه خاطر عات يهيب به أن الأوان قد آن ليبوح للنده بكل ما يكنه لها قلبه ويكشف عن أحاسيسه.

وفكر واستغرق يومين في التفكير، ثم كتب ذلك الخطاب الملعون.. كتبه بعد عشرات المسودات التي مزقها ولم تعجبه صيغتها. وظل الخطاب في جيبه يومين، يتردد أحياناً في إرساله ويحتار أحياناً اخرى في كيفية إرساله.

ثم فكر في محبوب هذا الذي أشاعوا أنه يرسل لها الخطابات عن طريقه، لماذا لا يستخدمه؟ واستعبط محبوب أول الأمر، ثم لما عرف تردد وخاف، وقال إنه حلف من يوم أن اكتشف خطاب امرأته معه ألا يحمل خطابات من هذا النوع. ولكن صفوت ظل يهدده ويطمئنه ونفحه بالمرة ريالا. وبان على محبوب أنه قبل، ولكنه عاد وقال إنه يخاف أن يضبط معه الخطاب فيروح في داهية، وأقسم له صفوت أنه سيكون مسئولا إذا حدث أي شيء. وإلى الآن لا يدري صفوت هل كان رضاء محبوب بتوصيل الخطاب رضاء نابعاً من قلبه، أم كان رضاء يخفي وراءه أخبث قصد، وإلى

الآن لا يدري هل هي فقط مجرد سذاجة من محبوب أن يذهب إلى بيت مسيحة أفندي ويسأل عن الست لنده من الباب للطاق، فيستوقف سؤاله انتباه مسيحة أفندي فيجذبه إلى الداخل ويضيق عليه الخناق ويفتشه فيعثر معه على الخطاب بكل بساطة. هل هي سذاجة من محبوب حين فعل ذلك، أم أنه الخبث.. خبث ذلك الرجل الأمرد القصير الذي أبى أن يمثل دور رسول الغرام لأمر في نفسه، فكشف عن قصده عن عمد لمسيحة أفندي، وأصبح ليس عليه بعد أن وجدوا معه الخطاب إلا أن يقول:

ـ وأنا مالي؟. سي صفوت بيه هو اللي أمرني، وأنا عبد المأمور. وليت الموضوع اقتصر على هذا، ليت المصيبة كانت في الخطاب وحده. المصيبة الكبرى أن صفوت لشدة ما كان يعتريه من قلق على خطته ظل يراقب بيت مسيحة أفندي من اللحظة التي سلم «محبوب» فيها الخطاب، ولم يتح له أن يرى «محبوب» وهو داخل الى البيت، فقد فوجيء بعد المغرب بقليل بلنده نفسها خارجة من البيت في أبهى حلة وأتم زينة. وأول الأمر اعتقد أنها ذاهبة الى بيتهم هم في أمر ما، ولكنها لم تعبر القنطرة الحجرية ولم تأخذ الطريق إلى بيتهم، ولكنها انحرفت ناحية العزبة وظل هو يتتبعها من بعيد ويخمن قصدها، ولم يتح له أنه يخمن طويلاً إذ ما لبث أن وجدها تطرق باب بيت الشيخ «أبو» إبراهيم الفقي وتدخل. ترى ماذا تراها ستفعل في بيت الشيخ «أبو» إبراهيم؟ سؤال ظل يلح عليه طويلاً دون أن يعثر له على إجابة ما. وأخيراً أقنع نفسه بأنها ذاهبة لا بد لزيارة أم إبراهيم.

وهنا بدأت ملامحه تبرق وبدأ خاطر جنوني يستبد به. الشيخ أبو ابراهيم في العزبة نمرة ستة يحيى المولد الذي هناك، ولنده الآن جالسة

وحدها مع امر ابراهيم. اليست هذه فرصة جاءته من السماء على غفلة؟ وما الذي يحدث لو دخل الآن بيت الشيخ «أبو»إبراهيم مدعياً أنه يسأل عنه مثلاً أو أنه يريد مناقشته في موضوع خاص والنقاش بينهما أمر معروف، إذ كثيراً ما قضيا جزءاً كبيراً ساهرين عند القنطرة أو أمام دكان جنيدي يناقشان المسألة الأزلية: الله ووجوده والخيار والإلزام. والشيخ ابو ابراهيم يستمع لشكوكه وحيرته بصدر رحب سمح، ويطول بينهما النقاش ولا يتفقان. لماذا لا يدعي السؤال عنه ويدخل، وإذا عزمت عليه ام ابراهيم يجلس

ولا بد أنه سيدور الحديث، ولا بد أنه سيجد فرصة ينفرد فيها بلندة ويخبرها بمكنون قلبه، وقد يوصلها إلى بيتها بعد انتهاء زيارتها. ورغم وجاهة السبب ووجاهة الفكرة فقد ظل صفوت متردداً، أحياناً يتحرك خطوات في اتجاه البيت فتخونه شجاعته ويتوقف وهو محرج أيما إحراج إذ المكان الواقف فيه مكان مكشوف تمر عليه الناس فيه وتحييه وتعجب والمسألة يلزمها بعض التروي والتفكير. فقدرته على مواجهة لنده قد انتابها ضعف كبير من اللحظة التي قرر فيها أن يصارحها بحبه. وهكذا انتحى صفوت ركنا من الشارع اختاره بجوار صومعة غلال قائمة تكاد تحجبه بحجمها الضخم عن الأنظار، ومضى يقضم أظافره ويعمل فكره واضطراب عظيم قد تملكه. وبينما هو كذلك رأى احمد افندي سلطان قادماً من أول الشارع بطربوشه ومعطفه اللذين لا تخطئهما العين. وازداد التصاقاً بالحائط واختفاء وراء الصومعة حتى لا يراه احمد سلطان فيعيره بموقفه ذاك عدة ليال وسهرات. ولكن أغرب شيء أن أحمد سلطان لم يمر عليه، إذ قبل أن يصل الى منتصف الشارع انحرف ودق باب الشيخ «أبو» ابراهيم المفتوح ودخل. قلب صفوت هو الآخر دق في عنف وتولته حيرة عظمى كادت تحجب الرؤية عن عينيه. ولكن عينيه ما لبثتا أن رأتا

الباب . . باب الشيخ تحركه يد نسائية من الداخل، ثم ما لبث ان انصفق وانغلق. وتصاعدت الدماء في نافورة حارة الى رأسه. وخرج من مخبئه واسرع يلهث حائراً في اتجاه الترعة كمن لدغته لتوه حية رقطاء.

والف شيء فكر فيه في تلك اللحظة.

فكر أن يذهب ويحضر البندقية ويقتحم البيت ويطلق عليهما ظرفين دفعة واحدة. فكر في أن يسكت وينتظر إذ ربما يكون الأمر قد حدث صدفة. فكر في أن يذهب ويطرق الباب بحجة أنه يسأل عن الشيخ «أبو» ابراهيم ويفاجئهما بظهوره. فكر في كل شيء ولكنه كان دائما يجد نفسه عاجزاً عن أن يفعل شيئاً وكأن إرادته قد أصيبت بشلل مفاجيء، ولم تعد تستطيع إلا البكاء. ولكنه رفض أن يخضع لإرادته ويبكي، وفجأة وجد أن همه كله أصبح في أن يعثر على محبوب قبل أن يذهب بالخطاب فيأخذه منه، إذ لم تعد له حاجة به، ولم تعد تنفع ال. . خطابات.

ولكنه لم يجد «محبوب» وعبثاً حاول العثور عليه وكأن اهدافه من الحياة قد تبلورت كلها في العثور على محبوب. وحين فشل في هذا ايضاً احس انه قد أصبح يريد البكاء. وهكذا عاد الى البيت وانهار فوق سريره يريد ان يبكي. ولكن البكاء استعصى عليه هذه المرة، وبقي راقداً مفتح العينين كالمجانين. إلى أن أحس ببابهم يدق وبمسيحة أفندي يطلب مقابلة أبيه لأمر عاجل، ويقوم أبوه من النوم ويفتح حجرة الجلوس. ويجلس ومسيحة أفندي، ويسمع بأذنه مسيحة وهو يروي لأبيه تفاصيل ما حدث حين جاءهم محبوب يسأل عن الست لندة، وعما قليل سيأتي أبوه ويحاسبه الحساب العسير.

ظل صفوت راقداً مفتح العينين ينتظر اقتراب الخطوات التي يعرفها

جيداً . . خطوات أبيه، وهو مستعد لمواجهته كل الاستعداد، وكأن لم يعد مهماً لديه بعد ما حدث أن يحاسب على أي شيء وأن يتهم بأية تهمة. ولكن خطوات أبيه حين اقتربت حقيقة وجد صفوت نفسه يغلق عينيه ويدعي النوم. ووقف أبوه بباب الحجرة والمصباح في يده طويلاً، وكأنما هو متردد بين أن يوقظه وبين أن يترك أمر محاسبته وعقابه للصباح.

ويبدو أنه آثر في النهاية أن يترك كل شيء للصباح فالصباح رباح.

* * *

ولكن فكري أفندي لم يستطع محاسبة صفوت في الصباح، إذ استيقظوا فلم يجدوه، ولكنهم وجدوا خطاباً منه يقول فيه إنه ذهب ليبحث عن عمل في الإجازة في مصر بعيداً عنهم وعن التفتيش، وأنه لم يجد فائدة في مجادلتهم فهم حتماً سيعترضون. ويقول في الخطاب أيضاً إنه آسف لأنه اضطر «لاقتراض» كل ما في كيس أمه من نقود ويعد بردِّها جميعاً حين يقبض أول ماهية، والمضحك أن الورقة التي كتب عليها الخطاب يبدو أنها كانت إحدى مسوداته لخطاب لنده، إذ كان في ظهرها كلمة حبيبتي مشطوبة ومعاداً شطبها. ولم يفعل فكري أفندي شيئاً أكثر من أن قرأ الخطاب مرة اخرى ثم مزقه وهو يحاول إخفاء رضائه عن هروب صفوت، فالواقع أن صفوت أسدى إليه معروفاً، وأراحه من مهمة محاسبته ومواجهته، وتلك ـ بالنسبة إلى فكري أفندي ـ كانت دائماً مهمة عسيرة على نفسه وشاقة يتألم لها أضعاف ألم صفوت منها.

١٧

أقيمت «ظليلة» اخرى لعزيزة بجوار أم الترحيلة تماماً، إذ لم تعد ثمة حاجة لذهابها كل يوم مع الأنفار ما دام المأمور قد عرف ووافق على أن تحتسب يوميتها وهي راقدة.

وتكفلت الظليلة والمرأة الراقدة تحتها بلفت نظر الناس وتعريف من كان لا يزال لم يعرف بعد بحكاية عزيزة. والحقيقة أن سلوك أهل التفتيش تجاه حكاية عزيزة كان سلوكاً غريباً. فأول الأمر كان همهم أن يثبت أن الفاعلة واحدة من الترحيلة. وحين ثبت هذا واطمأنوا، دفعهم حب الاستطلاع لمعرفة قصة هذه الفاعلة. وحين عرفوا القصة وأشيع أن صاحبتها قد بلغت من المرض حد أن رقدت في مكان الترحيلة أصبح كل همهم أن يروا تلك المرأة ويتأملوا كيف تكون وماذا تشبه. ومن أجل هذا كانوا يقبلون جماعات وأفراداً، نساء ورجالا، وحتى صبية وأطفالا. كان القادم ليتفرج على عزيزة منهم يدعي أنه في طريقه إلى الجرن أو ماكينة الري أو سارح الى الغيط وحين يرى الظليلة يتلكأ، وكأنما قد استوقفه منظرها، ويروح يسأل وكأنما هو لا يعرف، ويحدق في المرأة الراقدة ويطيل التحديق.

كان هذا يحدث أول الأمر، ولكن بمضي الوقت لم تعد هناك حاجة

الحرام

للادعاء، فقد كان من يريد التفرج على عزيزة يقف صراحة غير بعيد عن مكانها ويظل منتظراً أن تستدير أو يخرج منها صوت أو تبدو لها ملامح. وبعد أن كان الناس يعملون حساباً لوجود بلدياتها الغرابوة إذا وجـدوا أصبحوا يقفون للتفرج على عزيزة حتى في وجود الغرابوة. وكانوا يفعلون هذا دون أن يتبادلوا كلمة واحدة مع الغرابوة،وكأن ليس لهم بهم دعوة أو صلة، وكأن عزيزة لم تعدمنهم، وإنمـا أصبحـت ظاهـرة عامـة من حق الجميع أن يروها ويتفرجوا عليها. وكان الغرابوة يتقبلون هذا الوضع بكثير من الاحتمال وضبط النفس.

غير أن عزيزة بدأت تخرف وتصرخ صرخاتها المحمومة ويخف إليها بلدياتها يحادثونها ويصبرونها ويهدهدون عليها وكأنها واعية عاقلة مدركة لما تقـول، حين بدأت تفعـل هذا بدأ الجمـود يذوب، وبـدأت ألسنـة المتفرجين من أهل العزبة تنطلق وتتحدث مع الغرابوة، وتشارك بكلمـة عطف أو بمصمصة شفة. ثم تجر الكلمـة كلمـات، ويبـدأ حديث بين الرجال والرجال والنساء والنساء.

ولكن عزيزة بعـد ثلاثـة أيام من رقادهـا بدأت تتشنـج.. يتخشـب جسدها حتى يصبح جامداً ناشفاً كالعصـا وتعض لسانهـا حتـى تدميه. وكان أهل العزبة حينئذ لا يستطيعون أن يتمالكوا أنفسهم أمـام منظرهـا فيسرعون، مثلهم في هذا مثل بلدياتها الترحيلة، ويتعاونون في فتح فمها وتدليك جسدها وتنشيقها بماء البصل.

وأسلم التشنج عزيزة إلى نوبات هلع مفاجىء، إذ بدأت تقوم بغتة من نومتها صارخة صاخبة، وتنطلق جارية الى الخليج القريب وتقذف بنفسها فيه بملابسها، وكأنها تريد إطفاء نار مشتعلة فيها. حينئذ كان يتعاون أهل

العزبة مع الترحيلة في اخراجها من الماء وحملها وإرقادها في مكانها تحت الظليلة. وفي تلك المرات كانوا يجلسون الى جوارها في جماعات مختلطة من الغرابوة وأهل العزبة، جماعات حين تهدأ عزيزة ويطمئنون عليها تمضي تتحدث، ويبدأ الحديث عن عزيزة وحالتها، وينتهي الى الحديث.. كل عن نفسه وأحواله.

وما أسرع ما انتقل التغير في لهجة الحديث عن عزيزة، فبعد أن كان الواحد من أهل العزبة يروي حكايتها للآخر وهو يكاد يتقزز منها ومن حكايتها ومن الغرابوة بشكل عام، أصبحت الحكاية تحكى باختصار وكأنها أصبحت عيباً، وكأن في الإفاضة فيها خدشاً لحرمة حرمة وشرف ناس. حتى اولئك الذين كانوا يذهبون بغية التفرج على عزيزة قل عددهم وكادوا ينعدمون.

وحين ازدادت شدة المرض تكاتفت الجهود تبحث لها عن البرشام الأصفر في كل بيت وعزبة، وأعطاها جنيدي قنينة خل بنصف الثمن، وذبحت لها نبوية ـ عن نفسها وعيالها كما قالت ـ أرنبة صغيرة وطبختها وحملتها في حلتها الى أم الترحيلة كي تطعمها إياها. وفعلت هذا بين دهشة أهل العزبة واستكثارهم أن تفعل نبوية الفقيرة المعدمة هذا، ولكنها فعلته بكل شهامة، ولم يقلل من شهامتها أنها حين استعادت الحلة غسلتها بالتراب والطين وشاهدتها سبع مرات قبل أن تعود وتستعملها.

وهكذا، وحول مرقد عزيزة وظليلتها بدأ اختلاط مًّا يحدث بين أهل العزبة والترحيلة. كان اختلاطاً متحفظاً أول الأمر وفي حدود، ولكن أهل العزبة اكتشفوا من خلاله أن الترحيلة لهم بلاد هم الآخرون، ويعرفون مثلهم في الفلاحة ويفلحون، ولهم ايضاً بيوت وقرايب وعمات وخالات

وبينهم مشاحنات وخلافات، ولهم من الريس شكاوى ومن المأمور والإدارة والتفتيش شكايات.

وهكذا أيضاً راح أولاد العزبة يلعبون مع أولاد الترحيلة عيني عينك أمام الآباء الذين كانوا لا يمنعونهم من اللعب معهم، ولكنهم فقط يوصونهم ألا يدعوا أولاد الترحيلة يتنفسون في وجوههم، إذ من الجائز أن يكون في أنفاسهم «مكروب».

ورغم أن فكري أفندي في تلك الأثناء كان مشغولاً مشغولية كبرى على ابنه، مع أنه لم تكن تلك أول مرة يتركهم فيها صفوت ويذهب الى مصر مدعياً البحث عن عمل في الإجازة، إلا أنه كان فقط يريد أن يطمئن على مكانه، إذ أن النقود التي أخذها كان لا يمكن أن تكفيه، وكان لابد أن يرسل له نقوداً اخرى تكفيه.

ولكن على الرغم من مشغوليته الكبرى هذه فقد كان مشغولاً أيضاً بعزيزة، وهو نفسه لا يدري لماذا منذ أن عثر عليها أصبح يحس وكأنه مسئول عنها، وكأنما كان يبحث ليعثر عليها ويصبح مسئولاً عنها، كان في ذهابه الى الغيط يمر على مكانها، ولا يفعل شيئاً اكثر من أن يقف على رأسها ويراها وهي تتمرغ في فراش القش وتغمغم بكلامها غير المفهوم. كان يقف قليلاً هكذا ثم يمضي عنها وهو يتصعب، فلم يكن يستطيع أكثر من هذا، إذ أن عرضها على طبيب المركز أو إرسالها لمستشفى الحميات مسألة محفوفة بالمخاطر، قد يكتشف أثناءها أنها الوالدة، وبالتالي القاتلة، وتكون الكارثة. كارثة لن تصيبهافقط،ولكنها ستصيبه هو الآخر باعتباره علم بالأمر وتستر عليه ولم يبلغ السلطات. كل ما استطاعه هو أن يأمر الأسطى زكي حلاق التفتيش الذي كان يشغل مركز حلاق الصحة

ويزاول الحلاقة وطهور الأطفال ووصف الأدوية لتقوية الباه وإعادة الشباب وعلاج الحمى، يأمره في السر وكأنما يخاف أن يضبطه الناس في لحظة ضعف وعطف أن يتولى علاج عزيزة ويحاسبه. ورغم أنه تولى علاجها فعلا، بعمامته البيضاء التي يرتديها فوق طاقيته البيضاء أيضاً وذقنه الحليق وشاربه الحليق والناب الذهبي الذي يتلألأ في فمه.. رغم أنه تولى علاجها إلا أن حالتها لم تزدد إلا سوءاً، حتى بدأت تتكرر نوبات إلقائها لنفسها في الخليج، وحينئذ أمر فكري أفندي الريس عرفه بأن تبقى أم الحسن جارتها معها لحراستها ولا تسرح الغيط وتحتسب يوميتها.

ومسألة اخرى ظلت سراً لم يعلم بأمره مخلوق. فالمودة بين مسيحة أفندي الباشكاتب وفكري أفندي المأمور كانت مفقودة بالمرة، ولم يفعل الخطاب الذي ضبطه مسيحة إلا أن زاد الطين بلة. ومن تلقاء نفسه كان مسيحة أفندي يتحين الفرصة ليمسك على المأمور خطأً ما، ويدبُّه عريضة ينسخها الشيخ ابراهيم بخط يده ويرسلها باسم مستعار إلى الدائرة في مصر. وقد وجد مسيحة أفندي في احتساب يومية عزيزة وجارتها فرصة مواتية هبطت عليه من أبواب السماء الواسعة. وبعد أن تأكد من أحمد سلطان أنهما مقيدتان فعلا في دفتر اليومية، سهر ليلة بأكملها يدبج عريضة طويلة بهذا المعنى متهماً المأمور بأنه يزود في عدد الأنفار ويقتسم الفرق مع المقاول، ويزور في «شاليش» اليومية، وأن الشاهد على ذلك حي وموجود وما على جناب الخواجة إلا أن يرسل المفتش ليتحقق بنفسه مما ذكر.

وبعد أن اطمأن مسيحة أفندي إلى لهجة العريضة، وضعها في كيس المخدة تمهيداً لإعطائها في الصباح للشيخ «أبو»إبراهيم لينسخها ويرسلها.

وحين رقد مسيحة أفندي أخيراً والعريضة قد أصبحت في كيس المخدة تحت رأسه، بدأ بعض التردد ينتابه، لماذا؟ لم يكن يدري. إنه لم يتردد أبداً في إرسال أية عريضة من قبل، فلماذا يتردد الآن؟ ولماذا يحس ببعض الخجل وصورة الظليلة الراقدة تحتها عزيزة تراود خياله وصراخها وتخريفاتها تطن في رأسه وتشير اليه وتحاصره.

وحين استيقظ في الصباح تردد بين أن يأخذ العريضة وبين أن يتركها وأسلمه التردد إلى أن يسأل دميان قائلا دون أن يعرفه بشيء عن موضوع سؤاله:

ـ آخذها واللا اسيبها يا دميان؟

وبلل دميان أصبعيه وفرد كمه ورفع رأسه إلى السقف وقال:

ـ سيبها يا خويا ربنا يسهل لك.

وبقيت العريضة مطوية في كيس المخدة.

* * *

ظلت عزيزة راقدة في تلك البقعة المكشوفة التي تصليها الشمس بنارها صباح مساء، لا يفلح سقف الظليلة الرقيق المملوء بالثقوب في دفع وهج الشمس عنها، ولا ينفع فيها صب الخل أو تدليك الجسد أو علاج الاسطى زكي الحلاق. ظلت عزيزة وأزيز الحمى في جسدها تكاد تسمعه جارتها أم الحسن وتحس به كلما أمسكت يدها. الذباب يعف عليها والعرق يكسوها وفترات غيبوبتها تطول وتعمق. بل انقلب تخريفها آخر الأمر إلى صراخ. إذا أفاقت من غيبوبتها لا تكاد تفتح عينيها وتقول لها أم الحسن: ازيك يا اختي دلوقتي؟ حتى تدب على صدرها بكلتا يديها وتقول: يا لهوي! ثم تأخذ في لطم خدودها وتمزيق ثيابها ولحمها

بأظافرها رغم كل مجهودات جارتها ومن يتصادف مروره أو وجـوده في محاولة شل حركتها وتكتيف يديها، فلا تزيدها محاولات إيقافها إلا ثورة وهياجاً، ولا تكف عن تمزيق نفسها إلا حين تهوي مرة أخرى في سراديب الغيبوبة.

ولـم تعد الظليلة تلك السبة في جبين الغرابوة يحاولون إخفاءها وصرف الأنظار عنها. فحين عرفت الحكاية على أوسع نطاق وتمت إشاعتها بكل دقائقها وتفاصيلها لم يعد هناك ما يخجل له الغرابوة. . أصبحت شيئاً مثل لغتهم وفقرهم واحتياجهـم لا يحاولـون إخفـاءه أو التستـر عليه. وأهـل التفتيش أيضاً، اولئك الذين كانوا يتداولون حكايتها في السر وبإحساس من يتداول حراماً أو أمراً مخجلاً، أصبحوا يتحدثون عن الموضوع وكأن لم يعد فيه ما يدعو للخجل. تحول اهتمام الكل من حكاية عزيزة الـى عزيزة نفسها، عزيزة المريضة المسعورة التي تتعذب، حتـى اصبحـت الظليلة التي ترقد تحتها وكأنها قبة شيخ، الفائت لا يمكن أن يمر دون أن يلقي نظرة. . ليســت نظـرة حب استطـلاع أو تشف ولـكن نظـرة عطف ومشاركة، نظرة من يود لو كان باستطاعته أن يفعل شيئاً ليخفف عن تلك المسكينة المحمومة المعذبة.

تحول اهتمام الكل إلى عزيزة، وتحولت عزيزة الى ذئبة ضارية فاقدة العقل إذا أفاقت، جثة هامدة لا يربطها بالحياة إلا تلك الحرارة المريضة التي تتصاعد منها إذا غابت عن الوعي.

إلى أن جاء اليوم العاشر. .

ومن أوله استيقظت أم الحسـن فوجـدت بوادر التحسـن بادية علـى عزيزة. حرارتها قد انخفضت كثيراً عن ذي قبل، وعيناها مفتوحتـان بلا

غيبوبة ولا هذيان، وأنفاسها تتردد بطيئة في صدرها، ولكنها منتظمة وممتلئة. وفي الضحا انفرجت شفتا عزيزة، وأصاخت أم الحسن أسماعها ولكنها لم تستطع أن تلتقط شيئاً من بين الشفتين المنفرجتين، وأخيراً وبعد بذل الجهود استطاعت أن تتبين ان عزيزة تقول: أشرب! وقامت أم الحسن من فورها هالعة، وأحضرت لها كوز ماء من زلعتها وقربته من فمها، وشربته عزيزة على دفعات، ولكنها أتت عليه كله. وسألتها إن كانت تريد ماء آخر؟ وانفرجت شفتا عزيزة وقالت بكلمات واضحة هذه المرة: أشرب. وجرت أم الحسن وأحضرت كوزاً آخر شربته عزيزة، وما لبثت أن أغلقت عينيها وبدا أنها ستنام ذلك النوم الذي حرمت منه طويلاً.

وانبثقت فرحة غامرة في صدر ام الحسن وهي تتحسس جبهة عزيزة فتجدها وكأن حرارتها قد أصبحت طبيعية، وتجدها نائمة لا يكاد يفرقها عن الأصحاء إلا ذلك الشحوب الشديد الذي يصبغ وجهها.

وفي الظهر.. في عز الظهر، تلك الفترة التي تقف فيها الحياة تماماً ويئوب الناس إلى غداء يسلمهم إلى غفوة لا يفيقون منها إلا في طراوة العصر. في الظهر فتحت عزيزة عينيهافجأة،وكأنها لم تكن نائمة،وانفرجت شفتاها وقالت شيئاً. وأدركت أم الحسن أنها تريد أن تشرب، وطلبت من ابن الريس عرفه الصغير أن يذهب ويملأ لها الكوز من زلعتهم فقد فرغت زلعتها، وذهب الولد بالكوز الفارغ. في تلك اللحظة فوجئت أم الحسن بعزيزة تعتدل وتقفز جالسة، ثم تطلق صرخة عالية مدوية ما لبثت أن اعقبتها بصرخات هائلات مدويات. وقبل أن تستطيع أم الحسن أن تدرك أو تعي ما يحدث، وقفت عزيزة وهدمت الظليلة، وما لبثت أن انطلقت تجري ناحية الخليج وهي تصرخ. وبلاوعي،تبعتها أم الحسن

وهي تجري هي الاخرى وتصرخ وتستغيث بالناس، مخافة ان تكون عزيزة انتوت أن تلقي بنفسها في الخليج كما كانت تفعل. وعلى صرخاتها جاء الناس من كل مكان، من العزبة ومن الجرن ومن فوق ماكينة الدراس جاءوا هالعين يرون ما هنالك. وقالت لهم ام الحسن: الحقوها ح ترمي روحها في الخليج. وجرى الناس يحاولون منعها، ولكنها انهالت عليهم عضاً ورفساً ونشب أظافر بطريقة مجنونة متوحشة لم يملكوا معها إلا التراجع. ولكنها لم تلق نفسها في الخليج. انطلقت تجري حتى وصلت الى نفس المكان الذي وجدوا فيه اللقيط والذي كانت لا تزال فيه آثار الدماء سوداء جافة.

وبين دهشة الملتفين حولها وذهولهم جلست عزيزة القرفصاء على حافة الخليج، وكأنها تتهيأ للولادة، وانطلقت من فمها صرخات متواليات وكأن الطلق اشتد عليها، ثم عسعست بيدها حتى عثرت على عود الصفصاف الذي احترق نصفه والذي كان لا يزال في مكانه من الحافة وأطبقت عليه أسنانها واتخذت هيئتها طابعاً جنونياً مذعوراً وهي تضغط على العود وتنشب أسنانها فيه. وظلت تضغطبتوحش وتضغطوهي تدمدم بأنين محتبس كاسر والدم يسيل من فمها وأسنانها فيلوث العود، وعيناها جمرتان متوهجتان، وشعرها منكوش كشعر الجان، ويداها تعتصران طين الخليج فتحيلانه الى تراب جاف. وفجأة. وكأن شيئاً طق في داخلها تهاوت ممدة على حافة الخليج لا حراك بها.

حدث هذا كله في دقائق قليلة، والناس مشدوهون مذهولون قد جمدهم ما يحدث في أماكنهم، ولم يبدءوا يتحركون إلا حينما انهارت عزيزة. وحين أسرعوا اليها يتحسسونها وجدوها قد ماتت.

وتصاعد من الرجال جئير عريض يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله . . لا حول ولا قوة إلا بالله ، ونهنهت النساء القليلات الحاضرات، وبكت أم الحسن بحرقة وهي تحاول مستعينة بالرجال أن تخلص عود الصفصاف من بين الفكين الميتتين عليه .

اما ابن الريس الصغير الذي كان قد جاء بالكوز ممتلئاً لتشرب منه عزيزة، فقد عاد به الى عشهم، ولكنه توقف بعد قليل واستدار ناحية الخليج والقى فيه بالكوز ولم يلبث أن تصاعد بكاؤه.

* * *

ولم يصل الخبر للترحيلة في الغيط إلا بعد الغداء، ولم تستطع جهود الريس أو خولة التفتيش أن توقف ما حدث لهم حين سمعوا الخبر. فقد دب الاضطراب في صفهم الطويل، وحين انهالت العصى الخيزران فوق ظهورهم تأمرهم بمواصلة العمل اعتدلت الظهور لأول مرة واستدار أصحابها يواجهون الخولة والسواقين بعيون مفتوحة لا تطرف، ونظرات تنذر بثورة لا يعلم سوى الله مداها، ثورة الصامتين الذين طال بهم الصمت والصبر. والغريب أن الخولة والسائقين حين رأوا تلك النظرات بدءوا يغيرون طريقتهم في الحال، فكفوا عن الإهانات والخيزرانات وبدءوا يتحايلون ويسوقون الرجاوات قائلين إن عيشهم معلق بما سوف يحدث، وأنهم غلابة وأصحاب عيال.

وانتهى العمل قبل موعد انتهائه المعتاد بأكثر من ساعة، وعاد أنفار الترحيلة يتسابقون على المشايات ويستعجلون إنهاء الطريق.

وفي الماء حفل مكان الترحيلة الكائن خلف الاصطبل بعدد كبير من الناس لم يشهد له مثيلاً. فقد جاء الفلاحون من العزبة الكبيرة والعزب

الأخرى، وجاءت معهم بعض نسائهم، جاءوا يعزون الترحيلة تعزية الرجل للرجل والند للند. وكانت عزيزة قد وضعت في المكان الذي رقدت فيه أثناء مرضها وغطيت بكيس من أكياس القطن التي كانت تستعمل لهز الدودة، والتف حولها نساء الترحيلة ومن جاء ليعزيهم من نساء العزبة، بعضهن يبكي في صمت، وبعضهن يعدد على عزيزة وميتتها في بلاد الغربة بعيدة عن دارها وزوجها وأولادها، وبعضهن يتحدث ذلك الحديث الذي لا يحلو للنساء إلا في المآتم والجنازات حديث تحكي فيه المرأة من العزبة للمرأة من الترحيلة أو المرأة من الترحيلة للمرأة من العزبة عن وكستها وميلة بختها مع زوجها المقصِّر وثوبها الذي لا يصر حِفان ملح من كثرة ما به خروق وثقوب، وأولادها الأشقياء وبنتها التي يجري عليها عريس عنده فدانان.

أما رجال الترحيلة فقد جلسوا غير بعيد في مقدمة الجرن يتقبلون عزاء رجال التفتيش، وقد اختلطت العمم بالعمم والجلاليب بالجلاليب فلم تعد تستطيع ان تميز الفلاح من الترحيلة ولا صاحب المأتم من المعزِّي. بينما الشيخ أبو ابراهيم الفقي قد احتل دكة النوارج الواقفة على «رمية» قمح نصف مدروس، ومضى يتلو بصوته الأجش المبحوح بعض ما تيسر من سورة النساء، والشمس قرصها يحمر ويغيب خلف كومة التبن الهائلة المتخلفة عن دراس المكنة.

ودوناً عن الجميع كان دميان في ذلك الوقت يحوم حول بيت المأمور بلا سبت معلق في ذراعه منتظراً ربما أن تطل الست ام صفوت من البلكونة ليحادثها، ولكنها لم تطل، إذ كانت في ذلك الوقت جالسة على كنبة الصالة وأمامها جلست على الأرض بنت من الترحيلة تدلك لها قدميها وتحكي لها عن عزيزة وزوجها وكيف يعيشون في البلدة.

ظل دميان يحوم حول البيت ويتردد، إلى أن واتته الجرأة فدخل من الباب الخلفي الذي يؤدي الى الحوش والمطبخ، دخل وهو يزعق:

ـ يا ست ام صفوت.. يا ست ام صفوت.. مش عايزة اقرى لك الفنجال؟.

يزعق بنفس طريقته ونفس صوته الرفيع الذي يشبه صوت الأطفال ولكنه كان يشعر لحظتها برجفة غريبة عليه وعلى دميان.

وبعد دقائق كان دميان يغادر بيت المأمور من بابه الأمامي مطروداً هذه المرة ملعوناً أبوه، وظل يمشي على غير هدى إلى أن وصل إلى الجرن حيث الجمع الكبير المحتشد، وتردد برهة بين أن يذهب إلى حيث الرجال في الجرن أو إلى حيث النساء حول عزيزة في مكان الترحيلة. ويبدو أنه خاف من جمع الرجال إذ ما لبث أن توجه إلى حيث النساء مجتمعات حول عزيزة. وبكى دميان في ذلك اليوم بحرقة حتى كاد يضحك بحرقته النساء.

وأمام مباني الإدارة، وعلى بضع كراسي قديمة متناثرة معظمها قد سقط خوص قاعدته كان فكري أفندي المأمور جالساً وحوله مسيحة أفندي وأحمد سلطان والأسطى محمد والشيخ عبد الوارث الكبير والمخزنجي ورئيس الخولة، ومن بعيد كان يرقب جلستهم بعض الفلاحين الذين يؤثرون التطفل وتسقُّط الأخبار والعلم بكل ما يدور في التفتيش من أمور. وكان المأمور يتدارس مع الرجال المجتمعين حوله الحل الذي انتهى إليه في أمر عزيزة. فقد خلقت له عزيزة بوفاتها مشكلة لم تكن تخطر له على بال.. إذ هو لا يستطيع الإبلاغ عن وفاتها أو دفنها في التفتيش فسوف يتطلب الإبلاغ كشفاً يوقع على المتوفاة، ومن يدري ما يمكن أن يؤدي إليه الكشف من تستر على جانية وتحقيق وسين وجيم. ولم يكن هناك من حل

إلا أن ترسل ميتة إلى بلدها، وهناك يتكفل الحاج عبد الرحيم مقاول الترحيلة بأمرها فهو المسئول الأول والأخير عن أنفاره وحياتهم، ولا بد أن يكون أيضاً مسئولاً عن موتهم، فيمكنه أن يتفق مع عمدة بلده ـ وهو صاحبه وقريبه ـ على الإبلاغ عن وفاتها باعتبار أنها لم تكن في الترحيلة أو كانت هناك ثم لما عادت مرضت وماتت في بيتها. أو يمكنه أن يصنع أي شيء آخر يخلي التفتيش والمأمور من المسئولية. ممكن أي شيء ولكن الشيء المحتم الذي لابد منه هو أن تنقل جثة عزيزة الى بلدها.

ونقلها هو المشكلة التي ظلت تحير فكري أفندي طويلاً حتى عثر لها على حل. وكان الحل في عربة التفتيش اللوري التي تذهب كل خمسة عشر يوماً إلى بلد الترحيلة لتحضر لهم زوادتهم من عيش غرباوي وجبنة وبصل وعدس ومش. ولم يكن ميعاد ذهاب العربة قد حل، ولكن تقديم هذا لموعد ليس بالأمر الخطير غير المستطاع.

وكان المأمور قد أرسل في طلب الأسطى عبده سائق اللوري وأخذ يفهمه بلهجة جادة تعمد أن تكون لهجة أمر لا تسمح للأسطى عبده بالتحجج أو التهرب، يفهمه مهمته، وما يجب عليه عمله . وأبدى الأسطى عبده بعض التردد وأثار بعض الاعتراضات.. تكفل الأسطى محمد العجوز بالرد عليها جميعاً. ولم تبد على ملامح الاسطى عبده الموافقة النهائية إلا بعد أن تعهد له المأمور أنه سيكون مسئولاً مسئولية تامة لو حدث شيء لا قدر الله. وحينئذ فقط ارسل الاسطى عبده طاقيته الصوف الطويلة وجلبابه، اللذين يرتديهما في العادة، أرسلهما الى بيته طالباً من امرأته أن تبعث له بالبدلة الكاكي التي يرتديها حين يسافر. ثم مضى الى الجاراج يعد اللوري للرحلة الطويلة التي عليه أن يقطعها على

الحرام

سكك متعبة غير ممهدة لكي يبعد قدر طاقته عن عساكر المرور وأكشاكهم.

وحين أعدت العربة وتم كل شيء كان الظلام قد خيم، وكان ميعاد ذهاب أنفار الترحيلة إلى الغيط قد حان.. إذ كانت اللطع قد فقست في العزبة نمرة عشرة وكان الأنفار يعملون بالنهار في التقاط اللطع ويسرحون بالليل ـ لقاء أجرة ثانية ـ لهزٍّ أشجار القطن وجمع الدودة من فوق أوراقها، الدودة التي تختفي في النهار في شقوق الأرض ولا تبدأ زحفها الفاتك إلا في الليل.

وكانت عملية الهز تتم في وسط أنوار الكلوبات الساطعة، والعمل فيها يبتهج له الأنفار اكثر، إذ هو عمل في الليل حيث الجو معتدل ولطيف وحيث الأغاني، والنور الساطع، والظلام الذي يتيح بعض اللعب، يتيح لليد الخشنة أن تمتد الى الجارة ويتيح للجارة أن تتغابى وتسكت.

كان الأنفار يسعدون بالعمل في الليل رغم كل شيء، ورغم أنهم كانوا يعملون أيضاً في النهار، ولا ينامون سوى تلك السويعات القليلة التي يختلسونها ساعة الفجر وساعة الغروب، ولكنه عمل بأجرين والجسد المرهق ليس مشكلة.. المشكلة في القرش والفرصة التي جاءت من السماء لاقتناصه واستخلاصه.

كان ميعاد ذهاب الأنفار للغيط قد حان، ومع هذا أبوا ورفضوا أن يتحركوا قيد أنملة إلا بعد أن يودعوا عزيزة الوداع الأخير.

وحانت اللحظة التي كان على عزيزة أن ترحل فيها، وجيء باللوري وهو يجأر ويتراجع به الأسطى عبده إلى الخلف، ويزجر الأطفال الذين يتعلقون بجوانبه ويلعن آباءهم ليستطيع أن يصل إلى أقرب نقطة من

المكان الذي ترقد فيه عزيزة، ووقف الرجال واجمين متزاحمين حول اللوري، وما كاد يرتفع صراخ النساء حتى هب فيهن المأمور طالباً السكوت التام مهدداً بكسر عنق الواحدة منهن لو فتحت فمها، فالعملية كان يجب أن تتم بهدوء وبلا إعلان أو فضيحة.

وعلى ضوء كلوب جنيدي الباهت الذي كثيراً ما كان يشحر ويختنق نوره، لفت عزيزة بالكيس الذي كانت تتغطى به، وتبرع الشيخ عبد الوارث بحصير بال من عنده لف فوق الكيس، ثم حملت الجثة ملفوفة بالحصير بين نهنهة النساء وصمت الرجال الواجم، ووضعت على أرض صندوق اللوري الخشبية. وجمعت كل القفف والزلع والبلاليص الفارغة من الترحيلة ـ وعلى كل منها علامة ليعرف صاحبها، جمعت ووضعت فوق الجثة لتداريها وتخفي معالمها، ثم صعد الريس عرفة الى العربة وصعد معه بعض أنفار الترحيلة من الرجال، وتصاعدت صرخة من أم الحسن طالبة أن تذهب معهم، فالمتوفاة حرمة وكلهم رجال، وليس أجدر منها بالمحافظة عليها، ولم تغلق فمها إلا حين حملت إلى اللوري ووضعت فيه. وعبد المطلب الخفير أصر على أن يرافقهم ليشيع عزيزة إلى مقرها الأخير. قائلاً إنه لا يمكن أن يترك الأسطى عبده يذهب وحده في تلك المهمة الخطرة.

وأخيراً قال فكري أفندي المأمور لعبده بأنفاس متهدجة:

ـ اتوكل على الله يا اسطى.

وقال الأسطى عبده وهو يجذب عصا «الفيتيس»:

ـ توكلنا على الله.. الفاتحة..

وانسل اللوري وقد تعالى صوت ماكينته من بين مئات الرجال والنساء

المتجمهرين، الذين لا يضيء وجوههم الشاحبة إلا كلوب جنيدي الشاحب، والذين لم يتمالك بعضهم نفسه فانفلت صوته رغماً عنه:

ـ مع السلامة يا عزيزة.. مع السلامة..

* * *

وبعد قليل كانت العربة قد استوت على الطريق الزراعي الكبير الذي يمر بحذاء شريط الدلتا، السائق صامت واجم يدخن السيجارة التي عزم عليه بها الريس عرفه، وعبد المطلب بجواره صامت هو الآخر وواجم. أما مَن في صندوق العربة فقد كانوا جالسين متشبثين بحافة الصندوق وكأنهم يتحاشون الجلوس فوق إبر حادة، كلما هزتهم العربة تشبثوا بالحافة أكثر محاولين قدر الطاقة أن يبتعدوا عن كومة القفف والبلاليص التي ترقد تحتها المرحومة.

وبينما العربة تئز وتتمايل بحمولتها، وأزيزها المكتوم تحمله الرياح وتتشربه على مهل كتل الظلام الهائلة الرابضة على صدر الكون، كان خط أنفار الهز قد انتظم تحت ضوء الكلوبات المعلقة على عروق طويلة والعصى الخيزران قد بدأت ترتفع وتهوي على الظهور المحنية، بينما أصوات الخولة والسواقين تصرخ بنبرات متقاربة متلاحقة:

ـ وطي يا ولد.. وطي يا بنت.

خاتمة

وانتهى العام ورغم كل شيء كللت جهود فكري أفندي بالنجاح وهزمت الدودة رغم فقسها، وسلم المحصول، وعاد الغرابوة إلى بلادهم.

وحين جاء العام التالي على التفتيش، وجاء الغرابوة كان الفلاحون لا يزالون يذكرون بعضاً مما حدث لعزيزة وحكايتها، ولكن الحاجز الذي كان قائماً بينهم وبين الترحيلة كان قد زال نهائياً وإلى الأبد، وأصبح من المعتاد أن يسهر رجال الترحيلة مع أهل العزبة في بيوتهم، وأن تختلط النساء بالنساء، بل حدث ما هو أكثر من هذا إذ تزوج سالم أبو زيد أحد «كلافة» التفتيش ببنت غرباوية راقت في عينه فخطبها، ثم ذهب إلى بلدها حين عادت في جمع من فلاحي التفتيش ليخطبها من أهلها وعادت عروسة.

ولم يشهد العام التالي فكري أفندي مأموراً للتفتيش، فالخواجة زغيب كان قد باعه حقيقة للشركة البلجيكية التي عينت له مأموراً كالخواجات من عندها، وإن كان قد عرف بعد هذا أنه تركي ومسلم، ولكن له شكل الخواجات وهيئتهم، ولكن الشركة والمأمور الجديد لم يدوما طويلاً أيضاً، إذ ما لبث الشركة أن باعت الأرض للأحمدي باشا حين عرض

عليها ثمناً مناسباً بلغ ربحها فيه آلاف الجنيهات، وقلب الباشا نظام المزارعة الذي كان سائداً في التفتيش إلى نظام الإيجار على بياض ووضع هو فيها ما شاء من شروط .

ولم يفاجأ الناس حين أصبحوا ذات يوم فوجدوا أحمد أفندي سلطان قد قدم استقالته من عمله وغادر التفتيش، وقيل إنه وجد وظيفة كاتب في مكتب أحد محامي المختلط في طنطا . . لم يفاجأ الناس لعلمهم أن أحمد سلطان كان على الدوام ضيقاً بالعمل في التفتيش معتبراً أنه يضيع عمره وشبابه فيه برخص التراب. الناس فوجئوا حقيقة حين اختفت الست لنده ذات يوم، وجن مسيحة أفندي وهو يطوف البلاد طولاً وعرضاً ويبحث عنها، وزالت المفاجأة وانكشف السر حين عرف أنها ذهبت لتتزوج من أحمد سلطان، وأن الزواج تم في مركز البوليس، وأن استقالته واختفاءها وكل شيء تم باتفاق بينه وبينها. وأضاف ما حدث إلى عمر مسيحة أفندي عشرات الأعوام، فشاب معظم شعره وأصبح لا يهتم بنظافة ثيابه أو وضع المناديل لتحمي ياقته من عرقه، وقاطع لنده وزوجها وآلى على نفسه وأولاده وزوجته ألا يعرفوها أو يروها أو تأتي سيرتها على ألسنتهم. ولكن الأيام ـ آه من الأيام ـ ما لبثت أن جعلته يغفر وينسى، ويرد على الخطابات الكثيرة التي ظلت لنده ترسلها إليه كل اسبوع بخطاب متزمت مقتضب ولكنه يبدأ بتلك العبارة:

ـ ابنتنا العزيزة لنده . .

ومضت الأعوام تشهد خلافات من نوع جديد تنشب بين الفلاحين الذين اصبحوا مستأجرين وبين الأحمدي باشا . . محاكم ومحضرين وحجوزات، وحراس على البهائم والمنقولات، وبيوعات بالمزاد العلني، وحرائق كيدية في سواقي التفتيش ومكنه ومحاصيله.

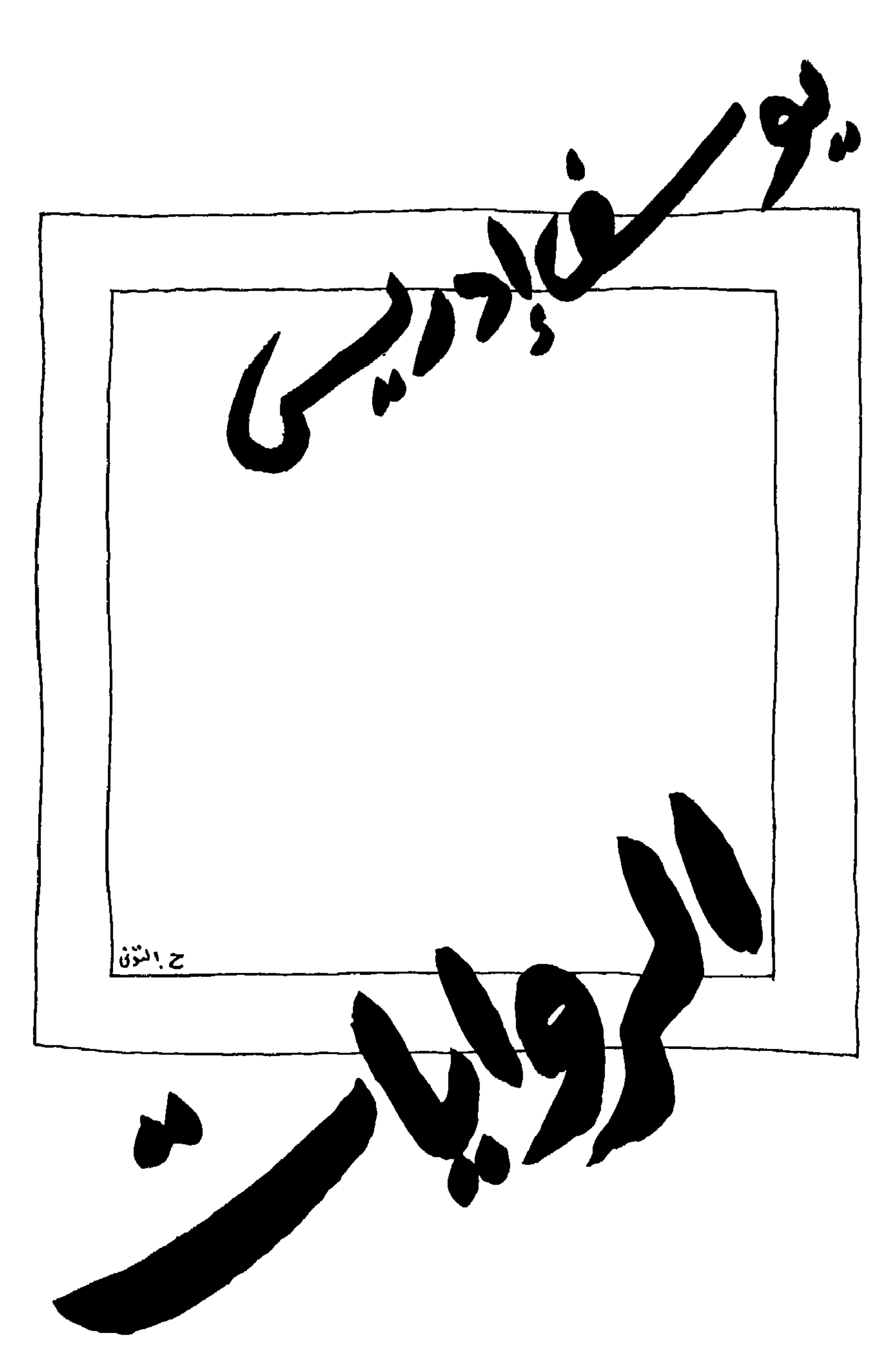
وقامت الثورة، وصدر قانون الإصلاح الزراعي، وباع الأحمدي باشا الأرض للفلاحين، وباع كذلك كل معدات التفتيش من بهائم وركائب وماكينات حرث وري ودراس، حتى السراية والمخازن الضخمة هدمها وباعها أنقاضاً. وكذلك استغنى عن جميع الموظفين والخولة والأسطوات والأنفار. وغادر بعضهم التفتيش، وانقلب بعضهم الى فلاحين واشتروا ارضاً، والوحيد الذي بقي موظفاً هو مسيحة أفندي الذي عهدت إليه دائرة الأحمدي باشا بإمساك حسابات المائتي فدان التي بقيت على ذمة الباشا.

وتغيرت معالم التفتيش تماماً، فلا سراية، ولا اصطبلات، ولا إدارة ولا مأمور، ولا مفتش، ولا شغيلة أو خفراء أو تملية، ولكن مجتمع جديد أصبح هو الموجود، مئات الملاك الصغار يقطنون نفس البيوت التي كانوا يقطنونها وهم أجراء وفلاحون، مئات الصغار الذين بدأ بعضهم يكبر ويغتني ويؤجِّر، وبدأ بعضهم يصغر ويحتاج ويستأجر.

مضت الأعوام وتعاقبت التغيرات، وانقطع بطبيعة الحال مجيء الترحيلة، ونسيهم الناس تماماً ونسوا كل ما كان من أمرهم وأمر عزيزة. .

كل ما تبقى منهم ومنها شجرة صفصاف قائمة إلى الآن على جانب الخليج الذي لم يغيره الزمن، يقال إنها نمت من العود الذي استخلصوه من بين أسنان عزيزة بعد موتها فطمس في الطين ونبت، وكان أن أصبح تلك الشجرة. وأغرب شيء أن الناس لا يزالون يعتبرونها إلى الآن شجرة مبروكة، وأوراقها لا تزال مشهورة بين نساء تلك المنطقة كدواء أكيد مجرب لعلاج عدم الحمل.

«انتهت»


يوسف إدريس
الروايات
ح. التوني

المحتويات

تمت الروايات

الجزء التالي من الأعمال الكاملة للدكتور يوسف إدريس (القصص القصيرة) وتليها المسرحيات والانطباعات تباعاً.

مطابع الشروق

بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣ - برقياً: داشروق - تلكس: SHOROK 20175 LE
القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني - هاتف: ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٤٥٧٨ - برقياً: شروق - تلكس: 93091 SHROK UN

يوسف إدريس

الروايات 1

الاعمال الكاملة

يوسف إدريس



روايات 2

دار الشروق

يوسف إدريس

الروايات

الطبعة الأولى
١٩٨٧م - ١٤٠٧هـ

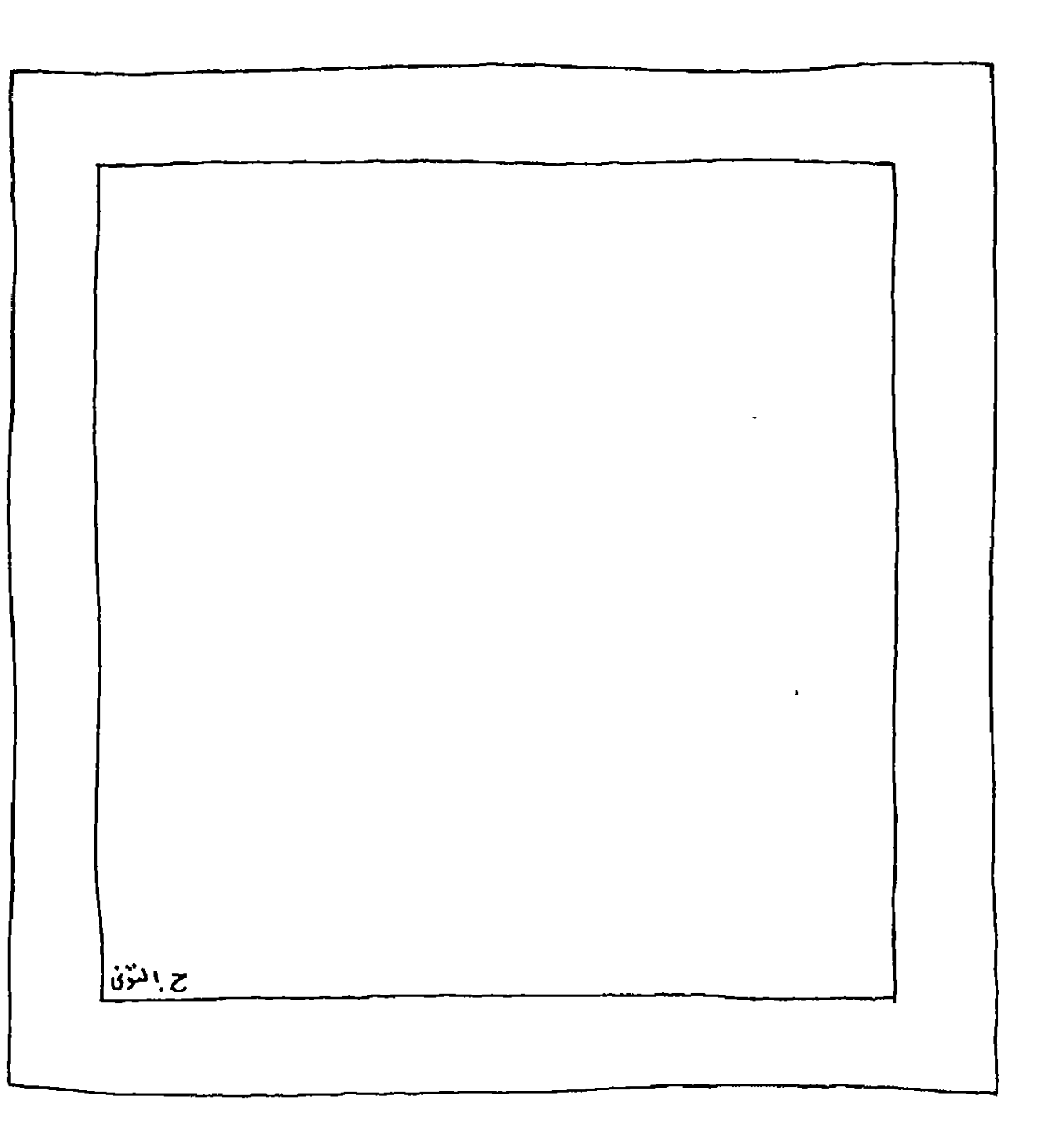
دار الشروق

بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣ - برقياً : داشروق
تلكس : SHOROK 20175 LE

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٤٥٧٨ - برقياً : شروق
تلكس : 93091 SHROK UN

SHOROUK INTERNATIONAL; 316/318 REGENT STREET, LONDON W1, UK, TEL: 637 2743/4
TELEX: SHOROK 25779G


يوسف إدريس
الروايات



البيضاء

حيرتني هذه القصة.

كتبتها في صيف عام ١٩٥٥.

ونشرت بعضها تباعاً في جريدة الجمهورية عام ١٩٦٠.

وأخيراً قررت نشرها هذا العام، فإن كان بطلها هو (يحيى) إلا أنها وثيقة حية لفترة خطيرة من فترات الحياة في بلادنا، فترة لا أعتقد أن أحداً تناولها.

إن كانت تقليدية الشكل والطريقة، فالشكل مهما كان لا يتعدى دوره كشكل، والحقيقة تبقى حقيقة رغم أية طريقة تروى بها.

وإني لشديد الاعتزاز بهذا الجزء من عمري وعمر بلادي.

يوسف إدريس

١

لماذا نكذب على أنفسنا؟

إن لكل منا قصة حب دفينة وضعها في أغوار نفسه، وكلما مضى عليها الزمن دفعها أكثر وأكثر إلى أعماقه،وكأنما يخاف عليها من الظهور.

وسوف أقول لكم كل شيء عن قصة حبي.

ماذا أقول لكم؟

يخيل لي أن ما من امرأة قابلت رجلاً وما من رجل قابل امرأة إلا وسأل كل منهما نفسه: ترى.. هل يصلح الآخر لي؟ ما من امرأة وما من رجل وفي كل مراحل العمر، قبل الزواج وبعده، في عنفوان الصبا وذبول الشيخوخة. سؤال يدور في عقول الآباء في نفس الوقت الذي يدور فيه في عقول الأبناء! عملية بحث دائبة مستمرة عن الطرف الآخر في تلك اللعبة الخطرة التي يسمونها الحب.

لست أبالغ ولا أتجنى إذ في أغلب الأحوال يأتي الجواب رفضاً ونفياً وفي أحيان قليلة يظل يتأرجح بين النفي والإثبات. وفي أحيان نادرة، نادرة جداً، يأتي الجواب أن نعم.. هذا هو أو تلك هي من أريد.

أنا أيضاً حين قابلت «سانتي» قلت هذا.. كان ذلك في مطعم

«الباريزيانا» الـذي لم يغيـره الـزمن، وكـان سبب اللقاء عاديـاً جداً في نظري، أزاول مثله كل يوم من أيامها عشرات المرات. كان لي ولا يزال صديق اسمه صبحي يعمل مندوب دعاية، أو كما تعودنا أن نسميه «بروبا جاندست» لإحدى شركات الأدوية. وكانت له اتصالات واسعة بالأجانب والمصريين، لا بحكم عمله ولكن لأنه هو شخصياً من ذلك الصنف من الناس الـذي لا يحيـا ولا يتنفس أو يتحرك إلا إذا تعرف كل يوم بأناس جدد، وعرف أناساً بأناس. قال لي ذات مرة أن هناك فتاتيــن إحداهما يونانية والأخرى فرنسية أو من أصل فرنسي وأنهما تريدان العمل معنا في المجلة وتقديم أيـة مساعدة يمكنهما تقديمها. ولا أعرف لماذا لم ألـق للأمر اهتماماً كبيراً أول ما قال لي، ربما لأني لم آخذ كلامه مأخذاً جـاداً وربما لأنه كان كلما قابلني حدثني عن أشياء يريد تقديمها للمجلـة ولا يقدم شيئاً بالمرة. ولكني قابلته بعد هذا مرة أو مرتين وفي كل مرة يسألني متى يمكـن أن يعرفني بالفتاتيـن. وأدركـت حينئذ أن كلامه قد يكــون صحيحاً على عكس ما تعودنا من كلامه. وربما لو كان قد قال أن الفتاتين «بنات عرب» لما احتفلت بالأمر ذلك الاحتفال إذ لست أدري سر ذلك الضعف الذي نكنه نحن أولاد العرب للخواجات، وللنساء منهم بالذات. المهم رحبت بالمهمة وسألته بضعة أسئلـة لأتأكـد أن ما يقولــه حقيقي ولأحاول أن أكون عنهما فكرة قبل أن ألقاهما، وحددت معه موعداً في «الباريزيانا» يعرفني بالفتاتين فيه، وأظنه كان الثالثة بعد ظهر يوم من أيام الشتاء.

ما زلت أذكر اليوم كأنه اليوم. كنت أرتدي معطفاً رمادياً اشتريته.. أول معطف في حيــاتي ارتديته، وكنت مسرعــاً إذ كان الميعاد قد أزف ومضت بعده دقائق. ومع هذا ورغم نسمات العصر الشتويــة والــوقت

الضيق فقد رحت أسأل نفسي ذلك السؤال: ترى هل تصلح واحدة منهما أو الاثنتان لأحبهما؟ وهل تقع إحداهما في غرامي؟ وهل يكون لي معها قصة؟ وكنت أسأل نفسي تلك الأسئلة مع علمي التام أنها أسئلة لا يصح إلقاؤها أو التفكير فيها. فالعمل الذي نقوم به جاد وخطير وليس فيه أي مكان أو فسحة للحب وللغرام. كنا في عنفوان معركة الاستقلال، ومجلتنا تخوض حرباً لا هوادة فيها لإعداد الشعب للمعركة ولا مجال للعاملين فيها للتفكير في غير العمل والكفاح. كل شيء يجري وكأنها الخطة لجيش محكمة، وكل شيء ينفذ وكأننا في خط النار، والمعركة ضد الاستعمار قائمة في كل مكان. . في السودان ومصروسوريةوالبلاد العربية وشمال أفريقيا وقبرص وفي كل مكان. ولجماعتنا أنصار وأعضاء في كل قطر من هذه الأقطار، والمجلة تصدر في القاهرة ويتردد صداها في كل عاصمة من عواصم الشرق الأوسط. كنت أعرف هذا كله، ولكنني هنا أقول الحقيقة فالحقيقة يصح قولها دائماً، بل دائماً لا بد من قولها. والحقيقة أننا حين نفكر بيننا وبين أنفسنا لا نفكر فيما يصح وما لا يصح. . إننا نفكر فقط فيما نريده، نفكر بكل جرأة بل أحياناً بوقاحة ولا يهمنا شيء. إننا فقط حين يأتي دور التنفيذ نبصر العقبات الاجتماعية القائمة، وحينئذ نبدأ نتراجع أو نبدأ نلف وندور حول العقبات كوسيلة للتغلب عليها. بيننا وبين أنفسنا لا نعد العقبات الاجتماعية مقدسات، إننا نعدها عقبات فقط، ولعل هذا هو سر تقديسنا لها أمام الناس. وليس معنى أنني كنت أفكر في كل هذا وأنا في طريقي إلى الموعد إني كنت أفاقاً أو وغداً، لأني كنت أفكر في مطامحي الخاصة، فالواقع أني كنت أفعل هذا بجزء صغير من نفسي، أما أجزاؤها الأخرى الكبرى فكانت مشغولة تماماً بالمجلة وبالواجبات وبالعمل الذي كنت أقوم به في منتهى الجد والنشاط، هذا شيء وذلك شيء آخر

مختلف، والإنسان يفعل الشيئين، وربما يفعل الشيئين لأنه إنسان.

دخلت المطعم وأنا أبحث بعيني عن صبحي لأطمئن أولاً إلى وجوده (فقد كنت لا أزال معتقداً أن كلامه قد لا يصفى على الربع) بالتالي لأطمئن على وجود الفتاتين، وأخيراً لآخذ فكرة عن شكلهما من بعيد إذ كان السؤال لا يزال قلقاً في جوفي يريد جواباً: ترى هل تصلح إحداهما لي؟

ووجدت صبحي فعلاً، ولدهشتي وجدت أنه حقيقة صادق هذه المرة فقد كانت تجلس إلى جواره فتاتان إحداهما ضخمة كبيرة، والأخرى صغيرة بيضاء مشرب بياضها بحمرة، واتجهت إلى المنضدة التي يجلسون عليها وسلمت. . وتلعثمت وأنا أفعل هذا ،وصبحي يقدمني إليهما وكأني خجلت مما كنت تركت لنفسي حرية التفكير فيه. وجلست وطلبت قهوة، وفعلت هذا كله دون أن أجرؤ على رفع عيني أو إلقاء نظرة قريبة على الفتاتين.

وبعد أقل من دقيقة قامت الضخمة مستأذنة تاركة أمر تحديد كل شيء لزميلتها التي كانت جالسة تبتسم باستمرار ولا تتكلم، وجلس معنا صبحي هنيهة ثم لم يلبث هو الآخر أن سلم وانصرف.

وبقيت معها. .

وأقول بقيت معها لأنني منذ الوهلة الأولى كنت قد تأكدت أنها هي هي التي أردتها دائماً دون أن أعثر عليها، هي التي بحثت عنها في كل فتاة، أو امرأة قابلتها ولم أجدها، بالضبط هي بكل ما أحب في النساء فيها، وكيف أقول هذا وأفسره؟ أأقول إن من نظراتي الأولى لها كنت قد قررت أنها لي طال الزمن أو قصر، شاءت الظروف أم لم تشأ، ماذا أقول؟ هل أقول إنني منذ الوهلة الأولى كدت أخمن قصتنا معاً، كأن أنواراً كاشفة

قد أضاءت كل ما سوف يقبل من أحداث لجزء من الثانية، ثم انطفأت الأنوار؟

وتحدثنا في العمل. قالت لي إنها هي اليونانية وزميلتها أبوها فرنسي وأمها يونانية، وأنها سمعت عنا من تنظيمها الذي يحارب في قبرص وتريد أن تفعل شيئاً لنصرة القضية التي نحارب من أجلها، والتي هي شخصياً مؤمنة بعدالتها، ولـم تجد أنسب من أن تضع نفسها في خدمة مجلتنا. وحيرني حديثها، فالواقع أن المجلة لم تكن تشكو من قلة الأيدي العاملة فيها، ثم ماذا تستطيع فتاة يونانية أن تفعل لمجلة تصدر في القاهرة باللغة العربية؟ حيرني حديثها لأنه لم يكن من المعقول أن أقول لها: أنا في غاية الأسف يا سيدتي العزيزة فلا مكان لك في مجلتنا، وعليك أن تذهبي في طريقك ونذهب نحن في طريقنا. ومن غير المعقول أيضاً أن أؤكد لها أنها ستعمل معنا لمجرد أنني أصبحت أريد أن تعمل معنا، فأنا لم أكن أملك سلطة هذا التأكيد. وإذا أخذت المهمة على عاتقي فقد يضر عملها معنا بصالـح المجلـة، فأكــون بهذا قد ألحقت بمجلتنا خسارة لمجرد نزوة شخصية عنت لي.

حيـرني حديثها.. وأخيـراً قررت أن أحصل منها علـى ما أستطيـع الحصول عليه من معلومات، ثم أناقش الوضع كله مع أحمد شوقي رئيس التحرير. وحتى حديث العمل بحيرته ومشكلته لم يكن له الأهمية الأولى في تلك الجلسة، فجزء كبير من اهتمامي كنت أوجهه إليها هي، وكنت أتأملها بطريقة لا تسترعي انتباهها، إذ كنت أنظر في وجهها ونحن نتحدث عن ضرورة تنسيق الـكفاح بيننا وبيـن إخواننا اليونانييـن، وأرسم علـى وجهي كل علامات الاهتمام بذلك الحديـث والتركيـز فيه، وأحتم علـى

ملامحي أن تمثل هذا، ولكني في واقع الأمر أتأملها وأحاول أن أمد عيوني الخاصة إلى نفسها الخاصة، لأتأمل تلك التي كنت قد قررت أنها لي.

ومع هذا فلو طلب أحدهم مني بعد مقابلتي لها أن أصفها لما استطعت فما جدوى الوصف؟ إنه لشيء مضحك أن نقرأ في قصص الحب أن البطل غرق إلى آذانه في حب البطلة لشعرها الأسود المتهدل، أو عيونها العسلية ذات الرموش الطويلة. هراء وتخريفات فنحن لا نفضل إنساناً على آخر لأن ملامح هذا أجمل من ملامح ذاك، أو نحب فتاة لعيونها الجريئة أو لالتفاتاتها الرشيقة. يخيل إلي أننا نحب الإنسان لشيء لا نستطيع تحديده في الإنسان، واسألوا كل من أحب ماذا أحببت في رفيقك؟ ودعوه يجيب. وحققوا له كل ما يقوله في رفيق آخر فسوف يظل يقول هناك شيء ناقص لو سألناه عن كنهه لما استطاع الإجابة. وفي كل منا شيء لا نستطيع تحديده، هو روحه، هو مجموع أجزائه الظاهرة وأجزائه التي لا تظهر، دمه، شخصيته، ظله، شيء نطلق عليه أسماء كثيرة لنحدده فلا تفعل الأسماء أكثر من أن تؤدي بنا إلى مجهولات أخرى في حاجة إلى تحديد.. شيء هو المسيطر الأعلى علينا، هو الذي يحدد إرادتنا وماذا نكره وماذا نحب، وهو أيضاً الشيء الذي يحب وكأنه أصلنا وما أجسادنا وأشكالنا وأنوفنا وعيوننا إلا أعراضه وتجسيداته.

حتى بعد تأملي الذي طال لها لم أكن أستطيع وصفها، ويكفي أن أقول إن كل ما فيها أعجبني.. طريقتها في الحديث، ابتسامتها، أسنانها الأمامية حين ينفرج عنها فمها الصغير، لونها، وملامحها الصغيرة الدقيقة، عيناها حين تضحكان، إحساسي بأني موجود داخل عينيها وأنها تراني وتتذكر أشياء من أجلي أنا. ذلك هو أهم ما خرجت به من تلك

البيض

المقابلة الأولى. . أحسست أننا انسجمنا وأننا سنصبح سعداء لو عملنا معاً، وأننا قد تقاربنا بطريقة أسرع مما تصورنا. ولكن إحساسي هذا كان مجرد إحساس داخلـي لم تظهر منه بادرة واحدة، أو ينبيء عن وجوده بتصرف واحد. فقد كان سلوكـي الاجتماعي إزاءها لم يتعد أبداً حدود المعرفة البسيطة التي حدثت، لا يتعدى حدود زميليـن، واحد من مصر والآخر من اليونان التقيا في معركة مشتركة، وأنهما سيلتقيان مرة أخـرى وأنهما لا يكرهان أن يلتقيا مرة أخرى.

وخرجت من المطعم وأنا منتش تلك النشوة التي تفجر السعادة في قلوبنا وتجعلنا نحس بها في كل شيء نراه. . في عازف الكمان العجوز المتجول، في ضوضاء الشارع الصاخبة، في الوجوه الخارجة لتوها من ازدحام السينما، في أمس وكل ما دار فيـه، وفي الغد بكل ما يأتي به. . إنسانة حلوة رقيقة وضعتها الظروف أمامي في وسط المعركة الجافة الجادة التي كنا نخوضها. . إنسانة أعجبتني ويبدو أنني أعجبتها، فتاة صغيرة في السن لم تتعد العشرين بالغة الحماس والذكـاء واسعة الثقافة. . إنسانة ممكن أن أحبها أو أتزوجها أو أتجاوب معها ذلك التجاوب الذي نفتقده كثيراً ونحن إليه دائماً، ما الضرر أن أحس بكل هذا بيني وبين نفسي، ما دمت أؤدي دوري على أكمل وجه في المجلة، وفي الكفاح، وفي الحياة؟

وخرجت من المطعم متجدد الحماس، وقضيت بقية النهار راضياً عن نفسي والدنيا وحركة الزمن. فقد قضيته سعيداً!.

٢

وكـان مفروضاً ألا ألتقي بها إلا تلك المرة القادمة التي أقدمها فيها لأحمد شوقي رئيس التحرير، حيث تعمل معه أو حيث يوصلها إلى تنظيم السيدات وحيث تنتهي علاقتها المباشرة بي .ولكنني لم أجد أبداً ثمة داعياً قوياً يدعوني للعجلة، فلماذا لا يتم هذا في اللقاء الثالث مثلاً؟ ولماذا لا أؤجل حديثي عنها مع شوقي بضعة أيام أراها فيها على انفراد مرة أخرى؟ في لحظة قررت أن أبيح لنفسي تلك الخطيئة البريئة على أن تكون الخطيئة الأخيرة.

وفي الميعاد وجدتها جالسة تنتظرني وتبتسم، وجلست ونادت الجرسون وأصرت على أن تعزمني. وضحكنا طويلاً ونحن نتجادل حول الموضوع،وأنا أقول إنها ما دامت في بلادنا الشرقية فلا بد أن تخضع لتقاليدنا، فترد هي بقولها إن التقاليد تتطور وبعزومتها لي تبدأ عملية التطور.

وطوال الوقت كنت أيضاً لا أزال أحيا في تلك النشوة التي تجعل الإنسان لا يرى إلا ما في الأشياء من جمال، أو تجعله يرى كل الأشياء جميلة. . وكل ما يفعله حلال، ولا شيء هناك يستحق أن يؤنبه عليه ضميره.

ولـكني لست أذكــر بالضبط متى أو لماذا بدأ ينتابني ذلك الشعور؟ ولكني وأنا في قمة سعادتي معها بدأت أحس وكأني أفقت لثوان قليلة من حلم، فوجدتها زميلة معركة ووجدت أني أرتكب حماقة، لا لأني كنت أخطىء أو لأن ما أفعله أشياء تتنافى مع الزمالة أو المعركـة، ولكـن لأن الطريق الذي كنت أسمح لنفسي بالسير فيه كان طريقاً ممكناً أن يؤدي إلى الانحراف والضلال، وإن بدا أولــه بريئاً ليس فيــه ما يخجل، وأظنني وجمت أو كنت أضحك وآبت ضحكتي إلى سكوت مفاجىء. فقد نظرت إلي بعينيها الواسعتين السوداوين وفيهما حيرة وقلق وقالت:

ـ ما بك؟

قلت: لا شيء.

وأكملت الضحكة.

وحيـن كنت أغادرها في ذلك اليـوم كانت نقط سوداء دقيقة كرءوس الدبابيس تغزو إحساسي الواسع بالنشوة والسعادة.

* * *

وكان اللقاء الثالث مهماً فقد كان اللقاء الـذي يجب علينا أن نفترق فيه. إذ كـنت قد ناقشت موضوعها مع شوقي رئيس التحرير واقترحت عليه أن باستطاعتنا أن نجعلها تعمل في الترجمة وتشارك في الإشراف على قسم المرأة والطفل، وهز شوقي رأسه بطريقة أدركت معها أنه لا يقيم وزناً كبيراً لاقتراحاتي وإن بدا موافقاً عليها كل الموافقة، وأدركت أيضاً أنه قد يكون لديه خططه الخاصة للاستفادة بمجهودها ومجهود زميلتها. كل ما قاله لي أن طلب مني أن أحدد لهما موعداً يلتقيان فيه به، وأترك التصرف له.

ولأمر ما لم أكن أعتقد ـ حتى قبل أن ألقاها ـ أن لقاءنا هذا سيكون اللقاءالأخير. لماذا؟ لأني كنت متأكداً من هذا، هي التي أكدته لي. لم تؤكده لي بكلامها، فكلامنا ـ كما قلت ـ لم يكن قد تعدى حدود المعرفة التي تزداد متانتها يوماً بعد يوم، ولكنها قطعاً لن تتعدى الحدود. . معرفة كانت تضطرني لأن أناديها بلقبها وتناديني بلقبي، وأسلـم عليها وأمشي بجوارها أو أجلس معها وأنا مؤدب جداً، أعاملها وكأني في حضرة مجتمع كامل يحصي على حركاتي وسكناتى.

ولكـن تلك كانت معاملتنا الـظاهرة وحديثنا الـظاهر وأهم من ذلك الحديث وأوقع، أهم من اللسان كان الإحساس، الترمومتر الدقيق الذي لا يخطىء أبداً. فقد تقول لك المرأة نعم، وتحس أنها تقول لا، وحينئذ لا تعاملها أنت على أنها تقول نعم. إنك هكذا وبطريقة تلقائيـة محضة تعاملها بهذا الإحساس الذي يخامرك تجاهها.

كنت قد أحسست أنها تقترب مني مثلما أقترب منها، وأنها معجبة بي مثلما أنا معجب بها، ولم يكن إحساسي يستند على غير أساس، ولكنه أساس لا يمكن قولـه أو حكـايته أو التعبيـر عنه، التصرفات والـكلمات الكبيرة الـواضحة المحددة المعالـم هي فقط التي يمكـن أن تحكيها أو تقولها، ولكـن كيف تستطيـع أن تحكـي ما يصاحب تلك التصرفات والكلمات. . الأشياء الدقيقة التي لا تظهر إلا لتتلاشى، وإذا تلاشت فلا تستطيع مهما حاولت أن تعيدها إلى الـوجود بمسميـات أو ألفاظ؟ كلمة أشكـرك مثلاً كلمة محددة تعبر عن تصرف محدد ممكـن التعبيـر عنه وتصوره، ولكن الطريقة التي تقال بها. . لمعة العين التي قالتها ومقدارها ووجهتها. مكـان خروجها وهل جاءت من طرف اللسان أم صدرت عن

الأعماق، نوع الصوت الذي تقال به ورنينه ومداه، السرعة التي قيلت بها والـوقفات التي جاءت أثناء حروفها، وتسبيلـة الجفن التي تتبعها أو قد تسبقها أو قد لا تحدث أبداً، تلك الأشيـاء الـدقيقة التي لا تكفي كل الحواس لاستقبالها، وليس الذكاء وحده هو الذي يترقبها ويدركها.

تلك الأشياء كانت قد أكدت لي أنها هي الأخرى لن تقبل أن تنقطع علاقتنا.

ولهذا كان اللقاء الثالث مهماً.

كـان مفروضاً أن نلتقي في محطة باب اللوق ويقطع كل منا تذكـرة مستقلة ثم نجلس متجاورين في القطار «صدفة» ونتحدث وكأننا تعرفنا تواً ودون أي تدبير.

وحين لمحتها قادمة في عصر ذلك اليوم أحسست بأن قلبي دق دقة غير عادية، وأن سخونة قصيـرة مفاجئة اجتاحتني وكـدت أرتجف لما حدث لي، ولكني تحركت إلى شباك التذاكر وفي جسدي نشوة، وأخذت التذكرة وتلكأت حتى رأتني، ثم انتظرت حتى أصبحت على بعد أمتار مني، ثم ركبت القطار. ووجدت أول عربة مزدحمة فغادرتها إلى ثاني عربة وإلى الثالثة والرابعة، عساي أعثر علـى مقعدين خاليين متجـاوريـن . . بلا فائدة، ووقفت في آخر العربة الأخيرة وأدرت وجهي. كانت قادمة! ومرة أخرى وجدت قلبي يدق والسخونة تغمرني وتتركز في باطن يدي. وسمح لنا ازدحام القطار أن نقف متقابلين ونتحادث. وسمح لنا بأكثر مما كنت أطمع فيه، فقد ظللـت أتأمل وجهها طوال ساعة لم أرفع عيني عنه . . وأدركت كم هو جميل! ولكن جماله لم يكن يعني في انجذابي لها شيئاً كثيراً أو قليلاً، فحتى لو كان أقل جمالاً لما اهتزت سرعة انجذابي لهـا

ولكنه حقيقة كان جميلاً جداً. ومعظم اليونانيات ـ على الأقل معظم اليونانيات المقيمات في مصر ـ لا يتمتعن بجمال وافر، وما عليك إلا أن تستعرض تلميذات المدرسة اليونانية وهن خارجات. . معظمهن عاديات أو كالعاديات. ولكنك حتماً ستعثر على واحدة من كل مائة أو ألف واحدة وكأنها احتكرت جمال المائة أو الألف. كان وجهها صغيراً مستطيلاً ليس أكبر من وجه أية تلميذة من تلميذات المدارس ولكنه أبداً ليس وجه تلميذات، ففيه جمال السيدات. . الجمال الناضج الدقيق الطازج. لون وجهها نفسه يحير العقول، فالحمرة فيه حين تختلط بالبياض تصنع لوناً مختلفاً تماماً وكأنه لون جديد لا هو الأحمر أو الأبيض، ولا هو الوردي أو القمحي. . لون غريب ممكن أن نسميه لون الحياة لو أمكن أن يكون للحياة لون. وجه حي متفاعل، وعينان سوداوان ذكيتان تريان كل شيء ولا تغفلان عن البادرة حتى لو خطرت البادرة في عقل. . عينان لا تكتفيان باستقبال المرئيات،ولكنهما دائمتا البحث عن كل ما يرى أو يلمح. وشعر أسود، والشعر الأسود نادر في الأوروبيات ولكنه كان غزيراً فيها، يجعل وجهها أكثر حمرة وبياضاً وحياة، ويجعل عينيها أكثر تأثيراً وأعمق نفاذاً.

واعذروني إذا توقفت عند وجهها، فمن منا إذا تذكر الوجه الذي لوعه وغير مجرى حياته وأذاقه أحلى ألوان السعادة وأمر الألم. . من منا إذا تذكر ذلك الوجه لا يتوقف عنده؟ ومن غيرنا أقدر على تذكره ووصفه وتحديد كل دقيقة من دقائقه؟ وجوه من الجائز جداً أن تكون قد تغيرت وتغضنت أو ملأتها التجاعيد، أو حتى انتهت وصارت تراباً. . بل وجوه من المؤكد أنها تغيرت وانطمست معالمها القديمة، ولكن خيالنا وذاكرتنا هما المكان الوحيد الذي لا تزال فيه تلك الوجوه ثابتة على حالها محتفظة بكل ما كان

لجمالها من جمال ولأصحابها من إشراق، من غيرنا أقدر على أن يتذكر تلك الوجوه؟

وقفنا في القطار متقابليــن وتحادثنا. وكنا نتحادث بهمس خافت لا أدري لماذا؟ بل حتى الاحتياطات المبالغ فيها التي اتخذناها لنلتقي لم أكن أعرف لماذا اتخذناها؟

وكــان مفروضاً أن ينتهي الحديــث قبل المعادي مثلاً فأهبطأنا أو تهبطهي لآخذ أو تأخذ القطار العائد. ولكن المعادي جاءت ولم نكن قد تحدثنا في أي شيء جدي. وحتى بعد المعادي لم نتحدث ذلك الحديث الجدي الذي كان لا يتعدى أن أحدد معها موعدها مع شوقي وينتهي كل شيء.. هي أيضاً كانت تعلم أن لقائي بها لم يكن له هدف آخر سوى تحديد ذلك الوعد، ولكنها هي أيضاً التي مضت تتحدث عن نفسها وعن حبها للموسيقى، وعن أمها المريضة بالأورام الليفيــة، وكيف يجب أن تجرى لها عملية، وصحتها الضعيفة التي لا تحتمل العمليـة، حديـث غريب لإنسان مفروض أنها لآخر مرة.

وقلت لها:

- أتعلمين أن هذا لقاؤنا الأخير، ومن العجيب أني ما زلت لا أعرف اسمك؟

والــواقع أني لم أرد أن أسألها ذلك السؤال لمجرد رغبتي في معرفة اسمها، فالاسم مهم لتعرف صاحبه.. فإذا عرفت صاحبه لم تعد للاسم تلك الدرجة القصوى من الأهمية. كنت أسألها ذلك السؤال وأنا أعلـم تماماً أن من الممنوع منعاً باتاً أن تقول اسمها الحقيقي. فالمجلة وجماعة تحريـر المستعمرات نفسها كانت تطارد وتقاوم في كل مكــان، وأجهزة

البوليس السياسي في ذلك الوقت معبأة لتعقب أفرادها ومعرفتهم والنفاذ إلى داخل الجماعة لتحطيمها وتخريب عملها، وأن يتبادل كل منا اسمه الحقيقي مع كل من هب ودب خطأ قد يصل إلى مرتبة الجريمة.

ولكن لا أدري أي هاتف حدا بي أن أتخذ ذلك السؤال مقياساً أعرف به مدى قربها مني ومدى حرصها على إرضائي. ومعرفة ذلك المدى كان شيئاً مهماً، فمع أن أحساسي وشعوري الداخلي كانا يؤكدان لي أنها لن تمانع في لقائي بعد هذه المرة لو طلبت منها أنا ذلك اللقاء، إلا أنني كنت مثل كل الناس لا أثق تماماً في مداركي الغريزية تلك ولا أطمئن إليها. وليتنا نثق فيها دائماً ونطمئن إليها.

أحببت أن أختبرها وأعرف مدى استعدادها فسألتها، وحين انتهيت من سؤالي وجدتها تبتسم. والابتسامات ليس لها كلها معنى واحد.. يخيل إلي أن كل ابتسامة يبتسمها الإنسان في أية لحظة من حياته تختلف دائماً عن أية ابتسامة أخرى. وكل ابتسامة لها معنى، وما أكثر المعاني التي أحببتها في ابتسامتها في تلك المرة. كان فيها خليط ناعم جداً من الدلال والتبغدد، وفرحة الأنثى حين تلمح اهتمام الذكر، وثقة المرأة حين تحس أنها عوملت كامرأة، وأخيراً قشرة سطحية من التردد سببها لا بد هو ذلك العرف المتواضع عليه ألا يذكر أحد اسمه الحقيقي لأي إنسان آخر.

ابتسمت تلك الابتسامة الجامعة وقالت:

- ولكنك تعرف أن هذا ممنوع.

قلت:

- أعرف ولهذا أترك الأمر لك.. أنت حرة وفي استطاعتك ألا تخبريني.

واتسعت ابتسامتها دون أن تبهت معانيها وقالت:

ـ هناك حل وسط.

قلت مبتسماً أنا الآخر:

ـ وما هو يا سيدتي؟

ـ ألا أخبرك أنا به. . تخبرني أنت.

ـ كيف؟

ـ ألا تستطيع أن تخمنه؟

قلت بفرحة:

ـ جداً. . لا بد أنه. . انتظري. . لا بد أنه لورا.

وبوجه مبتسم وملامح هادئة تحاول إخفاء سرورها حركت رأسها يميناً ويساراً في بطء علامة أني فشلت. وخمنت مرة أخرى وظللت أخمن. . كل الأسماء الأجنبية التي أعرفها قلتها، وكلما رأتني أكلدح ذهني وأبالغ في تمثيل أني أكدح تزداد ابتسامتها اتساعاً وتزداد المعاني التي تحملها وضوحاً.

وطال تخميني وأدركت هي أني حائر فعلاً، وسعيد بحيرتي إذ كنت قد وثقت أنها نجحت في الاختبار، وأن شعوري الداخلي لم يخطىء، وأنها تريدني فعلاً أن أعرف اسمها الحقيقي وأن ألقاها. واعترتني قشعريرة فرحة لذيذة. . فرحة يقيننا من ثقتنا وفراستنا، خاصة إذا صدقتا في أحب وأهم موضوع يشغلنا. ومضيت أجهد نفسي أكثر وأستعذب ذلك الإجهاد الذي كنت متأكداً أنه لن يطول، وأنها إن عاجلاً أم آجلاً ستخف

لمساعدتي. فالمرأة حين تريدك وتشير إليك من طرف خفي أن تتبعها وتتوانى أنت وتحتار وترتبك، ولا تستطيع أن تصبر طويلاً ولا بد بطريقة أو بأخرى أن تريك الطريق، ولكنها تفعل هذا من طرف خفي أيضاً.

وقالت رداً على عديد الأسماء التي ذكرتها:

ـ لا لا.. أنه مكون من مقطعين مثل اسمك.

ورنت إجابتها في نفسي رنيناً حلواً. هي إذن مهتمة باسمي وتعرف أنه من مقطعين، مع أني أنا نفسي لم يخطر لي هذا طوال حياتي، بل حتى لم أقف مرة لأتأمل اسمي.. والمرات القليلة التي فعلت فيها هذا كنت أضيق به وأتمنى لو كان لي غيره. ما أكثر ما تمنيت لو كنت قد سميت باسم جميل جذاب مثل أسماء أبناء كبار الموظفين الذين كانوا معنا في ابتدائي وثانوي.. الأسماء الجميلة التي كانت شائعة في ذلك الوقت، مجدي وعفت وفاخر وماجد، بل جاء على وقت كانت تنتهي أحلامي في السعادة فيه أن أملك اسماً كاملاً موسيقياً مثل «رائف شيرين» مثلاً أو «جمال كامل». وكم ضايقني من أبي أنه سماني يحيى على اسم ذلك المرشح الوفدي في الانتخابات التي ولدت أيامها وكانوا يهتفون له ويقولون «عاش الدكتور يحيى» وكان حكيمباشى سابقاً في عاصمة المديرية.. وسماني أبي باسمة عساي أن أصبح مثله. ولم تنسجم يحيى أبداً مع بقية اسمي وظللت كلما نودي علي وقال أحدهم «يحيى مصطفى طه» أحس بالخجل وكأن ثلاث طوبات قد خرجت من فم الناطق وجرحت آذان المستمعين.

وربما كانت تلك أول مرة أحس بالسعادة لأن اسمي يحيى، ولأنه مكون من مقطعين.. يح.. يا.. ومن قائلة هذا؟هي. واسمها هو الاخر مكون من مقطعين. يا لها من قرابة! على الأقل خمسمائة مليون من سكان

العالم أسماؤهم مكونة من مقطعين، ومع هذا فلمجرد إحساسي أن اسمينا ينتميان إلى هذا الرقم الهائل جعلني أحس بنشوة، وخيطيصلني بها . . أي خيط ولو اشترك معنا في القربى خمسمائة مليـون، ولـم أكـن أنا وحدي المنتشي، كنت أنا وهي في لحظة من تلك اللحظات التي يفنى فيها الإنسان في الآخر، وفي تقاطيعه وفي حديثه وابتساماته ودلاله . . في لحظة من اللحظات التي تنسى الدنيا كلها وما فيها وتنسى من أنت وابن من أنت وماذا كنت في الماضي وماذا ستصنع للمستقبل . . في لحظة من تلك اللحظات التي تخدر فيها جسدك كلـه بالنشوة ولا يبقى واعيـاً فيـك إلا حواسك التي تستقبل، وذلك الجزء الصغير من عقلك الذي يعمل، ونشوان وهو يعمل ـ يرتب إجابات جميلة وأسئلة أجمل . . في اللحظة التي لا يمكنك فيها أن تنطق شيئاً قبيحاً أو تفكر في شيء قبيح . . اللحظة التي لا يمكنك أن تكـذب فيها أو تمكـر، والتي لا تفعل فيها إلا أن تتجـاوب تحس ما يريده الطرف الآخر ويحس الطرف الآخر بما تريد، وتجيبه إلى طلبه ويجيبك إلى طلبك، وكل همك أن تطيل ما أمكنك، وأن تجمل كل شيء حولك، وأن تمتص حواسك كل ما يقع أمامها ولها وتختزنه كالكنز النادر في أعماقها، وكأنك تعلم سلفاً أن تلك اللحظات لا تدوم، ولا بد أن يأتي وقت يصبح كل ما في استطاعتك أن تفعله فيه أن تقلب أعماق نفسك بين الحين والحين، وتدفيء وحدتك وسنيـك والعالـم الذي تغير من حولك على لحظات مثلها عشتها يوماً ما .

ولم نحس إلا بالكمساري وهو يزاحم الواقفين ويدق على الأرائك ويقول :

ـ حلوان .

وفي اللحظة التالية كنا نضحك، وكنا قد اتخذنا قراراً.. أن نظل في العربة لا نغادرها حتى يعود القطار نفسه إلى القاهرة.

وبعد دقائق كانت العربة قد خلت تماماً من كل ركابها ولم يبق سوانا وجاء عامل التنظيف وتمحك، ولكنه كان بعد قليل يحضر لنا مشروباً مثلجاً من البوفيه وعلى فمه ابتسامة الموافقة والترحيب.

وحين أصبحنا وحدنا تماماً قلت:

بطل حزري.

قلتها بالعامية فاندهشت وسألت بالإنجليزية:

ـ يعني ماذا؟

ـ يعني انتهت كل مقدرتي على التخمين.

ولكني لم ألبث أن هتفت:

ـ أتعلمين شيئاً؟

ـ ماذا؟

ـ لا بد أن اسمك فينوس.

فقالت وهي تعرف إجابتي سلفاً:

ـ لماذا؟

ـ لأن لا بد أن اسمك على اسم جدتك، فقطعاً أنت من أحفادها ـ لا بد أن يكون اسمك فينوس، وإذا لم يكن كذلك فلا بد أن يغيروا اسم فينوس ويطلقوا عليها اسمك.

ـ مجاملة.. المصريون كلهم يجاملون.

البيض

قلت:

ـ لا بد أنه أفروديت إذن، ولو أني لا أفضله.

قالت:

ـ ولا هذا أيضاً. اسمع!

وقالت اسماً لم أسمعه، وربما فعلت هذا لتنقذني من حيرتي التي كنت لا أود أن أنقذ منها. وسألتها مرة ومرتين وثلاثاً حتى استطعت أن أسمعه منها جيداً وأحفظه، وقلت أخيراً:

ـ أكسانتي؟ أو زانتي؟

ـ أكسانتي، وللسهولة يسمونني سانتي. ألا ترى أنه مكون من مقطعين كاسمك؟

وسألتها إن كان اسمها يعني شيئاً باليونانية، ففكرت هنيهة وضمت فمها تلك الضمة التي أحبها منها. . الضمة التي تذكرك أن لها فماً صغيراً دقيقاً كنت قد نسيته لفرط دقته وصغره. . الضمة التي تبرز شفتيها وتركز حمرتها وتصنع لهما عشرات التجعيدات الدقيقة المتقاربة المحتقنة ذات المعنى الجسدي الذي ينسيك حتماً ما كنت تريد قوله، ويجفف حلقك ويلهب أنفاسك. وقالت:

ـ صعب ترجمته. . ولكنه شيء يعني الفتاة ذات اللون الأبيض، أو الفتاة الشقراء، أو على وجه الدقة الفاتحة.

قلت وأنا أسترد نظراتي:

ـ يعني البيضاء؟

ـ شيء كهذا.

ـ اسم جميل.

ـ وكيف عرفت أنه جميل؟

ـ لا بد أنه كذلك.

ـ مرة أخرى.. الطريقة المصرية للمجاملة.

ضحكت وقلت:

ـ تقصدين مجاملة سخيفة.

قالت على الفور:

ـ أبداً مجاملة لذيذة جداً.

قلت:

ـ شكراً على الطريقة اليونانية للمجاملة.

وضحكنا وتلفتنا. كان القطار قد غادر حلوان إلى المعادي، غادرها ولم يبق إلا الجبل ومحاجره لنصبح في القاهرة. ودق منبه غريزي في صدري دقات قلق، ولكني تصنعت الهدوء وسكت، وسكتت هي الأخرى ذلك السكوت الذي ينتظر كل طرف فيه أن ينبيء الآخر ويستعد لما يقوله.. سكوت أحسست أن كلاً منا يجهز فيه كلاماً متعمداً يقربه من الآخر.

وقلت لها:

ـ إذن، لن نتقابل بعد الآن؟

ـ أجل.. مفروض هذا.

ـ شيء مؤسف.

ـ مؤسف.

ثم برقت عيناها وقالت فجأة كأن وحياً هبط عليها: اسمع! وقالتها بالعربية، و«اسمع» حين ننطقها نحن شيء، وحين نطقتها كانت شيئاً آخر

أعذب «اسمع» سمعتها في حياتي.

ـ اسمع.. من شهرين كنت قد بدأت أدرس اللغة العربية، وقد انقطعت الدروس الآن.. هل.. هل ممكن؟

وقلت أستحثها دون أن أعرف ما هو ذلك الممكن:

ـ ممكن جداً.. ماذا؟

ـ هل ممكن أن أعتمد عليك في إكمالها؟

وطبعاً كانت تعرف أنها تستطيع أن تعتمد علي.

والمشكلة التالية كانت مشكلة عملية محضة.. مشكلة المكان فقلت وأنا أحمل كلامي معنى التردد وشكله، الاقتراح الذي لا أحرج كثيراً إذا رفض:

ـ هل ممكن أن تأخذي الدروس عندي؟ هل.. هل ممكن؟

ـ عندك؟

ـ أجل.

ـ ولكنك مع عائلتك.

ـ أنا أسكن وحدي.

ـ في بنسيون؟

ـ في شقة.

وانقطعت حلقة أسئلتها وسكتت قليلاً، فسألتها:

ـ هل يمكنك؟

وكنت أسألها وقلبي يخفق خوفاً من أن ترفض أو تتحجج أو تنتحل أعذاراً، ولكن كان شيء يؤكد أنها لن ترفض.. شيء يستحق ثانية تأمل، فالإنسان منا ما يكاد يسأل نفسه.: ترى هل هذه بغيتي؟ ويراها فعلاً

بغيته، حتى يبدأ في الاقتراب منها ماداً ثقته بنفسه كقرون الاستشعار أمامه، وهي قرون حساسة جداً. . إنها لا تمتد أنملة واحدة إلا إذا أحست برضى من الطرف الآخر، وليس للرضى شكل معين، ولا يستطيع الإنسان أن يلمسه متبلوراً في شيء محدد. هو ليس حالة تصاحب حركات الطرف الآخر مصاحبة خفيفة.

الطريق دقيق جداً، ذلك الطريق الذي يفصل بين الرجل والمرأة ويصلهما، وكل منهما يسلكه باحتراس شديد. إن الرجل وهو يطلب المرأة كالصبي حين يحاول الإمساك بفراشة، إنه يقترب منها في حذر مبالغ فيه مخافة أن يأتي بحركة غير مقدرة ومحسوبة تجعلها ترف بجناحيها وتطير.

وهكذا كنت وأنا أقترب من سانتي. . فنحن حين نعثر على بغيتنا يتعاظم خوفنا أن نفقدها. نحن لا نتعلم الحب في المدارس، وكل منا يطلب بغيته وهو جاهل بالطريق إليها. وكل جنس له طبعه وغرائبه، وكل جنس يجهل طبائع الجنس الآخر، وكلنا نفعل هذا بلا خبرة ولا معلم أو مرشد، فكل تجربة قائمة بذاتها لا يصلح لها ما يصلح لأخرى.

٣

وجاءت سانتي إلى الشقة أول يوم.

ولست أعرف إلى الآن كيف استطاعت الوصول إليها، فالطريق إلى بيتي في القسم البولاقي من شارع فؤاد كان صعباً، ولكنها جاءت. وقابلتها بترحاب غامر، وكان مجيئها يعني أن علاقتنا تنمو طبيعياً جداً، وكان هذا يطمئنني.. تماماً كالصبي حين يقترب من الفراشة، وهو ضامن أنها باقية على وضعها إلى أن يطبق عليها بأصابعه، ذلك الضمان الذي يجعله ثابت الخطوات ثابت الأعصاب واثقاً من نفسه بحيث تدفعه تلك الثقة إلى نوع من الهدوء لا يجعله يأتي بحركات هيستيرية تطير منه الفراشة.

وتعودت سانتي أن تأتي، وفي كل مرة يزداد اقترابنا. كانت غبطتي لمجيئها تزداد، وغبطتها تزداد أيضاً، وبنفس الأهداف. فلا أعرف أنا سر انجذابي نحوها أو هدفه، ولا أعرف أيضاً سر موافقتها على هذا، بل وانجذابها هي الأخرى. لم يكن يبدو عليها أنها من ذلك النوع المغامر أو المتساهل! العكس كان صحيحاً، كانت تبدو دينامو عمل هائل وطاقة حماس لا تفرغ. ولكنني لا أعرف ما حدث في تلك اللحظة الغريبة التي التقينا فيها أول مرة فأخرجتا عن مدارينا المفروضين وجعلنا نلتقي بلا عمل، ثم نبدأ نختلق الحجج للالتقاء ولتعدده أبداً متشحباً أضع هدفاً

لنفسي وأحيطه بضباب كثير، فالخجل جزء من طبيعتنا ونحن لا نستطيع أن نواجه حتى أنفسنا بأهدافنا الحقيقية.

وعلى الرغم من غموضه فقد كنت أمضي ثابت الخطى في الطريق إليه، وهدفي لم يكن أبداً ذلك الطوفان من العواطف الذي انتهت إليه علاقتنا. كان هدفي واضحاً وصريحاً.. مجرد مغامرة حب سريعة خاطفة. والرجل حين يحدد هدفه من المرأة يدفعها إليه واحدة فواحدة.. بنظرة مرة، بضغطة على اليد مرة، باصطناع غضبة، باختلاق غيرة، بلوم بإهمال أحياناً، وتوريط أحياناً أخرى. وهو لا يفعل هذا بوعي، فالإنسان منا آلة معقدة غريبة! ضع لها الهدف واتركها تتصرف، وثق أن كل حركة من حركاتها سيكون مقصوداً بها الاقتراب من ذلك الهدف.

وحتى بعد أن نحدد الهدف ظللنا نتحرك تجاه بعضنا البعض بانجذاب متساو. ولكن الأوضاع لا تدوم هكذا أبداً، فلا بد في آخر كل أمر أن يقوى أحد الطرفين ويصبح هو القطب الغالب فيقف في مكانه ثابتاً واثقاً من نفسه، متأكداً أن الآخر سائر نحوه، وأنه قد أصبح في تلك العلاقة المسيطرة صاحب اليد العليا والكلمة المسموعة.

كانت سانتي تأتي من أجل أن تتقوى في العربي كما اتفقنا. وفي أول يوم لمجيئها أحضرت معها كراسة وكتاب مطالعة من كتب الأطفال. وتحدثنا قليلاً، وشربنا قهوة، ثم أخذت في إعطائها الدرس. واستمر الدرس حوالي ساعة وتسلينا به كثيراً. أضحكها من نفسي على دوري كمدرس، وتضحكني من نفسها على دورها كتلميذة، وأحاول أن أوضح ما أريد بالكتابة فلا تستطيع قراءة خطي، وتطلب مني أن آخذ أنا درساً في اللغة العربية، إلى أن انتهى الدرس.

وكنا قد اتفقنا على أن أعطيها الدرس مرتين في الأسبوع . . السبت والثلاثاء. وسانتي كانت تعمل،لم أكن أعرف ماذا تعمل بالضبط،ولكنها على أية حال كانت تخرج من عملها في الثانية، فاتفقنا على أن يكون لقاؤنا في الثالثة والنصف. كان ميعاداً غير مناسب، ولكنه على ما بدا كان الوحيد الذي يهيىء لنا فرصة أكبر لمده وإطالته.

وكنا أيامها في فبراير، في تلك الفترة التي يتقلب فيها الجو بين الدفء والبرودة، وتتقلب فيها الأمزجة كذلك.

وحين جاءت لتأخذ «الدرس» الثاني جاءت ومعها «الواجب» الذي كنت قد أعطيته لها، ولم تنس أيضاً الكراسة وكتاب المطالعة.

ولم يستغرق الدرس هذه المرة إلا الوقت الذي «صححت» فيه الواجب، وأعطيتها «عشرة على عشرة» رغم أنف كل ما كان هناك من أخطاء. وكذا نتحدث قليلاً ثم نبدأ الدرس، ولكنا تحدثنا كثيراً ولم يبدأ الدرس في ذلك اليوم أبداً. وفي حديثنا لا أذكر أن جدلاً نشب بيننا حول أي شيء، كانت أحاديثنا تجاوباً لا غير. نتحدث في السياسة فإذا برأيها هو نفس رأيي، وحتى ما يعن لي من نقد هو نفس ما يعن لها. ونتحدث في الموسيقى فتقول إنها تحب موزار، ولا أكون قد سمعت من موزار إلا قطعة أو قطعتين فأؤكد لها أني أحبه أنا الآخر ومتعصب له.

ومع أن الدروس انقطعت بعد هذا الدرس الثاني الذي لم يبدأ، إلا أننا اقترحنا أن نزيد عدد الحصص إلى ثلاث مرات في الأسبوع «لنسرع» في البرامج أكثر. ولا أذكر من منا هو الذي اقترح هذا،ولكن الأكيد أن كلينا تحمس للاقتراح ووافق عليه في الحال.

كنا نقترب كما قلت بانجذاب رائع متساو.

إلى أن كان يوم!

كانت سانتي تأتي في العادة حوالي الثالثة والنصف، وكنت أيامها قد افتتحت عيادة صغيرة، وكان وقتي موزعاً توزيعاً يكاد يكون كاملاً بين العمل كطبيب لورش السكك الحديدية في الصباح والعمل في العيادة ابتداء من السادسة مساء، ثم العمل في المجلة إلى ساعة متأخرة من الليل. ودونا عن بقية ساعات الأيام كلها كانت الساعة الثالثة والنصف من أيام السبت والثلاثاء والخميس «وهي الأيام التي اتفقنا أن تأتي فيها» قد أصبحت لدي شيئاً حبيباً. أصبحت تلك اللقاءات وما نتبادله فيها من حديث واحة جميلة أحن إليها هرباً من جفاف حياتي. وأنَّى لي أن أعرف أني بتلك الواحة كنت أجتاز أسعد أيام العمر؟ فنحن لا نسعد إذا استرحنا دائماً.. نحن نسعد بساعة الراحة إذا جاءت في وسط يوم كامل أو ربما حياة كاملة من الشقاء. نسعد بها سعادة مبالغاً فيها كتلك التي يحسها الضارب في الصحراء حين ينتهي الى واحة يرى في نخيلها القليل وبئر مائها المهدم جنة تضارع جنان الخلد.

وذات يوم دق لي شوقي تليفوناً في مكتبي بالورشة وقال لي إن البوليس قد صادر المجلة، وإن علي أن أحضر في الحال وذهبت وكنت متأكداً أني حتماً سأستطيع الرجوع إلى البيت قبل حلول موعدي مع سانتي بوقت طويل، ولكن الموضوع تطور، وعرضت المجلة على النيابة وطال التحقيق، وجاءت الثالثة والنصف والرابعة والخامسة دون أن ينتهي، وأنا رائح غاد لا أستطيع حتى الاعتذار، والنيران تأكل قلبي وأنا أتخيلها تنتظر على مضض هي الأخرى، ثم وأنا أتخيلها تنصرف ضيقة بي وبقلة ذوقي.

وعدت إلى البيت في التاسعة مساءً متعباً منهكاً حزيناً. غير أني فوجئت بأعجب شيء، فقد وجدت النور مضاء في شقتي.. والشقة كنت

البيض

أقطنها وحدي ولها مفتاحان واحد معي والآخر مع أم الطلبة. وأم الطلبة تعبير لا أدري من أطلقه على أم عمر فذهب مثلاً. والواقع أنه كان لا يخلو من حق، فأم عمر أرملة صعيدية خشنة المظهر والصوت والسواعد عمرها تاه فيه الحاسبون، ولكنه لا يمكن أن يقل عن الخمسين، ومع هذا فقد كان لها عنفوان رجال الصعيد وأمانتهم. كان أكبر غسيل لا يأخذ من يديها القويتين أكثر من ربع ساعة، وأضخم شقة تنظفها وتمسحها إذا احتاج الأمر تلحسها في دقائق، ولهذا فقد كان من الطبيعي جداً أن توزع طاقتها الجهنمية، فكانت تعمل في وقت واحد عند أكثر من عشرة من الطلبة الأغراب الذين يسكنون بمفردهم، كل واحد منهم أو كل اثنين في حجرة. بل قيل إن عدد من تعمل لديهم غير معروف، فهي تحتفظ به سراً حتى لا يطلع أحد على إيرادها.. ذلك الإيراد الذي زعم البعض أنه يكفي لشراء عمارة أو عدة فدادين. وبعد أن تخرجت وسكنت في تلك الشقة في بولاق، وتخيلت أني انتهيت من أم الطلبة وحياتهم وشظفها، فوجئت بها ذات يوم تطرق على الباب كالقدر المحتوم وتعاتبني بشدة على أني هربت منها، وهكذا وضعتني أمام الأمر الواقع واضطررت أن أعود لاستخدامها.

عدت كما قلت فوجدت الشقة مضاءة، وفتحت باحتراس فوجدت أم الطلبة جالسة على كرسي في الصالة جلسة كادت تميتني من الضحك ـ فتلك أول مرة كنت أراها فيها جالسة على كرسي ـ وكانت جلسة غريبة ما في ذلك شك. فقد كانت جالسة وكأنها غير مطمئنة أبداً إلى هذا الشيء ذي الأرجل الأربع الذي من المحتمل جداً أن يسقطقاعه.. جالسة وكأنها تعاني من أزمة أو من إمساك. وقبل أن أفتح فمي وجدتها تنتصب واقفة وتقول بصراخها الطبيعي:

ـ تعملها فينا يا بوي وتسيب المزمازية اكديه.

ولم تكن «المزمازية» غير سانتي التي ما كادت تراني حتى هبت واقفة منزعجة تسألني عما حدث، وعن سبب غيابي الطويل.

وردت إلي الروح.

وبينما كنت أحكـي لها بكلمات مشتتة مختصرة كل ما حدث كانت فرحة غامرة تجتاحني، إذ أدركت لحظتها أني أستطيع أن أقف في مكاني ثابتاً ممتلئاً بالاطمئنان والثقة، وأنها سائرة بخطى واسعة في طريقها إلـي ويوم وصولها قريب.

وقد تبدو حادثة بسيطة كهذه شيئاً تافهاً ولكن معناها ظل يضطرم في نفسي طوال ليلتها، وأنا راقد في الفراش محموم تلك الحمى النفسية التي لا تعتري الإنسان إلا في لحظات خاطفة من حيـاته. . اللحظات التي يحس فيها بالسعادة شيئاً مادياً ملموساً يمور في جسده ويؤججه ويتقلب على دفئه.

وكان اليوم التالي يوماً من الأيام التي لا تأتي سانتي فيها، ولكني لم أفاجأ كثيـراً حيـن وجدت الباب يدق في الثالثة والنصف ووجدتها هي الطارقة. بل لم أفاجأ أيضاً حيـن أصبحت تأتي كل يوم تقريباً. لم أعد أفاجأ أو أضطرب أو أتكلف، بل أصبحت مستمتعاً غايـة المتعة بذلك الموقف الذي كنت أقفه، الموقف الذي لم يكن علي فيه إلا أن أثبت في مكاني ولا أتحرك، وأنتظر تاركـاً نفسي علـى سجيتها وأنا ضامن أن كل تصرف من تصرفاتي حيـالها سيكـون مقبولاً ومحبوباً ومراداً، وأني قد أصبحت السيد.

غيـر أنه يبدو أن مفاجآت من نوع آخر هي التي كانت تنتظرني، إذ بدأت ممرضة المستوصف المجاور لشقتي تغيـر من كثرة تردد سانتي. .

قالـت لي وأنا صاعد في السلـم ذات يوم وهي هابطة عندما حاولـت مداعبتها:

ـ أوعى كده. .

ولـم أتراجع، ووقفنا نتحدث وأنا أتحيـن الفرص المناسبة وأعود لمداعبتها، ولكنها في النهاية قالت وفي ملامحها اشمئزاز مصطنع:

ـ ما تروح أحسن لحتة الخوجاية بتاعتك اللي بتجيلك كل يوم. أنا عارفة بتحبوهم على ايه؟ دي مشيتها حتى زي مشية شيتا.

وأكملت صعود السلم وأنا في كلام البنت التي لا أذكر اسمها والذي كل ما أذكره عنها أنني ما كدت أعرف أن مستوصفاً سيفتح في الشقة التي خلت بجوار شقتي حتى بدأت أفكر في التعزيل فوراً. ولكن كسلي ومشقة التعزيل حالا دون تنفيذ رغبتي وأصبح كل همي أن أتحايل علـى نفسي لإقناعها بفوائد وجود مستوصف بجواري، فوائد ليس أقلها وجود ممرضة جميلة فيه. ولكني حين رأيتها خاب أملي. . فلم تكـن أكثر أو أقل من مصريـة قصيـرة القامة، قمحيـة، وجهها مشرب بحمرة وبحب شباب. وكانت أحياناً تأتي إلى المستوصف مرتدية ملاءة لف وحينئذ كانت تبدو أحلى وأجمل. وفي أحيان أخرى كانت تأتي وهي مرتدية «جونلة وجيب» لم يكن من المستبعد أبداً أن تكون هي التي صنعتهما لنفسها.

ولم يكن صعباً أن أعرفها وتعرفني، فالطبيب الذي يعمل بالمستوصف كان زميلي، وكنت أحياناً أزوره وأراها في أثناء الزيارات. والأطباء الشبان لهم طريقة خاصة مجربة في التفاهم مع الممرضات والحكيمات، ولهم خبرة في بدء الحديث بالكلام عن السينما والأفلام وإنهائه بقرصة في الخد أو زغدة في الكتف. ودائماً ليس لدى الممرضات مانع طالما هن بنات لم

يتزوجن بعد، وما دام الطبيب المعاكس شاباً لم يتزوج هو الآخر، فحلم الواحدة منهن الدائم ان تتزوج من طبيب.

ولا أعرف لماذا كنت أداعبها كلما قابلتها على السلم، كل أذكره عنها هو وجهها المنتفخ الأحمر وعيناها الصغيرتان السوداوان، وحب الشباب بالذات في وجهها. حب الشباب كان يقف حائلاً بيني وبين استلطافها كلية، والمشغوليات الكثيرة ودوامة العمل كانت تمتص كل طاقاتي بما فيها تلك الطاقة الكامنة فينا التي تدفعنا لمناوشة الجنس الآخر أنى وجدناه.

وإذا كانت مشغولياتي قد حالت بيني وبينها، فيبدو أنها هي التي تفرغت لي وعرفت عني كل ما تريد معرفته من أم الطلبة أم عمر. بل لا بد أنها كانت تراقب زواري مراقبة دقيقة.

يومها أكملت صعود السلم وكلامها عن سانتي يرن في أذني رغماً عني ويدفعني إلى التفكير فيه.. صحيح كنت قد لاحظت أن سانتي تمشي مسرعة،وليس لخطواتهاذلك الإيقاع الذي تحرص السيدات والفتيات على تعلمه زيادة في تأنيث أنفسهن. ولهذا تبدو مشيتها سريعة متوثبة كمشية الصبي المعفرت.. صحيح كنت قد لاحظت هذا، ولكن ما فائدة ملاحظته وإعجابي بها يملأ على كل نفسي ويلغي من عقلي وجود أية فتاة أو امرأة أخرى مهما بدت أروع وأجمل وأكثر أنوثة؟ كل ما فعله كلام الممرضة أنه جعلني أضع في احتمالي أن سانتي، وإن كنت أراها كاملة إلا أنه من المحتمل جداً أن تكون لها عيوب.

ليس هذا فقط، بل بدأت أفكر في أمور كنت أتجاهل التفكير فيها إلى تلك اللحظة، منها أشياء قد يخجل الإنسان عن ذكرها. صدرها مثلاً لم

البيضاء

يكن بارزاً ذلك البروز الـذي ينبىء عن أنوثة مكتملـة، وطريقة سلامها مثلاً.. كانت تقبض على اليد بقوة وحماس وليس في تسليمها رقة المرأة.

أقول بدأت «أفكر» في هذه الأمور مجرد تفكير.. تفكير كل ما كان يفعله أن يزيدني ربما إعجاباً بها، وربما لهذه الأشياء بالذات تلك التي يخالها الناس العاديون عيوباً. فحتى تلك اللحظة لم أكـن قد سمحت لنفسي أن أتوقف وأتساءل عن كنه علاقتي بها، وهل أنا معجب بها؟ وبأي شيء أنا معجب؟ وماذا أريـد منها وماذا تريـد هي مني؟ كل ما كان يشغلني في تلك الأيام هو انجذابي التلقائي إليها وحرصي على القرب منها والبقاء أطول مدة معها، وكـأنها قطعة موسيقيـة أو أغنيـة أحبها وأفضل سماعها دون أن أتلمس لهذا التفضيل أسباباً.

ولـم لا أقول الحقيقة كلها وأذكر أن كلام الممرضة قد استغرق جزءاً أكبر من تفكيري، وأنني في النهاية آثرت بل وتمنيت أن يكون صحيحـاً وأن تكون لسانتي عيوب ليزداد أملي فيها؟ فمشكلتي الكبرى كانت أنني لم أكـن من ذلك الصنف من الشبان الذيـن في استطاعتهم أن يتيهوا بوسامتهم على الفتيات.. كنت أنظر في المرآة وأجعل عيني رغماً عني لا ترى الأشياء التي لا أريدها أن تراها في وجهي وملامحي، الأشياء التي لم أكن أحتاج لرؤيتها لأدرك أنها هناك.. فقد كنت لفرط إدراكي لها أحفظها عن ظهر القلب.

لم أكن وسيماً ولا جميـلاً ولا يعد وجهي حتى من الوجوه المقبولـة الشكل. لم يكن به عيب جوهري، كل ما في الأمر أن ملامحي لم تكن منسجمة، لأمر ما كان فمي يبدو للناظر واسعاً كفم البحر إذا انفتح، مائلاً إلى الناحية اليسرى إذا انغلق. أجل، كنت حقيقة أراه وكـانه ليس فمي

وكـأنه عاهة مستديمة أصبت بها منذ الصغر، وكـأنه جرح عريض ملتئم يقطع وجهي ويميل إلى اليسار، وملامحي الأخرى لم يكـن بها عـيـب ولكن هذا الفم بوجوده الدائم بينها لا أدري لماذا كان يشوهها.

وأفظع ما في الأمر كان ابتسامتي، وعشرات الآلاف من المرات وقفت أمام المرآة أبتسم وأحاول أن أصلح الابتسامة وأجملها، إذ كنت قد قرأت أن ملامح الإنسان ممكـن تغييـرها بالتمريـن الشاق الطويــل. عشرات الآلاف من المرات ابتسمت فيها محاولاً أن أجعلها ابتسامة مستقيمة كابتسامات كل الناس، محاولاً أن أرفع قليلاً ذلك الجزء الساقطمنها إلى اليسار بلا فائدة حتى يئست، وتحول يأسي إلى عادة وتحولت العادة إلى نسيان مستمر مستديم لا ينتهي إلا في فترات محددة نادرة، وفي مثل تلك الساعة أو الساعات التي رحت أفكر فيها في كلمة قالتها الممرضة، وربما كانت صادرة عن حقد وموجدة. ساعتها عاد شكل ابتسامتي إلى ذاكـرتي ساعتها تمنيت لو كانت سانتي تمشي حقيقة كشيتا، تمنيـت لو نبتت لها فجأة آلاف العيوب.

وبمثل الومضة التي تذكرت بها ملامحي اختفت الذكـرى، وبدأت فجأة أنظر للأمور وكأني أصبحت على قدم المساواة مع سانتي، وكـأن مشيتها تلغي بشاعة ابتسامتي، وكأننا أصبحنا أنداداً، أو على الأقل يجب أن نصبح أنداداً. ولكي يحدث هذا، ولكي يثبت هذا، كان علي أن أتوج أهدافي من سانتي بإيقاعها.

وقد يحاول البعض أن يفسر هذا على ضوء علـم النفس المضحك ويقول أني كنت معقداً، وأني كنت أعاني من عقدة القبيح الذي يحاول أن يثبت لنفسه أنه وسيم بإيقاع أكبر عدد من النساء، وأي تفسيـرات أخرى

تقال ـ وقد تكون صحيحة ـ ولكن هل تلغي تفسيرات كهذه الحقيقة البسيطة التي تقول أن الرجل بعد أن يقول لنفسه: هذه هي فعلاً من أريد. . لا بد أن يعود ويقول لنفسه: ما دام الأمر كذلك فعليك بها أوقعها؟

٤

ولـم يكن إيقاع سانتي بالأمر السهل.

لـم يكن سهـلاً أبداً أن أتخطى بقفزة واحدة حواجز منيعة تكاد تعادل تلك التي تقوم بيـن الإنسان وأخته، حواجز الزمالـة والعمل المشترك. ولكنني كنت أعتمد على الزمن ونمو العلاقة والتأكد بشكل قاطع أنها على الأقل راضية. ولهذا حين وجدتها تنتظرني تلك الساعات الطوال وتتلهف على قدومي اعتبرت ذلك الانتظار برهاناً أكيداً على اهتمامها الشديد بي وقربها مني. وما يكاد الإنسان يعثر على برهان أكيـد أو أرض صلبة مثل تلك حتى تتوالى الشواهد. وهكذا وجدت في مجيئها كل يوم رغبة، وفي قطعها كل تلك المسافات بين بيتها وبيتي واقتحامها ذلك الحي الشعبي الـذي أقطن فيـه، واحتمالها لنظرات الممرضة وأصحاب الدكاكيـن المتراصة على الناصيتين. . رأيت في هذه كلها شواهد جديدة تثبت لي على الأقل أن رغبتها في لا تقل عن رغبتي فيها.

وزادني هذا ثقة بنفسي، وبالأرض التي أقف عليها.

ثم إن كلام الممرضة كان قد جعلني أبدأ أتأمل سانتي، وأجد أنها كفتاة وكأنثى تكاد ـ لولا مبالغتي في تقديرها ـ أن تكون عادية لا يحق لي أن

البيضاء

أستكثرها على نفسي، بل حتى من الممكن أن أعتبر أن لي أنا الآخر مزايا يمكن أن تكون غير عادية. وتضاعف رصيد الثقة في نفسي.

وكـان هذا مهماً. فمجرد سؤالنا لأنفسنا: ترى هل نستطيـع؟ مجرد السؤال بداية شك في قدرتنا وثقتنا بأنفسنا، وما لم تتدعم تلك الثقة فلن نستطيع الاقتراب خطوة. وهكذا أصبحت سانتي بكـل أحاديثها ووجهها المعبر المسمسم وروحها شيئاً آخر ما، لم تعد نداً أخافه وأخشاه وأعمل حساباً كبيـراً لكـل خطوة أخطوها ناحيته. أصبحت فريسة جمدتها في مكاني وما علي سوى أن أمد يدي وأتناولها.

وأنا لا أزعم أني كنت أفكر في هذا وأحلله وأتصرف على أساسه. إننا في أمثال تلك المواقف نسمع ونرى ونحس ونقدر ثم يهدينا تفكيرنا إلى أنسب التصرفات دون تحليل أو تمحيص.

وقالـت لي سانتي يوماً في أواخر جلسة لنا: رأيـت فرقة الأوبرا الإيطالية؟ ولـم أكـن قد رأيتها أبداً. وحدثتني كثيـراً عنها وأخبرتني أنها تذهب مساء كل يوم لرؤيتها وأن لديها «أبونيـه» لمؤخر الصالـة، ورقم كرسيها الدائم ٧١. وطبعاً أبديت حماساً كبيراً لأن أذهب معها في مساء نفس اليوم، واتفقنا على أن نلتقي هناك وأن علي أن أحاول العثور على كرسي بجوارها.

وأغرب شيء أني بذلت جهود المستميت للحصول علـى التـذكـرة وحصلت عليها ودخلـت وأنا لا أعرف «الأوبرا» التي كانت ستعرض في مساء ذلك اليوم، ولا أدري إن كانت «ريجوليتو» أم «عايدة». ودخـلـت ومن بين مئات الوجوه المزدحمة في مؤخر الصالة لمحت وجهها الأبيض المحمر النحيف الدقيق الملامح. وأهم من هذا لمحتها تبحث بعينيها في

لهفة، وكان من المؤكد أنها تبحث عني وقد قرب موعد رفع الستار. وحين رأتني احتلت وجهها كله ابتسامة رضا وفرح، كادت تكون أعذب وأمتع ابتسامة رضاء لمحتها في حياتي.

ولست أدري ما حدث ليلتها.

كانت الأوبرا تموج بالناس والأضواء، ومعظم المتفرجين من الايطاليين المقيمين في مصر واليونانيين والفرنسيين والأجانب بشكل عام. ومعظمهم سيدات ـ شابات وعجائز ـ الشابات جميلات وأنيقات والعجائز يظهرن وكأنهن شابات، وكلهن يبتسمن ويضحكن، ورواد الصالة والبناور يسخرون بنظراتهم من رواد البلكون وأعلى التياترو فيقابل هؤلاء سخريتهم بسخرية أشد. والجو يملؤه ذلك الأزيز الأنثوي الذي يصدر عن الجماعة إذ كان معظمها من النساء، والرواد جميعاً واضح أنهم في ساعة مرح وتفرغ كامل للاستماع والاستمتاع، لا مشاغل ولا تفكير في مشاكل. الابتسامات كثيرة تملأ الأركان، والضحكات أسهل من الكلمات، والأرواح شفافة خفيفة يلونها المرح الدافق بألوان زاهية ساحرة.

وقالت لي سانتي همساً:

ـ خفت ألا تأتي.

وقلت وأنا مبهور بالجو الذي حولي، قلت شيئاً ما، كلاماً من الكلام الذي نسد به خانات الحديث إذ كان تفكيري الأكبر موزعاً بين تأمل كل تلك الوجوه الشابة الجميلة، وبين الاستعداد لسماع الأوبرا نفسها وهي تجربة جديدة، وبين استعادة لهفة سانتي على مجيئى وإبقائها حاضرة في ذهني لا تغيب.

وحين أقول اللهفة فإني أعنيها، إذ يبدو أن من كثرة استعمالنا لبعض الكلمات فقدت تلك الكلمات وقعها ومعناها. اللهفة التي لمحتها ناطقة بها ملامحها، اللهفة النابعة من الأعماق المتجسدة كيانها كله حتى أصابع القدمين.. هذه اللهفة..

ليلة الأوبرا..

ما فائدة أن أتكلم عنها؟ إن كل ما حدث ليلتها أشياء لو قلتها لبدت عادية جداً، ولكن الأشياء العادية تصبح في أحيان ذات معان غير عادية بالمرة. اللهفة التي قابلتني بها ممكن أن تكون لهفة الصديقة التي دعت صديقاً إلى الأوبرا ثم مضى وقت طويل ولم يظهر له أثر. ولكنها لم تكن كذلك. وقد أطيل ويبدو حديثي مملاً، ولكني أود أن أوحي بالفرق.. الفرق الدقيق الذي يحس ولا يوصف. إنك تستطيع أن تصافحني عشر مرات، بنفس القوة، بنفس القبضة والضغطة ونفس الترحيب، ولكني أستطيع أن أقول دائماً أي تلك المرات كانت أدفأ وأكثر مودة.

ولو كنت قد رأيت أعز الناس لدي يحتل مقعداً في مؤخر الصالة أو في أي مكان من المسرح، لما كنت تذكرت الآن أني رأيته، فعقلي لم يدر فيه أي شيء خارج سانتي.. الفتاة الصغيرة النحيلة التي كانت تجلس على بعد قليل «إذ لم يأت مقعدي بجوارها تماماً» الفتاة التي تعجبني جداً والتي دعتني إلى الأوبرا وتلهفت على قدومي.

في تلك الليلة بدأ إحساسي بملكيتها.

وبدأت أحس أن هذه المرأة لي، أو إن لم تكن كذلك فيجب أن تصبح لي وحدي.

وفرق كبير بين أن تكون منجذباً إلى إنسانة أو أن أنسانة معجبة بـك وبين أن تبدأ تفكر فيها على أنها فتاتك أو أنثاك.

هو نفس الفرق الذي لم أحس معه بالستار حين ارتفع، ولا الموسيقى حين بدأت تتصاعد وتنتشر في أرجاء الأوبرا كالعطر الصوتي الثمين الذي ينتزع الآهات والأشجان. كل همي كان أن تأتي الاستراحة. كنت أريد أن أحدثها. كنت أريد أن أقول لها رأيي في الليلة والناس والحفلة وفيها. وكنت أريد أن أسمع تعليقاتها على رأيي. وكنت أعرف أنها ستوافقني على كل ما أقول، ولكنني كنت متلهفاً على سماع تلك الموافقة وهي تخرج من بين شفتيها.

وذهبنا إلى البوفيه، وهي تسبقني، وكلانا يحاول أن يجد له طريقاً بين الأجساد المتلاطمة المزدحمة. وكنت وأنا أستسمح هذا أن يدعني أمر وأعتذر لذاك، وأبتسم، أحس بنفسي رقيقاً دقيقاً كوتر الكمان، كلامي موسيقى، وحركاتي أريد أن أحيلها إلى رقصات باليه. إن السعادة أحياناً تخلق من الإنسان شاعراً. ووصلنا إلى البوفيه ووقفنا نرشف أقداح القهوة ونتكلم وأقول لها آرائي وتقول آراءها وتبتسم كثيراً ونتجاوب بشدة. كان يخيل إلي وهي وافقة أمامي ولا يفصلنا سوى ابتساماتنا والبريق الصادر عنها، وجهها حلو قد أضفى عليه الليل والأنوار بياضاً وحمرة ووسامة والروج في شفتيها أنيق رقيق كشفتيها. وهي تتحدث، وتقول «نعم» أحياناً وأحياناً تضم شفتيها تلك الضمة التي تبرزها إلى الأمام وتجعدها تلك التجاعيد التي يجف لها الحق قائلة «لا» كان يخيل لي كلما أفقت أننا أخيراً التقينا. أجل، أحسست تلك الليلة أنها قد أصبحت فتاتي وأنثاي. نظرات عينيها، البريق المشع المتلهف الذي كان يملأ حدقتيها، النشوة وهي ترجف رموشها، الحياة التي تتذبذب وتتلون وتتلوى في قسماتها

هي بكل ما فيها، بكل خلاياها وانفعالاتها، بردائها الأسود الأنيق، بغطاء رأسها، بتلك «الطاقية» السوداء الجميلة ذات «الطرة» المدلاة إلى ناحية تلامس أذنها ورقبتها وتداعبها، وهي بكل الهالة الحيوية الساحرة التي تحيطها، هذا كله لا يمكن أن يبدو من امرأة إلا لرجل قد وقع عليه اختيارها.

والمهم أني لم أرها على حالة واحدة أبداً. كان شكلها يتغير على الدوام في نظري، ويبدو لي وجهها في كل دقيقة وجهاً آخر أجمل وأحلى. حتى بريق عينيها كان يتغير في كل ومضة أو نظرة، وكنت مذهولاً أحاول عبثاً أن أحتفظ لها بصورة واحدة. ولكن ألوانها تختلط بألوان، وبياضاً في احمرار دائم متغير، وسواد ثيابها يشع غموضاً حبيباً يلفها ويلف الوقفة واللحظة، ووجهها مرة أراه وجهاً أعرفه وأحفظه، ومرة أراه وجه ملكة من ملكات التاريخ، وجه إلهة من آلهة اليونان، أو جنية من جنيات الأساطير وأحياناً وجهاً جديداً تماماً أراه لأول مرة في حياتي.

كان الثابت الدائم هو إحساسي أن تلك الإنسانة التي لا تستقر صورتها في خاطري لحظة لي.. ملك خواطري.. أنثاي، كل هذا التغير والتبدل من أجلي أنا.

وكانت تتحدث والضوضاء كثيرة، وكانت ترفع فمها إذا تكلمت ليكون قريباً من أذني، ومني. وكنت أسمعها وألتهم كلماتها، وألتهم معها إحساسي بأنها لا تتحدث لي ولكنها تناجيني.. إحساسي أنها أصبحت جد قريبة وأصبحت راضية وما علي سوى أن أمد يدي وأقطفها. فأحدثها أنا الآخر،وأعصابي قد وترتها إشعاعات جسدية صادرة عن قربها مني ولولا الناس والمكان لما استطعت المقاومة.

وحين كنا نتجول خلال الاستراحة، قابلت سانتي زوجين يبدو أنهما

كانا على صلة ما بها. لم يكونا عجوزين ولـم يكـونا شابيـن، وعرفتني بهما، وقالت الزوجة بعدما تعارفنا بانبهار:

ـ أنت طبيب حقيقي؟

قلت:

ـ طبعاً.

قالت:

ـ لا تؤاخذني، ولكنك تبدو صغير السن جداً على طبيب.

فقلت وقد ملأني كلامها نشوة، أو بالدقة ملأني ذلك الكـلام علـى مسمع من سانتي نشوة حبيبة، قلت:

ـ وماذا تقولين لو عرفت أني تخرجت من سنوات ثلاث أيضاً؟

ورمقتني السيدة لحظتها بنظرة ما زلت أذكرها، نظرة أنستني ابتسامتي المعوجة وملامحي غير المنسجمة.. تلك النظرة التي تقولها المرأة بعد ما تكون قد تخطت السن وتقول بها للشاب: ليتني أصغر أو ليتك أكبر.

وحين انتهت الرواية هبطنا السلم معاً، وعند نهايته ودعتني سانتي. ورحت أحتج أنا وأطلب منها أن أوصلها،ولكنها أخبرتني أنها ذاهبـة مع زوجها الذي يعزف مع الفرقة الايطالية كلما حضرت الى القاهرة. ودهشت قليلا، ولكن نظرتها وهي تودعني سلبتني دهشتي وملأتني بالسعادة. كانت نظرات من تودع إنساناً حبيباً لتأخذ طريقها إلى حياتها الخالية من الأشياء الحبيبة.

أقول دهشت قليلا لأني أعتقدت ربما أول مرة قابلتها فيها، أن من غير المعقول أن تكون علاقتي بسانتي علاقة بسيطة من تلك التي تنشأ بين أي شاب وأية فتاة، والظروف التي أحاطت بتعارفنا لم تكن تكفـي لإعطـاء

صبغة خاصة لتلك العلاقة. كان شعوري الداخلي يؤكد باستمرار أن هناك شيئاً ما لا أعرفه عن سانتي، ولكنه مهم جداً بالنسبة لعلاقتنا. وكنت أتوقع باستمرار أن يكون شيئاً خارقاً للعادة. ولم أتوقع، بل لم يطرأ موضوع كهذا على أحاديثنا.. لم أسألها إن كانت متزوجة ولم تسألني. كنت أستنكر هذا السؤال علينا ولها كل مؤهلات الصغيرات وقلبهن الخالي.

دهشت قليلا لأني أخيراً عرفت بشكل قاطع ذلك الشيء الذي توقعته دائماً، وعرفته بطريقة بسيطة حتى كدت لا أتبينه. سانتي إذن متزوجة ولها زوج يعمل عازفاً في الفرقة الموسيقية ويوصلها في ذهابها الى الأوبرا وعودتها. لماذا لم تخبرني قبلا؟ ولماذا فاجأتني الليلة؟ أسئلة لم تدر في عقلي إلا متأخراً جداً، بعد ما عدت من الأوبرا واستهلكت تأملي لكل ما أحسسته من متع وبدأت أتهيأ للنوم.. أسئلة لم آخذها أبداً مأخذاً جدياً ولا ناقشتها على اعتبار أنها مشكلة بالغة الخطورة قد تلغى علاقتنا مثلاً أو تحيلها إلى علاقة من نوع آخر. فلتكن متزوجة أو أرملة، فقد عرفت هذا بعد فوان الأوان. وحتى حين عرفته ماذا بيدي أصنعه؟ أنا لا أريد منها شيئاً لا ترضاه هي. أنا لا أريد اختلاس حق زوجها. وأنا لا أريد منها أي شيء بالذات. حتى هي نفسها كان واضحاً أنها لا تفعل شيئاً من وراء ضميرها أو خلقها، فلماذا أجعلها أنا محط الانتظار؟

ونمت.

وثاني يوم جاءت سانتي.

كانت الساعة قد تعدت الثالثة والنصف، وكانت أم عمر في المطبخ تعد الغذاء وتغني بصوت أجش نائح أغنية صعيدية حزينة، وكنت جالساً في حجرة المكتب وحيداً أتثاءب وأسترخي بعد ساعات العمل الشاقة وأستعد لتناول الطعام أو لمجيء سانتي. كفت أم عمر عن الغناء ووضعت

كمية من «السبانخ» التي كانت قد انتهت من إعدادها في طبق، وكمية من الأرز في طبق آخر، وأعدت المائدة الصغيرة التي في الصالـة، وأخيراً نادت علي وقالت:

ـ كل يا بوي بالهنا والشفا. . والله طبيخي يا سي يحيى ما يطلع من تحت ايد الخواجات.

وقمت وأنا لا أزال أتثاءب وأعرض على أم عمر أن تتزوجني بالمرة ما دامت تجيد الطهي. وقالت أم عمر:

ـ يه يا بوي! يا عيب الشوم دا انت اسم الله على مقامك من ولادي.

والغريب أنها كانت تأخذ دائماً عروضى للزواج منها مأخـذاً جـاداً حتى لو قلتها وأنا أخرج لساني وأضحك.

وما كدت أبدأ تناول الطعام حتى دق جرس الباب، وفتحت أم عمر وشهقت وقالت: المزمازيه يا بوي.

ودخلت سانتي ضاحكة. ووقفت وقابلتها ضاحكاً أنا الآخر، عازمـاً عليها بالغداء. وفوجئت بها تقبل وتوقعنـي في حيرة عظمـى، فلـم تكن شقتي مجهزة بأدوات طعام تليق بهـا أو بأي إنسـان آخـر سواي. ثم ان الطعام نفسه لم يكن يصلح ليقدم للضيف فهو طعام شاب أعزب يتنـاول مرتباً لا يزيد على العشرين جنيهاً إلا بضعة قروش. قبلت سانتي وجلست تأكل معي وأنا خجل أردد تلك الكلمات التي نقولها لنعتذر بها في لهجة مهذبة عن فقرنا وحاجتنا. . اعتذارات هدفها أن نبـدد عن أنفسنـا فكرة الحاجة والفقر. ولكنها مضت غير عابئة بكلامي تأكل بشهية متفتحة وتثنى على طهي أم عمر الواقفة قريباً منا كالديدبان الحارس، المتلهفة على رأي الخوجاية في طهيها، القائلة بعد ما ترجمت لها ذلك الرأي.

البيضاء

ـ بالهنا والشفا يا بوى . . والله يا سي يحيى البنت دي طيبة وباين عليها العز، إنما مش عارفة خايفة خايفة عليك منها ليه يا بوي. . ما تزعلشي أهو كلام من كلام خالتك أم عمر الفارغ . . بالهنا والشفا يا بوي.

وفي الواقع لم يكن هذا أنسب وقت لكلامها الفارغ ، فقد كنت غارقاً فيما أنا فيه من حرج ، وفي عشرات الأسئلة التي مضت تحوم في عقلي عن سانتي وكنهها ومن هي وماذا تعمل وما هي حكاية زواجها ذلك؟

وانتهى الطعام.

وجلسنا ندخن السجائر ونحتسي القهوة، وهمي كله أن أراقب سانتي وهي تدخن السيجارة وتأخذ الرشفات. ولا أعرف لماذا ننظر الى المرأة وهي تدخن تلك النظرة الغريبة التي يختلط فيها الاعجاب والدهشة والاستحسان ببعض الاستنكار أيضاً. ما أعرفه أني كنت أتلهى بمراقبتها عن الأسئلة الكثيرة التي تتزاحم على لساني لتنطلق وتجد إجابات شافية مقنعة لها. كانت متناقضات كثيرة غامضة تكتنف سانتي. كانت أحياناً تبدو وكأنها غنية غنى فاحشاً، وأحياناً في زي الكادحات. كانت تتحدث بالعربية في انطلاق من يعرفها أحياناً، وأحياناً لا تعرف معنى أبسط الكلمات. كانت تقول إنها تعمل ولا يبدو عليها أنها تعمل أو أن هناك حاجة تدفعها للعمل. وبالأمس عرفت بشكل قاطع أن لها على الأقل زوجاً ،ومع هذا فلم تذكره مرة واحدة في حديثها معي ويكاد لا يبدو عليها الزواج ، وها أنذا أتأكد الآن أن هناك دبلة في يدها اليسرى كأن ما رأيتها قبلاً.

أسئلة كنت أمنع انطلاقها وأمنع حديثنا أن يقترب منها، مخافة أن تأتي الاجابة عليها أو على أحد منها بعقبة ضخمة تقف بيننا وأوجدها أنا بحب استطلاعي الغبي ، لماذا أسألها؟ ولماذا أحاول معرفة أي شيء أكثر من أنها هنا معي، جاءت من أجلي وجالسة تتحدث إلى؟

ولكن الأسئلة التي منعت لساني أن ينطلق بهـا لم أستطع أن أمنـع سانتي من أن تقرأها مرتسمة بكل تفاصيلها فوق ملامحي. لا بد أن هذا ما حدث، ولا بد أنه السبب في ذلك السكوت الـذي وجدنـاه قد خيم على جلستنا، وفي الخجل القليل الذي اعترى سانتي وهي تقطـع السـكوت وتقول:

ـ لعلك لم تدهش حين عرفت أني. .

وتوقفت عن الـكلام. . ورسمـت تساؤلاً ضخمـاً علـى مـلامحـي فمضت تقول:

ـ أني متزوجة.

قلت وأنا أضحك وكأني أتحدث عن شيء آخر:

ـ أبداً، لم أدهش.

ولكن بعد قليل وجدت نفسي أعود للضحك فجأة وأقول:

ـ الحقيقة أني دهشت. فلم يكن يبدو عليك. . إنه شيء لا يستطيع الإنسان تصديقه بسهولة.

قالت:

ـ ومع هذا فأنا حقيقة متزوجة.

ولم أجد في نفسي أية رغبة لمواصلة الحديث، ولكني خفت أن يحل الصمت بعد كلامها السابق مباشرة فتخجـل ويصيبهـا الحـرج فمضيت أسألها بلا اهتمام كبير عن زوجها وعمله. وقالت لي أشياء كالتي نقرأ عنها في القصص. قالت إن عائلتيهما موزعتان على مصر وقبرص واليونـان وانها هي شخصياً ولدت وعاشت في مصر ولـم تذهـب إلى الوطن الأم إلاّ مرات قليلة ولفترات لـم تتعد الشهور، وإن أباهـا كان متجنسـاً بالجنسية

المصرية، ولكنه فضل أن تنشأ هي على الجنسية اليونانية، وإنه كان يملك أطياناً كثيرة في الفيوم باعوا معظمها بعد وفاته واشتروا بها مكتبة كبيرة وسط البلد، وزوجها كان معها في المدرسة وتزوجته رغم معارضة أمها، وأنه تخصص في الهندسة البحرية وقضيا عاماً متزوجين، ثم في أثناء احتفالهما بعيد الزواج الأول صارحها بأنه يريد الانضمام الى حركة التحرير القبرصية، ولكن مشاكل حزبية وتنظيمية حالت بينه وبين الانضمام. وهكذا قنع بالبقاء في مصر على أن يقوم بجمع أكبر كمية من التبرعات ويرسل بها الى «أيوكا» ولكنها تخالفه بشدة في الرأي، وترى أن اليونانيين المقيمين في مصر عليهم اذا أرادوا الكفاح أن يساعدوا المصريين فهم الأولى بالمساعدة والأجدر.

قصة غريبة بدأت أسمعها وأنا غير مصدق، وحين انتهت منها كنت لا أزال غير مصدق أيضاً. أكثر من هذا كنت لا أريد أن أشغل نفسي بفحصها وتمحيصها والتأكد منها. ومن يدري قد أصدقها حينئذ، ومن يدري أيضاً أي موقف حرج أجد نفسي به بعد تصديقها؟

أخذتها اذن مأخذ الحديث العابر الذي لا يحتاج لأي تعليق. الحديث الذي يقال بغير اهتمام ونسمعه بلا اهتمام أيضاً، وحاولت جاداً أن أغير من نظرتي لسانتي بعد سماعي ما قالته. . حاولت أن أنظر اليها من خلال تلك المعلومات الجديدة منها ففشلت، ظلت في نظري هي هي لم تتغير، الفتاة النحيلة الجميلة التي أجد نفسي منجذباً اليها بقوى أكبر مني ولا أملك إلا طاعتها.

وأحببت أن أغير حينئذ مجرى الحديث فبدأنا نتكلم عن الأفلام المعروضة، وقالت سانتي إن في سينما ميامي فيلماً فرنسياً رائعاً.

وكنت أغير مجرى الحديث وكلي خوف أن يكون ما قالته ـ وان لم يؤثر في أنا ـ قد أثر فيها هي وغير من نظرتها لي ومن انجذابها نحوي، فقلت وأنا أضع الخاطر موضع الاختبار وأضع يدي على قلبي مخافة النتيجة:

ـ هل تقبلين دعوتي لرؤيته؟

وفي الحال وبلا أي تردد وجدتها تهز رأسها علامة القبول. وشككت في تلك الموافقة السريعة وعدت أكرر الدعوة وعادت تقبل. واتفقنا. واعتذرت عن عدم إمكانها أن تذهب في حفلات الليل ولم أسألها لم واتفقنا على أن يكون الموعد يوم الأحد في الساعة الثالثة أمام سينما ميامي.

وكان بيننا وبين الأحد عدد من الأيام.

وكان ثمة عيد قد أقبل، وكان عليَّ أن أسافر الى بلدتنا. فشيء مقدس أن يعود أبناء القرى الذين استوطنوا المدن الى قراهم في الأعياد. إنه الشيء التقليدي الخافت الذي ترعرعوا ونشئوا في كنفه.

والواقع أني قد بدأت أشتاق للبلدة ولعائلتي ولآلاف الأشياء التي غادرتها هناك من صغري، ذلك الشوق الذي أعرف أن ساعة واحدة أقضيها في القرية تكفي لإطفائه. إذ ما أكاد أهبط من القطار وتطالعني الأشجار التي أعرفها، والنخيل الذي كان قبل أن أوجد ولا يزال في مكانه من يوم وجدت، والبيوت الرمادية الداكنة التي أعرف عن قاطنيها كل شيء. ما أكاد أعود مرة أخرى الى ذلك الهدوء الممدود الذي يرقد ريفنا في قاعة، وما تكاد أذناي تستريحان من الطنين الذي لا ينقطع في المدينة وأهبط الى المكان الذي لا ضجة فيه ولا طنين، بل الهدوء الحافل الكبير هدوء يغري بالهدوء ويثبط الهمم. ما أكاد أطالع كل هذا حتى أبدأ أتناقض

مع نفسي. . فنحن نسير في المدينة بسرعتها القاهـرة المجنونـة، ولكنـا هناك في تلك الأرض الواسعة غير المحدودة نحبو،بل نقف في أماكننا لا نسير. وما نكاد ندرك أننا وقفنا وأن سرعتنا هبطت الى العدم حتى نبدأ نحن الى الطنين والجرى والحركة الهائلة الدائمة التي لا تكف ولا تسكت.

سافرت الـى البلـدة إذن، وطالعنـي كل ما أعـرف سلفـاً إنه سوف يطالعني، ومع هذا فللقائنا بالقرية فرحة كفرحـة رؤيتنـا لصورنـا ونحـن أطفال، ولحظنا أيام أن كنا تلامذة في ابتدائي وثانوي. وقوبلت بما تعودت أن أقابل به. . جرى أخي الصغير حين رآني من المحطة وعانقني والتف حول ساقي، ثم انفلت وانطلق يعلن الخبر لأبي وأمي وبقية إخوتي. وقبل أن أصـل إلـى البـاب كان البـاب يزدحـم بمظاهرتهـم الحافلـة الفرحـة الصغيرة، وأنا حائر أعانق مِن وأسلم على من؟ أكاد أبكي من فرط انفعالي وخجلي وتأثري! ودائمـــاً افتقد أمي في تـلك المظاهـــرة وأعـــرف أنها كالعادة غاضبة عليَّ لأي سبب أو للا سبب، وإنها جالسة متناومة أو متمارضة،ولا بد لي أن أذهب وأقبل رأسها فتنفر منـي، وأعـود أقبـل يدها فتسحبها بوجه صارم تحاول صاحبته أن تمنع أي بادرة انفعال ان ترتسم عليه. وأفعل هذا كله بحكم الواجب والعرف والتقـاليد وبـلا أية رغبـة حقيقية في فعله؟ فأنا لـم أكن حريصـاً علـى إرضائها مثلمـا كانـت هي الأخرى غير حريصة على إرضائي. علاقتنا كانت غريبـة في بابهـا منـذ صغري ودوناً عن بقية إخوتي، فلا هي علاقة حب ولا علاقة كره. كنت ابنها الثالث، خلفتني وقد بدأت تضيق بزواجها بأبـي، وجئـت شبهـه. وبـكل عنفـوان الفلاحـة الفتية ذات الخمسـة والعشـرين عامـاً عاملتني وربتني. . بكل الخشونة والغلظة والجفاف، وكنت طفلاً ساكناً حساساً سرحان روعتني معاملتها لي إلى حد أنها أربكتني وجعلتني أخاف أخطائي إلى الدرجة التي أتردى دائماً فيها. وبالعصا والأقلام والشـلاليت كانـت

تواجه أخطائي، وبالرعب كنت أواجهها. . رعباً ملك عليَّ كل طفولتي فلم أجد معه وقتاً أو جرأة أسأل فيها نفسي: ترى هل أحبها؟ أسأل نفسي لم أكن في حاجة لسؤالها عن كنه عواطفها نحوي. فعواطف الآخرين نقيسها ونحن أطفال من زاوية واحدة فقط زاوية حنانهم. الحنان عندنا يعني كل شيء، يعني الحب والخير والطيبة. والغلظة تعني كل شيء تعني الكره والشر والتوحش. وأنى لي وأنا في تلك السن الصغيرة البعيدة أن أدرك أن حنانها هو الذي كان يدفعها لإمساك العصا وتوجيه الصفعات.

كل الذي حدث أنني نشأت أخاف منها ونشأت تخوفني، وبيننا كل ما بين الخائف والمخوف من توتر وحرج وحساب عسير. وانتقل الوضع نفسه الى علاقاتي بكل من عرفت غيرها من النساء. أكره الضعيفة وأشمت في القوية حين تضعف، وبيني وبين الضعيفة والقوية والجنس كله صراع لا أعرف متى ينتهي ولماذا أنا سائر فيه؟ ولماذا أنا حائر مشتت بين رغبتي الشديدة فيهن وخوفي الطاغي سنهن وعدم اطمئناني الى أية علاقة قد تنشب بيني وبينهن؟ عدم اطمئنان مرجعه لا بد الى أني كنت أشك في أحيان كثيرة بعلاقتي بأمي. . أشك إن كانت أمي حقيقة فلم أكن أبداً أحس أنها أمي، حتى وأنا أميل عليها لأقبلها حين كبرت وأرى التجاعيد في وجهها والشيب في شعرها كنت أكاد أفيق لنفسي وأقول: ترى أهذه حقيقة أمي ؟

ومن يشك في أول علاقاته بالناس وأقربها ـ العلاقة الغريزية التي لا تقبل أي تساؤل أو عدم تسليم ـ له العذر لو تشكك في أية علاقة تنشأ بينه وبين أي إنسان. فإذا كانت الظروف قد دفعته لأن يتساءل: أهذه أمي؟ فمن باب أولى أن يظل يتساءل: أهذا صديقي، أتلك حبيبتي، أهذه زوجتي؟ وقد يقضي حياته كلها يسأل ويمضي عمره دون أن يجد

البيضاء

الجواب، ولكن النتيجة أنه حتماً سيظل وحيداً محاطاً بالشك في نفسه والشك في الآخرين، بالخوف منهم وتخويفهم، بسور من جهنم الدنيا المريع.

كنت دائماً أفتقد أمي في مظاهر الترحيب بي، ودائما أذهب وأصالحها، ودائماً تقبل صلحي على مضض. وكنت ما أكاد أصبح في قلب بيتنا. . البيت المهدم ذي الطلاء الأبيض المصفر المتهالك والكلب العجوز، والحوش المهمل. . ما أكاد أصبح وحولي كل هذا حتى أفيق، وكأننا نحيا في المدينة في حلم طويل لا نفيق منه إلا حين نعود إلى قرانا. وهناك نجد الحقيقة، هناك ندرك أننا فقراء مطحونون نتستر بالحيل لنعيش. إننا في المدينة نحاول أن نبدو كأهل المدينة. ولأننا لسنا منهم، لأننا فلاحون نحاول أن نبزهم ونتفوق عليهم في ملبسهم ومعيشتهم،وكأنما لندفع تهمة الفلاحين عنا.حتى إذا عدنا وجدنا حقيقتنا الجرداء، وجدنا أصلنا وأقاربنا وجلابيبهم الرثة المرقعة وإخوتنا الحفاة وأمهاتنا،وهن يدارين البيضة ويبعنها للصرف على بيوتنا. حين نعود نجد هذا، ونجد نفس المشاكل التي غادرناها لا تزال قائمة ولا تزال بغير حل ونفس الكلمات والمجاملات التي من كثرة ألفتنا لها مججناها وأدركنا من زمن بعيد أنها لا تعني شيئاً على الاطلاق. حين نعود ونجد هذا كله نحس أننا هبطنا من سموات أحلامنا إلى الأرض العارية. . الأرض التي تبدو لنا المدينة منها كعالم جميل مفقود أفقنا منه لنبدأ نؤنب أنفسنا ونعجب من تصرفاتنا. كيف كنا نجرؤ على صرف الجنيه بكل تلك البساطة، والجنيه هنا شيء ضخم كبير ممتنع كنجوم السماء. الجنيه هنا حياة كاملة، ثروة وضياعه مصيبة وحادثة قد يظل صاحبها يذكرها حتى الممات.

ما أكاد أصبح في قلب بيتنا حتى أفيق وأحس أنني مجرم آثم يلهو في

المدينة وأهله هنا حفاة عراة غلابى طيبون. . ينظرون له وكأنه إله، وكأن قوة خفية قد رفعته عنهم وفضلته عليهم. يرون أنه لم يعد منهم، أصبح أفندياً يحجبون عنه ـ وهم أهله ـ أسرارهم ويحاولون إخفاء ما بهم من عيوب، يعاملونه وكأنه لم يعد ابنهم أخذته المدينة منهم وأصبح ابنها هي.

وحتى حين أفيق وأندم وأحس بجرمي لا أستطيع أيضاً أن أفعل شيئاً وكأنما لعنة حلت بي وغيرتني إلى الأبد. كل ما أحسه أني بين قوم غرباء أتفرج عليهم ويتفتت قلبي من أجلهم، ولكني أدرك أن قد أصبح بيني وبينهم شيء، أصبحت أمت إلى عالم آخر مختلف تماماً عن عالمهم ودنيا غير دنياهم. دنيا أحس خجلاً شديداً منها وأنا في دنياهم، أحس بالمدينة والحياة فيها كأنهما معصية كبرى ارتكبتها ومواظب على ارتكابها ويبدو أنني لن أتوب، ارتكبتها حين انسقت وراء أهلها أتطبع بطبائعهم وآكل مثلهم وأحيا حياتهم. .

ما من مرة كنت أعود فيها إلى بلدتنا إلا وتنتابني أحاسيس كتلك. . أحاسيس تخف وطأتها وأتعود عليها عاماً بعد عام. وفي تلك المرة أيضاً كانت تحفل بها نفسي وأنا جالس وحولي عائلتنا أستقبل أقربائي وأصدقائي الذين جاءوا يهنئونني بالقدوم، وأنا أعيد على الناس والناس تعيد علي وحتى وأنا أحاول المحاولات اليائسة الأخيرة للفوز برضاء أمي ودعواتها، ووجهها جامد لا ينفك أحاول أن أقرأ فيه بادرة حنان واحدة تعزيني عن الحنان الذي افتقدته وأنا صغير فلا أجد، تماماً كما ظللت أفعل من سنين وأفشل، ويدفعني الفشل إلى البحث عبثاً عن الحنان في إخوتي وأبي، فأجد بعض العزاء،ولكنني لا أجد الحنان كله، فحنان الأم يبدو أنه كلبنها لا يقوم مقامه بديل. ومن لم يذقه من المؤكد أنه سوف يظل

يبحث عن طعمه لدى الناس أجمعين، ومن المؤكد أيضاً أنه لن يعثر له على أثر أو بديل.

لم تتعد الأيام التي قضيتها في البلدة يومين أو ثلاثة، وطوال تلك الأيام كانت سانتي تحيا معي باستمرار. كنت أنظر إلى أبي الطيب وأخوتي وأمي والفلاحين أبناء البلدة، وأرى التراب والمرض والفاقة والخراب وأقول لنفسي هناك.. في مكان ما من هذه الدنيا جنة صغيرة مخبأة لي.. هناك تلك الفتاة الحلوة ذات الاشعاعات.. هناك سانتي.

كنت أقارن بين ما أراه حولي وبين تلك الصورة السرية التي خبأتها في نفسي لا يعرفها أحد ولا تصل إليها عين إنسان. فأحس بالدفء، وكأنني أحتفظ برغم كل ما كنت أراه بكنز خاص بي لا تفتحه إلا كلماتي أنا.. كنز ساحر براق يملؤني بالغنى والسعادة ويرسل أنوار أمل في كل ما كنت أراه.. وكل ما كنت أراه كان يبدو لي خالياً تماماً من الأمل. وكل يوم يمضي وكل ساعة تمر تركز صورتها المخفاة وتلهبها وأحس بها أكثر وأرى فيها شيئاً غامضاً رائعاً جذاباً يهيب بي أنا أحيا، ويجعلني أجد للحياة مذاقاً وطعماً.. أجمل طعم ومذاق.

وكان يوم الأحد ثاني أيام العيد.

وثاني أيام العيد في الأرياف شيء مقدس كأول يوم فيه.

وكنت قد قررت وأنا في القطار وذكرياتي عن بلدتنا تحضرني وأشواقي إليها هائجة أن أضرب صفحاً عن ذلك الموعد مع سانتي لدخول السينما اذ كان لدي إجازة طويلة، ولم يكن هناك ما أفعله اذا قطعت الاجازة يوم الأحد وعدت إلى القاهرة إلاّ ذلك الموعد.

كنت قد قررت هذا لأن ليلة الأوبرا كانت قد أضفت عليَّ الطمأنينة

ودفعتني لأن أثق بنفسي وأؤمن أنها تمت لي وأنها آجلاً أم عاجلاً في طريقها إلي، وأن من الممكن جداً أن أقف في مكاني ولا أتحرك، أو حتى أخلف موعداً وأنا ضامن مائة في المائة أن هذا لن يؤثر في علاقتنا، بل قد يزيد من استمساكها بي.

وكنت قد قررت هذا وأنا في طريقي إلى البلدة، غير أن الأيام التي قضيتها هناك غيرت كل شيء.

كنت كلما رأيت الموت يغمر كل شيء من حولي، وكلما فزعت إلى صورة سانتي في خاطري وتلمستها في خيالي، ازداد إعزازاً لها ومبالغة في الحرص عليها.. وخوف بارد مجهول أن أفقدها. أودعتها كل بريق الأضواء في المدينة، وكل الحياة الملتهبة العنيفة التي يحياها الناس هناك. كل آيات النشاط البشري والذكاء والجمال أودعتها سانتي وتبلورت فيها ـ في تلك المدة القصيرة ـ كل أماني في حياة عريضة حافلة. وكلما رأيت الموت من حولي فزعت اليها، إلى الحياة كما أتصورها، إلى روح الحياة. وما كدت أطفىء شوقي إلى أهلي وذكرياتي وأصحو على واقع ريفنا العادي الرتيب حتى كنت أحن شوقاً إلى حركة المدينة، وحياتها وأضوائها وأحلامي فيها، والفتاة الجميلة الرائعة التي كانت تقف معي في الأوبرا بغطاء رأسها الاغريقي ذي «الطرة» وبريق عينيها، وشغفي بها وشغفها بي.

وما كادت تأتي ليلة السبت حتى كنت على أحر من الجمر قد قررت أن أسافر صباح الأحد لأوافي سانتي في الميعاد.

ولم يكن سهلاً أن أنهي القرار الى العائلة، وأصعب منه كان أن أواجه

رفضهـم البـات وأن أكذب كذباً واضحـاً مفضوحـاً وأختلـق الحجـج والمعاذير.

وتحول الرفض تحت وطأة حججي إلـى الحـاح، ثم تطرقـت بهـم طيبتهم الحبيبة إلى رجاء أن أقضي يوماً آخر مجرد يوم آخر.

وأخيراً سمحوا، فقد كانوا يعلمون أن رضاءهم أو عدم رضائهم لم تعد تسري على ابن المدينة، وكل يوم يزدادون اقتناعاً أنه لم يعد يمت إلـى دنياهم.

وكم زحفت ساعات الليل ـ ليل السبت ـ بطيئة كئيبة.
وكم كان الشروق رائعاً جميلاً.
وتحرك القطار.

واعترتني نفس الغصة التي تعتريني كلما غادرت البلدة. غصة لكل ما اختلقت من أكاذيب، وخجل لأنهم صدقوا أكاذيبي، وشيء كقبضة تجثم على قلبي وتعتصره لإحساسي أني مدين بالكثير لهذه الأرض التي أغادرها ولهؤلاء الناس الذين أفر منهم، ولم أفعل لأجلهم إلا أقل القليل.

وكلما كان القطار يتقدم صوب القاهرة كانت غصتي تهدأ. فلم يكن القطار يقطع بي المسافة فقط، كان يقطع بي أيضاً مسافة نفسية، ويبعدني بسرعة عن ابن القرية المدين لها، الى ابن المدينة المذهول بأضوائها الضائع فيها الطامح يوماً أن يخضعها ويتحكم فيها.

غير أن القطار كان كلما اقترب من القاهرة ازداد خوفي.
خوفي على سانتي .
ولست أعرف كيف أقول هذا ،ولكن الأيام التي قضيتها في بلدتنا أثبتت

لي أن سانتي هي الشيء الوحيد غير الحقيقي في حياتي، هي الحلم الوحيد في حياة أحسن، الأمل وسط واقع جاف لا أمل فيه.

وقد كنت على استعداد لأن أبذر واقعي، ولكني لم أكن أبداً على استعداد لأن أفرط في أحلامي.. بل في حلمي الوحيد. وجعلتني تلك الأيام التي عدت فيها إلى واقعي البشع أتشبث بسانتي تشبث الغريق. وهكذا لم أعد ذلك الواثق الثابت المطمئن الذي وضع سانتي في جيبه ولم يعد عليه إلا أن يمد يده ويأخذها. خيل لي أنها ـ لسبب ما ـ قد ضاعت هي الأخرى كما ضاعت المدينة الوهم في قرية الواقع الرهيب.

وبدأت أخاف.

أخاف أن تكون قد ذهبت إلى الأبد وألا تأتي في الميعاد.

وإدمان التفكير في الشكوك يحيلها الى حقائق.

وبدأت أوقن أنها لن تأتي.

ويئست.

وهبطت من القطار.

كانت الثالثة إلا ربعاً.

وركبت «تاكسي» الى سينما ميامي.

ووقفت هناك.

وقفة اليائس.

لم يعد لدي أقل أمل في قدومها.

ومضت الدقائق وأنا غير حزين ذلك الحزن الذي تصورت حدوثه أكاد لا أحفل بمضيها، أكاد أتمنى ألا تأتي لأشقى وأتعذب وأشمت في الجزء الآخر من نفسي.. ذلك الجزء المتفائل الذي كان يؤكد لي باستمرار أنها لا بد قادمة ويسخر من مخاوفي وشكوكي.

وأصبحت الساعة الثالثة.

ونشب في نفسي جدل عنيف. آلاف الأشياء تؤكد أنها قادمة. وآلاف الأشياء تؤكد لي أنها ذهبت من حياتي إلى الأبد ولن تعود.

وأنا فرح لأني سأشقى وأحزن. وحزين لأني قد أفرح، ساخط على نفسي أشد السخط لأني تركت أبي العجوز وإخوتي وكل الناس الذين يحبونني وجئت لمقابلتها، راض عن نفسي لأني نبذت الواجبات الجوفاء وخرقتها وأقدمت على عمل أحقق به رغبة هي من حقي أنا وبجماع نفسي اريدها.

ومضت الدقائق، أتمنى أن تمضي سريعة لتوصلني الى اليأس وتريحني، ولكن أعود وأرجو أن تبطىء على قدر ما تستطيع حتى لا ينقطع خيط الأمل.

كان أمام السينما منتظرون آخرون. كان اليأس يخطفهم واحداً أثر الآخر حتى لم يبق سواي. واضطررت لأتلافى الأنظار أن أغدو وأروح أمام باب السينما وعيناي تفتشان شارع سليمان كله بحثاً عن فتاة صغيرة سريعة الخطوات، وجهها حلو صغير سريعة الخطوات فيه بسمة لا تنطفىء.

أروح وأجيء في خطوات كلها قلق وترقب وكأني طالب ينتظر نتيجة امتحانه الأخير، تبلغ به ثقته بنفسه أشدها أحياناً، وأحياناً تضعف وتتلاشى إلى الدرجة التي يكاد يمد يده فيها إلى المارة يستجدي منهم بعض الثقة في نفسه. تلك اللحظات التي تضع فيها آراءك وأحلامك لأيام طويلة موضع الامتحان وتتساءل :ترى هل كنت محقاً أم كان ما أحيا فيه وهم كبير؟

واقتربت الساعة من الثالثة والنصف.

وظهرت سانتي.
كانت ترتدي جيب أسود وجاكيت من نفس اللون.
وأروع ما في الأمر كان غطاء الرأس الاغريقي.
نفس الغطاء الذي قلت لها إني أحبه، كانت ترتديه.



٥

عدت ذلك اليوم الى بيتي وأنا سعيد. . سعيد لا أريد أن أبحث أسباب سعادتي، أريد أن أبقى ما بنفسي مقفلاً ومختوماً كالخطاب الاتي من حبيب لا أتفحصه أو أستعجل معرفة ما فيه .

وبدأت أفكر.

وكم كنت غبياً أحمق.

لماذا لم أدع الأمور تجري كما تجري؟

لماذا بدأت أدبر وأرسم الخطط؟

كان كل شيء يمشي على ما أهواه له، وكنت سعيداً بتلك الأحاسيس التي اجتاحتني كلما قابلتها. وإذا وضعت يدها في يدي أحسست أنها تذوب في يدي. وإذا حدثتني أحسست أنها تعطيني نفسها. بلا أدنى تردد، وبكل إرادتها واختيارها. ذلك البريق الذي كان يشع من عينيها كلما تلاقت عيوننا كان أروع من كلام. بل حتى ما كان يدور بيننا من أحاديث لم تكن مهمة، فأحاديثنا في الواقع كانت تتحول الى موسيقى لا تهم مفرداتها كثيراً، فيتكلم الواحد منا ليخرج أصواتاً حنونة منغمة يرد بها على أصوات أخرى صاعدة من حنجرة عزيزة ثانية .

ولكني على أية حال بدأت أفكر. . خيل لي أن كلماتي وموسيقاي وضغطاتي لم تعد تكفي.

أحسست أن هناك ما يثقل صدري ولا بد من البوح به.

وليس معنى هذا أن قوى قاهرة تدفعني رغماً عني الى هذا العمل، بل الواقع بدأت أفكر معتقداً أن المسألة أصبحت في يدي، وأن عواطف سانتي تجاهي قد نضجت وأصبحت مستعدة هي الأخرى لتقبل حركتي تلك .

عدت الى البيت. . وأمسكت القلم وبدأت أفكر في خطة صغيرة غير بارعة لأنفذ بها ما أريد. ووجدتني أكتب مشروع قصيدة منثورة بالانجليزية.

لم أكن أعرف ماذا أريد أن أقول فيها وهل أكذب وأبالغ أم أتحفظ وألجأ الى الاشارة والرمز؟ لم أكن أعتقد أنني أحبها فعلاً وكنت أريد أن أتلافى ذكر أية أحاسيس متبلورة تجاهها. وكتبت بضع شطرات فوجدت أنهافاترة،وإني غير متحمس الى الكتابة واستحضرتها في خيالي لتلهب حماسي أو على وجه الدقة عدت مرة أخرى أحيا في تلك اللحظات التي كنا فيها في السينما.

دخلنا في الظلام، وجلسنا. وحين أضيءالنور في الاستراحة وجدت سانتي تحاول إخفاء رأسها في ياقة معطفها فقلت :

ـ أهناك شيء؟

فقالت همساً:

ـ أخشى أن يرانا أحد.

وتدفقت فرحة مفاجئة في صدري، فمعنى كلامها أنها تدرك انها تفعل شيئاً لا يقرها الآخرون عليه، وهذا عين ما أريد. فقد كنت أحياناً أسأل نفسي: ألست مغفلاً؟ ألا تكون قد قبلت دعوتك للسينما كما يقبلها الصديق من صديقه؟ كلماتها تلك وهمسها وياقة معطفها حين ارتفعت وضعت حداً فاصلاً بين الصداقة ودعواتها وبين ما كنا فيه.

وطالت الاستراحة، كان كل منا يحاول بشكل تلقائي إخفاء نفسه عن الناس وعن الآخرين، وإذا التقت أعيننا صدفة تخجل ونشيح بأنظارنا ويعود الينا القلق والفرح الممزوج بالخوف الذي لا يدعنا نطمئن ولا يدع قلبينا عن دقهما العالي المتواصل.

وأنهيت القصيدة.

لم تكن صدقاً كلها ولا كلها محض خيال. في الواقع كانت تعبر بتردد عن إنسان يتردد في التعبير عن نفسه، وكانت مكتوبة على ورقة عادية جداً ومملوءة بالشطب والتعديل.

وجاءت سانتي ثاني يوم . . ولا أدري كيف دخلت في الموضوع، وأظنني قلت لها في أواخر الجلسة أن أحد أصدقائي قد كلفني بكتابة قصيدة ليرسلها لفتاة أجنبية يعرفها، وحائر كيف يكشف لها عن ذات نفسه.

وحين قلت هذا ابتسمت . . ابتسامة بدت عادية، ومع هذا كنت متأكداً أن ابتسامتها تعني أنها تعرف من الذي كتب القصيدة ولمن كتبت.

قلت:
ـ أقرؤها عليك؟
قالت بلهجة لا انفعال فيها:

ـ اقرأها .

واستمعت اليها منكسة الرأس مصغية ، وحين انتهيت نظرت إليها لأرى وقع القصيدةعليها ،ولكن وجهها بقي لا ينفعل ، فقلت أستحثها :

ـ ما رأيك فيها ؟

قالت :

ـ كويسة . .

لم تقلها بالعربية ولكنها قالتها بكلمة انجليزية لا تعبر عن استحسان أو عدم استحسان ولا أي أحساس خاص بالمرة .

وقضينا ما تبقى من وقت في حركات لا تستقر . . أقف أنا وأتمشى وتقف هي وتبتسم ، وتأخذ كتاباً من المكتبة تقرأ عنوانه ثم تضعه وتعود للجلوس . ونبدأ نقاشاً حول موضوع ثم ينتهي منا ونقول أشياء كثيرة لا معنى لها ، وأحياناً يفلت الزمام ويلمح الواحد منا نظرة ذات معنى في عين الآخر فلا يجرؤ على مواجهتها . كان واضحاً أننا نريد أن نحافظ على وقارنا الاجتماعي . وكنت من ناحيتي أريد أن أثبت لها أن القصيدة فعلاً ليست لي ، وكانت هي الأخرى تريد أن تؤكد أن كلامي صحيح وأني حقيقة لا أعنيها .

ودخنا يومها كثيراً .

وكانت لسانتي طريقة في التدخين تعجبني . . كنت أشعل لها الكبريت فتمد فمها الدقيق وفيه السيجارة وتجذب نفساً ، ثم تلتفت الى الناحية الأخرى وتنفثه بينما وجهها يحفل باحتقان وردي مفاجىء يزغلل العينين . ونظل نطفىء السجائر ونشعل غيرها الى أن تستأذن سانتي وتعلق حقيبتها في كتفها وتمضي .

البيضاء

وأعود الى أفكار قلقة لا تستقر ، وأسئلة كثيرة تريد إجابات أكثر ، وكل إجابة تثير أكثر من سؤال ، وحقائق تختلط بأوهام ، وأوهام تتجسد على هيئة حقائق ، وأنا مضطرب سعيد كل مرادي أن يتوقف العالم عن المسير وأن أقضي ساعات وساعات أحيا في تلك الدوامة الهادئة التي تدغدغ وعيي وأعصابي .

وكنت أعرف أنها لا بد قادمة في اليوم التالي ،وكنت قد اتخذت قراراً . . أن أمضي خطوة أخرى ، فقد لاحظتها جيداً وأنا أقرأ القصيدة ولاحظتها أيضاً بعد قراءتها، وممكن أن أقول إني شاهدت على ملامحها وفي تصرفاتها كافة الانفعالات، الخاصة بالإنسان ما عدا الاستنكار فلم ألمحه أبداً . . وما دام تصرفي ذلك لم يلق استنكاراً أو إعراضاً فماذا يمنعني أن أخطو خطوة أخرى وأقول لها كل شيء بصراحة ؟

وكانت الساعة العاشرة . . وجلست الى المكتب وبدأت أكتب . ولا أذكر على وجه التحديد ماذا قلت في ذلك الخطاب ، ولكني أذكر أني كنت محموماً منفعلاً وكأني أقوم بأهم وأخطر عمل في حياتي . كانت الفكرة التي أريد قولها مبهمة غير واضحة المعالم في خيالي ، والكلمات أمامي كثيرة لا رابط بينها ولا ضابط. وتركز همي أول الأمر في الدقة التي يجب عليّ أن أختار بها الكلمات ، وفي وجوب اختيار الأساليب الموحية ذات المعنى الظاهر المباشر والمعنى الذي قد يخفى . وكنت أفعل هذا بتعقل وبلا أية عاطفة . . غير أن عملية الكتابة نفسها جعلتني أفكر فيها ، وبدا سيال خفي دافىء ينبع من مكان ما من نفسي ويأخذ طريقه الى قلمي . . سيال بدأ هو الذي يختار الكلمات وينظمها ، كلمات لدهشتي كانت تخرج دافئة حنونة فيها كل ما أصبح لنفسي من دفء ورقة وحنان . وما

لبث السيال الدافىء أن تحول الى فيضان عارم، ووجدتني أنفجر وأقول كل ما أحسه دون مواربة أو تدخل أو خجل .

سردت عليها تاريخ علاقتنا القصيرة، وقلت لها إني أعرف العقبات كلها والمحرجات . ولكني أصبحت في حيرة بين ما أحسه ناحيتها وما أخفيه عنها ، وهي وحدها القادرة على إنقاذي من حيرتي. .

وكنت أكتب بالانجليزية، وحتى في حديثي العادي لم أكن ذا باع طويل فيها ، ولكني أعجبت فعلاً بالخطاب بعد قراءته ، وتخيلتها وهي تسمعه، ورحت أحلم. فمن يدري ربما دوخها الخطاب وأثر فيها الى درجة تنسى معها كل شيء فتبكي وتصارحني بحبها ؟ من يدري ربما سلبها الخطاب إرادتها تماماً ونومها ذلك التنويم المغناطيسي الذي أريد لتصبح طوع يدي أصنع بها ما أشاء ؟ أصبح الخطاب هو المعجزة التي ظللت أحلم بمفعولها السحري طوال نوم قصير مضطرب. وفي الصباح وأنا خارج ـ وقد تجاوزت الساعة التاسعة والنصف ـ الى عملي مسرعاً خائفاً قلقاً، ألقي نظرات ضيقة موتورة على أصحاب الدكاكين المتراصة في مدخل المنزل ، كنت أوكد لنفسي مرة أخرى أن حياتي تلك لم تعد تصلح لأحلامي. حياتي بادئة بهذا البيت الذي أسكنه والذي لم أرتح اليه مطلقاً من يوم أن انتقلت إليه . . كان صاحبه تاجر أخشاب أو سمك لا أعرف، وكان قصيراً له كرش واضحة المعالم كمن ابتلع بطيخة واستقرت الى الأبد في جوفه، وله عين حولاء صغيرة وعين أخرى أصغر منها بطريقة تدرك معها أن إحداهما لا بد صناعية ولكنك لا تستطيع أن تحدد أيهما . والظاهر أن تلك كانت أول مرة يبني فيها بيتاً ويدخل طبقة أصحاب العمارات ، إذ كان قد طبع عقود إيجار خاصة به ، وكتب فوق العقد بخط

البيضاء

عريض : « عمارات وعقارات فلان » وكلها عمارة واحدة هي تلك التي ساقني الحظ لسكناها . وفي عقد الايجار أكثر من مائة شرط لم يرد ذكرها في أي عقد من قبل أو من بعد، وكلها حقوق للطرف الأول صاحب البيت لدى الطرف الثاني أنا ، وملحق بها قائمة بالممنوعات منها مثلاً : ممنوع نشر الغسيل إلا بين الساعة الخامسة والسابعة مساء . وخلال المرات القليلة التي قابلته فيها كان يبدو مسروراً من سكني عنده أنا الطبيب، وكان يحدثني باستمرار عن ابن ضابط له ،ويقول عنه الكابتن سعيد، وكيف قد حدد له هو ماهيته الشهرية فوق ماهية الحكومة ، وحين تمت العمارة وانتهت وبدت جديدة أنيقة بالقياس الى عمارات الشارع القديمة المتآكلة كان لا يحضر إليها إلا وقد ارتدى بدلته الكاملة وطربوشه، يحيي أصحاب الدكاكين الجدد بترفع، ويحيي باحترام زائد ويقف معظم الوقت يتفرج على العمارة . وأحياناً ينتقل الى الرصيف المقابل أو النواحي المجاورة ليتأملها من مختلف الزوايا والأبعاد.

وكان واضحاً أن بدلته جديدة أيضاً ، بل أكثر من هذا أنها أول بدلة يرتديها في حياته ، فقد كان، يحاسب عليها أكثر من اللازم ويعني بارتدائها وبأكمامها وبخطواته فيها أكثر من اللازم أيضاً ! وفي تلك الأيام كان يبدو سعيداً جداً كمن حل جميع مشاكله ، أغلق « الدكان » الذي كان يخجل منه ابنه الضابط ويمنع العرسان عن بناته ، وبنى العمارة وارتدى البدلة ، وأصبح كأي مالك محترم بلا عمل إلا أن يأتي كل شهر ويحصل الايجار من السكان .

ولكنه لم يستطع أن يمثل دوره الجديد طويلاً، فبعد فترة بدأ يغير البدلة ويرتدي الملابس التي قضى عمره يرتاح فيها . . الجلباب الأبيض

والبالطو الأسود، ويجلس على كرسي عند واحد من أصحاب دكاكينه يعنف البواب ، ويشكو للجالسين معه من ضيقه بهذا التعطيل الاجباري الذي فرضه عليه أولاده . وحنينه الى وقفته في الدكان ولذة كسب القرش ، تلك اللذة التي لا تعادلها أي ألقاب أو بدل أو عقود إيجار مطبوعة .

وفي تلك الفترة تصادقنا، وقد لا يصدق أحد هذا ، ولكن خجلي منه هو السبب الوحيد الذي كان يدفعني للاقامة في تلك الشقة التي لا تحتمل . فالشارع أمامها حافل بالضجة التي تحرق الأعصاب. . ضجة عشرات من خطوط الترام والأتوبيس وآلاف عربات الكارو وزعيق الباعة والمارة والكلاكسيات وميكروفونات المآتم والأفراح التي تحدث بالتبادل وعلى الأقل مرة كل يوم . . ضجة تبدأ في الرابعة صباحاً ولا تنتهي قبل الثالثة من صباح اليوم التالي . ثم إن المالك ـ سامحه الله ـ لكي يستفيد أكبر فائدة من المساحة ، لم يجعل مدخل البيت على الشارع ولكنه صنع له ممراً بنى على جانبه دكاكين وقهاوي يحملق فيك أصحابها وروادها ويتفحصونك، ولا عمل لهم إلا النظر الى سكان البيت « إذ الممر لا يعبره إلا السكان »وإحصاء حركاتهم وسكناتهم . وسلم البيت أدهى من مدخله حافل بزبائن المستوصف وأقاربهم ومرافقيهم ، وحتى الشقة نفسها مع أنها جديدة ولكنها لا تعطي أي إحساس بالسكن أو الاستقرار . . شقة لا تصلح إلا لمكتب سمسار أو لمقر نقابة. وإذا كنت فيها وجرؤت على فتح نافذة دخلت لك منها زوبعة ضجة تكاد تقتلعك من مكانك ودخلت أيضاً رائحة الكبدة . . فالشقة تقع مباشرة فوق محل متخصص في قلي الكبدة والمخ وله مخزن بجوار السلم تماماً، مخزن مظلم تلمح من خلال ظلامه كتلاً هائلة من الكبدة لا تعرف لضخامتها الى أي

الحيوانات تمت . . كتل تلمع في الظلام وتملأ رائحة « زفارتها » البيت كله من الداخل ، وتهب رائحة قليها على النوافذ من الخارج . وأفظع ما في الأمر أن المطعم نفسه كانت له يافطة من النيون الأحمر والأخضر والأصفر ، وكان صاحب المطعم السني السمين يصر على تركها مضيئة طول الليل . . وليتها تضيء فقط ، انها تنطفىء وتضيء أوتوماتيكياً والنيون له أزيز مزعج ، فضلاً عن أنواره البشعة الفجة التي تظل تتوالى وتنير الحجرة وتظلمها حتى الفجر .

ومن يوم أن سكنت وأنا أحيا في تلك الدوامة من العيون المستطلعة والزفارة النيئة والمقلية التي تتابع رائحتها تتابع أضواء النيون المضيئة ويلفها جميعاً ذلك البركان من الضجة الذي يهدر في الشارع طوال ثلاثا وعشرين ساعة ، يتلوها ويسبقها أذان الفجر الذي يذاع بالميكروفون من مسجد سيدي أبي العلا ويحتل الساعة الرابعة والعشرين .

ورغم كل ذلك فقد كنت أحتمل حياتي في ذلك المنزل ولا أفكر تفكير جدياً في تغييره . شيء ما كان يجذبني الى هذا كله ويجعل ضيقي به لا يعادله إلا حبي له . لأمر ما كنت أحس أني في هذا البيت أحيا وسط شعبنا بكل عيوبه ومزاياه الى درجة أني كنت أخجل أحياناً من نفسي لهذا الكره الذي أكنه لأصحاب الدكاكين والقهوة والمطعم وهم يحيونني بحب ويتمنون محادثتي ويبدون استعدادهم لأي خدمة . . ولم لا أعترف أني كنت أحياناً أسعد بإقامتي هناك وأستمتع ؟ كان منظر الناس المزدحمين طوال النهار في الشارع ، المتراكمين أمام الدكاكين وعلى كراسي القهوة والخارجين من جامع أبي العلا والداخلين إليه والمقيمين حلقات الذكر حوله ، والسكرانين آخر الليل في الخمارات الكثيرة القريبة وفي « بوظة » بولاق الواقعة غير بعيد من الجامع . . كان منظرهم يأسرني ويملؤني

بإحساس غامر عجيب . وجوه مصرية رغم شحوبها وفقرها وقبحها لا بد تجدها حافلة بكثير من خفة الدم وسماحة الطبع ، وكلامهم مهما بدا مليئاً بالمبالغة والمغالطة والجليطة إلا أنك تحس به صادراً عن روح حلوة كالعجمية ، لا تشبع منها أبداً مهما خيل إليك أنك شبعت منها .

وعلى أية حال فلم يكن مسكني هو كل المشكلة ، فقد كنت أنتهي من عملي كطبيب لورش السكك الحديدية في الثانية ، وأتغدى ، وما أكاد أطبق جفوني حتى أقوم مهرولاً الى العيادة وأظل أعمل فيها الى التاسعة ثم أجري الى المجلة حيث أظل أعمل الى منتصف الليل ، وفي ليال كثيرة يمتد السهر الى الثانية وربما أكثر ، ثم أعود الى البيت لا لآوي الى الفراش وأنام ، ولكن لأكتب أو لأعيد كتابة موضوعات ومقالات وتحقيقات للمجلة ، وهناك قرب الفجر أنام على أن استيقظ كل يوم في السابعة وإلا حدثت كوارث وأهوال ! . . . وكم كنت ـ ولا أزال ـ أضيق باليقظة المبكرة ، خاصة بعد سهر حافل ممتد . . أنها عندي تعادل المرض أو الموت . . وطبعاً لم أكن أستيقظ من تلقاء نفسي ، إذ لولا صوت أم عمر الخشن الآمر، ولولا سواعدها القوية أحياناً ، لما صحوت من النوم في أي يوم من الأيام . واذا صحوت ، والمصيبة أني كنت دائماً أصحو، يكون أول شيء أفكر فيه أن أبتكر عذراً يعفيني من الذهاب الى العمل في ذلك اليوم، ويتيح لي نوماً هنيئاً الى الظهر وربما الى العصر. وكنت في الغالب لا أجد عذراً وجيهاً، فإجازاتي العرضية والمرضية والاعتيادية كنت أستهلكها أولاً بأول ،والأعذار التي قد تخطر وقد لا تخطر على عقل بشر استنفدها كلها ولا يبقى أمامي إلا أن أسلم أمري إلى الله وأقوم . أقوم الى عمل كنت أبغضه أشد البغض، فلم يكن عملاً، كان عملية تعذيب مؤلمة على أن أتحملها كل يوم . كان عملي الكشف على

البيضاء

العمال المرضى ومنحهم الاجازات، ولكن تسعة وتسعين في المائة من العمال الذين كنت أكشف عليهم كانوا أصحاء! والاجازات التي لم أكن أمنحها كانت توخذ مني رضيت أم لم أرض. وليتهم عامل أو عشرة أو مائة، مثات العمال يبلغون كل يوم أنهم مرضى ويحولون للكشف، وهم يبلغون لا لأنهم يتمارضون أو لا يريدون العمل، ولكن لسبب آخر مضحك فالعمل كان يبدأ في السابعة تماماً، فإذا تأخر العامل ربع ساعة يخصم منه ربع يوم كامل، وإذا تأخر ساعة يخصم منه يوم كامل. ومعظم العمال كانوا يسكنون في أطراف القاهرة حيث المساكن رخيصة، والظاهر أن معظمهم أيضاً كانوا كطبيبهم لا يحبون اليقظة المبكرة فكان عدد كبير منهم يصل متأخراً، وحينئذ يجد الواحد منهم نفسه مضطراً لأن يبلغ أنه مريض. فإذا ثبت هذا لا يخصم منه اليوم بسبب التأخير، ولكنه يعتبر إجازة مرضية بأجر. وعلى هذا كان معظم العمال يستهلكون العشرين يوماً حقهم في الاجازة المرضية طوال العام، يستهلكونها في التأخير. فإذا مرضوا وانقطعوا عن العمل فعلاً خصمت أيام المرض الحقيقي من يوميتهم، ولهذا السبب كان المريض منهم يظل يعمل ولا يبلغ عن نفسه، مخافة أن يمنح إجازة مرضية إجبارية تخصم منه.

كنت أذهب الى المكتب الطبي كل يوم فأجد أمامه وعلى سلمه ما لا يقل عن الأربعمائة عامل يترقبون ظهوري ترقب الملهوف من اليقظة وأحياناً يستغيبونني فتخرج منهم كشافة تنتظرني على الناصية وتعرفني بمجرد أن أطل من أول الشارع، فيتسابق أفرادها الى المكتب الطبي يبشرون الواقفين بقدومي ويخترقون الأجسام المتراصة بالعافية ليصبحوا قريباً من الباب، ويعم الجماعة كلها موجة اضطراب وزق وزعيق وسباب لا تسكت إلا حين أقترب فترتفع موجة من الترحيب المتحمس لي..

وسع يا جدع لسعادة البيه . . اتفضل يا بيه . . ميت فل .

صباح نادي والنبي .

وأسمع همسات . . دا مزاجه باين عليه رايق النهارده .

ويعقب واحد: بيقولوا عليه صعب قوي، أما نشوف.

وينتهز الفرصة آخر فيقول بصوت عال يصلني: صعب ايه يا أخينا؟ والنبي دكتورنا ده أطيب واحد خلقه ربنا .

ومهما كان الازدحام فلا بد أن يصنع لي أخدود كأخدود موسى في وسط ذلك البحر المتلاطم من العمال . أخدود يكشف لي السلم ويكشف لي الباشتمرجي واقفاً ينتظرني عند أوله . والباشتمرجي كان رجلاً ضخماً له شعر أبيض كله ومسبسب ووجه أحمر يصلح وجه باشا. وكان أصله عاملاً من عمال الورشة ثم أصبح تمرجياً لا يدري كيف، ثم باشتمرجي لا يجيد ضرب الحقن بقدر ما يجيد التحدث عن الأصول والميل علي والهمس في أذني . وموضوعه المفضل هو سيرة الدكتور قيصر حكيمباشى السكة الحديد السابق الذي كان يعمل مكاني من عشرين سنة خلت ، والذي كان بيك رسمي « العهدة على عم مرسي » والذي كان يشخط في العامل فينطره خارج الحجرة ، والذي كان زيادة في الهيبة يجلس الى مكتبه وعلى يساره سماعة الكشف وعلى يمينه مسدس لا يتردد في رفعه على العامل لو لمح منه زمزقة أو اعتراضاً .

ولكن عم مرسي الباشتمرجي كان يعود ويقول لي :

ـ والله غلابة يا سعادة البيه . . ح يعملوا ايه ؟ وراهم بيوت . والنبي وشرف سعادتك ما تكسفني . . اديله أسبوع .

البيضاء

يظهر عم مرسي واقفاً على السلم عند نهاية الأخدود وهو يتمتم في صوت أجش وقور : وسع يا جدع اتلم كده يا أخينا .

ثم يبتسم قبل أن أصل اليه ابتسامة واسعة كبيرة تريني طقم أسنانه كاملاً، وتريني اللثة الصناعية الشديدة الحمرة . وقبل أن أصل اليه يخف ويمد يده ويقول :

ـ صباح الخير سعادة البيه .

وأمد يدي فيمسكها بحذر وأدب ويكاد ـ لولا الخجل ـ أن يقبلها والكلمة الثانية يلتفت ويقول للعمال :

ـ طابور . .

فإذا حدثت حركة كان بها . . وإلا أعقبها بقوله :

ـ البيه مش ح يشتغل إلا بطابور . .

وتدور حركة زق ودفع وتسلل واسعة النطاق. وأخيراً جداً يتكون طابور ، طابور غريب يبدأ داخل حجرة الكشف ويخرج من الباب ويتلوى مع الصالة ويهبطالسلم الخشبي العتيق وينحرف الى يمين ثم الى اليسار ويمتد الى البوفيه، وأحياناً يصل الى عنبر البرادة ويدخله ويعطل العمل فيه .

وأدخل أنا الحجرة، فيخرج النفر القليل الذي كان قد تسرب اليها محاولاً أن يجد له مكاناً عند الباب في أول الطابور، ولكن عشرات الأذرع تمتد وتجذبهم ولا تتركهم إلا حين تتسلمهم أذرع خلفية أخرى، وتظل الأذرع تتبادلهم حتى توصلهم الى السلم ثم الى الأرض ثم الى مؤخرة الطابور .

ويوارب عم مرسي الباب بعدما عجز عن إغلاقه، وأجلس الى المكتب . . مكتب ضخم كبير واسع عمره لا يقل عن الخمسين عاماً . وحجرة الكشف نفسها واسعة جداً يبدو المكتب فيها صغيراً قليل القيمة وفي ركنها لوحة الكشف على النظر وقد تكفل الزمن بمحو كل علاماتها وعلى اليمين كنبه جلد قد بقرت الأيام مسندها وأظهرت أحشاءه .

وفي أدب جم يقول لي عم مرسي :

ـ قهوة يا بيه، مش كده ؟

ولا ينتظر إجابتي فيزعق على مرءوسه عم حسين، وهو تومرجي أكبر منه في السن عجوز جداً نحيف جداً ، المفروض أن يقف بجوار الباب ولا يسمح بالدخول إلا لواحد واحد . يزعق ليقول :

ـ قهوة ع الريحة للبيه يا حسين .

ويحاول عم حسين أن يهرول لتنفيذ الأمر. ولكن أين يذهب عم حسين وهو لا يكاد يستطيع الوقوف في مكانه ؟ قبل أن يتحرك تتحرك ألسنة الواقفين في الطابور، يقول أقربهم الى الباب:

ـ قهوة ع الريحة للبيه يا جدع .

فيتلقفها الواقف في الصالة وتسري القهوة في الطابور حتى تصل الى القهوجي في البوفيه دون أن يتحرك أحد من مكانه. وفي ثانية تكون القهوة قد أعدت وتظل أيدي الطابور تتناولها محافظة عليها حتى تستقر أمامي دون أن يتحرك أحد من مكانه أيضاً .

وكنت أضيق بانتباه هذه الجماهير الغفيرة من العمال وقد تركز علي وأصبحت محوره. . فمن طباعي أني لا أطيق مواجهة الجماعة الصغيرة إذا

البيضاء

وفدت عليها وقامت لتسلم علي ، فما بالك ومئات العيون ترقبني وترقب كل حركة من حركاتي ، وكل بادرة تدل على أي تغيير في طبعي ومزاجي ؟ والمشكلة أنها عيون غير محايدة ، عيون لها مطلب عندي ، عيون لكثرتها ولإحساسي أني لست بالنسبة اليها سوى بصمجي في يده أن يحتسب يوماً أو يخصمه ، كانت تجعلني أحس بالمهانة والاحتقار لها ولنفسي ولظروف الحياة التي تدفعني الى هذا الموقف السخيف المحرج .

وتبدأ التمثيلية . .

يدخل العامل ويرفع يده بسلام عظيم وتحية زائفة لا يكلف نفسه عناء إخفاء ما فيها من ملق . عندك أيه ؟ عندي إسهال. وبعده عندك أيه؟ مغص .

إسهال. مغص . مشوار. . ح أطلق مراتي . ابني ضايع وعايز أدور عليه والنبي . خربتي مقسومة نصين من امبارح . أبويا توفي تعيش أنت .

وأول ما عينت في تلك الوظيفة وكنت لا أزال حديث التخرج ، ولا تزال لجنة الطلبة والعمال التي كانت تقود الكفاح ضد المفاوضات ماثلة في ذهني، والعمال الذين كانوا يأتون الى الجامعة بعفاريتهم الزرقاء والصفراء ونعقد معهم المؤتمرات ونتفق على الاضرابات ، حماسي لهم لا يزال على أشده. . لم أكن أتردد، كنت أمنحهم كل ما يريدون من إجازات، وكنت أعتقد أني استوليت على قلوبهم بذلك العمل البطولي. ولكن أبداً، كل ما حدث انهم كفوا عن رجواتهم وملقهم السافر الساخر وأصبح الواحد منهم يدخل ويقول: أنا عايز يومين، أنا عايز ثلاثة، دون أن يكلف نفسه عناء الشكوى من مرض ، ويطلب هذا وكأنه حقه . فإذا أعطيته ابتسم لي ابتسامة لا تخلو من سخرية . وإذا لم أعطه تلحم وكشر

وأقسم ألا يغادر مكانه إلا بالاجازة. ولكن تلك التصرفات لم تفت في عضدي وظللت أمنحهم كل ما يريدون. إلى أن حدث يوم وكان يوماً ممطراً وتأخر أكثر من نصف عمال الورشة . وأبلغوا أنهم مرضى . وكالعادة منحتهم إجازات ، وكانت النتيجة أن توقف العمل في الورشة وأبلغت الجهات المسئولة ، وجاء مدير القسم الطبي وراجع دفتر الاجازات وروع حين وجد أن أكثر من خمسمائة عامل لديهم إسهال. . و٢٠٠ أنفلونزا وظل يقلب الدفتر ويقول بصوته الأخنف :

ـ ايه ده يا دكتور ؟ دا انت عندك كوليرا في الورشة. لما ٥٠٠ يبقى عندهم إسهال لازم البلد تنقلب.

وخصم مني ثلاثة أيام وأنذرت بالفصل. . ولم يتحرك أحد لا من النقابة ولا من العمال لما حدث وكأن الأمر لم يكن بسببهم .

وهكذا وجدت نفسي مضطراً أن أدقق وأوازن وأمنح البعض وأعيد البعض ، وأضيق بالعمل كله ، وبنفسي حين أمنح وبها حين أرفض وبالعمال إذا رضوا وإذا سخطوا، أو على حد تعبير العمال أصبحت المسألة مسألة مزاج .

والأربعة أو الخمسة الذين يدخلون حجرة الكشف في أول الطابور كان يقع عليهم عبء تحديد مزاجي . . إذا منحتهم إجازات سرت في الطابور الضخم الملتوي كحيوان من حيوانات ما قبل التاريخ ، سرت فيه موجة تفاؤل وفرح، وإذا لم أعطهم سرت همهمة غضب مكتوم وأفلتت الألسن شتائم.

وجربت كل الطرق ولكني انتهيت الى نتيجة واحدة. إن هؤلاء العمال لا يمكن إذا أرادوا شيئاً إلا أن ينالوه سواء كنت راغباً في إعطائه أو مصمماً

على منعه. . كان عنادهم وتصميمهم يغلان عنادي وتصميمي، وقراري الحاسم يبريه إلحاحهم القوي المتواصل . كنت لا أكاد أميزهم من بعضهم البعض. . نفس الوجه ونفس النظرات ونفس المنطق. ولم أكن أستطيع أن آخذهم فرادى. . إذا عجز منطق الواحد تصدى له آخر، وإذا ما شخطت في واحد دمدم له الآخرون . وأحس دائماً أن تفاهماً خفياً يسري بينهم كالأسلاك غير المرئية ويربط أجزاء ذلك الطابور الطويل المتحرك صوبي. الكلمة أقولها في المكتب فإذا بها بعد ثانية قد أصبحت في حوش الورشة وفي العنابر. وأناقش الواحد فيتدخل الآخرون كالعصابة المتفاهمة قبلاً والتي وزعت على نفسها الأدوار. . واحد يناقش والثاني يهدد والثالث يصرخ والرابع يستصرخ الحكومة، والخامس يتشنج والسادس يشتم والسابع يرجو والثامن يبتسم في هدوء وبراءة وكأنه تأكد أنك اهتززت بكل ما سمعته وأنك على أهبة القبول، فيقول لك ليكفيك مئونة الحرج : على العموم انت صاحب الأمر والنهي . . اللي تعمله ماشي.

وبتلك الطريقة انتهى عملي كطبيب الى أن أصبحت مساوماً من الدرجة الأولى. العامل يريد خمسة أيام فأساومه لأمنحه ثلاثة . وبعد أن تطلع روحي ويضيق خلقي وأنفاسي لا يقبل الأربعة إلا وهو يشعرني أني ظلمته وجرت عليه . بل أحياناً كانت المساومات والرجوات تظل تلاحقني في الشارع حتى الى باب شقتي.

وكنت أغادر العمل في الثانية بعد الظهر ورأسي قد أصبح عنابر وشوارع وحارات وأيديا تلوح وزعيقاً ومناكفات وتهديدات ورجوات ومغصاً كلوياً أيمن وآلاماً روماتيزمية بالمفاصل وضعفاً عاماً، وعفاريت

ملطخة بالدوكو والزيت وخبطات كثيرة على المكتب وتشنجات عصبية ورغبة عارمة تراودني أن أنتحر أو أقتل أول إنسان أصادفه .

أعود الى البيت لأتغدى فأجد ضجة الشارع وغباره وروائح الكبدة المقززة قد سبقتني إليه ، وأجد طبيخ أم عمر ينتظرني خضار ولحمة ودائماً خضار ولحمة والحلو برتقال، وأم عمر كأم قويق واقفة قبالتي تحاسبني على الطعام، وتغالطني علناً في الحساب .

وأتغدى، وتذهب أم عمر، وأقفل النوافذ، وأمنع النور والضجة. ويهدأ البيت قليلاً وكذلك الحي، وأبدأ أنا أترقب الأصوات وأتسمعها وأميز ، وقلبي يدق دقاً خفيفاً . ثم أرى شبح خيال يقلل الضوء المنعكس من زجاج الباب ، ويدق قلبي دقة واحدة كبيرة ثم يسكت هنيهة ، ومع عودة الدق يدق الجرس .

وأسرع ملهوفاً وأفتح الباب ، وإذا بابتسامة عذبة دائماً، حلوة دائماً ووجه نحيف أبيض تحيطه هالة من الشعر الأسود، وكأنه حية دقيقة مرهفة تقول في همس مبتسم جميل : ممكن أدخل ؟



٦

وفي ذلك اليوم بالذات يدوخني همسها ، إذ هو اليوم الذي كنت قد قررت أن أكشف لها فيه عن نفسي . .

اليوم الذي اضطربت له كما لم أضطرب لأي امتحان دخلته ، أو لأي موقف فاصل وقفته في حياتي. الحجرة حجرة المكتب في شقتي ببولاق والدنيا بين الليل والنهار، والشيش مغلق وكذلك الزجاج ، وجهودي كلها قد بذلتها منذ عودتي من عملي لمنع الضجة ورائحة الكبدة ، وخلق جو « شاعري » غير مفتعل . الحجرة فيها مكتب وكنبة « ستوديو » وكرسي أسيوطي ذو مساند، ومكتبة صغيرة وجرامفون . الموبيليا الضرورية لحجرة تستعمل للجلوس والكتابة والنوم أحياناً بلا أناقة أو لمسات . وسانتي جالسة فوق الكرسي الأسيوطي وأنا حائر لا أستقر ، والخطاب الذي كتبته لها يكاد يحرق بحرارته درج المكتب ، ونحن الاثنين وكأننا نترقب شيئاً كالجالسين ينتظران طلب قضيتهما أمام محكمة ما .

وكانت سانتي قد خلعت جاكتتها وبقيت ببلوزة لبنى كالقميص ، وفي خدودها احمرار وشعرها مشعث، وسحب الدخان تهيم وتتكاثر حولها .

وبدأت الكذب الواضح الذي لم أتعمد إخفاءه وقلت :

ـ أتعلمين شيئاً ؟ « وكانت هذه لازمتي معها » .

قالت بغير حب استطلاع :

ـ ماذا ؟

قلت :

ـ صديقي الذي حدثتك عنه بالأمس . . صديقي الذي كتبت له القصيدة ليعطيها للفتاة الأجنبية التي . .

وانتظرت عساها تبدي اهتماماً أزيد، أو تسأل، ولكنها لم تقل شيئاً فمضيت أقول :

ـ مشكلة ذلك الصديق أنه واقع في حب فتاة ولا يعرف كيف يعبر لها عن عواطفه، وقد كلفني أن أكتب له خطاباً يشرح لها نفسه فيه . . أتريدين قراءته ؟

ـ نعم . .

قالت هذا وهي تكمل إجابتها بسرب من الابتسامات البرئية العذبة . . ثم قالت بخفة طفولية :

ـ أين الخطاب؟

ـ في درج المكتب . . الأسفل.

وكالطفلة المحبة للاستطلاع قامت وفتحت الدرج وقلبت الأوراق ثم تناولت الخطاب، ونظرت إليها وأنا أتتبع حركاتها باهتمام عظيم وكأني أتوقع أن يحدث انفجار ما لدى أية حركة من حركاتها . .

وضعت الخطاب بعناية فوق المكتب، ثم أمالت رأسها عليه وبدا عليها أنها تقرؤه .

ولم استطع الصبر . شيء ما أرقني فقلت لها :

ـ أن خطي فظيع لا يستطيع أحد غيري أن يقـرأه . هل تسـمحين ؟

وببساطة تنازلت عن الخطاب ومقعدها، وعادت تجلس علـى الكرسـي الأسيوطي . وبدأت أقرأ الخطاب بصوت مرتفع ، وأسندت رأسهـا الـى يدها تواجهني وتستمع وعلى فمها ابتسامة لا تغادره ، وكأنما توقفت تستمع هي الأخرى .

والواقع لم أكن أقرأ، كنت أحاول أن أخاطبها بالكلمات المكتوبـة وأختلس النظر أحياناً لألمح أثر كلماتي فأجدها لا تزال تصغـي ولا تزال تبتسم .

وانتهيت من القراءة . وحل صمت كامل. ورفعت إليها عيني ولم تكد نظراتنا تلتقي حتى وجدتني أقول في تهور :

ـ لقد كذبت عليك ؟

ـ ماذا ؟

ـ ليس الخطاب لصديقي، إنه خطاب مني اليك .

وتضاءلت ابتساماتها ، وقالت وهي تنكس رأسها :

ـ كنت أعرف هذا.

وقامت وأشعلت سيجارة لنفسها بنفسها ، ونفثت دخانها الى الناحية الأخرى.

وأرعد هاتف في نفسي يقول: آه. . لقد بدأ الجد.

وقلت بعصبية وقد كاد صبري ينفد فعلاً:

ـ ما رأيك يا سانتي؟

وخرجت « سانتي» من فمي قلقة متهدجة. كان ثمة خوف كبير قد اعتراني، لسبب لاأعرفه .بدأ ينتابني إحساس مفاجىء بالخجل وبخيبة الأمل. طوال اليوم السابق والى اللحظة التي انتهيت فيها من قراءة الخطاب كان همي الوحيد أن أفرغ ما بنفسي، وكنت واثقاً تماماً أنها ستستجيب، ولهذا لم أفكر أبداً فيما يمكن أن يحدث بعد قراءة الخطاب . وإذا بي بعد أن أنتهيت جالس أرتعش وأترقب كمن وجد نفسه فجأة يقف على حاجز رفيع بين هاويتين لا قرار لهما ، كمن وجد نفسه يجابه مسألة لم يعمل لها حساباً قط.

كنت تماماً مثل أي طفل يشعر بهاتف يهيب به أن يقذف عربة مارة من أمامه بطوبة وهو ضامن أن العربة لن تتوقف، وإنها ستمضي مارقة كالريح . ولكنه ما كاد يقذفها حتى حدث ما لم يكن في حسبانه بالمرة، أن توقفت العربية وهبطمنها أصحابها وأحاطوا به وأصبح عليه ان يواجههم .

أنا الآخر لم أستطع أن أكبح الهاتف الذي كان يهيب بي أن أصرح لها بكل ما أحسه ناحيتها، ولم أراجع نفسي ولا فكرت لعلى كنت قد بدأت أدرك أني لا بد أن أخطو خطوة إيجابية وقد خيل إليّ أني أصبحت مطالباً باتخاذها .

لعلي أردت أن أقدم لها عواطفي في شكل ملموس لايحتمل شكاً أو تأويلات . . أردت ان ألعب لعبة الشبان فاعترفت لها بحبي لأنكشها ويصبح في استطاعتها أن تعترف لي بحبها هي الأخرى. إذ شعوري الداخلي كان يؤكد لي أنها تكن لي حباً، ولكنها لن تصارحني به إلا إذا تأكدت أني أحبها وكنت البادىء.

لعلـى كنت مثل غيري من أبناء جيلنا ظمآن أشد الظمأ الـى الحـب الذي أسمع عنه في كل مكان ،وحياتي خالية تماماً منه ، وأريد الاستمتاع بنشوة الاعتراف به.

لعل هذا .

ولعـلى كنت ضامناً سلفاً أن سانتي لن تحاسبني على هذا البوح ، ولن يحدث شيء بالمرة ، وتمر علاقتنا كالعربة المارقة لا يمكن أن يوقفها أو يخدشها اعتراف كهذا .

ثم إذا بي أواجه ذلك الموقف.

وقد أكون أضعف إنسان جابه امرأة على هذا الوضع .

وقد يكون ما فعلته خطأ ،وكان الواجب أن أدع العلاقة تنمو حتى يصبح باستطاعتي أن ألمسها ثم أقبلها ، فإذا رضيت بقبلتي صارحتها بعواطفي.

ولكن ذلك ما حدث. وكيف كان يمكنني أن أعـرف الصـواب من الخطأ من غير أن أخوض التجربة ؟

لقد حددت ذلك المساء في بولاق خطوط أعنف مأساة عصرت حياتي عصراً.

كانت واقفة في ركن الحجرة تعبث بشيء ما حين سألتها :

ـ هيه . . لم تقولي لي رأيك ؟

فقالت وفي عينيها حيرة من لا يعرف كيف يصوغ إجابته :

ـ في ماذا؟

ـ فيما قلته في الخطاب؟

وحين نسأل سؤالاً كهذا نحن لا ننتظر الإجابة . إننا نركز انتباهنا على المسئول لنخمن إجابته قبل أن ينطقها، أو حتى لو نطق غيرها . ولم أستطع التخمين. كل ما استطعت أن أدركه أنها غير مهزوزة أو منفعلة بما حدث. لم يكن مسلكها هو نفس المسلك الذي يتوقع الإنسان حدوثه في حالة كتلك . كانت آخذة الأمر ببساطة تخيب الأمل، وبنفس تلك البساطة قالت :

ـ ولكنك تعلم أني متزوجة.

قلت لها في هدوء :

ـ أعلم هذا .

فقالت وهي تفتح عينيها في دهشة، وكنت لا تستطيع معرفة دهشتها إلا إذا راقبت عينيها :

ـ طيب. . وكيف يكون الوضع ؟

وكان هذا أكثر من أن أستطيع احتماله . لقد بدأت بقراءة الخطاب موضوعاً ضخماً . . عواطف جامحة متأججة لا ترحم قدمتها، فكيف ينحرف بنا الحديث هذا الانحراف الغريب، ويأتي ردها يثير مشاكل عملية ليس هذا وقت طرقها أو التفكير في التغلب عليها ؟ أنا لم أكن أطلب منها أن أتزوجها لترد بقولها إنها متزوجة، أنا كنت أعبر لها عن انفعالات بالرغم من عنفها وقوتها إلا أنها رقيقة جداً لا تحتمل تداولاً أو تقليباً. . أشياء لا تخرج عن الصدر الحي إلا ليتلقفها صدر حي آخر. . أشياء تموت لو خرجت من أحدهما وبقيت معلقة في طريقها الى الآخر.

وقلت:

ـ يعني ماذا ؟

البيض

فقالت :

ـ يعني أنا لا أستطيع أن أبادلك هذا الحب. أنا متزوجة ولا أستطيع أن أحب سوى زوجي.

وأكملت الحديث كلاماً فارغاً ـ فقلت وأنا أبتسم ابتسامة صفراء مرتعشة :

ـ تزوجيني إذن.

فقالت:

ـ ولكني قلت لك إني متزوجة .

فقلت:

ـ اتركيه وتزوجينى.

فقالت بعصبية وكأنها مشكلة حقيقية :

ـ ولكني أحب زوجي فكيف أتركه؟

وطبعاً لم أعر إجابتها تلك أي التفات ، بل لم أعر الحديث كله أي التفات . تلك الجملة المتعثرة المرتبكة، ذلك اللجاج، ما شأني أنا به ؟ كنت طوال الوقت أبحث عن خلجة انفعال، عن نظرة، عن لمحة عن ابتسامة، عن كلمة، عن تحديق يصاحب كلمة، عن شيء دقيق أستطيع أن أعرف به إن كانت قد أحبتني حقيقة أو على استعداد لحبي .

ورغم كل مجهود الغريق الذي بذلته لأتشبث بقشة انفعال واحدة خرجت من بحثي منقبض الأصابع في يأس .

لمحت أشياء أخرى بعيدة كل البعد عما أريد. لا مانع لديها مثلاً أن أحبها أنا ما شئت، ولا مانع لديها أن أعبر لها بكل وسائل التعبير عن هذا

الحب، أما من جهتها فإن وضعها لا يسمح، إذ هي متزوجة تحب زوجها.

ممكن أن أكون قد اعتبرت هذا كله مجرد تخمين، ولكن الذي لا شك فيه أنها كانت جادة فعلاً كمن تجابه موقفاً لم تعمل له حساباً قط، مع أنه كان واضحاً أنها تعلم أن موقفاً كهذا كان سيعقب حتماً تلك القصيدة الانجليزية التي قرأتها عليها .

وكان التوتر قد خفت حدة وقعه الأولى، فجلست هي الى المكتب وجلست مكانها على الكرسي الأسيوطي وأغمضت عيني، وأنا أتمنى في قرارة نفسي لو تحدث المعجزة وينقلب المشهد الحقيقي الذي أعيش فيه الى حلم أفرح باليقظة منه بعد قليل، أو تحدث المعجزة الأكبر وأفاجأ بها تغير موقفها وتمد يدها الدقيقة وتمسك بيدي مثلاً وتقول :

ـ لا تصدقني يا يحيى إذا قلت إني لا أحبك، أنا أكذب عليك، أنا مدلهة بك .

أغمضت عيني وتركت نفسي متمنياً أن ينقلب الواقع الى حلم، أو تنقلب أحلامي الى واقع، وفتحتهما مرة فوجدتها تبتسم ابتسامة من يتذكر شيئاً مضحكاً، ثم قالت:

ـ هل تعلم شيئاً ؟ «وكانت أحياناً تستعمل نفس لازمتي» .

قلت مشحوناً ببوادر أمل :

ـ ماذا؟

قالت:

ـ مرة شاب سوداني كنت أعمل معه قال لي إنه يحبني وأصر على أن يتزوجني .

فقلت بسرعة :

ـ متى ؟

ـ قبل أن أتزوج ؟

ـ وبماذا أجبته؟

ـ حاولت إفهامه أني لا أحبه، ولكنه لم يقتنع أبداً وهاج وماج وقال لي : غير مهم أن تحبيني، نتزوج أولاً وبعد هذا يأتي الحب.

وسكت سكوت غير المرتاح لكلامها. . ولكنني لم أستطع الصبر على سكوتي. كان من المستحيل أن يمر المشهد الذي دبرت له طويلاً هكذا ببساطة وبلا نتيجة. وكأني لم أفتح لها قلبي الذي كنت ضنيناً به طوال حياتي أن يفتح. لقد ظللت مرة أحب طالبة زميلتي في الكلية ثلاث سنوات كاملة وأكلمها وأحادثها، وأنا مغلق نفسي على عواطفي بإرادة حديدية. وما أبشع الليالي التي قاسيتها أتلظى وأكاد أجن رغبة في أن أبوح لها بحبي، ولكني كنت أثوب إلى رشدي في الصباح وتعود الارادة الحديدية تحبس عواطفي. فخوفي الأكبر كان أن أعترف لها بحبي فأجد أنها لا تحبني، وأجد أني قد مرغت كرامتي واعتزازي بنفسي أمام أعين غريبة لا يهمها أمري . وبقيت هكذا الى أن تخرجنا وتفرقنا ولا يعلم بحبي هذا سواي .

لم أستطع الصبر على سكوتي فسألتها :

ـ يعني. . ألم . . ألم تحبي أبداً؟ أقصد قبل أن تتزوجي.

فقالت :

ـ طبعاً.

قلت ملهوفاً :

- من ؟
- زوجي .

وطمأنتني الإجابة فلم أكن أعتقد أن الزوج ممكن أن يلعب دور الحبيب قبل الزواج أو بعده. لا بد أن تقول هكذا لأنها يجب أن تقول هكذا.

وعدت أسألها :
- كنت تحبينه فعلاً ؟
فقالت وهي تكاد تضحك :
- طبعاً . . ولا أزال . . وإلا لكنت قد تركته . .
- تحبينه أقصد . . يعني حب . . غرام؟
- طبعاً طبعاً أحبه طبعاً.

وأخذت إجابتها على محمل القول الواجب، وإن كانت طريقتها الأكيدة الحاسمة في صياغة الإجابات بدأت تقلقني. وقلت ليهدأ قلقي :

- وكيف تحاببتما؟
فقالت وهي تغادر الكرسي واقفة :
- ونحن هكذا « أشارت بيدها كمن يقول ونحن أطفال » . . كان أبوه شريك أبي . . نلعب سوياً . . وكنا في المدرسة معاً . . وتحاببنا من ورائهم . . ثم كما ترى تزوجنا .

ومرة أخرى عاودني الاطمئنان ، فذلك النوع من الحب ممكن أن يعتبر تآلفاً أو عشرة أو أي شيء غير الغرام الحاد الذي خفت أن يكون قد حدث بينها وبين زوجها .

قلت وأنا أريد للحديث أن ينقطع :

ـ ولماذا رفضت حب الشاب السوداني ؟

فقالت :

ـ لأني لم أحبه . كنا صديقين فقط .

فقلت :

ـ هيه :

وسكت قليلاً ثم سألتها :

ـ وما رأيك ؟

فوقفت أمامي وارتكزت بيد إلى المكتب وقالت وهي مأخوذة قليلاً بما تريد قوله :

ـ شوف . . أنا أعتبرك صديقي العزيز . . ولكني لا أستطيع أن أحبك وأحب زوجي في وقت واحد .

فسألتها سؤالاً وكأنما أسأل نفسي :

ـ وماذا أصنع أنا؟

قالت :

ـ أسمع . . انت وراءك مهام كثيرة . . وعملك وبلدك في حاجة إلى جهودك كلها . وأنت تضعني في موقف حرج . . إني لا أعرف كيف أتصرف ولا أعرف ماذا يجب علي أن أفعله . انت تقدر موقفي طبعاً .

قلت :

ـ المشكلة في الحقيقة ماذا أصنع أنا؟ فأنا الذي يحس .

فابتسمت ابتسامة من يقول : لا تسمع كلامي ، وقالت :

ـ حاول أن تنسى .

وبقدر ما أعجبتني ابتسامتها ضايقني ردها. . لا لكلماته وإنما للطريقة التي قالته بها. أيقنت أنها خارج المشكلة تماماً، وأنها تنصحني كما تسدى النصح لصديق واقع في مشكلة خاصة به.

واهتزت كرامتي. وقضيت ما تبقى من الوقت في وجوم.

ولم يعد هناك كلام يقال. . ظللت طوال الوقت أبتسم لأخفي مشاعري وأطيل التحديق فيها على ألمح في خواطرها، إن لم يكن في ملامحها ذلك الشيء الذي أبحث عنه.

لم يعد هناك كلام يقال وظللت صامتاً، ومع هذا بقيت سانتي وقتاً أطول مما تعودت أن تبقاه. وحين طال صمتي وطالت الجلسة حاولت أن تتذكر نكتاً وتحكي مفارقات وتضحك لتبدد الوجوم الذي خيم على الحجرة، غير أن كل هذا لم يحرك في ساكناً.

وحين غادرتني، قالت ويدها على الباب ويدها الأخرى ممدودة إليَّ:

ـ أصدقاء؟

وأحسست أن الكلمة خارجة من فم طفلة.

ولكني خجول، وهكذا تمتمت وأنا أداري وجهي في ابتسامة ما:

ـ أصدقاء.

وهبطت درجات السلم في بطء وكسل.



٧

ولم يكن هناك ما أفكر فيه ليلتها، لا لقلة ما كان هناك وإنما لكثرته. عشرات الأشياء كان عليّ أن أفكر فيها.. كل شيء صاحب تعارفنا.. كل حادثة صغيرة وقعت في أثنائه.. كل كلمة قلناها وكل ابتسامة ابتسمناها كانت قد أصبحت شيئاً مستقلاً بذاته على أن أفكر فيه وأخرج منه باحتمالات. ومع ذلك ظللت عملياً بلا تفكير، فالاحتمالات حين تتقارب ولا يستطيع الإنسان أن يرجح أحدها على الآخر تعفي من التفكير، ويفلس العقل، فعقولنا تنشط فقط اذا كان هناك أمل، وتساوي الاحتمالات لا يدعو لليأس، ولكنه أيضاً لا يبقى مكاناً للأمل.

وعشرات المرات حاولت أن أرغم نفسي على التفكير وعلى استعادة ما حدث، وفي كل مرة لا أجد لديّ ذرة رغبة واحدة في استعادة شيء. وقلت لنفسي في النهاية: ليس عليك سوى أن تنتظر وتترقب ما تفعله لتغلب احتمالاً على آخر.

وجاءت سانتي في اليوم التالي مباشرة.

وكنت أعرف أنها ستأتي. لم يكن مجيئها في نظري ليغير من الأمر شيئاً. لم يعد مجيئها علامة رفض أو قبول، أصبح عادة.

ولكني قابلتها في تلك المرة بشعور مختلف. طوال الأيام الماضيات كنت أكاد آكلها برغبتي فيها، كنت لا أتحدث اليها أو ألمس يدها أو أحدق في عينيها إلا وأنا أتقلب على جمر الرغبة فيها. وفي تلك المـرة أحسست أن حاجزاً شفافاً قد أصبح يحول بيني وبينها. خجل شديد، أو شيء يشبه الخجل الشديد في مفعوله، كنا قد «تحدثنا» في السر الذي أقفلت عليه نفسي، وبهذا انكشف الغطاء وأصبحت كل حركة مني مفضوحة وأنا أول من يفضحها، وبتلك الفضيحة توقف الزحف التلقائي الذي كان يجذبنا ويقربنا دون حاجة إلى كلام أو مصارحة، أو على الأصح في غيبة الكلام والمصارحة. وشيء آخر. سانتي كانت قد قالت لي من زمن أنها متزوجة، ولم أعر الأمر ساعتها اهتماماً يذكر لدرجة أني لم أتصورها زوجة أبداً، ولم أجد أهمية لهذا التصور. فكل ما كنت أحسه تجاهها كان لا يدور إلا بيني وبين نفسي، ويدور رغماً عني، وكان من المستحيل أن يؤثر في أية علاقة أخرى لها. فلتكن متزوجة أو أرملة أو حبيبة، ما الحرام في أن أعجب بها ذلك الاعجاب الصامت الذي لا يستطيع أحد أن يلمحه أو يحاسبني عليه؟ ولكن الاعجاب الصامت تكلم أخيراً ونطق. فاضطرت أن تذكرني هي الأخرى بموقفها وتقول لي إنها متزوجة برجل تحبه ولا تستطيع أن تحب اثنين في وقت واحد. ازداد الأمر تعقيداً، لا لأنني عدت الى رشدي وأدركت أنها متزوجة وأني لا يصح أن أحس ناحيتها بأي انفعال، ولكن لأني أيضاً لم آخذ قولها مأخذ الجد، فقد شعرت أنها تضع عقبة شكلية محضة أمام علاقتنا. إذ كان بوسعها أن تقول لا يمكن أن تحبني وكان بوسعها أن تعنفني وتزجرني وتقطع علاقتها بي وينتهي الأمر. أما أن تقول إن الزواج هو فقط الذي يمنعها من حبي، فمعنى هذا أن المانع مجرد شكل، والشكل ممكن أن يتغير. ممكن أن تترك زوجها وتتزوجني

البيضاء

مثلاً ، وصحيح أن هذا ليس حلاً مثالياً ،ولكنه ليس أول حل غير مثالي ، أو على الأقل ليس الحل الذي لا يفكر فيه إنسان في موقفي متلهف عليها غير قادر أن يكبت أو يقتل لهفته عليها . إنسان مستعد أن يفتت صخور اليأس ليعثر على قطرة أمل واحدة ، ومستعد أن يفتتها حتى ولو كانت القطرة سراباً غير موجود .

ولكنها حتى بذكرها هذا الاعتراض الشكلي كانت قد أثارت في نفسي قيماً عميقة مقدسة لا يمكن أن تمحى أو تزول ، قيماً ليس أقلها احترام ما يخص الغير. فقد أدركت أن سانتي التي اعتبرتها منذ ليلة الأوبرا قد أصبحت لي ليست في الواقع لي ، ولكنها زوجة رجل آخر لا أعرفه ، ولكنه رجل شريف يحارب من أجل قضية كقضيتي تماماً ، ويلعب فيها دوراً ربما أعجز أنا عن القيام به . وأبالغ حين أقول إني أدركت . . فالأدراك لم يكن هو بالضبطما شعرت به . فلو سألتني رأيي بصراحة لقلت لها إني لا أزال لا أصدق أبداً أنها متزوجة رغم الحقائق والحكايات التي قالتها . ليس إدراكاً ولكنه احتمال . . مجرد احتمال أن تكون صادقة فعلاً ، ومجرد الاحتمال له في نفوسنا ، نحن الذين تربينا في صرامة الريف وتقاليده ، قوة اليقين وحرمته . ذلك الزحف التلقائي الذي كنت أقوم به وأنا أغمض عيني عمداً عن كل حقيقة أخرى خاصة بسانتي سوى أنها معي ، تأتي لي ، وتبتسم من أجلي ، أوقفته هي وتولت بنفسها فتح عيني وتبصيرها بالحقائق .

ولم يفعل هذا أكثر من أن أضاف الى المشكلة المعقدة أصلاً تعقيدات جديدة ، فقد أصبح واجباً علي أن أعاملها باعتبار أنها زوجة وأنا مؤمن أنها ليست كذلك ، وأنا أشك في إيماني هذا ، وأنا حائر في هدفها من تذكيري بوضعها ، حائر فيها ، وفوق هذا كله وقبل هذا كله

مدرك تماماً أني لا أستطيع أن أمنع نفسي من طلبها كما لا أستطيع أن أمنعها من طلب الحياة والوجود. أبداً لم أكن أستطيع حتى ولو تبينت مثل أوديب أنها أمي، فشغفي بها كان قد خرج عن إرادتي. أصبح كالنار العنيدة الموقدة في نفسي، كلما حاولت أن أخمدها بمانع أو حائل أتت عليه، بل زادتها الحوائل والموانع اشتعالاً.

وجاءت سانتي في ذلك اليوم التالي.

ولدهشتي كانت ابتسامة كبيرة تضيء وجهها، وفي حركتها نشاط طازج، وفي ملامحها وكلماتها تعبير غريب لم يكن قد طرق وجهها قبلاً تعبير التي تشجعك على نفسها، وبعد ماذا؟ بعد ليلة واجهتها فيها وانتهت وأنا مكسور الخاطر.

وجلست على الكنبة.

جلست بعد أن خلعت جاكتتها وبقيت ببلوزة بيضاء محبوكة على صدرها وكتفيها، فبدت كالموزة حين تخلع عنها القشرة.

ولفت نظري شيء كان يطل من تحت ذيل «الجيب».

كان ذيل قميص نوم جديد أنيق مشغول!

وما كدت أراه حتى دق قلبي دقاً مفاجئاً متلاحقاً.

إذ في ومضة كنت خمنت شيئاً.

أممكن هذا؟

أممكن أنها ترتدي ذلك القميص من أجلي؟

أممكن أنها قد افترضت أنه بعد مصارحتي حتى المكشوفة لها بالحب، لابد أن يحدث «شيء ما» وأعدت نفسها لهذا «الشيء»؟

٥٥٧

وابتسامتها تلك، أليست ابتسامة الخجل المسبق من ذلك الشيء المقبل؟

ولكن قلبي هذا بعد أجزاء من الثانية كف عن خفقانه، فقد خيل إليّ أن الاحتمال بعيد، وأنه مستحيل مستحيل، وأن علي ألا أركب رأسي وأن أستقر وأهدأ.

كان قد حدث حادث بعد ليلة الأمس. كانت خيبة أملي فيما كان قد خوفتني من محاولات أخرى للاقتراب. كانت الفراشة قد أحست بالصبي حين أثار الضجة المقصودة ليشعرها بوجوده وبأنه في الطريق اليها. ولهذا كان يجب أن أطمئن تماماً قبل أن أخطو خطوتي التالية اليها، إذ كان يخيل إليّ ان الفراشة ستطير في أي لحظة مقبلة ولدي أي حركة.

ومن أجل هذا السبب كنت أرفض كل علامات القبول التي قد أراها وأحاول أن أفسرها تفسيرات أخرى. كنت قد وطنت نفسي على ألا أقدم إلا إذا رأيت بعيني علامة قبول ضخمة تفرض صدقها ولا تدع مجالاً للشك فيها.

وكأني كنت أنتظر أن تبدأ بتقبيلي مثلاً، أو تقول لي: أحبك.

وكان ذلك بالطبع منها صعب الحدوث، بل مستحيل الحدوث.

وجاءت لحظة انفعال أخرى.

..

كانت واقفة بجوار «البيك آب» وكان فيه أسطوانة أظنها «شهرزاد»، وانتهت الأسطوانة فذهبت إلى الجراموفون لأضعها على الوجه الآخر. وحين دارت وتصاعدت الموسيقى وأغلقت الجهاز، ارتكزت بكوعي عليه. وكانت هي الأخرى مرتكزة بكوعها عليه وكانت لصقي تماماً، وتحدثنا في

شيء ما ورفعت وجهها إليَّ، وفوق ما كان في وجهها من حمرة وفي عيونها من بريق فقد كان هناك شيء ما يشبه الدعوة، دعوة من فمها الذي كان قريباً جداً من فمي.

وحدثتني نفسي أن أنقض عليها وأحتضنها وأهوي بفمي على فمها. وترددت لبرهة بين أن أنفذ الخاطر أو أهدأ وأسكت.

ورغم أن ترددي لم يأخذ إلا ومضة خاطفة إلا أن وجهها كان قد عاد الى وضعه الطبيعي، وأصبح تنفيذ العناق أمراً صعباً.

وأراحتني عودة وجهها إذ أعفتني من التفكير والتردد.

وطالت جلستنا أيضاً، وطوال الوقت كان يحوم حول حديثنا شيء ومن كلماتها اللا ارادية المتناثرة استطاع شبح احتمال أن يطرق عقلي. بدا لي أنها وإن كانت لا تستطيع أن «تحبني» لأنها متزوجة، إلا أننا أعز الأصدقاء. وكانت تنطق الأصدقاء بطريقة يفهم منها مجازاً أننا من الممكن أن نخوض مغامرة لا حب فيها، ولا داعي للحب فيها.

ونحن لا نشاهد ما نشاهد لفترة ثم نجلس لنفكر على راحتنا فيما شاهدناه. . إن عقولنا تعمل دائماً ولا تكف عن العمل، والاحتمالات تتوارد على تفكيرنا بنفس السرعة التي نرى بها ما أمامنا. . كافة الاحتمالات، ونصدر الأحكام تلو الأحكام على ما نراه، ونغير تفكيرنا ونستأنف الأحكام. وأحياناً نعود الى آرائنا السابقة التي نبذناها، ونخرج لكل شيء أسباباً، ولكل سبب حجة، ويحدث هذا كله في وقت واحد. عيوننا ترى وعقولنا تفكر فيما تراه وفيما لا تراه، وفي اشياء بعيدة جداً عن متناول عيوننا ووعينا.

وعلى هذا، ففي نفس الوقت الذى كنت أفكر في احتمال أنها فعلاً

تدعوني لمغامرة أو نزوة، وأنني من الممكن أن أستجيب وأنفذ حالاً. . في نفس ذلك الوقت كنت أستنكر منها هذا الموقف إذ كنت اعتبر إن المغامرة معها أمر مخجل، ومع هذا كنت أحياناً أريده. فكيف بها هي الأخرى تريد نفس الأمر المخجل الذي أريده؟ هي التي أحببتها وقدستها، كيف تريد أن تخطيء؟ شكلية محضة أمام علاقتنا، اذ كان بوسعها أن تقول لا يمكن أن تحبني مثلما أريد، وأنا الذي ظننتها فوق مستوى الخطأ؟ خاطر مجنون، إذ كيف أحرم عليها ما أطلبه أنا منها؟

ولتكن هذه هي كل الأشياء التي دارت في عقلي. كنت أنظر لها أحياناً وأقول لنفسي: كيف تجرؤ فتاة كهذه على رفض حبي؟ ماذا تحسب نفسها؟ إنها تمشي كشيتا. ألم أكن مغفلاً حين كتبت لها الخطاب وأودعته كل تلك العواطف الجامحة التي لا تستحقها؟ لم أكن أؤمن بكل ما قلته لها في خطابي. لم أكن أدري هل ما أحسه ناحيتها حب أو رغبة أو نزوة؟ ممكن أن أكون قد كتب الخطاب لمجرد رغبتي في كتابة عواطف خاصة لقارئة خاصة، أو يمكن لمجرد إظهار قدرتي على صياغة الجمل والكلمات والتعبير عن الحب. ولكن ماذا حدث بعد قراءة الخطاب؟ لقد تبينت كل كلمة فيه وأصبحت أؤمن بها وأحسها فعلاً. ابتساماتها التي ينفرج عنها فمها الآن فيها دعوة. لماذا أتردد في قبولها؟ لماذا أنا خائف منها؟ يقولون إن الخواجات ليس عيباً عندهم أن يمارس الإنسان معهم علاقات جنسية. من قال هذا الكلام ومتى؟ لا بد أنه فتحي سالم الذي يكتب قصصاً في المجلة. أصحيح هذا؟ لماذا لا تقوم إليها وتشبعها لثماً وتقبيلاً؟ لماذا لا تملك التحرك من مكانك؟ أهذا حب ما تحسه؟ لماذا لا ترغب فيها بنفس الشدة التي كانت تجتاحك في الأوبرا؟ إنها ترتدي تلك

«البلوزة» المحبوكة، وقد شمرت كُميهـا إلى ما فوق ساعديها. ذراعها بيضاء رقيقة فيها شحوب وعليها شعر أصفر باهت. حذاؤهـا أنيق جديد غال. أتكون غنية؟ أيكون أبوها خواجة صاحب أطيان، مثـل الخواجـة صاحب البنك الذي كان يعمل عنده أبوك في المنصورة وفصله عن عمله؟ أبوك كان يعمل كاتباً عند الخواجة الغنـي جداً الـذي فصلـه في لحظـة وشرده. لماذا لا تنتقم لكرامة أبيك فيها؟ لماذا لا تغتصبها فوراً وتطرحها تحت قدميك كما طرحوا أباك تحت أقدامهم؟ كل شيء فيها عادي ما عدا وجهها. وجهها ذلك الأبيض الأملس المشرب بالحمرة. وعيناها الدائمتا الحركة والارسال والاستقبال. . والانفعال. أحياناً تتدلل فتقبض شفتيها وتفتح فمها مظهرة أسنانها بطريقة تغري بالتهام فمها وأسنانها. ذكية هي وتقرأ أفكاري بسرعة، حتى نفس الأفكار التي تخطر بعقلي الآن. امرأة! لغز من تلك الألغاز التي لم أستطع حلها في طول حياتي وعرضها. زملاؤك الرجال تستطيع أن تقرأ أفكارهم وتعرف ما يريدون حتى دون حاجة للنظر اليهم. . أما النساء! أما هذه المرأة بالذات فأدفع من عمري عشر سنوات لأستطيع أن أعرف للحظة واحدة ماذا تريد مني وماذا تفكر فيه؟ وربما نحن لا نعرف ما يردنه منا لأنهن انفسهن لا يعرفن ماذا يردن. المرأة تنتظر من الرجل أن يكون هو إرادتها. . هو الذي يريد وهي ترفض أو تقبل أو لا تعرف حتى كيف ترفض أو تقبل، فتتورط. المرأة لا تريد إلا شيئاً واحـداً أن تكون امرأة. لماذا لا تصنع لتلك المرأة الصغيرة الجالسة أمامـك إرادتهـا؟ لا تأخذ رأيها! لا تنتظر أن تتحرك هي، تحرك أنت. . ولـكن لا اريد هذه الحركة التي تأتي لي بمغامرة عابرة حتى لو كان هذا هدفها مني، أنا لا أريد مغامرة عابرة. أنا اريد أن تحبني مثلما أحبها. . وحتى إذا كان ما أحسه ناحيتها ليس حباً، وإنما مزيج من عواطف مختلفة، فأنا أريد منها أن تشعر

البيضاء

ناحيتي بمثل ما أشعر به ناحيتها. لن أقبل أقل من هذا. لا، يكفي فقط علامة. علامة واحدة أكيدة. إنني أعرف المرأة حين تحب. إنها لا تتصرف كمن يحب ـ إنها تتصرف كمن يغامر. ترى كيف كانت تحب زوجها قبل زواجها به؟ هل كانت ترتدي له قميص نوم جديداً؟ غير معقول. ترى كيف كان شكلها أيامها، وكيف كانت تنظر وتبتسم وتتحدث؟ كل ملامحها وحركاتها بعيدة عني إلا حركتها بفمها حين تتدلل. إنها الوحيدة القريبة مني،ولكنها لا تفعلها لأجلي، إنها تفعل ذلك لعلمها أني أحبها وتريد أن تتدلل علي. إننا نتدلل فقط ليس على من نحبهم وإنما على من نؤمن أنهم يحبوننا . إن الصداقة التي قالتها كلمة اعتذار لا أكثر ولا أقل. إنها لا تكن لي شيئاً أبداً. لماذا تكثر من التدلل؟ هل لأنها اطمأنت الى حبي؟ ولكن، ابداً، لا تطمئني يا بلهاء.. إنه ليس حباً. لقد قلت لك ذلك في الخطاب لأني لم أجد كلمة غيرها تصلح عنواناً لمزيج الانفعالات التي كنت أحسها ناحيتك. لقد قلتها لأنها أسهل كلمة نعبر بها عن أية أحاسيس غير البنوة والأخوة تجاه امرأة.. لا شيء هناك اسمه الحب. وأنا لا أحبك. أنا أود فقط أن أعرف إن كنت تحبينني أو تبادلينني لهفتي عليك. تحركي وانطقي وقولي شيئاً! أفصحي! هدئي ذلك البركان الذي في جوفي! أنا لا أحبك. أنا حاقد عليك لأنك خيبت أملي، جرحت كرامتي، علمتني ألا أثق في نفسي ومقدرتي على إيقاع النساء في حبي. أنا كنت دائماً أرهب النساء وأبعد عنهن كما أرهب أمي وأبعد عنها، ولكن كنت دائماً واثقاً إني لو اقتربت من إحداهن لأوقعتها في التو واللحظة برغم شكلي وابتسامتي المعوجة. يا لي الآن من خائب خائب!

واذا كانت تصرفات الإنسان الخارجية هي انعكاسات متنكرة لخواطره

الداخلية الصريحة، فممكن إذن معرفة ما قمت به من تصرفات.. كنت حين أرى أنها تود المغامرة أسوق كلمة أو حكاية لأشجعها كي تمضي في الطريق وتطمئن. وكنت حين أتساءل إن كانت تحس ناحيتي مثلما أحس ناحيتها أقول شيئاً يستدر العطف علي، وأراقب كلمة العطف التي تقولها وأزنها بدقة لأعرف إن كانت تحوي شيئاً آخر غير العطف المجرد. وإذا رأيت انصرافها عن التفكير في، وأنت تستطيع إذا جلست إلى إنسان أن تحدد بالضبط إن كان معك ويفكر فيك أو هو يطرق بخياله ميداناً آخر، كنت إذا رأيت انصرافها عني قلت شيئاً شاذاً عن نفسي.. مثل.. أنا أكره الأطفال، ويوماً كنت سأخنق ابن جارتنا الطفل لأنه ظل يبكي لفترة طويلة ولم يسكته زجري. أقول هذا وأرقب تساؤلها وأزنة لكي ألمح فيه شيئاً آخر غير مجرد العجب من تصرف شاذ، شيئاً آخر يدل على أنها تستعجب لأن ذلك التصرف صدر عني أنا ولم يصدر عن أي إنسان آخر.

وهكذا طيلة الجلسة.

وإذا اتخذنا ما قلته عن التصرفات الخارجية مقياساً، فحين أعود بذاكرتي إلى تصرفاتها هي لا أجد سوى أنها كانت موطنة عزمها على أن الأمر مغامرة لا أكثر ولا أقل. ولكنها كانت لا تريد أن تكون البادئة ولا تريد أن تتحمل مسئولية مفاتحتي، ثم إنها كانت واثقة من «حبي» لها ولكن يبدو أن فكرتها عن الحب كانت مختلفة تماماً عن فكرتي عنه ـ وكانت تعتقد أني أستعمل كلمة الحب لأعني بها رغبة حسية تراودني ناحيتها، ولم تكن تدري في تصورها ذاك أية أشباح مخيفة تقف عقبة في طريق مثل ذلك التفكير لدي. كانت تتصرف وكأني آجلاً أم عاجلاً سأضمها وأقبلها ولكنها لا تريد أن تكون البادئة.. تريد أن تستمتع بلذة أن تؤخذ ولو عنوة

البيضاء

ولا تعلم أني في موقفي ذاك كنت آخر شخص ممكن أن يأخذها باللين أو بالعنوة. كانت تتصرف وكأنها تستعجل اللحظة التي تؤخذ فيها.

أفقت فوجدت نفسي في المجلة، كنت لا أذهب إليها في العادة إلا في التاسعة أو العاشرة بعد انتهاء عملي في العيادة، ولكني أنهيت العمل في تلك الليلة مبكراً جداً ـ في الثامنة أو ما حولها ـ وذهبت إلى المجلة. كان الباب مفتوحاً ولا أحد في الصالة أو الحجرات القريبة، وأحسست بالمكان صامتاً كئيباً كالبيت القديم المهجور. والمجلة لم تكن هكذا أبداً. . . كانت على الدوام مزدحمة بالناس داخلين وخارجين ووفوداً والمناقشات لا تهدأ فيها لحظة. ولكن الظرف كان قد تغير، وبدأ الخوف يمنع الكثيرين من التردد على المجلة. المترددون القليلون كانوا يزورونها خلسة، وتغير طعم المجلة حتى في أفواهنا نحن الذين نصدرها.

دخلت وجلست على مكتبي. كان في حجرة جانبية قريبة من الباب، ووجدت عليه ورقة فيها بقايا طعمية لا ريب أن عبده اختار مكتبي ليشرفه بتناول العشاء عليه. عبده فراش المجلة وساعيها ومقرض محرريها والمدعي العام بالسياسة وبواطن الأمور. .مالبث أن ظهر وفوجيء بوجودي حتى لقد وقف مذهولاً في مكانه برهة. . ثم انفجر يحييني: أهلاً وسهلاً يا دكتور، انت فين؟ داحنا فاكرينك عيان. حمد الله على السلامة.

ولحظتها فقط أدركت أني فعلاً لم أتردد على المجلة منذ زمن خيل الي أنه عام وإن كان لم يتعد أياماً ثلاثة أو أربعة .وفي الحال أيضاً راودني سبب لهفتي على المجيء في ذلك المساء. . النداء الغامض الذي يهب بي دائماً أن أترك أي شيء وأهب نفسي للمجلة. . الأحساس الملح بأني

مقصر دائماً في حقها علي ، كالمدين الذي تنهش صدره ذكرى ديون .

وسألت عبده عن الزملاء وأين ذهبوا. فأخبرني أن أحداً لم يحضر ذلك المساء، حتى ولا في أثناء النهار.

ـ الأستاذ أحمد شوقي بس هو اللي جه الصبح شوية وبعدين نزل.

فتحت أدراج المكتب واستخرجت الأوراق والمواد استعداداً لبدء العمل. كان هناك مقال بدأت في كتابته ولم أتمه، ومضيت أقرؤه.. وغريب هذا ! خيل إلي أن شخصاً غيري هو الذي كتبه ، فقد أحسست أني غريب على كلمات المقال وموضوعه ، وكأني أشترك في مظاهرة صاخبة ثم بعدت عنها فجأة ، وأصبح لدوي أصواتهم من بعيد وقع غريب على نفسي . شيئاً فشيئاً بدأ الاحساس بالمسئولية والعمل ينمل في جسدي ويعود للحياة. . شيئاً فشيئاً بدأت أحس أني خلال الأسبوعين الماضيين كنت أحيا في حلم طويل استغرق أياماً كثيرة، حلم كنت أعيش فيه مع سانتي بلا عمل ولا مسئولية، أو على وجه أدق أعيش فيه وراء ظهر العمل والمسئولية .

وبدأت أكتب.

وجدت المحاولة صعبة، ووجدتني أسطر كلمات لا حياة فيها . وبدأت أشطب وأعيد الكتابة وأكاد أبكي وأنا أوقن أن علاقتي بسانتي قد استغرقت اهتمامي كله ، وإني وهبتها كل نفسي، وإني يجب علي أن أعود مرة أخرى ذلك الشاب المخلص المشتعل حماسة الذي لا يشغل تفكيره إلا الدين الذي في عنقه تجاه شعبه وقضيته .

وبدأت أنفعل وأكتب، وصورة سانتي في نفسي تبتعد وتبتعد . أبعدها بإرادتي وكأني ساخط عليها وعلى نفسي وعلى تلك الأيام الطويلة

البيضاء

من حياتي التي قضيتها عبثاً، قضيتها واقفاً في طريق جانبي ضيق لا يسع إلا عواطفي وأحلامي.

ولو كان هذا هو الذي حدث بالضبط لسار كل شيء كما أردت. ولكني طوال انفعالي وغضبي وسخطي كان هناك، وفي ركن ما من نفسي شيء أكاد ألمحه وأراه.. عينان صغيرتان متقاربتان لامعتان ساخرتان تؤكدان لي أني أضحك على نفسي وأني افتعل ثورتي عليها، وأن سانتي لم تبتعد من خيالي ولا حدث لها شيء، أنها موجودة وستظل موجودة أردت هذا أم أبيت.

هاتان العينان اللامعتان الساخرتان هما اللتان جعلتاني - وقد كنت منهمكاً في الكتابة - أبدأ أصغي لعبده، وحديثه عن الزائرة التي جاءت مع الأستاذ شوقي في الصباح. توقفت عن الكتابة وقد أدركت أنها سانتي.. ولم يكن غريباً أن تأتي للمجلة مع شوقي فمفروض انها تعمل معه. ومع هذا رحت أجهد عقلي لأجد طريقة غير مباشرة أسأل بها عبده عن كل ما أريد دون أن أثير بها حب استطلاعه الذي يثور لأقل هفوة. سألته متى جاءا، وأين جلسا، وماذا صنع لهما، والمدة التي استغرقتها المقابلة وماذا كانت ترتديه؟ الخ.. الخ..

وطبعاً لم أكن أشك في شوقي ولم يكن أحد يستطيع ان يشك فيه. فشوقي لم يكن شخصاً، كان في الواقع قضية، أو على وجه التحديد كان قضيتنا. لم أحس مرة أن له مزاجاً خاصاً أو مطلباً خاصاً. كان عقله وبالتالي شخصه يشبهان جهازاً دقيقاً مضبوطاً، عمله أن يفكر في المشاكل ويجد لها حلولاً. وعلى ذلك فشوقي هو دائماً المشكلة التي يفكر فيها بطريقة لا بد نعتقد معها أن ليس له وجود خاص أو شخصية مستقلة. كان

طويلاً أسمر ضخماً طيب المظهر، يحمل على الدوام حقيبة تحفل بأوراق وأشياء مختلفة متباينة ، بل لا تدهش إذا وجدت فيها بعض ملابسه الداخلية إذ كانت له قدرة عجيبة على العرق، وباستطاعته أن يعرق جردل ماء في الساعة أو حسبما تطلب. . كان ذكياً جداً وحساساً وعلمياً في إحساسه، فلا تستطيع أن تضبطه مرة متلبساً بشطحة من شطحات الفنانين ، وكأن مخيلته هي الأخرى تعمل كالجهاز المضبوط الذي لا يخطىء أو يتساهل. وأهم شيء في شوقي أنه يعطيك شعوراً بالثقة من أول نظرة. كنت لا أدهش أبداً حين نكون معاً في حفلة أو اجتماع أعرفه بشخص ما وأعود بعد دقائق لأجد هذا الشخص قد انتحى به ركناً ومضى يعرض عليه مشكلة خاصة جداً لا يعرضها الإنسان إلا على أخ أو صديق عريق . وشوقي كان متزوجاً وله ولدان توءمان، وعمري ما رأيته يتحدث عن مشاكله كزوج أو رب عائلة مع علمي التام بكثرة ما تحفل به حياته مع زوجته من خلافات ومشاكل .

وما كدت أنتهي من أسئلتي حتى سمعت وقع أقدام في الصالة وغادرني عبده ليرى من القادم . أما أنا فلم أكن في حاجة أبداً لمغادرة مكاني لأعرف من عساه يكون . فبمجرد سماعي لتلك الخطوات السريعة المتتالية عرفتها، وتصنعت الانهماك في الكتابة.

ولم أرفع رأسي حتى بعد أن دخلت الحجرة التي كنت فيها ، لم أرفعها إلا حين دق قلبي، وأنا أسمع هتافاً حلواً يتصاعد من الباب :

ـ هاللو !

كانت سانتي ـ وغادرت مكاني وسلمت عليها وأجلستها أمام المكتب ، وفعلت كل هذا وأنا مرتبك مشتت بين رغبتي في القيام بدوري

كمحرر في المجلة يقابل زميلة أجنبية ، وبين الجهود الضخمة التي بذلتها لأكبت انفعالاتي الخاصة .

السؤال الذي كان يحيرني في أثناء هذا كله . . لماذا جاءت ؟ ولماذا في هذا الوقت بالذات ؟

وكان من الممكن أن أوجه إليها السؤال ببساطة . . ولكنني لم أشأ هذا ، أو في الحقيقة لم أستطعه. فمن لحظة أن سمعت وقع قدميها في الصالة لم أعد نفسي ، انتابتني تلك الحمى التي تنتابني كلما وجدت معها أو سمعت مسيرتها أو خطرت لي على بال . حمى سببها عشرات الانفعالات والمتناقضات التي كانت تغمر كياني كله وتبقيني تائهاً محموماً لا أعرف كيف أتصرف، أو ماذا أقول ؟ أقهر انفعالات وتقهرني انفعالات أحاول أن أضبط شعوري فتتبعثر مني أحاسيس وتنفرط وأزداد خجلاً وارتباكاً، ويدفعني الخجل الى مزيد من الخجل التائه المحموم .

ولم أفق قليلاً إلا حين جاء شوقي تسبقه حقيبته التي لا يمشي إلا وهو يطوحها . وسلم علينا . . وتكفلت يده الضخمة ذات الأصابع السمينة الطيبة بمحو كل ما خالجني تجاهه. ونظر الي وإلى سانتي وقال :

ـ عارفين بعضكم طبعاً ؟

وضحكنا كلنا ، وأخذنا الكلمة ببساطة، ولكن خاطراً صفر في عقلي فجأة : ترى ماذا يحدث لو عرف شوقي فعلاً ما يدور في رأسي، وما حدث بيني وبين سانتي ؟

ولم أحتمل مجرد التفكير في الخاطر . . طردته من وعيي في الحال ومضيت أرقب بعين مدققة الطريقة التي تتحدث بها سانتي اليه . . لم أجد فيها ما يستوقف البصر. وحتى سانتي لم تتحدث طويلاً، ما لبثت أن

أخرجت من حقيبتها مجلة وبعض الأوراق ناولتها لشوقي ثم ودعتنا ومضت .

وأحسست بارتياح . . وغادرت حجرتي وجلست مع شوقي في حجرته نتحدث في مشاكل المجلة . . كانت هناك عقبات تحول دون صدور العدد الثاني أهمها النقود. وكان لا بد من حملة جمع تبرعات واسعة وكان لا بد أن تبدأ الحملة حالاً. وفي حماس أخذت على عاتقي عبء جمع التبرعات من عشرين شخصاً. بعضهم كان يدفع لإيمانه بالمجلة وبعضهم لخوفه منها ، وبعض آخر لمجرد إقناع نفسه أنه يؤدي واجباً ما .

ولم أعد الى البيت إلا في الرابعة صباحاً .

البيضاء

٨

ظل « عنتر » البيضاوي الجسم الذي تستقر فوق بيضاويته رأس كروية دسمة الملامح ، ظل قرابة شهرين كلما رآني يقول:

ـ ما تيـاالله يا دكتور . . الراجل ساب العيادة وح يموت . . خدها .

يقولها بصوته الهادىء الهائم كغبار الدقيق الناعم . يقولها بلا حماس وهو يمسحني بعينيه الواسـعتين العبيطتين . ثم يسبلهمـا علامـة الـولاء والتقدير التام لشخصي ومصلحتي.

كل يوم كنت أراه فيه كان يقول لي هذا ، وكثيراً ما كنت أراه . فبعدما يخف ازدحام العمال في حجرة الكشف ، وتنقضي ساعات الأزمة وتثوب أعصابي التي احترقت الى رماد خامل ، أبدأ أتمطى وأسـأل عم مرسـي الباشتمرجي إذا كان قد بقي أحد بلا كشف؟ فيقول: مـافيـش. وأعيد السؤال فيقول: ما فيش إلا عنتر وعبلة . . و« عبلة » كان عاملاً في قسم النجارة اسمه كيرلس ، وربما أطلق عليه اسم عبلة لأن اسمه الحقيقي كان معقداً . فهو يكتب كيرلس ، وينطق كوروللس . وربمـا أطلقـوه عليه لشدة ملازمته لعنتر . . وعلى العموم فلم يكن كيرلس أول عامـل يطلـق عليه اسم مضحك ، فقد اكتشفت أن كل عامل من عمال الورشة له اسم

كهذا يعرف به في الورشة ولا ينادى بسواه. والتسمية تبدأ حين يدخل العامل صبياً فيرتكب خطأ، أو ينطق اسم قطعة عدة نطقاً مضحكاً، أو أحياناً بلا سبب، فيخلع عليه الأسطى معلمه اللقب. ويظل لاصقاً به بعد أن يكبر ويصير أسطى ورئيس عمال. أسماء غاية في الغرابة لا ضابط بينها أو رابط. حنتيتة، واسطبة، وشادية، وبن جوريون ، وأبو ورك، وبقبق وشالوم ، ورجل على رجل، والشيخ الشريب ، والسبنسة، وأبو زلومة وابن زليخة . وكانوا يقولون لي أنه سمي هكذا لأنه في أول يوم لاستلامه العمل في الورش وهو لا يزال صبياً جديداً طلب منه الأسطى أن يحضر له شيئاً ما فأحضر غيره، فسأل الأسطى بتريقة : أمك اسمها أيه يا ولد ؟ فأجابه بجد: اسمها زليخة ياسطى. وأصبحت نكتة تروى وتضحك عليها الورشة ، وتضاف الى تراث ضخم من المواقف والحوادث والمضحكات التي حدثت من عشرات السنين ،ووجدت وحورت وأضيف اليها ولا تزال تكبر وتحيا وترويها الأجيال الماضية للحاضرة والمقبلة .

كان عنتر وعبلة يكونان وحدة غير متناسقة الأوصاف . . فعنتر كان بيضاوياً قصيراً ، وعبلة كان عمودياً طويلاً رفيعاً قليل الكلام كثير الابتسام ، يكاد لا يفقه من أمور الدنيا إلا أنه صديق عنتر وملازمه الدائم .

ولا أذكر كيف نشأت علاقتي بهما، ولكن يبدو أنهما كانا من ذلك النوع من الناس الذي يحب مجالسة كبار الموظفين ليتحدث لزملائه بعد هذا عن الصداقة الوطيدة التي تربطه بهم ، وعن كيف أمضى الليلة الماضية ساهراً مع مهندس الكهرباء، وكيف عزمه دكتور الورش على العشاء. ومع أن عنتر كان عاملاً في قسم الخراطة أو الميكانيكا لا أذكر وكان أبوه أيضاً عاملاً في نفس الورش ، وجده كذلك ، إلا أنه كان يمتلك

البيضاء

بيتاً من بابه . بيت هاكع كئيب من البيوت المكدسة المتزاحمة في المنطقة الكائنة خلف شركة النور . وكان قد أجر الدور الأرضي الذي يتكون من شقة واحدة مظلمة ذات حجرتين الى طبيب اسمه عطوة كان يعمل في الحكومة ثم أجبر على الاستقالة لسوء أخلاقه . ولم يكن الدكتور عطوة طبيباً فقط . . كان مدمن أفيون أيضاً . . ومدمن جلسات مع الحانوتية وأصحاب الدكاكين جيرانه في العيادة . وإذا رأيته لا يمكن أن يخطر ببالك أنه طبيب ، فقد كان نحيفاً طويلاً ذا قتب ، له ملامح تصلح لفتوة من الفتوات الذين يستأجرهم أصحاب السينمات الشعبية لكبح جماح رواد الدرجة الثالثة. وهو دائم الكحة دائم العطس والتمخط والبصق . ولا يحلو له البصق إلا أمامك على الأرض . إذا تكلم خرج صوته متحشرجاً مبحوحاً ، ولا ينطق كلمة إلا ويتبعها بسباب قذر ولو كان يتحدث عن أبيه .

والعيادة على هذه الصورة لم تكن تأتي بإيراد يذكر. وكان طبيعياً أن تتراكم الديون على الدكتور عطوة ويتراكم الايجار حتى اضطر أخيراً للتنازل لعنتر صاحب البيت عن العيادة مقابل الايجار المتأخر. وأصبح عنتر بين يوم وليلة مالكاً لعيادة لا يدري ماذا يصنع بها . كان أول الأمر يذهب ويجلس فيها ويستقبل أصدقاءه وهو سعيد بالجلوس على مكتب الدكتور عطوة الكالح ، وإذا قابله أحد أصدقائه أو معارفه قال له : ما تخلينا نشوفك .

ـ أشوفك ازاي ؟
ـ تعال لي العيادة يا أخي .

وتندمج بيضاويته بالسعادة حتى يكاد يتحول الى كرة.

غير أنه بعد وقت تبين أنه الخاسر . وإن عليه أن يبيعها . وهكذا بدأ « يشتغل» علي لأشتريها ، ولكنه كان يخاف إن أنا عرفت قصة الإيجار المتأخر والخسارة أن أرفض الشراء، فادعى لي أن الدكتور عطوة فوضه في بيعها ، وأنه يريد خدمتي فقط، وكل يوم يراني فيه يقول:

ـ ماتيا الله يا دكتور. . الراجل ساب العيادة وح يموت . . خدها بقى.

وفي البداية لم أكن أنصت لكلامه أو أعيره اهتماماً، فلم يكن في نيتي أبداً أن أفتح عيادة. كنت أريد أكمال دراستي العليا في الكلية وكل عام كنت أقول لنفسي : سألتحق هذه المرة بالدبلوم . ويأتي أول أكتوبر ويذهب تاركني أحلم مرة أخرى بالحصول على الدبلوم. ثم جاء الوقت الذي صرفت النظر فيه عن أي أمجاد طبية وشهادات واستسلمت للأمر الواقع ، ولوظيفة طبيب الورش وغمها ونكدها. والحقيقة لم يكن استسلامي استسلاماً كاملاً، وكانت أحياناً تنتابني لحظات أقرر فيها أن أغير مجرى حياتي تغييراً جذرياً وأسلك طريقاً آخر.

أحياناً أفكر في العمل كطبيب باخرة، وأحياناً أفكر في السفر الى السودان أو الكويت ، وأحياناً أتمنى لو تركت المهنة نهائياً والتحقت بكلية الآداب. . ما من يوم كان يمر علي إلا وتنتابني أفكار كتلك . لا بد أن هناك حياة أخرى أروع من حياتي تلك . لا بد أني لو أخذت قراراً حاسماً وغيرت عملي سيحدث لحياتي تغيير ضخم وتتفتح الآفاق أمامي . وأسخف ما فينا أننا دائماً نفكر بطريقة ونحيا بطريقة أخرى ، ونثور على طريقة حياتنا،ومع ذلك نظل نحياها وبنفس الطريقة. أسخف ما فينا هو ركوننا الى العادة . . العادة المملة الرتيبة التي تترسب كبرادة الحديد في

البيضاء

مادتنا الحية فتحيل سيولتها المشبعة بالحركة والنشاط الى جمود وتبلد وسكون . والعادة تلك هي التي كانت تتولى القضاء على خططي ومشاريعي . أصحو من نومي فإذا بي أرتدي ملابسي بسرعة وقلبي يدق خوفاً من التأخير . . كالمنوم آخر طريقي الى الورش وقد نسيت كل شيء عن الأحلام الهائلة التي راودتني جزءا كبيراً من الليل .

وفي لحظة كتلك قررت أن أسمع كلام عنتر وأنا أقنع نفسي بأني بهذا قد أغير حياتي .

وحدث واشتريت العيادة. وكل ما دفعته ثمناً لها وإيجاراً لشهر كامل خمسة عشر جنيهاً، أخذها عنتر وعدها مراراً أمامي وهو « يستشوي » المبلغ علناً أمامي، وإن كان بينه وبين نفسه يعتقد أنه ضحك علي .

وبمساعدة زملاء عنتر من العمال أصلحناها ودهناها بالزيت واشتريت لها بعض الأثاث. وطمس خطاط الورشة اسم الدكتور «عطوة البرادعي » وكتب اسمي على اليافطة التي كان لا يقل طولها عن سبعة أمتار. وحين ذهبت الى العيادة ووجدت اليافطة مركونة الى الحائط والخطاط يضيف إليها لمساته الأخيرة. وبعض الصبية والمارة من الرجال والنساء واقفون غير بعيد يراقبون ويتهامسون ، أحسست بخجل شديد وكنت في أوائل معرفتي بساناتي. ولأمر ما تصورتها وقد جاءت في تلك اللحظة ووقفت تتفرج هي الأخرى على اسمي « يحيى مصطفى طه » وهو يمتد مسافة سبعة أمتار وتحته عشرات الألقاب التي لا معنى لها : طبيب امتياز بقصر العيني ـ وبين قوسين ـ سابقاً ، حكيمباشى مستشفى الأمراض المتوطنة بوزارة الصحة ـ وبين قوسين ـ سابقاً . والمضحك في مسألة الحكيمباشى هذه أن الحكاية كلها أني بعد أن قضيت سنة امتياز

اشتغلت في مستشفى بلهارسيا وانكلستوما متنقل، ولأني كنت هناك الطبيب الوحيد فليس هناك مانع أن أعطي نفسي الحق في أن أكون حكيمباشي على نفسي خاصة وكل زملائنا الأطباء كانوا يفعلون هذا . . تصورت سانتي ترى هذا وترى الثلاث طوبات التي تكون اسمي وقد أصبحت ثلاث دبشات كبيرة، وأروح في غيابات خجل لا قرار لها . .

وأخيراً بدأت العمل في العيادة، والزيت لا يزال طرياً ، ورائحته تملأ الحجرتين الضيقتين والصالة الصغيرة. . وأنا حائر كيف أعامل الزبائن. أجرب نفسي أمام المرآة التي خلفها الدكتور عطوة وأتحدث وأبتسم. وأفعل هذا وكأني لم أتعود الكشف على أحد أو استقباله، مع أني كنت قد عملت في الحكومة سنوات وقابلت آلاف المرضى . ولكن الزملاء الأطباء كانوا قد علمونا أنه إذا كان المريض في مستشفيات الحكومة عبداً ، فهو في العيادة السيد المدلل ، وعلى الطبيب الذي يريد أن يكسب الأجر والزبائن ويقتني العربات ويبني العمارات أن يتعلم كيف يعامل المرضى في عيادته معاملة هدفها كسب قلوبهم، كخطوة أولى يعامل المرضى في عيادته معاملة هدفها كسب قلوبهم ، كخطوة أولى لكسب ما في جيوبهم . والابتسامة الأولى التي يرتديها الطبيب كما يرتدي معطفه الأبيض ويعلقها على ملامحه كما يعلق السماعة ليقابل بها الزبائن بهمة . فلا بد أن تكون حاوية لأشياء كثيرة، الأدب وطيبة القلب وكبرياء المهنة وتواضع العلماء .

أجرب نفسي أمام المرآة وأجدها ابتسامة عسيرة، وألعن نفسي لهذا الزيف . أشك في التومرجي الذي كان يتولى إعطاء الحقن « ومعظم إيراد العيادة كان يأتي من الحقن التي يحضر المرضى لأخذها وقد وصفها لهم

البيضاء

الأطباء الكبار والمشهورون » . وأفعل هذا كله وفي ظني أن العيادة حين تعمل وأبدأ أشفي المرضى والجرحى وأداويهم سيتغير كل شيء ، وستتغير نظرتي الى العالم ، وقطعاً سيتغير طعم حياتي في فمي .

وشيئاً فشيئاً بدأت أعمل ، وبدأ الزبائن يقبلون متعثرين ، وبعضهم كان يسأل عن الدكتور عطوة ، وحين يعرف أنه ترك العيادة يصاب بخيبة أمل شديدة ويلح في طلب عنوانه الجديد . وأعجب أنا كيف استطاع عطوة بكحته وبصقاته وأفيونه أن يحظى بثقة مريض يتكلم عنه كما لو كان يتكلم عن «أبو» قراط أو جالينوس. ولكني بدأت أعلم ، وبدأ الأجزجي صاحب الصيدلية المجاورة يتحدث عني ، ويختلف الناس في القهوة القريبة على مدى شطارتي وخفة يدي ووزن دمي وأخلاقي .

ولم يتغير طعم حياتي بالعيادة . كل ما حدث أن أضيف إلى وجوهها المتعددة وجه آخر ، وجه جديد له مشاكله وأحزانه وأفراحه ووقته المحدد الذي لا يحتمل أي تأجيل . أعود إلى البيت في الظهر وعقلي صفحة مضطربة مظلمة ، وألهف الطعام الماسخ بسرعة خاطفة استعداداً للنوم أو لمجيء سانتي . فإذا نمت استيقظت في الخامسة والنصف محمر العينين في رأسي نوم كثير لم يشف غليله بعد . وأرتشف الشاي الذي لا بد منه في جرعات كبيرة خاطفة لاسعة ، ثم أجرى إلى العيادة . كانت في الدور الأرضي وجدرانها والجدران المؤدية إليها حافلة بالرطوبة والرشح ، والمنزل لا يشجع أحداً على الدخول ، واليافطة ضخمة كبيرة كيافطة الأوكازيونات ، وأناس كثيرون أحييهم وأنا في الطريق ، وعنتر لا بد أن ينتظرني كل يوم عند قمة الشارع وبجواره عبلة ، طويلاً رفيعاً غامق السمرة كبندقية ذات ماسورة واحدة معلقة في كتف عنتر . وبكل هليهليته يجري عنتر بجواري وأنا مندفع في طريقي إلى العيادة ، ويقرصني في يدي

وهو يشير إلى الناس : ده فلان ، وكأني أعرفه . وده قريب شيخ الحارة . والرجل ده ينفعنا قوي. وشايف اللي حاططرجل على رجل ده ؟ ده الناس بتسمع كلامه لما يجيلك ابقى اتوصى في الكشف. أيوه اسمع كلامي بس !

وأسمع كلامه وأهز رأسي وأنا لا أدري أهو ينصحني لنفسي ام ليضمن إيجاره .

وندخل العيادة معاً . ونادراً ما كنا نجد فيها منتظرين. ويجلس معي في حجرة الكشف، ولا بد أن يجد موضوعاً ما يحدثني فيه . وأحب المواضيع إليه كان حديثه عن خلافاته مع أخواته البنات حول الميراث وحول هذا البيت بالذات . ثم يقطع حديثه فجأة ويقول:

ـ ماتيا الله نزور الأجزجي .

ونزور الأجزجي، ونسلم على الحانوتي، ونشرب قهوة عند المعلم « سمبو» صاحب القهوة المقابلة ، وأجد نفسي فجأة قد بدأت أحيا ـ بفتح العيادة ـ وسط مجموعة كبيرة حافلة من الناس لا أعرفهم ولا خبرة لي في معاملتهم أو استجلاب رضائهم ، وعنتر لا يصلح أبداً كدليل ألجأ اليه عند الحاجة، فلم يكن يستطيع أن ينفي شيئاً أو يؤكد شيئاً له ، أقول له: أمين صندوق النقابة حرامي. فيقول:

ـ أيوه. . . ما فيش مانع . . دا طول عمره بيسرق. . بس ما بيسرقشي كتير. . دا حتى باينه ما بيسرقشي خالص.

وكنت أحياناً أضيق بعنتر وملازمته الدائمة لي وملحقه كيرلس أو عبلة هذا . الزبائن كان هو الذي يجلبهم وهو الذي يقابلهم ويوصي عليهم

البيضا

والبيت ملكه وصاحب الأجزخانة صديقه ، وحتى التومرجي هو الذي أحضره واتفق معه، وهو الذي يتولى محاسبته ومراقبته. كنت أضيق به في تلك اللحظات التي أتلفت فيها فأجدنفسي في عيادتي وأدرك أنها عيادتي وأنني أعالج فيها وأشفي وأحقق بها حلماً قديماً صاحبني منذ دخلت كلية الطب . ويملؤني الإدراك بفرحة الطفل حين ينفرد أخيراً بلعبة محببة خاصة . ساعتها أبدأ التفكير في المشاريع للعيادة، وأحلم بمستشفى كبير وحجرة عمليات ضخمة، واكتشاف علاج ناجح للسرطان ، والحصول على جائزة نوبل.

ولا أستطيع أن أضع حداً فاصلاً لما حدث. فجأة بدأت أحس أني لم أعد شديد الحماس للعيادة ومشاكلها ومشاريعي لها . ولم تعد لمواعيدها تلك القدسية التي أخاف ان أخدشها . وليست العيادة فقط. المجلة هي الأخرى ندر ذهابي اليها ، حتى أن شوقي اضطر أن يسحب مني باب بريد القراء ويعهد به الى فتحي سالم . ولم أغضب أو أنفعل، ولو حدث هذا في أي وقت آخر لثرت ثورة عارمة . وعملي في الورشة أصبحت أزاوله بغثيان. والدراسات العليا التي التحقت بها . وهواية الكرة . وزيارات أهلي وأصدقائي بدأت أحس أن كل شيء آخر في حياتي أصبح مجرد مضايقة لا غنى عنها ، ومشاكل علي أن أتخلص منها لأتفرغ لسانتي .

لا أستطيع أن أضع حداً فاصلاً لما حدث، فقد وجدت نفسي ذات يوم أعدي كوبري «أبو» العلا وأجوب الشوارع الواقعة في الزمالك بحثاً عن شقة أو حجرة أو أي مكان في ذلك الحي الهادىء المهيب يصلح سكناً لي .

ولم أختر الزمالك لأسباب تتعلق بالأرستقراطية والرغبة في السكن في حي راق . اخترتها لأني كنت قد وصلت إلى درجة أصبح فيها الهدوء

بالنسبة لي هو الشيء الوحيد الذي يمكن أن يحول بيني وبين الجنون .

وأقرب مكان هادىء لعملي في بولاق كان الزمالك. وراعيت أن أبحث في الشوارع الضيقة والبيوت المحتملة الإيجار. وعدت من بحثي أول يوم وأنا يائس تماماً من العثور على بغيتي. فمرتبي كان بالضبط ستة وعشرين جنيهاً ، وأقل شقة رأيتها كانت بمبلغ وقدره .

ولاحظ عنتر وجومي في ذلك اليوم ، وحين أخبرته بالمشكلة قال:

ـ ولا تـزعل . بكره نسكنك في الزمالك .

وانطلق من فوره يتبعه عبلة .

ولم تكد تمضي ساعات حتى كنت أوقع العقد مع وكيل صاحب البيت ، ولولا هذا ما صدقت عنتر أبداً حين جاءني ليلتها وقال:

ـ خلاص لقينا الطلب.

وتبدت لي بذلك خاصية أخرى لم أكن أعرفها عن عنتر، فقد كان يعرف عدداً هائلاً من الناس موزعين في جميع أنحاء القاهرة وحتى في الأقاليم . الواحد منهم تجده عاملاً في الترسانة مثلاً وله ورشة صغيرة يعمل فيها بعد الظهر، أو تجده صاحب محل عجلات ويتاجر في العربات المستعملة، أو « كيسير » في مخزن أدوية وسمسار عمارات. أفراد متناثرون في كل حي وشارع ، ولكنهم يكونون مجتمعاً متعاوناً شعاره: نفعني وأنفعك، ويعرفون بعضهم بالاسم والعنوان. وأطلب من أحدهم أي شيء يحضره لك في الحال، أو أن لم يستطع فعلى الأقل يدلك على من يحضره.

وبتلك الطريقة وجد لي عنتر شقة، شقة كاملة ، وفي شارع من شوارع الزمالك المهمة، وبثمانية جنيهات فقط.

البيضا

وكان لقاء مؤثراً ذلك الذي تم بيني وبين صاحب البيت . قلت للبواب العجوز الذي كان يختفي بالأيام ثم يظهر فجأة، قلت له إني سأعزل. ولم يبد عليه أنه فهم أو اهتم بما قلت ، ولكني بعد ساعة وجدت صاحب البيت قد جاء بنفسه معفر الملابس، معطفه الأسود كاد يصبح رمادي اللون ، وحتى طربوشه لم يسلم من الغبار. وعاتبني بتأثير شديد قائلاً انه بذل المستحيل لراحتي . ورفض أن يؤجر دكاناً لتاجر سمك «مخصوص» من أجلي . ودمعت عيناه وكادت عدوى التأثر تنتقل إلى لولا أني غيرت الموضوع وسألت عن أحواله . . ولم أتمالك نفسي وأشرفت على الضحك وهو يخبرني بصوت لا يزال يحفل بالتأثر أنه ضرب عرض الحائط برأي أولاده وفتح الدكان مرة أخرى ومشغول فيه إلى شوشته، ولولا معزتي لما غادره في ساعة كتلك .

وانتقلت إلى بيت الزمالك الجديد . كانت الشقة في آخر طابق والبيت مكون من خمسة أدوار ورغم زمالكيته فلم يكن فيه مصعد والسلم طويل ومتعب، ولكن الشقة كانت لطيفة خفيفة الدم مكونة من حجرتين وصالة صغيرة وممر طويل لا يعرف سبب طوله ، يؤدي إلى مطبخ واسع أهم ما فيه طرابيزة رخامية كبيرة مثبتة في الحائط والضوء كان يملأ الشقة كلها حتى الحمام ، والهدوء جميل تحس به مستتباً حولك في الشقة وفي البيت والحي حتى لتخاف عليه أن ينقطع أو ينتهي.

وكان عيب الشقة الوحيد ، وربما كان سبب إيجارها المخفض ، أن نوافذها تقع في ناحية خلفية، وتطل على ظهر العمارة المقابلة وسلم خدمها، ومن أول نظرة عرفت أن لا فائدة ترجى من نوافذي، فقد رأيت المشهد الذي لن يتغير. الخدم الصاعدين والهابطين ، وصبيان البقالين وبائعي اللبن، وكل هؤلاء الذين لا تستقبلهم إلا أبواب المطابخ .

وحين وضع العفش في الشقة بدت أنيقة، إذ كنت قد استغنيت عن معظم ما كان لي في شقة بولاق، وهبطت إلى أحد المحلات التي تبيع أثاث المزادات ، وبالسبعة والأربعين جنيهاً فرق العلاوة التي ظللت انتظر صرفها نصف عام وأضع لاستغلالها الخطط أشتريت حجرة مكتب أنيقة لها كرسيان ضخمان مريحان وسجادة وصورة وفازات وستائر .

وكنت قد خرجت من شقة بولاق في الصباح وعهدت الى عنتر وعبلة بمهمة التعزيل الذي لا أكره شيئاً قدر ما أكرهه، وعهدت اليهما أيضاً بمهمة صعبة : محاسبة أم عمر وإبلاغها أسفي لاضطراري للاستغناء عن خدماتها . وعدت من الورش الى البيت الجديد مباشرة، ووجدت كل شيء قد نفذ كما أردت تماماً، وأهم شيء إني لم أعثر لأم عمر على أثر وكان خوفي الأكبر أن أذهب الى الشقة الجديدة فيطالعني وجهها أو يلسع أذني نباحها .

وقضيت وقتاً طويلاً أجمل الصالة وحجرة المكتب، وأختار أنسب الأمكنة لقطع الأثاث القليلة، وأخرج من الشقة وأغلق الباب ثم أعود وأفتحها وأدخل لأرى وقعها على العين الغريبة، وأجرب الجلوس على الكرسيين وأسدل الستار الرقيق على النافذة ليختفي المشهد الخلفي وأمتحن كل شيء بنفسي لكي أطمئن، وكنت وأنا أفعل هذا كله لا أنظر بعيني ولكنني انظر بعينها هي، وأرتب كل شيء لكي يبدو لها هي أجمل ما يكون. إذ كان الأوان قد آن لأعترف بالسبب الحقيقي في انتقالي من بولاق الى الزمالك . والهدوء حجة قلتها لنفسي أول الأمر، ولكن وراء هذا كانت تكمن رغبتي في إعفاء سانتي من مشقة اقتحام المظاهرة البولاقية الدائمة للمجيء إلي، وأهم من هذا رغبتي في أن أجمل المكان الذي نلتقي فيه ، وإن استطعت أجمل حياتي كلها من أجلها . ولم أكن أفعل

هذا بهدف أن أظهر لها في مظهر غني أو لائق ، ولم أكن أفعله للضحك عليها أو تجميل صورتي في خاطرها ، بل لم أكن أفعله بارادة مني أو من أجل سبب محدد واضح ، وكنت أفعله بلا وعي ودون أن أحس أني أفعله .

ماذا أقول ؟

يخيل إلي أننا حين نتحرك وحين نعمل وحين نأكل وحين نصر على أخذ أجازتنا السنوية . وحين نقرأ كتاباً أو نشاهد فيلماً أو نسترخي ونحلم ، يخيل إلي أننا نفعل هذا كله نبحث عن شيء وراء هذا كله ، شيء لا نجده في الطعام فنبحث عنه في الكتب ، ولا نجده في الكتب فنبحث عنه في الصداقة والعمل ، ولا نجده في العمل فنبحث عنه في الأحلام . شيء نؤمن أنه موجود ولكننا لا نعرف ما هو وكيف نجده . ولهذا تستمر عملية بحثنا عن هذا الشيء المجهول ، ويستمر أملنا في العثور عليه ، وبالاختصار نستمر نحيا . ويحدث في أحيان قليلة أن يعثر الواحد منا على هواية مثلاً ، على قضية يؤمن بها ، على زوجة ، وإذا به يدرك أنها الشيء الذي كان يبحث عنه طوال حياته ، وقد يدرك بعد فترة أنه خدع وأنه لا يزال عليه ان يبحث ويكد ، ولكنه ما أن يعثر على شيء كهذا حتى يصبح محور حياته وهدفها الأول .

أنا الآخر كنت قد بدأت أدرك ان سانتي قد تبلورت فيها كل أهدافي في الحياة ، وقد أسخر الآن من نفسي ، ولكني أيامها بدأت أؤمن حقيقة أن سانتي أكبر حتى من أن تكون عماد حياتي وهدفها الأول . إنها أروع وأسمى وأعظم من أن تصبح فقط مجرد هذا الهدف ، ولو كان الهدف هدف حياتي كل ما أمتلك .

وأصبح كل شيء معداً لاستقبالها ، الحي الهادىء ، والشقة ، ومكان

جلستنا، والبنطلون والقميص اللذين كنت في العادة أقابلها بهما وفنجاني القهوة الجديدين ، وحتى المفرش الصغير المشغول الذي زينت به مائدة الوسط الصغيرة المنخفضة .

وكنت قد أعطيتها العنوان .

وكما توقعت تماماً دق جرس الباب في الثالثة . . أول جرس باب يدق .

وذهبت وفتحت الباب . كانت تقف بعيدة قليلاً عن الفتحة مرتكزة الى الحائط بطرف كتفها ، وفي وجهها شحوب قليل من الاجهاد الذي يصاحب صعود السلم العالي، وعلى شفتها العليا نقاط عرق صغيرة وكانت تلهث ، أول مرة كنت أراها تلهث ، وبدا لي لهثها جميلاً رشيقاً وكأن صدرها « أكورديون » يعزف لحناً رشيقاً .

وحين رأتني ابتسمت، وتنحيت عن وقفتي في الباب وأنا أرحب بها . وما لبثت هي أن أنسلت وسبقتني إلى حجرة المكتب ، وحين كنت أتبعها إلي الحجرة شعرت بقلبي يدق دقة واحدة كطلقة مدفع . ثم يتوقف دقه ليعود متتابعاً مضطرباً عالياً. كان قلبي يفضح تفكيري، وكان معنى دقه ذاك أني مقبل على أمر خطير.

والواقع أني كنت فعلاً مقبلاً على أمر خطير.

كنت بعد مناقشات طويلة مع نفسي، وتفكير استغرق مني مئات الساعات . . تفكير كان يشغل كل وقتي في العيادة والورش والطريق منهما إلى بيتي. . تفكير منعني حتى أن أتبين عملية التعزيل التي قمت بها . . تفكير وبخت فيه نفسي كثيراً إذ وجدت أن الايحاء بالحب عن طريق الخطابات وقصائد الشعر المنثور بالانجليزية عبث أطفال وأشياء لا

البيضاء

يلجأ اليها إلا المراهقون الحمقى . وأنا لم أكن مراهقاً ، كنت في الخامسة والعشرين ، وأتحمل من المسئوليات ما يعجز عنه رجال في الأربعين والخمسين . . وكنت قد وضعت نفسي في موقفها ورأيت أني لو كنت مكانها لما فكرت أبداً في حب شاب يلمح لي بعواطفه على تلك الصورة . قلت لنفسي : الحب بالنسبة للمرأة يعد أكبر حدث في حياتها ، وحين يحدث يصبح هو كل الحياة، ولا يمكن أن تهب المرأة حياتها صدفة لإنسان ضعيف. ومن يجعل الخطابات وسيلته للاعتراف بالحب ، إنسان خواف ضعيف لا يمكن أن يملأ عين امرأة يستولي على نفسها أو حتى انتباهها.

كنت قد صممت على نبذ كل تلك الوسائل الملتوية، وعلى أن أعترف لها بصراحة ومواجهتها بكل شيء. . وأن أتقبل النتائج بشجاعة مهما كانت . واعترافات كهذه لا تتم إلا في جو معين ، وفي حالة معينة حالة يتقارب فيها الطرفان تقارباً شديداً، حالة تخرج فيها كلمات الحب في جو أليف يلفها ويحتضنها ويعطيها طعم الحب .

ولهذا دق قلبي.

فمثل هذا الجو لا يأتي إلا بعد عناق طويل مثلاً، أو قبلة، أو تجاوب أكيد مشترك .

وجلست صامتاً صمت من يتحين الفرصة ويعد العدة للانقضاض . وجلست على طرف الكرسي ذي المساند، ووجهها قد استرد حمرته وملامحها قد استردت نشاطها وحيويتها.

وقدمت لها سيجارة وجلسنا ندخن في صمت. وأمامنا جهاز أوتوماتيكي لصنع القهوة كان أول وآخر هدية أتلقاها من أخي الأكبر. وكان

ثالثنا كلما جلست مع سانتي . . ندخن ، بخار القهوة يتصاعد في أزيز رقيق وسحب الدخان تتكاثف ثم تنقشع . والضوء في الحجرة قليل والزمالك من حولنا واحة سكون مستتب، وعلى وجهي ابتسامة معوجة لا تطاوعني كلما حاولت أن أجعلها ابتسامة حبيب اختلت وكادت تصبح ابتسامة أبله .

وبدأت حديثاً متعمداً عن الشقة الجديدة، وقالت إنني بانتقالي قد وفرت عليها المسافة والزمن . ولم أحاول أن أسألها لماذا . وكأني كنت قد عاهدت نفسي على ألا أسألها عن شيء لم تتطوع هي بقوله ، فلم أحاول أبداً أن أعرف كنه عملها هي الغنية التي كان واضحاً أنها ليست في حاجة للعمل ولا أين تسكن ومع من وكيف تحيا؟

وقامت من تلقاء نفسها تتفرج على الشقة ، وقمت مضطراً وراءها . كنت طوال الوقت أفكر في الخطوة التالية والطريق إلى الخطوة التالية ، وكل ذرة في كياني تتأهب للحظة التي ظللت أتحفز لها طيلة الأيام الماضية .

وعدنا إلى جلستنا ، وبدأنا حديثاً ما في السياسة، ولاحظت انها تسرح قليلاً . ربما كانت متعبة، ولكني كنت أفسر سرحانها لمصلحتي . قلت لها وأنا أريد فقط أن أواصل الحديث كي لا يحل الصمت . وعدوى المرعب من ذلك اليوم كان هو الصمت، أي صمت .

ـ يحيرني شيء فيك .

فقالت وهي تحاول أن تخمن ما يحيرني :

ـ ماذا ؟

قلت :

ـ فتاة حلوة مثلك، ماذا يدفعها لعمل شاق معنا ؟

قالت وهي تضحك :

البيضاء

ـ تقصد أن تؤنبني لأني أحشر نفسي في قضيتكم ؟

وحاولت أن أحتج ولكنها مضت تقول:

ـ اسمع ! إنه شيء من الصعب تفسيره، وأنا شخصياً كثيراً ما أسأل نفسي هذا السؤال ولم أجد له أية إجابة محددة. أنا أجنبية حقيقة، وحتى الفترة التي عشتها هنا كنت فيها أجنبية أحيا في مجتمع أجنبي كامل. ولكن العطف أبداً لم يكن هو الذي دفعني للاهتمام بشعبكم وقضيته وربما هي أنانية مني. ولكني أسعد بهذا العمل جداً، ولو حرمت منه أعتقد أني سأحزن كثيراً، بل ربما لا أستطيع البقاء هنا، هناك أناس هكذا لا يستريحون إلا إذا أتعبوا أنفسهم.. يبدو أنني من هذا الصنف.

وشاركتها ضحكتها القصيرة المنخفضة، وفعلت هذا استعداداً لسؤالها ذلك السؤال الذي أردت دائماً أن أعرف إجابتها الحقيقية عليه :

ـ هل تحبين بلادنا وشعبنا حقيقة يا سانتي ؟ كحبك مثلاً لليونانيين ؟

وصمتت قليلاً قبل أن تجيب. وجدت صمتها يقلقني وكأني كنت أسألها عن حبها لي. وبقلق أعظم مضيت أترقب إجابتها. قالت :

ـ حتى لو قلت لك اني أحبها أكثر من اليونان فلا تصدقني.

ـ ولكنك ولدت فيها وقضيت عمرك كله هنا.

ـ ولو! اسمع.. اني مستعدة أن أموت من أجلكم، ولكن كل عائلة تغادر بلادها وتهاجر تصبح كالمركب الذي يرفع علم بلاده دائماً وفي أي مكان. وأنا ولدت من عائلة يونانية، أي عشت طوال عمري على أرض بلادي. ولكن صدقني حين أقول لك إني على إستعداد لأن أفعل أي شيء، حتى الموت نفسه من أجلكم.

وجدتها قد بدأت تنفعل فقلت وأنا أضحك وأنهي الموقف :

ـ على العموم يكفينا منك هذا . .

وخفضت رأسها في شرود.

وكنت من لحظة أن جاءت أقول لنفسي : هه . . الآن .

ثم أعدل في اللحظة التالية .

ووجدت جسدي يقشعر فجأة، واعتقدت ان اللحظة قد حانت فقلت لها :

ـ فلنسمع رحمانينوف.

ومضت مستسلمة الى « البيك آب» وفتحته وانحنت تضع الأسطوانة فقمت من جلستي خلف المكتب، وفي خطوات متعثرة مترددة وصلت إلى « البيك آب »، وفي تلك اللحظة كانت قد أغلقته وارتكزت عليه وتصاعدت أنغام البيانو تعلن بداية الكونشرتو الثاني .

قلت لها :

ـ سانتي . .

فنظرت إلي باستغراب قليل وقالت في ابتسامة مذهولة أو ذهول مبتسم :

ـ ما الأمر يا يحيى ؟ آه . . ما الأمر ؟

وارتجفت يدي وأنا أحملها فوق طاقتها لترتفع ثم تستقر فوق كتفها وظلت ترتجف حتى بعد أن استقرت فوق الكتف النحيف. لم أكن قد رتبت لهذه اللحظة ما أقوله، كنت قد تركت كل شيء للظروف والصدفة ولهذا قلت بعد تردد :

ـ ما رأيك ؟

فقالت بنفس الدهشة:

ـ في ماذا ؟

فقلت وأنا أضحك لأحيل الموضوع إلى نكتة ، حتى إذا فشل المشهد لا أصاب بخيبة أمل كبيرة :

ـ فيما قلته في ذلك الخطاب . . أتذكرينه ؟

وكادت تضحك، وقالت وهي تتخلص برشاقة وبلا إحراج من يدي المستقرة فوق كتفها :

ـ ألا ما زلت تذكره؟ . . . لقد نسيت أنا كل شيء.

وكنت أعرف أنها لم تنس أي شيء. ولكن ماذا أقول؟ قلت:

ـ ولكني أنا لم أنس شيئاً .

ـ يح . . يا .

قالتها وهي تميل برأسها قليلاً تستنكر وتلوم . .

وتتابعت دقات قلبي عنيفة مدوية، وقلت وأنا أمسكها بكلتا يدي:

ولن أنسى شيئاً أبداً. . أبداً . .

وجذبتها ناحيتي .

وارتدت إلى الخلف بلين أول الأمر تريد أن تواصل خطتها في التخلص مني بلا إحراج، ولكني لم أذعن لمقاومتها اللطيفة وجذبتها أكثر، فقاومت أكثر.

وتبخر كل حدس وتخمين .

كنت أظن أني لو استطعت أن أتغلب على خجلي ومقاومتها مرة

وعانقتها ، فسينتهي كل شيء وستخضع للأمر الواقع .

واندفعت أضمهـا بشـدة. ووجـدت مقاومتهـا تشتـد هي الأخـرى وتعنف.

وأحسست بالمرارة تملأ نفسي ، لا لأنها قاومت بشدة ، ولكن لأن تلك المقاومة وبتلك الدرجة كانت تعني أنها في واد وأنا في واد آخر مختلف تماماً . لو كانت تحس بمثل ما أحس به لما قاومتني هكذا . وأنا كنـت أقول لنفسي أن ما ينقصها لإظهار عواطفها هو لحظة مناسبة تحين ، وها هي اللحظة تأتي فلا أجد سوى المقاومة .

حدث كل شيء بسرعة ، وبسرعة أيضاً انتهى المشهد. وكنا لا نزال على وقفتنا بجوار «البيك آب» وكلانا يواجه الآخر ويتحـداه ، وشعرهـا مشعث منكوش ، واحمرار وجهها يضج بالانفعال والاستنكار. وأنا أنظر إليها نظرات تحفل بالمقت والكراهية وخيبة الأمل. وأكثر من هذا فيضان عارم من الخجل . . خجل منها وخجل من نفسي . . خجل كان له وقع كاو مؤلم أكاد أصرخ معه وأستغيث.

وقفنا يواجه كلانا الآخر . في وجهها شيء أشبه بالشر المستطير ، وفي وجهي ابتسامة باهتة سخيفة كافحت لكي احتفظ بها حتى تمنع انبثاق كل ما في جوفي من نوايا مستطيرة هي الأخرى . وكل هذا وأنغام رحمـانينوف الرقيقـة الحالمـة لا تزال تتصاعـد من «البيك آب » ولا نزال مضطرين لسماعها ، والجو ملبد حافل مشحون لا مكان فيه لرحمانينوف .

ظلت سانتي واقفة جامدة للحظات تحدق فيّ ولا تتكلم ، وتحديقها يستفزني لدرجة أفكر معها في معاودة الكرة . وخاطر شرير يهيب بي أنها

البيضاء

إنما تحدق هكذا من أجل ان أعيد الكرة ، وجبن غريب يشلني عن أن أفكر مجرد تفكير في المحاولة .

وتحركت فجأة وبحثت عن حقيبتها بسرعة .

وتابعتها بلا مبالاة أول الأمر، ولكن صمتها الذي طال أقلقني فقلت لها :

تريدين طبعاً أن اعتذر لك ؟

ولم يهمني ما غمغمت به . ولكن كان يحيرني ويخيفني هذا الاستنكار الضخم الذي كان يشع من ملامحها . وكان عقلي مشحوناً بافتراضات كثيرة، وارتباك أكثر، وهاتف طاغ يهيب بي أن آخذ مقاومتها تلك على أنها مقاومة الأنثى الطبيعية جداً، ولكني أرى وجهها، وفيه ذلك الشر الأصفر المستطير فأتردد، وأحس أني مرة أخرى أمام ذلك اللغز الأبدي . . المرأة، ذلك الكائن المجهول العقل الذي لا نعرف مهما خمنا ماذا يدور فيه وماذا يريد وماذا يرضيه وماذا يسخطه! المرأة، الحياة وسرها معاً، اللغز الحبيب المقيت .

وكانت حركتها هستيرية عصبية. ورغم كل ما كانت فيه من اضطراب واستنكار فقد وقفت أمام مرآة الصالة وأصلحت شعرها.

ولم أدعها تغادر الشقة وحدها .

وركبنا « تاكسياً » .

وقالت بعد صمت غامض محير طويل:

ـ لن أسكت عما فعلت .

وكانت قد انتابتني حالة رثاء للنفس أكاد أبكي معها، لا لما حدث

ولكن لأني برغم ما فعلته لم أجد عندها صدى، ولم تستجب.

وقلت لها وموجة اللامبالاة التامة تعود:

ـ أنا لا يهمني شيء بالمرة . لقد فعلت ما فعلت مدفوعاً بعواطفي نحوك. وأنا مستعد أن أتحمل نتيجة اندفاعي.

قالت:

ـ لو كنت أتصور أنك قد تفعل شيئاً كهذا لأختلف الأمر ، ولكني كنت أعاملك على مستوى آخر.

قلت لها بضيق:

ـ أرجوك ، ليس هناك داع للتأنيب. . إذا أردت حتى إقامة دعوى علي أقيميها. لست نادماً ولا آسفاً.

كنا لا نزال نحيا في اللحظة التي أعقبت محاولتين ،ولا يزال جو التوتر والتأثر سائداً.

وحين كان التاكسي يقترب بنا من بيتها في كوبري القبة قلت لها :

ـ معنى هذا أني لن أراك .

والتفتت إلي مأخوذة كمن مستها صاعقة وقالت :

تراني ؟

وأمرت التاكسي بالوقوف قبل منزلها . ودون أن تنظر إلى هبطت بسرعة ثم غادرته ورأسها مرتفع في كبرياء مصنوع .

وتذكرت وأنا أراها تمضي بسرعة في الطريق الجانبي المظلم الذي اختارته لوقوف التاكسي ، تذكرت انها ـ كما قالت فتاة المستوصف ـ تمشي كشيتا .

ولوى السائق رقبته في خيبة أمل وكأنه يشاركني المأساة وقال :

ـ هيه يابيه . . نرجع ؟

فقلت :

ـ أيوه . . بآخر سرعة.

ولم يكن ورائي شيء أفعله بالمرة ولم يكن هناك داع للسرعة ، ولكني كنت أحس بجمرة خبيثة تنهش صدري من الداخل ، وأنا لا أقوى على منعها أو تخفيف حدتها . جمرة نقمة على نفسي ، وإحساس صارخ زاعق بالهزيمة . . الهزيمة في أصوات قطارات آخر اليوم المبحوحة في الطريق الطويل الخالي ، في الضيق المجنون الذي تحفل به روحي والذي يصفر في عقلي ويهيب بي أن أخنق أحداً أو يخنقني أحد أو أن لم أجد أخنق نفسي ، أقبض عليها بيدين من حديد وأظل أضغط حتى يحتبس إلى الأبد كل ما في صدي من غيظ ، أشد سواداً من الظلام الحالك الهائل الرابض فوق صدر القاهرة .

وصلت إلى البيت ، وصعدت في السلالم الطويلة بلا روح ولم يضايقني أني فتشت في جيبي لأعثر على المفتاح قبل الوصول إلى باب الشقة فلم أجده . فلأكن قد تركت الباب مفتوحاً ، أو فلتكن قد ضاعت المفاتيح وفقدت . ماذا يمكن أن يحدث أسخف وأسوأ مما حدث ؟ ووجدت الشقة مغلقة ، ولحظتها فقط بدأت أحس بالضيق . كل همي كان أن أعثر على مكان أستطيع ان اتمدد فيه وأستريح . حاولت فتح الباب بالقوة ، ولكن لدهشتي الهائلة وجدت يداً تفتحه من الداخل ، ولم يكن هناك وقت لأفترض أو أخمن أو أخاف . .

فقد فتح الباب وأطل منه وجه ، وجه ويا للغرابة ! وازدادت دهشتي

اتساعاً، وجه أخي الصغير فقد كان في التوجيهية في مدرسة اقليمنا، فماذا جاء به وكيف جاء ؟ أسئلة لم تمنعني ان أرد على هتافه الفرح حين رآني بعناق طويل، وللحظة خاطفة أحسست أني لست وحيداً منبوذاً في هذا العالم ، وعلى الأقل لي أخ كهذا يحبني حباً مطلقاً بريئاً من كل قيد وبلا مقابل، أخ لي ، لا لست وحدي. وكنت ـ أنا الكبير ـ أنهار على كتفه الصغيرة باكياً منتحباً، وكأني الابن الضال عثر فجأة على عائلته .

وعرفت انه جاء في رحلة مدرسية، وأنه سأل على العيادة حتى وجدها وهناك دله عنتر على البيت الجديد. أية جهود شاقة بذلها هذا الفتى الذي لا يعرف إلا شارعاً أو شارعين في القاهرة ليصل إلى ، إلي أخيه ، وأية أحلام بناها على ذلك اللقاء . وأي قلق عظيم سببته له، جاء فوجد الشقة مفتوحة ومظلمة « فعداد النور كان لم يركب بعد» . وكيف جلس قرابة الساعتين ينتظرني خائفاً خوفاً مضاعفاً أن يتضح آخر الآمر أن الشقة ليست شقتي ويعامل كما يعامل اللصوص . وكيف هداه تفكيره لشراء شمع أوقده، وزاده شكاً في الشقة إذ كان أثاثها قد تغير معظمه، ولولا السرير السفري ذو القاع الهابط الذي يعرفه جيداً لما استطاع البقاء في الشقة لحظة .

وكم لعنت نفسي وأنبتها للشعور الحقير الذي راودني بعد انتهاء أخي من حكاية ما صادفه لكي يلقاني، لم أكن أريد رؤية أحد في تلك الليلة أو الحديث مع أحد ولو كان أحب الناس لدي. لم يعد في نفسي قريب أو بعيد . سانتي كانت في ناحية والعالم كله في ناحية أخرى ، وكل طاقتي على الحب والاهتمام كانت موجهة اليها، وكل الناس غيرها سيان . لم يبق في قلبي أية عاطفة قليلة أو كثيرة أحيط بها ذلك الأخ الآتي وفي ذهنه سهرة جميلة لابد سيهيئها له أخوه الكبير الموظف الطبيب.

البيضاء

كنت مغلقاً عيني أحاول أن أطرد أي شيء آخر من رأسي، أفكر فيما يمكنني عمله لإسعاد هذا الضيف الشقيق أو على الأقل اشعاره بحبي له واعتزازي به ، وعقلي يتمرد على هذا وذاك فلا يستطيع طرد أي شيء، ولا يستطيع إدعاء حب أحد. كنت هكذا حين تبينت أنه قد وقف أمامي حائراً محرجاً تتلعثم الكلمات في فمه وهو يحاول أن يختلق عذراً ليذهب ويبيت مع بقية الطلبة في أحد فنادق وسط البلد. وعرفت انه فهمني كما تعود ان يفهمني، وأدرك انه اختار وقتاً غير مناسب لمجيئه، وأنه ليس غاضباً مني ولا ثائراً علي ، وإن كل ما يريده هو راحتي.

كلمات متلعثمة جعلتني أزداد حقداً على حقدي وأتساءل عن كنه تلك النفس التي تسيرني وتتحكم فيّ. ولماذا هي جاحدة ناكرة للجميل ؟ ولماذا لا تقصر حبها على من يحبونها فعلاً وبالذات أولئك الذين لا عمل لهم في الحياة إلا حبها.

واعتبرته كبيراً وفاهماً، واعتذرت له ووعدته ان أشرح له كل شيء يوماً ما . . وطلبت منه أن يحضر في الغد وأكد لي أنه سيفعل، ولكني عرفت انه يكذب وأنه لن يأتي.

أحسست بالارتياح فعلاً بعد ذهابه، وكأن مشكلتي كلها كانت في وجوده. . وبنفس السرعة التي يدور بها ضوء الفنار كنت قد جمعت أحاسيسي التي شتتها وجود أخي ، وكنت قد عدت إلى حالتي الأولى التي تركتني عليها سانتي .

وثبت الشمعات الخمس التي تركها أخي في طبق شاي ووضعتها أمامي مشتعله كلها على المكتب، وثبت رأسي بين كفي وهامت عيناي في ضوئها الموحش المهتز ، وفي عقلي ألف خطة . .

ولكني آثرت أن أتصرف بحكمة وتعقل وأفكر.

وحاولت التفكير فلم استطع . . وجدت نفسي لا أزال أسير حالة اللامبالاة التامة. حالة أحس معها أنني لا أريد الحياة، وغير مهم أن أحيا ، وأي شيء له عندي نفس أهمية أي شيء آخر . حالة تفقد فيها الأشياء أبعادها ومعانيها ولا يصبح فارق ضخم بين أن أكون مسجوناً أو طليقاً، ولا بين حبي لإنسان أوكرهي له . لم أكن أدري لماذا حدث كل ما حدث ؟ ولا ماذا يمكن أن يحدث بعد كل ما حدث ؟ أحاول التفكير أحياناً لا لكي أجد حلاً، ولكن لمجرد أن أستخرج نفسي من حالة اللامبالاة هذه فأقول : ان الخطأ كان خطئي، فصحيح أنه بالمحاولة التي تمت بعد الظهر قمت بعمل لم أكن أتوقع ان أجرؤ على القيام به ولكن الخطأ أني كنت حملاً أرتدي جلد ذئب. ولو فعلت ما فعلت وكلي ثقة بنفس ورجولتي لما فشلت. الكارثة أني حاولت وأنا ضعيف، وأنا فاقد الثقة تماماً في نفسي، وأنا ضامن أن النهاية ستكون هكذا وإني سأفشل. ومن يحاول فقط ليفشل فلا بد أن يفشل. وأحياناً ألقي اللوم عليها فأقول انها هي التي خدعتني. وإنها هي التي ألقت لي بألف طعم، فلما ابتلعتها غدرت بي واستنكرت وادعت الذهول. . ورغم هذا فقد كنت أحاول ان أبحث في نفسي عن ذرة حقد واحدة عليها فلا أجد. كل ما أجده خواطر تحاول أن تتلمس الاعذار لكل ما فعلته وتحملني أنا الأخطاء بالعشرات .

وكدت أعود لخنق نفسي بالدموع .

لماذا أنا تعس هكذا؟ يقولون ان الحب يسعد الناس ، وأنا لم أحب مرة إلا وشقيت، وكأني لا أحب إلا لأشقى. لماذا الحب من أصله، أو إذا كان لا بد، فلماذا اختار طريق العذاب والألم ؟

أية قوة مجنونة داخلي تدفعني دائماً لتمزيق نفسي؟

٩

وفي الصباح لم أذهب إلى المكتب. أبلغتهم أني مريض وطلبت اجازة يوماً ورقدت في الفراش أدخن وأفكر وأتحسر.

في الحقيقة كنت أحس فعلا بأعراض مرض لا يمت إلى الأمراض الجسمية أو النفسية، مرض ثالث يصيب أفكارنا ونحس معه أن أجسامنا صحيحة حقيقة، وكذلك حالتنا النفسية، ولكن عقولنا لا تعمل كما يجب، بل لا تريد أن تعمل بالمرة، ولا تستطيع حتى أن تنجز الأعمال الروتينية.

كنت ممداً أشعل السيجارة من السيجارة أكاد لا أصدق أن سانتي التي كانت هنا بالأمس أقرب ما تكون الي، قد أصبحت الآن أبعد ما تكون عني.

ودق الباب.

وقمت، وفتحت.. كان شوقي.

وقلت لنفسي: لابد أنها ذهبت وقصت عليه كل شيء.

وحتى هذا الاحتمال الخطير لم يستطع أن يحرك عقلي الهامد الخامد، فقد تصورته وأنا فاقد الحماس، ولم أجد لدي الرغبة حتى في إطالة تصوره.

غير أني وان كنت لم أتحمس للخاطر ـ الا أني تحمست لقدوم شوقي، فقد سرني أنه ظل يحتفظ بالعنوان الذي اعطيته له، وأنه جاء.. وجاء في اللحظة التي كنت قد بدأت أحتاج فيها لصديق، لمجرد وجود صديق. وصداقتي لشوقي كانت متينة عميقة الجذور، أعمق من كل رباط فكري أو ثوري جمعنا حتى أنها ـ أي تلك الصداقة ـ كانت تعتبر تهمة وإنحرافاً في نظر جماعة تحرير المستعمرات. أيام الإضرابات التي كنا نقلب فيها الأوتوبيسات وعربات الترام ونحرقها أمام كلية الطب، خطر لي مرة أن أدخن سيجارة تاريخية وذلك بأن أشعلها من أوتوبيس كنا قد انتهينا لتونا من إحراقه. ورغم صراخ الطلبة وتحذيرهم لي بأن العربة ستنفجر فقد ذهبت وأشعلت السيجارة. وحين عدت وقد حققت أمنيتي وجدت طالباً واقفاً عند باب الكلية قد أخرج من جيبه سيجارة «فرط» وذهب هو الآخر وأشعلها من العربة. وأعجبني منه أن نفس النزوة انتابته ولم يتردد في تنفيذها، وتعارفنا وتحادثنا ووقفنا ندخن.

ومن يومها صرناصديقين برغم أنه كان في كلية الهندسة وكنت أنا في الطب. وصداقة غريبة تلك التي جمعتنا فقد كنا لا نلتقي الا بمظاهرة أو باضراب أو في مؤتمر. وما لبثنا أن اكتشفنا ميلنا نحن الاثنين إلى الصحافة بل دفعنا هذا الميل لأن نشتغل ونحن طلبة في جريدة «النداء» ثم نتركها وقد أدركنا أن المجال الحقيقي لطاقتنا هو الكتابة والأدب والفن. ومنذ أيامها لم نفترق.. انضممنا لجماعة تحرير المستعمرات معاً، ودخلنا معتقل ٤٨ معاً، وعملنا في القنال معاً.. وتخرجنا في سنوات متقاربة وضمتنا المجلة بعد التخرج.

دخل شوقي من الباب، ولم يكن يبتسم حين يجيء ولا يهش لك إذا قابلك، ولكنك أنت الذي كنت دائماً تبتسم له إذا جاء، وتهش له إذا

البيضاء

قابلك. ومهما تكن حالتك كنت تحب أن تراه. إذا كنت في مأساة أردته وإذا كنت في فرح يسعدك أن يشاركك.

وقفت أراقبه وأحصي عليه حركاته لأعرف ان كانت سانتي قد أخبرته.

ولم يفعل شوقي أكثر من أنه تجول في الشقة الجديدة وألقى عليها نظرة ما ثم قال وهو يهز رأسه:

ـ الزمالك؟

وفهمت قصده فقلت:

ـ أيوه.. بداية التحول إلى الارستقراطية.

وجلسنا في حجرة المكتب.. تمددت على الكرسي ذي المساند وجلس هو على كرسي المكتب، وأخرج من حافظته أوراقاً كثيرة ومضى يكتب ويحدثني. كان في إستطاعته دائماً أن يكتب وهو يتحدث.

وكل كلمة من حديثه وزنتها، محاولاً أن أجد لها معنى آخر غير ما يقصده دون جدوى.. كان حديثه هو حديثه المعتاد، وطريقته هي هي لم تتغير.

وأدركت حينئذ أن الموضوع لا يزال إلى الآن بعيداً عن متناول تفكيره.. ويا لغبائي! كيف كان بامكانها أن تخبره، ولم تكن هناك فرصة للقائه أو الحديث معه؟

وكأن هذا لم يرضني، فوجدتني أدفعه دفعاً رقيقاً ليناً لأن نخوض في سيرة سانتي، ووجدتني أفعل بطريقة خفية تكاد تخفى علي أنا نفسي.

وقلت له:

ـ الظاهر أن سانتي متزوجة.

فقال وهو يكتب وأطراف شعره الخشن وذرات الدخان الخارجة من فمه وأظافره الكبيرة منهمكة في عملية الكتابة:

ـ آه . .

وقلت في سري: لابد أنها حدثته عن نفسها.

وعدت أسأله وأغالط عن عمد:

ـ الظاهر أنها غير سعيدة في زواجها.

وتوقف عن الكتابة لحظة ورفع لي منظاره الذي كان لا يضعه إلا وهو يكتب، وقال بعينين متسائلتين:

ـ عرفت منين؟

قلت:

ـ ساعات بتزورني ونتكلم.

قال وهو يعود للكتابة:

ـ انت دايماً كدة تتوهم أشياء لا وجود لها. . دي لها قصة غرام مشهورة بجوزها.

وأحسست بكلامه يتدبب ويتحول إلى آلات دقيقة باترة تقطع كل ما تبقى من أملي. . أتلك هي الانسانة التي اخترتها لأحبها؟

ولكني لم أكن أفكر في هذا، كل ما كان يشغلني في تلك اللحظة هو من أين يعرف شوقي هذه المعلومات التي يدلي إلي بها في ثقة المتأكد من كلامه؟ وسألته، فقال ان لها قصة غرام معروفة، وحكايتها وحكاية زوجها الذي تركها ليحارب في قبرص يرددها الناس باعتبارها قصة بطولة غير عادية. . ولست أدري لماذا شعرت من الطريقة التي أجابني بها أنه لم يعرف القصة من أفواه الناس، ولكنه عرفها منها هي.

هما إذن لا يتحدثان في العمل فقط.

البيضاء

ورغماً عني وجدتني أفكر في الحديث الـذي دار بينـي وبين فراش المجلة عن مقابلاتها لشوقي، وعن تفاصيل حضورها، والملابس التـي ترتديها، وأوقات الاجتماعات.

ولكني حين رحت أنظر إلى شوقي لم أجد خلجة واحدة من خلجاته تنطق بأن هناك أي شيء غير عادي يدور خلف جبهته ذات العرق النافر.

ومن جديد عدت الى حالة اللامبالاة التامة.. حتى وأنا أودعه وأقول له كالعادة: أشوفك أمتى؟ شعرت ـ ربما للمرة الأولى - إنني أقولهـا له بطريقة روتينية محضة.

وأغلقت الباب، وعدت أسترخي في الفراش وأدخن وأفكر في قصة الغرام التي تزوجت بها سانتي.. ألهذا تستنكر حبي؟.. ألهذا قاومتنـي بوحشية؟

ومرة اخرى وجدتني غير مهتم بسانتي نفسها.. ماذا يهمني إن كانت تحب ما دامت لا تحبني أنا؟

ولـم يعد أمامي الا أن أقوم بتلك العملية البادية الاستحالة. أن أنسى سانتي.

وتصور عملية تبدأ تفكر فيها وأنت متأكد تماماً أنك لن تستطيعـهـا وانك غير قادر عليها، وحتماً ستفشل فيها.. عملية تبدؤها وأنت يائس من نجاحها، بل حتى وأنت لا تتمنى لها في أعماقك النجـاح.. أن أنسـى سانتي.

أجل.. يجب أن أدرب نفسي، ومن لحظتي تلك أمتنع عن كل تفكير فيها. فأي تفكير فيها يجسدها حية أمامي بدمها ولحمهـا، وفـي كل مرة أراها يشتد تمسكي بها. اني املك ارادتي ويجـب أن أستعمل إرادتـي

تلك. يجب أن أنهي هذا الاسترخاء الذي طال وأتصرف كرجل وكحازم.

وقمت منتفضاً من الفراش وصنعت لنفسي قدحاً من الشاي، وجلست على المكتب.

كانت الساعة تقترب من الرابعة وضجة قليلة تصلني من سلم الخدم.. وأبواب المطابخ تفتح وتغلق ودوي حركة المرور في شارع الزمالك الرئيسي تحوم كوطواط غير محدد الملامح فوق المنازل والبيوت والشاي آبنوسي اللون وبخاره يتصاعد في أمن وسلام، والسيجارة في فمي والقلم في يدي، وكل شيء معد للكتابة لانهاء ما تأخر علي من مواضيع مهمة للمجلة.

ولكن الورقة ظلت بيضاء أمامي، أحاول أن أقنع نفسي أنها لن تظل بيضاء وأني حتماً سأكتب فأملؤها بالرسوم أحياناً، وأحياناً أكتب اسمي واسم سانتي، ثم أعود وأشطبه وأرسم دوائر متداخلة، وفجأة أحس بدفعة حماس قوية فأمسك القلم في وضع أستعد لأكتب، ولكن بعد سطر واحد أدرك أنها دفعة حماس زائف، وان يدي قد توقفت من تلقاء نفسها، وانني ضيق إلى درجة البشاعة بما أكتبه.. فأشطب السطر وأعود احيط جبهتي بيدي وأكاد أصرخ: حتى الكتابة لا أستطيعها.

وفجأة سمعت جرس الباب يدق.

أرهفت أذني ولكني لم أسمع صوتاً، غير أني كنت متأكداً أني سمعت الجرس يدق.. فقمت، وقبل أن أصل إلى الباب بأمتار كنت قد لمحت خلف زجاجه شبحاً.. هي.. أقسم كانت هي.. رأسها الصغير، خيالها النحيف كان مرتسماً على زجاج الباب.. حتى ابتسامتها أقسم أني رأيت ظلها على الزجاج.

وفتحت.

البيضاء

كانت واقفة متكئة برأسها على ضلفة الباب وجسدها بارز إلى الأمـام وعيناها غارقتان في رمادية هالات، وابتسامة متعبة ولكنها حقيقة تطل من وجهها في تردد.

وخرج صوتها متعباً هو الآخر، ولكنه صوت الواثقة أن كلامها لن يرد:

ـ ممكن أدخل؟

كلماتها الانجليزية خرجت في تدلل حبيب ممدود، حتـى كدت لا أغادر فتحة الباب وأبقيها مستندة الى ضلفته هكذا، لتقول لي مرة اخرى وبنفس الطريقة:

ـ ممكن أدخل؟

وأغرب شيء أنها حين رأتني جامداً أحدق فيها هكذا قالتها. وتنحيت جانباً وقد بدأت أبتسم وأحس أن شيئاً خطيراً كان ينقصني وعاد، روحي ربما أو ما هو أكثر من روحي.

ودخلت تمشي بطريقتها المتعبة المتدللة، وأنـا واقف أراقبهـا وهـي تأخذ طريقها إلى الحجرة. أراقب ظهرها وهو يتمايل تعباً وتدللا، وأراقب احساسها بأني أراقبها وبأني أتفرج على مشيتها واني قادم وراءها حالا ولو كانت سائرة إلى آخر الدنيا.

وجلست هي إلى المكتب هذه المرة بعد أن طوحت حقيبتها وبلوفرها بإهمال على الكرسي. وارتكزت بكوعها إلى سطح المكتـب الزجاجـي وأضاءت مصباحه، وأضـيء وجههـا بالنـور المنعـكس من المـصبـاح وحفلت ابتسامتها بنشاط وعيناها بلمعة لم تكن موجودة لحظة أن فتحت لها الباب، وقالت وهي تبتسم في مزيج من المودة والاهتمام واللهفة:

ـ ازيك؟ هه أزيك؟

قالتها بالعربية. وخرجت الكلمات جميلة.. أجمل ما فيها لكنتها الأجنبية، وأروع شيء أن السؤال كان موجهاً لي أنا، أنا الذي ظننت بالأمس أن كل شيء قد انتهى.

وأجبتها مبتسماً، وظللنا نتبادل الابتسامات دون حاجة لأي حديث. كان يكفي أن أنظر لها وأبتسم فأجد ابتسامتي قد انتقلت إلى ملامحها وتبتسم هي لأجدني تلقائياً ـ وكأن أعصابها ثار عضلات ـ قد ابتسمت.

قلت لها وأنا لم أفكر بعد في سبب مجيئها، وما زلت لم أهضم بعد فرحتي به:

ـ لم تشكين لشوقي اذن؟

وابتسمت، وأحمر وجهها، ثم ضحكت فجأة.. وضحكت أنا الآخر.

وكان علي في تلك اللحظة أن أضرب بأي اعتبار آخر عرض الحائط وأن أقوم وأجتذبها من مقعدها وأعانقها وأقبلها وأحس بها بين ذراعي وأمرغ أنفي في رائحة شعرها، وأغمغم لها بكلمات غير مفهومة ولكنها أبلغ من أي كلام.

ولكني كنت آخر انسان في الدنيا باستطاعته أن يقوم بذلك العمل.

كنت لم أفق بعد من اللسعة المفاجئة التي كورت ارادتي وأعصابي. لم أكن أريد أن تتكرر المهزلة، بالاختصار كنت غبياً أو فضلت أن أتصرف بغباء وسلبية، وقد جربت الجرأة والايجابية فلم أنل منهما سوى الألم المروع، بل بما هو أبشع من الألم.. بالخجل المهين.

كنت مدركاً تماماً أن معنى مجيئها أنها قد أصبحت راضية، وأنها صفحت عن كل ما فات، ومستعدة أن تصفح عن أي شيء آت.

البيضاء

ولكن رأسي كان يدور به مئات الخواطر. كنت بالأمس قد يئست تماماً منها! لو كان قد تبقى لي بعض الأمل لتضخم هذا البعض وقادني اليها، ولكني كنت قد يئست تماماً. والأهم من هذا كان حديث شوقي عن غرامها بزوجها وقصة ذلك الغرام. بالاختصار كنت قد بدأت أحس أنها قد أصبحت شبه محرمة علي، وإن كان إحساسي هذا لم يرتفع إلى مرتبة الإدراك.

كانت أمامي، في استطاعتي أن أمد يدي وأخطفها، ولكن لم أكن أستطيع، وعاجز حتى أن أقنع نفسي بأني أستطيع. كانت الحقيقة المذهلة الغريبة التي لم أكن أتوقعها أبداً قد حدثت.. كانت قد جاءت. وليس سهلاً أن ينزلق الانسان من أقصى اليأس إلى أقصى الأمل دون أن يتمزق أو على الأقل يصل إلى مرحلة كالتي كنت فيها، مرحلة الشلل التام. أطبقت مرة على الفراشة فانتفضت مذعورة مستنكرة وطارت، وها هي ذي الآن قد عادت وحطت في مكان قريب، أقرب مما أتصور، بيني وبينها سطح المكتب اللامع فقط، فهل أنا مجنون حتى أعاود المحاولة مرة أخرى؟

كان لابد أن أتصرف بطريقة ما. لابد أن أفعل شيئاً أرد به على مجيئها. ونظرت اليها نظرة تعمدت أن أحملها كل ما استطعته من مكر وقلت:

ـ بالأمس قلت لك اني آسف لما فعلته، ولكن أتعلمين شيئاً؟

فرمشت بعينيها متسائلة، تساؤلاً لا معنى له فقد كانت تعلم ما أريد قوله، فاستطردت:

ـ لست آسفاً لأي شيء حدث.
وقالت وهي تزغر لي بألفة كالأم حين تنهر ابنها:
ـ يحـــ . . يا.

زغرة تغري بتكرار المعصية، ونهر يغري بتكرار الخطأ. ومن جديد عاودتني تلك اللحظات القصار التي نادراً ما كانت تعاودني، اللحظات التي أحس فيها بحبي لها دافئاً حلواً حنوناً غير مختلط باحساس بالذنب أو بتأنيب الضمير. اللحظات التي أتمنى لو تدوم أبداً وأبداً لا تدوم. اللحظات التي أحس فيها أيضاً أنها متيمة بي، وان كل ما أقوله أو أفعله محبوب، وكل ما يقال لي أحبه، لحظات السعادة.

وامعاناً قلت:
ـ ألم تخافي؟
فقالت:
ـ مم؟
قلت:
ـ من أن تعودي إلى وكر الذئب بقدميك.
فقالت بلهجة جادة نوعاً:
ـ وهل أنت ذئب حقيقة؟

وتمنيت لحظتها أن أتحول فعلا إلى ذئب وأنقض عليها، وآكلها بأسناني حباً كما تفعل الذئاب، ولكني قلت:
ـ ألم تقولي أنت هذا؟
فقالت وهي تموء:
ـ أوه. . لم أكن أعني.

وفي إجابتها لمحت قليلا من خيبة الأمل التي بدأت تأخذ طريقها إلى

البيضاء

حديثها ولهجتها. وكم ضج في صدري ألف هاتف قوي يهيب بي أن أنقض، وأن اللحظة التي انتظرتها دهوراً قد حانت، ولكن أقسم أني لم أكن أعرف ماذا كان يمنعني، فقط كنت أناضل ما يمنعني، وأقاومه وأفشل في مقاومتي فلا أجد ما أفعله إلا أن ألعن تلك القوى الخفية التي تربطني في مكاني من المقعد وتقيدني بقيود فولاذية لا ترى.

وبينما كانت سانتي تأخذ طريقها خارجة، وأنا واقف على الباب أودعها، كنت أعاني من حالة نشوة غريبة، ليست النشوة القصوى، ولكنها حالة ما قبل النشوة القصوى، إحساسك بأنه ربما غدا، ربما بعد غد سيقع الشيء. على الأقل أصبح لدي حد أدنى من الثقة بنفسي، على الأقل ضامن أنها ستأتي غداً. لم تقل هذا صراحة ولكني لمحته. الآن أستطيع أن ألتقط أنفاسي وأفكر وأتريث. والمؤلم أني لم أكن أستطيع أن أصدق أني سأصل إلى حالة النشوة القصوى هذه. لا أعرف لم؟ ربما لأني لم أكن أريد في قرارة نفسي أن أصل اليها أبداً.

كل ما حدث أني بدأت ـ كما يقولون ـ أفيق لنفسي قليلا بدأت أستعيد ذاكرتي ووعيي بعملي وبما علي من واجبات. وجاء شوقي وتحدثنا، والواقع لم يكن حديثاً، كان تأنيباً على طريقة شوقي المؤدبة الموجعة الحاسمة. وكان موقفي من المجلة يتدهور من سيء إلى أسوأ حتى اني لم أكن قد حضرت طبع عددين متتاليين، وكان حضورنا جميعاً واجباً مقدساً. فقد كنا نكمل تحرير المجلة و«توضبها» صفحات في يوم واحد، وفي حجرة صغيرة كالزنزانة كانت تجود علينا بها الجريدة الكبيرة التي كنا نطبع المجلة في دارها. ولم نكن كثيرين، وعدد الذين كانوا يفهمون منا في تلك العملية كان محدوداً جداً لا يتعدانا أنا وشوقي واثنين آخرين من الزملاء. وأعجب شيء أن الدار التي نطبع فيها كانت خصماً لدوداً لنا ولاتجاهنا، ولهذا كان صاحب الدار لا يسمح بدوران الماكينة

وبدء الطبع إلا بعد أن ندفع تكاليف العدد كلها. وتكاليف العدد كانت هي مشكلتنا الرئيسية التي نظل طوال الأسبوع نئن تحت وطأتها ونحاول تدبير أمرها، وغالباً ما كنا نفشل. وتأتي نهاية الأسبوع ويأتي يوم الطبع ونحن ما زلنا لم نجمع ثمن العدد بعد، وصاحب الدار أوامره صريحة ومشددة، والمواد قد انتهى جمعها وتوضيبها، والمسألة كلها متوقفة على جنيه أو اثنين، نجري هنا وهناك كالمسعورين يكاد يذهب بعقولنا ادراكنا أن جهودنا الضخمة الكبيرة التي بذلناها طوال أيام وليال موشكة على الضياع من أجل هذا المبلغ التافه.

ولهذا فيوم الطبع كان هو يومنا الأكبر الذي نحشد له قوانا كلها، ونظل واضعين أيدينا على قلوبنا خوفاً من صاحب الدار تارة وخوفاً من مصادرة العدد تارة اخرى، حتى تأتي الساعة الثانية أو الثالثة من صباح يوم الصدور. وغالباً ما كانت تأتي ونحن قد توصلنا بوسائل لا يكاد يصدقها العقل لدفع ثمن العدد والحصول على أمر الطبع، حينئذ نخرج ملوثين بحبر «البروفات»، جوعي، كادت تنفد سجائرنا. ولكن الشيء الأهم أننا نخرج وقد تأبطنا الأربع «كرتونات» التي قد تبلورت فيها وتجمعت جهود وكفاح العشرات من الناس لعشرات دستات من الساعات.

وكانت المطبعة تبعد من مكان جمع الحروف مسافة ليست بالقليلة كنا نقطعها سيراً على أقدامنا، نفتح صدورنا لنسمات الفجر، وكل منا تحت ابطه «كرتونة» يضمها إلى صدره ويتحسس حروفها البارزة كما يتحسس الكنز الثمين، ويتخيل أثرها حين تصدر في الغد وقد أصبح الحرف منها ألوفاً وتحولت آلاف حروفها إلى ملايين الأصابع والأيدي والقبضات التي تهز الشعب وتوقظه وتدفعه للحركة.. نحس بهذا كله ونحن في طريقنا إلى المطبعة كالجيش الصغير الذي ـ برغم كل ما هو فيه من إرهاق وتمزق وإجهاد الا أنه قد خرج ظافراً من معركته الأسبوعية الفاصلة.. ذلك

البيضاء

الظفر الذي لم نكن نطمئن إلى أنه قد أصبح حقيقة واقعة إلا حين تدمدم المطبعة وتدور اسطواناتها الضخمة وتقذف بأول دفعة من أعداد المجلة فنتناولها بشغف جشع، ونلوث بياضها الطازج بما في أيدينا من بقايا الحبر، ونطبع عناوينها الحمراء والسوداء الطازجة اللزجة على أكتافنا وأيدينا، ونقرأ العدد من أوله لآخره وكأنما نرى كلماته ومقالاته لأول مرة بعيون نهمة تكاد من فرط ما قاست لا تصدق أبداً أنها نجحت، وأن كل ما خطر لها من أفكار وآراء قد اصبح كلمات ثابتة خالدة لا تزول.

كان تأنيب شوقي مؤدباً موجعاً حاسماً ولم أكن أستطيع الرد عليه، لا لإحساسي بالذنب لأن إهمالي كان بسبب مشغوليتي بسانتي، ولكن لأسباب أكثر عمقاً وتأصلاً في نفسي.. أسباب كانت لا تزال حتى ذلك الوقت مبهمة غامضة لم تجد لها بعد جسداً من الكلمات أستطيع معه أن أعبر عنها وقولها. آثرت الصمت اذن، وآثرت أن أسمع وأهز رأسي هزة المعترف بتقصيره، وأن أعد شوقي في النهاية بأن كل شيء سيعود على ما يرام.

غير أن شوقي لم يقتنع بهزات رأسي وأخذ يسألني ان كنت أعاني من مشكلة ما هي السبب فيما أنا فيه، وهكذا كان الحال دائماً مع شوقي وأمثاله من المسئولين عن المجلة وعن الجماعة، فالانسان في نظرهم لا يمكن أن يقصر أو يتخاذل الا اذا كانت في حياته «مشكلة»، وحتى إذا اعترض على رأي أو قرار لا يناقش اعتراضه هذا مناقشةموضوعية، ولكن لابد أنه يفعل هذا لأنه يعاني من مشكلة ما عائلية أو شخصية. كان لا يمكنهم أبداً أن يتصوروا أن الانسان قد يعارض الشيء لأنه خطأ، لمجرد أنه خطأ

وأصر شوقي كعادته على أن سبب الارتباك الذي يسود حياتي اني لم

اتزوج، وإنني بالزواج سأحل مشاكلي الشخصية كلها وكعادتي أيضاً هزرت كتفيَّ لرأيه، فلم أكن قد فكرت في الزواج كحل للفراغ العميق الذي يملأ نفسي. لم أكن أستطيع أن أتصور أن شيئاً ممكن أن يملأ هذا الفراغ إلا إنسانة خارقة للعادة، إنسانة لم أكن قد حددت ملامحها تماماً، ولكنني واثق أنها موجودة وانني حتماً سألقاها يوماً ما، حتى سانتي ـ وهذا هو العجيب ـ لم أكن أعتقد أنها تلك الإنسانة التي أتصورها، وأبداً لم أفكر فيها كزوجة للحظة واحدة.

ولكن المهم أنها أصبحت عندي أهم من أية إنسانة كنت أحلم بها بل كان يخيل إلي أنني حتى لو وجدت الإنسانة التي أحلم بها ووضعت سانتي بجوارها فقطعا سأختار سانتي، لا لأن فيها كل ما كنت أحلم به من النساء، ولكن لأنها وهي الحقيقة المكونة من لحم ودم، أصبحت في نظري أروع من كل من حلمت بهن من النساء. حتى اقترابها مني في الحقيقة والواقع كان لا يفعل شيئاً اكثر من أن يغور بها في خيالها ويبعدها ويجعلها اصعب ما تكون منالا.

ونفض شوقي رماد سيجارته بسبابته كثيراً كعادته وقال بوجه جاد ـ ووجهه كان دائماً جاداً، ذلك النوع السمح اللطيف من الجد:

ـ يا بني مش ح يحل مشاكلك الا الجواز.

ولا أعرف لماذا انفجرت ضاحكاً وأنا أراه يقول هذا. وحين اكتشفت السبب الذي جعلني أضحك واندفعت إلى مزيد من الضحك الأجوف العالي، أدرك هو الآخر بذكائه السبب، وقال وقد أنقلب وجهه الجاد الى ابتسامة صريحة صافية:

ـ صحيح الجواز ما حلش مشاكلي أنا.. وإنما.. إنما يمكن يحل مشاكلك انت.

والحقيقة إن شوقي فوق صداقتنا المتينة ـ كان يعجبني جداً، وكنت شديد الحماس لشخصه وآرائه وأعتبر كلامه وتصرفاته عيون الحكمة ولكن الشيء الذي لم أكن أستطيع أن أغفره له هو كيف استطاع رغم كل عبقريته تلك أن يتزوج تلك الزيجة التي كنا نلمس جميعنا مبلغ خطئها وبشاعتها.

طالت جلستي مع شوقي وجرنا الحديث إلى موضوع الساعة، موقفنا من عبد المعطي النبوي رئيس تحرير المجلة السابق الذي حل شوقي محله بعد أن حكم عليه بالسجن، وقبل أن نختلف ويرتفع صوتنا ككل مرة نطرق فيها هذا الموضوع، قال شوقي وهو يخبط جبهته بيده:

ـ أسمع . . أنا نسيت حاجة.

ثم أخذ يكلم نفسه وكأنما ليذكر:

ـ أيوه. . أنا كنت جاي أقول لك ايه. . ايه؟ آه. . افتكرت. . أبلغك تكليفاً من مجلس التحرير. أيوه. . اسمع ياسيدي. .

قال شوقي ان المجلة لديها مشروع لترجمة مقتطفات منها إلى اللغة الفرنسية بشكل دوري في باريس وشمال أفريقيا، وانهم بحثوا فلم يجدوا إلا فتاة من أصل فرنسي هي التي يبلغ اتقانها للفرنسية درجة تؤهلها لهذا العمل، كل ما في الأمر أن لغتها العربية في حاجة لتقويم وتدعيم.

وسكت شوقي فقلت:

ـ وما علاقتي أنا بهذا؟

قال:

ـ علاقتك إنك مكلف بتقويتها في اللغة العربية.

وكادت ضحكة عريضة تنفجر من صدري وظللت أخنقها حتى استحالت إلى ابتسامة باهتة صبغت ملامحي، وقلت لأداري انفعالي:

ـ ومتى بإذن الله يبدأ هذا التكليف؟

ـ انت حر. . من الغد يمكنك أن تبدأ. وعلى العموم أنا أخذت لك موعداً منها الليلة . . فروح قابلها واتفق معاها.

قلت:

ـ الليلة امتى؟

ـ الساعة ثمانية.

وهمست لنفسي من وراء إرادتي ووعيي وإدراكي:

ـ أتكون هي دوائي؟

وكدت أدعو كالأرامل وأقول: يا رب!

وقبيل الثامنة هبطنا من البيت. وعند باب حديقة الأندلس وجدناها واقفة تنتظرنا. كانت من بعيد تبدو طويلة نوعاً ما، تكاد تعادلني طولا وكان قوامها مفصلا وممتلئا.

وحين اقتربنا خيل إلي أني رأيتها من قبل واحترت أين. وفقط بينما كنت أسلم عليها تذكرت. انها الفتاة الكبيرة التي كانت مع سانتي في «الباريزيانا» يوم التقيت بهما أول مرة! وسلمت عليها بحرارة طبعاً ومكث معنا شوقي ريثما عرفنا ببعضنا وابتكر لنا من عنده أسماء مستعارة ثم انصرف. وبقينا وحدنا، أو على وجه أصح تمشينا وحدنا بحذاء النيل. ومن الدقيقة الأولى رأيتها تضرب صفحاً عن قناع السرية الواجب وضعه وتسألني عن مهنتي وأين أسكن، وهل أنا أعزب أم متزوج، وتخلط هذا كله بالحديث عن الجو والفرق بين باريس والقاهرة. وبعد خمس دقائق كانت تحدثني بدورها عن حياتها الخاصة وعائلتها، وعن أبيها الشديد القاسي الذي يمنعها من الخروج، وعن أخيها الأصغر المعفرت، وأمها



«الرجعية» التي تمزق الكتب الثورية كلما عثرت عليها مخبأة في طيات مخدتها.

كانت طويلة، وجسمها له قوام الرياضيات، وشعرها أصفر. ووجهها أحمر، وتقاطيعها منسجمة، وجريئة تطرق أي موضوع بلا تحفظ وتعاملك وكأنك صديقها الحميم. ولكنك تحس أن تصرفاتها الجريئة التي توحي بثقتها الكاملة بنفسها، سببها بلا ريب هو ضعف ثقتها بنفسها.

وكنت أنا سائراً بجوارها أسترق النظر اليها وأختار أجزاء من حديثها أنصت لها باهتمام وأتأملها، وعقلي يقارن خفية بينها وبين سانتي، وحين لا تجدي المقارنة أروح - بوعي هذه المرة - أفتش فيها وفي قوامها وشخصيتها عن شيء يغنيني عن سانتي.

ولم يكن فشلي في العثور على شيء من هذا هو المشكلة. المشكلة إنني لم أحس لحظة واحدة أنها فتاة، أو أنها حتى تمت إلى جنس المرأة التي جاءت منه سانتي. وحديثها إليَّ كان كفيلاً بصبغها في نظري بصبغة الأنثى. أو على الأقل كان من الممكن أن ينم عن شخصية متميزة لها مجالها الخاص ودنياها وآراؤها الخاصة، ولكن حديثها لم يفعل شيئاً أكثر من أنه زاد تعميم صورتها في خاطري. فالمواضيع التي كانت تطرقها كانت إما مواضيع خاصة بها لا أستطيع أن أتحدث فيها، وإما مواضيع عامة تدلي فيها برأي عام مما تعود الناس قوله بحيث لا تجد لديك أي حافز يدفعك لمناقشته أو الاعتراض عليه. الفيلم الذي تعرضه سينما «كايرو» رائع. ماذا تقول؟ تجد نفسك تقول بلا حماس: فعلاً.. انه رائع. أو تأتي سيرة الازدحام فتقطع كلامها لتسألني فجأة: أنا أكره الازدحام، ألا تكرهه؟ ومن منا لا يكره الازدحام؟

ورغم هذا فقد كنت في عجب من نفسي، فهذه الفتاة كجسم وكقامة وملامح كانت قطعاً أجمل من سانتي، وعلى رأي فتاة المستوصف «خوجاية» هي الأخرى ولا تمشي كشيتا، فكيف بي لا أجد في نفسي ذرة واحدة من الاعجاب بها، أوحتى مجرد الاعتراف بوجودها أو بأنوثتها؟

كنا قد قطعنا جسر النيل من كوبري الخديوي اسماعيل حتى كدنا نصل إلى الجيزة، وتحدثنا في كل شيء قد يخطر على البال، ولم يخطر على بالها أبداً أن تبدأ حديث العمل. وكان ممكناً أن نصل إلى أسوان دون أن يبدأ الحديث لولا أني استدرت وعدنا أدراجنا ماشيين على شاطيء النيل الآخر، ووجدت نفسي مضطراً لأن أبدأ أنا أحدثها عن مهمتي تجاهها. وتطرق بنا الموضوع إلى الترجمة عامة، وهل الأكثر فائدة أن يكون المترجم متقناً للغة التي يترجم اليها أم اللغة التي يترجم منها. وطبعاً أدلت برأيها في الموضوع، وكالعادة جاء رأيها مدعماً للاعتقاد الشائع أن المترجم يجب أن يكون على دارية ضخمة باللغة التي يترجم اليها. ولا أعرف لم وجدت نفسي أصر على الرأي المضاد وأتحمس للدفاع عنه. ولدهشتي الشديدة وجدتها بعد قليل تقتنع وتغير رأيها وتوافقني على رأيي.

ولم نكن قد تحدثنا في تنظيم عملي معها أو وصلنا إلى قرار بشأن مواعيد الدروس أو مكانها، وكنا قد وصلنا في سيرنا إلى الزمالك، وكنت قد قدتها بلا وعي حتى أصبحنا قريبين جداً من بيتي وحين واجهناه وقفت على الرصيف المقابل وقلت:

ـ هنا أقطن.

فقالت:

ـ أين؟

قلت:

البيضاء

ـ في الدور الخامس.
فقالت:
ـ أنت مثلي تحب السكن في الأدوار العليا.
ولم أجد ما أعلق به.

ولكني كنت راغباً في توثيق صلتي بها، إذ من يدري ربما إذ تآلفت معها تنقطع شيئاً فشيئاً تلك القيود التي تربطني بسانتي، وأعود مرة أخرى حراً طليقاً كما كنت؟ فقلت:

ـ ألا تأتين؟
وخفت أن أكون قد قلت شيئاً أحرجها فأضفت:
ـ لابد أن تزوريني يوماً. . هه؟
فقالت بكل بساطة:
ـ طبعاً. . ألن آخذ الدروس عندك؟

ولمحت في عينيها حماساً لكي نبدأ بسرعة، تكاد تقول: لماذا لا نبدأ الان؟ مع أن الساعة كانت قد تجاوزت العاشرة مساء.

ولكنها قالت: هل يمكن أن نبدأ غداً. . يناسبك غد؟
قلت: مناسب جداً.

وسلمت عليها، سلمت محاذراً، وسلمت هي بقبضة ضخمة لا تريد صاحبتها أن تظهر ضخامتها فتلامس قبضتي برقة وسرعة.

وشعرت وأنا أصعد السلم برأسي كالمرجيحة الدائرية، تصعد فيها قواديس وتهبط أخرى؛ وأبتسم وأنا أنظر إلى مصيري مع هذه القادمة الجديدة، وأفكر بعمق حين تهبط القادمة وتصعد سانتي موردة الخدين مبتسمة غامضة، لا أدري معها ماذا يكون المصير.

ومرة أخرى وجدت نفسي جالساً إلى المكتب، وعلى الكرسي المقابل فتاة أجنبية، وبيننا كتاب المطالعة الأولية وجريدة يومية.

ومرة أخرى وجدت نفسي أصغي إلى الحلق الذي ركب أجنبياً وهو يجاهد لينطق الحاء والخاء والصاد ويتعذب ليحتوي الضاد.

وكانت المسرحية في نظري غريبة ومريرة في الوقت نفسه.

فلم أكن مع الفتاة الجالسة أمامي تدعي الاهتمام بالدروس.. كنت مع سانتي. كل حرف كانت تنطقه كان يذكرني بسانتي وطريقة نطقها له وحركة فمها وهي تقوله. كل سيجارة كانت تدخنها كانت تذكرني بدفعات الدخان وهي تخرج من فم سانتي الصغير الدقيق في كرة صغيرة زرقاء لا تلبث أن تتمدد وتكبر وتتبدد في النهاية ببطء وعلى مهل.

ويبدو أن القادمة الجديدة بدأت تحس بما يدور في نفسي فلم يفتني أن ألاحظ احساسها بأني لست تماماً معها، ولم يفتني أن ألاحظ أيضاً رغبتها الشديدة أن أكون معها، ومحاولاتها المستمرة لكي يتحقق هذا. وأغرب شيء أني كنت كلما لمحت هذا ازددت بعداً عنها وقرباً من سانتي، وكلما أحسست بها أكثر، خفت عليها أكثر وأكثر.

وكان الدرس يقترب من نهايته، وبدأت أدرك أني قد وقعت في مشكلة، فعملي ووقتي لا يسمحان لي بمقابلتها ومقابلة سانتي في يوم واحد، والمكان واحد هو بيتي؟

كان لابد أن أكذب عليها، وقلت لها إن ترددها على البيت خطر وأننا يجب أن نلتقي بعد اليوم في مكان آخر.

وصعقت الفتاة وراحت تقدح ذهنها لتفكر في حل للمشكلة.

البيضاء

ويبدو أنها يئست من إيجاد حل لها فقد لمحت اليأس مرتسماً بوضوح على ملامحها، وملامحها كانت بالمناسبة كالاناء الزجاجي الشفاف لا تستطيع أبداً أن تحول بين انفعالاتها وبين محدثها.

وإمعاناً أعدت عليها الكذبة وطالبتها بأن تحاول العثور على مكان آخر. ولم يكن طلبي هذا يخلو من مكر، إذ كنت قد أدركت من خلال ملامحها الشفافة أنها تريد مقابلتي بأي ثمن، وكنت سعيداً طبعاً بهذا الحماس. وكنت أريد أن أسعد أكثر وأن أجعلها تفعل المستحيل لتلقاني وتقدح ذهنها من أجل ذلك اللقاء.

وقالت أخيراً:

ـ آه! لقد تذكرت الآن.. ولكني لست متأكدة. أقابلك في الخارج غداً ثم أقول لك.

وقبل أن تخرج، تنحنحت نحنحة أنثوية بدت فيها كالرجال وقالت:

ـ هناك أمر.

ـ أجل.

ـ أعتقد طبعاً أنه لا يجب أن أعرف اسمك الحقيقي.

وأشرت بيدي علامة التهوين من شأن هذا الأمر، وقلت لها:

ـ لا عليك.. اسمي يحيى.

فقالت:

ـ الدكتور يحيى!

ـ اذا أردت هذا.

وسكتت وهمت بأن تقضم أظافرها ولكنها عدلت، وتنحنحت مرة اخرى وامتقع وجهها وقالت:

ـ ألا تريد أن تعرف اسمي الحقيقي؟ إذا اردت ممكن أقول. .

وخجلت، فقد كان من الواجب أن أكون البادىء وقلت بحماس مصطنع:

ـ طبعاً طبعاً. . باردون.

ـ اسمي لورا.

ـ هاللو لورا.

قلتها مازحاً لأغطي موقفي وأمد لها يدي، فقالت ووجهها محمر.

ـ هاللو يهيا.

ـ إلى الغد إذن.

وهبطت السلالم تكاد تتعثر في خجل لم أكن أعرف مصدره.

وثاني يوم وأنا آخذ طريقي إلى باب حديقة الأندلس لأقابل لورا، كنت اعاني من تناقض داخلي بشع. كان مفروضاً أن تأتي سانتي في نفس اليوم ونفس الميعاد وتجدني أنتظرها في البيت، وبشعور الأب العربي أيام الجاهلية وهو حامل ابنته في طريقه لدفنها حية خشية الفقر، أرغمت نفسي على أن أخرج للقاء لورا وأترك سانتي تأتي ولا تجدني.

وفي الساعة السادسة تماماً كنت أمام باب الحديقة، وقبل أن أنتظر أو أتلفت أو أحاول التفتيش في عشرات الوجوه القادمة والمقبلة شعرت بيد توضع على كتفي. من ملمس أصابعها عرفت أنها لورا، وأنها حضرت قبل الميعاد، وأنها ظلت تنتظرني حتى جئت.

وكانت أنيقة في ذلك اليوم بهذا الايشارب الأحمر الذي كانت تلفه حول عنقها.

وعبرنا الكوبري ونحن نتبادل حديثاً تافهاً، وظللنا سائرين في شارع «الخديوي اسماعيل» (وكان اسم التحرير لا يزال جديداً) حتى وصلنا ميدان الأزهار. ومن الميدان بدأت لورا تقودني خلال شوارع جانبية غريبة لم أكن قد رأيتها قبلا، فالعمارات التي فيها عمارات مبنية كلها على الطراز الايطالي أو الفرنسي ومتشابهة، وتحس أن القاطنين فيها كلهم أجانب وكأنها حي كامل من روما أو أثينا نقل بقدرة قادر ووضع في قلب القاهرة.

وقلت لها:

ـ وجدت المكان؟

وابتسمت لي ابتسامة من تقول: وهل في هذا شك؟

ونظرت لها وهي تبتسم، ولاحظت رغم قلة الضوء أن في وجهها نمشاً خفيفاً، وأن عينيها عسليتان في لون شعرها تماماً.

وأمسكت يدها ووضعتها في ألفة بين جنبي وذراعي ووضعت يدي الاخرى في جيب بنطلوني، وتركت لي يدها تماماً، ومشينا.

وكانت تمشي بسرعة وعجلة وحماس مضطرب كحماس صبيان المدارس الثانوية، ولاحظت فعلاً أن في تصرفاتها كلها آثاراً من تصرفات صبيان المدارس الثانوية.

والواقع أن امساكي بذراعها لم يأت صدفة. كنت أريد أن أجهز نفسي وأبدأ أحس أنها امرأة.. كنت أريد أن أداوي نفسي لا بالتي كانت هي الداء، ولكن بصورة أخرى شديدة الشبه بالتي كانت هي الداء...

بسانتي. . فسانتي من لحظة أن عرفتها كانت بالنسبة الي امرأة ومشكلة ولهذا ظلت علاقتي بها معقدة حافلة بالالتواء والمتناقضات. امرأة وزميلة ومتزوجة وتحب زوجها، ولا أكاد أعرف حتى إن كانت تعيرني اهتماماً يذكر أم أن اهتمامها بي ما هو إلا صدي لاهتمامي بها.

ولو لم أكن أؤمن ببعض المباديء والأخلاق لهان الأمر، ولاقتحمت سانتي بنفس الجرأة التي يقتحم بها الرجل العادي امرأة عادية. ولو كنت كامل الإيمان كامل الأخلاق لضربت صفحاً عن هذه العلاقة من أولها ولاستطعت الانتصار على «ضعفي» ولما جاءت المرأة أو المشكلة. . كنت أسمح لنفسي إذن بالمضي في الطريق مع سانتي وأنا لست راضياً عن نفسي ذلك الرضاء الذي يجعلني أنطلق معها كل الانطلاق.

ولست ساخطاً على نفسي ذلك السخط الكفيل بأن أقطع معه علاقتي بها. . وحلمي في أثناء هذا الطريق كان أن أعثر على بديل لسانتي. . على فتاة أخرى أحبها بلا مشكلة، وأسعد معها بلا تأنيب ضمير.

وحين وضعت الظروف لورا في طريقي. . لورا الأجنبية هي الأخرى، الخالية من أية ارتباطات، البادية الرغبة فيَّ، قلت: هذا هو الحل العبقري لمشكلتي. وكل ما كان ينقص هذا الحل أن أبدأ أنا أحس ناحيتها باعجاب، أو حتى برغبات. . وعن وعي كنت أفعل هذا، وعن إدراك كامل لما أريده احتضنت ذراعها محاولاً أن أحس بها أكثر وأقترب منها أكثر وأكثر. ولست أدري لم ظللت أحس طوال الوقت أن التي تحضنها ذراعي ذراع، مجرد ذراع، لا أستطيع لو أغمضت عيني أن أحدد جنسها أو أعرف إن كانت ذراع فتى أو فتاة. . مجرد ذراع.

ولم أيأس، وحاولت أن ألمح رغبتها فيَّ عسى أن تفلح في إثارة رغبتي

البيضاء

أنا. ولكني عجبت، فلم تكن مضطربة ذلك الاضطراب الذي توقعته، ولم أعرف إلا بعد مدة من علاقتي بها أن اضطرابها لا يظهر إلا على هيئة حماس وتهور وحديث لاهث سريع عن مواضيع طرقتها قبلا، عن أمها الرجعية وأبيها القاسي.

ولم أيأس أيضاً. . مضيت أتصور المكان الذي نحن في الطريق إليه. محاولا أن أجد في اختياره والعثور عليه أثار رغبتها الخفية فيّ، محاولاً أن أخمن كيف لفتاة مثلها أن تجد مكاناً يصلح لي ولها فقط، ولجلسة طويلة. . ترى هل تكون شقة صاحبة لها؟ وأنى لفتاة يبدو أنها تعمل في إحدى الشركات أن تكون لها صديقة تملك شقة بمفردها، بل تصورت أنها ذاهبة إلى بيتهم في غيبة أمها وأبيها.

ولم يتح لي أن أطيل في تخميناتي، فقد انحرفت إلى شارع جانبي مسدود، وحيت بواباً أسود كان جالساً مع زميل له، واخترقنا مدخلاً طويلاً خافت الضوء وكأن النور يأتيه من تحت الأرض. . وعند باب شقة في الدور الأول توقفت وأخرجت مفتاحاً من حقيبتها فتحت به الشقة ودخلت وراءها.

كان المكان مظلماً، وما إن دخلت وخطوت أول خطوتين حتى اصطدمت بها، وهمست متألمة معتذرة، وهمست أنا الآخر بكلام. وكان اضطرابي لمكان أدخله أول مرة، واصطدامي بها، وبحة همستها. . كانت هذه كلها كفيلة بأن تدفعني للتفكير فيها كامرأة، ولكني وجدت أن لهفتي على معرفة المكان واكتشافه كانت أكبر من رغبتي في الاصطدام بها مرة أخرى إذا طال الظلام. . ويبدو أنها أحست بهذا هي الأخرى، فقد أضاءت النور بسرعة وقالت بعصبية قليلة:

- هو ناد كما ترى.

وفعلاً كانت هناك طرابيزة بنج بنج، وبضعة كراسي، وخيمة رحلات مكومة في ركن، وبيك آب.. ولم أجد لدي كمية كافية من حب الاستطلاع تدفعني لسؤالها عن كنه ذلك النادي، واكتفيت بأن أخمن أنه لابد أحد النوادي الكثيرة التي يقيمها موظفو الشركات الأجنبية من الشباب.

وفي ركن من الصالة الكبيرة معد كالصالون جلسنا، وما زلت لسبب لا أعرفه أذكر هذه الجلسة بالذات. أنا على «فوتيل» ضخم غارق فيه، وهي على «فوتيل» ضخم آخر بجواري، وأنا واضع ساقاً فوق ساق، وهي جالسة متخفزة كالتلميذات، وكلانا يتحدث. وطبعاً لا أذكر ما قلنا بالحرف ولكني أذكر جيداً أننا لم نتحدث بحرف من اللغة العربية أو الدرس. كان حديثنا من ذلك النوع الذي يتبادله الاثنان ليغطيا حديثاً صامتاً آخر هرباً من ذلك الحديث الصامت.

وأحسست بشفقة عليها. جالسة كالتمثال الضخم الجميل وقد أعدت للقائنا عدته وحلمت به، وحين أصبحت أمامي، ها هي ذي رغبتها يضج بها جسدها كله. ولكنها تتجمدحين تصل إلى لسانها وملامحها.. شفقة تدفع إلى عقلي في أحيان خاطراً مجنوناً، لماذا لا أتصرف معها التصرف الطبيعي جداً في حالة كهذه؟ وعلى الرغم من جرأة الخاطر فقد كان يفد إلى عقلي هادئاًبسيطاً،وكأنه يفد إلىعقل انسان يتفرج على الموقف وليس صاحبه. وبنفس الهدوء والبساطة كنت أستسخفه وأنبذه بلا تفكير أو تردد، وأتكلم بحكمة وروية. لقد فقدت إيماني لحظتها بالحكمة والحكماء. ففي نفس الوقت الذي كنت أتصرف فيه كثوري شريف عاقل متزن، يجد في كل ما تحسه لورا مجرد مشكلة ويحاول أن يناقشها ويجد

الحلول المناسبة لها، كنت أدرك أن حكمتي وتعقلي سببهما انعدام رغبتي فيها، سببهما أن غرائزي كلها عقيمة تجاهها، وكنت أقول لنفسي: لابد أن الحكماء العقلاء أناس بلا غرائز، والناس العاديون بشر لهم غرائز. فلابد أن الحكماء ليسوا بشراً، وحكمتهم لا فائدة منها. فالحكمة موجودة منذ أن وجد الانسان، ومنذ أن وجد وهو لا يتبعها، ومنذ أن وجد والمسافة بينه وبين المثل العليا يصورها له حكماؤه هي هي لم تتغير. وكيف تتغير والذين يطلقون الحكمة أناس بلا غرائز ولا رغبات ولا نزوات؟ أنا ليسوا بشراً. يطلقونها ليتبعها أناس ذوو غرائز ورغبات ونزوات. . بشر عاديون.

وكيف يمكن أن يتبع البشر أي نصيحة غير بشرية؟ . . ألكي يصبح نبياً وملاكاً؟ . . ألكي يصعد إلى السماء؟ وما العمل إذا كان عمله هو البقاء على الأرض واستثمارها وتلطيخ نفسه بترابها وطينها وزرع ورودها؟

ألسنا في حاجة لأنبياء من البشر يحملون بيمينهم حسنات الانسان وبيسارهم سيئاته؟ أنبياء غير معصومين، حكماء من المخطئين، لا يقف الواحد منهم فوق ربوة عالية ويرسل لنا حكمته العليا السامية، ولكن يحيا معنا ويعرف قوتنا وضعفنا، وله عيوبنا ونقائصنا، ولا يفخر بكماله وسموه بقدر ما يفخر بما فيه من عيوب وبقدرته على معرفتها. ألسنا في حاجة لحكماء جدد يفهموننا، حكماء لا يأخذون منا موقف القاضي بقدر ما يأخذون موقف المحامي الشريف المدافع عن جنسنا بكل أخطائه وعيوبه ومحاسنه؟

أنا لم أقابل حكماء كثيرين في حياتي، ولكني رأيت بعضهم. وأغرب شيء أنهم كانوا دائماً أناساً سذجاً لا خبرة لهم بالحياة، ولا يعرفون عن البشر الا أنهم كائنات عليا سامية، وإن لم تكن كذلك فيجب أن تكون كذلك. وأنا لم أقابل في حياتي مجرمين كثيرين، ولكني قابلت بعضهم. قابلت قتلة ولصوصاً وتجار مخدرات ونساء ليل، وكان الواحد منهم أو

الواحدة منهن اكثر فهماً للحياة والأحياء من كل من قابلت من فلاسفة وحكماء. فهؤلاء العصاة يحبون الحياة ويرون الناس رأي العين ويحتكون بهم احتكاك الرجل بالرجل والانسان بالانسان. أما هؤلاء الفلاسفة والحكماء فقد وجدتهم لا يرون إلا ما في رءوسهم، وإذا حدث وقابل أحدهم انساناً لا يراه، ولكنه يرى ما يتخيله هو عنه.

انها مشكلة! فإذا كانت البشرية قد عانت الأمرين من العصاة أنبياء الرذيلة.. فهي قد عانت ـ وربما بدرجة أكبر ـ من أنبياء الفضيلة، وإذا كانت جريمة الأولين أنهم يبشرون بحيوانية الانسان، فجريمة الآخرين لا تقل عنها بشاعة، إذا هم يبشرون بما هو أسخف من الحيوان.. بالانسان السامي الكامل، باللاانسان.. وإذا كانت حكمة الأولين مدمرة لأنها قريبة إلى الغرائز سهلة التنفيذ، فحكمة الآخرين لا تقل عنها دماراً لأنها خيالية مستحيلة التنفيذ، تترك الانسان حائراً تائهاً عاجزاً ناقماً على نفسه. وكلتا الحكمتين مدمرة، لأنه ما من شيء يغل الانسان ويوقفه ويجعله يدور حول نفسه قدر إحساسه بالذنب.. وكلتا الحكمتين تولد إحساساً عظيماً بالذنب.. الأولى لأنه نفذها، والثانية لأنه يفشل في تنفيذها.

وطوال جلستي مع لورا كنت نبياً من أنبياء الفضيلة. أسمعها تتحدث عن مضايقات أبيها وأمها لها.. فأقول: يجب عليك أن تفعلي كذا وكيت. وأراها تتحرق رغبة في أن أنهي جلستي المستريحة وأبدأ معها حديثاً آخر، فأزجرها بيني وبين نفسي وأؤنبها على تلك الرغبة غير المشروعة بين زميلين. وأزداد تأنيباً لها بأن أحدثها حديثاً طويلاً عن كفاحنا ونجاحاتنا، ووجوب مضاعفة الجهود وقيادة الشعب في معركة حريته الفاصلة.

وكانت تستمع لكلامي وتهز رأسها علامة الموافقة السريعة المتحمسة

على كل كلمة أقولها، وتبتلع ريقها في خجل كالمؤمنة التي انساقت وراء أهوائها حين يذكرها أحدهم بوجود الله.

وفجأة احس بوضعها، ومشكلتها، والرغبة التي تؤرقها، ويغلبني شعوري كانسان فأغافل نفسي وأحاول أن أنظر اليها كفتاة ذات قامة فارعة وسيقان كأنها من صنع مثال.. ولحظتها فقط أدرك مدى خطورة حالتي وموقفي. لحظتها أدرك أني أحب سانتي، أحبها حباً هائلاً يملأ علي كل نفسي ولا يدع مجالاً حتى لنظرة غير محبة للاستطلاع ألقيها على فتاة جميلة كلورا وأنا معها وحيد في مكان مغلق خال.

ومضى وقت، وشعرت أن الموقف قد تجمد.. ولم يعد هناك جديد يضاف، فقمت وانصرفنا.

وفي اليوم التالي جاءت سانتي.. قابلتها بابتسامة اعتذار ضخمة وسبقتها وقلت اني آسف إنها جاءت بالأمس ولم تجدني.

فقالت:

ـ لا يهم.

قالتها وواضح عليها أنها غير مهتمة. ولم أستطع رغم كل محاولاتي أن أعرف أن كان عدم اهتمامها هذا تمثيلاً، أم أنه عدم اهتمام حقيقي. وقالت لي أن هناك حفلة موسيقية في قاعة «ايوارت» لعازف البيانو المشهور جورج تملي. وأرتني تذكرتين وقالت بابتسامة وبلا اهتمام كبير:

ـ أتأتي؟

وكأنما خافت أن أرفض، فلم تلبث أن قالت وقد استعادت طريقتها المتحمسة الماكرة المملوءة بالروعة:

ـ معي تذكرة زيادة كما ترى.

وقلت وأنا أركز انتباهي كله على فمها حين ضيقته وشكلته ليبدو ماكراً متحمساً.

ـ تعلمين طبعاً أني لن أرفض.

وفي المساء كنت واقفاً أمام ايوارت انتظرها وأحاول أن ألعب مع نفسي لعبة القط والفأر. أحياناً أقول سأقف في مكان لا تراني فيه حين تجيء لأدعها تنتظرني إذا جاءت، وأحياناً أسحب الفكرة. أحياناً أهيم في الوجوه الداخلة المقبلة في عربات وتاكسيات وأنتقي اجمل قادمة وأقول لنفسي: هيه.. لو خيرت بينها وبين سانتي.. فمن تختار؟

وأبتسم في سخرية، فمجرد المبدأ لا تقره نفسي.. والليلة ليلة شتاء والمعاطف الصوف، والقفازات، وازدحام المدخل. والناس حين تتفرج على الناس. وأنا واقف بينهم. أسعد منهم جميعاً. أستعذب انتظاري وأتطلع بعيون واثقة تجاه الميدان، عيون متأكدة أنه بعد لحظة أو لحظات ستبدو لها تلك الكائنة الحلوة الدقيقة. وستملأ حدقتيها ولن تعود ترى سواها.

وفجأة وجدت يداً توضع على كتفي.. يداً أعرف أصابعها الضخمة تماماً. يد لورا. والتفت، وتصنعت الدهشة والفرحة «إذ في الحقيقة كان قد ضايقني ظهورها المفاجيء هذا». وبطريقتها الصارخة المهرجة سألتني: أين كنت ولماذا أنا واقف سارح؟ وهل أنا أنتظر أحداً؟ ولم تنتظر لتسمع اجابتي على أي من اسئلتها، انما بنفس الاندفاع والحماس قالت:
ـ هل ممكن أن أقف معك؟

ورحبت بوقوفها طبعاً. وسألتها بدوري أين كانت وحدها؟ وأجابتني بسرب من الاشارات والتحيات تبادلتها مع شلة كبيرة من أصدقائها البنات

والشبان. شلة من تلك الشلل التي تذهب إلى الرحلات معاً، وترقص معاً، وتقضي السبت والأحد معاً، ويقولون لبعضهم البعض: هاي بوي.. هاي جيرل.

وفجأة أيضاً ظهرت سانتي وأقبلت علينا، وتبادلنا السلام . وقالت لورا باندهاش عظيم :

ـ هل تعرف..؟

وأدركت أنها سترتكب خطأ لو قالت اسمها فأحرجت وتلجلجت.. وقلت لأنقذها:

ـ طبعاً.

ودخلنا القاعة.

وكما توقعت تماماً تركت لورا شلتها وجاءت وجلست معنا.

وجلست أنا كأني هارون الرشيد عن يميني سانتي وعن يساري لورا وأصابع جورج تملي المعجزة تشيع في أنحاء الصالة الواسعة أقوى وأرق ألحان جادت بها قريحة بشرية.. أنغام كونسرتو البيانو رقم ٣ لبيتهوفن.

والحقيقة لم يكن هذا هو السبب في النشوة الغامرة التي أحسست بها تملأ صدري وتشيع وتنفذ إلى كل خلية من خلايا جسدي، والسبب كان أعجب، فحين قابلت لورا ورأيت إعجابها بي ورغبتها فيَّ واضحة كل الوضوح، تمنيت أن نلتقي معاً بسانتي لترى هذا الإعجاب الشديد ولترى بنفسها إني لست وقفاً عليها، وإن مصيري ليس معلقاً بكلمة منها وها نحن قد التقينا، وها هي لورا عن يساري وسانتي عن يميني.

وعن عمد رحت أهتم بلورا وأهمس لها وأداعبها وأوجه معظم حديثي اليها، وأقف قريباً منها في الاستراحة، وأحمل لها بيدي «شوب» البيرة

الذي آثرت أن تتناوله . . ولكني كنت أفعل هذا وعيوني على سانتي. وخاب أملي، فلم ألمح غيرة واحدة على ملامحها، وكأنها واثقة من نفسها أو على الأقل واثقة مني وتدرك أني إنما أتصنع هذا كله وأدعيه. وضايقني هذا، وأحسست أن بذور الثقة التي كانت قد بدأت تنمو في نفسي بدأت أمام عيني تذبل وتموت.

أملي كله أن أراها تغير ولو مرة واحدة، فأثبت وأثق في نفسي وأتصرف بطريقة متزنة وعاقلة . . بطريقة تحظى باعجابها. كنت أحس أني أنا الذي أتحرك الى ناحيتها باستمرار، وأنها واقفة في مكانها لا تتزحزح، وأملي كان أن تخطو خطوة واحدة فقط لأستطيع أنا أن أقف في مكاني ألتقط أنفاسي وألم شتات نفسي.

ولم يحدث شيء من هذا في الحفلة، ولا حتى حين انتهت وتعمدت أن أرافق لورا لأوصلها تاركاً سانتي لتعود وحدها.

حدث هذا فقط ثاني أو ثالث يوم . . كانت سانتي قد عرفت في الحفلة أنني أعطي لورا دروساً في العربي، وأننا نتقابل. وتعمدت أنا أن أخبرها أننا نلتقي في البيت، بيتي. وحين قلت هذا لمحت ـ أو خيل لي أني لمحت ـ شبح بريق سريع خاطف يعبر عيني سانتي ويكاد لا يرى.

ولا أعرف ماذا كان في ذلك البريق لأستشف منه أنها اهتمت بالخبر اهتماماً خاصاً، وأنها حتماً ستقوم بعمل ما خطر لها لحظتها فقط وقد تبين بعد هذا أني كنت على حق. لا بد أن الحب شيء عجيب، لكأنه يضع صلة مادية حية بين الاثنين فيجعل كلاً منهما يكاد يتبين ما يفكر فيه زميله ويعرفه، ربما قبل أن تصل تلك المعرفة الى عقل صاحبها.

وقبل أن نقترب على باب القاعة قالت لي سانتي كعادتنا كلما افترقنا:

البيضاء

أراك غداً. وكنت باستمرار أرد قائلا: طبعاً. ولكني هذه المرة تعمدت أن أتصنع التفكير ثم أقول: آه: هناك شيء.. غداً سأكون مع لورا.

فقالت سانتي: آه.. لقد نسيت.

وقلتها بلا اهتمام، ولكني كنت قد لمحت ذلك البريق الخاطف الذي لا يكاد يرى يعبر عينيها للمرة الثانية. ولم يكن هناك داع لقولي هذا، فأنا لم أكن ألتقي بلورا في البيت، كنت أحتفظ به لسانتي. وكنت أتعمد الالتقاء بلورا خارجه حتى لا تتعود عليه ويصبح في استطاعتها أن تطرقه في أي وقت تشاء، وأكون بهذا قد أفسدت أهم متعة من متع حياتي.

قابلت لورا في ثاني يوم كالعادة عند حديقة الأندلس، ولكن بدلاً من أن نذهب إلى النادي قلت لها: لماذا لا نذهب إلى البيت؟. وكان باستطاعتها حينئذ أن تذكرني بأنني أنا نفسي الذي رفضت البيت في أول الأمر، ولكن شغفها بما قلت لم يدع مجالاً لتذكرني بشيء، أو لعلها خافت إن هي ذكرتني أن أعدل عن الفكرة.

أما لماذا اقترحت أنا أن نذهب إلى البيت، فالسبب في هذا لا يمت إلى العقل بأية صلة؟. فقد كنت أحس بطريقة ما أن سانتي ستحضر إلى البيت متذرعة بأية حجة، وفي هذه الحالة يستحسن أن تأتي لتجدني مع لورا، ولنر ما يحدث لها حينئذ، وهل يا ترى ستظل على ثباتها وبرودها؟

كان شيء كهذا مستحيل الوقوع، لأني لم أكن أعتقد أبداً أن سانتي قد اهتمت بحكاية دروس لورا، وحتى لو كانت قد اهتمت. فهل يبلغ بها الاهتمام حد أن تكلف نفسها الحضور في الليل إلى بيتي لتطمئن على أن جلستي مع لورا مجرد جلسة درس عربي؟ خاصة وإني قلت لها إني لن ألقاها لأني سأكون مشغولاً مع لورا؟

قطعت مع لورا شارع الجزيرة إلى الزمالك، وأصبحنا قريبين جداً من البيت حتى لم يبق بيننا وبينه الا بيتان أو ثلاثة.

وفجأة سمعت من يقول: يحيى. وغمرتني فرحة طاغية، فليس في العالم كله إلا لسان واحد يستطيع أن ينطق اسمي بكل تلك العذوبة حتى أكاد لا أصدق أنه اسمي. كانت سانتي. والتفت فوجدتها واقفة أمام مدخل البيت المقابل لبيتي ومعها راقية زوجة شوقي. ولم أفهم شيئاً باديء الأمر. ومع هذا كنت فرحاً إلى درجة لا أريد معها أن أفهم شيئاً.

وتبادل أربعتنا التحية، ووقفت أنظر إلى البيت المقابل وراقية زوجة شوقي ولورا، ومدخل دكان البقالة الوحيد في الشارع ،وقد ازدحم بعدد من الناس، والعربات المارة، والبلكونات المهيبة الساكنة، ولا أنظر إلى سانتي. ومع هذا فلم أكن أرى شيئاً أو كائناً غيرها. ولم أهتم حتى بسماع ما تقول. كنت قد اكتفيت بإحساسي انها قد جاءت كما توقعت، ورغم أن أول كلمة قالتها كانت: هل رأيت شوقي؟ وحين سألتها: لم؟ قالت بطريقتها المستعجلة المتحمسة أنه لم يعد إلى البيت منذ الصباح، وإن راقية كانت تبحث عنه وقابلتها صدفة، وإنهما رأتا أن تسألاني عنه. ولهذا جاءتا وصعدتا الى الشقة، ولكنها كانت مغلقة ولا أحد بها، فوقفتا في ذلك المكان تنتظران قدومي.

كانت سانتي هي التي تتحدث، وكلامها يغلفه الحماس والرغبة في إخفاء شيء وتبرير موقف، حتى لو كان موقفاً من الصعب تبريره. لماذا تنتظرانني أمام البيت؟ ومن أدراهما أني قد أجيء مع أن وقوفهما في الشارع ليس بالأمر المستحب، فالشارع من الشوارع الصغيرة القليلة الحركة

الذي يعتبر وقوف سيدتين أو فتاتين فيه في الليل على هذه الصورة مسألة تدعو إلى النظرات المريبة والتعليقات والمعاكسات. . قلت هذا لسانتي فأجابتني:

ـ ولكني كنت عارفة أنك ستأتي في الثامنة.

قلت:

ـ وكيف عرفت؟

قالت بنفس حماسها:

ـ أنت قلت لي. . ألم تقل إنك ستقابل لورا في الثامنة؟

ومرة اخرى احسست بجسدي مقشعراً بالنشوة، لا لأنها قالت ما قالته ولكن لأني أنا نفسي كنت قد نسيت أني أخبرتها بأني سأقابل لورا في الثامنة. . ومعنى أن أكون قد نسيت أنا شيئاً قلته لها وإنها هي تذكره، أنها مهتمة بكلامي أكثر من اهتمامي أنا به. ثم أن يكون هذا الكلام متعلقاً بلورا وتذكره هي وأنساه أنا معناه أن البريق الذي لمحته في عينيها كان بريقاً حقيقياً ولم تخدعني عيناي فيه.

ولم أتصرف، وكأني ما صدقت حرفاً واحداً مما قالته سانتي، فقد كان على مثلاً أن أتطوع وأنضم اليهما ونبحث جميعاً عن شوقي، ولكني اعتقدت أنها إحدى غيبات شوقي الكثيرة، وإن راقية كانت فقط تحاول أن تعرف مكانه. ولولا اهتمام سانتي بالبحث عنه عندي لما كلفت نفسها عناء الحضور. وعلى هذا ابتسمت في خجل ودعوتهما للصعود معي دعوة مجاملة، ولكنهما قالتا إنهما تؤثران معاودة البحث عن شوقي.

في تلك الأثناء كانت لورا قد سبقتني لدخول البيت «وكأنها خافت أن أعدل » بل كانت قد صعدت السلم ووقفت على رأسه تنتظرني أن أوافيها. . وحمدت الله أني كنت قد انتقلت إلى الزمالك، فلو حدث هذا المشهد في بولاق لتجمع الشارع علينا، وكيف لا يتجمعون حول شاب أعزب معه ثلاث فتيات : اثنتان أجنبيتان، وواحدة مصرية، وحديث مرتبك مختلف يدور بينهن وبينه؟

ومع هذا فقد تصرفت بخجل شديد وكأني لا أزال في بولاق، وكان كل همي أن أنهي الموقف بسرعة مع أن سانتي كانت قد بدأت تطرق مواضيع أخرى بحديثها، وراقية كانت قد بدأت تبتعد عنا مستعجلة ولورا واقفة في أعلى السلم تنتظر.

وانتهى المشهد كما أردت.

مضت سانتي وراقية، وبدأت أنا أصعد السلم ككل مرة ثلاث أو أربع درجات في وثبة واحدة. . كنت لا أزال خجلاً مرتبكاً وسعيداً فرحاً أفكر باستمتاع كبير فيما حدث، وكيف أنها لم تخط ناحيتي خطوة واحدة فقط ولكنها مشت شوطاً بعيداً. . شوطاً كلفها مجيئاً بالليل وانتظاراً أمام البيت واختلاق حجج.

غير أني في منتصف السلم توقفت. فقد خطر لي خاطر استبشعته إلى درجة دفعتني للتوقف عن الصعود فعلاً. . لماذا لا تكون قد جاءت حقيقة للبحث عن شوقي وأكون أنا قد فهمت الموضوع وفسرته كما حلا لي وأكون أكبر عبيط على سطح الأرض؟

جفف الخاطر بقدومه الناعق المفاجىء ريقي، وجفف أيضاً سعادتي ونشوتي تلك التي كنت قد بدأت أحسها.

البيضاء

ووجمت . . وحتى لم أحفل بالاعتذار للوراعن تركي لها واقفة كل تلك المدة على السلم، وفتحت الباب، وتقدمتني لورا بكل ألفة وكأن البيت بيتها،وكأنها دخلته آلاف المرات. تقدمت وأشعلت النور في حجرة المكتب، وخلعت حذاءها وتربعت على الكرسي الأسيوطي واضطجعت بظهرها إلى الوراء لتستريح في جلستها . . فعلت هذا كله ببساطة وقبل أن أجلس أنا أو أفكر حتى في الجلوس، وشغلني التفرج على تصرفات لورا الرياضية هذه عن الخواطر المتداخلة المرتبكة التي كانت قد تجمعت في رأسي وكدت أضحك، بل أغراني تصرفها هذا على أن أفعل أنا الآخر كالرياضيين، فخلعت «الجاكته» وألقيتها باهمال الأسبورتسمان جانباً وتمددت على الكنبة بطولي، وأنا أشكو بأنفاس لاهثة من طول السلم.

وما كاد هذا يحدث حتى وقع شيء لم أتوقع حدوثه ابداً . . فقد دق جرس الباب، وذهبت لأفتح وإذا بها سانتي، وإذا بها تدخل محرجة مرتبكة قائلة: نسيت أن أخبرك شيئاً . . وقبل أن تخبرني ما هو ذلك الشيء كانت قد أكملت سيرها الى حجرة المكتب.

ورفعت لورا رأسها وتلاقت أنظارهما بلا ضجة اصطدام او استنكار. وكنت قد وصلت إلى الحجرة، ووجدت سانتي واقفة في وسطها . . ووجهها شاحب قليلا وعيونها زائغة، تنظر أكثر ما تنظر إلى الأرض والحرج لا يزال واضحاً جداً في ملامحها.

ولم تكن قد قالت بعد ذلك الشيء الذي نسيت أن تخبرني به.

ومرة واحدة اندفعت إلى نفسي تلك النشوة التي كانت خواطري قد حبستها . . أبداً . . من أجلي أنا جاءت، ومن أجلي ها هي ذي تعرض نفسها للحرج . . يا سلام! أجمل من شعور البدو في عام مجدب حين

تضن السماء بالمطر، وتتطرف عيونهم وهم يترقبون الغيث ويبتهلون لمجيئه، ويقضون أيامهم ولياليهم وهم يحلمون بذلك الرذاذ الخفيف الذي يسبق هطول المطر. أجمل من هذا كان استقبالي لرذاذ الغيرة وسانتي تجود به في النهاية.. غيرتها علي، لأول مرة أحسها، ولأول مرة لا تستطيع اخفاءها.. ما أطول ما انتظرت وما أعذبه من رذاذ!

وكالبدو رحت أفتح فمي، وعيني، ونفسي، وكل مسامي، لأتلقاه.. وكم استعذبت حرجها، أعذب وأجمل حرج.. حرج جعلني أنسى حتى أن أسألها عن ذلك الشيء الذي نسيته. وهي ايضاً كان يبدو أن ارتباكها أكبر من أن يسمح لها باختراع كذبة أو أنساها الكذبة التي كانت قد أعدتها. كانت واقفة تنظر في إضطراب تائه إلى كل شيء في الحجرة دون أن يستقر نظرها على شيء بعينه، وقالت فجأة: آه.. مبروك، قالتها وهي تشير إلى صورة منقولة عن لوحة لسيزان، وكانت عندي من زمن.. وكان كسلي يمنعني من عمل برواز لها وتعليقها.. ولكني حين شرعت في تجميل الحجرة التي أقابلها فيها كنت كل يوم أضيف لها جديداً.. وهكذا علقت اللوحة المهملة.

وأدركت أن حرجها هو الذي دفعها لتهنئني على هذا العمل الذي لا يستحق التهنئة.. وغمغمت بكلام مدغوم فقد كنت محرجاً أنا الآخر. ماذا أقول، وماذا يجب علي أن أفعل؟ وهل أحاول إخراجها من حرجها؟ وكيف أصنع هذا وأية محاولة مني لمساعدتها قد تزيدها حرجاً؟

والظاهر أنه لم يكن أمامها أي حل آخر. فقد وجدتها تستدير خارجة وهي تردد اعتذارات مبتورة لأنها عطلتنا.. مع أنه كان واضحاً لها ولنا أنها لم تعطلنا في شيء.

وحين أصبحت معها في الصالة شبه المظلمة، قالت بنبرة مغايرة منخفضة، وكأن ما تقوله هو الشيء الذي كانت نسيت أن تقوله: سأراك غداً.. هه؟

وكان مفروضاً أن أراها في الغد دون أن تنسى، ودون أن تكلف نفسها مشقة صعود خمسة أدوار ومائة درجة. وقلت لها: طبعاً. وسلمت علي. ولأول مرة مددت لها يداً ثابتة قوية لا تهتز، ولأول مرة منذ أن عرفتها أسلم عليها وأنا أحس أني أسلم على امرأة، واني رجل. لا أعرف ماذا تريد؟ وعدت سكران حقيقة بالنشوة الى لورا.

وظللت معها فترة طويلة تتحدث وأرد عليها، وأنا اطلاقاً لست معها إنما في كون أثيري آخر لا أفقه شيئاً مما يدور بيني وبينها، الى أن وعيت مرة، وكأنما قد آن لي أن أعود من ملوكتي فأجدها تسألني: أنت طبيب أليس كذلك؟

وكانت لا تسأل بلهجة التساؤل ولكن بصيغة التقرير. ومن بقايا النشوة فاجأني الغم. فحتى لو كنت في حالة عادية فأنا لا أضيق بشيء قدر ضيقي بأن يسألني كائن من كان في وقت غير مناسب عن أحدث علاج للأنفلونزا، أو ما الحكمة في أخذ بعض الأدوية قبل الأكل وبعضها بعده؟

وعلى هذا ظللت ساكناً. وسمعتها تكمل:

ـ كنت اريد أن أسألك.

وسكتت سكوت المحرجة، ثم استطردت:

ـ أنت تعلم.. نحن لا نأخذ تلك الأشياء في المدارس، ولكني كنت أريد أن أعرف حقيقة المسائل الخاصة بالحمل والولادة و...

وفتحت عيني وواجهتها. لم يكن وجهها أحمر من الخجل، ولو كانت

قد سألتني في جو مناقشة حامية لكانت قد تكلمت بصراحة أكثر وما همها.

واعتدلت وقلبي يخفق.. فمهما بلغ تبلد احساسي تجاهها فللتبلد حدود. وجرأتها كانت قد استثارتني فعلا فقد فاجأتني بسؤالها ونحن وحدنا، وهي فتاة، وأنثى جميلة على أية حال، ثم إني حين كنت في النادي معها كنت مشغولاً عنها بسانتي وتأرجحي بين الشك واليقين في حقيقة شعورها نحوي. أما في لحظتنا تلك فقد كنت واثقاً أني استحوذت على سانتي وإني وصلت معها إلى مرحلة اليقين، أو على الأقل إلى الدرجة التي أستطيع أن أستريح من التفكير فيها قليلا، وتصل بي ثقتي بنفسي ورجولتي إلى درجة استطيع أن آخذ منها أجازة دقائق أتفرغ فيها لهذه الفتاة لورا التي لم يعد ينقصها إلا أن تنقض علي وتغتصبني.

وقلت لها وأنا لا أكاد أصدق:

ـ تريدين أن تعرفي..

قالت بحماس:

ـ أجل.. أجل..

قلت بكل استمتاع:

ـ كل شيء؟

قالت «ولعلها أرادت أن تستمتع بالسؤال هي الأخرى»:

ـ ماذا تقصد؟

قلت:

ـ أقصد كل شيء عما يحدث قبل الحمل والولادة.

قالت ببراءة علمية لم أكن أشك لحظة واحدة في أنها مصطنعة وإن عجز إدراكي عن تبين هذا)

ـ أجل.

البيضاء

قلت:

ـ حسن جداً!

وقمت إلى المكتبة وأخرجت كتاب التشريح، وجاءت وجلست بجواري على الكنبة، وبالاستعانة بما في الكتاب من رسوم توضيحية وفوتوغرافية مضيت أشرح لها وهي تهز رأسها علامة الفهم والإدراك وأحاول أن ألمح أثر كلامي على وجهها فلا أجد له أي أثر، ولكني لاحظت أنها كفت عن هز رأسها وأن وجهها قرب النهاية قد بدأ يتجمد ويبهت لونه قليلاً وذراعها القريبة من ذراعي أحسست بها قد أصبحت باردة برودة طلب الخطيئة.

وبلغ ضيقي بنفسي حداً أوقف لساني عن الكلام، فقد اكتشفت فجأة أني أقف مما يحدث موقف متفرج عابث، وأني قد بعثت الرعب الأبيض الخائف في جسد الفتاة، وأنها تحيا الموقف بكل عصب من أعصابها وخلية من خلاياها، وأنا ـ باعث هذا وفاعله ـ لا أحس بأي انفعال.

تضايقت جداً لأني أفقت لنفسي فوجدتني أعبث بلورا، مسكينة أوقعها سوء حظها في حجرة محب مشغول بغيرها تماماً، لا مكان لها عنده إلا لاجراء تجاربه النفسية المريضة عليها.

وبكلمات قصيرة متلعثمة أنهيت الشرح بسرعة. وأحست هي أني تغيرت وحاولت أن تتغير هي الأخرى، ولكن ملامحها وانفعالاتها لم تطاوعها وظلت تعاني من حالة التجمد المضطرب. وتألمت، فقد أدركت أني بتغيري السريع آذيت شعورها وجرحتها، فأمسكت بيدها وضغطت عليهامبتسماً، وكأنما لأسهل عليها الأمر أو أواسيها. وتضاعف ألمي حين وجدت أنها لم تتقبل ضغطاتي تقبلا عادياً، وأن يدها ذابت تماماً في يدي

وعينيها ذابتا في عيني. . ولعنت نفسي آلاف المرات وحاولت أن أغير نظرتي وأشيع البرودة والجد في يدي وأصابعي، غير أن الحنان المؤنث لم يكف عن التدفق من عينيها. وقلت لابد مما ليس منه، وعليّ أن أرغم نفسي على مجاراتها، ولكن عبثاً ما حاولته. شيء ما داخل نفسي، أهم ما في نفسي، روحها ومركزها ونواتها، البذرة التي يتجمع فيها كل ما هو شخصيتي وعواطفي وأحلامي ورجولتي، هذا الشيء، كلما حاولت كان يغوص كحيوان القواقع - إلى قاع داخلي ليس له قرار. وكلما استجمعت قواي وركزت جهودي لأمنعه عن الغوص يزداد انكماشاً ويغوص أكثر ويبتعد عن متناول يدي بسرعة مذهلة. وهناك دائماً عينا سانتي ضاحكتين، ساخرتين بي، غيورتين حبيبتين جداً، تزغللان ولا أرى سواهما. حواسي كلها معها، وروحي في بريق عينيها، ولم يبق لي، لم يبق للورا الجالسة تصطك أسنانها فعلاً من البرد الخفي الذي يسبق الدفء الكامل، لم يبق لي معها الا رأس غائم مضطرب، وأفكار خجلى تحتمي بغيوم رأسي. ورغم هذا ترى لورا وترثي لها وترثي لي، وتكاد تحترق بحثاً عن مهرب أو خلاص من ذلك الموقف.

وأحسست أن أفكاري هي الأخرى قد تلاشت وهجرتني، فسكت وظلت أسنان لورا تصطك برهة اصطكاكاً خفيفاً كالأزيز المتصل، ثم توقفت وبدأت تسترد نفسها قليلا. وفجأة وجدتها تتكلم عن الفتى الأول في حياتها وكيف طلب منها ذات يوم أن تعطيه نفسها. وبحب استطلاع سألتها إن كانت قد فعلت. . وبنفس براءتها العلمية أجابتني أنها رضيت بعدما استطاع اقناعها أن لا ضرر هناك من المحاولة. وأصبحت في غاية الحرج! وسألتني ان كانت لي فتاة فقلت لها: طبعاً. واحترت بماذا أجيبها لو سألتني أكثر عنها، وهل أحكي لها عن تلك الفتاةالتي لم أكن أعرف إلا

البيضاء

اسمها الأول وظللت على علاقة بها لسنوات ثلاث تزورني بانتظام كل يوم ثلاث وتأتي دائماً في منتصف الليل وتذهب في الفجر، ولا أعرف ماذا تعمل ولا أين تقيم، وهي أيضاً لا تعرف غير اسمي الأول. وكيف تقابلنا ذات ليلة في مكان نسيته واستصحبتها في نفس الليلة الى الشقة، ومن ليلتها ظلت تتردد بانتظام لا يختل، ترفض النقود والهدايا، وكلما حاولت سؤالها عن نفسها ابتسمت لي ابتسامتها ذات اللمعة. . ابتسامة مستكينة خاضعة غير طموحة.

وكيف انقطعت فجأة، وكيف حز انقطاعها في نفسي، وكيف لم أنسها تماماً حتى عرفت سانتي.

وهمت لورا أن تسألني سؤالاً ولكنها أمسكت لسانها في آخر لحظة ومع هذا استطعت أن أتبين السؤال، وكأنها كانت تريدني أن أذكر لها ماذا أفعل مع فتاتي تلك. أمسكت لسانها ونكست رأسها وأحسست أنها تعاني من ذبحة شعورية ذليلة مفاجئة.

ولا أدري لم وجدت نفسي أنفجر في ضحكة لا مناسبة لها بالمرة وحين رفعت رأسها ووجدتها تبتسم من خلال ذلتها تحولت الضحكة إلى نوبة تشنج ضاحك لم أستطع إيقافها.

وأغرب شيء أني وجدتها هي الأخرى قد تخلت فجأة من كل ما تكظمه وتحس به، ومضت تقهقه، ولاحظت انها تقهقه كالرجال، فدفعني هذا الى عاصفة ضحك أخرى اقتلعتني من فوق الكنبة ومددتني على الأرض.

١٠

وحين استيقظت في الصباح، وقبل أن أسترد حواسي وأفتح عيني في تلك اللحظات التي نستعرض فيها بسرعة خاطفة ما حدث لنا في اليوم السابق بسرعة خاطفة، قبل أن أفتح عيني كان أول ما خطر لي هذا السؤال:

ـ أليس من المحتمل ورغم كل شيء أن تكون سانتي قد جاءت بالأمس لتبحث عن شوقي؟

ولكني بعد ثوان من التدبر، كنت أبتسم في هيام مغمض جميل.

وأفطرت جيداً ـ لأول مرة منذ شهور، ولأول مرة أيضاً وجدتني آخذ الطريق إلى عملي في السابعة والنصف مع جيوش الطلبة والموظفين والكادحين. وفي الثامنة تماماً كنت جالساً إلى مكتبي في الورش واكتشفت أشياء غريبة، فلم يكن أحد من موظفي المكتب قد حضر بعد. لم يكن هناك إلا التومرجي العجوز. ولم يكن أحد من العمال المرضى أو المتمارضين قد حضر أيضاً. كنت قد عودتهم أن آتي متأخراً في التاسعة والنصف أو العاشرة، وما دام الرئيس يحضر هكذا فلماذا يأتون هم مبكرين؟ وبدلاً من أن أثور وجدتني أعذرهم وألقي اللوم على نفسي وأعاهدها أن كل شيء سيصير إلى ما يرام، وكل الارتباك الذي ساد حياتي

سيزول حالاً. كنت كالناقه من مرض، الفرح بشفائه وعودته إلى دنيا الأحياء.

وكل من جاء في ذلك اليوم من العمال منحته ما يريد من إجازات ودفعت لفراش المكتب شلناً ثمن فنجان القهوة تقبله الرجل بتجاعيد مندهشة ألغيت من صدغيه وملأت جبهته.

وقابلت عنتر وعبلة وبترحاب حين جاءا بعد انتهاء العمل يستخفي كل منهما في الآخر ويقدم رجلاً ويؤخر الثانية، إذ كنت قد دأبت في الأيام الأخيرة على استقبالهما بلا اهتمام وعلى الضرب بمشوراتهما عن العمل في العيادة عرض الحائط. وانعكست حالتي على وجهيهما فوراً، وبدأت ضحكاتنا نحن الثلاثة تجلجل في أنحاء المكتب وكأننا في غرزة. واستمعت لمشاكل عنتر مع أخواته البنات بآذان عاطفة متفتحة. كان لا يكاد يطرق سيرة خلافه مع شقيقاته حتى أسد أذني وأروح أستمع إليه يتوهاني وسرحاني. واكتشفت أعجب وأغرب حقيقة، فقد عرفت أنه رغم هذه الخناقة المستعرة بين عنتر وأخواته حول ميراثهم من أبيهم فأبوهم كان لم يمت بعد. كل ما في الأمر أنه كان شبه مقعد في فراشه وقد بلغ من العمر أرذله، وكان يحب عنتر لأنه ولده الوحيد ففضله على بناته وكتب له البيت الذي فيه العيادة. وثارت البنات على الوضع وأقمن دعوى، وأقام عنتر أخرى، وطعون وحجوزات ودفوعات فرعية وقصة طويلة ظللت أستمع لها، وأنا مشوق لتفاصيلها وكأنها قضيتي الخاصة. وبلغ بي حب الاستطلاع درجة أن طلبت من عنتر أن يريني أباه هذا، خاصة وقد حكى لي أن أباه كان سائق قاطرة السلطان حسين الخاص، وأن جده كان السائق الخاص للخديو اسماعيل أيضاً.

ـ أمال إيه يا بيه؟ وشرفك عندي أنا متربي في قصر القبة، أوعى ألاقي روحي بلعب الحجلة هناك.

وأقول له ساخراً:

ـ مع ولاد السلطان يا عنتر؟

فيقول:

ـ لا، الكذب على الله حرام.. كان فيه ولاد تانيين.. إنما ولاد السلطان حد كان يستجري يشوفهم.

والحديث يدور بيننا ونحن في طريقنا إلى حي الفرنساوي القريب من العدوية حيث يقيم عم مبروك والد عنتر.. حي مزدحم متلاحم بالبيوت شوارعه حوار وحواريه شقوق ضيقة متعرجة، والشوارع والحواري ممتلئة إلى حافتها بمظاهرات دائمة من الخلق الذين لا تعرف من أين يأتون وإلى أين هم ذاهبون. وفي بيت من داخل بيت، ومن سلم مبني بالأحجار إلى كومة تراب عالية يقولون أنها كانت بيتاً في يوم من الأيام وحين سقط لم يحفل أحد برفع أنقاضه، إلى شارع مقام فوق دور أول كامل، وصلنا حجرة عم مبروك الذي لم يتعظ بقصة الملك لير وكرر مأساته وأورث ابنه وبناته كل عقاره وممتلكاته وهو لا يزال حياً يرزق فكانت النتيجة أن غضبت عليه بناته لأنه اختص عنتر بنصيب الأسد وتقززت منه زوجة عنتر حين جاء ليقيم مع ابنه فاضطر الأخير مرغماً لاستئجار هذه الحجرة له، الحجرة التي يقول عنها:

ـ والله بدفع فيها خمسين قرش بقطعهم من أكل العيال.

وبطريقة لا رهبة فيها ولا احترام مضى عنتر يزعق في أذن أبيه ويخبره أنه أحضر له دكتوراً ليفحصه، ويعتدل الأب في نومته ويجلس القرفصاء

على المرتبة السمراء المتسخة، جلسة قرد عجوز له نحافة القرد وشكله المضحك، وابتسامته التي لا تنتهي لو كان للقرد ابتسامات.

ومن أول لحظة أدركت أن العجوز دمه خفيف، فبرغم تبرم عنتر به كان أول ما قاله أنه ليلة الأمس فقط أحس بدبيب الرجولة يعود إلى جسده وبظهره يسخن، وأن عليه أن يعد العدة لزواجه في القريب العاجل . .

وسألته عن ذكرياته مع السلطان، وترجم عنتر سؤالي إلى زعيق راح يصبه في أذنه وهو يغمز لي بعينه ويسخر من ثقل سمع أبيه. وضحك العجوز ضحكته ذات الكحة القصيرة وقال:

ـ ما بتدومش . . عمره ما ركب القطر إلا برجله اليمين. ومرة نسي وركب برجله الشمال فخلاني وقفت القطر في السكة ونزل وركب برجله اليمين. ودايماً كان مكشر ما يكلمش إلا تركي.

وانخرط في ضحك متقطع قصير.

وقال عنتر وكأنما يعتذر:

ـ الراجل ده شاف عز كتير. . كان بيلعب بالفلوس لعب وما كانش يمشي إلا مع لا مؤاخذة ستات خواجات وأروام.

ولا أعرف لماذا ضحكت وقد تذكرت لومضة نفسي، ولماذا تضايقت من الحجرة والزيارة كلها فجأة ولم أهدأ إلا حين وجدت نفسي هناك أعبر كوبري «أبو» العلا في الطريق إلى بيتي، أرقب حركة المرور فوق الكوبري ويتسع بصري ليشمل النيل كله، وسانتي مطمئنة في صدري كالفرحة الدافئة مصونة والدنيا من حولي كلها ونس وسلام.

وحين جاءت الثالثة والنصف ـ موعد حضورها ـ كان وجهي حليقاً

ناعمـاً، وبخار الحمام لا يزال يضمخ جسدي وملابسـي كلهـا انتقيتهـا بعناية.

وكنت جالساً أدخن راضي النفس وأنتظر.

ولاح شبحها خلف زجاج الباب. وقبل أن أفتح قلت لنفسي أنها لا بد قادمة هذه المرة وقد تغير فيها شيء. ولم يخب ظني فقد كانـت ترتـدي التايير الأنيق الأسود الذي دخلت به السينما معي، وبلوزة بيضاء ناصعة البياض، وكانت تضع تواليت كاملاً. ومع أني كنت أفضلها بلا مساحيق وأحب فقط«روج» شفتيها، إلا أني أحسست بفرحة مضطربة خفية لرؤيتها كاملة الأناقة.

وفي تلك المرة كنت أنا الضاحك الباسم الطليق، وكانت هي قليلة الحركة كثيرة السرحان وكأن شيئاً يحيرها وتريد اخفاء حيرتها. وابتسامتها كانت على الدوام تتتابع مشرقة متحمسة منطلقة تتابع الصواريخ الملونة في ليالي الاحتفالات، في تلك المرة ابتساماتهـا كانـت ممـدودة رخـوة كابتسامات الأنثى في حضرة رجل.

وكنت كلما رأيتها منكمشة، وكلما وجـدت نفسـي منطلقـاً منفوشـاً مقهقهاً كالديك الرومي أحس بشفقة حب طاغية عليها، وأكاد آخذها بين ضلوعي وأطبق عليها نفسي وأحميهـا حتى من ذلك الاحسـاس الـذي يدعوها للانكماش.

وقلت لها وأنا أعني حقيقة ما أقول:

ـ أتعلمين شيئاً؟

قالت بنبرة حافلة بشكل المغلوب على أمره:

ـ ماذا؟

البيت

قلت: بودي لو أستطيع فعلاً أن أصغرك بطريقة ما وأحملك معي هنا في جيب صدري، وتصبحين معي أنَّي ذهبت.

وابتسمت في امتداد وقالت:

ـ تصغرني أكثر من هذا.

وضحكت فقد لمحت في إجابتها ذلك النوع الذي أعرفه جيداً من اهتزاز الثقة بالنفس، وكأنها خائفة أن أرى في صغر حجمها قبحاً تريد أن تتأكد أني لا أراه كذلك، ولم تكن هذه عادتها. كانت دائماً تتكلم وتتحدث وكأنها واثقة من نفسها جداً، أو واثقة على الأقل تلك الثقة التي تجعلنا نفقد الاحساس بأنفسنا وبما قد يكون فينا من عيوب.

ولأول مرة أحس أني، وأنا جالس معها، لست على عجل من أمري ولست قلقاً ذلك القلق المدمر الذي أحسب فيه كل حركة من حركاتي وأعد لكل كلمة ما بعدها من كلام. لأول مرة أحس أني فعلاً جالس على كرسي وأنها جالسة أمامي، وأن الوقت أمامنا فسيح ممتد، وأنها أبداً لن تطير وباستطاعتي أن أقترب منهاوأبتعد،وأنا واثق تماماً أنها طوال الوقت هناك في متناول يدي.

ولأول مرة رحت أمتص وجودها على مهل وأتملى في تقاطيعها التي ما كنت أبداً أستطيع أن أحدق فيها. كنت دائماً لا أراها، إذاالتقت عيناي بعينيها خفضت عيني،وإذا واجهتها وحدثتها يتشتت بصري حين يقترب من ملامحها. أعرف أنها موجودة وأن هذا وجهها، وأعجز عن النظر إليه عجزنا عن رؤية قرص الشمس في منتصف النهار. وكم حاولت مراراً أن أتغلب على خجل نظري وأرغم عيني على رؤيتها فلا أستطيع ولا تقوى عيناي على الصمود، وكأن كهارب خفية تصدر عن ملامحها وتحيطها

بمجال محرم لا تملك عيناي اختراقه. كنت أعرفها باحساسي أكثر مما كنت أعرفها ببصري. حتى صوتها كنت وأنا أسمعه يصيب سمعي نفس الخجل، وأدرك باحساسي فقط أنه صوتها. لم أكن أراها وأسمعها وأعرفها بعينيَّ وأذنيَّ وحواسي، كنت أفعل هذا بأجزاء من عقله أكثر بدائية وعمقا نفس الأجزاء التي كان يستقبل بها الكائن الحي المؤثرات من حوله قبل أن تخلق له العيون والآذان، ولهذا كنت أراها وكأنها شيء لا يمكن تحديده إنسانة لا أراها بقدر ما أرى نفسي وهي تنجذب إليها. . إنسانة لا أستطيع بالدقة أن أحدد أين أنتهي أنا وأين تبدأ هي.

هذه المرة رأيتها رأي العين وتأملت تفاصيلها ببصر لا يشتته الخجل ورحت أشاهد كل ما فاتني منها. رحت أرى لون عينيها وتسريحة شعرها وأذنيها البالغتي الصغر، وأفعل هذا وأنا أزداد إحساساً أنها أروع من كل ما خمنته عنها، وأنها هي أمامي كائناً حياً منفصلاً من دم ولحم وجمال وأعصاب، أكثر قرباً مني والتصاقاً بروحي من تلك الانسانة التي لم أكن أعرف أين انتهي أنا وأين تبدأ هي.

وسألت نفسي: هل أحاول الآن. وجاءتني الإجابة على غير استعجال: ولم الآن أمامي الليلة كلها وغد وبعد غد وعشر سنوات مقبلة. فيم العجلة وتلك هي اللحظات التي عملت الكثير من أجلها وترقبتها مئات الأعوام؟ هذا هو النصر، لماذا لا أرشفه ثانية ثانية، وأتلذذ به قطرة قطرة، ككوب الماء المثلج بعد ظمأ متوحش مغتال.

وسألتني عن لورا، سألت بطريقة تعمدت أن تكون عادية جداً. ولأول مرة أراها تبذل جهداً غير عادي لتكون عادية في سؤالها عن شيء.

وشعرت لتعمدها وسؤالها بفرحة صبيانية رحت أكتمها في نفسي وأمنع انبثاقها وأحس بها تسري في كياني كله وتسكرني، وأنتشي إلى درجة لا أحاول معها حتى أن أتقن تمثيلي ،وأنا أقول عن لورا أشياء تبعث غيرتها. وحين ضبطتني مرة وأنا أتحدث عنها هكذا وتلاقت نظراتنا، غمزت لها وضحكت، فضحكت هي الأخرى وتضرج وجهها باحمرار قرمزي كنت أراه لأول مرة، لا شك أنه لون خجلها الذي أمضني انتظاره ودوخني التلهف عليه.

ووجدتها تتحدث بلا مناسبة عن شوقي، وعن طرقه الفكهة المرحة في تناول الناس والحوادث، وعن النوادر التي حدثت لها معه.

والعجيب أني تضايقت قليلاً.. مع أني كنت شبه متأكد أن ما تحكيه إما أنها تقوله ببساطة وببراءة، أو هو مجرد رد مباشر على حديثي عن لورا.

وافترقنا حين هبطت من التاكسي الذي كنت قد أصررت على استصحابها فيه إلى قرب بيتها. وحين سلمت عليها مودعاً كانت يدها طرية في يدي وكنت أنا الذي أشد على قبضتها بقوة، وأنا متأكد أنها قبل أن تختفي عند الناصية ستستدير لتراني.

وعاد بي التاكسي وحدي، وقال لي السائق:

ـ هيه.. على فين يا أستاذ؟

ـ والواقع لم أكن أدري إلى أين، تماماً مثل ليلة افترقنا ذلك الفراق المؤلم المرير.

١١

وفي المساء قررت أن أخرج واتفسح، وأدخل السينما، وأقص شعري، وأرى القاهرة في الليل، وأقابل أصحابي.. وأفعل كل تلك الأشياء التي ما حفلت بالقيام بها طيلة الأسبوعين الماضيين، وكأني كنت غائباً عن الوعي بالدنيا.

* * *

ولا بد أن حياتنا سلسلة متشابكة من ملايين الصدف الصغيرة التي قد يغير وقوع إحداها قبل الأخرى بثوان أو بعدها بثوان مجرى حياتنا كله.

وإذا لم يكن الأمر كذلك، فأية صدفة تلك التي دفعتني حين عدت إلى البيت بعد توصيل سانتي الى أن أجلس على المكتب بدلاً من أن أستريح فوق كرسي بعيد أو كنبة؟ وأية صدفة دفعتني لأن أخرج القلم من جيبي وأبدأ أعبث به في الورقة الفاضية أمامي وأكتب حرف «ن» دون غيره من الحروف الأبجدية، أكتبه أكثر من مرة ثم أكمله وأجعله «نصر»؟ ثم أضع القلم وأسبح في جلستي الماضية مع سانتي، وتعود عيناي من لا نهائيتهما لأرى الورقة وما عليها، وأرى كلمة نصر وأتذكر كلمة نصر التي كانت تطبعها دعاية الحلفاء أيام الحرب وتلصقها على الجدران وتملأ بها

كل مكان، وأتذكر صورة تشرشل وهو يرسم بأصبعيه علامة النصر، ثم يخطر لي سيف النصر وله بعض سمنة تشرشل وأتبين أني لم أره من مدة، وأحس بأني مشتاق إليه بالذات، مع أني كنت أيامها زاهداً في مقابلة كل من أعرفهم من أصدقاء؟ ثم أعود الى هيامي وسرحاني وأنسى كل شيء عن أحمد سيف النصر ورغبتي في رؤيته، ثم أتبين أن السينما قد حان ميعادها وأن علي مغادرة المنزل في الحال.

وأركب أتوبيس ٧ «وكان أيامها يمر بالزمالك في طريقه إلى العتبة» وتأتي وقفتي قريباً من السائق، وتسترعي انتباهي نمرة الأتوبيس وقد انزلق عنها الحاجز الذي يحجبها عن داخل العربة وبدت اللمبة الكهربائية الصغيرة التي تضيء الرقم. وأدرك أن شكل رقم ٧ لا يتغير إذا نظرنا إليه من الخلف، وتعلق هذه المشكلة بتفكيري، وأتذكر الدرس الانجليزي الذي أخذناه في رابعة ابتدائي عن أصل الأرقام، وكيف أن الرومان أخذوه عن العرب، وأتذكر أنه في هذا الدرس بالذات قال لنا معوض أفندي مدرس الانجليزي أن هناك كلمات انجليزية أصلها عربي وانتقلت إلى أوروبا أثناء الحروب الصليبية ،كلمات مثل «درب» Dubr بمعنى اضرب التقطتها الآذان الأوروبية من أفواه فرسان العرب وهم يهاجمونهم ويقولون اضرب. وفي ومضة أتذكر معوض أفندي وتختتي في الفصل والمؤشر الذي أمسكه بيده ليمثل أمامنا فرسان العرب وهم يهاجمون ويقولون أضرب، وتنقلني طريقته في الشرح إلى القرون الوسطى والعرب وهم يطردون الغزاة، والناصر صلاح الدين. . وبالذات الناصر صلاح الدين. وكيف تصورته لحظتها في ضخامة معوض أفندي ولكن بلا منظاره الكابي الأسود أو عينيه الضعيفتين. وفجأة وجدتني أترك القرون الوسطى ورابعة ابتدائي وأعود إلى الورقة التي كنت أعبث فيها وكلمة نصر التي

كتبتها وأحمد سيف النصر.

ويحدث هذا كله وأنا أغادر الأوتوبيس عند شارع سليمان، وأخترق الممر الجانبي في طريقي إلى السينما، وألقي نظرة على دكانة السجائر التي في الممر وألمح التليفون فأجد نفسي بلا تفكير أتوقف وأتناول السماعة وأطلب نمرة أحمد سيف النصر، ولو وجدت الخط مشغولاً لمضيت في طريقي إلى السينما ببساطة، ولكني وجدته «بالصدفة» ليس مشغولاً، وبالصدفة أيضاً كان سيف النصر هناك وهو الذي رد علي وبصدفة ثالثة كان خالياً ليس وراءه عمل، وهكذا وجدتني أتواعد معه على اللقاء. ونختار أين فقد كنا نفضل إذا التقينا أن نجلس في مكان هادىء يسمح لنا بحديث متصل لا تزعجنا أثناءه ضجة. وأخيراً يقع اختياره على بار سيسيل.

وأعدل عن مشروع السينما وأذهب إلى البار وأجلس أنتظره، ويغيب أحمد وتتجاوز الساعة الميعاد الذي كنا قد اتفقنا عليه بربع ساعة، وأقرر القيام وقد فرغ حماسي للقائه أو انتظاره، ولكني أكتشف أني بالصدفة كنت قد ناديت على ماسح أحذية وأنه لا يزال ينظف الحذاء ولا بد من البقاء في مكاني حتى ينتهي، ولو كان الرجل قد انتهى من الحذاء قبل هذا بثوان أو لم أكن قد طلبت منه أن ينظفه أصلاً لكنت قد قمت ولما قابلت سيف النصر، ولما ترتبت على مقابلتي له تلك الأحداث الهائلة الخطيرة.

ولكن الذي حدث أنه بعد دقيقة واحدة من قراري أن أغادر البار، كان سيف النصر قد جاء.

دخل ممتلئاً، رأسه الدسم محني إلى الأمام، ويده اليمنى مرفوعة قليلاً وتتقدمه كالعادة، ونظراته تائهة فيما أمامه مشتتة لا تستقر على شيء

البيضاء

بذاته كنظرات المجانين. وكان اللقاء صاخباً ضاحـكاً عكر هدوء البـار الدائم إلى حين.

ثم بدأنا نتحدث ذلك الحديث الذي يعقب اللقاء. . آخر الأخبار وما جد على كل منا من جديد، وانتهى ذلك الحديث السريع وكنا قد انتهينا من جرد محتويات البار من رجال وأثاث على حد سواء، وتبادلنا الأحكام الخاطفة التي أصدرناها بشأن كل منهم، وحلت فترة الصمت التي لا بد أن تحل لنهضم فيها ما فات وننتقل منها إلى آفاقنـا الأخرى.

في تلك اللحظة فقط أدركت بهدوء وبلا استنكار لماذا طاردتني صورة أحمد سيف النصر في ذلك المساء، ولماذا أردت لقاءه.

كان هو الحكيم المبشـر والنبـي الانسـان الـذي اخترتـه ليحاكمنـي ولأعرف منه أين أقف وإلى أين أسير.

كنت قد وصلت إلى تلك المرحلة من مراحل عواطفنـا. . المرحلـة التي لا بد أن نفضفض فيها ونقص. ولم يكن الأمر بالنسبة إلي سهـلاً فأنا لا أستطيع أن أقص علاقتي بسانتي علـى أحـد، وكل المحيطين بي من أصدقاء وزملاء لا أستطيع أن أحكي لهم شيئاً، أما الناس العاديون فكيف لهم أن يفهموا قصتي ووقائعها وهي أشياء لا يمكن فهمهـا إلا لمن احتك بهذا النوع من العمل، وإلا لمن يعرف خطورته ويقدر موقفـي؟ وسيف النصر كان الحل. كان جراحاً بأحدمستشفيات القاهرة،وكان يسبقني بعدة أعوام في التخرج، وكان قد اشترك في الحركة الثورية التي سرت في بلادنا عقب الحرب العالمية الثانية ثم ابتعد عنهـا لأسبـاب لا أعرفهـا، وحين جمعتنا ظروف عملنا كأطباء في مستشفى واحد كان هو أحد نجوم الجراحة الشبان فيه، وكنت أنا لا أزال حديث التخرج ومع هذا فقد كنت أنظر إلى

سيف النصر باحتقار على اعتبار أنه أحد «الفارين» من الحركة الوطنية. وكان هو ينظر إلي بإشفاق كبير على اعتبار أنـي لا أزال من المتحمسين الذين يحول حماسهم بينهم وبين أن يروا الحقيقة. غير أن علاقة العمل والاحتكاك اليومي أزالا الكثير من شعورينا المتبادلين، وأصبحت شديد الاعجاب بقدرته العلمية الخارقة وبشخصيته وآرائه. كان لطيفاً غريباً ينظر إلى الأمور أحيانـاً من زوايا قل أن تخطر على البال، وينسـى نفسـه في أحيان كثيرة وهو يحكي أو وهو يلقي درساً عن أحد الأورام فيسكب على نفسه فنجال القهوة، أو يسهو عن القاء نهاية سيجارته فتظل تحترق حتى تلسع أصابعه أو تنطفىء من تلقاء نفسها وتظل مطفأة إلى أن ينتبه ويلقيها.

وعلى مر الأيام بدأت علاقة أعمق تنشأ بيننا، وبدأ هو يكتب بعض مقالات للمجلة وبدأت أنا الآخر أسلم بكثير من آرائه وانتقاداته عن نشاط الجماعة، وبدأنا نشعر أننا متفقان في نقط كثيرة وأننا متجاوبان.

وقلت له: اسمع يا أحمد. أنا عايز أحكي لك مشكلة خاصة ودقيقة جداً، فهل أنت مستعد لسماعها؟

قال :وليه لأ؟ قوي.

وحكيت له ما استطعت من القصـة، فلـم يكن في مقدرتـي ولا في مقدرة أحد أن يحكي له ما حدث بالضبط. هناك دائمـاً أشياء لا يمـكن حكايتها ولا يمكن التعبير عنها، وقد تكون أهم من الوقائع الكثيرة التي تحكى والتي يبنى الحكم على أساسها.

وحين انتهيت قال سيف النصر:

ـ طيب.. وإيه المشكلة؟

وتضايقت، وأحسست أني أخرجت جزءاً عزيزاً من نفسي ووضعتـه

أمام أنظار غريبة حتى لو كانت أنظار صديق. شعرت أني فعلت شيئاً ما كان يجب عليّ أن أفعله. وفي نفس اللحظة أدركت باعثاً آخر حدا بي إلى لقاء أحمد سيف النصر وتجهيز هذا المشهد كله. كنت أريد منه أن يفتيني. كنت أريد من شخص محايد مثله أن يعرف من مجرد ذكر الوقائع إن كانت سانتي تحبني أم لا. وإذا كانت تجبني فماذا يجب علي أن أفعل؟ وإذا لم تكن كذلك فكيف أتصرف؟ وعلى الرغم من صلتي الوثيقة بأحمد فقد كنت محرجاً جداً أن أسأله ذلك السؤال فقد يبدو له سخيفاً، بل من المحتم أنه سيبدو في غاية السخف. وتصوروا هذا الشيء الذي كنت أحس أن حياتي كلها معلقة به، كان من الممكن أن يبدو شيئاً سخيفاً في أعين بعض الناس.

ولكن في ليونة وبلباقة قدت الحديث إلى هذه النقطة، وقلت له في النهاية:

ـ هل تعتقد أنها تحبني فعلاً؟

كان سيف النصر على وضعه، يمسك بقدح البيرة الفارغ وكأنه يهم بالشرب منه، وابتسامته غير محددة المكان تائهة في وجهه، وعيناه تنظران إلي بطيبة من خلف منظاره الرخيص الذي لم يغيره من أيام التلمذة، حتى بعد أن أصبح جراحاً كبيراً بالمستشفى.

وقال:

ـ ونعرف ليه؟ فلنفرض أنها تحبك.

قلت:

ـ ينحل المشكل. . أتزوجها.

قال:

ـ ولكنها متزوجة.

قلت:

ـ تتطلق.

قال:

ـ فلنفرض أنها تحب زوجها.

قلت:

ـ إذا كانت تحبني فمعنى هذا أنها لا تحب زوجها. إن الزواج لا يقوم بغير الحب، فإذا انتهى الحب انتهى الزواج.

قال:

ـ مش ضروري.

قلت باستنكار:

ـ إزاي؟

قال:

ـ ده كلام الناس اللي بيكتبوا روايات ويألفوا عن الحب. خلاص مفيش حب مفيش زواج، وكأن الحكاية معادلة جبرية، مين قال كده؟ الحب شيء فعلاً والزواج شيء ثان، حتى اللي بيحبوا بعض ومجوزين بيحبوا بعض مش كحبيبين ولكن كزوجين. الحب مسألة عاطفية والزواج مسألة اجتماعية، حاجة بيخش فيها المجتمع طرف ثالث. وما دام دخل المجتمع بيتغير نوع العلاقة، وبيتساوى فيها اللي اجوز عن حب واللي اجوز كده.. بتصبح عشرة وعادة ومسئولية وثقة وكله قدام الناس، فين العلاقة دي وفين الحب اللي زي حبك كده؟

وغضبت في سري فقد أحسست أنه يهين أعز ما في نفسي، واستطرد هو يقول:

البيض

ـ انت عارفها؟ شفتها وهي صاحية م النوم؟ شفت أخلاقها؟ اتخانقت معاها مرة واصطلحتوا تاني؟ مين دي؟ دي بالنسبة لك وهم.

ولم أستطع صبراً. اندفعت أقول له إن كل ما يتحدث عنه أشياء ثانوية تأتي في المرتبة التالية بعد أن يكون أساس العلاقة قد وجد، أي بعد الحب.

وابتسم وقال:

ـ وايش عرفك؟ دا يمكن الواحد ما بيحبش الثاني إلا بعد ما يشوف منه الحاجات الثانوية دي اللي بتقول عليها ثانوية. دا يمكن هي دي الانسان، هي دي الشخص نفسه، هي دي اللي بتنحب.

وسكت، وسكت أفكر في كلامه. كنت أحس لسبب ما أنه على خطأ ولكني لم أعرف كيف أرد عليه. ووجدت ملامحه تتخذ طابعاً جاداً نوعاً ويضع كوب البيرة الذي كان قد نسيه فارغاً معلقاً في يده ويقول:

ـ اسمع يا يحيى! انت أناني جداً. تصور! إنسانة كويسة تتمتع بسمعة طيبة جداً في الجو اللي بتعمل فيه، ومتزوجة وتحب زوجها وتفضح نفسها وتتزوجك. ألا تعرف معنى هذا؟ معناه أنك تقضي عليها. معناه أنك تحطم حياتها ومستقبلها. لا أنت ولا هي عايشين وحدكم في الدنيا، أنتم في مجتمع. وأنت مضطر سواء أردت أم لم ترد لمراعاة القيم السائدة فيه. والزواج قيمة كبيرة جداً، والزوجة التي تحطم هذه القيمة من أجل إعجاب عابر بشاب أو برجل مهما كانت صادقة ومهما كانت بتتحب من المجتمع مش ممكن يغفر لها العمل ده، وبيعاقبها عقاب جماعي وبتمتد ألسنته حتى إلى حياتها الجديدة وتفضل تهدم فيها لغاية ما في يوم تلاقي نفسها في الشارع أو على الرصيف.

وأيضاً لم أجد في نفسي أي ميل لمجاوبته ونقاشه. فالرأي الذي كان يقوله كنت أعرفه تمام المعرفة، إذ هو رأي الناس جميعاً في مشكلة كتلك.. رأيهم أن ما أفعله خطأ.

وليس هذا بجديد علي. فحين أحسست ببوادر الانتصار على سانتي والاستحواذ عليها، بدأت أحس بشيء خفي صغير يهيب بي أن ما أفعله خطأ، وأردت أن يشجعني سيف النصر عليه إذ كنت أعرف عنه أنه أحب وغامر وله في هذا الشأن باع طويل، ثم عودني أن يحكم على الأمور حكم عالم لا يهمه إبداء الآراء المتعارف عليها أو التقاليد إذا تعارضت مع منطقه العلمي. ولكن ها هو ذا يبدو من ردوده الأولى أنه يقول كلاماً مخالفاً تماماً لما كنت أعتقد أنه سيقوله.

وقال مواصلاً كلامه:

ـ لا، لا، لا يا يحيى. ده عيب.. خطأ، سيبك منها.

قلت وأنا غير مهتم اهتماماً جدياً بمناقشته، ولكني أقول لنفسي لعل وعسى:

ـ ده كلام كان ينفع الأول، ولكن أوانه فات.

قال سيف النصر:

ـ ما فاتش ولا حاجة. الحكاية في إيدك.

قلت:

ـ إزاي؟

قال:

ـ اقطع علاقتك بيها نهائياً.

وضحكت في رثاء لسذاجته العلمية.

فقال:

ـ لأ، صحيح، بكلمك جد. لازم تقطع علاقتك بيها.

وضحك ضحكة قصيرة من ضحكاته التي تشبه النحنحة وقال:

ـ أحسن.. مش كده؟ أحسن تقطع علاقتك بيها.

قلت:

ـ فلنفرض إني بحبها وما أقدرش؟

ـ إذا كنت بتحبها ـ واخد بالك؟ ـ إذا كنت يعني.. اقطع علاقتك بيها عشان خاطرها هي. دي زميلتك وسيدة.. وتصور حتى إذا تطلقت واجوزتها الناس ح تفضل زفاكم على طول. يبقى استفدت إيه؟ المجتمع لا يرحم في عقابه أبداً، وما فيش فيه نقض أو إبرام. بكره تحب غيرها.. ثم يا أخي اللي بيحب لازم يراعي شعور اللي بيحبها.

وتنحنح ضاحكاً وقال:

ـ والا إنت أناني؟

الكلام كلام طيب ولطيف ومعقول حتى ولو لم أكن أتوقعه من سيف النصر. ولكن كلام سيف النصر ليس ككلام الناس.. قد يشبه إلى حد كبير ما يقوله كل الناس ولكن الفرق أنه يؤمن به، وتحس أنت هذا، تحس ولو لم تستطع كلماته نفسها أن تعبر عنه.

وفي الحقيقة لم أكن أتوقع أن ألقي بالاً كثيراً إلى «نصيحة» أحمد سيف النصر هذه، بل كان يخيل إلي أنه هو نفسه يعرف أنني لن ألقي إليها بالاً.

وفعلاً لم يستمر نقاشنا في الموضوع طويلاً، أخذنا نتحدث كعادتنا في الأحوال والسياسة والأدب، والطب والنساء عامة ثم افترقنا. ومن

الجائز جداً أن يكون سيف النصر قد نسي كل شيء عن الموضوع بعد ما غادرني، ومن الجائز جداً أنه لم يكن يؤمن إيماناً كاملاً بما قاله، ولكني حين أصبحت وحدي في الفراش بدأت أفكر. وكل ليلة كنت أفكر، بل لم يكن لي عمل طوال الوقت إلا التفكير في سانتي. ولكني هذه المرة كنت أفكر فيها من زاوية أخرى، فقد تصورت أن ما يحدث بيننا سراً قد عرفه كل الناس بطريقة ما، ترى هل أستطيع حينئذ مواجهتهم بشجاعة؟ تصورت أن هذا الغرام المستعر قد عرفه أحمد شوقي وفتحي وكل الأصدقاء والزملاء، ترى بأي عين ينظرون إلي؟ ألن يقولوا عني أني إنسان فاسد منحل أستغل فرص العمل لتحقيق مآربه الشخصية، وجر معه في فضائحه فتاة لم يدفعها للانضمام إلى كفاحنا إلا حماسها لقضيتنا وشعبنا؟ ثم ماذا يكون موقفها هي؟ وكيف أواجههم حينئذ وأواجهها؟

الأهم من هذا كله كان العمل الثوري المشترك، كان احساسي المستمر المتوقد الذي لا ينطفىء بضرورة أن أصنع دائماً عملاً من أجل المبادىء التي أؤمن بها. قال لي صديق صاحب عزبة ذات يوم: أنت تحيرني. شاب مثلك يحتل مركزاً اجتماعياً يحسده عليه الآخرون، لماذا يهب نفسه لهذا النوع من العمل ويعرض نفسه للسجن والتشريد؟

وفي تلك الليلة قبل أن أنام طرحت أنا على نفسي هذا السؤال، وقلت: الشعب، القضية، المبادىء والمثل، وعشرات الشعارات التي كنا نتداولها بكثرة وحماس، وضعتها للاجابة على السؤال، ولكن هذا كله لم يشف غليلي. كنت أحس على الدوام أنها إجابات ناقصة، إذ أنها لا يمكن أن تعبر أبداً عن السبب الذي من أجله أضحي راضياً. كنت أحس على الدوام بشيء عميق جداً في نفسي شيء لا أستطيع إدراك كنهه. المبادىء أؤمن بها

بعقلي، الوطنية تعلمتها، الشعب عرفته حين قرأت المقالات والكتب التي تتحدث عن قداسة قضيته، ولكن الدافع الذي يدفعني لبذل نفسي من أجل الأخرين دافع يكاد يكون غريزياً كغريزة الدفاع عن النفس مثلاً أو الابن أو العائلة. كنت إذا قرأت تصريحاً لأحد رؤساء الوزارات وأدركت أنه يضلل أو يكذب استشيط غضباً.. غضباً حقيقياً، وكأنه أهانني شخصياً. بل لو أنه كان أهانني شخصياً لما أحسست بغضب كهذا. فلماذا كنت أغضب؟ وما هو ذلك الشيء الكامن في نفسي والذي كان يهيب بي دائماً أنني قصرت اليوم وأنني لم أؤد واجبي؟ واجب أحسه من تلقاء نفسي، لا أحد يفرضه علي، ولا أحد يحاسبني عليه. هل كان أصدقائي وزملائي في المجلة يحسون بمثل ما أحس به؟ والحب الذي أحببته لسانتي؟ ألم يكن من وراء نفسي، ومن وراء الاحساس المتقد بالواجب؟ كلما أردت أن أخطو تجاهها خطوة كنت أحس أني ارتكبت خطأ ما، وكنت أصهين معتقداً أني أنا وحدي الذي أحس بهذا الخطأ، وبهذا فيمكنني أن أتجاوز عنه لأن القوة التي تدفعني تجاه سانتي أكبر من القوة التي تدفعني تجاه الواجب الشخصي.

ولكن سيف النصر بكلامه اللطيف الطيب العادي قد كشف لي أن خطئي الشخصي أصبح خطأ عاماً، اتفق الناس على أنه خطأ. بكلامه وضح لي أن المسألة لم تعد بيني وبين نفسي، ولكنها أصبحت ظاهرة وواضحة بحيث يراها الجميع. وبهذا يجعلني أفيق قليلاً ويجعل ذلك الجزء الذي كان يؤنبني دائماً يسقط ويكبر ويصبح على قدم المساواة مع جزئي الآخر الذي يندفع تجاه سانتي.

وما أسهل القرارات في أمثال هذه الأحوال! ما كدت أكتشف أنني

تراخيت في أداء الواجب، وأنني تركت لأهوائي الشخصية العنان، حتى قلت لنفسي: أجل. لا بد أن أقطع علاقتي بها.

وليتني أيضاً لم أتخذ هذا القرار. . كانت علاقتنا تنمو نمواً متوازياً متطوراً تزدهر بلا كلام أو سلام أو تلميح، وفجأة قررت أن أصارحها بحبي فكانت تلك العاصفة. وما كادت العاصفة تهدأ وتعود علاقتنا تنمو نموها الطبيعي حتى هأنذا أقرر أني لا بد أن أقطع علاقتي بها.

وغمغمت وأنا أستعد للنوم والساعة جاوزت الرابعة: أجل، لا بد! أما كيف ومتى؟ فقد تركت التفكير في كل هذا للصباح.

وجاء الصباح، واستيقظت بقلب بارد كأنه بات طول الليل محفوظاً في ثلاجة. حزيناً قبل أن أنام، ويبدو أن عواطفنا لا تنام معنا. . إنها تظل مستيقظة في أعماقنا تجتر آخر إحساس مارسناه وتعمل على مهل وبهدوء فنصحو على طعم الاحساس البائت في فمنا.

ولمجرد أني كنت قد قررت هذا في الليل، كان الصباح لا معنى له بالمرة. بدا لي كل شيء بارداً كئيباً. . الحجرة والفراش وصوت الخادم الذي كان يعمل في الصباح في البيت وبعد الظهر في العيادة وهو يسألني ماذا أفطر؟ وكنت جوعان، ولكني حين رحت أستعرض ما يمكنني تناوله وجدت أني لا أريد أي طعام في العالم. كل الأطعمة سواء وكلها لا أريدها الآن.

وقمت وجلست إلى المكتب وقرأت الجرائد، وبدا لي كل ما فيها من أخبار وكأنه يتحدث عن عالم آخر لا أمت إليه ولا يهمني أمره.

كان مفروضاً أن تحضر سانتي بعد ظهر اليوم كالعادة، وكان مفروضاً أن أنهي في تلك المقابلة كل ما بيننا، أو على الأقل إن لم أستطع هذا مباشرة فعلي أن أغادر البيت حتى لا تجدني هناك حين تجيء. . وكنا لا نزال في

البيضاء

الصباح وباق على مجيئها ساعات وساعات. وكان من الممكن أن يظل الصراع قائماً في نفسي إلى ما قبل مجيئها بساعة مثلاً أو بساعتين، ولكن الذي حدث أني كنت قد أدركت، منذ ساعات الصباح الأولى، أنني لا يمكنني بأية حال من الأحوال ليس فقط أن أقطع علاقتي بها، ولكن لا يمكنني حتى أن أتهرب من مقابلتها في ذلك اليوم. بدا لي شيء كهذا مستحيلاً كل الاستحالة.

وببساطة خطر لي ذلك الخاطر.. ما دمت لا تستطيع قطع علاقتك الحالية فلماذا لا أفعل معها شيئاً يقطع علاقتنا؟ لماذا لا أحاول أن أنالها؟ وأنالها فعلاً، ففي تلك الحالة سأحس أني انتصرت وأني استحوذت عليها تماماً، ويمكنني حينئذ أن أقطع علاقتي بها. أما قبل هذا فمستحيل مستحيل.

حسن اذن! على أن أهيىء نفسي لكي أنالها. أما ماذا بعد تهيئة نفسي فأمر أتركه للظروف وللمقابلة الهامة التي ستحدث قبل انتهاء اليوم.

وإلى أن تحين المقابلة رحت أتصور نفسي وأنا أحقق حلمي بنوالها. وأغرب شيء أني لم أستطع هذا أبداً. كنت أتصورني جالساً معها مثلاً أتحدث إليها، أضحك معها، أقترب منها، أقبلها.. أما أن أتصور نفسي نائماً معها في فراش واحد فذلك أمر لم أستطعه. وحين تكرر هذا في خيالي بدأت أفطن إلى الحقيقة الغريبة المذهلة التي لم أكن قد فطنت بعد إليها. حتى في الخيال لا أستطيع أن أتصور نفسي في وضع جسدي معها. كيف هذا؟ كنت أثور على نفسي وأعاندها وأروح مرة أخرى أتصورها وأبدأ بالكلام معها لكي أنتهي بالفراش، ويمضي كل شيء على ما يرام حتى نصل إلى الفراش، وحينئذ يجمح بي عقلي بالقوة ويأبى المضي وكأنني سأتصور نفسي نائماً مع إحدى المحرمات علي.. مع أمي مثلاً أو أختي أو عمتي.

وازداد عجبي، وقلت لعل حالتي النفسية هي السبب. ولكنني حين جربت نساء أخريات، حين جربت الحيلة مع لورا أو جارتنا أو أي إنسانة أخرى كان الخيال يمضي بي إلى حيث أشاء دون تردد أو جموح. بل كنت أجد لذة في تتبع خيالي. . لذة غريبة، لذة الخلسة. ولكن حين كنت أقترب من سانتي وأتصورها معي كان كياني كله يتغير، فتختفي الرغبة العارمة من جسدي وتهدأ حواسي الفائرة، وإذا أمعنت في الخيال توقف بي الخيال نفسه وأبى أن يمضي.

والذي روعني أن كل هذا كان حقيقة صماء لا مبالغة فيها ولا تهويل ولا حيلة لك معها.

وحين أجهدت نفسي مرات ومرات وفشلت، رفضت ـ حتى بيني وبين نفسي ـ أن ألقي اهتماماً كبيراً للأمر وقلت: لعل هذا يحدث لأنها الوحيدة التي أحبها، ولعلي لهذا لا أجرؤ عليها. أو ربما لأني لم أتعود أن أنظر إلى سانتي نظرة جسدية، كنت دائماً مشغولاً بإخضاعها هي. . بإخضاع روحها، ما هو أقوى من الجسد فيها. . شخصيتها، ولم أنظر لها أبداً على أنها امرأة عادية، مجرد امرأة عادية لها جسد وصدر وشفاه.

لم ألق إلى الموضوع أهمية كبيرة حقيقة، ولكني في نفس الوقت كنت قد صممت على أن أعود نفسي على النظر إليها كامرأة عادية، أعود نفسي على أن أنظر إليها كرجل، وأن يبدأ هذا في المقابلة القادمة حالاً، ولنر ما يكون.

وجاءت سانتي.

وارتبكت كثيراً وأنا استقبلها، وأنا حائر بين طريقتي التي اعتدت أن أنظر إليها بها وبين هذا القرار الذي اتخذته. غير أن قراري الجديد لم يدم طويلاً، سرعان ما نسيته في غمرة انفعالي بوجودها. وكنت أحياناً أتنبه إليه

وأحاول أن أنفذه فيحدث لإرادتي وعقلي ما حدث لخيالي، وأدهش وأعجب وأغضب، ولكني لا أستطيع إزاء الأمر شيئاً.

ولاحظت شيئاً على سانتي لم يكن موجوداً. . نوعاً من الاستكانة أو شيئاً يشبه هذا. كانت فيما مضى تأتي متفتحة نشطة يشع بريق الدنيا كله من جسدها وعينيها، فإذا بها في المرة الماضية وهذه المرة قد انتاب حركاتها بعض الكسل الأنثوي، وحالتها العامة فيها استكانة من نوع وافد غريب.

لاحظت هذا، ولكني لم أكن متأكداً منه، ولو كنت متأكداً لتغير الوضع تماماً. ولكن أنّى لإنسان يجب أن يتأكد؟ أننا نرى الشيء حينئذ ولا نصدقه أو نصدق أشياء لا نراها أبداً. وما نتخيله قد يكون لدينا أقرب إلى الحقيقة مما نلمسه، وما نلمسه قد نعتبره محض خيال. لم لا تكون هذه الاستكانة التي أحسها فيها مجرد إرهاق؟ خاصة وقد مضت تحدثني عن أمها المريضة وكيف أنها لا بد لها من إجراء عملية جراحية في الرحم. وسمعت منها الحديث ولكني للحظة واحدة لم أصدقه. لم أكن أتصور ـ أو على الأقل لم أكن أريد أن أتصور ـ أن سانتي إنسانة مثلنا لها أم، ولها متاعب، وأنها ابنة، وأنها كانت في المدرسة مثلاً، وأنها تذهب إلى الحمام مثلما نذهب.

كان من الممكن أن تحدثني عن أشياء كهذه ساعات طويلة وساعات ولكن كان لا يمكن أن يعلق بذهني شيء منها. وفجأة قلت لسانتي: أتذكرين؟

قالت: ماذا؟

قلت: ذلك اليوم؟

كنت قد فطنت إلى أنني يجب أن أبدأ خطتي، وكان لا بد أن أدور وألف لأصل إلى ما أريد، ولكني كنت أفعل هذا بجبن شديد، خائف خوف الموت أن أخطىء، ولو مجرد خطأ بسيط.

وأشاحت سانتي بوجهها حتى لا تلتقي عينانا وقالت: أوه أنت خبيث.

وأغمضت كل عيوني الداخلية وآذاني وكأنني أهم بالقاء نفسي في بحر غريق.

ووجدتني أقول وأنا واقف مستنداً بظهري إلى المكتب وهي أمامي على الكنبة: صحيح يا سانتي، ماذا يمكن أن يحدث لو لم أكن نادماً على ما فعلت؟ أنا.. هذا شيء يحدث بالرغم عني.. صدقيني إنه يحدث بالرغم عني. أنا لا أعرف ماذا يدفعني إليك؟ قوى أكبر منك يا سانتي، انظري إلي! أنا لا أضحك. أنا أقول الحقيقة. أنظري إلي.

كنت قد أمسكتها من كتفيها واقتربت بوجهي من وجهها. وكالأعمى الأصم كنت أريد أن أقبلها.

وأحسست بذراعيها تقاومان يدي، وأحسست بمقاومتها تنتقل إلى جسدها كله، وحاولت دفعي بلا إحراج وهي تردد: يحيى يحيى. يحيى أنا لن آتي إلى هنا مرة أخرى. هذه آخر مرة.

ولو لم أكن أحبها لأخذت هذا الكلام على أنه شيء ضروري من الواجب أن يقال في أمثال هذه الأحوال، تلك هي عادة المرأة في كل زمان ومكان.. أن تقاوم. ولكني كنت أحبها، وكل كلمة منها كانت شيئاً مقدساً بالنسبة إليّ، وكل كلمة منها كنت آخذها جداً لا هزل فيها.

وتركتها حينئذ وأنا ناقم ساخط يائس، أستدير وأضرب كفي بقبضتي وأعض على شفتي وأتمنى أن أموت.

وكانت هي قد وقفت وأخذت تصلح شعرها بالرغم من أني لم أكن قد مسست شعرها أو غيرت نظامه. ولمحت أنها تستعد لمغادرة الشقة.

وقلت لها وأنا أغمغم: أرجوك.. لا تغادريني.. أرجوك.. وحين

البيضاء

رأيت أنها لم تدفعني قلت: فقط دعيني أشم رائحة شعرك. . أني أحبها جداً.

وحقيقة أني كنت أحب رائحة شعرها. وأجمل من رائحة شعرها كان أحساسي أني أشمه وأنها تسمح لي بهذا.

ظللت أمرغ أنفي بين خصلات شعرها الأسود اللامع، وأحدق بعيني في رأسها وأنا أعب من رائحته، وأرى جلدة رأسها البيضاء من خلال جذور الشعر الأسود فأقشعر وكأني أراها عارية.

وقالت لي بفمها البعيد عني: أنت تفعل كما يفعل أي ذئب يا يحيى. أنت ذئب.

وانتفض قلبي لدى قولها هذا، وبقوة حاولت أن أديرها ناحيتي لأقبلها وكأني وجدت في كلامها ما يشجعني. ولكنها قاومتني بعنف وابتعدت. وبسرعة وجدتها قد جمعت أشياءها وأصبحت على باب الشقة. وقد فتحت الباب ووقفت على عتبته تقول: يحيى. أنا ذاهبة.

انطلقت في أثرها قائلاً: سانتي.

فمضت إلى السلم بسرعة قائلة: أنا ذاهبة.

وناديت عليها مرة أخرى، ولكنها كانت تهبط الدرجات.

وفي الحقيقة لم أتمن كثيراً أن تعود. . فيكفي ما حدث اليوم، وحتى لو عادت فإن اضطرابي سيزيد الأمر تعقيداً.

وجلست على الكنبة في المكان الذي كانت جالسة فيه. وأشعلت سيجارة، وابتسمت. فلأمر ما لم أحس بالندم هذه المرة ولا بمرارة الفشل.

واعتبرت ما حدث جولة. . مجرد جولة في تلك المعركة الرهيبة الدائرة بيني وبين نفسي، وبيني وبين سانتي.

١٢

كان ميعاد الاجتماع في السابعة والنصف، ولم أكن أول الحاضرين جئت متأخراً واختلقت عذراً واهياً، وسلمت وأنا منكس الرأس ثم جلست وأنا لا أزال مرتبكاً. وخيل إليّ أن زمناً طويلاً قد مضى قبل أن أفيق وأحس أني حقيقة في الاجتماع الأسبوعي للمجلة. كان أحمد شوقي يرأس الاجتماع وكان جالساً مستغرقاً كالعادة في الأجندة والمواد، وعلبة سجائره الأميركية بجواره يسحب منها السيجارة بين الحين والحين، وتعجبني جداً أصابعه وهي تتحرك من تلقاء نفسها وتتسلل إلى فتحة العلبة بينما هو مشغول بالنقاش لتسحب السيجارة وتضعها في فمه.

كان هناك فتحي سالم الذي طالما تمنيت أن أكون مثله، فقد كان شاباً وسيم الملامح ذا عينين خضراوين طويلتي الرموش لا تجرؤ على التحديق فيهما طويلاً، وكان أصغر مني بعامين، وكان طبيباً أيضاً. ولكن أيامها كان لا يزال طبيب امتياز. ومع هذا فقليلون هم الذين كانوا يعرفون أنه طبيب، إذ كان يكتب قصصاً للمجلة ويوقع باسمه المجرد من اللقب وقصصه كانت محبوبة ورائجة وينظر إليها النقاد باعتبارها فاتحة مدرسة جديدة، والكل مجمع على أنه فنان. وكان قليل الكلام كثير الابتسام وكانت تحيرني ابتسامته التي يوجهها لي فقد كنت ألمح فيها تعبيراً ما، لعله

الترفع، لعله السخرية مني ومن الباب الأسبوعي الذي كنت أنفرد بكتابته في المجلة، لعله رثاء لابتسامتي المعوجة، لعله مزيج من هذا كله.. ولكن الذي لا شك فيه أنني لم أكن أستريح أبداً لابتساماته ولا حتى للحديث معه. ثم كان هناك محمد حلمي عطوة القصير القامة الدسم الملامح، الذي تحس وكأنه قطعة دهن كبيرة تشكلت على هيئة انسان. يحرص دائماً على أن يحذف عطوة من اسمه كلما وقع مقالاً أو تحقيقاً في المجلة، وقليلاً ما كان يسمح له بالتوقيع فقد كان حديث الالتحاق بالمجلة.. ومع هذا كنت إذا انفردت به صارحك بآرائه في المجلة وكتابها وفي الحركة الفنية والأدبية بشكل عام. ولن تجد كتاباً واحداً يعجبه أو عملاً واحداً يكن له أقل تقدير.

وكان هناك أيضاً سانتي ولورا ومحرران آخران وجودهما مثل عدم وجودهما. وأدهشني وجود لورا إذ لم تكن قد حضرت معنا اجتماعات تحرير قبل هذا، ولكني علمت فيما بعد أنها ـ حين عرفت أني سأحضر الاجتماع ـ رجت شوقي أن يسمح لها بالحضور فقبل على مضض. ولم يكن قد مضى على مقابلتي العاصفة لسانتي في بيتي وخروجها غاضبة أكثر من ساعة.

وحين بدأت أصغي كان محمد حلمي عطوة هو الذي يتكلم، وكانت طريقته في الكلام في الاجتماعات تضحكني، فقد كان يتوجه بكلامه أول الأمر إلينا نحن المجتمعين، ويكسب صوته طابعاً خطيراً تظن معه أنه سوف ينهي كلامه بنتائج تاريخية لا بد ستغير من مصير الشعب والبشرية عامة. ويبدأ يتكلم فتظن أنه يعارض ما يقوله شوقي أو ينقده، ولكنك لا تلبث بعد حين أن تتبين أنه ما تكلم إلاّ ليؤيد ما قاله شوقي تمام التأييد ويحاول تبريره، وافتعال حيثيات سخيفة له. وفي الفترة الأخيرة لم أكن

راضياً أبداً عن كلام شوقي. . كان اتجاه المجلة قد بدأ يميع وسياستها قد بدأت تتخذ طابعاً غامضاً غير مفهوم، ولم أكن أعرف ماذا يسخطني بالضبط.

ولم يطل إصغائي. سرعان ما أدركت أن الاجتماع خطير، فقد كان يدور حول خطاب وصلنا من البارودي رئيس التحرير السابق، والذي كانت حكومة ذلك الوقت قد اعتقلته ووضعته في السجن. والواقع أن البارودي لم يكن رئيس تحرير مجلتنا السابق فقط، كان الجميع ينظرون إليه باعتبار أنه واحد من أخطر الشخصيات في البلد وإن كانت شهرته لم تتعد نطاقاً ضيقاً من هؤلاء الذين يعملون تحت الأرض. حتى أنا كان بالنسبة إلي شخصاً أكاد أرفعه إلى مرتبة التقديس. كانت آراؤه في نظري هي دائماً أسلم الآراء وذكاؤه أحد ذكاء، وكان يخيل إلي في أحيان أنه معجزة وأن أية معضلة لا يمكن أن تستعصي على مخه. وأعصابه كانت من حديد. . لم أره مرة ثائراً، ولم أضبطه مرة مرتكباً خطأ ما، حتى كدت أومن إيماناً تاماً بأنه لا يمكن أن يخطيء. في أحلك الظروف تجده رابط الجأش! إذا كنا في الاجتماع مثلاً وجاءنا نبأ خطير، نبأ يزلزل كيان انسان كان يناقشه. . ويناقشه في هدوء قاتل، وحتى لا يغفل أثناء النقاش عن أشياء صغيرة جداً مثل «أعتقد أننا جعنا. . نأكل أولاً ثم نكمل النقاش» أو يفاجيء الواحد منا وهو هارب ومطلوب القبض عليه بهدية صغيرة في عيد ميلاده أو باحتفال.

هكذا كنت أراه قبل أن يسجن حين كنت أعمل معه. والحقيقة أني كنت أحس بفخر لا حد له وأنا أعمل معه. وإذا كلفني بعمل ما أكاد أطير فرحاً وأنا أبذل كل ما في طاقتي من جهد لتنفيذه. ومع أني كنت وثيق الصلة به وكثيراً ما بتنا معاً في بيتي أو في بيته ورأيته بالفانلة والسروال

البيضاء

ورأيته وهو مريض وعالجته، وانتشيت وهو يمتثل لأوامري كطبيب، كأي مريض، مع هذا كله إلا أنني كان بيني وبينه نوع من الاحترام الغريب الذي لا يمكن وصفه ـ حتى أني لم أجرؤ مرة على مناداته باسمه مجرداً. وإنما كنت أقول له يا أستاذ بارودي، ولا أذكر أني حدقت في وجهه مرة بعيون لا ترمش، أو واجهته مواجهة الند للند.

حقيقة كانت أحياناً تبدر منه آراء لا يهضمها عقلي، ولكني كنت إذا ناقشته يقنعني بل يفحمني، ومع هذا أبقى غير مقتنع تماماً بما يقول. كان يتكلم عن الفلاحين مثلاً ويدافع عنهم، ولكني كنت أعتقد أنه يدافع عنهم دون أن يعرفهم. وكان يتكلم عن «مصر» ولكني كنت أحس أن «مصر» التي يتكلم عنها غير مصر التي أعرفها. وكان يتكلم عن «الثورة» ولكني أحس من أعماقي أن الثورة التي يتكلم عنها غريبة تماماً عن نفسي وكأنها ثورة أجنبية، أو ثورة لا يمكن تحقيقها إلا في الكتب. وحتى الكتب التي كان يحملها كان معظمها كتباً فرنسية، والأشعار التي يحفظها كان معظمها لبيرون وشيلي ولافونتين وبول ايلوار وعشرات غيرهم، ويردد أمامي بعض مقاطع من شعرهم ويدعوني لأتأمل جمالها، وأتأملها فلا أحس أنها جميلة، أو أحس أنها جميلة جمالاً لا أستطيع إدراكه.

لأمر ما كنت أحس أن البارودي مصري دماً ولحماً، أعرفه وأعرف أباه الشيخ المتخرج من الأزهر وأعرف بيتهم في المغربلين ومع هذا فعقله أحس به عقل خواجة، حتى وهو يتكلم الفرنسية أحياناً كنت أحس أنه يغير الطريقة العادية التي يتكلم بها العربية ويكسب صوته وتعابير وجهه إجلالاً ما ويتأمل كلماتها بتقدير عظيم وهو ينطقها.

ولأني كنت أكاد أقدسه كما قلت، فقد بدأت أشك في كنه هذه

الأحاسيس التي كنت أشعر بها ناحيته وناحية آرائه، بل بدأت أعتقد أنني لا بد مخطىء في أحاسيسي تلك، وأنني أشعر هكذا لأنني كما يقولون أحياناً «فلح» أو متعصب لقوميتي وشعبي أكثر من اللازم، وأن على أن أساير العلم والحضارة والتقدم والغاء كافة الفروق بين الشعوب والخبرات والثورات.

بل ذهبت في هذا الاعتقاد بعيداً.. وبدأت أستعذب الفرنسية والنطق بها وأشعار أيلوار وموسيقى سترافنسكي، وأقرأ كثيراً من تلك الكتب التي طالما استنكرت من البارودي قراءتها.

والواقع أنه لأمر محير ولكنه كان الحقيقة، كنت بطبيعتي ـ ولا أدري لماذا ـ أعشق كل ما هو أوروبي وخاصة الأوروبيات.. كنت إذا ذهبت مثلاً إلى الاسماعيلية أو بورسعيد، ورأيت الذوق الأوروبي يصبغ المدينتين، ويصبغ منطقة القنال.. البيوت ذات الطابق الواحد والأسقف المائلة الحمراء والمدافىء والمداخن، والنظافة والسكون والنظام. النظام الذي نكاد نكرهه نحن، ينقلب بين أيديهم إلى فن، فن النظام.. الطعام بنظام، والحرب بنظام، والحب بنظام.. كنت إذا رأيت هذا كله أحس بشجن، برغبة خفية ملحة أن أصبح ونصبح جميعاً مثل ذلك الكائن الأبيض المعقد ذي الوجه الأحمر، غير أنني ـ وهذا هو العجيب ـ لم أتمنى قط أن أكون أوروبياً.. كنت أتمنى في أحلامي أن يصبح لي مثل قدرتهم العجيبة على الابداع والنظافة والنظام.. ولكن لي أنا، وأنا ابن عرب هكذا، دون أن أكون مستعداً إلى تغيير شعرة واحدة مني، بل كنت أحياناً أفيق لنفسي وأنا في المظاهرات التي كنا نقيمها ضد الاحتلال البريطاني وأنا أهتف «تسقط انجلترا».. كنت أحياناً أفيق لنفسي فأجدني أهتف بصدق حقيقي، بل وبغل وكراهية شديدين تكاد تقترب

درجتهما من درجة إعجابي الشديد بهم. وبما رأيتهم قد صنعوه أو يصنعونه في الاسماعيلية أو الاسكندرية أو بور سعيد.

أما في عملنا الثوري فقد كنت شيئاً آخر. كنت لا أطيق كل ما يمت إلى الأساليب الأوربية بصلة.. كنت هكذا بطريقة غريزية تلقائية.. حتى الاشتراكية الأوربية بنظامها وثورتها[1] كنت أحس دائماً أنها غريبة عني بقدر قرب النظرية مني.. أحس أنها أسلوب، أما ماهية تلك الطرق فلم أكن أعلم عنها شيئاً، ولكني كنت متأكداً أنني أستطيع التعرف عليها حالاً لو وجدت أو لو عثر عليها أحد.

وبنفس هذا الشعور المركب المتناقض اندمجت في الحركة الثورية وكل ما حدث أن اندماجي هذا كبت اعتراضاتي وشعوري بالغربة، بل انقلب هذا الكبت إلى نوع من الموافقة والتأييد حتى جاء على الوقت الذي أصبحت أرى فيه أن الأوروبية في كل شيء، حتى في الثورة، هي المثل الأعلى.

اندمجت وأصبحت واحداً من الحركة التي تتلمس طريقها في الظلام الكامل، وليس هناك ما يهديها إلا شعاع أبيض واحد قادم عبر البحر.

وفي تلك الظروف عرفت البارودي. كنت في بيت شوقي أزوره ووجدت عنده شخصاً طويل القامة رفيعاً يبدو أكبر من سنه بكثير. وعجبت لأن شوقي لم يقدمني إليه ولم يقدمه لي.. وخجلت أنا أن أسأله. وتكلمنا، ولم يتكلم ذلك الشخص الغريب الطويل. وكنت أتحدث عن مظاهرة قدناها نحن طلبة الطب، وفرقها البوليس. وانتهت زيارتي لشوقي

(١) من الانصاف أن نقول أن هذه الاراء للبطل كتبت قبل شيوع هذه الفكرة بزمن طويل.

وحين كنت آخذ طريقي إلى الخارج سألني ذلك الضيف الرفيع إن كان من الممكن أن يقابلني مرة أخرى. ورحبت بالمقابلة واتفقنا على ميعاد، وفي الميعاد ذهبت ولم أكن أعرف ماذا يريد مني ذلك الشاب العجوز الطويل ولكن كان لدي احساس مبهم أنه منهم.. من هؤلاء الناس السريين الذين يدبرون للثورة وهم مختفون. وكنت أعرف أنه سيكون لي معه شأن، وأي شأن، وإن لقاءنا هذا لن يكون الأخير.

وفعلاً لم يكن لقاؤنا هو الأخير.. كان مجرد اللقاء الأول. ومن يومها بدأت شيئاً فشيئاً أدخل إلى ذلك العالم الغريب.. عالم الأبطال الخفيين. عالم ظللت فيه إلى أن بدأنا نخرج للناس ونصدر المجلة وأصبح من محرريها. عالم كنت أندفع فيه بكل طاقتي وحماسي وقدرتي على العمل والتضحية والمثابرة.

والزمن كان قد أفلح في تعليمي أشياء كثيرة، فلم يعد ذلك العالم ظلاماً مثلما كان، تعلمت أن أرى من خلال ظلماته، وأن أتلمس الأشياء، وأتعرف الخطأ من الصواب، وكنت مستعداً لأن أفعل أي شيء في سبيل إنقاذ بلدنا، ومدرك تماماً أن لا سبيل لانقاذه إلا بواسطة ذلك العالم الصغير، وتلك المجموعة القليلة العدد الخطيرة الشأن من الناس..

كان يبهجني أن أسمع عن بطولاتهم، ويبهرني أن أراهم يفكرون ويعملون وينظمون، فقد كنت أعلم أن كل هذا من أجل بلدنا، ومن أجل الشعب. الشعب الذي لا أعرف متى أدمنت حبه أو لماذا أدمنته. والبلد الذي نشأت أحس به كأمي الكبيرة التي لا تموت، ولا تهرم ولا تنتهي. حبي له لم يكن حباً بتعقل كحبنا للرجل الأب، كان حباً بلا حدود كحبنا للمرأة الأم.

وظل البارودي يقودنا ويرأس تحرير المجلة، نجمع تكاليفها من التبرعات، ونرتب حروفها، ونحمل رصاصها، ونشترك في توزيع نسخها، ونجتمع بعد سهر أسبوع أو أكثر، حول طبق فول أو عدة سندويتشات جبنة نتخاطفها ونحن نضحك، ونحن نختلف ونتناقش ونعمل ونقترح، وفي داخلنا قوة يخيل إلينا أنها كفيلة بسحق أقوى الأعداء، قوة إيماننا بما نفعله وإيماننا بأن ما نفعله حق.

وفي يوم جاءنا من يقول: البارودي اتمسك.

ولم يكن البارودي هو وحده الذي قبض عليه، كانت الحملة ممتدة وواسعة حتى أننا ـ الجزء الذي بقي من المحررين ـ لم نصدق أننا أفلتنا من الحملة، وظللنا كل يوم نتوقع أن تمد يدها الغادرة وتشملنا. . ولكن مهما كان الوضع فقد كان علينا أن ندبر أمر المجلة بعد البارودي. وتولى أحمد شوقي رياسة التحرير وازددنا نشاطاً وحماساً، غير أن الظروف ظلت تسير من سيء إلى أسوأ، والمجلة أصبحت مشبوهة يخاف الناس تداولها، والعقبات تتكاثر، وضربات حكومة ذلك الوقت تنهال علينا وبعض المترددين كفوا عن دفع الاشتراكات والهبات. وما لبث عملنا نفسه أن عانى من كل تلك العوامل فبدأ يتأثر، وبدأ ينقلب في أحيان إلى روتين وبدأنا نثور.

والحقيقة أن ثورتنا لم يكن سببها تلك العقبات، كان سببها راجعاً أساساً إلى أمور أدركناها. . بعد دخول البارودي السجن، شيئاً فشيئاً بدأنا ندرك أن عملنا يضيق لأن أساس عملنا نفسه كان في حاجة إلى تعديل جذري.

ولا أعرف كيف حدث هذا بالنسبة لبقية الزملاء في المجلة، ولكني

أذكر أني بدأت أحس بالتناقض داخل نفسي أنا. كانت خواطري القديمة وعدم هضمي لكل تلك الأساليب الأوروبية في العمل الثوري، نفسها قد بدأت تعود إلى تفكيري. بل بدأ يخطر لي أحياناً أن كل ذلك العالم السري الذي عشت فيه وقضيت أهم سنوات عمري أخوضه، لا يمكن أن يؤدي بنا إلى ثورة حقيقية ننقذ بها بلدنا.

وكنت أكافح ما استطعت لاحتفظ بخواطري تلك لنفسي، غير أني أحياناً كنت أصارح شوقي بها. كان لا يدهش ولا يستنكر. كان في مبدأ الأمر يحاول إقناعي بصلاحية أشياء ويوافقني على عدم صلاحية أخرى.. ولكني كنت أجده في أيام وكأنما طفح به الكيل، وكأنما هو الآخر قد أدرك ما أدركته، واحدثه حينئذ عن ضرورة التغيير الجذري فيصغي لحديثي ويطول صمته.

وكنت طوال الوقت أحاول أن أطرد خاطراً مخيفاً يحوم حولي، خاطر مخيف حقيقة، فقد كنت أحياناً اتساءل.. أليس من المحتمل جداً أن يكون الBارودي قد قادنا طوال تلك الأعوام في الطريق الخاطىء، الطريق الذي يؤدي إلى أوروبا، ولكنه لا يمكن أن يؤدي إلى بحري أو الصعيد؟

واعترف أني كنت أخاف أن يكون الخاطر صحيحاً، إذ معناه أني ضيعت أخطر فترة من حياتي في طريق خاطىء، ومعناه أيضاً أن هذا الشخص الذي أكاد أقدسه.. البارودي.. ممكن أن يكون عبقرياً وخطيراً ومعجزة ولكن حسابه أفلت هذه المرة، وإذا استمررنا وراءه ضاع وضعنا.

وعلى الرغم من أنني أنا وشوقي وكل من كانت تحدثه نفسه بأشياء كهذه من الزملاء كنا نؤجل حكمنا النهائي على تلك الخواطر المخيفة، إلا أن هذه الخواطر كان لها انعكاسها في عملنا. فبدأ حماسنا للعمل يفتر

وبدأنا نغير تغييرات لا إرادية في سياسة المجلة واتجاهاتها ونبحث فيها بعض مشكلات بلادنا بالطريقة المحلية وباللغة التي يفهمها شعبنا. وبدأنا نردد شعارات أقرب إلى طبيعتنا وروحنا من الشعارات «العالمية» التقليدية المحفوظة.

وفي تلك الظروف عرفت سانتي.

عرفتها واليأس قد وصل بي إلى مرحلة كنت أكاد أقرر كل يوم فيها أن أقطع صلتي بالمجلة وبالمجموعة كلها، وأن أبدأ في البحث عن طريق آخر أكون مقتنعاً به وبصحته ومؤمناً بفائدته.

وكل يوم كنت أؤجل القرار،لا بحكم العادة والكسل فقط،ولكن لأني كنت ـ رغم إيماني المطلق بخطأ هذا الطريق ـ أخاف أحياناً أن أكون أنا المخطىء.. وبصراحة ليس هذا كل شيء، فقد قضيت سنوات طويلة أكافح جنباً إلى جنب مع تلك المجموعة من الناس، وفوق رباط العمل تآلفنا كاشخاص وكأصدقاء.. حتى لم يعد لي أصدقاء آخرون. أصبحوا هم كل أصحابي وأقربائي ومعارفي.. هم شلتي التي أسهر معها والتي لا أرتاح إلا لمناقشاتها، شلة افقدتني الاحساس بطعم الناس العاديين، بل جعلتني أمج هذا الطعم وأمج الحديث العادي الذي قد أجبر عليه حين يأتي لزيارتي قريب أو أوجد في حضرة أطباء أو موظفين.. وأصبح الانفصال الكامل أمراً صعباً،أو أهم من هذا لم أكن أجد أمامي طريقاً آخر لأسلكه، وأحقق به كل ما يجيش في صدري وأرد به على تلك الهواتف الخفية التي تهيب بي أن أعمل دائماً عملاً من أجل بلادي وأناسي. وعلى هذا كنت أقول لنفسي: عمل خير من لا عمل، وحتى العمل في طريق مشكوك في صحته خير من لا عمل بالمرة، وأؤجل القرار.

وحين عرفت سانتي فرحت. ولعل جزءاً كبيراً من فرحتي كان راجعاً إلى أنها جعلتني أؤجل ذلك القرار إلى الأبد، وجعلتني أعود لمحبة طريق كدت أكرهه رغماً عني. . جعلتني أعود اتمنى أن تحدث المعجـزة وأن ننجح فعلاً في تغيير كل ما كنا نراه غير قابل للتغيير.

وهكذا بدأت في الاجتماعات أناقش وأجادل وانفعل، وكنت قبلاً قد دفعني اليأس إلى حضورها ساكناً ساكتاً مطرق الرأس. . كنت آتي إلـى الاجتماع وأنا أكاد انفجر بالثورة وانفجر بها فعلاً ويصغي إليّ شوقي حتى أنتهي من كلامي ثم يبدأ يفند أقوالي. والعجيب أنه كان ينجح بلباقة في تفنيدها كلها وفي إقناعي أن كل شيء على ما يرام وأن سياسة المجلة هي أسلم سياسة ممكن اتباعها، وأنه إذا كان هناك عيب فالعيب يكمـن في أنا. . والأعجب من هذا أني كنت دائماً أقتنع. بل يحدث أحياناً أن أقر بخطئي وأعترف صراحة أني مقصر واتعهد باصلاح ذات نفسي. ولكنـي كنت أخرج من الاجتماع وأنا في أعماقي أكثر إيماناً بآرائي قبل دخولـي إليه، معاهداً نفسـي أن يكون هذا آخـر اجتمـاع أحضـره. وكالعـادة لا يكون، وكالعادة آتي للاجتماع التالي ،وكلي ثورة وأغادره بتصميم فاشل آخر وعهد آخر.

البيضاء

١٣

موضوع الاجتماع كما قلت كان هذا الخطاب الذي جاءنا من البارودي في سجنه، ومن ملامح الزملاء كان واضحاً ان الخطاب خطير وانه مفاجأة لم نكن نتوقعها. والمجلة رغم كل القيود ـ كانت تصل البارودي وبانتظام وهو في السجن، ويبدو انه ادرك من اعدادها الأخيرة كنه التغييرات التي بدأنا ندخلها على سياسة المجلة بقصد تعريبها وتمصيرها. والخطاب في الواقع لم يكن يناقش هذه التغييرات، كان يناقش المبدأ.. مبدأ أن نجري نحن الذين بقينا بالخارج اي تغيير يمس سياسة المجلة، ويصر على ان امثال هذه التغييرات مسألة من اختصاص «القيادة» حتى لو كانت القيادة بعيدة عن ارض المعركة ومقطوعة الصلة بالمجلة والكفاح.. مشكلة كادت تضحكني، اذ هل من المعقول ان نمنع نحن الذين نخوض المعركة من قيادة انفسنا ويعطى هذا الحق للقيادة القديمة سواء كانت داخل السجن أو في المنفى؟ وهل من المعقول ان نظل ننتظر التوجيه من قائد مسجون أو منقطع الصلة بنا ولا يدري من امرنا او امر المعركة التي نخوضها شيئاً، ولا نتحرك الا اذا جاءنا الأمر منه؟ وكل هذا لكي لا يصبح من حقنا ان نقود انفسنا ولكي تظل القيادة هي القيادة؟ وجه لا يعقل.. وجه كنت أعرف حقيقته واعرف انه

موجود،ولكن لم يخطر ببالي مطلقاً ان اراه مجسداً امامي على تلك الصورة وفي خطاب من البارودي.

كان عطوة هو أول من طلب الكلمة للتعقيب على الخطاب، ودائماً كان هو أول من يطلب الكلمة. وبدأ كلامه بطريقة ظننت معها ان معجزة قد حدثت وانه سيندد بما جاء في الخطاب. ولكني وجدته يلف ويلف ويعود يتكلم عن خبرة القيادة وضرورة احترامها وتقديسها، وان هناك مشاكل أعلى من مستوى تفكيرنا ولا يملك البت فيها الا امثال البارودي. ولم يكتف بهذا بل اكسب ملامحه في النهاية كل ما يملكه من جد وخطورة وخاطبنا بجفون مسبلة ودون ان ينظر الينا قائلا.. يا زملاء.. في نهاية الكلمة بتاعتي عندي اقتراح أرجو أنكم تقبلوه.. اقترح اننا نبعث لقائدنا البارودي خطاب شكر وتأييد.

ثم فتح عينيه وأدار فينا نظرات سريعة خجلة وقال: بس. دا كل اللي أنا عايز أقوله.

وسادت فترة صمت، طلب مني شوقي بعدها ان أتكلم. وكان في نيتي أن أبدأ كلامي في خفوت، وان اتحدث على مهل وبرزانه كما يفعل محترفو الاجتماعات وهواة الكلام. ولكني ما ان بدأت حتى وجدت الضيق يكاد يكتم انفاسي.. ضيقاً مادياً حقيقياً احسست ان لا منفذ لي منه الا بالانفجار. وانفجرت وتكلمت بحدة وانفعال وقلت رأيي بصراحة.. رأيي في سياسة شوقي المترددة، ورأيي في تذبذب المجلة وفي خطاب البارودي والتعفن الذي سادنا، وسببه الوحيد أننا لا نتصرف في أنفسنا بأنفسنا، وكيف أننا من المستحيل ان نستمر على هذا الوضع وكيف لابد من اتخاذ خطوة ايجابية نحصل بها على حقنا في قيادة انفسنا

ونحيل بها هذا الكلام الميت الذي ننشره على الناس إلى شعلة نار وحماس، خطوة نخرج بها من الدائرة القاتلة المغلقة التي احتوتنا وامتصت كل ثورتنا واحالتنا إلى كائنات بيزنطية لا عمل لها إلا أن تجتمع وتناقش وتنفض لتعود إلى النقاش.

وقال شوقي: انتهيت يا زميل يحيى؟

قالها بتكشيرة رسمية جعلتني أضيق به هو الآخر، ولم اكن قد انتهيت ولا قلت ربع ما عندي ولكني أجبته: أيوه.

وتنحنح شوقي وأخذ يتكلم. ومشكلة شوقي في نظري انه كان يناقش معي بطريقة، ويتكلم في الاجتماعات بطريقة. بيني وبينه كان يوافقني بايمان على ما اقوله وفي الاجتماعات يلبس ـ عن ايمان ايضاً ـ رداء المسئول ويتكلم كالمحافظين، ولا أعرف أي الشخصين هو، وأحتار دائماً بأي شيء يؤمن أو إن كان يؤمن بشيء على الاطلاق. تنحنح وقال:

ـ كلامك ده كلام فوضويين، واحنا ناس ميزتنا الحقيقية اننا ثوار منظمون.. بعض الناس زيك بيعتقدوا ان الثورة فوضى، إنما الحقيقة الثورة نظام بل هي قمة النظام.. وأي خروج على النظام هو عمل ضد الثورة على خط مستقيم.. والنظام يعطي البارودي الحق انه يقودنا، فاذا احنا خرجنا على النظام واخذنا قراراً بفصله وعزله من رئاسة التحرير كده.. ولمجرد انه بيرى ان القيادة من حقه.. يبقى بنخرب.. نبقى فوضويين يبقى هو راخر ياخذ قرار بفصلنا ونقعد نلطش في بعض ونحطم العمل والمجلة.. دي تبقى ثورة اطفال.

وكانت أصابعه قد أوصلت السيجارة إلى فمه فأشعلها وقد عاد إليه هدوءه وأكمل:

- عايز تغير الشيء غير من داخله. . وبنفس قوانينه. . إنما كل واحد يعمل قوانين على كيفه عشان يغير بيها اللي يغيره، ح تنقلب المسألة فوضى.

ولم أكن اسمع هذا الكلام للمرة الاولى، كنت دائماً اسمعه ودائماً أعرف نتيجته ودائماً اضيق به. . وقاطعته قائلا:

- يوهوه! مهوده مش معقول. احنا عايزين تغييرات جذرية، ودي مش ممكن تحصل من داخل الشيء أبداً. . علشان الشيء يتغير تغيير جذري لازم قوة خارجية هي اللي تغيره. . واذا كان قانون المجلة بيدي للبارودي الحق إنه يفصل رئيس تحرير حتى لو خرج برة البلد، يبقى هذا القانون لا يمكن يغير نفسه لازم التغيير يتم بقانون آخر. احنا اللي نضعه، القوانين دي مش نازلة من السماء ولا وضعها أنبياء. . وضعها بشر ويغيرها بشر.

ولم يفعل كلامي أكثر من أنه زاد انفعالي، وفجأة وفي غمرة ذلك الانفعال التقى بصري بسانتي كانت جالسة قبالتي ترقبني بعينين اتسعت حدقاتهما في مزيج غريب من الحماس والاستنكار.

ولكن نظرتها لم تكن هي الشيء الذي اثار انتباهي. رقبتها كانت هي ذلك الشيء، أو على وجه الدقة جيدها اذ هناك فوق هذا الجيد بقعة حمراء أنا السبب فيها، احدثتها محاولتي منذ ساعات ان اقبلها عنوة.

وتوقفت عن حديثي الغاضب برهة، ثم لم أدر كيف أنهيته بسرعة ولا حتى ماذا كانت اجابة شوقي عليه. كنت من لحظة ان لمحت البقعة الحمراء في جلدها قد بدأت أهوي في بئر خجل عميقة. . اتحدث عن الثورة والقوانين والشعب بكل هذا الحماس، واوزع الاتهامات والتقصير

البيضاء

يميناً ويساراً وأنا ما فعلت شيئاً يذكر طوال اسابيع الا التعلق بسانتي والغرق في مشكلتي معها.

ظست غائباً عن الوعي الكامل بالاجتماع وبما دار فيه، أخجل واصنع من خجلي اصابع حديدية أحاول ان اخنق نفسي بها إلى أن بدأ يطرق مسامعي حوار يدور بين شوقي وسانتي. كانت ـ ولا اعرف لماذا ادهشتني هذا؟ ـ تهاجم رأي البارودي وكلام شوقي عنه، وتدافع هي الاخرى عن حقنا في قيادة انفسنا. وكان شوقي يرد عليها، وتدرج رده كالعادة إلى الحديث عنها هي، ولم يكن حديثاً كان تأنيباً لبقاً ومريراً في الوقت نفسه إذ لم تكن قد أنجزت شيئاً مما عهد إليها به وكانت تتملص وتحاول أن تعتذر بمشغولياتها العائلية، وشوقي يحاول تذكيرها بحالها منذ مدة لا تزيد عن الشهر، وكيف كانت مثلا رائعاً في انجاز كل ما يكلفها به وفي انجازه بحذق وبراعة.

كان شوقي يسألها: ماذا حدث لك؟ لم تكوني هكذا.

قلت لنفسي: أجب عنها يا سيدي الذئب، أجب انت السبب. لماذا لا تواجه الموقف بشجاعة الرجال وتعترف؟ لماذا تصمت؟ لماذا تجبن هنا وتستذئب هناك؟

أجب.

ولم أجب. عدت مرة اخرى أهوي في بئر الخجل ولا اريد ان اخرج منها.

وانتهى الاجتماع.

وكنت أول الخارجين. وكنت تقريباً مغمض العينين لا اريد ان ارى احداً او يراني احد. كل ما اريده ان أسرع إلى البيت بأقصى ما استطيع

وهناك أغلق على نفسي باب حجرتي واطمئن إلى أن احداً لا يراني او يراقبني، واستخرج على مهل ما في اعماقي وأتأمله وأجد حلا للمأساة.

خلال الأسابيع التي مضت كانت سانتي هي كل شيء في الحياة بالنسبة إليّ حتى لم أعد نفسي، اصبحت مجرد شخص يحبها. في الاجتماع أحسست أني أعود قليلا إلى وعيي واني أدرك أن حبي لها ليس هو كل شيء. في الاجتماع كان شوقي وفتحي سالم وعطوه وكلهم يبدون لي بيضاً ناصعي البياض شرفاء، ثواراً حقيقيين ليس لديهم ما يثقل ضمائرهم، وكنت احس بنفسي وكأني ميكروب له كل قذارة الميكروب ودناسته. ولم اكن اريد لنفسي هذا، ولم اكن اريد لها أن تفقد كبرياءها وتتلوث، ولم اكن اريد ان الوث سانتي معي.

ومع هذا.

وبينما كنت أنهال على نفسي بصفعات مكتومة.

بينما نفسي كلها في جنازة خجل قائمة كان جزء صغير من نفسي يكاد يرقص فرحاً، جزء أحاول اسكاته فلا يسكت، أحاول سحقه فلا يموت ابصق عليه فيزداد مرحاً وفجوراً، ويفعل هذا لأن معنى أنها اهملت في عملها طوال تلك المدة انها كانت مشغولة بشيء آخر، مشغولة بي. كانت سانتي طوال تلك المدة مشغولة بي، بي أنا. ولم اكن اكذب في كلا الانفعالين، كان اغلب نفسي في جنازة حقيقية أقطر لها مرارة وألماً، وذلك الجزء الصغير في مرح حقيقي يكاد يهزني طرباً، وكلا الانفعالين لا يستطيع التغلب على الأخر أو محوه، وصراعهما وتنافرهما يمزقانني ويدميانني.

وماذا كان يمكن أن يحدث لو أغلقت على نفسي سبعة أبواب وأبتعدت عن العالم كله بمن فيه؟ اقصى قرار كان ممكناً أن أصل إليه كان

البيضا

أن اقطع علاقتي بها. سخف ما بعده سخف. من أول يوم عرفتها فيه واحسست اني منجذب اليها وانا في كل ساعة بل في كل دقيقة آخذ قراراً بأن أقطع علاقتي بها. . كانت كلها محاولات جادة لقطع علاقتي بها. . وربما نحب احياناً لأننا نريد ان نمنع أنفسنا من أن نحب، ويكون حبنا بها سلسلة متصلة من محاولاتنا لكي نمنع أنفسنا من أن نحب.

القرار ليس جديداً بالمرة، ولكن تنفيذه تنفيذاً حقيقياً اصبح واجباً لابد منه حتى لكي اعيش، فلم يعد بامكاني ان اعيش هكذا.

حسن اذن! كيف يمكن ان انفذه؟ بأن انالها فتخف حدة عواطفي ويمكنني حينئذ ان أقطع علاقتي بها؟ هذا ايضاً ليس جديداً بالمرة، فقد سبق وقررته، وسبق ولم أستطع تنفيذه. وهذا اليوم بالذات حاولت، واليوم ايضاً فشلت.

المشكلة اني كنت اعرف انه مهما طال بي التفكير وتفرع وتشعب فقد كنت متأكداً سلفاً انني لا يمكن أن أصل إلى طريقة استطيع ان اقطع معها علاقتي بسانتي بارادتي. تماماً مثلما لو قضيت مئات السنين افكر فلا يمكن أن أصل إلى طريقة أستطيع بها أن أقتل نفسي بارادتي، فعلاقتي بها بالرغم من كل خجلي وتأنيب ضميري وسخطي، لم تعد مجرد علاقة. . اصبحت حياتي هي علاقتي بها.

لم يعد املي إلا أن أحاول ذلك الحل، وأحاوله وانا عاجز وحزين. لم يكن حلا جديداً ولكني تصورت في ضباب ما قبل اليوم نجاحه وتصورت فعلاً اني سأظفر بها ثم أتركها. . وقبل النوم أيضاً حاولت أن اتخيلني معها، ولكني أحسست بخيالي يجمع ويأبى أن يمضي بي خطوة واحدة، ودسست رأسي بين كوعي والصقتها بالمخدة ونمت.

وعجبت حين استيقظت، فقد أدركت أني نمت مبكراً حوالي التاسعة

أو العاشرة، وهأنذا أستيقظ والدنيا لم تصبح نهاراً بعد.

ولم اندم على يقظتي التي جاءت في غير اوانها، في الواقع سررت. الضغط الهائل الذي كان يسحق اعصابي قد زال، والتوتر الذي ساد نفسي كان قد خف وتلاشى، واصبحت المسائل في نظري ابسط. ولاننا كنا لا نزال في الليل فخواطري كانت لا تزال دافئة ممكن أن اعيد صياغتها كما احب، وممكن ان اصنع بها ما أشاء من خطط وأشكلها كما اريد.

وكان السؤال الذي واجهني حين اوقدت النور الصغير واحسست بدفء اللحاف وبخدر النوم لا يزال يسري في اطرافي، كان السؤال هو: ماذا أفعل لاظفر بها؟ كان الاجتماع والخجل وتأنيب الضمير قد زايلتني كلها نهائياً، أو على الأقل اصبح همي الأول أن أفكر في حل للمشكلة وبعدها المجال فسيح للخجل وتأنيب الضمير.

وكما جاءني الخاطر أول مرة فكرت أن أعبر لها عما يجيش في نفسي، فقد جاءني نفس الخاطر مرة اخرى وعلى نفس الصورة، لماذا لا أكتب لها خطاباً اسطر فيه كل ما اعجز عن قوله أمامها؟ وما اكثر ما كنت اعجز عن قوله امامها.

وأحسست فقط بالخاطر حين واتاني، أما احساسي الثاني فلم اشعر به الا وأنا جالس على المكتب وإلا وأنا أكتب.

والواقع اني كنت أجد لذة في الكتابة اليها لا تقل عن لذتي في رؤيتها ومحادثتها. كان احساسي اني اكتب «اليها» يملؤني بالنشوة، واحساسي انها ستقرأ كلامي ـ ستقرأ كل كلمة، وتتوقف لدى كل تعبير، كان احساسي هذا يدفعني الى الاتيان بكلمات وأفكار انتقي كلا منها بدقة وشغف وحب، وكأنما أنتقي هدية يسعدني أن أقدمها لها. وأعبر عن نفسي

البيضاء

بأرفع صدق أملكه، على الأقل، لأريها ذاتي الحقيقية التي لا تظهـر الا بكلماتي.

والموضوع كان شائكاً، والاقتراب منه في حاجة إلى براعة عظمـى والذي أعجبني في نفسي انني لم أتوقف لأشحن قلمي بالبراعة أو لأفكر فيما يجب قوله. وجدت الكلمات تنساب من قلبي برفق وحماس وحـرارة وتأتلف من تلقاء نفسها وتصنع طريقها وتقترب من الموضوع بأبرع مما كنت أتصوره. وكانت المشكلة التي حاولت أن أجسدها لها هي موقفها الغريب مني. . كنت أعلم أن ما سأقوله سيحرجها،ولكنـي لم أتردد في قوله، فقد كان هدفي واضحاً وكنت اريد أن أصل إلى النتيجة بسرعة.

قلت لها أنها أنانية، فهي تراني احترق ولا تكلف نفسها مشقة ايقاف هذا الاحتراق. قلت لها انها تسخر مني، لأنها لا تعارض في أن أحدثها عن الحب وأصف لها كيف أتعذب وكيف أهفو إلى كلمة أو نظرة منها، لا تعارض في سماعي وأنا احدثهـا عن الحـب من بعيد لبعيد، ولـكن إذا حاولت مزاولة هذا الحب والاقتراب منها تتراجـع إلـى الخلف مذعـورة وتتهمني بأني بدائي وذئب. وكأنها لا تريد من حبي لهـا إلا أن يداعـب أذنيها ويسعدها، أو يجعلها تحس بأنها محبوبة مرغوبة، أما أن يمس هذا الحب شعرة واحدة منها فتلك هي الجريمة البشعة في نظرها.

بدأت الكتابة باحثاً عن طريقة للاقتراب مما اريد، ولكني حين عثرت على الوتر الذي بدأ لي منطلقاً ومعقولاً رحت أداعبه واعزف عليه واعمقه حتى آمنت أنا به، وتحمست له، ودفعني الحماس إلى أن أظـل أكتـب وأكتب حتى ملأت ما يقرب من العشر صفحات.

وحين انتهيت كان نور الشمس قد بدأ يملأ الدنيا، والمدينة قد بدأت

تدمدم فيها الحركة وتصحو. وحتى لم أقرأ الخطاب، جمعت أوراقه ودبستها ووضعتها في مكان من درج المكتب ثم ذهبت إلى الفراش ونمت.

وطوال اليوم التالي كنت مستريحاً نوعاً ما، كان كل شيء فيّ هائماً نائماً يترقب لقائي القادم معها وما سوف يدور فيه. ولم أفكر فيما يمكن أن يحدث بعد أن تجيء، تركت التفكير والتنبؤات جانباً. وكنت أحياناً أقول لنفسي: لماذا لا آخذ الأمر مأخذاً طبيعياً جداً، انها مهما كانت فهي امرأة وأنا مهما كنت فأنا شاب. وما يحدث بيننا حدث مثله لملايين من قبلنا وسيحدث لملايين من بعدنا. فلماذا أعقد الأمور وأحملها فوق ما تحتمل؟

ولكني كنت موقناً اني اكذب على نفسي، فقد كنت آخر من يعتبر ان ما يدور بيني وبينها شيء عادي. كنت في قرارة نفسي مؤمناً ان ما يحدث لي لم يحدث لانسان من قبل، وكأنني أول واحد شعر بعواطف كهذه تجاه انسانة مثلها، وسانتي في يقيني كانت لا يمكن ان تكون مجرد فتاة أو امرأة عادية، كانت تكاد تقترب في نظري من ظاهرة شاذة، كائن خارق للعادة كائن احس ناحيته بأحاسيس لم أحسها قبلا تجاه أية أنثى او تجاه اي انسان آخر.

ورغم حالتي فالعمل يومها لم يكن سهلاً بالمرة. فمنذ أسابيع قليلة كانت ادارة الورش قد أصدرت قراراً باعتبار يوم الجمعة راحة أسبوعية اجبارية للعمال بدون أجر. ولا اعرف ما حدث بين العمال نتيجة لهذا القرار، ولكن ما عرفته بعد هذا أنهم ـ أو على الأقل عدد كبير منهم ـ بدأ يبحث عن حل، حتى ولو عن طريق باب خلفي، فالظروف لم تكن تسمح بحلول عن طريق الأبواب الامامية ومواجهة الادارة بصراحة واجماع.

واكتشف العمال، ولا ادري كيف، انهم اذا بلغ الواحد منهم انه مريض يوم الخميس مثلا وأعطي الخميس والجمعة اجازة مرضية، فان يوم الجمعة يحتسب بأجر. وغير مهم حينئذ أن اليومين سيخصمان من اجازته المرضية، فأهم لدى العامل الذي يدبر حياته يوماً بيوم أن يفرط في رصيد من الاجازات المرضية، على أن يأتي ليقبض في نهاية الشهر أو الاسبوع فيجد يوميته تنقص كل سبعة أيام يوماً.

وأول شيء فكر فيه العمال في بحثهم عن هذا الباب الخلفي هو الطبيب، وقدرته على منحهم أو عدم منحهم أجازات. . وهكذا فوجئت في أول اسبوع بمائة زيادة قد ابلغوا أنهم مرضى يوم الخميس، وكان اشكالاً! وفي الاسبوع التالي تنبهت ادارة الورش لهذا الباب فاصدرت قراراً بأن يوم الجمعة لا يحتسب اجازة مرضية إلا إذا وقع بين يومين من الاجازة المرضية، وعلى هذا فالعامل لكي يحتسب له يوم الجمعة باجر ـ عليه أن يأخذ الخميس والجمعة والسبت اجازة مرضية. ومع أن هذا حل غير علمي اطلاقاً، لكي يحتسب العامل لنفسه الأربع جمعات التي في الشهر عليه أن يفقد اثني عشر يوماً من اجازته السنوية التي لا تتعدى العشرين يوماً، أي أن إجازة العام المرضية كلها لا تكفي لكي تحتسب له أيام الجمع في شهرين اثنين، مع هذا الا اني وجدت العدد يتضاعف في ثاني اسبوع. وفي ذلك الاسبوع الثالث، حاول بعض العمال أن يتلافوا ازدحام يوم الخميس وما قد يحدث فيه، فابلغوا بمرضهم ليوم الأربعاء، وقضيت يوماً طويلاً مزدحماً أحاول أن أفهم فيه العمال بخطأ ما يرتكبونه في حق أنفسهم، وأحاول أن أفهم فيه أعضاء النقابة ان يتحركوا وان يفعلوا شيئاً غير اللجوء إلى هذا الحل الخلفي، ولم أجد أية فائدة في الكلام مع العمال، أو مع أعضاء النقابة ورئيسها السني

النحيف، وأمين صندوقها الحاج الذي لا يفقـه من أمـور الـدنيا شيئـاً وأدركت حينئذ حرج الموقف الذي سأقفه في الغد، الخميس، وفي كل خميس، فقـد كنـت اريد أن أقف المـوقف الصـحيح كمكافـح يؤمـن بالشعب، حتى ولو جاء هذا الموقف على حساب وظيفتي. وكان لابد أن أستشير شوقي في الموضوع.

وهكذا في عودتي إلى البيت.. مررت علـى المجلـة. كان شوقـي هناك، وجلست وطلبت قهوة ودخنت وراقبت شوقي طويلاً وهو يكتب ثم طرحت المشكلة. وكنت اعتمد اعتماداً كلياً على رأي شوقي فمفروض انه أنضج مني سياسياً، وأكثر خبرة بالموضوع، وفـوق هذا وذاك فقـد كان يعمل مهندساً في فتـرة من حياتـه قبـل أن يسـتقيل وينضـم إلـى نقابـة الصحفيين ويصبح رئيس تحرير مجلتنا. وكان رأي شوقي واضحاً محدداً صريحاً، إذ رأى انه لا يجب عليّ ابداً أن أساعد العمال على الهروب من مواجهة المشكلة بمنحهم تلك الاجازات. وأن أجبرهم برفضي، علـى مواجهة الادارة وأخذ حقهم المغتصب. ورغم أني أفهمتـه بوضـوح ان الظروف لا تسمح أبداً بتلك المواجهة العلنية الا انه أصر على رأيه واعتبر رأيه مجرد رأي،ولكنه أمر لي علي أن انفذه.

وربما لو كان شوقي قد تخيل ما سوف يحدث في الغد نتيجة لمشورته هذه لتردد قليلا مثلا وهو يقولها لي، أو لطلب مني ان يؤجـل رأيه حتـى يدرس المسألة، ولكنه ابـداً لم يفعـل هذا. ببساطـة وحسـم افهمنـي ان المسألة مسألة مبدأ.

وعدت إلى البيت، وما كدت اضع قدمي فيه وادرك أن الساعة تقترب من الثانية وانه لم يبق على الثالثة والنصف ـ ميعاد سانتـي ـ الا تسعـون دقيقة، حتى بدأت أنسى شيئاً فشيئاً مشاكل العمل والورشة والعمال، وبدأت

اليمض

تعود إليّ من جديد حالة التوهان الهائم ، وبدأت اهيىء نفسي لاستقبالها.

وحين جاءت الثالثة والنصف ومرت، ومرت وراءها الرابعة والخامسة ولم تأت سانتي، لم أحس بخيبة أمل كبيرة. فشيء ما لابد كان سيحدث نتيجة لما دار بيني وبينها بالأمس، ونتيجة للاجتماع الذي اعقب ما دار أقل ما يكون ان يحدث ان تمتنع عن الحضور ثاني يوم. لابد أنها هي الأخرى متأثرة ولها الف عذر، بل الحقيقة سررت لأنها لم تأت، وتصرفت حسبما اعتقدت انها ستتصرف، إذ معنى هذا أنها تتصرف بطبيعتها معي لا تدعي شيئاً ولا تجبر نفسها على فعل شيء.

وكعادة لحظات السرور القليلة التي نادراً ما كنت أسعد بها، لم تكن لحظة سرور خالصة، فقد شابها في الحال بعض الخوف. . الخوف الذي أعرف أنني ما ان أبدأ أحس به يتكاثر بسرعة مذهلة إلى أن يخنق سروري ويمحوه. . وخوفي هذه المرة بدأ باحتمال صغير، احتمال ألا تأتي في اليوم التالي. . لماذا لا تكون هي الأخرى قد قررت أن تقطع علاقتها بي تماماً مثلما قررت انا؟ كل الفرق بيننا انها قررت ونفذت، وبدأت التنفيذ في الحال.

سموها لعب عيال ومراهقين، ولكن ركناً رئيسياً من اركان العلاقات بين المحبين ليس في مزاولة الحب فقط، ولكن في أي الطرفين يقطع علاقته بالطرف الآخر أولا. واذا كان الحب مزيجاً من مزاولة العلاقة والخوف من قطعها، أو على وجه الدقة الخوف من أن يقطعها الطرف الآخر قبل أن نقطعها نحن. اننا فى هذه الحالة نصاب بغصة مزمنة لا نبرأ منها. . والمهجور لا ينسى هاجره أبداً.

وخوفي هذه المرة لم يكن أن أهجر، فحتى اذا كانت ستهجرني

فالسبب لن يكون لأنها كرهتني، السبب في هذه الحالة خارج عن ارادتها تماماً.

ورغم هذا فقد كنت خائفاً الا تجيء فيفسد تدبيري، اذ في هذه الحالة لن انجح في قطع صلتي انا بها. فالمهم ليس ان تنقطع صلتنا، او تقطع هي صلتها بي، المهم أن أقطع أنا صلتي بها. انانية ما في ذلك شك: ولكن الحب نفسه، اليس هو الرغبة في الاستحواذ على انسان آخر؟ اليس هو قمة الأنانية؟ وقد يبدو اني سمحت لنفسي بالاطالة والتبحر في أشياء سخيف أن يتبحر الانسان فيها. ولكني لا اعتقد ان كل من مر بتجربة حب ـ وكل منا لابد قد مر ـ سيعتبر هذا تبحراً سخيفاً. . انها تبدو لحظتها لنا وكأنها كل الحياة، وكأنها أهم من الحياة. لقد ظللت أفكر في تلك التفاصيل التافهة، ولم أفق منها طوال اليوم كله وجزء كبير من الليل حتى نمت. وكنت أحس طوال الوقت اني افكر في أهم شيء في دنياي وأن هذا العمل هو أهم ما يمكنني مزاولته. . بل حتى اليوم التالي لم أنقطع عن التفكير على هذا النحو. ولم أكن ضيقاً بتفكيري ولا حزيناً، بالعكس كنت أحس اني كلما أوغلت في التفكير احسست بشجن خفي، شجن رائع حبيب، وتوهان، ورغبة ممدودة في بكاء طويل، وأمنية دفينة في سعادة كبرى، وتصور غير واضح لآمال، ويأس غير مر يعصف بالآمال. حالة لم أكن أريد أن افيق منها ولا ان تنتهي او تتبدل. حالة استنفدت فيها احساسي بأني مظلوم مرة واحساسي باني ظالم مرة اخرى، غالب مرة ومغلوب في المرة التالية، مرة احس اني احب ومرة احس اني محبوب مرة احس اني شرير ومرة احس اني ضحية شرير خبيث، مرة احس اني كل شيء ومرة احس اني لا شيء، مرة انا اضيق بنفسي اشد الضيق ومرة انا سعيد بنفسي اقصى سعادة.

البيضاء

وأنا مستسلم لهذه الموجات لا اريد أن يكون لي ارادة في ضبطها أو تكييفها، كالمدمن حين يستسلم سعيداً لمفعول العقار، ويشل بنفسه ارادته ليترك لارادة العقار ان تحدد سعادته ونشوته، انا ايضاً كنت تاركاً هذه الحالة تقرر افراحي واشجاني، سعيد بأني مستسلم لها، لا ارادة لي في فرحي أو حزني، ولا في سعادتي أو شقائي.

ولم أكن أعرف ابداً أن تلك هي آخر حالة تصلح لمواجهة الموقف الذي كان عليّ أن أواجهه صباح اليوم التالي، ولا حتى بعد الظهر حين جاءت سانتي.

أجل! في الصباح حين ذهبت وبي من الهيام ما بي إلى الورشة فوجدت المكتب الطبي غارقاً في وسط بحر زاخر الأمواج من العمال.. عشرات ومئات وربما آلاف.. جاءوا كلهم يطلبون الخميس والجمعة والسبت اجازة.. ومدير الورشة في مكتبه حائر ساكت يترقب، ومعظم العمل في الأقسام قد توقف.. وآلاف من عيون العمال تترقب.. والقسم الطبي يترقب.. وحتى الباشتمرجي بوجهه الوردي السمين يترقب.. وكلهم يترقبون ما سوف أفعله.. وليس في ذهني فكرة مما يمكن أن أفعله.

ولمقدمي تحرك العمال يفسحون لى الطريق، تحركوا في بطء وتكاسل ووجوه لا تتوقع خيراً ولا تبشر بخير، كانوا على الأقل قد حسبوها بينهم وبين أنفسهم قبل حضوري وأدركوا أن عددهم كبير، أكبر مما يجب بكثير، أكثر من نصف عمال الورشة. وعرفوا أنه وان كان الحل في يدي الا أنه صعب حتى لو كنت في أحسن أحوالي، فمعنى أن يمنحوا كلهم

أجازات ان يتعطل العمل في الورشة تماماً ويقف، ولكن لانهم كانوا كثيرين جداً فقد كانوا متأكدين انهم بكثرتهم سيحلون المشكلة، وعلى اي وجه.

ووصلت إلى مكتبي بعد جهاد، وحاول الباشتمرجي أن يخرج العمال المنتظرين في الحجرة يكادون يملئونها ويغلق الباب كعادته كل يوم فلم يستطع، لا لأن العمال رفضوا الخروج ولكن لأنهم لم يستطعوا، اذ كانت جميع ممرات المكتب وحجراته وما حوله تعج بغيرهم من المنتظرين ووقف عم مرسي في النهاية مشبكاً يديه أمام كرشه في عجز واستسلام ينتظر أوامري.

والمشكلة اني كنت لا اعرف بالضبط ماذا يجب علي أن أفعل، من لحظة أن وضعت قدمي في الورشة ورأيت هذا العدد الهائل وأنا أحاول أن أعثر على شيء محدد استطيع أن أفعله أو آمر بفعله بلا فائدة. ضجة العمال في الخارج تصلني كهدير محيط عميق، وهمسات العمال الواقفين في الحجرة تتلاصق أجسادهم وتتدافع أحتار في تفسيرها وفهم معناها وأكثر ما يضايقني عيونهم المنصبة كلها على ترقب اي انفعال تفلته ملامحي، أو أية رمشة يرمشها جفني. وأحسست أن وجودهم وانفاسهم ونظراتهم وحفيف أنفاسهم وهمساتهم يشلني تماماً ويبقيني عاجزاً عن الحركة أو التصرف. وكان أول ما قلته: أخلوا الحجرة. وكأني كنت اتمنى ان تفشل عملية الاخلاء فأجد عذراً وجيهاً لكي لا أتصرف أوأن يخلوها فعلاً فأستطيع أن أجمع نفسي واحدد ما أريد واتصرف، على ضوء ما أحدده. فيستحيل أن «يفكر» الإنسان وهو في حضرة جمهور يراقب عملية تفكيره، بل هو حتى لا يستطيع أن يتنفس بانتظام إذا وجد في حضرته جمهوراً يراقب عملية التنفس.

البيضاء

القيت الأمر لعم مرسي بهدوء حاسم، وسكت انتظر التنفيذ، وأنا فاتح عيني مغمض بصري لا ارى احداً ولا اسمع شيئاً، ولا اعبأ ابداً للأيدي التي تشوح والأصوات التي بدأت تعلو وتحتج.

واستغرق اخلاء الحجرة ربع ساعة بأسرها.

ثم أمرت باغلاق الباب.

واستغرق اغلاق الباب، مجرد دفع المتزاحمين في فتحته عدة سنتيمترات الى الوراء واغلاقه، استغرق عشر دقائق.

ورفعت سماعة التليفون وطلبت من العامل ايصالي بمدير الورش. وكنت اعرف سلفاً ان العامل سيستمع للمحادثة ثم ينقلها إلى العمال كلمة كلمة.. فهو عامل مثلهم، والتومرجي الواقف على الباب عامل، وكاتب القسم الطبي عامل، وانت وحدك في وسط هذه الكتلة العمالية المتصلة المتداخلة التي لا تخفى عليها خافية. وحياني المدير بفتور وسألني عن الصحة والمزاج، ومن أول كلمة شعرت أنه يعتبر نفسه خارج المشكلة تماماً، إذ كان يشغل وظيفة كبيرة في الوزارة ثم غضبوا عليه وجاءوا به مديراً للورش، وان يتعطل العمل في الورشة شيء لا يهمه بالمرة طالما هو ليس مسئولا عن التعطيل.. قال ببراءة:

ـ احنا ما نقدرش نعمل حاجة يا دكتور.. أي عامل يحب يبلغ انه عيان نديله ارنيك.. وحضرتك تشوف اذا كان عيان تديله اجازة.. ما كانشي ترجعه الشغل.

ـ بس اذا رجع الشغل يبقى متمارض وبيعاقب وبيتخصم منه أيام ودي تنفع في عامل واحد أو اثنين، أنا أعمل إيه في الفين أو ثلاثة آلاف؟

ـ والله يا دكتور.. أنا آسف.. ما أقدرش أعمل حاجة.

وقبل ان تنتهي المحادثة احسست انها قد اذيعت بالنص في السويتش وان اخبارها وصلت الى المتجمهرين في الخارج، فقد بدأت اسمع قهقهات.

وقلت لعامل التليفون: اديني مدير القسم الطبي.

وشرحت لرئيسي المشكلة. فقال بحسم:

ـ اللي عيان اديله أجازة. . واللي مش عيان ما تديلوش.

قلت:

ـ كلهم مش عيانين.

قال:

ـ خلاص. . ما تدلهمش.

قلت:

ـ أفرض. .

وسكت إذ كنت اريد أن أسأله عما يجب ان افعله لو حاولوا الاعتداء عليّ أو قاموا بعمل عنيف، ولكني لم اشأ أن يسمع العامل والعمل شيئاً كهذا.

ـ أفرض ايه يا دكتور.

ـ أفرض اني حاولت أن أكشف عليهم وخد كل واحد منهم ثلاث دقائق كشف، يبقوا عايزين ١٥٠ ساعة يعني عايزين أسبوع فأعمل أيه؟

ـ اكشف على اللي تقدر عليه والباقي أجله.

وأدركت ألا فائدة ترجى من مناقشته فانتهت المكالمة وقد وصلت إلى قرار، فلا أحد يريد أن يواجه المشكلة ويحلها، ولا أحد يريد أن يتحمل مسئوليتها. وقد كان من الممكن أن أتهرب أنا الآخر من حلها، فأنسل من

المكتب بأية حجة وأذهب إلى القسم وآخذ اجازة وأفعل مثلما فعل المدير وزميله الآخر.

ولكن كيف أصنع مثلهما وأنا ناقم أشد النقمة على موقفهما ومحتقره؟ وكيف يمكن أن أفر من مواجهة موقف لابد أن يواجهه واحد، سواء أنا أو غيري، فلماذا لا أواجهه أنا؟ هناك أناس وسيلتهم في الحياة أن يتفادوا الاصطدام، ويبدو أني كنت من صنف يرحب به.

قلت لنفسي: ان شوقي على حق. هؤلاء العمال الواقفون في الخارج يتلمظون ويضعونني بين موقفين.. إما أن أوافقهم على كذبهم وادعائهم فيتركوني بسلام، وإما أن ارفض فيعتبروني عدوهم الأول، هم في الواقع يحجمون عن مواجهة عدوهم الأول، لا يستطيعون الاصطدام به فيتشطرون علي، فكيف أسهل لهم عملية خداع أنفسهم؟ ألكي لا أواجههم؟ ألخوفي من مواجهتهم؟ أأعيب عليهم أنهم يخدعون أنفسهم وأخدع أنا نفسي وأكتب الف «أسهال» وألف «نزلة» بينما لا أسهال هناك ولا مغص ولا نزلة؟

قلت لعم مرسي في هدوء.
ـ دخلهم.

ودب النشاط في جسده المستقيم العجوز في الحال، واستعاد صوته وجعجعته، وتخبطت ضلف الباب مدوية في الحائط تحت الطابور الهائل. وعلى حافة المكتب وقف عامل يرتدي بدلة وفانلة برقبة ينظر لي باتهام ووقاحة وشرر الرذالة يقدح من وجهه الشرس وشعره الأكرت المستفز، وهدير المحيط في الخارج كان قد اندفع إلى الحجرة في سيل مكتسح يجمع الصفافير والزعيق وسب الدين.. وبهمسة خفية من

همسات عم مرسي التي لا ترى ولا تضبط أفهمني أن هذا الذي يتقدم الطابور هو سكرتير النقابة.

وتكون للمشهد الدائر أمام بصري عمق آخر لم يكن موجوداً. . أخيراً ظهر سكرتير النقابة وأطل يتقدم طابور العمال «الناخبين» في هجوم ساحق على طبيب الورش يريه العين الحمراء، أو يلقي الرعب في قلبه وينتزع منه الاجازات بالقوة ويوزعها على العمال في حركة جماهيرية مسرحية يذكرها له العمال أياماً وشهوراً وربما سنوات.

وكنا في زمن تصنع فيه النقابات وتفرض ويتاجر بسكرتيريتها وأمانة صناديقها، وكنت قد جئت بعد أجيال من الأطباء الذين عودهم العمال وعودا العمال أن تؤخذ الأجازات بالتسعيرة. . اليومين بريال والثلاثة بخمسين قرشاً والأسبوع بجنيه.

وكان كل شيء بيسر وسهولة. . كل ما في الأمر أن الطبيب تحول في نظرهم من معالج وانسان حكيم إلى قابض اجباري للريالات ومانح للاجازات ومخلص من الزنقات. فإذا جاء على آخر الزمن طبيب يريد أن يقوم بمهمة الطبيب فمعناها أنه مجنون، واذا استمر جنونه هذا فمعناه أنه في حاجة إلى درس يلقى عليه ويعيده إلى الصواب ويفهمه مركزه. ومن أولى بالقاء الدرس من سكرتير النقابة؟ هذا الرجل الشرس الواقف أمامي الذي يرتعد رعباً أمام المدير ويشرب السجائر «الكرافن» وتسهل له الادارة مهمة انتخابه كل عام في مقابل أن يسهل للادارة مهمتها، ما أحوجه الآن إلى حائط منخفض يقفز عليه ويرى العمال براعته في الدفاع عنهم واقتحام المخاطر من أجلهم، ويغطي بهذا العمل «البطولي» كل مخازيه وراء الستار.

قلت له بصوت طغى على كل الضجة واسكتها:
ـ مالك؟

قلتها بحقد حقيقي وجدته ينفجر في نفسي كما ينفجر الدمل، حقد على الأوضاع التي تجعل من أمثاله زعماء للعمال وسكرتيرين.. الأوضاع التي تجعل من الأطباء لصوصاً ومرتشين، والقرارات التي تصدر وتجبر الناس على التحايل والكذب وطرق الأبواب الخلفية وتخلق من الأبرياء أعداء وهميين.

قال بفظاظة:
ـ عيان.

كان السكون قد عم الحجرة وخارجها، سكون ملتهب فائر كسكون الظهيرة، سكون جمهور غير محايد.. ولكن كلمة «عيان» حتى مع أنها قيلت بفظاظة وأعلم سلفاً كذبها، إلا أنها ردتني إلى عقلي فوراً وجعلتني أسقط من وعيي أي اعتبار آخر سوى أن الذي أمامي عامل مبلغ بمرضه وأني مجرد طبيب للورش.. بل أكثر من هذا جعلتني الكلمة أصمم أن أواجه الموقف كله كطبيب عليه ألا يغضب أو يواجه التحدي بالتحدي أو يعادي من أمامه حتى لو عاداه من أمامه.

وعادت إلى صوتي طبيعته وبساطته وقلت:
ـ عندك أيه؟

وانقلبت فظاظته إلى غطرسة وقال:
ـ أمال أنا جايلك ليه؟ امال دكتور ايه؟ انت اللي تعرف أنا عندي أيه مش أنا.
قلت وكأني لم أر شكله ولم أسمع لهجته:

ـ يعني بتشتكي من ايه؟

قال بغطرسة اكثر:

ـ اهو كل جسمي تاعبني.

ـ يعني ما فيش حاجة معينة تاعباك؟

ـ قلتلك كل جسمي تاعبني.

ـ طيب نشوفك.

قلتها وأنا اشير لعم مرسي أن يخلي منضدة الكشف من الواقفين عليها والجالسين، ثم أشرت له ان يذهب ويخلع ملابسه ويرقد.

ولمحت الغيظ يغلي داخله، اذ لم أعطه بكلامي أو بتصرفاتي حجة ولو واهية يستطيع أن يقيم معها المشهد الذي استعد له، بل لم اعطه الفرصة حتى ليعصي امري.. وذهب ليرقد على المنضدة، وباخلاص حقيقي لعملي كشفت عليه، ولم اجد به ـ كما توقعت ـ اي مرض او شبه مرض.

وعدت إلى المكتب، وحتى قبل ان يكمل ادخال قميصه في بنطلونه عاد إلى وقفته المستهترة المتحدية أمامي.

قلت:

ـ هات الأورنيك.

فقال:

ـ ح تعمل به ايه؟

قلت له ببساطة وحسم:

ـ ح أقول فيه انك ترجع شغلك.

قال وكأنه يقهقه:

ـ أرجع شغلي ازاي؟

البيضاء

قلت له:

ـ لأنك ما عندكش حاجة.

فقال:

ـ أنت كذاب.

وعم سكون هائل.. وأحسست بدم يتفجر في صدري ويصعد الى رأسي ويعمي عيني. وحين عدت للرؤية كانت الحجرة قد تسرب اليها اضعاف اضعاف الموجودين فيها، والكلمة لا تزال ترن في اذني وآذانهم جميعاً، والتحدي سافر على وجه سكرتير النقابة.. وجسدي وأجساد الحاضرين ترتعد ارتعاد التربص للحركة التالية لتندفع تقتل أو تخمد. واللمحة الخاطفة التي قرأت فيها وجوه العمال كانت قد أنبأتني انهم استكثروا الكلمة، ولكن اي رد مني سيقلبهم الى وحوش. والكلمة ايضاً كانت قد ازهقت روح الطبيب في.. ولم أعد سوى رجل يواجه جمهوراً على استعداد للانقضاض عليه لدى أية بادرة. وهانت عليّ حياتي وعمري وآمالي.. وفي اللحظة التي قررت ان ألكمه فيها وجدت صفعتين متتاليتين سريعتين توجهان اليه، والتفت.. كان الغضب قد احال وجه عم مرسي العجوز الأحمر الى كتلة لحم بيضاء غير محددة الملامح، لا يميزها غير بريق أهوج صادر من العينين. واستغربت كيف تحول صوته الهامس الناعم المؤدب إلى ذلك الرعد المتحشرج الذي قال به:

ـ أخرس قليل الأدب.. ازاي تشتم الدكتور؟

وثانية سكون واحدة اعقبت هذا. ثانية خيل إلي فيها أن كل من بالحجرة كف عن التنفس وقد أخذته مفاجأة ويترقب مفاجأة تالية. والسكرتير المصفوع يقف مذهولا يحدق في عم مرسي، والعمال المتزاحمون من حوله واقفون مذهولون هم الآخرون وكأن كلا منهم نالته

صفعة، وحتى أنا نفسي كنت في حاجة لبرهة أتبين فيها حقيقة ما حدث وأعد نفسي لما سيحدث. . ثانية سكون واحدة تفتحت بعدها أبواب الأقفاص غير المرئية، وخرجت من الصدور نمور غاضبة تترقب اللحظة المناسبة لتنقض.

وفي جزء الثانية التالية كانت الحجرة قد امتلأت بأعنف حركة شهدتها. . حتى لقد بدأت أرضيتها المصنوعة من كمرات حديد تتذبذب وتتلوى. ولو كنت أنا الذي صفعته لاختلف الوضع، ولكن عمهم مرسي العجوز المهيب هو الذي صفعه. . ألف واحد منهم لا يرضى أن ترد له الصفعة. وعشرة أحاطوا السكرتير وكتفوه وحالوا بينه وبين عم مرسي والحاضرون جميعاً في ارتعاش واهتزاز، يدفع الغضب صفوفهم البعيدة فتتدافع وتدفع من أمامها، وتتكون للجمع الحاشد موجات غضب تظل في مد وجزر حتى تصل إلى البقعة التي أقف فيها أنا وعم مرسي، ولا يوقفها عن اكتساحنا وتمزيقنا ارباً إلا ذلك الحاجز الرقيق من الهيبة الذي كان لا يزال يحيطبي وبه هو بحكم السن، وأنا بحكم المهنة والتعود. . حاجز قد تكفي يد طويلة تمتد أو كلمة نابية توجه وتسمع، لكي يتهلهل وينمحي ونبقى عرايا من الحصانة تحت رحمة أكف غليظة وسواعد لا ترحم.

كان الموقف جديداً على تماما. .لم أواجهه من قبل ولا تعلمت كيف أواجهه، وحتى الخبير المجرب يتردد في مواجهته. . لم أكن خائفاً ولا متردداً بل كنت مندهشاً مستغرباً. . ماذا فعلت لهؤلاء الناس لكي يعادوني على تلك الصورة؟ اني لا أذكر أني آذيت أحدهم أو قدمت اليهم اساءة. كل ما قدمته كان تحزباً لهم واستعداداً دائماً لمساعدتهم. . وبينما الحركة في الحجرة قد عنفت وازدادت حتى لكأن محتوياتها الآدمية قد بدأت

البيضاء

تغلي وتفور، كان صفاء مفاجيء قد سيطر على تفكيري وعقلي، صفاء غريب كصفاء ما قبل الموت، صفاء جعلني أدرك الأمر. فلست في نظرهم سوى جزء لا يتجزأ من الادارة ومن الخصم والفصل والقرارات التعسفية. أنا رمز كالأوتوبيسات التي كنا نحرقها حين نتظاهر ونحن طلبة ما كان هناك عداء بيننا وبين شركة الاوتوبيسات.. ولكن كنا نحرق فيها الظلم والحكومات الخائنة وأعداء الشعب. وليس بيني وبين هؤلاء العمال عداء، ولكنهم قد يقتلونني ويقتلون في شخصي الظلم والظالمين.

وعلى حين بغتة سمعت شيئاً لم أتبينه أول الأمر ولكني حالا تبينته كان هتافات ضدي.. عدة أصوات تقول: يسقط طبيب الورش. ورعداً هائلا أعنف وأبشع وأقوى رعدا يردد ويقول: يسقط طبيب الورش. وتكهرب شيء في نفسي وكأنما صعقته الشحنة الهائلة التي ولدها الرعد.. لحظتها عرفت لماذا يقشعر الملوك والحكام من الهتافات والمظاهرات، من هذا الصوت العريض المكتسح الذي يتصاعد من حنجرة خرافية مكونة من آلاف الحناجر، الصوت الذي يهدر به فم واسع أوسع فم، فم الجماهير حين تفتحه ويصبح لها فك في السماء وفك في الأرض، وتهدد بابتلاع كل ما بين الأرض والسماء.

هم يقشعرون لأن هتاف الجماهير ليس مجرد تعبير عن سخط ولا عن ضيق من حاكم أو شخص. انه حكم.. حكم باتر ساحق لا راد له، يصل إلى الملوك حتى في مخادعها وإلى الحكام ولو كانوا في ابراج محصنة فيرتعد له الملك ويقشعر له الحاكم، اذ لحظتها يتبدد على الفور كلام المداهنين والمتملقين ويدرك كل منهم أن حكماً قد صدر عليه، وانه قد أدين، وانه لأول مرة يسمع الحقيقة، يسمعها من فم هادر عريض لا يعرف

سوى قول الحقيقة. . لحظتها يدرك ـ مهما اعتقد بينه وبين نفسه انه بريء ـ أن حكماً أبدياً قد صدر عليه. حكماً لفرط قوته وصلابته وصراحته يجعله يشك حتى في براءة نفسه، فيبدأ يسألها وفرائصه ترتعد: ألا يمكن أن أكون قد أجرمت؟

لحظة قصيرة جداً، أقصر من أن تقاس أو تحسب، ولكنها جعلتني احس وكأني في يوم الحساب، وكأني بين يدي الجلالة العليا، وكأن الهتاف الذي سمعته نار مقدسة تعرضت لها وأصبح عليها أن تظهر بكل ما فيها وأن تبدو على حقيقتها. . لحظة جعلت جدراناً كنت قد أقمتها لنفسي وعشت اتحرك بها تتهاوى وتنهار، ولم يعد أمامي إلا أن أرى ما كنت أتجاهله وأتعامى عنه، اذ لست في الواقع والحقيقة سوى جزء من ذلك الجهاز الضخم الكبير الذي يسير هؤلاء العمال ويتحكم في مصائرهم. . كنت وأنا أقول لنفسي: أبداً أنا شيء آخر، أنا لي رأي آخر أنا لي موقف آخر، أنا مع العمال، ألم أكن أضحك على نفسي حينئذ؟ . . فهأنذا في ساعة الجد أختار جانب الجهاز الذي انتمي اليه وأدافع عنه بدفاعي عن نفسي ووظيفتي.

تصاعد هتاف بسقوطي مرة اخرى. . وكان آخر هتاف. اذ تكلفت أصوات كثيرة باخماده، وانطلقت السنة لا اعرف اصحابها وربما لن اعرفهم تندد بالهاتفين وتنصفني، وتقول اني كنت دائماً في صفهم. والسبب في موقفي اليوم راجع فقط إلى كبر العدد.

وكان الموقف قد نضج لتدخلي. فقلت بأعلى صوتي:

ـ أسمعوا!

وخرجت الكلمة آمره حامية سكتت لها الضجة في الداخل والخارج وجعلت الآذان تصغي ولو بدافع حب الاستطلاع.

وبدأت أتكلم. . لم أشعر بما قلته بالضبط ولكني كنت غاضباً أشد الغضب من موقفهم وطريقتهم. . كان باستطاعتي أن أجنب نفسي مشقة مواجهتهم بمفردي وأستعين بفرقة بوليس النظام، ولكني آثرت أن أعاملهم كرجال ووثقت فيهم وأمنت لهم. وكانت النتيجة انهم يريدون أن يستغلوا كثرتهم ويأخذوا الأجازات بالذراع وبالعنف، وأية اجازات يريدون أخذها؟. . ثلاثة آلاف عامل يريدون مني أن أمنحهم جميعاً ثلاثة أيام اجازة مرضية. من يظنونني؟ رئيس الحكومة!. . ان كلا منهم لا ينظر الى الا من زاويته الضيقة، يريد أن تحتسب له الجمعة. . ومعنى أن أوافقه على رغبته أن أوافقهم جميعاً على رغباتهم، فهل هذا في قدرتي؟. . ان معناه ببساطة أن أفصل من وظيفتي وأقدم للمحاكمة بعدة تهم، وحتى لو حدث هذا فلن تحل مشكلتهم أيضاً لانهم في الجمعة التالية سيواجهون بطبيب جديد آخر، وحتى لو غامر هو أيضاً بمستقبله ووظيفته فأجازاتهم المرضية لن تكفي إلا لاحتساب أيام الجمع في أقل من شهرين، فماذا يفعلون في بقية العام؟

ـ أنا مستعد أعطي كل واحد فيكم ثلاثة أيام ويتحسب له يوم الجمعة وأترفد أنا وأتحبس. . أنا مستعد، فهل أنتم مستعدون؟

هل يقبل الواحد فيكم أن يأخذ أجرة يوم مقابل أنه يرفدني أنا ويحبسني؟

ألقيت السؤال وسكت انتظر الاجابة.

وكانت الاجابة ضجة عظمى تصاعدت. . فكل منهم مضى يجيب على السؤال بفهمه الخاص وطريقته الخاصة، ومن مئات الاجابات الصاخبة أدركت أنهم يفهمون ويقدرون، ولا يرضون ابداً بفصلي وسجني. . ولكن المشكلة انهم ايضاً لا يزالون يريدون الاجازات، بل

أكثر من هذا . . وجدت فجوة تحدث بين المتزاحمين أمامي ويبرز منها سكرتير النقابة ويقف وقفة مستهترة ويقول :

ـ إذا كنت صادق في كلامك ده . . مالكش دعوة . . ادينا الاجازات واحنا نحميك .

وضغطت غيظي تحت أسناني وقلت :

ـ أسمع . . أنا عاملتك كصنايعي فرديت عليّ رد بلطجية . . وبعدين عاملتك كعيان فرديت عليّ رد فتوات . . واذا كنت فاكر إنك لما تحتمي في زملائك وتتهجم علي تبقى جدعنة فتبقى غلطان . . الجدعنة مش ان الواحد ينتهز فرصة أنه قوي ويقل أدبه . . الجدعنة انه لما يحس بنفسه قوي بزملائه يبقى مؤدب . . تصرفك ده مش تصرف عمال . . ده تصرف ح سيب زملائك دول انهم يحاسبوك عليه ويعاقبوك . أما أنك تقول انك مستعد تحميني فتبقى انت الكذاب ، لأن بدل ما تحميني أنا كنت احمي نفسك وزملاءك وواجه اللي أصدر القرار وخليه يغيره ويعدله .

وطبعاً لم يدعني أنطق جملة ما كاملة ، ظل يقاطعني ويتحرش بي حتى أجبره العمال على السكوت ، وحين انتهيت كان وجهه قد بدأ يشحب وبدأ يعد خطة التراجع ، وما لبث أن طبقها في الحال وراح يصرخ في زعيق عال متواصل :

ـ أمال بس ح نعمل ايه؟ . . نكفر؟ . . مهي دي مش عيشة دي . . والله الواحد يقتل له حد ويروح فيه . . ح نلقاها منين والا منين؟

وآب صراخه إلى السكوت . لم يلبث أن قطعه عامل من الواقفين قريباً من الباب حين قال :

ـ معلهش بقى يا دكتر . . ادينا اجازة المرة دي وبعدين تفرج .

ولم أتمالك نفسي، وضحكت وما لبثت ضحكات اخرى ان تفجرت في الحجرة حتى عمتها واهتزت لها جدرانها.

ولكن المشكلة ـ رغم الضحكات ـ كانت لا تزال باقية بغير حل.

والأهم من هذا اني كنت موقناً انه لابد أن تحل على وجه ما قبل أن ينتهي اليوم. . أما ما هو ذلك الوجه فذلك هو السؤال.

١٤

وكنت موقناً أيضاً أني بعد ساعات سأكون في حجرة مكتبي جالساً فوق ذلك المقعد بالذات، وقد انتهى اليوم وانتهت المشكلة، جالساً أسترخي وأحاول أن أنسى كل ما حدث، ورغم محاولاتي يظل ما حدث يفرض نفسه علي ويأبى أن يغادر وعيي.

المحادثة الثانية التي دارت بيني وبين مدير الورش وصوته الدافىء الكسول الممتد وهو يقول لي يا دك. . تو. . ر. . واحتداده فجأة حين أنذرته بأنه ما لم يتدخل فوراً ويحل المشكلة فسأتصل بالوزير. ومهزلة الاتصال بالوزير. . إذ كيف لموظف صغير أن يتصل بالوزير مباشرة مهما بلغت خطورة السبب، ثم الإحالة لوكيل الوزارة، وأخيراً اقتناع الوكيل وإيفاده مدير مكتبه، ومجيء مدير المكتب مستصحباً قائد فرقة بوليس ب أو ج لا أعرف، ضابط بوليس سمين ملظلظ على كتفه وصدره إشارات حمراء وخضراء، وتيجان ونجوم، سكتت لها ضجة العمال، وجعلت سكرتير النقابة يخاطبه ويقول: يا سعادة الباشا، ثم الاتفاق الذي تم في النهاية . أن يعود العمال إلى عملهم في ذلك اليوم بلا أجازات وبدون أن يوقع على أحدهم خصم أو جزاء، وسكرتير النقابة وهو يزف للعمال الخبر وكأنه يزف إليهم البشرى، وكأن أيام الجمع قد ووفق على احتسابها، مع

أن عودة العمال إلى عملهم كان ممكناً أن تتم بلا وزير أو قائد فرقة، ولكن السكرتير راح يؤكد للعمال أنه لولا جهوده وكلامه «اللاذع» لمدير مكتب وكيل الوزارة لكان من المؤكد أن الوزارة ستصدر قراراً بفصل جميع العمال.

زعيق وخناق وأيمان مغلظة وأعصاب مشدودة قطعت ولم ينته المشهد الحافل إلا في الثانية والنصف، وما أكاد أبتعد عن الشارع الذي تستقر في نهايته الورش وأصبح بعيداً عن كل ما يمت إليها بصلة، حتى أحس وكأني أوشك على السقوط إعياء وتعباً. لم أكن قد أغمضت عيني وآلاف الوجوه تسبح في خيالي.. وجه سكرتير النقابة الصفيق الذي لا أدري لم بدأت أحس بشفقة عليه، ووجه قائد الفرقة الدسم المستريح، ووجه مدير المكتب الرفيع الجاد الذي لا يني عن ترديد: كده لا يا شيخ، ووجه عم مرسي، ووجه العامل الذي كان متشبثاً بحديد النافذة لم يبرحه طيلة ما حدث، وجوه تسبح في خيالي، وآذاني فيها صرخات وطنين وهمسات.. وهناك من أبعد مكان في شرق خيالي بدأ وجه ما يظهر ويتضح ويتكامل ويقترب، كان وجه سانتي، حياً ومبتسماً ورائعاً، بدأ مجرد وجه بين آلاف الوجوه وأخذ نوره يزداد حتى بدأت الوجوه التي حوله تظلم، وظلامها يبهت ويبهت إلى أن أصبحت نفسي سماء ليلية صافية ليس فيها مضيء غير وجه سانتي، وما كنت قد قررته والخطاب الذي كتبته، والنية التي بيتها وعزمت على تنفيذها بعد زمن لن يزيد عن الساعة وبعد كل ما رأيت.

وحين دق الباب في الثالثة والنصف من ذلك اليوم، دبت حياة عنيفة في جسدي، واستعدت أقوى إرادة أمتلكها في حياتي.. لقد جاءت.

وحتى قبل أن أفتح الباب، في تلك الأجزاء من الثواني التي كانت لا تزال واقفة فيها بالخارج وأنا في الداخل وزجاج الباب يفصلنا، في تلك الأجزاء من الثواني أحسست بدفقة انفعال ساخنة تنسكب في دمي وتسري في كياني كله. فرحة ونشوة وأمل كبير في سعادة حقيقية، وأهم شيء يقين.. يقين لا شك فيه أنها تريدني مثلما أريدها، وأن لديها هي الأخرى دوافع خاصة لي جعلتها تأتي.

وفتحت الباب وأنا أحاول أن أخفي سخونة انفعالي، وكل ما فعلته المحاولة أنها جعلتني أرتبك، بل وجعلتني يخيل لي أنها هي الأخرى مرتبكة.

ودخلت.

كنا في يوم من أيام فبراير، ولكنه لم يكن كسائر أيام الشهر، كانت حرارته تكاد تقترب من حرارة أيام الصيف وكأنه يذكرنا بقرب مجيئه. وكانت سانتي تحمل جاكتتها على نفس اليد التي تمسك بها حقيبتها وكانت ترتدي بلوزة سماوية على هيئة قميص و«جيب» رمادي. وكانت حرارة الجو قد وردت جسمها كله، وخديها بالأخص، حتى بدت عيناها شديدتي السواد، وكذلك بدا شعرها.

دخلت بخطوات سريعة نشطة ذكرتني بخفتها في أيامنا الأولى. ولأمر ما أحسست بإحساس طاغ حين تجاوزتني وأولتني ظهرها وهي تأخذ طريقها إلى حجرة المكتب.. أحسست أني أحبها حباً عارماً مجنوناً. إحساس نادر ما كان يخالجني بل لم أحسه بمثل تلك القوة إلا في هذه المرة التي أولتني ظهرها فيها. ربما كانت حين تواجهني يشغلني عنها محاولاتي لتبين ملامحها وانفعالاتها وكل خلجة من خلجاتها. أما وأنا أراها من ظهرها فأنا أحس بها ككل، ليس نفس الكل الذي أحس به حين

أتذكرها مثلاً، ولكنه «كل» أراه فعلاً وأحس تجاهه بأضعاف أضعاف الانفعالات التي أحس بها إذا تخيلته، تلك اللحظة التي أراها فيها وكأنها خيال حقيقي.

شعور طاغ جرفني كالفيضان وجعلني أوقن أنني مستعد أن أفعل أي شيء لإسعادها، مستعد أن أقف ضد العالم كله من أجلها، مستعد أن أموت أكثر من مرة لأمنعها أن تصاب بالضيق لحظة.

ولم أكن أفكر وأنا أحس، كنت أدرك هذا بلا وعي. كانت أبشع جريمة في نظري أن أمسها، مجرد مس، بكلمة أو حتى بإشارة. لحظة أتمنى فيها أن أشف وأشف حتى أتلاشى إذا كان مجرد وجودي لا يريحها ترى ماذا يحدث لو اطلعت على ما كنت قد أعددته لها في نفسي؟

دخلت الحجرة وألقت بجاكتتها وحقيبة يدها جانباً، وألقت بنفسها على الكرسي الأسيوطي ثم ما لبثت أن مدت ذراعيها في استرخاء من يستريح بعد طول عناء. وأمالت رأسها قليلاً وراحت تنظر إلي بوجنتين شديدتي الاحمرار، وتبتسم، وترمقني بنظرات لا أدرك كنهها ولكنها مطمئنة لذيذة يتمنى الانسان لو ظلت تنظر إليه بها سنين وسنين.

وكنت أراقبها أنا الآخر وأنا واقف قبالتها، مرتبكاً، أبتسم وأنا خجل من نفسي، وأنا غير مستريح أبداً أو مطمئن إلى الأفكار التي تدور في خاطري. ووجدت نفسي أذهب إلى المطبخ وأنا أزعق وأقول لها إني سأصنع لنا كوبين من القهوة. وفي المطبخ أيضاً كنت مرتبكاً متردداً أحاول التفكير ولا أجرؤ عليه، وأحاول أن أطرد أي تردد جانباً وأغمض عيني وأسير قدماً في الخطة التي كنت قد وضعتها. وعدت بالقهوة وجلسنا نحتسيها. وقبل أن يفرغ القدح قلت لها: أريد أن تقرئي شيئاً.

نظرت إلي بمكرها اللذيذ وقالت: خطاب؟

قلت: أظن هذا . . أتحبين أن أقرأه عليك؟

قالت بمرح صبياني: لا لا لا، أرجوك . . أحب أن أقرأه أنا.

ولكن لأمر ما . . ربما لأني أحب أن يبدو الأمر على أنه حديث موجه مني إليها ـ كنت أريد أن أقرأ أنا الخطاب، فقلت: ولكن خطي كما تعلمين.

ـ معلهش، دعني أنا أقرؤه.

ـ على رسلك.

قلت هذا وأنا أبحث بحث المرتبك الشديد الارتباك في أدراج المكتب عن الخطاب الذي خيل إلي أن فوهة سحرية قد ابتلعته. ولكني أخيراً وجدته وأعطيته لها. تأملت حجمه قليلاً وهي تبتسم وأنا أقشعر من الخجل وكأني بسبيلي لاطلاعها على ملابسي الداخلية. وتركت مكانها وجلست على المكتب ووضعت الخطاب أمامها وراحت تقرؤه . . وقلت لها:

ـ الخط يعني . .

ولكنها قاطعتني وهي تضع أصبعها على فمها تحذرني من الكلام وكأنها تحذرني من قطع لذة كبرى، وأحسست بارتباك أكثر حتى لقد غادرت الحجرة نهائياً ورحت أدور في الشقة أحاول بطريقة ما أن أداري خجلي من نفسي ومنها. وكل ما كنت أتمناه لحظتها أن ينتهي الموقف على أية صورة وأن ينتهي بأسرع ما يمكن. وكنت في عجب من نفسي لهذا الخجل، ولهذا الاشمئزاز الذي أشعر به حيال ما يدور في عقلي في

تلك اللحظة. . بالأمس فقط كنت متحمساً شديد الحماس لما أقوم به الآن. بالأمس كان كل شيء يبدو لي منطقياً ومعقولاً، وكنت أمام نفسي على حق إلى درجة أن كتبت هذا الخطاب لها، ولحظتها ماذا حدث؟ ولماذا تغيرت المقاييس؟ ولماذا فقدت حماسي لهدفي وخطتي ولكل شيء؟ ولماذا أريد للموقف أن ينتهي بأقصى سرعة وكأنه موقف مخجل؟ .

وكانت احتمالات الدنيا كلها تدور داخل صدري والوساوس تنهش أعماقي. . ترى ماذا يكون بعد قراءتها الخطاب؟ ماذا تظن؟ ماذا تفعل؟ على أي محمل ستأخذ كلامي؟ لم أنتظر حتى أن تنتهي من القراءة لأعرف النتيجة، تسللت عائداً إلى حجرة المكتب دون أن أحدث صوتاً لأحاول أن أعرف انفعالاتها وهي تقرأ الخطاب.

وحين أصبحت قامتي الطويلة تسد فتحة الباب تجمدت في مكاني كالمأخوذ، فقد فوجئت بمشهد لم أكن قد أعددت نفسي له أبداً ولا حسبت له حساباً. . كانت سانتي تبكي. لم تكن تشهق أو تنهنه، كانت عيونها محمرة شديدة الاحمرار، وبياضها محتقن والدمع يتساقط من عينيها دون أن تحاول مسحه أو ترفع نظرها عن سطور الخطاب.

ودارت بي الدنيا.

كانت هذه أول مرة أرى فيها سانتي تبكي، بل لم أكن أتصور مطلقاً أن مثلها مثل سائر البشر يمكن أن تبكي، وأعجب من هذا أنها تبكي في موقف لم أكن أتخيل أبداً أنه ممكن أن يدفعها للبكاء. . والمذهل أنها لا تبكي بقصد أن تريني أو ترى أحداً، ولكنها تبكي بلا وعي، ولا يمنعها انفعالها وبكاؤها أن تكف عن قراءة الخطاب.

ولم أصدق ما أراه برغم تأكدي من حدوثه، خيل إلي أنها تعد عدتها

لتمثيل دور غضب آخر، أو أن هذا البكاء ليس حقيقياً بصورة ما.

ووجدت نفسي أتقدم منها في وجل، وأتحدث بصوت مسموع لتتنبه إلى وجودي. بل حاولت أن أضحك ولكني أنهيت المحاولة في الحال فقد بدا ضحكي سخيفاً لا مكان له ولا معنى. ووصلت إلى المكتب وانحنيت أواجهها وأحدق فيها، كان احمرار عينيها احمراراً حقيقياً ودموعها دموعاً حقيقية. ومع أني كنت قد أصبحت قريباً جداً منها إلا أنها أيضاً لم ترفع عينيها عن سطور الخطاب، ولا أتت بأية بادرة تدل على أنها أحست باقترابي أو وجودي.

وإحساس غريب تملكني لحظتها حتى لقد دفع إلى ملامحي بابتسامة خفيفة باهتة لا تكاد تلحظها العين، فحين مضت فترة صدمتني الحقيقة وبدأت أنفعل وأحس. كان أول ما أحسست به لمحة اغتباط عابر فالمعنى الواضح لبكائها أنها قد تأثرت بكلامي تأثراً دفعها إلى البكاء.

وأنت إذا تكلمت وأبكيت شخصاً ما بكلامك فهو دليل على أنه يحبك ما في ذلك شك. . إن كلامنا لا يبكي من يكرهنا مهما أسرفنا فيه وقسونا كلامنا يبكي فقط من يهتم بنا، من يحبنا.

ولكن اغتباطي لم يطل، فلم ألبث أن أحسست بشفقة طاغية جارفة تتملكني. لا لم تكن شفقة، إن الشفقة نحسها فقط تجاه من هم أضعف منا. أما هذا الإحساس تجاه ند لنا أو تجاه من نعتبره أعلى منا فلا أعرف ماذا أسميه؟. ولكني أحسسته، وأحسست معه أني وغد لأني جعلتها تبكي، مع أن غبطتي لأني أنا الذي أبكيتها كانت لم تزايلني بعد. وهكذا دخت في هذا المزيج الغريب المسكر من الفرحة والشفقة والفروسية والندم والرغبة في القيام بأي عمل عاجل يمنعها من الاسترسال في البكاء

والرغبة في عدم الإتيان بأي عمل من شأنه أن يوقفها عن البكاء.. فقد كنت آسف له واستعذبه، وأدوخ ألماً حين أرى تساقط دموعها الحقيقية قطرة متبلورة وراءها قطرة متبلورة على صفحات الخطاب تذيب حبره وتبلل ورقه وتصنع دوائر شفافة متناثرة على صفحاته، وأحس في نفس الوقت بسعادة محرمة خفية لعجزي عن إيقاف هذه الدموع.

وكان لا بد أن أصنع شيئاً، ورحت أردد: سانتي.. سانتي.. ما هذا؟

ولم يأتني جواب على تساؤلي، ظلت سادرة في قراءتها وبكائها فاستدرت وعانقتها محاولاً أن أمنعها عن متابعة القراءة، ولكنها لم تستسلم لمحاولتي ومضت تقرأ وتبكي. ويأساً من المحاولة ـ التي كنت أتمنى لها الفشل في قرارة نفسي ـ رحت أضمها وأمرغ وجهي وأنفي في شعرها وأقبل عنقها وآخذها كلها بين ذراعي، وهي جالسة على الكرسي.. جسدها في حالة استرخاء تام، ولأول مرة أحس بها مستسلمة استسلاماً كاملاً لي، ولذراعي، ولقبلاتي..

وحتى وأنا في قمة نشوتي لم أستطع أن أمنع السؤال الملح من أن يطرق بالي ويوالي طرقاته.. ماذا أبكاها؟

ورغماً عني انتقل السؤال من عقلي إلى لساني ورحت أقول:

ـ لماذا تبكين يا سانتي؟.. لماذا تبكين.. لماذا؟

ولم ترد في الحال، ظلت تقرأ البقية من الخطاب وهي تائهة، وحين انتهت منه رفعت رأسها وقالت:

ـ أنت قاس يا يحيى.. أنت قاس جداً..

قلت لها وقد فرحت لأنها نطقت:

ـ لماذا يا سانتي؟

قالت وهي لا تزال تبكي:

ـ خطابك هذا. . أنت قاس جداً.

قلت لها وأنا لا أزال أضمها وأقبل عنقها من الخلف:

ـ ولكنه حقيقي. . أليس كذلك؟

ـ لست أدري. . ولكنك قسوت علي. . أنا لست كما ذكرت. . أنا لا أعبث بك. . أنا لم أعبث بك أبداً. . أنا لا أريد التفرج عليك وأنت تتعذب، أنا لست هكذا أبداً أبداً. . أنا لست هكذا. .

وبعنف وبكل إرادتي رحت أحاول أن أمنع قلبي من أن يدق ذلك الدق الجنوني الذي كان يدق به، لا لكلماتها ولكن لأنني في تلك اللحظات بدأت أتبين حقيقة غريبة ينكشف عنها الموقف. . كانت سانتي تمر بالحالة التي أعرفها جيداً في النساء، الحالة التي تحس فيها بالمرأة جسداً وشخصية وروحاً قد بدأت تفقد صلابتها الطبيعية وتلين بين يديك حتى ليمكنك أن تفعل بها ما تشاء.

ولم يكن قلبي يدق من الفرح، ولا من الإحساس بالانتصار العظيم الذي عملت من أجله طويلاً، ولم أكن أعرف لحظتها لماذا يدق، ربما من الخوف. . ربما من رهبة الإقدام على عمل هائل مروع.

وبدأ ريقي يجف وينضب.

ورحت أردد من خلال حنجرة جافة ولسان جاف: لماذا يا سانتي؟ لماذا؟ لماذا أردد الكلمات فقط وأنا أفهم معناها ولا أعيها. بل حتى المناقشة الصغيرة التي نشبت بعد هذا لم أكن أعنيها، ولا كنت أفكر فيها لا لأني كنت مشغولاً بالتفكير في شيء آخر، إذ الواقع لم أكن أفكر في أي شيء بعينه، ولا حتى في سانتي. قلت لها:

ـ ولكن كلامي حقيقي، أليس كذلك؟ أنت فعلاً تتفرجين على حبي لك ولا تريدين أن تتبيني أني أتعذب، ولا حتى أني أحبك فعلاً حباً حقيقياً مجنوناً. . انظري إلي! انظري إلي! افتحي عينيك الجميلتين وانظري إلي! تبينيني ولو مرة واحدة.

قالت ودموعها تتساقط بسرعة أكثر:

ـ أنت قاس يا يحيى، أنت قاس.

ـ لا يا حبيبتي، لست قاسياً. أنا أحبك يا سانتي. أنا أحبك. هل تعرفين هذا؟ أنا أحبك.

كنت أود في تلك اللحظة، حتى وأنا لا أفكر، أن أقول كلاماً جميلاً حواراً من النوع الذكي المنمق الجميل الذي نقرؤه في الكتب ونراه في الروايات، ولكن لم أكن أجد شيئاً أقوله سوى أن أردد: أحبك يا سانتي أحبك.

وأخذتها تحت إبطي فطاوعتني ووقفت معي، وقبلتها في عنقها وأنا أرتجف إذ كنت قد بدأت أرتجف، وأنا خجل أريد أن أداري ارتجافي عنها. وكلما حاولت هذا ازدادت حدة رجفتي ومشيت وأنا أدفعها أمامي برفق ولين، حتى صرنا أمام الكنبة. وجلست وجذبتها معي فجلست بجواري. ولم تجلس كما تعودت أن تجلس، خلعت حذاءها وألصقت ركبتيها بصدرها وأنا بجوارها وذراعي ملتف حولها وأحتويها ولا أزال أرتجف. اللحظة التي انتظرتها سنين طويلة وسنين، آلاف السنين، خيل إلي أني حتى قبل أن أولد كنت أنتظرها، ها هي ذي قد جاءت، ها هي ذي سانتي أمامي، ساكنة مستسلمة كالعجينة أستطيع أن أفعل بها ما أشاء.

وقبلتها في فمها. ولأول مرة أحسست بنشوة عارمة حين وجدتها لا تشيح بفمها عن فمي وأنها تسلمني فمها. ولكني لم أحس أنها قبلتني فقبلتها مرة أخرى وأخرى.

وازدادت بكاء وقالت: لا تفعلها يا يحيى.. أرجوك.. لا تفعلها.

ودق قلبي بعنف جديد أشد، وبدأت أسناني من الارتجاف تصطك. إنها تطلب مني أن أدعها.. مستسلمة وتطلب مني أن أدعها وتبكي.. أحتويها بذراعي وهي مستسلمة إلى صدري وتطلب مني ألا أفعلها وتبكي.

قلت: لماذا يا سانتي؟

قالت: لأنني لا أريد.

ما زالت كل دقيقة من دقائق المشهد حاضرة محفورة في ذاكرتي لا تنمحي.. سانتي منكمشة على نفسها في ركن الكنبة، وأنا بجوارها أحتضنها بذراع وبيدي الأخرى أرفع وجهها وأقربه من فمي ووجهي والشمس تغرب، والحجرة غير مضاءة، والمكتب والكراسي والستارة الرقيقة المسدلة على النافذة، والدنيا كلها تمر بلحظة سكون لا أعرف سببه. ربما كانت كلها واجمة تنتظر نتيجة ما يدور، ودوي ما حدث في الورش في الصباح ووجوه العمال الراسخة في ذاكرتي تنتظر أيضاً وتترقب، بل كان واضحاً أن سانتي هي الأخرى تنتظر النتيجة، وتنتظر مني أن أفعل شيئاً، أو لا أفعل شيئاً بالمرة..

وفيما تلا هذا من أحداث، ربما لو لم تحدث بالطريقة التي حدثت بها لما كان ما كان، ربما لو تقدم حدث عن حدث أو استبدلت كلمة بكلمة لتغير المشهد، ولتغير مصيري ومصير سانتي، ولخطت لنا الحياة

البيضاء

مصيراً آخر. أحداث صغيرة قد تبدو تافهة كل التفاهة ـ ولكنها في أوقات في وقت كهذا كانت مهمة عظيمة الأهمية إلى درجة قد لا يصدقها العقل بل لم أصدقها أنا نفسي حين رحت أستعرض ما حدث فيما تلا هذا من أيام. . وأعوام. .

للحظة خاطفة ألقيت نظرة على نفسي وعلى أعماقي، فروعت للنتيجة. لم أجد لدي أية رغبة في سانتي، بل لم أستطع أن أفكر فيها لثانية واحدة ـ وكمجرد تفكير ـ وهي أمامي امرأة مستسلمة تبكي ـ وكأنها امرأة حرن بي تفكيري كما كان يحرن خيالي. وكم قضيت الساعات الطويلة أفكر في الأحداث القليلة التي احتواها المشهد، وأحاول تحليلها وتعليلها، ووصلت إلى نتائج ،ولكنها أبداً لم تستطع أن تشفي غليلي، لم أستطع أن أعثر على سبب وجيه يفسر لي كل ما حدث. أحياناً كنت أقول أن السبب هو أن سانتي ـ حتى تلك اللحظة ـ لم تكن قد قامت بأي تصرف يدل على رغبتها في. وكان السؤال إذن لا يزال يلح: هل تريدني مثلما أريدها؟ هل تحبني سانتي؟ ذلك هو السؤال. تلك هي المأساة التي كانت تشلني.

بل حتى حالة الاستسلام التي كانت فيها، لم أحدثها أنا الرجل فيها لم يحدثها كلامي أو ضغطاتي، ولا قبلاتي، كتابتي هي التي أحدثتها. ولم أكن أريد أن تستسلم لي ككاتب، ولا أن تحبني كمحرر في المجلة وصاحب قلم وأسلوب. . كنت أريد أن تحبني أنا، أنا الرجل، أنا الجسد والشكل والروح.

كل ما كنت أريده تلك اللحظة هو نفس ما أردته دائماً ـ أن أبيع حياتي من أجل أن أظفر بلمحة منها تدل على أنها تريدني هي الأخرى. طيلة علاقتي بها كنت في انتظار هذا، وفي تلك اللحظة كنت أيضاً لا أزال

أنتظر. والموقف يستدعي أن أتصرف بإيجابية وأنالها. فكيف أنالها وأنا أنتظرها؟ وكيف أتحرك وأنا أنتظر منها أن تتحرك أولاً لأريدها وأرغب فيها. كان مستحيلاً علي أن أتحرك ما لم تتحرك هي، ما لم تعاملني كامرأة تحبني لأعاملها كرجل يحبها.

واللحظة رهيبة وفاصلة، حقيقة فاصلة. فإحساس مبهم غامض وكأنه الحاسة السادسة، قارئة المستقبل، ومدركة البعد الآتي في أي وضع حاضر، كانت تهيب بي أن تلك اللحظة سوف يكون لها أعمق الأثر في علاقتنا، سوف تحدد مصير العلاقة. كنت أدرك أن العلاقات تبدأ بمناورات مزدحمة من جانب المرأة والرجل على حد سواء، ويظل الاثنان يحاوران بعضهما حتى ينضج مابينهما ،فإذا جاءت ولم يتم لا تلبث العلاقة أن تفتر وتبرد ثم تنهار. ترى، لو لم يتم ذلك الاتحاد بيننا في هذه اللحظة وانتهى المشهد على غير تلك النهاية، فهل أغفر لنفسي هذا؟ وهل إن غفرت أنا ستغفر لي هي الأخرى وتسامح؟

وحتى إذا كنت قد تغلبت على كل قيودي الداخلية، فكيف ستواجهني هي بعد ما يحدث شيء كهذا بيننا؟ كيف ستجلس في اجتماعاتنا، كيف تستعيد نفسها وتتكلم وتعمل وكيف أجلس معها، وبأي عين نناقش حينئذ نشاطنا وثورتنا؟ وكيف أستطيع أن أحمل على سياسة المجلة وأطالب بالقيادة لنا وأتهمها بما تستحقه، كيف أدعي الشرف بعد هذا والبراءة وكيف أعود نظيفاً كالبلور مثلما أريد؟

ولا أكذب على نفسي وأقول أن أفكاري الأخيرة تلك كانت حوائل رئيسية في نظري، ولكنها هي الأخرى كانت تعمل، ولقائي مع أحمد سيف النصر وكلماته، وكلمته بالذات: والله أنت أناني! ووجه العامل

المتشبث بحديد النافذة لا يبرحه، تلك الأشياء المتباعدة التي كانت تبدو لي قليلة الأهمية كانت تدق فوق رأسي بعنف ـ وأحياناً أتفه الأشياء هو الذي يدق فوق رءوسنا ويأخذ الأهمية الكبرى في لحظات كتلك.

وفجأة أنتبه لأجد نفسي أفكر في شيء غريب، وكأني مذهول من استسلام سانتي لي، وكأني لم أكن أتوقع أبداً أن تستسلم وتصنع كما تصنع أية امرأة أخرى، إلى درجة أني أكاد أنهرها بنظراتي وأنهاها وأستنكر أن يكون ما تصنعه لحظتها أن يثبت في النهاية أنها امرأة ككل النساء. كنت أشك وأومن، وأظن أنها لا يمكن أن تفعل هذا أبداً، وأنظر إلى الواقع فيكاد الواقع ينطق ويكذبني. بل أحد الدوافع الرئيسية التي كانت تدفعني للمضي في المشهد إلى نهايته هو أن أتبين بدرجة لا تقبل الشك أن كانت ستستسلم حقيقة في النهاية كغيرها أو أنها لن تفعل.

وفجأة أيضاً أضيق بكل شيء، بها وبنفسي وبعلاقتنا وبالدنيا كلها وأكاد أنفجر في سانتي سباً ولعناً، فلم أكن أريد بخطابي لها إلا مجرد افتتاح الحديث ليدور بيني وبينها.. حديث تنضج فيه لحظتنا ونتجاوب خلاله، وينتهي إلى هذه النهاية نفسها. كنت أريد أن أوقت أنا المسألة ولا يكون الموضوع كله مفاجأة لي، فإذا بتأثرها بالخطاب يصل إلى درجة يصبح معها أي حديث بعده سخيفاً سخفاً لا حد له، وإذا بما رتبته ينقلب رأساً على عقب، وإذا بي واقف عاجز لا أكاد أعرف ما يجب علي أن أفعله.

وبدأت أختنق.

والكلمة تستعمل أحياناً للتهويل، ولكني حقيقة بدأت أحس بأشياء

تتصاعد من داخلي وتلتف حول عنقي، وبدأت أحس بروحي ترف في صدري وأنني حالاً قد لا أستطيع التنفس.

لم يكن قد مضى منذ جلست معها على الكنبة أكثر من دقيقة أو دقيقتين، في أثنائها دارت كل تلك الاحتمالات والافتراضات والتصورات في عقلي، وكانت لا تزال تدور حتى كدت أحس بعقلي يجأر كموتور عربة تصعد مرتفعاً وهي تحمل فوق طاقتها. وكانت سانتي لا تزال على جلستها ،ودموعها قد بدأت تسيل في وهن، ولأنها كانت ترتكز برأسها على ذراعي فدموعها كانت قد صنعت خطين لامعين فوق وجهها المحتقن. لأول مرة كنت أرى دموعاً حقيقة تصنع بسيلها خطين لامعين كلما قاربا الجفاف بللتهما دموع جديدة. وبدت لي مسكينة ضعيفة واهنة لا حول لها ولا قوة، هي سبب الدوامة التي تجتاح عقلي وحياتي ولا أستطيع لومها، وكل ما أحسه أني أريد حمايتها حتى من نظرة لوم تفلت مني، ولا أريد منها أكثر من أن تسمح لي بأن أحميها.

ولا أعرف كيف جاء هذا الخاطر اللعين إلى تفكيري. ربما كان عقلي قد وجد فيه مخرجاً للأزمة العنيفة، وربما لم أكن قد لاحظت علامة واحدة أحسست منها أنها تحبني مثلما أحبها، مع أني كنت أقول لنفسي أنها ربما تدخر إحساسها كله لتعبر لي عنه بعدما ينتهي المشهد إلى نهايته الطبيعية، أي بعد أن أصل معها إلى مرحلة الاتحاد الكامل. هناك فوق قمة تلك المرحلة وبعد أن نجتازها ممكن أن تأخذ رأسي بين راحتيها وتقص عليّ قصة أحاسيسها ناحيتي بصراحة ودون أن تخفي شيئاً، فالمرأة أحياناً تدخر اعترافاتها لنهاية الشوط وبعد أن تكون قد اطمأنت إلى أنها الكاسبة. ولكني كنت أستبعد أن تكون سانتي من هذا الصنف من النساء، بل لم أكن أريدها أن تكونه. لماذا تضن علي بعواطفها وأنا لم

أضن عليها بعواطفي؟ ولكن دموعها، لماذا تبكي هذا البكاء المتصل المرير وكأنها في جنازة أو مساقة للذبح؟ لماذا لا أحس أنها في حالة هيام عاطفي مثلما أنا هائم؟ لماذا تقابل انفعالي العظيم بذلك الانكماش المطلق؟ لماذا هي غير منفعلة مثلما أنا منفعل؟ مرة أخرى لا أعرف كيف واتاني هذا الخاطر، ولكني وجدته ينصب أمامي ويصفر في عقلي صفيراً طويلاً كئيباً يورث الوحشة ويهز الكيان.

لماذا لا تكون المسألة كلها مجرد أحاسيس عارمة من جانبي أنا وحدي؟ لماذا لا تكون قصة الحب التي تخيلتها مجرد خيالات دارت في عقلي أنا فقط؟

جفلت للخاطر وكأني قد اصطدمت صدمة مفاجئة مروعة بحاجز صلب قاس. بل أحسست حقيقة بأني أشم في أنفي رائحة كالتي تحدث حين يصوب لنا أحدهم لكمة هائلة في الأنف، ووجمت. ولكن وجومي لم يستمر إلا للحظات خاطفات، بعدها استعدت نفسي تماماً، بل جمعت كل نفسي وكل كياني وكل شغفي بها وخوفي عليها ورغبتي فيها وهززتها برفق بين ذراعي وأنا أقول لها في همس ملح: إذن أنت حقيقة لا تريدين يا سانتي؟

وتململ جفناها، وبشريط ضيق من عينيها واجهتني وقالت في كلمات نطقتها وكأنها تذرفها حتى كان لها نفس دفء الدموع: أكنت تظن أنت غير هذا؟

فقلت وصفارة الخاطر لا يزال صداها في رأسي: كنت.. كنت.. أجل كنت أظن غير هذا.

وكنت أتوقع أن تتكلم، ولكنها سكتت، فعدت أسألها وأستحثها:

ـ صحيح يا سانتي. . لم تريديني. . وكنت فقط تتحملينني؟

وقالت:

ـ أجل. . أجل. .

ودفعت رأسي بعنف من صدرها وأنا أقول: يا للفظاعة!

وتنبهت سانتي تماماً، وأمسكت بيدها وجذبت رأسي بحماس لكي أواجهها وقالت:

ـ مالك يا يحيى. . مالك؟

فقلت لها وأنا بالكاد أركب الكلمات وأصنع منها جملاً وأكملها بتعبيرات وجهي وتقلصات يدي وأصابعي:

ـ تصوري! كنت فقط تتحملينني. لم تكوني تريدينني وكنت أنا أثقل عليك بسخفي وبعواطفي. . وأنت طيلة الوقت تتحملينني. هذا مريع. . حقيقة. . سيء جداً.

وبصوت متناه في الخفوت أنهيت كلامي بسؤالها: صحيح يا سانتي صحيح لم تكوني راغبة في أي شيء مما بيننا فقط تتحملينني؟

ـ أجل. . أجل يا يحيى. . كنت أتحملك. هل كنت تعتقد شيئاً غير هذا؟

وكمحاولة يائسة أثبت بها لنفسي أن كلامها غير صحيح ضممتها وقبلتها، فعادت تقول بلهجتها الدامعة السابقة:

ـ أرجوك يا يحيى. . لا تفعلها أرجوك.

ورغماً عني أحسست أني لم أعد أحتمل، ووجدت نفسي أنتفض واقفاً وأغادر الحجرة إلى الصالة كمن أصيب بلوثة. وعند باب الحمام

البيضاء

توقفت ورحت أشهق محاولاً أن أبكي. لم أكن أعرف لماذا قمت وغادرتها ولا لماذا أحاول أن أرغم نفسي على البكاء ولا السبب في هذا الضعف الشديد الذي شعرت به يمتص كل قواي وإرادتي، وكأني إنسان آخر غير الذي كنته في الصباح، إنسان آخر غير الرجل الناضج القوي الذي وقف وحده يواجه آلاف الرجال وتحيطه نمور غضبهم. أين هذا منه الآن وهو يواجه هذه الفتاة التي لا حول لها ولا قوة بأضعف ضعف وأسخف موقف؟

ولكن كنت في حالة غريبة لا أستطيع أن أوجه لنفسي سؤالاً أو أجيب عليه وأي شيء لم يعد يهمني ولا حتى رأيها فيّ وفي تصرفاتي أصبح لا يهمني.. كنت أحس أني لا أستطيع أن أفعل إلا ما أفعله، إلا أن أتفرج على ما أفعله، وكأنما ركبتني إرادة أخرى أصبحت هي التي تسيرني.

ولم تمض سوى لحظات قليلة جاءت بعدها سانتي ورائي وأمسكتني من كتفي ومضت تهزني وتقول: ماذا حدث يا يحيى؟ ماذا حدث؟ ماذا جرى لك؟ فقلت لها وأنا أستدير وأواجهها وأحاول أن أبتسم: لا شيء لا شيء.. نوبة. معلهش! لم يحدث شيء أرجوك، انسي ما حدث.

وكنت أقول هذا وأنا أراقبها، فحالتها كانت مختلفة تماماً عن الحالة التي كانت عليها منذ برهة فوق الكنبة، وكأنما أفاقت تماماً، وكأنها كانت مندمجة في دور ثم انتهت منه فانتهى تقمصها له. صوتها استرد حماسه وتدفقه، وملامحها استردت حيويتها، وابتسامتها أصبحت حائرة بين الاستنكار الخفيف والشفقة الخفيفة، وليس فيها أي حب استطلاع أو دهشة وكأنها كانت تعرف أني سأفعل هذا.

والمضحك أنني رغم أي اعتبار آخر كنت في تلك اللحظة بالذات أقول لنفسي: لو دموعها التي كانت تسيل كانت حقيقية، لو كانت منفعلة

انفعالاً حقيقياً أوصلها لدرجة البكاء، لما كانت قد استطاعت أن تسترد شعورها ونفسها بمثل تلك السرعة .لو كانت تحبني حقيقة لظلت سادرة في انفعالها السابق ولظلت تبكي. المحب الصادق لا يكون انفعاله انعكاساً لانفعال حبيبه، ولكنه يتصرف بوحي من نفسه ولا يملك إلا التصرف بما يمليه عليه شعوره هو. انفعاله يكون أقوى منه، وأقوى من إرادته. . أما التحكم في الانفعالات وتغييرها حسب الحاجة وضبطها فأمر لا يستطيعه المحب.

أكثر من فتاة تحب رأيتها. . وباستطاعة الانسان أن يلتقطها من بين الآلاف. . إنها تبدو كمن يعاني من جنون الإيمان بفكرة ثابتة. . ولكنها ليست فكرة. . شخص تؤمن به وتحبه ويشغلها عن العالم كله حتى ليصبح لها شكل المهاويس وتصرفاتهم.

وكانت سانتي أمامي في أتم قواها وتحكمها بنفسها.

وقلت لها: سامحيني. . لقد أزعجتك. . لم أكن أقصد هذا. . ولكنه حدث برغمي. . أرجوك انسيه.

ولم يكن لدي ما أقوله غير هذا. . فقد شعرت إني لو حاولت التوضيح، لو حاولت التحدث عما أحسه وأشعر به لكنت وكأني أكشف عن عواطفي لغريب أو على الأقل لمحايد.

وسكت. . حتى الكلمات القليلة التي تلتها بعد هذا كانت مجرد صدى لصدمتي. ما فائدة الكلام؟ لو أردت الكلام حقيقة لخنقتها أو انتحرت وأشعلت النار في البيت. . في جوفي بركان انفعال يذيب الصلب. وحين عدنا من أمام الحمام وجلسنا مرة أخرى في الحجرة جلست صامتاً لا أكترث. وحتى سانتي لم تتكلم كثيراً. . حاولت أن تطرق

البيضاء

موضوعات وقالت: نسمع موسيقى. وأدرنـا أسطوانـة أو اثنتين وتبادلنـا الابتسامات، وأخيراً جمعت سانتي أشياءها في تكاسل وارتدت الجاكيت وقالت: أنا ذاهبة. هه أنا ذاهبة.

ابتسمت وقلت وأنا مخفض رأسي: أوكي.

وبطريقة روتينية محضة قالت: أراك غداً.

قلت: طبعاً.. طبعاً..

قلت هذا وأنا أسير وراءها إلى الباب، وكانت تسير أمامي وأنا أراها من ظهرها. هذه المرة كنت أحس بضيق منها يكاد يعادل إحساسي بالحب لها حين دخلت. وكانت تمشي إلى الباب لا تتلفت ولكن مشيتها يبدو منها أنها تتوقـع حدوث شيء. وفتحـت البـاب وأبطـأت في فتحـه متوقعـة، واستدارت وهي تقف على العتبة وابتسمت وقالت: باي. قالتها وهي أيضاً متوقعة، ثم راحت تهبط السلالم، سلمـة سلمـة وعلـى مهـل.. وحين أغلقت الباب كنت أسمع أصداء قـدميهـا آتية من بعيد وكل صدى كان يحمل في طياته توقعاً، وكأني سأفتح الباب وأنادي عليها. ولم أفتح أي باب. تمددت على الكنبة وأمرت نفسي ألا أفكر. ولـم تكن نفسـي في حاجة إلى أي أمر. من تلقاء نفسها كانت لا تريد شيئاً بالمرة.

ولا حتى مراجعة ما حدث..

وأغمضت عيني، أغمضتهما بعنف وكأني أخاف أن تنفتحا رغماً عني وتريا..

كم من الزمن مضى وأنا على هذه الحال؟ كل ما أذكره أني سمعت ـ وكان هذا قد حدث مباشرة بعد خروج سانتي ـ أن الباب يدق. ولم أتعب نفسي بمحاولة تخمين إن كانت هي الطارقة، قمت إلى الباب وفتحته..

ولم أفتح الباب مرة واحدة، ثلاث مرات فتحته. في المرة الأولى كان شوقي وقد حضر ليعرف نتيجة ما حدث في الورش في ذلك اليوم وغمغمت له بأن كل شيء على ما يرام وإني نفذت نصيحته ولم أمنحهم إجازات رغم أنهم كادوا يمزقونني تمزيقاً. وعبثاً حاول أن يعرف مني التفاصيل فقد كنت بارداً ضجراً لا أريد الحديث. ولم تضايق شوقي لهجتي أو طريقتي، كان واضحاً أنه سعيد بالنتيجة فقد تخللت حديثه كلمات كثيرة عن نفوذنا وسط العمال ووجوب تدعيمه وما حدث يعتبر بداية لتوسيع أكثر.. وأشياء أخرى كثيرة لم أحفل بتبينها.

والطارق الثاني كان آخر إنسان أتوقعه أن يطرق بابي.. كان سكرتير النقابة، أنيقاً جداً يرتدي بدلة كحلية ورباط عنق أحمر ومنديل صدر من نفس اللون.. واعتذاراته كانت أول ما واجهني حين فتحت الباب.. اعتذارات أكثر سماجة من تصرفاته في الصباح فقد كانت تنزلق من فوق لسانه انزلاقاً دون إيمان حقيقي بها.. ولم يلبث سبب زيارته أن اتضح فقد بدأ يعرض علي عرضاً غريباً ويبرره بقوله إنه كان نظاماً متبعاً مع جميع الأطباء الذين عملوا قبلي في الورش، والعرض كان أن تدفع لي النقابة ماهية شهرية «لا يطلع عليها غيري وغيره»؟ لكي أتساهل مع العمال وأمنحهم إجازات. وأعجب شيء أني كدت من فرط حقدي على نفسي وعليه وعلى الدنيا الخانقة المقبضة التي تركتني فيها سانتي، كدت أقبل العرض.. ولكني رفضته بوقاحة وأمرته بمغادرة البيت في الحال. وظن أني أستشوي العرض فأعاده بمبلغ أكبر، بخمسة عشر جنيهاً في الشهر. وفكرت فجأة في قتله، ومن درج المكتب أخرجت مشرطاً جراحياً كنت أستعمله لبري الأقلام. ودهش وظن أني أهزل معه، ولكنه ما أن رأى وقفتي ونظرتي والمشرط المشرع في يدي حتى خاف خوفاً كاد يدفعني لطعنه، ولو

كان قد بقي في الحجرة لحظة لفعلتها ولكنه جرى ناحية الباب كالأطفال وهو يصيح: دا أنت باينك مجنون صحيح.

وما كدت أتمدد على الكنبة وأغمض عيني وألتقط أنفاسي وأعود إلى حالة السكون التي كنت عليها قبل أن يبددها شوقي والسكرتير، حتى دق الباب مرة ثالثة، وقمت وفي اعتقادي أنه السكرتير قد عاد ومعه البوليس أو عاد ومعه رفاقه، ولكن الطارق كان لورا. ولم أسأل نفسي لماذا جاءت ولا ماذا تريد؟ انتباهي كله انصب على أمر غريب، فبشرتها كانت تلمع لمعاناً غير عادي وكأنها خارجة لتوها من الحمام.

وأحسست أني لست بكامل قواي العقلية وأنا أرفع صوتي أكثر مما يجب وأقول لها: هالو.

ورفعت حاجبين خفيفين أصفرين في دهشة وقالت: حسبتك نائماً. وقلت وأنا أمد يدي وأتناول يدها، قلت وكأنني لا أخاطبها وإنما أخاطب جمعاً حاشداً، أخاطب يوماً عاصفاً مزدحماً جرت فيه أحداث هائلة كثيرة تستغرق عاماً: أبداً أنا لست نائماً، أنا مستيقظ. مستيقظ جداً. أنا أنتظرك.. لي يوم بطوله وأنا أنتظرك. كنت أقول هذا وقد أغلقت الباب ووضعت يدها تحت ابطي وسحبتها ورائي وهي تسير بتردد وخوف قليل وقالت: تنتظرني؟ لماذا؟

قلت: أتذكرين يا لورا الدرس الذي أعطيتك اياه هنا؟
قالت ببراءة حقيقية: درس العربي؟
قلت: لا.. الدرس الآخر.. درس وظائف الأعضاء.
قالت: أوه.
قلت: لقد كان درساً نظرياً يا عزيزتي.

وكنت أكلمها وظهري لا يزال إليها وواجهتها مكملاً: أما الآن فموعد الدرس العملي.

وبوغتت وظهرت الدهشة واضحة أكثر من اللازم على ملامحها وقالت بروح مسحوبة:

ـ ماذا تعني؟

قلت:

ـ أعني. .

وجذبتها من يدها واحتضنتها بشدة وقبلتها.

فقالت وهي تحاول أن تتملص:

ـ لا. . لا. . أرجوك.

ولكني لم آبه لاعتراضاتها وأخذتها بين ذراعي وأنا محموم.

وحاولت لومضة أن أتصورها سانتي. . ولكني كدت في هذه الومضة أن أهمد وأدوخ، وعدت أكثر عنفاً. وشيئاً فشيئاً بدأت أعي أن لورا تتكلم وحين أنصت كانت تقول: أنت تحبني أليس كذلك؟ أنا أحبك جداً جداً جداً. أحبك لدرجة لا تستطيع أن تتصورها، وكنت أكتم عنك ولا أريد البوح. أرجوك. . أستحلفك قل لي. قلها لي. . هل تحبني أنت؟ إني مستعدة أن أموت لأعرف إن كنت تحبني. أرجوك أجبني. إنك تفعل كالمحبين فلا بد أنك تحبني. أجبني أرجوك.

وفجأة وجدت نفسي أبكي بكاء حقيقياً، بكاء كان يهزني ويهزها معي وقد أصبحنا كتلة واحدة، بكاء يهز الحجرة كلها، بكاء كنت أحس أنه يتصاعد من كل جسدي وروحي وضياعي وحتى من أطراف أصابعي أبكي وأبكي والمسكينة لورا تلحس دموعي بقبلاتها ولسانها وتمسك

رأسي في حنان، وتغوص بأصابعها في شعري وتضمني إليها بشدة وتقول:

ـ لا حاجة بك للكلام يكفيني هذا يا حبيبي. أنا أعبدك، أنا التي كنت أعتقد أنك لا تحبني، يا حبيبي الصغير يا رجلي، أحب رجولتك، أحبها. كفى بكاء يا حبيبي، كفى. لا بد أني أحلم، فأنا أحس أني أسعد فتاة في العالم. لا أستطيع أن أصدق أنك أنت وأنني أنا، ولكنك أنت أنت وأنا وأنا، . . ما أروع هذا يا حبيبي، ما أروع هذا!

١٥

خيل إلي أن أياماً كثيرة قد مضت وليالي، ولكن الساعة لم تكن قد تجاوزت منتصف الليل إلا بدقائق، وكانت لورا أول من غادر حجرة النوم، وجلست أنا في حجرة المكتب أتفرج وحدي على الكرنفال الحادث. فمن لحظة أن غادرت لورا الحجرة امتلأت الشقة بضجيج عظيم متباين الأسباب. كانت في حالة نشوة كبرى ترقص وتغني، حتى وهي في الحمام تأخذ دشاً كان صوت غنائها يصلني عالياً واضحاً وكأنها تستحم معي في حجرة المكتب، وحين خرجت من الحمام خرجت صاخبة وزاعقة في أغرب لباس، جسدها كله يكاد يكون عارياً، وقد لفت فوطة الحمام حول رأسها في عمامة ضخمة. خارجة لا تمشي ولكنها ترقص الفالس وتضحك، وأسألها عما يضحكها فتأخذني من يدي وهي لا تزال مندمجة في الفالس وتجري بي وأتبعها، وفي الحمام تريني صرصاراً انسلخ من جلده البني وأصبح عارياً أبيض، وتضحك وتقول أنه لا بد أن يستعد لاستعمال الحمام. وتصفر بفمها كما يفعل الشبان، وتتحدث في وقت واحد عن فائدة الاستحمام بالماء البارد في الشتاء، وأنواع الصراصير وشقيقها الصغير العفريت الذي يتجسس أحياناً عليها.

وتنتقل فجأة إلى الحديث عن الشقة وتقترح تعديلات ضخمة في

نظامها، ولا تكتفي بالاقتراح بل في الحال تشرع في التنفيذ فتنقل المكتب من مكانه وتجعلني أعدها بشرفي أن أشتري بوتاجازاً لأنها لا تطيق البوابير ثم تتوقف مرة واحدة عن كلامها وضجيجها وصفيرها وتقول: أتعلم أن ما يلزمك هو حمام. . بالضبط الحمام هو ما يلزمك. . تعال.

وفعلاً أمسكتني بكلتا يديها، وحاولت التملص فجذبتني بقوة شاب وأدخلتني الحمام وشرعت تخلع عني ملابسي بالعافية. . وأحاول مقاومتها فلا تفعل المقاومة أكثر من أن تزيدها إصراراً كإصرار الأطفال حين يعثرون آخر الأمر على لعبة سمجة يلعبونها، وكانت لا تزال سادرة في خلع ملابسي تضحك وتقهقه لاحتجاجي ومقاومتي حين صرخت فيها بأعلى صوتي مطالباً منها أن تخرس وتسكت وتدعني.

واستغربت أنا نفسي للدهشة الشديدة التي اعترتها وأسكتتها تماماً وأسكتت معها الشقة والحمام وخرير الماء من الحنفية.

ولو ظلت ساكنة لما حدث شيء ولكنها شرعت تبكي. لم تبك،ولكن ملامح وجهها بدأت تتقلص وترتفع في أمكنة وتنخفض في أخرى، وفمها يتسع وحاجباها يرتفعان من الناحية الملاصقة لأنفها فقط ،وعيناها تغلقهما الجفون المنضمة. وبدت لي بشعة، بشاعة قد تثير في النفس أي شيء إلا الشفقة، ووجدتني أقول لها بكل عنف وقسوة: اسمعي. . أنا لا أحبك ولا أي شيء. . لا بد أن تعلمي هذا وتتصرفي على أساسه.

وتهدلت عمامتها الضخمة في تلك اللحظة بالذات، وسقطت فوطة الحمام على كتفها وبقي جزء منها صغير عالقاً بشعرها المبلل المنكوش وكذلك تهدلت ملامحها فقبر مشروع البكاء إلى الأبد وحل محله استغراب بريء حزين وقالت: ولماذا إذن. .

ولم أدعها تكمل، قلت لها وأنا أعود لارتداء جاكتة البيجاما التي كانت قد خلعتها عني: هذا لا يدل على شيء.

وتركتها واقفة في الحمام وعدت إلى حجرة المكتب، وما يشغلني ليس هو لورا ولا ما قلته لها، ما يشغلني هو المفارقة العجيبة التي كشف لي كلامي للورا عنها. آه لو تقف مني سانتي حتى نفس هذا الموقف الخشن الذي وقفته أنا من لورا! آه لو تنهرني مرة واحدة وبقسوة وتفهمني بشكل قاطع أنها لا تحبني! لو تفعل لأراحتني، فمشكلتي معها أني لا أعرف حقيقة شعورها، ومشكلتها معي أنها لا تريد أن تعرفني..

جلست في حجرة المكتب وسمعت بكاء صادراً من الحمام ولم آبه له بالمرة. كنت في حالة غثيان واشمئزاز.. وكم نتحول في حالات إلى كتل صخر قاس لا أثر للآدمية فيها، جلست على مضض ومنتهى أملي أن تغادر لورا الشقة بأسرع ما يمكن لأعود إلى وحدتي، إلى نفسي، إلى مأساتي.

وليلتها لم تغادر لورا الشقة، بعد أن ارتدت ملابسها وتهيأت للخروج، فجأة وأنا أكاد أتنفس الصعداء قالت لي أنها تذكرت أن والديها لن يناما الليلة في منزلهم، بل سيبيتان عند عمتها في مصر الجديدة. وكان معنى كلامها واضحاً جداً، وكان إحساس بالشفقة والندم لما قلته لها بدأ يخالجني فعرضت عليها أن تبقى، ولم توافق أو تلح، مضت تخلع ملابسها في صمت وتستعد لقضاء الليلة عندي.

وعلى عكس ما توقعت لم يكن ما قلته لها قد أغضبها كثيراً، فما كدت أبتسم لها مرة حتى عادت إلى طبيعتها في الحال، وظلّت طوال الليل تحيطني بذراعيها وتهدهد علي، وكانت رقيقة في حُنانها كأم، وكنت مذهولاً كيف نسيت ما قلته لها بهذه السرعة وتناسته؟ لو كنت في مكانها لما أريتها وجهي بعد ما حدث، ولكن يبدو أن للنساء طابعاً آخر. إنهن لا

البيضاء

يتعاملن بالكلمات الجوفاء التي يتعامل بها الرجال. إنهن يعتبرنها مجرد كلمات قد لا تعني شيئاً بالمرة في معظم الأحيان، نفس الكلمات الجوفاء التي يقتل الرجال بعضهم بعضاً من أجلها.

وتركت للورا الحرية في أن تقبلني وتحدثني وتناجيني كما تشاء، فلم أكن معها. كنت مع سانتي لا أفكر في أي شيء بذاته مما حدث لي معها ولا فيها هي نفسها، ولكني كنت معها.

وفي الصباح وطوال اليوم التالي، يوم الجمعة، كنت قد تركت كل شيء جانباً وأصبح ما يسيطر على عقلي هو ماذا ستفعل حين تأتي في ذلك اليوم، كنت متأكداً أنها لا بد قادمة، وكنت خائفاً جداً أن تكون الشفقة هي مبعث قدومها، أو على الأقل حب الاستطلاع، بل الواقع كنت خائفاً جداً أن تكون قادمة لأي سبب كان إلا رغبتها في المجيء، بطريقة لا أعرفها ولا أدريها وجدت نفسي وكأن شيئاً لم يحدث بالأمس، بل وكأن شيئاً لم يحدث بيني وبينها بالمرة، وأصبح كل همي هو ذلك اللقاء الآتي وكأنه أول لقاء لي معها.

وكنت مستغرقاً في هذا إلى درجة لم أشعر معها بما قالته لورا، ولا بالطريقة التي غادرت بها الشقة، كل ما أذكره أنها أشركتني للحظات طويلة ـ وأنا ضيق النفس فاتر الإحساس في الكذبة التي يجب عليها أن تخترعها إذا حدث ووجدت أن والديها لم يبيتا في مصر الجديدة وعدلا عن الذهاب إلى عمتها ماتيلدا وقضيا الليلة في بيتهم، لا بد سيقلقان حينئذ قلقاً عظيماً، ومن المحتمل أن يقدما على ما لا تحمد عقباه.

وقلت لها لأتخلص منها:

ـ فكري أنت من ناحيتك ودعيني أنا أفكر في كذبة مناسبة.

وهكذا شغلتها عني، ورحت مرة أخرى أحـوم ـ غير مقاطـع ـ حول سانتي وحول مجيئها المقبل، وأفقت مرة فلم أجد لورا بالشقة.

وأحسست براحة عظمى. . واسترخيت وسعدت بوحدتي مع نفسـي في الحجرة،وكأنها كانت مكتظة بازدحام هائل ونجحت في التخلص منه.

وفي الوقت المحدد تماماً، في صبا العصر تلقفت أذني الدقة الطويلة نوعاً، والأخرى التالية القصيرة التي تشبه النقطة في إشارات موريس.

ومع أني كنت متأكداً أنها ستجيء وواثـق من هذا ثقتـي أن العصـر سيعقب الظهر حتماً، إلا أنني فرحت للدقات وكأني كنت فاقد الأمل في مجيئها، وكأنها معجزة أن يعقب العصر الظهر.

وفتحت الباب وأنا في حالة غير عادية، ذائب في مزيج من الفرحـة والحساسية الزائدة لأدق انفعالاتها وخوالجها، كأن في عقلي ألف سؤال ينتظر الإجابة، وكلها أسئلة عما حدث بالأمس. . رأيها فيَّ وفي كل كلمة قلتها وكل تصرف قمت به، وكنت أعلم أني لن أستطيع أن أسألهـا عن شيء، وعليَّ أن ألتقط الإجابة من بسمة أو طريقة نطق كلمة، وربما من تسهيمة.

ودخلت سانتي وهي تحاول أن تكون عادية. . ازيك؟ كويس جداً. الكلمتان العربيتان اللتان كنا نتبادلهما دائماً، وهذه المرة زادت عليهمـا بالعربية أيضاً وهي تبتسم وعيونها تلمع: ايه أخبارك؟ فقلت بالفصحى: لم يجد جديد. وأردفت بالانجليزية: ماذا يمكن أن يكون قد حدث منذ الأمس؟ لـم يحدث شيء. .

وجلست وهي تنظر ناحيتي بهدوء متعمد، وفي كل مرة كانت تخرج علبة سجائرها كنت أشعر بلذة متجددة، فحين تعارفنا كانت تدخن سجائر أمريكية وحتى كانت لا تدخنها بكثرة. . ولكنها أخرجـت علبتهـا ـ نفس

البيضاء

ماركة سجائري ـ وكأنها تريني علامة من علامات تأثرها بي وانفعالها، ولم تكن السجائر هي العلامة الوحيدة. . من كثرة ما تكلمنا معاً وتناقشنا كنا قد تبادلنا بلا وعي كثيراً من خصائصنا، أردد بلا وعي أنا تعبير «ده موش كلام» (الذي كثيراً ما كانت تستعمله) أردد أول الأمر في تقليد ساخر للهجتها ولكني لا ألبث أن أستعمله في حديثي العادي ويصبح جزءاً من لغتي وهي أيضاً كثيراً ما ضبطتها تتعمد عوج ابتسامتها. لكي تشبه ابتسامتي ثم أصبح الاعوجاج جزءاً من ابتسامتها.

أخرجت سانتي هذه المرة علبة سجائرها وتناولت سيجارة وقدمت لي واحدة، وشددت في عزومتها حتى أخذتها. . ومن دخانها، والطريقة التي نفثت بها دخان سيجارتها، ودقات أصابعها على مسند الكرسي والابتسامة الصغيرة البارزة من فمها، أدركت أنها هي الأخرى جاءت وفي عقلها ألف سؤال، وحب استطلاعها لمعرفة ما يدور في نفسي يكاد يعادل حب استطلاعي لمعرفة ما يدور في نفسها.

وكان مفروضاً أن يسعدني هذا الاستنتاج وأكتفي به، وأجلس هادئاً مطمئناً وأترك الحديث يقود نفسه بلا خطة أو تعمد، فأروع النتائج تأتي أحياناً لمن لا ينتظرها. . ولكني لم أهدأ وأسعد إلا للحظة قصيرة جداً. . القلق الناري المدمر الذي كان يجتاحني كلما رأيتها أو حتى فكرت فيها ذلك القلق كيف كان باستطاعتي أن أهرب منه؟

قلت لنفسي: ها هي ذي قد جاءت بقدميها كما يقولون، لم تغضب ولم تستنكر، بل وأكثر من هذا جاءت متسائلة محبة للاستطلاع. اعتبر إذن أن ما حدث بالأمس كان تجربة فاشلة، وأبدأ معها الآن فوراً تجربة ناجحة.

وكان ممكناً أن ينتفض عقلي علي ويثور، ويتصور ما يحلو له من

أوهام وأوضاع، أما أن أنفذ هذا فشيء مستحيل تماماً. سانتي كانت أمامي، على بعد خطوة واحدة مني، أستطيع أن أشل مقاومتها كلها بأصبعين اثنتين من أصابعي وأنالها عنوة، ثم أنفض يدي منها كما أريد.. ولكنني لم أكن أستطيع، أبداً لم أكن أستطيع.. كنت متأكداً أنها لو غضبت حتى من فعلتي فستصفح عني بعد هذا وتغفر لي، بل من الممكن أن تذكرني بها بعدئذ وتضحك وأضحك معها. كنت متأكداً أن لا بروتوكولات في الحب، فإذا ما وجدت في مكان واحد مع شخص تحبه وتعتقد أنه يحبك، فأسلم تصرف هو أي تصرف طالما أن الحب دافعه..

كنت مؤمناً بهذا ومتأكداً منه، ولكن ما فائدة الإيمان به والقيود التي تغلني في مكاني وتربطني إلى مقعدي أقوى ألف مرة من كل الحقائق التي أؤمن بها وأعرفها؟.. ما فائدة إيماني وأنا كلما أدركت أن نوالها أمر سهل لا يكلفني إلا فك قيودي أحسست بالقيود تتضاعف وتضيق، وكلما وجدت سانتي قريبة مني راضية ومستعدة لأن ترضى أحسست بها تبعد عني وتبعد حتى لتصبح أبعد من أن أنالها ببصري أو حتى بخيالي.

ظلت سانتي تجذب أنفاساً من سيجارتها حتى تكونت لها بقية طويلة متماسكة من الدخان المحترق، وقمت من مكاني وقدمت لها الطفاية. وبينما هي تدق على السيجارة بأصبعها السبابة وعيناها تنظران إلى السيجارة من خلف جفون تكاد تكون مغلقة، عاودني مرة أخرى ذلك الخاطر. لقد جاءت يدفعها حب الاستطلاع لمعرفة أثر ما حدث بالأمس، والموقف بيننا قد سكن وهمد ولا بد من عمل أقوم أنا به لأبدد ذلك الجو. وأكثر ما كان يضايقني هو هذا الإحساس الملح بضرورة أن أقوم بعمل.. كلما وجدت معها في مكان يبدأ القلق ينهش صدري وأحس أنني أنا الذي يجب عليه أن يتحدث، وأنا الذي يجب عليه أن

البيضاء

يقطع الصمت إذا حل الصمت، وأنا الذي يبدد الوجوم إذا حل وجوم. . وعليّ في هذه المرة أيضاً أن أرد على حب استطلاعها، عليّ أن أفسر موقفي وأوضحه. إنها تنتظر مني وتتوقع . . فكيف أخيب أملها فيّ؟

وتلاقت نظراتنا لقاء سريعاً خاطفاً، وابتسمت هي ابتسامة سريعة هي الأخرى خاطفة، وما لبثت أن خفضت عينيها وركزتهما على السيجارة التي بين أصابعها، وفجأة عادت تنظر إلي وتبتسم. . حين التقت نظراتنا للمرة الثانية قالت وكأنما تذكرت شيئاً:

ـ أراك لم تكتب لي خطاباً آخر. .

وانتهزت الفرصة وقلت لها في مكر:

ـ ومن أين لك أن تعرفي؟ ربما أكون قد كتبت. .

قلتها على سبيل المزاح، ولكني تذكرت أني حقيقة قد سجلت خواطري عما دار بالأمس على شكل خطاب موجه مني إليها، وفعلت هذا وأنا لا أحس أني أسجل شيئاً أو أوجه لها خطاباً. . وكأنما فعلته في غيبة وعيي، ثم نسيته.

ويبدو أن تذكري لهذا الأمر جعل بريقاً ما يشع من ملامحي، فقد وجدتها تعود تقول:

ـ صحيح ألم تكتب خطاباً؟

وسرني شغفها هذا. . وقلت:

ـ لست أذكر تماماً. ولكن. . هيه. . دعينا نرى. .

وقمت إلى المكتب وبحثت طويلاً حتى عثرت على الأوراق مهوشة غير مرتبة. . وما كادت تراها وتدرك أن هناك حقيقة خطاباً حتى هبت واقفة وقالت بفرح طفولي: دعني أقرؤه. . دعني أقرؤه.

فرح لم أكن أشهده في عينيها حين تلقاني أو تتحدث إلي، فرح غريب وكأنه فرح للقاء حبيب وليس لقراءة خطاب. . ومع هذا أصررت علي أن أقرأه أنا لها، فقد كان مكتوباً بطريقة لا يمكن لأحد أن يحل ألغازها سواي.

ووافقت سانتي على مضض وكأنما حرمت من متعة خفية خاصة وجلست على الكرسي أمامي، وأشعلت سيجارة أخرى قدمتها لها حرصاً مني على أن يكون مزاجها وهي تستمع في حالة اعتدال تام.

ومضيت أقرأ. . ولم أكد أنتهي من الفقرة الأولى حتى كنت قد بدأت أصغي رغماً عني لصوت غريب محايد يصدر من نفسي، ويدلي بوجهة نظر في المشهد لم تخطر على بال. . فأنا شاب في الخامسة والعشرين من عمره، مطلع ومجرب وتحمل من المسئوليات ما يعجز عنه أحياناً رجال أكبر منه سناً وتجربة واطلاعاً. شاب يحب هذه المرأة الصغيرة المتزوجة والاثنان يجمعهما معترك ثوري واحد، وبينهما كل ما يستطيع الانسان أن يتصوره من حرج وارتباك، وقد جاءت بعد حادثة فشل ضخمة، ومعنى مجيئها أنها لا تخاف من أن تخوض التجربة مرة أخرى، لا تخافِ حتى لو نجحت ونالها ذلك الشاب. . ومع هذا فكل ما يستطيعه شاب كهذا هو أن يجلسها أمامه ويقرأ لها خطاباً كتبه في الليلة الماضية؟

كان من المحتمل أن تكون هذه أيضاً وجهة نظر أي مشاهد يدخل علينا فجأة ويرانا ونحن على هذا الوضع، وجهة النظر التي كنت كلما فكرت فيها أزداد ارتباكاً فوق ارتباكي. وكيف لا أرتبك وأنا أؤمن بأن ما أفعله شيء وأن ما يجب علي عمله شيء آخر.

وكيف لا أتعثر وأسخط على نفسي وأنا أرى أن الطريقة التي أتبعها هي

آخر طريقة تصلح أن يتبعها محب، ومع هذا فلا أستطيع سلوك غيرها أو الخروج عنها؟

ولكني بتوالي سطور الخطاب وصفحاته بدأ الصوت في داخلي يخفت، وبدأت أنسى ويقل ارتباكي وأحيا شيئاً فشيئاً فيما كتبته وما كنت أقرؤه. . كان الخطاب طويلاً أكثر من عشرين صفحة، ومكتوباً بخط محموم رديء، وكنت لا أملك نفسي في أجزاء منه فأكاد أقشعر. . أجزاء كانت تنفذ مباشرة إلى إحساسي حتى بغير أن أعي معانيها وعياً كاملاً. . أجزاء أحس أنها ليست كتابة ولا مجرد خواطر سجلتها، ولكنها قطع صغيرة حية استخرجتها بطريقة ما من أغوار جسدي، قطع حية تتشابك أمامي وتنبض وأحس فيها دفء الحياة، وأكاد أرى فيها صراخي وعذابي وتمزقي وقد تحول إلى أنين طويل حتى لا يموت. . كنت كمن يتفرج على نفس أخرى غير نفسه، نفس أخرى تحب بقوة وقسوة وظمأ وحشي وتحاول أن تجد قطرة حب تمتصها فلا تجد. فتئن وتعوي وتتلوى. كنت وكأني قد أصبحت شخصين. . شخصاً يعذب وشخصاً يتفرج ويستغرب، والأعجب من هذا أن كليهما يحب سانتي، وأني بكليهما أحاول أن أظفر بها.

ونص الخطاب غير مهم. . فوأنا أكتبه، وأنا أقرؤه، وأنا أرقب سانتي وهي تسمعني، لم يكن يدور في ذهني غير شيء واحد فقط هو أن أحاول أن أعرف إن كانت قد أحبتني هي الأخرى مثلما أحببتها أو لا. كان كل همي وهم خططي، وحتى الهدف الحقيقي من وراء محاولاتي أن أنالها لم يكن الهدف أن أجعلها تحبني ،ولكن أن أعرف إن كانت قد أحبتني فعلاً. لم يكن مهماً عندي حتى لو تأكدت أنها حتماً ستحبني غداً مثلاً كل همي كان أن أعرف إن كانت قد أحبتني في نفس الوقت الذي كنت أحبها فيه أم لا.

توقفت هنيهة عن القراءة، ثم بلعت الغصة التي تكونت في حلقي ومضيت أقرأ، ومن تلك اللحظة بدأت أقرأ بنصف انتباه، فنصف انتباهي الآخر كان مركزاً تركيزاً غير ملحوظ على ملامحها. فإذا كنت في المشهد السابق لم أجد لديها علامة واحدة من علامات إرادتها لي فقد بقي سؤال لماذا تواظب على مجيئها إذن، ولماذا جاءت في هذا اليوم بالذات؟ وكان هناك جوابان لهذا السؤال: إما أنها جاءت لتتفرج على إنسان يحبها وتحس بأنها مرتبطة به بشكل ما لأنه يحبها، وإما أنها جاءت بدافع من نفسها وعواطفها. مضيت أراقب ملامحها لأعرف إن كانت تتفرج أم هي تحيا المشهد ومنفعلة به وبكلمات الخطاب.

أما الانفعال فقد كان هناك حقيقة انفعال، أما سبب الانفعال فتلك هي المشكلة. ترى أهو انفعال متفرجة أو انفعال محبة؟ إن المتفرج أيضاً ينفعل وخاصة إذا كان يتفرج على من يحبه، بل أحياناً يتطلب الموقف من المتفرج أن يمثل دور الحبيب ليرضي هذا الذي يعذب نفسه في حبه.

وانتهيت من قراءة الخطاب ولم أكن قد انتهيت من تحديد نوع الانفعال.

ولم تعقب سانتي في الحال، مضت تعبث بأظافرها. وحتى في أثناء ذلك الصمت القصير كنت أحاول أن أخمن أية كلمات سوف تقولها.

ولكنها بعد قليل قالت وهي تائهة، وكأنما لا تزال تحيا في الجو الذي خلقته كلمات الخطاب:

- يحيى. . هل كنت تقول الحقيقة وأنت تكتب هذا الخطاب؟

ولم أجب على سؤالها. كنت أريد أن أعرف الدافع الذي حدا بها إلى هذا السؤال. ولما لم أستطع قلت:

البيضاء

ـ إن ما في هذا الخطاب لا يصور إلا جزءاً واحداً مما أشعر به. إني عاجز. أنا عاجز. أنا عاجز، وقلمي عاجز، وقدرتي على التجسيد عاجزة.

وسكتت وهي تنظر إلي، ثم قالت بضحكتها المعهودة وقد عاد البريق إلى عينيها وكأنما أفاقت:

ـ أعطني الخطاب.

وناولتها إياه ببساطة، فطبقته بعناية ووضعته في حقيبة يدها وهي تقول:

ـ لقد أصبح عندي مجموعة رائعة من خطاباتك.

قلت: تحتفظين بها؟

فقالت ببراءة:

ـ طبعاً. أنا أحتفظ بها كالكنز.

قلت وأهدافي ماكرة:

ـ وزوجك، ماذا يفعل لو رآها حين يحضر؟

قالت:

ـ اطمئن، إني أخبئها في الجزء الخاص بي من دولابنا. وافرض أنه عثر عليها، فماذا في هذا؟

ـ ماذا في هذا. كيف؟

ـ إنها ليست خطابات مني.. إنها خطابات إلي.

وارتبكت وأنا لا أعرف إن كان يجب علي أن أحزن أم أفرح أم أسخط لهذا الذي قالته.

وقلت لنفسي في النهاية: ها هي ذي تسمع خطاباتي وتحتفظ بها وتغفر لي تهجمي عليها ومحاولاتي معها، ألا يكفيك هذا؟

وفي الثانية التالية كنت ثائراً على نفسي فقلت لها فجأة:

ـ بصراحة أريد أن أسألك سؤالاً. أجيبيني عليه.. أرجوك.. أجيبيني بالحقيقة.

قالت وهي تبتسم وكأنها تعرف ما هو ذلك السؤال:

ـ اسأل..

ـ هل تحبينني يا سانتي؟

ولم يهمني البسمة التي أفلتت منها فقد كنت أنتظر إجابتها على نار. وبيني وبين نفسي لم أكن أنتظر منها الكثير، بل أن تقول أنها تحبني. كنت أسأل السؤال ولا أريد أن أعرف سوى كيف تجيبني عليه.

قالت وهي تسدل جفنيها على عينيها:

ـ ولكنك تعرف إجابتي.

قلت:

ـ ولكن افرضي أني غير مقتنع بإجاباتك السابقة. أريد جواباً محدداً وصريحاً.

قالت وهي تضحك:

ـ إذن أنت أعز أصدقائي.

ولم أشأ أن أقول: إني أسأل عن الحب لا عن الصداقة.

سكت محرجاً، ولكني أدركت أني قد بلغت في حرجي إلى آخر حد فلماذا لا أسألها عن كل ما يدور بخلدي. قلت:

ـ ولماذا تأتين إذن يا سانتي؟ ولماذا جئت اليوم؟

وهنا قامت قومة المفزوع، وقالت:

ـ يحيى.. يحيى.. هل أنت تفسر مجيئي هذا التفسير؟

البيض

وطبعاً أجبت بكل حروف النفي التي أعرفها وقد رأيت انزعاجها لسؤالي، وقلت على سبيل الكلام، مجرد الكلام:
ـ أنا فقط كنت أسأل. . مجرد سؤال.

ومن جديد عاد الصمت المشبع يخيم على جلستنا، صمت كنت أخافه وأخشاه وأكافحه بكل ما أستطيع من قوة، فقد كنت أخاف أن ينهي جلستنا فتقوم، وأخاف أن أقول كلمة لأقطعه فتجرحها الكلمة ويتعكر الجو، وأخاف أن سكت أن تغير هي موضوع الحديث. أخاف أن أتكلم وأخاف أن أسكت وأخاف إن تكلمت هي وأخاف إن سكتت.

ولكن صمتنا هذا سرعان ما قطعه دق الباب.

وتضايقت، وقمت لأفتح وأنا أحاول أن أخمن من يكون الطارق في مثل تلك الساعة، خاصة وبيتي الجديد لم يكن قد عرفه نفر كثير من أصدقائي ومعارفي.

قمت لأفتح فإذا بها لورا، وما كدت أجذب ضلفة الباب حتى دخلت وكأنها تهوي إلى بئر، شاحبة اللون مغمضة العينين وكأن الأشباح كانت تطاردها.

ولم تترك لي وقتاً أو فرصة لإيقافها أو الاعتذار إليها أو الحيلولة بينها وبين الدخول، فقد كان من غير اللائق أبداً أن تجد سانتي عندي في مثل تلك الساعة، ولم أكن أريد أيضاً أن أقطع حديثي مع سانتي.

وهي على الباب بدأت تتحدث وتقول بصوت لاهث متقطع لا ينقطع:

ـ حدثت مصيبة. تصورا! والداي لم يبيتا لدى عمتي في مصر الجديدة. لم يجداها. وعادا إلى المنزل ليلة الأمس وطبعاً لم يجداني

ولما لم أعد أبلغا البوليس. يا لغباوتهما! أبلغا البوليس. وحين عدت في الصباح يا لهول ما حدث.. بي بي بي بي..

كانت تتكلم وهي تواجهني وتتشنج بيديها وكتفيها علامة المصيبة الكبرى. ولكنها بلفتة واحدة كانت قد رأت سانتي في حجرة المكتب فتصنعت «أو دهشت حقيقة» هذه الدهشة العظمى وقالت بترحيب مبالغ فيه:

ـ أووه.. هالو..

وطبعاً حدث السلام المليء بالحرج والارتباك، وتلاقت العيون بنظرات صريحة ونظرات لا تمت إلى الصراحة أو البراءة بصلة.

وما لبثت الحجرة أن احتوتنا نحن الثلاثة، سانتي التي أحبها، ولورا التي تحبني. سانتي التي أريدها ولورا التي تريدني. سانتي التي لا أعرف ماذا يدور في عقلها، ولورا التي كان يلفحني لهيب الغيرة البدائية الذي تشعه نظراتها. أنا أراقب كل همسة من حركات سانتي وأقوالها، ولورا تراقب كل همسة من حركاتي أو حركات سانتي، وأنا الحائر المتسائل بحق عمره وحياته لأعرف ما هو رأي سانتي في هذا كله.

بل لكي أعرفه تعمدت أن أنكش لورا. والواقع لا أستطيع أن أحدد أنني كنت السبب أم أن لورا تعمدت أن تثبت ملكيتها لي أمام سانتي وبالمرة تغيظها حين جرى الحديث إلى قصة والديها ومصر الجديدة ولمحت لورا بما يفهم منه أنها قضت ليلة الأمس، وليلة الأمس بالذات عندي، وأنها لهذا وقعت في ورطة وتطلب مني إنقاذها.

وبمثل ما يغفر الحب إساءة للحبيب، بمثل ما نكره أي شيء من اللا حبيب. وقد كرهت لورا وورطتها ووالديها والساعة التي عرفتها فيها

ودللتها على بيتي، خاصة وكل ما حدث لسانتي حين أدركت الورطة وما تعنيه أنها هزت رأسها في جمود وتخابث، وهمهمت همهمات لم أعرف إن كانت همهمات غيرة أم همهمات اشمئزاز.

ولم أنقذ لورا ولا حتى أبديت أي استعداد لإنقاذها، ولم أتبين أية غيرة جدية في عيني سانتي. وحرصت لورا على أن تنتحل المعاذير لتبقى وجاء وقت انصرافهما، وقامت لورا فلحقتها سانتي ومضيا معاً. وأغلقت الباب وعدت إلى الحجرة.

عدت وأنا أقول لنفسي: لماذا لا تترك هذا كله وتثوب إلى رشدك؟ لماذا لا تضرب عرض الحائطبسانتي ولورا والمجلة وكل هذا العمل الذي لا طائل من ورائه؟ لماذا لا تقوم بأي عمل آخر ترضى عنه أنت وتحس أنه أكثر جدية وفاعلية؟ لماذا تغرق نفسك إلى أذنك في تلك الدوامة التي تختنق فيها بإرادتك بكل إرادتك. لماذا؟

١٦

والاجابة على ثورتي لم تأتني لحظتها. كانت الاجابة تأتي أحياناً في شكل خوف شديد من الفشل، وكأني غامرت بكل حياتي على علاقتي بسانتي، وكأنها إن لم تحبني أو إن لم تكن تحبني فمعنى هذا أن لا فائدة مني ومن رجولتي بل من وجودي نفسه، وكنت شديد الثقة بنفسي أؤمن إيماناً كاملاً بأن لا بد لي أن أنجح مثلما لا بد لي أن أعيش أو أتنفس. إذا لم تكن الحياة نجاحاً فلا كانت الحياة. حتى وأنا أخوض أية تجربة فاشلة لا بد أن أنجح فيها، وإذا لم يكن بد من الفشل فليكن الفشل بارادتي أنا. أما أن أفشل رغماً عني، أما أن تهزمني الحياة أو تهزمني سانتي فما فائدة حياتي وأنا مهزوم؟ شاب قوي ممتلىء بالثقة في العالم وفي نفسه يكتسح الدنيا بناظريه ويقول، الحياة هي النجاح والفشل هو الموت. سني خمسة وعشرون عاماً ومعركتي الجدية مع العالم لم تكد تبدأ، بالكاد بدأت أحس أني أخوضها حين عرفت سانتي. وحبي لها لم يكن في الواقع حباً خالصاً لها، كان أيضاً وقبل كل شيء حباً لحياتي أنا نفسها وتعلقاً بحياتي أنا نفسها، وإصراراً على أن أحيا وأن أنجح.

حتى وأنا أعلم أن الاصرار والعناد قد يصلحان في أي شيء إلا في الحب، كنت مصراً أيضاً على نجاحي في هذا الميدان الذي لا يصلح له

الاصرار، مصراً على نجاحي وكأن النجاح عمري، فالموت عندي كان أهون من الفشل. . أعظم فشل يصيبني كان في نظري فشلي مع سانتي.

ولم يمض سوى يومين، وجاء الصباح وظهرت الأهرام والمصري والأخبار والأثنين ولم تظهر مجلتنا. . لأول مرة منذ شهور كان يحدث هذا، وأنا ذاهب في الصباح إلى الورش كنت أتطلع وأسأل فلا أجدها معلقة فوق الأكشاك، ويهز الباعة رءوسهم نفياً وأسفاً. . وبالكاد مكثت في المكتب ساعة، وحوالي العاشرة كنت في بيت شوقي أتعاون أنا وزوجته على إعادة الحياة إلى جسده النائم، فلم يكن نومه نوماً، كان وفاة مؤكدة تحدث له بين الثالثة والرابعة من صباح كل يوم ولا تعود إليه الروح إلا هناك قرب الظهر أو أحياناً بعده. . وأكثر من ساعة لا بد أن يمضيها في مواء ورفس وتحديق أجوف في السقف والوجوه التي حوله قبل أن يعود الوعي إلى رأسه، وكان أول سؤال وجهته له عن المجلة. . وأجابني بمواء وإشاحة،وكأني أطلب منه أن يعيد على مسامعي قصة«أبو»زيد وقد رواها ألف مرة. . ولم أهدأ إلا حين عرفت منه بالضبطما حدث. . ولم يكن قد حدث شيء كثير،كانت موارد المجلة قد نضبت والخوف قد تولى إنقاص عدد القراء إلى درجة لم يكن مستغرباً أن تتوقف معها عن الصدور يوماً ما. . وجاء ذلك الأحد ومنعهم صاحب المطبعة من دخولها وانتشروا في القاهرة كلها ليجمعوا الثمن ولكنهم عادوا بوفاض خال. . ومتى حدث هذا كله؟ . . في الوقت الذي كنت جالساً فيه بين سانتي ولورا.

وقلت لشوقي:

ـ وبعد؟

قال وقد بدأ يستيقظ ويفرك عينيه ويتثاءب:

ـ تفرج. .

ـ أمتى؟

ـ الأسبوع الجاي لازم تفرج . .

وضحكت في تهكم، وسألني عما يضحكني . . فقلت أن الفلاحين في بلدنا المؤمنين بالله والمتوكلين عليه توكلاً تاماً يدبرون مستقبلهم بنفس هذه الكلمة: تفرج . . فما فائدة أن نكون ثواراً إذن وعلماء ثورة؟

وكانت راقية زوجته قد أحضرت لنا الشاي في كوبين . . كل كوب منهما شكل . . وجلست تستمع لحديثنا برهة وتحاول المشاركة فيه ولو بهز الرأس .

ولكن يبدو أنها وجدته يدور في نفس الدائرة فقامت إلى المطبخ .

وفتح شوقي فمه فتحة واسعة حتى خفت أن يتمزق صدغه وتثاءب في صوت كصوت صفارات البواخر وقال :

ـ فتحي اتمسك .

وتثاءب مرة أخرى .

وأعدت عليه السؤال فعاد يؤكد لي أن فتحي سالم قبض عليه من يومين . ولأمر ما لم أستطع أن أتخيل فتحي سالم مقبوضاً عليه، كاتب القصة المرهف، وعينيه الخضراوين الواسعتين وطريقته في نطق المصطلحات الطبية حين يناقشني ويريد أن يشعرني بالرابطة الخاصة التي تربطني به، إذ كان مثلي يكتب ويعمل في المجلة، وكان طبيباً هو الآخر وإن كنت قد تخرجت قبله بعامين . . لم أستطع أبداً أن أصدق أو أتصور أنه اعتقل أو قبض وفكاهاته كثيرة ناعمة تكاد تذوب قبل أن تلتقطها الآذان . . وها هم قد أمسكوه . . وكان السؤال هو: لماذا فتحي سالم بالذات . . وهناك من هم أخطر منه وأكثر فائدة؟

وقال شوقي وهو يكاد يتركني ويعود للنوم:

ـ إنت عايزهم يفكروا زيك؟ مفيش منطق عندهم.. كله زي بعضه.. إحنا متصورينهم أذكى مما هم بكثير.

ولم أوافقه أبداً على كلامه.. فهم فعلاً أذكياء، وأقوياء وبعضهم يحس أنه بما يفعله إنما يهب نفسه لأشرف عمل. ولكننا في معركة دامية معهم.. والمعركة دائرة في خندق سفلي لا يحس به أحد من السائرين في الشارع، أو راكبي الترام أو من يملئون المتنزهات والقهاوي والسينمات.. مجموعة صغيرة من الناس تحيا في حماس ملتهب.. اجتماعات وقرارات وأوراق صغيرة شفافة ورونيوهات ومواعيد محكمة بدقة ولها مواعيد احتياطية وأسماء غير حقيقية وأحقاد وخلافات وتناحر واتهامات وبطولات.. مجموعة لا تراها العين العادية، ولا تلقاها ولكنك تسمع بها وترن أسماؤها في أذنك رنيناً غريباً. مجموعة لا تراها إلا عيون مجموعة أخرى، وظيفتها أن ترى الشرارة قبل أن تصبح ناراً وتخمد النار لو اشتعلت النار، خندق سفلي، والناس تغدو فوقه وتروح والمعركة لا حس لها ولا صوت. خطى تترسم خطى، وإشاعات تضلل إشاعات، وذكاء يقدح ذكاء، وخيانات للجانبين ومن الجانبين. عالم سفلي يموج بأصوات عالية غير مسموعة وحركة دائبة غير ملحوظة وبراكين غير مرئية تتفجر وتهدد ويعود غيرها يتفجر، وبين الحين والحين يختفي واحد ويجيء الخبر ثاني يوم: «اتمسك».. أو يجيء الخبر ثالث يوم: «أفلت وساب».

وعقب كل خبر كهذا تتبلبل الخواطر وترتفع الأسماء وتهوي كالأسعار حتى ليلتبس الأمر على الرائي في الظلام، وهو لا يلحظ فارقاً كبيراً بين الخائن والشريف وبين الانتهازي وصاحب المبدأ، ويعشش الشك حتى

ليشك الواحد أحياناً في نفسه فالظلام يضاعف الشك. . والشك يقطر في العيون ظلاماً. وكنت أعتقد أن التصرفات المهتزة التي تصادفني سببها مجرد شك أكثر من اللازم في الناس، الشك الذي يورث الرعب، ولم أكن قد آمنت بعد أن الشك المركب إذا طال بقاؤه في النفس يأكلها ويهرؤها كماء النار، وان نفوسنا كأكبادنا ممكن أن تصاب بالتضخم والتليف وتفقد احساسها الانساني وطيبتها ونكهتها، وتمرض وتموت ويظل صاحبها يحيا بلا نفس، وما أبشع أن يحيا الانسان بلا نفس عملها الأساسي أن تتذوق طعم الحياة، وتحبب صاحبها في كل ما هو حي وتحبب كل الأحياء فيه.

ونفس هذا الظلام كان يحدث أثراً مختلفاً تماماً عند بعض آخر. . كنت تلقاهم قبل أن يطئوا بأقدامهم أعتاب ذلك العالم شباناً مستهترين أو تافهين ومنطوين كل ما يشغلهم حفلة سينما، أو بنت حلوة، أو أحلام يقظة، وإذا بهم لا تكاد تمضي شهور حتى يحيلهم ذلك العالم الخافت الضوء البارق بشهب الاتهامات إلى رجال أقوياء، تنبت لهم شجاعة لا أعرف من أين، ويصبح لهم حكمة غريبة على سنواتهم الغضة، وتحس أنهم إذا قالوا فعلوا ولا يقولون إلا ما يفعلون، وتحس بفخر أنكم من شعب واحد، وأن جهودكم كلها ذاهبة إلى هذا الشعب.

وبنفس هذه الروح كنت أنظر إلى شوقي وقد ارتدى ملابسه وفي نيته أن يخرج معي لنبدأ جولة إصدار العدد القادم من المجلة.

كان من الواجب ألا يغادر البيت، أو يغادره متخفياً إلى مكان آمن فمعنى القبض على فتحي سالم أنه هو الآخر مقبوض عليه لا محالة، فماذا يكون فتحي كاتب القصة بجوار شوقي رئيس التحرير المسئول؟. . ولكنه

سخر من مخاوفي وقال أن الطريقة الوحيدة لكي لا أعتقل أن تزول الظروف التي يعتقل الناس فيها، ولكي تزول الظروف لا بد أن نصدر المجلة، ولكي نصدر المجلة لا بد أن نعمل، والعمل هو الطريقة الوحيدة للمحافظة على سلامته. فلكي يحافظ على سلامته لا بد أن يخرج.

ثم التفت إلي وابتسم وكأنه يصالحني وقال:

ـ على العموم أنت عندك حق في حاجة واحدة.. أني لازم أعزل م البيت ده النهاردة

وجاءت زوجته وكأنما كهربتها الكلمة، هي التي يعذبها التعزيل. ونشبت خناقة.. ولم تدم طويلاً.. فضضتها بأخذ شوقي والخروج به.

وحين أصبحنا في الشارع، وأصبح القبض على فتحي سالم مجرد خبر يأخذ طريقه ليسكن في هدوء الذاكرة، وشوقي بجواري كالعملاق ومحفظته البنية الغامقة تحت ابطه، دفعت سانتي أثقال ما كنت أفكر فيه وأستعيده وخطرت لي.. وساءلت نفسي إن كنت أحبها حقيقة وأنا أحيا في هذا الجو الملبد المشحون الذي يصبح الحب فيه شيئاً مخلاً يعاب ويستنكر. ساءلت نفسي ولم أحتج للاجابة، كنت كمن يضيق أحياناً ويرفع بصره ويتساءل: أين السماء؟ والسماء كبيرة ضخمة هائلة ممتدة من أفق لا بداية له ولا نهاية إلى أفق لا نهاية له ولا بداية.

نعم كنت وأنا ماش بجوار شوقي أحبها، وأنا أحيا تحت الأرض أراها.. وفوق الأرض أراها.. وأراها وأنا أريد أن أراها، وأراها وأنا لا أريد أن أراها.. هي شوقي ومحفظته والمكان الذي كنا ذاهبين إليه والمجلة وفتحي سالم وخوفي وشجاعتي، ولولا أني مدرك ومؤمن أنني سأراها اليوم ما كنت قد صحوت من النوم أو ذهبت للورش أو ضحكت أو

حزنت أو احتملت وجودي على ظهر الدنيا لحظة واحدة، ولجزء على ألف من الثانية.

أحاول أن أتخيل العالم بغيرها، أو أتصور نفسي حياً من غير أن أراها، فأحس كالواقف فوق ناطحة سحاب حين يلقي بنظره مرة واحدة إلى الأرض،فيحس وكأنما هي التي تخلو به وتسقط من أعلى في سرعة مذهلة لتستقر على بعد سحيق، وليصبح بينه وبينها هوة تورث الغثيان والدوار. ودوار وغثيان هما ما يحدث لي كلما حاولت أن أتصورني بغيرها أو أتصور العالم بغير أن تكون فيه وأن ألقاها، بل لا أستطيع التصور أكثر من ذلك الجزء، وكما يرتد البصر عن الأرض السحيقة أرتد أنا عن التصور، لتعود الروح تسري في، ويعود إلى العالم الجمال الذي يحببني فيه.

وأظل في تلك الدوامة، أرى شوقي بحافظته أو يكلمني فأتذكر عملي الثوري، فإذا ما تذكرت قصوري فيه، والقصور يذكرني بسانتي، وتأنيب الضمير الذي يصاحب تصورها يذكرني بتقصيري، وتقصيري يذكرني بها.

ظللت إلى أن وصلنا إلى المجلة، وهناك وجدنا مفاجأة في انتظارنا لم نكن قد أعددنا لها أنفسنا.

كان الباب مغلقاً ومشمعاً ومختوماً، وما كدنا نقف هنيهة حتى جاء عسكري معين على ما يبدو لحراسة الباب، وحين وجدنا نحوم حوله جاء مصوباً إلينا نظراته الشاكة الحادة، وبسؤال أو سؤالين كنا قد استطعنا تضليله إلى حد ما وهبطنا في السلالم على عجل. وحبن رآنا عم حسن بائع السجائر نتستر بالمارة لنغادر الحي كله بسلام خرج من دكانه ونادى

علينا، وكدنا نتجاهل النداء لاعتقادنا أنه يريد «الحساب»، ولكنه انزوى في ركن معنا يفهمنا أن البوليس جاء في منتصف ليلة الأمس وفتش المجلة، وهبط ومعه دوسيهات وأوراق كثيرة وترك عسكرياً ومخبرين.. الجدع اللي واقف هناك دهه مدخل ايده في فتحة الجلابية واحد منهم والثاني راح باينه يتغدى.

وفقط حين ابتعدنا كثيراً حتى أصبحنا قريباً من ميدان الاسعاف بدأت أشعر بحقيقة ما حدث.. والتفت لشوقي وكانت في وجهه نظرة جادة عميقة قليلاً ما كنت أراها.. وقلت له:

ـ انت عارف الرد يكون ايه؟

وكل ما فعله أن ألقى عليّ نظرة جانبية، قلت:

ـ إن المجلة تطلع بكرة.

وأنا نفسي عجبت لكلامي، فليلة الأمس بالذات كانت أقصى أماني أن أترك سانتي والمجلة وهذا العمل الذي لم أعد أؤمن إيماناً عميقاً بجديته، فكيف يعاودني الايمان بهذه السرعة وبتلك الدفقة المفاجئة من الحماس؟

قال شوقي:

ـ تفتكر نقدر؟

قلت:

ـ مش أفتكر.. د لازم تطلع بكره.. ونقول فيها برضه اننا نأسف لأن المجلة لم تصدر بالأمس لأسباب «فنية».

ولاحت بسمة خفيفة سريعة في حدقتي شوقي وهو يقول:

ـ ونخللي المانشيت: أيها الشعب تحرك.

وحسبته يهزل ولكنه كان جاداً، وبدأنا نضع الخطة والبحث عن الزملاء المحررين وتجميعهم، والبحث عن مطبعة جديدة غير مطروقة وإكمال كتابة المواد أثناء جمع المواد الموجودة ثم الطبع.

وأعجب ما حدث لنا يومها أننا حين ذهبنا إلى مطبعة الدار الصحفية التي كنا نطبع فيها وعرف صاحب الدار بوجودنا، فجأة رأيناه يقبل ناحيتنا. كان علينا بعض الديون ولكن الابتسامة الغريبة التي كان قادماً بها لم تكن ابتسامة مطالب بدين. سلم علينا وما لبث أن وصع احدى يديه على كتفي والأخرى على كتف شوقي وقال:

ـ ما جيتوش تطبعوا امبارح ليه؟

اكتفينا بأن نظرنا له كمن نقول:

ـ أنت أدرى بالسبب.

وأدار فينا بصره والسيجارة في فمه لا ينزعها يخرج دخانها من نارها ومن فمه، وكان ضخماً طويلاً كالعمالقة لا تستطيع أبداً أن تقسم مهما قال أنه في صفك. أدار فينا بصره ثم قال:

ـ أنا عارف كل حاجة، وأنا تحت أمركم.

قلنا:

ـ تحت أمرنا إزاي؟

قال:

ـ أنا والمطبعة وجرائد الدار ومجلاتها تحت أمركم، وابقوا هاتوا تمن العدد في الوقت اللي يريحكم.

وكدنا نضرب كفاً بكف دهشة وذهولاً. فلم نكن نتوقع أبداً تصرفاً كهذا من أحد عمد «الرجعية» كما كنا نسميه. وخفنا أن يكون الموضوع كلفة فخاً منصوباً، وتريثنا وترددنا وتحججنا، ولكن تبين لنا أن لا فخ هناك

البيضاء

ولا مصيدة وأنه حقيقة يعني ما يقول، بل أكثر من هذا وقف بنفسه أكثر من ساعة واضعاً السيجارة مطفأة ومشتعلة في فمه يراقب عملية الجمع والتوضيب، وقد أصدر أمره باخلاء حجرة المصححين لنا لنكمل العدد كتابة.

وجلست أنا وشوقي وعطوة الذي كان قد جاء أصفر الوجه يرتعش بالانفعال. جلسنا نناقش أولاً هذا الموقف الغريب لصاحب الدار.

وقال شوقي:

ـ وماله؟ احنا بيحصل تناقض بين الرجعية والحكومة. ممكن يحصل.. ولازم نستفيد منه.

وكنت أسمع كلامه وأنظر من خلال الزجاج الذي يكون جزءاً من جدار الحجرة إلى صاحب الدار ووقفته المهيبة في وسط المطبعة والحركة الدائبة السريعة لاتمام جمع العدد وتوضيبه وطبعه وأكاد لا أصدق ما يحدث، ولا أصدق أيضاً ما يقوله شوقي ويفسر به ما يحدث. هذا الرجل الواقف كان يمثل الدعامة الأولى للحكومة التي كانت قائمة في ذلك الوقت، ومع ذلك فهو نفسه يضع كل إمكانياته تحت تصرفنا لنهاجم تلك الحكومة، ويحدث هذا منه فجأة وفي وقت أغلقت فيه مجلتنا وكاد نشاطنا يتوقف.

ومع هذا، وصدقنا أم لم نصدق، فقد كان علينا أن نعمل. فمجرد تصورنا أن المجلة في الغد سوف تغمر السوق وينادي عليها الباعة كما كانوا ينادون، مجرد تصورنا هذا كان يلهبنا فننكب على العمل كالمجانين غير مبالين ماذا يمكن أن يحدث غداً أو حتى بعد ساعة.

وأفتح عيني أحياناً فألمح وجه سانتي، وألمحه مشرقاً ومبتسماً وراضياً

عما أقوم به فيلتهب حماسي أكثر، وأحس أني مستعد أن أموت أنهاكاً وعملاً وتعباً لأرى وجهها مشرقاً ومبتسماً، ولأراني راضياً عن نفسي غير خجل ـ لأول مرة منذ عرفتها ـ من علاقتي بها.

وفتحت عيني مرة فلمحت وجهها أيضاً، ولكنني لمحته من خلف الزجاج، وحسبتني قد بدأت أخرف ولكنها حقيقة كانت هي. ظللت أتابع وجهها وعينيها وهي تستعرض الموجودين بالحجرة حتى رأت شوقي وحينئذ استدارت ودخلت واتجهت إليه فوراً، وأخرجت من حقيبة يدها ظرف جواب خاصاً بالبريد الجوي وأعطته له، وتبادلت معه حديثاً خافتاً قصيراً ثم استدارت لتنصرف، وفقط وهي تستدير لمحتني، وبأسرع ابتسامة حيتني ومضت كسندريللا، كما جاءت.

ولكن اضطرابي ودق قلبي والرجفة التي أصابتني واهتز لها كل ما كنت أفكر فيه لم تكف إلا بعد مضيها بكثير. وعبثاً حاولت التغلب على انفعالي والتوهان المفاجىء الذي اعتراني لأنجز ما في يدي والوقت أمامنا ضيق ومشحون. بأية قوى سحرية تؤثر عليّ هذه المرأة الصغيرة وتحدث فيّ هذا كله؟ بأية قوى غيبية تفرز في دمي كل تلك الكمية من «الأدرينالين» الذي يجعل قلبي يدق هكذا وينبت العرق من جبهتي وتتهدج له أنفاسي؟ ولماذا هي وحدها دوناً عن العالم كله؟

وحتى حين عدت للعمل بعد هذا لم أكن قد رجعت إلى حالتي قبل مجيئها، وكل مرة كنت أرى فيها سانتي كنت لا أعود أبداً إلى حالتي قبل رؤيتها، وكان كل مرة كنت أراها فيه كانت تحدث فيّ تغييرات ما، وتترك بصمات ما، وتظل موجودة وباهتة ولكنها موجودة لا تزول ولا تمحى وتظل موجودة إلى أن أراها مرة أخرى فيتراكم فوق التغييرات تغييرات.

البيضاء

ولم أشأ أن أسأل شوقي عن سبب مجيء سانتي وماذا قالته وقدمته مع أني كنت أتحرق شوقاً لمعرفة كل كلمة قالتها وحتى الطريقة التي قالتها بها. وأعفاني شوقي من مهمة السؤال حين جاء إلى المكتب الذي أعمل عليه ليناقشني في اختيار عنوان. ولمحت ظرف البريد الجوي بارزاً قليلاً من جيبه ومفتوحاً. . ومن خلال الفتحة المتناهية الضيق لمحت الحافة الجانبية لبضعة جنيهات. وضبطني شوقي وأنا أحدق فقال وهو يبتسم:

ـ نجدة جاءت آخر لحظة.

ـ من مين؟

قلتها رغماً عني، وتوقعت أن يزوغ شوقي من الجواب ولكنه قال:

ـ من اسكندرية.

ـ من مصريين؟

ـ لا من خواجات.

مرحى لخواجات اسكندرية الذين يبلغ حماسهم لقضيتنا هذه الدرجة.

ـ بس مش خطر انها تيجي هنا؟

ـ توصيل الفلوس أهم من الخطر. . بنت كويسة.

وهززت رأسي أوافقه وأتأمل وجهه لعلي ألمح شيئاً آخر.

ولم تلبث حمى العمل أن قطعت الحديث واجتاحتنا.

وفي الرابعة صباحاً ونحن في باب الحديد نطمئن على شحن الأعداد المخصصة للأقاليم، كنا ننتهز فرصة الظلام البارد والأنوار القليلة ونختلي جماعة صغيرة في ركن ونفرد المجلة بين أيدينا ونتأمل أقوى وأعنف عدد

أصدرناه، وفي أحلك ظروف، وأيضاً لا نكاد نصدق أننا فعلنا هذا، وأن الفكرة التي عنت لي ونحن سائرون في الشارع بعد ظهر الأمس قد أصبحت حقيقة، وأن العدد فعلاً يتوجه مانشيت مكتوب بخط أحمر وبحروف ضخمة غليظة يبعث مرآها في أجسادنا قشعريرة انفعال ورهبة وحماس: أيها الشعب تحرك!



١٧

وعدت مرة أخرى إلى المواعيد والاتصالات والاجتماعات، لا يهمني كثيراً نهاية الطريق الذي أسير فيه بقدر ما يهمني أنني عدت أسير، ومع نفس الناس، أتغاضى عن العيوب ولا أفكر في الفرق بين الحق واللا حق فيما نفعله، وأحس أحياناً أني أغالط نفسي وعودتي للعمل تقدم لي في كل ساعة شواهد جديدة على أني كنت في تساؤلي وشكوكي على حق. وأتجاهل إحساسي هذا، كالمدخن الذي يعرف أكثر من غيره أضرار التدخين ولا يملك إلا أن يستمر يدخن، وكأن فترة ضيقي بالعمل واستنكاري لهذا الطريق «الخوجاتي» في التفكير وفي الثورة كان مجرد امتناع مؤقت عن التدخين عدت بعدها إليه، إلى نفس ما ضقت به.. نهماً.. خرماناً، أريد أن أعوض كل ما فات.

وحقيقة صغيرة أخرى كان لها دور في عودتي.. فان أمتنع أنا عن التدخين شيء، أما أن تمنعني أنت بالقوة الغاشمة عنه فمسألة أخرى. واغلاق المجلة والقبض على فتحي سالم واستمرار عمليات القبض والاعتقال. هذا المنع بالقوة والارغام فيه امتهان لقدرتنا على الارادة والاختيار، وأي امتهان للتفكير والارادة لا يمكن إلا أن يقابل بالتحدي وبفرض للارادة. إنك لا يمكن أن تحرم النملة أصغر الكائنات من

ارادتها، كما لا يمكنك أن تمنعها من روح الحياة التي تدفعها للحركة والتناسل والبحث عن الطعام. فكيف باستطاعتك أن تمنع الانسان أعظم الكائنات وأقواها من روح حياته.. من إرادته.. انك مهما فعلت وخيل إليك أنك انتصرت فأقصى ما يمكن أن تكون قد فعلته هو أن تكون قد أجبرت الكائن الحي الانسان على أن يسلك طريقاً قد لا يحب هو سلوكه، ولكنه يفعل هذا فقط ليثبت إرادته ووجوده، لكي لا يحس أن إرادة أخرى قد سيطرت عليه فالموت عنده أهون من إحساس كهذا.

إلى أن فوجئت في يوم بأعجب خبر! ولا أذكر من قاله لي، هل هو شوقي؟ هل عو عطوة؟ هل سمعته همسات تتردد على ألسنة بعض الصحفيين؟

كان البارودي قد أفرج عنه.

أية مفاجأة مذهلة؟

مفاجأة دفعتني لأن أصغي رغماً عني إلى الهمسات التي راحت تدور على ألسنة بعض الأفراد في ذلك العالم الخافت الأضواء.. ولم تكن هذه أول همسات أسمعها عن البارودي، فمنذ عرفته واسمه يقرن على الدوام بقائمة طويلة من الألقاب والتهم. الانتهازي، عميل الرجعية، الخائن، الذي يعمل لحساب أقلام المخابرات الاستعمارية.. الخ.. الخ..

وكانت اتهامات كهذه تتساقط كأوراق المهملات قبل أن تصل إلى أذني، إذ كنت أعزو معظمها إلى حقد شخصي على البارودي باعتباره أذكى العاملين تحت الأرض وأكثرهم قدرة على استعمال عقله ووعيه، بل كنت آخذها على أنها نوع من التقدير المعكوس، ولكن بعد ذلك الصراع غير المنظور الذي دار بيني وبينه حول رئاسة التحرير، وإصراره بطريقة

البيضاء

غير معقولة على أن يظل هو الرئيس، وبعد ردنا عليه بدأ تقديري له يقل فإن نضبط العبقري في موقف لا يقفه إلا الأغبياء أو غير المخلصين مسألة لا تدفعك للاعتقاد بأنه «أخطأ» كما يخطىء غيره من الناس، ولكنها تفسر على أنه يفعل هذا عن عمد، وأن وراء «خطئه» الظاهر هدفاً ذكياً خبيثاً. وهكذا لم تتساقط الهمسات التي رحت أسمعها تعليقاً على خبر إطلاق سراحه في ذلك الوقت بالذات تساقط الأوراق المهملة، بدأت أصغي لها وأفكر فيها. همسات منها أن البارودي خرج من السجن لأن وزير الداخلية في ذلك الوقت ساومه، ومنها أنه أخرج ليكون أداة في يد الوزارة تستعملها للقضاء على التيار الثوري الجديد الذي أصبح يسيطر على المجلة بعده، وعشرات غيرها من الاحتمالات والتأويلات، وكنت أستمع إليها غير مستغرب، فلدى اعتقال أي فرد من أفراد ذلك العالم أو الافراج عنه دائماً ما كانت تصاحب أياً من العمليتين إشاعات وأقاويل واتهامات يثبت في معظم الأحيان بطلانها، وفي أحيان قليلة جداً تثبت صحتها ولكن أحداً لا يسلم منها.

وحين كنت في المطبعة أصحح العمود الأسبوعي، ودق التليفون وقالوا لي أن شوقي يطلبني، كان الخبر لا يزال طازجاً وما زلت أقلبه على وجوهه. وأهم من هذا أني كنت في شوق شديد للقاء البارودي مهما تكن الحالة التي خرج عليها. كان خبر الافراج قد دفعني دفعاً لمراجعة تلك الفترات الباهرة من حياتي التي عملت معه فيها، وعلاقتنا الطويلة الغريبة التي بدأت ذات مساء في منزل شوقي، والأيام التي كنت أحمل عنه فيها كل ما معه من أوراق سرية خطيرة وأمشي بجواره أو بعيداً عنه، حتى إذا دهمه البوليس في الطريق لم يجد معه شيئاً، وأفعل هذا غير مكترث أبداً لخطورة ما أفعله. كنت مستعداً أيامها أن أفقد رأسي إذا طلب مني هذا

وحتى فترة خلافنا والصراع الذي نشب بيننا وبينه بدت لي باهتة شديدة البهوت ،وكأنها لم تحدث أبداً، فقد كنت حقيقة أعارضه وأختلف معه ولكني أفعل هذا بروح غير المتأكد تماماً من صحة رأيي ،وحتى لو كنت متأكداً من صحة رأيي فلو كنت قد خيرت بين رأيي الصحيح ورأيه الخطأ لاخترت رأيه لاعتقادي أن خطأه قد يكون وراءه حكمة تخفى علي.

أمسكت بالسماعة وأنا على يقين أن شوقي سيخبرني عن شيء خاص بالبارودي، وفعلاً أخبرني شوقي أن أملي قد أصبح قاب قوسين أو أدنى من التحقيق، وأنه سيقيم احتفالاً صغيراً بمناسبة خروج البارودي من السجن، وأن علي أن أذهب إلى المنزل الجديد الذي انتقل إليه في الساعة الثامنة. وقلت له: والبارودي سيكون هناك؟

قال: طبعاً طبعاً.

وفي ذلك المساء، في السابعة والنصف كنت آخذ طريقي إلى بيت شوقي الذي اختاره في تلك البقعة شبهه المهجورة الكائنة في نهاية حدائق شبرا.

وبصعوبة وصلت فقد كان علي ألا أسأل، والشوارع في تلك البقعة لا تزال جديدة لم تركب لها اللافتات بعد، بل أسماؤها لا تزال محل خلاف، والسكان معظمهم لا يعرفون بعضهم بعضاً.

وطرقت الباب تلك الطرقة التي كنا متعارفين عليها، وفتحت راقية زوجة شوقي وهي كعادتها تضحك. . وما كاد الباب يفتح حتى فوجئت بضجة لم أكن أتوقعها، ضحكات خافتة وأصوات أناس يتحدثون كلهم في وقت واحد، وصراخ بنت شوقي ذات الستة أعوام. وحين دخلت لم أستطع أن أحدق في الموجودين أو التعرف عليهم. انتابني كالعادة ذلك

الوجل الذي ينتابني حين أواجه جماعة، ومع هذا كنت قد لمحت البارودي، كان جالساً في ركن يتحدث بصوته المنخفض وابتسامته الطفلة، وملامحه هي هي التي أعرفها لم تتغير وإن كان وزنه قد زاد قليلاً ووجهه امتلأ امتلاءة المفرج عنهم بعد سجن طويل.

وأحسست بكل حبي له يتجمع في الصيحة التي أطلقتها:

ـ حمداً لله ع السلامة.

وتوجهت إليه وفي غمرة الانفعال الدافق عانقته وقبلته وحملته من فوق الأرض، وهو يبتسم ويقول:

ـ ازيك يا يحيى. ازيك يا راجل؟

وكان جو الحفل قد انقطع بمجيئي! ولكن الجميع سرعان ما عادوا إلى ما كانوا فيه.. وكل الحاضرين كنت أعرفهم، والحفل متواضع جداً عماده بضع زجاجات بيرة وطعام قليل أعدته راقية وأحاديث كثيرة نصفها ضاحك، والبارودي الذي كان نجم أية مناسبات كتلك.. هو الذي يعزم ويتحرك وينكت ويخلق الجو الصاخب المرح بطريقة لا يمكن أن تعتقد معها أنه هو نفس البارودي الزعيم الخطير، هذه المرة كان جالساً صامتاً يزوغ من أسئلتنا عما حدث له في السجن، وأحيانا يتطوع برواية أشياء صغيرة غريبة عن الطعام أو المهازل التي كانت تقع في أثناء الذهاب إلى الحمام.

وما كادت تمضي بضع دقائق حتى كانت كل وساوسي قد زالت وحتى كنت مرة أخرى أحس أني في حضرة البارودي الذي عرفته دائماً والذي لم يغير منه السجن جزءاً واحداً من تفصيلاته، وحتى كنت أحس بسعادة حقيقية مبعثها إحساسي بالعودة إلى الحياة وسط مجموعة مترابطة

قوية أكن لها أقوى الحب ويملؤني وجودي بينها بالفخر. ما أروع الانتماء! كل ما يحدث أنه في أحيان، كأصوات الطلقات البعيدة يدهمني شعور مربك، ترى ماذا يحدث لو عرف هؤلاء جميعاً قصة علاقتي بسانتي؟ أي خزي يصيبني حينئذ وأي عار! وكلما حدث هذا كان رد الفعل عندي يقوى، وأحس أني كنت في كابوس طويل عليّ أن أستيقظ منه، وفي الحال يجب أن أخرج سانتي من حياتي تماماً وأعود كما كنت مستقيماً كحد السيف. .

وفي لحظة حماس مددت يدي في جيبي وعددت ما فيها من نقود. . وجدته مبلغاً أكثر قليلاً من الثلاثة جنيهات فقمت وانتحيت بالبارودي ركناً وقلت له هامساً: أنا ما قدرتش أجيب هدية، إنما الهدايا بيننا ممكن تأخذ شكل القرض، خذ دول.

ومددت له يدي مقبضة بالجنيهات الثلاثة، فقال وهو يبتسم بلا خجل:

ـ متشكر جداً. . ايه الكرم ده!

ومد يده، واستغربت فقد ظل يمدها في اتجاهات كثيرة دون أن تقابل يدي، فقلت له:

ـ خد يا أخي. . مالك؟

فقال وأغرب شيء ما قاله:

ـ ايدك فين؟

قلت وأنا أضحك:

ـ مش شايف ايدي؟ أوعى تكون عميت في السجن.

ـ الظاهر كده.

وسدرت في ضحكي ومررت يدي أمام عينيه لأهوشه، فلم يرمش له جفن.

ومن فمه عرفت الحقيقة الغريبة التي لم أكن مستعداً أبداً لتصديقها. علمت أن البارودي أصيب بالعمى داخل السجن ولهذا أفرجوا عنه.

والساعات التي قضيتها في الحفلة بعد هذا مرت وأنا مصدوم حائر، لا أكاد أصدق أن عيني البارودي المفتوحتين أمامي كالفناجيل لا تريان.. وأنه حقيقة أعمى، وأن كل هذا حدث له داخل السجن، والأهم من ذلك أنه، وشوقي، وكل الحاضرين غير حزانى ذلك الحزن الشديد الذي كنت أحسه أنا، وأنهم يضحكون.

ولم أفق من الصدمة إلا بعد أن استعدت معلوماتي الطبية، وقلت له ممكن أن يكون أصيب بنوع من العمى النفسي وأن من السهل علاجه.. وناقشت البارودي في هذاالاحتمال،ولكنه أخبرني أن طبيب العيون في السجن يعتقد أن عماه عضوي ولولا هذا ما أفرجوا عنه.. وأضاف أنه حتماً سيعرض نفسه على اخصائيين كبار في العيون ولكنه يائس، وأغرب ما في الأمر أنه كان يناقش المسألة بهدوء وبلا اهتمام كبير خاص،وكأنه يتحدث عن مشكلة كليشيه ناقص في أثناء الطبع.

واعترتني نوبة تأنيب ضمير أشد.. البارودي الذي شككت يوماً في الطريق الذي يقودنا خلاله كان في السجن وأصيب بالعمى وتحمل ما لا يطيقه انسان، في وقت كنت ألعب فيه أنا وأفقد حماسي للعمل وأعارض وأتهم وأنا طليق؟

في تلك الليلة لم أعد وحدي من منزل شوقي، كان معي البارودي وقد شدَّدت عليه حتى قبل أن يقيم معي في شقتي إلى أن ندبر له مسكناً خاصاً.

وعرضي هذا كان أبسطشيء يمكنني أن أصنعه وأكفر به عن كل ما اعتراني من شك، وكل ما لم أتداركه من تقصير، وكنت سعيداً لا للفرصة التي أتيحت لي لأكفر، ولكن لأنه قبل الاقامة معي. وطوال علاقتنا لم أكن أراه إلا في أثناء العمل، أو لشيء خاص بالعمل، وأمنيتي الكبرى أن يطول نقاشي معه مرة أو يتاح لي أن أجلس معه جلسة لا تقطعها ارتباطاته الكثيرة ومواعيده، أية سعادة إذن أن يقيم معي وأقضي بجواره ما أشاء من أوقات!

وطوال اليوم التالي، وأنا أقوده إلى دورة المياه، وأنا أقرأ له وأكتب ما يمليه علي، وأنا أطعمه ونحن نأكل وأسرح له شعره حين يغتسل. كنت أفعل هذا بحماس التائب، بحماس الضال حين يعود إلى حظيرة الايمان وبحب ممزوج بشفقة غريبة بدأت تتسرب إلى نفسي. . الشفقة على البارودي الذي لم أكن أتصور أبداً أن يأتي عليه يوم يصبح فيه محل شفقة أحد، وبالذات محل شفقتي أنا.

ولكن اليوم ما كاد يقترب من نهايته حتى بدأت أدرك فداحة الموقف الذي وضعت نفسي فيه، في الرابعة والنصف دق جرس الباب، وكنت أعرف أنها سانتي.

وبدأت أفيق.

أو بالأحرى بدأت مرة أخرى أروح في الغيبوبة التي اعترتني منذ عرفتها. . غيبوبة علاقتي بها. . تلك الغيبوبة التي قطعها لفترة وجيزة خروج البارودي. . الغيبوبة التي أصبح فيها مجرد كائن لا يربطه بالحياة إلا تلك الساعات القليلة التي يقضيها يتحدث فيها معها أو يتخيلها حين تغيب، ويحلم بها، وكان لا بد أن أفتح الباب.

واستأذنت منها أن تنتظر لحظة.

البيضاء

ولم أتردد. قلت للبارودي ان قريبة لي قد جاءت تزورني واستصحبته إلى الغرفة الداخلية وهو مستسلم لا يضايقني منه إلا ابتسامة عادية جداً لم تبرح فمه، وهو يستند إلى ذراعي في طريقه إلى حجرة النوم الداخلية.

وجلست مع سانتي ولم تكن الجلسة ممتعة لكلينا. كانت قلقة وكنت قلقاً، ويبدو أنها أدركت أنني أعانى من حرج ما فقالت على الفور:

ـ هل عندك أحد؟

ـ عندي البارودي. . هل تعرفينه؟

وترددت هنيهة بين أن أكذب أو أقول الحقيقة، وأخيراً قلت:

ـ ولمحت اصفراراً مفاجئاً خفيفاً يلون وجهها لومضة، وقالت بصوت شابه بعض التغيير وكأنما لونه الاصفرار:

ـ سمعت عنه كثيراً. . ولكني لم أقابله.

وبأسرع مما خمنت وجدت اللهفة تعود تنتابها، والشغف يكاد يفقدها سيطرتها على نفسها وهي تقول:

ـ كيف هو؟ يقولون أنه رفيع وذكي جداً. . هل هو عبقري صحيح؟ هل ممكن أن أراه؟

قلت لها وأنا أريد أن أخيب أملها عن عمد:

ـ طبعاً غير ممكن.

ويبدو أن كلماتي ولهجتي فعلت فعلها فلم يلبث حماسها أن برد وذهبت اللهفة عنها، وقالت بعد فترة صمت وهي تفتعل عدم الاهتمام:

ـ سمعت أنه خرج أعمى من السجن. . هل صحيح؟

كان السؤال بسيطاً وطبيعياً، ولكني لم أكن أستطيع الإجابة عليه فمنذ عرفت الخبر وهاتف قوي داخلي يلح علي ويؤكد لي أن البارودي لا يمكن أن يكون قد فقد بصره حقيقة داخل السجن. أما لماذا يفعل هذا ويدعي العمى فسؤال لم أكن أجرؤ على مواجهته ومحاولة الاجابة عليه، إذ

معناه أن أكفر بالبارودي وبكل الطريق الذي سلكته ردحاً طويلاً من الزمن وعدت أسلكه بحماس أشد، ولم أكن أريد أن أكفر به وبالطريق، ولكني في نفس الوقت لم أكن أريد أن أخدع نفسي وأخالف ضميري.

فقلت لها وأنا أبتسم: يقولون هذا.

قالت: وأنت؟ ألم تره؟ هو هل أعمى فعلاً؟ هل فقد بصره؟
قلت بضيق قليل: يبدو هذا.

قالت باستنكار: يبدو؟ ألا تعرف أنت؟
قلت: نحن بانتظار تقرير أحد الأساتذة.

وحاولت أن أغير الموضوع. وكانت المحاولة صعبة، فلم يكن عندي موضوع حقيقي جديد أستبدل به الحديث. الوضع بيني وبينها كان قد وصل إلى حد معين، ذاك الحد الذي يصبح فيه الكلام نوعاً من السفسطة والتفاهة، كان مفروضاً بعد المشهد الذي حدث بيننا إما أن تنتهي علاقتنا عند هذا الحد ونفترق، أو أمضي معها إلى آخر الشوط فتستمر علاقتنا إنما على مستوى آخر غير المستوى الذي كانت فيه.. ولكن علاقتنا لم تنقطع وأيضاً لم تنتقل إلى هذا المستوى، وظللنا في فترة الترقب والانتظار التي تتبع أي هجوم فاشل. علاقات الحب هي الأخرى تنمو كما ينمو الكائن الحي ولا بد أن تستمر تنمو، وكل مرحلة من مراحل نموها لها خصائصها والحديث يصلح لعلاقات الصداقة أو المعرفة الجديدة. أما وقد وصل الموقف بيننا إلى تلك المرحلة الحرجة، أنا أصارحها بحبي وهي تقف موقفاً مائعاً لا تريد أن تقبله ولا تريد أن ترفضه. فأي حديث يصلح لهذا الموقف؟ لا بد أولاً من حسم الأمر والانتهاء من هذه النقطة لنصعد بعلاقتنا درجة أخرى، ونتبادل أحاديث من نوع آخر.

البيضاء

وهكذا كان الحال بيني وبينها هذه المرة، نظرات أصوبها إليها أحاول أن أقول بها كل ما لا يستطيعه لساني، وتهويمات حول حبي لها من بعيد أحاول بها أن أدفعها بتؤدة ورقة لأن تتكلم هي عن علاقتنا، ولكنها تدرك بالغريزة كنه نظراتي وتهويماتي، ولا تفعل شيئاً أكثر من أن تبتسم بملامحها الشديدة الدقة الشديدة البياض. ابتسامات محيرة، ابتسامات مراقبة، لا تريدني أن أعتقد أنها تشجعني أو تثبطني، ولكنها تترك لي حرية أن أبدأ ثم أتراجع، وأتقدم ثم أتأخر، وأرتبك وأتلعثم، وأحياناً أفلح في نطق بضع جمل متكاملة لها معنى.

وغيرت هي الحديث مرة وسألتني: هل رأيت شوقي أخيراً؟

وكنت قد رأيته طبعاً، فعملي معه يحتم علي أن أراه عدة مرات في اليوم ولكني قلت: كويس.. ولو أني لم أره من مدة.

لا أعرف لم كذبت، ولا أعرف أيضاً لم رحت أتحدث عن شوقي معتمداً أن أشيد بمواهبه وشخصيته وحبي له.

ولكني كنت في أثناء حديثي عنه أفكر بطريقة أخرى، لماذا تسألني عن شوقي، ربما لتخلق موضوعاً للحديث، وربما لأنها لا تراه، وربما لأنها مشتاقة إليه.

وعند هذه النقطة الأخيرة بدأت ملامحي تتجمد.

وبدأت أنظر لها نظرات الزعل الخافت المستطلعة التي تريد أن تسأل ببراءة ودون أن توجه إليها تهمة السؤال.

ولم أجد في ملامحها شيئاً. كل ما وجدته تعب. كانت ملامحها تبدو تعبة وكأنها لا تجد شيئاً ينشطها.

وكان علي لكي أنشطها وأستثيرها أن أبدأ معها محاولة جديدة، ولكني سررت فوجود البارودي في الحجرة المجاورة كان عذراً وجيهاً أقنع به نفسي بعبث المحاولة.

وحين آن الأوان وتهيأت لمغادرة الشقة، حرصت على أن أسألها متى ستجيء ولم أكن في العادة أسألها، وحين أجابتني: غداً طبعاً. استعدت إجابتها وقلت وأنا أشد عليها: لا بد أن تأتي.

وابتسمت وفتحت الباب وخرجت.

وجاء البارودي إلى حجرة المكتب وهو يستند إلى حائط الصالة ويتعرف على الباب والمقعد، ولم أشأ أن أساعده ورحت أراقبه وهو يتحسس طريقه وكأنما لأدرك من طريقته في تلمس الأشياء، هل هو أعمى فعلاً أم يمثل دور أعمى.

وجلسنا نتحدث وأنا أحملق فيه بعيني، وعيناه مفتوحتان إلى آخرهما تحملقان في، وأبتسم فجأة لأرى إن كانت ملامحه ستتبدل تحت وقع ابتسامتي ويكون معنى هذا أنه يراني، ولكن ملامحه لا تتبدل، ومع هذا أبقى غير مصدق أبداً أن عينيه هاتين لا تريان.. عيني ذلك الذكي الداهية الذي ما رأيت في حياتي أذكى ولا أبرع ولا أخطر منه.

قال لي، وكانت له طريقته التي لا يبذل فيها أي جهد لاستخراج أية معلومات يريدها مني، قال:

ـ هيه.. وازاي قريبتك؟

وضحك.

ما فائدة أن أكذب وهو حالاً سيعرف، فقلت:

ـ دي صديقة أجنبية.

قال:

ـ وجاية ليه؟

قلت:

ـ باساعدها في اتقان اللغة العربية.

ـ هيه..

البيضاء

همهم هكذا وهو يهز رأسه وملامحه هزة كنت أعرف ما تعنيه جيداً. وقال كأنما يحدث نفسه:

ـ أيتها اللغة العربية، كم من الجرائم ترتكب باسمك؟

وضحكت على مضض لأجعل ما قاله يأخذ شكل النكتة، وضحك هو الآخر،ولكني كنت متأكداً تماماً أنه يتكلم جاداً ويعني ما يقول. وقطع مرة كلامه الجاد الهازل وقال لي بلهجة مغايرة:

ـ إذا كنت عايز رأيي، بيتهيأ لي أن أحسن بلاش حكاية العربي دي.

قلت باستغراب واستنكار ودهشة، والدهشة وحدها كانت مفتعلة:

ـ ليه؟ اشمعنى؟

قال:

ـ دي لخبطة دي بيتك مطروق وأنت معروف وناس كتير بييجوا هنا دي لخبطة دي.

وسكت.

وسكت أنا الآخر، فقد كان من المستحيل علي أن أقتنع أنها لا يمكن أن تجيء. فليفعلوا أي شيء، ولكن لا بد أن تجيء سانتي كل يوم كما تعودت أن تجيء.

وبدأ إحساسي بالضيق من البارودي ووجوده معي في المنزل يزداد إلى درجة بدأت أفكر معها في وجوب التخلص منه والعودة الى الحرية الوحيدة التي لا أريد سواها، حريتي في أن أقابل سانتي في مكان آمن خال.

ولم يكن التخلص من البارودي بالأمر السهل، فقد كنت أريد أن أفعل هذا دون أن يشعر أو يحس أني دبرت هذا الأمر أو أن لي فيه يداً ونوبة صغيرة من تأنيب الضمير راودتني،فقد كنت أعرف أن لا مكان لإقامته، لا مال لديه، ولكن أي شيء في الدنيا كان لا يمكن أن يحول بيني وبين لقائها.

وكتبت خطاباً لوالدتي وأختي أدعوهما للقدوم إلى القاهرة للتفرج على المعرض. وحين كنت ألقي الخطابات في صندوق البريد تنبهت إلى حقيقة ما أفعله. البارودي الذي كنت على استعداد دائم للتضحية بروحي وبكل ما أملك من أجله. هأنذا أدبر عن عمد وإصرار طرده من البيت وهو خارج من السجن مفلس أعمى. وأدهى من هذا أني لا أتردد فيما أفعله ولا أستطيع التردد،وكأني أتصرف رغم إرادتي. ولا أقول رغم إرادتي مجازاً ولكنها الحقيقة، فقد كنت لا أملك منع نفسي من عمل ما أقوم به، كالميت من الظمأ حين يضحي بأعز الناس لديه، بابنه حتى، في سبيل أن يبلل شفتيه بجرعة ماء، وكأنه قد تولد بينه وبين الماء انجذاب أخطر من أي قوى طبيعية، انجذاب يصل إلى درجة الجنون والتوهج انفس الدرجة التي تحدث الشرارة الكهربائية بين قطبين، أية إرادة تستطيع أن تمنع حدوث أي شيء وقد وصل الأمر درجة التوهج؟

بعد أن ألقيت الخطاب في الصندوق لم أحس إلا بنوبة صغيرة أخرى من تأنيب الضمير، ونوبات تأنيب الضمير كلما قمت بعمل أشك في صحته كانت تطول عندي وتطول. وكمن يتبين الشيء وهو على الحافة الكائنة بين اليقظة والمنام. أدركت بذهول قليل أني قطعاً لم أعد نفس الشخص. أن علاقتي بسانتي غيرتني. لم أعد أنا. يحيى لم يعد يحيى. أصبح يحيى الذي يريد سانتي وبلا إرادة لسانتي لا يكون يحيى. لا أكون أنا. لا أكون حياً. لا أستطيع أن أحيا إذا لم أردها.

وخفت.

أحسست بأخطر ما يمكن أن يحس به إنسان. أحسست بأن حياتي ووجودي كله يعتمد على شخص آخر، أو على رغبتي في هذا الشخص الآخر. تصور حين تحس أن حياتك أنت تعتمد على استجابة شخص آخر لك، وكأنكما جنينان يعتمدان في حياتهما على حبل سري واحد! ماذا يحدث

لو أراد الشخص الآخر أن يستقل بوجوده؟ ماذا يحدث لو لم يستجب هذا الشخص الآخر لرغبتك ونفر منـك؟ ألا يكون هذا يقطـع حبـل حياتـك نفسها؟ يقتلك؟

أحسست بالخطر، بل بأغرب خطر تعرضت له حياتي مذ وعيت، خطر أخطر ما فيه أن شعورك به يزيد الأمر خطورة. . لأنه يزيد من ارتبـاكك ويزيد من عدم ثقتك بنفسك وذوبان شخصيتك، ويزيد من خوفك على علاقتك بهذا الشخص، وبهذا يزيد من احتمال أن تنقطع علاقتكما، فأحياناً لا تنقطع علاقتنا بالآخرين إلا لخوفنا من أن تنقطع.

روعني أنـي أدركت أخيراً أن علي أن أواجه ذلك الأمر الذي كنت دائماً أريد أن أتجاهله. . أدركت أنـي خائف خوف الموت أن تنقطـع علاقتـي بسانتي، وأني في سبيل هذا مستعد أن أفعل أي شيء. والمصيبة أنـي قد أفعل أي شيء وكل شيء ومع هذا تنقطع علاقتي بسانتي، لأن علاقتي بها لم تكن تتوقف على بطولات أو تضحيات أقوم بها، ولكنها كانت تتوقف عليها هي وعلى مزاجها ورأيهـا. والرأي والمزاج أشياء لا يمكن لشخص غير صاحبها أن يتحكم فيها، بل حتى صاحبها نفسـه أحيانـاً لا يستـطيع أن يتحكم فيها. أليس من المعقول إذن أن يتولاني الرعـب حـين أحس بأن حياتي، بل ما هو أكبر وأغلى من حياتي، بالعالم نفسه بالنسبة إلي، كل ذلك متوقف على مزاج سانتي، بل حتى لا يتوقف على مزاجها وإرادتهـا وإنما على قوى وعوامل غامضة لا يمكن التنبؤ بحكمها أو بما يؤدي إليه؟

ألقيت الخطاب في الصندوق وعدت إلى البيت، وطوال الطريق كنت أصمم وأقسم وألح على نفسي وأشتمها وألعنها وأطلب من إرادتي كلها أن تتجمع ومن كياني كله أن ينتفض، ومن ماضي وذكرياتي وكل شيء يخصني في هذا العالم أن يأتي لنجدتي ويساعدني لأستطيع أن أتخلص من علاقتي

بها، أو على الأقل لأقاوم علاقتي بها.. أقاومها وكأني أقاوم طاعوناً أبيض غير مرئي يتقمص روحي.

وكالعادة وكما كان يحدث دائماً، أحسست مثلما كنت أحس في كل مرة أدرك فيها شيئاً كهذا أني قوي قوة لا حد لها. وأني أستطيع أن أقاوم أي سانتي فأمحو صفحتها من نفسي مهما كانت صفحتها، وأتحرر - أجل - أتحرر، وأعيش - أجل أعيش. فكيف أكون حياً إذا كانت إرادتي في أن أحيا ملغاة، وإرادة شخص آخر،ولتكن سانتي هي التي تقرر مصير حياتي؟

والمشكلة الكبرى أنني كنت أنا الذي صنعت بنفسي كل هذا، وصنعته بإرادتي. قيدت نفسي إليها بإرادتي، وبإرادتي أريد أن أكسر قيودي، فمن أين آتي بإرادة لي تلغي إرادتي؟ وكيف أحطم بنفسي بنياناً لا تملك نفسي إلا أن تبنيه وتستمر تبنيه.

فلأثر إذن ما شاءت لي الثورة، ولأحس بنفسي قوياً، وبإرادة جديدة تنبعث في نفسي، فأنا خير من يعرف أن هذه كلها إن هي إلا انفعالات وقتية لا يمكن أبداً أن تصمد لتجربة.

بنفس هذه الروح وصلت البيت، وبنفسها أيضاً بدأت نقاشاً جاداً مع البارودي، واختلفنا اختلافاً جذرياً هذه المرة.. اختلافاً أدركت معه أننا لو مددنا خطوط تفكيرنا إلى آخرها لوجدناه يؤمن بطبقية التفكير مع أنه يطالب بالغاء الطبقية في المجتمعات. كان الخلاف حول سياسة المجلة.

وكان من رأيه أننا يجب ألا نخضع للنزوات الوقتية للجماهير، ولكن علينا أن «نقود» الجماهير إلى الأهداف التي نؤمن بها. والحقيقة أني كنت قد بدأت في الفترة الأخيرة، وخاصة بعد عملي في الورش واحتكاكي المباشر بالعمال، بدأت لا أؤمن كثيراً بخدعة «قيادة» الجماهير هذه لتحقيق الأهداف التي نؤمن نحن بها.كل من هب ودب يدعي أنه يقود الجماهير

البيضاء

لمصلحتها التي أدرك بفطنته وبعد نظره كنهها، والمنادون بهذا في كل الدول والبلاد يتنافسون في الأهداف المثالية التي يريدون أن يقودوا الجماهير إليها.. عوالم أفضل، مجتمعات بلا مشاكل، ديموقراطية كاملة، دنيا بأزرار.. كلها أهداف جميلة ورائعة جدا.. والكل يعمل لمصلحة الجماهير وباسم الجماهير، ولا أحد يتفضل ويسأل هذه الجماهير عن كنه ما تريده هي. كلهم يعتبرون الشعب مجرد طفل قاصر لا يعرف مصلحته، ويعينون أنفسهم أوصياء عليه بالزلفى وبالقوة، حتى ليصبح الخارج على إرادتهم خارجاً على إرادة الشعب، والمعارض خائناً لمصالح الشعب.

ذلك رأي، ولكن هناك رأياً آخر لا يقر مبدأ الوصاية على الناس باعتبارهم قاصرين، إذ حتى الجاهل منهم أكثر فهماً لظروفه ومصالحه ممن يزعم لنفسه أنه أفهم منهم وأوعى، رأي يرى أن «التقدم» ليس هو في جر الناس جراً لتحقيق أهداف نضعها نحن لهم، ولكن التقدم الحقيقي هو أن نهيىء للناس فرصاً أكبر وأوسع لكي يحددوا أهم أهدافهم ويسيروا نحوها بالسرعة التي يرونها تتناسب ومقدرتهم، بأن نرفع العقبات من طريقهم بأن تصبح لديهم مجالات أوسع للاختيار والتفضيل.

التقدم ليس هو أن نفرض على حقل من الزهور أن ينتج لنا كمية معينة من الرحيق في كمية محددة من الوقت.. التقدم هو أن نهيىء الفرصة لكل زهرة في الحقل كي تتفتح، كي تصبح أولاً زهرة، فإذا ما تفتحت كل الزهور ربما حصلنا على رحيق أكبر وأكثر تنوعاً.. ربما حصلنا على أنواع منه لم تخطر لنا ولا كان باستطاعتنا أن نحددها قبل أن توجد.

شيء جميل أن تعي الأزهار أنها منتجة للرحيق، ولكنه خطير في نفس الوقت، فإنتاج الرحيق وظيفة واحدة من وظائف الأزهار. فإذا كرست الأزهار نفسها من خلال هذا الوعي الواحد الضيق لكي تصبح مجرد آلات صماء لا عمل لها إلا إنتاج الرحيق، فاقل ما يحدث هو أن تتوقف بقية

وظائفها الأخرى، يتوقف تطورها، يتوقف تكوين الثمار والبذور . . وبهذا تتحول من مجرد أزهار، مجرد حلقة في سلسلة متصلة الحلقات من عمليات النشوء والتحول والارتقاء، إلى عامل معطل، يصبح الوعي المحدد الناقص في النهاية سلاحاً يصيب الأزهار نفسها أول ما يصيب.

باحتداد النقاش بدأت أتبين أن خلافي مع البارودي خلاف أساسي هو يرى أن وعي الإنسان بنفسه يجب أن يكون هو القيمة العليا، وأنا أرى أن الإنسان نفسه بوعيه وبلا وعيه وبصوابه وخطئه هو القيمة العليا . . المشكلة في نظره هي الغاية والمبادىء بصرف النظر عن الوسيلة لتحقيقها والمشكلة في نظري هي الناس الذين سيحققون هذه المبادىء، أو يحققون غيرها، هو يرى أن نسخر الناس لتحقيق الأهداف التي رسمناها لهم، وأنا أرى أن نسخر أنفسنا لتحقيق أهداف الناس مهما بدت ساذجة في نظرنا وقصيرة المدى. هو يرى أن الناس أقل وعياً منا، وأنا أرى أن وعينا مهما بلغ ليس أكثر من قطرة في محيط وعي الناس باعتبارهم جسد الحياة وعصبها الأكبر.

هو يقول: قيادتنا للمجلة لا تعجبكم وتريدون أنتم أن تتولوا أمرها أنتم بهذا تتجاهلون أننا أكثر منكم خبرة وثقافة ووعياً.

وأنا أقول: معنى هذا أنكم ممكن أن تظلوا ترأسون التحرير إلى الأبد لأنه لا يمكن أبداً أن ينشأ جيل يصبح أكثر منكم خبرة وثقافة ووعياً لأنكم دائماً ستظلون السابقين.

فيقول: وما الضرر في هذا؟

فأصرخ: الضرر أنكم بهذا تنصبون أنفسكم قادة أبديين لنا . . الضرر أنكم تدعون احتكار الوعي واحتكار الخبرة والثقافة، وتطلبون من الناس أن يسلموا بولايتكم الأبدية هذه . . بلا نقاش أو جدال.

فيقول: الضرورة التاريخية تحتم هذا.

فأقول: الضرورة التاريخية؟ . . خاتم الملك الذي باستطاعة أي منا أن يضعه في أصبعه ليعطي نفسه الحق في الجلوس على العرش، فإذا حاول أحد أن يسأله أو يناقشه اتهمه بالوقوف في وجه حقه المقدس، في وجه الضرورة التاريخية. . أنت مثلاً غبت في السجن سنوات جرت فيها أحداث وتبدلت أحوال، ومع هذا تصر على أنك أوعى بما حدث منا، ونحن الذين عشنا هذه السنوات ومشاكلها، فإذا جرؤنا على معارضتك أصبحنا متمردين على القيادة نعترض طريق التطور والتاريخ. القيادة في نظرك هي إرادة التاريخ هي وراثة الحق الالهي في حكم الناس، هي المنزهة عن الخطأ.

قل لي بربك: لو أخطأت هذه القيادة مثلاً، أو لو خانت وتواطأت مع الأعداء، أو انحرفت عن الطريق فمن يبصرها، ومن يحاسبها، ومن يقول لها لا؟ وهي التي باستطاعتها، ومن حقها أن تفصل وتدمغ وتتهم أي خارج عليها،وبهذا تضمن لنفسها بقاء أبدياً لا يعكره معارض أو محاسب.

وضاق الباروي بالنقاش وقال: اسمع . . نحن نتناقش على أساس خاطىء، فليس مفروضاً أن تخون القيادة لأنها حينئذ إنما تخون نفسها وأيضاً ليس المفروض أن تخطىء فإذا أخطأت فعليها هي أن تكتشف الخطأ وتصلحه. هي العقل المفكر إذا أردت أن تقول هذا . . وعلى العموم أنا غير موافق أبداً على الروح التي تناقشني بها، والتي لا تتحدث فيها بالاحترام الواجب عن قادتك وقيادتك.

وأصبحت بإجابته هذه أكثر ضيقاً، بل بدأ شيء باهت يتسرب إلى نفسي ويوسوس لي أن البارودي ليس فقط مخطئاً في رأيه، ولكنه يخطىء عن عمد ولأهداف خفية. وما العمى والإفراج وادعاء المسكنة والإفلاس إلا أجزاء متكاملة لخطة واحدة.

وكنوبة الغروب التي يطلقها نفير البحرية، وبحزن مندى بالعتب والغضب والاستنكار، وجدت الخاطر يعود ليطرق عقلي.. أيمكن أن يكون البارودي قد أفرج عنه في هذا الوقت بالذات، وقد كدنا نضع أيدينا على المجلة وسياستها ليحول بيننا وبين ما نريد، وليعود التيار المتهافت القديم يسيطر على المجلة من جديد؟

وفتحت فمي أسأله سؤالاً ولكنه قال:

ـ أرجوك.. أسمعنا موسيقى أفيد.

ورحبت بالاقتراح الذي أعفاني من مهمة السؤال، ومن تلكؤ الخاطر أطول من اللازم في عقلي.

ولم تفعل الموسيقى أكثر من أنها مضت ـ كنار المدفأة الهادئة أو كحرارة أفران الخمائر ـ راحت تسوي أفكاري على مهل وتنضجها وتساعد على تفاعلها. أشياء كثيرة أصبحت تشغل بالي، أشياء ليست متعلقة بالمجلة وسياستها فقط، ولكنها عموميات تبدو المجلة جزءاً صغيراً من أجزائها.

هذا النقاش الذي دار مع البارودي أنا نفسي كنت أعجب له، لم أكن قبلاً أفكر هكذا، بل قبلاً لم أكن «أفكر» أبداً. كنت أحيا كالسهم المطيع المندفع، ولكني أردت أم لم أرد ـ هأنذا قد وصلت إلى مرحلة بدأت أفكر فيها. لم أعد أهضم إقدامي على عمل ما لم أكن مؤمناً تماماً بصحته وأمثالي لا يرحب بهم أمثال البارودي كثيراً. أنهم متعبون، أو كما درجوا على تسميتهم «مثقفون ليبراليون» يفكرون لأنفسهم بأنفسهم، وهم يريدون جنوداً وعساكر لينفذوا فقطما يفكرون هم فيه، ويريدون جيشاً هم وحدهم أصحاب الحق في أن يفكروا له، وما على البقية إلا السمع والطاعة، يريدون «جسداً» لهذا «العقل المفكر».

وحتى حين أمرت نفسي بالتنازل عن كل آرائها وأفكارها وعدت كنت

أخدع نفسي. فمن تعوَّد أن يفكر لا يمكنه أبداً إلا أن يظل يفكر، بل ما أكثر ما تمنيت أن أناقش البارودي مرة مثلاً فيقنعني بخطئي وأعود كما كنت. ولكن نقاشي معه كان يزيدني اقتناعاً بصوابي وبضرورة أن أستمر في طريقي. ورغم هذا أظل أتمنى أن يثبت في النهاية أني أنا المخطىء وأنهم كانوا على صواب. أتمنى أن يثبت أن خطأهم صواب وأن صوابي خطأ وأن ينجحوا هم وأفشل أنا.. ليكون هذا عزائي عن عدم قدرتي على عصب عيني وعقلي والمضي معهم في طريق واحد.

ونفس الموقف تجاه سانتي. فأنا أعذرها في موقفها مني وأعذر نفسي في موقفي منها. أنا حائر معها وهي حائرة معي، أريد استئصالها من نفسي لأريحها وأريح نفسي فلا أستطيع.. وأتعب وأتعبها معي. ثائر على ضعفي تجاهها ثورة عظمى، وثائر على قوتي التي تقف عاجزة أمام هذا الضعف ثورة أعظم. أحبها بضعفي وأريد قتل هذا الحب بقوتي فلا تستطيع هي أن تمد يد العون لتغلب ضعفي على قوتي أو تغلب قوتي على ضعفي.

وهآنذا كالتاجر الذي لم يعد يعرف مكسبه من خسارته، كلما خلا إلى نفسه أو كلما عزلته الموسيقى أو الوحدة أو الحياة عن واقعه وعما حوله أخرج دفاتره القديمة وأوراقه ومضى يعد ويحسب، ويخرج من عده وحسابه كما يخرج كل مرة دون أن يصل إلى نتيجة أو قرار.

١٨

قبل أن أغادر البيت إلى عملي في الصباح، كان شوقي قد جاء ليستصحب البارودي لحضور اجتماع على مستوى عال. وحين أصبحت وحيداً أو بعد عني البارودي بمناقشاته وملاحظاته بدأت أفكر في التراجع وفي أن أكتب خطاباً آخر لأمي وأختي أطلب فيه عدم الحضور ليظل هو معي. لا للأسباب التي أنبت نفسي عليها في اليوم السابق فقط، ولكن لأني من طريقته في نقاشه معي عن سانتي أدركت أنه لم يأخذ كلامي عنها ببراءة، وأن من المستحسن أن أنفي له ما قد يتصوره من ظنون وأن يبقى معي في البيت ليرى بنفسه أن تردد سانتي عليّ ليس فيه ما يدعو إلى الشك.

كنت قد قررت هذا، وفقط ظللت أنتظر إلى أن تتجمع جرأتي وأستطيع أن أنفذ القرار.

ولكني فوجئت بقرار آخر غير قراري، لم يكن لي على بال.

فقد عاد البارودي في الظهر مع شوقي، وتناولنا الغداء معاً. ومكث شوقي بعد الغداء قليلاً ثم مضى.

وبينما نحن نتأهب لنومة القيلولة قال البارودي وهو يخلع ملابسه:

ـ على فكرة.. سانتي دي بلاش تيجي هنا.

واستغربت لكلامه، فقد كنت أظن أن الموضوع لم يأخذ من انتباهه

كل هذا القدر. وقد تأكدت أنه أخذ مجيئها على المحمل الذي لم أكن أريده أن يأخذه عليه. وأحسست بالضيق وعدت مرة أخرى أشرح له أن ما تجيء من أجله لا يتعدى السبب الذي ذكرته له، ودارت المحاورة التي ذكرتني بالكثير من المحاورات التي كانت تدور بيني وبينه حين يكون الحق بجانبه في الظاهر وأكون أنا عاجزاً عن انطاق حقي فيفحمني، وأحاول الصمود ويعود فيفحمني فأزداد استمساكاً بموقفي.

وقال وكأنما يريد أن ينهي النقاش:

ـ على العموم ده مش أمر مني. . ده مجرد رأي بقوله لك وأنت حر.

وكان معنى هذا أن كلامه أمر غير رسمي. وأدركت أني كنت على حق في الحيلة التي لجأت إليها للتخلص منه.

ومضى يومان طويلان لم أر فيهما سانتي، إذ كان لا يمكن أن أراها والبارودي موجود. لورا هي التي جاءت أكثر من مرة، ولم يزحزحها عن الدخول وجود البارودي ولا تعليقاته الساخرة على بيتي الذي أصبح مدرسة وأصبح في حاجة إلى ناظر.

وخلال اليومين كنت أنتظر مجيء العائلة بصبر نافد، وأخيراً وفي صباح اليوم الثالث جاءوا. وكانت المقابلة الصاخبة وضجة الترحيب المعتادة. وفوجئوا بوجود البارودي في البيت، ولكن البارودي لم يفاجأ بمجيئهم بل لم يبد عليه أية بادرة تدل على أن في نيته مغادرة البيت، وكان من الطبيعي جداً أن يحيا معنا وفي وجود أخواتي البنات.

غير أنه قال لي حين انفردت به:

ـ أظن مفروض أني أمشي.

ولم تعجبني الطريقة التي سألني بها، فقد كان واضحاً أنها طريقة من يتوقع أن تجيبه بقولك مثلاً:

- لا . . لا داعي أبداً لهذا .

وفي إجابتي له حاولت أن أحوم حول الموضوع وأفهمه بطريقة غير مباشرة أن للقاطنين في الأرياف تقاليد، وأننا لسنا متحررين إلى هذه الدرجة.

وفهم البارودي أن عليه أن يغادر البيت.

وحين جاء شوقي بعد الظهر ناقشنا المشكلة، وقررنا أن ينتقل ليقيم مع عطوة في بيته. وخرجا سوياً وشيعتهما إلى الباب وأنا أحس بارتياح عميق فرغم كل ما فعلته ودبرته كان يخيل إلي في أحيان أن مغادرة البارودي للبيت مسألة مستحيلة، وإذا حدثت فلا بد أن تتم بمعجزة.

وعدت إلى العائلة الصغيرة، أمي وأختي الكبرى محاسن وأخي صفوت وعواطف الصغرى. . وتحدثنا، وتأملوني كعادتهم وتأملوا صحتي وشقتي وما استحدثته فيها من تغيير. وفرّجتهم على المعرض وأدخلتهم السينما وتعشينا، وكنت أفعل هذا كله من وراء نفسي، إذ كنت أفتش عن ذرة رغبة واحدة تدفعني لكي أفعل ما فعلت دون جدوى، كنت طوال الوقت معهم وطوال الوقت أتمنى لو انتهت زيارتهم فوراً لكي يصبح في استطاعتي أن أقابل سانتي.

وحين عن لهم أن يقضوا يوماً آخر بدأت تصرفاتي معهم يشوبها نوع من الجفوة كانت تصدر مني رغماً عني، وأؤنب لها نفسي كثيراً، ولكنني لا أملك منعها ولا التحكم فيها. ويبدو أنهم أحسوها أخيراً، ففي اليوم الثالث وجدتهم يوقظونني في الفجر. وحين صحوت وجدتهم جمعوا حوائجهم وارتدوا ثيابهم وإن كان النوم لا يزال يملأ عيون الصغيرة عواطف. كانوا قد تهيئوا للعودة ولم يبق إلا أن يسلموا علي. وقلت كلاماً فاتراً سخيفاً كثيراً عن ضرورة بقائهم أياماً أخرى، وأن هذا لا يصح، وأقسمت عشرات

الأيمانات آمرهم بها أن يلغوا مشروع السفر و. . و. . الخ هذه الأقـوال الجوفاء التي نرددها في لحظات كتلك ولا نعني بها شيئاً، فقد كنت في قرارة نفسي أتمنى ألا يتراجعوا وأن يظلوا ماضيـن في مشروع السفر إلى نهايته.

ولـم يتراجعوا. سلموا علي وهبطوا في السلالـم شبه المظلمة، وهبطت معهم لأوصلهم إلى التاكسي وأنا أؤنب نفسي تأنيباً حاداً مريراً إذ لا أجد لدي أدنى رغبة أو إرادة تدفعني لتوصيلهم للمحطة.

وحين ركبوا العربة، ومضت ولـم أعد أرى منهم سوى أيد خارجة من النوافذ تلوح ووجوه تطل علي من خلال الزجاج الخلفي وتلمع عيونها ببريق الوداع الخافت، أحسست أني أريد أن أبـكي، وأنـي مجـرم عاق، وأنـي أستحق كل ما يحدث لي من عذابات ومشاكل.

وعدت إلى البيت وضميري والدموع لا ترحمني. ضميري يكاد يخنقني والدموع تحتبس في حلقي وتطبق علي، أما في قلبي فقد كنت أحس بفرحة كبرى، إذ في ذلك اليوم بالذات، اليوم الذي يبدأ بنفس ذلك الصباح المبكر الجميل، سأرى سانتي وألقاها وتجلس معي، وحتماً سأعود أحدق في عينيها المشعتين بأروع ما في الدنيا. . بروحها.

ولـم أكن أعلم من أين جاءني ذلك الشعور بأني سألقاها، فلم يكن بيننا موعد، ولـم تكن لدي طريقة للاتصال بها، حتى عملها لـم أكن أعرفـه كل ما يربطني بها هو رغبتها في أن تأتي إلي.

عدت إلى الفراش أحاول أن أعود إلى النوم ولكني لـم أستطع، كانت الساعة تقترب من السادسة صباحاً، ولكي أقابلها في كامـل قواي العقلية والنفسية بعد الظهر فلا بد أن أكون قد نمت نوماً عميقاً، وأنا قد أويت إلى الفراش متأخراً في الثالثة أو الرابعة ولم أنم سوى ساعتين. عبثاً حاولت أن

أرغم نفسي على النوم، ووجدت نفسي أعود وأرتدي ملابسي وأغادر البيت وآخذ طريقي إلى النيل.

كانت الشوارع خالية أو تكاد، وأنوار مصابيحها مطفأة، والأتوبيسات قليلة ونادرة ونورها مضيء، والسكون مطبق لا تقطعه سوى قلقلة من هنا أو هناك لعربة كارو قادمة حاملة الخضار إلى المدينـة النائمـة، والنسمات طازجة لم يستنشقها أحد بعد. . نسمات يوم جديد. . يوم تخلصت فيه من كل ما كان يعوق لقائي لها، ويوم أنـا حر فيه لأراهـا. يا إلهـي! حريتي تضاءلت فلم أعد أريدها لأسافر أو أكتب أو أتكلم، أريدها فقطمن أجل أن ألقاها. وأنا الذي اعتبرت في لحظة ما أن حبي لها يقيدني، وسخطت على هذا القيد وأردت تحطيمه وتحرير نفسي، أين أنا الآن؟ ها هي ذي سعادتي الكبرى أن أصبح حراً في تقييد نفسي بها. لا بد أننا كائنات معقدة جـداً **أكثر تعقيداً من كل تلك النفوس المنبسطة** المسطحة التي نراها ونقرأ عنها في الروايات والكتب، فهناك نلتقي بالعواطف والانفعالات وقد استخرجت ونقيت وصنعت منها كتل ضخمة ظاهرة للعيان، وما أبعد هذا عن نفوسنا وهي دائرة في تلك الحياة! ما أبعد هذا عنها وهي تحس في اللحظة الواحدة بعشرات العواطف وتتجاذبها عشرات النوازع، وتصدق وتخدع وتمر وتشف وكل ذلك في لحظة، الحب! هأنذا وأنـا سائر على شاطـىء النيل أتنفس بعمق، وأحب الصبح الباكر والنهر الدافق الممتد وطقطقـة العجـلات في عربات الكارو من بعيد، ونداءات باعة الفول، وصوصوة العصافير، أجد الكون كله مملوءاً بكلمة ضخمة، كلمة حروفها كل الكائنات والأشياء، كلمة «أحبها» وليست كلمة صافية، إنها كلمة معقدة مركبة كالكلمة حين نكتبها ونعيد الكتابة فوقها، كلمات بعضها فوق بعض، كلمات مثل: أنا سعيد بحبي لها،لا بد من قطع علاقتي بهـا الآن، ليس قليلاً أن أهب

عمري كله لكي أحبها، لا يجب علي أن أراها. أنا مشتاق إليها. أنا أحبها لأني أحس أنها لا تحبني، أنا أحبها لأنها تحبني، كلمات بعضها فوق بعض تكاد من تعقيد تركيبها أن تطمس، ولكنها تكون بتعقيدها تلك الحقيقة الكبرى التي تجعلني سعيداً بالصباح الباكر، سعيداً بأني حي أعيش هذه اللحظات، سعيداً لأنه في مكان ما من تلك المدينة الكبيرة لي فتاة اسمها سانتي، إنسانة دقيقة صغيرة هائلة، في مكان ما من تلك المدينة لي حبيبة.

ظللت أمشي حتى تعدت الساعة الثامنة وأشرقت الشمس. أشاهد كل شيء وأحس به جميلاً من غير أن أراه، إذ في الواقع لم أكن أرى شيئاً بذاته أو لذاته. كانت سانتي هي أجمل ما كنت أراه في أي شيء، كلما أحسست بالجمال في الماء أو الشمس أحسست بها، وكلما أحسست بها رأيت الجمال فيما أنظر إليه ولو كنت أحدق لحظتها في أقبح الأشياء.

١٩

ورغم كل تلك التفصيلات فلا أستطيع أن أجزم إن كانت قد جاءت في ذلك اليوم أم لم تجيء، فمنذ ذلك الوقت وصور الأحداث في ذاكرتي أبقى أثراً من مواعيد حدوثها، ومع هذا فهي ليست أحداثاً كثيرة أو عظيمة الأهمية. إنها بسيطة إلى درجة لا يستطيع معها الإنسان العادي أن يصدق أنها كانت وقائع مأساة كاملة، فقد تعودنا أن تراق في المآسي الدماء وتزلزل الزلازل وتنفجر البراكي.

كل ما حدث أني بدأت خلال مقابلاتي التالية لها أحس شيئاً لم يكن موجوداً، كانت مقابلاتنا السابقة تتم بلهفة.. لهفة من جانبها ولهفة من جانبي، وطوال المقابلة أظل أتلهف على أية كلمة تخرج من فمها وتظل هي ترقب كل كلمة تخرج من فمي. أما أنا فقد ظللت على لهفتي، بل كادت لهفتي تتحول إلى نوع من السعار أو الجنون وإن كثرت محاولاتي لاخفائها أما هي فقد قل ترقبها لكلماتي أو انعدم كمن ينتظر حدوث حادث فلما طالت المدة ولم يحدث بدأ ييأس، وبدأ ينتابه شعور من اللامبالاة تجاه حدوثه، وأصبح سيان لديه أحدث أم لم يحدث. حتى مواضيع الحديث خيل إلي أننا استنفدناها كلها حتى لم يعد ثمة موضوع جديد نطرقه، أو أي جديد نطرقه يبدو قديماً معاداً لا جدة فيه، ولست أذكر متى بدأ هذا يحدث، ولكني أذكر أن سيرة شوقي جاءت مرة فلمحت بريق اهتمام

البيضاء

خافت في عينيها، وحرارة ما قد شملت صوتها، وهي تسألني عنه وعن أخباره.. ولاحظت مرة أنها اشترت علبة سجائر أمريكية وكان شوقي يدخن سجائر أمريكية.

وبدأت أشك.

أنا أعرف أن شوقي من نوع لا يأبه للنساء كثيراً ولا يهتم بعلاقته بهن أو باستلفات أنظارهن. لم ألحظه مرة أنيقاً ولم أضبطه مرة متلبساً بفرق ولو صغيراً بينه حين يتحدث لرجل وبينه حين يتحدث لسيدة. كان على النقيض مني في تلك الناحية، ولكن من يصلح لصرف أنظار سانتي عني إلا إنسان على النقيض مني تماماً؟ إنسان لا يبدو عليه أنه مهتم بها، إنسان غير محب للاستطلاع أو الاستلفات، إنسان يمضي في عمله كالسيف، إنسان كهذا لا يصلح سوى للتعلق به واحدة كسانتي.

وبدأت أحداث كثيرة تقع وكأنما وقعت كلها في وقت واحد. مرة دون أن أتوقع وجدتها تدق بابي وفتحت لها وجلسنا نتحدث، ولم يطل حديثنا ولم تطل فرحتي لمجيئها فقد دق الباب وإذا بالقادم شوقي، وكالشرارة لمع في ذهني خاطر. آه.. حتماً تواعدا على اللقاء عندي! وجلس شوقي وجلسنا وبدأنا نتحدث.

رحت أرقب نظراتها والطريقة التي تكلمه بها، والآن وأنا أكتب هذا قد أقول لنفسي إن البريق الملتهب الذي كنت ألمحه في عينيها وملامحها وهي تكلمه ممكن أن يكون بريقاً صوره لي شكي الملتهب، ولكني ساعتها كنت متأكداً تماماً من البريق الذي كان يشع منها كلما خاطبتني في أول علاقتنا. وفي تلك الليلة جاء البارودي يصحبه عطوة ورآنا جالسين، ومضى يعلق تعليقاته الخبيثة المغطاة. وكان لابد أن أعتذر عن مجيئها أمامه بعد ما أخبرني بأن مجيئها عندي أمر غير مستحب. وأخيراً انتقل من التلميح إلى الكلام

المكشوف، وقال ان وجودنا معاً في مكان واحد وبلا سبب ضروري مهزلة وأن على سانتي أن تذهب. ولعنته في سري آلاف المرات وأنا أتساءل عن كنه هذا العفريت الذي يركبه كلما رأى سانتي عندي، ولكنها قامت لتنزل. وطلبت من شوقي أن تكلمه قبل أن تنزل على حدة، وخرج لها شوقي ووقفت معه في الصالة قريباً من الباب، وجلست أنا والبارودي في حجرة المكتب يأتي همسهما الينا، ولا نتكلم نحن أو إذا تكلمنا أقول أنا كلمة فارغة تافهة أداري بها النار المتأججة في جوفي، أو يعلق البارودي تعليقاً خبيثاً مغطى.

وبدأ البارودي يضيق بصوت مسموع وينادي على شوقي، وسانتي تستمهله لتكمل الحديث معه. وأخيراً ذهبت وانضم شوقي الينا، ورحنا أنا والبارودي نصب عليه نظرات كاوية لاذعة وهو يقابلها بابتسامات محرجة كمن ارتكب ذنباً لا يعرف على وجه التحديد كنهه.

وكل هذا يحدث وعلاقة لورا بي تزداد، أو في الحقيقة مطارداتها تزداد تأتي كلما حلا لها المجيء. أعبس لها فلا ينفع فيها تكشير، وأعتذر فلا ينفع اعتذار، وفي فترات يأسي وضعفي أصمم على أن أسلي نفسي بها علها تفلح في اطفاء الحريق، وأعدها مثلا على أن نلتقي في الجزيرة، ونلتقي ونتمشى، وأضع يدي حول خصرها وأضحك معها، بينما مرارة قاتلة تتصاعد من جوفي لأني طوال الوقت أفكر في سانتي وخيبتي معها. ونلتقي مرة لنذهب إلى المعرض. وأفاجأ حين نقابل سانتي فوق الكوبري وتحيينا ونحييها. وأفرح لأنها رأتني ذاهباً مع لورا إلى المعرض، وأصاب بأشد خيبات الأمل لأني لم أجد في عينيها اهتماماً يذكر، وأقول لنفسي لابد أنها بعد أن نبتعد عنها ستستدير، وأظل أتلفت لألمح استدارتها فلا أجدها تستدير أو حتى تتمهل.

البيضاء

وتأتي سانتي لي ذات يوم صدفة، فأحس بأن زيارتها جاءت هكـذا كأنما قد تعودت على زيارة مكان وانقطعت عنه مدة وتحس احياناً بضرورة زيارته بحكم العادة، أو بحكم انقطاع العادة. تأتي وأعمل لها قهوة مثل أيام زمان، ونجلس نتحدث، ويخيل إلي أن كل شيء سيعود حتماً إلى ما كان عليه، وستعود سانتي إلى حوزتي (وكأنها كانت في حوزتـي)، ولأستثيـر اهتمامها أقول لها اني كتبت لها خطاباً، ويسعدنـي بريق الاهتمام الصـادق الذي بدر من عينيها، وبمحاولاتها الصبيانية لتفتيش أدراج مكتبي بحثاً عن الخطاب. وطبعاً كان لا يمكن أن تعثر عليه فلم أكن قد كتبته اصلا. ولا كان في نيتي كتابته. ولكني أعاهدها أني سأقرؤه لها إذا جاءت في الغد، وقـد آليت على نفسي أن أكتبه لها خلال الليل.. وأجلس على المكتب بعـد ما ذهبت أحاول كتابة الخطاب ولا أستـطيع، وكأن قوة غيبية قاهـرة تمسـك الكلمات في صدري وتحبسها ولا تستطيع ارادتي كلها بجماعها أن تخرجهـا وأخيراً جداً قرب الفجر، أكتب بضع صفحات لا حرارة فيها، كلها مـرارة وكلها ألم وسخرية، سخرية المتكبر العاجز الذي لا يريد أن يعترف بعجزه وتهافته وضعفه.

وكما توقعت جاءت في الغد، جاءت لا كما تعودت أن تجيء... إذ كنت أحس قبلا أنها آتية هدفها الوحيد هو الجلوس معي ورؤيتي، تلك المرة أحسست أن مجيئهـا عنـدي محطـة لا أكثـر. مهمـة تريد إنهاءهـا. وازداد ارتباكي. بعد مدة بدأت تتململ وتسـأل عن الخطـاب، وبـدأت أبتسـم وأحاول التخابث وأحاول أن أجرها لأحـاديث زمـان، أو على وجـه أدق أحاول أن أجعل لحديثنا طعم الحديث أيام زمان، ولكن بدا وكأن الخطاب هو الشيء الوحيد الذي يشغلها.

وأخيراً أخرج الخطاب وأقرؤه لها، فتظل تنصت وتنصت، لا تبتسم ولا

تنفعل، وحين أنتهي تقول بلهجة جادة قليلاً: سآخذه، أليس كذلك؟ أين هذا من اندفاعها الصبياني الحبيب وهي تستولي على الخطابات السابقة عنوة وتضعها في حقيبة يدها.

وبعد الخطاب لم تجد موضوعاً للحديث، قالت لي بعد صمت: ألم تر شوقي؟ لم يعد اذن بيننا ما يقال إلا أن يكون شوقي موضوعه.

كنت أتألم وأسكت، أبتلع الألم وأزداد ارتباكاً ولا أجد ما أقول وأحياناً كنت أتطلع لها، وأراها وأرى أنها هي نفسها سانتي القديمة ولكن، وكأن شيئاً فيها كان يمت إليَّ ثم لم يعد يمت إليَّ، إحساس ربما بأني أنا قد أصبحت غريباً عنها مع أنها باقية قريبة جداً إليَّ.

بعد ما أظلمت الدنيا بكثير قامت لتعود. قلت لها: أوصلك؟ ويبدو أن لم يكن لديها ما تفعله فقد وافقت، وكانت موافقتها مجرد استسلام لرغبتي واحساسي.

وفجأة ونحن في طريقنا إلى الباب وقفت أمامها في الصالة، وحدقت فيها طويلا.

وقالت لي بنفس طريقتها الآسرة في نطق اسمي:

ـ يحيى.. ماذا حدث؟

قلت: سانتي.

وأحسست أني أريد أن أنكفيء على الأرض وأظل أبكي حتى أختنق.

قلت: بودي لو تعرفين كم أحبك؟

قلتها بطريقة تمثيلية هازلة، مع أني كنت أتألم لمجرد أني مضطر لأن أسخر من هذه الكلمات نفسها.

وسكتت، وابتسمت ابتسامة لم أعرف كيف أفسرها.

وبدلا من أن أبكي جذبتها إلي بعنف فقاومت، فأمسكتها بكل قواي

ولم تتملص، ربما من شدة الألم. كانت الصالة نصف مظلمة لا يضيئها سوى النور الآتي من لمبة المكتب في الحجرة. الشيء الوحيد المضيء في الشقة كلها، وبين ذراعي كانت سانتي صغيرة دقيقة لو ضغطت عليها قليلا لتكسرت قطعاً، ولكني كنت أقبلها، عدداً لا نهاية له من القبلات، ومن يرانا هكذا يظننا حبيبين قد أوصلهما الغرام إلى الذروة، وما كان أبعدني عنها وأبعدها عني لا لأنها كانت تقاوم، فالحبيبة قد تقاوم، ولكن لأن مقاومتها كانت مقاومة انسانة غريبة غير منفعلة. ولماذا ألومها؟ هذه الرغبة التي نشبت في صدري فجأة لأحتضنها لم تكن رغبة في عمل شيء كهذا بقدر ما كانت رغبة في الاحتفاظ بها وامساكها عن أن تنزلق. كنت قد بدأت أحس أنها تنزلق بعيداً عني، تنزلق بطريقة لا يمكن ايقافها، وأنا واقف أشاهد هذا الانزلاق ولا أستطيع منعه.

ولكني فوجئت، هكذا كما تحدث المعجزة كما ينشق القمر أو تغيب الشمس في اثناء النهار، فوجئت حين شبت سانتي على اطراف اصابعها وقبلتني قبلة سريعة خاطفة وهي تقول: من تظنني؟ . . هل أنا قطعة خشب لا تحس؟

ومن هول فرحتي لم تشلني المفاجأة أو توقف تفكيري،ولم يعد مهماً عندي ان كانت قد قبلتني لأن حماستي أعدتها، أو لأن الموقف أثارها، أو لمجرد عطف انتابها. المهم أنها قبلتني قبلة لا طعم لها ولا عاطفة فيها ولكنها قبلة منها.

واحتضنتها بشدة وقد دبت في جسدي رغبة عارمة مشبوبة، وبدأت تبكي وتقول: كنت أعتقد أني لن أتأثر، ولكنك هوستني بحبك لي أخذتني من حياتي ومن نفسي. . وأنا أحب حياتي وأحب زوجي وأنت

صديق.. صديق فقط، ولكنك أعز صديق، لا شيء غير هذا، لماذا أنت مصر على أن أحبك، لماذا؟

وظلت تتكلم ولا تتوقف، ولكني أنا كنت قد توقفت عن سماع ما لا يحلو لي، كنت فقط أسمع ما اريد، ثم اصبحت لا أسمع وحمى الموقف قد أصابتني بالصمم.

والعجيب أني لم احس ابداً بشيء يشبه فرحة النصر، أما هي فقد قالت:

ـ لو كنت مكانك لخجلت من نفسي.

وآذتني كلماتها وكأنها لعنات، وقلت وصدري قد امتلأ فجأة بالحقد عليها:

ـ لو كنت مكاني؟ انك أبداً لم تحملي نفسك مشقة الانتقال إلى مكاني.

قالت في شبه صراخ:

ـ وكيف أنتقل إلى مكانك وأنا لا أحبك.. ألا تفهم هذا؟

ـ أنت من صنف ينكر على نفسه ما يريد.

ـ أنا لست هكذا.. أنت لا تعرفني ولا تفهمني ولا أريدك حتى أن تعرفني أو تفهمني.. أنا مخطئة.. أنا المخطئة.

قالت هذا وهي تدق الأرض بقدميها، وتعمدت أن أكف عن الانصات اليها، ولم يعلق بأذني الا سؤالها الملح الذي كانت تبدأ منه الكلام ثم تعود اليه:

ـ لماذا أنت مصر على أن أحبك؟ لماذا؟

وربما لأن تساؤلها ذلك كان أقرب كلماتها إلى مأساتي فكرت أن أجيبها عليه اكثر من مرة، ولكني لم أكن أعرف ماذا أقول لها، ولا كيف أطلعها على جزء من نفسي لم يره أحد مطلقاً، وكان لا يمكن لأحد أن يراه.. حتى

البيضاء

أنا أيامها لم أكن أراه ولكني كنت أحسه. جزء عميق خفي ولكنه يكاد يكون روح حياتي ومفتاح شخصيتي. احساس ربما يوجد لدى الناس جميعاً دون أن يعرفوه ولكني كنت أحسه، ومتأكد أنه لدي. احساس بثقة لا حد لها بالنفس تجاه الحياة، الاحساس الذي يلون قمة صبانا وفجر رجولتنا، الاحساس بأن لا مستحيل علينا تحت الشمس، كل ما نريده نستطيعه، وكل ما نريد أن نحلم به نحلم به، وكل ما نحلم به ففي استطاعتنا أن نحققه. .احساس عدم الخبرة كمن لا يعرف المصارعة ،ولكنه يؤمن أن في استطاعته أن يصرع أي انسان لو نازله. . احساسنا بالثقة في أنفسنا، الاحساس الذي يغادرنا حين نحتك بالحياة ونتبين من احتكاكنا بها كنه قوتنا وقصور قدرتنا عن تحقيق أحلامنا. . وحتى قصورنا عن أن نحلم. وكنت كغيري أعتقد أني إذا أردت أن أنال أية أمرأة فلابد أن أنالها، واذا أردت أن تحبني فتاة فلابد أن تحبني. . مهما كانت عيوبي، ومهما كانت الظروف التي ألقاها فيها والطريقة التي أعاملها بها، سواء أكانت زوجة أم محبة، عجوزاً أم صبية، مليونيرة أم فقيرة، فقد كانت لدي ثقة تامة انني استطيع أن أجعلها تحبني. بل أكثر من هذا كلما كانت الظروف أصعب فتنني الوضع وسلطت عليه ارادتي وكياني لأنتصر، وازداد ثقة بنفسي وأزداد ثقة بثقتي بنفسي.

وربما أردت سانتي كل تلك الارادة لاعتقادي انها منيعة فعلا وبعيدة جداً، وصعبة المنال إلى أقصى حد، ولايماني أن ظروفي أسوأ ظروف ممكن أن يظفر فيها شاب بفتاة مثلها.

في الصالة نصف المظلمة، وأمامي سانتي أقصر مني. . أحاول أن أنتهز الفرصة لأقبلها. . ومع أني كنت قد حققت هدفي القديم منها ونلتها، الا أنها لم تكن قد أحبتني كما أردت. وها هي ذي لا تزال مصرة على أنها لا

تحبني ولن تحبني، فلأدعها اذن تتحدث كما يحلو لها وتصر كما يحلو لها، ففي نفس ذلك الوقت كنت أبتسم ابتسامة شيطانية ذات بريق، أقوى من البريق الصادر من عيني، فقد أدركت لأول مرة أنها ليست قصة حب اخرى تلك التي أواجهها، ولكنها تجربة حياتي. حقيقـة كنت أحس أن صفارة البدء قد انطلقت واني انزل الحلبة لأبدأ أول صراع ينشب بين الواقع وبين ما أريد.

ويبدو أن ادراكي لكنه اللحظة التي أواجهها قد جعل البريق الصادر من عيني ينقلب الى شيء مخيف، فقد أحسست برعشة تجتاح ذراع سانتي وأنا قابض عليها بيدي، أقربها مني وأبعدها وهي تتحاشى النظر إلى عيني ومع هذا أحس بها تنزلق من قبضتي كالزئبق انزلاقاً مستمراً منتظماً من المستحيل أن يتوقف أو تفلح قبضتي في منعه. ورعشة من نوع آخر هي التي انتابتني.

ولم أفق الا حين وجدت سانتي تفلت مني فجأة، وتفتح باب الشقة وتختفي في لمح البصر داخل حلزونية السلم.. وأسرعت خلفها.. ووقفت على أعلى درجة منفعلا إلى أقصى حد وقلت:

ـ سانتي!

ولم تجب.

ومرة ثانية ناديتها: سانتي.

وأيضاً لم تجب.

ومرة ثالثة قلتها، وخرج صوتي متهدجاً يملؤه التأثر كمن ينادي على رفيقة الصعود إلى جبل حين تتركه فوق القمة وتهبط وحدها السفح، وهي عاجزة عن ايقاف نفسها عن الهبوط، وهو مقيد في مكانه لا يستطيع الا أن يبقى فوق القمة ويناديها لتعاود الصعود، وهو مؤمن أشد الايمان أنها لن تكف عن الهبوط، ومؤمن أشد الايمان ايضاً بأنه سينجح بطريقة ما، وحتى

البيضاء

بدون طريقة، بمجرد وجوده، بمجرد كيانه، بمجرد ثقته التي لا حد لها في نفسه، سينجح في ارجاعها الى القمة.. قمة حبها له.

مؤمن أن ارجاعها هذا أمر مستحيل، ولكنه ايضاً مؤمن أن من المستحيل أن يقهره المستحيل اكثر من هذا، مؤمن على أنه قادر على قهر المستحيل.

بعد أقل من عشر دقائق كنت انساناً آخر قد رش وجهه بالماء على عجل، وارتدى البدلة، ومضى يقطع طرقات الزمالك كمن فقد صوابه ويتشعبط على طرف السلم في أول أوتوبيس قادم ليقطع الثلاث محطات التي تفصل بينه في الزمالك وبين شارع بولاق الجديد، كان لي يومان لم أذهب فيهما إلى العيادة.

أدركت هذا فجأة بعد آخر نداء أطلقته وراء سانتي، وكمن يتخبط من النقيض إلى النقيض، وكمن يستخرج نفسه من الضياع الكامل ليلقي بها في أي طريق آخر لمجرد أنه يؤدي إلى شيء واضح محدد ممكن عمله، وجدتني لم أعد أفكر الا في ضرورة الذهاب فوراً إلى العيادة وبأي ثمن. وكان شارع بولاق الجديد مزدحماً كعادته طوال الليل والنهار.. مزدحماً بأناس أحس أني غريب بينهم، خجلا منهم ومن نفسي خجلا لا أعرف سببه وكأني خيبت آمالهم في شيء، وما كدت أقطع بضعة أمتار حتى فاجأتني صيحة:

ـ شوف الراجل يا خويا.. نستناه امبارح ما يجيش وأول ما يجيش.. حمد الله ع السلامة.

وعرفت أنه عنتر حتى قبل أن ألتفت، ولأول مرة وجدته وحيداً من غير عبلة، وسألته عنه، وهو بالكاد يحاول أن يلاحق خطوي الواسع، فأشاح بيده وقال:

- الولية مراته أصلها بتولد النهاردة. راح يشوف لها فرختين.. اصل خايف لحماته تدبح فراخ من اللي مربينهم فوق السطح، أصلهم بيبيضوا.. خسارة.

واستغربت لكلامه، فقد بدأ وكأنما يأتيني من عالم آخر، من دنيا مارست فيها الحياة يوماً ثم أصبحت في دنيا ثانية، أيهما الحقيقي يا ترى.. ما أحيا فيه أو ما أسمع عنه؟ الناس تحيا وتتزوج ونساؤنا تلد، والدجاج يبيض بغير مشاكل، وحتى إذا وجدت المشاكل فالحل جاهز لا يحتمل الا مجرد التنقيب.. أين هذا من مشاكلي أنا؟ عنتر وعبلة وهؤلاء الناس الذين يزحمون الشارع باسراعهم وصخبهم يضيقون بالحياة مثلما أضيق أنا بها، ولكنهم يحبونها ايضاً، يحبونها ويضيقون بها، أما أنا ما أتعسني! أنا لا أريد أن أحياها الا كما اريد.. هم يغيرون تفاصيل الحياة لتروق لهم، وأنا اريد أن أغيرها كلها جملة وتفصيلا لتروق لي. اريد أن أفعل المستحيل ولا أرضى بأقل من المستحيل.

إما حياة كاملة كما اريدها أو لا حياة.. لماذا لا أحيا مثلهم؟ لماذا ليس باستطاعتي أن أساوم؟ لماذا خلقت هكذا؟

لم أتوقف لألتقط أنفاسي أو أجمع شتات أفكاري الا حين وضعت قدمي على باب العيادة، ونظرة واحدة القيتها على الصالة أذهلتني وأوقفتني في مكاني لا أجرؤ على الدخول. كانت الصالة مزدحمة الى آخرها بالمرضى المنتظرين، ازدحاماً لم تشهد العيادة الصغيرة مثله، ازدحاماً بلغ من شدته أن بعضهم كان قد فضل أن ينتظر بالخارج، وحين ظهرت جاء يتبعني ويملأ المدخل. والنظرة الثانية القيتها على عنتر. كان قصيراً سعيداً متهدلاً كعادته، ولكن كان على وجهه ابتسامة من يخفي في جعبته شيئاً.

وقلت له همساً:

ـ إيه دول؟

قال:

ـ عيانين.. امال.. مش قلت لك يا دكتور ح تفرج.. ده بعضهم مستني هنا على الحرام من أول مبارح.. خش خش.

ودخلت. كنت قد حضرت وفي ظني أن العيادة ستتيح لي مكاناً جديداً استخرج فيه أفكاري على مهل وأعيد النظر فيها، ولكن شد ما خاب أملي:

الازدحام والضجة التي قابلتها بنفسي أول الأمر فرضا بعد قليل نفسيهما علي، وأعنف الأفكار وأحدها قد يذيبها من العقل تماماً وجودك في حضرة انسان. إنه وهو الكائن الحي المتحدث أشد مفعولا من أعمق الأفكار. فما بالك وهم عشرات من الكائنات الانسانية الحية التي جلست تحكي قصتها مع المرض، وتطلب بأمل والحاح علاجك ورأيك. ذهب فجأة كل ما كان يشغل بالي.

ولم يعد رأسي سوى مكان التقاء وتفاعل بين الداخل الى حجرة الكشف أو الخارج منها وبين كل ما درسته ووعته ذاكرتي من معلومات.. وفي خضم فرحتي بالعدد الكبير من الناس الذي أصبحت محل ثقته وملجأه لم يدهشني كثيراً أني وجدت بعضهم لا يعاني من أي مرض بالمرة. وعزوت هذا للوهم أو لذيوع صيتي في الحي ورغبتهم في عرض أنفسهم علي.

ولم يحتج الأمر وقتاً طويلا لتظهر آثار واضحة لهذا الإقبال غير المتوقع. فقد زارني صاحب الأجزخانة المجاورة ليلتها، وبدأ حديثه بعتاب طويل لأني أمر عليه ولا ألقي السلام ولم أزره ولو مرة، وأنهاه باستعداده لأية خدمة ولأي تخفيض، فقط ما علي إلا أن آمره. وكذلك جاء أناس أفندية وأولاد بلد من الحي لا أعرفهم كان عنتر يقدمهم لي ويضخم في اسمائهم

ويعدد مناصبهم ونفوذهم، وكانوا هم يحيونني ويشيدون بي وبمهارتي التي «طبقت شهرتها الآفاق» وكنت أخجل أنا وأتواضع وكأن شهرتي كطبيب قد طبقت الآفاق حقيقة. وكان عنتر في خير حالاته، يضحك ووجهه السمين يلمع بالعرق والاحمرار والانفعال. ولم تنته العيادة الا في منتصف الليل، وكان الايراد يسمح لي بأخذ تاكسي لو أردت، ولكني آثرت أن أقطع المسافة بين بولاق والزمالك سيراً على الأقدام، كنت في حاجة لدقائق أخلو فيها لنفسي بعد هذا الازدحام، حاجة ملحة لم يكن يمنعها الا العمل المستمر، وكنت اريد أن أفكر في الخلاء، في الخارج، بعيداً عن البيت وفراشي وحجرتي، وكأني كنت آمل أن يتغير طعم أفكاري اذا غيرت المكان، ومن يدري؟ ربما وجدت أيضاً ما أبحث عنه وما شيبني البحث عنه.

وعدت إلى البيت ماشياً أفكر كما أردت، ليس هذا فقط بل انقضت بضعة أيام ـ ثلاثة أو أربعة لا أذكر ـ وأنا أيضاً أفكر، لم تكن سانتي قد جاءت خلال تلك المدة أو سمعت عنها شيئاً. وكنت لا أزال في نفس الحالة، بل تقريباً أعيش في نفس اللحظة التي غادرتني فيها وأنا أنادي عليها وهي لاتجيب. وكلما كنت أغرق في التفكير كان اضطرابي يزداد، ولم يكن هذا لتخلخل أصاب ثقتي بنفسي ولكن لأني في الحقيقة لم أكن أعرف ماذا يجب علي أن أفعل تجاه هذا المستحيل الذي قررت أن أقهره وأنتصر عليه.

في كل ثانية من تلك الأيام القليلة كنت اذا رفعت الغطاء عن عقلي وجدته يسأل نفسه: ماذا يجب علي أن أفعل؟ يسأل وفي نفس الثانية يرفض كل ما يقترحه على نفسه من اجابات وحلول. كنت أحس أني عاجز عن التصرف تجاه هذا الموقف الجديد علي.. لو كنت قد قررت أن أخترع صاروخاً يوصلني إلى القمر مثلا باعتبار أن هذا شيء مستحيل على شخص

مثلي لكان الطريق واضحاً، ولكان علي أن أبدأ فوراً في دراسة كافة الحقائق المتعلقة بالموضوع. أما وهدفي كان أن أحتفظ بسانتي وأجعلها تحبني على الرغم من ادراكي أن هذا شيء مستحيل، فلم يكن أمامي ثمة طريق ممكن أن أتبعه. هل «أتقل» عليها؟ وكيف أتقل عليها وهي بعيدة عني؟ هل اذا جاءتني أتجاهلها وأقابلها مقابلة عادية جداً وأمثل أمامها دور الزاهد فيها المشغول بغيرها؟ ولكن ربما دفعها هذا لأن تزهدني هي اكثر وأكثر. هل أقبل عليها وأركع أمامها؟ ولكن سلوكاً كهذا لا يمكن أن يدفع امرأة في الدنيا للحب؟ هل أكتب لها؟ ولكني كتبت وكتبت وقلت كل ما يمكن كتابته، وتكلمت معها وتكلمت حتى قلت كل ما يمكن قوله، لدرجة اني ذات مرة قلت لها: أعتقد أني تحدثت كثيراً. فابتسمت وقالت بقليل من الجرأة: يبدو أنك تتحدث أكثر من اللازم فعلا. بل ما زلت أذكر ضمة شفتيها وهي تنطق «أكثر» بالانجليزية. هل أقدم على عمل آخر؟ ولكنها ضاقت بما فعلته بطريقة أزعجتني وأخجلتني. وحتى ما فعلته كان سببه ذلك الأثر الخاطف لقبلتها، كان شدة انفعال مني لا أكثر. إذ أني أبداً لا استطيع اغتصاب قبلة منها عن عمد واصرار. ثبت لي هذا وأعرف أكثر أن الذي يغتصب هو من لا يحب، أما من يحب انسانة ما فهو لا يستطيع أن ينالها رغم نفسها أبداً.

في كل ثانية كان السؤال يدور بالحاح في عقلي، وفي كل ثانية أطرح عشرات الاجابات وأرفضها وأحس بالعجز والتعب فأروح أحلم، أحلم اني استطعت أن أجعلها تحبني بطريقة ما، وأحلم بسعادتي حين يحدث هذا. . أحلم بالمستحيل، أو يدفعني العجز الى الشك فأقول لنفسي: لماذا لا تكون في هذه اللحظة بالذات التي تفكر أنت فيها مع شوقي مندمجة في حديث ساحر معه؟ لماذا لا تكون واهماً وعلاقتكما قد انتهت من نفسها

الى الأبد وهي الآن تبحث عن علاقة اخرى وشخص آخر؟

وهكذا أجد نفسي بلا وعي أبحث عن شوقي وأتعمد أن أقضي معه أكبر وقت ممكن. ولكن لم يكن باستطاعتي أن أبقى معه طول الوقت. كانت أعماله كثيرة وخروج البارودي قد أشاع موجة نشاط غامرة في المجلة وفينا بشكل عام، لا لأنه حمسنا، ولكن ربما لمقاومة آثار خروجه، وللحيلولة بينه وبين أن يعود رئيساً مرة اخرى للتحرير. ولكنا كنا نكبت رغبتنا الخفية هذه في أنفسنا ولا نعارض عودته جهراً، وهو ايضاً لم يكن يبدي رغبته في العودة عياناً بياناً، بالعكس كان يصرح دائماً بأن مرض عينيه سيعوقه، وأنه في حاجة لأجازة طويلة يعالج فيها بصره، وفي نفس الوقت تزداد حركته وتتضاعف، ويخرج من اجتماع ليدخل في اجتماع، ويناقش ويتدخل في كل كبيرة وصغيرة، ويقترح فاذا لقيت اقتراحاته معارضة يحاول شيئاً فشيئاً أن يفرضها. ولم يكن ينافسني في البحث عن شوقي والالتصاق به والبقاء معه ليلاً ونهاراً إلا وهو. بدا انه من أول وهلة لمس بذكائه الخارق أن شوقي هو رأس الرمح في التيار الثائر الجديد، وأنه قائده، وأن هناك اجماعاً على أن يبقى في منصبه كرئيس للتحرير حتى بعد خروجه هو- رئيس التحرير الأصلي. ولو كان شوقي ضعيفاً أو أقل كفاءة لسحقه، ولكن أحمد شوقي اسم وكفء ومحل ثقة الجميع؛ وفوق هذا وذاك تلميذ البارودي وصديقه. الطريقة المثلى اذن أن يحيطه ويأخذه تحت جناحه حتى إذا ما ابتلعه وأعاد صياغه تفكيره أصبح تحطيم بقية هذا التيار الصاعد مهمة سهلة. أفكار كهذه كانت كثيراً ما تخطر لي وأنا محموم أبحث عن شوقي، وأجد البارودي هو الآخر لا يقل عني شغفاً في البحث عنه. أنا اريده من أجل سانتي وهو يريده من أجل رئاسة التحرير. وكثيراً ما كان يختفي شوقي وأسأل عنه في المطبعة فلا أجده، وأسأل عنه في بيته فلا أجده، وأكاد أقسم لنفسي حينئذ

البيض

وأقول: لابد أنه معها. ويؤلمني تفكيري على هذا النحو لا لخوفي أن يكون معها ولكن لأني لم أكن أعتقد أن سيأتي يوم أنظر فيه لأحمد شوقي ـ الصديق وزميل المعركة ورفيق السلاح ـ تلك النظرة المغرقة في بعدها عن نوع علاقتي بسانتي وحبي لها الى هذا الدرك؟ الى هذا السرداب المظلم المتعفن الذي انسى فيه نفسي وقيمي ولا أعود أحكم على أعز الأشياء وأقدسها الا من خلال علاقتي بها؟

عذاب ما كنت أحسه، أبشع أنواع العذاب. اذا سألت نفسي ماذا أفعل عذبني السؤال، واذا أجبت عذبتني الاجابة، واذا حلمت تعذبت وإذا شككت أقاسي أمر الهوان.

كل قوتي وكل طاقتي وارادتي وقدراتي كنت أجمعها وأحشدها وأحيا بها المشكلة محاولا أن أجد المخرج. . وأفظع شيء أن تجمع قواك كلها لتفعل بها لا شيء، كياني كله يزأر، وكل خلية فيّ تعوي وتصرخ، وأعتصر نفسي كلها وأفكر وأخرج من هذا كله بلا شيء، حتى قارب تفكيري في نهاية تلك الأيام القليلة أن يصبح لوناً غريباً من التفكير، مجرد تفكير متصل طويل لغير ما هدف أو فكرة، تفكير على الفاضي، تحس في لحظات أنه على الفاضي وأنك لا تطحن به فكرة محددة، وانما تفري به عقلك ومع هذا لا تستطيع أن توقفه أو تكف عنه.

وبمثل ما توقفت توقفت الحياة من حولي، العمل لا أذهب إليه والطعام بالكاد أتناوله، وحتى الكتابة في المجلة كدت أتوقف عنها.



٢٠

وبكل هدوء ولا ضجة استغراب أو احتجـاج، وكأن الدلائـل كلهـا كانت أو تشير الى احتمال وقوعه، تقبلـت ما حدث في اليوم التـالي لذلك الاجتماع العاصف. كنت قد نمت على أمل أن أفكر في الغد، وجاء الغد بمشاغل العمل التي تتولى غسـل المخ بكل ما فيه من خيالات وحقائـق وبعد الظهر جاءني شوقي، جاداً قليلا على غير العادة، وفي ختام حديثـه معي أبلغني بطريقة عابرة أن مجلس التحـرير قد أصـدر قراراً يقضي بمنـع سانتي من المجيء إلى بيتي، وكذلك يأمرني بعدم الاتصال بها. اصطنعت الدهشة الغاضبة وأنا أحاول أن أجادل في أسباب القرار وجدواه، وأخذت أردد ألفاظاً جوفاء كثيرة لا معنى لها، لا لرغبة حقيقية في الجدل وانما لكي يبدو موقفي طبيعياً، غير أن شوقي قال بملامح غائمة: ولماذا تحتج والمسألـة لا تعدو أن تكون اجراء وقائياً هدفه حمايتك وحمايتها؟

قلت له وكأني احدث نفسي: اذا كان الهدف الأمان فهـم احـرار في اتخاذه. . أما لو كان الهدف شيئاً آخر. .

وأكملت بقية الجملة تحديقاً في ملامح شوقي لعلي المح الأسباب الحقيقية التي دعتهم لاصدار القرار، تراهم عرفوا، تراهـم خمنـوا، والى اي مدى بلغت بهم المعرفة أو التخمين؟ كنت أدرك أن البارودي وراء القرار لا شـك

وأدرك أكثر أن الأسباب التي دعته كي يوقفني وجهاً لوجه أمام هذا الاجراء «الرسمي» أسباب لا تمت الى البراءة بصلة. ولكني لم أجد في ملامح شوقي أية علامات تدل على انفعال حقيقي، لا غضب ولا لوم ولا برود.. ترى أهو قناع يغطي به وجهه وخواطره، أم أني أبالغ وأتصور وأجري وراء مبالغاتي وتصوراتي؟

وعجبت، لم أعجب منه ولكن عجبت من نفسي، طوال علاقتي لخفية بسانتي كان أخوف ما أخافه أن يعرف شوقي أو البارودي أو أي من الآخرين ما يدور بيني وبينها. وهذا القرار يدل بشكل قاطع على أنهم حتى إذا لم يكونوا قد عرفوا فثمة رائحة لا بد قد تسربت وكشفت عن وجود موضوع. فلماذا لا أحس بالخجل الشديد الذي كنت أتصور أني لا بد سأشنق نفسي لاتلافاه؟ أغرب من هذا، لماذا أحس بالراحة وكأن عبئاً قد انزاح عن كاهلي، وغيري هو الذي تولى مهمة ازاحته؟ لا أظن أني لحظتها عرفت الاجابة على وجه الدقة، وحتى إلى الأن، ولكن يخيل إليّ أن ما من شيء نفعله من وراء ظهور الآخرين ونخاف خوف الموت أن يعرفوه. إلا ونحن نتمنى في نفس الوقت لو يحدث ما يجعلهم يعرفونه ويعاملوننا على أساسه.

أحسست بنوع حرام من الراحة،ولكني لم أستمتع به، ففي الحال تذكرت سانتي ولم يلبث قلقي عليها أن أكتسح أمامه كل شعور آخر، فاذا كان كشف الآمر سيريحني فهو حتماً سيسبب لها المتاعب، سألت شوقي ان كانوا قد أبلغوها القرار فأجابني أنهم لم يفعلوا بعد، وأنه هو شخصياً مكلف بابلاغها اياه.

ورغماً عني وجدت نفسي، بغضب حقيقي هذه المرة، أحذره بكل ما أملك من قدرة على التأكيد والتهديد من مغبة أن تلمح سانتي من كلامه أو

طريقة ابلاغه أية بادرة تدل على محمل آخر للقرار. وبغير انفعال أو تأثر طمأنني شوقي. ومن لهجته ازداد يقيني، اذ لم يبد عليه أنه دهش لانزعاجي او تهديدي وكأنه كان يتوقع أن أنزعج وأهدد. لابد أنهم فعلا أصدروا القرار بهدف مبيت آخر، ولأسباب أكثر استخفاء من قصة الأمن التي ما عدت أصدقها.

ولم يمكث شوقي طويلا، فمنذ أن جاء لم يكن بادياً عليه أية رغبة من اطالة الحديث أو الزيارة، وكأنما قد جاء خصيصاً ليبلغني بطريقة مخففة مهذبة ذلك القرار.

وللحظة واحدة، وأنا أشد على يد شوقي مودعاً، عشت في أمنية بدت عريضة كالحلم العريض، خاطفة كبارقة الأمل، أن تكون النهاية في هذا القرار. أن يكون الخاتمة للمأساة المعقدة التي عذبتني، وللمرض الطويل. أجل المرض الذي أخذت في تلمس الشفاء منه، ولعلي لهذا استرحت لأنهم عرفوا، فقد كنت دائماً أتخيل النهاية حين يعرف الموضوع وتصبح العلاقة أمراً علنياً مشيناً، بعدها قطعاً سأثوب إلى نفسي وتهبط حوافزي كلها وتخمد النيران.

ولكنها لحظة واحدة، ففي اللحظة التالية مباشرة بعد اختفاء شوقي كانت ابتسامة غريبة تعلو وجهي، اذ الخاطر الذي تملكني كان شيطانياً غريباً، النقيض تماماً للخاطر الأول، فما كادت الصدمة وكل ما خلفه القرار في نفسي من انفعالات تتلاشى حتى وجدتني سعيداً بالقرار سعادة خفية حقيقية، فمنذ اليوم الذي بدأ فيه البارودي يلاحظ تردد سانتي ويشير اشارات مبهمة ساخرة الى هذا المجيء! ومنذ بدأت راقية وشوقي والأصدقاء يرونها ويصبح مجيئها أمراً علنياً يعرفه الجميع، بدأت أشياء تحدث في نفسي وتجعلني لا أعود أرضى أو أعجب بتلك العلاقة التي أصبحت علنية. فحتى

لو بقي ما يدور بيني وبينها سراً لا يعرفه احد، فمجرد أن يرانا الناس معاً مجرد أن أوجد معها في مكان يحتوي أحداً غيرنا، مجرد احساسي أن طرفاً ثالثاً قد أصبح له وجود في علاقتنا مهما بلغت تفاهة هذا الوجود، كفيل بأن يفقدني الحماس للعلاقة التي أردت لها دائماً وعملت أن تظل خفية، متناهية الخفاء، تكاد الروعة كلها تتجسد في سريتها. والآن وبعد ذلك القرار، فأية علاقة مقبلة بيني وبينها لن تكون الا في الخفاء، لن تكون الا كما اردتها دائماً خفية وسرية ومتكتمة ورائعة الروعة كلها من أجل ذلك كله.

كم جاء حكيماً وجميلا وفي وقته ذلك القرار.

* * *

وضاعت ايامي.

ولم أعد استطيع الصبر. لقد نفذت هي القرار وكفت عن زياراتي واختفت تماماً من الوجود. ظلت تتفرج مستمتعة بمشاهدتي أحبها وبقراءة خطاباتي.. ثم جد الجد، اختفت. وكان هذا كله كفيلا بأن أكرهها وأنساها.

ولكن المشكلة اني كنت قد وصلت إلى مرحلة اليأس الكامل.. يأس من أن أشفى منها. نسيت مشاريعي وخططي، نسيت قراري بأن أستحوذ عليها وأهجرها، حتى لم أعد أذكر أني صممت ذات يوم على الكف عن التعلق بها. كان حنيني لأراها، مجرد أن أراها قد أصبح أقوى من كل شيء، أقوى من غضبي وضياعي. كان مرضاً.. كان جنوناً.. كان شيئاً اعتى من المرض والجنون.

وليال طويلة قضيتها على مقعد متنزه أمام منزلها، أصادق حراس الليل واسليهم على أمل أن أراها، وهي هابطة من منزلها الى عملها في الصباح، وفي احيان كثيرة لا أراها، وفي احيان قليلة جداً ـ نادرة ـ أراها، وارتجف ارتجافاً

حقيقياً أمام أعين اصدقائي من الحراس، لمجرد ظهور شبحها الحبيب في فتحة الباب.

العيادة أغلقتها وبعتها وقد عرفت أنها ستستخدم باباً خلفياً للرشوة والاجازات، وعملي أخذت منه اجازة، وسكرتير النقابة قد أصبح سكرتيراً للجنة «حركة التحرير». كيف أنساها وأعود أحيا؟

كيف وأنا قد عرفت عن يقين أنها لم تعد تأبه لي فقط، ولكنهاأنشأت مع شوقي علاقة وطيدة، وأن زوجته تهدد بالطلاق، وأنني رغم هذا كله لم أكف عن حبها ولن أكف. وأني قطعاً وبالتأكيد هالك، وقد بدأت أتناول الحبوب المهدئة وأنام بالمنومات وأستيقظ بالمنبهات،وعقلي كله أراه رأي العين ينفصل شيئاً فشيئاً عن واقع الحياة ويتصاعد متصوفاً في عبادتها وكأنها تجردت هي الأخرى ووصلت الى معنى الله.



خاتمة

بعد أسابيع قليلة فوجئت في الثانية من صباح ذات يوم بطرق خفيف متلصص على بابي. من أول طرقة أدركت أن ساعة السجن حانت ودخل الضابط، مؤدباً، أبيض الشعر يكاد يذوب رقة. فتش البيت واستغرق في تفتيشه ست ساعات، وفي الصباح اقتادني الى القسم ومنه الى السجن.

وفي السجن بدأت حياة جديدة.

وفي السجن وافاني شوقي بعد أسابيع من الهرب، وعلمت أن سانتي غادرت البلاد، وأن لورا اعتقلت هي الأخرى وأنها بجوارنا في سجن الحريم. وكم هفت نفسي لأراها، أنها البقية الباقية من سانتي وأيام سانتي.

أما البارودي فقد ظل أعمى يقود

وحين أفرج عني بعد عامين.

كانت سانتي قد أصبحت صورة وكلمات، وكانت أيامي المشحونة معها قد بردت وتقلصت واستكانت في زاوية من نفسي، ربما لتعود الى الوجود بشكل آخر.

ولو أن أحداً قد لوح لي أن سانتي ممكن أن تتحـول ذات يوم الـى ذكرى، مجرد ذكرى لخنقته احتجاجاً وغضباً.

ولكن أحداً لم يقلها، حتى أنـا لم أقلهـا لنفسـي، انمـا بلا قول أو ضجيج تكفل الزمن بكل شيء، وفي صمت وبلا مؤثرات.

الزمن القاتل.

نهاية الأشياء..

القاهرة في صيف ١٩٥٥

«انتهت»

ح.التونى

جمهورية فرحات

المقدمة

بقلم: الدكتور طه حسين

هذا الكتاب ممتع أقدمه للقراء سعيداً بتقديمه أعظم السعادة وأقواها لأن كاتبه من هؤلاء الشباب الذين تعقد بهم الآمال وتناط بهم الأماني ليضيفوا إلى رقي مصر رقياً، وإلى ازدهار الحياة العقلية فيها ازدهاراً.

وكان كل شيء في حياة هذا الشاب الأديب جديراً أن يشغله عن هذا الجهد الأدبي وأمثاله بأشياء أخرى، ليست أقل من الأدب نفعاً للناس وإمتاعاً للقلب والعقل.

فهو قد تهيأ في أول شبابه لدراسة الطب، ثم جد في درسه وتحصيله حتى تخرج وأصبح طبيباً. ولكن للأدب استئثاراً ببعض النفوس وسلطاناً على بعض القلوب لا يستطيع مقاومته والامتناع عليه إلا الأقلون.

وقد كلف هذا الشاب بالقراءة، ثم أحس الرغبة في الكتابة، فجرب نفسه فيها ألواناً من التجربة، ثم لم يملك إلا أن يمضي في تجاربه تلك وإذا هو أمام كتاب يريد أن يخرج للناس فيخرجه على استحياء. ويقرأ الناس كتابه الأول «أرخص ليالي» فيرضون عنه ويستمتعون به، ويقرؤه الناقدون للآثار الأدبية فيعجبون له ويعجبون به ويشجعون صاحبه على المضي فيه ويظهر هذا الكتاب.

وأقرؤه فأجد فيه من المتعة والقوة ودقة الحس ورقة الذوق وصدق الملاحظة وبراعة الأداء مثل ما وجدت في كتابه الأول، على تعمق للحياة وفقه لدقائقها وتسجيل صادق صارم لما يحدث فيها من جلائل الأحداث وعظائمها لا يظهر في ذلك تردد ولا تكلف، وإنما هو إرسال الطبع على سجيته كأن الكاتب قد خلق ليكون قاصاً، أو كأنه قد جرب القصص حتى استقصى خصائصه ونفذ إلى أسراره وعرف كيف يحاوله فيبرع فيه. وكنا نعجب فيما مضى بطائفة من الكتاب المجودين في الغرب لم يتهيئوا للأدب عن عمد ولم يجعلوه لحياتهم غاية، وإنما أنفقوا جهدهم كله في درس الطب والتخصص فيه وفرض الأدب نفسه عليهم فرضاً فبرزوا فيه أي تبريز. ثم رأينا هذه الظاهرة نفسها تمس بعض أطبائنا فينشأ منهم شاعر بارع كالدكتور إبراهيم ناجي رحمه الله، وينشأ منهم الكاتب المتفوق الذي يتاح له من صفاء الذوق ونفاذ البصيرة وسعة العلم والفقه بأسرار الحياة، فيخرج في اللغة العربية كتباً أقل ما توصف به أنها تجمع بين الروعة والمتعة وتغنى حاجتنا إلى القراءة التي تلذ القلب والذوق والعقل جميعاً كالدكتور محمد كامل حسين.

وكاتبنا هذا يمضي في هذه الطريق ثابت الخطو، وما أشك في أنه سيبلغ من الأصالة والرصانة والتفوق ما بلغ الذين سبقوه.

وهذه ظاهرة جديدة في أدبنا العربي الحديث إن دلت على شيء فإنما تدل على أن سلطان الأدب العربي ما زال قوياً، وقدرته على الاستئثار بالقلوب والنفوس مازالت نافذة، وعلى أن جذوة الأدب يذكيها ويقويها أن تجاور العلم في بعض القلوب والعقول فتستمد منه قوة وأيداً ومضاء قلما يظفر بها الذين يفرغون لتنميق الكلام ويصرفون عن حقائق العلم صرفاً. وأي فنون العلم أجدر أن يفقه الناس بالحياة ومشكلاتها وما تكلف

جمهورية في حات

الأحياء من ألوان العناء من الطب. فالطبيب يخالط الإنسان مخالطة لا تتاح لغيره من أصحاب العلم. يخالطه صحيحاً ويخالطه عليلاً ويبلو ألم جسمه وآلام نفسه أصدق البلاء وأعمقه، ويفتح له ذلك أبواباً من التفكير تنتهي به أحياناً الى الفلسفة العليا، وتنتهي به أحياناً أخرى إلى الأدب الرفيع الذي يحسن فيه الانسجام بين الحس الدقيق والشعور الرقيق والذوق المرهف والعقل المفكر. وتتيح له ذلك قدرة على التصوير الفني لحياة الناس وما يزدحم فيها من الألم والأمل، ومن السخط والرضى، ومن الحزن والسرور، قلما يتاح لغيره من الناس.

وربما منحه قدرة أخرى على فهم الملكات الإنسانية، ورد أعماله وما يختلف عليه من الأحداث وما يكون لهذه الأحداث من تأثير فيه إلى أصولها ومصادرها التي أنشأتها وصورتها تصويراً لا يحسن فهمه إلا من يعرف دقائق النفس والجسم جميعاً، وما يكون بينهما من توافق أحياناً ومن تخالف أحياناً أخرى. وإذا أتيح الفن الأدبي للطبيب امتاز أدبه بالدقة والصدق وتجنب الألفاظ العامة المبهمة، والعبارات التي تبهر الأسماع ولكنها لا تصل الى القلوب ولا تحصل في العقول شيئاً.

وقد أتيح لكاتبنا من هذا كله الشيء الكثير، فهو لا يحب التزيد في القول ولا يألف تبهرج الكلام، ولن تجد عنده كلمة قلقة عن موضعها أو عبارة إلا وهي تؤدي بالضبط ما أرادها على تأديته من المعاني.

هو طبيب حين يكتب يضع يده على معناه كما يضع يده على ما يشخص من العلل حين يفحص مرضاه، وينقل إلينا خواطره كما يصور أوصاف العلل، وكما يصف لها ما ينبغي من الدواء.

وله بعد ذلك خصلة تميزه من غيره من كتاب الشباب، فالميل إلى

تصوير الحياة الاجتماعية ظاهر عند أدبائنا من الشباب تختلف حظوظهم منه ويختلف توفيقهم فيه ،ولكن كاتبنا لا يميل الى تصوير الحياة الاجتماعية وما فيها من الآمال والآلام فحسب، ولكنه يحسن تصوير الجماعات ويعرض عليك صورها كأنك تراها.

فلم أر تصويراً لشارع أو ميدان تختلط فيه جماعات الناس على تباين أشكالهم وأعمالهم وألوان نشاطهم كما أرى عند هذا الكاتب الشاب.

ثم لا يمنعه ذلك من أن يفرغ للفرد فيحسن فهمه وتصويره في دقة نادرة، كل هذه الخصال تبشر بأن كاتبنا جدير أن يبلغ من فنه ما يريد ولكني أتمنى عليه شيئين.. أحدهما ألا ينقاد للأدب ولا يمكنه من أن يشغله عن الطب أو يستأثر بحياته كلها. فالأدب يجود ويرقى ويمتاز بمقدار ما يجد عند الأديب من مقاومة له وامتناع على مغرياته وانصراف عنه بين حين وحين..

وما أشك في أن عنايته بالطب حين تتصل وتقوى ستمنح أدبه غزارة إلى غزارته وثروة إلى ثروته، وستزيد جذوته ذكاء وقوة ومضاء.

والثاني أن يرفق باللغة العربية الفصحى ويبسط سلطانها شيئاً ما على أشخاصه حين يقص كما يبسط سلطانها على نفسه، فهو مفصح إذا تحدث، فإذا أنطق أشخاصه أنطقهم بالعامية كما يتحدث بعضهم إلى بعض في واقع الأمر حين يلتقون ويديرون بينهم ألوان الحوار.

وما أكثر ما يخطىء الشباب من أدبائنا حين يظنون أن تصوير الواقع من الحياة يفرض عليهم أن ينطقوا الناس في الكتب بما تجري به ألسنتهم في أحاديث الشوارع والأندية. فأخص ما يمتاز به الفن الرفيع هو أنه يرقى بالواقع من الحياة درجات دون أن يقصر في أدائه وتصويره..

والأديب الحق ليس مسجلاً لكلام الناس على علاته كما يسجله الفونغراف، كما أن المصور الحق ليس مسجلاً لواقع الأشياء على علاتها كما يصورها الفوتغراف، وإنما الفرق بين الأديب والمصور وبين هاتين الأداتين من أدوات التسجيل أنهما يصوران الحقائق ويضيفان إليها شيئاً من ذات نفسيهما هو الذي يبلغ بها أعماق الضمائر والقلوب، ويتيح لها أن تبلغ الأديب والمصور من نفوس الناس ما يريدان، وإلا فما يمنع الكاتب من أن يصطنع أداة من هذه الأدوات التي تسجل ألفاظ الناس ثم يضيف إلى أصواتهم صوته بلغتهم التي يتكلم بها هو حين يتحدث إليهم ثم يعرض عليهم ذلك،كما يعرض تسجيل الأصوات لا يتهيأ له ولا يتألق فيه.

ليصدقني الشباب من أدبائنا أن من الحق عليهم لمواهبهم وأدبهم أن يتمعنوا فهم المذاهب الأدبية أكثر مما يفعلون. . وألا يخدعوا أنفسهم بظواهر الأشياء فيفسدوا مواهبهم ويفسدوا أدبهم أيضاً.

أما بعد فإني أهنيء كاتبنا بجهده هذا الخصب، وأتمنى أن أقرأ له بعد قليل كتباً أخرى ممتعة إمتاع هذين الكتابين وتمتاز عنهما مع ذلك بصفاء اللغة وإشراقها وجمالها الذي لم تبلغه العامية، وما أرى أنها ستبلغه في وقت قريب أو بعيد.

«طه حسين»

جمهورية فرحات

ما كدت أدلف إلى القسم ومعي الحرس حتى أحسست بانقباض مفاجىء، لم تكن تلك أول مرة أدخله ولكنها كانت المرة الأولى التي أرى القسم فيها في الليل، ولهذا شعرت حين تخطيت الباب أني أدلف إلى خندق سفلي لا يمت إلى الحاضر ولا حتى إلى الماضي القريب.. جدران يكسوها حتى منتصفها سواد على هيئة طلاء وكآبة تكسو نصفها الثاني.. وبقع بيضاء مبعثرة هنا وهناك لا تخفف السواد بقدر ما تظهر بشاعته، وأرض لزجة لا تدري إن كانت من الأسفلت أو من الطين ورائحة.. رائحة لا تستطيع أن تحدد كنهها وإنما لا بد أن تحس معها بغثيان، وضوء باهت يأتي من مصابيح بالغة القدم عشش عليها الذباب وباض.. مصابيح معظم ضوئها محكوم عليه بالسجن المؤبد داخلها والقليل الذي يتسلل منها هارباً لا يبدد الظلام بقدر ما يحتمي به ويتستر وإن وقع على الأشياء والناس فإنما ليظهر كل ما بها من حزن وقبح وبشاعة..

وأحسست حين احتواني هذا كله وأصبحت جزءاً لا يتجزأ منه والناس من حولي على سيماهم جد خطير يمشون كالمنومين، وصناديق الفاكهة وعربات اليد وكراسي المقاهي التي صادرها بوليس البلدية وهي

مكومة في ركن، وأصحابها متناثرون حول الجدران والأركان متهالكين على الأرض ورءوسهم مائلة على حجورهم، والعساكر يبدون في أرديتهم السوداء كعفاريت منتصف الليل. .

أحسست حين احتواني هذا كله أنني لا بد أنا الآخر قد ارتكبت جريمة ونسيت، وتمنيت أن أهرب من المكان بأسرع ما أستطيع. ولم أكن أستطيع مغادرة المكان فقد كان علي أن أحجز في القسم ليلة لأرسل إلى النيابة في صباح الغد. . واحتاروا أين يضعونني فالحجز كان ممتلئاً والحجرة الأخرى التي يوضع السياسيون فيها عادة تعج بالمراقبات وصاحبات الحرفة، ولم يجدوا لي في النهاية خيراً من حجرة الضابط النوبتجي. . وهناك تركت ومعي حارس. .

كانت الحجرة على سعتها تضيق بمن فيها، وكان أبرز الموجودين جميعاً الضابط النوبتجي. وحين رأيته جالساً إلى مكتبه كالحكمدار وعلى يمينه فوهات أكثر من خمسين بندقية مغمدة في فضاء الحجرة، وخلفه اللوحة الخشبية المثبتة في الجدران والمثقلة بألوان وأشكال من السلاسل والقيود والدروع والبلط والخوذات، وعلى يساره الخزانة الحديدية القديمة. . حين رأيته هكذا تخيلت أن لا حدود لرهبته وقوته، وأنه يستطيع ببساطة أن يقضم ذراعي أو يضع أصبعه في عيني، مع أني كنت متأكداً أن لا شأن لي به ولا شأن له بي. .

ووجدتني أترك كل ما في نفسي وكل ما يشغلني وأنضم إلى جيش العيون المنصبة عليه من الناس المزدحمين أمامه، والذين لا يفصله عنهم إلا سور خشبي منخفض. .

وبدا لي أول الأمر وكأنه ليس بكائن حي. . وإنما جسده قد صنع من

طلاء الجدران الأسود، ورأسه خوذة من الخوذات المعلقة وراءه، وعيناه فتحات بنادق، ولسانه لا بد كرباج. .

ولكني حين هدأت قليلاً واعتدت على المكان، وتأملت كيف وضع «الكاب» فوق رأسه في وقار مخيف، وزرر معطفه الضباطي ـ على غير العادة ـ إلى آخر زرار فيه، وشد جلد وجهه في تزمت صارم فاختفى كل ما فيه من تجاعيد وأصبح أملس كجلد الطبلة المشدود، وأضفى على نظرات عينيه بريقاً تحس معه أنه لا ينظر بهما إلى الناس بقدر ما ينقر ويلسع وحمل صوته ما لا يطيق وهو يشخط ويهدر بكلمات غير مفهومة كأصوات الرصاص. .

حين تأملت كل هذا بدا لي حينئذ كأحد الجنرالات الطليان الأسرى الذين كنا نراهم أثناء الحرب. . وحدث أن جاء شاويش أو بيتشاويش لا أذكر ووقف أمامه ونادى عليه:

ـ يا فرحات. .

عجبت كيف ينادي بلا تكليف هكذا، ولكن عجبي زال حين قال مرة أخرى:

ـ يا فرحات. . ياسي فرحات. .

ولم يرد الضابط النوبتجي إلا بعد أن قال له الرجل. . يا حضرة الصول. .

وكنت قد اقتربت حتى استندت مع غيري من المستندين على السور الخشبي وسمعت لهجته التي فيها آثار باهتة من ريف الصعيد، ونم صوته العالي عن الفضاء الواسع الذي ترعرع فيه، وعن مستلزمات الوظيفة من شخط ونطر وقد عملت عملها طوال تلك السنين فأتلفت صوته وأضافت

إليه حشرجة كالتي تلحق برادیو القهوة البلدي من كثرة رفع صوته. وذهب الجنرال من خاطري تماماً ووضحت أمام عيني ملامحه التي كان يلفها ضباب الرهبة والسلطة، ورأيتها صعيدية خالصة بأنفه الكبير كأنف رمسيس، وجبهته الحادة العالية كجبهة منقرع، وشيخوخته التي تنم عن تاريخ حافل في خدمة البوليس إذ لا بد قضى أجيالاً حتى يصل إلى رتبة الصول، وقد دخل الخدمة «نفراً» ككل الأنفار. ورأيت جسده العجوز على حقيقته مستقيماً في أجزاء منبعجاً في بعضها الآخر، وقد فرضت عليه البدلة العسكرية والحذاء الثقيل و«القايش». . فرضت على جسده شكلها فرضاً كما يفرض قالب المكوى على الطربوش شكله وأبعاده. وكان من الواضح أنه يحب هذا المركز حين تسند إليه مهمة الضابط النوبتجي، ويحب أن يعامله الناس كضابط بحق وحقيق وهو الذي - بلا شك - قد قضى ثلاثة أرباع عمره يحلم بهذا وينتظر اليوم الذي يحمل فيه كتفه «النجمة». . وكان بادياً أن كتفه لن تحمل شيئاً من هذا القبيل، فهو وإن كان يقوم أحياناً بدور الضابط النوبتجي إلا أن الإحالة إلى المعاش كانت تبدو وشيكة، ونجمة الفجر أقرب إليه من نجمة الملازم الثاني. .
وحين تركته وأدرت بصري في الحجرة ورأيت المكاتب الخاوية التي تركها أصحابها، ودولاب الدوسيهات، والمروحة القديمة الموضوعة فوق الخزانة والتي كان يبدو أنها لم تستعمل منذ عشر سنين على الأقل، وقد صنع التراب من نفسه عناكب فوقها، والمصباح الكهربائي الذي له «برنيطة» من الصاج، والذي يتدلى من السقف حتى يوازي رأس فرحات المائل على ما أمامه من أوراق، والناس المزدحمين حول الحاجز الخشبي والذين يكونون خليطاً - إن تنافر في أشياء - فإنه يتفق في نظرات القلق والحزن الغاضب والوجوه المنقبضة الجامدة. كان معظمهم متهمين عائدين من تحقيق النيابة

وتضمهم سلسلة حديدية طويلة، تبينت بعد حين أنهم لا يقيمون وزناً للسلاحليك أو السلسلة أو الصول فرحات نفسه. . فشخطته تقابل بزمجرة وأحياناً برد لا يقل عنها قسوة، حتى انفجر أحدهم مرة لأن فيشه وتشبيهه لم يكن بعد قد جاء من تحقيق الشخصية، وكان عليه لهذا أن يمكث في الحجز بلا إفراج حتى يجيء، انفجر ولعن الدنيا والحظ والفقر والذين كانوا السبب، ولولا الملامة للعن الضابط النوبتجي هو الآخر. ولمحت الضابط الذي في فرحات يعاني الحرج الشديد وهو يسمعهم يهدرون، ولكثرتهم وشراستهم وضربهم الدنيا صرمة لا يستطيع - كالضباط الحقيقيين في نظرة - إخماد ضجتهم. ولما انتهى منهم ومضوا وعسكري في أول صفهم وعسكري في آخره، والسلسلة ترن وتصلصل وهم لا يزالون يسبون ويلعنون، تنهد فرحات تنهد الذي وضع أصبعه في الشق.

حين تركته وأدرت بصري لكل هذا وعدت إليه وجدته حينئذ يبدو عجوزاً جداً. . عجوزاً إلى الدرجة التي تحس معها أنه عهدة من عهد الحكومة عثرت عليه ذات يوم أثناء «كبسه» على بلدته فصادرته، وختمته بالطربوش الأحمر والبدلة الميري، وظل في مخازنها حرزاً من الأحراز يبلى ويصبح كهنة ولا تبلى ما عليه من أختام.

وقال وهو يجوس بعينيه خلال الموجودين:

- أف. . أقسم بالله الأشغال الشاقة أرحم من دي شغله.

وتوقفت عيناه عليَّ وفيها دعوة واضحة، وكنت أنا الآخر لي ساعات وأنا صامت فوجدت نفسي أقول:

- ايه. . الشغل كتير والا ايه؟

وكمن كان ينتظر الفرج من زمن رأيته ينفجر:

ـ يو هوه يا أستاذ. . هو ده شغل؟ . . دا سرك. . دا موريستان. . الناس اجننت. . يعملوا ايه؟ . . حيخس عليهم حاجة؟ كله على دماغنا! والنبي أنا أشتغل في الحديد ميت سنة ولا أقعد هنا ساعة. . والأكاده أن كله كلام فارغ. . كله كدب. . تبالي وحياتك.

اللي معور نفسه. . واللي ضاع منه شاكوش. . واللي كان نايم قال وراحت طاقيته. . ونروح بعيد ليه؟ مش دي واقفة من الصبح؟ مالك يا بت؟ أبقى مش الصول فرحات إن ما قالت أنهم ضربوها وأخدوا سيغتها! . . مالك يا بت؟ فيه ايه؟

وكانت «البت» امرأة واقفة ضمن الواقفين ترتدي ثوباً كان أسود ثم أحاله ساحر الحاجة إلى رمادي، وتتعصب بمنديل كالح لا يخفي إلا القليل من شعرها البني الأكرت القصير وقد تلوت نهاياته وتنافرت، وكان وجهها غامقاً أسمر، وفي عينيها كحل أفسدته الدموع. .

وردت تقول في ذلة:

ـ أم سكينة والبت عيوشة وبنت أختها نبوية والواد. .

ـ مالهم؟ مالهم؟

ـ اتلموا علي وضربوني في بطني. . آه يانا. .

وفي ومضة خاطفة كانت في حالة بكاء تام، وأضافت والدموع والشهقات تختلطفي حلقها. .

ـ وأم سكينة. . عضتني. . هنا. . في كتفي. . وزغدتني في بطني. . والبت عيوشه قلعتني الحلق. .

وقهقه الصول وخشخش صوته وقال:

ـ شايف يا أستاذ؟ شايف؟ مش قلتلك؟ كله وحياتك كدب. . نصب واحتيال. . بقى بذمتك دي حيلتها البلى الأزرق؟ حلق ايه يا بت اللي خدوه؟ حلق حوش؟

ـ حلق دهب يا بيه وغويشتين. .

والتفت الصول إلي وقال بلهجة ذكرتني بنجيب الريحاني:

ـ تفتكر والنبي مين المجني عليه في الحكاية دي؟

ـ مين؟ . .

ـ أنا! . . أنا يا فندم. . ما هو الكدب العلني ده يبقى سرقة بالاكراه. . ومحضرها المصيبة من صورتين، والمصيبة الكبرى أن أنا اللي حاكتب الصورتين. .

واستدار إلى المرأة ولسعها بنظرة كاوية فيها آثار من لمعة الضحك وأمسك القلم وفتح دفتر المحاضر الكبير وكأنه يفتح بوابة المتولي وقال:

ـ هه. . إلهي وانت جاهي ربنا ياخدكم ويخدني معاكم خليني استريح. .

ولما انتهى من كتابة مقدمة المحضر سألها:

ـ اسمك ايه يا بت؟

ولم ينتظر أن تجيب أو يحفل بإجابتها، وواجهني مستأنفاً كلامه وأنا أحس أنه يحدث نفسه أكثر مما يحدثني:

ـ أنا والنبي المجني عليه. . ومش في الواقعة دي بس. . في ألف واقعة. . في دشليون. . يمكن ما تصدقش. . اتفضل آدي دفتر الأحوال. . اصطبحنا بهتك عرض في الطريق العام و ٥٩٢ اللي بعدها

نشل حافظة نقود قال فيها قال١٤٧ جنيه و ٨٣ صاغ وورقتين بوسطة.. أقسم بالله ما كان فيها إلا الورقتين. ويمكن لجل الحلفان خمسة تعريفة كمان، واللي بعدها قال سرقة نحاس.. قايلين في البلاغ أن النحاس وزنه ٥٠ رطل ومتهمين الخدامة.. حتة بت قد كده.. متطلعشي كلها على بعضها عشرة أرطال.. وغيره وغيره.. من الصبح وأنا ايدي ما وقفت من الكتابة.. وكله ملاليم وكلام فارغ وكدب.. يا شيخ فضل.

والتفت إلى المرأة يسألها:

ـ ما تنطقي يا بت.. اسمك ايه؟

وقبل أن تجيب ضحك وقال كمن تذكر نكتة:

ـ واللا الجثة اللي لقيوها في الخرابة مالهاش صاحب.. قصدي صاحبها مجهول.. لقيوا السر الإلهي طلع منه كده لوحده ومن غير ما حد يكلمه.. قوللي؟.. اشمعنى نقى الخرابة دي يموت فيها؟.. يعني ضاقت الدنيا في وشه.. ماكنشي يتمشى لحد شبرا مثلاً؟ الله يرحمه مات.. وأتعذب أنا ليه؟

نهايته.. كتب عليكم الهم والغم كما كتب على الذين من قبلكم..

وأدار رأسه إلى المرأة:

ـ يا وليه اسمك ايه؟..

ـ خديجة..

ـ خديجة ايه.. انطقي..

ـ خديجة محمد..

ـ يا وليه تحركي.. محمد ايه..

وقبل أن تجيب أرقد قلمه. . وأسند كوعيه إلى الصفحة ووضع رأسه بين يديه وقال من تحت حافة «الكاب»، والمصباح الذي أمامه يهتز كالبندول فيتحرك ظل رأسه على الحائط الذي خلفه. . يتحرك رائحاً غادياً كقرد كبير:

ـ أنا المجني عليه والنبي. . هي حكاية محضر؟ هو أنا عجزت من شوية؟ ثلاثين سنة خدمة وحياتك ويومياً بهذا الشكل. . جبتها من المنزلة لعنيبة ومن العريش لمرسي مطروح. . وشفت اللي أدبح عشان عود قصب، واللي حرق جرن عشان كوز دره. . الناس أجننت. . هو الواحد شاب من شوية؟. .

وأنهى كلامه فجأة وانقض على يد كانت تمتد إلى المكتب وخبط عليها بعنف وعصبية قائلاً:

ـ قلتلك ميت مرة شوفلك نشافة تانية. . هو ما فيش في القسم كله إلا دي؟. . أعوذ بالله أحنا في سوق النور؟

قال هذا وانتظر حتى اختفى صاحب اليد مهيض الجناح، والتفت إلي بوجهه الجاد المشدود الملامح:

ـ والواحد يبقى حارق دمه. . وأولاد الـ« . . . » ولا هاممهم وعمالين يهزروا. .

وكان يشير بعينيه وهو يتكلم إلى حجرة التليفون حيث اجتمع بعض العساكر حول زميل لهم بدين مترهل وله كرش كبير، وكان بعضهم يكتفه والآخرون يحاولون جذب بنطلونه وإنزاله، والرجل يلهث ويناضل بكل ما يسمح به شحمه من قوة. .

وبركن عيني لمحت الصول فرحات يبتسم ويضحك ويقهقه، ثم

ينسى كل شيء ويمد رقبته يتابع المعركة. وظهر عليه أسف حقيقي حين انتهت المعركة بانتصار صاحب الكرش وتخلصه ممن حوله، ورفع حينئذ صوته قائلاً بلهجة صعيدية خالصة:

ـ آه يا نسوان.. ما قادرنشي على أبو كرش كليته «شغت»؟!

وما كاد يتم كلامه حتى فتح باب جانبي وظهر المعاون في الفناء وأصبح القسم فجأة أصم أبكم وهبطت الصرامة تجمد كل شيء، وقال الصول للمرأة في حزم:

ـ بتقولي اسمك خديجة محمد ايه؟..

وتركته يحقق وشغلتني عنه داورية الليل وقد بدأت تتجمع في الفناء وحين تجمعت بدا منظرها عجيباً.. صفان من الظلام التام ليس فيه إلا بريق الزراير النحاسية الصفراء، وفوق الظلام نار من الطرابيش الحمراء الفاقعة.. وأمام كل صف صف آخر من الأيدي الممدودة تسند البنادق بلا حماس.. وتسمع في الظلام همهمات وضحكات تموت سريعاً كالشهب، وقد يشذ عن الأيدي الممدودة كوع ويلكز جاره.

وفتش عليها المعاون وأنفه ـ كالديك الرومي ـ في السماء، وعينه على زرار لا يبرق أو حذاء نفض عنه بعض سواده، وراح وجاء ثم دخل حجرته، والظاهر أنه تعشى فقد خرج وهو ما زال يمضغ وعلى شفتيه لمعة وفتش مرة أخرى وهو يجفف يديه بعد أن اغتسل..

واندكت الأرض بالأحذية وكعوب البنادق مرات، وعوقب بعض وكدر آخرون..

ثم..

جنبــان سلاح و . . كتفــان سلاح. . و . . داورية. . معتــادان مارش. .

وخرجت داورية الليل تئز وتتمـايل وفـي آخرهـا العسـكري البـدين يحاول عبثاً أن يوفق بين جسده غير المنتظم وخطواته المنتظمة. .

وأصبح فناء القسم بعد خروجها خاوياً كعربة قطار الليل حين يقترب من آخر محطة، وعدت إلى الصول فرحات فوجدتـه لا يزال يحقـق مع المرأة ويسألها:

ـ اتلموا عليكي فين؟ . .

ـ جوه السيما. . .

ـ وايه اللي دخلك السيما يابت؟ . .

ـ محمود. .

ـ محمود مين؟ . .

ـ محمود!! . .

وهنا بدت على الصول فرحات صعيديته، وسألها وجبهته معقودة دون أن يكتب في المحضر:

ـ محمود دا ايه يابت؟ . .

ـ ابن خالتي. .

ووضع القلم من يده وهو يقول:

ـ آه يا بلد كابوريا يا ولاد الـ . .

وأخرج من جيبه علبة صفيح قديمة من التي تباع فيها السجاير الغالية ولمحت فيها سيجارتين سادة وواحدة بفله وعلبة كبريت. وأشعل السادة

وغمغم بأشياء مبهمة تمس الآبـاء والأجـداد وانجـاب الابهـام حين قال لنفسه:

ـ سيما.. هه.. قال سيما قال؟.. وتدخلوا السيما تنيلوا ايه؟.. هو انتو بتوع سيما؟..

وانفلت من حديثه لنفسه يسأل المرأة وقد ثنى ظهره إلى الوراء ووضع ساقاً فوق ساق:

ـ وتدخلي سيما يابت مع واد زي ده ليه؟..

وبحث بعينه ناحيتي ولعله كان يود أن يشهدني على إجابتها فقلت له:

ـ ايه.. هو المحضر لسه؟..

ـ آه.. لسه.. هو هيخلص؟.. حاضر.. أنا عارف إني عطلتك.. دقيقة واحدة وأفضالك..

والظاهر أنه حسبني شاكياً أو مبلغاً.. ربمـا هذا.. وربمـا وجدنـي أصلح مستمعاً يفضفض لي بما عنده في ليلة من لياليه الطويلة فآثـر أن يؤجل انصرافي.. وكتب شيئاً وهو يبتسم ويقول لي:

ـ وادي انت بتتسلى.. مش بذمتك أحسن ما لسيما؟.

وتنهد وسأل المرأة..

ـ هيه.. وطليقك سلط عليكي ليه؟ تروحي السيما تنيلـو ايه؟.. ما تتكلمي يابت طليقك سلط عليكي ليه؟..

ـ أصلي واخده عليه حكم نفقة..

وكتب كلمة أو اثنتين والتفت إليَّ بنظرة فيها استنكار:

ـ روايات؟ سيما؟ روايات ايه اللي بيعملوها دي؟ يبلوهـا ويشربـوا ميتها أحسن!

ـ ليه مبتعجبكش؟..

ـ تعجبني؟ تعجبني ازاي؟ الفيلم لازم يملا مخ الواحـد. . إنمـا ايه المسخرة والرقص اللي لا تجيب ولا تودي . .

وأمسك القلم ووضع سنه على الدفتر وبـدلاً من أن يكتـب قال لي بفتور:

ـ أنا مثلاً لما قرفت من الروايات عملت مرة فيلم . .

ولم تجعلني قلة حماسته أصغي إليه تماماً، ولكن كلامه وقع في أذني موقعاً غريباً فقلت:

ـ عملت ايه؟ . .

ـ عملت فيلم . . رواية . .

ـ عملته ازاي؟ مثلت فيه والا ايه؟!

ـ لأ . . فيلم ألفته مخصوص عشان السينمات . .

وكدت أستخف بالأمر كله وأضحك فقد اعتقـدت أنـه لا بد شاهـد حادثة أو جناية من جنايات التي تحفل بها حياته ويريد بسلامـة نيتـه أن يجعلها فيلماً، فقلت وأنا أكتم ضحكي:

ـ فيلم ايه بقى؟

فقال ببساطة ودون أن يتنحنح أو يعتدل أو يضع القلم، أو حتى يلقي بالاً إلى المرأة والناس الذين عند الحاجز :

ـ كان واحد هندي جه يزور مصر. . راجل غني قوي. . من الجماعة اللي عندهم فلوس قد الفقر اللي عندنا. . الراجل جه. . وقعد في لوكاندة فخمة قوي زي ما تقول لوكاندة مينا هاوس واللا شبت . . وكان فيه جدع غلبان زي حالاتنا كده. .

وانتبهت حواسي كلها فجأة. .

وملت على السور كثيراً حتى لا تفوتني كلمة من كلماته . .

وأقبلت امرأة تستغيث في شبه صراخ ، وكانت بيضاء حلوة وحواجبها مخططة بعناية فائقة . . وزمجر فيها الصول فرحات :

ـ مالك يا وليه؟ . . مالك؟ القيامة قامت؟ . .

ـ الحق يا خويا . . الحق . . الواد موت أمه م الضرب!

ـ واد مين يا وليه؟

ـ الواد ابن جارتنا . .

ـ واحنا مالنا؟

ـ يوه . . مش أنت يا خويا النبي حارسك البوليس؟

ـ وهو يصح أن البوليس يدخل بين الواد وأمه؟

ـ يه . . ولما يموتها الدلعدي يا خويا؟ !

ـ تبقى تفرج . . نبقى في الحالة دي نروح نمسكه . .

ويئست منه المرأة فانتحت ركناً قصياً بالعسكري الذي كان يحرسني وراحت تهمس له بالقصة وتهمس له أكثر بحواجبها ، ثم غادرت القسم والعسكري ساهم وكأنما أعجبته همسات الحواجب .

وعاد إلى الصول فرحات وقال :

ـ أما مصايب صحيح . واد قال! . . بس . . الجدع الغلبان ده كان خالي شغل . . يعني زي ما بيقولوا موظف في كوبانية الشمس . . يعبي الشمس طول النهار في قزايز ويسرح بيها في الليل . . هيء هيء . . أمال! . . آه . . فتك في الكلام . . الراجل الهندي ده مرة طالع م اللوكاندة فوقع منه فص ألماظ يسوى النهاردة بالميت سبعين تمانين ألف جنيه ، شافه الجدع المصري قام واخده ومديه للغني الهندي . .

ـ فص ايه يا راجل يا بكاش؟

والتفتنا سويا، وكان الذي قال هذا شاويش طويل معه دوسيه ما لبث أن سأل فرحات:

ـ عملت ايه في المتوفى المجهول الاسم؟

وهب فيه فرحات:

ـ حاعمل ايه يعني؟ أمشي في الشارع أقول ياللي ضايع له ميت؟ . .

ـ أنا رحت المستشفى وشفته. .

ـ تشرفنا. .

ـ شوف يا سيدي عينه عسلية وشعره شايب وعلى صدغه الأيمن. .

ـ وبتقول لي الكلام ده ليه؟ . . هو أنا بعتك تخطبه؟ . . روح شوف شغلك أحسن. . عسلية ايه يابو طويلة يا هايف؟

ثم التفت إليَّ قائلاً: الراجل الهندي جه يدي للمصري فلوس إلا رأسه وألف سيف ما ياخد ولا مليم، يهديك يرضيك ما فيش فايدة فكبر قوي في عين الهندي واكيف منه تمام. . راحت الأيام وجت الأيام وروح الغني بلده وهو محتار يجازي المصري ده إزاي، فلقي أن أحسن طريقة أنه يشتري باسمه ورقة لوترية. . تعرف البريمو كانت تكسب كام؟ والا استنى أما نشرب شاي. .

وصفق كثيراً حتى جاء صبي البوفيه، وطلب الشاي واختلف معه طويلاً على الطلبات التي تناولها في يومه. . الصبي يقول ثلاثة وهو يقول اثنين، ولم ينته الخلاف حتى بإحضار الشاي.

وسمعنا باب المعاون وهو يفتح والمعاون يخرج ويقف في الفناء ويتمطى، وعاد فرحات يسأل المرأة:

ـ هيه.. ايه الحكاية؟

ـ لماخدت عليه الحكم.. لف عليٌ عايزني أتنازل.. مارضيتش فبعتلي أمه وأخته وبنت خا..

ـ هوس.. كفاية لحد هنا.. واتلموا عليكي في السيما؟

ـ أيوه وفضلو يضربو فيه لما كانوا حيسقطوني..

ـ ايه؟

ـ أصل أنا حامل في ست أشهر..

وترك الضول فرحات المحضر وقد استولى عليه حب الاستطلاع وأعجبته القصة وسألها:

ـ يخرب بيتك.. حامل من مين يابت؟

ـ منه يابيه.. من طليقي..

ـ امتى؟

ـ قبل ما يطلقني..

ـ وجوزك ده طلقك ليه وانت حامل؟

ـ عشان وقع علي اليمين..

ـ يمين ايه؟ وطلقك امتى؟

ـ ليلة أول رمضان اللي فات.. كسرت قلة أمه وأنا قايمة أتسحر فحلف طلاق بالتلاته ليكسر قصادها دراعي!..

ـ وكسر دراعك؟..

ـ لا.. طلقني..

ـ أنا قلبي كان حاسس والنبي.. بقى قلة أمه هي السبب؟

بقى عشان قلة أمه اكسرت في رمضان اللي فات، يتحرق دمي النهارده طول اليوم.. قلة تمنها ساغ يا عالم أروح أنا ضحيتها؟

ـ اسمعي يا بت! هل لديك أقوال أخرى؟ عايزة تقولي حاجة تانية؟ . .
ـ أيوه يابيه . . عيوشة هي اللي مقلعاني الحلق . . وأمها هي . .
ـ أف . . يابت أقوال أخرى غير اللي قلتيها؟
ـ هو أنا لسه قلت حاجه . .

ولم أتمالك نفسي فضحكت، وتحول غضب الصول هو الآخر إلى قهقهة عالية وانتهى من المحضر، وتنهد وتثاءب وهز رأسه . .

وخرجت المرأة ومعها خطاب اللكشف عليها، ولدهشتي خرج معها كل الناس الواقفين.

ـ هيه . . كانت البريمو تكسب كام؟ . .
ـ انت لسه فاكر؟ . . تكسب مليون جنيه . . ما هي كانت غالية كمان!

واشترى ميت ورقة عشان يضمن المكسب، وجه السحب واحدة منهم كسبت البريمو . . مليون من غير الضريبة، وفكرشي الراجل أنه يطمع عليها ولا حد شاف ولا حد دري؟ أبداً . . عمل ايه؟ راح شاري غليون بضاعة كبير قوي . . ووسقه حرير هندي من اللي على أصله . . واشي عاج . . واشي ريش نعام . . واشي جوخ وكشمير ومابوليا محترمة . . وراح باعت المركب بالطقم بتاعها باللي عليها على اسكندرية، وراح باعت عقد البيع والبوليصة خالصة كل حاجة لصاحبنا على مصر . يعني ما عليه إلا يستلم.

وهب . . وصلت المركب اسكندرية . . حاجة باسم الله ما شاء الله . . وبتاعة مين يا جماعة؟ . . بتاعت فلان . . بالاختصار الراجل باع البضاعة اللي عليها واشترى بيها مركب تانية، وخلى مركب رايحه بلاد بره شاحنة ومركب جاية شاحنة، وإذا كان حتة الطرد قد كده الواحد بيخلص عليه في

السكة الحديد بكذا . . شوف بقى مركب زي دى تكسب قد ايه في السفرية . .

واندفع في هذه اللحظة إلى الداخل رجل قصير نحيل يرتدي جلباباً كله زيت وبقعٍ ورأسه عار . . ويرتدي قبقاباً له صوت مزعج ، اندفع كالسهم داخلاً وهو يقول وعلى وجهه ألم عظيم :

ـ يافندي . . يافندي . .

وضايق دخوله الصول فرحات ، وكأن أحدهم قد صوب إلى أرنبة أنفه لكمة فاستدار إلى الرجل وأرعد فيه :

ـ مالك؟

ـ ما ليش يافندي . . واد ابن حرام حدف طوبة كسرت لوح القزاز بتاع بترينة الدكان . . لوح القزاز اللي معرفشي أجيبه النهارده . . بنور بلجيكي من الأصلي اللي قبل الحرب . . تلاتة متر في تلاتة . . روح الله يخرب بيتك يا بعيد زي ما خربت بيتي . .

ـ دكان ايه؟ . .

ـ بقالة المودة والإخاء في الشارع العمومي . .

ـ عارفها . . اللي عالناصية قدام الجاراج؟ . .

ـ أيوه . . إلهي يعمر بيتك . . ربنا مايوريك . .

ـ البترينة نهين اللي أكسرت . . اللي عالشارع والا التانية اللي ع الحارة . .

ـ الكبيرة يافندي اللي ع الحارة .

فقال الصول وهو ينفض يده من الأمر ويستعد لمتابعة الرواية :

ـ تبقى مش تبعنا . . تبع بولاق . .

ـ إزاي يابيه والبيت تبعكو . .

ـ الناحية اللي ع الحارة تبع بولاق.

ـ يافندي اعمل معروف. .

ـ قلتلك مش تبعنا. . روح قسم بولاق. .

ـ ياف. .

ـ روح. . جك ريح خماسي. .

واندفع الرجل يقبقب خارجاً كالسهم: وانتظر فرحات حتى اختفت دقات القبقاب ثم رجع محاولاً أن يستعيد الجو الذي عكره البقال. . وثنى ظهره إلى الوراء كثيراً ومال الكرسي لانثنائه. . وخلع الكاب وأمسك به في يده يديره أحياناً وأحياناً يهف به وقال:

ـ الراجل كان طهقان من مراكب الخواجات، ففي ظرف سنة ربنا اداله واتسع قوي. . وحبه بحبه راح شاريلك مراكب اسكندرية كلها. . وما أصبحشي فيه مركب إنجليزي. . طلياني. . تلتاني. . كله رفع العلم الأخضر. .

ولاحظت أن ملامح الصول فرحات قد تراخت وانزاح عنها كل ما فيها من صرامة واشمئزاز واتخذت طابعاً عجوزاً راضياً، وعيناه هامتا في سماء الحجرة كفراشتين حالمتين، وصوته خلا من كل تشويش وحفل بنشوة طارئة حلوة كانت تخرج الكلمات من فمه لذيذة وكأنها محلاة بعسل النحل، فلا تملك إلا أن تحبها وتحب رعشتها الممتلئة بالرنين وهي تنساب في تؤدة من خلال السكون الحزين الذي خيم حتى أصبح القسم كسرادق المأتم في آخر الليل، حين لا تسمع فيه إلا فحيح الكلوبات. . وهمسات المعزين:

ـ وأصبح للراجل مراكب لا تحصى ولا تعد. . أصغر ما فيهم تيجي قد القسم دهه عشرة خمستاشر مرة. يسكتشي على كده؟. أبداً. . الفلوس

مالحستشي عقله فراح شاري بالإيراد بتاع المراكب مصنع نسيج كبير قوي.. وشغل فيه ييجي نص مليون عامل.. بعد شهر واحد مصنع النسيج عمل مصنع قزاز.. والقزاز عمل مطاحن.. ومضارب رز.. وبعد كده اشي محالج واشي سكر.. واشي جاز.. واشي ورق.. واشي مكن.. واشي صلب.. المهم إنه جه يوم عليه امتلك فيه مصانع مصر كلها..

وما عجبوش الحال الملخبط ده فراح لأمم المصانع وبناها على حتة تطلع ألف فدان لأ.. ألف ايه؟.. هي الألف تنفع.. ييجي عشرة آلاف فدان.. خمستلاف منهم مصانع والخمستلاف التانية سكن فيها العمال.. مش سكن كلشنكان.. لا.. سكن.. بيت.. بجنينة ببلكونة وحاوي مما جميعه حتى فيه عشش الفراخ والأرانب.. ومش بس كده كان ما يخدش من عرق العامل حاجة.. اشتغل بخمسة ياخد خمسة.. بعشرة بعشرة.. ما هو لا مؤاخذة في دي الكلمة العامل لما ياخد اللي يقضيه يشتغل ويتفرعن في الشغل.. واحنا شعب وارث الفرعنة أباً عن جد.. فبدل ما يطلع متر يطلع مترين.. وبدل جزمة جوز جزم.. مهو كده هات وخد.. اديني حقي وخد حقك.. انت راخر العامل أصبح حاجة تانية.. هدوم نضيفة أربعة وعشرين قراط، عفريته مكوية يروح بيها الشغل وييجي بعد الضهر يلبس بدلة الأيافة والطربوش النسر والجزمة الأجلسيه. وقهاوي ايه وجناين ايه وكازينات ايه وأبهة ايه.. والناس بقوا حلوين وفرحانين ومبسوطين.. ولا قرف ولا بلاوي.. طول النهار ضحك وفرفشة والليل يروحوا السيمات.. والسيمات دي مهمة قوي.. في كل شارع سيما وبالأمر لازم كل كبير وصغير يخش.. والأفلام، أفلام تمام.. وبوليس، مفيش بوليس.. العسكري بدل ما يتلطع ٨ ساعات في

الداورية له كشك قزاز في قزاز في وسط الشارع . . ومكتب صغير واللي عايز حاجة يجيله . .

استنى بقى لحسن الواغش بعيد عنك جه . . أما نشوف إيراد النهارده حيبقى كام . .

وحقيقة كنت أسمع الضجة القليلة التي أخذت تترى من ناحية الباب ، ولكني كنت أنا المنساق هذه المرة وراء ما يقوله فرحات وما ذهلت له تماماً . .

والتفت ناحية الباب فوجدته قد ازدحم بأربعة مخبرين أو خمسة طوال عراض أيضاً ويرتدون اللبد ، وقد أمسك كل منهم في كل يد من يديه قبضة أطفال مشردين ، ومتسولين عجائز وكل منهم يجر ما في يديه جراً وقد ربط جلباب الطفل في جلباب الآخر . . وكان المخبرون يبدون كالعمالقة الطوال ، والأطفال يبدون بجوارهم قصاراً صغاراً كالكتاكيت المذعورة ، وعبروا الفناء ووصل ركبهم إلى السور الخشبي ، وكذلك وصلت ضجتهم فأنهى الصول فرحات كل الأصوات بقوله :

ـ بس . . أخرس انت وهوه . . وقفهم طابور يابو طه قدامي . . بطل كلام عمى في عينك . .

وذهب باقي المخبرين واصطف الطابور في سكون . .

ورجع الصول فرحات الى الوراء كثيراً وهو لايزال في نشوته فقلت :

ـ وبعدين . .

ـ ولا قبلين . . حالاً مكن من ألمانيا جه . . والمهندسين والعمال اشتغلت . . وراحوا زارعينلك الصحرا كلها . . شوف بقى الرملة دي كلها لما تزرع؟ . . الاكس يمشي فيها سبع تيام ما يحصلش آخرها . . وأهم من ده

وده إن ما فيش قولة حاجة اسمها توابيت محاريث.. سواقي.. كلام فارغ من ده.. كله مكن.. الري بمكن والدراس بمكن والسباخ بمكن.. وحتى كان فيه مكن يجمع القطن ويحش البرسيم.. والفلاح اللي عليه العمل.. مفيش قولة جلابية.. طاقية.. بشت.. أبصر ايه معرف ايه.. أبداً كله بدل.. بنطلونات كاكي لحد الركبة وبرانيط بيضة نظيفة وجزم بنعل دوبل ما يدوبش أبداً. والفلاحين يسرحوا طابور يشتغلوا لغاية الضهر بس وبعدين يرجعوا طابور.. والنسوان كذلك.. بس دول في غيط ودول في غيط. والبيوت كلها حجر.. ولمض جاز تبطل خالص كله كهرباء والسحب على صاحب الأرض.. وكل صف بيوت له ميز ياكلوا فيه ويرجعوا لبيوتهم يقيلوا، وبعدين العصر طابور على المدرسة يقروا ويكتبوا ويعرفوا اللي لهم من اللي عليهم. بس يا سيدي ما طولشي عليك الراجل من كتر الفلوس عنده زهد فيها كانت أرخص من التراب.. وحاكم الفلوس لما تبقى بالشكل ده الواحد لازم يقرف منها. اللي ياكل تفاح كل يوم بيقرف منه.. ففي يوم من الأيام أعلن في الراديو.. أيوه.. مهو نسيت أقولك إنه عمل محطة إذاعة وعمل ليها في كل بيت من البيوت وصلة.. أعلن في المكرفون أنه متنازل عن جميع..

وكان الصول فرحات ينظر إلي ويقول كلماته الأخيرة وكأنه يفكر في مشكلة أخرى..

وقال للعسكري فجأة:

- انت واقف بتعمل ايه يا جدع؟! انت ما وراكشي شغل؟..

وقال العسكري في صوت متقطع:

- أصل.. الأ.. الأفندي.. أنا مستلمه..

- مستلمه؟ ليه؟

ـ حرس عليه . .

واستدار إليَّ الصول فرحات وألقى علي نظرة ما رأيتها منه قبل الآن واستمر يحدجني طويلاً، ولا ريب أنه لم يجدني أصلح كي أكون قاتلاً أو سارقاً أو خاطف طفل ولست أدري ما كان يعنيه حين قال في بطء وشك كثير:

ـ آه . الأفندي ده . هو انت منهم؟ . .

فقلت وأنا أبتسم:

ـ من مين؟ . . المهم . . الراجل أعلن ايه في الإذاعة؟ . .

واستمر ينظر إلي ثم قال بصوت تائه:

ـ آه . . والله مانا فاكر . . يا شيخ فضك . . أهو كلام . . أنت بتصدق؟

ثم شد جلد وجهه حتى عاد كالطبلة الصارمة، وجذب «الكاب» حتى بلغ موضعه التقليدي من جبهته تماماً، وهوى على «المتسول» العجوز الواقف في أول الصف بنظرة صاعقة من عينيه، وانطلقت جعجعته المعهودة:

ـ ما تنطق يا بجم . . اسمك ايه؟!

الطابور

تتشابه الأسواق في الأرياف ولا تكاد تختلف، فكل منها فضاء واسع يحده سور، وله باب وعلى أرضه دكاكين بضاعة ذات رفوف فارغة قد لوحت أخشابها حرارة الشمس وليالي الشتاء، ثم مصاطب مبعثرة مصنوعة من تبن يؤلف بينه طين..

ويوم السوق هو بلا شك أروع الأيام وأشهرها، وهو الزحمة التي تحدث كل حين مرة معلنة وكأنها ساعة بشرية هائلة انقضاء أيام سبعة وفراغ جيوب وامتلاء جيوب، وقبض أجور واختلاس أجور، وشبع ناس وجوع ناس، وتقيس العمر..

وبعد أن ينفض السوق يبقى الفضاء لا تؤمه إلا الغربان وأسراب الخرفان والماعز الطوافة، وفرق الرياضة من التلاميذ، والمباريات وكرة القدم..

وتتشابه الأسواق في الأرياف إلا سوق السبت في تلك الناحية، فقد كان يتميز بظاهرة غريبة، فسوره كله كان مصنوعاً من حدائد لها أطراف مدببة ما عدا جزءاً صغيراً منه لا يتجاوز المترين قد بني من الدبش والأسمنت وأحكم بناؤه..

ومن قديم والناس يختلفون في أمر ذلك الحائط الصغير. .

كانوا يقولون أول الأمر إن تحت الحائط كنزاً يفتح على ديك يؤذن ذات فجر ويكون للموعود، ولكن ما لبث هذا القول أن بهت وأصبح التسليم به كالإيمان بطلوع ليلة القدر، حكاية تذكر من قبيل التمني. .

ثم قالوا إن الحائط اقيم فوق فوهة بئر كانت تتسرب منها الجن من باطن الأرض إلى ظاهرها، فأقيم الحائط ووضع فيه مصحف وبخاري وأحجبة وقطع زجاج مكسور ليمنع تسرب الجان، ولكن هذا القول كسابقه لم يعمر طويلاً. .

ثم شب جيل كان أقل خيالاً من سابقيه رأى في الحائط الصغير تجربة كان القصد منها بناء السور كله من الدبش والأسمنت، وفشلت التجربة. .

ولا يكف الناس أبداً عن إيجاد تعليل. .

ومع هذا بقي السبب الحقيقي لا يكاد يصدقه أحد. .

فالسوق أول الأمر لم تكن سوقاً وإنما كانت قطعة أرض بور لا ينبت فيها زرع. . رأى أهل القرى المجاورة أنها أقرب مكان يفدون إليه مثقلين بالغلة والبلح والجبن، ويعودون وقد خفت أحمالهم بالدمور والمرايا والسكاكين الخارجة لتوها من تحت يد الحداد. وكانت تلك الأرض جزءاً من الأملاك الواسعة التي آلت لأحد أعيان الجهة الذي ينحدر من سلالة من ترك أو مماليك. . الله وحده يعلم. .

ورأى المالك في قدوم الناس ومواشيهم إلى أرضه البور كسباً له وطريقة لإخصاب الأرض حتى يزرعها بعد حين، ولهذا سمح لهم

بالقدوم بل كان يشجعهم على القدوم حين يمر وسط زحمتهم راكباً فرسه وموزعاً ابتساماته الراضيات . .

ولما رأى أن الأرض قد استوت للزرع بما خلفته فيها المواشي من بقايا، أراد حرثها وحرثها، ومع هذا قدم إليها الناس مثقلين وغادروها خفيفين، وبططوا الحرث وأقاموا السوق . .

وطرد الناس وحرثها مرة أخرى . .

وفي الأسبوع التالي أقيم السوق أيضاً وبطط الحرث.

وأشار عليه أيامها ناظره العجوز أن يستغل الأرض بطريقة أخرى فيترك الناس يجيئون على أن يأخذ ضريبة على المتسوقين. وأخذ المالك بنصحه، وفي الأسبوع التالي انطلق محصلوه يترصدون القادمين ويجمعون الأتاوة، ولكي يزيد الإيراد ويقلل المصاريف أقام حول الفضاء سوراً من الخشب جعل له باباً على الطريق الزراعي وجعل على الباب محصلاً واحداً . .

وهكذا وجدت سوق السبت، وما لبثت أن عمرت وازدهرت وأضيفت إلى بلادها بلاد، وأضيفت إليها هي سويقات للحمير والجمال، واكتملت أصنافها حتى من «البوظة السادة» والعرقسوس . .

وكنت تعرف أن السبت يومها حين تجد الناس في الصباح الباكر يزحفون صوب السوق من كل اتجاه، وتجد الطرق المؤدية إليه قد حفلت بلابسي العمائم والجلاليب والذين بلا عمائم أو جلاليب، وراكبي الحمير وساحبي الأبقار، وحاملي المقاطف وطالقي الجواميس والمتوكلين على الله . .

ولم يكن على أهل القرى الغربية أكثر من أن يعبروا الطريق الزراعي ويدخلوا من الباب ليصبحوا في قلب السوق . . أما أهل القرى الشرقية

فالمسألة بالنسبة إليهم كانت أصعب، فالمشايات التي تنحدر من قراهم كانت تلتقي عند الساقية القديمة في مشاية واحدة ضيقة تنتهي عند نقطة في السور الشرقي تقابل الباب في السور الغربي، وكان عليهم لكي يدخلوا من الباب أن يلفوا حول السور كله وفي هذا تعب ومشقة ودوشة لا لزوم لها. فاختصروا الطريق إذن وكسروا خشبة من أخشاب السور وأصبح الأمر لا يكلفهم أكثر من المروق بين خشبتين ليصبحوا في قلب السوق.

وبمضي الوقت أصبحت المشاية الضيقة طريقاً معترفاً به من السوق وإليه، وأصبحت الفجوة التي في السوق باباً كأحسن ما يكون الباب. .

وكان لصاحب الأرض «سرايه» تطل على السوق، كلها مشربيات وشرفات وسلامليكات وأشياء من هذا القبيل، والظاهر أنه كان واقفاً في شرفته ذات يوم فرأى طابوراً لم يكن يعرف كيف يبدأ ولكنه رآه ينتهي في السوق من خلال السور، فجن جنونه وركب رأسه، وركب كذلك حصانه، وانطلق يرى الأمر. وهناك رأى الفتحة فشلضم وبرطم وأمر بإصلاح الخشبة المكسورة في الحال. .

ويوم السوق التالي وقف في الشرفة يشمت في الطابور الذي لا ريب سيتكسر عند السور، ولكن آلاف العفاريت ركبته حين رأى الطابور يواصل سيره المعتاد. .

ولما أسرع يعاين وجد الخشبة الجديدة مكسورة، ويقولون إنه جلد النجار الذي أصلحها وجلده مرة أخرى ليصلحها، بل وقف على رأسه حتى أتمها وامتحن متانتها بنفسه. وفي السبت التالي روع الرجل بالخشبة مكسورة.

واحمر وجهه بالحمق حتى كاد يدمى. وقطع شجرتين من أشجار السنط وكومهما حتى سدت الفجوة. .

وما مر الأسبوع حتى كانت الشجرتان كل في أقصى ناحية والطابور لا يزال لا بداية له، ولكنه ينتهي داخل السوق من خلال الفجوة. .

وكاد شريان من شرايين الرجل ينفجر، وهذه المرة كلفه استعمال عقله ليلة بأكملها. وفي الصباح أحضر فرقة من الصعايدة بكريكاتهم وفئوسهم وما انتهى الأسبوع حتى كانوا قد حفروا ترعة حول السور كالخندق وأطلق فيها الماء.

ولم يتعب نفسه ويقف يوم السوق في الشرفة ولا ما بعده من أسواق فقد كان متأكداً تماماً من انقطاع الرجل. .

والذي حدث أن شجرتي السنط جيء بهما ووضعتا في الخندق وبقي ظاهراً منهما ما يكفي ليخطى الإنسان عليه في أول سوق بعد الترعة، ثم قلقلت كتل من الطين الجاف، نفس الطين الناتج من حفر الترعة وأسقطت فوق فروع السنط، وبعد أسابيع ردم جزء من الترعة أصبح يصل بين المشاية والفجوة.

ويبدو أن الرجل كان راكباً فرسه يتنزه ذات يوم فوجد المشاية واصلة إلى السور وظل يسب ويرطن أياماً، وظل كذلك يكظم غيظه، وقد أصبحت المسألة مسألة كرامة وعند وتحد من الفلاحين العبط. فانتقى من بين خفرائه ثلاثة طوالاً عراضاً وقال لهم: خراب بيوتكم إن نفذ أحد. .

ويوم السوق تلكأ الطابور لأول مرة وما لبث أن توقف، فقد نشبت عند السور خناقة كبيرة، وفي الضحى حمل الطوال العراض إلى السراية ودمهم يسيل. .

واستعاد الطابور بقية اليوم سيره وسرعته. وطاب الخفراء وعادوا يحرسون الثغرة، ونشبت معارك أقل حدة، وتلكأ الطابور مراراً ثم كف عن تلكئه واستأنف سيره تحت وابل من حفن الجميز، أو خيارتين، أو طورة بلح، أو نفس دخان، أو حتى عواف عليكو يا رجاله..

وذات مرة رأى صاحب الأرض خفراءه جالسين يستظلون بشجرة الجميز وتأتيهم المنح من الذاهب إلى السوق والعائد منه فطرد الخفراء وأحضر بنائين وأحجاراً وبنى ذلك الحائط العالي الذي أغلق الفجوة تماماً وجار على ما حولها، وأغلق كذلك كل فجوة في نفسه ممكن أن يتسرب منها الشك في احتمال فشل الحائط.

ولم يكد سبت واحد يمضي حتى اكتشف الرجل مخبولاً أن الخشبة التي بجوار الحائط تماماً قد كسرت، وأن فجوة جديدة قد صنعت..

وأقسم يومها أن يبيع السوق..

ولم يتح له أن يبر بقسمه إذ استولت عليه شركة الأسواق، بناء على مرسوم وامتياز وبأقساط طويلة الأجل..

ومع أن الشركة قد أقامت بدلاً من الخشب سوراً من حديد كلما بلي جددته، ومع أنها لم تركب رأسها كالصاحب القديم فتستأجر فتوات أو تقيم حيطاناً، بل استعانت بالمركز فجعل لها كل سبت كوكبة صغيرة من الخيالة تجوب السور رائحة غادية..

مع هذا إلا أنك إذا وقفت في الصباح الباكر من أي سبت، فسوف تجد المشاية تحفل بالطابور الذي لا تعرف كيف يبدأ، ولكنك تراه ينتهي في السوق من خلال السور.

ودائماً ستجد هناك حديدة مكسورة..

رمضان

كان فتحي ـ وهو صبي في العاشرة من عمره ـ ثائراً جداً على الرجال الكبار وعلى أبيه بنوع خاص، فمن حوالي ثلاثة أعوام على ما يذكر طلب من أبيه أن يصوم رمضان فقال له أبوه: لا يصح قبل أن تبلغ الثامنة. وكظم فتحي صبره وانتظر عاماً طويلاً على مضض. وحين حلت مقدمات رمضان من العام التالي وبدأ يرى «الفطرة» و «النقل» و «عين الجمل» تملأ الأجولة أمام الدكاكين، لم ينتظر حتى يفاجأ بالأمر الواقع، وإنما قبلها بكثير انتهز لحظة انسجام من لحظات أبيه ـ وفتحي يعرف أن لحظات الانسجام تلك تأتي في أول الشهر ـ انتهز الفرصة وذكره بما قاله في العام الماضي وأردف هذا بقوله أنه خلاص قرر أن يصوم. وادعى أبوه النسيان التام في أول الأمر، ثم لما أخذ يذكره ويضيق عليه الخناق قال له: لا صيام لمن لا يصلي.

وكانت إجابة فتحي حماسة صريحة إنه حتماً سيصلي.

وحسب أن الأمر لن يكلفه أكثر من الوضوء والصلاة، ثم يتاح له بعد ذلك أن يصوم.

وكان في هذا متفائلاً جداً إذ لم يتح له أبداً أن يصلي كما أراد.

فقد توضأ كما تعلم في المدرسة، وفرد «سجادة» أبيه ليصلي عليها فإذا بأبيه يسبقه ويطويها. ولما سأله فتحي عن السبب أجابه بأنه يشك في وضوئه وطهوره، ويخاف على السجادة أن تلحقها النجاسة. فترك السجادة وصنع لنفسه مصلى من جلبابه القديم النظيف، ولم يعترف أبوه أبداً بطهارة الجلباب وبالتالي لم يعترف بصلاته. وقرر فتحي حينئذ أن يجبر أباه على الاعتراف فيذهب ويصلي في الجامع.

وملأه الجامع روعة وأحاسيس رنانة فيها دمدمات موسيقية ضخمة.. يكح المصلي من هؤلاء فيكح فراغ الجامع الهائل كله، وإذا قيلت: بسم الله الرحمن الرحيم فسرعان ما تتضخم، وترن وترن، وتكبر وتكبر وتتموج وتلد بسملات أخريات تتصادم وتتكسر عند الجدران العالية الملساء.

ويكون الجو في الخارج ناراً وقيظاً والجامع وحده هو الذي يحفل بطراوة ممدودة حلوة ترد الروح. ويكون الضوء في الخارج فظيعاً في كثرته وقوته، ولكنه يتهادى في النهار إلى الجامع من البرج الذي في أعلاه المصنوع من زجاج ملون ويسقط منه على المصلين فيلونهم تلويناً جميلاً.. وجه يبدو أحمر والرقبة التي بجواره زرقاء، وعمامة صفراء وعين بنفسجية.. وفي الليل تضيء الثريات.. يا سلام على نورها الكثير الذي يشع وينور ويزغلل.

أما المصلون أنفسهم فكان فتحي لا يحبهم إلا إذا صلوا جماعة واصطفوا صفوفاً وراءها صفوف في نظام وخطوط مستقيمة، ويقول الإمام: الله أكبر فيردد المصلون جميعاً وراءه: الله أكبر، وكلهم في نفس واحد وكأنهم رجل واحد، كبير جداً أكبر من سيدنا الحسين، وصوته ليس

مرتفعاً يخيف إنما صوته يرن رنيناً حلواً يحس معه فتحي أنه لا يصدر عنه وإنما يصدر عن ملائكة كثيرين يملئون صدر ذلك الرجل الكبير.

ثم الأروع من هذا حين يسجد المصلون ويراهم فتحي باركين على الأرض. . باركين، مئات الظهور المنحنية كلها متشابهة وإن اختلفت في ألوان ملابسها، صانعة بهذا سجادة عالية محببة مزخرفة بكل الألوان تفرش المسجد من الحائط للحائط. .

وفي الجامع أيضاً لاقى الأمرين. . فإذا ذهب يتوضأ من الحنفيات ترك الرجال الكبار وضوءهم ومضوا يترقبونه ويتمنون له الخطأ. ويتدخل أحدهم قائلاً: اغسل اليدين حتى المرفقين يا ولد. . فإذا غسلهما للمرفقين تصدى له آخر: يا ولد. . ذراعك التي غسلتها لامست ذراعك التي لم تغسلها. . أعد الوضوء. . ويعيد الوضوء مع أنه يكون متأكداً أن ذراعه لم تلامس ذراعه الأخرى ولا قاربتها. أو قد يبتسم له شيخ له لحية طويلة ابتسامة صفراء ويقول: انت استنجيت يا شاطر؟! ويخجل فتحي جداً ويهز رأسه، ولكنه يترك الوضوء كله وينفض يده منه ويذهب ليتوضأ في بيتهم حيث لا رجال ولا شيوخ. .

وإذا ما وقف ليصلي جماعة لاقى الصعاب، فإن الذي بجواره يدفعه من كتفه قائلاً: روح للصف الثاني. والصف الثاني يدفعه إلى الثالث وهكذا إلى أن يجد نفسه في النهاية واقفاً في الآخر بلا صف. ويجد نفسه هو والصغار الآخرين الذين ذهبوا يصلون منبوذين مطرودين فيصنعون وأمرهم إلى الله صفاً أخيراً. وما أسرع ما أدرك فتحي أن الوقوف في الصف الأخير له ميزة إذ يتاح له من مكانه هناك أن يشاهد المصلين جميعاً وهم راكعون أو ساجدون، ومن فرط ما أحب فتحي مشهدهم ذاك كان إذا صلى جماعة وركعوا هم كلهم أو سجدوا يبقى هو بلا ركوع أو سجود، ليستطيع

أن يستمتع بمشهدهم. . حتى إذا ما قاربت الحركة على الانتهاء سارع هو بالركوع أو السجود لئلا يلحظه أحد. .

وهم في صفهم الأخير ذاك كان لا يعدم الأمر أن يأتي مصلٍ مسن متأخراً ليلحق بصلاة الجماعة، فما أن يرى صفهم حتى يهب فيهم: صلاة ايه دي اللي كلها عيال. . امشي قليل الأدب منك له. ويتفرقون ويتبعثرون ويطيرون تاركين المسجد كله للكبار. .

وإذا كان سعيد الحظ ورضي إبن حلال أن يوقفه بجواره في الصف فلا بد أن أحدهم سيخرج من صلاته ليقول له: يا وله. . انت بتصلي من غير طاقية. . امشي شوف لك طاقية عمى في عينك!

ولهذا لم يتح لفتحي أبداً أن يصلي بانتظام، وكذلك لم يتح له أن يوفي الشرط الواجب للصوم. وكان يهمه جداً أن يصوم. . ولم يتحمل كل هذا العناء سدى. . كان يهمه أن يصوم ليستطيع أن يتناول السحور فلا يتناوله إلا الصائمون. .

وكان السحور عند فتحي تعادل لذائذه كل القصص التي قرأها والأفلام التي شاهدها ومرأى الأسود والقرود في حديقة الحيوان. . وكل لذائذ أخرى موجودة في العالم. ولم يكن قد أتيح له أن يحضر السحور أو يتناوله، كان يسمعه. .

فحين يعود بعد أن يكون قد شبع نطاً وجرياً وصراخاً ولعباً مع غيره من أطفال الحارة ـ والظاهر أن رمضان يغير من عادات الكبار ـ فالكبار يودون للأطفال دائماً أن يحيوا حياة مثل حياتهم. . حياة كلها جد وخطورة، فهم لا يلعبون ولا يودون لهم اللعب، وهم لا يستسيغون الصراخ والقفز ولا يودون للأطفال أن يقفزوا أو يصرخوا، بل يريدونهم دائماً أن يظلوا

جالسين مؤدبين متزمتين مثلهم. وكان رمضان إذا جاء وأكل فيه الكبار وشربوا ـ ورمضان الذي هو شهر الصوم يأكل فيه الناس أكثر مما يأكلون في أي شهر آخر ـ إذا أكلوا وشربوا، تحدثوا وسهروا وتناقشوا وأصبحوا أكثر إنسانية، فليس غريباً إذن أن يسمحوا للأطفال أيضاً باللعب وبالبقاء خارج البيوت وقتاً أطول.

كان فتحي يعود وقد استهلك كل طاقته الصغيرة من النشاط، ومع هذا.. ومع ما يكون فيه من تعب لا يأتيه النوم، فبعد وقت قد يطول وقد لا يطول يبدأ السحور، وحينئذ يرقد في فراشه وكأن قد انتابته نوبة ملاريا خبيثة تؤرق جسده فينقلب إلى اليمين وسرعان ما يمل اليمين فيفتعل الحركة إلى اليسار، ويطوح بيده ويشد الغطاء ويرخيه، وأذناه وعقله وانتباهه كله.. هناك.. في الحجرة المجاورة حيث أبوه وأمه يتناولان السحور..

كانا يبدآنه بصمت لا يسمع فيه إلا تثاؤب أبيه، وأمه وهي تغمغم بآهات وتشكو من تعبها ومفاصلها ومن الجيران ومن قطط الجيران وكلابهم والعيش الذي جف. ثم كان أبوه يتطوع ويقول كم الساعة وقتها دون أن تسأله أمه، ولا ريب أنه يفعل ذلك ليفتتح حديث السحور وما ألذ حديث السحور..

كان أبوه هو الذي يتحدث في الغالب، وإذا تكلمت أمه تقول كلمات مقتضبة أو تعيد الشكاية من مفاصلها. وكان فتحي يحب أباه لحديثه ذاك حين يتكلم بصوت فيه تلك الرنة التي تصاحب صوت المستيقظ لتوه من النوم، ويخرج كلامه إلى الظلام والسكون فيبللان ذلك الرنين ويحيلانه إلى نغمة حبيبة تنفذ إلى قلبه وتنغزه، فيتمنى لو قام في التو وعانقه وقبله..

وحين يتحدث أبوه وفي فمه بقية من طعام. . ويمضغ قليلاً ثم يتابع الحديث الذي تحيطه هالة موسيقية من أصوات الملاعق وهي ترن في دقات معدنية هامسة، كان حينئذ يتصور أن أباه ينطق شهداً، ويستعذب الطعام الذي يمضغه دون أن يعرف ما هو حتى لو كان طعمية، ويطوح بيده ويشد الغطاء ويرخيه ويتمنى أن يقفز من الفراش ليكون قريباً من حديثه ونبراته. .

وحين كان الحديث يعرج على الأولاد ـ أي على فتحي وأخوته ـ كان يتمنى أن يتعثر بائع الزبادي الذي ينادي بصوته المزعج في الخارج ويسقط في حفرة فيسكت، وأن يضرب جارهم امرأته التي تصرخ بصوتها الملسوع ولا تتوقف ويأمرها بالسكوت، وتصمت الدنيا كلها ليستطيع أن يسمع أباه وأمه وهما يتحدثان عنه. فأمامه في النهار لم يكونا يتحدثان إلا ليلوماه أو يأمراه بإحضار شيء أو يشتماه، أما حديثهما من ورائه ـ وهما معتقدان أنه نائم ـ فقد كان يود بحياته كلها أن يسمعه، ويسمع المشاريع التي يدبرانها له. يقول أبوه: نشتري له بدلة كاملة للسنة الجايه، ويدق قلب فتحي وكأن البدلة جاءت وارتداها. وتقول أمه: أحسن نوديه الزراعة المتوسطة يخلص بسرعة. ويغتاظ فتحي ويكاد في مرقده يقول لا بأعلى صوته، ولكن أباه يتولى الاجابة ويصر على دخوله الثانوي، فيقول فتحي في سره: يحميك يا أبي.

ويصبح حينئذ طرفاً ثالثاً في الحديث، طرفاً بعيداً يسمع ويرضى ويفرح ويسخط ويثور، وهو آمن أنه يستمع إلى الحقيقة المجردة، وأن ما يقوله أبواه هو الذي سيقرر مصيره وليس الكلام المنمق الذي في النهار. .

ثم الكارثة. . حين يحس فتحي ـ وقد تربى له من أجل ذلك إحساس

مخصوص ـ أن الطعام قد انتهى. . فيبدأ بطنه يمغص ولعابه يسيل، حين تنساب إلى أذنيه أصوات أبويه وهما يغمغمان في إبهام، وتبدأ أصوات مضغهما تأخذ طابعاً معيناً يعرفه فتحي جيداً، إذ في هذه الأثناء يكون دور «الكنافة» أو «قمر الدين» أو باقي القائمة قد أتى، ومع أن فتحي يكون عالماً تماماً أن سيناله من كل صنف نوب في الصباح، إنما فرق كبير بين أن يأكل الكنافة في السحور هكذا والسكون شامل والدنيا ظلام والنور جميل، وبين أن يأكلها في وضوح الصبح وشمسه الكثيرة وذبابه وضجيج أخوته ومنازعاتهم. . فرق كبير. .

حين يبدأ السحور كانت تبدأ سعادات فتحي. . وكذلك تبدأ متاعبه فإذا لم يعجبه الطعام ظل راقداً مستيقظاً أسعد ما يكون برقدته واستيقاظه وسماعه حديث السحور، أما إذا لم يعجبه الحديث وسخطعلى مشاريع المستقبل أو هفت نفسه إلى صنف من أصناف الطعام، كان حينئذ لا يتحمل الرقاد فيقوم مدعياً الذهاب إلى دورة المياه ماراً بالصالة، وحريصاً على أن يري نفسه لوالديه في ذهابه وإيابه، وأن يريهما بالذات وجهه المتجهم الذي يكاد يبكي. . بل أحياناً كان يبكي، وأحياناً كان يسأله أبوه عن سبب بكائه فيبكي أكثر، فإذا ألحف أبوه ادعى بعد لأي أن عنده مغصاً مثلاً أو أن برغوثاً قرصه، فإذا ضحك أبوه ازداد بكاؤه. . وكل همه أن يشعرهما أنه غاضب. وأحياناً كان يدعي أنه يحلم ويصرخ فيجري عليه الوالدان ويمثل دور المستيقظ لتوه من كابوس تمثيلاً ـ والحق يقال ـ رائعاً، حتى أن واحداً من والديه لم يشك أبداً فيه. وكان ما يضايقه جداً أنهما لم يفهما أبداً ولم يدعواه أبداً إلى مشاركتهما السحور أو حتى الجلوس والاستماع إلى الحديث. . كل ما يقولانه. . نام يا خويا. . نام يا

حبيبـي . اسـم الله عليك . . وكلام مثـل هذا من كلام الشبعـانين المتحدثين المستمتعين . .

كان من الضروري جداً أن يصوم فتحي . .

وظل ساخطاً على الكبار وعلى أبيه بصفة خاصة ، حتى أجابه إلى مطلبه أخيراً .

جاءت ليلة النصف من شعبان وأنذرهم فتحي بأنه لا محالة صائم فطبطب أبوه على كتفه وقال : إن شاء الله .

وافرح يا فتحي وأخبر كل الأولاد والقرايب والعمـات والخـالات . . خلاص انتهى كل شيء وابتسمت الدنيا ، أجل سيصوم! قال له أبوه هذا وانتزع التصريح من أمه .

وجاء رمضان ، وليلة أول سحور لم ينم بل حتى لم يخرج من البيت ليلعب مخافة أن يغافله أبواه وهـو في الخـارج ويتسحـرا . فإذا أصبـح الصباح قالوا معلهش لقد فاتك السحور فلا ينبغي أن تصوم . .

وحين جلس الثلاثة في النهاية هو وأبوه وأمه ، كان فتحي حريصاً جداً ألا يحدث صوتاً أو يسقط شيئاً ، فقد كان خائفاً خوف الموت أن يصحو أحـد أخوتـه الصغـار ويصـر علـى السحـور ، قائـلاً وهـو يبـكي بكاء سخيفاً : اشمعنى فتحي؟ . . ومن يدري فقد يرق قلب الوالدين ويوافقان؟ فتفسد الوحدانية التي يتمتع بها معهما ويفسد تعب السنين .

وحدث لأمر ما أن قام أخ من أخوته وعبر الصالة إلى دورة المياه ، فقال لأبيه : على فكرة . . دا قايم يتمحك وبس . . أوعوا تسألوا عنه . .

ومهما كان ما حدث في ذلك السحور . . وكان أول سحور في رمضان

ويزخر كالعادة بأطايب الأطعمة.. مهما كان ما حدث فإن فتحي لم يجد له ذلك البريق الذي أحرق خياله أياماً ولياليي، بل ناله ما يناله دائماً إذا وجد في حضرة الكبار: هات دي.. ودي دي.. ناولني ده.. شوف ايه اللي بياكلني في ضهري.

ونام فتحي..

وصحا متأخراً، بل استيقظ مبكراً ولكنه آثر أن يبقى متناوماً حتى يغادر الفراش في الضحى كما يفعل الكبار تماماً. صحا وفي عقله حقيقة واحدة: ألا يسهو ويشرب فقد حذره أبوه مراراً من هذا..

وراح ينظر إلى أخوته وهم يحدثون بكلامهم وعبثهم ضجة الصباح الوجلة، التي تكفيها شخطة واحدة لتنتهي.. راح ينظر إليهم ويستصغرهم ويستصغر ما يقومون به قائلاً في سره: لهم حق.. فهم فاطرون. ولكنهم بدءوا يحلون لغزاً كان وارداً بإحدى المجلات.

ووضح من كلامهم أنهم يلفون بعيداً عن الحل، وكان لا بد أن يقنعهم بأنهم صغار وأنه ذكي ولا بد أن يحله هو قبل أن يصل واحد منهم إلى حله. فتخلى عن الفراش وقام ببطء وهو يحس أن شيئاً كبيراً ثقيلاً يملؤه، وأن في فمه طعماً غريباً قابضاً..

وحين جلس معهم وحاول حل اللغز ففشل أدرك أنه لغز تافه لا يستحق اهتمامه، بل بدا له أن كل ما يحدث في العالم إن هي إلا أشياء تافهة لا تستحق عناء الجلوس، وعاد إلى النوم مرة أخرى.. عاد وهو مطمئن فهو في إجازة، ورمضان كان طيباً فجاء في الصيف هذه المرة..
واستيقظ فتحي لا لأنه كان يريد أن يستيقظ، ولكن لأن شيئاً أقوى منه

أجبره على أن يتململ ثم ينتبه ويصحو. وكان الطعم الذي في فمه قد تغير وأصبح فمه جافاً يكاد يكون لا طعم له، وأحس لحظة أن فتح عينيه أنه عطشان. وفي الحال قام ووجهته الماء.. ولكنه توقف حين طردت الخطوات القليلة التي خطاها البقية الباقية من النوم في رأسه، وأدرك أنه صائم. وفرح وكأنه كان سيسقط في حفرة ثم تبينها.. ولكن عجيب هذا.. أنه ما أن أدرك أنه صائم حتى ازداد عطشه.

وجلس على الكنبة التي في الصالة.. كانت أمه في المطبخ غارقة لأذنيها في إعداد الطعام ،وأبوه في الشغل وأخوته لا يبدو لهم أثر، والساعة حوالي الثانية عشرة. وكان عليه أن يتخلص من ذلك الاحساس السخيف الذي يملأ فمه.

حاول أول الأمر أن يتخلص منه بتجاهله فذهب يبحث عن شيء يشغله، وكان من زمان يريد أن يفك «المنبه» ويتفرج على «العدة» التي بداخله.. وأسرع يبحث عن معدات الفك، ولكن مسماراً استعصى عليه ورفض أن يدور إلى اليمين أو إلى اليسار، فرمى المنبه. لم يكن يقصد أن يرميه وإنما وجد نفسه هكذا يدفعه مرة واحدة من فوق الترابيزة فيسقط وتتكسر زجاجته. وانحنى يلم الزجاج المكسور ويخفي الجريمة ويخفي المنبه هو الآخر..

وهبط من المنزل بعد تجربته العقيمة تلك يبحث عن أخوته أو عن أطفال في الحارة فلم يجد، كلهم كانوا في تلك الساعة الملعونة في بيوتهم، والحارة ليس فيها إلا الشمس الحارقة والتراب وما عليه من ذباب..

وعاد إلى البيت وهو أكثر عطشاً، والضيق قد بلغ به حداً جعله يتمنى

أن يقف موقفاً من المواقف التي كانت تخذله فيها شجاعته ويتغلب عليه فيها حياؤه وخنوعه . . كان يتمنى أن يجابه موقفاً كذاك ليرى الناس العين الحمراء، والضيق من العطش قد طرد منه كل خنوع وحياء . .

وحاول أن ينام لما لم يجد موقفاً ولا ناساً . . وباءت محاولته بفشل ذريع . وسرعان ما مج الفراش وفكر في أن يجري ويلف في البيت ويكركب أشياء ثم ينظمها عله يساهي الشعور بالعطش الذي كان يفري نفسه . .

ولكن ما إن بدأ يتحرك ويلف حتى جلس على أقرب كرسي وقد أيقن أن كل حركة تزيده عطشاً على عطش، وأن نتيجة محاولاته لنسيان المشكلة أنها تعقدت وازدادت حدة وخطورة، وأصبح فمه ينبح ويصرخ ويتلوى،وكأنه تناول حفنة من الشطة واستشرت حرارتها تلهب كل جوارحه . .

وبدأ فتحي حينئذ يفكر . . بل هو في الحقيقة بدأ يتململ من الصيام ويدرك وعورة الطريق الذي اختاره . . بل الذي تمناه وهفا إليه عدة رمضانات . بدأ يفكر ويقارن بين العذاب الذي هو فيه واللذة التي حظي بها ساعة السحور. والحق أنه لم يقارن، فكل ما كان يشغله هو العذاب . . وكل ما كان يبحث عنه هو المهرب . .

كان من لحظات قد سمع الراديو يدق عند جيرانهم معلناً الواحدة، أي باق من الزمن خمس ساعات حتى يستطيع أن يشرب . . خمس ساعات؟ يا للهول . . خمسة في صفر بصفر وخمسة في ستة بثلاثين ومعانا صفر . . يعني ٣٠٠٠ دقيقة . لا يمكن! لا يمكنه أبداً أن يستمر حياً يعاني ما يعانيه ٣٠٠٠ دقيقة . يبدو أن هناك خطأ . لا . هناك صفران فقط . يعني ٣٠٠

دقيقة. ولو. . لا يمكنه أبداً أن يمكث ولا حتى ٣٠٠ ثانية. اسمع يا ولا يا فتحي. . خليك جدع. . واصبر وصابر. . وتحمل الألم حتى يحين موعد الافطار وتشرب ثم تسترخي كما يفعل أبوك والصائمون، وتتحدث عن العطش الذي لازمك من أول النهار وتبالغ في وصف أهواله. . آه. . يجب أن يحتمل. . خصوصاً وأنه سمع شيخاً من الذين يكثرون من زيارتهم في رمضان يقول: إن الجزاء يزداد بمقدار ما يتحمله الصائم من ألم. . هه. . يعني ايه؟ سيتحمل ولن يهمه. . كلها كم ساعة وينتهي. . كم ساعة؟! ٣٠٠ دقيقة. يعني واحد اتنين تلاتة. . عشرة عشرين. . تلاتين. . مضت دقيقة. . يا نهار أبيض. . باقي ٢٩٩ مرة مثل هذه. . لالالا. . لن يستطيع التحمل! سيموت، ويستشهد، ويذهب الى الجنة حدف، والجنة فيها ماء. . يا للهول! ليس فيها ماء. . لقد سمع أن فيها أنهاراً من الخمر واللبن والعسل. . أف. . أعوذ بالله. . إنه لا يطيق ذكر العسل فهو يعطش. . أنهار عسل ولبن، ولكن ليس فيها ماء. وإذا عطش عطشاً مثل هذا في الجنة فكيف يشرب؟ وهل يرتوي من اللبن؟. . اللبن الأبيض السميك الذي. . أعوذ بالله. . إخص. . ما هذه الخواطر؟ إنه الشيطان. . لابد أنه الشيطان يوسوس في صدره. ابعد أيها المنجوس لن أسمع كلامك. . أبداً أبداً أنت تدلني على الفساد. . لن أسمع كلامك. .

وسمع فتحي في تلك اللحظة ـ رغم ضجة الوابور ـ الحنفية مفتوحة في المطبخ والماء يندفع منها كر كر كر. . لا ريب أن الشيطان هو الذي فتحها أو وسوس لأمه حتى فتحتها. . سحقاً لك أيها اللعين! والله لو حتى صببت الماء في فمي لن أشرب.

وضم فتحي فمه بشدة وكأن هناك ماء حقيقياً سيدخله، وظل على

وضعه ذاك مدة وقد خيل إليه أنه إذا فتح فمه فسيفطر لا محالة . .

ولكن الشطة استعرت حرارتها داخل فمه المضموم، وكان حلقه قد أصبح جرحاً كبيراً ملىء بها وأشعلت فيه ناراً وألماً. وحاول أن يبتلع ريقه ومصمص ودار بلسانه داخل فمه كله محاولاً عبثاً أن يجد نقطة بلل واحدة. . وكان الماء لا يزال يهطل بشدة من الحنفية ويدخل أذنه حتى خيل إليه أنه يشرب الصوت من خلال أذنيه، فسد أذنيه ومع هذا ظل خرير الماء ـ أو إبليس ـ يخترق أصابعه ويداعب أذنيه . .

وطوف خاطر في عقله وحوم. . إنه لن يفطر قطعاً ولكن ماذا يفعل بذلك العطش؟ إنه يذكر أن ذات الشيخ قال إن المضمضة ليست حراماً فلماذا لا يتمضمض؟ وكان ما يخيف فتحي هو أن يتسرب بعض الماء إلى بطنه إن هو حاول ذلك، ولكن إلحاح الخاطر أقنعه أنه لا بد أن يثق في نفسه. وقام وذهب إلى نفس الحنفية اللعينة التي أرهقت أعصابه ووقف يردد النظر بين أمه وهي منهمكة في إعداد الطعام وبين الحنفية، ثم مد يده وملأها من السيل المنهمر. ورأته أمه وهو يدفع الماء إلى فمه فشهقت شهقة عظمى وسألته عما يفعله؟ فأجابها بأن ريقه جاف وأنه يبلل فمه. فابتسمت ابتسامة من يشمت وقالت: مش قلتلك؟ . . عامل لي راجل. . أما أشوف. .

واغتاظ فتحي جداً فأفرغ كل ما في فمه من ماء وراح يبصق بشدة حتى أتى على كل ما أحدثه الماء من بلل وريق، وعاد إلى حيث كان في الصالة وفي صدره تصميم مانع قاطع أن يثبت لأمه ولكل الناس أنه رجل. . وأنه قادر على الصوم مثلهم وليكن بعد ذلك ما يكون. .

ولكن المضمضة التي لم تتم أججت فقط كل النار التي في جوفه وجعلت العطش يمتد داخل زوره الى بطنه حتى بدأ يحس ان عاموداً من نار وفلفل يحشو رقبته ويملأ فم معدته. .

لو يشرب مرة واحدة فقط لسكت هذا النباح واستطاع أن يواصل الصيام إلى منتصف الليل إن شاءوا، ولكن الشرب معناه أن يفطر ولا يدعه أحد يتناول السحور بعد الآن وتسقط رجولته في أعين والديه، ويعدانه طفلاً فاطراً مثل أخوته الفاطرين. .

ولكن هل من الضروري أن يعلم الناس أنه شرب هذه المرة؟ ماذا لو شرب خفية دون أن يراه أحد، ثم أمضي بقية اليوم في صيام ما بعده صيام وسمح لنفسه حتى أن يشكو مما لاقاه من ظمأ بعد الافطار؟ ماذا لو حدث هذا؟ إنه لن يفقد شيئاً بالمرة ولن يعيره أحد بما فعل إذ إن أحداً لن يراه فهناك في الصالة قلة ماء لا تزال فيها بقايا من ساعة السحور، سيأخذها ويذهب إلى حجرة الجلوس ويغلق الباب ويفرغها في فمه بأسرع ما يستطيع، ثم يفتح الباب ويتأكد من خلو الصالة ويضع القلة في مكانها ويلعب بعد هذا أو ينام ويمرح بقية اليوم. .

ولكن. . رمضان!!

إن رمضان سيعرف لأنه يرى الناس ولا يرونه، ويعرف إن كانوا يفطرون أو لا يفطرون. .

وارتسم رمضان في عقل فتحي هائلاً في حجم الدنيا كلها. . يجلس على عرش من ذهب وألماظ. . بعيداً. . بعيداً خلف الشمس ووراء كل النجوم والسحب. . يعرف دون أن ينظر من الفاطر ومن الصائم. . ويبطح الفاطر. . يلقي عليه حجراً يصيب منتصف جبهته ويسيل الدم.

وارتعش فتحي للرؤيا. . وأفاق منها قليلاً وحاول أن يتذكر واحداً فقط يعرفه بطحه رمضان لأنه فطر فلم يجد. . ولكن من يدري ربما يكون هو أول واحد ستناله البطحة.

وسأل نفسه سؤالاً مفاجئاً. . ألا يمكن أن تكون حكاية رمضان هذه كذبة وأنه لا يرى ولا يبطح ولا هو حتى موجود بالمرة؟ لم يدر فتحي من أين جاءه السؤال. . لعله الظمأ. . ولكنه ظل حائراً بين الخوف الذي يدفعه إلى أن تكون الاجابة لا والظمأ الذي يهيب به أن يكون الجواب نعم، ظل حائراً إلى أن عنت له فكرة: سيعد إلى ثلاثة ثم يحاول رفع ذراعه، فإذا كان رمضان لا يريده أن يرفعها فليمنعه. . وعد. . واحد. . اتنين. . تلاتة. . وحشد كل قوته وقد خيل إليه أول الأمر أنه مهما حاول فلن تتحرك. وقفزت الذراع فجأة من جانبه في الهواء. وملأه الرعب ولكن بعد أن اطمأن قليلاً وبدأت الثقة تأخذ طريقها إلى نفسه، رأى أن يجرب تجربة جديدة فوقف وقال: سأمد رجلي وأخطو، فإذا كان رمضان يراني ويستطيع منعي فليمنعني. ومد رجله فامتدت، وخطا خطوة وثانية وثالثة وكاد ألا يتوقف، وازدادت في نفسه الثقة وقلت الرهبة، بل انتابه غير قليل من الاستخفاف برمضان ومحاولة تحديه، ورأى أن يتحداه أكثر ليبين قوته إن كانت له قوة، ويجرب تجربة أخيرة. . وأخذ القلة إلى حجرة الجلوس وقال سأتذوق قطرة واحدة من الماء، فإذا كان رمضان يستطيع أن يكسر القلة قبل أن تصل إلى فمي أو أن يقطع لساني إن كان جدعاً فليفعل.

ومع امتلائه بالثقة والتحدي فقد رفع القلة في وجل وهو يحملق في انبعاجها وكأنه يتوقع في كل لحظة أن تنفجر. . ولم تحدث الكارثة وأيقن حينئذ أن رمضان وحجارته وبطحاته لا بد خرافة، وأفرغ كل ما تحتويه

القلة من ماء في جوفه. . وكان يتوقف ليتلذذ بطعم الماء ويتساءل كيف لم يفطن أن للماء طعماً من قبل، بل وطعم حلو ساحر لم يتذوق مثله أبداً.

ورجع إلى جلسته في الصالة ينتقم من الوقت الطويل الذي أمضاه في لهيب العطش بوقت طويل آخر يمضيه في نعيم الري.

ولكن شعوراً بالانقباض بدأ ينتابه. كان هيناً أول الأمر، ولكنه ما لبث أن ثقل وتعمق. أحس بشيء يهبش صدره ويخيفه ويرهبه. . ولم يكن خوفه كخوفه من العفاريت أو الجن أو «أبو» رجل مسلوخة وإنما كان يحس بأنه خائف من شيء داخله، وكأنه يخاف من نفسه. .

ولم يسكت ذلك الاحساس بل راح يدب ويتسلل إلى عقله ويملك عليه كل تفكيره. وأيقن أن لا بد أن تحدث كارثة، لا بد أن رمضان سينتقم منه ويجازيه. . فمن غير المعقول أن ينال متعة الشرب بعد الظمأ هكذا وبدون ثمن. وكان مستعداً أن يتقبل أي عذاب أو أية مصيبة، فقط لو كان يعرف نوعها أو ما هي. أجل، إذا كان رمضان لم يفعل شيئاً قبل الشرب فلا بد أنه فاعله بعده. ولكن متى؟ وكيف؟ ذلك هو ما يخيفه. هل يبطحه؟ هل سينقم منه بأن يجعله يرسب في الامتحان؟ هل تقع فوق رأسه الصخرة المعلقة بين السماء والأرض والتي كثيراً ما حدثته عنها جدته وقالت إنها صعدت وراء النبي؟ هل يمرض أخوه ويموت؟ . .

وتوقع أن تحل الكارثة في العصر. . ولما لم تحل قال بعد المغرب. . ومضى المغرب والعشاء، وقبل أن ينام ضربه أبوه علقة، وقال فتحي: بس. . هذا هو عقاب رمضان. ولكنه فطن حين رقد يبكي في فراشه إلى أن أباه ضربه لأنه كسر زجاجة المنبه وليس من أجل إفطاره، وبالتالي لم يكن ما حل به هو العقاب المتوقع.

وانتظر فتحي أن تحل المصيبة في الأيام التالية ولكنها لم تحل، حتى بعد أن تكرر ظمؤه وتكرر شربه خفية . .

لم تحل إلا حينما ضبطته أمه وهو يشرب ذات يوم. وبعد أن انجابت لحظة مفاجأته وانتهت من تأنيبه وتعنيفه فرح فتحي في قرارة نفسه لأنهم سوف يقولون إنه لا يستحق الصيام ويجعلونه يفطر، ويستطيع بعد هذا أن يشرب ويأكل دون عقاب أو وجل. ولكن المصيبة الكبرى أنهم هذه المرة قالوا إنه باظ. . وضربوه علقة، وأرغموه على الصوم بالقوة، وراقبوا التنفيذ بدقة.

واضطر فتحي أن يصوم بعد هذا ويواظب على الصيام لا خوفاً من رمضان وبطحاته، ولكن خوفاً من أهله الذين لا يفيد معهم رفع ذراع أو إجراء تجارب، إذ هم يعرفون كل شيء إن آجلاً أو عاجلاً، وهم الذين يتولون بأنفسهم العقاب، ويضربون العلق ويبطحون ولا يرحمون . .

قصة حب

١

ليست أول محطة ترام في شبرا البلد بداية خط فقط، ولكنها قبل هذا مركز تفاعل مستمر بين القاهرة وضواحيها وبين المدينة والمصانع الكثيرة المبعثرة حولها. تجد عليها الفلاحين القادمين الى مصر وقد أخذتهم رهبة المدينة مبهورين بطنين الحركة الزائدة والدنيا الجديدة، وتجد العمال الزاهدين في تلك الحركة الحاقدين على المدينة ولا يجدون منها خلاصاً.

وتجد، في ذلك اليوم من يناير حمزة واقفاً كعادته ينتظر الترام الذي يترك الصف الطويل من العربات المكدسة في أول الخط ويأخذ طريقه إلى «العتبة». . ينتظر وهو يتنفس بارتياح فتلك المحطة كانت أيضاً مركز تفاعل مستمر بين الحياة الخانقة التي يحياها في الصباح في المعاطف البيض وأحواض الصبغة وأنابيب الاختبار، وبين الحياة الرحبة والواسعة التي كانت تبدأ حين يضع قدميه على رصيف المحطة . .

كان واقفاً وقد أغمض عينيه قليلاً خلف نظارته ليستطيع الرؤية بوضوح، وكان يرقب الناس ويتململ قلقاً، وكانت الوجوه التي تقع عيناه عليها جادة صارمة يخيل إليه أن بريقها شرر رغبات كامنة تتحرر، وانطلاق ثورة، وعندما كانت تتناهى إليه الأصوات كان يحسبها دائماً حفيف

مظاهرات أو جئير اضرابات، ورغم البرودة والغيوم التي تحجب وجه الشمس فالدنيا كلها كان لها رائحة.. رائحة خاصة ينتقض لها الجسد كرائحة فوهة بندقية حديثة الاطلاق.

واندفع ترام من أول العربات بادئاً رحلته الطويلة.. وبالكاد قفز اليه حمزة واحتل مكاناً بين الناس الكثيرين الواقفين. وما انتهى الكمساري من بيع التذاكر حتى كان الناس قد تآلفوا تماماً ورفعت من بينهم أحجبة التحفظ والغربة.. واستمع حمزة إلى أحاديثهم وهو يرهف آذانه.. لا مشادات ولا اعتذارات أو نكات.. الانجليز.. الانجليز.. والكتايب والفدائيين وكفر عبده والدبابات.. أرسكين والعساكر المصريين.. أربعة انجليز اتقتلوا.. محطة الميه اتنسفت.. ليهم يوم ولاد الكلب.. والله لنطلعهم من مصر بزفة.. لو فيه سلاح.. لازم السلاح.. نجيبه منين؟ منين؟ م الدنيا الواسعة.. بس لو كانوا يطلعوا لنا واحد لواحد!..

وجاءت محطة حمزة بعد ثلاث محطات من بداية الخط في منتصف المسافة بين القاهرة وشبرا البلد.. وحين هبط لم تكن هناك منازل ولا عمارات.. مساحات واسعة من الأرض المخضرة وأعمدة تليفون وعشش مصنوعة من الصفيح وأكوام هائلة من القمامة..

ومشى قليلاً في أرض مهجورة حتى وصل إلى المكان الممهد الذي نصبت فيه خيمة، وصنعت في طرف منه «تبة» ضرب نار، وأقيمت في الطرف الآخر موانع من الخشب أمامها خندق محفور. وعند الخيمة وجد أيضاً اليافطة المكتوب عليها بخط صغير: اللجنة العامة للكفاح المسلح وأسفلها وبخط كبير: معسكر تدريب شبرا. ووجد اليافطة معوجة فعدلها.. وأشار بيده محيياً ورد تحيته شاب أسمر ضخم يرتدي بنطلوناً طويلاً أصفر وفانلة لها رقبة وأكمام.. وكان الشاب قد رآه قادماً فغادر

جلسته على التبة وأقبل ناحيته، وسلم عليه حمزة ثم دخلا إلى الخيمة يحتميان من الزمهرير. وجلس حمزة على صندوق له مقابض على جانبيه وجلس الشاب على الأرض بجواره. وفرك حمزة كفيه ليدفئهما ونفخ في يديه دون جدوى فقال وأسنانه تصطك:

ـ الدنيا برد. .

ـ أوي. .

ـ يا سلام على كباية شاي يا حسن!

ـ عاوز تشرب شي؟

ـ يا سلام يا بو علي. .

ـ شي. . نعملولك شي. .

ومضى الشاب إلى وابور غاز برجلين اتنين، وكوز صفيح وإبريق فخار كبير مملوء بالماء وعلبة فيها سكر، وأخرج من جيب بنطلونه باكو شاي نصف أوقية. . وبينما كان يشعل الوابور سأله حمزة:

ـ حدش جه؟

ـ ولا نفاخ النار. .

ـ فيه واحد كان مواعدني الساعة اتنين ودلوقتي وربع. . ما جاش يا حسن؟

ـ ما جاش. .

ـ غريبة. .

ـ ما غريب إلا الشيطان. .

ثم نظر إليه الشاب وابتسم وأضاف:

ـ أنا موش مصدق. .

ـ ايه يا حسن؟

ـ ان حنعملو معسكر تدريب . .

ـ ليه يابو علي؟

ـ مش باين . .

ـ بكره يبان فاهمني ازاي . .

وهب الوابور وملا الخيمة لهباً ودخاناً وكاد يأتي على سقفها، فسب الشاب «ديك» الوابور وأصحابه، وبعد أن هدأت العاصفة قال لحمزة:

ـ تحبه تقيل؟

ـ لأ . . نصن نص . .

ـ بس يا أستاذ حمزة شوية السلاح اللي عندنا دول كرب قوي . . دول ما ينفعوش ببصلة.

ـ متخفش . . البرتا عندك . . وريهالي.

ـ ليه؟

ـ وريهالي بس.

وقام الشاب إلى صندوق آخر وفتح قفله وأخرج «برتا» لها ماسورة تلمع . . وتناولها حمزة وتفحصها واغمض عيناً ونظر في ماسورتها بالعين الأخرى وهو يغمغم:

ـ مليانه وساخة . . إديني شوية جاز وحتة اسطبة . . دى طلياني . . خدوها الانجليز من الطلينه . . واحنا خدناها من الانجليز.

وغادر الصندوق الجالس فوقه، ورفع غطاءه وعسعس حتى وجد «مفك»، وأغلق الصندوق وجلس ومضى يعبث بمسامير «البرتا» ويفكها . .

وتناهى إلى سمعهما صوت حركة في الخارج، فرفع الشاب الأسمر

طرف الخيمة ونظر وقال وهو لا يزال ينظر:

ـ أما غريبة! ايه اللي جاب الناس دولم هنا؟

ـ مين يا حسن؟ . .

قالها حمزة وهو منهمك في فك مسمارٍ عاص ، فعاد الشاب يقول:

ـ واحد أفندي وواحدة ست. .

ـ فين يابو علي؟

ـ جنب الخيمة. .

قالها الشاب الضخم ثم رفع صوته من خلال الفتحة:

ـ عاوز ايه يا فندي؟

فرد صوت أخنف قليلاً:

ـ حمزة فين؟ . .

فرد حمزة وهو لا يزال مشغولاً:

ـ دا لازم سعد. . تعال يا سعد. . خش. .

ودخل سعد. . عصبي وأصفر وقصير،ويرتدي «بلوفر» من الجلد ومنظاراً أسود واندفع يقول:

ـ ايه ده؟ ساعة أدور انت فين. علق يافطة يا أخي. ارفع علم على الخيمة لما تكون فيها. صباح الخير.

فرد حمزة:

ـ صباح الخير. . . اقعد يا سعد. .

ـ مش قاعد. معايا ناس. . شغل. عشان تقوللي ما بتشتغلش. . كفاح لا يهدأ. تعالي يا آنسة فوزية. . اتفضلي. . خشي ما تخافيش. بني آدمين والله اللي هنا.

ومن باب الخيمة الصغير انحنت فتاة داخلة، ووقفت عند الباب حائرة

مترددة تحدق في حمزة و «البرتا» التي أصبحت أجزاء سوداء بين يديه وفي الشاب الآخر الذي كان واقفاً في منتصف الخيمة بفانلته الصوف الزرقاء ذات الرقبة الطويلة كمارد خرج لتوه من قمقم. .

ورفع حمزة بصره ونظر إليها. . كانت متوسطة الطول مثله وأكثر منه نحافة، لها وجه صغير أبيض وشفتان شديدتا الحمرة وشعر غزير، وكانت ترتدي معطفاً «بيج» ورغم هذا كانت ترتجف من البرد وفي وجهها شحوب وارتعاش، ورغم ارتجافها كانت في عينيها لمعات دفء ونشاط زائدين. وأحدث دخولها حركة في الخيمة. . قام حمزة من فوره وأفسح لها مكاناً فوق الصندوق ومد يده ليصافحها، وحين وجدها تنضح بالجاز وسواد الصدأ مد لها ذراعه، وأحس بأصابعها وهي تلتف حول ذراعه باردة كالثلج، ولكن قبضتها على غير ما توقع كانت قوية. .

وقبل أن يعود الهدوء قال سعد بكلماته المتقطعة السريعة:

ـ أهو ده الأستاذ حمزة يا ستي عضو اللجنة المسئول عن معسكر التدريب. .

فقالت بلا وجل: أهلاً وسهلاً. .

وأردف سعد بسرعة:

ـ ودي يا سيدي الآنسة فوزية سكرتيرة لجنة المدرسات للمقاومة الشعبية. .

وتغيرت نظرات حمزة في الحال وصافحها مرة أخرى، وهذه المرة بيده التي كان قد نظفها.

وأضاف سعد:

ـ دول لهم كفاح مدهش. . زي ما انت عارف كنا بنلم تبرعات ورحت أجمع من المدرسة بتاعتهم في المنيرة فتعرفت بيها. ولقيت أن

المسألة أكثر من كده . . وأصرت على أنها توصل للجنة حالاً. قلت أجيبها لك . . مش كويس . . هنيني بقى.

وكان حمزة ينظر إليه وهو لا يدري أيثني عليه أم يوبخه، فقد كان من الضروري أن يحدثه بهذا قبل أن يفاجئه بها على تلك الصورة. وقبل أن يقرر ماذا يفعله كان الشاي قد أعد وصبه الشاب الضخم في ثلاث كوبات من الزجاج الرخيص الأزرق ذي القاعدة السميكة، وصب البقية في كوز صفيح كان يغطي فوهة الابريق، وقال لفوزية بصوته الغليظ وهو يمد لها يده بكوب:

ـ خدي . . لحسن دا انتي نازله رجف الأرا . .

ورغم هذا فقد تناولتها منه فوزية وأحاطت الكوب بيديها . . وأصر سعد على أن يشرب هو الشاي الذي في الكوز، ولم تفلح المحاولات التى بذلت ليقلع عن إصراره . .

وحفلت الخيمة بأصوات رشف الشاي الذي كان يتصاعد بخاره من الكوبات ومن أفواههم، ويشيع فيهم نشوة دفء طارئة في يوم له برودة الرصاص . .

وكان حمزة طول الوقت يختلس نظرات خفية إلى فوزية . . كانت تلك تكاد تكون أول مرة يجمعه العمل مع فتاة، وفي أعماق نفسه لم يكن يثق بالفتيات ولا بما يمكن أن يقمن به وإن كان يردد دائماً أن لا فرق بين الرجل والمرأة، وأن لها مثل ما له من حقوق . . وصحيح كيف يمكن لفتاة ترتجف من البرد هي ومعطفها هكذا . . ولها رفع كهذا أن تخوض معركة مثل التي يخوضونها وتقف معه جنباً إلى جنب:

وقال سعد:

ـ كويس خالص مجهودكو. . حاجة عظيمة. . انتو عملتو الخشب اللي بره ده امتى؟!

ـ امبارح.

ـ كويس جداً عظيم خالص. وحيبتدي التدريب امتى؟.

ـ بكرة. .

ـ دا شيء غريب! دا شيء عظيم! مدهش! بكره بكره!

ـ أيوه. .

ـ عال جداً، دي حاجة تستاهل التهنئة. . دي عايزة حفلة. وإن شاء الله كده حتبدو بميت واحد. . لازم على الأقل ميه.

ـ حنبتدي بعشرة. .

ـ شوية جداً. . قليل قوي. . شوية خالص. . ايه ده؟

ـ كويسين. . انت اتأخرت ليه؟ مش كان معادك اتنين؟

ـ أبداً.أبداً أبداً. . كان اتنين ونص. أقسم بشرفي كان اتنين ونص. لا لا لا أنا في مسألة المواعيد دي دقيق. . دقيق جداً. . اتنين ونص يعني اتنين ونص. أقسم بشرفي كان اتنين ونص. أنا دقيق في مسألة المواعيد دي بالذات.

ـ كان معادك اتنين. . وبلاش حكاية شرفك دي فاهمني إزاي. . ياللا بينا. .

قالها حمزة وهو يقوم، وخرج الجميع والشاي يشيع فيهم الثقة لمواجهة البرد. . الفضاء ساكن سكوناً مذهلاً والبقعة جرداء. . والسماء ملبدة بالسحب وكأنها توشك أن تمطر. . وهناك على مرمى البصر القاهرة في سمائها غبرة رمادية، ومنازلها تبدو مكدسة لا تشذ منها سوى عمارات

قليلة ومآذن تظهر من بعيد، وكأنها مداخن مصنع مهجور كبير، والأرض الواقفون فوقها رخوة تكاد تنوء بالأرجل، وهواء خفيف أصفر يهب في حدة ويداعب القش الكثير الذي يغطي وجه الأرض فتطير له قشاشات وتخرفش له الباقيات. وسألت فوزية:

ـ هو ده المعسكر؟

فرد حمزة وهو ينظر إليها ويتأمل أنفها الصغير الذي احمرت قمته المدببة من البرد:

ـ آه..

ـ وفيه متطوعين كتير؟

ـ مش كتير إنما كل يوم بيكتروا، بكره دي كلها حتتملي طوابير وتمرينات..

ـ ومين اللي حيدرب؟

ـ ضباط متطوعين..

ـ منين؟

ـ من الجيش..

ـ بس ده ايه؟.. بتصريح؟..

ـ هو فيه حاجة اسمها تصاريح!

ـ يعني الحكومة تسكت؟

ـ هو فيه حكومة؟

ـ الله!.. طبعاً!.. أمال مين اللي بيحكم؟..

ـ احنا.. احنا اللي بنحكم!.. الشعب..

وحملقت فيه فوزية برهة وكأنها لا تصدق..

وكان سعد في هذه الأثناء قد تركهم وراح يقفز من فوق الموانع

الخشبية ويتفرج على الخندق، وينام على بطنه عند تبة ضرب النار ممسكاً ببندقية وهمية، فقالت فوزية:

ـ أما غريبة قوي سعد.. شوف بيعمل ايه؟..

ـ آه.. هو متحمس..

ثم سكت هنيهة وقال:

ـ ألا قولى لي يا آنسة فتحية.. انتو اديتو سعد تبرعات؟

ـ أصدك فوزية.. انا اسمي فوزية..

واحمرت أذنا حمزة احمراراً شديداً وتلعثم كيانه..

وأضاف فوزية:

ـ بس أنا جاية مخصوص علشان أعمل علاقة مباشرة مع لجنتكم، لأن هدف لجنتنا الأساسي هو خدمة الكفاح المسلح..

وقال حمزة باهتمام وبحرص وهو لا يزال يؤنب نفسه:

ـ كويس أوي..

ـ وأحنا كنا لمينا شوية فلوس عشان نشتري بيهم إسعافات طبية للفدائيين، إنما الظاهر انكو انتم في حاجة أكثر للفلوس دي.

ـ الحقيقة إن احنا دايماً في حاجة لفلوس..

ـ طيب ممكن أقابلك بكرة وأديهملك..

ـ ممكن جداً..

ـ فين؟..

ـ أيوه يا ستي..

وأخرج حمزة مفكرة صغيرة من جيبه قلب أوراقها، ثم رفع رأسه

ولمعت نظارته بشعاع من أشعة الشمس استطاع اقتحام السحاب والنفاذ من بينه، وقال:

ـ تقدري تيجي هنا؟

وفكرت فوزية لحظة ثم قالت:

ـ الساعة اربعة.

ـ يناسبني جداً.

ثم رفع حمزة صوته ونادى على سعد وانتحى به مكاناً وظلا يتهامسان فترة، ثم شد على يده مودعاً وكذلك فعلت فوزية، ولاحظ حمزة أنها تسلم بقوة غريبة على بنى جنسها وكأنها صديق قديم..

وكان آخر ما رآه منها ابتسامة، وحزام معطفها المفكوك والهواء يجذبه وراءها ويعبث به..

وعاد حمزة إلى مجلسه في الخيمة، وإلى «البرتا» وقطعة الجاز والقماش، وكان أحياناً يهز رأسه ويقول: غريبة!. فيسأله الشاب الضخم.. هي ايه اللي غريبة؟! فيقول حمزة تائهاً: ولا حاجة..

جمهورية فرحات

٢

وفي الرابعة من اليوم التالي كان المعسكر قد دبت فيه حياة عشرة شبان يرتدون ملابس التدريب، وتهتز الأرض تحت أقدامهم وهم يروحون ويجيئون صفوفاً، وبين الحين والحين تتصاعد صرخات معلمهم آمرة. وكان حمزة في قلب الخيمة ومعه الشاب الضخم ممسكاً كل منهما بفأس وهو يحفر ويعمق إذ كان العمق غير كاف.

ورفع حمزة رأسه يقذف بالتراب اللين مرة فرآها، وهنا فقط تذكر أن ميعاده معها قد حان وأحس بنوع من الفرحة وهو يرى شبحها قادماً من بعيد. وانتظر حتى اقتربت فغادر قاع الخندق ومضى إليها وهو ينوء بحذائه الذي كان محملاً بما لا يطيق من الطين اليابس، حتى لم يجد بداً آخر الأمر من خلعه. .

وشدت فوزية على يده بنفس طريقتها القوية المتحمسة. . وهي تكاد تضحك على بنطلونه الذي شمره وقميصة المزدان بنياشين لا عدد لها من الوحل وجوربه الذي تطل منه أصابع قدميه متحدية البرد والأناقة. .

وأخذها بعيداً عن المعسكر، وقد وجد الطابور الصغير من الشبان يلخبط ويسهو ويتغامز خفية حين رآها. .

وقبل أن يبدأ أي حديث فتحت حقيبة يدها وأخرجت منها قبضة جنيهات ناولتها له قائلة:

ـ سبعة وعشرين جنيه ونص . .

ثم أضافت مبتسمة:

ـ دفعة أولى . .

وأحس حمزة بفرح حقيقي . . سبعة وعشرون جنيهاً . . بندقيتين «لي أنفيلد» وكذا طلقة، وقال وهو يعيد ترتيب النقود:

ـ برافو والله . .

ودعاها للجلوس بجواره على الأرض وفعلت هذا دون تردد وانطلقت تحدثه عن لجنتها وعن نفسها حين طلب منها هذا . . مدرسة في مدرسة المنيرة . . قرأت كثيراً وفهمت كثيراً ولكن لم يكن لها أي نشاط فحين جاءت معركة القنال اندفعت من نفسها تناقش الأمر مع زميلاتها المدرسات وتم النقاش الى تكوين اللجنة.

وكان حمزة يهز رأسه ويحثها على المضي بايماءاته، ولدى كل كلمة يكاد ينظر إليها من جديد ويحاول أن يقنع نفسه أن المرأة ممكن فعلاً أن تقوم بعمل . .

وقبل أن يصافحها مودعاً قال لها وهو يقلب مفكرته:

ـ يوم الأربع زي النهاردة حكون من بعد الساعة سابعة في مصر الجديدة على طول، فممكن نتقابل هناك علشان ننسق الاتصال . .

ففكرت لحظة ثم قالت:

ـ ولو أن يوم الأربع عندي ست حصص إنما حاجي . .

ـ الساعة تسعة جنب قصر البارون امبان . . ممكن؟

ـ ممكن . .

ـ وإذا حصل ومقدرناش نتقابل. . عارفة تعملي إيه؟

ـ ايه؟ . .

ـ يبقى نفس المكان والزمان بس الأسبوع اللي بعده. . فاهماني ازاي؟

وكان هو الذي شد على يدها بقوة هذه المرة حتى كاد يخلعها.

ومضت.

ووجد حمزة نفسه تمضي وراءها وتفكر فيها. . في حجمها الصغير الدائب الحركة وكأن ثمة مولداً خفياً يغذيها بطاقة لا تنفد من نشاط وانفعالاتها السريعة التي تتلاحق على وجهها واستجاباتها السريعة لانفعالاته، يضحك فتكاد تضحك ملامحها، ويأسف فيقرأ الأسف بوضوح في وجهها، ودائماً وهو يحدق فيها يعجب من الاحساس الذي يتملكه. . الاحساس بأنه قوي قوة لا حد لها وأنه ممكن أن يصنع معجزات، ثم ملامحها الدقيقة الأنيقة التي في كل دقيقة منها وسامة وأمل. أنها حقيقة تبدو كصبية صغيرة لا ينقصها إلا المريلة لتصبح تلميذة بإحدى المدارس.

وكاد حمزة ألا يتوقف عن التفكير فيها لولا أنه نهر نفسه بشدة، وعاد يغوص في قاع الخندق ويشذب حوافه. .

٣

في مساء اليوم التالي كان حمزة جالساً على إحدى قهاوي «القرين» بمديرية الشرقية. . قهوة في وسط القرية تطل على ميدان جاء صدفة في وسط البيوت ولم يقصد به أن يكون ميداناً.

وكانت القرين أيامها تحيا على أخبار المعارك التي تدور وقصص البطولات واستعداد الانجليز. . وتتحفز لضرباتهم. وكان حمزة قد انتهى من الاتفاق على صفقة سلاح. . ثلاثة رشاشات وخمسة مسدسات وصندوق ذخيرة. . يتم تسليمها في القاهرة في صباح باكر من أحد مقبل. .

والمساء في قرية كتلك كان شيئاً جديداً على حمزة. . «كلوبات» شاحبة قليلة. . ومصابيح غاز بزجاجات وبلا زجاجات. . وأناس رائحون وغادون يأتون من ظلام شارع ويختفون في ظلام آخر. . وحركة بطيئة ميتة، وبهائم سارحة وبهائم راجعة، وبلد لا يمكن أن يصدق أحد أنها قتلت وحدها في خلال سنوات مئات من عساكر الإنجليز، حتى قدم بشأن نشاط أهلها المعادي للامبراطورية البريطانية استجواب في مجلس العموم.

ودقت الساعة الثامنة والنصف واستمع حمزة الى الأخبار التي تجمع

جمهورية فرحات

أهل البلدة جميعاً لسماعها، وعم لدى تلاوتها سكون عميق كالسكون الذي يسود صلاة الجمعة والإمام يخطب، والغريب أن حمزة لم يسمع الراديو يعقب بكلمة واحدة على مذبحة المحافظة التي حدثت في اليوم السابق. . وكانت الأخبار عادية. . وعن لصاحب القهوة أن يسمع تعليق الإنجليز على الأخبار من محطة لندن، فأتى بمنضدة ووقف عليها وأخذ يبحث بين المحطات. . وكان حمزة منتبهاً أكثر الى الرجل ووجهه الضئيل النحيل المنكب على الجهاز في حماس بالغ وهو يتابع مؤشر المحطات ومنتبهاً أكثر الى الناس الذين لم يتفرقوا بعد ولا تزال أفواههم تفسر الأخبار وتتناقلها وتتنبأ، وتتوعد. . ولكنه تنبه فجأة واستيقظت كل حواسه على صوت المذيع في لندن وهو يقول إن الأحكام العرفية قد أعلنت في مصر. . وأسرع حمزة يغادر مكانه ويقف بجوار الراديو ويكاد يلصق أذنه بالميكروفون. . الحرائق تجتاح القاهرة. . الأجانب يذبحون في الشوارع. . السلب والنهب والقتل يدور على قارعة الطريق. . الانفجارات تترى في أنحاء العاصمة والدماء تسيل في شوارعها. . النحاس يطلب إعلان الأحكام العرفية. . قوات من الجيش تستدعى. . الحالة تنذر بخطورة بالغة. .

ولم ينتظر حمزة لحظة واحدة واستأجر عربة أقلته حالاً إلى التل الكبير، وهناك ظل يشير لكل عربة مارة على طريق المعاهدة حتى رضيت واحدة أن تأخذه. .

وأوقعته أفواه الناس وهي تتناقل شائعات مبهمة سوداء لا رابط بينها في دوامة، ولكنه حين أصبح في محطة مصر ورأى الأدخنة تنعقد كالحة في السماء، ومباني كثيرة تتلظى الجحيم وتبدو حمراء غامقة في سواد الليل وألسنة اللهب تطل منها كألسنة الشياطين، وناراً تتفحم وأخشاباً تتوهج

ومحلات منتزعة الأبواب مدشدشة المحتويات، والقاهرة الحبيبة تنزف أطرافها خرائب وأنقاضاً وتتساءل بناياتها الواجفة عن المصير، وعساكر الجيش بلباس الميدان وخوذاته، ودوريات بوليس في عربات، والوزارة أقيلت وأحكام عرفية جاءت أسود من الأدخنة التي في السماء وأفظع من اللهب الذي يجتاح الأرض.. حين رأى وسمع شعر بالجو مشبعاً بظلال أيد سوداء أثيمة، ورائحة مؤامرة تختلط برائحة بارود أجهض انفجاره والعلامات تشير الى مستقبل قاتم..

وبين حمزة والأحكام العرفية ثأر مبيت وتاريخ دام طويل يرجع الى سنة ١٩٤٨، ولذلك رأى ضرورة البحث عن مكان آخر يلجأ إليه وقد أصبحت حجرته في ظل الأحكام الجديدة غير مأمونة أبداً..

واضطر إلى ركوب تاكسي فلم تكن هناك أية وسيلة أخرى للمواصلات.. وكان في جوفه غليان لا يرحم والسؤال يطفو الى وعيه بين الحين والحين: ترى هل يسعفه بدير هذه المرة أيضاً؟..

وتوقفت العربة في شارع من شوارع الدقي وهبط ودق جرس الشقة رقم ٩ وظل يدقه باستمرار فالساعة كانت حوالي الثانية عشرة والظلام يغمر الشقة، وفتح الباب في النهاية وأطل بدير برأسه الضخم وجسده الممتلىء الشاهق وهو يوحوح من البرد..

وباختصار أطلعه حمزة على الموقف وأبى بدير ان يصدق.. وجلسا إلى الراديو والمذيع يردد بين الآونة والأخرى: أيها السادة.. نحن في انتظار انباء هامة..

وجاءت الأنباء في الثانية عشرة والنصف.. وفي الواحدة تلى مرسوم تشكيل الوزارة الجديدة. وطلب حمزة من بدير أن يبقى لديه بضعة أيام ووافق بدير وخيل لحمزة أنه يوافق على مضض..

٤

وقضى حمزة أياماً كئيبة خانقة في الشقة الفاخرة يروح ويجيء كالطلقة الحبيسة..

الجرائد التي ينكب عليها طول اليوم فارغة خاوية.. اختفت منها تماماً أنباء الكتائب والمعركة وحفلت بتأييد التجار والشركات لرئيس الحكومة الجديد منقذ البلاد وحامي حمى الأوطان، نفس التجار والشركات الذين كانوا لا يتركون مناسبة تمر أيام الكفاح المسلح إلا ويعلنون تأييدهم التام للفدائيين وتبرعاتهم للكتائب.

تاجر الأسلحة اللعين لم يحضر في صباح الأحد الباكر ولا في ضحاه.. حظر التجول مفروض والقاهرة تموت مع الغروب والشتاء بارد.. والخروج قد أصبح مخاطرة عظمى فالبوليس السياسي منتشر والحملات تتزايد كل يوم وهاكستب قد فتح أبوابه يستقبل الوطنيين وصلته قطعت تماماً بأعضاء اللجنة، وحين طلب من بدير أن يذهب لمقابلة أحدهم قال له: اسمع يا خويا يا حمزة.. تقعد عندي في الشقة على عيني وراسي.. إنما تشغلني في الأمور بتاعتكو دي.. يفتح الله.

والنقود التي معه مرصودة للسلاح ولا يملك فيها تصرفاً وما عاد معه نقود، وفقد العمل..

ومع كل هذا كان شيء ما في نفس حمزة يأبى أن يصدق ما يحدث وينكر أن كل شيء قد انتهى، فكان أحياناً كثيرة يتحدث مع نفسه ومع بدير وكأن المعركة ما زالت قائمة، وكأن الضربة المفاجئة الغادرة لم تكن. .

وأحياناً كثيرة كان يفكر في فوزية ويعجب من الأمل الكبير الذي يعلقه على مقابلتها، فلحظات معرفته لها لم تتعد الساعة ومع هذا فميعاده معها كان يبدو وكأنه كل ما تبقى له من أمل.

غير أن ذلك الأمل الأخير تبدد حين تذكر حمزة مفجوعاً أن ميعاده معها في التاسعة، وأن حظر التجول يبدأ من السادسة ومن المستحيل عليهما أن يلتقيا. .

وجاء يوم الأربعاء، ميعاد اللقاء. ومضى اليوم وحنق حمزة يتضاعف ويتضاعف حتى ليكاد يطغى على حنقه لمؤامرة الحريق كلها. .

وفي صباح الخميس لم يغادر الفراش. . وهم قابض يخنق روحه وإحساس يتملكه أنه فقد شيئاً غالياً كان يعتز به، وكأن فوزية ماتت من حياته بل كأنها قتلت، وكان قاتلها في نظره هو نفس حارق القاهرة وفارض النوم من الغروب، وخائن المعركة وسارق الأقوات. .

وتبين حمزة بعد أن انجابت موجة حنقه قليلاً أنه فعلاً قد انتزع من حياته الحافلة انتزاعاً، وأن كفاحه قد تلخص فجأة في جدران بيضاء ملساء أنيقة، ووجه الأستاذ بدير المحامي وجسده الضخم، ويأس كبير قاتل. .

وأيقن أنه لا يمكن أن يقضي في حياته الجديدة تلك ساعات، وأنه قطعاً إذا بقي فيها سيفقد عقله. ومع أنه لم يمت ولم يفقدعقله،بل راح يمارس هوايته المحببة في التهام الطعام والتلذذ بأصنافه، ويهيىء للوجبة

نفسه وكأنه ذاهب الى أهم المواعيد، ويستخرج كل ما لدى بدير من كتب ويختار منها ويقرأ، ويصادق الخادمة الصعيدية العجوز التي كانت تأتي كل ثلاثة أيام لتنظيف الشقة، ويناقش«بدير»كثيراً في السياسة حتى استطاع آخر الأمر أن يقنعه أن الملك والإنجليز هم الذين حرقوا القاهرة.. وكان قبلاً يقول.. ملك ايه اللي يحرق البلد؟ بقى دا كلام؟.. أنا معاك صحيح أنه خموجري وبتاع نسوان إنما حرق البلد دي مسألة تانية..

مع هذا إلا أنه كا يقوم بما يقوم به من أعمال بميكانيكية لا روح فيها كمحكوم عليه بالاعدام انتهى أمله..

غير أن أشياء صغيرة قد تحدث فتغير من حياة الناس.. وسمع حمزة في الراديو مرة أن حظر التجول قد رفع الى العاشرة وكاد يمط شفتيه في ابتسامة من يقول:

ـ وماذا يضير الشاة سلخها بعد ذبحها؟

لولا أنه في أجزاء من الثانية كانت قد تجمعت في عقله متباعدات وانتصب أمامه أمل كاد من فرط الثقة به أنه يتخيله حقيقة واقعة.

لقد تذكر انه قال لفوزية شيئاً كهذا: إن لم يتم اللقاء فيكون الميعاد في نفس المكان والزمان من الأسبوع التالي..

ولكن. هل لا تزال فوزية تذكر هذا؟ وهل من المعقول ـ إن هي تذكرت ـ أن تأتي وقد انتهت المعركة؟

ومن أين يأتيه ذلك اليقين الذي يملأ عليه نفسه ويؤكد له أنها لا بد قادمة؟..

أسئلة مثل تلك عاش عليها الأيام الباقية من الأسبوع، وكانت لا تزال تراود عقله وتلح وتتجسم في خياله،وهو واقف مساء ذلك الأربعاء بجوار

قصر البارون إمبان ومنظار أسود على عينيه، وأنفه يشم من بعيد رائحة الآدميين ويتوقع في كل لحظة أن يضع البوليس يده على كتفه ويقول: يااللا بينا يا حمزة. .

وفي تلك البقعة الموحشة من مصر الجديدة، وفي ليلة شتاء كليلتها كان البرد متوحشاً لا يهذبه نور ولا تقلم أظافره مساكن، وكان السكون لا تقوى عليه أعصاب. . سكون بارد مخيف وكان سكون قصر إمبان المهجور قد عم الدنيا. . سكون يكاد يتلون فيصبح كالظلام المحيط ويكاد يتجمد فيصبح كتلاً سوداء كأسفلت الطريق. وكان الظلام ميتاً لا حياة فيه وكأنما قتله البرد المتوحش وقبرته كتل السكون المتجمدةالسوداء.

وقف حمزة وطالت وقفته، وعقله ـ من فرط ما كان للحظات قيمة ـ يكاد يتحول إلى ساعة تعد الدقائق وتحصي ما تبقى على موعد حظر التجول وتضطرب إذا مرت الثانية، وتكاد تتوقف إذا ما أحصت دقيقة كاملة. .

وتلاحقت ضربات قلبه فجأة، ثم رأى شبحاً صغيراً قادماً من بعيد ووجد نفسه يتحرك ناحيته بلا أي تمعن أو انتظار ويا لروعة الوجه الأبيض الدقيق الذي أطل عليه من الظلام.

ـ أهلاً. .

قالها وهو يودعها اسبوعاً بأكمله من اليأس المر والأمل الخافت والترقب الذي دام أكثر من مائة ساعة. وما كادت الكلمة تغادر فمه حتى حس باندفاعه اكثر من اللازم، وحين سلم عليها فعل هذا بوعي حتى لا يعتصر يدها. .

وسارا جنباً إلى جنب، وكانت فوزية تبتسم باستمرار وتلمع عيناها

دافئتين نشيطتين في الظلام كلما سقط عليهما ضوء بعيد. وسألته لماذا النظارة السوداء في الليل؟ فأجابها:

ـ أصلي مختفي. . والنظارة تساعد. .

ـ ولا تساعد ولا حاجة. . دانا عرفتك على طول. . عامل ايه بعد اللي حصل؟. .

ولم يجب حمزة فقد خيم عليه صمت ما لبثت عدواه أن انتقلت إليها. كانت الضربة قد عادت بكاملها الى وعيه وكأنما قد صوبت إليه لحظتها. وأخيراً قال:

ـ خسارة!

ـ أيوه. . خسارة!

ثم أضافت:

ـ تعرف إني رحتلك المعسكر النهارده.

ـ ليه؟

ـ أصلي قلت يمكن تكون قصدت بنفس المكان المعسكر، فقلت أروح هناك وإن ما جتش أجيلك هنا. .

ـ وازي المعسكر؟. .

ـ يدوب عرفته. . دا معدش فيه حاجة. . الخيمة طبقها الهوا. . والخشب مهدود. . ولقيت هناك نقطة عساكر.

وعاد حمزة يقول من بين أسنانه:

ـ خسارة!

وتنبهت الساعة التي في عقله إلى الزمن فجأة، وكانا قد اقتربا من الشارع الرئيسي فقال حمزة بعد أن نظر في ساعته:

ـ إحنا لازم نرجع مصر بسرعة.. باقي تلت أرباع ساعة على حظر التجول..

قال هذا وجرى يبحث عن تاكسي، وسألها وهو يجري:

ـ انتي ساكنة فين؟

فأجابته وقد بدأت تجري هي الأخرى:

ـ في شارع خيرت..

وقال حمزة وهو يزيد من سرعته: ياه!

وبدا عثورهما على تاكسي في تلك اللحظة يكاد يكون مستحيلاً ولكنهما وجدا واحداً كان في توصيلة الى مصر الجديدة، وما كادا يضعان أقدامهما فيه حتى انطلقت العربة كالقذيفة وسأل السائق:

ـ على فين؟

ـ شارع خيرت أولاً وبعدين الدقي..

فقال السائق وهو يضغط على البنزين:

ـ أما نروح شارع خيرت الأول.. وإذا كان فيه وقت نشوف حكاية الدقي دي..

ومد حمزة يده واستخرج سيجارة من جيب سترته الأعلى فسألته:

ـ أنت بتشرب سجاير والا ايه؟..

ـ أبداً. بشرب سيجارة كده كل ٣ أيام.. مش كيف فاهماني إزاي؟

ـ بس بالطريقة دي حتبقى كيف..

ـ متخفيش..

وسكتت فوزية قليلاً ثم قالت:

ـ أنا كنت ناوية أجيبلك فلوس المرة دي، إنما ٢٦ يناير ده لخبط الدنيا..

ـ معلهش . .

ـ إنما لازم حا ترجع كل حاجة زي ما كانت . . بل أقوى مما كانت . .

ـ لازم . .

ـ حترجع المعسكرات والكفاح المسلح وكل المعركة . .

ـ لابد حترجع . .

وسكت حمزة قليلاً ثم أضاف:

ـ دلوقت أنا بقيت في حاجة ماسة ليكي عشان نخلص بعض حاجات . . وأنا مش حاقدر أقابلك بعد كده بره ، وحالياً قاعد في شقة واحد صاحبي محامي، وأنا معرفشي استعدادك ايه؟ فاهماني إزاي ممكن تواصلي والا . .

وفاجأته بقولها . .

ـ اديني عنوان البيت . . وأجيلك امتى؟

ـ أنا مش عارف نمرة البيت انما حوصفهولك . .

وبعد دقائق كان التاكسي يتلوى مع شوارع مصر ثم يقف لدى بيت في شارع خيرت قريباً من ميدان لاظوغلي . ورفض السائق أن يوصل حمزة إلى الدقي ، ولكن تحت إلحاحه والورقة ذات الخمسين قرشاً قبل . .

ودق جرس الباب . . وفتح بدير وقد ارتدى الروب دي شامبر فوق جلباب كستور وحبك طاقية صوف على رأسه وتعمم فوقها بكوفية . .

وقال له بدير وهو يعود إلى جلسته:

ـ يا أخي سيبت ركبي . . أنا افتكرت إنك أكيد اتمسكت . . كنت فين؟

ـ كنت بدور على شغل . .

ـ ولقيت؟

ـ أيوه . .

ـ ايه؟

ـ حادي دروس خصوصية . .

ـ فين؟

ـ هنا . .

وقهقه بدير، واهتز الفوتيل بقهقهته وكذلك جريدة الزمان التي كان يقرؤها، وأصبح الروب في أزمة . .

ـ هنا فين يا سي حمزة؟

ـ في الشقة هنا . .

ـ لأ كويسة . . ما انت دمك خفيف أهه . . أمال بيقولو عليك الكلام الفارغ ده ليه؟ المهم . . اتعشيت؟

ـ مليش نفس .

ـ أهو ده مش معقول . دا انت بسم الله ما شاء الله عمر ما كان مالكشي نفس . . دي معجزة دي . لازم واحد يهودي مات . نفس ايه يا شيخ؟ لازم تتعشى . . اتعشى عشان عايز أكلمك شوية . .

ولم يستطع حمزة أن يقاوم اكثر، واضطر للجلوس وازدراد اللقم . .

وقال له بدير وقد اتخذت سيماه طابع الجد:

ـ اسمع يا حمزة . . انت تعرف أن مصلحتك هي مصلحتي وانت زي أخويا تمام . . وبقى لنا ييجي ١٥ سنة زملا وأصحاب . . وأنا عايز أقول لك حاجة . .

ـ ايه؟

ـ ما تهدى بقى يا خويا يا حمزة وتفضك من الحكاية دي . . كفاية بقى

ضيعت كام سنة من عمرك هدر وما عدشي في العمر قد ما مضى. . انت طول عمرك كده حتفضل هربان ومرفود وما انتاش لاقي تاكل. لا مؤاخذة يعني يمكن يكون كلامي شديد شوية إنما الحقيقة كده. .

وابتسم حمزة وسأله:

ـ دا نفس الكلام اللي بتقوله امي بالضبط. اهدي إزاي بقى؟ . .

ـ تهدى. . تشتغل وتتجدعن وتتجوز وتعمل لك بيت وعيلة وتفوق لنفسك بقى. . واحد مثقف زيك ما يصحش يعيش كده.

ـ بس أنا سعيد جداً بالحياة اللي أنا عايشها دي. .

ـ سعيد؟ سعيد إزاي بقى؟

ـ سعيد لأن المهم مش الواحد عايش إزاي والا فين المهم الواحد عايش ليه؟ المهم الواحد بيعمل إيه للناس؟

ـ أنا موش فاهم. . خدني على قد عقلي يا أخي. . انت بتقول إيه؟

ـ ما هو طبعاً لازم تكون موش فاهم. . انت راجل ليك حياتك الخاصة وبيتك الخاص وعملك الخاص. . أنا ماليش حياة خاصة. . أنا واضع نفسي وحياتي في خدمة الشعب. إذا استدعت الحاجة إني أهرب أهرب. . أسجن أسجن. . أموت أموت. .

ـ ده مش معقول. . بقى يعني انت خلاص بقيت نبي والا ولي ما انتاش عايز حاجة من الدنيا؟ مالكشي يعني مطامح خاصة؟

ـ مطامحي الخاصة هي بالضبطمطالب الشعب العامة.

ـ ايه الحكم دى؟ أفهم من كده بقى إن سعادتك لا حتتجوز ولا عمرك حايبقى لك بيت يعني؟

ـ لازم حتجوز واخلف. . بس لازم جوازي يخدم قضيتنا مش يكون

على حسابها . . ولازم حيبقى لي بيت بس بيت يهيألي فرصة اكبر لخدمة الشعب.

ـ يبقى إن شاء الله حتفضل كدهه متشرد زي ما انت على طول . .

ـ أبداً. اللي مشردني هو نفسه اللي مشرد ملايين المصريين، ومش ممكن الملايين تفضل مشردة على طول.

وسكت بدير طويلاً ثم قال:

ـ هيه . . طيب الظاهر ما فيش فايدة . . هيه . . تصبح على خير.

وجذب الغطاء وما لبث أن تصاعد شخيره وراح في النوم.

ولم ينم حمزة فقد ذكرته المحاورة التي دارت بالغربة التي أحسها منذ أن جاء إلى الشقة الفاخرة. حتى كلمة «الشعب» وهو ينطقها بدت غريبة هي الأخرى، لا تكاد تجد لها مكاناً بين النجف والأبسطة وقطع الأثاث المنمقة. وكذلك بدت الرؤى التي راحت تنبثق في خياله . . أمه . . أبوه . . أبوه عامل الدريسة، وشاربه الغزير الكث الذي ينثني فجأة عند أطرافه . . عزب الدريسة حيث مرتع طفولته وصباه . . العزب التي تقيمها المصلحة في مكان ما بين محطتين للعمال الذين يصلحون القضبان . . المجتمع المغلق المقفول على من فيه كل قاطنية من العمال . . الحياة يزاولها الناس معاً . . الأسرار ملك للجميع والفقر موزع بالعدل على الجميع . . الزوجات يستحممن معاً في صباح الجمعة ويتباهين بما حدث ليلتها، والأزواج يغطسون معاً ليتطهروا في الترعة . . العزبة يتولاها النساء من الصباح فتبدأ الخناقات التي لا تنتهي على الأوز الضائع والبط. البيض هو العملة السارية بين النساء والسجاير اللف هي السارية بين الرجال والنقود هي العملة التي لا بد من سريانها بين الرجال والنساء وإلا كان ما كان. في كل عزبة ذئب يلتحي احياناً لحية ويتستر أحياناً

بزوجة، الرجال قد لا يعلمون والأطفال والنساء له بالمرصاد. في كل عزبة بخيل منبوذ يجمع المليم فوق المليم وأمله قيراط ارض يشتريه في بلده. في كل عزبة سنى مهووس يسخر منه الرجال وتتبرك به النساء. في كل عزبة جميلة وغيرة ومشاحنات، وأطفال يولدون بالعشرات، وناموس وملايين الحشرات، وكلاب وعواء كلاب تحرس الفقر والقلل والستر.

في كل يوم مشكلة وشكلة وزعيق وشجار، ومحاولات للريس أن يفرض سلطانه ومحاولات من العمال أن ينزعوا عنه السلطان. وكلام عن الكادر وكلام عن الخصم، ونساء يبحثن عن الحبل ورجال يبحثون عن السلف، ومناطيل صفراء في صفارها رقع، وطاقيات صوف طويلة وأحذية من مخلفات الجيش المصري ثقيلة، وصفير قطار آت وصفير قطار ذاهب وبنت بكر تفتح الشباك وتتأمل الآتي والذاهب وتتنهد وتحلم بالبندر والأفندية وثلاث أساور قشرة. .

في كل يوم شكلة وشكلة وزعيق وشجار، وما يكاد اليوم ينتهي والشمس تغيب ودخان المواقد يهمد ودخان القطار ينقطع، حتى يئوب الرجال إلى البيوت في الشتاء وإلى ما أمامها في الصيف، وتوضع الطبلية وحولها الأفواه، وينتهي عشاء ما كاد يبدأ ويعقبه استرخاء وحديث قصير متباعد بين الزوج والزوجة فيه من النوم أضعاف ما فيه من اليقظة، وفيه من التفاؤل أضعاف ما فيه من تشاؤم. الزوجة قلقة والزوج راسي، المرأة خائفة والرجل يؤكد، الزوجة تتثاءب والزوج يغمغم متعباً: بكره تتعدل.

هـو والأولاد. .

النهار لهم. . نهار كله جري ونط واستحمام في الترعة، وعد «فلنكات» السكة الحديد، ومحاولة السير دون معاونة فوق القضيب الواحد، وعمل «أزنده» تقدح الشرر من الزلط تشبهاً بالآباء، وصيد

العصافير بالنبال والحصى الصغير. . وأروع لعبة وضع مسمار على القضيب حتى إذا ما مر عليه القطار بطله ورققه وأصبح حاداً كالسكين والتين الشوكي الذي يغطي جانبي الخط الحديدي، وموسم التين الشوكي والمطاردات التي لا تنتهي مع التاجر الذي يشتريه من المصلحة ويخفره. .

هو والأولاد. .

كلهم مثله مرضوا بالبهارسيا والانكلستوما والحصبة والملاريا والرمد وخرج بعضهم بصفرة ليس بعدها حمرة، أو بطحال.

والشيخ زيدان وكتابه والمدرسة الالزامية وعلقها، وابتدائي بالبدلة. . أول بدله والطربوش الكالح الحقير، والتفوق في الابتدائية ٨٥٪ مجاناً في الثانوية. أبوه فرحان وأمه تريده صنايعي وكفى. أبوه يريده مهندساً يعمل أيضاً في السكة الحديد مثل رئيس رئيس رئيس رئيسه. أمه ترقيه من الحسد وأبوه يريه بنطلونه الذي يشبه الغربال ويقول: يا الأول يا كده. . ويكون الأول. وبعد توجيهي الويل. . الألم. . الكفاح الرهيب من أجل جنيه، خمسين قرش لحمزة في غربته في بلاد الناس في اسكندرية. عام مضى ولم يبق إلا ثلاثة أعوام. . يا مسهل يا رب! وفي هذا كله يبوظ. . بوكر وكنكان وروم حامض ونساء ذوات شعر أكرت وروج فاقع الحمرة كختم السلخانة فوق الذبيحة، وكذب على أبيه ونصب على أصدقائه ورسوب عام وإخفاء الرسوب وإيهام أبيه أن «الأول» نجح، وخداع ومناورات. الأب يكفر. . المطالب تخنقه. أمه تتعلم شغل المناديل بأويه، العزبة كلها تساعد حتى الريس يدفع كل شهر نص جنيه. أخوه الأصغر منه يخرجه أبوه من المدرسة ليكمل هو فهو الأكبر والأقرب الى قبض الماهية. ٦ مارس والمظاهرات واللجان والمؤتمرات، أخوه عامل

منارات في السكة الحديد والقطار يلهف قدمه ذات صباح.. ستة شهور في مستشفى المديرية. أخوه يعود الى العمل بقدم واحدة خفير مزلقان. حمزة يتخرج ويعمل في مصنع.. أول ماهية يطبع بها منشور النقابة سياسة واجتماعات ومناقشات وكفاح ومواعيد، البوليس السياسي يتعقبه.. أول فصل القضية التي حاولوا تلفيقها، معتقل ٤٨.. عشرون شهراً في الطور وهاكستب وسجن الأجانب في اسكندرية. يوم الافراج. كلما قدم لمصر مستر أو مارشال قبضوا عليه.. في كل مناسبة وطنية أو عالمية الحجز في القسم أياماً قد تمتد الى أسابيع حتى ليستطيع في أول كل عام أن يضع قائمة بالأيام التي سيزور فيها القسم كما توضع أيام العطلات الرسمية في أول النتائج.. بدلته الواحدة التي فصلها عقب تخرجه، ونظارته التي عملها في وحدة الجامعة بجنيه، وحذاؤه الذي هو ثاني صاحب له. النقود التي يرسلها لأبيه أحياناً، والشبشب الأسود الذي طلبته أمه ولم يستطع إرساله، أمه لا تزال تطرز المناديل بأوية وأبوه أبيض شاربه وكبر ولم يصبح بعد «ريس»، وأخوه لا يزال يعرج ويغلق البوابة للقطار ويفتحها حين يمر، وأخته نبوية عانس ما زالت، وعزبة دريسة أخرى يعيشون فيها. تدعو له أمه بالهداية وأبوه يتحدث بأخباره الى الرجال ويلعن الحكومة ومصلحة السكة الحديد، والعزبة كلها تنسج حوله أقاصيص بطولة ويقول الصغار إذا ما مر القطار.. دا رايح لحمزة.

ـ انت مش حتنام يا حمزة واللا ايه؟

ـ أيوه حنام يا بدير..

٥

وفي اليوم التالي وفي حوالي الخامسة دق الجرس، وكان بدير قد خرج الى عمله بعد الظهر وفتح حمزة وفوجىء بفوزية أمامه بدمها ولحمها. وابتسمت وقالت وهي تدخل:

ـ أنا طول السكة خايفة لاغلطفي الشقة. إنما كويس.. أصلي كنت عند واحدة صاحبتي هنا في الدقي فقلت أفوت أعرف البيت..

ومع أن حمزة لم يصدق حجتها في المجيء إلا أنه لم يدر السر في الراحة العميقة التي أحدثها مجيئها في نفسه.

وجالت فوزية ببصرها في الشقة وقالت:

ـ ايه؟ هو صاحبك دا مليونير؟ دي شقة فخمة قوي!

وجلس على مكتب بدير وجلست هي على الفوتيل الذي أمامه، وما لبثت ان قالت:

ـ قول لي.. مش ممكن أشرب قهوة؟

فقال حمزة على الفور وهو يغادر مكانه:

ـ ممكن قوي جداً.. بس كده؟

وذهب الى المطبخ الأنيق ذي الفريجيدير الضخم والبوتاجاز، والطلاء الأبيض الناصع الذي يلون جدرانه وأرففه ودواليبه ويحيله إلى شيء يكاد

يقترب من حجرة العمليات كثيراً ما فكر حمزة أن ينام فيه، وسمع صوتها يأتيه من بعيد:

ـ عاوزه كباية كبيرة.. سكر مظبوط وحياتك..

فرد عليها بصوت مرتفع:

ـ بس كده؟..

وبحث بعينيه في الدولاب حتى وجد كوباً يصلح..

وبعد برهة كان ينقل قدميه بحرص وهو يحمل صينية عليها كوب القهوة المضبوط وفنجان سكر زيادة صنعه لنفسه وماء مثلج، وما أن رأته حتى ضحكت وقالت:

ـ ياه! أشكرك جداً!.. دا انت ولا جروبي!

وأخذت رشفة من الكوب ثم قالت:

ـ تصور إني أديت ست حصص النهادره! أنا دماغي خلاص.. والمشكلة إني بعد ما بارجع البيت بافتح مدرسة تانية لأخواتي..

ـ انتي ليكي أخوات؟

ـ بنتين أصغر مني..

ـ وحلوين زيك كده؟

قالها حمزة مدفوعاً بطاقة الحديث ليس إلا، وأنَّب نفسه بسرعة وفظاعة على ما قال وكأنه ارتكب إثماً.

وساد سكوت لم تكن تسمع خلاله إلا رشفات القهوة. وكان من العسير والمكتب يفصلهما وكل يتحاشى النظر في وجه الآخر ويتلهى باحتساء القهوة، والهدوء مخيم وجميل والظلام قد بدأ يدب إلى الخارج والجو يوحي بالصمت.. كان من العسير استئناف الحديث. ولكن حين

بحث حمزة بيديه وأخرج سيجارة من درج المكتب قالت فوزية:

ـ مش قلتلك.. حتبقى كيف؟

فقال حمزة وهو لا يزال يبحث عن الكبريت:

ـ أبداً، أصل الواحد أعصابه..

وأخيراً أشعل السيجارة وقال وهو يكح:

ـ أظن نبدأ العمل..

ـ أيوه..

ـ بقى شوفي يا ستي.. أنا بقيت زي الفار في المصيدة بعدما فقدت كل اتصالاتي. ودلوقتي انتي الصلة الوحيدة اللي باقية لي. فاهماني إزاي؟ أنا معرفشي استعدادك إيه. معرفشي اذا كنت فاضية.. ممكن تشتغلي ولا ما تشتغليش..

وقاطعته فوزية:

ـ بقى شوف يا سيدي! بلاش مقدمات وحياتك خش في الموضوع.. عايز ايه؟

ـ عايزك تروحي لواحد وتقوليله إنك متصلة بي، وتوضبي معاه إزاي أقدر أقابله..

ـ أسمه إيه وساكن فين؟..

ـ اسمه حسن محمد حسن ما انتي لازم تعرفيه.. مش فاكره الجدع الطويل الضخم اللي كان معايا في الخيمة يوم ما جيتي..

ـ أيوه..

ـ أهو ساكن في القبيسي في حارة كشك نمرة ٥ .

ـ اكتب لي العنوان.

ـ أهه.

ـ عاوز حاجة تانية؟

ـ أيوه، ده عنوان الأوضة اللي كنت ساكن فيها وده مفتاحها. . تروحي هناك وتفرزي كل الورق اللي تلقيه مهم هاتيه معاكي، واذا كان ممكن تجيبيلي الغيارين اللي هناك. وخلي بالك البيت لازم مراقب. .

ـ حاجة تانية؟

ـ أيوه تبعتي الايجار لصاحب البيت في جواب مسوجر على نفس البيت. . وآدي الفلوس. .

ـ بس؟!

ـ بس. . كلميني بقى عن جمعيتكم، فيها كام مدرسة. . استعدادهم إيه؟ ممكن يعملوا إيه؟ . .

ـ شوف. .

وأخذ حمزة ينصت إليها ويكتب في ورقة اسمه وحضرة المحترم وفوزية وأشياء من هذا القبيل، ويحسن في خطه وأحياناً يرسم دوائر وزهوراً، وكان ينصت ووجهه الى الورقة. ورفع مرة بصره إليها. كان الضوء في الحجرة يأتي من النجفة قوياً باهراً، ويتكفل الكريستال المدلى ببعث الحياة فيه وإعطائه ألوان طيف جذابة تبرق وتختلط بدخان سيجارته الذي كان قد تجمع وانعقد حول البلور وعشش بينه، وأحال النجفة الى خميلة ذات زهور وأكمام يلفها ضباب صبح ندي.

وكانت فوزية جالسة قبالته على طرف الفوتيل تتحدث وتنفعل لكل كلمة تقولها وتكاد تقوم وتقعد، وقد استدارت إليه بوجهها الذي أشاع فيه التعب حمرة وأشاعت القهوة في الحمرة حياة، وبشفتيها الصغيرتين المكتنزتين ويديها ذاتي الأصابع النحيلة الطويلة التي تنتهي بأظافر من ورق الورد.

واكتشف حمزة من نظرته تلك أن فوزية أنثى وأنثى جميلة، نادرة الجمال..

وسكتت فوزية فجأة وضيقت عينيها وزمت شفتيها، ثم قالت بلهجة تقريع:

ـ انت سرحت واللا إيه؟

فأجاب بسرعة وهو يعود من جولته:

ـ أبداً أبداً.. أصلي كنت بافكر في حاجة كده.

ـ طيب أقدر أكمل؟

ـ طبعاً طبعاً.. أيوه.. كنا وصلنا لفين؟

ومضت لحظة وهي ساكتة ثم قالت في مزيج من اللوم والعتاب:

ـ كنت بقول إن بهية دي واحدة من أحسن العناصر اللي في المدرسة وأنها .

واستأنفت كلامها والعتب لم يغادر نبراتها بعد وعيناها لا تتركان عينيه، وتقول له بمعدل مرة في الدقيقة:

ـ معايا؟..

ـ فيرد في التو:

ـ معاكي..

إلى أن قالت: فإيه رأيك بقى؟..

واعتدل حمزة وبدا عليه الجد، بل حتى كلامه خرج جاداً فيه ثقة مطمئنة وإصرار زائد وكأنه قد أصبح شخصاً آخر.

ـ خليكي على اتصال دائم بيهم.. فهميهم أن المعركة لم تنته.. فهميهم أن الشعب بيستعد لانقضاض أشد وأقوى. الظروف اللي بنمر

بيها ظروف طارئة.. نكسه لا أكثر ولا أقل إنما الغليان مستمر. دي حاجة.. والحاجة التانية من كلامك فهمت أن فايزة عندها مشكلة وافتكر أن أحسن حل لها..

وأخذت فوزية تنصت باهتمام شديد إليه وتود أن تلتقط الكلمات حتى قبل أن تصنعها شفتاه كلمات، كان في كلامه حكمة وكان يقول لها أشياء غريبة ويحدثها عن حلول تبدو لبساطتها ساذجة، ولكنها في الوقت نفسه ممتنعة تحار فوزية وتستغرب كيف لم تفكر في حلول مثلها.. وأخيراً قال وهو يغادر كرسيه:

ـ أنا منتظر، وأتمنالك التوفيق.

وقامت هي الأخرى، وتمطت متثائبة وهي تقوم.

وسمعا مفتاحاً يدور في الباب الخارجي أعقبه وقع أقدام ثقيلة وحيدة في الصالة، وصوت غليظ يغني أحدث أغاني عبد الوهاب إذ ذاك:

ـ على ايه بتلومني.. بتلومني ليه؟

فقال لها:

ـ دا الاستاذ بدير المحامي.

وفي أعقاب كلماته دخل بدير وهو يقول:

ـ يا ما قلبي شكا.. يا ما دمعي..

وسكت فجأة حين وقعت عيناه على فوزية وحملق فيها كأنه يحملق الى إنسان له أربع أيد ورأسان.

وقال حمزة:

ـ جيت بدري يعني؟

وكافح بدير طويلاً ليقول:

ـ أصلي.. خلصت بدري.

قالها وهو لا يزال ينظر إلى فوزية ويكاد ـ لولا الحياء ـ أن يسأل عمن تكون.

وتنحنح حمزة وقال:

ـ يا أستاذ بدير. . اقدم لك الآنسة سميحة. . تلميذتي.

فقال بدير وقد عاد إليه ذهوله:

ـ تلميذتك؟

ـ أيوه، مش قلت لك إني حا ادي دروس خصوصية.

ـ دروس خصوصية؟

ـ أيوه.

ـ آه! دروس خصوصية! طيب يا أخي. . مش تقول م الصبح دروس خصوصية؟ أهلاً وسهلاً! . شرفتي يا آنسة سميحة. . أهلاً وسهلاً!

وسلم عليها، وفي الجو الذي ظل فترة تسوده علامات الاستفهام والتعجب قالت فوزية:

ـ الساعة كام؟

فقال حمزة:

ـ تمانية. .

فقالت وهي تلتقط حقيبتها:

ـ ياه أنا أتأخرت قوي. . سلام.

فوقف بدير كالمطعون قائلاً:

ـ أبداً لسه بدري. . دا إحنا بدري قوي. تمانية إيه يا راجل دي ما تجيش سبعة وشوية. اقعدي والله. . أسمعك مزيكة. عندي عربي وافرنجي، تحبي إيه؟

فقالت فوزية وهي تعلق الحقيبة في كتفها:

ـ معلهش والله . . سلام .

ويبدو أن اللهجة الفاترة التي نطقت بها جملتها حسمت كل شيء .

وسار الاثنان حتى الباب الخارجي يودعانها . وابتسم بدير وهو يغلق الباب وراءها ابتسامة واسعة ذات معان ، ثم لكز حمزة قائلاً :

ـ بقى بتدي دروس؟ . . في إيه يا ترى؟

وابتسم حمزة ابتسامة أخرى ذات معان وقد سره أن يفهم بدير المسألة على هذا الوضع ، وعاد بدير يقول :

ـ بقى دروس! . . يا نمس! . .

وعاد حمزة يبتسم وهو يقول قاصداً أن يفهم بدير من قوله أنه يحاول تغيير مجرى الحديث :

ـ الأخبار إيه؟

ـ ألا عرفتها إزاي دي يا واد؟

ـ يا جدع سيبنا من الحكاية دي . . الأخبار ايه صحيح؟

ـ بيقولوا مفاوضات . . بقى دي تلميذتك يا دبور؟

ـ مفاوضات! ازاي؟

ـ رئيس الوزارة طلب مقابلة السفير الانجليزي .

ـ سمعت الخبر ده فين؟

ـ من واحد صديقي صحفي . . بقى دروس؟ . . دا كمان لقيته مكتوب في الزمان . .

ـ فين؟

ـ أهه . .

وناوله الجريدة وانكب عليها حمزة من فوره، بينما كان بدير يخلع ملابسه ويقول:

- يا خويا الجدع ده بيقول إنه مختفي وبيعرف النسوان دي إزاي؟.. والواحد زي الشحط وما يعرفشي يكلم مرة. قسمتنا كده يا سي بدير.. نصيبنا كده. بت حلوة عاجبها في حمزة إيه مش عارف؟ على إيه بتلوموني.. بتلوموني ليه.. يا ما قلبي شكا يا ما دمعي بكى.. ما رحمتنيش ليه؟

٦

وفي الساعة السادسة والنصف صباحاً استيقظ حمزة فجأة منتفضاً وكأنما قد حدثت أهوال أثناء نومه، وعرف بعد ثوان أن الذي أيقظه هو جرس الباب الخارجي الذي كان يدق دقاً متواصلاً.

وفي الثواني التالية استعاد وعيه وأصبح على استعداد لمجابهة الخطر. وهز كتلة الشحم واللحم التي تكون الأستاذ بدير الراقد بجانبه محاولاً إيقاظه ولكن عبثاً ما كان يحاوله، فما كان يظفر على تنبيهه لبدير أن الباب يدق إلا بغمغمات وتأوهات، وأخيراً قال بدير وهو بين اليقظة والمنام:

ـ دا لازم. . بتاع اللبن الله يخرب بيته. . روح افتحله.

وقام حمزة وهو نصف مكذب متوقعاً أن يجد بدل زجاجة اللبن فوهة مسدس، وفتح «شراعة» الباب. . ومرة واحدة فوجىء بفوزية واقفة، وفي وجهها قلق كثير. وفتح الباب في الحال فقالت في همس سريع خطير:

ـ اسمع.

ـ إيه؟

ـ حسن اتقبض عليه.

ـ اتمسك؟

ـ أيوه.

ـ إزاي؟ مش معقول! . . طيب ادخلي الأول . . أدخلي . . مش معقول! . . قولي لي بالظبط أيه اللي حصل؟

ـ رحت لقيت واقف قريب من البيت راجل عليه كده . . أهو ما عجبنيش شكله والسلام. فشكيت وما رحتش على البيت . . رحت على قهوة في الحارة كانت لسه بتفتح وسألت عليه الجرسون وقلت له إني قريبته . . فبص ليه كده واستغرب وخاف مني شويه . . وبعدين حكيت له حكاية كده فقال لي إنهم راحوا له البيت من يومين وخدوه . . فركبت تاكسي وجيت على طول.

ـ جيتي على طول؟

ـ لأ، نزلت من التاكسي في الميدان وجيت ماشية لحد هنا.

وسكت حمزة ولم يتكلم فقد راح يهز رأسه بين الحين والحين وهو يردد:

ـ غريبة . . غريبة.

ثم التفت إليها قائلاً:

ـ رحتي له إمتى؟

ـ دلوقت.

ـ دلوقت؟

ـ أيوه، ما أنا قلت أروح بدري قوي أضمن وأحسن.

وابتسم حمزة رغم ما به وقد أعجبه منها ما قالت ثم قال:

ـ طيب حصل خير. . استنى شوية.

وغاب لحظة في حجرة المكتب ثم عاد ومعه ورقة صغيرة وقال:

ـ اطلبي النمرة دي، وإذا ردت قولي له إني عايز أقابله.

ـ طيب.

ـ ضروري النهارده.

ـ ضروري.

وجاءهم صوت بدير من غرفة النوم:

ـ إيه يا حمزة؟. . مين؟

فزد حمزة: بتاع اللبن.

ثم التفت لفوزية وقال:

ـ إذا ماردتشي النمرة ابقي كل ما تفضي اضربيها.

ـ حاجة تانية؟

ـ لأ. .

ـ طيب أنا جاية بعد الظهر عشان الحاجات الباقية... سلام.

ـ سلام.

وفي حماس مضطرب سريع اختفت فوزية واغلق حمزة الباب، وعاد على مهله الى حجرة النوم ويداه خلف ظهره وزوبعة في عقله. . حسن «أبو علي» كما كانوا يسمونه الذي كانت الأمور تتعقد أحياناً وتشتبك ويظل هو صامتاً، ثم يتكلم آخر الأمر. يقول كلمة او اثنتين. . ولا يرفع صوته ولا يجادل كثيراً، فقد كان يعمل كثيراً لا بتهور واندفاع ولا ببطء وشك، وإنما باتزان وتؤدة واستمرار. .

كان في الفترة الأخيرة متعطلاً وقد فقد العمل، وكان ليل نهار في المعسكر يحرسه ويبنيه. . وكانوا دائماً في حاجة إلى كلمته الواحدة أو كلمتيه الاثنتين. . والآن!

وقال له بدير:

ـ هو اللي جاب اللبن. . إيه؟ واحدة ست واللا إيه؟

- أبداً. . راجل.
- أمال اتهيأ لي اني سمعت صوت نواعمي.
- لازم كنت بتحلم.
- يجوز.

قالها بدير وهو يرعد ويبرق ويموء ويتثاءب ويعود للنوم.

وجلس حمزة على حافة السرير يفكر في فوزية وكيف استيقظت لا بد في الرابعة صباحاً لتأتيه في السادسة والنصف بعد جولتها الرهيبة.

ولم يفكر في هذا إلا هنيهة ثم دلف الى المشكلة الكبرى «الأسمنت». . كان هو وحسن الوحيدين اللذين يعرفان مكانه، وقد قبض على حسن وهو لا يشك أبداً في إخلاصه ولا يمكن أبداً أن يفقد الثقة فيه لحظة واحدة، ولكن الطبيعة البشرية لها حدود والاحتمال مهما طال لا بد أن ينتهي، ولا أحد يستطيع أن يخمن ما قد يحدث فلا بد من نقل «الأسمنت» من مكانه اليوم. . بل الآن! وكيف يكون هذا؟ تلك هي المشكلة.

واستمر حمزة يفكر حتى بعد أن استيقظ بدير وارتدى ملابسه وجلسا يتناولان الأفطار. وللمرة العاشرة أو أكثر راح بدير وهما على المائدة يتأسف ويشرح له نظريته:

- مش كده أحسن بذمتك؟ خدامين إيه؟ أولاً كل الخدامين بلا استثناء حرامية. . وثانياً بيكلفوا كتير. . وثالثاً تبص تلاقي الواحد منهم مشاركك في عيشتك. . على إيه ده كله؟ غسيل؟ جبت غسالة بالكهربا. كنس؟ جبت برضه مكنسة. طبيخ؟ ما لوش لزوم آكل في المطاعم أحسن. وإن هف على الواحد حاجة يبقى يعملها بنفسه على الأقل يضمن

نظافتها ويتسلى وبتبقى لذيذة جداً. . مشفتش انت المكنسة اللي بالكهربا؟ أصلي كسلت اليومين اللي فاتو. . إنما دي حاجة مدهشة قوى. . شوف.

وقام بدير من فوق المائدة وفي فمه بقية من طعام، وأحضر المكنسة ووضع «كبسها» في «الفيشة» وضغط على الزر ولكنها لم تعمل، فأصيب بالذعر وانحنى عليها يرى ما هنالك، ولما أتعبه الانحناء وجعله يتفصد عرقاً جلس على الأرض ببدلته وأخذ يفحصها بعناية ويجرب. .

وكان حمزة قد انتهى من تفكيره الى قرار، فلا بد أن يذهب هو ينقذ «الأسمنت» مهما حدث، ولتكن مخاطرة وليقبض عليه، ولكن لا بد من انقاذ الأسمنت فقال لبدير:

ـ أنا رايح أجيب هدومي النهارده.

فرد بدير وهو لا يزال منهمكاً:

ـ هه؟

ـ عاوز شنطتك الكبيرة.

ـ هم.

ـ وسبلي المفتاح.

ـ إيه؟

ـ بس يا خويا البتاع البارز ده ليه؟ يمكن هو السبب؟

وفجأة اشتغلت المكنسة فذعر بدير للمفاجأة، ثم ما لبث أن ابتسم وقال:

ـ شفت مدهشة إزاي؟

ولكن حمزة أجاب:

ـ هات المفتاح.
ـ مفتاح!
واضطر حمزة أن يعيد ما قال، ويمد يده آخر الأمر ويتناول المفتاح.
وخرج بدير.

وذهب حمزة إلى غرفة النوم حيث الحقائب الغالية موضوعة على قاعدة ـ الصغيرة منها فوق الكبيرة ـ مكونة هرماً مدرجاً من الحقائب الأنيقة.

واختار حمزة أكبرها. وجرب طربوشاً من طرابيش بدير، ولكنه وجده أوسع من رأسه، ولم يجد ما يصلح له إلا طربوشاً قديماً مهملاً فنظفه ما أمكنه وحشاه بورق جرائد ليستطيع ارتداءه.. وقبل أن يغادر الشقة نظر الى شكله في المرآة الكبيرة الموضوعة في الصالة واطمأن الى وضع الطربوش والى حبكة المنظار الأسود والى حواجبه التي كثفها بسواد حصل عليه من رماد قطعة ورق أحرقها.

وغادر المنزل وهو ينظر الى الناحية البعيدة عن البواب حتى لا يلحظه.
واستوقف أول عربة قابلته وقال للسائق: باب الخلق.
ومضت العربة.

كانت الدنيا لا تزال صبحاً والشمس توزع صفرتها على الناس والأشياء بسخاء، وتألم حمزة لمنظر الناس وكأن قد مضت شهور وهو في سرداب تحت الأرض خرج منه يومها. كانت فيهم ملامح أهل القاهرة الذين يعرفهم ما في ذلك من شك، ولكنهم كانوا غير الناس الذين رآهم لشهور طويلة قبل الحريق.. كانت زحمتهم هي هي، وإسراعهم الى

أعمالهم هو هو، ولكن كان يخيم عليهم صمت بغيض، وكانت سرعتهم غريبة هي الاخرى فهي ليست سرعة الإنسان النشيط ولكنها سرعة المرعوب، سرعة الذي يجري خوفاً من الكرباج. وكان الترام لا يزام يعوي ويسير والعربات الكارو تتأرجح وتجعجع وتركض أحصنتها، والتاكسيات لا تزال تحوم حول الزبائن، والدكاكين مفتحة الأبواب والكناسون يعملون، وأحياناً تسمع في سماجة الصبح ضحكات وشتائم.. ولكن كل ما كانت تقع عليه عيناه كان خالياً من الحياة، كله خال من أية حياة. الناس شخوص، والحركة في الشارع تدور وكأنها تدور على شاشة باردة في فيلم رسوم متحركة، والحديث والضحكات تخرج لا معنى لها أقرب الى الأصوات التي تخرج عن الأحجار إذا سقطت أو الأخشاب إذا احتكت، منها الى أصوات تخرج عن أفواه بشر.

وتساءل حمزة: أين الروح في هذا كله؟ وهل يصدق إنسان أن تلك هي القاهرة التي كانت قبل ٢٦ يناير، وهؤلاء هم الناس الذين قاموا بمظاهرة ١٣ نوفمبر والذين أمسكوا وزيراً ذات يوم من تلابيبه وقالوا: أين السلاح؟

ومن العتبة مضى التاكسي في شارع محمد علي.. حتى الموسيقى التي كانت تعزفها فرقة صغيرة كحيانة تزف إعلاناً عن فيلم في سينما الحلمية.. حتى تلك الموسيقى كانت أقرب الى نهيق حمير أو عواء أبقار منها الى نغمات آلات.

ووصل التاكسي إلى باب الخلق.

وأوقفه حمزة وحاسبه. وركب تاكسياً آخر كان قادماً من شارع الخليج وقال للسائق:

ـ حود في شارع الدرب الأحمر واطلع على باب الوزير.

وهدأ السائق من سيره وهو يجتاز الشوارع الباقية الضيقة المتلاحمة المزدحمة، وهدأت كذلك بقية الحياة الباقية حتى انتهت في آخر الأمر إلى أصوات عمال الأحذية في الحوانيت المتباعدة المتناثرة وهم يدقون المسامير في القوالب، وطرقات صانعي النحاس وهي تترى في استدامة مملة على السندان.

وعند باب الوزير غادر حمزة العربة حاملاً الحقيبة وهو يتلفت في كل اتجاه ويزن كل رجل يصادفه. وصعد في الطريق المؤدية الى المقابر وعيناه أمامه وخلفه وعلى جانبه، وحين وصل إلى المرتفع سار في اتجاه المدافن، وما كاد يمضي بضع خطوات حتى أشرف على أولها وتوقف حينئذ ودار بعينيه باحثاً.

وفي الظل الذي يجاور مقبرة وجد هناك رجلاً يبدو عليه أنه يمت بصلة ما إلى المكان.

ـ سلام عليكم.

ـ عليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

وحدق حمزة في الرجل وفي عمامته ووجهه الأسمر وعينه الحولاء والجلباب الصوف البني الذي يرتديه، واطمأن إلى أنه ما دام أحول فلا يمكن أن يكون بوليساً فقال:

ـ والله ما تعرفشي سيد فين؟

ـ سيد مين؟

ـ سيد اللي بيشتغل هنا.

ـ ما هو فيه لا مؤاخذة في دي الكلمة سيدين. سيد شطا وسيد محمد براهيم.

ولم يكن حمزة قد فكر في مشكلة كتلك فقال:

ـ سيد يا أخي.. الطويل قوي ده الرفيع.

ـ آخ قول كده أمال.. سيد محمد براهيم.. أيوه انت لازم قصدك سيد محمد براهيم.. مش كده والله أنا من غير مؤاخذة غلطان؟

ـ لأ، لازم هو.. هو فين؟

ـ هو.. هو من غير مؤاخذة راح يعمل زي الناس وجاي.. زمانه جاي. اتفضل! هو حضرتك يعني لا مؤاخذة عايز حاجة؟

ـ آه.. أصل أنا طالب في كلية الطب وباجي آخذ منه عضم.. بس ده بيني وبينك.

ـ عيب يا بيه، هو أنا لا مؤاخذه عيل صغير والا عبيط؟ دانا ياما أفندية وبهوات ولاد حلال زي جنابك جولي كتير. كانوا بييجوا بعربيات فخفخة قوي ويقفوا هناك هنا هه وأروح أنا أجيب لهم العضم أشكال وألوان، ويقولوا لي عايز كام يا عم سماعين أقول والله ما يتبعني ولا مليم.. هو أنا أشتريته والا تعبت فيه؟ من هنا لهنا يتحايلوا علي واللي يديني نص جنيه واللي جنيه.. مش كله حاكم صوابعك مش زي بعضها.. ومرة واحد إداني بريزة، طب تصدق بإيه؟ صعب عليَّ وادتهالو تاني.

ـ هو حضرتك بتشتغل هنا؟

ـ إلا دي.. دانا مولود هنا وإن مت بإذن الله حموت هنا واندفن هنا «وأشار الى مقبرة قريبة». دانا جاني علي باشا إبراهيم الله يرحمه ويحسن إليه ياخذ مني عضم.. كان أياميها لا باشا ولا حاجة كان زي حضرتك كده لابس طربوش برضه.. أمال! دانا هنا وأبويا كان هنا وجدي هو اللي

ناشيء الملك دا كله. طب تصدق بإيه؟ أنا مرة جبت لواحد بيه زي حضرتك كده جثة كاملة واداني يومها عشرة جنيه في ايدي دي اللي بكره حياكلها الدود. . أنا هنا؟ وإن ما كنتش أنا هنا يبقى مين هنا؟ بس تقف عند باب الوزير وتقول سماعين أبو دومه فين يجيبوك لغاية عندي. . أيها خدمة يا بيه؟ عايز بقى عضم مشكل والا هيكل بحاله قول بس وفي دقيقة تبص تلاقيني جايبلك اللي انت عاوزه. . عايز ايه جنابك؟

ـ أنا عايز سيد.

ـ آه سيد. . زمانه جاي. أصله من غير مؤاخذة راح يعمل زي الناس. . ما هو أنا وسيد واحد ما فيش فرق كلنا أخوات.

وجاء سيد، بدا من بعيد لطوله ونحافته وكأنه شاهد قبر هبط فجأة على الأرض وأخذ يمشي. وما إن لمحه حمزة حتى أسرع إليه تاركاً أبو دومة يقول:

ـ أي خدمة يا بيه؟ كلنا اخوات. . بس تقول فين سماعين أبو دومة الف من يدلك.

وسلم عليه سيد بحرارة، ولم يتبادلا كلمة واحدة حتى ابتعدا كثيراً وتاها في كثرة المقابر، وحينئذ قال سيد:

ـ خير إن شاء الله؟

ـ اسمع يا سيد.

ـ إيه؟

ـ انت فاكر حسن؟

ـ أوي! ماله؟ دا واد جدع قوي.

ـ اقبض عليه.

ـ يا نهار اسود! إزاي؟
ـ كده.. لازم ننقل الأسمنت النهارده.
ـ وحسن اتقبض عليه؟
ـ أيوه ما قلتلك.
ـ يا خسارة! يا فتاح يا عليم يا رب! ما تخدوني بقى يا أخي.. الواحد قرف من العيشة دي.
ـ حيبجي يوم ناخذك بس كل حاجة بأوان والا إيه؟
ـ وحنعمل إيه؟
ـ ياللا هاته عشان نعبيه في الشنطة دي.

ومشى سيد وقد اكفهرت ملامحه وتغضن وجهه المتغضن وازداد نحولاً.

ومشى حمزة وراءه يراقب قدميه الحافيتين الكبيرتين وهما تتركان آثارهما على الرمال، وجلبابه الذي عقد ذيله من ناحية والعقدة تتأرجح لكل خطوة. وكانت المقابر تسبح في هدوء يوم الشتاء ذاك.. هدوء مهيمن كبير أكبر من السماء والأرض، وأشعة الشمس ما تكاد تصل حتى يشلها الهدوء فتكمل رحلتها إلى الأرض زاحفة عليلة.. وكانت رياح باردة تهب.. رياح ذات طعم مختلف تماماً عن رياح المدينة وكأنها تهب من فجوة خاصة في أحد المدافن، والقبور متراصة مزدحمة تكاد تحسبها قطيعاً مهرولاً من ركائب مسرجة، ولا يستطيع الإنسان أن يميز شيئاً بذاته فهو يرى القبور من خلال يوم الشتاء البارد، ويحس بالريح من خلال القبور والزمهرير، ولا يرى الشمس إلا مضيئة مدفناً أو زاحفة أشعتها فوق تراب حفرة.. وتنبه حمزة من تأملاته على آثار قدمي سيد وهي تنقطع وتؤدي إلى باب فتحه سيد

وأحدث فتحه في الهدوء الشامل صريراً مزعجاً. ودخل سيد ودخل حمزة وراءه.. كان المكان مظلماً لا يتسرب إليه الضوء إلا من خلال شقوق موجودة بين ألواح نافذته. وكانت هناك رائحة لا تستحب لا لأنها كريهة ولكن لأن فيها شيئاً ما ينفر. كانت بلا ريب الرائحة التي تصاحب عملية تحول الإنسان الى تراب.. وما أشد نفور الإنسان من رائحة تحوله الى تراب!

وانقض سيد على بقعة في ركن المكان وأعمل فيها أصابعه، وظل يعمل بلاهوادة، وحمزة قد مل الوقوف فوضع الحقيبة وارتكز عليها. وتكشف التراب الذي كان يزيحه سيد عن «مجاديل» مصنوعة من أحجار طويلة موضوعة بعضها إلى جوار بعض وتغطي فجوة.

وأدخل سيد أصابعه الجافة بين مجدالين وناضل بقوة حتى اقتلع واحداً. وخف حمزة ليساعده، ولكن «سيد» رفع إليه وجهه الذي كان مغطى بتراب وبعرق كثير يلمع في ظلام تضيئه رقائق الضوء وقال:

ـ عنك انت يا أستاذ خليك مستريح.. هيه!

قال «هيه» وهو يعتل ويقتلع حجراً آخر.

وبعد أن رفع الأحجار كلها وجفف عرقه بجلبابه حدق في الحفرة.. وحدق حمزة كذلك، وتبين بعد أن تعودت عيناه ظلام الحفرة أن بها درجات تؤدي إلى القاع ما لبث سيد أن هبط عليها بغطائها.

وجاءه صوته بعد فترة مخنوقاً محشوراً:

ـ خد يا أستاذ.

وفي وجل قليل هبط حمزة ثلاث درجات ومد يده وقبض على الشيء بيد من حديد، وفي حرص بالغ وضع «الجربندية» التي كانت من مخلفات

الجيش، وضعها بجوار الحائط. وما كاد يفعل حتى جاءه الصوت المخنوق:

ـ خد يا أستاذ.

وتناول «جربندية» أخرى.

وثالثة ورابعة.

وخرج سيد في النهاية قائلاً:

ـ الحاجة تمام يا أستاذ؟

ـ تمام.

وأحضر حمزة الحقيبة الكبيرة وفتحها وأمر سيد أن يمسك.

وفي دقة بالغة عالج «أبزيم» أول جربندية حتى رفع غطاءها وتناول أول قالب «ديناميت» وتفحصه وشمه واطمأن إلى أن الرطوبة لم تنفذ إليه ووضعه بحرص أيضاً في ركن الحقيبة.. ثم مد يده واستخرج قالباً آخر وأرقده في قاع الحقيبة.

ومضت ساعة.

وتنفس حمزة بارتياح وهو يقول لسيد:

ـ ابقى اتخلص من الجربنديات دول.. ارميهم احرقهم اتخلص منهم والسلام.

وأجاب سيد بإيماءة الفاهم من رأسه.

وحمل سيد الحقيبة وهو النحيف رغم إلحاح حمزة، وعادا من نفس الطريق. وما أن وصلا إلى أول المقابر حتى وجدا هناك «أبو»دومة ومعه آخر. وطلب حمزة من سيد أن يحضر له عربة، ومن بعيد كانت تأتيه الكلمات التي يتبادلها أبو دومة وصاحبه:

ـ وبياخدوا العضم ده يعملوا به ايه يابو دومه؟

ـ أنا عارف يا خويا بيدرسوا عليه . . بيركبوه ويعملوه بني آدم تاني . . حد عارف؟

ـ إلا أنا سمعت يابو دومة انهم بياخدوا العضم ده يسحروا بيه ويعملوا بيه عمولات، وإنهم لاهم دكاتره ولا حاجة.

ـ يمكن . . مش بعيده. أنا مرة جاني واحد وقال عايز عضمة صباع رجل يمين بتاع واحد كان أعور شمال!

وجاء التاكسي.

وحمل حمزة الحقيبة برفق شديد ووضعها الى جواره وقال لسيد:

ـ شد حيلك.

فقال سيد:

ـ شدوا حيلكوا انتوا.

وقبل أن تنطلق العربة وقف أبو دومة وأشار لحمزة مودعاً:

ـ مع السلامة يا بيه . . أيها خدمة . . بس عند باب الوزير تقول عمي سماعين أبو دومة فين ألف من يدلك . . مع السلامة . . كل اسمنت وأنت طيب!!

ولم يسمع حمزة الجملة الأخيرة . .

٧

حين استقر مرة أخرى في شقة بدير جلس على الفوتيل ووضع الحقيبة بجواره على السجادة، وراح يفكر في تفاصيل ما حدث منذ غادر ترب باب الوزير قاصداً العباسية حيث يقطن صديقه السيد محمد رشدي. كان وهو يصعد بالحقيبة إليه ليطلب منه أن يبقيها عنده يكاد يجزم بما حدث ويكاد يخمن الارتباك العظيم الذي انتاب رشدي وخروجه ودخوله أودة الجلوس عدة مرات، وصوت امرأته حين علا، والابتسامة الحزينة الخجلة التي ظلت طول الوقت لا تغادر وجهه والكلمات ترتج عليه محاولاً أن يعتذر بالأولاد والحالة الصعبة، قائلاً آخر الأمر إنه لا يستطيع أن يخفي أي شيء..

كان حمزة حائراً.. هل يحقد على رشدي أم يرثي له؟ ويكاد يكون لدى البعض رغبات خفية تراودهم أحياناً أن يضبطوا غيرهم متلبساً بلحظة ضعف، ليرى الواحد منهم نفسه بالتشفي به وإذلاله وإثبات قوته هو وجبروته وصلابته.. غير أن رغبات مثل تلك لا تراود إلا الضعفاء.. وكان حمزة أبعد عن أن يفكر في التشفي أو تحقير صديقه لموقفه ذاك، فقد كان يعلم أن لكل إنسان قدرة محدودة على المضي في الطريق، وأن على الذين في استطاعتهم مواصلة المسير أن يرثوا للمتخلفين وألا يفقدوا فيهم الأمل.

ولكن مشكلة الحقيبة كانت لا تزال قائمة وبدير لن يسمح أبداً أن تمكث في شقته ثانية، بل لو علم لما أبقاه هو. وعليه أن يودعها في مكان أمين، وأين المكان الأمين في ظروف كتلك؟

ودار المفتاح في قفل الباب.

ودخل بدير وما أن رأى الحقيبة حتى قال:

ـ جبت الهدوم؟

ـ آه.

ـ وخدت الشنطة الكبيرة ليه؟ إياك عندك هدوم كتير؟

ـ آه.

وكان بدير يتكلم وهو يروح ويجيء مبتهجاً ويدور في الحجرة وينظر أحياناً الى الحقيبة. ولا أحد يدري مصدر النزوة الغريبة التي راودته والتي تراود الناس كلما رأوا حقيبة كبيرة أن يجلسوا عليها، وقال بدير وهو يكف عن مشيه ويهبط بجسده الضخم فوق الحقيبة:

ـ هه.. وازيك؟ مالك مبوز كده؟

واندفع حمزة يصرخ:

ـ اوعه.. اوعه.. قوم.

وانتفض بدير واقفاً في ذهول لا يدري سبباً لهذا الصراخ المفاجىء.

وقال حمزة في نبرات متقطعة محاولاً إصلاح الأمر:

ـ أصل.. الهدوم تكسر.. الشنطة ما تستحملش.

ـ يا خويا خوفتني.. هي هدومك قزاز والا إيه؟

ـ أبداً.. هه.. أما أشيلها أحسن.

ورفع حمزة الحقيبة وتكلف جهوداً شاقة ليستطيع أن يبدو أمام بدير وهو يحملها في خفة، وكأنها تحتوي ملابسه فقط. وعاد الى الحجرة وجلس

صامتاً ناظراً في ساعته. كانت الساعة الرابعة وما تبينها حتى أحس بجفاف في حلقه وبشيء من الرهبة ودق القلب. . أحس بهذا كله دون أن يدري له سبباً. كل ما في الأمر أنه تذكر أن ما بعد الظهر قد حان، ولكن الحديث الحقيقي كان يدور بين حمزة ونفسه. وكان الحديث يدور حول فوزية.

ماذا حدث؟

لقد تم أول لقاء بينهما وكل شيء هادىء وعادي.

فلماذا أدمن بعد ذلك التفكير فيها؟

ولهفته على لقائها في مصر الجديدة لم تكن أبداً لهفة لقاء عادي.

وما الذي فعلته فيه أصابعها الطويلة النحيلة وهي تلتف على يده بقوة تصافحه؟

وما تلك الاشعاعات الظاهرة التي تنبعث من عينيها كلما نظر في عينيها فتسلبه إدراكه؟

وما مصدر تلك القوة الغامضة التي تدفعه إليها دون وعي أو تفكير كما يندفع الحديد الى المغناطيس؟

أبداً . . لم يحس بشيء كهذا في حياته. كان يستلطف بنات وأحياناً يهذر مع بنات ويقبل بنات ويصادق بنات ولكنه لم يشعر أبداً بإحساس خفي مثل ذاك الذي يجذبه بقوة لا يستطيع مقاومتها إلى فوزية؟

هناك شيء ما محير يحيط بتلك الفتاة. . لا بد أن في الأمر سراً لا يدريه. إنه لا يحبها إذ الحب في نظره علاقة لا تنمو هكذا بمجرد نظرات وكلمات ولقاءات. الحب الحقيقي علاقة مادية يقتضي وجودها زمناً وعشرة وتجربة يمر بها الرجل والمرأة فتصهرهما في بوتقتها. . فإذا لم يكن يحبها فماذا يدفعه إليها؟ ولماذا أصبح حلقه يجف وقلبه يخفق كلما مرت

بخياله أو سمع اسمها أو خيل إليه أنه يسمع اسمها، أو حتى إذا جاء في حديثه مع بدير ذكر لأي كلمة فيها الفاء والواو والزاي. . أو حتى الزاي وحدها؟ ولماذا راح دون وعي منه يستعرض كل النساء اللائي رآهن خلال رحلته الى باب الوزير ويقارن أيضاً دون وعي بينهن وبينها وتكون هي الرابحة دائماً. . بل كل النساء الى جوارها رجال أو هن أقرب؟

لماذا هذا كله؟ ولماذا دأب في الأيام الأخيرة على حلق ذقنه كل يوم والوقوف أمام المرآة طويلاً؟ ولماذا يغالط نفسه ويدعي أنه يرى في المرآة أمامه إنساناً وسيماً؟

ولماذا راح يفتش عن لمحات جمال في نفسه. واكتشف الآن فقط أن أنفه جميل وأسنانه ناصعة البياض وذقنه الغزير كلما جار عليه بالموسى وهو يحلقه أصبح له لون رمادي باهت يتلاءم تماماً مع لون بشرته؟

إنه شخص علمي يؤمن بالعقل والعلم ولا بد من تفسير لتلك الظاهرة. . لا بد من وجود سبب، ولا بد أن يدرس انفعالاته حين تأتي ويراقب نفسه ويحصي عليها حركاتها وسكناتها، ويتفحص فوزية بدقة إذ لا بد له من العثور على تفسير.

ومع أنه كان جالساً في حجرة المكتب بعيداً عن باب الشقة إلا أنه سمع حفيف الأقدام التي تصعد السلم وجف حلقه للحفيف وازداد جفافاً حين توقف الصوت لدى الباب. ولم ينتظر دق الجرس بل انطلق من فوره وفتح الباب ليجد فوزية واقفة على عتبته تحمل حقيبة من القماش بيد ويدها الأخرى على الزر، وحين ابتسمت له عبقت الدنيا برائحة بسمتها واستحال شخصاً آخر. لا نقاش ولا جدال ولا علم ولا عقل. . قلب يخفق، وريق ينضب، وعرق خفيف ينبت، وطاحونة دائرة في رأسه

وقوة خارقة تدفعه مغمض العينين إليها. . وجاءه صوتها ساحراً في لطفه رقيقاً عذباً يقول:

ـ إيه؟. . مش عايزني أدخل؟

وتعثرت بسماته وتعثر اضطرابه وهو يقول:

ـ أبداً. . أبداً. . اتفضلي.

ـ ياه. . انت مؤدب قوي النهارده.

ودخلت فوزية وسبقته الى حجرة المكتب.

وأحس باطمئنان أبدي حين احتوتها الشقة، وهبط الخوف الذي كان يملأ صدره ولا يدعه يستريح. . الخوف من أنها لا تجيء، أو إذا جاءت يحدث حادث مثلاً ولا تدخل الشقة، أو يكون وراءها عمل آخر فتأتي لتعتذر، أو يقبض عليه قبل حضورها.

وقام الأستاذ بدير يرحب بها في ضجة، ومع أنها كانت قد اختارت أن تجلس على كرسي إلا أنه ألح عليها بإمعان أن تجلس على الفوتيل ولم يتركها إلا بعد أن نفذت إلحاحه. . وانطلق إلى المطبخ وعاد بعد ثانية بزجاجة عصير فواكه مثلجة وقدمها وهو يعتذر بأن الزجاجة مش قد المقام.

وبعد ما انتهت ضجة الترحيب سكت الثلاثة. . سكت حمزة لأنه كان يتأمل فوزية ولا يحس بأدنى رغبة في الكلام، وسكتت فوزية لأن كلامها كان يحتم انفرادها بحمزة وكان يبدو على بدير أنه أضيق الثلاثة بالصمت وأنه يود فتح أي باب للحديث ويود إطالة الجلوس.

غير أن الباب ظل مغلقاً لا يكاد يجسر أحد على فتحه، ولم يجد بدير فائدة فخبط على فخديه وهو يقول:

ـ طيب. . هه. . اسيبكو بقى للدروس وأقوم أنا.

ومع هذا لم يقم وكأنه ينتظر أن يشفق عليه أحدهما ويستبقيه، غير ان واحداً منهما لم يقل حرفاً.

واعتدل بدير في تراخ وترك الحجرة، وظل يروح ويغدو في الشقة ويغني أحياناً ويدخل عليهما الحجرة ويبحث في أدراج المكتب عن اشياء ولا يجد هذه الأشياء، وهذا كله يحدث وحمزة وفوزية لا ينطقان بحرف، حتى اذا ما قام بدير أخيراً وقد فتح الباب الخارجي وأمسكه بيده:

ـ هه.. أوروفوار بقى.

قال الاثنان: أوريفوار.

واستعادت فوزية نشاطها المتيقظ ولمعة عينيها والتفتت الى حمزة قائلة:

ـ الهدوم أهه.. وآدي الورق والباقي مكنشي فيه حاجة مهمة، وآدي وصل الجواب المسوجر.. والنمرة مردتش.

ـ نمرة ايه؟

ـ الله! انت نسيت؟

ـ لأ انسى ازاي.. مردتش؟ انتي عارفة معنى كده ايه؟

ـ ايه؟

ـ اني خلاص فقدت آخر صلة لي باللجنة.. والله كل ما تلقي نفسك فاضية اضربيها يمكن ترد.. يمكن يرجع.

ـ فيه حاجة تانية؟

ـ لأ.

ـ ووجد شيئاً يدفعه إلى أن يضيف:

ـ أهو دلوقتي اتعزلنا احنا الاتنين.. يعني كأنني «في جزيرة معك».

وسرح خياله مع التعبير. . في جزيرة معها هي والطبيعة واللامسئوليات. . كم يبدو هذا رائعاً! وهل ستسير حياته كلها هكذا معارك وكفاح وتربص وحذر؟ كم تبدو الراحة والمتع الصغيرة التي لا يزاولها حلوة. . كم يبدو بيت هادىء وزوجة وأولاد جميلاً! أحياناً يهفو الى قضاء يوم على شاطىء البحر في مصيف. أحياناً يود الذهاب الى الأوبرا أحياناً يريد أن يرى أوروبا.

وعاد يريد أن يحدق فيها ولم يجد لديه جرأة كافية، بل لم يعد في استطاعته أن تلتقي أبصارهما ولا عاد يرى فيها الإنسانة التي من لحم ودم والتي تعود أن يراها، بل أصبح ينظر إليها وكأنها استحالت الى شيء معنوي له قدسية وخشوع، أصبح يراها كما يتأمل العاشق القمر فلا يجد فيه كوكباً آخر يضيء بأشعة الشمس المنعكسة، وإنما يرى فيه وجه الحبيبة وأسعد ما عاش من ساعات، والهمسات الدافئة وكل الذكريات.

وكان الصمت قد طال حتى بدا وهو في أشباه أحلامه يحس به ويحس أن لا بد له من نهاية فقال لها:

ـ تعرفي أن كل معلوماتي عنك لا تتعدى أنك مدرسة وسكرتيرة اللجنة وبس. .

ـ وعاوز تعرف إيه؟

ـ كل حاجة.

ـ ياه. . دا انت الظاهر فاضي.

ـ وورانا إيه؟

وبدأت تتكلم بعد تردد وحمزة يستمتع بكلامها وبحالة السلبية التي تملكته والتي كان سعيداً بها. هي الابنة الكبرى لمدرس أيضاً ولها أختان

وولد، أبوها تعلم في المعاهد وتخرج من دار العلوم ويدرس العربي وله في كل مشكلة رأي ويعتبر نفسه عصرياً بكل ما تحمل تلك الكلمة من معان. وبينه وبين أقربائه الذين يكونون جيشاً عرمرماً من موظفي الدرجة السابعة فما تحت ما صنع الحداد حين قالوا له: عيب تشتغل بنتك. مط لهم شفتيه وقال: ما عيب إلا العيب، والذين يعملون أشرف من الذين لا يعملون. وحين نقلت الى طنطا وكان لا بد أن تسكن هناك بمفردها وأشفقوا عليها من المصير قال لهم: اللي ما يقدر يحافظ على نفسه حيحافظ عليه غيره؟ وحين رآها بعض ذوي قرباها محمولة على الأعناق في عابدين في مظاهرة ١٣ نوفمبر وهي تهتف وذهبوا اليه يستنكرون ويتبرون قال: كلموها هي.. أنا ابوها مش سيدها.

ليس هذا فقط بل إنه يحفظ رباعيات الخيام، ويرى أن نصف مشاكل العالم تحل بعد حمام دافىء. وأن الوسيلة المثلى لإخراج الإنجليز من مصر هي ما اتبعه غاندي، وأن المعيز والمغازل أقوى مليون مرة من المدافع والدبابات، وإن كان يستدرك بعد هذا ويقول: بس ده رأيي الخاص.. وأنا احترم رأيك جداً مهما كان.. أنا كما يقول فولتير: أنا وإن كنت لا أرى رأيك إلا أنني مستعد أن أفقد حياتي دفاعاً عن حقك في إبداء رأيك.

وقطعت فوزية حديثها فجأة قائلة:

ـ قوللي؟

ـ أيوه.

ـ انت لابس البدله ليه؟

وتذكر حمزة كل ما دار في يومه الطويل وقال:

ـ أصلي خرجت..

ـ خرجت؟ إزاي؟ إزاي تخرج؟

ـ كان لازم.

ـ ليه؟

وتردد حمزة مرة أخرى ولكنه آثر أن يفضي إليها وقال:

ـ حسن كان يعرف مكان ديناميت مخبيينه، فكان لازم أروح بنفسي وأجيبه.

ـ ديناميت.

ـ أيوه ديناميت.

ـ وجبته؟

ـ جبته.

ـ فين؟

ـ جوه.

ـ هنا؟

ـ أيوه هنا.

ـ إزاي مخليه هنا؟ مش خطر؟

ـ خطر.

ـ وهنا مش كويس!

ـ مش كويس أبداً.

ـ لازم ينشال.

ـ لازم.

ـ وحتعمل إيه؟

ـ حنقله.

ـ فين؟

ـ ما اعرفشي.

ـ وده كلام؟

ـمعلهش. . لازم أوجد حل.

وسكت وسكتت وهي تهز ساقها الموضوعة فوق الأخرى في عصبية وأخيراً قالت:

ـ تشرب قهوة؟ أنا عايزة قهوة.

ـ تعرفي تعملي؟

ـ طبعاً أعرف! انت فاكرني مثقفة متعفنة! دانا اللي شايلة بيتنا كله وشغله. . دلوقتي حتشوف القهوة!

ـ ورينا شطارتك.

وبعد قليل رجعت وقدماها تزحفان ببطء وعلى الصينية كوب لها وكوب آخر له، وبخار القهوة يتصاعد ويملأ الغرفة برائحتها التي يتفتح لها الشم والبصر.

وأخذت فوزية تحتسي قهوتها في رشفات سريعة حتى أتت عليها وحمزة ما يكاد يتذوق كوبه، وسألته فوزية ونشوة بهيجة تطل من عينيها:

ـ إلاّ قوللي.

ـ أقولك إيه؟

ـ انت بتشتغل إيه؟

وضحك حمزة ضحكة طويلة مغتصبة وقال:

ـ انتي لسه لدلوقتي ما تعرفيش. . خمني باشتغل إيه؟

ـ مدرس؟

وضحك حمزة مرة أخرى وقال:

ـ اشمعنى يعني؟!. . لا.

ـ طالب؟

ـ لأ.

ـ محامي! أمال إيه صحيح؟

ـ تسمعي عن الناس اللي بيسبغوا الهدوم أهو أنا منهم.

ـ كنت بتشتغل في مصبغة يعني؟

وضحك حمزة وأجاب:

ـ لأ كنت باشتغل كيماوي في مصنع شركة الحرير.

ـ أمال ايه اللي خلاني افتكرك مدرس.. انت لازم سبت الشغل بقى؟

ـ ياما سبت شغل.

ونظرت إليه فوزية، أكانت علامة إعجاب نظرتها؟ لا يدري فقط جعلته تلك النظرة يخجل ويسقط عينيه الى الأرض.

وقالت فوزية في عصبية مفاجئة:

ـ تعرف أنا النهاردة كنت حاضرب الناظرة، إيه ده؟ الناس بقى دمهم تقيل قوي.. ناظرة آخر رجعية وسخافة في العالم. تصور هي بنفسها اللي بتفتح كل الجوابات الواردة للمدرسة وتقراها.. امبارح فتحت جواب لي.. الله ما تشرب القهوة.. انت سارح في إيه؟ بتبصلي كده لي؟

وكان حمزة تائهاً فعلاً في وجهها لا يكاد يعي، وعيناه مثبتتان على بشرتها يرى كلماتها ولا يسمعها، ويراقب ذرات النور وهي تتساقط على ملامحها الدائمة الانفعال، ويفكر في أشياء كثيرة لا يعرف ما هي.. وانتبه فجأة على سؤالها فقال:

ـ أبداً.. آه.. أصل أنا ساعات باسرح كده.

ـ الظاهر إنك تعبان.

أبداً.. أبداً.

ـ أمـال عينيك شكلهـم غريب، وبتبص كده. . كده. . كده فيه حاجة؟

ـ أبداً. . أبداً.

ـ طيب أنا لازم أمشي. . ياه! أنا أتأخرت قوي.

ـ تمشي إزاي؟ لسه بدري. . لا يمكن حتمشي دلوقت.

ـ لا، لازم أمشي.

ـ لسه بدري جداً. . مش ممكن. .

ـ طيب أقعد خمس دقايق، لغاية لما تبقى تمانية.

وأحب حمزة أن يشارك في حديث يجعلها تبقى فسألها:

ـ هيه. . عاملة إيه؟

فقالت وهي تقف في ضيق عصبي مفاجىء:

ـ تعرف أنا النهارده كنت حنفجر. . الناس خلاص استسلموا. . عاملين زي التمساح الميت مهما تنغز فيه ما يحسش. . ايه ده؟ ده لو كانوا عشرين مليون دوده ما كانوش استموتوا بالشكل ده.

وكان حمزة مستمتعاً بحالة الاسترخاء السلبي الذي كان يستقبل بهـا حديثهاوملامحها،ولكنه لم يعجبه كلامهـا الأخير، وتـردد برهـة بين أن يسكت ويواصل الاسترخاء وبين أن يرد فينشب جدل يعكر الجو الحالم الذي ساد الغرفة. ولكنه وجد نفسه يقول:

ـ بس أ نت غلطانة إذا كنتي فاكره إن الشعب مستسلم.

ـ غلطانة إزاي والناس ميتانة خالص ؟ دا ولا كأن البلد بلدهم وملك حقير عمال بيخون ويلعب بقضية البلد زي ما هو عايز. .

ـ إنتي شايفه الظاهر بس. . وعمر المظاهر ما تصلح أساس لحـكم فاهماني إزاي؟

ـ يا شيخ مظاهر إيه؟ إحنا أصلنا شعب مسالم استعمر آلاف السنين وخد على الذل.. حتى الحرب الأخيرة ما حركتشي فيه ساكن.. أصل طبيعتنا الزراعية وأرضنا السهلة وجونا اللي مفهشي تغيرات كبيرة مش ممكن يخلق شعب مقاوم زي الشعب اليوناني مثلاً.. إحنا ناس عاديين ومش ميالين للعنف.

ـ برضه أنا مصر أن دي نظرة سطحية محضة.. شعبنا ده فيه قوة مقاومة لا يمكن تصورها.. قوة مريعة مستخبية ورا السبح والصهينة وضرب الدنيا صرمه.

ـ بس الزمن عمل عمله في الناس يا حمزة والظلم اللي استمر آلاف السنين ترك أثره.. أنت مش متصور..

ـ انا متصور كل حاجة.. والظلم اللي بتقولي عليه ده مش أضعف المقاومة دا زودها.. فاهماني إزاي؟ إنتي لو كنت في اسكندرية يوم ٦ مارس وشفتي العيال وهم فاتحين صدورهم وداخلين على المترليوزات ماكنتيش تقولي كده.

ـ دا كلام بيني وبينك بنقوله إحنا بس.. إنما الحقيقة..

ـ أبداً الحقيقة إن ده حصل فعلاً وشفته أنا بعيني..

ـ حصل إزاي؟ مش معقول.. هو ده معقول حد يدخل على الرصاص بصدره؟

ـ بس ده فعلاً حصل.. كان الانجليز الأربعة فاتحين المدافع والرصاص زي المطر، والعيال كانوا واقفين في الميدان فعلاً ونازلين فيهم ضرب بالطوب والحجارة.

ـ انت حتجنني! اسمع يا حمزة.. أنا مش ناقصة حماس.. مفيش داعي تبالغ.

ـ بشرفي ما ببالغ.. أنا كنت في المظاهرة يومها.. ومش أنا بس اللي شفت.. على الأقل ٥٠٠٠ واحد شافوها يوم ٦ مارس.

ـ كان في اسكندرية الكلام ده؟

ـ آه.. يوم ٦ مارس بالذات ده كان يوم تاريخي بالنسبة لي شخصياً.. كنا أيامها بنمر بفترة رهيبة من تاريخنا.. كنت طالب في كلية العلوم في اسكندرية وكل يوم والتاني مظاهرة ومؤتمر، وكان لي صديق اسمه أمين كان طالب في كلية الحقوق.. دلوقتي بقى وكيل نيابة.. قابلته في الصيف اللي فات.. كنت أنا وهو ما نكاد نسمع عن مظاهرة أو إضراب إلا ونطير على هناك، وكان لأمين بالطو مربعات مشهور جداً في المظاهرات كان أصله بالطو جبردين وقلبه، والجبردين قماشه من جوه مربعات.. كنا لما نعرف أن فيه مظاهرة يلبس هو البالطو ويجري على هناك.. وكانت مصر بتتوالى عليها حكومات صدقي والنقراشي والبلد كلها ثائرة وواقفة ضد أي تسليم في حقوقها. وكنت أنا مجرد طالب عادي من اللي بتشفيهم يملوا الشوارع في المظاهرات.. خرجت من بيتنا الصبح، واسكندرية يومها كان مفروض أنها في حالة حداد على الشهداء اللي ماتوا في ٢١ فبراير في القاهرة.. وليلتها بالليل كان في البلد رأيين: رأي ينادي بوجوب أن يمر اليوم هادئاً وهذا كان رأي الإخوان، والرأي الثاني كان بيصر على أن تقوم مظاهرات واسعة النطاق لتخلد اليوم ويصبح جديراً بذكرى الشهداء. وانتصر الرأي الثاني والصبح كانت البلد كلها تعج بالمظاهرات. خرجت من البيت وفت على أمين وذهبنا للبحث عن مظاهرة نشترك فيها.

وعند محطة الرمل وجدنا مظاهرة كبيرة ممتدة من المحطة الى شارع

سعد زغلول، ولأول مرة كنت باشوف مظاهرات مش فيها طلبة وبس، إنما فيها طلبة وناس كبار وناس بجلاليب وتجار وكمسارية ترماي وعمال وأولاد من اللي بيلموا سبارس ويمسحوا جزم وصبيان ورش. . الأولاد اللي بيقولوا عنهم الغوغاء. ومرت المظاهرة بكشك استعلامات إنجليزي كان مبني بالأسمنت المسلح وأصبح مكانه الآن منتزه، مرت من أمام الكشك وكانت له شبابيك بتطل على محطة الرمل وعليها يفط مكتوبة بالانجليزية تحمل تعليمات الى العساكر. بعض الأولاد اللي بيمشوا دائماً على حواف المظاهرات حاولوا خلع يافطة فمنعهم الرجالة الكبار، إنما كما يحدث في مثل هذه الأحوال الناس وقفت والتفت حول الكشك. . وانتبه الناس له وكأنهم لم يروه من قبل. . وكانت نتيجة توقف المظاهرات أنها تفرقت حول الكشك فحاصرته. أنا كنت في الناحية البعيدة عن شارع سعد زغلول فسمعت من الناس أن الكشك فيه سلاح وإن الواحد ممكن يدخل ويشيل زي ما هو عايز. وحكاية السلاح دي عندي حساسة جداً . . فمثلاً أنا مرت علي فترة أيام أن كنت في توجيهي وأولى جامعة كنت عاوز مسدس وبس. . كانت كل حياتي متبلورة في حصولي على مسدس مش المهم أستعمله في إيه المهم كنت عايز مسدس وبس. . وسمعت مرة أنا وأمين إن مصر الفتاة بتصرف مسدسات لأعضائها، فاتفقنا أن يدخل هو فيها فإذا أعطوه مسدس أدخل أنا أيضاً. وتستطيعي أن تتصوري مبلغ شوقي ورغبتي في دخول الكشك في تلك الساعة عشان أقدر أحصل على مسدس. . الميدان كان ساعتها مليان ناس، عدد كبير جداً من الناس، وما شعرت بنفسي إلا وأنا بابحث عن باب الكشك. . لقيته ولقيت ناس داخلين فيه. . دخلت، دخلت كده من غير أي تفكير ولا عقل. . كان فيه إحساس غريب كبير بيحركني. . الكشك من جوه كان مظلم وكان الواحد أول ما يدخل يلاقي أوضه كبيرة واسعة من غير شبابيك

وفيه باب بيؤدي الى أوضة تانية جوانية. . ويدوبك أصبحت في وسط الأوضة البرانية ومعايا ناس إلا وسمعنا أصوات غامضة . . تك . . تك . . تك . . سريعة وورا بعضها. أنا عمري ما سمعت مترليوز بيضرب ، وما كنتش أتصور أن صوته لما يضرب بيكون واطي كده. . شعرت برهبة شديدة. . وجدت الناس خارجين من الأوضة الجوانية جري، وبعضهم بيقع على الأرض وينام، وبعضهم بيصرخ وكل اللي قادر يجري بيجري. . فجريت خرجت بره وفضلت أجري بعيد عن الميدان والحتة كلها لغاية ماطلعت على الكورنيش وأنا مذهول ومش فاهم حاجة ومش عارف حاجة. اعتقدت إني لازم أصبت ولسه لم أشعر. وأنا كنت سمعت أن الواحد لما بيضرب بالرصاص لا يشعر بإصابته في الأول. فتشت جسمي كله لقيتني سليم ، ومن غير ما أدري لقيت نفسي راجع للميدان. . ولقيته ساعتها منظره رهيب جداً. الكشك ولو أنه كان كشك استعلامات كل ما فيه أشغال مدنية ، إلا أنه كان فيه أربع عساكر إنجليز ومعاهم أربع مترليوزات وقاعدين مستعدين في الأوضة الجوانية من الصبح ، ومنتظرين الناس لما يدخلوا عليهم فيروحوا فاتحين عليهم المدافع.

فلما الناس جريت ومات اللي مات واتعور اللي اتعور، العساكر خافت وراح كل واحد منهم مصوب مدفعه من شباك ونازل ضرب في الناس اللي في الميدان علشان يبعدهم عن الكشك. . وفي دقيقة كان الميدان اللي كان بيموج بالناس فضي خالص. كل أصحاب البدل اختفوا لما أصبحت الحكاية جد. . وكل أصحاب الجلاليب استخبوا في [illegible] العمارات اللي بتطل على الميدان ، وتعرفي مين اللي فضل واقف لواحده في الميدان والضرب شغال من كل ناحية ؟ تعرفي مين ؟ الأولاد اللي

الإنسان لا يعرف لهم أهل ولا يعرف لهم لبس ولا صنعة. عيال صغيرين أكبر مافيهم لا يزيد عن ١٥ سنة . . سمر ومعفرين وشعرهم منكوش وهدومهم خرق. . يعني اللي فضل هم اللي بيسموهم الغوغاء.

وقفت أنا في مدخل عمارة قريبة، وكان ممكن أضرب وكان ممكن أموت، وكان عقلي بيراودني أن أرجع إنما كانت قوة خفية بتمنعني منع عن الحركة. وقفت اتفرج، المدافع نازلة ضرب والأولاد غير مكترثين اطلاقاً ونازلين ضرب بالطوب والحجارة. . تصوري! بيضربوا طوب قصاد مترليوزات. . والحاجة المذهلة ان الواحد منهم كان يصاب زميله اللي بيضرب جنبه ويقع ويموت وهو واقف ونازل ضرب بالطوب. .

وبعد شوية لقيوا أن الطوب أصبح لا يجدي. . فبصيت لقيت واحد منهم راح قالع جلابيته الخرق وبلها بنزين من عربية واقفة ووطى وفضل يجري لغاية ما قرب من الكشك وراح رامي الجلابية المولعة من الشباك جوه الكشك، وكان ده بداية تحول في المعركة. . بقى الأولاد يجروا ويجيبوا أي حاجة. . ورق. . خرق. . خشب، ويبلوها بنزين من العربيات ويجروا والرصاص حواليهم وفوق دماغهم كأنه ناموس بالضبط ويفضلوا يجروا ومش يحدفوها من بعيد وخلاص، لأ يصروا على أنهم يوطوا خالص لما يقربوا جداً من الكشك ويروحوا حدفينها من نفس الشبابيك اللي بتضرب منها المترليوزات.

لما اشتدت المعركة بقوا يدخلوا محل الحلواني المطل على الميدان، ويجيبوا كراسيه ويولعوا النار فيها ويطلعوا وهم بيصرخوا صرخات الحرب ويجروا ويرموها على الكشك.

وبدأت النار وامتلأ الميدان دخان . . دخان كثيف جداً. واصبحت المنطقة كلها مليانة دخان ورصاص ونار وصراخ وتكتكة مترليوزات. .

وفي وسط الدخان، وفي وسط الهول دا كله تبصي تلاقي العيل من دول اسمر لونه زي التراب وعريان وجسمه مهبب وبيزحف على بطنه وشايل كرسي مولع والرصاص حواليه وهو ماشي بالكرسي في ثقة واعتداد ومصر على توصيله لحد الكشك.

وفي مدخل العمارة اللي كنت واقف فيه مع الناس كنا عمالين نبص ونستعجب ونخبط كف على كف. كنا زي ما نكون بنتفرج على أبطال قصص خرافية عمالين يقوموا بأعمال خارقة قدام عينينا. كان شيء عجيب يذهل. كانت لحظة من اللحظات اللي تشوفي فيها شعبنا. . الشعب اللي بيقولوا عليه طيب ومستسلم. . اللي بيقولوا عليه ساذج ومتسامح. . تشوفيه فيها عملاق . . تشوفيه فيها مارد لا يمكن لأي قوة ان تقتله. . تشوفيه في العيال اللي كان أكثرهم يمكن يومها ما فطرش واللي كان الرصاص بيدبحهم دبح، وعمالين يقاوموا ويحاربوا وعارفين انهم بيحاربوا الانجليز، وعارفين ان الانجليز معاهم مدافع وانهم هم ممعاهمش حاجة، ومع هذا مصرين على حرق الانجليز الأربعة اللي قتلوا الناس مهما مات منهم. كنت واقف وجسمي فيه حمى، وعيني بتشوف حلم غريب تكشف لي فيه شعبنا على حقيقته. . كتير جداً شفناه في أوقات ضعفه وكتير كنا بنلعنه ونستهين به، انما كنت عايز كل اللي بيمطوا شفايفهم لما تيجي سيرة الشعب. . كنت عايزهم يكونوا هناك ويشوفوا الميدان مليان جثث. . شبان وطلبة وعمال مفروشة جثثهم على الأرض والاسعاف عمالة تحول. . كانت بتيجي عربة الاسعاف مش تشيل واحد وتمشي؟ لأ. . كانت بتنتظر لما تتملي جثث وتطلع وييجي غيرها يتملي ويمشي. . والناس مش عايزة تتحرك من مكانها. . والغوغاء اللي بيقولوا عليهم عمالين يتقتلوا وما بينتهوش كان بيتهيأ لي أنهم بيزيدوا. . كان بيتهيأ لي انهم عمالين ينضم لهم أولاد من تحت الأرض

فعلاً. كل العيال اللي في اسكندرية كل ما كانوا يسمعوا وهم بعيد عن المعركة كانوا بيبجوا جري عشان ماتفوتهمش. والعجيبة ان في وسط دا كله، في وسط الموت والدم والدخان والرصاص فجأة تحولت أنظار الأولاد الى طيارة ركاب كانت فايته واطيه جداً وقعدوا يبصوا عليها ويشاوروا ويهللوا، في نفس الوقت اللي بيضربوا فيه بالطوب وبيرموا الخرق المولعة. وكان البوليس المصري جه ووقف في أول شارع سعد.. ماكانش بيعمل حاجة أبداً، وكان العساكر والضباط شايفين الأولاد الأبطال عمالين بيقعوا واحد ورا التاني وهمه حينفجروا من الغيظ.

وحاولنا أن نقنع ضابط انه يتدخل ويأمر العساكر المسلحين بضرب الإنجليز، فبقى يكاد يبكي وهو بيقول أنه لا يستطيع، وإنه ليس لديه أوامر.. بل بكى فعلاً.

ونجح الأولاد أخيراً.. الكشك ولع كله وبقى كتلة نار. ونطاتنين من العساكر اللي كانوا جواه رافعين أيديهم وسلموا نفسهم للبوليس فأحاطهم بقوات كبيرة علشان يقدر يحافظ عليهم.. وبقت بنادق العساكر المصريين هي المرة دي اللي بتضرب عشان تحمي الانجليز.. والعسكري التالت ما طلعشي أبداً وقالوا بعد كده انه اتحرق.

أما العسكري الرابع فنط من الشباك اللي كان قريب من العمارة اللي كنت واقف في بابها وطلع جري. فواحد ابن بلد اسكندراني كان واقف جنبي في مدخل العمارة طلع جري وراه وراح مشنكله فوقع في الشارع فراح بارك فوقه وحط رجله على صدره وطلع من جيبه مطوه لها سلاح طويل وسنها شوية على حجر الرصيف، وبعدين راح دابحه من الودان للودان. ومسح المطوة وحطها في جيبه، وتف على العسكري ومشي.

بعد كده شفت العسكري ده في المستشفى الأميري كان راقد في أوده كبيرة قوي ومليانه جثث الشبان والأولاد اللـي ماتـوا . . كان ضخـم زي العجل وراسه كبيرة وشعره أحمر وزوره مقطوع لغاية العضم .

تاني يوم رحت الكلية لقيت الطلبة عاملين مؤتمر. ومؤتمرات زمان في الكليات كانت أكاديمية قوي فكان العميد والأساتذة بيحضروها. قعدت أسمع . . وكان فيه أستاذ بيخطب . . كان لابس بدلة نظيفة قوي وقميصه بيلمع ووشه محلوق ناعم وعمال يتكلم بصوت واطي وبرزانة مصطنعة عن أن القوة مش ممكن تخـرج الانجليزي . . وأننـا لو حسنـا أخلاقنـا ومعنوياتنا وروحانياتنا فلن يستطيع الانجليز البقاء في بلادنا .

فقمت واقف وقلـت : ده كلام فارغ . فبـان علـى وجهـه الغضـب الشديد مش لأني بأسخف كلامه انما لأني قاطعته وخرقت النظام . . فراح قايل : اللي عايز يتكلم يبقى ييجي هنا ويتكلـم . . يجب أن نتعلم النظام لأن النظام هو الذي سيخرج الانجليز. أحنا علشان شعب فوضى ظللنـا مستعمرين . . مين عايز يتكلم؟ انت؟ تعال . وشاور علي فرحت قايم في عاصفة من تصفيق الطلبة لأنهم كانـوا الظاهـر متضـايقين جداً من كلام الراجل .

وصلت الى المنصة وأنا كنت يومها عمري ما خطبت ولا أعرف أخطب أزاي . ولكن اللي حصل اني انفجرت ، وكل ما قلته كان هو اللي شفته في محطة الرمل . كنت باتكلم بحماس فقط. كنت بقول اللي حسيته واللي آمنت به . ومش فاكر أنا قلت إيه انما فاكر إني انهيت الخطبة بحاجة زي كده : لن يخرج المحتل إلا بالقوة وبالقوة فقط سيتحرر الشعب .

واستقبل الطلبة كلامي بتصفيق وهتاف كالرعد وفضلت الهتافات أكثر

من ربع ساعة. والظاهر ان الأستاذ لم يعجبه ان يهزم أمامي فبعدما هدأت الهتافات طلع على التختة بطريقته اللبقة المهذبة عشان يرد على الخطبة الطويلة بتاعتي. . فمسك طباشيرة وكتب رداً على كلامي من أن القوة وحدها هي طريق التحرر، كتب : العلم = قوة. .

وراح قاعد تاني. .

وهلل الطلبة واعجب بعضهم بالرد واعتبروه بليغاً.

وتملكني ضيق شديد وحماس، فرحت طالع وماسك الطباشيرة وأضفت الكلمة دي :

العلم «في بلد مستقل» = قوة

وهاج المدرج وماج.

وكان سيعقب المؤتمر انتخاب مندوبين عن الكلية في اللجنة التنفيذية للجامعة كلها وانتخبت.

وكان ده أول الطريق. .

٨

كان حمزة يتحدث وينساب التاريخ القريب من بين شفتيه ويغرق فوزية في فيض من الأحداث والمواقف والذكريات، وتتشنج أصابعه وهي تحدد وتجسد، وتتحرك يداه ملوحتين، ويتقارب حاجباه ويبتعدان ويهتز منظاره، وترتجف نبرات صوته وترتعش وكأنها لا تنطق الكلمات فقط، ولكنها تعزف أيضاً لحناً عارماً يصاحب ما كان ويخلد المواقف.

وكان حديثه يملأ الحجرة بالأحداث، ويحيل الأثاث الى مواقع والجماد الى كائنات حية تقاوم وتصرخ وتموت. ولهذا مضى وقت طويل قبل أن تكف فوزية عن تحديقها في لا شيء وتسترد نفسها وتعود الى الحجرة، والى الليلة، والى الدقي، وتنظر الى حمزة الجالس أمامها لا يتحدث ولا يتحرك ولا تطرف عيناه.

وقالت:

ـ ياه!.. دا فعلاً لينا تاريخ.

فرد حمزة في بطء:

ـ تاريخ وبس؟

وسبح كل في واد، ثم عادا حين قالت فوزية:

ـ أنا قلت لغاية الساعة تمانية ودلوقتي قربت على عشرة.

وأضافت بلا حماس :

ـ لازم أروح .

وفي خطوات تعبة تكاد تتخاذل أخذت طريقها الى باب الحجرة الذي كان مغلقاً.

وفتح لها حمزة الباب وخرج الضوء من الحجرة ينير جزءاً كبيراً من الصالة، وسقط النور على كرسي فيها وعلى إنسان ضخم جالس فوقه . . كان بدير.

ـ الله . . أنت هنا؟

ـ آه مارضتشي أزعجكو . . قلت اقعد هنا أما تخلصوا .

ولم يكن هناك وقت . . سلمت فوزية وأسرعت خارجة وظل بدير جالساً في مكانه .

وما كاد الباب يغلق حتى دق الجرس وفتح حمزة . . كانت فوزية .

ـ أنا نسيت حاجة . . نسيت آخذ الشنطة .

ـ تخديها إزاي؟ مش ممكن .

ـ والله مش عايزة نقاش كتير . . حاخدها يعني حاخدها .

ـ توديها فين؟

ـ عندنا .

ـ عندكم . بس؟

ـ عندنا كويس جداً .

ورأى حمزة من تصميمها ومن نظراتها أنها لن تتزحزح عن قرارها .

فمضى الى حجرة النوم وعاد حاملاً الحقيبة الكبيرة. وكان بدير ينظر ولا يتدخل ولكنه قال:

ـ الله . . إيه الحكاية؟

فقال حمزة :

ـ أصل سميحة حتاخد هدومي عندها.

ـ وليه؟ وده يصح ما هو ده بيتك يا أخي. .

ـ لا أصل الهدوم عايزة غسيل. . و. .

ـ ما الغسالة اللي بالكهرباء هنا. . أهه . . اغسلهملك دلوقتي.

ـ لا . . لا . . معلهش. . كده أحسن.

وردت فوزية :

ـ معلهش يا أستاذ بدير علشان خاطري.

فقال بدير :

ـ يا ستي الغسالة هنا والله . . في نص ساعة تغسل ياما. .

ـ معلهش. المرة الجاية.

ـ آه. . الظاهر دي بقى والله حاجات خاصة ما اعرفهاش. أنتو أحرار.

وشدت فوزية على يد بدير، ولمعت عيناه كثيراً وقبضتها القوية تغوص في أصابعه المنتفخة بالسمنة.

وعاد حمزة بعد أن أوصل فوزية وأركبها عربة. . وما كاد يغلق الباب وراءه حتى ابتسم بدير ابتسامة حملها كل ما يملكها جسده الضخم من مكر، وقام وأمسك بكتف حمزة قائلاً:

ـ قوللي بقى يا شاطر. . كنتوا بتعملوا إيه؟ أظن حتقوللي درس ؟

وابتسم حمزة في رثاء ولم يجب، فاستأنف بدير جاداً هذه المرة:

ـ صحيح قول لي يا حمزة . . وصلت معاها لفين ؟
ـ هي مين ؟
ـ أحنا حنلف على بعض؟ وصلت والا ما وصلتش؟
ـ يا جدع بلاش هزار في الحاجات دي.

ـ بستها؟ أنا ميهمنيش حتى إذا كنت وصلت الى ما بعد البوسة.

ـ يا بدير بطل كلام فارغ.
ـ وحياة أبوك لانت قايل. . عملت معاها ايه؟

ولم يأبه حمزة بالرد عليه ونفض يده منه. . وتجسدت له الحكاية مرة اخرى وبصورة جذابة جديدة. وراح عقله يدور حول نفسه ونغمات حزينة تتصاعد من وجدانه وأنات وعذابات وقهر. تلك الشابة الممتلئة بالحيوية والحركات ذات الجسد الدقيق والملامح الدائمة الانفعال الدائمة الابتسام. تلك الشابة الصغيرة قد أصبحت عزيزة جداً عنده. . حتى بعد جلسته الطويلة تلك معها لا يزال يهفو اليها كما يهفو مدمن التدخين الى سيجارة الصباح ويحن الى وجودها كما يحن عباد الشمس الى الشمس والنبات الى الماء، وكما يحن الغريب الى أرض الوطن.

لماذا كلما تذكرها يدوخ تفكيره ويكاد يهوي؟ لماذا اذا خطرت بعقله تخطر خلسة وخلف ستار وكأنها جريمة؟

وقال بدير وهو يدخل في بنطلون بيجامته :
ـ قوللي يا حمزة؟

وقال حمزة دون انتباه :

ـ إيه؟

ـ إلا بشرفك وشرف والدك ما عملت في البنت دي حاجة؟.

ورد حمزة في غضب لا يستدعيه الموقف وبلهجة حادة:

ـ بطل تخريف يا بدير.. وبلاش سخافة فاهمني إزاي؟

ـ يعني مؤدبة؟

دي من أحسن البنات اللي قابلتهم في حياتي.. وانا امنعك انك تتكلم عنها بالشكل ده، فاهمني إزاي؟

ـ أمال بتسلم على الواحد كده ليه؟ مؤدبة يعني؟ انت وذمتك بقى.

وأخيراً رقدا جنباً الى جنب في الفراش وكان السرير يحتل منتصف الحجرة، والغرفة وثيرة فيها أشياء كثيرة أنيقة ولكن لا روح فيها ولا انسجام.

وكان بدير يقلب صفحات «المصور» كعادته حين يستعد للنوم، ولكنه لم يكن يقرأ، وفجأة القى المجلة فوق «الكومودينو» واستدار الى حمزة واستجار السرير وهو يستدير:

ـ قوللي يا حمزة.. هو فيه قاعدة أنه اذا كان الواحد بيحب واحدة يبقى لازم تكون بتحبه؟

ـ لأ.

ـ طب يعني مثلاً افرض مثلاً، يعني انك بتحب واحدة وعايز تعرف اذا كانت بتحبك وإلا لأ تعمل ايه؟

ـ أنام.

ـ لا.. أنا بتكلم جد.

ـ وأنا بتكلم جد.

ـ أمال أنام إيه يعني؟ .

تنام شوية فتصبح الصبح أعصابك أهدأ وتقدر تفكر.

ـ وان ماجنيش نوم؟

ـ تاخد منوم.

ـ بيعمل صداع.

ـ تاخد سم.

ـ طبعاً. . ماهو المسألة يايكون فيها وطنية وكفاح يا بلاش. . يا كلام في السياسة يا مافيش كلام. . يا أخي ما تفضونا بقى وتخلوا الناس يكلوا عيش.

ـ متخلي انت الناس تنام.

وكان حمزة في الحقيقة لا يريد أن ينام ،ولكنه يريد أن يهدأ كل شيء ويبقى عقله يعمل، يريد أن يستعيد الغيبوبة اللذيذة التي يدلف اليها كلما اتخذ فوزية مادة لتفكيره، كانت أحاسيس متناقضة تحاصره، كان يريد أن يسبح الى كل ما يستطيع ان يصل اليه خياله من مدى، وكان شيء ما في نفسه يكبحه ويوقفه ويبعث في نفسه رهبة وخوفاً. كان يحس أنه شيئاً فشيئاً لم يعد ينظر الى فوزية كزميلة في الصف، كان يحس أنه شيئاً فشيئاً تبدو له المرأة التي في الزميلة، وكلما بدت حاول طردها، ويهرب منها إن فشلت محاولته . ولكنه مهما يفعل فإنه يغوص دائماً الى التفكير فيها. . في الزميلة المرأة المكافحة الجميلة المتجددة الحيوية الدائمة الانفعال. . وانتبه على قول بدير :

ـ بس والله يا حمزة انت ما تعرفش أنا باقدرك قد أيه ؟ أنا بيعجبني

تفكيرك جداً. . وبيعجبني الذكاء اللي بتعالج بيه المشاكل. . ففيه مشكلة أهيه. . ان كنت جدع حلها.

ـ مشكلة إيه يا بدير بس؟ الساعة تيجي واحدة. . خلينا ننام.

ـ يا أخي ما طول عمرنا بننام جد علينا إيه؟ اسمع. . والنبي لانت سامع.

ـ إيه؟

ـ فيه واحد صاحبي واقع في مشكلة.

ـ يا أخي وده وقته ؟ ما صاحبك ده يستنى للصبح حيموت يعني؟

ـ أصلها بجد مشكلة حياة أو موت.

وهنا جلس حمزة في الفراش ومد يده وظل يبحث عن زر النور المعلق في السرير حتى وجده، وأشعل النور وقال:

ـ خلاص بلاش نوم. . نحل المشاكل. . آدي النضارة وندور على السيجارة الباقية.

وأشعل السيجارة وراح ينظر الى بدير الذي كان يرقد بجسده المرتفع كجسد الدرفيل، والذي لم يعتدل ولم يحرك رأسه من فوق المخدة وإنما قال وعيناه تائهتان في السقف مفتوحتان كالفنجان :

ـ إسمع.

ـ إيه؟

ـ افرض انك بتحب واحدة جداً.

ـ طيب فرضت.

ـ وما تعرفش إذا كانت بتحبك والا لأ. . تعمل ايه؟

ـ أولاً ـ أنا مش سفسطائي علشان أقعد أفرض حاجات في الهواء. . لازم اعرف إيه هي المشكلة؟ ومين صاحبها؟

ثانياً ـ ما تحاولش التنكر لأن عيبك إنك كذاب فاشل ومش معقول، يعني إنسانيتك تحبك دلوقتي وتهتم بواحد صاحبك ومشكلته الساعة اتنين. فقوللي بتحب مين بقى سعادتك؟

ـ والنبي بلاش الحداقة دي ياخي. . والا إيه يعني؟ أفرض حتى الشخص ده هو أنا. . افرض أن أنا بحب واحدة وعايز أعرف إن كانت بتحبني والا لأ. . أفرض. .

ـ ما أفرضش. . بتحب واحدة فعلاً والا لأ؟

فسكت بدير طويلاً وأطبق أجفانه على عينيه ثم حملق في السقف وقال:

ـ أظن كده.

ـ بتحب مين؟

ـ واحدة. . حلوة. قوي قوي. . بحبها. . جداً.

ونام.

ولم يكتشف حمزة أن«بدير»كان نائماً وهو يحدثه إلا بعد فترة. فأطفأ النور وظل جالساً يحلم وأحياناً يضحك وأحياناً أخرى يفكر جاداً في إيقاظ بدير وقضاء بقية الليلة في الحديث.

٩

وفي السابعة من صباح اليوم التالي كان بدير لا يزال نائماً أيضاً، وكان حمزة يقوم باحتياطاته اليومية ففتح نافذة حجرة المكتب قليلاً وتمم على البوابين الموجودين في العمارة المقابلة واطمأن الى ان عددهم لم يزد مخبراً. ثم فتح النافذة كلها بحيطة وأطل برأسه وراقب أبواب البيوت الممتدة أمامه كلها والمكوجي والبقال، ثم أخرج رأسه كثيراً ليتمكن من رؤية صف المنازل الذي توجد فيه العمارة واطمأن أخيراً الى أنه لا جديد هناك وأنه لا تزال أمامه بحبوحة من أمان.. وراح يتجول في الشقة.

لم تكن به حاجة الى التجول فالصباح كان له برودة الثلج، والشقة كانت مظلمة ونوافذها مغلقة والبرد يفرخ في ظلامها ويتكاثر، وهو قد اكتفى «بالبلوفر» الذي ارتداه فوق البيجامة وكان يأبى أن يرتدي أحد أرواب بدير الصوف ذات الدفء الفاخر المعلقة فوق الشماعة، فقد سمعه يقول مرة إنه لا يحب أن يستعمل أحد أشياءه. ولهذا فمن لحظة ان وضع قدميه في الشقة لم يتطفل على شيء من أشيائه حتى الفوطة لم يكن لديه فوطة وجه فكان يجفف رأسه ووجهه في «جاكتة بيجامته» النظيفة ثم يغلسها ويعلقها حتى تجف.

ورغم البرودة فلم يكف عن تجواله.. كان هناك شيء يؤرقه فلا

يستطيع معه ان يستقر على قرار أو مكان. فتح حجرة المكتب . . كان مزيج من النور والظلام يغطي المكتب ذا السطح الزجاجي اللامع والفوتيل الذي أمام المكتب. . هناك جلست مراراً. ثم حجرة النوم ، بدير لا يزال يغط في نومه وقد اختلى بالسرير ومد أطرافه كلها الى آخرها ليستمتع بالفراش. . هرم الحقائب موجود تنقصه الحقيبة الكبيرة. . ترى أين ذهبت بها؟

وغادر حجرة النوم واتجه الى المطبخ. . المنضدة الرخامية البيضاء والفريجيدير. . والبوتاجاز لا يزال يحمل سطحه آثار القهوة التي كان يصنعها بالأمس. القهوة . . ما أجملها حين تشرب القهوة ويحمر وجهها. . وتبتسم وتتسع عيناها الضاحكتان بالتساؤل وبالدهشة. ودق جرس الباب وفتحه وهو نصف ذاهل. . وتسلم اللبن وأخذ الجرائد التي دسها البائع منذ الصباح الباكر أسفل الباب وراح يعد الافطار. . فقد كان من العبث أن ينتظر حتى يصحو بدير، وغلى اللبن وأعد الشاي وحفلت المائدة الراقدة في ركن من الصالة بأدواته، وايقظ «بدير» وجلسا أخيراً يتناولان الطعام ويتبادلان الجرائد.

وقال له بدير وهو يغادره الى المكتب إن الخادمة العجوز ستأتي واعطاه نقوداً لكي تعد لهما « صينية» في الفرن.

وانكب حمزة على الجرائد حين أصبح وحده. . وكان له غرام غريب بقراءة الجرائد، كان يقرأ الصفحة حرفاً حرفاً ولا يدع شيئاً إلا وفكر فيه وحلله، ولا يدع خبرين إلا استنتج منهما ثالثاً. . وكان ولعه بالأخبار جزءاً صغيراً من حب استطلاعه الكبير. . كان به شغف دائم الى معرفة الحادث حتى قبل وقوعه والى الاستماع للخبر من أكثر من مصدر حتى يصل الى حقيقة أمره.

غير أن انكبابه لم يطل . . فقد وضع الجرائد جانباً وخلع منظاره وفرك عينيه ولم يرفع أصابعه عن عينيه ، بل ظل واضعهـا فوق مقلتيه وقد أسند رأسه الى ظهر الفوتيل وقتاً غير قليل. كان يؤنب نفسه كثيراً . كيف سولت له تلك النفس ان يحس باحساسات اخرى غير رباط الكفاح بينـه وبين فوزية ؟

كيف ؟

وضايقه الجلوس . . فقام وظل يدور في الشقة

ودق الجرس .

وفتح .

ودخلت المرأة .

وعاد الى جلسته على نفس الفوتيل في مكان فوزية المختار. وأحياناً تبدو حلول اعقد المسائل في ومضة . . وكان هو قد استقر على حل .

إنه رجل يؤمن بالعلم ويؤمن بالحب ويؤمن ان الناس وجدوا ليحيوا ويحبوا ويسعدوا ، فليس عيباً ان يحب فوزية إذن. ولكن هل هو يحبها فعلاً؟ وهل ممكن أن يقع انسان مثله في الحب بمجرد ان يقابل فتاة مثلها بضع مرات؟ أليس الحب عشرة وتجربة هائلة تذيب الانسان في الإنسان؟ وأين هذا مما بينه وبين فوزية؟ .

وأتاح له الصباح ان يجعل عقله أكثر سيطرة على نفسه ، خاصة وان الصباح كان بارداً برودة ترد الصواب ، برودة تجعل الانسان يرى الأشياء في وضوح ، بل وتفقد أشياء كثيرة ما يحيطها من بريق وتبدو على صورة أقرب ما تكون الى الواقع الذي مسح عنه الخيال.

ليس هكذا تخيل الحب ، ولكن ما يحس به ناحية فوزية ليس عبث

أطفال أيضاً ولا هو وهم. . إنها أحاسيس حقيقية تجرفه وتغرقه وتأخذ عليه كل مسالك تفكيره فلا يملك أمامها إرادة ولا روية ولا عقلا. هذه حقيقة علمية أخرى. . وهو رجل يؤمن بالعلم.

ولكنها حقيقة ناقصة إذ أنها لا يمكن ان تكمل ابداً. . ولا يمكن لهذه الأحاسيس أن تتجسد وتصبح حقاً إلا إذا كانت هناك أحاسيس أخرى تقابلها عند فوزية.

فهل هناك أحاسيس مثل تلك؟

وهل تحس فوزية ناحيته مثلما أو نصفما أو ربعما يحس به ناحيتها ؟

هل ؟

كان السؤال بسيطاً، حتى حرف الاستفهام فيه صغير وساذج، ولكن الاجابة عليه تحتاج من حمزة ربما الى مجلدات فكرية ومراجع ذهنية ضخمة إذ لم يكن هناك جواب واحد شاف. لم تكن هناك علامة واحدة أكيدة تنفي أو تؤيد. كل ما يستطيع أن يفعله هو أن يراجع لحظة فلحظة وحركة فحركة ومرة فمرة كل ما دار بينهما وكل ما بدر من فوزية ناحيته. نظراتها. . دائماً فيها بريق، ودائماً عيناها لا تطرفان ولا يتطرق اليهما خجل. . نظرات دوغري. . لا تخفي شيئاً ولا تعني غير ما ظهر منها.

كلامها. . واضح وصريح. . فيه الحماس البالغ. . فيه الثقة، وليس فيه أي شيء آخر.

سلامها. . دائماً له نفس قوته، ودائماً أصابعها تضغط نفس الضغطة وبنفس القوة. لم تمكث يدها في يده أكثر من اللازم مرة، ولم تتراخ قبضتها أو تلن مرة، ولم يتدلل لها بنصر ولم يتشنج خنصر. .

أو . . أمن المعقول انها كانت تعني شيئاً آخر حين سألته عن عمله؟ ولماذا اهتمت بسؤاله ؟ أكانت بهذا معجبة به؟ أممكن أن يحتمل السؤال واحداً على ألف من أي احتمال آخر؟ وحين نظرت إليه وخجل من نظرتها، ربما كان فيها شيء تلك النظرة. . ولكن أي شيء هو ؟ إعجاب ؟ احترام ؟ حب ؟ استنكار ؟ .

أممكن أن تكون البهجة التي تقابله بها؟ ولكنها منذ أن عرفها تقابله مبتهجة ، وفي كل مرة نفس كمية البهجة لا تنقص ولا تزيد.

وحين جاءت أول مرة الى الشقة، لقد اتفقا في مصر الجديدة أن تأتيه يوم الجمعة فجاءت الخميس قائلة أنها كانت في زيارة صديقة، أممكن أن يكون هذا صحيحاً؟ أم أنها حجة؟ وإذا كانت حجة. . أممكن أن يكون الدافع اليها سبباً يمت الى العاطفة؟

أممكن أن يكون إصرارها على الحضور اليه وفي المواعيد بالدقة يحمل هدفاً آخر غير ارتباطهما في معركة؟ خاصة وأن هذا الارتباط قد ضعف بضعف اتصالاته ؟

أممكن أن يكون تنفيذها الدقيق الرائع لكل ما يكلفها به يحمل طاعة غير الطاعة التي تفرضها علاقة الجندي نحو زميله وقائده ؟

أممكن كل هذا ؟

كان حمزة قد وصل في تفكيره الى آفاق مثل تلك وأبعد، ولكنه كان كعادته يوغل في الخيال والافتراض ثم يعود به برد الصباح الى طبيعته التي تأبى ان يتحكم فيها شيء غير العلم والعلم يقول إن أقصر ما يوصل بين نقطتين هو الخط المستقيم . قد يكون أصعب الطرق، ولكنه دائماً أحسنها. فليجرب إذن الخط المستقيم.

وحين انتهى الى هذا استراح وانطلق بلا وعي يصفر وغادر مكانه وذهب يبحث عن الصعيدية العجوز وقد شعر برغبة في الحديث وفي الضحك بل وفي الغناء .

ولم يجد المرأة انما يجد « السلطة» معدة والشقة أرضها تلمع بالغسيل والمسح.

وفي هدوء سمع المفتاح يدور في الباب. ودخل بدير يحمل كيساً من البرتقال « ابو صرة» الضخم الحجم.

ـ الله . . حمدالله على السلامة! يعني جيت بدري النهارده . . الساعة يدوبك اتناشر.

ـ والله بصيت لقيت نفسي زهقان يا حمزة . . الواحد الأيام دي ملوش نفس للشغل مش عارف ليه .

ـ أنا عارف ليه .

ـ ليه؟

ـ لازم ليلى التي في الدقي مريضة!

ـ ليلى مين يا شيخ؟ انت عارف أنا باتأثر من الحاجات دي . . ما يغركشي دا محسوبك واد تقيل يعجبك.

ـ إزاي؟

ـ أنا مش امبارح كنت باسألك عن حكاية .

ـ آه .

ـ النهارده لقيت الحل.

ـ بالذمة؟ إيه؟

ـ الحل بسيط جداً . . مفيش داعي الواحد يتعب نفسه ويحاول

يعرف.. يستنى ويتقل لما هي من نفسها تقع بعضمة لسانها وتتكلم.

ـ يعني لما تعترفلك هي بحبها؟

ـ لأ مش للدرجة دي.. لما يبان عليها قوي.. حاكم الحاجات دي عايزة تقل.

ـ معقول.. معقول جداً.

ودخل بدير حجرة النوم وعاد وقد ارتدى الروب وهو منهمك في تقشير برتقالة ضخمة، وقال وفمه ممتلىء بنصفها:

ـ هي الولية فين؟

ـ خالتك أم عبده. لازم راحت تجيب الصينية.. ما فيش أخبار خاصة؟

ـ مافيش.. بس فيه إشاعة كده إن الوزارة حتستقيل.

ـ ما هي أدت دورها.. خلصت على المعركة واعلنت الأحكام العرفية.

ـ والله الحكاية بقت نيلة قوي.. تفتكر يعني حنفضل كده على طول؟

ـ طبعاً لأ.. بس لا يمكن حا يحصل أي تغيير إلا إذا استؤنفت معركة القتال.

ـ يا جدع بطل بقى.. ماراحت الهوجة بتاعة زمان دلوقتي والناس خلاص سكتت، وكل واحد يقول ابعد عن الشر وغني له.

ـ أبداً.

ـ أبداً أزاي؟ كل الناس كده . . ما إنت أهو مثلاً . . كنت عامل زي النحلة زمان وأدي انت مستخبي وساكت دلوقتي.

وضحك حمزة وسأله :

ـ إنت فاكر إن أنا مستخبي خايف من الحكومة ؟

ـ أمال يعني أنا اللي خايف.

ـ إنت لسه برضه مش فاهم يا بدير. . انا مختفي وباتفادى القبض علي مش علشان خايف من السجن أو الاعتقال. . أبداً . . أنا شايف بس إن الشعب محتاجني ومحتاج لغيري عشان ننظمه وندخل بيه معركته الفاصلة، ولذلك أنا باعتبر نفسي أمانة من أمانات الشعب لدى نفسي لازم أحافظ عليها ولازم أحميها عشان تقوم بدورها.

ـ إنت يا أخي عايز تمخولني والا تأكل بعقلي حلاوة؟ بقى عايز تقول إن نفسك يعني أمانة لدى نفسك. . إيه يا خويا الكلام ده ؟

ـ بعدين نبقى نتناقش في المسألة دي. . بس المهم دلوقتي إنك توافقني على أننا لا يمكن أن نتخلص من الوزارات الخاينة دي إلا باستئناف الكفاح المسلح ضد الانجليز، لأن هم العدو الأساسي.

ـ والله ما اعتقدش.

ـ ليه؟

ـ ما اعتقدش.

ـ ليه بس؟

ـ مزاجي كده! الله ! أنا حر يا أخي في مزاجي.

ـ طيب أمال تعتقد ايه؟

ـ أصل شوف. . علي ماهر ده راجل ناصح قوي. . دا أنا أعرفه معرفة

عائلية واحنا حتى نسايب.. رجل ناصح قوي لازم تلقاه موضب مقلب محترم.. مش ده المهم.. الواحد جعان قوي.. الله يخرب بيتك يا أم عبده.. يكونشي الولية غلطت وبدل ما تروح الفرن راحت جهنم.

وجلسا الى المائدة في انتظار هلال « الصينية ». وكان حمزة ساخطاً على ذلك التأخير فقد كان يريد أن ينتهي الغداء بسرعة حتى يغادر بدير الشقة مبكراً بعد الظهر ليكون أمامه متسع من الزمان والمكان لما قرر أن يقوم به.

ولكن بدير لم يزعجه التأخير بل بدا مستريحاً إليه، ولا يهمه إن لم تأت أم عبده أبداً.. وكان هذا غريباً.

وزالت الغرابة حين جاءت الصينية وتناولا الغداء واقتربت الساعة من الرابعة ولم يبد على بدير أية علامة تشير الى أنه يود التحرك من مكانه وحين سأله حمزة مذكراً إياه بميعاد المكتب قال وكأنه يفضي بشيء مفروغ منه :

ـ والله مكسل النهارده.. مش رايح.. مليش نفس.. إيه اللي الواحد خده يعني ؟ الصبح في المحاكم وبعد الظهر في المكتب.. نفسي في يوم كده ما أروحش.. نفسي كده.. حيجري إيه ؟ حتخرب الدنيا؟ أقله الزباين تعرف قيمة الواحد.. مش رايح.

وكان عناده هذا الذي يشبه عناد الأطفال مثار ضيق شديد لحمزة. فمع أنه لم يكن بينه وبين فوزية أي ميعاد إلا أنه كان يعتقد تماماً أنها لا بد قادمة في الخامسة من ذلك اليوم.. ليس هذا فقط، بل إن ما سوف يدور في تلك المقابلة خطير خطير، وإذا بالاستاذ بدير هكذا وبدون مناسبة يحرن.

وحاول حمزة بشتى الطرق أن يثنيه عن عزمه هذا وأن يجمل له الخروج ويبتكر له محاسن لا يتصورها في عمل ما بعد الظهر. ولكن بلا فائدة . .

وانتهت المحاولات بحفيف الأقدام الذي دق له قلبه بشدة هذه المرة وبالشبح الحبيب يبدو على زجاج الباب . . وكالعادة وقبل ان تدق الجرس كان حمزة يفتح وكانت فوزية أمامه متعبة مبتسمة ، في ابتسامتها الحياة وحتى في تعبها نشاط ما بعده نشاط . . ولاحظ حمزة بريقاً غريباً جديداً في عينيها .

دخلت ، وارتبك بدير ولم يستقر في مكان واحد . غادر الحجرة وما كاد حمزة ينفرد بها لحظات حتى كان قد عاد وعلى فمه ابتسامة وجلس دون أن ينطق حرفاً ، ثم قام وعاد بعد قليل بزجاجة عصير الفواكه المثلجة والاعتذارات المرافقة لها وجلس ، وقبل أن يحدث شيء آخر قام حمزة وغاب وترك «بدير» صامتاً مع فوزية الصامتة هي الأخرى ، وعاد يحمل الصينية وينقل قدميه باحتراس والقهوة يتصاعد بخارها من الكوبين والفنجان الصغير الذي كان قد صنعه لبدير.

وما كاد يضع الصينية حتى قال بدير من فوره :

ـ تسمعي فريد الأطرش . . عندي كل اسطواناته ؟

فأجابت فوزية في شيء قليل من الامتعاض :

ـ لا . . إذا كانت عندك حاجة كلاسيك يبقى أحسن . . ولو إني . .

وأرادت أن تقول شيئاً ولكنها سكتت . .

وكان حمزة لا يتاح له أن يستمع الى كثير من الموسيقى ومع هذا كان

يختلس لحظات استماعه اختلاساً عند بعض أصدقائه ، وأحياناً كثيرة كان يذهب الى متحف الفن الحديث حيث يستمع مع شلة المغرمين الدائمي الجلوس هناك . . يستمع معهم الى بيتهوفن وموزار وبرودين ، ولكنه كان دائماً يفضل تشايكوفسكي ويرى في موسيقاه عواطف يعبر عنها بأقصى ما قد يستطيع فنان.

ولم يطمئن حمزة لبحث بدير فقام هو بنفسه ينقب معه في درج الأسطوانات الملحق بجهاز « البيك آب » الأنيق. ولم يجد من كل الموسيقى الكلاسيكية إلا « مارش العبيد » لتشايكوفسكي، وكان لهذه الاسطوانة بالذات مكانة خاصة في نفس حمزة فقد كان يرى في نغماتها أنين البشرية كلها تحت لسعات العسف، وبحثها المرهف عن المصير.

ودارت الاسطوانة.

وما بدأت تدور حتى أغلق بدير « شيش » النافذة ، وبقيت الحجرة في شبه ظلام وجلس يستمع في أدب، ورغبته في التأدب أكثر من رغبته في الاستماع.

وبدأت الظلمات تتراقص وكل شيء يموج والحجرة تخفق بأنات تحوم كالأشباح ، وآلام سوداء تمور ثم تصهر ثم ترق وتشف حتى تبدو من خلالها أضواء الأمل. وفوزية جالسة تسترق يدها الطريق الى كوب القهوة وتختلس منه الرشفة في سكون وامتنان، ثم تسند رأسها الى ظهر الفوتيل المواجه للمكتب وتسرح بعينيها تهيم بهما في الحجرة، وأحياناً تلتقيان بعيني حمزة فتبرق عيناه ويبتسم وتعود هي الى سرحانها ورشفاتها المختلسة .

والشيء الوحيد الذي لم يرتح له حمزة هو القلق الذي لا يهدأ والذي كان يبدو في نظراتها حتى وهي تسرح بعينيها.

والظاهر أن «بدير» أحس فجأة بشيء ما، شيء مثل أن لا مكان له في كل ذلك ولا مكان لأدبه أو ضخامة جسده، فقد انتصب فجأة واقفاً ثم غادر الغرفة. وقال له حمزة:

- على فين؟ خير.
- رايح . . بقى.
- فين ؟
- المكتب.
- الله! ما انت قلت . .

ولم تتح له الفرصة ليكمل كلامه فقد كان بدير يجيبه وصوته يبتعد وقبل ان تتم المحادثة كان بدير قد غادر الشقة وصفق الباب خلفه.

وسألت فوزية :

- الله . . ماله ؟
- مش عارف . . غريبة . . دا ما كانشي عايز يروح المكتب.

وانتهى «مارش العبيد».

وبحث حمزة عن شيء آخر يسمعانه فلم يجد.

وعاد الى مكانه، وبدلاً من أن يفتح الشيش أوقد لمبة المكتب فأضاءت سطحه الزجاجي اللامع ، واضاء النور المنعكس من السطح وجه فوزية فأضيفت اليه روعة جديدة.

والحقيقة أن أحاسيس جامحة تملكت حمزة وهو يلتهم وجهها الدقيق المسمسم التهاماً. كان لو أطاع براكين ثائرة تدور في أعماقه لقام واختطفها

ووضعها تحت ابطه وحارب من أجلها الدنيا ، أو لاحتواها بين ذراعيه وأخذ يضغط عليها حتى تستحيل الى شيء دقيق صغير يغلق عليه ضلوعه ولا يتركه أبداً.

كان يتساءل في ضيق عما أبقاه بعيداً عنها كل تلك المدة، إنه يعرف من لحظة أن رآها ان ما يحسه الآن سيكون النهاية حتماً.

ساعة أن رآها لم يفكر لحظة واحدة أنه يمكن ألا يراها.

وبلا مناسبة برقت في خاطره صورة فوزية حين رآها أول مرة . . حين دخلت الخيمة منحنية . . صغيرة . . نحيفة . . ترتجف من البرد. وذهبت الصورة خاطفة كما جاءت فوجد نفسه في التو يتساءل : مالها فوزية ؟ وعلى ماذا أحبها هذا الحب كله ؟ ولماذا يجعل منها الهة ؟ أليس ما يعنيه الآن وما يدور في خاطره انفعالات الحالمين والمنحلين والمتعفنين ؟ أليست هي نفس الخواطر التي يضحك بها الكتاب الناعمون على الناس ؟ مالها فوزية ؟ إنها جالسة أمامه لا ضخامة فيها ولا ألوهية. . صغيرة كالتلميذة . . متعبة . . غلبانة . . من الممكن أن يناقش معها أي موضوع .

ـ اسمعي يا فوزية! عملتي إيه في المدرسات ؟

فأجابت فوزية :

ـ ماشيين كويس قوي . . فيه واحدة منهم اتجوزت والا اتخطبت معرفشي. . لا ياربي. . اتجوزت. . واتنين كمان بيحاولوا يتجنبوني الأيام دي. . إنما الباقي كويسين.

ـ والشنطة عملت فيها إيه؟

ـ نقلتها النهاده عند محاسن.

ـ عند مين؟

ـ محاسن أحسن واحدة فيهم. . دي إنسانة رائعة. . تصور أنها مستعدة تخبي ناس من الهربانين عندها في شقتها. . مستعدة تعمل أي حاجة. . تدفع فلوس. . تجمع تبرعات . . وحتى مستعدة لو اقتضى الأمر تروح القنال . . اسمع يا حمزة . . إحنا مش حينفع كده . . لازم نشتغل أكثر من كده بكثير . . داحنا ما عملناش حاجة خالص .

وكانت تتكلم بلهجة حامية وتوجه الحديث الى نفسها أكثر مما توجهه إليه ، فأجاب حمزة من فوره :

ـ كويس جداً . . أحنا حنبتدي من نفسنا . . فأنتو وأنا حنعمل نواه للعمل الضخم اللي بينتظرنا.

وظلت فوزية تهز رأسها تبعاً وهي تحملق في حمزة وتراقب حماسه في إعجاب مخلص . . حتى لتخاف عليه من الخطأ ومن أن ينطق بحرف لا يقع في نفسها موقعاً حسناً . . وقالت في انفعال :

ـ أيوه . . فعلاً . . لا بد من الاستمرار بأقصى قوة :

ـ بالضبط. . إنما إزاي. . دي عايزه استعداد، وعايزة جهود واصرار. فاهماني إزاي ؟ ولا بد حنوصل.

ـ لا بد.

وران عليهما صمت لم يستمر سوى لحظات خاطفة ، ثم بدأ حمزة يتململ في مكانه ويبتسم محاولاً ان تكون بسماته جادة على قدر الامكان ثم قال :

ـ بس فيه موضوع تاني عايز أناقشك فيه .

ـ موضوع الفلوس ؟
ـ لأ . . موضوع . . خاص كده .
ـ خاص ؟
ـ أيوه .

وعاد ينظر الى فوزية ليؤكد ثقته بنفسه . ولكن اضطراباً عظيماً ألم به وهو يرى أن من أمامه لم تعد فوزية . . لم تعد الصغيرة . . المتعبة . . المتحمسة . . التي تكاد أن ترتجف من البرد . . إنها أمامه قبس من نور ساطع براق لا يستطيع مواجهته . . إنها تكاد تستحيل في عينيه الى شيء مقدس كقسم المكافحين . . كالتضحية . . كأمل الملايين في يوم الخلاص . ولكنه لم يعد في إمكانه التراجع . . عليه أن يستمر :

ـ فيه موضوع .
ـ إيه . . اتكلم يا حمزة .

وابتسمت . . يا لبسمتها تلك وفي ذلك الوقت بالذات ! البسمة التي تذيب الارادات إن شاءت وتصنع الأبطال إن ارادت . . البسمة التي قد يواجه الإنسان جيشاً ولا يستطيع مواجهتها .

ـ بقى شوفي يا فوزية ، أقصر خط بين نقطتين هو الخط المستقيم وأنا مش عارف أبتدي إزاي . . إنما دي حاجة مليش بيها أي دخل . . حصلت غصب عني . . بصيت لقيت حاجات عمالة تتجمع وتتراكم لغاية ما ماقدرتش أستحمل فاهماني إزاي؟ . . وإذا كنت بكلمك النهارده فلأني معنتش قادر أستنى لبكره . . خلاص فاض الكيل فاهماني إزاي؟

وتساءلت فوزية في دهشة كبيرة :

ـ إيه الحكاية . . إيه المشكلة ؟

فواصل حمزة كلامه وهو كثيراً ما يحدق في سطح المكتب الزجاجي المضيء وقليلاً ما يحدق فيها :

ـ المشكلة إني أنا من مدة ابتديت أحس ناحيتك باحساسات تانية غير إحساسات زمالتنا في المعركة وزمالتنا في الكفاح . . قاومت هذه الانفعالات من أول دقيقة . . إنما كان بيحصل حاجة غريبة قوي . . فكل ما كنت بقاومها كل ما كانت بتزيد بشكل خطير . . والمشكلة إني حسيت إني لازم أناقش معاكي بصراحة المسألة دي . . فإيه رأيك ؟

وبدأت فوزية تتخذ أهبتها للرد، ولكنه واصل كلامه :

ـ أرجوك حاولي تاخدي المسألة بعمق وبشكل جدي . . أنا عمري ما مريت بحالة زي اللي أنا فيها دي .

وبدأت فوزية تستعد للرد ولكنه استطرد قائلاً :

ـ المشكلة خاصة جداً . . ومهما كان رأيك فيها . . ومهما كان جوابك فأرجو إن ده لا يؤثر على العمل اللي بنؤديه مع بعض . . أهم شيء هو المعركة باستمرار .

واعتزمت فوزية هذه المرة أن ترد ولكنه استوقفها بإشارة راجية من يده :

ـ أرجوكي برضه انك تفكري أكثر في المشكلة . . مش عايزك حتى تتكلمي دلوقت . . فانت لا تتصوري أهميتها عندي .

وهنا قاطعته فوزية وأرغمته على التوقف وانطلقت تقول :

ـ متتكلم بصراحة أكثر . . متقول يا أخي إنك بتحبني وتنتهي وإنك عايزني أحبك . . مش هي دي المشكلة ؟ مش هي دي الحكاية اللي

اجتمعنا علشنها ؟ إحنا ورانا إيه غير كده . . لا كفاح ولا يحزنون . . فضينا للحب .

وحاول حمزة أن يقاطعها ويتكلم ولكنها استمرت :

ـ أنا كنت فاكرة إن الناس اللي زيك حاجة تانية . . كنت فاكره إن العمل الخطير اللي وراهم أهم من الحاجات التافهة اللي بيجري وراها كل الناس.

وهنا أصبح الحوار من الصعب أن تعرف قائله ، وأصبح صاحب الصوت الأعلى هو المسموع حين رد حمزةقائلاً :

ـ دي مش حاجات تافهة يا فوزية . . دي حياتنا .

ـ حياتنا أسمى من كده . . حياتنا وراها حاجات أهم من كده . . المفروض إننا نحترق عشان غيرنا يعيش .

ـ أبداً . . إحنا يجب نعيش ونكافح علشان الناس تعيش . . إحنا مش رهبان ولا ملائكة . . إحنا بني آدمين . . إحنا عايزين نحب وكل الناس تحب .

ـ بلاش كلام فارغ . . حرمانا هو الضريبة اللي بيفرضها علينا الكفاح .

ـ إذا عملنا كده نبقى شواذ . . نبقى بتخرف وكفاحنا يبقى كله تخريف . .

طبعاً . . أمال حتقول إيه غير كده ؟ إنت عاوز تفلسف انحلالك . . إنت اللي كلامك كله تخريف . . أنا اللي غلطانة . . مش ممكن كنت أتصور . . دا منتهى الانحلال . . إنت بتخون دورك وثقتي فيك . . إنت انتهيت . . أنا لازم أناقش زملاءك دا منتهى الشناعة . .

وكان وجهها يشحب باستمرار كمن طعن غيلة ، ونقاط عرق تبزغ فوق جبينها وتتجمع نقاط أخرى من غضب جامح فوق أنفها الدقيق ، وملامحها

قد اتخذت طابعاً غريباً متنمراً لا يمت بصلة إلى ملامحها ، وما كادت تلفظ كلماتها الأخيرة حتى كانت يدها على حقيبتها وحتى كانت أسرع من نداءات حمزة عليها وهي تأخذ طريقها خارجة .

وحتى لم تقفل الباب وراءها .

١٠

ظل حمزة على الأقل ساعتين لا يدري أين هو ولا في أي مكان من الكرة الأرضية يستقر، كانت أفكاره كثيرة يزدحم بها عقله.. يمسك الواحدة فتهرب وتختلط بالأخريات، ولا يستطيع أن يفكر في شيء بذاته ولكنه يحس دائماً أن هناك أشياء تتلاطم في مخه وتسد عليه مسالك تفكيره.. ويذكر اجزاء من المحادثة ويستعيدها ويستعيد بدقة الكلمات التي قالتها ويتأملها، ثم يرجعها مكانها في ذاكرته ساخطاً لاعناً..

كانت ـ ربما لأول مرة ـ تخونه ثقته في نفسه، وهو لن يخدع هذه النفس بعد الآن. كان في قلبه شعور دائم أنها لا بد تحبه أو أن لم تكن تحبه فهي على الأقل لن ترفض إذا طلب منها أن تحبه، أخداع ما كان يحسه في أحاديثها وإشاراتها من علامات لذلك الانتظار؟ كان يحس دائماً أنها تود أن تقول له شيئاً مثل ما قاله لها الليلة وإن الحياء فقط هو ما يمنعها.. من أين جاءه ذلك اليقين؟.. يا لحمقه وغبائه وضياعه.. أقصر خط بين نقطتين!.. كلام فارغ وسخافات.. كان يجب أن يكون أكثر لباقة.. كان يجب أن يحسب حساب الفشل.. كان يجب أن يعد العدة للرفض.. كان لا بد من استعمال الدبلوماسية. أحسب المسائل العاطفية بغبائه مشكلة من مشاكل الكفاح اليومي من السهل طرحها على بساط

البحث بطريقته الساذجة العقيمة تلك؟ أمان سوداء ظلت تلاحقه وتطارده وتخرق عقله كمسامير حامية، تمنى أن يدهمه وابور أو يختفي بطريقة ما من الوجود حتى لا يراه الناس وحتى نفسه. وراح يكز على أسنانه ويضغط بيديه فوق ضلوعه وتتقبض كل عضلاته محاولة أن تجعله ينكمش وينكمش حتى لا يبدو للعيان، ومضى يكوم على نفسه أحقاداً ذات لفح رهيب ويذيقها من ألوان التأنيب والتقريع ما لم يذقها إياه في حياته كلها وقد أفاق من الأحلام التي عاشت معه أياماً طوالاً ليجد جبهته تقرع البلاط، ويجد نفسه ممددة على الأرض الجرداء حزمة جافة من الفشل لا أمل فيه. .ولم يكن ما حدث فقط هو ما يكتم أنفاسه، بل ما هو آت كذلك فقد فقد بفقد فوزية عنصراً هاماً من عناصر كفاحه، ومناضلة قوية إذ قطعاً ستبتر كل صلة لها به، بل يحتمل أن تنفذ تهديدها وتناقش قصة «حبه» التافه مع بقية زملائه أعضاء اللجنة العامة للكفاح المسلح. وحين يتصور ماذا يكون موقفه حين تحيطه هالة الزملاء متعجبة مستنكرة. . حين كان يتصور هذا يتوقف فكره في الحال ويأبى أن يمضي، ويأبى إلا أن تبتلعه دوامات أخرى من الألم الهائل.

وجاء بدير بعد منتصف الليل. لم ينتبه إليه حمزة كثيراً فقد لاحظ أنه في حالة انبساط غير عادي وأنه يتكلم باستمرار ودون توقف ويضحك، وأنه خلع ملابسه وظل بالفانلة والسروال في جو ملتهب بالبرد. وأنه أخيراً جلس أمامه وتطلع إليه قبل أن يقول :

ـ اسمع يا حمزة يا خويا. . بقى انت عندي على العين والراس مستعد أخبيك وأروح معاك في ألفين وستميت داهية. . انت عارف أنا باعزك قد ايه حتى من أيام المدرسة الثانوية، ومفيش مرة جتني تطلب فلوس إلا أما اديتك نص اللي معايا. . وأنا راجل بتاع مزاج، وانت بصراحة داخل في

مزاجي. عاجباني شخصيتك يا أخي، حد شريكي؟ أنا كده واللـي مش عاجبه يشرب بيرة زي ما شربت. . أنا كنت عايز أقول ايه؟ أقول ايه؟ أيوه يا سيدي. . أيوه. . بقى انت في عيني دي من جوه وعيني دي. . وعيني دي بالمناسبة ستة على ستة ودي ستة على أربعة وعشرين. . انت في نني عيني كمان، إنما الست اللي بتجيلك دي اللي اسمها. . سميحة والا فوزية ماني عارف. . هي اسمها إيه؟ هو أنا عبيط ؟ هو أنا مش فاهم؟ آه الست دي مسألة تانية يا خويا يا حمزة. . فحكاية الدروس دي طبعاً لا تخيل علي ولا تخيل عليك. . ويمكن البوليس يكون مراقبهـا، يمشي وراها، يتحك فيها، تكون مشبوهة، تكون قابلت واحد مشبوه تودينا أحنا الاتنين في داهيـة. . آه زي ما بقولك كده وربنا المعبود. . دا مـا فيش أبسط اليومين دول من المرواح في داهية. وأنا بصراحة من غير أي احراج لك أو لي. . انت عايز الصراحة. . عايز الصراحةيعني . . أنا مش عايزها تيجي هنا.

وسمع حمزة هذا وانفعل ولكنه سكت فعاد بدير يقول:

ـ أيوه هي الصراحة كده. . وفيه أحسن من الصراحة؟ أنا راجل مش بتاع لف ولا دوران. . انت في عينيه من جوه. . إنما هي. . حد ضامن؟ حد بيقراعلى ضهر ايده؟ حد عارف حاجة؟ مين عارف؟ يمكن. . يمكن قوي. . ما يمكنشي ليه؟هو لولا شوية البيرة اللي ملخبطني دول كنت كلمتك أحسن من كده. . الله يخرب بيتك يا مين النهارده. . آه ما أنا لما بزعل بشرب بيرة، ولما بفرح بشرب برضه بيرة. . إلا من حق طيب. . أنا شربت بيرة ليه النهارده؟ يا ترى كنت زعلان والا فرحان النهارده لمـا شربـت؟ حاكم أنا لما بزعل بشرب مع الجدع ده اللي اسمـه دايمـاً با انسـاه. . الباجوري. . الباجوري. . ولما بفرح باشرب مع الواد منعم وأنا شربت

مع منعم النهارده.. يبقى لازم كنت زعلان.. زعلان قوي.. آه.. ما هو بصراحة كده يا حمزة.. انت في عنيه من جوه.. إنما هي.. حد ضامن؟ حد عارف؟ يمكن.. ما يمكنشي ليه؟

ونام حمزة لدهشته نوماً عميقاً.

وحين استيقظ في الصباح كان بدير لم يكن قد فرغ من استيقاظه بعد فقد كان يفعل هذا على دفعات. ووجده حمزة حينئذ جالساً على طرف الفراش يفرك عينيه ويتثاءب، وما إن لمح عيني حمزة تفتحان حتى قال وهو يموء:

ـ اسمع يا حمزة.. صباح الخير الأول.. والله أنا عايز الشنطة ضروري.

فقال حمزة في امتعاض:

ـ هي هتروح فين يا أخي؟ اشمعنى افتكرتها دلوقتي؟

ـ أصل عايزها ضروري.. دي كمان شنطة المرحوم والدي.. وزي ما قلت لك بقى خليك فاكر.. لما تيجي الست دي تفهمها.

ـ أهي مش جاية.

ـ ليه؟ حتيجي بكره يعني؟

ـ ولا بعده.

ـ الله.. هو حصل حاجة؟

ـ لا أبداً.. ظروف.

ـ ايه يعني ظروف ايه؟

ـ ظروف.. هو انت لازم تعرف كل حاجة؟

ـ لا مش لازم.. إنما حصل حاجة يعني؟ سوء تفاهم؟

ـ انت مش مش عايزها تيجي؟ أهي مش جاية.

ـ بس يعني والسبب ايه؟

ـ انت مالك يا أخي. . خلاص. . ما عدتشي جاية. . استريح.

وانتظر بدير قليلاً ثم سأل ولعله كان بسؤاله يقصد إعادة الحديث إلى مجراه ليس إلا:

ـ طيب. . والشنطة؟

ـ يا أخي ما تفلقنيش بقى. . ما قلت لك حجيبهالك.

وحين غادره بدير إلى عمله مضى حمزة ينزف.

كانت جروح المساء قد بدأت تنبح، وما أشد إيلام جروح المساء إذا طلع عليها صباح.

كان بدير قد تركه وحيداً مع إحساسه القاتل بضياعه وتفاهته وخيبته حتى راح يراجع حياته كلها، ولم يخرج منها إلا بحفنة من المواقف المخزية والقذارات، وخيل إليه أنه لم يفعل شيئاً في حياته يستحق معه أن يعيش. . بدا له ماضيه ساعتها أبشع من ماضي الخائن وأوهى من حجج المتردد. وكم هي قاسية ساعات الألم. . أنها بقدر ما ترهف الاحساس تحرقه، وبقدر ما تفيد في تجنب الخطأ تضر بالكائن الذي سيتجنبه أبلغ الضرر. . إن السعادة لا بد أن تكون هي الحياة بلا آلام.

وكما راجع حمزة ماضيه أتى على حاضره أيضاً، وأية مهانة وجدها وهو يرى نفسه فاشلاً مختفياً والأيام تنقضي والمعركة تخمد جذوتها وتهمد نيرانها الراقدة تحت الرماد، وهو جالس يلعب ويحب ويناقش مشاكله الخاصة.

ومن لحظة أن فتح عينه لم يستقر على حال، جلس ووقف وخبطرأسه بيده كثيراً وراح يلصق جبهته أحياناً بالحائط ويفكر، وهو في وضعه ذاك مستعد أن يطحن الجدار برأسه في أية لحظة. . وبدا له يوم الشتاء البارد

الذي كان فيه يوماً سقيماً مريضاً تفوح منه النتانة، كغريق استخرج من الماء بعد أيام.. بل رأى كل أيام الشتاء وكأنها جيف متراصة ينهشها برد كالح أغبر، شتاء.. وخيبة.. وعزلة.. وبدير.. وفوزية.. ووجهها الذي طالعه مخيفاً حين تنمرت ملامحها.. ماذا أحبه فيها؟ وأي شيء فيها يستحب؟ وأية أحلام بغيضة وتصورات مخدرين عاش فيها وهو حبيس جدران بيضاء وأيام سود.

وغلى دمه بأحاسيسه تلك، كأنه يكشف لحظتها فقط أنه قد هرب من السجن الأميري ليواجه حتفه في ذلك السجن الحقيقي الذي يحيا فيه ويحيا لماذا؟ ويختبىء ليفعل ماذا؟ كل ما فعله أنه أحب، وكل ما اختبأ من أجله كان هو اللحظات التي يقضيها مع معبودة الفؤاد..

هراء ما فعله وهراء ما يفعله، وهراء تلك الساعات التي تمضي والأيام التي تنقضي والمعركة تموت ولا تنتظر، هراء.. لن يخرج الانجليز ترتيبه وتنظيمه وقيادته المزعومة للمعركة وهو مختبىء في القاهرة.. مكانه هناك في التل الكبير أو القرين أو الاسماعيلية أو أية مصيبة.. يجب أن يغادر ذلك المكان فوراً.. يسافر الليلة.. ويحارب الليلة أيضاً.. يجب! وأمه جالسة زمانها على جوال قديم أمام بيتهم في عزبة الدريسة تطرز المناديل وتتطلع إلى ابنها الكبير؟

والرصاص الذي كان يتحدث عنه، و٦ مارس والأولاد الأبطال وفوزية التي كان ينظر إلى كفاحها على أنه كفاح تلامذة مجتهدين، فوزية هذه تقول: لنا تاريخ، وهو يقول ـ هو الأستاذ القائد الذي كان عليه أن يتعهدها ويسقي عودها ويقدمها لشعبه مكافحة صلبة ـ هو يقول فيه موضوع خاص عايز أناقشه.. عواطف بتنمو.. مش قادر.. يا شاطر.. يا حدق يا روميو، وما محل مش قادر هذه من الكفاح ومن معركة الوطن؟

وتعود الجروح إلى النزيف، وتعود أسنانه تئز وعضلاته تتقبض وشيء داخله يهيب به أن يحطم ويقتل ويثور أو ينتحر.

ومر اليوم بلا بدير على الغداء وبه بلا غداء، ثم جاع في العصر فمضى إلى المطبخ يبحث وأسكت ما وجده آهات، وولد المطبخ والمائدة الرخامية وعليها آثار بن آهات.

وفي الخامسة فوجيء أكبر مفاجأة.

دق جرس الباب وفتح، وروع بفوزية واقفة تلهث وشفتها السفلى ترتجف محاولة أن تبتسم، وأهدابها تسترخي على عينيها وهي تقول وكأن ليس بها رغبة في الدخول:

ـ أنا جيت.

وتمتم حمزة بأشياء، وخطت إلى الداخل في تراخ وأغلقت شيش النافذة وأشعلت مصباح المكتب وأضاءت الحجرة بالضوء الباهت المنعكس، وجلست على نفس الفوتيل ووضعت ساقاً غير ثابتة فوق ساق ثم قالت:

ـ عايزة قهوة.. في كباية كبيرة وحياتك.

١١

كان المطبخ لحمزة في ذلك الوقت نجدة أتته من حيث لا يدري ولا يعلم، فالمطبخ ودورة المياه وزنازن السجن وكل تلك العلب المبنية الصغيرة التي لا تكاد تسع الانسان، في هذه الاماكن يحس الانسان أنه أقرب ما يكون إلى نفسه، ويحس حالما يغلق الباب عليه بأمان غريب وكأنه قد أصبح بينه وبين العالم ومآسيه سد منيع. وكان حمزة وهو يعد القهوة يحس بالمطبخ ببياضه ونظافته وكأنه أخته العانس الطيبة التي تعود أن يعترف لها بأدق اسراره دون حياء أو ندم أو رغبة، ولذلك ترك عقله يتشتت وتذهب كل قطعة منه في ناحية، حتى أنه وضع البن والسكر في الكنكة ثم وضعها على الموقد دون أن يضيف إليها ماء حتى تصاعدت رائحة السكر المحترق، فتنبه وباشر اعدادها مرة أخرى بحرص أكثر. كان يحس بنفسه خفيفاً خفة غير عادية وكأنه بالون ممتلىء بغاز أخف من الهواء، وكان يحس بالسعادة ويريد أن يتجاهل إحساسه بها حتى لا يحزن وييأس حين يفقدها.

كان به فرح غير عادي ورهبة غير عادية أيضاً. إن مجيئها ليس له إلا معنى واحد.. أنها استجابت وجاءت، وأن الظلام الذي تراكم في نفسه وشوه أمامه طريق المستقبل قد انقشع فجأة وحفل الطريق بنور باهر

فياض. أنه بالأمس وحين طرح ذات نفسه أمامها فإذا بكلامها ينهال عليه لاسعاً ملتهباً، وإذا بالألم العظيم يجتاحه وقد قدم لها قلبه فكوته بالنار.. أحس بالأمس أن كل شيء قد انتهى وأن الأمر لم يكن سوى وهم عابر أيقظته منه قرصة واقع أليم. كان بالأمس وبعدما حدث يبحث في نفسه عن بقية باقية من عاطفة تجاهها فلا يجد.

ولكن ماذا حدث؟ أمجنون هو؟ وهل نفسه أرجوحة صبيانية تصعد في لحظة إلى السماء، وما تكاد تتكامل اللحظة حتى تكون قد هوت إلى الأرض، وما تكاد تبدأ لحظة جديدة حتى تكون مرة أخرى وجهتها السماء؟ لقد أحس وهي واقفة على الباب تقول له: «أنا جيت» عبر شفتها الراجفة الباسمة، أحس أنه حقيقة يحبها حباً كفيلاً بملء الكون كله، حباً لو وزع على ملايين من الناس لأشعل في قلب كل منهم ناراً، وأحس بأن الأمر جد وأن عاطفته ناحيتها لم تكن عيباً ولم تكن انحرافاً ولا جريمة وإنما كانت حقيقة مادية ظلت تترسب طبقة وراءها طبقة في أعماقه. ليس هذا فقط، بل أنه أدرك فجأة أنه كان يحبس عواطفه في قمقم ويأبى عليها الانطلاق، وأنه كان مثل الميت من الجوع حين يذهب في زيارة ويجيء الطعام ألواناً أمامه ويأبى أن يتذوق منه شيئاً لأنه مكسوف ولأنه عيب ولأنه معقد تعقيداً يسد عليه مسالك الحياة.

لماذا يلف ويدور ويسخط ويبتئس ويضحك على نفسه وينوح؟ لقد أحبها وهي الآن معه.. له.. جاءته بملء ارادتها وباختيارها؟.. لماذا هو مغرم بإقامة العراقيل واختلاق السدود، والطريق أمامه واضح وصريح وفوزية كلها على قيد خطوات منه؟ ولماذا هو واقف كالعبيط يفكر ويحلل ويصنع القهوة ويدعها تنتظر ويؤجل اللحظة الحاسمة؟

وقبل أن يتحرك حمزة شعر بيد توضع على كتفه، نفس الأصابع النحيلة الطويلة وكأنها امتدت إلى قلبه مباشرة ومست شغافه، والتفت إليها ليجد نفس وجهها الذي لا يمل رؤيته، ونفس ابتسامتها ونفس عينيها العسليتين، وكم كانت جميلتين عيناها، وكم كان جميلاً أن يحدق فيهما ويرى صورته واضحة وناطقة حتى بنظارته ومنعكسة على كل حدقة من حدقتيهما، صانعة ستاراً رقراقاً محلى بصورته ومسدلاً فوق عسلية عينيها لا يخفى جمالها بقدر ما يبرزه ويثيره.

كانت هناك ويدها على كتفه، والقهوة في يده، وفوزية في قلبه وحمزة في عينيها، وابتسامتها لا تزال ترتجف ورجفتها في أنفاسه وأنفاسه تتلاحق، وأفكارها معلقة بأنفاسه، وأفكاره غائبة، والغيبة في ملامحها، وغيبتها طالت ثم جاءت، ومجيئها سعادة، والسعادة في صدره رضاء، ورضاؤها واضح، وفي وضوحه هيام، وهيامه خائف، وخوفها يتلاشى، وخوفه يمت إلى الأمس، وبالأمس كان يهدر وهديره الآن مسموع، وهديرها فائر، والقهوة هي الأخرى قد بدأت تزن تفور.

وصعدت يدها في تردد واجف إلى رأسه، ومرت بأصابعها بسرعة في أرجاء شعره فنكشته وهي تقول:

ـ هيه.. ازيك؟..

وعاد ينظر إليها، كانت حافية وقد خلعت حذاءها وجوربها وكانت تضيق بالأحذية والجوارب، مرتدية شبشب بدير وقدماها صغيرتان دقيقتان تائهتان في كبره، وأصبعها الصغير كان يرقد منكمشاً على نفسه وملتصقاً بشدة في الأصبع الأكبر الذي بجواره كأخ صغير أصابه ذعر فمضى يحتمي بشقيقه. كانت واقفة، رائعة وهي واقفة، فيها كل ما كان لها من حيوية ونشاط وتتأمله بطريقة لم يعهدها.. طريقة مختلفة تماماً عن طريقتها

الدغري في الكفاح. ففي نظرتها حنان رقيق وفي وجنتيها حمرة وفي ملامحها سرحان تائه، يحملق فيه ويبحث ويكاد ييأس من البحث فينبض ويدق ويهمس بأشياء وأشياء.

وقالت مرة أخرى:

ـ مش كويس إن أنا جيت يا حمزة؟

وأحس ل «حمزة» وهي تنطقها بنكهة تمشت في أوصاله.. كان مجرد أن يتصور كلمة «حمزة» تتصاعد حروفها من مكان ما حول قلبها وتحمل دفء أنفاسها وتتجمع الحروف في فمها وتتعطر برضابها، ثم تتكامل وتتهيأ وتودع شفتيها منطلقة إلى الفضاء وقد تشبع كل حرف فيها بذكريات حبيبة عن رحلته الغالية.. كان مجرد تصوره هذا يجعله يحس براحة عميقة،وكأنه هو لا اسمه الذي نبع من مكان ما حول القلب وكأنها بمجرد أن تنطق اسمه تبعث له مع كل حرف منه بآهات حب واعزاز.

ومع ذلك فقد كانت لا تزال به رهبة ولا يزال متردداً غير واثق.

وعبثت بشعره عبثة أخرى سريعة وقالت:

ـ أنا غلطت امبارح.. وفضلت طول الليل أأنب نفسي.

ـ ليه؟.. على ايه؟

ـ لأني كنت امبارح بغالط نفسي، بغالطشعوري لك في طول المدة اللي فاتت، بغالطحتى شعوري بتاع أول امبارح.

الموضوع أصله كبير قوي ومفيش داعي نتكلم فيه دلوقت. خد الجواب ده أقراه.. مش دلوقت.. خليه بعدين قبل ما تنام أحسن.. حتلقى فيه كل حاجة. أنا كنت معقدة قوي يا حمزة.

أنا ساعات كده بتطلع في دماغي حاجات وأصمم عليها.

ـ ده عيب المثقفات.

وتلجلجت فوزية كمن يريد قول شيء ثم يعدل، وأجابته:

ـ ودا برضه عيب المثقفين. ليه ناقشتني امبارح؟. ليه كنت عايز «تقنعني» بحبك؟ ليه هاودتني وقتلت لحظة الحب الجميلة دي بالنقاش؟ الحب لا يناقش وإذا نوقش يدبل. الحب يتاخد.. يتاخد كده!

قالت هذا وشبت على أطراف أصابعها وقبلته فوق شفتيه.. وأحمر وجهها وتلاحقت أضلعها صاعدة هابطة وتوقفت كلماتها، وعادت تنظر إليه بتدله وعاد هو يحتل عينيها.

وبلغت العصبية بحمزة حداً لا يوصف.. أخذ منها الخطاب ووضعه في جيبه وضحك وأسرف في الضحك، ونظر إلى قدميها وأحس بالبرد يلسع قلميه، وصعبت عليه فوزية وأحس بها ضعيفة صغيرة، وخجل وابتسم ونظر إليها، ولم يستطع الاحتمال فأحاطها بذراعيه وجذبها ناحيته بقوة. ولم تنتظر فوزية فقد شبت مرة أخرى على أطراف أصابعها وقبلته وضمها بقوة أكثر وأحس بجسده يتفصد أنهاراً وبملايين من قطرات سعادة وافدة تسبح مع دمه، وكان وجهه لصق وجهها ورقبته ترقد في منحدر جيدها وشريان رقبتها ينتفض ويحس به يضغط على جلد وجهه ضغطات مقشعرة وسريعة ومملوءة بالانفعال. ورفع رأسه حتى واجهها وأصبح لا يرى عينيها فقد كانتا لصق عينيه، وشفتاها في ارتعاش دائم كارتعاش الخائف، ولمعة عرق تكسو شفتها العليا، وأنفها الدقيق ترتجف فتحته وتتسع وتضيق كلما مرت به أنفاسها اللاهثة، وهبط بفمه على فمها واحتوت شفتاه الغليظتان فمها الصغير الذي كان لا يزال يرتجف، وضم شفتيه وأحس بفمها يستكين إلى فمه وتذهب عنه قشعريرته وينعم باطمئنان دافيء.

ولم يكن لحظتها غائباً عن الوعي.. كان في أتم وعيه. لم يكن ينظر إلى نفسه وكأنه لا يزال قطرة في محيطها ولا كانت هي القبس المتجسد ولا المعنى المجرد الذي له قدسية لا يجرؤ على الدنو منها. كانت صغيرة دقيقة بين ذراعيه، وكان الفم الذي يطبق عليه هو فم فوزية الثائرة الزميلة والقلب الذي يدق بعنف في حضنه هو قلب امرأة ناضلت وتناضل والرأس الذي بين راحتيه هو ما يدور فيه القلق الدائم الشريف على مصير شعبه، والأصابع التي تضغط على ذراعيه وتسترفقه هي نفسها الأصابع التي حملت حقيبة الديناميت وحملت إليه الجنيهات، والتي من يدري ماذا تحمل غداً.. لم تكن هناك أنثى في ناحية وزميلة كفاح في ناحية ولم يكن نصفه حمزة الثائر ونصفه الآخر حمزة الرجل، بل لم يكن هناك فوزية وحمزة كان هناك لقاء ضخم رائع.. نبضات قلبها تحرك قلبه وأنفاسها تصب في أنفاسه، وصدرها ملء صدره، وفم واحد أصبح لهما وأذرع تحيطهما، والتحام لا ينتهي يؤلف بينهما ويضم شتات انسانين وفرحتين وتاريخين، وحياتين طويلتين بكل ما فيهما من عناد وبسمات ويأس وأمل، وماض وحاضر، ومدرس وعامل دريسة، وأم ماتت وأم على قيد الحياة، ورجال ونساء وعائلات وذكريات.

وفارت القهوة وسالت غزيرة على جوانب الكنكة، وأغرقت شعلة الغاز وتصاعد طليقاً يملأ المطبخ، وتنبهت فوزية وكأنما تفيق من حلم طويل غريب ومدت يدها تقفله وهي لا تزال تحيا في روعة الحلم ولم تكن تعرف كيف يقفل، وكاد حمزة في ارتباكه أن ينسى هو الآخر أي مفتاح يدير.

وعادا إلى الحجرة ذراعاً في ذراع، وعينين تنهلان من عينين، وأحلاماً في أحلام، وسعادة تكمل سعادة، وبلا قهوة.

وبالتأكيد لم يكونا هما الشخصين اللذين غادرا نفس الحجرة من وقت قليل. كان قد حدث في كل منهما حادث سريع خاطف غير مجرى حياته، وكأن أحدهما كان موجباً فلامس السالب وسرت كهرباء، أو كان حرفاً لا معنى له لاقي حرفاً آخر فصارا كلمة لها وقع وثقل ومعان.

وجلست فوزية على الفوتيل وجلس حمزة على ذراعه العريضة وكأنه لم يحتمل أن يبتعد عنها لحظة، وفتح فمه يقول:

ـ تعرفي؟

فأغلقت فمه بأصابعها الرقيقة قائلة:

ـ استنى شوية.. خلينا ساكتين.. أحياناً بيكون للسكون معنى وسكوتنا حيدي معنى للسكون.

وإن كان حمزة لم ينطق بحرف إلا أنه لم يسكت بل راح يتأملها بعينيه وأصابعه ولمسات شفتيه ويخاطبها بكل ما يملك من لغة السكون، وما أبلغ لغة السكون! وكان حديثه مع شعرها فيه كلام وكلام.. وقد راح يجوب بأنفه ويوسده خصلاتها السوداء الكثة وتنفذ إليه تلك الرائحة التي تتدغدغ لها أعصاب أنفه وتسكر.. خليط من عرقها وزيت شعرها والنظافة التي كانت تشع منها كانت لها رائحة هي الأخرى كرائحة قلب جوزة الهند الأبيض، أو مكنون الوردة إذا فرقت عنه أوراقها وشممته.

وقال حمزة وهو مغمض العينين مفتح الحواس:

ـ أنا كان حبك بالنسبة لي ترف، دلوقتي أصبح ضرورة.

فردت وفمه هو ما كان يلتقط الكلمات.. وقالت وهي تتدلل وأحياناً يكون الدلال له أنوثة:

ـ أنت عارف أنا رجعت ليه؟

ـ ليه؟

فقالت: رجعت..

وسكتت لحظة ثم أضافت: عشان..

وسكتت لحظة ثم أضافت وهي تبتسم:

قررت..

اني..

ثم سكتت كمن لا يدري ما سوف يقوله، ثم خرجت الكلمة رغماً عنها:

أتجوزك..

واحتواها ذراعاه مرة أخرى وشفتاه وقال:

ـ وده أحسن قرار في حياتي حاقوم بتنفيذه.

فقالت وأصابعها تتعانق خلف رقبته:

ـ أنا كنت خايفه أحبك لانتهي.. أنا با أحس أني بابتدي دلوقتي.

ورفعت وجهها إليه.. كان في عينيها ندى بكاء وكان في عينيه احتقان نشوة.. وقال وهو يأخذ وجهها الصغير بين كفيه وفي صوته حشرجة انتصار:

ـ انت عزيزة عندي جداً يا فوزية. أنا مش باحبك حب عادي.. أنا حبيت مصر فيكي. حبيت النيل اللي ف دمك وبياض القطن اللي ف وشك وشمسنا الحلوة اللي عسلت ف عنيكي.

فقالت وفي صوتها دموع فرحة:

ـ أنا يا حمزة زمان كنت بحفظ وأقول شعر. . نسيتني اللي فات ومن هنا ورايح حقول حمزة.

ـ كلامك جميل يا فوزية. . ايه كلامك ده؟

ـ دلوقتي هو الحلم اللي ينطق الساكت ويحرك الصخر ويخلي الحديد يقول.

١٢

فوق حب الاستطلاع الذي ينفرد به حمزة كان الخطاب من فوزية وبعد ماذا ؟ بعد أهوال جسام . ولهذا كان الأرق الـذي يحس به ناحية المظروف الموضوع في جيبه شيئاً طبيعياً ، كان لا يمكن أن ينتظر كما أرادت فوزية إلى ما قبل النوم حتى يعرف ما فيه ، ولهذا سرعان ما جمع أرقه وقال :

ـ أيه رأيك أنا مش قادر أستنى ، لازم أقرأ الجواب .

وعارضته فوزيةقليلاً ،ولكن قرأ في ملامحها أنها لن تغضب. فأخرج الخطاب باحتراس من جيبه وتأمل المظروف السميك على مهل كالـذي يتهيأ لالتهام وجبة دسمة . كان واضحاً أنه خطاب طويل ، واحتار حمزة أيستبشر بطوله أم ينزعج .

وقال لها قبل أن يفض الخطاب :

ـ إنتي متأكدة إن مافهش حاجات زي « لازم نحترق ونترهبن » ؟

فأجابته فوزية :

ـ يوهوه يا حمزة. . بلاش تعذيب.

فابتسم وفتح شيش النافذة وفض الخطاب ، وقرأ كلمة حمزة التي في

أوله وأحس لها وهي مكتوبة بخطابها بنفس فرحته حين سمعها وهي ترددها ، وتأنى وهو يتأمل الكلمة ثم وهو يلقي على فوزية نظرة أخيرة قبل أن يدلف إلى محتويات الخطاب .

كان أهون عندي أن أموت قبل أن أقف منك هذا الموقف . . أنا ياحمزة أخجل حتى من أن أسمح لنفسي أن أناديك أو أكتب اسمك قلت لك أمس انك «تخون دورك وثقتي فيك » ويبدو أن الإنسان حين يكون مذنباً يتهم غيره بنفس ما يقترفه. كيف أبدأ ؟ وكيف أزف اليك أنباء الإنسانية التي أحسست نحوها « باحساسات أخرى غير إحساسات الكفاح »؟ يكفي أن أقول لك إنني مثلت أمامك دور البطولة وإنني فيما يظهر كنت موفقة إلى الدرجة التي لم تلحظها أنت . . كل ما عرفته عنك من سعد قبل أن ألقاك أنك «وطني مخلص ومكافح من حديد» ، وحين دخلت عليك الخيمة ورأيتك والبندقية أجزاء بين يديك وسوادها يلوثك ، ونظرت إلي بعينين ساهمتين ثابتتين من خلف نظارتك ، تلك النظرة التي لا تزال راسخة في عقلي، قد يموت ولكنها لن تموت . . قررت من ساعاتها أن أعرفك معرفة وثيقة ، ورحت أفتح لخيالي ودياناً رحبة وأماني خضراء جميلة ، وأنا حين جلست لأكتب لك هذا الخطاب عاهدت نفسي ألا أكتم عنك شيئاً بالمرة ، ولا تحسب أن هذه مهمة سهلة . . فليس سهلاً أن يقر الإنسان بأخطائه، فما بالك حين يستخرج خفايا نفسه ويعرضها أمام عين أخرى غير عينه حتى لو كانت عينك؟ لهذا فاعلم يا عزيزي أنه لم تكن هناك لجنة مدرسات بالمعنى الذي تناقشنا حوله وحول تنظيمه، كانت هناك بعض مدرسات متحمسات وكنت أكثرهن حماساً . . وأطلقنا على أنفسنا اللجنة .

حين وعدتك بإحضار التبرعات التي جمعناها لم نكن قد جمعنا شيئاً

ولا حتى فكرنا في الجمع، ولست أدري ما دفعني إلى الكذب عليك ووعدك بإحضار التبرعات في اليوم التالي . وحقيقة أحضرت لك السبعة والعشرين جنيهاً ، ولكن أتدري كيف جاءت وبأي اسم اقترضت ؟

لقد درت على زميلاتي أقول لهن أن أبي مريض وأطلب منهن سلفة ودفعت من عندي سبعة جنيهات ولم أترك حتى الطالبات . . كنت أود مفاجأتك بمبلغ كبير، مائة جنيه مثلاً، حتى أبدو ضخمة في عينيك.

كان كل همي هو أنت والظهور أمامك. . ولما جاء ٢٦ يناير لن تستطيع أن تتصور مبلغ فرحي حين أمكن أن أعثر عليك بعدها . . ليس ذلك لأنني كنت مهتمة بقضيتنا الوطنية هذا الاهتمام، وإنما لأني كنت قد بدأت أهتم بك وأفكر فيك ، وأنا كنت طالبة في كلية الآداب ورأيت مئات الطلبة وقابلت في حياتي عشرات الرجال ، ولكني لم أهتز ولم أحفل بأحد غيرك وكأنهم جميعاً كان ينقصهم شيء وجدته لديك ، أو كأنني أنا كان ينقصني شيء ووجدته عندك . وأنا قرأت كثيراً وآمنت بما آمنت انت به من نظرة علمية للمجتمع . . ولكني ما كنت أتصور أن يوجد إنسان مثلك يهب النظريات التي في الكتب ما وهبته أنت لها ، ويضحي بما كنت على استعداد للتضحية به، ويتكلم عن أعقد المشاكل ببساطة كما كنت تتكلم.

وإذا كنت قد ناقشتك أحياناً وتحدثت معك عن الكفاح والعمل والواجب، فما كان ذلك لإيماني ،بل كان لأنني وددت دائماً أن أرضيك.

ولما عثرت عليك بعد الحريق وعرفت أنك مختف، اجتذبت انتباهي الحياة الغريبة التي كنت تحياها ، الحياة التي تعادي فيها حكومة ويطاردك فيها بوليس الدولة، الحياة التي تتنكر وتلبس من أجلها النظارات السوداء

والطرابيش، والتي فيها حذر وذكاء وتربص وقلق.

كانت حياة مثلها رائعة بالقياس إلى حياتي القانونية الراكدة . . تلميذات وبيت وكراريس وطبيخ . اجتذبتني إلى حياتك وما فيها من مغامرة، مغامرة كانت تضرب على وتر حساس في نفسي. فبرغم اهتزازي بشخصيتك واعجابي بك كنت أتصور أن لجنتكم هذه تحيطها أسرار وعملكم كله طلاسم، وأن لكم مثلاً رءوساء يختفون في بيوت تحت الأرض متزمتين وصارمين ويرتدون ملابس غامقة ويملون عليكم أوامرهم بالتليفون، ومن يخالف هذه الأوامر يضرب بالرصاص وهو ماش في الشارع. وكنت دائماً أتصور رئيسكم الكبير شاباً صغيراً وسيماً . . أبيض وله شعرأسود،وقد شاب فؤاده ويرتدي دائماً حلة سوداء ، جالساً طول النهار يتلقى الأخبار ويتكلم مرة واحدة في اليوم ثلاث أو أربع كلمات فيأخذها مساعدوه ويشرحونها في صفحات فلسكاب كثيرة ويوزعونها عليكم لتنفيذها . . لا تضحك يا حمزة فقد وعدتك أن أصارحك بكل خلجات نفسي وسأفعل . أجتذبتني أنت وحياتك والأسوار التي تحيطبكم تماماً . . ولهذا فلو لم تعرض أنت علي أن أتصل بك في مخبئك لعرضت أنا عليك، ولا يمكن أن تتصور مبلغ سعادتي وأنا أحس أنني أقابل شاباً يعيش حياة الخفاء تلك ، ولا يمكن أن تتصور ما كنت أحس به وأنا ذاهبة إليك آتية من عندك أنظر إلى الناس الجالسين معي في الأتوبيس وأشعر أنني الوحيدة التي تحيا في سر كبير خطير.

وانعكس هذا الاحساس على تصرفاتي فكنت أبدو أمام زميلاتي المدرسات جادة متزمتة ليفهمن إن قد يكون السر في جدي هو النشاط «الخطير» الذي كنت أقوم به. وكان إذا سألني أبي بالصدفة أين كنت أتعمد أن ألمح في إجاباتي إلى أشياء يفهم منها أن لي حياة أخرى سرية

أقاوم فيها الأعداء، وكنت أذهب مثلاً إلى زميلة من زميلاتي لتأخذ حصة أخرى بدلاً مني فتسألني عن السبب، فأبتسم لها ابتسامة رثاء وأقول :

ـ وهل أنا مثلكم نائمة ؟ الدنيا تتحرك.

وأزوم لتفهم من كلامي ما يحلو لها الفهم ، وكنت أكبت أحياناً شعوراً صبيانياً كان يراودني، مثل أن يقبض علي معك وتنشر الصحف في ثاني يوم صورتي وتحتها شيء مثل أخطر فتاة في الشرق الأوسط.

وهكذا عشت في إطار من الغموض فرضته على نفسي وكأنني كنت أود أن يعرف الناس جميعاً ما أقوم به في الخفاء. ومن جهتك أيضاً كنت مع بدايات عواطفي ناحيتك أشك أنك أحياناً تجيب اجابات غامضة ،وأنك تراوغني وتكذب .

وكنت أود دائماً أن أتعمق فيما يحيط بك وباللجنة من أسرار، حتى سمحت لنفسي بقراءة بعض الأوراق التي وجدتها في حجرتك ولدهشتي وجدت ما فيها أبعد ما يكون عما انتظرته من أسرار. كانت القصة في نظري مغامرة ليس إلا ، أحب فيها البطل الذي هو أنت وتنتهي بوادي الخيالات الذي تنبت فيه الأماني الخضر .

وحين حكيت لي عن يوم ٦ مارس ورأيت في عينيك الإعجاب الذي يقرب من التقديس «بالغوغاء » والرصاص يخترق أجسادهم العارية استفززت في كل نعرتي للبطولة وكل المعاني المثالية ، وصممت أن آخذ الحقيبة التي فيها الديناميت لأخفيها لدي وبهذا أتوج على عرش ثقتك .

إلى هنا كنت قد نجحت في تمثيل دور البطلة أمامك ولم يكلفني النجاح شيئاً سوى مبالغات وأكاذيب. ولم أكن أتصور وأنا أعرض عليك

أن آخذ الحقيبة إلا أن أمرها بسيط وستمر مسألتها كما مرت مبالغاتي السابقات.

ولكن. . .

ما أن أصبحت في العربة وحدي مع الحقيبة. . أي ما أن دخلت بها بعيداً عنك وراء الكواليس حتى انتابني شعور مفاجيء بالخوف من أن تكون الحقيبة فيها ديناميت حقاً، إذ أنني بيني وبينك كنت لا أعتقد في صحة محتوياتها «وكأنك أنت الآخر تمثل» !. فوضعتها فوراً على الكرسي وفتحت أقفالها ومددت يدي ووجدت تلك القوالب الصغيرة المرصوصة وتخيلت أنها لا بد حجارة أو طوب مثلاً. واستخرجت واحداً منه وضغطت عليه وشممته فوجدته مادة غريبة لم تصادفني في حياتي ولا شممت رائحة مثل رائحتها أبداً . . وأغلقت الحقيبة في الحال وجلست أرتعش وأنظر اليها وأحس بوحدتي معها في العربة، وكأنني طفل أدخل نفسه من بين الحديد في قفص الأسد، وكان أول ما خطر لي أن اتخلص منها مباشرة . . أما كيف فلم أجد لي عقلاً أفكر به.

وأمرت السائق أن يغير من اتجاهه وييمم ناحية النيل لتتاح لي فرصة للتفكير، وظللت ارتعش وأفكر حتى وصلنا إلى الجيزة وكنت قد اهتديت لطريقة كانت مثلى في نظري. . أغير العربة وأذهب بأخرى إلى شارع فؤاد وأقف بها أمام عمارة من العمارات التي لها بابان، وأنزل وأقول للسائق انتظر لحظة وأدخل من باب وأخرج من باب آخر. وفعلاً وصلت بي العربة أمام الأمريكين وهبطت منها والسائق ضامن اني سأرجع إذ حقيبتي كانت لاتزال في عربته. . ودخلت من الباب الرئيسي وخرجت من الباب الذي على الشارع الجانبي.

وأسرعت في المشي.

ولن تتصور يا حمزة كثرة الأشياء التي فكرت فيهـا في هذه الدقائـق القليلة . كنت أنت أول من خطر لي بوجهك ولحيتك ونظارتك وابتسامتك الهادئة التي لا تثور والتي لا تفارقك، وحجرتك في سطوح أعلى عمارة في شارع المبتديان، وملاءة سريرك السفري التي بليت من الوسطفقطعت ثم وصلت حتى تصبح الأجزاء البالية إلى الخارج، والمنضدة الصغيرة التي في ركن الحجرة وأدراجها وما فيها من أوراق لا أسرار فيها ، وصورة أخيك وهو يرتدي بالطو وجلابية وطربوشاً والتي كتب على ظهرها بخطه . . إلى شقيقي العزيز الأستاذ حمزة ثم بيتا من الشعر عن المحبة الدائمة والإخلاص المقيم ، وفانلتك القديمة التي فيها خروق كثيرة والتي كنت على ما يبدو تستعملها منفضة، وكتبك المتراكمة في كل مكان بالحجرة، وجهاز الراديو المصنوع صناعة محلية ولعلك أنت الذي صنعته ووضعته في صندوق من الأبلكاش الأغبر، والخطاب الذي كتبه لك أخوك على لسان أبيك يقول لك فيه أن أمك صحتها « مش ولا بد » وإنها باستمرار تشتكي من المغص وتدوخ وعندها صداع دائم، وصورتك مع دفعتك وقد وضعت فوق رأسك علامة × ، وفردة الشبشب المقطوعة المهملة التي تحت السرير، والجوابات الغرامية التي حاولت اخفاءها أسفل الجريدة التي فرشت بها درج المنضدة والتي تقول لك فيها « المخلصة L » تقول أواه حمزة ، ومنظرك يوم قابلتني مشمراً بنطلونك وجوربك ممزق وفيه طين ، ثم وأنت تهز رأسك في إصرار وتقول شعبنا ده فيه قوة مقاومة لا يمكن تصورها.

ثم تبينت فجأة أني هاربة كاذبة مخادعة لئيمة ، خنتك وأنت الذي أوليتني كامل ثقتك، وليس ذلك كل ما تبينت فلأول مرة منذ عرفتك فكرت

في هذه الثواني بالذات في القضية التي تدافع عنها أنت دفاع المستميت تصورت كم من الجهد بذلت لتشتري الديناميت وتخفيه ثم تعود وتأخذه ، وكم من النقود أنفقت وكم من المرات عرضت فيها نفسك للقبض والموت والنسف ، وتصورت كم ضحيتم لتهيئوا الناس للكفاح وتقيموا المعسكر وتدربوا وتعدوا بلادنا للوقوف في وجه العدو، وتصورت حسن الخشن وهو يعزم علي بالشاي وقد قبض عليه ، وأولاد ٦ مارس الذين ماتوا وعلى أفواههم بسمات ، والخمسين عسكرياً الذين قتلوا في مذبحة المحافظة، وأقسم لك يا حمزة أنني انتفضت في الشارع حين فكرت في كل هذا،وأيقنت أنني أنا التي تطوعت مختارة لأخفي الحقيبة وأنني أنا التي تقوم بهذا الدور القذر وتريد التخلص منها وحرمانكم جهود أيام وليال وحرمان شعبي من سلاح من أسلحته، وكأنني جاسوسة من جواسيس الأعداء. . ولا يمكن أن تتخيل مبلغ الاحتقار الذي شعرت به لنفسي ولتفكيري.

ولو كنت متأكدة انني سأموت ما كنت ترددت فيما فعلته حين استدرت وعدت أجري وألهث ، ودخلت من الباب وخرجت من البابَ الآخر ووجدت السائق يبحث عني بعينين زائغتين، فركبت وقلت له : شارع خيرت .

وحين استقر بي المقام داخل العربة شعرت كأنني أفقت من كابوس مزعج ، وبدأت أتصور مبلغ جريمتي لو كنت قد تركت الحقيبة في العربة ، إذ فضلاً عما فكرت فيه ألم يكن من المحتمل أن يعتقد السائق أن فيها ملابس أو أشياء ثمينة فيأخذها إلى بيته ويفتحها ويخطىء فتنفجر وتنسف البيت بمن فيه ؟ ألم يكن من المحتمل أن يأخذها إلى القسم وتقع أو ترمى فتقتل عشرة أو عشرين أو مائة من الأبرياء ؟

وظللت أحدق في ظهر السائق السمين العجوز الطيب وأفكر فيما كان ينتظره ، وأزداد حقداً على نفسي واشمئزازاً منها .

وحين وصلت البيت أشفق على السائق ذو النوايا الطيبة فحملها عني إلى شقتنا، وقلت لأبي أنها ملابس فريق المرشدات التي أشتريتها لهن يومها ، وما دخلت حجرتي وأغلقت الباب ووضعت الحقيبة تحت الفراش حتى رقدت فوقه وقضيت هكذا ثلاث ساعات .

وإذا كان لكل انسان نقطة يتحول عندها مجرى حياته ، فهات الساعات الثلاث حولت مجرى حياتي.

حقيقة كان لي اهتمام دائم بالمسائل العامة . . فحين كنت في الكلية كنت أسهم في كل أوجه النشاط بقسط وافر حتى رشحت نفسي في انتخابات الاتحاد مرة ، ولكن زميلاتي الطالبات لم ينتخبنني على اعتبار أن ترشيحي ما هو إلا « تقليعة » و« لفت نظر » لا أكثر ولا أقل . . حتى السياسة كنت اهتم بها وأتابع اخبارها،ولكن الاهتمام شيء والإيمان شيء آخر. . واهتمامي بهذه الأمور كان فقط محاولة مني لأثبت للرجال أنني لست أقل منهم. وهكذا كانت صلتي بلجنة المدرسات وصلتي بلجنتكم. لم أكن أومن إلا بك أو بالأحرى بتمسكي بك ، أما القضية وعملك وكفاحك فكان سواء لدي أن تكون مسئولاً عن معسكر التدريب أو مدرساً زميلي أو حتى طالباً . . إلى أن كان ذلك اليوم الذي واجهت فيه حقيقة ما تكافح أنت من أجله، وكانت حقيقة هائلة . .

فلم يكن ما تقوم به مجرد عمل ككل الأعمال بل كان كفاحاً رهيباً من أجل غيرك ، ولم تكن تختفي ليطاردك البوليس وتستعذب المطاردة والمغامرة،ولكنك تفعل هذا لتكمل دورك من أجل وطننا . . اكتشفت انك

أنت مهتم بالقضية الكبيرة قضيتنا كلنا، وأنني فقط مهتمة بذلك الهدف المحدود . . علاقتي بك . . مهتمة بنفسي.

والإنسان يظل يمضي في الحياة مؤمناً بما شب عليه وتعلمه من أفكار وفلسفات ومبادىء دون مناقشة للأسس التي يقوم عليها إيمانه ، إلى أن يحدث حادث مثل أن يمرض بالسل نتيجة حياة كلها سهر وعربدة، أو يقترف جريمة ويقبض عليه . . حين يقع ويشعر انه يهوى .يبدأ حينئذ فقط في مراجعة الخطوط العريضة لحياته وتأمل إيمانه والتشكك في أفكاره وفلسفته وآرائه وتحميلها وزر ما اقترف ، أو قد لا يشك في نفسه وإنما يظل مغمض العينين يعتبر أن ما حدث له كان قسمة ونصيباً وكان مكتوباً وإن الدنيا والحظ هما السبب . وقد أدركت ليلتها أنني دلفت إلى مهاوي ما كنت أعتقد أبداً أن فوزية التي تثق فيها وتؤمن بها تدلف اليها .

وأخذت أتفحص حياتي وأتوقف عند تصرفاتي وأراجع علاقاتي بالناس ،وإحساساتي الداخلية التي لا يطلع عليها أحد سواي ، والطريقة التي أحدد بها مواقفي من الشرف والخيانة وأقيس بها ما يصح وما لا يصح والفارق بينهما، وأدركت بعد هذا كله أن الحقيبة قد أنقذت بمعجزة . . وأن الطريق الذي كنت أمضي خلاله في الحياة كان يحتم أن أترك الحقيبة وأهرب من مسئوليتها لأني كنت لا أفكر إلا في نفسي وذاتي وسلامتي، ولا أفكر فيما أقوم به من عمل قدر تفكيري فيما يعود علي بالنفع من هذا العمل . . وبعض الناس لا تبدو أنانيتهم في نظرهم شذوذاً ولا قبحاً والبعض الآخريدري ،ولكنه يتعامى حتى إذا ما واجه ذاته ورأى فيها الأنانية مجسدة فلا بد أن يستبشع تلك النفس، ولا بد ستتفتح عيناه على حقائق ما كان يراها كفرد لا يؤمن إلا بنفسه ولا تتعدى نظرته حياته هو ورغائبه فقط . . سيرى حينئذ الناس والعالم والقيم والمسئولية من زاوية جديدة.

وكنت أنا الأخرى وكأني ظللت مغمضة العينين طوال حياتي ثم فتحت عيني لأجد نفسي وسط شعب كادح عريق . . كنت أراه كل يوم ولا أحفل به ولا أفكر فيما يمكن أن يكون مصيره ، ولأجد السائق العجوز الطيب الذي كدت أقتله، ولأجد ابناء الشعب من أمثالك أنت وحسن وسعد والآخرين . . شبان في صلابتهم فولاذ يعملون من أجل الناس الذين أمر أنا بهم مرور الكرام وأتسلى على حسابهم ، واعشق شباباً ورجالاً آمنوا بالغوغاء والحفاة والمظلومين جميعاً وعقدوا العزم على ان يذيقوهم السعادة وهم أحياء.

وأخذت كلمات كنت أسمعها منك ولا أعيرها التفاتاً تومض أمامي وتأخذ بيدي ، ولأول مرة فهمت أن النظريات التي كنت اقرؤها في الكتب لم تكتب فقط من أجل أن يقرأهاالناس،وإنما هي تعبير عن واقع علمي موجود وملموس يأبى بعض الناس لسبب أو لآخر أن يراه . . فهمت أن المجتمع الذي أوجد فيه ما هو إلا جسد حي كبير وما أنا إلا خلية من ملايين خلاياه. ولا حياة لي إلا داخل ذلك الجسد أردت أم لم أرد . . ولا أستطيع أن أعمل غير ما يعود عليه بالنفع وإلا نبذني وتخلص مني ومت .

ومقياس حياتي ليس هو ما أنعم به في لحظات حاضري لأن تلك الحياة تموت معي وتفنى. . إنما المقياس الصحيح هو ما أقدمه لذلك الجسد ، لأن ما أقدمه سيحيا مع المجتمع طالما المجتمع حي وسأحيا معه أنا الأخرى . . . إنكم وأنتم تفنون من أجل الناس لا تفنون، وإنما الذين يقولون . . أنا ، وحياتي، والمحافظة على كياني وعمري ومصالحي، هم الذين يموتون. أنتم تربطون وجودكم بوجود مجتمع سيظل قائماً أبداً ، ووجودهم الموقوت المحدود إذا قيس بكم يعد لا وجود ، ولن أحكي بقية ما فكرت فيه . . فقط أقول لك إنني أدركت إني

ضللت الطريق ومشيت في درب يؤدي إلى خارج الجسد الحي الكبير ويقودني في النهاية إلى داخل نفسي الضيقة المحدودة ودائرة رغباتها الصغيرة لأجف فيها وأموت . .

وكنت أنت بعد الثلاث الساعات مثلما كنت دائماً قائدي في ذلك الطريق الجديد، اعتزمت أن أضع يدي في يدك وأتعلم . . وأكبو ثم أنهض لأواصل المسير .

وإذا بي آتي اليك أمس وأنا حريصة ألا أشعرك بالمعركة التي دارت في نفسي ، وحريصة على أن استمر في القيام بدوري ،ولكن في الاتجاه الصحيح ، وحريصة على أن أكبت كل أحساس ذاتي وأحاول ان أراك من جديد وأفكر فيما تقوله من جديد وأتعلم منك الألف باء ، وحريصة على ألا أقول غير الحق ، ومع هذا سامحني يا حمزة فيومها غلبتني الرواسب الكامنة في نفسي وكذبت عليك ، وقلت اني نقلت الحقيبة عند محاسن وإنها رائعة ، فالحقيبة كانت وما تزال تحت فراشي .

كنت آتية وفي ضميري كل ما أملكه من إرادة لأحاول أن أصلح نفسي وأتعلم منك ، ثم أفاجأ بك تقول ما قلت وتعترف لي أنك أنت الآخر ضعفت مثلي وأحسست ناحيتي . . الخ . . ولك أن تتصور مبلغ خيبة الأمل التي أصبت بها ، ومبلغ الضياع الذي وجدت نفسي أعانيه . . وقلت لك ما قلت وقلت لي ما قلت ، وخرجت من عندك وأنا لا أدري ماذا أفعل . . وخطر لي كما أسلفت أن أنتحر وقد أنهار كل شيء أمامي . . قبلها بيوم انهارت نفسي ويومها أنهرت أنت . . فماذا كان باقياً لي ؟

وكنت أظن أنني سأظل ثلاثة أيام بلياليها أفكر فيما حدث ، ولكن ما أن وضعت نفسي على الفراش حتى نمت .

واستيقظت في منتصف الليل وجلست أفكر . . فيك . لماذا نخدع أنفسنا أحياناً ونتبرأ من عواطفنا وكأنها قذارات وتهم؟

ظللت في الفراش ساعات كثيرة أفكر في أحسن الوسائل لذبحك وتأنيبك ولفت نظرك . . كانت دوامة تدور في رأسي ، فلسبب ما كنت لا أتوقع أن تحبني، أو إذا أحببتني لا تصارحني بهذا الحب ، وكأن البطل الذي في خيالي يجب أن يفعل هكذا ، ولسبب ما حين يحاول أحد الطرفين أن يعترف للآخر يمثل المعترف اليه دوراً سلبياً أو حتى يأخذ موقف المدافع عن نفسه ، ولسبب ما نحرم على أنفسنا أن تنال ما تشتهي بكافة الحيل والعقبات .

ولا تدهش حين أقول لك إني فكرت في قطع صلتي بك نهائياً على اعتبار أنك « خنت ثقتي فيك وأنك أتخذت القضية التي تدافع عنها وسيلة لتحقيق مآربك الخاصة » ! وإنه أولى بك « أن تترك الكفاح للناس الذين وهبوا أنفسهم للقضية » . أقطع صلتي بك وأحاول أن أجد طريقة لخدمة الشعب الذي آمنت به وأجد قائداً آخر « لايفكر في ذاته ويهب عواطفه للناس أجمعين » .

ثم قلت أن هذا ليس بعقاب كاف ، بل يجب ان أكتب خطاب توبيخ حافلا بأقذع الشتائم وأرسله لك على عنوان بدير ويكون هذا آخر شيء أفكر فيه ناحيتك .

ونمت . . وصحوت في الصباح وأنا على عزم الليل . وطلبت من الناظرة أجازة عارضة يوماً لأتفرغ للتفكير في الانتقام . وهداني العقل إلى أن أكتب لك الخطاب ولكن بدلاً من أن يكون هناك احتمال لتسرب محتوياته لبدير أذهب بنفسي وأدق الباب وأقابلك بمنتهى التهجم

وأعطيك الخطاب من وراء الباب وأنزل فوراً. . وطوال تفكيري كانت الصور في ذهني تتغير، ولكن دائماً كانت « فهماني إزاي» ترن في أذني وتتردد وكأنها تهزأ بكل ما أفكر فيه، وجعلتني لازمتك أفكر فيما قلت لي كلمة كلمة وأنها جميعاً وأحاول حقيقة أن أفهمك، وسألت نفسي سؤالاً لأكيل الضربة الأخيرة لأوهامي وانتقاماتي ما ذنبك؟ وهل حرام أن تحبني ؟

وهل هذا مستحيل ؟ وهل هناك تعارض بين أن تحب وبين ان تكافح من أجل كل ما أنت مؤمن به ؟

وأيضاً لن تتصور مبلغ فرحتي للسؤال الذي ألجم أوهامي ، كدت أصرخ وأهلل لتلك الفتوى ، ولكني لم أجد وقتاً فقد ردتني إليك « فاهماني إزاي» التي كانت لا تزال تنبح في أذني وتجعلني أتصورك بعد ما قلته لك ، وأيقنت أني لا بد آلمتك أشد الألم . . أنت يا أعز إنسان .

وتنفعل صورتك في خيالي بهذا الألم وتنطقه ملامحك ، واتلوى أنا من العذاب وتزأر كل حشاياي تمنع عنك الألم وتناديك وتستعطفك.
أنت الذي طالما تأملتك وتأملت خلجات حماسك وأحببتك وآمنت بك. . أنت الإنسان الكبير الذي يخدم أكبر قضية تعبر لي عن عواطفك التي طالما انتظرتها وتحرقت شوقاً إليها. . وأركلك هكذا!

أنا ولو أني فتاة إلا أني نادراً ما أبكي ، ولقد بكيت وأحببتك وأنا أبكي ، وهفوت إليك وإلى غزارة ذقنك وشعرك المنكوش ودمك ولحمك وسرحاتك ونظارتك الحبيبة الملحومة ، وحتى فانلتك التي تبدو فتحتها بالية من بيجامتك. أحببتك وهفوت إليك ،وتصورت أني ممكن أن أموت أو يمثل بي أو أجر، انما لا يمكن ان أتصور الا أذهب اليك أو أراك.

٩٩٤

وأنا على يقين إني حين أدق الباب سوف تفتح لي باسماً . . لا لأنك تحبني وكدت تفاتحني ، ولكن لأن الإنسان الذي فيك أوعى من أن يرفض خطئي، ولأن قلبك كبير لا يصد طارقاً حتى لو كان الطارق أنا .

١٣

ووضع حمزة الخطاب بجانبه وعقد وجهه فبدت فيه مأساة ، والتفت لفوزية وقد أتعبها التحديق في أدق ملامحه لترى فيها انفعالاته بما قرأ حريصة على أن تخفي تحديقها ذاك . رفع حمزة رأسه والتفت إليها وسكت . . ولم تجرؤ هي الأخرى على النطق . . وقال أخيراً في كلمات بطيئة والمأساة لا تزال في وجهه :

ـ تعرفي انتي تستاهلي أيه على الجواب ده ؟

فقالت فوزية في اضطراب:

ـ إيه؟

وقام حمزة فجأة واحتضنها وقبلها ثم قال :

ـ تستهالي أكثر من كده .

ـ لا . . اسمع يا حمزة ما تخليش الحكاية تنقلب هزار .

ـ بقى ده هزار ؟ أنا فعلاً مبسوط من الجواب .

ـ مبسوط ليه ؟

ـ تفتكري لما تعرفي بعض أخطائك وتحاولي تصليحها مش يبقى حاجة تبسط؟

ـ بس . . دى أخطاء كبيرة .

ـ الأكبر منها هو إنك عرفتيها.

ـ وأنا ما كنتش مؤمنة بقضيتنا !

ـ مفيش حاجة اسمها ما كنتش مؤمنة يا فوزية . . انت كنتي دايماً بتتحركي تجاهها وده هو المهم. فاهماني أزاي ؟ الدافع باستمرار بيبقى مختلف عند الناس بس ما دام الهدف سليم خلاص . . دايماً الهدف هو اللي بيطور الدافع.

ـ أنا ما أخبيش عليك كلامك بيبسطني. . بس خايفه تكون بتقوللي كده عشان يعني العلاقة اللي بيننا.

ـ فعلاً لولا واثق منك ، وإنك حتمشي وإني حساعدك وإنك حتساعديني، كنتي ممكن تعتبري كلامي تبرير. . بس . .

ـ بس أيه ؟

ـ المسألة مش بتاعة يوم . . انتي اتغيرتي وكل يوم حتتغيري. . وأخذ القرارات شيء وتنفيذها شيء تاني، فاهماني أزاي ؟ كل ما حتخطي خطوة لقدام حتثقي في نفسك أكثر وتخطي أسرع .

ـ أنا مستغربة انت واخد الحكاية بالبساطة دي أزاي ! انت قريت الجواب؟ وفهمته كويس ؟

ـ الظاهر إنك كنتي متوقعة أضربك مثلاً عشان يبقى الموقف درامي قوي. . انتي نسيتي حاجات كثير وحملتي نفسك كل الخطأ. . نسيتي إن فترة نشاطك كانت فترة اقبال من كل الناس على المساهمة في القضية وإن الفترة اللي بدأت فيها اللي بتسميه مغامرة كانت فترة إرهاب، يعني الفترة اللي بتظهر فيها الانحرافات والمغامرات .

ـ بس انت مثلاً. .

ـ انتي واخده عني فكرة مثالية قوي . . أنا مش بطل ولا كلام من ده، فاهماني أزاي ؟ أنا من دم ولحم وعندي نفس المشاكل الجنسية والنفسية اللي عند كل الشبان اللي زيي.

وأنا برضه لما اتصلتي بيه كنت مبسوط لأني حاشتغل مع واحدة حلوة زيك، وبرضه لما ابتديت أعجب بك وأدخل في الغميق كنت فاهم إن فيه تعارض. . أنا إنسان زيك تمام. .

ـ يعني واثق فيه يا حمزة ؟

ـ أهي دي مسألة فيها نظر.

وضحك واغتصبت فوزية ضحكة وسألته :

ـ يعني لسة بتحبني ؟

ـ على فكرة أنا مش مؤمن بمبدأ السؤال ده .

ـ ليه؟

ـ دا سؤال لفظي . . احنا بنحس الحب زي ما بنحس الخوف والفرح والكره. . فعشان تعرفي إذا كنت لسه بحبك واللا لأ أسألي نفسك .

ـ وإذا سألتها وقالت أنك بطلت ؟

ـ ابقي في الوقت ده أقرصيها من ودانها وقولي لها تبطل كدب.

ـ انت رايق.

ـ يعني لازم أعيط عشان أثبت لك ؟

ـ لأ . . عايزاك تقول الحق.

ـ يعني عايزه أكدب عشان أقول « الحق» اللي انتي عايزاه ؟ أنا ما أقدرش أقول إلا الحق.

وقبلها قائلاً لها « الحق » كل الحق في فمها .

وتقبلته فوزية ساهمة.

فسكت ثم ابتسم وقال :

ـ بقى مش أنا اللي ليه الحق اني أسأل؟

ـ تسأل ايه ؟

ـ لحسن يكون الحب راخر صفى عندك على حاجة؟

ـ يوه يا حمزة . . كفاية تعذيب . . كفاية بقى.

ودلفت من الكلمات إلى الدموع ثم البكاء . . وانكفأت على ذراع الكرسي والدموع تنهمر وتبلل الذراع ، ومدت يدها تطلب منديلاً ولم يك لديه واحد نظيف.

فأسرع إلى الحمام وأحضر « فوطة وش » قائلاً :

ـ لا مؤاخذة . . إذا ما كانتش كفاية لما تتبل كلها أجيب غيرها.

وازدادت نهنهاتها وشهقاتها، فجلس حمزة على كرسي وأسند رأسه إلى الحائط وقال :

معلهش . . قليل من البكاء يصلح المهج . . الدموع وسيلة فسيولوجية لغسل العيون ، فإذا ازدادت غسلت القلوب أيضاً .

ولكن فوزية انخرطت في بكاء مؤلم لا يصلح في تلافيه الهذر. وما أدرك حمزة هذا حتى ترك مكانه ولف ذراعه حولها ورفع وجهها إليه وانبثقت في صدره لوعة عذاب حادة حين رأى عينيها الباكيتين ورأى كأن شمس يوم حزين تغرب فيهما، وقد تحول البياض الناصع إلى شفق وتوهجت العسلية المذهبة بأشعة الغروب كما تتوهج سنابل القمح حين يغيب وراءها القرص الأحمر ، والدموع تتساقط حزينة هي الأخرى تبكي وتدمع وتولد في عيون الآخرين الدموع.

ووجد نفسه يهدهد عليها برفق واحتراس وكأنها مصنوعة من دقائق زجاجية لا تحتمل لمسه، وكان يفعل ذلك بدهشة غير قليلة فتلك أول مرة كان يهدهد فيها على إنسان أو حتى قطة، فما باله بفوزية وهي مستكينة إلى التجويف الدافىء الكائن بين جنبه وذراعه، والتي يحسها بعضلات صدره هشة أليفة، ودموعها متلألئة يكاد من كثرتها وتتابعها أن يتذوق طعمها في فمه، وشعرها يجذب أنفه برائحته ورائحتها وهي مطمئنة إليه بكلها . . وبالشمس الغاربة في عينيها . . وبمكرها ومبالغاتها. . وبكل ما تحمله له من حب.

كان البيت من البيوت التي تقع في حواف الدقي، وكانت النافذة تضع بروازاً مربعاً للوحة حقيقية تغرب فيها الشمس نفسها عبر البيوت البعيدة والمزارع التي لا تنتهي، وجو الغروب يشحن بمقدمات التغيير العظيم الذي سيطرأ على الكون بعد ذهاب الشمس . . وكانت شعاعات صفراء وحمراء قد اخترقت النافذة وبرزت من اللوحة وأضاءت الحجرة. وأحس انه قد أصبح انساناً آخر. شاعراً أو موسيقاراً . . أو فناناً مشحوناً بأحاسيس مرهفة ناعمة هفهافة تتصاعد من نفسه وتملأ الجو الذي تضيئه لهثات شمس أخيرة، بأبخرة معطرة وسحابات خفيفة مصنوعة من ذرات إنسانية خالصة. أحس أن قلبه يذوب وكأن عدداً لا نهاية له من العواطف الدقيقة الضعيفة الواهنة يتسرب إلى ذاته الحديدية وينهشها ويشبعها نبضاً وليناً وألفة ولا يستطيع مقاومتها، ويدفعه العجز إلى حنين جارف للبكاء وكأن لحناً جنائزياً تأتيه أنغامه من بعيد لا تشمئز له نفسه، ولكن يثير فيه أشجانه ويداعب أوتار حزنه المهملة في نفسه فتروح تعزف هي الأخرى وتنوح، ويتصاعد حزنها ألحاناً تحرض على الحزن والعجز، وتغري بأن يفضفض الإنسان عن نفسه بالدموع أو بالكلام.

١٠٠٠

وآثر حمزة أن يتكلم، وخرج صوته غليظاً قد جرحه البكاء الذي لم يتم، وكانت فوزية قد هدأت واعتدلت ومضت هي الأخرى تتحدث في وجل.

وغابت الشمس .

وحل المساء.

وكان إحدى أمسيات الشتاء وبدأت نسمات تهب. .نسمات ليس فيها جمود اليأس وإنما كان لها مخملية الأمل. . وكان حمزة قد أضاء النور وأصبحت الحجرة تسبح في بحر من عواطف متدفقة. كان في جوها ضحكات قصيرة مختصرة وطويلة لا نهاية لها ، وأيد تدق على أيد، وقلق وطول بال، وتنقلات سريعة متلاحقة من حادثات فاتت إلى لحظات تصنع الحاضر، إلى ومضات عيون والتماعات خدود وبسمات راجفة كمناديل حريرية معلقة تجف، وكلام كثير يريد أن بنطق، ورهبة من الكلام . . وحمزة يجلس فلا يركن إلى الجلوس، ويتمشى في المساحة القليلة الباقية في الحجرة بغير أثاث فلا يركن إلى المشي، وأسلاك خطط طويلة تخرج من رأسه لتمتد إلى الغد وبعد الغد ومئات السنين، وفوزية تبدو فرحة تنظر إليه وتتحسسه بعينيها وتتأمله كالشيء الثمين الذي تقلق حوزته حتى وهو بجانبها، وفي قلبها وعينيها كانت قلقة لا تكاد تستقر على حال ولا تكاد تصدق أن حمزة أصبح لها وإنها ستصبح زوجة ذلك العزيز الثائر الذي يتوهج ذهنه بمنطق لماع مشع ينفذ إلى الأقوال والأشياء فيفصصها ويتأمل تركيبها وقانونها كما كان يفعل « بالبريتا »، ثم يصدر عليها حكمه في بساطة وبلا ضوضاء .

ابتسامته وابتسامتها كانا هناك حين فتح الباب فجأة وظهر بدير مصفر

الوجه جامد الملامح ترتعش أصابعه التخينة الشاحبة ، وخطا خطوة واحدة إلى الداخل وتوقف قليلاً، وجاب الحجرة كلها بعينيه وتفحص فوزية بدقة، وكذلك فعل بملابس حمزة ثم قال له : تسمح .

وتبعه حمزة المذهول إلى الخارج، وأغلق بدير الباب ومشى إلى حجرة النوم، وما كادا يصبحان في الحجرة حتى التفت بدير قائلاً في مرارة غريبة على صوته :

ـ أنا مش قايل دي متجيش هنا؟

ـ دي مين ؟

فقال بدير وعيناه إلى الأرض وأسنانه تتضاغط :

ـ الشرموطة بتعاتك اللي في الأوضة التانية .

وكاد حمزة أن يصفعه، وفعلاً قام بعمل المقايسات اللازمة بين حجمه وحجم بدير والمسافات التي على يده أن تقطعها لتستقر على وجهه، لولا أنه عاد إلى وعيه ورأى أمامه طفلاً ضخماً لا يستطيع أن يمد عليه يده.

ـ تفتكر أن دي طريقة يا بدير؟

ـ ما هو ما فيش الا كده. . أمور الشرمطة دي ما أعرفهاش . . أنا راجل صعيدي . . يمكن يبان علي أني متساهل إنما في الحاجات دي أنا صعيدي قح.

ـ ويصح وانت صعيدي قح تشتم ناس متعرفهمش كده؟. كده ؟

ـ بلا يصح بلا ما يصحش . . انت خليت فيها يصح. . أنا قلت ما تجيش. . فما دام جت تبقى أنت وهي برة على طول.

ـ سيبنا من التهويش ده وبلاش جعير وقول لي أيه حكاية التقاليد الصعيدية اللي ظهرت فجأة دي ؟

ـ ما فيش حكاية . . بره يعني بره على طول بلا أي تفسير.

وألقى عليه حمزة نظرة أخيرة أيقن بعدها أن لا فائدة من مناقشته وأنه في حالة لا يعي معها ما يقول أو يفعل ، بل انه في حالة قد يرتكب معها جريمة. ولم يكن حمزة يتصور أن المسألة ممكن ان تتطور الى هذا الحد وإنها ستتفاقم إلى أن تصل الى هذه الدرجة.

وأشار إلى فوزية وتقدمها إلى باب الشقة بعد أن جمع حوائجه القليلة ووضعها في الحقيبة القماش، وأغلق وراءهما الباب ومضيايهبطان السلم . وفوجئا ببدير يطل برأسه من باب الشقة قائلاً في صوت مخنوق:

الشنطة الكبيرة . . تلاتة بالله العظيم أن ما كانت تجيني لأدفعك تمنها غالي.

وأغلق الباب. وخيل لحمزة وهو يهبط بقية الدرجات أنه يسمع وراء الباب المغلق شهقات ونهنهات.

وبعد خطوات كانا يحتويهما ظلام شوارع الدقي، حيث الليل والأشجار والفوانيس الغازية الشاحبة المتباعدة ونقيق الضفادع في الخرائب الكثيرة وهي تستقبل مقدم الربيع.

وكان هناك نقيق مشابه في رأس حمزة يعلو ويعلو . كان في رأسه بدير الذي زامله عاماً في مدرسة ثانوية وقابله بعد ذلك في القاهرة صدفة ونشأت بينهما منذ ذلك الحين علاقة لا هي سياسية ولا شخصية ولا لأن فيه اتفاقاً في الأمزجة، ومع هذا ظلت قائمة لاتموت ولا تنطفىء. . اختفى

حمزة عنده حين جاء بيفن إلى مصر، ومع ما حدث فلم يكن ساخطاً عليه بقدر ما كان ساخطاً على نفسه إذ الخطأ خطؤه. . كان من الواجب أن يحاول بجدية أكثر أن يكشف عن الإنسان الذي في بدير وينميه. أنه حتى وهو يطرده كان يحس ناحيته بالعطف والحب والألم ، وهي مشاعر نادراً ما كانت تطرق باله . وخيل لحمزة أن نظرته إلى بدير وإلى الناس عامة تغيرت، بل لا بد أنها تغيرت، ولا بد أنه كان مخطئاً إلى حد ما في استيعابه للجماعة البشرية. كان يؤمن إن الناس تتطور، ولكنه يدرك الآن أنه كان يرى ذلك بطريقة آلية . أن فهمه للناس كان شيئاً كهذا : المجتمع يكون كسراً اعتيادياً له مقام يعد بالملايين وبسط يعد بالآحاد أو العشرات ، وإن المجتمع يتطور بتناقض البسط مع المقام، كل إضافة للبسط على حساب المقام وكل إضافة للمقام تنتزع انتزاعاً من البسط وإن الإنسانية ستظل في عذاب وحروب حتى يطاح بالملوك والأبسطة وتتحرر المقامات وتصل البشرية إلى المجتمع الواحد الصحيح. إنه يدرك الآن أن فهمه ذاك كان ناقصاً. . إن الناس ليسوا آحاداً وعشرات لا تملك إلا أن تتكاثر وتتناقص وتصنع التاريخ بحركتها، ولكن الناس زهرات الحياة اليانعات فيهم أرق ما أبدعته الحياة من إحساس، وأثمن ما استطاع التاريخ أن يضيفه على البشر من عواطف، وإن الإنسان يمضي في الحياة وحوله هالة من أحاسيسه وعواطفه وأفكاره لها قدسيتها ولها هي الأخرى قوانين ووجود. وكأنما كان ينقص حمزة أن يحب وأن يمضي وفوزية بجواره في ظلام الدقي ليحس بها كالينبوع الفياض الذي يغذيه بإلهام جديد يرى على ضوئه الناس وأعماقهم، ويرى ما في أعماقهم من نبل وجمال، ويرى في بدير الإنسانية التي كان عليه أن يتعهدها ويرويها . .

وسألته فوزية وهو يلمح السؤال يلح عليها :

ـ ماله بدير ؟ أتجنن ؟

ـ لا . . حبك.

ـ حبني؟ حبني أزاي؟

ـ دا مش حبك وبس، دا بيغار عليك كمان، وعشان كده طردنا. . هو انت حد يشوفك إلا ما يحبك ؟

ـ غريبة؟ يمكن . . أنا كنت حاسة إن نظرتـه لي مش عادية أبـداً . وبعدين . .

ـ ولا قبلين. . بدير كويس بس دي حاجة عارضة . . أنا حسيبه لما يبرد شوية وبعدين أبدأ أتصل به تاني. . الحقيقة أنا اللـي غلطـان مش بدير.

ـ ودلوقتي رايحين فين ؟

ـ أعرف شوية ناس . . حنجرب. . معـاكي فلـوس لحسـن حناخـد تاكسيات كتير.

ـ خد .

ـ تروحي انت بقى.

ـ أروح أزاي ؟ أنا معاك لغاية أما أشوف حتروح فين .

ـ الساعة ستة ونص دلوقتي.

ـ انشا الله تكون اتناشر .

وكأنما كانت هناك مؤامرة متفق عليها. . الطالب الذي يعرفه في الجيزة مش موجود، وعلي الباز لا أحد يعرفه في العنوان الذي ذكره له، وقريبته الساكنة في شارع خلوصي وجد زوجهـا جاء من السفـر وظهـر رفضهـا واضحاً في عينيها، وكان التاكسي لا يزال حائراً بهما كنحلة ضلت طريقها

إلى خليتها . . وشوارع القاهرة نهار وحاراتها فجر وأزقتها ليل بهيم .

والأحياء كثيرة شبرا وعابدين والسيدة ومصر القديمة والأزهر وطولون وشارع فؤاد والدرب الأحمر . . وبنايات ضخمة، خمسة ادوار وعشرة وعشرين، ومئات الآلاف من النوافذ وآلاف من الأبواب والبوابين وعمارات نام سكانها وعمارات لم تنم وعمارات لا تنام، ورواد سينمات ورواد شوارع وفسح وكباريهات، وملابس سهرات، وما بعد ظهر ، وبدل وأصواف ومعاطف،وفساتين فاقعة الألوان ، ونساء جميلات في فتارين من البودرة والروج قد تقمصتهن فوريرات ثعالب ودببه، ويمكن نمور وأسود. وإشارات مرور حمراء وخضراء وصفراء، وأنوار نيون بكل الألوان ، وعمال نظافة وعمال بلا نظافة، وعساكر سود وبيض على عجلات وعربيات وداوريات، ومباني بنوك هائلات ترقد ثابتات كأحدث أهرامات .الأهلي ومصر والكريدي ليونيه والأمة العربية وبنك المستعمرات وما وراء البحار ، وخواجات وأروام وجريج ومن كل ملة ولون، وجامعي أعقاب وأصحاب عربات وشحاذين، وأناس ينتهي يومهم وأناس يبدءون اليوم، وأموات وأطفال يولدون، وراديو يذيع آخر الأخبار وبرقيات ومواعيد، وأسعار تهوي وأسعار ترتفع ، وأناس يهوون ويرتفعون بلا أسعار، وخمور تخلط وحشيش، وعمليات اصطياد وصفقات، ومشاورات لتأليف الوزارة، وحناطير تنتظر وكاديلاك وتاكسيات تتجمع من أكوام كالذباب، كلما بصق وكان رواده، وسواقين يتشاتمون ويمسون ويهزرون، وهؤلاء جميعاً لهم مكان يأوون إليه وأمكنة لا يأوون إليها ولا حتى يعرفوها وفوزية وحمزة يتسللان وسط هذا كله يحتميان من الظلام بسواده ومن النور بالعربات .

ورهيب ذلك الإحساس الذي يعتري الإنسان حين يرى هذا كله

ويعيش داخله ، وهو مدرك أن لا مكان له فيه . .

وحمزة يسأل :

ـ طب والعفش يا فوزية حنجيبه منين ؟

ـ مش مشكلة . . حاخد أودة النوم بتاعة أمي .

ـ حتقولي لبوكي امتى؟

ـ الليلة . . ضروري حيوافق .

ـ حتى لو عرف ان أبويا عسكري دريسه .

ـ عسكري ايه؟ .

ـ دريسه .

ـ دريسة أيه ؟

عامل بيصلح سكك الحديد .

ـ أبوك عامل؟

ـ أيوه .
يعني من صميم الشعب ؟

ـ أيوه .

ـ يعيش أبوك .

ـ تعيشي أنت . . تفتكري أبوكي حيوافق ؟

ـ أظن كده . . مش عارفة . . بالكتير حيمطبوزه ويقول : أنت حرة . . دا مستقبلك اتصرفي فيه .

ـ يعني مش حايرفض ؟

ـ مش ممكن يرفض .

ـ يعيش أبوكي .
ـ وبعدين . . الدنيا دي كلها ومش لاقيين مكان نبات فيه الليلة بس!

ـ لازم حنلقى .

ـ يعني بالعافية حنلقى؟

ـ أيوه بالعافية . . أنا متفائل ومع ذلك مش مصدق انا خلاص حنتجوز.

ـ اعتبر الموضوع ده منتهي .

ـ دا لسه ما ابتدأش .

ـ دا انتهى من أول يوم شفتك فيه وايديك فيها جاز في الخيمة.

ـ وحيبقى لينا ليلة دخلة ؟ تعرفي ليلتها حا أعمل ايه؟ حاقفل الباب ورايا وأقول :

ـ يا زميلة فوزية حنتناقش . . ما تتكسفيش .

ـ يا جدع اتكسف انت .

ـ أحنا لسه قفلنا الباب؟

ـ هس . . الراجل ده باين عليه مخبر.

ـ مش باين .

ـ أنا أراهن .

ـ لو ختي بالك كنتي عرفتي انه مش مخبر . لأنه أولاً ماشي في وسط الشارع وماشي يتلفت . . وباين عليه بيدور على حاجة . . أهو لقاها . . ووقف يستنى الأتوبيس . . وأهوه ركب.

ـ دا أنا غبية قوي.

ـ لأ . . يمكن جديدة.

ـ وحا اتقدم ؟

ـ م . . م منظور.

ـ تعرف إنك لذيذ . أنا كل دقيقة باكتشف فيك حاجات تتحب.

ـ وأنا كل دقيقة با أحس بالتغيير اللي عملتيه في نفسي.

ـ أنا عملت تغيير؟

ـ كتير. .

ـ مثلاً . .

ـ مثلاً . . كنت واخد الكفاح بشكل بطولي. . كنت فاهم أني با أضحي عشان الناس فلازم يحبوني ويفردولي مكانة كأني مسيح ، فاهماني ازاي ؟ ودلوقتي شعرت بقضيتنا كبيرة وبدوري فيها متواضع ، وكل ماباشوف ظلم باشعر إن اللي با أعمله مهما كان قليل. . مثل تاني . . كنت حاسس بالغربة واني صحيح بقوم بدوري اللي بيخدم الناس ، انما كنت بعيد عنهم . . انت خلتيني أشعر بأني ارتبطت بالمجتمع ارتباط وثيق. . اني بقيت منه . . إننا كلنا عيلة ، فاهماني أزاي ؟ أنا وانت أندمجنا في كل الناس وأصبح تعدادنا بالمليون . أنا وأنا ببص للناس حاسس كده . . شايفة دول اللي مروحين واللي جايين ، واللي راكبين على العربية الكارو دي ، والمتشعبطين على السلم ، واللي قاعدين ع القهوة دول ؟ دول شعبنا. . شايفاه أزاي مضروب ومبعثر ؟ أنا حاسس دلوقتي إني با أحبه أكتر وإني عايز أفنى علشانه ، وحاسس أكتر بحاجته للقائد اللي يلمه ويوصل بيه زي ما بتقولي للحب ولبكره ، فاهماني أزاي ؟

ـ تعرف الكلام ده على لساني كنت عايزه أقوله . . تعرف أنا أكتشفت إكتشاف خطير!

ـ أيه ؟

ـ أنا مابقتش فوزية . . أنا بقيت فوزية وحمزة.

ـ وتعرفي أنا أكتشفت إكتشاف خطير .

ـ أيه ؟

ـ أنا مش حا أتجوزك بس، دا أنا حا أتجوز بيكي المجتمع فاهماني أزاي ؟

ـ أنا بيتهيأ لي إن كل كلمة من كلامك ده بتخليني أحبك أكتر من الأول.

ـ أحنا يا فوزية في كل لحظة حبنا بينمو. لأنه جزء من حبنا الكبير للناس والقيم الإنسانية، والناس بتتحرك وتتطور. . وهو برضه النهارده مولود وباستمرار راح يكبر.

ـ ولما نتجوز؟

ـ حايبقى شباب . . في عز شبابه.
ـ انت الليلة دي رائع.
ـ أنا شاعر بقوة جديدة . . بطاقة من النشاط بتسري في تفكيري ونفسي وتكويني. . دلوقتي حاسس بعمق إن بلدنا بلدنا فعلاً والناس دول ناسنا، وإننا لازم نعيش.

والليل يمضي لا يحفل بالمدينة، والمدينة تحيا غير حافلة بالليل بناياتها الكبيرة تبدو صغيرة وبيوتها عشش نمل وشوارعها أضيق من ثقوب الابرة، والناس كثيرون كثيرون . . وفوزية بجوار حمزة وفي كيانه وذراعها حول ذراعه، وصدرها قريب من صدره، وفي عينيها بريق وتحد والعيون كثيرة، والخطر في كل خطوة.

وفي مكان من شارع الملكة، والعربات طائرة كالريح والأسفلت يمتد طويلاً أسود يلمع بضوء المصابيح المنمقة الموضوعة على جانبيه، خطر له خاطر فتوقف في الحال وقال:

ـ أما أحنا مسطولين صحيح. ما أروح عند صاحبتك دي اللي قلتي

انها مستعدة تخبي ناس . . اسمها أيه . . ما . . قولي معايا .

فأجابت وهي تضحك :

ـ مافيش داعي تتذكر اسمها.

ـ ليه؟

ـ لأنها موجودة هنا بس .

قالت هذا وهي تشير إلى رأسها .

ومن شارع الملكة إلى السكاكيني وإبراهيم باشا والعتبة مرة أخرى ولا أمل ولا شروع في أمل ، وفي شارع عبد العزيز قرر حمزة أن يذهب إلى حجرته في المبتديان ويقضي فيها الليلة ، هناك خطر ولكن ليس هناك مفر.

ووقف في الظلام المجاور لدار العلوم وأرسلها تستكشف . وعادت إليه بعد قليل مسرعة قائلة أنها رأت أربعة لا بد أن يكون أحدهم مخبراً .

وابتعدا بسرعة عن المنطقة كلها عن طريق شارع الفلكي ،وكان ما معهما من نقود قد انتهى، فاقترض حمزة من نقود السلاح التي معه على أن يسددها حين يحصل على مرتبه عن نصف الشهر الذي انقضى. وسأل فوزية أن تذكره أن يكتب لها توكيلاً لتذهب وتصرف المرتب من مقر شركة الحرير. وكان حمزة قد قرر أن يحاول مرة أخرى مع قريبته التي في شبرا ويقضي عندها الليلة بالعافية أو بالرزالة وليكن ما يكون، ولكن قريباً من باب اللوق قطع حديثه الساخط وسألها :

ـ مش ده سعد؟

ـ آه . . هو صحيح .

كان سعد مقبلاً من بعيد هو وثلاث شبان آخرين ، وكان واضحاً جداً

بينهم بقصره واصفراره ونحافته ، وكان يرتدي هذه المرة بدلة كحلية أنيقة ويضع منديلاً ابيض في جيب سترته الأعلى.

وتفتحت أمام حمزة أبواب الأمل على سعتها إذ لا بد أن يكون لديه مكان ، بل لا بد أنه على صلة ما باللجنة وممكن أن يعيد اتصاله. وطلب من فوزية أن تنتظره ثم أسرع ناحية سعد وزملائه ونادى عليه . ولم يسمع إذ كان الأربعة في تلك اللحظة منخرطين في قهقهة عالية تفرقوا على أثرها في أرجاء الشارع يضحكون. ثم عادوا يتجمعون. وقبل أن يصل إليهم حمزة كانوا قد توجهوا إلى عربة « فيات » واقفة على الرصيف المقابل لمحطة باب اللوق ودخل الثلاثة فيها . وقبل أن يدخل سعد كان حمزة أدركه وأمسك بكوعه ، والتفت سعد وامتلأ وجهه بدهشة واسعة الأطراف وقال :

ـ هاللو . . هاللو . . حمزة . . أنت فين ؟

وعانقه عناقاً حاراً وقبله على جانبي رقبته. وسأله حمزة :

ـ انت فين يا راجل ؟ بقى كده ماتجيش في الميعاد.

ـ أبداً مش صحيح . . دا ماحصلشي أبداً . . بالشرف رحتلك يومها قبل الميعاد بربع ساعة وفضلت واقف بعده ييجي نص ساعة لما نشفت من البرد. . بشرفي إني رحت ، وبالأمارة. .

ـ طيب بالأمارة الميعاد كان فين ؟

واحتار سعد وقلب رأسه وقد تزمتت ملامحه يميناً ويساراً وفوقاً وتحتاً ، وعوجها مرات ثم قال : آه آل. . طبعاً. . كان عند قصر النيل . . أيوه بالضبط عند قصر النيل . . لأ . . أنا في حكاية المواعيد دي ظبط قوي .

وابتسم حمزة وقال له :

ـ طيب وإيه رأيك إن ما كانشي فيه بينا أي مواعيد أبداً

وتوقع منه حمزة أن يضحك أو يقهقه ولكنه عقد جبهته قليلاً ثم قال :

ـ أبداً . . شوف . . شوف انت ناسي أزاي بقى . . شوف مين اللي مابيجيش في المواعيد وينساها . . عرفت بقى . . عرفت . .

وقاطعه حمزة . . قائلاً :

ـ أنا مختفي يا سعد وعايز مكان الليلة لأن فيه ظروف خلتني أسيب المكان اللي كنت فيه .

ـ مختفي ؟

ـ أيوه هربان فاهمني أزاي ؟

ـ هربان ؟

ـ ما عندكشي مكان ؟

ـ طيب وهربان ليه يا حمزة . . مش كويس كده . . ما افتكرشي فيه داعي لهروبك . . ما أفتكرشي حد يعرف عنك حاجة . . ما فيش داعي أبداً .

ـ اسمع يا سعد . . مفيش داعي انت تضيع الوقت ، أنا لابد عايز مكان دلوقت حالاً . . فأيه رأيك ؟

وقبل أن يجب سعد تصاعد صوت أنثوي من داخل العربة يقول :

ـ يالله يا سعد . . يا يالله يا سونة أتأخرنا .

ـ جي . . جي يافتفت . . . جي بسرعة . . بس فيه حاجة مهمة . . جي . . ثم التفت لحمزة وقال :

ـ بس مكان إيه يا حمزة . . مكان فين ؟ أصل دول جماعة قرايبي ومدعوين . . أيوه مدعوين في فرح . . فرح ابن خالي . . زميلي في المدرسة دا كان عفريت قوي معرفشي ايه اللي خلاه يجوز .

وهنا سمع سعد وحمزة صوتاً أنثوياً قبيحاًصادراً من أنف وحلق واحدة من داخل العربة ، واحمر وجه سعد الاصفر جداً . . وثنى جذعه مرة أخرى وصاح في غضب :

ـ إيه قلة الأدب دي . . دا مش كلام . . مش أصول كده . . ياخوانا . . مش طريقة.

وقوطع سعد بصوت مماثل يرد عليه، وهذه المرة كان صادراً عن شاب، وهنا ابتلت حمرة وجهه بقطرات من العرق ثم قال لحمزة :

ـ لا مؤاخذه يا حمزة . . شبان . . ماتآخذهمش . . طيش . . قلة أدب . .

ـ ما فيش مكان يا سعد ؟

فأجاب في صوت منخفض :

ـ والله يا حمزة انت عارف أنا ساكن مع أهلي . . ومش عارف أعمل ايه . . مشكلة غريبة . . طب مش تقوللي من يومين ثلاثة مثلاً كنت عرفت أتصرف . كنت عرفت أعمل حاجة . . لا مؤاخذة يا حمزة . . باردون .

قال سعد هذا وابتسم ابتسامة واسعة جداً ومفاجئة تشبه الضحكة، ثم انقض على أذن حمزة في التو بابتسامته تلك وهمس :

ـ أصل الليلة عقبال عندك زي ما أنت شايف فيه شغل عاجل قوي.

واقشعر جسد حمزة ، ولم يكن ذلك لهمسة سعد وإنما لإحساس

غامر هبط عليه في تلك اللحظة . . الإحساس بالحذر، الإحساس بالموجة الصاعدة وهي تهبط وتتلاشى، ثم يبدأ التراجع الذي يسحب معه كل ما كان عائمــاً فوق المــاء ، وكل الفقــاقيع ، وكل ما ليس له جذور . . الأحساس بأنه واقف على شاطىء رملي والماء يتسرب تسرباً خفياً وينسحب عائداً إلى البحر ويسحب معه رمالاً كثيرة ولا يتبقى إلا ما تحت قدميه فقط.

ووجد سعد يقول :

ـ وانت فين يا حمزة، فين أراضيك ؟ ابقى خلينا نشوفك يا أخــي لازم نشوفك. دا ولا كأننا كنا نعرف بعض، دي مش أصول أبداً، كلام فارغ .

ولم يصدق حمزة أن كلاماً كهذا ممكنــاً أن يختتم عامــاً طويلاً من اللقاءات والاجتماعات والمعارك .

وكان يود أن يهب في وجهه ساباً لاعناً مذكراً أياه بما كان ، وبمنابر كلية الحقوق التي ارتجت بخطبه ، وبما ظل يقوم به من كفاح إلى أسابيع قليلة مضت .

ولكن الظروف لم تك تسمح ، ثم أن حمزة نفسه كان في تل اللحظة يملؤه الشعور القوي بالحاجة لا إلى سعد ـ ولكن إلى أوتاد حديدة تحمي ما فوق الشاطىء من الجذر المنسحب.

وقال له حمزة أخيراً :

ـ انت مش مكسوف من نفسك ؟ بقى انت ما تقدرشي تشوفلي مكان الليلة بس .

ـ انت عارف يا حمزة انت مش غريب. ما عنديش أي فكرة لو كنت

قلتلي . . لو أي حاجة تانية ممكن أعملها أنا مستعد أي حاجة ، بشرفي أي حاجة تانية . . أيوه ما قلتلك جي يا فتفت قلتلك جي . . أيه ده ؟ دا مش كلام . . عن أذنك بقى . . أوريفوار . . أوريفوار يا حمزة . . خلينا نشوفك .

وكان حرياً بحمزة أن يستسلم لما ألم به من اشمئزاز، ولكنه ناضل وسعد يهم بركوب العربة وقال :

ـ طيب ونشوفك أزاي يا سعد؟

فأجاب سعد ورأسه داخل العربة وجسده خارجها :

ـ أنا بقعد على قهوة ماتاتيا في العتبة . . هناك شلة بلعب معاها شطرنج . . ابقى خلينا نشوفك . . أوريفوار.

ومضت العربة وفيها ضحكات وبقايا أصوات الحلوق .

وعاد حمزة إلى فوزية وما حدث كان مرتسماً بكل تفاصيله على وجهه ، فلم تكن ثمة حاجة للإضافة خاصة وأن فوزية قالت له :

ـ أنا لمحت بنتين في العربية .

فغمغم حمزة ولم يجب .

كان قد قرر أن يذهب إلى قريبته في شارع خلوصي . ونادى على تاكسي وقد تهيأ لتنفيذ القرار.

لقد عرض نفسه منذ خروجه من بيت بدير إلى مئات الفرص التي كان يمكن أن يراه فيها رجال البوليس السياسي، وهو ليس غريباً عنهم فصورته يعرفها معظم المخبرين، وقد قضى سنوات يعتقل ويراقب ويحجز

ويتحرى عنه. كان لا بد إذن من الذهاب إلى شبرا، وقالت فوزية وهـو يهم بالصعود :

ـ يا أخي ما بلاش عناد وتيجي عندنا .

ـ قلتلك يا فوزية ميت مرة مش ممكن. . أولاً مفيش مكان عنـدكو ليه . . ثانياً حتى لو فيه مكان ما أرضاش أنا لأن ده وضع مش طبيعي أبداً وحيكون صدمة كبيرة على أبوكي ، ثالثاً حتى لو كنت مجوزك فبتكو في شارع خيرت جنب وزارة الداخلية على طول ، فاهماني أزاي ؟

اطلع من فضلك يا أسطى على شبرا.

وما كاد حمزة يستقر في العربة حتى انتصب أمامه فجأة شبح سيد . . فأشرق وجهه بفرحة غير عادية وقال:

ـ بس وجدتها. . وجدتها .

١٤

ـ هي ايه اللي وجدتها؟

ـ خلاص.. اتحلت المشكلة.. لابد سيد يعرف مكان أو حتى أنام معاه.

ـ سيد مين؟

ـ حقولك دلوقتي.

ونظر حمزة في ساعته، وكان يخيل إليه أنها على الأقل تعدت الحادية عشرة من كثرة ما لف ودار، وفوجيء بها لا تكاد تتعدى التاسعة والنصف إلا ببضع دقائق. ومع هذا خاب أمله وغامت ملامحه في الحال. اذ هو يستطيع العثور على سيد في النهار فقط أثناء عمله في الجبانة أما في الليل فأين يعثر عليه؟

ومرة اخرى أشرقت ملامحه وقال في فرح صبياني:

ـ عند باب الوزير تقول فين عمي سماعين أبو دومه.. الف من يدلك.

فتشبثت فوزية بذراعه قائلة:

ـ ايه.. مالك يا حمزة؟ انت اتهبلت؟

ـ لا.. أبداً، أكيد أبو دومة عارف مكان سيد وح يدلنا عليه..

فرجت. . ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فرجت. . وكنت أظنها لا تفرج.

- ايه أبو دومه وسيد والشعر ده؟

- دلوقتي حتعرفي كل حاجة. . يا أسطى من فضلك اطلع بينا على باب الوزير.

وقبل أن تصل العربة إلى الميدان قال لها:

- أظن بقى تسيبيني هنا وتروحي، فاهماني ازاي؟

ودقت فوزية أرض العربة بقدمها كالطفل الغاضب وقالت:

- قلتلك مش مروحة، انشاء الله أبات أنا وانت واقفين في الشارع. . لازم اشوفك حترسي على ايه.

وأوقف حمزة العربة وحاسب السائق، ثم طلب منها أن تنتظره على محطة اوتوبيس ١٩ إذ أن منظرهما معاً قد يسترعي الانتباه في حي الأغراب فيه قليلون.

ومضى وحده. . وأصبح في باب الوزير وقال في سره: يا سلام على العظمة! تقف عند باب الوزير وتقول فين أبو دومه؟ تقولشي ابن طولون. طيب فين أبو دومه . . هو معقول حد يعرفه؟

وكان الميدان الضيق قد خفت فيه حركة الناس، لا يبقيه ساهراً إلا القهاوي التي تحده من كل الجهات والناس القليلون الماشون قد كورهم البرد على أنفسهم ومضوا يتدحرجون في صمت شتوي حزين إلى مضاجعهم.

وحمزة له خبرة في السؤال لا تجارى من كثرة ما سأل عن ناس وأشخاص، ولهذا جاب الميدان كله قبل أن تختار عيناه «جرسون» قهوة

أنوارها قليلة وتقع في طرف الميدان. وبعد مساء الخير والذي منه سأله عن اسماعين ابو دومة، وهز الرجل رأسه وكأنه ينفي عن نفسه تهمة. وسأل ثانياً وثالثاً ورابعاً ولا أحد عمره سمع عن اسم كهذا. وكانت الناس وهو يسألها تنظر إليه باستغراب لهذا كان من الواجب انهاء كل شيء ومغادرة الحي قبل فوات الأوان.

وكاد حمزة ييأس لولا أنه رأى رجلاً جالساً على احد القهاوي واحس من منظره أنه ممكن جداً أن يكون حانوتياً.. وذهب إليه مباشرة وسأله وأنزل الرجل ساقه التي كانت موضوعة فوق الأخرى ونفى وتأسف، ولكن يبدو أن احد الجالسين بجواره كان قد استمع للسؤال، إذ بعدما استدار حمزة نادى عليه وقال:

ـ حضرتك عايز اسماعين أبو دومه مين؟ مش بتاع الجبانة؟
ـ أيوه تمام.

ـ آه.. دا بيقعد عند بتاع عصير القصب قريب هنهه.. تمشي من هنا كده على طول لغاية عامود النور اللي هناك دهه. الدكان على ايدك اليمين على طول.

ومشى حمزة حسب الوصف وانتعاشة أمل تشجعه، ولم يكن في كلام الرجل اية مبالغة فقد وجده حمزة هناك جالساً على دكة خارج الدكان بنفس جلبابه الصوف البني وعمامته وشاربه المشوش الذي يلتوي عند طرفيه فيبدو كقرني ثور.

ـ السلام عليكم.
ـ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.
قالها الرجل وهو يمد فمه إلى «غابة جوزة» كان آخر يمسكها.

وانتظر حمزة حتى شد أبو دومه ما طاب له الشد في نفس واحد وسأله وهو يغالب ابتسامة كان يريد إيقاف تنفيذها:

ـ ما تعرفشي والله سيد اللي بيشتغل في الجبانة فين؟

وكان ابو دومة في هذه الأثناء يخرج دخان النفس.. أخرج ملء مدخنة من فمه ثم انتظر قليلاً وأخرج من أنفه ماسورتين رفيعتين كثيفتين لون دخانهما كلون البخار، حتى خيل لحمزة أنه سيصفر بعد هذا ويتحرك.

وقال أبو دومه في أدب ولا تزال سحابة الدخان قائمة، ولا تزال بقايا الدخان تخرج مع الكلمات:

ـ سيد مين؟ ما هو لا مؤاخذة ف دي الكلمة فيه سيدين.. سيد شطا وسيد محمد ابراهيم.. الله! حمد الله على السلامة يا بيه.. يا ألف مرحب.. أصل لا مؤاخذة متآخذنيش.. الدنيا ليل والعتب ع النظر. يا الف مرحب! ده نور ايه ده؟ حمد الله على السلامة.

وكان قد قام واقفاً وسلم على حمزة وشد على يده.. وأكمل ولا تزال يده في يد حمزة:

ـ والله يا بيه إن جنابك ابن حلال.. أنا كنت لسه في سيرتك من شوية.. الف حمد الله على السلامة.

وكان حمزة ينظر إلى الرجل وترحيبه ووجهه الجاف الأسمر الخشن الذي جمده البرد، وذقنه النابتة وشاربه.. وعينه الحولاء التي يخيل للإنسان أنها ليست في محجرها كالعين الأخرى وإنما موضوعة بطريقة ما فوق طرف شاربه وكأنها الكرة الأرضية التي تدور ويحملها قرن الثور.. كان حمزة ينظر وهو يراقب فم الرجل الواسع يتفتح عن الكلمات المصرية

الحلوة التي صنعتها إنسانية شعب عريق.. الكلمات التي قد لا تصفى على الربع،ولكنها رائعة في نفسها وكأنها رسل محملة بالدفء والسلام. كان قد أمضى ساعات طويلة وهو غريب بين مصريين، مبعثر مشتت في الأزقة والحواري، فكأن للكلمة الواحدة التي فيها نبض من ترحيب أو احتفال فعل السحر، فما باله وهو يرى في وجه الرجل فرحة حقيقية بلقائه وترحيباً به إيما ترحيب؟

وقال حمزة وهو منفعل:

ـ الله يسلمك يا عم اسماعين.. والله إنك وخشتني قوي.. انت وسيد.. هو فين أمال؟

فرد أبو دومة ولا تزال يده في يد حمزة:

ـ انت مادريتشي حاصل ايه.

وسقط قلب حمزة فجأة وسأله بلهفة:

ـ لأ.. حصل ايه؟

ورد ابو دومة في تأثر:

ـ مش الواد يسيبنا هنا كده وحنا كنا ع الخير والشر سوا ويروح يشتغل في الوابور. الله يخزي شيطانه البعيد. طب تصدق بايه؟ والله ان سيد محمد ابراهيم ده جاني زي ما جيتني جنابك كده من كام شهر. سلام عليكم يا عم سماعين.. قلت له سلام ورحمة الله وبركاته.. قاللي عايز آكل عيش.. قلت له والنبي إن ما أكلتك بإذن الله فطير ما ابقى سماعين أبو دومة.

ـ والوابور دا فين يا عم سماعين؟

ـ أنت من غير مؤاخذة رحتش سجن مصر.

ـ ليه يا عم اسماعين؟

ـ أهو بيشتغل في الوابور اللي وراه على طول . . يعني من غير مؤاخذه تخش السجن كده يبقى هو على يمينك على طول .

ـ وقاعد فين أمال؟

ـ حد عارف له حته . . أهو مطرح ما بيجي عليه الليل بينام . . باينه بيبات في الوابور . . باينه بيروح عند قرايبه محدش عارف . . حمد الله على السلامة يا سعادة البيه . . أنا وسيد واحد . . كلنا أخوات . . أنا والله سيد ده كنت أعزه زي الاسطى حوده تمام .

ـ الاسطى حوده مين؟

ـ ابني لا مؤاخذه . . أنا وسيد مفيش فرق . . هو كويس كويس إنما لا مؤاخذه اصل شغلنا ده عايز صبر وطولة بال . ليه؟ يوم فيه وعشرة ما فيش . . واللي بيروح أكتر من اللي بييجي . وسيد مالوش خلق . . نفسه ضيق . . ما يقدرشي يستحمل ، ما يستحملهاش إلا اللي زينا كده واخدين ع الشقى . . . ألف حمد الله على السلامة . . أنا وسيد واحد . . كلنا أخوات .

وكان حمزة في ذلك الوقت يختنق في واد ضيق فقد انهارت فجأة آمال رحلة طويلة عريضة . . والعمل؟

ووقف يقضم أسنانه وأظافره ويداري حنقه عن أبو دومه ويتركه يتكلم .

ـ تعرف بعد ما مشيت سعادتك جاني حتة داكتور زي السكرة تمام . . قاللي يا عم سماعين اناجاي ع السمعة . . انت جنابك زعلان ليه كده كفى الله الشر؟ خير . . هو لا مؤاخذة حصل حاجة؟

ـ لا . . أبداً يا عم سماعين .

ـ ولا يهمك. . والله من يوم ما مشيت من هنا وأنا مشغول عليك وعلى الأسمنت. .

ـ ايه؟

ـ ازي الأسمنت؟

ودارت رأس حمزة دورات كثيرة قبل أن تستقر على ما يقوله أبو دومه.

الأسمنت؟

كيف عرف؟

هل أخبره سيد؟ وكيف يمكن أن يسكت أبو دومه عن شيء كهذا وهو لا يحتمل السكوت؟

ـ اسمنت ايه يا عم اسماعين؟

ـ اييه. .

قالها أبو دومه وهو يلوي رقبته ويضم ذقنه إلى صدره كمن يقول: اطلع من دول.

وخاف حمزة أن يستطرد الرجل في الكلام أمام صاحب المحل والرجل الآخر الذي كان ممسكاً بالجوزة. فاستأذن منهما وأخذ أبو دومه على ناحية وأعاد سؤاله، فاذا به يعرف من المرة الماضية أنه كان حاضراً لأخذ الديناميت وانه ليس بطالب طب ولا دكتور.

واستغرب وذهل، الرجل يعرف كل شيء ومع هذا تظاهر بالعبط كل هذا التظاهر وسأله:

ـ وانت عارف كنا بنعمل بيه ايه ده يا عم اسماعين؟

ـ إلا عارف. . هو أنا عيل يا سعادة البيه؟ بتعملوا بيه ايه؟ مش من غير مؤاخذة كده بالمفتشر بتموتوا بيه الانجليز. أنا ياما شفت وياما رأيت يا

سعادة البيه. . انت جنابك فاكرني شوية. . هو تفتكر إن فيه حاجة تبقى في جبانة باب الوزير وما أعرفهاش؟ دانا ما بقاش سماعين أبو دومة. . دانا عارف كل طوبة هنا. . وكل شقفة هنا خابزها وعاجنها. . إنما صوابعك مش زي بعضها. . فيه ناس تبقى مش عارفة حاجة وتتكلم وفيه ناس تبقى عارفة كل حاجة وتسكت. طب تصدق بالله؟ قول لا إله إلا الله. . قول. . تصدق بالله؟ أنا سنة سعد باشا جم الانجليز يفتشوا الترب فرحت قايل لاتنين منهم: جرج «جورج» جرج. . وانت زجزج جرج، بري كود. . وانت بري كود. . زجزج كويس كتير. . وشاورلتهم راحوا ماشيين ورايا. . ورحت واخدهملك عند السبيل وقلت يا سيد يا رفاعي مدد. . حاكم دول تعابين فلازم الواحد يستعين عليهم بسيدنا الرفاعي. وكان في ايدي زقلة رحت عاينها وطاخ طيخ طاخ طيخ وينزلوا الاتنين ساكتين ورحتلك خافي رمتهم ولا حد شاف ولا حد دري. . وياما وياما بس الواحد أصله ما بيرضاش يكلم.

وهنا كان حمزة قد قرر أمراً فقال:

- اسمع يا عم سماعين. . .

- أيوه يا سعادة البيه. . أنا وسيد واحد وزمتي وديني.

- مش عارف حته أقعد فيها يوم والا اتنين؟

- عايز بقى من غير مؤاخذة شقة وإلا أوضة؟

- أنا مش عايز أوض وشقق، فاهمني ازاي؟

- فاهمك ازاي ايه؟ أنا فاهم قوي يا سعادة البيه.

- أولا بلاش سعادة البيه دي. . انا اسمي. . اسمي حمزة.

- أهلا وسهلا. . الف مرحبة يا سي حمزة أفندي. . باب الوزير نور والله.

ـ انت مش فاهم يا عم اسماعين.. أنا مش عايز أوضة والا شقة.. أنا عايز حتة بعيد عن الناس.

ـ تبقى من غير مؤاخذة بقى تروح الدراسة.. هناك حاجات زي طلبك كده كتير.

ـ أصل يا عم اسماعين المسألة إن دلوقت الحكومة بتمسك الناس اللي كانوا بيضربوا الانجليز.. ودلوقت بتدور علي.. فأنا عايز استخبى في مكان ما يشوفنيش حد فيه.. تعرفشي حاجة زي كده؟

ـ الا أعرفشي حاجة؟ وده اسمه كلام يا سي الافندي؟ بقى عمك سماعين أبو دومة ما يعرفشي يخبيك.. يا سلام.. أي خدمة يا سعادة البيه.. أي خدمة.. بس كده؟

ـ تعرف صحيح يا عم سماعين؟

ـ إلا أعرف؟ دانا أخبيك وأخبيك.. دانا أوديك في حتة ما يعرفهاش الجن الأحمر.

وكان حمزة يسمع كلام الرجل ولا يفكر فيه، فعقله كان قد عاد يستأنف البحث في ذاكرته عن مكان إذ كان واضحاً أن كلام أبو دومه تهويش ونتش ليس إلا.. ولذلك سأله وهو يبتسم في مرارة عسى أن يرفه عن نفسه بالسماع:

ـ فين يا عم سماعين؟

وسكت أبو دومة، وازدادت ابتسامة حمزة وهو يرى الرجل قد وقع في المأزق ووضع أصبعه على صدغه وراح يفكر. وأخيراً رفع رأسه وتهلل وجهه وقال:

ـ أعرف لوكاندة.

فرد حمزة مباشرة:
ـ لوكاندة ايه يا عم اسماعين؟ مقدرشي أروح أي لوكاندة.. كلهم مراقبين.

وعاد أبو دومه إلى وضعه التفكيري، وفكر حمزة أن يسلم عليه ويمضي ولكنه لمحه يهز رأسه باستنكار، وتهتز طاقيته الصوف التي تعمم عليها وهو يقول:

ـ بس حترضى تروح هناك يا سعادة البيه؟ مش معقول.
ـ معقول قوي.. ارضى قوي.. في أي حتة.. فين؟
ـ هناك في الملك ده.
ـ هناك فين؟
ـ في اي حوش من الأحواش بتوع الجبانة.

وضرب حمزة الفكرة في عقله وخرج بتيجة مدهشة فقال:

ـ قوي.. قوي.. أرضى قوي.. أنا عايز أي حتة، فاهمني ازاي؟
ـ فاهمك ازاي!
ـ لا مؤاخذة يا عم اسماعين أنا بقولها كده بس ـ صحيح ممكن أقعد هناك.. دانا أروح قوي.
ـ تحب بقى جنابك حوش مطرحين وصالة والا حوش مطرح واحد؟ أؤمر.. أي خدمة؟
ـ انت بتتكلم جد يا عم اسماعين.

وظهرت غضبة لينة على وجه الرجل وقال:

ـ انت مش واسك «واثق» في يا سي حمزة أفندي؟ عيب ولا مؤاخذة

يبقى شنبي على مره. . دانا مرة واحد قاللي انت كذاب فحطيت صباعي في عينه وخدته الإسعاف يومها وبقت حكاية. . هو أنا عيل لا مؤاخذه؟ أما أبو دومة يقول كلمة تبقى هي الكلمة. . طب والله نظير كلامك ده لمقعدك في مدفن داود باشا نفسه. . اتفضل. . ما تتفضل يا سعادة البيه. . اتفضل نوصل للبيت بس. . اصل المدفن مقفول بقفل. . قافلينه اصحابه. . ح أنادي الأسطى حودة ابني يعمل له سلكة ويفتحه. . اتفضل.

وانطلق أبو دومة في حماس بالغ، ومضى حمزة وراءه وهو يكاد يضحك إذ من المجنون الذي يصدق أبو دومة؟ ولكن الرجل واصل سيره حتى بلغا الميدان فهز حمزة كتفيه كمن يقول لنفسه: خليك مع الكداب. واتفق مع الرجل على أن ينتظره عند نفس المكان من الجبانة الذي وجده فيه المرة الاولى، وذهب حمزة إلى فوزية الواقفة وقبل أن يصل اليها سألته بلهفة:

ـ هيه؟

ـ بس يا ستي. . حنام مع سعادة داود باشا في اوضة واحدة.

ـ بلاش هزار يا حمزة. . لقيت حاجة؟

ولم تصدق فوزية هي الأخرى، ومع ذلك مضت معه، وراحا يصعدان الطريق المؤدية إلى المقابر. وعند نفس الجدار وجدا هناك «أبو» دومه واقفاً وقال له حمزة:

ـ دي مراتي يا عم اسماعيل.

ولما وجد حمزة المسألة فيها اتنين انجليز قتلوا وواحد فقد عينه أضاف:

ـ دي مراتي. . عندنا أربع عيال. . معذبينا قوي يا عم اسماعيل.

ـ ربنا يزيد يا سي حمزة أفندي . . أنا لاخر الأسطى حوده ابني شفته على كبر إنما واد يعجبك . . دلوقتي حتشوفه .

وبعد خطوات قليلة كانوا امام عش مصنوع من خليط من الحجارة البيضاء والصفيح وبراميل الزفت المفرودة . وكان القمر قد بدأ يصعد إلى السماء والنور يأخذ طريقه إلى الأرض . وبدت الأحواش والمدافن كالبيوت الصغيرة المكدسة ،ولم يكن من فرق بينها وبين بيت «أبو» دومة الا أنه أحقرها جميعاً وأفقرها بناء . . حتى ليظن الانسان انه قبر أقيم لتخليد ذكرى الفقير المجهول .

وكان يرقد أمام العشة البيت كلب قد وقف شعره من البرد يشبه الكلب الذي رقد مع أهل الكهف في غارهم مئات السنين . . بلا طعام أو شراب يشبهه في أنه هو الآخر يبدو وكأنه هو وأجداده أجمعون قد جاءوا الدنيا صائمين وغادروها صائمين .

وخبط أبو دومه على الباب المصنوع من الصاج وقال :

ـ يا أسطى حوده .

وخبط مرة أخرى . . وفتح الباب وخرج صبي صغير لا يتعدى العاشرة يرتدي جاكتة عسكرية صفراء تصل إلى ما تحت ركبتيه . . وقال له أبو دومة .

ـ هات ياسطى حوده حتة سلك عشان تيجي تفتح به القفل .

وخرجت وراء الصبي امرأة . . طويلة ترتدي ثوباً أسود وطرحة سوداء وحين سقط القمر عليها أضاء وجهها فبدا أبيض حلوا . . وقالت :

ـ خير يا أبو محمود . . فيه ايه؟

فأجاب أبو دومه بنفس صوته المرتفع :

ـ ما فيش.. أصل حمزة مضاضي الانجليز.. وبينه وبين الحكومة شوية..

فهمس له حمزة:

ـ يا عم اسماعيل.

ـ أصل لا مؤاخذة يا سي حمزة.. مفيش بيني وبين أم محمود سر احنا ع الخير والشر سوا.

ـ طب وطي حسك يا عم اسماعين.

وسألت المرأة حمزة بصوت جميل وكأنما صنع من «ملبن» أنثوى خالص:

ـ هو الافندي من الفدائيين؟

وعجب حمزة وهي تنطق «الفدائيين» نطقاً سليماً ليس به اي إعوجاج فسألها:

ـ انتي تعرفيهم يا ست أم محمود؟

فأجاب أبو دومه:

ـ إلا تعرفهم.. هي كانت تعرف حاجة إلا هم؟ دي متعلمة بتقرا الجرانين وتكتب، واسمع أنا وهي الراديو تفهم هي كل حاجة زي البربند وأنا ولا كأني سمعت.. دي في السياسة اكس.. طب بنت ملك الانجليز اسمها ايه يا أم محمود؟

وضحك حمزة وفوزية، وضحكت كذلك أم محمود.. ورد الأسطى حودة الصغير بسرعة:

ـ اسمها «الدع بت» يابا.

فقالت امه:

ـ يا واد مش اسمها كده.. قلتلك.. اسمها اليزابيث.

وتولى حمزة شرح موضوعه لأم محمود.

وبعد قليل كان الركب يتحرك وحمزة وفوزية وكأنهما في حلم. كان الأسطى حودة على رأس القافلة وفوزية مع أم محمود التي كانت تحمل فوق راسها لمبة أم ساروخ وفي يدها ابريق كبير وقد انخرطتا بسرعة في الحديث وكأنهما تعارفتا منذ عام. وكان حمزة وأبو دومه يمشيان صامتين غير أن الأخير سرعان ما قال وهو يلكز حمزة:

ـ شوف يا سي حمزة النسوان. . أعوذ بالله. . ما يصدقوا إلا وهات يا كلام.

فقال له حمزة: إلا يا عم اسماعين اتجوزت ازاي؟

ـ اتجوزت ازاي ايه؟ زي الناس قسمة ونصيب. . رحت لابوها الله يرحمه بقى ويحسن اليه. .

ـ وبتحبها يا عم اسماعين؟

ـ أحبها يعني ايه؟

ـ مش عارف تخبها يعني ايه؟

ـ آه. . قصدك ع الحب ده اللي بيسرسع في الراديوات. . لا. . لا معندناش كلام فارغ من ده يا سي حمزة. . دي مراتي. . أهلاً وسهلاً . . الف الف مرحب.

دا انت نورتنا والله. . طب تسدق بايه؟ أنا حلمت امبارح حلم اللهم اجعله خير. .

ثم رفع صوته وقال موجهاً الحديث لامراته:

ـ مش قلتلك الصبح ع الحلم اللي حلمته ليلة امبارح يا أم محمود؟

ولم ينتظر اجابتها ومضى يقول: حلمت خير والصلى ع النبي إن

الهاتف جاني في المنام وقالي: هوه: قلت هوه: قاللي الفرج جايلك شايل شنطة.. صبحت الصبح أخبط كف على كف وأنا عقلي ح يشت.. يا ربي فرج إيه اللي شايل شنطة؟ قوم شوف.. ادحنا... أهلاً وسهلاً.

وكان حمزة يستمع ويحاول تقدير ما سوف يدفعه ويليق بمقام «الفرج اللي شايل شنطة» مع أنه كان على شبه يقين أن كلام «أبو» دومة كله فارغ ولا يدخل عقله. وكان أبو دومة يتكلم بلا توقف وأحياناً يصغي إليه حمزة ومعظم الأحيان يتأمل ما حوله.. قبور، وقبور، وأحواش عليها زهمة ولا صوت ولا هواء ولا حياة، ونور القمر مجرد كفن أبيض كبير يغطي المباني ويفرش الأرض، وأم محمود على رأسها «اللمبة أم ساروخ» ترتد نارها ودخانها إلى الوراء ويتصاعد من شريطها الشرر، ويبدو نورها الشيء الوحيد الذي أفلت من لون الكفن وثار في وجه القمر، وأصوات وقع الأقدام على الرمال التي تكاثفت حبيباتها تحتمي من البرد والليل والموتى هذه الأصوات تأتي مكتومة، وأحياناً يسمع حمزة معها صوت «أبو» دومه الذي بدأ يلهث:

ـ اتنين في رقبتي.. الأسطى حوده.. وبسلامته أبو دومه.. على اسم جده.. الله يرحمه ويحسن اليه.: الفاتحة له.. حوده عال.. قلت يا واد وديه في ورشة مكانيك أقله يطلع أحسن منك.. حاكم ما تلقاش يا سي حمزة أفندي حد يرضى تطلع أحسن منه إلا أبوك.. المرحوم أبويا كان يقوللي كده.. عليه رحمة الله.. الفاتحة له وأمواتنا وأموات المسلمين.. بسم الله الرحمن الرحيم.. كان لازم نقرأ الفاتحة قبل ما نخش على أسيادنا الموتى ونستأذنهم. .معلهش يا سيادي الفاتحالكو.. بسم الله... آمين.. الانجليز.. ولاد كلب عايزين الحرق.. انا مرة وأنا ف شبابي..

ويبدو أن انخراط فوزية في الحديث مع أم محمود جعلها تنسى

المكان الذي تمضي فيه والزمان، إذ سرعان ما توقفت حتى وصلها حمزة وأدخلت يدها بسرعة حول ذراعه وكانت ترتجف وتقول:

ـ أنا خايفة موت يا حمزة..

ـ من ايه؟ ما تبقيش صغيرة أمال.

فقالت وهي تلتصق به أكثر ووجهها شاحب:

ـ أنا بارجف يا حمزة.

وسألها حتى تتكلم وتنسى:

ـ انت كنتي عمالة بتكلمي معاها في ايه؟

فقالت واسنانها تصطك:

ـ ددى.. ووليه ك ك ك ويســه.. ج ج ج ج جدا ددا.. ت ت ت تصور ب ب ب ت ت ت ح ب.. جوجو جوزهـا أأأ وي.. بتقول إإإنه ع ع عندها أ ح ح ح س س س ن من أأأنور وجج ج دي..

وخلع حمزة «جاكتته» وألبسها اياها بالقوة فصنعت بها ما صنعته جاكتة العسكري بحودة، وكانت كل رجفة منها تعتصر نفسه اعتصاراً. لقد كان يتساءل عن التجربة التي تذيب الإنسان في الإنسان وما تخيل أبداً أنها ممكن أن تكون على هذه الصورة، وهو يرتجف من البرد وهي ترتجف من البرد والخوف تائهين في العالم الآخر، وحوده وأبواه يقودونهما من ممر إلى ممر. ممرات جرباء متشابهة وصور لآلاف الأشباح تترامى، وجلد فوزية وكذلك جلده قد تحبباً وأصبحا كجلد الطائر بعد نتف ريشه، والمشوار لا يبدو له آخر، وليلة طويلة لا يعلم أحد كيف تنتهي.

وفجأة قفز حمزة مذعوراً مخلوع القلب، فقد صرخت فوزية بجوار أذنه تماماً صرخة مشحونة بالرجفة والذعر المروع.. وظلت تصـرخ بلا انقطاع وتقول:

ـ رجليا رجليا رجليا رجليا.

وانحنى حمزة وقلبه لا يزال مخلوعاً يرى ما في رجليها . . ثم ضحك ضحكة هستيرية طويلة وهو يمد يده ويجذب عرف الكافور الجاف من بين قدميها. ولم تصدق فوزية ولم تكف عن الاستغاثة حتى حين أراها العرف. وما أن تبينته أخيراً حتى انهارت مغمى عليها، وتلقفها حمزة قبل أن تسقطوأبو دومه يقول: يا حول الله . . يا حول الله . . داحنا كنا وصلنا.

وحملها حمزة على كتفه، وخيل إليه من فرط ما كان يحس به ناحيتها أنه يستطيع حملها الليلة بطولها، ولكن بعد خطوات قليلة بدأ ينوء ويلهث، ويسأل «أبو» دومه.

ولم تكن هناك حاجة للسؤال . . كانوا قد وصلوا وكانت فوزية قد عادت إلى وعيها. ولدهشة حمزة لم يعرف أنها أفاقت إلا حين أحس بشفتيها تلثمان جانب رقبته، وقد ينسى حمزة أشياء كثيرة،ولكنه لن ينسى أبداً ملمس شفتيها الباردتين الذي أحسته رقبته في تلك الليلة من ليالي الشتاء . . وخطر له خاطر . . لم يكن عبثاً ما قاله لها الليلة إن حبهما في نمو دائم، وأشياء قليلة جداً تلك التي يكون الإنسان مستعداً أن يفقد حياته من أجلها مثل . . مبدئه . . وشرفه . . وبلده . . وفي تلك اللحظة أحس حمزة بعمق وبيقين أن فوزية أخذت مكانها جنباً الى جنب مع مبدئه وشرفه وبلده . .

وكان لا يزال يحملها ويلهث ويجاهد ليبقى حاملها ولا يفكر في إنزالها، وفوزية وقد أفاقت تماماً لم تفكر هي الأخرى في التنازل عن مرقدها، ولم تهبط إلا حين شعرت بحمزة قد اصبح لا يكاد يستطيع الوقوف قائلا وهو يلهث:

ـ أنا دلوقتي بقيت زي طرزان تمام.

وفي ذلك الوقت كانوا واقفين أمام بناء كالفيلا المكونة من دور واحـد وكان حوده عاكفاً على الباب والقفل وأمه تمسك له بالمصباح، وأبو دومه واقف في مكان تستطيع عينه المتحركة أن ترى فيه تقدم ابنـه وتـرى فيه حمزة وفوزية دون أن يتعب نفسه ويستدير. وأيقن حمزة بعد ما هدأت أنفاسه ورأى حودة وما يصنعه. .أيقن أن «أبو» دومه فعلاً كان يعني ما يقول. . وتعجب كثيراً وكان ذلك مستحيلا.

ومال على أذن فوزية يهمس لها بهذا وبغيره، وأفاق من همساته على خبطة أطارت عصافير السكون. . وأرجفت فوزية وأرعشتها. . وفتحـت الباب. . ورفعت صوت حودة قائلا:

ـ أتفضلوا.

وابتسم أبو دومه ابتسامة أوسع من فمه وقال وعينه وأسنانه تتلألأ في ضوء القمر:

ـ صدقتني بقى يا سي حمزة؟ الأسطى حوده ده ولد. .

وكانت الرحلة كلها «كوم» والدخول إلـى ذلك المـكان كوم آخـر. . رفضت فوزية أن تطأ، واستماتت على حمزة لا تريده أن يتحرك وقالت:

ـ يلعن أبو أي حاجة في الدنيا. تعال بات عندنا وخلاص، إنشـالله حتى يتقبض عليك. مش معقول تبات هنا. . دانا اجننت. . أنا مالي. . هه. . هه.

وكانت عائلة «أبو» دومه قد دخلت وفوزية لم تكف عن اضطرابها، وولد قربها في نفس حمزة مشروع قبلة. . وقبلهـا مرة ومـرات وبادلتـه فوزية قبلاته. وكان حمزة كلما دار ببصره في مستعمرة الموت تلك احتضنها اكثر

وأطال من قبلاته حتى خيل إليه أن فمها قد تضخم وتلمظ واصبح كثدي نافر.

وسمع صفيراً مزعجاً، وانتفضت فوزية في حضنه، والتفت فوجد الأسطى حودة هو الذي يصفر وأمه تخبط على كتفه وأبوه ينهره، والأم والأب قد اعطياهما ظهريهما.

ـ لا مؤاخذة يا عم اسماعيل.

واستدارالرجل اليه، وكاد حمزة يسقط على ظهره من الضحك ـ وهو يرى في ضوء القمر واللمبة أم ساروخ ـ وجه«أبو»دومه الخشن الجاف ذا اللحية والشارب والفم الواسع يراه وفيه ابتسامة ضيقة خجلة، وملامح تجرب ـ ربما للمرة الأولى ـ خجلا يكاد يقترب من خجل الأنثى.

ودخلت فوزية معه وقد نسيت في خضم ما حدث اصرارها.

كان الباب الخارجي يؤدي إلى فناء صغير تحتله حديقة مهملة فيها شجرتا كافور طويلتان ترعب وشوشة أوراقهما. وهنا باب داخلي آخر كان حوده بلا ريب قد عالجه وفتحه، ويؤدي الباب إلى صالة يتدلى من سقفها شمعدان فيه ما يزيد على العشر شمعات قد احترق منها جزء صغير وكانوا قد أوقدوها جميعاً، والصالة مؤثثة بكنب «ارابيسك» يدور مع الجدران وكذلك عدد من الكراسي من نفس النوع، والحجرة التي على اليسار فيها أثاث مماثل، وكذلك مائدة طعام كبيرة وحولها كراسيها، والتي على اليمين فيها سريران ومراتبهما وملاياتهما ولوازمهما مكومة في ركن ومغطاة بغطاء، وفي كل من الحجرتين شمعدان كبير اضيء. ويقابل باب الصالة الخارجي باب داخلي قال أبو دومه وهو يفتحه:

ـ أهو ده قبر المرحوم داود باشا نفسه.. الله يرحمه.. الفاتحاله.

وبدا من خلال الباب المفتوح قبر مغطى بقماش من حرير أخضر لماع وحوله شبكة من النحاس الأصفر، وكانت الأضواء تتسرب إليه فيبرق النحاس، ويبدو القبر كله وكأنه أحد صناديق القراصنة الضخمة التي كانوا يملئونها بما اختطفوه من كنوز.

وكان الجو كله مشبعاً بتلك الرائحة التي تتوالد في المكان إذا طال عليه الإهمال والإغلاق

وقال أبو دومه وهو يجول بعينيه ويبتسم ويتفكر:

ـ هيه يا سي حمزة.. كويس ده؟ والا أوديك مدفن ألفت هانم أحسن؟ اللي يعجبك.. زي ما انت عايز.. أي خدمة والنبي إنك طردت عنا وحشة.

وأجاب حمزة:

ـ دا كويس قوي يا عم اسماعين. أنا الحقيقة مش عارف أشكرك ازاي.. بس المهم دلوقتي عايزين نرجع فوزية عشان تروح.

ـ ليه؟ ما تخليها تبات معاك.. أقلها تونسك.

ـ لأ.. معلهش يا عم اسماعيل. اصل الولاد لوحدهم، فاهمني ازاي؟

ـ فاهمك ازاي.. أخ.. لا مؤاخذة ما تآخذنيش نسيت.. ايوه الولاد صحيح.. دا زمان بسلامته أبو دومه بيسرخ.. يا رتنا كنا جبناه ويانا.

واقترح حمزة ثانية أن يوصلوا فوزية.. ولكن أبو دومه استمهله وخلع جلبابه وقال وقد أصبح بالفانلة والصديري واللباس ذي الأرجل الطويلة والدكة ذات الثلاث شعب:

- بس لا مؤاخذة . . خمسة بس نوضبلك النومة . . ايدك يا أم محمود . . شيل معايا يا حوده . . أصل التراب مالي الحتة .

وحقيقة كانت أكوام من الغبار تغطي كل شيء ، خاصة ذلك الكوم الذي فيه معدات الفراش .

وحاول حمزة أن يمد يده ولكن غضبة «أبو» دومه جعلته يتوقف عن محاولته .

وخرج حمزة وفوزية بناء على إصرار «أبو» دومه وزوجته حتى لا يصيبهما العفار . . ووقفا متلاصقين وحولهما أعشاب متوحشة وبجوارهما جذع الكافور الغليظ وشوشة اوراقه . . والقمر يطل عليهما باستغراب ويتابع ما يدور في الجبانة كطفل محب للاستطلاع ، ويبتسم ابتسامته الساذجة الخالدة . . وقالت فوزية :

- أما راجل عجيب أبو دومه!
- تعرفي انا لغاية دلوقتي مش مصدق .
- وحتديله كام؟
- على الأقل جنيه . . شوية والله .
- يا أخي ما تيجي معايا وبلاش العند ده .
- دا مش عند يا عزيزتي . . دا عقل . فاهماني ازاي؟
- وحتبات هنا لوحدك؟
- حاخاف من ايه؟

قالها حمزة وهو خائف فعلاً لمجرد التفكير في مصيره حين يذهب عنه الجميع ، ويبقى وحده .

- وبتقللي مانتاش بطل . . حد يقدر يعمل كده؟

- انتي عارفة المثل اللي بيقول بطل رغم انفه . . اهو أنا بالضبط.

ونظرت فوزية إلى السماء والقمر . . وما حولها من معالم صماء بكماء وقد أفرخ بعض روعها وقالت:

- دي ليلة تاريخية يا حمزة . . حنبقى نفتكرها سوا .

- معلهش يا فوزية . . كل حاجة بتبقى صعبة لما الواحد بيكون فيها وبعدين لما بتفوت وتصبح ذكريات بتبقى جميلة .

- تعرف إنك ساعات بتقول حكم .

- وانتي ساعات بتمدحيني من غير داعي .

وسكتت فوزية وكان سكوتها إجابة، ثم قالت:

- أنا يا حمزة باستغرب جداً على أبو دومه ده ومراته . . تصور واحدة حلوة بتقرا وتكتب زي دي تجوز ليه واحد زيه .

- وليه ما تجوزوش؟

- لأن كان ممكن تجوز احسن منه .

- أحسن ازاي يعني؟

- أصغر منه بكتير ومركزه أحسن .

- شفتي بقى إن ساعات حكم الناس البساط بيبقى أحسن من حكمنا . شفتي بقى إنها ما بصتش لحاجات من دي . لازم فيه حاجة عجبتها فيه . . لازم . الست دي باين عليها معدنها سليم جداً . . دي لازم في يوم من الأيام يبقى لها دور.

فضحكت فوزية وسألته:

ـ ازاي بقى؟

فأجاب حمزة:

ـ انتي بتسأليني أنا ؟ البركة فيكي.

وجاءهما من الداخل صوت «أبو» دومه يدعوهما إلى الدخول.

وتأمل حمزة الفراش الفاخر والنظافة التي أصبحت عليها الحجرة ونظر إلى الرجل يشكره فوجد وكأن كل ما كان في الحجرة وفوق كومة الفرش من غبار وتراب قد انتقل إلى وجهه ورأسه وملابسه، ولم يترك حتى رموش عينيه ولا نهايات شاربه المشوشة فعلق بها وأضفى عليها رماديته وكذلك كانت أم محمود والأسطى حوده الصغير حتى بدت سحناتهم في ضوء الشموع تستثير الضحك.

وقال أبو دومه وهو يمسح التراب الذي دخل حلقه وسود لسانه معلقاً على فخامة المكان:

ـ أصل كان الله يرحمه نظاجة قوي.. هو اللي باني الملك دا كله قبل ما ينتهي أجله.. عليه رحمة الله. هه، كويس كده يا سي حمزة؟ عجبتك الحتة؟ أهو عندك ابريق الميه وبكره الصبح إن عشنا إن شاء الله أم محمود تجيبلك دور كمان.. وأهو الأسطى حوده بعد ما يخلص الشغل يبقى تحت ايدك.. احنا لينا بركة إلا أنت.. دانا والله الدنيا ما هي سايعاني.

وقال حمزة في نفسه إن الوقت قد حان فانتحى به ركناً من الحجرة وأخرج من جيبه الجنيه وقد طبقه في يده حتى لا يراه احد وقال:

ـ احنا متشكرين جداً يا عم أبو دومه.

قالها وهو يمد يده ليسلم عليه، ومد الرجل يده وما أن احس بملمس

الورقة حتى نفض ذراعه كله بسرعة وارتسم على وجهه غضب وقال وقد رغرغت عيناه بالدموع:

ـ الله! ايه ده يا سي حمزة؟ انت بتشتمني؟ هو أنا راجل واطي؟ أنا فقير، فقير إنما برضه عندي مروءة.. والا اكمني يعني فقير؟ دا انت ضيفي يا سي حمزة.. وانت راجل متعلم وتفهم.. دا الحمدالله يا أخي ربك ساترها. لا لا لا يا سي حمزة انت والله كأنك قلعت الجزمة وضربتني.. دا انت كأنك تفيت في وشي.. روح يا شيخ الله يسامحك.

١٥

وعادت القافلة كما جاءت لتوصل فوزية، وظل حمزة وقتاً طويلاً صامتاً يفكر في ذهول مقرون بفرحة، وثمة عواطف كثيرة تجتاحه. كان يفكر في ما كان من «أبو» دومه ويخجل من نفسه ومما أطلقه على الرجل من أحكام، ويفعل هذا برهبة وكأنما تفتحت عيناه على مخبأ حقائق مجهولة وفى النهاية قال لفوزية:

ـ شفتي بقى يا ستي اتجوزته ليه؟ راجل عجيب.. كل يوم بيمر على الواحد في المعركة بيتعلم منه حاجات كتير. أنا كنت طول عمري باتكلم عن الشعب وبيخيل لي دلوقتي إني ما كنتش مدرك بعمق ايه طبيعة الكلمة دي.. فهماني ازاي؟ أبداً دي مش كلمة بتطلق جزافاً.. دي حقيقة حية احنا عايشين فيها.. يعني أبو دومه ده تفتكري الواحد كان ممكن ح يلمس حاجة زي اللي حصلت الليلة إلا من خلال المعركة.. كان عمره حتتفتح له الكنوز الموجودة وعايشة في قلب الناس ومغطيها الألم والحاجة.. تعرفي أنا حاسس بتغيير كبير بيطرأ علي من يوم ما عرفتك.. فيه حاجات كتير ما كنتش شايفها شفتها، وحاجات ما كنتش لامسها خلتيني ألمسها وأقدرها.. أنا كنت باكافح زمان لأني كنت مجرد إنسان حاقد على الظلم والأعداء، إنما الاستعمار ممكن ينتهي والظلم ممكن يتشكل والقضية

مداها أبعد من كده بكثير. . القضية مش قضية الأعداء، لأ، دي قضية الشعب واهدافه، اللي يحلها هو إيمان الواحد بالشعب أولاً وقبل كل شيء، فهماني ازاي؟ يعني زمان كنت ثائر عشان كنتَ حاقد فقط على الأعداء ومؤمن بضرورة زوالهم. . دلوقتي بكافح لأني مش بس باكره الأعداء، انما لأني أولاً حبيت الناس وآمنت بضرورة سعادتهم. . كان زمان اللي بيحركني هو الحقد والحقد أجله قصير، دلوقتي اللي بيحركني الحب والحب مداه بعيد.

كان القمر قد غاب والظلام الدامس قد حل، والجبانة اصبحت بحلكتها التامة وكأنها قبر خانق كبير، ومع هذا مشت فوزية تستمع لما يقوله وقد صنعت كلماته ما لم تصنعه في نفسها قبلاته ولا صدره الدافيء فأذهبت عنها كل روع ولم يعد في كيانها ذرة خوف. .

واستطرد حمزة بنبرات تحفل بإيمان نظيف ليس فيه شوائب، وكأنما ينطق بلسان كل المثل العليا التي حلمت بها وصاحبتها، ويخرج حديثه همساً قوياً يكاد يؤرق الموتى ويحيي العظام وهي رميم:

ـ أنا كان ممكن أقعد أتكلم كتير عن حبي وإيماني بالناس، إنما دي معاني مجردة مش ممكن توجد إلا بالعمل، واحنا ضيعنا وقت كتير لازم نبتدي. . ونبتدي بالناس اللي حوالينا. احنا قدامنا حاجات كتير لازم نعملها.

فقاطعته فوزية قائلة في حماس:

ـ بس الناس اللي حوالينا مش شايفة فيهم حد ينفع.

ـ ازاي ما فيهمش حد؟ شوفي يا فوزية. . صحيح فيه ناس أحسن منهم بس لازم تعرفي إن في كل إنسان جزء طيب ونضيف وثوري وعلى

استعداد لخدمة المجموع ، وجزء آخر وحش وفردي ومناقض له تمام. فهماني ازاي؟ تجربة الاختفاء والإحساسات اللي باحملها ليكي علمتني إني أعامل الأجزاء الطيبة في الناس، وصحيح أحذر من أجزاءها الأخرى إنما لا أعاديها. لازم حنلقى في كل واحد من اللي حوالينا حاجة كويسة علينا إننا ننميها ونكبرها وبكده نخلق منهم ناس كويسين. فاهماني ازاي؟ يعني نساعد الجزء الصالح فيهم على أنه يقهر الجزء الضار، وبكده الناس حتتنظم وتقاوم لأن المقاومة هي مجموع الأجزاء الصالحة في الناس وهي دي اللي بتدفع المجتمع لقدام، وهي دي اللي بتغير.

ـ بس يعني يا حمزة واحد زي. . زي. . زي سعد مثلا. . ايه الجزء الصالح اللي فيه؟

كويس جداً اللي جبتي المثل ده. . سعد أكيد فيه جزء كويس إنما لما فقد اتصاله بينا سيطر عليه الجزء الآخر وانحل. ومش ممكن حيتصلح أبداً بأننا نقعد نشتمه ونقول وحش ومتردد. مهمتنا دلوقتي إنه يبتدي يشتغل وبكده بس حيتطور.

ـ أما نشوف.

ـ أنا متأكد من النتيجة. . أنا زمان ما كنتش بافكر بالطريقة دي ابداً. . دا الواحد أكيد أتغير. المكان ده قلعة. . واحنا ضيعنا وقت كبير. . لازم نبتدي.

ـ دي ما فيهاش خلاف يا حمزة. . بس حنعمل ايه؟

ـ حافكر الليلة في اللي ممكن نعمله. . وفكري انتي رخره كمان.

وسكتت فوزية قليلا ثم قالت:

ـ تعرف يا حمزة. . حاجة غريبة خالص. . أنا مش عارفة كل حاجة

تقولها باقتنع بيها. . أنا بيتهيأ لي إنك ممكن تقنعني ببساطة إني مجنونة مثلاً.

ـ ودي عايزة إقناع؟

وضحكا. وسألته فوزية عن الساعة. . كانت تدور حول منتصف الليل.

وكانت القافلة قد اقتربت من العمار فودعها حمزة بعد أن أعطاها نقوداً لتعود بها، ووجد عناء كبيراً في إقناع «أبو» دومه بعدم مرافقتها حتى لا يراهما أحد معاً.

وحين ابتسمت له وهي تكاد تتهاوى من التعب كان صدره يغلي بالحقد على الذين يمنعونه من مصاحبتها، وكان قلبه يعمر باطمئنان دافيء صنعه الحب. . الحب العميق الذي بدأت تمتد له جذور ويصبح له تاريخ.

١٦

واخيراً جداً رقد حمزة على الفراش الوثير والتف بالبطاطين الوبر ومدد ظهره المنهك وهو يتثاءب ويستمتع بالرقدة وبالدفء.. وكأنها صدر ديك رومي يلتهمه بعد يوم كامل من الجوع. وكان الانهاك قد بلغ به الدرجة التي يتمنى فيها الانسان أي مكان يستطيع أن يستلقي فيه ـ حتى ولو كان قبر داود باشا نفسه.

وكان يخيل إليه أنه سيظل يرتجف رعباً إلى أن تطلع الشمس وسيصرخ لدى كل خرفشة او صوت، ولكنه وهو راقد وقد ارتاح ظهره ونملت اطرافه كان يحس باللا مبالاة التامة. والسكون الذي حوله أقبح سكون، والوحدة التي يحس بها باردة رهيبة لا أمل في انتهائها، والمدفن يعبق بالزمن والقدم والعصر الذي ولى، والفراش هو الآخر يملأ أنفه برائحة مقززة، وكأن المراتب والمخدات والملاءات قد تكون لها صدأ على مر الزمن وأصبح لصدئها رائحة. وهو راقد هكذا في قلب الرعب لم يكن يحس بأي خوف، واحياناً تبدو التجربة لا يحتملها بشر، فإذا أصبح الانسان فيها تقبلها بهدوء يكون هو أول من يعجب له.

ومضى يستعرض احداث اليوم الحافل الطويل الذي خيل إليه أنه بدأ

من شهر فات. وكلما تذكر مبلغ ما لاقاه من تعب دقت شرايين صدغه، ثم اصبح دقها هو كل ما يشغل ذاكرته وقد بدأ النوم يحتويه. ولكن قبل أن يغفو هبط الدق الذي في صدغيه ليرتفع دق آخر في أذنيه. وارتفع دق الأذنين كثيراً حتى لفت نظره وطرد عنه النوم، ثم ما لبث أن استرعى انتباهه كله وصحا تماماً وأدرك أنه صادر من الباب الخارجي للمدفن. وتثلجت اطرافه في الحال.. كان الدق مزعجاً كئيباً كزئير وحش مذبوح. وشلت كل الحياة في حمزة ولم يعد فيه إلا أذناه تتسمعان وتلهبان قلبه وأنفاسه.

واستمر الدق يزأر ويستوحش وينهش لحم السكون ثم انقطع فجأة. ومع هذا ظل لا يتحرك ويكاد لا يتنفس أو يفكر مخافة أن يعيد إليه تفكيره ذلك الدق. واصبح قلبه هو الشيء الوحيد الذي يتحرك ويصدر صوتاً في الحجرة، بل في المدفن والجبانة بأسرها. وضايقته دقات قلبه وكأنها منبه ذو صوت مرتفع تقلق دقاته النائم ومن به ارق.. ثم.. بدأت الدقات مرة اخرى.. رفيعة كخناجر حادة.. وقريبة على نافذة الحجرة التي ينام فيها. وتثلج جسده كله وجاءه من الخارج صوت بشع صادر لابد عن جمجمة هيكل عظمي:

ـ يا استاذ حمزة.

ولم يدرك ابداً أن هذا هو اسمه او أنه المقصود، وحتى حين إدرك لم يتحرك ولم ينفعل. وتكرر النداء ووجد نفسه يخرج من حنجرته صوتاً واجفاً غريباً لا يمت إلى صوته يقول:

ـ مين؟

ـ افتح يا استاذ حمزة.

ـ مين؟ إنت مين؟

ـ افتح يا استاذ حمزة.. أنا سيد.

وحشد كل قواه ليرفع صوته ويقول:

ـ سيد مين؟

وجاءه الجواب:

ـ أنا سيد ابراهيم يا استاذ حمزة.

وتشجع قليلا، وقام إلى النافذة وهو لا يكاد يصلب نفسه وفتحها ومن خلال حديدها لمح في الظلام الذي أضاءه النور الخارج واحداً يرتدي قميص عمال وبنطلوناً اصفر ممزقاً، وبدأ الشك ينتابه فقد كان عهده بسيد أنه يرتدي جلباباً فقال:

ـ مين؟ . . إنت مين؟

واقترب الشخص حتى وضحت معالمه في الضوء، فاذا به سيد فعلا بوجهه المستطيل النحيف وعينيه الواسعتين جداً ورقبته الطويلة ذات الحنجرة البارزة. وكما جاء الذعر فجأة رحل فجأة، وقال حمزة:

ـ الله يجازيك يا شيخ. . نشفت دمي.

وفتح له، ودخل سيد وسلم عليه بيدين باردتين كبيرتين وهو يقول:

ـ أنا بعد ما خلصت شغل في الوابور جاي على هنا علشان طلب في الغورية. . عم احمد بتاع العصير قال لي إنه كان فيه واحد افندي بيسأل على عم اسماعيل. . يا ترى مين؟ جيت على ابو دومة قال لي على الحكاية. . فقلت اروح اقضي الطلب وبعدين آجي أبات معاك اونسك. . اصل الجبانة كرب قوي بالليل وانت مش واخد ع الحاجات دي.

وغير مجيء سيد الأوضاع كلها. . ونسى حمزة الجبانة والرعب والبرد وأحس منفعلا بروعة الانسان. من دقائق كان كالميت في قبره حتى إذا ما

جاء انسان آخر. انسان واحد فقط مثل سيد واصبحا جماعة، ذهب الموت والبرد والسكون وغارت الوحدة، وبدأ يحس بانسانيته وينطلق لسانه متحدثاً ضاحكاً.

وما مضت دقائق اخرى حتى كان سيد قد جمع اخشاباً من الفناء المهمل، وأحضر رملاً وضعه على البلاط، وأوقد ناراً ليدفيء المكان الذي كان يعصف به البرد. وامتلأت الحجرة باللهب الأحمر الوهاج الذي تشيع مجرد رؤيته الدفء والأمان. . وأطفأ سيد معظم الشموع وأبقى اثنتين وقال:

ـ تشرب شاي؟

وشد حمزة على يده وكاد يقبله، فقطرة الشاي في مكان كذاك وفي ليلة كليلتها وبعد أهوال. . كانت لا تقدر بثمن، وقال له:

ـ يا سلام يابو السيد دا إنت تبقى واد ما فيش منك. . فكرتني بحسن. . كان يقول لي تشرب شي أقول له: آه، يقول لي: نعملولك شي.

والله وحشني قوي. . بس حتعمل شاي إزاي؟

ـ جايب معايا العدة كلها.

وأشار لعدة في منديل محلاوي كان قد وضعها على الفراش الآخر ودهش كيف لم يفطن لسيد وهو يحملها.

وحين ارتشف اول رشفة من الشاي وسرت كهربتها في جسده مر بخياله بدير، ولا يدري لم؟ فقال له في سره وهو يبتسم: أين انت يا استاذ بدير لترى أني لا أضيع حياتي من اجل الناس عبثاً. . كل واحد منهم يستاهل أن أضيع عمري من أجله.

وبدأ حديث العمل. . وأنهاه حمزة بقوله:

ـ خلاص من بكره حنبتدي. . حنعمل بكره اجتماع الساعة. . الساعة تلاتة. . كويس؟

ـ إحنا بنخلص الساعة تلاتة. . وعلى ماجي هنا تكون بقت تلاتة ونص.

ـ طيب زي بعضه. . تلاتة ونص. . وتجيب معاك الحاجات.

ـ حاجيبهم إن شاء الله.

وحين انتهيا كان سيد لا يزال جالساً على الفراش المقابل قاعداً ورأسه بين ركبتيه. وكان حمزة قد أنزل البطانية من فوق اكتافه ولفها حول جلسته، والنار التي بدأت تخمد تضيء وجهه بألوانها التي تمتد من الأحمر الطوبي إلى الأصفر، وتعبث بملامحه المتعبة.

وكان ينظر إلى سيد نظرات طويلة، ويتذكر أول يوم قابله فيه قريباً من وزارة الشئون الاجتماعية ورجاه أن يكتب له طلباً ليعمل في الحكومة كغيره من عمال القنال الذين تركوا المعسكرات ونزحوا إلى القاهرة والذين كانوا لا يفترقون عنه إلا في أنه لا يحمل ما يثبت أنه كان يعمل في الجيش الانجليزي.

وسأله حمزة فجأة:

ـ إنت بتشتغل إيه في الوابور؟

ـ نقاش.

ـ نقاش؟ بتعمل إيه يعني؟

ـ بانقش حجارة الطاحونة.

ـ وتعلمتها فين يا ابو السيد الحكاية دي؟

ولوى سيد رقبته وأدار رأسه إلى ناحية كمن يقول: ياما اتعلمت.

وعاد وجهه إلى مكانه وراحت الوان النار تعبث بحبات العرق التي كانت قد احتلت جبهته، وبعض اجزاء المستطيل المتغضن المرتكز على ركبتيه الذي لا تستريح ملامحه، وقال وهو ساهم وعيناه في النيران:

ـ ياما تعلمت من يوم ما سبت الفلاحة.. كنت مرابع باشتغل عند واحد بأردبين دره في السنة.. وهجيت.. كنت زهقان وغاوي مكن. كنت اسرق قطن تاني جمعة وأبيعه واشتري صندوق دخان للأسطى محمد سواق اللنز بتاع عزبة المردنلي عشان يخليني اسوق اللنز وأحرت بيه خط. كل خط بصندوق دخان ودفتر بفره.

وسكت سيد قليلا ثم انتابت وجهه الرعشة العصبية التي كثيراً ما تنتابه، وكز على اسنانه وقال:

ـ بس كله إلا الترب، وأبو دومه ومراته.

وقال له حمزة:

ـ دول ناس كويسين جداً.

وانتابته الرعشة مرة اخرى وهو يقول:

ـ ومراته دي رخرة مناخيرها في السما بنت ال «....».

ـ ابداً يا سيد دي ست كويسة.. هي عملت فيك حاجة؟

ـ هي تقدر تعمل حاجة؟

ـ إنت كل ساعة تجيب سيرتها.

ـ هي مين دي؟ دا إن مكانشي جوزها قادر عليها أربيها أنا.

ـ انت مشغول بيها قوي.

فارتعش وجهه مرة اخرى وقال:

ـ يعني مشغول ببنت السلطان ياخي؟ دي.

ويبصق مشمئزاً.

وراقبه حمزة وهو يضم فمه بشدة ويحك اظافره في اظافره وينقبض وجهه وينبسط، وكان سيد هكذا دائماً يحس حمزة كلما رآه أنه في قلق مستمر، حتى وهو صامت يضج صدره بالأزمة ويبدو على لسانه كلام لا ينطلق ووراء ملامحه كبت مستطير.

وقطع صمته وقال في صوت يجاهد ليفلت من أسنانه المضمومة:

ـ كل أما بشوف واحد متعلم زيك وسايب عيشة لوكس وجاي يناهد ويانا إحنا اللي الواحد بتطلع روحه علبال ما يطلع اللقمة، ابقى عايز أقوم على أولاد الكلب أخنقهم واحد واحد.

ثم لاحت ابتسامة شاحبة على وجهه وقال:

ـ وبعد ما يروحوا الانجليز في داهية.. أظن مش حنشوفك.

وكانت النار قد خبت وتحولت الى بصابيص تشع ضوءاً احمر يلون وجه حمزة وسيد وكل ما حولهما من اشياء، حين قال حمزة:

ـ بس لما يروحوا.. الحكاية يا سيد مش حكاية الانجليز دي حكايتنا إحنا.. حياتنا ومستقبلنا على الأقل في الميت سنة الجايين، لغاية لما العيشة كلها تبقى لوكس زي ما بتقول.

ثم حل صمت طويل.. ولم يكن ما هما فيه من سكون في حاجة إلى الصمت لتبدو النفوس خلاله كماء البحيرة التي لا يعكر صفاءها موج فيكاد يرى الانسان اعماق نفسه ويكاد يرى حادثات صغيرة عاشت معه لحظة من عمره وأسعدته ثم تهاوت الى قاعه.

وكانت النار قد خمدت تماماً وأصبح لا يضيء الحجرة الا نور الشمعتين الضئيل، ونشوة الشاي والدفء قد ذهبت وخلفت وراءها

وجوماً. وكان لابد اذن ان تنبعث تلك الدندنة من سيد، خافتة اول الأمر وكأنما يوشوش نفسه ثم ترتفع ويرتفع معها رأسه، ويبدو عنقه طويلا تكاد تبرز منه حنجرته. . ثم يقول يا ليل!

وما أروع الموال حين يقال في الليل وفي مثل ذلك المكان. . ويعلو صوته رناناً له أنين الناي ورنينه، يغني يا ليل ويشيع الفجر في الليل، ويا عين ويستل النوم من العين، ويا ليل فيذوب البرد ويهاجر الظلام، ويا عين فترى العين النور ويملؤها دفء ومرح.

ولم يعد حمزة من الآفاق التي حملته اليها كلمات سيد وموالـه. . وأحس مرة اخرى بنفسه وحيداً مع العواطف الدقيقة الواهنة التي تتسرب إلى ذاته وتنهشها وتشبعها نبضاً ولينا والفة، وبدأت الأوتار الخفية تعزف ويخرج لحنها يغريه بأن يفضفض، وشعر برغبة اقوى منه تدفعه لأن يحكي عن فوزية وقصته معها.

ونظر الى سيد الذي كان قد سكت وعاد رأسه بين ركبتيه، وقرر أن يحكي وبدأ بأن سأله: إلا إنت ما حبتش ابداً يا سيد؟

ولم يكن قد انتهى حين قال الفجر. . الله اكبر!

١٧

استيقظ حمزة على شيء يضايقه ويكاد يسد فتحات انفه.

وحين استعاد حواسه وجد للشيء رائحة جميلة.

وفتح عينيه ورأى شبه الظلام الذي كانت فيه الحجرة، ثم السقف المزدان بنقوش الفراعنة المقلدة. ثم وردة حمراء كبيرة فوق انفه. . وبزاوية عينه اليسرى لمح حذاء انثوياً انيقاً مخلوعاً وملقى باهمال تحت الفراش المقابل، وفوق الحذاء بمسافة قليلة رأى قدماً صغيرة تتلاعب اصابعها داخل الجورب.

ولم تكن المسافة بعيدة فمد يده وأمسك القدم وجذبها، وفي نفس الوقت تصاعدت موسيقى خافته تقول:

ـ صباح الخير.

وكان مستعداً أن يبقى على وضعه ذاك مدى الحياة لا يتكلم ولا يتحدث ولا يتنفس، ولكن الصوت الموسيقي عاد يقول:

ـ بلاش كسل قوم. . عندنا شغل كتير.

وفي بطء جلس، ووجد فوزية جالسة على الفراش المقابل بوجهها الأبيض المسمسم الحلو، وعيناها منتفختان قليلا انما زادها ذاك جمالا

وجاذبية، وكان احمرار خفيف يلون شفتيها. وقال لها بصوت أجش غليظ طير كل ما احدثته تحيتها من موسيقى:

ـ صباح الخير.

وفتح عينيه وأغمضهما كثيراً ليرى أنها في جلستها تلك ارشق من أصابع عازف كمان، وأنضر من الوردة التي اصبحت في يده، وأنشط من كل ما قد يبعثه صباح شتاء من نشاط. وكانت ترتدي «بلوزة» بسيطة و «جيب» رمادي، وبادرته قائلة:

ـ أولاً. . قوم اغسل وشك.

ووضع حمزة ساقاً فوق ساق وهو لا يزال ممداً على الفراش؛ وقال في كبرياء:

ـ أولاً ـ دوري لي على النضارة لأني مش عارف حطيتها فين قبل أن أنام.

ثانياً ـ كان فيه واحد نايم هنا راح فين؟

ثالثاً ـ مفيش ميه عشان اغسل.

رابعاً ـ الساعة كام والنهاردة إيه؟

خامساً ـ تعرفي انك حلوة زيادة عن اللزوم؟

ـ أولاً النضارة إنت قاعد عليها وباينة منها حتة. . وأنا جيت ومالقيتشي إلا إنت والمرحوم بس، والساعة الحادية عشرة من صباح يوم الجمعة الموافق كذا وعشرين من شهر فبراير سنة الف وتسعمائة واحد وخمسين ميلادية، وأم محمود جابت الميه الصبح وح احطعليك تغسل وانت اسمح لي كداب يا عزيزي حمزة حين تدعي أني جميلة من غير ما إنت شايفني.

وكانت تقول هذا وحمزة قد قام ملسوعاً يبحث عن النظارة خوفاً من أن

تكون قد أصابتها مصيبة لا تحمد عقباها، ووجدها سليمـة والحمـد لله فوضعها على عينيه، وثنى رأسه يميناً ويساراً مدعياً أنه يتفرج على فـوزية وقال بسخرية:

ـ يا خسارة نضارتـي معمولـة للنظـر بس.. لازم أعمل واحدة تانية لجمالك.

ـ يالله يا حمزة مش فاضين.

وقام، وفي الفناء الموحش وقف وركع خافضاً رأسه وفوزية تصـب عليه من الابريق، وهو يعتمد أن يقترب منها حتـى «تطربشهـا» قطـرات الماء، وهي تخطو لتبعد عنه فيخطو ويقترب، وهكذا انقلب الغسيل الى مطاردة مرحة لفا فيها الحوش مرات، وانتهت بأن صبت فوزية غير قليل من الماء في ظهره.

وعاد حمزة إلى الحجرة الأخرى وشعره مشعث، وقطرات مياه تتساقط كثيرة تنهمر من ملامحه، وناولته فوزية المشطوهي تقول:

ـ فطارك أهه.

وكشفت فوطة كانت تغطي جزءاً من سطح المائدة الكبيرة الموضوعة في الركن، فبدت اشياء سال لها لعابه، فهوفوق شغفه الكبير بالطعام لم يكن قد تناول شيئاً منه منذ غداء الأمس، فإذا به وجهاً لوجه أمام افطـار فاخر. فول بالزبدة، وبيض مقلي، وجبنة من ذوات الاسم الطـويـل وطماطم حمراء مقسمة وعليها شطة وخل تماماً كما يحبها، وزيتون أسود وأخضـر، والأهـم من هذا وذاك براد الشـاي الـذي كان لا يزال البخـار يتصاعد من بزبوزه.

وقال حمزة:

ـ إنت أروع فوزية في الدنيا. . بس بدي أعرف عملت البيض ده إزاي؟

ـ حتعرف كل حاجة يا سيدي. . أصلي جبت لك وابور سبرتو وكنكة وبراد شاي وسكر وشوية حاجات كده.

ـ وجبت فلوس منين؟

ـ حتعرف كل حاجة بس ما تستعجلشي على رزقك.

ـ طيب تعالي بقى.

وأصرت فوزية على انها شبعانة، ولكن ما كادت تنقضي بضع دقائق وهي تتأمل حمزة وهو يقطع اللقم ويحندقها ويحملها الى فمه بمهارة، ثم يجيد مضغها ويفعل ذلك بطريقة توحي بأنه لا يأكل وانما يتعبد، ويتعبد بطريقة تغري بتقليده؛ ما كادت تنقضي بضع دقائق حتى راحت فوزية تمضغ لعابها وقد تفتحت شهيتها وما أن أفلتت من حمزة دعوة أخيرة حتى انضمت إليه بلا توان وشاركته في الاتيان على كل ما يؤكل.

وقالت فوزية اخيراً:

ـ أنا جبت لك الجرايد. . فاضية ما فيهاش حاجة.

ـ إنتي مابتنسيش حاجة أبداً. . أنا مش عارف أقول إيه. . على فكرة قبل ما أنسى. . النهارده عندنا اجتماع الساعة تلاتة ونص هنا. . خلاص حنبتدي.

وتركته فوزية ينكب على الجرائد كعادته، وأزالت بقايا الطعام ونظفت المائدة. . وفوجئت بأنه انتهى منها بأسرع مما قدرته فقالت:

ـ هه. . فاضية. . مش كده.

ـ ما تستهلشي الواحد يقرأها.. بس فيه خبر قبض على انصار سلام يونانيين في اسكندرية.

ـ ما لحظتش حاجة تانية؟

ـ زي إيه؟

ـ أصلي شفت حاجة كده استلفتت نظري.. شوفها في صفحة الأخبار الداخلية.

ـ وآدي الأخبار الداهلية.. هيه.. هيه.. هيه.. هيه.. ما فيش حاجة.

ـ أهيه ياخي.. بص.

ووجد في العامود المجاور لعامود الاجتماعات بروازاً فيه:

ولدي حمزة:

عد إلى المنزل، وحقك علينا.

والدك المكلوم: بدير

١٨

كان يومها من الأيام الدافئة التي تكثر في أواخر الشتاء وتنبيء بأنه قد شاخ، وبدأت أجنة الربيع تتوالد داخله وتنمو وتهدد بقاءه. وكانت هناك شمس ساطعة تتسابق حرارتها وأشعتها في الوصول إلى الأرض ساخرة بالشتاء الكهل، غارسة أصابعها التي لا نهاية لطولها في جسده، تكتم أنفاس زوابعه وتقهر برده وتطرد من السماء سحاباته، نافذة حتى إلى الأحياء تثير فيهم الحركة بعد السكون، والأمن بعد الخوف والانطلاق بعد التقوقع، وتدفعهم مثلها إلى مقاومة شتاء طال احتماله ودنت نهايته.

وحين خرج حمزة وفوزية من الداخل إلى الحوش بهرهما الضوء الساطع، وأحسا لليوم وشمسه بمرح كمرح الأطفال في صباحية عيد.

وجلسا خلف الحائط ينعمان بمقدم الدفء ولم يكن حولهما سكون ولا صمت، فعلى شجر الكافور وقفت مئات العصافير تتقافز وتغني وتزاول الحب وتثير باحتفالها الكبير الحياة في قلب الجبانة.

وبعد قليل ضاق حمزة «بجاكتة بيجامته» فخلعها ووضعها فوق رأسه، وراح يحدث فوزية عن اللجنة التي قرر تكوينها منه ومنها ومن سيد وسعد. . وعن مشاريعه لاحالة المدافن الى ترسانة تستطيع بواسطتها اللجنة ان تقود كفاحاً لا يلين لتعبيء الرأي العام وتستأنف المعركة.

وأبدت فوزية امتعاضها لتكوين اللجنة على تلك الصورة متشككة فيما يمكن أن تقوم به عناصرها الضعيفة . . ولكنه راح يحدثها في هدوء واتزان عن نقطالبدء ، وعن الأحلام والواقعية ، وعن أن الثوار الممتازين لا يستوردون من الخارج ولا يهبطون من السماء ، وأن عليهم البدء من حيث هم ومن العناصر التي في متناول ايديهم. وكلفها بالذهاب الى سعد وإحضاره .

وحدثته فوزية هي الأخرى عن خطتها حيال لجنة المدرسات . . وكانت تبالغ في تلك الخططحتى أنها أبدت استعدادها لتكوين جيش منظم من النساء في ظرف شهور.

وكان حمزة يحس أن مبالغتها صادرة عن حماس حقيقي. وتطرق الحديث الى أبيها وكلامها معه عن الزواج وموافقته بشرطين: أن يرى حمزة ، وأن يسكنا معه في نفس البيت . . وكان أمل فوزية كبيراً في إمكان تنازله عن الشرط الثاني. واتفق معها على أن يذهب لطلب يدها من أبيها رسمياً في نفس الليلة. وكان الميعاد الذي اتفقا عليه اغرب ميعاد لخطوبة . . الحادية عشرة مساء ، على ألا يعلم أحد غير الوالد وألا يخبر بعلمه احداً.

واصرت فوزية على أن لابد من موافقة عائلته ، وأن مجرد إرساله خطاباً لا يكفي ، ولم يكن هناك حل سوى أن تسافر وحدها إليهم لتراهم ويروها ثم تعود برأيهم .

وسألها حمزة إن كانت قد اخبرت أباها عن عائلته ، وكانت قد فعلت . . فقال لها ابوها : ما دام إنتي عاوزاه اجوزيه ، إنشا الله يكون أبوه عطشجي . . وضحك حمزة كثيراً متسائلا عما يكون رأيه لو عرف أن العطشجي وظيفة كبيرة جداً بالنسبة لعامل دريسة .

وكان حمزة في هذه الأثناء قد توسد فخذها اللينة الناعمة، والحديث كان يدور في نغمات هادئة مستحبة تغري بالابطاء والاستمتاع بكل كلمة وأجبرتهما كثرة الدفء على العودة الى الحجرة. وأخبرها حمزة وهما يدخلان من الباب أنه يرشح أم محمود لعضوية اللجنة. ولم تصدق فوزية وأثارت جدلا طويلا انتهى باقتناعها كالعادة، وبابتسامة تسليم. ولمعت شفتاها وهي تبتسم في الحجرة نصف المظلمة، وأحب لمعة شفتيها تلك حين استحالت حمرتهما من لون إلى نور. واحب وجهها القريب منه وكأنه يراها لأول مرة، بل خيل إليه أن ملامحها قد تغيرت وأصبح لها نكهة كالقهوة حين تحلى بالعنبر. وأحس لرؤيتها الجديدة برغبة جامحة في تذوقها واعتصار كل ما في ملامحها وشفتيها من نار ونور ونكهة ليروي تياراً من القلق اللاسع كان يجتاحه في تلك اللحظة.

ولم يقاوم رغبته تلك، ولم تقاوم فوزية واقشعر جسده بفرحة حب وهو يحس بها، بحبيبته، بفوزية تعتصر شفتيه هي الأخرى في ثورة عارمة مكبوتة، وظمؤها إليه يكاد يطغى على ظمئه إليها.

وولد فيه ذلك احساساً غامراً بالاطمئنان، وبأن ما بينهما من حب قد أصبح لا يختلط بالخوف والرهبة والتشكك والخجل، وكلاهما قد وثق وأدرك أن ما يكنه الآخر له حقيقة واقعة يلمسها في كل خلجة من خلجات رفيقه وفي كل كلمة ونظرة وضحكة.

كانت قد انتهت مرحلة التسرع واللهفة وبدأت مراحل الاطمئنان. لم يقل لها هذه المرة أحبك ولم تقلها له. إذ لم يعد ما بينهما كلمة تقال، بل استحالت المعاني إلى أعمال وإدراكات يمليها الحب المصفى.

كانت أفكار كهذه تدور في عقل حمزة وهو ينظر بشغف، ويتابع

حركات فوزية وتقلصات وجهها وطريقتها في اعادة النظام الى شعرها حين توقفت فجأة عن كل ما تفعله وعضت شفتها السفلى، فسألها:

ـ مالك؟

أتاريني بقول م الصبح أنا ناسية إيه؟ يا سلام على مخي! تصور النمرة ردت النهاردة ونسيت أقول لك!

واعتدل حمزة في الحال وكأن نافورة نشاط ضخمة قد تفجرت فيه وسألها:

ـ صحيح؟ طلبتيها إمتى؟ وقال لك إيه؟.. صحيح ردت؟ إزاي ساكتة م الصبح؟ إزاي تنسي؟ دي مسألة مهمة جداً.. إزاي تنسي؟.. قال لك ايه بالضبط

ـ الأول كان متشكك، فلما قلت له أنا خطيبتك اداني ميعاد النهاردة الساعة واحدة قدام محطة السيدة.. معلهش.. مش عارفة نسيتها إزاي!

ونظر في ساعته بلهفة، كانت الثانية عشرة والثلث.. واندفع يرتدي ثيابه على عجل وقلبه يدق بالحماس إذ قطعاً سيعاود صلته بلجنة الكفاح المسلح عن طريق زكريا. وسألها وهو منهمك في ارتداء الجورب:

ـ وما خلتيش الميعاد بالليل ليه؟

ـ حاولت.. قال لي إنه لازم يسافر النهاردة الساعة تلاتة.. وإن دي هي الفرصة الوحيدة.

ـ يسافر فين؟

ـ ما اعرفش، ما سألتوش.

وسكتت فوزية قليلا ثم قالت:

ـ آه.. يا سلام على مخي.. وقال لي حاجة كمان.. قال لي إنك

تقطع صلتك حالا برشدي لأنه ثبت إنه بيشتغل دلوقتي مع البوليس السيياسي.

ـ إيه! . . رشدي؟

ـ آه. . دانا فضلت طول السكة اقول رشدي. . رشدي. . رشدي، عشان ما انساش اسمه.

وفي ومضة اختلط وجه رشدي الدائم الاحتقان المنتفخ بالسمنة وعيناه الصغيرتان المدسوستان في ملامحه، وابتساماته الخجلة يوم ذهب إليه في العباسية ومعه حقيبة الديناميت واعتذر وتحجج بالأولاد، اختلط هذا بأيام أن كان يعمل معهم جنباً إلى جنب في اللجنة. ولسبب ما أحس حمزة بالارتياح حين علم بتلك النهاية. كان لا يرتاح أبداً إلى شك رشدي في الآخرين، والى كلماته الضخمة الجوفاء، وحبه اللزج المفرط لأولاده حتى انه كان يحمل معه صورهم دائماً ويطلع عليها كل من يصادفه، ولا يتركه إلا بعد أن ينتزع منه كلمة اعجاب أو صيحة ثناء. . أجل! إنه الآن مستريح، فمن المستحسن دائماً أن نمد الخطوط الى نهاياتها.

وقال لفوزية حين انتهى من ارتداء ثيابه:

ـ أنا ماشي. . حكاية رشدي دي حمست الواحد اكتر. لازم تروحي لسعد. . بعد شوية. . قهوة ماتاتيا في العتبة. . ورا الاوبرا. . الميعاد هنا الساعة تلاتة ونص. . ما تنسيش!

ـ ما تخافش. . بس الدنيا نهار وحاسب إنت على نفسك، فاهمني إزاي؟

وخرجت «فاهمني ازاي» من فمها حلوة لذيذة كمذاق الآيس كريم في قيظ يونية.

وحين غادر المدفن كان أنفـه لا يزال يتنفس رائحـة شعرهـا، وكان يحس بلوعة لفراقها مع أنه كان متأكداً أنه سيلقاها بعد ساعات.

وكان قد ذهب ما بينهما من غربة وحلت الألفة والتعود، واصبحت في نظره عادة حيوية متجددة لا يستطيع عنها استغناء أو فراقاً.

١٩

وكان وهو في طريقه الى الميعاد يرى في وجوه الناس ربيعاً قبل الأوان، وجدية من يعمل، وبريق الأمل الذي يصاحب العمل. كان الناس قد أفاقوا من صدمة الحريق ورفعوا الرءوس في خوف أول الأمر وبدءوا يتهامسون بالشائعات، ثم علا الهمس حين تحققت بعض الشائعات وأصبحت حديثاً يقال، وعرف الناس من الحارق ومن الضارب، والناس حين يحددون اعداءهم لا يترددون، وبدءوا يسخرون وانطلقت النكات بادئة برأس الرمح ووزرائه ولم تترك حتى الذيول، وشد الأعداء من قبضتهم ليغلقوا الأفواه،ولكن كانت السخرية قد أضاعت رهبتهم وهونت من شأنهم، فقابل الناس الضغط باحساسهم أن لابد من التقدم خطوات أخرى، وشعر الأعداء بالخطر، وانهالت ضرباتهم هوجاء ومع كل ضربة يزداد تجمع الناس ويتعلمون ويلتفون حول المضروبين فيخاف الضاربون ويزداد البطش.. فتقترب النهاية.

وكان في نفس حمزة إشراق لا تصنعه شمس.. ستتكون لجنة أخرى، وسيلقى زكريا بعد حين ويعاود العمل الرائع الشريف من أجل الناس، ستعود المواعيد واللقاءات والبحث المضني وراء قضية الشعب. عشرات من الأشياء لابد أن يخبرها لزكريا وعشرات لابد أن يسأل عنها

وزوجة حسن محمد حسن واولاده، ونقود السلاح التي لديه، والدبلة دبلتين. وبدير لابد من الذهاب إليه في ميعاد قريب، العدو قوي وسريع. . سيكونون أقوى وأسرع، في الماضي أخطاء لن تعود، والمستقبل أكيد، النصر لم يعد أملاً لقد اصبح واجباً.

ووصل الى الشارع المجاور لخط حلوان. ومع كل ما كان يفكر فيه لم يفته أن يلحظ أن هناك أناساً يتسكعون حول الخط ويبدو أن لا عمل لهم. ولم يطمئن وفكر في أن يرجع ولكنه عدل، فلا بد من مقابلة زكريا. وكل ما يحس به مجرد شكوك أما ميعاده مع زكريا فيقين، فهل يأخذ بالشكوك ويترك اليقين؟

وقبل أن يصل إلى المحطة دخل في حارة جانبية وخرج في شارع الخليج، ثم مشى بحذر في الشارع الواسع الذي يصل المحطة بالخليج. ولم يكن لحظتها ميعاد قطارات فكان الشارع خاوياً، ورأى من بعيد وفي المكان الذي أمام المحطة مباشرة شاباً لم يشك لحظة واحدة في أنه مخبر فقد كان يرتدي جلباباً واسعاً فضفاضاً وكوفية ضخمة، وتوقف وقرر أن يلغي الميعاد، ولكنه قرر أيضاً أن ينتظر من بعيد ليحذر زكريا حين يجيء. وأثناء انتظاره راح يراقب الرجل الواقف الذي كان يروح ويجيء ويتلفت وكأنما هو الآخر على ميعاد. وخيل لحمزة أنه رأى وجهه في مكان ما ونظر إليه مرات اخرى ليتأكد. . واكتشف مقهقهاً أن الشاب لم يكن سوى زكريا بلحمه ودمه، وقد تنكر في زيه ذاك.

وأسرع حمزة اليه. . وحين أصبح على قيد خطوات منه عرفه زكريا وتقدم نحوه، وتشابكت أيديهما في سلام قوى اقشعر له جسد حمزة ورفرف بالفرحة. وقبل أن تترك يده زكريا كانت أيد كثيرة مفاجئة قد أطبقت عليهما بعنف. ومرت المفاجأة مروراً خاطفاً.

وتلفت حمزة حوله فرأى نفس الاشخاص الذين مهما تغيروا فلابد أن تقرأ العين على وجوههم كلمة مخبرين مكتوبة بحروف من جلابيب وطرابيش وسحنات.

وكان حمزة في كل مرة تحيطه أيد مثل تلك يحس بنوع من الارتياح وكأن مهمته قد انتهت واصبح عليه أن يستريح، أو كأن القبض عليه حفلة تتوج فيها بطولته ويعترف له فيها بالجميل، ولكنه هذه المرة أحس بالأيدي كنصل حاد يهوي عليه فيبتره وينتزعه بعيداً عن معركة الحياة والموت التي يقودها في سبيل الانسان، وبعيداً عن فوزية وكل ما يمت بصلة الى الحياة.

وأحس بأصابع من حديد تدلف الى زوره وتخنقه.

ونظر إلى زكريا وكأنما كان زكريا هو الأخر يترقب نظرته ولم يتحدثا بكلمة. وفي ذلك الوقت كانت الأيدي تمسك بهما ريثما تحضر العربة التي ستقلهم أجمعين، والناس قد بدأ المشهد يسترعي انتباههم ويتجمعون. وتبين حمزة أن الأيدي القابضة عليهما تمت إلى أربعة: أفندي، وثلاثة بطواقي.

كانت المفاجأة لابد منها.

ونظر الى زكريا وقالت عينه شيئاً ثم توقفت، ولمعت فجأة تقول.. الآن..

وتوالت الأحداث مسرعة.

في نفس اللحظة هوى حمزة وزكريا إلى الأرض فتخلصا من الأيدي التي شلتها سرعة الحركة، ثم اندفع كل منهما في اتجاه. وقبل أن يتحرك حمزة نالته صفعة قوية تريد عرقلته ولم تعرقله، فقطفجرت الدم من أنفه ولكنه مرق بقوة اندفاع لا يمكن وقفها

واختار الحارة الموصلة الى شارع «الخليج». لم تكن في رأسه وجهة

معينة. . كان يريد أن يجري ويجري ويبتعد بكل ما يستطيع عن ذلك المكان. وكانت أهم الأصوات التي تتلقفها أذناه هي أصوات أحذية مطارديه. لقد شعر بهم. . لم يكونوا كثيرين، لقد نجح هو وزكريا إذن في جعلهم يترددون وينقسمون.

وفوجيء بأصواتهم تعلو وراءه:

ـ امسك حرامي. . حلق.

ولم يكن في الحارة أناس عديدون. كانوا في شغل عنه بالدنيا والدكاكين والزبائن، ولكنهم حين كانوا يرونه قادماً يلهث ورجال بملابس عادية يجرون وراءه وأصواتهم ترتفع من خلفه: امسك حرامي. كان يرى حينئذ في عيون الناس ترقباً وتحفزاً. وكان لديه شبه يقين أن أحدهم سيجد بعد قليل في نفسه الشجاعة الكافية ويعترض طريقه ويمسكه ولذلك انطلق صوته يجأر:

ـ أنا مش حرامي. . أنا وطني.

وانفلت إلى حارة أخرى قبل أن يذهب تحفز الناس وقبل ان ينقضوا عليه، وسمع طرفاً من كلمات قيلت وراءه:

ـ صهيوني.

ـ بال شوفي.

ـ امسك حرامي.

ـ مش باين عليه.

وجد نفسه في شبكة غريبة من الحواري المتداخلة التي تفضي كل منها الى الأخرى. . أرضها حفر وطين. . وأبوابها متقاربة. . وحركة بطيئة تكاد تموت وهو المندفع وحده كالقذيفة. إلى أين؟ إلى أين؟ وأين المكان الذي يخفيه؟ أين المكان الخالي من الناس الذي يستطيع أن يأوي إليه بلا

واحد يعترضه ويسد عليه الطريق ويقدمه متطوعا للبوليس؟

واستمات يجري واضعاً كل ما يستطيع من قوة في ساقيه، ومع هذا كان يخيل اليه أنه لا يتحرك من مكانه، أو أنه يجري ويدفع أمامه كتلا ثقيلة مظلمة من حديد غير مرئي. ولم يكن يعرف الى أين.. كل ما يراه عيون ساهية لاهية لا تتفتح على آخرها إلا حين يجاورها، ولا يتحرك صاحبها إلا حين يكون قد ابتعد ويكون صوت مطارديه قد اقترب قائلا:

ـ امسك.. حرامي.

فقطلو يعرف أين تقوده قدماه.. خيل إليه أنه يطرق ارضاً غريبة، وثمة احساس يتحرك حركات ملتوية رفيعة في نفسه ويقول إنه ليس على ما يرام، وأن شيئاً ينقصه.

ـ امسكوه.. حلق يا اخينا.. حرامي.. حرامي.

جاءه الصوت هذه المرة قريباً حتى خاله وراءه تماماً، بل خيل إليه أن الكلمات تخرج من رأسه هو، ووجد نفسه دون وعي يبتسم.. إن مطارديه يقولون للناس حرامي لينتبه إليه الناس حتى يسرقوهم هم. ما ألطفها مسرحية.. سيقولها ذات يوم لفوزية.

لابد من مكان يختفي فيه.. اممكن أن يدخل في أحد الأبواب الكثيرة التي تمر أمامه؟.. فقطلو تطول المسافة بينه وبينهم دقيقة واحدة كان يستطيع التفكير، انه الآن لا يفكر ولا يرى أنه يجري.. ويجري تقوده غريزة.. وتقوده الجدران.. الجدران المتماسكة المتراصة هي التي تحدد طريقه.. أين هو الآن؟ إن هذه المباني لا تمت الى السيدة ولا إلى المدبح ولا الى زين العابدين. انها غريبة وكأنه يجري في قرية من قرى الهند. دخل حارة ليس فيها أحد.. خاوية إلا من عربة من عربات النظافة

ذات العجل الكبير الواسع.. العربة بعيدة عنه.. إنه يخاف أن يصطدم بها. هناك قوة تجذبه اليها.. حالا ستشطره. فليبتعد.. فليتجنبها بأقصى ما يستطيع. جدران على اليمين، وجدران على اليسار، وعربة كبيرة هائلة الحجم تسد عليه الطريق.. لا تدع له منفذاً. كيف حدث هذا؟ كيف؟ لقد مرت بجواره ولم تقتله. من اين جاء الفراغ الذي مرق منه؟ الحارة نهايتها تبدو قريبة.. إنه يرى اناساً كثيرين مجتمعين عند نهايتها.. انهم قطعاً يتربصون به، وينتظرونه.. أنا وطني أنا وطني! وتلفت خلفه.. مطاردوه قد تكاثروا.. اصبحوا عشرات.. لايمكنه التوقف.. ولكن الى أين؟.. لا بد من مكان خال.. مكان أمين.. بعيداً عن الناس.. يخفيه تماماً، ولا يدع عيناً تراه.

انه لا يحس بالتعب.. ولا بالراحة. زكريا لديه فرص اوسع.. انه عداء سريع. حتى لو امسكوه سيكون زكريا قد أفلت ولن تموت اللجنة.. لن تموت. الناس الذين عند نهاية الحارة كثيرون.. انه يقترب منهم في اندفاع اهوج.. انه لا يستطيع ان يمنع اندفاعه او يقلل من سرعته.. انه يقترب جداً من الناس.. الأصوات تنبعث من خلفه امسك حرامي.. عليه ان ينبه المتجمعين امامه حتى يتركوه يمر وصرخ.

ـ أنا وطني أنا وطني!

وحتى لم يسمع الكلمات وهي تغادر فمه فقد ضاع صوته تماماً حين وجد نفسه في اللحظة التالية في شارع السد وفي ضجته الهائلة التي تتضاعف ايام الجمع. ولدهشته كان الناس الذين خيل اليه انهم يترقبونه كانوا هم المزدحمين في الشارع لا اكثر ولا اقل، الرائحين الغادين الذين يتقابلون ويصطدمون ويتلاحمون كالعادة. وكان عليه أن يجري حتى لا

يدركه المطاردون مخترقاً الصفوف المتكاثفة من الناس.. لقد هبطت سرعته جداً.. اصبح لا يكاد يستطيع نقل قدميه او المسير. فقط المسير. المطاردون اذن قابضون عليه لا محالة.

وكان أخوف ما يخافه حمزة إذا وجد نفسه في ازدحام ما أن تسقط نظارته، ولهذا وبحركة لا ارادية رفع يده الى أنفه يمسك بها النظارة.. وروع بأنه لا يجدها.. لا على أنفه ولا على أذنيه... كيف حدث هذا؟ وأين سقطت؟ لا بد أنها وقعت أثناء محاولة فراره. لابد أنها دشدشت تماماً حين سقطت.

الله! وكيف كان يجري إذن؟ كيف استطاع قطع كل تلك المسافة دون أن يصطدم أو يتعثر أو يسقط؟ كيف؟ ثم كيف يمشي الآن بغيرها؟ إنه فعلاً يرى. لا يرى الأشياء والناس بكل دقائقها ولكنه يرى والرؤية واضحة.

وتطلع الى الوراء ـ وكان قد تعمق داخل الازدحام ـ ليقدر المسافة الباقية للقبض عليه. ولم ير الا قفاً ضخماً يحجب عنه الرؤية، وقد سد الثغرة التي ناضل بقوة حتى اخترقها منذ هنيهة، بل لحمها القفا وكأنه «قصدير» بشري. ومال حمزة الى اليمين عله يتمكن من التطلع ولكن كانت تسد اليمين امرأة تحمل ابنها فوق كتفها، وحاول أن يتطلع من اليسار ولكنه وحده مغلقاً تماماً بشاب يحمل فوق رأسه قفص عيش طابونه، وصبي جزار حاملاً فخذة كندوز، ومدخنة فرن بطاطة فوق عربة يد، ورأس حصان يحاور الذباب ويداوره، ومقطف لا يرى من يحمله وكأنه معلق بين السماء والأرض.

الله! عليه أن يحدد مكانه بالضبط من مطارديه ليحدد سرعته وإلا ضاع. وحاول أن يزاحم ليصل الى مكان غير مزدحم يستطيع منه الرؤية

ولكنه لم يستطع حتى التحرك، بل وجد نفسه مسوقاً رغماً عنه بحركة جيرانه وجيران جيرانه الى التحرك قدماً الى الأمام.

وأصابه اليأس والضيق، ولم يكن في مقدوره أن يفعل شيئاً آخر ليحدد مكانه إلا أن يصيخ بأذنيه ليسمع نداءهم المعهود، امسك حرامي. وأصاخ أذنيه ولكنه سمع هديراً هائلاً من. . معسلة قوى يا بطاطة. امساكية السنة الجديدة، أمسك شيش بيش. . اسمع يا جدع. . أمساء النجف. . عسل ياتين. . زي صدر البكاري يا رمان. . يا جدع دانا اللي شاري الحلو وبابيعه. . أوعى رجلك. . أيها الناس اتقوا الله في أنفسكم واذكروا يوماً عبوساً قمطريراً. . يا أم هاشم. . أمشي يا بن الـ. . اسمع يا جدع وصلي ع الحبيب. . دا الخواجه فلس وباع نصيبه.

وبدا له الأمر مستحيلاً. . مستحيل أن يكون المكان الذي ظل يبحث عنه ليهرب من مطارديه ومن الناس الذين قد يتطوعون لامساكه، أن يكون هذا المكان الامين هو قلب الناس أنفسهم.

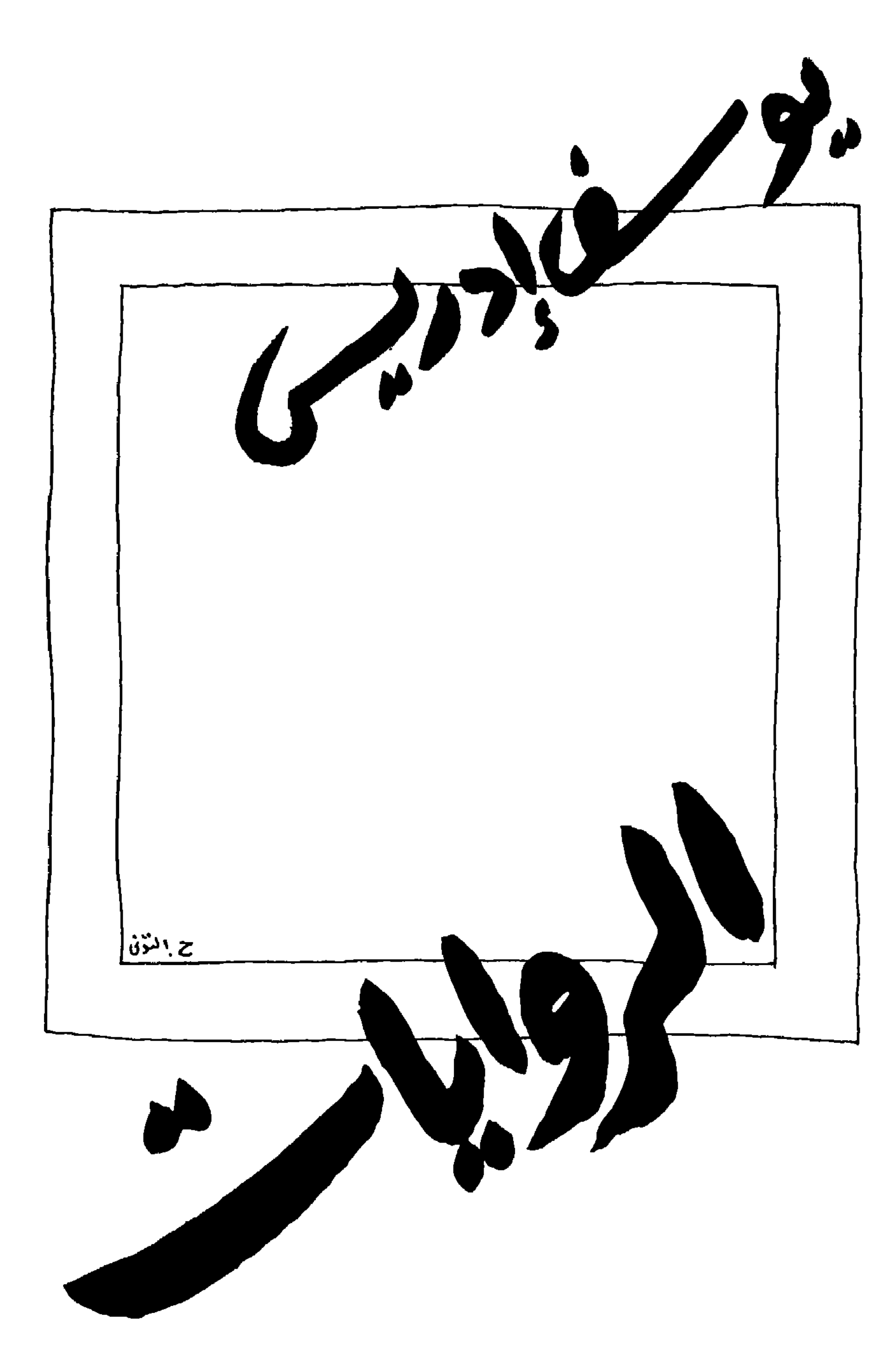
وراح يتطلع الى الوراء مرات ليتأكد، ولم يجد سوى شمس وعرق وعمم وعصى، واكتاف، وكوفيات وطرابيش، وشعور سوداء وبيضاء وبراقع وقصبات براقع، وتجمعات حول بائع الكينا المقوية للدم والأعصاب، وعمال ورشة يدفعون عربة قديمة وعربجية يبصقون ويتنخمون ويلعنون، وأحصنة لها أجراس تدق، وعربات تجعجع ورائحة سمك مقلي وطعمية، وعطارة ومانـي فاتورة، وجعير ولبد، وخناقات وقافيات. وعلى الجدران: عاش الكفاح المسلح. . التحرر طريق السلام. لاعبو فريق الأسد المرعب، ومناطيل صفراء وطواقي صوف، «وقصرية» فل بارزة من شباك، وألف أفندي مثله بنظارات وبلا نظارات، وأولاد بلد، وطلبة، وملاءات تنبعج بأرداف

وتضيق عند أوساط، وتظهر سيقـان و«عفـاريت» زرقـاء وصفـراء وكبـار وصغار، وأطفال روضة عائدات من المـدارس وفـي شعورهـن أشرطـة حمراء، وناس كثيرين، كثيرين من أمامه، ومن خلفه، وعلى جانبيه، وفي كل مكان.

* * *

وما كاد يضع قدميه على باب المدفن حتى قابلـه صياح سعد:

ـ شفت بقي مين اللي فينا بيتأخر، بشرفي أنا هنا من تلاته وربع دا مش كلام دا لعب. دا هزار. دا مش شغل. إيه اللي أخرك؟ كنت فين؟ وكمان جاي من غير نضارة!


يوسف إدريس
الروايات
ح. التونى

المحتويات

تمت الروايات

الجزء التالي من الأعمال الكاملة للدكتور يوسف إدريس (القصص القصيرة) وتليها المسرحيات والانطباعات تباعاً.

مطابع الشروق

بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣ - برقياً: داشروق - تلكس: SHOROK 20175 LE
القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني - هاتف: ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٤٥٧٨ - برقياً: شروق - تلكس: 93091 SHROK UN

يوسف إدريس

روايات 2

الاعمال الكاملة

يوسف إدريس



القصص القصيرة 1

دار الشروق

تصميم غلاف : علي مولا

يوسف إدريس

القصص القصيرة "١"

الطبعة الأولى

١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م

القاهرة ١٦ شارع جواد حسني - هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤
برقيا شروق - تلكس 93091 SHROK UN
بيروت ص ب ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣
برقيا داشروق - تلكس SHOROK 20175 LE



يوسف إدريس
القصص القصيرة "١"



بيت من لحم

بيتٌ مِن لحم

الخاتم بجوار المصباح. الصمت يحل فتعمى الآذان. في الصمت يتسلل الأصبع. يضع الخاتم.

في صمتٍ أيضاً يطفأ المصباح.

والظلام يعم.

في الظلام أيضاً تعمى العيون. الأرملة وبناتها الثلاث. والبيت حجرة. والبداية صمت.

***

الأرملة طويلة بيضاء ممشوقة، في الخامسة والثلاثين.

بناتها أيضاً طويلات فائرات، لا يخلعن الثوب الكاسي الأسود بحداد أو بغير حداد. صغراهن في السادسة عشرة وكبراهن في العشرين.. قبيحات ورثن جسد الأب الأسمر المليء بالكتل غير المتناسقة والفجوات، وبالكاد أخذن من الأم العود.

الحجرة، رغم ضيقها تسعهن في النهار. . رغم فقرها الشديد مرتبة أنيقة، يشيع فيها جو البيت وتحفل بلمسات الإناث الأربع. في الليل تتناثر أجسادهن كأكوام من لحم دافىء حي، بعضها فوق الفراش، وبعضها حوله، تتصاعد منها الأنفاس حارة مؤرقة، أحياناً عميقة الشهيق.

الصمت خيم مذ مات الرجل، والرجل مات من عامين بعد مرض طويل. انتهى الحزن وبقيت عادات الحزانى وأبرزها الصمت. . صمت طويل لا يفرغ اذ كان في الحقيقة صمت انتظار، فالبنات كبرن والترقب طال والعرسان لا يجيئون. ومن المجنون الذي يدق باب الفقيرات القبيحات، وبالذات إذا كن يتامى؟. ولكن الأمل بالطبع موجود، فلكل فولة كيال ولكل بنت عدلها. فإذا كان الفقر هناك فهناك دائماً من هو أفقر، وإذا كان القبح هناك فهناك دائماً الأقبح، والأماني تنال. . أحياناً تنال بطول البال.

***

صمت لم يكن يقطعه إلا صوت التلاوة. .يتصاعد في روتين لا جدة فيه ولا انفعال. والتلاوة لمقرىء، والمقرىء كفيف، والقراءة على روح المرحوم وميعادها لا يتغير. . عصر الجمعة يجيء بعصاه ينقر الباب، ولليد الممدودة يستسلم، وعلى الحصير يتربع. وحين ينتهي يتحسس الصندل، ويلقي بتحية لا يحفل أحد بردها، ويمضي. بالتعود يجيء. . بالتعود يقرأ. . بالعادة يمضي، حتى لم يعد يشعر به أو ينتبه اليه أحد. .

دائم هـو الصمت، حتى وتلاوة عصـر الجمعة تقـطعه أصبحت وكأنها قطع الصمت بصمت. دائم هو كالانتظار،كالأمل. . أمل قليـل ولكنه دائم، فهو أمل في الأقل. دائماً هناك لكل قليل أقـل، وهن لا يتطلعن لأي أكثر. . أبداً لا يتطلعن.

يـدوم الصمت حتى يحدث شيء. . يجيء عصـر الجمعـة ولا يجيء المقرىء. فلأي اتفاق مهما طال نهاية وقد انتهى الاتفاق.

وتـدرك الأرملة وبنـاتهـا الآن فقط كنـه مـا تقـدم، ليس فقط الصوت الوحيد الذي كان يقطع الصمت، ولكن أيضاً الرجل الوحيـد الـذي كـان ولـو في الأسبـوع مـرة يـدق البـاب، بـل أشيـاء أخـرى يدركن. . فقير مثلهن هذا صحيح، ولكن ملابسه أبداً كانت نـظيفة، وصندله دائماً مطلى، وعمامته ملفوفة بـدقة يعجـز عنها المبصـرون، وصوته قوي عميق رنان.

والاقتراح يبدأ: لمـاذا لا يجدد الاتفـاق ومنذ الآن؟ ولمـاذا لا يـرسـل في طلبـه هـذه اللحـظة؟. مشغـول، فليكن! الانتــظار ليس بالجديد. وقرب المغرب يأتي، ويقرأ وكأنه أول مرة يقرأ، . والاقتراح ينشأ. . لماذا لا تتزوج احداهن رجلاً يملأ علينا بصوتـه الدار؟. هـو أعزب لم يدخل دنيا، وله شارب أخضر، ولكنه شاب. وبالكلام يجر الكلام، ها هو الآخر يبحث عن بنت الحلال.

البنات يقترحن والأم تنظر في وجوههن لتحدد من تكون صاحبة النصيب والاقتراح. ولكن الوجوه تزور مقترحة ـ فقط مقتـرحة ـ قـائلة

بغيـر الكـلام: أنصـوم ونفـطر على أعمى؟. هن مـا زلن يحلمن بالعرسان، والعرسان عادة مبصرون. مسكينات لم يعـرفن بعد عـالم الرجال، ومحال أن يفهمن أن الرجل ليس بعينيه.

ـ تزوجيه أنت يا أماه. . تزوجيه.

ـ أنا؟. يا عيب الشوم!. والناس؟

ـ يقولون مـا يقـولـون. . قـولهم أهـون من بيت خـال من رنين صوت الرجال.

ـ أتزوج قبلكن؟. مستحيل.

ـ أليس الأفضـل أن تتزوجي قبلنـا، ليعرف بيتنـا قـدم الـرجـال فنتزوج بعدك؟ تزوجيه يا أماه.

وتـزوجتـه. . زاد عــدد الأنفس واحـدة، وزاد الـرزق قليـلاً، ونشأت مشكلة أكبر.

الليلة الأولى انقضت وهمـا في فـراشهمـا، هـذا صحيـح. ولكنهما حتى لم يجسرا على الاقتراب. . ولو صدفة! فالبنات الثلاث نـائمات، ولكن من كـل منهن ينصب زوج من الكشافـات المصـوبـة بدقة إلى المسافة الكائنة بينهما. . كشافـات عيون، وكشـافات آذان، وكشافات احساس. البنات كبيـرات، عارفـات ومدركـات، والحجرة كأنما تحولت بوجودهن الصاحي إلى ضوء نهار. ولكن بالنهار لم تعد ثمة حجة، وواحدة وراء الأخرى تسللن ولم يعدن إلا قرب الغروب،

مترددات خجلات يقدمن رجلاً ويؤخرن رجلاً، حتى يزددن قرباً. وحينذاك يدهشهن.. يربكهن.. يجعلهن يسرعن ضحكات.. قهقهات رجل تتخللها سخسخات امرأة.. أمهن لابد تضحك، والرجل الذي ما سمعته إلا مؤدباً خاشعاً ها هو يضحك! بالأحضان قابلتهن ولا تزال تضحك، رأسها عار وشعرها مبلل ممشط ولا تزال تضحك، وجهها.. ذلك الذي أدركن للتو أنه كان مجرد فانوس مطفأ عشعش فيه العنكبوت والتجعيدات، فجأةً أنار، ها هو أمامهن كلمبة الكهرباء مضيء. ها هي عيونها تلمع وقد ظهرت وبانت وتلألأت بالدمع الضاحك.. تلك التي كانت مستكنة في قاع المحجر.

الصمت تلاشى واختفى تماماً، على العشاء وقبل العشاء وبعد العشاء نكت تترى وأحاديث وغناء! صوته حلو وهو يغني ويقلد أم كلثوم وعبد الوهاب، صوته عال أجش بالسعادة يلعلع.

خيراً فعلت يا أماه! وغداً تجذب الضحكات الرجال، فالرجال طعم الرجال.

نعم يا بنات، غداً يجيء الرجال ويهل العرسان. ولكن الحق أن ما أصبح يشغلها ليس الرجال أو العرسان ولكنه ذلك الشاب. كفيف فليكن، فما أكثر ما نعمى عن رؤية الناس لمجرد أنهم عميان. هذا الشاب القوي المتدفق قوة وصحة وحياة، ذلك الذي عوضها عن سنين المرض والعجز والكبر بغير أوان.

الصمت تلاشى وكأن إلى غير رجعة، ضجيج الحياة دب.

الزوج زوجها وحلالها وعلى سنة الله ورسوله، فماذا يعيب؟ وكل ما تفعله جائز، حتى وهي لم تعد تحفل بالمواربة أو بكتمان الأسرار. حتى والليل يجيء وهم جميعاً معاً، فيطلق العقال للأرواح والأجساد، حتى والبنات مبعثرات متباعدات يفهمن ويدركن وتتهدج منهن الأنفاس والأصوات، مسمرات في مراقدهن يحبسن الحركة والسعال. . تظهر الآهات فجأة فتكتمها الآهات.

كان نهارها «غسيل» في بيوت الأغنياء، ونهاره قراءة في بيوت الفقراء، ولم يكن من عادته أول الأمر أن يؤوب إلى الحجرة ظهراً، ولكن لما الليل عليه طال والسهر أصبح يمتد، بدأ يؤوب ساعة الظهر يريح جسده ساعة من عناء ليل ولى واستعداداً لليل قادم. وذات مرة بعدما شبعا من الليل وشبع الليل منهما، سألها فجأة عما كان بها ساعة الظهر، ولماذا هي منطلقة تتكلم الآن ومعتصمة بالصمت التام ساعتها؟ ولماذا تضع الخاتم العزيز عليه الآن ـ إذ هو كل ما كلفه الزواج من دبلة ومهر وشبكة وهدايا ـ ولماذا لم تكن تضعه ساعتها؟

كان ممكناً أن تنتفض هالعة واقفة صارخة. كان ممكناً أن تجن. كان ممكناً أن يقتله أحد. فليس لما يقوله إلا معنى واحد، ما أغربه وأبشعه من معنى!

ولكن غصة خانقة حبست كل هذا وحبست معه أنفاسها. . سكتت. بآذانها التي حولتها إلى أنوف وحواس وعيون راحت تتسمع وهمها الأول ان تعرف الفاعلة. إنها متأكدة لأمر ما أنها الوسطى. إن

في عينيها جرأة لا يقتلها الرصاص إذا أطلق.. ولكنها تتسمع! الأنفاس الثلاثة تتعالى عميقة حارة كأنها محمومة.. ساخنة بالصبا تجأر، تتردد، تنقطع، أحلام حرام تقطعها.. أنفاس باضطرابها تتحول إلى فحيح.. فحيح كالصهد الذي تنفثه أراض عطشى، والغصة تزداد عمقاً واحتباساً. إنها أنفاس جائعات ما تسمع، بكل شحذها لحواسها لا تستطيع أن تفرق بين كومة لحم حي ساخنة مكتومة وكومة أخرى. كلها جائعة! كلها تصرخ وتئن، وأنينها يتنفس ليس أنفاساً، ربما استغاثات. ربما رجوات.. ربما ما هو أكثر.

غرقت في حلالها الثاني ونسيت حلالها الأول.. بناتها! والصبر أصبح علقماً، وحتى سراب العرسان لم يعد يظهر. فجأة ملسوعة ها هي كمن استيقظ مرعوباً على نداء خفي.. البنات جائعات! الطعام حرام صحيح ولكن الجوع أحرم.. أبداً ليس مثل الجوع حرام! انها تعرفه.. عرفها ويبس روحها ومص عظامها، وتعرفه ـ وشبعت ما شبعت ـ مستحيل أن تنسى مذاقه.

جائعات وهي التي كانت تخرج اللقمة من فمها لتطعمهن.. هي التي كان همها حتى لو جاعت أن تطعمهن، هي الأم، أنسيت؟

وألح مهما ألح تحولت الغصة إلى صمت. الأم صمتت ومن لحظتها لم يغادرها الصمت.

وعلى الإفطار كانت ـ كما قدرت تماماً ـ الوسطى صامتة.

وعلى الدوام ظلت صامتة.

والعشـاء يجيء، والشاب ـ سعيـداً وكفيفاً ومستمتعـاً ـ ينكت لا يـزال، ويغني ويضحك ولا يشـاركه الضحـك إلا الصغرى والكبـرى فقط.

ويطول الصبر ويتحول علقمه إلى مرض، ولا أحد يطل.

وتتـأمـل الكبـرى ذات يـوم خـاتم أمهـا في أصبعهـا وتبـدي الاعجاب به، ويدق قلب الأم وتزداد دقاته وهي تطلب منها أن تضعـه ليوم، لمجرد يوم واحد لا غير. وفي صمت تسحبه من أصبعها. وفي صمت تضعه الكبرى في أصبعها المقابل.

وعلى العشاء التالي تصمت الكبرى وتأبى النطق.

والكفيف الشاب يصخب ويغني ويضحك، والصغرى تشاركه.

ولكن الصغرى تصبح ـ بالصبر والهم وقلة البخت ـ أكبر، وتبدأ تسأل عن دورها في لعبة الخاتم، وفي صمت تنال الدور.

والخاتم بجوار المصبـاح . . الصمت يحل فتعمى الآذان. وفي الصمت يتسلل الأصبع صاحب الدور ويضع الخاتم في صمت أيضاً. ويطفىء المصباح والظلام يعم، وفي الظلام تعمى العيون.

ولا يبقى صاخباً منكتاً مغنياً، إلا الكفيف الشاب.

فوراء صخبه وضجته تكمن رغبة تكاد تجعله يثور على الصمت وينهـال عليه تكسيـراً. إنـه هـو الآخـر يـريـد أن يعـرف. . عن يقين

يعرف. كان أول الأمر يقول لنفسه إنها طبيعة المرأة التي تأبى البقاء على حال واحد، فهي طازجة صابحة كقطر الندى مرة، ومنهكة مستهلكة كماء البرك مرة أخرى. ناعمة كملمس ورق الورد مرة، خشنة كنبات الصبار مرة أخرى. الخاتم دائم وموجود صحيح، ولكن وكأنما الأصبع الذي يطبق عليه كل مرة أصبع. إنه يكاد يعرف، وهن بالتأكيد كلهن يعرفن، فلماذا لا يتكلم الصمت؟ لماذا لا ينطق؟

ولكن السؤال يباغته ذات عشاء، ماذا لو نطق الصمت؟ ماذا لو تكلم؟

مجرد التساؤل أوقف اللقمة في حلقه.

ومن لحظتها لاذ بالصمت تماماً وأبى أن يغادره.

بل هو الذي أصبح خائفاً أن يحدث المكروه مرة ويخدش الصمت. ربما كلمة واحدة تفلت فينهار لها بناء الصمت كله، والويل له لو انهار بناء الصمت.

الصمت المختلف الغريب الذي أصبح يلوذ به الكل.

الصمت الارادي هذه المرة، لا الفقر، لا القبح، لا الصبر ولا اليأس سببه.

إنما هو أعمق أنواع الصمت، فهو الصمت المتفق عليه أقوى أنواع الاتفاق، ذلك الذي يتم بلا أي اتفاق.

***

الأرملة وبناتها الثلاث.

والبيت حجرة.

والصمت الجديد.

والمقرىء الكفيف الذي جاء معه بذلك الصمت، وبالصمت راح يؤكد لنفسه أن شريكته في الفراش على الدوام هي زوجه وحلاله وزلاله وحاملة خاتمه، تتصابى مرة أو تشيخ، تنعم أو تخشن، ترفع أو تسمن، هذا شأنها وحدها، بل هذا شأن المبصرين ومسئوليتهم وحدهم! هم الذين يملكون نعمة اليقين، إذ هم القادرون على التمييز. وأقصى ما يستطيعه هو أن يشك، شك لا يمكن أن يصبح يقيناً إلا بنعمة البصر، وما دام محروماً منه فسيظل محروماً من اليقين، إذ هو الأعمى، وليس على الأعمى حرج.

أم على الأعمى حرج؟

أكانَ لابدَّ يا لي لي أن تضيئي النور؟

في البدء كانت النكتة.

وفي النهاية ربما أيضاً تكون!

والنكتة في النكتة أنها ليست نكتة، ولكنها واقعة حدثت لأهل النكتة، صناعها المهرة، ورواتها العتاة.

النكتة لم تكن أن يستيقظ هذا العدد الكبير من الناس لأول مرة في تاريخ حي الباطنية، وكر الحشيش والأفيون والسيكونال ليؤدوا صلاة الفجر، هو الذين يبدأ نومهم بأذان الفجر.

وليست النكتة أيضاً أنهم أدوا الصلاة أنصاف مساطيل، أنصاف يقظى، ينسى الواحد منهم أنه قرأ الفاتحة فيقرؤها ثانية ويعود ينساها، أو يعود يتذكر فيعود ينوي للصلاة في منتصف الصلاة.

النكتة في الحقيقة حدثت قرب نهاية الصلاة، نكتة لا تزال تتفجر بها صدور «الحشاشين» في الحي.. أولئك الذين تعايشوا مع النكت المروية حتى ألفوها، فما كادوا يعثرون على نكتة حقيقية

صارخة دارت وقائعها أمام أعينهم حتى تلقفوها كما يتلقفون «الشيشات» الجديدة، وعربات الكارو، والموتوسيكلات والأطفال الجدد، فيظلون يدندشونها، وبمزاج يزخرفونها ويتقنون روايتها ويتفننون في اختراع التفاصيل التي لم تحدث حتى أصبحت أهم وأعز جزء من فولكلور الحي وتاريخه وقصصه، توارت بجانبها في الحقيقة ملاحم بطولة ليس أقلها ملحمة «حنتيتة» ونسائه الأربع أمام الضابط والمخبرين في واقعة زقاق التعبان.

النكتة أنهم صلوا الركعة الأولى في أمان الله، وكذلك الثانية، ولم يعد باقياً على انتهاء ركعتي الفجر إلا السجدة الأخيرة.. ثم قراءة التحيات والتشهد والتسليم. أما السجود فقد سجدوا.. قال الامام الشيخ: الله أكبر. ثم سجد.. وسجدوا جميعاً وراءه. عشرة صفوف طويلة ملأت الجامع الصغير. أناس ساجدون في خشوع وإن كان سجوداً غير مريح، فمعظمهم كان لم يقرب الصلاة من مدة، ومفاصلهم وعضلاتهم تصلبت حتى لم تعد تقوى على أوضاع الصلاة. ورددوا «سبحان الله» ثلاثاً، ولكنهم حين لم يسمعوا «الله أكبر» من الامام ايذاناً بنهاية السجدة بدأ الوسواس يوسوس للكثيرين أنهم أخطئوا العدد ومن جديد، وعلى مهل قالوها، وأيضاً لم تأت التكبيرة المنتظرة، وأقلية هذه المرة هو التي عاودها الوسواس! وأقلية أيضاً هي التي بدأت تستنيم للوضع وتريح رءوسها المتعبة الدائرة لا تزال بما فيها من ارهاق وكيوف.. أما الأغلبية فقد بدأ شيء من الاستغراب القليل يخالجها.. استغراب كان ينهيه احساسهم أن حالاً

سينطق الامام التكبيرة ويعتدل وينتهي الوضع. وكلما أمعنت اللحظة في مضيها دون أن تأتي التكبيرة بدأت نقطة الاستغراب القليل يخالجها.. استغراب كان ينهيه احساسهم حقيقة ثم ذهول، حين تأكد للجميع حتى للأقلية الموسوسة والمستنيمة أن السجدة طالت حقيقة، وأنها ليست بطئاً من الامام أو دعاءً خاصاً اختار لقوله وضع السجود، كما تأكد للجميع أنهم ليسوا أمام شيء عابر إنما هم بالتأكيد يواجهون حدثاً. لا بد أن شيئاً قد حدث ومنع الشيخ من اتمام السجدة. هنا تحركت الدهشة الحقيقية وتوزعت ألف احتمال واحتمال راحت تجوب الأدمغة المنحنية لا تجرؤ على الاعتدال.. رائحة غادية، متماثلة متناقضة.. أمرض؟ أمات؟ أأغمي عليه؟. أتكون حشيشة أغراه بها شيطانٌ منهم وبدأت «تكبس» على يافوخه؟

وأيضاً، ورغم هذا كانوا متوقعين في كل لحظة تالية أن يرتفع صوته بالتكبيرة طارداً الهواجس، معيداً الثقة ـ بأن كل شيء طبيعي ولا غبار عليه ـ إلى عقولهم التي بدأت تسرح وتمرح وتنطلق إلى ما شاءت من خيال.

ولكن وقتاً مضى، بالضبط لم يستطع أحد تحديده وإنما حسب رواياتهم بين الدقيقتين ونصف الساعة.. إذا تجاوزنا عن مغالاة البعض وقولهم إنه استمر حتى سمعوا أذان الظهر من الجامع الأزهر.. ناهيك عن المهولاتية الذين يصرون على أنهم للآن لا يزالون ساجدين.

ولكن المؤكد أن وقتاً مضى بحيث أصبح مؤكداً حتى لأكثرهم غياباً عن الوعي أن الشيخ ليس أبداً على ما يرام، وأن التكبيرة بالتأكيد لم تصدر عنه وتنهي سجودهم الذي جعل الشخير يتصاعد من حلقين على الأقل من الحلوق التي تراخت وبدأ لعابها يسيل.

وهنا فقط بدأ يتجسد أمامهم إشكال حقيقي يواجهه كل منهم منفرداً ولأول مرة في حياته.. ماذا بالضبط عليه أن يفعل؟ وما هو حكم الدين في موقف كهذا؟ وهل إذا رفع أحدهم رأسه تفسد صلاته ـ وربما صلاة الجماعة بأسرها ـ ويحمل هو وحده ذلك الوزر كله؟ وهل يحتمل أحدهم أن يكون هو دوناً عن الساجدين جميعاً المتسبب في افساد للصلاة؟ العودة الحديثة لله وبيته وحظيرة الدين جعلتهم مرة أخرى يرون الله ماثلاً بجناته وجحيمه ووعده ووعيده أمام عيونهم.. هم كالتلاميذ يعودون ومن تلقاء أنفسهم إلى المدرسة بعد طول «بلطجة» و «تزويغ».. الرهبة من الخطأ أو من الإقدام عليه مسألة لا يمكن أن يحتملها تائب حديث التوبة مثلهم.. أو يفكر فيها.

ولكن الوقت يمتد، الوقت الحقيقي يمتد، ووقت كل منهم الخاص الممدود بطبيعته يمتد ويتضاعف وتصبح الدقيقة فيه بعام.. يمتد الوقت حتى لتبدأ أفكار شيطانية خبيثة تخطر لبعضهم أكثرها شراً بالتأكيد فكرة أن يضحك، ليس فقط على الوضع الذي هم فيه وإنما على ما يمكن أن يحدث لو أن الشيخ الامام قد وافته سنة من النوم

مثلاً، أو الأدهى.. لو كان مات! وأنهم سيبقون هكذا ساجدين. ربما إلى اليوم التالي وربما إلى يوم الدين، دون أن يكتشف أحد من أهل الحي ما حدث، فالجامع عندهم مكان غير مطروق، مجرد المرور عليه يوقظ الضمير.

ولكن كل الأفكار الشيطانية هزمت فلم يضحك أحد، وحتى لم يطل تفكيره في الوضع كوضع مضحك كي لا يخونه صدره العائم بطبعه ويفلت منه الضحك.

ولم يعد هناك شك لدى آخر المتفائلين فيهم أنهم أصبحوا في مأزق حقيقي، حين بدأ ضوء الشروق يتسلل وينافس ضوء الكهرباء القليل، وهم قد بدأوا الصلاة والظلام كامل. الآن بالاستطاعة القسم أن السجدة طالت طولاً غير طبيعي، وأن السعلات التي بدأت تتكاثر وتتحشرج بها الصدور المحنية لم تكن كلها سعالاً، أكثرها كان علامة تململ.. وتململ لا حل له، فمعرفة ما حدث تستلزم رفع الرأس والاستطلاع، ورفعها نقض للصلاة. فليتنظر إلى أن يفعلها غيره ليكون البادىء، ويكون ذنبه هو ذنب التابع.. وفرق كبير بين ذنب الفاعل الأول وذنب التابع.

استمر السجود إذن حتى انتصر حقيقة على كل ما اجتاح الرءوس من احتمالات أو مخاوف أو ضحكات.

ولأن لا نكتة هنا والضحك الحقيقي لم يبدأ بعد.. فلنتركهم

هكذا ساجدين كل منهم لا يريد أن يكون البادىء بالمعصية.

لنتركهم ساجدين!

إذ هكذا بالضبط تركتهم أنا.

أنا الشيخ عبد العال إمام مسجد الشبوكشي في الباطنية.

أكان لا بد يا «لي لي» أن تضيئي النور؟!

***

أنا قطعاً سبحان فالق الإصباح. النوم في صوتي، فعيوني لا تتفتح إلا حين الوصول إلى «استغاثات» الفجر. أنا.. أنا صاعد سلم المئذنة الأفعواني المظلم. أنا.. مشفقاً على صدري وصوتي من الندى. أنا.. عيناي تقتحمهما البرودة وتغلقهما العادة والاحساس بأداء الواجب وإني إنما أؤذن في مالطة، وإن الأتقياء في الحي قليلون، والأتقياء تماماً يفضلون جامع الأزهر القريب. وإجهاد الصوت لا فائدة منه فماذا يفعل صوتي وسط غابة المآذن المحيطة المزودة بحناجر ميكروفونية يغرق بينها صوتي مهما ارتفع. أنا أنا.. أؤذن لنفسي.. ويكفيني أن الله يسمعني ويعرف أني أؤذن الفرض كما أمر ويغفر لسكان الحي النائم منهن واليقظان.. فنائمهم بمعصية، ويقظانهم لمعصية، والحظ وحده أو لعلها الحكمة هي التي دبرت تعييني في جامع أقامه صاحبه وقفاً من قديم الأزل، تركي كان هو. بالسياط سلب وضرب، واعتقد أنه بالجامع وبضريحه

المقام بجوار القبلة يجني ثمار الدعوات.. ستحمله صلوات الناس جيلاً بعد جيل لتقربه من الجنة. حتى رحلة الجنة تقطعها على أكتاف الآخرين يا.. تركي؟

أنا الخريج الحديث من الأزهر، من صغري أحببت الله وبإرادتي ربطت وجودي بدينه. أكاد أبسم اشفاقاً ممن يتصورون أني دخلته لأصبح فقيهاً ومقرئاً ما دام قد وهبني الله هذا الصوت. أعرف أن صوتي جميل وأني كي أداريه لا أكشف للناس كل جماله.. ولكن ما لهذا اخترت الأزهر، وما لهذا حفظت القرآن صغيراً، ومن ابتدائي مدارس حولت إلى ابتدائي أزهر السبب أعمق.. السبب إلهي.. السبب موقفي من كون ليس فيه ما يستحق الحياة سواه.

أكان لابد يا «لي لي» أن تضيئي النور؟

أكان لابد؟

كم بدا النور باهراً وسط تمام الظلام! مصباح واحد في حجرة السطوح الواحدة هذا صحيح، ولكنه يكاد يضيء الباطنية كلها.. قابعة كمعسكر مزدحم نفق قاطنوه أو رحلوا. البيوت مريضة تتساند، أحشاؤها صغيرة بارزة محشوة كرحم القطط بآدميين. رعيتي ومسئوليتي ـ بالأدق فشلي ـ بالرغبة المستعرة في ايقاظ الله في نفوس تريد أن تنسى فكرة وجوده.

قاتلت! بعد أسبوع ظفرت بأول بارقة.. انتعش الأمل..

استمت. تخلوا عن الوعود الكاذبة والصهينة وبدأ الضيق.. إلحاح آخر.. حمر العيون وبالوعيد جاءوا.. أسمع! خميرة عكننة مش عايزين، وحسابنا في الآخرة نحن عارفين.. والحساب يجمع. بأدبك أهلاً وسهلاً، تدوشنا تاني أنت واللي يصح لك. وبالسليقة عرفت أنهم صادقون، في أعماقهم أيضاً صادقون.. يرغبون في الله حقاً وفي أعماقهم مؤمنون.. ولكن الحياة.. حياتهم لا تحتمل الله الكامل. إما أن يقبلهم هكذا.. وهكذا يعبدونه وإما فلا. لهم دينهم حقاً، الصلاة فيه ركعتا جمعة كل أسبوع، والنهار صيام في رمضان هذا صحيح. ولكن المهم أن من الفطار إلى السحور حشيش، وأيمان بالله ما هو ـ الحشيش ـ حرام: اديني آية نزلت تحرمه. الزكاة معظم أغنيائهم يخرجونها فعلاً، بل إن أحدهم كان عينياً كما أمر الدين، ومن «بضاعته» كان يزكي. والحج تاج على رءوس كبار المعلمين وعلى الأقل يتيح القسم ساعة الصفقات بشباك الرسول. كسبت منهم بالكاد خمسة وخسرت الثقة بأني خير مبشر ومبين.. ثم أدركت أن الخطأ خطئي،وأني قبل أن أهديهم لابد أن أعرفهم أحياناً لأغيرهم، أصبح منهم ليصبحوا مني.. إن لهم لغة أخرى وقيماً أخرى ومفاتيح خاصة بغيرها تبقى دائماً خارج السور والصدور. ومن العزلة هبطت.. إلى القهاوي أجلس، إلى الداعين أزور، لأدير الوجه لما يحملون أو يدخنون. أو يفعلون، بقلبي معهم أرى وأسمع.. وأقترب.

أكان لا بد يا «لي لي» أكان لا بد؟

أم أنـه لابد هي أو غيـرها لابـد! لم أكن قـد عـرفت أن العفـة معـراة إلى هـذا الحـد، ولا طـرأ بعقلي أني رغم حب الله شـاب في الخامسة والعشرين. أنا متبتل، سعيد حتى بالحي الذي كـان قاطنـوه القدامى من طوائف «الباطنية» قد اعتزلوا بالحي دنياهم. . ربما نفس عـزلة سكـانه الحـاليين. في «قعـداتهم» نفس التـأمـل. الفـرق أنهم يتأملون ما يضحك، بينما الباطنيون الأول كانوا يتأملون ما يحب، وما يقود إلى ينبوع الحب. . الله.

لم أفـطن إلا بعـد أن تعـددت المـظاهــر، وإلا بعـد أن لاحت عـلامات رغم كـل حسن النيـة. . لا تقبـل الشـك. قـرأت لهم مـرة فـأعجبهم صوتي واستعـادوني، وأحسست فجأة أني دخلت قلوبهم، وأن المغلقين يفتحون الأبواب، ولم يعـودوا يريـدون مني إلا الصوت والتـلاوة. رفضوا الـواعظ والمبشر والامـام ولم يعد أمـامي إلا صوت يجذبهم لما أريد. الله المجرد صعب، ولتكن البـداية على هـدى آية من آياته.

السميعة بقربي دائماً رجال، ولم أكن أعـرف أن أعداد النسـاء خلفهم أكبــر! وأني مـا أن أبــدأ أقـرأ حتى يشيــع الخبـر في الحي كالموضة، وكالموضة يتزاحمن، ومن صدورهن تتصـاعد مـع وقفاتي الآهــات. متاعب بـدأت. . في كـل أوبـة للمسجـد لا بد من حـرمـة منتـظرة، ولابـد من سؤال أو حجـة سؤال. عيني أبـداً مـا ارتفعت. . أسعـد باقتنـاعهن وأستبشـر. الصـلاة بين النسـاءبدأت، وهن اللاتي

يحببن للرجال الصلاة. سؤال زلزل كياني مرة. من شابة كان..
الاقدام التي تسمرت عيني عليها كانت بالقطع شابة. المشكلة تبوح بها في تردد، ثم بلا خجل تنطق.. الزوج كف من شهور عن معاشرتها! ولا فائدة فإدمانه السبب، وإدمانه موئس، ومحاولاتها فشلت وتخاف الفتنة.. ماذا تفعل؟

بل الأكثر لم تعد هناك أسئلة.. كلها أصبحت اعترافات..

ـ ماذا أفعل وقد راودني الصبي عن نفسي حين أرسله المعلم بالخضار وغلبني الشيطان؟

ـ ماذا أفعل وقد حلمت بك يا مولانا؟

ـ ماذا أفعل وأخي يأتي عميان من سهراته، ومهما فعلت لا يسكت حتى أذعن، وكل ليلة أذعن، وأريد أن أتوب؟ أتقبل من مثلي التوبة؟ على يديك أتوب..

وتمسك بيدي امساكة لا توبة فيها ولا رادع.

الشيطان.

هؤلاء أناس انفرد بهم الشيطان طويلاً وكثيراً.

ولم يعودوا يعرفون طريقاً آخر إلا طريق الضلال.

الشيطان.

حولي وفي كل مكان.. في همسة الحرمة، في النظرة تصوب إليّ من خلفي لاسعة كسيخ الحديد قادمة لتوها من جهنم.فلأرى الشيطان وجهاً لوجه! ولا أعود أغض البصر، أصبحت بعينين واسعتين أحدق، وبما أصبه من خلالهما أنفي من نفسي الخجل والعفة، وبهما قد أصبحت مركز اغراء.. بعيني أنهر، ومن خلالهما أصعق السائلة بنظرة تتفجر بإيمان كثيف يضيق به القلب.

أكان لابد يا «لي لي» أن تضيئي النور؟

ـأنا اسمي «لي لي» ما سمعتش عني؟.

صوبت عيني.. ارتدت نظرتي بصدام مع نظرة أقوى.

بالطبع سمعت عنها. انها نصف اشاعات وأحاديث واستنكارات واستحسانات واتهامات وبراءات أهل الحي.«لي لي» أعجوبتهم بنصفها الانجليزي ونصفها المصري. بشعرها الأحمر الطويل الكثيف وعيونها العسلية المصرية.«لي لي» ثمرة الزواج الذي دام أسبوعاً بين أمها وبين عسكري انجليزي اسمه «جوني» قضى مع «بديعة» الأم ليلة، ولم يفعل كشبابنا «الحدقين» ويكتفي بما أصاب من متعة ويفر. العبيط طلب منها في الصباح الزواج.. وتم.. وبعد أسبوع سافر، وبعدها لم يعد! مات في الحرب! وتكفل هذا الأسبوع الواحد بضمان معاش شهري لم تكن تحلم به «بديعة» ظلت تصرفه من السفارة البريطانية بشيك يأتي من لندن رأساً لمدى خمسة وعشرين عاماً.. معاش هو الذي أجرى في يدها النقود وأغراها أن

تكون «بنكاً» يمول صغار تجار المخدرات في حيها. وفي الحي نشأت ليلى كما سمتها أمها،و«لي لي» كما نادتها جدتها لأبيها وجدها حين حضرا من انجلترا بعد الحرب خصيصاً ليريا حفيدتهما. وكم من مبالغ عرضوها لتتنازل أم «لي لي» عن «لي لي»، وكم استعبطوها وشتموها، وكم رفضت وبابنتها كروحها تمسكت. وعلمتها، ورغم الرجال الطالعين النازلين من عند أمها الجالسين معظم الوقت على عتبة الشقة ـ وأحياناً على عتبة باب الشارع ـ كاشفة كل ما خفي من جسدها لا يهمها من حي هي فيه صاحبة مال، وصبيانها رجال، وعلاقاتها علناً وعلى رءوس المارة والجيران. . و «لي لي» ستعلمها ولآخر المدى. . وستجعل منها ست الستات.

والخواجاية مغرية، فإذا كانت الخواجاية مصرية كان الاغراء أكبر. تعلمت «لي لي» أو لم تتعلم، وتعلمت ولم تتعلم. طموحة كانت، من صغرها وهي تحس أنها أرقى، ولا بد أن تكون الأرقى. . وحتى وهي تعب المشروبات الرخيصة في الكباريهات منضمة إلى الفرق الأجنبية، وتقضي الوقت تتردد على مكاتب ريجسيري الدرجة الثانية، كانت تؤمن تماماً أنها يوماً ما ستصبح ست الستات، وسيسجد لها العالم وتكون أشهر وأمتع امرأة فيه.

ـ ربنا يفتح عليكي وينور لك طريقك.

ـ طب ما تنور هولي أنت ينوبك ثواب!

ـ النور لا بد من الداخل. . من القلب. نورك في ايدك.
ـ أكان لا بد يا «لي لي» أن تضيئي النور؟

أكان لا بد؟!

ـ عايزاك تعلمني الصلاة.

ـ عندي كتاب خذيه.

ـ أنا عايزة درس خصوصي!

ـ أستغفر الله العظيم. . روحي الله يغفر لك ويسهل لك.

انقطع المعاش وجفت النقود. . وكبرت المعلمة ومرضت ولم يعد هناك إلا ما تكسبه «لي لي» من قروش.

أكثر من مرة حاولت تفاديها فكانت تقتحمني. عيونها شرارة كهرباء تخترق الهواء قافزة من قطبها المصري إلى قطبها السكسوني. جمالها طاغ على الحي محرم. بالقوة حاولوا. . بالنقود. . بالزحف على البطون. «لي لي» لا تقرب إلا الأجانب. . لم تكن تقول، ولكنه السر. . سرها الدفين. في النهاية كعهدهم أمام كل مستعص قبلوها كما هي! احترموا أنها ليست لأحد، وما دامت كذلك فهي للكل يحمونها ويوصلونها، أخت الجميع المحرمة المرغوبة.

***

النور.

نافذة من نور ساطع.

عيني لا تحتمل.

النور قريب.

بيني وبينه فقط الشارع.

مجرد عرض الشارع غير العريض.

دائرة المئذنة في مستوى النافذة.. فركت عيني أتطلع.

نظرة واحدة جذبتني كالعاصفة العاتية من قاع الغفوة إلى قمة اليقظة. لا شيء كان ينبهني إلا استغاثتي الأولى. انتباهي هذه المرة انتباه آخر.. انتباه مرعوب.. أنا أمام شيء مروع.

الغرفة بها سرير خشبي مرتفع.. ماذا غيره هناك؟ لا أعرف.

على السرير ترقد امرأة بيضاء. شاهقة البياض، ممدودة بطولها وقد أحنت ساقاً، ولا شيء عليها سوى قميص نوم لا يكاد يكفي لإخفاء نصفها الأعلى.

أول مرة في حياتي أرى ـ فجأة ـ هذا الكم الهائل من جسد امرأة. أفقت لأجد نفسي في منتصف السلم هارباً.. هابطاً ألهث.. ومن أقصى الرعب اندفعت إلى أقصى الغضب.

أنا في شرك!

أنا الذي جاء يطرد من هنا الشيطان، وتضاءلت طموحاته حتى أصبحت مجرد أن يبعد فقط عن نفسه الشيطان. . وعن أوكاره وتنكراته؟ أجد نفسي هذا الفجر في الشرك. . تماماً في الشرك؟ أنا الذي أردت هزيمته في الناس أجري خوفاً من أن يهزمني في نفسي؟

ولكن عذري يا شيطان أنك كنت تعرف أين كنت أنا؟ ولم أكن أعلم أنا من أنت، ولا أين أنت؟. وكم نقشوا على قلوبنا الأخطاء عنك حتى ارتسمت في أذهاننا دائماً رجلًا. . بشعاً، ولم يفكروا أن يقرنوك بالجمال مرة، مع أنك لا يحلو لك التربص إلا محاطاً بالجمال، وإلا على هيئة ست، وإلا في أكثر الأماكن نعومة وإمتاعاً، وفي أحلى البسمات، بل أحياناً في النكتة. . في أروعها تنصب الشباك.

عدت.

ما رأيته محوته من ذاكرتي كأن لم يكن. في عقلي أطفأت نور النافذة، وألغيت الحجرة والشارع والبيت. . بل الحي كله ألغيته. فلتكن حرباً اذن ولتندحر.

يا رب!

استنكرت أن أكون قائلها. . ما هكذا تعودتها وتعودتني. بعد التسابيح الخاشعة فجأة أطلقها حادة مدببة لا نهاية لطولها، تقطع في

ومضة كل مـا بين الأرض والسماء لتصـل اليه في المـلأ الأعلى. من أعمـاقي تخرج وإلى السمـاء تصعـد، مستحيلة من شيء أرضي إلى كائن سماوي. أطلقها قويـة لتحمل كـل ضعف البشر، كـل عجزهم ومحدوديتهم تستغيث بالقادر اللامحدود.

هذه المرة خرجت همساً، لهاثاً، مكبلة بالعجز، لا لتصـل إلى السماء وإنما لتتهاوى من فوق المئذنة وعلى الأرض تموت.

خـائف أنا.. أنـا خـائف! لا من الشيطان خائف.. من نفسي أخاف؟ من نفسي أجل. كم مرة ضبطتهـا من شكوى المحـرومات أو الفـاسقات تصغي بـانتباه وانـدماج أكثر مما يجب. كم مـرة ضبطت داخـل نـظرتي شعـاعـاً من حب استـطلاع مـرة، ومن تلمظ الجـائـع الصائم الراغب في الطعام مرة.

يا رب!

أعني.. نعم أنـا أعـرف.. أحببتـك نقيـاً كـالمـاء الصـافي، وحيـداً.. كأنـك خلقتني وحدي. أعـرف أني كان لابـد أن أمتحن. أعرف أني لو نجحت فسأعرف أني أخيراً بالقبول جديـر.. وسأجعله يا ربي امتحاناً صعباً.

لن أهرب.

سأضاعف الاغراء.

سأنظر.

وسأعاود النظر.

سأرتكب الذنب الأصغر ليتعاظم انتصاري على الذنب الأكبر.

نظرت.

هي «لي لي» بالتمام. هي الشيطان كاملاً غير منقوص. فالاغراء فيها كامل غير منقوص. نائمة هي تتقلب.. جسدها فائر، يغلي، وعلى الفراش وفي دفعات يتدفق. هذا صدرها. هذا شعرها يسيح وعلى موجات يغطي الصدر، والبطن.. وينحسر، وتتقلب!

يا رب.

مستغيثاً صرخت. ليست استغاثة أرض لملأ أعلى، ولا ناطقة بلسان ضعف البشر. هي استغاثتي أنا. كنت قد بدأت أغرق. أواصل النظر لا عن رغبة في المجابهة وتصعيب الامتحان، وإنما عن عجز أن أكف عن النظر. قتل الانسان ما أكفره!

ما أكفرني حين تصورت أني وحدي أقهر الشيطان. وحدك أنت لا شيء. وحدك أنتَ أضعف من دابة، وبالناس وبالله وبما فيك منه أنتَ الأقوى.

يا رب!

راجية مستسلمة دامعة أطلقتها.

الشيطان استولى على بصري وعلى جسد «لي لي» سمره،

وبكل قواه يجـذب ومن بصري يـريد أن يخلع روحي من جـذورها، احس حقيقة بالجذور تتخلخل.

لم أكن أعرف أني بهذا الضعف.

يا رب!

يا سميعي ولا مجيب سواك. يا مدرك عجـزي وأنت القوة. يـا مانح العبد الارادة. يا أنت الذي تعلم ما بي. رحماك.. يا رب.

يا رب!

إن كان بصري قد ضاع فـلازلت أمتلك الصوت والحنجـرة.. بغير أن أسمع نفسي استغيث وأترجى. أنا انتهيت.. فقط ألهج بكل قواي أعتصر العمـر كله وأطلقه مخلصـاً صادقـاً. أرعبتني المفاجـأة، وأذهلني ما اكتشفته في اللحـظة الحاسمـة من تفاهـة ما كنت أسميـه قوتي. بإيمان أصبح وجهاً لوجه في قبضة الشيـطان، بإدراك أن هـذه معركة العمر بها أوجد أو بها أمحى. انطلقت بصوتي أقاتل.. الصوت سلاحي، والصوت أنا، والصوت كل ما تبقى فيّ من ذاتي، والصوت أملي الذي لا أمل سواه.. أن أعود أنا.

ولم يعد أذاناً ما أقوله. لم يعد الكلام المنغم المحفـوظ. كنت استغيث حقيقة وأعرف أن لا مغيث لي سواه، ومنه وحده ولما أعـانيه أطلب الغوث.

يا رب!

هل يرضيك أن نسقط؟ هل يرضيك أن نأثم؟. هل يرضيك أن يتلبسنا الشيطان ويسود؟ أغثني يا إلهي! أدركني! ساعدني! أنا في الهاوية.. من ينتشلني سواك؟

أكان لا بد يا «لي لي» أن تظلي تتقلبين حتى ينحسر القميص إلى أعلى، ويتبدى جسدك تحت وهج الضوء الساطع أبيض يكاد من بياضه يضيء، عارياً تماماً، ملتوياً في الفراش، ناشراً أطرافه، قابضها؟ أي جحيم كان في داخلك! لا يطفئه عري ولا فجر ولا برودة الدنيا كلها!

وكل هذا في النور الساطع.

أكان لا بد يا «لي لي» أن تضيئي النور؟!

***

لم يبدأ الناس يستيقظون لأن صوته العالي أقلق منامهم.. فلا أحد يذكر أنه تنبه من نومه المخدر ضجراً من الأذان المرتفع الذي أيقظه من أحلى منامة. الحقيقة كان الواحد منهم يستيقظ على شعور أن ثمة شيئاً جميلاً رائعاً يحدث حوله ولابد من اليقظة للتمتع به. كان الصوت قد استحال إلى عطر نفاذ أليف امتلأ به جو الحجرة وراح يتسرب إلى أنفه النائم، وبرقة زائدة يتسلل إلى خياشيمه تسللاً ممتعاً، يستيقظ من شدة متعته دافئاً ملتاعاً عميقاً حنوناً.. يسري كالموسيقى الهفهافة المعطرة. يبدأ النائم يعتقد أنه حلم، ولكنه بعد

حين يدرك أنه لا يحلم وأنه استيقظ ومع ذلك لا يزال ينتشي بالصوت الذي يأتيه حقيقة. . لا شك فيها.

يا رب!

كم مرة قيلت، كم مرة تلونت وتنوعت وطالت. . ورقت! كم من المعاني قيلت فيها وبها، كم استعطفت، كم استنجدت، كم غضبت، كم امتعضت، كم تدللت، كم دمعت وابتسمت. . كم جاءت وكأنها آخر الأنفاس، وكم جاءت وكأنها أول علامة حياة، كم صدرت عن طفل وعن رجل وعن خاطىء وعن مستغفر. . وعن تائب وعن مؤمل وعن يائس وعن معلق بين اليأس والأمل.

كلمة. . ولكنها أيقظت الحي كله. حتى من لم تفلح في إيقاظه أيقظه من استيقظ. في أسرتهم وفي أماكن نومهم راحوا يستمعون. ثم وكأنما أصبح للكلمة قوة جذب استخرجتهم من رقدتهم وغادروا بيوتهم بشعور غريب، يشيع في صدورهم لأول مرة شعور طازج محير لم يألفوه أبداً، شعور وكأنهم أصبحوا قرباء جداً من الله وأن الله غير غاضب وأنه رحيم أليف، شعور يملؤهم على الفور بالسعادة، إذ في أعقابه يحسون أنهم وكأنما اكتشفوها للتو يحبون الله، وأن الله يحبهم وأنه جد قريب لم يبق بينهم وبينه سوى خطوة.

وفي الجامع تلاقت الوجوه. . غارقة لا تزال بماء الإفاقة والوضوء. ولأنهم لم يعتادوا التلاقي في زمن كهذا ومكان كهذا فقد

أحسـوا أنهم وكأنمـا يتعارفـون حـالاً، واليـوم فقط يبدؤون. صـامتين مذهولين بالنشوة جلسوا يمتصون بآذانهم رحيق الأذان.. يستعذبـونه، يختزنونه في أنفسهم كما يختزن غذاء الروح ليوم تجوع فيه الروح.

وتحول الجامع إلى مظاهرة. وغادروا مبنى الجامع إلى الخارج ليصيروا إلى المئذنة والشيخ عبـد العال أقـرب.. الكلمة تنـطلق منه فتكاد بما تحتويه تنير حجب الظلام. يتطلعون، يتأكدون أن من يؤذن حقيقة من البشر وأنه بالتأكيد نفس الشيـخ عبد العـال، فالحق أن مـا يسمعونه كان صوتاً لا يمت إلى البشر ولا إلى الأرض وإنمـا هو قـادم مباشرة من السماء.

بل ومن فرط مـا سكروا نشـوة لم يفطنـوا أن الشيخ عبـد العال هبط من المئذنة دون أن يؤدي الأذان الشرعي، شاحباً ممصوصاً كمن نزف الحياة.. صوتاً ومقاومة هبط. انـدفعوا يحيـطونه، بـإشارة أوقف الاندفاع. من فوره اتجه إلى القبلة ونوى الصلاة.

أجل. نويت الصلاة.

أنا الآن أهل لها؟

***

أهل لها فقد انتصرت.. بشائر النصر بدأت حين عـدت أمتلك بصـري. حين استيقـظت «لي لي» من نـومهـا على صـوتي المـدوي المجلجل، وفي الفراش جلست.. مبعثـرة جلست نفس جلسة أمهـا

على العتبة. نحوي سددت البصر مدهوشة.. مذهولة.. ثم مستمتعة بدأت ترنو. أعتصر نفسي أنا.. أهرب منها وأتلوى.. وهي أيضاً تتلوى. أتلوى أنا احتراقاً وتمزقاً وألماً.. وتتلوى هي جذلاً. حتى قامت تنظر من النافذة، وحينذاك تحولت ببصري وأصبح ملكي وعاد لي الوعي. وجدت نفسي حطام بشر.. بقايا حياة.

رفعت عيني إلى السماء ولم أنطق، فقط ملأت بصري بنظرة شكر. أحسست أن شيئاً لي قد حدث.. لم أعد أنا. كان في خزين ايمان قوي ذهب.. قذفت به كله في أتون المعركة.

منتصراً هبطت. مجرحاً. قلت الصلاة بلسم الجراح.

استقبلت القبلة ونويت.

***

ظل السجود قائماً ومستمراً حتى ملأت الشمس الحديثة صحن الجامع. نام البعض، وشخر آخرون، وسرح كل منهم في ملكوته وعالمه، والحجة قائمة وموجودة.. هم في انتظار تكبيرة الشيخ. فوجئوا مرة بضحك هائل غريب.. خشن.. عرفوه للتو. هو معزة الأفيونجي الذي كثيراً ما تطرده امرأته ويتخذ المسجد منزلاً ومقاماً. ضحك استمر حتى نفذ كل ما لدى صاحبه من مخزونه لسنوات طوال مقبلة، وجاء بعده كلام.. كلام فارغ صحيح ولكنه جاء.. شوفوا الناس المساطيل اللي ساجدة وبتصلي من غير إمام.

***

منتصراً هبطت. . مجرحاً قلت الصلاة بلسم الجراح . . استقبلت القبلة ونويت. . فتحت عيني . . كانت «لي لي»في منتصف القبلة نائمة، عارية، مبعثرة، مفتحة، يتموج شعرها على جسدها وينحسر. عفوك يا الهي! فلقد أخفيت عنك الحقيقة. . الشيطان انتصر!

وبينما الجميع ساجدون كالقطيع بعد طول ضلالة، كنت قد تسللت عبر النافذة الملاصقة للقبلة، وفي لمح البصر كنت أدق غرفة الدور الثاني السطوح في البيت المقابل. «لي لي» وقد لفت نفسها بملاءة السرير تفتح. بابتسامة مرعوبة قلت لها وأنا أفك أزرار الكاكولة الأعلى :

ـ جئت أعلمك الصلاة.

انزلقت الملاءة عنها، فضمتها بقوة وهي تستدير توليني الظهر وتقول :

ـ أنا اشتريت الأسطوانة الانجليزي اللي بتعلم الصلاة. لقيتني أفهمها أكتر. متأسفة.

وأطفأت النور.

***

أكان لا بد يا «لي لي» أن تضيئي النور؟!

على وَرق سيلوفان

من العربة هبطت. فاتنة هبطت. نعنش روحهـا الغزل الصـادر من عـابر سبيـل مسرع. دخلت الحـديقة. بتؤدة عبـرتهـا. . السـلالم راحت تصعـدهـا، سلمـة، وسكتـة، وسلمـة. في آخـر سلمـة، اضطربت. خائفة اضطربت.

ماذا لو عرف؟ ماذا لو كان طـول الوقت يعرف؟

ولكن كيف يعرف؟ مستحيل أن يعرف. الهرم بعيد، و «الركن» الذي كانا فيه لا يقصده أحد في الصباح. سائحتان فقط كانتـا هناك، كيف يعرف؟

أمـام كشك الاستعـلامـات الـزجـاجي وقفت. المـوظف العجـور مشغول بمحادثة تليفونية. حدق نـاحيتها مـرة ولـم يرفـع عينه. كـانت تزيح عدسة النظارة السميكة وتتحسسها مربعاً مربعاً. كل مسـاهمته في الحـديث أصبحت: أيـوه. . آه. . أيـوه. . آه. . فـرغ صبـرهـا وسألت. . وضع السماعة في الحال وانتبه. مـوجود؟ أيـوه موجـود. . دقيقة واحدة نسأل، دقيقة، سرحت.

الأبيض مستشر وكأنه وباء يبيض له كل شيء. الوجوه معظمها أيضاً شاحب أبيض. المرة الأولى التي جاءته هنا لا تكاد تذكرها، من سنين طويلة، عشر سنوات ربما..

هذه ثاني مرة، ولولا ميعاد اليوم ما جاءت. المضحك أن الاقتراح كان اقتراحه سهل لها المهمة تماماً. مساكين هؤلاء الرجال ونواياهم الحسنة. أيستحق؟ بالطبع يستحق. ليس هناك رجل لا يستحق، حتى المحبون منهم زائفو العيون كذابون حتى وهم يحبون.

ابتلعت ريقها. لماذا يجف حلقها باستمرار هذا الصباح؟ لماذا جف حتى سعلت وهو يمسك بيدها ويضغط عليها بين يديه؟

انفعالها لحظتها لم يكن أنثوياً خالصاً. لا. كان هناك شيء آخر لا تعرف كنهه. وأتتها فكرة أن تجري. تسحب يدها وتظل تجري حتى تجد عربتها وتنطلق عائدة إلى البيت. البيت؟ يا لها من كلمة مضحكة.

الدكتور موجود في حجرة العمليات يا أفندم. مشغول. ولكنه ينتظرني. بلغوه أني جيت. مش ممكن. قولوا له المدام. المدام؟ سعادتك المدام؟ لماذا سعادتك؟ وماذايدهش في كونهاالمدام؟ لماذا الضجة والوقوف والترحيب المبالغ فيه وبصوت عال؟ لماذا تريد الانفراد بنفسها الآن؟ حلمها مكان قصي ليس فيه أحد. تنكفىء على نفسها فيه وتلقي على داخلها كله نظرة، لتدرك ـ فقط تدرك ـ كنه ما

حدث. وما يحدث. ما هذا الذي يحدث؟

يا افندم، هو يقوم بإجراء عملية الآن فعلاً، وبلغناه الخبر، وطلب أن تتفضلي وتنتظريه في استراحة العمليات. يووه. تنتظر.. تنتظر. لقد عاشت طول عمرها تنتظر. ولا ثانية ستنتظر بعد الآن. ولكن كيف تتصرف واستصحابه والعودة به إلى البيت هو سبب خروجها الوحيد اليوم؟ كيف إذن تعود بمفردها؟ فلتكن آخر مرة تنتظر فيها، آخر مرة، هو أو غيره، آخر مرة.

تفضلي.. تفضلي من هنا. هذا الأرجوازا لماذا لم يكف عن الانحناء واختلاس النظر من تحت النظارة؟ إذن هي من جديد ستنتظره. بحق بحق. هل تكرهينه؟ هل تحبين هذا الآخر؟ حين كنت تحبينه ماذا كنت تفعلين؟ هل تحسين بنفس المشاعر الآن تجاه الآخر؟ لطيف شكله.. رياضي.. طويل.. شعر صدره كثيف كالفروة. عن عمد ـ وله حق ـ يفتح قميصه. أكبر منك بعام فقط بينما هو أكبر بسبعة أعوام. لماذا يطرأ هذا الخاطر السخيف؟ إذا فعلاً خيرت أن يموت أحدهما، فمن تختارين؟ هو؟ الآخر؟ يموت. هكذا بسهولة. ابتسامته العذبة تموت. ذقنه الغزيز؟ غمازتاه؟ يداه الضخمتان الحمراوان من باطنهما، الغامقتان من الظهر بالشعر؟ يداه الضخمتان جداً إذا قورنتا بيديه هو، القويتان.. أصابعهما غليظة سميكة، من الصعب ثنيها؟ أين هذا من يديه هو؟ يديه الصغيرتين إذا انطبقتا حتى لتبدوان كزوج من الفيران الصغيرة، وأصابعه النحيفة التي توشك أن تنكسر. من اليدين تتبدى شخصية الرجل. شبه كبير

بين شخصية الرجل وشخصية سبابته، سبابته هو في طول أصبعه الأوسط، طويلة رقيقة كأنها من عظم كسي بالجلد. سبابة الآخر كماسورة المسدس، قوية دائماً تريد الشيء وتحدده ولا تعود إلا به. لماذا إذن تختاره ليموت؟ . ألأن الزوج هو الذي ينفق ويتيح الفساتين والمتعة والماس، أم لأن العشرة لا تهون؟ أم لأنك لا زلت تحبينه؟ هل لا زلت تحبينه؟ لا تخجلي! اعترفي إن كنت لا زلت. لو لم يكن هناك فمه الواسع المتثائب في الصباح، الجريدة التي يغرز بصره فيها، منظره ببنطلون البيجامة والبيجامة مفتوحة والسروال ظاهر، هذا التجشؤ منه بصوت عال بعد الماء الكثير الذي يشربه! عشر سنوات ومنظره وهو داخل الحمام وهو خارج منه نفس المنظر، نفس الطريقة، نفس الغياب الطويل. عشر سنوات تسمع منه نفس التعليقات عن نفس الأشياء وبنفس النبرات. عشر سنوات تعرف عنه كل شيء، كيف كان يعامله أبوه، كيف دللته أمه، كيف أحب أول مرة، تعرف حتى ماذا يقوله في الساعة الخامسة غداً وبعد غد. لو دق الجرس من طريقته في الدق تعرف ما يريد، وتطلب من السفرجي أن يحضره. البيت! لكم تكره كل ركن فيه، فهي قد رأته آلاف المرات. . موبيليته لم تعد تراها من كثرة ما تعودت رؤيتها، مطبخه يخنقها، صوت أزيز الثلاجة من طول ما سمعته يلسعها ويؤرقها ويملأ جسدها بالشياطين. في التاسعة عشرة حين تزوجت كان الجنة. كان هو أعظم وأجمل وأكرم وأرق رجل في العالم. الخمس السنوات الأولى قضتها لا ترى رجلاً غيره. . الرجال بالنسبة لها لم يكونوا

افراداً، لم تلحظ أيهم ذات مرة كواحد وحده، كانوا كتلة، أهم شيء فيها أنه ـ هو ـ منها.

***

اتفضلي حضرتك. دقائق. حاجة ساقعة؟ قهوة؟ أنا ماشي. حاضر. متشكر. استراحة هذه أم قبر؟ حاولت فتح زجاج النافذة الوحيدة، لا يفتح. جلست، تطلعت، ملابس، بدل رجال. أين بدلته هو؟

هي المطلة من الدولاب.. معلقة بعناية شديدة كالعادة. الأحذية الطويلة الرقبة هذه. هذه الآثار. دماء؟ دم! بشع، جزارين! قامت. دارت. أمسكت بقميص عمليات أبيض دمور رخيص. البنطلون دمور أيضاً. أقذر دمور. الأبيض. لماذا كل شيء أبيض؟ حتى الأحذية الطويلة كاوتش أبيض. ألا يملون هؤلاء الأطباء؟ هي ملت. الملل. أبشع أنواع الملل. الملل من شيء لا تستطيع الاستغناء عنه كأنما تمل من نفسك. عشر سنوات ملل. لن تبالغ.. ساعات وأيام صحيح كانت خالية من الملل، ولكن يوم ملل واحد يجعلك تمل من العام كله. إنه كالسم، أقل القليل منه يقتل. أيكون هو الذي جعلها بدلاً من التجاهل تبتسم للآخر؟ كان قد سبقها إلى العربة بعد جلسة استمرت ثلاث ساعات في النادي لم ينطق خلالها إلا بثلاث كلمات. أين ذهب الكلام من فمه؟ ثاني أو ثالث مرة ترى هذا الشاب يتابعها. هذه المرة تجرأ.. حياها. كان ممكناً أن تزجره ولو بالاهمال.. لماذا ابتسمت؟ لماذا أحس أنها ابتسمت؟ حتى قبل

أن ينطق في التليفون عرفت أنه هو الآخر، وأنه اختار الصباح ليحدثها حيث البيت خال. مغامرة؟ ولم لا؟ كل صديقاتها يغامرن. لماذا لا تجرب هي؟ المهم ألا يعرف أحد. تصنع الدهشة لم يعد يجدي، ولا كذلك تصنع الغضب. انتهت المكالمة مفتوحة.

ثاني يوم، ثالث يوم، رابع يوم، كان صوته هناك. كان الخوف أقل. التطلع لشيء مثير جديد أكثر. بماذا تجيبه لو طلب للمرة المائة أن يقابلها؟

وجدت جرساً. دقت عليه. لم يحدث شيء. دقت أكثر. سمعت أقداماً. ظهرت على الباب ممرضة سمينة جداً وصغيرة في السن ربما لا تتجاوز السابعة عشرة. لا تعرف ما قالته. فقط قالته بصوت عال جداً شحب له وجه الممرضة الملظلظ وانسحبت بسرعة. هدأت.. صفر خاطر مروع كالصرخة الأولى إلتي تنطلق في سكون الليل ونعرف بها أن ساكناً في الشارع مات لتوه، كيف فعلت ما فعلت؟ كيف انساقت؟ كيف سقطت الملكة أيضاً، ولم يعد أحد أحسن من أحد؟ خيانة؟ لا، لم يحدث. كلام مجرد كلام. لقاء، كأنه كلام. والموعد القادم؟ لن أذهب. لا، ليست خيانة. كل الخائنات لا يعترفن. يفعلن أي شيء ويسمونه أي اسم إلا الاسم الحقيقي. كرهتيه؟ اتركيه. أليس هذا ما كانت تردده. الاشمئزاز الذي كان يعتريه جسدها حين تتأكد أن صديقتها أو فلانة هي الأخرى قد سقطت. إن اشمئزازها الآن من نفسها. لماذا هي باردة هكذا؟ أين تأنيب الضمير؟ لكأن شيئاً قط لم يحدث. فقدت حتى الاحساس

بالذنب. أنا لم أجرم.. لو تركته.. ولم أعد أحبه. النتيجة أني فقدت العقل! جنون. أنا مضطرة لإخفاء كل شيء لأن ضميري يأبى عليّ تركه. يموت ما فعلته. اعترفي أنه ادعاء للجنون فأنت استاذة في تعليق كل شيء تفعلينه على شماعة من خطأ الآخرين، أو خطئك. الجنون. الكره. الضيق، حتى حب الاستطلاع، شماعة، مجرد شماعة.

عادت الممرضة السمينة. هبت واقفة.. ماذا يقول؟ مرة ثانية يرجوني.. أمامه نصف ساعة؟ وماذا أيضاً؟ مسكين والله. في قمة مشغوليته يفكر فيّ، يقترح أن أذهب لحجرة العمليات لأتفرج على العملية وأتسلى. يريد تسليتي ولو بحجرة العمليات. هل ممكن أن أذهب إلى هناك؟ ارتدي هذه المريلة وهذا الحذاء وقناع؟ فقط. لا.. أشكرك وأشكره. أنا لا أضمن نفسي. الجراحة تثيرني. صحيح هو جراح أطفال مشهور ولكني أنا أخاف من نقطة الدم. أحسن أنتظر. طبعاً تنتظرين.. وحبذا لو تألمت وأنت تنتظرين. فأنت في الواقع تريدين أن تتألمي، ويكون هو بالذات مبعث ألمك حتى تشعري ببعض من راحة الضمير. هذا الذي طول الوقت رابض داخلك يراقب ولا يتكلم تريدين رأيه وتخافينه. ولهذا تريدين أن تتحركي وتشغلي نفسك عن السؤال باستمرار. السكون مؤلم. الضمير يتكلم حين نسكت. الممرضة لم تبتعد كثيراً. ربما قريباً من باب الحجرة تجلس. لابد أنه هو الذي طلب منها أن تسهر على رعايتها. يدللني كثيراً. لو يكف عن تدليلي. لو يفعل شيئاً يجرحني

ويغضبني ويجنني، حتى لا أحبه لأنه لا يفعل شيئاً أبداً. يا لهذا الاحتكاك الأليف الدائم! الرجل حين شيئاً فشيئاً تتساقط عنه مظاهر الرجولة واحدة بعد الأخرى، الهيبة التي تمضي وتذهب، الأسد وهو يتحول إلى جرو يؤثر السلامة ويقنع بوضع ذيله بين رجليه. بشع هذا الاحتكاك الدائم الأليف! المرأة المطلوبة المشتهاة التي لا يلقاها أحد إلا بميعاد واستعداد، حين تصبح بضاعة حاضرة في متناول كل ليلة وكل لحظة. بطاقة تموين عائلية تصرف في كل أسبوع مرة! الحب.. من رغبة متأججة إلى واجب كزيارات رد الزيارة، كالتعازي في المآتم والتهاني في الأفراح. لابد أن طول الاحتكاك هذا يجعل الرجل أقل رجولة، تعديه أنوثةالمرأة وتظل تؤنثه أكثر وأكثر، ولابد أنه هو الآخر يعديها برجولته فتسترجل أكثر وأكثر، ويكادان في النهاية أن يتقاربا ويصبحا بطول الزمن وكأنهما من نفس جنس آخر ثالث.

هل تترك نفسها تموت؟ هي تموت. هو يموت. كل شيء يبهت.. يموت ويبهت. حتى الألوان نفسها تتلاشى وتموت وتبهت ولا يبقى سوى ذلك اللون المستشري الواحد.. الأبيض، الأبيض. الأسود، هناك شيء أسود، حذاء أسود، حقيقة حذاء أسود، بين الدولاب والحائط محشور، طويل الرقبة ومحشور. قامت.. بيد ممتعضة أخرجته. لا دماء عليه. صغير هذا «البوت»، فلتجربه. خلعت حذاءها، أدخلت قدميها، ارتدته. أما من مرآة ترى نفسها فيها؟ فتحة الضلفة المواربة. وهنا مرآة أيضاً. لم يبد الحذاء بشعاً. طويلاً يصل إلى ما دون الركبة بقليل ولكنه جميل وغريب. تمشت،

استدارت. ادارت عنقها بقوة لترى كيف يبدو من الخلف. انتقل بصرها فجأة إلى المريلة البيضاء المعلقة ومنها إلى الحذاء. إلى المريلة! ومدت يدها، ارتدتها وفتحتها إلى الأمام كالبالطو. فطنت للخطأ، قلبتها، أمسكت بالفتحة من الخلف وضمتها بيدها بشدة، ظهر وسطها، نفر صدرها رغم صدر المريلة الواسع. إلى اليمين واليسار خطت. أصبح منظرها في المريلة والبوت أهم ما يشغلها. حزام.. تريد حزاماً.. اسمعي يا! جاءت اليا. الحزام رباط شاش. عقدت لها الحزام. الرباط عريض، منظره كحزام رائع. ثبتت المريلة بزرار من أسفل الرقبة. برز صدرها أكثر. أجيب «الماسك»؟ نعم، هاتي القناع، والله فكرة. غابت ثانية، عادت، حاولت ارتداءه بمفردها، لم تعرف.. تركت البنت تفعل. نظرت في المرآة فجأة. يا للروعة! عيناها مدهشتان من خلال فتحة القناع كأنها لأول مرة تراهما. شكلها طبيبة، طبيبة رائعة الجمال. لا فرق! حلمت يوماً أن تكون طبيبة، فشل الحلم، ربما لهذا الشبب فضلته. يجنن هذا الزي، يجنن. حضرتك ح تروحي أوضة العمليات؟ أنا؟ توقفت. تذهب؟ أنا بخاف م الدم. مفيش دم أبداً دي حاجة نضيفة خالص. تذهب؟ ترى ماذا يقول وهو يراها هكذا؟ لم يتمالك نفسه، سيجن. كلما ارتدت شيئاً جديداً رغم ثقتها من امتعاضه الباطن. ففي الظاهر يجن ويطري ذوقها، وأحياناً لا يتمالك نفسه نفاقاً ويقبلها. حتى النفاق أنا في حاجة اليه. أذهب. بجوارها تمضي السمينة، يدها اليمنى مدلاة، فيها دبلة. حتى هذه الأخرى مخطوبة! الزواج لا

يصلح إلا للحمقى والمفلسين فهو قلة حيلة. لمثل هـذه البنت نعمة فهي بغيره حتماً الخاسرة. لمثلي أنا جنون. الـرجال تحت أقـدامي، في متنـاول أصبعي وحسبما أريـد. هو أيضـاً جـراح مشهـور، ورغم جسـده القصير النحيـل وسيم. وألف مريضـة وألف حكيمة وقـريبـة وزائـرة وبنت عـائلة يتمنينـه. ليتـه في مـوقفي. على الأقـل أستمتـع بكوني المظلومة. أجد مبـرراً كي أبكي وأشكو وأخـون أنا الأخـرى. ولكنـه دائمـاً يفعـل الصـواب، حتى اطـراء النسـاء لـه يعيـده أمـامي ليغيظني أو يبعث غيرتي . . . ليته! انما بدافع من ارضاء ضميره. ربما

شيئاً خاصاً، سراً حبيباً، أكتمه، أخاف أن يعرفه أحد. أعـود أكذب، أختلق الحجج والمناسبات، أنتظر، أستمتع أني على الجمر أنتـظر. لأعش أولاً، وليحرقوني بعد هذا ساعة الحسـاب فأنـا لا أعيش.. لا أعيش.

***

تفضلي! مؤدبـون جـداً هؤلاء النـاس. أدب القـرود لابـد. ستنتظرني هنا، فالدخول بالنسبـة اليها محرم. أأدخل وحـدي؟ وماذا فيهـا؟ الدكتـور هـو اللي أمـر، ومـا دام أمـر مين يقـول لأ. أتنـافقهـا بالتضخيم في منزلته؟ دخلت.

للحظة ضاعت. أين تنظر؟ كان مفـروضاً أن يكـون على الباب ينتظرها. فتشت، الغرفة واسعة جداً تصلح صـالوناً لسراي، أو صـالة معيشـة كبيرة مـدهشة. في الـركن الأقصى هناك كميـة أبيض كثير لا تخطئه العين، متجسدة على هيئة أشباح بيضاء كثيرة. داخل الأشبـاح منضدة ملحق بها أجهزة كثيرة خضـراء وبنية، ومن طـرفها يـطل رأس أسود صغير مغطى بالشعر.. رأس طفل لابد. يا للبشـاعة! أكـل هذا التجمـع ينهش في لحم ذلك الـطفل؟ الجـو قابض قـاتل، الـرائحـة خانقة لا تحتمل، رائحة ماذا؟ فينيك؟ يوسول؟ أحماض لا تعرف لها أسماء؟ أم صبغة يود؟ أم هذا كله معـاً؟ أم هي بالـذات رائحة اللون الأبيض؟ يـا لبشاعتـه حين يتحـول إلى رائحـة! لمـاذا لم ينتبـه أحـد لدخولها؟ لماذا هم متزاحمون حول الصبي المسكين، صامتـون ذلك الصمت المستمر المريب، وكأن مؤامرة تدور؟

بدوار قليل بدأت تحس. أتخرج؟ أتصرف النظر عن المفاجأة.. مفاجأته؟ ولكن مفاجأته مهمة، ستستغرقه تماماً وتستغرق أسئلته ولن يلتفت أبداً إلى مغادرتها البيت من ساعتين مضتا، فلو حتى عن طريق الخطأ سألها لانهارت وقالت كل شيء. إنها لم تتعود أن تكذب. لا عودة إذن، فلتستمر.

انتظرت.. نط عقرب الدقائق في الساعة المثبتة في الحائط عدة مرات. كل مرة بدقة لها دوي وسط بحر السكون الشامل. لابد أن هناك خطأ ما. المجموعة واقفة كما كانت وكأنهم صورة فوتوغرافية لم يتغير فيها وضع ولا يتحرك داخلها أحد. لم يلتفت واحد إلى الباب وهو يفتح، ولا ناحيتها، ولها زمن تنتظر وما ألقى أحدهم بنظرة. ماذا تفعل الآن؟ إنها تريده أن يراها عن بعد فمنظرها بالمريلة و «البوت» عن بعد أفضل، وشيء فيها صغير لا يزال يحاول أن يأسره، رغم كل شيء لا يزال فيها شيء يحاول أن يأسره. كيف تلفت بصره والصمت لا يجرؤ شيء ولا مخلوق على خدشه؟ صمت يبدو كصمت الصلاة خدشه حرام. تسير؟ خطواتها حتماً ستجذب الانتباه. سارت.. بلا صوت سارت رغم محاولاتها أن تحدث بسيرها صوتاً. قطعت أكثر من نصف المسافة.. لا صوت. البوت اللعين من المطاط والأرض مطاطية لعينة هي الأخرى. مهما دقت وخبطت فلا صوت.

قطعاً حين تصل سيفسحون لها مكاناً، لتختر حينذاك المكان المواجه له مباشرة. وصلت. حتى التومرجي الذي يروح ويحمل

أشياء وينقلها ويعود بأخرى لم يلق ناحيتها نظرة. لا بد حسبوها طبيبة لا تستدعي التحقق أو تلفت الانتباه. قريباً من طرف المنضدة وقفت. عيونها تتفحص الواقفين من خلال فتحات أقنعتهم. لا عين من عيونهم أخطأت ورنت بنظرة. تنحنحت أيضاً. كأن شيئاً لم يحدث. أين هو فيهم؟ لا أحد من الموجودين جميعاً يشبهه، فأين هو؟ أيكون هذا الواقف في الوسط منهمكاً في شيء أمامه؟ بالضبط هو. رغم الطاقية ذات الحافة والقناع، فقد عرفته من أذنيه. هو ذا إذن، والباقون حوله لا حراك. مدت يدها تعدل المريلة وتضبط فتحة القناع، استعداداً للحظة التي يرفع رأسه المنحني فيها ويقع عليها بصره. قطعاً سيهلل للمفاجأة حتى لو كان هنا، فهو يلقاها دائماً بترحاب من لم يرها من عام.. حتى لو كان غادرها من ساعة. الدقائق تمضي ولا ينظر، لا يحرك عيناً عن البقعة المثبتة عليها عيناه. تنحنحت مرة أخرى. غمغمة.. سمعت غمغمة لا مجاملة فيها: اللي عايز يكح يمشي يطلع بره يكح. صوت من هذا؟ أيكون صوته؟ ألم تعرفه لأنه منحن ويتحدث من خلف قناع؟ أم لأن هناك شيئاً آخر.. بالتأكيد ثمة شيء آخر. يا.. وجدت نفسها تهتف. كانت تظن أنه ما أن تفتح فمها حتى تستدير الأعين كلها لتراها. حين لم يتحرك أحد.. حين ظل الصمت ثقيلاً رابضاً لزجاً حتى لتكاد إذا مددت يدك تلمسه، خانتها شجاعتها. لم تكمل النداء، سكتت، تبلدت ملامحها وسكتت. أتراه عرف؟ أيكون التجاهل عن عمد؟ لو فقط يكف هذا الصوت المنتظم، لو تكف الحشرجة.. حشرجة لها وقع كأنها حنجرة ذات جسد يزحف على أربع، وبين كل نقلة لساق

من سيقانها ونقلة وقفة، وتعود تـزحف. الرائحـة القابضـة تجثم على الصدر توقف حركته، تمسك الهواء أن يدخله، وتمنعه أن يخرج. ماذا أتى بها؟ مالي ولحجرة العمليات التي يدوشوننا بها في سهراتهم هؤلاء الأطباء والجراحون؟ هذا هو العالم الذي يقضون فيه ساعة إذن ويجعجعون بما حدث فيه ألف ساعة. لها حق إذا كانت تكـره العمل وحديث العمل، هي وكـل صديقـاتها. مـا يكاد الـرجال يبـدؤون فيه حتى تكون البدايـة اشارة البـدء لهن. الحلقة تتكـون وبسرعـة مذهلة تتفاهم. من يراهن لأول مـرة يحسبهن شقيقات معـاً نشأن، وبعضهن لم يعـرف الآخر إلا من لحـظة. قبيلة الإنـاث تتجمـع، شفـرة النـوع الـواحد بينهم كـالسحر تسـري، متـراثيـات متحـاسـدات متـذاكيـات متغابيات، أبداً لا يختلفن، ولا صوت لهن يرتفع. بالعكس كل دقيقة أخرى ينخفض الصوت ويصبح التفاهم أشمل، وبالأزياء كمـوضـوع لجس النبض يبـدأ الحديث، وينخفض وهـو ينتقل إلى فـلانـة وكيف تلبس وفلان وكيف يلبس فلانة؟ وينخفض الحديث أكثـر اذ لابد قـد وصـل الاتفاق حـد النـميمة وتبادل آخـر أخبـار الفضـائـح، وينتهين بحـديث لابد يخـدش الحيـاء ولهـذا يقلنـه همـسـاً. ويـظل الهمس المتــوافق المنسجم يخفت ويخفت حتى يستحيــل الـحــديث إلـى اشارات وغمزات وقد أصبح التفاهم تاماً وكاملاً، بينما الـرجال العبط قد أخذتهم الحماسة، ودب بينهم في الحـال مهما كـانوا أصـدقاء أو أقارب الخلاف، وبالاختلاف والزعيق ينتقلون من العمل إلى مشـاكل العمل، إلى السياسة بالطبع، إلى الخناق. فلابد أن لأحدهـم رأياً يخالفه فيه الآخر بشدة، ويأبى تمـاتمـاً الانتقـال إلى موضـوع آخر، ولا بد أن

تضيع الليلة وكل منهم يحاول افهام الثاني أنه الأذكى والأصح. العمل! زمان كانت تغار منه، تعتبره كالزوجة الأولى صاحبة النصيب الأكبر. تحول مجرى الحديث إذا حاول هو جرها اليه. وكيف لا تحوله ومعنى اشتراكها فيه اعتراف بشرعية «الضرة» وحقها في ساعاتها هي؟ الساعات التي يقضيها معها في البيت والمفروض أن تكون خالصة لها. كثيراً ما سمعت الثناء عليه حتى من حساده.. عن شطارته، عن نبوغه، تبتسم مجاملة وقد تعلق بكلمة. إنها في أعماقها كانت تتمنى لو لم يكن له بالمرة عمل، لتصبح هي عمله الوحيد الأوحد. ولكن هذا كان أيام الحب زمان. في السنين الأخيرة لم تعد تغار، بل أصبحت تشجعه على العمل أكثر. العمل أكثر يعني دخلاً أكثر. النقود أهم وليس مهماً كيف يأتي بها.

فجأة شعرت بغربة. هنا لا مكان لها. شيء في صدرها كالروح المختنقة يرفرف. شتان بينها الآن وبينها من ساعة مضت حين كانت حواسها تتدغدغ تحت وقع حديث الآخر الرخيم المتعمد البطء. عما فعلت به، عن عيونها حدثها، عن جلدها ونعومته طال حديثه، عن رقبتها، عن.. عن شفتيها، عن شعرها المنساب انسابت كلماته، عن قوامها وجسدها وعذوبة روحها والرجل السعيد الحظ الذي يملك هذا كله مضى يتكلم، وهي تقشعر لوقع كلماته. وربما لهذا بدأ يتصاعد بحديثه خطوات أخرى.. ألفاظه بدأت تتعرى، لمساته طالت، الجرأة في عينيه بدأت.. بدأت تشع وقاحة. خدودها هي أيضاً بدأت تلتهب ونبضها يسرع. الخوف، الخوف بلا سبب،

راح كالشهب يتساقط ويغور في صدرها ويصنع حفرة بالغة العمق لا قاع لها. مرعوبة صارت ولم تعد تحتمل. الآن تذهب، في الحقيقة تهرب.

جسدها يسخن لمجرد أنها تتذكر. هو لايزال لم يلتفت، يتركها هكذا صامتة ساكتة. الشيطان يتحرك حين نسكت. لو ظلت هكذا ساكنة ساكتة فلن يكون لتفكيرها حد. ستسبح كما يهوى الشيطان ويريد. ستندم على المقاومة التي ظل جسدها يبديها لكلمات الآخر ولمساته، ستضيق بهذا الصوت الذي يهتف لها.. لا،لا، لايمكن، مستحيل، الموت أهون. لماذا لم تستسلم كاملة للحظة المتعة؟ لماذا حتى بكلماته بدأت تضيق؟ للمساته تقشعر انكماشاً ورفضاً؟ بالموضوع كله تستسخفه وتنفر منه؟

تحركت.. اقتربت من الرأس الأسود المسجى وعلى فمه وأنفه قناع التخدير المتصل بالجهاز. رئة الجهاز صغيرة كرئة الصبي. الولد قمحي، شعره غامق السواد لامعه، ملامحه نائمة. صعب عليها! هو ذا الصبي إذن الذي استمر حديثه عنه وعن رئته ساعة وهي تتثاءب ولا تفقه من حديثه حرفاً، غير مهتمة أبداً أن تعرف. كلمات تطن في أذنها عائدة.. أخطر عملية، الأولى في الشرق. لا مناص، لو لم أقم بها مات. هو الآن يفعلها. ماذا بالضبط يفعل لا تجرؤ على النظر. إلى مستوى عينيها فقط نظرت.. سيدة هي لا تشك، الواقفة بجواره تناوله الآلات قبل أن يطلبها، سيدة.. صغيرة في السن ولكن يا لذكائها! تتابع ما يفعله وقبل أن ينطق تكون قد

استعدت بالآلة التالية. غريبة هذه الآلات، معقدة! يبدو أن الجراحة ليست مجرد مشرط وملقط.. شيئاً فشيئاً تخفض رأسها إلى أسفل. لا دم! إلى أكثر.. لادم! مرة أخرى. لاشيء! قطعة قماش مبللة بسائل باهت كماء البطيخ.. ولا شيء! لا، إنهما قطعتان بينهما فاصل كالخندق المحمر، أيكون هو الجرح؟ أجرح بلا دم؟ نظيف كأنه مبطن بجلد داخلي؟ كم تخدعنا الكلمات! على أية حال لم يخرج عن حدود الأدب.. احترمني وقدر شعوري، وربما إذا لم أره طعنني في ظهري! كسبه أحسن. أروضه حتى يذهب بريق الرغبة في عينيه.. ويحل بريق الهيام. قادرة أنا، وليكن اختباراً لمقدرتي.. وعلى أسوأ فرض لو حدث شيء رغماً عنا.. أو رغماً عني! فسيكون درساً أول وأخيراً لا أطمئن بعده لأحد.. حتماً سأعرف. وجهه صريح يظهر رغباته، وبمجرد أن يفكر سأعرف، وفي الوقت المناسب.. أهرب. وإلى أن يحدث أنا أتسلى، أقطع الوقت، أحيي قلباً لم يعد ينبض.. فلأتسل. لماذ ببطء ببطء يعمل؟ له ساعة وهو يدخل أصبعين في الخندق ويرفع الرأس إلى أعلى ويتحسس شيئاً في الداخل. يا لطول باله! يمرضني طول باله! وهو يخلع ملابسه، قطعة قطعة يساويها ويعلقها ويظل دهراً يجيء ويروح، ويروح ويجيء حتى من الغيظ أنام، وما أكاد أفعل حتى أشعر به يسحب الغطاء ويمد يداً ناحيتي أبادر بدفعها.. من لحظات وبلكاعته ذهبت رغبتي. أنا الآن جثة. أصرخ. جثة.. يرضى بالجثة. ما إن أصير أحيا وينتفض فيّ دم طال عليه الركود حتى يكون هو قد أفلس. لم

يكن أبداً كذلك. معاً كنا دائماً. الآن افترقنا. أنا افترقت. هو باقٍ لا شك.

- عرق. .

دوى الصوت، انتفضت، لم تفهم. . في آخر لمحة أدركت أنه صوته. . لابد صوته. . ما هذا العرق؟ آلة جديدة؟ تعبير طبي؟ بدأت تفهم. «السستر» بجواره تختار شاشاً مطبقاً بعناية من مجموعات الشاش بجوارها. دون أن يحرك وجهه أو يستدير تتخلع هي «السستر» وبكل دقة وحرص حتى لا تلمس بأصابعها جبهته تجفف عرقه. عيناه لا تريان أو تشعران بما تفعله، كأنه لأول مرة يعرق. . في البيت لم تره أبداً يعرق. دائماً هو مستريح جداً، مثقل الجفون تماماً، لا يتحرك من مكان لآخر إلا بدافع حياة أو موت. كيف تطيع هذه المرأة بجواره أمراً يصدر بهذه الطريقة الحادة الباترة، كالسبة، وحتى من غير «من فضلك»؟ لو كانت هي اصدر لها أمراً بهذه اللهجة لصفعته. إنه اهانة وليس أمراً. الغريب هو صوته، رفيع كما تعرفه، لا يرن كصوت الرجال ولكن فيه أشياء أبداً لم تكن فيه.

- امسك كويس. . إذا فلتت ح أحط المشرط في عينك.

قال هذا وصوب عينيه أمامه مباشرة إلى حيث المساعد. عينان رأتهما بزاوية ولكن حتى نظرته من الجانب تبدو مختلفة. مائة في المائة ليست نظرته. هذه تملكها شخصية طاغية آسرة لا تملك إلا طاعتها. نظرة كأنها لرسول مؤمن برسالته إلى حد الجنون والبطش،

مليئـة بالثقة وكأنها تصدر عن فيض من امتلاء النفس بالثقة. . إن لها شهراً وأكثر لم تر عينيه ولم تحس أن له نظرة. نظراته دائماً كقطة أليفة تتبعهـا، توجههـا حيث تشاء. . من خـلال عينيهـا يـرى. عينـاه حين تـواجهها دائمـاً مـا تكـون البـادئة بـالانسحـاب وقصـر الشـر. نـظرة تشفق على مـا تحفل بـه من مسكنـة دائمـة، وكـأنـه الـطفـل يـذوب باستمرار، وباستمرار يطلب الغفران.

لابد أنه يمثل أمامها، يريد اغاظتها. هنا مملكته وعبيده وهنا لا بأس من مزاولة سلطان مؤقت أمامها. ولكن كيف عرف أنها أصبحت بالحجرة، ومذ دخلت لم يرفـع عينه عن مكـان العملية ولا همس في أذنه أحد أو أخبره؟

لا هو، ولا الموجودون جميعاً، لا أحد شعر أو يشعـر بها. هم في ملكوت آخر، هم قد امتصهم شيء مذهل محير ألهاهم حتى عن أنفسهم وعن الزمان والمكـان. . وأيضاً عن الآخـرين. ما هـذا الذي يدور؟ هي لا ترى شيئـاً، لا ترى إلا أصـابعه وهي غـادية رائحـة من الجـرح. . إلى الآلات. . إلى الجرح. لا شيء هنـاك سوى أصـابـع تتحرك في قفازها المطاطي، أصابع طويلة نحيفة مركبة في يـد ملساء صغيـرة تعرفهـا أيضاً. مـا هذا المعجز فيهـا الـذي يمتص وعي هؤلاء الناس وانتباههم، كمـا لو كـان أعظم عـازف كمان في العـالم يعزف والأنفاس معلقة بأنامله؟

ـ لا. . قلنا إبرة أرفع.

وطار ملقط مركبة فيه ابرة فوق الرؤوس، وسقط على الأرض غير بعيد عنها. دق قلبها في عنف.. من الشخطة قبل أن يدق من السقطة.

ماذا حدث له؟ لم تره هكذا أبداً. إن شخطه مرعب.. على الأقل يرعبها. إنها لا تخاف من الرجال إلا شخطاتهم فقد عاشت طول عمرها مدللة ملفوفة بورق سيلوفان، يتناولونها بحرص، وبحرص بالغ يربونها ويعلمونها.. ويعاملونها. وما عليها إلا أن ترغب وليس أمامهم سوى اجابة الرغبة.. لم يقل لها أحد في حياتها.. لا.. لم يشخط فيها أحد.. حتى هو، كانت الرقة تذوب من صوته إذا تحدث اليها. لماذا يشخط الآن هذا الشخط المرعب.. الشخط الذي يجعلها تحس بالذعر، وبأنه رجل آخر غريب تهابه، تحس أمامه أنها فعلاً امرأة ضعيفة خائفة؟ ما هذا الاهتمام الصارم المركز على وجهه؟ لم تشهده حتى وهي تناقش معه أخطر ما دار في حياتهما أو يدور؟ وما هذا الاهتمام العظيم الذي يبديه الآخرون بأصابعه.. أصابعه الدقيقة ويده الصغيرة التي تشبه الفأر؟ لا يمكن أبداً أن تكون هذه أصابعه. إنها يد وأصابع مختلفة تماماً. هذه كائنات رفيعة طويلة أخرى بالغة الحذق والنشاط تلتف على بعضها البعض، تستدير، تنحني، تلتقط، تلضم، تخيط، تمسك، تجفف، تتفرق، تتجمع، تتحسس، تتداخل، تندس، الآلات في قبضتها تتحول كائنات حية، وكأن أصابعه تتشكل على هيئة الآت. لا يمكن أن تكون هي نفس الأصابع التي ما رأتها إلا

مسترخية، أو مغطية فمه المتثائب، أو حتى إذا نشطت فإنما تنشط لتعبث ـ في أحيان نادرة ـ بشعرها هي، وكأنما تؤدي واجباً مدرسياً، أو لتضغط على أذنها وكأنما لتقرصها حيث لا تدري ماذا غير هذا بوسعها أن تعمل. بالتأكيد ليست هي أبداً الأصابع التي تعرفها ويثير مرآها بعض اشمئزازها.. هذه أصابع تتعلق بها الأنفاس ولابد أنها تقوم بأخطر عمل.. فالصمت المخيم ليس صمت مؤامرة أو ضجر. إنه صمت الترقب الأعظم وكأن في الحجرة تدور مغامرة كبرى، الخطأ الصغير فيها قد يكلف حياة. من المحتم أن الصمت المقدس هذا يخيم على معجزة تحدث، وهو الذي يقوم أمامهم وأمامها بالمعجزة، وهو «بتاعها». أهو «بتاعها» لا يزال؟ هذه النظرة المحددة الثاقبة التي تنفذ في أعماق مساعديه ومن حوله من الرجال فتهز أعماقهم، هذا العرق الغريب الذي يبدو لفرط نظافته معقماً طاهراً، هذا الوجه الذي لم يستطع حتى القناع الشامل أن يخفي الشخصية الطاغية التي تملكه، هذه الملامح التي يسيطر عليها تماماً، المحددة متى وكيف تتحرك، هذا «هو» لم تره أبداً، «هو» آخر لا يمت اليها.. هو مخيف، مرعب، ذكر. رجل يمثل ما لم تحس به كرجل وهو في قمة مزاولته للرجولة معها. أمامه وعن عمد تضع الآخر في مواجهته، بشعر صدره، بيديه الكبيرتين، بذقنه الغزير، بقامته. غير معقول هذا أبداً غير معقول! إنه يتضاءل، إنه يصبح أقل شباباً وأهمية. كل ما فيه من مزايا وخصال تذوب وتتلاشى كفقاعات من صابون أمام هذه الارادة الحديدية التى لا تقهر، والتي تنبعث منه هو

وتـأمر الحيـاة في أعماق الطفل المـريض أن يستيقظ، أن تنشط، أن تبـدأ وتستمر وتـظل حية مستمـرة. كادت تبكي. . لم يتضـاءل الآخـر وحـده، هي نفسها بـدأت بكـل رغبـاتهـا وغيـظهـا، بكـل أحـلامهـا وضيقها، بكل دلالهـا وأنوثتهـا تتضاءل. . تتضـاءل، وهو يكبـر ويكبر وتحيطه هالة مقدسة لا تجرؤ على خدشها حتى بـالنظر، هـالة الـرجل وهو يعمل، هالة لم ترها أبداً، وما كان مقدراً أن تراها لـولا الحجة. والمضحك أنها حجة لخداعـه. . الدمـوع تجمعت فعلاً في عينيهـا. إن كل ما تتمناه الآن أن يحادثها هذا الرجل المقدس أن يعترف أمـام النـاس أنها لـه زوجته، وأنـه لمروع أن يعتـرف بهـا فعـلاً كحبيبتـه. غفرانك وعفوك! لو تسمح لي بتقبيل يـديك الصغيـرتين وكل أصـابع من أصابعك! لو تسمح لي بتقبيل أقدامك! يا الهي وأنت الاله الآن. انحنت فعلاً ونظرت أسفل المنضدة تـريد أن تـرى قدميـه، تريـد أن تـرى كل شيء فيـه من جديـد. عرفتهمـا. . رغم «البـوت» والـرقبـة الطويلة فهذة العزيزة أقـدامه. اعتـدلت، أحست بالقنـاع مبتلاً حـول أنفها وفمها، كانت الدموع تتكون بسرعة وتنهمر، وكان بصرها مضبباً ولم تعد ترى وكأنها في حلم من ضُباب، رأت الباب وأسرعت وكأنما تنقذ نفسها. وعند الباب وقفت، ومن خلال فتحته الـزجاجيـة راحت تجفف دموعها وتكمل النظر. . يـا لَصوتـه وهو حتى يـأتيها غيـر آمر، وهو يشرح لـزملائـه ما يفعله. كـل كلمة منـه تستثيرهـا وكأنهـا لمسة حبيب راغب. . حتى سكوته مثير وهائـل. في حنجرتـه زئير رجـال، في حنجرته أسد هي أمامـه غزال لا حـول لها، والحجـرة غابـة، ولو

بحاجبه . . بمجرد حاجبه أشار، لطاوعته في الحال هنا وأمام الملأ .

انتهت العملية وبدأت اجراءات حمل الطفل. أزاح قناعه إلى أسفل وخلع قفازيه، كذلك فعل مساعدوه وزملاؤه وهم يحضرون اليه يصافحونه ويهنئونه. وجهه حافل بابتسامة لا حدود لسحرها. ثم من أين جاء هذا الاكتفاء، هذه السعادة كلها. . كيف طفرت من ملامحه؟ سعادة أكثر بكثير من أيه ليلة حب قضياها معاً، حتى وهما في شهر العسل؟

وأحست، فجأة، أن قلبها بدأ يغوص.

أكبَر الكبَائر

لا يخيفنكم الاسم فالقصة* نفسها تميت من الضحك، ولو أن محمد حسين حين يرويها لا يضحك أبداً، ولا يرى فيها ما يبعث حتى على الابتسام. بالعكس، يتهدج صوته كثيراً حتى يكاد يبكي وفي أحيان يسأل السامع، إن كان السامع من العارفين أو المتنورين، سؤال المستغيث، أن كل ما فعله وما يزال يفعله حراماً، وهل ممكن أن يدخل النار بسببه؟ وحقيقة كان محمد يفاجأ حين يجد السامعين يضحكون، ويغرقون في الضحك، ولا يكفون إلى الآن عنه.. محمد من هؤلاء الفلاحين الذين يطلق عليهم نساء القرية «الجدعان» لا من الجدعنة، ولكن من حداثة السن والعزوبية وخلو البال.

(*) «لهذه القصة قصة، لقد كتبتها ونشرت بجريدة الجمهورية في أغسطس ١٩٦٣ ولكني نسيت أني كتبتها فلم تضمها مجموعة آخر الدنيا أو لغة الآي آي أو النداهة، ولولا الصديق الناقد صبري حافظ وسؤاله مؤخراً عنها وعن سبب اهمالي لها ما تذكرتها، ولولا الصديق الناقد عبد الرحمن أبو عوف وأرشيفه الكامل لوجدت صعوبة شديدة في العثور عليها إذ حتى كنت قد نسيت العام الذي كتبتها فيه، فإليهما وبكل العرفان أهديها.

ولكنه جدع ولا يلبس جلباباً من السكروتة، وعمره ما جلس على قهوة، ولا ذهب أبداً إلى البندر. . فلاح من هؤلاء الفلاحين الذين حملوا عبء اخضرار بلادنا لسبعة الآف عام أو تزيد، فهو مهما اشتغل في الغيط لا يتعب، ومهما نام لا يستريح، ومهما أكل لا يشبع، وأبداً لم يرتد في حياته جلباباً، فهو دائماً بلباسه وفانلته وفوق الفانلة صديرى لم يحل لونه فقط، ولكن انمحى «وجهه» اللامع تماماً وبقي على البطانة الدمور، والفانلة متآكلة مثقوبة في أكثر من موضع، واللباس به رقعة غير جيدة الصنع فقد صنعتها له أمه، وأمه نظرها ضعيف وتزهق من لضم الابرة.

ولكن محمد على أية حال شاب في الثامنة عشرة وإن كان يبدو في الثامنة والثلاثين، وله أيضاً كل نزوات الشباب، بل ويعرف البصبصة، ويغني أحياناً، ويلقح بالكلام على البنات إذا عملن معه في الحقل أو ضمته واياهن ماكينة الطحين. ولكن تجاربه في الحقيقة بدأت مع الحيوانات، كل الحيوانات من الماعز إلى الأبقار والجواميس، وانتهت إلى المشهورات جداً من النساء، أولئك اللاتي يقعن بمجرد وقوع النظر، بل أحياناً بالسمع . . ولم يكن أبداً في حياته يحلم بما حدث، بله أن يحدث في يوم صيف حار كافر كهذا اليوم، قضى كل صبحه يجري خلف حمار «القنادلة» الذين يعمل عندهم، حاملاً نقلات السباخ إلى الغيط البعيد، وقد أتم الثلاثين نقلة أي ما يوازي بلغتنا نحن الستين كيلو متراً قطع نصفها جرياً وراء الحمار، ونصفها الآخر راكباً اياه تكاد سلسلته الظهرية العجفاء

البـارزة تقسمـه إلى نصفين، ركـوبـة أسهـل منهـا بكثيـر الجـري أو السحل. . في ذلك اليوم عطش واستبد به العـطش إلى درجة أصبـح يحلم فيها بالماء، ومن شدة ظمئه نفى من خاطـره أن يشرب من بيت القنادلة، فالماء لـديهم يحتفظون بـه في البلاليص وهـو دائماً سـاخن ودائمـاً فيـه عكـار. الشـربـة الحقيقيـة لا تكـون إلا من بيت الشيـخ صديق، ومن زير أم جاد المولى النـظيف ومائهـا البارد المقـطر الذي تضـع فوق فتحـة زلعته شـاشة بيضـاء تمنـع الـواغش والغبـار، ويـرد منظرها الروح. هكذا صمم محمد وهو يلكز الحمار الكسـول وينخره ليسرع به إلى أول البيوت حيث بيت أم جاد المولى.

وما يكاد يطل من الباب وتتعود عيناه رؤية ما يغلفه شبه الـظلام في الداخل حتى تسمر محمد في وقفته خجلاً واحتراماً وأدبـاً. . فقد وجـد أم جاد المـولى تصلي وبالـذات تركـع، وقد أعـرض جسـدهـا بطريقة لـم يملك معها محمد إلا أن يقف خجلاً واحترامـاً وأدباً. ولم تطل الصلاة فسرعان ما جاءت التحيات، وحين التفتت بوجهها لتسلم زادت من التفاتتها لترى من الواقف. وعافى عليها محمـد وسألهـا إن كانت تسمح له بشربة ماء؟ وهزت أم جاد المـولى رأسها مـوافقة دون أن تنطق بحرف واحد فقد كـانت تتمتم بختام الصـلاة. وأشارت إلى الزير الذي كان محمد من فوره قد توجه اليه وأمال الزلعة وملأ الكـوز وشـرب. . شـرب كـوزين، وارتـوى. أحس بجسـده يلهث من فـرط الـري والاكتفاء، وأحس أنـه مـدين لأم جـاد المـولى أو كمـا تعـودوا تسميتهـا الشيخة «صـابحة» لا لأنهـا زوجـة الشيـخ صـديق ولا لأنهـا

تصلي وتداوِم على الصلاة ولا تسلم عليك مرة إلا وقد أحاطت يدها بثوبها حتى لا تنقض الوضوء،ولكن لأنهادوناً عن النساء جميعاً كانت تفضل أن تلف رأسها بطرحة بيضاء. أحس أنه مدين للشيخة صابحة بدين كبير حاول أن يرد بعضه، فسألها وهو في طريقه إلى الباب إن كان باستطاعته أن يؤدي لها خدمة؟ وقالت الشيخة أم جاد: كتر خيرك يا خويا. . كتر ألف خيرك.

وكاد يدلف مسرعاً إلى الخارج ليلحق بالحمار الذي تركه ومضى، حين سمع كلمة: بس! والتفت خلفه ليلمح ابتسامة أم جاد المولى المعسوجة قليلاً والتي لا تظهر من خلالها سوى أسنان قصيرة، ويجدها تطلب منه في تردد إن كان باستطاعته أن يصنع لها معروفاً ويرفع بلاص الماء الاحتياطي ويدلقه في الزير الذي انخفض ماؤه. بس كده؟ وبجذبة واحدة رفع البلاص، ودون حتى أن يسنده على حافة الزير أمامه ومضى الماء يخرج من فتحته على دفعات ضخمة هادرة.

في ذلك الوقت لم يلحظ محمد أن الشيخة صابحة ترمقه للمرة الأولى منذ أن دخل البيت، وفي الحقيقة لم تكن ترمقه كله كان بصرها مستقراً على ساقيه السوداوين المجرحتين بالشقاء والملبدتين بالشعر، وليس على ساقيه بالذات بالدقة على ذلك الشيء الذي انتفخ فجأة في سمانة كل من ساقيه وهو يشب ليسيطر على البلاص ويصبه. شيء بدا صلباً وكأنه كتلة حديد قد تكونت من تلقاء نفسها تحت الجلد، شيء لا يمكن أن يحدث أبداً إلا من جسد رجل، وهو

شيء ليس غريباً على أم جاد المولى فلزوجها الشيخ صديق شيء مثله. ولكن سيقان زوجها هزيلة رفيعة كالبوصة، إذا شب أو سار تصلبت سمانتاه أيضاً ولكنه تصلب لا ينتج إلا كتلة صغيرة مفرطحة لا تكاد تظهر من الجلد. ولم تكن تلك المرة الأولى التي تعقد فيها أم جاد المولى مقارنة بين زوجها وبين أي رجل تراه أو تلقاه، فلها سنين وهي تعقد تلك المقارانات.. بالضبط أربع سنوات منذ هذه الطوفة التي جاءته وجعلته يبدأ يغالي في التدين وصلاة الضحى والتراويح ويسهر الليالي في الموالد يذكر ويجعل من نفسه إماماً للذاكرين، ويؤمن بتلك الطريقة الدمرداشية ويتروحن ويحدثها عن الوصول، والسادة والأولياء والامام الغزالي وكبار الواصلين ويفرض عليها الطرحة البيضاء والسبحة.

في الحقيقة لم تدهش أم جاد المولى لهذا التحول، فالشيخ صديق طول عمره نحيف ضعيف خفيف الصوت شاحب اللون قليل الطعام كثير نوبات حرقان القلب والمغص، لا يقطع فرضاً، ولا يؤذي نملة. حتى في صباه كان الشبان جميعاً يكتفون بارتداء طواقيهم وهو وحده الذي ينفرد بالتعمم عليها. ولكنه كان فلاحاً خبيراً بالفلاحة يحب الأرض والزرع ويجن شغفاً بالمواشي ويفرح بولادتها ربما أكثر من فرحه بولادة الابن، والقراريط التي يزرعها دائماً فيها خضرة أو شيء لا يزرعه الناس. ولكن تلك الروحنة لم تأته إلا من أربع سنين لكأنما كانت و «بلوغ» ابنهم اسماعيل على ميعاد، وكأنما جاءت ليصب هو نقمته عليها لأنها لا تصلي، فإذا صلت ظل يواصل نقاره حتى تصوم «الستة» ولم يتركها إلا وقد ألبسها الطرحة البيضاء، وهي

قابلة على مضض الضيق أول الأمر بكل الهلوسة التي اجتاحته وعلى تركه للأرض مهملة لا تجد من يعتني بها ويسقيها، وعلى إهماله لها وللدار ولكل شيء، وتفرغه تماماً لنوبات العبادة التي تبدأ مع العشاء ولا تنتهي إلا بعد الفجر حيث يصلي وينام للضحى، ويروح منهم «دور» الماء في الساقية، ويعطش القمح وتفضى سنابله، ولا يصح لهم من الفدان إلا أردبان. .

قابلة على مضض الضيق أول الأمر، ثم على مضض الصابر، ثم على يأس المستسلم، ثم على محاولة للتروض وللوصول إلى عزاء لا أكثر وطلباً للسلوى. ولكن نوبات النقاش والمناكفة ومحاولة تذكيره بترك المسبحة جانباً وامساك الفأس كثيراً ما كانت تراودها وتجعلهاتعقد بينه وبين غيره من الرجال المقارنات أمامه وخلفه، ولكنها المرة الأولى التي تعقد مقارنة بين سمانة رجله وسمانة إي رجل آخر.

كل هذا لم يلاحظه محمد، وحتى لو كان قد لاحظه لما فهمه. كل الذي لاحظه حقيقة أنه وجد أم جاد تقوم فجأة وتأتي لتقف بجواره أمام الزير وتمد يدها تريد انتزاع البلاص منه وهي تقول: عنك انت يا خويا بقى. . كفاية عليك. . زمانك تعبت.

وهو يجذب البلاص ناحيته ويتشبث به: والله أكبر كلمة لا يمكن. . تعبت ايه هو ده اسمه كلام؟

ـ والنبي يا محمد الهي يخليك لشبابك. هاود بس!

ـ واللي نبي النبي لا يمكن.

وجذبة إلى هنا وجذبة إلى هناك احتك كوعه بطرحتها البيضاء

فأزاحها قليلاً، واحتك ذراعه بذراعها وفانلته بثوبها وبالذات سمانة ساقة بجانب ساقها.

وفجأة دق قلب محمد وكأن أحدهم ساهاه وقذفه فجأة في الترعة، فقد أحس ـ هكذا ـ أن الشيخة أم جاد المولى امرأة. لم تكن جميلة ولا صغيرة ولا تعوج القمطة، بل لونها كزوجها يميل إلى الصفرة، وعيناها صغيرتان، وصوتها ناعم مسلوخ وكأنما يخرج من فتحة في ظهرها، ورائحتها كلون رائحة طرحتها بيضاء ذلك الأبيض الشاحب الرمادي. ولكنه أحس بها كامرأة.

كيف أحس بهذا رغم طرحتها، والفرض الذي كانت من هنيهة تؤديه؟ رغم ابنها الأفطس الأنف الذي يحوم حوله ذباب خاص دائم والذي لا يمكن أن تصدق أن أمه امرأة؟

كيف أحس بأم جاد كامرأة، ومن المسئول عنه؟ لا يعرف. وحين وجد شاش الطرحة من الشد والجذب ينزلق من فوق رأسها، ثم يراها ويرى رأسها ووجهها بشعر وبلا طرحة.. حين رأى هذا أحس أن كل شيء قد انتهى، وبدلاً من أن يمسك بأذن البلاص مباشرة لف ذراعه ـ بلا خبث أو تدبر، بالغريزة ـ وراء رقبتها، وقبض على البلاص بقوة، فأصبحت هي بقوة أيضاً في حضنه.

وحاولت أن تتملص قائلة: أوعى بقى نقضت وضوي يا شيخ..

ولكنه لم يفعل إلا أن شدد من التفاف ذراعيه ليجبرها على السكوت التام، ولحظتها لم يكن يريد لها أو لنفسه أكثر من مجرد

السكوت التام والثبات، مجرد الثبات على هذا الموقف. .

وكانت كلمتها التالية: لا لا، أنا في عرضك. . الشيخ صديق زمانه جاي.

وقال لها بصوت مبحوح متحشرج وكأنما مصدره صراخ داخلي ينبع منذ الأزل: هو فين؟

فقالت: زمانه بيصلي الضهر وجاي.

فقال: أمال وقتيه؟

فقالت: بعد العشاء.

وارتجفت ركب محمد وكأنما غشاها زلزال لم يلبث أن اجتاح صوته فقال بشفة عليا ترتعش: هو مش حا يكون هنا؟

فقال: لا، حداه الليلادي مولد.

وفي نوبة جنون حاد ضمها محمد حتى كاد يحطم ضلوعها، ورفعها ودار بها هي والبلاص فرحاً، أكبر وأعظم وأروع فرحة مرت بحياته.

***

وعلى السطح، سطح كبيت الشيخ صديق نفسه، كمعظم البيوت، كله فتحات ومساقط وصوامع وقش وأرز وحطب وغرابيل قديمة وأسلحة محاريث صدئة وسحالى. . على هذا السطح كان الميعاد. . وبرغم خوفها الشديد ورعبها، ورغم سبها لنفسها وتفكيرها ألف مرة في الاحجام، إلا أن أم جاد وضعت لمحمد سلمها الناقص

بضع سلالم المصلوب بحبل، وجلست تنتظر، وألف هاتف تطالبها بالقيام وسلاسل من حديد تربطها إلى المكان. قوة قاهرة كالزمن والأقدار تجعلها تصم آذانها وعيونها عن كل شيء وهاتف، وتمضي تضع السلم أو تحبك الطرحة البيضاء وتدلك وجهها بقطرات اقترضتها من ماء الورد وتفعل هذا كالمنومة كالمسوقة إلى قدر محتوم.

والغريب أن محمد لم يستعمل السلم أبداً في صعوده إلى السطح، فالسطح لم يكن عالياً، وبقفزة واحدة كقفزة جن كان قد صعد الحائط الواطي. ولم ير جيداً، فهو لا يجيد الرؤية بالليل ولا حتى بالنهار، وعيونه لا ترى إلا إذا دعكها، وإذا دعكها احمرت، وإذا احمرت رأى الصومعة صومعتين، وفي الحقيقة لم تكونا صومعتين، احداهما فقط كانت كذلك، والأخرى كانت أم جاد. وقد رأته ورأت حيرته ولكنها قبعت في مكانها ساكنة لا تتحرك ولا تفتح فماً. وبدلاً من أن يبدأ محمد بحثه عنها قبع هو الآخر بجوار الصومعة من ناحيتها الثانية، ولو ترك العنان لنفسه لدخلها واختبأ فيها، فقد كان خائفاً جداً، خائفاً من الشيخ صديق أن يعود فجأة، ومن الله أن يغضب، ومن الجيران أن تحس أو تعرف. ولكنه رغم ذلك الخوف كان الدق الذي في قلبه دق فرح، فرح غامر دافق حينما زهق من معرفة سببه قال لنفسه لابد أنه الحب الذي يتكلمون عنه، فهو لأول مرة في حياته يواعد امرأة في بيتها وتواعده لا عن طمع أو من أجل بضعة كيزان أذرة تشويها، ولكن من أجله هو فقط ومن أجل

سواد عيونه، رغم أن سوادها أبيض بما فوقهما من سحابات تمنع الرؤية، وحتى لو كان أعمى كلية وكانت أم جاد مشلولة تماماً لالتقيا في تلك الليلة، فكل ما فيه كان مرهفاً إلى كل ما فيها مشدوداً اليه بقوة لا يمكن أن يوقفها ظلام أو تحول بينه وبينها صوامع أو حطب..

وكان لقاءا هو بنفس الفانلة واللباس وبوجه خشن حافل بالبقع والثقوب، وهي بجسدها القصير الأصفر صفرة لا سبب لها ولا تفسير، وبابتسامتها المتدلية إلى ناحية تدلياً لم يلحظه محمد ولم يره فقد كان مشغولاً عنه تماماً، عقله مع الخوف من عودة الشيخ صديق والله والجيران، وجسده مشغول تماماً بجسدها، وكلاهما واقف، وكلاهما يرتعش، والدنيا مظلمة ظلاماً ليس فيه بارقة أمل.

ومن بعيد جداً، وكأنما من بين النجوم جاءهما صوت الشيخ صديق وقد بدأ يمسك بحلقة الذكر ويلعلع، وعلى وقع لعلعته المتقطعة التي لا يمكن التمييز بين كلماتها كانت أجساد الذاكرين تتمايل، وتتهدج الأصوات الخارجة من صدور تخفق بالخوف والأمل، بالمعصية والحاجة، بالارادة والاستحالة، بالصبر الشديد وطول ضيق البال.

وتقريباً، وعلى نفس الوقع بدأ سقف البيت المعرش بأشجار وسدد يهتز، ويخفق خفقات كنبض القلب، كلهث المحموم، بلا معنى وبلا هدف إلا أن تظل تخفق، وتظل الأفرع تزيق وعيدان الحطب وقش الأرز توشوش وتتغامز وتسري بينها الاشاعات الصوتية

والهمسات الآثمة. صوت الشيخ صديق المنغم نفس نغمة صوت محمد وتمايل الأجساد وتمايل الأعواد، وتهدج أصوات الذاكرين وتهدج أصوات الملتقين، نغمة واحدة تكاد تشمل الكون كله، وعلى وقعها خفق وعلى وقعها مستمر يخفق، أما السحالى فقد توقفت ذلك التوقف الغريب الذي يحدث لها أحياناً، توقف تام وكأنما ترد به على الحركة الكونية الهائلة من حولها، وتشاهده وتشهد إذا لزم الأمر عليه. لم تتحرك إلا هناك حين بدأت أصوات الذاكرين تضطرب، وبدأ بعضها يرطن بالسريانية ويصل ويغيب عن الوجود، والحركة أيضاً تغيب عن السقف، وتموت الهمسات والاشاعات في مهدها على أطراف عيدان الحطب.

***

وفقط كانت تلك هي المرة الأولى، ولم تكن أبداً الأخيرة. فقد عرف محمد الطريق إلى بيت الشيخ صديق، وبالذات إلى سطح البيت وكان مستحيلاً أن يكف عن التردد عليه. كان كلما سمع الشيخ صديق يؤذن أو يحيي مولداً أو ليلة يترك ما في يده ويتجه إلى البيت وبقفزة واحدة كان يصبح على سطحه، ودائماً وهذا هو الأغرب كان يجد الشيخة صابحة هناك بنفس طرحتها البيضاء وكأنها وصوت زوجها على ميعاد.

وفي تلك الأيام بالذات كان الشيخ صديق في أسعد حالاته، فقد كفت زوجته تماماً عن مناقشته الحساب وتذكيره بالفأس والأرض

واكتفت بإلقاء نصائحها لابنها جاد الذي بدأ هو يخرج الفأس من مكمنها ويسرح بها الغيط، بل الأكثر من هذا أنه بدأ يلاحظ أن زوجته قد أصبحت شيخة بحق وحقيق كما يناديها الناس، ففي صلاتها إخلاص حقيقي، وفي دعواتها إلى الله أن يغفر لها ما تقدم من ذنوبها وما تأخر تبتهل بصوت خارج من أعماق نفسها، ولم تعد أبداً في حاجة إلى أن يذكرها بالنوافل أو توزيع الحسنات.

وهكذا ترك لنفسه العنان وارتفع آخر حاجز كان يحول بينه وبين التفرغ كلية للتبتل والوصول، واستبدل السبحة المائة التي كان يسبح بها بسبحة ذات ألف حبة، وعدية يس كان يقرؤها كل ليلة وفي كل مساء أيضاً لابد من ذكر. وكلما تطور الشيخ صديق في وصوله وانغماسه واندماجه وتفرغه، كان محمد هو الآخر يتطور ويتهور حتى إنه كان يذهب إلى سطح البيت مرتين في الليلة أحياناً أو حتى في النهار. بل تطور الأمر بمحمد إلى الحد الذي جاء عليه وقت أصبح مجرد سماعه لصوت الشيخ صديق وهو يؤذن أو وهو يضرع مستغيثاً في مولد يجعله يحس بذلك الشيء في جسده يدق وينتشر الدم الفائر يعمي عينيه.

ولكن التعود كالزمن يقتل الأشياء، وبالتعود لم يعد محمد شديد الحماس لترك ما في يده كلما سمع صوت الشيخ مناجياً أو مستغيثاً بعيداً عن الدار ويقفز إلى سطح أم جاد، بل ربما نوبات قلة الحماس تلك التي أصبحت كثيراً ما تنتابه، هي التي بدأت تحل

عقدة لسانه وجعلته مستعداً لفتح مكنون قلبه ومكنون سره ـ ربمـا سره الأوحد ـ لأصدقـائه، ثم لمعـارفه، ثم بنـاء على طلب السامعين حتى أصبحت القصة كلها كمصير أي سر معروفة مشهورة لا تضر أحـداً أو تجـرح أحداً، مثلهـا مثل أي كـلام، كل الفـرق أن محمد في نهـاية حكايته كان صوته يتهدج ويمتلىء بالتأثر إلى حد يـوشك أن يستحيـل معه إلى بكاء وهو يتساءل: ترى.. هل حقيقـة سيدخـل النار جزاء ما فعل؟

***

ومن نـاحيتنا كثيـراً ما تـداولنا نحن الصغـار القصة، وكنـا حين نـأتي إلى النقـطة التي تهم الصغـار كثيـراً، نقـطة الجنـة والنـار ومن سيدخل ماذا؟ كنا نؤكد لبعضنا البعض ونجمع بكلمات عالية بـاترة أن اللذين سيـدخلان النـار حتماً همـا محمد وأم جـاد.. ولكن.. ربما هذا الاجماع الغريب هو الذي كان يجعلني أفكر في الأمر بيني وبين نفسي أكثر، وأكاد أضحك على هاتف ساخر عربيد كالبلياتشو ينتصب أمامي فجأة ويؤكد لي ويقسم أن الشيخ صديق هو داخل النار حتمـاً، ومن أوسع الأبواب.

العُصفور والسِّلك

اختار أعلى بقعة وحط*. كانت سلكاً. . مكاناً بين عمودين من سلك تليفون. مخالبه تشبثت برفق. هبت الريح وصفر السلك. . تمايل، تشبث أكثر. هو لا يكف عن الحركة، والحركة عنده مفاجئة، فجأة تأتي، فجأة تحدث، فجأة تبلغ أقصى المدى. فجأة شقشق، فجأة تلفت، فجأة رفرف، فجأة صوصو. انتشى فجأة، طار، حام، حوم، حط، تشبث، تلفت. على مقربة لمح الأليفة، رفرف، رفرفت. اقترب، اقتربت. صوصو، شقشقت. حك المنقار بالمنقار، حكت. أمال رأسه، أرقدت رأسها فوق رأسه. انتشى، نط. بالقفزة أحب بالقفزة هبط. بالنشوة تبرز، بصقة براز أبيض لونت السلك.

السلك صدىء قديم غير سميك. يحمل في هذه اللحظة بالذات ـ وفي نفس الوقت ـ سبع مكالمات معاً. لا شيء في الظاهر يحدث، في الداخل تدور عوالم وأكوان. . سلامات، احتجاجات،

(*) كتبت في مايو ١٩٧٠ ولم تنشر.

تحيات، صفقات، وداعات، استغاثات، أرض تباع، بلاد تباع، أصوات غلاظ، صوصوات رقيقات، تختلط الكلمات، تتمازج، تتوحد، كلها في النهاية تصير ـ مادياً ـ الكترونات. شحنات متجانسات، متشابهات، كلمة الحب لها نفس شحنة البغض، كهارب الصدق هي كهارب الكذب، الصراحة كالنفاق، اللوعة كاللعنة، الليل كالصبح كالنهار، الحرام كالحلال، النضال كالخيانة كالكفاح، البطولات كالنذالات. كلمات! شحنات! الكترونات متحفزات متحركات! في ومضة بحركتها تتغير مصائر، تجهز مشاريع، تنتهي وتبدأ حيوات واتجاهات. ومضات وتتم موافقات، وتبرم صفقات، وتدبر مؤمرات، بالكلمات، بنفس الكلمات الطيبات.

والسلك قديم صدىء صامت داكن، لا ينم مظهره عن شيء مما في داخله يعتمل ويدور، ولا يبدو منه أو عليه أقل تغيير، مستمر في وجوده الظاهر الطويل الممتد.

والعصفور متشبث بالسلك، بمخالبه البريئة يمسك بهذا كله ويحتويه، في ملكوته الخاص يحيا، لا يدري حتى بأن السلك سلك، بله بأن ما يسري فيه يسري فيه. إن هو إلا مكان عال للوقوف. وقوف كلما فرغ صبره منه فجأة يتقافز، يرفرف، يشقشق، يطير، يحوم، بالقفزة يزاول مع وليفته الحب، وبنفس القفزة يهبط، وبالنشوة يصوصو، وبالنشوة خالي البال يتبرز، بصقة براز صغيرة بيضاء على السلك، نفس السلك، كالزمن، كالصدأ تتراكم.

الرّحلة

أنت وأنا ومن بعدنا طوفان* لا تخف! سنرحل حالاً، سنرحل إلى بعيد بعيد. إلى حيث لا ينالك أو ينالني أحد. إلى حيث نكون أحراراً تماماً نحيا بمطلق قوتنا وارادتنا وبلا خوف. لا تخف! لقد اتخذت الاحتياطات كلها. لا تخف! كل شيء سيتم على ما يرام. أعرف أنك تفضل اللون الكحلي. ها هو البنطلون إذن. ها هي السترة. بالتأكيد ربطة العنق المحمرة فأنا أعرف طبعك.. لست بالغ الأناقة نعم ولكنك ترتدي دائماً ما يجب، ما يليق. سأساعدك في تصفيف شعرك. أنت لا تعرف أني أحب شعرك. خفيف هو متناثر وكأنما صنع خصيصاً ليخفي صلعتك ولكنه أبيض كله سهل التمشيط. بيدي سأمشطه. بعدها وبالفرشاة نفسها أسوي شاربك. حتى هذا النوع من الشوارب أحبه. هكذا رأيتك مئات المرات تفعل، وهكذا أحببت كل ما تفعل. كل ما أصبح لك عادة، حتى كل ما يصدره كنزوة. أتعرف أني فرحان فرحة لا حد لها. فرحة الإقدام

(*) هذه القصة بالذات كتبت في يونيو ١٩٧٠.

على أمر لن يعرفه سوانا. لست مريضاً هذه المرة وأستصحبك كالعادة إلى طبيب، ولسنا في طريقنا لزيارة أقارب مملين. فليظل الأمر إذن سراً بيني وبينك.

باب المصعد يغلق.. من أسفل يسحب. لابد أن أحداً في القاع ينتظر. لا يهمك أرح جسدك.. اتكىء عليّ ولا يهمك. ما أكثر ما اتكأت عليك أنا، ما أكثر ما حملتني وأنا صاح ومدعي النوم، فقط كي تحملني، كي أحس أني على كتفك أنت أستقر وأن ذراعك هي التي تحوطني وأني أشعر بالأمان.. أحلى وأعذب وأمتع أمان. اتكىء ولا تخف، ولينظر لنا الداخلون إلى المصعد بريبة، وليظنوا بي أو بك الظنون. إنها أول مرة نراهم فيها وآخر مرة. البواب سهل أمره، بيدي وبالنصف ريال يا عم عبد الله افتح العربة. ها هو يجري ويسبقنا. ها هو يساعدني في اراحتك على المقعد. الآن استرح واجلس. ضع ساقاً فوق ساق كما يريحك دائماً أن تفعل. أشكو من ضيق عربتي الصغيرة ومن طول ساقيك، فلكم أحب دائماً أن أبتسم لك وأسمع. المارش والفيتس والأول.. العربة تنطلق. الثاني.. غادرنا الشارع. الثالث.. نلف حول الميدان. وحدنا أنت وأنا والعربة تستقيم وتنطلق. لقد نجحنا! بضربة حظ جبارة نجحنا! والعربة ها هي بنا أخيراً، ووحدنا، تنطلق.

تعرف أنها ليست المرة الأولى التي أجلستك في عربتي وأسوق أنا، ليست الأولى التي ننفرد فيها معاً، ولكنك لا تعرف أني هذه المرة أحس بحق أني لأول مرة ربما أكون معك.. بكل كياني معك،

ولك، بكل كيانك لي ومعي. الآن لا شريك لك فيّ ولا شريك لي فيك. أنت لي تماماً كما أنا لك. والأجمل أننا ـ تصور ـ سنظل هكذا إلى الأبد.

الشوارع مزدحمة، الناس محيط، العربة جزيرتنا، العيون تنصب كزواحف ديناصورية رهيبة تقتحم الجزيرة، تملؤها، تغرقنا، تلتهمنا. يا سيدة، يا عانس، انظري أمامك. ألم تري أبداً شاباً يسوق بجواره رجل يرتدي بدلة كحلية ورباط عنق محمر. أأعجوبة هي. أظاهرة؟

يا خسارة! الاشارة أغلقت، النور أحمر، الحمرة طالت، امتدت، أصبحت زمناً. الزمن يحمر ويتوهج، الزمن يحترق، اشم رائحته.. رائحة جلد آدمي يحترق.. جلدي أنا. الأصفر يومض، الحريق يلتئم. الأخضر، السهم المنطلق الأخضر، النور المخضر يمتد يصبح مساحات.. زرعاً ونباتاً وأشجاراً. النور يحيا، يتجسد، يزهر. الأصفر، اللا أحمر، الأصفر قمح، القمح يتماوج، الموج يعلو، قمم الأشجار تتمايل، رأسك أيضاً يتمايل. أنت موافق اذن؟ أنا سعيد. أحسب أنك تهورت الآن مثلي أو أنا تعقلت مثلك. صغرت أنت أم كبرت أنا لا أعرف، ما أعرفه أن كل ما أردته فيك وأردت أن أكونه، هأنذا الآن فيه. كل ما كرهته لم أعد أكرهه. كل ما كان يعجبك فيّ قد أصبح بمعجزة يعجبك،تريد أن أكون أنت، وأريد أن تكون أنا، تطابقنا وها نحن نطير، وبالعربة وبك أطير، ألامس الأرض وأطير، أتلوى جذلاً وأسوق. أنت لا تعرف كيف

تسوق، أنت من جيل القطار. . القطار الذي لا خيار فيه، لا تختار إلا عبوديتك، أنا من جيل العربة، الحرية عربة، الرأي عربة، وحدك تحدد متى وأين، وحدك تعدل، تمضي، تلف، تدور، النهاية في يدك لحظة تريد.

ـ قف. .

لابد أن نقف؟ نحن في طريقنا إلى خارج المدينة، وهنا تفتيش. نعم يا سيدي، البطاقات. هذه بطاقتي، وهذه رخصة قيادتي. من هذا؟ أين بطاقته؟ أنا بطاقته. ألا ترى أنفي من أنفه؟ حواجبي لها استدارة حواجبه؟ عرقي حتى له طعم عرقه؟ شكراً يا سيدي العسكري، شكراً! جميل شاربك والله العظيم جميل.

لننطلق! وقد أصبحت بطاقتك. أحبك وأنا مسئول عنك، نفس حبي لك وأنت في طريقك إلى النوم، وأنت في طريقك إلى اليقظة، أحبك عائداً من العمل، متعباً، نخلع عنك الحذاء والجورب، ونضمخ أنوفنا الصغيرة برائحة أقدامك، ونفصل أصابعك الملتصقة تعباً ووقوفاً عن بعضها البعض، وأتولى أنا توزيعها على اخوتي وأختص نفسي بالأصبع الأكبر.

ولكن ألذ من الذكرى الحاضر، وألذ من الحاضر أننا كالسهم ننطلق. طبعاً أنت لا تريد أن تعرف إلى أين، متعتك الكبرى مثل متعتي أن تفاجأ. انك لا تعرف. . المعرفة قيد، طبعاً في رأيك المعرفة قيد، المعرفة وصول، وأنت وأنا لا نريد أن نصل. أنا

شخصياً باستمرار أريد أن أبدأ، حتى نهايتي أريدها بداية، فأنا لا أحب النهاية.. النهاية سخف وضيق أفق. ما أروع أن نبدأ دائماً، وأن نبدأ بأن نبدأ، وأن تكون البداية بداية لبداية أجد وأمتع.

رجل بوليس آخر يقترب. كشك. أنا لا أخاف شيئاً ما دمت معي. أنت الوحيد في الدنيا الذي كنت أخافه.. كنت دائماً هناك في بيتنا تربطني، تشدني أنّى اذهب، ألف وأعود وكان لي في بيتنا جذر. الآن جذري معي. أنا النبات الذي تحرر وانطلق. رجل البوليس يشير، بيده كالسيمافور الأبيض والأسود تشير. لم أضق قبلاً برجال البوليس مثل أن أضيق بهم الآن. لماذا هم كثيرون؟ لماذا دائماً يقطعون الطريق؟ أفندم! الرقم والرخصة والبطاقة. أفندم! لماذا تمد أنفك في العربة وتتشمم؟ وتبلغ بك الجرأة أن تسأل؟ لماذا يا سيدي لا أشم رائحة، لا رائحة هناك. أين هي الرائحة؟

وداعاً يا سيدي يا ذي الأنف الطويل وداعاً.

بالطبع هو لا يفهم.. كيف يسمي رائحتك رائحة.. هو لا يعرفها، لا يدرك انتماءها اليه مثلما أدرك وأحس أنا. تطابقنا تماماً أيها العزيز حتى أصبحت رائحتك نفسها هي رائحتي.

الآن أنا في حاجة إلى سيجارة. ألا تلاحظ أننا لا نختلف وأنك لأول مرة توافق أن أدخن أمامك؟ لماذا كنا نختلف؟ لماذا كنت تصر وتلح أن أتنازل عن رأيي وأقبل رأيك؟ لماذا كنت دائماً أتمرد؟ لماذا كرهتك في أحيان؟ لماذا تمنيت في لحظات أن تموت لأتحرر؟

مستحيل أن أكون نفس شخصي الآن الذي يدرك أنه حر الحرية الكاملة بوجودك معه، إلى جواره، موافقاً على كل ما يفعل.

***

املأ يا فتى خزان البنزين إلى آخره، وضع زيتاً أيضاً وافحص الاطارات. أجل، نحن على سفر. سفر طويل لو علمت كم يطول. هذه هي النقود.. خذ. رائحة؟ رائحة البنزين على ما أعتقد؟ ماذا تقول؟ ميت؟ فلتمت أنت! اخل الطريق يا وغد، ولا أراني الله وجهك.

تصور: السافل يظن أن معنا ميتاً في حين ليس معي سواك، أمؤامرة هي بين رجل البوليس وعامل البنزين، مؤامرة طولها مائة كيلومتر؟

***

لقد خدعناهم جميعاً.. أليس كذلك؟ ما أجمل أحياناً أن ينخدع بكلامنا الآخرون!

هذه المدينة فقدت العقل. أنّى نذهب يفتح الناس أفواههم خلفنا دهشة، ويمدون عيونهم إلى آخر المدى يبصرون. قبل أن نصلهم أنوفهم تستنشق الهواء البعيد وتتشمم. بعد أن نغادرهم يسرعون خلفنا يصرخون.. الجثة! تصور! يريدونك أنت الحي جثة

يدفنونهـا. مستحيل، يقتلونني قبـل أن يأخـذوك، ففي أخذك مـوتي، في اختفائك نهايتي، وأنا أكره النهاية كما تعلم. . أكرهها أكرهها.

***

المدينة التالية هجرها سكانها قبـل أن نصل، لابـد أن الرائحـة كمـا يزعمـون وصلتهم قبل أن نصـل. جميل هـذا جميل. يكفي أن تكـون معي ليكـون العـالم كله معي، يكفي هـذا وليهجـر المـدن سكـانها، ولتحتـرق القرى والنجـوع، يكفي أنـك معي. أنت أنـا. . أنت تاريخي وأنا مجرد حاضـرك. . والمستقبل كله لنـا. مستحيل أن أدعهم يأخذونك، يميتونك، يقتلونك.

***

يبدو أن هناك خطأ ما، فـأنا في الحقيقـة بدأت أشم الـرائحة. لا، ليست رائحـة حذائك وجـوربك فلقـد خلعتهما وألقيت بهمـا من النافذة. إنهـا أقوى من رائحـة الربيـع والزهـر ومساء الصيف. أقـوى منك، ومني، ربما أقوى من أي كائن حي.

عفوك! ولكنني لم أعد أستطيع. . الـرائحة تختـرق خياشيمي، وتتلوى مع تلافيف أنفي وعقلي وتكتم أنفـاسي. والمرعب أنـك أيها العـزيز الغـالي مصدرهـا. الناس من حـولنا يهـربون، كـل الكائنـات الحية، حتى الذبـاب، تهرب، من حـولنا تهـرب. أنا نفسي لم أعـد أستطيع.



لابد ـ حتى لو كنت أكرهها وتكرهها أنت ـ من النهاية. ولابد من أن أختارها أنا. صحيح لا قلب لي، لا عقل، لا ارادة، ولكن الرائحة أبشع من الموت. أموت ولا أشمها. وإذا شممتها أموت، أنفاسي تختنق، الروح بلغت الحلقوم. لم يعد هناك مناص، إما حياتي أو موتك. لم يعد هناك مناص، لابد أن تنتهي أنت لأبدأ أنا.

***

ولقد تركتك.. عامداً في الطريق تركتك.. في العربة نفسها تركتك وتركتها لك قبراً ولحداً. وهأنذا أكملها وحدي، وعلى قدمي أسير، حزين للفراق تماماً. ولكن، وهذا هو المؤلم سعيد بالخلاص منك، سعيد أني تركتك وتركت العربة لك. سعيد أني حتى على أقدامي أسير، وأستنشق الهواء، الهواء النقي الذي ليس فيه أبداً تلك الرائحة الملعونة الغالية.. رائحتك.

حَلَاوة الرّوح(*)

في لحظة واحدة كثر الماء، أصبح أكثر وأكثر. الشاطىء قريب.. أمتار. الشماسي ملونة مبعثرة، منارات مبعثرة تحتها الأجساد مرصوصة بلا نظام.

أنا في طريقي إلى الشاطىء بعد حمام منعش.. الشاطىء والاسترخاء والأمان. السيجارة بعد الحمام.. الأحلام. الماء يكثر أكثر، فلآخذ إلى الشاطىء الطريق الأقصر، ولكن الماء يظل يكثر. صدري يختفي رويداً رويداً ورئتاي بدأتا تحسان بضغط الماء. التيار السلفي أشعر به الآن أوضح.. الماء الجاري بخبث تحت الماء.. الماء بريء الهدوء من فوق والتيار يجذب من أسفل. اللعبة مسلية أنا أجذب والتيار يجذب، وأنا مطمئن فأنا قاب قوسين من الشاطىء والمنطقة بالتأكيد ضحلة. يجذب وأجذب، يسحب فأشد، يشد فأسحب، أقدامي تتعثر، التيار يقاوم وإلى الخلف يجذب، أقاوم وأتقدم. كل شيء هادىء على سطح الماء، والجذب لا يرى

(*) كتبت في شتاء ١٩٧٠.

فالمعركة اللعبة تدور من أسفل. قبلت اللعبة يا بحر. اجذب من أسفل وسأبقى صامداً من أعلى. «شنكل» فأنت تعبث وسوف أرد عبثك بعبث. . عبثاً بعبث يا بحر اعبث، العب! الدنيا أمان والشاطىء قريب، العب! أنت تغالي في اللعبة يا بحر فماؤك يكثر ويضغط وصدري رغم استماتتي يغوص أكثر وأكثر، والماء يقوى على الدوام أكثر. حذارأن تقلبها جداً فأنا أعبث، أو أقلبها إن كنت قادراً فأنا أقدر، وحتماً سأقدر. لا تغرقني يا بحر أرجوك فأنا الغريق وما عاد يخيفني بللك. . الدنيا غريقة يا بحر فهل أنت أغرق؟ أنا الأعرف، أنا الانسان يا بحر، أنا البحر الأكبر، أنا بحرك.

التيار يجذب، الماء يكثر، اللعبة تسخن. الموج يقبل، يهدر، يعلو، يكتسح، ثم يرق ويتبدد. أنا أتأرجح، هات أمواجك نفسها يا بحر واجذب، وادفع، هاتها وادفع، فشاطئي ها هنا قريب وأنا أشطر. ادو يا بحر وغن! ارغ وازبد! العب لعبتك العجوز اليتيمة وقلص مياهك وتمددا انتشر وتجمع! ارض واغضب! تقدم حتى تتقهقر. والآن كفى! اتركني فأنا أريد الشاطىء. . أريد أن أرجع.

ولكن الماء لا يريد. . ضغطه يتزايد ويشتد، السحب من أسفل يتعاظم حتى يشل خطوي، الماء الشفاف الواهن المتناهي الضعف. . الماء الذي استأنسناه طويلاً وغليناه وشربناه وبصقناه ومن فرط إلفتنا له نسيناه، الآن وهو ملايين ملايين من البصقات والقبصات والأكواب ها هو يحاول أن يرينا عينه الحمراء. على الصدر يضغط، بقوة يسحب. الماء وصل إلى رقبتي، لم أعد أتقدم تجاه الشاطىء

خطوة، بل هو التراجع بدأ والجذب السفلي يشتد ويقوى. اللعبة سخفت قليلاً.. العبث طال عليه صبري.

فلتتوقف اللعبة!

واستدعيت إلى الوجود قوتي الأقوى، بدأت تغوص رقبتي.

واستدعيت القوة الأكبر، الشماسي صغرت.

فلأستدع القوة الأعظم، الشاطىء أصبح مجرد خط.

إني أشم رائحة الغدر، أفينا الخيانة يا بحر! أتغدر؟

أرجوك! ليس منك.. أنت يا بطلي العنيف العربيد الرقيق الشاعر الصاخب الأحمق الأهوج المغتر المقطر عذوبة الجالس على عرش الجلال. وليس لي.. فليس في نفسي موضع لغدر جديد. أنا معك ها هنا وحدي، نحن وحيدان معاً، أنت بلا نهائيتك وأنا بمحدوديتي. لا تخن لا تغدر!

***

رفعت ذراعي.

الرابعة تماماً.

تشاءمت.

من النادر أن ترى ساعتك فجأة فتجد أنها أمامك، حتى لو كانت الرابعة.

وصل الماء إلى ذقني.

أنا في بئر مائي لا شك.

الشاطىء يبتعد أفقياً ورأسياً إلى أعلى وإلى أبعد، لم يعد ثمة بحر.

ماء.. فقط ماء! كم هائل الحجم والضخامة من الماء الذي لا شاطىء له ولا حافة ولا حد. النمل حين يصنع بمجموعه جبالاً هائلات من النمل. الصرخة الواحدة حين ترددها مئات آلاف الملايين من الحناجر فيهتز الكون.

التيار السفلي نما حتى وصل إلى السطح ولم يعد للماء من فوق براءة.
كشر عن أنيابه تماماً.
الجذب. تاماً وكاملاً.
إذا قاومته غصت أكثر.
إذا سكت ابتلعني أسرع.

الشاطىء أصبح أبعد من السماء.. مجرد سراب سماوي غير كائن. وبكف في حجم الصخرة لطمت رأسي موجة، رأسي البارز في حجم عقلة أصبع، وعلى أثرها لطمة.

ثم دفعة.

ثم جذب لا يقاوم.

وانسحقت.

الماء طغى وتجبر، الماء أصبح له صوت، الماء رعد، الرعد أصم، الرعد أخرس، أعمى.

هذا ماء غريب من كون آخر، بحر لا أعرفه أبداً.

هذا عدو.

دوامة العدو تبدأ.

الدوامة كفم حوت فاغر الفم، أنا في قلبها حشرة.

الدوامة تدور.

كل الدوائر إلى أعلى، دائرتها إلى أسفل. أعلاك يا بحر أسفل، قمتك قاعك.. أنا في الطريق اذن لقاعك القمة.

يا لئيم! لقد غدرت وانتهى الأمر.

***

البرق يخيفنا وهو في سماه بعيد وبيننا وبينه ما بين الأرض والسماء. القيامة تروعنا حتى في الأساطير.

أنا في قلب الظاهرة الكونية نفسها. البحر استحال إلى تمرد كوني، تمرد موجه لي وحدي، أنا وحدي أواجه يوم القيامة.

***

ولكني لم أفقد الأمل بعد.

أنا وحيد ولكني اقوى.. أعتى. أستطيع أنا الآخر أن أتجبر، جسدي هذا فيه ماردي أنا، فيه القوة الأقوى، فيه مدخر الحياة كلها من الطاقة.

والحياة أقوى.

ان الحياة لأقوى.

***

المستحمون حولي كثيرون، حتى وأنا مخضوض ألمحهم. أقربهم إليّ سيدة، ترمق بإعجاب ما تخيلته من جرأتي على خوض المياه الأعمق.

***

صخرة مائية أخرى تنهار فوق رأسي.. أغوص أكثر، الماء فوق أنفي. صخرة أخرى تنهار، الجبل كله بدأ ينهار، العالم المائي حولي كله ينهار ويتفجر. والمرعب في براكينه وانفجاراته وجباله أنها مائية، مائية لكنها أعتى من الصخر. الصخر أرحم.

إني أغطس.

أغوص وأغطس.

رأسي أصبح تحت الماء.

بجنوني كله أقاوم لأعلو كي أتنفس.

يصعد رأسي ليواجه بجبل موجي قادم.

أريد أن أتنفس.

أتنفس.

مـاء.. ماء أتنفس. أحس بـطعمه القـابض يملأ جـوفي وينفخ بطني، الجذب يشتد إلى أعمق وأعمق، إلى أعمق وأعمق وأعمق.

أنا حقيقة أغرق.

ضربت الماء بأقوى ذراعين كـانتا لي. بـأقوى سـاقين وفخذّين حشدت القوة كلها.

طفوت.

السيدة القريبة ترمقني بـإعجاب، ابتسـامتها بلهـاء. يا سيـدتي إني أغـرق، إني أموت وأغـرق، إن كـل مـا فيّ يستنجـد بـأي شيء فيك. أمددي يدك وسأمدد يدي وفي لقاء اليدين نجاتي. إني أغرق، إني فقط خجل أن أصرخ، سأموت شهيد خجلي يا سيـدتي فامـددي يدك لأنجو.

مستحيل! بإرادتي أنا لابد أن أنجو.

غصت.

حين حاولت أن أطفو وجدت الغابـة.. غابـة امتلأت بـوحوش مـائية مصنـوعة من مـاء، الرعب منهـا يجمد القلب. وحـوش تزأر،

وحوش تنهش، وحوش خرافية هائلة الضخامة بأقدامها الأسطورية تطأ وتضغط. ضاق الخناق، جذبت نفساً عميقاً لأتنفس. . حتى وأنا أعلم أنه ماء جذبت نفساً لأتنفس. امتلأ رأسي بالهدير، اختفت الألوان والكتل والأحجام، صار كل شيء هلاماً ضبابياً رمادياً متغامقاً مؤدي حتماً إلى السواد الكامل. أنا مرعوب رعباً يحدث لي لأول مرة، رعب من نوع آخر، رعب لا يحدث في العمر إلا مرة، ولا يحدث إلا وفي أعقابه موت. . عزرائيل هو ذلك الرعب.

طفوت.

من فرحتي لم أتنفس.

غصت.

من رعبي تنفست ماء. . ماء أكثر. الوحش البحري يريد أن يحولني ماء، يهضمني، يتمثلني، يقتلني حياً، ويحييني ماء. بلورة ذاتي المركزة تتخفف. أنا أذوب في الماء، والماء يخترق مسامي ويذوب جسدي. . بإجرام وإصرار سادر في تذويبي. ارادتي تتميع، تتراخى، طعم البحر يتغير، يمسخ، حماسي لها يفتر ويصبح ما له طعم ماء البحر المالح.

***

تخدر الزمن وتوقف. . سألت نفسي: لماذا التحدي؟ لماذا لا أستسلم وأموت؟

ليس الموت هو التجربة التي ندخرها لتكون آخر تجاربنا. لماذا لا تكون الآن؟

لقد عشت كثيراً، ودهشت كثيراً، وأحببت كثيراً، وضحكت قليلاً، وبكيت كثيراً وكثيراً، وما تبقى من حياتي لن يكون سوى تكرار ممل، وما لم أفعله قط أني لم أمت فلماذا لا أموت؟

انطلق من جوفي الرعب الأعظم.

العقل توقف، طار شعاعاً.

الارادة غير الواعية قفزت، تفجرت، تعاظمت، أصبحت وحشاً. من داخلي غابة بدائية انطلقت، مليئة بوحوش شديدة الفتك.

العناد البدائي ألغاني تماماً.

وحدي أنتصر، بقوتي أعيش.. سأعيش.

غصت.

معركة الوحوش مع الوحوش، الغابات مع الغابات، يوم قيامة البحر مع يوم قيامتي أنا، الانسان مع القوة الغاشمة.

رغم إرادتي طفوت لثاني مرة.

السيدة قريبة لا تزال ولكني لن أستنجد. أبداً لن أصرخ، حتى ولو لم يبق على الموت إلا طفوة أخيرة واحدة.

غصت.

***

الماء الماء! الماء يمور ويدور وأدور به وفيه. . لا شيء ثابت! القبضة تستميت على اللاشيء. الرمادي يزرق، والزرقة تغمق. ومن الأفق يطل الرهيب الأسود.

الفقاقيع حولي تتكاثر! غربان المأساة، ضياع الجثث الغرقى. جسدي تفتحت بواباته، الماء يدخل، الحياة تخرج، الطعم يتقارب، اللون يتماثل، المعالم أفقدها، أتكور، قطرة ماء كبيرة أصبح، ماء ملون بالحياة، معلق في كون مائي. أرضي ماء، سمائي ماء، هوائي ماء. ماء ألمس، ماء أرى، ماء أسمع، حواسي كلها ماء، عيوني بالذات ماء. أستنجد بالارادة، إرادتي ماء. أستغيث بالوعي، الوعي ماء. لا مستيقظ أنا ولا أنا نائم وأحلم، الزمن كله ماء أصبح.

ذبالة وعي أخير قبل الظلام التام. . هذه آخر مرة إذن أعي فيها بالموت القادم.

***

حين كنت أغادر المياه بأسرع ما أستطيعه، والبحر ينحسر تماماً حتى يسلمني إلى الرمال، لم أنتبه إلا وقدماي بعد أول خطوة تتوقفان أمام الاحساس المروع الجديد. . إنهما ثابتتان فوق أرض ثابتة. الاحساس الحبيب بالثبات! إنها الأرض من جديد. . إنها الثبات الأم.

لا أذكر شيئاً.

وكـأن أول ما فعله العقـل حين عاد أن محا الحادث تمـاماً من الذاكرة.

ولكن رغم الضباب فهناك ثبات آخر أكاد أذكره.

إنه يبرق في الذاكرة الواهنة الملغاة.

***

ثبـات بالقـطع أحسته الأصـابع. . أصـابعي، وهي تنقبض في تشنج قاتل أخير حـول أصبعين طريتين نحيلتين متـرددتين. . أصبعي سيدة.

ثبـات من نوع آخـر. . قبله أو بعده أو على أثـره أو لم تحدث إطلاقاً أصداء صرخة. . صرخة أعرفها تمامـاً. . صرختى أنـا وإن لم تعـد تصـدر عني أبـداً. بـالتـأكيـد لم أصـرخ، أم أكـون رغم أعتى الارادات صرخت؟

***

وقفت إلى بعيد داخل الرمل لا أجسر أن أرمق البحر.

أوليه ظهري.

أبقايا رعب؟

أم هو الخجل؟

أني هزمت وحدي .

وأن نصري جاء باستماتة الأصابع على الأصابع .

***

نظرت في الساعة .

كانت الرابعة ودقيقة .

الخِدعة(*)

لابد لكل مرة من أول مرة. وأول مرة كانت ليلاً وهناك قمر ينشر سلاماً فضياً، والنبع صاف يتدفق ماؤه على مهل وبخرير حنون، ولا تملك حين ترى الماء وقد ذاب فيه القمر ذوباناً طازجاً يحدث أمامك، وفي الحال، إلا أن تظمأ وتحاول أن تشرب أو على الأقل تتذوق، وملت بجسدي كله، ومددت يدي وما كادت القطرات المتلألئة الباردة تصل إلى فمي، ما كدت أستمتع بلذة التذوق الأول حتى رأيت، بجوار صورتي المهتزة اهتزاز درجات الأبيض والأسود فيها واهتزاز القمر، صورة رأس آخر. . رأس طويل ممتد إلى الأمام وكأنما امتدت يد جذبت ملامحه كلها بعنف إلى خارج وجهه، رأس طويل ينتهي بشق عرضي واسع سعة لا حد لها، وكأنما لا يكفي هذا فأيضاً شق بالطول. . رأس جمل لابد، بلا صوت، بلا ضجة، بلا حركة. . فجأة كان الرأس. لم أذعر ولا صرخت، فقط التفت لا لشيء إلا لأتأكد. كان قد ذهب القمر واختفى النبع والخرير ولا

(*) كتبت في إبريل ١٩٦٩ وكانت أول قصة نشرت بعد التحاق الكاتب بالأهرام.

فضة. كنت وحدي وأمامي غير بعيد عني ذلك الرأس يطل عليّ من فوق، لا أرى له جسداً وإنما فقط رقبة غليظة طويلة مقوسة، حادة من أسفل كأنها مخرطة.. رقبة تنتهي من أمام برأس.. ذلك الرأس، ولا جسد، والأغرب أني لا أعجب ولاأتساءل كيف يمكن لرقبة أن تنبع من لا جسد، فهمي كله كان ذلك الرأس المطل عليّ من أعلى، فهو حتى لم يكنْ يطل عليّ وكأنه لا يرى بي أو لست هناك بالمرة، وخوفي كان أن يراني فجأة فينقض ويعض. ولكن أبداً! لا غضب في عينيه، لا انفعال، لا شيء، إنما عينان كبيرتان مستقرتان على الأمام، ولا شيء أمام.

وكأنما رداً على تساؤلاتي وظنوني التي تنشأ وتدور بلا حماس، في ركن المنظر الأيمن وفي برواز صغير مربع وكما يحدث في برامج التليفزيون وعلى شاشته، حدث بدأ يدور، غامضاً كتمثيليات الكهنة في حجرات المعابد الخلفية، كالتشخيص الصامت الذي يعيد به القسس العشاء الأخير وصلب المسيح، رأيت ذلك الجمل مسحوباً وساحبه صاحبه، وعلى وقع متئد وكأنما كل خطوة حدث وتاريخ يمضيان. ثم بلا مقدمات، بلا معركة، بلا فاعل أو طلقة أو سلاح، بلا شيء على الاطلاق يسقط الرجل ذو الجلباب الأبيض والعمامة. سقط الصاحب، سقط قتيلاً فحول رأسه المطروح فوق الأرض ورغم ظلام المشهد كانت بركة دم. وأيضاً لا انطلق الجمل هارباً ولا جعجع ولا ثار أو «ضرب بالقلة». ظل واقفاً وقد تدلى مقوده في الهواء ينظر من عل أيضاً إلى الأمام، نظرة مليئة بكل

شيء إلى درجة اللاشيء، ثابتة مستمرة وكأنما كانت أبداً وستظل تكون.

ورغم تأكدي أني لا أحلم وأن ما حدث رأيته، قلت: حلم يقظة، رؤيا، تخريف.. أبداً لن تعود.

وفي الصباح - أي صباح - فلا زمن، كنت أستحم تحت الدش حولي ستارة تمنع تسرب الرذاذ، مستمتعاً إلى أقصى حد بأني داخل الحمام الخالي، وداخل الستارة النيلونية المزركشة مع نفسي تماماً. وإذا بشيء يداعب الستارة النيلونية المزركشة ثم يزيحها، وتظهر الشفتان الضخمتان أو بالأحرى الثلاث شفاه؛ منفرجة ومفتوحة وكأنما تنوي ابتلاع كل شيء، بينها تبدو الأسنان كبيرة مطبقة محكمة وكأنما تخاف إذا فتحت أن تفلت شيئاً أي شيء.

ثم أصبح الرأس كله معي داخل الستارة، تحت الدش. دهشت قليلاً ولكني واصلت الاستحمام، ورحت من خلال أسلاك الماء الرفيعة أتطلع ملياً إلى العينين لعلي ألمح شيئاً، لعلي أعرف لماذا أطل وماذا يريد، لعلي أدرك للحظة أنه يراني حتى، ولكن أبداً! كان يطل من عل، وأيضاً إلى أمام.

فتحت الجريدة أقرؤها، ولم أدهش حين شعرت بحركة، ولا حين اهتزت السطور ثم تباعدت، وبلا صوت تمزيق اخترق الرأس الجريدة، وأصبحت لا أرى سوى شفاهه الثلاث، بشع منظرها قريبة جداً من وجهي. فتحات أنفه الواسعة أراها بكل شعرة داخلها،

والأسنان كبيرة منظمة منطبقة ليس بينها فرجة . .

ركبت الأتوبيس والازدحام واصل حد الاختناق، ولا هم لكل منا إلا المحافظة على كيانه. وفجأة وجدت الرأس الصامت الصائم عن الحركة يطل، كان مشهده كفيلاً بإثارة الذعر أو على الأقل التطلع. ولكن الغريب أن النادر من الركاب هو الذي انتبه، وحتى لم يطل انتباهه، إنما هي نظرة ألقاها كأنما تعود أن يلقيها ثم عاد إلى معركة المحافظة على ذاته. . الأغلب الأعم لم يحفل حتى بمجرد الانتباه.

وفي المساء داخل غرفة النوم المغلقة، ولا شيء هناك سوى الحب والرغبة، إذا بي أكتشف أن شيئاً يتسلل بغلظة بيننا، بلا عنف وبلا حياء وربما بلا وعي بما يدور ولكنه أصبح في النهاية بيننا. ولم تحتمل هي، بكل عنف وغضب واستنكار أزاحته جانباً فانزاح، ولكنه بتؤدة وبصبر وبإصرار عاد يتسلل بين صدرينا وبطريقة بدا معها أن لا فائدة من إزاحته.

ورغم أني لم أكن مندهشاً أو غاضباً بشدة أو مستنكراً، إلا أن شعوراً ما بدأت أحسه، شعوراً لا أجد له وصفاً، فالقدماء ربما لم يعرفوه ولم يكتشفوا له اسماً، لكنه أصبح موجوداً وملحاً. وهكذا أخبرت زملائي في المكتب وأصدقائي، وواحداً منهم فقط هو الذي أبى أن يصدق أما الباقون جميعاً فقد ضحكوا وظلوا يشيرون حيالي ويضحكون وكأني ـ أخيراً ـ رويت نكتة قديمة. كان واضحاً أنهم من

زمن يعانون نفس الشعور، وأن رأس الجمل يظهر لهم في كل مكان وفي أي ساعة. ولكن السؤال أهو نفس الرأس يظهر للجميع؟ أم أن لكل منا رأس جمله الخاص، كما يقولون في الأساطير أن لكل منا أختـه تحت الأرض أو فوقها، أو ككتابه يوم القيامة الذي يعلق في عنقه؟

تشعبت المناقشات وامتدت، والغريب أن الجزء الأكبر منها كان في حضوره وقد أطل علينا من الباب المؤدي لمكتب المدير، أطل بنفس طريقته.. من فوق، أمامنا يحدق، صامت لا يتحرك، عيناه حافلتان بكل شيء إلى درجة اللاشيء، والمناقشات حامية صارخة أحياناً قد تؤوب إلى هدوء حين يتخذ أحدهم وضع العالم العارف، وبصوت خافت يتكلم ويحلل، بينما رأس الجمل يطل عليه من فوق. مناقشات كالزوابع الصغيرة أو الكبيرة لا تلبث أن تذوب في بحر ساكن تماماً كأن سطحه من زجاج.. بحر واسع لا حد له ولا شاطىء.

أنا شخصياً رغم أنه يظهر لي أحياناً أكثر من مرة، وفي آخر الأماكن توقعاً أن أراه، أحياناً أكاد أشك في عقلي وفي حواسي وأرفض أن أصدق ما أرى.. بل حتى ما يراه الآخرون معي. هناك خطأ ما لابد! أثور وأرفض ما تشاء لي الثورة والرفض، ولكنها نوبات.. ليست سوى نوبات لا تلبث بهدوء أن تذوب بنفس التؤدة التي يظهر بها رأس الجمل. كل ما يحدث أنه لدى كل نوبة ـ خاصة إذا أدت بي إلى غيظ أو انفعال ـ تزداد بشدة مرات ظهوره بحيث أراه

كلما تلفت، أينما سرت، أينما ذهبت، من أمامي وورائي ويميني ويساري، بل ـ وهذا هو المرعب ـ أحياناً أراه داخلي أنا، موجوداً بتحديقته الأمامية التي لا تطرف داخل ذاتي الخاصة تماماً وأسراري، بل أحياناً أراه في طفولتي يطل على أمي وهي تضعني، أو ربما على أبي وهو يخلفني. أحياناً وأنا أرنو إلى المستقبل، ومن خلال أكوام المشاريع والخطط، بأذنيه الصغيرتين الغريبتين تزيحان الأكوام جانباً ليظهر الرأس ويعلو، ويبدأ يأخذ وضعه التقليدي.

ماذا أفعل؟

كلما سألت الناس قالوا افعل مثلما يفعل الناس. وأسأل ماذا يفعلون؟ فأجدهم لا يفعلون شيئاً بالمرة. أحياناً يحاول البعض لمسه والتمليس عليه وهدهدته، أحياناً يثور البعض ويغضب ويسبه، بعض آخر يركله وينطحه. ولكن رأس الجمل يبقى دائماً كما هو، ويبقى الناس كما هم، يبدو لهم بطريقة يعجبون لها أول الأمر، ثم يتحدثون فيها، ثم يملون الحديث، ولا يعود ذلك الوجود الغريب لرأس الجمل ظاهرة قابلة للتوقف أو حتى النظر. بل تتحول على يد الناس ـ وهم في هذا عباقرة ـ إلى ظاهرة مفيدة، مرة في الاعتذار عن تأخير، في تبرير اشتداد الحرارة في الصيف، في التبشير بحلول النعمة إذا حلت أو العثور على علامة للنقمة.

ويتم هذا كله دون أن يثير دهشة أحد أو استغرابه، أو حتى يفكر لحظة ويتأمل. وربما لهذا فرأس الجمل لا يكف عن الظهورا ربما لو اندهشنا، فقط اندهشنا، كلنا اندهشنا كلما ظهر، لما ظهر.

ربما نحن مرضى.. كلنا مرضى قد أصبنا يوماً بمس في خيالنا ترك أثاره على هيئة رأس جمل، أو ربما الاصابة قضت فينا على مراكز الدهشة والعجب، أو ربماشيء آخر، ربما التطور. أجل التطور قد وصل بنا إلى مرحلة الانسان الذي لابد أن يظهر له رأس الجمل، بحيث تكون الكارثة لا أن يظهر، وإنما أن نستيقظ ذات صباح فنجده لا يظهر. أي مصيبة ساعتئذٍ وأي ضياع! وماذا نفعل ونحن قد أصبحنا لا نحيا الحياة أو نزاولها لأننا لا نريدها وإنما لأنه يطل علينا كلما شرعنا في عمل الشيء أو مزاولة الانفعال؟ لولا إدراكنا أنه سيطل لما أقدمنا أبداً على شيء، ولولا إدراكي لوجوده ما كنت أبداً قد أقدمت على ما أقدم عليه الآن. فالآن وبلا ذرة دهشة أو غرابة ودون أن أرفع رأسي، متأكد أن رأس الجمل يطل عليّ، ذلك الرأس العالي الطويل، وكأنما مطت ملامحه كثيراً إلى أمام والشفاه الثلاث الكبيرة إلى حد الورم، والأسنان المتراصة، سنة كبيرة بجوار سنة كبيرة، منطبقة تماماً ولا فرجة بينها، إلى أمامه يتطلع ولا يتحرك، لا يغضب ولا يرضى، لا يحفز ولا يثبط، لا يفعل شيئاً أبداً إلا أن يطل، مجرد طل..

سِنوبزم(*)

حكـاية الـدكتور عـويس حكايـة. الأغـرب أنـه لم يحكهـا ولا يحكيها. ولا تزال لا تحتل من اهتمامه أي مكان بالمرة. حكاية هايفة في رأيـه. فالمـوضوع المهم هـو اللائحـة. واللائحـة هي «جنـونـة» الدكتور عويس هذا الموسم. فهو له في كل موسم أو كل شهر أحياناً «جنونة».

صدفة رأيته يعبر ميدان التحرير بأقصى سـرعة. كـدت أضحك لمجرد أنه يجري، فهو ليس وقوراً فقط ولكنه من النوع الذي يـراعي الوقار حتى في غير حضرة الناس. وقار زائد مبالغ فيه وجـدية خـطيرة تكسو ملامحه، حتى إني كلما رأيتـه تساءلت كيف يستـطيع التخلص من هـذا كله وهو مـع زوجته في الفـراش، أو الأدهى، كيف يتصرف معها بكل هذا الوقار؟

لـم يرني . . أنا رأيته وصحت به. توقف، تلفت، تحرج، مسح العرق، أنا ذهلت. كان لأول مرة بلا نظارة ـ نظارتـه التاريخية التي لا

(*) كتبت في أوائل سبتمبر ١٩٧٠.

يغيرها ـ بدأ وجهه كالعورة حين يخلع عنها السروال. سلامات وأنت فين وكيف حالك ولا مؤاخذة وعامل ايه، وأنا أتطلع وأكتم شيئاً كبركان الضحك يدمدم في صدري. . لا لملامحه بغير نظارة فقط، وإنما لعينه اليسرى وقد أزيلت تماماً ومعها جزء من الوجنة والحاجب. لم تزل وإنما ارتطمت بها كرة من «البلا» الأزرق سدت عينه ومحجرها واستقرت بارزة زرقاء نائتة كفانوس عربة نقل مطلى باللون الأزرق. كدمة! كدمة لابد سببتها «بونية» صوبت بمهارة ومن بطل ملاكمة محترف من الوزن الثقيل على الأقل. المسألة فيها علقة إذن. انفجر البركان وضحكت بأعلى وأبشع ما ضحكت في حياتي. كان لا يزال يتحدث ولا أسمع، سادر في الضحك أكاد أسقط فوق الرصيف. أخيراً لمحت فمه يغلق، ويتلفت، ثم يواجهني بعينه السليمة مليئة بحيرة طفولية حقيقية ربما يتساءل بها عما يضحكني، أو ربما يحاول تشخيص حالة عقلية حادة أصابتني وجعلتني أضحك بلا سبب معقول. وفقدت السيطرة على نفسي وانثنيت واعتدلت أضحك وأضحك وأضحك. وربما تخلصاً من حيرته لما اعتراني بدأ يشاركني في الضحك بطريقة واضحة الافتعال. ثم لما لاحظ أني كلما نظرت إلى وجهه الأيسر ضحكت فطن أخيراً فابتسم لشدة بلاهتي ربما وقال: آه. . عشان دي يعني؟

وأشاح بيده كمن يطرد ذبابة غير مهمة، وقال: يا أخي خلينا في المهم. عارف حصل ايه الأسبوع اللي فات؟ اكتشفت أن تلاتة على الأقل من أعضاء هيئة التدريس يدبرون مؤامرة صغيرة ضد

مشروع اللائحة.

وبـالقوة كتمت الضحـك بيد وأشـرت متسائـلاً عن سبب تـورم عينه وفقده نظارته بهذه الصورة. أشاح أيضاً بلا اهتمام قائلاً: أبداً.. حادثة بسيطة من الأسبوع اللي فات. المهم أن المؤامرة ضد اللائحة هذه بدأت من عشرة أشهر. تصورا عشرة أشهر.

أخيراً نطقت أنا:

ـ الأسبوع اللي فات امتى وازاي؟

ـ بقول لك من عشرة أشهر، اللائحة.

ـ أنا أقصد عينك.

ـ لا دي حكـاية بسيـطة لا تذكـر. حادثـة كـده، نـاس أوباش، سنوبز..

المسألة إذن فيها علقة أخذها الدكتور عـويس.. وفكرة ضـربه علقة ليست غريبة، كثيراً ما خطرت لـزملائـه في الجامـعـة أو لبعض تلاميذه أو لي حتى شخصياً. ترى من سبقنا جميعاً ونفذها؟

أستاذ.. أي نعم أستاذ. رئيس قسم «الأنثربـولوجي» على عيننـا ورأسنا. التفكير في الضـرب سببه الاحسـاس المبالـغ فيه بهـذا كله، والمبالغ فيه كلمة متواضعة لا مبالغة فيها. البارانويا أو جنون العظمـة ربما أصلح.. الاحساس بـأنه مبعـوث العنايـة الالهية ليس لإصـلاح الكـون الفاسـد وإنما ليعين وبـواسطة حق سمـاوي مطلق ومن جهـة

كونية عليا مصلحاً للكون الفاسـد. الحريـة تؤمن بها صحيـح، ولكن ويلك إن استعملتها في مناقشة رأي له. الحرية هي حـريته أن يقـول الرأي، وحريتك أن تقتنع به. فإذا لم تفعل، إذا كان لديك رأي آخر فانت من الأوباش الذين يسميهم الـ «سنوبز».

ـ تصور عشرة أشهر وأنا أكافح من أجل اللائحة.

ـ إذن هي السبب في الخناقة؟

ببـراءة سألت وأنـا أشير لعينه اليسـرى البـارزة كعين ضفـدعـة وحيدة العين.

أحس لتساؤلي بنوع من التقزز. وفي عز الحـر، وعلى رصيف مزدحم بالمـارة يتخبطون بنـا مضى يحكي لي في تدفق قصـة كفاحـه من أجل وضع لائحة تنظم سلوك الـطلبة وهيئـة التدريس في كليتـه، ربمـا تمهيداً لتـطبيقها في الجـامعة كلهـا ثم بواسـطة هيئـة الأمم في العالم أجمع. ولساعة ونصف ظللت أستمع، لكي أنتهز فرصة يلتقط فيها نفسه أو يحاول تذكر اسم وأسرع بتوجيه سؤال صغيـر أستفهم به كنه « العلقة» التي نالها الـدكتور عـويس، وعن هذا المجهـول الذي استـطاع أن يقتحم الهالـة العلميـة التي يحيط بهـا نفسـه، وحصـانـة الأنبياء التي تبدو بها وسط الناس ويصل إلى عين ذاته المصونة تلك، ويبهدلها على هذا النحو.

وقصـة اللائحـة مسليـة تمـامـاً أنبتت في ذهني أكثـر من فكـرة مسـرحية، فقـد جسدهـا لي بنفس الأهميـة والـدقـة التي جسـد بهـا شكسبيـر مسرحيتـه المشهورة يـوليوس قيصـر، والمؤامرة التي حيكت

ضده، وكل التيارات الخفية والظاهرة، وحتى بروتس كان هنـاك، ولا تنس خطبة مارك أنطوني، وسـذاجة الجمـاهير، والخنجـر، والخنجر هنا كان آدمياً، بل شخص العميد بذاته.

ولكن العلقـة ظلت ـ ربمـا على رأيـه لتفـاهتي ـ هي محـور اهتمامي، ومن الأسئلة المختلسة والاجابات السـريعة المشمئزة التي يلقيها لي كالفتات حتى أستطيع أن أواصل الاستماع لقصة الـلائحة، من هذا كله أدركت ما حدث، ويا له من حدث.

الدكتور عويس لا يملك عربة، ومع أنـه مساعـد أستاذ ورئيس قسم إلا أن ماهيتـه لا تكفي كي يستعمل التاكسي في مشواره الطويل بين بيته وبين الجامعة. . وفي أوتوبيس ٩٩٩ وقعت الواقعة.

من أسبـوع مضى كـانت الكتلة البشـريـة المعتـادة يمتلىء بهـا الأوتوبيس، وكان الدكتور عويس ومحفظة أوراقه الرهيبة رافعاً بها يده كالراية السوداء، فقد كانت تحوي أهم الأشياء في حيـاته. . محـاضر وتقارير ومذكرات ومسودات موضوع اللائحة. كان بـلا هيلمان، بـلا قـدسية، بـلا نفخة صـدر، قـد تضـاءل حتى احتـل مكـانـاً لا يكفي «للبشة» قصب تحوي عشرة عيدان وسط هذا الحشد من أجسـاد فقد كـل منها كيـانه الخـاص، وتداخلت انبعـاجات أحـدها في التـواءات الآخر لتصنع خليطاً من الأجساد البشرية المدكوكة بإحكام، كما يدك الشاري الطماع «الكيلة» بالقمح ليجعلها تحوي ـ جوراً وحراماً ـ فوق طاقتها بكثير.

يبـدو أن السؤال التالي السـريع استفـزه، فعقـد مـلامحـه لأول مـرة، ونسي اللائحـة لبرهـة وانفجر مجيباً: اسمع! على لسـاني قل ولـك حق أن تقول، وانشـرها في الصحف التي لـك بهـا صلة، قـل لركاب أوتوبيس ٩٩٩ الذي غادر ميدان التحرير الساعة التـاسعة يـوم تسعـة في الشهر الحـالي أنهم أبداً لن يفلتـوا من العقـاب. . عقـاب التاريخ أقصد وضمير البشرية العام. فالفرد حين يرتكب جريمة مسألة تدخل في نطاق العقل، أمـا الجماعـة حين تجرم هكـذا، وبالتلقـائية وبدون اتفاق سابق وبالاجماع الذي لا يشـذ عنه أحـد عن عمد وبـلا تردد وفي وضح النهار تجرم، حين تفعل هذا فنحن أمام أنثروبولوجية لم تعرفها البشرية من قبل. . ظاهرة قد أعهد ببحثها إلى أحد تلاميـذ الدكتوراه عندي، ولكن قل لهم ـ وهنا ولصوته المرتفع كان قد تجمع حولنا بعض المارة فبدا كما لو كـان يخاطبهم، ومبهـورين مشدهـوين غير فاهمين وقفـوا يستمعـون ـ قـل لهم أيضـاً وعلى لسـاني أنهم لن يفلتـوا من العقاب. . ليس عقـاب القانـون ولا الدولـة، ولكن عقاب الأنا الكبرى.

واستجابة للكزاتي وغمزاتي فطن إلى المجتمعين، فالتفت إلى الناحية الأخـرى ونطق كلمـة واحدة «سنـوبز». والتفـاتته جعلت كـرة «البلا» الأزرق تواجهني، وجعلتـه يبدو كمـا لو كـان يحدق فيّ بهـا. وشعرت وكأنما بإلهام أن هذه ليست ربما المرة الأولى التي أشعـر أنه ينظر إليّ أو إلى الآخرين ـ أو أحياناً لبعض الحوادث ـ من خلال هذه العين الوارمة الـزرقاء البـارزة إلى أمام. أدركت وكـأنه كثيراً ما كـان

يستعملها ليعطي أو ليستقبل وجهة نـظر. كل مـا في الأمر أنهـا كانت وارمـة إلى الداخـل، ولم تفعل «البـونية» التي تلقـاهـا أكثـر من أنهـا «نطرتها» وجعلتها بادية للعيان.

ـ«سنـوبز»! ولكن هـذا كله ليس مهماً. . هـذه حكـايـة هـايفـة جداً. المشكلة أن المشروع الأول للائحة كنت قد قدمته بديمقـراطية شديدة. .

ولكن. . فلنعـد نحن إلى مـوقف الـدكتـور عـويس في ٩٩٩، وقفته بالضبط جـاءت بجـوار العمـود الفـاصـل بين الـدرجـة الأولى والثانية. وكان كعادته قد قـرر أن يهرب بـأفكاره من مضـايقات البيئـة الموقوتة إلى خططه ومشاريعه لتفويت اللائحـة، إلى أن حدث وأجبرته هـزة قيام الأوتـوبيس أو وقـوفـه لإدراك أن من يقف أمـامـه سيـدة. و «يقف» أيضاً ليست الكلمة الـدقيقة لـوصف ما اكتشفـه، فقد اكتشف أن جسديهما في حـالة تقـارب لا تسمح بـه الحرمـة البشريـة. فلكل جسد بشري في رأيه حرمـة وحد أدنى من المسـافة الـواجب توافـرها لكي تحفظ كيانه كوحدة انسـانية مستقلة. ولم تكن هـذه أول مرة في ركوبه للأوتوبيس يحـدث شيء من هذا، وكـانت طريقتـه لحل هـذا الاعتداء على حرمة جسده واعتداء جسده على حرمة غيـره أن يتحرك حتى يولي السيدة ظهره.

ولقد حاول هـذه المرة فـوجد أن تحـريك رقبتـه نفسها أو ادارة وجهه فقط عملية تبدو مستحيلة. ولم يكن ثمة بـد مما ليس منـه بد،

وأستطيع أن أتصور الكفاح الرهيب النفسي والعصبي والجسماني الذي بذله الدكتور عويس ليستعمل حقيبته التي تعادل قدس الأقداس في نظره، وليهبط بها من مكان الراية السوداء التي يرفعها كالغريق ليفرضها بالقوة القاهرة حائلاً بين جسده وجسد السيدة، التي لابد وأنها شكت في نواياه وتحركاته أول الأمر، ولكنها حين أدركت في النهاية هدفه بدأت تبذل المستحيل لمساعدته ـ مشكورة لا شك ـ فجسدها كان سميناً كثير الانبعاجات صعب الحركة، وحين ـ بعد جهد جهيد ـ تمت العملية بنجاح وأصبحت كل وثائق اللائحة وأسرارها مضغوطة بشدة وقائمة ـ ليس بمعناها كلائحة لتنظيم السلوك وإنما بمادتها كورق ودوسيهات ـ قائمة لتصنع سوراً يحافظ على الحد الأدنى لحرمة جسده، بصعوبة لفت السيدة رقبتها الممتلئة، وبالكاد لف هو احدى عينيه، ومن خلال التقاء البصرين قالت له كلمة امتنان صامت أرضت كبرياءه التي نادراً ما ترضى. ومن خلالها أيضاً أدرك أنه كان على صواب، فالسيدة بدت وقورة من النوع الذي لا يعجبه سواه، وجهها أبداً لم يتعود الابتسام وإنما يطفح بشيء آخر كالايمان. حدث نفسه بأنها ربما متدينة، ربما زوجة محترمة لرجل دين، ربما هي من عائلة أجادت تربيتها حتى أشرفت على الثلاثين كما بدت له سنها.

حاولت سبق الأحداث وأنا أستمع طوال ربع الساعة المستمر التالي لأعرف كيف نشأت المشكلة، فواضح الآن أن كل شيء على ما يرام. وبلهفة متزايدة كنت أسأل وأنتظر وقصة اللائحة دائرة بأقصى

سـرعتها، وأعـود أسأل لأعـرف في النهايـة أنه الكمسـاري. المشكلة بـدأت بمجيء الكمسـاري. كيف جـاء؟ كيف تسـرب؟ كيف أمكن ويمكنه أن يتحول إلى كائن أثيري يختـرق الأجساد؟ لا أحـد يعرف. المشكلة أنـه مر ولكي يمـر أحدث في الأجسـاد المدكوكـة في فـراغ العربة بقوى قاهرة ثابتة.. أحدث خللاً كالخلل الذي يحدث لأوضاع النجوم والكواكب إذا مرق بينها نجم هوى وتغيرت به قوانين الجاذبية. إذ فـي لحـظة اكتشف الدكتـور عويس أن من أمـامه أصبـح رجلاً، وأصبـح بقامتـه الأقصر الحـائل بين الـدكتور وبين السيـدة. ولابد أن ارتياحاً عظيماً انتاب الدكتـور عويس وأعفـاه من كل الضغـوط وجعله مـرة أخرى يـرفـع المحفـظة إلى أعلى.. رايتـه السـوداء الخفـاقـة. المحتويات اللائحية في أمان الآن.

ـ أوباش مدعون! أوغاد منافقون!

ـ لم أفهم.

ـ أوباش!

ـ ماذا حدث.

ـ اعفني أرجوك من هذه التفاهات.. دعنا في المهم.

والتفاهات بدأت بتحركـات لهذا الـراكب القصير غيـر مفهومـة للدكتـــور عـويس، ثم حين تكـــررت أوحت اليـــه بفكـــرة النشـــل. استبعدها. نقوده في جيب السترة ومـوضع الجيب فـوق كتف الرجـل تمـامـاً، ومن المحـال أن يستـطيـع لـوي أي من أذرعتـه ليصـل إلى

الجيب. آه.. كده؟ إنه يعرف أن أشياء كهذه يقال إنها تحدث، لهـا عنده تفسيرات سيكولوجية وحضارية وأخلاقيـة ـ وبالـطبع وعلى رأس القائمة ـ أنثروبولوجية. هوبكنز تحـدث عنها، أدوارد. ج. أدوارد لـه فيها بحث طويل، الألماني ريختـه أضافهـا إلى الطبعـة الجديـدة من كتابه.

ولكن هذا الرجل المتحرك القصير الواقف أمـامه الآن لا شـك خبيث، ولا شك لم يحط بهذا المكان صدفة. انتهز فرصة التخلخـل الحـادث لمرور جسـد الكمساري واحتـل هذا المـوقع الاسـتـراتيجي خلف السيـدة. وحتى هـذا كله ليس مهمـاً، كـل هــذه السفـاسف سيجرفها التحضـر يومـاً. حتى لو كـان الدم قـد غلا لـوقت عابـر في عروقه البحراوية، فما يجب أن يشغل به نفسه أهم.

ولكن الـدكتور عـويس اضطر لأن يؤجـل انشعال نفسـه بما هو أهم.

فـالسيدة قـد بدأت تتملمـل، وبقوة خـارقة تتحـرك محاولـة أن تستدير بجسـدها وتـأخذ وضعـاً أفضل. وأخيـراً حين بدا أنهـا مجبرة على الثبات في مكانها لا تتحرك شعرة، لوت بكـل ما تملك من قـوة عنقها وقالت: بلاش مضايقة بقى. اتاخر اتاخر شوية.. الله.

ولأن وجههـا بدا كمـا لو كـان يـوجـه الكـلام للدكتـور عـويس الأطـول، ففجأة وجـد عويس نفسـه محط أنـظار العيـون كلهـا وكـل تسـاؤلها. طـارت المشاغـل وحتى اللائحـة من رأسـه فـوراً وسـألهـا

بحماس وسرعة :

ـ حضرتك بتوجهيلي أنا الخطاب؟

بصوت أعلى قالت:

ـ لا أنا بكلم الجدع اللي ورايا ده.

وتنفس الدكتور عويس في ارتياح بعد أن كان قد فقد النفس. أما الرجل القابع خلفها فقد بدأ يتكلم. كلماته صف طويل من صفائح «الجاز» الفارغة التي تهاوت تقرقع وتتخبط وتصنع زعيقاً صفيحياً أجوف أكثر منها كلمات مفهومة.

ـ ولزومه ايه الكلام الفارغ ده؟ مانا غصب عني، أنا قادر أتحرك؟ ما هو لازم نستحمل بعضينا، ولكها محطة وكل واحد يروح لحاله. ما الناس كلها مستحملة بعض انت يعني اللي على راسك ريشة!

أو هكذا قال.

السيدة المؤدبة المتربية سكتت. العيون انصرفت. الدكتور عويس قرر أن يقاطع ما يحدث أمامه فكرياً تماماً وأن ينصرف إلى ما سوف يقوله في الاجتماع الخطير الذي سينعقد بعد ساعة واحدة.

كل ما في الأمر أن الرجل الدمنهوري فيه كان بين الحين والحين يطل برأسه ويدفعه إلى العودة لمتابعة المشهد ليطمئن إلى أن الرجل قد كف تماماً عن مضايقة السيدة، ولكن اطلالات الرجل

الدمنهوري كثرت حتى طردت تماماً اهتمامات أستاذ الأنثروبولوجي وصاحب مشروع اللائحة. الرجل رغم كل ما حدث استأنف المحاولات وبجرأة أكثر، حتى والسيدة بين الحين والحين تجبر عنقها المكتنز على الالتواء وتصويب نظرات صاعقة هلعة مستبشعة راجية، أخيراً بدأ يطفر منها دمع متحجر صامت. نظرات كان واضحاً منها أنها تتعذب عذاباً لم تذقه في عمرها، إذ كانت تتألم ذلك الألم القاتل الذي لا يستطيع فيه المرء أن يصرخ أو ينطق أو يقول لا. والرجل وكأنه فقد الانسانية والحيوانية معاً لا يولي شيئاً من هذا كله أي اعتبار، مندمج بكليته في متعته الدنيئة الغارق فيها لا يرى سواها ولا يهمه إي ألم هائل تعانيه السيدة لقاء لحظة المتعة تلك. كان على الدكتور عويس أن يستحضر ذاته العلمية بكل قواه وقواها حتى لا يندمج ويقوم من فوره بمهمة المصلح الاجتماعي الأخلاقي المباشر، هذه الأعمال والتدخلات المباشرة اليومية ليست مهمة رجل علم مثله. رجل العلم مهمته أشمل بكثير، أن يغير البشرية كلها، فإذا تناولها فرداً فرداً وحالة حالة غرق فيما يغرق فيه انسان الحياة اليومية وضاعت رسالته إلى الأبد. عالم هو وكعالم فليراقب بلا أي انفعال وكأنه يراقب فئران تجارب، وهمه كله أن يستخلص من التجربة مغزاها ليكتشف للظاهرة حلها العلمي الصحيح لا أن يتدخل لرفع ظلم مؤقت تعانيه فأرة من فأر. هذه مهمات الفتوة والقانون ورجل البوليس والجدع الشهم، وكلهم أيضاً في التجربة العلمية فئران..

وهكـذا لم يبد غـريبـاً للدكتـور عـويس ـ وإن كـان قـد اعتبـره اكتشـافاً جـديداً حقـاً ـ أن يلحظ أنه لم يعـد وحده الـذي يتابـع مـا يجري، وأن أكثر من عين تختلس النـظر، بل وهـذا مدهش حقـاً في بعض النظرات متعة وترقب وحماس من حماس المتفرج أو المتـابع، يكاد يقترب الأمر من المتعة.

نظرات كثرت، والرجل قد بدأ يمـد يديـه, وبأصـابع تـرتجف انفعالاً لا خوفاً يرفـع ثوب السيـدة شيئاً فشيئـاً، مجمعاً قمـاش الثوب في قبضتيه اللتين يستعملهما في نفس الوقت لزيادة احتضانه لها.

الأوتوبيس مشحون صامت، يخترق شوارع ضيقة تنفـذ ضجتها اليه وتغرق كمـوجات البحـر صمته. الـركاب كـل في ملكوتـه، حتى القليلين الـذي يتتبعون الجـاري بما فيهم عـويس قـد احتـواهم هـذا الملكـوت الخاص المفـاجىء حقاً، هـو هـذه الكلمـة التي خـرجت مجرحة بـالغيظ مخنوقـة بالـدموع مكتـومة وكـأنها تتصـاعد من أظـافر القدم:

ـ الحقوني يا ناس.. دا بيقلعني هدومي.

صـرخة.. شبـه صـرخـة! ذهـول مؤقت.. صفـارة طـويلة من الكمسـاري. فرامـل سريعـة من السـائق. تحـرك اللحم في العـربـة مندفعاً بتأثر الوقفة المفاجئة اندفاعة شديدة كادت تدلقه إلى أمام، ثم دلقة أشد حين تم الوقوف إلى الخلف. وهكذا تغير الحال تمامـاً ولم يعـد أحد في مستقـره، حتى الـدكتـور عـويس وجـد نفسـه في قلب

الدرجة الثانية وفوق رأسه تمـاماً سبت يتسـاقط من شقوقـه ماء سمـك طازج.

ـ مالك يا ستي؟ حصل ايه.

في انفجار باكية مغيظة، أشارت السيدة إلى الرجل الـذي كان واقفـاً خلفها والـذي كان قـد أصبـح في الـدرجـة الأولى بينـه وبينهـا ركاب.

ـ دهه. . ابن الـ . . دهه. . كان.

ـ أنا؟

لا قرقعة صفائح هذه المرة، وإنمـا عواء ذئب صـارخ، أو ربـما زئير ضبع أو أسد. أنا؟ وانـدفع نـاحيتها. أنـا يا قليلة الأدب. وبكف صغيرة جافة هوى قلم، وقلم. .

وسأل السائل الأول:

ـ حرام تظلمي الناس. انتي متأكدة؟

وفتحت فمها لترد.

وطويل، هائل الـطول هذه المـرة، واحد من ذوي الأعين التي رآها الدكتور عويس ومتأكد أنها ترى كل شيء وتعرف، جعجع:

ـ ده كان بينه وبينك سبع ركاب. وأنا كنت واقف وراكي وانتي اللي عمالة تتحككي. . بقى. .

وصفعة أخرى. . ودفعة، وكوع لكز وركبة، بغل ضربت، أصوات تداخلت:

ـ تستاهل! يعملوا العملة وبعدين يعملوا شرفا.

سيدة تعلق:

ـ ويعني الشرف حبك قوي؟ كانت استحملت وبلاش الفضائح.

زغدة، كتف، دفعة أشد، أكثر من ذراع، السلم. دفعة ظهر إلى الأرض لا حراك بها فوق الرصيف، حزام الفستان مفكوك، أزراره تفتحت، شرابها تهدل، شعرها انفكت الشريطة التي تضمه، تبعثر كهشيم في كل اتجاه. وما أن استقرت في الخارج حتى هدأت الأصوات الزاعقة، وبدأ كل منهم يتنفس في ارتياح. . الحمد لله.

احتاج الأمر ارادة من حديد كي يحول الدكتور عويس بين نفسه وبين أية انفعالات ذاتية. فليرتفع ضغط دمه! فلينفجر غيظاً! فليتقطع قلبه اشفاقاً! ولكن فليبق هو المراقب في حدود دوره كعالم، يرى ويلحظ ويسجل. لتبق له مساحة عقلية تكفي ليعرف أيضاً ويتساءل. . والتساؤل الذي يلح عليه قاس لا يرحم. حادثة السلوك الشاذ من الراكب تفسيرها واضح، مريض الرجل لابد في حاجة لعيادة وطبيب. حادثة العيون التي ضبطها تختلس المتعة تفسيرها أبسط. المذهل المحير ليس أن تستغيث فلا تجد المغيث، السؤال الملح هو هذه الرغبة التي لابد أنها نبتت بتلقائية ـ وفي كل نفس على

حدة ـ لإثبات كذب المرأة ونفي الموضوع وكأنه لم يكن. بـل والأكثر عقابها الجماعي على تلك الصورة لأنها فتحت الفم ونطقت، وبلغت بها الجرأة أن استغاثت وحددت الفاعل.

في ثوان طاف عقـل الدكتـور عويس بحصيلة ثـلاثين عامـاً من المعرفة والقراءة وحتى التخصص.. في ثوان وبكل قوة تـوهجت كل

من الأوصاف، وأرجوكم لا تعتقدوا أني أقصد التدخل في شئونكم الخاصة. (حب الاستطلاع وصل في جو العربة هنا إلى حد مخيف) وإنما أنا أستاذ مادة الانثروبولوجيا ولا يهمني ما حدث أبداً من الناحية الأخلاقية أو القانونية. أنا يهمني الناحية العلمية. (تحول حب الاستطلاع إلى شك). لقد أتاحت لي وقفتي قريباً من هذه المرأة التعسة ـ كاد سائق الأوتوبيس يضغط على البنزين ويمضي ولكنه عدل، الكمساري كف عن عملية الاطمئنان على نقوده ـ أن أرى كل شيء وأن أرى أن آخرين غيري يرون نفس الشيء.. وليس هذا مهماً أبداً عندي.

رمقه الرجل مفلفل الشعر بالمشيب مرتكزاً على عمود الوسط وبنوع من الاستغراب المشبع بالانذار سأله: انت عايز ايه يا أستاذ بالضبط؟ عايز تقول ايه احنا مش فاضيين؟

بصوت عال واضح قال:

ـ عايز أعرف ايه اللي ضايقكم أنتم في تصرف السيدة وفي اتهامها للأفندي؟ زعلتوا ليه؟ حتى الستات.. اضايقت ليه؟ لأسباب علمية محضة أرجوكم أن تجيبوني لأن هذا مهم لي في مادتي جداً.

سكت الجميع ينظرون في استغراب ويقررون إن كان مهفوفاً أولاً أو عليهم أن يعاملوه كالعاقلين؟ وإن كان يسأل حقيقة أو أنه ينصب بسؤاله مصايد وفخوخاً؟ وفجأة قال مفلفل الشعر:

ـ أنت بتقول انك شفت واننا شفنا. هو ايه اللي شفته وشفناه؟

ببلادة قال:

ـ شفت اللي حصل.

ـ وهو حصل ايه؟ انت شفت حاجة حصلت؟ إحنا ما شفناش انت شفت؟

ـ الله. كل ده وما حصلش حاجة؟ أمال الست..

ـ كذابة!

ـ والأفندي؟

ـ ما عملش حاجة.

ـ وأنا.

ـ وأنت نصاب باين عليك.

قالها شاب كان ضمن الكتلة الملتصقة التي تسد الباب الخلفي، وما لبث أن انخلع منها وتقدم في اتجاه الدكتور عويس مستمراً بصوت يتزايد علواً:

ـ على فكرة أنا طالب في كلية كذا بجامعة كذا اللي بيقول عليها دي. وأعرف كل الأساتذة والمعيدين ويمين بالله ما في كليتنا أستاذ بالاسم ده ولا شفت الخلقة دي قبل كده من أصله. ده شكل أستاذ جامعة ده؟

وفعلاً كان المتحقق في ملابس الدكتور عويس وهيئته التي لا تترك له اهتماماته الأستاذية الأنثروبولوجية وجنوناته وقتاً للعناية بها،

يستطيع ببساطة أن يجزم أنها قد تكون لأي انسان إلا لأستاذ أو مدرس أو أي شيء له صلة بالجامعة.

صرخة أخرى:

ـ وعلى فكرة. دا هو اللي كان واقف وراها.

ـ تمام تمام دا باين عليه ديوس قارح.

الله الله! المسألة تتطور بسرعة مخيفة.

ـ يا حضرات أنا مابالومشي أنا بسأل سؤال علمي.

ـ علمي يا ابن الـ . .

وبألفاظ الدكتور عويس نفسه:

ـ أحسست بمساحة لها كثافة الكاوتشوك وصلابته وكأنما من ارتفاع برج الساعة، وترتطم برقبتي من الخلف. كان أول «قلم» أتلقاه على قفاي في حياتي. والألم الجسدي لم أشعر به، إذ فجأة شعرت أن آدميتي كلها تبعثرت. كل شيء يكون ذاتي تشتت وسال تحت الأقدام. كرامتي تاريخي، كل ما هو أنا انهار ومضت الأحذية تطؤه. القفا أعقبه ثان وثالث، وعلى الوجه والرأس وبالشلاليط، وآخر ما شعرت به نظارتي وهي تتدشدش وينغرز بعض زجاجها في جلدي ثم عيني اليسرى وقد أخذت تنتفخ بسرعة خارقة وتوشك كالبالونة على الانفجار. يا أخي هذا موضوع هايف كنت نسيته وخلاص. لماذا تلح في تذكيري به؟

لم أعد أستطيع . . وبحسم أوقفته مستعملاً لهجة الأمر الذي لا يقبل النقاش لأول مرة، أريد أن أعرف بقية ما حدث .

- لا بقية ولا شيء! لقيت نفسي متمدد جنب الست ع الرصيف والأوتوبيس مشي من زمان وجه غيره، وانتهى الموضوع .

- انتهى ازاي؟

- أخيراً قررنا عمل اجتماع عشان اللائحة عند العميد .

عميد ايه؟ ولائحة ايه؟ ماذا بعد الضرب؟ ماذا فعلت؟ هل أبلغت البوليس؟ هل شكوت؟ هل كتبت للجهات؟ . . هل؟

- ولا هل ولا شيء. أشكي مين؟ أوتوبيس؟ وأشكي ليه؟ المسألة سوء تفاهم لا غير. أنا كان قصدي سؤال علمي هم افتكروا حاجة تانية . . مجرد سوء تفاهم. شوية «سنوبز» إذ المجرمين الحقيقيين المتآمرين هم الناس اللي وقفوا ضدي في الاجتماع. دول عارفهم كويس وعارف وقفوا ليه ووراهم مين والهدف من المؤامرة ايه؟

لم أستطع إلا أن أفقد السيطرة وأنفجر وقد فاض بي الكيل، وأستمع إلى كلمات اللوم والغضب وهي تتدفق بحرارة من فمي، استمع بلا أي لوم أو غضب. فقط ظل ينظر لي مشفقاً وكأنه أرسطو يتأمل قروياً يونانياً ينقذه بشدة ويشتمه على «مربعه» الفلسفي المشهور الذي ابتلى به البشرية .

ظل يستمع حتى - من نفسي - سكت، وطبطب على كتفي

وكأنه يرضي طفلاً أضاع معه وقته وقال:

ـ أنا متأسف لأني مضطر أسيبك عشان ألحق الاجتماع.. أنا دلوقتي بس أدركت أني ضيعت وقتي معاك، أنا بقالي ساعة أحاول أقنعك أنك ـ بصفتك راجل مهتم بالمشاكل العامة ـ تقف مع قضية عادلة زي قضية لائحة السلوك العام، إنما الظاهر أني ضيعت وقتنا نحن الاثنين. عن اذنك ألحق الأوتوبيس.

ـ الله. انت لسه بتركبه؟

ـ طبعاً.

ـ و٩٩٩ برضه.

ـ هو وغيره. ليه لأ؟

ـ وبتشوف برضه تجارب علمية وتسأل... و...

ـ ماباشوفشي حاجة أبداً. أنا صحيح جبت واحدة جديدة صحيح إنما عشان أستعملها بس في الحرم الجامعي.

إنما خارج كده، أنا لا أرى زي ما أنت شايف.

ـ ولا بتسمع استغاثات.

ـ أبداً.. أبداً.. الظاهر أن الست دي كانت آخر واحدة تشذ وتستغيث، وأنا كنت آخر أحمق يقول أنا شفت.. يعني كانت آخر علقة. دلوقتي تركب ٩٩٩ أو غيره تلاقي كله تمام.. اللعبة بتتم في صمت ولا أحد يخرج على قواعدها، والقاعدة إنك ما تشوفش، وإذا

شفت كأنك ما شفتش. وإذا حصل لغيرك مالكش دعوة وحتى إذا حصل لك أنت ولا كأنه حصل لك. حل عبقري مش كده؟

نظرت اليه مذهولاً، ليس إلى عويس «الجنونة» أو رسول العناية للإصلاح، أو بطل الكفاح من أجل اللائحة. كان ذهولي ربما أكثر بكثير من ذهوله حين وقعت له منذ أسبوع الواقعة.

- عن إذنك.. ٩٩٩ بتاعي جه. ولا يهمك بكره لما اللائحة تقر حتشوف.

وعلى طريقته تخلى عن وقاره العظيم للحظة، وانطلق يجري ولسانه رغماً عنه يفلت كلمة «سنوبز» وبقفزة هائلة وضع قدمه فوق السلم، وما كاد يستقر ويمسك العمود بيد وقد اندش بين الممتشعبطين، حتى استدار ناحيتي وأشار إليّ بمحفظة أوراقه السوداء مودعاً وعلى فمه نفس ابتسامة أرسطو المشفقة وهو يرمق بها ثورة القروي الجبلي على «مربعه» المشهور.

حمّال الكراسي

صدقوا أو لا تصدقوا فمعذرة* لا يهمني أبداً رأيكم يكفي أني رأيته وحادثته وقابلته وشاهدت الكرسي، فاعتبرت أني رأيت معجزة. ولكن المعجزة الأكبر، الكارثة، أن لا الرجل ولا الكرسي ولا القصة كانت تستوقف أحداً من المارة في ميدان الأوبرا لحظتها ولا في شارع الجمهورية ولا في القاهرة أو ربما الدنيا كلها. كرسي هائل تراه فتظن أنه قادم من عالم آخر أم أقيم من أجل مهرجان.. ضخم كأنه مؤسسة، وواسع القاعدة، ناعم، فرشه من جلد النمر، ومسانده من الحرير. وحلمك كله إذا رأيته أن تجلس عليه مرة أو لحظة.. كرسي متحرك، يتقدم بتؤدة كأنه موكب المحمل حتى لتظن أنه يتحرك من تلقاء نفسه، وتكاد من الرعب أو الذهول تخر أمامه وتعبده وتقدم له القرابين. ولكن في آخر وقت ألمح بين الأرجل الأربعة الغليظة المنتهية بحوافر مذهبة تلمع، ساقاً خامسة ضامرة غريبة على الفخامة والضخامة، ولكن لا لم تكن ساقاً، كانت انساناً نحيفاً

(*) كتبت في أواخر ١٩٦٨.

معـروفاً قـد صنع العـرق على جسـده تـرعـاً ومصـارف وأنبت شعـراً وغابات وأحراشاً. صدقوني فأنا بالأمانة المقدسة لا أكذب ولا أبالغ، بل أنقل في عجـز ما رأيت. كيف استـطاع نحيف هش كهذا الـرجل أن يحمل كرسياً كهذا لا يقل وزنه عن الطن أو ربما أطنان؟ ذلك هـو المذهب للعقل وكأنه شغل حواة، ولكنك تتمعن وتعود تتفحص فتجد أن ليس في الأمـر خديعـة وأن الرجـل حقيقة يحمـل الكرسي وحـده ويتحرك به.

والأعجب والأغـرب والمثيـر للذعـر أن لا أحـد من المـارة في الأوبـرا أو في شارع الجمهـوريـة أو ربمـا القـاهـرة كلهـا ينـدهش أو يستعجب أو يعامل الأمر إلا وكأنـه مسألـة عاديـة مفروغ منهـا، وكأنـه كـرسي فـراشـة يحمله صبي ويمضي بـه. أنـظر إلى النـاس وإلى الكـرسي والرجـل عليّ ألمح ارتفـاعة حـاجب، مصمصـة شفـاه، أو صيحة عجب.. لا شيء مطلقاً.

وبدأت أحس أن الموقف كله شيء من المرعب استمرار التفكير فيه. وفي تلك اللحظة كان الرجل بحمله قد أصبـح على قيد خـطوة مني وأصبحت أرى وجهه الطيب رغم كثرة ما فيـه من تجاعيـد، ومع هذا لا تستطيع أن تحدد له عمراً. ورأيت ما هو أكثر، فقد كان عاري الجسد لا يغطيه إلا حزام وسط متين يتـدلى منه سـاتر أمـامي وخلفي من قماش قلوع المراكب، ولكنك لابد تتوقف وتحس بعقلك قد بـدأ كالغرفـة الخاليـة يصنع صـدى، إنه يبـدو في لباسـه غريبـاً ليس على القـاهرة وإنمـا على العصر كله. تحس أنـك رأيت لـه شبهـاً في كتب

التاريخ أو الحفريات، وفوجئت هكذا بابتسامة فيها ذلة السؤال، وبصوت وبكلام.

ـ الله يرحم والديك يا بني ـ شفتش عمك بتاح رع؟

أهو هيروغليفي منطوق بالعربية، أم عربية منطوقة بالهيروغليفية؟ أيكون الرجل من المصريين القدماء؟

وهجمت عليه:

ـ اسمع . . أوع تقول إنك من المصريين القدماء.

ـ لهو فيه قدماء وجداد؟ أنا من المصريين وبس.

ـ وايه الكرسي ده؟

ـ شيلتي . . أمال أنا بادور على عمك بتاح رع ليه؟

عشان زي ما أمرني أشيله يؤمرني أني أنزله, أنا اتهد حيلي.

ـ أنت بقالك كتير شايله؟

ـ كتير قوي ما تعدش.

ـ من سنة؟

ـ سنة إيه يا بني؟ قول من ييجي سنة وشوية الآفات.

ـ الآفات ايه؟

ـ سنين . .

ـ من أيام الهرم يعني؟

ـ من قبل، من أيام النيل.

ـ نيل ايه؟

ـ من أيام ما سموا النيل، ونقلوا العاصمة من الجبل للضفة جانبي عمك بتاح وقال لي يا شيال شيل! شلت، وأدور عليه في سلقط في سلقط بعد كده عشان يقول لي حط. من يوميها للنهارده مش لاقيه.

وتماماً توقفت كل قدرة أو رغبة في الدهشة عندي. إن من يحمل كرسياً بهذه الضخامة والثقل للحظة، ممكن أن يحمله لآلاف السنين. لا دهشة ولا اعتراض كل ما في الأمر سؤال:

ـ وافرض مالقيتشي عمنا بتاح رع تفضل شايله؟

ـ أعمل ايه؟ أنا شايله ودي أمانة، خدت الأمر أني أشيلها أحطها ازاي من غير أمر؟

ربما غضب.

ـ تحطهازهق يا أخي! تعب. .ترميها، تكسرها، تحرقها، دا الكراسي اتعملت عشان تشيل الناس مش عشان الناس تشيلها.

ـ ما اقدرش. هو أنا شايله غية؟ أنا شايله أكل عيش.

ـ ولوا ما دام هادد حيلك وقاطم وسطك يبقى ترميه، ومن زمان ترميه.

ـ دا عندك أنت لأنك ع البر مش شايل ما يهمكش. أنا شايل

ودي أمانة وشايل الأمانة مسئول عنها.

ـ لغاية امتى إن شاء الله؟

ـ لما يجيني الأمر من بتاح رع.

ـ دا مات وشبع موت.

ـ من خليفته ـ من وكيله، من ولد ولاد ولاده، من حسد معاه أمارة منه.

ـ طيب أنا بأمرك أهه انك تنزله.

ـ أمرك مطاع وكتر خيرك.. بس انت تقرب له؟

ـ للأسف لأ.

ـ معاك أمارة منه؟

ـ ما معاييش.

ـ يبقى عن اذنك.

ولكني صرخت ـ وقد بدأ يتحرك ـ أوقفه، فقد لاحظت شيئاً كالاعلان أو اللافتة مثبتة في مقدمة الكرسي، بالضبط كانت قطعة من جلد غزال وكان عليها كتابة قديمة وكأنها النسخ الأولى للكتب المنزلة، وبصعوبة طالعت:

«يا حمال الكراسي

«لقد حملت ما فيه الكفاية.

«وآن لك أن يحملك كرسي . .

«هذا الكرسي العظيم .

«الذي لم يصنع مثله .

«لك أنت وحدك .

«احمله

«وخذه إلى بيتك

«وضعه في الصدر

«وتربع فوقه طول عمرك .

«وحين تموت

«يكون لأبنائك .

وهـذا هو أمـر بتاح رع يـا سيادة شيـال الكراسي . أمـر صريـح صادر في نفس اللحظة التي أمرك أن تحمل فيهـا الكرسي، وممهـور بإمضائه وخطوشه .

بفرح عظيـم قلت له هذا، فرح متفجر كمن كاد يختنق . فمنذ رأيت الكـرسي وعـرفت القصـة وأنـا أحس وكـأني أنـا الـذي أحمله وحملتـه عبـر الآف السنين، وكـأن الـذي انقصم ظهـري أنـا، وكـأن الفرحة التي انتابتني هي فرحتي للخلاص يأتي أخيراً .

برأس منكس استمع الرجل ولا اختـلاجة، انتـظار منكس أيضاً

أن أنتهي، وما كدت أفعل حتى رفع رأسه. كنت أتوقع فرحة مماثلة، انفراجة حتى، ولكني وجدت لا شيء.

ـ الأمر مكتوب فوق راسك أهه ومن زمان مكتوب.

ـبس أنا ماباعرفش اقرأ.

ـمانا قريته لك.

ـ أنا ما باصدقش إلا بأمارة.. معاك أمارة؟

ولما لم أجب، غمغم غاضباً وهو يستدير:

ـ أهو مابينوبنيش منكم غير العطلة.. يا ناس، والشيلة تقيلة والنهار الواحد يدوبك لفة.

ووقفت أرقبه وقد بدأ الكرسي يتحرك، حركته المتئدة الوقورة التي تظن أنها من تلقاء نفسه، والرجل قد أصبح مرة أخرى ساقه النحيلة الخامسة القادرة وحدها على تحريكه.

وقفت أرقبه وهو يبتعد، لاهثاً يئن وعرقه يسيل.

وقفت حائراً أتساءل أألحقه وأقتله لأنفس عن غيظي؟

أأندفع أسقط الكرسي عن كتفه بالقوة وأريحه رغماً عنه، أم أكتفي بالسخط المغيظ منه؟

أم أهدأ وأرثي لحاله؟

أم أصب اللوم على نفسي أنا لأني لا أعرف الأمارة؟

سُورة البقَرَة

ما كادت الفاتحة تقرأ ويسترد يده من يد الرجل، ومبروك! ويتأمل ملياً البقرة التي حصل عليها، ثم يتوكل ويسحبها خارجاً، حتى بعد خطوات قليلة وضع فلاح شاب طويل مهول يده فوق اليد الممسكة بالحبل، وبقوة الضغط والعضلات أوقفه قائلاً: ألا قول لي يا شيخ . . بالذمة والأمانة والديانة . . وقعت بكام؟

وحتى لو لم يذممه فقد كان يريد قول الحقيقة، لكي يعرف من وقع الرقم إن كان هو الخاسر أم الكاسب في الصفقة، أجاب:

- بالذمة والأمانة والديانة بسبعة وتمانين جنيه وربع وبريزة للسمسار . .

ولم يتح له أن يقرأ في وجه الشاب الضخم، فما كاد يقول الرقم حتى كان الشاب وكأنما انتهى غرضه منه تماماً، فسحب يده ومضى إلى حاله مغمغماً بكلام مدغوم لا يلوي على شيء.

وبعد باب السوق بخطوة اندفع ناحيته رجل بشارب هائش وصوت مزعج عال وكرش، قائلاً: سلام عليكم.

ـ سلام ورحمة الله.

ـ بالذمة والأمانة يا شيخ بكام؟

وبصوت واضح وحرص شديد هذه المرة على ألا تفوته بادرة، فالبقرة أيام جده كانت بثلاثة جنيهات، وكان أبوه رحمة الله عليه يقول له إن أول بقرة اشتراها في حياته كانت بخمسة، قال: بالذمة والأمانة بسبعة وتمانين وربع وبريزة للسمسار.

قال الرجل من تحت شاربه المهوش: هم.. هيه.. فيها لبن؟

أجاب وأمره إلى الله: ما فيهاش.

ـ وراها عجل؟

ـ ماوراهاش.

ـ معشرة؟

ـ طالبة عشر.

ومرة أخرى قال الرجل بغيظ مكتوم لا يعرف سببه، وبحزن لا يعرف سببه أيضاً:

ـ هم.. هيه.. مبروكة عليك.

ومشى.

وعند أول منعطف للطريق الجانبي الماضي إلى الطريق الزراعي العام، رفع فلاح كان يعزق الأرض المجاورة صوته سائلاً:

ـ بتقول بالذمة والأمانة بكام؟

فقال: بسبعة وتمانين جنيه وربع وبريزة للسمسار.

فعاد الفلاح يصيح مرة أخرى:

ـبتقول بكام؟

ورفع صوته عالياً جداً أعلى بكثير مما يجب، لا ليسمعه الفلاح فقط وإنما ليصل إلى كل الرجال القريبين والبعيدين حتى يكفوه مئونة رد آخر:

ـبسبعة.. وتمانين.. جنيه.. وربع.. وبريزة.. للسمسار..

وقبل أن يسمح لنفسه أن يسمع الرد أو التعليق كان قد أغلق أذنيه ومشى.

وحين وصل إلى الطريق الزراعي الموصل إلى بلده كان قد سئل ثلاث مرات، وأجاب ثلاث اجابات، نقص الذمة والأمانة في ثالثتها حين كسل أن ينص على بريزة السمسار.

كانت الدنيا لا تزال ضحى والسوق منتصبة منذ الشروق هذا صحيح، ولكن كان هناك على الطريق قادمون كثيرون، أولئك الذين لا يريدون ضياع اليوم فأنهوا بسرعة أعمالهم ثم أقبلوا مهرولين يلحقون السوق.

وعلى أول الطريق الزراعي سأله شيخ معمم بجبة كالحة وقفطان:

ـدفعت فيها كام الذمة والأمانة والديانة إن شاء الله؟

فقط لو أنهم لايذممونه ويستحلفونه بالأمانة والدين!

ـ سبعة وتمانين جنيه وربع وبريزة للسمسار.

وبعد خطوة واحدة وإذا برجل وكأنه عمدة، يمتطي ركوبة ويستظل بشمسية يزعق بصوت مسلوخ: بتقول بكام؟

ـ غالية شوية إنما تتعوض.

ـ وما كاد يخرج علبة الدخان ويبدأ في لف السيجارة حتى حودْ عليه رجل مسن له لحية اختلط فيها السواد بالبياض:

ـ سلام عليكم.

ـ سلام ورحمة الله.

ـ دستورك منين؟

ـ من هرية.

ـ شاري والا بايع؟

ـ مانتاش شايفني راجع؟ شاري.

ـ واصل ع الشيخ منصور؟

ـ واصل إن شاء الله.

ـ طب بذمتك وحياة الشيخ منصور على قلبك، بكام؟

ـ بسبعة وتمانين جنيه وربع وبريزة للسمسار.

ـ يا راجل أنا ذممتك وحلفتك بالشيخ منصور؟

ـ وحياة الشيخ منصور والذمة والأمانة والديانة، وحياة شيخ العرب السيد بسبعة وتمانين جنيه وربع وبريزة للسمسار.

ـ يا راجل انت اشتريت خلاص، بريء ذمتك وقول الحق.

ـ وأنا يعني ح أكذب عليك ليه؟ ما قلت لك الحق.

ـ بقى بذمتك وديانتك والأمانة عليك وبركة الشيخ منصور وديتها رقبتك بسبعة وتمانين جنيه وربع؟

ـ وديني وما أعبد وحياة ربنا اللي أكبر من الشيخ منصور ومني ومنك ومن الدنيا كلها بسبعة وثمانين جنيه وربع وبريزة للسمسار.

ـ طب روح يا شيخ الهي إن كنت كذبت ما توعى تعلقها في المحرات.

وتركه ومضى. ولو كان قد بقي أمامه لحظة أخرى لما كان قد استطاع كبح جماحه الخاطر الذي كان يلح عليه باستمرار. أن ينتف ذقنه شعرة شعرة.

وما كاد يمشي أربع أو خمس قصبات حتى ـ برجاء حار ـ استوقفه شخص كان منتحياً جانباً، يعمل مثل الناس على حافة الخليج الموازي للطريق، وحتى قبل أن ينتهي وهو لا يزال القرفصاء لوى رقبته وسأل:

ـ بالذمة والأمانة بقد ايه؟

ـ بسبعة وتمانين وربع بريزة.

ـ ايه اللي سبعة وتمانين وربع بريزة. هم مش يبقوا سبعة وتمانين وخمسة وتلاتين صاغ؟

ـ طب يا سيدي ماتزعلش سبعة وتمانين وخمسة وتلاتين صاغ.

ـ أمال الأول قلت وبريزة ليه؟

ـ عشان هي بسبعة وتمانين وربع وبريزة للسمسار.

ـ بقى أبقى محلفك بالذمة والأمانة وتكذب؟

ـ أنا كذبت؟

ـ مش قلت بريزة للسمسار. هي البريزة تخش في التمن؟

ـ ما دام دفعتها تخش.

ـ لا ما تخششش.

ـ تخش.

ـ لا ما تخششش.

ـ تخش.

ـ أنت كداب.

ـ أنت بارد.

ـ تفوه عليك نفر.

ـ تفوه عليك وعلى اللي خلفوك.

وهو لا يزال متشبثاً باستماتة في حبل البقرة اندفع ناحية الرجل

يريد أن يطبق عليه وينتهي منه، وكان الرجل هو الآخر قد أوقف ما كان يقوم به واندفع ناحيته ويده مستميتة هي الاخرى على «دكة» السروال المفكوك، وبيد متشبثة والأخرى طليقة تريد أن تغور في زمارة رقبة الآخر. كادا أن يتماسكا لولا أن أولاد الحلال وما أكثرهم على الطريق حالوا بينهما في آخر لحظة، وبعد محاولات لصلح فاشل اندفع كل منهما، الرجل إلى حافة الخليج وهو ناحية بلده، وبينهما حبل طويل غليظ من الشتائم ظل يمتد ويرق كلما ابتعدا حتى انقطع وصار مخنوقاً. ومد يده يبحث عن العلبة ليلف السيجارة غير أنه اكتشف أنه فقدها في الخناقة، وبلغ به الغيظ حد أنه لم يحتمل مجرد فكرة العودة والبحث عنها في مكان الخناقة.

وهو في قمة غيظه إذا برجل يرتدي في عز الحر عباءة، مؤدب وقصير، ما كاد يفتح فمه ويقول: بالذمة والأمانة عليك. حتى كان قد رفع يده إلى آخرها دون أن يدري ثم هوى بها على صدغ صاحب العباءة الممددة في أدب ووقار.

وارتاع الرجل حتى سقطت العباءة من فوق كتفه، وفكر أن يمسك بخناقة ولكنه في اللحظة التالية كان قد راجع نفسه، وحين تلفت حوله فلم يجد أحداً من المحتمل أن يكون قد رآه وهو يصفعه عاد للسير وكأن شيئاً لم يحدث وهو يقنع نفسه أن الرجل لابد مجنون هارب من مستشفى المجاذيب.

وما كاد هذا يحدث حتى وجد صاحب البقرة نفسه يضحك ضحكاً عالياً متواصلاً وكأنه قد جن فعلاً، وبلغ به الاستهتار حد أنه

حين سمع السؤال يلقى عليه من جانب الطريق أندفع ناحية السائل ورفع يده يحاول أن يهوي بها على صدغه، ولكنه فوجىء بيد حديدية تقيد يده في مكانها، وبكف كأنها من بلوط تهوي على صدغه هو بأربعة أقلام سخنة نظيفة جعلت عينيه تقدحان شرراً، بل أعمته إلى درجة لم يـر معها ضاربه، ولا فطن إلى أنه ضرب إلا بعد أن أصبح بينه وبين المعتدي مشوار ومشوار.

وعند كشك المرور تماماً سأله تاجر قمح تخين كان يفرش على جانب الطريق يشتري بالاقداح والشروات من الذاهبات إلى السوق: إلا قولي يا شيخ العرب، بالذمة والأمانة بكام؟

ولم يكن عربياً أو شيخ عرب، ولكنه بمنتهى التأدب أو بهدوء غريب لا أثر مطلقاً لأية ثورة فيه أجاب: بسبعة وتمانين وربع وبريزة للسمسار.

وكأنه لأول مرة يدرك ـ وبصفاء أيضاً ـ أنه باع كل شيء ليشتري هذه البقرة بعدما ماتت جاموسته في أول شعبان، بل فطست ولم يلحقها الجزار بالسكين حتى، ولثلاثة أشهر وهو يدبر، وعلى المحصول الذي لا تزال أمامه أربعة أشهر طويلة، ومحفظته إن كانت لم تسرق في الخناقة فليس بها غير جنيه وربع هي آخر ما تبقى معه من نقود في الحياة.

ـ بسبعة وتمانين جنيه وربع وبريزة للسمسار.

قالها مرة أخرى، وبصوت مخنوق أعلى حتى حدق فيه التاجر

مذهولاً لا يستطيع النطق.

وما كاد يلتفت حتى هبط من فوق جسر السكة الحديد رجل كان يحمل عنزة على كتفه، وما أن فتح فمه لينطق حتى قال:

- بسبعةوتمانين وربع وبريزة للسمسار.

وبعد برهة قابلته امرأة تحمل مقطفاً ثقيلاً وتنوء بحمله، وقبل أن يصلها أو تدرك وجوده رفع صوته وقال:

- بسبعةوتمانين وربع وبريزة للسمسار.

-وقالت المرأة: «يه؟» ثم حثت الخطو وكأنها تهرب من شبح.

وعند التابوت كانت جماعة قادمة من طريق التوت بعضها راكب وبعضها ماش، ورفع صوته إلى أقصى ما يستطيع وقال:

- بالذمةوالأمانة بسبعة وتمانين وربع وبريزة للسمسار.

وضحكوا وقال واحد: الناس انهبلت، بينما تخلف ولدان راحا يشبعانه تريقة وسخرية.

وعلى مدخل البلدة رأى جاموسة ترعى على حافة «القيد» فصرخ فيها:

- بسبعة وتمانين وربع وبريزة للسمسار.

واستدارت الجاموسة ناحيته ورمقته في بلادة وكسل، ثم عادت تعسعس بشفتيها وأسنانها على الحشيش.

وحين دخل بلده كان يصيح سواء سأله أحدهم أم لم يسأله، قابل شخصاً أم لم يقابل، يقولها هكذا للزرع وللحيطان، وللحر أو للسما وللأوز وللجنيه وربع، وللأربعة أشهر والأربعة أولاد والولية، وللبهيمة التي ماتت، وللبقرة التي يسحبها، وللشيخ منصور، ولنفسه، وللدنيا كلها:

ـ بالذمة والأمانة والديانة، وبكل كتاب أنزل، بسبعة وتمانين جنيه وربع وبريزة للسمسار.

هي

ـ هوووه(*)

مبكـراً وقبل يقـظتي التامـة جاءني الصـوت منخفضاً قـويـاً فيـه همس «الفانفار»

أقشعر جسدي قلت:

ـ هوووه.

عاد يقول:

ـ قوم.. عندك ميعاد في العتبة.

استيقـظت تماماً. نسيت الشـــاي، غادرت البيت، أصبحت في العتبة. عندك ميعاد في العتبة. أين؟ لا جواب. متى؟ لا جواب. مع من؟ لا أعـرف. انتصف النـهـار، بـدأ اليقظ، ضـوء الشمس اشتـد وكأنما شحنت بطارياتها إلى آخرها. كثر الذباب، تزاحم الناس أكثـر وعـزلتهم وضحت. عنـدك ميعـاد في العتبـة، أنـا في العتبـة، القلب القديم لقاهرة قديمة. قاهرة واحدة كان لها قلب واحد.. اليوم بمـائة

(*) كتبت في مايو ١٩٦٩.

قلب، بلا قلب، الميعاد في العتبة. كيف أطيع الصوت وأنا العلمي الذي لا يؤمن بالدجل؟ حاولت العودة، فشلت، أصبحت لا أعرف كيف. مقيداً حبيس الميدان وحولى سور خفي مكهرب لا أستطيع اجتيازه. الميعاد متى ومع من ولماذا؟ لا أعرف. الميعاد في العتبة.

مر أسبوع وأنا سجين القهوة واللوكاندة والميدان، حدودي فتحات شوارع محمد علي والعباسية ومسرح الازبكية والمطافي. البنايات القديمة حراسي. الناس، النظرات، أجنحة الذباب، مقيدة مثلي بقوى قاهرة. كل شيء قديم تهب منه رائحة الزمن كجو مقبرة تفتح بعد مائة عام. الميدان يضيق، خطواتي فيه تتحدد أكثر، لم يعد باستطاعتي إلا أن ألف حول عربة الترام الثابتة في الميدان. في نهاية اليوم العاشر لم أعد أستطيع التحرك شددت قدماي بطريقة حاسمة ومجهولة إلى جوار العربة. ظللت في مكاني يومين بلا نوم أو طعام. في الضحى، وفي موكب أقبلت عربة «بويك» زرقاء من آخر موديل حلياتها النيكل مصنوعة من ذهب، العيون والأفواه المفتوحة حولها وتتبعها، قائدها كالسائقين لدى العائلات الكبيرة يرتدي معطفاً أبيض وقفازاً أبيض وقبعة ذات حافة. . توقف أمامي وقال:

ـ اركب.

لمحت خيبة الأمل في كل العيون المعششة حولنا وكأن كلاً منهم كان يتوقع نفس الدعوة.

ـ أنا.

ـ أيوه أنت.

ـ متأكد؟

ـ أنت مش عندك ميعاد في العتبة؟ اركب.

أأركب.

سألت: على فين؟

قال: هي عايزاك.

ـ هي مين؟

ـ اركب.

أأركب؟

خفت.

التقت عينانا.

لم أجسر على المعارضة.

ركبت.

انطلقت العربة.

غادرنا العباسية في اتجاه ترب الخفير. بدأ طريق يصعد بنا، كان واضحاً أنهم انتهوا من رصفه من لحظات وأنه يطوى طياً بعد أن تمر به العربة.

ـ أحنا في المقطم؟

سألت وقد بلغنا أعلى نقطة. لم تستدر الرقبة الغليظة، لم أظفر بجواب. أعدت السؤال مجدداً وبصوت أعلى. لم يأتني إلا الصمت. سكت، أتكون هي؟ هي هي؟ أتكون هي؟ أم تراها أسطورية كعائشة التي قرأت عنها صغيراً. ولكنا لسنا في رواية. أعرف الفرق تماماً بين الاحلام والواقع وبين الاساطير والحقيقة. العربة حقيقية والسائق حقيقي وهضبة المقطم حقيقية، حتى «فانفار» هوووه لا يزال يرن في أذني رنيناً حقيقياً له وجود كوجود حركة عقرب الثواني في ساعة معصمي. معصمي حقيقي ومستيقظ ويؤلمني حين أعضه.

ـ انزل.

كانت العربة دون أن أشعر قد وقفت، وكان عقرب الثواني لا يزال يتحرك ولكن الزمن توقف.. مع العربة توقفلم أنزل.

ـ انزل.

الأمر صريح.. نزلت. انطلقت العربة بسرعة خاطفة، أختفى هيكلها قبل أن يختفي صوتها. عدت إلى ما حولي، صحراء واسعة ممتدة، صحراء غير مستوية، لا شيء هناك ولا في أي اتجاه. لا أحلم، قطعاً لا أحلم. خلعت الساعة، قربتها من أذني، التكتكة. مسموعة. أنا لا أحلم، أنا موجود والقاهرة مختفية في مكان ما ولكنها قريبة وموجودة.

سرت خطوات.. عشر خطوات كيفما اتفق. فجأة وجدت

أمامي. . بوابة بالتأكيد من زمن فعمرها لا يقل عن نصف قرن. بـابها من حديد هائل الضخامة قد تراكمت فوقه طبقات الصدأ، عليـه زرع أخضر له سيقان غليظة عمرها أكثر بكثير من عمر الرجـل، وزهورهـا حمـراء طـازجة نبتت من سـاعـات. البـوابـة مغلقـة لم تفتـح من أحقـاب. الظل جميـل بعد لفـح الشمس، الخضرة تجعـل من الظل جنـة، البوابـة من جماد ولكنهـا أشعرتني بـالونس. افتـح يا سمسم! تفتح البوابة. واضح أنها مستحيل أن تفتح.

جلست أنتـظر. . لم يكن أمامي إلا أن أنتـظر. غابت الشمس نمت، صحـوت. أشـرقت الشمس، مـالت، غـابت. نمت، حلمت أني أمثل دوراً في السينما وجني احتضن البـطلة أمام مخـرج عجوز. عيون الكاميرا كانت تضايقني. صحوت، أنـا جوعـان، بدأت أمضـغ الأغصان الجافة، أحسست لها بلذعة كففت أن تكون نباتات سامة أو مخـدرة، أخـطأت وألقيت نـاحية الشمس نـظرة. لم أستـطع سحب نظرتي، جذبتها الشمس تماماً وابتلعت وعيي. عميت. . عمي أبيض مليء بحسرة كـالـدم. حين غـربت الشمس عــدت للوعي والـرؤيـة ووجـدت البـوابـة مفتـوحـة. دخلت، انـطلقت بكـل قـواي أجـري. الحديقة واسعـة، مزدحمـة بالاشجـار. الظلام يتكـاثف، أنا جـوعان والأشجـار أشجار جـوافـة. أكلت، عـاودت الجـري في خط مستقيم ربمـا أصـل إلى هـدف. شعشـع الفجـر، أحسست بـطريقـة مـا أني محاصر. توقفت، من خلف كل شجـرة برز مـارد أطول مني بكثيـر، ربمـا مائـة أو أكثر. أحـاطوني، اكتشفت حين اقتـربـوا أنهم عـرائس

خشبية ضخمة وأن مفاصلها من خيوط وأسلاك. تحركنا، أنا في الوسط وهم حولي. طال المشوار، غابت الشمس.

لم أنم، ظل حراسي مستيقظين. في منتصف الليل سمعتهم يتحدثون وقد انقلبوا من عرائس رجال إلى عرائس نساء.

سألت أقرب جاراتي الحارسات:

ـ من تكون هي؟ أتكون هي هي؟

لم تجبني. غمغمت لجارتها:

ـ هذا الجلف.. إنها أجمل من كليوباترا.

ـ أكثر أنوثة من أفروديت.

ـ ساقاها أمتع من وليمة جنسية.

ـ فخذاها غيبوبة أروع من الوعي.

ـ هذا الجلف.

أشرقت الشمس.

كنت وحدي بلا حراس ولا عرائس.

في مواجهتي تماماً باب أنيق لقصر، القصر مبني بطريقة حديثة كأنه ديكور فيلم من أفلام المستقبل.

كان الباب مفتوحاً.

دخلت.

الصالة مساحتها عشرة فدادين، السجادة كيلو متر مربع، في الصالة ثلاثة كراسي في ثلاثة أركان.

كنت متعباً، جلست على أقرب كرسي، نمت. استيقظت لأجد الجدران قد حفلت بألف باب.

عرفت أن أخمن وأختار.

اخترت أبعد الأبواب.

دخلت.

مشيت عاماً.

أين تراها؟

تعبت.

حاولت العودة.

وجدت نفسي في منتزه واسع مفتوح، والدنيا ربيع وفي الوسط «بيسين» يتسع لمدينة تستحم، وكانت فيه امرأة واحدة عارية تماماً وبعيدة جداً.

كانت هي.

وكان عليّ أن أنتظر.

وانتظرت أنا والشمس، هي تشرق وتغيب وأنا لا أتحرك. وبعد أيام عرفت أنها غادرت الحمام وأنها في طريقها إلى التعطر والمنام.

وانتظرت.

- هوووه!

ـهوووه!

- ادخل.

بعد أحقاب.

دخلت المخدع.

السرير كرسي عرش ممدود، والجدران لوحات بانوراميـة حية، والنـور المصنوع مختلط بنـور القمر بـلا تفرقـة، وبـأصبعهـا أشـارت وسـرت، وبـأصبعهـا أشـارت وتـوقفت عنـد قـدمي السـريـر وخلعت مـلابسي، وأشارت وأقبلت جـواري حملتني إلى الحمـام، وأشـارت وجيء بي وقد أعددت تماماً، وأشارت وأصبحت بجوارهـا تمامـاً في الفـراش. وجيء بـالـطعـام، وأكلت. . لي أعـوام وأنـا جـوعـان. وبالشراب، وشربت. لي أعوام لم أغب عن الـوعي. وفعلت كل هـذا وأنا ذاهل، فقد كانت هي أجمل وأروع من كل ما حلمت وتصورت، لكأنما كل نساء العـالم قشور وهي قلبهن جميعـاً، أعماقهن، كـل ما فيهن من رقة وحنان وأنوثة.

وجـاءت اللحـظة واستـرخت فـوق الفـراش تنـاديني، ولبيت النداء. وأشارت وأطفئت الأنوار، وأشارت وانطفأ القمـر. وتحسست جسـد ـا وأنـا ذائب معهـا في قبلة، واقشعـرت يـدي وهي تـلامس

فخذها. كانت خشنة مليئة بالشعر رفيعة طويلة كساق المعزة تنتهي بحافر كحافر الحمار. اكتشفت أن الأنثى التي أنا غائص فيها كانت مؤخرة رجل فاجر الشذوذ. غاص قلبي وانطلقت أجري أبحث عن باب المخدع.. أتعثر في غثياني وأبحث عن باب المخدع ولا باب. أجري ولا باب، وأتعثر في غثياني ولا باب.



لغة الآى آى

حالة تلبس

حينما ضبط المنظر . لم يكن عميد الكلية هو الذي غضب والتهبت الدماء في عروقه ، ولكنه الطفل الذي ولد وتربى في « سوهاج » ومنذ أن بدأ يعي فهم أنه قد يكون مباحاً للرجل وعيباً للشباب ومحرماً تحريماً قاطعاً على الأطفال ولكنه للنساء جريمة ، أكثر من جريمة ، قد يوازي هتك العرض ، فما بالك وهي ليست رجلاً ولا طفلاً ولا حتى سيدة ولكنها فتاة ، بنت لا تتعدى السابعة عشرة بأي حال .

وحين وصل الغضب قشرة العقل المكتسبة ، وانفعل العميد الذي فيه ، كان أكثر ما ضايقه أنها لابد في السنة الأولى ، طالبة جديدة ، يعني بالأمس فقط كانت طفلة في ثانوي .

ورغم كل غضبه لم يتحرك إلا حينما تحرك الوالد الذي فيه وتململ ، وأدرك كالمدهوش ، أنها تكاد تكون في سن ابنته (لمياء) ، حينما فقط استدار مغادراً النافذة في طريقه إلى حيث أزرار الجرس الموضوعة في مكانها الخالد الذي يتوارثه العمداء فوق المكتب .

وربما لو كان في الحجرة أحد .. أستاذ أو لجنة أو حتى لو كانت في انتظار مقابلة كائن ما لكانت الحركة قد اكتملت وكانت يده حتماً

قد وصلت إلى الزر .. والساعي المرابط أمام الباب حضر والفصل لأسبوع أو لأكثر من الكلية أو حتى الزجر والضرب قد حدث .

ولكنه كان وحده في حجرة العميد الواسعة المهولة ذات النافذة الجانبية الضيقة . والحجرة تغري بالتريث ، والنافذة الضيقة تغري بتدقيق النظر . وفي حالته كان الإغراء كبير بإعادة النظر .

وعاد إلى إستمرار النظر .

الحجرة في دور أول لا يرتفع عن الأرض قليلاً . والفناء الخلفي الذي تطل عليه النافذة الجانبية خال تماماً من الطلبة فهو في العادة مكان غير مرغوب من الطلبة ، والساعة اقتربت من الثالثة . واليوم الدراسي انتهى ولولا مراجعة جدول الامتحان لما كان هو نفسه قد بقى إلى هذا الوقت ولما قام من النافذة منهكاً يتثاءب ويتمطى ويأخذ فكرة عن الجو بالخارج . ولما شاهدها ، تلك الطالبة الصغيرة التي ما أن بدأ عقله يتساءل عما أتى بها إلى هذا المكان المهجور ، وبعد انتهاء الدراسة . حتى كان الغضب قد اجتاحه . وجدها بكل بساطة وتحت أنف نافذته تخرج بل أخرجت فعلاً علبة سجائر من حقيبة يد مستطيلة ضخمة وعبثت بكراريس المحاضرات المختلطة بأدوات التجميل قليلاً وما لبثت أن أخرجت علبة كبريت أيضاً .

طالبة . واضح تماماً أنها لابد في السنة الأولى . تدخن وتحمل معها في الحقيبة علبة سجائر وعلبة كبريت ؟!

هكذا من النظرة الأولى تفجر الغضب .

ولكن النظرة التالية كانت نظرة مذهولة يستبعد تماماً أن يصدق أن

شيئاً كهذا ممكن أن يحدث ، مؤجلاً التصديق إلى أن يراها فعلاً وهي تدخن .. خاصة والفتاة كانت لاتزال ممسكة السيجارة في يد والكبريت في يد أخرى وكأنما لم تقرر بعد ماذا تفعل بشأنهما .

وتأملها العميد ، كانت طالبة عادية لا يمكن إذا رآها في مجموعة أن تستوقف النظر ، شعرها مهوش على طريقة الجيل الجديد في الأناقة وعيناها ذابلتان لابد من المذاكرة والسهر . متكئة تكاد تكون مستلقية بعد يوم متعب حافل على الأريكة المهملة التي لا يستعملها أحد ، ولكن شبابها الفائر يكاد يقفز من وجنتيها المحمرتين رغم قمحية بشرتها ، ومن جسدها البارز في أكثر من مكان من ملابس الطالبة الرخيصة التي ترتديها .

وبوغت العميد حقيقة وهو يلحظ فجأة أنها بأصابع اليد الواحدة .. أصابع تلون سبابتها آثار الحبر قد فتحت علبة الكبريت ، وباليد الأخرى ، بيد ثابتة لا اضطراب فيها ولا خوف وبحركات تلقائية ليس فيها من مجهود الإرادة شيء ثبتت السيجارة في فمها وادارتها دائرة كاملة بين شفتيها وكأنما لتبلل ، كالمدخنين العتاة ، فمها (الفلتر) ، وبنفس التؤدة والتلقائية وبضربة لا أثر للتدبير فيها أشعلت العود ولم تقربه من السيجارة في الحال ، أهملته بين اصبعيها قليلاً وكأنما تستمتع برؤيته يحترق . ثم ما لبثت ببطء ، ودون أن تنظر ، وبعينين هائمتين في جدار الفناء البعيد ، أن قربت العود بحيث لامست شعلته طرف السيجارة دون أن تحيد يميناً أو يساراً وكأنما يدها مدربة على الطريق . وجذبت نفساً واحداً اشتعلت بعده السيجارة . وبالدخان الخارج . بعد ابتلاعه ، من

فمها ، أطفأت العود ، ثم لم تلبث أن القته في إهمال غريب فوق عشب الممشى القريب .

وجن جنون العميد ، أنها مدمنة داعرة الإدمان أيضاً ، أنه هو نفسه يدخن ولا يفعل شيئاً كهذا ، أنه يشعل السيجارة كلشنكان وِيدخنها كيفما اتفق ، ولكن هذه ، متى وكيف وفي أي بؤرة فساد قد تعلمت كل هذا . أنها حتى لا تشعل الكبريت كالنساء التي قرأ مرة أنهن يشعلن العود من الناحية البعيدة عنهن خوفاً غريزياً من ناره على ملامحهن وشعرهن ، وفقط بعد الاطمئنان إلى شعلته بعد خفوتها يجرؤن على تقريبه منهن أما هذه الـ .. الطالبة . طالبة أولى هذه .. لا تخاف العود ولا النار ويبدو أنها لا تخشى شيئاً في الوجود .. إنها لا يمكن أن تكون في السابعة عشرة .. سن ابنته .. لابد أنها أكبر بكثير .. بسنتين لابد أو حتى بأيام .. إنها جرثومة ، ان الفصل أسبوعاً واحداً لا يكفي أبداً .. الرفد النهائي هو ما يجب عمله لا أقل من الرفد النهائي .

ولكنه لم يعرف كيف حدث هذا فقد وجد شيئاً أكبر بكثير من كل غضبه وكل حماسه للضغط على الجرس واستدعاء الساعي واتخاذ بقية الإجراءات ، شيئاً أجبره على أن يقف في مكانه لا يتحرك وينتظر ويراقب ويعاود الرؤية .

ورفعت الفتاة يدها إلى فمها مرة أخرى ، ولكنها انتظرت قليلاً بفم السيجارة قريباً من فمها ثم بدا وكأن الوقت قد حان وهكذا ببطء لا تلكؤ فيه أسبلت جفونها حتى كادتا تغلقان تماماً ثم ضمت شفتيها حتى

ضاقت الفتحة بينهما وتكرمش غشاؤهما ومن الفتحة الضيقة أدخلت فم السيجارة ، وجذبت نفساً ، لا لم يكن جذباً ، كان إمتصاصاً ، ليس امتصاص دخان ، لكأنه رشف أعظم سعادات البشر ، رشفة ببطء وباستعذاب وبملايين الأفواه ، كل خلية من خلاياها بدت وكأنما أصبح لها فم تجذب به وترتشف ويتموج جسدها كلها تموجاً غير منظور ، وعلى دفعات وكأنه عطشان يجرع أعذب الماء ويريد أن يستمتع بكل قطرة من قطراته ، حتى إذا ما بدا أن كل دقيقة فيها قد أخذت كفايتها وظفرت بسعادتها الخاصة ، رفعت السيجارة عن فمها ببطء ، وكبرياء وعينين قد فتحتا ببخل شديد وكأنها تخاف أن تهرب من فتحتيهما النشوة .

واستحال غضب العميد إلى لحظة صدمة مفاجئة تكاد تتحول إلى ذعر .. خوف شديد أن يستمر في الرؤية ، خوف الخائف على نفسه هو من استمرارها ، والفناء بدا له كالبقعة المهجورة المقطوعة عن العالم ، يحفل بسكون ، وزمتة ، ورائحة ربيع مقبل مخيف ، وقرب أيام نهاية العام والامتحان ، والفتاة كأنها جنية من جنيات الظهر انشقت عنها خرابة الفناء فجأة ، متكئة تكاد تكون مستلقية فوق الأريكة ذات الحديد المتراكم فوقه الزمن والصدأ ، الناقص مقعده خشبة الوسط .

وبرهبة المذهول هذه المرة راح يترقب كيف تخرج النفس .. فمها المضموم أبقته مضموماً هنيهة ، ثم فتحته نصف فتحة وبحركة فيها كسل أنثوي ضاقت له عيناه راحت توسع من فتحته قليلاً قليلاً في نفس الوقت الذي كان صدرها قد بدأ يتسمع وكأنها بسبيلها إلى التنهد حرقة ولوعة ،

ربما على فراق تلك السحابة الدخانية الصغيرة التي فجرت في جسدها المستلقي تعباً واسترخاء حيوية وأضافت إلى صباها صبا . يتسع حتى ليجذب الدخان إلى أعمق أعماقها ، ليلامس أقصى أرجائها وليلتقي بكل جزء من صميم صميمها لقاء الوداع وفي نفس الوقت الذي يعود فيه الصدر إلى وضعه الطبيعي وحجمه ، يكون الدخان هو الآخر قد بدأ يخرج ، من الشفتين المنفرجتين أضيق أوسع إنفراج .. تخرج دفعاته الأولى مرسلة على سجيتها دون ضغط أو إكراه ، تصنع دوائر لولبية وضبابات ثم تتلوها الدفعات الخارجة بالإرادة متأنية موجهة قد شحت دخانها وتغير لونه وكأنما امتصت منه كل النضرة والحياة .

قطعاً لابد من فصلها . في منتصف السيجارة تماماً والجريمة سيدق الجرس ويهمس إلى الساعي ويذهب الرجل ويطبق عليها وساعتها سيعرف اسمها ويفصلها .

ذلك كان قراره ولكن ما ضايقه في الحقيقة أنه بدا وكأنه قرار شخص آخر ، بعيداً عنه جداً ، ذلك البعد الذي أصبح بين عقله وإرادته ، إرادة لا يدري لماذا هي رخوة لا تستطيع أن تنفذ أمراً وكأنما هي واقعة تحت تأثير مخدر سخيف ملعون لا يعرف كنهه ، إدارة لم تعد تستطيع أن تفعل إلا أن تنظر وتستمر تنظر .

وأخذت الفتاة نفساً آخر ، وهذه المرة أخرجت دخانه من فمها وأنفها معاً ، أنف فتحاته صغيرة دقيقة كأنها براعم فتحات يخرج منها الدخان باهتاً معتصراً ليصطدم بالدخان الخارج من الفم الضيق المضموم المكرمش ..

وأحس العميد بأشياء داخله تتنبه . وتلفحه سخونة ليس مبعثها الجو .. وبسرعة في دقات القلب لا علاقة لها بمرض الضغط ..

وتوالت الأنفاس ، وفي كل مرة تجذب النفس على مهلها وبتلذذ سعيد تنغلق له عيناها ، وكأن شفتيها المضمومتين على فم السيجارة تبتهلان لشيء أو ترشفان شيئاً ، رحيق السعادة ربما أو أكسير الحياة ويسترخي جسدها ويتدغدغ للنفس ثم تبدأ عملية الإخراج ، وتفعل هكذا كله بإندماج شامل تام وبلا إرادة .. وبطبيعية لا تكلف فيها ولا اصطناع ، والأنفاس تتوالى ويستحيل ما يحسه العميد إلى تيار غريب يجوب جسده كله مع كل نفس ، ولا يوقظه من تعب يوم أو إنهاكه ولكن يوقظ أجزاءه وأجهزته من رقدة عمر طويل ، ويمحو هكذا في ومضة آثار سنين وأمراض ومشاغل وحياة تصلبت وجفت واستحالت إلى درب ضيق محدود من ناحية منه زوجة جف منها ماء الحياة و لم تعد تفعل إلا أن تناكف وتضايق وفي الناحية الأخرى عمل وروتين لاجدة فيه ولا أمل . وصراع ، وما بينه وبين رئيسه مدير الجامعة من حزازات ، وهو كالبندول رائح غاد بينهما ، الكلية تدفعه إلى البيت والبيت يدفعه إلى الكلية ، بندول عجوز مصاب بأكثر من مرض ووجع وفي صدره أحقاد .

ومنتصف السيجارة الذي كان قد حدده وصلته الطالبة ولكنه كان في حال لم يعد يعرف أن كان ما يحسه سخطاً أم إعجاباً أو أن كان إنفعاله إنفعال نشوة أم إشمئزاز ، كل ما أصبح يفعله ، حتى ولو لم ترض إرادته ، أن يظل يرى الفتاة ويراقبها .. جسده نفسه ، عيناه ، أنفاسه ،

لسانه الذي بدأ يجف في حلقه ، ساقاه اللتان شدت عضلاتهما واشرأبت ، كلها تراقب ، كلها مع الفتاة وسيجارتها في التحام لا يمكن فصله أو إنهاؤه ، التحام متواصل حي ينبض نفس نبضها حين تطبق بفمها الضيق على فم السيجارة وتجذب وتدوخ بالنشوة ثم حين تفتحه نصف فتحة وبه أو بأنفها أو بهما معاً تخرج اللوعة والحرقة والنفحات الهاربة وفي أعقابها تلك التي تدفعها لتخرج برفق وحنان وتؤدة .. نبض متوال متسارع ، والتحام ذو حرارة مستمرة متزايدة تتصاعد إلى أعلى مراتب عقله وتذيب ، تذيب أشياء كثيرة ، تذيب أفكاراً تحجرت كالمومياء المصبرة وأصبحت حكما وعقائد ، وتفتح مناطق حاصرتها التقاليد وعزلتها ، وتنفذ الأفكار بسهولة وتنطلق بسهولة ويبدو المستحيل ممكناً ، ولماذا الحرس والساعي والتأنيب والفصل ؟ ألأنها تدخن وسنها سبعة عشرة عاماً ولأنها طالبة وما الفرق بين أن تدخن وهي طالبة وتدخن وهي خريجة وكله تدخين في تدخين ، ولماذا نحرمه على جسد شاب فائر ، ونحلله لسيدة أو لعجوز تسعل وتكح وتبصق كلما جذبت نفساً ، أليس هو قائل نفس المبادىء وهو في العشرين والثلاثين حين كان في بعثته يرى أن مشكلة مجتمعه الأساسية أن أفراده يحيون في عصر بتقاليد قرون مظلمة مضت ، وأن بلاده لا يمكن أن تصل إلى أي تقدم علمي أو صناعي أو حضاري إلا إذا تم التحرر وعاش الناس فيه بتقاليد عصرهم نفسه وقيمة وأنواع حرياته .. بإعطاء أفراده حتى حرية الخطأ وألا نمنعهم بالنصح والزجر عن خوض التجارب ونورثهم صوابنا نحن وخطأنا بل نتركهم لكي يستخلصوا هم من تجاربهم ما يرون أنه الصواب وما يرون أنه الخطأ .

وبدأ جسد الطالبة الصغيرة يتململ ويتلوى ، ونهمها إلى جذب الأنفاس يشتد ويتلاحق وكأن في داخلها تحفر فجوات هائلة تحدث فراغات سريعة مذهلة تطلب الإمتلاء لا بالدخان ولكن بالمتعة الحادثة من حريتها في أن تنفرد بنفسها وبالسيجارة وتمتص منها ما تشاء وتبتلع ما تشاء ، والعميد يحس بجفاف ريقه يزداد وحنجرته تتسع وتزداد قدرتها على الرنين وكأنها تستعد لإطلاق صرخة العمر ، وعرق غريب ذو رائحة نفاذة لم يشمها من سنين ينبت تحت ابطيه ، وعرق آخر أكثر غزارة يبلل وجهه ويضبب زجاج نظارته حتى ليخرج منديله بسرعة المحموم ويمسح زجاجها لكي لا ينقطع أبداً إبصاره والدنيا حافلة بمؤامرة صمت تام ، سكون غريب لا يمكن أن يكون إلا بفعل قوة خارجية قاهرة ، سكون مركز في تلك البقعة من الفناء الخلفي ، سكون ليس خارجه سوى العدم ، سكون عالم خال من الحياة تماماً ليس فيه حياة سواه وسواها ، هي في أقصى درجات الاستمتاع وهو في أقصى درجات الإنفعال .. وبينهما ، تفصلهما تماماً ، وتربطهما تماماً ، تلك السيجارة . والحياة تبدو حلوة جداً ، كل لحظة فيها عمر بأكمله ، وإرادته قادرة على اكتساح الجبل ، ولا شيء في الوجود مستحيل ولن يرضى بأقل من أجمل وأغنى بنات العالم زوجة له ، وخمس سنوات فقط يصبح فيها أعظم علماء مصر بل الشرق والغرب معاً وماذا تكون جائزة نوبل مكافأة له . وحقيقة ما هذه الحزازات بينه وبين المدير أليس هو أكبر منها وأقدر بكثير ولماذا الحزن والمرارة لكل ما فات والآتي أروع منه بكثير ولماذا التعنت مع أستاذ القسم المساعد ، لماذا لا يعطيه الفرصة أنه شاب ومن حقه أن يطمح إلى كرسي الأستاذ .. المشاكل نحن نخلقها

حين نفتقر إلى التفاؤل والتفاؤل هو الإرادة ، وبالإرادة القوية تصبح الحياة كالبساط الممهد ، بساط الريح .. عش واضحك وامرح واطلب القمر يأتيك .. أرده إرادة قوية حقيقية يأتيك .. وكله .. كل ما في الحياة آت لا ريب فيه ..

واقتربت السيجارة من نهايتها ، وتلاحقت أنفاس الفتاة في صعود القمة ومضى جسدها يتهدج وقد أصبح كله صدراً يلهث وشفاها بدأت من الجرعات المتلاحقة ترتعش وتضطرب ، اضطراب الحمى ، حمى شملته هو كله .. والينبوع الخفي فيه يتفجر بأقصى قوته ويصل به إلى قمة الإنفعال تلك التي ينتفي معها الزمن ، ولو للحظات يتوقف الزمن ، يغرب إلى ما وراء الادراك ، ويصبح الحاضر مجرد لون . لون أحمر مدمم في لون الشفق .

وأخذت الفتاة من السيجارة التي كادت تارها تحرق الأصابع نفساً ، كآخر شهقة ثم سكنت تماماً وكأنما غابت عن الوجود . ومن بين أصبعيها اللذين انفرجا استرخاء انفلتت بقية السيجارة واستقرت ذابلة ممصوصة مغضنة على الأرض .

وأحس العميد بعد الرعود والانفجارات والحمى بسلام مفاجىء ممتد كأنه سيبقى إلى الأبد ، يشمله ويجعله يتمنى أن يكف الكون عن حركته لتبقى اللحظة في ديمومة لا تنتهي ..

ولكن الديمومة انتهت فلأمر ما بدت الفتاة وكأن العيون المستترة التي تحس الخطر دون أن تراه قد أدركت شيئاً فقد ضمت جفنيها بشدة ثم

فتحتهما على آخرهما ليلتقيا ، هكذا ، كالطلقة المصوبة بدقة ، يعيني العميد في تطلعهما من خلف زجاج النظارة .

وللأزمن التقت النظرات ، ولكنه لم يكن لقاء ولا وقتاً ، ولا شيء يقاس ، كان إرتطاماً ، سقوطاً من حالق ربما ، ماء بارداً كالثلج ، برودة الواقع الذي ترتجف لهوله المدارك ، الثلج الصاعق .

وتكهربت النظرتان بخجل ، لا قبل لأيهما به ، خجل سريع مغور ، جارح .

وفي جزع هائل انتفضت الفتاة جالسة وقد غاص قلبها وبيد ترتجف بالرعب دلقت كل محتويات حقيبتها لتستخرج في لمح البصر كتاباً ، تعود معه تنكب ، كالطالبة المجتهدة على صفحاته .

وكانت حركته ليعود عميداً أبطأ .. ممزوجة بخجل أعظم وبتأنيب أشد هولاً ، وتحرك خافض البصر طويلاً نحيلاً عجوزاً محني الأكتاف حاملاً متاعب الدنيا كلها من جديد ، وليس في رأسه واضحاً سوى الواجب ، ومالابد من عمله .. والدائرة البيضاء الملساء الصغيرة فوق مكتبه ، والعقاب .

وبأصبع عادت إليها كل عصبيتها وكأنما تمتد من صدر ضاق بالدنيا ، ضغط على زر الجرس .

ولكن أصبعه كانت لا تزال بها بقية من ارتعاش ، ارتعاش ليس بالكبر أو الضغط سببه .

ديسمبر ١٩٦٢

الـزوار

ما كاد آخرهم يخرج ، ويفرغ العنبر محتوياته المكتظة كالقطار المزدحم حين يصل إلى محطة النهاية ، حتى التفت « مصمص » (وهو ليس اسم دلع ولكنه اسمها الحقيقي) إلى سكينة التفاتة حادة ، وقالت بصوت عالٍ :

ــ بقى اسمعي يا ..

واحتارت قليلاً هل تقول لها يا بت يا سكينة ، أم سكينة فقط .. وسكينة كان اسمها سكينة وهي سكينة فعلاً . وهو اسم قد يبدو ريفياً ولكنها لم تكن ريفية النشأة أو الملامح . كانت من مدينة ما ، واحدة من عشرات مدننا أنصاف الكبيرة مؤدبة جداً خجولة جداً ورقيقة أيضاً . وكانت تحتل السرير المجاور لمصمص المرأة الضخمة الكبيرة الصدر والثديين التي يميل لونها إلى السمرة ، ودائماً ترتدي قميص نوم أبيض .

والسريران كانا في عنبر واحد من العنابر الكبيرة التي تحفل بها مستشفياتنا العامة والمركزية والجامعية والصدرية ، العنبر المعهود ذو

الإثنين والعشرين سريراً .. عنبر الحريم. يسمونه .. له تومرجية سليطة اللسان ومنفوخة الجسد مكورة كالبطة . وتومرجي أعمش مفروض أن لا يدخل العنبر وأن يقتصر عمله على المطبخ ودورة المياه ، ولكن أحداً لم يعلن يوماً هذا المفروض وأحداً لم ينفذه .

وكانت سكينة الضعيفة الرقيقة الحنونة تحس إذا أطلت النظر إليها أو عمقته أن هناك فعلاً أناساً ضعفاء محتاجين إلى الشفقة ، كانت مريضة بمرض مزمن ولها في المستشفى ثلاثة أشهر وأمنيتها الكبرى أن تغادره وتخرج ، ولكنهم لا يخرجونها ولا يصرحون لها بالخروج ولا يفعلون هذا بعنف أو بحزم كما قد يعتقد البعض ، أنهم يفعلونه بأنصاف الابتسامات أحياناً وبهز الرءوس والطبطبة أحياناً أخرى ... وأحياناً بمجرد القول : حالاً .. إن شاء الله تخرجي .. أما سبب بقائها أو إبقائها فهو أن مرضها من نوع غريب يحلو للأستاذ أن يحاضر طلبته وأطباءه الصغار عليه .. وأن يريه لزملائه الكبار ، كما لو كان يريهم قطعة نادرة ضمن مجموعة أصداف أو طوابع بريد يقتنيها ..

وسكينة لم تكن مقطوعة من شجرة .. كان لها إخوة . في الحقيقة أخ واحد غير شقيق واختان . وكان لها خالات وعمات وقريبات كأي إنسان منا وكل إنسان . ولكن رغم هذا كله فلم يكن لها زوار بالمرة . طوال الأشهر الثلاثة التي مكثتهم بالمستشفى لم يزرها أحد .. من يوم أن أتى بها أخوها وأودعها العنبر لم تر وجهه . تلك حقيقة تعرفها هي .. ويعرفها الجميع حتى التومرجية السليطة اللسان تعرفها .. وقد تكون مشكلة الخروج تلح على سكينة في أحيان كشيء لابد منه ولابد من حدوثه ولابد أن تكلم الطبيب الكبير بشأنه ، ولكن مشكلتها الأكثر

حدة في الواقع أن يزورها أحد .. أن تغمض عينيها وتفتحهما فتجد يداً توقظها من النوم أو الغفوة وتقول لها : قومي يا سكينة .. جالك زوار ..

طوال أيام الجمع والاثنين ، والحقيقة طوال أيام الأسبوع يفد العشرات والمئات والآلاف على المستشفى ويوزعون على عنابره ثم على أسرته وقد يخص كل سرير زائر أو خمسة أو عشرة .. ماعدا سريرها هي لم يكن يهوب ناحيته أحد ، أو للدقة كان زوار جارتها مصمص يتخذون سريرها كأريكة يجلسون عليها وهي من خجلها لا تعترض أو تأتي بحركة تسبب حرجاً لأحد كانت تغادر الفراش نهائياً وتذهب تتمشى في الطرقة أو تخرج إلى شرفة العنبر القدرة هناك حيث تتخذ مستودعاً لأكوام الزبالة وقشر البرتقال والموز واليوسفندي الآتي لابد مع كل زيارة .

وهناك .. في تمشيها هذا كانت سكينة تحزن وتنقبض وتحس أنها مظلومة وأن لابد ثمة خطأ في الكون جعلها تبقى بغير زوار .. إن أخاها باستطاعته أن يخطىء مرة ويزورها وكم زارت هي أخوتها وبنات خالاتها وكان واجبهم في هذه الحالة أن يردوا الزيارة . ماذا حدث حتى جمد قلوبهم ، وقساها ؟ ماذا حدث حتى نسيها الجميع هكذا ونسوا أنها في مستشفى ! ماذا حدث حتى تنقطع صلتها هكذا بعائلتها وأقربائها وحتى بصديقاتها وبالدنيا كلها ؟ لم تكن تدري حتى مجرد إرسال خطاب .. ما أرسل لها أحد خطاباً أو بعث بسلام ..

إحساس لم يكن يشاركها فيه أحد .. كانت أعمق أعماق قلبها هي

التي تكتئب وتحزن فقط .. أما كل ما على السطح من وجه وملامح فقد كان يلتف دائماً بابتسامة لا فرق بينها وبين مئزر الصوف الذي تتلفع به ..

وطالت المدة ثلاثة أشهر .. وأربعة وخمسة ، والمرضى يتغير معظمهم حتى لم يبق من القدامى سوى جارتها مصمص والوضع على ما هو عليه ، وضع عجيب غريب . فهي صحيح ضيقة بالمستشفى والبقاء فيه تريد بشق النفس أن تخرج وتغادره . ولكنها في نفس الوقت ، وإذا ما سألت نفسها لا تعرف أبداً لمن وإلى أين تذهب وماذا بالضبط ستفعل .. لقد كانت قبل دخولها تحيا مع أخيها تخدمه في انتظار أن يتزوج هو أو يأتيها هي عريس ، ولكنها مرضت وكانت تقضي الليل كله تنهج وتكح حتى ضاق بها الأخ وانتهز أول فرصة أدخلها المستشفى ربما كي لا تعالج بقدر ما يتخلص منها ومن حشرجات أنفاسها . بل انها سمعت أنه بعد دخولها المستشفى تزوج وعزل من البيت .. وشقيقاتها كلهن متزوجات ، وهي ليست جميلة حتى يرحب بها زوج أي أخت بل لقد ذبلت وكبرت حتى على الزواج فإلى من تذهب وإلى أين ؟

وضع عجيب غريب ، فهي ضيقة بالمستشفى ضيقاً لا حد له ومستسلمة لهذا الضيق والحياة في المستشفى استسلامًا لا حد له أيضاً كالسجين الذي يتوق إلى الخروج من السجن إلى الحياة والحرية ولكنه حين يجد أنه إذا خرج فلن يعرف ماذا ولا كيف يفعل بحريته تلك ، يستسلم للسجن . يضيق به ويستسلم له ويكاد يجن بين الضغطين ..

ولم تأت المسألة فجأة .. بل وإلى الآن لم تفكر فيها سكينة تفكيراً

جدياً أو تدبرت ما فعلت ، ولكنها هكذا جاءت .. مصمص كانت زوجة أحد المعلمين الكبار الذين لا يقل عدد أقربائهم وأنسبائهم وأولادهم ونسائهم وبناتهم عن المئات بأي حال من الأحوال ، ولهذا كان لا يمر يوم دون أن يزور مصمص لا أقل من خمسة أو ستة زوار .

يوم العطلات والأعياد يرتفع الرقم حتى يصل إلى الخمسين .. وكان يبدو على مصمص أنها في الوقت الذي تعتب فيه على فلانة الفلانية لأنها لم تزرها ما يكاد الزوار يغادرونها حتى تلهث تعباً وحتى تغمغم ببرطمة لا يفهم منها سوى الضيق الشديد بالزيارة والزوار ، والمسألة بدأت بأن راحت سكينة تسأل مصمص عن الزوار إذا قدموا ، من هم . وما هي درجة قرباهم لها . وماذا يشتغلون ، ولم يكن الأمر مجرد سؤال . دأبت سكينة على ملاحظتهم بدقة ومعرفتهم بالاسم حتى لتطفح السعادة من وجهها حين تقول لمصمص بعد خروج زائر ..

ـــ مش ده كان مصطفى ابن خالتك اللي بيشتغل في السكة الحديد ..

فتبهت مصمص وتقول :

ـــ الله .. وانتي إيه اللي عرفك ؟

حينئذٍ تحس سكينة الناحلة الهادئة الساكنة بسعادة داخلية لا حد لها .. غير معقول بالمرة أو مقبول فقد أصبحت لمجرد أنها عرفت من الزائر وخمنته وجاء تخمينها بالضبط مطابقاً للحقيقة .

ولكن هذه السعادة ، بالتكرار . لم تعد تحدث ووجدت سكينة نفسها مدفوعة إلى خطوة أخرى كي تحس بنفس سعادتها السابقة .

فبدأت تقدم مساعدات وتسرع مثلاً وتحضر كراسي لزوار مصمص — أو إذا أرادت الأخيرة أن تعزم عليهم بالقهوة أو الشاي أو الغازوزة أسرعت سكينة إلى البوفيه .. تحضر الطلبات بنفسها .. وكانت مصمص تأخذ الأمر في أوله باعتبار أنه نوع من الطيبة من سكينة لا أكثر ، ولكنها بدأت تعجب فعلاً وقد راحت سكينة تقوم بأعمال غير معقولة أبداً تأخذ الأطفال من الأمهات الزائرات وتداديهم أو تذهب بهم إلى دورة المياه ، وتلعب مع الأبناء الكبار وتقول لهذا الزائر .. والنبي وحياتك ابقى سلم على فلانة وفلان وكأنهم أقرباؤها هي ..

بدأت مصمص تستعجب ، ومصمص لم تكن سهلة ولا طيبة ولا مسكينة أبداً أنها جهنم الحمراء إذا انفتحت وإذا رأت في الأمر ما يريب .. وكانت سيكنة قد زودتها في نظرها كثيراً وبشكل أصبح لا تفسير له ولا تبرير ، تجلس مع الأقرباء والأصهار طوال الزيارة . ولا تغادرهم للحظة وكأنها منهم وعليهم. يتحدثون عن أدق أمورهم العائلية الخاصة فلا تخجل ولا تبتعد . بل أكثر من هذا تهتم بها وتناقشها مناشة المتحمس الغيور ، وتبدأ الآراء أيضاً .. وتنتظر مصمص على أحر من الجمر أن « تحس » سكينة مرة فتقوم أو تغادر الفراش أو على الأقل تولى إنتباهها إلى الناحية الأخرى بلا فائدة إذ كانت سكينة لا تفعل شيئاً من هذا أبداً ، بل تظل طوال الجلسة بأكملها وبعد الجلسة أيضاً تتحدث وتعقب وتحاول أن تدخل مع مصمص في أخص الشئون وفي الغويط . ومصمص . تكظم وتكظم . فصحيح أن سكينة تتدخل ولكنها تفعل هذا وهي راقدة في نفس فراشها لا تغادره . بالعكس أن زوارها هم

الذين يجلسون على فراش سكينة وبهذا يعطونها الفرصة للإندماج والتدخل ..

بل تطور الأمر إلى ما هو أكثر وبدأت سكينة تقتنص زائراً أو زائرة من الجالسين على فراشها وتنخرط في حديث لا ينقطع معه أو معها بحيث تنتهي الزيارة وهم لم يتبادلوا كلمة واحدة مع قريبتهم مصمص وكأنهم جاءوا لزيارة سكينة أصلاً ..

ولقد تكرر الأمر مرة ومرة ، ومصمص صابرة تكظم إلى أن كان هذا اليوم الذي قررت أن تفجر فيه ، وهكذا ما كاد آخر زائر في يوم الزيارة يخرج ويفرغ العنبر محتوياته المكتظمة كقطار وصل إلى محطة النهاية حتى التفتت مصمص إلى سكينة التفاتة حادة ، وقالت بصوت بالغ العلو ..

— بقى اسمعي يا ..

واحتارت قليلاً .. أتقطع العشم والعلاقة والعيش والملح مرة واحدة وتقول يا بت يا سكينة ، أم تكتفي بنهرها وتقول يا سكينة فقط ، فإذا قالت لها يا سكينة فيكف تستطع أن تصب عليها بهذه البداية ما يتفجر به صدرها الضخم العالي الأسمر من غضب وضيق ، احتارت مصمص .. وكالبندقية صوبت عينيها إلى سكينة وكأنما لتزيد برؤيتها لها جرأتها وعنف إنفجارها .. كانت قد قررت أن توقفها عند حدها وأن تنذرها بأنها إذا استمرت في اقتناص زائر أو أكثر من زوارها هكذا فسوف تمرمط الأرض بزوارها . زوار سكينة إذا جاءوا والعين بالعين والسن بالسن والبادى أظلم ..

صوبت مصمص عينيها إلى سكينة لتجدها راقدة في سريرها نصف مغطاة الجسد تحملق أمامها كمن يجتر ذكرى لحظة سعيدة مرت .. وفجأة اكتشفت مصمص الجهنمية أن تهديدها الذي يكاد يفلت من فمها لا معنى له بالمرة . أجل هكذا . في وضمة مفاجئة اكتشفت مصمص أن سكينة لا يأتيها زوار ولا ينتظر أن يأتيها أحد .. وهكذا بعد أن كانت قد استدارت واستدار السرير لاستدارتها وقالت : بقى اسمعي يا ..

وحين التفتت سكينة بدهشة ونوع من الذعر تسأل : نعم يا ست مصمص .. لم تغير مصمص رقدتها ولا رفعت عينيها عن وجه سكينة .. كل ما في الأمر أن صوتها إنخفض فجأة حتى كاد لا يسمع ..

وقالت :

لا .. ولا حاجة .. ده كانت كلمة كدة وعدت ..

قالت هذا وهي ترمق الفتاة بعينين مشتتتين فوق وجهها . يكاد يطفر منهما الدمع .. وظلت مثبتة عينيها فوق وجه سكينة لا ترفعهما وكأنها تراها لأول مرة .. رفعية نحيلة مقطوعة من شجرة ...

ديسمبر سنة ١٩٦٢

معاهدة سيناء

الأبطال هنا ثلاثة .. لا بل أربعة ، إذا حسبنا « المكنة » التي كان لها دور لا يقل خطراً عن دور الإنسان .. وأول الثلاثة هو « ماشنسكي » الروسي الذي يسميه العمال في المعسكر « ماشا » وهو أحمر الوجه فاقع الحمرة ، تلك التي تميز وتقف حداً فاصلاً بيننا نحن شعوب آسيا وأفريقيا وبين الأوربيين .. والثاني كان « بيل » أو إذا أحببت الدقة « وليم » الأمريكي المعضم . ذو القتب والنظارات والجسد الرشيق النحيل الذي ربما طال في الهواء لو نفخته . أما الثالث فلم يئن بعد أوان الحديث عنه .. أما رابعة الأربعة ، المكنة . فهي آلة ضخمة جداً في حجم البيت الصغير أو أكبر قليلاً وثمنها كذا عشرة آلاف جنيه ، وأصلها روسي . انتجتها مصانع لينجراد وجاءت إلينا كجزء من القرض . وجاء معها ماشنسكي ليديرها ويشرف عليها ومن أول يوم له في المعسكر ألغى العمال والموظفون كلمة ماشنسكي نهائياً واستبدلوها بوعي أو لا وعي بكلمة « ماشا » .. والكنة وماشا والمعسكر كله .. هناك .. على مدد السفر .. بعيداً جداً ، قرب حدودنا الشرقية المطلة على ساحل البحر الأحمر .

وذات يوم حدث للمكنة . مثلما يحدث لأي مكنة في الدنيا أن تعطلت ووقف ماشا أمامها يدور حولها ويفتح مفاتيح ويغلق صمامات . ويختبر ويجس . وأخيراً نطق وقال للمهندس المصري المشرف على المعسكر (وهو رجل في حوالي الأربعين وشعره أسود تماماً وله كرش وكان زمان يعتبر نفسه دون حوار) قال ماشا بوجه صارم مبتئس : إن الآلة قد كسرت فيها قطعة مهمة جداً ، ولا يمكن أن تعمل إلا إذا جيء لها بقطعة الغيار تلك ..

وهكذا أرسل إلى مركز المؤسسة رسالة مستعجلة بطلب النجدة .. وبقى هو والخمسمائة عامل والخمسون موظفاً وتكنيكيا في إنتظار رد القاهرة .. وهدأت الحركة في المعسكر فلا حفر ولا ضوضاء آلات ولا أصوات مكن . ولا أغاني عمل . لا شيء سوى مواويل الحظ والكسل تنطلق خافتة من عقيرة حمدان أبو طالب صعيدي قنا القح والمغنى شبه الرسمي للمعسكر .

هدأوا جميعاً ينتظرون . ولكنه انتظار بلا أمل . فلم يكن أحد منهم يتوقع أو يصدق أن الروتين في المركز سيحقق المعجزة وأن قطعة الغيار ستصل بأسرع وقت كما طلب السيد عبد الحميد في استغاثتة ..

ورغم أن رسالته أو قعت مركز المؤسسة بالقاهرة في دوامة حرج شديد إذ أن قطع غيار هذه الماكينة بالذات لا توجد إلا في روسيا ودون إحضارها من هناك مصاعب نقدية ومصرفية وإقتصادية لا تعد ولا تحصى بحيث لا أمل في حضورها قبل ستة أشهر أو سنة ..

رغم هذا ، إلا أن قطعة الغيار أحضرت على وجه السرعة ، وجاءت في وقت كان المعسكر كله قد جاءه أمر بالاستعداد للرحيل وإنهاء العملية وقد رأى المركز أن يستغني عن الحفر في تلك المنطقة كلها .

أما كيف أحضرت تلك القطعة فلا أحد يدري للآن ، ولا أحد يدري كيف تسرب الخبر إلى شركة « إنترناشيونال » الأمريكية ولا كيف استطاعت بين يوم وليلة أن تتصل بالمركز وتخبره أنها على إستعداد لتوريد قطعة الغيار اللازمة ، وفي الحال .

وبين تهييص وطبل وأغان وفرحة وصلت قطعة الغيار إلى المعسكر ووصل معها المستر « وليم » أو كما أصبح هو يطالب الذين يعملون معه بأن يطلقوا عليه الاسم الذي تعود الناس أن ينادوا به وليم وهو « بيل » . ما كاد يظهر المستر بيل بالعربة وفوقها الصندوق الخشبي الضخم الذي يحوي قطعة الغيار حتى اعتقد الجميع أن خلاص ، المشكلة انتهت ، وليس هناك سوى بضع ساعات يتم فيها تركيب قطعة الغيار ويستأنف العمل سيره .

وبأنفسهم ذهب العمل وعلى رأسهم السيد عبد الحميد يزفون الخبر لماشا الذي لم يكن قد غادر من لحظتها حجرته . وكانوا يتوقعون أي شيء إلا ما حدث ، إلا أن يزجرهم ماشا ويهب في وجوههم ثم ينطلق خارجاً ذاهباً إلى حيث قد تجمع حول المكنة عدد كبير من الناس يحيطونها ويحيطون بيل وصندوقه الخشبي معها . وما كاد يصل حى صرخ ماشا في الجميع قائلاً : لا .. لا يمكن ..

ــــ لماذا يا ماشا ؟

ـــ مستحيل أن تصلح قطعة غيار أخرى غير القطع الروسية للمكنة .

ـــ ولماذا لا نجرب ونرى ؟

ـــ لا .. لا يمكن .

وقلت اننا لا نيأس ، وعلى هذا بينما كان ماشا يرفض ويصر على الرفض كان العمال يفكون الأسلاك من حول الخشبة ويخرجون قطعة الغيار من الصندوق ويضعونها أمام ماشا قائلين : فلنجرب .

ولكن ماشا أصر على الرفض قائلاً :

إن المكنة السوفيتية لا تصلح لها إلا قطع غيار سوفيتية ..

قال هذا وهو يشد على كلمة سوفيتية الأولى والثانية .

وانقضى يوم ، وكاد يوم آخر ينقضي والتوتر لايزال قائماً على أشده ، والعمل معطل تماماً ، والعمال جالسون القرفصاء ورءوسهم بين ركبهم يسلون بعضهم البعض ويضحكون ، وكلما خرج ماشا من حجرته أو دخل لابد يلمح هذا العدد الضخم من العمال ، والظاهر أن شيئاً قد تغير في تفكيره . إذ فوجىء الجميع به يخرج إليهم قائلاً لأجل خاطرهم فقط ولأجل أن يثبت لهم أنه على حق وأنه على خط سيجرب أمام أعينهم قطعة الغيار الأمريكية ..

وهاص المعسكر فجأة .

وكان لابد لاختبار قطعة الغيار الجديدة من عقد (كونسنتو) هندسي من ماشا وبيل والمهندس المصري المختص . مؤتمر ظل ماشا في

أوله ينظر شزراً وباحتقار شديد إلى بيل ، وبيل يقابل نظراته بعينين كأنهما فوهتا مسدسين من مسدسات رعاة البقر في أفلام السينما . ولكن الحقيقة أن تلك النظرات لم تستمر كثيراً فسرعان ما أدرك ماشا أن بيل يفهم حقيقة الميكانيكا وأن الناس في الولايات المتحدة ليسوا جهلة كما كان يظن ، واكتشف بيل هو الآخر أن ماشا الروسي ليس مجرد اسطوانة مسجل عليها أقوال ماركس ولينين ، وإنما هو آدمي أيضاً يغضب أحياناً ويثور ، وأحياناً يرضى ويبتسم ، ابتسامة صافية جداً كابتسامات الأطفال .

وكان عمل المهندس المصري أول الأمر أن يمنع الاحتكاك المباشر ، ويلطف الكلمات الحادة ، ويقول لبيل : طب امسحها في دقني أنا ، ويقول لماشا : معلشي عشان خاطري ، إلى أن بلغ مراده وبدأ الجو يهدأ ، وبدأ الاثنان يتناقشان المناقشة الهندسية الخالصة .

وثبت من المناقشة ومن الاحتكام للمقاسات ، ومن التجربة العملية أن قطعة الغيار الأمريكية تصلح لتحل محل القطعة الروسية .

وتهلل وجه المهندس المصري طرباً للنتيجة ، النتيجة التي كان مفروضاً أن يسر لها ماشا وبيل ، ولا أحد يدري إن كان أيهما قد تولاه السرور ، إنما الذي لاشك فيه أن أحداً لم يكن ليستطيع أن يمنع الصدام الذي نشب حالاً .

فما دامت قطعة الغيار قد أثبتت صلاحيتها فلابد إذن من تركيبها وتسيير المكنة بها ، من يركبها ؟ ذلك هو الصدام المروع الذي نشأ .

ماشا يقول : إن المكنة روسية وأي تغيير فيها أو تبديل يجب أن يتم بمعرفته هو . وبيل يقول هذه المكنة كانت روسية وهي الآن وبغير قطعة غيار الأمريكية مجرد كتلة من الحديد الخردة ، ولابد له هو أن يتولى عملية التركيب والتشغيل .

ويثور ماشا ويقول لا يمكن أن أسمح لمندوب شركة أمريكية احتكارية رأسمالية متعفنة أن يعيث فساداً في مكنة أنتجتها أيدي الطبقة العاملة السوفييتية .

ويستشيط بيل غضباً ويقول : أيها الشيوعي الـ ..

وترتفع أكثر من مائة يد صعيدية وبحراوية ، أيد مشققة وأيد ناعمة مثقفة ، تحول بين الاثنين وتطلف الموقف .

ويعود العبوس العظيم يحتل وجه السيد عبد الحميد ، فخلاف ماشا وبيل ليس نقمة ولكنه نعمة تهبط أول ما تهبط فوق رأسه .

وتطور الخلاف وتبودلت الكلمات الزاعقة الطائشة حتى عاد المعسكر إلى إنقسامه فلازم ماشا غرفته ، وجلس بيل جلسة المتحفز أمام بابه ، ووقف السيد عبد الحميد ينقل بصره بين المكنة المفتوحة البطن وبين قطعة الغيار الراقدة بجوارها ، وهو لا يحس مطلقاً بالشمس المنصبة فوق رأسه . وبآخر ما يستطيع من جهد حاول مرة أخرى أن يجمع ماشا وبيل كي يتفقا ويركب أحدهما أو كلاهما القطعة ويستأنف العمل ، ولكنه ما كان يجمعهما إلا ليتشادا ويتفرقا ..

وكل منهما يقف موقفاً صلباً عنيفاً وكأنما قد استحضر في جسده

الواحد عناد أمته بأسرها كل طاقتها على القتال . أجل .. في تلك البقعة النائية من شبه جزيرة سيناء ، وتحت لفح نيران حامية تتأجج من صفرة الأرض وزرقة السماء ، هناك حيث لا حياة ولا جمال ، ولا شيء سوى الرمل والصحراء والجبل والعمل ، هناك حيث المعسكر مقام ، كان يقف ماشا وبيل وجهاً لوجه ، شابان متقاربان في السن ، لهما نفس المهنة وربما نفس الهوايات ولكن كلا منهما مستعد أن يقتل الآخر مثلاً لو ظل الآخر على صلفه وعناده .. كل منهما عنيد صلب يريد أن يذبح الآخر ويصفي دمه ، كل منهما يعتقد أنه على حق وأنه لو تراجع قيد إنملة فكأنما كرامة بلده وشعبه هي التي تتراجع .

والحقيقة أن السيد عبد الحميد لم يكن يقف يرقب المكنة وقطعة الغيار وحده ، كان يقف معه محيي الدين ، أو كما يسميه العمال « النمس » وهو رغم نهمه الشديد وحبه لالتهام الطعام ، رغم تزويغه من الشغل كلما عنت له فرصة إلا أنه دائماً جلاب المشاكل ، عمل مع ماشا فالتقط منه الصنعة وعمل مع الألمان فتعلم الميكانيكا . ورغم هذا فيدوبك كان يفك الخط . ولكنه كان يقرأ الصحف بمهارة ، متحمساً . أسمر . مبتور البنصر الأيمن غزير العرق ، شعره أكرت قد أصبح له لون الصحراء الأصفر من كثرة ما علق به من تراب وغبار . ولكن أحداً في ذلك الوقت لم يكن يلقي بالا كثيراً إلى النمس أو إلى السيد عبد الحميد ، فالجميع ، حلقات ، حلقات ، مشغولون بتتبع أخبار المعركة الدائرة بين ماشا وبيل وآخر أنواع الشتائم التي كان يطلقها كل منهما خلف الآخر وأمامه .. وعدد صفائح البيرة التي يقذفها ماشا ، وعدد جرعات بيل .

واستمر الأمر هكذا ، طيلة اليوم ، وحتى غربت الشمس . وجزءاً لا بأس به من الليل .

وفي الصباح فوجىء الجميع بشيء لم يكن يتوقعه أحد .. فوجئوا بالمكنة ، منذ الصباح الباكر . تدور وقد ارتفع صوتها وتوالت تكتكاتها تشق عنان السماء .



الأمريكية والتصرف في أجزائها وصواميلها حتى طابقت تماماً المكنة الروسية .

قصة ذي الصوت النحيل

في مثل هذا الأوان (بصوت واهن كأنه الحفيف غير مبال باهت ، محدود) .. بدأ كل شيء وكانت المشكلة دائمة أن يبدأ كل شيء ، مشكلتي ومشكلة زوجتي والآخرين ، سأتحدث بالتفصيل عنهم . كنت هناك وكانت الدينا ليلاً أسود يخيف ، مليئاً بالأشياء التي تخيف .. هناك كلام لابد أن أقوله لأي أحد ، لابد أن يعرف واحد على الأقل كل شيء المهم كل شيء .

نفس العمارة ، عمارتنا التي نسكنها الآن ، قلت لسايس الجاراج والبوابين كل شيء ، ووعدوني هم أنهم ساعة ما يرونهم سيخبرونني بكل شيء ، بالتفصيل كل شيء . السكان القاطنين فوقنا كويسين وعرفنا نتفاهم بسهولة ، إنما السكان اللي تحت ، تحتنا ، ناس كتير ساكنين في الشقة الواحدة ييجي خمسين نفر ، كتير قوي زي النمل لو شفت عنيهم ، عيون غويطة إذا بصيت فيها تغرقك وتبلعك ، وبقهم واسع قوي يبلغ البطيخة يبلع كل شيء ، إنما أصلهم عمرهم ما شافوا نفسهم أبداً ، لو شافوها مرة واحدة كان خلاص انتهى كل شيء .

شكسبير في روايته بيقول العين ترى كل شيء ولا ترى نفسها . إنما

عيني أنا بتشوف كل حاجة . كانت هي اللي شافتهم . أول عينين شافوهم . ومن ساعتها وفيه قدام عيني ضباب كتير كئيب زي ضباب الصيف في يوم حر ، ما أعرفش ليه ما اتخنقوش من الضباب ، بالعكس كانوا بيستخبوا مني فيه . حاولت استرضاهم بعت لهم زوجتي يعني .. شتموها . دول ولا كأن البلد بلدهم لوحدهم .. أصلنا أتاكلنا أونطة واحنا خلاص بننتهي وكل يوم عامل زي ما يكون بيقطع فينا كل يوم حتة لما ح ييجي اليوم اللي ما يفضلي فينا حاجة . وبيسلطهم علينا وكل يوم تأميم ، هم سمعوا حكاية التأميم دي وخرجوا لك من الضباب وحاصروني . عايزين مني إيه ؟ ما تعرفش ، ما عندهم البلد واسعة وغنية قوي لو حاولنا نبيعها تتباع بكام ، بمليون مليون مليون مليون ، إنما دلوقت مصر دي ما تساويش عندي حاجة أبداً .. سرقوها اللصوص . أمال نسميهم إيه .. لصوص . نهب . سلب .. قشوطة ، ده فيه أسرار كتير قوي بس مش قادر أقول كل حاجة . أنا حاولت كتير معاهم بالذوق بالحيلة مافيش فايدة ، عايزين كل حاجة حتى ابني كانوا عايزين يأخذوه لولا وديته عند عمته في مصر الجديدة .

ضحكوا على الخدامة وبنجوها وجت لنا مبنجة إما سابتوش بالزعيق دور وبالمحايلة دور كانت النتيجة أنهم قالوا على اللي قالوه . ولما حصلت الحكاية كنت أتوقع طبعاً إن مراتي تقف جنبي ، تلاقي عيلة مراتي حد منهم مسلطها علي .. طبعاً كان لازم نأخذ موقف ، أما تبقي معاهم وأما تبقى معايا .. للأسف ده يحصل منها .. جايز يكون حد من عندنا اتهمهما بأنها السبب في الحالة اللي أنا فيها دي وجه رده عليها خلاها

تتنرفز وتأخذ الجانب التاني . وكل اللي بيحصل لنا ده من غلطنا إحنا .. لو كنا سبقنا وضربنا قبل ما نضرب ما كنش حصل حاجات من دي ولا كانوا جابوا سيرة للملكة فريدة ، أصلها ساكنة قدامنا وعمرها ما ظهرت لنا وشفناها فاية الداعي يشركوها في الموضوع .. وأنت عارف بقى .. أطلع ألاقيهم مراقبين .. ادخل عينيهم ورايا .. أصل عينيهم صعبة قوي وخصوصاً عينين السكان التي تحت دول . كل عين كأنها ماسورة بندقية والنظرة منها بتيجي منشنة تمام في الصميم .. مش ع الحسد يعني .. حسد إيه .. كانت تبقى أهون .. ده فيه حاجة تانية أكثر م الحسد كتير .. حاجة زي النار لما بتولع بتفضي على كل شيء .. لما ظهرت الحكاية وأتاكدت أن الملكة فريدة مالهاش ذنب بره الموضوع خالص وإن اللي تحت هم اللي كانوا ملفقين التهمة ، أخويا الكبير جه وقال لي لازم نعزل خلاص ماعندناش قادرين نقف قصادهم وإننا لازم نسلم ونعزل .

قلت له مش ممكن يهزمونا .. أنا لا يمكن أعزل .. أنا شاب في الأربعين إنما خلوني شيخ في التمانينن .. نعزل ليه .. ونهزم نفسنا بأيدينا ليه .. مش كفاية هو علينا .. هو فاكر نفسه كل حاجة .. هو فاكر إن أي حاجة عايز يعملها يقدر يعملها هو فاكر إن الناس رغيف عيش يفضل يقطعه بالسكينة حتة حتة لغاية ما يخلص عليه ، هو عايز يعمل مننا بني آدمين زي الحيوانات من غير إرادة ممكن يسوقها زي ما هو عايز ، بيسلطهم علينا .. السكان اللي تحت بيسلطهم علينا ويراقبونا ويأكلونا بعينيهم أكل ، عينيهم سوادها كله جوع وبياضها أسود من

سوادها .. أنا بأرفض للنهاية ، أنا إنسان لي كيان وعيلتي ولي أرضي حتى لو خدوها برضك بتاعتي .

أنا حاولت كتير أتجنبهم وقعدت على طول في البيت عشان ما أقابلشي حد فيهم طالع السلم واللا في الاسانسير . أصل لما حد منهم كان يبص لي كنت بحس اني بغرق وغرقان لشوشتي في نار سوده جوه عينين ثابتة زي عينين الميتين ، أسأل بتوع الجاراج يقولوا لك . بقوا يجيبوا سلالم حبل علشان ينطوا علينا من الشبابيك فسمرنا الشبابيك ، وبقوا ييجولنا من تحت عقب الباب فبقيت أحط أكياس رمل ورا الباب وأحط الكنبة كمان عشان ما يقدروش يزقوها ، لما ليقوا مفيش فايدة بقوا يسلطوا علي التمرجي يديني الحقنة وكانوا يدوبوا مية عينيهم فيها ويحقني بيها في العضل أقوم أحس بعد كده بيهم ، هنا ، جوايا ، وأخرتها قالوا لكل الناس اني عيان ، والناس صدقوهم تصور المصيبة الناس تصدقهم وتكدبني أنا ، كل الناس تصدقهم ، حتى مراتي أنا تصدقهم وتتفق مع الدكتور أنهم يدوني حقنة بنج عشان ما أقاومش ، كانوا عايزين يدوني الحقنة عشان ما أقدرش أعمل حاجة قدام السكان اللي تحت .. خطة موضوعه .. وللأسف زوجتي اشتركت بعبط وهبالة فيها .. يخدروني أنا عشان دكهم يهجموا عليا ويأكلوني . أنا عندي كلام كتير عايز أقوله ، كلام خطير ، ده خسر كل حاجة حتى مراتي ، عايز أقوله لأي حد ، يعرف الحقيقة عشان ييجي اليوم اللي كل الدنيا تعرفها فيها لازم حد يعرف إحنا قاومناهم إزاي واننا رغم كل شيء ماعزلناش وأن الملكة فريدة مالهاش ذنب في الموضوع اللي حاولوا يعملوه بينا وبينهم واسأل البوابين وبتوع الجاراج .

أنا زهقت خلاص من محاربتهم ، بيتهيألي اني أسلم زي أخويا وأعزل ، واللا أسلم ليه ده يبقى انتصار لهم ويفرحوا فينا ، بس أنا خلاص بعدوني عنهم ومش قادر ولا عارف أقاوم ، تفتكر كل شيء انتهى .. تفتكر انتهى كل شيء ... صحيح كل شيء أصبح لا شيء .. تصدقها أنت دي .. هو احنا عقب سيجارة نتشرب ونتفعص ونصبح لا شيء ، إزاي الناس حواليه ساكتة وكأن ما فيش حاجة حصلت .. إزاي بياكلوا ويشربوا وهم مبسوطين .. هم مش عارفين أن كل شيء أصبح لا شيء ، أنا لسة عندي كلام كتير وخطير عايز أقوله بس (مستمراً بصوت واهن كأنه الحفيف ، غير مبال ، باهت ، محدود) لازم حد يعرفه ، لازم حد يعرف الحقيقة التي ما حدش راضي يعرفها .

ديسمبر سنة ١٩٦٢

الورقة بعشرة

كان صلاح زوجاً ، وكانت له إبتسامة ، ليست كالإبتسامات الحية تولد طفلة طازجة وتتفتح فجأة على الوجه ثم تزول ، ابتسامة كانت لا تظهر ولا تختفي ولا تولد أو تموت ، ولكنها محنطة على وجهه كالمومياء . وكانت بالضبط تعبر عن حياته فهو الآخر يحيا كالمومياء المحنطة ، أو على الأقل كان هذا رأيه في نفسه ، فهو زوج ، وهو كمعظم الأزواج ساخط على الزواج يحس أن حياته المملة الرتيبة تقتله تميت فيه الحياة بالتدريج .

ولهذا كانت أمانيه .

وهز رأسه وحسرات كثيرة تتبعثر من فمه ومن قلبه . مستحيل . كيف يحتفل بعيد زواجه من روحية . وكيف يهديها شيئاً هي التي لم تفكر في إهدائه إلا الكلمات السامة المنتقاة ، والشخطات التي لا رحمة فيها ولا عاطفة .

وهكذا لم تطل حسراته ، فقد أعاد العشرة جنيهات إلى الخزانة ، وأغلق أدراجه ، وكان موعد الإنصراف قد حان ، فأخذ طريقه إلى الباب ، والشارع ، ومن ثم إلى البيت وهو يحس بمغص حاد ينتاب قلبه ،

ومرارة تملأ نفسه ، وكأنه ذاهب لقضاء بقية اليوم في السجن المؤبد الذي عليه أن يقضي بقية عمره فيه .

ولكنه طوال الطريق كان يفكر في الورقة ذات العشر جنيهات ، والإهداء الذي كتبه عليها ويقول لنفسه : نعم .. لابد أن هناك حياة أخرى .. حياة مليئة بالهدايا ، والحفلات ، والبسمات .

ومع أنه كان فاقد الأمل في حياته تلك وزوجته ، إلا إنه لم يمنع نفسه من تمني شيء : أن تكون روحية قد تذكرت المناسبة وأعدت له مفاجأة ، أو على الأقل استعدت لتحتفل بالعيد .

غير أن المفاجأة التي كانت تنتظره ، أنه لم يفاجأ بجديد . فما أن فتح الباب حتى طالعة صراخ الأولاد ، وحتى طالعته روحية نفسها واقفة في وسط الصالة ، وشعرها واقف أيضاً ، وهي تحاول أن تضرب ابنه الأصغر ، والولد يصرخ ، وهي تصرخ والجدران تتهاوى وتستغيث ، والأبواب تتخبط ، ورائحة القلي والطبيخ يتعلقون برجليه ويتعثر في أرجلهم ، وألف مشكلة وكارثة ومطالبة لابد تنتظره .

إنها خانقة ، تلك الحياة ، وتلك الزوجة .

ألا تعرف ما هو اليوم ؟

أجل ، اليوم ، اليوم يوم عشرة واللبان لم يأخذ نقوده ، وبائع الثلج والأولاد جننوني ، ولا شيء آخر ؟ لا شيء ألا الهم والغم والدروس التي يجب أن تأخذها بنتك قبل الامتحان لتنجح . إنه يكرهها . إنها لم تعد امرأة يشتهيها ، ولا حتى صديقة يأنس إليها . ما الذي يربطه

بها وكل ما بينهما حرب مستعرة مستمرة وخلاف يتجدد في كل ثانية . كل يوم يفكر عشر مرات في طلاقها أو الانتحار ، وكل يوم لا يطلقها . ولا ينتحر ، وكل يوم يفكر في حياة جديدة وزواج جديد ، وكل يوم لا ينفذ حرفاً واحداً من القرارات الحازمة الباترة التي إتخذها ! كل يوم يفكر حتى في خيانتها ، وكل يوم لا يخونها . ما الذي يربطه بها ، حتى الأولاد ، إنه يكرههم من أجلها ويكرهها أكثر من أجلهم ، ومع هذا لا يتركهم جميعاً و « يهج » ، ولا يتروكونه ، ما الذي يبقى هذه العائلة السخيفة متماسكة ، وكل ما فيها يتنافر مع كل ما فيها . الخلاف البسيط يؤدي إلى نقار والنقار إلى شجار ثم يتطور الأمر ويغادر المنزل غاضباً وحين يصل السلالم تخرج منه الزوجة ، وتقطع الشجار وتقول :

ــ إياك تنسى تشتري البزازة ؟

ويخرج وهو مصمم على ألا يعود ولا أن يشتري البزازة . ولكنه ما أن يلمح أجزخانة حتى يتوقف ، ثم يتصور خيبة أملها حين يعود بلا بزازة فيدخل ويشتريها .

لماذا يشتريها ؟ ولماذا وكل ما بينهما حرب يراعى شعورها ، وتراعي أحياناً شعوره ؟ ما كنه تلك العلاقة الغريبة التي تجمعهما .

لماذا يستسلم لتلك الحياة ، لماذا لا يبدأ حياة جديدة ، لماذا لا يبدؤها فوراً والآن ؟

ولكنه لم يبدأ شيئاً أبداً ، فقد دخل كالعادة ، وحل بعض المشكلات وعقد بعضها وتبودلت بضع زغرات وتلميحات وشتائم ، وتغدى ،

وكالعادة نام ، وحين استيقظ بعد الظهر كان قد نسى كل شيء عن ١٠ مايو وعيد زواجه ، والعشرة جنيهات وكلماته المكتوبة فوقها بخط أنيق .

• • •

ومرت الأيام ، وهو لا يحس بمرورها . فمن يوم أن تزوج لم يعد يحس بالزمن وكأنما فقد ذاكرته حتى أنه لا يذكر ماهية نفسه قبل الزواج وكأنما وعي فوجد نفسه زوجاً .

مرت الأيام وهو دائب الإحساس أنه يذوب ويذوب ، ويفقد ذاته ونفسه ، حتى فوجيء ذات يوم بشيء استغرب له جداً .

كان يفحص مبلغاً واراد إلى البنك ، وإذا به يعثر على ورقة من ذات العشرة مكتوب على دائرتها البيضاء : إلى زوجتي العزيزة .. بمناسبة عيد زواجنا الخامس .

ولم يكن الخط خطه .

واحتجز الورقة وظل يقرؤها ويضحك من أعماقه .

كان أحدهم لا ريب قد ساقت إليه الصدف الورقة التي كتب عليها الإهداء فظن أن أزواجاً صالحين يهدون زوجاتهم أورقاً كتلك في أعياد زواجهم ، ففعل مثلهم ، وكانت النتيجة هذه الورقة .

ظل يضحك ويلعن الزواج المغفل الذي صدق النكتة .

وبعد أن انقشعت موجات ضحكه أحس بشيء قليل من الندم . فقد أدرك أنه بطريقة أو بأخرى قد خدع ذلك الزوج ، وأنه قطعا مسئول إلى حد ما عن تلك الخديعة .

• • •

غير أنه بمرور الأيام تضاعف ضحكه وتضاعف تأنيبه لنفسه ، فقد تبين أنه لم يضحك على زوج واحد فقط ، ولكنه خدع كثيرين ، فقد وجد إهداءات كثيرة مكتوبة على أوراق بنكنوت من ذوات العشرة والخمسة والخمسين ، وأحياناً المائة — ولم يعد يستطيع كتمان الأمر عن زملائه ، فأطلعهم على الأوراق ، وحكى لهم القصة وهو لا يتمالك نفسه . وطبعاً ضحك الزملاء كثيراً . وتبادلوا الضربات على الاكتاف ، وقال أحدهم إن أعظم زوجة في العالم لا تساوي قرش صاغ واحد فما بالك بعشرة أو بخمسة أو بخمسين جنيهاً .

وأصبحت المسألة مصدراً لا ينضب للضحك ، فما يكاد يرد إلى صلاح ورقة عليها إهداء حتى يشير بالورقة إلى زملائه من بعيد وكأنما يقول : وآدي مغفل جديد .

ولكن عدد المغفلين كثر بشكل أفقد المسألة ما كانت تثيره من ضحكات ، بل كثر بشكل أزعج صلاح نفسه ، لقد قرأ يوما إهداء وكان موجهاً من زوجة إلى زوجها .

وأصبح تأنيب الضمير على الخدعة التي ابتكرها لا يكفي ، أصبح لابد من التفكير ، ما هي حكاية هؤلاء الناس ؟ وهل هي مجرد محاكاة

لما فعله ، أم لابد أن في المسألة سراً خطيراً لا يدريه ؟

وكان عليه لكي يكشف السر ، إن كان هناك سر أن يجرب .. وبهرته الفكرة ، وأحس لها بحماس شديد ..

• • •

كان يوم ١٠ مايو قد اقترب ، وعام جديد قد أضيف إلى عمر زواجه ، فلماذا لا يفعلها ويجرب ؟

أجل ، فليجربها في عشرة جنيهات . ولكن تفكيره ما أن حوم حول الرقم حتى هبط حماسه في التو . عشرة جنيهات !؟ إنها تكاد تبلغ ثلث مرتبه أو نصفه . إذا كان لابد من التجربة فليجربها في جنيه مثلاً . ولكن ، أيصح أن يهدي زوجته جنيها واحداً في عيد زواجها . المسألة حتى من الناحية الشكلية محرجة ، ولكنه إذا نظر إليها من الناحية الأخرى فإنه لا يمكنه أن يهديها عشرة جنيهات مرة واحدة . فهو لا يهدي زوجته ، إنه يهدي غريمه ، فلتكن خمسة إذن . تكفي خمسة .. إنها كافية جداً .

وهكذا جاء يوم ١٠ مايو ، وجاءت الساعة الثامنة منه ، وصلاح عائد إلى البيت وفي جيبه الورقة والإهداء على دائرتها البيضاء حبره لم يجف بعد ، وكل ما يحسه هو الفرحة لأنه مقبل ، في حياة قاتلة الملل ، على تجربة جديدة ، رحب استطلاعه يكاد يطل من عينيه إذ ترى ماذا ستفعل روحية ؟ وهل يغمى عليها .

وكالعادة فتح الباب ، وواجه سوق روض الفرج المعتاد ، وبعد أن تم الغذاء والحساب والعتاب ، نادها على حدة في غرفة النوم ، ومع هذا أصر ابنه المتوسط على عدم مغادرة الحجرة وأمسك بروب أمه واستمات عليها . وظل صلاح يتعثر نصف ساعة في كلمات لا معنى لها ، ثم أخرج الورقة ذات الخمسة جنيهات ، ووضع الدائرة البيضاء أمام عينيها لترى الإهداء .

وبدت الصدمة واضحة على ملامحها ، وظلت واقفة في مكانها لا تتحرك ، كان لسانها أول ما تحرك فيها ، وأول ما فعله اللسان أن فتح له محضراً طويلا عريضاً . وراحت تسأله وتضيق عليه الخناق لتعرف من أين جاء بالخمسة جنيهات وميزانيته كلها تعرفها بالمليم والصلدى وقال لها أنه استلفها لتخصم على شهرين من مرتبه . ومعنى هذا أن ينقص إيرادهم في الشهرين القادمين . وهكذا شبت النار ، وبعد لحظات قصار أصبح الحديث إتهامات متبادلة ، وشتائم وتهديدات ، وإيمانات مغلظة ، خرج على أثرها صلاح من الحجرة غاضباً لاعناً تاركاً الجنيهات الخمسة تنعي من أهداها .

وجلس في الصالة يغلي وينفخ .. لا فائدة على الإطلاق . إنها حرب لا هوادة فيها . إنه عسكري في جيش وليس زوجاً في بيت إنه لا عمل له إلا الدفاع عن نفسه ، والحرب أذابته وهدته ، وأتت عليه ، حتى العسكري يحظى بهدنة وراحة أما هو فمعركته لا تتوقف .

وبينما هو يغلي وينفخ ، كان عقله يعمل ويحلم ، أجل ، لابد أن هناك حياة غير تلك ، حياة رحبة ، لا قتال فيها ولا خناق ولا ملل ، حياة

مليئة بالبريق وبالرائع الجديد ولا ينقصها سوى الجريء الذي ينهي حياته وجبنه وينطلق إليها .

وبوغت حقاً حين رأى روحية قد خرجت من حجرة النوم ووقفت قبالته على بابها لا تتحرك والورقة في يدها . ورمقها وهو يتعجب . لابد أنها الآن أطمأنت أن الجنيهات الخمسة لم تضع وأنها على أية حال باقية في البيت . ولكيلا يلعنها ، فقد أصبح يضايقه حتى أن يلعنها ، حول وجهه عنها .

غير أنها سألته وهي واقفة من بعيد إن كان جاداً حقاً في كلامه وإهدائه . وطبعاً زفر ولم يجب . ولكنها ظلت تلاحقه بالسؤال ، ولأنه يعرف أنها إن صممت على شيء فلابد أن تعرفه ولو فرقعت مرارته وحطمت رأسه ، فلكي يخلص منها قال لها :

أيوه يا ستي هدية بحق وحقيق ... بمناسبة عيد الزفت الزواج .

وفوجيء حين وجدها تنخرط فجأة !!. لا ليس فجأة .. فقد حدثت في وجهها تغييرات متوالية مضحكة وإنقباضات وانبساطات وتجعيدات ، ثم إنخرطت في بكاء ضاحك . تضحك وتبكي وتبكي وتضحك ، وشعرها منكوش ، وروبها مفتوح ، والولد لا يغادر مكانه بين ساقيها .

وأخيراً قالت إنها قد أعدت له هدية هي الأخرى . إه يا ستي . وناولته الورقة . وتحت إهدائه وجدها قد كتبت : إلى زوجي العزيز الغالي المحب بمناسبة قراننا .. من المخلصة جداً زوجتك .

وفرت الدموع في الحال من عينيه . لا لأن ما كتبته كان غريباً ولكن لأنه صدر منها وبخطها . ما أروع كلماتها . إلى زوجي العزيز الغالي ، حتى أخطاءها الإملائية ، حتى إمضاءها ، حتى طريقتها الساذجة في التعبير عن نفسها ، ولو كانت أجمل إمرأة في العالم هي التي كتبت له هذا لما بدا أروع من كلمات روحية ، روحية ذات الخرابيش والصوت الحاد اللافح ، إنه شيء لا يحتمل ، أبداً لا يحتمل .

وأخذها على كتفه وقبلها . وأحمر وجهها جداً وهي تقبله ، وربما كانت هذه أولى قبلاتها له . وربت على كتفها ، وربتت على ظهره ، وبكيا ، وتعانقا وكما يضيء البرق فجأة تزاحمت الخواطر في عقله . إن حياته معها كره في كره وخلاف في خلاف ومواقع أثر مواقع هذا صحيح .. ليلة أن صفعها مثلاً وخربشته بأظافرها وتدشدش طقم الشاي ، ليلة أن أختلفا حول اسم تامر ، ليلة أن إصطدمت بالمرحومة أمه ، ألف ليلة وليلة من الألم القاسي الممض » .

العجيب أنه لا يحس شيئاً من هذا الألم الآن ، وكأن الأمل في حينه يصبح ذكرى بعد حينه فكل ما يحسه الآن أنه كان شاباً وأنها كانت صغيرة وأنهما كانا طائشين ، وما أعذب الطيش حين تمضي أيامه ويصبح مجرد لحظات تستعاد . إن الخلاف ينفر ولكن العجيب أن خلافاتهما كانت تقربهما أكثر . والخلاف يقولون أنه يخرب البيوت والخلاف عمر بيته فقد كان لهما حجرة واحدة والآن عندهما ثلاث ، ولم يكن هناك أولاد والآن لهما أربعة وحين تزوجها لم يكن معه إلا التوجيهية والآن معه بكالوريوس ، وهي تزوجته وهي مدللة لا تعرف سوى قلي البيض

وتخطيط الحواجب والآن بشهادته أمهر خياطة وطباخة ، وكانت بالكاد لا تقرأ إلا « حواء » لتعرف الموضة وهي الآن تناقشه في السياسة وتبزه تلك التي يعتبر نفسه ضليعاً فيها .

ألف خاطر عن له ، لو كان قد تزوج مطيعة لا ترفض له رغبة أو طلباً لما تحرك من مكانه وموضعه ولما تحركت هي الأخرى . إنه مغفل . أيكون ما يعيش فيها هو سعادة الواقع وهو لا يدري . إنه كان يفكر دائماً كأحد طرفي الخلاف ولكنه أبداً لم يفكر كزوج لابد له زوجة ولا تتم سعادتهما إلا معا ، ولا يسعد الشخصان معاً إلا إذا اقتربا احتكا واختلفا ونتج عن احتكاكهما موجات من الرضا والغضب والسخط والألفة والحب والكره .

أتكون هذه الموجات هي نفسها السعادة التي طال سمعه عنها .

أتكون كالشرر لا يحدث إلا إذا طرق الحديد بالحديد والحجر بالحجر .

تلك المرأة التي يضمها بين يديه الآن ، رفيقة العمر ، التي صاحبته لحظة بلحظة وساعة بساعة ، لابد أنها كانت تقاسي مثله ، وكانت تكرهه مثلما يكرهها ، وتحملته مثلما تحملها . وكل ذلك قد مضى ، ويمضي ، ويصبح ذكريات أهم ما فيها أنها مرت وطعمها الآن من طعم العمر المولي ألذ وأطيب وأمتع طعم . إنها الآن بين يديه ضعيفة ، مستسلمة قد أسعدتها هديته البسيطة إلى درجة البكاء والنشوة .

ألف خاطر وخاطر ، وعاطفة قوية مبهمة تتفجر في نفسه ، وإعزاز

غريب مفاجىء لروحية يكتشف أنه يملأ صدره . أيكون كل ما كان بينهما من خلاف وتعنت وكره هو الحب ، الحب الأكبر . أكان من حمقه يحلم بالحياة السعيدة الأخرى والحياة الأخرىٰ هو فيها ، ويفكر في الهجرة إلى دنيا جديدة وهو يغمض عينيه عن دنيا الحقيقة الجديدة ويقول أنها إنهاء حياته الخاملة تلك في حاجة إلى شجاعة ، والشجاعة هي أن يتقبل حياته هذه ويؤمن أن روحية زوجته والأولاد والبيت بيته هو دعامته والمسئول عنه .

ألف خاطر وخاطر ، وهما واقفان ، بين دهشة الأولاد ، متعانقان وكأنهما كانا غائبين لعشر سنوات مضت ، وكل هذا بغلطة ، بلفتة ، بنكتة ، بكلمات قليلة على ورقة .

• • •

ولم تكف أوراق البنكنوت ذات الإهداءات عن الورود لصلاح ، مكتوبة على أوراق من فئة العشرة والخمسة والجنيه والخمسين قرشاً بعض الأحيان . وكلما قرأ صلاح الإهداء ، وتأمل اللحظة التي لابد سبقته واللحظة التي أعقبته ، كانت سعادة غامرة تملأ جوانحه ، وكأنه قد اخترع إختراعاً للسعادة البشرية أو اكتشف إكتشافاً ، ولفرط سعادته باكتشافه حاول ذات يوم أن يبدأ في عد الأوراق ذات الإهداءات ليعرف كم من السعادات تسبب فيها وأحدثها .

ولا يزال صلاح إلى الآن يعد ، ويبدو أنه لن يتوصل أبداً إلى معرفة الرقم الصحيح ، فالأوراق لم تكف أبداً عن الورود .

يناير ١٩٥٧

فوق حدود العقل

دونت الاسم والسن والمسكن مرتين وفي صفحتين متقابلتين كما تقضي التعليمات ، ولم يكن قد بقي سوى سؤال واحد أو سؤالين عن سلوك الشاب ، وأوقع ، وينتهي الأمر . ولكن الأمر في ذلك اليوم لم ينته أبداً .. إلى الآن ، وأنا لا أعرف ماذا حدث بالضبط وجعلني أشك .. كانت وقفة الشاب عادية .. نفس الوقفة التي وقفها قبله كثيرون ، والتي أعرف أن كثيرين غيره سيقفونها .. نفس النظرة الذاهلة الباحثة عن لا شيء ..

سألت .. بصوت ضجر ، وأذن متعبة ، وعقل كان عليه أيضاً أن يتلقى الكلمات الكثيرة وينقيها من الضجة ، ويترجهما إلى إصطلاحات يمليها على قلمي المشروع ليسد بها الخانات وينتهي كل شيء ..

سألت : ما الذي فعله ؟ وجاءتني الإجابة .. قام في الليل وأمسك بالسكين وحاول ذبح زوجته التي لم يدخل بها إلا من أسابيع . وحين حاولوا منعه كاد يفتك بهم ، تغلبوا عليه وأخذوا السكين منه .. إتجه إلى النافذة يريد أن يلقى بنفسه منها ، فاضطروا حينئذ لتكتيفه وضربه والإستغاثة بشرطة النجدة .

وتوقف القلم وعدت أسأل : متى ؟ .. منذ بضع ليال ، وبدأ القلم يضيق بوقفته التي طالت دون أن يسد خانة .. وقلت أخيراً : ليس هذا بكاف .. هل تكررت أعماله هذه ؟ هل فعل شيئاً آخر ؟ .. وجاءتني الإجابة :

ـــ يوهوه ... كتير .. يقوم في الليل ويظل يصرخ ويوقظ الجيران ويتصور أشياء لا وجود لها .. يعتقد أن إخوته يتآمرون عليه ويريدون انتزاع أرضه التي ورثها عن أبيه ، وكثيراً ما يكلم الهواء على أنه الأب الذي مات من عام ويشكو له هذا الأخ أو ذاك ..

بارانويد شيزوفرينا .. جنون الإضطهاد .. هكذا خمنت ، وكتبت ، وأحكمت الحيثيات .. وآخر ما كان قد تبقى ليصدر حكمى بتحويل الشاب إلى مستشفى الأمراض العقلية ، ونقله من خانة العقلاء إلى خانة المجانين .. سؤال ، مجرد سؤال واحد ألقيه على (المتهم) بمرضه ، للتثبت من التشخيص لا أكثر ، ولكي يطمئن ضمير القاضي الذي في .

ـــ صحيح كنت عايز تقتل مراتك ؟

ولم تأتني إجابة ما ، وسألت مرة أخرى ، وجاءت نهنهة .. إجابة ليست غير متوقعة ، فما أكثر ما تأتي إجابة المجانين على هيئة بكاء .

ورفعت عيني ، وكأنما إيذاناً بانتهاء الجلسة .. كان الوضع لم يتغير .. حجرة مفتش الصحة في المكتب البالي الحافل بالإزدحام والضجيج ، الباب نصف مفتوح يطل منه وجه التومرجي تزاحمه عشرات الوجوه ، والكنبة البلدي بملاءتها الدمور ، ولوحة كشف النظر التي حال لونها

واصفر وأصبح بنياً بارزة من ركن الحجرة .. كعلم مرفوع بالتسليم والإذعان لوطأة الزمن ..

وفي الوسط تماماً .. كان الشاب نحيلاً في « قميص الكتاف » القذر الواسع ، مقيد اليدين بأكام القميص الطويل من الخلف ، وبجواره العسكري المعهود ، فلابد مع كل مجنون يرسله القسم من عسكري ، ولكنه هذه المرة طويل ، مهيب الطلعة أنيق البزة ، يصلح ليكون على رأس قره قول شرف .. أو ليتقدم موكب المحمل ..

تأملت المشهد برهة ، ثم قلت : خدوه ..

قلتها وأنا حزين ، نفس الحزن الذي يروادني لثانية في كل مرة تخرج من فمي الكلمة ، حزني على دنيانا التي فقدت عقلاً ، وما أشد حاجتنا إلى كل عقل .

تكاسل الشاب قليلاً ، ودفعه العسكري بغلظة غير عادية . واستعد التومرجي وفتح الباب ، وتراجعت الوجوه ، وكادت الحجرة تخلو .. لولا أني تذكرت الخانة التي كنت أنسى ملئها دائماً ، الخانة التي يقيد فيها اسم قريب المريض الذي أدلى بالمعلومات عنه ، وعنوانه .

وقلت : استنى .. فين قرايبه ؟

وجأر صوت عيد التومرجي ، كالمبلغ في صلاة الجمعة الذي يعد كل ما يقوله الإمام :

ــ استنى .. فين قرايب المريض ؟

وسأل العسكري :

ــ حضرتك عايز قريبه مين ؟

قلت : قرايبه اللي كانوا بيقولولي على مرضه دلوقت ..

ــ أنا اللي بقول لحضرتك ..

ــ أنت قريبه ؟

ــ أنا أخوه ..

ــ أخوه ؟! ..

مرة ثانية رحت أنظر إلى العسكري . وأخيه المريض ، ولا أكاد أصدق ..

ــ أنت أخوه صحيح ؟

ــ أنا ح أكدب يا دكتور .. الكرنيه أهه شوف سيادتك ..

في الواقع لم أعد السؤال للتأكد ، أعدته فقط لأسكت إحساساً حقيقياً بالشفقة ، لا على المريض وإنما على أخيه .. إن الجنون هو المرض الوحيد الذي يمرض فيه الشخص ويحس آلام مرضه الآخرون .. أن المجنون لا يتعذب ، العذاب يحل بأهله وأقربائه وذويه .. فهذا العسكري ، تراه كم تألم وهو يستصحب أخاه إلى القسم مجنوناً ، ثم وهو يمضي أوراقه من الرؤساء ، ثم وهو يقف أمامي يحكي بلسانه ما فعله ويدلل على جنونه ، ويعريه ، خاصة وهو لم يكن عسكرياً عادياً ، إذ اكتشفت أن على ذراعه أشرطة أربعة كان واضحاً أنه مهتم بها ، وبمركزه .. وقد صنعها من حرير أحمر أنيق ..

ولكن إنسانيتي لم تستغرق سوى لحظة ، عدت بعدها أطمئن على الروتين .. فالمفروض ألا يرسل المريض مع أقربائه . لابد من عسكري يوفد لحراسته ، حتى لو كان قريبه ضابطاً أو شاويشاً .. الروتين هو الروتين .

وسألت : أين العسكري ؟

ومن بين الوجوه الكثيرة المتزاحمة على الباب ، برز وجه ما لبث أن أصبح له جسد رسمي أسود ، وبندقية ، أعقبتها خبطة قدم ، وتحية ، ولم يكتمل الروتين إلا بتأنيبه ، وإلا باعتذاره لم يكسر القاعدة وينتظر بالخارج إلا بناء على رجاء من الأخ الباشاويش .

ــ خلاص يا دكتور نمشي ؟

قالها الأخ متردداً ، محرجاً ، وكأنما يستعجل مغادرة الحجرة وإنهاء الموقف .. ولكنني لم أكن معه ، كنت أحدق في الأخ المريض الذي بدأت ألحظ عليه أشياء .. كان في وجهه ورقبته كدمات وآثار ضرب ، ورقبته بالذات كانت بها عضة واضحة اشتركت في صنعها قواطع وأنياب ، ولم يكن قد كف عن البكاء ..

ووجدت نفسي أسأله عما يبكيه ، وأنتظر إجابة من الإجابات المريضة المعتادة .. ولكنه إزداد بكاء ولم يجب .. وأعدت السؤال ، وأيضاً لم يجب ، رفع رأسه وبجانب وجهه ألقى على أخيه الشاويش نظرة ، إنفرطت على أثرها دموع كثيرة من عينيه بلا كلام .. ووجدت نفسي أنظر أنا الآخر إلى الشاويش .. ودهشت قليلاً حين وجدته يصوب أشعة محمية من عينين واسعتين مبحلقتين ، وكأنما يأمر بها أخاه

أن يكف عن البكاء ، ويكف عن النظر إليه .

ومرة أخرى وجدت نفسي أسأله عما يبكيه ، وهذه المرة أيضاً لم يجب .. غير أنه بلمحة جانبية خاطفة ألقاها على أخيه سكت ، وعاد ينكس رأسه إلى الأرض .

وأحسست ، رغم الصمت المستتب ، أن الجو مشحون .. وأنني أنا الآخر بدأت أنتبه ، وأتفرس ، وأحاول أن أستخلص من الصمت سره .

وفجأة التفت المريض كلية إلى أخيه الشاويش وقال :

ــ خذ الأرض يا أخي في ستين داهية .. هات عقد البيع دلوقت وأنا أمضي لك عليه ، إنما بلاش تبهدلني كده يا بدري وأنا أخوك ..

وكف عن البكاء ، وخفت أن يكون ما قاله مقدمة لنوبة ، وما أبشع نوبات مرضى الإضطهاد .. إنها النوبات التي يقتلون فيها ويعتدون ويصبحون كالوحوش الهائجة التي لا يوقفها خوف أو تهديد ، خير ما تفعله حينئذ أن تقتنع بكلامه .. وتجاريه ، وقلت :

ــ هو عايز يأخد أرضك ؟

وبإنفعال حقيقي ، كانفعال البشر العاديين ، وجدت كل ذرة من من جسده تنتفض داخل قميص الكتاف ، وصدره يكاد يمزق القماش صاعداً هابطاً لاهثاً وهو يقول :

ــ ده يا بيه أخويا ابن أمي وأبويا ، وأبويا مات وساب لنا تسع قراريط ، واحنا ثلاث أخوات .. بدري دهه اللي بيشتغل شاويش

وبياخد له ييجي عشرين جنيه من الحكومة ، وواحد تاني ، وأنا الصغير .. كل واحد منا نابه تلات قراريط !! ليه وليه إلا بدري أخويا عايز ياخدهم مني عشان يبقى حداه ربع فدان ، بقى له ست أشهر وهو كل يوم يهددني ويضربني وآخرتها عايز يوديني السراية .. عشان يستولى عليهم .. كدة يا بدري .. روح يا شيخ الله يسامحك ..

كان بدري قد هم أكثر من مرة أن يقاطع أخاه ، ولكني باشارات قاسية كنت أزجره وأرغمه على السكوت ، وما كاد أخوه ينتهي حتى إنطلق كالبركان المتفجر يقول :

ــ بلاش فضايح يا محمد .. كفاية بقى الحتة كل يوم تتفرج علينا .. جاي هنا كمان عايز تفرج علينا الدكتور ..

ثم إلتفت إلى كمن لا حيلة له قائلاً :

ــ أهو زي ما أنت شايف كده يا بيه .. كل ساعة على ده الحال .. لما أنا نفسي قربت أتجنن ..

وسألته :

ــ إنما صحيح أبوكم فات لكم تسع قراريط ؟

ــ وحياة سعادتك ولا سهم .. حتى اسأل مراته .. يا فرحانة .. يا فرحانة .. تعالي هنا ..

ودخلت فرحانة .. كالعروسة الحلاوة الملفوفة في ملاءة من ورق سولوفان ، لا يخفى بقدر ما يظهر ويجمل ويجعل الريق يسيل .

ــ أنت مراته ؟

ــ قسمتي يا بيه ؟

ــ هو صحيح بيعمل الحاجات اللي قال عليها أخوه ؟

قلت هذا وأنا أتفرس فيها ، وأعجب بيني وبين نفسي لزوجة يجن زوجها ويمرض ، وتذهب معها إلى مكتب الصحة بهذه الحواجب المرسومة والروج الموضوع بصبر وأناقة والبال الخالي .. الخالي حتى من نظرة تلقيها على الزوج المريض ..

ــ يا بيه .. أنا في عرضك .. دي مش مراتي .. دي مراته هوه ..

هنا فقط التفتت إليه ودبت على صدرها بيد مثقلة بالغوايش والخواتم قائلة :

ــ هي حصلت يا محمد .. بقى ماتناش عارفني كمان .. اخص عليك .

ــ والله ما هي مراتي يا ناس .. مراتي حابسينها في البيت وجايبين دي تعمل مراتي .. يا بدري أنا ف عرضك إن كنت عاوز الأرض خدها .. هات العقد وأنا أمضي لك عليه ..

ولدهشتي .. وجدت بدري يأخذ كلامه جداً ، ويلتفت إليه قائلاً بعينين ناريتين :

ــ أرض إيه يا بني اللي أخدها .. ماربك غانيها من غير أرض .. أنا بتاع كلام من ده ..

وربما كلامه هو الذي شجع الزوجة ودفعها لأن تقول :

ــ أرض إيه يا محمد اسم الله عليك .. عقلك يا خويا أحسن من ستين أرض .. مش عيب تقول على أخوك كده .. ربنا يشفيك .. يا بيه ده موتني م الضرب ليلة إمبارح .. أنا راجل كلوباتي على قد حالي وهوه شاويش في البوليس ومخوف الحتة .. وعاوز يأخذ التلات قراريط بالقوة .. ياخدهم ياخدهم .. بس بلاش توديني السراية وأنا مضروب يا عالم وجسمي مكسر .. إتفضل شوف ..

ــ والله يا بيه أنا ما ضربته ولا مديت إيدي عليه . ده حصل وإحنا بنحوشه وهو رافع السكينة على مراته دي .. ده طول الليل قاعد يهربد في نفسه ومطلع عنينا معاه .. كده واللا لا يا فرحانة ؟

وهزت فرحانة رأسها وبكت وأخرجت من صدرها منديلاً صغيراً أبيض جففت به الدموع .

وبدأت الحجرة تمتلىء بالضباب .. أتفرس في وجه الشاويش فأجده ضخم الجسد ، ناصع البدلة مدبب الملامح ، صاعق النظرات ، أشرطته الأربعة نافرة على كتفه تكاد تضيء بنور أحمر وهاج ، وبجواره أخوه الصغير ، ملفوفا كرطل العظم المشفي في خرق بالية وقميص كتاف . وبينهما فرحانة تبكي بحرقة وتدنب حظاً لا يعرف صاحبه . والعيون كلها زائغة لا فرق بين عيون بدري العاقل أو محمد المجنون والأعصاب مشدودة والحقيقة قد بدأت تضيع ، حتى من العسكري الواقف يحرس هذا كله ويحمي القانون ومني أنا صاحب أسوأ موقف الوحيد من بين

الحاضرين جميعاً ، الذي كان عليه أن يقرر ، في دقيقة أو جزء منها ، أين يكمن الحق ، ويحكم بين أخوين لم يرهما إلا منذ دقائق ، وكل منهما يكذب الآخر ولابد أن أحدهما على الأقل كاذب والآخر إما مجرم أو مجنون .. وبدأ شيء يبرز وسط الضباب .. ولم يكن شيئاً .. كان رجلاً ارتفع صوته بالخارج ، قائلاً للتومرجي : أوع .. ثم ما لبث أن اقتحم الحجرة وانتصب قريباً من الأخوين على هيئة عسكري آخر ضخم أيضاً وطويل ، وعلى صدره كوردونات خضراء كتلك التي يرتديها حرس مجلس الأمة أو الوزراء لا أعرف ، وكان شاحب اللون يلهث ، وقبل أن يلتقط أنفاسه بدأ يتكلم ، موجهاً كلامه للأخ الشاويش الأكبر قائلاً :

بقى كده يا بدري عايز تعملها وتودي محمد السراية .. الله يلعن أبو الأرض .. دول تلات قراريط يا بدري تعمل في أخوك كده عشانهم .

وقبل أن أسأله عمن يكون .. تطوع هو بتقديم نفسه قائلاً إنه الأخ الثالث الأوسط ، وإنه علم منذ قليل أن بدري قد استصحب محمداً بالقوة ليدخله السراية ، فجاء يجري ليمنع الجريمة .

وبكى ، وضايقني بكاؤه ، وصرخت فيه ماذا يبكيه وهو الراجل الوافر القوة والقدرة ، وإذا به يقول :

ــ ما يغركش يا بيه .. أصل أنا أعصابي تعبانه شوية ، واتعالجت عند الدكتور ناشد فهمي المدرس بتاع الأمراض النفسانية في الدمرداش .

قلت في سري : المسألة إذن وراثية .. وخيط الجنون يسري في العائلة ، وسألت :

ــ إتعالجت من إيه .

ــ أصلي حصل لي إنهيار في أعصابي .. أصلي قتلت مرة حرامي ، ومن يومها وأنا بدوخ وكل ما أشوف بندقية نفسي تغم عليه ..

ولابد أن روح الهزل هي التي تستبد بنا أحياناً .. فقد وجدت نفسي أنسى الموقف تماماً ، ولا يعود يهمني سوى حالة هذا الأخ الأوسط الذي بدأ يرتجف أمامي ويهتز ، وأكاد أضحك كلما قارنت بين جسده الضخم المهيب وصدره العريض الحافل بالكوردونات وبين ساقيه المرتعشتين والدموع السائلة من عينيه ، ولم أكن قد رأيت قاتلاً يعترف أنه قاتل من قبل ، بل لم أكن أتصور أن يحدث للعسكري إذا قتل لصاً كل هذا « الإنهيار الأعصابي » .

وسألته ، وأجاب :

ــ أصلي كنت عسكري داوريه وبعدين شفت حرامي بيكسر دكانة ، لما شافني جري ، ضربت طلقة في رجليه أهوشه ما وقفش ، فضربت في المليان قام جت في ضهره ومات .. وفضلت واقف جنبه لما النهار طلع وخادوني ع القسم .. وبعدين بقيت أهلوس في الليل ، ومارضاش أطلع دوريات قعدوا يجازوني وبعدين لما لقيوا ما فيش فايدة حولوني ع المستشفى وخدت ١٢ جلسة في مخي على سنة ونصف .

وبدأ يمد يده في جيبه ليخرج الروشتات وأوراق العلاج ولكني لم

أكن في حاجة لأدلة أو إثبات ودهشتي الأولى كانت قد خفت قليلاً ، وبدأت أعود إلى القضية المعلقة أمامي في انتظار الحكم . وطلبت من القادم الجديد رأيه فيها ، وبدأ الأخ الأكبر بدري يحتج ويقول :

ــ يا دكتور ما تسمعش كلامه .. ده مهفوف ومتضايق مني عشان أنا أغنى منه ومابرضاش أديه فلوس عايز يلبسني تهمة يا دكتور ، هو ده معقول أدعي على أخويا أنه مجنون ..

ــ ده أنت تعملها .. وتعمل أبوها ، .. دانت مجرم .. اقسم بالله أنك مجرم .. يا بيه ..

والتفت الأوسط إلي شارحاً كيف مات أبوهم وترك لهم القراريط التسعة وكيف أن أخاهم الأكبر هذا بخيل أناني جشع يستولي على إيجار الأرض ويريد أن ينتزع ملكيتها وكيف أنه يضع المليم فوق المليم ويحرم نفسه ويقتات بالملح والفلفل حتى يجمع ثمن فدان ، وكم مرة حلف بشاربه وبتربة أبيه أنه لن يرجع حتى يصبح مالكاً لزمام فدان ، وكيف أنه استغل ضعفه وضعف أخيه الأصغر محمد ليفرض عليهما جبروته وسلطانه .

وإحنا التلاتة عايشين في بيت واحد ، كل واحد واخد أوضه هو ومراته وولاده ، ومحمد لسة مجوز جديد ، وبدري ده محتل الصالة بالعافية ، ويبقى الفطار عنده ويسيبه ويجي يقعد بالقوة يفطر مع واحد فينا عشان يوفر ، وما يهون عليه يشتري باكو شاي واللا بقرش سكر ولما يشم أن واحد فينا عمل شاي ييجي يستولي على البراد بالرزالة .. وأخرتها عاوز يودي محمد في داهية عشان يتعين وصي عليه ويلهف التلات قراريط ..

ومرة أخرى بكى ، ونظر إلى أخيه محمد وهو يبكي ، فبكى محمد هو الآخر ، وتصاعدت من حناجرهما أصوات متحشرجة مختلطة بالدموع تعاتب بدري وتدعو عليه وتطلب من الله أن يظهر الحق ويجازي كل ظالم على ما يرتكبه .. أما بدري فقد وقف زائغ النظرات يصرخ فيهما ، وينهر أخاه الأوسط ويعجب كيف يوجه له إتهاماً كهذا .. القصد منه لاشك أن يحاكم ويفصل من وظيفته وهو يعلم تمام العلم أن أخاه مجنون وأنه على حق .. أما فرحانة فكانت قد إنسحبت من الحجرة تاركة المشهد يحتله الأخوة الثلاثة ووراءهم يقف العسكري الرسمي صامتاً ، بليد الملامح وكأنه لا يرى ولا يسمع ولا يفقه مما يدور أمامه حرفاً .

وهكذا وجدت يدي تمتد ، وتقطع الاستمارة ووجدت نفسي أعور مرة أخرى لفحص قوى محمد العقلية ، بنظرة محايدة جديدة ، ولدهشتي وجدت إجاباته كلها معقولة ، ولدهشتي الأشد لم أجد إجاباته تختلف كثيراً عن الإجابات التي بنيت عليها احتمال جنونه ، نفس الجمل تقريباً ، بنفس الألفاظ . كل الفرق أنني أسمعها بأذن محايدة .. إذ الظاهر أنه يكفي أن تفرض الجنون في إنسان حتى تجد في كل ما يقول أو يهمس به أدلة تثبت جنونه ، ويكفي أن تفترض العقل في إنسان ، حتى لو كان غير متمالك لقواه العقلية حتى تجد في كلماته وإجاباته ما يدعم إيمانك بأنه عاقل .

واتضح أن حكاية القراريط الثلاثة صحيحة ، والتهديد صحيح ، والضرب والتعذيب قام بهما الأخ الأكبر فعلاً ليرغم أخاه على بيع الأرض له بعقد صوري ..

ليس هذا فقط ، بل بمكالمة تليفونية مع القسم ، اتضح أن القسم لا علم له بالورقة المحولة إلي ، وأنه هو الذي كتبها ووقعها .. واستطحب العسكري الذي كان لا يزال منتصباً في مكانه لا يفقه حرفاً مما يدور .

وحين عدت إلى مسرح الأحداث في وسط الحجرة كان الأخ الأوسط يحتضن الأصغر ,وتتبادل عيونهما الدموع وبدري الأكبر واقفاً شاحب الوجه يدافع بآخر رمق عن نفسه ، وكلما تكشف الموقف عن دليل جديد ضده كلما إزداد شحوبه ونبت على جلده العرق الصغير الأصفر .

وأمرت بفك القميص عن محمد وبدأت أتمل الموقف بيني وبين نفسي لأعرف ماذا يجب أن أفعله إزاء بدري ، وهل أحيله إلى النيابة أم أكتب بلاغاً لمأمور القسم ليتصرف معه .. واستقر رأيي على إبلاغ القسم ، وبكل الحقد الذي بدأ يغلي في صدري على هذا الأخ المجرم أمسكت بالسماعة أريد أن أملي بنفسي الإشارة التي ستكلفه وظيفته وأشرطته الحريرية الأربعة والقراريط التي ورثها وزوجته الحلوة التي بدأت تولول في الخارج وتعوي ، وأكثر من هذا حريته إذ بالتأكيد سيحكم عليه بالسجن ، ولن يقل سجنه عن أعوام ..

وهنا وجدت المارد الضخم ينهار وهو الذي راح هذه المرة يبكي وقد جفت دموع أخويه ويستعطف ويتهاوى على الأرض يريد أن يقبل قدمي ، وكلما رأيت هذا كله ، إزداد الحقد في صدري عليه .. إزداد إلى درجة رحت معها أهدهد على الأخوين بكلماتي وأذكر لهما أن

أخاهما الآثم وقع في الحفرة وأنه لن يخرج منها .

وصاح الأخ الأوسط : ينصر دينك يا شيخ .. يحيا العدل ..

وقال الأصغر بصوت واهن : مش قلتلك يا بيه ..

وقال بدري في هلع : أنا في عرضك .. أنا صاحب عيال .

ثم التفت إلى أخويه قائلاً : مبسوطين يا ولاد طلبة .. أهو بيتي أتخرب يا محمد يرضيكوا كده يا ولاد طلبة يا ولاد الحرام .

وقال الأوسط : جزاك ما صح لك .

وقلت في سري : وكل هذا من أجل قراريط ثلاثة ..

وفوجئت بالحجرة تتحول إلى مناحة ، بدري يشهق بصوت عال ، والأخ الأوسط بدأ يضم الأصغر حتى بعد أن انتصر ويبكيان ، ولا ريب أن أباهم طلبة كان هو الآخر في قبره يبكي ويتلوى .

وجاءني من السماعة صوت أخنف مزعج يقول :

أيوه هنا القسم .. أنت مين ؟ ..

وأجبت : إحنا مكتب الصحة .. خد الإشارة دي ..

وعلا بكاء بدري إلى درجة غير معقولة ، بينما كف الأصغر عن البكاء وراح يتطلع إليّ ، ثم إلى أخيه .. ثم وجدته يترك ذراع الأوسط الذي يضمه ويتقدم إلى المكتب ويرجوني ، بكل ما في طاقته من ذلة ، أن أوافق وأحيله إلى المستشفى ، إن كان في هذا إنقاذ لأخيه ..

وسكتت الحجرة كلها .. ووقف بدري جامداً في مكانه كالمصعوق ...

ثم وجدته يندفع إلى محمد يحاول عناقه ، ولكن محمد دفعه عنه قائلاً :

ــ دا مش عشان خاطرك .. دا عشان خاطر أولادك ..

ــ يا حبيبي يا محمد .. أنا عارف برضه إن ما أهونش عليك .

وفوجئت بالأوسط هو الآخر يتقدم ويرجوني ، إن لم يكن جاء محمد صالحاً للتنفيذ أن استبدل الاسم الأول في الخطاب . الاستمارة وأن أضع اسمه بدلاً منه وانهياره الأعصابي والعلاج الذي أخده يؤهلانه لدخول المستشفى واثبات أن بدري على حق وأنه لم يزور ولم يكذب .

واحترت ماذا أفعل والسماعة في يدي بدأت تنقنق وتقول :

أيوه يا مكتب الصحة .. وبدري يقول :

أنا أستاهل ودني في داهية ما ترحمنيش ..

والأصغر يقول : كل اللي قاله بدري مضبوط ، أنا مجنون .

والأوسط يقول : ما تسمعش كلامه أنا بداله ..

والسماعة معلقة في يدي ينبعث منها الصوت الأخنف المزعج مستعجلاً نص الإشارة وكأنه صوت القانون يطالب بتطبيقه وإبلاغ الإشارة وسجن الأخ .

ويالها من لحظة ، تلك التي تحس فيها أن مصير انسان معلق بكلمة تقولها أو زناد تضغطه .

لحظة خيل إلى إنها طالت وامتدت وأن المشهد نفسه طال وامتد وتجمد وأنه سيظل هكذا لن يتحرك أو تدب فيه الحياة إلا حين أفتح فمي وأنطق كلمة .

ولا أمر ما أحسست أني ، بدموع داخلية ، أبكي . وأتذكر إخوتي ، وأحس أني رابع الثلاثة الواقفين أمامي ..

وصرفني الشعور بأني لا يجب أن أفعل كما فعل الأخ الأوسط وأضرب في المليان ، وعن عمد قررت أن أنسى القانون ، وأخطىء ، وأنصت للهاتف في داخلي ، وأسكت صوت السماعة ..

سنة ١٩٦١

هــذه المــره

كان الضابط كريماً ، ولم يشأ أن تتم الزيارة في الحجرة المخصصة للزوار المملوءة بضجة عشرين مسجوناً يقابلون بلهفة مجنونه مائة أو أكثر من الأهل ، والجميع يصرخون في وقت واحد ، عبر السلك الأصم المستمتع بصممه ، لأمر ما جعلها الضابط زيارة خاصة تتم في حجرته ، ربما لأن الزائرة كان جميلة رقيقة ممشوقة القوام تضع على عينيها نظارة سوداء أنيقة وترتدي جورباً من النايلون الغامق . و « إمام » كان يعرف منذ الصباح الباكر أن له زيارة ، ولأربع ساعات طوال كانت ينتظر ، والإنتظار في السجن ليس مؤلماً ، أنه عمل ، عمل طويل لا ينقطع ولا ينتهي ، يتسلمه المسجون لحظة أن يضع أقدامه في العنبر ، إذ عليه من لحظتها ، حتى لو كان الحكم مؤبداً ، أن ينتظر لحظة الإفراج ، وكل ما يفعله بين ساعة دخوله سجيناً وساعة خروجه حراً طليقاً ، أن ينتظر ، ينتظر الليل إذا جاء النهار ، وينتظر الغروب حين تشرق الشمس ، وينتظر وجبة العشاء المتواضعة أثناء توزيع الإفطار ، انتظار يتكفل الزمن بتغيير طعمه ولونه حتى ليؤديه الإنسان بلا ملل ، وإنما باستسلام تام للإنتظار وخضوع مطلق له .

منذ الصبا وهو ينتظر أن ينادي عليه الشاويش قائلاً : « إمام محمد إبراهيم .. لك زيارة » ، أربع ساعات طوال وليس في عقله إلا المفتاح حين يدور في القفل ، أو صوت الشاويش الغليظ الهادىء الملول وهو يقول : زيارته .

أجل ستزوره سهير مرة أخرى . وهي دائبة على زياته منذ أن دخل السجن ، لم تنقطع إلا مرة أو مرتين ، ولكنها دائبة ، ودود ، مستمرة ، كالإحساس الدافىء بالأمل . وهو في كل شهر ينتظرها ، ولا يمضي الشهر إلا إذا جاءت ، إذا تأخرت يوماً أو أسبوعاً توقف الشهر يوماً أو أسبوعاً ولا يتحرك ولا يبدأ شهر جديد إلا إذا جاءت .. إن ما بينهما ليس غراما مشبوباً ، فلقد كان يحبها ويحن إليها ويعشقها كما تعشق الليلات والجولييتات وهو حر ، ويرغب فيها أحياناً ويشتهيها كما تشتهي راقصة البطن حين تتلوى بإغراء مثير أمامك ، وأحياناً يطمئن إلى حنانها الأكبر من عمرها وطاقتها ويهفو ، وأحياناً يزود عنها ويضيق ، مثلما يضيق معظم الناس بحياة الزواج ، يحبها ويحب ابنته منها ، وابنتهما جزء من ذلك الحب ، كأنها التجسيد المادي لعواطف لا ترى ولا توزن ، ابنته كانت صحيحة حلوة ضاحكة متفتحة ، بضة وذات دلال ، تماماً كما تتدلل أمها إلى درجة لابد أن يتساءل الإنسان معها ، ترى أهي صورة من أمها التي تحبه ويحبها أما هي صورة لما بينهما من حب . والخوف أيضاً كان هناك . لقد انقضت ثلاث سنوات منذ أن كان معها في فراش واحد ، ولقد رآها تضمحل ويسألها عن طعامها فتخبره أنها لا تجد لديها الرغبة في أن تأكل ، أو حتى أن تحيا ، وكان في مرات يلحظ لونها أحمر على غير العادة كأنها تعاني من حمى ، ولا ينسى أبداً رعشة يدها ذات

مرة ثم شفتيها ، ثم رعشتها كلها حين ذلك كفها الممدود إليه وهو يودعها ذات زيارة . أحياناً كان يواتيه خاطر مجنون يهب به أن يخذها ، هكذا أمام الملأ وداخل السجن ، وليطلقوا عليه النيران ، كان هو الآخر يعاني ، ليس فقط من جسده ، وإنما من كبت وجداني كان الجسد وسيلته إلى تخليصه منه .. يعاني من إحساسه باختناق قدرته على إعطاها ، من حرمانه أن يمنح بسرف وبذخ كما تعود أن يكون عطاؤه .

كان قد تزوجا عن إعجاب شديد تطور إلى غرام وغيرة ومحبة وتضحية كقصص الحب العاصفة وتكفل الزواج بصهرهما معاً ، لم يعد يحس بها منفصلة عنه .. أو كائناً آخر مستقلاً .. لكنها أصبحت جزءاً أنثوياً منه أو لكأنما أصبح جزءها المذكر .. إنها معه ، فهي ، داخله ، وهو يحس بنفسه هناك . في روحها ، في أعماق نظرتها ، داخل كل إنكماشة وانبساطة في ضلوعها الدقيقة وهي تأخذ الشهيق أو تصدر الزفير . إنه حتى يحس بنفسه داخل شعوره بها ، كل متلاحم كالكائن الحي لا يمكنه فصله ، وأي فصل له أو إنقسام لا يزيده إلا حياة وقوة وإتصالاً .

ودار المفتاح في القفل ، ولم يسمع — رغم ترقبه له — ما نطق به الشاويش ، سار أمامه ، حليقاً ، قضى وقتاً طويلاً يوصي المسجون الحلاق كي يجتث كل ناشز من شعره وينعم ذقنه ، قام بمحاولات الدنيا كي يستحم بماء ساخن ويلقاها نظيف الجسد لامع الوجه ، كان كأنما هو ذاهب لملاقاة الحياة ، تلك التي يبقى ميتاً طيلة الشهر حتى تشرق عليه في النهاية ، وبنظرة واحدة منها تلمسه لمسة ترد إليه الحياة ، حقيقة يحس بجسده يضطرب بتيار عارم متلاحق متشابك من الإنفعالات

والأحاسيس ، يحس بنفسه قد اتصل ببحر الحياة ، أصبح جزءاً واعياً متفائلاً من الوجود الميت الأحمق .

ودخل الحجرة ، وشكر الضابط بكلمات غير واعية ، وعيناه تبحثان عنها ، كانت بجواراه تماماً ولم يرها ، لم يرها إلا حين سمعها ، تقول : وكأنما تعبر عن الدهشة لنفسها : إمام . إلتفت . كانت هناك . لم يتبين وجهها أول الأمر ، كعادته ، كان دائماً يخاف ، كلما مرت بخياله في وحدته ، أن يفقد القدرة على تذكر وجهها بكل دقائقه ، وفي كل مرة يراها كان يجدها متغيرة ، أبداً لم ير لها نفس الوجه مرتين ، كل مرة يراها فيها سواء في السجن أو خارج السجن كانت بوجه ، دائماً جديد في السجن أو خارج السجن ، كانت بوجه ، دائما جديد ومختلف وكأنه لم يره ، دائماً متغير وكأنه لم يثبت عل حال ، ولكنه ما يكاد يرى وجهها حتى يعرف ويدرك أنه وجهها ، وأنه هكذا كان يبدو ، وهكذا سيظل يبدو إلى آخر العمر ، وجهها .. الذي له ، يضحك له ، ويعبس بسببه ، ويحلم به ويشتاق ، ويشع حباً من خلاله . وكما التقيا كانت تحدث هذه الإلتماعة ، في عينيها وعينيه ، حتى لكأن شرارة تحدث ، وضوءاً مفاجئاً ينسكب فيعشيهما معاً .. لومضة ، ويحس أنها لا تراه بقدر ما تدرك وجوده . وتحس كأنما عثرت على كنزها المنشود الذي ظلت تبحث عنه ولا تكاد تصدر عثرت عليه ورغم هذا لا تطمئن أبداً إلى عثورها عليه .

ودون أن يشعرا ، اقتربا ، وتلاصقا ، كما يحدث دائماً كل اقتراب لهما وتلاصق ، وأمسك بذراعيها في قبضتيه ، ومن أول لمسة أحس

بذلك الشيء الذي كان عليه أن يدركه حالاً . وتأملها عن قرب . كان لا يزال غير قادر على رؤيتها بدقة ، وكأن الشرارة المعشية لا تزال هناك ، وكانت تبتسم ، ولكنه كان يحس أنها تبتسم لأنها تريد بإرادتها أن يراها مبتسمة وليس لأنها في أعماقها تريد الإبتسام . ربما لو تركت نفسها لسجيتها لبكت أو لعانقته أو لاندفعت مقدمة على عمل أعمق . كانت ابتسامتها ربما علامة عجز ، عجز عن أن تصنع شيئاً آخر . وصدرت عنها الكلمات السريعة المتلاحقة التي تصدر عن كل الناس في مواقف كتلك . أزيك . صحتك . وحشتنا . نوسة ، كلمات ، تحركات أفواه وتقلصات ألسنة وحناجر ليس إلا ، فالعقل مشغول بعملية تفحص كاملة تامة ، كل يتفحص الآخر ، بأجهزة لا أسماء لها تقيس كل دقيقة فيه ، ليطمئن إلى أنه هو ، وأنه لم يتغير ، أو إن كان قد تغير فإنما إلى إرتباط أكثر وحب أقوى وتعلق لا حدود له . أجهزة دقيقة شاملة منتشرة في كل إتجاه ، تستقبل وترسل ، وتمتص وتفرز ، كل خلية وكل عضو في الجسد كأنما يريد الإطمئنان على الجزء المقابل له . كان يشتاق إليها بنفسه كلها ، بيديه وأنفه وشعره المجعد .. بشاربه الحليق ، بالحسنة السوداء في أذنه ، يشتاق إليها كلها ، للبحة في آخر صوتها ، لرائها الغينية حين تنطقها ، لتغابيها عليه . لتدليلها إياه ، لفمهة الغناء غير الجميلة حين تدندن بها في ساعات التجلي ، لكل شيء حتى لأصبع قدمها الصغرى الخالية من أي ظفر .

وأحس بنفسه قلقاً على غير العادة ، أطالت أجهزته التفحص والقياس والإستقبال ، وأكثرت من التجاوب والإعطاء ، لم تستقر على رأي

بعد ، ربما لهذا ظل يردد .. أزيك .. صحتك .. اللذيذة نوسة وضرسها المؤلم الفاسد .. في كل مرة كان عقله يستمر يردد هذه الكلمات إلى أن تكتفي أجهزة جسده وتعطيه إشارة خفيفة أنها انتهت ، حينئذ كان العقل يبدأ عمله ويستطيع أن يعود يعقل وينظر ، ويتأمل ويدقق ، لتبدأ النظرة الثانية . النظرة المتمهلة المتمعنة التي لا قلق فيها ، ولو كان موعد الزيارة معروفاً فاللقاء دائماً مفاجأة يطير لها الصواب ، نظرة المتعة بالرؤية والإلتهام ، إلتهاماً ، بالمزاج والراحة وأقصى درجات السعادة . إزاي نوسة ؟ رابع مرة في دقيقة واحدة يسألها سؤالاً أقرب للاستعجال منه إلى السؤال ، وليس استعجالاً لها وإنما إستعجال لنفسه اللاواعية أن تنتهي من إجراءاتها الكثيرة المعقدة وتؤوب إليه ، ليؤوب إليه إطمئنانه ووعيه . كويسة قوي ، مشتاقة لك . هي الأخرى تجيبه ناظرة في عينيه ، شاخصة إليه كأنما تنتظر أن ترى في عينيه شيئاً ، إشارة أمان تعودت رؤيتها ، جواز مرور ، نظرته هو . الحقيقة التي تعرفها حين ينظر بها إليها هي ، وتراه ينظر إليها دونا عن الكون والدنيا ، هي فقط التي تكون في عينيه وكأن العينين تصبحان عينيها ، عينيها وحدها ، عيناه وعيناها ، وبدأ القلق يدب ويهدد بأن يصبح توتراً ، ولم يكن يريد أي توتر . كان يحلم منذ الصباح بأن تتالى ، في نعومة ويسر ، نظراته ، الأولى المذهولة ، والثانية المستمتعة . والثالثة حين تبلغ المتعة حد النشوة ، والرابعة الحالمة المكتسحة الخارجة به وبها من خلف الأبواب الموصدة إلى الدنيا المتسعة ، إلى الغد ، الغد الطويل الممتد الذي لا نهاية واضحة له . أي تلكؤ حرمان ، وزمن الزيارة قليل ، وعقله من خوفه يساهم في الإسراع ويكاد يقسم لأجهزته وحواسه الظاهرة والخفية كل شيء

على ما يرام وإنها هي ، وجهها القمحي هو هو ، عيناها العسليتان الواسعتان ذواتا الحدقتين المكونتين من ألف لون ولون ، المشعتان بألف شعاع وشعاع ، شعرها الأسود اللامع أسود ولامع ، فورمته مختلفة ولكنه شعرها ، روحها هي نفس روحها أو تكاد ، لا خلاف يذكر أو يلحظ ، ولا يمكن أن يكون هناك خلاف ، أن أي خلاف معناه إختلال في نظام الكون لابد ، صحيح أنها معتنية بزينتها أكثر من كل مرة ، قلم الحواجب واضح خطه في حواجبها ، والريميل يرمل أجفانها أكثر ، وإن كانت فسفوسة صغيرة لابد من أثر الجو أو الهضم قد نبتت من زاوية فمها إلا أن شفتاها هما شفتاها ، بروزهما إلى الأمام لم تتغير درجته والروج ينطبق تماماً على حوافهما كما تحب أن تبدو ، لا شيء تغير ، بل ربما اللهفة أكثر ، وقلقها للعثور عليه في عينيه وعلى نفسها داخله أكثر .

ولكن نفسه استمرت تتفحصها غير مبالية بقلقه أو إستعجاله أو ضيقه ، مندهشة لا تزال ، غير مدركة تمام الإدراك ما ترى ، تتفحص ، بلا وعي تتفحص ، دون أن يشعر بها أو يسمح لها تتفحص ، كأنه يراها لأول مرة تتفحص ماذا هناك يا ترى ؟ ماذا يوقفها ويبقيها ؟ ماذا يدهشها ويذهلها ؟ ما المجهول فيها وهو يعرف كل لمحة منها وفيها .. لا أحد ، لا عقله . ولا جهاز من أجهزته يرحمه ويجيب ، أو حتى يعرف ويدرك ولا يجيب . وكلمات الشوق والترحيب مستمرة ، عصبية من وراء القلب ، ولمجرد قول شيء ، مستمر ، والحجرة تبدو أحياناً واسعة كفناء السجن . وأحياناً تضيق لتصبح أضأل من الزنزانة ، والضابط

جالس إلى مكتبه منجعص إلى الخلف بالجريدة مفتوحة وبعين نصفها يقرأ ونصفها الآخر مضاف إليه انتباهه كله ، يراقب ما يدور بين الرجل والمرأة ، لا يراقب محرمات أو مخالفات ، وإنما على الرغم منه ، ولمجرد حب الإستطلاع يراقب ، مراقبة لا يراها أي منهما ولكنهما يدركانها تمام الإدراك ويستعجلان اللحظة التي يندمجان فيها معاً ويغيبان عن الوعي بالزمن والمكان وحتى بهذه الرقابة من الضابط .

لحظة طالت وامتدت حتى أصبح تأخرها أمراً واضحاً لاشك فيه ، أمراً يدفع الموقف بكميات أكبر من القلق ، قلقه ، وقلقها ، على قلقه .. وقلقه حتى من قلقها عليه .

فجأة أفلت الزمام منه ، ووجد نفسه يسألها : إيه اللي حصل ؟

وكان بوسعها أن تسأله ما يقصد ، وعن أي شيء بالضبط يتحدث ، ولكنها مثله لا تريد للوقت أن يضيع ، ويخاف أن يضبطها في لحظة تغلب ، أن السؤال وإن كان يبدو مائعاً عائماً إلا أن الصوت الذي نطقه به كان محدداً مستغيثاً يطلب إجابة حاسمة تشفي الغليل . وبسرعة وبحسم قالت : لا شيء حدث . مالك ؟ أنا !؟ ماماليش .. لا .. لازم فيه حاجة .. حاجة إيه ؟ ولا حاجة . إنتي متغيرة . أنا ؟! متغيرة إزاي ؟ لازم مش إنتي . إزاي مش أنا ؟ أنا أنا .. كل مرة أنا أنا .. إنما المرة دي انتي مش إنتي .. أمال مين ؟ أنا مين ؟ أنا سهير بتاعتك مش فاكر ! صحيح بتاعتي ! ودي عايزة سؤال يا إمام .. بتاعتك بتاعتك بتاعتك .. إنما برضه يا سهير لازم فيه حاجة ..

ولاحظ إرتجافة عابرة جداً سرت بشفتيها لم يكن ليلحظها لولا فسفوسة عسر الهضم . أمام الحاجز الذي أقيم بدت العواطف تتجمع بسرعة وتتزايد وتتراكم وتهدد باكتساح السد الذي أقامه بلا سبب معقول أو غير معقول أو بصناعة مجرى جانبي آخر . وهكذا كان لابد أن تأتي النظرة الثانية ، بحكم قانون القوة جاءت ووجدت وأصبحت أمراً واقعاً ، ولكنها لم تأت كما تعودت أن تأتي كل مرة ، حين تحل محل النظرة الأولى الحيرى المتسائلة المذهولة ، جاءت النظرة الثانية هذه المرة دون أن تختفي الأولى أو تزول ، تراكمت فوقها ، فوق الذهول والحيرة والتشتت ، وأيضاً لم تكن نظرة استمتاع والتهام متمهل سعيد منتش ، جاءت مختلفة ، غريبة ، مجرد رغبة أعظم في بحث متعجل حادٌ ، لهفة ، إحساس دافق قوي بضرورة العثور على نهاية ، على قاع ، على حقيقة .

ـــ فيه إيه يا إمام ؟

سؤال منزعج من فم منزعج والملامح التي أطلقها فيها رجفة لابد رجفة اضطراب ، لم يكن قد حدث ما يستدعي السؤال أو الإنزعاج ، كما لم يكن قد حدث ما يستعدي سؤاله المفاجيء عما يمكن أن يكون قد حدث . ولكن المشكلة أنه لم يكن مطلوباً أن يحدث شيء واضح ليسأل أحدهما الآخر ، أو ينزعج ، إن الحياة معاً في حب أو زواج . صنعت مثلما تصنع لكل الناس . ذلك الإلتحام الشامل الذي ـــ يجعلك تفهم الآخر وتحسه ربما قبل أن تفهم نفسك أو تحسها ، تفاهم بالإحساس يتم بالتأكيد قبل أن يتم التفاهم بأي لغة أخرى حتى لو كانت لغة العين والنظر ، إنه تشابك الأفرع والأغصان والأوراق وتداخلها في

شجرة إحساس واحد مسيطر ، حالة لا يزيدها البعد إلا حدة ، والحرمان إلا شحذاً ومقدرة ، وكلما إزداد الطرفان بعداً ، اقتربا وأصبحا أكثر تشابكاً .. فانفصال أيهما عن الآخر في الزمن أو المسافة لا يبعد ولا يعزل ولكنه يقرب ويكثف ويربط ، فيه إيه !؟ أي نعم فيه إيه .. وإيه بالضبط ري سؤالك حصل .. انطق .. تكلم .. فيه إيه .. أبداً ولا حاجة .. إذن لم يحدث شيء وليس هناك شيء !؟ ما الأمر إذن ؟ ماذا هناك ؟ ماذا دهاك . ولو كان الوقت يسمح لاستمرت المطاردة الخالدة غير الجديدة على علاقتهما .. إلى ما لا نهاية .. ولكن الوقت ، كان مدبباً . كالترس المسنونة تروسه . كلما دار وخز وألم ونبه وجأر بأنه يدور ويمضي مهدداً بقرب إنغلاق دائرة الدقائق العشر المصرح بها .

ولكن ماذا يصنع أو يقول في موقف لم يحدثه هو بإرادته ، في موقف تكوم وتكون وتراكم وتشكل حقيقة واقعة دون أي تدخل إرادي أو عقلي أو حتى وجداني منه ، إنما حدث هذا وكأنما حدث بواسطة جسده وأعضائه وعضلاته وعظامه والأجهزة اللاإرادية الغريبة المركبة فيه ، في موقف عاجز عن فهمه وإدراكه . موقف حدث لا يدري كيف ، ومستمر في حدوثه لا يدري كيف أيضاً ، وسادر في استمراره إلى ما يبدو إنه اللا حل واللا نهاية ، لا يدري كيف أيضاً ، سهير يا حبيبتي أنت أنت ، لم يتغير فيك شيء ، أليس كذلك !؟ بل تغيرت يا إمامي وأصبحت أحبك كما لم أحبك من قبل أو من بعد .. ليتك تؤجلين الكلام عن الحب ، كل كلام عنه أحس به غير طبيعي .. ومصطنع من أجل

هذا الموقف ، إن الحب يأتي بعد الاطمئنان ، وأنا لا أزال لم أطمئن ، نفسي التي تحركني وتشعر لي لم تطمئن ، عقلي لا يزال مذهولاً يبحث عن خلجة إطمئنان ، ومنك يأتي إطمئناني ، وفي يدك الحل إذ التفسير لابد عندك . أنا أنا لم أتغير يا سهير ، أنا كجدران الزنزانة ، كساعة (التمام) بعد الظهر كوقع الأحذية الثقيلة على بلاط العنبر ، أنا مثل أي شيء وكل شيء هنا لا أتغير ولم أتغير . أنا ثابت وأنت المتحركة ، أنت الطليقة ، أنت المتغيرة .

ولكن يا حبيبي برغم أني طليقة ومتحركة ، برغم وجودي في الخارج الحر أنا معك ثابتة لا أتغير . أنا هنا وإن كنت أبدو هناك ، أنا سجينة داخل ما هو أفظع من سجنك ، داخل الحياة الطليقة ، كلام جميل مثل حوار أفلام الحب ولكني لا أريده ، وإن كنت في كل مرة أسمعه . أجن إلا إني لا أريده . هناك شيء مؤلم حاد يشتتني ويجعلني لا أريد أن أصغي قبل أن أوقن وأعرف . تعرف ماذا ؟ أعرف من أنت ؟ إن فيك شيئاً لا أعرفه يجعلني أحس أني لا أعرفك كلك ، شيء جديد غريب عليّ ، حواسي تحوم حوله وتجفل ولا تستطيع إدراكه . أراه ببصري ولكن لا أعيه . أيكون قد حدث شيء يا سهير ؟ أيكون ؟ أرجوك . دعيني أعرفه ، كيف ؟ أعرفيه أنت واعترفي لنفسك به فأعرفه أنا . حوار غير منطوق أو مسموع أو حتى مار عبر العيون ولكنه رائح غاد في سرعة وتحفز ككرات البنج بونج لا يستقر ولا يهدأ وإنما تزداد به النظرات جهلاً واستيحاشا وتوتراً ، ويزداد به الزمن وخزاً وإيلاماً ، لم يبق على إنتهاء الزيارة سوى دقائق ثلاث أو أربع . سهير يا سهير .

أنت لي . كلك لي . حتى ما فيك من خطأ لي . بحقك عليّ وحقي عليك أخبريني ماذا حدث ، إذ مهما كان ما حدث فهو فسفوسة يا سهير بالقياس إلى حياتنا ، فسفوسة لا أعرف لها مكاناً ولا سبباً ولا اسماً ، أحس بها تافهة سطحية تكفي ضغطة صغيرة لتنمحي وتتلاشى . كل ما يضخمها ، كل ما يعرقلني عنك ، إنها غريبة عليّ لأنها غريبة عليك .

ـــ أنت شايف إيه ؟ ..

ـــ مش عارف .

ـــ عايز تقول إيه ؟

ـــ مش عارف .

ـــ شاكك في إيه ؟

ـــ مش عارف .

ـــ أمال فيه إيه ؟

ـــ مش عارف . أنا خايف .

ـــ من إيه ؟ عليّ .. ما تخافش .

ـــ ده كلام يمكن من قدامي بس .

ـــ قدامك ومن وراك .

ـــ أمال أنا حاسس بيكي متغيرة ليه ؟

ـــ يمكن إحساس خاطىء ..

ـــ وهو عمر إحساس اللي بيحب بيخطىء .. أبداً أبداً يا سهير .. عمر إحساسي بك ما أخطأ .. عقلي بيغلط إنما إحساسي لا .. وده هو اللي تاعبني ..

ـــ أنت بس إلى عاوز تتعب نفسك .

ـــ واحد بيعوز يتعب نفسه ؟

ـــ أيوه .. لما يكون مسجون بعيد .. وبيحب .. يخاف على حبيبته أو مراته فيشك ويخاف ويتعب نفسه ..

ـــ ده كلام معقول . إنما أنا اللي حاسه حاجة فوق العقل . حاجة قبل العقل .. حاجة أصدق وأعمق من العقل ..

ـــ اسمح لي دي قلة عقل .

ولكنها قالتها بروح لا مرح فيها ولا رغبة في المداعبة ، وهذا ما أحزنه ، لو قالتها كنكتة لبدت طبيعية وربما حلت الموقف كله ، ولكنها أخذتها جداً .. وأردفت :

ـــ اشمعنى المرة دي يعني ؟

ـــ ده بالضبط اللي بقوله لنفسي ، كل مرة تيجي تزوريني هنا ، اشمعنى المرة دي ؟

ـــ أيوه اشمعى المرة دي ؟ ..

ـــ لأن لازم حصل فيه حاجة يا سهير . أنا حاسس .

والكارثة في هذا الإحساس الذي لا يناقش ، كالحكم الذي لا نقض له ولا راد ، كالأمر الواقع ، إحساس غير خاضع لمنطق أو فكر ، ولكن

له قوة أعتى من قوة المنطق والفكر . للمرة المائة يتأمل وجهها ، إنه هو الآخر أمر واقع ربما ينجح في دحض إحساسه ونسفه ، ولكن حتى وجهها تكفلت المنطقة الغريبة المجهولة بالزحف عليه والإمتزاج بلونه وملامحه وتغير لونه كما يتغير لون الماء إذا سقطت فيه نقطة حبر .

ومالت على أدانة مرة وهمست له بكلمة ، أعقبتها بضحكة عالية جعلت الضابط يرهف أذنه ويكاد يمدها لتتسقط ما بين فمها ومسامعه ويعرف سبب الهمسة والضحكة . أما هو فلم يهضم لا الهمسة ولا الضحكة في مظهرها بريئة ، قريبة منه ، تبدو كنفس ضحكتها البريئة ، ولكنها البراءة وقد زحف عليها ذلك الشيء الغريب المجهول فأحالها إلى ما يشبه التهتك والرقاعة ، إن رأسه يكاد ينفجر . لم يعد باستطاعته أن ينظر إليها أو يشعر بها كما تعود أن ينظر أو يشعر ، في غيبة عقله ، كما لابد في غيبته حدث شيء . شيء غامض محير مجهول ، لو كان طليقاً لظل وراءه يبحث ويستقصي حتى يدركه ، ولكنه هنا مقيد محبوس ، ووظيفته الأولى أن يبقى جاهلاً بمعزل عن كل ما يمكن أو بالاستطاعة معرفته . إنه هنا فقط يسجل ، يسجل حتى دون أن يشعر ، وقد سجل ما فيها من غربة ، ولينفجر عقله محاولة التفسير أو التبرير فإحساسه لن ينفعه ، سيغادره تاركاً إياه وحده مع التصرف أو بالضبط مع عدم القدرة تماماً على التصرف . إنه الجحيم حتماً ، بل ربما الجحيم أرحم ، إنه السجن .

صيف ١٩٦٤

لغة الآي آي

لم تكن بالضبط صرخة ولكنها كانت الأولى بعد منتصف الليل بقليل ، تصاعدت ، غير آدمية بالمرة ، حتى الحيوان ممكن إدراك كنه صوته ، ولكنها بدت لأول وهلة جمادية ذات صليل ، كعظام تتكسر وتتهشم تمسكها يدا عملاق خرافي القوة وبنية صارمة لا رحمة فيها تدشدشها .. فجأة وفي المنزل الهادىء المظلم الفاخر الإظلام ، السابح في سكون مسود تلمع فيه حواف الموبيليا الأنيقة الموزعة بعناية وذوق ، بيت ساكن نائم يرفل في رائحته الليلية الخاصة التي تميزه عن أي بيت ، وفي الحي المترف الذي تتثاءب نوافذه وأضواؤه واحدة وراء الأخرى ويؤوب إلى الرقاد على ضجة المدينة ووسطها المستيقظ كغمغمة غارق في الأحلام .

وفي وسط هذا كله ، ومن مكان لا تستطيع تحديده أو تعرف إن كان يمت حتى إلى الحي ، تصاعد ذلك الشيء الغريب الغامض الأول ، مفاجئاً وكالطعنة الملتاثة ، حافلاً بأنين التمزق ، وكأنه صادر من حنجرة تتمزق أحبالها الصوتية لتصدر الصوت ويكاد يمزق طبلة أي أذن يقع عليها .

ودونا عن سكان الحي والبيت ، بدا وكأنه الكائن الوحيد الذي سمعه . كان مغمض العينين لا يزال بينه وبين النوم مشكلة لابد لها من حل ، ومر الصوت مفاجئاً غير مألوف من الصعب تبينه ، ولكن جسده في اللحظة التالية كان يقشعر بخوف طفلي مذعور ، وإن لم يستغرق زمناً ، اسلمه إلى عينين مفتوحتين لاخرهما ، وقلق وعاصفة من الاضطراب ، فالإحساس التالي الذي واتاه كان إحساساً بالذنب ، شعور غامض يربطه بالصوت ، ويؤكد أن الصلة بينهما من صنعه ومسئوليته ، وأن عليه وحده يقع التحمل للنهاية ، وبالغريزة التفت ، كانت زوجته لا تزال على وضعها ، فقط في اللحظة التي إلتفت فيها ماءت مواء طال بعض الشيء ، ثم بارادة نائمة انتقلت إلى جنبها الأيسر وقربت ساقها ، ربما كان الأثر الوحيد الذي أحدثه الصوت في جسدها المستسلم لأول مراحل النوم . وارتاح وبعض الشيء إطمأن وهو يواجه الأمر وحده ، فقد كان ظهورها على المسرح لحظتها كفيلاً بزيادة إرتباكه .

ما هذا الصوت ومن أين جاء ؟

في لحظة مر بخياله ألف احتمال ، إلا الاحتمال الوحيد الذي كان يخاف مروره . لم يكن قد تغير في البيت أو في الحي أو في دنياه كلها شيء ما عدا ذلك الشيء الواحد الذي اغتم له . ولابد أن يكون الصوت الجديد من صنع القادم الجديد حتى ولو نفي عقله بشدة ، وأبى أن يصدق .

ولم يشأ أن يفكر أكثر ، مجرد صوت وحدث ، المهم ألا يعود يحدث ، ومر بعض الوقت ، أحال اللحظة إلى دقيقة ، أو دقائق ، ولا

شيء يتغير داخل الليل الساكن ، والأمل يقوى ..

ولكن وشوشة غامضة حدثت ، إندفع منها إلى أعلى فجأة صوت كالطوفان الهادر العمودي له وقع العظام نفسها وهي تسحق وتتدشدش ، صوت أقرب إلى رعد تنفثه السماء في ماسورة مكتومة ، ما لبثت أن فتحت وسلكت في إستغاثة راعدة مولولة ممدودة يخاف صاحبها أن ينهيها وكأنما الموت عند نهايتها .

انتهى الأمر . لم تعد هناك فائدة .

كان هذا الصوت الثاني مزعجاً حقاً حتى أنه ، مع علمه هذه المرة وتأكده من مصدره ، لم يستطع كبح جماح إرتجافته ، ليس خوفاً منه ، وإنما من الشيء المجهول المروع الذي يختفي لابد وراءه ويحدثه . مزعجاً ومحيراً إلى درجة لم يلحظ معها أن رفيقة الفراش قد اعتدلت نصف اعتدالة والتفتت إليه قائلة بهستريا مفاجئة :

ــ إيه ده ؟ قول لي بسرعة وحياتك إيه ده ! وحياتك بسرعة بسرعة بسرعة .

وقبل أن يفكر فيما يقول انخلعت عنه ، ناظرة إليه بشك متوحش :

ــ أوع يكون هوه ؟

وقبل أن يفتح فمه أردفت :

ــ أنا مش قلت . أنا مش قلت . اتفضل بقى . اتفضل بقى . أنا مش قلت .

وحقيقة لقد قالت وعارضت وكل ما حدث كان رغم قولها

وإرادتها ، وبالتأكيد هي الآن بسبيلها إلى إعادة ما قالته . وعليه أن يتذرع بالصبر ، ويقول لها كلاماً مطمئناً كثيراً .. إنها مجرد آهة .. آهة ستمر ، ويعود كل شيء إلى سابق عهده ..

أكان معقولاً أن يعود أي شيء ليلتها إلى سابق عهده ؟ الكلام نفسه وربما الألفاظ نفسها .

وما فائدة الكلام ، والكلام الذي دار كثير ، وقد كان ممكناً ، مادام الوضع هكذا . زوجة حلوة قوامها كقوام المانيكان ، وساقاها حتى في الظلام يظهران من قميص النوم في إغراء لا جمهور له ، وحتى هناك تواليت وماكياج للنوم وعناية خاصة بالشعر ، ودهان مخصوص للبشرة وزوج هناك دائماً بينه وبين لحظة النوم مشاكل لابد لها من حل ، زوج امتلأت روحه بالتجاعيد مثلما فقد رأسه الكثير من الشعر وعيناه القدرة على الرؤية .. مادام الوضع هكذا . فقد كان ممكناً أن يدور الكلام نفسه وربما الألفاظ نفسها حول أي موضوع ، كالعادة ، لا تلتقي عنده وجهات النظر . المهم أنهم أصبحا بشيء من التحدي ينتظران الصرخة الثالثة ، التي لن تجيء كما يؤكد الزوج والتي لابد أن تأتي كما تصرخ الزوجة ومن المطبخ ، هذه المرة كان المصدر واضحاً ولاشك في أمره ، انطلق مواء كمواء القطط ، يحاول صاحبه كبته وخنقه فيخرج مضغوطاً ثاقباً إرادته فيبدو كما لو كان رجل قد قرر بجماع ما يمتلكه من قوة ، وبسبق إصرار ، أن يتأوه كما يريد ، ولتقم القيامة بعدها ، إنطلق صفير معذب متألم متظلم باك غاضب كافر مستغيث بائس مؤلم زاهد .. آي ، آي ، آي ، آي طويلة وقصيرة ، ممدودة ومبتورة ، عالية بكل قواه يرفعها ، منخفضة بجماع إرادته يخسفها ، مجروحة دامية ، لاسعة كالنار

في العين ، كاوية كصبغة اليود في الحلق .. حارقة كآثار الحامض المركز .

فتحت الزوجة فمها تصرخ في هوس من تأكد قولها ، وانتظرت أن تنتهي الصرخة لتطلق صرختها هي ، ولكن انتظارها طال ، وبدأت رغماً عنها تسمع ، ومن الذهول استمر فمها مفتوحاً وأذناها بأمر قوة قاهرة تصغيان ، ثم بدأت ترتجف وتقترب من زوجها وتمسك بيده لتوقف الرجفة ، ونفس اللحظة التي كانت قد قررت فيها أن تطلق لفزعها العنان وتستغيث صارخة ، انتهت الصرخة فجأة ، وكأنما انكسر الجهاز الذي يصدرها .

وكان الصمت الذي حل تاماً ساحراً كالدواء الشافي المعجز لو لم يحل ، وفي اللحظة التي حل فيها ، وعلى تلك الصورة الكاملة ، لفقد أحد أو الجميع عقولهم .

قالت الزوجة بعد جرعة صمت سخية : كده يا حديدي .. كده ..

وأجاب بهمس ، مناه ألا يصدر : أرجوك يا عفت .. أرجوك ..

ولكنها لم تستجب . بفحيح أكثر إنخفاضاً وإلحاحاً سألته : بس أنا عايزه أعرف . أرجوك أنت .. أنا ح أجنن عايزه أعرف .. ماوديتوش لوكاندة ليه .. ما سبتوش يتحرق مع أهله ليه .. عملت كده ليه . أرجوك قولي بس .. عشان ما اجننش ..

كيف يخبرها وهو نفسه لا يدري لماذا أقدم على ما أقدم عليه . كان قد إتخذ قراره من زمن وكف تماماً عن مساعدة أهل « زينين »

وتوظيفهم والتدخل لقضاء المصالح . إن أهل بلده هؤلاء لا يكاد يبرز من بينهم واحد حتى يتسابقوا إلى جذبه إلى أسفل وإغراقه في حل مشاكلهم . مشاكل لو تفرغ لها لاحتاج لأضعاف أضعاف عمره ، فلا يوجد إنسان إلا وله مشكلة حادة ملحة تطلب الحل وتستحثه ، ومائة ألف نسمة في زينين وما حولها بمائة ألف مشكلة ، بقرار حاسم باتر منه أن تبقى له حياته الخاصة ومشاريعه وطموحه وأن ينفض عن نفسه هذه الأيدي الكثيرة التي تريد إنزاله وجره إلى حيث هم وكأنما لا يطيقون رؤية البارز العالي ولا يسترحون حتى يبرك مثلهم ويعجز .

ولكن السكرتير جاءه قرب الظهر قائلاً : إن أبا فهمي وعمه بالخارج وأنهما يريدان رؤيته . وحياته ليس فيها إلا فهمي واحد ، أول ، وربما آخر طفل أو إنسان يعترف الحديدي لنفسه إنه أذكى منه . كان فهمي إذا وقف ليجيب وقد عجز الفصل عن الإجابة التفت الحديدي بكليته ناحية ، يتأمل ملامحه الشاحبة ، ووجهه المليء بالعظام الناتئة والذي تكسوه مع هذا غلالة من مهابة خفيفة ، مهابة التفوق أو العبقرية ، وكل كلمة ينطقها كان يتأملها وتبهره حتى الطريقة التي ينطقها بها ، فكل كلمة كانت الصواب بعينه ، كل كلمة بالضبط ما يجب أن يقال وما يعجز الجميع عن قوله ، فهمي كان يقولها ببساطة ودون أي جهد ، في ذلك الفصل من المدرسة الإلزامية ذي الجدران المتساقطة الطلاء الكاشفة عن الطين الذي بنيت به الحيطان ، الفصل ذي السبورة الكالحة البالغة الصغر وكأنما هي سبورة خاصة لتلميذ واحد ، المزدحم بعشرات الطواقي الصوف والبيضاء القطن وأحذية الإخوة الكبار أو ربما الآباء

والقباقيب والحقائب القماشية التي صنعتها كل أم لابنها ، أو خيطت على المكنة فوق البيعة مع الجلابية ، الأيام الأولى التي كان الحديد يتعرف فيها على مدخل العالم المقروء المكتوب ويحاول أن يحذق مبادىء أسراره ، وفهمي رفيق تلك الأيام ومثلها الأعلى .. أيكون أهله هم من ينتظرونه بالخارج .

وأمر بدخولهم ..

ومن باب الحجرة دخل ثلاثة أو أربعة أناس من حجم قصير تخين واحد . ورابعهم مثنى على نفسه لسبب مجهول . أجال بصره فيهم . إن ملامح فهمي محفورة في ذاكرته لا تمحى أو تموت . وأجال بصره محاولاً أن يعثر على من يصلح ليكون أباً لفهمي أو عمه .. ولكن ملامحهم بدت غريبة حتى على أهل زينين بشكل عام ..

ــ أمال فين فهمي ؟

وتسابقوا في إرتباك عظيم يجيبون ، وينتهون إلى الإجماع على الإشارة للشخص الرابع المثني على نفسه .

ــ ده ..

ــ أيوه يا بيه ..

ــ أنت ؟ ..

ــ أيوه يا بيه .. هو ..

ــ أيوه .. يا ..

ورفع رأسه يواجهه رغم بقائه متنيا ، وحدق الحديدي طويلاً فيه كمن يفتش في كومة من قش قديم عن إبرة ملامحه لطفل صديق كان أعز عليه من نفسه ..

ــ أنت فهمي ؟!

ــ أيوه .. يا .. فاندي ..

جاءه الجواب من وجه المومياء الخارجة لتوها من القبر أو المستعدة تواً للدخول فيه ، وجه منقبض بالألم وكأنما ثبتت ملامحه عنده وحنطت عليه ..

ــ أنت فهمي أبو ..

ــ أيوه .. أبو عنزه يا بيه .. ده كان معاك في المدرسة .. بس حضرتك مش فاكر .

أمعقول هذا ؟ من الطفل المرتب النظيف الذي تحيط بوجهه مهابة النبوغ ، ومن العينين اللتين يطل منهما الذكاء النفاذ والقدرة المعجزة على الإدراك ، أين هذا من ذلك الرجل الذي يبدو عجوزاً محطماً تجاوز الخمسين ، المظلم القسمات كالأرض البور ، المطفأ العينين لضيقهما كشريط اللمبة حين يحمر من تلقاء نفسه ويقصر ويحترق لدى فراغ الكيروسين .

وأحس بفجيعة ذات طعم خاص ، كان دائماً متأكداً أنه سيلقى فهمي يوماً ما ، وكان يعد العدة لهذا اللقاء الحافل . إن قدراً كبيراً من الرهبة التي يحسها لفهمي مبعثه أنه كان يتخيل دائماً أن فهمي سيظل

متفوقاً عليه وعلى الآخرين . وأن الذي باستطاعته أن يتفوق كطفل لابد باستطاعته أن يتفوق كشاب ثم كرجل . ولم يكن أبداً يتصور أن اللقاء سيتم على هذه الصورة وأن الطفل الذي في ذاكرته سيمخض عن هذا الرجل . كان يدخر اللحظة التي يقابله فيها كلاماً كثيراً يريد قوله ، وكيف أنه إذا كان قد أصبح الأستاذ الدكتور الحديدي أكبر مرجع في الكيمياء العضوية في الشرق ، وإذا كان قد أصبح رئيس مجلس إدارة مؤسسة كبرى ومرشحاً أكثر من مرة للوزارة وعضوا في عشرات اللجان والهيئات العلمية في الشرق والغرب فجزء كبير من هذا الفضل يرجع لفهمي ، فقد كان الصوت الذي ظل لأكثر من ثلاثين عاماً من الزمان يلهب طموحه ويدفعه للتفوق حتى ينتصر ، ولو مرة واحدة ، على الطفل العبقري الذي ظل يحافظ عليه في ذاكرته كصور القديسين التي لا تمس . وها هو اللقاء ، وها هو القديس .

ــ أنت فهمي أبو عنزة ؟

ــ أيوه يا بيه .

ــ فاكر العنزة ..

ــ عنزة إيه يا بيه ؟

العنزة التي سرقها ليشتري لحسين أبو محمود والد منصور الألدغ حقن الدواء ٦٠٦ التي قيل إنها بخمسين قرشاً وأنها دواؤه الوحيد . فقد كان فهمي شهماً أيضاً ، لا يتردد في الذهاب سائراً على قدميه إلى البندر أو بقاء الليل بطوله ساهراً أو اليوم كله عاملاً كادحاً إذا أحس أن غيره في حاجة إلى هذا العمل أو الجهد ، خصال جعلت الجميع يدهشون

ويفجعون لإقدامه على سرقة العنزة . وإن كان السبب قد عرف والعمل قد اغتفر . إلا أنه خرج منها بالاسم لاصقاً به ملغياً اسمه الحقيقي وحالاً محله .

ــ أهلاً وسهلاً .. أية خدمة .

بالطبع فلابد قد جاءوا ، مثلما كان يجيئه المئات في إنتظار أن يحقق لهم بمفرده ومركزه المعجزة . كان سهلاً تخمين المطلوب هذه المرة ، فلابد أن فهمي مريض ولابد أنهم يريدون إدخاله المستشفى .

وحاول أن يتحدث إليه ويسأله عن مرضه متنياً على نفسه في جلسته لا يرفع رأسه ولا يبدو عليه أن يسمع ما يقال . وتهته أبوه وعمه وهم يعتذرون عن صمته وكيف أنه دائم الحدوث ، بل أحياناً تمضي عليه أيام كثيرة دون أن ينطق فيها بحرف ، ولم يكن المرض في عقله أو نفسه وإنما كان في مثانته ، فهم منهم أنها لابد بلهارسيا أدت إلى سرطان في المثانة ، وأنهم لفوا وتعبوا على جميع (حكما) المركز ومستوصفاته ومستشفياته وحلاقي صحته والعرب الذين يكوون بالنــار ، و (يخرمون) بالمسلة حتى قالوا لهم في مستشفى المحافظة في النهاية أن لا فائدة من العملية وأنه بحاجة إلى علاج بالأشعة في مصر . وأدحنا جينالك يا بيه ربنا يخلي لك أولادك ويمتعك بالصحة .

ومن غير دعاء ، كان قد قرر أن يتكفل بالأمر . إن الدين الذي في عنقه للكتلة البشرية المنكفئة على نفسها أمامه ملفوفة بالملابس المهرأة ، كبير ، ولقد حان أوان رده وإيفائه .

كانت المشكلة أن يتخلص أولاً من « الجماعة » التي ترافقه ويستصحبه إلى بيته ليقضي فيه الليلة وفي الصباح واعتماداً على صديقه أستاذ الأشعة يدخله المستشفى . فقد كان عليه أن يدبر أمر ذهابه إلى البيت بطريقة لا تجرح ذكراه في نفسه من ناحية ولا يظن معها من ناحية أخرى بواب أو ساع أنه أخ له أو قريب ، وكان عليه أن يتغلب على معارضة (عفت) زوجته التي لابد سترفض إيواء شخص مثله ولو ليلة واحدة ولو لكي ينام في المطبخ أو في فراش السفرجي .

ولقد تم كل شيء كما قدر له الحديدي ، إلا معارضة الزوجة التي بقيت حتى بعد رضائها بوجوده في البيت وأمرها للسفرجي أن يتكفل به وبحراسته وإطعامه . وهكذا لكي يقلل من وقت وجودها بالشقة اقترح أن يذهبا إلى المسرح ، وحين عادا في منتصف الليل كان الهدوء المعتاد يخيم على البيت . وكل شيء فيه هادىء ، ونور المطبخ مطفأ ، وبعد نصف ساعة كانت عفت تستمتع بمراحل نومها الأولى وكان الحديدي مغمض العينين لاتزال بينه وبين النوم مشكلة مجلس الإدارة الذي أجلت حكاية فهمي من اجتماعه ومن المشهد العاصف الذي كان قد أعده لكي يسحب فيه البساط من تحت أقدام المدير العام ويجبره .. إما الظهور بمظهر الغبي الأحمق الجاهل وإما ، حفظاً لماء الوجه، الإستقالة .

حين جاءت الصرخة الأولى .

وأعقبتها الثانية والثالثة .

وتكهرب جو البيت تماماً ، أيكون قد تورط في خطأٍ أكبر دون أن يدري ، وظن أنه يأوي قطعة حديد خردة عزيزة لتأخذ طريقها في الصباح إلى الورشة فإذا بها قنبلة بدأت تنفجر وتوشك أن تهدم البيت !

وعلى عجل أسرع إلى المطبخ حافي القدمين ، كان مظلماً لا يزال ولكن رائحة خانقة حامضة قابضة نفاذة واجهته لدى فتح الباب . مد يده يضيء النور ولكن الشلل أصابها قبل أن تصل إلى المفتاح . فقد انطلقت من المطبخ الضيق آهة صارخة ثاقبة كعشرات من الأبر الحادة المسمومة أنطلقت في كل إتجاه . لا يمكن أن يكون هذا صراخ ألم أو للتعبير عن ألم ، ولا مجرد أصوات ، أنه شيء مادي ينخر في الجسد ويصيب السامع بالحمى ، فوق احتمال البشر .

أضاء النور وهو فعلاً خائف ، ولم يلمح فهمي في الحال فقد وجد الفراش الذي منحوه إياه ممزقاً مكوماً ، والمطبخ بكل ما فيه مبعثراً ومدلوقاً والمقشات منتزعاً قشها وريشها ومنثوراً ، وعدداً لا يحصى من بقع الدماء الصفراء تصبغ الأرض وباب الثلاجة والمناضد البيضاء والرائحة النتنة الخانقة لا تزال هناك لكأنه كان ميداناً لمعركة حامية الوطيس دارت بين إنسان أعزل وخصم جبار غير منظور ، لكأن الصرخات كانت صرخات رعب الإنسان من عدو خفي يسحقه بالضربات وهو عاجز محاصر متألم مهزوم لا حول له .

ونظر ثانية ألقاها على المطبخ بعيني الزوجة هذه المرة أدرك بعدها فاجعة لم يكن يتوقعها أبداً قد حلت . وبحث عن فهمي فوجده قد حشر نفسه بين منضدتين من مناضد المطبخ عارياً تماماً ليس عليه إلا

فانلة مهراة ، رأسه يتحرك في كل إتجاه ، عيونه الميتة المطفأة تقدح بشرر أبيض دائبة الحركة في محجرها تبحث عن منقذ ومخلص ، وبكيانه كله كان يتجه إلى أعلى في يأس كامل كمن يدرك تماماً أن لا نجاة . أنه ألم سرطان المثانية المروع حين يزحف مع الليل حين تبدأ قطرات البول تتجمع بحمضها عبر الورم الخبيث الذي نفذ إلى كل المسالك ، ومرور القطرة على الورم المتهتك المجروح ، يسحق بالألم الذي يصدره كائناً حياً في فخامة الفيل وبلادة إحساسه ويجعله يجثو ويحفر الأرض بأظلافه ويملأ الدنيا بهتاف مروع صارخ .. إنه الألم الذي يسمونه فوق احتمال البشر ، فهو لم يخلق لبشر ، ولم يخلق البشر وتزود أعصابهم بتلك القدرة الهائلة الدقيقة على الإحساس كي يسحقها ويكويها ألم كهذا الألم .

أخرج فهمي من مكانه ولا يزال رأسه وعيناه وكل كيانه في حالة تلفت مسعور وبحث عن مفر ، مشغول عنه وعن المكان والزمان والدنيا كلها بما هو حادث فيه وبداخله ، فيقف ويجثو ويتمدد على بطنه ويركع ويقوم هالعاً واقفاً ويفتح فمه إستعداداً للصرخة ، وحتى يكتمها ويحتملها يحشو فمه بذراعه أو بالمخدة أو المقشة ويغرز أسنانه فيها ويسيل الدم من الذراع ومن الفم ، ومع نقاط البول الكاوي .

وشعر بضغط خانق يكتم أنفاسه وبرغبة مجنونة أن ينطلق هادراً لاعناً نفسه وبلده وأناسها واليوم الأسود الذي كتب عليه فيه أن يولد منها ويصبح عليه أن يحيا عمره كله يحمل عن أناسها همهم وفقرهم وعجزهم ومرضهم وأخيراً آلامهم وبولهم ، ولكن ما الفائدة ومن يتلقى لعناته واحتجاجاته إنه لا يستطيع حتى أن يطلب من فهمي أن يكف عن

الصراخ أو يرغمه على البقاء في ركن بعينه من المطبخ إلا إذا كان باستطاعته أن يأمر الألم الذي في داخله أن يكف والشيطان الذي يمزق أحشاءه أن يهجع .

وسمع خطوات مترددة في الصالة ، ومخافة أن ترى الفاجعة الحادثة . أطفأ النور وأسرع عائداً إلى حجرة النوم ليجد عفت في منتصف المسافة .

ــ هيه .. عملت إيه ؟

ــ قلت له يسكت ..

ــ وإن ما سكتش ؟!

ــ حا يسكت ..

آي ياي ياي ياي ياي ياي

وأسرع خلفها إلى حجرة النوم التي فزت إليها مذعورة . وما كادت الصرخة تنتهي حتى وقفت تواجهه وتهيىء نفسها للعاصفة المقبلة الهوجاء . ولكنه أسرع ، واستطاع رغم دفعاتها وتملصها أن يحتويها بين ذراعيه ، ويقاوم إحساسه بالرغبة الملحة في الإنهيار ويعترف لها بصدق واضح وملموس أنه أخطأ وأنه ما كان يجب ، وأنه يطلب الصفح ، وأن يكون صفحها على هيئة مساعدته في تدبير الحل للموقف فهما في قلب الأزمة معاً ولا سبيل أمامها إلا الاحتمال . وما تنزلوش ينام تحت عند البواب ليه ؟ فضيحة والساعة إتين . أروح أنا عند ماما . دلوقتي ؟! أنا ما أقدرش استحمل . عشان خاطري . ما أقدرش .. أرجوكي ..

غلطة وباعتذر عنها وبأرجوكي انك تساعديني وتستحملي . استحمل إزاي يارب . استحمل إزاي .

* * *

آي آي آي بي بي يا يا ياي

ـــ آه يا مامي ما أقدرش على كده ما أقدرش

و و و و و و ه يييييييه

ـــ إيه ده . ده مش بني آدم ، دول عفاريت ، دول جن . ألحقيني يا ماما أنا ح أجنن .

وشيئاً فشيئاً بدأ الحديدي يحس أن إرتباطه بحجرة النوم وبالزوجة التي يحتضنها ويسكنها ، بالبيت والحاضر كله تضعف وبتوتراته تتراخى وبوجدانه يستحيل إلى بحيرة هائلة ملساء على استعداد لاستقبال أدق الرذاذ الصادر عن فهمي .

فرتك مرتك شرتك دي دي دي دان

الألم لابد قد إزداد بدرجة مخيفة ، خفف عنه يارب .

واج الواج الواج الواج الواج

وإلى جوار هذه القادمة من المطبخ ، جاءت أخرى رفيعة طفلية من الحجرة المجاورة ما كادت تسمعها عفت حتى ، بقوة عاتية خارقة خلصت نفسه من تكتيفته وجرت خارجة إلى الغرفة الأخرى . ولكن

الطفل ، طفلها الوحيد قابلها قادماً باكياً منادياً : يامامي . واحتضنته وحملته وبتنمر وتوهج قالت للزوج :

ــ اسمع .. أنت لازم تطرده حالاً دلوقتي يروح يشوف له مصيبة يبات فيها .. دا الولد قايم يرجف .. يا مصيبتي .

ــ يا عفت أرجوكي .. أنا شرحت لك الظروف ــ الراجل ده عندي مهم قوي وما أقدرش أطرده .

ــ مهم أكتر مني ومن فهمي ده .

ــ مش أكتر ، إنما مهم ، كفاية تعرفي أني مسمي فهمي ابننا ده على اسمه .. ده الوحيد اللي خرجت به من طفولتي .

ــ يا ح تطرده يا ح أسيب لك البيت وأنزل .

ــ إنتي عايزة مني إيه .. أركع لك .. قلت لك أرجوكي .. أنا ح أجيب له دكتور يديله مخدر دلوقتي ويسكته .

وأنشغل بكليته في عملية استدعاء طبيب الإسعاف وانتظاره ، ولم يدهش حين أخبره الطبيب أن المخدر في حالة كتلك ضعيف المفعول لا ينجح عادة في تسكين الآلم فآلام هذا النوع من السرطان أقوى من المخدرات وكل المسكنات التي اخترعها الإنسان .

وكانت الفائدة الأهم للطبيب أنه أعطى الزوجة حقنة من عقار منوم ، وبعد مدة قليلة نام فهمي الطفل في حضن أمه .

وأخيراً أصبح وحده مع الصرخات القادمة من الأعماق وكما قال الطبيب لم يكن المخدر قد أحدث تأثيرا يذكر . المشكلة الآن أن يعاد

الإتصال .. أن يعود إلى نفس الحالة الوجدانية التي كان عليها قبل أن يصحو الولد وتثور الزوجة . أنه لا يعرفها ويذكرها وهي قريبة دانية منها ولكنها ترف وتذهب ، يتذبذب بينها وبين حالته العادية ، يه يه يه يه يه فمندا مندا مندا هوندا بندا سارادات .

وأحس براحة باهتة وبالأصوات تصل إلى مكان سحيق داخلي فيه وتنعشه في رقة وعذوبة ، بالضبط هذا هو المكان . هنا يحس بها تتجمع .. آهاته التي لم يطلقها أي باي يانا يا بوي .

يا بوي موجوعة تاتي للحديدي بالضبط على الوجع . يابوي إنها ليست من لغة الحياة ولكنها من لغة الأعماق والآي . إنه يحس بها تعبر عن وجعه هو . منذ سنوات وسنوات وهو يريد أن يقف في ميدان التحرير ويستجمع شجاعته . وبكل قوة وبالحر ما يستطيع يطلقها ، عالية موجوعة صادرة رأساً من الوجع مثلما يفعل فهمي الآن ، ولكنه في اللحظة الأخيرة يعدل ويضعف ويخاف أن يفر منه الناس ويتهموه بالجنون فيخمدها ويكبتها ويردها إلى حيث ترقد الكثيرات من زميلاتها المكبوتات المحبوسات .

آي آي آي فركش أن منكش أي بعقش أي ..

الآن فقط يحس بها كلها ، بآلامه ، ويحس بها أبشع حتى من آلام فهمي وأوجاعه .. كل الفرق أنه ليس له الحق في التوجع مثله ، لن يصدقه أحد إذا صرخ وترك أعماقه تعبر عن نفسها المكتومة الوارمة المضغوطة ، ألم بلا آهات . أضعاف أضعاف الآلم .

الآن وهو وحيد مع نفسه وموجوع مثله وأعماقه مفتحة الأبواب أمامه يستطيع أن يسأل نفسه : ماذا يؤلمه ؟ إنه فوق القمة ، كل الخط العريض الذي رسمه لحياته تحقق ، زوج ورب أسرة وسعيد محوط بالرعاية والحب والإحترام انى يكون فمن أين تجيئه الآلام التي لا تطاق حتى أنه ليحسد فهمي على حالته .

ترى ماذا كان يفعل ويشعر لو حدث له ما حدث لفهمي وبدلاً من التعليم المتواصل الذي هيأه له أبوه الصراف الذي كانوا يتندرون عليه ويسألونك وأنت ذاهب لتدفع المال : مال الحكومة واللامال الصراف ، بدلاً من هذا أخرجه أبوه من المدرسة واشتغل فلاحاً كان هذا مصيره . أي إنسان في مكانه لابد أن كان يقبل يده ظاهراً وباطناً ، أين هو وأين فهمي ؟ هو الذي لابد تختاره إذا طلب إليك أن تختار مائة يمثلون الصفوة في هذا البلد . المتمتع بكامل صحته وحياته ، لا حق من حقوقه مهضوم ولا شعرة ظلم تمسه أو تمس مركزه ، أين هو من إنسان كفهمي تكفل الفقر بالقضاء على عقله وأحاله إلى واحد آخر من ملايين الفلاحين السذج ، وتكفلت البلهارسيا بالقضاء على جسده .. فالمفروض أنه الآن ميت وعمره مسألة أيام وحياته كانت أبأس حياة وشقاؤه كان من نوع يضرب به المثل .. لو كان قد حدث له هذا .. تراه ماذا كان يقول عن « ألمه » المزعوم وأوجاعه ؟

قال الحديدي لنفسه بلا تردد : كنت أكون أسعد .

كيف ؟ المسألة ليست فقراً وغنى أو تعليماً وجهلاً ، السؤال هو : هل أنت حي أم ميت ؟ فهمي رغم كل شيء حي وعاش . أما أنا فلم

أحى ، والحياة أي حياة ، أروع ملايين المرات من الموت ، أي موت حتى لو كان الميت مكفناً في ملابس أنيقة محتلاً أرقى المناصب سعيداً في حياته الزوجية .
ولكنك حي ، أنا ميت ، إنه ليس تلاعباً بالألفاظ . إنها حقيقة . المقياس الوحيد للحياة أن تشعر بها ، وأنا لم أشعر ولا أشعر بها ، إنني أقضي حياتي كعملية حسابية دقيقة هدفها الوصول .. وحين أصل لا أسعد لأن أمامي يكون ثمة وصول آخر .

إن فهمي قد عانى من الفقر ، والبؤس ، ولكنه كان يعمل مع الرجال ويضحكون سوياً ، ويتشاورون في مشاكل العمل ويستمتعون بمشوارهم إلى السوق يفرحون لعود الفجل إذا أضيف إلى الآكلة ولا أحد منهم يأكل بمفرده إذ الطعام ليس أن تجوع وتملأ بطنك . الآكل عندهم أن يحل موعد الطعام ويلتفون حوله في ترحيب . ويتعازمون ويهزرون ويحسون أنهم يقومون باحتفال إنساني صغير ، أنهم يفعلون هذا دون إدراك لكنهه ولكنهم به ، بهذه الأشياء الصغيرة المتناثرة في طريق حياتهم يمتلىء كل منهم بإحساس يومي متجدد ، إنه حي وأن الحياة مهما صعبت حلوة .

أنا قضيت حياتي أجري وألهث ، لكي أصل إلى القمة كما تسمى .. كان على أن أظل أصعد ولهذا كنت أصادق أو تضمني المجموعة ، لا لكي أستمتع بصداقتي ورفاقيتي لها وإنما على أساس سرعتها وعلى اعتبار أنها أسرع من المجموعة التي هجرتها وأظل سائراً معهم ما داموا يسيرون بنفس السرعة التي أريدها ، حتى إذا أحسست انني بحاجة إلى سرعة

أكبر هجرتهم إلى مجموعة أخرى ، أو سرت بمفردي كي لا يعوقني معوق . وما توقفت مرة كي أواسي مختلفاً أو أخذ بيد أعرج معتبراً أن ليس الذنب ذنبي أنه تخلف أو أنه خلق أعرج . ولقد ظللت أسرع وأسرع لكي أبدأ الحياة حين أصل ولكن لم يكن للوصول نهاية ، بعد التخرج قلت العمل ، بعد العمل . الدكتوراه ، بعدها الأستاذية ، وحين أحسست أنها تستلزم الإنتظار هجرتها إلى الشركات ، قلت .. بعد الزواج وحين تزوجت قلت .. نبدأ الحياة مع الأولاد وحين خلفت قلت الأوفق حين يكبرون ، وهائذا لا أزال أجري مسرعاً وقد أصبح هدفي ليس الوصول إلى أي شيء وإنما الإسراع في حد ذاته ، تماماً مثل الذي يبدأ حياته بتوفير النقود كي يحسن مركزه المالي ويبدأ يحيا بعد الألف الأولى ، وحين يصل إلى الأولى يصبح هدفه الثانية فالثالثة ، إلى أن ينسى الهدف تماماً ويتحول إلى بخيل مقتر هدفه جمع المال ليس إلا .

ياني ياني ياني يا بوي .

أحس بتوجع فهمي يريحه راحة بدأت تصبح عظمي ، وكأن فهمي يتوجع لكيهما أو أكثر من هذا ، كأنه هو الذي أتيح له أخيراً أن يتوجع كما يريد وبكل قدرة استطاعته ، إنه الألم المتراكم عبر السنين .. ألم الحزن الدفين والإكتئاب . إن الإنسان جهز بتركيبه وأحساسيسه لحياة خاصة تسمى الحياة الجديرة بالإنسان ، وهو لا يستطيع أن يخرج عليها ويحياه حياة من صنعه هو ومن ابتكاره إلا وهو يتألم وآلامه تتضاعف ، ولقد قسا العمر كله على طبيعته وكتم نداءات الأعماق المطالبة بمتع الحياة

الصغيرة الكثيرة العادية التي تعطيها طعم الحياة . قسا عليها ليجبرها أن تحيا بمفردها .

أبو .. أموا .. أبوا .. أموا .. أبو .. واه ..

بالضبط يا فهمي ، الوحدة للوصول ، الوحدة للسرعة ، الألم البشع لفراق الناس والبعد عنهم .. الوحدة القاتلة التي تربى الخوف من الآخرين وتدمر الثقة بالنفس ، الوحدة لكي تكون حراً أكثر ومنطلقاً أكثر وحياً أكثر التقوقع فإذا بها تؤدي إلى التوقع والرعب من الآخرين وتحديد الحركة وإحاطتها بعشرات القيود ، همه يحمله وحده ، ومرضه ينفرد به ، وضيقه هو المسئول الوحيد عنه ، الألم ، أضعاف أضعاف الألم الذي يسحق فهيم ويدمره وهو مرغم على كتمانه يخاف خوف الموت أن يطلع عليه أحد فإن تألم الرجل أو حاجته للفضفضة إلى الآخرين ضعف وعورة .

دي دي دي دي دي دي ..

ياللمضحك .. إنه يحس أنه ربما لأول مرة يذكرها في حياته .. سعيد ، سعيد إلى درجة لا يصدقها العقل ولا يصدقها هو نفسه ، إنه حقيقة متأثر لأوجاع فهمي ولكن فرحته هو لهذه اللحظة التي يحياها ، أجل ربما أول لحظة يحياها ، لا توصف . ومن الصعب أن يدرك الأسباب ولكن لابد أن أهمها أنه أخيراً إستطاع بوسيلة معقدة مركبة تعتمد على أعماق تخاطب أعماقاً خلال لغة غير مفهومة ، أخيراً استطاع أن يتصل ، وأن يشارك ، وأن يزاول عملاً من أعمال الاحياء ، يزاوله

بمتعة وسعادة ، سعادة تدخله في حالة وجدانية لها صفاء لحظة الكشف لدى المتصوفين وعمق لحظة الخلق لدى العباقرة ، لحظة ها هو يحس فيها أنه قادر على الإتصال بكل إنسان وبكل شيء ، بل قادراً على الإتصال بنفسه وبالتحديق ملياً في أعماقه دون أن يرده الرعب المقيم مما قد يراه .

وكلما إندمج في حالته الوجدانية تلك ، أحس بنفسه تتفتح أكثر وتعمق ، وتتقوى صلته بفهمي حتى لكأنه يقرأ ما يجأر به في كتاب مفتوح ، وأحس أيضاً انه ينجذب إلى مكانه ليصبح أقرب ، إنجذاباً مريحاً ممتعاً إلى درجة لم يدرك معها أنه كان قد غادر الفراش ومضى يعبر الصالة في عدد كبير من محطات الممشى الضيقة . كل خطوة بمحطة ، سمع ، كالصوت البعيد يأتي للنائم نافذة جار تفتح ويعقبها صوت زعيق ولابد

انه كلمات سباب ، سمعها وكأنها لا تمت إليه ولا تهمه ، إنه يرى حياته الآن بكل كبيرة وصغيرة حدثت فيها ولها مجسدة مجموعة أمامه ، بحيث بنظرة واحدة يستطيع أن يرى نفسه تقريباً من يوم ميلاده إلى يومه هذا ..

الغريب أنه ينظر إليها وكأنها حياة غريبة عنه ، لا تربطه بها أو بصاحبها أدني علاقة ، لا تربطه ذكرى بأي جزء فيها أو موقعة وأغلب الظن أنه لا يذكرها ، أنه لا يكره شيئاً في الدنيا قدر كراهيته لحياته تلك أنه يمقتها ، ولولا النداء القوي الصادر له من فهمي لحملها في التو وقضى عليها وعلى نفسه ، ولكن النداء أقوى ، أنه يتسرب إلى كيانه

كله ويهز هيكل الحياة فيه ليوقظ حبه الغريزي لها ، ومن الظلام الكثير الرابض يملأ الصورة ، تبدأ تتسرب موجات كاشفة مضيئة ، يجسر معها على التحديق والرؤية ليتابع نفسه وهو يجري ويجري ، وحده ، الناس تحيا وهو يجري ، والشاشة مليئة بالصلات المقطوعة بالصداقات المبتورة ، بأجزاء العلاقات ، بقيم على الطريق مهدرة بإنسان لا يريد أن يرتبط بأحد حتى لا يعطله الإرتباط ولا أن ينتمي لجماعة أو حتى لصديق لأن في الإنتماء فقداناً لذاته الحرة وكيانه ، والنتيجة جري سريع إلى قمة الوصول هو في الحقيقة هرب سريع من الحياة ، فالحياة هي الأحياء وأن تنفصل عن الأحياء معناه إنفصال عن منبع الحياة الأصيل . وفقدان طعمها ونوعيتها والتحول إلى الموت .

الخطأ الفادح الذي يدركه الآن ، وعلى الضوء الباهر الصادر من أعماق فهمي إلى أعماقه يراه ، أن الوصول لا قيمة له بالمرة إذا وصلت وحدك ، أية قيمة أن تصبح ملكاً متوجاً أو عالماً حاصلاً على جائزة نوبل ، وأنت محاط بصحراء جرداء ، أية قيمة لأي شيء في الدنيا ، للمتعة نفسها أن تحس بها وحدك ؟

وصحيح أنه ليس وحده فهناك زوجته وابنه وأقرباؤه ، وأخوته ، وبعض الأصدقاء ، ولكنها ديكورات علاقات ليس إلا .. إن حب الناس للناس وإرتباط الناس بالناس لا ينشأ للزينة وإنما ينشأ لحاجة الناس للناس ، الحاجة الماسة الملحة كحاجتك إلى الماء والهواء والتي بدونها لا تستطيع أن تعيش ، وهو له أخوة وزوجة وأناس ولكنهم لا يمثلون مطلباً حيوياً بالنسبة إليه ، إن في إستطاعته ، إذا أراد أن يحيا كما تعود بدونهم ،

قد يكونون هم في حاجة إليه .. ولكنه هو ليس في حاجة لأحد ، أو بالأصح هو في حاجة حيوية ماسة ، ولكنه يحس ويوهم نفسه مثلما أوهمها طول عمره أنه ليس بحاجة إليهم .. ومن هنا ينشأ ألمه البشع .. من هنا بدأ ، ويستشري السرطان الذي يقتل الضحكة على فمه لأنه يحس أنه ليس بحاجة إلى الضحك ، ويجمد العواطف في صدره لأنه يحس ليس بحاجة إلى أن يعطي الحب أو يستقبله ، من هنا تبدأ المأساة التي أحالته إلى ميت حي .

• • •

وجاءته صرخات فهمي ، قريبه هذه المرة ، إذ كان قد وصل إلى المطبخ ، وجلس بجواره ، جاءته بعد سكوت خيل إليه أنه طويل ، وكان مجرد إحساس فهمي بوجوده بجواره خفف عنه الألم .. جاءته الصرخات ، أقرب ما تكون إلى البكاء ، وأحس بنفسه وكأن بركاناً باكياً يوشك أن ينفجر ، انه لم يبك في حياته منذ أن كان طفلاً وها هو يحس أنه يود لو ظل يبكي إلى أن توافيه المنية ، إشفاقاً على نفسه وهو أول من أدرك أنها أكثر أهل الأرض جميعاً حاجة إلى الشفقة ...

هات يدك يا فهمي ، ضعها هنا على صدري ، إنه خاو كما ترى . أنا أعرف أنك مريض ، وأحس بك وأريد أن أقاسمك الألم ، ولكن لا أستطيع فقلبي من خشب ، تركتكم جميعاً ، أنت في زينين ، وسعد في بنها وعبد المحسن في أسيوط ، وشلة الجامعة ، وجمعية الكتاب ، وكل الناس ، وظنن أنكم تسيرون في الطريق العادي ، طريق الندامة .. وأن

الطريق الأسرع ، طريق السلامة ، هو الطريق .. والنتيجة أني مت من زمن ، وظللتم أنتم أحياء ، أنا جثة أقنع نفسي أنني أنا الذي أزور عن الناس ، في حين أنهم هم الذين ينزورون عني ، وما حاجتهم إلى جثة ، حتى زوجتي وابني أحس أنهما لا يطيقان رائحتي .. أنا أريد العودة يا فهمي ، أريد البداية من جديد ، أطلب فرصة أخرى فمن يقبلني يا فهمي ؟ من يقبل جثة ، من يرضى بي ، إني لا أجد في هذه اللحظة سواك يا فهمي ، هل تقبلني .. هل تقبلني يا فهمي !!

ــ ما تعيطش يا محمود ..

ولم يصبه الذهول مع أن القائل كان فهمي ، وكان أول كلمات ينطقها ، ولم يعجب أيضاً لأنه ناداه بمحمود ، وكأنما ذكره الاسم بالتختة المشتركة وبأيام زمان ، كل ما أحس به أن رجاءه قد تحقق ، وأنه يقول :

ــ أشكرك يا فهمي .. أشكرك ..

وانبطح الحديدي ببجامته على بلاط المطبخ ، وتناول يد فهمي يقبلها ، ويمسح بها دموعه السائلة التي لا تتوقف وهو يردد سامحني يا فهمي .. سامحوني يا ناس .. أنا غلطت وتعبت والألم فاض بي ... سامحني يا فهمي .

ولكن فهمي كان قد عاد ، بآخر وأقوى ما عنده ، يصرخ وآلامه قد اشتدت بغتة .. وكانت نوافذ البيت جميعها قد فتحت من زمن وسكانها يصيحون رغم أنوفه للآهات المستغيثة .. ويستجيرون من

الصوت الذي لا يرحم أبوابهم ونوافذهم مهما أغلقوا وأحكموا الإغلاق ، الصوت الذي أيقظ العمارة ببوابيها وبهوانها وسادتها وداداتها ، وبدأ يصل إلى العمارات المجاورة ويوقظ سكانها ، ولو استمرت الصرخات لربما كانت قد أيقظت الحي الراقي بأكمله ، ومن يدري ربما المدينة كلها كانت قد صحت ... ولكنهم كانوا قد طلبوا بوليس النجدة .. وحضر وفتحت له الزوجة نصف نائمة ، غير أنها أستيقظت تماماً حين قادتهم إلى المطبخ ، ووجدت الحديدي راكعاً على الأرض يقبل يد فهمي ويستغفره ..

ورفعوا فهمي ، وألبسوه ، وحاول جنديان حمله فيما بينهما ولكن الحديدي نهرهما ، وتقدم هو من فهمي وحمله على كتفه والمرض قد إلتهم لحمه ولم تبق له سوى العظام ، وتشبثت عفت بزوجها سائلة إياه عما يفعله بنفسه ، إلى أين ذاهب ؟ وابتسم لها ، وأضاء وجهه كما تتعود بالإبتسامة وقال : رايح في طريق تاني صعب شديد ... تيجي معايا ؟!

ــ أنا مارحش وياك بالشكل ده .. أنت اجننت ؟

وأحاطت فهمي الصغير بيديها بينما استدار الحديدي بحمله الصارخ المولول ، ومضى يتقدم الموكب ، ونظرات السكان وأهل الحي تتبعه وتحيط به تهمس وتسري بينها الهمسات الضاحكة .. لقد عاش في الحي سنتين مرعوباً أن يكتشف أحد أصله وفصله ، وتبدو للأعين النائمة شعرة واحدة تكشف عن الجذور والسيقان التي يمت إليها .. ولا ريب أن كثيرين من سكان الحي كانوا يفعلون مثله ، فها هو يرى النوافذ والمدخل حافلة بكثير من الجثث .. وهو الآن يستعجل اللحظات التي يغادر فيها الحي .. وقد أصبحت الرائحة لا تطاق .

اللعبة

دخل القادم الجديد مذهولاً ، كان المكان وكأنما تحس أنك سقطت إليه من عل أو وصلته عن طريق سرداب طويل مزعج ، ولكنه كان فاخراً بالغ الفخامة ، اللون الغالب فيه هو الأسود ، سواد .. كسواد الكاديلاك .. يوحي بالإناقة والعراقة ، وكان النور غير ثابت المصدر ، ومضطرب الإتجاه .. وتحس وكأنما توجهه يد خفية إلى الناحية أو الناس الذين ينظر إليهم فقط ، كان غموض مرح يسيطر على جو الحفل ، والحضور تدرك بطريقة ما أنهم كثيرون ولكن عدد من يقع بصرك عليهم قليلون تستطيع التفرس فيهم بسهولة .. ودخان السجائر والسيجارة يلون الجوع ببقع سماوية متحركة ويتشابك مع إشعاعات النور غير المرئي صانعاً سحباً كسحب الصيف ، بيضاء والحفل صاخب إلى حد ما ، ولكنه صخب وقور .. كأنه إحتفال بخطبة شاب من أعرق عائلات الصعيد .. أو بتكريم خاص لوزير مهم ، وعلى الوجوه نوع من الإستمتاع القلق الذي ينتاب هذا النوع من صفوة الناس كلما إتيحت لهم متعة ، مخافة أن يضيعوا فيها وقتاً من أوقات الكسب ، وخدم ، وكأنهم استحضروا خصيصاً للمناسبة بأكثر من زي ، لكونهم درجات ، والسيدات في فساتين السهرة .. ولكنها ليست جديدة تماماً

كأنما لم تستعمل من أعوام ، واستخرجت للمناسبة من الدواليب ، غالية ، تبدو عليها آثار العز ، بعضها مطرز بلآلىء وإن كانت صغيرة .. لكنها حقيقية .. والوجوه ، وجوه الرجال ، مكتنزة قليلاً ولكنها شاحبة ، كالمجهدة . والسيدات عيونهن .. رغم تعدد ألوانها تبدو كلها سوداء كلها سوداء عميقة الغور وكأن صاحباتها يعانين من جوع جنسي لا يدركنه ، والمقاعد قليلة متناثرة ، أقل بكثير من عدد الحاضرين ، ولكنها راسخة في أماكنها وكأنما مضت عليها أحقاب .. وقماشها من القطيفة الحمراء الغامقة التي تبدو حمرتها مع سواد البدل ورماديتها مع الفساتين الفاتحة ... والسقف الأخضر بإنعكاسات الضوء ، وسحابات الدخان المتعددة الدرجات ، والعبير الصادر عن (برفانات) حديثة وإن كانت تعطي رائحة كرائحة عطر الجدات العربي القديم ، والضجة المكتومة الصادرة عن لا مصدر والتي تتيح لكل إنسان أن يتحدث مع أي إنسان دون أن يثير الإنتباه أو يتسرب من حديثهما الكلام ، كل هذا جعل القادم الجديد يحملق ويتردد ويضطرب كثيراً قبل أن يستطيع أن يتبين أن يكون موقفه . كان واضحاً أنه لا يمت إلى المكان أو الحاضرين ، وكأنما دخله بطريق الخطأ ، ولكن من ملامحه وتصميمه كان يبدو أن له الحق في الحضور ، وأنه يملك ، ربما في جيبه هذا الحق .. وأنه على استعداد لأن يظهره ويتحدى به كل من يجرؤ على سؤاله أو التصدي له . ولم يكن أحد قد لاحظ دخوله ، أو اكترث مما أتحاح له أن يتدبر موقفه وأن يتأمل الجميع أو بدقة أكثر من استطاعت عيناه أن تقع عليها من الجميع ، تأملا كان يدفعه إلى مزيد من القلق .. وشيئاً فشيئاً يخلخل ثقته بنفسه ، أين يقف ؟ تلك كانت مشكلة ، وهل يؤثر

الوحدة أم لابد له أن يشتبك مع الآخرين في حديث ؟ مشكلة ثانية .. ومع من يتحدث إذا أراد ؟ وفي أي موضوع ؟ وبأي حق ؟ مشكلة ثالثة ورابعة وخامسة ..

أم تراه قد أخطأ المكان وتكون الكارثة ؟ ..

ودهش فعلاً حين وجد ، دونا عن الحاضرين ، شخصاً يقترب منه .. كان جلياً أنه ليس من الخدم فلم يكن يرتدي مثلهم ، ولا من الحضور .. فهم منصرفون إلى أنفسهم متكبرون .. لا يمكن أن يفكر أي منهم في مبادأته بالحديث ، ولامر ما كان في مشية الرجل وطريقة اقترابه وابتسامته المتشح بها ما يذكر بالأدلاء الذي يتهافتون حول الفنادق لإرشاد السياح .. حتى سترته التي يرتديها بدت أكمامها ومقدمتها كأنما أكمام ومقدمة جلاليب الأدلاء البلدية .. وما أن اقترب من القادم بدرجة كافية حتى اكتشف أنه يحمل أمامه وكأنما بحزام صندوقاً كالصناديق التي يحملها باعة السجائر ولكنه أصغر كثيراً ولم يكن بحزام ، وأنيق جداً ، جدرانه وأركانه مطعمة ومشغولة بأسلاك معدينة ثمينة .. وحين وصله وسع ابتسامته بطريقة بدت وقحة الأدب وقال بصوت فيه بعض التحدي وبعض الإغراء :

ــ تضرب يا بيه ؟

واضطرب القادم بإنفعال مفاجيء . كان قد بدأ يدرك أن الرجل يحمل لعبة من نوع ما ، وأنه ليس الوحيد فهناك أكثر من واحد غيره يطوف بأرجاء المكان ، بل هناك أكثر من لعبة يزاولها بعض الحاضرين في أطراف المكان الذي بدأ يصبح أكثر إتساعاً ، وكأنه ناد ، وكأن

الإحتفال مهرجان ما ، أو (تمبولا) والرجل لا يزال واقفاً أمامه يبتسم .. نفس الإبتسامة المؤدبة الوقاحة ، ويعرض عليه مرة أخرى بإغراء أكثر : تضرب يا بيه ؟

وحتى دون أن يسأل أظهر له يده اليمنى فإذا فيها مسدس من نوع غريب أسود لامع السواد بطريقة ملفتة للنظر ومحيرة ، جديد وكأنه لم يستعمل قط ، وحتى دون أن يشير أدرك القادم أن الصندوق الأنيق مليء بطلقات مرصوصة بنظام رائع ومقلوبة بحيث أن قواعدها إلى أعلى .. أما الشيء غير العادي فهو أنه في الصف الأخير الأيسر توجد رصاصة ليست مثل غيرها من الطلقات .. فقاعدتها ليست برونزية اللون وربما المادة كالأخريات .. ولكنها وكأنها مصنوعة من فضة مشعة أو برد من معدن ثمين بريقه يخطف البصر ، بحيث إذا نظرت إلى الرصاصات المقلوبة في الصندوق لا تستوقف هذه الطلقة بالذات إنتباهك فقط ، ولكنها تستولي عليك تماماً وتكاد تعجز أن تحول البصر عنها ، تضرب يا بيه ؟ مرة ثالثة قالها الرجل ، وبالضبط لم يستطع القادم أن يحدد إن كان حقيقة قد قالها في المرتين الآخيرتين أم أنه نفس النداء المغري يتردد صداه في عقله لثاني ولثالث مرة . بالكاد استطاع أن يسترد بصره المثبت على قاعدة الطلقة النادرة ليعود يعي بالرجل واللعبة . وحتى دون شرح فهم أن عليه أن يتناول من الصندوق طلقة ويضعها في المسدس ، ثم يذهب إلى مكان في الركن مخصص للإطلاق حيث يوجد هناك حاجز تماماً كما يوجد في لعبة التنشين بمدينة الملاهي ، كل الفرق أنه لا توجد عدة أهداف ، إنما هدف واحد ، لم يستطع من موقفه أن يتبينه فإذا أسقطه يفوز بالجائزة ، وأيضاً لم يكن يدري ما هي الجائزة ولكنه كان

متأكدا أنها أعظم جائزة نالها أو ممكن أن ينالها في حياته ، وبدأ كل شيء يسيراً ، والجائزة ، أعظم جائزة قاب قوسين أو أدنى .. وما عليه فقط إلا أن يستعمل هذه الطلقة المشعة المتلألئة ، حركة من يد الرجل أوقفته ، يده اليسرى الخالية من المسدس . أشار له بها مطالباً بثمن الاشتراك في اللعبة موضحاً بأصابعه القيمة ، وأخرج القادم من جيب بنطلونه جنيهين حسبما حدد ، وضعهما في يده .

وكان مفروضاً حينئذ أن يعطيه المسدس ويتناول الطلقة الفريدة ويعمر ، ويذهب إلى الركن ، ولكن شيئاً من هذا لم يحدث . فجأة بدأ كل شيء بعيد الوقوع ، المسدس في يد الرجل وفي متناول يده . والطلقة في مكانها من الصندوق تزغلل عينيه ، ولكن هناك مماطلة ومراوغة ، وربما من أجل ألا يستعمل هذه الطلقة بذاتها ، وربما للتسويف في التنفيذ .. ربما لأن هناك أشياء كثيرة لابد أن تستوفي والوقت يمتد دون أي داع للإمتداد ، والموقف لا يتحرك أو يتحرك منزلقاً متراجعاً .. وابتسامة الرجل تصبح أكثر وقاحة وأقل أدباً ، وقلة اكتراث الحاضرين وانصرافهم إلى أنفسهم تزداد بشكل يجعل من موقفهم ذاك عاملاً إيجابياً يتدخل ويساعد الرجل في مماطلته ، ويحول بينه وبين أن ينال حقه وقد دفع قيمة الاشتراك ، وغيظا فغيظاً بدأ يحس إحساساً يتعمق ويدك كالمسمار المدبب الطويل في نفسه ، أنه ضحية خداع لا يستطيع وضع يده عليه أو ضبطه ، وأنه مسلوب الحق ، وأن أحداً ، وبالذات هذا الرجل الواقف أمامه بدأ يتراجع منصرفاً ويحاول الإندساس بين الحضور ، يريد سلبه حقه والضحك عليه .. وكل من في المكان

وما في المكان يساعده . فالحضور بدأوا يتكاثرون ، والخدم اشتدت حركتهم ، والضجة علت قليلاً .. وثمة مؤامرة خفية تدور بين الجميع .. مؤامرة صامتة غامضة تلتف خيوطها خفية تحت ستار الضجة المكتومة وبين ثنايا السحب المدخنة المضيئة ، وحتى من بين أنسجة البدل الغامقة والفساتين الفاتحة والقطيفة الحمراء . وصرخ في الرجل مهدداً . وتوقع أن ينتاب الجميع نوبة ذهول لصراخه ، ولكن وكأنه لم يصدر صوتاً ما انتبه أحد .. وزعق مرة أخرى ولم يسمع سوى ما كان يسمعه من ضجة الحفل الصاخب المكتوم .. وأصبح الغيظ يخنقه وصغرت الدنيا في عينه وهانت ولم تعد قوة في الكون تستطيع أن تحول بينه وبين أن يأخذ ويضرب الطلقة ، تلك الطلقة بالذات ، وبيده اليمنى ودون وعي انقض على الرجل وأمسكه من مقدمة سترته ولم يأبه الرجل ولا الحاضرون لهذا العمل . وكان يخيل إليه أنه عمل يعد جريمة لا تغتفر في نظر المجتمع المحيط به ، وبيده ممسكة الرجل من تلابيبه حدق في وجهه ، كانت نفس الإبتسامة وقد أصبحت الوقاحة فيها هي الغالبة ، تطل من وجهه الأسمر المستطيل ، ويستطيل لها شاربه الأسود ، وتجعل أسنانة البيضاء الحادة تطل من فمه المنفرج .. وفي الحال ، وبيده الأخرى صفعه على وجهه صفعة قوية أعجب شيء أنه لم يصدر عنها صوت وكأنما هي صفعة معنوية وليست مادية حقيقية ضربها بنفسه وهوى بها بجماع يده على الصدغ المستطيل الأسمر . وانقلب الغيظ إلى غضب ، ولكنه غضب لم يصبه بالعمى ، كان يرى ، لم يفقد أبداً قدرته على الرؤية وأدرك أن الصفع لم يعد يجدي وأن الوقاحة المطلة من ابتسامة الرجل في حاجة إلى نوع من الضرب أكثر إهانة ، وبكل ما يملك من

قوة وبساقه اليمنى ركله في بطنه ، وكان متأكداً أنه هذه المرة سينفطر ألما ، فقد كان الضرب من القوة بحيث لو أصابت الحائط الجماد لتألم ، إذ هو نفسه ، الضارب ، قد شعر وكأن قدمه قد سحقت ودشدشت . وكان أمله أن ينظر إلى الرجل بعدها فيجده يتألم ، يكفيه .. حتى استرداداً لكل حقه أن يراه ولو لومضة خاطفة يتألم .. ولكن وجه .. وجه الرجل .. حين رآه كان لا يزال يبتسم . كل ما في الأمر أن الأدب ذهب تماماً من ابتسامته ولم تعد هناك سوى الوقاحة ، وقاحة مستهزئة مستصغرة وكأنه ينظر إلى طفل .. وكاد يجن ، فهو مدرك أن الرجل حي من دم ولحم وأعصاب وأنه حتماً قد تألم ، فكيف استطاع أن يكبت هذا الألم كله وألا يبدو على وجهه خلجة واحدة أو لمحة إهتزاز تدل على معاناة ، أو تدل على تغيير ولو طفيف في تعبيره المبتسم الوقح ، وإنهال عليه ضرباً .. وقد انقلب الغضب إلى حنق مجنون لم يعد يرى معه كيف ولا أين يضرب . ولكنه كان على يقين تام أنه بجماع قوته وإرادته يضرب وباستماتة يفعل ، وأنه يضرب هذا الرجل بالذات ولا يريد ولا يمكن أن يتوقف عن ضربه حتى لو أراد ، فمن هناك من أغوار سحيقة جداً في كيانه كانت تتدفق حمم من الحق المغلي الملتهب وتنفجر معبرة عن نفسها المخيفة من خلال أيديه وأرجله وأسنانه .. فبأسنانه كان يعض وكأنه انقلب إلى وحش ، وبكعب حذائه يدك وبقبضتيه يضمهما معا ويرفعهما عالياً ويهوي بهما دفعة واحدة كالمعول الهائل محطماً ومدمراً ، وكلما أحس بالوهن يزحف إلى إرادة الضرب فيه كان يكفي أن يتذكر أنه خدع وضحك عليه ومنع

منعاً من مزاولة حقه لتعود إليه كل قواه وبكل قواه يعود يحقد ويضرب ويضرب .

وحين تعب تماماً و لم يعد يقوى على مجرد رفع اليد أو تحريك القدم ، حين أحس أنه كله قد تداعى وتهدم ، وكأنه المضروب ، وأنه بالكاد يلتقط النفس ، أنه يلهث ، بل لم يعد يقوي على أن يلهث .. بحيث بإرادته لم يعد يتنفس وإنما صدره بآخر قوي الحياة فيه ، ومن تلقاء نفسه وبغريزة المحافظة على الذات كصدر فقط يشهق كف ، وسكت ، سكن سكوناً تماماً وكأنه في طريقه لاستقبال الموت . وأول بوادر قدرة على الحركة إرتدت إليه فتح بها عينه . والمذهل أن الرجل كان لا يزال هناك واقفاً في تراخ وهدوء أمامه والصندوق يحمله والمسدس نصف مختف في يده ، والطلقة ذات القاعدة النادرة المعدن الخاطفة للبصر لا تزال في مكانها من صفوف الطلقات ، وابتسامته هذه المرة وقد عاد الأدب يختلط بالوقاحة فيها تحتل مكانها من وجهه ، وأيضاً لا يزال موقف الدليل العارض لخدماته ، وصاحب اللعبة الذي يروج لها ويغري الآخرين باللعب ، ولم يعد أمام القادم وقد استنفد كل وسائل القوة إلا أن يلجأ إلى التأنيب واللوم وأودع نظره كل ما يريد وإذا بالرجل يجيب وكأنه يقول : « أنا مش قلت لك عايز يا بيه تضرب ؟ » ..

وأجال القادم رأسه بضعف في الحاضرين ، وكأنما أدرك متأخراً جداً أنهم جزء من اللعبة بينما الرجل يقول : وآدي أنت ضربتني ، أجل حقيقة كان يريد أن يضرب ، ولكنه كان يريد أن يضرب الطلقة لا أن يضرب الرجل .

ــ ما هي دي اللعبة ..

قالها الرجل وقد إزداد الوقح في ابتسامته ..

أيضحك ؟

لأن القيامة لا تقوم

إنه يريد مرة أخرى أن يسمع ، ويرهف السمع ، فما يدور مهم ، أهم شيء في حياته يدور ، وراديو الجيران .. الحائط في الحائط ، صوته عال كأنه يؤذن ، ومن بعيد يأتي صراخ الأطفال الذين لا يزالون يقظى . الدبة وقعت في البير وصاحبها راجل خنزير . هل وقعت حقيقة ؟ وهل هي مستكنة الآن في البئر ؟ وهل صاحبها خنزير سمين ملظلظ كأبي السباع إسماعيل ؟ أنه يريد أن يسمع ويرهف السمع ، فهي ، أمامه ترقد الآن فوقه تماماً ، أو لابد كذلك ، فالمرتبة تنبعج من بين الواح (المُلة) الخشبية ، ولكن إبعاجها شديد ، وأمه خفيفة .. فلماذا الإنبعاج الشديد .. كان هذا زمان ، حين لم يكن يسمع سوى الهمس ، العشاء .. وابتسامتها السعيدة تغرقهم والطبطبة الحنون ، ثم صوتها المتثائب قوموا يا أولاد ناموا .. الدنيا اتأخرت ، وكالدجاج المطيع ، تدخلهم . ترفع داير السرير الأبيض وتدخلهم تحته ، فالبيت حجرة واحدة ، ومكانه المفضل بجوار الحائط في الصيف ، فالحائط بارد يلصق نفسه ويلمس عليه بساقه العارية فيستمتع وكأنه يجرش قطعة ثلج ، ويمضي الصيف ويأتي الشتاء ، ويغير مكانه إلى الحافة ، وطوال العام هناك البقرة التي لم يسمعها بوضوح أبداً . لأنه حين يصحو على وقعها

الخافت ، تكون قد لفت ، وتكون القهوة قد شطبت ونورها الكهربائيّ الوهاج قد أنطفأ وأظلم الشارع تماماً ، والباب يزيق قليلاً كلما فتح ، وحين يفتح يسمع الهمس ، الهمس والظلام ، لا شيء سوى الظلام التام ، ونقر كنقط الماء المتساقط من السقف بعد إنتهاء المطر ، همس . همسة أو همستان كحفيف قميص نومها أو لعله حفيف القميص يبدو كالهمس ثم يسود السكون ... وتصعد أمه فوق الفراش ، فهي وحدها تنام فوق السرير ، والسرير واسع يكفيهم جميعاً ، ولكنها تصر ، من زمن من أيام أبيه حتى ، أن يناموا جميعاً أسفل السرير ، حتى حين كبروا وبدءوا التململ والشكوى وقال أن رءوسهم تخبط في (المُلة) رفعت أرجل السرير فوق قواعد وأحضرت نجاراً خصيصاً ليطيل من قوائم المُلة حتى ليصبح ما تحت السرير وكأنه حجرة ضيقة حقيقية يلذ له فيها وهو الطفل ، والأطفال مغرمون بالعشش والمخابىء وأمكنة الإستخفاء ، اللعب والرقاد وكثيراً ما شكلها بخياله وتصورها خيمة أعرابي في الصحراء ، أو خندقاً في باطن الأرض أو مقام شيخ من أصحاب الكرامات .. وبرغم هذا كله كان دائماً ينقصه شيء ، فكم من مرة اشتاقت نفسه أن ينام في حضنها ، وأن تضمه مثلما كانت تفعل وأن تسمح له مرة أن ينام معها هناك حيث المرتبة اللينة والملاءة النظيفة .. وفي الليل في عز الليل كان أحياناً يدعى المرض . وبصوت مسموع يتأوه ، ولا من أحد يسمع فإذا سمعت أو ضاقت بآهاته سألته بصوت غير عال ولكنه مملوء بالوعيد والتأنيب .. مالك يا براهيم ، فلا يجرؤ حتى على أن يواصل الإدعاء ، ويخرس تماماً وكأنما تأوهه كان مجرد التماس على استعداد لسحبه فوراً واستنكاره لحظة أن يلمح أن التماسه لم يلق

الترحيب . الظلام والحفيف والهمس ، ثم الأرق الذي ينتاب أمه على أثرها ، وكأنما سببه هذا النفس الغريب الذي يحس به قد ملأ الحجرة من لحظة أن فتح الباب ، أرق لا تستقر معه قرار فتظل تتقلب وتتحول ، حتى أن لوحاً من (المُلة) سقط على ساق أخته ياسمين ذات ليلة وجرحها وصرخت ، وصرخ هو الآخر ، وحين لم تستجب أمه في الحال أصيب بالذعر فظل يصرخ إلى أن نام مضروباً . لابد أنه لم يكن أرقاً ، لابد أنه كان شيئاً آخر ، منذ متى بدأ يعي هذا الشيء الآخر ، بالتأكيد ليست الليلة هي المرة الأولى ، أول مرة وعى كانت ليلة العيد ، كانت قد أخرجتهم من الحجرة لتستحم وحين دخلوا عليها بعد هذا ، وشعرها مبتل وهي تنفضه لتجففه ، وقميصها النظيف مفتوح .. وصدرها ــ لأول مرة في حياته يدرك أن لأمه صدراً . فلقد رآه ورأى نظرتها وأحس في التو وكان شيئاً في نظرتها يحف به نفس الحفيف المريب ، وكأنما الدنيا تظلم والهمس يعود صادراً من عينيها ملحاً ومشيراً إلى صدرها . ووجد نفسه لا يجرؤ على الإستمرار وانطلق يجري إلى الخارج والأولاد حيث الدبة التي وقعت في البير ، ولعب ولعب ولعب حتى امتلأت عيونه بالتراب وامتلأ رأسه بالتعب وداخ وعاد .. ودق الباب ودق ولم يفتح له أحد .. وجاء الصوت . صوت أمه ، المليء بالوعيد ، مادام أتأخرت ، نام على العتبة .. نام على العتبة فعلاً وكأنه ينتظر الأمر بفارغ الصبر ، ولكنه حين استيقظ في الصباح وجه نفسه مكانه تحت السرير ، وكانت هي .. أمه إلى جواره .. وحين رأته يستيقظ احتضنته وقبلته وقالت له كل سنة وأنت طيب يا براهيم . واستكان لحظتها وهو أسعد أهل الدنيا ، كل ما كان يضايقه هو رائحة

صابون الاستحمام التي كان يشمها ، صادرة عنها مقترنة لا يدري لم بإحساس مخجل محرم ، وكاد أن يبدأ يتقلب في حضنها ويتدلل عليها ، ويمسك يدها ويلفها حول رقبته ثم يلعب في أصابعها السمراء من الخارج القمحية من الداخل ، ويقبل كفها ثم يقبل كل أصبع من أصابعها على حدة ، من عمر طويل لم يفعل هذا ، فمن عمر طويل لم ينم بجوارها ، ولكنه ما أن بدأ يتمرغ في حضنها حتى أحس بصدرها يضغط بشدة على ظهره ، ليس ضغطاً شديداً وإنما ضغط الكتلة من اللحم الحي . وصدرها الحي مع رائحة الصابون وعرقها الخاص والهمس في الظلام ، وجد نفسه يغتاظ إلى درجة البكاء وتسقط دموعه في صمت على يدها الملتفة حوله فتسحبها كالملسوعة وحين تدرك أنه حقيقة يبكي تضمه إلى صدرها بشدة أكثر . وكلما اشتدت في ضمها وضغطها أحس أنه يريد أن يتخلص منها ويجري هارباً إلى الأولاد والدبة وصاحبها الخنزير .. ولكنه حين يدرك أن الليل ذهب ، وأن هناك صباحاً واليوم يوم العيد ، حيث يعيد كل الأولاد ، ويأخذون العيدية ويفرحون ، بكى ولم يسكت إلا أثر هزة شديدة وصرخة منها : مالك يا وله ؟ ماله ، حقيقة ماله ، ماذا حدث ؟ لا شيء حديث ، لا شيء يبكيه ، فلماذا هو حزين ؟ لماذا هو حزين ؟ أمن جلسة أبي السباع إسماعيل التي أصبحت تطول ، والقرش الذي يعطيه إياه كل مرة ويرسله ليشتري لنفسه كراملة حتى لو لم يكن يريد يصر على إرساله ، وهو خائف أن يخرج ويترك أمه بمفردها معه ، فإذا تلكأ ، جاءه الصوت الآمر منها : اسمع كلام عمك إسماعيل يا برهيم .. وينظر برهم في عينيه وكأنما ليطمئن قبل مغادرة الحجرة ، ولا يستطيع أن ينظر فيهما أكثر من ومضة ، لا لخوفه

منه ومن جسده الهائل الضخم ويده السميكة في سمك مخدة أخيه الصغير ، فقد كان يكرهه ، ولكن لأن في عينيه نفسها شيئاً متحركاً غير ثابت ، نظرة خائنة لا تستقر .. تختلط الخيانة فيها بالسخرية ، سخرية جافة خشنة كظهر الليفة ، يقشعر لها جسده ، وتدميه .. سخرية بلا خفة دم ، سخرية السمين التخين الذي يتجشأ عقب كل مرة يناوله فيها كوب الماء ليشرب ، ثم يكمل الحديث بصوته الخشن الرنان ، وآه لو مال على أذن أمه وهمس . همس متحشرج .. كهمس الزوران يحس برهم أنه يخرج من فمه وينتشر كالدخان القابض الخفي من حجرتهم وفي حياتهم يملؤها بأثر جارح غير مريح باعث على الخجل ، ولماذا عمه أبو السباع إسماعيل بالذات ، ألأنه يزورهم .. هناك عشرات الرجال يأتون وعشرات يسلمون على أمه ويحيونها ويهمسون لها وأحياناً يعطيه أحدهم قرشاً ، إنما لماذا هذا الرجل بالذات ؟ وأمه تضحك مع الكل وتجالس الكل .. فقط مع أبي السباع إسماعيل يحس كأن التيار الخفي الذي يربطه بها باستمرار حتى لو غابت أو سافرت أو نامت فإتصاله بها دائماً قائم وموجود ، حين تجلس أو تحدث أبا السباع . يحس فجأة وكأن التيار قد انقطع ولم تعد تشعر به ، ولكن شعوره هو بها يزداد إلى حد الجنون .. إلى حد أنه يمنع نفسه منعاً من أن يمسك بعصا أبيه ويدفعها لتستقر في عينيها أو فجأة يخلع كل ملابسه ويقف أمامها عارياً تماماً لتدرك أنه موجود ، والحياة كانت سهلة وعذبة ولذيذة يحب كل ما فيها ، يحب إجتماعهم حول الطعام بعد الجوع الشديد حيث يجلس فرحاً بالطعام وباجتماعهم هو وأمه وأخته وأخيه الصغير ذي الأربعة أعوام الذي لا يزال يتهته ليخرج الكلام ،

وتعلق أمه بهم جميعاً وبه على وجه خاص .. والشاي بالحليب في الصباح ، وفسحة الخص والعصاري مع الترمس على البحر ، والجلسة على الحشيش في قلب المنتزه .. ما أجملها حتى لو جاءت سيرة أبيه .. حين يتولى أمه وجوم يخاف معه أن تبكي .. ويتبارى الحاضرون في تعداد صفاته .. حتى لكأنهم يتحدون عن شيخ من أولياء الله .. وفي الحديث عن قوته ، وكأنه كان عنتر بن شداد ..

أجل .. شيئاً فشيئاً بدأت الكلمة التي كان يأخذها على غير محمل محدد يتكون لها في ذهنه معنى ، مات ، أغلق عينيه إلى الأبد ، وأصفر وجهه وبرد .. ولفوه في كفن .. ودفنوه .. لقد رأى هذا كله ولكن لم يبدأ يفهم معناه .. مثله مثل الهمس في الظلام والحفيف ، وقولهم البركة في برهم ، إلا هناك حيث وقعت الدبة في البير ، أشياء كانت مغطاة بطريقة لا يفهم لها معنى ، ثم بدأ يسقط عنها الغطاء ويصبح لها إن لم يكن معنى واضح فلا أقل من شيء خفي عميق مظلم كفوهة البئر الذي سقطت فيه دبة ذلك الخنزير .. حتى غناء الأولاد والبنات كان في تلك الليلة بلا معنى ، هكذا أحس ، رغم ما كانوا هم فيه من متعة كبيرة ، كان هو وحده يحس أن الأغنية بل حتى اللعب كله أصبح بلا معنى ، شده صاحب ورشة الدوكو الذي يعمل عنده من أذنه ولعن أباه :

ــ ياد أنت كبرت وبلغت ومابقيتش عيل .. مانتاش عاجبني كده طول النهار موطي لي في الأرض كدة ، إيه اللي كاسر عينك ياد .. أوع يكون تشومبة بيعلم عليك ..

وفهم جيداً ما يريد أن يقوله الأسطى .. وأحس بلسعة نار تكويه وتجنه .

ـــ ما تقولشي كدة تاني يا اسطى ..

لم يدر كيف جرؤ وقالها ..

وصحيح أن وجهه قد تورم من الضرب بعدها باعتبار أنه رد على الأسطى الكبير وتلك جريمة لا تغتفر .. إلا أنه فوجىء بنفس الأسطى بعدما شبع من صفعه وركله يقول لأصحابه الذي يشربون الشيشة :

ـــ إنما إيه رأيكم عجبني .. رد على صحيح إنما عجبني .. والنبي الواد ده حـ يطلع أجدع من تشومبة ..

وتشومبة المأخوذ من تشومبي هو الصبي الأول للأسطى ومساعده ، أكبر من إبراهيم في السن وأغمق في السمرة .. أكرت الشعر فرطح الأنف غليظ الصوت على عكس أخيه (لممبا) .. فتشومبة لا هم له طوال اليوم إلا تعذيبه وصفعه وقوله .

ـــ إبقى سلم على أمك ياد ..

أول مرة قالها ، صفعه ، فضربه تشومبة علقة لا ينساها ، إن أول عمل بالتأكيد سيفعله حين يكبر أن يقتل تشومبة .. ويقتل أول دبة يلقاها . والدبة بدت سخيفة جداً وهو يرددها مع الأولاد .. ولم يعد في ترديدها ما يثير ، وأصبح إنحناؤه ليدخل تحت السرير أشد .. وكالكبار لم يعد ينام لحظة أن يضع رأسه على المخدة الطويلة التي بططت

وجفت حتى أصبحت كالوح الخشب .. والهمس أصبح يفرقه عن الخفيف .. والدق لم يعد يستيقظ عليه . إنما قبله ، من الأقدام الثقيلة وهي تزحف في الطرق المظلمة كان يتنبه ويعرف أن القوة أغلقت وإنها أقدام إسماعيل أبو السباع .. ولم يكن وحده الذي يتنبه ، فالسرير يزيق ، وتنسل ساقا أمه وتشخشخ غوايشها ، ثم الخفيف ، وفتحة الباب والهمسة الناعمة الصادرة عنها : مساء الخير . حتى هي التي تبدأ بالتحية ، والحشرجة التي مهما بولغ في جعلها همسة تظل دائماً حشرجة بغير معنى ، ثم ، ثم تلتهب عيناه ، وكأنما تضيئان بعد هذا كل شيء مظلم في الحجرة ، حتى وجهه الأسمر الذي تفردت ملامحه وتضخمت ، يضيء ، كل شيء يبدو واضحاً من نور النهار ، حتى قدماها العاريتان يراهما ويرى أصابع أحداهما وهي تنكمش وتتفرطح تحت ثقلها وهي تصعد ثم تنسحب إلى فوق ، تاركة إياه يحيطه من كل جانب (داير) السرير ، كأنما ليطل عليه في عالمه الصغير ويسخر منه .. وياسمين نائمة متقوقعة على نفسها ، في بله (تريل) ، وأخوه الصغير ممدد بالعرض عند أقدامها يتنفس بصوت مسموع وكأنه رجل يغط .. هم في البير والملائكة في السماء .. والسماء سقفها من خشب ، تطل منه مرتبة تنبعج ، ما تحت السرير يغوص .. كل دقيقة يغوص ، والسماء الشخبية مهددة بالسقوط وقيام القيامة والجنة والنار ، ورأسه يوم القيامة منكس .. وحين يأتي تشومبة لصفعه على قفاه سيرعد الصوت العالي المدوي صوت الله : ارفع إيدك ، وتنشل اليد ، أليس باستطاعة القيامة أن تقوم الآن ؟ ويرعد ذلك الصوت المدوي : إرفع إيدك .. فيصاب الخنزير بالشلل ، وينحشر صوت أمه في صدرها إلى الأبد ، ويكف تماماً

عن أن يتحول همس ، إلى ذلك الهمس الذي كان يحس أنها به تصبح غريبة عليه تماماً ، إمرأة أخرى ، ملامحها مختلفة ، لا يعرفها ولم يرها في حياته .. إمرأة يخجل منها ، وكلما رأى همسها يخرج مريباً منخفضاً شعر وكأنها تخرج من جسدها سراً دفيناً كان خافياً عليه . سراً كالعورة لابد له من غطاء ، وكلما خفضته كان يتعرى أكثر حتى لا يكفي كل ما لديهم من أغطيه وبطاطين لستر همسها .. اسمع .. أهذا صوت المرأة التي ولدته ، أمه بالضبط إنه يتذكر ، أجل .. كيف فاته أن يتذكر هذا أيام كان في سن ياسمين وربما أصغر ، وصحا وفتح فمه يريد أن يصرخ ولكنه سمع كلاماً أسكته .. فقد ميز صوت أبيه في الحال .. وكان أبوه يهمس . كان مع أمه فوق السماء الخشبية ، وانتهى همسهما إلى ضحك ، ضحك طويل لا ينتهي ، دفعه لأن يبتسم وقد بدأ يحس أنه سعيد لمجرد إحساسه أن أبويه يضحكان . نسى تماماً أن البول يؤلمه وأنه من لحظات كان يريد أن يصرخ .. ودوت خبطة أعقبها عراك ضاحك فوق السرير . إهتز بعنف له .. صرخة مكتومة ، ثم عود إلى عراك انتظر له نهاية بلا جدوى .. واستغرب أن يكون أبوه المهاب المقدس الذي يحبه إلى حد لا يستطيع معه مفارقته ، طرفاً في اللعبة ، ولأمر ما استشاط غضباً حين أحس أن الطرف الآخر أمه ، وفتح فمه يريد البكاء غير أن البكاء بدا له سخيفاً .. ليس فيه ذرة رغبة واحدة ، فرغم استنكاره كان إحساسه الأكبر الطاغي أنه في أمان حنون حبيب .. وأنه معهما ، وكأنه الطرف الثالث في اللعبة ، كل الناقص أن يشعرهما بوجوده ، وبكى ليشعرهما ، ولدهشته تصاعدت الضحكات من فوق لبكائه ، من أمه وأبيه معاً ، ضحكات لا رهبة فيها ولا قداسة ، جعلته يستمر في البكاء

بدافع العناد وحده ، ولكنه حين وجد الضحك مستمراً وجد نفسه هو الاضخر يبدأ فجأة يضحك ، فإذا بالضحك الأعلى يتحول إلى قهقهات .. إهتز لها السرير بشدة .. نفس السرير الذي ترقد عليه أمه الاضن ضعيفة .. مختلفة تماماً عن قوتها الصارمة في النهار وملامحها الجادة ، وحديثها المملوء بالوعيد .. ضعيفة تتأ لم .. وتتأ لم في ضعف مقيت وكأنها بتألمها تطلب مزيداً من الضعف وتغري الخنزير بمزيد من الوحشية إذ كان قد تحول إلى وحش ، وحشرجة همساته أصبحت خوراً عميقاً كخوار ثور مذبوح ، أنه لم يعد صغيراً . فهو يعرف . لا يعرف بالضبط فهو ليس كبيراً تماماً ، ولكن هناك أشياء غريبة لا يستطيع حتى لو أراد أن يتصورها تدور فوق رأسه في السماء عند فوهة البئر . إن باستطاعته أن يصنعهما معاً ويخرج بصورة كاملة ، ولكنه يبقيها لإرادته ، منفردة مجرد أصوات لا رابط بينها . مجرد ضعف ووحشية ... وهمس من ناحية وتهديد بسقوط (المُلة) من ناحية أخرى ومع هذا تفور دماؤه ، مثلما كل مرة تفور .. والعرق الغزير يكسوه وكأنما حتى لو أردنا لا نستطيع أن نوقف أجزاء في عقولنا عن أن تعمل وتربط وتعي ، ورعب شديد وكأنما من فوقه شيطانان يجهران بالعصيان ويفعلان هذا في المساء أمام كل الناس ودون إكتراث لأحد ، دون خوف ، خواره كخوار واحد من أكلة لحوم البشر ، ولو نطق لنهش لحمه قبل عظامه ، أمه نمرة على فمها دم انتهت لتوها من التهام أخيه الصغير وتتنمر في طلب المزيد .. والتوحش مجنون مكشوف حاد الأنياب كعراك الكلاب المسعورة ، وثقلهما شديد ، و (المُلة) تغوص تحت الثقل وتجثم فوق صدره ، وهما عليها وكذلك الأرض والسماء .. وكل أثقال الدنيا ،

وجميعها تدكه ، في ضغطات بطيئة ، تدفع ببطء وتهوي ببطء تدركه وتمنعه أن يتنفس .. أنه لا يستطيع الاحتمال ، أنه سيموت لا من الضغط وإنما من الجنون .. إن مخه يتكهرب ويسخن ويبرد ويطلق شرارات .. والرعب من الفجر يشل صوته عن أن يصرخ ، ويمسك بزمام عقله عن أن يفقد السيطرة ، ونفض هذا كله عن نفسه وينفجر غاضباً صارخاً .. وينقض عليهما بالحذاء البني القديم يمزقهما .. أو بيد (الهون) يدشدش رأسيهما .. ولكنه يدرك ، ومهما بلغت درجات إنفعاله .. أنه غير قادر على الإتيان بشيء من هذا ، كبرت وبلغت يا برهم حتى أصبحت كالدبة ، وأذنك تسمع ، وعيناك كالأسياخ المحمية تخترق (الملة) وتكاد ترى ما فوقها . وأنت صغير لم تكن تعرف ، كنت فقط ترى ، الآن ترى وتعرف .. لو فقط أمكن إلغاء كل ما فات والبداية من جديد ، من الليلة مثلاً ، أو من الغد وكأنه ما سمع قبلاً أو رأى ، وكأنه أول مرة يعرف ويفاجأ بالمعرفة ليستطيع أن يتصرف بمثل ما تمليه عليه المفاجأة .. ولكن العجز الذي يصيبه يعرف سببه .. العجز سببه أنها ليست المرة الأولى .. وقبل أن تكون الأولى كان هناك إحساس . كان غموض وكان تدريج ، الهمس يتحول بعد حين في وعيه إلى كلام مفهوم ، والكلام إلى أصوات ، والأصوات يميزها ويعرف صوتها من صوته ، ومع كل (حيل) طلوع يطلع له في فخذه ، كان يكتشف شيئاً فشيئاً ، ذاك الغموض .. وببطء شديد لا مجال معه للثورة ، ولا فرصة للمواجهة ، بحيث حين (عرف) و (وعى) لم يعرف أو يع بشيء جديد .. وإنما جاء كالخبر القديم بلا حرارة ، كالشبح البعيد الذي خمنت من زمن قبل أن تقف وجهك في وجهه .. من يكون .

حتى اشعارهما بوجوده ما كان يجرؤ عليه ، فقد كان يشعر أباه وأمه لأنه كان مطمئناً آمناً ، أما هذان فمن يكونان غير غريبين عليه تماماً ، الرجل خنزير والمرأة دبة .. وهما على سطح الدنيا في السماء ، وهو وأخوته مثلهم مثل أبيه يضمهم هذا القبر ذو الداير الأبيض .. أيبكي ؟ ويصيح حتى في نظر نفسه وكأنه (ملعبة) تشومبة كما يقول الأسطى ؟

أيصرخ ويلم الناس .. بإستطاعته أن يفعل باستطاعته أن يقتلها حتى بعد ما يذهب الرجل الغريب .. ولكن المشكلة أنه بهذه الفعلة سيفقد ذلك الخيط الواهي . الذي أصبح يربطه بأمه .. فرغم كل شيء لا تزال أمه .. ولا يزال حياً لأن له أماً .. ولا يستطيع أن يتصور الحياة بغيرها .. بله أن يتصور أنه هو الذي قتلها وأفقدها الحياة .. هو حي لأن له أماً ، ولأنها هذه الأم بالذات ذلك الشيء الموجود رغم وهنه لو فقده لفقد الحياة .. فهي الآن وهي مع الرجل الغريب مقطوعة الصلة به ، يحس إحساساً عميقاً شاملاً أنه ضائع إلى حد الموت ، لا أحد في الدنيا يخصه ولا يخص هو أحداً ، ما يبقيه حياً هو أمله ، مجرد أمله ، أن تنتهي تلك اللحظة العارضة ليعود يربطه بها ذلك الخيط الواهي ، ولو صرخ ، لو عرفت أنه عرف لنبذته إلى الأبد ، وكف التيار النابع منها ليحييه عن السريان ، وانتهت أمه تماماً ، ولم يعد فيها غير المرأة الأخرى التي ترتدي الفستان الأسود فوق القميص الحريري الشفاف والتي تشقى طول اليوم كي تجلب من عملها كدلالة وسمسارة ، وأشياء أخرى كثيرة . الطعام .. بل إنه ما كان يفرح بالطعام لأنه طعام ولكن لأنها هي جالبته .. هي التي تعبت وأحضرته ، وتعبها هذا في إحضاره لابد سببه أنها لا تزال تحبهم وتحبه .. الطعام رمز الحب هو ما كان يفرحه . وأن

تموت .. أن تنفضح . أن يواجهها لمات قبل أن يحدث هذا فحاجته إليها أقوى ألف مرة من حاجتها إليهم ، بل هو لا يعتقد منذ أن دخل هذا الرجل الغريب حياتهم أنها أصبحت بالمرة في حاجة إليهم .. حياته وحياتهم لا تزال معلقة بأمومتها لا تنفصل ، لهذا لابد أن تظل تعيش وتظل حية ، ويظل ساكناً ، وتظل ، لتظل حية في السماء .. أو فوق الفراش . لتظل تقابل عشرات الرجال وتشتغل معهم بأكل العيش وتعولهم وتحدثه بصوت مليء حتى بالوعيد .. لتظل تختار من بين الرجال ذلك الرجل الغريب لتقول له . وهي التي تبدؤه بصوت هامس مبحوح : مساء الخير ، وليسمع هو ، وليكن عليه أن يقضي جزءاً كبيراً من الليل يسمع ، والأصوات تأتيه من فوق سمائه الخشبية ، ليس فيها ضحك أو سعادة ، وإنما فيها ضعف ، حتى لو أدى إلى رغبة في الضعف أكثر فهو حزين ، وليس فيها صوت أبيه القريب الحنون وإنما لهاث خنزير ، وفحيح دبة سقطت في البئر الذي كان يخصه وحده وخلق له وضحك ذات يوم حين احتله أبوه ، حضن عن عمد تفتحه وبإرادة منها تضم به ذلك الرجل المكتنز وبلقائهما الشيطاني المتوحش يغوص كونه الصغير تحت السرير ويغوص ، وهو قد كبر ، ومن صغره وهو يسمع ... الآن أصبح يسمع ويجن ، وبحكمة كبيرة يصنع في النهاية كما تعود أن يصنع ، ويسكت .. ومع هذا لا تريد القيامة أن تقوم .. ليعلو ذلك الصوت الراعد : ارفع إيدك . فيصاب الخنزير الغريب بالشلل ، وتموت المرأة المبحوحة الهمس .. وتعود له الأم . صرخة تتصاعد من تحت سماء خشبية محدودة إلى المدينة النائمة والأرض الكبيرة والكون والسماء

التي لا نهاية لها .. ولأن القيامة لا تقوم فهو يستيقظ كل صباح وقد أصيب بخيبة الأمل .. وكل يوم يرمقها في خروجه ويحس أن الخيط يدق . والأم تنكمش وسنوات قد مضت على موت أبيه .. والمرأة ذات الهمس تطغى فيذهب إلى الورشة منكس الرأس ليرتفع كف تشومبة ويهوي بها على قفاه . قفا صبي صغير أسمر ، قائلاً :

ـــ والله كبرت وبغلت وبقيت زي الدبة .. والدبة وقعت في البير ..

مارس ١٩٦٥

الأورطـي

المهم ليس أنه جـرياً ، المهم أنه كان في أكثر من اتجاه . يكاد يكون في كل اتجاه . لكأنه يوم الجري الأكبر . نوع غريب خاص من الجري فهو ليس جـري الخائف أو المستعجل أو من يسرع لإنقاذ جـري تائه وكان صـحابه يجري ويسرع ليبحث عن بقعة يبدأ منها الجري والاسراع ولهذا فلا أحد يعرف هدف الآخر أو غايته ، إنما الكل في حـالة ترقب خائف أن يعثر أيهم على بدايته التي ربما حـددت لهم البداية ، ولهذا أيضاً كنت ترى الشخص يجري كالمجنون ، وكالمجنون أيضاً يحاول عبثاً أن يراقب خطو الآخرين وجريهم . بحيث ما أن يبدو أنه قارب العثور على غايته حـتى يندفع العشرات إلى حـيث يكون على أمل أن يصل الواحد منهم أولاً .. ليكون أول من ينطلق حـتى يتحدد الهدف ، وحين يصابون بخيبة الأمل ويجدون أن الذي أسرعوا إليه أكثر منهم حيرة يندفعون إلى متلكيء أو مسرع آخر ، علمية كانت البقعة فيها تبدو إذا نظرت إليها من عل أو من بعيد وكأنما تنبض ، نبضات تجمع مفاجيء يعقبه التفرق ، نبض يحدث في أكثر من مكان في نفس الوقت حـتى ليبدو الميدان وكأنما فرش بقشرة لولا تلك النبضات العشوائية الحادثة هنا وهناك والدالة وحدها على الحياة لظننتها قشرة صـخر أو لظننت الآدميين المتجمعين كتل ركام مختلف الألوان .

ولا أحد يعرف ان كان هناك ضرب أم لا ، أنا شخصياً أصبت بأكثر من ضربة ، ضربة قاصمة موجعة ، وكان من المستحيل تحديد الضارب ، فأنت بلا جار دائم .. والحركة الدائبة الجارية لا تتيح لك حتى مجرد التطلع إلى العشرات والمئات الذين تمر بهم أو يمرون بك إنما بالتأكيد كان هناك ضرب ، وكانت هناك اصطدامات ، لا وقت حتى للاعتذار عنها ، وكان أناس يسقطون ، فجأة تتصاعد صرخة يعقبها أنين ، يظل يخفت كرنين الجرس المعلق حتى تمحوه صرخة أخرى ، ولا أحد يتوقف ليرى النهاية مادمت لست أنا الصارخ ولاأزال قوياً سليماً لم أسقط بعد ، فما معنى الوقوف ، وشيئاً فشيئاً بدأت أدرك أن الحركة كلها ليست تلقائية وأن هناك حركة أخرى خفية من الصعب شبه المستحيل إدراكها ، حركة طاردة إلى الخارج ، وكان الميدان يتمدد وينفجر إنفجاراً بطيئاً خفياً منتظماً طارداً الوسطانيين ليصبحوا أقرب إلى المحيط وإلى الخارج وإلى الشوارع الكثيرة الصابة في الميدان والآخذة منه ، حركة لولاها ما كان باستطاعة قوة في الوجود أن تنتشلني من حيث كنت إلى حيث وجدت مجموعة من الناس كنت أجدها تجري بلا سبب آخر سوى الاستمرار اللاإرادي لما كنا نفعله في الميدان الكبير ، استمرار لا نستطيع حتى لو أردنا إيقافه . وما خفي كان أعظم ومن أين لي أن أدرك اني في اللحظة التالية سألتفت إلى جاري ، أول جار أستطيع أن ألمحه وأحدق في ملامحه فأجده لدهشتي الشديدة وهولي ، عبده . وكان إحساسي الطاغي التالي أن النقود معه وأنه لابد يخفيها في مكان ما معه ، وكدت أموت فرحاً وأنا ، بشغف عمره وكأنما ألف عام ، وبغيظ كالغاز الخانق القاتل الذي يتشبع به

الجسد ولا نحس به إلا هناك قبل الموت بلحظة ، حين تعى لأول ولآخر مرة أنه خنقك وقتلك . أجل الغيظ أبشع أنواع الغيظ حين تستأمن أو تثق ثم ترى الخديعة عيني عينك ودون أي اكتراث ، حين ينسل الشخص الذي تعرف ومتأكد تماماً أنه في يدك متى أردته واني أردته في يدك ، فجأة تجده أمامك يذوب ويختفي وتلتهب غيظاً وغضباً ومجهوداً ولا تسطيع منعه . عبده ، بيدي الاثنتين أطبقت على رقبته . كل خوفي أن يذوب مرة أخرى ، ويختفي .. وكل ضيقي اني لا أستطيع التهامه .. الوحش فينا لا يزال هناك ، وحين نتشاجر لا نعض كي نؤلم الخصم إنما نعضه لأننا فعلاً نريد ، كالأجداد الوحوش ، التهامه ، الأجداد الذين كانوا يهاجمون الخصم ويلتهمونه غيظاً كي يستطيعوا إخفاءه وإخفاء وجوده داخل العدو وتستمد بناءها ، نحنْ الآدميين الذين فقط نعض عن عجز ونحقد ولا نستطيع التنفيس عن حقدنا بالطريقة الطبيعية فيزيد حقدنا فتنهشه كالأنياب المسمومة إلى داخلنا ينهشنا نحن ويقوضنا وبالضبط هنا ما كنت أحسه وأنا أطبق على عبده وأتمنى لو كان باستطاعة عواطفي أن تنطلق فتنشه وتدشدشه وتمضغه وأحس بأنيابي تلوك لحمه وأجزاءه وتشفي غليلها وتطحنه بكل ما تملك من قسوة وشراهة ، وربما الأصل في الطعام أن يأكل الإنسان بناء على غيظ وبنية إخفائه عن الوجود واحتوائه تماماً والقضاء عليه ولهذا يستفيد الوحش من طعامه الفائدة القصوى بينما يمرض الإنسان الآن بطعامه ويشقى .

ولكن ، حتى كطعام ، كان عبده لا يدفع إلا للاشمئزاز وقتل الرغبة

فقد كان نحيفاً غلباناً ، ما حفلت عيناه بنظرة تحد ولا واجه أحد مرة بنية إثبات الوجود أو الدفاع عنه ، كان طيباً ذلك النوع الباهت السلبي من الطيبة ، مصاباً بفتق مزدوج ، ويغني في خلوته ، مواويل عذبة ، وكأنه اني يحل غريب لم يعثر له أبداً على وطن ، وإذا فاض الحال بكى ، امتلأت عيناه فجأة بدموع لا يصاحبها أي احمرار إنما يتجمع الإحمرار في أنفه فيبدو وكأنما تورم وحفل بالافراز ، ويصعب عليك فقط لأنه عبده وإنما لأنه وهو الرجل ، كالأطفال والنساء يبكي ، بكاء لا ليونة أو طفولة فيه ولا يستدر العطف ، إنما الكارثة إنه بكاء رجال يستدر الاشمئزاز . حرامي قروش لا يأخذها إلا مضطراً ، وبأقل مقدار ، وإذا ضبطته ارتبك وتلعثم وأقسم ايمانات كاذبة وحذار أن تشدد عليه وإلا بكى وأصابك باشمئزاز يستمر معك اليوم كله وربما لبضعة أيام . ثلاثة أيام بأكملها بلياليها وبساعاتها الطويلة ومغاربها وعصاريها وأنا أبحث عنك يا عبده أرفع أرصفة مصر وأقلبها . وأقتحم البيوت . وأوصى ، وأواعد واستجير ولا أترك شارعاً أو زقاقاً أو حارة ، وحين يهدني التعب أنام وأستيقظ على روحي تكاد تطلع بالغيظ والحنق يأساً من العثور عليك وحلمي وكابوسي وألم يقظتي ومنامني أن ألتفت مرة لأجدك يا عبده ، أين كنت يا عبده وأين أخفيت النقود . والغريب المذهل ما قاله . قال أنه ما إن غادر المنزل يومها حتى أمسكته فرقة من التي تبحث عن المرضى لتأخذهم عنوة إلى المستشفيات (تماماً كفرق الشفخانات التي تأخذ الحيوانات المريضة بالقوة !) وأنهم أخذوه معهم إلى المستشفى مشتبهين في أمره ، وهناك كشف عليه الباشحكيم بنفسه وقرر أنه مريض بمرض خطر يهدد أن يعدي المصريين جميعاً به وأن لا علاج له إلا بعملية

جراحية يجرونها له في الحال ويقطعون بها الأورطي له ، وفعلا عملوا له العملية ، وقطعوا له الأورطي ورقد لثلاثة أيام ثم أخرجوه اليوم فقط بعدما منحوه عكازاً ليستعين به في السير ، أما النقود فمن لحظة أن دخل المستشفى وهو لا يدري ما حل بها .

وكان مفروضاً أن يحكي عبده قصة ما يبرر بها إختفاءه وإختفاء النقود ، اما أن يحكي قصة كهذه لا يصدقها طفل أو معتوه ، أما أن تكون هناك فرق تبحث عن الآدميين المشتبه في مرضهم وتأخذهم بالقوة كي يعالجوا وتعاملهم هذه المعاملة الحيوانية البشعة ، أما أن يكون هناك مرض من الأمراض علاجه قطع الأورطي ، أما أن يقطع الأورطي وهو الشريان الرئيس للجسم البشري الذي يأخذ الدم من القلب ويوزعه على جميع أنحاء الجسد والذي في سمك العصا التخينة بحيث أنه لو خدش يحدث من جرائه نزيف يقضي على صاحبه في الحال ، فما بالك أن يقطع وأن يعيش عبده بعد قطعه ، ليس هذا فقط بل أن يكون باستطاعته أن يسير ، لو على عكاز ، وأكثر من هذا يجري مثلما كنا منذ دقائق نجري أما أن يكذب عبده هكذا على كذباً واضحاً صفيقاً لا يحاول حتى أن يداريه أو يبحث من قصة أخرى أكثر حبكة وقابلية للتصديق فهو ما أضاع مني كل سعادتي بالعثور عليه وما جعلني أحس بتعب ساحق أهوج يعتريني لإحساسي أنه يسخر مني بقصته تلك سخرية تفوق الوصف . عصب لا حدود لقسوته ولا حدود لما يدفعك إليه ، ولم أكن وحدي ، كانت الجماعة التي تجري معي تشهد هذا كله وتسمعه وقد آب جريها إلى سير بطيء ، بل بدأ أفراد آخرون ينضمون إلينا ويشعرون تجاه عبده وقصته بنفس ما أشعر ، وكلنا بلا استثناء قد أصبح

أهم شيء لدينا أن النقود معه وأنه لابد يخفيها في مكان ما في جسده ، فعبده لا يمكن مكاناً آخر في الدنيا يستطيع أن يخفي فيه شيئاً وليس مهماً القصة ، أي قصة يحكيها ، إنما المهم هو العثور على النقود ، والعثور عليها أمام « عيني عينك » وفضحه فضيحة علنية أمام الناس كلهم وعلى مرأى ومسمع من الجميع ، وهكذا تصاعدت الأصوات نصرخ .. فتشه .. فتشه .. ولم أكن في حاجة للصرخات لأمد يدي أنزع عنه جلبابه البلدي الباهت الذي لا يملك سواه غير إني فوجئت أن الجلباب ملتصق بجسده لا يمكن خلعه عنه ، وهذا غريب فعبده كان دائماً (يلق) في جلبابه الواسع فكيف به الآن لا يمكن انتزاعه وكأنه انتفخ فجأة أو سمن في ثلاثة أيام سمنة غير معقولة ، وفي البحث عن حل لخلق الجلباب عنه اشترك الجميع في الاقتراحات وقد أصبح حماسهم للنيل من عبده يطغى على حماسي أنا الضحية ، حماس كان يعمنا في صمت وبلا اتفاق سافر وبكل جهد وإصرار وبأعصاب منفعلة وبكثير من الاستمتاع وكأنما نحن متأكدون تماماً أننا أخيراً قد عثرنا على بغيتنا ، على نقطة كالتي كنا نجري في الميدان نبحث عنها لنبدأ منها الجري .. على مذنب ، يحمل الذنب الذي ارتكبه معه ، ولابد أن ينال جزاءه ونمتع كل ما فينا من خير بإيقاع القصاص به وتطبيق العدالة ونمتع كل ما فينا من شر يجعلنا نطبق العدالة بأيدينا وبأنفسنا وبالشر حراً طليقاً لديه جواز المرور نوالي أحداث الضرر تحت شعار العقاب .

ولم تكن هناك طريقة لخلع الجلباب عنه إلا بسلخه كما يسلخ جلد الأرنب عنه ولكي نسلخ الجلباب لابد أن يكون معلقاً . وأصبحت

المشكلة أين وكيف نعلقه ، وتصاعد اقتراح ، والتفتنا فوجدنا الجزار قريباً ، وتحركت المجموعة وعبده في وسطها ، لا تزال يدي مستميتة عليه إلى حيث دكان الجزار وتولى أربعة رفع عبده بينما أخذ الجزار الشاب البدين على عاتقه مهمة تعليقه في الخطاف الذي تعلق عليه الذبائح من (قبة) صديريه وملابسه الداخلية . وهكذا علق عبده في الخطاف وأصبح مرتفعاً هناك ، لا حول له ولا قوة مثله مثله الذبائح والخرفان المسلوخة المعلقة على بقية الخطاطيف . وامتدت أكثر من يد ترفع ذيل الجلباب إلى أعلى وتسلخه عنه وهو معلق صامت لا ينطق بحرف . وما كاد الجلباب يخلع عنه حتى أدركنا السبب جعله يلتصق بجسده هذا الالتصاق الشديد ، فحول بطنه وصدره كانت تلتف أشرطة بيضاء كثيرة . وكأنه فعلاقد أجري عملية وتلك أربطتها ، ولكنني أدركت على الفور هدفه الخبيث من هذه الأربطة الكثيرة فلابد أنه أكثر منها ليستطيع إخفاء النقود في أية طية من طياتها دون أن يستطيع أحد الشك أو التنبؤ بمكانها . وكان لابد أولاً ، ولمجرد الروتين ، فحص محفظته ، ومد الجزار يده السمينة المدربة ، وأزاح طيات الشريط قليلاً ، وأخرج المحفظة من جيب صديريه ، وكانت أول مرة أرى فيها محفظة ، عبده ، ولم أكن أتصور أنها بها الضخامة فقد كانت أضخم محفظة ممكن أن تراها في حياتك وقد توليت بنفسي تفتيشها وافراغ محتوياتها ، وكما توقعنا لم يكن بها غير خمسة قروش فكة أحدهما معضوض صدىء لا يصلح للتداول . ومرة أخرى دفع الجزار البدين يده في جيب الصديري نفسه ، وكالمتوقع لم تخرج بشيء ، كلها إجراءات شكلية فقد كنا جميعاً ندرك أن النقود هناك ، مخبأة لابد في طية من طيات

الشريط وبذلك التحفز النهم للفضيحة ، ولإدراكنا اننا حالاً وعيني عينك سنضع يدنا على ذنب المذنب وأمامه سنخرج من جسده نفسه جسم الجريمة وننتشي النشوة الكبرى ونحن نستعد لنرى وجهه لحظتئذ ونسمع ما يقوله ، بذلك التحفز امتدت يدي ويد الجزار نفك عنه الشريط ، غير أبهين لصرخاته واستغاثاته وقوله إن فك الشريط عنه معناه موته إذ الشريط هو الذي يمسك الأورطي المقطوع في مكانه ، صرخات لم تفعل أكثر من أنها أثارت الضحكات والتعليقات الساخرة وحفزتنا نحن القائمين بفك الشريط إلى اللحظة القصوى لحظة اكتشاف النقود ، وفككنا بعض الأشرطة وصراخ عبده قد آب إلى سكوت يائس بينما امتلأت عيناه بالماء الدامع الذي لا يصاحبه أي احمرار ، وحتى لو صدقناه واعتبرنا أنهم عملوا له عملية ما فمن الواضح أنه يكذب فالأشرطة كانت بيضاء نظيفة ليست فيها بقعة دم واحدة ولا آثار جرح ، ولهذا مضينا نفك وإنما بحرص مخافة أن تسقط منا النقود لدى اللفة التالية . فقد كنا جميعاً واقفين ومشاركين ، وكأنما عبده هو الآخر ينتظر ظهور النقود لدى اللفة التالية ، وكنت ألف من ناحية وأسلم الشريط إلى الجزار البدين ليفكه من ناحيته ويعود ليسلمني إياه ، ويبدو أننا كنا استغرقنا في العملية إلى درجة إني مددت يدي أتسلم منه الشريط مرة فلم أجده إذ كان قد انتهى ، وقبل أن أنظر إلى عبده أحسست بشعور غريب ما يعتري الواقفين وحين اتجهت ببصري إليهم وجدتهم جميعاً وقد خيم عليهم صمت كامل مريب بينما عيونهم كلها مصوبة إلى جسد عبده جامدة لا تطرف وكأنها عيون موتى . ونظرت إلى حيث ينظرون .. كان

عبده عارياً تماماً وكان هناك جرح طويل جداً يمتد من صدره إلى آخر بطنه ، وكان صدره وبطنه فارغين وكأنما انتزعت منها كل ما تحويه من أجهزة ، وكان الأورطي يتدلى من صدره من مكان القلب كمزمار غاب سميك طويلاً وشاحباً ومقطوعاً يتأرجح داخل بطنه كالبندول ..

مايو ١٩٦٥

صاحب مصر

فكرت أن أجعل للرجل زوجة جميلة صغيرة لتلائم سنه الكبير ، فكرت أن أجعل الجميلة بنته ، ولكن الزوجة مغرية أكثر ، والقارىء الملول لابد أن يسيل لعابه تتبعاً للزوجة الصغيرة الحلوة أملاً في حدوث المتعة الكبرى بشم رائحة الخيانة أو التلظي نشوة وقلقاً على نار الشك في وجودها .

فكرت في أشياء كثيرة ، وتصورت وكأنني الكاتب المحترف ، كل الآفاق المثيرة المجهولة التي يمكنني أن أقود إليها القارىء الهاوي النهم ، كي أكد تفسيراً لحماس صميدة للرجل العجوز ، وصميدة ليس اسمه ، وأنا لا أعرف اسمه ، ولكنني لابد إذا سميته أن أختار له لقباً كصميدة ، فيه حرف صاد مذكر الموسيقى ، جهيرها ، ليعبر عن شخصه .. ولابد أن ارتباكاً قليلاً قد حدث وأن الحيرة تملكتكم عن أي الرجلين أتحدث .. الواقع كان هناك رجلان كل منها يستحق الحديث ، ولكن الأنسب أن نتجاوز عن كليهما معاً لنتحدث عن المشهد ، فقد كان هناك رجلان ومشهد ، والمشهد ليس بسيطاً أبداً رغم خلوه التام من الفواجع والكوارث وكل مسببات التوتر ، ولكي نبدأ علينا أن نتصور مكاناً

معزولاً ولا تماماً عن العالم كأن الدنيا بكل غموضها ومجهولها تنتهي عنده ولكننا لابد أن نعتقد أنها أبداً لا تنتهي عنده ، فالطريق الذي يقطعه يظل ممتداً بعد بقعتنا مثلما يظل ممتداً قبلها ، إلى ما لا نهاية البصر ، بالاختصار لنتصور طريقاً من طرقنا المسفلتة الطويلة يمر بمساحة شاسعة من الأرض غير الزراعية أو المطروقة أو تعرضت في عمرها الملاييني الكثير للمسة من يد الإنسان ، صحراء ، أو براري أو جبل وعر على امتداد الأصبع الخنصر لبحرنا الأحمر . أن طريقاً كهذا يظل الخط المستقيم بلا فائدة ، كالرجل المستقيم بلا مبدأ وبمجرد المحاكاة والتقليد ، لا معنى له ولا قيمة لاستقامته ، حتى يحدث له حادث ينتهي مثلاً أو يلتوي ، أو بالذات يلتقي بطريق غيره أو يتقاطع ، هنا فقط ، عند التقاطع واللقاء يصبح للطريق المستقيم الممتد معنى إذ يصبح التقاطع وكأنه الاثبات لنظرية كانت قبله فرضاً ، ووصولاً كان طوال الطريق مجرد حلم كحلم الجوعان بالخبز .

لنتصور حادثاً كهذا وقع لطريقنا الذي اخترناه ممتداً بلا معنى في أرض متسعة بلا مفهوم ، ولنكن أيضاً على ثقة إننا لن نكون أول المتصورين ، فقبلنا بكثير سنجد أن الحكومة باعتبارها المسئولة عن الأرض والطريق وكل الأشياء ذات المعاني والمعدومة المعنى قد تصورته ، وأدركت أهمية هذه الحقيقة الفلسفية أو الصوفية المحضة ، مع أنه ليس من عادة حكومة في العالم أن تعير أمثال هذه الحقائق التي ينقسم عندها البشر ، وأحدثت ولا تزال تحدث أعظم الهزات والمعارك والانتصارات الإنسانية أي التفات ولكنها بالسليقة من زمن لابد أدركتها . وبادرت

فأقامت عند هذا التقاطع (كشكاً) ، وقالت لعسكري كن داخل الكشك فكان ، وهكذا انحسرت كل المعاني الكلية المهولة عن التقاء الطريق بالطريق وتقاطع الطريق مع الطريق ، وكما يضيق (القمع ويتدبب ، ضاع المعنى وانكمش واتخذ بالكشك والعسكري في الحال مفهوماً واضحاً خاصاً ، بل حتى الأرض نفسها ، تلك التي كانت من أمتار قليلة مستمتعة بلا جدواها ولا أهميتها وبحريتها أن تمتد إذا أرادت وتتجبر وتتجبل إذا أرادت وشاءت أن تمتد ، وتجن وتطلق شعورها وبراريها ولحاها كلما عن لها أن تصنع ذلك ، أصبح عليها منذ الآن أن تدير رأسها وأن تعقل وتخفي عورتها ومن الكرة الأرضية الهائلة والكون والطبيعة تنسلخ وتتخذ أسماء وتنتهي إلى شعب محدد وإلى جزء من أرض ذلك الشعب ، محافظة أو مركزاً تتول وكما يعطي العسكري والكشك والطريق هذا المعنى المحدد الخاص . يرتد العطاء ، ويصبحان أو على الأقل يصبح العسكري ، ليس مجرد أي عسكري في أي كشك ، ولكنه ، في ذلك الجزء المقطوع عن العالم المعزول يصبح المثل الحي للنظام العام الذي أخضع الأرض وحدها وسماها وامتلكها ولكافة القوانين التي ابتكرتها عقول من أصبحت تمت لهم هذه الفرس الوحشية .. الأرض .. وراكبها الذي أستأنسها .. ذلك الطريق ..

في ذلك الوقت ، ولنجعله بعد الظهر بقليل وقد انتهى العسكري من تناول غدائه بحيث يمكننا أن نقدم عليه بلا حرج ونجلس إليه على أمل أن نتحدث ، وحتى قبل أن يدور أي حديث بمجرد الجلوس ، سندرك أن البقعة قد تكون معزولة ومهجورة بالنسبة للآدميين وللراحلين .

ولكنها أبداً ليست كذلك بالنسبة للعربات . فما تكاد تمضي دقيقة حتى تكون عربة قد أقبلت ، بل أحياناً يتراكم لدى الكشك أكثر من عربة ، كل ما في الأمر أنها في الخلاء الواسع لا تبدو للعيان .. قلما تصادفك عربة إذ هي نقطة لا تظهر إلا عند الكشك من الخلاق الواسع الشفاف تظهر فجأة كأن دخاناً كان يخفيها باتساعه وشفافيته ، وإلى الخلاء الواسع تعود إلى الإختفاء بعد اجتياز التقاطع ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وحتماً لابد نفاجأ ، قبل أن نبدأ نعير العسكري نفسه أي التفات وإنما نحن مشغولون بتأمل المكان الفريد الغريب ومتابعة غير قليل من الأفكار التي يولدها بالضرورة وجودنا لأول مرة في مكان كذاك ، حتماً لابد نفاجأ حين يقبل رجل عجوز قصير القامة ، أول ما يلفت النظر إليه جبهته السمراء البارزة المحدودية ، ومقدم رأسه الخفيف الشعر الأشيب ، ينحني على المنضدة الموضوعة أمام العسكري ليستطيع أن يصل إلى حافتها الملاصقة له ، ثم يضيع وياللمفاجأة كوب شاي متوسط الحجم رخيص الزجاج وإن بدا الشاي نفسه جيد الصنع عنبري اللون محمراً ، تماماً كما يحبه أنصاف الكيفية ، ونفاجأ أكثر حين نجد أن العسكري نفسه لم يفاجأ بما حدث وكأنه كان يتوقعه ، وكأنما هي عادة ، وحتى إذا كنت متوسط الذكاء فلن تأخذ وقتاً طويلاً لكي تدرك أن الرجل العجوز صاحب ما اصطلحنا على تسميته بالغرزة أو القهوة الصغيرة المتنقلة وأنه يحط رحاله تحت شجرة على الناحية الأخرى من الطريق وأنه لابد قد لاحظ أن العسكري قد انتهى من تناول غذائه فأحضر له كوب الشاي . كما قلت : لا حوادث هناك ولا شيء غير عادي ، من الطبيعي جداً أن توجد قريباً من هذا التقاطع غرزة صاحبها

رجل عجوز أو مريض وأن يتعامل العسكري معه ، وأن يحضر له الشاي ، وأن يقدمه في أدب . ولكن أشياء غير عادية بدأت تحدث ، منها مثلاً أن يدفع العسكري يده في جيب بنطلونه الأمامي (فجيوب بنطلونات العساكر مركبة إلى الأمام ولا أحد يعرف لم) ويخرج قرشاً من جيبه ويعطيه للرجل العجوز قائلاً : خذ قبل ما أنسى . حادثة لاشك ، فالمفروض والعسكري يمثل كل ما ذكرته آنفاً ، والرجل يمثل التجار الصغار ، أن يتقاضى ضريبة يضعها تحت أي اسم يشاء .. ضريبة ليست أقل من كوب الشاي مثلاً ، وأن يعفي العسكري هذا الرجل من الضريبة ، ليس فقط .. بل أن يخسر من جيبه قرشاً ، أمر له دلالة خطيرة لابد . أن هناك سبباً لهذا الاستثناء ، فإذا اتضح أن لا سبب هناك فمعنى هذا إننا في مواجهة ظاهرة خارقة .. عسكري مرور .. ملك متوج على بقعة نائية مهجورة ويستطيع من هذا المكان أن يسيطر على غرائزه وبالذات على غريزة فرض الضرائب غير القابلة للسيطرة والتحكم ، ويكون ذا ضمير مستيقظ لماح .

هنا لابد أن تلتفت كلية للعسكري ، وتعيد النظر فيما دار بينك وبينه من حديث فستقطع أخطر محاورة مفروض أن تدور حالاً بين العجوز والعسكري ، لأننا لن نستطيع إدراك مضمون الحوار إدراكاً حقيقياً إلا إذا وضحت لنا صورة العسكري فلابد لنا أن نؤجل الحوار إلى حين . العسكري شباب في حدود الثلاثين ، في حديثه وآرائه تحديدات من لم يتزوج بعد أو إن كان قد تزوج فلم يستطع الزواج أن يصيب ضحيته ، كما يصيب الجسد ، بالترهل وعدم الميل إلى

التحديد . الزواج باعتباره عملية تنازل مستمرة ومساومة في أحسن الأحوال يصيب الرجل بعادة الرغبة في المسألة والبحث عن الحل الوسط ، فالجمل لابد أن تكون لها نهايات مفتوحة تجعلها قابلة للتراجع التام في أحيان ، أو الاتصال بجملة أخرى تغير تماماً من المعنى المقصود ، الزواج ضد نقط النهاية وضد الحسم ربما خوف من سوء وضع النهاية . ما علينا . شخصيته محددة ، آراؤه في الناس أيضاً محددة ، وكذلك في عملية وطبيعته ، وهذا شيء نادر هنا ، فالوظيفة ، أية وظيفة ، كالزواج تماماً صاحبها فتح الجمل وكثرة استعمال حروف الوصل واللضم والجر والألفاظ التي تحتمل أكثر من معنى وتفسير لاستخدام معناها الآخر كسلم الحريق حالة وقوع الكوارث وتحمل المسئولية . له شارب .. تحس أنه عن عمد قد وضع شارباً ، لا للعياقة أو إظهار الرجولة ، إنه ليس في حاجة إلى إظهار وإنما لأنه ـــ مادام الناس صنفين ـــ فقد اختار أن يكون من الصنف ذي الشارب ، صعيدي أو عربي فلا تزال به بقايا قبلية ، في لغته وفي ميله إلى الحديث عن كل ما هو عام ، فالانتماء يبعد عن الذات وكل ما يمت إلى الشخص بمفرده . ولا أستطيع أن أقول إنه شهم ذو نخوة وأريحية ، فلم يكن قد بدأ منه ما ينبيء بأي من هذا ، ولكنك تتمنى . بل ترجح أن يكون شهماً ذا أريحية ، ولكنه أبداً ليس كاملاً ، فصحيح أنه يعامل السائقين بمساواة تامة ، لا يبالغ في رد تحياتهم المفرطة وكذلك لا يرد عليها بتعاظم وتكبر ، ولكنه يكاد ينتفض واقفاً إذا جاءت التحية من عربة ملاكي ، فعلى رأيه من يمتلك عربة لابد أنه صاحب نفوذ ، موظف

كبير ، أو صاحب مهنة غنى ، أو ابن لهذا أو لذاك ، ولي من العقل أو الحكمة أن يصطدم من كان مثله بأمثالهم ..

قال العجوز بعد أن وضع كوب الشاي بأدب تحس منه أن الأدب أو بالأصح ـــ حتى لا يختلط الأمر ـــ التأدب كان ذات يوم حرفته ، ويذهب بك الخيال إلى أنه من الجائز أن يكون قد عمل سفرجياً في قصر باشا أو على الأقل مساعد مرمطون ، قال : أنا لي رجاء عندك .

و لم يكن العسكري قد أدرك بعد أن يرجوه وربما كان لا يزال منصرفاً إلى تأمل الشاي وتهيئة نفسه لإرتشافه .. فاستطرد العجوز يقول : لو تتكرم وتسمح لنا بعربية نقل تأخذنا .. وقال العسكري وهو منصرف أيضاً وبمزاج ، إلى أخذ الرشفة الأولى من الشاي . ما أعذب الرشفة الأولى من أي شيء تأخدك فين ؟ ..

ربما حسن يريد أن يقضي مشواراً في أقرب مدينة تلك التي لابد تبعد عن المكان بعشرات الكيلو مترات ، ولكن العجوز قال : أصل أنا ما احبش المواضيع لما تحصل كدة . يبقى أحسن نأخذها من قاصرها وتتكرم علينا بأي سواق توصيه ..

قال العسكري وملامحه القمحية ذات الندوب تنكمش إنكماشات التأثر إن لم يكن بعض الغضب .

هو جالك تاني ..

قال العجوز وهو لا يزال سادراً في رجائه : وقال لي :

ورغم هذا قاطعه العسكري : وقال لك برضه ..

قال العجوز : وقال لي برضه فأنا رأيي أحسن طريقه زي ما قلت لسيادتك كدة آخدها من قاصرها حاكم المسائل لما بتوصل على إيه ده كله كلمتين منك وأي سواق وكتر ألف خيرك ..

قال العسكري وقع بلغ الانكماش بملامحه درجة الانفراج إذا الغضب كان قد بدأ يتحول إلى كلام : اسمع يا عم حسن أنا قلت لك طول ما نا هنا ماحدش يقدر يقرب لك ..

ـ بس أنا المسائل لما بتوصل أقول لنفسي على إيه الأرض أرض الله ومافيش أوسع من أرض الله وربك بيقطع من هنا ويوصل هنا وكلمتين لسواق ..

بحزم هذه المرة قال العسكري : والله لما يكون هو الجن الأحمر مش يكفاك كلمتي أنا قلت طول مانا هنا لاهوه ولا مليون واحد زيه يقدر يهوب ناحيتك ، بس ركلك أشوفه مرة وأنا أعرف شغلي معاه . هو كالك امتى ؟

ـ من شوية ..

ـ جه منين ؟ ..

ـ م الناحيا دي ..

ـ وراح فين ؟ ..

ـ م الناحيا دي ..

ـ وازاي ما شفتوش . ركلك بس أشوفه . أنا مش قايل لك لما يجيلك اندهلي ..

ــ يا سيدي ربنا يخليك ويكتر خيرك ، بس أنا كان قصدي يعني أن المسائل لما بتوصل مفيش داعي وكلمتين منك ..

ــ خلاص يا عم حسن ، بس لما يجيلك اندهلي ..

وكان العسكري قد إنتهى إلى آخر نقطة من شرب الشاي . فتناول العجوز الكوب ، ومسح قاعدته السميكة مرة أخرى . وانحنى ومد يده ، ومسح الدائرة المبتلة التي صنعتها على المنضدة ومضى وهو يتمتم لابد بدعوات وكلمات شكر ..

ولو رأيت هذا المشهد لدفعك حب الاستطلاع حتى إلى سؤال العسكري عن معنى هذا كله ، ولخمنت حتى قبل أن يبدأ في أن سبباً ما لابد يدعو العسكري للتمسك بوجود عم حسن العجوز كل هذا التمسك ..

ولو كنت تكتب قصة بطريقة التأليف كما يفعل بعض الناس لالتفت للموقف إمرأة ، مثلما كدنا نفعل في البداية . ولجعلناها زوجة صغيرة لعم حسن العجوز أو ابنة فائرة لعوباً ..

لابد سيدور بخلدك شيء كهذا .. فالعسكري لا يذكر لك شيئاً كثيراً .. إنه يؤكد لك ، بلا حاجة للتأكيد أن الرجل عجوز وطيب ، وأن له في هذه البقعة بضعة أيام ، وقد كان جالساً في مكانه .. وجاءت عربة نقل ووقفت كالعادة وبينما السائق يذكر له الرقم ، وإذا من الصندوق ترفع الهامة لاقصيرة لعم حسن ، وإذا به يتطلع إلى المكان ، ثم تقع عيناه على الشجرة فينحني ناحية السائق في الكابينة

ويشكره ويطلب منه ، بأدبة المعهود ، أن ينزل هنا قائلاً إنه قد اختار هذه البقعة لينصب فيها نصبته . وبمساعدة الشيال ينزل عم حسن أشياءه الفقيرة القليلة ، ويستأذن من العسكري ويقضي بقية اليوم في إقامة (الغرزة) ..

وتلك هي حياة عم حسن التي اختارها .. وكل إنسان منا يختار حياته بالطريقة التي تحلو له ، بعضنا يختار المهنة الناجحة ويقضي عمره يحارب زملاءه من أبنائها الناجحين ويكيد لهم ويكيدون له ، وبعضنا يختار مهنة البحث عن مهنة ويظل العمر ينتقل من عمل فاشل إلى عمل فاشل ، ولكل منا كما قلت مهنته التي يفضلها أو التي يلعنها أو التي تتلاءم مع ذاته وطبيعته وصفاته .. وعم حسن قد ترك هذا كله واختار لنفسه مهنة أن يخدم الناس حيث لا يتوقع الناس خدمه ، فهو لا بلد له ولا بيت ، موطنه الدائم يوجد حيث يوجد بيته وبيته يوجد حيث يوجد عمله وعمله يوجد حيث يرى أن حاجة الناس إليه أكثر وأشد ..

وهو يصنع القهوة والشاي والمعسل .. ورأسماله بلا رأس وبلا مال ، وهو يوجد اليوم هنا في بقعة مهجورة من طريق السويس ــ الإسماعيلية لابد عندها تقاطع أو محطة أو شيء ما .. هنا حيث يصبح لكوب الشاي قيمة لا تقدر ، خاصة إذا قدم لسائق منهك استيقظ منذ الفجر وعليه قبل أن ينام أن يقضي الليلة القادمة بطولها سائقاً .

ويظل عمل حسن في المكان حتى يزهد هو فيه أو يزهد فيه المكان ، أو تصل المسائل على حد رأيه إلى حيث يبح لا داعي للبقاء ، يشير عم حسن لأية عربة قادمة ، في هذا الاتجاه أو ذاك ، فسكك الله كلها له

وكل مكان فيها مثله مثل أي مكان ممكن أن يصبح بلده وموطنه ومسقط عمله ، ويركب عم حسن هو ورأسماله ، وفي أي اتجاه يتصادف أن تكون العربة ذاهبة إليه يذهب ، وعند أية بقعة في المسافة يراها عم حسن تصلح مكاناً يحتاج فيه الناس والسائقون بشكل خاص للخدمة ولا يجدونها ولا يتوقعون وجودها ينحني على السائق يطلب منه بأدبه المعهود إنزاله ، وعادة .. بل لم يحدث أن تقاضى منه أي سائق أجراً ، وينزل ، ويظل يعمل ، وقد يقضي في البقعة أياماً وقد يقضي فيها ــ كما حدث ــ سنتين ، إلى أن تصل المسائل إلى الحد المعهود فيشير عم حسن إلى أول عربة نقل قادمة ، وهكذا ..

ولابد ــ خاصة إذا كنت مثقفاً .. مقيداً بألف قيد وهمي أو ممن صنعك إلى عملك ــ تمنعك أشياء ليس أقلها الخوف الشديد أو بالأصح الجبن من أن تفكر ، مجرد تفكير ، في تغيير محل عملك أو عملك نفسه أو حتى محل إقامتك ، لابد أن تحسد عم حسن على حياته تلك ، فهي في رأيك لابد أرحب وأوسع حياة ، حياة ألغت المكان والزمان والبعد الرابع وكل الأبعاد ، البلد كلها .. بملايين الكيلومترات التي تكون سككها وطرقها ومساحتها ، ملكك .. ملكك حقاً لا مجازاً ، إذا ماذا تفعل بالملكية قدر حقك أن توجد في المكان الذي تمتلك وقتما تريد وأيد زمن تشاء وهل يحتل صاحب العمارة مهما كبرت أكثر من المقعد الذي يجلس عليه أو الفراش ، وما متعة من يمتلك مئات من الأفدنة أو بضع عمارات .. ولكنه صاحب مصر كلها ، من حقه أن يحل بأي مكان فيها في أي وقت يشاء ويستمتع ما شاءت له المتعة بإحساسه أنه صاحب المكان وأي مكان ..

وجزء من دوافعنا للالتصاق بمنطقة بعينها من المدينة أو القرية ، بل بشارع ، بل ببيت بعينه من بيوتها هو أننا نعرف الساكنين معنا وحولنا ونأتنس بهم ، وجزء من خوفنا أن نغادر ذلك البيت أو الحي ونقطن في غيره ، إننا نخاف من تجربة الغربة مع أناس لم نعرفهم بعد وحتماً لهذا نتوجس منهم .

أن ما يدفعنا للإلتصاق بمكان محدد وناس محددين إننا نخاف الأمكنة الأخرى والناس الآخرين ، فنتوقع على ما نعرفه ومن نعرفهم حتى لو قضينا الأعمال نمله ونملهم ، عم حسن العجوز لابد أنه لا يخاف الآخرين ، ومادام قد اعتبر مصر كلها بيته ومكان عمله فلابد أنه اعتبر المصريين كلهم صعايدة وبحاروة وشراقوة ، وغرابوة ، أهله وأبناء حيه وحتته ، وهكذا وبمنتهى الجرأة والألفة والبساطة ألقى نفسه في وسطهم في البحر الضخم الهائل الذي يكون ملايينهم .. ومن الواضح تماماً أنه لم يغرق ، وأن الأيدي رفعته ، ولازالت ترفعه وتتداوله ، ومن المكان إلى المكان يلقي بنفسه إلى يد ترفعه بحنان ورفق لتضعه حيث يحدد أو لتسلمه إلى يد جديدة إذا أراد .. وكأنما أبرم الرجل اتفاقاً مع المصريين جميعاً أصحاب البلد ، أن يقدم لهم القهوة والشاي في المكان الذي يفتقدون فيه القهوة والشاي أكثر .. وفي مقابل هذا عليهم هم المصريين أن يتكفلوا بأمر عيشه وسكنه وإقامته وتنقلاته كلما حلا له أن ينتقل ..

وكما تؤثر الوظيفة في الموظف ، وكما يصبح من خصائص سائق الأتوبيس صوته المرتفع إذ لابد له أن يرفعه ليغطي على صوت الآلة الحديدية والآلة البشرية ليسمعه الركاب أو حتى ليبلغ شتائمه إلى الراكب

الذي أثر أن يدخر رأيه الصريح فيه إلى اللحظة التي يضع فيها قدمه على الأرض ويتحرك الأتوبيس .. كما تنمى الوظيفة ذلك الجزء من الإنسان الذي يتعامل به مع الآخرين .. وبالتالي تنمي لدى الآخرين ذلك الجزء الذي يتعاملون به معه ، فعم حسن يتعامل مع جزء نادر ، أو بالدقة نادر العمل .. في الناس .. ذلك الجزء المخصص للعمل من أجل الآخرين .. الجزء الإنساني الضامر في أناس كثيرين .. الذي ربما حولته الأجزاء الأنانية لدى البعض كما تحول الأماكن غير المستعملة ـــ إلى مخازن تختزن فيها أحصنة النهم الإضافية ومغذيات الطموح الفردي الصغير ..

عم حسن يعامله الناس ، والسائقون الذين يبدون وكأن قلوبهم قد قدت من جرانيت أصم ، بأجزائهم الإنسانية ، وما أكبر هذه الأجزاء أحياناً بالذات في قلوب هذا النوع المخيف من السائقين .. ولأنه يحيا ويتنفس ويأكل وينام بهذه الأجزاء وبما تهيئه له ، فقد اكتسب هو الآخر طابعاً غريباً يميزه عن جميع الناس ، فأدبه الزائد ليس ذلك النوع الممتثل الذليل الذي ندرك في الحال مدى ما فيه من ضعة واسترزاق .. إنه نوع عميق من الأدب ، لا ينبع من الانحناءات والكلمات الهامسة ... وإن كانت بعض أعراضه كلمات هامسة .. ولكنه يهمس لا ليريك ويظهر لك أنه يهمس ولكن لأنه بإدراكه إنك ستستريح أكثر لو همس ، نوع من مراعاة الشعور ، ولكن لأن مراعاة الشعور لدى معظمنا لا تحدث إلا لسبب وإلا لحاجة لك عند من تراعي شعوره فأعتقد أنه من الصعب أن نتصور مراعاة الشعور لمجرد مراعاة الشعور .. لمجرد أن إنساناً يحترم شعورك فعلاً ويقدره ـــ مهما كنت ـــ ويهمه مراعاته ، بل حتى في

طريقه سؤال للناس ، إنه يفعل هذا بأدب صحيح ولكنه أدب فيه ثقة بنفسه وكأن المسألة أمر مفروغ منه ، فرق كبير بين أن تطلب من إنسان لا تعرفه شيئاً وتحاول حينئذ ولأنك تفترض أنه ليس من حقك أن تطلب منه وهو الغريب عنك شيئاً أو تسأله معروفاً ، تحاول أن ترقق ما أمكن من طلبك ولهجتك وتودع فيها كل ما يمكنك إيداعه من رقة السائلين والمقترضين ومن يطلبون بذله ، فرق بين هذا وبين أن يطلب من إنسان نعتقد أنه فعلاً أخوك ومن أقربائك ، ولك عليه مثلما له عليك ، أن تسأله ، ومن واجبه وليس تفضلاً أو تنازلاً ، أن يعطيك .

ولكن تلك تفاصيل لا معنى لها .. ومحاولة يائسة لشرح « كل » من الصعب شرحه . فعم حسن ليس مجموعة تصرفات كهذه ، ولكنه أولاً روح كاملة ربما بعض مكوناتها تلك التفاصيل .. إنه روح غريبة تعيد إلى ذهنك آثار الظواهر الطبيعية وهي تعمل عملها عبر ملايين وملايين من السنين لتفتت الصخر الكبير إلى رمل دقيق أملس رائع التكوين . لتقدمن الصخر نهراً عذب الماء كنهر النيل ، لتصنع من الزلال وزلال الزلال حياة ومن الحياة كائنات ما أروعها حين تتأملها كالسمك دافقة بالحياة عامرة بالتفاصيل ، كالأسود جليلة مروعة يذيخلك مجرد تفكيرك أن الأسد العظيم منها كان ذات يوم قريب كائناً لا يرى إلا بميكروسكوب . كائناً كان هو الآخر ومنذ أيام قريبة أسداً عظيماً كذلك الأسد .. ونتأمل كيف استطاع آلاف الناس بمراكزهم وتصرفاتهم الإنسانية أن يخلقوا أو يدربوا ذلك المركز في عقل عم حسن وشخصيته ليكبر وينمو ويزدحم ، ويحيل هو هذه المرة مراكز الأنانية

وما يخص الذات الصغيرة إلى مخازن يودعها مشاريعه القادمة للناس .. لحب الناس ، لكي لا ينسى وهو في قمة إنشغاله ، وحوله السائقون مزدحمين كل يريد أن يحظى منه بأكبر جرعة من الحديث والشاي ، أن عسكري المرور يتغذى ، وأنه انتهى من طعامه وأنه في حاجة إلى كوب شاي ..

لنتصوره بوجهه الأسمر ، وصلعته النامية الخفيفة ، بأذانه الكبيرة التي تؤكد ملامحه ، بأنفه الكبير قليلاً يؤكد رجولته ويؤكد في نفس الوقت طيبته إذ لا شموخ فيه . ولا إتساع فتحتيه يريحك ، وعيونه ليست أبداً كعيون الملائكة ناعسة سارحة ، أهم شيء يجذبك إليها هو يقظتها ، وليس يقظتها إلى ما يدور في عقل صاحبها وإنما يقظتها إليك أنت ، إلى ما تفكر فيه ، إلى أحوالك وكيف تبدو وهل معنى ابتسامتك الواسعة إن كل شيء بخير أم يا ترى تنبيء عن ضيقك بما تحسه من ضيق .

وإنها لسعادة أن تنظر إلى عمر حسن وبالذات إلى جبهته العريضة البارزة التي إذ قستها بالمقاييس المواضع عليها للجمال لبدت قبيحة ، إنها لسعادة أن تنظر إليها فتحس أن لم يدر خلفها شيء ، فكرة أو خاطر يضر بإنسان .. أن تدرك بوعي وعمق أن هذا الرجل الذي ينظر إليك بجماع نفسه لا يفكر أبداً في إيذاء أحد ولا يمكن أبداً أن يفكر في خداعك أو السخرية منك والضحك عليك ، أن ما من فكرة شريرة عرفت أو يمكن أن تعرف طريقها إلى رأسه .. لا أحلام غنى باهظ راودته وأستعد معها لأن يدوس الغير في طريقه إليها ، ولا أمنية ألحت عليه أن يكون لك مالك أو بعض مالك ، وأنه لا يحسدك أبداً على

منصبك أو وسامتك أو زوجتك المخلصة .. ولم يفكر أبداً في الحط من شأنك حتى بينه وبين نفسه لكي يثبت لها مثلما يحلو للبعض أن يفعل أنه أحسن منك ، أنه لشيء رائع ومحير ومثير للخوف أن تدرك أن كل هذه الصغائر التي يقضي بعضنا تسعة أعشار أعمارهم يلوكونها في عقولهم ويقيدون بها قدراتهم .. ويلوثون بها ضمائرهم ، وطبيعتهم الإنسانية التي تخلق نظيفة حساسة ، هذه الصغائر كلها لا محل لها في عقل عم حسن العجوز ، ترى أي مكان رحب يصحبه عقله ، أية حرية تتمتع بها خواطره .. أي أمان شامل كان يظللها ويظلله .. أجل الأمان الذي يقلب الناس دنياهم ويحفرونها مخابيء ودهاليز ليحتمو بها من الأعداء المعروفة والمجهولة ومن الزمن والمرضى والخيانة ، وكلما بحثوا عن الأمان خافوا إذ يدروكون أنهم مهما فعلوا فليس هناك دواء شاف أو ملجأ أكيد ، وكلما خافوا على أنفسهم من الآخرين أخافوا الآخرين منهم حتى تنقلب العقول إلى مواقد مجنونة للقلق والرعب ، أنه يتصرف دون أن يحسبها ويفكر ، ويفكر دون أن يحسبها ليعرف بماذا يتصرف ، فالحاجز الذي يضعه الكثيرون بين التفكير والتصرف حاجز سببه أنهم حين يتصرفون يخجلون مما يفكرون ، وحين يفكرون يخافون التصرف بمثل ما يفكرون ، يالروعة عم حسن وتصرفه يمضي في تسلسل وصفاء مع أفكاره ، وأفكاره من تلقائها وبلا جهد يضيعه أو يفقده تصنع تصرفاته ، وليس في وسط الدائرة إلا غيره ، إلا الإنسان الذي تسوقه إليه الصدف ، إلا الكلمة الحلوة التي لابد يحتاجها ليقهر هذا العبوس ، إلا الشربة من ماء القلة الباردة ترد الروح التي تتسرب من جسده .. مع حبات العرق المنهمرة ، إلا كلمة طيبة يقولها لصديق الطريق وهو

قائم بنفض التراب عن جلسته ويستعد لسفرته القادمة المجهولة : خلي بالك .. الدنيا ليل ونورك واطي لما تقابل عربية هدي ، وحياة بنتك الغالية لانت فاكر كلامي ومهدي ..

وقد يعتقد البعض ، ولهم الحق ، أني أنبذ الواقع وأتحدث عن إنسان خرافي غير موجود . ولكن الكارثة الكبرى أن عم حسن موجود ولا يزال إلى الآن حياً يسير ويتنقل أن وجد في مصر طريقاً ، ولكن المشكلة ، أجل المشكلة ، أن الدنيا كلها ليست عم حسن ، وأن المسائل لابد أن تصل يوماً إلى الدرجة التي يصبح معها من العبث البقاء ..

• • •

ولنعد إلى الرجلين والمشهد ، ولنؤمن الآن وقد عرفنا الكثير أن ليس في الأمر زوجة أو ابنه ولا سيدة بالمرة ، ليس لأن عم حسن لم يتزوج ، فالحقيقة أنه مرات تزوج ، ولكن زوجاته كن ، بعد فترة ، وبعد إنقشاع الرغبة في التغيير ، يضقن بحياته ويردن البيت والعمل الثابت الذي لا يبحث فيه عن الناس وإنما على الناس فيه أن يبحثوا عنه ، من هنا كان يدب الخلاف ، وينطلق عم حسن إلى طرقاته ومحطاته ودنيا الله الواسعة وينطلقن هن باحثات عن الأمن والثبات الذي يصنع الأولاد لنعتقد إذن أن ما بين الرجلين أن هو إلا صلة أخرى من صلات عم حسن بالناس ، تلك التي تنشأ في لحظات ، وتظل تنمو ولا تكف عن النمو كلما مر عليها الوقت ، عكس ما يحدث في العادة ، فما أربح وأوسع ما تنشأ وما أسرع ما تبدأ تضيق ، والمشغوليات بالنفس كثيرة ، والعلاقة التي لا تنفع تضر ، والأعم الغالب أن تنتهي العلاقات إلى ذلك الخيط الرفيع

الذي يفصل بين الجهل والمعرفة ، فتعرف الشخص وكأنك لا تعرفه ، وصلتك به لا تتعدى أكثر من يد عالية ترفعها بالسلام من بعيد ، أو إيماءة من رأس أو أضعف الإيمان إبتسامة وكأنما لتثبت بها لنفسك أنك تنتمي ، مجرد انتماء ، إلى الجنس ..

والعسكري يروي كيف بدأت الحادثة ، فمنذ بضعة أيام ، ذهب إلى عشه عم حسن ، لأول مرة ، عابساً شديد العبوس . ولابد لنا لكي نكمل القصة أن تعرف أشياء كثيرة عن العسكري بشكل عاجل ، فهو قروي حياته الحقة بدأت بالعسكرية ودخول الجيش ، وكان الجيش مدرسته ، هناك صاحب شبان المدينة وعرف المدينة من خلالهم ، وخرج وقد آلى أن يعرفها بنفسه ، والمدينة صعبة على من يريد معرفتها بقيم فلاح ودردحة ذكي . ولكنه رغم هذا استطاع أن يجد لنفسه مكاناً غير رسمي فيها ، وهو وإن كان يقضي معظم أيامه مقطوعاً في كشك ، إلا أنه في اجازته يعوض كل ما فاته ، وحتى بنات الليلة يستطيع مصاحبتهن .. وله في كل مدينة يحل قريباً منها جلسات ، وقعدات وأركان ودائماً يعثر على عشيقات ..

غير أنه من يوم أن حل عم حسن فقد الحماس تماماً للمدينة ولكل ما ينتظره فيها ، فساعة واحدة كان يقضيها مع الرجل حسن عاش وشاف ، وعاش وشاف بطريقة لم يعش أو ير بها أحد ، فغيره يجلس مع الرجل ، بل أحياناً يجاوره لشهور وسنين دون أن يعرف عنه إلا أقل القليل ، عم حسن كان يغوص من فورة في النفس محبة أو بناء على طلب صاحبها ، وفي دقائق يعرف مالا يعرفه غيره في ساعات ، فوجهه

كان يملك اللمسة السحرية المتناهية البساطة ، التي تفتح النفس ، والنفوس دائماً تواقه لأن تفتح وأغنى ما في الأرض ليس كنوزها وما تحتويه قشرتها ، أغلاها ما في نفوس الرجال من ثروات ، أن في داخل كل منا كنزاً تجمع وتراكم فيه عشرات السنين وآلاف الخبرات ، كل نفس كالمحارة ، مهما إنغلقت فهي لا تكف عن إحالة التجربة بالإضافة والإعادة والتعديل إلى لؤلؤة ، إلى ماسة ثمنية من ماسات الخبرة الإنسانية المركزة والمكثفة والمصنوعة بصبر داخل تلافيف الحياة ، وقد استطاعت نفس عم حسن لخالية من المهبطات والمعطلات ومخصصات الأنا اللزجة أن تمتليء وتستوعب عدداً لا يعد ولا يحصى من كنوز النفوس الأخرى فوق ما يمكنها تقديمه وعرضه من نماذج استطاعت نفس عم حسن أن تقوم بدورها كصانعة لآليىء ، وماسات ، وأن تحيل ما احتوته نفسه من تجاربه ومن الآلاف المؤلفة من تجارب الآخرين إلى ما يشبه برج مجوهرات الإمبراطورية البشرية .. لي متحف يدير مجرد التجوال فيه الرءوس ، ولا شك أن المتع كثيرة وكلها حلوة ، والمرأة جميلة ممتعة ، وقعدة العسكري في البندر مع إخوانه يدور عليهم الشيء أو يدور بهم متعة .. لكن العسكري إلى عم حسن ، ويسمعه بمفرده أو مع الآخرون وهو يحدثهم ومن ذات نفسه يفرجهم على عوالم غريبة رائعة ، ليالي وكأنها مسحورة ترى من فنجان ، وأيام وأحداث وكأنها اغترفت من أكداس الروايات ، مع أنه في كل ما كان يتحدث به لم يكن هناك أثر للخيال ، إذ لم يكن هناك داع للخيال ، فما رآه رأى العين أغرب مما يراه الآخرون رأى الخيال .. لاشك أن المتع كثيرة ولكن يبدو أن أمتعها جميعاً وأحلاها هي متعة أن تعرف .. متعة أن تعلم ما تجهله أو تزداد

علماً بما تعرفه ، وكل ما يحدث عنه عم حسن دائماً جديد غير مطروق ، أناس وكأنهم ليسوا من جنس الناس ، وإنما من نوع آخر لا يتبدى إلا لعم حسن .. أو كأنهم الناس ولكن أشياء منهم مغلقة تفتح بكلمة سر لا يعرفها إلا الرجل العجوز ..

وجده العسكري في ذلك اليوم عابساً ، شديد العبوس .. حتى لقد استغرب أن يمتلك من كان مثله القدرة أن يعبس بهذه الشدة .. وحين سأله عما به لم يشأ أن يتحدث وكأنه لا يرى فائدة في الحديث ..

ولكنه تحت الالحاح قال إنه حدث ما كان وسيظل دائماً أبداً يخشاه ، فقد جاء الرجل وطلب منه مغادرة المكان ..

أي رجل وبأي حق يطلب ما يطلبه ؟ ..

قال إنه جاء هذه المرة بحجة أن الأرض التي أقام فوقها عشته أرضه وأنه يعطيه مهلة إلى الغد لينتقل منها ..

وطمأن خاطره قائلاً : أنه لابد نصاب ، أو سلطه أحد أصحاب العشش الأخرى ..

وهنا لابد تدرك أن ثمة عششاً أخرى وغرزاً قد أقيمت بعد مجيء عم حسن ، فهكذا دائماً شأنه ، ما أن يحل بالمكان المهجور ويبدأ في تقديم مشروباته إلى الغادين والرائحين على الطريق .. أصحاب الطريق كما كان يسميهم عم حسن الذي قد تتصور أنهم قلة في حين أنك لا يمكن تتبين كثرتهم إلا إذا أقمت لهم مكاناً للشرب والراحة .. مكاناً

يصبح ككشك المرور الذي تلمح قبله أثراً لعربات ولا تلمح بعده ، وإنما عنده فقط وعند العشة تظهر العربات ، ويظهر الناس ويتكشف عنهم الفراغ الذي كان يخفيهم ، وعنده يلتقطون أنفاسهم برهة إستعداداً لاختفائهم القادم من الفراغ .. أصحاب الطريق كثير ، لابد لهم أسبابهم الخاصة لسلوك الطريق ولكنك تعجب حين يخرج لك عم حسن يعرض كنوزه متحدثاً عنهم قائلاً إن فيهم صاحب الحاجة والهدف لاشك ، ولكن الغالبية سيتعبك حتماً أن تحاول معرفة أهدافهم ولماذا يسيرون ، إن معظم الناس أجناس قانعة ميالة إلى البيوت وحياة البيوت وعالم البيوت ولكن الدنيا فيها آخرون .. فيها القائلون لأنفسهم وللعالم : بلاد الله لخلق الله ومن بلد إلى بلد يرحلون ، وعلى الطريق يشربون ويأكلون وأحياناً على نفس الطريق يموتون .. أصحاب الطريق وسكانه دائماً فرادي ودائماً على الطوى ونادراً ما يتكلمون وليسوا أبداً مجذبون أو مجانين وإن كان سلوكهم هذا قطعاً سلوك مجانين .. الشيء الدائم أن وراء السير الطويل . مسيرة العمر قصة انتهت حين وضع كل منهم قدمه على أول الطريق ، وقد يكون للطريق أول ولكن أبداً ليس له آخر ، وكأنما بحثهم الدائب عن آخر الطريق ، والعمر يمضي وأعمار كثيرة تمضي قبل أن يصل أي منهم السالكين سلوك المجانين ، أو أي منا نحن السالكين مسالك العقلاء ، آخر الطريق ، دائماً نلتقي ، عقلاء ومجانين ، وراجلين وراكبين وأفندية وسواقين وهاربين وباحثين ومخبرين ومجرمين ومطاردين ومطرودين عند عم حسن عند تقاطع الطريق . ونأنس باللقاء ، ونتعارف ونتجابب ونتذاكر ويسمى بعضنا البعض : رفاق الطريق .

وهكذا يحدث دائماً تبقى عشة عم حسن الذي يكتشف بها التقاطع المهجور ، وحيدة لفترة أطول ، إذ لا تلبث عشة أخرى أن تقام ، وأن كان صحابها ليس في وحدانية عم حسن وإنسانيته وطيبته بل حتى نظافته إلا أنه لا يعدم زبائن آخرين ، وجلعنا لكل شيء سبباً ، ولكل طالب رزقاً ، ولكل عشة مهما كثر عدد العشش زبائن من رفاق الطريق ..

ودائماً ما تبدأ الغيرة من عم حسن ورواده الأكثر ، تأكل القلوب ، وعلى أقل سبب تحدث المشاحنات ، وفي البقعة المهجورة والمقطوعة الصلة بكل أسباب الحياة والإحياء ، سرعان ما تبدأ فيها أو البوادر ، وكما تستدل على الأسد من رائحة بوله المنكر ، تبدأ رائحة نظام الإنسان الفاسد تفوح ، ومن بعيد وسط سكون العصاري المطبق تسمع صوتاً غير غريب عليك تتلاحق عواءاته من بعيد .. تسمع الصوت وتشم الرائحة ، الخناقة ، تحسبها كلاباً على جثة ، ولكن الرائحة والخناقة أكثر بشاعة .. لابد أنهم بشر على لقمة ..

فإذا سمعت طرفاً واحداً هو الماضي في زعيقة وعوائه ، بينما الطرف الآخر صامت صمتاً تاماً وكأنه ليس المقصود ، فاعلم أن الخناقة مع عم حسن ، وأن الآخر رغم أنه جاء إلى التقاطع بعده ، ولولا عم حسن ما جرؤ على التفكير أو البقاء ، إلا أنه محموم ينفجر بغضبه .

ولكن هؤلاء لم يكونوا يسببون للرجل العجوز الطيب أي إزعاج ، بالعكس كان دائماً يقابل عويلهم بالإبتسام .. إبتسام الفرحة ، إذ

معناه أنه عمرت الحتة ، وليس ما يبهج عم حسن أكثر من أن يدرك ، هو الجواب الأرض القفر والساحات المهجورة ، إن قطعة مهما بلغ صغيرها من الدنيا ، ومن مصر أم الدنيا ، قد عمرت ..

* * *

ولكن ، أن يعبس عم حسن ، وأن يبدو وجهه شديد العبوس ، وأن يظل هكذا حتى بعد محاولات العسكري المستمرة لتطييب خاطره معناه أن في المسألة شيئاً آخر غير عادي ..

وأعتقد أن العسكري أن عم حسن رجل طيب ومسالم ، ومن عادة هؤلاء أن يزعجهم التهديد ، وهكذا أخذ العسكري على عاتقه ألا يتكرر المشهد ، وأن يظل وراء من هدده حتى يجبره على المضي إليه وطلب غفرانه . وبدأ يعيد السؤال على الرجل ، ويطلب من عم حسن وصفه وتذكر من أين جاء وإلى أين ذهب . ولم تعجبه الإجابات ، فقد جاءت كلها غامضة محيرة وكأنما عن عمد ، أو من شدة الخوف ــ يحاول عم حسن تضليله ، وبهذا واجه عم حسن وكان أن ابتسم الرجل وكأني بقلبه ابتسم فهو لم يكن يحاول أن يخفي عنه شيئاً ، وأنه لا يفعل أكثر من أن ينقل إليه كل ما يعرف ، فهو لم يع بالضبط من أين جاء الرجل فقد أفاق فوجده أمامه ، ولا إلى أين ذهب فما كاد دمه يتغير لكلامه ، حتى كان في ثورة الغضب قد اختفى ، وهو لا يذكر ماذا كان يرتدي ، فقد أضاع الغضب للحظة الرؤيا ذاكرته ، غير أن ما أدهش العسكري ومنعه عن متابعة

بقية الحديث وعن إلقاء أي سؤال ، أن عم حسن في كلامه عن الرجل وكأنما يتكلم من الذاكرة ، وكأن ما في الذاكرة أقرب إليه مم ، منذ دقائق ، حدث ..

كان وكأنما يتحدث عن شخص يعرف تمام المعرفة ، عن شخص لا يمكن أن تكون تلك هذه المرة الأولى لرؤيته .. وحتى حين واجهه بهذا سكت ولم يجب ، آخر كلمة قالها العسكري قبيل أن يغادره إن طلب منه ، إذا جاء الرجل ، أن يشير له ويناديه ، وليدعه حينئذ يتكفل به ..

وهز عم حسن رأسه . وكان وجهه لا يزال محتقن الملامح في اكتئاب ..

* * *

وكاد العسكري يغضب حين علم ــ من عم حسن نفسه ــ أن الرجل جاء ، وأنه هذه المرة ألذره ، ومضى قبل أن يستطيع أن يشير له أو يناديه . كيف يمضي قبل أن يستطيع ؟ أهو كائن مسحور ..

إنه هكذا ــ مضى عم حسن يخبره ــ عمري ما رأيته قادماً ولا عرفت كيف يغادرني ..

عمرك ــ أفي المسألة أعمار ؟

بالطبع ــ قالها عم حسن ببساطة .. فليست هذه أول مرة إنما

دائماً وراءه الي يذهب ليسكن حتى يبدأ الآخرون يفدون ويقيمون العشش . ومن لحظتها يبدأ يأتي ولا يتركه حتى يذهب ..

وللعسكري ألف حق حين أحس أن عم حسن يبالغ ليس إلا وأنه من امتداد حياته الطويلة بعيداً عن المشاكل يجعل من الرجل جنيهاً أحمر . ووصاه وألح عليه إن جاء فقط أن يناديه ، ما عليه إلا أن يشير له ويناديه ..

ولم يأت الرجل في اليوم التالي . هكذا أكد عم حسن ، لا ولا اليوم الذي يليه ، إلى العاشرة حين كاد جاز اللمبة « الشيخ علي » يفرغ وسهرته التي نادراً ما تمتد أكثر ما تنتهي ، ويخمر من زبائنه قرر قضاء الليلة عنده ومن سيرحل ، هكذا في ظلمة الليلة ، ودون خوف من مجهوله وظلامه ، وكأنه في بيته صاحب الطريق إلى العشرة لم يكن قد جاء ..

وفي اليوم الثالث . كانت كوب الشاي التي قدها للعسكري عقب الغذاء ، وكان رجاؤه أول مرة يسمع فيها هذا الرجاء ، أن يساعده على الرحيل ..

وحين كان عم حسن يأخذ الكوب الفارغ ويمضي ويتمتم . لم يكن ما يتمتم به كلمات شكر كما أعتقد العسكري ، كانت كلمات ضيق وتبرم بالموقف الذي أصبح فيه ، فها هو العسكري يقف بجواره مصمماً على بقائه وعلى أن باستطاعته الدفاع عنه في حين أنه أعرف الناس أن أحداً لم يستطع ــ مع هذا الرجل ــ أن يساعده وأنه جانبه ويجابهه دائماً وحيداً ، ولا فائدة من إطالة النضال .

وبعد دقائق كان ينادي بأعلى صوته يا شاويش ..

وفي بضع قفزات كان العسكري قد ترك المكتب والدفتر ، والقيد والعربة النقل الدائرة موترها في إزعاج ، وأصبح أمام عم حسن ، يسأل : هو فين ؟!

وبيأس تام أجابه عم حسن أنه ذهب ..

كيف ومتى وهل من المعقول أن يكون قد اختفى تماماً ولم يمر بين ندائه وبين مجيئه سوى زمن كلمح البصر ؟ ..

ـــ مش قلتلك .. أهي دي عوايده .

ولأول مرة ، وبنظرة مختلفة تماماً حدق العسكري في عم حسن ، فلم يكن هناك إلا تفسير واحد ، إن هذا الرجل العظيم مجنون لابد يتصور أشياء لا يتحدث ..

وبنفس النظرة مثبتة على وجهه بالذات على عينيه الواسعتين العسليتين .

ـــ أنت متأكد أن فيه راجل بالشكل ده ..

وعلى الفور فهم عم حسن أو ابتسم في رثاء ..

وإنقضت الليلة ، وفي الصباح ، وإلى الساعة الثامنة لم يكن قد جاء عم حسن له بشاي الصبح أو بدا له أثر . ودب القلق في قلب العسكري مخافة أن يكون قد ذهب ، لولا أنه من مكانه كان يلمح العشة وجلبابه المنشور فوقها منذ الأمس ، ولم يكن باستطاعته التحرك ، فبجواره كان

ضابط ينتظر ، وعليه أولاً أن يجد له عربة ذاهبة في إتجاه العاصمة ، وهناك ، قرب العاشرة جاءت العربة ، وحتى قبل أن تتحرك بعيداً كان هو قد وصل إلى جوار العشة وقبل أن يستدير إلى الباب كان ينادي عم حسن ، وخيل إليه أنه يسمع أنيناً . وفي الداخل كان عم حسن راقداً وحول عينيه كدمة زرقاء كبيرة وصدغه وارم وواضح في هيئته أن إعتداء قاسياً قد وقع عليه . ورداً على أسئلته الكثيرة ، واستفساراته ، حدق فيه عم حسن بعينيه غير الوارمة وحدث فيه ملياً قبل أن يقول : صدقت بقى أنه بييجي ..

وفتح العسكري فمه ولكنه عدل عن النطق ، ودون أن يغير لهجته استطرد عم حسن : مش تعمل في معروف بقى وتكلم لي سواق ..

قضى العسكري إلى الظهر ودمه يغلي تارة وجسده يرتعش تارة أخرى . إنه بطبيعته لا يتحمل أن يرى أحد ضحية ظلم مهما صغر ، فما بالك والضحية عم حسن ، أحب وأقرب من أنست إليه نفسه في الحياة ، لقد قضاها كالقط الضال برياً يكاد يصل حد التوحش من الصعب عليه أن يألف ومن الصعب أن يأتلف ، حتى مع أخيه الأكبر الوحيد ، وحتى والمرأة بين ذراعيه وقد ذابت كل الفواصل عمره ما أحس أن ألفه حقيقية قامت بينه وبينها ، حتى لو كانت (نظلة) زوجته ، والأخرى التي جرى عليها طويلاً واشتاق لها كثيراً وأحبها وكانت وبالصدفة اسمها (نظلة) أيضاً ، الإنسان الوحيد الذي اخترق حجبه وهد جدرانه واقترب أكثر ما يمكن من قلبه وروحه ، وقرب قلبه ، وروحه إلى الدنيا والناس .. كان عم حسن ..

عم حسن الذي في أيام إرتبطت فيه نفسه إلى الدرجة التي لو أصر فيها على الرحيل لوجد نفسه ، دون أن يستطيع لها منعاً أن يرحل معه .. الراقد الآن يتألم متورماً ومضروباً من ذلك الرجل ، مهما كان وليكن أنسياً أو جنياً ، وليكن إبليس بنفسه وبكل جبروته ؟

كان العسكري ، ولنسمه صميدة يعمل ثماني ساعات ويستريح مثلها ، ويبادله العمل والراحة زميله ، زميل لا علاقة له بكل ما ذكرنا ، ما لاحظه ولا كان على إستعداد للإهتمام به ، فهو في السن أصغر ، وتلك أول مرة يتغرب فيها عن زوجته وابنه الحديث الولادة ، وهو دائماً ، بالخواطر معهما ، لم يحس للحظة واحدة بما على قيد خطوات منه يحدث ..

وقضى صميدة ، الأربع والعشرين ساعة بجوار صاحبه العجوز الذي رقد منها نصفها وعاد إلى طبيعته من نصفها الآخر وجلس وأكل وتحدث . وصميدة صامت يجتر الغيظ ويستعيد بغضب ما يفعله بالرجل حين يجيء . ولكن أن أناساً كثيرين جاءوا وذهبوا دون أن يبدو للرجل أثر ، حتى أغمض مرة عينيه ، ورغم أن اغفاءته لم تطل أكثر من لحظات إلا أنه كان قد حلم فيها أن الرجل جاء ، والعجيب أنه لم يكن كما تصور أبداً شيطاني الملامح يقدح الشر من عينيه ، كان يبدو كالنوع (السهتان) من الرجال ، النحيف ، القصير ، وكان وجهه (سادة) تكاد لولا وجوده أن تعتقد أنه بلا ملامح ، وربما وجهه الخالي من الإنفعال ذلك هو ما جعل صميدة يحس بالضيق الشديد منه وبالرغبة الملحة في قتله ، وهو صعيدي وعربي يعرف معنى القتل ويفهمه ، رغبة بلغ من شدتها

وإلحاحها إنه أيقظته ، وحين صحا وجد عم حسن يحدق فيه بعين مفتوحة ونصف الأخرى الذي أصبح قادراً على فتحه ، وظل يحدق فيه لبرهة ثم قال : شفته ..

وكاد يقول : شفته ، لولا أن عقله إرتبك وتساءل : كيف عرف عم حسن أنه كان يحلم ، وأن الرجل جاءه في الحلم ..

وسأله : إيش عرفك إني شفته ..

فقال عم حسن : ما هو كان هنا ولسه ماشي ..

فقال صميدة : أنت راخر حلمت به .

فاستنكر عم حسن : حلمت إيه . أنا صاحي . وجه وافتكرتك شفته واستغربت أنك ما قلتلوش حاجة ..

واحسن صميدة بالخوف ، من المرات النادرة القليلة التي أحس فيها بالخوف إلى درجة كاد يخبر عم حسن أنه يوافق أخيراً على رغبته وأنه سيكلم له أول سائق يمر ..

ولكن العناد ، ذلك الشيء المركب فينا يفسد علينا لحظات الاستسلام للواقع ، ثار وأبى . وفي ومضة كان صميدة قد قرر أما هو أو ذلك الرجل ..

وانتقل صميدة إلى عشة عم حسن يقضي فيها ساعات راحته ، والعشة نفسها نقلها بحيث أصبحت تواجه الكشك تماماً ، ولو استطاع لجعلها ملاصقة له ..

وأصبح على عم حسن ألا ينتقل من مكانه إلا إذا عرف صميدة وتابعه إن لم يكن بنفسه فبعينيه ، وأصبح على صميدة أن يظل مفتح الأعين لا يغمض له جفن ، إذا نام كان على حسن أن يظل مستقظاً قابعاً بجوار زميله ، ولا ينام عم حسن وإلا وحماية صميدة تحوطه ، ومع هذا ما يكاد الإنتباه يغفل حتى يرفع عم حسن يده مستجيراً ، ويعرف صميده أن الرجل جاء ومضى كما تأتي ريح وتمضي وأنه لابد همس لعم حسن مثلما يهمس كل مرة بتهديده ، وبأن صبره قد نفد وأنه لا محالة قاتله .. والعناد ذلك الشيء المستبد الخارق يزداد نمواً كالمارد العملاق في جوف صميدة حتى ليصبح هو الذي يسيره ويخضعه ، وكلما إزداد استبداداً وإزداد التهديد حدة كلما أصبح على حركات عم حسن وسكناته أن تخضع أكثر وأكثر حتى ليكاد يشير لصميدة لينبهه أنه يريد فتح الفم أو التنفس ..

وكان طبيعياً أن تخلو عشة عم حسن من رفاق الطريق ، ليس فقط لكل ما تقدم ، وإنما لأن صميدة قد أصبح يتوجس لدى قدوم أيهم ، وبعينيه النفاذتين يتفحص ملامح وجهه ليعرف قربها أو بعدها عن الملامح كما رآها وكما أصبح يعتقد أنها قريبة الشبه جداً من ملامح أي قادم يراه ، أو على الأقل بإستطاعه أيهم أن يحيل ملامحه إذا أراد لتصبح (سادة) كريهة كملامح ذلك الرجل الكريه .

وفي صباح جميل ، كل ما فيه جميل ، إلا ما هما فيه . مال عمر حسن على صميدة وقال :

ـــ ح نقعد كتير على كده ؟

ـــ لغاية ما يبان ونخلص عليه .

ـــ بعد يوم .. إتنين .. سنة .. سنتين ؟

ـــ حتى لو بعد عشر سنين .

ـــ طيب معاك ، ساعتها صحيح ح نخلص عليه إنما إحنا ح نكون رخرين خلصنا ، تعرف مين ساعتها ح يبقى إنتصر .. العند .. إحنا ح نكون متنا من زمان واللي عايش فينا العند وزي ما خلص عليه .. خلص علينا .. سيبني أمشي ..

ـــ وتروح فين ؟

ـــ دنيا الله واسعة يا أخي .. وإذا كان في الحتة دي عدو فالطريق مليان أصحاب ورفاق .. الدنيا حلوة يا بني وحرام تعادي فيها حتى اللي يعاديك .. عايز تغلبه سيبه ينفلق ويعاديك ، وأوعى تعاديه أنت لتخسر نفسك .

* * *

وذات يوم ، وصميدة نائم ، كان عم حسن يلقي بنفسه مرة أخرى إلى أيد الناس ، والسائق يساعده على جمع حوائج ..

وحين استيقظ صميدة ولم يجد عم حسن أو عشته أصابه ذهول أوقف تفكيره ، كأنما أحس أنه فجأة فقد كل ما له على ظهر الدنيا ، وحين أفاق ، أحس لومضة ، بالإرتياح ، فقد شعر أن العناد ينسحب من جسده ، ومعه تنسحب ملامح الرجل الكريه التي لم تغادر خياله

لحظة ، تنسحب معه فتهزمه ، لومضة أحس أن الحياة قد بدأ يعود لها طعمها الحلو ، كان عم حسن قد ذهب حقيقة وذهب معه سحره ، ولكن المكان عند التقاطع قد عمر ، ودبت فيه الأرجل وحفل بالعشش التي كانت أحداها قد بدأت تتحول إلى بناء ذي سقف وأبواب . لومضة عابرة أحس بكل هذا غير أنه أفاق تماماً من ذهوله حاول أن يجري وأن يسأل ومن السائقين والعابرين يستقصي ، لا ليعرف مكانه البعيد ، وإنما على أمل ، أن يعرف مكانه ليترك كشكه ويذهب خلفه ، وإلى الآن لم يزل صميدة مؤمناً وواثقاً أن عم حسن لابد حي يرزق ناصباً عشته عند تقاطع ما في الطريق ، ولا تزال كلما مرت به عربة نقل ، بل أن يأخذ أرقامها ويرد تحية سائقها يسأله كان قد رأى أو إلتقى بعم حسن ، وبعضهم يقول أنه من سنة رآه وآخر من شهور ، وإجابات كثيرة يظفر بها ، مرة يجده في دمنهور وأخرى في طريق البدرشين .. آه .. لو فقط يعثر له على مكان أكيد ..

يناير ١٩٦٥





العتب على النظر

من كام يوم جاءني حسن
قل لي يا دكتور
أقول لك يا حسن
هو فيه للحمير نضارات
ضحكت
فلا بد حسن يريدني أضحك
لأ. جد
لا بد يريدني لا أضحك
سكت وإليه نظرت
ما تقول لي يا دكتور
أقول لك يا حسن
مش للحمير نضارات زي البني آدمين
كل كذا عام
لك يا حسن سؤال
لا يا حسن الحمير مالهاش نضارات

طب والعمل
وحماري لازم له نضارة
ايش عرفك
بقى يضبش
ويدخل على مراتي
يفتكرها الزكيبة
هي تخينة زي الزكيبة
إن جيت للحق
صحيح تخينة
إنما مش زكيبة
يمكن بيغلط وكل حمار له غلطة
بس ده غلطه كتر
وبدأ يحرن
ويتوه عن الدار
ومرات يخبط راسه في الحيط
عشان حمار يا حسن
لا عشان بقت عينيه شيش بيش يا دكتور
وديته لحد يشوفه
شافه البيطار
وقال لك عايز نضارة
قال بيعه . دا شرك . بيعه
بيعه

ما يجبش تمنه
والحمير الجديدة سوقها نار
والحل
عايز له نضارة يا بيه
انت اتهبلت
نضارة ايه لحمار يا حمار
قول اللي تقوله
إنما أنا في عرضك
غيتني
إزاي
اتوسط لي في نضارة
والنضارة بوسايط
كله بوسايط النهارده
إلا النضارة
مش عايزة واسطة
أمال عايزة إيه
عايزة كشف
والكشف فين
عند بتاع النضارات
يبقى خلاص. فرجت
أنا وقعت م السما يا بيه
وانت استلقيتني

ست كيلات فول
واعمل له نضارة
أني حالي واقف
ومن يوم ما وغوش
أني سنقرت

● ● ●

وقعدت أضحك
افتكر حمار حسن
لبس نضارة
أموت على نفسي م الضحك
لدرجة قلت لا بد
وبكل طريقة يا حسن
أعمل لحمارك نضارة

● ● ●

لعم ناجي خدت بعضي ورحت
وعملنا اجتماع
ومن حيث المبدأ وافق
وفضل التنفيذ
والتنفيذ عايز كشف
والكشف عايز علامات
وأنهى حمار ده

اللي
ح يعرف فتحة العلامة منين
منين حا تعرف الفتحة يا حمار؟

● ● ●

وانضم حسن أبو علي لينا
وعلى أعلى مستوى قعدنا نضبش
وجانا الحل من حسن
حل مالوش مثيل
يا ابن الايه يا حسن
أما حتة حل

● ● ●

سهّم حسن وقال:
يا بيه ويا عم ناجي
الحل عند الحمار
إزاي يا حسن إزاي
فتح حسن بقه وبص لكمه الشمال
وانكسف
هو بينكسف كده
وقال:
الحل حمارة الصاوي جاري
كان ساعة ما بيشوفها

ينهق عليها
ولما نظره ضعف
ما بقاش ينهق
إلا لما يقرب عليها قوي
وكل يوم والتاني
ما كانش يزر ودانه
إلا لما يدوبك
بوزه ينشه ديلها

● ● ●

وبعد مفاوضات
والصاوي خايف على حمارته
ولولا إن عم ناجي
كبرت في دماغه
ما كانش حصل
وتم وجرى الترتيب
نوقف حمارة الصاوي على بعد قصبة
وحمار حسن على باب الدكان
وأنا أمسك شنبر الكشف
وناجي يغير العدسات
بحيث لما يحط العدسة المظبوطة
نعرف أنها هي من نهيق الحمار

ما دام كل ما كان يشوفها ينهق
فضروري لما يشوفها ح ينهق
ونعرف العدسة المظبوطة
وعدسات عينينا تنفع لعينين الحمار
تنفع ونص
قالها عم ناجي وفتح الصندوق
وصبيه طرد العيال ووقف زنهار
وحددنا مكان الحمارة
ومكان الحمار
ودورنا الحمارة
وخلينا راس الحمار
على خط مستقيم
يصل بين نقطتين
ديل الحمارة
ومناخير الحمار
وثبتنا الشنبر بدوبارة وحوالين الودان
ربطناه واشتغل يا عم ناجي
وثبت الهدف يا عم صاوي
وانهج يا حسن وكأنك حاضر
أول عملة في التاريخ
يعملهاإنسي في حمار

● ● ●

زيادة في الاحتياط ثبت أنا الشنبر
وزيادة في الاحتياط مات حسن على صندوق العدسات
وبسمل عم ناجي وكلنا وياه
وحط أول عدسة
واستعدل بوز الحمار
نفخ الحمار وعطس وهز كده وكده راسه
وكأن شيء ما كان
ثاني عدسة
خاف الحمار واتاخد وغمض عينيه
وبدأ يرفص
سهل علينا ناجي وقال: أصلها عدسة بتكبر
ولازم شاف الحمارة بغل قدامه
الثالثة مسكنا لها جامد
ورمش الحمارعشر رمشات وابتدا يبحلق
وزر ودانه
وبان عليه علامات جد وخطورة
ولحقه عم ناجي بعدسة على العين الثانية
حمحم الحمار ونفخ صدره
وزفر بصدر محروق
وراح مطلقها
تنهيقة مفاجئة خدتنا على خوانة
وكأن قنبلة انفجرت

تنهيقة وأتبعها بالثانية
ورفع للسما راسه
وتشعبطنا نمسك العدسة والشنبر
وغارة نهيق هاجت
ومعاها ضحكنا هاص
ينهق ونضحك
وحسن م الفرحة طاير ،
وحمارة الصاوي للنهيق
نخت ووسعت فتحة البرجل
وابتدا يفلفص
وحسن يصرخ : أهو شاف
ايش عرفك
شاور
شيء خرافي غريب يجعلك
تؤمن أن الجسد حيوان ساعة اللزوم يظهر
لا عقل له ولا فيه ولا أدب يعرف
حيوان حماري أسود غليظ بشفاتير
زي مارد كان في الجسم متخبي
ثانية ادلدل من القمقم
مارد طويل تخين يجعلك تتمنى تبقى حمار مثله
خرجته من جحره زي الكمين الحي يستنفر
شيء لا بد معه تتأمل

وتنكسف له
كأنك الغلطان
وارتبكنا إحنا الكل خايفين نبص
ليكون عيب
ومش قادرين نشيل عينينا
لأن البصر من مكمنه بينشد
ومن غير أمر ولا خطة، الظاهرة
عمالة وشغالة والحمار ينهق
والوحيد الباصص بعيون الفرح والفخر
حسن أبو علي صاحب الحمار
يعمر بيتك يا دكتور
تسلم إيدك يا عم ناجي
أنا طالب القرب يا صاوي
وحمارتك أهه، موافقة
والجمهور على الجوانب انتابته حالة
وكأنه بريمةاندكت في برقع الحيا للآخر
وحمحمة ورا حمحمة سخن الحمار والزمان
دا جنن الجدعان
وهب، قطعت رجليه القيود
واندفع خطوة
خطوة واحدة بس لأن العدسات نطت
والشنبر طار

وهديت تماماً وفي الحال وحين كف البصر حركة
الحيوان
وعاد أليف مستأنس
ارتخت ودناه
ودلدل بوزه
وصرخ حسن
في عرضك يا عم ناجي
الحقني يا دكتور
الفرحة ما تمت
والدنيا بقت هس
لكن حماسنا كان لسه
ومرة ثانية ثبتنا الشنبر
وجاب ناجي عدسات أضبط
والنهيق عاد
وفي السما لعلع
وما عرفناش اللي حصل ايه
في نطة جامدة كان عند الحمارة
ودماغه زقت عمك الصاوي
وقدام عينينا ظاهرة كونية
وعفاريت الجسد في عز الضهر اتجننت
ولا عاد حمارة من حمار ولا ذكر من أنثى
الحياة الحمارة بغشوميتها وغبائها أصبحت أرقى

والقانون اللي عمل أنثى وذكر أصبح مرعباً
وهو يطلق عقال طاقة الالتحام
ولا الرعب النووي له الجميع أنشل
الطبيعة بصراحة وبلا خجل وعيني عينك
تتكلم بأعلى صوت، تصرخ، تجأر
تضع في أجسادنا الزلازل، وداخلنا تفجر البراكين
لحظة اختلال كون
والاّ انتظامه
منتهى عقله
والاّ منتهى جنانه
لحظة لا قيمة فيها إلا قيمتك كذكرالطبيعة أو
كأنثاها
ولتذهب العقول والضوابط للأطفال والعاجزين
يلعبون ويعزون بها الأنفس
لحظة الفيض
الأجساد ثائرة وفائرة تدفق رحيقها
بكل بدائية تفجرات الشمس
ومد القمر
ووحشية الإعصار

● ● ●

واختفى الكل ولم يعد سوى ثلاثة
حمار حسن وحمارة الصاوي وقامة قصيرة تشب
وتريد
مطاولة الموقف واللحظة، قامة أبو علي وقد فقد،
للحظة، وعيه الكامل وملامحه وقد أصبحت تنطق
بالسرياني وتزمجر بأزيز يرعب حسن ويرعبنا

● ● ●

ولا تتصور ظاهرة مهولة كهذه
تنتهي كما انتهت، فجأة، ويحل السكون عاتياً،
شاملاً وكأنه العودة الى القبر. .

● ● ●

ودعونا من خناقة حسن والصاوي. .

فالصاوي أنشب أظافره في حسن بدعوى أن الاتفاق كان على الكشف من بعيد لبعيد فقط، ولم يكن الوثب أبداً داخلاً في اعتباره. وحسن يرد بغرور أن على الصاوي أن يحمد الله فحمارته من فرط قبحها بائرة السوق، وفي جوفها الآن نطفة حمار حصاوي منياوي لا يقل أجرها عن جنيه.

وكأنهما بالاشتباك الذي دار والعمامات التي تهدلت والصراخ والجئير يعيدون للكون نشازه بعد انسجامه، وضجته التي لا معنى لها بعد فحيح الضجيج الخالق.

أما حسن فقد أصبح قتيل النضارة، تلك النضارة بالذات، فلم يعد مهماً لديه أن يرى بها حماره الطريق، الأهم، الكسب. كان يأتي بنضارة الوثب تلك، الوثبة بجنيه، سعر محدد، منها خمسة وعشرون قرشاً بدل نظر أو بالأصح بدل نضارة.

أما عم ناجي فقد تطوع بتصنيع شنبر خاص لحمار حسن، بل وأحضر له عدسات أكبر، وأصبح حمار حسن ونظارته من معالم القرية، وبالذات نقطة جذب السياحة الداخلية لأهالي القرى المجاورة.

وعاث الحمار في أرض القرية بنظارته فساداً، فلم يترك أنثى على حالها، بل أحياناً كان يناوش حتى ذكور الحمير..

وأشاعوا أن حسن أرسل حماره لكتاب الشيخ حسنين، وأنه تعلم القراءة بسهولة تامة إذ على رأي عم ناجي: أنا مركب له نضارة تقرا لوحدها.

بل وفعلاً، وقد رأيت هذا بنفسي، كان الحمار كثيراً ما يرى وهو يحدق في مانشتات الصحف الحمراء، وإن بعضها كان يعجبه فيلعقه بلسانه والآخر كان لا يعجبه فيمضغ الصحيفة وعنوانها ثم لا يلبث أن يبصقها وينهق بشدة علامة الضيق الشديد.

وربما لهذا صمم حسن على منعه من الاطلاع على أي جريدة أو مجلة فقد لاحظ أن القراءة بنضارة الوثب تقلل كثيراً من قدرة دابته، ويخسر بعدها بضعة جنيهات من جراء «سدة النفس» التي

تحدث لحماره، عقب كل جريدة يقرأها ويمضغها ويبصقها، وجاهلاً سيصير الحمار، وماذا يهم: الأدب أو قلته فضلوه على العلم.

● ● ●

ومن يومين جاءني حسن
وسألته عن الحال، قال: لبن
وعن النضارة، قال: حديد
وعن الحمار، قال: عقّبال أملتك
ثم ابتسم، مخفضاً فتحة فمه إلى أسفل، راشقاً
عينه في كمه الأيسر، طريقته في الخجل، ثم
بتنهيدة من أعماقه قال:
ألا قول لي يا دكتور
أقول لك يا حسن
ما دام نضارات البني آدمين بتنفع الحمير، يا ترى
نضارات الحمير تنفع البني آدمين
ليه يا حسن
سألت
قال: أصلي عايز أتوكل على الله وأعمل نضارة
اليه نظرت
ورفضت أن أضحك
فماذا بالله عليكم يضحك في السؤال
بالله عليكم، ماذا في هذا رغم ذاك، يضحك؟

أمّه

في ليلة شتاء وجدها.

ثالث شجرة قبل النفق وجدها.

واحـدة من أشجار «أم الشعـور» القائمـة على جسر النيـل عند نهاية شارع قصر العيني.

كان قد طفش.

مرة أخرى طفش.

جرب عربات القطار القديمة المركونـة صدئـة على القضبان لا تستعمل.

وتحمل «العُلقَ» التي كثيراً مـا كان الخفـراء يوقـظونه بهـا حتى هجر السكك الحديدية، وجرب أسفـل عربـات النقل في «الـدرّاسة» والفجوات الكائنة في سور «فم الخليج» والمقابـر والخرائب وحـظائر المواشي في «المدبح»، وأشياء، وأمـاكن كثيرة جـربها، وكـان البشر دائماً يطاردونه، كما يطارد الكلب المسعور أو الأجرب.

كان طفش.

منذ أن طرده زوج أمه وهو يطفش.

كان يحب أمه، وكانت أمه تحبه، وأبداً لم ير أباه، إلى أن جاء ذلك الرجل وبدأت أمه تبدو ضعيفة لا حول لها ولا قوة أمامه. سكران يأتي هائجاً، ومسطولا مرة، يأتي ويفرغ هياجه وسطله في أعماق أمه المسجاة تتلوى، يأتيه صوت أنينها ولهاثها وقد أحاله وأحالها الزوج الجديد إلى سائل أنثوي ذائب من لحم طيّع وقلب بدأ بالتدريج يلين، وعنه يتحول ويبتعد.

هكذا أحس وظل يحس. كل يوم قلب أمه عنه يتباعد وناحية الرجل ونزواته العارمة يقترب، ويتشكل، ويستجيب، ويتميع، حتى صحا يوماً فوجد الرجل قد أخذ أمه تماماً مثلما أخذ الموت أباه. وحين أثمر الزواج الجديد طفلاً انتفخ له بطن أمه، أدرك أن الشعرة التي كانت تربطه بذلك البيت «الحجرة» قد انقطعت وأجبره الرجل على ترك المدرسة والعمل كصبي نجار. واستغاث بالأم مستنجداً، ولم يفاجأ أبداً وهي تصيح فيه صارخة طالبة منه أن يخرس حتى لا يوقظ الرضيع. ومالها والنجارة؟! على الأقل تعلّمك، يابن الكلب، حرفة. ابن الكلب يا أمي. أصبح أبي هو الكلب. دامع العينين قبل. . . ولكن النجار كان قاسياً وكان هو كثير السرحان والتوهان، وبالشاكوش أحياناً وأحياناً بفردة القبقاب ومعه أقبح الشتائم كان يضربه.

وطفش.

صاحب أولاداً من جامعي الأعقاب والمتسولين، وعمل صبياً في

محلات وأرغموه على أن يدفع ثمن مبيته لدى أيهم من لحمه وكرامة الرجل الطفل الذي كبرته الأيام بسرعة، يدفع الشي الكثير.

ومرة أخرى طفش.

من كل طفشان كان يطفش، من الأعور الذي حاول أن يعلّمه النشل طفش، من الأعمى الذي حاول أن يجعله يسحبه، ويشحذا معاً، طفش، فكثيراً ما كان يدفعه من ظهره بعضوه البارز أبداً. من المرأة التي أخذته ليلة وفي حضنها أدخلته، روع وطفش. والمشكلة لم تكن طفشان النهار، فمن أكوام القمامة تعود أن يجد دائماً في الأكوام، ما يأكله، لا، لم يكن يفعل كالكلاب الضالة والقطط. كان يعرف كيف يفتش وينتقي، ودائماً ما كان يعثر على شي طازج أو بالقليل غير حامض، في بحر النيل يغسله وينظفه، حتى قطع الخبز كان يغسلها وينظفها ويدعها للشمس تجففها وتسخنها استعداداً لمأدبة قادمة حافلة.

المشكلة في الليل والمأوى.

وفي ليلة شتاء وجدها. .

الشجرة جذعها من جذور ولهذا يسمونها «أم الشعور» فجذورها في الهواء، تلتحم معاً، وتجف ملتحمة، وتصنع جذعاً وساقاً، تتولى عشرات السنين تضخيمه وتكبيره ليتحمل عبء الشجرة المهول. ولأن ساقها جذور متلاصقة فهي لا تكون جذعاً مستديراً مصمتاً، ولكن يظل في الجذع فجوات هي تلك المسافات التي كانت تفصل

الجذور. فجوات كبيرة وصغيرة. مفتوحة من الناحيتين مرة ومغلقة أحياناً صانعة عشاً مسقوفاً ذا فتحة واحدة.

ذات ليلة. وهو سائر بائس ولكن غير باك، فحين يصبح البؤس هو القاعدة اليومية الليلية التي لا تتغير لا يعود الانسان يبكي بؤساً، فالبكاء، يجيء أملاً في حل أو استدراراً لأمل، أو رجاء إلى الذي خلقنا أن يهدينا للحل أو بالحل ويريحنا ولو ساعة من ألم مستمر أضاع منا حتى الإحساس بالألم.

كان الليل قد بدأ يمطر. ثم بغزارة راحت السماء تصب سيولاً تفرغ الشوارع من الناس والدنيا من الونس وتخلق في النفس شعوراً قوياً بالخوف ورغبة عارمة في البكاء.

ولجأ إلى الشجرة يحتمي من السيول التي بللته حتى وصلت لنخاع عظمه. وعلى الضوء القليل القادم من عامود نور ساطع الضوء، رأى الفتحة واقترب. وبعينيه راح يتفحصها واستغرب حين وجد لها عمقاً وكأنها كهف. وللكهف من الداخل بروزات وتجعيدات، وكأنه فم عجوز يحفل ببقايا أسنان معوجة.

دخل.

وكأنه الى سرداب سعادة دخل. فمجرد إحساسه أن قذائف الأمطار وسياخها المائية قد كفت عن الدق فوق رأسه واختراق أسماله، وأنه قد أصبح في مأمن، مجرد إحساسه بهذا، سعد، فرحة كبرى غمرته، وكأنه الصعلوك قد أهدته السماء قصراً من عجب.

واستمرأ الشعور حتى أنساه كل مالاقاه في حياته من طرد وطفشان وصفعات وإهانات وعمر مديد مليء بالألم، لم يوقظه من شعوره ذاك إلا خاطر عنّ له، أن يكون في مخبئه هذا زملاء من ثعابين أو حيات أو فئران أو أي مما يعض أو يلدغ.

وإمعاناً في إرعابه كان البرق قد بدأ. وعلى ضوء البرق إذا برق والنور القادم من العامود الصامد، شبراً شبراً راح يتفحص أرض الكهف النباتي وجدرانه ولم يعثر إلا على جزء من هيكل عظمي لكلب لا بد وأنه مات من زمن، حين رماه بعيداً وبخرقة عثر عليها أيضاً في الكهف نظف أرضه، وأخيراً قرفص وجلس، أحس أنه أسعد إنسان على ظهر الأرض، أسعد من أي ملك أو غني أو الفرماوي نفسه صاحب كل عربات الكارو والخضر.

ومن فرط سعادته راح يقاوم الخدر الذي بدأ يدب في جسده ويقوده إذا استسلم إلى نومٍ ما ذاقه في عمره أبداً. إنه هنا ليس في ملك أحد كي يطارده أحد، وليس قريباً من مخزن أو دكان ليأخذوه بالشبهه، ولا عسكري يستطيع أن يراه، ولا أنس ولا جن أو بشر. راح يقاوم حتى يستمتع بشي حرم منه على الدوام منذ كان لهم بيت وكان له أب وكانت له أم حنون يجد في حضنها الأمان والدفء والحماية من كل شرور البشر.

يقاوم الخدرالمؤدي حتماً إلى النوم. بإرادته يقاوم ومعه البرد الشديد يساعده، وكلما أحس بالدنيا خارج الكهف ترعد وتبرق والمطر بإلحاح ينهمر، وأحس بنفسه محمياً بالشجرة العجوز وحضنها عن

هـذا كله، كلما أحس بشعـور النـاجي من غـرق. المحمي في قلعـة حصينة، حولهـا وحوش الـدنيا كلهـا تعوي وتتلمظ، وهـو يخرج لهـا لسانه اطمئناناً وتـأكداً أن أنيـابها تمـاماً بعيـدة عنه وأن زئيـرها، زئيـر العاجز أن يناله، وأن الدنيا أمـان مبطنـة بالقـطيفة، وقـطيفتها الـزغبية النباتية أصبحت تحنو عليه، ويسري إليه منها دفء لا يعرف مصدره.

وصحا.

في الضحى صحا.

المطر كان قـد كف ولكن ضجة الشـارع والترام بـدت كما لـو كانت قد مضى على بدئها عشر ساعات. ظل يحدق طويلاً من خلال فتحة الشجرة إلى المارة والعربات ويجتر نصف نائم، عمره كله حتى يتذكر اللحظة التي دلف فيها إلى مثواه الجديد ذاك. وعمره كله كـوم وليلة الأمس وحدها كومة أخرى وثمة فاصل حاد باتر بينهما.

وبـأيـدٍ واهنـة وأذرعٍ متـراخيـة كسـولـة راح يتحسس الجـدار الداخلي للفجوة، كـأنما يقلب بين أصـابعه محتـويات كنـز عثر عليـه أخيراً وأصبح ملكه وفي حوزته.

وأحس أنه جوعان جوعاً لم يحدث له في حياته أبداً.

ولكن كان عليه أن يغسل وجهه أولاً. والنيل بجواره. يـا له من قصرٍ فاخر. حتى الماء يجاوره. والأمكنة وافرة لقضاء حاجته.

وكأن أيضاً، حين انحلت مشكلة مـأواه ومنامـه، تفتحت أبواب الـرزق في وجهه. فمـا كاد يخـطو بضـع خـطوات في الشـارع حتى

طلبت منه سيدة هبطت لتوها من الأوتوبيس أن يحمل عنها حقيبتها. ورغم ثقل الحقيبة، فقد أحس بها في خفة الريشة. ولأول مرة في حياته يفطر فولاً وطعمية، وبصلاً، ويشرب شاياً ويدخن سيجارة من أولها لآخرها.

وسرح في شوارع المدينة. وكان رزقه واسعاً في ذلك اليوم. فحين جاء الليل كان في جيبه ما يكفيه لدخول سينما الروضة ويعشيه ويبقى معه أيضاً «ريالاً» يبدأ به يوم غده.

وأحس وهو عائد من السينما بعد أن شاهد فيلمين أنه في طريقه إلى مكان أصبح عزيزاً عليه تماماً. أعز عليه من بيت أو مكان سكنه. شيءواحد كان يخنقه إذا فكر فيه، أن يعود ليجد المكان مشغولاً بقاطن آخر اكتشفه. ولكنه كان دائماً فاتحاً فاه، فارغاً، ينتظره، ولولا أنه خاف على نفسه أن يجن لاندفع يحتضن جدرانه من الداخل ويغني لعبد الحليم حافظ ويصرخ في المارةجميعاً: لقد أصبح لي مأوى. بل إن سعادته القصوى كانت أنه قد أصبح له شيء يخصه. مكان ينتمي إليه. وكأنما عثر على عائلة لا أب فيها يموت ولا زوج أم يقطع جسده وينهش كرامته. أصبح له هو، التائه في بحر الحياة، مأوى.

ولكن الليلة كانت باردة، وظل مغلق الجفنين والنوم مستعصٍ عليه، وماذا يهمه حتى لو قضى الليل بطوله ساهراً، في الصباح أيضاً سيكون المكان ملكاً خالصاً له لا ينازعه فيه أحد، ولا يوقظه، إذا نام، من نومه أحد، مكانه، بيته.

ولكن البرد ازداد حتى بدأ يرتعش. سيقضي نصف يومـه التالي يبحث له عن خرق أو أجولة قديمة تغطيه فالبرد أصبح لا يطاق. مهما قرفص، وحشر نفسـه وألصقها بـالجدار الـداخلي للشجرة. بـل حين راح يحـك جسده في الجـدار النباتي النـاعم بالمقـارنـة إلى الجـدار الخارجي الخشن، لم يواته الدفء أبداً.

أحس، قـرب الفجـر، شيئـاً فشيئـاً، أن ثمـة دفئـاً مـا قـد بـدأ يشمله، أيكـون دفء الحمى؟ أيكون قـد أمرضـه البرد، وأصبـح في طـريقه إلى عـطس وكحة ومـرض إذا داهمـه فحتمـاً سيقضي عليـه؟ وتحسس جبهته، وقارن حرارة يديه بحرارة جسده، لا، لـم تكن هناك حمى، ولكنـه يحس بـالـدفء ملمـوسـاً لا يعـرف مصـدره، فقط حين ـ بحكم العـادة ـ ملس على جدار الشجـرة الـداخلي، أحس أن الحرارة تنبعث منه. وخاف، حتى كادت الـرعشة، رعشـة الرعب من هذا الدفء الغريب المجهول، تعاوده.

ولا بد أنه خرف أو بدأ يخرف، فقد لمعت في ذهنـه الطفـولي فكرة، أن الشجرة العجوز قد بدأت تدفئه، وتفعل مثلمـا تفعل أي أم حين ينكمش ابنهـا في حضنهـا، وتحس أنـه بـردان، فتـدفئه!.. وتخـريف أو لا تخريف، أعجبـه الخـاطـر تمامـاً واستـراح حتى كفت أسنانه عن اصطكاكها، وأطرافه عن الرعشة، ووضع رقبتـه تحت ذقنه ثم دفن رقبته بين ساقيه وكأنه يتخذ وضع الوليد في بطن أمه.

ونام.

وكمـا انتمى إلى الشجـرة تمـامـاً وأصبحت ملجـأه وملاذه من العالم الخـارجي الشرير، حتى أصبح يأوي إليـها في عز النهـار هربـاً

من القيظ حين جاء الربيع وجاء معه الحر، فوجىء ذات يوم وكأن الشجرة كانت ضائعة هي الأخرى، وبلا قريب مثله، وبدا كما لو كانت فجوتها تتحور لتأخذ شكل جسده، بل فوجىء ذات يوم بعرق داخلي منها يبرز ويمتد إلى الخارج من فتحتها ويواليه بالطبطبة وبالسقيا حتى لفي أسابيع قليلة يكبر ويكاد يملأ فتحة الفجوة ويصنع لها باباً يكاد يخفي الفتحة، بحيث لم يعد يعرف مكانها سواه.

ودون أن يدرك هو ما يحدث، وبالطبع دون أن تدرك الشجرة، بدأت علاقة أكبر من مجرد الانتماء، والحنان المتبادل، والبرودة تغمره بها صيفاً، والدفء تغطيه به شتاءً.

أحبها أكثر مما أحب أمه، لقد كانت الحضن والبيت والظليلة والعائلة وكل ما يمت إليه في الدنيا.

ولا يدري كم من الزمن مضى، عام أو عشرة أعوام، فالزمن كان قد توقف به عند اللحظة التي اكتشف فيها أم الشعور، تلك التي دبت الحياة في كل أنحائها تماماً، واخضر كل مكان متخشب فيها، ورغم أنه كان قد وفق إلى «صنعة» وأصبح صبياً في محل «دوكو»، ويكسب، إلا أنه لم يستطع أن ينتزع نفسه منها، ومن جوفها «الحضن».

ولكن شيئاً فشيئاً بدأ يحس أن الفجوة تضيق عليه، إذ كان - دون أن يلحظ - قد كبر، وكبرت معه سيقانه وأذرعه حتى جاء اليوم الذي لم يعد يقدر أن يحشر نفسه داخلها.

وهكذا الدنيا، فقد كان عليه ذات يـوم أن يجمع حـوائجه التي خبـأها في ثنـايات فجـوتها، ويـودع الخُن الذي أصبح من الداخـل أخضـر كله، ويذهب ليقـاسم زميله في المحل، وصـديقه، الحجـرة فوق السطح التي كان يقطنها الصديق وحده.

وليال طويلة قضاها لا يعرف كيف ينام على فـراش وهو الـذي تعود على حضنها الحي، وعلى وضعه الجنبي المريح داخلها.

ولكن الأيام تمضي، ويتعود الـرقاد فـوق فراش، ويقـارب سن البلوغ، ويبلغ، ويلهيه العمل الشاق طوال النهار والسهر الـطويل مـع الصحاب والشلة حتى نسيها، بـل نسي الشارع كله وقـد انتقل بعمله وسكناه الى شبرا.

وذات يوم أرسله الأسطى في مشوار لفم الخليج.

وفجأةً وجد نفسه يقفز من الأوتـوبيس عند نهـاية قصـر العيني، ويسرع إليها ووقف مشدوهاً يرقبها.

كـانت أوراقها الخضـراء كلها قـد جفت وأعضـائهـا الجـديـدة والقديمة تخشبت وبابها النباتي اندثر.

كما لو كانت قد ماتت.

وأحس بغصة ما قبل البكاء.

وبكى.

أمه.

الخروج

تشنجت الرغبة في الساق أن ترفس. أمر أقوى من الرغبة صدر. الحركة والخوف من الحركة. التجمد الذي يسري ساعة الضياع. لا. ليس أعمى. هو يرى، ولكن ما يراه ظلام. متى كان أعمى تماماً؟ ومتى بدأ «يرى» ظلاماً؟ هناك فرق. يرى ظلاماً، ولكنه يرى. يراه. المؤكد أن رأسه تصله رؤيا الظلام.

مذهل ما حدث. لحظة أن يتكامل الوعي بالموقف، يضيع الموقف.

يضيع المفتاح والحل. ويضيع هو.

من أين جاء الموقف؟ بل هو نفسه من أين جاء؟ ومن هو؟ لم يكن يسأل. ولكن السؤال هناك. بل كل ما هناك أسئلة.

ولا جواب. لا جواب.

تكاثر الأسود في الظلام.

من فرط التراكم بدأ يحس بالظلام ثقيلاً وأثقل أثقل.

إنه يختنق.

الصدر يرتفع وينخفض. الهواء يمر بحلقه .ولكنه يختنق.
تشنجت رغبة أخرى في ساقه، أن يرفس.
حتى والأمر الناهي موجود، رفس.
ومرة ثانية رفس.
فالأولى لم تذهب بعيداً.
ارتطمت بالمستحيل.

• • •

عقب العشاء، والعائلة كلها هناك، وكل فرد فيها قد انتحى ركناً من حجرة القعاد يلتهم البطيخ، تكرع هو، وبينما كان شيء يرقرق في صدره ويقول: أنا أسعد مخلوق على سطح الأرض، كان فمه يتمتم: الحمد لله. ألف حمد لك. ألف حمد.

بعد ثمان وأربعين ساعة كان كل شيء قد انتهى.

وحيداً كان جالساً في نفس الحجرة، يحرك كتفيه لما فوق جذعه ويجأر بلا صوت: لماذا يا رب.. لماذا؟ باكياً ولا يذكر بالضبط ما حدث وكأنه قد مضى عليه عام..

ولكن البداية يذكرها تماماً. لحظة دق الباب. فتح ابنه الأكبر. بلا وعي، أصاخت الأسرة للحوار الذي دار وطال، وبدأت ابنته تتسلل ثم زوجته، ثم أخيراً هو. وحين وصل لم يكن ابنه هناك.

وارتفعت الأصوات، وارتفعت الأوامر. اذهب. اذهبي. هاتي الملابس حالاً . .

في القسم كان النور معتماً. والنظر. ما هذا؟ بالتأكيد ليس حلماً ولا كابوساً. ولكن الولد في الحديد، من القسم الى النيابة.

السيارة باسمه. ولكنها سيارته. بضائع مسروقة في حقيبة العربة.

بضائع من؟ أودعها عندي صديقي ليبيعها. الصديق يأتي نافر العود، مؤكداً أن شيئاً من هذا لم يحدث. المبيت في قسم البوليس. الولد يكاد يبكي من الغيظ، ولكن شيئاً ما في طريقته لا يعجبه. المحامي، أكبر محام. خمسمائة جنيه فوراً. دفعها صهره.

مفتخر الملابس ذهب المحامي في الصباح. مفتخر الملابس خرج.

استمرار أربعة أيام. في نفس حجرة القعاد تصرخ زوجته:

لو كنت ربيته. طالع لك، طالع لأخواله. طالع لعيلتكم، أخوك حرامي. اخرسي. اخرس انت. لم يكن قلماً ولكن يده هوت بنصف غضب. قلمها كان غاضباً وحاداً ومليئاً بالكره. مليئاً بالكره لم يؤلمه القلم وإنما كشف له الكره عن وجه غريب لم يره من قبل. وجه امراة عاشت معه خمسة وعشرين عاماً تكرهه. غلالة رقيقة، كجلدها الدهني، كانت تستر الكره، تحيله أحياناً إلى ضحكة سعادة وربنا يخليك. تكرمش الجلد كارهاً، نافثاً حقداً معقداً أسود.

رفع يده. يصفع. تعلق الابن الثاني، والبنت في الذراع.

دفعهما. اندفعت البنت، ودفعه الولد، دفعة غليظة أسقطته فوق الأرض.

قام هاجماً كنمر مفترس. ماذا حدث؟ هل ضربه الولد لكمة أداخته، هل هي لكمة منه، وصفعة منها، وعرقلة من الابنة؟

أنت طالق.. اخرجي من بيتي أنت وأولادك الحرام.

اخرس.

قالها الولد.

اخرج أنت يا كلب.

قالتها الزوجة.

بلاش قلة أدب..

قالتها البنت.

في عملية جمع الملابس. سيحرقهم جميعاً. خائف على نفسه أن يتوقف قلبه عن الدق ويموت قبل أن يحرقهم. مرارات الدنيا كلها تتجمع في حلقه فأحد لا يأتي ويرجو أن يبقى، لا أحد.

في حجرة الفندق الرخيص فرت من عينه دمعة، لحقتها دموع.

من يهن يسهل الهوان عليه، ما لجرح بميت إيلام. لن يهون أبداً. لن يهون. والواجب سيؤديه كاملاً. سيخرج الولد من السجن أولاً ثم يتفرغ للأفعى وأولادها. على باب القسم كان ينتظره صهره. قبل أن يقول أهلاً كان وجهه يطالب بالمبلغ. حسابه في البنك يسمح تماماً بالمبلغ ولكن النقود باسمها. الصهر لا يفهم. بوجه صارم يطلب

موعداً. بعد غد. بعد غد وإلا. لا داعي لـ. . إلا. بعد غد يعني بعد غد.

قال له رئيسه: تأخرت. هذه ليست وكالة. لم لسانك. هذه قلة أدب. خد. آه يا كلب. خد. وما لم يستطع أن يفعله في حجرة القعاد، فعله هنا في المكتب الفاخر. وعلى صوت الاستغاثات جاء السعاة والموظفون. وتحقيق طويل طويل. وإيقاف فوري عن العمل.

في حجرة الفندق المكتومة، قال: على الأقل ما أزال حياً، لم أمت بعد.

● ● ●

لم يعد ذاك البياض الناصع أبيض، أغبر البياض، واحتقنت جزئياته وتعقدت وانبثقت شبكة عروقه كالعنكبوت الأحمر جرى فيها دم. في كل ثانية يتوالى التغيير. ويتعقد أكثر. انتفاخ بدأ ينبض. انبعاجات. نتوءات. أشياء كالغضاريف، مكونات مجمعة مبعثرة لا معنى لوجودها معاً بالمرة، تكبر وتتقارب وتكبر وتتباعد حوافها وتتداخل. ثم فجأة وكأنما قد أضيف إليها عنصر هام فعال ناقص يصبح لكل شيء معنى. معنى واحد ينتظم الكائن الجديد كله. معنى واحد يعطي معنى لكل ذرة وجزيء وجزء. وتنتظم الأجزاء والجزئيات والكل حركة واحدة، ذات معنى محدد واحد. الحياة أنا. أنا أحيا.

الذرات تأمر الذرات. العضو يأمر العضو. الأمر الأكبر صادر من أعلى.

● ● ●

في الصباح رد تحيته شاويش الحجز بقرف. ابنك فقأ عين مسجون مرحل. برز له من باب الحجز وجه رفيع أصفر. ابنك مظلوم. المجرم حاول الاعتداء عليه بالقوة ولو كنت مكانه لفقأت العينين. أين الولد؟ أمام الضابط يا حضرة الضابط، كلمة. ولا كلمة. س سؤال. هل هتك عرضك فعلاً؟ أرني نفسك. يغلي الولد بالغضب يثور. يضربه الضابط.

يثور الأب. يضربه العساكر. وخارج القسم يلقونه.

يعود مغلوباً يسأل. المسجون أخذته الإسعاف الى المستشفى.

أمام قسم العيون ينتظر ممنوعاً من الدخول. بالرشوة يدخل

يا دكتور: العين انفجرت، خيطناها، وهو وحظه.

لو ضربت سنستأصل عينه الأخرى. أعمى هو قد أصبح. إلى أين يذهب؟ جرياً الى المحامي المفتخر. المحامي مستريح تماماً يقول، المحضر. المسألة في يد الضابط. وفي يد الضابط يدس خمس ورقات بمائة جنيه. فيدفعه الضابط كمعن أصيب بلدغة. يفتح محضراً بمحاولة رشوة والشهود اثنان من أمناء الشرطة. الظلام الكامل حل. شعاع ضوء. المحامي جاء وتوسط. الظروف حرام. راعيها يا سعادة الضابط. كله منها. حين كان يغضب منها أو تغضب منه كانت الدنيا تظلم. ليصلحها الآن وفوراً. التاكسي حين يركبه يجده ذاهباً إلى شبرا. يهبط في منتصف الطريق يتطلع. لا يعرف أين هو. الحي غريب. وبيته يبدو في آخر الدنيا. في آخر الدنيا.

وحين يصل يجده مغلقاً، ولا أحد في الشقة. على البسطة يجلس. أراد أن يبكي، كان قد وصل إلى ما وراء البكاء. انتظر. عاماً كاملاً بدا انتظاره. جاءت ومعها الابنة. ما إن رأته حتى خلعت فردة الحذاء، شرر عينيها يصب اللا تفاهم المطلق، فتح فمه. هبت عاصفة من فمها. أطل الجيران. اندفع إلى الشارع يجري. قابله صهره. الخمسمائة جنيه. وصل أمانة يستحق الدفع اليوم. الدفع أو الحبس.

في حجرة الفندق أصبح التنفس صعباً.

لا، ليس الآن أرجوك أيها الموت ليس وأنا مهزوم ومسحوق.

انتظر حتى أعود إلى السباق واسترد الجميع. الزوجة والأسرة والأبناء. وبالذات هذا المحبوس في جريمتين. ليس الآن.

دق الباب. دخل أخوه. استراح تنفسه. لم تعد المسألة إذن سراً. استراح تنفسه أكثر حين بدأ الأخ يؤكد له أنه لم يخطىء، وأنه كان بالضبط سيفعل مثلما فعل. ولكن. آه من لكن حين تخرج بعد نهاية المواساة. ولكنك كان من الممكن أن تفعل وتفعل. وكأن كان له خيار فيما يفعل وفيما لا يفعل. ساعة القضاء يعمى البصر. ويعمى الفعل. فهو أبداً لم يفعل. إنه مسير فيما لا يفعل. دفعة إثر دفعة وكأنه كتلة لا وزن لإرادتها. النهاية، معاك فلوس؟ وتنحنح، وآه من الأخ حين يتنحنح، وينخنخ وفي النهاية يستأذن.

وجاءت أمه وخالته، أمه تنحو عليه باللائمة، وخالته تطبطب.

أهـذه آخر تـربيتي فيك. بكـرة كله يتعـدل. متفـائلة يـا خـالـة كعادتك تفاؤلاً دائماً لا معنى له بالمرة. مع السلامة يا ناس.. اتركوني واطفئوا النور.

وفي الظلام أحس أن الظلام يتكـاثر، وأنـه يجثم على صدره، ولأول مرة كان يـرى الظلام رأي العين وتشنجت الـرغبة في سـاقه أن يرفس.

● ● ●

وكان مفروضاً أن يؤكد له انبثاق الرغبة أنـه لا يزال حيـاً، وكان مفروضاً أن يدفعه الإحساس بالحياة أن يفرح. ولكنه لم يفرح.

فمن زمن طـويـل والإحسـاس عنـده بـالحيـاة لم يعـد مـرادفـاً للإحساس بالسعادة أو الفرحة. منـذ زمن بعيد جـداً حدث هـذا، بعد أن ذاق كل أوليات الأشياء، أول بدلـة، أول نجاح، أول جنيـه، أول نظرة حب، أول ليلة مع امرأة، أول ليلة مع امرأته، أول تـرقية، أول أمـل. منذ زمن سحيق لم يعـد هناك أمـل، كله تكـرار لـلأول، حتى الإحساس بالحياة لم يكن يحمل إلا مزيداً من الإحساس بالمسؤولية، الحيـاة أصبحت مهام، كلمـا أحس بها عليـه أن يربط نفسـه بـالتـزام وبسرعة أكثر، لتحقيق هدف، ولا نهاية لتحقيق الأهداف، فوراء كـل هدف هدف، ووراء كل هدف هدف.

ذات مرة كان أقصى أحلام حياتـه أن يكون إيـراده الشهري الثـابت مـائة وخمسين جنيهـاً، حين أصبح يصـرف مثلهـا في اليـوم الـواحـد

أصبح الهدف خمسة آلاف وعشرة وكلها ثابت أيضـاً. أن يخلف ولداً أصبحوا ثلاثة وبنتاً. أن يتعلمـوا ويتخرجـوا. تخرجـوا وأصبح الهـدف جديداً. أن يعملوا، وهدف أبعد. أن يتزوجوا. وأبعد وأبعد. أن يكون له أحفاد. أعز الولد ولد الولد. وهي. أقصى أمله كان أن تنظر نـاحيته عن عمد. حين نظرت أصبح أن يكلمها. حين كلمها. يقبلها. والزواج كـان مستحيـلاً. تحقق. أن يلعب بـذيله، ويستمـر، لعب، أن يلعب أكثـر، لعب أكثر. يحـافظ على«السعـادة الـزوجيـة»، حـافظ وجـرب السعادة والتعاسة، والخناق والصلح، وتهـديد بـالطلاق، والـطلاق، والنـدم، والعودة، والصلح، وشهـر العسل الثـاني والثـالث والـرابـع حدث ويحدث، كل ما في الأمر أنه أصبح مكلفاً أكثر.

كان مفروضاً أن يدفعه الإحساس بالحياة أن يسعد. مثلما سعـد أول مــرة. أن يشفى.. يشفى من ذلـك المـرض العضـال. التهــاب المفاصل الذي أرقده، وجعل حلم حياتـه أن يتمكن من السير مجـرد السير، مرة أخرى دون مساعدة أو شماتة من أحد. عاد يسير، ويمشي. ويجري أحياناً، ويلهث، ولم يحس أبداً أنه سعيد، حتى وهو يتذكـر كيف كان كسيحاً وأعرج ومكبلاً، يقبل يده ظـاهراً وبـاطناً أن الحمـد لله، ولكن هذا الإحساس العميق الشامل الصامت بالنشوة، إنه سنعيد حقـاً وصـدقــاً، لم يحـدث، وإن حــدث فلثـوان معــدودة بـالضبط كالإحساس أنه الآن، حين نقولهـا، قد مضت ومضـة، ومرت ثـانية، صحيح ليس مثلها مثل أي ثانية أخرى، ولكن الغريب أنها لهـا نفس طولها، ثانية أخرى مضت.

عـريضـاً، واسعـاً، شـامـلاً، كـان إحسـاسـه بـالحب والألفـة والتـواصل مـع كل بـاقي الكون. في النهـار يحب الشروق حين تبـدأ الشمس بغمـزة جفن في الأفق، تشـرق. والنهـار رائـع بوضـوحـه، وإشعاعاتـه، وتحقق كل شيء فيـه، كل أحـلام الليل تتحقق، إذا لم يكن صباحاً، فعلى الغداء، فإذا صعبت لا يـأتي عليها بعـد الظهـر، وما أروع العصر حين يجيء كالذهب الرقيق السائـل يسدل فـوق كل شيء وقـد تحقق، كل أمنيـة وقـد حققت النهـار وتحقق النهـار بهـا، والآن جاء وقت أن تغلف بالعصر الملون الشفاف وتصبح هديـة ذلك اليوم. الليل جميل. نجومه هناك تبرق بفرحـة الوجـود مع غيـرها معـاً وتتلألأ، تزف القمر وتتلألأ وتبـرق. كل شيء حلو ويستحق المحبـة. الإحساس برجولته المبكرة، يحب شكله في المرآة، يطيل التأمل فيه ويحبه، الكلية التي اختارها وحقق اختياره، والمهنة، ومكان التعيين، ولحـظة تسلم العمـل، كـل شيء، حتى بصعـوبـاتـه، يسعـد. حب واسـع، شامـل لا نهائي الامتـداد، يشمل كـل شيء، وكـل انسـان، يحب القرية بيت بيت وانســان انسان، والمـركز، واسم محـافظتهم، ومصر، والدنيا، يحب الدنيا. والعالم. حين تذكر أمامه أو يذكر كلمـة البشـرية، يحس بـالجنس البشري، جسـد دافيء بالحيـاة. هـاديء، صاخب، متدفق. يسبح فيه ويشربه ويغوص في أعماقه، ويطفو فرحـاً عابثاً، مندفعاً فوق سطحه..

وإذا بـذاك الإحسـاس، كـالبحـر حين يتحـول إلى بحيـرة، والبحيرة إلى فوهة. تنكمش غلالـة الحب وترق، وتتحـول إلى بقعة،

بالكاد عائلته، بالكاد وبالكاد عائلته الأصغر. فابنه الأوسط قد اخشوشن تماماً ونمت له ذقن وأغرزت، وبدأ حتى يصيبه، كخاله بعض الصلع. ابنه الأكبر اتخلع بعواطفه تماماً وأصبح على وشك أن يقيم له بيتاً آخر ويتزوج. تكاد العلاقة تصبح رسمية. لم يعد يستطيع أن يلعنه إذا غاظه أو حتى يعلي عليه صوتاً. حب، هذا حقيقي، له ولأخويه، ولكنه حب المتأكد أنهم مستقلون وقادرون، بل وأصبحوا أنداداً يكاد لولا الحياء يقول لأيهم : ياسيد.

البنت الحلوة الطفلة ذهبت أيام اللعب معها والضحك والقبلات والأحضان التي وكأنما كان يحضن بها الدنيا، أو بالأصح السعادة كلها الكائنة في الدنيا، حضنه، شيئاً فشيئاً قد أصبح يملؤه جسد يتضخم حتى صار جسد أنثى لا تتفتح كل مسامها حين يضمها وإنما يتكور وينكمش ويستقل ويتحدد جسداً ثم في النهاية تصبح امرأة أخرى.

وزوجته الغرام، الغرام حين يطول يصبح عادة غرام، وقصة الحب حين لا تنتهي كما بدأت، فجأة يصبح لها خرير مستمر واثق موثوق به لا يحمل مفاجأة أو نكسة. ومن التكرار تتشكل زمالة اثنين أصبحا فرقة لا يتباريان وإنما، معاً، يلعبان مع الحياة اللعبة. واللعبة طويلة مهما طالت لا بد أن تنتهي كالدائرة المفرغة، مشكلة لا حل لها إلا بحلها..

بالكاد لم يعد قادراً إلا على حب الأسرة.

بل في الواقع ذكرياته عن الأسرة. فالطفل الذي يحبه، طفلاً، كان، إذ هو الآن رجل كان ذات يوم ابنه، والزوجة كانت غراماً، والحب كان حباً، حباً لذاته، اليوم أصبح تعلقاً شديداً، أصبح أنانية، وكأنما هو الحب للنفس يتخذ أبعاداً أخرى.

كل شيء استحال وتغير. كان يستطيع أن يواجه الدنيا بجيب ليس به سوى قروش. الآن يرعبه لو نقص الحساب رقماً أو خانة. كان حين يهدد أن يترك البيت كان يفعل هذا بإحساس من هو على يقين مطلق أنه يستطيع، من جديد، وفي التو، أن يبدأ حياة أخرى. الآن يرعبه مجرد أن يبتعد عن الدار أو أن يبعد أنملة عن الخط الذي فرضته عليه حركته مع الدنيا. الدنيا التي تلخصت في خيمة صغيرة مركزها حجرة القعاد في بيتهم وأقصى أطرافها رحلة لأكل العيش ولجلب ما عند محيط الدائرة والخيمة إلى مركزها. مركز الدائرة المفرغة والخيمة المفرغة إلا منه ومنها.

ينكمش. يضيق. يتغير. الطعم يتغير. ما يمتع لا يمتع. ما يشبع لا يعود يشبع. والحياة يتغير لها الهدف. من وحده مسئول عن الإبحار إلى فنار يتحقق. إلى فنار بعد فنار. إذ به يصبح مسئولاً عن صياغة حياة «سوية» للأولاد الثلاثة والابنة. من أجل أن يصوغ هذه الحيوات لا بد أن يعيد صياغة حياته هو، لكي تصبح مثلاً يحتذى. بجماع قواه يمسك بزمام كل منهم. وبالزمام العام لا يريد أن يفلت، وشيئاً فشيئاً لا يعود يعرف أهو السجان للخندق الذي يريد أن يمر كل شيء فيه حتى يستقيم ويعتدل، أهو السجان أم في الحقيقة السجين؟ حريته تضيق إلا عن الأفق المحدد بصرامة، إذا أرخى العنان فلت الجميع.

إذا شدد تماماً ينفلت الزمام. بأي قوة قاهرة يمنع القبضة أن تكون أضعف. حتى يستغرقه الأمر كله ويتلخص العمر في خطو دءوب نحو ماذا، نحو أن تنتهي المهمة، أن «يتحرر» وأبداً لا تنتهي المهام، فانتهاء المهمة لا يفعل إلا أن يكشف مهمة أبعد. والعائلة التي كان أفرادها طوع بنانه تشتد فيها السيقان وتقوى وتخشن. بصعوبة يستطيع أن يغير إرادة أو رغبة. الشجيرات أصبحت كل منها شجرة، رفعت الخيمة المحكمة التي كانت تضمها، رفعتها فوق قممها فبدت في النهاية كالعلم الممزق، كبروا عليه، وصغر عليهم، ولم يعد في النهاية إلا صرافاً عليه باستمرار أن يملأ الخزانة، وويله إذا يوماً فرغت، فسبب وجوده والمبرر الوحيد للخضوع له يكون قد تبدد..كم أشرفت هيمنته الباقية أن تتهاوى، وكم تغابى وأحنى رأسه للعواصف كي تمر ليبقى كل شيء وكأنه على حاله لم يتغير، وكأن العائلة متماسكة، هو الأب القوي وهي الأم المثلى، وهم الأولاد الطيبون الناجحون باسم الله ما شاء الله.

ولكن، ، كان محتماً، ولا مهرب منه، يوم تتطور فيه مشادة، أو يحدث حادث، أو يشتبك مع ولد، أو يحدث لأيهم مشكلة، أو يدق الباب ويدور حوار يطول وينتهي إلى تهمة، وتتمزق الأقنعة.

وفي الصباح كانت الغرفة أضيق وأثاثها أكبر، وكان النور هناك، ولكنه يوضح كم الدنيا ظلام، وكم الهواء قليل، وكم هو يقل وسادر في إقلاله، وكم هو يختنق، ويحس أن كل ما كان يجري لم يعد يجري، كل ما كان يتفتق عن العقل من حيل ومن حلول، لم

يعـد يحل أو يـربط. أطبق الواقـع الـرهيب ولم يعـد يقـدر أن ينبس، وتشنجت الـرغبة في سـاقـه أن يـرفس. رفس. ارتـطمت السـاق بـالمستحيل. مستحيـل أن يخرج. العمـر فات. والـواقع أكبـر من كل الطموحات والإرادات.وما يهمس له بالتمرد ما هـو إلا شيطان شـاطر. عليه أن يطرده ويستكين إلى حيـاته فلم يعـد في العمر قـدر ما مضى منـه، وبيته وأولاده ومشـاكله هي عمره الـذي فات ولا بـد أن تكـون عمره القادم أيضاً.

أنا غلطان..

سيل من الصراخ والعويل مختلط باللغط.

غلطان..

عيون تحدجه بالاتهام والتعذيب وتسوق له، شتـائم، جارحـة، يراها وينزف لها، ويبتلعها.

غلطان. غلطان يـا ناس. غلطان. أنـا المسئول عن عبث الـولد وسجنـه، مسئول عن إخـراجه وتـزويجه، مسئـول عن الدورق الـذي كسـر والتليفزيـون الذي لا يعمـل، مسئول عن عـدم تطبيق الشـريعة الإسلامية والتعذيب في السجون والحربين العالميتين: الأولى والثانية وإذا اشتعلت الثالثة أكون أنا المسئول. غلطان.

وحين سكت آخر صوت في البيت وآخـر احتجاج، وكـأن شيئاً ما كان، تشنجت الرغبة في ساقه، بحدة، أن يرفس..

ولـم يستطع.

كانت آلام المفاصل الحادة قد عادت تشل ركبته.

أخرج الولد من السجن، وقيدت القضية جنحة، واستعاد عقد الشقة وأصلح التليفزيون، واصطلحوا مع الجيران، وبدأت الزوجة تتحدث عمن ترشحه لخطبة الابنة، وتقطع الحديث بضرورة شراء جهاز تكييف فهي لا تنام من فرط حرارة الجو وصوت جهاز الجيران..

وحين ناموا جميعاً، وبقي هو ساهراً، لم ينم إلا بعد أن خبط رأسه في الحائط عدة مرات..

● ● ●

في منطقة معزولة من شط الليل عند القناطر الخيرية، جلس وقد مدد ساقيه الحافيتين في الماء. الجو حار ولكن النباتات الشيطانية تلتهم حرارته، ويصدر عنها وعن ماء النيل رائحة كرائحة ما قبل نشأة الحياة. الصنارة تغمز، غمزاً ثقيلاً.. دفقة فرحة غامرة تنداح في صدره. قلبه أخيراً ينبض ذلك النبض المدوي العالي، كنبض أول قبلة. أخرج السمكة. بلطية فتية وزنها لا أقل من كيلو ستتكفل بمصاريف اليوم وما تبقى من النهار ويفيض ما يكفي علبة الدخان، ويبيت الليل عند الخفير في عشته وهدية لابنته السمراء المليئة بحيوية البلطى ودفء ماء النيل في الصيف.

وكشبح يطفو من الماضي داعب ذاكرته ما قرأه في جريدة تركها صاحبها في الحدائق، ورأى فيها صورته، صورة بطاقته الشخصية العجوز الجامدة الملامح: خرج ولم يعد، رجل في الخمسين أسمر

الملامح حليق اللحية والشارب أبيض الشعر، يرتدي جلباباً مقلماًوشبشب زنوبة، من يجده يتصل بهذا التليفون أو بالعنوان.. خرج ولم يعد.. خرج ولن يعود أبداً والحياة لا بد قد سارت من بعده أفضل بكثير مما كانت تسير به.

أبداً لن يعود.

● ● ●

لم تعد الساق حين ترفس تجدي. تشنجت الرغبة هذه المرة في الرقبة، بجماع رقبته دق بمنقاره على الجدار الأصم، رن المنقار مرتطماً بالجدار. بآخر ما تبقى في قمة البيضة من هواء امتلأت حوصلته فسدد منقاره ودق. انتهى الهواء وانهال برأسه المدبب على الجدار مختنقاً، دقاً مستميتاً يدق، آخر دق.

لا يعرف لماذا يدق، وإلى أين هو صائر، ولكنه مختنق يدق ويدق. لا يعرف إلا أن حياته كلها تلخصت في أن يدق ويدق!

وفجأة..

انهارت قطعة دقيقة، وأخرج المنقار منها، ورغماً عنه تنفس، هواءً كثيراً يدخل الحوصلة ويزيده نشاطاً ينهال به على الفتحة يوسعها، فيخرج رأسه، ويحطم ما تبقى من الجدار فيخرج جسده الكتكوتي المرتعش.

النور باهر يغلق عينيه.

الهواء كثير وفسيح ودنيا واسعة واسعة أوسع من كل قدرته على الرؤية. .

وانتفض يسقط ما علق بجسده، وانطلق في مرح لا نهائي يجري.

لماذا أصر على الدق والدق حتى كسر الجدار؟ وهو لم يكن يعرف أنه جدار؟ وأن خارجه كل ذلك النور والاتساع؟ أهي قوة مجهولة داخله كانت تعرف؟. أم هو الضيق بالاختناق دفعه أن ينقر وينقر ليموت نقراً وضيقاً؟

لا الكتكوت يعرف.

ولا هو قد عرف.

فالإحساس الطاغي الوحيد لكليهما أنه الآن في عالم آخر.. فسيح جداً.

الختان

بعـد سلسلة من الميراث والتـوريث، والقـطع والبيـع والمـوت والميـلاد، آبت الجميزة العجـوز إلى ساق ضخمـة سميكـة قصيـرة، تنتهي إلى فرعين اثنين ورثهما الشقيقان محمد الهادي الكبير والهادي محمد الصغير. ونحن كنا أبناء محمد الهادي الكبير. وبمثل ما قسمت الجميـزة العجـوز بين الأخـوين، قسم البيت الكبيـر أيضـاً. ولكن الجميـزة كـانت أروع ما في طفـولتنـا كلهـا. أروع من ليـالي القمر، وصيد السمك، ونزهات الحقل، ومشاهد الصراع الحافل بين زوجـة عمنا وأمنـا. كانت شيئاً خرافيـاً، نسأل عنـه الآبـاء والجـدات وعواجيز القرية فلا يدرون أهي نبتت «شيطاني» أم أن جد جـد جدنـا الأكبر الهادي الأول هـو الذي زرعهـا؟. كانت مثـار دهشتنا، مختلفـة تماماً عن أي كافورة أو نخلة، خشنة وقد حفر الزمن بـأظافـره وأنيابـه في ساقها الغليـظة السميكة فصنـع معه بـروزات وشقوقـاً، وحفائـر، وجروحاً غائرات، وندوباً، ومسامير حدادى مدفونة صدئة. مشهد رائع وكـأنما الـزمن الذي عـاشته، والتـطورات التي حـدثت لعـائلتنـا قـد تجسدت مكتوبة ومحفورة على ساق الجميزة.

المهم أننا ونحن في تلك السن بدأنا نلاحظ أن فرعنا نحن، الذي ورثه أبي، دائماً شاحب الأوراق، ذابل الأفرع، قليل الثمار حين وقت الثمر، فقير الأغصان لا يصلح أبداً لإخفاء صغير منا حين نلعب الاستغماية مع أقاربنا وبالذات أولاد عمنا الهادي، ونتخذ من الجميزة بفرعيها الهائلين الضخمين مكاناً للاستخفاء. كنا نتبارى في الوصول إلى فرع عمنا لتسترنا أوراقه العريضة شديدة الاخضرار، وأغصانه شديدة الكثافة، وثماره التي كنا ننتهز فرصة الاختفاء وننهال عليها التهاماً. ثمار كبيرة، منفوخة بالطزاجة كالكرة الحمراء الحلوة.

الشجرة هي الشجرة والساق هي الساق الأزلية، والفرعان لهما نفس الحجم الهائل، ولكن شتان بين فرعنا الهزيل رغم ضخامته، وفرع عمنا الهائج بالأوراق والأغصان والثمر. نساء العائلة يقلن: إن المسائل أقدار، وإن عمنا الهادي هكذا «مبخت».. محاصيل أرضه دائماً أوفر، ولبن جاموسه أكثر، وعنزته دائماً تلد اثنين، بينما أبونا محمد الهادي يعزو الأمر إلى أن أباه «جدنا» كان يؤثر عليه عمنا، ولهذا وصى له بالفرع الأحسن. ورغم حبنا لأبينا فبيننا وبين أنفسنا كنا لا نصدقه. فالفرعان متماثلان تماماً في الطول والحجم والارتفاع، بل إننا لنسمع أنه هو كان المفضل لدى جدنا وليس أخاه. ويقول لنا القائلون إنهم لم يسمعوا في حياتهم عن فرع في جميزة واحدة، أو أي شجرة، أخصب من فرع، فالشجرة الأم أبداً لا تظلم أحداً من فروعها فشريعة الكون كله العدل، والظلم شيء لا يعرفه إلا الانسان وحده وبفعل الانسان.

وكنت أنا أكثر الأولاد حيرة للأمر. حيرة كانت تدفعني لتأمل الجميزة طويلاً وكثيراً، بل كانت تدفعني لمراقبة أبي وعمي كلما صعد أحدهما إلى فرعه يشذبه، أو «يختن» ثماره، أو يقتلع غصناً كسرته الريح أو يد طفل شقي. أبي كان رجلاً طيباً حقاً. كان كما يقولون لا يؤذي نملة. يصلي ويصوم ويعاملنا بسماحة، وعمري ما رأيته غاضباً أو يقدح الشرر من عينيه، ولكنه كان يميل إلى الوحدة، ولا يعرف جلسة الأصحاب، وما رأيته أبداً يهزل، أو سمعته يقهقه، أو يسهر، أو حتى يدخن. لا أقول على عكسه وإنما عمي الهادي كان غير هاد بالمرة، كان صاخب الوجود دائماً، معظم الأحيان مكشراً، ولكنه إذا ضحك زلزل الأرض بضحكه، غير أنه نادراً ما كان يفعل، فلم يكن يضحكه غير الشديد القوي الشدة.

كل ما في الأمر أن الموقف كان يختلف حين يصعد أي منهما الى الجميزة. فأبي لم يكن يحب الشجر. كان يظن أنه بظله الذي يلقيه على أرضنا المزروعة قمحاً أو قطناً، يضعف الزرع ويمرضه. وكان لا يصعد إلى فرعنا إلا مضطراً، بل نادراً ما كان يلحظ وجود الجميزة أو يدرك أن موعد التختين قد حل إلا بعد أن يرى أخاه قد بدأ «يختن». وتختين الجميز هو تحضيره لعملية اللقاح ونضج الثمرة. حين يقارب حجم الثمرة حجم الليمونة الخضراء الكبيرة، لا بد أن تشق بسكين حاد شقاً يفتح داخلها ويعرضها للهواء. وحين كبرت عرفت أن هذا الشق يسمح للهواء بالدخول والهواء يحمل حبوب اللقاح، وبهذا تتم عملية التلقيح وتبدأ الثمرة، كالأنثى التي حملت، تنتفخ، ويبدأ لونها الأخضر كلون وجنات العذارى، يحمر ويندمل

الجرح.. ويستحيل الى شق أسود تجمد الدم الأخضر على شفتيه، والذي نتج عن عملية التختين، في الوقت الذي تستحيل فيه الثمرة الى فاكهة ناضجة، يقطفها القاطف، أو تسقط من تلقاء ذاتها، وحين يأكلها ويأكل معها البذور إنسان أو حيوان أو جمل، ينشر البذور في الآفاق ويتكاثر النوع، ومن جديد تعاد قصة الجميزة الشجرة.

كان أبي يقوم بعملية الختان كلها في يوم واحد، ، وبصبر نافذ، فإذا ضايقته ورقة عريضة اقتلعها، وكان لا يهمه أن يكون السكين حامياً، أو حتى الجرح نافذاً، حتى كان يخيل إليّ أن الثمرات العذراوات تتألم. ولأنه يقوم بالعملية في يوم واحد، فلم يكن يهمه عمر الثمرة، أو إن كان قد آن أوان تختينها، طفلة أو كبيرة هو يشق استدارتها وفي أي مكان يتراءى له،وينتهي من العملية ويهبط من فوق فرعنا وقد حفل وجهه بالعرق، ويلهث وكأنما كان يؤدي فريضة واجبة حمداً لله أن انتهى منها. عمي بالعكس، يجيء من البيت غاضباً لأمر أو لآخر، يشرب سيجارته حتى ينفث غضبه، ثم يخلع جلبابه، ويقف تحت فرعه وشيئاً فشيئاً تبدأ ابتسامة ما، باهتة، لا تلبث أن تتعانق وتتسع، وعلى مهل يصعد الجذع المشترك، ثم يدلف الى فرعه كالعريس يدلف الى غرفة عروسه. يمتحن الفرع بأوراقه وأغصانه وكأنما يطمئن على كل جزء منه. يلوي شفتيه ضيقاً إذا لمح اصفراراً أو ذبولاً ، ويتهلل وجهه فرحاً حين يلمح جنين غصن قد «بزبز» ومن جيب «الصديرى» يخرج مطواة قرن غزال سنّها في اليوم السابق على حجر الطاحونة، ومهما ضربت الشمس يافوخي وأنا أتفرج فلا أتزحزح وأنا أرى عمي الكشر صاحب المزاج المتغير دوماً

وقد حفل وجهه بسعادة نادراً ما أراها يحفل بها وجهه. باصبعين يمسك الثمرة الخضراء. برقة يمتحنها حتى إذا أدرك أنها للختان حانت، في سرعة الساحر يمر بسيف مطواته على مكان ختانها المضبوط، ثم يرنو الى الجرح الباهر العميق الذي أحدثه في ومضة، ويتأمل أعماق الثمرة الشاحبة الاحمرار والاصفرار، وربما يتفكر لهنيهة في لونها حين يتأنث ويحمر ويتغير، وفي شكلها وحلاوتها حين تنضج، ويتركها لغيرها وكأنه يترك مائدة سعادة حافلة الى مائدة حافلة ثانية قادمة.

ويظل أياماً وأياماً، «يختن»، وكلما اعتلى الشجرة ثم هبط عنها وارتكن بجذعه الى جذعها، كنت من بعيد أرقب شفتيه، وهي بشيء كالأغنية تترنم، ومزهواً يمشي الى الترعة، حيث يغسل يديه ومطواته، ويصعد مرة أخرى الى المصلى المفروش بقش الأرز، لا ليصلي وإنما لينام وملء وجهه تلك الابتسامة الغامضة التي لا أدري لها سبباً. وأتسأل وأنا من بعيد أرقبه: أهذا هو عمنا «الهادي» الذي يرعبنا دائماً حضوره وبتكشيرته يجعلنا، دون أن يأمر أو يكشر، عن لعبنا أو صراخنا نتوقف.

ولكن الغريب أن فرع عمنا مات من تلقاء نفسه، بينما فرعنا إلى الآن لا يزال حياً. صحيح لم يعد يثمر ما يؤكل، فلم يعد أبي يقوى على طلوع الجميزة، وأولاده أصبحوا موظفين في البندر، ولكني ما زلت أذكر كيف مات فرع العم. شيئاً فشيئاً بدأنا وقد كبرنا، نلحظ أن كثيراً من أغصانه تذبل والأوراق العريضة في الأفرع الحية

تضمر، ثم يموت الغصن وقد ماتت أوراقه، ثم إذا بالفرع كله يؤوب الى جفاف رغم أن ابنه طالب الزراعة فعل المستحيل ورجع الى مراجع، وناقش الأساتذة، ولكن الفرع يظل سادراً في ضموره وجفافه رغم استماتة ابن عمي في علاجه، ذلك أنه كان يعتبره شيئاً من رائحة أبيه، عمنا الهادي، ذلك الذي كان قد مات. مات في ذلك العام الذي بلغ فيه فرعه منتهى ازدهاره، وثمره، حتى لقد شبعنا جميعاً من ثمره وباع عمنا منه عشرة أقفاص، حلاوة الثمرة منها تسكر.

في نهاية ذلك العام بالضبط مات عمي. وحين جاء العام التالي وجاء الربيع لم يحدث ما كان دائماً يحدث، فلا الأغصان ازدهرت كما تعودت أن تفعل، ولا ثقل فرع عمي المرحوم بالثمر، وإنما الذبول والجفاف وتوقف الحياة، وفي العام الثالث مات الفرع مع أن الجميز عمره طويل جداً وبالكاد لا يموت شجره. والحق أن منظره وهو جاف هكذا ميتاً قد تحنطت أوراقه التي كانت ذات يوم ملعلعة الخضرة، كان يصيبنا باللوعة، ويصيب أبانا بالتعصب وهو ـ الذي لم يبك عمي كثيراً حين مات ـ كان حين يرى الفرع يتمتم لا حول ولا قوة إلا بالله وتحمر عيناه، وتهدد دموعه بالانبثاق.

وكانت مناحة من أولاده ومنا، يوم قرروا بيع الفرع خشباً، ووقفنا، جميعاً نرى المنشار الضخم الغليظ وهو يقطع الفرع بكل حمله من أغصان ميتة.

وبقي فرعنا لم يمت، ضـامر الأوراق، ضـامر الثمـر حتى بعناه لأولاد عمنا الذين احترفوا مهنة الزراعة.

وفوجئنا ذات صيف أن فرعنا الـواهن شبه الميت ذاك قـد دبت الحياة في أوراقه وفروعه وثماره، وزالت دهشتنا حين وجدنا ابن عمنا محمـد الذي سمي على اسم ابي، ولكنـه ورث خصـال أبيـه، وقـد كـادت أوراق الجميـزة تحجبـه عنـا، ولكن عيني أبـداً لم يفتهمـا أن تلاحظا أنه تماماً مثل ابيه قد خلع جلبابه «وشمـر» سروالـه الطويـل، وحفل وجهه بسعادة، وهو برقة يمسك الثمرة الخضراء ويعرف من أين بالضبط يختنها. وفي لمحة البرق وسرعة السـاحر يمـر بسيف مطواتـه قرن الغزال على مكان ختانها المضبوط، ثم يرنو الى الجـرح الباهر العميق الذي أحدثه، ويتأمل أعضاء تأنيثها الداخلية الحـافلة بعذريـة وبشحوب كشحوب البنات.

أبـداً لم يفتني منـظره، وفـرعنـا يستجيب لـه ويخضـر ويمتـد ويمتلىء بعد هذا بالثمر الأحمر الناضج.

شجرة الجميز.

الرجل والنملة

بعيون فاغرة، رحنا نراقب الباب وهـو بالعصبيـة الشديـدة يفتح والكتلة البشرية تدفع من خلاله لا نتبينها إلا حين فقط تستقر في ركن الزنزانة الفارغ. حتى السباب المعتاد الذي كان لا بد يصاحب الفتح والإغلاق والتكويم، من فرط الدهشة لم نتبينه، إذ قد حل الصمت لا تجرؤ على قطعه مخافة أن يجد جديد وأن يكـون وراء البداية ما وراءها.

يتعانق الظلام في العادة بعد التمام. الخامسة تماماً موعده. النزلاء صامتون لمقدمه، إذ المفروض أن يحل الصمت ليتمكن حراس الليل من التغيير مع حراس النهار ويتمكن شاويش النهار من تسليم شاويش الليل، صمت يهيىء للصراخ أن يتعالى إذا حدث خطأ وأفلت نزيل من الإحصاء وارتبك العدد. الباشاويش هو المخطىء ولكن الشتائم تنهمر فوق رأس النزلاء وثمة جرى، وصوت الكوالين الحديد يزأر وأبواب أخرى تنهد حتى لتكاد تهد الحائط الحجري، وأخيراً، يجري الزئير النهائي لمفصلات باب العنبر الكبير، وتخفت الأصوات مع الأقدام مبتعدة، ويحل الصمت.

ويستمـر. للتأكـد أنهم جميعاً ذهبـوا، وأن النهار المتعب انتهى. ثم، وكأنما فجأة، تنفجر من الصدور الزعقات والقهقهات والشتائم مكونـة مولد المغربية المعتاد.

السكوت في العنبر طوال النهار أحد الأوامر الصـارمة، الألسنـة تتيبس في الأفـواه لقلة مـا تتحـرك، الحنـاجـر مخشـوشنـة من فـرط السكوت، فقط حين تذهب قوة النهار ويترك العنبر في حـراسة ثـلاثة حراس ليل عـواجيز في الغـالب وقريبي الإحـالة إلى المعـاش، فقط حين يـطمئن الجميع إلي ذهـاب الجميع يفـرج كل نـزيل عن لسـانه ويبعث الحياة في شفتيه وفمه وصدره ويزعق ويشتم بكل ما يملك من قدرة وقوة، يصـرخ ويشتم وينتقم من السكوت وأوامـر الشلل ويزاول الغريزة التي طال حبسها، غريزة أن يشتم، فمن فرط ما يتلقى النزيل من شتائم طوال النهار، وهو عنها ساكت وبالأمر متسـامح، تتكـون له فعـلاً غريـزة الشتم تنهال بهـا كل زنـزانة على زنـزانـة، ويتبـارى في مزاولتها الجميع.

في أحيـان قليلة جداً يحـدث، أن، فجأة، يـدور المفتـاح في قفـل الباب الكبيـر ويفتح العنبـر، وهنا، وفي لمحـة خـاطفـة واحـدة يتسمـر كـل شيء في مكـانـه ويحـل أعمق وأغـرب صمت.. صمت التـرقب الرهيب لمـا عسـاه يكـون السبب في فتـح البـاب.. وتتعـدد الأسبـاب وتكثر، وذات مـرة تجد السبب بـاب زنزانتـك وهو لـروعك يفتح، وكتلة بشرية ما تـدلق ليعود البـاب فيغلق، قبل أن تسـأل أنت القـادم أو يفتح من تلقـاء نفسه فمـه للكلام تنهمـر مئـات الأسئلة من

قريب ومن بعيد ومن أقصى الدور الثالث نفسه تتساءل عن حكاية هذا الذي دخل، فلا تدخل بعد التمام إلا حكاية مهولة، لا بد في الحال أن تعرف، وهكذا إن لم تبادر وتجيب، حتى قبل أن تعرف أنت ما هي الاجابة، تنهمر عليك أنت الشتائم هذه المرة وتؤرق عظام أمك وأبيك أحياء كانوا أم أمواتاً. حياة رهيبة يتولى فيها إناس حبس وخنق أناس وضرب أناس وحشدهم وتكديسهم هكذا في علب محبوكة من الزنازين والحجرات.

ـ ما بك يا عم... خير..

سمعت أنا وحمزة زميلي في الزنزانة الذي تصادف أن اسمه يشبه اسم قائد السجن الحربي، حيث تتم كل ألوان التعذيب، تشابه كان يجعله وبالتالي يجعلني هدفاً لتعليقات ووخزات تعذيب لا حد لها.

ـ مالك يا عم مالك؟

قالها حمزة هذه المرة بأمل أن يجيب القادم. ومكوماً في الركن لا يتحرك كان لا يزال. الأسئلة تترى تخترق باب الزنزانة المصنوع من قضبان متوازية من حديد، لا إجابة، والنتيجة سيول من الشتائم تلعنني وتلعن حمزة.. ما أغرب قدرة الانسان على تعذيب نفسه وتعذيب الآخرين إذا وقع عليه عذاب لا يملك منعه. معذبون يعذبون معذبين. ما أبأسه من محبس داخل محبس وعذاب في قلب عذاب.

لا رد ولا تحرك ولا يبدو عليه أنه سيرد، أيكون ما نسمعه منه ليس تنفساً عميقاً إنما هو نشيج وبكاء، بكاء الصامتين بلا حول ولا

قوة. وجدنا أنفسنا نقترب من الرجل نحيط به مشفقين. أيديا تـطبطب عليه وتستخرج كنزنا الثمـين، الشمعة الوحيدة التي نملكها وندخرها للحظات الحاجة القصوى، أشعلناها بضوئها الذي بدا باهراً، مددت يدي ورفعتها من الكتف الى الرأس أعدله وأرى الوجه.

كدنا نمـوت أنا وحمـزة رعباً. فكـلانا طبيب ونعـرف ماذا تعنيـه تلك الصفـرة المتكاثـرة المتشاحبـة التي لـونت الـوجـه، الحـدقـات الـواسعة المفتـوحة وهي تمعن النـظر في الفراغ وفي الـلاشيء ما لم ننبهه، مات. انهلنا عليه بالأسئلة نستفسر إن كان قد ضرب وأي مكان من جسده يؤلمه أكثـر. قسنا النبض وعـددنا مـرات التنفس. الصدمـة فعـلاً واضحـة ولكن لا أثـر لأي إصابـة في الجسـد، لا جـرح، لا خـدش، لا بطن منفـوخ، لا شيء. تنفيـذاً للمعـاهـدة المعقـودة مـع الحـارس الليلي ساومنـاه على كوب القهـوة أصر على عشـر سجـائـر ونحن لا نملك إلا علبة. وافقناه على مضض كثيـر. أخيراً أصبح في يـد الرجـل كـوب قهـوة معجـز المـذاق في تلك اللحـظة، وسيجـارة «وينجـز» بأكملهـا، وعلى ضوء الشمعـة دماء قليلة بـدأت تسري في الـوجه الخـراب، وهمهمـة تمتمـة، تنهـدات، الكـل يختلط بـالكـل والكلمات بالأصوات والإشارات.

ورفض أن يفصح.

نلح عليه بكل ما نملك من طاقة إلحاح، والرفض البادي على هيئة صمت هو وحـده الجواب. تشـاورنا أنـا وحمزة، نتـركه؟ نخفف الـوطء عنه؟ نتـرك كل شيء للصبـاح؟ ولكن حب الاستطلاع فينـا لا

يمكننا نحن أنفسنا مقاومته، والإلحاح، إلحاحنا وإلحاح بقية الحجرات والزنازين كلما زاد احتمى الرجل بصمته، وتداخلت رغبته في الإفضاء كما يتداخل حيوان القواقع إلى عمق القوقع كلما شعر بلمسة الإصبع.

تركناه. حت كاد يغلبنا النوم وكانت الألسنة المطالبة في الخارج قد سكنت.

ـ هل سأموت؟

رفع الرأس فجأة بالسؤال، وكأنها إجابة متأخرة جداً عن قولنا له: نحن أطباء، لا تخف. فضفض حتى تستريح، ولا تخف، فنحن نريد مصلحتك، نحن أطباء.

ـ هل سأموت؟

ودون أن نتفق، لم نجب. رحنا فقط ننظر إليه ولا نجيب.

لم نكن نريد إزعاجه حتى لا يتمسك بموقفه.

فجأة وجدت حمزة ينفجر فيه غاضباً مؤنباً إياه على هذا الموقف الطفولي الذي لا معنى له بالمرة. معتقل سياسي، ألست كذلك؟ كان واضحاً من ثيابه المدنية أنه ليس مسجوناً. إذن لماذا هذا التشبث بالصمت؟ أخائف هو على نفسه، وماذا يمكن أن يحدث له أسوأ من هذا الذي حدث والذي جاءوا به الى هنا بسببه وعلى تلك الحال القريبة من صدمة الموت؟!

فعلاً.. يعني ح يكون جرى لك إيه؟

للحق تنفس وتنهد وقال ببطء ونظراته تعود تنغمس في الفراغ:

ـ أوحش شيء على ظهر الأرض. وكدنا نبتسم في رثاء. ماذا يمكن أن يكون؟

وعاد يقول:

أوحش شيء على ظهر الأرض. حدث لي ما لم يحدث لبشر.

ومرة أخرى استخففنا بكلامه وكدنا نقهقه. سبعة عشر شهراً ونحن في هذه الزنزانة معاً. كان سجن مصر محطة يتوقف فيها القادمون من السجن الحربي في طريقهم لطرة وأبو زعبل والواحات، والقادمون من تلك الليمانات في طريقهم للمستشفى أو للإفراج أو لعذاب آخر في السجن الحربي. وارد وصادر وحركة دائبة جعلتنا نصادف كل ما يمكن أن يخطر على البال من تهم ومتهمين ومعتقلين وأسباب اعتقال، وتعذيب، ومعذبين. النفخ والضرب وكي نصف البطن الأسفل وكل شيء، ولم تبق وسيلة لم نعرفها أو بات لها ذكر. وكل متهم ـ مثل هذا القادم ـ يعتقد أنه الوحيد الذي حدث له هذا أو مارسوا معه ذاك.

ماذا يمكن أن يكون قد وقع له؟

أوحش شيء على ظهر الأرض.

ـ ماذا فعلوا؟

ـ نمت مع نملة.

ـ وانفجرنا ضاحكين.

طبعاً لا يبدو مختل العقل وإن كان واضحاً أنه في طريقه لاختلال عقله، وبوجه جاد صارم يحمل كل ما في العالم من ندم يقولها: نام مع نملة.

وانفجرنا ضاحكين.

وإلى الصباح التالي ظللنا نضحك ونتذكر ملامحه وهو ينطقها فتصاب معداتنا بالمغص من فرط ما ننثني ونضحك. وعلى رأي كليلة ودمنة قلنا له في الصباح التالي ـ وكان تقريباً لا يزال على نفس جلسته وقرفصته وانكماشه على نفسه ـ وكيف كان ذلك يا أستاذ ؟

ولم تكن تبدو عليه سيماء المعتقلين السياسيين. معظمهم كانوا مثقفين. حليقي اللحية والشارب، خريجي أو طلبة جامعات. هذا كان له شارب، أصفر وغزير ومتهدل على شفتيه العليا يكاد يلامس السفلى. وجهه خشن لا بد من كثرة مزاولته عمله خارج المكاتب والمنازل حيث الريح والتراب ولفح الشمس. في الحقيقة لم نفاجأ حين قال لنا إنه عمدة. حين تستخرجه من الحالة التي كان عليها، والسكينة التي آلت إليها ملامحه وقوامه، وتفرده، وتوقفه وتعيده سيرته الأولى ويتبدى لك على حقيقته تجد أنه حقاً مصدقاً لا بد أنه كان واحداً من أولئك العمد من طراز: اخرس يا ولد. شهم، كريم، يذبح لضيف خروفاً، ويسافر إلى آخر الدنيا تلبية لنداء مستغيث. عمدة ومعتقل سياسي. جديدة جداً هذه المرة. والنكتة أن يكون عمدة متهماً بالعمل السياسي.

في الليلة التالية ساءت حاله وارتفعت درجة حرارته وأصبح نبضه ١٤٠ وبدا وارم الوجه مختنق السحنة وكأنما سينفجر بعد قليل، لم يكن هناك بد من أن يفضفض ذلك العمدة المعتقل عن نفسه وإلا حدث له فعلاً ذلك الذي وصفه بأنه أوحش ما في الدنيا ومات.

وتكلم.

متقطع الأنفاس.

أخرج من صديريه البلدي الداخلي علبة سجائر«كرافن» عشرين سيجارة كاملة، وعزم علينا ولم نصدق أنفسنا ونحن ننفث دخان الكرافن، وبكل ما نملك وما أصبح لنا من طول بال نصبر على كلماته التي تخرج بعد عناء، ولهاثه بين الكلمات.

تكلم.

بدأها من منتصفها، أو من حيث بدأ يهتم هو بها، لا نعرف. قال: هذا الوغد، يونس بحري. قتلني بالأمس فعلاً قتلني، سأموت، ولكن لن أموت قبل أن أغرس أسناني في زوره وأقضم حنجرته.

جالسين وفي أمان الله وبعد يوم شاق من تكسير البازلت وحمله في المقاطف والسير به نصف كيلو، والصخر فوق أكتافنا والرمل في عيوننا وأفواهنا وأقدامنا العارية ينغرس فيها الشوك والزلط والمسامير، وجلسنا آخر النهار، قبل طابور العودة نستريح، وكانوا ثلاثة ضباط أحدهم هذا الخسيس يونس بحري. ناداني. منذ أن رآني ورأيته وأنا أشفق عليه وعلى نفسي أن يناديني. ناداني. تلكأت ولكني قلت أقصر

الشر وألبي نداءه. ذهبت. وقفت. تركني واقفاً واشتبك في حديث فاتر مع زميله. قلت: أفندم. رمقني بنظرة ثم عاد إلى حديثه الفاتر. اللهم طولك يا روح قلت، وعزمت أن أؤجل أي اشتباك فجسمي مهدود ولن أحتمل أي ضرب. والبداية واضح أنها ستنتهي بضرب. أقصر الشر يا ولد. وأصبر.

هناك، بعد ربع ساعة أو أكثر. التفت ناحيتي وقال: روح هات نملة من هناك. وأشار إلى كومة تراب قريبة.

صحا مخي من غفوة الوقوف وخيل إليّ أني لم أسمع جيداً، سألته: أجيب ماذا؟ هب في صائحاً: نملة.. ألا تعرف النمل يا بن الـ. . . ؟

سكت.

هب مرة أخرى: تعرف النملة والاّ لأ؟

قلت بتسليم: أعرفها.

قال وهو يلتفت إلى زميله: روح هات نملة.

طول الله روحي وذهبت إلى حيث أشار، وتفرست في كومة التراب ملياً حتى وقعت عيني على نملة كبيرة نسميها في بلادنا حرامي الحلة. انقضضت عليها بقبضتي وعدت بها ووقفت أمامه وقلت: أهه النملة يا أفندم.

ـ وريني

فتحت يدي.. رآها.. قال:

ـ ولازم تجيبها بالشكل ده يا ابن الـ. . .عضضت على شفتي السفلى وسكت.

بنظرة من أسفل إلى أعلى رمقني وقال:

ـ دي ايه؟

وقلت ببراءة ما بعدها براءة: نملة يا بيه

قال: ...

خيل إليّ أني حقيقة لم أسمع فقد كان الطلب الذي طلبه غريباً جداً وغير معقول بالمرة، سألته: أفندم؟

قال: اخلع هدومك.

أشار لحامل الكرباج وزميله حامل الشومة، رفعت يدي مسلماً قائلاً: حاضر يا بيه. . . أخلع هدومي.

ولكني ترددت.. نظرت حولي بركن عين.. طابورنا المنكود الحظ قابع كصفين من طابور ذباب أنهكه الكدح والزق والزجر. في دائرة واسعة رهيبة يلتف حوله سور من عساكر يحملون الأسلحة الاوتوماتيكية بكافة ألوانها وأنواعها، قريباً منه تناثرت فرقة الضرب تحمل الهراوات والكرابيج والنبابيت والأحزمة والقبضات الحديدية. أنا واقف وحدي ويونس بحري قابع على كرسيه أمامي. ولا مفر.

استنهضني بشخطة ولما كنت كما قلت قد قررت أن أؤجل الاشتباك فقد مددت يدي الأخرى وبدأت أخلع جلبابي، وخلعت الصديري، ولا أطيل، فقد وجدت نفسي بعد برهة خالعاً كل ملابسي واقفاً عارياً كما ولدتني أمي أمامه.

ـ خلعت هدومك.. ؟

ـ زي مانت شايف يا بيه..

ـ طيب (..) النملة اللي في أيدك. خيل إليّ أني حقيقة لم أسمع، وكيف أسمع، وما طلبه لا يمكن أن يمر إلا من عقل مجنون، حتى المجنون نفسه خجل أن يطلبه.

ـ نعم!

الكرباج مرفوع فوق رأسي والنبوت يتهيأ للانقضاض، ويونس بحري تجمدت نظراته النارية على هيئة الأمر الذي أمره، والدنيا، وسور العساكر، والطابور والبازلت والجبل والصخر والطريق وكل شيء سكت وصمت وكأنه يستحثني أن ألبي.

انتفض الفلاح الخبيث الذي فيّ يقلب الموقف الجاد الرهيب وقلت فجأة:

ـ بس دي ذكر يا بيه..

لم يضحك، ولا أحد من القريبين أو البعيدين ضحك، بكل صراحة قال: روح هات واحدة نتاية.

وكالذي نومه المنوم المغناطيسي استدرت وقصدت كومة التراب، وعسست بيدي. طبعاً كان أول ما خطر لي أن أبحث عن نملة أنثى، ولكن كدت أضحك من نفسي لأني انسقت وراء المشهد فعلاً وأخذته جداً، وسألت نفسي: كيف أعثر على الأنثى؟ ما الفرق بين النملة الذكر والنملة الأنثى؟ بل هل توجد نملة أنثى ونملة ذكر؟

المقصـود عدت إليـه ووقفت أمامـه وفتحت قبضتي على نفس النملة وقلت: ها هي نملة أنثى.

قال: يالله!

ـ يالله ماذا؟

ـ تاني. اسمع.

وفوجئنا بجعجعة أوامر تفرقع، واقترب سور العساكر حتى أطبق على طـابور المعتقلين، واستقـر أفراد فـرقة الضـرب فانتصبت واقفـة مشرعة أسلحتها الفاتكة الرهيبـة، وهوى الكـرباج من خلفي وسمعت صفيره، وهو يشرخ الهواء ليستقر كالسكين القاطع غـائراً في جلدي، ولكن يونس بحري تلافاه في آخر لحظة وأمسـك باليـد المهويـة وقال بصـوت مخيف صـوبـه إلى كـل أذن تسمـع: اسمـع.. أنـا لا أريـد ضربك.. فأنا أعرف أنك من النـوع الحميري الـذي لن يؤثر فيـه أي ضرب أو تعذيب ولكني سأضرب تلامذة ابتدائي هؤلاء.. وأشار.

والحراس يعرفون إلى من يشير. فقـد كان بيننـا خمسة صبيـان صغار لا يتجاوز أيهم السادسة عشـرة، معنا في الـطابور، إذا ضـربوا يصرخون بل يصـوصون كالكتـاكيت المذعـورة وتغور صـرخاتهم في لحمنا الحي، بحيث يصبح أهون لأينا أن يقطع بالسـواطير ضـرباً ولا نسمع صرخة الواحد منهم..

جـزعت والحق يقال، وسقط قلبي في قـدمي مخـافـة أن ينفـذ الوعد. يا عم يونس ما كنا قـاعدين في أمـان الله، ماذا دار في عقلك

النجس ليقلب سلامنا هـذا الى لحظة الـرعب هذه، حتى ليبـدأ الجو يحفل برائحة الدم واللحم المفروم..

تطويل الروح لم يعد يجدي، ماذا تريد يا أيها القومندان.

ـ يا لله!

ولأنني ضامن أني سأكـون على حق في تساؤلي رفعت صـوتي مستغيثاً مستعيذاً بـالله من هذا الهـول الذي لا أعـرفه: إزاي بس يـا بيه.. أنا في عرضك.. إزاي؟

ـ زي الناس.. هكذا قالها.

ـ زي الناس إزاي.. ؟

ـ زي النـاس يا بن الـ. . ويا بن الـ. .ويا بن الـ. . مـاذا تفعل الناس؟

ـ ولكنها تفعلها مع الناس والإناث وهذه نملة..

ـ ولو.. اعتبرها ناس.. اعتبرها إناث.

ـ حاضر..

قافزاً الفلاح الخبيث إلى نجدتي مرة أخرى قلت:

ـ حاضر يا بيه..

وعملت أني فعـلاً أزاول مـا أمـرني بـه، وأنـا، زيـادة في الانـدماج، قـد رسمت على وجهي ابتسامـة سعادة.. استيقـظت منها على صوت نبوت يشرخ الهواء، ويشـرخ ظهراً من ظهـور «التلامـذة»

إلى جـواري. التفت على الصرخـة، آهة صـاعدة من عـظام الأقـدام لكائن حي إنسان صغير يتألم. انفجر قلبي وتدفق منه الـدم الغائـر غصة ولوعة.

ـ لا تمثل يا ابن الكلب.. اندمج.. أتضحك عليّ .. اندمـج.. أنت خـالع الآن مـلابسك وهـذه أنثى، نملة مش نملة لا يهم.. هـذه أنثى.. اندمج.. وسأراقب وجهك وملامحك.. وأقسم بـرحمة أمي إن لم أرك تفعـل ما قلتـه سأشرّح تـلاميـذك وأنت وكلكم معهم.. وأنت تعرف وكلكم تعرفونني..

وكان واضحاً من وجهه المسمر المحفر بالجديري القديم أنه لا يهـزل، حاولت أن أجـد فرجـة احتمال أو عشـر احتمال للتهـاون فلم أجد. هذا إنسان مجنون وقد تقمصته حساسية المجـانين للحقيقة ولن يصدق غيرهـا ولن أستطيع أبداً خـداعه، وعليّ أن أفعلهـا. حاولت. ولكني في منتصف المسـافة استـدركت وطلبت منـه العـذر. وجمعت نفسي وبأقصى ما أستطيع من قدرة على أمر النفس أمـرتها. أحسست أن شهبـاً كشهب الجنـون تتراءى لعيني، ومن فـرط الانضغــاط بـدأ العقـل في مخي يـطقـطق. مجنـون أمـر وأمـر مجنـون، ولا بـد أن أستجيب، ومجنوناً لا بد، لكي أستجيب، أن أصبح. أنـا فعلاً رجـل ضخم، وهذه نملة، وبكل كياني عليّ أن أصغر نفسي وأستحيـل من إنسان إلى حشرة، إلى نملة، إلى ذكر نملة، تستشيرني أنثاي النملة.

وكلمـا فشلت، كلمـا تـوقفت، كلمـا غــام وعيي بـالمشهـد

وباستحالة التحول، وأحسست التهديد يحوم كغربان البين حول التلامذة الصغار وحول الطابور، أتصاغر وأتصاغر ويكسوني العرق وتطقطق عظامي وتتدشدش ولا بد من أن تصبح كفي في حجم ساق النملة، وساق النملة لا يكاد يرى ولا بد أن أهوي بوعيي وبإرادتي على كفي وكتفي ولحمي وعظمي ورأسي وبطني وساقي وعنقي وأدق وأصغر كي أستحيل ذكر نملة، أفرز هرموناته، وأجعلها بالقوة القاهرة تستجيب لهرمونات أنثاي القابعة، مستسلمة، في يدي، هكذا، رأيتها بألف عين دقيقة لي تكونت، قد استجابت، وكفت عن الحركة، ووقفت واضطجعت.

لو كانوا عذبوني وقطعت الجبل كله، لو ربطوني لذيل حصان جرى بي القطر كله من أقصاه إلى أقصاه، لو ربطوني في عروسة جلد وجلدوني ألف جلدة، لو فعلوا ما هو أكثر وأكثر لما أحسست بربع معشار ما مر عليَّ. ولم أعد أستطيع الكف وجسدي يمضي يتصاغر ليصبح نملة ويستمر نملة ويعيش ويحب ويزاول الحب مع نملة.. وعند لحظة النهاية فقدت الوعي..

قالوا لي أنهم حملوني حملاً إلى الليمان. وأنهم خافوا من صراخي أثناء الليل واستجار الزملاء من عضي وتمزيقي لملابسهم وملابسي، وحملوني إلى مستشفى سجن مصر ومن هناك إلى هنا.. وهمس لي التومرجي الأسمر العجوز وأنا في طريقي اليكم أنهم يفكرون في الإفراج الصحي عني، ولو، ما الفائدة، وقد نمت مع النملة واعترفت، وكان الذي كان..

ولأنه لا أبشع من السجن والمنتظرين المحاكمة من كلمة اعتراف، فقد وقفنا على أطراف تحفزنا أنا وحمزة ونحن نسأله بماذا اعترف ولماذا اعترف؟

قال وهو يشيح بيده: وأنا وسط العذاب، في منتصف الساعة بين كوني نملة وكوني ذكر نملة انكسرت إرادتي ولم احتمل، وقلت كل ما عندي بأمل أن يتوقف أمر يونس بحري وأن يكف العذاب،. ورغم الاعتراف لم يوقف المجرم الأمر، وحتى لو كان أوقفه فأنا نفسي كنت غير قادر لحظتها أن أوقف عذاب التحول، إرادة أن أكون بشراً أفلتت وصارت لي إرادة نملة لا تقوى أبداً على الكتمان.

● ● ●

ورغم إعادته إلى المستشفى فقد سمعنا أن حرارته ظلت ٤١ طوال الليل ورغم جسده المتين الضخم، في الصباح التالي مات.

أبو الرجال

نصف نائم، نصف مستيقظ، تأمل جلده. أدرك، كأنما فجأة، أنه لم ير عن عمد جلده مذ كان في أوائل مراهقته، ومذ كان الشعر، شعره نصف أصفر، نصف أسود، متناثراً، خفيفاً، يكسو نعومة جلده. يذكر أنه فرح، وكان باستمرار يفرح كلما أمعن النظر الى الجلد ووجد الشعر النابت يزدحم ويتكاثر ويغمق، حتى أصبح كله أسود.

فتح عينيه تماماً، فقد أدرك وكأنما كان ينظر إلى جلد إنسان آخر.

أدرك أنه بالقطع ليس جلده، أو إن كان، فإن شيئاً حدث له.

كان الشعر خفيفاً وكأن شعر ذراعيه وصدره قد بدأ يصاب بالصلع.

وكشف عن ساقيه وبطنه. خفيف جداً كان الشعر. لكأنه عاد الى سن الرابعة عشرة.

سكت تماماً عن التفكير والتأمل، وإن كانت ذاكرته لم تسكت. بوابل من نخزات صغيرة بدأت تنهال عليه، وينحيها، وتنهال. قام

إلى المرآة. حدق ملياً في وجهه. اللحية كما هي. أو تبدو كما هي. فتلك النخزات تبدو يقينية.

أغمض عينيه كما يرغم نصف النائم نفسه إذا أحس أنه في كابوس ليختفي الكابوس أو يرحل. رغماً عنه فتح العينين، وفي مزيج من الحيرة والضباب، ضباب أملس ينزلق ويتوالى والأشياء تمتزج وتتباعد وتقترب لتصبح واضحة تماماً. صورة الرجل يراها واضحة تماماً إذ تلك هي صورته التي يعرف نفسه عليها. تنزلق. يمر فوقها الضباب كأنه السحاب يخفي وجه القمر ولا يبقى سوى ضوء لمجرى لا يستطيع به أن يميز شيئاً. نعومة. أجل. نعومة أنثوية مرعبة كأنها نعومة حية رقطاء تبتسم قبل أن تطبق فاها في عضة سم كعضة الموت. شيء داخله يرتخي وينفتح، يأمره أن ينقبض، وباستخفاف يعصي وينفتح. ومعها يحس أنه يهوي في بئر أو من فوق جبل. يشهق طارداً كل شيء كالغريق يدفع الماء برأسه ليلتقط النفس ورغماً عنه يعود يهوي، ولكنه لا يختنق، ولا يحس أنه سيموت، ولا أن شيئاً محدداً واضحاً سيحدث. كل ما يحدث أملس. كل ما يتشبث به ينزلق. الضباب ونور الفجر الشاحب والإحساس بالانزلاق واللا يقين.

ماذا يحدث لي؟ بالضبط ماذا حدث لي؟ وكيف حدث؟ ومتى حدث؟ ولماذا يحدث ما يحدث؟ في الخمسين أنا. أنا رجل في الخمسين. بالضبط واحد وخمسون وثلاثة شهور. عندي أولاد. عنده أولاد أجل. وزوجة. يسائل نفسه، ويتحدث عنها وكأنها إنسان آخر. فمن فرط ما أصبح فيه من شك قرر أن ينظر إلى نفسه وكأنه إنسان

آخـر. رجل آخـر. نعم هو رجـل، أو.. أو.. أو ماذا؟ إنـه ليس رجـلاً فقط، إنه أبو رجال أيضاً. إنك يا سلطان زعيم. زعيم عصـابة ولكنهـا عصابة من العصاة المتمردين قتالي القتلة وسفاكي دمـاء وأولاد ليل، تنظر الى الواحد فيهم فتحس أنه، أمـام عينيك، يتـلاشى الرجـل فيه والانسان ويتحول إلى أرنب يبول على نفسه. بنفسـك رأيت البلل مرة يغرق ثياب أبو شنب.

اكتشف، وكأنما فجـأة أيضاً، أنـه لا يزال بمـلابسه الـداخلية. تجول بعينيه في أنحاء جسده، اشمأز لنتوءات تكـونت لا يعرف متى. استنكر جسده شبه العاري. أحس به غريباً عنه. لا يمت إليه. تحسس شاربه. أدرك أنه حلقه، وأنه يتحسسه بحكم العادة. لا وجود للشنب. ازدادت غربة جسده عنه وغربته عن جسده.

قـام، بثورة قـام أو كأنمـا ليصنع ثـورة. لا. لن يرتـدي البدلـة. سيرتدي جلبابه البلدي الصـوفي الخشن ذلك الـذي يحلو له ارتـداؤه حين يركب الكارتة المفتوحـة، ويسوقهـا بنفسه، ويعبـر بها شـوارع البندر حيث يتأكد أن العيون النـاعسة من خلف النـوافذ، وأحيـاناً من الشـرفات، تـراقبه، وتشهق لـرجولتـه، وجلبابـه، وكارتتـه، وتاريخـه المرعب المجيد، وغناه، وسمعته.

أرجـل رجل في المحـافظة، بـل في مصر، في الـدنيا كلهـا يا ولـد. رجل وأب لـرجال. ولـد ولا كل الأولاد. وسعيـدة محسودة تلك التي يضمها بذراعيه زوجة كانت أو عشيقة.

جلبابه ارتداه. امتدت يـده وهو لا يـزال ينظر الى مـرآة الحمام يتناول زجاجة الكولونيا. عـدل. ابتسم في شبه ثقـة. ركن شفته العليـا فعلاً ارتجف وكأنما الابتسامة تخونه.

ـ يا ولد..

زعق.

تلك الزعقة التي كانت دائماً تـرج البيت، وترج القلوب، حتى قلوب أولاده الكبـار. زعقة لا يـوجهها لأحـد بالـذات وإنمـا يـوجههـا للولد، أي ولد، للرجل، أي رجل، للمطلق من الرجال، ما عداه.

لم يظهر للتو أحد. لا ولد ولا رجل. زعق بصـوت أعلى انتهى فجـأةوكأنماتوقفتالآلـةالتيتصدرهأوانكسرت.الأصـحأنهـاأسكتت.هـو أسكتها فقد جـاءه الصوت مشـروخاً، بـالضبط مسلوخاً، رفيعـاً. ليس صوته. وقد يكون صادراً عن حنجرته التي بدا في المرآة وكأن بروزها انكمش، ولكنها ليست حنجرته فالصوت ليس صوتـه. صوت يسمعـه لأول مرة، غريباً عليه غرابة جسده.

ودق قلبه دقة زائدة.

تلك الـدقة التي كـانت لا تحدث لـه إلا لحظة القتـل، لحـظة إطلاق النار.

ظهر الولد. سبه دون أن يعرف من يكون، وبكـل ما يملك من نفس صرخ:

ـ نادي الثور يا حمار.

٢

جلس على المقعد في الفرانـدة. المقعـد المخصص دائمـاً لجلوسه، حتى لو غـاب عامـاً. جلس ينتظر«الثـور» ينتظر وهـو يتلمظ غيـظاً. لمـاذا؟ لم يكن يـدري. لمـاذا اختــار«الثـور» ليـراه في تلك اللحـظة؟ أيضاً لم يكن يـدري. الثـور. الثـور. لمـاذا«الثـور»؟ ألتلك الأقـاويل التي كـانت تتناثـر عنه وعن مغـامراتـه؟ ألأنه يعـرف عنه أن النساء يسقطن من تلقاء أنفسهن لدى انفـراده بإحـداهن؟ ألأنه أصغـر سناً وأكثر حمقاً وفعـلاً أنضر شباباً بكثير؟ ولكنه كما يسميـه. . ثور.. مثله مثـل «الـديب» و«أبـو فصـادة» و «غـراب البين» و «الجحش» و «التنبـل»... واحد منهم.. أقصى مـا يمن بـه عليـه أن يعـطيـه لقبـاً، وأقصى ما يعاقب به أحدهم أن يناديه باسمه الحقيقي، فهو يظل يرجو ويلح ويكـاد يبكي، أحيانـاً يبكي مر البكـاء طالبـاً منـه أن يمن عليـه بلقب. وحين يضيق به وبإلحاحه يقول له: طيب.. امش يـا خروف.. أو.. شي يا حمار.. وينقض «الخـروف» أو «الحمار« على يـده يقبلها وفي عينيه دموع الامتنـان، ويغادر المجلس سعيـداً ضاحكـاً لا تسعه الدنيا.

جاء «الثور»، سمع صوته يسأل خـافتاً عنـه، وجه بصـره بكليته إلى باب الفراندة ليرصد دخوله. في فتحة البـاب ظهر «الثـور» مهمل الثياب كعادته. كان دائمـاً يحسده على قـدرته أن يهمـل ثيابـه وشعره ومع هذا يظل عل جاذبيته القصوى ووسامته، هم أن يبتسم له ولكنـه عـدل وأظلمت ملامحـه. كان يـرتدي القميص والبنـطلون، بنـطلونـه

الضيق الأثير لديه. لا بد جاء على عجل فهم دائماً يرتدون بدلهم الكاملة ليلقونه. حيا، ووقف حائراً، رمقه من أعلاه إلى أسفله، بدا وجه «الثور» يصفر، وملامحه تنبىء عن مراجعة مكهربة لكل ما فعله مذ آخر مرة رآه فيها وعن احتمالات خطئه أو جريمته التي ربما يكون قد اقترفها. وفر عليه المراجعة وأشار له أن يجلس. وعلى كرسي بعيد جلس وقد بدأ يسترد أنفاسه، ولكنه كان لا يزال ينتظر وكأنه ينتظر البراءة أو حكم الاعدام. رآه يتململ من طول انتظاره. أسعده هذا التململ ونظراته تنصب عليه متفحصة ثاقبة. ضبط نفسه يتوقف أكثر من اللازم عند ملامحه الفتية الشابة. تلوت نفسه وكأنما أصابته غصة أو اندك خنجر في فم معدته. كلما استرق البصر اليه وأحس بمغناطيس قوي يشد عينيه اليه وأشياء في داخله تنهار وتتكسر والضباب يغطي على وعيه، ومن بين طيات الضباب ترتسم رؤى مفزعة، عريان جسده تماماً، وأملس، كتلة لحم بلا إرادة تنتظر أمراً خشناً، يصنع إرادتها.

٣

فجأة، أحس بتمرد داخلي يتجمع بسرعة كما تتخلق بوادر الإعصار المهول في لحظات، فثمة لين جوفي هائل كان يعوي داخله كلما وقع نظره على «الثور»، وحتى وهو يشيح بنظره عنه، رؤى غريبة يحس معها أنه لا ينظر إليه نظرة رجل لرجل، وأن في داخله تتلظى أحلام يقظة تدور حول موقف ما، مكان مظلم مهجور، تلامس يحدث، تحسس محموم ترتجف به يداه ويرتعش له جسده كله وهو

ينقض على الشاب، ويعتصر عضلات ذراعيه النافرة وانتفاخة عضلات ساقه والرغبة فيه تتعاظم وتقوى داخله رغبات تتكشف بجرأة وبجنون عن نداء مولول قد تحولت إليه ذكورته، ولا يعود يقاوم، بل تتحول بقايا المقاومة إلى إعصار نداء أن افعلها، ومجنونة تصرخ كل خلية فيه رافضة متمردة في إعصار استنكار يكاد معه يتحول إلى قاتل، يقتل ما راوده من أحاسيس، ويقتل «الثور»، يقبض بأصابعه الغليظة على عنقه ولا يتركه إلا جثة أو خرقة جثة، ماتت، أخمد أنفاسها وحبذا لو استطاع أن يفعل الشيء نفسه بعنقه هو ويقتل الحلم والرغبة والنداء المجنون الذي يفرض نفسه عليه بقوى، وكأنما بفعل قوى كونية، لا سبيل إلى عصيانها أو مقاومتها.

ويهم بأن يهدر صوته، عالياً مهيباً هصوراً طالباً من «الثور» أن يذهب عنه، بل حبذا لو جعل الطرد يأخذ شكل الضرب والركل والشلاليت..

ولكن لا شيء يصدر عنه، حتى ولا صوت، وكأنما تتعادل القوة الطاردة مع القوة الجاذبة، ويؤجل قرار طرده، وفي نفس الوقت يكبح جماح عودة دمدمة الرغبات الملعونة تستيقظ في جسده وخياله وتجعله يعود يحلم، بالظلمة، والفحيح، والمفاجأة، والضمة المحمومة الراغبة..

ويدرك الجالسون حوله أنه غاص في فكر خاص لم يعد يشعر معه بأي شيء حوله، ويبدأون يتسللون من «الفراندة» واحداً وراء الآخر حريصين تماماً ألا يخدشوا قداسة استغراقه.. كلهم يذهبون ما

عـدا «الثور»، إذ رغم أنـه أحس بمثل مـا أحسـوا بـه، إلا أن هـاتفـاً غامضاً موسوساً كأنـه صوت الشيطان أهـاب ويهيب به أن يـظل هناك، وأن موجات من «عمه» «سلطان» واشعاعات وترددات، تأتيه، وتـرجو منه أن يبقى، أجل، تـرجو منـه، هو الـذي لا يرجـو من أحد شيئـاً، وإنما دائماً يأمر حتى لو أراد الرجاء.

٤

ماذا يفعل بالله...

أهو قد جن...

أم في طريقه الأكيد للجنون..

أيـذهـب إلى طبيب من هؤلاء الذين أصبحـوا المـودة في هـذه الأيام، الذين يـزعمون القـدرة على تحليل النفس، وسبـر الرغبـات، وحتى تفسير الأحلام؟

ولكن ماذا يدريه أن ما يحدث له مرض، أو أنه حقيقـة يحدث لـه، وأي عار يجلبـه على نفسـه إذا هـو ذهب حتى إلى طـبـيب في العاصمة الكبيرة لا يعرف أصله ولا فصله، لا يعرف من يكون ومدى عزوته، فحتى الطبيب مهما كان غريباً وجاهلاً بصولجانه وهيلمانه فإنه من رابـع المستحيلات أن ينـطق أو يشكو، وبلسـانه يعتـرف أن بوادر رغبات غريبة، تأخذ شكل النوبات، التي كـانت متباعـدة أول الأمر،

ثم تقاربت وكثرت، حتى أصبحت حياته وأفكاره لا تكاد تدور حول شيء آخر سواها..

أبداً لا يستطيع، ولو شنقوه، أن، بإرادته يقدم على عمل كهذا.. فليفعلها إذن، ويكون هو طبيب نفسه، فهو، وحده، الأعلم بحاله، ولن يجد مخلوقاً في هذا العالم كله يستطيع أن يكشف أمامه كل مكنونات نفسه، ويعاصر معه ويرى بعينيه كل ما انطبع في عقله مذ بدأ يعي بأنه ابن فلان وأمه فلانة واسمه سلطان، وفقرهم مدقع، وعائلته وإن كانت شديدة الكبرياء، بالذات، أبوه ذلك الذي كانت القرية تمتلىء مجالسها إذا جاءت سيرته بالسخرية منه، ومن فقره «الذكر» وأنفه التي ترنو دائماً إلى السماء. كان يرى أباه ينتحي ركناً من فسحة بيتهم ويخرج من جيبه عشرات من أعقاب السجائر التي التقطها خلسة بخيزرانته التي ركب لها في نهايتها مسماراً رفيعاً بحيث يستطيع، وهو في قمة تفاخره بعم أو جد أو قريب، أن يغافل محدثه إذا التقطت عينه عقب سيجارة، وفي انفعالة محسوبة، يرفع خيزرانته وكأنما يدق بها على الأرض مؤكداً أو مقسماً ثم ينزلها بالضبط فوق «العقب» لتندك فيه، وتظل لاصقة به حتى يخلو المكان أو تنصرف عنه العيون وحينذاك، وبخفة يد ماهرة ينتزعها ويضيفها إلى مثيلاتها في جيبه. ومن محصول اليوم يملأ صندوقاً معدنياً قديماً ورثه عن أبيه الذي كان يملؤه «بالمضغة»، وكانت «مضغته» وما يضفيه إليها من محوجات مشهورة في بلدتهم شهرة «غليون» البك ابن العمدة المتعلم في بلاد بره الجالس إذا جاء زائراً للقرية بين كل حين وحين في دوار أبيه، يحشو غليونه بالتبغ ويشعله من ولاعة خاصة كانت مشار عجب

أهل القرية إذ كانت شعلة نارها تنطلق أفقية من جانبها وليست مثل غيرها من الولاعات. أبوه ذلك السامق في قوامه، النحيل الكثيف الشارب والذي كان لا يمتلك للخروج إلا جلباباً واحداً، هكذا يعرف الجميع، ولكنه دائماً وأبداً أبيض نظيفاً ناصعاً تجيد أمه غسله بالزهرة يوماً بعد يوم، وتنشره ليجف في المساء، ويرتديه في الصباح حتى ليبدو وكأنه يمتلك عشرات الجلاليب الجديدة الناصعة البياض.

فقر وكبرياء، من جيش المدقعين الذين لا يمت أحدهم بصلة إلى عين من الأعيان أو عائلة من كبار العوائل، أمثاله قابلون لحياة الجدب تلك، لا يهمهم تهرؤ ثوب أو دفاع عن كبرياء، يقبلون حتى أن توزع عليهم الزكاة في الأعياد، ويلهجون بالدعاء والثناء إذا وزعت عليهم لحوم في مناسبة أو «موسم» أو احتفال... «أبو سلطان» منهم هذا صحيح، بل ربما أشد فقراً من بعضهم، ولكنه نسيج وحده في اعتزازه بنفسه، يمشي إذا مشى وكأنه العمدة، وإذا تحدث فعل وكأن كلامه فقط هو الحكمة. يوماً واحداً كل أسبوع، يوم السوق، حيث يودعه أصحاب الحمير القادمون من القرى المجاورة حميرهم ليضمها الفضاء الصغير المجاور لسور السوق، فضاء يستأجره «أبو سلطان» من صاحب الأرض المجاورة وكأنه «جاراج» الركوبات، لا ينتهي اليوم إلا وقد امتلأ جيبه بقروش وأحياناً بملاليم، تبدو كثيرة العدد والحجم، ولكنها في الحقيقة لا تكفي لقوته وقوت امرأته وعياله طوال أسبوع، سلطان أكبرهم، وثلاثة أولاد أخر، وأربع بنات، وأم شارفت الستين، وتدهش، ويدهش الناس، كيف بمثل ذلك الدخل، يعيش كل هؤلاء البشر، وتمتلىء كل تلك الأفواه..

وسلطان ذكي باهر الذكاء، في المدرسة الإلزامية نابغة، ومع الأولاد أكثرهم شقاوة وأقواهم شخصية ودائماً هو القائد والمستشار الأعلى لعصابة كبيرة تتبعه، وتأتمر بأمره، مع أن بعضهم أكبر منه سناً، وبالطبع أكثر من عائلته غنى ونفوذاً، بل الحقيقة المجردة كان أفقرهم، وأبأسهم ثياباً، فقد كان يظل يرتدي الجلباب حتى لا يتغير لونه أو يذهب تماماً بل حتى يقصر عليه وخلال عامين هما عمر الجلباب يكون قد ضاق وقصر حتى لا يكاد يصل إلى ركبتيه. وكم عُيّر بفقر أبيه «الدكر»، وكم اشتبك وتخانق وجرح وضرب ممن هم أكبر اذا تطاول أحد على حالهم أو على أبيه بالذات وعلى وجه التحديد حين يقولون عنه: عريان المؤخرة ويحب الفشخرة.

وفي مداعبات الصبية، أو على وجه التحديد تلك الفترة من العمر التي لا بد يبدأ الصبية يلامسون بعضهم بعضاً، ويستجيب بعضهم بلذة أن يكون السالب، والآخرون بلذة الموجب، أو بالاثنين معاً، كان سلطان شديد الحساسية أنه لا يرضخ، بل حتى من فرط حساسيته ورغبته في رجولة سريعة مبكرة كان لا يسمح أبداً لأحد أن يلامسه وبالتالي يرفض تماماً أن يلامس هو أحداً. رجل صغير، ورث كبرياء أبيه أو قل ماض قدماً في تقليد أبيه وتشبهه به، ذلك الأب الذي كان يعتبره أكثر الرجال رجولة وأعظمهم مقاماً، بل لم يحس أبداً ولم يراوده مطلقاً خاطر أن أباه رجل فقير، ففي مثل عمره لا يوجد فقراء وأغنياء إنما فقط يوجد رجال رجال، ورجال أنصاف رجال أو لا رجال بالمرة، والفارق الوحيد بين الناس هو ذلك الفارق بين الرجال الرجال والرجال أشباه الرجال.

من أين يجيئه إذن هذا الذي بدأ يزحف على نفسه زحف السحاب الأسود الذي يهدد بإحالة النهار ليلاً وينذر بغياب الشمس واقتراب يوم القيامة؟.

طول عمره هكذا، زعيم وشهم وشجاع وجدع، وبجوار الإلزامية والابتدائية كان يعمل شهور الصيف كلها، ومعظم شهور الشتاء كي لا يوفر نفقات تعليمه فقط وإنما أيضاً ليساهم مع أبيه في ملء الأفواه الكثيرة المفتوحة جوعاً طول الوقت والتي عمرها ما امتلأت شبعاً. وهو في تعليمه وفي عمله كانت تؤجج روحه فكرة وحيدة لم تتزعزع أبداً، أن يرد الاعتبار لفقر أبيه وعائلته وتواضع نشأته وأصله. كان جلباب أبيه الناصع النظيف مجرد ستار يخفي حقيقة شديدة المرارة، إذ لم يكن بداخل هذا الجلباب الستار شيء ذو قيمة، وكان على «سلطان» أن يملأ هذا الفراغ المخيف الذي يخفيه الجلباب، أن يجعل لكرامة أبيه وأنفه التي في السماء رصيداً يستحق معه فعلاً أن تكون أنفه في السماء، وأن تتغطى مؤخرته العريانة، ليكون حراً أن يتفشخر اذا أراد فشخرة المغطاة مؤخراتهم بالحسب والنسب، والأفدنة والأموال والقيمة والامتلاء.

٥

حتى أصبح «سلطان» زعيماً فعلاً.

قصة طويلة مليئة بإرادة الفلاح الرهيبة التي يحفر بها ترعاً للنيل بإبرة ويحمل بها صخور الجبل حتى يصنع بها هرماً يكون أعجوبة الدنيا. الفلاح الذي يزحف إلى القاهرة حافي القدمين ماشياً على

ساقيه الرفيعتين، صاعداً مع النهر حتى يفرغ صبر النهر من فرط طوله ويتشعب الى فرعين أو حتى عدة فروع صانعاً من نقطة التفرع عاصمة العالم القديم، ومولد النور تشعله البشرية لأول مرة لترى به العالم ويراها العالم، زاحفاً حتى يصل إلى أم الدنيا أو يصنع من نقطة التفرع أماً للدنيا.

بالإرادة الدؤوبة النحيلة البالغة الصلابة زحف «سلطان» يجر وراءه عائلة مات عائلها، يجرها كما يشد المراكبي «اللبان»، جاذباً المركب بحبل طويل ليجرها عكس اتجاه الريح القادمة من الشمال. أجل شاداً «اللبان»، لبانه، ولبان عائلته، بل لبان كل هؤلاء الفقراء ذوي الأنفة كانوا أو ذوي المسكنة، مستجيباً للمحرك الداخلي الذي لم يهدأ داخله أبداً، ولا لان، محرك أن يملأ جلباب أبيه، بحيث حتى لو خلع الجلباب لكشف عن مستور غني عظيم مشرف.

قضى سنة الجامعة الأولى ومسكنه، ومأواه وملاذه بيت، بالأصح عشة، تقع عند الطرف القصي لسور الجامعة، فيها اصطنع المسكن والمقام، فيها نام على حصير هو كل ما استطاعت عائلته أن تزوده به، عامل بناء في حي «بين السرايات» وما حوله في الجزء الأكبر من النهار، حامل قصعة أسمنت تقطم وحدها الظهر، ولكنه معها كان يحمل مسؤولية أن يتعلم وأن ينبغ وأن ينجح بحيث يحظى بالاثني عشر جنيهاً شهرياً مكافأة النابغين، كان يحيا منها بستة ويرسل لأهله ستة، عليهم وبعائد إخوته الأصغر من أعمال أصغر، أن يدبروا وجودهم بها.

ومع ذلك ينجح بتفوق ويكون من أوائل الدفعة.

وليس هذا هو المهم.

فمن أول لحظة وضع قدمه في الجامعة، وبدأ يتفتح وعيه إلى أنه ليس وحده الذي يشد «اللبان»، وليس وحده الذي لا يمتلك أبوه غير جلبابه يرتديه على اللحم الحي، جلباب في العادة على عكس جلباب أبيه فلا هو أبيض ناصع ولا هو خال من «رقعة». مذ أدرك هذا وبنهم راح يقرأ ويسمع ويطيل القراءة والسمع ويتفتح له الوعي، ولا يفعل تفتح وعيه إلا إدراكه بأن الأمر في حاجة إلى التغيير، وأن من ينادون بالتغيير أبناء مدن، وحتى لو كانوا أبناء فلاحين أو عمال، فإن فرن الإرادة المتوهج داخلهم وقدرتهم وطاقتهم على العمل لإحداث ذلك التغيير أقل بكثير مما يجب وأنه يستطيع أن يفعل الأكثر، ويقدم الأكثر ويحقق الأكثر.

وعضواً في الاتحاد صار، وأوتاداً للثقة به أخذت تندق، وخيمة هيمنته تتسع، واسمه وجرائد حيطانه، وخطبه واعتقالاته تصبح حديث الكلية، ثم حديث الجامعة، بل وأيضاً حديث المدينة، المدينة الجامعية التي حاولت إدارة الجامعة رشوته بإلحاقه بها، قبل الرشوة لعلمه أنها لن تلين قناته وإنما بها ومن خلالها سيجد له قاعدة انطلاق أشمل وأعم..

٦

أحس الثور أن «عمه» سلطان لا بد قد راح في سبات عميق، فأنفاسه منتظمة وعيناه مغلقتان، وسكوته طال وطال حتى أنه لم يعد

يتلقى موجات ترد اليه عبر المسافة الكائنة بين مجلس السلطان في كرسيه العظيم وبين مجلسه هو، على حافة المقعد العريان متحفزاً لأي اشارة أو بادرة احتياج من الرجل الكبير.

وهنا بدأ يتململ في مجلسه على طرف الكرسي، تململاً لا حركة تصدر عنه، ثم تململاً حرك فيه قدميه، ثم بدا وكأن الأمر لم يعد خافياً، وأن عمه السلطان نام نومة السلطان، وبهدوء شديد وقف وقفة من يستعد للانسحاب، وحين تأكد أن حركته تلك مرت هي الأخرى دون أن يشعر بها السلطان، بدأ يزحف بقدمين خفيفتين وكأنما مبطنتان بفروة فهد، خطوة، ثم الثانية ثم تسمر في مكانه فقد صدرت عن سلطانه زجرة سؤال آمر:

ـ رايح فين؟

زجرة سؤال أعادته فوراً إلى جلسة حافة المقعد، يكاد يتمسح كقط يود أن يؤكد ألفته وانضباطه وطاعته.

ـ أنا ما نمتش.

تردد «الثور» يقول:

ـ أنا ظنيت

ـ اقعد

ـ أنا تحت أمرك إن شاء الله للصبح.

يقعد؟ يقعد لماذا؟

سؤال دار في عقل كل منهما.

وإذا كـان السؤال قـد دار بقليـل من الـدهشـة عنـد «الثـور»، فـالدهشـة الأكبر كـانت لدى «سلطان»، لمـاذا حقيقة يـأمره أن يعـود للجلوس، ويؤكد أنه مستيقظ وأنه يريد استمرار وجوده مع أن الـوقت قد تأخر، والجميع، حتى داخل البيت الذي يجلسـون في بلكونتـه، نيام؟

كانت الرعشة قد عادت له من جديد، آمرة، مدلهمة، لا يملك لها دفعاً، وأيضاً لا يملك لها تحقيقاً.

حائراً ومرتبكاً ارتباك مبتدئين، خجلاً من نفسه خجلاً أبشع من خجله من أي غريب، يكاد يبكي غيظاً ممـا هو فيـه، ومن وضع كـان من المحال أن يتصور حدوثه، ولا يملك حيـاله أي تصـرف. حتى لو كان سيثور ثورة المجنون حينذاك، ثورة الرجل، أبو الرجـال، الزعيم الـذي يحـاول فـأر وإن كـان اسمـه «الثـور» أن يعتـدي عليـه، على رجولته. وعاد الصمت، الذي كان يبدو وكأنه الحل الوحيد للإشكال، يفـرض نفسه. وعـاد «سلطان» لا ليستعرض حيـاته ليعثـر على بـدايـة الكـارثة أو مبعثهـا وإنما عـاد يقلب ماضيـه، قريبـاً وبعيداً ليعثـر على سبب لهذا الذي حدث، بل ليتأكد أن شيئاً فعلاً قد حدث لـه، أو أن واقعة ما كانت هناك، موجودة، ووجدت لكنه نسيهـا وطمرتهـا الحياة الحافلة التي عاشهـا، بينما هي طـول الوقت كـالسوسـة، كالسرطان الخبيث البطيء تعمل عملها حتى أوصلته إلى الآن، حيث لا يستطيع مطلقاً أن يتصور أنه، بكل جلالة قدره خاضع أو يكـاد يكون خـاضعاً لفكرة الرغبة العارمة الطاغية التي يستميت ـ دون فائدة ـ في مقاومتها،

فكرة أن يستسلم أمام ذلك الشاب المرعوب خوفاً منه ومن فحولته ومن هيلمانه، حتى لقد وفدت اليه فيما وفد أفكار أن «الثور» يتصور العكس، ويرتعش خوفاً من أن يطلب منه عمه السلطان ما يطلبه الأقوى من الأضعف، فطلبات السلطان أوامر مقدسة، تنفيذها لا مهرب منه ولا إمكان للهرب. أمر مقدس لو طلبه السلطان لكان عليه ـ ويا للكارثة ـ أن يخضع لنزوته حتى لو كلفه ذلك الخضوع رجولته وكبرياءه وكل ما بناه لنفسه من شخصية وسمعة وصلت به حد الشهرة أنه وحده، الثور الطلوق الذي يغار منه كل الرجال، وتحلم به كل محرومة أو غير محرومة من جنس النساء.

احتمالات، كل احتمال منها كارثة أبشع من الأخرى، حتى بدأ جسد «الثور» يرتعش فعلاً، ارتعاشات حقيقية، يكاد معها يرتمي بجسده تحت أقدام السلطان ويستجير به أن يرحمه أو أن يفض الصمت المخيف المليء كالأحراش بالأفاعي والوحوش ويقولها له صريحة، ويفعلها أو لا يفعلها وينتهي الأمر، وينتهي الصمت، وينتهي ذلك الموقف الذي أصبح امتداده أشد عذاباً من أي شيء آخر، أشد عذاباً من أي إحساس بالمهانة حتى لو تحققت المهانة.

٧

من العشة عند طرف سور الجامعة، الى المدينة الجامعية، الى العمار، من المعير بأبيه عاري المؤخرة غاوي الفشخرة إلى المشاد بأصله الفلاحي المتين، وعصاميته، وأبوته التي رفعت لمرتبة الأصالة والعراقة الشعبية والنموذج الأعلى لما يجب أن يكون عليه الزعيم،

قادماً من قلب الشعب لا بد يجيء، سليل أب كادح إذ أصبح النبل والعراقة صفات من يكون سليل شجرة بؤس أباً عن جد.

من «قصعة» الأسمنت تقطم الظهر في النهار والمراجع ينقلها نقلاً وهي بآلاف الصفحات من كتب زملائه التي كان يستعيرها منهم، من القصعة قاطمة الظهر، والنقل عن المراجع مضيع البصر مخدر الأصابع مقوس الجسد بالآلام المبرحة التي تئن لها عظام الظهر..

من الصبي النكرة المصفر الوجه بالأنيميا ونقص الغذاء، إلى الحاصل على درجتين، واحدة في الاقتصاد والأخرى في التاريخ، مفخرة الجامعة ثم بقية الجامعات، مفخرة جيله وكل ما تلاه من أجيال، بل مفخرة من مفاخر مصر ووثبتها التي نقلتها من مجرد دولة محتلة في عالم قبيح قديم الى دولة قائدة تحرر وزعيمة شعوب ومفجرة انتفاضات وثورات، حتى أصبح سلطان سلطاناً فعلاً.

وكان أول زعيم شباب يقابله الرئيس الزعيم، ويصافحه، بل ويمنحه وساماً وتصبح له حظوة، وجاه،وصاحب مدرسة واتجاه، حوله ومعه جيش صغير تابع من النوابغ والمعجبين وتابعي التابعين.

وهذا كله يحدث دون أن يشعر سلطان أن جلباب أبيه الخالي قد امتلأ برصيد حي من المضمون والجاه والنفوذ.

ولهذا كان ماضياً لا يزال كالمهر الأصيل لا يتعب ولا يكل، يجري بلهاث ثابت، لا من أجل هدف محدد وضعه لنفسه ويريد

الوصول إليه فلم يكن من ذلك النوع من أصحاب الأهداف الخاصة التي يضعونها نصب أعينهم للوصول إليها وتحقيقها، ولكن مضيه كان لا يخضع لأي تفسير عقلي أو نفسي، إنما هو مضى وكأنما من أجل المضي ذاته، فلا هو وضع نصب عينيه أن يكون زعيماً أو محبوباً أو صاحب سلطة ونفوذ، لا المال كان هدفه، ولا الطموح السياسي كان محركه، بل ولا التاريخ أو مكانة في التاريخ يطمع فيها ويسعى لها. كان حقاً وصدقاً لا يعرف لماذا هو ماضٍ هكذا، يحقق، وتنهال عليه الألقاب والصفات والثناء دون أن يسعى لها أو يقيم وزناً، إنما هي نتائج ثانوية لا تشغل باله مطلقاً، وتأتي كنتيجة حتمية لدأبه وإصراره ومبادئه التي انغمس تماماً في التبشير بها والعمل من أجل تحقيقها وسيادتها. مجتمعة لا بد أن يكون عادلاً لا يمتلىء بمظلومين لا ذنب لهم، مظلومون لا يمتلك الواحد منهم إلا جلباباً، بينما آخرون تمتلىء دواليبهم وحجراتهم بطوابير الملابس المعلقة فوق مشاجبها وكأن غرف نومهم وملابسهم أجنحة بأكملها من أجنحة بنزايون أو صيدناوي أو الصالون الأخضر. أبوه عمره ما انتقل من مكان إلى مكان بواسطة قطار أو وسيلة من وسائل المواصلات، إنما هو السير الكعابي المستمر مهما بعدت المسافة. الصدق. الحقيقة. النظافة. التضحية. الجهد من أجل الآخرين وليس أبداً من أجل احتكار الثروة والتكويش على النفوذ. الزعيم سيد القوم لا بد يكون سيداً لأنه خادمهم، وذو مكانة بينهم لأنه أكثرهم عملاً وجهداً من أجلهم... مبادئ.. بيضاء ناصعة كجلباب أبيه... كانت قبله مجرد ستار، مجرد رداء ليس في داخله أي مضمون، كان مضيه في الكفاح الدائب أن

يملأ تلك الثياب الناصعات مضامين حقيقية، وأن يحول الستائر الخارجية الناصعة البياض لتخفي القذارة والقبح الى ستائر تحوي وتحمي كل ثمين وغال من الحقائق والمضامين.

الرجل ليس بكثافة شاربه وشدة طغيانه ولكن الرجل رجل لأنه شهم وكريم وشجاع ومضح ومغيث للملهوف وواقف بجوار المظلوم، مع الضعيف حتى يقوى، وضد القوي حتى يعدل ويعتدل، وتصبح قوته في خدمة العدل والحق. والمرأة امرأة لا بحسبها ودلالها وأنوثتها وإنما بعملها الأعظم في أن تكون الأم الأعظم لبشرية أرقى، فالأمومة كالرجولة ليست صفة، ولكنها قيم، درجات عليا من السلوك البشري العاطفي والعقلي وحتى الجسدي بها تفرد الانسان وعلى هديها وصل إلى قمة في التطور جعلته أسمى حي في الوجود...

الأم..

وغير سلطان اليد التي كان يرتكز عليها، لا لأن التعب من الارتكازة الأولى قد جعله يغيرها، وإنما لأنه، وكأنما فجأة قد وصل عند النقطة التي خيل اليه فيها أنه قد عثر على أول الخيط، على السبيب والمتسبب، على أمه.

٨

الفلاحة السمراء ذات «طابع الحسن» الغائر في منتصف ذقنها الموشوم وشمة الصعيدية البدوية وكأنه ختم تختم به الفتاة علامة أنها العذراء الكاملة المنتمية إلى قبيلة ليس له اسم محدد، ولكنها

قبيلة النسـاء الساميـات جمالاً وشكـلاً في نفس الوقت، قبيلة المـرأة جسـداً مخلوقاً ذلـك الخلق الأنثـوي الخـاص المثيـر، ولكنهـا أيضـاً علامة أنها انسانة فيها كل نبل المـرأة الفلاحـة أو الصعيديـة وأنفتها، كل صلابتها عندما يجد الجد ونعومتها تتحد مع خشونة الرجل لتكون ذلـك المـزاج المصـري القـح الـذي ينتـج أطفـالاً لهم قيم الـرجـال ومسؤوليات الرجال بما فيها حتى الأخذ بالثأر، كل الفقراء بلا استثناء يكنون حباً للأم ليس كمثله حب آخر، وكـل الأمهات الفقيرات يحببن أولادهن، صبياناً وبنات، حباً ليس التدليل والإفساد بكثرة التدليل هـو منتهـاه، ولكنه الحب المسـوى على نار الحيـاة القاسيـة كـالبتـاو، لا يضنعه وينضجه الوقود الصناعي ولا أفران المازوت، وإنما هو مسوى على حرارة شمس طبيعية، لافحة ولكنها غير صناعية، نفس القانـون الذي ينضج الخبز هو القـانون الـذي ينضج العـواطف، هي العلاقـة الحارة الحميمة بين الأم والولد، حب صاف منقى لأن هدفـه الأعلى إنتاج رجل وليس إظهار الحب تدليلاً لطفـل، حب الأم فيه واثقـة من حب الابن لها ولهذا فهي لا تستجدي حبه، أو لا تخاف من كرهـه، تريده لنفسه رجلاً ولا تريده لنفسها لعبة أو «عروسة» تهزها وتلهو بها.

هكذا يراها، بعين نضجة، الآن.

ولكن الطفل فيه رغم حبه الشديد لها كان يكـره ما تصـوره أنه قسوتها وخشونتها، بل وأحياناً عقابه ضرباً مبرحاً أو شكوى مرة لأبيه، أبوه أبداً لم يضربه أو يعاقبه مطلقاً عقاباً بدنياً، كانت كلمة : يا ولد، يقولها غير عالية أو شاخـطة ولكنها خـارجة من عمق رجالي مرعب،

كالسكين المسنونة تندب في قلب الجسد، في صمت. كلمة كان يخشاها ويرعبه مجيؤها أكثر من كل زعيق أمه وصراخها وضربها له «بالقنو»الذي تكنس به الدار والذي ليس سوى سباطة البلح بعدما اقتطعت من النخلة وذهب عنها بلحها وجفت وتغير لونها وأصبحت أداة النظافة في البيت وأيضاً أداة التأديب غير المؤذي.

تدليل، لم تدلله..

خشونة مرضية كارهة أبداً لم يتعرض لها..

شك في رجولته المبكرة أو لفظة سباب تجرح تلك الرجولة على عكس ما كانت تفعله أم عيد جارتهم التي كثيراً ما كان يسمع صوتها في عز الليالي ملعلعاً يتهم ابنها بأنه عاد متأخراً لأنه لا بد كان مع الأولاد في حقول الأذرة، وصراخ وكلمات كانت تجعل سلطان يغلي دمه هو بالغضب حنقاً على تلك المرأة وإشفاقاً على صديقه ابنها. بل حتى ذلك الابن، رغم كثرة ما وجهته له أمه من طعن في رجولته، رغم لونه الأبيض الفاتح وشعره المائل للصفرة إذ كانت أمه من الدقهلية، لم ينشأ ولم يحدث أبداً أن تحققت نبوءة أمه من أنه سيصير كذا حين يكبر، مثله مثل «شاهين» الطحان. وشاهين الطحان هذا كان ظاهرة من الظواهر الكثيرة التي تختص بها بعض قرى الأرياف سواء في بحري أو في الصعيد. رجل بالمظهر والشكل له لحية وشارب وإنما محلوقتان، ولكنه فيما عدا هذا أنثوي في كل شيء آخر، في طريقة كلامه، في مشيته، في التصاقه الدائم بالمجتمع النسائي في القرية وحتى في عمله، فقد كان يتاجر في

الزبدة والسمن والقشدة ويغوي شباب القرية المراهق بما هو على استعداد لدفعه من نقود، وله سمسار من صعاليك الشباب كان هو الذي يجلبهم له مقابل عطاياه، معروف ومشهور ومحل استنكار كثير من المتزمتين وأهل الورع والتقوى ولكنه عند الناس العاديين، بحكم طول المدة واشتهار خصاله، أصبح يؤخذ مأخذ الظواهر العادية التي لم تعد محل استنكار، وإنما أصبحت فقط محل سخرية البعض ومثلاً تضربه الأمهات لأولادهن إذا أحببن أن يخيفوهم من الميوعة أو إطالة الشعر أو «عوج الطاقية».

أبداً ما جرحت أمه رجولته بالعكس كانت دائماً محل افتخار به، كل ما يذكره هو ذلك اليوم المشهود الذي دخلت أمه «زريبة» البهائم ذات ظهر صيفي كان الكل فيه نعسان أو هاجعاً هجوع القيلولة، هو فقط كان منفرداً في الزريبة بحمارة عمه الذي جاء يزورهم من النجع المجاور. ولا يزال يذكر تصرف أمه الذي يعترف الآن أنه كان قمة في الحنكة، أو كأنها طبيبة أمراض نفسية، إذ حين فتحت باب الزريبة ووجدته على تلك الصورة، ورأت الذعر الخجول وقد جحظ من كل ملامحه وأسال، فجأة، غزير عرقه، قالت وهي تستدير راجعة بأسرع مما دخلت قائلة له من خلف ظهرها: كيف تركب حمارة عمك من غير «بردعة» يا جحش...

وهكذا أبرأته هي حتى أمام نفسه حتى لا يحس مطلقاً بأي حرج. أما حين ضبطته خلف كومة الحطب فوق السطوح مع الأرملة سعدية العمشة التي كانت تجلب لهم الماء. يومها انهالت عليه ضرباً

بالقنو، ولكنه أحس، وهذا هو ما استغرب له، أنه ليس ضرب غضب، بل يكاد يكون ضرب أداء واجب بل إنه أحس أن في ثنايا شتائمها وتأنيبها نبرة تكاد تكون نبرة فخر بما رأت واكتشفت، كل ما في الأمر أن غضبها كان يبدو منصباً على اختياره للأرملة الكبيرة القبيحة وليس لأي سبب آخر.

٩

من بعيد بدأت تترى نوبات سعال أبو المعاطي، يذيعها ميكروفون المسجد إيذاناً بتسليك زوره استعداداً لتسابيح الفجر وأذانه. كانت الدنيا لا تزال حالكة الظلمة، وكان النوم قد بدأ يتسرب إلى «الثور» فقد بدأت رأسه تسقط فجأة فيفيق مذعوراً ويعيد رفعها بسرعة وكأنه ينفي عن نفسه تهمة أنه قصر في يقظته، وأن النوم غلبه، في حضرة السلطان اليقظان. وكأنما كان أذان الفجر، بعد الليل الطويل المستعيد لشريط الحياة إيذاناً باختلاط الماضي بالحاضر في ذهن سلطان وذاكرته، أحداث صغيرة تقفز فجأة إلى وعيه قفز براغيث ليالي الشتاء لا يملك الإمساك بها، وإذا أمسكها أفلتت، ثم نوبات مناطق شاسعة بأسرها ضاعت من الذاكرة أو أضاعها هو بإرادته، فلم تتبع حياته آراءه ومبادئه بدقة كاملة أو انضباط، كثيراً ما كانت تحدث الهوة بين الفعل والمبدأ، بين ما يأمله وما يستطيعه، بين الدأب الجليل المستمر ثم نفض اليد فجأة، وكأن لا فائدة، وكأن ما يحاول تحقيقه أضغاث أحلام أو أحلام أطفال. مثل ذلك اليوم...

أجل، أجل، ذلك اليوم..

ظهراً كان الوقت؟ منتصف الليل؟ أبداً لا يذكر! المؤكد أن كان هناك وقت، وكان هناك رجل وكانت هناك استغاثة، طلب ملح، رجاء مليء بالعشم والاستغاثة. استغاثة يدرك صاحبها أنه لم يتوجه بها إلى الإنسان الخطأ، إذ إن شهامته مضرب الأمثال. أنا وقعت من السماء. وأنت تلقيتني. قرار. نعم نعم يذكر جيداً أن كان لا بد له من قرار يتخذه. لا شيء عنده أسهل أيامها من اتخاذ قراره. في ومضة وفي لا وقت يكون حسبها وحسمها. الكل ينتظر ومتأكد أن الكلمة ستخرج من فمه، كما تعودت أن تخرج، جريئة مليئة بعين الحكمة، والحكمة عنده لم تكن التصرف الوقور المتزن، وإنما أحياناً أكثر القرارات جنوناً وخروجاً عن المألوف إذا كان الأمر والواجب يتطلب ذلك.

مؤيدوه جاءوا، عشرات، مئات، كثيرون وكأنهم آلاف، كأن قدراتهم جميعاً على الوصول إلى قرار قد أوقفت، أوقفوها أو توقفت، إذ يعرفون أن هذا ليس عملهم أو دورهم، ولكنه دوره الذي لا يستطيع سواه أن يقوم به بمثل ذلك الحزم والحسم وأصح الصحيح.

كان العدوان قد حدث، أمام الملأ ثم، وكأن من قاموا به مجانين فقد كان الكل يعلم أن رده سيكون الصفعة في جبروت عنفوانها، والركلة والإهانة ترد عشرات أضعاف ما حدثت به.

كيف حدث، ما حدث؟

كيف وجد الرجل فيه ينكمش، والخوف وإجراء الحسابات داخله يتكاثر، وطال سكوته أو طال تردده إلى أن بدأت الهمسات تترى، وسحابة شك كثيفة تحجب وجه الشمس ووجه القوم ووجهه، وبدلاً من زعقته المشهورة: اضرب يا ولد.. اضربي يا بنت، نحيلاً خرج صوته وكأنه صوته حين كان صبياً لم يراهق أو يخشوشن صوته، كأنه صوت عيل، أو رجل آثر أن يكون قراره عيالياً، وصوته ينطق به وكأنه صوت خنثى: أنا رأيي أننا نفوتها عليهم المرة دي ونرضخ، ونختار نحن بعد هذا وقت المواجهة ومكانها، مع أن الجميع وهو على رأسهم يعلم أن هذه، هذه الساعة من الظهيرة بالذات، وقد تذكرها الآن تماماً، هي أنسب وقت، والاحتشاد للمواجهة لحظتها هو أقوى احتشاد، وأن معنى التأجيل ليس تفويت الفرصة، أو تأجيل المعركة ، ولكنه، على بلاطة، الخوف والتراجع والهرب.

وساعة طويلة ظل يحدثهم عن أهمية الوقت المناسب والمكان المناسب واحتمال الهزيمة المؤكدة إذا لم يتم هذا بدقة.

وانصرف بعضهم وهو لا يزال يتكلم، مع أن شيئاً كهذا أبداً ما حدث، ولا أحد كان يتصور حدوثه، فالحديث تام الوضوح أنه تبرير في تبرير، وأنه في داخله خائف يرتعش، وأنه هذه المرة ليس بسلطان وإنما هو الى بهلوان السلطان ومضحكه أقرب..

حتى الأنداد وقفوا مذهولين يسمعون ما لم يخطر على قلب أيهم أو أحد، فقد كانت هجمتهم هجمة يائسين ظهورهم إلى الحائط، وموتاً بموت فعلوها وهم مدركون تماماً أن الهزيمة المنكرة

هي ما ينتظرهم، هزيمة، وهم يتصورونها، ويرونها واقعاً وحقيقة، لم تكن بمرارة أي هزيمة أخرى تجاه أي خصم آخر، فالهزيمة أمام سلطان ليست ذلك العيب المخزي الذي يتحدث به الناس ليالي وأياماً إنما تكاد تكون نوعاً من الشرف، يكفي المهزوم فخراً أن الذي هزمه هو سلطان، وأن جرأته وصلت حد أن يقف أمامه نداً، فلو هزم ـ ومن المعروف أنه بالتأكيد مهزوم ـ فيكفيه فخراً أن هازمه هو من لا يجرؤ أحد على منازلته.

زعيم صار، صاحب الرأي والكلمة المسموعة والقرار. حين جاء وقت الجد والقرار يتحداه في عقر داره وعقر مذهبه تحول الى صعلوك من البشر، فولى الأدبار، وإن حاول أن يبدو قراره قرار حكمة وروية، وهرولته الداخلية يفعلها بتؤدة ووقار الملك يستعرض في خطو الأباطرة العظام حرس الشرف، ولو كان قد أطلق العنان لما كان يحسه حقيقة ويود حقيقة فعله، لوضع ثوبه في أسنانه، وانطلق يجري جري الأرنب المذعور. كيف يتمطى الجبل ويلد في النهاية فأراً، أم أن الفأر فيه كان هناك طوال الوقت. إنما كان ينفش نفسه ويضخم صوته وغلظة جسده وحديثه ليخفي نفسه وحقيقته.

أيام و ليال وبضع سنين ظل يحلل ويفتش خبايا نفسه، وبخبث يستدرج محدثيه وندمائه ليعرف لماذا في رأيهم فعل، ما فعل، لماذا خاف وارتعش وولى الأدبار؟ وفي معظم الأحيان كان يسكت بكل ما يملك من قوة الرغبة في السؤال والإجابة عن التساؤل إذ يكاد يواجه بما يشبه مر الحقيقة العلقم.. أنه أبداً لم يكن ذلك الجبار الذي

صنعوا حوله الهالة، ولا ذلك الشجاع الذي ترتعش لمرآه النفوس، أن الخارج فقط هو ما يظهره هكذا أما الداخل فكأنه كان طوال الوقت أجوف، فارغاً، مجرد طفل أعجبته صورة أبيه ورجولة أبيه وشجاعة أبيه فمضى يقلدها أو يحاول، وأنه رغم الجهد الجبار العظيم لم يتعد أبداً طور المحاكاة والتقليد، وأنه مجرد كذبة، الكارثة العظمى أنه صدقها، ومن شدة إيمانه بها صدقه الآخرون. ساعة اللظى من ذلك اليوم الصيفي الحار ماذا حدث؟ وكأن لظاها أذاب هيكل الأسد، وكأنه كان مصنوعاً من شمع أو صلصال، وكأن جلبابه قد فرغ من المضمون، ومنه وتبدى الفأر، حين خاف حقاً، لأنه لأول مرة ووجه في حياته بناس اعتقد أنهم لا يخافون منه، وفعلاً، ممكن أن يفعلوها ويضربوه، ذاب مظهره الرهيب وتبدى الأسد على حقيقته فأراً مذعوراً، ولا شيء غير فأر مذعور.

١٠

ولكن المسألة لم تتم هكذا ببساطة كالمعادلات، تردد في قرار أو حتى قرار خاطىء أو فلنصل بالأمر الى نهايته ونقول لحظة خوف حين جاءت ومرت، فإذا بها تتركه نتفاً ومزقاً.

إذا كان الليل قد مر عليه مرور وابورات الزلط فإنه في الصباح كان ذلك الرجل الآخر، بالأدق ذلك الأصيل، الأسد، إعصار الترنح الهزيل مضى، واستعاد القوام واعتدل. أنا أنا، ما كنته وما سوف أبقى عليه، مجرد خطأ في الحسابات جرى ولكن الله سلم..

هكذا قال، وظل من ساعتها يقولها لنفسه.

ولكن الناس بدأت تقول أشياء أخرى تماماً:

لا تقولها نطقاً أو كتابة أو حتى همسات إشاعة، وإنما تقولها بعينيها، بتبادل نظراتها، بالعيون التي لا تطرف أو ترتعش مطرقة كلما واجهت عينيه، إلى عيون الند للند أصبحت أقرب، بل ربما عيون القاضي الى من يحويه القفص وقد أدانه ولم يبقى سوى النطق بالحكم. وكان كلما أدرك بذكائه هذ أحس أنه يتعرى تماماً، والفأر الذي في أعماقه يرفع رأسه، ويجعله يتردد ويتلجلج وينتهي الى لا قرار، أو يؤجلها بأي حجة الى وقت مناسب ولا يجيء الوقت المناسب أبداً، وهكذا حين وجد أن منصبه يحتم عليه في كل وقت أن يأخذ قراراً، قرر أن يخرج عن المنصب بل وعن القانون نفسه وأن يذهب الى عزوته وبلده ويكون عصابة رجال، ويصبح أبا رجال، ومن خلال درع العصابة يخيف الناس فيبدو كما لو أن قراره اللا قرار، قرار.

الحادثة التي جرت كانت وكأنما خبأها له القدر في اللوح المحفوظ، ماراً هو في عصرية عيد يمشي ساقيه وينفرد بنفسه بعد كثرة ما استقبل من زوار ومهنئين بالعيد، عادته السنوية التي لا تتغير حين يقضي أيام العيد الثلاثة في قريته يذكر ويتذكر، ويرى الزمن يغور بآثاره في الوجوه، ويستمتع بالأنوف الشامخة التي لم تكن تحفل به أو بأبيه وقد أصبحت تدين بالولاء المطلق، وتتدلى كالأغصان المرتخية فيما يشبه الذلة والمسكنة طالبة منه رضا أو نظرة

إدراك وتعرف، سائراً في العصرية يطوف بـالحقول المحيـطة بالقـرية حيث كانت مرتع طفولته ومكمن ذكرياته، لمحـه يقود «النـورج» وهو جالس على أريكته الخشبيـة التي لم تتغير من أيـام الفراعنـة يقرأ في كتيب نصف مطوي أصفر الأوراق باهتها. كان الطريق يؤدي بالضرورة الى الجـرن الذي فيـه الولـد والنورج والقمـح المصنوع دائـرة واسعة يـدرس. ويمهل كلمـا اقترب من الشـاب الفلاح الجـالس بـالسـروال والصديري المتآكل الوجه المهلهـل في يوم العيـد هذا يـدرس القمح والكل في إجازة، ويقرأ من الكتاب الدفتر مع أن الفلاحين معـظمهم أمي، بمهل يتقدم حتى أصبح ما بينه وبين الولد أقل من مرمى طوبـة دون أن يحس الـولـد بـوجـوده، أو إن كـان قـد أحس لم يعط لهــذا الوجود أهمية تستحق أن ينتفض هابطاً من النورج قادماً مهـرولاً مقبلاً الأيادي منحنياً إلى الأرض أمام عمه «السلطان» ـ كمـا تعود أن يفعـل الناس جميعاً من أكبر كبير الى أصغر صغير. ولكن البهائم ظلتّ تسير وعجلات النورج المسنونة تعوي وتئن والشاب جالس كأنمـا لا يدري بمـا حولـه، وسلطان واقف مـذهـول ممـا يحـدث، إذ هـو لأول مـرة يحدث.

ـ وله!..

شخطته التي يعرف الجميع بصماتها انـطلقت وجعلت الكتاب يكاد يهوي من يد الشاب وهـو يحدق نـاحيته، يحـدق فقط، دون أن يفعل شيئاً آخر. أخيراً بعد لأي يقول:

ـ يلزم خدمة؟

ـ خدمة في عينك قليل الأدب ما اتربتش. أنت اسمك إيه يا ولد.. ابن مين يا بن الكلب؟

ـ يا فندي ما تغلطش فيه لحسن أغلط فيك.. أنا مش خدام عندك.

وعلى الزعقة والشخطة والوقفة، كان نفر من المارين قد هرولوا الى حيث الجرن، وكان أكثر من رجل منهم قد اندفع الى الشاب يجره من فوق النورج ويتطوع بزغده ولكمه وهو يقول له:

ـ مش عارف عمك السلطان يا حمار يا بن الحمار..

فعلاً كان واضحاً أنه لا يعرفه ولم يسبق أن رآه، ولكنه ما إن ذكر اسمه حتى اصفر وجه الولد وأحس أنه وقع في محظور سبحان المنجي منه.

وارتد الرجال إلى السلطان يعتذرون وكأنهم هم الذين أخطأوا ويشبعون الولد سباباً ولكماً طالبين منه أن يذهب ويقبل يد عمه السلطان ويستصفحه. ولكن السلطان أشار لهم أن لا داعي، فقط أعاد سؤاله:

ـ انت ابن مين يا ولد؟

ـ أنا أحمد بن محمد الظحان يا سعادة الباشا.

ـ الطحان؟! بتقول الطحان؟!

وكأنما انفرجت أسارير الدنيا كلها إذ بدأ الباشا السلطان

يقهقه، والجميع يقهقهون، والولـد حائـر يحملق فيهم ولا يفهـم شيئاً بـالمرة، فمن الـواضح أنـه كان لا يعـرف عن حكـايـة عمـه شـاهين المخنث شيئاً.

- وريني بتقرا في ايه يابن الطحان..

وحـالاً كـان الكتيب ينتـزع من يـد الـولـد أحمـد ويقـدم الى السلطان في اعتذار واضح عن قدمه وتهرؤ صفحاته. باشمئـزاز قلب السلطان الصفحات الى أن وصل الى الغلاف المتهالك المصنوع من ورق اللحمة ووجد مكتوباً عليه:

موال أدهـم الشرقاوي.

وعاد السلطان يقهقه حتى ليكاد يستلقي على قفاه من الضحك والكلمات تختلط بالقهقهـة: بقي يبقى عمك شـاهين الطحـان وانت بتقرا أدهـم الشرقاوي.. وانفض الجمع والحادث، ولكن غيظاً ما كان لم ينفـرج بعـد من نفس السلطان، فـأرسـل يستـدعيـه في جلسـة المغربية، تلك التي يتبهـرج لها دوار الضيـافة بـالأنوار وقـد أصبحت مصابيح كهربائية باهرة الضوء، وقد ارتدى جلباباً أسود من لون جلده وهـات يا تـريقة من سلطان والجـالسين عليه وعلى عمـه، حتى لقـد وصل الحد أن قال له السلطان: عمك كان معاك زي الباقيين يا ولد؟ كان بياخدك في الدرة برضه؟. وهنا انطلق الولد مغـادراً المجلس في عنفوان كلب قطع سلسلته، والضحكات تشيعه لا تزال.

وربمـا لهذا السبب عـاد الى السلطان بعض الغيظ الـذي كـاد ينتهي من نفسه.

كان اليوم التالي يوم جمعة، وبينما السلطان في حاشيته خارجين من المسجد لمحوا أحمد الطحان قادماً من الحقل موحل السيقان بالطين يحمل تحت إبطه ربطة برسيم.

ـ وضلالي وما بتصليش كمان، يبقى لازم عمك خدك لفة.

وانفرطت دموع حقيقية من عيون الولد وهو يقول:

ـ يا فندي ما يصحش الكلام ده..

ـ ايه.. ما يصحش.. إنت لسه شفت حاجة.. والله لنخليك تعملها في عمك عيني عينك الليلة دي..

وهنا حدث شيء لم يكن أحد يتوقعه أبداً..

فجأة، ألقى الولد بحزمة البرسيم جانباً، وقفز على السلطان، واضعاً ساقه خلف ساقيه، فتهاوى السلطان على الأرض كالشجرة الفارهة، وانقض الولد عليه وفي يمناه «الشرشرة» التي «يحشون» بها البرسيم وفي عينيه نار من قرر أن يذبح الرجل ليقتله فوراً.

اندفع أكثر من رجل ناحية الراقد والراقد فوقه فإذا بالولد يزأر:

ـ والله اللي حيخطي ناحيتي لجازر رقبة الـ. . دهه..

وتجمد الكل في مكانه.. فالتفت الى السلطان وطرف الشرشرة مغروز في أيمن عنقه، ما هي إلا جرة واحدة حتى يذبحه ذبح الشاة، والنار لا تزال تتلظى من عينيه وقال: مش حاسيبك إلا لما تقول اني مره.. قول..

تعالت أصوات الاحتجاجات من خلف الولد وأمامه وقد أصبح هو والسلطان وسط حلقة لا نهاية لها، ولكن الولد صرخ كالوحش الجريح:

ـ اللي عنده كلمة يوفرها ووالله إن ما قالها حالاً لدابحه.. انطق.. قول اني مره.

ولم ير السلطان مخلوقاً في عينيه عزم الجريمة كما رأى وجه الولد، ولم يحس هو برعب فوق طاقة البشر مثلما أحس وسن الشرشرة قد بدأ يقطع والدم يتفجر.

كان صعباً تماماً أن يقولها أو يتلفظ بها ولكن الموت أمامه ويا روح ما بعدك روح، حاول أن يستجمع رجولته ويشخط أو يزأر أو حتى يسكت ولو جزت الشرشرة رقبته، ولكن إرادته التي كانت قد تفتت منذ موقفه المتردد الأول، وتتابع تردداته، أبت أن تتجمع أو تقاوم أو حتى تأخذ قراراً بالمقاومة. وأشد ما أذهله أنه لم يقلها بتسليم أو خضوع للأمر الواقع، ولكنه قالها وكأنه يتنفس الصعداء راحة: أنا مره.

وتهدجت صدور الجماعة الملتفة وكأن السماء انطبقت على الأرض أو كأن الأسد قد تحول أمام أعينهم الى لبؤة، تهدج وأصوات همهمت قطعها أحمد الطحان بجبروت المنتصر قائلاً:

ـ تفوه عليك..

وبصق الطحان في وجه السلطان، ثم بقفزة كان قد أصبح

خارج الدائرة شاهراً شرشرته، مثيراً الرعب، وكان قد ولى الأدبار، بحيث حين أفاق الجميع لم يجدوا له أثراً، لا في بيته ولا في بيت عمه ولا في الحقول ولا في الأرض ولا في السماء.

١١

وصحيح أن الشرشرة لم تَجُزّ رقبة السلطان ولكنها كانت قد فصلت كبرياءه تماماً عن جسده. وغادر القرية ولم يعد لها أبداً.. حتى والموكب وقد صغر كثيراً يودعه، كانت جماعته تقول أشياء لا تقولها نطقاً أو حتى همسة إشاعة، وإنما تقولها بيديها، بتبادل نظراتها بالعيون التي لا تطرف أو ترتعش مطرقة كلما واجهت عينيه، إنها عيون الند للند، وكلمات الوداع الهشة التي ما كانت تقال إلا جبراً للخاطر.

الموت كان أرحم لهؤلاء الذين يفعلون مثله ويتصدون للزعامة والسطوة، يصبح الخيار بين الموت وهتك العرض، إذا كان لا بد من خيار، فالموت ولا شيء سواه يكون الخيار.

يأتيها من تلك الزاوية أو هذه، لم يجز شعر رأسه ويصير أسداً أقرع له رأس اللبؤة، وإنما لم يعد ثمة ضرورة للكبرياء أو حتى الكرامة.. سيد الرجال قالها وأعلن أنه امرأة، حتى لو كان إعلانه إنقاذاً للحياة، فهو إعلان قد تم وحدث، غيره يموتون فعلاً من أجل مواقف أقل، غيره ممن لا يزعمون أنهم أسياد رجال أو أصحاب

سطوة أو زعماء، أناس عاديون يقتل الواحد فيهم أو يقتل بسبب أقل، يَقْتُل أو يُقْتَل ولا ينطقها.

تحييه ـ ذلك الانسان ـ كلمة، وتميته كلمة، وإرادته هي الأخرى تصلبها كلمة وترخيها كلمة، ولا تتراخى الإرادة مرة، إنما، إذا بدأت الطريق الى التراخي لا تتوقف، فكل تراخ يقود الى تراخ أكبر حتى، لتضيق نفسه مرة ويجد أنه يقول:

ـ لا بد أني لست بذلك الرجل الذي كنته.. لا بد كان في داخلي طحان كشف عنه ذلك الولد بفعلته، ثم فعلاً، ما العيب أن يكون الانسان طحاناً؟

وفعلاً يحس، حتى بجسده قد بدأ يتغير، حريص ألا يكشفه أمام أولاده الشباب الكبار حتى لاحظ أن شعر ساقيه وصدره قد بدأ يقل، وينمحي تماماً من أجزاء، ويحس كلما نظر إليه شاب وأطال النظر، أنه يرى فيه ما يخجل، فيخجل، خجلاً ليس مثلما كان يخجل حين كان السلطان، ولكنه خجل الخجلان من نفسه فعلاً، الخائف على نفسه من الآخرين فعلاً، الموشك أن يخفي كل قطعة من لحمه أو عضلاته كأنما ستفضح خجله، أو تفضح أنه لم يعد أبداً ذلك الرجل الذي كانه.

١٢

كان الشيخ أبو المعاطي قد انتهى من أذانه، وبدت الدنيا أكثر ظلاماً مما كانت قبل أن يحين أذان الفجر، ظلام يغري بانطلاق الهواجس والمكنونات، ولم تكن تلك المرة الأولى التي يجلس مع «الثور» أو يستبقيه الى قرب الفجر وما بعد الفجر، حتى لقد بدأ الولد يتساءل عما يريده منه عمه السلطان، ووصل به الأمر أن افترض أنه لو طلب منه مطلب الرجال من النساء، فماذا يفعل؟ لم يكن يدري بالانهيارات الداخلية التي حدثت لسلطان الى درجة أن مطلباً كهذا كان مستحيلاً أن يرد على خاطره، ولكن أنى له أن يعرف أن الأمر قد بلغ بالسلطان الى منتهاه، وأن تلك اللقاءات الليلية بكثرتها قد فعلت فعلها وجعلت شيئاً غريباً يرتبط في ذهن سلطان بها. كلام رجاله. كلام رجاله. راجل لراجل. راجل لراجل. الرجل يربط لرجولته من لسانه، هكذا كان الكل يعلم، ولكن هو وحده الذي بدأ يعرف أن الرجل أيضاً ممكن أن يفك من رجولته بكلمة، ينحل العقد الذي شب وهو يربط نفسه به وبرجولته. ولماذا لا يقترب من الولد «الثور»، والدنيا ظلام، ولا أحد يرى أحداً، حتى هو نفسه لا يرى ولا يريد أن يرى نفسه وهو يقترب ويقترب، والولد قد وطن نفسه على الاستجابة، فما باليد حيلة، وإذا بالطلب عكس ما وطن نفسه. مذهولاً لما حدث ويحدث. فرحان أنه نجا وإن كان بطريقة أخرى قد وقع، غير مهم فالمهم أنه قد وصل إلى حالة يستوي معها هذا أو ذاك.

وتم كل شيء والعرق اللزج الفائح برائحة كبرياء يتحطم، وعزة نفس تتمزق، وهوان يستسيغه ويستمتع به، روائح لا تفعل باختلاطها إلا أن تثير الغثيان، ولكنها لم تثر أبداً غثيانه.

● ● ●

كل الأسرار يخفيها ظلام ليلة، حتى إذا تعددت الليالي قل ظلامها وكثرت شفافيتها وبدأ ينكشف ما كان يخفيه ظلامها، وبدأت الإشاعات، باهتة تتوالى على أسماع الناس، مستهجنة أول الأمر وكأنما هي تجديف في حق ولي من أولياء الله، ثم بالإلحاح، تتعودها الأسماع، ثم تصبح شهرته كمثل شهرة شاهين الطحان، الذي كان قد مات، وقيل إن أحمد ابن أخيه هو الذي استدرجه الى القناطر وأغرقه، غير أن صوته العالي الشاخط المرعب، وإن كانت قد انتابته ليونة، نفس الليونة التي انتابت جلده وعضلاته، إلا أنه كان لا يزال على عادته: يشخط يا ولد.. ويستجيب الناس لشخطة الزعيم، ولكن في أكمامهم يخرجون له لسانهم أو يكتمون ضحكة صاخبة عالية تريد أن تنفجر من صدورهم ذات مرة وتنهي المهزلة.

ولكن.. أبداً.. ذلك الأدب المنافق الذي يتحلى به الناس، كان دائماً يحول بينهم وبين أن يجأروا أو يضحكو أو ينفجروا بالحقيقة..

نفس ذلك الأدب المنافق الذي جعله يستمرىء خضوعهم ولا يعود يبالي أن يقولوا عنه ما يقولون، يخفون أو يكتمون أو يظهرون،

فكمـا أسقط عنه ذات مـرة برقـع الرجـولة، أسقط عنـه بنفســه بـرقـع الحياء.

ونصف نائم، نصف مستيقظ، نصف مخدور أو سكران، يتأمل جلده وكـأنما بفخـر، حين يـوغـل الليـل، وهـو في الفـرانـدة أو في اللوكـانـدة، وأمـامـه فتحي «الثـور» أو ابـراهيم «الجحش» أو سعيــد «البغـل» أو صبـري «الكلب». فـلا يـزال هـو السلطان، لا يـزال هـو الأسد.



أنا سلطان من قانون الوجود

أنا «سلطان» قانون الوجود

لا أعتقد أن أحداً ـ خارج أسرة مدرب الأسود محمد الحلو ـ قد حزن لمصرعه مثلما حزنت.

ذلك أن القدر ليلتها ساقني لأدخل السيرك، وكانت ليلة الافتتاح، ولا أعرف لماذا ولكني بعد رؤيتي لعبة الأسود تنبأت أن حادثاً جللًا لا بد سيقع وأن قاهر الأسود محمد الحلو سيصرع على يد أو (ناب) أحد أسوده. بل بحنت بالخاطر الحزين لمن كانوا معي، ووافقني بعضهم، بينما لم يكترث الآخر وكأن الأمر لا يعنيه.

وحين تنبأت بما تنبأت به لم أكن ساعتها أستعمل حاستي السادسة ولا كنت صوفياً قد أصيب فجأة بحالة وصل مع الذات العليا واتصال، ولا أعتقد كذلك أني ولي من أولياء الله.

بل حتى لم أكن أعاني من نوية غربة تدفعنا أحياناً لتجريد الأشياء من دفئها المكنون وإفراغها من التفاؤل.

بصراحة، لم أكن ساعتها متأثراً بأي شيء خارج القمع

الضوئي المتهرىء المكفى علينا، يقتطعنا من العالم، ويقطع العالم عنا.

وحينما لا يحدث الشيء صدفة، بل تكون أنت ـ أنت الإنسان العادي مثلي ـ على يقين أنه سيحدث.

وحين لا يحدث نتيجة خطأ أو اهمال.

حين يحدث وكأنه لا بد أن يحدث.

حينذاك من الممكن أن نقف عنده، لأن الأمر لا بد هام وخطير، ويصبح واجباً علينا أن نعود، كلنا هذه المرة، إلى ذلك القمع الضوئي المقلوب نعيش الظاهرة التي دارت أحداثها المروعة هناك، فمن يدري، ربما بعد أن نحياها نجلس، لأول مرة منذ زمن طويل على ما أعتقد نفكر، ليس في محمد الحلو وإنما في أنفسنا، من يدري، ربما تحدث المعجزة وحسناً أني كنت هناك، وأني شاهد عليان.

* * *

نصف الألعاب مضت، كاللب، نقزقزه قطعا لليلة أولى من ليالي رمضان.

أثناء الاستراحة كان العمال قد أقاموا حلبة ترويض الأسود.

في هالة من فرقعة الأسواط والجئير الذي تضخمه المكيروفونات (ليرعب أكثر!) والصراخ والهدير وأصوات الغابة،

دخلت الأسود. عبرت ذلك النفق الحديدي القائم بين محبسها في الكواليس وبين الحلبة، ذلك القفص الحديدي صدىء وقديم. هذا صحيح، ولكنه حديدي أصلي وزيادة في الاحتياط مربوط بحبل قديم إلى العامود الرئيسي لخيمة السيرك.

الأسود دخلت، أسود ستة، زيتية الصفار أو رمادية البنية أو بلا أي لون له اسم، متشابهة، كثرتها تمنع عنها جلال التفرد، وانكماشها يخلع عنها احساس الملك أو حتى احساس التوظف في قطاع عام.

ما لبثت الأسود جميعاً بعد دخولها أن أخذت أماكنها على شكل نصف دائرة مقعية كتماثيل أسود قصر النيل، مادة أقدامها الأمامية فوق الحامل الخشبي الموضوع أمام كل منها. كل الأسود فعلت ذلك ما عدا الأسد قبل الأخير، ذلك الذي عرفنا فيما بعد أن اسمه (جبار) فقد أقعى فوق منصته رافضاً أن يمد أقدامه أمامه فوق الحامل.

وتولى مذيع أنيق، غريب الأناقة على المكان والناس والأجهزة وبائعي اللب والكازوزة، تقديم المدرب. وبصوت مؤدب، لا مبالغة في طبقاته (وهذا أيضاً غريب) قال: الآن نقدم.. بطل الأسود.. وقاهر الملوك.. ملوك الغابة.. البطل محمد الحلو.

انصبت أضواء الكاشف الوحيد على الرجل الضخم الواقف بجوار القفص، والذي يلتحف بعباءة لامعة براقة، هذا صحيح،

ولكن يبدو وكأنما استعيرت من متحف ملابس الممثلين بالمسرح القومي.

وكانت مفاجأة، فهذا الرجل قد رأيناه قبلاً رئيساً لفريق (الجمباز) في لعبة سابقة، يقود فريقاً من أكثر من عشرة أشخاص يتولون، ويتولى معهم القفز العالي والدحرجة والقيام بما يشبه المستحيلات، وهو عمل يكفي وحده لأن يقوم به إنسان واحد، المهم، فتح الباب الوحيد في القفص الحديد الدائري، ودخل الحلو، بعظمة ملك يلج قبواً للنبيذ، وتولى العامل إغلاق الباب وراءه بترباس متين.

لاحظ محمد الحلو على الفور أن (جبار) لا يمد قدميه كما ينبغي، ومن فوره اتجه إليه وحاول أن يصحح الخطأ لتصبح نصف الدائرة كاملة، نصف دستة من ملوك الغابة الرابضة المقعية الخانعة، وهو بينها، ملك الحلبة، وملك الملوك، وملك السيرك وملك الليلة.

تناول الحلو سيخاً حديدياً طويلاً مدبباً من طرفه، ولكن طرفه ذاك معلقة به قطعة لحم صغيرة جداً (عرفنا فيما بعد أنها ليست لحم عجول وإنما، لغلو الأسعار، فهي لحم حمير). وانقض الحلو بالحربة الملغمة بقطعة اللحم (وكأنها سيف المعز وذهبه) تجاه الأسد آمراً إياه، أن يمد قدميه. ولم يحدث سوى أن الأسد نام بمنتهى الحزم ورفض أن يستجيب. حاول الحلو مرة أخرى، نفس النتيجة. الحلو، فوق بطولته، رجل استعراض مدرب. ان مسألة التمرد أو الطاعة أشياء لا تهمه بالمرة، المهم أن ينجح العرض، وألا يبدو هذا

التمرد الواحد واضحاً للعيان. .

وهكذا نفض يداً من مسألة جبار بسرعة وبصرخة هائلة ركزت الأنظار عليه وعلى الأسود الخمسة دافعة أقدامها فوق الحامل الخشبي، وراكعة. وحينذاك فقط تولى محمد الحلو تقديمها. فكان أولها من ناحية اليمين (سلطان) الذي عرفنا الآن جميعاً أنه هو المجرم الذي نهش جانب الحلو وأدى لمصرعه، وكان المتمرد اسمه جبار، والباقون أسماء من هذا الطراز الحائز على صيغ كثيرة للمبالغة.

كان على الحلو بعد هذا أن يرفع الحوامل الخشبية من أمام الأسود ليستعد لعرضها القادم.

وهنا فقط بدأت أنتبه.

كان يتقدم من الأسد، ناظراً في عينيه، آمراً إياه بهما على ما يبدو أن يمتثل، ثم بيديه، ودون أن يغير من نظرته، يتولى قذف الحامل بعيداً عن منطقة الخطر، وهكذا. . .

وتمت المحاولات الأربع الأولى بنجاح، وعند جبار الذي كان حامله خالياً من أقدامه، ما كاد الحلو يقترب حتى زأر الأسد فجأة واقترب برأسه من المدرب هاماً بالتقدم الأكثر.

وهنا لمحت ارتدادة خوف سريعة من المدرب.

وبدأت أنتبه أكثر.

ليس توقعاً لما هو قادم من ألعاب.

وإنما لما هو أهم. لتلك النظرة الصادرة من عيني الأسد،

والنظرة المنصبة تجاهها من عين الحلو. أحسست أن اللعبة الحقيقية الخطرة هنا، وأن في الوضع ما يزعج، على الأقل يزعجني أنا..

الليلة الافتتاح هذا صحيح. ومآزق الافتتاح معروفة، كم جربها أولئك الذين قدر لهم أن يكون عملهم، مهما كان جهدهم أو ابتكارهم أو كدهم الخاص، مسألة تقديرها ليس في يد رئيس أو مجلس، إنما في يد جمهور، يقزقز اللب، ويجرع الكولا، وبمنتهى البساطة يصعد إلى السماء أو يخسف، أحياناً بأعظم الأعمال قيمة، إلى أسفل سافلين.

الليلة الافتتاح، والجمهور كثير، والأضواء هي الأضواء، والسيرك هو السيرك، ولكنه زمان، في أول إنشائه كان سيركاً متلألئاً، صاخب الجمهور، غني الأضواء. كان فعلاً ذلك المكان الذي قصد بالسيرك أن يكونه. المكان الذي تدخله ليخلب لبك، لتعيشه تماماً، تنسى نهائياً أن في الخارج حياة وأحياء ومشاكل.

وأيضاً كان السيرك للاعبين حلبة صراع. أمام جمهوره الحافل تتفجر بطولاتهم. يغامرون حتى بالحياة وهم يتأكدون أن الموت في غمرة المجد والأضواء واحساس النفس المصرية الممتد بالبقاء والخلد، شيء بالمرة، لا يخيف.

ونحن الآن في سيرك رمضان عام ٧٢.

أنا شخصياً لم أكن أريد الدخول، ولكن لأنه على الأقل أمتع بكثير من مسرحيات الصيف التي تنفرد كل منها برائحة نتنة خاصة، فليكن السيرك.

ولكن أي سيرك.

إنك أحياناً لا تحس بالشيخوخة والكبر إلا حين تقابل زميل دراسة سابق أو صديقاً له نفس سنك. وحين دخلت الخيمة لم يكن في كل ما رأيته شيئاً سخيفاً أو عجوزاً أو غير عادي. المشكلة أن كل شيء كان طبيعياً وعادياً وكأنك داخل إلى ديوان حكومة أو تعبر حديقة عامة..

لم يدهمني ذلك الاحساس أنك انتقلت فجأة من عالم مطفي أو قليل البطولة والنور إلى عالم مليء بالوهج، بالخوارق، بالمعجزات، عالم يبهرك ويحفزك إلى الخوارق والبطولات.

فكأني فعلاً انتقلت من شارع مزدحم إلى ميدان صغير مزدحم بالكراسي هذا صحيح، كثير الجمهور هذا صحيح، ولكن شيئاً ما حدث للكشافات فجعلها مسلطة أساساً على الجمهور، تنير الحلبة، ولكنها بإضاءتها للمشاهدين تجعل من تلك الوجوه جزءاً من العرض.

وأي وجوه..

نفس الوجوه..

المتزاحمون الغارقون في العرق أمام الجمعيات الاستهلاكية، في ممرات الأتوبيس وعلى سلالمه، المتوقفون فراغاً لمشاهدة خناقة، الجاعلون من (السلطة) على مائدة الافطار مسألة حياة أو موت، تفنناً في صنعها، انتقاء لمكوناتها وبهاراتها ومخللاتها.

وجوه . .

وجوه كثيرة تلمح بينها وجوه الأشقة العرب، وتستمتع بمرأى الكروش المصرية المتكومة باسم الله ما شاء الله تصنع لكل كرش رجلاً ورأساً وملحقات. النساء وقد بدأت مودة الطويل تنتشر، أقصد الطويل التخين، فقد بدا واضحاً جداً آثار مربة خرز البقر، وإلا فهي آثار (العلف) أو شيء لا بد شبيه بالعلف.

وجوه، ظللت طويلاً والكشافات تنصب على معظمها أتأملها، أتأمل ما يرتسم على ملامحها من تعابير، وعبثاً ما كنت أحاول، فالأبخرة الدسمة المتصاعدة من معدات تجأر بمحتويات الإفطار، والعرق المتصبب من تلقاء نفسه من صدور وبطون بالكاد تلهث لتؤدي وظائفها، بالكاد إذا تجشأت تتجشأ.

أنوار كاشفة مكشوفة مسلطة على وجوه لا تعكس الضوء، بعضها بالدسم يمتصه، وبعضها لقلة التغذية يمتصه أيضاً، وحلبة متربة، والحضور المسرحي لا وجود له، فلا جماعة، وإنما عائلات وأفراد لا يجمعهم ذلك الرابط العام الذي يخلق جو العرض ويحيطه حتى المهرج من فرط ما نحت دوره من خطوط تؤكد دوره كمهرج، لا يهرج. العمال الذين يقومون بالإعداد للألعاب يرتدون (بدلاً) لا بد أن أصلها كان شيئاً آخر، ربما لباس صعيدي، ربما قلع مركب ربما ممسحة بلاط. زرقاء كل بدل العمال زرقاء. ولكن كل أزرق منها له لون، وفيها زرار، على الأقل لمحت زرارين، ومع هذا فجميع بنطلوناتها بلا زراير وبلا أحزمة أو بأحزمة تصلب الوسط فقط

وتترك البنطلون يأخذ الوضع الذي يحلو له وينفتح من أمام بأي مطلق من الحرية يراه. المنضدة التي تقدم عليها لعبة الوقوف فوق الزجاجات والتي لو كان بها أي خلل ممكن أن تؤدي بحياة اللاعب، لا تصلح أصلاً للارتكاز على أربع، وإنما لا بد لها من سنادات، ولا بد أن تتأمل حكمة الكون أو تفكر في اعتزال الدنيا وأنت ترى منضدة المطبخ تلك، التي لم تطل من عشر سنوات، وأربعة عمال بأربعة أقراص مدورة بأربعة بنطلونات مفتوحة بأربع جاكتات (زعر)، يدخلون، ليزنوا الأرجل الأربعة. ما فائدة أن أتحدث عن اللعبة نفسها إذا كان هذا هو حال المنضدة، وإذا كان حال اللاعبة التي تزامل اللاعب ومفروض أن تساعده أدهى، ذلك أنها سمينة إلى درجة مزعجة ترتدي جورباً من جوارب (الباليه)، جورب من سمك الجسد والأرجل والأرداف التي يحتويها ومن طول ما احتواها، تفتق في أكثر من مكان (ربما لهذا سموها، أي ذلك الغذاء المسمن، المفتقة). فأنا لن أتحدث عن اللعبة أو حتى لو كان صاروخ قد أطلقته فتاة كتلك من فوق منضدة كهذه المنضدة ليصل إلى القمر، حتى لو تمت بهذه الأزياء والمناضد والجوارب جراحة تحيل الدودة إلى إنسان، فالمعجزة، أي معجزة، تكون قد انتهت من نفسك قبل أن تبدأ، انتهت، وانتهت معها ليلة من ليالي العمر، فالسيرك قام، ليخلب اللب، ليبهر، لينقلك إلى عالم غريب حافل بالألوان والبطولات والجمال والمعجزات.

ولكن اللعبة الخطرة كانت قد بدأت.

لعبة ترويض الأسود.

* * *

هي لحظة . .

ولكن ليلة كهـذه يكفيها لحـظة تحس فيها أنـك حقيقة تنفعـل وأنك حقيقة في سيرك.

ولكن، حتى هـذه اللحظة أفسـدها عليّ ذلـك السؤال الملح : من أين جاءني ذلك الشعور أن شيئاً ما سيحدث؟

ملت على جارتي أهمس بألفاظ ، فإذا بها تنظر لي بـاستغراب حقيقي ، فهي الأخرى كان لديها نفس الشعور.

المسألة إذن ليست وهماً. هناك في الجو شيء يخيم.

ليس وافداً من كون آخر.

ولا متسـرب إلى القمع المقلوب من الخـارج. شيء نابـع من الحلبـة ذاتهـا، وحتى ليس من شيء بعينـه في الحبلة، في الحقيقـة نـابع من كـل شيء تضمـه الخيمـة، من الحيـوانـات والكـاشفـات، والأشياء والبشر، من جارتي ، ومني ، ومنك أنت لو كنت هناك . .

مضى الحلو يتحرك، يحيي، ينقل الأشياء داخل القفص، نفس الحركات التي تعود أن يفعلها من زمن طويل. لا جـديد فيمـا يفعل، لا جـديد في الليلة إلا عصبيـة ليلة الافتتاح المؤقتـة المعهـودة، حتى

الوجوه، الوجوه كلها داخل القفص وخارجه ظل يراها حتى لم يعد يراها.

النظرة المتبادلة بينه وبين الأسد، سلطان كان أو جبار، هي فقط ذلك الشيء الجديد، في الليلة وفي حياته.

الرجل محبوس مع ستة أسود في قفص، وحياته كلها وهو مع الأسود في قفص.

والأسد، بالتأكيد هو الأسد. .

ولكن الرجل، هل الرجل هو الرجل؟

والرجل ليس الحلو وحده. الرجل هو كل من تضمه الخيمة لاعباً أو عاملاً وعازفاً ومتفرجاً هل الرجل نفس الرجل؟

بينه وبين نفسه. بينه وبين أهله وجيرانه وأصحابه، أبداً، لا تغيير، هنا فقط. هنا حيث يصبح وجهاً لوجه مع الخطر المروع الذي عمله أن يروضه، هنا يحس الرجل أن شيئاً ما حدث. كأنه دائماً يقول أنا البطل، حتى من غير أن يقولها كان يقولها بنظراته يقولها بمشيته، بقهقهاته، بالعاملين من حوله، حتى الأسود نفسها كانت تقولها. أنا البطل، القادر، الواثق المتأكد.

أيكون ما ينتابه هو لحظة شك. ولكن، من يكون إذن إذا لم يكن البطل.

من الآن. . أنا؟ . .

كنت أرى الناس أكيلة عيش، وأفندية، وبورمجية، وجدعان،

ولكن من بينهم أنـا البـطل. هم أيضـاً يـرون أنى البـطل. يصفقـون للبطولة حتى لو تجسدت في غيرهم، في شخصي أنا.

الآن حدث شيء. ألم يعودوا يـرونني بطلاً؟ أم هم لم يعـودوا يريدون البطل، أي بطل. أيكون الأمر أني أنا شخصياً لم أعـد أحفل أن أكون عليهم البطل؟ أيكون الكفر المزدوج قد حـدث. كفرت أنـا بهم وكفروا هم بي وجميعاً كفرنا حتى بوجود بعضنا البعض. والبطل مثل اللا بطل، والميت كالحي، والحي كالميت، والمومس كالفاضلة والحرامي كالشريف، الأمس كالغد، الأمل كاليأس.

إن البطل لا يولد وحده.

البطل يخلق..

ولا بـد كي يوجـد ويعيش أن يتـرعـرع في ظـل إحسـاس عـام بضرورة البطولة، بروعة البطولة، بتفرد البطل.

ولا يمكن لفكرة البطولة أن تترعرع في جو عام كهذا وحدها.

البطولة قيمة، ولا بد أن توجد وسط محصول وافر من القيم.

لا مجد للبطولة، بلا مجد للكرامة، بلا مجد للنبوغ، بلا مجد للشرف.. بلا مجد للعمل الصالح.

وأيضاً لا توجد البطولة، بلا جو عام تلعن فيه اللابطولة. تجتث كالحشائش الضارة منه، وتجتث معهـا حشائش سـامة أخـرى كالجبن كالتفاهة كالنفاق كالكذب.

أما حين (ينجح) الجميع، المجتهد، والغشاش والمزور والأبله

والنابغ. حين يصبح لا فرق، لا أعلى ولا أسفل، لا أرفع ولا أحط.

حين تمضي الحياة بامتحان لا يرسب فيه أحد، ولا يتفوق أحد، ولا يفصل أحد. حين يحدث هذا. ماذا يبقى من الإنسان؟

وإذا كان هذا السؤال لم يعد يهتم أحد بأن يجيب عليه، بله، أن يطرحه، فإن هناك أناساً في حياتنا لا يستطيعون أبداً اهمال السؤال، فهو فارض نفسه عليهم فرضاً ولا فكاك منه. هؤلاء هم تلك النسبة فينا التي تحيا وجهاً لوجه مع الخطر.

وبالذات مع خطر من هذا النوع.

فمحمد الحلو يواجه هذه الوحوش الضارية ويمنع خطرها بما يملكه من إرادة البشر وقدرتهم وما فيهم من بطولة أو قدرة على البطولة.

أليس من المهم إذن لمحمد الحلو أن يعرف، في تلك اللحظات التي ينغلق عليه فيها القفص ويصبح وحده أمام الخطر ولا مغيث، أن يعرف ماذا بقي فيه أو له.

ماذا بقي من البطل؟

* * *

تصفيق الناس للألعاب في السيرك، له معنى مختلف عن أي تصفيق آخر، يحمل معنى إنسانياً عميقاً جداً. هناك أبداً أنت لا تصفق مجاملة أو مجاراة. بصدق تصفق. والعمل الذي ينتزع منك التصفيق ليس أي عمل. كلما اقترب من قدرتك على القيام به كلما

بهت وفق أهميته. كلما استحال عليك القيام به كلما بهرك وازدادت حدة تصفيقك.

ليلتها كان للتصفيق في أذني وقع غريب. فمهما بلغت اللعبة أمامنا من مهارة، ومهما احتوت من إعجاز وبطولة، فالتصنفيق حتى في أعتى موجاته كان دائماً يبدو فاتراً وكأنه صادر عن جمهور قد قرر بادىء ذي بدء، أن لا يقيس أي شيء بمقياس قدرته عليه أو استحالته، وكان أي شيء وكل شيء يبدو مستحيلاً تماماً أو حتى ممكناً تماماً. لا فرق.

كان في الحقيقة نوعا من تصفيق الخجل إذا لم تصفق. تصفيق أداء الواجب تدفعه كثمن التذكرة، كالضريبة، وأمرك لله.

وكانت مضخات اللاعبين تجأر قواها في محاولات مستميتة من أجل الوصول إلى مياه الجمهور العميقة وسحبها لتصعد إلى مستوى ما يقومون به من بطولات كي تنسكب بعد هذا شلالات حماس وإحساس وانبهار. ولكن المياه ظلت دائماً أبعد من مدى المضخات، وأبعد.

ماذا كان قد بقي من البطل محمد الحلو؟

* * *

ذلك الذي بدأ حياته في ساحة السيرك، صبياً يلعب، ويفرح أنه يلعب، وفوق هذا يكسب، ثم حالماً بالبطولات يحلم، ثم بطلاً يحقق الأحلام وبالسعادة القصوى يتمتع. الجمهور يجأر ويزأر طرباً،

وهو يقتل نفسه كي يجعله يجأر أكثر وأكثر. الدفء حوله وفي داخله. الحياة حلوة. الأمل عريض. حتى النقود بجلالة قدرها، وفي لحظات كتلك، لا تهمه بالمرة.

حين تختار أن تكون مروض وحوش، أو لاعب ترابيز، أو طيار اختبار وتجارب فصحيح أنك تأكل عيشاً بهذه الوسيلة، ولكن لو كان أكل العيش وحده هو الهدف لما اخترت أياً منها أصلاً، ولجأت، مثلما يلجأ أكيلة العيش إلى أي عمل آخر خال من أية خطورة كما يفعل الملايين من الناس أكلة العيش والأرزقية.

ذلك أنك تختار هذا العمل لتسعد ذاتك أولاً ولتثبت لنفسك وللناس قدراتك.

فإذا لم يعد مهماً أبداً لدى اناس أن تثبت بطولتك، ولا حتى لديك أنت نفسك.

فماذا يبقى منك؟

أكل العيش؟

أجل أكل العيش كان هو الإنسان الذي يواجه الأسود وحده في القفص المغلق.

الخيمة كلها أكلة عيش متفرجين وعمالاً وبائعي كازوزة ولكن الذي وزع الأرزاق جعل الآخرين متفرجين.

كلهم يتفرجون.

ويصفقون. .

ذلك التصفيق الفاتر. .

الناجحون جميعاً في امتحان الحياة.

النافضون يدهم من كل شيء، الضيقون بأي شيء، الراضون حتى عن السخط. والساخطون حتى على الرضا، الذي انسحبت منهم مياه الاندماج الحي العميق حتى أصبح مستحيلاً أن يصلها خلجة انفعال أو نبضة حماس أو لحظة غضب.

أكل العيش وحده مع أكلة لحوم البشر.

والقفص الحديدي مغلق.

ومن بين أنيابهم عليه أن ينتزع لقمة عيشه.

* * *

تلفت حولي.

لا تغير يذكر في انفعالات الوجوه.

لا أحد يعرف.

حتى هو نفسه، محمد الحلو، لا يعرف.

الوحيد، في الخيمة كلها الذي كان يعرف، هو الأسد نفسه.

الأسد ملك الغابة لأنه ملك الإحساس.

خطره الأعظم أن لديه القدرة دائماً أن يعرف، وعلى وجه اليقين، إحساس من أمامه.

وإذا اشتم أنه خائف منه انقض عليه.

فالغابة ليس فيها إلا المخوف والخائف، تلك هي العلاقة الوحيدة، ذلك هو القانون الأعظم.

كل خائف من حيوان يخيف بدوره حيواناً آخر.
إلا الأسد. .
الجميع يخافونه وهو لا يخاف أحداً.
الحيوان الوحيد الذي يخاف منه الأسد.
هو الإنسان.

أو بالضبط هو ذلك الإنسان الذي بما منح من ذكاء وإرادة وسلاح يستطيع أن يواجه الأسد وهو لا يمثل أنه خائف منه ولكن حقيقة وصدقاً غير خائف منه، بل ربما شاعر أنه الأقوى.

ولا بد لكي تروض الأسد أن تروض نفسك أولاً بحيث تصل إلى الدرجة التي تواجه فيها أسداً أو عدة أسود وأنت غير خائف منها.

الأسد وحده أدرك أن ذلك الرجل، الرجل الذي يعرفه جيداً وتعود منه دائماً أن يمد أصابع نظراته الغريزية إلى أعمق أعماقه فلا تنبئه الغرائز إلا بأن الرجل ليس فقط غير خائف منه ولكن يأمره وينهره ويملك إرادة وثقة بنفسه أقوى بكثير مما لديه هو الملك وأن عليه إن أراد البقاء أن يخاف ويطيع.

ولا بد للإنصاف هنا أن أذكر أن إنساناً آخر في الخيمة كان يعرف. ذلك الشاب الذي ما توقف لحظة واحدة عن الطواف حول القفص وملاحقة نظرات الأسود التي تلاحق الحلو. ذلك الشاب الذي عرفت فيما بعد أنه ابنه والذي خلفه. كان هو الآخر بغريزته العظمى يعرف ويدرك، فهو يعرف الأسود جيداً، رباها مع أبيه

وصاحبها، ويعرف أباه جيداً، ويعرف لا بد كنه هذه النظرات الخارجة من عيون الأسود ومعنى تلك النظرة التي تواجهها والخارجة من عيون أبيه.

وحتى ما تلا هذا من حركات لم تغير الموقف.

إن محمد الحلو مدرب قديم، باعه طويل، وجراب خبراته مليء، إن المسألة ليست شجاعة وبطولة فقط. إنها أيضاً مليئة بالصنعة والحنكة والدهاء.

ها هو يخرج من الجراب كل ما تملك أصابعه التي لا بد أصابتها رعشة خفيفة لا تلحظ، كل ما تملك أصابعه إخراجه. بقية الأسود تلعب، والجمهور يصفق، وكل شيء يمضي وكأن لا خطر البتة هناك. ولكن الرجل ليس نفس الرجل. إنه هذه المرة خائف. هكذا راحت تدق أحاسيس الأسد الغريزية وتؤكد. في يده الرمح المدبب المرعب ولكنه يرتعش. النظرة خارجة من عينيه ليست واضحة وقاطعة وحاسمة، إنها تتردد، إنها تحسب، إنها تراجع، إنها تحوم، أبداً ليست نفس النظرة.

تلك كانت الليلة الأولى.

الليلة التي أدرك فيها (جبار) هذا الإدراك.

ولكن الذي قتل محمد الحلو هو (سلطان).

وعضه في الليلة التالية.

فجبار حديث المعرفة بمحمد الحلو.

لا تزال العلاقة بينهما علاقة من يخاف من.

ولهذا كان هو أول من أدرك أن الآخر خائف.

أما (سلطان) فأمره مختلف. سلطان قضى عمره كله يعرف الحلو ويخاف منه، ويطيعه، والليلة الأولى، مثلها مثل كل الليالي الأخريات، مرت، وسلطان يقوم بما تعود القيام به من ألعاب، يأمره الحلو، فيطيع، يكافئه، بلحم الحمير، فيسعد. الحيوان الذي فيه كان غافلاً مستسلماً كالعادة للطبيعة الجديدة المتمدينة المروضة التي تكونت له. في الليلة التالية فقط، عرف سلطان.

فجأة وللمرة الأولى، يدب في غرائزه العميقة ذلك الشعور الذي لم يخالجه أبداً. الرجل. ذلك الرجل الذي يخاف منه، الليلة خائف.

يقترب منه الحلو لأداء اللعبة.

يزأر..

يصبح لنظرة الرجل تشتت غريب لم يعهد.

ولو كان الأسد يعرف الاستنكار لاستنكر أن يحدث هذا.

فما حدث بالنسبة إليه شيء لا يصدق، إذا كان الأسد يعرف ما يصدق وما لا يصدق.

للأسف هو لا يعرف إلا لغة واحدة يتفاهم بها مع الكون والأشياء والحيوانات والناس من حوله، ومع الرجل حتى ذلك الرجل. لغة لا تحتوي إلا كلمة واحدة. كلمة لا وجود لها إلا في لغتنا نحن، ولكن الكلمة التي إذا جاءته من الرجل، أحس أنه أصغر

وأضال وأضعف وأجبن وأن عليه أن يرضخ. نفس الكلمة التي إذا رآها في عين الرجل أحس أنه هو الأقوى والأعظم والملك وأن عليه أن يفتك.

لا. لم يكن يريد عض الحلو أو قتله.

ربما أراد أن يتأكد..

ربما أراد أن يستفز الرجل ليقرأ في عينيه نفس النظرة.. الكلمة التي تعود إذا رآها أن يركع ويخضع.

أراد تماماً كما يفعل المدرب حين يستفز الأسد برمحه ليزأر ليخيف المتفرجين كي يزدادوا تقديراً لبطولته. أراد أن يستفز محمد الحلو بانقضاضه أو بمخالبه أو بأنيابه، لينتفض له، مرة أخرى، ذلك الرجل الذي تعود أن يجبن أمامه.

ولكنه ماكاد يستثير وينقض ويدفعه حتى سقط. حتى انهار تماماً وهو في أقصى درجات الرعب، حتى أطبق على الخيمة كلها رعب أكثر من رعب الحلو نفسه.

وهكذا فجأة أدرك الحيوان العميق المستسلم لقيوده ومصيره وخوفه أنه كان مخدوعاً، وأنه الأقوى والأعظم والمسيطر والملك.

واندفع ينهش لحم صاحبه المدرب، ويعضه، ويكسر قيوده ويستعيد نفسه.

ونستغرب بعد هذا لماذا صام (سلطان) عن الطعام وقضى الأيام التالية حزيناً.

الحزن في رأيي كان سببه أنه أبداً لم يرد أن يحدث ما حدث.
أن الأسد حيوان ليس الغدر في طبعه.
وكالكلب، الوفاء عنده، غريزة.
وهو لم يقصد أن يغدر أو يفترس أبداً صاحبه.

أراد فقط، كل ما أراد، أن يستمر على وضعه خائفاً من ملكه وصاحبه ومدربه وسيده. أراد، كل ما أراد، أن يجعله يشعره مرة أخرى أنه الأقوى والأقدر.
كان متأكداً أنه سيقابل هجمته بهجمة أشد منها.

كان يعبث، كما تعود أن يعبث، حتى يناله العقاب، كما تعود أن يناله، ويسعد بعودته للخضوع والطاعة والذلة.

وحين سقط الرجل، حين سقطت الهيبة الضخمة وضاع الصولجان. حين لم يعد باقياً أمام سلطان إلا أن يحس بالشفقة على صاحبه فيطبطب عليه ويأخذه بيده وخاطره، لم يستطع للأسف أن يفعل. فالأسد، كالحيوانات، كالغابة في أساسها، لا يحس بالشفقة على أحد. ولو كانت الشفقة قانوناً من قوانين الوجود لماجت الحياة وازدحمت بأشكال وأنواع وأنماط ركيكة عاجزة لا تصلح للحياة وإن كانت تصلح للشفقة. الأسد إذا لم يخف، خوف. إذا لم يخف أن يؤكل خوف بأن يأكل. وإذا لم يجد التخويف، أكل فعلاً، وربما هذه هي طريقته في اظهار الشفقة. أن يأكل من لا يعتمد في بقائه حياً إلا على إحساس الآخرين بالرثاء والشفقة.

* * *

إلى المستشفى حملوا محمد الحلو . . ليموت طباً وعلاجاً.
وإلى حديقة الحيوان أخذوا (سلطان) ليموت كمداً واكتئاباً.
وكم آلمني ما حدث للحلو.
وكم آلم الناس الطيبين، من رأوا الفاجعة ومن لم يروها . .

ولكن لأننا جميعاً مشغولون بالإجابة على السؤال: لماذا يحدث للحلو ما حدث للحلو؟

ولماذا ينهش الحيوان المتوحش صاحبه الذي دربه وأطعمه ورباه؟

ولأننا جميهاً لو استحلنا إلى أكلة عيش فسيكون مصيرنا أن تنهشنا أكلة اللحوم. والإنسان أثبت أنه على رأس أكلة لحوم البشر.
لأن الأمر كذلك.
فإني أترك المشكلة لكم لتفكروا فيها.

ففي هذه اللحظة أنا قابع مع سلطان في حبسه الانفرادي، قاتلاً، ومجرماً، ومنبوذاً، ومحل سخط الجميع وازدرائهم، قابع معه أتساءل، كما لا بد لذي العقل منا لو كان حيواناً، أو للحيوان منا لو كان ذا عقل أن يتساءل: ما هي جريمتي أيها السادة؟
أني عقرت الرجل وأرديته . .

ما ذنبي وأنا لم أفعل إلا أني قمت بدوري كوحش عليه أن ينهش إذا خاف مدربه، وأن يلعب إذا أخافه المدرب.

أم كنتم تريدونني أن آخذها أنا الآخر هزلاً، ويصبح الوحش

الذي في نكتة، كما أصبح أي شيء نكتة.

إني آسف أيها السادة، شديد الأسف لما حدث لسيدي السابق، شديد الإعجاب بابنه الذي يعتلي الآن ظهور الأسود ويخيفها، آسف أيها السادة فقانون الغابة ليس قانونها فقط، إنه قانون الحياة والأحياء، ذلك الذي لم تستطع حتى أديان السماء كلها أن تلغيه.

إما أن تخاف وتركع أو تخيف وتقتل. في القفص وخارج القفص، فأنت مقتول إن ضعفت أو خفت، أو قاتل، وأنت المسئول عما تختار.

آسف أيها السادة فأنتم وحدكم الذين تسخرون من هذا القانون وتضحكون فإذا كان العالم يحياه حقيقة وقانوناً وتحيونه أنتم سخرية ونكتاً فالذنب ليس ذنب (سلطان).

ليس ذنبي.

وليس ذنب صاحبي محمد الحلو.

صاحبي الذي خضعت له بطلاً.

وحين أصبح آكل عيش مثلكم أرديته.

فأنا لست سلطان الأسد.

أنا سلطان قانون الغابة، وقانون الحضارة وقانون الإنسان وقانون كل الوجود.

جيوكوندا مصرية

إنها ليست أول مرة أحاول، ربما هي ثالث أو رابع مرة، فأنا أحس كلما أردت كتابتها أن اللغة التي أستعملها أخشن وأصلب وأجوف بكثير من أن تستيطع التعبير عنها، أحس أن لغتنا، تلك التي نتحدث بها ونكتب خلقت لتصوير أحداث ضخمة وأحاسيس كبيرة الحجم كالصخر أو حتى إذا صغرت فهي كالرمل أو الحصى في حين أن ما أريد تصويره ناعم موسيقي رقيق دقيق كأنه الذرات العالقة بشعاع الضوء إذا سقط في غرفة مظلمة. لا. ليس حتى كعزف الكمان أو أنين الناي، إنما هو كاللحن الذي لا تستطيع سماعه إلا إذا خفت الضجة في الدنيا كلها أو سكن الكون تماماً، ثم طهرت نفسك من كل ما يشغلها من هموم الأرض وأحاسيسها الترابية العابرة، واستحضرت في ذاتك المعاني الحقيقية للرحمة والحب والحنان والإنسان، المعاني الخالدة السرمدية التي يحيا البشر على أمل أن ذات يوم تتحقق، حينئذ فقط، وبعد طول معاناة في تهيئة النفس، وطول تأمل وسكون، ستجد نغماً رقيقاً واهن الضعف قد بدأ يتسرب إلى نفسك، ليس من أذنك فقط، وإنما من كل ذاتك ولكل

ذاتك، يتسرب النغم تسرباً لا يفعل أكثر من أن يحيل ذاتك نفسها إلى ذات النغم، حتى لتندمج معه في وحدة بالغة الشفافية.

أنى لي بكلمات تستطيع وصف هذا وكلماتنا صنعت لمعان محدودة واضحة لا شك فيها ولا اختلال، أنى لي بكلمات تستطيع وصف عشر الانفعال، والواحد على المائة من الارتجافة أو الخفقة الواهنة المرهفة التي يكاد السمع يتجاوزها؟

أنى لي بألوان أستطيع بها وصف لون «حنونة» المسيحية، ذلك اللون الذي لا هو أبيض ولا قمحي، ولا هو أوروبي ولا شرقي، لا هو صعيدي ولا من أقصى الشمال في بحري، لون حتى في مكوناته زرقة ليست زرقة الموات ولكنها كزرقة الفجر إذا شقشق، أو زرقة البحر إذا هجع وتحولت موجاته إلى نداءات وديعة تؤوب إلى مستقرها عند الشاطىء خاشعة ساجدة تهيب بك أن ترتمي بحراً وتعب زرقته حتى النهاية.

وكيف لي أن أبدأ القصة وليس في ذهني بداية واضحة، إن هي الا علاقات متصلة بين الناس ومنشأ مشترك، وطفولة، ثم صبا، و(شال) كموني باهت، وحجرة ليس بها أحد سوانا، وخبز مقدس، ثم انجيل صغير الحجم كثير الصفحات، مكتوب بلغة عربية لها طعمها الخاص.

وكنت في سن البلوغ، تلك التي تحس فيها أن هناك دنيا هذا صحيح، وهناك صبح وشمس وقمر، وهناك بلاد بعيدة قبل البحر

المالح وعبر المالح وبعد المالح، (الطلمبات) بضخامتها السوداء الزيتية المهولة وصوتها المتئد الوقور المستمر، والماء المجذوب بسحر خفي وبكم هائل إلى فتحاتها والماء الهادر الغاضب المندفع الأرعن الخارج عنها، هناك الغربان والعصافير، وأولياء الله الصالحون، وهناك المصحف والآيات التي يجب عليك حفظها وكلها عن جنة شديدة الجمال غريبة، وعن نار جحيمية يقشعر لها بدنك وثواب وعذاب ودنيا وآخرة، وهناك أيضاً، وهذا هو المهم المباشر، خيزرانة الشيخ مصطفى المنكفىء العمامة إلى أمام أكثر مما يجب، ذي الأرجل الرفيعة المنتهية بركب كرؤوس عيدان الكبريت، حين يضع ساقا رفيعة فوق ساق، ويتدلى حذاؤه حائل اللون فاغر الفاه، ويهز لك رأساً فوقها تهتز العمامة ويقول: سمع يا ولد. هناك شيء ما هذا صحيح. شيء لا نراه ولا نحسه، شيء آخر غير ليلة القدر، والموت، والحب الشديد الذي أكنه لأبي، شيء بإرادته مختلف لا يريد أن يظهر، ربما خوفاً علينا، إذ ربما لو ظهر لمتنا من شدة الخوف والرعب والمواجهة.. شيء آخر غير العفاريت، فالعفاريت رغم كل شيء فيها ما يضحك، ولكن هذا الشيء لا يبعث على الضحك أبداً. إنه قاس وقور مهيمن رحيم.

قلت لحنونة، وأنا بالضبط لا أعني ما أقوله:

ـ أريد أن أكون مثلك..

كانت لا بد أكبر مني ربما بعام أو بعامين، فقد كانت أطول وإن كانت أضعف، ولكنها دائماً الأعقل والأحكم. وهنا بالضبط أعجز عن

التعبير. روحها ذلك الإحساس المشع منها وكأنه النور يأتي من لا مكان أو بطريقة غير مباشرة، روحها تلك كانت تضفي على كلماتها ومشيتها وعلى الطريقة التي ترفع أو تخفض بها يدها أو تقضم قضمة صغيرة وبأسنانها الأمامية من الخبز المقدس.. مسحة غريبة البراءة والنقاء والرشاقة تجعلك تعتقد وكأنها ليست من أهل الأرض، وكأنها النوع الثاني من البشر، ذلك الذي يصنع الحلقة الكائنة بينهم وبين الملائكة.

ولا أذكر بماذا أجابتني. ولا حتى على وجه الدقة إذا كانت قد أجابت، وماذا أيضاً قالت عن الانجيل، والخبز المقدس، و(كيرياليسون) ومعناها كما علمتني (يا رب.. ارحم)، وكنت قد سمعت القسيس الآتي من المدينة يرددها في زفاف (عفيفة) حين تزوجت منذ شهور. كل ما أذكر أني من إجاباتها بدأت أحس أن هناك أناساً آخرين، غيرنا نحن أظن أن الدنيا كلها مسلمة، وإن هذا الدين الآخر الجديد مملوء بأشياء تثير الخيال، وتبعث على حب الاستطلاع الشديد، وخاصة أن لهم في البندر ـ كما عرفت من حنونة ـ كنيسة، فيها صورة كبيرة للمسيح، وفيها شموع وثريات بالكهرباء، وفيها غناء، بل إن كل صلاتهم غناء في غناء.

ولم أعد أدري، أسر تتبعي لحنونة ـ حتى وهي في طريقها إلى النوم ـ إن هو إلا محاولات أكثر لإدراك أشياء أخرى عن هذا الدين، أم هو استسلام لذلك الاشعاع الذي لا يقاوم الدائم الصدور عنها

يجذب إليها الناس والأشياء ويحيل كل ما تصنعه إلى حدث براق ممتع رقيق مثير.

ولكن ما أعرفه أنه لا أقول بدأت أحس برباط قوي يربطني بها، وإنما بدأت في أحيان أعي أني لا أتركها وكأني ظلها، احساس كان لا يراودني إلا في اللحظات التي أغادرها فيها.

فوأنا معها كنت لا أحس بنفسي ولا بما أفعله أبداً، فأنا ذاثب تماماً في ذلك اللقاء المستمر معها، لا هم لي إلا تأملها، وتتبع ما تقوله أو تفعله كالمشدوه بمعجزة خارقة، دائمة الحدوث، لا ينفصل عن شعوره بها ولا يبغي إلا أن يظل في حالة النشوة المشدوهة تلك لا يغادرها أو تغادره لحظة.

ويخيل لي أن مشاكل العالم تنشأ من هنا. فنحن أبداً لا نستطيع الصبر على ظواهر الكون أو التفاعل التلقائي للأحداث وعلاقات القوى والنماء وهي تنشأ وتنمو وتتفرع وتزدهر، إنما، دائماً بإرادتنا الحمقاء وقوانيننا التي ابتدعها أقدمون متزمتون، دائماً نتدخل، فنفترض سوء النية أو حتى حسنها ونتدخل، وفي تدخلنا نحاول الفرض والكبت والقطع والتأكد المستعجل ولوي سنن الحياة.

ترى ما إذا كان يضير أن تستمر علاقة كهذه، زهرة وديعة وسط غابات الطبائع والنفوس والعلاقات الاجتماعية المتشابكة المعقدة التي لا تدري عنها شيئاً.

وماذا يهم أنني ابن مهندس الطلمبات، وإن والد حنونة هو كبير

الأسطوات، وأنني ولد وانها بنت، وأن كلام الناس كثير، مع أن الناس في (المستعمرة) التي نسكنها جميعاً قليلون، كلهم لهم مساكن أقامتها لهم وزارة الري قريباً من مبنى الطلمبات هائل الضخامة، مستعمرة ومجتمعها وطلمباتها كائنة في مكان ما، بعيد وسحيق من شمال الدلتا. مجتمع صغير مكون من مجموعة صغيرة ـ وإن كانت في ذلك الوقت تبدو لعيني وكأنها ربع العالم ـ مسلمون ومسيحيون، ومع هذا فألف مشكلة قائمة، وألف شوكة تؤلم بلسعها ووخزها هذه العشرات القليلة من الحلوق في ذلك المكان الكائن عند آخر الدنيا.

بدأ الأمر بشكاية من أمي لأبي، وأبي خاضع لأمي منذ قطعت ساقه أو التهمتها مروحة الطلمبات لا أعرف، فالقصة غالباً لا تروى، إذ هي دائماً وكأنما تجلب معها الذكرى والألم. ومنذ أن أصبح أبي بساق واحدة أصبحت أمي بثلاث سيقان وعشر أيد ومائة لسان.

وهكذا أوقفني الرجل الطيب أبي ذات صباح وأنا ذاهب إلى (كتاب) الشيخ مصطفى وأفهمني بطريقة لا تقبل الجدل أن عليّ العودة بعد (الكتاب) إلى البيت مباشرة.

لم يشأ الرجل الطيب أن يؤلمني بذكر حنونة وحكايتي معها. آثر أن يدع الباقي لفهمي. وأنا أيضاً لم أشأ المناقشة، فقد اعتزمت ومنذ اللحظة الأولى أن أخالف هذا القرار، وأكذب، وأقابل حنونة. وكيف لي أن أستطيع الكف عن شيء لا أفعله بإرادتي، إنما أجد نفسي، هكذا، كما أجوع وأعطش وأشرب، أفعله، دونما فكر أو

أرجحه للاحتمالات وأخذ قرار. اننا ونحن أطفال وصبية نكون أكثر صدقاً مع أنفسنا ومع ما نريد، وما نريده يكون أكثر صدقاً مع الحياة نفسها، كل ما في الأمر أننا صغار في عالم لا يخضع للحياة وقوانينها وإنما ينظمه ويقننه ويحكمه الكبار. ولا بد دائماً أن يتدخلوا، فإذا فعلوا فإنما ليجبرونا، لا لنمتنع، وإنما لنراوغ ونكذب ونكرههم كما نكره العقاب.

ولا أعرف ماذا بالضبط، وبالمقابل، حدث لحنونة.

ولكني في مكاننا المعتاد عند (الهدار) وهو البئر العميقة التي تصب فيها كل المياة القادمة من المصارف الكبرى، وتأخذ عنه أفواه الطلمبات الماء لترفعه بعد هذا إلى أعلى، إلى مستوى منسوب البحر الأبيض ليتم صرفه والتخلص منه، إذ الماء الجوفي في الدلتا وشمالها أقل من منسوب البحر ولا بد من ضخه إلى أعلى، ومن أجل هذا أقيمت الطلمبات. في مكاننا عند الهدار لم أجدها. وانتظرت، وتأملت كثيراً منظر الماء وهو يهدر في الهدار ويدور ويصنع دوائر كبيرة تنتهي إلى دوائر أقل وأكثر انخفاضاً وتدور بسرعة أشد إلى أن تصنع الدوائر حفرة على هيئة القمع يقولون إن قاعها يبلغ الرجل ولا يبين له بعد هذا أثر. ولم تحضر. وغير قريب من بيتهم وقفت وقد بدأت أحس أن يد الكبار غليظة حقاً وأنها قد عملت عملها وأن اليوم الواحد العذب الممتد الطويل قد انقطع.

وفي الشباك لمحتها، كنا العصر، والشمس قد استحالت من جهنم الظهر المروعة إلى مجرد مصباح أصفر رقيق يضيء الشباك

وداخل الغرفة، وفي وسط تلك الأرضية الصفراء الحية يصفرتها يستدير وجه حنونة وقد أكسبته الأشعة لوناً غريباً يلمع من خلال القضبان الحديدية الداكنة، لوناً يحيل الوجه إلى شمس أخرى، شمس مخنوقة منكفئة الجبهة، مختبئة.

وقفت أنتظر منها إشارة، أو بريق عين حتى، يدل على أنها رأتني أو أرادتني، ولكنها كانت صامتة واجمة، كانت بالضبط صورة (العدرة) العدرة مريم، نفس الصورة المعلقة في غرفتها معلقة الآن في النافذة، ولا بد أن ألقاها، وأنا أعرف الست (أم حنونة) وأعرف أنها وإن كان يقال إنها أشد الناس سلاطة، إلا أنها معي طيبة، تعطف وكأنما بالسليقة على مزاملتي لابنتها، كثيراً ما دست في جيبي برتقالة، أو حبات (بون بون) ودائماً تقول سلم على الست (أم محمد)، سلاماً لا أوصله، فقد كنت أعرف رأي أمي فيها، ورأيها في أمي.

الباب مفتوح، أأدقه؟ دخلت.

أم حنونة خارجة لتوها من المطبخ وهباب الوابور على وجهها وأطراف شعرها الأبيض وملابسها، أشرق وجهها بابتسامة وكأنما أدركت سبب المجيء، أعقبها في الحال تجمد ملامح وكأنما ظهرت إلى وعيها المشكلة والتحذير، وتلعثمت، وفأفت، ولكنها لم تصرح بشيء، وإنما استدارت وكأنما لم تر ولم تسمع، وعادت إلى المطبخ.

وما يدريني، فقد قرأت في حركتها تلك علامة الرضا،

واندفعت إلى الغرفة كالسهم. ووجدت حنونة واقفة تبتسم وتنتظر انتظاراً منخفض الرأس لا يزال وفي عينيها دون أن أراهما مكر بريء جميل كمكر المحبين.

ولدهشتي أقدمت على حركة لم أكن قد تعودتها منها أبداً، مدت يدها تصافحني، وبكل ما لديّ من لهوجة مددت يدي وشددت على يدها بقوة حتى بدا أنها تألمت. كما دائماً نلتقي أو نسير أو نتحرك أو نقدم على عمل الشيء معاً، أما أن نتصافح فذلك ما لم نفعله إلا هذه المرة. يدها صغيرة كانت، ويدي رغم العامين فارق السن، أكبر، يد نحيلة بأصابع أيضاً رفيعة ونحيلة وكأنك تقبض على مجموعة من أقلام الرصاص، ولكن، لم تكن أقلام رصاص، كانت اليد بأصابعها حية دافئة كأنما تركزت فيها كل اشعاعاتها الخاصة لم تكن يداً. كانت قلباً نابضاً دق، نفس القلب الذي سمعت دقته حين كنت أتعمد الاقتراب بوجهي من صدرها. مصافحة روعتني وأحدثت بي مساً.

قلت لها: أنت كالعدرة مريم.

رفعت حاجبها في استنكار مذعور، ولكنها عادت تبتسم كأنما عيب ما أقول، ورغم هذا سألتني: كيف؟

قلت لها: وأنا أراك من النافذة كنت كالعدرة، بدون المسيح يا حنونة، أنت حنونة ـ وكم كان يمتعني دائماً أن أناديها باسمها وكأنما أستمتع بنطق الاسم وطعمه في فمي ـ أنا المسيح وأنت العدرة. خليني مسيحك وأنت عدرتي.

كادت، بل ضربتني على يدي فعلاً، إنما بـرفق تنهاني. ولكن الفكرة كانت قد استبدت بعقلي، ولم تكن بنت لحظتها. لا بـد أنها نبتت في ذلك اليوم الذي كنا فيه منفردين كالعادة في منـزلهم، وكنت أحـدق في صورة العـذراء مـريم وهي تحتضن ابنهـا المسيـح بحنـان زائـد. كانت ألـوان الصورة قـديمة وبـاهتـة، ومن رأس مـريم كـانت تخرج اشعاعات تذهب في كل اتجاه، وكان عيسى طفلاً جميلاً جداً يبتسم بسعادة الابن المدرك أنـه في أحضان أمـه، وفي كنف رعايتهـا وحنانها وكانت مريم أيضاً تبتسم، شبح ابتسامة يعبر وجهها وشفتيها، وكـأنها تـدرك أن صورة مـا ستؤخـذ لهـا، وتـريـد أن تضمن الصـورة ابتسامة أم سعيدة بابنها حقاً.

وحين التفت أحـادث حنونـة أحسست على الفور أني أريـد أن أرتـد طفلاً، أرتكن إلى حضن حنـونة وتسعـد بي مثل سعـادة العذرة مريم بمسيحها، ولكني، في ذلـك اليوم، وأنـا أطلب منها أن تكـون عذرائي وأن أكون مسيحها، لم أكن أفعل ذلـك وفي ذهني أن أتحول إلى طفل صغير تحتضنه أمه. هنـاك، وراء سؤالي وطلبي كانت تـرقد رغبة قوية قديمة عارمة، أن أحتضن أنا حنـونة. آخـذها بين ذراعي، وأطبق عليهـا، ليس بعنف وقوة، فـأنا أعـرف أنها رقيقـة هشة، إنمـا بحنـان ورفق ورقـة أريـد أن أطبق عليهـا، أريـد بيـدي إذا أطبقت وبحضني إذا احتواها أن أحتويها تماماً، وأصغرها وأدخلها بطريقـة ما في صـدري فتلك هي الـوسيلة الـوحيـدة في رأيي لإسكـات هـذا الإحساس المستمر برغبتي في الاقتراب منها والالتصاق الدائم بها.

كنت أريد أن أقترب منها الاقتراب الأكبر، اقتراباً أكبر بكثير مما كنا نفعله مع البنات ونحن نلعب لعبة الزواج في المخازن القديمة.

حدقت فيّ حنونة طويلاً. كانت تلك أول مرة أراها تحدق فيّ على هذا النحو الغريب. كثيراً ما كنت أسأل نفسي عن رأيها فيّ أو احساسها نحوي، ففي معاملتها لي لم أكن أحس بذلك الشيء الخاص الذي تنفرد به العلاقات الخاصة، كنت أحس بنفسي وكأني في نظرها لست سوى صبي في الرابعة عشرة، مجرد صبي آخر في عينها ذات الستة عشر ربيعاً، حقيقة تربطها به علاقة ورفاقة وتآلف واتفاق، ولكن لا شيء أكثر من هذا في تحديقها هذه المرة أحسست، فجأة، باللمعة في عينيها تأخذ ذلك الطابع الذي طالما هفوت إليه،طابع الإحساس بالخصوصية،أحسستأنها نظرة موجهةلي أنا، وأنها تقول بها كلاماً كثيراً تخجل أن تقوله العين نفسها، ولا تفصح عنه سوى النظرة، بل هو كلام لا يمكن ـ أو كان لا يمكن في نظري ـ أن تقوله عين، وبالذات عينها، كلام لم أملك معه إلا أن أقترب منها. كثيراً ما كان أحدنا يلتصق بالآخر ونحن سائران ويتأبط ذراعه، ولكن تلك أول مرة نقترب فيها إلى هذه الدرجة. ولم أكن، كائنة ما دارت أحلامي وأمنياتي، أتصور أن يحدث ما حدث، وأن، فجأة، تضمني حنونة إلى صدرها، بقوة مرتعشة مستعجلة مفاجئة، وتطبع على جبيني قبلة سريعة، لا بد أحمر لها وجهي كثيراً. ورفعت رأسي وأصبح وجهي يقابل وجهها. كنا اثنيننا، نلهث، وجاءت المفاجأة الرائعة الثانية فقد وجدتها تنحني، وأنا الأقصر قليلاً،

وتقبلني في شفتي، قبلة سريعة أيضاً، عظيمة الاضطراب والارتجاف حتى لقد أحسست بموجات الارتعاش التي تجعد شفتيها تنطبع على شفتي، قبلة سريعة كأنها البرق، ولكنها البرق، ولكنها شملتني بكهرباء نعناعية المذاق تفتحت لها كل مسام روحي وانتعش قلبي وكأنه طائر ربيع بكر في اليقظة، قبلة خلفتني إلى أعظم اضطراب شعرت به في حياتي إلى تلك اللحظة، فوكأنني فجأة قد أدركت، بالقبلة أن حنونة بنت. فيها من ذلك الشيء الذي يميز جنس النساء. والذي يجعلهن يرتدين تلك الألوان والأثواب ويتضمخن بالعطور، ويصلصلن بالغوايش والخواتم والعقود، فيها من ذلك الذي يبرز الصدور ويجعل الجلد في نعومة الحرير وللصوت ذلك النغم الرقيق في مقابل صوت الرجل الخشن كجسده الشوكي كذقنه، الداكن كوجهه وشعر صدره. حنونة إذن أنثى. اضطرابي كان سببه أني أبداً لم أتصور هذا قبلاً أو أحلم به. حنونة في نظري كانت كالعدرة كالآلهة، كالمتسببة العظمى في كل خلجة سعادة يحفل بها الكون. الله جل جلاله. الله سبحانه وليغفر لي الذنب أنثى. لجزء من جزء الثانية عاودني الشعور وأنا لا أزال أستجيب لاحتضانها بيدي تلتف حولها وتضمها، أحس أني أضم عذرية الكون الأزلية، عاودني الشعور ولم يزايلني. سقط في قاع عقلي ولم يبرجه وظل كالأماني العميقة حبيسة تقديس العرف والمعقول والتقاليد أمنية أن تذوب الذات الصغرى في الذات الأعظم، أن تحب الله إلى الفناء، أن يتم الاتصال الخالد بينك وبين السر الكوني الأعظم.

وحتى لو كنت قد نجحت في تصور حنونة أنثى وفي إنزالها من

الملكوت إلى الأرض جسماً من لحم وعظم فقد كان من المحال أن أقرن هذا التصور بنفسي، من المحال أن أتصور علاقة لي تقوم مع حنونة الأنثى حتى لأفعل معها مثلما أفعل مع سائر البنات، حاولت كالمجنون أعيد القداسة إلى مكانها، أستعيد إحساسي أنها الأعظم، وأن ما تشعه في الكون من جمال ورشاقة وتفوق يجعلها فوق مستوى البشر، يرفعها للسماء، حاولت جاهداً أن أعيد الشعور ليحول بين الشاب الصغير الذي انتفض داخلي فجأة متسجيباً لنداء الأنثى الذي تولدت عنه حنونة فجأة أيضاً، ولكني كنت أحاول المستحيل، فكل قداسات الدنيا من المحال أن تباعد بين القوتين الأعظم للحياة إذا وجدتا، الرجل والمرأة، إذ ثالثهما هو القانون الشيطاني الذي لا يمكن عصيانه. وقبلتها أنا، مرتجفاً، مضطرباً مثلها، إنما قد استجمعت ما فيّ من رجولة بكر، ولتكن حتى ما تكون، أرضية تكون أو سماوية، قديسة أو فتاة عادية فأنا محبوب وأنا محب والبادي كانت هي وعليّ أنا أن أنعم مستحماً عريان في ذلك البحر المفاجىء الغريب الذي تفتح لي فجأة من بين شفتيها. يا لقلبها يدق وقد رقدت على الكنبة وأذني فوق قلبها، دقاً كونياً يكاد يزلزل الأرض والسماء فقد كان يزلزلني، يا لوجهها أجد فيه الأرض مرة وكل ما فيها من جمال، والسماء مرة وكل ما فيها من قداسة، علوية ترابية، تحمر وتصفر تكتئب وتكسوها ابتسامة العذراء، تموج كسطح البحر الرهيب الذي تفجر، دون أن تنطق، دون كلمة يتلوى جسدها ويتكلم، عذراء كانت وعذري كنت، وكلانا لا يعرف، ويريد أن يعرف وهو يحاول أن يعرف، والغمامات التي كانت تحجب عيوننا عن

أن تـرى، وأن ترى أول مـا ترى أنفسنـا، تنزاح والحمى ليست حمى الغيبـوبـة ولكنهـا حمى التعـرف المجنـون والاستحـواز والمتعـة والاكتشاف، حمى السر الكـوني إذا، أخيراً انكشف، حـمـاك وأنت واقف تـرقب ليلة القدر إذا انفتـح باب السمـاء أمامـك حقاً واكتشفت من خلاله سر السماء، أو إذا انشقت أمامك المرأة فجأة عن مكنونها الأعظم لك، ولك وحدك.

كلما تذكرت أني كنت لو حـاولت تخيلها بنتـاً وأنثى أحس أني على وشك القيام بمعصيـة تزلـزل الأرض والسماء كمـا لو كنت على وشـك ارتكاب الإثم الأعـظم، أعظم إثم يـرتكبـه بشـر، كنت كلمـا تصورت هذا وأحسست بحـرماني السـابق يطغى أضمهـا وأعتصرهـا وألوكها، حيـة دافئة، أنثى، أمـرغ نفسي فيها وفي حـرماني منهـا وفي قداستها وفي الإثم الأعظم وبشريتهـا، والزمن الـطويل الـذي انقضى أعبدها، كنت أعبدها، وهأنذا أنا العابـد أنالها وعلى نحـو محال أن تتطرق إليه أشد الأحلام تخريفاً وبعداً عن التصديق.

ومـاذا أقول: أأقـول إن القداسـة التي كانت تحيط بهـا وتصبغ صوتها وحتى إشارات يدها كانت إشعـاعات الأنثى فيهـا، إشعاعـات المرأة مقدسة ومشرقة، إشعاعـات النوع والأنـوثة كلهـا مركـزة كضوء العدسة في حنونة، حنـانها، مسيحيتهـا، جمالهـا، نظراتهـا، عبادتي لها، كلها أنوثة وأنثى، ولقد مرت سنين وسنين، وعرفت نساء ونساء، ولكني، لأنها كانت هي الأنثى في ذلك اليوم لم أشعـر، منذ يـومها، أني الرجل، ذلك الرجل، إلى الآن.

وكأنما الماء في الهدار بهدوء شديد بطؤت حركته، وضحلت حفرته، وآب إلى سكون.

وكأنما البحر الذي انبثق من بين شفتيها بطول الدنيا وعرضها، آب سطحه إلى زجاج.

وبالكاد حاولنا الاعتدال، وهي خجلى ولكنها ليست نادمة، وأنا خجلان، حين لمع شعاع عند الباب على حين بغتة، شعاع أدركت في الحال كنهه وأنه صادر عن زجاج نظارة معوض أفندي أو الباش أسطى أبيها، الطويل الرفيع ذي العينين المتعبتين دائماً، والتي لا بد تجد عند كل زاوية منهما، وفي أي ساعة من ساعات اليوم، نقطة بيضاء من العماص أو الالتهاب لا أعرف.

كنت خجلان ولكني كنت كالمؤمن الذي للمرة الأولى في حياة إيمانه يتصل الاتصال اليقيني المادي بخالقه، وتتم المعجزة، ويتحول عنده الإيمان إلى رسالة ويقين مستعد أن يفقد حياته نفسها وبكل بساطة في سبيلها، وهكذا حين انسحبت حنونة من الحجرة هاربة كالقطة، ودق قلبي الصبي دقة قلب الصبي يضبط، أوقفت دقه بعناد المؤمن المهووس الممتلىء إيماناً، ليس بما فعله منذ لحظات بالذات، وإنما بحنونة، وكل ما يتصل بحنونة، وعلى رأسه أن تستمر علاقته بها، قامت الدنيا أو قعدت، ضربه معوض أفندي أو تشاجر مع أبيه، ردحت أمها لأمي أو خنقتني الأم، سحب أبي بندقيته القديمة من دولابها وأطلق النار على عائلة معوض كلها أو عليّ أنا منفرداً، فليحدث، وإنما كما يصلي العابد لإلٰهه، كما يتصل الشعاع

بأمه الشمس، كما لا يمكن أن تخلو النجوم من الليل فصلتي بحنونة أكبر من كل هذه الحتميات، باقية وستبقى، إلى أن أموت أو نموت معاً، وربما حتى بعد الموت تبقى.

ولكن يبدو أني رغم هذا الاحساس الداخلي المروع، كان وجهي من الخارج، وأمام مشهد معوض أفندي المنتصب طويلاً ورفيعاً، ينخطف، وينسحب كل ما في جسدي من دم ويسيل مغرقاً أرض الحجرة. بقيت واقفاً جامد العينين مخفضهما أنتظر العقاب. كنت رغم هذا أدرك أنه جاء بعد النهاية، وأنه لا يمكن أن يخمن حقيقة ما حدث، ولكني بإصرار كنت أنتظر العقاب. وليته عاقبني، ليته ضربني أو سبني، ليته حتى اشتكى لأبي وليت أبي قتلني، فكل ما فعله أنه بعد سكوت طويل قال:

ـ أنا كنت فاكرك جدع مؤدب يا محمد.

كلمة من الكلمات التي تلصق بالذهن مدى العمر لا تمحى. كثيراً ما ترد إلى أذنيك، وتجدها فجأة قد انبثقت من غياب الماضي واستحضرت نفسها، حتى على شفتيك تنطق نفسها فترددها، وتشملك رعدة خجل من نفسك وكأنها الرعدة الأولى التي أصابتك حين سمعتها أول مرة، وكلما تذكرتها، تذكرتها كاملة. نفس النغمة والطريقة التي قيلت بها، ولا أدري بالضبط إن كانت قد مرت شهور أو أعوام على ما حدث إذ كل ما تلا ذلك كانت أياماً مملة كئيبة ممتدة الطول لا نهاية لها وبلا هدف. آلاف المرات ألف حول البيت عَلّي ألمحها. كنت أعرف أن القضاء قد حل وأن الأمر البات

الصريح قد صدر لها من أمها وأبيها معاً، أن لا تراني ، أن أموت تماماً من وجودي . وكنت في مرات، مرات قليلة جداً، مرة كل ألف مـرة، أراها، أراها من بعيد وأتطلع إليهـا مكتفياً بنـظرة البعدوكأنني الإنسي يتطلع إلى نجوم السماء، ويحز الهوى القدسي في نفسي أحيـاناً حتى ليدفعني دفعاً أن أقترب، وأظل أقترب حتى لأصبح على مرمى البصر منها، وأناديها، بهمس خفي مرة، بصوت عال مـرة، وأشير لهـا، بيد ترتعش، بيد أحياناً مهووسة متوترة، بذراع تقفز مع الجسـد في الهواء وكـأنما تـريد أن تمسـك بخط البصر الكـامن بين عينيها المستقيمتين وبين الأفق. ولكنها لم يحدث أبداً أن رمش لها جفن الإدراك، إدراك وجودي، واقفة أبداً في قلب مربع النافذة الأصفر الذي تقطع صفـرته عمـدان الحديـد، عارفـة بوجـودي، هكذا أحس وأكـاد أقسم ولكني أعرف أنها لا تـدركه أو تـأبى إدراكه، لا بـد أنها قـطعت على نفسها عهداً أمام أبويها، وعهود حنونة، كحنونة، مقدسـة، ومحال أن تحنث بالعهد المقدس. أذوب وجداً وأنا أتذكر، أتذكرها من لحـظة عرفتهـا إلى لحظة المعرفة الأعظم، أتذكر كل حركة صدرت عنها، كل كلمة عرفتها، إلى لحظة المعرفة الأعظم، أتذكر كل حركة صدرت عنهـا، كـل كلمة، كـل نظرة ذات معنى ارتسمت ذات مـرة على ملامحهـا، أتذكرها وأذوب وجداً وشوقاً وأقتل نفسي ندمـاً. أكان لا بـد أن أصل إلى المستوى الأعظم ألم يكن القرب مجرد القـرب، أهون ألف مـرة من التلاشي التام إلى حد القطيعـة. كنت كالبـطل في قصة ألف ليلة وليلة ذلك الذي تركوه في القصر ذي الأبواب السبعة وأمروه ألا يفتـح البـاب السـابـع للحجرة السـابعة، وعـاش في القصر ينعم ويستمتـع،

ولكنه لم يستطع أن يقاوم المتعة الأكبر، أن يفتح الباب السابع، وفتحه، ورأى ما لم تره عين ولم يخطر على قلب بشر ولكنه في النهاية وجد نفسه هناك خارج القصر في النقطة السحرية التي فتح له باب القصر منها، كأننا عادياً قد عاد إلى الدنيا العادية، ووجد هناك ستة يرتدون السواد ويجلسون في بكاء متصل، إنهم أولئك الذين سبقوه إلى الندم، وانضم مالك الحزين بملابسه السود ليصبح سابعهم، أكان لا بد من الباب السابع والمتعة الأعظم؟ كمالك الحزين أبكي، وبالندم أحيا، والعالم كئيب، والأيام من فرط طولها عجوز رمادية شائخة، والليالي بلا منتصف أو فجر أو صباح، والعمر بلا زمن، إلى أن جاء الخريف، وسرت الإشاعة ولا أصدق أنا، وتحدد اليوم، والشخص، وحلت الليلة، وانتشرت الكلوبات في المستعمرة، وتركزت في المربع الأوسط الواسع، الأضواء تكسر الظلام باهرة، والشموع كثيرة لا حصر لها، حتى رائحة الشموع نفسها كانت على البعد تشم، وابن عمها جاء من الصعيد ليتزوجها، وهم يزفونها إليه، ونفس القسيس الذي يزورهم بين الحين والحين قد حضر من كنيسة البندر، والكل يغني ويردد وراء القسيس: كير. . يا . . ليسون. . ارحم يا رب. . يا رب ارحم. . وحنونة في ثيابها البيضاء الناصعة، وعقد الفل، والطرحة، وقد حملوا وجهها بأكثر مما يحتمل من ألوان وأصباغ ولكن بقيت لها نظرة العينين غير مصبوغة، وإنما هي زائغة مروعة تائهة، تتحرك مدفوعة بالأيدي الكثيرة التي تتجاذبها، تتحرك كالمنومة مغناطيسياً كمن تؤدي دوراً، وثمة ابتسامة شاحبة خائفة لا تغادر وجهها، وإلى جوارها أفندي ربما لم تره في

حياتها إلا الليلة، ضخم الجثة، أسود الشارب كثيفة، يرتدي (بالطو) أسود وشعره لامع شديد اللمعة بما فيه من بـريانتين، العـريس منتفخ الأوداج وكـأنه لتـوه قـد ربـح صفقـة، يمضـغ ويتملظ ويضحـك من أعمـاق صدره وأحيـاناً دون أن يـريد، وحنـونة إلى جـواره كالحمـامة المسـوقة الـوديعة، تتجـاذبها الأيـدي وتدفعهـا، وتبتسم في شحـوب وعيناها هائمتان تبحثان عن شيء بين نجوم السماء وكأنها العدرة فقد منهـا مسيحها، والعـذراء راضخة، صـابـرة، وحيـدة، تفتش السمـاء بعينيها بحثاً عن الخلاص، من يدري ربما كانت تفتش عني وأنا قابع فوق السطح أتألم وأندم وأرقب، والكل يردد: كير يا ليسون. . كير يا ليسون.

البراءة(١)

ابتسامة الجنرال والزورق والدعوة. الابتسامة غير بعيدة على مرمى البصر، والدعوة قائمة ومستمرة ومتجددة، كرياح خافتة دائمة الهبوب. الزورق تتلاعب به المياه، تعلو به موجة، تنخفض به موجة، بإغراء كبير يتلاعب، الابتسامة غير واسعة، وكأنما بالإرادة محددة الحجم، مضبوط ارتفاع شفتها العليا. مقاس تأثيرها بدقة زائدة. الجنرال سمين أكثر مما يبدو في صوره بالصحف، واقف يتمشى، راض عن الدنيا تماماً. صلعته الأمامية تلمع بحبيبات عرق تحت ضوء الشمس. الشمس حارة لكنها غير لاسعة، في الحقيقة مبتسمة. تلف الجو كله بروح الاغراء والدعوة. عصا الجنرال تحت ابطه ولكن ثيابه مدنية، وقميصه صيفي بنصف كم. البقعة السوداء التي تحجب عينه من فرط الرضا المبتسم والوجه المكتنز قد اختفت أو كادت. في الحقيقة لا ألحظها. لا أرى أظافر، أو رؤوس حراب

---

(١) كتبت ونشرت لأول مرة في مجلة الآداب (عددها الخاص عن القصة القصيرة) في يونيو ١٩٧٢.

أو خناجر غدر. الجمهور على المرسى الخشبي القديم، متدلي الرؤوس من فوق الحاجز، يتطلع ساكتاً سكوت الدهشة، سكوت حب الاستطلاع، سكوت يوم الدين، ولكنه سكوت عظيم. الجنرال لأمر ما، لخاطر ما، ضحكة فقط فتحت فمه، أسنانه تبدو قديمة منفرجة، متسخة قليلاً، ولكنها بلا أنياب، بلا أنياب.

ابتسامة الجنرال والزورق والدعوة، وعبرت. كيف؟ لا أعرف. على ماء كالحرير، أو حرير من الماء، عبرت، بالنزوة، بالتلقائية بالرغبة، عبرت. هببت. كما تهب النسمة في الاتجاه المضاد، هببت. أصبحت هناك. اهتزت أهداب العين الواحدة في ترحاب وقور. الابتسامة أضيف إليها طعم الاكتفاء. عصا الضباط العظام تراخت تحت ابط لم يعد مشدود العضلات. لم تمتد يده تصافحني. في وجهه تعبير من لا يريد احراجي، من يعرف إني لن أصافحه. أنا فقط أريد أن أرى، مجرد أن أرى وأتفرج عن كثب أشاهد، والرؤية ليس لها دنس. نظيف أنا مثل (بفتة المحلة) البيضاء. كيف أصافح وأيديهم ملأى بالحيات والثعابين والعقارب؟ أنا متأكد أنني لو مددت يدي، وصافحت، لالتصقت باليد التصاق الأبد، ولا أعود أستطيع الانفصال. للفرجة جئت، وعلى الضفة الأخرى كنت أتفرج. والآن، عن قرب أفعل. فماذا يضير؟ ماذا يضير؟

أتجول، وفوق الشاطىء الرملي أقدامى تتحرك، خفيف الوزن كأني هبطت فوق القمر، هبطت فوق الوجه الآخر للقمر. الشمس تماماً غير مباشرة، نورها يأتي، ضعيفاً واهناً، كنور الغسق، من كل

اتجاه يأتي، وإلى كل اتجاه يمضي، فلا يبقى إلا أثر الغسق.

كل شيء على الشاطىء هنا. المدن صغيرها وكبيرها هنا. البلاجات، المواخير، وحتى مصانع الأسلحة السرية هنا. لا أحتاج إلا لخطوة واحدة، فيتغير الزمن، ويتغير المكان. الجنرال أشعر به من بعيد يراقبني. كان من واجبه مصاحبتي. ولكنه تأدباً أراد لي أن أكون بمطلق حريتي. وأن أفعل ما يحلو لي. لا تتأثر إرادتي حتى بمجرد قربه أو وجوده. ولكن عيني الخلفية تحس به يحرك رأسه أنى أتحرك. ابتسامته لا تتغير. أم غير مكترث بالمرة.. عصاه تحت ابطه، رأسها كالبوصلة يتحرك، يتعقبني، يحرك الأشياء أمامي، الزمان والمكان والمشهد. رأس العصا ليس مندمجاً في غلظة أو وضوح إنما هو، كوجه الجنرال، ينسكب انسكاباً متسقاً مع بقية الجسم.

من الغمام الغسقي برز وجه سيدة. أمامي منحنية قليلاً وقفت. جيداً لم أتبين الملامح. هل كان لها رأس حقاً؟! إنها بالتأكيد سيدة. تكلمت عاماً، ربما عامين، ولكني لا أريد أن أسمع، أخرجت من حقيبة يدها، التي تشبه حقائب الدبلوماسيين، أصبع روج. لفت قاعدته، فانبثق من فتحته بدلاً من الروج ماركات المانية حقيقية. آلاف الأوراق. كل ورقة بألف مارك. لفته مرة أخرى انبثقت دولارات، ليرات، دينارات، ورقات بعشرات الجنيهات. أشحت. أغلقت الاصبع. قدمته بلطف زائد. أشحت. الجهد عجيب. ولكني أشحت. تفرجت وأشحت. بعيني الخلفية أحسست بأثر شعاعي

كومضة البرق. ومن عصا الجنرال صدر. اختفت ومجرد خطوة أخرى، وجدتها تنتظرني. ليست فقط بملامح أنثوية واضحة، ولكنها بالملامح الأنثوية التي أريدها. الوجه طويل ينتهي بذقن يتوسطها طابع الحسن، عميقاً كالسرة. الشعر طويل ومتهدل ومفروق وكأنما منذ أن نما. من الوسط يتهدل، ويغطي الأذنين، ويغمر الأكتاف والصدر. الشفتان قطعا لشابة في السابعة عشرة. شفاه جربت لا بد القبل، ولكنها لم تمتهن بعد، بأغلى القبل. العيون واسعة، ومليئة بالغريزة المشعة، والرموش طويلة تكاد تبين كل رمش منها نافر وحده كسلك الشمسية. رموش برية، بركانية، كأنما فجرتها بغزارة طبيعية أم بدائية. قبل أن تكلمني سمعتها، كالسائح المغامر قررت أن أسمعها، وأيضاً أصافحها. أعرف تماماً أن يدي إذا لامست يدها، فمحال أن أستردها.

كالسائح رحت أسمع. وكالرجل الذي بدأ يدمدم فيه البرق رحت أرى. آذاني بدأت تنجذب بقوة. والبركان في نفسي بدأت دمدمته تقل، وتهدد بأن تهدأ. ثاقب كلامها. عقلها يبهرني، يبلغني يغرقني في فيض من رؤى الحياة. أتأملها فأشعر كأني ما عشت الدنيا أو مارستها. مدمر منطقها. مخي أراه رأي العين نسيج عنكبوت تعبره آلاف من ذرات الكلمات الذكيات، وعيي يزداد إلى درجة جاوزت حد الخطر. كنت واثقاً أني في اللحظة الفاطلة أستطيع أن أكون السيد والغالب. والمهدم بضربة كل ما شيدته في عقلي من أوهام. ولكن رعبي أنها أصبحت أصلب من الحقائق، وأدرك أني حالاً، وبعد

ثانية، ومهما هويت، فلن أهدم شيئاً.

وفجأة، من الأعماق البعيدة، انتفض صوت النذير، وخطوت غضباً خطوت، مقرراً بلا رجعة أن أعود. لقد جئت أتفرج. فجأة أيضاً ظهر الجنرال. أمامي وقف. الابتسامة هذه المرة ابتسامة اعتذار واضح. مد يده. بالأدق، حرك يده حركة تصلح أن تكون مشروع مصافحة. لا يا جنرال حتى أنت لا أصافحك، بذكاء شديد أدرك، بذكاء أشد تحولت همة اليد إلى حركة لبقة داعية أن أتقدم. رحت أجمع نفسي، وألتقط أنفاسي، وأرفع القدم وأبدأ أتحرك.

طابور طويل، قادم من بعيد، من أبعد، وكأنما يبدأ أوله عند الأمس، وقبل الأمس، ومئات السنين. طابور عليه مسحة الحزن الذليل. بنات وسيدات، مسنات وصبايا في الثالثة عشرة، بيض وحمر، وسمر وصفر، شاحبات. أمامي تتردد الواحدة، بانكسار تنتظر. بانكسار ترفع الرأس. بأهداب منكسرة تنتظر الريا. بعيون فيها الحزن الرقيق تتمنى. الأسى أنثوى ويضفي على المرأة أنوثة. وليس أكثر أنوثة من الحزن إلا الصبايا الحزانى. الأسى لا يستثير الشفقة. إنه يستثير الفحولة. اختر ما تشاء. أمامك المائدة حافلة. أمامك. خبرة المدربات أمامك. خجل ربات البيوت أمامك. الأرامل الفتيات أمامك. الفقيرات الجميلات أمامك. يكفي أن تلمس الواحدة فتذوب أمامك. تغوص في مياهها الأنثوية. وتسبح فيها، وتعبث كيف تشاء، وأنى تشاء، يا للغلالات السوداء الرقيقة، حتى الرخيصة منها، وهي تنزاح وتتمزق عن اللحم الأبيض! اللحم الشهي الشاحب

الأبيض. يا للوجه المتكسر أسى وهو يموء نشوة وإحساساً بالرجل. يا للدوائر الثديية البنية ذات السيقان الوسيطة المبتورة، وهي تثور وتتمرد على تهدلها الحزين. يا لعواء يأتي من شعر تحت الإبط، ذي العرق اللؤلؤي المنسال الخاص، كل نقطة منثالة منه تحمل كل رائحة الأنثى وغريزتها. يا للحزن حين يستحيل بتأثيرك تهتكاً وفجراً، وأمامك الطابور. اختر ما تشاء، بأصبعك أشر، مجرد أن تشير. بإرادتك جرب، مجرد أن تختار. برغبتك، حتى بمجرد انبثاق الرغبة في أعماقك الباطنة، جرب. والجنرال هناك، لا أعرف له مكاناً على وجه التحديد، وكأنما هو يختار دائماً أن يكون حيث لا أراه. هناك هو بالتأكيد، بنظراته يطبطب على كتفي مشجعاً داعياً مباركاً، حتى لو اخترت ابنة العاشرة سيبارك الاختيار. اللمس، مجرد اللمس أصبح مغرياً إلى حد مستحيل المقاومة. ولكني خائف خوف الموت أو المس. أعرف ومتأكد أنه بمجرد اللمسة سيصبح الطابور كله لي، والطابور طويل طويل، والنساء كثيرات، متباينات، حتى بكل أساهن الجنسي الخاص. أصابعي تأكلني. الرجل فيّ يعوى وأنا كالصخر الثابت أتفرج. والفرجة ليست دنساً، وقلبي نظيف كبفتة (المحلة) البيضاء. الرغبة في صدري مكممة الأفواه، مكتفة الأرجل والسيقان. مخنوقة تماماً لا تملك أن تعبر عن نفسها أبداً. أخاف حتى مجرد أن أعبر عن نفسي. فمبجرد التعبير سأبدأ أنهار. الطابور يختلط. الألوان تفرز الألوان. النسوة الكثيرات يستحلن إلى غابة. الألوان زاهية زاعقة، كبالونات الأعياد تنهمر. الثوب يختصر إلى الميني جيب والميكرو جيب واللاجيب، السيقان أصبحت مصنوعة ومضبوطة على

أدق مفـاييس الجمال. السـاق منها أنثى كـاملة. مصنـوعات فليكن. وليكن الانتاج (ماس برودكشن). الباروكات أجمل من الشعر الأصيل ألف مرة ومرة. العيون الصناعية أحلى وأروع من الطبيعية مليون مرة. وحسبمـا وكيفما تـريد. يـابانيـة ضيقة، وصينيـة معـوجـة، وأميـركيـة واسعـة، وعربيـة سـوداء، وانكليـزيـة زرقـاء، وخضـراء وبنفسجيـة. المصنوعات يـرقصن. بنطلونـاتهن محزقـة. البلوجنز يفتـك بالنـظر، تقشعر له العين، وتنتصب له الرموش قبل أن يقشعر الجسد. الـرقصة أمامي تحدث، الوسط يتلوى، بكل التواءة وسط تقول خذني. السيقان تتشنج ممدودة تجأر، مكنونة تستجير. الأكتاف تهتز، تضيق، تتسع، تنادي، تقبل، تدبر كي تقبـل أكثر. الشفـة السفلى تتدلى، تستـرخي تنقبض. الفم يضيق ضيقـاً داعراً مجنـوناً. أنـا يا عم أتفـرج. أمـوت رغبة، تقتلني الرغبة، ولكني لن أفعل إلا أن أتفـرج. لقد جئت فقط كي أرى وأتفـرج. يا جنـرال أعـرف أنـك خلفي وأنـك تـراقبني وأن برأس عصاك اشعاعاً، يخضع الأشياء لكـل ما أتمنى وأرغب، ولكني سأظل أتفرج.

بل لم يعد في طاقتي البشرية، أن أبقى، وأن أتفرج.

الزورق وقهري للابتسامة والدعوة على وجه الجنـرال تودعني، مشفقـة لغبائي، سـاخرة. هـزة الرأس اسفـاً، بعيوني الخلفيـة أراهـا مودعة. الزورق يتحرك. أحس الآن بحركته، وبـالزمن بـدأت أشعر. أنـا ألهث، مستريـح الضمير ألهث. كمن نجـح في امتحان شـديـد القسـوة. ومستريـح الضمير. لم ألـمس. لم أتـدنس. طـول الـوقت

أتفرج. بقيت نظيفاً كبفتة (المحلة) البيضاء، كضمائر الناس الكثيرين المتزاحمين، على شاطىء، فوق المرسى، أتفرج. أعناق مدلاة فوق الحاجز وسكون. سكون حب الاستطلاع، سكون الفرحة، سكون يوم الدين، ولكن إلى نفس السكون العظيم أعود.

ولكن شيئاً جديداً، لم أتوقعه أبداً، لمحته، هناك، وغير بعيد عن مكان المتزاحمين فوق المرسى القديم، لمحته. ابني، حافي القدمين في جلباب النوم، واقفاً. شعره مشعث. ملامحه فيها جمود المستيقظ لتوه من غفوة، وكان ناحيتي ينظر. إليّ ينظر مرة وإلى المتفرجين المدلاة أعناقهم مرة، شاحب الوجه، رفيعاً، نحيف الساعد، ولكن في ثبات ينظر. دهشت. جعلتني الدهشة الأولى أحبه أكثر. إنه ابني. دمي أنا ولحمي. قطعة مني قد انفصلت، وأصبحت كائناً مستقلاً فاتصلت بي أكثر. كائناً له وجهه الخاص، ورأسه الخاص، وساعده النحيل الخاص.

وصل الزورق، يهدر. لامس الخشب القديم ولكني لم أغادره. النظرة الكامنة في عيني ولدي ثبتتني في مكاني. لا ذرة بنوة واحدة ألحظها في النظرة. ماذا حدث؟ تحرك ساعده. امتدت يده إلى فتحة الجلباب. خرجت اليد قابضة على شيء معدني أسود. كان مسدساً. حسبته لعبة أطفال. ولكنه كان مسدساً رجالياً كبيراً. ماسورته بطول الساعد الناحل. مسدس حقيقي له فوهة. والفوهة تتحرك، لتصبح دائرتها السوداء موجهة إلى صدري مباشرة. بالضبط إلى مكان القلب من الصدر. تعلقت نظرتي مستغيثة بكل ما لي فيه.

لم تجب استغاثتي بادرة. الوجه قاض، والنظرة جلاد، والفم يتمتم بالحكم. لا. أنا لم ألمس يا بني شيئاً. يا مجنون. كنت مثل هؤلاء جميعاً أتفرج. ارجع. لا تكن مجنوناً. ما الجريمة أن أقف وأتفرج؟ قلبي نظيف كبفتة المحلة البيضاء. كقلوب هؤلاء الناس، ولم أفعل إلا التفرج. ارجع. أرجوك. أستحلفك. أعقل. فكر: ما الجريمة يا أحمق أن أتفرج؟

التمتمة تكف. الشفاه تنطبق في اصرار. الدوي. ارتعاشة اليد. الرصاصة في كتفي. الدمعة ألمحها تترقرق في عينه. الرصاصة الثانية كالكتلة تدك صدري. دويها لا أزل أسمعه. الثالثة لا أعود أسمعها.

لحظة قمر

فجأة، رأيت القمر. .

وليست هناك خدعة ما في التعبير، فصحيح أن الإنسان أبداً لا يرى القمر فجأة، فالقمر لا يظهر فجأة، والشمس لا تشرق فجأة، إذ المفاجأة دائماً في العمل غير المنتظر، وشروق القمر وغياب الشمس أعمال لا مفاجأة فيها ولا جديد. ولكنك بالتأكيد ستحس بصدمتي وأنا أرى القمر فجأة في شريحة من شرائح القاهرة، شريحة تسمح لك برؤية السماء، رأيت القمر عجيباً جداً.

الشريحة السماوية التي تبدى منها كانت مسافة بين عمارتين عاليتين من عمائر القاهرة، عاليتان إلى درجة تكاد تحجب عنك رؤية السماء كلها. ولولا المسافة الكائنة بينهما ما سمحت لهذه الفرجة السماوية أن تظهر. وقد كان حرياً بظهورها ألا يثير أدنى دهشة أو ابتئاس لولا أن تلك الشريحة السماوية كانت تحوي، في هذا الوقت بالذات القمر، القمر في محاقه الأخير، القمر حين يبدو الجزء المضيء منه مخنوقاً بعض الشيء. من لون البدر يتناول تدريجياً فاقداً لمعة فضيته، ثم بياضه مكتسباً بعض الصفرة، بعض العتمة،

حين يكاد نوره يصبح وكأنه نور قادم من عمود نور البلدية، أو هو بالضبط كما بدأ لي من خلال فرجة السماء هذه القائمة بين عمارتين، شققهما العليا مفجرة الأضواء والضجيج، بدا لي وكأنه النور القادم من شقة ثالثة مفروشة ومؤجرة للسياح ومن الباطن، حتى لو كان هذا الباطن على تلك الدرجة الشاهقة من العلو، فالمهم أن نور القمر المخنوق اختلط بأنوار الكهرباء الباذلة جهدها كي تلعلع وتبرق ومع ذلك فهي بالكاد تصل إلى مستوى نور القمر المخنوق هذا.

فجأة، رأيت القمر..

ويبدو أيضاً أن المفاجأة كانت كاملة وكان من المستغرب تماماً في ظروف القاهرة تلك، ظروف الخروج من المعركة والاستعداد الكامل المطلق لأي معركة مقبلة، أن يكون هناك قمر..

ربما نحن نسيناه تماماً. نسينا الكون الأكبر المحيط بنا، ضعنا تماماً في اختناقاتنا اليومية الصغيرة المستمرة المتكثرة التي نغرق فيها وتغرقنا، ومع هذا فمفروض ونحن غرقى هكذا أن نفكر في انقاذ أنفسنا بل ونقوم بهذا الانقاذ فعلاً، ويخيل لنا أن كل شيء قد انتهى إلى لا شيء مرة، ومرة أخرى أدهى يحيل إلينا كما لو كان أي شيء قد استحال إلى كل شيء. وما بين اللا شيء وكل شيء رحنا نرقص. رقصاً لا ضابط له ولا نغم، نحن فيه على وجه الدقة كرة (بنج بونج) مضروبة مضروبة، لكي تقتحم أرض الخصم، لكي تدافع مضروبة، من اليمين التي نزاولها بمنتهى عدم الدهشة وبمنتهى الجدية والخطورة، رقصة التفتت والتحلل إلى اللاشيئية لتصبح الكل

شيئية. . أنستنا هـذه الرقصـة المحمومة، ليس فقط أننـا نرقص أو أننـا أحياء، ولكن يبدو وكأنها أنستنا أيضاً أننا جزء من كون هائل الضخامة كبير، عوالم أخرى، شموس وأفلاك ومجرات، حركة تـاريخ ضـاربة إلى أسحق بعـد من المـاضي وواضـح أيضـاً إلى أسحق بعـد في المستقبل. .

أجل. . نسينا هذا كله. كل مراكز عقـولنا محملة فـوق طاقتهـا بـأكوام من الأرقـام والحسابـات والـديـون والمـطالب والاحتمـالات وخراب البيوتات، المركز الواحد أمامه طابـور أفكار بـرمته ولا طـابور الجمعية.

نسينا القمر. .

وفجأة، رأيت القمر. .

مخنـوقاً لا يهم، محمـر الضوء كـالحه لا يهم، شقـة مفروشـة بتليفـون وحمامين وأنـوار والعة مـولعة ومجهـزة إلى حـد الصـاجـات لإحياء ليالي ألف ليلة بعشـرات من الشهـرزادات المنتـظرات، فقط، تليفـون، وإذا الكـل على واحـدة ونص انضبط، مـع كــل واحـد، يتخلخل تماماً ويتفكك مع كل نص في ومضـه يعود إلى الانضبـاط. شقـة مفروشـة باهـرة الأضواء بين عمـارتين لزوم السـادة السياح، مـا عليـك فقط إلا أن تشير، مجـرد تشير، أو تفكـر، مجرد تفكـر، وإذا بجميـع ما تحلم بـه يتحقق حتى لو الشقـة في القمر، ولـو القمر بين عمارتين تتلألأ شققهما بأنوار.

فجأة، رأيت القمر. .

إذن فأنت القمر. تراك أين كنت أيها العربيد. ماذا ضيعك منا أو بالأصح ماذا ضيعنا منك؟ أخيراً هللت، وظهرت، ورأيناك؟!

صحيح لم تكن مفاجأة، ولكنها كانت في حد ذاتها حدثاً.

لا أعرف ماذا حدث لي بالضبط حين رأيت ذلك المخنوق بالوهج القمري، ولكن الشيء المؤكد هو أنني أحسست بارتياح طاغ.

القيامة إذن لم تكن قد قامت.

والطريق الذي قطعناه طويل هذا صحيح.

متعبين، مثخنين بالجراح والأنواء، نحن.

ولكن..

ها هو القمر.

ها هو وجهه يذكرك بإنسانيتك، بأنك أنت مما كنت، ومهما كانت أوضاعك فأنت هو الإنسان، أنت العظيم وسط هذا الكون الهائل الفراغ والظلام.

ذلك أن هذا النظام نفسه يؤكد أنك سيد هذا الكون، أنك الوحيد بين مكوناته القادر أن تتحرك بإرادتك المستقلة وبحريتك في أي اتجاه تختاره، إنك السيد، وكل ما تفعله عظمة الكون كلما عن لها أن تؤكد نفسها فإنها في نفس الوقت تؤكد عظمتك، أنت عظمة السيد.

فجأة، رأيت القمر..

لا أعرف لماذا كانت بعض الديانات القبلية في أمريكا الجنوبية

وأفريقيا تخصص أياماً محددة من العام تجتمع فيها القبيلة كلها ومن كافة الأنحاء، في مكان محدد عند هضبة جبلية، هناك حيث يعسكر أهل القبيلة، ويقضون الوقت في تأمل صامت للشمس وهي تشرق وتميل ثم تغيب، والقمر وهو يعتلي قبة السماء ويتغير شكله وطبيعة نوره لا أعرف، ولكن الدارسين لهذه العبادات والقبائل يؤكدون على أن الغرض من هذا كان عمل نوع من الاتصال بين الإنسان والكون، بحيث يبقى للإنسان ذلك الاتصال الكوني الروحي الذي يزوده بزاد يكفيه حتى حلول العام القادم.

لا أحد يعرف إذن ماذا يعنيه هذا الاتصال بين الإنسان والكون أو بالضبط ماذا يحدث للنفس البشرية إذا أجبرت على الابتعاد عن الظواهر الكونية أو إذا عاشت واختلطت بتلك الظواهر. لا أحد بالضبط يعرف ماذا يحدث للإنسان ولكن الذي لا شك فيه أن الإنسان (الكوني) أقوى بكثير من الإنسان من بلا بعد كوني، فالإنسان ذو البعد الكوني إنسان أقرب إلى حقيقته الإنسانية وطبعه البشري، أقرب إلى فطرته وأصالته، أقرب إلى تفرده وتسيده من ذلك الذي غشي عليه فلم يعد يرى أمسه من غده، أو ليله من نهاره.

فجأة، رأيت القمر..

رفرفت في صدري أجنحة عصفور زقزق في قلبي كالزغرودة وهفهف بجناحيه مرحباً، وكأن الأمر عيد يهش له.

وبدا كما لو كنت أستعيد حياتي كلها في شريط سريع أمام القمر أو بالضبط أمام لحظة القمر.

لا أعرف، ولكن، لأمر ما، كل شيء يأخذ حجمه الطبيعي، بل بدأت أنا نفسي آخذ عند نفسي حجمها الطبيعي، أو ذلك الذي أبدو فيه أكبر من كل مشاكلي. تلك الصورة التقليدية التي يبدو فيها الإنسان، ومهما كان التحدي القابع أمامه، منتصراً، أو على وجهه علامات الانتصار الأكيد.

فجأة، رأيت القمر..

في فجوة سماوية بين عمارتين.. شقة مفروشة.. كون هائل فارغ ومظلم ومنظم... عصفور يزقزق في قلبي طرباً.

لحظة..

وفجأة أيضاً، ضاع القمر..

سدت السماء أدوار العمارات العالية.

أصبح لا معنى أن تنظر للسماء إذ لا سماء هناك.

عليك، لكي تخطو، فقط لكي تخطو، أن تنظر إلى الأرض.

وإلى الأرض تظل تنظر، حتى لا تسقط، تنظر حتى لا تسقط فما أكثر الحفر في شوارعنا هذه الأيام.

فجأة، رأيت القمر..

ولحظة واحدة عشتها معه.

وفجأة، ضاع القمر بين عمارتين، وضاع بصري بحثاً عن موطن قدم.

ولكن قلبي لا يزال يرفرف بالسعادة، إذ يكفي أني، بعيني، رأيت القمر الذي لا أراه.

حوار خاص

لا بد أنه الاحساس الكامل بالسيادة. السيارة موتور قوي يئن أزيز الاتصال واللا خلل. عجلة القيادة في يدي كالريشة. بحركة أصبع أقود. بحركة قدم أندفع. أنا السيد. على الأقل سيد الكون كله إلا موتور حركة. الكهرباء موتور. الذرة موتور. البنزين موتور. .

أنا الإرادة. أنا العاقل الكامل وسط أكوام وأحراش من اللاعقل واللاواعي واللاإرادة. .

الطريق وسط الصحراء قاحل وأسود ولامع. الوحشة تزيدني احساساً. . بالتفرد. كأني الكامل وحدي في هذه الدنيا. والدنيا طريق أسود طويل ليس فيه سوى الأفق. بعد كل أفق أفق. الدنيا أنا وأنا الدنيا. سعيد. منذ بضعة أشهر نجوت من موت محقق. قال لي الطبيب: حظك نار. لا بد أنك تملك في جسدك قدرات غير عادية. ما أحلى الثقة بالجسد. إنها كالثقة في عربة خارجة لتوها من (الأجنس). القوة. نعبدها حتى في أجسامنا. بالذات في أجسامنا. زهو أني انتصرت. كان الموت فوق القلب تماماً، لكن القلب طرد الموت. بل لمحت الحسد في وجه الطبيب وهو يقول: أتعرف أن

قلبك بعد المرض أقوى وأكثر صحة مما كان قبل الأزمة. هـذا النوع من الأزمات أعرفه. أخرج من الأزمة لأدخل في أخرى. لأعود أخرج منهـا أقوى. أرادني شحـذها الأزمـات، تعـالى إذن يـا إلهي العـظيم نتحادث. ما أروع الحديث معك في هذا المكان القحـل، في طريق صحـراوي لا نـاقـة فيه ولا نبتـة. إنهـا قصـة طويلة طـويلة لي معك. واسمح لي ألا أخاطبك بألقاب التعـظيم فقد استعملهـا الناس كثيراً في مخاطبة الطغاة والحكام حتى أصبحت غير جديرة بك. تلك الأزمة الخاطفة التي مرت بي لم أرك فـأنت لا ترى لست بـالخارج. أنت هنا فينا أقرب إلينا من حبل الوريد.

أنـا الذات الصغرى بنت الذات الكبرى. أنـا المخلوق وأنت الخالق والبرزخ والكائن بيننا ما لا نهايـة في الصغر ومـا لا نهايـة في الكبر لأنه برزخ بابك وبرزخ قـدرتي. أنا يـا إلهي لا أحب أن أعبدك عبـادة هؤلاء الذين يتـدللون لك، فلقـد خلقتنا في أعـظم تكوين وأن نتذل حتى لك معناه أننا نحد من قدرتك، فمخلوقك لا بد أن يتيه ولا يحني الهامة، وإذا كنـا نسجد لـك في الصلاة فـإنما لنـرتفع بقيمنـا وابتهالاتنا إلى مكانك. وقد لا يكون هذا رأي الجميع ولكني أعبـدك عبادتي الخاصة بطريقتي أنا. ولست المسئول عن هذا يا إلهي فـأنت الذي خلقتني هكذا، متمرداً لا يقبل الضيم، رافضاً لا يقبل المساوية طامحاً للكمال في كل شيء حتى يصبح كل شيء قريباً من كمـالك. أنـا هكذا لم أخلق نفسي ولكنـك من مـلايين المـلايين من الـذرات والجـزئيات والـوراثات والتـأثيرات والخـواص اخترتني لأكـون هكـذا

وتكون لي شخصيتي تلك.

* * *

كانت العربة تنطلق بسرعة مائة وعشرين كيلو متراً، وكان الصمت ـ إلا من أزيز الهواء والموتور ـ كاملاً. صمت الصحراء الأصفر. صمت الكون حين تتوقف حركة الخارج وكأنه مات. وخفت. أحسست أن المضي في أفكار كهذه سيخرجني بعد حين عن إطار الجاذبية وانطلق في الفضاء حتى أهلك تماماً في قلب الشمس. ولكنك هكذا خلقتني. حتى لو عرفت أني هالك في قلب الشمس لن أتوقف. لا أكتمك ـ إلهي ـ أني ظللت وأنا في المستشفى أتفكر في مسألة الله والإنسان والعمر. أنا أعرف علمياً أن الذي يحدد العمر هو الطاقة الحيوية المنبثة في القلب وفي كل أنحاء الجسد. فأنا مررت بالأزمة إذن لأن الطاقة الحيوية عندي كانت الأقوى. ولكن المشكلة أن هذه الطاقة يعوقها عامل صغير، مثل قشرة الموز يتزحلق فوقها قدم العملاق فينطرح أرضاً فلماذا خفت رحلة الأزمة من قشرة الموز. . الصدفة. . جائز. ولكن الصدف لا تتكرر إلا كل عشرات الملايين من المرات. وثلاث مرات تكررت الأزمة، واحدة في الرقبة. وواحدة في الوريد وواحدة في القلب. أنا إذن حالة في كل ألف مليون مرة. هكذا العلم يقول. علمنا القاصر الآن عن إيجاد علاج لأزمة البرد. ولكنه حد علمي وحد تفكيري. أما ما هو خارج

هذا فلا بد أن الله يحبني وقد اختارني لأعيش حتى ولو كان الاختيار مرة من ألف مليون مرة. أنت إذن تحبني أيها الإله. تحبني لأني هكذا. ربما أيضاً لأني أقف وقفة المحب أتساءل دون أن يرتجف قلبي من الهلع القاصر ودون أن تصطك أسناني وإنما بثقة المحب للمحبوب وبحريته أسأل. وبنفس هذه الثقة أقود السيارة، منطلقاً بهذه السرعة، سيداً، سعيداً، حراً، أزاول الإنسان الحر الذي في كلمة، أزاوله حتى في مواجهة الخالق ياذا الخالق. أيها الضارب بعيداً في أغوار الكون حتى ينتهي النور، وأبداً لا ينتهي النور لأنك لا تنتهي. الضارب بعيداً في أغوار الماضي وآفاق المستقبل حتى ينتهي الزمن، وأبداً لا ينتهي الزمن لأنك أبداً لا تنتهي لأنك أبداً لا تبدأ لأنك أبداً لا تغيب أبداً لا تحضر، أبداً لا تعرف لأنك العارف ولا تنسى لأنك الذاكرة ولا تخلق لأن كل شيء من خلقك لأنك أنت كل شيء، أنت شعلة في كل شيء، وميض التغيير المستمر إلى الأفضل والأفضل والأفضل، تجسد الطاقة مادة، والمادة حياة، والحياة عقلاً والعقل إنساناً أسمى وأسمى وأسمى، إله أصغر.

ومع هذا فإني أسأل: أهذا هو مجرد شعور الفالت من خطر، مجرد تجسيد لهواجس تربينا في ظلالها وحواديت سردت علينا ونحن صغار وعلماء عجزوا عن التفسير فقالوا: الله.

أأنت حقاً هناك يا إلهي؟.

* * *

وصمتت أفكاري عن أن تمضي. دق قلبي كأني دخلت بالقدم في حـرم مقدس. تخطيت عتبة الممكن والمباح. حملتني السيارة فوق الطريق، وفوق الصحراء، وقائدها أنا اخترقت عنان السماء أتلفت حولي أتساءل عن (الحق). ثانية واحدة مضت لا أكثر. أقل من ثانية ربما. وحدة الزمن الممكن أن يحسها ويدركها الإنسان وبدأت أحس التغيير. أصبحت عجلة القيادة في يدي أسهل وأخف كثيراً عما كانت. لكأنها تتحرك من تلقاء نفسها، وكأن سيطرتي الروحانية أصبحت هي التي تخضع لها العجلة دون حاجة إلى توجيه من يدي.

ثم مروعاً اكتشفت أن المسألة ليست شدة سيطرة من إرادتي على عجلة القيادة، إنما الحقيقة الباردة المجردة أن عجلة القيادة نفسها انفلتت من سيطرتي عليها. وبخبرتي مع العربات وحوادثها أدركت السبب. أن إطار العجلة الخلفية قد انفجر ببطء لم أسمعه وأن العربة نتيجة لهذا ارتفعت عجلاتها الأمامية وأصبحت غير خاضعة مطلقاً لتوجيه (الدركسيون). هي التي تتوجه كيفما يحلو لها، وفي أي اتجاه تشاء. وأنت هنا لا تستطيع أن (تفرمل) لأن مجرد لمس الفرامل يخل بتوازن العربة مع هذه السرعة العالية ويقلبها فوراً.

صفر الخاطر في رأسي:

ماذا لو كان بعنف ورعب واختلال مضى قلبي يدق. نظرة إلى أسرتي التي تحتل العربة معي زادتني رعباً. ولداي من الخلف

وزوجتي بجواري وابنتي الصغيرة وبراءة الدنيا في عينيها ستموت بعد ثوان. فكل شيء وكل خطر قد تكون بسرعة. الطريق الذي كان خاوياً وامتلأ فجأة بعربات جيش لتعليم السواقة قادمة في الاتجاه المضاد، وأي خلل في اتجاه العجل الأمامي للعربة سيجعلنا نراطم الارتطامة القاتلة المهلكة في واحدة من العربات الكثيرة. أكثر من ثلاثين عربة ـ واحدة وراء الأخرى.

تحول السيد فيّ إلى أكثر كائنات الدنيا تواضعاً وذعراً. تحت رحمة من أنا الآن. عجلات الكاوتش تسير كيفما تشاء. أي بروز في الأسفلت أو حجر، بل حتى لو لم يكن هناك شيء بالمرة فاتجاه الريح، ميل جانب أكثر من جانب، عوامل ميكانيكية لا تعد ولا تحصى، ألف مليون عامل وعامل قد يؤدي أي منها لأن تدفع عربتي تجاه أي عربة قادمة أو تجاه الصحراء وتتم الكارثة.

بينما الأولاد يضحكون وزوجتي مع الصغيرة تمرح والقيامة ستقوم بعد ومضة. وجدت نفسي أهتف ـ يا ستار يا رب. يا ستار يا رب.

أي قوة أخرى في هذا الكون الواسع كان ممكناً أن تنقذني، والكارثة ليست فيّ، الكارثة في هؤلاء الأبرياء، ضحية اللعبة، الضاحكون، السعداء سعادة من يعبرون عن السعادة. حتى رداً على هتافي: يا ستار يا رب. ضحكوا وأغرقوا في الضحك فلم يكن أمامهم ما يستحق أن أناديه. كل شيء في نظرهم كان على ما يرام والدنيا جميلة والحياة ممتدة إلى أقصى مدى.

اليأس المطلق حل.. لا فائدة. لا أملك أن أصنع شيئاً. المصير بيده. هو وحده القادر. العربة. الصدفة. الواحد في الألف مليون، تحت رحمته. لا أملك إلا أن أيأس وأجلس وأصرخ على زوجتي وهي تضحك أن تتشبث بالابنة وتحسبني أهزل فلا خطر أمامها هناك وتبالغ في تركها حرة تعبث. والعربات قادمة، واحدة وراء الأخرى كل منها الموت متحركاً ومقبلاً، والصحراء على يميني مجرد انحرافة بسيطة تدخل العجلات في بحر الرمال.

الأمل كله، أن يحدث الأمر القاهر المعجز أن تظل العربة تسير غير منحرفة يميناً أو يساراً وتظل وتبطىء حتى توقف من تلقاء نفسها، وإلى أن يحدث هذا، فالموت في كل ومضة وقت. فقدت الجاذبية الأرضية وفي طريقي أنا إلى قلب الشمس.

* * *

وقفت بجوار العربة. أخيراً ثبت كل شيء. قلبي هاجع وكأنه هو الآخر توقف. حلقي جاف. السكون هائل الضخامة كأنه الكون. الأزيز متصل دائم. نملة رأيتها تناضل تحمل شيئاً بين ذرات الرمل القليلة فوق حافة الطريق. مروع ومذهول ورأسي ذائب في السكون نظرت إلى السماء إلى الأرض إلى مثبت الدقة في قلبي وبالحلق الجاف سألت هامساً: أهكذا يجيب الإله!.

سيف يد

حين استقر على الآن: بدأت الرعشة. ارتعاش الجسد غير مهم، الشفاه لن يستعملها، الأسنان لو حتى اصطكت سيكتم الصوت. المهم يده. أصابعه، قبضته، إنها ترتعش كما لم يحدث لها أو له في حياته ليس ارتعاشاً فقط، لكأنه الشلل الرعاش، فهو بالضبط وساعة قرر ليس في بدنه ذرة قوة. لو دفعه طفل حتى لسقط. فليكن القرار تم. فليكن تم. ما فائدته والتنفيذ هو القرار. لحظة التنفيذ هي الفيصل بين من كان ومن يريد أن يكون. قط لم يفعلها. قط لم يفكر في فعلها. وإنما عاش يرفضها، ينبذها، يشمئز منها. الآن قد أصبح تماماً بجواره. الرعشة تفضي إلى ما لا نهاية. اصفر وجهه لا بد. القرار يملأ ملامحه. واضح. محدد. صارم، لم يبق له إلا التنفيذ، والرعشة تلغي كل شيء. الدهشة تأتيه من العين الأخرى. دهشة تكبرها وتجسمها عدسات النظارة. لو تراجع ضاع. فلتكن المرة الأولى، ما أكثر ما نفعل أشياء نبدؤها لأول مرة دون أن يصيبنا كل هذا الرعب. فليضع العمر كله في الذراع. ولكن الذراع ثقيل ككتلة مسلح. العمر أثقله. وعليه، رغم الرعاشة، أن يدفعه إلى

أعلى، مرتفعاً به إلى أقصى ما يستطيع، ليفعلها لمرة واحدة في عمره، وليضع العمر كله في الذراع..

ارتفاعه حاجب، لمحة نكوص ضاع التردد فجأة، فجأة أظلمت الأشياء، تلاشت، تمازجت وتداخلت وأصبح مع الأشياء كائناً كتلة لا يعرف أين هو منها أو أين هي منه. رعد أرعد. برق توهج. المؤكد أن اليد، قوية، مدوية، هبطت. الرعشة تحولت، حالما هوت، إلى ثقل صاعق. لأول مرة في حياته تصطدم كفه بصدغ رجل. ذلك الرجل. حتى وهو طفل لا يذكر أنه صفع أحداً أو صفعه أحد. الدوي استمر ومستمر. الارتعاش امتلأت به الآذان إلى درجة الصمم. فتح عينيه. الرجل بدا أبعد، وجهه أصفر بكثير عما يجب، أثر أصابعه على الصدغ السمين كالمرسومة بمداد أبيض، عيناه غاصتا فجأة للداخل، غاصتا أكثر بكثير مما تسمح به الملامح، قامته الطويلة بدأت تقصر، وماضية في القصر ـ هوسة فرح اندلعت. عفريت جني في داخل مخه عربد، قبل أي شيء آخر كان نفس ذراعه تلقائياً وإلى أعلى بكثير قد ارتفع. قامته هي الأخرى بدت أطول، أضخم، ولا لمحة لأي ارتعاش.

بكتلة ثقة مباغتة فاجأته هو أولاً أهوى. راعى أن تجيء أكثر إحكاماً، أن تصل هدفها وعيونه مفتوحة تستمتع وهي ترى أين وكيف تصيب. مؤلمة تماماً جاءت. مؤلمة له. فكأن أصابعه ارتطمت بكتلة من حديد. غورت أصابعه في العظم. أظافره مزقت الجلد. تلوى الألم. مكتوماً صدر عنه الصوت. مكتوماً أيضاً صدر عن الرجل

شيء، ليس كلاماً، ليس استغاثة، مجرد صوت، ذعر على هيئة صوت، ذعر شخص صادر عن حنجرة أصابها نفس الذعر. امتلأ بدنه بالثقة، بلغت روحه عنان السماء. كور قبضته، ثنى ذراعه، سيكيلها له في فكه. مذعوراً سبقه الرجل، من كتفه دفعه، تطوع ذراعه، جاءت اللكمة في العين تماماً. أحس بظهر أصابعه طراوة كرة العين. ماذا لو كانت انفجرت. السجن معناها. فليكن، ليكن حتى الشنق. حتى الشنق هو مستعد له. سيقتله. لن تحول بينه وبين قتله قوة. مهما جاع الأولاد فسيظل حمادة على الأقل فخوراً به. جرى الجبان والتف حول المكتب. يريد أن يهرب. فليهرب، وليحاول شنكلته. ولكن الرجل زاغ وفتح باب الدولاب وجعل منه ساتراً اختبأ خلفه. من الدولاب سحب أيضاً المسطرة الكبيرة. كالسيف شرعها. الشتائم من فمه بدأت تنهال، وكل مرة تزداد شتائمه سفالة وإيلاماً. رفع القدم، تراجع للخلف، استعان بالسيد البدوي وبالقوة كلها ركل الضلفة، توالت الآهات. آهات. شتائم آهات. آهات شتائم. عويل من السباب. خذ. ركلة أخرى. أعنف أقوى أشد إيلاماً. عشر سنين يا مجرم. عشر سنين أشكو لطوب الأرض واتحمل. تكرهني وأكرهك. تمقتني ولا أطيق حتى طريقة تفصيلك لبدلك. وكلانا في حجرة واحدة. الوجه في الوجه، والكره يملأ الأعماق، وعلى الملامح العليا تطفح البسمات والمجاملات. ولا مرة تبادلنا غيرها. عشر سنين وأنا اشتمك للناس جميعاً وأشكوك. وتشتمني أنت لبعض الناس للمسكين بمقابر الناس وتشكو مني. وعمري ما واجهتك بشيء أقصى من تحديقة وعيد أخرس، إذا أجبتني بمثلها، أسحب

تحـديقتي فوراً وأعـود أغلي وأبسم وأصمت. أحيانـاً، للكـارثـة، من فمي بـدل الشتائم تنـطلق كلمات الملق. بخبثـك تعـرفهـا وتـدركهـا وتعلقهـا أمامي تـريني فيها نفسي وأنـا متلبس بالخضـوع لـك ومسـح الجـوخ والريـاء. وترضى، وتبسم، بـل وتتقمص الـدور إلى حـد أن تتصـدق عليّ أنت الآخر في النهـاية بكلمـة نصف نفـاق، إذ تمتـدح بنصفها شيئاً تعـرف وأعرف ويعـرف الناس جميعـاً أني لا أتمتع بـه. نـاعم أنت وذكي، ودائمـاً على حق، ودائمـاً بـالقـانـون تخـرج على القانون، وتستطيع دائماً أن تحيل ظلمك عدلاً وقاعدة، وتحيـل حقي وعـدلي إلى خـروج على العـرف والقـانـون. حتى لـو لم أخـطىء، تستدرجني حتى أخطىء. فإذا بادرت بـالتصحيح، أطلت لي الحبـل لاستـدراجي لأخـطىء أكبـر وأكثـر. تكـرهني مثلمـا أكـرهـك ولكنـك أقـدر على كتم الحب والكـره والحقيقـة، واليـوم قـررتهـا، قـررت، من حمـادة وليس من أبي أو خـالي أتعلم، ويـا جبـان لن تنفعك المسطرة. أبداً لن تنفعك.

نـاحيته انـدفع. كـالقط الآدمي قفز. هـوت المسـطرة بحـدهـا الرفيع على أم رأسه. تخدر الجلد مكانها وانفلق العـظم لأن السائـل الـذي يخترق جـذور شعـره لا بـد هـو الـدم. بيسـراه قبض على المسطرة. أمسكها. استمات الآخر. لواها. انكسرت. أمسك بالجزء المكسـور كالخنجر وصرخ هـامـداً وهـو يغـرسهـا في كتفـه. تمـزق القميص وانبثق الـدم الأحمر. حمـرته فـاقعـة وكـان دم الغضب. دم قليل ولكنه لون صدر القميص كله. مرآه الأحمر متغلغـل في الأبيض

أثاره. كانا قد اقتربا حتى التصقا. فليأخذها إذن. بجانب الرأس كما سمع من حمادة، صوبها. (روسية) اصطدمت بفكه. سمع بأذنه اصطكاك العظم بالعظم. أسنانه هو أطبقت على لسانه وعورته، وتملح ريقه بطعم الدم. عشر سنوات ولا عشاء يمر دون واقعة يحكيها للزوجة عنه وأمام الأولاد الصغار، حتى كبروا، وهو لا يزال يحكي، كبروا. بالعقل توصيه. لأكل العيش تنبهه، تهدئه، تدلك غضبه، تتركه يمارس عليها الشخط والزجر ويتنفس. هنا فقط يتنفس. تنفس ذليل يعرف ولكنه بدلاً من انفجار المخ يفعل. حمادة السبب. أنت السبب يا حمادة. الواقعة بسيطة وكل يوم تجري. خناقة عيال. هكذا يسمونها. خناقة لا يطيق فيها ابنه ضارباً أو مضروباً. ولقد جاء هذه المرة ضارباً، وجاءت بالمضروب أمه. وكان لا بد من عقاب عاجل. وفر حمادة واختفى حتى جاء الليل وعاد ليجده ساهراً ينتظره. قبل أن يرفع عليه (الحذاء) طالبه بأن يمنحه الفرصة. هكذا العدل. ألم يعلمه أن هكذا العدل. أحرج. اترك الجزمة. استمع لمجرد الشك فقرار ضربه كان لن يتغير حتى لو الحق معه. وإيمانه الراسخ أن الضارب والمضروب حيوانان بهيمان لا يستحقان قلب الإنسان. هكذا سمع أباه يقولها مرة وسمع خاله كثيراً ما يضمنها حكمه وأمثاله: أنا أكرهه فضربته. ولماذا الكره؟ لأنه لئيم خبيث يشيع عني لدى الأولاد أنني لص: لماذا لم تشكه؟ لمن؟ لأهله؟ وهل يعاقب الأهل ابنهم من أجل أولاد الغير؟ من يعاقب الابن المخطىء إذن؟ أنا. أنت؟! أجل أنسا. وكيف إن شاء الله؟ ناولته (سيف بد) فلكزني فضربته بالبونية وفي نافوخه فعضني وحاولت

إمساكه فطلع يجري فشنكلته بمقص، وقع، بركت فوقه ولم أتركه إلا بعد أن قال: أنا كذاب.

مد يده إلى الحذاء وقد جاء وقت العقاب، ليست هذه طريقة لمعاملة اللئيم، ولا مواجهة من نكره.

أمال كنت عايزي أعمل أيه يا أبي؟

اشتمه مثلما شتمك.

ولكنه لا يشتمني أمامي. جبان ماذا أفعل؟!

وهل يكون الرد بسيف اليد واللكمة.

وقذفة بالحذاء. أصابه في ساقه وجعله يعرج حتى بلغ الفراش. ولكنه هو لم ينم. أبداً لم ينم. سيف اليد والمقص والبواني كانت تتماوج في سقف عيونه المغمضة وتتداخل وفجأة وبين الحين والحين يندلق في سماء العين المعصمة ماء وذلك الوجه السمين المربرب الناضج أبداً بالعرق.

أصبح بينهما المكتب مرة أخرى، نفس المكتب الذي كان دائماً بينهما في الصباح هما على طرفيه ممتلئان بابتسامات الزيف وفي العمل يفصل بين المقالب التي يدبرها لمرؤوسه، والعرائض والشكاوى المجهولة التي يدبرها لرئيسه. والآن هو موجود ولكنه لا يحول بينهما، بعده انطلقت صفعة يده كلها بوجهه، باصبع واحدة فقط صفعه، فالآخر كان قد استدار وامتلكه وإلى صدغه وجه صفعة قوية مليئة متمكنة. أبرقت الدنيا في عينه وصفرت أذنه. أيكون هو الآخر كان ينتهز الفرص لينفجر. هذه (بونية) تصيب أذنه، من المؤكد

خرقت الطبلة. يا ندل تأخذني على خوانة ـ هكذا سمعه. خذ وخذ وخذ وخذ. لم تعد علقة نوى أن يعطيها ويفض يده منه ومنها أصبحت معركة تكاد تتعادل، الآن فقط يتأكد أن الآخر ليس جباناً بالدرجة التي كان يتصورها .ذعره الأول أصبح واضحاً أنه ذعر المفاجأة ليس إلا، الآن هو يطلب العراك. وعليه عقد العزم. ما تصوره هكذا أبداً، طول عمره يراه فأراً رعديداً لا يحتمل الصمود لمجرد سباب وإن كان يبدو في قوة الأسد. ولو. حتماً سيأكلها. فأر أو أسد سيخرج منها بعاهة مستديمة على الأقل. بجماع قوته لكمه. انثنى الآخر وتأوه. وتلذذ. بركبته رفعها كالطلقة شلفطت وجهه وأسالت الدم من أنفه. اعتدل. طار صوابه واعتدل. عيونه يشع منها بريق الشر والجريمة. كالثور الهائج أقبل، إلى اليمين زاغ منه. ولكن لان ذراعه أول ناله وبضربة من قدمه هوى على الأرض كالكتلة. المقص أصابني أنا يا حمادة. فلم أكن الأسرع. الركلات تنهال كالمطر، الجبان، بالحذاء. يسددها لوجهه، فقد العقل، فقد الاحساس بالضرب والألم. همه أصبح أن يغلب، لو مات حتى قد غلب أو غالب لما همه. المهم أن يخرج من الصراع غالباً، ولو ممزقاً أرباً يخرج، أمسك بالقدم، الضربة إلى صدره، بشدة أمسكها بيديه وبقوة عظمى ثناها. سقط الآخر يتلوى، يتأوه، اندفع يرقد وبيديه يحيط رقبته السميكة عازماً أن يكتم للأبد أنفاسه. اختنق الوجه بالاحمرار وبحلاوة الروح دفع أصبعه السبابة في عينه. المجرم. لنكن مجرمين أصبحنا. إما قاتل أنت أو مقتول. الرعب أمده بقوة أعظم. تخلص من الأصبع. رعب آخر جعله بانتفاض يديه بعيداً حتى ليرتطم رأسه

بحامل الخزنة بل وتسقط على قدمه. تماسكا ظلا يتضاربان، حتى لاحت فرصة وأمسك لحم كتفه بأسنانه. بأنيابه، بكل ما يملك من حقد وغيظ، وجنون وفتوة أنشب فكيه في لحمه. أحس بطعم اللحم نفسه من خلال حرف البدلة، صراخ آخر مكتوم لم يعد يعادله إلا ضرباته. ضربات وحش لا يرحم، عينه يحس بها أغلقت تماماً ولم يعد يرى بها، أنفه تورم وبالتأكيد تدشدش، دم الآخر سال، وبدأ يصرخ وبدأ هو الآخر يصرخ، الضرب اشتد وعنف وتشعب أهو يضرب أم يضرب، أهو المهزوم أم المنتصر، كل ما أصبح يحسه أنه متعب وأن التعب يتكاثر عليه حتى لم يعد يقوى على أخذ النفس. أصبح همه كله أن يتنفس لم يعد يتنفس. الهواء لا يدخل صدره. غير قادر أن يحرك الضلوع ليدخل الهواء. على الأرض تمدد بغير حراك، سكون، وهناك حين استطاع بطلوع الروح أن يعود يلتقط النفس، بدأ يدرك أن الآخر أيضاً لا يضرب، وبنظرة لمحه مكوماً أسفل ركبته، مغمض العينين، بدأ بالكاد يلهث بالنفس. كتلتان من الأنسجة المبعثرة والملابس الممزقة وبقع الدم ممددتان على الأرض في مكتب ليس به سواهما بعد ظهر ذلك اليوم.

من مكانه راح يرمق الآخر. عشر سنوات وهو بغير الحقد لا يرمقه. من مكانه راح ينظر إليه ويتأمل. إنه لأول مرة يرى قاع رأسه ويدرك أن الشعر في منطقة قمة الرأس خفيف تماماً، بل يكاد يكون بلا شعر.

ووجد نفسه يتمتم: من كان يتصور هذا. بعد عامين على الأكثر سيكون الصلع قد شمل رأسه كله. مسكين.

حكاية مصرية جداً

تلك اللحظات القليلة، غريب يلتقي بغريب، وكل منهما يلعن الحظ بطريقته، ويتلاءم أو يتصارح، بطريقته أيضاً.

ذلك السائق الطيب. سمين وملظظ وأب لثلاثة طلبة في الجامعة، ويجيد رواية الحديث والنكتة.

قال: كنت سائراً قريباً من شيراتون، وفجأة في تقاطع شارعين، وجدت شحاذاً مقطوع الساقين يعترض بجسده (أو بالأصح بالباقي من جسده) طريق العربة. وقفت. وفوجئت بذلك الإنسان، وبقدرة هائلة كقدرة القرود والزواحف، يقفز من حيث كان أمام العربة إلى حيث الباب المجاور لي ويفتح الأكرة وينزلق بجسده إلى جواري وهو يلهث ويقول: اطلع يا اسطى.

أطلع ازاي. قلت له. معقول أن أعطيك حسنة. أما أن أوصلك حسنة فهو ما لم يسمع به أحد قال: يا اسطى أنا عايز أروح شبرا الخيمة أو شبرا المظلات، من فضلك وصلني. أنا زبون ولست شحاذاً اطلع بسرعة.. أرجوك.

تـرددت قليلاً ولكن إلحـاحه الشـديد.. ثم قبضـة النقـود التي أخرجها نصف إخـراجة من جيبـه أقنعاني أن أطلع. وطلعت. سـرت على كورنيش النيل أتـأمل الـزبون.. مـلابسه مقـطعة، جسـده قذر، شـاب لا يزال ولكن شعـره منكوش بـطريقة تضيف إلى عمـره عشـر سنين. ولعب الفـأر في عبي مرة أخـرى فـأوقفت السيـارة وقلت لـه: أنت إيه حكايتك بالضبط. مش ماشي إلا لما تقول لي.

قال: تشرب كوكاكولا..

ونادى على بائع الكاكولا، ودفع له في الزجاجتين عشرة قروش بسخاء وشربناها. قال: اسمع يا سيدي.. أنا شحات..

قلت في سري: هذا يبدو واضحاً..

قـال: وأنـا أريـد أن آخـذ تـاكسي مخصـوص لأهـرب من العسكري.

سألته: قصدك شرطة مكافحة التشرد.

قال: لأ.. عسكري المرور.

قلت: وما علاقتك بعسكري المرور وأنت شحات؟

قال: علاقة عمل.

قلت في سري: أي عمل هذا الذي يربط بينك وبين عسكري المرور؟

قال: أيوه.. علاقة عمل.

وأخبرني بالقصة.. قال:

ـ من يوم أن قطعت سـاقاي في حـادث مترو بـدأ ربنا يفتحهـا

عليّ، وبـدأ الناس كلمـا رأوني زاحفاً على الأرض من تلقـاء أنفسهم يعطونني، وبدأت أطلع في اليوم بخمسين ستين قرشاً، وأقول نعمة. ولكني بـدأت أفهم وأوعى وأعـرف أنني أمتلك رأس مـال. سـاقـاي المقطوعتان رأس مال لا بأس به أبداً لا بد أن أشغله. وهكذا بـدأت أتقن انتقـاء الأماكن، وأعـرف طباع السكـان والمارة في كـل حي من أحياء القاهرة. الغريب أن الذين كانوا «يعطفون» دائماً عليّ هم: إمـا الفقراء جداً أو الأغنياء جداً. أما متوسطو الحال من أمثـالك فـالظاهـر أن الـرحمة صعبـة الوصـول إلى قلوبهم تمامـاً. ولكني أيضـاً بـطول المزاولة اكتشفت أن الذين يعيشون في مصر تتيبس الرحمة في قلوبهم بعد قليل من كثرة ما يرون، أما القـادمون الجـدد فهم الذين لا تـزال قلوبهم، وجيوبهم أيضاً، عامرة بالمال والرحمة.

وهكذا كان لا بـد أن أعثر أخيـراً على ذلك الـركن القريب من الفندق الكبير الذي ركبت معك من جواره. مكان وشغـلانة لـوكس. الركن إشارة. تقف العربات عند النور الأحمـر، في سرعـة أكون قـد مسحت ركاب العربات الواقفة وسائقيها قبل أن يضيء النـور الأخضر وينطلق المرور. . ولكني اكتشفت أن الإشارة لا تستمر طـويلاً بحيث لم أكن أتمكن من تكملة مسح العربات كلها. وهكـذا في يوم ذهبت إلى العسكـري الواقف عنـد الإشارة ولم يـأخـذ الأمـر سـوى كلمتين اتفقت معـه بعدهمـا أن يطيـل من فتح النـور الأحمـر حتى (أمسح) العربات كلها وحين أعطيه أنا (إشارة) من رأسي أن كله تمام يفتح هو (الإشارة).

يا ابن الإيه. هكذا قلت له. وقلت لنفسي أهذا هو السبب إذن في غياب تلك الإشارة وربما غيرها من الإشارات؟ .

ووجدتني أسأله: وكنت تعطي العسكري.

قال: طبعاً. . خمسين ستين قرشاً كل يوم.

ـ أمال أنت بتطلع بكام.

ـ مش كله. . اتنين تلاتة. . ممكن أكثر شوية خمسة ستة في يوم المرور زحمة.

ـ طب والنهارده. . مالك هربان ليه؟ إيه اللي حصل؟

ـ النهارده يوم موسم كل سنة وأنت طيب. والشغل كان على ودنه، وقلت أهرب قبل ما بيجي العسكري يشاركني فيه.

ولكن (هكذا قال الأسطى) تفكرت في الموضوع وقلت له:

ـ طب ما هو العسكري بكره ح يقفشك يا حدق.

ونظر لي بابتسامته الشابة الحدقة المصرية الساخرة وقال:

ـ لا. . بكره فيه عسكري تاني باتفاق تاني. . ده كان آخر يوم للعسكري ده في الحتة دي.

قال الأسطى: كنا قد وصلنا المكان. . عندك يا اسطى وقفت. . كان الحساب ٤٣ قرشاً. أعطاني خمسين قرشاً. . سبعة قروش بأكملها بقشيش وقال لي: لو تبقى كل يوم تعدي على الإشارة دي الساعة عشرة كده وتوصلني ح أديك خمسين قرش.

عن الرجل والنملة

بعيون فاغرة فاها رحنا نـراقب الباب وهـو بالعصبيـة. الشديـدة يفتح والكتلة البشرية تدفع من خلاله لا نتبينها إلا حين فقط تستقر في ركن الزنزانة الفارغ. حتى السباب المعتاد الـذي كان لا بـد يصاحب الفتـح والإغلاق والتكـويم، من فرط الـدهشة، لم نتبينـه إذ قد حـل الصمت لا نجـرؤ على قطعـه مخافـة أن يجد جـديد وأن يكـون وراء البداية ما وراءها.

يتغامق الظلام في العادة بعد التمام. الخامسة بالضبط موعده. النزلاء صامتون لمقدمه إذ المفروض أن يحل الصمت ليتمكن حراس الليل من التغيير مع حراس النهـار ويتمكن شاويش النهـار من تسليم شـاويش الليل، صمت يهيىء للصـراخ أن يتعـالى إذا حـدث الخطأ وأفلت نزيل من الإحصاء وارتبك العـدد. الباشـاويش هو المخـطىء ولكن الشتائم تنهمر فوق رأس النزلاء، وثمة جرى، وصوت الكوالين الحديد يزأر وأبواب أخرى تنهمد حتى لتكاد تدك الحـائط الحجري، وأخيراً، يجري الأزيز النهائي لمفصلات باب العنبـر الكبير، وتخفت الأصوات مع الأقدام مبتعدة، ويحل الصمت. ويستمر، للتـأكد أنهم

جميعاً ذهبوا، وأن النهار المتعب انتهى. ثم، وكأنما فجأة، تنفجر من الصدور الزعقات والقهقهات والشتائم مكونة مولد المغربية المعتاد.

السكوت في النهار طوال النهار أحد الأوامر المتعارف عليها الصارمة، الألسن تتيبس في الأفواه لقلة ما تتحرك، الحناجر مخشوشنة من فرط السكوت، فقط حين تذهب قوة النهار ويترك العنبر في حراسة ثلاثة حراس ليل عواجيز في الغالب، قريبي الإحالة إلى المعاش، فقط حين يطمئن الجميع إلى ذهاب الجميع يفرج كل نزيل عن لسانه ويبعث الحياة في شفتيه وفمه وصدره، ويزعق، ويشتم، بكل ما يملك من قدرة وقوة يصرخ ويشتم وكأنما ينتقم من السكوت وأوامر الشلل ويزاول الغريزة التي طال حبسها، غريزة أن يشتم ويشتم، فمن فرط ما يتلقى النزيل من شتائم طول النهار وهو عنها ساكت وبالأمر متسامح تتكون له فعلاً غريزة الشتم تنهال بها كل زنزانة على الأخرى ويتبارى في مزاولتها الجميع، بفن وخلق وابتكار، لأسماء الأم وجسدها يختلق ألف تعبير وتعبير.

في أحيان قليلة جداً يحدث، أن فجأة، يدور المفتاح في قفل الباب الكبير ويفتح العنبر، وهنا، وفي لمحة خاطفة واحدة يتسمر كل شيء في مكانه ويحل أعمق وأغرب صمت. صمت الترقب الرهيب لما عساه يكون السبب في فتح الباب.

وتتعدد الأسباب وتكثر، وذات مرة تجد السبب باب زنزانتك نفسه وهو لروعك يفتح وكتلة بشرية ما، تنزلق، ليعود الباب ينغلق.

قبل أن تسأل أنت القادم أو يفتح هو من تلقاء نفسه فماً للكلام تنهمر مئات الأسئلة من قريب ومن بعيد ومن أقصى الدور الثالث نفسه تتساءل عن حكاية هذا الذي دخل، فلا تدخل بعد التمام إلا حكاية مهولة، لا بد في الحال أن تعرف، وهكذا إن لم تبادر وتجيب، حتى قبل أن تعرف أنت ما هي الإجابة، تنهمر عليك أنت الشتائم هذه المرة وتؤرق عظام أمك وأبيك وأعضائهما أحياء كانوا أم أمواتاً. قفص حياة رهيبة يتولى فيها أناس حبس أناس وخنق أناس وضرب أناس وحشدهم وتكديسهم هكذا في علب محبوكة من الزنازين والحجرات.

ـ ما بك يا عم . . خير . .

سمعت أنا وحمزة البسيوني . . زميلي في الزنزانة الذي تصادف أن اسمه يشبه اسم قائد السجن الحربي حيث تتم كل ألوان التعذيب، تشابه كان يجعله وبالتالي يجعلني هدفاً لتعليقات ونخزات وتعذيب لا حد لها.

ـ مالك يا عم مالك . .

قالها حمزة هذه المرة، بأمل أن يجيب القادم. ومكوماً في الركن لا يتحرك كان لا يزال. الأسئلة تترى تخترق باب الزنزانة المصنوع من قضبان متوازية من حديد، لا إجابة، والنتيجة سيول من الشتائم تلعنني وتلعن حمزة. ما أغرب قدرة الإنسان على تعذيب نفسه وتعذيب الآخرين إذا وقع عليه عذاب لا يملك منعه. معذبون

يعذبون معذبين. ما أبأسه من محبس داخل محبس وعذاب في لب عذاب.

لا رد ولا تحرك ولا كان بادياً عليه أن سيرد. أيكون ما نسمعه منه ليس تنفساً عميقاً إن هو إلا نشيج وبكاء، بكاء الصامتين لا حول ولا قوة، وجدت أنفسنا نقترب من الرجل نحيط به مشفقين. أيدينا نطبطب عليه ونستخرج كنزنا الثمين، الشمعة الوحيدة التي نملكها وندخرها للحظات الحاجة القصوى، أشعلناها. بضوئها الذي بدا باهراً، مددت يدي ورفعتها من الكتف إلى الرأس أعدله وأرى الوجه.

كدنا نموت أنا وحمزة رعباً فكلانا طبيب ونعرف ماذا تعنيه تلك الصفرة المتكاثرة المتشاحبة التي لونت الوجه. الحدقات الواسعة المفتوحة وهي تمعن النظر في الفراغ وفي اللاشيء. ما لم ننبهه مات. انهلنا عليه بالأسئلة نستفسر إن كان قد ضرب وأين ضرب وفي أي مكان من جسده يؤلمه أكثر. قسنا النبض وعددنا مرات التنفس. الصدمة فعلاً واضحة ولكن لا أدرى أي إصابة في الجسد، لا جرح، لا خدش، لا بطن، منفوخ، لا شيء.

وتنفيذاً للمعاهدة المعقودة مع الحارس الليلي ساومناه على كوب القهوة. أصر على عشر سجائر ونحن لا نملك إلا علبة. واهقناه على مضض كثير. أخيراً أصبح في يد الرجل كوب قهوة معجز المذاق في تلك اللحظة، وسيجارة (وينجز) بأكملها، وعلى ضوء الشمعة دماء قليلة بدأت تسري في الوجه الخراب، همهمة، تمتمة،

تنهدات الكل يختلط بالكل والكلمات بالأصوات والإشارات ورفض أن يفصح .

نلج بكل ما نملك من طاقة الحاج، والرفض البادي على هيئة صمت هو وحده الجواب. تشاورنا أنا وحمزة، نتركه؟ نخفف الوطأة عنه؟ نترك كل شيء للصباح؟ ولكن حب الاستطلاع فينا لا يمكننا نحن أنفسنا مقاومته، والإلحاح، إلحاحنا وإلحاح بقية الحجرات والزنازين كلما احتمى الرجل بصمته، وتداخلت رغبته في الإفضاء كما يتداخل حيوان القواقع إلى عمق القوقع كلما شعر بلمسة الأصبع. وبكل نعومة رحنا نداعبه، ثم، فجأة، تركناه . .

تركناه . .

حتى كاد يغلبنا النوم. وكل الألسنة المطالبة في الخارج قد سكنت .

ـ هل سأموت؟

رفع الرأس فجأة بالسؤال وكأنما إجابة متأخرة جداً عن قولنا له: نحن أطباء، لا تخف. فضفض حتى تستريح، ولا تخف، فنحن نريد مصلحتك، نحن أطباء .

ـ هل سأموت؟

ودون أن نتفق، لم نجب. رحنا فقط ننظر إليه ولا نجيب فما كنا نريد تطمينه حتى لا يؤوب إلى سكوته وفي نفس الوقت لم نكن نريد إزعاجه حتى لا يتمسك بموقفه .

فجأة وجدت حمزة ينفجر فيه غاضباً مؤنباً إياه على هذا الموقف الطفولي الذي لا معنى له بالمرة. معتقل سياسي. ألست كذلك. كان واضحاً من ثيابه المدنية أنه ليس مسجوناً. إذن لماذا هذا التثبث بالصمت. أخائف هو على نفسه، وماذا يمكن أن يحدث له أسوأ من هذا الذي حدث والذي جاءوا به إلى هنا بسببه وعلى تلك الحال القريبة من صدمة الموت.

فعلاً.. يعني ح يكون جرى لك إيه؟

بعمق تنفس وتنهد وقال ببطء ونظراته تعود تنغمس في الفراغ:

ـ أوحش شيء على ظهر الأرض.

وكدنا نبتسم في رثاء.. ماذا يمكن أن يكون قد حدث؟

عاد يقول: أوحش شيء على الأرض. حدث لي ما لم يحدث لبشر. ومرة أخرى استخففنا بكلامه.. وكدنا نقهقه. سبعة عشر شهراً ونحن في هذه الزنزانة معاً. سجن مصر محطة يتوقف القادمون من السجن الحربي في طريقهم لطره وأبو زعبل والواحات، والقادمون من تلك الليمانات في طريقهم للمستشفى أو للإفراج أو لعذاب آخر في السجن الحربي. وارد وصادر وحركة دائبة جعلتنا نصادف كل ما يمكن أن يخطر على البال من تهم ومتهمين ومعتقلين وأسباب اعتقال، وتعذيب، ومعذبين. النفخ والضرب وكي نصف البطن الأسفل وهتك الأعراض وكل شيء، ولم تبق وسيلة لم نعرفها أو يأتي لها ذكر. وكل منهم.. مثل هذا القادم.. يعتقد أنه الوحيد الذي حدث له هذا أو مارسوا معه ذاك.

ماذا يمكن أن يكون قد وقع له؟

ـ أوحش شيء على ظهر الأرض.

ـ ماذا مثلاً؟

ـ أوحش شيء على ظهر الأرض.

ـ نمت مع نملة..

وانفجرنا ضاحكين.

قطعاً هو لا يبدو مختل العقل وإن كان واضحاً أنه في طريقه لاختلال عقله. وبوجه جاد صارم يحمل كل ما في هذا العالم من ندم يقولها. نام مع نملة. وانفجرنا ضاحكين.

وإلى الصباح التالي ظللنا نضحك. ونتذكر ملامحه وهو ينطقها فتصاب معداتنا بالمغص من فرط ما ننحني ونضحك.

وعلى رأي كليلة ودمنة قلنا له في الصباح التالي ـ وكان تقريباً لا يزال على نفس جلسته وقرفصته وانكماشه على نفسه.. وكيف كان ذلك يا أستاذ.

لم يكن تبدو عليه سيما المعتقلين السياسيين. معظمهم كانوا مثقفين. حليقي اللحية والشارب، خريجي أو طلبة جامعات. هذا كان له شارب، أصفر وغزير ومتهدل على شفته العليا يكاد يلامس السفلى. وجهه خشن لا بد من كثرة مزاولته عمله خارج المكاتب والمنازل في الخارج حيث الريح والتراب ولفح الشمس. في الحقيقة لم نفاجأ حين قال لنا إنه عمدة. حين تستخرجها من الحالة التي كان

عليها، والسكينة التي آلـت إليها ملامحـه وقوامـه، وتفرده، وتـوقفه، وقصيرة سيرته الأولى ويتبدى لك على حقيقته تجد أنه حقاً وصدقاً لا بـد كان واحـداً من أولئك العمـد من طـراز: اخـرس يـا ولـد. شهم كريم،يذبح للضيف خروفاً إذا رأى،ويسافر إلى آخر الدنيا تلبية لنـداء مستغيث. عمدة ومعتقل سياسي. جديدة جداً هذه المرة. والنكتة أن يكون شيوعي مثلاً ومن منظمة (ح.م) المغالية في شيوعيتهـا واتهامهـا لكـل الشيوعيين الآخـرين أنهم عمـلاء للبـوليس السيـاسي. الأقـرب للمعقول أن يكون واحداً من أعضاء الهيئة الوفـدية فليس هنـاك عمد في تنـظيم الاخوان المسلمين، ولكن، لا تعجب أبـداً إذا اتضـح في النهاية، أنه ماركسي يؤمن بالمادية التاريخية وربما قد قرأ رأس المـال واللينينية.

في الليلة التالية سـاءت حالتـه وارتفعت درجة حـرارته وأصبـح نبضـه ١٤٠، وبدا وارم الـوجه مختنق السحنـة وكـأنـه سينفجـر بعـد قليل، انهلنا عليه بالأسئلة لنعرف منه ذلك الذي وصفه بأنه أوحش ما في الدنيا.

وتكلم..
متقطع الأنفاس.

أخـرج من صديـريه البلدي الـداخلي علبة سجـائـر (كرافن أ) عشرين سيجارة كـاملة، وعزم علينا. ولم نصـدق أنفسنا ونحن ننفث دخان الكرافن وبكل ما نملك وما أصبح لنـا من طول بـال نصبر على

كلماته التي تخرج بعد عناء، ولهاثه بين الكلمات.

تكلم..

بدأها من منتصفها، أو من حيث بدأ يهتم هو بها، لا نعرف. قال: هذا الوغد، يونس بحري. قتلني. بالأمس فعلاً قتلني، وسأموت، ولكني لن أموت قبل أن أغرس أسناني في زوره وأقضم حنجرته ابن الانيتة هذا.

جالسين وفي أمان الله وبعد يوم شاق من تكسير البازلت وحمله في المقاطف والسيربه نصف كيلو، من السابعة والصخر فوق أكتافنا والرمل في عيوننا وأفواهنا وأقدامنا العارية ينغرس فيها الشوك والزلط والمسامير، وجلست آخر النهار، قبل طابور العودة نستريح. وكانوا ثلاثة ضباط أحدهم هذا الخسيس يونس بحري. ناداني. منذ أن رآني ورأيته وأنا أشفق عليه وعلى نفسي أن يناديني. ناداني. تلكأت ولكني قلت أقصر الشر وألبي نداءه. ذهب. وقفت. تركني واقفاً واشتبك في حديث فاتر مع زميله. قلت: أفندم. رمقني بنظرة، ثم عاد إلى حديثه الفاتر. اللهم طولك يا روح. قلت، وعزمت أن أؤجل أي اشتباك فجسمي مهدود ولن يحتمل أي ضرب. والبداية واضح أنها ستنتهي بضرب. أقصر الشر يا ولد. واصبر.

هناك، بعد ربع ساعة أو أكثر. التفت ناحيتي وقال: روح هات نملة من هناك. وأشار إلى كومة تراب قريبة.

صحا مخي من غفوة الوقوف وخيل إليّ أني لم أسمع جيداً وسألته: أجيب ماذا؟

هب فيّ صائحاً: نملة، . . ألا تعرف النملة يا بن الـ . .؟
سكت.
مرة أخرى: تعرف النملة واللالأ.
قلت بتسليم: أعرفها.
قال وهو يلتفت إلى زميله: روح هات نملة.

طول الله روحي وذهبت إلى حيث أشار، وتفرست في كومة التراب ملياً حتى وقعت عيني على نملة حمراء كبيرة نسميها في بلادنا حرامي النمل. انقضضت عليها بقبضتي ودون أن أفعصها أمسكتها في قبضتي وعدت بها.

ووقفت أمامه وقلت: أهه النملة يا أفندم.

- وريني.

فتحت يدي كان . . رآها . . قال:

- ولازم تجيبها حمراء هي رخره يا بن الـ . .(. . .) الشيوعية.

عضضت على شفتي السفلى، لا بد أنها جرحت. وسكت بنظرة من أسفل إلى أعلى رمقني وقال:

- دي ايه؟

قلت ببراءة ما بعدها براءة: نملة يا بيه . .

قال . .

خيل إليّ أني حقيقة لم أسمع فقد كان الطلب الذي طلبه غريباً جداً وغير معقول بالمرة، سألته: أفندم.

قال: اخلع هدومك . .

ـ نعم . .

أشار لحامل الكرباج وزميله حامل الشومة.

رفعت يدي مسلماً قائلاً: حاضر يا بيه . . اخلع هدومي ولكني ترددت . . نظرت حولي بركن عين . . طابورنا المنكود الحظ قابعاً كصفين من طابور ذباب الكدح والزق والزجر. في دائرة واسعة رهيبة يلتف حولَه سور من عساكر يحملون الأسلحة الأتوماتيكية بكافة ألوانها، قريباً منه تناثرت فرقة الضرب تحمل الهراوات والكرابيج والنبابيت والأحزمة والقضبان الحديدية. أنا واقف وحدي ويونس بحري مقع على كرسيه أمامي. ولا مفر.

استنهضني بشخطه ولما كنت كما قلت قد قررت أن أؤجل الاشتباك فقد مددت يدي الأخرى وبدأت خلع جلبابي، وخلعت الصديري، عارياً كما ولدتني أمي أمامه.

ـ قلعت هدومك . .

ـ زي ما أنتَ شايف يا بيه . .

ـ طيب (. . .) النملة اللي في إيدك دي.

خيل إليّ أني حقيقة لم أسمع، وكيف أسمع، وما طلبه لا يمكن أن يمر إلا من عقل مجنون، حتى المجنون نفسه يخجل أن يطلبه.

ـ نعم . .

الكرباج مرفوع فوق راسي والنبوت يهيأ للانقضاض ويونس

بحري تجمدت نظراته النارية على هيئة الأمر الـذي أمره، والـدنيا، وسور العساكر حاملي المدافع، والطابور، والبازلت والجبل والصخـر والطريق، وكل شيء سكت وصمت وتآمر يستحثني أن ألبي.

انتفض الفلاح الخبيث الذي فيّ يقلب الموقف الجاد الـرهيب وقلت فجأة:

ـ بس دي دكر يا بيه..

لم يضحك، ولا أحد من القـريبين أو البعيدين ضحـك، بكل صرامة قال: روح هات واحدة نتايـة.

وكـالذي نـومه المنـوم المغناطيسي استـدرت وقصـدت كـومـة (التراب) وعسعست بيدي. طبعـاً كان أول مـا خطر لي أن أبحث عن نملة اثنى، ولكنـي كـدت أضحـك مـن نفـسي لأنـي انسـقت وراء المشهد فعلاً وأخذته جـداً، وسألت نفسي: كيف أعثر على الأنثى، وما الفرق بين النملة الـذكر والنملة الأنثى، بـل هل تـوجد نملة أنثى ونملة ذكـر. المقصود عـدت إليه ووقفت أمـامه وفتحت قبضتي على نفس النملة وقلت: ها هي نملة أنثى.

قال: يالله..

ـ يالله ماذا:

سألته. قال:

ـ تاني.. اسمع..

وفوجئنا بجعجعة أوامر تقرقع، واقترب سور العساكر حتى أطبق

على طابور المعتقلين، واستقر أفراد فرقة الضرب فانتصبت واقفة مشرعة أسلحتها الفاتكة الرهيبة، وهوى الكرباج من خلفي وسمعت صفيره وهو يشرخ الهواء كالسكين القاطع مغوراً في جلدي ولكن يونس بحري تلافاه، في آخر لحظة وأمسك باليد المهوية وقال بصوت مخيف صوبه إلى كل إذن تسمع: اسمع.. أنا لا أريد ضربك.. فأنا أعرف أنك من النوع الحميري الذي لن يؤثر فيه أي ضرب أو تعذيب ولكني سأضرب تلامذة ابتدائي هؤلاء..

أشار..

والحراس يعرفون إلى من يشير. فقد كان ثمة خمسة صبيان صغار لا يتجاوز أيهم السادسة عشرة، معنا في الطابور، إذا ضربوا يصرخون بل يصوصون كالكتاكيت المذعورة وتغور صرخاتهم في لحمنا الحي بحيث يصبح أهون لأي منا أن يقطع بالسواطير ضرباً ولا يسمع صرخة الواحد منهم..

جزعت والحق يقال، وسقط قلبي في قدمي مخافة أن ينفذ الوعد. يا عم يا يونس ما كنا قاعدين في أمان الله، ماذا دار في عقلك النجس ليقلب سلامنا هذا إلى لحظة الرعب هذه حتى ليبدأ الجو يحفل برائحة الدم واللحم المفروم..

تطويل الروح لم يعد يجدي. ماذا تريد يا أيها القومندان.

ـ يا لله.

ولأنني ضامن أني سأكون على حق في تساؤلي رفعت صوتي مستغيثاً مستعيناً بالله من هذا الهول الذي لا أعرفه: إزاي بس يا

بيه. . أنا في عرضك. . إزاي.

ـ زي الناس. . هكذا قالها.

ـ زي الناس إزاي. .

ـ زي الناس يا ابن ال. . ويا بن ال. . ماذا تفعل الناس؟

ـ ولكنها تفعلها مع الناس والإناث الكبار، وهذه نملة. .

ـ ولو. . اعتبرها ناس. . اعتبرها إناث. .

ـ حاضر. .

قافزاً الفلاح الخبيث إلى نجدتي مرة أخرى قلت:

ـ حاضر يا بيه. .

وعملت أني فعلاً أزاول ما أمرني به. . وأنا، زيادة في الاندماج، قد رسمت على وجهي ابتسامة سادة. استيقظت منها على صوت نبوت يشرخ، يشرخ الهواء. ويشرخ ظهراً من ظهور (التلامذة) إلى جواري. التفت على الصرخة، أهذه صاعدة من عظام الأقدام لكائن حي إنسان صغير يتألم؟!. انفجر قلبي وتدفق منه الدم الفائر غصةً ولوعةً.

ـ لا تمثل يا بن الكلب. . اندمج. أتضحك عليّ. . اندمج. . أنت خالع الآن ملابسك وهذه أنثى، نملة مش نملة لا يهم. . هذه أنثى. . اندمج. . وسأراقب وجهك وملامحك. . وأقسم برحمة أمي إن لم أرك تفعل ما قلته سأشرخ تلاميذك وأنت وكلكم معه. . وأنت تعرف وكلكم تعرفونني. .

وكان واضحاً من وجهه المسمر بالجديري القديم أنه لا يهزل،

حاولت أن أجد فرجة احتمال أو عشر احتمال للتهاون فلم أجده هذا إنسان مجنون وقد تقمصته حساسية المجانين للحقيقة ولن يصدق غيرها ولن أستطيع أبداً خداعه وعليّ أن أفعلها. حاولت. ولكنني في منتصف المسافة استدركت وطلبت منه العذر.

وجمعت نفسي وبأقصى ما أستطيع من قدرة على أمر النفس أمرتها. أحسست أن شهباً كشهب الجنون تتراءى لعيني، ومن فرط الانضغاط بدأ العقل في مخي يطقطق. مجنون أمر، وأمر مجنون، ولا بد أن أستجيب، ومجنوناً لا بد، لكي أستجيب، أن أصبح. أنا فعلاً رجل ضخم، وهذه نملة، وبكل كياني عليّ أن أصغر نفسي وأستحيل من إنسان إلى حشرة، وعليّ التخيل أني ذكر نملة، تستثيرني أنثاي أنثى النملة، وأنام معها. وكلما فشلت، كلما توقفت، كلما غام وعيي بالمشهد وباستحالة التحول.. وأحسست التهديد يحوم كغربان البين حول التلامذة الصغار وحول الطابور أتصاغر وأتصاغر ويكسوني العرق وتطقطق عظامي وتتدشدش دون أن تصبح كفي في حجم ساق النملة، وساق النملة لا يكاد يرى ولا بد أن أهوى بوعيي وبإرادتي على كفي وكتفي ولحمي وعظمي ورأسي وبطني وساقي وعنقي وأدق وأصغر كي أستحيل ذكر نملة، أفرز هرموناته، وأجعلها بالقوة القاهرة تستجيب لهرمونات أنثاي القادمة، مستسلمة، في يدي. هكذا، رأيتها، بألف عين دقيقة لي تكونت، قد استجابت، وكفت عن الحركة، ووقفت واضطجعت. لو كانوا قد عذبوني وقطعت الجبل كله، لو ربطوني إلى ذيل حصان جرى بي

القطر كله من أقصاه إلى أقصاه، ألف جلدة، لو فعلوا ما هو أكثر وأكثر لما أحسست بربع معشار مما مر عليّ من عذاب حتى أفلت الزمام ولم أعد أستطيع الكف وجسدي يمضي يتصاغر ليصبح نملة ويستمر نملة ويعيش ويحب ويزاول الحب نملة.. وعند لحظة النهاية فقدت الوعي..

قالوا لي إنهم حملوني حملاً إلى الليمان.

وإنهم خافوا من صراخي أثناء الليل واستجار الزملاء من عضي وتمزيقي لملابسهم وملابسي، وحملوني إلى مستشفى سجن مصر، ومن هناك إلى هنا.. وهمس لي التومرجي الأسمر العجوز وأنا في الطريق إليكم أنهم يفكرون في الإفراج الصحى عني.. ولو ما الفائدة، وقد نمت مع النملة واعترفت، وكان الذي كان..

ولأن لا أبشع في السجن المنتظرين المحاكمة من كلمة اعتراف، فقد وقفنا على أطراف تحفزنا أنا وحمزة ونحن نسأله بماذا اعترف ولماذا اعترف.

قال وهو يشيح بيده: وأنا وسط العذاب، في منتصف المسافة بين كوني بشر وكوني ذكر نمل انكسرت إرادتي ولم أحتمل، وقلت كل ما عندي بأمل أن يتوقف أمر يونس بحري وأن يكف العذاب، ورغم الاعتراف لم يوقف المجرم الأمر، وحتى ولو كان أوقفه فأنا نفسي كنت غير قادر لحظتها أن أوقف عذاب التحول، إرادة أن أكون بشراً أفلتت وصارت لي إرادة نملة لا تقوى أبداً على كتمان.

* * *

٥٥١

ورغم إعـادته إلى المستشفى فقـد سمعنا أن حـرارته ظلت ٤١ طول الليل ورغم جسده المتين الضخم، في الصباح التالي مات.

٥٥٥



أقتلهـــا

السّيجَـار

ربما للمرة النادرة الثالثة أو الرابعة في حياتي حدث ذلك الشيء الذي كثيراً ما يحلم به أي راكب اعتاد ركوب الطائرة وحيداً، حتى أصبحت مسألة من يكون جاره وكيف يكون أهم ما يخطر بباله قبل وأثناء وربما بعد الركوب. بضربة حظ مفاجئة والمقاعد حولي وعبر الطائرة كثيرة وفارغة، وجاءت الحلوة الطويلة ذلك الطول السامق الذي نفتقده في شرقياتنا العظيمات القصيرات، مبتسمة ابتسامة المرحب بك، وبكل ما يمكن أن يدور بخلدك، حمراء الشعر، حمراء النمش، حمراء البياض، والحمرة درجات ودرجات، وبالدقة مرسومة وموزعة، حمراء لحمرتها هالة، وكأن آلهة الجمال تسلط عليها من يوم ولادتها كشافاً مسرحياً متلون الحمرة يتبعها أنى تتوجه، ولها يصبح الظل والواجهة، والمسقط والبروفيل. جاءت وتلفتت واختارت دون المقاعد جميعها، ذلك المجاور لي واعتلته، فعلى الفور أصبح الكرسي عرشاً. ورداً على ابتسامتها المرحبة أطلقت تحية لها ألف ابتسامة ترحيب. ملكة من بافاريا بكل إرادتها اختارتني لأكون شعبها الوحيد المحظوظ. بل الظاهر أن صمام الحظ

كان قد أفلت من قبضة النحس تماماً، وقبل أن تقلع الطائرة كانت قد طلبت مني مطلباً صعباً جداً، ومن فرط جسامته يكاد يكون مستحيلاً. . أن أتفضل وأتنازل وأسمح وأكون دليلها حين تصل إلى القاهرة، دليلها إلى أوتيل لائق فهذه أول مرة لها في الشرق. . تحلم به منذ عاشت، والقاهرة بالذات كانت دائماً مركز الحلم، ولهذا فلم تمض في بيروت إلا يوماً واحداً، ومن فرط لهفتها ذهبت إلى المطار دون حجز. . ومن حظها الحسن أنهم ارتضوا الوضع وها هي الآن في الطائرة وبعد أقل من ساعتين ستكون في قلب المدينة الحلم. .

صدقوني أو احسدوني أو تزمتوا وتظاهروا بالنفاق والورع، ولكنها راحت مرة أخرى ترجوني أن ترافقني ـ وليس أن أرافقها أنا ـ إلى حيث (أضيع وقتي!) بعض الوقت كي أساعدها في إيجاد المكان المناسب في الفندق المناسب وبالسعر المناسب، فهي تمقت الهيلتون والشيراتون والأماكن الخاصة بالأغنياء لأنهم عواجيز، أو العواجيز لأنهم أغنياء، وتعبد الفنادق ذات الطابع! حبذا لو كان لدينا فنادق في الهواء الطلق، أو فيللات غرفها خيام وفناؤها الصحراء وطعامها يشوى في العراء على النار، والنار يقلبها بدوي بلحيته السوداء وشبابه الأسمر وعقاله المدلى ـ اهمالاً أو أناقة ـ إلى جانب. حبذا لو يشوي لها اللحم ومعها يلتهمه. في ليلة تحت خيمة، ليلة لا يشهدها سوى القمر.

حين رأيتها قادمة في الممر، ودون أن أدري، كنت من فرط طولها وهيبة الأنوثة المكتملة في القوام الكامل قد أعطيتها خمسة

وثلاثين عاماً أو شيئاً من هـذا القبيل، وحين اقتـربت بدا لي عمـرها الحقيقي في حـدود الثـلاثين، وحين ابتسمت وجلست تحـادثنـا. . بـالذات حين بـدأت تغمغم حلمها اليقظ وكشـافـات حمرتهـا تـزداد تـوهجـاً، وكـل نمشـة في وجههـا تكتظ انفعـالاً وتصنـع من مكـانهـا وبسمتها إلى جارتها وعلاقتهـا بالجـارة الأخرى كلمـة. . سر جمـالي خـاص تبوح عن نفسهـا وتنكشـف، وعمـرهـا يتنـاقص، بحيث قـرب النهـاية، ولـولا أنها لا تصـح إلا لمن جاوزت الـطفولـة. . إلا لصبية تـدرك وعن يقين تلمس لماذا المـرأة مـطلوبـة؟ لمـاذا يتقـاتـل عليهـا الـرجال؟ لمـاذا تضن بالحب لأنهـا هي الحب. . كل الحب. . حين تحب؟ لـولا هذا لارتـدت إلى العاشـرة، وكلماتهـا تتحشرج بـالحلم وبالنهاية حلماً. ما أجملكن أيتها الغـربيات في شيء واحـد، حين لا تجعلن ألسنتكن تنفـرد وحدهـا بكل الحـديث. حين نالت أجسـادكن معكن الحرية وأصبح لها ومع العقل والقلب حق التعبيـر تحلمن، أو حتى تتكلمن أحلاماً فتستحلن جميعاً حلماً بالصدق وليس بالتمثيل.

وما أبشعك أيتها البافـارية الألمـانية كـأنك من قبيلة جن أحمـر انحـدرت. كنت تحلمين، وتقتربين مني تـزيدينني مشـاركـة لـك في حلمك. تحلمين ويزداد كشافك الأبـدي احمراراً، وبنفس حلمـك، «النفس حلمـك» ينصب من حيـث لا أدري على مـلامـحي ذلـك الاصفرار المتغامق الفضـاح، فحلمك تبنينـه كنت تقوضين حلمـاً لي مذ رأيتك، وبقاهرة تضعينها في خيالك وصحراء، وباللحم البدوي، كنت تقتلين قاهرة أجمل أعرفهـا وأحفظ أركانهـا، وصحراء أروع مـا

فيها أنها ليست من رمال، وببدويك الأسمر ولحيته وشاربه كنت تنزعين عني ـ كما يفعل بعض مخرجينا بقساوة ـ دوري . . دور البطل، فلا بدوي أنا ولا لحية لي، وبلون جلدي لا أمت إلى الصحراء أو حتى إلى محافظات بحري. عيناي مصيبتهما السوداء أنهما ليستا سوداوين كما بطلك، ذلك الذي لم أشعر نحوه بذرة تفسير لحماسك هذا الفائر المتوحش.

وأيضاً كما يفعل ممثلونا والرواية تقرأ حيث لا أحد إلا الملقن يصغي إلى الموضوع، وإنما الكل وبلا وعي يبحث عن أكثر الأدوار صلاحية له، أغناها «بالافيهات والنكات» أطولها، أبطلها كما يحدث هناك، وحلمي يتحطم، ولونك يحمر، وحلمي ينحطم، ولون البطل يسود، ولوني أنا يصفر، كنت وقد فقدت الدور الرئيسي أبحث بغير ما لهفة عن الدور الذي أعددته لي في حلمك ذاك.

فجأة ضحكت.

وبانزعاج مؤدب سريع توقفت عن الحديث وسألتني: ماذا حدث؟ هل أخطأت في شيء.

كان انزعاجها حقيقياً، فالضحك في ألمانيا ليس كالضحك هنا . . فمن حقك المطلق هنا أن تضحك في أي وقت تشاء ولأي كلام يقال حتى ولو كان الكلام جاداً ليس فيه ما يضحك ـ بل بالذات لو كان الكلام جاداً حقيقة وليس فيه ما يضحك. الضحك هناك ـ كأي شيء ـ لا بد أن يتوفر لحدوثه أسباب وجيهة قوية مقنعة جداً وواضحة جداً ولا يختلف عليها اثنان. حتى في بعض الروايات مثلاً

ممكن أن تحدث مواقف تدفعك دفعاً للضحك، ولكن لأن النص لم ينص على الضحك هنا، فإن أحداً لا يضحك، الضحك هناك نظام، وكأي شيء لا بد أن يتم بنظام، فإذا فعل إنسان فعلتي، وفي نهاية كنهاية حلمها في لحظة تحشرج فيها صوتها، ضحك، فلا بد أن شيئاً قد اختل في النظام العام.. جننت أنا أو جنت هي أو تسرب مع فتحات الهواء في الطائرة شيء من الغاز الضاحك.

انزعجت، وبلهفة تساءلت مروعة لماذا أضحك؟

وكنت أضحك لأني اكتشفت أن دوري في حلمها هو الدور الذي نحتفظ به في الرواية للرجل الطيب الذي يقود الناس لتحقيق أحلامهم.. للقادة.

كنت أضحك للكم الهائل من خيبة الأمل التي أحسست بها. فليس لشخصي اختارتني ملكتي البافارية وفضلت المقعد الخالي بجواري على كل ما عداه من مقاعد خالية، وإنما لمؤهلاتي تلك التي يتطلبها دوري، واضح أني عربي مثقف أعرف لغات، وأعرف النساء أيضاً، وأحب ـ كما رأت كل أمثالي في بيروت وغير بيروت ـ أن أساعد السيدة، أي سيدة.. فما بالك بجنية ملتهبة الأنوثة صاخبة الاحمرار.

يا بنت الايه! اسمعي اذن و..

وكما يتحدث الطلبة في برنامج ألف سلام، وكخطابات المغتربين ومحاضرات ذوي الحماس.. رحت والأصفر في وجهي

ينتقل إلى البرتقالية والطماطمية والبطيخية وما شئت من ألوان الاحمرار، رحت، وبقسوة وبلاغة، أو فلنفعل كاللغويين الكبار ونقول بقسوة بليغة أو ببلاغة قاسية، رحت أخلع تلك الصورة البدائية الكريهة التي يبدو أنها علقتها في عقلها منذ الطفولة. كما غاظتني بحلمها عن البدوي وسمرته، تهورت في حماسي دفاعاً عن برج الجزيرة وآثار الفراعنة ساعة العصرية على شرفة مينا هاوس.

وحين انتهيت ضحكت، ربما تقليداً لما فعلت بكلامها أنا ووجدت أن عليها اتباعه ورد التحية فعلت. ولكني أنا انزعجت.. فقد خفت أن تكون قد وقفت على سر البلاغة القاسية والقسوة البلاغية وحماسي المفاجىء للبرج.. لا جمال ألبتة فيه، وربما أي برج حمام أبيض في أي نجع يبدو لي أكثر منه وداعة وحضارة ورمزاً.

أكثرت من تفاصيل البداية أعرف، فأنتم لا بد أنكم مثلما كنت أنا تماماً شغوفين أن تنتهي البدايات بسرعة. وفي القاهرة أصبح وحدي مع البافارية الغربية الحالمة بليلة تنطبع فيها آثار الأحلام على الرمال.

ولقد حدث.

بل، ولقد حدث أكثر من هذا.

حين هبطنا القاهرة كان اللقاء قد تم. في بيروت بدأنا والبدوي حلمها، وهي أو مثلها حلمي، وكعادة الحياة والأحياء تبدأ معها

ومعهم مستنكرين، مطلقاً مختلفين غير راضين. ببساطة نرفض الواقع تماماً ونرفض الخضوع، وببساطة وكما رفضت أنا حلمها تماماً حتى مزقت القاهـزة كلها من أجله، وكما لا بد كانت سترفض حلمي لو عرفته، وكعادة الأحياء أيضاً حين يرفضون الواقع المفروض ثم شيئاً فشيئاً يلتقون بادئين من الأماني المشتركة والأحلام. نحن أيضاً تعادينا تماماً في الحلم، ولكن الواقع المحض بدأ يقربنا، واقتراب الواقع من الواقع فن اسألوا عنه أهل الذكر. فالسيدة حين تخرج السيجارة وتضعها في فمها دون أن تبحث أو تحاول حتى البحث عن ثقاب، منتظرة أن تفعل أنت ذلك الحريق الصغير الذي تلتقط بعضه بطرف سيجارتها، وبحنكة تتذوق طعم الدخان الناتج عنها.. السيدة حين تفعل هذا تضعك في الواقع أمام امتحان يرسب البعض فيه رسوباً لا نقض فيه.

ذلك أنها أيها السادة حين تضع السيجارة في فمها الذي ضيقته خصيصاً.. حين يحدث هذا إنما يكون في الواقع بداية لمحاورة محاذية تسير جنباً إلى جنب مع الحوار العادي.. المحاروة الحقيقية ذات اللغة الخاصة والمستويات المختلفة في الادراك والفهم، المحاروة الأهم التي من خلالها تدرك المرأة من أنت.. في الحقيقة من أنت.. وأي الرجال أنت.. وبأي الخصال تتمتع.. وأين نقط الضعف. انك إذا اندفعت مثلاً كالتلميذ الخائف أن ينسى قطعة المحفوظات ملهوفاً فتبحث في جيبك عن الولاعة، وما أن تعثر عليها حتى تحس بالاضطراب، ومن بعيد تدقها، تشعلها، وغالباً ما

تفشل، وبعصبية من يريد إثبات البراعة ثانية وربما ثالثة تحاول، ثم تقرب النار بخوف من يخشى أن يحرقها، وليس بأناقة من يتيح لها أوسع الفرص لاستعراض أناقتها الخاصة في تحاشي اللهب، والاقتراب من الشعلة، وأخذ النفس، واخراج النفس؛ والتحرك إقداماً وتراجعاً، والتفاتاً وابتلاعاً، واهمالاً في الإسراع والتراخي الذي تنشد له الأعصاب، اسألوا أهل الذكر، ستجدون أن لكل حركة كتاباً أو باباً، وللأبواب مفاتيح والمفاتيح أحجام، والمشكلة ليست مشكلة اصطدام رجل بامرأة وخلاص، المشكلة أن تدبر بحيث يبدو الالتقاء طبيعياً أكثر من الالتقاء نفسه، المشكلة أنك عارف وأنها عارفة وأنك عارف أنها عارفة وهي عارفة أنك عارف أنها عارفة، وهلم جرا ولكن كيف؟ وأين الرجل الذي يصبح فخره هذه المرة أنه الجاهل (مدعياً طبعاً) وقوته أنه الغبي المفاجأ، وكأن الأمر يحدث ولا بد له فيه. إن شرب الشاي هو شرب الشاي، ولكن أن تجعل من مجرد احتساء قدح من الشاي فناً وطقوساً تزاولها مستمتعاً، وكأنها ليست وسيلة لشرب شاي أي شاي، ولكنها هي الوسيلة غاية في حد ذاتها. كيف تجعل من كلمة «شكراً» تبدو وكأنها أهم كلمة نطقتها في حياتك، وكأنك لأول مرة تقولها، ومن أجلها استخرجتها من صندوق كنوزك التي لم يرها أحد، وتقدمها بإعزاز الملك يقلد الملكة التاج؟ كيف بصدق تجعلها تحس بكلمة شكراً، بنطقك لها، بإخلاصك وإعزازك واختصاصك بها، تاجاً باهراً كالتاج الحقيقي، على رأسها ساعة ترى الرجال تضعه، وعلى كل الناس، وبالكلمة متوهجة فوق شعرها تفخر وتتيه.

اسألوا أهل الذكر.

فأنا لم أسألهم فقط، أنا بعض من أهل الذكر هؤلاء.

وكان من المحتم اذن أن أجعل الحلم الذي في خيالها يتبخر.

وأحل مكانه ما أريده أنا.

وما أردته بالضبط تحقق.

فقد تحولت الخيمة إلى حجرة في فندق فاخر.

وتحول البدوي الأسمر ذو اللحية إلى شخصي أنا، محدثاً وأنيقاً وبارعاً.

ومضت خطتي في طريقها بأسرع وأروع ما توقعت. وانتهى العشاء.

وكنت أعرف وأحفظ درس السيجارة، والحريق الصغير الذي عليّ أن أحدثه.

وأول نفس من السيجارة كيف تخرجه.

ومددت يدي بعلبتي أنا أعزم.

ولكنها هزت رأسها بأناقة بالغة معتذرة:

وبيد رخوة مدت يدها إلى حقيبة يدها، وفتحتها وأخرجت.

أخرجت..

أخرجت سيجاراً من حجم (تشرشل).

وفضت عنه ورق السلوفان.

وبين شفتيها وضعته.

ومالت برأسها وبفمها، وبالسيجار ناحيتي، تطلب الشعلة.

وكالمذهول المنوم تماماً، وبأكثر من فشـل واحد اشتعـل طرف السيجار في النهاية.

وبتلذذ عظيم تمتص رحيق دخان وتنفثه ليشيع في الحجرة تلك الرائحة الخاصة للسيجار الهافانا.

ولا بد أنها لاحظت ذهولي.

فبنعومة بالغة سألتني:

ـ أيضايقك أن أشرب سيجاراً؟

قلت بسرعة: أبداً أبداً.

ثم رحت أقول ببطء شديد: أبداً.. أبداً..

ولكني كنت أقولها وأنا سرحان تماماً..

لقد كان في عقلها حلم بدوي لحمي حمراوي طردته.

ولكن..

هذا السيجار..

كلما رأيتها من «الفاس» أو «البروفيل» نفس الملامح الدقيقـة، النمش البني فوق الأرضية المحمرة، الشعر المتوهج بالاحمرار، كـل شيء كما كان، ولكن السيجار ذلك السيجار اللعين قد غير بوجـوده، بمجرد وجوده، معنى كـل شيء، طعم كل شيء.. تـطبق بفمهاعلى فم السيجار فينبت لها شارب.

والرائحة التي تعبق المكان تحيل ملكة بافاريا إلى كـائن آخر، إي كائن غير المرأة.

قالت: أعرف أن كثيراً من الرجال لا يعجبهم أن تدخن المـرأة السيجــار مثلهم، أرجـو أن تكــون من المؤمنين بـالمســاواة، أليس كذلك؟!

هززت رأسي موافقاً، وعن يقين موافق، فالسيجار في الحقيقـة قد ساوى بيننـا، بين ملكتي البافـارية، وبين الـرجل، أي رجـل، أنا مثلاً . .

يموت الزمّار

تقـريباً كـل ما كتبتـه من قصص ونسبته إلى نفسي أو قمت فيـه بدور الراوي، كانت كلها أبداً لم تقع لي، إلا هذه القصة فـأنا فعـلاً فيها الراوي وما حدث فيها حدث لي. ولقد حاولت المستحيـل لكي لا أكون أنا أنـا أو لكي يكون الحـادث وقع لغيـري، وكان ممكنـاً أن تكـون أروع وأكثر إمتـاعـاً، ولكني بيني وبين نفسي كنت أحس أني سـأكـذب بـالضبط مثلمـا كنت حين أتقمص أنـا شخص الـراوي في قصص أخـرى، معظمهـا أبـداً لم يحـدث لي! كنت أحس أني أكثـر صدقاً مع الآخرين ومع ذاتي.

انها اذن قصة خاصة جداً، أعرف أن كثيرين سيهزون أكتـافهم حيالها ويقـولون: ومـا لنا ولهـذا القول الـذاتي الخاص، ولكن، من يدري؟ ربما لن أعدم واحداً يحس ذاته تماماً وهو يـراني أتحدث عن ذاتي، فنحن في النهاية أبناء ذات واحدة عليـا عميقة أو سفلى، إنمـا الاتصال قائم وموجود والمهم هو الوصول إليه، وقد يضطرب الكاتب في أحيـان أن يستعمـل دلـوه الـداخلي الخـاص للوصـول إلى ميـاه الآخرين العميقة.

وكنت حين أقـرأ أن فلانـاً الممثل أو أن جـريتا جـاربـو الممثلة تتبـع طرقـاً بوليسيـة منـذ أكثـر من أربعين عـامـاً لتختفي عن الأنـظار العامة، وتعتـزل الفن أو تقاطـع هي دائرة الضـوء لأنها تستمتـع كثيراً بأي كوخ ظل تأوي إليه. كنت حين أقرأ هـذا كله أحس أنه نـوع من الابهار الصحفي يلجأ إليه النجوم زيادة في اجتذاب البريق.

وهـذه المرة، ولا شيء من «هيـافـة» بعض النجـوم في ذهني، وبعد طول تدبر وتفكير، وبعد انفـراد بالنفس ذلـك الانفراد الخـاص التام الذي تحس أن همسة الخاطر حتى لا تشاركك إياه، قـررت في لحظة حسم باردة كالثلج، لا انفعال فيهـا ولا تراجـع أو ندم أن أكف تماماً عن الكتابة، أي كتابة، ليس يأساً أو تدللاً أو نـوعاً من استـدرار الاشفـاق على النفس، تجـاه النفس، ولـو من ذات النفس، ولكنـه ادراك عميق كـامل بعـدم جدوى الكتـابة أصـلاً، ليست كتـابتي فقط ولكن كل الكتابة مذ عرف الإنسان الكتـابة، أو ـ في رأيي ـ ماذا فعل الإنسـان بالكتـابة؟ أو بمعنى أصـح، ماذا فعلت بـالإنسان الكتـابـة؟ أصلحت أخلاقه؟ كذب في كذب فـالإنسان أيـام الحضارة المصـرية القديمة، وأيـام أثينا وطيبـة وبابـل، وأيام أفـلاطون وأرسـطو والفلاح الفصيح ربما كان أكثر تسامحاً وهدوءاً مع نفسه ومع الآخرين، وربما لم تفعـل نصائـح كتابـه بتحريضـه على الصدق وعلى الشرف وعلى النبـل إلا العكس تمامـاً، فلا أعتقـد أن وحشية المحـاربين أيـام أول حروب عالمية عرفها التاريـخ بين المصريين والحيثيين أو بين الفـرس والاغريق كانت تصـل إلى معشار مـا وصلت إليه وحشيـة المتحاربين

في آخر حرب عالمية خاضها الإنسان، ولا وحشية ما حدث ويحدث للبشر في فيتنام أو أفغانستان أو لبنان. فصحيح أن بالكتابة تعلم الإنسان.. ولكنه بالتطور العقلي الذي أحدثته الكتابة والكتاب فيه تعلم أيضاً أن يصبح شريراً أكثر علماً وبشاعة علم، كالحية الرقطاء التي فوق الناب الطبيعية التي زودتها بها الطبيعة لتلدغ بها عدوها مرة، تعلمت وتعلم كيف يزود نفسه بأنياب أكثر وخزانات سم أكثر. أنياب لا تكتفي بنفث السم ولكنها ترسله ميراج وميج وفانتوم ونابالم ونيترون وكوبالت، وبدلاً من ترس التعذيب الذي كان يشد إليه جسده أصبحت وسائل العذاب تصل إلى نخاع النخاع من أدق أعصابه حساً، ولم يعد في الحرب فروسية أو علم أبيض أو قوانين أسرى وإنما هو الشر يندفع من عقول قد زودتها المعرفة بالتصميم القاتل على الإبادة، باختصار، مذ عرف الإنسان الكتابة.. عرف أيضاً كيف يصبح الشرير في أعنف وأبشع صوره.

قد يقول القائل ولكنه التطور وليس الكاتب أو الكتابة.. والرد جاهز، فالتطور ناتج العقل، والعقل ناتج الكتابة، ودعونا لا نتفلسف أكثر فلقد كان حلمي بالكتابة كحلمي بالثورة كحلمي بالمعجزة القادرة على شفاء كل وأي داء.. وفي عمري أنا سأرى اختفاء الحفاء، وعمومية الكساء، وزوال الحاجة، واكتفاء كل محتاج. كانت واحة العمر ألجأ إليها كلما نضب معين الخيال، وأتزود منها وبها بالقدرة على مواصلة اللهاث. وكان الوصول على مرمى حجر، وكأنني سأصحو في الغد لأجد الصباح فجراً ليس فجر يوم ولكن فجر

عصر. عصر كامل تام يعود فيه الإنسان يحب بكل نهم وعمق وظمأ الحب، ويعيش وروعة الحياة يشربها مترعة قطرة وراءها قطرة، ولكل قطرة طعم، ولكل لحظة زمن تمر أشواق وصهللة ومعان. .

حياة أستمتع فيها إلى التعالي أني ابن. . مثلما أستمتع به إلى مهجة كبدي أني أب، تأخذني الأم إلى أعمق أحضانها ترضعني خلاصة الأنوثة وأرتشف وأنا أضمها نعناع أني ولد وخمرة أني رجل. حياة أنا فيها محب محبوب، عاشق معشوق، مؤثر ومغير، ومتأثر ومتغير، ودائماً إلى الأعلى والأروع. حياة. حياة، أتعرفون ما هي الحياة؟!.

في الواقع وأنا أتأمل القرار من نواحيه أدركت جانباً من عظمة وعبقرية شكسبير الشاعر الكاتب. فليست روعته أنه فقط كتب، ولكن الأروع من كتابته أنه عرف متى وكيف يتوقف ويقف. في الواحدة والخمسين كان قد انتهى من كتابة آخر أربع وأعظم مسرحياته على الاطلاق: الملك لير وعطيل وماكبث وهاملت. . وبانتهاء عرض آخر واحدة منها، لست أعرف ما هي على وجه الدقة، اتخذ القرار وصفى نصيبه في مسرح الجلوب وسوى أموره ورحل إلى بلدته وهناك اشترى منزلاً (أصبح الآن كعبة الرواد) ومكث عامين بعيداً تماماً عن الكتابة والمسرح وكل ما يتصل بهما ثم مات في الثالثة والخمسين.

هذا هو الرجل. عاش وقال وصمت ومات، وهكذا وهكذا لم يمت ولا زال يعيش ويقول ولا ينتهي أبداً.

وليس مطلقاً تقليداً لشكسبير ولا لأي أحد ـ فالموضة عندنا أننا لا نكتب إلا تقليداً ولا نحيا إلا تقليداً، ربما لأن معظم من يقيمون انتاجنا وحياتنا هم دائماً وأبداً مقلدون، ومقلدون أيضاً غير متقنين، فأنا لم أعرف هذا إلا في قراءة عابرة لمجلة قديمة كان فيها مقال عن شكسبير قرأته بعد القرار (واسمحوا لي باستعمال الكلمة) فأكد لي حتمية ما انتهيت إليه.

وحين راحت السكرة وجاءت الفكرة وجدت أني لست فقط مختلفاً تماماً كماً ونوعاً وحياة عن شكسبير وغيره، ولكن مختلف أيضاً أني موظف كتابة عام بينما كان هو صاحب قطاع خاص في استطاعته تصفية كتابته والعيش بما يتبقى لديه من رأسمال. أنا موظف في جريدة كبرى تدفع لي راتباً شهرياً من أجل أن أكتب، وعليّ شئت أم أبيت ومن أجل أن أعيش أن أظل أكتب، فإذا قررت أن أكف تماماً عن الكتابة فأبسط المواقف الشريفة أن أبحث لي عن عمل آخر أو وسيلة حياة ثانية، وهكذا مثلما يفعلون قبل المعاش حيث من حقهم أخذ إجازة ثلاثة أو أربعة أشهر، أعطيت لنفسي الحق في إجازة أبحث فيها عن مصدر رزق ـ أزرع قطعة الأرض التي تخصني في قريتنا.. أفتتح مستوصفاً للعلاج الرخيص.. أتقن حرفة النجارة التي أهواها والتي أصبحت ماهية الأسطى فيها لا تقل عن عشرة جنيهات في اليوم.. أحيل عربتي إلى تاكسي أعمل عليه.. أي شيء.. إلا أن أمسك القلم مرة أخرى وأتحمل مسئولية تغيير عالم لا يتغير، وإنسان يزداد بالتغيير سوءاً، وثورات ليت بعضها ما قام فما

حدث بعد بعضها أبشع مما كان عليه الحال قبلها.

يأس؟!.

ولماذا نسمي النظرة الحقيقية الواقعية يأساً، والتمسك بخرافة الأحلام التي لا تتحقق هو التفاؤل الإنساني الذي لا نجده سوى في الكتب وعلى ألسنة وأفواه وأقلام (اخواننا) الكتاب.

وكنت في قراري صامتاً كتوماً، لا كلمة واحدة لزوجتي نفسها، ولا علم لصديق، فأنا أعرف كم ما سيصدر من اعتراض وسخرية، أقلها أني أتصيد التقريظ والمديح والرغبة في الحث على مواصلة ما يسمونه بالنجاح.. إن الحياة ـ هكذا أراها ـ ليست لعبة أضيعها مصغياً لهذا أو مولياً أذني لذاك.. الحياة حياتي والقرار قراري وكم من أمور تكاد تكون قتالة فعلتها دون ذرة تردد وحتى لو كادت، أو بعضها فعلاً ضيعني، دون ذرة ندم.

بل والقرار التالي الأخطر بعد اللاكتابة: هو اللاقراءة.. فالحليف الداهية الخبيث للكتابة هو القراءة، هي المنزلق الذي إذا وضعت عليه قدمك وجدت نفسك في سرعة الضوء تهوي حتماً إلى حيث تبدأ أنت لا ترى ولكن تصنع الحروف والمعاني والكلمات، ويلفك التيه الخالد ما بين أحرف تصنعها وأحرف تصنعك، وحياة تصنعها ولا تحياها وحياة تصنعك أجيراً لها فقط تحقق لها ما هي تريد. مذ كان عمري خمس سنوات وإلى الخمسين وأنا أقرأ وأكتب وأكتب وأقرأ. الحياة تصطخب في الدنيا وأنا صريع الحياة الموهومة بين دفتي كتاب وكلها من ورق وكلها من حبر، ضيعت عمري أتعلم

كيف أتعلم الكتابة، والبقية الباقية ضيعتها كيف أعلم ما في الكتابة، والنتيجة أني أنا نفسي استحلت إلى كلام وأصبحت روحي من ورق وأحلامي ومتعتي كائنة كلها من حبر بين كلمتين أو جملتين أو صفحتين. . أي حياة؟!

كثيراً ما قضيت الليالي إلى صباحها في غابة الأحرف تائهاً أزرعها مرة وأقطعها مرات ولا نسمة إلا رائحة اللون الأسود وسحابات من دخان وأنصاف أكواب مليئة «بتنوة» من بن جاف. . ولا أتبين إلا هناك أشعة الشمس تشحب ضوء الكهرباء، وأحس أن ظهري انكسر مقوساً إلى الأبد أو يكاد، فأقوم لأعدله وأخرج إلى الشرفة. . ما أجملها ساعة السابعة في الصباح طازجة ودائماً جديدة، تصوروا كل صبح دائماً جديداً أبداً لم تمسسه أرض من قبل ولا احتوته سماء، وإنما هو هدية الكون الجديدة تماماً لنا. . الناشئة لتوها وفي الحال، هذا هو الصباح الطازج الصابح الذي عليّ أن أتركه لأمضغ ساعات ليل ونوم بائتة وحامضة فقد مضى أوانها من زمان.

في ساعات صبح كتلك كنت كثيراً جداً ما ألمح «كناس» شارعنا جالساً على الرصيف المقابل مسنداً مقشته إلى كتفه، محتضناً إياها وكأنما يلتمس منها ألفة يوم كامل سيقضيانه معاً، وفي يده اليمنى غالباً كنت ألمح كوب شاي وفي اليسرى سيجارة. ومهما كانت الدنيا صيفاً أو شتاء فأبداً لا برودة هناك ولا نية احترار وإنما هي - في رأيي - لحظة السعادة القصوى. . هذا رجل يقوم بعمل جاد محدد ينظف شارعنا، من كل ما نقذفه نحن الأفندية والستات من

فضلات. نام قطعاً الليل ونامه مبكراً فها هو مبكراً قد استيقظ واستمتعت كل خلية من خلاياه بسبع ساعات على الأقل من خلو البال. واحداً من ملايين ملايين الرجال الذين لا أشير ولن يشار لهم بأي بنان، عاش وقام ورفس زوجته ونام، بالضبط اتسق تماماً مع قانون كون أعظم، جالساً استعداداً لقانون عمل أعظم، وها أنا المشار إليه بالبنان. .عاكس القانون،ومقاوم الظلام ليغير الناموس، وأتى عليه النهار ليجده حطام دون كيشوت خيل إليه أنه قضى الليل يعكس ويحارب طواحين الهواء والاتجاه، وأحس حتى دون أن يواجه أحداً أن طاحونة لم تتوقف وجناحاً منها لم يتعطل أو يتغير أو يتبدل لا تنعم براحة البال ولا حتى براحة البدن، أعطني مقشتك أيها الرجل وخذ ذلك القلم فمنتهى أملي أن أرى أو أستعمل شيئاً له مفعول مقشتك، والمفعول أراه أمامي بعيني وأشهده وأحس بفائدته.

قدرك الذي عذبك وأمرضك وحملت من أجله هموم الكرة الأرضية فوق قرنك، ولست ثوراً افريقياً خالداً باستطاعته أن يتحمل الدنيا بهمومها بله همومك أنت وحدك إلى الأبد، كل جسدك من المرض مرض المرض وحيرت نطس الأطباء من الكرملين إلى مايو كلينيك وكليفلاند وهارلي ستريت، وأصبحت مريضاً عالمياً وأصبحت حياتك كونية الحيرة، فيقرر الأطباء أنك ستموت في ظرف ٤٨ ساعة وإذا بك بعد ٢٤ ساعة في قوة الحصان، ويقرر الأطباء أن عندك سرطان وأنك أمامك شهر بالكثير لتودع الحياة، فتبدأ حياة جديدة وسيمة الملامح جداً بعد أسبوع. . حتى يئسوا منك مثلما قالت لك

الدكتورة ايلينا: أنت يا زميل حالتك لا تخضع للطب الذي درسنا. وقال لك البروفسور الكبير في نيويورك فريدمان: حالتك نادرة ولكنها التفسير الأوحد.. تنفعل إلى درجة المرض وتمرض إلى درجة الموت، وتموت إلى درجة الحب: والمسألة خرجت عن كل ما لدينا من علم تعلمناه ونعلمه.. ربما تعرف أنت.

وفي ركن خفي من أركان نفسي السرية كنت أعرف: انها ذلك الجزء الذي يملي عليّ أن أكتب يمرضني ويحيرني، وجزء كقوانين الكون كيف لي أن أسيطر عليه، ولا كيف أريحه، فإذا أخذت إجازة وذهبت إلى الشاطىء ثارت الزوبعة في يافوخي حتى تتكتل على الأمراض، وربما تهدأ تماماً إذا وجدت نفسي في وسط وحركة جيش التحرير في الجزائر، أو أستعد ليوم عصيب من أيام الحركة الوطنية والقومية.

وأيضاً ما علينا.

فلتكن قد فعلت الكتابة ما فعلت، وليكن قد حدث ما حدث بل فلأكن سأموت حتى، أقسم غير حانث أني قدرت الموت واستحضرته تماماً ووجدته ألف مرة أرحم، لم أعد أستطيع، أبداً لم أعد أستطيع. إني لأكاد أحسد إلى درجة البكاء هؤلاء الزملاء الكتاب الذي يكتبون كل يوم وعن كل وأي قضية من السياسة إلى القصة إلى العلم إلى المذكرات إلى الحب إلى الأمومة إلى.. الى.. إلى.. إلى أي شيء. كيف بالله يكتبون؟ ولماذا أجد القلم في يدهم سهلاً ودرجة الانفعال ٣٧ لا تنخفض ولا تزيد، وضغط الدم لا يعلو ولا

ينخفض ١٢٠ على ٨٠ بكل الصحة. واللهم مزيداً من الصحة ـ وبكل التعقل والمنطق يكتبون ويكتبون ويكتبون يوماً بعد يوم بعد يوم، ألديهم آلة «زيروكس» يضغطون على الزرار من هنا فتخرج الصفحة زيروكسية مكتوبة جداً من هناك. أم (أنا) الحالة؟ فلا بد أن أحدنا هو الحالة قطعاً.

وأيضاً ولثالث مرة ـ ما علينا.

● ●

طيب. أخذت المهنة وقلت أتدرب على اصلاح أجهزة الفيديو كاسيت. فلقد أخطأت ذات مرة وأحضرت جهازاً غير تقليدي وحاولت تشغيله فأبى أن يعمل، وجربت جميع المشاهير وغير المشاهير من مصلحي الفيديو حتى استوعبت العملية تماماً مثلهم، وأصبحت أعرف البال من سيكام من الأوتوماتيك بال سيكام والأنظمة الثلاثة الأوتوماتيكية والألوان التسعة والسبعة، ومثلهم أيضاً أدركت أننا كلنا قد أخذناها فهلوة، وأن أقصى ما قضاه أي مهندس منهم لدراسة هذا الجهاز الجديد الذي سيقلب العالم رأساً على عقب في القريب العاجل جداً لم يقض في الخارج أكثر من ستة أشهر. وهي في رأيي فترة غير كافية لدراسة نظرية. مجرد نظرية التليفزيون فما بالك بالتسجيل التليفزيوني العملي وأجزائه المعقدة الوظائف.

سأكون صناعياً علمياً جداً، وحتى لو كان الأمر تغيير مهنة، فأنا كثيراً ما بشرت في أحاديثي «أيام الجدا» أن الإنسان في عالم

المستقبل لن يقصر عمره على مهنة واحدة يقضي في روتينها محترفاً كلية، وأن المستقبل يحمل للإنسان القدرة على أن ينتقل من جراح قلب إلى قافز باراشوت هاو إلى نجار موبيليا ـ أعرف جراح قلب في أمريكا يعمل يومي السبت والأحد نجاراً محترفاً فعلاً ـ إلى عازف أكورديون، إلى ما شاء من المهن والهوايات خلال حياته الواحدة، بحيث لا يعتريه شهر أو أسبوع أو حتى يوم ملل واحد.

وجئت ببعض المراجع وأحضرت تليفزيوننا القديم وبدأت أدرس الدوائر ومصائد الأشعة والصمامات وأنصاف الموصلات «الترانسستور»، ولم يستغرق الأمر أكثر من أربعة أيام لألقي بكل شيء جانباً إذ كنت قد تركت أجمل أنواع المعادلات الكتابية الشاحذة للخيال المدرة للجمال، فهل أغرس نفسي في معادلات أبعد ما تكون عن التصور وأقرب ما تكون إلى واقع صلب ينطح فيه الإنسان رأسه؟ لا كتابة. لا قراءة. لا دراسة. فلقد أخطأت، كان الواجب التكنيكي يقتضي مني وقد قررت أن أتنحى.. أن أتنحى عن عالم الأحرف كلية والخيال إلى قلب الحياة نفسها، قلبها الصاخب المتدفق متعة وليس إلى دوائر الترانسستور والتليفزيون المغلقة حتى على نسمة الهواء.

شارع المتعة والحياة.. فلان؟ أهلاً وسهلاً أو أهلين وسهلين. هاي جو. بالأحضان يطبق ضلوعي، وأنا قرأت لك وأنا فاتني أن أقرأ. يا سلام يا عبقري يا لسوء حظي، وبدلاً من أن أستمتع أنا أصبحت أنا وسيلة المتعة، وغير مسموح لي حتى بمشاركة «جمهور»

الحاضرين مباذلهم الصغيرة أو الكبيرة أو رواية نكتة فاضحة فأنا «فلان» المفكر «المهول»، والاستنكار ينبثق كالدش البارد المفاجىء إذا حدث وحاولت ـ مجرد محاولة ـ أن أهرج. وهل يسمح حتى في أيام الوثنية للآلهة بالتهريج؟ وأعود آخر الليل شديد التأنيب لنفسي، فالعاصفة الهوجاء التي قوبلت بها تنتهي في آخر السهرة بسلام كسلام صداقة انتهت وكأن الواحد يقول لنفسه: ها هو آخر يطلع زينا والظاهر كلهم كده، صيت ولا غنى وأهه كله بكش. لم يقبلني صخب الحياة ولم أقبله، فالناس يفضلون إذا صخبوا أن ينسوا العقل، فإذا حضر العقل أو كلام العقل فهم يصنعون شيئاً من شيئين.. إما يلغونه تماماً بإحالته إلى محط سخرية، وإما يحيلونه تماماً إلى عنصر عاقل كابت كالوعي يثبتون له ولأنفسهم أنهم لا يقلون عنه «احتراماً»، والنتيجة أن ينقلب الأمر إلى حالة تمثيل تتوقف فيه الانطلاقة التلقائية التي رغم كل ما يبدو فيها من هبرط ـ انطلاقة براءة الطفل الذي يريد أن يلهو داخل الإنسان، وهكذا وببساطة تامة تنتهي المتعة، أي متعة.

● ●

وقلت لقد مضت أحقاب منذ أن لعبت دور الأب، وإذا كنت قد أنتجت أعمالاً فلماذا لا تلتفت الآن لإنتاج بشر.. بشر تعطيهم ما أعطتك الحياة من خبرة؟ تجمعهم كل عشية وتعيدها أواصر عائلة فككها التليفزيون الذي أخرس الحوار بين أفرادها، شلل النادي والكورة التي تولت مهمة التربية والأب، وأصدقاء السوء ليس وراء

معظمهم سوى الشوائب تنزعها كالشوك السام الذي يغرس كل يوم في الأقدام، وعليك بإبرة رفيعة متهالكة وبمقاومة رهيبة من الولد صاحب القدم أن تنتزعها.

واكتشفت أني أبحث عن دور أصبح مكانه حفريات التاريخ هناك حيث ترقد مراكب الشمس، لو أمعنت في الصحراء قليلاً ستجد ملايين قبور عليها شواهد مكتوب فوقها: كائنات كانت آباء.. فليرحمهم الله.

أب ماذا في هذا الزمن الذي أراد النظام الذي يدير الكون الآن، أن يفكك العائلة فيه ليسهل على نفسه شراءها؟ أيد عاملة شابة ترضى بالقليل وتعطي الكثير ولا تسمع تعاليم الآباء عن عمق مطالب الشعوب والفئات منذ أقدم العصور. آلات منتجة جديدة غير مثقلة بتاريخ مطالبات ونقابات، وإنما هي ابنة «رجل بستة مليون دولار» و«جي آر» و«سوالين» جديدة تشكلها وتعطيها ما شاءت من بنج بونج وتنس وكورة ومنطق ساحق رهيب، دراسة ماذا وأنت تستطيع كجرسون في فندق أو حتى شيال أو مصادق للسائحات العجوزات أن تطلع لك في اليوم بعشرين أو ثلاثين جنيهاً بالتمام والكمال، تصرف وتشتري عربة، والجامعة والتعليم واللقب الذي تريده ستجدها كلها ملفوفة في خرق قديمة ألقيناها من نوافذ المناور في العمارات؟ ماذا يجدي الحديث عن سعد زغلول ومصطفى مشرفة وحتى فاروق الباز أمام ثلاثين جنيهاً وعربة ولو «سيات» يلمسها المراهق لمسة اليقين كل يوم ويحيلها لصناديق بيرة وشحنة بنات وطريق صحاري سيتي

وهات ايدك. إلى حديث عن المجد القديم والمجد ها هو أمامك جديداً «نوفي» تحت أمرك، ودقيقة واحدة ويكون رهن طلبك، وإذا أرقك ضميرك هاك بلبوعة قادمة من بيروت تزيل كل الآلام وتحقق جميع الأحلام وتصبح إذا أردت في ومضة كسرى أنو شروان.

كان الله واحداً والأب واحداً، وفي البدء كان الكلمة بالطبع الكلمة الطيبة.

في عصر الوثنية الحديثة هذا أصبح الإله الواحد حتى في الدين الواحد عشرات الملل والنحل، والأب الواحد أصبح عشرات الآباء تختار أيهم كما شئت حسب لون الفانلة أو نوع الفتاة أو فرقة الغناء أو مكانتك في الشلة، وما أبعد المسافة بيننا وبين البدء بحيث أصبحت الكلمة الأوقع والأكثر جذباً للانتباه شارع المتعة والحياة: فلان؟ أهلاً وسهلاً أو أهلين. من جديد أمر يحتاج إما أن تهدمه تماماً وتعيده خلقاً آخر وهذا ليس بمستطاعك، وإما أن تكتفي أن تقوم بدور المتفرج في طابور طويل من الآباء يغمر العالم كله يتفرجون على كائنات كانت في البدء أبناء.

● ●

ولم يعد إلا أن أحيل نفسي رغم الطاقات التي تتفجر مني ورغم أني في أكمل وأنضج «فورمة» انتاج في أي مجال ومكان إلى التقاعد. وتقاعدت. أتمشى مبكراً في الصباح، أحتسي كوب شاي في مقهى أو ناد، أعود إلى البيت، أحاول أن أصلح حنفية أو أفسد «كوبس» نور. أنا في إجازة ما قبل الإحالة إلى الاستيداع.

وشيئاً فشيئاً بدأت الحظ مسألة بالغة التفاهة.

إن قدرتي على المشي أصبحت أقل، وكل يوم تقل وأصبحت أعود إلى البيت وكأني قد بنيت السد العالي بمفردي متعباً مهدوداً لا أكاد أصل إلى البيت حتى أظل أستريح ولو من الراحة استراحة تصل إلى الظهر.

وأتغدى وأجد نفسي في حاجة ماسة إلى النوم وكأنني ظللت اليوم بطوله ساهراً.

ثم ساءلت نفسي السؤال الأكبر: لماذا اليقظة المبكرة أصلاً وليس ورائي من عمل أؤديه؟

ثم سؤال أكبر وأكبر: ولماذا المشي كل يوم كل يوم وأنا ليس لديّ عمل ثابت لكل يوم؟ وأسئلةليست مجرد أسئلة، ولكنها مقدمة حتمية معقولة لشمولها بالنفاذ الفوري.

ما أروع التمطي في فراش دافىء ونحن في طوبة حيث كل شيء وكل إنسان من البرد يتجمد.ما أروع فكرة أن ليس وراءك بالمرة أي عمل! ليس الكسل هو الرائع في الموضوع ولكن الأروع هو الإحساس الكامل، أن ليست لديك أية مواعيد أو واجبات وإنما أنت لك حرية اليوم والغد والزمن القادم كله.

كل حياتي كان محورها أني أكتب كل اتصالاتي، دعواتي، ارتباطاتي، سببها خيط واحد يصدر مني ليوزع آلاف خيوط بعضها يجذب، بعضها بعزف، بعضها يقلق، بعضها يفرح، بعضها يذكر أو

يتذكر أو يصرخ ألماً، والخيوط تلتقي عندي تصنع لي يقظتي ومنامي وترغمني أن أرتدي الثياب كل يوم، وأعاني مشاق كل يوم، وأودع الأمس وداع المغتاظ مرة، وداع الصبوة مرة، لا أنتظر الغد بصبر نافد بل لا أريده أن يأتي أبداً.

ذلك المحور لم يعد له وجود. الكرة الأرضية الآن انطلقت في الفضاء على حريتها بكل اتساعه وشموله، تدور حول الشمس أو لا تدور، تترك وليدها القمر ينعي حظه وخسوفه إذا أحست بعلل الصحبة.

ولأول مرة أحس أني لست أنا ملتقى خيوط ولا دائرة بالأمر القدري حول محوره، ولا يهمه أن يتلقى النور من هذه الشمس بالذات أو يكتب عن هذا الموضوع الذي يشغل الناس جميعاً الآن بالذات، أقرأ أو لا أقرأ، وجميع ما أقرأه غير مضطر لاختزانه أو امعان التفكير فيه، فلم يعد عقلي في حاجة إلى مذاكرة ما يقع، أي مما يقع وشبح الامتحان الكتابي قد اختفى من أمامه.

صادقاً مع نفسي لم أحس بطعم سعادة حقيقية مثلما أحسست وأنا لثلاثة أيام بنهارها ولياليها لا أتحرك من فراشي. زوجتي تعتبرني لا بد مريضاً، فحتى حين أطلب الطعام وأنا نصف جالس ألمح الاستنكار البين في عينيها، ولكنها في قرارة نفسها تقنع نفسها أني لا بد أستعد لعمل عظيم ومن حقي أن أستعد له بالطريقة التي تحلو لي. وما دامت الطريقة هذه المرة هي التمدد في الفراش المنكوش وملاءاته التي يحل كل يوم موعد تغييرها، فكم كان لي معها من

تصرفات تستغربها تنتج في النهاية شيئاً تكون هي أول السعداء به.

ماذا لو عرفت أن لا شيء وراء الأكمة وأن لا كتابة بعد الآن؟ ماذا لو أدركت أنها لو احتججت أو عارضت فسأترك كل شيء وأمشي لو اضطررت بلاد الله لخلق الله.

طال الرقاد حتى أصبح الذهاب إلى الحمام مشقة وأي مشقة ألهث لها وأحس أني وكأني أسافر على أقدامي عدة أميال، وغسيل الوجه لم يعد يومياً بالضرورة. . ماذا لو حدث كلما أحسست باتساخه؟ وغسيل الأسنان باعتباره عادة راسخة أحس بالقلق طوال اليوم إذا لم أفعلها بكوب من الماء الدافيء والمعجون بجوار الفراش.

في الأيام الأولى كنت أقضي اليوم في أحلام يقظة تعيد لي خصوبة أحلام اليقظة في طفولتي، وعبر رحلة الثماني كيلو مترات من المشي ذهاباً وعودة إلى المدرسة، أكتفي من الجرائد بالمنشتات ثم أكتفي فقط من أجل العادة وحدها بتسلمها دفعة واحدة ثم إرقادها بجواري على أمل أن أعود إليها في المساء. والمساء يجدني مشدوداً إلى التليفزيون. حفظت البرامج عن ظهر قلب ولا حلقة أجنبية أو محلية تفوتني. ثم ضج جسدي بهذا النشاط التليفزيوني والاذاعي، وشيئاً فشيئاً زهقت من الصورة ثم زهدت في الموسيقى ثم أخرست اللاسلكيين تماماً، وحتى أحلام اليقظة استهلكتها جميعاً ولم يعد عقلي قادراً على اختراع أدوية مثيرة أمضي فيها الأحلام، حتى حدث الأمر الذي لا أعرف بالضبط أني كنت طوال الوقت أتوقع حدوثه، أو

أني دون أن أدري وباللاوعي كما يقولون كنت أخاف حدوثه. بدأت ساقي اليمنى تتورم ثم أعقبتها اليسرى بلا ألم ولا أعراض جلطة، من ناحية وكدارس طب قلقت كثيراً أن تكون جلطة في الأوردة العميقة للساقين، ورحت أتصور كيف ستكون الجلطات في بحيرات الدم الوريدية في عضلات الساقين، يعقبها لابد زحف إلى أعلى حتى يشل التجلط وريدي الفخذين العظيمين، ويا حبذا لو زحفا إلى البطن حيث يتحد الاثنان ويكونان الأورطي الوريدي وأكون قد انتهيت.

ومن ناحية أخر وجدت فيما حدث المنفذ والمهرب.

فالآن وبعد أن بدأت ألمح في عيون زوجتي أشياء كالتي كانت تحفل بها نظرات بطلة المرآة المقعرة، الآن عندي سبب وجيه تماماً للرقاد. فالجلطة أو الاشتباه فيها أول تعليمات علاجها الرقاد تماماً ورفع الساق وعدم الحركة مطلقاً.

وحتى ولو لم تكن هذه هي تعليمات كبار الأطباء والجراحين الذين عادوني، فأنا نفسي كنت قد فقدت الرغبة تماماً في الحركة أي حركة ولو حتى لرفع رأسي وصدري ربع ارتفاعه لتناول الطعام أو الشراب، وبمثل ما فقدت الرغبة في الحركة فقدت الرغبة في أشياء كثيرة جداً، أسأل نفسي: نفسك في ايه؟ الاجابة دائماً واحدة: لا شيء أريد، لا الشوق أريد، ولا القلق على ابن أو زوجة أو صديق أو قضية. لا رغبة أبداً أبداً في أي شيء. وبدأت أورام السيقان تزداد

وتزحف إلى أسفل البطن، والأطباء يوصونني بعمل تمرينات رياضية لتحريك أضابع الأقدام وقبض وبسط عضلات الساق والأفخاذ لدفع الدم للعودة، ولا أجد في نفسي ذرة رغبة في القيام بأي تمرين أو تحريك أية عضلة.

الموت قادم.

لا أراه فهو ليس شبحاً أو ملاكاً أو قابلاً للرؤية ولكني أحسه، تماماً كمقدم المساء حين ينتهي العصر ويحتقن وجه الدنيا بالغروب وتحس أن الظلام لا محالة سيتبع هذا. الليل.. الصمت الأبدي.. عدم الحركة في تمامها واكتمالها وشمولها واستمراريتها.. المذهل لا استنكار، لا احتجاج، لا تفكير مطلقاً في أي مقاومة.. وهل يقاوم الإنسان مطلباً هو شديد الرغبة فيه؟ بل هو حتى لم يعد شديد الرغبة فيه إنما هو الانتظار الصبور غير المتعجل؟ فليجىء حين يجيء. فالجسد مسجى لا يتحرك، والوعي بأنه هناك ممدد ومسجى وساكن أو انتفاء الوعي سيان. وماذا يصنع الوعي من فارق إلا أن يجعل الانتظار معدوداً بالأيام والساعات، ومشوباً بالقلق، سيتكفل هذا الزاحف القادم بالقلق يستأصله وبالانتظار ينهيه ـ كما يتكفل الظلام بإخفاء الأشياء.. جميعها.. الجميل والقبيح، البعيد والقريب، الدافع للحركة والمانع لها.

ربما الشيء الوحيد الذي تبقى يخصني ويجعلني في لحظات أحس بصهللة الاحساس بالحياة، هو نوع من حب الاستطلاع.. كيف، إذا جاء سيجيء؟ كيف الناس يموتون، وأي احساس

بالضبط، وما هو ذلك الشيء الذي تواضعت عليه البشرية من قديم الزمان وأسمته طلوع الروح؟ أتأتي على هيئة «كرشة» نفس تنتاب الشخص لهنيهة ثم ينقطع النفس؟ أتأتي على هيئة استمرار طويل لنوبة من نوبات التوهان والدوخة التي كانت تعتريني بين الحين والحين حتى لأحس أني انفصلت عن وعيي وأنه بقي معلقاً مدركاً للموجودات من حولي بينما أنا هويت وأهوي بسرعة مخيفة إلى بئر لا قرار لها؟ لا أحس أني أهوي ولكن حين ينتفض شيء في رأسي يعيد وصل الوعي بالأنا الهاوية أحس أني فعلاً أصعد، ومعنى هذا أني كنت بالتأكيد أهوي.

كيف اذن ذلك الشيء المحير؟ تلك النهاية السؤال.. الموت؟ ان الجهد الذي بذله مخترع المحرك ليوجد الوسيلة التي يستطيع بها ايقافه عن الدوران لم يقل في رأيي عن الجهد الذي بذله لكي يحول المعدن الساكن إلى عجلة متحركة، فخلق الحركة لا يعادله سوى اختلاق السكون.. كيف سأسكن أنا؟ أيحدث إغماء محتم قبلها، أم إن بعضهم يكون احساسه بالموت هو آخر مدركاته بحيث تكون النهاية هي نهاية الادراك؟

ولك أكن أتوقع أن يأتي هكذا أبداً.

فجأة ذلك الصباح وأنا أداعب ابنتي الصغيرة قبل ذهابها المبكر إلى «أوتوبيس» المدرسة، حاملة جبل الكتب المقررة على الثانية الابتدائية ـ كتلة ضخمة تنوء بها البنت فعلاً لا مجازاً ـ فجأة وهي تجري لتلحق بالأوتوبيس الزاعق أحسست أني ـ بلا ألم أتنفس

بصعوبة. أشفط بطني كله لكي أخلق الفراغ في صدري، وما يكاد جزء منه يمتلىء حتى أحس بحاجتي إلى هواء أكثر، وهكذا في منتصف الشهيق أشهق، وفي منصف المنتصف أعود أشهق..

ولم يبرق خاطر وإنما مسمار رهيب. بخبطة شاكوش واحدة مفاجئة أدركت السلاح الذي اختاره الموت.. جلطة الرئة.. في ثوان ينتهي كل شيء. ولم أعرف، أنا المسجى ثلاثة أرباع ميت على فراش غائص بي، مقعر فعلاً، أني أمتلك هذه القدرة الهائلة على الهلع.

وكأنما كنت، وأنا أفكر بالموت بتلك السهولة واللامبالاة، أتحداه من حيث لا أدري، فحين استقر إلى درجة النزال وأمسك بسلاحه، أرعش الرعب كل خلية من خلاياي.

وعادة تليفون الجيزة لا يتصل بالدقي، فإذا اتصل ورد منزل جراح الشرايين الكبير لتقول لنا الفاضلة زوجته أنه في مستشفى قصر العيني الآن، فمعنى هذا أنك ميت لا محالة ميت. ان الجلطة لا يبدو أنها من النوع القاتل في الحال، وأن هناك احتمالاً لاستئصالها بالجراحة، والحياة، كل الحياة أصبحت معلقة بتليفون قصر العيني الذي أعرف منذ عملت فيه من قديم الزمان أنه أبداً عمره ما كان إلا مشغولاً مشغولاً مشغولاً، فالاتصال بالعزيز رئيس المكتب «تعبير تليفوني» وكأن المكالمة من الخارج أو إلى الخارج، وليدخل على الخط وفي ثوان يكون سامع على الطرف الآخر. وفي ثلاث دقائق تكون زوجتي تقود العربة بأقصى سرعة وهي تؤكد ألا جلطة ولا

خوف، وإلى قسم التشخيص بالاشعاع الذري ومجموعة هائلة من عميد الكلية إلى الجراح إلى كتيبة من شباب الأطباء تتلقفني وتدخلني غرفة، الوحيدة في مصر التي ترسم الرئة بالألوان بواسطة عقل اليكتروني، وتظهر نتيجة غريبة محيرة. الرئة اليسرى ليس بها قطرة دم، ولكن أيضاً ليس بها أي جلطة.

ويشكون في صدق الآلة، فهذه نتيجة عبثية تماماً فمعنى خلو الرئة من لون الدم أنها لا تتنفس، بينما بالسماعة وحتى باليد صوت تنفسها واضح وجلي ومسموع.

ويتطوع الطبيب الشاب يشرح كيف أنهم في أمريكا يبتكرون بحثاً أو علماً جديداً اسمه: أخطاء الآلات وأنها تشكل كذا في المائة.

وكان لا بد من اعادة الفحص.

وأوضع من جديد تحت شقي الرحى، ولكن أي رحى.. أية غرفة تلك التي أنا فيها؟ حين تخرجت في كلية الطب كانت الآلة الهندسية الوحيدة التي نعرفها هي جهاز أشعة اكس وجهاز اصدار الأشعة فوق البنفسجية. ما أراه طب مختلف تماماً وفرع جديد اسمه الهندسة الطبية يتطور بسرعة الصاروخ ليبتكر كل يوم اختراعاً لم يتصوره أحد من قبل. آخرها.. ها هو موجود بالغرفة تقف أمامه أو تمد له يدك فيعطيك في الحال اسم ونوع ووزن كل عنصر داخل في تركيبك. ويصدر اشارات كسيرينة الاسعاف أو بوليس النجدة لدي

كل عنصر فيـه نقص أو دون المستوى المعتـاد. وكل هـذا حدث في أقل من ربع قرن.

شقا الرحى اللذين كمنت بينهما. أحدهما ثابت هـو الراقـد أنا فوقه، والآخر متحرك حركة رائحة غادية كحركـة نقاش يـطلى الجسم بشيء غير منظور، يسمونها طريقة المسح. مسح الرئة، مسح الكبد، في الـواقع مسـح أي شيء أو عضو تـريده، وأيضـاً ثبت من الفحص الثـاني أن الرئـة تتنفس ولكن بغير نقـطة دم. واستمرت المنـاقشـات طويلة ومليئة بتغييرات، كالأجهزة لم تكن في الخمسينات نستخـدمها بل لم نكن نعرفها.

ولكن آلات ما آلات. تشخيصات مـا تشخيصات. احتمـالات أسوأ احتمالات. لقـد عرفت أنـا مرضي أو بـالأصح حـالتي.. نعم أعرفه الآن تماماً.

وأنا متأكد منه.. الموت! زاحفاً خفيـاً، حتى بغير قفـاز حياء، أو تشخيص، فما الحل؟.

على مر عشرات ومئات ملايين السنين أصبح الشغل جزءاً من التكوين العضوي للإنسان. صحيح أنه ليس عضواً كسائـر أعضائـه، ولا يـرى لا بالميكـروسكوب ولا بـالعين المجـردة، ولكنـه مـوجـود. اشعاعات من الـموجات تنطلق من أجزاء جسمه وتشكل هـالة مـوجبة من الموجات الحية باعتبار أن الحياة في أعلى صورها هي أرقى وأدق وأعقد أشكال الوجود المادي الموجي، رغم أنها مثل كـل الموجـات

والتموجات تلك التي تشكل صلب الوجود وقدرته على التبدل والتغير والتفاعل، مثلها مثلهن لا ترى بالعين المجردة ولا بالميكروسكوبات الالكترونية ولا بأي صورة ممكن أن يتفتق عنها العقل البشري في المستقبل. . إننا فقط نفترض أنها موجودات ونفترض أنها من مادة ما ولكن المؤكد أنها موجودة. . مؤكد موجودة وإلا لما كان الوجود. .

هذه الموجات المحيطة موجات التنبؤ والاتصال والربط العضوي الكامل بين الإنسان والإنسان، والإنسان والحيوان والنبات وذرات الرمال في الصحراء وماء المحيطات. وأقصى مجرة من المجرات هي التي تحرك الإنسان، أي تحرك زميلاتها موجات الداخل وتعطي إنساناً مثلك اتجاه وحكمة ورؤية وضرورة أن تتخذ الحركة ايقاعاً يؤدى، وفي أنماطه العليا يبتكر ما نسميه بالعمل. ويستوي في هذا أينشتين وأجهل فلاح في بلدنا. وكما يخصص ويركز ويضيف أينشتين والذي هو في وجوده أول الأمر نقطة التقاء وتفاعل للموجات أعطته القدرة القصوى على تصور الكون على هيئة معادلات وحل تلك المعادلات، وبالفعل أثبت أن المعادلات التي ابتكرها تنسجم تماماً مع قوانين الموجات وتجعله يتحكم لأول مرة في الموجات، وكانت القنبلة الذرية والانشطارات كذلك هي في فلاح بلدنا قدرة خارقة على الانحناء، وربما لأكثر من عشر ساعات، وهو ما لا يستطيعه أينشتين. . ولكل منا محيطه الخارجي من موجات. الجزء. . الأكبر الذي ينظمه هو العمل الملائم لموجاتنا الداخلية، بحيث متى تم التوافق العزفي بين نحن في الداخل ونحن

في الخارج. . نحن انتاجاً وابداعاً وجمادات، دخل الكائن دورة الكون رائعاً عظيماً ومنسجماً، وأرضى عنه الله والوالدين والاخوة والأصدقاء. . والناس.

وما انسحاب الحياة وتضاؤل اتصالاتها، ثم أخيراً موتها، سوى الخلل بين دائرة الداخل ودائرة الخارج. ولهذا يموت فوراً بعض الذين يحالون إلى المعاش. ومن بقي منهم حياً لا بد أن لديه بديلاً لموجة العمل واتصالاً آخر بالوجود والموجودات.

باختصار لا سفسطة فيه ولا نظريات، حين قررت ألا أكتب بينما موجاتي كانت قد رتبت نفسها لأكثر من ثلاثين عاماً على العمل الكاتب وتحويل الفكرة المختلطة بالوجدان وبالذاكرة الجماعية النشطة الاتصال بالعدد الهائل من نقاط الالتقاء والبشر. . اتصال كامل ذي اتجاهين، حين قررت التوقف خبت تلك الموجات وبدأت تخمد في جذوة الحياة، وأفضل المشي على الجري، ثم الجلوس على المشي، ثم الرقاد على الجلوس، ثم السكون التام عن الحياة. كان في حقيقة الأمر نوعاً غريباً مبتكراً من الانتحار. . توقفاً عن العمل، مثلي مثل أي خلية في المخ أو الكبد أو حتى الجلد تقرر عدم القيام بوظيفتها فلا ترسل الأنزيمات ولا تستقبل، وتنقطع الصلة بينها وبين العضو التي تنتمي إليه، ثم بينها وبين جسد الوجود الأعلى «الإنسان» والنتيجة حتماً أن تموت.

ولقد حاولت الخلية ـ والشهادة لله أنها كانت محاولات بطلة ـ

أقتلهـــا

أن تستبـدل عملاً بعمـل، وتتسرب من حيث الكبـد مثلاً إلى الجـارة المعدة وتصبح خلية جوع وشبع، التهام طعام ومضغ فقط. والنتيجة كانت الكف عن وظيفة الحياة نفسها. فخلية الكبد لا تهضم ولا تستطيع أن تواجه حامض المعدة، بـل وتهلك حتماً إذا وقفتِ وظيفيـاً حائـلاً بين جارتها الكبدية تلك والخلية الأخرى. القـانون سـادر ولا بد أن يـظل سادراً، وأنا لا خلقت تخصصي أو اختياري ولا أستطيع أن أغير نوعياً أو عضـويـاً نفسي، كـل مـا أستـطيعـه أن أعمـل في اتجـاهي بكـل موجاتي، وأن أوسع دائرة الوجود من حولي. . دائرة وجـودي، وليس ضرورياً أن أجيب الديب من ديله أو أبني هرماً رابعاً. لعل السر الذي خلقني كـائن في أني ذات يوم سـأقول كلمـة تصل إلى إنسـان ما في مكان ما، وتلتحم موجتي على شكل الكلمـة بموجـاته التحـاماً ينشط آلاف وملايين ومليارات الموجات، ويتفجر الشيء الذي لم يكن قـد خطر على قلب البشر. فأنا قطعاً موجود بوظيفة ولأداء وظيفـة، وكوني قلت لا مجرد تمرد كخبط الرأس في الحائط، يكفي أنه أوصلني وأنا على حافة أن أموت سكوتـاً أن أكتشف أن سر الـوجود هـو الحركـة، وسـر وجودي الشخصي أن أتحـرك، وبمطلـق وبمنتهى وبـأعـظم مـا أستـطيـع أطلق المـوجـات تلو المـوجـات وأستقبـل المـوجـات تلو الموجات، وأنا أخبط رأسي ليس في الحائط هـذه المرة ولكن بكفى نافضاً عن نفسي كل ما اخترعته تلك النفس لتحتـج على سوء تـوزيع دورها سكوتاً. . فهذا هو بالضبط طريق الموت.

والموت ليس ضروريـاً أن يكون صـاعقاً مفـاجئاً كالذبحـة، انه

كـأضرار التـدخين أضعفها وأوهنهـا، وبريء تمـاماً بـراءتها أو هكـذا يبـدو. انه المـوت الأخطر والأبشـع، المـوت حيـاة كحيـاة المـوتى، الموت سكوناً وسكوتاً وصامتـاً، الموت تمـرداً وقتياً عـالي الضجيج، فشديد الضحة يصمم كشديـد السكون. الحيـاة. . ليس مجردهـا وإنما خلقها خلقاً، ويومياً خلقها خلقاً، تعدي الآخرين بها، تنشرها كالوبـاء صحـة، تبثها مـوجات إثـر موجـات. . مـوجـات صحيحـة كـالجنين الجميل القابل للتشكيل حسبما تريـد. الحياة سـامية شـامخة بشـرف وبلا مساومة أو ازعاج ضمير. . الحياة الحلوة ليس دفعاً بالأكتـاف ولا عدواناً على الآخرين ولا استغلال لحاجتهم. ما أروع أن تصحـو من نـومك اليـوم وتختار أي عمـل طيب بسيط تفعله حتى لـو كـان زيـارة لسرير مريض مجهول لا أمل له ولا أهـل. إذا كنت فقيراً أعـطه كلمة طيبة وبرتقالة، وإذا كنت غنياً وقادراً ابن له مستشفى.

● ●

يموت الزمار وأصابعـه تلعب. فالعـزف شكل مـوجات وجـوده وحتماً يظل يعزف ويعزف إلى آخـر الرمق، فـالمسألـة ليست هزلاً. . ان لها قانوناً. وهكذا بدلاً من الموت كفاً وكفراً بأداء الـدور. . أليس الأروع أن تظل تعزف، مهما بدا عزفك نشازاً وشاحبـاً فحتما سيـأتي اليوم الذي يعلو ويجبر الناس من صدقه على السمع، أو حتى إذا لم يأت اليوم.

فماذا تفعل؟

انه وجودك، لا فكاك منه.

فشمس الشموسة قد طلعت.

وما أجمله من صباح!.

سأجعله أسعد صباح عشته في حياتي.

وسأقول لنفسي كل يوم سأجعل من هذا اليوم أروع أيام حياتي.

ولن أدع شيئاً أبداً أو شخصاً، يحيله إلى يوم قبيح.

الأمر صدر من اشعاعات الشمس الطازجة التي لا يزيد عمرها عن ثماني دقائق: قم وافعل شيئاً تفخر به أمام نفسك وأولادك ويفخر به أحفادك، فأنت أعظم مخلوق في هذا الكون الفسيح الذي لا تصدق أبعاده.

أنت أروع ما فيه.

أنت الكائن الوحيد القادر أن يكون انساناً.

أتعرف ما هو الإنسان؟..

● ●

ملحوظة: رغم كل وأي أدوية أو عقاقير شفيت الجلطة من تلقاء نفسها.

الآن فقط متأكد أنها شفيت تماماً.

ولكن المشكلة، بعد، قائمة.

فما أزال حبيس قدري وموجاتي، مهما صرخت أو تحاييت أو تماوت أو مت، أيمكن أن يكون الحبيس سعيداً؟

حتى لو كانت حياته في سجنه!..

أممكن أن يكون الحبيس سعيداً؟

١٩٥٠٢

ظن في بـادىء الأمـر أنـه مغمض العينين. بـاستمـاتـة حــاول فتحهما. لم يستطع. كانتا فعلاً مفتوحتين. المـرآة أمامـه. بكل قـواه حدق. الفضة العاكسة تعكس كل ما أمامها. الحائط من ورائـه بلونه القاتم واضح ظاهر. الستـارة المضاهيـة ظاهـرة. خلفه البـاب هناك. كـل شيء. كل شيء، ولكن الشيء الـوحيـد، وجهـه، ليس هنـاك. جن. انقض بيـده على وجهه يتحسسـه. أمسـك بخصلة من شعـره. اليـد بقوة ووحشيـة تتحسس الجلد واللحم وتكاد تغـور من تحتـه في العـظم، ولكن وجهه غيـر موجـود في المرآة العـاكسة.. مستحيـل. لست في كابوس.. أنـا صاح تمـاماً ومـدرك.. بالأصـح كنت نائمـاً وصحـوت. صحوت عـاقلاً. أسمـع صوتي هـا هو: أنـا أتكلم فـأنـا موجود. أنا أسمع كلامي فأنا صاح. أنا لم أجن. أنا عاقل أعرف من أنـا؟ ما عملي؟ متى ولـدت؟ أين أبواي؟ أنـا في المؤسسة. بـالضبط في دورة مياهها. كنت في لحظة خاطفة أشرب من نـافورة الكـولديـر في الخارج وأنا في الداخل أحـدق في المرآة.. القيشـاني من ورائه ظـاهر. النـافذة مفتـوحة. المنـظر الخلفي البعيد أراه. بـرج القاهـرة

منتصب في مكانه لا يزال. الدنيا نهار. الشمس نصفها فوق الأرض، نحن في عز الظهر. الضوء.. صوت الحنفية التي دائماً تخر. يسمعه. إلا هو.

ضحك.. قهقه.. انطلق يجري إلى دورة مياه المدير. نظر أيضاً وأمعن في التحديق.. لا أثر لوجهه. الصابونة الغالية معكوسة في المرآة. الفوطة. فوطة المدير العام التي ينشف بهما يده وأجزاء من وجهه وجسده في بعض الأحيان، هناك. لونها بمبي. بها البقعة الحمراء ذاتها التي كانت موجودة بالأمس.. السيراميك الزاهي. أعاد النظر. مطلقاً لا أثر لوجهه. كل شيء إلا وجهه أو رقبته أو أي جزء منه، يده فردها إلى آخرها أمام المرآة، ولكنه يرى اليد ولا يرى صورتها. جرى إلى حجرة «شمس» التي تمتلك جهاز التسجيل الوحيد لتسمع عليه طوال ساعات العمل أغانيها المفضلة. استأذن منها فلم ترفض. لم تقبل. انكبت على «التريكو» وكأنها مستغرقة تماماً فيه، أخرج الميكروفون من جراب الجهاز. تنحنح. ضغط على الأبيض والأحمر ليسجل. أنا ـ وتردد ـ فلان الفلاني، العاقل الكامل العقل. سيداتي سادتي والآن إليكم الفقرة التالية من برنامج أقوال الصحف حيث ينتقل الميكروفون إلى إذاعة خارجية للوصف التفصيلي لمباراة كرة القدم بين الزمالك والكروم. وشك حلو يا كابتن لطيف. أظن كفى. أوقف التسجيل. ضغط زرار الترجيع.. أدار الجهاز نفس أغنية وردة: وحشتوني. استمع واستمع ووصل إلى حيث الرقم الذي بدأ التسجيل عنده ووردة شغالة ولا أثر لصوته.

استمر يسمع، ليس هناك إلا وحشتوني وحشتوني. استمع إلى أن انتهى الشريط ولا أثر. الحقوني.. جرى هابطاً الأدوار كلها. نفس سعاة وعلامات ومصليات كل دور.. في لهوجته داس بكل ثقله على قدم عواطف وكيلة العلاقات العامة الحامل في شهرها الثامن، لم تصرخ ولم تحتج.. وصل إلى الشارع.. على الباب الرئيسي وقف يصرخ بأعلى صوته، الناس تروح وتجيء، لا أحد يلتفت. لا رأس يرتفع. ملأه الغيظ تماماً. والله لاعملها. خلع كل ملابسه، قطعة قطعة وتعمد أن يقذف كل عابر بقطعة، ويزيحها (اللوح البارد)، وينظر إلى أعلى وكأنه غسيل سقط من حبل يلقيه أصحابه.. إنها ملابسي أنا يا حمقى.. أنا هنا واقف عريان كما ولدتني أمي.. ها هو ذا جسدي كله. أنا هنا. يا أولاد الحلال. والله العظيم أنا أهه. أنا هنا. يا محسنين أنا هنا. التفتوا حتى. اضربوني. أنبوني.. موتوني. يا أولاد الكلب. أنا هنا. الحق لا بد أبصق عليكم.. استمروا غير مدركين أو مبالين وكأن لا شيء يخجل وكأن لا شيء أبداً يحدث. النجدة. الحقوني يا هوه. لا بد جننت. أو أنكم جميعاً جننتم. زوجتي. المنقذة. النجدة. بيتي. أولادي. عقلي كله لا بد هناك. جرى. انحشر في الأوتوبيس. دفع الناس بغلظة.. خيل إليه أنهما تمايلوا. فقط تمايلوا وكأن لا آدمي هو السبب. أصدر أصواتاً منكرة. لم يسمع إلا الكمسارى يقول: تذاكر.. قرص سيدة. لم تتحرك. عضها في ردفها. لم يرتعش لها ردف.. لم يأبه أحد. قفز من الأوتوبيس فاستمراره فيه جحيم سيفقده عقله. أمام عمارتهم وقف. تطلع. زوجته تطل من الشرفة. لمحها من أسفل ونصفها

مـدلى تنشر الغسيـل. نط قلبه من الفـرح. لم ينتظر المصعـد. أخـذ السـلالـم قفزاً واثنتين اثنتين. دق الجـرس. . دق ودق ودق. وكأن لا أحد هناك. لا جواب. جلس على البسطة وكاد يبكي. لقد رآها تنشر الغسيل. وهي بالتأكيد في الـداخل. جـاء بائـع العيش. دق الجرس فتح له الباب رجل يرتدي فانلة بحمالات وبنطلون بيجامـا أحمر. من أنت؟أنت مين؟الرجل يسأل بصوت عال:عايـز كام رغيف مقمـراً؟اندفع نـاحية البـاب. . دفع الـرجل الضخم الـذي لم يتحرك ودخـل. رأى زوجتـه مقبلة. . نط قلبه نـطتين. الآن سيعود إلى الكـون ويعـود إلى الكون اتزانه وعقله. قابلهـا فاتحـاً ذراعيه. . . أطبقهمـا على الهواء. فالرجل الضخم كان قد أخذ العيش وأغلق الباب واندفعت هي تتعلق برقبته دون داع مطلقاً وكأنما لتغطيه. جاء طفل يبكي. هل هو ابنـه. هو فعلاً عمرو ابنه. حملت الطفل بيـد ولفت يدهـا الأخرى بصعـوبة حول رقبة الرجل. زوجها. هكذا فهم. يا مجرمين. هـذا بيتي. هذه زوجتي. هـذا ابني. فمن يكون هـذا الطويـل الضخم الهايف؟ هـل مات هو وتحول إلى أثير لا يراه أحد؟ ولكن الأثير لا يرى، هو يرى. الأثير لا يسمع، هو يسمع. الأثير لا يدرك، هو يدرك. المجرم يزيح زوجته في تبرم وكأنما هو زوجها وقد بدأ يملهـا. انه حي. أنـا حي. هـذه يدي. أعضهـا فتؤلمني. أليست هـذه أصـابـع تتحـرك أمـامي؟ أليست هذه ساقاً؟ انها مؤامرة. إنهم قد طلوه بـطلاء كالـرجل الخفي بحيث لم يعد يراه أحد؟ ولكن منظاره هناك. وهو قطعاً غير حر وغيـر مكبل. أيقفز في الهواء ويوقف شعورهم رعباً؟ أنا موجود يا كلب أنت وهي. أنت يا ابني أنت ابني أنا. هذا يا عالم بيتي.

فرت الدموع من عينيه. بكى صامتاً. ثم رفع صوته إلى آخر المدى. جعير. كان كفيلاً بأن يفرج عليه الجيران وجيران الجيران والشارع كله. ولكن. وكأنه مات. يبكي ووحده الذي يسمع. يا ربي. عبدك أنا موجود. فأمر عبيدك أن يروا. دخل حجرة الرجل. انتقى قميصاً وبدلة وحذاء ورباط عنق. ارتداها.. أكبر وأوسع منه. تصور أنه حين يخرج إلى الصالة على الأقل سيوقفونه بتهمة السرقة. بنت يا «رقية» أنا عبده حبيبك. أنا «دودة» كما كنت تدللينه. هذا الركن احتوانا. عيناك كم احتضنتاني. حضنك اندسست فيه. عمرو أنا أبوك. أنا بابا.. أنا دادي. أنا الذي طالما تعلقت برقبته وطلبت منه الكرة والبسكليتة والشيكولاتة. لم يعد يستطيع. انطلق كالقذيفة فتح الباب. أخذ السلالم قفزاً قفزاً. حتى البواب المؤدب لم يأبه له. تعمد أن يقفز فوق سطح عربة تاكسي. ويزحف فوق المقدمة حتى يغطي الزجاج الأمامي ويعمي السائق. والسائق سائق. لا يتوقف.. من تاكسي إلى تاكسي إلى عربة، عاد للمؤسسة، تعمد أن يصفع رجل الأمن صفعة لا بد دوى لها المكان فلم يسمعها ولا جرى الرجل وراءه. في ومضة صعد إلى الدور الأول. ليس هو الأول. لقد كان مقر رئيس مجلس الادارة. ولكنه لم يجد رئيس المجلس ولا مقراً له لافتة كانت في مكانها، معلقة لافتة شركة «الكودمو» بالعربية والانجليزية. أيكون قد أخطأ؟ هبط. قطع الشارع طولاً وعرضاً. من المؤكد أنها المؤسسة. هذا هو المستشفى المجاور. هذه هي محطة المترو. هذا هو الكوبري العلوي. عاد يجري، الدور الثاني تعمد ألا يقرأه. الدور الثالث كان فعلاً دوره

الثالث، حيث يوجد مكتبه. الحجرة التي يجلس فيها صغيرة وطالما اشتكى من صغرها ووعدوه بحجرة أكبر، ولكنه على أي حال يجلس في حجرة بمفرده. فتح الباب. انفتح.. الأثاث هو الأثاث. المكتب مكتبه. ولكن الجالس عليه ليس هو. سيدة. شديدة الأناقة مندمجة في حديث خطير مع زبون.. هذه مؤسسة. وليست «بوتيك».. هذا مكتبه. انه موظف هام. والحديث عن صفقة شامبو. لا أقل من عشرين في المائة.. يقف مصعوقاً يسمع. قاوم الزبون. لانت السيدة. وافق الزبون.. تمت الصفقة دون أدنى انتباه له. قبلة على اليد الناعمة انتقلت بسرعة إلى الخد الأيمن، ثم عبرت إلى الأيسر، مارة بالشفتين.. لا اعتراض ولا مانع.

تكوم في ركن منهاراً ولكن قشعريرة حمى جعلته ينتفض.. لا بد هناك خطأ جسيم ما. انطلق صاعداً هابطاً باحثاً عن رئيسه مدير المستخدمين. لا توجد لافتة واحدة لأي مدير. حجرات مرقمة مختلفة. أبوابها في درجات الأهمية وكأنها حجرات سرية. انتقى أكثرها أهمية. بقدمه وساقه ركل الباب ودخل.

كان اجتماعاً يضم وجوهاً شقراء وحمراء وبعضها أسمر.. المناقشات هادئة جداً. والطرقة مكيفة بجهاز صامت لا صوت له والكلام يكاد يكون همساً: زعق وزعق وظل يزعق حتى انحشر الصوت في حنجرته وانحاش صوته وأصبح لا يستطيع سوى مواء كمواء القطط الشريدة الجائعة. أدرك أن لا فائدة..

صعد إلى سطح العمارة. فتح نافذة الدور الأخير العاشر..

دون لحظة تردد مخافة أن يتراجع أو يعدل عن فتح النافذة.

قفز. حين وصل جسده إلى الشارع تكومت حينذاك فقط جثة مهشمة الوجه مدشدشة الرأس التف حولها مئات من محبي الاستطلاع واللاحول واللاقوة إلا بالله. كثرت التعليقات. فرق أمناء الشرطة وعساكر الأمن. الناس. جاءت عربة الاسعاف.. فتح محضر.. مجهول الهوية ذكروا. إلى النيابة أحيل الدوسيه. أشار الوكيل. دفنت الجثة.

قيد الحادث ضد مجهول. أخذ الدوسيه رقم ١٩٥٠٢ محفوظات.

أنصَاف الثائِرين

في الليـل لمـا خلى إلا منـه، ولـم يكن الشـاكي! وليس حتى ذلك الرضا المؤقت عن النفس بعد عمل باهـر. تائـه. الهدف مهم، حتى المشاكل حين تقع تصبح هدفاً. المهم ماذا بعد. بكلمةٍ انتهى الإشكال. دقائق مِعدودة حدث فيها كل شيء حين يجيء الليل وأنت لا تعرف لمن وإلى أين تذهب؟ حين يجيء الليل ويسحب الكائنـات كل إلى عشه ومستقره ومقامه، ووحدك تبقى وحدك وحولك لا يوجـد سوى الظلام واللاهدف. حينذاك يعود الليل شيئاً آخـر. عمى أصاب الشمس أو غولاً ابتلع الدنيا والناس، ولا تتحول أرض النهار كـالعادة إلى ليل وقد تغير منها اللون فقط تصبح الأرض المستوية بحراً، ليس مجـرد تشبيه، تتحـول حقاً إلى بحـر، الريـح أمواجـه والظلام آفـاقـه والإضاءات البعيدة أو القريبة مراسيه ومناراته.

وفي الليـل لما خلى إلا من الشـاكي، صوت عبـاس يدنـدن، يطرد الوحشـة، لكن الدنـدنة تؤكـدها، يعلو الصوت، يغني، يطلب الـونس فيتحدث إلى الليـل المسكون بـالظلام الـراسـخ العميق. في الليل لما خلى، الجمال الوحيد في صوت عبـاس أنه يجعلك تتـذكر

عبد الوهاب وهو يغنيها، وبحنجرته الحلوة يستأنس كون الظلام، ويضيء على مدى الصوت الرخي أنيق الشموع.

في الليل والعربة تجأر، تصعد، تميل، تتلوى، صندوقها المغلق الكبير يتأرجح فهي تسلك الطريق الوعر الخالي من أكشاك المرور وعساكر المرور. فقد سحبوا الرخصة منه من زمن لضعف بصره، وفي الليل يزداد ضعفاً ويزداد تأرجح اللوري فوق جسور المصافي غير المهدة وغير المعدة لمرور العربات، أي عربات.

في الليل والعائلة الغريبة منكمشة بجواره، الزوجة وضعها الرجل لصق الباب غيرة عليها أن تكون محشورة في الوسط بينه وبين السائق، والأولاد في الدواسة وفوق ركب الأب والأم وفي كل مكان. في الليل وقد مضى النهار المزدحم، ذلك النهار. قصته الكاملة لو كتبت لاستغرقت كتباً.. بل لا أحد بإمكانه أن يحيط بها كلها.

عباس السائق جذبته الأغنية وغرق في دوامتها. الليل صاحبه القديم، والليل عمره، بل أصبح قدره، ولم يعد سواه ملجأ يحميه من النهار، نهار الناس العاديين والقانون العادي، نهار البوليس والتفتيش والرخص، النهار الذي يضبط فيه كل شيء ولا يفر منه أحد ولم يعد له سوى الليل ذلك الليل الذي خلا إلا منه ومن محتويات (لوريه) من بشر وأشياء وخيالات، يستجير به معيداً حتى لا يتخلى عنه، إذ حتى لم يعد يرى أمامه أي مرفأ.

قطع عباس اندماجه وسأل: مريوط؟ مريوط؟

حجاج الراكب وصاحب الكومة الأسرة فرح، فالسائق في العادة ذلك الذي اعتاد الصمت وقصر حواره دوماً مع الموتور، إذا أجاب مضطراً خرجت الإجابة من أنفه، تكبراً يقولون، تكبر السائقين الذين يعرفون أنهم فوق الناس لأنهم يعرفون ما لا يعرفه الناس، تحت امرتهم سر الصنعة، والآلة اللغز، سلسلة في يدهم، الآلة لغز في عالم يحيا بآلات من الحمير والكارو والجاموس والنهيق. الآلة. أصبع الحضارة البعيدة تخترق الفيافي وتظهر هنا، معجزة ومرعبة، وسيدها عباس أو أي عباس، وحتى لو كان نظره شيش بيش ليجعل تكبره على الآخرين أقل شموخاً، ولكنه حتماً يملك ذلك الشموخ.

.

مريوط، لماذا مريوط؟ وهل يعقل، وفي هذه الساعة أن يطرق حجاج «أفندي» باب أنيس أفندي ولغرض كهذا الغرض؟ مريوط مريوط مريوط، وهذا البغل ذو الكرش المحشو جشعاً ونتانة. مريوط يا ابن بائعة الفجل الذي أصبحت صاحب أرض وبفضلي أنا تحولت من «بقجة» القماش تحملها لتبيعها بالمتر والنصف متر في الأسواق إلى صاحب دفتر شيكات ضخم بقلمك المذهب تستطيع أن تضع أي رقم وتوقع، ولتوقيعك قيمة وسمعة، أعظم من سمعة محافظ البنك الأهلى، وورقة دفتر شيكاتك أضمن من الورقة أم مادنة، والمميزة بالصورة المسحورة لأبي الهول مريوط مريوط، يا حسن بن وهيبة بائعة الفجل، يا من سموك يوم ولادتك حسن الكبش، لفرط شبهك به، ثم لما تاجرت وأصبحت صاحب عربة خضار سموك المعلم، وتلاشى الكبش من اسمك، وذاكرة الناس للأسماء

أقتلهـــا

وللألقاب ضعيفة، خاصة إذا كان أصحابها يكبرون والناس تصغر وحسن بك أصبحت، مائة فدان تملكها رغم أنف قانون الإصلاح الزراعي وقوانينه الصارمة لمنع التحايل، ومائة أخرى تستأجرها رغم أنف قوانين الايجار الحاسمة، مائتي فدان. . الجناين مائة، والخضار مائة. والسراية اسمها الشاليه، والسور الذي يحيط بالمائتي فدان أسلاكه شائكة وفي الليل مكهربة، وماكينة النور تكفي لإضاءة مدينة، وحظك نار، بمائة جنيه لهفتها والأرض فدانها بألف، وصاحبها الخواجة يبكي، فالعمر أضاعه، يصنع من الجنينة جنة، قنواتها بالأسفلت ونقل الفاكهة والخضار يتم بقطار صغير ذي عربات قلابة وأوناش، وخيم للرش وموتورات، وببلاش أصبحت «بك» ولو كان ممكناً لتخطيت بأرض الخضار ومزرعة الدواجن والبهائم وخلايا النحل وحتى بتقطير زهر الياسمين وحده، رتبة الباشا.

فلتكن مريوط.

الخواجة كان أحسن. ألف مرة أحسن! خواجة على غير الدين والملة لا يكذب ولا يغش ولم يذهب ليحج ومعه حقيبة ضخمة فارغة وعاد بملء عربة لوري بضائع للتجارة والاستهلاك.

الخواجة كان أحسن، وكان في أيامه وطنياً صميماً ووفدياً قحاً، وعباس السائق هذا نفسه كان حين يريد أن يسترضيه يضغط على «سيرينة» العربة النقل لتعزف ذلك الهتاف المموسق يحيا. . النحاس. . باشا. .

خواجة وأحسن وذمتـه أنظف ، ولكنه ذهب لأنـه كان يمت إلى جنس كبير حرفته السرقة المنظمة المقننة، والارهاب بالقتل العسكري المباح، والاحتلال طريقته في السطو المسلح. خواجـة واحد نـظيف في عصابة قوامها عشرات الملايين من السفلة. وراح.

والجنينة في الحقيقة لا كانت جنينية الخواجة، ولا جنينة حسن بك «الكبش» سابقاً حين لهفها لهفاً. الجنينة جنينة حجاج. . جـاءها وبهـا أربع شجـرات «كازورينـة» عجـاف. جـاءهـا وهي بـور. حتى الحشـائش لا تقوى على النمـو فيها. وبيـده. بيـده وحـده أحيـاهـا، بحذائه ينغرز في الوحل، بالليالي يسهرها حتى الفجر، لا يزيد الري جـرعة مـاء أو ينقص، ولا يزيـد السماء ملليجـرام أو يتغير. بـالبهائم رباها .عام وراء عام تحيل بقايـاها وعلفهـا إلى طبقة أرض نيتـروجينية جـديدة، تختلط بـالقـديمـة، وبـالـطمي، آلاف الأطنـان من الـطمي والـرمـل، من شيء كـان كـالـرأس الأصلع الخـالي تمـامـاً حتى من الزغب، شعرة شعرة راح يزرع، وحوضاً حوضاً راح يزحف بالخضـرة والخصب، حتى، بعـد سنوات عشـر، أصبحت تلك المعجـزة التي تتحدث بأخبارها ألسنة المارين ركوباً في أوتوبيس أو سيراً على أقدام بجوار الحمير المثقلة.

أصبحت جنة يستضيف الخواجـة «شيميز» أصـدقاءه ومعـارفه، وكل من يكاد يعـرفه أو يلقـاه، ليريـه «ايزابيللا فـارم». كمن اكتشف المعجـزة، كمن حقق أكثـر المستحيـلات استحـالـة، في شـرحــه وحماسه، ووجناته المحمرة يندمـج، وتنطلق دفعـات الكلام من فمـه

صادقة أو كالصدق، كأنه هو الذي قام بالعمل وحده، هو الذي غرس، هو الذي قام على «المشاية» وسهر، هو حتى ذلك الذي أقام هذه «الفراندة» الأصيلة التي لا مثيل لها ولا لروعتها. في وسط «ايزابيللا فارم» تماماً تقوم شجرة كازورينا هائلة الضخامة، هي مع الكازورينات الثلاث كل ما وجده في الأرض حين اشتراها. ينـدمج تماماً حتى ينسى اسماً أو تاريخاً أو حادثة فيتلفت لحجاج أفندي السائر متواضعاً خلف الجميع، الصامت تماماً دوناً عن الجميع، الذي اعتاد على اغتصاب الخواجة لمجهوده ودوره، حتى لم يعد يزعجه الأمر، فليتكلم ما يحلو له الكلام وليصمت حجاج تماماً، فثمة ألف شيء تتحدث نيابة عنه، كل شجرة، كل عرق من شجرة، كل ثمرة مانجو، كل عنقود عنب، كل زهرة ياسمين، كل نخلة، كل «قرص» عسل نحل، كلها دوماً يراها ويسمعها بعين غير عين الجميع، وأذن غير أذن الجميع، إذ بأذنه وعينيه وحدهما يسمعها، تبثه الشكر والحمد، تغرقه في اعترافها بالجميل ألى درجة أن لو أشار لها بالكف عن النمو لكفت. أن تكف عن انتاج الثمار لكفت. الخواجة له الأرض وله النقود، وله الشاليه المذهل، وله ذهول الضيوف، وآهات انبهارهم ودهشتهم، ولكنه هو الذي يملك ما هو أعظم من ذلك كله، يملك أجمل وأروع حديقة حياة أرغمه هذا الفحل الأصلع على أن ينشئها فأنشأها.

وكمن يشير إلى برج ايفل، يشير الخواجة إلى شجرة الكازورينة، لتكون المفاجأة، اندفع يسرع راكضاً ناحيتها، والركب

والـركض يتبعـه، وهنـاك، وكـأنمـا يكتشف في التـو معهم، يتـطلع ويتـطلعون، وفي أعلـى مكان في شجـرة الكازورينـة العـاليـة، حيث أقيمت، من نفس الأفرع غير المهذبة «فراندة» مستـديرة مـريحة ذات سـور تحيط بالشجـرة كلها، ومن نفس الأفـرع، وعلى نفس حـالتهـا صنـع للفرانـدة مقاعـد ومناضـد، وكالـطفل الـذي فقد اتـزانه، يبـدأ الخواجة شيميز يتسلق السلم المصنوع أيضـاً من الكازورينـة، وليبدو كأنه مجرد فرع شـذبت نهايـاته قليـلاً. للسلم والدرابـزين، وخرطـوم الميـاه الـرقيق، وأسـلاك النـور التي طليت بنفس لـون الشجـرة، والمصعد ذو البكرات الذي يتحرك حاملاً الطعام أو العجـزة الذين لا يستـطيعـون الصعـود أو أجهـزة المـوسيقى أو مـا شـاءوا من صنـاديق الشراب. ولأن الأسئلة حينذاك تنهـال بكثرة وبـالفرنسيـة في الغالب، ولأن حجاج أفندي له إلمام بها و«شيميز» يعلم هذا! ويعلم أيضاً أنـه قـد ظل أنـانياً إلى درجـة لم تعد تحتمـل، يتحرك الضميـر، معتـرفـاً أولاً بأن برج «الكـازورينة» هـو فكرة أراد حجـاج أن يفاجئـه بها حين استضـاف وزير الزراعة يوماً، ثم تتوالى اعترافاته، وحتى ما لم يعترف بـه بينه وبين نفسـه يبدأ من تلقـاء نفسـه يشيـر إلى صـاحب فكـرتـه وخـالقهـا. وتبـدأ السيـدات تضـع النـظارات تفحص هـذا الصـامت العبقري وتتأمل أنه هو الرجل المقصود، يصبح ارتباكـه أعظم من أن يحتمل، ولا بد أن يعذر، ان لم يبد وجيهاً أو مقبولاً، فالأمر لا يهم، يختفي حجاج، وتختفي الخواجات والطبقـة، وفي أسبوع واحـد يبدأ «شيميـز» الفـرنسي يفكـر في البيـع، ثم البيـع، ثم تهـريب الثمن، والأسبـوع التالي يجيء عليـه وهو في مـرسيليا وقـد عاد إلى «الـوطن

الأم» بينما كان في الحقيقة، وفي نفس هذا الوقت يبكي وقد أحس لأول مرة أنه فقد الوطن الأم حقاً، وقد ينجح «شيميز» وتكون له حديقة وضيعة ومزرعة، ولكنه أبداً لن يجد في ذلك الوطن الجديد.. برج الكازورين، ولا حجاجاً.

● ●

كما كان يعامل «شيميز» ظل يعامل حسن بك. لم يكن هناك ما يدعو لاستمساك حسن الكبش بالسيد حجاج هذا. انه من عائلة قوامها ألف رجل، كلهم فقراء، وأولى من حجاج بالعمل والماهية، ولكن أن يقلد الخواجة شيميز الذي اشترى منه المزرعة بإبقاء حجاج «مديراً» للحديقة والمزرعة، بنفس راتبه، ومسكنه في الركن الجنوبي للحديقة، أبداً ليس هو السبب الذي دفعه للاستمساك به، فالبند الذي ورد في العقد خاصاً بهذا الموضوع كان في ذاته نكتة، بند لا يعني شيئاً ولا يشترط للفكاك منه جزاء كل ما في الأمر أنه يدفع للعجب. أن يتمسك المالك السابق بموظف عنده بهذه الطريقة مسألة لا بد فيها سر. سر حاول شيميز أن يشرحه له أكثر من مرة بقوله ان حدائق كهذه ليست مجرد عقار أو سلعة، انها حيوان ومجتمعات كالبشر، ورعايتها تستلزم كرعاية أي أسرة.. الحب والرعاية والتفاني والحنان. وحجاج هو ذلك الراعي والأب، وأيضاً، ورغم التكرار والتكرار فحسن بك ظل يؤكد لنفسه أن في الأمر سراً، وأن الأيام كفيلة بإظهاره. الشيء الآخر أنه بدأ يشرح لحجاج طريقته، وأنه ليس خواجة، وليس «كروديا»، وأنه بدأها من عربة

اليد، ويفهمها وهي طـايرة، ويعـرف في الجنائن وأمـورها أكثـر من صاحب دكتوراه، وهكـذا عليه، إذا أراد أن يستمـر «يأكـل عيشه» أن يطيع: كذا يعني كذا. . مفهوم؟!.

يرمقه حجاج بعيون لا ترمش، ولا تريد أن يخفى عليها خافية، نـظرة تـطول، وتؤوب، إلى رأس ينخفض يفكـر. من الآن عليـه أن يدرك أن كل شيء قـد تغير، ليس صـاحب العمل فقط، ولكن عليـه هو أيضاً أن يتغيـر، بل ربمـا على الأرض نفسها والشجـر والزرع أن يتغير.

لقد كان شيميز يشعره أن الأرض وان كـانت له، إلا أن كـل ما هـو أخضر فيهـا هو من صنعـه ومسئوليتـه، وهكذا وعمـره الآن تسعة وثلاثون عاماً، اعتصر نفسه وشبـابه، وأحـالها فـاكهة خضـراء وثمراً، وبينما أعاد للحديقة صباها وشبابها فقد هو كل صباه، وأصبح من يراه يظنه في الخمسين.

من الآن، عليه، كما فعل شيميز أن يبيع هو الخضـرة كما بـاع الآخر الأرض، وأن يشتري صحته وحياتـه كما اشتـرى الآخر عنقـه، ومـا دام حسن بك الكبش يـريد أن يكـون الصاحب والآمـر والنـاهي والرأي رأيه والتصـرف تصرفـه، فليكن الأمر كمـا يريـد، وليبدأ ومنـذ الآن دوره الجـديد، ومـا دام «المديـر» قد ذهب مـع الخواجـة الذي ذهب، فليكن دوره مع الصاحب الجديد الآمـر، دور المأمـور المنفذ كذا يعني كذا. حاضر.

حاضر وهي حاضر. الري يعرف أن موعده خطأ، وطريقته خطأ، ولكن تأتيه الكلمة: ارو. حاضر. يروي.

وبدأت المسائل ترتبك. ويستشير حسن بك الدنيا كلها، ويعيد ما كان يفعله بأراضيه الأخرى، ناسياً أن لكل أرض معدنها. وشخصية العنب الذي ينمو هنا، غير شخصية بني جنسه ونوعه الذي ينمو هناك، ناسياً أن القواعد العامة شيء، والقواعد الخاصة التي تسنها الخبرة الطويلة شيء آخر. وكثيراً جداً من الأشياء تبدأ ترتبك.

وكان حرياً بحسن بك «الكبش سابقاً» أن يعزو الارتباك، ليس لما يصدره من أوامر، إنما يعزوه كالعادة لتنفيذ الحجاج السيىء ويجعل من هذا سبباً وجيهاً لفصله والتخلص منه.

وهو بالضبط ما كان يتوقعه حجاج وظل يتوقعه.

ولكنه الشيء الذي لم يحدث.

والذي ظل حجاج يضرب أخماساً في أسداس، متسائلاً عن سبب عدم حدوثه. وأنى لحجاج أن يعرف أن العلة في القلة.

وأنها شربة ماء كانت، ولكنها هي نفسها الشربة التي لولاها ما كان قد أصبح هكذا تائه الليل، في طريقه إلى «أنيس أفندي» عبر قنوات وطرق غير ممهدة إلى مريوط، والليل قد خلا، وسجى، ولا ندم، وكذلك لا فخر، ما حدث حدث ولا بد أن يحدث، بل حتى هناك في هذه الوقفة ما يستحق الفخر رغم أن فيها وسبقها ما يستحق كل خجل.

الثورة محدودة، وحين ثار، كعادته حين كان يثور أيام الخواجة، ويتلقى الخواجة الجانب الموضوعي من ثورته ولا تهمه الطريقة، بل أحياناً كان يستحسنها، كانت الثورة تأتي بنتيجة وفي الحال.

هذه المرة ثار فقد أمره حسن بك بتقليم العنب، والتقليم الآن معناه أن يقتله قتلاً، ولكنه الأمر، وقد تعود أن يرضخ، هذه المرة صمم تماماً أن يقول لا ولكنه لسان حسن بك خرج ولم يعد، خرج طويلاً سافلاً يلعن آباءه وأجداده. احتج. نصف احتجاج، فبنصف عقله الآخر كان يحسبها. فإذا استمر في الأمر فالفصل مصيره، والفصل يعني أن يبحث ليس فقط عن عمل آخر وإنما، وهذا هو الأدهى والأمر عن سكن آخر، فالسكن لمن صناعتهم الزراعة تبع العمل، ويعني أن يلف البلاد كلها طولاً وعرضاً يبحث عن زملائه من نظار الجناين ومآميرها ومديريها عن وظيفة ولو وظيفة خولي. بشرط أن يجد المأوى في بيت، ولو في حجرة. وهنا سكت نصف الموافق، وأوقف نصفه الثائر وقلم العنب، ومات العنب.

ومن بركان سفلي بشع خرج غضب حسن بك، يا حمار. . هكذا عيني عينك قالها:

ـ لماذا قلمت العنب؟

ـ ولكن هذه أوامرك.

ـ ومن قال لك أن تطيع أوامري؟

ـ سعادتك، الذي قلت: كذا يعني كذا.

ـ ولماذا لم تعارض إلى النهاية. لقد كنت أنا أفكر في التراجع إذا واصلت أنت المعارضة، ولكنك وافقت.

لماذا يعرف الخطأ ولا يقول لا ويظل يقولها حتى لو قامت القيامة؟!!.

والنتيجة: أنت مرفوت. . بحث لك عن عمل.

ـ ولكن أولادي. أنا لا بيت لي. لا بد أن أذهب أبحث عن بيت وعمل وأنتقل إليهما.

ـ من الغد عفشك بره، وأنت مرفوت، وإذا بقيت لحظة سأسلخ جلدك. وخذ. .

ورمى إليه بعشرين جنيهاً قيمة «المكافأة».

ولم يكن هناك مناص فأرخص وسيلة هي عربة النقل التي يملكها عباس الأعمش والتي لا يقودها إلا في الليل خوفاً من ضبطه بلا رخصة وقد سقط في امتحان النظر ثلاث مرات، وإلى الطرق الفرعية المنحنية والمنحدرة والصاعدة والهابطة، ينشال اللوري وينحط، ويميل ويكاد ينهال في الترعة والمصرف، والعائلة مكومة في الكابينه، وعباس، يراه بعينه، كلما نقل عصا الفيتيس، يلمس ركبة امرأته، وحتى ابنته ذات الأربعة عشر عاماً، متعللاً بعصيان العصا، والليل قد خلا إلا من جثير الموتور المنهك، وجعجعة الدبرياج ولمسات الأعمش.

وأنيس أفندي يخرج من منزله في مربوط مذعوراً في منتصف الليل يعتذر فهو لا يعرف عملاً. لا يعرف مكاناً للإقامة. زوجته

مريضة وابنه يعاني الحمى، وهو مدثر ببطانية، وأنا آسف يا حجاج.. آسف. الظروف قوية، والعمل صعب والمزارع والجناين قلت، ولماذا لم تبلعها يا أخي؟

وحجاج يقول لنفسه: ولماذا؟ ما دام هذا هو المصير كنت لا أخلع الحذاء وأنهال به على الرأس الأصلع للكبش حتى أدميه، وعلى الأقل أخرج بكرامتي، ولكنه المصير الذي ينتظر أنصاف الغاضبين.

والليل قد خلا مرة أخرى إلا من لوري ذي سائق أعمش وعائلته تبحث عن عمل مأوى أو عن مأوى عمل والمتور يزأر، وعباس يغني في الليل لما خلي إلا من الشاكي، والنوح على الدوح.. وينسى بقية الأغنية ليمد يده إلى عصا الفيتيس، وإلى ما أصبح يصل إليه فوق الركبة، ثم يتذكر عباس الأغنية ويجأر بصوته: للصابر الشاكي.. والليل يمتد ويستشري ومن بحر إلى محيط يصبح، والعربة بركابها تغرق فيه وتغرق، ولا حتى من نجمة قطب عند الفجر تشهد.

لماذا لم يقتله؟

لماذا لم يكب راكعاً وأمره إلى الله ويقبل حذاءه؟.

اقتُلهَا

الحياة التي يحياها الآن كأنما هي بالضبط ما أراده طول الوقت دون أن يعي، والكرسي الذي يجلس عليه، والمنضدة الكائنة في الركن - ركنه المفضل، والكم الذي يجرعه من كوب الماء المثلج المضبب البارد، هو بالضبط ما أراده بلا زيادة أو أقل نقصان. كل نزوة تعن له حتى ولو تجاه امرأة يحيلها إلى نظرة فخطة حتماً تنتهي حسبما أراد لها. كانت مشكلته دائماً أن يحقق ومن أجل أن يحقق أصبح عليه الآن أن يقتنع. لا إيمان مطلق. . لا تسليم. التحقيق هو الحياة، والعمر يمتد مسطحاً أمامه أملس كالزجاج، يدحرج البلية ويأمرها أن تقف، بالضبط حيث كان واقفاً عند الخشبة الثالثة بعد المكسورة من السور، بالضبط هنا قفي أيتها البلية وحذار أن تتحركي، فمن الممكن وباستطاعتي أن أهدم الكون فوق رأسك.

في العادة حين نتذكر الشيء أو الحدث نلتزم بالخط الواحد، مذ لم يكن الحدث قد كان إلى أن كان وبعد أن كان. هكذا تصنع بنا ذاكرتنا، فوهي تجذب الماضي وتضمه لحظات معاً غير قادرة على التشتت إلا إذا كنا قد جننا، إما أن تتشتت وهي أعقل ما تكون وأثبت

ما تكون.. إما أن ترتد عيناك لتصبحا ليستا نقطتين ترى بهما ما أمامك، وإنما هما شريط بصري دائري يحيط بكل رأسك وترى به أقصى زوايا الكون، وبأذنيك وقد امتدتا وتفرعتا ملايين «الايريالات» حتى ليسمعانك نبض الكون الأعمق.. إذا عنَّ لقلب الكون أن ينبض، إذا استعدت الزمان والصوت والمكان ـ وبلا حدود ـ واستحضرت الحدث بلا ذرة تتساقط منه وأنت تستعيده، وكل شيء وكأنه لا يتجمع الآن ولكنه بقوة عظمى خافية يتحد ويشكل من الماضي حاضراً في قلب الحاضر الدائر، بل ولأصبح باستطاعتك أن توقف أو تبطيء من دوران أيهما، الماضي أو الحاضر، والاسراع بالآخر لتصنع من الزمن عجينة لها ما شئت من سمك، ومن المكان مساحة لها ما شئت من حيز، الذرة فيها في حجم المجموعة الشمسية، والمجرة فيها تستطيع أن تصغرها بأصبعيك إلى أقل جزيء ممكن.

حين تصنع هذا كله، أو يمكنك صناعته، فإما أن عقلك انتهى تماماً وإما أن عقلاً آخر فيك بدأ يبرز.. عقلك الأكبر، وويلك إذا انتهى عقلك وبقيت حياً! وويل ويلك إذا بدأ العقل الأكبر وأنت لا تزال سجين وجودك الأصغر. وفي الحالين أنت في لحظة جحيم.. واسمع سيدي.

وقبل أن تسمع سيدي.. اكبر أيها الحجم، وتضخم أيها المكان! واقترب أيها الزمان، لا ليس عاماً، بل شهراً، بل عدة أيام أريدك. اقتربي أيتها اللحظة. ليس كما خططت يومها لك ولكن

فاجئيني وكوني طويلة طول العمر. فأنت حقاً تساوين عمراً بطوله. اصبح أيها الحدث في قرب وجهها ذي النمش الخفيف. . ذلك الوجه. اقترب ولو عذبتني أكثر.

عذبك يا مصطفى ذلك الوجه. . الرموش البنية الغامقة انغرست طويلاً وكثيراً في حبابي عينيك وأنت مستعذب ذلك العمى البني المدبب. أفعلاً أحببت ذلك الوجه؟ أفعلاً كانت صاحبته تحبك؟. أم هو السجن والجسد الفائر والشبق الموضوع قسراً في زنازين من أقفاص صلبة لا تلين ولا تنكسر؟ اقتربي كثيراً يا لحظات عشتها وعاشتني، فأنتم أنا، ولكنه لأنا المستحيل ـ أعرف هذا جيداً ـ التجمع والتكون والعودة للوجود. فلا أنا انتهى عقلي الأصغر، ولا نبت لي ذلك الأكبر المهول بعد.

المسافة قائمة وباقية بينهم في «الدور» الثالث، وبينه على «البسطة» الأولى للسلم الحلزوني الصاعد في قلب العنبر. . والوقت طال وطال، والصبر نفد. فحين تكون فيَ السجن لا تستعذب أبداً أي صبر، فأنت دائماً في انتظار اللحظة التالية ولو لم تحمل لك أي خير أو حدث. فمن يدري؟ لعلها تحمل! لعل شيئاً خارقاً يحدث! أنت تتصورها وتحشوها بالاحتمالات وتبتهل عساها تأتي مثقلة. كان معهم. . مع الكبار حيث كانوا ولا يزالون في الزنزانة الواسعة بالدور الثالث. دخل عليهم ثم بدا من نظراتهم المتبادلة أنهم يطلبون منه الانصراف. أكان اجتماعاً مدبراً وجاء هو ليفسده؟ أم كان التدبير هو تلك الأسئلة الغريبة التي انهالت عليه ثم كفت فجأة؟ وبدأ تبادل

النظرات، حتى أحس من التيار المرسل والمستقبل بين العيون أن ثمة كلمة ضوئية تصاغ، أو بالأصح أمراً: قم. . وانتظر.

وقام.

ولم يطلب منه أحد أن ينتظر. فجعل بينه وبينهم ثلاثة أدوار، وجلس. . فقد كانت الكلمة لا تزال ترن في أذنه: لا تبتعد كثيراً يا بني.

لقد سبقهم إلى السجن، هذا صحيح رغم أنه الأصغر، فقد جاء متهماً في جريمة قنبلة ألقاها في ملهى شارع الهرم. لم يمت بها أحد هذا صحيح، ولكنها جعلت منه كبيراً وبطلاً ودخل السجن. وكم عض أصابع يديه العشر ندماً. فقد كانت رعونته هي السبب. . كان واجباً أن ينتظر إلى أن يعد خمسة ثم يقذفها بقوة، ولكنه استعجل وقذفها وهو يعد الثالثة خوفاً أن تنفجر في يده، وبظهورها بلونها الأحمر الغريب المثير المرعب انكفأ الكل على وجوههم، وكل ما ناله ليلتها قطعة من فخذ الراقصة الدهني الذي جرح ظلت لاصقة بين ياقة قميصه وجلد رقبته. وكلما حاول استخراجها ضربوه مخافة أن تكون ثمة حركة مباغتة أو بداية عدوان، وهو يحس بها قطعة من نار الجحيم اللاصقة قد غرزت كاوية جلده، حارقة لحمه حتى نخاع النخاع. وفقط عند مطلع الفجر ينجح في انتزاعها. ينتزعها هي ولكن أثرها لا يمحى. . يكاد يكون إلى الآن باقياً.

مصيره معروف. . انه يدرك هذا، معروف له وللقاضي وحتى

للشحاذ الذي يدعو له كلما لمحه هابطاً من عربة السجن إلى المحكمة. . الاعدام.

فليكن! أبداً لم يفكر أن هناك موتاً بمعناه الذي تعارف عليه الناس، ولا خاف مثلهم منه. لكم أحبه قبل الحادث وابتغاه في أثنائه وبعده. كلما غور ببصره في أعماق رحلة الخلد التي سوف يقطعها به إذا استشهد، أحس أن الناس لا بد مجانين لتمسكهم بحياة هي خرقة بالية. . وستبلى أكثر مليئة بالأوحال والأقذار، لا تصلح حتى لتلميع حذاء. وأعظم شيء يصنعه الإنسان بها هو أن يقذفها بأطراف أصابعه، بعيداً بعيداً كي يزيحها عنه وعن الطريق إلى الخلود.

بل هو حتى أصبح يضيق بتلك المعاملة الخاصة التي تعامله بها جماعته. . المئات منهم الذين جاءوا بعده، ولأسباب مختلفة حين جاء أحدهم مرة وهمس في أذنه يسأله من أين هو وإلى أي أمير ينتمي؟ لم يخبره. وحين تكشف في السجن وبالسجن كل شيء وعرف السلسال من أوله لآخره لم يفرح، بل ولا غير من نظرته إلى غيرها. فالدين دين الكل. وهو فقط ضد الخارجين ومع كل الداخلين. قابله مرة وكيل وزارة الداخلية يحمل له عفواً وقائمة بأسماء كثيرة الغريب أنها كانت صحيحة تماماً ودقيقة جداً وكأنه هو شخصياً الذي كتبها، وحمل الورقة في يده، ورأسه ـ رأسك يا مصطفى ـ في اليد الأخرى، ومجرد توقيع ينقذ هذا الرأس. . توقيع صغير منك يا مصطفى يصنع هذا العمل الكبير. ابتسم للرجل في

طيبة واحتقار ودعا له أن يغفر له المولى ذنبه وأن لا يأخذ ذريته بخطاياه.. ومضى.

وأحس بيد توضع أو بالأصح تبارك كتفه، رأسه ارتفع.. الشيخ الجليل هناك مهيب في وقفته على السلمة الأعلى، ابتسامته نقية وكأنما عليها آثار لا تزال طازجة من مياه زمزم. وقد خفض الشيخ يده من كتفه إلى كوعه واصطحبه. وسارا وخيل إليه أن السير في الفناء قد طال والشيخ صامت لا يقول شيئاً. وحين تكلم سأله إن كان يريد دخول الجنة، سؤال من هو متأكد مما سوف يكون عليه الجواب. ولهذا لم يأته الجواب، وإنما فرت من عين مصطفى دمعة وانحنى على كف الرجل وقبلها.

ـ لا.. لا.. لا تفعل.. لا كلام بيننا الآن.. لقد أعددنا لكل شيء عدته وسآتي لأبيت عندكم في زنزانتكم، وستعرف كل شيء بإذن الله.

كان مصطفى معجباً بهذا النظام الصارم الدقيق، فكل شيء يتم بالضبط كما يجب أن يتم، ولهذا فالكلمة هنا ليست كلمة ولكن في سبيلها يحارب المرء الجيوش، أما حارس الليل فقد تولاه زكريا، أما رقيب النهار فقد احتاج إلى مائة جنيه تسلمتها زوجته بالضبط في الميعاد.

والليل والزنزانة، والهمس، وانبلج السر الأكبر.

إن معهم في المعتقل، نفس السجن، شيوعيين وشيوعيات،

وللنساء موعد فسحتهن وللرجال موعد، بل هي مواعيد أربعة موعد لحرماتهم من المسجونات، وموعد للشيوعيات، ثم للرجال منهم، ثم للشيوعيين الرجال. يدخل هؤلاء ليخرج إلى الفناء هؤلاء. وكانت الجماعة، حتى قبل أن يلاحظ مصطفى، قد لاحظت أن شيوعية معينة تتلكأ دائماً لتكون آخر من تدخل قسمهن. وبتتبعهم الحذر الذكي إلى حيث تتجه عيون المتلكئة حددوا الهدف.

مصطفى، ذلك الذي يرتدي جلباباً بلدياً أبيض حليق الشارب والذقن رغم ايغاله في الإيمان بكل ما تؤمن به الجماعة، الصعيدي الأفندي الوسيم الذي ترتعش له قلوب العذارى.. أي عذارى، من هاواي أو من الحبشة، من لوس أنجيلوس أو الأنفوشي.. شاب ذكر يكاد يكون مصنوعاً كله من مادة رجالية خالصة، وهو وحده الذي لا يعرف بينما كل البنات والسيدات وحتى الشبان والرجال يعرفون.. ويوقنون. ودائماً كلمة: يا خسارة على شبابه تلمحها أذنه وأحياناً عيناه، صاعداً عربة السجن أو هابطاً منها، في يده الحديد أو خالياً من الحديد، قريباً من قفص المتهمين أو همسة تأتيه عالية من بعيد. حتى القاضي أحس مرة أنه ينظر إليه نظرة حسرة وكأنما حسداً لأب له كل هذا الابن.. وقلب سوزان يدق. وما أغرب هذا القلب وهو يدق فكأنما لا مبادىء ولا عقائد ولا نيران تحول بينه وبين الدق إذا أراد أن يدق، حتى وهو يتعمد ألا يراها ولم يرفع عينه عن الأرض.. طوال الأسبوع الأول كان يدرك أن قلبها كل مرة كان يزداد دقاً.

ولكن خافضاً بصره أو رافعه كان لا بد أن تلتقي العين بالعين

مرة، وهذه المرة دق قلبان. قلب من فولاذ عمره ما دق، وقلب من الوجد كان قد ذات حتى تحول إلى عهن منفوش.. شيوعية رقطاء، ولكن سبحانك ربي توزع الملامح على من تشاء بغير حساب لكأنها من بنات حور العين، حكمتك، تؤتي الملك من تشاء وتمنح عيوناً ما وقع عليها وجه إلا وخر صريعاً لمن تشاء.. أنت الخالق ولكل خلق لك حكمة، ولا بد لخلقها هذا من حكمة، ولكنها أبداً لا يمكن أن تكون حكمة أن يدق لها قلبك يا مصطفى.. مستحيل.

عيناه اللتان سمرهما في الأرض يشدهما إلى أعلى مغناطيس أعتى من كل جاذبية، يشدهما في الوقت المناسب تماماً، وفي اللحظة المناسبة لتستمر الومضة، وأمام عينيها تسترخيان، تثقل أجفانهما يتنومان.. يسلبان الإرادة.. يظلان مسمرين.

وإذا كان الشيء بالشيء يذكر، فالشيء بالشيء حتى الشيء يحس بالشيء، فما بالك والشباب شباب مصطفى والطرف الآخر صاحبة هذا القوام والوجه والعيون.. سوزان! كل هفة ثوب منها تخاريف مجانين، صواعق مستأنسة، ومستأنسة وترعش الجبال.. ما بالك وقوة أعظم من السجن والمتريولوزات المصوبة والسور العظيم الذي يفصل بين فناء الرجال وفناء النساء، واستعجال الشاويشية والشاويشات، والصفافير، واختلاف المذاهب وعداء المذاهب، وكل ما يستطيع الكون أن يتآمر به ليبعد كائنين أو شيئين أو قوتين.. كلها قد جربت وفشلت. تساقطت واحدة اثر الأخرى وفي الحال، فعبر السور العظيم كانت قوة الجذب أعتى من كل القوى، كأن حدثاً كونياً

قد أوقف كل شيء ولخص الزمن والأيام في لحظة تتجمع فيها كل لحظاته، وتلتقي متسائلة محمومة محيرة لا خيرة لها في أمرها أربع عيون كأنها قد تحولت إلى أطراف أربعة لكائن أرقى واحد، كائن سيظل باقياً ما بقيت الحياة على سطح الأرض.

أربع عيون وكل ما سواها عدم، كل شيء.. حتى نفسيهما أصبحا عدماً، وإرادتهما عدماً. فالموجود الوحيد صانع الحدث الصاعق هو رعد اللقاء وبرقه، والجذب.. الجذب الذي أبداً لا يقاوم، لتبدأ المرة الأولى الخجلى بصباح الخير تهمسها سوزان، والوقفة الأولى المرتعشة وقفة مصطفى عند ثالث خشبة من بعد الخشبة المكسورة في السور الفاصل بين العالمين.. الأرض ترتعش الأيدي المتشبثة بالخشب ترتعش، وحين جنت مرة وتماسكت الأيدي ارتعشت هي والأرض والخشب والحديد ووصلت الرعشة عنان السماء، بل وكادت أرجل الشاويش المنتظرة والشاويشة المسئولة تضحك ارتعاشاً هي الأخرى فقد تاه الولد في البنت وتاهت البنت في الولد.

وأصبح الحدث هو الحديث الوحيد الدائر بين جانبي السور.

وفي اليوم الرابع بعد الحدث، استدعوه، أو هكذا خيل إليه أنه هو الذي ذهب وحده إلى الطابق الثالث.

ولم ينزل.

لأيام ثلاثة طويلة طويلة، مضت، حتى اختنق.

وفي اليوم الرابع هبط الفناء لأول مرة.

وكانت هناك. . لكأنها مذ تركها آخر مرة لم تغادر المكان مرة، لكأنها ماتت وعادت تحيا هناك.

والتقيا.

ويده عبر السور امتدت.

وقلبها عبر يدها امتد.

واستماتت اليد على القلب.

واستمات القلب على اليد.

ولولا خوفهما أن يجازى الشاويش والشاويشة وقد طال تغاضيهما عن الموقف، ما افترقا.

● ●

ـ توكل يا ولدي على المولى فلقد قتلت فيك كل ما كان فيك يا مصطفى، وهي بسبيلها الآن لتأخذ منك كل ما تبقى لنا فيك، لتقتلنا هذه المرة كلنا. انها عدوة. . عدوتك وعدوتنا، ولا حياة لك أو لنا لدعوتنا إلا مقتلها. لقد جاءوا بها خصيصاً ليطعنونا من خلالك، وليصرعونا بعد هذا. . الشاب تلو الشاب، ولقد كانت البداية بك فلا بد أن تكون البداية بها. اقتلها يا بني. . اقتلها وتوكل.

كانت الكلمات ثابتة، هامسة، كل كلمة منها كفيلة بخرق القائم بين الدنيا والآخرة، وبين أي موت وأي حياة. وليس في المسائل نقاش، ولكن أمراً كهذا لا بد أن يناقش. وبدأ مصطفى بعد ما انصعق سبع مرات في كل مرة يفتح فمه، فإذا بصفعة صوتية تأتيه

من خلفه، من عملاق صنديد لا ترحم نظراته كان واقفاً خلفه:

ـ ألم أقل لك يا مولانا؟. لقد سحرته.. الشيطانة ركبته.

قال الشيخ بنفس همسه الباتر الذي لا ذرة هوادة فيه:

ـ أتعرف معنى هذا يا مصطفى؟

ـ ما معناه يا سيدي وأميري؟

ـ ما دامت الشيطان قد ركبتك فقد حل دمك أنت قبل أن يحل دمها هي، فإرادتنا من ارادته، وأمرنا من أمره، ومن يعصانا يعصاه ويصبح أشد عداوة لنا من كل أعدائنا.

ـ ولكني لم أعص.

ـ فلتطع اذن فالتردد عصيان قادم.

ـ لست متردداً.

ـ اقتلها اذن. تقتلها.. أليس كذلك يا مصطفى؟

من سابع بئر في قراره جاء صوته:

ـ أقتلها.

ـ غداً إن شاء الله يا مصطفى.

ـ غداً إن شاء الله.

ـ في نفس موعد لقائكما.

ـ في نفس موعده.

ـ على بركة الله يا بني اذهب.

وكانت الخطة أن يطيل قدر ما أمكن في عملية القتل لينشغل الجميع في الحادث، فقد تم ترتيب أن يهرب سبعة هامون من الكبار

في أثناء انشغال الكل بالقتل، وضرب عصفورين بحجر. .

عصفورين!

أم سوزان وأنت يا مصطفى!

● ●

حتى السؤال الذي ظل يلح على شيخه به وكان سراً بينه وبينه:

ـ ولماذا هي. . هي بالذات؟

ـ لأنها الأجمل. .

ولكن الجمال. .

ـ جمال العدو قوة له وضعف لنا.

ـ ولماذا أنا بالذات؟

ـ لأنك المطمع. نقطة قوتنا وأيضاً نقطة ضعفنا.

ـ ألا يمكن لأحد؟. .

ـ لا يمكن. .

● ●

النصف الثاني للفسحة يبدأ بعد الذهاب إلى الدورات، السير فيه بطيء دائري في فناء ضيق، أناس يبدون كالمجانين. . دابت ملابسهم. . وبليت أحذيتهم. . ونمت منهم اللحى شباب وشيوخ، وجماعات وملحدون، أنت يا مصطفى لن تفعل في اللحظة المناسبة أكثر من أنك ستكسر عظام حنجرة، عظام مجرد عظام، سوزان الجميلة هي السحر الذي دوخك.

إذ الحقيقة فليس هناك سوى عظمة. . مجرد عظمة هشة هي التي أصبحت تحول بينك وبين بداية الخلد.

أدخلت كل يد من يديها في ثغرة بين عمودين. أطبقت بيديها على رأسه من الخلف في تساؤل ملهوف. جذبت الرأس إلى أمام فجأة فاقشعر بدنه رعباً وبرزت جبهته من ناحيتها. مدت ومطت شفتيها ولمست بهما جبهته لتعرف ان كان محموماً، فقد كان أصفر شاحب الوجه تماماً ويرتجف. ضغطت بشفتيها بكل ما تملك من قوة فوق الجبين حتى شحبت من الضغط أيضاً شفتاها. ولم تعرف ان كانت ما أحست به حمى كانت عنده أم حمى ولّدها ضغط الشفتين. عيناه مفتوحتان إلى آخرهما وموجهتان تماماً إلى وجهه ولكن لا يراها. أوقف السمع والبصر.

بارتجافة أمسكها من كتفيها، ووسط البحر العميق قذف مرة واحدة بنفسه. . التفت كل يد حول رقبتها النحيلة وأطبقت عليها. ذهلت يداه. انتظر انتفاضة انزعاج، إشاحة احتجاج، ولكن الرقبة بقيت ساكنة وديعة بين يديه، بل مالت الرقبة إلى ناحية كي تلمس الساحرة بخدها يده كما تفعل القطة حين تطمئن إلى اليد التي تربت عليها.

غضب. . كما لم يغضب في حياته غضب. احمرت الدنيا. . أنزفها من فرط غيظه كل دم الظهيرة الحمراء، فالشراسة حين لا ترتطم بما يغذيها تفرغ، وفي فزعها تغضب، وكأنما تلاقي أعتى الأعداء. . فعدوها. . عدو الشراسة ليس الشراسة. عدوها الأكبر

أقتلهـــا

والأوحد هو الوداعة . . كـأنها كـل الشجاعـة، الأقوى من الشجـاعة، أعتى أعداء الشجاعة.

ولكن فوراً تموتين الآن يا ساحرة، فهذا غـدر، أنت تأخـذينني على حين غرة، أنا مجهز نفسي لمذبحـة فإذا بي أواجـه بالـوداعة . . كـل الوداعـة. اقتلها يـا مصطفى قبـل أن تغدر بـك غدراً آخـر وتعود تسحرك، بكل ما تملك من قوة في يـديك اضغط واضغط ولا تتـركها إلا جثة. حنان . . أنهـار من الحنان الـدافق تنسال من الخـد الجميل المائل وتسري في قبضته.

أيقظ كـل الوحش الكـامن وخنق . . فعلاً خنق. تحت أصـابعه الغليظة رقبتها تختلج اختلاجة العارفة التي أدركت.

وهـذه المـرة فتـح عينيـه ورآهـا. اتسعت عينـاهـا اتسـاع غيـر المصدقة أول الأمر، ثم المرعوبة لهنيهة بالكـاد لا تصدق، ثم . . ثم السـاكتة الـراغبة التي أسلمت لحبيبهـا المصير. . كـل المصير، مـرة واحدة وإلى الأبد. كل شيء تحفل بـه ملامحهـا إلا الخوف، لمحـة خـوف أو رعب أخرى لم يلمحهـا، حتى حين ازرق الـوجـه وبـدأت العينان جحوظهمـا وانقطع التنفس، لا عضلة رقبـة تختلج بالـرعب، ولا عين تدمع ولا لمحة من ملامحها تستعطف أو تستغيث. . بل شبه ابتسامة بالغة الوهن. ابتسامة يرعب انها ابتسامة سعادة . . سعـادة من يزاول حبيبه الحب معـه ويعطيـه أخيراً كـل ذاته ونفسـه. وجسده هـو الذي أصبح يختلج بالرعب وكأن الخانق أصبح المخنوق. نظرات يا إلهي تـطلب الموت، تـرجوه تتمنـاه بيديـه وعلى يديـه هو بـالـذات،

والدنيا نهايتها تحل، والسعادة كلها تغمر ملامحها، سعادة الحب موتاً والموت حباً تعمر كل الملامح.

وكان الحوشان قد امتلآ على الجانبين وبحر من البشر من هنا يدفع وبحر من الناحية الأخرى يجذب ليبعد.

والسعادة كلها من بشرتها التي توردت زرقة تشرق. سعادة من أخيراً نالت كل ما تتمنى لا تزال تتوهج وتنهمر. سعادة ليس سببها أنه أبقى على حياتها وإنما سعادة أن إحساسها بملمسه وهو يخنقها صنع ما لم تصنعه مئات الكتب والتعاليم، وحوّل القاتل الحبيب من إنسان إلى مبدأ، أصبح هو ولو للحظة خاطفة كل مبدئها.. ومرحباً بالموت يأتي - ولو في الحال - حينما على يديه ومبدئه يأتي، حتى ولو لم يكن يحبها يجيء، فما عاد الحب نفسه يهمها.

ومن بين أحراشه وغاباته بدأ - شيئاً فشيئاً رغماً عنه ثم يرضاه - ينبت، ويصعد، ويكبر، ويعلو، بدا شيئاً آخر غير عقله، حكيماً جداً يحبو، عجوزاً جداً يولد، ولكن له قلب أكبر من كل قلوب الكون وأقوى وأعظم، ومن مرتفعه مضى يرقب الحشدين الصاخبين اللذين يتبادلان القتل عيوناً ووعيداً والغضب الفتاك تأجج والصفافير تستغيث، ومدافع السجن قد صوبت إلى الداخل والقيامة أوشكت، بل قامت ترعب من لا في حياته ذاق الرعب مرة.

ولكن الآخر قد تربع وانتهى الأمر، وانتهت القبضة وتراخت الخنقة، ورغم الحشد الهائل فالحقيقة الحقيقة لم يعد هناك

سـواهما، حتى السـور العـظيم وبـالـذات عنـد خشبتـه بعـد الثـالثـة المكسورة كان قد أصبح الملاذ، والأيدي الأربـع مضمومـة في تعانق متشبث مجنون لا ينتهي.

كان، وكان كتاب آخر يكتب كتـابهما، وشـاهد عليـه يا إلهي! نفس ذلك السور.

صَح

كان واضحاً أن الصبي لا يمت إلى جاردن سيتي أبداً. .

فصبي حاف مثله، جلبابه قديم متآكل، ورأسه محلوق بالماكينة ومضلع وفيه نتوءات كحبة البطاطس، ووجهه رمادي أصفر، وفيه «قوب». . صبي مثل هذا لا يمكن أن يمت أبداً إلى جاردن سيتي حي القصور والفيللات والسفارات.

أما كيف وصل إلى شوارع جاردن سيتي فيبدو أنه أفاق فوجد نفسه هنا، أو أنه ضل الطريق، والغريب أنه لم يكن حزيناً.ولا مبتئساً أو خائفاً. . كان في الحقيقة يبدو منتعشاً طروباً.

كانت الدنيا في ساعاتها الأولى، والشمس تلون الأرض وحسب ولا تلهبها، والبنايات غارقة في صمت أرستقراطي مهيب، وكل ما يسمع من أصوات إنما كان يأتي من العصافير والبوابين الضخام السود الطيبين الجالسين على الأرائك يحرسون القصور، ويرتدون الجلابيب البيضاء الواسعة والعمامات المضحكة الكبيرة.

كل ما في الجو كان يوحي بالبشر ويبعث على النشاط والولد

يمضي على غير هدى في الشوارع المشمسة الواسعة، وينظر في شغف إلى البنايات والأشجار والنحاس الكثير اللامع، ويصفر، ويدندن أحياناً ويتوقف، ثم يستأنف المشي بطريقة المقص فيمد كل من قدميه مكان الأخرى، ويسير أحياناً بعرض الشارع، وأحياناً يرفع قدمه ويمسكها بيده من الخلف ويحجل على قدم واحدة، ولسانه يلوك فمه من الداخل فيصنع ضوضاء مكتومة كنقيق الضفادع، ويجري إلى الأمام وإلى الخلف، ويحتل وجهه كله تعبير خالي البال المستمتع بكل ما يراه ويفعله، بلا شيء وراءه يفسد المتعة.. لا عمل ولا أب ولا أسطى..

وتعثر فجأة في شيء ووجعته قدمه، وانحنى فوجد أن ما تعثر فيه كان قطعة حجر بيضاء فرماها بغيظ على الأرض، ولم يكتف بهذا بل دفعها بقدمه، وطار الحجر إلى الأمام مسافة ثم توقف.. وحين وصل إليه ضربه بقدمه ضربة قوية أخرى فطار الحجر واعتلى الرصيف. وحين وصل إلى مكان الحجر انحنى والتقطه وحدق فيه ملياً ليتأكد أنه ليس شيئاً ذا قيمة، واستأنف المشي وهو يقذفه إلى أعلى ويلتقطه. وبعد قليل غير الحركة فأمسك الحجر في قبضته ومد سبابته لتلامس الحائط الذي كان يمشي بجواره وظل هكذا فترة. ويبدو أن أصبعه آلمته فقد استبدلها بالحجر. وتلفت مرة فوجد أن الحجر يصنع باحتكاكه مع الحائط خطاً أبيض.. وأعجبته اللعبة فاستأنف المشي وهو يمر بالحجر على الحائط فيرسم خطاً أبيض يبدو واضحاً فوق الجدران الأنيقة الملونة. ورسم خطاً على طول

سراية آل سليمان، ثم مده إلى أن وصل عمارة الفكهاني، ثم فيللا سمعان، وعبر الشارع واستأنف حك الحجر بسور حديقة السفارة الأمريكية.

وكأنما أعجبه سور السفارة حين وجده طويلاً لا ينتهي فمضى يجري فيجري الخط بجواره، ويتوقف فيتوقف، ويحرك يده إلى أعلى وأسفل فيتموج الخط ويتعرج، ويسرع ويبطيء، فتتسع التعرجات وتضيق.

وقبل أن ينتهي السور كان قد انتهى شغفه بالخط فتوقف، وحرك يده بسرعة وعصبية فوق الحائط فرسم الحجر خطاً عصبياً متداخلاً فيه نزق وغضب، ورفع يده عن السور ولعق فمه من الداخل فصدر عنه نقيق الضفادع، وهز رأسه هزات كمن يراود نفسه، وهز جسده أيضاً، ثم التصق بالحائط واختار بقعة ليس فيها خدوش، وتخير حافة بعينها من الحجر وأمسكه بحرص في يده، ثم انكب على الحائط وراح يعمل. وحين انتهى كان قد كتب كلمة: «محمد». وحدق فيها، وتراجع إلى الوراء ولعق فمه وتأملها. كانت حروفها عجفاء ركيكة. وعقد يديه خلف رقبته وثنى جسده وركز انتباهه على «ميم» محمد. وكأنما أعجبته رأسها المستلقية إلى الوراء في عظمة، فقد عاد إلى الحائط بسرعة واندفاع وكتب «ميماً» أخرى، وضم شفتيه ونفخ أشداقه ونظر إليها، ويبدو أنها لم تعجبه فانكب على الحائط من جديد وكتب «ميماً» ثانية جاءت أسفل الأولى بقليل وقريبة منها حتى انها اشتبكت مع ذيلها. وتراجع إلى الوراء ونظر إليها. وكأنما هي

أيضاً لم تعجبه فقد رمى الحجر من يده واستأنف المشي وهو يمط شفتيه ويلوي بوزه.

وفجأة استدار إلى الخلف بسرعة ونظر إلى الميمين من بعيد، ثم أقبل عليهما بلهفة وبحث عن الحجر بعينيه حتى وجده، ومن جديد انكب على السور ورسم خطاً رأسياً بجوار الميمين، والتصق بالسور أكثر، وظل مدة طويلة يعمل وعرقه يسيل ويده الصغيرة العصبية قد تشنجت أصابعها كالكماشة على الحجر، ولما انتهى كان قد كتب: «أممنا الشعب القنال».

وتراجع إلى الوراء وراح ينظر إلى ما صنعه وهو يلهث منفعلاً. وكأنما لم تعجبه الجملة فقد هز رأسه بشدة، والتصق بالحائط من جديد وراح يعمل وهو يغمض عيناً ويفتح الأخرى. ولما انتهى كان قد كتب نفس الجملة مرة أخرى. ودون أن يتراجع إلى الوراء كثيراً حدق في الخط برهة قصيرة، ويبدو أنه لم يعجبه أيضاً، ووجد اللام طويلة وشرطة النون غير واضحة والقاف مغلقة والحروف كلها مائلة كالنخل حين تعبث به الرياح، يبدو هذا لأنه راح ينفخ في يده الممسكة بالحجر لينفض عنها ذرات الغبار، ثم تخير حافة من حواف الحجر لم يستعملها، والتصق بالحائط من جديد وراح يعمل ويعرق ويغمض عيناً ويفتح الأخرى.

وحين انتهى فبرك يده بشدة كمن أتعبته الكتابة. وتراجع إلى الوراء ونظر إلى الجملة الأخيرة ملياً، ثم علت وجهه ابتسامة رضاء فعض شفته السفلى وأخرج من فمه نقيقاً ثم عاد إلى الحائط ورسم

علامة «صح» أسفل الجملة الثالثة، وجعل للعلامة ذيلاً مرحاً طويلاً علامة الرضاء الكامل.

وظل برهة يحدق في الجملة كأنما ليتأكد أنها محفورة على حائط السور بطريقة ليس من السهل محوها، وأنها ستظل هكذا فترة طويلة، وسيعرف كل من يقرؤها - بطريقة ما - أنه كاتبها. ظل برهة يحدق في الجملة ثم ارتعش نصفه الأعلى كله، وأخرج من حلقه صوتاً كصوت «العرسة»، ورفع قدمه اليسرى وأمسكها بيده من الخلف وانطلق يحجل بقدم واحدة ويمضي في الشارع المشمس الواسع.

البطَـل

في ذلك اليوم.. مضت ساعات الصباح الأولى دون أن يجد جديد، فالمكتب هو المكتب، والحجرة هي الحجرة، والأوراق تملأ الأركان والأدراج وتطل من الدواليب، وفناجين القهوة رائحة غادية، والسجائر تستخرج خلسة حتى لا يعزم أحد على أحد. وخمسة موظفين في حجرة، والوجوه كالعادة مقطبة.. مقطبة وهي تتصفح الجرائد وتغلقها، ومقطبة وهي تحدق في السقف، وعابسة وهي تطلب الشاي وتلعن طعمه، ومغمومة وهي تنحني على الأوراق وتعبث بها، وتقضي العمر تدقق وتؤجل وتكتب.

لم يجد جديد في ذلك الصباح مع أن الحرب قامت والطائرات بدأت تغير، وكل شيء.. كل إنسان يخوض تجربة الحياة والموت، والعالم لا ينام، صاحياً يرقب الشرق وهو يدمدم ويتحرر، والمكتب هو المكتب، والحجرة هي الحجرة، وصبحي جاد هو الذي على يميني، والغازي أبو بكر على يساري.

غير أنه قبل الظهر بقليل، جاءني الساعي وقال:

ـ تليفون.

وتليفـون من أجلي كان يعني شيئـاً من اثنين: إما عبـد الخالق فـاضي في مكتبه في وزارة الشئـون ويريـد أن يصبح عليّ، أو كـارثة حدثت في بيتنا ورأت العائلة أن تتصل بي على عجل، وفي كل مـرة يـطلبني التليفـون أقـول كـارثـة وفي كـل مــرة أجـد المتحــدث هـو عبد الخالق.

وهذه المرة أيضاً قلت:

ـ عبد الخالق؟ صباح الخير.

وإذا بصوت غريب يقول:

ـ لأ.. أنا أحمد.

ـ أحمد مين؟

قلتها وأنا أخمن من عساه يكون، فالأحمدات الـذي أعرفهم لا يتجاوزون ثلاثة، وإذا به يقول:

ـ أنا أحمد عمر.

ولم يكن هذا الأحمد من بين الثلاثة، فرن اسمه في أذني رنين الاسم الغـريب الذي لم تتعـود على سماعـه، وخجلت أن أستقصي أكثر، فلا بد أنه يعرفني ويتوقع مني أني لا بد أعـرفه. ورحت أسـأله كمـا يحدث في أمثـال هذه الأحـوال عن الصحة والمـزاج والعـائلة، حتى أظفـر من ردوده بخيط يقـودني إلى معـرفتـه دون أن أحـرجـه أو أحرج نفسي.

ورغم أن مضى يجاوبني بنفس الكلمات التي تعود الناس قولها رداً على أسئلة كأسئلتي، إلا أني دهشت فصوته كان مملوءاً بالانفعال

يكاد يلهث، وكان يستعجل السؤال والاجابة كأنما هناك شيء يؤرقه ويود الإفضاء به إليّ، وسمعت منه كلمات عن «مصر الجديدة» و «كتيبتنا» و «المعسكر» ولكني لم أفهم. وسألني مرة إن كنت حقاً أذكره، ومع ذلك لم أعرفه إلا حين سألني عن أخي محمد وصحته، إذ أيقنت أنه لا بد أحمد عمر، ابن جارنا عم عمر. . أحمد صديق أخي الأصغر الحميم.

واندفعت أرحب به وأحييه وقد بدت صورته أمامي واضحة كل الوضوح، فرغم أن عم عمر كهل نحيف إلا أن ابنه أحمد هذا شاب ضخم، وإذا عرف الإنسان أن سنه عشرون عاماً فقط بدا له ضخماً جداً، فجسده عريض شاهق وذقنه خصب غزير شعره أسود متين كذقون الرجال الكبار. ومع هذا فقد كان من ذلك النصف من الشبان الذين يخجلون من مواجهة محدثهم، فلا ينظرون في وجهه أبداً، وتجده إذا تكلم يتعثر في كلماته فلا تخرج من فمه جملة كاملة، وأحياناً يقول الكلمة ويظنها نكتة وينفجر ضاحكاً، وحين يدرك أن أحداً لا يشاركه الضحك يصطبغ وجهه بلون الدم، ورغم كل شيء فالناس لا بد أن تقول بعدما يذهب:

ـ والله باين عليه ابن حلال. . طيب.

وكان صلتي به محدودة، وكل ما أعرفه عنه أنه كان في مدرسة التجارة المتوسطة، أو الصنايع لست أدري، وأخذ الدبلوم أو لم يأخذه، ثم دخل الجيش حسب قانون التجنيد الإجباري.

وأغرب شيء أنك تحس دائماً أنه ملآن ولديه آلاف الأشياء

التي يود قولها، غير أنه نادراً ما يفصح عن نفسه. وإذا تكلم فلا يقول شيئاً من عنده إنما يعبث بكلمات غيره، فتقول له مثلاً: ازيك أنت؟ فيرد عليك ويقول: الزاكته. ويضحك ويخجل ويحمر وجهه. كان لا يخاطبني إلا «بحضرتك» على اعتبار أني الأخ الأكبر لصديقه، وأحياناً كانت تفلت من لسانه كلمة تستحق التأمل، وإذا تأملها الإنسان أدرك أنه ليس بسيطاً كما يبدو، وأن له أعماقاً.

وكان إذا جاء لزيارتنا وفتح له الباب، خفض رأسه وسأل عن أخي. فإذا كان موجوداً دلف إلى حيث يكون مطرق الرأس لا يرفع بصره ولا يتلفت. وكنت أحياناً ألقاه فأحادثه وأحس به شهماً خدوماً. لو قلت له: ارم نفسك في البحر مثلاً، لذهب ورمى نفسه في البحر فعلاً، ثم عاد إليك في ثاني يوم مبتل الملابس يقطر الماء من شعره، ويقطر الخجل من وجهه ويتهته ويقول:

ـ أما المية كانت ساقعة بشكل.

يقولها قاصداً بها أن يلومك ويؤنبك، وهذا كل ما في استطاعة أحمد أن يؤنب به أحداً..

ولم نكن أصدقاء بالمعنى المفهوم، كنت أراه كل ستة أشهر أو كل سنة، وكنت لا أراه على حالة واحدة أبداً، ففي كل مرة لا بد أن يكون قد حدث له أو حدث فيه تغيير، فهو في لقاء طالب.. وفي لقاء آخر متخرج.. وفي ثالث ساخط يبحث عن عمل.. ومرة أراه صغيراً لم تنبت له لحية، وأفاجأ به في المرة التالية وقد فرعني

طولاً. جاء مرة لزيارتنا بملابس الجيش وفوجئنا به حقاً، وأذكر أننا يومها سلخناه عبثاً وتريقة، نقول له يا دفعة. ونضحك على شعره القصير الذي قصه كما تقضي التعليمات، ونسأله لم ربى شاربه هكذا فيقول:

ـ ح اعمل ايه؟. ما دام مفيش تعليمات تحدد طول الشنب أربيه كده اياك يعوض عن شعري.

ويمضي يحدثنا بطريقته المتلعثمة ويسخر من نفسه ومن زملائه ومن «اليمك» والطوابير المبكرة والبروجى والنظافة، والشاويش الذي يدربهم ولسانه الذي لا يكاد يرى متعلماً من أمثال أحمد حتى ينهال عليه، والتكدير والتزويغ، وتصاريح الأربع والعشرين ساعة، وكيف «يلف» الضابط حتى يأخذها، ويضحك.. بجسده الضخم كله ومن قلبه، ثم يكف عن سخريته وضحكه فجأة ويتنحنح ليشعرنا أنه ينوي قول شيء جاد. يتنحنح ويقول:

ـ إنما صحتي كويسة!

وأذكر أنه في زيارة أخرى قال لي انه أخذ النمرة النهائية في التنشين. وسألته وأنا أسخر من العبقرية التي هبطت عليه فجأة عن السر في نبوغه، فمضى يشرح لي نظريته، فقد وجد أنهم يعلمون النيشان في الجيش على علامات ثابتة ثم يمتحنونهم على علامات متحركة، ولهذا فمن أول لحظة كان ينشن على العلامة الثابتة كأنها ستتحرك فجأة، وبهذه الطريقة كان يضرب بسرعة ويصيب، وبلغ به

الحماس مداه، وبلغت بي السخرية مداها وهو يؤكد لي أن الطريقة التي يعلمون بها الجيش غير مجدية، وأن أهم شيء في الدنيا هو أن يتعود الإنسان أن ينشن على هدف متحرك.

هذا كله أمر معقول..

أما غير المعقول فهو ما حدث، فلماذا يكلمني أحمد في التليفون؟

صحيح أني فوجئت به، ولكني أقول الحق فرحت وأحسست أني افتقدته طويلاً، فهناك أناس يفتقدهم المرء.. يفتقد القيم.. فالشرف في ذهن الواحد منا مرتبط بإنسان، والاخلاص بإنسان آخر. والحنان والمحبة بثالث. وأحمد عمر هذا كان يرتبط في ذهني ـ ولست أدري لماذا ـ بشيء يمس من قريب أو بعيد روح شعبنا.. الشعب الضخم الخجول الذي لا يسعده شيء مثلما يسعده أن يسخر من نفسه وأخطائه.

ولم أسأله لماذا هو في مصر الجديدة، فقد خمنت أن كتيبته لا بد معسكرة هناك تحمي شمال القاهرة، إذ كان الجيش يستعد للدفاع عن العاصمة. أما الشيء الذي حيرني فعلاً فقد كان لهجته اللهجة المتدفقة المملوءة بالانفعال، وصوته المحشو بضحكات موفورة الصحة لا كحة فيها ولا بلغم.

وعجبت.

وسألته كيف يكلمني، وهل عندهم في المعسكر تليفون؟

وأجابني :

ـ احنا معسكرين قريب من هنا . . وجنبي بقال . . ياه . . داحنا شفنا العجب . . دي حرب بجد والله العظيم . . والطيارات والمدافع تك تم . . تك تم . . تصور حضرتك ما غيرتش الشراب بقالي ست أيام لما بقى شربات . . سامع الطيارات؟

وكنت حقيقة أسمع ضجة خافتة بعيدة، وكنت أعرف أن طائرات العدو تركز ضرباتها على تلك المنطقة «مصر الجديدة» ليل نهار . .

وانتابني شيء يشبه الخزي وأنا أدرك أن أحمد في الميدان وأنا في المكتب، وسلك طويل يفصل بين القتال الرهيب الدائر هناك والمصلحة التي أنا فيها وروتينها ودرجاتها وعلاواتها . .

واندفعت أبثه كل حماسي وسخطي وأشجعه .

وقلت له وأنا أدرك أنه لا بد يريد مني خدمة :

ـ كلنا معاك . عايز حاجة؟ أي خدمة؟ قول . محمد بيسلم عليك .

ولدهشتي أجابني :

ـ مش عايز حاجة أبداً، سلم لي عليه كثير . على فكرة أنا معايا مدفع اهه، أضرب لك طلقة؟

ولعلمي أنه خجول ومن الصعب عليه أن يطلب مني شيئاً إن كان يريد، عدت ألح وأسأله عما يريد، وإذا به ينفي بشدة أنه في حاجة إلى شيء، وسألته إن كان يريد من عائلته ملابس فقال :

سلم لي عليهم.

- بس؟

- بس.

- مش عايز فلوس، هدوم، أي حاجة؟

- أبداً أبداً.

وازداد عجبي. ومضى يقول:

- اسكت! مش امبارح الله يخرب بيوتهم ضربوا المعسكر بتاعنا.

وكان يقولها ببساطة دفعتني لأن أسأله بنفس البساطة:

وعملت ايه؟ مت؟

وضج التليفون بضحكته وقال:

- أبداً.. خمناهم. قبل ما يضربوا المعكسر سيبناه.. وعلى فكرة حصلت حاجة هايلة دلوقت.

وإذا كان لبعض الناس كلمات مختارة، فـ «هايلة» كانت كلمة أحمد عمر المفضلة، كل شيء يحكي عنه لا بد أنه هايل.. وعدت ألح وأستدرجه وأنا متأكد أنه لا بد قد طلبني لأنه يريد شيئاً، ولكنه قهقه وقال:

- أبداً.. عاوز حضرتك كويس.. كويسة دي؟ بس على فكرة حصلت حاجة هايلة خالص.

- ايه.. حصل ايه؟

فقال:

ـ مش وقعت طيارة؟

فقلت:

ـ ايه طيارة ورق؟

فقال:

ـ لأ.. بجد.. طيارة فرنساوي.. كانت فايتة قدامنا، قلت للقائد: أضرب يا فندم؟ ورحت ضارب قام جناحها انكسر ومالت ووطت، فالقائد زعق وقال لي خلص عليها يا أحمد.. خلص عليها. خلصت عليها، وتصور. تصور وقعت.

واستمر يضحك ويقول:

ـ سلم لي على محمد. لما بيجي قول له ان أحمد وقع طيارة. أنا عارف هو مش ح يصدق زي عوايده. إنما والله العظيم وقعتها أهه.. محروقة في الرملة هناك. أضرب لك طلقة؟

وأخذت أضحك أنا الآخر. فأيامها كانت مودة أن يقول كل واحد أنه أسقط طائرة، فما بالك وأحمد يخبرني بنفس اللهجة التي كان يعلق بها أحياناً على أشكال بنات الجيران، يخبرني أنه أسقط طائرة.

وحتى وأنا أرى صورته في الجرائد في اليوم التالي أكذب نظري وأعود أتمعن في صورته، وأسمع صبحي جاد وهو يحدق في الصفحة ويقول.

ـ أما ولد! دا شارب من لبن أمه صحيح! ده باين عليه زي

الوحش يهد الدنيا. شوف بيبص ازاي؟ الواحد سنه ٣٥ سنة وما يعرفش يوقع ناموسة، وده يوقع طيارة بحالها! ويوقعها لوحده!

حتى وأنا أسمع هذا كله وأراه، كنت أتأمل أحمد الذي في خيالي ولا أكاد أصدق.

لحظة أن كنت أكلمه كان كل همي أن أعرف الخدمة التي يريدها لأستطيع القيام بها، وأحس أني بهذا أساهم بنصيب ما في المعركة، فقلت:

ـ أمال. .

وترددت فقد خجلت، ولكني استطردت:

ـ أمال بتكلمني ليه؟

وما كادت الجملة تغادر فمي حتى أدركت أني قلت شيئاً سخيفاً.

وأسرعت أتكلم وأمسح أثرها من الحديث كما يمسح الإنسان كلمة كتبها خطأ، أسرعت أقول:

ـ قول يا أحمد. . عايز ايه؟ صحيح عايز ايه؟ أنا أخوك مفيش داعي للكسوف. قول لي عايز ايه؟.

وسمعت صمتاً في التليفون، وأدركت مدى الخجل الذي كان يعتريه. وطرقت أذني كلمة: أصل. . وأعقبها صمت قصير، أدركت أن أحمد لا بد يعض شفته السفلى خجلاً فتلك كانت عادته، وخمنت أنه سينطلق بعدها كالدفع ويتكلم، فكما كان خجله يجعله

يتعثر في أول الحديث فكذلك كـان يجعله ينطلق بسـرعة في آخـره، قال:

ـ أنت عـارف. . ادوني سـاعـة إجـازة بعـد الحكاية دي. وأنـا معرفشي نمرة إلا نمـرة حضرتـك، قلت أكلم حضرتـك. دي حاجـة هـايلة قوي. . مش كـده؟ تصـورا طيـارة تقـع. . أنـا أوقعهـا. . أنـا أوقعهـا. . أنا مش مصـدق. بيتهيأ لي انهـا وقعت من نفسها، والـلا يمكن حد تاني وقعها. . سلم لي على محمد كتير.

ثم تلجلج كمن لا يعـرف كيف ينهـي الحـديث. وسمـعت نحنحة خفيفة فعرفت حينئذ أنه ينوي أن يدخل في الجد. . وجـاءني صوته:

ـ إنما صحتي كويسة. أنا متشكر قوي قوي قوي.

وكـانت آخر مـراحل خجله أن يضحـك، وكأنـه لا يطمئن إلى الغلافين السابقين فيلف كلامه بغلاف ضاحك ثالث.

وحين وضعت السمـاعـة كنت لا أزال غيـر مصـدق أن أحمـد طلبني فقط من أجـل أن يخبـرني بهـذا «الشيء الهـايـل». وكـانت السماعة لا تزال تضحك. . ضحكة دسمة موفورة الصحة.

قاع المدينة

هي . . هي لعبة

الردح كالزغاريد فن مصري أصيل، وكما أن الزغاريد لا تجيدها كل النساء فكذلك الردح هناك متخصصات فيه يحفظن عدداً لا نهاية له من الشتائم والأوصاف، بعضها عادي وبعضها فيه تشبيهات واستعارات وكنايات، وبعضها أدب خالص. ولا يكفي الحفظ بل لا بد أن يكون في استطاعة الواحدة منهن ان تلضم الكلمة في الكلمة بلا تردد أو توقف، وتصنع من الشتائم سيالا متدفقا لا ينقطع ،فاذا انقطع وقع المحال. ولا بد للشتمة المستعملة من وقع وموسيقى، ولا بد أن يكون للصوت المستعمل مقام معين يرتفع في الأماكن المهمة الى «السوبرانو»، وينخفض عند بعض الكلمات الماسة الى «الألتو». فمع أن المسألة شتيمة في شتيمة الا أن هناك على كل حال شتائم لا تصح، ونحن شعب مؤدب وخجول بطبعه. ثم لا بد للرداحة من موهبة فطرية تستطيع بها أن تخرج أرفع الأصوات وأعلاها بأقل مجهود، حتى لا تستنفد طاقتها وحتى تستطيع الصمود. فالردح مسابقة والفائزة هي من يعلو صوتها ويظل عاليا الى النهاية.

والفنون كالغذاء لا بد من مزاولتها على الدوام. . وكان طبيعيا

اذن ألا ينقطع الردح عن الحارة ليلا أو نهارا، ولا يعرف عطلة أو راحة.

وفي ذلك اليوم وشعبان عائد من عمله بعد الظهر بقليل، والدنيا تسبح في أشباه السكون.. في ذلك اليوم ما كاد يضع قدمه في أول الحارة حتى دق قلبه، فقد سمع ردحا عالي الوطيس يواتيه من آخرها. دق قلبه لأنه خاف أن تكون الخناقة مع امرأته.. وامرأته غلبانة من الأرياف، واذا كانت الخناقة معها فعوضه على الله فهي مبتدئة لا تستطيع أن تجاري بطلات المدينة. صحيح انها بدأت في الآونة الأخيرة تتعلم، ولكنها لا تزال(تطبش) كما يفعل الرجال حين يتعلمون السباحة على كبر. كل ما تستطيع أن تفعله هو أن تقف في النافذة وتوارب الشيش وتحاول الرد على غريمتها. وتخرج ردودها بعد جهد فهي ريفية خجول لا تستطيع أن تحشو فمها بكلمة فارغة مثلما تحشو نساء المدينة أفواههن، ولذلك فمهما قالت فكلماتها تتساقط كأوراق الخريف أمام التيار اللافح الذي يهب عليها من فم غريمتها.

وصدق ظن شعبان فالخناقة فعلا كانت مع امرأته، وكانت واقفة لا حول لها ولا قوة كما توقع وامرأة ابراهيم أفندي قد وقفت في بلكونتهم وصوتها يجيب التائهين. والناس تتفرج بكل قحة، وهي لا تترك شاردة ولا واردة الا قالتها.

وقف الرجل يتسمع عله يعثر على سبب للخناقة أو يرى الى أي حد وصل النزاع، ولكنه ما كاد يتوقف حتى فار الدم في رأسه،

كانت المسألة قد وصلته هو شخصيا وأتت على رجولته ثم تعدته الى أبيه وأمه وذقون أجداده أجمعين.

ودق الباب كثيراً قبل أن تفتح فهيمة امرأته. وامرأته سمعها ثقيل وبابهم أصم ولهذا طال دقه. ثم انفتح الباب وما أن رأته فهيمة حتى شهقت وبكت وأمطرت في الحال دمعا! وكاد يرفع يده ويرنها قلما وهو حانق على خيبتها وقلة محصولها من طول اللسان، ولكنه تردد، فلا بد للخناقة من سبب ولا بد أن يعرف السبب.

وزعق زعيقا هائلا يسأل عن السبب. واعتدلت امرأته واختفت دموعها فجأة كما بدأت وقالت:

ـ ابنك انقتل!

واشارت الى الكنبة. وسقط قلب شعبان بين قدميه وكاد هو نفسه يسقط على الأرض مغشيا عليه لولا أنه حدق في الكنبة.. كان ابنه جالسا القرفصاء فوقها ورأسه معصوبا بمنديل، وعلى المنديل بقعة دم كبيرة، وفي وجهه خرابيش، وفي عينيه نظرة فأر وقع في المصيدة.. ولم يكن مقتولا على اية حال.

وما كاد الولد يرى أباه ينظر ناحيته حتى تولاه رعب هائل وبكى بصوت عال وقال:

ـ أنا مالي؟.. هه.. هو اللي ضربني الأول.. هه..

وملأ شعبان صدره بالهواء بقوة محاولا كتم غيظه، ولو لم

يخرج الهواء ويتنهد لانفجر. القضية كانت قد بدأت تتجسد أمام عينيه، فلا بد أن واحدا من أولاد ابراهيم أفندي هو الذي ضربه وابراهيم أفندي له ثمانية أولاد، لا بد أن الضارب هو الولد الرفيع مثل عود القصب الذي يجري طول النهار ببنطلون أصفر قصير وسيقان جافة. . وهو لن يستحمل منه خبطة ولا لكمة. ولكن هل يمد يده على طفل؟ ثم كيف لم يغلبه ابنه الخائب مثل أمه؟ ابنه صحيح أصغر منه في السن وأدق منه في العود، ولكن كيف يغلب أي ابن في الدنيا ابنه؟ وكيف يجرحه ويبطحه؟

وتقدم شعبان. كان لا بد من رؤية الجرح قبل كل شيء، وما أن رآه الولد يقترب حتى انكمش إلى طرف الكنبة ولم يوقفه عن انكماشه إلا انتهائها، وغمغم شعبان وهو يسبه ويلعن أباه ويهدىء من روعه ويطمئنه الى أنه فقط يود رؤية الاصابة. وامتثل الولد بعد تهديد وظل يرتعش وأبوه يفك المنديل، وصرخ وهو يجذبه. ولم تكن الاصابة قاتلة أو ربع قاتلة. . كاتنت جرحا صغيرا نصفه في الجبهة ونصفه في الشعر، والدم الذي حوله كثير والبن أكثر. . بن يكفي لصنع ثلاث كنكات من القهوة وتبقى منه بعدها تلقيمة.

ومع أن شعبان أحس بالجرح يمتد من جبهة ابنه الى قلبه، الا أن وجهه لم يتغير وغيظه كان لا يزال كما هو. وأعاد رباط الجرح وزغر لابنه، وقال وهو يجلده بملامحه:

ـ وما ضربتوش ليه يا . . ؟

وبكى الواد وهو يقسم بالقرآن الشريف أنه أشبعه ضربا ولكما وعضا، ولكنه خانه وضربه بزلطة فجرحه.

وبدأت العاصفة.. فهيمة تريد ابلاغ البوليس وعمل محضر وقتل ابن ابراهيم افندي، وان لم يفعل فستأخذ هدومها وعليه أن يوصلها الى باب الحديد لتركب القطار وتعود الى البلد حيث للولد اخوال يستطيعون حمايته والانتقام له. وشعبان ساخط على ابنه المغلوب يهدده بعلقة نصفها الموت حالما يطيب، علقة تصنع منه رجلا يعرف كيف يذود عن نفسه ويجرح بدلا من أن يأتيه مجروحا. ولا يترك لابنه فرصة للنجاة من العلقة الا بأن يذهب في الحال ويجرح ابن ابراهيم أفندي جرحا يمتد من أنفه الى قفاه.

وتمضي ساعة.

وتهدأ العاصفة، ويستعيذ الزوج من الشيطان ومن ساعة الغضب، ويجد أن الناس للناس والطيب أحسن، وأنه لا بد أن يشتكي الولد لأبيه وهو يعرف ابراهيم أفندي رجل جد لن يرضيه ما فعله ابنه، فاذا أدبه كان بها والا فهناك ألف طريقة لتأديبه. وترفض الزوجة هذا الحل بدعوى أنها جرحت هي الأخرى.. جرحتها طويلة اللسان زوجة(سي) ابراهيم وفضحتها، ولا بد من سن بسن وعين بعين والبادي أظلم. ويطمئنها الزوج ويعدها بأن حقها سيأتيها به كاملا غير منقوص، وأن مقامها محفوظ وظفرها عنده بمليون واحدة كامرأة ابراهيم أفندي.

ويظل جو البيت مشحونا، وشعبان يخلع بنطلون الشغل

وقميصه ويرتدي الجلباب ويريح يديه من نوبة السواقة التي بدأت في الخامسة وانتهت حين تصلب ظهره وتورمت كفاه وزغللت عيناه. ويسأل عما طبخته الزوجة وهبيته ولا يجدها طبخت ولا هببت، ويلعن العيشة التي لا راحة فيها أبدا. . الشغل أومنيبوس والبيت عربة كارو، وفي كل عودة لا بد أن يجد مصيبة، وكم مصيبة يتحملها العمر؟ والواحد له عمر واحد.

بعد قليل كان شعبان يمسك ابنه المرتجف المرتعش من يده ويدق باب ابراهيم أفندي.

دق مرة فسكتت الأصوات التي كان يسمعها في الداخل. وعاد يدق فماتت الأصوات، وانطلق حينئذ يدق بلا توقف.

وفتح الباب أخيرا، فتح فجأة. . وفجأة أيضا وجد الأسطى شعبان نفسه أمام صالة وفي نهايتها كومة بشرية هائلة. كان الوقت وقت غداء. . والعائلة كلها جالسة تتناوله، والمائدة صغيرة ضيقة لا تتسع لهذا العدد الهائل من أفراد العائلة.

كانت هناك الست شفاعات الزوجة، تخينة ومحنية على المائدة ككيس القطن المثني، وكانت هناك الحاجة تبارك والدة ابراهيم أفندي عجوز جدا وناحلة وشعرها مصبوغ بالحناء ولونه أصفر وأحمر وأبيض. ثم كان هناك ثمانية أطفال بدوا من كثرتهم وتجمعهم اثني عشر أو يزيدون، وكلهم باسم الله ما شاء الله وبلا ضغينة أو حسد أولاد ابراهيم أفندي، وفي الركن وفي مساحة لا تتعدى ورقة البوستة كان

يجلس رجل رفيع رفيع، لونه أصفر باهت ووجناته بارزة كالشرفات، كان هو بلا ريب ابراهيم أفندي عميد العائلة والمسئول عن انتاج هذا العدد الضخم من الكائنات الحية، والمسئول كذلك عن بقائها. وكان الجميع في معركة لا رحمة فيها ولا هوادة، فالطعام قليل والمائدة ضيقة والرغيف مهما كبر لا يحتوي الا على عدد محدود من اللقم، والصراع دائر من أجل البقاء، أو نتش حتة، أو الاعتداء على لقمة أو الحصول على غموس. . صراع رهيب شمل العائلة كلها وشمل كذلك قططها. فالعائلة ـ من العز ـ تحيا معها أربع قطط لها جيش من الأولاد، والقطط وأولادها لا بد أن تأكل، ولا بد لها من خوض صراع أمر وأدهي لتجد فرجة بين ساقين أو ثقبا بين جسدين، لينالها من الوجبة على الأقل لحسة أو عظمة.

وكل شيء يدور في صمت شامل، ولا تسمع الا أصوات الملاعق واحتكاكات الأسنان بالأسنان وجعجعة المضغ واللكزات التي يصوبها الأخ الى أخيه والجار الى الجار القطة.

وما كاد الباب يفتح ويبدو الأسطى شعبان واقفا على عتبته حتى حدث هرج ومرج كثير، وقام ابراهيم أفندي يعزم، وتضايقت الست شفاعات من هذا القادم في وقت الغداء. وأحس الأسطى شعبان بالخجل وتبودلت عبارات مجاملة كثيرة، وحلفت عشرات الأيمانات والأقسام وتزحزحت مقاعد، وماء ولد وصرخت قطة.

وأخيرا جلس الأسطى على الكنبة وهدأت الأصوات، ثم التأم شمل الكومة البشرية مرة أخرى وعاد السكون الذي لا تقطعه

سوى أصوات الأشداق والأسنان وهي تمضغ اللقم وتمزقها. مضافا اليها أصوات ترحيبات كان يرددها ابراهيم أفندي وفمه ممتلىء بالخبز وعقله ممتلىء بالتخمينات.

وكان واضحاً أن عاصفة ستهب بعد قليل. . وانتهز كل فرصة الهدوء الذي يسبقها وراح يعبىء نفسه ويستعد.

الأسطى شعبان جالس مكسوف يرتب ما سوف يقوله وينتقيه، ويجرب بينه وبين نفسه كيف يقوله. وابراهيم أفندي يدرك أن ولدا من أولاده لا بد هو الجاني وهو السبب في الدم الذي جف على منديل ابن شعبان، ولا بد أن امرأته كالعادة تولت علاج الأمر بطريقتها الفاسدة، وأخفت عنه الحكاية ككل مرة وتركته ليواجه المصيبة وحده. ومع هذا كان عليه أن يدفع أول الأمر ببراءة أولاده أجمعين ويتحدث عن طيبتهم، ويأتي بالبراهين على انهم أولاد حلال مسالمين. فإن أفلتت البراءة كان عليه أن يتصيد الحجج ويقيم المعاذير ويعد آخر الأمر بالعقاب الباتر.

والست شفاعات نسيت تماما انها لم تترك أباً لهذا الرجل الجالس أمامها الا ولعنته وطوقته بأبشع التهم منذ وقت قليل، واندفعت ترحب به وفي نفس الوقت تعد ما سوف تقوله دفاعا عن ابنها، ثم ما سوف تقوله دفاعا عن نفسها أمام زوجها إن هو سألها كيف أخفت عنه ما حدث. ولم تنس بطبيعة الحال أن تحسب حساب الضرورة القصوى وتعد نفسها لخناقة، وتعد لشعبان سربا طيبا من الشتائم يليق بوداعه. . والأولاد قلوبهم كانت تدق فالجاني لا بد

منهم، وكل منهم فرح أنه ليس الجاني وأنه سيشهد لتوه محاكمة رائعة يلذ له حضورها كشاهد رؤية فقط وليس كمتهم.

غير أن أمل الأولاد خاب، فبعد قليل جلجل صوت أبيهم يأمرهم بالانسحاب.. ويأمر زوجته بإزالة بقايا الطعام.

وجلجلة صوت أبيهم وإن كانت لا تحدث الا نادراً ولا تحدث الا في حضرة أغراب، الا انها أحياناً تخيف ويحسن طاعتها. ورفعت بقايا الطعام، ولم يكن قد تبقى سوى الصحون والملاعق فقط، وللإنصاف ولم تستطع أصابع الأطفال ولا حتى أظافر القطط أن تصل إليها.

وكان في نية ابراهيم أفندي أن يجلجل صوته مرة ثالثة ويأمر زوجته بتركه مع الأسطى شعبان على انفراد، لولا أنه شك في احتمال طاعته، فآثر السلامة والاحتفاظ بكيانه سليما أمام الضيف لا تجرحه كلمة ولا زغرة أو تعليق.

وهكذا، وليبعدها، أمرها بلهجة رقيقة لطيفة لا يقولها الا.زوج غارق في سعادة زوجية دائمة أن تعد القهوة، وأصابته نظرة جانبية مدببة كطرف الابرة أفهمته ان ليس لديهم بن.

وحينئذ افتعل ابراهيم أفندي ضحكة ما، وقال للأسطى شعبان وهو يخبطه فوق ركبته:

ـ والا تشرب شاي أحسن؟.. أنا عارف.. أنت تحب الشاي. كل الأسطوات يحبوا الشاي.. خليه تقيل يا أم نعيمة..

وبينما كان الشاي يعد كانت أم نعيمة لا تتركهما على انفراد أبدا وكأن في الأمر مؤامرة، فهي غادية رائحة تنقل كرسيا من مكان الى مكان، أو تسأل ابراهيم أفندي إن كان يريد شيئا، وويله ان كان قد أراد شيئا.

وأخيرا آن الأوان وقال ابراهيم أفندي:

ـ خير؟..

ولم يقل شعبان حرفا، أشار لابنه وسكت.

وقال ابراهيم أفندي وقد ارتسم أسى أكثر من اللازم على وجهه، وكأنه فوجىء برؤية رأس الولد المجروح:

ـ خير؟.. ماله؟.. مالك يا بابا؟.. مالك؟!..

فقال شعبان:

ـ ابنك عوره.

ـ ابني مين؟!..

قالها ابراهيم فندي باستنكار ثم أضاف:

ـ انت متأكد؟.. يعني واحد من الأولاد اللي كانوا هنا دول هو اللي ضربه؟!..

ـ أيوه..

ـ يا ولد!.. يا ولد انت وهوه!..

قالها ابراهيم أفندي في شموخ وشهامة.

وجاء الأولاد يتدارون في بعضهم البعض، وكش فيهم الأب:

ـ أقف عدل يا ولـد.. أقف عدل.. شيـل ايدك من على كتف أخوك يا قليل الأدب.

ووقف الأولاد وجاءت وقفتهم أقرب ما تكون الى الطابور، كانوا ثمانية وكانوا يصنعون مع الأرض مثلثا أصغرهم طوله أشبار وأكبرهم أطول من الوالد نفسه بقليل.

وحدق فيهم ابراهيم أفندي وهو يتفحص ليحرز من الجاني، ويحس بنوع من الثقة لأنه رئيس هذا الطابور كله يستطيع أن يحركه كيف يشاء. وقال لابن شعبان:

ـ مين فيهم اللي ضربك يا بابا؟

وأشار الولد الى فؤاد الذي يقف في الوسط وقال:

ـ دهـه..

وهنا ضاع زمام الموقف وهاج كل شيء، وارتفع صوت شعبان يحكي وبعنف وقد ذهب عنه خجله وحرجه، ويطالب أن يضرب الجاني علقة.. الآن الآن.. أمام عينيه والا كان ما كان.

ورد عليه ابراهيم أفندي بصوت لا يقل عنه علوا، واشتركت شفاعات بلسانها ويديها ورموشها وعينيها. وتناثر الأولاد في الصالة بعضهم يردد كلمات الأب، وبعضهم يعزز حركات الأم وبعضهم

يقلد كلمات الأسطى شعبان ويسخر من كلماته، وفي تلك الأثناء هاجت القطط وانطلقت تموء دون أن يزعجها أحد، وسقطت أشياء في الحمام، وقرقعت قباقيب على البلاط، ورفع صاحب القهوة المجاورة مذياعه على الآخر، وأذن المغرب، وبدأت صيحاتاللبن الزبادي.

وآب كل شيء فجأة الى هدوء حين ارتفع صوت ابراهيم أفندي يقول:

ـ ولزومه ايه كتر الكلام؟.. نحقق.. واللي عليه الحق ينضرب بالجزمة..

وهكذا بدأ التحقيق.

وبدأ الخلاف، فمن من الولدين يحكي أولا؟..

واستقر الرأي أخيرا على أن يبدأوا برواية المجني عليه المجروح.

وبدأ ابن شعبان يتكلم، وما أن فتح فمه حتى صمت الجميع وترقبوا وعم السكون، وحينئذ تلجلج ولم يستطع إخراج الكلمات الا بعد أن نظر الى أبيه. وكش فيه أبوه فانطلق يقول:

ـ كنا.. كنا بنلعب. وبعدين قسمنا قسمنا نفسينا. أنا كنت بدا بدافع ودهه(وأشار الى فؤاد دون أن ينظر اليه) ودهه كان الأسطول.. جه جه يزقني ما قدرش عليّ.

واندفع فؤاد الرفيع يقاطعه:

ـ أنا ما قدرتش عليك؟ . . مش احنا قايلين مفيش طوب . . ضربتني بالطوبة ليه؟ . .

وهب فيه أبوه يقول اخرس . . فخرس فؤاد . وخرس ابن شعبان أيضاً وعم سكون .

وتنحنح شعبان وقال لابنه :

ـ يا ولد احكي كويس . كنتم بتلعبوا ايه؟

ورفع ابراهيم أفندي جذعه ورأسه وذراعيه محتجا على سؤال الأسطى شعبان ، طالبا أن يترك الولد ليروي ما حدث دون أي تدخل أو مساعدة .

وقال شعبان وأمره الى الله :

ـ يا خوانا دانا بس عايز تعرفوا ايه الموضوع . .

ومضى الولد يقول :

ـ جه يزقني ما قدرش عليّ . . فراح جايب زلطة وحدفني بيها حت ف . . ف . .

وبدا الولد ينهنه لولا أن هب فيه أبوه :

ـ أكتم يا بن الـ . . انت بنت؟ اكتم أوعى تتنفس .

وفعلت كلمات الأب فعل السحر .

ورفع الابن وجهه لأول مرة ، وحدق في الموجودين بجرأة وأشار الى فؤاد وقال :

ـ علشان ما . . ما قدرتش علي . . رحت جبت زلطة يا جبان .

وهب فيه الجميع أن يخرس فلم يخرس. ومضى كالوحش الصغير يهبهب ويعوي :

ـ عاملي أسطول؟ . . والله لما تكون انت مليون أسطول . . علشان ما قدرتش عليّ؟ حد كان قالك . . قالك العب . . حد . . حد قالك اعمل أسطول؟ . . لما أنت جبان .

وهنا جاءته زغدة(كده وكده) من أبيه فسكت وعم السكون. وكان لا بد أن يعم السكون فإن أحدا لم يكن قد فهم شيئا، ثم إن ما تبادله الولدان زاد الأمر تعقيداً، وأصبح هم كل والد أن يعرف كنه تلك الخناقة بعد أن كان همه أن يعد نفسه للدفاع عن ابنه .

وكان واضحا أنهما لن يستطيعا أن يستخلصا السبب من المتخاصمين والمجني عليه متحفز والجاني ينكر، والحقيقة ضائعة بين التحفز والإنكار.

وكان لا بد من التدخل للعثور على الحقيقة. وابراهيم أفندي الذي لم يرض بتدخل شعبان بدأ هو الذي يتدخل ويسأل على اعتبار أنه والد الجاني فلن يحابي المجني عليه .

وأطال ابراهيم أفندي رقبته ومد رأسه وقال كأي وكيل نيابة مدرب، موجها السؤال الى ابن شعبان :

ـ اسمع يا شاطر؛ قل لي كنتو بتلعبو ايه؟

فأجاب ابنه بسرعة :

ـ كنا بنلعب لعبة الكنال.

وأسكت ابنه بلعنة وعاد يوجه السؤال للمجني عليه، فقال الأخير:

ـ كنا كنا بنلعب.. لعبة الكنال..

وهز ابراهيم افندي رأسه وعاد يسأل:

ـ لعبة الكنال دي ايه.. كوره؟!

فأجاب الولد:

ـ لأ لأ. لعبة الكنال.. قسمنا.. قسمنا نفسينا..

وهز ابراهيم أفندي رأسه وعاد يسأل:

ـ يا بني ايه لعبة الكنال دي؟

فقال الولد بفروغ بال الصغير:

ـ مانا مانا بقولك آهه.. قسمنا قسمنا نفسينا.. احنا احنا الجيش المصري وهم أسطول الانجليز.. وحطينا حطينا خط كده وقلنا قلنا ده الكنال.

وفي نزق الأطفال، ترك الولد مكانه بجوار أبيه وقد ذهب عنه تحفظه وخوفه تماما، ومضى الى وسط الصالة يمثل:

ـ حطينا خط كده.. يعني يعني الكنال.. والجيش المصري يقف هنا.. وأسطول الانجليز يجي يجي من هنا.. واذا عدوا الخط يبقى اتغلبنا وياخدوا الكنال.

وهنا غمز ابراهيم أفندي لشعبان عله يضحك، ولكن شعبان لم يضحك، كان وجهه لا يزال جادا ولا يزال يريد أن يطمئن ان ابنه كان محقوقا ليضربه أو صاحب حق ليشهد ضرب خصمه. أما الست شفاعات فكانت ساكتة ترقب الولد اللمض في اشمئناط واحتقار، والأولاد كانوا مشغولين بالتفكير في لعبة الكنال، يقلبون الأمر على وجوهه ليروا الى أي الفرق ينضمون اذا لعبوها.

وأحس ابن شعبان بالجو فيه هدوء مريب فسكت، ولكن أباه استحثه ورغده وقال:

ـ هيه.. قول.

فأجاب الولد بفرحة وكأنه أخذ اذنا باللعب في الحارة الى ساعة متأخرة:

ـ أنا كنت في الجيش المصري.. ع اليمه دي.. فأم سحلول جه يهجم عليّ..

وقاطعه ابراهيم أفندي بلهجته الممدودة:

ـ أم سحلول مين؟

فقال الولد على الفور:

ـ دهه.. فؤاد..

ثم استدرك:

ـ أصل احنا مسمينه أم سحلول.

ونظر ابراهيم أفندي الى ابنه شذرا واستدار الى ابن شعبان وقال:

ـ اسمه فؤاد.. أم سحلول ايه دي؟..

ـ وعاد ابن شعبان يحكي:

ـ وبعدين اذا اذاالحد..

والتفت ابراهيم أفندي فجأة الى ابنه وهو يغلي:

ـ بقى كده يا وله يسموك أم سحلول؟.. اتفرجي على ابنك يا ست هانم.. اتفرجي يا ست أم سح...

وكاد يقولها ولكنه أنقذ لسانه في آخر لحظة والتفت لابن شعبان وقال:

ـ كمل.. كمل يا خويا.. كمل يا أم أربعة وأربعين انت راخر..

وانطلق الولد:

ـ وبعدين اذا واحد من الأسطول قدر يعدي الخط تبقى فرقتنا اتغلبت، أنا كنت مع بندق وخشبة وحسام، وخشبة وحسام اتغلبوا، فأتلمت فرقة أم سحلول كلها على..

وقاطعه ابراهيم أفندي:

ـ قلنا ميت مره فؤاد.. قلنا فؤاد.. ده دي؟..

وتكلم شعبان:

- معلش يا إبراهيم أفندي.. عيال.. خليه براحته علشان يحكي كويس..

وزأر إبراهيم افندي بصوت منخفض وعينين جاحظتين:

- حكى يحكي، انما أم سحلول ايه؟.. قلنا له اسمه فؤاد.. هي قصة.. ده دي؟

وهنا أشار فؤاد الرفيع إشارة خفية لابن شعبان معناها:

«طيب.. والله لأوريك»..

ولكن ابن شعبان لم يتوقف ومضى يقول:

- فضلت أنا وده.. هوه اكمنه أطول مني حب يديني هدر.. قمت أنا شكيته مقص راح نازل على سنانه، فالولاد ضحكوا عليه وفضلوا يضحكوا ويقولوا: ايدن أهه.. ايدن أهه.. العبيط اهه.. العبيط أهه.. فهو اتغاظ ومسك زلطة وراح خابطني في رأسي.

واندفع فؤاد يقول:

- أبدا والله.. انت ستين كداب في أصل وشك.. والله يا بابا ما ضربته.. هو اللي وقع.. أنا مالي؟.. أنا ما ضربتوش احنا اتفقنا ان اذا غلبنا منهم اتنين يسلموا.. هو ما رضيش يسلم وقعد يزق فينا.. واحنا نزق فيه فراح واقع على الأرض اتعور.

وكان ابراهيم أفندي يحاول اسكات ابنه طوال الوقت،. ومع هذا فقد تغاضى عنه حتى عثر في كلامه على حجة، وحينئذ أسكته ومط رقبته وسأل ابن شعبان:

ـ انتو اتفقتوا صحيح ان اذا اتنين اتغلبوا تسلموا. . ؟

وانتظر الجميع الجواب بفارغ الصبر. كان كل من بالحجرة قد نسي من الجاني ومن المجني عليه واستحوزت اللعبة على تفكيره. الأولاد كفوا عن الدوشة، وأم نعيمة يدها في خصرها وأذنها متجهة الى مصدر الصوت والمتاعب، وشعبان مائل الى الأمام يراقب ابنه في حماس، والجدة كفت عن المواء، والقطط هي الأخرى كفت عن الأنين واختفت بين طيات ملابس الجالسين.

وقال ابراهيم أفندي وهو ماض كوكيل النيابة في دوره يستدرج الولد:

ـ انتوا اتفقتوا صحيح يا حبيبي؟. .

وتلجلج ابن شعبان ونظر الى ابيه يستشف ما وراء نظرته ثم قال:

ـ احنا احنا أيوه اتفقنا. . بس بس. .

وتنفس ابراهيم أفندي لأول مرة بارتياح وعوج رأسه وقال وهو يكيل السؤال القاضي:

ـ طيب. . ليه بقى سيادتك مسلمتش زي ما اتفقتوا؟. .

وواجهه ابن شعبان في دهشة واستغراب وقال:

ـ اسلم ازاي؟!

فعوج ابراهيم أفندي رأسه الى الناحية الأخرى وقال:

ـ زي ما اتفقتوا.. ليه بقى يا سيدي ما سلمتش؟

فقال الولد على الفور:

ـ ما هو.. ما هو إذا سلمت يبقى اتغلبنا.

وأغلق إبراهيم أفندي عينه اليمنى وقال:

ـ تتغلبوا تتغلبوا.

وازداد الاستنكار في وجه الولد وقال في دهشة:

ـ اذا اتغلبنا يكسبوا هم.

وأجاب ابراهيم أفندي وهو يغلق العين الأخرى:

ـ يكسبوا يكسبوا.. ليه ما سلمتش؟

وقال الولد بفروغ بال:

ـ مهم كانوا أخدوا الكنال..

فقال ابراهيم أفندي وهو يمط شفتيه:

ـ ياخدوه يا خدوه..

واندفع الولد بغضب حقيقي يقول:

ـ يا خدوه ازاي؟.. هي.. هي لعبة.. هـ.. هي لعبة؟!

وكذلك اندفع أبوه يقول:

ـ وده اسمه كلام يا أبو فؤاد؟

وكادت تحدث بوادر ضجة، لولا أن ابراهيم أفندي صرخ:

ـ هوس.. هوس.. يا اخوانا ايه اللي جرى؟.. دي لعبة بيلعبوها. قول يا بني ما سلمتش ليه؟.. قول..

فقال الولد:

ـ أسلم ازاي؟

وقال أبوه:

ـ يسلم ازاي؟

وقالت أم نعيمة:

ـ زي الناس يا دلعدي..

واندفع فؤاد النحيل يقول:

ـ شفت يا بابا؟.. هو اللي قلبها جد.. احنا كنا بنلعب.. هو اللي قلبها جد.. قلنا له سلم قام شتمنا وقعد يضرب فينا عشان منعديش الخط.. والله هو اللي وقعني وقعد يضرب فيّ.. وعضني.. ثلاث عضات.. أهم.. دا كان.. زي المسروع.. دا مكانش بيلعب.. دا قلبها جد.. وكل.. ده.. عشان مش عايز يتغلب.. وأنا مالي؟.. هو اللي وقع.. ولما وقع اتعور.. أنا مالي؟.. والله ما لمسته.. دا يدوبي قربت عليه نزل فيّ ضرب.

وانخرط الولد في البكاء.

وهنا استعاد ابـراهيم أفندي الشخـطة التي شخطهـا شعبان في ابنه وشخط شخطة أعلى منها وقال :

ـ اخرس . . أنت بتعيط زي النسوان؟ . . عمى في عينـك .

وصرخت فيه زوجه :

ـ جرى ايه يا ابراهيم سرعت الواد . . هو قد الشخـطة دي؟ . . وايه حكاية النسوان دي رخـره . . ما تقعـد معووج يـا ابراهيم وتتكلم عدل . . اتكلم عدل يا ابراهيم .

وقـرأ ابراهيم أفنـدي في الجملة الأخيـرة انـذارا خفيـا، وفعـل الانذار فعله في الحال .

وهكـذا ضـاع زمـام المـوقف واختلطت الأصـوات . . صـوت الأسـطى شعبان تخين وتصـاحبه حشـرجة كحشـرجة الكـلاكس حين يعلق، وصـوت ابراهيم أفنـدي رفيع أخنف كـأنما يصـدر عن طـاقـة واحدة من طاقتي أنفه، وصوت أم نعيمة حياني نواعمي طويل كحبال الكتان، وصوت الجدة أم ابراهيم أفندي كصوت ابنهـا تمامـا وكأنهـا جـد. وكلمات شعبـان فيها احتجـاج صارخ، وكلمـات ابراهيم فيهـا دعوة للسلام والمحبة، وما يصحش يعملها الصغار ويقع فيها الكبار، وكلمات شفاعات عزف منفـرد لزمـارة كمساوي تـرام، وكلمات تقـال وكلمات لا تقال، ولم يسلم الأمر حتما من بضع دعوات خـرجت من فم الجدة واستقرت على رأس العدو، أي عدو . .

وآب كل شيء الى هدوء حين قال الأسطى شعبان :

ـ زاي بعضه. . احنا مالنا بركة الا بعض. . نصطلح نصطلح.

وقبل الجاني رأس المجني عليه. . وتبودلت بضع نكات تناسب المقام. . وتفضلت الست أم نعيمة وضحكت على نكتة. وتفرق الأولاد وقد انتهت الرواية، وجاء الشاي وشرب الأسطى شعبان وشرب ابراهيم أفندي على حس الضيف. وتكلم الرجلان في السياسة وقال ابراهيم أفندي أن الله معنا وسينصرنا على القوم الكافرين. . وقال شعبان عن الانجليز دول عظمهم دايب من شرب الخمرة. . يدوبك تزق الواحد يقع.

وأخيرا آن الآوان وأخذت الجلسة حقها واستأذن شعبان، وعزم ابراهيم أفندي عليه بالعشاء، عزومة مراكبية، ولكن الأسطى أصر ومضى آخذا ابنه من يده.

وقبل أن يهبط شعبان السلالم سمع أصواتا تأتيه من الداخل، وتلكأ قليلا فعرف صوت ابراهيم أفندي الأخنف وهو يقول:

ـ أحرم يا بابا.

ـ تحرم يا كلب تلعب مع العيال دول؟

وعاد ابراهيم أفندي يقول:

وسمع شعبان صرخة مبالغاً فيها ثم صوت الولد وهو يقول:

ـ تحرم تلعب لعبة الكنال ومش عارف ايه؟

وصرخ الولد وقال:

ـ أحرم يا بابا.

ـ تحرم يعملوك أم سحلول يا خايب؟

ـ أحرم والنبي . .

ـ تحرم تعمللي أسطول وايدن وكلام فارغ من ده؟

ـ أحرم يا بابا أحرم. . والنبي حرمت. .

ولعلع صوت أم نعيمة :

ـ خلاص حرم يا ابراهيم خلاص. . ما عدشي ح يعملها. . قطيعة تقطع ايدل وشورته واللي جابوه. . قول تبت يا واد. . قول تبت. .

* * *

وقبل أن يضع شعبان قدمه على أول درجة من درجات السلم، التفت الى ابنه وملس على رأسه وعلى المنديل الذي يخفي الجرح وقال :

ـ وله. أوعى تكون سلمت في الآخر يا واد. .

ونظر الولد الى وجه أبيه المرتفع، وأمسك يَده الضخمة بكلتا يديه، ثم ألصقها بوجهه الصغير وضمها اليه وتعلق بها، وابتسم ولم يجب. .

ابو الهول

كنا نعزي في الحاج سعد، والمأتم حابك اذ كان الوقت بعد العشاء حيث يكثر المعزون. كانت الخيمة على قد الحال فيها من الثقوب أضعاف ما فيها من قماش، والكلوبات نورها يعاني شحوب الأنيميا الحادة، ومع هذا كان يبدو في الظلام الخرافي المطبق على قريتنا ساطعا براقا يعشي جموع الفلاحين القادمين يعزون والذين لم تتعود عيونهم أبدا الضوء في الليل، فما بالك بنور الكلوبات؟ ولهذا كانوا يتوهون في الخيمة ولا يتعرفون على الناس الا بصعوبة.

وكان الأعيان يحتلون ـ كالعادة ـ مقاعد الصدارة ذات القطيفة الباهتة المتآكلة، والذهب الذي تحول الى جرب، والكسور والرضوض التي أصابت الأذرع والأرجل على مر الزمان. .

وكنت أيامها عميد المتعلمين في بلدتنا اذ كنت طالب طب، وقد أجمع الناس اجماعا رهيبا على تلقيبي بالدكتور، وتبناني أهل بلدنا واعتبروني ثروة قومية يفاخرون بها البلاد الأخرى. وتقول نساء قريتنا لصاحباتهن في الأسواق:

ـ يا بت اختشي داحنا حدانا دكاتره. .

وأمر على الأولاد وهم يلعبون فيكفون عما هم فيه من لعب ويشير إليّ أحدهم قائلا للآخرين:

- والنبي ده دكتور حق حقاني يا ولاد.

واذا مررت على الكبار تترى الدعوات خلفي ممن أعرفهم وممن لا أعرفهم، تحرسني من العيون وتخليني لأبي وتنجح لي المقاصد.

وأصبح من حقي وواجبي اذن وقد رفعني الناس الى مصاف الأعيان أن أجلس بينهم. ومع هذا كنت أفضل ويفضل معي بقية المتعلمين أن نجلس مع الغالبية العظمى من أهل بلدنا، الذين كان يقول عنهم الحاج سعد نفسه - عليه رحمة الله - : «ربنا سبحانه وتعالى خلق الناس اللي بتفهم من تراب الجنة الناعم، وبعدين فضلت شوية نخالة خشنة احتار يعمل فيها ايه، فراح راميها وقال كوني عبادي الفلاحين، فكانت».

كنا نفضل الجلوس الى هؤلاء حيث لا نتكلف ما لا نطيق من التأدب واصطناع الرجولة، وحيث نتحدث كما نشاء بلا ضابط أو رابط أو تشكك، وحيث نجد من يتقبلون كلامنا وكأنه آيات منزلات..

وفي مأتم الحاج سعد أيضا جلست في الركن القريب من الباب ومعي بعض طلبة الجامعة وعدد لا يحصى من «النخالة»، وسرعان ما تضخمت الجماعة بانضمام بعض الذين يتمسحون

بالمتعلمين وعلى رأس هؤلاء أبو عبيد التومرجي في مستشفى حميات المركز، والذي كان يفضل أن تتواجد«الهيئة الطبية» في مكان واحد، فقد كان هو الآخر يزاول الطب يكشف ويشخص ويعطي الحقن، وله بالطو أبيض نظيف وجلابية«دبلان» وطربوش، والحق أنه كان يبدو بملابسه تلك أوجه منا جميعا.

وكان آخر القادمين الى مجلسنا عبد الله المزين، والرجل كان يقوم أحيانا بعمل حلاق الصحة ويبدو أنه هو الآخر كان يعتبر نفسه يمت بصلة ما إلى الهيئة، فكان إذا رآنا جالسين أعطى صبيه شنطة الحلاقة وأجلسه بها في مكان بعيد وكأنه يتخلص من شخصيته كحلاق، ثم يهل علينا قائلا للجميع:

ـ السلام عليكم!

ويلتفت إليّ بسلام خاص قائلا:

ـ نورتنا يا دكتر.

وكان ينطقها«دكتر» ليؤكد لي وللسامعين أنه رجل فاهم، وليبدأ بها شخصيته كعضو ملحق بالهيئة الطبية الموقرة..

كنا جالسين في صمت نستمع الى الشيخ مصطفى مقرىء بلدنا الذي كان قد تسلم دكة الفقهاء، وتسلمنا بعد العشاء مباشرة يصب علينا جام صوته الغليظ القبيح ولا يريد أن يختم أو ينتهي. وكلما تهدج صوته ظننا أن الفرج قريب وأنه سوف، يسكت، ولكن يخيب ظننا إذ ما أسرع ما كان يمط رقبته وكأنه يريد انتزاعها من جسده،

ويكشر جدا ولا ندري لماذا يكشر، ويسد أذنه اليمنى ويخفي عينيه ببقية أصابعه ويحزق وتمتلىء رقبته الطويلة الرفيعة بالعروق وبالهواء، وتنتفخ حتى لنخاف عليها وعلينا من الانفجار، ثم ينعص الشيخ مصطفى، وتتطاير شظايا صوته مخترقة فضاء الليل الواسع ترج قريتنا رجا، ويصحو لها نائمون في بلاد أخرى.

وكان الوحيد المباح له الحركة في المأتم هو شيخ الخفراء وقد شنط البندقية في كتفه وراح ينظر الى الناس كمن يقول: نحن هنا. ينظر اليهم ويتمشى في الخيمة قليلا، ثم يسرع الى الخارج يفاجىء الأولاد الذين تجمعوا يتفرجون على المأتم والكلوبات ونقوش الخيمة الغريبة الباهتة، وينهال عليهم ضربا بخيزرانته.

وجاء الفرج وقال الشيخ مصطفى ونحن غير مصدقين: صدق الله العظيم.

وانهال عليه الناس من كل صوب:

ـ تقبل الله يا أستاذ.. الله يفتح عليك.. حرما.. الله يفتح عليك.. حرما.. الله يعمر بيتك.

وكانت الكلمات تخرج من الأفواه حارة لافحة، آخر ما تصلح له أن تكون دعوات..

وامتلأت الخيمة بعدها بهمهمة الجماعات المتقاربة.. وبدأنا

نتكلم نحن الآخرون ونال الشيخ مصطفى من ألسنتنا الشيء الكثير. ثم بدأنا كالعادة نخوض في سير الأعيان، وانتهينا أخيرا الى ذكرياتنا عن القاهرة. كنا نتكلم نحن فقط وكان بلدياتنا الفلاحون ساكتين يسمعوننا ويضحكون، وينظرون الينا ويتأملون كلامنا وكيف ننطقه، ويتحسسون بأعينهم جلابيبنا «الزفير» و «البفتة»، ويتفرجون على طربوش أبو عبيد التمرجي وعلى ساعة يدي وبريقها كلما عكست ضوء الكلوبات ولا يتكلمون. . وهكذا كان دأبهم دائما اذا جلسوا معنا، نرى في وجوههم السمراء المعفرة اقتناعا كاملا بما نقول، وفي عيونهم اعجابا مطلقا بنا، وفي تأييدهم لنا حماسا منقطع النظير. . وكان يهيمن عليهم دائما وجوم لعله خوف منا، ولعله هوة يحسون أنها تفصل بيننا وبينهم، فكان الواحد منهم لا يخاطب الواحد منا، وانما اذا أعجبه كلام قيل يميل على جاره ويهمس له معلقا أو بلكزه. أما اذا بلغ الاعجاب حد الاعجاز فحينئذ تتصاعد منهم التعليقات رغما عنهم. . كلها متشابهة، وكلها في آن متقارب وكأنما تصدر عن جسد حي واحد خشن كبير.

وحينما أوجد ويوجد أبو عبيد التمرجي، كان ينتهز أول فرصة تسنح له ويخبط سؤالا ما. . ولا بد أن يكون السؤال في الطب. كان يزاول العلاج ويهمه أن يثبت للفلاحين وللمتعلمين أيضا أنه عالم كبير يناقش«الدكتور» مناقشة الند للند. وكان اذا تحدث معي أو سألني لا يفعل ذلك بلغة بلدنا المحلية وانما بلغة البندر، والا فما الفرق بينه وبين الفلاحين؟. . ولا يسأل السؤال بطريقة عادية

وانما له أسلوب مؤدب في أدبه برود وتلامة، نفس أسلوبه الذي يعرض به«خدماته» على الناس ويطالب بأتعابه وفوقها«شوية» لبن أو أكلة بامية من بامية الزبائن الحلوة. . ودائما بامية الزبائن حلوة.

وكانت اسئلته تزعجني جدا، فأيامها كنت لا أزال في اعدادي طب اشرح الضفادع وأدرس الديدان، ولا أعلم عن الأدوية والأمراض الا أني«دكتور». وكان هو من كثرة عمله في المستشفيات قد حفظ كام اسم مرض وكام اسم دواء. وليلتها استطرد أبو عبيد يتحدث عن مرض الحاج سعد وكيف أخذه للدكتور حنا طبيب المركز وفشل علاجه، ثم وصف له هو حقن ستروميسين وأقراص سلفات يازين ٣×٣×٥ «هكذا كان يقول»، و م، قلوي، ومنعه عن الطعام منعا باتا، ولكن المرحوم هفت نفسه الى الفسيخ يوم السوق والتهم وحده رطلا . . فحم القضاء . .

وغمغم الجمع الذي حولنا، فهنا وفي مجال القسمة والأعمار يستطيعون الكلام:

ـ بتيجي على أهون سبب . .

ـ اجله كده . .

ـ ما حدش بيفوت يوم من عمره . .

ـ حكمته . .

واذا بدأ أبو عبيد . . فمحال ينتهي . . ولهذا أنشأ يحدثنا عما جرى بعد الوفاة . . فهو الذي استخرج تصريح الدفن رغم عصلجة

الـطبيب. . واستخـرجـه بعـد ميعـاد العمـل الـرسمي. وكـان واضحا أن لولا شطارته لبقي المرحوم بلا دفن الى اليوم التالي.

ولست أذكـر كيف استطعنا «استخراج» الحـديث من أبـو عبيـد وادارتـه بيننا نحن«المتعلمين»، ولكن أذكـر أن المناقشـة دارت حـول الجثة وعن هل من الممكن أن تبقى أياما بـلا دفن. وبعد أن هـدأت حدة النقاش سألني أبو عبيد والاهتمام الشديد ظاهر على وجهه:

ـ الا قوللي يا دكتور؟

وكان يقول لي «دكتور» ليبدو ثمة فارق بينه وبين حلاق الصحة من نـاحية، وبينـه وبين الفلاحين الـذين يقولـون «داكتور» من نـاحية أخرى. .

واستدرت اليه أستعد لسؤاله البايخ، فقال:

ـ هو التخشب الرمي بيظهر بعد الوفاة بعد ايه؟

وصمت المـوجـودون جميعـا، المتعلمين وغيـر المتعلمين، يحملقون مذهولين في كلمة«التخشب الـرمى» وهي لا تزال تـرن في الجو وتحوم حولنا، حتى حلاق الصحة أذهلته الكلمة فـراح ينظر الى أبو عبيد في دهشة وحسد وكأنما يستكثر عليه معـرفة كلمـة كتلك وما لبث أنـظار الجميـع أن تحـولت إليّ تستنجـد بي وتنتـظر الشـرح. وكنت من لحظة أن سمعت الكلمة قد أصابتني حيـرة بالغـة فما كنت أعـرف ما تعنيـه. ولما وجـدت التساؤل حـاصرني ابتسمت ابتسـامـة صفراء وسألته السؤال الذي يكسب به العاجز الوقت:

ـ فيه؟

فقال وكأنه يطرح قضية عامة للمناقشة:

ـ أصلي اختلفت النهارده مع الدكتور صبحي الحكيمباشي بتاعنا.. أنا أقول نص ساعة وهو يقولي يا أحمد ساعتين بس..

فإيه رأيك يا دكتور؟

وتصنعت لهجة العلماء وقلت:

ـ لأ.. انت غلطان وهو غلطان.. هي تيجي ساعة كده.. ونظرت الى وجوه الجالسين فرأيتهم يسمعون اجابتي ويتبادلون النظرات، والكلمة لا تزال ترن في آذانهم ولا يفهمون. وصمتنا ثوان قليلة رحت اتطلع اثناءها الى أبو عبيد لأرى ان كان قد اقتنع أم لا يزال به شك. وكان هو خافضا بصره الى الأرض يحدق في قبضته بأدب جم. وكنت أعرف حركته اللعينة تلك وأعرف أنه يصطنعها كلما ارتبكت أنا حتى لا يحرجني، اذ لا يصح وهو «التمرجي» أن يحرج «الدكتور»..

غير أني فوجئت بصالح ـ الله يعافيه بالعافية ـ يزر عينيه ويسألني:

ـ الا يا دكتور ايه خشب الرمه ده؟..

وصالح هذا كان فلاحا ولكنه لا يزرع الأرض لحسابه وانما يشتغل عند أحد المستأجرين، أظنه واحدا من عيلة أبو شندي،

يشتغل مقابل طعامه وكسوته وكذا كيلة في العام. وكان لونه لا هو أسمر ولا أصفر، لون رمادي كلون التراب . . وكان طويلا هائلا يخيف الناس مرآه حتى سموه أبو الهول. وعمري ما رأيته مبتسما ولا رأيت عينيه مفتوحتين وكأنما كان يرى برموشه، وكانوا يقولون إن قلبه ميت، وانه لا يخاف ولا يزعل ولا يفرح، وإنه أقوى واحد في بلدنا لولا أنه لا يحب اظهار قوته تواضعا، ومن خشية الله. وكان كلامه بطيئا تحس معه أنه ينتزعه من نفسه انتزاعا، وكان دؤوبا على جلسة المتعلمين ولكنه لا يتكلم فيها أبدا. وكان الناس يعرفون عنه هذا السكوت ولا يحاولون استفزازه، مخافة أن يثور مرة فيقتل من أمامه. . ومع هذا لا يذكر الذاكرون في بلدتنا ـ على كثرة ما فيها من مؤرخين وذاكرين ـ أنه ثار مرة ولا اشتكى أو توجع.

وكادت جماعتنا تضحك للسؤال المفاجىء لولا المآتم، والظاهر أن ابو الهول كان قد عبر بسؤاله عما يدور في الخواطر جميعا، فما لبثت الوجوه أن تطلعت إليّ، كلها متسائلة جادة، ما عدا وجه أبو عبيد الذي راح يتطلع ناحيتي ويبتسم، ويقول بابتسامته:

ـ أقول أنا؟

وعبست أطلب منه السكوت وقلت على البديهة:

ـ أصل يا صالح جسم الانسان ده عجيب قوي . .

وسرحت أحدثهم حديثا عاما عن الجسد، وكيف يجري الدم، ويدق القلب . .

وسكت، لأرى ان كانوا قد نسوا أو اقتنعوا. . ولكن صالح زر عينيه مرة أخرى، وعاد يسألني:

ـ أمال رمة ايه اللي بيقول عليها لفندي؟

وعاد(لفندي) أبو عبيد يقول بابتسامته اللامعة الباردة: تحرم تعمل دكتور؟ ولما وجدني سكت، والسكوت علامة الرضا. اندفع يقول:

ـ بعد اذنك يا دكتور. . أصل بني آدم منا يا اخواننا جسمه من جوه مليان جير وحديد وزرنيخ وسليماني وماركورو كرون. . وطول ما الواحد منا حي الحاجات دي بتبقى سايحة في الجسم فلما بينقضي الأجل ويتوفاه الله بتروح عاقدة على بعضها زي ما بيعقد جالوص الطين في وش البعدا. . تقوم تيجي تحسس على جسم الميت من دول تلاقيه كنه لوح لطزانه تمام.

وسكت أبو عبيد عن الكلام. ويبدو أن ما قاله كان عجيبا غريبا لا يستطيع أحد تصديقه دون شهادة مني. . وعادت العيون تنظر إليّ وتطلب الشهادة، ولم أجد لديّ شيئا يدحض علم أبو عبيد فهززت رأسي موافقا، وحينئذ فقط تصاعدت التعليقات:

ـ يا خبر!

ـ أترن بني آدم رمه يا ولاد وما هوش داري.

ـ عجايب والله.

ـ ما تموت يا واد يا صالح خلينا نعرش بيك الزريبة.

ـ عشان تحمدوا ربنا على لقمة العيش ونفس الهوا يا عالم بذر كتان. .

وأصبح أبو عبيد نجم الحلقة بلا منازع. . وأخذت العيون تلتف حوله وترعاه في تبجيل وكأنه هو الذي يستطيع اذا شاء أن يحيل الواحد منهم الى قطعة من خشب الرمة. .

ولم أحتمل هذا ،فسرعان ما وجدت نفسي أندفع في الحديث عن الوفاة والجثث حديث العارف الخبير. وأخذت أروي لهم النوادر والحكايات عما يحدث في مشرحة كلية الطب وكيف أننا نقضي طيلة النهار والمشارط في أيدينا نقطع الأجساد ونبقر البطون، مع أني لم أكن قد دخلت المشرحة ولا رأيتها في حياتي. .

واستوليت على انتباهاتهم كلها. وغاب عن ذاكرتهم أبو عبيد برمته، والمأتم وكل شيء.

وفي ذلك الوقت صعد الى أريكة الفقهاء رجل ضخم يرتدي الجبة والتفطان. وتبينت فيه الشيخ عبد الحميد واعظ المركز، وكان الرجل ـ والحق يقال ـ نشيطا في اداء وظيفته حتى لهجت الألسن بذكره. كان لا يترك مأتماً في قرية الا ويذهب اليه ويعزي فيه، ليس هذا فقط، بل إنه ما يكاد يجلس قليلا وتخلو دكة الفقهاء حتى يمضي اليها في بطء وقور، ويرتل بصوت هادىء: (بسم الله الرحمن الرحيم) ويعم الصمت المكان وتشرئب الأعناق تتابع درس الشيخ وهو يرويه بصوت حلو، ينغمه ويطيل في نبراته الحلقية، ويضم الصاد، وتخرج الراء لها زغرودة، وتحس اذا ما سمعت

الكلمات المترادفة الممدودة وهي تتهـادى من حنجرتـه ـ بينما وجهـه مكتنـز أحمر، وشـاربه مخـطط أسـود، وعمـامتـه نـاصعـة البيـاض ـ تحس أنـه لا بد قـد تعشى بخروف دسم قبـل أن يلقي الدرس، وأن كلماته تخرج مطمئنة شبعانـة لا تشكو قلقـا ولا تعبا، وان لا أولاد لـه ولا زوجة أو مشاكل وأنه ـ بالتأكيد ـ له الجنة.

صعد الشيخ وأخـذ يلقي الدرس. . وكـان مفروضـا أن أسكت مع الساكتين وأسمعه، ولكني كنت قد طرقت بحديثي بابا لا يستـطيع أبـو عبيد أن ينـافسني فيه. . فـالحقن والأدوية والأسمـاء الغـريبـة لـه فيهـا. . أمـا الجثث. . فسيـرتهـا لا تـأتي الا على ألسنة الـدكـاتـرة وحدهم. . ولهذا مضيت أتحدث. . وانقسم المأتم. . الغالبية تسمع الـواعظ. والأقليـة تسمعني، وأنـا أوزع انتبـاهي بين كـلامي وكـلام الواعظ. . كان الرجل قد وصل في حـديثه الى العـذاب الذي ينتـظر العـاصيـن في الآخرة. . وكـان قد استـولى على الألبـاب جميعـا. . أقصـد ألبـاب «النخـالـة». . فـالأعيـان كنت ألمحهم يتهـامسـون ويتثـاءبون وينـظرون في ساعـاتهم ويختلفون على أيهـا أضبط. . أما أصحـاب الأجسـاد الضـامـرة البـاليـة فكـانـوا مسمـرين في أمـاكنهم يسمعـون، ووجـوههم صفـراء ذابلة كـأوراق القـطن الخضـراء حين تصيبهـا الدودة واللطع، وأفـواههم مفتوحـة وعيونهم محمـرة بالـرمـد والرماد تحاور الضوء وتداوره لتستطيـع أن تتابـع الواعظ وهـو يتحدث حديث العالم الخبير عما يناله المذنبون، وكيف يتـولى أمر كـل منهم أربعة من زبانية الجحيم الغلاظ الشداد. . يخلعون عنه ملابسه. . ثم

ينهـالون عليـه ضربـا«بمقرعـة» من حديـد لهـا أسنـان تنهش لحمـه، وتدشدش عظامه، حتى اذا ما استوى وشبع أخذوه الى طابق آخر من النار. . وتولوا إدخاله في مواسير جدرانهـا من اللهب. . يظل يحـرق وهو حي، وكلما ذاب جلده كان له غيره ليتجدد عذابه. . فاذا عطش وطلب ماء سقوه من ماء النار، وماء النار من حميم وغساق. .

الغالبية كانت تسمع الواعظ، ولا تكاد تعـرف ما المقـرعة، ولا الحميم أو الغسـاق، ومع هـذا فمن طريقـة الشيـخ عبـد الحميـد في الالقاء، ومن غرابة الأشياء التي كان يرويهـا ورهبتها، كـان التأثـر قد بلغ بالناس حد البكاء.

والأقليـة كانت تتـابع حـديثي، وكنت قـد تعـديت حـدود كـل معقول وأخذت أروي لهم تفاصيل دقيقة مزعجة عن حوادثنا ونوادرنـا مع الجثث، وكيف أننا نتناول طعامنا أحيانا في المشرحة وعلى مرأى من البـطون المفتوحـة، وأحيانـا أخرى كثيـرة نلعب«الكوتشينـة» على صـدور المـوتى، وكيف أنني صنعت من العـظام والجمـاجم محـابـر ومسـاطر وأقـلامـا. . ثم حكيت لهم قصـة طـويلة عن الـذراع الـذي اشتـريته مـرة من فراش المشـرحة، وأخـذته معي الى حجـرتي، وما أحدثه من هرج ومرج بين سكان البيت. . الخ. . الخ.

وسألني أبو الهول وهو لم يعد يحتمل:

ـ واشتريت الذراع بكام يا داكتور؟

وتصنعت التذكر وقلت:

ـ والله خدته من الراجل يومها بريال.

فقال مبهورا:

ـ أماه.. يا خبر أسود ومنيل.. أمال يا خواتي بني آدم على بعضه يسوى كام يا داكتور؟..

فقلت وأنا أهز أكتافي:

ـ والله ما اشتريتوش.. انما يسوى له جنيه كده والا اتنين.

وانطلق المستمعون يرددون في ذهول:

ـ شوف يا أخي.. أي والله.. صحيح.. ما أرخص من بني آدم..

ـ دي عبر لمن يعتبر..

ـ لازم دول كانوا عملوا في دنياهم عمل يغضب الله..

وسألني أبو الهول وقد بدأت ملامحه تتحرك.. وعينه تتفتح، وملامحه تعلوها دهشة:

ـ وبيجيبوا الناس دول منين يا داكتور؟..

والحق أني ما كنت أعرف.. فزعمت أن هناك متعهدا يورد للكلية ما تحتاجه من جثث«قياسا على متعهد الضفادع في اعدادي»..

وكان الشيخ عبد الحميد في هذه الأثناء قد قارب الانتهاء من

حديثه، والناس قد طال استماعهم الى وصفه الدقيق لما ينتظر العاصين حتى بلغت أرواحهم الحلقوم. فما كاد يستثني من العذاب ويقول: «الا من خشي ربه..» حتى هاج الناس وماجوا يتنفسون الصعداء ـ وقد عثروا أخيرا على طاقة أمل ـ ويثبتون أنهم حقا وصدقا مؤمنون خاشعون، ويقولون في نفس واحد مبهور: «لا اله الا الله»..

ورأيت الشيخ عبد الحميد يتطلع اليهم بوجهه السمين الذي كسته حبات العرق، ويفرك كفيه مسرورا.. فحماسهم ذاك كان خير دليل على الأثر الخطير الذي أحدثه كلامه.

وتطلعت أنا الآخر الى جمهوري.. كان كل شيء على ما يرام.. وكدت أفرك كفي أنا الآخر.. لولا ابتسامة أبو عبيد الباردة التي لم تكن قد جفت بعد من فوق ملامحه..

وأطلقت آخر سهم في جعبتي، ومضيت أحدثهم عن الملل الذي أصابني من طول الاجازة وعن شوقي إلى تدريب يدي ومزاولة التشريح، ولكي أقطع دابر الشك قلت انني حتى مستعد أن أدفع في الجثة خمسة جنيهات.. انما.. أنا فين والجثث فين؟..

وخرجت من المأتم يومها مرفوع الرأس.. حتى إن أبو عبيد قال لي وهو يودعني:

ـ مع السلامة يا بيه..

ولم أراجع نفسي، ولا فكرت بعد هذا فيما قلته، ولا في التخشب الرمي أو مقارع الحديد ذات الأسنان.. كانت في نظري

أحاديث مآتم وجلسات لا أكثر ولا أقل.. تكون اذا قامت، وتنفض معها.

ولكني استيقظت ذات ليلة على نباح كثير يهدر أمام بيتنا حتى خلت أن كلاب جيراننا تُطارد عزرائيل.. وسمعت بابنا يدق.. ولم يفزعني ذلك.. فكثيرا ما كان يدق في أية ساعة من ساعات الليل ويكون السبب مغص مفاجيء أو بول محتبس.

كان الدق يزعج أبي فقط، ويجعله يلعن اليوم الذي أدخلني فيه الطب.. فقد كان يخاف أن أخرج لرؤية مريض مرة فيتربص لي واحد في الظلام ويقتلني. أما لماذا يفكر أحد في قتلي فذلك سؤال لم يخطر لأبي أبدا..

فتحت الباب ففوجئت بإنسان محني يحمل فوق ظهره(زكيبة) مملوءة لحافتها ويقول:

ـ مسيك بالخير يا داكتور..

الصوت مألوف، ولكن رغم الليل كان يجود بآخر أنفاسه وشعشعة الفجر قد أوشكت، لم أستطع التعرف على صاحبه..

ـ مين؟..

ـ اني صالح..

ـ أبو الهول؟..

ـ أيوه أبو الهول يا داكتور.. يقالي ساعة اخبط لما الكلاب

كلت رجليه . . وسع شوية . .

وتراجعت الى الوراء قليلا . فاستدار وأنزل الزكيبة على الأرض ثم قال :

ـ الأمانة أهه . .

ـ أمانة ايه؟! . .

كنت أسأله وأنا أنظر الى وجهه، وأحاول ادراك ما لم يستطع قوله . . ولم أر على ضوء «اللمبه السهاري» الا أن ـ أبو الهول ـ يبتسم، وكانت أول مرة أراه يبتسم . . فأدركت أن الأمر أخطر مما توقعت . .

ونطق أبو الهول وقال انه كان عائدا الى الكفر بعد سهرته في البلد فرأى جثة غريق طافية في المصرف . . فقال : بس، وأخرجها من الماء ووضعها على الجسر . . ثم عاد جريا في جري إلى بيت أبو شندي، وشحت منه زكيبة على ذمة الطحين، ورجع إلى المصرف جريا في جري، وعبى الجثة، وحملها، وخرم من الذرة الصيفي حتى لا يراه أحد . . وتسلل الى بيتنا بها . .

ووقفت أتابع كلامه، وأنظر الى طوله وعرضه وعيونه الوارمة وأشم الرائحة الفظيعة التي أدركت أنها تنبعث من الزكيبة، وأنا مذهول مدهوش أكاد لا أعي مما يقول حرفا . .

ووجدت نفسي أنفجر فيه . .

وانتظر الى أن انتهيت وقال :

ـ جرى ايه يا داكتور. . انت طلبك حدانا غالي قوي. . احنا بداك اليوم. . وان كان ع الخمسه جنيه أني مش عايز خمسات. . اللي تحط ايدك فيه أني قابله. .

ولم أعد أحتمل، واندفعت آمره والغيظ يخنقني أن يعيد الجثة كما كانت تماما. .

وصبر علي حتى جئت بكل ما عندي، ثم بربش عينيه وقال:

ـ وزعلان قوي كده ليه يا داكتور. . بلاش نضرب في العالي. . هات يا سيدي جنيه والعوض على الله. .

وانفجرت فيه مرة أخرى. .

ـ انت اتهبلت. . انت اتجننت. . انت جرى لعقلك. .

فرفع يده في فروغ بال وقال:

ـ الاه يا اخواتي. . بلاش الجنيه راخر. . هات يا سيدي ريال خلينا ننفض. . عدتها دراع بس يا داكتور. .

وأخيرا جدا. . بعدما ارتفع صوتي، وبدأ الغضب واضحا تماما في ملامحي استطاع أبو الهول أن يفهم أني لا أساوم، وأن عليه أن يعيد الجثة الى المصرف في الحال. .

وهنا تجمدت ملامحه، وعادت الى جدها الذي لا ينفك، وأغمض عينيه وقال:

ـ كده. . بقى تعملها فيّ يا داكتور. . هم الأفندية كدابين يا

اخواتي . . تحلف ع المصحف انك ما قلت الواحد بخمسة جنيه . . تحلف . . قلت والا مقلتش . .

وثار بيننا جدل طويل . . أنا أصر على أني لا أذكر شيئا، وهو يعيد على مسامعي ما قلته كلمة كلمة ويعطي الأمارات والشواهد . . ولم أوفق في اقناعه بإرجاعها اذ كنت أتعثر وأنا أقنعه في الخجل الشديد الذي كان يملأ نفسي، ولما لم أجد فائدة هددته بإبلاغ الأمر للعمدة . . وحينئذ اربدت ملامحه وبدا كأنه سيثور ثورة لا يعلم الا الله مداها وقال:

ـ كلام ايه ده يا ولاد . . بقى تعملها فيّ كده والآخر تبلغ . . طب ورحمة ابويا محمد أبو صيام ماني مرجعها واللي معاك اعمله . وبلغ مطرح ما تبلغ . . انت مش قلت الواحد بخمسة جنيه . . قلت والا ما قلتش . . بقى تعملها فيّ كده وتبلغ . طب بلغ . ورحمة أبويا محمد لاسيبهالك وماشي . . قلت والا ما قلت .

ويبدو أن صوتنا كان قد ارتفع حتى أقلق أبي . . فقد وجدته يبرز من باب حجرته ويقول:

ـ ايه جرى ايه؟ . .

وأسرعت اليه أرجوه الا يزعج نفسه . . وأحاول اقناعه ان المسألة مغص لا أكثر ولا أقل ولكني كنت متأخرا . . اذ كان قد لمح صالح واقفا بوجه لا يبشر بخير فقال:

ـ والواد ده عايز ايه . . دا الواد ده حرامي «والظاهر أن الفلاحين

كلهم حرامية عند أصحاب الأرض». . دا بيسرق الكحل من العين وابوه من قبله. . ايه اللي جابك دلوقت يا وله. . عايز ايه. .

كان أبي يقول هذا وهو يتجه الى الباب، والى صالح، ولم استطع أن أتدخل فيما حدث بعد ذلك. . فقد تعثر أبي في الزكيبة، وكاد يسقط وتساءل غاضبا عم جاء بها، وعم جاء بصالح، وقال وهو يتحسسها ويحاول أن يخمن محتوياتها:

ـ ايه ده يا واد يابو الهول. . انت سارق بطيخ يا ابن الـ. . وجايبه هنا ليه يا وله. . والدكتور ماله. . دا مش بطيخ. . أف. . ايه ده يا خويا. . أعوذ بالله. . أعوذ بالله. .

وصرخ أبي صرخة عالية مفاجئة، وكانت تلك أول مرة أراه يصرخ والفزع يملأ عينيه والرعب قد تملكه. . واندفعنا اليه أنا وصالح نسنده حتى لا يتهاوى، وسرت به وحدي الى الفراش والصدمة قد أفقدته القدرة على السؤال أو الاستفسار أو حتى النطق، ولكن لم يدم ذلك سوى لحظات. . استرجع نفسه تماما بعدها، وجلس ينصت لي وأنا أحكي له ما كان من أول ما طقطق الحديث في المأتم. . ينصت وهو يخبط كفا على كف ويقول:

ـ مجرم. . حرامي ابن حرام سل مل. .

ولما عدت الى أبو الهول وجدته جالسا مسندا ظهره الى الحائط ورأسه مائل في تأثر عميق. . وحين رآني وقف وقال:

ـ سلامته لفندي. . يا خبر أسود ومنيل. . ودي كانت شورة ايه

السودة دي. . سلامته.

وهـزرت رأسي وأنا أعـد الدش البـارد الذي جهـزته لـه ولكنـه كفـاني مؤونة الكـلام فقد وجـدته ينحني على الـزكيبة ويمتحن متـانة رباطها ويقول:

ـ والنبي يـا داكتور أني عمـري ما حلفت بـرحمة أبـويا محمـد باطل انما عشان خاطر والـدك. . يا خبـر أسود يـا ولاد. . دا الواحـد خزيان من روحه. . يا شيخ داني انبليت م الكسفة. . اللهم اخـزيك يا شيطان. ما كنت مروح في حالك يا وله مـالك ومـال خشب الرمـة والزفت ده. . انما تقول ايه. . يا خبر اسود ومنيل. . داني كنت بقول لروحي زمان الداكتور حياخدك بـالحضن يا ولـه. . والختمة الشـريفة عمري ما حلفت بحياة ابويا محمد باطل.

وكان قد أوقف الزكيبة فالتفت إليّ قائلا:

ـ والنبي يا داكتور ولا صغرة تسندها سندة صغيرة. . بس أوعى هدومك. . هـه. . يا قوة الله. .

ورفعها بقوة جبـارة فوق كـاهله، وتمتمت وأنا لا أكـاد أستطيـع الكلام:

ـ معلهش يا صالح. . تتعوض. . معلهش.

فقال وهو يستدير وتستدير الزكيبة وراءه ويتجه الى الباب.

ـ والا عليـه. . أهي ان طلعت والا نـزلت زكيبـة. . هي يعني والا المقمعمة اللي بيقول عليها سيدنا الواعظ. . أهي ان طلعت والا

نزلت زكيبة . . حتكون أكتر من اللي بنشيله . . يا شيخ قول يا رب .

وكان قد خرج من الباب، وكاد يختفي في الظلام حين فوجئت به يتوقف . . ثم يستدير ليواجهني ويقول من تحت الزكيبة :

ـ بس افتكر كويس يا داكتور . . بذمتك يا شيخ وديانتك والأمانة عليك . . قلت والا ما قلتش؟ . .

الجرح

فاجأنا الريس حين طلب منا أن ننتظر. قالها بلهجته البحراوية وكان كلامه من لحظة أن عرفناه قليلا. وكان من نوع لا يرحب بالجدل ومع أن كل شيء كان على أتم استعداد، الا اننا سكتنا كلنا ونحن متأكدون أن لا بد هناك ضرورة لهذا الانتظار، غير أن حلمي لم يسكت. . عوج وجهه وأسبل جفنيه وقال للريس: احنا مستعجلين. ولزومه ايه الانتظار؟

ويبدو أن كلامه تبدد ولم يصل الى آذان الرجل، فقد كان مشغولا بشيء ما يعدل من وضعه في«القلع». وأحرج حلمي حين لم يتلق ردا على سؤاله فعاد يقول:

ـ مستنيين ايه يا ريس؟

ونطق الرجل كلمة ولم نتبينها، فقد كان يمسك مسلة بشفتيه بينما يداه مشغولتان. والتفتنا جميعا نحوه فرفع المسلة وقال:

ـ واحدة ست.

قال حلمي هذا وتمدد، وأحدث تمدده انكماشات في الأرجل وثنيات هنا وهناك، وأصوات احتجاجات كان مبعثها أننا نعرف أنه لا يريد النوم بقدر ما يريد أن يرينا سخطه على الوقت الضائع.

وركز الريس عليه انتباهه لحظة، ثم ابتسم وقال:

ـ اسم الكريم ايه؟

فقال حلمي وهو يزفر:

ـ زفت.

وعاد الريس يسأله:

ـ ودستورك منين؟

واعتدل حسن وقال:

ـ منين ايه يعني؟ اشمعنى يا ريس؟

فقال الريس وهو يجذب حبلا:

ـ بسأل.

وقال أحدنا :

مصيبة تقيله.

وأجاب آخر:

ـ ع تعطلنا . . ويمكن تودينا في داهية.

ولعب ثالث بيده في الماء ونثر قطرات على الباقين وقال:

ولا بد أن دهشة كبيرة انتابتنا فقد تململنا، ونطق أكثر من واحد مرددين:

ـ ايه؟! ست؟!

واحتج حلمي مخفيا غبطته قائلا:

ـ ست ايه؟ وده وقته؟ انت مش فاهم والا ايه يا ريس؟

وأجاب الريس والمسلة بين أسنانه هذه المرة، تقلب الذال جيما، وتعطب الكلمات:

ـ لاجم ناكدها معنا.

وانهالت الأسئلة والاحتجاجات. وانتظر حتى فرغنا وقال:

ـ أنا حالف بالطلاق لازم آخدها.

وارتفعت أصوات احتجاجنا أكثر فأكثر.

ـ دي ساقت عليّ الدنيا، وباتت مع مراتي عشان تضمن تيجي لغاية ما حلفت لها يمين الطلاق.

وأتبع كلامه بابتسامة يرضينا بها. كانت له سنة من بلاتين براق، وكان وجهه نحاسيا أسمر، ورموشه صفراء طويلة، واللاسة التي تعمم بها من حرير، وفانلته زرقاء من الصوف تنتهي بياقة مسدودة تحيط برقبته وأكمام طويلة مثنية، وله سروال.

ـ هـه.. أنام أنا يقى.

ـ مش ممكن ناخدها.

واتفع صوت يسأل:

ـ ودي عايزه تروح ليه؟

ونظر صاحب الصوت إلى الريس وأعاد نفس السؤال.

ولم يرد الريس، وكنا كلنا نتوقع هذا. كان لا يجيب الا على ما يحلو له الاجابة عليه، وأحياناً يكتفي بالتحديق في سائله وهز رأسه.

كان ثمة هدوء على الشاطىء.. هدوء متكاثف ثقيل. والهدوء حين يتكاثف ويستتب يصبح شيئا مروعا. وكانت الدنيا ليلا والبلدة ساكنة هامدة بجوارنا، بيوتها أشد سوادا من الظلام، بيوت قديمة متراصة حيطانها لا تحتمل البرد، وطوابقها متآكلة متساندة كجماعة من خفر الليل العواجيز، وتجاهنا شارع واسع جدا يسمح ضيق البلدة باتساعه، وتلمع فيه برك ماء وتتجمع على حوافه أكوام من قشر الأرز الذي تنفثه ماسورة طويلة تمتد عبر الشارع وتنتهي في مضرب الأرز، أعلى بناء في البلدة، والبناء الوحيد الصاحي، اذ كان يعمل رغم اطفاء الأنوار والأوامر، وتتصاعد دقات وابوره لب دب، لب دب، لب دب، موحشة كئيبة في البلدة المظلمة، كأنها القلب لا يزال يدق في جثة ماتت وشبعت موتا.

وكان قاربنا واقفا على حافة البحيرة وظهر البلد اليه. وكنا اذا التفتنا الى البحيرة ضاعت أبصارنا بين البحيرة الراكدة المظلمة في

السماء، والسماء التي استقرت بنجومها في قاع البحيرة. وكان قلع المركب مطويا نرى بدايته القريبة منا، ولا نرى نهايته المذابة في الظلام. وكنا أربعة، والقارب صغير، وحلمي مضطجع، والريس جالس القرفصاء مستندا الى الصاري، والريح نائمة، ودق الوابور يصل الينا بانتظام يضايقنا انتظامه، وأنفاسنا تتقارب وتتباعد، والأحداث كثيرة، وغريبة ومتتابعة، وكلها تحدث في يوم واحد. ونتنفس بعمق فتمتلىء أنوفنا برائحة الزفارة. كل ما في البلدة يضج بها.. الأرض والبيوت ورغبات الناس والقوارب.. فالبلدة أهلها صيادون، والسمك صناعتهم، وفي كل مكان تجد آثاره، والقارب يهتز اهتزازات خفيفة، يجذبه موج صغير الى الداخل، ثم يدفعه الموج الكبير ليصفع به الشاطىء، والريس كوعه فوق ركبته، ويد من يديه ممدودة الى آخرها، واليد الأخرى فوق الدفة، ورموشه الطويلة مسبلة، وفمه نصف مفتوح، ويكاد شخيره يتصاعد.

واهتز القارب، وتحرك واحد، وخرجت في الظلام علبة سجائر، وتناولناها كلنا، وأخذ الريس سيجارة.. وضعها بين اصبعي يده الممدودة ورفض أن يشعلها.

ومضى الدخان يتصاعد من أنوفنا وأفواهنا في صمت والبقعة التي نحن فيها أصبحت صفحة سوداء، فيها لطع بيضاء تحدد هيكل القارب، وولعة أربع سجائر تتوهج، وفوانيس النجوم الصغيرة تتأرجح، وناب الريس البلاتيني يبرق.

وقال حلمي فجأة:

ـ دا مش كلام، ما نرجع أحسن.

قال هذا وهو ينتفض بشدة ويقوم. ومال القارب حتى كاد ينقلب، وارتطمت جبهته ارتطاما عنيفا بالصاري حتى إنه صرخ. وما كاد القارب يعتدل حتى كانت يده تتحسس جبهته، وحتى كان يقول:

ـ أنا اجرحت يا جماعه. والله اجرحت، ياه! ده فيه دم. ادوني منديل.

وحدثت ضجة، وتناثرت الشتائم من فم حلمي، وكثرت التعليقات. ثم خمد الكلام وانقطع، ودلفنا الى سكون لا يعكره الا صرير الصراصير المتصل الدائم.

ورفع الريس رأسه مرة وحدق الى بعيد، وتمايل القارب حين اندفعنا كلنا لنحدق.

كانت ثلاث كتل سوداء تتحرك مسرعة في اتجاهنا.. كتلة قصيرة صغيرة في المقدمة، والكتلتان اللتان وراءها تحاولان اللحاق بها وتخوضان برك الماء دون جدوى.

ولم يكن القارب قد تحرك، أو حتى كان في نيتنا أن يتحرك، ومع ذلك كانت من في المقدمة لا تكف عن الصياح:

ـ أوع تمشي.. أوع تمشي يا خويا. أنا أهه.. أنا جيت..

وفي غمضة عين كانت قد وصلت وقذفت بنفسها الى القارب، ولولا أننا قمنا جميعا وتلقفناها بأيدينا لكانت قد هوت الى الماء، ومددنا اليها أيادي كثيرة تساعدها، وأمسكت بأيدينا في قوة، وتحفز،

وعصبية، وكانت أصابعها حادة صلبة ذات تجاعيد، والقبضة قبضة أم.

وأفسحنا لها مكانا، ولكنها لم تجلس.. ظلت تتلفت في قلق ولهفة ولا تستكين، وتود أن تقول أي شيء وتسأل عن كل شيء.. وحين وصلت الكتلتان قالت بسرعة وحسم:

ـ روحوا انتم بقى..

قالتها كمن يود رفع الهلب الذي يربطه بالشاطىء لينطلق. وتكلمت المرأتان.. في وقت واحد.. وكلام كثير. واحدة طويلة وعجوزة. وكلامها أيضا طويل عجوز.. والثانية فتاة. لا بد أنها جميلة فصوتها كان فيه رنة من اعتادت الثقة في نفسها وجمالها.. كانتا لا بد أخت وبنت أخت، وكان رد الخالة واحدا حاسما لا يتغير:

ـ روحوا انتم بقى.

ولم ندر لإصغائنا للحوار سببا. وعقولنا بدت لنا كالصفحة البيضاء التي لم يخط فيها حرف.. وما نسمعه كأنه أول كلام عربي نسمعه.

وأفاق واحد وغمز لجاره:

ـ مصيبة وجت لنا على الآخر.

وقال له جاره:

ـ ح تخاف دلوقت وتبهدل الدنيا.

وقالت الخالة مرة :

ـ روحوا انتم بقى .

وخرجت الجملة دون أن يسبقها أو يعقبها رد من الشاطىء. كنا قد ابتعدنا.

وبدت البحيرة لا نهاية لاتساعها وأصبحنا بالقارب والريس والصاري نقطة تافهة في الوجود غير المحدود. وتلك هي البحيرة فقط، فما بالك ونحن من لحظة أن غادرنا القاهرة وطريق طويل يسلمنا الى طريق أطول، والأرض الخضراء على الجانبين. أرض واسعة لا حد لاتساعها أوسع من أي شيء رأيناه، أوسع من السماء، فالسماء تضيق بسطح الأرض، فتنحني السماء وتصنع خط الأفق، والأرض لا ينهيها خط ولا أفق. فبعد كل أفق تجد آفاقا أوسع.

والقرى كثيرة لا حصر لها، بين كل قرية وقرية قرية، وفي كل قرية مئات البيوت، وكل بيت يعج بعشرات الناس، وكل هؤلاء مصريون ـ كلهم مصريون ـ لا يمكن أن يموتوا كلهم أبدا. ونترك أقليما وندخل اقليما والأرض لا تنتهي والناس لا ينتهون. أناس متشابهون، وجوه لها لون أرضنا السمراء، وذقون وشوارب كشوش الأذرة، ونفس السحنات، وكأنهم رجل واحد مصنوع من ملايين الرجال. ويقولون ان سيدنا نوح كان طوله ألف ذراع. ترى كم طول هذا العملاق الذي لم نعثر له على بداية، وظلت السيارات والقطارات تقطع بنا الأميال والأميال ولا نعثر على نهاية. حتى حين

وصلنا المطرية، وانتهت الأرض وبدأت البحيرة، لم ينته العملاق بل تحول الى يد ضخمة، يد ذات عشرات الآلاف من الأصابع، يطلقها في ماء البحيرة فتملك البحيرة وتعتصر من مياهها خير ما فيها، وكما يحدث لليد اذا امتدت الى الماء وطال امتدادها، فالناس تصفر شعورهم، وتبهت بشراتهم، ويصبح لعيونهم زرقة الماء. ويتغير شكل الجسد ولا ينتهي العملاق.

كنا قد ابتعدنا.

وكل شيء أصبح مستقرا ما عدا الريس.. كان دائب الحركة لا يهدأ. المذارة في يده يغرسها في قاع البحيرة ثم يدفعها بصدره، وأرجله تمرق من وراء ظهورها وتدور حول القارب، وأصابع قدميه تتشبث بالحافة في حنكة ودراية وكأنها قد تحولت الى مخالب صقر. وحركته تبهرها، وكأنه يقوم بمعجزة، يميل ليدفع القارب أكثر حتى لنعتبره ساقطا في الماء واذا به يرتد، والمذارة قد انتزعها وكأن ألف حبل خفي تصل بينه وبين الصاري، وتحميه من السقوط.

ولم تكن الراكبة الجديدة انسانة، كانت كتلة قلق حية جعلتنا نحس أن روحا جديدة حلت بيننا وفينا، عيناها تنظران الينا ولا تتفحصانا، وأيديها على ركبها، وأيديها على الحافة، وأيديها تضرع لإله غير منظور ورأسها يدور ولا يستقر، وينثني فجأة الى الشاطىء، ثم يرتد ويعود ويدور. وما كاد الريس يفرد القلع حتى التفتت اليه وقالت:

ـ مش على طول يا خويا..

وقال الرجل بلكنته البحراوية والمدراة لا تزال تحت ابطه:

ـ ايواه.. ربنا يسهل..

وردت الخالة:

ـ انشاالله انشاالله الهي يخليك..

والتفتت الى الجالس بجوارها وسألته:

ـ وانتو كمان.

فأجاب حلمي ويده تتسلل دون وعي وتتحسس مكان الجرح في جبهته:

ـ واحنا كمان..

وعادت تسأل الريس:

ـ ونوصل امتى..؟

فقال حلمي:

ـ حد عارف..

وأعادت السؤال وابتلهت، فقال الريس:

ـ يا أمي ربك يعدلها..

واستمرت:

ـ يعني بعد ساعة؟.. إلهي يخليك لشبابك.. بعد ساعة؟

ولما لم يجب الريس، التفتت الى حلمي وسألته:

ـ بعد ساعة يا بني؟ الهي يخليك.. بعد ساعة والا أكتر؟

وهنا زعق الريس وقال:

ـ دا بتاع ربنا يا ستي. واللي منه لا بد عنه. هو ما فيش صبر؟

والصبر هي الكلمة التي كان يبحث عنها كل منا ليسمي الرائحة التي أشاعتها الخالة من لحظة أن جاءت. كانت ترتدي كمعظم الخالات ثوبا أسود وطرحة سوداء، ولا يظهر من جسدها غير وجهها فقط، وثيابها كانت تبدو وكأنها لم تخلعها منذ أيام كما لو كانت أردية ميدان. وأشاع قدومها تلك الرائحة، رائحة العواجيز التي لا يعرف أحد إن كان سببها هو رائحة الصناديق التي تحفظ فيها الثياب. أو هي رائحة نسيج الملابس نفسه. المهم أنها تذكرك بجدتك، وبالماضي، ومع أنها ليست عطرة الا أنك لا بد تحس بالألفة تجاهها، ولا تتأفف.

ولم تكف الخالة عن الكلام منذ جاءت.. ولم نكن نتكلم.. والريس هو الآخر ساكت. كانت قد مضت ساعات ونحن نترقب، كل ما يهمنا هو اللحظة التالية وما يحدث فيها. والكلام لا يدور في جو الترقب، ولا يدور ساعة الضيق.. وكل شيء قد حدث على حين بغتة. كنا في بيوتنا وأعمالنا وقال كل منا للآخر: يالـلا، واذا بنا في الطريق وكان كأن لا ينقصنا سوى الاحتكاك لنشتعل. وأصبح أهم شيء لدينا أن نرى ونسمع ونجهز انفسنا للمشهد القادم والكلمة

التالية. . ووصلنا المطرية في الضحى، وانتظرنا الى أن يحل المساء لنعبر البحيرة الى هناك، وقضينا اليوم بطوله نعيش في بلدة الانسان والسمك. . والحياة تمضي من حولنا كما اعتادت أن تمضي طوال آلاف من الأعوام. . الرجال ذوو الشعر الأصفر والبشرة الفاتحة والأفواه المفتوحة على الدوام كأفواه البلطي يتزوجون البنات، والبنات شقروات، أجسادهن لها تناسق «المز» ورشاقة الطوبار، وطعمهن أشهى من السمك الطازج اذا شوي في الفرن وأضيف اليه الفلفل والملح والثوم وعصير الليمون. ولهذا فكل يوم زواج، والأطفال كل يوم يولدون، الأسماك هي الأخرى تتوالد، ثم وتتكفل البحيرة بصغار الأطفال وصغار السمك. صغار الأطفال طول النهار في الماء يألفون الماء المالح ويألف الماء المالح أجسادهم، ولا أحد ينهرهم، ولا يخاف عليهم أب، فالبحيرة للصيادين غول مستأنس.

ويكبر الطفل فيكبر حب استطلاعه، ويترك الشاطىء ويتعلم العوم، وصغار السمك أيضا تتعلم العوم. ويصبح طول الطفل متر وطول السمكة قراريط. . ويذوق الطفل طعم السمك، ويذوق السمك طعم الطعم فلا ينسى الطفل حلاوة السمك، ولا ينسى السمك حلاوة الطعم. ويمسك الطفل بسنارة ويخرج سمكة وتهزه الفرحة فقد هزم العالم المجهول الكائن وراء السطح البراق. ويهزمه مرة ذلك العالم المجهول ويعود خاوي الوفاض. ويفهم الطفل أن السنارة نصفها في يده يخضع لإرادته، ونصفها الآخر يعتمد على رغبات مجهولة في العالم المجهول.

ويسمع أباه يقول الحظ، ويردد الكلمة لا يعرفها، ثم يرددها وهو يعرفها ويؤمن بها، يؤمن بقانون آخر يحكم العالم المجهول، قانون لا يخضع لقانون.. ولا يستسلم الانسان حتى لو كان خصمه قانون لا يخضع لقانون، ويبدأ الصراع الرهيب بين الصياد الصغير والبحر المجهول، ولا بد من أشياء تؤنس وحشة الإنسان في ذلك الصراع. لا بد من علامات تشاؤم وتفاؤل، لا بد من موال، لا بد من حدوتة، لا بد من أمل طويل لا ينقطع، لا بد من الصبر. . الصبر.

رائحة الصبر كنا نستنشقها ونتمثلها والقارب قد اندفع وابتعد عن الشاطىء وأصبحنا في قلب البحيرة، وشعاعات خفيفة متباعدة تنتشر في الأفق وتبشر بطلوع القمر، وهدهدة.. أصوات هدهدة هي كل ما يسمع والقارب يرفعه الموج الصغير ثم يرقده بحنان على سطح الماء، والموجات تهتز، والنجوم تهتز، والريس عند المؤخرة يهتز، يد على الدفة ويد ممسكة بحبل القلع توجهه ليعترض الريح. والريح شفاف خفيف، والدنيا برد، والبرد يكاد يتحول الى ابر.. ابر طويلة ثاقبة تخرق أجسادنا حتى تصل الى النخاع، والخالة جالسة، لا منكمشة على نفسها ولا منطوية وكأنها نعسانة أو ميتة.

وقال لها حلمي:

ـ دانة يا خالة؟

فأجابت:

ـ آه.. باقي كتير.. ييجي ساعة يا خويا؟..

ونطق الريس:

ـ أنوي المشيئة يا شيخة.. قولي انشاء الله.

فقالت الخالة على الفور:

ـ انشاء الله يا خويا انشاء الله باذن الله. بعد ساعة؟

وكادت موجة الحديث تنتشر لولا أن الريس أسكتنا، فالهدوء مخيم، والكلام ينقله سطح الماء المستوي الى مسافات بعيدة، والبحر له آذان.

ورحنا نهمس. قالت الخالة:

ـ انتم كمان رايحين؟

فقال حلمي:

ـ أيوه..

وسألتنا كلنا:

ـ ورايحين ليه؟ انتم من هناك؟

ـ لأ..

ـ ليكو قرايب أمال؟

ـ أبدا.

وقال الريس وهو يبتسم:

ـ ما قلتلك دول فداوية يا ست..

وتململنا، فلم نكن من الفدائيين أو المحاربين، وهممنا أن ننطق ولكن الخالة تمعنت فينا وسالتنا:

ـ انتو صحيح فدائية يا ابني؟

فقلنا:

ـ أمال ح نكون ايه يا خالة.

وتركت الحديث ووضعت يدها برفق على كتف حلمي وقالت:

ـ ما تحطش ايدك ع الجرح يا ضنايا لحسن وحش..

وأنزل حلمي يده بعد تردد، واختطف سيجارة من واحد منا وسألها:

ـ وانتي رايحه ليه يا ست؟

ولم تجب ولمحنا دموعا تهطل على الفور من عينيها دون بكاء، واستغربنا، وأعاد حلمي السؤال فقالت:

ـ رايحة أشوف ابني.

ولم تنطق «ابني» حروفا كانت من دموعها أكثر من الحروف وهي تنطقها.

ـ ابنك ماله؟

وأجابت:

ـ ابني يا خويا:. هناك..

ـ بيعمل ايه؟

ـ مجروح . . مجروح يا ضنايا وما شفتوش بقالي شهر.

واندفعت تبكي . وشل بكاؤها ألسنتنا، ولكن حلمي الح :

ـ مجروح ازاي؟

ومضت تتكلم وتبكي وتتكلم :

ـ جتله رصاصتين في رجليه . . الهي ينتقم منهم البعدا.

ـ ليه؟

ـ كان بيحارب في الهوجه ساعة ما نزلوا.

ـ كان بيحارب!؟

قلناها كلنا مبهورين، وكأننا نردد أمنية غالية، وكأننا نطلق دعوة. ولم تكن أمنيتنا وحدنا، كل من قابلناه كان يرددها، وقليلون هم من أتيحت لهم الفرصة، فالمعركة كانت حادة وباترة نشبت فجأة، وانتهت فجأة، ولم تستمر سوى أسبوع وكأنها طعنة خنجر، حتى أصبح في نظرنا البطل هو من كان هناك والمقدس هو من اشترك فيها، أصبح كل من اشترك فيها يحف به في نفوسنا نوع من التقديس وكأنه أسطورة، وكأنه كائن غير موجود، فاذا بالخالة ابنها قد حارب، وجرح، وقلنا لها :

ـ وزعلانة ليه؟ . . ابنك بطل.

ـ عايزه أشوفه . .

ـ دي اصابته بسيطة، ومالك نازله بكا عليه يا ستي؟

ـ بقالي زمان ما شفتوش. . مشتاقاله وجيت مرة المطرية قبل كده. . وركبت القارب. . ووصلنا بور سعيد. . والانجليز حاشونا ثلاثة أيام وكان الرصاص زي الناموس فوق روسنا وبعدين رجوعنا. . ودي تاني مرة. . ح نوصل امتى يا خويا؟. . الهي يخليك. . عايزه أشوفه. . مش قربنا؟

وتناهى السؤال الى وعينا غريبا مدويا. وانطلقت عيوننا نستكشف البحيرة. وفقدنا الابصار في المسطح اللانهائي من الماء، وغابات الحشائش المتناثرة، والسماء ذات الضوء الشاحب والقمر المكسور الذي بدأ يزحف صوب الأفق، ولا شيء سوى هذا. . لا شيء سوى الماء الكثير الآسن، الماء الأسير، الباقي بعد الصراع، صراع النيل والبحر الكبير، النيل الهائل الذي أنشب أظافره في البحر وأسر الكثير من مائه، وحاصره، وصنع البحيرة، لا شيء سوى سكون. . سكون غامض مثير، مليء بأسرار وألغاز، سكون الأسرى ومعسكرات الاعتقال، سكون مرعب مخيف، سكون البحيرة التي عبدها القدماء.

ولم نكن بعد قد عرفنا الكثير عن ابن الخالة. . كنا نود أن نعرف كل شيء عنه من لون شعره لطريقته في المشي.

قالت:

ـ أبدا يا بني. . لما الضرب خصل قال لازم تسافري. قلت ما اسافرش. قال لازم. قلت له يا بني انا ماليش الا انت وربنا. هو

حيلتي من دنياي . . أسيبك ازاي . قال لازم وركبني المركب. ورحت مصر. يقطعني أنا اللي ما استنيت وياه . . يقطعني اللي سبته .

ـ وحارب؟!

ـ وحارب وجتله رصاصتين في رجله .

ـ وعرفتوا ازاي؟

ـ هو في المستشفى وبعت لنا جواب في الصليب الأحمر يا خويا . . وقال الخدمة زي الزفت ومفيش أكل . يا بني يا حبيبي! مين يجيب له يشرب اذا عطش؟ مين يسقيه؟ مين يسأل عنه؟

واعتدلنا جميعا .

كان الأمر يتأرجح في نفوسنا بين الشك واليقين، كنا نعتقد أنها لا بد أم قد لسعها الشوق الى ابنها المحجوز هناك وصممت على رؤيته . وقصص البطولة مودة . كل قاطن هناك لا بد اشترك ، وكل قاطن بطل ، وكل واحد قتل من الأعداء مئات . وتبادر الينا أن الخالة هي الأخرى تود تضخيم الأمر واختلاق المستحيل لتصل الى هناك . . ولكنا اعتدلنا . . فغير الأم لا يستطيع أن يمثل ابدا دور الأم ، وأم غير المجروح لا تستطيع أن تمثل أبدا دور أم ابنها المجروح . وكانت في جلستها التي لم تغيرها ، والتي يخيل للانسان اذا رآها أنها واقفة ، وواقفة على طراف أصابعها وليست جالسة ، وعيونها وهي تنظر الى بعيد ولا تطرف ولا تمل الرؤيا والنظر وكأنها تتشوف إلى حبيب ، وكلماتها ، والطريقة التي تنطق بها كلماتها ، ودموعها التي تغرق

الكلمـات وتغص الحلق، كانت بـلا ذرة شك مجـروحـة وأم مجـروح. اعتدلنا ونحن نحس بقشعريرة انبهار. . وكأننـا ونحن ننظر اليهـا نعبد الخالق أو نصلي للشرف.

وقال حلمي:

ـ خالة . .

ـ نعم يا خويا.

ـ انتي زعلانه انه حارب؟

ـ أنا يا بني زعلانه انه مجروح ودلوقت لوحده.

وقهقه حلمي كمن يود أن يغير طعم الحديث، وسألها في سخرية غير لاذعة:

ـ طيب. . افـرضي يا خـالة انـك كنت وياه سـاعتها. . كنتي ح تخليه يحارب؟

وانحدرت دموع كثيرة من عينيها، وقالت في لهجة روتينية:

ـ أيوه كنت أخليه.

وزام حلمي غير مصدق، فتابعت اجابتها بإخلاص هذه المرة:

ـ كنت اخليه اخليه. . انما لازم كنت أحارب ويـاه. رجلي عـلى رجله.

وقال حلمي مستخفا:

ـ تشيلي البندقية؟!

ـ أشيلها . .

وتدخل واحد وقال:

ـ طب شيل انت ايدك من ع الجرح يا حدق .

وتنبه حلمي الى أن يده كانت قد عادت إلى مكانها فوق الجرح دون وعي منه، فأنزلها، وتوقف برهة، ثم تابع استخفافه ليداري خجله :

ـوتضربي نار يا خالة؟

ـ اضرب ما اضربشي ليه؟ أهم بيقولوا ان الستات كانت بتضرب .

وتابع حلمي استجوابه :

ـ طيب افرضي انه تعور وانتي بتحاربي معاه، تعملي ايه؟ وبكت ولم تجب. وأسكتنا حلمي. ولكنه فعل هذا للحظة ثم عاد يسألها :

ـ يا ستي دا الحكاية بسيطة . . وهو في المستشفى، وزمانه طاب. ومالك ملهوفة عليه قوي كده ليه . هو انتي لوحدك . ما كل واحد اتعور له أم زيك كده. ما كنت نستنى لما يخرجوا الانجليز وتروحي في أمان بدال ما تعرضي نفسك للموت كده. انتي لازم ترجعي وتستني .

فأجابته بلهجة هادئة ولكنها حاسمة :

ـ ما اقدرشي استنى .

ـ ليه؟

ـ عايزه اشوفه. زمانه لوحده. عايزه اشوفه بعد اللي حصل. دا كان في الحرب يا بني. الهي ما يحرق قلب أمك عليك.

وضحكنا لذكر أمه، ومع هذا لم يملك كل منا بينه وبين نفسه الا يتذكر أمه، ثم ينفيها على عجل من ذاكرته.

وحلت لحظة صمت..

الريح بدأت تنتعش، ونور السماء قد خفف كثيرا من ظلام البحيرة، والقلع منفوخ، وفم الريس مفتوح، وعيونه لا تغفو، والجو مملوء بالصرير المتصل الذي لا ينضب ولا ينقطع..

وسألها حلمي بصوت شاعري ممدود يقارب لهجتها:

ـ هو كبير يا خاله؟

فقالت دون أن تنظر إليه، وعيناها هائمتان معلقتان فوق نجمة بعيدة في قاع البحيرة:

ـ اهو اسم النبي حارسه بيجي قدك كده.

ـ ومتجوز؟

ـ خطباله..

وارتفع صوت حلمي في هزار مفاجىء:

ـ وزعلانه قوي كده ليه؟ تلقاه كان طول النهار نازل فيكي شتيمة.

ـ أبدا والنبي يا خـويا. . دا لسانه مفيش أنضف منه.

ـ وكان بيشتغل ايه يا خاله؟

ـ عندنا دكـانتنا يـا خويـا. . أمال هـو قعد ليـه؟. . قال لي مـا أسيبش الدكانه للانجليز ينهبوها أبدا.

ـ وكان بيحب مصر يا خاله؟

ـ مصر مين يا خويا؟

ـ مصر بلدنا. .

ـ وحد يا ضنايا يكره بلده. . الهي يخليك. .

وصنعت الـدموع خطين رفيعين لامعـين على وجنتيهـا، وانـدفـع حلمي يقول في حماس مفاجىء:

ـ قا ستي ابنك راجل واتعور في معركة رجالة. اتعور وهو بيدافع عن بلدنا وشرفنا. بكره يكتبوا اسمه في الجرانين وينشروا صوره.

فأجابت وهي تهز رأسها:

ـ بس عايزه اشوفه، عايزه أشوف ايه اللي جرالـه. . الهي يخليك يا ريس. لسه كتير؟

ولم يجب الريس.

وهز حلمي رأسه في يأس، ثم تنبه فجأة وقال بالانجليزية وكأنـه عثر على كنز كبير:

ـ أتعرفون لماذا هي مصرة على رؤية ابنها؟

وقال له واحد بالعربي:

ـ ليه؟

فقال:

ـ انها تدرك بغريزتها أنه لا بد قد تغير بعد المعركة. تريد أن تتبين ما حدث له من تغيير وكيف أمكن لابنها الذي ربته ورأته طفلا، كيف أمكنه أن يحمل السلاح ويحارب. وتريد فوق هذا أن تطمئن الى أنه لا يزال ابنها بعد أن حارب كالرجال وحمل السلاح.

وضرب واحد يد حلمي التي كانت قد تسللت مرة أخرى الى جبهته وقال بالانجليزية أيضا:

ـ يا مغفل أهم شيء هو القوة الرهيبة التي تجذب الأم الى ابنها. القوة التي لا يقف أمامها حائل.

ولم يظفر التعليقان بتعليق، كل ما حدث أن الخالة ظلت تنظر اليهما وهما يتكلمان، ثم التفتت الينا وسألتنا:

ـ أما انتو رايحين ليه يا خويا؟

فأجابها حلمي:

ـ مش قلنا لك فدائية. مش مصدقة والا ايه؟

وكدنا نضحك لولا أن سمعنا الريس يقول:

ـ اسمعوا.

فسكتنا برهة.. وعاد يقول:

ـ سامعين؟

وأصخنا أسماعنا. ومن بعد سحيق تلقفنا صوت هدير غريب على السكون المستتب.

وقال الريس:

ـ دا لنش.

فقال حلمي على الفور:

ـ لأ.. دي طياره.

ـ بقولك لنش.

ـ أقطع دراعي ان ما كانت طياره..

وخيل الينا أننا ظللنا ساعة ننتظر النتيجة، وكان الريس يتكلم:

ـ الانجليز عملوا استعدادات جامده، طياره ام مروحه رايحه جايه على البحيرة، تشوف القوارب وتعرف اذا كان فيه صيادين والا لأ. وبعدين قبل الشط بشويه تقف والا تضرب بالنار. وبعدين قارب بيجي يفتش. انما دا صوت لنش ما فيش كلام.

وظل الصوت يهدر من بعيد ويقترب حتى رأينا في الضوء الشاحب نقطة فاتحة تتحرك، وكانت تتحرك في نفس اتجاهنا.

وقال الريس بنبرة فيها انتصار قليل:

ـ مش قلتلكم؟ دا لنش. وجاي من ناحية المنزلة كمان. عارفنشي رايح فين؟ . .

وابتسم حتى توهج نابه وأردف:

ـ على هناك برضك.

وسأله حلمي بسخرية:

ـ ايش عرفك؟

فأجاب:

ـ ايش عرفني؟! أنا عارف قوي. . وما تزعلش. . تلاقي فيه ناس كمثلكو برضه.

وتغيرت لهجة حلمي واهتز طرباً وقال:

ـ كده. . طب تيجي ننادي عليهم يا جماعة.

وانهالت الأصوات تعترض. وقال الريس:

ـ خليهم يا محترم في حالهم واحنا في حالنا. خلي كل حي في سكتة.

وكان اللنش أسرع منا، فسبقنا وأوغل في التقدم حتى تبدد صوته. وقال الريس وهو يضرب ركبته المثنية بيده:

ـ يا خويا ايه الحكاية؟ دا المراكب بطلت صيد. أنا واخد م

النـاس ليلة مبارح وليلة أول وكـل ليلة عمـال أحـول في نـاس زيكـو كـده. صفوف ورا صفـوف عمالـه تروح على هنـاك. هو هنـاك ايه؟ مولد؟.

وقاطعته الخالة قائلة لحلمي:

- يا حبيبي شيل ايدك من على الجرح.. عمال تحسس عليه ليه. شيل يا خويا.

وجمـدت يد حلمي وكـأنمـا ضبط متلبسـا.. ثم أنـزل يـده وهـو يداري ابتسامة خجل ويتمتم:

- لا.. دانا أصلي بس حاسس أني سخن..

وما لبث أن انثنى الى جاره قائلا:

- والنبي تحط ايدك تشوفني سخن والا لأ.. يا أخي شوف.

ولم يترك الجار الا بعد أن أطاعه ووضع يده فوق جبهته.

وكنا قد دخلنا منطقة خاليـة من جزر الحشـائش، والريـح بدأت تقـوى حتى أن الريس ربط حبـل القلع في مؤخـرة القـارب، وأمسـك بالدفة فقط، ولكنه ظل مقطب الملامح، عابس القسمات. صـامتا لا ينطق وكأن أمرا كبير يحيره، أو حزنا مفاجئا داهمه، وكان جالسا ظهره الينـا. وظل على هـذا الوضـع لا يغيره، وكنـا قـد تعبنـا من التفكير والكلام وحتى من مجرد التحديق في السماء والماء، فسكتنا، وماتت الحـركة على ظهـر المركب تمـاما حتى لم نعـد ندري أهـو واقف أو يتحرك؟ وهل نحن نائمون أم مستيقظون؟

وانثنى الريس ناحيتنا فجأة حتى تهدلت اللاسة التي كان يتعمم بها من عنف الحركة، وقال:

ـ قولولي يا سيادنا . .

وقبل أن نسأل ماذا يريد أو نتحرك، قال بنبرات حاسمة وكأنما يتخذ قرارا خطيرا:

ـ انتو مش فداويه؟ . .

ولا ندري لماذا دقت قلوبنا بعنف، وكأنما كنا نسرق وباغتنا الريس.

وظللنا وقتا طويلا صامتين، صمتاً حائراً مضطربا، صمت العاجزين. وكان حلمي أول من تكلم، وقال:

ـ أمال احنا ايه؟ بنلعب؟!

وحدق الريس فينا مرة أخرى وقال:

ـ عليّ الطلاق بالتلاته انتم ما انتم فداوية.

وقال حلمي ساخرا مرتبكا:

ـ أما حكاية! . . أمال رايحين نعمل ايه يا بلدينا؟

فأشار الريس بكفه وهو يقول:

ـ ما هو ده اللي محيرني. رايحين تعملوا ايه؟. رايحين ليه؟ هو أنا عيل؟. دانا افهمها وهي طايره. والناس بتبان. الواحد ياما شاف

فداوية وظباط وجن أحمر. انما اللي محيرني انتو رايحين ليه؟..

واستمر حلمي ساخرا مرتبكا:

ـ طيب.. رايحين ليه؟

فأجابه الرجل:

ـ أنت بتسألني انا.. اسألوا نفوسكم!..

ولم نكن حتى تلك اللحظة قد سألنا أنفسنا أبدا أو ناقشناها. ولم يكن أحد قد سألنا. كل من علم أننا ذاهبون كان يتمنى لنا حظا سعيدا ولا يستغرب. بل ان كل من قابلناه أو رأيناه كان يتمنى أن يأتي هنا. وكنا نأخذ الأمنية على أنها شيء طبيعي لا غرابة فيه، كمن يقول: نفسي آكل، أو نفسي أشرب.

طوال صمتنا كانت الخالة ساكتة: ولكنها لما رأت الصمت طال قالت:

ـ يه.. أمال يا خويا رايحين ليه؟

وتكلمنا كلنا في وقت واحد:

ـ انتي صدقتي الريس؟ إحنا فدائيين صحيح..

ـ أهو رايحين كده.. نتفرج..

ـ أصل يا ستي فيه مقاومة شعبيه هناك.. و..

ـ لنا قرايب يا خالة بس من بعيد رايحين نطمئن عليهم.

ولم يدخل ما قاله كل منا في عقله، ولا في عقول الآخرين، ولا حتى في عقل الخاله.

ومضت تحقق مع حلمي وتسأل وتدقق عن الأسباب التي تدعونا للذهاب وحلمي يحاور ويداور، والريس يبتسم ابتسامة من فقس الفولة، ونحن ساكتون . .

أحيانا يفيق الانسان فيجد نفسه متجها الى مكان معين، هكذا، بلا وعي أو تفكير. وقد جعلنا سؤال الريس نفيق. وحين أفقنا كان كل شيء أمامنا له سبب. . الخالة ذاهبة لترى ابنها، والقارب يتحرك لأن الريح تدفعه، وحلمي جرحت جبهته لأنه ارتطم بالصاري، أما نحن فلماذا نحن ذاهبون؟

رغما عنا رحنا نسأل أنفسنا، لأول مرة . .

ولم نجد جوابا معقولا أو مقبولا . كل ما وجدناه كان احساسا كبيرا لا يترك لنا مجالا للتفكير أو السؤال. احساس ان شيئا هائلا مؤلما قد حدث هناك وأننا يجب أن نكون بالقرب مما حدث.

وانتهى نقاش الخالة مع حلمي حين ارتفع صوتها وكله غضب:

ـ بقى تموتوا ارواحكم كدب في نصب. لا انتم فدائية ولا حرس ولا حاجة ورايحين تموتوا ارواحكو. انتو مالكوش أمهات؟ النبي يا ريس إعمل معروف رجعهم. . رجعهم اعمل معروف. . تكسب ثواب ما تخليهم يهوبوا على البر. الهي ما تحرق قلب أم على ولدها يا رب:

وقال الريس:

ـ مـا تتعبيش نفسـك يـا امى . . اللي عقله في راسـه يعـرف خلاصه. لازم في نيتهم حاجه. خليهم يا ستي كل حي في سكته.

وكـان يقول الجـزء الأخير وهـو يقف ويتمغط ويتثاءب . ولكنه كف عن تثاؤبه وقال بإرهاق كثير:

ـ بصوا . .

واتجهنا كلنا الى حيث أشار. . وهناك. . عند نهاية الأفق، وفي ضـوء الفجر المشبع بالبـرودة، كانت تـوجد غمـامة كثيفـة داكنة فيهـا أضواء قليلة صفراء معطوبة تكاد تذبل. .

وقال الريس:

ـ أهه. . خلاص. . وصلنا.

وتركت الخالة ما كانت تهمس به لحلمي وقالت بفرحة منفجرة:

ـ والنبي؟ والنبي يا خويا؟ الهي يخليك لشبابك، الهي يسعدك.

وفي الحال انتفضت على وجناتنا عروق. وفي الحال مضت تدق، شيئا كدق الحـرب ورحنا ننـظر وقـد تـركـزت أرواحنـا في أبصـارنـا وامتلأت صدورنا بدفـء مفاجىء، ورغم احتجاجات الريس وصرخاته وتمايلات القارب وقفنا جميعا، وتكاتفنا لنتساند ونتأمل الغمامة الرمادية البعيدة ذات الأضواء. كانت رهيبة كثيبة كناموسية غامقة مسدلة على مجـروح. مستحيل أن تكـون نامـوسية مسـدلة على مجـروح. لا بد

هناك أناس.. مصريون. لا يمكن أن يكونوا قد ماتوا كلهم أبدا.. ابدا..

انفعالات تفور وتنسكب، والرمادية تختفي لتأخذ مكانها سمرة. أرض سمراء أوسع من السماء. والغمام ينقشع في أذهاننا ويبدو وجه الشمس.. أجمل شمس. وعلى ضوئها تبدو ملايين السحنات التي رأيناها طوال الطريق وكأنها وجه عملاق كبير مصنوع من ملايين الوجوه، وعلى رأسه مليون طاقية، ومليون عمامة ولاسة وكوفية، والعدو أيضا هناك وراء الغمام، عدو بشع كثير، ونحن القادمين قبضه، لماذا لا يأتي كل الناس؟ لماذا لا يتحرك العملاق كله وينقض؟ متى يتحرك العملاق؟

وأقوى من أي انفعال وأعظم، كان شغفنا الخارق أن تنتهي المسافة ونصل الى هناك، ونزيح لفافات الغمام لنرى ما تخفيه..

وفطنا بعد وقت الى أن الريس يتكلم ويقول:

ـ لغاية هنا وما أقدرشي أتنقل ولا خطوة.. الشط مليان مدافع ودواهي. انتم بقى تتوكلوا على الله من الناحية دي البحيرة مش غريقة.. دي لحد الركبة بس. تخوضوا من هنا على طول.. ح تطلعوا جنب التربة. الصراحه كويسة وبذمتي وديني لو كنت أقدر كنت وديتكو انما العين بصيره واليد زي ما انتو عارفين.. اتوكلوا على الله.

ووقفنا برهة.. تلك البرهة التي تسبق العمل الخطير. الشاطىء أمامنا هادىء هدوءا مريبا كهدوء البركان قبل اندلاعه، والغمام كثيف

يحجب كل شيء.. والخط الممتد أمامنا لا بد كله فوهات بنادق ومدافع، والسماء كأنها تدوي بأزير العشرات من قاذفات القنابل.

بل سمعنا بآذاننا طلقات رصاص.. بعيدة ولها أنين.

وقفنا برهة وترددنا. تلك هي اللحظة الحاسمة.. اللحظة التي ادخرها كل منا ليختبر نفسه وشجاعته. هناك حيث كنا نعيش لم يكن أحد يستطيع أن يميز بين الجبان وبين الشجاع، فكلاهما متاح له ان يعيش. حتى الشخص نفسه لا يستطيع أن يدرك معدنه. في لحظة كتلك يعرف الانسان نفسه، واللحظة حادة وفاصلة، وقلوبنا تدق، وعيوننا ترقب الشاطىء، وأجسادنا متقاربة، ونظرات مختلسة يصوبها الواحد الى نفسه والواحد الى جاره، والبرد قد اشتد فجأة، ولم نعد ندري أهو صادر من البحيرة أم من أعماقنا، والسماء تنبهت وتبهت، وطيور النورس تنقض على سطح الماء ثم تعود وترتفع وفي منقارها سمكة، وتكاكي وتتقاتل، والصوت الذي تحدثه هو الوحيد الذي يسمع.

وقطعت اللحظة تمتمة الريس:

ـ اما وليه غريبه! طب تقول كتر خيرك..

ثم ارتفع صوته أكثر:

ـ مش من هنا يا ست.. خدي يمينك شويه لحسن الحتة اللي قدامك غريقة.

وأدركنـا أن الخالـة غادرتنـا ومضت دون أن تفتح فمهـا بكلمة، وكادت تصبح على مرمى البصر.. تخوض الماء، وتتمايل، ، وتتـوقف برهات، ولكنها لا تتلفت، ولا تكف.

وارتفعت أصواتنا:

ـ استني يا خاله.. استني شويه..

وفوجئنا بها تقف وتستدير الينا وتقول:

ـ لأ.. روحوا روحوا انتم بقى. مع السلامـة.. والنبي ينوبـك ثواب ما تسيبهم يا ريس.. روحوا انتم بقى.

واستدارت على عجـل، وأسرعت كـالملهوفـة الخائفـة أن يفوتهـا قـطار، وأخذ سـواد ثيابهـا يختلط بالضبـاب والشحـوب، ويقتـرب من رمادية الشاطىء.

ومرة أخرى دوت في آذاننا طلقات الرصاص البعيـدة التي تصدر عن مكان غامض.

ورغم كـل ما كـان يدور في رءوسنـا من خـواطـر واحتمـالات، فنحن لم ندر لماذا أسقطناها كلها فجـأة، وركزنـا انتباهنـا وكأننـا أطفال سـذج على يـد حلمي التي كانت وقـد عـادت تتحسس مكـان الجـرح بطريقة تلقائية غريزية لا تمت إلى عقل أو منطق.

وخبط الريس بكفه على خشب الصاري وقال:

ـ هيه يا سيادنا؟

وقال حلمي : أحسن طريقة نستنى لما النهار يطلع . .

وسمعنا طرطشة الماء ، أيقنا ان واحدا لا بد قد هبط .

وقال حلمي :

ـ أهم شيء ان احنا ما نندفعش . قليل من العقل .

وطرطش الماء مرة أخرى وهبط واحد ثاني . وقال حلمي بعصبية :

ـ هو أنا بكلم مجانين؟ ما تفهموا أنا بقول ايه . .

وهبط الثالث . .

وضرب حلمي الهواء بيده وقال :

ـ هي شطاره يعني؟ . . طب هه . .

ثم هبط . .

وواحد وراء الآخر رحنا نخوض في الماء وقد انتظمنا صف متباعد الوحدات ، وكأننا أصابع عملاق كبير تتحرك في اتجاه الشاطىء ، وكل ما يهمنا أن ننتزع أرجلنا من الماء والطين ، والبحيرة تشخشخ حولنا ، والنورس ينقض ويستغيث ، والماء [illegible]
[illegible]
ومن البحيرة ، ولم يعد هناك سوى نجمة الفجر ، وقوى قاهرة وراء الستار تجذبنا الى الجرح الكبير وتعشينا .

...قاع المدينة

- ١ -

يكاد يكون من المستحيل ان يفقد الانسان ساعة يده. فهو اذا خلعها لا بد يضعها في مكان يثق فيه، واذا ارتداها فلها جلدة أو«أستيك» يطبق على معصمه ولا يستطيع أمهر نشال أن يفكه. ولهذا فأغرب ما قد يحدث لانسان ان يقلب يده ليعرف الوقت فلا يجد ساعته في المكان الذي تعود أن يجدها فيه. هو حينئذ يقول لنفسه: لا بد اني نسيتها في مكان ما، ولا بد أن يتذكر أين، فالأمكنة التي يضطر الانسان لخلع ساعة يده فيها أمكنة محدودة جدا ومن السهل تذكرها.
وهذا بالضبط ما حدث للقاضي. ففي الجلسة دفعه الملل من المرافعات الطويلة ومناكفات المحامين إلى النظر في ساعته، وفوجىء حين لم يجدها. وبينما كان محامي المدعي عليه يسوق دفعا فرعيا كان عقل الأستاذ عبد الله القاضي يعمل بسرعة فائقة ليتذكر أين يمكن أن يكون قد نسي الساعة. وخطر له احتمال أكيد.. أن يكون قد تركها في عجلة الصباح فوق التسريحة في حجرة النوم، ولكنه لم يطمئن الى الخاطر وقرر أن يسأل فرغلي الحاجب. وسؤال فرغلي هو أول ما يتبادر

الى ذهنه حين ينقصه شيء أو يحتاج الى شيء أو يشكو من شيء. اذا لم يجد القلم ففرغلي هو المسئول، واذا تاه دوسيه فهاتوا فرغلي، واذا كان لديه صداع فأول من يعلم هو فرغلي. ورفع الجلسة أمر سهل. . كان محامي المدعي عليه لا يزال يفصل في الدفع الفرعي. وحدث أن توقف ليبتلع ريقه وفي الحال قام القاضي واقفا وانتهز الفرصة وقال: رفعت الجلسة. وانتفض كل من بالمحكمة واقفا بينما مضى المحامون يتهامسون ويتساءلون فيما بينهم عما يمكن ان يكون السبب، وهل لبلاغة محامي المدعي عليه علاقة برفع الجلسة يا ترى، أم أن المحكمة أرادت أن تستشير قانون عقد العمل؟

وحين أصبح الأستاذ عبد الله في حجرته كانت يده تدق الجرس. وجاء فرغلي قبل أن يدق الجرس. . ورمقه القاضي فوجده كالعادة منتصبا أمامه في أدب وقد صنع من أعوامه الخمسين عامودا حيا لا انحراف فيه ولا اعوجاج، فكرشه قد شفطه تأدبا، وطربوشه قد مال الى اليمين في اتزان ووقور حتى أصبح الزر فوق الأذن اليمني تماما وأطرافه تداعب أعلا الأذن، والوجه جامد كله احترام، والرأس معوج قليلا الى أمام لتستطيع الأذن أن تلتقط أدق الهمسات، واليدان مضمومتا القبضات متحفزتان لأية اشارة. وليس هذا كل شيء، فأفندم تعقب الوقفة، وتخرج كل أفندم مثل الأخريات فيها خناقة تدل على التواضع، وخفوت يدل على الاستكانة، وقصر يدل على استعداد تام للقيام بأية مهمة.

ـ أفندم . .

ورمقه القاضي وتعجب. وسأله عن الساعة.

وانتفضت فتل زر الطربوش واصطكت بجداره الأحمر في عنف، وفرغلي ينفي نفيا أنه رأى الساعة أو له بها أي علم. وكان الأستاذ عبد الله يتوقع اجابته تلك اذ إن فرغلي لا يمكن أن يكون قد رأى الساعة أو له بها علم. كل ما في الأمر أنه كان لا بد أن يسأله حتى ولو ليقول لا.

وأيقن حينئذ أنه لا بد قد نسيها فوق التسريحة في حجرة النوم. وحين عاد الى البيت كان أول ما فعله أن ألقى على التسريحة نظرة خاطفة. وانقبض حين لم يجد الساعة فوقها، وأيقن تماما أن لا بد قد ضاعت أو سرقت. من أين جاءه ذلك اليقين؟ لم يكن يدري. لعله تشاؤم كامن في النفس لا يبرز الا في أوقات مثل تلك! لعله وهم! ومع هذا انطلق يبحث عنها في الأدراج والكومودينو والدولاب وتحت المكتب. ولعل مبعث حماسه للبحث كان فقط لتكذيب ذلك اليقين المفاجىء الذي انتابه وأكد له أن الساعة قد ضاعت ما في ذلك أدنى ريب.

وقلب الأستاذ عبد الله البيت رأسا على عقب دون أن يعثر للساعة على أثر. وجلس.

كان اثناء عملية البحث قد خلع بنطلونه وسترته وبقي بالقميص والحذاء والجورب ليستطيع الانحناء والنظر تحت الفراش والكراسي، وأكياس المخدات، وكل تلك الأمكنة التي ما أن يضيع من الانسان

شيء حتى يتبادر إلى ذهنه على الدوام انها لا بد تحت كنبة أو كرسي أو فوق دولاب. وفي الغالب لا يجـد في تلك الأماكن سوى أكوام الغبار والعناكب. ومع هذا كلما ضاع منه شيء بادر اليها، وكأنها مخازن أمل يبقيها الانسان ليلجأ اليها حين يخاف أن يستحوز عليه اليأس.

جلس الاستاذ عبد الله على الكرسي، ووضع ساقا عارية بيضاء فوق ساق، وراح يفكر ويستغرب.

وانسان مثل الاستاذ عبد الله تعترضه مشاكل من كل نوع ولون، ولكن أن تضيع ساعة يده، مشكلة غريبة ربما لا تحدث ـ اذا حدثت ـ الا مرة واحدة طوال حياته.

وكان للمشكلة وجهان. فمن ناحية كان ضياع الساعة حدثا ضخما يطرق حياته التي أصبحت مملة ورتيبة. ثم أن تختفي الساعة من البيت، بل من حجرة لها جدران أربعة صماء شيء يجعل من المشكلة لغزا كتمارين الهندسة المستعصية يحلو له أن يحله ويجهد فيه عقله.

أما الوجه الآخر للمشكلة فهو الوجه العادي لها، اذ كان منقبضا لضياع الساعة لا لأنها أثرية أو ذات قيمة أو هدية حبيب أو شيئا من هذا القبيل. أبدا، كانت ساعة عادية جدا لا ذهب فيها ولا بلاتين، (أنكر) ١٥ حجرا كان قد اشتراها قبل الحرب وقضت معه سني الحرب وبقيت ملازمة له بعدها، بقيت كالشريك المخالف كل يوم لها حادث، زمبلك ومسح وزجاج وتروس، حتى صرف عليها ثمنها وزهق منها وأصبح منظرها يثير. لم تكن ثمينة اذن، ولكنه ما كاد يوقن أنها

انها ضاعت حتى انقبض. ان الانسان لا يعرف قيمة الشيء الا اذا فقده. طالما هو معه فهو معتاد عليه بل قد يكون ضيقا به، ولكنه ما يكاد يضيع حتى يحس الانسان وكأن جدارا في نفسه قد انهار، وتبدأ حينئذ قيمة الشيء الحقيقية تأخذ مكانها في نظره.

كان منقبضا. لو كان هو الذي ألقاها بيده من النافذة لما أحس بلمحة أسف، ولكن ضياعها هكذا عنوة، ورغما عنه، شيء يستثير الضيق والتحدي.

كيف تضيع الساعة من فوق التسريحة بكل بساطة؟

القيمة المادية هنا لم تكن ذات وزن. فالأستاذ عبد الله على كل حال، لا يمكن يؤثر في مجرى حياته ضياع ساعة. هو رجل مبسوط، بل كان طول عمره مبسوطا. ولد مبسوطا، وتعلم مبسوطا، حتى وهو طالب في كلية الحقوق كانت له عربة«توبولينو» صغيرة، وكان والده المرحوم على قيد الحياة، وكان ينفق عن سعة وكان وكان.

انه قاض، ولم يتزوج بعد ومع هذا فشقته فاخرة الأثاث، وحياته مليئة بالأرقام ٣٤٤٥، ٢٩٩٨٧٦، ١٠٠٣١، ٦٦، ٨٣٤٥ وهي أرقام عربته وثلاجته وبوليصة التأمين على حياته، وشقته ورقم حسابه في البنك.

ولا يتسرع أحد ويخمن أن الأستاذ عبد الله فاحش الغنى. هو رجل متوسط الحال، بل يكاد يكون متوسطا في كل شيء. فهو ليس طويلا، ولا يمكن أن تقول إنه قصير، وكذلك لا هو بالرفيع أو التخين، ولا بالأبيض أو الأسمر. بالاختصار اذا أخذنا مائة رجل من جميع أنحاء

العالم وأخذنا متوسطهم في الطول والوزن والبشرة لوجدنا أمامنا الأستاذ عبد الله . . حتى الشاي ، تقول مدام شنـدي وهي توزع السكـر: كام حتـة يا عبـد الله بك؟ وفي العـادة تستـدرك نفسهـا وتقـول: آه. . أنـا عارفة. . انت بتحبه مضبوط. . حتـة ونص. . مش كده؟ ويبتسم هـو حينئذويقول وهو يستعد«للترمبت» في البريدج: انتي عارفه يا مـدام. . أنـا رجل معتـدل. ويضحـك المـوجـودون وكـأن الأمـر نكتـة، فنكت القاضي هي الأخرى دائما مضبوطة ،ومعتدلة الحلاوة.

وليس معنى ذكر البريدج ومدام شندي انه مغرم ببيتها أو مـدمن على الذهاب اليه. ان زياراته لعائلة شندي ليست بالكثيرة التي تضايق ولا بالقليلة التي تجلب العتب. انه ايضـا في هذا «جنتلمان» كما هـو في أي مجال آخر. . جنتلمان له ابتسامة دائمة يتحدث بها الى الغرباء، ولا يبدأ في ازالة ما بينه وبينهم من كلفة الا اذا بدأوه هم. وحـين يتحدث يتحدث في بطء قليل، وحـديثه دائـما متوسط العمق فهـو لا يحيط بأي موضوع احاطة كاملة، ومع ذلك لا يترك موضوعا دون تعليق اذ لا بد أن يقول شيئا، ولو كلمة، ولوِ نوعا من جبر الخاطر.

وبمثل ما نكون تعاملنا الحياة، والحياة تعامل الأستاذ عبـد الله في اعتدال هي الأخرى، فلم ترفعه مرة فجأةولم تهوِ به، فمن الكليـة الى النيـابة الى المحكمة كما قدر لنفسه،وكما قدر له أبـوه من قبله، كالقـطار الذي تركبه في القاهرة وأنت متأكد تمامـا أنه بعـد قليل سيكـون في بنها ثم في الاسكندرية.

أجل! ماذا يفعل ضياع الساعة في حياته؟

كأن المسألة من التعقيد بحيث يستدعى حلها سيجارة. والأستاذ عبد الله لا يدخن ولكن لديه علبة سجائر يحتفظ بها في درج المكتب ليعزم منها على الزوار. وفي أحيان قليلة يدخن، مرة كل شهر مثلا أو كل شهرين. قام ليتناول سيجارة، وعاد إلى جلسته وإلى ساقه الموضوعة فوق ساق. واكتشف بحركته تلك أنه عاري أو يكاد، وأسرع يرتدي البيجامة قبل أن يراه أحد، مع أنه لم يكن في الشقة أحد، فهو يقطن بمفرده اذ هو أعزب. كان قد حدد لنفسه سن الخامسة والثلاثين ليتزوج، وكان في الثانية والثلاثين أي باقي على انقضاء الحكم الذي أصدره على نفسه ثلاث سنوات. أما لماذا حدد الخامسة والثلاثين بالذات ليتزوج فالأمر لا سر فيه ولا يحزنون، اذ هو قدر أنه سيعيش سبعين عاما، ربما لأن والده توفي وهو في السبعين، وأمه في الثامنة والستين، وجده في الخامسة والسبعين، ربما هذا، وربما قرر أنه سيعيش حتى السبعين عاما لسبب لا يدريه أحد. ولهذا قرر أن يتزوج في منتصف عمره تماما. وهو ليس أبله كما قد يظن البعض، اذ ان كثيراً من الناس يقررون أشياء خطيرة في حياتهم اعتمادا على أشياء غامضة لا أساس لها في عرف أو عقل مثل تلك.

دخل الأستاذ عبد الله في البيجامة، وعاد يجلس على الكرسي الهزاز الموضوع بجوار الراديو الضخم. جلس وهو قد استبعد نهائيا أن يكون جعفري هو الذي أخذ الساعة، فهو قد يشك في نفسه ولكنه لا يستطيع الشك في جعفري أبدا.. هو خادم العائلة أبا عن جد، بل يقولون ان أحد أسلافه مات وهو عائد من الفرن بصينية «حمام

بالفريك» التي كانت طعام جده المختار. وضمن ما ورثه الأستاذ عبد الله كان جعفري. وهو انسان طيب جدا، ساذج جدا له ولاء الكلب واخلاصه. هو من أولئك الناس الذين لم يكتفوا بالقناعة بمصيرهم بل عبدوا ذلك المصير وبجلوه. كلمة«سيدي» عندهم لها قداسة ووقع، وحاجة السيد كحاجة الله أرفع من أن تمتد اليها يد. كان معه في بيت المنيرة وحين انتقل الى سكنه الحالي في شارع الجبلاية انتقل معه. وكان يقيم في الشقة، وكان هذا سبب ضيق الأستاذ عبد الله منه.

لم تكن هناك أسباب واضحة لهذا الضيق.. فجعفري أمين نظيف دقيق لا يكاد يتلفظ طوال اليوم بكلمة، والأستاذ عبد الله يحب الصمت، واذا كان هناك كلام فليكن باعتدال، وليكن أيضا في المليان. تضايق منه وكان ذلك من عامين، لأن جعفري كان حجر عثرة، اذ هو يخجل منه وهو خادم العائلة الذي شهد أباه وشهد أمه والذي رآه وهو طفل وحضر كل ما أحرزته العائلة من أمجاد، فلم يكن من اللائق، ولا مما يرضي مزاج الأستاذ عبد الله الحساس أن يدخل عليه مرة مثلا ومعه فتاة. وكان الوقت قد حان، وسنوات العمر تمضي كالرياح، والثلاثين قد ولت، وحياة العزوبة تتسرب من بين يديه دون ان يفيد منها شيئا. والأستاذ عبد الله كان مستقيما، لا لأن غير الاستقامة حرام، أو لأن هذه «الأشياء» لا تصح، أو أو الخ، ولكن لأنه ذات مرة سوداء اشترك مع طالب زميله في الكلية، والتقطا فتاة من الشارع في عربة زميله الكبيرة وأخذاها الى طريق الاسكندرية. وروع

عبد الله ثاني يوم بأعراض خطيرة، وصحيح أنه عولج وشفي تماما ولكنه أقسم بينه وبين نفسه أنه لن يقرب امرأة أبدا الا اذا تزوج. كانت اية امرأة في نظره عبارة عن ميكروب يرتدي جوارب نيلون ويضع على شفتيه روج ويلدغ كل من يقترب منه. وكان ممكنا أن يدفعه هذا للزواج، ولكنه كان قد قرر منتصف العمر ليفعل هذا. وظلت الخطة سارية بنجاح تام الى ما بعد الثلاثين وقد بدأت الخامسة تطل برأسها. وهنا ثار الأستاذ عبد الله على نفسه وحياته وصمم أن يودع ـ كما يقولون ـ حياة العزوبية. من أجل هذا حث جعفري على الزواج، بل ساعده، ولما تزوج أخبره أنه لا يريده طوال اليوم، عليه فقط أن يأتي في الصباح ويغادر الشقة بعد أن يعد له الغداء. وكل هذا ليخلو له المسكن ويصبح حرا يستطيع ان يودع عزوبيته كما يشاء.

وبرغم أن الشقة خلت وذاق حلاوة الوحدة التي كان ينشدها، وانزاح جعفري بوجوده الدائم، الا أنها بقيت خالية الا منه، فقد كان يظن أنه حالما يذهب عنه الرجل ستمتلىء الشقة بالنساء، كيف؟ لم يتعب نفسه ويفكر. ولكنه اضطر الى التفكير، فهو قد أمضى فترة طويلة من شبابه دون احتكاك بالنساء حتى تغلبت رغبته العارمة آخر الأمر، ونسي حكاية الميكروب، وقبل الأمر شكلا وأصبح على استعداد للمجازفة، ولكن أين المرأة؟ عزلته طوال تلك السنين كانت قد حالت بينه وبين الطرق التي تقبل منها النساء، ثم إنه كان قد أصبح قاضيا في تلك المدة. صحيح أنه شاب لا يزال صغير السن نوعا، ولكنه قاض عليه«أو هكذا خيل اليه» أن يحافظ على كرامة المنصب، ولا يدع أحدا

يأخذ عليه مأخذا أو يضبطه في موقف حرج. ثم انه لا يستطيع أن يفضي برغبته لأحد، وكل أصدقائه ومعارفه رجال كبار محترمون، مستشار في مجلس الدولة، وكيل نيابة درجة أولى، محام على الأقل من محامي النقض والابرام، أساتذة في الجامعة، المنهراوي بك صاحب محلات الموبيليا الذائعة الصيت، صلاح شوشة ابن اعتماد هانم.. أناس لا يمكن أصلا التحدث معهم في أمر كهذا. حتى زملاؤه من دفعته، والذين كانت عربته الصغيرة سببا من الأسباب التي منعته أن يعرف منهم سوى عدد قليل محدود، حتى هؤلاء الزملاء تفرقوا وتزوجوا وأصبح لهم أولاد، واذا قابل أحدهم تبدو المقابلة أول الأمر عاصفة ذات تهليل وعناق وسلامات، وبعد خمس دقائق يكتشفان أن كل ما بينهما من كلام قد انتهى ويصبح الحديث مجرد ترديد «أجوف:... والله زمان.. وحشتنا.. فين أيامك؟ أو عادة مكررة لذكريات تاريخية قديمة عن مدرس كانت له طباع شاذة.

هذا عن الرجال..

أما النساء فكان مقطوع الصلة بهن تماما. كانت هناك قريباته.. بعضهن كان لا يطيقهن شكلا ولا موضوعا، وبعضهن جميلات كان يخاف منهن، فهن أما متزوجات أو طامحات في الزواج، والعين كانت عليه وهو العريس «السقع» الذي يسيل له اللعاب. غير أنه كان قد صمم تصميماً لا نقض فيه ولا ابرام الا يتزوج من قريباته أبدا ولو قطعوا رأسه. أما لماذا؟ فهو نفسه لا يدري سببا لهذا التصميم. كانت أية محاولة للتقرب منهن ممكن أن تؤخذ

اذن على محمل الاستحسان وقد تنتهي بورطة ودبلة، وقد تنتهي بزواج. أما غير قريباته فكانت هناك مدام شندي، أرملة في الخمسين مولعة بالبريدج الى حد الجنون، ولها أصدقاء من كبار رجال الدولة، ولها صالون ومجلس وتجيد الحديث وادارته، وتجيد الابتسامات الفاهمة والاصغاء الى المتاعب. سمراء غامقة السمار تكاد تكون صعيدية من قلب الصعيد وتقول عن نفسها انها تركية، وكثيرا ما تزورها نساء متزوجات، ولكن كل منهن شخصية قائمة بذاتها. وصحيح أنه يتحدث معهن كثيرا ويناقش شتى الموضوعات ويعلق أحيانا على حذاء أنيق، أو تسريحة جديدة، ويقص عليهن طرائف مما يحدث له مع المتهمين والمفتشين والمحامين، ولكن حديث مثل هذا شيء، وحديث خاص ينتهي بلمسة أو بقبلة شيء مختلف تماما. فهو ليس وسيما، وهو يعرف أن هذا غير مهم في الرجال، ولكنه يعرف أيضا أن وجهه كالصفحة البيضاء لا معالم بارزة فيه، ملامحه عادية جدا ليست جميلة أو قبيحة، ولا تثير اعجابا ولا تبعث على الاشمئزاز ولا يحس لها الناظر بأي انفعال. ليته كان قبيحا! كثيرا ما يتمنى لو كان مشوها حتى.. ثم إنه عالم تماما بخفة دمه ولباقته، فهو يرى الناس يتحدثون، يأتون في كلامهم بأشياء تبرق وتضيء الكلام، وتضيء وجه السامع بابتسامة أو ضحكة أو لمعة أسى. وهو ينصت الى أناس وهم يحكون فيجد لحكاياتهم وقعا لذيذا وكأن كلامهم محلى بالتوابل وفاتحات الشهية. وكان أحيانا ينصت الى نفسه وهو يتحدث ويحاول أن يجد شيئا، شيئا واحدا فقط، كلمة ذكية أو اشارة

مليحة، أو حتى طريقة طريفة لرواية ما يقول، فلا يجد. كلامه مجرد كلام. يسمعه الناس اكراماً له، واكراماً للفظة القاضي اللاصقة به. لا يعني هذا أنه كان عيياً إذ إنه لم تخنه الكلمة أبدا. ليتها خانته مرة اذن لحدث لكلامه شيء غير عادي.

لهذا فحديث خاص الى واحدة من السيدات في صالون مدام شندي شيء لم يخطر له على بال، خاصة وهو لم يتعود أمثال ذلك الحديث، ولم يجرب مرة واحدة ايقاع امرأة. وكان طبيعياً اذن أن يبدو في الصالون مؤدبا خجولا يملؤه الرعب من النساء المنثبات من حوله.

وما أن ذهب جعفر وبدأ يثور على نفسه ويكبت الثورة أحيانا ويطلقها، حتى بدأ يتقدم ثم يتأخر ويعود الى الاقدام. وشتمته واحدة مرة، وقبلت واحدة أخرى دعوة إلى السينما، ورحبت بسهرة في الاوبرج، ولكن ما كاد يلمس يدها حتى انسحبت وتركته يكاد يغمى عليه. وأخيرا دفعته إلى تجربة مدام شندي نفسها. . ولم يجد لديها حماسا كثيرا، وكذلك لم يجد معارضة تذكرا وكانت استجابتها له فيها روتين وتعود، وعاملته كأنه طفل كبير شفي. وظل بعدها ثلاثة أيام يكظم خجله واشمئزازه، ولم ينس أبداً أنها في الخمسينات، وأنه فعل هذا وهو قاض.

والانسان حين يفشل لا يسكت. . انه لا يكف عن المحاولة أبدا وبمضي الوقت قد يصادفه النجاح. وهكذا استطاع أن يستصحب

نانا الى الشقة بعد مضي ستة أشهر على خروجه معها.

والخروج مع فتاة مثلها كان بالنسبة اليه أمرا صعبا يؤديه كالضريبة الباهظة المفروضة عليه، فهو لا بد أن يختار مكانا بعيدا عن القاهرة، ولا بد أن يذهب اليه قبلها ليتأكد أن واحدا من معارفه أو أصدقائه أو المحامين لا يعرفه، ثم يستصحبها اليه، ويظل في قلق عظيم وهو جالس معها، ولا ينزاح الهم عن صدره الا حين تهبط من عربته بعدما تقرصه في يده قائلة: باي باي.

وأخيرا جاءت معه وكان نصرا أن تجيء، ومع هذا لم يستطع معها الكثير، فهي فتاة وهو خجول، ولولا أنها لا تعد جميلة لما كانت قد رُضيت بالمجيء.. ودعك من الهدايا والتحف. وهكذا ظلت العلاقة بينهما في أخذ ورد حتى ذهب الخجل وقل العناد، وبدأت تنمو عواطف مبهمة تجاهها حتى فكر مرة أن يخطبها فهي بنت ناس، ولطيفة، وتحب القانون، ولكن مسألة قبولها المجيء معه كانت تقض مضجعه وتجعله يرفض مبدأ الخطوبة رفضا باتا. غير أنه ما لبث أن صرف النظر عن التفكير في الخطوبة والزواج، فقد استطاعت علاقته بنانا أن تعلمه أشياء كثيرة، ويكفي أن تعرف فتاة واحدة لتدرك منها الكثير من أسرار الفتيات أجمعين، وتصبح جسورا بعض الشيء، وتستطيع اذا آن الأوان أن تثني على ذوق صاحبة لها، ثم تنتقل من صديقة الى صديقة، وتتعلم أكثر، وتنمو لديك الخبرة، وتستطيع أن تجيد نوع الكلام الذي تحبه الفتيات، وتعرف دقائق الفروق بين لون فستان ولون فستان وكشكشة وكشكشة، وأين

يكمن السكس آبيل في نظرات جريجوري بيك. وتستخدم خبرتك تلك في الأحاديث، ثم لا يعدم الأمر بعض القفشات والنكات والكلمات ذات المعاني، وابتسامات مطعمة بدعوات، ونظرات آخر ما يقصد بها أنها نظرات، واذا بك قد وصلت، واذا بالأستاذ عبد الله يصبح لديه ثلاث أو أربع فتيات. . واحدة لدعوات السينما، وواحدة كانت تعلمه الرقص أو على الأصح تجدد معلوماته عن الرقص، فأخته كانت قد علمته وهو لا يزال «صبيا»، وواحدة تأتي وأخرى تذهب، حتى إنه ذهب إلى كباريه مرة وتعرف هناك بشلة، فوجىء أن بينها أكثر من واحد من الأسرة القضائية، وتعرف براقصة أو على الأصح هي التي عرفته بنفسها، وجلست معه وفتح لها زجاجة «السينالكو» ذات الثمن الغالي، وفتح المحفظة وأصرت هي وهما عائدان منتشيان أن تفتح بنفسها باب الشقة.

مستحيل أن يكون جعفري هو الذي أخذ الساعة.

٢

لا بد انها شهرت.

كان احساس الأستاذ عبد الله بالفرحة لأنه وجد موضوعا عجيبا يملأ حياته يكاد يطغى على أي احساس آخر، أحس أيضا أنه لا يستطيع السكوت على هذا الموضوع الكبير وحصره في نطاق تفكيره الخاص. أحس أنه لا بد من مناقشة ما يدور في رأسه من خواطر وافتراضات مع أحد، لا بد من شرف، وقام الى التليفون وطلب نقابة الممثلين.

وكان من يراه وهو يدير القرص والحماس يطل من عينيه، يحسبه يود مفاجأة صديق بخبر مثير أو أنباء سارة. كان الخط مشغولا، ومع هذا ظل يدير القرص وحماسه لا يفتر. انه لن يجد في العالم كله من يصلح لمناقشة هذا الموضوع معه سوى شرف، ولا بد أن شرف في نقابة الممثلين ولا بد أن يعثر عليه.. هذا اللعين شرف صديقه مذ كانوا يقطنون في بيت العائلة في المنيرة. شرف أيضا كان يقطن هناك ولكنه كان من عائلاتها الفقيرة، ولهذا ولأمر ما كان الأستاذ عبد الله لا يحس أمامه بأي تعقيد ولا يخجل أن يقص عليه أدق خلجات نفسه دون أن يحس بكرامته تهان أو بتأنيب ضمير. كان

يقول له ما لا يستطيع قوله لأصدقائه الأغنياء وأقاربه، ولهذا فقد كان يحبه أيضاً أكثر من كل أصدقائه الأغنياء وأقاربه. هذا برغم أنه لا يحتل مثله أحد مناصب الدولة المهمة أو غير المهمة، فقد ترك المدارس وعمل في عشرات الأعمال، ثم احترف التمثيل الذي كان يهواه دائما وأصبح ممثلا في الاذاعة وأدواره كلها قصيرة، وأطول دور كان ثلاث كلمات، ورغم ذلك فهو يعتد بنفسه كفنان اعتداداً كبيراً، وله آراء في الفن والمسرح والحياة، ومكانه الدائم في نقابة الممثلين.

ورغم ما كان بين الأستاذ عبد الله وبين شرف من حب فقد كانت العلاقة بينهما لها طابع غريب نوعا. الأستاذ عبد الله لديه مشاغل كثيرة، ولكن أحيانا تتبخر كل مشغولياته ولا يجد ما يعمله وتصبح الدنيا خاوية مملوءة بفراغ متثائب لا نهاية له. حينئذ يأتي دور شرف.. يدق التليفون في نقابة الممثلين وهو التليفون الوحيد الذي يدق ويطلب شرف الدين: تعال يا شفشف. هكذا كان يناديه الأستاذ عبد الله. ودون أن يسأل شرف من، يأخذ طريقه الى شارع الجبلاية أحيانا راكبا تراما، وأغلب الأحيان سائرا على قدميه. هناك كان يجد شقة أنيقة عالية مطلة على النيل، وماء مثلجا وطعاما وعلبا محفوظة، وأحيانا زجاجات بيرة، وكرسيا مريحا يسترخي عليه ليؤدي دوره.

ودوره كان دور المستمع. كان ينصت لصديقه عبد الله وهو يتحدث. واذا تحدث شرف مع عبد الله فلا بد أن يكون الحديث كله عن عبد الله. وأشخاص قليلون جدا هم الذين يستطيع الانسان أن

يحدثهم طويلا عن نفسه دون أن يفكروا في قطع حديثه ليتكلموا هم عن أنفسهم، وكان شرف من هؤلاء. كان عبد الله يشرق ويغرب ويسرد أدق الخواطر والأشياء التي لا تدور الا بينه وبين نفسه، وشرف ينصت ولا يمل، وكان فنانا في انصاته. فهو لا ينصت وهو ضيق بالحديث، أو متعجلا لنهايته، ولا وهو فقط متابعا الكلام يهز رأسه وينفخ دخان سيجارته. أبدا حين ينصت بحماس، وتبرق عيناه حين يتأزم الموقف، ويبتسم حين يحتاج الحديث الى ابتسام، ويقهقه حين يستدعي الموقف قهقهة، وتحس وأنت تتحدث إليه أنك تحادث انساناً يهمه أمرك، ويحفل بكلامك مهما كان، احتفالا كبيرا.

وأحيانا يعثر الانسان على مستمع كهذا تماما، ولكنه يكون عالما أنه ينصت ويتحمس وينفعل مجاملة له لا أكثر ولا أقل، غير أن شرف لم يكن من هؤلاء، كان حماسه حقيقيا، ومشاركته في الحديث مشاركة ايجابية، فهو يستمهل ويستوقف ويناقش ويسأل عن تفاصيل أخرى.

ولا بد أن لحظات حديث الانسان عن نفسه تمتعه ويسعد بها، خاصة اذا كان لهذا الحديث مستمع كهذا. لا بد.. لأن عبد الله كان يحس براحة عظمى بعد هذه الأحاديث. ففي حياته العادية كانت تمر عليه أوقات كثيرة لا يرى نفسه فيها سوى انساناً تافهاً لا قيمة له ولا وجود، خاصة حين يجد نفسه في مجتمع غاص، والجميع يتكلمون بانطلاق وانتعاش وهو وحده الذي يخرج كلامه باهتاً معقماً كالماء المقطر لا طعم له ولا رائحة. كان في جلساته مع شرف ينطلق ويحس بكلامه يخرج موزوناً له ثقل، وفيه حكمة غريبة عليه،

وبلاغة.. حتى فكر عبد الله ذات مرة أن يشتري جهاز تسجيل ليسجل به أحاديثه تلك ويعود ليستمع إليها بعد ذهاب شرف، ويسمعها لأصدقائه ومعارفه، ويربهم أنه ليس به عيب وإنما العيب فيهم وفي مجالسهم. في حديثه مع شرف كان ينطلق وينطق بأشياء معجزة، وإلا لماذا كان يقوم شرف ويقعد لدى سماعها ويطلب منه اعادتها كما يطلب المستمعون من المقرىء اعادة التلاوة وقد بلغ بهم الاستحسان مداه.

كان يبلور في أحاديثه تلك كل فلسفته في الحياة وآرائه في الناس. والانسان اذا وجد في حضرة الجماعة وكان عليه أن يدلي برأي في موضوع فإنه في العادة يقول ما تواضع الناس على قوله. يفعل هذا احتراما للجماعة أو خوفا منها، أو استسهالا، فقد يجره رأي مخالف الى نقاش قد يخرج منه مهزوما مهيض الجناح. قليلون فقط هم الذين يملكون آراء شخصية، وأقل منهم أولئك الذين يستطيعون الجهر بآرائهم تلك دون وجل في حضرة الناس، ونادرون هم أولئك الجريئون الذين يستطيعون الذود عن آرائهم إذا هوجمت، وأقل القليلين هو من تتفق له الجرأة والمنطق فيستطيع ليس فقط أن يعبر عن رأيه ويدافع عنه اذا هوجم، ولكنه يستطيع فوق هذا اقناع الناس به. نادرون جدا أولئك الناس، ولكن هذا لا ينفي الحقيقة، والحقيقة أن كلا منا حكيم في حدود، ولكن ليس كل منا قادرا على التبشير بحكمته.

وكان عبد الله كأي انسان له حكمة استخلصها من تجاربه وما

مارسه، وكان يغلق عليها نفسه ولا يفتحها إلا في حضـرة شرف، ولا يبشر بها إلا له وحده.

والغريب أنه لم يكن يؤمن بحكمته تلك. كان شرف هو الوحيد الـذي يقتنع بكـل آرائه، أمـا عبد الله فكـان لا يقتنع بهـا ولا ينفذهـا ويفضل أن يتبع آراء الآخرين، فأن نعتنق آراءنا عملية في حـاجة الى جرأة هي الأخرى.

ودخل شرف. .

كـان طويـلا نحيلا لـه شعر مهـوش وملامـح طويلة ممـطوطة، تحس إذا ما رأيته أنه لا بد «فنـان» من الفنانين، لـه ابتسامـة خجولـة يحتـار دائماً أين يـداريهـا. وإذا ابتسم بـرز لـه ضب صغيـر لا يكـاد يلحظه أحد.

وكعادته توجه الى المطبخ فور دخوله وعاد ومعه كوب من الماء المثلج ظل يرتشفه على قطرات، ثم خلع جاكتته وعلقها على المسند وتمدد. ولم ينس وهو يمـدد نفسه أن يضـع ساقـاً فوق سـاق ويتناول سيجارة من العلبة التي قدمها له عبد الله.

ظـل القاضي يـراقبـه حتى انتهى من عمليـة جلوسـه ونـظراتـه ترتجف باللهفة، وكأنما يختزن في جوفه بـركانـا. . وكان واضحـا أن شـرف قد أدرك هـذا وتعمد المغـالاة، ولكنه نـطق أخيـرا وقـال وهـو يحـدق في ملامـح عبد الله ويحـاول ان يستشف الأمـر. . وهـل هـو احساس بالوحدة هذه المرة، أم حب جديد، أم رأي طـازج عن نشأة الجريمة بين الأحداث.

ـ ما وراؤك يا همام؟

فقال الأستاذ عبد الله :

ـ حصلت أبدع حاجة النهارده .

ـ خدت الدرجة الرابعه .

ـ لأ . . شهرت سرقت الساعة . .

ـ شهرت مين . . الرقاصة . .

لم تكن هي الراقصة، ولا صديقة أخرى لنانا، ولا تمت بصلة الى هذا الصنف من النساء كله . . أنها هدية فرغلي الحاجب.

وبدأت المسألة في ثورة من ثورات الأستاذ عبد الله على نفسه، أو بمعنى أدق على صديقاته. لم يكن يستريح أبدا لعلاقاته بهن. كان هناك شيء ما يحد من سلوكه أمامهن، كان لا يستطيع أن يطلق نفسه على سجيتها أمام نانا أو غيرها. لا بد أن يكون مؤدبا ولا بد من الرقة والكلمة الحلوة ولا بد من ابتسامة لا تذبل يضعها في عروة فمه طوال الوقت الذي يقضيه مع الواحدة منهن. كان من فرط احساسه بقلة مواهبه أمامهن يحاول قدر طاقته أن يكون خفيفا كالنسمة وأن يرضيهن ما أمكنه. ولم تحاول واحدة منهن ارضاءه أبدا وان حاولت، كان يحس أنها تفعل ذلك لسبب، وأن وراء الارضاء ما وراءه.

وفكر مرة في شيء جديد على حياته. لم لا

واصطنع الديمقراطية. ووقف فرغلي الحاجب أمامه في حجرته قبل الجلسة، وظل هو يشكو من أزمة الخدم وكيف أن الرجال لصوص والنساء العواجيز متعبات ولا يستطعن العمل. وكان فرغلي لا

يكف عن احناء رأسه علامة الموافقة على كل كلمة ينطقها القاضي، بل أحيانا يحني جسده كله ليدل على الموافقة التامة. وفي يوم آخر بدا على القاضي الضيق الشديد وادعي أمام فرغلي أنه طرد الخادم الجديد. وأبدى فرغلي أسفه البالغ وراح يصب اللعنات على الخدم أجمعين، وعلى ذلك الخادم المطرود بالذات وكأنه كان يعرفه ويعلم أنه جدير بكل تلك اللعنات.

وفي المرة الثالثة قالها القاضي صراحة، وسأل فرغلي أن يعرف امرأة أمينة مخلصة تقبل العمل عنده.. واشترط أول الأمر أن تكون كبيرة في السن.. وهز فرغلي جذعه مؤمنا على الشرط. ولكن سعادة البيه تصنع تفكيرا عميقا ثم قال له وكأنه يعدل عن رأيه: الأحسن ألا تكون عجوزة جدا ويستحسن أن تكون نصفا. وهز فرغلي جذعه موافقا. ثم عدل عن رأيه مرة ثانية وقال: والا أحسن تكون شابة تستطيع أن تقوم بشئون البيت خير قيام، ثم أن سلم الخدم مرتفع والشقة في الدور السابع. ولم يكتف فرغلي بهز جذعه موافقا ولكنه ابتسم هذه المرة ابتسامة المدرك الفاهم المقدر.

وكان اليوم التالي يوم جمعة وهو الميعاد الذي اتفق مع فرغلي على المجيء فيه. وكانت الساعة الثالثة ودق الجرس. ولم يكن جعفري موجودا بطبيعة الحال، كان قد أدى عمله ومضى، فقام الأستاذ عبد الله بنفسه وفتح الباب. ووجد ابتسامة فرغلي تملأ فتحته. كان فرغلي اذا ابتسم يفتح فمه ويغمض عينيه علامة الانبساط. وكان يرتدي بدلة ملكية غير بدلة الحجاب، بدلة لا بد قد

أنعم عليه بها قاض سابق، فقد كانت قديمة وواسعة متهدلة لم تعرف المكوى أبدا طريقا اليهـا. وكان للبـدلة قميص كـان يبدو كـالجلباب الذي له ياقة لا أول لها ولا آخر. ومع هذا يصر فرغلي على احاطتها برباط عنق من كثرة استعماله أصبح كفتلة الدوبارة، وأصبحت عقدته رفيعة متينة كعقدة الحبل.

ابتسم فرغلي وقال:

ـ الطلب موجود يا سعادة البيه.

ورنت موجود رنينا حلوا في أذن الأستاذ عبد الله وقال بلهفة:

ـ فين..

ـ تعالي يا شهرت.

وجاءت شهرت.. ودخلت. لم ينظر اليها الأستاذ عبد الله أول الأمـر، فقط لمحها. وأحس بخجـل حين رآهـا تـرتـدي مـلاءة لف، وخاف أن يكون أحد من سكان العمارة قد لمحها وهي داخلة شقته. وحين أغلق البـاب استراح. ووقفت في ركن من الصـالـة قـريبـاً من البـاب، ودخـل هـو وفـرغلي حجـرة المكتب. وجلس وأمـر فـرغلي أن يجلس، ولكن الـرجـل أصـر على الـوقـوف وتشبث، وأصـر القـاضي على أن يجلس. ومـع هـذا حين رضـخ لـلأمـر وجلس أحس القـاضي بنـوع من خيبـة الأمـل، وكـأنـه شـك أن يكـون قبـول فـرغلي الـجلوس فـي حضـرتـه ولـو بنـاء على أمـره، يعني أنه بدأ يتساهل في احتراماتـه. وازداد اضطرابـه وأصبح يكسـوه مـزيـج من الخجـل والتـردد والحيـرة. لم يكن قـد رأى وجههـا بعـد

فقام ـ وانتفض فرغلي لقيامه ـ وغادر الحجرة الى الحجرة الأخرى، ورمقها بنظرة، وكان في نيته أن تكون خاطفة حتى لا تدرك انه يتفرج عليها. ولكن نظرته تلكأت طويلا عند وجهها وكادت الا ترتد لولا ان انتزعها انتزاعا. لم تكن بالصورة التي تخيلها. كانت تبدو كأمرأة بلدي مثل غيرها من آلاف النساء. المرأة تحس انها زوجة وأم ولا تبدو عليها أبدا سمة الخادمات. الشيء المحير ان وجهها كان يبدو مختلفا غريبا، يلزمه أكثر من نظرة ليستطيع أن يحدد ملامحه وليعرف ان كانت جميلة أم عادية الجمال. ولكنه وافق. . وحين عاد الى فرغلي سأله عن الأجر. ورفض فرغلي رفضا باتا ان يتحدث في هذه الماديات. ان أعجبته فليعطها ما شاء وان لم تعجبه فغيرها موجود. ومع أنه لم يحس بالارتياح لما قاله فرغلي الا أنه أعطاه سيجارة. وكانت الخطوة التالية هي التخلص منه، ولهذا ناوله خمسين قرشا اجر المواصلات. واحتج فرغلي بملامحه يقبل يده.

وأخيرا ذهب. .

كانت لا تزال واقفة في الصالة وكان هو قد عاد الى حجرة المكتب وجلس فقال لها:

ـ م تيجي . .

وجاءت والملاءة لا تزال ملتفة حولها، ووقفت تواجهه وتسند ظهرها الى الباب المفتوح. وعبرها بنظرة أخرى. . كانت ملامحها قوية ناطقة، وكان وجهها مشربا بحمرة، وتحت ستار

ملامحها القوية أنوثة لا تستطيع أن تحدد موضعها. وقال لها وهو يتعمد الخطأ:

ـ اسمك عفت . .

فأجابت:

ـ خدامتك شهرت . .

ولاحظ أن صوتها له رنين أنثوي مبحوح يدغدغ الأذن. ثم إنها نطقت خدامتك بلهجة أقرب إلى التأدب منها إلى الذلة والاستسلام.

ـ متجوزة؟

وسكتت قليلا ثم قالت:

ـ أيوه . .

ـ ومخلفة؟

فقالت:

ـ بنتين وولد . .

وعاد يرمق وجهها بعيون جريئة لا ترمش ولا تخجل. كان يبحث عن شيء ما، ذلك الشيء الذي علمته خبرته ان يبحث عنه كلما التقى بامرأة، الشيء الذي يعني ان لا مانع لديها مثلا. ولكنه لم يجد. فقط فطن الى انها لا تزال ممسكة بالملاءة وقبضتها شديدة فيها. وسألها وكانت الساعة الثالثة:

ـ اتغديتي؟

وأنزلت وجهها الى الأرض وقالت:

ـ الحمد لله . .

وفهم انها لم تفعل، بل خيل اليه انها لم تتناول افطارها أيضا. وأمرها أن تذهب إلى المطبخ فهناك بقية من طعام، وغمغمت تصر على ان الحمد لله، ولكنه ألح وأغلظ، وحين وجدها لا تعرف مكان المطبخ قام وأراها الطعام. وعاد الى الحجرة وجلس يفكر. لم يكن يتوقعها هكذا! فيها قوة تلك المرأة. . انها غلبانة وترتدي الملاءة اللف، ولكن ما يضفي على شخصيتها مهابة قل ان تتوفر لامرأة مثلها، لعله ما يصبغ ملامحها من براءة. هل يستطيع؟ إنه خائف. ان البراءة تحتاج الى جهود صعبة للتغلب عليها. وأحس من حركتها انها انتهت من تناول طعامها، فاتجه الى المطبخ ووقف على بابه، وكان يود أن يبدأ حديثا:

ـ انتي اشتغلت عند حد قبل كده؟

ـ لأ . . دي أول مرة.

ولم يصدقها. . انها تريد أن تبدو في نظره من ربات البيوت اللائي دفعتهن الحاجة الى العمل. . تمثيلية قديمة. . وانتهى عند هذا الحديث وكان لا يريد له ان ينتهي. ووجد موضوعا وأمرها ان تخلع الملاءة وكانت لا تزال تلفها حول نفسها. وخلعتها واحتارت اين تضعها وكل ما في المطبخ أنيق ونظيف لا تجرؤ على وضع

الملاءة فوقه. ووضعتها على السجادة في ركن الصالة، وكانت ترتدي تحت الملاءة فستانا من الحرير الباهت جدا.

وقال لها وعلى فمه ابتسامة ماكرة:

ـ تعرفي تعملي قهوة؟

فأجابته وهو تنظر في وجهه باستقامة:

ـ سكر ايه؟

النظرة صريحة، والطريقة التي تنظر بها اليها فيها أنوثة قوية، فأجاب في بطء:

ـ م.. مظبوط.

وضحك دون سبب يدعو للضحك. وأضاف دون ان يكون في نيته ان يضيف:

ـ واعملي لك فنجان.

وأجابت وهي مشغولة في اعداد الكنكة:

ـ كتر خيرك.

وتملكه ارتباك غير قليل. أحس كما لو كانت هذه المرأة شهرت تعرف كل شيء عن نواياه، والدافع الذي حد به الى أن يكلم فرغلي، وتعرف لماذا ضحك من ثوان، ولماذا هو واقف أمامها الآن يحاول أن يتمحك فيها، ولا بد أنها بينها وبين نفسها تسخر منه، وتضحك على القاضي الفاضي.

وتملكـه عناد. ولـوا فليكن هذا! فلتكن تعـرف كـل شيء! لم يعد أمامه أي خيار.

كـانت شهرت في ذلـك الوقت واقفـة أمـام المـوقـد وممسكـة الكنكة بيدها ورأسها منحن، وعيناها مستغرقتان(أو على الأقـل هكذا كانتا تبدوان) فيما أمامها. فغادر مكانه عند الباب واقترب خطوات ثم قال:

ـ وانتي ساكنة فين؟

قال هذا دون أن يحفـل بالجـواب، وقالـه وهو يضـع يده على كتفهـا، بل قـاله ليستـطيع أن يضـع يده على كتفهـا. ولم يعلم بماذا أجـابت لأنه في تلك اللحـظة كان يحـاول أن يقيس بأصـابعـه مـدى استجابتها. وأحس بكتفها تحت أصابع يده يتململ ولا استسلام فيه. واقتـرب منها بـلا وعي متحديـا تلك المقاومـة، وأصبح واقفـا خلفها مباشرة وأحس بجسدها كله ينتفض أمامه ويتململ. واقترب منها أكثر وجذب كتفها ليمنع حركتها، وانتفض جسدها انتفاضة كبيرة استدارت اثناءها وسألته:

ـ الفناجين فين؟

ونبتت نقط عرق فوق جبهته.

وحاول ان يبتلع ريقه الجاف.

وأمرها بلهجة حادة ان تنظف الشقة بعـد ان تنتهي من القهوة. وعـاد الى الكرسي الهـزاز. وأحضرت لـه الفنجان في أدب ووجههـا

جاد. وفي أقل من ثوان كانت الشقة كلها يغمرها المـاء ولا شيء على أرضها، وكانت هي منحنية تنظف وتمسح في نشاط زائد. وكان وهـو في مجلسه يلمح جسـدها المنحني كلمـا أصبح في متنـاول بصـره. وكانت سيقانها من الخلف بيضاء محمرة، ومن خلال ثـوبها المتـآكل كان يلمح بعض جسـدها. وكـان منظر تلك الـدوائر من اللحم الحي وهي تطل من النوافذ المبعثرة في ثوبها تفور له دماؤه.

وقـام من مجلسه واقتـرب منها مـدعيا أنـه يشـرف على عمليـة التنظيف.. وأخذ يأمرها: الحته دي لسه.. كمان هنا.. وطي شويـة عشان تطوليها. ووجهها الى الأرض وجسدها كله طوع نظراته.

وانتهت من عملها.

وسألته ان كان هناك شيء آخر؟ وأجاب بالنفي. وحينئذ سـألته عن الوقت الذي يجب عليها أن تحضر فيه؟ وقال لها:

ـ كل يوم الساعه الثانية والنصف بعد الظهر.

وكان هذا مناسبا جدا، ففرغلي يذهب في الثانية.

وراودته نفسه أن يحـاول معها محـاولة أخيـرة في ذلك اليـوم، ولكنه خاف من فشل آخر فـأجل المحـاولة. ولفت هي المـلاءة حول نفسها ومضت بخطوات قوية فيها مهابة وجلال.

وظل الأستاذ عبد الله يلعن ضعفه بعدما ذهبت. امـرأة مثلها لا يقدر عليها؟! امرأة آتية بإرادتها، والشقة خالية،وهو مهمـا كان شـاب ذو مركز، ولا يستطيع؟!

- ٣ -

وكانت تأتي بعد هذا في الثانية والنصف تماماً. وفي كل يوم يفكر. وفي كل يوم يؤجل. الى أن كان يوم وكانت تعيد تنظيم الفراش بناء على أمره(اذ كان جعفري يقوم بهذا في الصباح) وأطبق عليها فجأة وأخذها بين ذراعيه، وحاولت أن تتملص وتقول أنا في عرضك وأنا في طولك ووالنبي. ولم يأبه هو بهذا ولا لمقاومتها، وفي الحقيقة أتعبته كثيرا حتى أجبرها على السكوت.

وما كاد يجبرها حتى انتابته موجة فرح غامرة. وود ان يعرف ان كانت ساكتة لأنها لا تملك شيئا أمام قوته القاهرة ولا تستطيع دفعه، أو ان كانت ساكنة لأنها قد سلمت وخضعت أخيرا. فكف عن اجبارها ولكنها لم تقاوم ولم تدفعه، اذ ما الفائدة بعد كل الذي حدث؟!

وتركها.

وعاد اليها بعد قليل. كان يود أن يحدق في ملامحها القوية ويرى ما حدث لتلك الملامح، ويرى ما جرى للحمرة التي تلون وجهها. وفوجىء بعينيها محتقنتان وخدودها تلمح. وتضايق وسألها:

ـ مالك؟

وكان يتوقع ان تغمغم كعادتها بشيء مثل: ولا حاجة. ولكنها سكتت. فكش فيها:

ـ مالك؟! فيه ايه!

وحدقت في الفراغ وسكتت.

وهز كتفها هزة يختلط فيها قليل من الاشفاق بكثير من الضيق:

ـ مالك؟

فقالت:

ـ أصلي عمري ما عملتها.

وانهمرت الدموع من عينيها.

ولم يصدقها أبدا. تمثيلية قديمة أيضا تجيد أداءها تلك المرأة ذات الشخصية. تريد أن تضحك عليه وتوهمه أن تلك أول مرة. حسبته عبيطا أو ساذجا، أو لا بد تريد زيادة.

غير أنها لم تطلب زيادة في أجرها، ولم تسمح لعينيها بعد ذلك أن تلتقي بعينيه، كانت تحدثه وقليلا ما كانت تحدثه، وهي إما خافضة بصرها الى الأرض أو متشاغلة بشيء.

وكانت قد أعجبته. ولعل ما أعجبه في التجربة أنه أخذ كل شيء بذراعه هو. لم تكن نقوده ولا أدبه ولا مركزه هي التي انتصرت، كانت قبضته وقوته هي التي جلبت له النصر. وكان النصر

حبيبا لأنه قد أنهى به ذلك الصراع الخفي الذي دار في أعماقه بين صلابتها وضعفه، اذ إنه كان يحس على الدوام أنها أقوى منه، وأنها لو لم تكن خادمة وكانت سيدة صالون مدام شندي لما استطاع اليها سبيلا. كان النصر حلوا يغري بتكراره.

وفي المرة التالية كانت هناك مقاومة أيضا، ولكنها مقاومة اليائسة من المقاومة.

وتبدأ الأحداث عاصفة ثم لا تلبث أن تؤوب الى هدوء واعتياد. وكان وجود شهرت في البيت حادثا. . كان مجرد أن تظهر على الباب بملاءتها ويبدأ شبشبها يدق الباركيه شيئا يستيقظ له إذا كان متناوما، ويعتدل اذا كان جالسا، ويبدأ يفكر. . ترى هل يفعلها أو يؤجلها للغد؟ تراها كيف تبدو وماذا تقول عنه؟ وهل يعجبها؟ وهل يبدأ الآن أم الأنسب بعد تناولها الطعام؟ كان لا يستريح. وكان صوت الأطباق وهي تغسل، أو هفهفة المقشة وهي تعمل، أو اذا سألها سؤالا وهو جالس في حجرة بعيدة وجاء صوتها ذو الرنين الأنثوي المثير يجيبه. . ممدودا طويلا يلف أرجاء الشقة ويداعب أذنيه، كانت أصوات مثل تلك لا تنقطع، وكان وجيب قلبه لا ينقطع أبدا. كانت المسألة في نظره مغامرة دائمة فيها قلق الترقب ولذة المفاجأة. ولكن الأيام والأصوات ـ مهما كانت ـ فالانسان سرعان ما ينساها ويسلاها، وسرعان ما يعتادها ويصبح ما كان يجعله يقشعر لا يكاد يثير انتباهه بالمرة.

وكان كل همه أول الأمر أن يشل مقاومتها تماما حين يكون

معهـا. ثم انتهى عهد المقـاومة وأصبـح الأمـر لا يكلفـه أكثـر من أن يمسـك بيدهـا مسكـة ذات معنى، أو يحـدثهـا عن أي شيء ويبتسم بركن فمه ابتسـامة محملة، أو يسـألها عن، أو يسـألها عن «صحتهـا» ويضحك. وكانت تحاول حينئذ أن تبتعد عنه، فإن كانت في الصـالة وأطبق عليها تملصت منه بخفة وتوجهت الى حجـرة النوم. ولم يكن يدري لم تفعل هذا وهي تعلم انه ان آجلا أو عاجلا سينالها؟ كل مـا يحـدث أنه كـان يستثار أكثـر، وبعد أن كـان بادئـا الأمـر على سبيـل المداعبة اذا به يتشبث ويقلبه الى حد يسارع في تنفيذه.

وكانت ما تكاد تلمح رغبتـه وتبدأ تـراوغ، حتى ترتسم على وجهها ابتسامة شاحبة فيهاخجل ضعيف، قليل من الفتـور، وكثير من التسليم بالأمر الواقع والقضاء والقدر. غير أنه كان ما يكاد ينتهي منها حتى تنقلب هذه الابتسامة الى شيء آخر، وكأنما تسخر منه، وكـأنما تقول له: ولو!

ما كاد يصبح الأمر عادة حتى بدأ هو الآخر تفعـل العادة فعلهـا فيـه وينطلق على سجيتـه أكثر. كـان يتـرك نفسـه معهـا الى آخـر مـا تستطيعه نفسه. لم يعد يدقق كثيرا ولا يصطنع ابتسـامات. وأصبحت هي بـالنسبة اليـه شيئا كـالمرتبـة الحية التي يتمـرغ عليهـا ويتثـاءب، ويتمطى ويعري ساقه ويستريح. وحين بدأت العادة تفقـد التجربـة ما كـان لها من إثارة، بدأ يبحث عن إثـارات أخـرى. . بـدأ يهمس في أذنها بكلام وقح لترده لـه، ويتعمد أن يكشف عن نفسهـا كل غـطاء حتى يطلع على كل مكنوناتها، حتى تلك الأشياء القليلة التي تستحي

أي أنثى محترفة أن تفرط فيها.

وبعد أن سار في الطريق كثيرا، اقتنع آخر الأمر أنها لم تكذب عليه، وأنه كان أول رجل في ينالها بعد زوجها. ومن قد لا يقنعه الكلام فالتجربة والمشاهدات اليومية والتصرفات التي تحدث دون وعي، وتلك الأشياء الصغيرة التي لا يستطيع الانسان أن يضع لها اسما أو حتى يملك وصفها، هذه الأشياء تكشف على الدوام الحقيقة، وتقنع. وذات يوم سألها وهو يضمها اليه ويواجهها ليستطيع أن يستشف كل خلجة من خلجاتها:

ـ انتي بتحبيني يا شهرت؟

لم يكن يدري الدافع الذي حدا به الى هذا سؤال كهذا. ولكن السؤال على اية حال كانت له نفسه جذور قوية، ولم يأت صدفة أبدا مع أنه فوجىء بلسانه وهو ينطقه. كانت حاجة في نفسه قد ألحت عليه.

هذه المرأة لها زوج وأولاد. وهي حلوة، وتعرف أنها حلوة. وقد جاءت تدفعها الحاجة الى العمل، ثم نالها. وهو ينالها كلما أراد. أهي تقبل ذلك فقط لمجرد أنه سيدها ورب نعمتها كما يقال؟ أم لأنها تريده وتتمناه؟ وهل اذا كانت تريده، من أجل منصبه وعيشته الفاخرة أم من أجل ذاته والرجل الذي فيه؟

كانت هذه النقطة تؤرقه. كان يتمنى ـ ولو مرة واحدة في حياته ـ أن يكون رجل امرأة ـ أية امرأة ـ ولو كانت شهرت. وظل

يتلمس الشواهد. ولكن الشواهد لم تفده. إنها لا زالت تفرح كلما ترك لها باقيا من نقود. انها أحيانا تسأله أن يقرضها ريالا أو نصف ريال. هل الحاجة هي حقيقة ما. تدفعها أم هي ترغب فقط في تغفيله وابتزاز نقوده؟ وهل مواظبتها على ارضائه هو من أجله ومن أجل رجولته؟ أم هو تماما كمواظبتها على تنظيف الشقة ومسحها؟

الشواهد لم تفده. أوقعته في حيرة، لا لأنها متعادلة الجوانب ولكن لأنه أيضا لم يكن يفكر في شهرت بكل ما حولها وبكل ما يربطه بها الا فقط في تلك الدقائق التي يريدها فيها. كانت حياته تمضي كما اعتادت ان تمضي.. العمل، والقضايا، والحيثيات المتأخرة، والبريدج، ومدام شندي، ولقاءات مع فتيات أخريات، ونزهات بالعربة وغيرها وغيرها مما يصنع حياته. كانت الأسئلة تشغل باله في تلك اللحظة التي يخفق قلبه ويدق حين يخطر في باله ذات لحظة أن ينالها. ولهذا لم تشغل الأسئلة تفكيره كثيرا.

ولماذا اللف والدوران؟ قل انه سألها لمجرد العبث أو لمجرد حب الاستطلاع، أو لأنه كان يتمنى فعلا أن تكون قد أحبته.

وسكتت شهرت أسبلت جفونها، وجفونها المسبلة ليست شيئا جديدا عليه. فبرغم ما في عينيها من جمال كانت لا تكاد تحدثه الا وجفونها مسبلة.

وضحك وضغط عليها وضحك وقال:

ـ هيه.. بتحبيني؟!

فابتسمت وتساءلت:

ـ هو اللي بيحب حد يقول له أنا با حبك؟

وخرجت كلماتها ساذجة بسيطة. ولا بد أن الكلمات البسيطة تنبع من الصدق لأنها تنفذ مباشرة الى النفس بطريقة لا يستطيع الانسان حتى أن يرجع اذنيه ليتشكك في صدقها.

وجعلته اجابتها يحتار. من أين أتت تلك المرأة بهذه الاجابة؟ انها تذكره بمحاورات سقراط وأفلاطون. هؤلاء الناس البسطاء كيف يفكرون بمثل هذا الصدق والحق؟ لو كانت متعلمة لكان قد قال لنفسه أنها لا بد قد قرأت تلك الاجابة في كتاب، ولكنها غير متعلمة بل هي لا تعرف القراءة والكتابة. وأعجبه الحديث فمضى يحاورها:

ـ ازاي؟ طبعا... لازم يقول له أنا باحبك.

فاسبلت جفونها وقالت:

ـ ده لما يقول كده يبقى عايز يضحك عليه.

ـ يضحك عليه ازاي؟

ـ الحب في القلب واذا طلع على اللسان يبقى مش حب.

وأعجبه الحديث جدا. ترى ماذا تعرف تلك المرأة عن الحب؟

وما الحب في نظرها؟ انه يقرأ عن الحب، ولكن الذين يكتبون عنه أناس مثقفون وحكماء. وهو يخوض المناقشات حول معنى الحب ومصدره والدافع اليه ولكنه يخوضها مع أمثاله من المتعلمين،

ويا لها من فرصة تلك التي أتاحت له أن يناقش امرأة خام مثلها في الحب. وسألها:

ـ قولي لي يا شهرت.. الحب ده ايه؟

فانثنت وأشاحت بوجهها وقالت:

ـ يوه.. أنا عارفه بقى...

وأخذ يرجوها أن تجيب ويلح في الرجاء، فقالت:

ـ أنا عارفه... أهم طول النهار يقولوا الحب الحب.

فقال بعصبية:

ـ لأ... أنا عايز رأيك انتي... يعني في نظرك الحب ده ايه؟

ـ الحب ده حاجة من الله.

ـ يعني ايه من الله؟

ـ يعني لما ربنا لما يريد الواحد يحب.

ـ يحب يعني ايه.. يبقى عايز ايه.. يحس بايه؟

ـ والنبي يا بيه أصلك رايق.

وسكتت. وكان يبدو ان سكوتها لا لأنها لا تجد اجابة ما ولكن لأنها لا تستطيع أن تقولها.

* * *

والانسان قد يبدأ الشيء لمجرد التسلية، واذا به يتحمس له وينقلب الأمر الى جد خطير. وهكذا أثارت له تلك المناقشة مشكلة. انه لا يعرف زوجها، ولا حتى يذكر اسمه ولا يعرف ان كان صالح أو محمود. سألها عنه مرة وأحيانا تردده أمامه، ولكنه لم يعلق بذهنه.. بل انه لا يعرف ماذا يشتغل هذا الزوج. ولكنه زوجها على أية حال وخلف منها أطفالا ثلاثة، فلا بد أن بينهما شيئا. ترى ما هو؟

ولم يسأل الأستاذ عبد الله نفسه هذا السؤال الا لأنه كان قد وضع نفسه بين شهرت وزوجها. ترى هل تحبه أكثر من زوجها، أم تحب زوجها أكثر؟ مشكلة لو كان قد فكر فيها في أي وقت آخر لما كان قد أقام لها وزنا، ولكن في الظروف التي كان يدور فيها الحديث بينه وبين شهرت بدت المشكلة مهمة جدا في نظره. ولهذا قال لها وقد احتواهما الفراش:

ـ شهرت..

فقالت:

ـ نعم!

ـ انتي بتحبيني أكتر والا جوزك؟

خجل من نفسه حين نطق السؤال، وكاد يغير الموضوع، ولكنه ما ان نطق به حتى بدأ قلبه يدق وكأنه ينتظر نتيجة امتحان. أجل! هل تحبه أكثر من زوجها؟

وكان ما غـاظ الأستاذ عبـد الله أنها سكتت. . لم تفتـح فمها. فقط اسبلت عينيهـا وابتسمت، وخجلت وسكتت. مـاذا كـان يعني سكوتها؟ بالتأكيد لو كانت تحبه أكثر لأخبرتـه ولو من قبيـل التظاهـر، ولكنها لـم تجب. وملأه غيظ صبياني. . هذه الحقيرة ماذا في زوجهـا الذي لا يستطيـع الانفاق عليهـا ويجعلها تفضله عليـه؟ أيحسم الأمر ويطردها، فعلا يطردها. ولكن الخطوة كبيرة ولا يستطيع تنفيذها الآن وهو قد تعود عليها، ثم إنها عرفت مزاجه وما يرضيه وما يسخـطه وهو يستريح لوجودها، ثم هذا الشيء الذي لا يمكنه تحديده والذي يشده اليها. . والمسألة مسألة زمن. لقد أمضت مع زوجها سنين ولـم تقض معه سوى أيام معدودات. لا بـد أن يعلمها كيف تحبـه، هذه المـرأة ذات الملاءة اللف الغلبانة ألا يستطيع أن يعلمها كيف تحبه؟

وأمضه التفكير في هـذا. كيف يجبرهـا؟ كيف يستولي عليهـا؟ كيف؟

وازداد غيظه حتى كاد ينفجر.

ولكنـه لم ينفجر، بعـد ساعـة واحدة كـان جالسـا الى المكتب غارقا في خضم أربعين قضية عليه أن ينظرها في الغد، وقد نسي كل شيء تقريبا عن شهرت وزوجها والمشكلة الي أثارها بنفسه، حتى إنه حين أمر شهرت أن تعد له فنجانا من الشاي أمرها بنفس اللهجة التي يستدعي بها فرغلي شاهدا من الشهود.

- ٤ -

كانت التجربة في أول الأمر يلفها التزمت والجد، يستدعيها بخطة وإصرار ويرهب وجودها، ويرهقه ذلك الوجود وتشغل باله كل حركة من حركاتها. غير أن الموضوع كله لم يلبث أن أصبح عادة، ثم أصبح عادة مملة.

لم يعد في وجه شهرت ما يخيف أو يجبر على الرهبة، أصبح وجهها وجه امرأة عادية تحت أمره في كل وقت وكل لحظة وأصبح جسدها في يده كالورقة المهملة التي يستطيع متى شاء أن يكورها ويلقيها في سلة المهملات.

وحين وصل الأمر إلى هذا الحد امتلأت نفسه بنشوة الفوز. لقد انتصر! ولم يعد يفكر في شهرت كثيرا أو قليلا. أصبح وجودها في الشقة شيئا عاديا مثل «الفاز» الموضوع في ركن «الأنتريه»، كل الفرق بينها وبينه أن زهور الفاز تتغير كل يوم أما شهرت فملامحها كالزهور الصناعية التي لا تذبل ولا تنضر ولا يتغير تفتحها.

غير أنه في أحيان قليلة جدا كان يساءل نفسه: ترى هل انتصاره هذا حقيقي؟ ترى هل استحوذ على شهرت تماما؟ ترى هل

أنساها زوجها وأحبته؟

في معظم الأحيان كان لا يحفل بالاجابة على تلك الأسئلة. الأمر لم يعد يهمه، فحتى لو كان قد أخذها كلية أم لا تزال لغيره، فسيان. ولكنه في نوبة من نوبات تلك الأسئلة تحمس وشغله الأمر حينا فقرر أن يجري تجربة.

قرر أن ينقص ماهية شهرت، فإن كانت قد تعلقت به فستقبل الأمر حتما، فإذا لم تكن فستتركه. ولم يخالجه أدنى خوف أن تتركه، بل كان في الواقع يتمنى أن تتركه.. وقد بدأ كلما سأله فرغلي متملقا عن الحال يعقد وجهه ويحدثه عن أخطائها الكثيرة، ويحوم حول عيوبها، وملاءتها، وعدم قدرتها على القيام بعبء الأعمال في البيت.. كان يريد شيئا جديدا.

وفي أول الشهر نفذ الفكرة وأنقص جنيها. واحمر وجه شهرت وهو ينهي اليها بالخبر.. احمر جدا حتى خيل اليه أنه لأول مرة يشاهد احمرارا حقيقيا في وجه. احمر وجهها وتلقت منه الماهية ووضعتها في حافظتها الصغيرة الكالحة ولم تنطق بحرف.

وفي ثاني يوم لم تحضر. وقلق الأستاذ عبد الله وأنبه ضميره قليلا، ولكنه لم يشأ أن يؤلم نفسه أكثر فنفض عن نفسه مهمة التفكير والتأنيب وقرر أن يطلب من فرغلي أن يبحث له عن«طلب» آخر، ولكنه نسي أيضا أن يكلم فرغلي، اذ كان تلك الأيام قد شغله موضوع مهم.. فقد رأى نانا ذات مساء خارجة من سينما راديو بصحبة شاب، وظل يتتبعها ويسأل ويستقصي حتى عرف كنه ما

بينهما من علاقة. وحينئذ تجدد كل ما دار بينه وبين نانا بشكل حاد، وأصبحت استعادتها هي كل ما يشغله.

وبعد ثلاثة أيام أو أربعة كان عائدا الى بيته داخلا بالعربة الى الجراج الذي يحتل بدروم العمارة التي يقطن فيها، واذا به يجد شهرت جالسة على الأرض بجوار باب الجراج.

لمحها وتضايق، وقرر أن يتجاهلها ولهذا صعد من الباب الصغير الذي يصل الجراج بمدخل العمارة مباشرة، ولكنه وكما توقع تماما سمع الجرس يدق بعد دخوله الشقة بقليل.

وفتح وكانت شهرت. وابتسم ابتسامة صفراء وسمح لها بالدخول.

لم تتكلم هي، وكان لا يدري ماذا يقول. وراح يراقبها باستخفاف وهي تمضي الى المطبخ وتخلع ملاءتها وتعمل.

كان جالسا في حجرة المكتب فنادى عليها وجاءت. وصحيح أنه كان خجولا ولكنه أصبح لا يخجل من شهرت، بل انها الشخص الوحيد في العالم الذي أصبح لا يخجل منه أبدا قال لها:

ـ جيتي؟

فاجابت وهي تنظر الى أصابعها المبللة:

ـ واحنا نقدر نستغني.

فازدادت جرأته وقال:

ـ مال كنتي مشيتي ليه؟ عشـان الفلوس نقصت يعني؟

وتملكته وهو ينطق السؤال بعض المرارة، فقد تذكر أن انقاص الماهية كان امتحاناً لتمسكها به وأنه فشل في الامتحان. وأجابت:

ـ أصل البنت كانت عيانه وخدتها المستشفى.

ورأى في اجابتها كذبا لا يوصف.

غير أن نسمة اشفاق هبت، لعل مبعثها كانت مـلامح شهـرت. كانت شاحبة بعض الشيء ووجهها يلمع وفيه استسلام وملامحها كلها ذابلة ومدلاة الى أسفل، وكأن كرامتهـا قد استحـالت الى سائـل ذليل يقطر من أنفها وفمها وذقنها.. فقال لها:

ـ هي التلاته جنيه مش كفايه والا ايه؟

فقالت:

ـ نعمه... بس منعم أصله ساب الشغل.

ـ منعم مين؟

ـ جوزي.

ـ آه.. وساب الشغل ليه؟

ـ بيقول توفير والا مش عارفه ايه.

ـ هو بيشتغل ايه؟

ـ دباغ.

ـ دباغ ايه؟ . . فين؟

ـ في المدبغة في المدبح .

وزام الأستاذ عبد الله ولم يجب، وأحس في التو بكره هـائل لا يدري لمن يوجهه. وكلما نظر اليها ورأى الشيء الـلامع يتسـاقط من ملامحها ورآها مستكينة، ووراءهـا زوج عاطـل وأولاد، كان يـزداد ما يحس بـه من كره وغثيـان. ويبلغ الغثيـان مـداه حين علم أن زوجهـا يعمـل في مدبغـة، وتختلط في ذهنه أشيـاء. جلد قذر ورائحـة بهائم وغراء وعناق شهرت وفراشه، فينفجر

ـ طب روحي .

ومضت عنه .

ولعن الأستـاذ عبد الله نفسـه مرارا بعـد هذا الحـديث فقد جـر عليـه مشاكـل. كانت المـرأة أول الأمر مغلقـة لا تفتـح فمهـا بكلمـة فبدأت تشكو. اليوم زوجها عثر على عمل في محل ألبان، وغدا ترك العمل، والبنت عندهـا حمى وإسهال، البنت مـاتت، صاحبـة البيت تطاردهم ودوشة كبيرة جرها على نفسه بلا أدنى سبب.

وأصبحت شهرت عالة .

وأصبح التخلص منها ضرورة.

ولكنه خجول، وليس هذا كله شيء فهو انسان على اية حـال، وهل يقبل على انسانيته وهم يجتازون هذا الكـرب؟ من أين يأكلون؟

كان عليه أن يحتمل والاحتمال له حدود، لذلك كـانت ما تكـاد تفتح فمها بالشكوى حتى يقفله.

ثم إنه رجل وشهرت لا تزال المرأة التي أعجبته يـوما ولا تـزال أمـامه مشـاكل الجسـد رغم أنـه يـأنف من عمـل زوجهـا السـابق في المدبغة.

وفوجىء الأستاذ عبد الله ذات يوم بضحكة.. ضحكة رنت في أذنيه رنينا غريبا مختلطا أذهله وحيره.

كانت شهرت رغم كل ما مـر بينها وبينـه امرأة ذات وقـار. كان يراها دائما في ملاءتها.. جسدهـا ملفوف وقـامتها طـويلة ولا انبعاج في أعضـائها أو تـرهل، وكـان وجهها جـادا في أغلب الأحيان ولكنـه ذلـك النـوع السمـح من الجـد، وفي أحيـان قليلة كـانت تبتسم.. ابتسامة كل ما تفعله أنها تزيد السماحـة في وجهها وتدفـع ببريق معين الى نظراتها.

وكان رغم كل ما بينه وبينهـا يكن لها نـوعا من الاحتـرام كانت هي بالتأكيد مبعثه. فلا يذكر أنها لوثت لسانهـا مرة بخـطأ، ولا قللت من احترامها لـه، ولا طلبت منه مـطلبا بـاهظا، وكـانت مطالبهـا كلها متواضعة بسيطة ولا تلجأ الى سؤاله الا في أحوال نادرة.

غير أن تلك الضحكة أزعجته. كانت فيها ميوعة واستهتار وهـو لم يعهد فيها ميوعة أو استهتارا. ونادى عليها:

ـ يا شهرت.

ـ نعم .

ـ وخيل اليه أن«نعم» تخرج أكثر طراوة من فمها .

وجاءت . لم يدر ماذا تقول يقول لها أو لماذا ناداها . ووجد نفسه يسألها ان كانت تخلصت من الصرصار الذي في المطبخ ، وكان قد رآه وأمرها أن تقتله . وابتسمت له وقالت وهي تتدلل :

ـ ده لقيته لايف على صرصراية .

وأطلقت ضحكة رفيعة ، واشمأز منها وحدق فيها ، وخيل اليه انه يلمح في وجهها أشياء لم تكن موجودة ، أو أن وجهها ينقصه شيء كان موجودا . كانت أيام أن جاءت امرأة مصرية بلدي تنظر في وجهها فلا تجد فيه غير زوجة لها أولاد ، واذا به يراها الآن . . أجزاء قد غارت من ملامحها وأجزاء برزت ، وعيناها داخلتان في وجهها وحولهما دوائر وعلامات غير بريئة ، علامات تدل على تحول أصابها . حتى ابتسامتها لم تعد بسيطة ساذجة كعادة ابتسامتها ، أصبحت تحمل جزءا صناعيا ملحقا بها ومفتعلا .

وراعه ما وجده من تغيير.

وظل الأمر يشغل باله . هل هو مسئول عما حدث؟ وهل هو فعلا الذي أحدث فيها هذا التغيير؟ وهل هو الذي انهال على ملامحها المخلصة المتزوجة فأحالها الى ملامح امرأة تباع وتشترى؟

وفي الواقع أحس بنفسه مسئولا ولكنه تجاهل احساسه بتأنيب

الضمير. ان الانسان لا يؤنب نفسه الا اذا خاف من عقاب يتبع فعلته، وهو لم يكن خائفا من أي عقاب.

السبب الحقيقي الذي شغل باله كان شيئا بدأ ينهش صدره.. خوف غامض محير. ترى هل وحده هو وحده المسئول عن ذلك التغيير أم ان شهرت قد أنشأت علاقات أخرى مع أناس آخرين. أحس بالغيرة.. غيرة من نوع مطروق. ليست غيرة الحبيب على الحبيب ولكنها غيرة السيد على خادمته، أو غيرة السيد على نفسه. كان خائفا جدا أن تكون شهرت قد ساوته بصبي مكوجي أو بائع خبز، ولهذا كان قلقا، ولهذا تزايد قلقه.

وفيما توالى من أيام كان لا ينظر الى شهرت الا والشك يملأ عيونه. واذا أرسلها الى قضاء حاجة يستجوبها بدقة بعد أن تحضر، ويحاول أن يستغل فراسته كوكيل نيابة سابق وكل معلوماته عن علم النفس الجنائي لإدراك ما اذا كانت تخدعه أم تقول له الحقيقة.

وكان يسمعها تتضاحك أحيانا وهي تصعد السلم فيسألها حين تدخل، مع من ولماذا كانت تضحك؟ ثم ينتهز أول خطأ ويعاقبها بشدة.

وكان يعجب ويستغرب فقد تحولت شهرت.. كانت أول ما جاءت لا تكاد تستطيع أن ترفع عينيها في وجهه فاذا بها الآن كلما نهرها حدقت فيه وغضبت ولولا بقية من حياء لقالت: وأنت مالك؟ ثم بدأ يلاحظ أن قسوة ما قد صارت لها، وأن شخصيتها تخمد فيها

روح الزوجة الأم وتتصلب وتأخذ شكلا فيه حدة وعصبية وجمود. كانت تناقشه وهي التي لم تكن تجرؤ على نقاشه، وترد على حججه بحجج. وكان يلعن ضعفه، وأحياناً ينتهز نفسه ويسألها: ما الذي يمنعه من طردها؟ ولكنه منذ أن بدأت تقوى بدأ ينكمش، وأحيانا لا يستطيع الاستمرار في مناقشتها.

هل كان خائفا منها؟

هل كان يخاف إن هو أغضبها ان تفضحه مثلا وتسود سمعته؟

أم كان فقط يخجل من مجابتها وهو العليم بلسانه المتواضع؟ لعله كان يخجل. ثم انها كان لها منطق، ومنطقها كان دائما قويا دامغا. كان هو يعتمد في مناقشته لها على أوهام وافتراضات وتخمينات مبعثها ما يدور في رأسه عن سلوكها، وكانت هي تعتمد على حقائق تكاد تدفعها في وجهه دفعا.

والغريب انها كانت كلما اشتطت في موقفها منه ازداد هو أدبا، بل أحيانا كان يتملقها. لا لم يكن ذلك النوع من الملق الذي يزفه كعادة المرؤوسين للمفتشين وكبار رجال الوزارة الذين كانت تربطه ببعضهم العلاقات. لا، نوع آخر أكثر تخفيا. مثلا بدأ يسألها عن زوجها بشكل منتظم وعن أولادها. وكان الزوج يحيره.. كانت شهرت لا تكف عن الشكوى منه وتلعن اليوم الذي دخلت فيه بيته، وسب كسله وخيبته. ولكنها كانت تتلفظ بالشتائم من فوق لسانها فقط وكأنها تنهر ابنها البكر ولا تعني ما تقول. كان أياما يعمل وأياما كثيرة لا يعمل، وهي على الدوام تعمل. وأولادها باستمرار موضوعا مفضلا

لأحاديثها، وهي المسئولة عن كـل شيء أمام صـاحب البيت. وحتى أمام صاحب العمل الذي يشتغل عنده زوجها. ويعمل زوجها بمسمط يوما، وفي يـوم يوزع جبنـة على الزبـائن، وأحيانـا قهوجي، وأحيـانا تجهز له هي عجينة الطعمية ويقف على رأس حارتهم يقليها ويبيعها. وكان يأخذ له في كل عمل يومين ويولي. وكان الأستاذ عبد الله يتولاه الـذهـول كلمـا فكـر في تلك العـائلة التي تحيـا معلقــة بين الأرض والسماء، ويتساءل.. ترى كيف تحيا لو لـم تكن شهرت تعمل عنده؟ ولكنه يفكر في كل ذلك كما يرثي الانسان لزلزال يحدث في المـلايو ويـطيح بـالقرى. رثـاء.. مجرد رثـاء يقضي عليـه الملل الـذي بـدأ يتسرب اليه من شهرت ومشاكلها وعائلتها.

وجاءته في منتصف شهر تطلب منه جنيها، ولم يكن صـدفة أن تطلب منه في ذلك اليوم التالي ليوم نـالها فيـه. وحز طلبهـا في نفسه وسألها:

ـ كم؟

فقالت وهي تضحك وتتمادى وتتدلع:

ـ سلف.

ورمقـها فوجـدها تنـظر اليـه بعينين لا تـردد فيهمـا ولا خجـل. فخجل وأعطاها الجنيه. وصمم أن يكـون هذا شهـرها الأخيـر. وقال لها بابتسامة فاشلة:

ـ وتجيبيه امتى؟

فأجابته:

ـ نقسطه .

وأعقبت اجابتها بضحكة ارتعشت لها أذنه .

وفوجيء بها بعد أيام وقد حضرت لأول مرة دون ملاءة .

كانت ترتدي «جيب» من قماش كاروهات رخيص، ولكنه جديد، وترتدي فوقه خرفة قديمة ممكن تسميتها مع كثير من التجاوز «بلوزة»، ولم يكن يغطي شعرها شيء. كان رأسها عاريا، وكان ثمة أحمر خفيف ـ لعله صنع بقلم كتابة أحمر ـ على شفتيها. وكان منظرها يبعث على الاشمئزاز.

كان الملاءة تضفي عليها جدا وتجعل لها منظر الأم. أما هذا الزي، صحيح لم يكن فاضحا ولكنه ليس رداء أم بأية حال من الأحوال. ثم إن رأسها حين كشفته غير من وجهها وشعرها، وأظهر ما كان خافيا في وجهها وشعرها وأصبح لملامحها تعبير عمومي. كانت ملامحها فيما مضى لها طابع خاص ونكهة تميزها عن أية امرأة أخرى، ولكنها بدت مجرد امرأة ذات شعر خشن لم ينسكب عليه طلاء أو نعمه زيت، وقد أصبح مفضوحا لا يحجبه منديل ولا تحفظ عليه كرامته ملاءة.

وقال لها باستغراب حقيقي :

ـ عملتي في نفسك كده ليه؟

فأجابته بصوت كأنما كشف عنه الغطاء هو الآخر فأصبح مبحوحا ذا نبرة غريبة :

ـ أصليَ بانكسف من الملاية لما باجي العماره.

وأضافت وهي تخطر أمامه:

ـ مش كده أحسن؟

قالت هذا وهي تنظر إليه عبر كتفها وتلتفت خلفها بعينين فيهما نفس الجرأة والاستهتار.

ومط شفتيه علامة اليأس وقال لها:

ـ جوزك يا ترى قال ايه؟

وطرقع شيء في فمها وقالت:

ـ يا أخي دا اهدى.. هو حد بيشوفه.

ـ ليه سافر والا ايه؟

فقالت وقد تغيرت ملامحها:

ـ بقاله بسلامته تلات أشهر قاعد في القهوة.

ـ ليه.

ـ فنش شغل..

وضحكت ضحكة ذات شهقة، وقالت وهي تغير الموضوع وتخطر أمام مرآة الأنتريه:

ـ مش بذمتك أحسن من بتوع السيما يا بيه؟

وأقسم في سره أن يكون هذا شهرها الأخير..

وعوجت وسطها وقذفت بيدها في حركة تمثيلية متراخية على وجهها في المرآة وقالت:

ـ مش أنفع يا بيه اشتغل في السيما؟

ومضت تصنع «البوزات» وتعقص رقبتها. ولما لم يرد قالت وكأنما ترد على نفسها:

ـ الناس بيقولوا اني أنفع في السيما.

- ٥ -

وثاني يوم حضرت بالملاءة. وسألها عن السبب وهو يضحك بسخرية. فقالت وهي واجمة أن البلوزة التي كانت ترتديها لا تصلح وأنها في حاجة الى بلوزة جديدة، وقد اشترت القماش ولكن يلزمها جنيه آخر للترزي.

وصمم أن لا يعطيها أي مليم. صمم والأمر يشغله.. ترى لماذا هذا التغيير؟ ولماذا تصر على ارتداء ملابس كتلك وهي تبدو أجمل بالملاءة. ولم يفترض حسن النية وهو يجيب واستمر يتساءل: ترى ماذا تفعل بعد انتهائها من عملها عنده؟ وكيف يأكلون؟ لا بد أنها تخرج في الشارع، وذوي الملاءات لا بد أن سعرهن قليل ولهذا تريد الجيب والبلوزة ليرتفع ثمنها.

ومع يقينه في صدق ما يخمنه الا انه راح يستنكر أن يكون ما يفترضه هو الحقيقة. ولم يشأ أن يتعب نفسه.. كانت شهرت بالنسبة اليه قد انتهت. بضعة أيام فقط ويطردها بلا رجعة، فلتفعل ما يحلو لها.

وألحت في اليوم التالي وهي تطلب منه أن يقرضها الجنيه

مـدعيـة أن البلوزة قــد تم تفصيلهـا. ورفض بجفــاف. كـانت قــد استنفدت كل ما لها من نقود. وأي سلف لن يسترده، وهـو قد صمم على ازاحتها ولن ينتظر إلى آخر الشهر. . غدا يقول لها مع السلامة.

ولكنه كان يحدث نفسه بهذا كل يوم. وكل يـوم ينسى. يخرج من الشقة في الصباح وفي نيته أن يفعل، ثم يهبط الى الجراج ويدور حول العربة ويتأكد من نظافتها، ولا بد أن يجد فيها شيئـا يستحق أن يلوم صبي الجراج من أجله. ثم تتهادى به العربة الى المحكمة، وما أن يصل حتى تدب الحياة في بنائها. تحيات من اليمين ومن اليسار، وقيام وقعود، وهـرولة وهـرجلة. وفرغلي مـا يكاد يلمـح العربـة حتى يقبل لاهثا ويفتح بابها وينحني ويلفع الشنطة ويتبعه من بعيد، والناس من حـولهمـا راكعـة الـرءوس ولا مجـال للكـلام. ويـدخـل حجـرة الانتظار. . بعض القضايا لم يكن لديه مجال في وقت لمراجعتها وقد أشبعها تأجيلا ولا بد من مراجعتها قبل بدء الجلسة. ويدخـل الكاتب عجوزا وله منظار ويطؤه أكثر كآبة من منظاره، ويأخذ أكثـر من خمس دقـائق ليقول صبـاح الخيـر ويتلكـأ، وتـأتي القهـوة ويفـرد دوسيهـات القضايا. ويحس بالوقت يمضي بسرعة والساعة تقترب اقتراباً جنونيـاً من العـاشرة، والجمهـور في القاعـة يتململ وقـد بـدأ يسمـع بـأذنـه أصوات الاستنكار والهمس الخافت حين تعتريه موجات ارتفاع فيغادر مكتبه. وفرغلي واقف على الباب وتدوي كلمتـه: محكمة! تكـاد من فرط علوها وصلابتها أن تصنع قوس نصر ينفذ من تحتـه القاضي إلى كرسيه.

وتبدأ القضايا.. سريعة متلاحقة يهتم بتتبعها أول الأمر، ثم يؤجل تتبعها ويسرح أو يحدق في وجه أعجبه أو لم يعجبه لشاهد من الشهود، أو يستثقل دم محام، أو تطرق باله أحيانا فكرة أن يستقيل من الحكومة ويعمل محاميا.

وينتهي اليوم، وتمضي به العربة ويتركها على باب الجراج ويصعد. وما أن يفتح الشقة ويجد ملاءة شهرت راقدة في الأنتريه كالراية السوداء حتى يذكر أنه نسي أن يفاتح فرغلي في أمر طردها.

ويصمم أن لا ينسى في اليوم التالي.. وينسى في اليوم التالي.

انتهى الأستاذ عبد الله من سرده وهو يخبط كفا على كف. كانت المسألة في غاية الوضوح.. شهرت أخذت الساعة لتبيعها وتدفع ثمن البلوزة بعدما رفض اقراضها وبعدما أحست أنه ينوي طردها. وكانت المسألة من كثرة وضوحها تدعو الى الغيظ. لماذا الساعة بالذات؟ ولماذا اليوم بالذات.

وكان شرف لا يزال ممددا قبالته يستمع، ويبدو أن طول ما رواه عبد الله قد عمل عمله فجعل عقل شرف يسترخي. كان جالسا يكاد يكون لا حول له ولا قوة.

وبلغ الغيظ بالأستاذ عبد الله منتهاه وقد أحس بنفسه يجابه الموقف وحيدا. جاء بشرف ليعينه فاذا به فاتر الحماس والأمر لا يكاد يهمه. خادمة مثلها تأخذ ساعته عيني عينك وهي تعلم أنه حالا سيعرف. انها ليست سذاجة منها أن تفعل ذلك، إنها وقاحة وتحد. وانفجر يحدث شرف ويتحول كلامه الى صياح. كان منفعلا وكأن كرامته هي التي سرقت، وامرأة فاجرة هي التي سرقتها لتحترف بها. إنه لن يسترجع الساعة فقط ولكن شهرت لن تنفذ من

يده. . سوف يريها أنه ليس بالضعف والطيبة التي تتصورها وأنـه ليس من الطير الذي يؤكل لحمه.

وأخذ الرجلان يكدان تفكيرهما ويتشاوران فيما يمكن عمله.

شرف جالس ممدد الساقين.

وعبد الله يروح ويجيء ولا يستقر في الحجرة.

كان يومها يوم الأحد وهو اليـوم الذي تعـودت شهرت أن تـأخذ فيه اجازة، وهي لم تتعـود، هو في الحقيقـة الذي عـودها. لم يفعـل ذلك أول ما جاءت بل هـو تقليد وضعـه مؤخراً بعـدما ضـاق بشهرت ولم يعـد نوالهـا يكفي شغفه، وأصبـح لا بد من العـودة إلى الطريقـة القديمة وإخلاء الشقة لزوار آخرين.

وفكر أول ما فكر أن يبلغ البوليس، ولكنه راجع نفسه، وراجع كـل ما نـظره في حياتـه من قضايـا وكل مـاسمـع عليـه فلم يجـد أن البوليس قد أفلح مرة في اعادة مسـروقات صغيـرة كتلك. ما أن يبـدأ البوليس يتدخل حتى تغوص المسروقات في سابع أرض، وليس هذا كل شيء، فإبلاغ البوليس يحتم عليه أن يقر ـ وهو القاضي الأعزب ـ أنـه يستخدم عنـده امرأة. ثم قـد تتوقـح شهرت وتفلت منهـا ألفاظ، ولهذا كان من المستحيل عليه أن يبلغ البوليس.

وكـان فرغلي أول من خـطر له هـو مفتـاح القضيـة. لا بـد من استدعائه وشرح ما حدث له وتحميله المسئولية باعتبار أنه ولي أمـرها وهـو الـذي أحضـرهـا. ثم عليهـا بعـد هـذا أن يكلفه بـاستـدراجهـا والحصـول على الساعـة منها. ولكن شـرف لفت نـظره الى شيء. .

شهرت ليست بالسذاجة التي قد يتصورها ولن تقع هكذا من أول هجوم. ثم من يدري؟ لعل حب الاستطلاع يدفع فرغلي الى توجيه أسئلة ما تؤدي الى أسئلة أخرى. لا بد أن يكون هو المتحدث اليها بنفسه حتى يستطيع أن يرد في الوقت المناسب ويزن الأمور.

ولكن... كيف يقابلها؟

هي الآن في بيتها ـ والساعة الثالثة ـ وهو لا يعرف بيتها. فرغلي هو الذي يعرفه، وفرغلي الآن في بيته، واذا صبر الى الغد فلن يضمن بأي حال أن تبقى الساعة تنتظره. إنه مؤمن ايمانا راسخا أن لو أمكنه بطريقة ما أن يفاجىء شهرت في بيتها الآن فسوف تروع وتعترف وتناوله الساعة. ولم يفلح شرف في زلزلة هذا الايمان واضطر في آخر الأمر الى متابعة أفكاره والى أن يبحث معه مشكلة العثور على فرغلي.

وظل عبد الله يعمل فكره. وتذكر شيئا.. تذكر انه نسي المفاتيح مع فرغلي مرة ثم استطاع العثور عليه وعلى بيته واستعاد المفاتيح بطريقة ما. ما هي تلك الطريقة؟

وكان الرجل في قمة توتره، كان عقله يعمل بسرعة وقوة لم يعمل بها منذ سنين، وذهنه حاضر لامع متدفق، وثمة دافع جبار يتفجر في نفسه ويغذيه بالنشاط ولا يكف عن تغذيته. كان كقائد جيش يعد للهجوم في الفجر ويعمل حسابا لأدق الاحتمالات. وتذكرا أمرا.. صبي الجراج. تذكر أنه كانت له علاقة باستعادة

المفاتيح. وفي الحال استدعى البواب وأمره أن يستدعي صبي الجراج. واستمر يروح ويجيء حتى دق جرس الباب ودخل الولد وفي أعقابه البواب الضخم الأسمر.

كان الصبي شابا قمحي اللون مهلهل الملابس يبدو الريف على سيماه، بل يبدو أنه هارب من أهله في الريف. وظل الأستاذ عبد الله يسأله على الأقل خمس دقائق قبل أن يستخلص منه شيئا. كان يبدو على الشاب أنه مروع باستدعائه أمام القاضي، مذهول بالشقة والناس المتطلعين اليه.

وأخيرا هدأ الشاب بعد أن حاول ابتلاع ريقه الجاف وكاد يبتلع حنجرته. وسأله عن فرغلي، وأنكر الولد انكارا تاما أنه يعرفه أو له به صلة. وحاول القاضي أن يسترضيه بسيجارة ولم يشأ أن يزيده اضطراباً ويأمره بإشعالها أمامه، وعاد يسأله وهو يطمئنه ويربت على كتفه. وبعد جهود اشترك فيها شرف والبواب، تطوع الشاب أن يحاول تذكر بيت فرغلي والبحث عنه. وكي تتوفر السرعة الواجبة أمر القاضي البواب أن يستصحبه ويأخذا تاكسيا ولا يعودان إلا بفرغلي. وأعطاه جنيها يدفع منه مصاريف الانتقال.

وافترض الأستاذ عبد الله أن فرغلي قد جاء ومضى يكمل الخطة.

إن الموقف صعب. فرضنا أنه عثر على شهرت وواجهها. هل يضمن نفسه؟ انه هنا ـ وهي في بيته وهي خادمته ـ كان في أحيان

كثيرة لا يستطيع أن يبقي عينيه في عينيها طويلا، فما بالك في ظروف كهذه؟ ولم يستقر الخاطر في ذهنه لحظة. كان الغضب يجتاحه ويؤكد له أنه قادر على مواجهة مائة شهرت وأنه ما أن يراها حتى يصبح في امكانه أن لا ينتزع منها الساعة فقط ولكن ينتزع روحها أيضا.

ولكي يطمئن كان لا بد له من الاستعانة بأمر آخر. اذا عن لها أن تكابر وتنكر، واذا استطاعت أن تتماسك أمامه فلا بد من تهديدها. وهو لا يملك وسيلة لتهديدها سوى تخويفها بالبوليس والسجن. ولكي تخاف من البوليس يجب على الأقل أن تراه بعينها. وهو يعرف معاون بوليس قسم ثان الجيزة، وممكن أن يستصحبه الى بيتها فقط لمجرد تهديدها وإخافتها. ثم إن معاون البوليس هذا شاب مرح لطيف يستطيع أن يشرح له الأمور اذا تفوهت شهرت بأقوال تشين. ولكن ماذا لو رفض المعاون أو اعتذر، وبيت شهرت بالتأكيد ليس من اختصاصه. . الا يكون قد كشف نفسه دون داع؟

ولا يدري كيف ساورته الفكرة، ولكنه صافح شرف في التو وهو يهنىء نفسه على ذكائه واكتشافه حلا عبقريا. لكاذا لا يقوم شرف بدور الضابط، والاثنان يتعاونان على اعادة النظام الى شعر شرف المهوش حتى تصلح رأسه لضابط.

ودق الجرس.

وخرج الأستاذ عبد الله ووجد فرغلي واقفا يلهث وقد رفض

البواب ان يجعله يصعد في الأسانسير وجاء به من يده عن طريق سلم الخدم. وفرغلي ببدلته الواسعة القديمة المعتادة، وطربوشه الغامق المائل والعرق ينز من وجهه. وفي كلمات مقتضبة قليلة أنهى اليه القاضي بما حدث.

وما كاد فرغلي يتحقق حتى تراجع الى الوراء كالمذعور، وقال وهو لا يزال يلهث:

ـ ازاي؟ ازاي؟ ازاي بنت الـ . .

وظل يردد الجملة لا يغيرها وثلاثتهم يهبطون السلم.

وركبوا العربة.

القاضي أمام عجلة القيادة في المقدمة، وشرف بجواره، وفرغلي جالس على أطراف الكرسي الخلفي يكاد يقف لو كان سقف العربة يسمح. وكان هو أيضا الذي يتكلم طوال الوقت أو بالأحرى يسب ويستنكر ويعد القاضي أنه سيخرب بيتها وييتم أولادها، ويطردها من الحتة.

وكان فرغلي يتكلم عن«الحتة» كما لو كان القاضي يعرفها. وسأله الأستاذ عبد الله عنها فقال فرغلي بلهجة الواثق:

ـ جنب حارة الروم على طول.

وعاد القاضي يسأل وفرغلي يجيب بأسماء لم يسمع عنها القاضي ولا حتى شرف. وأدرك الاثنان أخيرا أن«الحتة» التي يقصدها فرغلي هي الحارة السد التي تقع في مكان ما وراء الجامع الأزهر.

بـدأ الأستـاذ عبـد الله الـرحلة وهـو في قمـة انشـراحـه. ضمن الوصول الى شهرت، وضمن المفاجأة، وضمن العثور على الساعة، وضمن الخـطة. بدأ الـرحلة تمامـا كالتلميـذ المجتهـد الـذاهب الى امتحانه وهو متأكـد من النجاح وعلى وجهـه اشراقـة النصر. ولم يكن منشرحا فقط بـل كان أيضـا نشوان، ففـوق أنه سيستعيـد ما أخـذ منه غدرا، فقد كان في الطريق الى اختبار ذكائـه ومقدرتـه على التفكير. والمغـامرة في حـد ذاتها لـذيذة. . مغـامـرة جـديـدة رائعـة أن يضبط شهـرت بنفسه ويضبـطها متلبسـة، ويراقب انفعـالاتها بـدقـة، ويـرى ارتباكها ورجفتها وانكارها. أو قد يحدث حادث مفـاجىء لم يعد لـه حسابا ولكنه لا بد سيكون ممتعا وسيكون التغلب عليه أكثـر امتاعـا. المغامرة رائعة حافلة في كل خطوة منهـا متعة، وفي روايـة تفاصيلهـا بعد ذلك لأصدقائه سعادة.

الأحاسيس الدافئة كانت تملؤه والخواطر السوداء كان يـطردها. فقـد لا تكون شهـرت هي السـارقـة رغم دقـة ذكـائـه، أو تكـون قـد تصرفت في الساعة، أو يفشل في مواجهتها ومفاجأتها.

وتتآمر عليه عشرات الاحتمالات ولكل احتمال منها وجاهته، ويحس برأسه يكاد ينفجر. منذ أن عاد من المحكمة وهو لا يكف عن التفكير، والانسان له عقل واحد، وعقله قد تحمل فوق طاقته وما عاد في استطاعته المضي.

وقرر أن يوقف التفكير في شهرت والساعة ـ وما قد يكون ـ في الحال ـ ولم يستطع. في كل مرة يظهر طرف سؤال أو احتمال ثم لا يلبث ان يتكامل.. ويصبح مطالبا ببحثه والاجابة عليه. ولهذا قرر أن ينصرف عن الموضوع كلية، ولم يجد أروع من أن يجعل عقله يسترخي ولا يفعل شيئا سوى استقبال ما يتتابع أمامه من مشاهد وتأملها وحصر نفسه فيها.

ومن تلك اللحظة بدأ يحس بنفسه ينزلق ويتوه ولا يستطيع أن يحدد واقعة بذاتها، أو يتذكر دقائق حدث معين، أو يعثر على سبب واضح لما اعتراه.. وكأنما قد حدث كل ما حدث وهو نائم يحلم أن شيئا مما رآه لم يحدث. إنه لا يزال يذكر علامات باهتة للبداية، وكان في شارع الجبلاية والشارع طويل نظيف تحفه أشجار مقلمة فروعها ومرسومة، والمساحات واسعة والعمارات شامخة وعالية وكل عمارة لها نمط وشخصية والمارة نادرون.. والهدوء مخيم والسكون تام لا يسمع فيه الا حفيف العربات السارية، وكلها من ماركات فاخرة وموديلات حديثة، والهواء مفتح النوافذ يسري ناعما رقيقا في حرية، وموج النيل يمشي على أطراف أصابعه حتى لا يعكر قدسية السكون المستتب.

والعربة تمضي وكأنها تمضي فوق بساط من حرير، وصدره

ممتلىء بأحاسيس جياشة وحواسه تستعد للمشاهد المثيرة المقبلة، وشرف بجواره يدخن في صمت ولذة ويبتسم كلما تذكر دوره، وفرغلي جالس في المؤخرة متشبث بالمسند الأمامي يكاد يشم رائحته ورائحة بدلته، ورذاذ كلامه يتطاير ويغرق أذنه اليمنى . .

وعند أول الكوبرى تلتقي العربة بأسراب العربات القادمة من الزمالك والجزيرة والدقي والجيزة، أسراب جديدة رائعة الألوان كأسراب الطيور تعبر الكوبري وهي تكاد تطير. . وفي دوامة ميدان قصر النيل تتسرب الموديلات القديمة وعربات الأجرة ويوزع الميدان محتوياته ويملأ بها شوارع المدينة حيث الحركة دائبة والاتساع أقل، والبنايات متلاصقة متقاربة، والأصوات قد بدأت تشغل الأسماع، والألوان تتعدد، والماشون على أرجلهم قد بدأوا في الظهور. وفي العتبة تختلط العربة بالأوتوبيسات وعربات الترام والمارة والكارو، وتبدأ الجلابيب، وتعنف الحركة، ولا يبقى ثمة نظام . .

وحين يدلفون الى شارع الأزهر يصل الصراع الى قمته. ويختلط في بطن الشارع الحابل بالنابل، والراكب بالماشي. وعويل العجلات وصراخ الكلاكسات، وزمامير الكمسارية وزئير الموتوراث، وسرسعة أجراس الأحصنة وصفافير عساكر المرور، وزعيق الباعة والمارة، والحرارة تصل أوجها والازدحام منتهاه، ويصبح لا مكان لفرد وكل شيء بالجملة، الركوب بالجملة والشراء بالجملة والحوادث أيضاً بالجملة، والآلات هي التي تتصارع والبقاء للأكبر وبين الحين والحين تسمع: حاسب. . كالصرخة الأخيرة لقتيل يغرق.

وتصبح قيادة العربة عذاب، وروحه تبلغ الحلقوم، والمارة لا يكفون عن سبه. وفرغلي لا يكف عن رد السباب بأحسن منه، وتصميمه على تأديب شهرت يزداد. لم يعد كافيا أن يخيفها ويستعيد الساعة.. لا بد من الانتقام لكرامته.. آه لو يخنقها.. أجل يلف أصابعه حول عنقها ويظل يضغط ويضغط على النفير، ولا يسمع له صوتا ويشدد من ضغطه والضجة تمتص الأصوات وتمنع الصرخات، والازدحام هائل، والتقدم بطيء يفجر المرارة، وجامع الأزهر يبدو عاليا مغبرا أحجاره كبيرة ـ الحجر يبني بيتا ـ وجداره متين تملأه الخرابيش والحفر ولا يهتز بما حوله، ويشهد الصراع القاتل من مئات السنين ولا يحرك ساكنا ولا يستطيع ساكن أن يحركه.. وتنحرف العربة إلى اليمين..

ويتركونها بناء على نصيحة فرغلي وتحت مسئوليته، ويكملون الرحلة سيرا على الأقدام. وبعد خطوات قليلة يحس بفراغ في رأسه وكأنه أصبح وحيدا في مكان عريق مهجور. والضجة ماتت والهدوء قد أصبح شيئا ملموسا وكل ما حوله قد بدأ يهوي أمام ناظريه. إنه مصري مائة في المائة، أبوه من المنيرة وأمه من العباسية وله أقارب فقراء في الصعيد، وسافر ورأى وانتقل وحقق ولمس بنفسه أقصى درجات الحاجة. وهو متأكد انه لا يزال في القاهرة لم يغادرها، وأن المكان الذي يمشي فيه حي من أحيائها، ولكن المرئيات تتتابع كلما تقدم ويحس بالذهول وبأنه يدلي بحبل في بئر لا قرار له..

الشوارع أول الأمر مستقيمة ذات طول وعرض وأسماء

مشهورة. . وأسفلت واضح وتلتوار. . والبيوت على الجانبين مزدحمة ومكدسة. . ولكنها بيوت لها أرقام وبلكونات ونوافذ بشيش وزجاج وبوابات ذات زخارف، والحركة مائجة هائجة. . والدكاكين لها أصحاب ومكن وعمال ويفط مكتوبة بخط أنيق، والمارة وجوههم حليقة فاتحة فيها دماء، وملابسهم كاملة زاهية ذات ألوان وتفصيل، واللغة راقية مكونة من جمل وكلمات، والجو تملؤه رائحة الوقود المحترق والمانيفاتورة والعطور. .

ويتقدمون. . وتضيق الشوارع وتقل شهرتها، وتفقد البيوت أرقامها وتنقص أدوارها، وتصغر أبوابها وتصبح نوافذها بلا شيش، وتتحول الدكاكين الى حوانيت صاحبها هو عاملها ويداه هي المكنة، وتشحب وجوه المارة وتزداد سمرة، وتبهت ألوان الملابس ويتقدم بها العهد، وتتحلل اللغة وتصبح كلمة ونداءات وشتائم، وتهب رائحة العطارة والجلود والغراء والخشب المنشور.

ويتقدمون. . وتضيق الشوارع وتضيق وتفضي الى حارات تصك أسماؤها الآذان، وتأخذ مكان الأسفلت كتل صلبة من الأحجار، وينتهي التلتوار. وتتقادم البيوت ويفصلها عن الحاضر أحقاب وأحقاب، وتصبح النوافذ فتحات ليس فيها غير الحديد. وتخفت الحركة، وتندر الحوانيت وتتقطع ويصبح بين البقال والبقال مشوار. وتتضخم الملامح وتغمق الوجوه وتنبت اللحى وتغزر الشوارب وتتناقص الملابس ويصبح البنطلون بلا قميص والجلباب بلا سروال، وتتفتت اللغة الى أنصاف كلمات وأرباع وتعبيرات لا

يفهمها سوى أصحابها، وتختفي روائح الدكاكين وتمتلىء الأنوف بروائح التقلية والملوخية متصاعدة من البيوت. .

ويتقدمون. . وتتعرج الحواري وتتداخل وتؤدي الى أزقة لها أسماء تضحك غرابتها، وتصبح الأرض من التراب وعلى التراب أوساخ وماء وطين. وتموت الحركة وتختفي الحوانيت وتنتقل البضاعة الى عربات يد أو صناديق معلقة في الحيطان. . وتفقد البيوت ما فوقها من طلاء وما في نوافذها من جديد. ويقل المارة من الكبار ويظهر الأطفال ويتكاثرون وكذلك يفعل الذباب، وتتضخم الملامح وتتورم وكأنما قرصتها دبابير، وتتهرأ الملابس وتتمزق وتفقد الكثير من أجزائها. ويظهر أناس بلا لباس، وتصبح اللغة سرسعة وأصوات وحروفا تتصاعد من حناجر شديدة البروز، وتملأ رائحة الطين والقدم الأنوف.

ويوغلون في التقدم. . وتتلوى الأزقة والمسالك وتؤدي الى مكان ليس له كيان، كل ما فيه يختلط بكل ما فيه، الأرض المرتفعة المكونة من أجيال متعاقبة من القاذورات والأتربة، بالأبنية المنهارة التي ناءت بما فوقها من أكوام وأعمار، ولون الأرض ذات الطين بلون الجدران ذات التراب، والملابس بالخرق المبعثرة في الطريق، ورائحة الناس برائحة الأرض برائحة البيوت، والهمهمات المتقطعة بهبهبة الكلاب بالأبواب الكبيرة وهي تزيق وتفتح، والحركة البطيئة الميتة بالهوام الزاحفة، والمساكن المنخفضة المتربة بالقبور التي ترقد على مرمى البصر، وفرغلي المخلول لا يتغير احترامه ويسبقه بنصف

خطوة لا يريد أن يسبقه كثيراً ولا أن يتأخر، ولا يريـد أن يوليـه ظهره، ولا يستطيع أن يسير ووجهه الى الخلف، ويجـامله بعقد مـلامحه اذ المهمة التي جاءوا من أجلها خطيرة تستدعي عقد الملامـح، والناس تحييه وهو يرد تحيتهم في اقتضاب. الناس تحييه وتسأله عن الأحوال ويحف بـه احترام هـو الحاجب الـذي لا حول لـه ولا قوة، ولا أحـد

يعرفه في شارع الجبلاية هو القاضي الذي له الحول والقوة.

ويمضون وحولهم خراب وبيت تتسانـد حتى لا تنهار، والنـاس هي الأخـرى تتسانـد حتى لا تنهار. والعجـوز يتحامـل على شـاب، والأعمى يسحبـه صبي، والعليـل يسنــده جـدار، والنبي وصي على سـابع جـار، وخيط خفي يجمع الكـل ويربـطهم معا وكـأنهم حبـات مسبحة وكأنهم روح واحـدة تحيا في أجسـاد كثيرة متفـرقة، والزمن لا قيمـة له، فـالطفـل الرضيـع على كتف أمه هـو الـطفـل الـذي يحبـو ويختلط بأكوام الزبالة، هو الـطفل المـاشي الذي يتمنـطق بالأحجبـة خوفا من العين،هو الطفل الميت أو الذي عاش،هو الصبي في ورشة أو محـل، الغـادي الـرائـح يقلد الممثلين والأراجـوز ويتهجى ألفـاظ السبـاب، هو الشـاب في عفـريتـة أو جلباب يجـذب أنفاس السجـائر المصنوعة من السبارس، هو الرجل العـامل أو الـرجل العـاطل، هـو الغـائب عن الوعي بجـوار حائط، هـو الدائـخ من الأفيـون والبـطالـة والسيكـونال، هـو الشيخ الـذي يقضي النهار يصلي ويـدعـو لـلأولاد ويترحم على ما فات ويجمل لنفسه الآخرة.

والبنت العروس المخطوبة، هي الأم ذات الأطفال، وصاحبة المنديل بأوبة هي المتشحة بالسواد، وضاربة الطفل هي المضروبة من الزوج، والطابخة هي الملهوفة التي تبحث عما تسد به الأفواه.

ويأتيه صوت فرغلي وهو يشير الى البيت الوحيد المتماسك ويقول:

- بيتي.

ويعزم بقوة ويشدد ويلعن شهرت التي جعلت رقبته كالسمسمة.

ويسأل عن الحارة السد ومتى يصلون؟ ويجيب فرغلي أنهم فيها، في الحارة السد. وأن بيت شهرت قريب بعد خطوات. ويمضون وتحف بهم نظرات مستغربة تتوجس، وراء كل نظرة كلمة غريب. ووراء الغريب تساؤل، ووراء التساؤل خطر..

والنساء الجالسات على العتبات ينسجن من السآمة أحاديث ومن الأحاديث مقدمات حزن، يرونهم فيتعجبن وتميل الرءوس على الرءوس وينتقل الهمس من عتبة الى عتبة، وكأن بين العتبات أسلاك.. ويقول بعضهن: بوليس. وتتحشرج الأصوات وهي تنطق الكلمة.. وأخريات يتفاءلن ويقلن: صحة. ثم يرين فرغلي ويتحققن منه فتنخفض الهمسات أكثر.

وأطفال وأطفال، وأطفال يتجمعون أمامهم وخلفهم وعلى الجانبين، عيونهم ذابلة فيها رمد وعماص، ووجوههم صغيرة

تحمل كل ما فوق الطريق، وتتوافد معهم جيوش الذباب. ويصرخ طفل وهو يقذف فرغلي بطوبة ويقول:

ـ محكمة!

ويلعنه فرغلي وينهره بلين. ويلتفت الباقون الى اللعبة، وتصبح «محكمة» على كل لسان، ويطير فرغلي وراءهم فيهربون ويهج الذباب، ثم يعودون الى التجمع ويعود الذباب الى الطنين.

ويتأكد فرغلي من بيت شهرت ويسأل احدى الجالسات فتشير الى بيت قريب، وينتقل الاسم على كل لسان وكل لسان يضيف كلمة وتخميناً.. ويترك الجالسات جلوسهن ويضمهن موكب الأطفال، ولا يصبح فارق كبير بين سواد النساء وسحنة الأرض وزعيق الأطفال وهمهمة الكبار، والشمس تصب أشعتها وتجعل كل ما فوق الأرض يغلي ويفور وتتصاعد منه الروائح، والنهار يظهر كل شيء ولا يخفي شيئا، يظهر عن عمد واصرار وكأنه ينتقم ويشمت.

وينتظر فرغلي وشرف على الباب وحولهما الركب، ويصعد هو وحده البيت مظلم وبابه كفوهة العجوز الأترم وعود الكبريت لا ينفع ويهوي الى أرض المدخل، اذ الأرض منخفضة ولزجة وكلها طين، والمدخل واسع كقبوة الفرن المهجور. وشهرت في الدور الثاني ـ هكذا قالوا ـ والدور الأول سواد في سواد، والرائحة لا تطاق، والجدران متآكلة وكأنما نهشتها أفواه ثعابين. وعليها تموجات رشح وأملاح وكأن النيل فاض وأغرق البيت ثم انحسر، وامرأة جالسة على

عتبة حجرة في المدخل تغسل وساقها بيضاء مكشوفة تضيء في الظلام تحدق فيه وتتوجس خيفة، وتنعقد يداها فلا تترك الغسيل ولا تغطي فخدها العاري، والسلم متآكل ومتداع وخشبه مخوخ ودرجاته تنقص درجات، والقدم تزيق، وخطر السقوط محدق. وعود كبريت عاشر ينطفىء. . تطفئه ريح تهب من مكان خفي لا يرى، ريح باردة رطبة والجو في الخارج حار، ريح باردة تنفذ الى النخاع فترج النخاع. والدور الثاني لا هو دور ولا هو ثان، عروق عارية كضلوع هيكل عظمي تصنع السقف بينها مهاوي وحفر، وحيطان شاخت ومالت وانحنت، وباب قريب من السلم. . باب مكون من الواح قديمة غير ممسوحة ولم تجر عليها فارة، والخشب قد تغير لونه وأصبح رماديا أزرق، وعلى الباب عجين جاف، وبراز طيور وحيوانات، وكف دم بنية، ووجه رسمه طفل بالطباشير كوجه جنيه.

ويمد يدا لا تريد أن تمتد، ويدق بابا لا يحتمل الدق، ويطل وجه يقولها بها«عايزك في كلمة». ويصفر وجهها وكأنما سلط عليه كشاف في أول الأمر، ما أن يراه حتى يشحب ويظل يشحب ولا يكف عن الشحوب، والعينان صافيتان أول الأمر يعكرهما ارتباك مفاجىء وخوف، ثم يمتد الشحوب الى بياضهما ولا يستقر للحدقتين قرار. هي شهرت قد رحبت به. وخرج صوتها متداعياً منهاراً كله ذهول وحيرة واستغراب. وتفتح الباب ويبدو جسدها يلفه جلباب رجالي قديم فيه شق يقسمه بالطول، والشحوب قد وصل الى قدميها وجعل أظافرها تبيض. ويضطرب. هذه المرأة المرتعشة سرقت ساعته.

الساعة معها لا بد فماذا يمنعه من خنقها؟ ولماذا لم يعد لديه الحماس الأول؟ وعقله يتأرجح بين التقدم والتأخر. لقد جاء وانقضى الأمر.

وكما دبر تماما ها هو ذا يقولها ولكن بغير اللهجة التي دبر ان يقولها بها«عايزك في كلمة». ويصفر وجهها وكأنما سلط كشاف أصفر، وتخاف، وتدعوه للدخول، وتحاول أن تمحو ارتباكها وتبتسم، وترتعش شفتاها وتفشلان في اداء الابتسام. يدخل هو ويعد العدة للتراجع، فممكن أن يحدث أي شيء، قد يقتلوه أو يسرقوه أو تصرخ شهرت وتستغيث. ومن مكان في الحجرة يندفع اليها أطفال ثلاثة، بنت في العاشرة طويلة ورفيعة جدا وسمراء وعيونها ضيقة وسوداء كالحبر، ووجهها رفيع وجامد ميت لا ينفع ولا يتحرك ولم يعرف الضحك، وشعرها أسود يلمع، ورائحة جاز، وضفيرة مجدولة وأخرى سائبة، ومشط خشبي مغروز في قمة الرأس، وطفلان آخران.. بنت وولد أو بنتان أو ولدان تشبثا بأمهما وأمسكا بثوبها، ومن الظلام المشبع برائحة الجاز تنصب عليه أربعة أزواج من العيون المستغربة تتطلع وتتساءل ويرتعش. ويبتلع ريقه ويردد كالأسطوانة المعبأة:

ـ عايزك في كلمة.

وتفيق شهرت وكأنما أعطيت حقنة.

وتطرد الأولاد وتغلق الباب، ومع هذا يتشبث الأولاد بالباب المغلق وتبدو عيونهم لامعة من خلال الشقوق كعيون الصراصير ترقب ما يجري في الحجرة. ويلهث ويدور برأسه، الحجرة ضيقة

كالصندوق الذي ضاع مفتاحه، والضوء يختنق وهو يتسرب اليها من نافذة علوية، وسرير قديم كالح ذو عمدان رفيعة كالبوص، وحديده كله صدأ، ومرتبته أغمق من الصدأ، وفي ناحية شيء كالدولاب قديم، وجوال فيه ثقوب مملوء لحافته ومركون بجوار الحائط وعلبة أرنبة، ومرتبة في الركن الآخر وكراكيب وصفائح وأخشاب متناثرة، وعلى الحائط صورة الامام علي يشق بسيفه رأس كافر، والكافر رأسه مشقوق ومع هذا لا يزال ممتطيا حصانه واضعا قدميه في الركاب، وعلى المرتبة يتحرك شيء، وإذا بالشيء رجل. . رجل طويل أسمر نائم ورأسه كالزلعة الراقد بجوارها، وعلى وجهه رغم نعاسه تكشيرة، وجبهته معقودة، ممدد بطوله على المرتبة وحزامه مفكوك، وملابسه الداخلية قديمة سوداء وظاهرة من فتحة بنطلونه، وللمرة الثالثة يقول:

ـ عايزك في كلمة. .

ويعود الكشاف الأصفر ينصب على وجهها وتقول:

ـ خير. .

وتخرج الكلمة مرتعشة معتقدة تماما أن لا خير هناك. ويقول كالمنوم:

ـ الساعة فين؟ . .

ويتخشب جسدها وتدب على صدرها بيدها، وتنكر برموشها، وتقسم بازدياد شحوبها. ويعيد السؤال، وتتغلظ في القسم، وتصر

على الانكار، وشيء رفيع ثاقب يخرج عقله ويؤكد له أنها السارقة. ويمضي كالمحكوم عليه في الخطة يكيل لها الكلمات ويركز الاتهام. وتختنق وهي ترد، وتتحشرج الكلمات على فمها وهي تنكر، ويأخذ دور وكيل النيابة وتأخذ دور المتهمة. ويصبح صاحب حاجة وتحاول أن تكون صاحبة كرامة، ويصرخ كالسيد المسروق وتتمسكن كالخادمة السارقة. ويطغى على الحوار صرخات تأتي من الباب.. البنت الكبيرة تبعد اخوتها وهي تسمع ما يوجه الى أمها، والطفلان لا يريدان ترك مكانهما، وكأنما يدركان بغريزتهما أن أمهما شهرت في خطر ولا يستطيعان تركها تواجه وحدها الخطر.

وتزداد عصبيته ويهدد بالبوليس وبأن ضابط المباحث على الباب، ويبدو عليها عدم التصديق، فيفتح الباب ويعوي الباب وهو يفتح، ويأخذها الى النافذة وتطل ويطل، ويقول:

ـ يا حضرة الضابط.

ويقول شرف:

ـ أيوه يا سعادة البيه؟

ويغمز بطرف لسانه ويكاد يضحك. ثم يذهب الهزل عن وجهه فجأة. وتتجمد ملامحه ويخاف عليه أن تنكشف النمرة، فيرتد عن النافذة. وتتراجع شهرت الى الحجرة ويتبعها ويقول:

ـ يا الساعه يا سنة سجن.

وترتجف خطواتها ويعود فيقول:

ـ وانتي عندك أولاد يتبهدلوا.

ويلاحظ توقفها عن المسير وهو ينطق الأولاد، فيردد ما قاله ويشدد على الأولاد.

وتحاول أن ترغم نفسها على البكاء وتعتصر عينيها، فلا تبكي ولا تهبط دمعة واحدة، ويتقلب الرجل النائم ويغمغم وكأنه يحلم. وتصيح شهرت:

ـ جوزي..

ويزداد عصبية وتتوتر أعصابه ويهمس بالتهديد، وشيء في داخله يهمس.. الأم تدافع عن وجود العائلة، والزوج يائس نائم.. ويزداد حدة، ويكسي وجهه بقناع مخيف، ويطلق تهديده الأخير. وتتعلق عيناها بعينيه، وعيناه ليس فيهما ذرة رحمة، وليس في نفسه ذرة قسوة، ولا يدري لماذا يهدد ولماذا هو مصر ولماذا لا يرحم ولماذا لا يزداد قسوة، وتقول له:

ـ فتش.

ويتأكد لديه انها السارقة. ويندفع يفتش بقدمه.. الجوال مملوء «بقوالح» الأذرة، وتحت السرير عروسة خشب وخرق قديمة كالجلابيب، والعطن يملأ خياشيمه، وعدة أحذية متهالكة لا تصلح للارتداء فوقها غبار كثير، وماسورة حديدية، والدولاب طوله متر وطلاؤه بني وفوقه طبقة سوداء سميكة.. وداخله حبة بطاطس مسلوقة عليها صرصار، وبصلتان وورقة ملح لم تفتح، وعند الجزء الأسفل

منه لمعت عيناه فقد وجد أشياء تخصه، علب ملبس ذات زخارف، وصندوق خشبي مطعم، وأقلام حمراء ورصاص وغطاء قلم حبر، ونصف ولاعة قديمة، وتجيئه غمغمة شهرت تفسر وقد أدركت سر لمعة عينيه وتقول:

ـ للأولاد.. يلعبوا بيها.

ويجد جورباً من جواربه ممزقا وقديما وفيه رقع ومغسول، ويحس بخجل يهبط بقلبه الى قدميه ويرتفع بدمه الى رأسه. ويثور في نفسه بركان، ويخرج فحيحا ملتهبا من ملامحه وفمه ولسانه، ويسألها لآخر مرة عن الساعة.

ويتململ الزوج، ويدفع الذباب بيد نائمة، وتعلو ضجة الأولاد عند الباب، وتفتح شهرت فمها وتطبقه، وتخرج من حلقها أصواتا، وشعرها منكوش، ورعبها ينكش شعرها أكثر، وجسدها يهتز في الثوب الرجالي الواسع، ويدها مشلولة على يدها الأخرى، وعيناها تبرقان في سرحان تائه، وهو أحيانا يفيق لنفسه، ويدرك انه يمثل، أنها لا تمثل، وأنها تستحق. وأنها لا تستحق، وأن ملامحها القوية التي أذلته تجف أمامه من العذاب، وأنه لا يحس بنشوة النصر، وقوى عديدة تتجاذبه، ويزداد تحديقه خطورة. وأخيرا تفر دمعة واحدة من عينيها، وتفر من فمها كلمة، وتتبع الدمعة دموع، والكلمة تتبعها كلمات، ويتبين انها تقول:

ـ أنا لقيتها والنبي وكنت ناوية أرجعها.

الساذجة! يا للسهولة؟! كيف تعترف بمثل هذه السرعة؟! لقد أعد نفسه لمعركة طويلة.

وتتحرك وتمد يدها الى الدولاب المفتوح، وتستخرج من رفه الأعلى كوبا زجاجيا مكسورا، وتمد اصبعين يرتجفان داخل الكوب، ويخرج الأصبعان ببطء وبينهما الساعة.. ساعته! وتمدها اليه دون ان ترفع بصرها، ويهبط عليه ماء صاعق بارد، ويهدأ كل شيء في صدره، ويحس بصدره يضيق، وبالحجرة نتنة بشعة، وتبرق الساعة في اليد الممدودة. ويجذبه البريق ويتناولها ويتفحصها، ويفرح بها فرحا صبيانيا كما يفعل الأطفال، ويزجر نفسه ويفرح، ويقلب الساعة بين يديه ويضعها على أذنه ويجدها دائرة، وحشرجات رقاصها لم تزل كما هي، ويجدها مضبوطة وتشير الى الرابعة وخمس وعشرين دقيقة، ويجد نفسه على السلم.

وينتبه ويتوقف، ويركبه احساس خفي أنه أخطأ، وينادي شهرت، وتبدو عند بابها قائلة نعم، وأولادها قد عادوا يتشبثون بها، والبنت الكبيرة عيونها سوداء رهيبة واقفة ترقب أمها بوجه جامد ومن بعيد ويداها ممسكتان بالضفيرة السائبة. وهي ـ شهرت ـ ثابتة في مكانها لا يتحرك لها رمش أو ذراع. ويتردد، ويسألها لماذا أخذت الساعة؟ وتجيبه وتقول:

ـ الماهية ما تكفيش.. وحضرتك.. مرضيتش.

ـ ويسألها فتقول:

ـ البلوزة . . كنت عايزة ادفع حق خياطتها .

فيسألها فتقول :

ـ الملايا تكسف .

وعيناها لا أثر فيهما لأي انفعال، محدقتان في الفراغ، تهبط منهما الدموع بلا بكاء، كالسماء حين تمطر بغير سحاب . وتجيئه الاجابات ملفوفة في ضباب، ورأسه يهتز رافضا أن يصدق، ويسألها وكأنه يشارك في حل مشكلتها : لم لم ترهن السرير أو تبيعه بدل السرقة؟ وتسيل دموع كثيرة من عينيها وهي تقول ان السرير ليس سريرهم .

ـ أمال سرير مين؟

ـ سرير أم هانم .

ـ أم هانم مين؟

ـ شريكتنا في الحجرة .

ويكاد يوقف الكلمات ليفكر فيها قبل أن تلمس آذانه، ولكنه يبتلعها ويتركها تغيب في لا وعيه .

ويرتفع صوت خشن من الداخل يسأل عن الضجة والحكاية ويتثاءب .

وتستدير لتجيب، ويستدير هو ليهبط على عجل .

وحين يصل الى الحارة يتنفس بقوة، وينطلق غير عابىء

بالواقفين أمام البيت، ويسرع والهمسات تنمو وتبلغ أسماعه وتنتشر، ثم تبرد وتذبل وتأخذ مكانها همسات جديدة.

ويستحثه فرغلي وهو يبتسم في قبح بشع:

- هيه؟!

ولا ينطق بحرف، ويمضي وأناس من حوله تمضي، واسئلة تترى، والعيون المنصبة من الجانبين تتكاثر. عيون واسعة عميقة مستفهمة تزيح رموشها في تثاقل مريض وتتساءل عما فعل الأفندية القادمون بواحدة منهم؟ وتلتقي النظرات عبر الطريق تكاد تصنع أمامه أسوارا شائكة توقفه وتقيده، والحاح فرغلي لا ينقطع، والرذاذ المتطاير من فمه لا يكف، ويحس بالناس تكاد تطبق عليه حبا في الاستطلاع. فيخرج الساعة من جيبه ويلفها حول معصمه ويقفل الابزيم. وتتصاعد الهمهمات من خلفه. ويزعق فرغلي ويسري الخبر. وتتلاصق النسوة وتنخفض الهمسات، وفي أعقابها ترتفع دعوات تطلب للولايا الستر. ويزمجر الرجال ويتضاحك الصبية وينتشر الحادث من نافذة الى نافذة وعبر السطوح، ويحس بشهرت تتمزق وتتهلهل وتتقاذف الأفواه أشلاءها، وهي شاحبة صامتة خائفة مستسلمة لا تملك من أمر نفسها شيئا.

ويدرك العربة وكأنها طوق النجاة، ويتبين أن شرف غير موجود. ويسأل عنه فرغلي فيقول انه نفض يده من الأمر كله فجأة وقال إنه لم يعد يستطيع ومشى. ولا يحس بأية غرابة وكأنه كان يتوقع

من شرف هذا. ويهرب من اعتذارات فرغلي التي يعقبها بو عبده وتهديداته وكأنه سارق الساعة، وكأنه المسئول عن الكون وعمدة الحتة. ويدلف الى العربة ويضغط على محركها كأنما يضغط على ضمير يؤلمه، وتندفع الى الأمام.

وتعود الشوارع تنتظم وتتسع ويصبح لها طول واستقامة، وتعود الملابس تتكامل وألوانها تجد وتزدهر، والذقون تزال، والشوارب تنمق، والملامح تصغر وتدق، وتختلط العربات بالسابلة.. عربات كارو أول الأمر، ثم أجرة مستهلكة، ثم أجرة وملاكي وأوتوبيس. ويتسع صدره وكأنما انزاح عنه كابوس ويزداد اتساعا، ويخف الهواء ويخف، وتقل أحماله وتكبر رفعته، والدنيا تتفتح وتتفتح.

ويجد نفسه في ميدان قصر النيل.

والنسمات بدأت تهب، والوجوه تفيق من حر اليوم، والكوبري يمتلىء بالمتنزهين، والماء كثير كثير، والعمارات بعيدة بيضاء كأبراج الحمام، والمدينة جميلة جميلة، أجمل من أية مرة رآها فيها، والمنظر ضخم وحاشد، وأنفاسه تتلاحق في نهم، ورأسه يدور.

وما يكاد يصل الى الدور السابع من عمارته بشارع الجبلاية حتى يسرع الى الشرفة ويتهاوى على مقعد، ويسند رأسه ويحاول أن يستعرض من جديد كل ما مر به.

- ٨ -

بعد ساعات قليلة كانت حجرة المكتب لا تزال كما هي ، ولا تزال لها نفس شرفتها الشاهقة المطلة على النيل.

وكانت الشرفة تشهد ـ كعادتها كل ليلة ـ ما يطرأ على القاهرة من تغيير ساحر مذهل.

النور القوي الذي كان يضيء المدينة طيلة النهار أخذت حدته تهمد، ولونه يشحب ويتغير، وكأن يداً خفية قد امتدت إلى شعلة الشمس الموقدة ومستها. واصفر الضوء فاصفرت المدينة. . وانطلقت من خلالها آلاف من شعاعات الشمس الغاربة وزجاج يعكسها ويزغلل بها الناظر.

واحمر الضوء.

وتلبدت السماء وحدها بالحمرة. أما المدينة فقد كستها رمادية مغربية زرقاء.

ثم اسودت الأرض.

وأظلمت السماء.

وكاد الليل يبتلع المدينة لولا ملايين من أضواء صغيرة بذرت فوق سطح الأرض، وما لبثت أن نبتت وتغذت على الظلام وترعرعت، وأصبحت أنواراً براقة تلمع وتبرق.

ثم نضجت الأضواء وتفتحت لها أزهار، وانتشرت في جو المدينة أنوار حمراء وخضراء وزرقاء وصفراء ذات أشكال وأسماء وأنواع.

واستحال الظلام إلى كرنفال.

كانت الشرفة وحدها هي التي تشهد التغيير رغم أن الأستاذ عبد الله كان لا يزال جالساً فيها، مستلقياً على الكرسي المريح، رأسه ثابت لا يتحرك، وعيناه ساهمتان مثبتتان كعيني ميت، وعقله هاتم تائه غير مكترث بالنهار الذي ولى أو الليل الذي أقبل. يحدق في الفراغ المطبق المظلم، ويجوب ـ دون أن يحرك رأسه ـ سماء المدينة ذات المحصول الوافر من الأضواء، ويهيم ويحاول أن يركز انتباهه وبصره في نقطة تائهة في ظلال الليل، بعيدة عن الأضواء، واقعة لا بد هناك.. هناك في أقصى المدينة وراء مئذنة الأزهر. يهيم يهيم وبين الحين والحين يبرق معدن الساعة الملفوفة حول معصمه فيخطف بصره، ويجذب عينيه الغارقتين في الظلام. ويحس بشيء ملتهب ينبثق في صدره كالنزيف، ويكز على شفتيه دون أن يدري كنه ما يتملكه، وينفجر في رأسه خاطر ملح: أن يخلع الساعة ويرميها على طول يده في النيل.

* * *

غير أنه لم ينفذ الخاطر أبدا . . وطبعا لم يقض الليل في الشرفة. وفي الصباح كان يتوجه إلى عمله كالمعتاد فقط كان قد عاوده ذلك الصداع الملعون.

* * *

ولا تزال الساعة حول معصم الأستاذ عبد الله، كلما رآها تذكر تلك الرحلة الغريبة ذات الكابوس وازداد اعتزازاً بساعته وبنفسه، بل إنه ظل يريها لأصدقائه ومعارفه وكل من يلقاه أياماً كثيرة. وكان يفعل هذا كمقدمة لا بد منها لرواية ما حدث له. وكان يغفل في قصته كثيراً من التفاصيل، ولكنه كان ما يكاد يصل إلى الحارة السد حتى يعاوده ذلك الاحساس بالنزيف، فيندفع ببتر الوصف وينتقل إلى الجزء التالي من القصة، ويصف الهجوم الخاطف الذي انهال به على شهرت فتهاوت أمامه وناولته الساعة.

ولم يسمح لفرغلي أبداً أن يتحدث أمامه عنها، ورغم هذا كان يسمح لأذنه أن تلتقط منه بعض أخبارها وما يوجهه اليها من سباب واتهامات، مبيناً كيف فسدت وأصبحت ذات سمعة وسمت نفسها أميرة.

كل ما حدث أنه ذات يوم رآها . . رأى شهرت في شارع الملكة وهو مار بعربته. فأبطأ من سيره . . كانت واقفة على محطة الأوتوبيس، وكان واضحاً أنها لا تنتظر الأوتوبيس، وكانت تصبغ شفتيها بروج حقيقي وترتدي الجيب الرمادي الذي كانت تأتي به.

وأهم شيء أنها كانت ترتدي فوق الجيب . . بلوزة جديدة.



النداهـــة

النّدامَة

حين دفع «حامد» الباب وفوجىء بالمشهد الهائل المروع مات . . بالضبط مات . وجد نفسه فجأة قد سكنت فيه كل خلجة أو حركة أو فكرة ولم يعد يرى أو يسمع أو يشعر، والدنيا من حوله هي الأخرى سكنت تماماً . . وماتت، وانتهى كل شيء.

كانت «فتحية» زوجته راقدة على أرض الغرفة، والولد الصغير ملتصق برأسها العاري ينتحب مرعوباً وهو يجذب شعرها بشدة، بينما هي عارية الرأس، عارية الساقين والفخذين، عارية كلها أو تكاد . . وفوقها يرقد أفندي بجاكتة وبلا بنطلون أو سروال، وإنما مؤخرته العالية قد ذابت في عري «فتحية» وانتهى الأمر.

مشهد صامت، غارق في ظلام الظهر الذي اعتاد الحجرة واعتادته . . لا صوت فيه ولا صراخ ولا مقاومة . الصوت التالي تماماً، وكأنه جاء بعد عام، كان صوت شهقة . . شهقة بشعة هائلة البشاعة، شديدة اللهفة، مشحونة بالذعر والدهشة والرعب . . شهقة كأنها صادرة عن كل الجسد بأقوى ما يستطيعه من استنكار:

ـ حامد!

شهقة انتفض لها الطفل خائفاً وراح بأعلى ما يستطيعه من صراخ يبكي، ومع هذا فلم يعد أحد يسمع صراخه، إذ أخذ كل شيء يشحب ويصفر ويبيض. حتى الظلام، أبيض وعاد مثله مثل كل شيء في الحجرة أو البيت أو الدنيا كلها إلى مواته، وظل ميتاً وكأنما لعام آخر، إلى أن عادت الحركة إلى الحجرة. وكان أول من تحرك فيها هو الأفندي، إذ في قفزة واحدة كان قد رفع بنطلونه وأصبح خارج الحجرة وفي القفزة التالية كان البنطلون في مكانه المعتاد وكان هو خارج البيت!.

وحينئذ فقط تحرك «حامد»، لأن الحياة حين عادت لم تعد لعقله إنما عادت فقط لأقدامه، فإنه وجد نفسه يقفز هو الآخر وقد أودع القفز كل حياته.. قفزة حملته خارج الحجرة، وفي القفزة الثانية كان قد أصبح مثل الأفندي خارج البيت، ولكنه وصل متأخراً قفزة.

وهكذا حين وصل إلى الشارع كان «الأفندي» الواحد قد أصبح عشرة، أو عشرين، كلهم بجاكتات، وكلهم ذوو مؤخرات تغطيها البنطلونات، ومعظمهم يمشون بأسرع من الجري وأوسع من القفز، وكل منهم في اتجاه!

في تلك اللحظة ـ فقط ـ كانت الحياة قد عادت لعقل «حامد» وأفكاره، وأحس ـ من أول وهلة ـ أنه لم ينطلق في أثر الأفندي إلا لأنه انطلق ولأنه كان عليه أن يقفز خلفه. فمنذ الثواني الأولى وهو

يعرف ان هدفه ليس الأفندي أبداً ـ ولا أي أفندي ـ ولا في الشارع كله أو حتى المدينة بأسرها. هدفه في حجرته.. في زوجته، بل يكاد يكون في ذلك الجزء منها الذي طالما عمر بيوتاً وخرب بيوتاً واقتتل من أجله الناس، جنة الخلق وجحيمها ومثواها.

وهكذا استدار.. هذه المرة لم يقفز فقط استدار، ورفع قدمه بادئاً خطواته وكاد يبقيها في الهواء معلقة.. فعقله والحياة حديثة العودة إليه يأبى أن يعمل إلا كما يعمل عقل طفل صغير واجهته مشكلة، ومشكلته هذه اللحظة أنه خائف، بل مرعوب تماماً. أن هدفه هو أن يعود إلى بيته ـ الحجرة ـ هذا صحيح، ولكن ليس في كيانه كله ذرة رغبة واحدة في العودة. كيف يعود ليواجه زوجة نصفها الأسفل عار، جسدها مبطط لا يزال يحمل آثار كتلة الأفندي وبهيميته؟ أي إنسان في الدنيا، أي زوج يمكن أن تطيعه قدمه ليخطو بها تجاه مشهد كهذا؟

ولكن.. لأن رعبه هذه المرة هو الذي يحركه للعودة، لحظة فيها ألف لحظة! أقواها وأقساها جميعاً لحظة غدر أحس فيها أنه أخذ غدراً. لم تغدر به «فتحية» فقط أو الأفندي ولكن الدنيا كلها بأرضها وسمائها أخذته غدراً. وحينما تغدر بنا الدنيا ونحن صغار فإننا نلجأ لأمهاتنا لنجد في أحضانهن ما يعيد إلينا الثقة في الوجود، وإذا غدرت بنا وكنا كباراً سارعنا إلى زوجاتنا ليؤدين لنا نفس المهمة. فإذا كان الغدر هذه المرة مصدره الأم ـ ذاتها ـ أو الزوجة، فويلك يا «حامد»! حينئذ وأنت مشدود مصلوب ممزق بين رغبتك أن تفر من

«فتحية» ومن الدنيا كلها فلا تعود تراها أبداً . . ورغبتك في أن تسرع بأقصى ما تقدر وترتمي في أحضانها وتشكو إليها حتى لو كانت هي المشكو منها . . رغبتك أن تستجير بها من الدنيا لتجد أن الأولى أن تستجير بالدنيا منها . . بما هو أبشع منها .

أجل! أحس «حامد» أن «فتحية» امرأته ، زوجته نصفه الأنثى . . تلك التي كان يعرفها كما يعرف ويضمن يده ورجولته وشهامته ، «فتحية» قد تحولت ، بل انتفض منها كائن غريب مرعب كأنما سخطت وحشاً راوغه ثم نهشه من ظهره وهو آمن مسلم مستسلم . . وحش من فرط رعبه منه لا يجد ملجأ آخر سواه . ولو كان «حامد» قد قتلها في تلك اللحظة ـ وفكرة القتل نبتت منذ أول ثانية عاد إليه فيها عقله بل ربما قبل عودة عقله ، ورغم أي شيء آخر ظلت تدور في رأسه منفصلة تماماً ، تعمل عملها باستمرار ولا يريد أن تفارقه أو يفارقها لحظة ـ لو كان قد قتلها في تلك اللحظة بالذات لكان قد فعل هذا ليس لأنها خانته أو انتقاماً لشرفه المهدر ، أبداً ، لا بدافع الغضب أو الجنون أو الحنق ، إنما ومعها جميعاً ـ بل وفي أحيان قبلها بكثير ـ بدافع الرعب المروع منها ، كأنما هي قد استحالت في نظره إلى غول أو حية رقطاء تقتلها قبل أن تقتلك ، تقتلها ليس دفاعاً عن شرفك وإنما دفاعاً عن نفسك أولاً ، كتماً لأنفاس ذلك الوحش الذي غافلك ونهشك وخانك . . ومن يخونك يقتلك ، ومن يقتلك لا مأمن لك إلا بقتله . بل أحياناً ما هو أكثر! أحياناً يصبح الاحساس الممض القاتل ان شيئاً في الكون قد اختل ،

ولا نجاة إلا بوأد الخلل في مكانه ولحظته. ان شيئاً حدث لذمة الدنيا والعالم، وملكوت السماء والأرض، فخربت. . ثقبت فجأة، وما لم نسارع بسد الثقوب لفغرت الأبدية فاها وابتلعتك أنت والكون الخرب.

كان مرعوباً حقاً! حتى لقد بدأ يرتجف وتصطك أسنانه ويحس أكثر وأكثر بالطعنة القاتلة. ثمة سكين صوبت بيد تعرف تماماً خباياه وأسراره وأصابت فيه أعز ما في داخله. ألم الطعنة لا يزال لا يحسه فالسكين ما تزال سارقاه. ان ما يحسه هو الثقب العميق الغائر الذي خلفته الطعنة، والذي كلما حدق فيه داخ وأحس أن في أعماق هذا الجرح نهايته. بغموض ودوشة وازدحام كان يحس بأن حادثاً خطيراً وقع داخله، وبالضبط حين وقف على عتبة الباب المفتوح.

وكانت «فتحية» قد قفزت قفزتها الأولى، وأحست وهي تفعل وكأن آلافاً من قطع الزجاج المكسور تستجمع نفسها وتتشكل وتقفز. . قفزة لم تفلح في رفع جسدها إنما فقط استطاعت بالكاد رفع يدها والامساك برأس السرير الضيق المنخفض. ولقد أرادت بالقفزة الثانية أن تجري مغادرة الغرفة، أو تقف، أو حتى تجلس، أو بالقليل تجلب ثيابها وتغطي ما تعرى من جسدها، وهو كل ما استطاعت ـ دون ما أرادته جميعاً ـ أن تفعله، إذ كان «حامد» قد وصل إلى العتبة ووقف ممسكاً بكالون الباب ينظر أول ما ينظر إلى الطفل الذي كان قد سكت وانطرح أرضاً وبدا أنه نام أو يغالبه النوم.

هو واقف ممسك بالكالون، وهي ممددة مفتوحة الساقين مبعثرة

الجسد تستنجد برأس السرير ممسكة به . . وهو ينظر إلى الطفل وكأنما قد أصبح أهم شيء عنده، وهي تتجه بوجهها إلى السقف ولكنها لا ترى إلا عيني «حامد». هو ليس في عقله . . مشهد واحد لم ير منذ أن عادت إليه القدرة على الرؤية سواه وكأنما انطبع في عقله وأبى أن يزول. مشهد مؤخرة الأفندي العارية وعري «فتحية»، وقد اندمجا في كتلة بيضاء واحدة . . وهي ليس في عقلها إلا نظرة «حامد» ـ أول وآخر نظرة تراها منه ـ لحظة اكتشاف حضوره . . نظرة قد استحالت في رأسها إلى كابوس لا يرحم تكاد تصرخ من هوله مستنجدة، ولكن قوة قادرة قاهرة تخرس صرخاتها وتكتمها. كابوس ترى فيه عيني «حامد» وقد استحالتا إلى سيخين من حديد محمي إلى درجة تطاير الشرر تقتربان بسرعة ثابتة مستمرة من عينيها الاثنتين وحالاً وحتماً هما مخترقتاهما.

كل الفارق بينهما أن «حامد» ـ كما هي العادة دائماً ـ مطالب أن يكون صاحب البادرة الأولى . أجل لا بد رغم كل الفجيعة والموت والرعب والطعنة والتأمل أن يعمل شيئاً ويعمله حالاً وفي التو . . إذ إن أي تأخر يفسده ويلغيه ويقضي عليه . وهي خلاص ـ وصل كل شيء إلى منتهاه ووقع المحظور الذي كانت تخشاه وطول عمرها تخشاه، ولم يبق سوى العقاب. ما أجمل أن يسرع به «حامد»، فكل إبطاء منه يهدد بأن يمضي بها التفكير فتتأمل ما كان وما حدث! وأبشع عقاب في الدنيا أهون ألف مرة من أن تعود مرة أخرى لتفكر أو تتأمل أو تستعيد ما حدث .

كانت فكرة القتل قد دفعت نفسها من قاع عقله إلى سطحه، كبيرة الآن مكتملة لا يمكن تجاهلها. لو قتلها فأقصى ما سيناله من عقاب هو الحبس سنة.. أو ربما أقل أو يقولون براءة. فهل يقتلها الآن؟

هل يتناول عصاه التي كان يسميها «الزقلة» من تحت السرير وينهال بها عليها حتى يتطاير مخها قطعاً؟

هل يفعلها الآن.. الآن؟ أو يستجوبها؟.. أو لا يقتلها أبداً؟.
السؤال رهيب مستمر دائر لا يتوقف في خواطره أبداً.

والشيء الذي كان يغيظه ويكاد يكتم أنفاسه حقاً أن انفعالته المحيية المميتة الصاعقة الأولى قد مرت، وأنه الآن في لحظة أخرى.. لحظة لا يرى فيها إلا المشهد الذي تسمر عنده بصره لا يريد أن يبرحه بينما عقله يقلب فكرة القتل مغيظاً. فقد كان القتل يبدو هنا شيئاً لا يمت إلى اللحظة أو المشكلة أو الموضوع أو المشهد الدائر في عقله ولا علاقة له به.. وليس الحل الهدف ولا ما يريده تماماً. كيانه كله في واد آخر مشغول بما هو أهم وأخطر، والقتل يبدو شيئاً خارج الصورة تماماً كما لو كان يواجه خطر قطار السكة الحديد وهو قادم يريد أن يسحقه وعقله مشغول بتقليب فكرة الدواء الذي وصفه له حكيم المستوصف، وهل الأجدى أن يأخذه قبل الأكل أو بعده؟ الآن لا يريد لها أن تموت، وهو قطعاً لا يريد لها أن تحيا.. وليست مشكلته أبداً أن تحيا أو تموت أو حتى كل هذا الطوفان من

الأحـداث الذي داهمـه منـذ دفـع البـاب وفتحـه. . مشكلتـه الحـادة الملحة في نفسه في هذا الجرح الغائر العميق الـذي لا قاع لـه، في هذا النزف الهادر الذي انهمر داخله ولا يزال متـزايداً متعـاظماً يقـربه في سـرعة رهيبـة من النهايـة. . نهايتـه. . إذ ها هـو ذا يراهـا تقترب اقتراباً حثيثاً مرعبـاً حتى ليجعله يحس أنه في اللحـظة التاليـة تمامـاً سيموت وينتهي «حامد» الذي يعرفه ينتهي تماماً نهـاية مفـاجئة غـادرة تتربص له وراء اللحظة التالية، بينما عقله الهـايف الغبي لا يريـد أن يتـزحزح قيـد أنملة عن فكرة هـل يقتلها أو يؤخـر القتل إلى مـا بعـد الاعتراف؟ وهو يعلم تماماً أنه غير قادر الآن على قتل بعوضة، وبعـد غمضة عين لن يكون قـادراً على أي شيء بالمـرة، إذ سيكون بمثـل هذه السرعة المروعة التي يمضي بها قد انتهى.

الغريب أن النهاية نفسها هي المسألة التي كانت مستوليـة على عقل «فتحية» تماماً في هذا الوقت بـالذات. . ولكنهـا نهايـة لا رعب فيها ولا خوف متزايد من خطر ساحق ماحق يقترب في سرعة خرافية، نهاية لا تخـاف منها وتقشعـر وترتجف مثلمـا كان يحـدث «لحامـد». بالعكس! هي هنا تـطلبها وتـريدهـا وتتمناهـا، والمهم أن تأتي حـالاً حتى تجهـز عليها قبـل أن يمتد الـوقت ومضـة أخـرى وتجـد نفسهـا مضـطرة أن تفكـر. . وبـالـذات أن تعـود تـرى نفس النظرة في عيني «حـامد». وبمثـل ما كـان «حامـد» يتشبث تشبث المستميت ليمسـك بـآخر أهـداب الحياة حتى لا تفلت منه قبل أن يستمـر في مـواجهـة المـوقف، فهي بكـل إرادة الحيـاة فيهـا كـانت تتمنى أن تنتهي هـذه

الحياة وتموت قبل أن يحدث أي شيء آخر.

إما الموت الداهم السريع وإما أن تحدث المعجزة ـ أجل المعجزة ـ وتمحو كل ما حدث وكأنما تمسحه «بأستيكة» وكأنه ما حدث، وتعود الحياة إلى مثل ما كانت عليه قبل ساعة، أو بالدقة قبل شهر، لا بل لا بد أن تعود كما كانت من خمسة أعوام مضت، بل حبذا لو عادت إلى العمر الذي بدأت فيه تعي وتهتف لها الهواتف. انها على استعداد لأن تملأ بحر النيل دمعاً، مستعدة أن تظل تبكي وتستغفر من يومنا هذا إلى يوم القيامة في مقابل ـ ليس حتى أن يغفر لها الله، ولا أن يمحو تماماً كل ما حدث، وإنما في مقابل أن يجعلها تعيش و«حامد» ليوم واحد، بل لساعة واحدة، بل للحظة واحدة.. واحدة يا رب وكأن شيئاً مما حدث لم يحدث. ولكن المؤلم.. المؤلم ألماً لا يحتمله بشر أن شيئاً مما تتمنى لن يكون، وأن السهم قد نفذ، وأن ما حدث كان وانتهى وقضى القضاء. فالمصيبة الكبرى أن هذا الذي كان ودار ليس غريباً عليها، فلقد شاهدته بعيني رأسها.. كله.. يحدث، طوال الأعوام الخمسة الماضية، وبالذات طوال العام الكثيب الماضي.. والفكرة تراودها وتطاردها، والهاتف يهتف بها، ونفس هذا المشهد الذي دار بنفس تفاصيله الدقيقة، صحيح لم يكن نفس الأفندي، ولكنه أفندي، وبنطلون مخلوع، ورقدة، والباب يدفع ويدخل «حامد».. كله بالضبط رأته وكانت متأكدة تماماً أنه سيحدث، ولهذا هي تعيش هذا كله كما تعيش الحادث المعاد وكأنه جرى قبل هذا مرة، بل ربما جرى مرات.. لم يحدث شيء واحد

غـريب عنهـا أو عمـا كان في رأسهـا وما رأتـه لسنين. . بل إن هـذا الأفندي كان دائم التربص لها. . وأيضاً يترقبها في حقل مشغـولياتهـا اليومية الكثيف. . فجأة والطفـل على صدرهـا ترضعـه، والآخر فـوق كتفهـا ينهش شعـرهـا طلبـاً للطعـام، والـطعـام على النـار، ويـداهـا مشغـولتان بـطهـوه، وعقلهـا مشغـول بتـدبيـر كسـاء الشتـاء ومـطالب رمضان. . فجأة يخرج لها الأفندي عارياً إلى منتصفه. . بـاركاً فجـأة فوقها حتى لتموت رعباً، وفي اللحظة التالية تماماً يفتح البـاب ويقف «حامد» على عتبتـه. . تمامـاً مثلما وقف، ويتم كـل شيء مثلما تم الآن كل شيء.

أتكون شيخة؟ أفي أعماقها التي أصبحت نجسـة مدنسـة ترقـد قديسة مكشوف عنها الحجاب. . ترى المستقبل؟

وإذا لم يكن الأمر كـذلـك، فكيف تم هـذا كمـا رأتـه مـراراً وعاشته؟

إنه لأمر فـوق قدرتهـا على التفكير والفهم. إنـه لشيء يتوه فيـه العقل وقد تاه فيه عقلها وضل. . حتى تاه عن تحديد ذنبها إن كـانت مـذنبة. . فقـد كـانت تؤكـد لنفسهـا إذا هتف بهـا الهـاتف وارتسمت الصـورة أنهـا بجمـاع نفسهـا ستقـاوم وستمـوت حتمـاً قبـل أن يستطيع ـ أنسياً كان أو أفندياً ـ أن يلمسها. ومع أن الهاتف نفسه كـان يؤكد لها أن مقاومتها لن تفلح، وأنها حتماً ولا بد في النهاية سترضى وتستسلم بحيث تقـع الكارثـة ويكون المقـدر. . إلا أنها كـانت تقاوم

وسوسة الهاتف نفسها وتقسم، وتموت غيظاً مؤكدة لنفسها أن شيئاً مما يقوله لن يكون، ليعود الهاتف يؤكد لها أنه حتماً سيكون، برضاها أو بعدم رضاها سيكون، بل هو كائن وحادث فعلاً ودائم الحدوث. إن هي إلا لحظة يغيب عقلها في أدغال مطالب حياتهم ومشاكلها لتفاجأ ـ كمجيء يوم القيامة ـ بالأفندي يخرج لها عالياً لترتجف منه وترتعش ارتعاش ستنا مريم.. وتقع لها الواقعة!

انها لم تكن معتوهة أو ذات لوثة وليس في سيرها أو سلوكها ما يخدش.. انها بنت طيبة من بنات ريفنا ذات عقل راجح.. نفس العقل الذي جعلها تفضل «حامد» على «مصطفى»، مع أن «مصطفى» خفير نظامي ماهيته مضمونة.. خمسة جنيهات وتسعون قرشاً، ويزرع نصف فدان أيضاً، وله «عجلة».. بينما «حامد» ليس «حيلته اللضى» وأكبر من «مصطفى» في العمر بخمسة أعوام على الأقل، وأسمر غامق السمرة.. ولكنها تظلم عقلها أي ظلم إذا قالت أنه هو الذي اختار، فمن وراء عقلها كان دائماً أصبع يشير.. أصبع ضبابي غامض يكاد يهمس لها ويصر ويطالبها أن تأخذ «حامد» وتترك «مصطفى»، «فحامد» يعمل في مصر وهي على يقين دائم أن حياتها في بلدهم محدودة، وأنها حتماً بطريقة أو بأخرى سيكتب لها أن تعيش في مصر، ذلك المكان الرائع الواسع «أم الدنيا» الفخم الفاخر الذي يجلو الصدأ عن الجلد ويحيل من يعيشون فيه إلى «سناييرـ». ألم تعد منها «فاطمة» بنت خالتها التي كانت تعمل «خادمة» وهي كالخواجات بالكاد استطاعت أن تتعرف عليها وهي هابطة من القطار

بالفستان والشنطة؟ فما بالك وهي لن تكون «خدامة».وإنما زوجة وزوجة لبواب يسكن في عمارة أعلى من السماء من عشرة طوابق؟

يالله ان الهاتف الذي يهتف بها ويؤكد أن مقامها سيكون في

[illegible]

الهاتف الخفي باستمرار، ولهذا لم تعجب أبداً والأمور تـرتب نفسها و«حامد» يتقدم لها وأهلها يترددون ولكنها هي التي تتحمس وتوافق.

وبعد أسبوع واحد تسافـر وتصبح أخيـراً وكما حلمت ألف مـرة ومرة في قلب مصر، وفي العمـارة التي طالمـا حاولت تصـور أدوارها العشـرة.. صحيح أن مقـامها لم يكن في دور منهـا وإنما في حجـرة «حـامد» التي بنـاها لـه صـاحب البيت على عجـل تحت «السلم».. بناها بتحريض من زوجته على أمل أن يجدوا في زوجة «حامـد» حين يتزوج «خادمة» تحل لهم مشكلة الخدم.

ولكن.. معلهش.. الحجـرة فسيحـة رغم كـل شيء، وفيهـا سرير بمرتبة حقيقية، ودولاب صغير وتضاء بالكهـرباء، واللمبـة لها «زر» تدوس عليه هكذا فإذا «بتك» ويغمر النور الوهاج الحجرة.

وصحيـح أن «فتحيـة» الحلوة في قـريتهم بـدت غـريبـة في القاهرة، وبـدت لسكان العمـارة كعروس من مسـرح العرائس. فقـد كانت بيضاء طـويلة، هذا حقيقي، ومـلامحها جميلة في حـد ذاتها، عينـاها جميلتـان وأنفها صغيـر جميل لا يمكن أن يكـون أنف فلاحـة وفمها دقيق بالضبط كخاتم سليمان، ولكن المشكلة أن ملامحها تلك تبدو غير منـاسبة مـطلقاً لقـامتها ولحجمهـا وكأنهـا وجه طفلة صغيـرة ورأسها قد ركبا لامرأة.. أو كـأن الرأس قـد صغر بـطريقة مـا ووضع فوق جسد عادي..

ولكن المهم.. أن «حـامـد» راق مـزاجـه وانقلب من «الكلب

الكشر» الذي يعوي طول النهار ويصيح، إلى إنسان مرح ضاحك كالنحلة، صاعد هابط، واقف قاعد، يحيي، ويوصل، ويلبي الطلبات.

أما «فتحية» فقد قبعت في مكانها المواجه للباب من الحجرة ترقب المدخل العريض الواسع، والباب الضخم الزجاجي.. باب العمارة. ترقب مصر، أو بالضبط ذلك القطاع من الشارع المواجه الذي يكون «مصر» في نظرها.

قبعت منكمشة على نفسها تتفرج وهي لا تزال أسيرة الرحلة من باب الحديد إلى العمارة التي واجهت فيها لأول مرة ذلك الحلم الذي عاشت تحلم به، ويهتف بها الهاتف من أجله.. مصر! مصر التي وجدتها أروع بكثير مما تخيلت أو استطاعت بنت خالتها أن تصف، أروع وأكبر وأعظم ألف مرة.. مليون مرة. أيمكن أن تكون الدنيا بهذا الازدحام، أو الشوارع بذلك العرض، أو الميادين بهذا الاتساع؟

أيستطيع الناس أن يعيشوا وسط هذا الحشد الرهيب من العربات التي تمضي بسرعة البرق، بحيث تلهفك احداها حتماً إذا سهوت وتلفت خلفك مرة؟ والدكاكين، والمحلات، والصور، والنور.. النور ذو الألوان السبعة الذي ينطفىء ويولع بالكهرباء وعلى «الواحدة» كالمزيكة.. والهيصة، والدوشة، والمولد.. لقد خيل إليها حين أفلح «حامد» بعد جهاد أن يجرها إلى وسط ميدان باب

الحديد وهي مروعة مذهولة تكاد تجن. . أنـه لا بد في مصر عيد أو مـولد أو شيء آخر لا تعرفـه يزدحم لـه الناس كـل هـذا الازدحام، وتصدر عنه كل هذه الضجة الهائلة التي ترتجف لها الأذن. فقال لها «حامد» وهو يضحك ضحكة العارف العالم: «انها حال كل يوم». فيا لها من مدينة تلك التي يحيا الناس فيها كل يوم في مولد وعيد!

ولكنها في منكمشها خلف باب الحجرة الموارب وهي ترى من بعيد هذه المرة وتتأمل. . بدأت تـرى في مصر، تلك التي تلخصت في قطاع الشارع المقابل أشياء لم تتصور مطلقاً أن تجدها في المدينة الحلم. رأت فقراء. . فقراء تماماً وجوعى وشحاذين، حتى في قريتهم نفسها لا يوجد الفقر فيها على هذه الدرجة من البشاعة. وفيها كذب أيضاً وشتيمة وقلة أدب وحرامية ونشالون. حرامية هم السبب في وجود أمثال زوجها الذي يحدثها عنهم وعن حوادث السرقات المجاورة والبعيدة. وستات مصر اللاتي تصورتهن أول ما رأتهن خواجات سنايير، فيهن قبيحات كثيرات. . بل معظمهن قبيحات لولا الأحمر والأبيض والطلاء الذي يطلين به وجوههن فتحمر كالأحذية اللامعة، وتترك صاحباتها أشد قبحاً. . سيدات بدأت «فتحية» من كثرتهن تحس بنوع من الرضا عن نفسها. . تلك التي اعتقدت أول الأمر أنها لن تصلح في سوق النساء في مصر إلا خادمة لأقل سيدة من سيداتها. ووصل الغرور إلى درجة الاعتقاد أنها لو لبست مثلهن لأصبحت محط أنظار الناس جميعاً، ولاعتبروها مثلما كانوا يرونها في البلدة ملكة من ملكات الجمال. حتى «حامد» نفسه

وعمله ذلك الذي لم تفهمه تماماً حين قالوه لها. . انها تصورته شيئا كخفير نظامي للبوابة عليه حراستها في الليل، له نفس احترام وهيبة الخفير ذي البندقية في بلدهم. ها هي تراه شيئاً أقرب ما يكون إلى الخدام، ينحني لهذا، ويسرع في تلبية طلبات الست «أم فلان»، ويشخط فيه صاحب البيت ويؤنبه ويشتمه بألفاظ غريبة لعلها ألفاظ الشتيمة في مصر، ألفاظ لم تعرف لها «فتحية» مطلقاً أي معنى مثل يا «أحمق» أنت «مياس»! حتى موقفه يوم ألح صاحب البيت عليه أن يجعلها تعمل عندهم ورفض هو بإباء وشمم مقسماً أنه لو حكمت ألا يعمل عندهم أو عند غيرهم. لم تستطع أن تهضم ذلك الموقف وهي ترى الحال البائس وترتيبهم في «سلم» الناس في العمارة أو خارجها لا يسمح بهذه «العنجهية» التي لا يقفها إلا إنسان على الأقل في جيبه خمسة جنيهات. تلك فرصة لأكل العيش ولهدمة كستور تلبسها في الشتاء، ولأكلة حلوة نظيفة من المحتمل جداً أن ينالوها بين الحين والحين، ولكن «حامد» يرفض ويركب رأسه. وحين تفتح فمها لتناقشه يصرخ فيها وكأنه صاحب البيت وهي ساكنة الدور الثامن عنده.

والحقيقة أنها في رغبتها للعمل كان أكل العيش حجة. كانت في الواقع تريد أن «تتعرف» على أهل مصر أكثر، وأن تدخل بيتاً من بيوتهم وتحادث ناساً منهم. إذ هي في حبستها في الحجرة هكذا لن تمكنها طبيعتها الخجول المنطوية أن تفعل شيئاً من هذا، بل لا تملك إزاء نظرات سكان العمارة التي تمتد عابرة المدخل مقتحمة

الباب راقمة إياها أنى تكون، مستطلعة شكلها وجلستها وزيها باسمة أو مغمغمة أو ساخرة.. لا تملك إلا أن تزداد انغلاقاً وانكماشاً وتزداد القيود حولها أحكم.. قيود من صنعها، فليس سكان العمارة فقط ولكن المدينة من حولها حافلة متحركة مائجة. كل شيء فيها يجري ويختلط مكهرباً ويكهرب. وهي إلى درجة ما وزوجها «حامد» لم يكن باستطاعتها ليس فقط أن يتركا أنفسهما للمدينة وحركتها تفعل بهما ما تفعل بالآخرين، وإنما هذه الحركة الهائجة المائجة نفسها لا تفعل أكثر من أن تخيفهما وتروعهما وتدفعهما للانكماش أكثر.. أو بالأصح تدفعها هي. «فحامد» ـ وبالتحديد منذ أن تزوجها وجاءت ـ استطاع وبطول العهد أيضاً أن يتحرر بعض الشيء ويتحرك ويذهب إلى السيدة زينب ويجوب شبرا مصر ويعرف أن تغير إذا كنت ذاهباً إلى الحسين. وليست حركة فقط إنما فهم أيضاً ودردحة.. فقد بدا «لفتحية» وكأنه أصبح إنساناً آخر غير «حامد» الأسمر شاب بلدتهم الصامت الخجول الذي يدير وجهه إلى الناحية الأخرى إذا قابل موكب حاملات الجرار في الصباح. الآن باستطاعته أن يهزر مع عمال الجراج، ويضحك، ويجمع إيجار العمارة كلها ويحسبه بالمليم، بل وأصبح له أصدقاء من أهل مصر نفسها ومن غير بلدياته وأقاربه. هي وحدها الباقية أسيرة الحجرة.. أسيرة حتى ذلك الشرخ المحدود الذي ترى عالم مصر منه، شاعرة أنه ليس عالماً أو مدينة إنما هو بحر لا بر له ولا قرار، تسير هي على حافته إن سهت مرة وزلت قدمها فقل عليها السلام. والمخيف أنه بحر ليس هادئاً أو

ساكناً أو يأخذ منها نفس موقفها منه، إنما هو بحر جبار صفيق تمتد منه آلاف الأيدي وتطل منه آلاف الابتسامات كابتسامات الجنيات والنداهات، خادعة تدعوها وتسهل لها خوض الماء.. أجل! كلها أيد ماكرة وابتسامات خبيثة. حتى نداء ذلك الساكن الملهوف والنقود في يده والبقال قريب، يد تمتد من البحر تجعل شلل الخوف يجمدها في مكانها لا تتحرك، يد تمتد في مكانها تنكمش أكثر وتزداد انكماشاً وكأنها ما رأت أو سمعت، ملتفتة إلى الناحية الأخرى أو مخفية رأسها هرباً تتمنى أن تحدث معجزة وتنقذها من الموقف. بينما الساكن حين ييأس يصوب لها نظرة لا تراها إنما تحسها رصاصة تخترق رأسها. كثيراً ما يتبع نظرته بغمغمة لا تخطىء أذنها فهم ما بها من سباب.

ولكن خجولاً فلتكن، منغلقة، منكمشة، فلتنكمش ولتنغلق، فللحياة قوانينها التي لا مناص منها ولا مهرب. وهكذا مع الحمل الأول كانت «فتحية» قد غادرت الحجرة واتسع عالمها فاحتوى المدخل. ومع الطفل الثاني الذي أعقب الأول بأشهر كان قد اتسع حتى شمل الرصيف الملاصق بل والمواجه.. والشارع إلى ناحيته من هنا، وإلى الميدان الذي يؤدي إليه من هناك.. والآن أصبحت «فتحية» ترد بل وأحياناً تثير النقاش، وتلبي الطلبات وتستطيع أن تفرق بين عربة المدارس القادمة تحمل ابن الدكتور، من العربة القادمة تحمل ابن الموظف في الإذاعة، وكل قصص السكان عرفتها من «حامد» ومن غيره. بل وبلغ بها الأمر أنها أصبحت هي مصدر

«حامد» في معرفته لأخبار السكان وأحوالهم، وزائر منتصف الليل الذي يطرق شقة البك الموظف في الطيران، بالذات في الليالي التي يكون فيها «نوبتجيا» في المطار. بل ولم تكن هذه آخر ما بدأت «فتحية» تعرفه عن مصر السفلى وأحوالها وأخبارها بحيث أصبحت تدرك أن تحت مصر الوجيهة الغنية المؤدبة الوقور، هناك مصر أخرى مليئة بالفضائح والمخازي والأشياء التي لا يعرفها إلا البواب، أو من هو أدهى في هذه الأمور وأمر، زوجة البواب خاصة إذا كانت رغم صغر عينيها ترى كثيراً وبالذات في الليل، ورغم دقة رأسها تستطيع أن تعرف الفرق بين أخت الزوج الذي تصيف زوجته بأولادها في الاسكندرية بينما هو يا عيني غرقان في الشغل في مصر، وبين إخوته الحقيقيين الذين يزورون الأسرة طول العام.

والغريب أنها كلها أشياء لم تفسد الحلم في عقل «فتحية» تماماً. صحيح نالت منه كثيراً ولكنها أبداً لم تضيعه. بقيت مصر العظيمة هي مصر العظيمة في نظرها والشر في كل مكان. هكذا كانت دائمة الرد على «حامد» حين يجيئها بين كل حين وحين لاعناً مصر وأبو مصر وأهل مصر، الذين فعل أحدهم به كذا أو كيت.

وإذا كان الشر والوحل والقبح في القاع فالنجاة في العوم.

وهكذا تعلمت «فتحية» أن تفعل مثلما يفعل آلاف وملايين الناس الذين تحفل بهم مصر الكبيرة ويكونون حركاتها الجبارة الهائلة وتعوم مثلما يعومون. كل ما كان ينغص عليها حياتها أحياناً هي تلك الانتفاضات التي كانت تفاجئها على هيئة كمين، يخرج لها منه من

بين مشاغلها التي أصبحت كثيرة وكثيفة ذلك الأفندي العاري كاليد المهولة الممتدة، مهددة أن تجذبها إلى القاع مباشرة حيث الوحل والقبح والطين. خرج لها ذلك الهاتف اللعين الذي طالما أكد لها وصدق أن ستكون القاهرة مآلها ليؤكد لها أنها واقعة في المحظور مع الأفندي لا محالة ومهما فعلت، مسألة تترك «فتحية» وهي تكاد تنفجر بالغيظ والضيق والاستنكار والتصميم أيضاً. . تصميم قاطع مانع أن أبداً لن يكون حتى لو دفعت حياتها ثمناً، فأبداً لن يكون. . وبيننا الأيام يا مصر.

* * *

وفي مدينة كبيرة كهذه مليئة بالذئاب. . ذئاب الليل وذئاب النهار. . ذئاب الأوتوبيسات وذئاب العربات. . وحتى الأرصفة وطوابير الجمعيات الاستهلاكية لها ذئاب، وفي عمارة كبيرة كهذه لا يمكن أن يسلم الأمر من وجود ذئب.

والحقيقة أنه كان فيها أكثر من ذئب من العبث التصدي لهم جميعاً، فيكفينا ذلك الشاب الأبيض الحليوة قاطن الشقة الوحيدة بالدور الأرضي، أخف سكان العمارة دماً وأكثرهم حيوية وتواضعاً. كما أنه خدوم شهم يجيد احترام الآخرين ورفع الكلفة معهم. وكل هذا طبعاً لا يعني أنه ليس بذئب، فالحقيقة أن هذا السخـ البراق الخاطف للبصر كان يخفي ليس ذئباً فقط، إنما يخفي صبعا شريراً لا

ذمة له ولا ضمير. فهو مجنون بالنساء جميعاً، وفي سبيل أن يظفر بالواحدة منهن مستعد أن يفعل المستحيل. مستعد أن يكذب أو ينافق أو يسرق أو يقتل أو يستعمل القنبلة الذرية لو كان يملك واحدة. والمرأة عنده ليلة واحدة يقضيها معها وبعد هذا يبحث عن «الثانية»، وكأنه أخذ نساء الأرض جميعاً مقاولة وعليه أن ينتهي منهن قبل أن يفرغ عمره. وعمره الآن خمسة وثلاثون عاماً، وسمعته كالذهب، أو عبقريته أنه استطاع أن يخفي حياته الأخرى هذه عن المجتمع الذي يحيا فيه، بحيث يمشي مع الشرفاء مرفوع الرأس لا يعرف ما بداخله سوى ضحاياه. وحتى ضحاياه كثيراً ما غفرن له.. بل وبعضهن أحبه وتعلق به وذاق من العذاب أهوالاً. بالطبع كان قد انتهى من كل من رقن في عينيه من سكان العمارة، وبالضبط وهو عائد ذات يوم من عمله، وبعد ما حياه «حامد» بطريقة البوابين التي كان قد أتقنها والتي كان يستطيع بها أن يوهمك أنه وقف بينما هو في الحقيقة لم يغادر مجلسه، و«فتحية» أمام باب الحجرة جالسة قد احتوت رضيعها تمنحه ثديها الأبيض الناصع الشديد البياض الضامر أيضاً، الضامر إلى درجة لم يكن يملك معها الإنسان العادي إذا رآه إلا أن يرثي لصاحبته!

ولكن أفندينا ـ الساكن ـ لم يرث. ألقى عليها نظرة، ثم بالتفاتة مقصودة أو غير مقصودة ألقى نظرة أخرى على «حامد» الذي عاد يمد ساقه النحيلة فوق الساق الأخرى بحيث يمكنه أن يمد ذراعه ويسند إليه يده ويداعب مسبحة رخيصة ناقصة الحبات، بينما وجهه الأسمر

الحافل بحفر تشهد أن الجديري قد زار طفولته. وجهه ذاك قد عادت تحتله ابتسامة طيبة مليئة بسعادة ساذجة البراءة، وبدا كما لو كان يعود لينهي ـ بحماس فاتر ـ ابنه الأكبر عن تخطيط رخام المدخل بقطعة طباشير عثر عليها. وكان سعيداً بابنه وشقاوة الذكورة فيه سعادة تجعل لسانه ينتقل في نشوة من تأنيب ابنه ونهره إلى مداعبة «فتحية» ومطالبتها بابن ثالث عله يطلع هادئاً وديعاً كأمه.

استوعب الأفندي الساكن هذا كله في الزمن القليل الذي استغرقه ليصل إلى باب شقته ويضع مفتاحه في قفلها. وفي ومضة كان عقله المركب بطريقة' لا بد غريبة بالغة التعقيد، فمشهد كهذا كان يمكن أن يهز بعضهم رأسه لرؤيته أو يبتسم في رثاء مثلاً أو حتى إذا كان شريراً فأقصى ما يفعله أن يسخر بينه وبين نفسه من هذه العائلة الطيبة المسكينة السعيدة.. أما هو فقد كان موقفه أن اتخذ في الحال قراراً لا رجعة فيه، أن يلتهم «فتحية» ويضمها إلى قائمة الضحايا.. هو ليس إذن ذئباً عادياً. انه ضبع، أشد ما يجذبه إلى الضحية هو بالضبط نفس الأسباب التي تدفع غيره من الذئاب لأن يبتعد. إن أسعد مغامراته. تلك التي انقض فيها على أرملة في نفس ليلة وفاة زوجها العجوز، أو تلك التي بدأ بها تاريخه حين ضاجع أم زميله الذي كان يذاكر معه.. أما تلك الخائفة المنكمشة على نفسها التي ما خاطبها مرة إلا واستدارت بعيداً مبتعدة أو هاربة، ذات الثدي الأبيض الضامر وزوجة الأسمر الطويل الفلاح «حامد» فلا علاج لانكماشها على نفسها وخوفها منه ومن مصر والمصاروة.. إلا بأن

يأتيها عساها تكف عن الانكماش وتأنس إلى ناس المدينة .

وعبقريته، ولكل عبقريته الخاصة، أنه ما ان يتخذ قراراً كهذا حتى يبدأ عقله يتفتق عن أفكار جهنمية وعن طرق ووسائل لا يمكن أن تخطر على عقل بشر، فهو خامل كسول ممتعض الابتسامة إلى أن يحدث وتقع عينه على الواحدة منهن ويقر قراره، في الثانية التالية تجده قد استحال إنساناً آخر دبت فيه طاقات الحياة، وتفجرت في عقله الأفكار والخطط وأقبل على الحياة بشهية مفتوحة وأصبح كائناً آخر. . لا تكاد تعرفه.

وقبل أن يدير المفتاح كانت يده قد خبطت جبهته علامة الألم للنسيان، وكانت المحفظة قد أخرجت وخمسة جنيهات قد فردت أمام عيني «حامد»، وعلبة سجاير كليوباترا يا «حامد» نسيت شراءها. . هاتها أنت من تحت الأرض بأي ثمن ولو بثلاثين قرشاً، والورقة بخمسة جنيهات معك. لا تعد إلا بها يا «حامد» حتى لو ذهبت إلى شبرا البلد.

يا لمكره وهو يفتح «لحامد» باب الاختلاس المحدود على مصراعيه! الاختلاس المغري بالغياب وادعاء التعب. ويا لطيبة «حامد» وهو يبتلع «الطعم» في الحال ويقرر حتى قبل أن يبرح مكانه، أن ثلاثة قروش على الأقل ستدخل جيبه من هذه الصفقة وعليه أن يبرهن أنه استحقها. . أما أنت يا ست منكمشة ـ فبعد ما

تأكد من ذهاب «حامد» ها هو ذا يعود فاتحاً باب شقته الذي لا يبعد عن باب حجرة «السلم» إلا بضع خطوات ـ مش تشرفينا؟ «فتحية» فعلاً وأنت «فتحية». وابنك الرضيع هذا؟ «سلطان؟» عاشت الأسامي. والثاني «عنتر؟» ياه! عيلة أبطال صحيح.. والثالث؟ ما فيش ثالث؟

من هنا نبدأ.. ونبدأ بلو كنت من «حامد» لكان الثالث على الأبواب.. وعلى هذا الباب الأخير مضى الولد القاهري «المرقع» يدق دقاً اكتشف أن «فتحية» بالكاد تعيه. أغباء هذا أم استغباء؟ على أي الحالين عليه أن يغير الأسلوب.. المال؟ إن هذا النوع لا يقدر قيمة المال، فلا يعرف قيمة المال إلا من يعرف كيف يصرفه، إلا المتعامل بالمال.. الحب؟ إن هذا الصنف أيضاً لا يتطلع إلى الحب، أو بالذات حبه.. هم لا يرفعون عيونهم أبداً إلى ما فوق الحواجب، ولا يتطلعون إلا لحب من في طبقتهم.. أو ربما إذا تطلعوا فإلى الأعلى منها بقليل. أما هو البيه الوسيم الذي يعامل الخمسة جنيهات بهذا الاستهتار فمحال. من أين «أكلك» إذن يا «بطتي» النحيفة المعضمة؟ بخطة بعيدة المدى لا بد.. خطة تجعل هذه الخائفة المنزعجة المذعورة تطمئن إليه أولاً وتكف عن الخوف منه، ثم يتقدم خطوة ويرفع الكلفة معها، ثم ينتهز الفرصة أو يخلقها خلقاً ويحاصرها حصاراً لا تملك معه إلا السقوط.

وما كاد يبدأ التطبيق حتى أدرك أنه رغم كل ذكائه وفهلوته قد خانته فراسته هذه المرة.. فهو ما كاد يبدأ الخطوة الأولى لتطمينها

بالحديث معها حتى أدرك أنه ليس أمام إنسانة وإنما هو أمام حيوان كحيوان القواقع. ما تكاد تحس باقتراب صوت أو خيال حتى تنكمش وتنكمش حتى لتستحيل إلى كتلة صماء من اللحم والعظم غير قادرة على الارسال أو الاستقبال. إنه للآن لم يرها رأى العين. إن هي إلا مرة رأى فيها وجهها وما كادت تدرك أنه يراها حتى كان وجهها قد اختفى.. واختفى وهي أمامه لم تبرح مكانها ووسامته من أقوى أسلحته وقد كان يريد لها أن تراه، كان متأكداً أنها إذا رأته مرة وتطلعت إليه ملياً فإن شيئاً ما سيحدث لها، تماماً مثلما كان يحدث للعشرات اللاتي سبقنها. ولكن كيف تراه وهو كلما هم بالتحدث معها أحس أن شيئاً في داخلها يمنعها أن تسمع.. وإذا سمعت يمنعها أن تعي، وإذا وعت يمنعها أن ترد أو تجيب.. أو حتى تتطلع لتعرف من الذي يتحدث؟

وقد كان من الممكن أن يحدث هذا «لفتحية» في أول مقامها بالعمارة، أما بعد أن خرجت وجابت الشارع وأصبحت تتعامل مع السكان وغير السكان فهو موقف إذن من الأفندي وحده. «فتحية» في الحقيقة لم تكن تفعل معه هذا اعتباطاً، فهي ليست غبية ولا فقدت الحذر، وحين تلا حديثهما العابر البريء الأول بحديث أحست به مصطنعاً مفتعلاً استقيظت فيها فجأة كل مخاوفها القديمة تجاه مصر والبحر والأيدي الممتدة، وملأها الرعب من ذلك الأفندي الذي كثيراً ما هتف به الهاتف.. صحيح أن الهاتف لم يحدد شكل الأفندي ولكنه أفندي تحس أنه عن عمد يتقرب إليها. أليس هذا كافياً لكي

يجعلها تحس أنها أصبحت بين أنياب الخطر، وإن هي إلا كلمة تفلت منها أو لين تظهره تجاهه حتى تنتهي هي وينتهي كل شيء. لقد أصبحت من فرط حذرها بالكاد تنام الليل. . ووجود «حامد» نفسه لا يطمئنها، والباب الذي تغلقه وتتأكد أكثر من مرة أنه مغلق لا يفلح في كبت مخاوفها. . فمصيبتها الكبرى أن الهاتف يؤكد لها أن ما يوسوس لها به سيقع. . برضاها سيقع. . برغم رضاها سيقع. إنها تكاد تجن، فلتجن أو فلتمت أو ليحدث أي شيء ولكنها ستقاوم، ولن تسمح لصلة أو حتى كلمة أن تكون بينها وبين ذلك الأفندي، ولتدر المعركة في داخلها في صمت رهيب لا يعلم بها مخلوق. . ولا تستطيع أن تبوح بها لمخلوق.

وبالوسع تصور مقدار الفجيعة التي أصابت ذئبنا الضبع وهو يرى جهوده ووسامته وذكاءه تذهب سدى أمام جبروت هذه الفلاحة البيضاء، وانطوائها على نفسها واغلاق ذاتها دونه. حتى لقد استحالت المسألة عنده من مغامرة كان يعتقد أنها بسيطة عابرة إلى خوف من الهزيمة واهتزاز كامل بالثقة بنفسه حتى أصبح عليه لا أن يخوض مغامرة وإنما أن يثبت لنفسه أنه لا يزال ذلك القادر الذي ما استعصت امرأة عليه قط ولا فشل مرة.

. الأيام تمضي بسرعة مذهلة، حتى لقد مضى على قراره شهران وهو لا يزال قراراً لم ينجح لخطوة صغيرة واحدة في طريق تنفيذه. وتفكيره في المغامرة، وفي «فتحية» دائب صباح مساء حتى أصبح هذا الموضوع أهم ما يشغله في حياته، بل لم يعد في حياته سواه.

أحياناً كـان يفيق لنفسه ويستنكـر أن تكون هـذه حالـه وأن يكون هـو نفسه الذي جاب مملكة النساء بسمائهـا وأرضها ونجـومها، وجـربهن جميعاً من الأميرات إلى الغسـالات بل والسـائلات، هـو نفسه الـذي يهب كل ذلك الـوقت والمجهود والتفكيـر لامرأة كـ «فتحية»! إن هناك خطأ في الموضوع لا يعرف سره، ومن المحال أن يفشل حتى لو كلفته هذه المغامرة عمره. وأحياناً يفيق ليواجه سؤالاً لم يوجهه لنفسه أبداً: أيكـون قد أحب «فتحيـة»؟ إذا قيس الحب بمقـدار الكم من الـوقت الذي يقضيه المـرء يفكر في حبيبـه فهو إذن ليس في حـالة حب فقط ولكن في حالة حب عظيم نادر، فلم يحدث من قبل أن تفـرغ إنسان للتفكير في إنسانة كما يفعل هو مع «فتحية». بل وها هو ذا حين يجد صدها له كاملاً حاسماً نهائياً وليس ابن يومه فقط أو لحظته، وإنما من الواضح أنه سيظل هكذا إلى الأبد.. حين أدرك هذا ويئس تماماً من كل محاولاته أصبح كل همه وأمله أن لا يحادثها أو تحادثه، ولا حتى أن يحلم أن يوقعها، وإنما أن يراهـا.. مجرد أن يـراها. وحتى هـذا الـطلب البسيط الشـديـد التـواضـع أصبـح عسيـراً هـو الآخـر صعب المنال، فلقد تزايد خوف «فتحية» وتزايد بالتالي حـذرها إلى الـدرجة التي أصبحت نادراً ما تغـادر فيها الغـرفة، حتى إذا غـادرتها مضطرة فلتعـود إليها مسـرعة لهفى وكـأنما في أثـرها سـرب من التمـاسيـح. وأصبـح على ساكننـا لكي يراهـا أن يلجأ للصـدف وحدهـا تدبر لـه الأمر، ولكي يزيد احتمالات الصدف كان عليه أن يمضي أطول وقت في المدخل أو في بـاب العمارة أو قـريباً من بـاب شقته، وأن يفعـل

هذا و«حامد» موجود مسألة لا بد تدعو للشك ولهذا كان عليه أن يرسله في مشاوير. ولكيلا يفعل هذا بكثرة تثير ريبته وبحجج دائماً وجيهة ومعقولة كان عليه ألا يرسله كثيراً، وبالتالي يقلل من احتمال وجوده قريباً من باب حجرتهم. مشكلة عويصة كانت تستنفد من وقته وجهده الأيام الطوال لكي يتمكن فقط من أن يراها، وحتى لم يكن يراها، كان فقط يلمحها.. يلمح شيئاً يرتدي الجلباب الأسود الذي عادت إليه صاحبته تتحصن فيه بعد أن كانت قد خلعته ولبست مثل أهل مصر.. الملون والمشجر.

* * *

وفي ظهر ذلك اليوم من أيام الصيف في وقت القيلولة تماماً، وقد انتظر أسبوعاً بأكمله ليتمكن من ارسال «حامد» إلى مشوار في شبرا، كان الحب والوجد والقلق قد استبد به إلى درجة لم يعد يحتمل فيها الأمر لثانية أخرى. كان قد انتهى تماماً وأصبح مستعداً لأي شيء من أجل أن يظفر ولو بكلمة واحدة منها، مستعداً أن يبوح لها بحبه وأن يعرض عليها الزواج وأن يتزوجها في الحال، وأن يقتلها إذا رفضت، وأن يقتل «حامد» إذا تعرض له، كان قد بلغ مرحلة اليأس الكامل المطبق ولم يعد أمامه إلا أن يقتحم عليها الحجرة وليكن ما يكون.

ولقد فعل.

ولأن الطفل الكبير كان قد فتح الباب الذي أغلقته أمه وخرج إلى الحارة الجانبية ليلعب، فما كاد يدفع الباب حتى انفتح، وحتى وجد نفسه وجهاً لوجه أمامها، وكانت واقفة تحمل الرضيع بجوار رأس السرير. وبرغم كل ما كانت تحفل به نفسه من هموم وقرارات ومشاغل، برغم الكلام الذي كان قد جهزه ليحاصرها ويمطرها به، فإن كل شيء ما لبث أن تبخر من عقله تماماً، لا لمرآها، وإنما لما حدث لها لحظة رؤيته. فالأشباح نفسها إذا ظهرت لها ما كان يمكن أن تحدث نفس الأثر، لا حتى ولا الموت نفسه لو رأته مجسداً! لكأنما رأت شيئاً أعتى من الشيطان والموت والأشباح وكل شرور الدنيا.. لقد كانت مطمئنة اطمئناناً كاملاً إلى كل الاجراءات التي اتخذتها لتصبح في مأمن منه. كانت شيئاً فشيئاً قد بدأت تثق أنها انتصرت على الهاتف والقدر والمكتوب، واثقة أنه قد أصبح مستحيلاً على الواقعة أن تقع ما دامت قد أحاطت نفسها بسياج الاحتياطات تلك حتى أصبح مستحيلاً على ذلك الأفندي مجرد رؤيتها. أما أن تلتفت فجأة لتجده أمامها وجهاً لوجه، في حجرة خالية، بينما «حامد» بعيداً جداً في شبرا البلد.. أما أن تحس أن قدمها قد زلت بغتة من مكانها الحصين المرتفع وأنها في طريقها إلى أن تهوي إلى سابع أرض.. إلى القاع، أما أن تدرك أن إرادة الهاتف انتصرت على إرادتها، وأن الأفندي ها هو، كأنه القدر، كأنه المقدر، كأنه النداهة من دم ولحم ووجود ـ فهي الصاعقة التي انقضت على عقلها فصعقته. لا.. لم تكن إنسانة مرعوبة تلك الواقفة، إنما هي إنسانة

مصعوقة، مشلولة، منتهية، في ومضة واحدة انتقل لونها من البياض إلى الصفرة الرمادية الكاملة، صفرة الموت الرمادية، ومن إنسانة ترى وتسمع وتشعر إلى إنسانة أصابها الصمم وتوقف اللسان في حلقها وتضخم حتى كاد يملؤه. صاعقة بترت تماماً صلتها بالحياة.. كأنها الصاعقة التي انقضت على «حامد» حين رآها، والموت الذي تلا كان كالموت الذي داهمه، وبتلقائية غريزة البقاء وحدها مدت يداً قد بدأت ترتعش ارتعاشاً ظاهراً يرعب مشاهده، تمسك برأس السرير تتشبث بها، بينما الطفل من فوق صدرها ينزلق، وبالغريزة وحدها تحميه بيدها من السقوط المفاجىء فيصل إلى الأرض سالماً قد بدأ يبكي وينتحب. وما كاد هذا يحدث وتطمئن الأمومة حتى لم يعد للحياة نفسها أو التماسك قيمة، فبدأ الجسد يتمايل ويدوخ وينزلق مهدداً بالسقوط، بل سقط سقطة لم تتم، إذ في الحال وبجهد خارق، كان ذئبنا الضبع هناك يتلقاها بيديه الاثنتين وقد فغر فاه بالدهشة، فآخر ما كان يتصوره أن يحدث هذا وأن تسقط الثمرة من تلقاء نفسها بين يديه دون مشقة أو تعب، دون كلمة، دون حتى حركة واحدة أقدم عليها أو جهد ولو ضئيلاً بذله. لقد جاء وفي نيته أن يحارب معركته الأخيرة بكل قواه، واستعد ليواجه ليس فقط «فتحية» أو «حامد» وإنما العالم كله، استعد لأي شيء، للفضيحة أو القبض أو القتل، جاء وهو يائس تماماً أن يظفر منها بشيء.. فالتي تضن عليه بمجرد أن يلمسها أو يراها، هل من المعقول أن تنيله مهما فعل شيئاً أكثر من هذا؟ أكثر من أن تتاح له فرصة أن يراها،

مجرد أن يراها، ولو كان ثمنها فضيحته أو مصرعه، فإذا بها بين يديه طرية كالخرقة، مستسلمة تماماً متاحاً لـه منها كـل ما يمكن أن يحلم بـه، إذا بها أقـرب ما تكـون إلى جثـة، جثة لم تفعـل أكثـر من أنهـا أيقـظت فيه ذلـك الضبع القـديم الذي يسيـل لعابـه لمـرأى الجثث. الضبع الذي كان قد اختفى في أعماق شخص بلغ به الحب والـوجد والشـوق إلى «فتحية»، مستـوى رفعـه إلى مـرتبـة المحبين الكبـار. محب مدله جرب السهد والسهـر والغيرة والشـك والعذاب، العـذاب الـذي نـال منـه وأوهن جسـده حتى رق ودق وارتقى بمشـاعـره حتى أصبـح يحس ويفكر ويتصـرف كشاعـرا فجـأة نفض الضبـع الكـامن الذي يكاد يختبىء ويموت تحت ما ترسب فوقه من مشاعر وطبقات. نفض عن نفسه هذا كله، وانتصب تلمع عيناه ببـريق الفوز ويـرتجف جسده ترقباً لمائدة المتعة الأكيدة المرتقبـة، لا يفصله عنها إلا لحـظة زمن يريد بكل ما يملك من شر وجشع أن يختصره حتى ليلغيه تمـاماً ويبدأ يلتهمها ويتلمظ.

وهكذا، ومنتهزاً فرصة الغيبوبة الكاملة العابرة كان قـد أرقدهـا على الأرض ودفع الطفل بغل فأبعده، وأطلق الطفل صراخه مـذعوراً عالياً لا يأبه له، بل انـه ليضيف كثيراً من البهـار إلى المائـدة الجثة. وبيد حديدية مدربة طوقها، وبيـد مرتعشـة بالـرغبة مبهـورة بالانتصـار الساحق السريع تكاد لا تصدق نفسها أو ما يحدث، دفع بنطلونه دفعة واحدة تعرى على أثرها تماماً، وبنفس اليد مزق مـلابسها وهـو يحس بالصوت الصادر عن التمزيق بنشـوة دونها أي نشـوة أخرى على وجـه

الأرض، وحتى لو كانت في طريقها إلى الموت على أثر نزيف مثلاً أو سكتة لكانت من غيبوبة الموت الحقيقي قد استيقظت، فللغريزة الحارسة للغريزة سلطان على الجسد أقوى من أي سلطان آخر.

وهكذا ما كاد يحاول أن يصل بانفعاله إلى آخر مدى حتى كانت، وكأنما مسها تيار مكهرب موقظ قد صحت، ومع أن الصحوة كانت صحوة عقل وإدراك إلا أنها بجماع ما تملك من طاقة وقدرة، بآخر رمق، بذلك الكم الضئيل من القوة التي يدخرها الجسد ليقول بها آخر «لا» في حياته، قاومت. . تململ جسدها يقاوم مقاومة لم تفعل أكثر من أنها استدعت إلى الوجود كل قوى الذئب الضبع الكامن وحشدها في ساقيه وذراعيه حتى التفت حولها كقيود من فولاذ لا يرحم، وبآخر ما تملك أيضاً تململت،وبكل ما يملك أطبق. وكان ممكناً أن تصرخ تستنجد بالناس أن يقاوموا لها ولكنها رفضت وأبت فالمعركة معركتها وحدها ولن يفعل ادخال الناس أكثر من فضحها إذ السهم الآن نافذ فعلاً، والمكتوب قد حدث، وقد يمنع الناس استمرار حدوثه ولكنهم أيضاً سيكونون شهود حدوثه، وتلك هي الكارثة التي تواجه الموت أو السقوط الخاص الذي لا يعرفه أحد، ولا تواجهها.

وحين فتحت عينيها ـ وقد ذهب الرعب وحل الغضب ـ تريد التفرس في قاهرها واتسعت عيناها دهشة وحقداً وخوفاً، فعلى بعد قراريط من وجهها كانت ترى وجهه لأول مرة وتتفرس فيه، فهي أبداً

لم تر وجهاً مثل وجهه حليقـاً ناعمـاً أحمر وسيمـاً، وعيناه خضـراوان لهما رموش طويلة، ورائحة حلوة، وأسنـان بيضاء مـرصوصـة بدقـة، وفمه حلو يتمنى أي فم أنثى أن يقبله، وابتسامة كبيرة. . ابتسامة فـوز وفرح تحتل الوجه كله وتظهر له غمازتين عميقتين على جانبي الوجـه وطـابـع حسن. . ابتسـامـة داعية نـاعمـة كـأنهـا واحـدة من آلاف الابتسامات التي كثيراً ما حلمت بهـا هي والأيدي الممـدودة تدعـوها في لطف وإصرار إلى ترك بر الأمان والغوص إلى القاع حيث الأشباح والطين. . ابتسامة ما أن رأتها حتى بدأت تتململ مقاومة من جديد إذ أحست وكأنها ابتسامة القاع نفسه، يدعوها وبخبث ونعومة ودهاء يريد التغرير بهـا. . مقاومـة لم تفعل أكثر من أنها مكنتـه تمامـاً منها حتى أصبح كل جزء فيها ملتصقاً وملتحماً بكل جزء فيه. لقد ظلت تخـاف من العفـريت حتى طلع لهـا، ومن وسـوسـة الهـاتف حتى تحققت. ظلت تصمم وتصـر وتحتاط حتى نفـذ السهم ووقع المحـظور وانتهى كل شيء، والخوف المستمر الدائم والهـاتف والحلم والحقيقة كلهـا قد التقت الآن في لحظة واحدة. . لحظة غريبة مفعمة مليئة محشـودة بآلاف اللحظات والخلجات. لحظة أخـطر ما فيهـا أنها تـدرك أنه لـم تعـد هناك فـائـدة. حتى الـرعب والخـوف أصبح لا فـائـدة منهمـا، والمقاومة لم يعد لها داع بالمرة، فالسهم نفذ.

ولم يعـد أمامهـا إلا أن ترجـوه وتستعطفـه. لم يعد أمـامهـا إلا وسيلة العـاجز. . أن تبكـي. ولقـد بكت. . وأن تتـذلـل. . وأنـا في عـرضك، أنـا صاحبة عيـال. دمـوع وكلمـات لم تكن تفعـل إلا أن

تضيف إلى الأكلة كل ما يتمنى الضبع العجوز إضافته من شطة وسلطة وعصير ليمون وخل، وحين استمرت تبكي وقد ازدادت حرقة البكاء ولوعته لم تكن تريد به مزيداً من رجائه واستعطافه، إنما كانت في الحقيقة تبكي من أعمق أعماق قلبها على نفسها وعلى عجزها.. بكاء.. يا للعجب! لم يستمر طويلاً.

فقد بدأت تحس بأشياء غريبة عجيبة تنفذ إلى ذاتها وجسدها.. أشياء جديدة مذهلة كبريق مصر الخاطف.. أشياء أحست معها كما لو أن كل النيون الأحمر والأزرق والبنفسجي ومهرجان الأضواء والألوان، كل الوجوه الحلوة الحليقة والملابس الغالية الأنيقة، كل الروائح العطرة المنعشة المخدرة، والشوارع الواسعة المزدحمة النظيفة، والمتنزهات، والأشجار.. حتى الأشجار مجففة الأوراق مقصوصة كتسريحات السيدات، كل الترمايات والعربات الفارهة، والسينمات والوجوه الخارجة من السينمات، والكباريهات والراقصات، كل الأطفال الأصحاء النظيفين والأمهات والأجزخانات والأرتستات، كلها تتجمع وتتسرب إليها.. إلى داخلها المرتعش الخائف المهزوم المبهور، وهي حتى في عجزها وادراكها ويقينها بالهزيمة التامة الساحقة بكل ما أوتيت من قدرة تقاوم ولا تكف عن المقاومة، والأشياء الغريبة الكثيرة لا تكف عن التسرب فتعود تقاوم مستميتة أكثر.. تقاوم مدينة بأكملها تتسرب إليها ورغماً عنها تتسلل إلى كل خاف فيها ومستتر، وكان لا بد في النهاية أن تكف عن المقاومة تعباً ويأساً، ثم يقيناً تاماً من اليأس، ويأساً تاماً من

أن معجزة ما لم تحدث وتنقذها في نهايـة الأمر، وان بـإرادتها وبغيـر إرادتها تماماً كما كان الهاتف يؤكـد، قد حـدث كل شيء. أمـا ما لم يذكره الهاتف ولا كانت تتصور للحظة أن من الممكن أن يحدث. أما أن تبـدأ تتحول من استسـلام مغلوب إلى استسـلام مستمتـع.. فهـو رغم حدوثه الشيء الذي كان لا يمكن حتى وهو حادث أن تصـدقه، فـالمشكلة أنها مـا كادت تبـدأ تحس بهذا حتى كـان الباب قـد فتح، وعلى عتبته وقف «حامد» طويلاً رفيعاً. مصعوقاً أسمر غامق السمرة.

* * *

طالت وقفة «حامد» عند الباب الذي كان بـلا وعي قد أغلقـه. و«فتحية» مستلقية لا تزال يدها متشبثة برأس السرير وجسدهـا مفتوح السـاقين مغـطى وليس في عقلهـا سوى رغبـة ملحـة لا تنتهي أو تتزحزح.. أن يصنعها «حامد» وينتهي. انه الـطريق الوحيـد الذي لا بد يمتد إليه المقدر والمكتوب، فبعد كل ما حدث كيف يمكن للحياة أن تستمر؟ وكيف باستطاعة أي شيء أن يعود كما كـان؟ إن الأمور لا يمكن أن تستقيم، ومستحيـل أن يهجـع أي منهمـا أو يـرتـاح راحتـه الكبرى إلا بأن تموت «فتحية»، وبيد «حامد» لا أقل.

لا حـل للمـوقف كله إلا بـأن يقتلهـا «حـامـد» ويستـريح، وتستـريح، ولكن الغريب أن الهاتف كلما وصل إلى هـذا الحد كـان يعود يطل برأسه ويؤكد لها أن «حـامد» لن يقتلهـا، وأنها لن تمـوت، وأنها سيكون لها مصير آخر..

وتعب «حامد» من الوقوف الطويل المتفرس وجلس، وجاء الولد من الخارج «بزيطة» وطلب ملحّ للطعام، وحين أحس بالصمت الملغم المستمر انتابه غير قليل من الخوف فسكت، وما لبث أن نام.

وأظلمت الدنيا وأصبح ظلام الحجرة تاماً شاملاً.

ولم يجسر أحد أن يضيء النور.

بقى «حامد» على جلسته عند الباب يدخن من علبة السجاير الصغيرة التي اشتراها بما توفر له من نقود الأفندي.

و«فتحية» بهدوء شديد تجلس، ثم ترقد، ثم تعود إلى الجلوس، وتنتظر من «حامد» أن يفعلها وينتهي. كل ما كانت ترجوه بينها وبين نفسها ألا يأخذها على سهوة، إنما بطريقة أو بأخرى يرحمها، ينذرها، فلم يعد في جسدها ذرة واحدة قادرة على تحمل المفاجأة.. أية مفاجأة. ويكفيها ما رأت من مفاجآت.

حاولت مرة أن تتكلم فأسكتها «بزومة» منه.. «زومة» حيوان جريح.

وحين غفت عيناها لبرهة وصحت على نهنهة رجالية منخفضة مكتومة كادت تجن، غير مصدقة أخيلتها. هل هو «حامد» الذي يشهق ويبكي؟ أيبكي؟

أكان صنع هذا لو كانوا في بلدهم؟ أأصيب هو الآخر باللعنة وهزمته مصر ورخرخت إرادته وطبيعته حتى لم يعد قادراً على قتل زوجته وهو يضبطها متلبسة مأخوذة؟ أصحيح لزلتها يبكي؟

كادت تزحف إليه راجية أن يكف مطالبة إياه أن ينتهي فوراً عن بكـاء النساء ويعـود رجل القـرية الـذي عرفتـه، ويريحهـا، ويقتلها. كادت، لأنها حين فتحت فمهـا ترجـوه تصاعـدت صرخـة كزئيـر أسد غاضب، سمرتها مكانها بلا حراك.

وفعلاً لم يقتلها «حامد»، وإنما في الفجر كانت العائلة الصغيرة تغادر باب العمـارة الضخمة المهيب، وكـان «حامـد» يحمل عـزالهم كله وقد لفه في ملاءة سرير صفراء حملها «بالزقلة» على كتفه، وباليد الأخـرى كان يسحب الـطفل الكبيـر نصف النائم، بينمـا «فتحية» في المقـدمة تحمـل الطفـل الآخـر. وبـرغم أنهم خـارجـون إلى مصيـر مجهول لا تعرفه فقد كان ما تخافه في تلك اللحظة هو أن يبرد الولـد فراحت تحوطه بذيـل ثوبهـا الذي رفعتـه، ومضت تلفه بـه وتشتد في ضمه بينما نداء أخرس يرتفع منها ويهيب «بحامد» أن يخرج البـطانية من اللفة ويحيط بها الطفل الآخر. نداء أبداً لم يغـادر فاها، إذ هما لم يتبادلا منذ الأمس كلمة.

وسيـراً على الأقـدام مضت القـافلة الصغيـرة تحتمي من بـرد الصباح الباكر بالجدران، ويتركها ظلام عمـارة لتتسلمها ظـلال عمارة أخرى إذ كان قمر الفجر قد طلع.

قـافلة صغيرة تتسلل منسحبـة من المدينـة الكبيـرة الـراقـدة في صمت ولا مبـالاة، لا تحس بهم ولا بمـا تحفـل بـه صـدورهم من أهوال، نائمة تشخر في براءة وضمير مستريح وكـأنها مـا فعلت شيئاً،

حتى لقد بلغ الغيظ «بحامد» إلى حد التفكير في أن يلقي «بصرة» العزال جانباً وينهال «بزقلته» ضرباً ودشدشة وتكسيراً على فتارينها المضيئة، وعرباتها اللامعة المستكنة، وحتى أسفلت شوارعها المغسول. كان من جماع قلبه قد أصبح لا يطيق حتى مشيه في شوارعها وهو يغادرها، لم تعد في نظره مدينة.. لقد أصبحت كابوساً خانقاً بشعاً!

وفي أول قطار قطع لهم «حامد» التذاكر.

لكنه عاد لبلدتهم وحده.

فقد غافلته «فتحية» في ازدحام القادمين والراحلين في باب الحديد وهربت.

عادت إلى مصر.. بإرادتها هذه المرة، وليس أبداً تلبية لهتاف هاتف أو نداء نداهة..

مسحوق الهمس

حين هدأت أتأمل الروعة في المسألة، وجدت نفسي أمامها كالطفل الصغير الأبله الذي وقف يحدق في الجسد العاري تماماً لسيدة ناضجة الأنوثة.. وهو غير قادر على الربط بين ما يراه وبين ذاته، أو حتى بين رغباته ومشتهياته الخاصة وبين هذا الجسد، المستسلم العاري الذي أصبح فجأة أمامه وملك ناظريه، ويديه، وحواسه.

كنت باندفاع وتهور وجنون فرحاً، ولكنه فرح لا أدري ماذا أفعل به أو لماذا اعتراني أصلاً؟ كاد اليوم يمر مروره الأزلي الخالد لولا أنه قبل «التمام» ربما بساعة، «ترت ترت» فوجئت ببابي يفتح، وعبد الفتاح الطويل الرفيع الأسمر يظهر. وقبل أن ينطق كانت عصاه الخيزران التي تفتتت نهايتها على ظهور «النبطشية» تدق كعصا «النقرزان» على باب الزنزانة، دقات كمزاج صاحبها في النهار عصبية متعجلة ملحة:

ـ يا لله! لم عزالك يالله! بسرعة يالله! شيل نزامك «نظامك».. برشك وبطانيتك وتعال بسرعة! «النزام» بسرعة بسرعة! يالله بسرعة!

كلماته الخارجة كتكتكة مفرقعة متلاحقة لمسدس أطفال، ودقات العصا «النقرزانية» وازدياد تفتتها، والإلحاح المزعج واللهفة والسرعة، وفي ومضة كنت أحمل كل ما يخصني في الزنزانة حتى «جردل» البول حملته فقد كان جديداً يوفر عليّ مئونة الحبس مع «جردل» قذر، وتبعته واضطراب الفرحة يبعثر خطاي. أعرف أنه مجرد «عزال» لا أفراح فيه ولا زيادة أو حتى أمل في أي منهما، ولكنه حدث هائل يقع، إذ هو جديد لم يحدث بالأمس ولن يتكرر غداً. إلى أين؟ لم يكن مهما. . حتى لو كان مع «الاخوان». لم أستطع ملاحقة خطوات «الأومباشى» عبد الفتاح السريع المضحك الذي يبدو به وكأنه يخوض سباقاً للأرجل الخشبية، وبدأت المسافة بيني وبينه تتسع وأنا أجاهد ولا أستطيع، وكأنني من طول الجلوس نسيت المشي. بعد بضع خطوات بدأت ألهث وأتساءل جاداً هذه المرة عن وجهتنا، إذ كنا قد غادرنا السلم الهابط إلى أسفل، والثاني الصاعد إلى أعلى، وتركنا منطقة «الاخوان» والمحبوسين احتياطياً وتحت التحقيق، ولم تعد سوى أمتار قليلة وينتهي «العنبر». أتكون وجهتنا نهاية «العنبر»؟

بالضبط، عند باب آخر زنزانة وجدت «الأومباشي عبد الفتاح» يتوقف، ويستدير بسرعة إنسان انفلت عياره ويمضي جسده يتململ ويتشنج ضيقاً بتخلفي وراءه:

ـ بسرعة! بسرعة بسرعة! النزام. . نزامك بسرعة!

ـ يا أومباشي أنا مش. .

ـ من فدلك! من فدلك! ما فيش كلام! ما فيش كلام النزام! بسرعة خش أودتك.. بسرعة بسرعة!

وبسرعة بسرعة دخلت، و«ترت ترت» انغلق الباب ورائي بالمفتاح، ووجدت نفسي جالساً فوق «النظام» مسند الظهر إلى الحائط، نفس جلستي من دقيقتين.. دقيقتان هذا صحيح، ونفس الجلسة، ولكن يا له من فارق! فارق جعلني أخبط جبهتي بيدي خبطة ارتج لها عقلي. إن الزنزانة الجديدة التي انتقلت إليها وإن كانت تقع في نهاية «العنبر» لكن «العنبر» لا ينتهي بها، إذ هي في الحقيقة تقع في منتصفه، فالنصف الثاني كله مخصص لسجن النساء.

النساء!

من قال إن السجن هو فقط مصادرة حرية الإنسان؟ إن فقدان الحرية ليس سوى الاحساس السطحي الأول، فالإنسان يظل يفقد أشياء كثيرة جداً.. كل ما يملكه أو باستطاعته امتلاكه، كل قدراته ومكتسباته، كل صلاته وقراباته وأحلامه وطموحه، كل ما ينفرد به كشخص وكل ما يتساوى به مع المجموع.. كلها بعد معارك استماتة وتشبث طاحنة، لا يلبث أن يجدها رغماً عنه وأمام ناظريه وبقوة الحبس والعزل القاهرة، تتسرب واحدة وراء الأخرى وهو لا يملك لها رداً ولا منعاً، حتى الأمل في خروجه من ذلك «الليمان» والافراج عنه بعد أيام طويلة من المراودة والمطاردة والالحاح، إلى درجة أن يفسر كل فتحة باب على أن الشاويش قادم بأمر الإفراج، وكل حذاء

ثقيل يدق أرض «العنبر» على أنه حذاء المأمور أو المدير جاء يحمل قراراً خاصاً بالافراج. كل شعاع شمس يدخل على أنه آخر صباح، كل غروب أحمر مخنوق شنقت نافذة زنزانته شعاعاته وخنقتها على أنه آخر غروب، حتى تصل الأزمة أحياناً حد تهديد العقل، وفي مرات تطيح به، ثم يصحو الإنسان ذات يوم وهو يحس بالراحة الكبرى وقد انتهت الأزمة، ومات الأمل تماماً وحل اليأس الكامل. حين ذاك فقط تبدأ حياة السجن الحقيقية.. حياة أخرى مختلفة عن حياة الناس. حياة لا أمس لها ولا غد، وإنما طولها يوم واحد بالتحديد ذلك اليوم الذي تحياه.. يولد المسجون مع صاحبه ويحيا أحداثه وكأنها أحداث حياة بأكملها عريضة وافرة الغنى. إن مد فترة الذهاب إلى دورة المياه من ١٠ دقائق إلى ربع ساعة تعادل في الفرحة بها قرار يصدر بمنحه إجازة ثلاثة أشهر يقضيها على حساب المصلحة في أجمل مصايف أوربا. إن تغيير «الحلاوة الطحينية» في العشاء بالعسل الأسود يتجاوز في أثره واحتفال المسجون به قراراً استثنائياً بمضاعفة مرتبه إلى حد ينقله من طبقة تتعشى بالعسل الأسود إلى الطبقة التي تتعشى «بالكافيار والرومي». إن العثور على قطعة ورق من جريدة قديمة حتى لو كان تاريخها يرجع إلى أعوام مضت وقراءة أي خبر فيها عن أي شيء ولو كان العثور على لقيط بجوار مستشفى «أبو الريش»، يعادل الدهشة والذهول الذي ينتاب إنسان الحياة العادية حين يفاجأ بالجرائد تنشر على صدرها بالبنط العريض نبأ اكتشاف سر الحياة. بل كانوا يحضرون لنا الطعمية في الصباح

ملفوفة ـ زيادة في تعذيبنا بمنع أي متعة عنا ولو كانت قراءة الأخبار القديمة في الصحف العربية ـ في جرائد ألمانية لا أعرف من أين استطاع المتعهد الهمام أن يعثر على كل تلك الكميات منها.

وكانت جرائدي اليومية هي تلك القطع المشبعة بالزيت من أوراق الصحيفة الألمانية التي لم أعرف لها اسماً. أما وقد انقطعت عنا تماماً أخبار العالم الخارجي فقد كانت أخبار الصباح بالنسبة لي ليست أحداثاً أو «مانشتات» أو حروباً وثورات واكتشافات، كانت أخباري أن أنجح رغم بقع الزيت في قراءة كلمة ألمانية كاملة ونطقها. كل صباح كنت لا أترك الورقة حتى أنجح في قراءة كلمة، وحينئذ أضع الورقة جانباً وأتنهد بأعظم وأعمق ارتياح. أقسم أنه كان أعظم وأعمق من ارتياح قد يحسه إنسان قرأ مع افطاره كل جرائد العالم وعرف أخباره واطمأن أن كل شيء فيه على ما يرام. أما المتعة الكبرى.. المتعة التي لم يظفر بها إنسان، فهي تلك التي أحسها حين أنجح مستعيناً باللاتينية التي أعرف بعضها وبالانجليزية والفرنسية وبالفهلوة المصرية أن أعرف معنى كلمة نجحت في قراءتها. وأبداً أبداً لا يمكن للزمن أن ينال من فرحتي ذلك الصباح الذي نجحت فيه في معرفة معنى كلمة «فريدان» وخمنت أنها «الحرية».

النساء!

تلك الحياة المسجونة الثانية التي تجد نفسك تحياها وتخضع لقوانينها.. حياة كحياة المشلول أو من أصيب بالعمى أو فقد بعض

عقله ـ أضيق قليلاً من حياة النـاس ـ ولكنها أيضـاً مزدحمـة، بل حتى أناسها ليست لهم شخصيات جديدة لا بد تختلف بـدرجة أو بـأخرى عن شخصيـاتهم التي يعرفهم بهـا الناس في دنيـاهم العاديـة. تفاجـأ أحيـانـاً بمن كـان طبعـه الضجـر والملل والتكشيـر وقـد تحـول إلى «بلياتشو» وأصبحت شهرته أنـه «ابن نكتة» ومجلسـه «مجلس أنس»، والمخيف المرعب وقد تحـول إلى فأر مـذعور، والمتـواضع الغلبـان وقـد انتصب من داخله شجاع عنيـد. وأحيانـاً يضـاف إلى كـل منهم «لحسته الخاصة». . اطلاق الـذقن مرة، أو الاغـراق في الصلاة، أو موهبة قول الشعر وكتابة القصص وقد نمت فجأة وبـلا سابق انـذار. . وتتجمع فئات تلك الحياة الموازية الخاصة وتستديـر كي تصنع حيـاة تكاد تكون كاملة، أقول تكاد لأن أمراً حيوياً واحداً يظل ينقصها.

النساء!

بعـد ما تنتهي من إعـادة تذكـر كـل قصص الحب والعـلاقـات بالنساء في حياتك وتجترها مراراً، بعد ما ترتـوي ما شئت من أحـلام يقظتك ومن تصورك لكل ما استحال عليك بلوغه ممكناً، وكل وقـائع فشلك وقد انقلبت إلى معارك فوز وانتصار. . بعـد ما تستميت دفـاعاً عن كنـوز ذكريـاتـك تلك ضـد العـدو الأوحـد. . السجن وعمله في النفوس، تبدأ تحس أنها رغـم استماتتك تتسرب من قبضتك المطبقـة عليها وتتركك وقد بدأت تنسى أنك رجل، إذ قد تلاشى من وعيك كل ما كان يذكرك بـرجولتـك واختفت من عالمـك الجديـد كل لمحـة أو سـاردة تعيد لـك الذكـرى، وهكذا تحيـا ونفسك الجـديدة تعمـر بكل

شيء من آيات الحياة إلا منطقة منها محددة مجدبة قفـراء لا أمل لهـا في ماء أو نماء.

هكـذا جلست أحدق في الحـادث المروع الـذي وقـع والـذي نقلني فجأة من عالم اندثرت فيه الذكورة والأنوثة من زمان وانمحت، إلى وضـع أنا فيـه أرتكن إلى حائط ليس وراءه إلا نسـاء في نساء.. كبيـرات وصغيرات، وسمينـات ورفيعـات، وبيضـاوات وسمـراوات، وعلى كـل لون وبـأي شكل تشتهي وتـريد.. أحـدق مروعـاً مشتتـاً، عاجزاً عن أن أصنع أي شيء بالمرة.

إني في الزنزانة التي يتقاتل المساجين عليها ويقدمون الرشاوي «لشاويشية» الأدوار كي يمنحوهم إياها.. في الزنزانة الشهيرة التي لا يزال السجن يتناقل جيلاً بعد جيل قصـة الواقعـة التي جرت فيهـا يوم أن احتلها أحد «اللومـانجية» الـذي قضى عشر سنـوات في «الليمان» وكان لا يزال أمامه على الافراج عنه عشر سنوات أخـرى، وكان مـاراً على السجن في «ترحيلة»، واكتشفوا في الصباح أنه استطاع بجبروته والاستعـانة «بمـطواتـه» التي مهمـا فتشتـه لا تعثـر لهـا على أثـر، أن «يثقب» الحـائط المبني من «الدبش» والكـائن بين زنزانتـه والزنـزانـة المجاورة في سجن النساء، بحيث أمكنـه أن يصنع «ثغـرة» نفذ منهـا بجسده إلى جاراتـه المسجونـات الثلاث الـلاتي تقبلن الحفر والثقب واللومانجي دون استغاثة بل يقـال انه «ضـاجع» حـارسة الليـل نفسها حين جذبت انتباهها أصوات عدم الاستغاثة.. منذ ذلك اليوم أقـامت إدارة السجن حائطاً ثانياً سميكاً جعلت مونته من الأسمنت هذه المـرة

من المحال أن ينجح أحد في ثقبه حتى لو كان قادماً من حرمان مؤبد.

أذكر الحادثة لأنها بعد مدة ـ وعقلي أبيض منتفخ بفكرة حظي الهائل.. ساكن لا يملك حراكاً ـ حين بدأ يتحرك كانت حركته الأولى هوجاء مجنونة على هيئة فكرة أن أثقب الحائط، وحيث ان المونة من الأسمنت فلا بد من استعمال أصبع من الديناميت أكلف أحد العساكر بشرائه، وما داموا يهربون كل شيء إلى السجن حتى المخدرات.. فلماذا يستعصي الديناميت؟ ويصنع لي فتحة أدخل بها إلى بيت اللحم المجاور، اللحم الشهي الحي الذي لم أذق طعمه من سنوات؟

ومع أني رحت أخرف وأبذر في تخريفي على تلك الصورة وأنا أحس بنفسي سعيداً منتشياً سكران بالنشوة، إلا أنه عاجلاً أو آجلاً كان لا بد أن أبدأ أتبين الوضع على حقيقته، وأدرك بجلاء ووضوح وثبات أني أصبحت في مكان ليس بيني وبين ما لا يقل عن أربعمائة امرأة فيه إلا خطوة ـ حتى لو كانت على هيئة حائط فهي لا تعدو كونها خطوة ـ تأملاً بدا مخي معه يسخن وترتفع حرارته حتى يبدأ يفرز عرقاً داخلياً غزيراً على هيئة رذاذ من الأفكار المتلاحقة.. وكنت أعرف أنه مهما تنوعت أفكاري وتشتت فلا بد أن أبدأ بعد «التمام» في الخامسة، أدق..

* * *

إن الحياة الحقيقية للمساجين لا تبدأ إلا بعد أن يزول ارهاب العيون الآمرة الناهية التي لا عمل لها إلا أن تمنعك من كل ما تملك حق منعه، وكأن السجن في الحقيقة ليس إلا كلمة «ممنوع» كبيرة وشاملة.. ممنوع كل شيء إلا ما يبقى عليك الحد الأدنى اللازم كي لا تموت، لا لأنهم يريدون لا سمح الله لك البقاء، ولكنهم يريدون لك أن تحيا حياة الموت معها أرحم، إذ ممنوع عليك فيها كل ما يجعل من الحياة متعة، والمباح فقط هو كل ما يجعلها عبئاً وعذاباً وقيداً ثقيلاً تتمنى لو تخلصت منه واسترحت بالموت. ولكن الغريب أنهم لم يستطيعوا، وأعتقد أنهم أو غيرهم لن يستطيعوا مهما اتخذوا من احتياطات وبالغوا في قائمة الممنوعات أن يخلقوا ذلك السجن الكامل الذي يحلمون به، فقد استطاع الإنسان دائماً أن يجد حرية داخل كل قيد على الحرية، وأن يخلق داخل كل ممنوع ما هو مباح. ولهذا لا تبدأ الحياة الحقيقية إلا بعد زوال حراس المنع من ضباط وشاويشية، والعهدة بالرقابة إلى حرس الليل العزل، وهؤلاء كالمساجين تماماً ما أن تزول عنهم الرقابة حتى - في معظم الحالات - ينطلقوا على سجيتهم. ما أن يدق جرس «التمام» ويطمئن المأمور أن العدد مضبوط ولم ينقص واحد أو يهرب واحد حتى يفرج كل مسجون عن نفسه، فيبدأ يتكلم مع من يشاء من جيرانه، ويسكت حين يشاء، ويزعق إذا عن له، ويغني متى أراد، ويقول رأيه في أحداث اليوم، ويشتم ويسب.. أجل ويسب، وما أكثر كمية السباب التي تغادر الأفواه بعد «التمام» وكأن السباب غريزة ومزاولته ركن من

أركـان الحريـة. وهكذا لا يبقى من السجن الكـامل الـذي أرادوه إلا جدراناً صمـاء هي الوحيـدة المحبوسـة داخل مسـاجين يشبعونهـا دقاً وضغـطاً واختراقـاً بأحاديثهم وصـراخهم دون أن تجسـر على منـع أو اعتراض.

وكـانت حريتي ومـا هـو أكثـر من الافـراج في رأيي، أن تـأتي الخـامسة وتقـوم الضجـة لأستـطيـع محتميـاً بهـا أن أبـدأ أدق وأعلم الجارات بوجودي، إذ من لحظة الوعي فقط سيبدأ أروع وأهم حدث في حياتي تلك..

وقلت وأنـا أدلـل الاحتمـالات تـدليـلاً لا يحـدث إلا والهـدف العظيم في جيبك تداعبه متلذذاً مستثيراً لشهيتك: ربمـا هن لم يعدن بعـد.. ربمـا هن في الحمـام أو في المنسـج. ولكن أشعـة الشمس أصبـح بينهـا وبين السقف في زنـزانتي مـا لا يـزيـد عن العشـرة السنتيمتـرات بما معناه تعديها الخامسـة والنصف، وأنا أدق ولا أحـد يجيب. ربما سمك الحائط؟.. بقوة أكبر «بالجـردل» نفسه، بقـدمي وقـوة الساق الهـائلة رحت أدق.. وفي الحقيقة لم أكن أدق بقـدر مـا كنت أطرد بشدة احتمال أن تكون نتيجـة هذا الاحتشـاد والفرحـة إلى درجة الوصول إلى تدليل الاحتمالات أن الزنزانة المجاورة خالية تلك الليلة. ومن يـدري ربما غـداً أيضاً ولليـال كثيـرة مقبلة. كنت أطـرده بشدة لعلمي أن البله الذي قـابلت به المسـألة أول الأمـر كان راجعـاً إلى أنهـا من الضخامـة بحيث لا تصدق، وأني حين صـدقتهـا فعـلاً وبدأت أتصرف كانت قد غورت في كياني وعقلي وأحلامي إلى درجة

أصبحت معها خيبة الأمل إذا حدثت شيئاً بشعاً شريراً لا يتحمله بشر.

في السادسة توقفت عن الدق. لم تكن أول مرة أقرر فيها التوقف ولكنها كانت المرة التي قررت فيها التوقف بلا عودة. لم يعد لديّ أدنى أمل في استجابة أو رد بل حتى الأمل في ذلك. الأمل كان قد انتهى وأصبح عليّ أن أعتبر الموضوع كأن لم يكن، وأن أجهز نفسي لقضاء الليلة في زنزانتي الجديدة تلك مثلما كنت أقضي الليالي في الزنازن القديمة.. أفكر بلا هدف في لا شيء حتى تتزغلل قوى عقلي وتنهار فأنام.

انها لكارثة محققة.

فصحيح أنه لم يكن قد مر أكثر من ساعتين منذ عرفت الخبر. لكن المشكلة ليست أنه استثارني أو هيج كامن أشجاني.. المشكلة أني لم أعد أنا.. أني فجأة وجدت نفسي أمام إنسان آخر انتفض من داخلي مارداً عملاقاً رهيباً، لا علاقة بينه وبين الإنسان الذي كنته طوال ذلك اليوم والأيام الكثيرة التي قبله. الإنسان الذي كنت قد اعتدته وعرفت حدوده وخصاله ومزاياه. لم أدرك أنه كان على تلك الدرجة من الموت إلا حين انبثق ذلك الآخر. إلا حين أحسست وكأنما أرى بعيني الحياة تتدفق ـ لدى ذكر النساء وعالمهن واستحضار المرأة في ذهني ـ غريزة وحشية مكتسحة كأمطار الصيف فوق خط الاستواء. تنهال على سطح البحيرة الآسن الراكد البليد الذي ألت إليه بجسدي وأفكاري وأحلامي وانفعالاتي. مجرد وقع الكلمة على

الأذن «النساء» بذلك التضاد القاهر المكهرب معك، المناقض تماماً لك، الذي تحن إليه وترغبه وتريده كما تريد الحياة نفسها. . مجرد تصورك لأجسادهن المختلفة، لانبعاجاتها المثيرة، لملابسهن ـ حتى ملابس السجن الواسعة، لروائحهن الخاصة. . دائماً خاصة كبصمات الأصابع، لأصابع أقدامهن الصغيرة كالجرذان الوليدة المنكمشة على نفسها، لأياديهن النحيفة زرقاء العروق، للعيون. . عيونهن واحساسك أنها عيون امرأة ورموش أنثى. . ترسل نظرات تدرك أنها نظرات أنثوية منتزعة من أعماق امرأة ومرسلة إليك مضمخة بأنوثة تلون حتى شعاعات البصر ـ المرأة ـ الصدر الحنون والقلب الرحيم والكلمة الحلوة الرقيقة والأفخاذ التي يفقد بينها الرجل صوابه. بركان تفجر لا سبيل إلى إيقافه، قوى وافدة، غريبة، ملايين من شحنات كهربية حية أحسست بها من منبع خفي في جسدي تتفجر كالنهر الغاضب في فيضانه يكتسح. جن وعفاريت وأفكار مجنونة حافلة بذكاء لامع براق وطموح هائل وأحلام شهية تتولد وتتكاثر وتغمر الدينا بأسرها. هكذا لا بد فتك ذلك اللومانجي بالحائط فقد كان باستطاعتي ساعتها أن أثقب الجدران أو أهدها أو أحطم المعبد. قوى لم أعد أقوى على السيطرة عليها فأصبحت حرة تستطيع أن تفعل ما تشاء، تقدم على الفرار أو تقتل حارس الليل، أو تضاجع الحجر. العشاء التهمته في غمضة عين ودار حارس الليل على الزنازن يلم لي ما بقي من طعام، وبنهم جشع رحت أدخن حتى أتيت على نصيب الأيام القادمة الذي قسمته بعناية وادخرته.

أحياناً كنت أمسك رأسي بيدي وأضغط عليه بشدة مخافة أن ينفجر وكل أملي أن تأتي ساعة النوم وأهدأ، ولكني كنت متفائلاً جداً، فها هو برد الزنزانة يشتد، والظلام يقل علامة طلوع الفجر. وليس في عيني أو كياني كله لمحة نوم واحدة.

* * *

في اليوم التالي لم أنتظر «التمام» النهائي في الخامسة. . في ساعة القيلولة دققت دقات عنيفة مختلسة يائسة. وفي نهاية اليوم دققت وكثيراً ما منعت نفسي أن أدق الحائط برأسي غيظاً غير متصور أبداً أن يكون حظي بهذه التعاسة، وأن تظل الزنزانة خالية أيضاً لليوم الثاني. والمضحك أن أسبوعاً بأكمله مضى وأنا كل يوم أدق، وأفعل هذا مع أن حريتي في الدق كانت محدودة بتلك الدقائق التي تعقب «التمام» مباشرة حيث بعد السكون الشامل المفعم تنطلق في أنحاء العنبر ثمانمائة حنجرة تصرخ كلها في وقت واحد، ويزاول أصحابها متعة الكلام بعد اجبار طويل على السكوت. ومع انتهاء الضجة تنتهي محاولاتي وفرحتي، ومع هذا فما أكثر ما غامرت ودققت في ساعات الصمت وأنا أحاول بكل قواي أن أكتم الصوت، بل أحياناً كنت أستيقظ من النوم لأجد نفسي قبل أن أفيق تماماً أدق. .

ولا أذكر كيف فقدت الأمل، فقد كان لا بد طال الوقت أم قصر أن أفقده. كان واضحاً أن «عنبر» الحريم يشكو قلة الزبائن، وأنهم يؤثرون هناك أن يجعلوا المنطقة القريبة من «عنبر» الرجال آخر

ما يستعمل. وعلى غير ما كانت البداية حادة ومتفجرة وعنيفة كانت النهاية بطيئة طويلة ممتدة، وكأنما عن عمد.. وكأنما رفضاً للفقدان التام للأمل، والتلكؤ لعل وعسى تحدث المعجزة.

وحتى تلك النهاية التي بدت كالحدث الفاجع أول الأمر، انتهت هي الأخرى كنهاية، ومع الأيام ذابت كي يعود الموات إلى كل شيء وتصبح البحيرة الراكدة أهدأ ما تكون وآسن ما تكون. كل ما في الأمر أن طعماً مريراً ممتداً.. طعم الفشل، كان قد أضيفْ إليها.. طعماً كنت متأكداً أنه هو الآخر لا يلبث أن يزول، ولا تلبث الحياة أن تعود بي إلى ذلك الإنسان الآخر الذي كنته.

بالاستطاعة إذن إدراك هول الزلزال المفاجىء الذي هز أركان نفسي.. حين سمعت ـ أجل سمعت ـ بأذني هذه دقات تأتيني عبر الحائط السميك.. في ضجة ذات «تمام».

وشكراً للسجن الانفرادي أن أحداً لم يرني ساعتها وأنا أقفز في الهواء وأدق الحائط من أعلى ومن أسفل، ثم أستجمع كل قواي وأثب وثبة هائلة أتعلق بها في حديد النافذة وأصرخ وأغني وأقلد طرزان وأتشقلب.. رأسي إلى الأرض وساقاي في الهواء، وأعوي.. بأعلى صوتي أنادي جاراتي جميعهن ناعتهن بألفاظ لا تخطر على بال سكران، وأعود أدق وأدق فقط كي أدق وأنا فرح فرحاً حقيقياً أحس به. ونحن في الحياة العادية التي نتعامل فيها مع الفرح والحزن والاكتئاب والتفاؤل نفقد الاحساس بهذه الانفعالات بكثرة المزاولة..

«نعرفها». . بحيث لا نعود نتوقف عندها أو نكتفي بها. إذا نجح فينا أحد يجد نفسه يكاد لا يحس بالنجاح ساعة وقوعه إذ هو على الفور يبدأ يتساءل عما بعده، عما يفرح أكثر، فالنتيجة أننا لا نفرح في السجن حين يحدث ما يفرح من طول افتقادنا للفرحة، نحس بها. . نلمسها وتضطرب بها أجسادنا وتحفل بطاقات من نشاط الفرحة الغامر، ونرى أبواب أمل واسعة في صدورنا تتفتح، وتنبهر بالنور الكثير يكتسح أمام أعيننا الظلام الكثيف الرابض داخلنا. . فعلاً نفرح، لا يهمنا كثيراً ما بعده بقدر ما يهمنا أنه جاء وأننا نحياه. لكأن كلما ضيقت علينا الحياة اتسع احساسنا بها، وكلما قلت كميتها أصبح لكل دقيقة من دقائقها وقع أروع وأثمن.

ولم أفطن إلى زوال ما بعد «التمام» إلا حينما بدأت أعي أني الوحيد الذي يحدث ضجة، وكما كان على «العنبر» أن يثوب إلى هدوئه الليلي كان عليّ أن أبدأ بروية أكثر. ها بعد طول صبر ويأس وانتظار قد غمزت السنارة. . وهأنذا متأكد أن صيداً سميناً كبيراً على الناحية الأخرى. . صيداً قادماً من تلقاء نفسه، وهو الذي بدأ، وعليّ بكل ما أوتيت من قدرة وحذق أن أظفر به كاملاً. وبانتظام بدأت أدق وأرهف أذني ـ وهذا هو الأهم ـ كي أتسمع الرد. كانت تأتيني أصوات خافتة بعيدة كالقادمة من أعماق بئر، وكانت أذناي تلقطها وتترجمها وتنقيها وتحولها من دقات إلى لغة. . ومن لغة تتكلمها اليد إلى لغة يحسها الشعور ويدركها العقل. إنها مثلي بمفردها، وهاتان الدقتان السريعتان المتصلتان معناهما أنها قلقة هي الأخرى، خائفة

مثلي أن يحدث ما يقطع الاتصال. تلك الدقة الوحيدة التي لم ترفع اليدين عن الحائط بعد دقها. . إنها ابتسامة اطمئنان، ألمحها. فمثلما يطمئنني قلقها لا بد أن قلقي يطمئنها. ما أعذب هذا! ما أروع أن أعثر في وسط صحراء مترامية الأطراف، في آخر الدنيا هنا، حيث لا حضارة ولا أنس ولا بشر، حيث انتهى العالم من زمن، أعثر على أنثى، أدق لها فتدق لي، وأضطرب خوفاً من فقدانها فتبتسم لي في حنان واطمئنان. لقد عرفت الحب أكثر من مرة. . الحب المحموم المجنون الذي ينهش الصدر ويعتصر الروح، الحب الذي ينسيك من تكون وما كنته وما يجيء به الغد، الحب الذي من طينته خرجت قصص الغرام الكبرى، وجن قيس وانتحر فرتر وماتت جولييت. بعد الحديث القصير الذي تم بالأيدي أحسست وكأنني عثرت على سيدة عمري، أحسست أن حبي الثالث ذلك الذي لا يقاس بجواره أول أو ثان، ذلك الذي طالما حلمت به وخشيته وطالما هفوت إليه وأرعبني مجرد التفكير فيه، عرفت أنه هكذا ودون كلمة أخرى قد بدأ. إن قصتي مع المرأة حرب دامية طويلة بدأت من يوم مولدي ومع أول امرأة عرفتها. . أمي! حرب انتهت بخوفي من المرأة إلى درجة عبادتها، والحقد عليها إلى درجة الرعب المقيم أن يتحول الحقد إلى حب فأودعه كل شوقي المريض إلى المرأة منذ أن كانت أمي إلى أن أصبحت غريمتي وعشيقتي، وأفقد في تلك المعركة. . في الحب. . نفسي تماماً. وهكذا بمقدار تعطشي للحب كانت محاولاتي للهرب، ولكني هذه المرة بإرادتي المدلهة أختاره حتى لو كان فيه ـ وحتماً

فيه ـ هلاكي. هـذه المرة لا صـراع ولا محاولات مستمـرة للتراجـع. إني أندفع بكل قواي وأدق وأكاد أموت متعة وتلذذاً، والرد يـأتيني دقاً أنثوياً واهناً مبحوحـاً. أرى اليد التي تـرسله بيضاء صغيـرة ذات شعر ميكروسكوبي أصفـر، وأظافـر بلون دم الغزال الشـاحب، يد أعـرفها وأقبلها وأقبل كل أصبع فيها. . وبلساني ألثم ما بين الأصابع.

وأصبـح واضحاً من دقـاتنا المتتـالية المتشنجـة أننا في حـاجـة لاقتراب أكثر. لم تعد لغة الأيدي القاصرة قادرة على ترجمة ما يغلي داخلنـا من انفعالات. كـان لا بـد أن نتكلم! وللمسـاجين طـريقتهم الشهيـرة في التخاطب عبـر الجدران هي وضـع «كسـرولـة» الـطعـام الفـارغـة من نـاحيـة فتحتهـا على الحـائط وتقـريب الفم من قـاعهـا للتكلم. . أو الصـاق الأذن بـه لـلاستمـاع. ورحـت من خـلال «الكسرولة» أتحدث وأحاول الانصـات. . ولم أعجب حين بدا وكـأن لا صوت هناك. كنت أعرف أن الجدار سميك، وهكذا رحت بأعلى وأحد ما أستطيع أهمس محـاذراً أن يسمع الحـارس همسي، والوقت يمضي ومحـاولاتي لا تكف، وحنقي وضيقي قد بلغـا درجة أصبحت معها لا أحفل حتى أن يسمـع الحارس. كـانت تعاستي تكـاد تذهـب بعقلي وأنـا أرى نفسي لا يفصلني عن الأنثى التي استجـابت لـي وبدأت معها مغامرة العمـر الثالثـة إلا جدار عمـره ما وقف حـائلاً بين مسجـونين. . أقرب مـا تكون مني. . أبعـد ما تكـون عني، وأنـا بين النقيضين مشدود أتمزق غيظاً وألماً.

ولـم يكن لي من منقــذ إلا أن تحـدث معجـزة فيتفق وضعي

«للكسرولة» مع وضعها بحيث تلتقيان عند نفس النقطة من الحائط فيمر الكلام مباشرة من إنائها لإنائي. وكيف لي أن أعلم أنها هي الأخرى وصلت إلى نفس استنتاجي وبدأت تبحث عن مكاني مثلما بدأت أبحث عن مكانها. ويا له من مشهد ذلك الذي كان مقدراً أن يراه الرائي لو أتيح له أن يشاهد كلينا في نفس الوقت بحيث يتابع تلك اللعبة الخالدة الدائرة ربما منذ بدايات الخليقة، ذلك البحث الدائب عن ملتقى بين اثنين أقرب ما يكونان وأبعد ما يكونان، لا يفصلهما سوى بضعة سنتيمترات من حجر أو طبقة أو جنس أو لون.

أناديها بأعلى وأقوى ما أستطيع من همس:

ـ سامعاني؟

وتناديني دون أن أسمع لها صوتاً:

ـ أنت فين؟

وكلانا أعمى محموم بالرغبة، يتحسس بالغريزة وحدها والسليقة طريقه إلى الآخر، وأبداً أبداً لا يفقد الأمل. وكم بدت المهمة سهلة أول الأمر، إن هي إلا بضعة أمتار مربعة باستطاعتي أن أمسحها طولاً وعرضاً وحتماً سأنتهي بالعثور عليها. ويمضي الوقت بطيئاً، قاتل البطء، وتستحيل الأمتار القليلة إلى غابة مترامية الأطراف من المحال أن تلتقي برفيقك أو يلتقي بك بمجرد بحثك عنه وبحثه عنك.

ولكن، حتى بقانون الصدفة المحضة كان محتماً أن نلتقي فما بالك وثمة قانون مقدس أعلى كان يحكمنا في ذلك الوقت، قانون

الأنثى والـذكر. ولم أكن في تصـوري أطلب المستحيل وأعتقـد أني سـأستطيـع التحدث إليهـا عبر الإنـاءين بحيث تسمعني وأسمعهـا في وضـوح. كان يكفيني مجـرد أن أسمع صـوتها الأنثـوي. . مجـرد أن أستطيع تمييـز نطقهـا المخالف وأطمئن بـالدليـل المادي إلى أنني لا أحلم ولا أتصور ولا أبني انفعالاتي على وهم، وإنما هناك وراء هـذا الحائط أنثى حقيقية من دم ولحم. وحين حـدث اللقاء وبـدأت أذني المنتبهة أدق انتباه تلتقط ما يأتيني عبـر الحائط، كـدت أصاب بخيبـة الأمل، فقد جاء الصوت وكأنه ليس نافذاً من خلال الحائط وإنما كأن الحائط، أو ما هو أثقل بكثيـر من الحائط. كـأن جبلاً بـأكمله قد مـر على كلماته وحروفه فسحقهـا كما كـان القطار يسحق مـا نضعه فـوق قضيبـه من مسامير ونحن صغـار فيحيلهـا إلى رقـائق معـدنيـة كحـد المـوسى. لم تكن كلماتٌ أوحروف وإنما مسحـوق همس لا تستطيـع تمييز جمله، تهشمت ودكت بحيث استحالت إلى أصـوات متصلة أو متقـطعة، كـالأنين مرة وكـالصفير مـرة أخرى. . كسين طـويلة بـطول السطر أو كماثة دال متتابعة، وأيضاً لا تعرف حتى نوع الصـوت الآتية به فهو أحياناً غليظ كأصوات الـرجال وأحيـاناً دقيق رقيق كـأن مصدره عصفـور كناريـا. ولا بد أن صـوتي هو الآخـر كان يصلهـا على نفس الصورة. ولكن كما لم تستـطع الجدران أن تحـول بين قانـون الذكـر والأنثى وبين أن يأخذ مجراه فكذلك لم تقف اللغة المهشمة والهمس المسحـوق حائـلاً، بل مثلمـا أحلنا الجـدار الذي كـان مفـروضـاً أن يفصل بيننا إلى وسيلة اتصال، فكذلك أحلنا اللغـة المهشمة إلى أداة تفاهم.

وبالهمس المسحوق رحنا نتحدث، حديث المحبين الخجول المتعثر المفضي دائماً إلى الحديث عن النفس، والاعتراف، وكان كل منا قد وجد القلب الحنون الذي يهدهد على كلماته ويغفر أخطاءه ويجد المبرر لذنوبه وعثراته.

ومن همسها المسحوق راحت تتجسد لي، وكما يستطيعون في الطب الشرعي أن يعيدوا صنع الإنسان بأكمله إذا عثروا على أصبع من أصابعه مثلاً أو جزء من أعضائه، إذ لا بد لكل أصبع من اليد التي تناسبه، ولا بد لليد من الذراع والجسد والأقدام التي تناسبها، وكل أنف له الأذن والعين والوجه الخاص به. وهكذا يعيدون تركيب الإنسان ليصبح صورة طبق الأصل للضحية. واستطعت من همسها المسحوق أن أراها كاملة، وأقربها، وأضمها، وأعانقها، وتصل منابت شعرها إلى أنفي إذ هي أقل مني طولاً، وعيناها سوداوان غامقتا السواد، وعلى جانبي وجهها المستطيل ينهدل شعرها الأسود الناعم، ومن خلال جلباب السجن الأزرق ينفر ثدياها متباعدتين بلا «سوتيان» كثديي بكر، ولا بد بأزميل فنان صنع فخذيها فهما طويلتان ممتلئتان تتوجهما تلك الاستدارة الطرية الملساء الكاملة. اسمها حتماً فردوس وفي عروقها دم بدوي، وعلى ذقنها بالضبط فوق الغمازة وشم لا يتعدى ثلاث نقاط رمادية باهتة، وفمها ليس صغيراً كفم البنات ولكنه ممتلىء مقلوب الشفة العليا لا تملك لحافتها المشرعة إلى أعلى.. مقاومة، لها في السجن ثلاث سنوات، كان زوجها

يستخدمها في تهريب المخدرات وضبطت بالبضاعة في ديزل الاسكندرية.

وككل إنسان.. كثيرة هي المرات التي يخوض فيها تجربة الجسد مع النساء، حتى لو كان الجسد لحبيبة، ولكني ما حييت لن أنسى كيف استطاع الحديث بيننا أن يرتفع بدفئه درجات مقرباً ما بيننا، حتى بدأت أحس بأجسادنا تتلاصق وتتداخل صانعة البداية لأروع متعة ظفرت بها في حياتي. وأنا من خلال ذلك التيار الصوتي الدائر بيننا أحيل جسدي كله وذكورتي كلها إلى أصوات أنفثها عبر الوعاء الألومنيوم ويسحقها الحائط، ولكني أحس بها تغادره أكثر حدة والتهاباً تخترق وعاءها المعدني وجسدها وتصل إلى مكمن الحياة فيها. وبدوري أتلقف أنوثتها الذائبة في الصوت المطحون المبحوح القادم يئن عبر الحائط، أجذبه وأمتصه، وأجذبها هي نفسها وأمتصها حتى منديل رأسها، وبعنف أكبر تغيبني هي في نفسها حتى أظافر القدم.

ولم ننم ليلتها.

ولم أتحرك من زنزانتي طوال اليوم التالي ممدداً فوق «البرش» أجتر سعادتي، وأحس وأنا في أقبح مكان في الكون بجمال للعالم وطعم للدنيا لم يذقه بشر. أشعر أني أصبحت أقوى من سجني وسجانتي ومن سجنوني. كل لحظات الضعف واهتزاز الثقة راحت وتبخرت والرجل فيّ قد عاد للحياة تماماً فعاد للحياة سحرها

ومعناها. والرجل في حالة حب. . حب لم يذقه في كل ما سبق من قصصه، فقد كانت تجارب للصراع المحموم وكبح النفس والاحساس بالخجل وتأنيب الضمير. ولا أدرك أنه كان حباً إلا هناك حين ينتهي كل شيء وتعود الحياة إلى بلادتها. الآن ومنذ اللحظة الأولى أعترف وأستمتع وأعيش للحب وسعادتي الكبرى أن فردوس تحبني. قد تكون غير متعلمة أو مثقفة أو تجيد استعمال الماكياج وأخذ المواعيد من الترزي. قد لا تستطيع أن تدرك معنى أنني شاعر أو تفهم تماماً سبب سجني، ولكن حسبي أني رجلها وأنها أنثاي وأن كل ما حدث لي أو حدث لها قبل لقائنا وبالذات قبل ليلتنا الماضية كان سراباً وخداعاً، وأننا منذ الأمس فقط بدأنا لأول مرة في حياتنا نعيش.

وجاء المساء.

هذه المرة لا جنون ولا استعجال إنما هو الاطمئنان العظيم يغلف كل شيء، وبمثل ما كان للقلق والخوف والترقب من متعة، فللاطمئنان متعة أكبر وأشهى وأعمق.

قبل أن يحل «التمام» وجدت أني لا أستطيع الانتظار، وقررت ما دام الكلام مستحيلاً أن أكتفي بالإنصات لعلي أسمعها تكح أو تغني أو حتى تستعمل «الجردل». ودهشتي كانت أني سمعتها تتحدث. . عبر الحائط أتتني أصوات استطعت تمييزها وإدراك أنها لأكثر من شخص. وفي الحال أحسست بغصة حادة وكأنما حدثت

كارثة. إنها ليست بمفردها إذن، هناك مسجونات معها يتحدثن ويضحكن ولا بد أنهن ينمن بجوارها. وأحسست بالغصة تندك في أعماقي أكثر. مجرد أن يزاملها أحد حتى ولو كن نساء مسجونات متاحاً لهن منها ما ليس متاحاً لي.. نساء يستطعن أن يرينها رأي العين أو يعانقنها ولو أردن.. احتمال لا أستطيع قبوله، يخنقني ويلهب غيظي. وما يغضبني أكثر أنها بدورها تحادثهن، فلابد أنهن يحتللن من تفكيرها جزءاً، بأي حق تسمح لنفسها بهذا وانا بكل جزء من عقلي ونفسي وجسدي لها وحدها؟ بلغ غيظي مداه. وحين حل «التمام» ودققت، ومضت لحظة قبل أن ترد، لم أعد أستطيع الصبر وانهلت على الحائط لكماً وكأنما لتدرك أني إنما أوجه لها هي اللكمات.

ثم جلست في الركن البعيد غاضباً أنفس عن غيظي بإشعال نصف السيجارة من نصف السيجارة متجاهلاً تماماً دقاتها وهي تستحيل من العنف إلى الإلحاح، إلى السكون لحظة، إلى الغضب القصير إلى العودة مرة أخرى بلين ورقة، وكأنما ترجو وتلح في الرجاء.. رجاء لم أستطع معه المقاومة فعدت إلى الجدار أدق أنا الآخر دقات الصفح والصلح، ومن خلال الوعاء أهمس همس العتب، وتتعانق الهمسات وتتعانق أجسادنا خلال الهمسات، وأقبلها في فمها الكبير ذي الشفة المقلوبة إلى أعلى، أقبلها قبلة لا نفيق منها إلا على دقات تنهال على الحائط في احتجاج وكأن زميلاتها يطالبن باحترام وجودهن.

ولكننا رغم هذا لم نستطع أن نحترم ذلك الوجود، وفي حضورهن ورغم كل شيء قضينا ليلة غرام أخرى.

وعدت إلى نفسي ذات لحظة بعد الأيام القليلة التي تلت لأجد أنني لم أفعل شيئاً طوال تلك الأيام إلا التفكير فيها. لم يدر بعقلي خاطر واحد أو أحلم بشيء آخر خارج نطاقها ونطاق علاقتي بها. إنه الحب إذن بأكمل صوره. وإذا كان الحب في الخارج يستولي على المحب تماماً ويعزله عن الحياة وينفرد به، فما بالك وأنا هنا منعزل ومعزول ولا عمل لي سواه. إن الحدث الصغير التافه الذي قد لا يعلق بالذهن مطلقاً في الخارج.. حتى لو كان ذهن محب، يبدو هنا مهماً خطيراً لا بد من الوقوف عنده طويلاً والعودة إليه مراراً والتفكير فيه وربطه بغيره، والخروج باستنتاج بل باستنتاجات قد تؤدي إلى افتراضات ونتائج لا بد أن تؤدي بدورها إلى عودة للتفكير والتأمل.

وهكذا عرفت عنها ـ من تلقاء نفسي وتأملاتي لهمسها المسحوق ـ في أيام قليلة ما لم يكن باستطاعتي أن أعرفه في الخارج بمعاشرتها واحتكاكي المباشر بها في شهور. كل شيء عنها، بطفولتها بأجدادها وعرق البداوة فيها، بالأغاني التي كانت «تدندن» لها جدتها بها قبل أن تنام، بتفاصيل ما دار لها ليلة دخلتها، بالجهود التي بذلتها أمها كي تنزف دماء يسلم لها الشرف الرفيع ويزف على رؤوس الأشهاد.

وقد يستنكر البعض أن يحدث هذا كله دون أن نتبادل كلمة

سليمة واحدة وأن أستطيع أن أدرك كل هذا من خلال همس مسحوق. ولكن فليسأل المستنكر كل من أحب إن كان قد أخطأ مرة في تفسير مواء الحبيبة، أو إن كان قد عجز - أقل العجز - عن الإحاطة بكل ما يقوله أنينها مهما تشعب ما تقول. ما حاجة المحبين إلى لغة إذا كان الصوت وحده مهما كان مسحوقاً ومن خلال جدار يكفي؟

حتى فعل الزمن في الحب بدأت أستعذبه وأستمتع بحدث الغرام الهائل وقد تحول إلى عادة، وتحولنا من غريبين محبين إلى قريبين، بل ما هو أكثر من زوجين محبين. هذا الاحساس بأنها لي وبأني لها طول الوقت، بالأمس واليوم وغداً أيضاً ستكون لي. هذا الضيق الشديد بالساعات التي تباعد بيننا، هذا القلق المفزع للدقائق التي تفصلنا عن اللقاء، اليقين الذي أصبحت معه أستطيع أن أحدد دون بحث بالضبط أين ستضع وعاءها لأضع وعائي، وأين ستتحدث لأصغي، ومتى تنضج رغبتها للإصغاء كي أتحدث. هذا الهاتف الذي يوقظنا معاً لأدق دقة وتدق دقة، ونقول بهما: صباح الخير. أو بالضبط متى تبدأ تتثاءب لأقول بعدها: يالله ننام! تصبحي على خير!

غير أني وأنا أحيا أطوار الحب كلها وأنعم بها لم يخطر ببالي طور آخر ما أعددت له في نفسي أبداً وما تصورت إمكان وجوده أو حدوثه، فهو في الغالب كالعدو الغادر يداهم فجأة، ومن أول دقة دقفتها ولم يأتني الرد في الحال قال هاتف في نفسي: انتهت علاقتنا

إذن ولن أسمع عنها بعد الآن أو تسمع عني. حدث هذا مع أن تأخرها أو تأخري في الرد كان مسألة عادية تحدث في اليوم عدة مرات.

في الحال أيضاً أخرست الخاطر إذ اني أعرف ذلك الهاتف المتشائم أبداً. الرابض خلف كل انعطافة حدث يبشر بالفاجعة والنهاية. ولم تكن تلك أول مرة يجأر بهتافه، فمنذ قصتنا معاً وكلما واتته الفرصة هتف. ولكن علامات التفاؤل لا تلبث دائماً أن تظهر وتفحمه. هذه المرة مثلما خمنت لم تأت العلامات، وبينما علا عواء الهاتف سعيداً يتحقق فأله، بكل ما أملك من قدرة رحت أكافح وأستدعي إلى الذاكرة أسباباً وتعللات تبرر تأخر الرد، أو حتى غيابه كلية ليلتها لو حدث، ربما هي في التأديب.. ربما في المستشفى.. إن هي إلا ليلة أو على أسوأ الفروض ليلتان وتعود.

ولكنه كان تمسكاً بأهداب وهم أوهى من نسيج العنكبوت. كانت حقيقة قد ذهبت تماماً، هكذا أكدت الأيام والليالي الطويلة التالية. حتى حين ـ بعد أكثر من أسبوع ـ جاءني رد على دقي؛ أشحت عنه في اشمئزاز وضيق. فقد عرفت على الفور أنه ليس دقها، ليس لها، ليس صادراً عن يدها البيضاء الطويلة الأصابع ذات الشعر الميكروسكوبي الأصفر.

وفي كل مرة انتهت لي فيها قصة حب كنت ـ حين أتأكد من النهاية وبرغم اطباق المأساة ـ أحس بنوع من الراحة وكأن حملاً ثقيلاً

انـزاح عن كـاهلي. ولكن حتى ذلـك الشعـور لم يعتـريني أو يخفف عني، بل ليت ما اعتراني أخذ شكل الحزن القـاهر الـواضح الحـاد! إن هو إلا ذهول مستمر ذو نوبات.. فجأة تتـوقف اللقمة في حلقي، وأنـا ـ وكأنمـا لأول مرة ـ أدرك أن مـا حدث لن يعـود، وأني أبـداً لن أسمع مرة أخرى ذلك الحفيف الواهن الداق يأتيني صادراً تمـاماً عن القلب إذ أحس بـه تمامـاً في قلبي. انتهى وجـودنا معـاً، وأصبحت وحدي نصف شيء لا يصلح للبقاء، ألم مستمر متصل لا ينقـطع ولا يزول.

المؤلم أكثر أني كنت متأكداً أنه حتى ذلك الألم وتلك النوبات مصيرها إلى زوال. ومصيري إلى العودة إلى حيـاة السجن ذات اليوم المستمر الواحد، ولن أعود أنعم بالتذكر حتى لو جاء على هيئة غصة أو ألم.

المؤلم أني مستمـر.. والحيـاة مستمـرة، والكـون كله قـائم ومـوجود ومستمـر.. وما أبشـع أن يستمـر هـذا كله بغيـرهـا.. بغيـر وجودها وحديثها وروحها وظلها.

بعـد مـرور تلك الفتـرة من أيـام الحـدة الأولى، كـان شغلي الشـاغل هـو تلك الرغبـة العارمـة التي لم أكن أستطيـع مقاومتهـا.. الرغبة في الحديث عنها لإنسان.. لأي إنسان، وإن لـم يكن بـالذات عنها فعلى الأقل عنهن جميعاً، عن المسجونات النساء، أو حتى عن النساء بشكل عام.

وجاءت مرة فرصة حين انتهت النوبة وجاءت نوبة جديدة، وأصبح «الأومباشي عبد الفتاح» العصبي الرفيع ذو العصا حارساً لليل في الدور الذي أحتل إحدى زنازينه.

جاءت الفرصة لأني أعرف أن عبد الفتاح العصبي المتعجل في النهار غيره عبد الفتاج حارس الليل، حيث لا توجد عيون الشاويشية والضباط، وحيث لا عصا، وحيث يعود إلى طبيعته الصعيدية البسيطة ويصبح الطريق إلى قلبه كوب شاي مصنوع على السبرتو المهرب، والطريق إلى لسانه سيجارة بلمونت.

وعبر باب زنزانتي المصنوع من عمدان حديدية متينة وقفنا بعد العشاء ندردش ونتحدث، وبمهارة قدت الحديث إلى قصة اللومنجي الذي ثقب الحائط ضاحكاً، قائلاً إني أنا نفسي طالما فكرت أن أصنع مثله.. وشخشخ صدر عبد الفتاح وهو يضحك ويقول:

- بس المرة دي ح يطلع نقبك على شونة. أمّال.. على شونة.

وسألته: كيف؟

فقال:

- دول خلاص عزلوا. كل الحريم راح القناطر.. كله كله عزل.. كله.. كله.

ودق الخاطر في رأسي، إذن هذا هو السبب في رحيلها المفاجيء لا بد.

وقلت لأتأكد:

ـ أظنهم نقلوهم بقى من حوالي عشرة أيام كده؟

فعادت إليه العصبية وهو يقول:

ـ لالالا.. عشرة أيام إيه؟ أنت نايم حضرتك؟ دول من زمان.. زمان خالص.. من ثلاثة أشهر.. لالالا.. ييجى من أربعة أشهر!

وكدت أتوقف عن التنفس.

وكالتائه سألت:

ـ الله.. بس ده فيه ناس في «العنبر»؟

فقال:

ـ آه! فيه ناس أيوه.. بس دول تراحيل، مرة رجالة مرة ستات. تراحيل، يومين، أسبوع، أسبوعين وأنت وحظك.

وكدت أقهقه قهقهة من فقد العقل، وفي ألف ناحية جرى عقلي يفكر: أليس من الجائز رغم آلام الحب المروعة ألا تكون هناك فردوس بالمرة، بل من يدري؟ أليس من الجائز أن الهمس المسحوق كان همس رجل، ربما كان يعتقد أنه يخاطب به أنثى؟ أو ربما فعلها أو فعلتها للتسلية وكسر الملل في وقت طويل.. طويل متشابه؟

ليلتها، قبل أن أنام قلت لنفسي: أليس هذا أروع ختام لقصة ذلك الحب؟ إنه على الأقل سيعفيني من آلام النهاية ومرارتها.

غير أن الشيء المذهل الغريب.. الشيء الذي لم أتوقعه أبداً ولا يمكن أن يصدقه إنسان، حتى أنا نفسي لا أكاد أصدقه، أن الغصة ظلت تعتريني وظل الألم ممدوداً طويلاً يعكر طعم الحياة في نفسي، وظلت «فردوس» حية في خاطري أكثر حياة من كل من عرفت من النساء.

ما خفي أعظم

لم يكن أحد قد رأى وجه امرأته رأي العين. كانت إذا خرجت ترتدي فستاناً لامعاً أسود.. طويلاً إلى حد يجرجر خلفها على الأرض، وطرحة سوداء ملتفة حول الرأس والوجه ومن نسيج ضيق لا يظهر أبداً ما وراءه، وإذا خرجا سوياً لا يسير بجوارها إنما أمامها بمشوار يسير، وبعد أمتار كثيرة تجدها وراءه كظله الأسود الذي انفصل وتجسد ودبت فيه الحياة. ولكنها لم تكن تماماً كظله، فقد كانت سمينة تخينة مدكوكة وكأنها أربع نساء أدمجن معاً. وكان الشيخ «فقر» بعد فصله من الأزهر لرفعه الكرسي على أستاذه، وبعد صرمحته زمناً وإدمانه «للدومينو والكوتشينة» إلى آخر مليم ورثه عن أبيه، وبقائه في البلدة يقتات من النفحات حتى ضاق به الكرام قبل اللئام، قد أخذ في وجهه وصمم على أن يذهب للعمل في الاسكندرية. وقد ظل أسبوعاً يجمع في أجرة السفر، ثم ذهب ولكن أخباره لم تنقطع كلية عن مواطنيه.. بين كل حين وحين يفد إلى البلدة عنه خبر، مرة أنه عمل كاتباً في الميناء، ومرة فتح «كشكاً» للسجاير، ومرة ربح ورقة يانصيب بعشرين جنيها. ومضت سنوات وأخيراً فوجئوا به وقد عاد، ولكنه لم يكن وحده. لقد تزوج وجاءت

معه زوجته، وما كاد يهبط من المحطة وهي خلفه ويراها النـاس حتى كتموا الضحكات، فرغم لثامها الشامـل التام الـذي أحالهـا إلى شبح أسود، فاللثام والسواد لم يستطيعا أن يخفيا تخنها بل ربما أسهمـا في فضحـه أكثر. تخنـاً لم يره أحـد من قبل أو من بعـد. فنساء القـرية عجفاوات كعيدان القطن الجافة، وهذه «باسم الله ما شاء الله» ككيس القطن، أقصر منـه قليلاً إنمـا في تخنه بـل ربما أتخن.. ولا يـدري أحد سر هذا الأمر بتاتاً. فما يكاد الإنسـان يراهـا إلا ويتصور الشيـخ «فقـر» معهـا في فـراش واحـد، بعصبيتـه التي لا حـد لهـا، وعصـاه الغليـظة التي يسميها «الحكمـدار»، وغضبه الـذي ينشـأ كـالـظواهـر الكونية بلا سبب، وينفثىء كالظواهر أيضاً بلا سبب، ووجهه المملوء بحفر قديمة نصف مردومة من آثار هجوم جدري قـديم فاشـل، تنبت بينها شعرات ذقن قليلة متباعدة ولكنهـا كأشجـار السنط البريـة ناشـزة مسنونة. ومـا يكاد النـاظر يتصـورهما معـاً في فراش واحـد على هذا النحو. هي بتخنها وهو بحدته وعصبيته حتى يظل يضحك ربما إلى أن يصاب بالمغص. والشيخ «فقر» لم يكن طبعـاً اسمه الشيـخ «فقر» إنما كان اسمه الشيخ رابـح، وحتى لقب الشيخ كـان تجاوزاً فهـو لم يكن يرتدي عمامة، إنمـا كان يمنحـه الناس لـه أو بالأصـح يصر هـو على أن ينـادى به. وكـأنما إمعـاناً في انتصـاره على مدرسـه السـابق بالأزهر، ذلك الذي أكد له أنـه أبداً لن ينجـح في حياتـه أو يربـح أو يحمل لقب شيخ من هنا إلى يوم الدين.

وإذا كانت حياة الشيخ رابح معروف أمرها للناس جميعـاً، فقد كانت النساء هي عـلامة الاستفهـام الكبرى في حيـاته. إذ كـان دائماً

يذكرهن بحقد خفي غير معروف المصدر، وإذا مرت من أمامه امرأة نقرها ـ أول ما ينقرها ـ من نهاية سمانة ساقها عند اتصالها بالقدم، ثم يصدر عليها بكل قسوة وبلا تردد حكماً جائراً بأنها «. . . .» غير قابل لأي نقض أو تعديل. ولهذا كانت المفاجأة الكبرى أن يتزوج الشيخ «فقر»، ويتزوج من تلك الكتلة اللحمية الكيسية القطنية الاسكندرانية التي ما أفلح السواد أو اللثام المضروب بعناية حولها أن يخفي أنها امرأة. . وامرأة من نوع يصدر عليها أي إنسان حكمه دون حاجة إلى نظرة يلقيها على «سمانة الرجل» عند اتصالها بالقدم.

وكأنما كانت عودة الشيخ رابح وزوجته على هذه الصورة إيذاناً باندلاع حرب خفية بينه وبين بلدياته حول رؤية وجه امرأته، إذ كان يبدو وكأنما أصدر لها أوامر حازمة باترة مصحوبة بتلويحة مروعة من عصاه «الحكمدار» بأن معنى من يرى أحد ـ سواء كان رجلاً أم امرأة في الطريق ـ وجهها الهلاك المحتم لها، وإذا كان قد قدر لك أن ترى الشيخ «فقر» وهو يهدد وقد انقبض وجهه واحتقن واسود، وتدببت أشجار السنط في ذقنه وتقنفذت، والتقى الخطان العميقان في جبهته على هيئة عقدة دون حلها رابع المستحيل، لآثرت السلامة حتماً وفضلت أن تطيع أوامره. ولكن أوامره مهما بلغت من قسوتها فلم تكن لتحول بين الناس وبين رغبتهم التي تتزايد يوماً بعد يوم لرؤية وجه امرأته المخفي دائماً وراء الطرحة، ولا محاولاتهم المستميتة للعثور على ثغرة في النقاب، أو حتى لضبطها مرة واقفة في حوش منزلهم القديم الواسع أو فوق سطحه الآيل للسقوط، سافرة. ذلك

أمر لم يحدث أبداً، وبدا مصراً على عدم الحدوث إلى درجة أيأست الناس تماماً فسلموا أمرهم وحب استطلاعهم إلى الله ونفضوا أيديهم. أما الذي لم ييأس أبداً ومضى مصراً وبكل ما يملكه من تزمت فهو الشيخ رابح، ليس فقط على اخفاء وجه امرأته.. بل بعد هذا على اخفائها نفسها عن أعين الجميع وكأنها «بضاعة.. والناس جواعة».. بل على أن يمضي في هذا الطريق إلى آخر المدى. فالشيخ «فقر» رغم غضبه السريع والعنجهية التي تستبد به في أحيان، إلا أنه كان دائماً وأبداً قبل ذهابه إلى الاسكندرية إنساناً مرحاً ذا ضحكة وإن كانت أقبح ضحكة ممكن أن تسمعها إلا أنها دائمة الحدوث وبسبب وبلا أي سبب ودائماً تغري على الضحك، بحبوحاً لا تفوته النكتة، وإن فاتته انقلب على نفسه وفقره وحياته وأسرته الكبيرة يسخر منها ـ ويحتد في سخريته ـ حتى إنه هو الذي أطلق على نفسه الشيخ «فقر». ولكنه حين عاد بهذه الزوجة عاد إنساناً آخر، ضاق خلقه إلى أبعد مدى، وحول ضحكاته إلى نظرات نارية جادة يخوف بها القريب والبعيد، وكأنما كان يتصور أنه لو فرط لحظة واحدة في حديثه لاستهان الناس به ومن ثم بامرأته وكشفوا عنها النقاب والغطاء. كان بمثل ما يرهبها ويفرض عليها الحجاب فرض عزيز مقتدر يريد أن يرهب الآخرين ويفرض عليهم غض النظر حتى لو كان النظر إليه، وكأنما التحديق فيه مقدمة مستترة للتحديق فيها. أصحابه القدامى هجرهم ولم يعد يجلس إلا مع الكبار الوقورين ي الدم الثقيل، حتى هو نفسه أصبح «كقرد قطع» وحيداً صامتاً

معقود الجبهة لا يطيق الناس ـ من تلقاء أنفسهم ـ رؤيته.

إلى أن كان يوم لا يزال الرواة يتذاكرونه، فقد كان يوم شتاء والمطر قد أحال البلدة إلى برك وطين ومستنقعات، وكان الوقت منتصف الليل أو بعده بقليل، وكانت «طوبة» وبردها القارس. وكان صراخ إلى عنان السماء تصاعد في الليل من بيت الشيخ رابح، وظن الناس أول الأمر أنه يضربها، ولكنه أبداً ومنذ قدومه إلى البلدة لم يسمع أحد أنه ضربها، وما حاجته إلى الضرب إذا كانت سحنته تكفي؟ فقط حين طال الصراخ وتزايد، أدرك الناس أنها لا بد تلد. وكانت مفاجأة فأمر حملها كان كالسر لا يعرفه إلا أقرب المقربين من الجارات، فتخنها كان كفيلاً بأن يختفي في طياته عشرة أطفال دون أن يبدو لهم أثر. ولهذا كان طبيعياً جداً أن يكون معرفة الناس بالحمل ساعة الولادة معرفة لم تفعل إلا إطلاق الألسن المكتومة التي تتربص بالفرص للضحك وإشفاء الغليل. وهكذا ظل أناس كثيرون ساهرين يسمعون الصراخ ويتضاحكون تارة على عملية ولادتها نفسها، فداية القرية كانت مريضة، والمرأة غريبة لا أم لها ولا قريبة، والشيخ رابح رأسه وألف سيف إلا أن تلد في بيتها وبمساعدة «أم الخير» الجارة العجوز. مضى بنفسه يشرف على عملية الولادة مزمجراً في كل من تحدثها نفسها من النساء بأن تقترب أو تدق الباب عارضة المساعدة، خالعاً جلبابه، باقياً في عز «طوبة»، بالفانلة والسروال الطويل يتفصد العرق الغزير من وجهه وكل مكان في جسده، مشغولاً مشغولية عظمى وكأنه يشرف بمفرده على معركة حربية ليس لها نظير. وتارة

تنطلق الألسن منددة ـ قبل مجيئه ـ بالجنين المقبل، معترضة أن الحمل لم يحدث من الشيخ رابح وإنما تم على أثر وصفة اشترتها المرأة من قرداتي تحتوي على نطفة قرد، فليس من المعقول أن يخلف الشيخ رابح وقد بلغ من العمر أرذله! وما يبدو مستحيلاً أكثر أن تخلف هي! وتارة تركن الألسن إلى قليل من الجد وتتساءل عن أخبار عملية الولادة، تلك التي طالت على غير العادة حتى أصبحت صرخات الاسكندرانية تتلاحق وتشق كالسكين الحامية سكون الليل. مسألة لا بد أنها كانت تدفع الشيخ رابح إلى ما يقرب من الجنون، فإذا كان يرى في وجه امرأته عورة فلا بد أن صوتها لديه عورة أخطر، وتصاعده في الليل على هذه الصورة جريمة أكثر، فلا بد أن القاصي والداني الآن يسمعه، وكيف يمكن أن يقبل الشيخ رابح أن تتسمع الآذان.. آذان كل من هب ودب صوت امرأته ذلك الحرم المقدس الخاص به وحده، الذي لا يصح أن تتسمعه آذان أحد سواه. لو كان الود وده لخنقها حتى يسكتها، أو للف في القرية يسد آذان أهلها بالطين.

المهم أنه. قرابة الفجر، روعت القرية حقيقة حين انفتح باب الشيخ رابح بقوة وخرج منه الرجل حاسر الرأس بالفانلة والسروال، يتصبب عرقاً ويجري كالمجنون يدق أبواب الجيران طالباً الغوث والعون، باكياً ـ هذا الجبار ـ مستحلفاً طين الأرض ـ إذ كان طوبها كله قد تحول إلى طين ـ طالباً من الجميع مساعدته، فالجنين قد خرج نصفه وانحشر نصفه الأعلى لا يريد الخروج، وأمنية حياته

الكبرى ـ تلك التي أخفاها عن الجميع إلى تلك اللحظة . كانت أن يخلف ولداً، والجنين ولد رآه بنفسه وتأكد منه ولكنه محشور، ولا بد ما لم تتداركه العناية أنه مخنوق ومقتول. . وأنا في عرضكم يا ناس، في عرض الصغير فيكم قبل الكبير، والحافي قبل اللابس، انقذوا الولد وساعيش عمري عبدكم الذليل.

يـاالله! . . لم يصدق أحد عينيه أبداً ولا أذنيه، فلا يمكن أن يكون المتذلل الباكي هذا هو نفسه الشيخ رابح صاحب «الحكمدار» والنظرات المقطرة سماً، مستحيل أن يكون. ولكنها دهشة لم تدم طويلاً فسرعان ما اختفى الاستغراب وكتمت الضحكات لتحل محلها الشهامة المعتادة.

وكانت المشكلة أنه لا بد من نقل الوالدة فوراً إلى المستشفى، وطلب الاسعاف وانتظاره مسألة لا يمكن أن يفكر فيها عاقل بالمرة. أي اسعاف هذا سيأتي في الفجر والأرض موحلة؟ . . إنه في أثناء النهار وفي الطرق المرصوفة نفسها لا يأتي إلا بعد ساعات، فما بالك في ليلة كهذه وفي ظرف كهذا. . الدقيقة فيه ـ كل دقيقة ـ لها ثمنها الفادح؟ وبينما الشيخ رابح قد تهاوى إلى جوار الحائط غير عابىء بالوحل والطين، تاركاً أمر التصرف في الموقف لأولاد الحلال الذين تجمعوا بالعشرات والمئات داخل بيته وخارجه، كا الناس قد قرروا أن يتولوا بأنفسهم نقل الوالدة إلى المستشفى، وبدلاً من النقالة قرروا أن يستعينوا بسلم يضعون عليه مرتبة ويرقدونها فوقه، ويحملونها ـ جرى من جرى ـ إلى المستشفى الذي لا يبعد عن البلدة

إلا بكيلو مترين، وانتشرت موجة الشهامة وعمت القرية كلها حتى استيقظت عن بكرة أبيها. فالقرية ليس فيها إلا شيخ رابح واحد، ورغم كل شيء فالشيخ قضى عمره كله يسلي بغضبه الناس ويضحكهم، ومن المحال أن يتخلوا عنه في ورطة كهذه. أكثر من «كلوب» أشعل وجيء به إلى البيت والساحة التي أمامه، وفتشت القرية كلها .بحثاً عن سلم متين ورجال أقوياء، فالحمل الذي سيحمل حمل غير عادي، والسرعة المطلوبة سرعة غير عادية أيضاً. وأخيراً تم في دقائق قليلة اعداد كل شيء، وبقي أصعب شيء. فالوالدة جاءها المخاض وهي نائمة في «المقعد» فوق السلم، والسلم المؤدي إلى السطح سلم عادي كالسلم الذي ستحمل عليه، ولابد لكي تهبط سليمة من حملها في وضع أفقي، وانزالها على هذه الصورة سلمة سلمة وبحرص شديد.. والدنيا وحل، والأقدام والسلالم زلقة، وهي تخينة سمينة في ثقل حجر الطاحونة وربما أثقل، ومشاكل كثيرة وعويصة هندسية وميكانيكية وعضلية كان عليهم أن يحلوها قبل أن تهبط حرم الشيخ رابح إلى الأرض سالمة. أما الشيخ رابح نفسه فما كادت اجراءات الحمل تبدأ حتى انتفض من انهياره واقفاً وليس أمامه سوى مشكلة واحدة قاهرة ملحة أن يفرد فوق امرأته الملاءة السوداء التي أحضروها من بيت العمدة، بحيث تغطيها تماماً، وبحيث تحدث عملية الهبوط كلها والحمل إلى المستشفى دون أن يبدو من جيدها قلامة ظفر. وفعلاً كان الرجال جميعاً مشغولين بحملها بالمرتبة التي ترقد عليها ووضعها فوق السلم ثم

حمل السلم والهبوط بـه من فوق السلالم الناقصة أكثر من سلمة، وكان هو مشغولاً تماماً بضبط الملاءة فوق كل بقعة من جسدها. ولقد نجح في هذا إلى أن وصل جسدها المحمول إلى رأس السلم حيث بدأ الارتباك الأعظم، فالحمل ثقيل جداً والأقدام تتزحلق، والمسافات بين خشب السلم متباعدة، ولولا لطف الله لكانت قد تهاوت بمن حملوها أكثر من مرة، وصرخاتها أقوى من صفارات قطار أي بضاعة أو اكسبريس تنطلق بمعدل عشر مرات في الدقيقة، وتولول مستغيثة مربكة حامليها. وبمحاولاته المستميتة لتغطيتها كاد يؤدي الشيخ رابح إلى سقوطها أكثر من مرة، حتى بدا واضحاً استحالة أن تهبط مغطاة، أو على الأقل وثمة أحد ـ حتى لو كان زوجها ـ يمسك بأطراف الملاءة، ولم يكن أمامه إلا أن يستسلم في النهاية ويفرد عليها الملاءة، تاركاً أمر بقائها أو انحسارها للحظ والقدر. وكان أهل البلدة في الحوش يتطلعون بقلق إلى محاولات الانزال، ويرى كل منهم في المشهد عشرات التفاصيل التي تضحك وتميت من الضحك فينجح في كتم بعضها وفي أغلب الأحوال يفشل. وعلى أضواء خمسة «كلوبات» من كل الماركات قوية مسلطة على السلم المستعمل كنقالة وسلم الهبوط بحيث تحيل البقعة إلى ما يشبه المسرح المضاء بشدة، وتحت وقع الرذاذ الخفيف الذي بدأ يتساقط منذراً بقرب عروق مطر سخية ـ بدأت عملية الانزال.. أو بالأصح الارتباك المهول في الانزال، والأوامر الكثيرة التي يصدرها الجميع إلى الجميع، وصرخات الاستغاثة، وآهات الألم حين ينزلق

أصبع أو يدوس أحد على قدم أحد، والهرولة تكثر، والسلم المهدد الذي حفل بعشرات المتسابقين إلى حمل السلم الآخر وابقائه أفقياً، وعشرات الأيدي تمتد لتحفظ الوالدة فوق محفتها، والملاءة لم تنزلق فقط عن جزء من جسدها ولكنها سقطت تماماً من فوقها ولاكتها الأرجل والأقدام في الطين.. بحيث ان الشيخ رابح ذلك الذي كان خوفه الأكبر أن يرى أحد وجه امرأته، قدر له أن يرى بنفسه الناس ـ مئات الناس ـ كل أهل القرية وهم يشاهدون، ليس وجهها المكشوف أو ذراعها أو جزءاً من ساقها، وإنما جسدها كله بكل ما هو ظاهر فيه أو مستتر، وبالجنين يطل منه، والأضواء قوية مسلطة تتيح للأعمى نفسه أن يرى ما شاء لأي وقت يشاء، فالمسرح بلا ستارة، والزوجة بلا غطاء ليس فقط كما ولدتها أمها ولكنها عارية عري أمها نفسها وهي تلدها، والأعين كلها مجبرة على تصويب نظراتها لكي يمكن انزال المرأة وانقاذها، والغريب أن هذا كله حين وقع لم يكن يحتل من تفكسر الشيخ رابح واهتمامه إلا أقل القليل. فجزعه الحقيقي كان خوفاً من أن يموت الجنين، وجزعه الثاني من أن تموت الوالدة. جزع كاد يذهب بعقله، جزع كان يدفعه لأن يصرخ بأعلى صوته في الرجال طالباً من هذا أن يمسكها من فخذها حتى لا تسقط، ومن الآخر أن يحتضنها من أعلى حتى لا تتهاوى، ومن ثالث أن يمد يده بين فخذيها ليباعد بينهما حتى لا تهشما الجنين بضغطهما. مرة واحدة فقط أفاق ورمق الجمع الحاشد الذي تنصب نظراته كلها على جسد زوجته، فأحس بالأرض تميد به..

ولكنه في الحال طرد الخاطر. فمن أعمق أعماق نفسه كانت تتصاعد خواطر أكثر قوة وحدة، وأمان كثيرة غير محددة، فهو مستعد والله أن يحدث ما هو أكثر، بشرط أن تكون النتيجة أن ينقذ المولود وتنقذ الوالدة.

وبين عشرات الأشياء التي كانت تدفع الرجال ليسقطوا من أطوالهم ضحكاً، وعشرات الأشياء التي كانت تتطلب منهم العزم والقوة والجدية، وعشرات المربكات والمثبطات والمشجعات، والوحل والمستنقعات والمطر الشديد الذي بدأ يهطل. . من خضم هذا كله هبطت الوالدة وكأنما بمعجزة إلى الأرض، وانطلق بها الموكب الجاري الحافل إلى المستشفى، عشرة يتكاتفون في حمل السلم يسقط منهم تعباً وانهاكاً من يسقط، ويتهاوى من يتهاوى. . ويلعن في سره بأعلى صوته الليلة والشيخ والوالدة والمولود من يلعن، إذ كانوا وكأنما يحملون جاموسة سمينة ومعلوفة أصابها (عرق الأنس) وليس امرأة مثل غيرها من النساء.

ولكن الموكب وصل والطبيب جيء به من حيث يقطن، والعملية أجريت، وحين صدر عن الولد أول صراخ. . بنفسه زغرد الشيخ رابح، وطبلوا له ورقص، وارتفعت من صدر طال عليه الإغلاق قهقهات عمرها أعوام وأعوام.

وحين عادت الزوجة إلى البلدة لم يكن قد تبقى للشيخ «فقر» ما يخفيه عن الناس وقد رأوا جميعاً ما رأوا. ودون حاجة إلى أوامر أو

القـاء تعاليم أو تهـديدات أصبحت الاسكنـدرانية تمشي في طـرقـات البلدة وشوارعها بوجه سافر مكشوف، وأصبح الشيخ «فقر» لا يسبقهـا أو يتخلف عنها إنما إلى جـوارها تمـاماً يمشي. كـل ما في الأمـر أن أحداً لم تواته الجرأة يوماً على التطلع في وجهها ـ ليس تعففاً أو تأدباً وإنمـا خجلاً ـ إذ ليتهـا ظلت مستترة خلف اللثـام والطرحـة والنقاب، ذالناظر إليهما معاً كان يفضل دائماً أن ينظر إلى وجه الشيـخ رابح ذي الحفر القديمة نصف المردومة، واللحية النابتة كالسنط. . فالنظر إلى وجه كوجهه كان ـ والله ـ أرحم.

المرتبة المقعّرة

في ليلة «الدخلة» و«المرتبة» جديدة وعالية ومنفوشة، رقد فوقها بجسده الفارع الضخم، واستراح إلى نعومتها وفخامتها، وقال لزوجته التي كانت واقفة إذ ذاك بجوار النافذة:

ـ انظري . . هل تغيرت الدنيا؟

ونظرت الزوجة من النافذة ثم قالت:

ـ لا . . لم تتغير.

ـ فلأنم يوماً إذن.

ونام أسبوعاً، وحين صحا كان جسده قد غور قليلاً في المرتبة.

فرمق زوجته وقال:

ـ انظري . . هل تغيرت الدنيا؟

فنظرت الزوجة من النافذة ثم قالت:

ـ لا . . لم تتغير.

ـ فلأنم أسبوعاً إذن.

ونام عاماً، وحين صحا كانت الحفرة التي حفرها جسده في المرتبة قد عمقت أكثر، فقال لزوجته:

ـ انظري . . هل تغيرت الدنيا؟

فنظرت الزوجة من النافذة ثم قالت:

ـ لا . . لم تتغير.

ـ فلأنم شهراً إذن.

ونام خمس سنوات، وحين صحا كان جسده قد غور في المرتبة أكثر، وقال كالعادة لزوجته:

ـ انظري . . هل تغيرت الدنيا؟

فنظرت الزوجة من النافذة ثم قالت:

ـ لا . . لم تتغير.

ـ فلأنم عاماً إذن.

ونام عشرة أعوام، كانت المرتبة قد صنعت لجسده أخدوداً عميقاً، وكان قد مات وسحبوا الملاءة فوقه فاستوى سطحها بلا أي انبعاج، وحملوه بالمرتبة التي تحولت إلى لحد وألقوه من النافذة إلى أرض الشارع الصلبة.

حينذاك وبعد أن شاهدت سقوط المرتبة اللحد حتى مستقرها الأخير، نظرت الزوجة من النافذة وأدارت بصرها في الفضاء وقالت:

ـ يا إلهي! لقد تغيرت الدنيا.

معجزة العصر

قال لي صديقي الذي لم أره من عشر سنوات، والذي كان مقدراً أن أنقذه:

هذه المرة، هل رأيت معجزة العصر؟

بلا دهشة سألته: أية معجزة؟

لم يجب.. ولم نضيع الوقت في التخمين وكأن اتفاقاً بيننا. لف ذراعه حول ذراعي وجذبني وتبعته صامتاً. حاولت أن أعرف إن كانت المعجزة هي الوصول إلى القمر، أو ظهور المهدي المنتظر، فكاد يغلق فمه تساؤلاً.. قائلاً:

ـ لا تخمن فلن تستطيع أبداً ادراكها، ولو عرفتها من تلقاء نفسك لكانت معجزة العصر أنك عرفتها.

وبحماس جذبني بقوة أكبر، وبعد خطوات كنا على البلاج. كانت الدنيا شتاء والشمس صفراء تسقط شعاعاتها المريضة على الرمل فيبدو مجرد لون أنيمي شاحب.. جو تتوقع أن يكون البلاج معه فارغاً غير أنك تفاجأ به عامراً مزدحماً وكأننا في أغسطس. الناس مكدسون على الرمال بالأكوام، والباعة ينادون على جيلاتي طوبة..

وسحلب بثونة بـدندرمـة أغسطس. ولـو أغلقت العين لحسبته مجـرد خطأ في ورقة النتيجة، فأصـوات الصيف هي هي، وصخب الأطفال هو هو، حتى ذلك الاحساس الخاص بالصيف. . ذلـك الذي تحس وكأن الحياة بـه أكثر حـلاوة كان مـوجوداً. . إذا غضب الله على قـوم أمطرهم صيفاً، فمـاذا يكون مـوقفه تجـاههم إذا جعلهم يصيفون في الشتاء؟ من الممتع أن تشحذ عواطفنا مشاكل الظواهر الكونية، فحين أسخط على الدنيا تهطل الأمطار، وحين أحظى برضاء حبيبي تشقشق في الكون ملايين من عصافير الكناريا، وإذا كرهت جاري أطبق على المـدينة ضبـاب حتى لا تكاد تـرى ـ وأنت واقف على بـابـك ـ بـاب جـارك. والجار أولى بـالشفعة، إلا جـاري الـذي لم أره من يـوم أن قطنت عمارتنا. . فكلانا وحيد، وكلانا في المدينة المزدحمة قـد فقد الونس حتى أصبح الازدحـام مجرد حبـل معقود يهـدد احتواء رقبتـك فـأنت مرعـوب منه، وخـائف حتى النخـاع. نفس الاحسـاس الـذي شعرت به وازدحـام البلاج يحـويني، كتل من اللحم البشـري مقسمة إلى أذرع مختلطة وسيقان. ويا لمشهد الجسد البشري بعد العشـرين حين يكتنز بالشحم وتبرز له الكروش ويبدأ التفكير في صبغ الشعر أو توزيعه ليغطي الصلعة! حتى الجسد يهجرك ويهرب منك. وفي هـذه الوحدة المزدوجة لا بد أن يهزم الإنسان سريعاً، فنحن كائنات أرضية لا تنمو بصحة إلا معاً، إلا كمحصول واحد، فإذا مـا زرع كل نبـات منا بمفرده أكله «الفلت» وخنقته الطفيليات.

أتكـون المعجزة هي الحصـول على دواء يشفي الغربـة ويعيـد

جمع الناس؟ باء تخميني أيضاً بالفشل، وفقدت عين الحكمة مع أن الحكمة ثرثرة، لابد حسب قوانين التباديل والتوافيق أن ينتظم بعضها على هيئة أقوال رائعة النضج. ولكني سعيد وكأن مجرد رؤيتي الموشكة للمعجزة سيسلحني بطاقية اخفاء أو بخاتم سليمان قادر على تحقيق المطالب. الغريب أن الزحام لم يكن ازدحاماً للتجمع، كان تجمعات للتفرق، فكل مجموعة مكدسة بكليتها إلى شيء مشترك يخصها وحدها، أو ربما تبحث لنفسها هي الأخرى مثلما نبحث عن معجزة عصر، فأنت تقبل على تجمع يشبه من بعيد شكل الكازينو الذي أقيم على عجل،ولكنك حين تقترب لا تجد كازينو أو حتى مكاناً للجلوس. فالناس إما وقوف منحنون أو في حالة رقاد، والكل في شغل عنك بما يبدو وكأنه مأساة داخلية طاحنة. لا أحد يلتفت إليك، الأيدي تلوح في عصبية، والنقاش حاد كطلقات الرصاص.. وبعضهم بمجهود عظيم يضع يديه الاثنتين معاً على فمه محاولاً أن يكتم الضحك فلا يستطيع، وتكون النتيجة أن تفلت الضحكة رغماً عنه. حسبت الصديق يضحك، ولكنه كان يتوقف ويتطلع حوله ثم يحاول أن يخفي نفاد صبره، والعرق رغم الهواء الساقع قد نبت على جبينه، والحيرة الكبرى تتملكه، ويأسه شامل، يكاد لولا الحياء أن يستنجد بالناس ويسألهم أين الطريق لمعجزة العصر!

حسبته يضحك ولكنه كان.. فجأة يلكزني ويشير إلى كازينو قريب قائلاً وقد تهللت ملامحه وكاد يقفز منها الأمل: وصلنا.

ولم تكن فرحتي هذه المرة لأننا نوشك أن نصل، فرحتي كانت

لأننا نوشك أن نصل إلى كازينو حيث نستطيع الجلوس وشرب الماء المثلج والشاي بعد هذا الكدح الطويل من الشاطبي إلى سيدي بشر والمنتزه.

ولكن ما أبشع ما خاب أملي حين لم ينكشف الكازينو إلا عن ازدحام آخر، واحد من عشرات الازدحامات التي كان يحفل بها البلاج! نظرت بحدة إلى الصديق وإلى عينيه اللتين كانتا قد احمرتا تعباً، أو من يدري؟.. ربما غيظاً، وربما لهذا انطبقت شفتاه في حدة راسمتين في خطوط قاطعة شكل فمه.

أين رأيت ملامح كهذه مرسومة بحدة كتلك الحدة يا ربي؟.. أين؟ والهمهمة الصادرة عن هذا الازدحام نفس هذه الهمهمة وثيقة بنفس الملامح. وأيضاً بشيء يشبه المعجزة، أين ومتى حدث لي هذا يا ربي؟ لا أعرف، هذه اللحظة عشتها قبلاً، بالتأكيد حدث هذا. ولا بد أنه ذلك الشعور الذي دأب على زيارتي في الفترة الأخيرة.. الشعور بأن الكون يكاد ينتهي، والصمت المطبق بدأ يحل.. صمت سيمتد إلى آلاف وملايين السنين المقبلة، آخر علامات الحياة تختنق، الحركة الهائلة التي حفل بها الكون طوال وجود الإنسان قد انقرضت، وسيعود السكون الأبدي ولا يبقى إلا الشمس والقمر، والليل والنهار، والريح والرمال. الأجساد متراصة موزعة مختلطة لا تكاد تستطيع تمييز ساق الرجل من ساق المرأة، تبدو في أحيان كثيرة خالية من الشعر، والجميع كأنهم يبحثون عن ابرة سقطت في قلب الرمل، ليسوا منحنين فقط ولكنهم ممددون تماماً وقد استندوا بأذرعتهم إلى الأرض، وانكفئوا على الرمال عيونهم

تكاد تخرج من محاجرها بحثاً عن شيء لابد أنه مخبأ بطريقة ما في الرمل.

الأطراف كثيرة، كل حركة منها تثير ثائرة الرمل فيملأ العيون ويسد الأنوف، وتتصاعد صرخات الاحتجاج لأن شخصاً وقف أو سار أو تحرك، وأثار بحركته زوبعة صغيرة في ساكن الرمال. المعجزة.. معجزة العصر.. الشيء الصغير الكائن والموجود في حياتنا منذ وجودها الأول، إنما لكونه صغيراً فالجميع يعبرون به دون أن يحسوا له بأي انفعال أو احتفال، أقدامهم تدميه أو تصطدم به دون أن تشعر أو تحس أنها صدمت شيئاً أو تعثرت بشيء، والشيء دائم الصراخ والعويل، إنه كائن وموجود، دائم الرجاء أن يحظى منها بالتفاتة، أن يتلقى إشارة واحدة من طفل أبله تفيد أنه رآه أو سمعه أو أحس به بلا فائدة. الناس انغماسهم في مشاكلهم أقوى وأكبر من أن يدعهم ولو للحظة يفيقون إلى ما حولهم ويتأملونه بنظرة خالي البال. إننا لم نعد أحراراً في رؤيتنا. أصبحت أنظارنا قصيرة موجهة إلى ما تعرفه أو إلى ما تود معرفته.. أي اننا لم نعد نرى ما ينعكس من داخلنا إلا ما يعكس اهتماماتنا وتفكيرنا وأحلامنا، فقدنا تلك القدرة البكر على تلقي ما هو خارج النفس كما هو، بروعته وتلقائيته وعمقه وبساطته والانفعال له أو عليه، وبناء آرائنا ومعتقداتنا من خلاله، لا نرى إلا لكي نثبت أو نبرهن به أننا على صواب، ولكن في العادة دائماً ما يحدث شيء.. حدث يعرض مصادفة.. شيء لابد رغم إرادتنا يرغمنا على أن نلوي أعناقنا وننظر فنفاجأ أننا أمام حدث خارق

للعادة، أننا أمام شيء وإن يكن صغيراً إلا أنه بالغ الدلالة، وحينئذ تفلت من أحدنا صرخة الإدراك الأولى ومعها تجر الانتباهات إلى انتباهات ليصبح ذلك الشيء بعد يوم وليلة محور اهتمامنا الأول ونكتشف وندرك كم نحن بحاجة إليه، وكم كانت تفتقده حياتنا، وكم هو لازم حيوي لها. ونندفع حينئذ اندفاع من فقدوا العقول نهتم به اهتماماً مبالغاً فيه، ويصبح أمل الإنسان منا أن يحظى منه بنظرة، أو نراه رأى العين. هل أصبتم بخيبة أمل؟ أنا نفسي حدث لي ما حدث لكم، ولدى الإدراكة الأولى كدت أهيم على وجهي يائساً خائب الأمل. لنحاول إذن ألا نخطىء خطأنا الشهير الأول. . الشيء خارج ذواتنا، الشيء لا كما نريده وإنما كما هو موجود وقائم وكما كان يمضي الناس عنه غير مهتمين أو مدركين. إنه ليس حشرة غريبة أو قطعة من معدن نادر. كان في الحقيقة بشراً مثلي ومثلك له أذنان وعينان وأنف وفم وأسنان ولد بها جميعاً والمفروض أنه لا يزال إلى لحظتنا هذه يمتلكها. أنا لا أهزل أو أقول غير الحق، فآلاف المواليد تخرج كل عام على هيئة مواليد شاذة، بعضها ملتصق ببعض في أحيان، وأحياناً بطن واحد بصدرين ورأسين من أعلى، ومن أسفل بحوضين وأربع سيقان وأرجل. . كل الاختلاف أن الشيء في حالتنا هذه كان جنيناً صغير الحجم، وهذا كل ما هنالك. . لا. . لم يكن في حجم كرة القدم ولا حتى في حجم البرتقالة، إن شئتم الدقة كان في حجم نصف عقلة الأصبع، ومع هذا فهو كامل الأعضاء متناسبها باستطاعته أن يصرخ ويرقص ويرضع، كل ما هنالك أنه يصرخ

بصوت لا تستطيع سماعه. عليك لكي تسمعه أن تقربه كثيراً من أذنك، وحبذاً لو وضعته كله داخل أذنك لكي تسمع صراخه أوضح ما يكون، صراخ عصبي متشنج يحاول النص نص «هكذا سوف نسميه» أن يفرض إرادته علينا وعلى الحياة. كان صغيراً إلى درجة أن أمه لم تلحظ أنها ولدته، انزلق منها مع الماء الذي كان يملأ الرحم دون أن تحس به. وحسبته الداية قطعة من المشيمة ولكنها حين تناولته وتأملته صرخت صرخة أرعبت سكان المنزل جميعاً ولم تسقط فاقدة النطق وإنما إلى الأبد فقدت النطق.

* * *

وما أتعس الأم! كانت قد حملت به بعد أربعة عشر عاماً من العقم. وطوال حمله كادت تجن وهي تصلي إلى الله أن يجعله ولداً يقر به عين أبيه. وعلى هذا لم تجرؤ على اطلاعه عما أتت به وزعمت له أن الحمل كان كاذباً. . وبعد أن كانت قد قررت أن تلقي بالجنين مع الماء القذر صعب عليها الضنى وأخفته تحت الوسادة، وبالحقنة الرفيعة كانت تستطيع العثور على فمه وتغذيته. . وضبطها الزوج ذات يوم وهي ترضعه، وانهارت واعترفت، وبعد أن ثاب الأب إلى رشده وأيقن أن الخطأ ـ إن كان هناك خطأ ـ ليس منه أو منها وأنه يجب أن يرضى بما قسمه الله، رضي وسكن. تلك كانت ظروف ولادته. . أما كيف تربى وتعلم؟ فتلك قصة أخرى. فلقد سمع الأب ذات يوم أن السلطان يهوى جمع التحف النادرة، وأنه يدفع مكافأة

سخية لكل من يحضر له تحفة أصيلة ما امتلكها أحد قبله.

ولم يكن في قلب الرجل «للنص نص» حب أي حب، فحب الابن مسألة يتعلمها الوالد ويكتسبها مثلما يتعلم الولد المشي أو النطق. وكما يعلم الأب ابنه كيف ينطق فالابن يعلم أباه كيف يحبه. فكيف يستطيع «النص نص» أن يعلم أباه، وأبوه يحتاج إلى عدسة كي يرى وجهه أو يعرف بطنه من رأسه؟ الأم وحدها هي التي كانت تحبه، ولهذا كان على الأب أن يساهيها ويأخذه وأن ينفق جزءاً من المبلغ الذي أعطاه له السلطان في شراء ملابس لها ومصاغ. أما السلطان الذي كان يعاني من الفراغ الممتد في حياته وأمور بلاده يسيرها وزيره ورعيته هادئة سلسة، فقد وجد في «النص نص» غايته ومبتغاه والشيء الذي يستطيع أن يكرس له كل نفسه ووقته ويجد في هذا كل المتعة.

كان عليه أن يعلمه كيف يتكلم وينطق، ثم بعد هذا كيف يقرأ ويكتب واعتبر أنه لو حقق هذا لأصبح يمتلك تحفة معجزة يستطيع أن يفرج عليها خلانه وأصدقاءه، وأن يمنحهم ويمنح نفسه بهذا متعة دونها أي متعة أخرى.

كل خوفه كان أن يكبر «النص نص» بمضي الزمن ويصبح عند البلوغ مثلاً أو إذا أصبح رجلاً مجرد قزم ضئيل الحجم. ربما يكون أقصر الأقزام وأقلهم حجماً، ولكنه حتماً سيفقد أهم ميزاته. غير أن «النص نص» كفاه مئونة القلق، فلم يكن ينمو مع الأيام أو يزداد

حجمه أو حتى تتغير ملامحه، بل إنه حين قارب سن الرجولة لم يحدث له أدنى تغيير سوى أن لحية نبتت له فجأة، لحية فيها بالضبط عشر شعرات ما كان أسعد السلطان وهو يحلقها له بنفسه، أو وهو يجتث منها خمس شعرات ويترك خمساً لتنمو وتكون ذقناً بديعة صغيرة كذقون العلماء.

وتعلم «النص نص» النطق فأصبح يحسن استخدام الجهاز الترانزستور الذي كان يضخم صوته ويجعله مسموعاً، وفي نفس الوقت يقوم بمهمة الأذن له بحيث يخفف من موجات الصوت ويهذبها كي تصل إلى أذنه الدقيقة وتصبح في متناول سمعه.

بهذا الاتصال الذي تم مع «النص نص» أمكن للسلطان أن يعلمه القراءة والكتابة وأن يبدأ معه سلم المعرفة الطويل. وفيما عدا ساعتين كان يقضيهما «النص نص» في تناول الافطار والتريض رياضة عنيفة، يسير في أثنائهما فوق المسطرة القدم من أولها إلى آخرها ويقطعها في رقم قياسي لا يتعدى نصف ساعة، أو يزاول العوم لمدة ساعة وأكثر في كوب الماء، ويستطيع أن يدور حول محيطه ثلاث مرات وأحياناً أربع مرات.

فيما عدا هذا كان كل وقت «النص نص» متروكاً للدراسة والتحصيل.. وقد أتاح له السلطان أساتذة كباراً مما جعله ينتهي من المرحلة الابتدائية وهو لم يبلغ الخامسة. وفي العاشرة انتهى من الدراسة الثانوية واستعد لدخول الجامعة.. هنا فقط بدأت امكانيات

«النص نص» المعجزة تظهر، فقد وجد أن منهج كلية العلوم التي اختارها ليدرسها أقل بكثير من أن يستغرق كل وقته، بل إن الطب والعلوم والزراعة معاً كانت أقل من وقته فأخذ بجوارها الآداب والقانون والفنون. وفي السنة الثانية مثلاً نجح في تشريح ثانية طب وميكانيكا ثانية ميكانيكا وكهرباء ومدني ثانية كهرباء ومدني، وكل القوانين المقررة على ثانية حقوق، وفي البكالوريوس قدم في جميع بكالوريوسات الجامعة وليسانساتها. . وبتفوق نجح فيها جميعاً حتى ان خطابات التعيين جاءته ليعين معيداً في أربع عشرة كلية في وقت واحد. وحين ذهب فرحاً ليتسلم مهام أول مناصبه بدأت أشباح مأساته تتراءى، إذ لم يجد أحداً يأبه له أو يعيره اهتماماً، أو حين ينجح في إثارة اهتمامه والحديث معه ينجح في اقناعه بجدية طلبه. كان الجميع ينظرون إليه نظرتهم لا إلى إنسان دفعه حظه السيىء إلى أن يكون صغير الحجم ليس إلا، وإنما باعتباره ظاهرة شاذة وكأنه حشرة قد نجحت في النطق كالآدميين.

ظاهرة تدفع إلى الاستنكار والاشمئزاز مثلما نستنكر جميعاً أن تقوم الحشرة بدور الإنسان في الوقت الذي لا نستنكر فيه مطلقاً من أي إنسان أن يقوم بدور الحشرة. وعاد مهموماً إلى ولي أمره السلطان الذي أدرك كل شيء بنظرة، والذي كان قد رتب للأمر. ومن اليوم التالي كان «النص نص» يحضر لدراسة الدكتوراه. كان قد انتوى أمراً خطيراً، أن يدرس أربع عشرة دكتوراه في نفس الوقت. وبينما كان زملاؤه يؤدون أعمالاً روتينية ويبدؤون في لعن الروتين والسخط

على قوانين الاستخدام، وفي الوقت الذي كان بعض آخر منهم قد يئس من كل شيء ووهب نفسه كلية اللتهليس وعب ملذات الحياة عباً. نذر نفسه هو للدراسة، وفي ثلاث سنوات كان قد أكمل استعداده، ولأول مرة في تاريخ الجامعة - بل في تاريخ الجنس البشري كله - تجتمع أربع عشرة لجنة لأربع عشرة مادة مختلفة، من الرياضة العليا إلى هندسة الانتاج إلى الجراحة الخاصة لتمتحن «النص نص» في نفس الوقت. ومن أجل هذا الحدث غير العادي غيرت الجامعة من نظام المناقشة وأجلست «النص نص» في منتصف الحجرة وحوله تناثرت مقاعد الممتحنين الذين لم يبد عليهم أي استنكار لحجم «النص نص» أو شكله، فالمجتمع لا يهمه شكلك وأنت تدرس أو وأنت تمتحن، إنه فقط يبدأ يدقق ويفحص ويختار حين تتقدم إليه تطلب العمل!

ولأربع عشرة ساعة راح الممتحنون وأعضاء اللجان يناقشونه، ولم يكتشفوا لدهشتهم أنه قد هضم واستوعب تماماً كل مادة من مواد الامتحان إنما اكتشفوا أكثر أنه بلغ من استيعابه للمواد أنه وصل إلى نظريات عامة جديدة تماماً في علاقة ألوان العلوم والمعارف بعضها ببعض. نظريات أوصلته إلى قوانين خطيرة تكشف شيئاً فشيئاً عن جذور المعرفة البشرية والقوانين الموضوعية للمادية وأشكالها المختلفة، بحيث انه كان يتوصل معهم إلى القانون الأول الذي يحكم علاقات الكون كله. وتحول النقاش حينئذ من لجان تمتحن «النص نص»، إلى تلامذة يخرج لهم «النص نص» كنوزه ويحدثهم

عما وصل إليه وهم حيارى مذهولون، قد أدركوا فجأة ليس فقط أنهم أمام عبقري من طراز نادر، ولكنهم اكتشفوا أنهم قضوا حياتهم عبثاً، وأن دراسة الكون كأجزاء منفصلة والإغـراق في التخصص قد سلبهم القدرة على النظرة الكلية، وأن خير وسيلة للدراسـة والمعرفـة هو مـا فعله «النص نص»، هو أن يعود العـالم مرة أخـرى مثلما كـان الحال أيام ابن سينا وابن رشـد عالمـاً في كل شيء ليستـطيع أن يصـل إلى المفتاح السحري للعلم، ذلك الذي يفتح كل باب مغلق. وأيضاً كان لا بد أن يحدث مـا حدث، فـرغم ما كـانوا غـارقين فيه من ذهـول، ورغم أفـواههم الفاغـرة تتلقى من «النص نص» وكـأنهـا تتلقى درس الحياة الأول، ما كـادوا ينتهون من نقـاشه أو بـالأحرى ينتهي هـو من القاء الدرس عليهم حتى عادوا يغرقون في المناقشـات الحاميـة حول ما أسموه «الظاهرة النص نصية»، وهل هي معجزة فردية لا سبيل إلى الـوصـول إليهـا، أو هي أسلوب وطـريقـة بـاستـطاعـة أي إنسـان أن يستعملها ويصل بها إلى نفس النتائج. ولما بح صوت «النص نص» وهو يحاول استخراجهم من النقاش ولفت أنـظارهم مرة أخـرى إليه، وهم مستغرقون في عمليـة انقسموا تجـاهها أيضـاً هل يمنحونه أربـع عشـرة دكتوراه منفصلة، أو يمنحـونه درجـة علمية جـديـدة يسمـونهـا دكتوراه الدكتوراهات؟ انسل «النص نص» من وسط الجمع لا يشعـر بـه أحد أو ينتبـه إليه أحـد أو يوليـه اهتمامـه، انسل وحيـداً، مهمـوم القلب وقد عاد مرة أخرى إلى مواجهة واقعه الحزين وحـظه السيىء، وعاد إلى بيته ليفاجأ بالمأتم قـائماً ومنصـوباً. كـان ولي أمره السلطان

قد مات، وكان منذ الغد عليه أن يرحل. ورحل لا يمت إلى أحد ولا يستطيع حتى أن يمت إلى مكان، فلا صاحب بيت يرضى أن يؤجر له بيتاً، ولا مدير فندق يرضى أن ينزله بفندقه، نفس الاندهاش والتقزز تمتلىء به نفس من يخاطبه ويتفرج عليه برهة ثم لا يلبث - كالطفل حين ينتهي من لعبته - أن ينفض منه يده ولا يعود يأبه له أو لتوسلاته.

نفس الأساتذة الذين كانوا يشيدون بعبقريته حين كان يلقاهم منفردين في مكاتبهم، كانوا لا يملكون له سوى هز الأكتاف وإلا بتبصيره بالعقبات التي تشل أيديهم وتمنع الواحد منهم أن يعهد إليه بعمل - أي عمل - لا كدكتور حتى أو كعالم. وإنما كإنسان تجارب عرض نفسه على أستاذ علم الأمراض كي يبقيه في قسمه، مجرد عينة علمية وظاهرة ممكن دراستها للكشف عن هرمونات النمو وأمراضه، اعتذر له الرجل قائلاً: ان قانون الجامعة لا يبيح الاحتفاظ إلا بحيوانات التجارب فقط من أمثال الفيران، والخنزير الغيني، والأرانب. ولكن القانون لا يوجد به مادة تبيح الاحتفاظ بإنسان تجارب.. لو فعلها لحاسبه ديوان المحاسبة حساباً عسيراً ولعاقبته الجامعة. حتى الصحف والتليفزيون والإذاعة حين شاعت قصته في الأوساط العليا جرى مندوبو الصحف يبحثون عنه حتى وجدوه عند أستاذ من أساتذة الجامعة، وأخذوا له عشرات الصور الفوتوغرافية، وأعطى عشرات الأحاديث، وعملوا معه أكثر من لقاء. في التليفزيون، وأمامه وعيني عينك كانوا يحضرون بعض أساتذة الطب

ليقولوا رأيهم فيه، وفي الاستديو كان حين يتكلم يحس بالدنيا كلها منصتة إليه، ويبدأ يتفاعل ويفتح لهم صدره ويطلب منهم أن يجدوا له عملاً يتناسب مع مركزه العلمي ومؤهلاته، وكان ما كان يذكر حكاية العمل وحاجته إليه ويطلبون منه أن يقترح عليهم نوع العمل الذي يريده، وما يكاد يذكر كلمة مدرس أو معيد أو حتى محضر في معمل حتى ينفجروا ضاحكين مقهقهين، مشيرين إليه وإلى حجمه، وسادرين في الضحك عليه لابد. وكالعادة لم تستمر موجة الاهتمام به كثيراً، بعد أسبوع أو أقل فتر الحديث عنه ولم يعد ظهوره في التليفزيون حادثاً كبيراً كما كان الأمر في أوله، إلى درجة أن أحد منتجي القطاع الخاص كان أثناء موجة ازدهاره قد فكر أن ينتج عن حياته فيلماً. خبر أسعد «النص نص» وأفرحه فهو على الأقل سيأخذ ما لا يقل عن شهرين أو ثلاثة من العمل والاستعداد، غير أن هذا الأمل نفسه ما لبث أن خاب حين وجد نفس المنتج أن فكرة الفيلم ممتازة هذا صحيح، ولكن المستحسن أن يقوم اسماعيل يس ببطولتها ويسمونه اسماعيل يس في الجامعة!

وبالعدول عن فكرة الفيلم وانتهاء الحديث عنه في وسائل الاعلام وجد «النص نص» نفسه بين يوم وليلة يحيا في فراغ كامل تام. وجد كل الأبواب التي كان يتخيل أنها مفتوحة على مصاريعها في انتظاره تغلق دونه الواحد وراء الآخر بلا سبب معلوم، وكأن هناك مؤامرة خفية هدفها أن يفقد عقله أو يرتكب عملاً أحمق. وكان قرر أن يرتكب هذا العمل وينتحر، فقد ضاقت به الدنيا حتى أصبحت

أضيق من «خي» حبل المشنقة.

ولم يتطلب منه الأمر تفكيراً كثيراً، وعلى الفور شرع في اتخاذ طريقه إلى مبنى المجمع في ميدان التحرير، وعلى قدميه صعد الطوابق الكثيرة إذ هو لم يكن يستطيع أخذ الأسانسيرات أو ركوب الأوتوبيسات مخافة أن يفعصه أحدهم دون أن يحس أو يشعر. خرج إلى سطح المبنى وأشرف على حركة المرور الهائلة في الميدان.. وراجع حياته وما ينتظره عله يجد قشة أمل يتعلق بها في لحظاته الأخيرة، ولكن كان واضحاً تماماً أن قصته مع الناس قد انتهت، وأنه لم يعد بإمكانه أن يعيش بالطريقة التي يريدها، كان يستطيع أن يعيش على هامش الحياة مثلما يحيا الآلاف والملايين غيره، يأكل كيفما اتفق، ويسكن كيفما اتفق، ويوجد كيفما اتفق، ولكن كنوز المعرفة التي نهل منها جعلته يرفض أي حياة أخرى إلا الحياة التي يريدها هو. إلا أن يفرض على الحياة حياته، فإذا فشل في هذا الفرض كان عليه في صمت وبطولة أن يموت. وأغلق عينيه وقفز من حافة السور الصغير المقام فوق السطح، وأحس بنفسه يهوي ويهوي، وبوعيه يبهت ويبهت كأنه الشمعة تتعرض لتيار هواء قوي. حالاً ستنطفىء الشمعة، ويفقد الوعي تماماً وإلى الأبد، غير أن اللحظات طالت حتى جرؤ على فتح عينيه فوجد نفسه يقترب من الأرض بسرعة فعاد يغمض عينيه، وفي اللحظات التالية بدلاً من فقدان الوعي اصطدم بالأرض ولم يتحرك من مكانه منتظراً الموت، غير أن الموت لم يأت. كل ما في الأمر أحس بآلام هائلة. آه! كيف فاته وهو العالم

الكبيـر أن سقوط من في وزنـه لا يمكن أن يؤدي إلى وفـاتـه أو حتى كسر عظامه؟ هذه المرة غضب. . وفي غضبته راح يبحث بسرعة عن وسيلة أخـرى يقضي بها على نفسـه. لم يكن أمامـه إلا أن ينام فـوق قضيب السكة الحديـد وينتظر القضـاء تحت عجلات القـطار. ولكن القضاء لم يحل، فالهواء الناتج عن القـطار القادم تكفـل بنفخه حتى طار من فوق القضيب واستقـر كالـريشة على الـزلط. حتى الغرق في النيل جربه، فوجد نفسه وفقط بحجم ما يرتديه من ملابس يطفو على سـطح الماء، ولم يفكـر في خلع ملابسـه مخافـة أن تفشـل الـوسيلة فيضطر إلى أن يعيش عارياً وهو مصير لم يكن يتصوره.

تكفل فشل هذه الوسائل جميعها برد بعض التعقل إليه، وكأن نية المـوت لها حـد محدود بحيث بعـد محـاولـة أو محـاولتين لا يصبـح الإنسـان قادراً على أن يـظل منتويـاً الموت. وهكـذا وهو طـاف على سطح ماء النيل بعد فشله الثالث قرر أن يحيـا، أن يكافـح ليحيا كمـا يريد، وينتزع الحياة بأظافـره وأسنانـه ما دام النـاس لا يستطيعـون أن يقدموها إليه على طبق من الفضة. ولكي تقرر أن تحيا عليك أن تقرر أيضـاً ماذا تفعـل بحياتـك. . وهكـذا في نفس اللحـظة كـان «النص نص» قـد قرر أن يحـل بحياتـه القادمـة المقبلة كل ما استعصى على البشرية حتى ذلك اليوم حله.

ونفس الشيء الذي كان يقف حائلاً بينـه وبين حقه في الحيـاة كالآخرين، نفس صغـر حجمه تـوسل بـه كي يحيا كمـا يريـد. الآن

باستطاعته أن يختار أفخر مكان يريد الإقامة فيه وأحسن مكان يعمل فيه ويجرب. . واختار هيلتون ليقيم فيه، أما رقم حجرته فهو رقم أي حجرة لا يشغلها قاطن، وإن كان الفندق كله مشغولاً فهو رقم حجرة أجمل قاطنة من قاطنيه على شرط أن يصحو قبلها، مخافة أن ترفع البطانية وتكتشف شريكها في الفراش ويغمى عليها من الرعب. . أما العمل فقد اختار معامل الكليات جميعها بعد انتهاء اليوم الدراسي حيث تصبح كلها تحت أمره. والآن وقد توفر له السكن والمعمل والأدوات لم يعد أمامه إلا أن يستغل ما يحفل به عقله من كنوز المعرفة ويعمل. وكان أول موضوع اختاره وأراد أن يلقي به درساً على كل هؤلاء الذين تجاهلوه وازوروا عنه، كان الوصول إلى القمر. وبعد أبحاث لم تستغرق سوى بضعة أسابيع كان قد اكتشف الطريقة، لا لم يستعمل الصواريخ ولا الوقود، استعمل طريقة أبسط من هذا بكثير، فقد اكتشف كنه الجاذبية وأدرك أنها شحنة نوعية. . بمعنى أنك إذا استطعت أن تشحن مادة بنفس شحنة الجاذبية الأرضية فإنها تتنافس مع الأرض وتصعد إلى أعلى. وهكذا استطاع أن يشحن مركبة الفضاء الصغيرة التي صنعها في معمل الميكانيكا بكلية الهندسة بواسطة جهاز صغير مركب داخل السفينة، وبتشغيل الجهاز تنافرت المركبة مع الأرض، وبتقوية الشحنة أمكن أن يسرع بها إلى درجة أنها قطعت المسافة بين الأرض والقمر فيما لا يزيد عن الساعة. وحين اقترب من القمر أعاد شحن السفينة بنفس جاذبية القمر. وهكذا تعادلت قوة تنافرها مع القمر مع قوة اندفاعها الأولى،

وهبطت على سطح القمر بسلام. وطور بعد هذا اختراعه ليستطيع أن يسافر إلى الكواكب الأخرى. وهكذا كان يكفيه أن يشغل الجهاز بحيث يمنع عن السفينة الجاذبية الأرضية، وفي نفس الوقت يشحنها بجاذبية مضادة لجاذبية المريخ أو الزهرة أو أي كوكب يختاره، فإذا بجاذبية ذلك الكوكب تتفاعل مع جاذبية السفينة، ودون حاجة إلى بوصلة أو ملاحة فضائية أو مرشد كانت السفينة تنجذب تلقائياً إلى الكوكب بقوة عظمى، حتى لقد استطاع أن يصل بالسرعة إلى مليون كيلومتر في الثانية وهي أضعاف سرعة الضوء. وهكذا كان يستطيع الوصول إلى القمر في نصف ثانية، وإلى المريخ في ٢٥٠ ثانية.

وهكذا وضع قدمه على الطريق للسفر إلى العوالم الأخرى التي تفصلها عنا مئات السنوات الضوئية، إذ هو لم يجد حياة على المريخ كما كان يتوقع. وبدراساته وتلسكوباته الرادارية أمكنه أن يكتشف أن هناك قانوناً أساسياً من قوانين الكون، قانون التماثل، بمعنى أن كل مجموعة نجمية توجد فيها الشموس والأقمار بنظام واحد، بمعنى أن المجموعة الشمسية المقابلة لمجموعتنا في الكون الآخر لها هي الأخرى شمس مثل شمسنا، وعلى نفس البعد منها يوجد مريخها وزهرتها وأيضاً على بعد ٥٣ مليون ميل منها توجد كرتها الأرضية، وهكذا.. فالحياة لا توجد إلا في الكرة الأرضية الموجودة في المجرة المقابلة لمجرتنا، وهي كرة تبعد عنا بحوالي ٥٢٥,٦٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ ميل، ويستغرق

الإنسان في قطعها ثمانين مليون سنة ضوئية. فإذا عرفنا أن المسافة بين الشمس والأرض ٩٣ مليون ميل يقطعها الضوء في ثماني دقائق ونصف دقيقة، لأمكن أن نتصور المسافة الهائلة التي لابد تفصلنا عن زميلتنا الكرة الأرضية الأخرى، والتي من أجل الوصول إليها كان على «النص نص» أن يصل إلى جهاز يستطيع أن يولد قوة جاذبية تصل بسفينة الفضاء إلى سرعة أسرع بكثير من سرعة الضوء، وإلا لاستغرق ثلاثين مليون سنة ضوئية للوصول إليها، ونفس المدة في العودة منها. وهكذا أمكن أن يصل بجهازه إلى سرعة توازي مليون مليون مرة سرعة الضوء، وبهذا أمكنه أن يذهب إلى الكرة الأرضية المقابلة ويعود منها في بحر ٧٤ يوماً فقط، وهو شيء خارق للعادة كما ترى.

غير أن بناء هذا الجهاز كان سيستغرق وقتاً إذ هو يقوم به بمفرده دون مساعدة من أحد، ولا بد أن يصنعه متيناً قوياً مزوداً بكميات من الأوكسجين والوقود تكفي لهذه الرحلة الطويلة. ولهذا وفي انتظار أن يتم صنع مركبة فضائية واصل العمل في بحوثه الأخرى فاكتشف «كورس» الأربعة عشر يوماً للوصول إلى درجة العبقرية. ذلك أنه بدراسته للإنسان وللحيوان اتضح أن الذكاء والقدرة العقلية مبعثها هرمون خاص مسئول عن تغذية وتشغيل خلايا المخ. ومع أن طاقة المخ البشري طاقة جبارة إلا أن الجزء المستخدم منها قليل جداً، ذلك أن هذا الهرمون يفرز بكمية قليلة في حين أننا لو زدنا من كميته لاستطاع العقل البشري أن يعمل أضعاف أضعاف ما يعمله الآن

ودون جهد يذكر. وهكذا بواسطة الأربع عشرة حقنة تؤخذ على مدى أربعة عشر يوماً أمكنه أن يصل بالعقل البشري إلى أن يصبح لـه قدرة شكسبير الشعرية والمسرحية وذكاء اينشتين وحساسية بتهوفن الموسيقية. إنـه يضع الإنسان بواسطة هذا «الكورس» على أعتاب العبقرية، ولكنه لا يستطيع أن يصنع لـه شيئاً آخر إذ الباقي عليه هو وحده أن يقوم به وينتجه. بل إن بحوثه في هذا الاتجاه أوصلته إلى طريقة تركيب الخلية العصبية، وبالذات طريقة تركيب الأحماض الأمينية التي تكون الكروموسومات داخل نواة هذه الخلية، وهي الأحماض الأمينية المسئولة عن صنع الحياة، إذ هي تستطيع أن تحيل المواد العضوية وغير العضوية إلى مواد حية قادرة على الانقسام الذاتي والحركة. كل المشكلة أن العلماء الذين سبقوه لم يستطيعوا الوصول إلى هذا التركيب لأنهم كانوا يدرسون على ·خلايا· الجسم الإنساني والحيواني، في حين أن خلايا الإنسان والحيوان مهما كثر عددها ليست سوى أجزاء من الكائن الحي، ولذلك اتخذ هو حيواناً ذا خلية واحدة ولكنها كبيرة الحجم جداً بحيث تسهل دراستها، اتخذ البيضة. . بيضة الدجاج باعتبارها وحدة حية قائمة بذاتها، وبواسطة الميكروسكوب فوق الألكتروني الذي ابتكره ـ وهو ميكروسكوب قادر على التكبير إلى مليون ضعف ـ أمكنه أن يرى جزيئات الحمض الأميني، بل أمكنه أن يرى هذه الجزيئات وهي تتكون من تلقاء نفسها وتتركب، ولم يكن عليه بعد هذا إلا أن يقلد العملية. وهكذا استطاع بواسطة محاليل من الكربوهيدرات والمواد النيتروجينية والكبريتية،

وبإمرار تيار منشط عبارة عن سيل متدفق من الأشعة فوق البنفسجية، أمكن لهذه المواد أن تختار النسب التي تتحد بها مكونة البروتوبلازم الحي ولأنها مواد معلومة الوزن، وقد أمكنه أن يعرف نسب هذه المواد التي دخلت في تركيب البروتوبلازم، أمكنه أن يصل إلى هذا اللغز المعقد ويعرف سر تركيب المادة الحية. بل أمكنه أن يخلق خلايات حية في كأس زجاجية، الخلية منها في حجم البيضة، تتفاعل بالضوء وتنجذب أو تنكمش لدى اقتراب الخطر، وقادرة على تغذية نفسها، بل وأن تنقسم في النهاية إلى خليتين. وكان يعتقد قبلاً أنه لو وصل إلى هذا الحد لتكشف له سر الحياة ولأمكنه أن يصل إلى تركيب كائنات أرقى بكثير من كائنات الخلية الواحدة، ولكن المشكلة التي واجهته جعلته يكتشف أن هناك لابد سراً آخر غير مجرد التركيب الكيميائي، ذلك السر الذي يبدو وكأنه كامن في الخلية الحقيقية يجعلها لا تنقسم ولا تتكاثر وتتحرك فقط، ولكن يجعلها ـ وهذا هو أهم شيء ـ تتطور لتأخذ باستمرار أشكالاً أخرى. الخلايا التي أوجدها لها نفس تركيب الخلية الحية الكيميائي، فماذا إذن يجعل الخلية الحية قابلة للتطور بينما خلاياه هو خاملة لا تتطور؟ ذلك هو السؤال. سؤال كان يبدو عويصاً إلى الدرجة التي جعلته يؤجل الإجابة عنه ليبتكر للبشرية بعض الأشياء التي تحتاج إليها بشدة مثل السرطان وعلاجه. ولكي يعالجه كان عليه أن يعرف سببه. وقد اكتشف السبب من نفس تجربته السابقة، إذ هناك خميرة معينة داخل الخلايا الحية مسئولة عن انقسام تلك الخلية وتكاثرها. حين يصل

الحجم بالخلية إلى درجة معينة، أو يصل بها العمر إلى زمن معين محدد، تعطي الخميرة الإشارة وتبدأ الخلية تنقسم. هذه الخميرة ليست مستقلة في عملها ولكنها خاضعة لاحتياجات الكائن الحي ككل، بحيث حين لا تستدعي الحاجة يستطيع الجسم أن يؤجل التكاثر والانقسام، أو يشرع به إذا استدعت الضرورة وذلك بواسطة هرمون معين، والسرطان ليس سوى تحرر خمائر الانقسام الموجودة داخل الخلايا من أثر هذا الهرمون، بحيث تبدأ تتكاثر أوتوماتيكياً دون هرمون يزجرها أو يوقفها عند حدها. وعلاجه لا يتعدى تزويد الإنسان بجرعات من هذا الهرمون تعيد اخضاع الخلية للمراكز العليا واحتياطات الجسم.

وهكذا حل «النص نص» مشكلة السرطان. أما السل وبقية الأمراض فلم ينفق وقته في إيجاد علاج لها كل على حدة، وإنما توصل إلى معرفة نوع من المنشطات الحيوية، تلك التي تفرزها الخلية الحية إذا أشرفت على الموت قبل موتها بثوان، وكآخر سلاح لديها تطلق الخلية خميرة سماها العلماء المنشط الحيوي تقضي على كافة أعداء الجسم من ميكروبات وتنقذ المريض في آخر لحظة. استطاع «النص نص» أن يتوصل لمعرفة نوع منها قادر على الفتك بأية ميكروبات مهما بلغت قوتها، بل وبواسطة قرص واحد منها يأخذه الإنسان كل أسبوع يستطيع أن يضمن الإنسان بقاءه سليماً معافى من كل الأمراض.. حتى الأمراض الاجتماعية. وبواسطة لتر من الأنتي كابيتال يوضع في كل مليون متر مكعب من ماء الشرب،

يستطيع هذا العقار أن يغير من أفكار الناس بحيث لا يعودون يطيقون الجشع الرأسمالي، ويصبحون أكثر حساسية في كل ما يتصل بالغير بحيث لا يرضون ظلمه أو الجور عليه، حتى روح الحرب والعدوان يستأصلها إذ هو يضخم مركز الغيرية في المخ، ذلك المركز الذي تصدر منه كافة الأفعال والتصرفات الإنسانية، وتهدف إلى المحافظة على النوع من خلال المحافظة على المجموع. عكس المركز الأخر الذي يضمر بأنتي كابيتال ويذوي، مركز المحافظة على النوع من خلال الذات. حتى السينما والتليفزيون استطاع «النص نص» أن يبتكر عدسة التصوير وعدسة العرض التي تجعل الفيلم يبدو حياً بنفس أضواء الحياة وطعمها وتجسيماتها.

وأخيراً توج «النص نص» أبحاثه في خلال بضعة شهور، بأن استطاع اكتشاف نظرية جديدة لتركيب الكون، إذ كان الناس يتصورون الكون من خلال تصورهم للجزء الذي يستطيعون رؤيته منه، أو حتى من خلال الجزء القادرين على تصور مقياسه، والتصور البشري يبدأ من تصور جزء على عشرة مليون جزء من الملليمتر إلى ألف مليون سنة ضوئية، تلك هي المسطرة التي كنا نقيس بها الكون، في حين أن هذه المسطرة لو وضعت على المقاييس الحقيقية للكون لبدت وكأنك تضع مسطرة طولها قدم واحدة على المسافة بين الأرض والشمس. فهناك مقاييس نسميها أصغر بكثير من الجزء على مليون جزء من الملليمتر، ومقاييس أكبر بكثير من الألف مليون سنة ضوئية. . أصغر إلى ما نسميه المالانهاية وأكبر من المالانهاية

المزعومة، في حين لا توجد المالانهاية. والذرة ليست سوى كون كامل يشبه مجرتنا، والالكترون الموجود في الذرة ليست سوى كرة أرضية بأكملها، وداخل هذا الالكترون توجد مجموعة الكترونية عبارة عن نواة وحولها أجسام تدور وكل جسم منها عبارة عن فلك كامل، وهكذا إلى أن تصل إلى دقائق تنجذب إلى بعضها البعض بسرعة فائقة حتى تصل إلى الحد الأدنى من القرب، وحينئذ تبدأ تتنافر وتتباعد. وهذا هو نبض الكون، إذ نفس هذا النبض يحدث وبنفس السرعة للأكوان الكبيرة التي تتجاذب إلى الحد الأدنى من المسافة، لتعود تتنافر وتفقد تكوينها مكونة السديم الذي يبدأ يصنع منه التجاذب الأصغر فالأكبر حتى تتكون المجرات والأفلاك ويحدث التجاذب من جديد. سرعة نبض الكون ثابتة ولا يوجد أكبر أو أصغر، فطريق التقائه ليس سوى تجمع لذرات نراها نحن من داخلها في حين أنها من الخارج قد تكون جزءاً من مادة، أو حتى جزءاً من جزيء داخل في تكوين كائن حي من الصعب تصور حجمه. القانون الواحد الذي يحكم هذا الكون كله هو قانون التجاذب للتنافر أو التنافر للتجاذب، على أساسه يمكن تفسير كل شيء، حتى تفسير نشأة الحياة وتعدد الأنواع. فالجزيئات تظل تتجمع وتكبر إلى أن تصل إلى الحد الأعلى، فتتنافر وتنقسم وتتحدد مكوناتها الجديدة مكونة أنواعاً أخرى من الجزيئات حتى يؤدي التجميع إلى الانقسام. وإعادة التكوين إلى جزيء الحمض الأميني الذي يتجمع على هيئة خلية واحدة تظل تنمو إلى الحد الأعلى، ثم

تنقسم ليحدث بين مكوناتها المنقسمة وبين مكونات خلية أخرى مختلفة معها قليلاً نوع من التزاوج، يؤدي إلى ظهور الحيوان عديد الخلايا. وبتكرر العملية تتعدد الأنواع حتى تصل إلى القرود والإنسان الذي يتطور بعد هذا بسبب تطور العلاقات الاجتماعية التي تحكم الصلة بين أفراده.

وعشرات غيرها من الاكتشافات والاختراعات.. حتى انه اكتشف فيما اكتشف دواء لمعالجة الذمم الخربة لأصحاب البيوت، بحيث ان ملعقة منه قبل توقيع العقد تستطيع أن تجعل صاحب البيت يتنازل بمطلق إرادته عن جميع الشروط الواردة بالعقد، وكلها للأسف حقوق لصاحب البيت لدى المستأجر.

وأن يعمل ويكتشف كان مسألة سهلة كان باستطاعته أن يصل إلى ما هو أخطر، وأن يكتشف أشياء أهم بكثير من تلك، ولكن المشكلة التي كانت تؤرقه أنه لم يكن يستطيع أن يفعل بهذه الاكتشافات شيئاً. كان يحملها ويذهب بها إلى أصحاب الشركات وأساتذة الجامعة والمسئولين فينظرون إليه نفس نظرتهم إلى حيوان غريب ويضحكون. وأحياناً يقبضون عليه ويحملونه في جيوبهم ليفرجوا عليه زوجاتهم ويجعلوا الأولاد يلهون به بعض الوقت. وذات يوم ضاق به أحدهم إلى الدرجة التي أمسكه وقذف به من النافذة فسقط فوق رأس فلاح ما كاد يراه حتى استبشر وقال: ياما أنت كريم يا رب، وأخذه إلى بيته في القرية وأبقاه محبوساً ستة أشهر حتى يحين موعد القطن كفأل حسن. وحين لم يزد المحصول كما

كان يتوقع أقسم أن يطعمه لحماره، ولم ينقذه في اللحظة الأخيرة إلا زوجته حين راحت تستحلفه أن يبقيه لكي يجلب لأختها العاقر الحمل. وبالتأكيد لم يستطع أن يجلب شيئاً ولكنه أفلح في الهرب ووصل إلى حيث المعمل ومركبة الفضاء التي كانت قد تمت، وبغيظ أدار الجهاز، وبعد سبعة وثلاثين يوماً كان في الكرة الأرضية المقابلة. وحين هبط فوجىء بأعظم وأروع فرحة في حياته، فقد وجد الناس هناك في مثل حجمه، ورحبوا به وطافوا به أنحاء الكرة ومما لكها باعتباره «إنسان الأرض» الذي ترقبوه طويلاً، ولأنهم كانوا يمرون بنفس الطور الحضاري الذي تمر به كرتنا الأرضية فقد زودهم باكتشافاته التي طبقوها في الحال وجعلت من حياتهم جنة، فأقاموا له التماثيل، وكاد قسم كبير من سكان تلك الأرض يقدسونه ويعبدونه من دون الله سبحانه. ولكنه كان في شغل عن التكريم والتقديس والعبادة بالشوق الغريزي الشديد الذي كان يحسه لكرتنا الأرضية وقاهرته، ومصر، شوق جعله يكتشف قانوناً آخر من قوانين الكون وهو أن المادة الحية تحن إلى المواد الخام المخلوقة منها، وهكذا يحن الإنسان إلى مسقط رأسه، ويحن الجزء من الشيء إذا انفصل عنه للجزء الأكبر، حتى سفينة الفضاء تحن إلى المعمل الذي صنعت فيه. وهكذا جاء عليه اليوم الذي لم يعد يطيق وتحايل حتى وصل إلى سفينة الفضاء؛ وبكل ما يهزه من شوق شغل الجهاز، وما أروعها من أرض كروية وما يغطيها من سحابات تلك التي طالعته في صباح اليوم السابع والثلاثين! ما أروعه من شريط رفيع ينحني ويتهادى

وبرفق يصب في بحره الأبيض! ما أروع مصر التي هبط في صحرائها حيث غادر المركبة قرب أهراماتها، وما لبث أن ضاع في زحمة مدينتها يقيم حيثما اتفق ويأكل وينام كيفما اتفق، وسعادته كلها أنه يحيا على الأرض. . أرضه حتى لو كان قد تخلى عن كل طموحه.

الشيء الذي لم يحسب له «النص نص» حساباً قط هو أن يستخدم أهل الأرض المقابلة معلوماته التي أعطاها لهم إلى درجة أن يصنعوا مراكب فضاء مثل مركبة فضائه، وأن يفاجأ أهل الأرض ذات يوم بسرب من هذه المركبات وقد ظهر يحوم حول مدن الكرة الأرضية الكبرى ويرقب الحياة التي تموج فيها. . ولا تحدث عن الحمى التي اجتاحت الدنيا لهذا الحادث الخطير ولا عن الصحافة والإذاعة والتليفزيون ـ خاصة في أمريكا ـ وقد خرجت تتحدث عن غزو الأرض وتطلب من حكوماتها إخراج ما لديها من قنابل ذرية وإيدروجينية لاستعمالها ضد الغزاة «تماماً نفس العقلية التي كانت تصنع أفلام الفضاء»، ولكن قبل أن يحدث شيء من هذا كان سرب المركبات قد هبط فوق جبال سويسرا وخرج منه سكان الأرض الثانية في حجم عقلة الأصبع، يستعملون أجهزة الترانزستور في تضخيم أصواتهم إلى الآخرين وفي استقبال أصوات الآخرين، واندفعت إلى سويسرا جموع هائلة من الصحفيين والمخبرين ومحبي الاستطلاع يريدون الوقوف على أسرار تلك الحضارة الراقية التي غزت الفضاء بمثل ذلك الإعجاز وغزت الأرض. . وكانت المفاجأة المذهلة حين ذكر رجال الفضاء هؤلاء أن سفن الفضاء تلك ليست من ابتكارهم إنما

هي من ابتكار واحد من أهل الأرض اسمه «النص نص» من بلد اسمها مصر، كان قد زارهم في مركبة مماثلة منذ عام مضى وزودهم بمعلومات هائلة عن المادة والحياة والأحياء من ضمنها هذا الجهاز الذي أمكنهم به أن يتغلبوا على جاذبية أرضهم وأن يسافروا بتلك السرعة الخارقة في الفضاء حتى يتمكنوا من الوصول إلى بنت عمتهم الأرض.

وهكذا في أقل من ساعة كان الناس قد فقدوا الاهتمام بأهل الكوكب الآخر كلية حتى لم ينتظر أحدهم ليودعهم وهم في الطريق مرة أخرى إلى كرتهم، واندفعوا في أعداد هائلة يحجزون الأمكنة في الطائرات إلى القاهرة حتى اضطرت شركات الطيران إلى تحويل خطوطها جميعاً إلى القاهرة.

ولم ينتظر المصريون وصولهم، فهم منذ اعلان تلك الأنباء وجموعهم في حالة بحث دائب عن «النص نص». ولأول مرة يعترف أساتذة الجامعة: الذين امتحنوه، ولأول مرة يذكره أولئك الذين ذهب يطلب منهم العمل وهزءوا به، والجميع من سائل إلى مسئول قد ركبته حمى البحث، والكل يحاول أن يتتبع الخيط، وكل خيط ما يكاد ينمو وينمو معه الأمل حتى ينقطع فجأة وعلى غير انتظار - حتى الفلاح الذي احتفظ به كفال حسن وقصته معه - ثبت خيط تتبعه الناس إلى أخت زوجته العاقر ثم انقطع تماماً. ولكن كان لا بد أن تنتهي مرحلة الفوضى التلقائية تلك، فالأمر جد خطير للعالم كله، ولا بد من العثور على «النص نص» ومن الشرق والغرب جاء خبراء

البحث والتقصي، وأعيد استجواب كل من سبق وكان له «بالنص نص» أي اتصال لمعرفة الأماكن التي يحبها، أو أين كان يمضي وقته، حتى خدم السلطان الذين أصبحوا مرشدين سياحيين في قصره الذي تحول إلى متحف استجوبوهم بدقة، وكانت النتائج دائماً مخيبة للآمال. فقد بدا أن باستطاعته أن يوجد ويعيش في أي مكان بالقاهرة أو بغيرها من المدن، في أي اثني سنتيمتر مكعب يمكنه أن يبقى إلى الأبد مختفياً. النتيجة الإيجابية الوحيدة التي خرج بها الخبراء المحليون والعالميون من بحثهم واستقصائهم أنه قال ذات مرة: انه يحب أن يمشي على بلاج الاسكندرية، خاصة في الشتاء. وإلى هذا البلاج تحول البحث كله، ليس فقط بحث الأجهزة والاخصائيين وإنما بحث الناس العاديين. ناس.. آلاف الناس المزدحمة صيفاً وشتاء لا يطلبون أسرار قوانين الكون والحركة والجاذبية، وإنما يطلبون أشياء تبدو أسهل بكثير.. الأصلع يريد دواء ينبت له الشعر، والآخر الذي يريد القضاء على الشيب، والسيدة العاقر التي تنام وتحلم بالولد، والمقطوع الساق والأعمى والأعور، والأبرص والذي به داء استعصى على الشفاء.. جيوش لمرضى من أيام موسى وعيسى. ومحصول النوايا.. القاهرة التي تفيض بها أضرحة المشايخ وأهل البيت، ورسائل المحبين إليهم بعدد سكان الأرض وسكان مصر، لكل كونه المفقود الذي يبغي العثور عليه، عالمه الطلسمي الذي يود لو عرف قوانينه، والجماعات ـ جماعات وأفراداً ـ في حالة بحث دائب، في الصيف وفي الشتاء، في الربيع وفي الخريف، إلى

أقصى ما يستطيع أن يصعر كل منهم خده ويكبش من الرمال ويغربل.. عله هذه الكتلة، عله تحت هذه المحارة، عله في كومة حشائش البحر تلك، عله من تلقاء نفسه يظهر غداً، ومن كل صوب تنهال الاتهامات: السبب أساتذة الجامعة الذين لم يعيروه اهتماماً، السبب البيروقراطية والبيروقراطيين الجالسين فوق المكاتب يمنعون العبقريات عن الظهور، بل كلنا مسئولون.. هكذا كتب صحفي كبير عن الجريمة، كلنا أهملناه واحتقرنا شأنه، وها نحن اليوم نقلب الأرض بحثاً عنه.. كلنا مسئولون.

* * *

وعن الجماعة التي اتجهنا إليها صدرت صيحة وكأنها صيحة رعب، تلتها اندفاعات وصرخات واستغاثات كأصوات الهنود الحمر حين تهجم أو فرق الصاعقة، وفجأة أيضاً وجدنا المجموعة وقد استحالت إلى كتلة بشرية منكورة، كتل متضاربة متصارعة صارخة مولولة ممزّقة ممزّقة. لا تحسبن أنهم عثروا عليه، فهكذا الحال دائماً. أنه واحد منهم خيل إليه أن قطعة الطين التي اصطدمت بها يده هي «النص نص»، وتسابق الآخرون ينتزعونه منه. تلك كانت آخر كلمات صديقي، ليس في ذلك اليوم فقط وإنما في كل الأيام، إذ ما لبثت الكتلة البشرية أن راحت تتضخم وقد فقد الكل عقله، ولم يكن هناك أحد ليتابع. فمنذ اللحظة الأولى يتحدد الوقت وقد كتب عليك الصراع: إما صراع من أجل الحصول على «النص نص»

المزعوم، أو صراع من أجل استخراج نفسك من كثرة البشر المتزايدة المتضخمة المهددة بفعص كل من يقربها أو تقربه. وفجأة تطلعت فلم أجد صديقي، كانت الكرة قد ابتلعته ولم أره إلا في اليوم التالي بين عشرات الجثث الممدة فوق رمال الشاطيء.

لم تكن آخر كرة بشرية تتكون أو أول كرة، فهكذا الحال دائماً وكل بضع ساعات أو أيام تحدث الصرخة التي يعقبها التدافع والتكور والفعص.

أما «النص نص» فمنذ أن عاد إلى الكرة الأرضية ووطيء بقدميه القاهرة فلم يعرف له أحد مكاناً، البحث قاد حقيقة إلى مركبة فضائه التي استعملها، أما أين وكيف يعيش الآن؟.. فذلك لغز لم يستطع أحد ولن يستطيع حله، من يدري ربما يكون هذه الكتلة البارزة من الرمل أو من التراب. ربما تحت هذه المحارة أو أسفل كومة الحشائش، ربما في جيبك أنت.. وأنت لا تدري.

النقطة

القضبان الحديدية غير شاهقة العلو، كقبة عالية من الرمل والزلط والأخشاب والحديد. الشريط الحديدي طويل طويل موغل في الطول، ينتهي وراء الأفق إلى رمادية صفراء.. لا تلبث أن تدكن وتدكن بحيث لو أمعنت النظر فيها وأصررت على المضي في الرؤية لاستحالت إلى سواد. شريط حديدي طويل يدخل المشهد منحنياً انحناءة قوس عظيم وكأنه القوس الذي تفتحه لتضع داخله ثلاثة آلاف مليون إنسان، سكان الأرض بحياتهم وهمومهم وكل ما دار بخلدهم منذ أن كانوا بضع كائنات إلى أن أصبحوا آلاف الملايين، ويخرج الشريط من المشهد أيضاً منحنياً نفس الانحناءة الخفيفة المهولة ذات الجلال.

غير بعيد شجرة في حالة خريف دائم، أوراقها مصفرة الاخضرار، مخضرة الترابية، معلقة بغصنها برباط ما.. واه. شجرة كلما هب الريح انتزع منها أكثر من بضع أوراق حتى لتخالها في نهاية اليوم ستقف جرداء عارية، ولكنها أبداً هكذا لا تنقص أوراقها ولا تزيد، دائمة الخريف مستمرة الاخضرار المصفرالمترب، لا ثمر

لها ولا زهر. . ولا اسم. . شجرة. . ومساحة، تلك التي تكون دائرة الأفق تتسع إذا وقفت، وإذا صعدت الشريط الحديدي اتسعت أكثر، وكلما علوت اتسعت حتى لكأن باستطاعتها أن تشمل ـ لو أمكنك العلو الكافي ـ الدنيا بأسرها.

المشهد صامت ساكن إلا بين كل حين وحين، حين تهب الريح هبات متقطعة غير ملموسة لا تعرف كيف تبدأ. إنما شيئاً فشيئاً تسمع الأوراق وهي توشوش في خفوت ثم وهي تئز ويستطيل الأزيز. وتتطاير بضع أوراق ومن فوق الأرض يثور بعض الغبار حاملاً معه عيداناً مهرأة من قش أرز قديم، ثم يسكن الصوت والحركة إلا من اختلاجة أخيرة لورقة، ثم يثوب كل شيء إلى صمت. . صمت غير داكن ولكنه في نفس الوقت غير مضيء. صمت هو بالتأكيد كالضوء في المشهد إذ الشمس غير موجودة والنور غير مباشر وقليل، ولكنه مستمر على نفس الدرجة لا يشتد أو يخف ولا حتى تعتريه هزات الحركة، إنما هو كالشريط الحديدي الطويل سادر في وجوده وشموله واستمراره، ضوء كضوء عصر ضيق مترب، يومه التالي يوم القيامة.

وأنا موجود داخل المشهد لا أعرف مكاني على وجه الدقة. ولكني أرى المشهد بزاوية ما، ومهما غيرت من وقفتي أو اتجاهي فأظل أرى المشهد من نفس الزاوية.

إني في انتظار القطار القادم مع أن المكان ليس بمحطة، واحساس طاغ كبير أني لا أنتظر القطار لأركبه، إنما فقط أنتظره بالضبط. أنتظر اللحظة التي فجأة ـ تماماً لا بد أن تكون فجأة ـ تظهر

رأس القطار من كرة الأفق، سوداء فلتكن ولكن لا بد أن تظهر. . تنبثق فجأة فيدق قلبي هلعاً أو رعباً أو فرحاً، وأوجد وأعيش. أشعر أني لأول مرة آخذ نفسي. . الشهيق. . وأني حي. . وأني بدأت أعي بالوجود. غير مهم بعد هذا أن تستحيل النقطة المفاجئة إلى شرطة، والشرطة إلى خط، والخط إلى جسد القطار الطويل تتوجه سحابة الدخان المتعمدة المتصلة، غير مهم أن يقترب أكثر وأكثر وأن يصبح أمامي. . غير مهم أي شيء، المهم هو ذلك الظهور المفاجئ المروع للنقطة.

أنا لا أنتظر، فالإنسان لا ينتظر إلا شيئاً يتوقعه أو واثق من حدوثه أو حتى علم أو أخبره أحد أنه لا محالة واقع. أنا رأيت قبلاً قطاراً يمر ولا البقعة محطة ولا أنا مسافر، ولا شيء على الاطلاق. . على الاطلاق لا علاقة بيني وبين القطار إلا علاقة أني أرى قضباناً، وما دام هناك قضبان فلا بد أن يكون هناك قطار، حتى لو كانت القضبان تلك التي أراها صدئة صدأ سميكاً استحال من طبقة إلى قشرة. ولكن رغم كل الصدأ فمن المؤكد أن قطاراً بل لا بد قطارات مرت فوقها. لا بد قطارات مرت من هنا. وإلا فيم القضبان؟ أتكون خطاً فرعياً أقامته السكة الحديد ونسيت أمره؟. أتكون خطاً حديدياً أقامه الحلفاء في أثناء الحرب وضاع من الخريطة؟ فلتكن أي شيء فالمشهد مستمر وأنا موجود داخله. أرى مهمات سرت أو غيرت موضعي بزاوية، والنور غير مباشر وداكن، والشريط طويل محنى بجلال، طويل. . والشجرة قائمة خريفية كأنها نبتت من بذرة

خريف، وبين كل حين وحين وبلا بداية أو نهاية محسوسة تهب قبضة الهواء فتحرك الورق في الشجر، وقش الأرز المترب في الأرض، ثم الاختلاجة الأخيرة لورقة شجرة أو عود قش، ثم الصمت المستمر الساكن.

المشهد. مستمر، والأشياء فيه تتعاقب باستمرار، وحتى كم الحزن الموضوع بطريقة ما في صدري لا يتغير هو الآخر حجمه، ولا تشتد أو تخفت وطأته. حزن لا بد جاء من المشهد إذ تحس لابد أنه مشهد نهاية ما، نهاية العالم، نهاية الحياة على الأرض، نهاية الفرح أو الأمل، ربما حتى نهاية الأحزان. ولكنه بالتأكيد نهاية، نهاية حقيقية كنهايات العلم حيث لا نهاية، إنما النهاية خيط متصل من الشيء ذاته، من السكون ذاته، من الشريط ذاته، من الضوء ذاته، من الخريف المشجر ذاته، من هبات الهواء ذاتها، من الترقب ذاته.

المشهد دائم ومستمر، واحساسي به دائم ومستمر، وحزن النهاية ـ ولو كانت نهاية الحزن ـ دائم ومستمر. لا أذكر كيف بدأ ولا أين أو متى؟ وجدت فيه لكأني وعيت أو حتى ولدت داخله، وسأظل فيه إلى أن تنتهي حياته. كل شيء فيه هو هو لا يتغير أبداً، لا يزيد، لا ينقص، لا ينتهي، لا يبدأ. بل حتى تلك النبضة المتباعدة التي بين النبضة فيها والنبضة التالية مسافة أو زمن كأنه ألف عام، حتى لو كانت تتم في ثانية فهي ثانية طولها ألف عام، نبضة ضعيفة واهنة كالاختلاجة الأولى لجنين القلب داخل قلب الجنين حين دق لأول

مرة، خافتة واهنة ندق على استحياء شديد وبغربة زائدة. دقّ مذعـور يكاد الذعر يسكت نبضه ودق قلبه. نبضة خاطر، إذ فجأة تنبثق النقطة بادئة هناك من لا نهاية الشريط، فجأة أحدّق وأجدها، وغير مهم أبداً ما يحدث بعد هذا أو يكون.

المشهد والاحساس والحـزن وحتى النبضة مستمـرة الحدوث، وأنا فيما عدا هذا غير حزين أو خجـلان أو نائم أو مستيقظ. أنـا أنا، هكذا أيضاً. . باستمرار طويل لا ملل فيه ولا تبرم ولا تغير مطلقـاً في الزمان أو المكان أو درجة الوعي. كل ما في الأمر أني لدي كل نبضة خاطر، قبلها بقليل وكأنما قبل الحدث الكوني الهائل. . وأثناءهـا. . وبعـدهـا أحس بقلبي أنـا. . قلبي الحقيقي يـدق في انفعـال حي، انفعال خافت مبهور ولكنه حقيقي وملموس. بالضبط قبل وأثناء وبعد الخاطر يكاد جسدي كله يرتعش، وتكاد صرخة تنطلق مني هاتفة: أنا حي. وكأنها اكتشاف، ومع أنها هي الأخرى مستمرة ودائمة ولا تتغير إلا أن فرحتي بها لم تفقد أبداً، حتى لو كان المشهد قد بدا مع بداية الخليقـة واستمر إلى نهـايتها لم تفقـد أبداً طعمهـا، بل هي لحـظتها فقط، تلك اللحظة المتباعدة التي كان بينهـا وبين التاليـة أو اللاحقـة لها ألف عام لحظتها فقط، هي كل ما يربطني بالحياة.

أجل! أحدق فجأة فألمح، هكذا بمعجزة، النقطة.

وغير مهم بعد هذا أن تصبح النقطة شرطة والشرطة خطاً طويلاً لا نهاية لطوله.

أبداً غير مهم.

العملية الكبرى

- ١ -

ما كن أصعب أيامها ـ وبالذات لحظتهـا ـ أن يشك. بـل هو لا يـزال لا يعرف كيف، كـالبخار المتكـاثف، بدأت تتجمـع السحب. فالمهمة على غرابتها الشديدة بدت أول الأمر مجرد مهمة أخرى من المهام الكثيرة التي كان يوكل إليه بهـا. كل مـا في الأمر أنهـا طريفـة وعلى وجـه الدقـة مثيرة لعجب طـريف لا بد تمط لـه شفتيك أو تهز كتفيك. فمع انتهاء العملية الكبـرى، والجميع في قليـل من الوجـوم يتهيؤون للانصراف، جاءه الأمر من الأستـاذ الكبير أن يبقى بجـوارها حتى تمـوت. ولأن لا طبيب بلا ممـرضة فقـد تـرقب همسـة «الأخت تـريزا» التي ستحـدد الاسم، وما كـاد يسمع «انشـراح» التي نـطقتهـا «انسراح» حتى وجم وكاد يغضب ويدفعه لطلب آخر. ثم رن في أذنه المثـل «خسرانـة خسرانـة»، وأصبح منـاسباً جـداً في نظره أن تكـون «انشراح» بالذات هي شريكته في انتظار المـوت.

وحين «صفصفت» الحجرة عليهما ولـم يعـد هناك إلا هـو وهي والموت الرابض على صدر السيدة، بدأت المهمة تتحـول من روتين

إلى نوع من الواجب الثقيل. لو كانت شريكته في انتظار النهاية نـاهد مثلاً أو سهير أو مديحة أو حتى كاميليا لانقلب الواجب إلى متعة، أما المتوحشة البـراوية «انشـراح»، الغاضبـة أبداً، المتنمـرة تكاد «تخـانق ذباب وجهها»، فأي أمل له في بعد ظهر هادىء حتى؟

بعـد ظهر كـان قد بـدأ من زمن، وقفزات عقـرب الدقـائق في الساعة التي تتوسط الحائط من احساسك ببطئها تبدو كل مرة كما لـو كانت تفاجئك بحدوثها. بعد ظهر أصبح خوفه أن يطول ويطول حتى ليصل الظهر بالمساء، ومن يدري ربمـا بالليـل أيضاً؟ ومـا دامت ميتة ميتة فلماذا هذا العذاب كله؟ وما دامت هذه الأنفـاس المأخـوذة على هيئة شهقات ـ مفاجئة أيضاً كقفزات العقرب ـ خارجة بسرعة كالزفرة. ما دام هذا هـو تنفس «طلوع الروح» فمـا الداعي لعـذابها بـاستمراره واستمراره؟ ما الداعي «يا ست انشـراح» بلا أي «انشـراح»، العاقـدة ملامحك وكأن المسجاة هي السيدة والدتك، المنكبة حضـرتك على ابر التريكو بأصابعك القمحية الرفيعـة الطويلة كـإبر التـريكو تنجسين بـدايـة «البلوفـر» التي لم تـزد رغـم آلاف الغـرز مسـاحتهـا، وكـأنمـا حضرتها ـ لتغيظه ـ تنسج غرزة وتفك غرزة؟ ما الداعي؟ . .

لو التفتت إليه لحـظتها أو رفعت رأسهـا لكان ـ ودون نـظر لأي اعتبـار ـ قد بـدأ الشجـار، ذلـك أن غيـظه بعـد انتـظار دام إلى الآن ساعتين وبضع دقائق كان قد بدأ، وهو على وجه التأكيد ليس غيـظه. فـأي شيء كـان يمت إلى الجـراحـة من قـريب أو بعيـد مهمـا تقبله الآخرون بضيق أو تبرم، ما كان ليأخذه هو إلا كآلام الحب لهـا نفس

مذاق المتعة. الغيظ إذن غيظ وافد لا يزال لا يدري مصدره. . غيظ يبدأ عند وجه «انشراح» الجميل حتى في تنمره، ليتزايد كلما انتقل بعده إلى مجال آخر، وكلما اصطدمت عيناه أو اصطدمت حواسه بشيء من آلاف الأشياء التي تحفل بها الحجرة.

بدايات غيظ جعلت روحه بالتدريج تنسحب من اندماجها التام في دورها الجراحي المحبب، ومن اختلاطها الكامل بكل شيء تحفل به حجرة العمليات ـ مهبط الوحي عنده وقدس الأقداس ـ لتبدأ تتخذ موقفاً محايداً وتعود ترى وكأنها لأول مرة ترى، ولتبدأ دهشة كدهشة الإفاقة من حلم تعتريه. لا ليست هذه حجرة العمليات أبداً. أنها مكان مرعب كئيب لم يره من قبل. فأي معركة شيطانية دارت ولا تزال آثارها طازجة. لا يزال الدم أحمر لم يغمق لونه بعد ـ دم واصل حتى السقف الأبيض راسماً خطوطاً متقاطعة ومتقاربة ومتفرقة. . خطوطاً مكونة من مئات النقاط رسمها لابد دم تفجر تحت ضغط شديد. انفجارات دموية كثيرة لابد دارت هنا. . إلى أعلى وإلى الجوانب ترتسم على جدران الحجرة الأربعة، وفي كميات تملأ زجاج الشفاط وتكون بقعاً كبيرة تلطخ المرايل والبلاطي البيض الملقاة هنا وهناك. دم يلوث كل مكان حتى الأحذية المطاطية ذات الرقبة، حتى الأرض الكاوتشوك، بل لم يسلم منه أيضاً زجاج الأضواء الكاشفة البراق والمصفر.

دم كثير من المحال أن تعتقد أن هذه السيدة النحيفة الراقدة يحفل وجهها بسلام كسلام أطفال نائمين. . مصدره. ولكنها بلا شك

كانت المصدر الوحيد، والواضح أنها الطرف المغلوب.

أيكون الغيظ الذي يعتريه الآن غيظاً حقيقياً؟

أيكون ما يراه الآن خدعة أو بداية، أو بالأصح بداية شعور أنه ضحية خدعة شيطانية من المحتم لو صحت أن يفقد لها أثبت العقول وأصلبها الصواب؟

أخذت السيدة شهقة.. قبل أن تكتمل ركبت فوقها شهقة أخرى، وكانت النتيجة شهيق طويل جداً اضطربت له جفونها المسدلة حتى كادت تفتح، وحتى تصور أنه في الشهيق التالي حتماً سيعود إليها الوعي، ومن يدري؟ ربما تحدث المعجزة الكاملة وتعود للحياة.

ولكن رغم دقة القلب العالية الزائدة التي دوت في صدره انفعالاً. فقد بدأ السؤال يلح من جديد: أيكون قد خدع الخديعة يا ترى؟

- ٢ -

ويحدث هذا أين؟.. في نفس حجرة العمليات التي شهدت منذ بضعة شهور أعظم لحظات حياته، اللحظة التي وعى فيها لأول مرة بالحياة.. حياته، وأدرك عن يقين لماذا يريد أن يعيش.

لقد بدأت مشكلته بعد أن تخرج وأصبح طبيباً، واستهلك في بضعة أسابيع كل متع الفرحة بالتخرج والاحساس الغامر الجميل بأنه

انطلق من عقال تلمذة طالت وعليه أن يعب من متع الحياة الصغيرة التي حرم منها طويلاً. واجهته حينذاك مشكلة ماذا يريد أن يكون؟ لقد دخل الكلية بالمجموع وواصل الدراسة ونجح بالرغبة الغريزية في التفوق على أقرانه، وها هو ذا الآن بعد التخرج يستعرض أمام عينيه كل فروع الطب فلا يجد في نفسه مثقال رغبة في أي منها. بل انه حتى بعد أن تخرج وأصبح يزاول المهنة لا يجد في نفسه أي رغبة فيها أصلاً. وكاد يصبح الأمر كارثة، فإنها لمهزلة أن تبدأ بعد وصولك إلى هدف ما قضيت في الوصول إليه أعواماً طوالاً، أن تكتشف أنه ليس هدفك، وأن عليك أن تبحث عن آخر.

ولقد ظل هذا يحدث وهمّ البحث يؤرقه، حتى انتقل إلى العمل بقسم الجراحة. حين دخل ذات صباح باكر هذه الحجرة، ومر بالطقوس المعتادة من ارتداء ملابس العمليات والاغتسال والتعقيم وإحاطة رأسه ونصف وجهه بالقناع الأبيض المشهور، هنا حيث رأى أستاذ الجراحة الكبير لا يصف الدواء ويترك للعمليات الغامضة في الجسم أن تعمل عملها وتشفى، وإنما بأصابعه الطويلة الحادة القوية يقطع ويصل ويستأصل ويعيد التشكيل. هنا حيث بإرادتك أنت وحدك وبقدرتك يتم الشفاء. يدخل المريض يتلوى من شدة الألم أو من اليأس، وبعد ساعة يخرج وقد شفي تماماً وانتهى ألمه. هنا حيث يختلط دور الجراح بدور الساحر القديم، والعلم يصبح حرفة ترتفع إلى مصاف الفن، والعملية السحرية كلها تدور في ذلك المكان البالغ النظافة، الشاحب الضوء، المعقم.. بصمته القدسي الكلمات

في تتحول إلى همسات تختلط بـالفحيح الصـادر من أجهزة التعقيم، وتنسجم مع الحركة الصوتية المتتابعة لتنفس المريض من خلال جهاز التخدير. بالسكون المضمخ بروائح اليوسول واليود والأثير، السكون الحي النابض بدق القلب وهو يتحول إلى إشارات موسيقية ضوئية. . السكـون الذي يتنفس تنفسـاً خاشعـاً منتظمـاً. هنا اكتشف الجـراحة كعلـم وكسحر، واكتشـف أن ها هنا يوجد أمله ومن الآن سيصير هدفه من الحياة.

وكان طبيعياً وقد اكتشف الهدف أن تأخذ السعـادة عنده شكـل الهوس. . حيث لا يعود يأكل أو يستريح أو يحلم إلا وهو يقوم بشيء من أجـل عمله الـذي أصبـح حبـه الأكبـر. سمـاه زمـلاؤه مجنـون الجـراحة، وكـانوا يغيـظونه بقـولهم إنه إنمـا يتفانى ليـرضي الأستـاذ وليتكتك لينال وظيفة «نائب الجـراحة» حين تخلو، مـع أنه يعلم وهـم جميعاً يعلمون ألا أمـل له في هـذه الوظيفـة إذ أن درجاتـه لا تؤهله. ولكنهم معذورون فالعمل عندهم مرتبط بالمصلحـة، ومن المحال أن يستطيعوا هضم أن يعمل الإنسان لأجل متعة العمل نفسها.

ولقد كان يعمل ويتفانى بـلا كلمة تشجيـع واحدة، وحتى وهـو يـدرك أن رئيسه النائب. ينسب معـظم الأعمال أمـام الأستاذ لنفســه. فماذا يهمه أن يعرف الأستاذ اجتهـاده؟ إنه لـم يكن يعمـل ليرضيـه بل ليرضي ذلك الشيء المركب فيه الذي لا يرضى أبداً! نفسه.

بل بدلاً من التشجيع كان بالضرورة يناله كمّ غير قليل من شتائم الأستـاذ الدكتـور أدهم أستـاذ الجـراحـة. . وليس هـذا رئيس القسم

فقط. إنـه كبير أسـاتـذة الجـراحـة في المستشفى كله. والجـراح في المستشفى يحتـل مكانـة لا يحتلها زميله طبيب الأمـراض الباطنيـة أو طبيب الأطفـال مثلاً. إنـه له بجـانب العلم مكانـة دنيويـة، فهو ليس عالماً فقط ولكنه عالم يزاول العلم أمامك.. وأمامـك يحيي ويميت. ولأن المهنـة هي التي تفرض الخلق والتصـرف فعند الجـراح أسهـل الطرق البتر، وأي كلام ليس له فاعلية المشرط وحسمه هـذر فارغ لا يقال، وما دامت إرادتـه هي نفسها الـدواء فإحسـاسه بنفسـه يتعاظم، وكلمته مهما تكن أمر واجب النفاذ. وليس صدفة أنهم يسمون حجرة العمليـات بمسرح العمليـات، فالجـراح في هذا المسـرح هو الإرادة الكبـرى والعقل المفكـر، والحاضـرون جميعاً من بشـر أو أجهـزة أو عقاقير ليسوا سوى أدوات في يد تلك الإرادة تصنع بهم الشفاء. ولأن احسـاس الآخرين عنـد الجراح غيـر مهم، إذ المهنـة تحتم عليـه أن يلقي شعوره بإحساسهم إذ هو لو شعر أن جـرحه يؤلم لارتعشت يـده ولربما نفق مريضه، ولهذا هو أيضاً لا يهتم بوقع كلماته عند الآخرين حتى لـو جـاءت شتـائم ولعنـات.. فمسئوليتـه الخـطيـرة أن تنجـح العملية، وملعون أية حركة أو خطأ يحول دون هذا النجاح.

كانت شهرة الأستاذ أدهم إذن كرئيس لا يرحم تكاد تعادل شهرته كأستاذ جراحة ممتاز، ولأن أطباء الامتياز يحتلون أدنى مرتبة في سلم المستشفى الطبقي فنصيبهم من شتائمـه ولكزاتـه وافر، ومعـاملته لهم أسوأ بكثير من معاملته للممرضات أو التمورجية. وويـل لمن يفكر في الاحتجاج أو الذود عن كرامته فمعنى هذا نهايته، فهو لا يجر عداوتـه

أو غضب رئيس القسم فقط، ولكن الدكتور أدهم كان أيضاً كبير الأساتذة والقائم بعمل عميد الكلية ومستشار وزارة الصحة.

ورغم كل ذلك، ومن فرط الحب والانتماء للجراحة وكأنها المبدأ أو العقيدة التي ظل يبحث عنها، فقد راح ينظر للأستاذ أدهم باعتباره قائده لهذا المبدأ ووسيلته للوصول. وليس مثلها سعادة تلك التي يجد الإنسان مبدأه فيها وقد تجسد على هيئة قائد وعقل أكبر. وليكن الأستاذ أدهم شيطاناً مرعباً في نظر الآخرين، ولترتجف له الأوصال إذا حضر وحتى إذا غاب، ليكن! فقد وجد فيه الأستاذ الكبير والراعي والعالم، ويبدو أن الأستاذ أدهم هو الآخر قد وجد فيه نعم التلميذ، فقد راحت شتائمه إليه تقل حتى انتهت وحتى أصبح يناديه باسمه الأول وفي هذا من التكريم ما لم يحلم به أحد، وليأخذ حياته كلها بإشارة منه لو أراد فلم يعد في الحياة شيء يجلب السعادة قدر أن يتلقى عبد الرءوف الأمر، أي أمر، وقدر أن يفني نفسه تماماً لتنفيذه، وقد أصبح رضا الأستاذ أدهم من رضا الضمير، من رضا الله، الله المتجسد بكل قواه وخيره وكماله.

- ٣ -

ما اجتمع رجل وامرأة إلا وكان الشيطان ثالثهما.

ورواة الحواديت يقولون: كان فيه امرأة.. وكان فيه رجل.. ثم يحدث الحدث.. ويتساءلون: الحق على المرأة أو على الرجل؟

ولكن لا الأقوال المقدسة، ولا الأساطير قد تعرضت بذكر للموقف الذي هو فيه، فهو الرجل صحيح، وانشراح المرأة.. ولكن ثالثهما هو الموت.

وصحيح أنهما ينتظران معاً نهاية السيدة المسجاة أمامهما، وإلى الآن وكل منهما ينتظر الموت بمفرده، فهي منكبة على ابر «التريكو» وهو منكب على خواطره وبينهما ما هو أكثر من الموت.. الحياة نفسها وكل ما سمعه أحدهما عن الآخر. وما سمعه عنها أشياء مرعبة لا تشجع أبداً، فلقد أخطأ أحد زملائه وهو يعمل معها في ظلام غرفة الأشعة مرة وحاول لمسها، وانفتح فمها لتكتسح ظلام الحجرة ومن بعدها ضجة قسم الأشعة كله وممرات المستشفى وعنابره، حتى ان المسكين لم يجرؤ على أن يرى وجهه لزملائه أو للعاملين بالمستشفى إلا بعد إجازة عشرة أيام، وكان لا يزال وجهه محمراً بالخجل حين عاد منها.

ولابد أنها هي الأخرى سمعت عن عبد الرءوف وعن انكبابه المجنون على العمل، ذلك الذي كان له تفسير واحد عند الممرضات والحكيمات والسسترات: أنه متكبر، وأنه وهو طبيب الامتياز المفعوص يتخلق بأخلاق الجراحين الكبار، وبالذات يصنع كما يصنع الأستاذ أدهم، ويضرب بالشلوت أحياناً.

والحقيقة أن قولهم هذا لم يكن يخلو من الصحة، فقط لاحظ عبد الرءوف على نفسه أنه كثيراً ما يعبس، وأنه لم يضبط مرة متلبساً

بضحكة أو كلمة هزل مع طبيبة أو حكيمة من التي تقال همساً في أركان المستشفى وما أكثرها من أركان. وإذا كان قد تعلم أن يعبس بوعي فما أكثر ما نضح إليه من خصال الأستاذ أدهم بغير وعي منه، ودون أن يلحظ أصبح يبدأ الجمل من نهايتها كما يفعل أستاذه، وتخرج كلماته الأولى همهمات صعبة التمييز، وبنفس طريقة أدهم يترك محدثه يتكلم ثم يفاجئه في منتصف كلامه بتحديقة فاحصة مخترقة من عينيه الواسعتين بحيث يرتج دائماً على المتحدث أو ينهار لو كان يكذب، حتى لازمة أدهم المعروفة: يا اسطى! أصبحت لازمته.

والغريب أنه قد بدأ يتكون له بهذه التصرفات نفسها، ومهما قيل في أصلها ـ مركز متميز بين زملائه أطباء الامتياز، وأوامره أصبحت تقابل باحترام لا يمت بصلة إلى هز الأكتاف الذي تقابل به أوامر الآخرين التي كثيراً ما تأخذ شكل الرجاء. ولكن السبب الأهم في الحقيقة هو تفانيه في العمل في وسط يتعبر فيه العمل واجباً ثقيلاً مفروضاً ولا هدف منه سوى الماهية، وما دامت مضمونة فما الداعي لوجع الرأس.

وكان يومه الأكبر ـ حلمه الدائم طوال أيام الأسبوع ـ هو يوم العمليات.

كان يصحو له من الرابعة صباحاً، ويحس بالسعادة الكبرى بكل عمل يقوم به لتجهيز المرضى للدخول إلى الغرفة المقدسة. ولا يكتفي بواجبات الطبيب إنما بنفسه يشرف على استحمام المرضى

وعلى إزالة شعورهم وعلى تجهيز أوراقهم وأشعاتهم. . ويكفيه شبح ابتسامة رضاء سريعة تلوح على وجه الأستاذ. كانت الانفعالة التي تحدث له في أعقاب هذه المكافأة التي ربما لا يلحظها أحد أروع عنده من كل الشهادات والوظائف والعلاوات.

وكان اليوم يوم العمليات، وناهيك عن العمليات الصغيرة التي ستكون من نصيبه ونصيب زملائه، والتي سيقوم بها النائب والمدرس ومساعد الأستاذ. همه كله كان موجهاً لتلك الحالة النادرة التي جاءت إلى العيادة الخارجية منذ شهرين وأبدى الأستاذ اهتماماً خاصاً بها، فلقد زاول ـ الأستاذ ـ الجراحة حتى أصبحت العيادة الخاصة تدر عليه دخلاً يكفيه مستمتعاً مدى الحياة. ولم يكن يأتي إلى المستشفى الحكومي الكبير إلا ليلتقط بين الحين والحين حالة تشبع مزاجه الخاص، كجراح أصبح لا يزاول الجراحة لشفاء الآخرين بقدر ما أصبح يزاولها لفن الجراحة نفسه، ليضيف إلى أمجاده فيها مجداً جديداً، ويصل إلى أرقام قياسية لعدد ما أجراه من عمليات. وحبذا لو استطاع أن يجري هنا في مصر عملية لم يسبقه إليها جراح آخر، ويتيه بعرض ما قام به في المؤتمرات، ويتلذذ وهو يقرؤها منشورة في مجلات الجراحة في أوربا وأمريكا. ولا أحد باستطاعته أن يستغرب هذا أو يلومه. . فقد وصل إلى مكانة أصبح فيها هو الجراحة، وما يقوم به ليس مجرد تطبيق وإنما هو تجارب يضيف بها إلى العلم وإلى تراث البشر، ولا ضرر أن يفعل هذا لمجد ذاتي يناله، فما من فائدة للعلم أو للبشر إلا والدافع إليها متعة ذاتية.

هذه السيدة بالذات جاءت إلى العيادة بشكوى بسيطة، مجرد خدل في ساقيها واحساس بالتعب السريع إذا مشت طويلاً.

ويومها أزاح الأستاذ أدهم النائب وهو يقوم بفحصها، وفي دقائق كان قد انتهى من فحصها، وكعادته نطق بالتشخيص: ورم خبيث في العمود الفقري.. وعلى وجه الدقة سرطان في الغضروف مكانه بين الفقرة الرابعة والخامسة للبطن. كان من رأيه أن الاعتماد على الفحوص والمعمل فى التشخيص مسألة تحيل الجراح إلى آلة حاسبة، أما الجراح الحقيقي فهو الذى بمجرد الفحص يشخص، وإذا لجأ إلى المعمل أو الأشعة فإنما ليتأكد فقط من تشخيصه وليكتسب الثقة بنفسه أكثر وأكثر.

وهكذا أدخلت الحالة ليس لعلاجها أساساً، وإنما لإجراء الفحوص وليثبت بها الأستاذ أدهم لنفسه ولمجموعة الأطباء التي تعمل معه أنه كان على حق وأن رأيه أبداً لا يخيب.

ولم تكن هذه أول حالة تدخل القسم لهذا السبب، فما أكثرها من حالات لا يتعجب أحد لإدخالها لمجرد البرهنة على صحة التشخيص! فالأستاذ أدهم لا يفعل في الحقيقة إلا أنه يزاول حق التميز. ذلك الحق الذي يحلم جميع العاملين معه - جميع الطلبة والخريجين - بالوصول إليه.

ومكثت السيدة بالقسم شهرين وأجريت لها عشرات الاختبارات والتحليلات وصور الأشعة، ومع هذا ظل الورم الصغير الذي بالكاد

تلمسه الأصابع في قاع بطنها لغزاً لا حل لـه. ولم تكن قد بقيت إلا وسيلة واحد لحل اللغز، أن تجري لها عملية استكشاف فيفتح البطن ويفحص الورم ويصل الأستاذ في أمره إلى قرار.

- ٤ -

في العاشرة كانت كل العمليات الصغرى قد انتهت، وفي ثوان كان المسرح الجراحي قد نظف تماماً وأعيد ترتيبه، وجيء بالسيدة مخدرة وحملت ووضعت فوق منضدة العمليات الرئيسية وسلطت على بطنها العاري أنوار الكشافات القوية، والكل في موقعه مستعد للبدء، بينما «سستر العمليات» الإيطالية تراجع للمرة الثالثة كالتلميذة قبل الامتحان كل ما تتطلبه العملية من أدوات، وكان الأستاذ يغتسل ويتعقم.

في العاشرة وعشر دقائق كان رأس المشرط ينغرز قريباً من «السرة» محدداً نقطة البداية، ثم في خط مواز لمنتصف البطن تسحبه اليد الشهيرة التي أصبحت جزءاً من تاريخ الجراحة في مصر سحبتها السحرية، وفي ومضة ينقض المساعدون بالملاقط يغلقون بها كل الأوعية الدموية الصغيرة التي تقطعت وبلا زمن يربطونها بالخيط الخاص، والجرح قد أصبح نظيفاً بلا نقطة دم يكشف عن دهن ما تحت الجلد.

ولابد أن لحظة رضاء قد مرت بالأستاذ وهو يستمتع بقيادته

لهؤلاء الناس، فهو لم يعد بحاجة أن ينطق بكلمة، فقد تعلموا تماماً أن يفهموه. . حتى والفكرة أو الأمر لا يزالان مشروعين في رأسه كانوا يستطيعون التقاطهما والشروع في تنفيذهما.

حتى ارتدادة عينه من فوق القناع إلى طبيب التخدير ترمقه في هذه اللحظة بالذات، يفهمها الطبيب في الحال، ويمد يده إلى مفتاح الغاز في جهاز التخدير، وترتخي عضلات السيدة تنفيذاً للأمر الذي تلقاه بنظرة العين.

العاشرة والنصف:

لا بد أن يده الآن تلمس الورم، ولا بد أنها بحركتها طولاً وعرضاً تتحسسه وتحدد حجمه وامتداده، ولقد ظل مساعدوه الأربعة - وعبد الرءوف لسعادته الكبرى ودوناً عن بقية زملائه يقوم بدور المساعد الرابع - يكادون يكتمون الأنفاس استعداداً لكلمته التي سيصدر بها حكمه على الورم، وحين أفلتت شفتاه كلمة: غريبة! لم يجرؤ أحدهم حتى أن يسأل.

وقبل أن يطلب الملقاط القاطع الذي يستخدم لأخذ العينات الحية، كانت يد السستر تضعه في يده المفتوحة. وحين تم أخذ العينة كان على عبد الرءوف أن يطير بها إلى قسم «معمل الأمراض» لتفحص بالميكروسكوب ويصل الاخصائي إلى قرار بشأنها. وحينذاك فقط عرف الجميع أن الأستاذ لم يصل بعد إلى معرفة كنه الورم.

وكالعادة لم يجد عبد الرءوف الأخصائي في مكتبه. . كان قد

ذهب إلى الإدارة لأمر لعله المطالبة بتسوية حالته. وكان عبد الرءوف يستغيث رجاء في التليفون ولم يصل إلا بعد ربع ساعة، وأخذت عملية اعداد الشريحة واعداد الميكروسكوب والصباغة وضبط النور ربع ساعة أخرى. حتماً ستطير رقبته وبالذات حين قرأ في النهاية التقرير الذي كتبه الاخصائي بخط لا يقرأ وأدرك معه أنه لا يستطيع الجزم إن كان الورم نابعاً من العظم أو الغضروف أو أي نسيج آخر، وكذلك من الصعب تحديد إن كانت الخلايا خبيثة أو حميدة.. كارثة!

وظن أن خللاً قد حدث في نظام الكون حين لم يقابل بكلمة لوم واحدة والوجوم الشديد موجود ولا شيء سواه، فقط حين أمسك بالورقة قريباً من عيني الأستاذ وقرأ الأخير التقرير تفجر بركان الغضب وانهالت الشتائم بادئة بالمعيدين أجمعين، مارة بالجامعة والكلية وخراب الذمم والفساد والملعون الأخصائي. أما هو عبد الرءوف فقد نالته لكزة غليظة من كوع الأستاذ.

وكان الغضب قد تسرب إلى الحاضرين جميعاً، وإلى الحجرة كلها بكل ما تحتويه يكاد جوها يرعد ويبرق والتوتر وصل إلى أقصى مداه. ولم يكن أحد يستطيع في وسط هذا كله أن ينطق بكلمة أو يشير برأي، وإنما التصرف كله والرأي والحل لابد أن ينطق به الأستاذ حتى وهو في هذه الحالة.. فهو لا يزال الإرادة العليا. وعليه كان المفروض أن تؤخذ عدة عينات أخرى ثم يغلق جرح البطن وتكون عملية الاستكشاف قد تمت بنجاح، فما دمت لا تعرف كنه

الورم فمن غير المعقول أن تعبث به أو تمد يدك لاستئصاله مثلاً.

ولكنهم ـ حتى قبل أن يصدر أوامره ـ كانوا يعرفون أن من المحال أن ينكص وأن يكتفي من الغنيمة بقفل الجرح. وهكذا حين كظم غيظه لحظة ومن بين شفتيه المطبقتين صدرت الغمغمة المعتادة تقول:

ـ إيه رأيكم؟ الفتحة واتفتحت، والورم مش كبير وشيله مسألة سهلة.

لم ينطق أحد كالعادة ولا هو انتظر أن ينطق أحد.. واصل كلامه بحماس مفاجىء:

ـ شوف النبض كام؟ وضغط الدم؟ والتنفس؟.. ممكن بنج ساعة كمان؟ جهزوا نقل الدم وعقموا الآلات الزيادة.. بسرعة.

بأسرع سرعة تفرق الجمع الملتف حول المريضة الراقدة بلا حول، وتلاحقت سلسلة الأوامر تبعثرهم في كل اتجاه، بينما باشمئناط خلع الأستاذ أدهم قفازه وطلب سجائره وولاعته وانتحى ركناً قريباً من غرفة الاغتسال، ومضى في حجرة العمليات يدخن، والسستر الطليانية ترقبه بغضب لا يراه.

وفي هرج ومرج عقمت الآلات بسرعة وبطريقة بدائية بأن صبوا عليها الكحول وأشعلوا النار، وجلبت أسطوانة أوكسيجين لم يتمكن أحد من فتحها فدفعها الأستاذ بساقه دفعة أسقطتها وأحدث سقوطها دوياً كالقنبلة.. وجيء بأخرى. أما الدم فقد اكتشفوا أن فصيلة دمها

لم تحدد بعد، وكان على طبيب نقل الـدم أن يحضر معـه زجاجـات من كل مجموعة. . وأخيراً ركبت الزجاجة في الحامل، ولكن قبل أن تتسرب منها نقطة واحدة إلى وريد المريضة كان الأستاذ أدهم قد عيل صبره، وكان قد أمسك بالملقط والمشرط بينما مساعدوه الثلاثة ـ وقد أخرج منهم عبد الرءوف ـ يفتحون له الجرح ويزيحون أعضـاء البطن ومصارينه بالمزيحات المعدنية، كاشفين الورم بقدر ما يستطيعون.

كانت العملية الكبرى، عملية الاستئصال قد بدأت.

وعلى مجال رؤية تقـريبي بدأ الأستـاذ يستأصـل الجزء الأعلى من الورم، وبالمشرط والملقط يفصله عن العامود الفقري من الخلف والغشاء، البريتوني والكلية والطحال من أمام، وبدا أن كل شيء رغم كل ما حدث يسير على ما يرام، والصمت يخيم والرقاب مشرئبة علها تلمح الورم أو تستطيع بطريقة ما أن تلقي نظرة على البقعة التي تعمل فيها المشرط والملقط.

وفجأة تفجر من فتحة البطن عـامود دمـوي حاد، وارتـطم الدم المنبثق بزجاج المصباح الكشاف. . عامود مفـاجىء غير متـوقع أبـداً شحبت له الوجـوه جميعاً فهـو يعني أن شريـاناً قـد انقطع، وفي تلك المنطقة التي كانت تدور فيها عملية التشريح لم يكن ثمة شريـان آخر غير أضخم شرايين الجسم. . الأورطي. أتكون قد حدثت الكارثـة، كارثة أبشع من قطع شريان الرقبة، أيكون الأورطي قد قطع؟

ـ ٥ ـ

حين أوغل بعد الظهر في تقدمه، وراقب قفزات عقرب الدقائق حتى ملها وأصبحت الساعة تقترب من الخامسة وقد مضت أكثر من ساعتين على العملية الكبرى، بدلاً من الغيظ انتابته فجأة موجة استخفاف. أحس بلا مقدمات أن القداسة تذهب عن كل شيء في محرابه المقدس، وأن حجرة العمليات تتعرى عن ذلك الغموض المعقم الساحر الذي كان يصبغ كل شيء فيها. بل وزحف استخفافه ليشمل ذلك الشيء السخيف تماماً.. المضحك جداً.. الموت.. الذي ربما يبدو مأساوياً رهيباً حين نسمعه كخبر ابن لحظته، وندرك في ومضة أن فلاناً الحي قد مات وانتهى. أما حين يصبح الموت حدثاً يدور أمامك، ويمثله وتنتظر أن ينتهي فلا تبدو له نهاية، حين يصبح لحظة تتكرر ودائمة التكرر، تذهب رهبته تماماً وتصبح شيئاً كالحياة التي لا معنى لها، وأقصى ما تشعر به حينذاك أن تحس بالملل. ولا بد أن ذلك الملل هو الذي دفعه للاستخفاف، ليدفعه الاستخفاف أن يقرر رغم أي اعتبار آخر ـ أن يحادث «انشراح».

ـ سمعت آخر نكتة؟

توقفت أصابعها المكوكية وحدقت تجاه عبد الرءوف وجحظت عيناها قليلاً، ثم حين رأته يعني ما يقول جحظت عيناها أكثر.

ـ سمعتيها؟

ـ هي إيه يا دكتور؟

عجيب صوتها، أول مرة يسمعه وإن كان كثيراً ما سمع عنه، هادىء ومؤدب.. أم هو تمثيل وتأدب؟

ـ النكتة.. آخر نكتة.

حركت تحديقها في وجهه ورمقت السيدة المسجاة، ثم أرخت عينيها وقالت بصوت منخفض:

ـ حرام يا دكتور! حرام! ده وقت نكت؟

ـ أمال وقت تريكو؟

واغمق وجهها القمحي الشاب خجلاً، وكفت أصابعها عن الحركة في الحال، وجمعت الكرة والنسيج والإبر في يد أسقطتها بجانبها، ثم بعد ثبات في مكانها برهة انسلت قائمة متحركة ببطء ناحية النافذة العريضة ذات الزجاج المصنفر، وفتحت ضلفة منها وأطلت برأسها، ثم ما لبثت أن ارتكزت بذقنها على يدها. اعتقد أنها تفعل هذا خجلاً في حين أنها ـ كما أخبرته بعد هذا ـ كانت تحاول أن تكتم عنه نوبة الضحك الشديدة التي انتابتها.

ولكنه لحظتها، وبوقوفها ومشيتها وارتكازها، تحول انتباهه إلى الشيء الوحيد الذي غاب عن عينيه طيلة الوقت: انشراح الأنثى. الآن وجهها مختف وجسدها الخلفي بكامله أمام عينيه. وبمثل ما يرى الإنسان أول ما يرى وجه المرأة من أمام، تسقط عيناه أول ما تسقط حين يراها من الخلف على ساقيها.. وجهها الخلفي. وجه نادر الجمال.. نادر أن تلتف الساق بلا ترهل أو نحافة، وتتسق مع الوسط والأرداف والكتفين.

كيف استطاعت حواري شبرا المختلفة بازدحامها أن تنبت هذا الجسد السمهري المتسق الفارع؟

أيكون تنمرها وتوحشها علامات أنوثة يسيء الرجال فهمها؟

وأي طراز من الرجال يا ترى تفضل؟ مهما كان طرازها فبالتأكيد لا يمكن أن ترى مثله في الشاب النحيف الطويل ذي الشعر الأصفر والعينين الملونتين الذي ـ وإن كان يعجب أغلب البنات والسيدات ـ ولكنها هي بالتأكيد مختلفة، ومزاجها مختلف.

أيحاول بلا مقدمات أن يجس النبض؟

أم يحترم نفسه كما ظل يحترمها ويقنع بالسكوت؟

- ٦ -

الدم المندفع المفاجيء معناه غلطة. . وغلطة لا يرتكبها طبيب امتياز أو حتى طالب طب، فكيف ومرتكبها هو كبير أساتذة الجراحة؟ كان واضحاً أن هناك سراً وأن شيئاً غير عادي لابد يحدث. ولأنها ليست على ما يبدو غلطة، ولأنه حقاً كبير أساتذة الجراحة، فلم يستغرق الانفجار سوى ومضة. إذ في ومضة كانت يده قد امتدت وانتزعت قطعة كبيرة من الشاش المطبق، وبدقة شديد كتم بها مصدر الانفجار وكف الدم عن التسرب تماماً.

وصحيح أنه لم يقل في لحظتها السبب، ولا أحد استطاع التخمين، ولكن لم يكن من الممكن أن يستمر الغموض طويلاً، فقد

اتضح أن الورم قد أحاط بالأورطي وابتلعه داخله، وأنه في محاولته فصل الورم جرح الأورطي.

والتفت إليهم بعد لحظة هدوء، وقد عادت شخصية الأستاذ الكبير تسيطر:

ـ الجراح الناجح هو اللي ما تهزوش أي مفاجأة تحصل حتى لو انجرح الأورطي. الجراحة أعصاب، واللي ما عندوش أعصاب يدور له على شغلة تانية يا أسطوات. المسألة حلها بسيط زي ما شفتم.. وقفنا النزيف، بعد كده نخيط الجرح.

ولرأب الجرح الذي حدث للوعاء الدموي الكبير فلابد من إحاطته بغرز يضمها خيط واحد تجذب طرفيه وتعقده فتتعلق الفتحة كما تتعلق فتحة كيس النقود.

ولقد تولى الأستاذ المساعد مهمة كتم الجرح ريثما ينتهي الأستاذ من إحاطته بالغرز بإبر خاصة، وبخيط خاص. ولكنه ما كاد يجذب طرفي الخيط ليعلق الفتحة حتى تفتت الجدار من حول الجرح وتفجر الدم في نافورة غزيرة مروعة. هذه المرة كانت قد اتضحت الحقيقة المرة.. جدار الأورطي قد تهرأ حين ابتلعه الورم ولم يعد يحتمل غرزة، وقد حاول ربطه كلية وإذا به ينقطع تماماً ويتفجر بحر من الدماء اندفع هذه المرة في كل اتجاه يغرق أنحاء الغرفة ويلطخ الوجوه ويملأ العيون ويعمي لابسي النظارات ويحيل الأقنعة

البيضاء إلى حمراء قانية. دم كثير وكأن عشرة رجال ينزفون معاً، تعجب كيف أن مصدره الوحيد هو هذه السيدة النحيلة الغائبة عن الوعي.

وكما أصاب الدم الموجود فسوى بين ملامحهما تكفلت الفوضى والارتباك بإحالة الحجرة إلى مكان انتهى منه النظام تماماً.. مليء بالصرخات العصبية والتخبط والجري في كل اتجاه والتعثر في كل خطوة، تلمع الكلمات كالشهب بلا صدى.. نقل الدم، رباط ضاغط، ضاغط، يا ابن الكلب، يا بهايم، امسحوا الدم اللي في عيني، يا غجر امسحوا الدم.

وامتدت كل يد تستطيع الامتداد إلى بطن المريضة وليذهب التعقيم إلى الجحيم. وأخيراً وبلفة قطن بالغة الضخامة وتحت ضغط ثماني أيد أمكن سد فيضان البحر المكتسح سداً مؤقتاً، فالنزيف كان لا يزال مستمراً وبمعدل أسرع من زجاجات نقل الدم الأربع المفتوحة صماماتها إلى آخرها، والجميع وقد أطار عقولهم ما حدث لا يرجون إلا فرصة واحدة ـ ثانية ـ لالتقاط الأنفاس.

وحين جاءت الفرصة وأحكم الضغط على الأورطي تماماً بحيث كفت الدماء عن التسرب، كان الخاطر الذي هبط بثقله على الجميع هو أن السيدة قد حكم عليها ـ هكذا ـ بالموت، وأن العملية التي بدأت لعبة واستكشافاً قد انقلبت إلى مأساة، وأن لا حل.

ـ أظن ما فيش فايدة.

قالها الأستاذ المساعد باستسلام.

والمفاجأة كانت حين ارتفع صوت الأستاذ:

ـ ما فيش فايدة إزاي؟ الكلام ده يحصل مع واحد تاني غير أدهم شفيق. مش أدهم شفيق اللي تموت منه عملية.. الأورطي انقطع حا نشيله كله ونشيل الورم كمان ونحط بداله وصلة من شريان الفخذ. اطلبوا كل الدم اللي في المستشفى وهاتوا اللي في الاسعاف السريع كمان. «تيريزا» إبر خياطة الشرايين وحرير ثلاثة زيرو وشغلوا الشفاط وامسحوا الدم ده كله.. ولا نقطة أشوفها.

كانت أوامر كهذه تهبط عليهم دائماً وكأنها أوامر السماء! تفكيرهم الوحيد هو كيف ينفذونها وبأكمل وجه كأنه كان يخاطب خشباً مسندة هذه المرة. صحيح أنهم تفرقوا يجهزون ما أمر به ولكنهم كانوا كأنهم فقدوا الإيمان بما يقول.

ولقد تم كل شيء كما أراد، وربط الأورطي بعيداً عن أجزائه المتهرئة، واستؤصل الباقي مع الورم، وامتد الجرح إلى الفخذ واقتطعت من شريانه أوسع قطعة وصل بها الأورطي، ودار كل هذا ولا أحد يكاد يصدق أنه يدور فكأنه يحدث في منطقة وراء العقل، أو انقلبت الحجرة بهم إلى فندق تحول فيه الواقع إلى كابوس، والأشخاص والأشياء إلى رموز، والجو ملبد مشحون.

وكان الجميع ـ وربما بما فيهم الأستاذ نفسه ـ يتوقعون أن تنتهي السيدة قبل أن تنتهي العملية، ولكن أغرب شيء أنها رغم كل ما

نزفت وضاع من الدماء، رغم ضغط دمها الذي كان كالبندول يتأرجح ويقترب عشرات المرات من منطقة العدم، والقلب الـذي كان ينبض ثم يكاد يكف ليعود ينبض، رغم كل هذا لم تمت مع إدراكهم جميعاً والعلم معهم أنها لابد أن تموت. إلا أنها ـ وكـأنما سخـرية بهم ـ لم تمت. ولعل هذا هو الذي شجع الأستاذ في الثالثة، وبعد العملية التي استغرقت خمس ساعات طوال أن يقول:

ـ اللي عليّ عملتـه، وما كـانش يخـرج من إيـد أي جـراح في العـالم أنه يعمـل أكثر م اللي عملتـه. إنما حنعمـل إيـه بقى لـوزارة الصحة؟.

فـالمستشفى في رأيه خال من الخيوط الحـريريـة ذات السمـك المضبوط، والإبر أصغر مما يجب، وغرفة العمليات ليس بها أجهـزة تكييف هواء تساعد على هـدوء الأعصاب.

ـ واهـو كده أو كـده كـان الـورم حـايمـوتهـا، يبقى العلم اللي كسب. فمصـر كسبت عملية عمـرهـا مـا اتعملت، وعمليـة نـاجحـة قـدامكم أهه، والست لسه عايشـة أهه، ولـو كانت الإبـر مضبـوطـة والخيط مضبوط كانت تعيش عشرين سنة كمان. . إنما حظها كده.

* ** *

والحقيقـة أن لا الإبـر ولا الخيـوط ولا أجهـزةالتكييف هي السبب، والسيدة ما زالت لم تمت ـ هذا صحيح ـ ولكن الدم يتسرب

من مكـان الوصلة وبكميـات ضخمة، فليس هكـذا توصـل الشـرايين بالشرايين، فالطريقة خاطئة والفكرة من أولهـا خاطئـة. والخطأ ممتـد وبـادىء من اللحظة التي قـرر فيها أن يحيـل عملية الاستكشـاف إلى عمليـة استئصـال كبـرى، بـل الخـطأ ـ هكـذا يـدرك عبـد الـرءوف الآن ـ يمتـد إلى أبعد، إلى ذلـك اليوم الـذي أصبحت الجراحة عند أستاذه تزاول من أجل الجراحة، وأصبحت العمليات وأصحـابها وهـم غالباً من الفقراء الذين بلا حول، ميداناً لإثبات القدرة والأستاذية.

ـ ٧ ـ

الشيء الذي لم يعمل له حساباً قط هو الذي يحتل عقله الآن تماماً. ليست هذه هي المرة الأولى التي يرى فيها ميتاً يحتضر أو يسمع ذلك الشخير المتصل.. ولكنهـا الأولى التي يعـايش المـوت فيهـا ليست معايشة متفرج، ولكنها معايشة متأمل متـرقب ليرى متى وكيف تكـون النهاية، أو بالأصح نهاية النهاية؟ وكلما تأمل وترقب وانتـظر أحس أنه يغوص أكثر وأكثر في التجربة، حتى بدا وكأنه هو نفسه يعاني نزعات الموت. ولكن حب الاستطلاع يعود يجذبه ويعود يعيش المشهد بكل خلجاته ليرى كيف بـالضبط يمـوت النـاس. وإذا كـان المشـاهـد في المسـرح أو السينما وهـو يعـرف أن مـا يـراه خيـالاً في خيـال ينتفض انفعالاً في انتظار النهاية، فما بالك والمشهد هنا حقيقي والموت فيـه

حقيقي؟ واسم النهاية معروف، ولكن طريقة حدوثها شيء لا يمكن أن يعرف أحد كيف تحدث. أنت هنا لا تضطرب بين اليأس والأمل! إنك تحفر بتفكيرك وترقبك في أعمال اليأس لتصل إلى منتهاه، وكأنك تتوقع أن تموت هذه السيدة الطيبة التي أسلمتهم نفسها بثقة فيهم وفي عملهم ما بعدها ثقة بطريقة لم يسبقها إليها أحد، ما دامت قد اجتازت هذه العملية الكبرى وعاشت بعدها وبطريقة لم يسبقها إليها أحد.

ولم يدرك أنه الآخر قد بدأت تنهد فيه أشياء وتموت مثل الجسد الواهي المسجى أمامه إلا متأخراً. هذا الشهيق المتباعد يبدأ ببطء ويصل إلى منتهاه ببطء ليندفع بعده الزفير فجأة مرة واحدة. هذا التنفس الغريب الذي يسبق الوفاة والذي طال أمده وامتد وانتظم حتى أصبح كالنبض، وانقلب من دليل مؤكد على الموت القادم إلى نبض منتظم.. ليس نبض الحياة وإنما نبض الموت ودقاته تهوي كل نبضة منه كالمطرقة الخرافية البشعة تهد وتسحق الجسد غير الواعي. ولكن الأهم أنها أصبحت تهوي عليه نفسه، وعلى مراكز الحياة فيه فتتهدم وتهوي وتتساقطة حتى أصبح وكأنما كلما أمعن في انتظار لحظة النهاية اقشعر بدنه، مخافة أن تأتي معها بنهايته هو الآخر.

وكالفأر الذي أطبقت عليه المصيدة مضى بكل ما يملك من قدرة على الهرب يستنجد بالخيال.. وبأحداث اليوم.. و«بانشراح»

وجسدها الفائر. ولكن الذكريات والخيالات وحتى الحقائق نفسها كانت تهرب منه وتفر من حضرة أخلد حقيقة عرفها الإنسان ـ الموت ـ أقوى الحقائق كلها، الأقوى حتى من حقيقة أنك حي.

وكالاستغاثة الأخيرة ترك مقعده واتجه إلى حيث تجلس «انشراح» ووضع يده على كتفها، ليجد أن جسدها هو الآخر يرتعش وكأنها هي الأخرى قد بدأت تحتضر.

ضمها عساها أن تكف عن الارتجاف فإذا به يبدأ هو الآخر يرتعش، ويمد يده يتناول يدها فإذا بها باردة. . ميتة بغير شك، برودتها أبداً ليست من صنع الجسد وإنما هي وافدة من مكان بعيد سحيق، نفس المكان الذي يقبل منه الموت! تضغط على يده، وبكلتا يديه يعتصر يدها، وتنتقل برودتها إليه وبرودته إليها. . فالسيدة كان رأسها قد بدأ يتململ، وشخيرها يضطرب، وأجفانها ـ مرة واحدة ـ تفتحت إلى آخرها وبرزت من خلفها عينان واسعتان محدقتان بلا نظرات. كان واضحاً أن شيئاً مهولاً يقترب، اما النهاية التي انتظراها حتى أوغل الليل في تقدمه، واما المعجزة. . وكلاهما مرعب مخيف. فالموت حولهما وفي كل مكان، وهو لا يمكن أن يتراجع! فإذا لم تمت هي فلا بد أن سيكون الموت من نصيبهما.

الموت الكثيف الذي تضبب له جو الحجرة وثقل هواؤها وأصبح النور كالخيوط المنعزلة المخنوقة. .

ماذا بالضبط بدأ وفي قوة عارمة يتدفق في جسديهما؟.. أبدأ ليس خاطراً، ولا انفعالاً، ولا احساساً ولده الخارج أو اندفع من الداخل. وحتى ليس دفقة الحياة الأخيرة حين ينتاب الإنسان ذلك النوع الوحيد من الرعب الذي لا يحسه المرء إلا مرة واحدة في عمره، الرعب من «الموت» الذي يصل إلى درجة أن يميت هو إذا غاب الموت أو اختفى سببه.

ليس جنوناً أيضاً أو فقدان سيطرة.

الحقيقة ليس شيئاً أبداً قابلاً للإخضاع والمناقشة والتفسير.

والعجيب أنه كان يحدث لهما معاً وفي نفس اللحظة، كالآلتين تعزفان نفس النغمة، أو كأنهما أصبحا جسداً واحداً وكائناً متكاملاً.

اشتد التصاقهما حتى وقفا، وتراجعا إلى حافة المنضدة حيث اقتربا، وتفتحت أذرع أربع لتضم الجسدين.

وكأنما هو مسوق بها وهي مسوقة به وكلاهما مسوق بقوة أكبر، دفعا معاً «الترولِلي» المجهز لتحمل عليه السيدة بعد وفاتها ووضعاه حتى أصبح امتداداً لمنضدة العمليات، وبدا ألا قوة على سطح الأرض تستطيع منعهما. ومعاً خلعا ملابسهما، وبمساعدته صعدت فوق «الترولِلي» وصعد هو الآخر، والسيدة كفت عن التلفت والتحديق واستقرت عيناها ـ لا تزالان متسعتين أيضاً وبلا نظرات ـ على الجسدين العاريين تماماً أمامها.

وغير مهم إن كانت ترى أو لا ترى.. المهم أنها استمرت

تحدق حتى حين عاد إليها نبض الموت وعادت تتنفس شخيراً منقطعاً غير منتظم.

والتهب جسده وأحس بها بين ذراعيه تلتهب وكأنهما محمومان، وضمها بشدة، واستماتت هي متعلقة به وكأنما بألف ساق وذراع.

ومضى هو يرد على تحديق العينين المثبتتين عليهما بتحديق كأنما يدفع به الموت المنصب من عينيها، وبتحديق هاتف يقول له للموت: لا.. إلى اللحظة التي بدأ فيها وكأن نبض الحياة قد اتحد بنبض الموت، وأصبح للكائنات الموجودة بالحجرة ـ ميتة وحية ومترددة بين الموت والحياة ـ نبض واحد متسق لا نشاز فيه.

وقبل أن يفقد وعيه بوجودها أحس أن السيدة لابد قد استردت وعيها للحظة، فقد بدا من نظراتها أنها، لأول مرة تراهما رأي العين وتدرك تماماً ما يدور.. وأنها ما كادت تسترد الوعي حتى انتهى، ولكن اللحظة كانت كافية لتصنع ملامحها شيئاً كالابتسامة.. ابتسامة مندهشة قليلاً كابتسامة طفل فتح عيناه لأول مرة على الحياة فيدهشه ما يرى.

وما كاد يستعيد الوعي ويعود يحدق في السيدة حتى وجد أن كل شيء لا يزال كما تركه، وابتسامة الدهشة القليلة لا تزال قائمة وموجودة، والعينان أيضاً مفتوحتان على آخرهما بأوسع اتساع. شيء

واحد فقط هو الذي غاب.. نبض الموت، إذ قد انتهى الشخير والشهيق والزفير والتنفس.

* * *

وكأنه أيضاً للحظة قد توحد كل شيء، واشتبكت اغماءة النهاية باغماءة البداية، أول البداية ونهاية النهاية.. لحظة خروج الحي من الميت والميت من الحي، لحظة كأنما أبت السيدة الطيبة إلا أن تحتشد وبآخر ما تملك تسجل بشبكتيها للمشهد صورة.. صورة تبقى في عينيها وتخلد إلى الأبد.

دستور . . يا سيدة

المربع الأول

الظهر.. ظهرها كله أصبح مربعات كبيرة محمرة داخلها مربعات أصغر، فيها ألم. بالراحة.. بالعقل.·. بالحنية.. أبداً أبداً ليس هكذا أرادت أو تريد، لا بد أن تهتف صارخة دافعة إياه بكل غلظة:

حاسب.. اوعى.. اوعى!

مفاجأة لم تكن متوقعة! المفروض أن يتحول إلى وحش.. إلى كائن مرعب يخضعها. ولكن على نصف جانب.. وثنية رجل ويد شبه مرفوعة في الهواء حيرى ماذا تفعل؟ سكن. العيون.. عيناه مفتوحتان في دهشة، والملامح تنطق بشعور طفل أذنب رغم أنفه ويريد البراءة. ماذا حدث؟ سألها خائفاً أن يقترب أو يلمسها. لم تجب.. ماذا تقول؟ كيف تجعله يفهم أشياء هي نفسها وإن كانت تحسها لكنها لا تعرف كيف تصوغها كلمات محددة مفهومة. أهذا وقت التراجع والعدول النهائي؟ كيف؟ وما تصورته الأفظع والأبشع والمستحيل قد تم..

أحسست في قمة الغضب التعس بيده تقترب، كقطة متلصصة تعرف أن ما تريده ليس من حقها. دفعت اليد جانباً بقوة وقسوة لم تردها أبداً، ولا تخصها.. لكأنها قسوة امرأة أخرى داخلها، امرأة لا تعرفها.

صمت.

أما التسليم المطلق أو إعلان الفشل وإحالته من شعور إلى واقع.

صمت أيضاً.

اختفت من خلاله وفي كثافته حشرجات السوق والشارع وصراع الأطفال العابث اللاعب، وأزيز الدنيا.

أتعاقبها السيدة زينب؟

اقشعرت.

أتفقد العقل؟ أتصرخ؟ أتجري شبه هاربة هكذا وتقول لكل الناس أنها أم فلان البيه وفلان المدير ومع هذا تفعل ما هي الآن تفعله؟

أتقتل نفسها؟

وذاب عقلها في ضياع. وقبل أن تفكر في أي شيء آخر رمقته بحدقة عينيها فقط، ودون أن تتحرك كرة العين في المحجر ربع نظرة. انتهت بعدها تماماً. تماماً.

بلا صوت، أو اعتصار لذاته، أو احتشاد، أو حتى تغيير لوضعه، كانت جفونه مسبلة ومن بينها يتساقط دمع بطيء تلمع آثاره على الوجنة، وبقيته تتوالى نقطة عزيزة بعدها نقطة.

من جديد ـ وكالإعصار ـ تحرك ذلك الاحساس الطاغي الذي ينسيها أي شيء إلا أن تنتفض هالعة مقبلة عليه، محيطة إياه بذراعين تثلجتا بالحنان، وبقبلات منهمرة مذعورة تركزت فيها كل قدراتها على الفعل ودفع الشر تغمره وتغسل وجنتيه وتلعق أجفانه، ولفرطِ رغبتها تستعذب طعم الدموع.

لقد انتهت! فليكن أجرم فليجرم! فليكن الثمن حياتها نفسها فلن يبكي مرة أخرى. انها المقادير.. مقاديرها وحظها رتبت كل شيء. الازدحام عند باب السيدة زينب، والدفعة التي جاءتها فجأة من الخلف وفي نفس اللحظة التي كانت ساقها لا تزال لم تصل بعد إلى الأرض. واعتقدت تماماً أنها ساقطة لا محالة، وأصبح رجاؤها كله ألا يرتطم رأسها بالبلاط المربع الكبير. ولكنه الترتيب المحكم.. وبالضبط وهي تهوي وقد سلمت بالكارثة المحققة، تأتيها اليد وكأن ليس لها صاحب، يد من السماء ربما توقف لولا سقوطها، وحين تفقد التوازن كنتيجة لهذا تأتيها الذراع قوية مشمرة تلتف حولها، ولومضة.. لومضة سريعة تشعرها، ربما منذ زمن بعيد حتى قبل أن يموت زوجها، أنها في أمان كامل.. ذلك الأمان.

لم تسقط ولم يكسر لها ساق أو قدم.

ولكن السيدة ـ أم هاشم وأم العواجز ـ على حق. أنا محقوقة

لك يا سيدة حقك عليّ. الشنطة! ها هي اليد الأخرى تقدمها. وحين ذاك فقط تبدأ تدرك أن يده الأولى لا تزال تحيطها وتحتضنها. ومع الشكر والتراجع وارتباك الإفاقة من مصير محتوم.. ماذا قال؟ لا تعرف. في النهاية نظرت في وجهه، والمفاجأة.. أنها كانت طوال الوقت تخاطب وتعامل وتشكر رجلاً. ولكن هذا.. إنه.. إنه بالكاد له شارب.

ـ بتعيط ليه؟ أنا عملت حاجة؟ أنا زعلتك؟

ـ زقتيني.

ـ ودي تزعل؟

ـ أيوه بقوة وكره. انتي بتكرهيني. انتي عايزة أفندي واللا بيه غني ومعتبر. وأنا فقير والفقير عندكم ما عندوش احساس.

وتفجرت رغماً عنه، أو ربما برضاه، دمعة.

واحتضنته.

إنه لا يفهم.

مستحيل أن يفهم.

كيف يفهم؟

بأي قوة تستطيع أن تطلعه على ذلك الشعور الذي لا يقاوم والذي جعلها تنسى أي شيء إلا أنها وجدته، وأنه في تلك اللحظة بالذات أعز عليها من الدنيا بما عليها.

ـ أعمل إيه علشان تصدقني؟

ـ ما تزقنيش.

ـ بس أنا يا ابني زي أمك.

ـ أمي ماتت من عشر سنين. أنا زي ما أنت شايفة يتيم.

واختنق حلقه بدموع تريد التحول إلى كلمات، وكلمات تصدر عن احساس في نفسه. . احساس كبير كالقصر المهجور الذي دبت فيه الحياة فجأة. في نفس اللحظة التي أحاطها بذراعه وأحس بجسدها، وإن لم يكن سميناً رجراجاً إلا أنه «هوانمي» طري، ناعم حتى من خلال ملابسها الكثيرة الحريرية السوداء. كان ممكناً أن يتقبل الشكر ويمضي ولكنه توقف. . تلكأ. . تمنى لثانية أن تحتاج إليه.

والخطوة التالية لم يرتبها القدر. . صحيح أن قدمها التوت، ولكن كان باستطاعتها احتمال الألم الخفيف والسير بمفردها.

لماذا إذن ـ حين حاولت الخطو ـ بالغت في التألم والعرج؟

أتكون قد لاحظت أنه تلكأ، وأنه يا للغرابة يبدو أنه يحتاج منها أن تحتاج إليه؟

دون كلمة عرض أو إيماءة قبول كان بجوارها. . ويده تحت ابطها. . بكل ما يستطيع من رقة يساعد في حمل الجسد، رقة حنون افتقدتها من زمن، رقة حنون كرقة الأبناء الأطفال قبل أن يصبحوا رجالاً وينقلوا رقتهم تلك إلى حبيباتهم وزوجاتهم.

كان مفروضاً أن يتوقف موكبها لدى أول محطة ترام أو أوتوبيس

أو عند أول تاكسي ولكن الموكب استمر. لم تطلب. لم يسأل. . بل ولا حديث إلا بين الحين والحين: تعبتك؟ فتجيئها إجابته مستنكرة، مغرقة في الاستنكار لدى كل مرة تالية:

ـ أعمل إيه عشان أقنعك إني بأعزك قوي؟

ـ ما تزقيش.

ـ بس أنا يا ابني زي أمك. . عيب!

إنها دائماً تعود إلى موضع الألم. ولكن الطريقة التي تنطق بها كلمة أمك كأنما تعنيها ولا تريده أن يصدقها. لقد حرمته أمه بموتها من نفسها ومن النساء. هذه «الست» تعيد إليه كل شيء مرة واحدة وكأنه في حلم. إنه يكتشف الآن فقط أنه جوعان محروم ضائع، يكاد يجن وهو يحس بها ترتكز على يده ارتكازة جسد أليف محب. لو تكون محرومة من الخلفة وتتبناه وكل يوم ترتكز عليه بهذه الألفة! ولكن ذراعه بدأت وكأنما تحيا حياة أخرى بعيدة عن كل أفكاره! فالجسد الذي تحتويه بدا من فرط ما فيه كالزبدة يسيح. ذراعه الممزقة عنها «الأوفرول» في أجزاء، تشركه رغماً عنه، وتنقل له من خلال ملابس غالية ـ وإن كانت أكثر مما يحتمل الجو ـ ذلك الاحساس، ونعومة جسد الأم تفقد كل صفاتها الأخرى ولا يبقى فيها سوى تلك الرجرجة الشحمية المرتاحة. . رجرجة الستات المرتاحات. . رجرجة تبقي السيدة أنثى ولو وصلت إلى الستين، ولكنها لا يبدو أنها وصلت أبداً إلى الخمسين. . بل إن ما فيها من

أنوثة أكثر بكثير من زوجة جارهم سائق التاكسي التي تبدو بعد عامها السابع من الزواج وكأنما جف فيها كل ما يمت إلى النساء بصلة.

ـ تعبانة؟

ـ شوية.

ـ كده أحسن.

وبكل ذراعه أحاطها حتى أصبحت في حضنه، وأصبحا في حارة، وأصبحت تعرف أنه في الثامنة عشرة، وأنه يعمل مع أبيه في تصليح البوتاجازات، وأنهما يقطنان قريباً، وأنه وحيد، وأن أمه ماتت في عملية.

وأيضاً أصبحت تعرف سبب غضب السيدة زينب منها. فليست هذه أول مرة تأتي إليها مضطرة.

بعد المشوار الطويل.. بعد أن تصبح جدة للمرة الرابعة، وأماً لمدير عام شاب لامع، ولدكتور في جامعة يؤكدون أنه الوزير القادم، والثالث تاجر سيارات مستعملة وأغناهم جميعاً، وبنت تزوجت وتعمل أيضاً في الخارجية.

سعادة الاكتفاء موجودة ولا حد لها. المهمة تمت بنجاح ساحق رغم أن المرحوم مات في ثلاثة أرباع الطريق. الجميع يتوجونها أماً مثالية، ويأتي أولادها كل عيد، وكل مناسبة، وانتي، وانتي، وانتي.. ولكنها كلمات.

الرجال والابنة الذين لم يعودوا في حاجة إليها.. يدللونها

ويهزلون معهـا ويبدءون يسخـرون من الأشياء القـديمة المتـراكمة في الشقة، تلك التي نموا وهم يحملون لهـا الحب والتقديس. صحيـح أن هناك روابط كثيرة تجمعها بهم وتجمعهم بها، نفس الـروابط التي تنزعج لها إذا علمت بمرض أحد، وينزعج لها الأبنـاء أو جزع الابنـة إذا ارتفع لديهـا معدل الضغط أو نسبـة السكر. ولكنـه جزع مخـالف تمـاماً لمثيله أيام كانوا أولادهـا وأيام كـانت فعلاً أمهـم. جـزع على اللعبـة القـديمـة ذات الشعـرات البيضـاء التي نحـاول أن نحفـر في صـدرها كلمـا ضممناه عسـانا نعثـر على قـطرة واحـدة من نبـع كـان يروينا، وكانت تتعاظم بنا وبها السعادة إذا روانا جزع الزمالة ربما في المجتمع الأكبر الذي أصبحنا فيه أولاداً وبنات وأمهـات وزملاء، وإن كانت تفرق بينـا بعض السنين. حتى غداء الجمعة، من الصباح البـاكر تكـدح لتصنع مـع خادمتهـا العجوز لكـل منهم مـا يفضله. وبـزيـطة وابتهاج يبدءون يقبلون والابن الواحد الـذي لا تزال تـذكركم بـه كان نحيفاً شاحباً وهو طفل صغير أصبح اليوم زوجاً، زوجاً قديماً لـه أولاد وبنات ينادونها بيا «تانت» ويا «تيزة» ويا «جدتي». أصبح الولد عـائلة بأكملها وأصبحت له أسراره الخاصة وهمساته وغمـزاته مـع زوجته أو مع أخيه الآخـر، وهي الوحيـدة البعيدة عن اللعبـة. ويوضـع الطعـام ويـأكلون، وبينما في أعمـاقهم قد أدركـوا من زمن أن طعام أمهم من الأحسن لها ولهم أن يبقى ذكريات حلوة، ومذاقاً يعطيه حاجـز الزمن قيمة ومتعة. فالواقع الحاضر أنهم قد فقدوا الرغبـة تمامـاً فيه، وأنهم بـالكاد يـزدردونه، فلقـد جـاءت الـزوجـات معهن بـأطعمـة أخـرى،

وبأصناف لم تخطر للأم على بال، حتى الطعام وتعليقاتهم البالغة في استحسـانه أصبحت عـادة قديمـة تبتلعها على مضض، فـإنها لتحس بالأمر كله، وبيوم الجمعة وكل ما يحدث فيه تمثيـل في تمثيل يجيء فيه الأبناء ليروا أبناءهم تحضنهم الجـدة العجوز، ويتسلون بتـدريبهم على نطق اسمها، وربما يثير اليوم في نفس أحدهم ذكـرى أو حادثـة طفولة. تمثيلية سرعان ما يمـل الممثلون القيام بهـا، فإذا بكـل واحد قـد انزوى مـع زوجته في ركن أو على فـراش، أو قد اجتمـع أربعـة منهم يناقشون موضوعاً لا صلة لها به. كل ما في الأمر أنه بين الحين والحين، وربمـا على دقات جـرس ضمير بـطيء المفعول، يتعـطف عليهـا أحدهم بكلمـة، أو بثناء، أو بقبلة سـريعة، لا تلبث أن تـدرك أنها وهي في بيتها تـأويهم وتطعمهم قـد أصبحت عبئاً هم مضـطرون للخلاص منه بعد قليل. فسرعان ما تبدأ سلسلة الاكتشافات، وينـظر أيهم في سـاعته ثم يشهق مـروعاً: أنـا نسيت ميعاد المحـاضرة. ومـا أتعسها من دقائق أو ساعات تلك التي يقضيها الباقـون وتقضيها معهم وهي محرجة تدرك أن كلاً منهم لا بد يبحث لنفسه عن اكتشاف جديد أو عـذر وجيـه. حتى الأطفـال ملوا سمـاع حـواديتهـا ويـطالبـون بالتليفزيون. بل ـ امعاناً ـ تذهب إلى المطبخ أحيانـاً لتجد المـلاذ في الخـادمات، فـإذا بهن هن الأخريات مشغـولات بتبادل أنبـاء فضائـح الأسياد والسيدات والجيران، وأحدث الزيجات والطلاقات بين نجـوم الغناء والسينما. وفي النهاية.. وبعد كل الضجيـج الهائـل والازدحام تصبح مرة أخرى وحيدة تماماً في الشقة الكبيرة ذات السقف العالي.

فحتى الخادمة العجوز تأخذ بعد ظهر اليوم نفسه إجازتها.

لا لوم! فهكذا الدنيا.. وأولادها لم يعودوا بحاجة إليها إلا كديكور أم محنط في شقة «العيلة»، ولكن الأم فيها لم تنته بعد.. لم تمت! ما زالت تدق داخل قلبها الكبير. وحين مات المرحوم لم تفكر لحظة في الزواج أو في تغيير حياتها مع أولادها، فلقد كانوا هناك.. صبية صغار وبنات لا يسمحون لها أن تغيب عن أعينهم لحظة لشدة حاجتهم إليها، ولا تسمح هي لنفسها أن تتغيب لحظة لشدة ما تريدهم أن ينهلوا من صدر أمومتها ويروون بذلك النبع الأخضر الريان في أعماقها. سعادتها الكبرى أن تعطيهم، وكان طبيعياً جداً أن يأتي اليوم الذي لا يعودون بحاجة إليها وقد أصبحوا بدورهم آباء وأمهات يريدون هم أنفسهم البذل لأولادهم والعطاء. ماذا تفعل والأم فيها لا تزال قادرة موجودة يقظة، فقد تزوجت صغيرة وخلفت صغيرة ولا تزال بعد لم تصل إلى الخمسين.

ـ يا ريت تزوري السيدة!

وكأنما هبط الاقتراح كالحل العبقري لمشكلة أبناء يريدون فرض اليأس والشيخوخة على أمهم فرضاً: يريدون فرض اللاحول واللاقوة والسكون والسلبية التامة.. فرض الموت عليها فوق سطح الأرض انتظاراً للحظة الانتقال إلى باطنها. أبناء يريدون هذا وكأنما ليزيحوا عن خواطرهم الواقع الحي الناطق أنها بعد لم تصبح شيخة. صحيح أنها لم تعد شابة مثلما كانت حين مات أبوهم، ولكنها بالقطع والتأكيد لم تعد تصبح ـ وباستماتة تأبى أن تصبح ـ في القريب

العاجل شيخة. وليست الشيخة أيضاً كي يفرضوا عليها الشيخوخة فقط، إنما لكي ـ وهذا هو الأهم ـ ويفرضوا عليها الوحدة. فالوحدة إذا كانت حراماً على الأنثى أو الشابة فهي حلال على الشيخة، وما لم تصبح شيخة فعليهم أن يحلوا هم مشكلة وحدتها، ومن هنا يعتبر اقتراح زيارة السيدة إذن حلاً عبقرياً.

ـ ان شالله يا سيدة.

أجل، يوم الجمعة بعد الغداء الحافل، بعد أن تستمتع بهم مرصوصين حول مائدة الطعام الفخمة.. الرجال من أبنائها والبنت مع زوجها، وبعد أن تحمل أحفادها كل بدوره وتهدهده وبأسماء تدليله. عليها أن تذهب للسيدة وتقضي بقية اليوم تدعو وتتعبد. وفي العام القادم بإذن الله تحجين وأمانة عليك أن تقرئي لنا الفاتحة يا ست الحبايب، ولا تنسي أن تدعي «لمنى» بالنجاح، «ولحمادة» بالشهادة، ولابنك ـ أنا ـ باستقالة رئيس مجلس الإدارة ليفرغ منصبه.

ـ وإيه رأيك يا ستي؟

والتفت الكل إلى الأخ الصغير فقد بدا وكأنه وجد الضالة المنشودة:

ـ الجمعة السيدة، وإن زهقتي يبقى الاثنين الحسين، وإن حبيتي يبقى سيدي الحنفي الخميس.

واحنا مستعدين.

أجل! هم دائماً مستعدون لكي يحولوا العواطف والمجاملات

والواجبات إلى معادلة نقدية، ربما لأنهم أصبحوا يمتلكـون النقود. . بينما لم يعودوا في حاجة إلى العواطف والمجاملات.

بالتأكيد مشروع سقـوطها كـان من غضب السيدة عليهـا، فهي أبداً لم تذهب بدافع من ذات. . تريد، إنما مدفـوعة لا إلى زيـارة أو قراءة فاتحة وإنما إلى مصير لا تملك دفعه.

ـ ياه! احنا مشينا كثير. أنا اتأخرت. . نشوف تاكسي؟.

ـ زهقتي؟

وتـطلعت. . هذا الـوجه، تلك المـلامح الـطفلية التي يسكب فيهـا سن الشـامنـة عشـرة أول كم من عصيـر الـرجـال فيصبح لها ـ للسن ـ جمالهـا الخاص بحيث يضيء وجـه كل فتى وكـل فتاة، حتى المحرومين من الجمال، بنور جميل طـازج. . نور تلك السن. شاربه النابت المحلوق الذي تكاد تعد جذور الشعر فيه شعرة شعـرة، بينمـا الذقن تتسلل من الصـدغين هابـطة على استحيـاء. ولكنهـا في وسط الـذقن تمامـاً، وحـول وداخـل طـابـع الحسن تنـطلق فجـأة. . كنـافورة شعـرية مستـديرة. العينـان فيهما نـظرة، ليست لهـا صفـاقـة نـظرات الـرجـال أو مجـال أبصـارهم الخـاضـع لـلإرادة والـوعي والتحديد. . وليس فيها شقاوة الصبية إنما هي نظرة بدأت تدرك وجود الآخرين، وكما ترى الناس باستطاعـة الناس أن يـروا ما بـداخلها. . داخلها المليء في تلك اللحظة إلى الحافة بنداء أقوى ما رأته عينـاها من نـداء. . ألا تذهب. . أن تبقى. نـداء حقيقي صاعـد ربمـا رغم أنف صاحبه، شتان بينه وبين نظرة الدكتور أو المدير ابنها وهـو يقول

بينما هو يستعد لإغلاق الباب خلفها بعد انتهاء زيارتها:

ـ وحياتك. . وحياتك يا ماما تقعدي تتعشى معانا.

ـ حضرتك عايزة تروحي؟ مش تستريحي شوية. . على بال الوجع ما يخف؟

عادت ترمق النداء قوياً ملحاً في عينيه، لا تملك عصيانه. نداء يحرجها. . فهو لا يتبع بكلمات تلح الإلحاح الكافي، إنما هو يترك لها هي الرأي والقرار. . يترك لها أن تضغط بكل ما تملك من رغبة على كل ما تملك من مقاومة، وتسأل:

ـ أنا الحقيقة تعبانة. . بس أستريح فين؟ لازم أروح.

ولكنه وبحداقة أهل حي الحنفي قدم الحل البديل، فأبوه في الدكان، وعلى بعد أمتار يوجد بيتهم المكون من حجرة واحدة وصالة صغيرة. أيليق بالمقام؟

أي مقام والساذج لا يدرك أنها، منذ أن استقبلت النداء قوياً صادقاً مجتاحاً قد أصبح له على الفور المقام الأعلى، وأصبح أقصى ما تتمناه أن تعمل وبكل ما تملك لإسعاده. منذ النداء قد انتفض داخلها مارد قادر على كل شيء، حي نابض بالحياة، مارد تجاهلته وحاولت قتله، وتجاهله أبناؤها وكل من حولها وبكل ما يملكون من قيم وعظات وحكم ومثل، حاولوا خنقه أو سجنه ليموت جوعاً واهمالاً وحرماناً. . مارد حين انتفض يرتد من النقيض إلى النقيض، ويعود بها وكأنما ببساط سحري إلى أرض شابة حية مدمدمة بحركة

الحياة، وكل ما فوقها وعليها وداخلها ينبض.. أرض.. مرعبة.. مرعبة تماماً.

النظرة ليست كلها احتياج، هناك وراءها مكونة مركزها وقلبها رغبة، رغبة ملتهبة صامتة كأنها العواء بلا عواء، ولكن فليكن وراءها جهنم نفسها، إنها هي وإرادتها الكفيلتان بأي شيء، بأن تأخذ من النظرة ما تشاء وترغمه على التخلي عن أي شيء آخر. إنه طفل.. ليس سوى طفل حتى وإن بدا أطول منها قامة، حتى وإن أطل لها كاللص بصيص من ذات ذاتها يحاول أن يرى في الفتى كل ما ليس بطفل فيه، كل الأشياء التي يمكن أن تتلصص عليها المرأة.. أية امرأة.

مخاطرة فلتكن واثقة من أن رأيها هو الرابح، واثقة أنها في النهاية ستعطيه أماً ولو لساعات، وستأخذ منه ربما رغم أنفه ابناً ولو لدقائق، وأنها أبدا أبداً لم تعد تستطيع الهرب من ذلك القدر.

الغريب، وذراعه لا تزال تحت ابطها تسندها، والعيون في شارع الحنفي كثيرة لا عمل لها سوى التحديق بحثاً عن لمحة إثارة.. الغريب أن العيون لم تستنكر، حتى الجيران اعتبروها الخالة الغنية لا بد تبحث ـ بالوفاء ـ عن أقاربها من الفقراء. والناس في تسليمهم بكل ما تواضعوا عليه أبداً لا يبدءون هم بالشك. قريباً من رأس السلم المؤدي إلى شقة السطوح حيث يقطنون، انزلقت يده التي تسندها وتحتضنها: متحسسة الظهر. يد اكتسبت ـ بطول الاحتكاك ـ بعض الجرأة.

ولم تشأ للوقت أن يضيع فيما لم توطن نفسها عليه. أفهمته بلطف أنها إنما جاءت معه لا لكي تستريح وإنما لأنه حرك أمومتها «وكان طبيعياً جداً أن تكذب هنا وتقول إن السبب أنه يشبه ابنها الذي فقدته في مثل سنه بالوفاة» فإذا كان هو يتيماً ماتت أمه فهي العكس تماماً، الأم التي كف الأبناء أن يثيروا فيها أو يحتاجوا إلى أمومتها. ستكون أمه إذن لبعض الوقت، وإذا أساء الفهم فإنها من هنا وقبل أي خطوة ثانية ستعود.

وطبعاً استنكر وأكد وقبل، واثقاً أنها تعني حقيقة ما تقول. مقرراً بينه وبين نفسه أن يطاوعها ويستمتع أولاً بالأم فيها، وحبذا لو فاز بعد هذا بالمرأة أيضاً.

ـ يعني أنا زي ابنك دلوقتي؟

ـ وأنا زي أمك.

ـ فكرة والله.. طب وحا نعمل إيه بقى؟

ـ اللي بتعمله الأمهات.

خلعت فستان الخروج الأسود وبقيت بثوبها الداخلي الرقيق، وبينما الماء يغطي أرض الشقة التي لم تنظف من أجيال وهي بكل همة ـ ورغم الألم ـ قد انحنت تمسح وتنظف، كان هو يخرج ويدخل هائصاً يغني.. باختصار.. سعيد. وأرسلته «بالسبت» والنقود وعاد ملهوفاً باللحمة والخضار، وبدأت رائحة «التقلية» تتصاعد، وبينما كان «البوتاجاز» القديم يطهو الطعام على مهل وفي حجرة قد نظفت تماماً ونظمت، كانت هي في الحمام منخرطة في غسل الملابس، كل ما

تحـويه الشقـة من ملابس حتى «الأفـرول» الذي يـرتديـه أصـرت أن يخلعـه لتغسله وعليـه أن يبقى بلبـاس داخلي انتقتـه لـه من «سـرة» ملابسه القديمة وهو طفل لا يزال.

وبالغسيل يكاد ينتهي، ورائحة الطعام قـد نضجت، وغناؤه قـد علا وتخللته قهقهات لأتفه الأسبـاب، كانت سعيـدة سعادة لم تـذقها ربما في شهر عسلهـا الأول نفسه. فلم تكن قـد تزوجت حبيبـاً، إنما تزوجت كما كـان يفعل النـاس في أيامهـا من عريس جـاء عن طريق قريب. ولولا العشرة الطويلة والخلفة والطباع الحلوة لكانت كـرهته، ومن يدري ربما كانت قد أحبته، أو على الأقل جـربت شعوراً ملتهبـاً غيـر مستقـر يجعلهـا تبـرد وتغلي وتتفجـر بـدلاً من هـذا الاحسـاس المتصل الطويل لا تعلو له قمـة ولا يهبط إلى قاع، سعـادة لم يذقهـا الفتى وأمه نفسها عائشة، فقد كانت رغـم قبلاتها الـطويلة الخانقـة لا تناديه إلا مسبـوقاً بلفظ سبـاب، وإذا احتوتـه جرحت مشـاعره البضـة شوكات حنانها الخشنة. . حنان ما حاولت مرة تليينه أو اعطاءه نعومـة الأم الأنثى إلا وغلب عليهـا الطبـع في النهـايـة وعـادت إلى طبيعتهـا الخشنـة. إنه الآن يكـاد لا يذكـرهـا، يكـاد ينسى كيف كـان مـوقفـه حيالها، فلحظة الحاضر جاءت تغرق كل ما فات، وها هو بكـل نزق وضحـك وجري ودلال وشقـاوة، يعيش كمـا لم يعش أبـداً، كمـا لم يحلم بعيش كهـذا من قبل. وقـد صح مـا توقعتـه تمامـاً، فالأم فيهـا أعادت إليه الطفل، والطفل فيه أعاد لأمومتها لمسـات وملامـح ذبلت وجفت وماتت من سنين. لكأنها تصبح أماً لأول مرة.

واندفع بنزق صبياني يرفع غطاء الحلة ويلتقط بعض قطع اللحم الملتهبة التي لا تزال في طريقها إلى النضج. ونهرته ووضعته أمام الأمر الواقع، فقد أصبح كل شيء نظيفاً ما عداه. ولا بد أن يستحم.. وأيضاً قبل الطعام. ويا له من شعور لذيذ انتابه وهو يحاول مماطلتها وتأجيل «علقة» الحمام إلى ما بعد الغداء، وهي تصر اصرار أمومة ناعم تحسبه قابلاً للتعديل، ولكنك لا تلبث أن تدرك أن نعومته أشد صلابة من اصرار يملؤه النهر والسباب.

بدلع قال:

ـ يبقى تحميني.. مش أمي؟.. أمي تحميني.

وكان يعرف أن الاقتراح مرفوض، فما هو بالرضيع أو الصبي، ولكنه ربما قاله ليسبر الغور ويعرف إلى أي مدى أصبحت أماً، وإلى أي مدى استترت المرأة. وفي دفعتها له من ظهره لتدخله الحمام وتجذب الباب أحس أنها ليست أبداً دفعة استنكار شديد، هي تمضي في سياق واتساق مع لعبة الابن والأم وما وراءها غامض كل الغموض.

ـ ادعكي لي ظهري.. من يوم ما ماتت أمي ما حدش دعكهولي.

ولو أوتيت كل قدرات العالم النفسي لما استطاعت أبداً أن تدرك لماذا قبلت، ولماذا صرخت قبل أن يدخل تطلب منه الجلوس القرفصاء وإعطاء ظهره للباب، وماذا بالضبط كان شعورها والليفة

المتآكلة لا تمنع يدها من تلمس جسده، والاحساس بعضلات صلبة بمثل ما لم تكن تتوقع، متناسقة، تجعل من كومة اللحم الحي المنحنية على نفسها تصدر العواء والأصوات كتلة مجهولة ذات خطر، كتلة شاب كبير الجسد دافئه.

وتسأله إن كان قد غسل خلف أذنيه بالليفة، وتكتشف بعد سلسلة من الأسئلة أنه لا يعرف بعد كيف يحمي نفسه، لا أحد قد علمه. أنه ليس يتماً واحداً ما يصاب به الصبي، إنه يتيم من الحب، من الصدر الحنون، من الالحاح عليه بالافطار، من تنظيف كامل وأمين لجسده.. ألف يتم.

وحين انتهت من مهمتها، والماء ينصب ويتلوى الفتى لانصبابه، وكأنها فجعت ودهشت، روعتها النظرة الخاطفة حين ألفتها فكشفت لها عن معالم الرجل فيه. وفي الحال واجهت نفسها ـ فالأمر لم يعد يحتمل الخداع ـ لقد كانت لساعات طويلة توهم نفسها بابن حبيب عثرت عليه اليوم صدفة، ولكن هذا الشاب الممشوق الجسد وما به من رجولة ليس أبداً ذلك الابن، إنه غريب عنها، جسده كله جاء من امرأة أخرى، وله أب لم تره في حياتها، وحياة طويلة قبلها لم تر منها إلا عرض أصبع.

ومضة! ولكنه أدرك.. وفهم، واعتراه الارتباك في نفس لحظة ذهولها وارتباكها. وشتان بين احساس تلقائي منساب كجداول الطبيعة بالنبوة والأمومة وقد انقطع ـ بترته النظرة العابرة ـ ليكملا الدور بعمد

هذه المرة، وبارتباك وبإشراك هائل للإرادة، محاولاً هو فيه أن يخفي علامات الرجولة فيه، ومحاولات دائمة منها ألا ترى سوى الطفل، محاولات كانت لا تزيدهما إلا ارتباكاً. . محاولات أنهت الحمام فجأة وفي خفوت متعمد، وكأنه كان السبب في مأساة.

وعجيب حقاً أن تتسع نفسها بعد كل هذا المزيج المتناقض من الأحاسيس بإحساس جديد مرق كالشرارة، احساس بفرحة صغيرة. . فرحة أي أم حين تكتشف في ملابس ابنها الداخلية ذات يوم أنه بعد لم يعد طفلاً، السؤال المعلق ـ وقد بدأ المساء يحل في دكان أبيه ـ سؤال لم تنطقه، ومع هذا فقد جاءها الجواب بغير عناء: انه مع أصدقائه في حي «الباطنية» مجتمعين حول «الجوزة» ويشدون أنفاساً تقهقه لها «الجوزة» ويقهقهون، ويثوبون بعد القهقهة العنيفة إلى سعال طويل. جلسة لن تنتهي قبل أن ينتصف الليل. ودون سؤال منه فالسؤال كان لنفسها جاءتها الإجابة: إن شيئاً لا ينتظرها سوى جدران الشقة الكبيرة العالية، الفارغة وسجادة الصلاة، ولا شيء بعد هذا أبداً.

ـ أنا بردان. . باين الوساخة كانت مدفياني!

ضحكت للنكتة وظننته يدعي.

ولكن أسنانه فعلاً بدأت تصطك.

واندفع إلى «الكليم» المهري الذي يغطي أرض الحجرة، الوحيدة.

واصطكت أسنانه بشدة، وعطس أكثر من مرة.

لو كانت هنـاك مدفـأة أو أخشاب لأشعلتهـا، ولكنها في بحثهـا الـدائب المنخلع القلب عما يمنـع عنه البـرد والـرجفـة، ورعبهـا أن يمـرض لم تجد هنـاك سوى نفسهـا، وأدارت ظهره إليهـا واحتضنتـه دافعة بساقيها وتقوسات بطنها وظهرهـا لتشمل انحنـاءات جسده كله، وأصبحت يداها تضمانه بشدة.

وشيئاً فشيئاً كف ارتعاشه.

وشيئـاً فشيئاً بـدأ يحل بجسـده احساس غـامر شـامل بـالراحـة والسلام والأمن. وهي في نفس الوقت نشوي وحضنها قد فعل فعله، نشوة أم أرضعت ابنها كل ما يؤرق ثديها من لبن.

وليس أبداً لأن جسده استكان تماماً إلى دفئها.

إنما ـ هكذا ـ وربما في نفس اللحظات بدا حضنها نفسه ينسيه المرأة فيها. . ويمر عابراً بالأم. . ويستقر عند أول الـطريق إلى شعور آخر مخالف تماماً، جديد تماماً ذلـك الذي يجعـل القلب يدق. . لا من الرغبة وإنما بما هو أقوى. . بالانفعال، بالعاطفة.

وكان مفروضاً أنها بعد أن استكان إلى حضنها وشبعت أمومتهـا أن يبدأ قلبها هو الآخر يدق، لكل ما هو غريب في فتاهـا وليس لكل ما هو قريب.

ولكنها ولفرط ما هي خائفة كبتت الشعور.

وهكذا بينما ـ رغم التصـاقهما الشـديد ـ بـدأت تنمو وتتـرعرع ضبابة عاطفية تغطيهما تماماً وتربطهما تماماً، يفرزهـا جسداهمـا لتثير

كل ما لا باستطاعته أو يملك الجسد اثارته.

أيكون الحب؟

المربع الثاني

ليكم، فإن كان المقياس المعزّة، فإن أحداً على ظهر الأرض حتى أولادها أنفسهم ليسوا بأعز عليها منه. أما هو فقد استكان إلى ملجأ غريب لم يجربه أبداً.. أحس معه بكل ما عاناه ويعانيه، بكل شظف العيش مع أب حشاش عجوز، ونساء يشتهينه حتى ليلتصقن به عامدات فوق السلم الضيق، بكل شيء كأنه ما كان ولن يكون، كأنه يولد هذه اللحظة ولادة تحف بها كل أحلامه، كل ما حرم منه، كل ما سوف يحرم منه.

ليكن الحب!

لتكن الجنة!

لتكن أقصى سعادته الآن أن يستسلم للأحلام التي بدأت تخلعه من الواقع وتحمله بتؤدة إلى النوم. ولتكن إغفاءتها هي الأخرى علامة شبع بعد مائدة انتظرتها، جوعى تتلوى لسنوات.

ليكن! لولا أنه مع الدفء وبعيداً عنهما تماماً وعن العقل والأحلام والمتعة المتخيلة، بدا ثمة جسد يحس بجسد، مباشرة وبلا واسطة، تاركة العقول تسبح فيما تشاء، عاقدة هي وبلا أي قوة تستطيع إيقافها الصلة والاتفاق.

والأجساد لا تتخيل وتحلم، انها لا تعرف للتعبير عن نفسها إلا الالتحام والاحتواء، بينما الأحلام تلتقي وردية لقاء الخيال والعالم اللاملموس.

وبدأ الجذب.

رغم ارادتيهما معاً.

هو ـ بحركات لا يمكن رصدها ـ يكور ويصغر نفسه أكثر وأكثر وكأنما لو ترك لعنانه لأحال نفسه إلى طفل يستكن في بطنها كالجنين.

وهي ـ بإيجابية السلب المطلق، بالقدرة على الاحتواء ـ تضمه، بادئة بيده التي أنقذتها من حادث محقق تعتصرها بين أصابعها، إلى وجوده الجسدي الكبير الغريب المتكور، إلى حياته كلها وأبيه وحجرته وملابسه المعلقة تجف، تحتويها كلها، وتضمه وكأنما لتعيده إلى حيث يجب أن يكون، إلى بطنها وذاتها.

عاطفة الحب التي بدأت لا جسدية بالمرة وكأنها من صنع الخيال، ما ان بدأت الاجساد تتقارب حتى استحالت إلى قوة تلهب الجذب، وتشرك فيه الاحساس والمعنى والخيال.

ولو كان ملاكاً وكانت هي قديسة.

ولو كان الجزاء الموت حرقاً أو فوق خازوق.

ولو اجتمعت الدنيا كلها لتوقف قوة الجذب الخارقة لوقفت عاجزة.

فما يحدث كان في الواقع سره من سر الحياة، وقوته من قوتها.

الحياة حين يصبح هدفها الأوحد من البقاء والوجود والاستمرار أن تتحد.

الحياة حين تخلق العاطفة قوة تجذب، فإذا تلامس الحيان فلا شيء بإمكانه أن يفرق بينهما. لقد استعانت بأولياء الله ومشايخه، وبالسيدة، وبصبرها الذي طال عشرين عاماً، بابتسامة أبيها الحنون، بأمها المرحومة ذات العشر حجات، بالفاتحة وآية الكرسي وكل ما يطرد الشياطين. واستعان هو بشيخ طريقته، وتعاليمها، وكل ما تراكم في ذاكرته من أوامر ومحرمات.. ولكن جوع الجلد إلى الجلد، جوع الضلوع إلى الضلوع، وظمأ الفم إلى الفم، والسيقان لتلتف حول السيقان كان هو الذي كل مرة ينتصر، ويقهر.

جذب من جذب ذلك الكون الشاسع القادر على تعليق كوكبنا، بل شمسنا، وملايين غيرها.. في فراغه المخيف بلا شيء سوى جذب التجاذب وجذب التنافر. جذب لا يدري للآن أحد سره.. ذلك الذي يجذب المرأة إلى رجل بالذات لتستعمله كوسيلة تحصل بها على نسخة من صنعها هي لهذا الرجل. على ابن ما أروعه لو جاء تماماً كأبيه لتستميت في حبه. وحبذا لو أبيح لها أن تختار هذا الابن نفسه لينتج لها ومن ذات نفسها أيضاً ابناً آخر.. أكثر قرباً لما تريد وتهفوا.

جسدان راقدان متجاوران متلاصقان هذا صحيح، من ساعات

كانا مجرد كائنين مثلهما مثل الملايين الأخرى من الكائنات، ملتصقان وكأنما بفعل مغناطيس قانونه الأوحد أن يتجاذب قطباه حتى لو كان أحدهما في الخمسين والآخر لم يبلغ العشرين، بل حبذا لو كان أحدهما في الخمسين والآخر دون العشرين.

جسدان خلفتهما قوانين حياة لا تقهر. قوانين أكثر تعقيداً وهولاً من كل نزعات الانسانية للتخلص منها. قوانين غريبة سارية تحيل الفراغ بينهما، ان كان قد بقي فراغ، إلى جحيم من الانفعالات المكبوتة، والقاهرة المنطلقة، والمناطق المحرمة التي شيئاً فشيئاً تستباح، وهي مستميتة تتشبث بخط دفاعها الأخير كأم لأولاد مقربين ناجحين متعلمين، تستحضرهم بكل ما لديها من يأس لتمنع بهم المشهد القائم، أو توقف التحرك إلى المشهد الفاجع التالي. لينقذوها على الأقل من كهارب وتيارات وأحاسيس تشل إرادتها شيئاً فشيئاً، وتعمق لديها احساس الأم. ليوقفوا الحفر الدائب داخله وداخل قدرتها على العطاء حتى لا تبلغ هذه القدرة على العطاء والمنح أقصى مداها، بحيث ـ أعوذ بالله، أعوذ بالله ـ تنقلب بفعل أي دفعة أخرى بسيطة إلى رغبة في الأخذ والاستقبال، وتمضي قدماً في خط الأمومة لتصل إلى أقصاها حيث الأنثى، ومن رغبة إلى الشاب إلى رغبة ملحة في الحصول على صفاته وملامحه، وعليه كله، مصغراً وفي حجم بويضتها المتربصة المنتظرة.

بينما تبلغ به رغبته فيها كأم إلى حد لم يعد يحتمله، إلى حد يصبح كل أمله ومناه أن تكون أمه وحده. بحيث تنغلق عليه دون

سـواه من البشر أو الأخـوة أو الأزواج والأبناء. تبلغ بـه الـرغبـة حـداً يجعله يحتاج إليها كـأم إلى الدرجـة التي لا يعود يكتفي فيهـا بمعالم الأمومة الظاهرة، إنما يبحث وإلى آخر رمق حتى يصل ويستولي على كنه الأمومة فيها، على الأنثى فيها. فالأم دائماً أكبر من أيِ ابن، ولكن الأنثى لا ينالها إلا رجل واحد وتكون له وحده.

ومهما كانت الردود وفعل الردود، والاقدام مـرة والخجل مـرة، بحضور تاريخ طويل من النواهي والأوامر مرة، واختفائه خلف قوانين الحياة العظمى مرة أخرى، به حين يبدأ يتصـرف كشاب فتنهـره كأم، وبها حين تضمه مؤملة أن تسكته بأمومتها فتتحول الأمومـة بفعل النـار الموقدة إلى أنوثة. بالأربعة معاً الابن والأنثى والأم والشاب في صراع لا رحمـة فيـه بين بعضهم البعض، وبينهم وبين أشبـاح الآخـرين الحاضرة وأشباح غابت ومقدسات لها مفعول الأزل، بهذا كله ترتفـع الحـرارة حتى يتشعب اللهب، وعلى لهيبهـا تحتـرق أشيـاء كـانت لا تقبـل الاحتراق، وتـذوب النـواهي، ويـذوب كـل مـا كـان وكـل مـا سيكـون، ولا يبقى سوى المـرأة المحتمية بـالأم فيها، والابن التـائـه يبحث عن أنثاه المختفية داخل المرأة الأم.

ولـو الأمر أمـر الأجساد وتلقـائيتها لانعكس التيـار الصـادر عنهـا يعطيه الأنوثة أمومة، إلى تيار يستقبل العطاء ويحيل البنوة ذكورة.

ولكن الانسان ليس جسداً فقط.. انه ليمتلك في جسده عضواً غريباً ساحر المفعول اسمه العقل، ودون اشراكه وموافقتـه فلن يصدر

عن الجسد فعل أي فعل . . أو يتحرك مستقلاً قيد أنملة.

وباستماتة، وكأنما استجابة لدعائها الحار بالأولاد وقد استجمعتهم كالجيش «العرموم» حولها يتواثب منه أحفادها ويستنكرون مسلك الجدة بينما آباؤهم يتطلعون بعيون زوجاتهم اليها، حيت استحضرت المرحوم هو الآخر وسنوات الكفاح والرفض المستميت للزواج من بعده، حين حشدت التاريخ الماضي كله ليمنع لحظة فاصلة . . حدثت المعجزة، واستعادت الأم والأرملة العذراء سيطرتها، وانتابتها من هول ما هي فيه رعدة وأفلتته.

ولكن ربما لقصر في تاريخه، ربما بحكم السن، لم يستطع هو أن يعود للحاضر أو يخفي عنها أو عن نفسه رجولته ولا رغبة الرجل في الأنثى . . أي أنثى التي أصبحت تعميه. كان قد وصل بشعوره إلى نقطة لا عودة فيها، بنفس استحالة أن تحدث أصبح المستحيل تماماً أن يعود.

المربع الثالث

المربعات التي تآكلت سطوحها فبرزت حوافها الملتصقة، مربعات الدبش الأبيض الكبير التي تكون أرض الحجرة والشقة، المربعات التي لا يفلح «الكليم» الرقيق الرخيص في تغطية حواف الدبش وعلاماته. المربعات والكنبة الكبيرة العالية، والمنضدة المعدنية ذات الأرجل الثلاث، ونافذة الحجرة الحافلة بغسيله المنشور، كان

الشهـود ليسوا شهـوداً على شاب في الشامنة عشـرة قـد جـاءت معـه بقدمها ـ ولو ملتوية ـ امرأة إلى حيث يقطن حتى وإن كانت قـد بلغت الخمسين، لا ولا بين طـرف رافض وطرف يـرغب، ربما الأدق أنهـا كانت معركة بين كل منهما ونفسه، معركة مبهمـة غير واضحـة، فثمة سحب كثيـرة من خجـل ذي درجـات تلفهـا وتشمـل المكـان كله، درجات تبدأ بالخجل البسيط، خجل الأم أن يكتشف ابنها أنها أنثى، وخجل الابن أن تكتشف أمه أنه رجل. فجأة يثور فيه الشاب فيحتوي الرقبة ويقبلها قبلات شابة محمومة.

وبحسم تهمس:

ـ عيب أنا زيّ أمـك.. أنـا.. ولادي أكبـر منـك.. أنـا جـدة والله..

فلتكوني جدة أو جنية فالمهم أنك الآن أمامي أنثى، وأنا الذكر حتى ولو كنت أمي نفسها وأوصلتني إلى هذه الدرجة فلا تتوقعي أبداً أن تجدي فيّ الابن.

يصبح الكلام بلا فائدة فتستعمل اليـد.. يدهـا، وتدفعـه برفق دفعة الأم لابنها المناكف، فيعود يقبل عليها بإصرار الابن المنـاكف. تريه الشعر الأبيض في رأسها ليصـدق.. ليكتشف هو وتكتشف معه أن ناره لا تزيد إلا اشتعالاً، وأنها كلما قربت نفسها من صـورة أمه أو حاولت أن تستثير فيـه الابن، لا يفعل هـذا كله إلا أن يؤجج الشـاب الذي بدا وكأن ما أصبح يثيره فيهـا أنها أم، أمـه. بل وصلت إلى مـا

هو مرعب أكثر، انها هي كلما شعرت وأقنعت نفسها أنه لا يعدو كونه ابناً، كلما أحست ومنها له انطلقت من أعماقها الأنثى.. أنثى ترعبها فهي أبداً ليست تلك التي عاشت ابنة مطيعة ورباها أب وأم وعلماها وزوجاها وأنجبت أبناء أنجبوا بدورهم أبناء.. أنثى أكثر أنوثة من كل ما تصورته في حياتها عن نفسها كأنثى.. أنثى حبيسة شيطانية تدمدم مهددة بانفجار لا يعلم سوى الله مداه.... أنثى كأنها الأذرع الطويلة القوية لأمومتها تختلج متحركة في كل اتجاه، وتريد ارادة لا وسيلة لقهرها أن تطبق على الشاب الصغير اطباقة تبتلعه فيها وتحتويه ليعود مرة أخرى جزءاً منها. الشاب الذي ـ وأولادها حاضرون محدقون شاهدون ـ تراه هو الغريب أكثر قرباً وبنوة منهم جميعاً. الشاب المضطرب بين خجله منها ورغبته فيها، الخجل حتى من ذكورته، بل خجل أكثر من أنوثتها. الشاب الذي وكأنما يريد اعتصار الأمومة فيها إلى حد الأنثى، أو يريدها كأنثى إلى درجة اعتصار كل ما قد يكون فيها من أمومة تخصه وحده دون سواه. ظمآن إلى المرأة من زمن.. أماً أو أنثى. لم يعد يكفيه أن يطوقها أو يرقد ساكناً في حضنها وإنما يقترب منها بكل ما يستطيعه من اندفاع كي ينتمي اليها كما يذوب فيها ويتلاشى وكأنه الكوكب يعود بعد طول دوران إلى أمه النجم.

ولكنها رغم هذا كله كان هناك في داخلها شيء لم يكف عن الصراخ أبداً أو إشعارها بوجوده، شيء يقول بأعلى صوت ومذ كانا على عتبة السيدة.. لا..لا..لا.. شيء قد يضعف أو يخفق

ولكنه أبداً لم يمنح ولم يكف ولم يتوقف للحظة، بل ظل يستجمع نفسه بكل قواه إلى أن انتفضت مرعوبة ملتاعة دافعة اياه وبكل ما تملك من قوة وعنف بعيداً عنها. دفعة كالصخرة ارتطمت برأسه فأفاق، وأحس أن كل ما راوده أحلام، وأنه لا يزال ذلك اليتيم المنبوذ.

وحينذاك.. وحينذاك فقط ورغماً عنه بدأت الدموع تتجمع في مآقيه وتطفر، بينما عيناه تنظران إلى أمام.. تلك النظرة الملتاعة المفجوعة المتأكدة أنها وبلا أمل، قد فقدت حقيقة الأم.

نظرة اليتيم حين يرمق طوابير الرجال والنساء مقبلة تعانق أطفالها ويتقافز حولها الأطفال، وهو الوحيد الذي ليس له بينهم أم، بل وأب أيضاً.

تلك النظرة الغارقة في الدموع التي لمحتها بربع عينها وأحست بعدها أنها انتهت تماماً، وأن على أي شيء أن يحدث ولكنها أبداً لن تجعله يشعر بيتمه الثاني.

نظرة الأم لابنها في لحظة خطر يهدد أمومتها له أو بنوته.

وكان هذا الاندفاع والاحتضان والقبلات تغسل بها دموعه وتهدهد بها فوق ملامحه الكسيرة.

ـ أمال بتزقيني ليه؟

ـ مش ح ازقك.

لم يكن رداً. . كان قراراً، وإلى جهنم مباشرة فلتذهب.

ـ تعال. . تعالالي.

وجاء. . ولم تحتوه أو يحتوها، انما فقط ذابت المسافة التي استمرت طويلاً بينهما، وذاب الزمن.

وبين القطبين الأعظمين تمت شرارة الالتحام الصاعقة.

صاعقة تزلزل لها بلاط الحجرة المربع واصطكت نوافذها ولو استمرت أكثر لتهدم البيت كله.

المربع الرابع

وحين عادت إلى شقتها الكبيرة وجدتها صغيرة، وفي المرآة طالعها تعبير لم تره في وجهها منذ ثلاثين عاماً.

وحين جاء يوم الجمعة فوجىء أولادها جميعاً بالشيخة التي أرادوها وقد تفجرت فيها دفقة حياة جعلتها تبدو أكثرهم حركة ونشاطاً وطاقة على خلق المرح، وكأنها عادت شابة.

ـ مش قلت لك آدي بركات الست ظهرت!

والأعجب أنها كانت أول من استأذن، والحجة جاهزة، فالسيدة لا تستطيع الانتظار.

وأشياء كثيرة كانت تختل في الكون وفي الدنيا وفي نظام البشر، ولكن لم يحدث أبداً أن اختلت مواعيد زيارتها للسيدة. بعد ن تشبع بطونهم من الطعام وتغذيهم بحنان غريب وكأنه اندفاعة

البترول في بئر مهجورة وترعاهم، وتغمرهم بأمومة أصبحت ربما أكثر من طاقتهم على الأخذ. تستأذن وتزور السيدة.

وفي كل مرة وبرهبة ترمق الضريح مبتعدة وتتمتم: دستورك يا سيدة، وكأنما أيضا توقف بها الزمن وفعل الزمن عند ذلك اليوم. ولم يتحرك إلا في يوم كانت على الدوام تحسب حسابه وتتوقع مجيئه، ولكن في الحق فاجأها حين جاء، وظلت في مكانها مشدوهة لا تريد أن تصدق أن اليد لم تعد هناك، وأنها لن تقودها هذه المرة إلى حجرة المربعات في الحنفي.

ثم حين تمضي الساعات ولا يجيء تبدأ تقدم رجلاً وتؤخر رجلاً إلى الدكان القائم غير بعيد عن الجامع والضريح.

ولكنها قبل أن تصله تتوقف.

كان هناك وقد أصبح صاحب الدكان بعد ما مات الأب.

ولكنه لم يكن وحده.

أمام الدكان كانت فتاة في الثامنة عشرة ربما، أو أقل، فقد كانت لا تزال محتارة كيف تلف الملاءة بإتقان حول جسدها.

وكان يساومها على تصليح البوتاجاز.

مساومة ذات معان. تبدأ من «الفونية» إلى المفتاح، والفرن ونار الفرن.

والفتاة تضحك.. وهو يبتسم..

وفجأة نظرت إليه من جديد.

نظرة، وكأنها ثاني مرة تراه فيها بعد المرة الأولى، المرة الأولى . .

كان انساناً آخر تماماً . . كانت قد أصبحت له ذقن غزيرة غير حليقة نابتة وسوداء كثة، وكان صوته قد غلظ وضحكته قد أصبحت رجالية خشنة، صوت له ارادة ونظراته لم تعد تستقبل العالم وتدهش له. أصبحت فقط تراه لتحدد مسارها فيه لا غير.

لقد أصبح رجلاً كبيراً، هذا واضح.

أصبح واحداً من قافلة الرجال . . والأمهات على الرجال عبء.

وقبل أن تئن أو تدور بها الدنيا.

أحست أنها لا تريد الأنين، وأن باستطاعتها أن توقف الدوار. فهي ليست عاتبة أو حزينة أو مندهشة أو حتى حاقدة على الفتاة أو عليه. أدركت ـ من خلال احساس غير واضح وبلا ضغينة ـ أنها هي الأخرى لم يعد لديها ما تعطيه أو تمنحه، لا فائض أمومة ولا فائض عواطف، والبركان الأخضر الريان لم تعد به قطرة واحدة.

وفي مرآة حقيبتها رأت البياض في شعرها واضحاً تماماً رغم الصبغة، والتجاعيد كثيرة حول جفونها ورقبتها.

وتحركت . .

مبتعدة . .

ومقتربة من المسجة . .

واستأذنت في سرها، وكأن جاءها الإذن . . ففي خشوع وتسليم

ورغبة دخلت، وإلى المقام اتجهت. .

ووقفت طويلاً لا تعرف ماذا تقول أو تفعل.

ثم. . وكأنما بالوحي أو السليقة اقتربت من السور النحاسي المقام حول الضريح، وأمسكت مع الممسكين والممسكات بحلقة من حلقات النحاس الناعم الذي أثخنته كثرة الاستعمار. أمسكت بالحلقة وضغطت عليها وتشبثت تماماً بها وكأنما الأرض تحتها. تنفتح لتبتلعها.

لا أحد يحتاج إليها الآن.

ولم تعد هي بحاجة إلى أحد.

انها الوحدة الحقيقية كما لم تتصور وقوعها يوماً.

ها هي مثل بوادر الشتاء وبلا ضجيج، قد جاءت.

وحدة حقيقية لا مهرب منها. الوحدة الفاصلة بين الابن وبينه هو نفسه حين يصبح أباً، وبينها وقد نفدت أمومتها أو ما تبقى منها وبين عودتها من جديد لتصبح هي نفسها ابنة. . ابنة لأم لا وجود لها، وربما لهذا سموها أم العواجز. فالإنسان لا يستطيع البقاء انساناً إلا ابناً كان أو أباً، فإذا انتهت رجولته وأبوته عاد ابناً، وإذا انتهت أمومتها عادت ابنة، قاعدة ليس لها شواذ. ولكنها الآن في لحظة واحدة فاصلة، كوحدة السيدة زينب نفسها وقد تجمع حولها وأمسك بحلقات ضريحها أناس كثيرون، رجال ونساء، وكلهم وكلهن وحيدون ووحيدات مثلها. كلهم وكلهن قد أصبح أملهم أن يعودوا أبناء وبنات، وحبذا لأم العواجز. الوحيدة في قبرها رغم ما حوله

من ازدحام ، يحاول كل متزاحم أن يتشبث إلى درجة البكاء والعويل بحلقة من حلقات الضريح ، وكأنما ليلغي ما بينه وبين صاحبة الضريح من مسافة ، وينجح في النهاية أن يخرج من وحدته ويحس بها أمه ، ولو كانت أم الجميع . فهي أيضاً رغم كل شيء وحيدة .

وحيدة في قبرها .

وحولها يتشبث الوحيدون والوحيدات .

والفاتحة لها ولهم .

«تمت» .

المحتويات

رقم الإيداع ١٩٥٨ ١٩٩٠
الترقيم الدولى ٢ ـ ٤٠٥ ـ ١٤٨ ـ ٩٧٧

مطابع الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني - هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤

بيروت: ص ب ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣

يوسف إدريس

القصص القصيرة 1

الاعمال الكاملة

يوسف إدريس



القصص القصيرة 2

دار الشروق

يوسف إدريس

القصص القصيرة "٢"

الطبعة الأولى

١٤١١ هـ - ١٩٩١ م

القاهرة ١٦ شارع جواد حسني - هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤
برقيا شروق - تلكس 93091 SHROK UN
بيروت ص ب ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣
برقيا داشروق - تلكس SHOROK 20175 LE

يوسف إدريس



القصص القصيرة "٢"

رجـــال وثـــيران

- ١ -

أعرف أن هناك صداقة مثلاً وزمالة وعلاقات اعجاب .. أعرف أن هناك عداوة أو محبة أو لا مبالاة، ولكني لا زلت لا أعرف كيف أضع اسماً للعلاقة الانسانية التي ربطتني به. من ناحيتي كنت واحداً من ثلاثين ألف آدمي لا تجمع بينهم الا «الأرينا» الهائلة الحجم، ولا يلتقون الا عند رغبة ملحة واحدة.. رغبة من رغبات البشر التي تظل تلح وتصر حتى تفرض نفسها وتتحقق بطريقة أو بأخرى. فرد من آلاف.. مجرد طرف سلبي، عملي طول الوقت أن أجلس وأشاهد، والجهد الايجابي الوحيد الذي كنت أقوم به لا يتعدى بضع محاولات، معظمها فشل، لكبت انفعالي كي لا أنساق وراء المواء الجماعي اذا صدر عن الآلاف، أو إخفاء وجهي اشمئزازاً أحياناً، أو خوفاً، أو لضعف الأعصاب.

أما هو فقد كان بالنسبة لي مجرد وجه اختارته عيناي من بين الآلاف لتلمحه، وما تكاد تلمحه حتى تتوقف عنده كقطار سريع يبطىء ليعود يمضي فاذا بإبطائه يتحول الى وقوف. لم تتوقف عيناي لأن الوجه كان شاحباً، لم يكن أصفر، ولا كانت هناك نقاط عرق،

ولا كـان الشحـوب بـإرادتـه، الشعـور الـذي دهمني وأجبـرني على التوقف ان نظرتي الأولى لـه أشعرتني أن هنـاك شيئاً هـو الذي أذهب لـونه، وبيض قمحيـة وجهه، شيء وسطَ الـزحـام الشـديـد لا يمكن إدراكـه أو ضبطه، ولكن كـان باستـطاعتي أن أقسم أنـه هنـاك، وأنـه المسيـطر على كـل تلك الآلاف وإن كـانت مـلامحهم لا تنجـح في الكشف عنـه، ولا يهديـك اليه الا نـظرة لذلـك الوجـه، أجـل هنـاك كعُقاب خفي داكن رابض فوق سماء «الأرينا».

عُقـاب لـه ثـلاثـون ألف مخلب، في كـل وجـه ينشب مخلبـاً وطواطياً لا يمكن انتـزاعه، ويفعـل هذا دون أن يعي بـه أو ينتبه اليـه أحد، أو يترك أثراً واحداً يشير الى وجوده لولا ذلك الاحساس المبهم الـذي تحسه وتشم رائحتـه تتسرب.. احسـاس جامـع شامـل له دوي الجنازات القادمة من بعيد، والانقباض الذي يشمـل البيت اذا نعقت في غنائه بومة.

وربـما الذي استوقفني في الوجه أنه الوحيد المتميـز الشحوب، وكأنه من نوع خاص ناتج عن احســاس خاص لا يشـاركه فيـه سواه، وكأنه وحـده هو الذي يدري، ووحده الذي يتـوقع، وحـده الذي حين تراه ينتقل اليك علمه، وتبـدأ أنت الآخر تـدرك وجود شيء في الجـو والمكـان، شيء آخر غيـر الناس والازدحـام وشمس مـا بعـد الـظهـر وضجـة «الفيستا» والاحتفـال، شيء حاضـر خفي داكن رابض ينتـظر اللحظة المناسبة ليعلن حتماً عن وجوده وينقض، وفي الحال، ودوناً عن الثلاثين ألف انسان، وبمثـل شرارة التمـاس لا بد أيضـاً أن يدق

قلبك دقة الخوف، اذ تدرك على الفور ادراكاً غريباً مبهماً وكأنما يهبط عليك كالإلهام، أن ثمة شيئاً غير عادي سيقع اليوم لصاحب ذلك الوجه، وأنه أبداً لن يغادر «الأرينا» بنفس الحال التي جاء بها.

هذه الدقة المفاجئة وما صاحبها من انزعاج صغير عابر، حددت لحظة خطيرة غريبة في حياتي، لحظة التقائي بإنسان جديد لم يكن منذ ومضة يعنيني أمره. فاذا بالدقة تبدأ معها علاقة، وتتعدى العلاقة بسرعة مراحل التعارف الأولى الى مرحلة الصداقة، بل تتعداها الى ما هو أكثر.. الى مرحلة القلق العظيم على الصديق والتتبع المشفق لخط مصيره.

وهكذا ألقيت النظرة الثانية على صديقي الجديد وكأن بين النظرتين عاماً، وكأنني أعود أتفحص ملامح عزيز طالت غيبته محاولاً أن أدرك ما حدث له ولشكله من تغيير. كان الوجه دقيقاً نحيلاً يصنع برأسه الأنيق الذي بدأ شعره من أمام يخف ويتراجع ويستعد لتسليم الرأس ـ أو الجزء الأمامي منه على الأقل ـ لصلع قريب.. كان يصنع مع وجهه النحيف مثلثاً رشيقاً صغيراً كل ما فيه حتى أذناه رشيق صغير. ولكل وجه في الدنيا قصة يحكيها أو معنى أو صيحة يطلقها ويعلن بها عن جماله مثلاً أو ذكائه، أو عما يكمن في أعماق صاحبه من دهاء. ذلك الوجه كان من الوجوه التي لا تتحدث عن نفسها.. من الوجوه التي نحس بها دائماً مشغولة بحدث خارج عنها أو بقضية. ولحظة رؤيتي الثانية له لم يكن وجهه يتحدث عن شيء بالذات أو مشغولاً بشيء، كان صامتاً.. صمتاً لو صبرت عليه لاستحال الى

حزن، حزناً لا بد شفافاً كحزن الملائكة أو ابتئاس الأطفال.

وكان يبدو في الثالثة والعشرين، ولكن مجرد النظر في وجهه ومراقبة صمته وهو يأخذ لون الأحزان البريئة يرغمك أيضاً، ولا تدرك كيف، على أن تحس تجاهه ـ ومهما كانت سنك. ولو كنت أصغر منه ـ بأبوة لا تفسير لها ولا تبرير.

-٢-

كنت قـد حضرت ـ كـأي مقدم على عمـل لأول مرة ـ مبكـراً، وقضيت بعض الوقت أطوف «بالأرينا» وممـراتها ودهـاليزهـا، وأراقب السوق السوداء لبيـع التذاكـر، وآلاف السياح والأوتـوبيسات الفـاخرة التي لا يكف عن التحديق فيها الأطفال الأسبان أشباه العراة وهي تقف ويهبط منها خليط عجيب من البشر من بين لغاته الكثيرة تميز بسهـولة الخناقة الأمريكية الممدودة والغالبة، ومئات العربات الخاصة.. أفخم وأحدث عربات من نوعها في العالم، وأبوابها تفتح لكي تنساب منهـا سيـدات.. أجمل سيـدات.. وأروع عطور.. وأغلى وأشيـك فساتين، ورجـال بصلعـات وكـروش وأرضـدة مكتـظة، وشبـان أثـريـاء بـالكابـورليهات، والجميع يمضون الى مقـاعدهم المحجـوزة، بينمـا جمهـور اللعبـة الحقيقي ـ أفـراد الشعب الأسبـاني ـ يتقـاتلون حـول التذاكر، ويتدافعون أمام باب الدخول، وفي الداخل لهم المـدرجات المواجهة لشمس مدريد في الصيف وما أحرها.

ومن متحف المصارعة عدت الى مكاني في المـدرجات حيث المتحف البشري الزاخر الوافـد على مدريـد والساحـة من كل أنحـاء

الأرض، وكيف تقبل أفواجه كالسحب المثقلة التي لا تلبث أن تبطىء حركتها وتتكاثف وتتساقط في أنحاء الدائرة الكبيرة على هيئة أجساد غير واضحة المعالم فوق مقاعدد مقامة من الأسمنت المسلح. ساحة و «أرينا» لا تختلف كثيراً عن تلك الموجودة في روما التي أقامها الرومان من آلاف السنين ليتسلى الحكام الرومانيون بصراع العبيد العزل مع الوحوش، كل الخلاف هنا أن الانسان زود بدلاً من المسلة بقطعة أطول من المعدن على هيئة سيف.. ولكن الصراع لا يزال هو الصراع.

وربما استدارة الأرينا، أو ربما هي الحلقة البشرية الهائلة المحيطة بالدائرة الرملية الفارغة، ربما الحيرة، ربما الدوي المستمر الذي لا ينقطع، ربما العقاب الرابض في مكان ما من سماء الساحة ناشباً مخالبه في الوجوه والملامح، ربما أي شيء، ولكن الذي لا شك فيه أن ثمة قلقاً، وكأن أحدهم قد ألقى في قلب الساحة ببضع قنابل مثيرة للقلق واللهفة، لا على المصارعة وبدئها والرغبة أن تتم بسرعة، فكلنا نعلم أنها تبدأ في السادسة وأن بيننا وبينها بضع دقائق لا تحتمل اللهفة أو الترقب. انه قلق وترقب ولهفة المشغولين بشيء قاهر حاد، لا يدرون ما هو بالضبط وما الذي يشغلهم به تلك المشغولية العظمى. المشغولية التي تجعلك لا تستقر على وضع ولا تستسلم لموضوع، بحيث لا يحتمل منك الشيء أكثر من نظرة، وبحيث يبدو الحديث مملاً بعد جملة حواره الأولى، وأجمل الفتيات تكفيها التفاتة. مشغولية عظمى غير محددة أو معروفة الأسباب

ولكنها قائمة وموجوده وذات أزيز.

وكـان عليّ أن أكـافـح رغبتي في التـطلع ودوامـة المشغـوليـة المبهمـة التي تبتلعني كـالآخـرين، كي أستخلص نفسي وأستمـع للهاتف وأعود أتابع صاحب الوجه الشاحب الصامت الرشيق

-٣-

كانت ساعتي قد بدأت تشير الى السادسة، وكنت قد بدأت أميز خلال المسطحات البشرية ذات الألف لون ولون والتي تنسدل كسجادة هائلة مزركشة فتغطي المدرجات دون أن تترك فجوة.. كنت قد بدأت أميز أبواب الدخول، والمكان المخصص لرئيس «الفييستا»، اذ لا بد لكل احتفال من رئيس، وركن الفرقة الموسيقية، والمظلة التي تظلل نافخي الأبواق الثلاثة. والساعة كما قلت كانت قد أشرفت على السادسة ولم يحدث في الأرينا ولا داخل الحلقة المغطاة بالرمل والمتناثرة فيها صناديق الاعلانات ما يدل على قرب البدء. ولكن جاري الأسباني الضخم الجثة العالي الصوت وقد لمح دهشتي وحدثني بأسبانية لا أفهم منها الا أن أرد بقولي: لا أفهم الأسبانية.. نون كومبريندو اسبانيول.. ولم يعقه هذا عن مواصلة الحديث وعن شرح ما يريد قوله لي باستعمال لغة الأيدي والاشارات العالمية. وفهمت منه أن كل الساعات غير معتمدة، وأن الساعة الوحيدة التي ستحدد الوقت هي ساعة الأرينا المطلة من برج عال منتصب في جزء من محيط الدائرة.

وكانت هذه الأخيرة تشير الى السادسة الا أربع دقائق، واسترحت فأمامي بعض الوقت أستطيع أن أوقن فيه مرة أخرى أني لست في حلم، وأن الظروف قد ظلت تتآمر عليّ حتى قادتني على الرغم مني الى مدريد، وأني الآن في أكبر ملعب لمصارعة الثيران في أسبانيا ومن ثم في العالم كله، وأنه بعد أقل من خمس دقائق سيحدث أمام عيني ذلك الصراع الغريب الذي ألهب مخيلتي وأنا طفل في قصة دماء ورمال، والذي غذى خيالي شاباً وأنا أقرأ لهيمنجواي، الصراع الذي انفعلت به قرائح فنانين وكتاب وشعراء ومخرجين، الصراع الذي صنعت منه مآسي وأهوال، وفي خضمه هلك أناس واستشهد أبطال، ونمت قصص حب.

وكان عليّ أن ألقي نظرة على صاحبي. هذه المرة وجدته قد أصبح فرداً في طابور المصارعين الثمانية الآخذين أماكنهم في الممر خلف «البيكادورز» (راكبي الخيل) في انتظار تحرك الموكب الذي يبدأ به العرض، وكان قد وضع فوق رأسه قبعة الميتادورز المستعرضة السوداء، وخيل لي أنها تبتلع جزءاً كبيراً من رأسه الصغير وتخفي بعض وجهه. ولأمر ما تصادف أن رفع رأسه وتصورت أن نظراتنا التقت، ولكنني كنت أعلم أنه مجرد خيال فمن موقفه البعيد هو قطعاً لا يرى نظراتي. إن ما أمامه مجرد نقط صغيرة سوداء تكون رؤوساً لا تهمه معالمها بقدر ما يهمه أن تصدر عنها بعد قليل ضجتها التي تدوي: أوليه، تحييه وتستحسن عمله.

ولم يكن في مشهده ومشهد زملائه السبعة المصطفين أي روعة

مما تجسدها السينما بألوانها وعالمها، كانت ملابسهم بديعة النقوش حقيقة تستوقف البصر، وتلمع زخارفها اذا تحركوا وتومض، والجاكتة معلقة فوق الكتف الأيمن كوضعها التقليدي، والسراويل الضيقة حتى تكاد تمنع الحركة، وكان هذا هو كل ما هنالك بلا تضخيم أو تهويل.. بل هم بملابسهم أنظف وأجمل ما في الموكب المنتظر، فالخيل التي يركبها البيكادورز عجفاء عجوز ودروعها مهلهلة، وحاملو الأعلام أزياؤهم غير متشابهة كما يجب، وكما تظهر لنا العدسات التي ما أكثر ما تفتري على الواقع وتقلب الفقر روعة والدنيا بكل عيوبها وقصورها جنة.

ولكني في اللحظة التالية كان احساس غامر ـ وكأنما ادخرته لهذه اللحظة ـ قد طغى عليّ تماماً.

وانتشيت به! الاحساس باللعبة.. الاحساس أنك بسبيلك إلى أن تلهو وتختلس من وراء ظهر الزمن ساعتين تشبع فيهما متعة ومرحاً وانفعالاً.

نفس الاحساس الذي يراود الطفل حين يلمح اللعبة التي اشتراها له أبوه تطل من حافة الحقيبة أو اللفافة، ويتأكد تأكداً قاطعاً من أن عينيه لم تخدعاه وأنها فعلاً لعبة جديدة اشتريت خصيصاً له. هذه اللحظة «ما بين الاحساس بأنه حالاً سيلعب بها وبين تسليمها له وبدء لعبة حقيقية بها» نشوة كهذه غرقت مختاراً فيها وأنا أقول لنفسي، لا فرق الا أن هذه لعبة أكبر بكثير ومضمونة أيضاً، والا لما جاء كل هذا العدد من الناس ودفعوا آلاف الجنيهات ليشاركوك في

ممارستها.. والأمتع أنها لعبة خطرة تحفها المفاجآت وتنخلع لها القلوب.

وحين شملت الأرينا تنهيدة عميقة وكأنما هي قادمة من تحت الأرض متصاعدة في شمول واتساع لتغطي وجه السماء. أول عمل جماعي يقوم به المشاهدون معاً، عمل أوقف مشغوليتهم. تنهيدة كانت ايذاناً بأن لم يبق على السادسة الا أقل من دقيقة.

وفي ثوان كانت كل صناديق الدعاية قد أخرجت من الساحة، وسكتت الأصوات جميعاً، وتحولت ضجة المكان الى فحيح، واتجهت الأنظار كلها في ترقب دافق الى نافخي الأبواق.

ولم نسمع دقات الساعة.

فقد طغت عليها أصوات النفير والرجال الثلاثة يبذلون أقصى قواهم، ومع هذا لا تكاد أصوات أبواقهم تسمع في أنحاء الأرينا كلها.

ولكنه كان قد أعطاها.. متهافتة حقيقة لا تدوي أو تصم الآذان وتوقع الرهبة في النفوس، ولكنها وهذا هو المهم اشارة البدء.

-٤-

وعلى مصراعيه انفتح جزء من سور الدائرة الرملية المواجه للممر الذي يلاصقنا، انفتح على هيئة باب. وبينما جزء الموكب الأمامي يدلف متأنياً الى الساحة كنت بكل الشغف وحب الاستطلاع والقلق العظيم على الصديق أختلس نظراتي الأخيرة الى طابور المتادورز وإلى صديقي ـ الثاني الى اليمين في الصف الأول ـ والطابور صفان: أربعة من هنا، وأربعة من هناك، وبين كل ميتادور وآخر مسافة.

ومن المقاعد في أقصى اليمين تبينت أصوات الفرقة الموسيقية تعزف المارش، والطبول تدق والأنغام تهب علينا من بعيد باهتة المعالم مخنوقة بالحشرجة. وأبالغ إذا قلت أني دهشت، فالواقع مرت الحركة ساعة حدوثها ببساطة.. نفس البساطة التي حدثت بها حين رسم كل منهم في آخر لحظة لوقوفه، اللحظة التي سيبدأ بعدها يتحرك، رسم كل منهم علامة الصليب على صدره.

ولم يدهشني أني رأيت صديقي يفعل مثلهم مع أنه لم يكن

من النظرات الأولى اليه شديد التدين. أخذتها على أنها نوع من العادة الكاثوليكية لا أكثر، وكدت أقف من صاحبي في هذا الأمر موقف المحايد لولا أني لمحت أنه لا يؤديها كعلامة أو كواجب، في وجهه بالذات ـ في نصف وجهه الذي كنت أراه من مكاني ـ كان ثمة ابتهال حقيقى واضطراب، لا بد علت معه دقات قلبه وخيل لي أن لونه ازداد شحوباً.

ولكنها لمحة سريعة، كان أسرع منها ذلك القناع الذي انتشر فوق وجهه وكسا مثلث ملامحه الصغير بقشر صخرية معتمة أخفت كل شيء حتى الشحوب، وما بقي ظاهراً كان قسوة مفاجئة مجهولة المصدر. وفى اللحظة التالية كان يتحرك ليدخل الأرينا.

ورغم أن الموكب كان يأخذ طريقه على رأسه البيكادورز (حاملي الحراب)، ووراءهما طابور الميتادورز (المصارعين)، تتبعهم صفوف غارسي الأعلام (الباندريللوس)، وصبيان اللعبة وعمالها.. موكب حافل ملفت للنظر يستولي على اهتمام الجميع ويصفقون له، وهو يأخذ طريقه الى حيث منصة الرئاسة. ورغم انشغال الناس جميعاً بالموكب كنت لا أزال أفكر في علامة الصليب، ومن زاوية جديدة غيرت الموقف في نظري تماماً. إن مجرد تسمية الشيء باللعبة ـ حتى لو كانت اللعبة مصارعة ثيران أو وحوش ـ يعطيها في فهمنا لوناً ما.. معنى غير جدي جدية تامة حتى لو كانت خطرة، فهي ليست سوى لعبة. واللعبة لا تقترن في تفكيرنا باللعب فقط ولكن أيضاً بالهزل. ولسبب ما.. هناك.. فيما وراء كل ما كنت أراه من جدية وخطورة

واستعدادات، كانت فكرة أن المسألة كلها ليست بالوعورة والخطورة التي صوروها لنا في السينما والروايات، ولا بد هناك من طرق متفق عليها ومتبعة للتقليل من خطورتها في الباطن مع إضفاء الرهبة عليها من الخارج.

هذه الحركة التي لمحتها في آخر لحظة، جعلت الشك يبدأ يتسرب اليّ في اعتقادي، وجعلتني أتساءل: أليس من المحتمل أن تكون المصارعة مصارعة حقيقية فعلاً بلا أي عبث مما اعتقدته أو اتفاق، وأن الناس جميعاً يأخذونها جداً ما عداي؟

تساؤل راحت الأحداث المتعاقبة تدعمه من ناحية وتنفيه من نواح، وظللت لا أجد البرهان الدامغ الذي لا يقبل الشك، ولم أكن أعرف ما ينتظرني يومها.

-٥-

بنفس الاستخفاف قابلت الخطبة القصيرة التي ألقاها قائد البيكادورز أو حاملي الحراب أمام رئيس الفييستا (الاحتفال)، وكذلك كل ما تلا هذا من تسليم الرئيس للرجل مفتاح الباب المؤدي الى حظيرة الثيران والموجود على يسار المنصة، ثم تراجع الطابور الى حيث احتل كل مشترك فيه المركز الخاص به. المصارعون وقفوا خلف الحواجز الخشبية الواقية، والبيكادورز خارج الحلبة عند بابهم، والصبية تناثروا على محيط الدائرة يحضرون العباءات وأعلام الغرس «الباندريلالاز» والحراب.

وسكتت الحركة في الحلبة، وكذلك خيم صمت الترقب على المدرجات والأرينا، واضطر أي متحدث أن يخفض صوته وأن يدفعه الصمت المتزايد الى أن يكف عن الحديث ويسكت تماماً.

وكالمفاجأة المتوقعة تصاعدت أصوات النفيرا وفتح باب الحظيرة واندفع الى الحلبة كائن أسود مدكوك القوام ما إن رأى الساحة خاوية والناس حولها في احتشاد عظيم حتى توقف لبرهة..

لبرهة! إذ ما كاد يلوح أحد المصارعين بعباءته من آخر الحلبة حتى بدا وكأن الثور ركبه ألف عفريت، اذ اندفع لا يجري وإنما يثور أو يغلي أو ينفجر جارياً، كالصاعقة منقضاً، كالقوة الغاشمة العمياء، لا يقيم وزناً لشيء وليس له الا طريقة واحدة للتعبير عن قوة الحياة المحشودة داخله في تضاغط هائل.. الا أن ينطح بقرنيه. وقرناه ليسا كقرني ثيراننا المستأنسة بارزين إلى الجانبين، إنهما قرنان رفيعان كأسياخ الحديد بارزان إلى أمام على هيئة مسمارين مستقيمين ممتدين في تواز، وهو لا ينطح بهما أو برأسه أو باستعمال عضلات رقبته.. إنه ينطح بكل جسده. يندفع ككتلة سوداء أسطوانية مدكوكة باللحم والعضلات إلى الأمام في سرعة هائلة، وبكل جسده المندفع المحتشد يكتسح ما أمامه بقرنيه. ولا يهم أن يكون ما أمامه صخراً أو حديداً أو انساناً دقيقاً حساساً بينه وبين هذه الحياة الشرسة الخرساء العمياء ملايين السنين من التطور والترقي.

ولكن هكذا أرادها الانسان.. أن يواجه هذه القوة الغاشمة التي لا ترحم، ويحشد أمام العضلات المزدحمة الرهيبة كل مزايا عقله الانساني من ذكاء وقدرة على التصرف وقدرة على الخبث والخديعة أيضاً، ولكن كما أن العضلات المحتشدة وحدها لا تقتل.. الذي يقتل شيء أكثر بدائية من العضلات هو القرون، فللثور قرونه، وعلى الانسان هو الآخر أن يستعمل حين يبلغ الصراع أعلى مراحله ويصبح لا بد أن يخلص أحدهما على الآخر، أن يستعين بآلة قتل.. بسيف،

ليصبح السيف في يده والقرن في رأس الثور، والنصر لمن يبادر بالطعنة.

انطلق الثور هائجاً كزوبعة حيوانية هبت على الدائرة الرملية، واندفعت تعصف بكل اتجاه عصفاً بعث الرعب في قلوب المشاهدين الذين تفصلهم عن الثور الهائج مسافات وحواجز، ولكن الغضب الوحشي الذي كان يجتاح الثور ويوشك معه أن يحطم الأرض ويخرق السماء، ولا يبقي أو يذر شيئاً بينهما.. حالة كانت الحواجز والمسافات فيها لا يمكن أن تؤدي إلى أي اطمئنان.

كتلة الحياة الهائجة السوداء تلك، المركزة المضغوطة في هذا الحجم الثوري المحدود، هذا الجبار الطاغي الواثق بنفسه وقوته ثقة كقوته عمياء، لا يتردد معها أن يقتحم أية قوة أمامه وأي كائن مهما كان. هذا المغرور الأحمق الذي يثير الرعب بكل خلجة من خلجاته، ولا شيء على الاطلاق يدفعه هو إلى الرعب أو حتى الخوف أو التردد.

.. هذا المبعوث الداكن يمثل كل ما في الحياة من قوة وتعطش للعدوان والرغبة في التحطيم والدم والتخريب. هذا الذي من فرط سرعته وتجبره لا يكاد يستقر في مكان، وينتقل من محيط الحلقة إلى محيطها الآخر قبل أن تدرك أنه انتقل. هذا الموجود في كل مكان، الضيق بكل مكان، المتحرك كالبرق كالضوء.. كالوباء في كل اتجاه، حركة بلا هدف الا الحركة نفسها، ورغبة في التخريب والتحطيم بلا

هدف الا التحطيم ذاته، والتغلب على كل ما يقف في طريقه صديقاً كان أو عدواً بـلا هدف أو حكمـة الا هدف التغلب ذاتـه. كتلة الحياة المـركزة تبركيز الجن في القمقم، المنـطلقة المتفجـرة بـلا غـايـة أو هدف، تجسد لنا ذلك المعنى الذي كثيراً ما تداولناه حتى اعتدنـاه.. تجسد لنا كلمة الوحش، وترينا السبب والدوافع التي حدت بأجـدادنا الأول أن يطلقوها على بعض أعدائهم من الحيوان.

هـذه الظاهـرة التي من فرط حيـويتهـا تجعلك تؤمن أن الحيـاة ليست أرقى الجمـاد وأوجـه بقـدر مـا هي شيء مـرعب حقـاً، التي تجعلك تعيد تأمل سطح الأرض وما عليها وتدرك أن الرعب شعور لا تحسه إلا الكائنات الحية، وأيضاً لا تثيره سوى هذه الكائنات نفسها، لا شيء في الـطبيعة يخيف إلا كـائناتهـا الحيـة، ولا شيء يخيف الا وهو أيضاً يخاف. كلها ما عدا هـذا الشيء الأسود الحي الـذي أعتقد أنهم اختـاروه للعبـة لأنـه الـوحيـد بين الكـائنـات الـذي يخيف ولا يخاف.

ولكنني وإن كنت قد ظللت أتابع بانتباه طاغ حركة الثور وحركة مصارعيه، إلا أنني لم أستـطع من أول مرة أن أفهم. كنت أعتقـد أن واحداً هو الذي عليه أن يصارع الثور من أول دقيقة إلى أن يصرعـه، وإذا بالموضوع أكثر تعقيداً وله هو الآخر قواعده وأصوله ونظامه.

فهـذا التلويح الأول بـالعباءة للثـور، ذلك الـذي يجعله يتفجر جرياً وبحثـاً عما يمـزقه بقـرنيه.. في تلك المـرحلة يراقب المصـارع خصمه ليعرف كيف يجري والسرعة التي يتوقف بها ويستديـر، ومبلغ

شجاعته.. ومقياس الشجاعة أن لا يتردد الثور في مهاجمة كل ما يعترضه.

ثم تبدأ المرحلة الثانية مرحلة الفرس أو «سيوريت دي فاراس»، حيث ينفخ في النفير ويدخل راكبا الخيل «البيكادورز»، وحين يلمحهما الثور يندفع بلا تردد لمهاجمة أقرب الحصانين، وتبلغ قوته حينئذ حد أن يستطيع رفع الحصان وراكبه وإلقاءه خارج الحلقة. وحين يندفع لمهاجمة الحصان ينتهز الفارس الفرصة ويغرس في كتف الثور حربة سميكة تصنع جرحاً غائراً ينزف منه الدم، والغرض من إحداث الجرح هو إضعاف الثور والحد من قدرته الهائلة على المهاجمة والحركة.

بعد هذا تبدأ مرحلة الباندريللاس أو الأعلام، حيث يقوم الباندريلوس أو غارس الأعلام برشق ثلاثة أزواج من الأعلام في ظهر الثور.. مهمة لا تقل خطورة عن مصارعة الثور نفسها! فعلى الراشق أن يستفز الثور إلى درجة يقبل عليه بسرعة هائلة، وفي نفس اللحظة التي يتحرك فيها الثور مهاجماً ينطلق الفارس مسرعاً على نفس الخط القادم منه الثور. وفي الومضة الأخيرة وهما يوشكان أن يلتقيا وتوشك قرون الثور على اختراق جسد الرجل، في آخر لحظة ينحرف الفارس بساقيه فقط عن الخط، بينما يظل نصفه الأعلى ويداه الممسكتان بالعلمين في نفس الاتجاه بحيث حين يمر الثور يرشق الفارس علميه، وبعد هذا تبدأ مرحلة الصراع أو الميوليتا وهي المرحلة التي يحاور فيها المصارع الثور باستعمال العباءة الحمراء، وفيها أيضاً

يمتاز المصارع على المصارع إذ هي المرحلة التي تتبدى فيها ألوان وأشكال من الحيل والطرق.

وتنتهي تلك المرحلة حين يكون الصراع قد هد كيان الثور إلى حد بعيد، بحيث لم يعد يهاجم من تلقاء نفسه ولا بد من استفزازه كثيراً لدفعه للهجوم. حينئذٍ يستبدل المصارع العباءة بأخرى داكنة في لون الدم، ويستبدل العصاة المعدنية بسيف، ويستعمل السيف وسيلة لفرد العباءة في سلسلة مخاورات أخرى ومداورات، إلى أن يحين الحين وبنفس الطريقة التي يغرس بها الباندريلوس علمه، يغرز بها المصارع سيفه إلى المقبض في الجزء المقابل للقلب من ظهر الثور، كل ما في الأمر أن الغرس يتم والثور شبه واقف، ولكن خطورتها على المصارع أن يستعمل يداً واحدة للطعن بينما الأخرى تمسك بالعباءة، وأنه يضطر للاقتراب كثيراً من جسد الثور بحيث ان أي خطأ صغير في حساب المسافة يجعل منه غنيمة سهلة للقرون التي طال تعطشها إلى الفتك.

-٦-

وهكذا لم أفق من استغراقي في الانتباه ومحاولة التفهم إلا على الميتادور الأول وهو يستفز الثور الذي كان قد تبلد وفقد الكثير من طاقته على الحركة والمهاجمة.. الثور الذي نزف كمية هائلة من الدم وأنهكه الجري المجنون المتواصل وأصبح يلهث بصوت يبلغ ارتفاعه أنه كان يصلنا ونحن في أماكننا بالمدرجات بعيداً عن الساحة.

الثور الذي أصبح مهما لوح أمامه بالعباءة الحمراء لا يأبه كثيراً لها، وبرغم تعبه كان الجبار لا يقوى على كبت رغبته المجنونة في الاستجابة للتلويح الأحمر، فما تكاد تتكون لديه أول دفعة قوة وأول قدرة على الحركة حتى ينطلق مهاجماً، ويعاود الكرة بضع مرات يكون قد استنفذ خلالها دفعة طاقته فيعود يرغم على الوقوف. هذه الفترة عرفت فيما بعد أنها أنسب وقت «لقتل» الثور وهو في وهنه، وقبل أن يستريح بدرجة تكفي ليعاود الهجوم مرة أخرى.

وهكذا ظل الميتادور الأول يستفز الثورللحركة حتى تحرك وأقبل ناحية العباءة بأقصى ما في قدرته من سرعة. ورغم أني رأيت كل شيء إلا

أني لم أدر ما حدث بدقة، ولا يكفي أن ترى لكي تدرك! أقبل الثور مسرعاً وحدثت بضعة أشياء في وقت واحد.. أبعد الميتادور العباءة وتنحى عن طريق القرون والرأس بنصفه الأسفل، ومن سرعة الحركة وخفتها لم ألمح السيف وهو يغمد، وحين انتهت الحركة رأيت مقبضه فقط هو البادي منه إلى يسار السلسلة الفقرية.

ويا للبساطة! ما كادت تمضي ثانية واحدة حتى وجدت الثور كالحائط القديم المائل يسقط هكذا فجأة، وكأنه ممثل مسرح يؤدي دور الموت، وتحسبه لا يجيد التمثيل للسرعة التي يسقط بها نفسه ويموت. حقيقة وواقع يحدثان أمامك ولا تكاد تملك القدرة على تصديقها، لا يمكنك أبداً أن تصدق أن نفس هذا الكائن الذي كان يثير بحركته وجبروته الرعب حتى في الهواء وذرات الحصى، يرقد بعد أقل من عشر دقائق في نفس الساحة التي كان يحيلها بركاناً من الحياة والحركة جثة يعف عليها الذباب. نفس الجسد بنفس العضلات والقرون، بنفس القدرة والطاقة وقد أصبح فاقداً كل القدرة وانتهت حركته إلى الأبد.. ولماذا؟ لأن قطعة معدن صغيرة دخلت جوفه فاختل نظام الحياة داخله وتوقف. أجل نظام الحياة. إنه لشيء مضحك حقاً أن تعرف أن تلك الطاقة الحيوية الهائلة التي كانت تبدو على هيئة فوضى كاملة تريد أن تعيث فساداً في كل شيء وتخل نظام كل شيء وتحيل كل شيء إلى مزق، هذه الطاقة الحيوية المتفجرة لتشيع الفوضى في كل ما حولها مصدرها نظام بالغ الروعة دقيق، لولاه ما استطاع أن يحرك ذيلاً أو ينش ذبابة أو يأخذ شهيقاً.. نظام

يكفي أن تخدشه بقطعة معدن أو دبوس لكي ـ من شدة اتقانه ـ يختل وينتهي كنظام حياة ليبدأ يعمل فيه نظام آخـر.. نظام المـوت والتحلل والفناء.

ولا بد أننا نكـره هذا النـظام الآخر ـ نـظام الموت ـ إلى درجـة مقيتة.. إلى درجة أننا نأسى لو حل حتى بأعدائنا. فما تمنيت شيئاً وأنا أرى الثور يعصف هادراً ممزقاً غارساً قرنيه بوحشية في كـل شيء، ما تمنيت أكثر من أن ينجح الميتادور في الإجهاز عليـه ويريحنـا ويريـح الدنيا منـه. ولكن.. ولكنني حين رأيت السيف مغمداً إلى حد مقبضه في صـدر الثور، ثم رأيتـه على أثـر الطعنـة المصـوبـة بخبـرة ودقـة وشجاعة يسقط ميتاً رافعاً ساقيه، شعرت رغماً عني ـ ولماذا أختار هذا الشعور لأقول رغمـاً عني؟ ومشاعـرنا دائمـاً لا تتحرك بـإرادتنا وإنمـا رغماً عنا ـ شعرت بأسى، وأحسست أنا الواحد من الثلاثين ألفاً الذين كان يشيع في قلوبهم الرعب من دقائق، أحسست أني أشفق عليه شفقة حقيقية صادقة، وأنه صعب عليّ. وليس في قدرتي أن أجد لهذا أوهى تفسير فليفسره علماء النفس إذا استطاعوا. وحتى لـم أتبين بالضبط من الميتادور الذي كان يصارعه والذي قتله؟ فكلهم يـرتدون نفس الـزي ولهم تقريباً نفس القامة. لم أعـرفه إلا حين تهـاوى الثور وسط حلقـة الميتادورات التي تلتف حوله في تلك اللحظات وكأنما تحاصره حتى تتأكد من خمـود أنفاسـه، مخافـة أن يقدم في لحـظة الموت واليـأس الأخيـرة على قتـل الميتـادور الـذي صـرعـه. من وسط هـذه الحلقـة وجـدت واحداً منهم يتلفت وينحني رداً على تصفيق الجماهير الـذي

تعالى.. ثم حين تأتي الأحصنة الأربعة المخصصة لجر الثور الميت وتخرجه من الحلقة مشيعاً بالتصفيق الشديد والهتاف، وإخراج المناديل والتلويح بها علامة الاستحسان الكبير للطريقة والشجاعة والشرف التي تمت بها المصارعة، وللميتة المتقنة التي صرع بها الثور بغير عذاب أو ألم. حين حدث هذا وجدت الميتادور يدور حول الحلقة يرد على تحيات الجمهور، وخلفه اثنان من زملائه يجمعان الزهور والسيجار والسجائر والشيكولاتة التي تلقى له اعجاباً وتقديراً.

وظل الميتادور يجري بضعة أمتار ويتوقف ليتلقى تحية الجزء المقابل من محيط الدائرة، ثم يعود يجري بضعة أمتار ليختصر الزمن ويتلقى تحية الجزء التالي، حتى وصل إلى ذلك الجزء من الدائرة الرملية الذي يواجه مقاعدنا. وحين رفع رأسه بعد انحناءة التحية لم أكد أصدق عيني.. كان هو بعينه صديقي الذي منذ أن تاه عني مع الميتادورات في الساحة والقلق يجتاحني في صمت من أجله. ودون أن أحس وجدت نفسي أصفق بحماس زائد وكأني ألقاه بعد غيبة طويلة في أدغال خطرة مجهولة. وأتمنى لو كان باستطاعتي أن أقفز إليه وأعانقه وأضمه ـ ذلك الابن الضال ـ الى صدري، وأتأكد بنفسي أنه حقيقة خرج سليماً ومعافى.. قبل أن ينفجر احساسي بخيلاء الأب لأنه لم يخرج معافى فقط، وإنما خرج بطلاً أيضاً.

وما كان أروعه وأنا أسمعه يلقي إلى الميتادور خلفه بأمر هامس ولكن في لهجة حاسمة.. لهجة قائد لا يزال بريق انتصاره يخطف

البصر. كان وجهه القمحي قد ابيض تماماً، ولكن الأمر يختلط عليك هذه المرة وتمنع نفسك أن تجزم إن كان هذا البياض شحوباً شديداً سببه تعاظم الرهبة أم تعاظم الفرحة، أم الاثنين معاً.

وألقى جاري الأسباني إلى الساحة ـ خلافاً للقانون ـ بالمخدة الجلدية التي تستأجر بقروش لتلين من صلابة الأسمنت المسلح، وانتزعت جارتي عقداً من الفل كان حول رقبتها وقبلته وألقته إلى الساحة، ومن بين مئات الأشياء التي ألقيت اليه والتي كان يترك مهمة جمعها لمساعديه وجدته يلحظ صاحبة العقد الفل، وبعد أن كان قد استدار ليكمل الدورة وقف وانحنى والتقط الأزهار والجزء الذي انفرط منها وقبلها ورفع يده مشيراً بها إلى الفتاة. وهاج الجمهور في المدرجات وخاصة في ذلك الجزء الذي يجاورنا، وانطلقت صفافير وصيحات هتاف واستحسان بينما الأبصار كلها مضت تحاول أن تشق طريقها بصعوبة بين الاجساد.. مئات الأجساد المتشابهة المتلاصقة لتستطيع أن تميز الفتاة التي اختارها الميتادور ليرد تحيتها.

وكنت أسعد الجميع حظاً وليس عليّ لكي أراها إلا أن التفت.

والتفت.

كانت الفتاة قد تجمدت في مكانها تماماً حتى خيل إليّ أنها كفت عن التنفس، وبعدما أرسل قلبها كل ما استطاع ارساله من الدم إلى وجهها حتى كادت خدودها تنزف من تلقاء نفسها، توقف عن النبض. وكانت عيناها تنظران إلى أسفل مفتوحتين، ولكن.. وكأن

غطاءً داخلياً أغلقهما وسد أذنيها وقطع كل صلة بين حواسها وبين هدير البحر البشري الصاخب المحيط بها .

وكنت أعتقد أنها مفاجأة لن تلبث أن تزول، ولكن.. حتى بعد أن انتهى الميتادور من تلقي التحيات وغادر الساحة.. حتى بعد أن انتهت نظرات الاستطلاع الثانية التي تريد أن تعيد تفحصها.. حتى بعد أن كاد الناس ينسون الواقعة ويندمجون في المصارعة التالية التي كانت قد بدأت، ظلت هي بنفس وضعها ولونها وتوقفت حركتها كأن الحادثة قد حنطتها على آخر وضع كانت فيه، وهبطت عليها فترينة زجاجية عزلتها عن الدنيا.

أما جاري الأسباني الآخر فقد كان يبرطم ويحادث جيرانه ويحتج، ولم أعرف ما الذي كان يثيره ولكني استطعت أن أخمن أن الطريقة التي تم بها تبادل الاعجاب لم تخضع تماماً للقواعد والأصول، وما لبث أن أخرج كتاب مصارعة الثيران وراح يقرأ، وتولى ترجمته سائح أمريكي لا أعرف ما الذي جعله يجيد الأسبانية الا أن يكون أسباني الجدود، راح جاري يقول بصوته الجهوري المزعج: لا يصح للميتادور أن يبدي اعجابه بهذه الطريقة.. ان له الحق فقط في إهداء عملية قتله للثور إلى الحسناء التي يختارها، ولكن هذا لا يصح الا بعد مرحلة الميوليتا حين تحين لحظة القتل، إذ له حينئذ «وأخذ يقرأ من الكتاب» أن يقف في مواجهة السيدة، ويرفع قبضته بالتحية، ثم يستدير إلى الثور ويبدأ عمله.

ولكن أسبانياً آخر تصدى له باعتراض، وبدأ نقاش فني على

مستوى عال لم يلبث أن أخمد، ليعود يـظهر على هيئـة همس متقطع مصر.. حين دخل الثور الثاني إلى الحلبة.

وعجبت حين صـدر من الجمهور على أثـر دخولـه مواء. قـطع الجـار المناقشـة ليفسر لنـا سببه، إذ يبـدو أن الجمهور استصغـر سن الثـور وحجمـه. إن أصـول اللعبـة تحتم أن يكـون الثـور «التـورو» بـالأسبانيـة (ومنها تـرى أنها قـريبة جـداً من الاسم العـربي، بـل إن الأسبان أنفسهم يقولون إن العرب هم الذين ابتكروا مصارعة الثيـران وعنهم أخذها الأسبان، وهم أيضاً الـذين وضعوا لهـا تقاليـدها الأول وأصـولها، ولا تـزال بعض التعبيـرات العـربيـة بـاقيـة إلى الآن مثـل «أوليه»، وهي نفس كلمة الله التي نقولها دهشـة أو اعجابـاً) تحتم أن يكون الثور من سلالة الثيران المتوحشة المسماة «أورو»، حيث يختار أفرادها بعناية ويقدم لها غذاء خاص وتربى من أجل المصارعة فقط، ويجب ألا يقل عمر الثور منها عن خمسة أعوام. وقـد بدا ذلـك الثور الذي دخل أقل من ذلك أو أنه ليس بالقـوة المطلوبـة، ومن هنا جـاء مواء الاحتجاج. ولكن الثور نفسه ما لبث أن تولى الرد على كل هـذه الاعتـراضات، فمـا أن رأى تلويحة «الكـابا» الحمـراء من بعيـد حتى انقلب إلى زوبعة وحشية أسكتت كل الأصوات.

وهذه المرة حين دخل الفارس ووجه الطعنة إلى الثور المشغول بدفع قرونه في بطن الحصان، ماء الجمهور مرة أخرى اعتقاداً منه أن الطعنة طالت وأن في هذا إضعـافاً للثـور أكثر من الـلازم، والجمهور أبداً لا يريد هذا. إن الجمهور في مصارعة الثيران ليس مجـرد متفرج

على اللعبة.. إن هناك رئيساً للفييستا أو الاحتفال يتولى الحكم الفصل، ولكن الجمهور دائماً يتدخل، أولاً مع الثور يحتج إذا كان ضعيفاً، وأحياناً يمضي في احتجاجه مطالباً بتغيير الثور بأقوى منه. إنه يريد أن يظفر بأقصى متعة، وهو لا يفرق حينئذ بين الطرف الانساني أو الحيواني في هذه اللعبة. كل ما يهمه أن يكون الطرفان قويين وأن يكونا أيضاً متعادلي القوة بحيث لا يحظى أحدهما بانتصار سهل على الآخر، وبحيث تطول المعركة وتصعب، وبحيث يحشد كل طرف لها أقصى ما لديه من طاقة وفن ومصارعة الثيران قد تبدو للأجنبي لعبة يقتل فيها الرجل الثور أو تحدث الكارثة ويقتل الثور الرجل، ولكن الجمهور الأسباني لا يأخذها هكذا أبداً، انها عنده مباراة بكل ما تملكه الكلمة من معنى.. مباراة بين القوة الحيوانية الوحشية الغاشمة من ناحية، والذكاء الانساني والرشاقة وسرعة الادراك والفطنة وسعة الحيلة من ناحية أخرى.. مباراة بين شجاعة الحيوان اللاوعية وشجاعة الانسان الواعية.. مباراة بين الحياة في بداثيتها القوية وبينها في رقيها الذي أضعف قدرتها العضلية وقوى قدراتها العقلية، باختصار مباراة بين العضل والعقل.

ولهذا فعلى عكس ما نتصور مصارعي الثيران هم ليسوا ضخام الأجسام أو رياضيي القوام. إن كل المطلوب من أجسادهم أن تكون سريعة الحركة سريعة الاستجابة لإشارات العقل، ولهذا تجد معظمهم نحيفاً هشاً يبدو كالشاعر أو عازف البيانو، رقيقاً كالنسمة، ولكنه لا بد أن يكون شجاعاً. والشجاعة كلمة لا يمكن تحديد معناها

بسهولة. ان الشجاعة لدى الثيران أن لا تتردد في مهاجمة كل مـا يقع تحت بصـرها سـواء أكانت نـداً له أم لم تكن. سـوا أقضى عليهـا أم قضت عليـه، وتلك هي الشجـاعـة العميـاء الـلاواعيـة.. الشجـاعـة الجـاهلة. شجاعـة الانسان، والميتـادور بالـذات من نوع آخـر، فهـو يخاف الثور مثلما يخافه أي متفرج، بل ربما أكثر. ولكنه مـطلوب منه ألا يجعـل هـذا الخـوف يتحكم فيـه! المـطلوب أن يتحكم هـو في الخوف بحيث يستغله كمولد للارادة والذكاء والقـدرة على التصرف، بحيث يستعمله ليشحذ كل حـواسه ويحيـل جسده إلى مـركز راداري حسـاس باستـطاعته أن يلتقط أوهى البـوادر ويتصرف تجـاهها أسلم التصرفات. فالخطورة في مصارعة الثيران تأتي مثلاً من تأخر في تلقي بـادرة، أو تلقيهـا في وقت منـاسب.. ولكن الـرد عليهـا رد ليس هـو المطلوب. إن أي خطأ تافه في هذه الحالة قد يؤدي إلى مصرعه. انها امتحان خطيـر للانتباه والقدرة على وزن الاحتمـالات بميزان دقيق، وموهبة اختيار أفضلها.

والناس لا يولدون هكذا. ان هذه الخصال لا بد لها من تدريب شاق طويل، ومع هذا فهو تدريب لا نهايـة له ولا يمكن أن تصـل فيه إلى درجة تصبح بعـدها في أمـان مطلق. فـالمصارعـة سلسلة مواقف يدركها المصارع ويتصرف إزاءها، والتدريب الطويل لا يفعل أكثر من أن ينمي لدى المصارع القدرة على ضبط أعصابـه مثلاً أمـام الموقف وعلى إدراك نـوعه،وعلى السـرعة في إيجـاد الحـل. ان التـدريب لا ينمي سـوى القواعـد العامـة، أما حلول كـل مـوقف والتصـرف إزاءه

ببراعة فصحيح أن التدريب الطويل يجعلك تلم بـالكثير منهـا، ولكن المواقف في المصارعة نادراً ما تتشابـه، بحيث إنك في كـل جزء من الثانية تجد نفسك في موقف جديد لا بد أن تحله حـلاً جديـداً نابعـاً من الموقف ذاته. لهذا فالمصارع يظل مهما بلغت شهرته وصيته محل اختبار في كل مرة تحتويـه الساحـة مع ثـور.. اختبار هـو معرض فيـه للفشل أو النجاح كما لو كان مبتدئاً. ولهذا أيضـاً لا يوجـد «كبير» في الميتادورات، كلهم صغار! واللحظة التي يكبر فيهـا أحدهم هي فقط اللحـظة التي ينتصر فيهـا على هذا الثـور أو ذاك، لحظة ينتهي كبـره بـانتهائهـا. حتى إذا ما دخـل مباراة ثـانية دخلهـا صغيراً من جـديـد، احتمالات نجاحه تتساوى مع احتمالات فشله! ولا بـد له، مثله مثـل الـداخـل للمـرة الأولى أن يتـوقف قبـل أن يـدخـل السـاحـة ويرسم ـ مبتهلاً ـ علامة الصليب.

-٧-

ارتفع المواء يلعن الفارس الذي كان لا يزال يدفع حربته أكثر وأكثر داخل ظهر الثور ويطالب بإنهاء عملية الطعن، حتى لا تقل قوة الثور عما هي عليه كثيراً وحتى يظل كامل السرعة والهياج. فكلما ظل هكذا أصبحت مهمة الميتادور شاقة، وتطلب الأمر منه أن يعتصر نفسه ليستخرج آخر قطرات فنه وقدراته.

وإحساس غريب ذلك الذي يتملك الجمهور في تلك اللحظات القصار التي تبدو طويلة كالساعات، اللحظات التي يستغرق فيها الثور في نطح الحصان والتي في أثنائها يغرس الفارس وبكل قواه الحربة في ظهره.لحظات لا يسكت فيها الجمهور أبداً وكذلك لا يصدر ضجة، ولكن من بينه.. ومن أفواه مجهولة وكأنما ليست أفواهه تظل تصدر طوال تلك اللحظات أصوات مكتومة فيها قلق وفيها ألم وفيها معاناة. فيها احساس بالرفض وصرخات استغاثة لا تنبعث.. بينما الأجساد جميعها وبلا استثناء تتململ وتتحرك في أمكنتها ضيقاً ونفاد صبر. وبينا سيدات كثيرات يشحن بوجوههن بعيداً عن المشهد تشترك عيون بقية السيدات مع الرجال في صب نظرات

حنق وضيق واحتقار فوق الفارس الطاعن ولا تنتهي هذه النظرات أو معانيها حتى بعد أن يكف الرجل عن فعلته، بل تظل الأصوات بلغتها المبهمة المكتومة تزجره وتطلب منه بكل ما تملك من اشمئزاز أن يغادر الدائرة الرملية إلى خارج الحلقة، مشيعاً بكل ما تملك النظرات من استهجان. والرجل لا ذنب له، إنه كممثل دور الشرير في الرواية الذي يتحمل بلا جريرة ـ وزر دوره، ودوره في المباراة لا يحسد عليه! ففي مهرجان البطولة هذا.. بطولة الثيران وشجاعتها من ناحية وبطولة الميتادورات وهي تقاتل الثيران وتحاربها وتحاورها وتصرعها من ناحية أخرى، يقتصر دوره هو على الاختباء داخل دروعه والتحصن فوق حصانه، وطعن الثور والإصرار على طعنه حتى تنهد قواه.

ومع هذا فهو يظل بعد خروجه يقطع الممر الفاصل بين الساحة والجمهور والحربة في يمناه، وقبعته الخطيرة فوق رأسه بينما هو جالس في عظمة فوق سرج الحصان المنطوح العجوز «حثالة الأحصنة التي تختار لهذه المهمة حتى إذا ما نفقت لا تكون الخسارة فيها جسيمة».. يقطع الممر في عظمة دونها عظمة نابليون، ونظراته التي يواجه بها نظرات الجمهور في تحد وشموخ تدل على أن رأيه في دوره يختلف تماماً عن رأي الناس فيه، معتقداً لا بد أنه المتباري الأساسي، وهو أول من يأخذ «حموة الموسى» ويلتقي بالثور وهو في عنفوان قواه، معرضاً نفسه رغم كل دروعه لأخطار جمة. كم يبدو شبهه في نظراته وتصوراته تلك قريباً ـ وبالذات ونحن في أسبانيا ـ من الخالد الذكر الدون كيشوت أو كيخوت كما ينطقونها هناك.

هذا الإحساس الغريب التي يتملك الجمهور ساعة الطعن ليس تافه المضمون أبداً. إذ كيف يتململ الجمهور ويحتج لطعن ثور هائج كان يلقي الرعب في قلبه، وكان يتمنى منذ اللحظات لو تتفتح الأرض عن قوة تستطيع مواجهته وكبح جماحه؟ ان معناه هنا ان الغاية في نظر الجمهور لا تبرر الوسيلة، وأن يحتمي فارس بالدروع ليطعن الشور المتوحش القاتل في ظهره وسيلة ليست شريفة من وسائل الحرب، والوسيلة في الحرب ـ في أي حرب ـ لا تقل أهميتها ومعناها عن الهدف من الحرب نفسها. انه احتجاج ضد الخداع والجبن! ان للجمهور دوراً آخر في المباراة، دوراً مهماً.. أن يحافظ على «القيم» ويحرسها. ليس مهماً في نظره لمن يكون النصر، المهم دائماً وأولاً كيف يأتي الانتصار.

والدليل هو ما حدث لهذا الثور نفسه حين مضت أدوار المصارعة التي وضح من خلالها أن الميتادور ليس بذي باع طويل في اللعبة. وحين جاءت اللحظة التي عليه أن يصرع الثور فيها وصوب إليه الطعنة الأولى، لم يغمد السيف إلى آخره. ومعنى هذا أنه لم يحسن تقدير المسافة، أو صوب الطعنة وهو أبعد مما يجب خوفاً على نفسه. وقابل الجمهور فشله الأول بالصمت مؤثراً أن يعطيه فرصة أخرى، وكان عليه أن يستخرج السيف من مكانه بواسطة سيف آخر له خطاف في نهايته ويعيد الكرة. وهذه المرة أيضاً لم ينفذ إلى الصدر سوى نصف السيف وبقي نصفه الآخر مع المقبض خارجاً. وماء الجمهور ولكنه آثر أيضاً أن يطيل في صبره. وطعن الميتادور

الطعنة الثالثة وغاص السيف هذه المرة إلى المقبض، وخرج الميتادورات يحيطون بالثور على هيئة حلقة في انتظار سقوطه وموته، ولكنه لم يسقط إذ يبدو أن الطعنة وإن كانت قد اخترقت الصدر إلا أنها لم تصب القلب أو أحد الأوعية الكبرى. وبدلاً من هذا انطلق الثور فجأة مهاجماً مندفعاً في كل اتجاه باحثاً عما يصوب اليه قرنيه ويطعنه.

واهتزت الأرينا بتصفيق حاد، وعمتها موجة من الحماس الشديد للثور الذي رفض بإصرار أن يموت. وحاول الميتادور أن يستخرج السيف الغائب إلى المقبض ليعود يطعنه ولكن محاولته قوبلت بمواء مستنكر عريض وصيحات غضب وصفير جعلته يعدل عنها.. إذ الجمهور حارس القيم وحاميها، لم يعد يهمه أن يصرع الميتادور الثور بطريقة فنية، أصبح المهم لديه أن الثور لا بد سيتألم ألماً شديداً نتيجة للطعنات الثلاث الفاشلة، وليس من العدل أن يظل بطل كهذا يتألم، ولا بد من إراحته فوراً وتخليصه من ألمه. بمعنى آخر كان على الميتادور أن يقتل الثور في الحال باستعمال طريقة «الديسكابيلو»، وذلك بطعنه في رقبته بسيف خاص أو ببساطة أشد بذبحه، ولكنه ذبح بلا تكتيف أو اشتراك أحد، ذبحه وهو حي واقف شديد الخطر. وتتم العملية بأن يفرد الميتادور عباءته الحمراء فوق الأرض كي ينجذب اليها بصر الثور وانتباهه، ويستغل المصارع انشغال الثور بمهاجمتها ليصوب إلى رقبته طعناته بواسطة السيف الخاص.. وهي عملية بشعة ما في ذلك شك، أكثر بشاعة من عملية

الطعن التي يقوم بها الميتادور والتي تثير تقزز الجمهور. فهنا لا يعود الأمر مباراة بين طرفين لكل منهما مؤهلات قوى مختلفة، هنا الأمر عملية قتل واضحة، الثور فيها منهك خائر القوى مطعون في صدره وظهره ينزف ويلهث.. ولكن مع هذا لم يتنازل عن جرأته وإصراره على الحرب والمهاجمة والاستجابة لكل ما يثيره حتى وهو في أتعس حالاته، ولهذا فهو ينقض على العباءة مركزاً فيها همه بينما من وراء ظهره وبالخديعة يذبح ذبحاً لا فن فيه ولا مهارة إلا مهارة الجزر والجزارين.

عملية قتل تجعل الجماهير تفيق وتختفي من أمامها العناوين البراقة والحجب وكل ما يجعل من مصارعة الثيران رياضة تجذب وتثير الانفعال، ويبدو الأمر في النهاية على حقيقته العارية البشعة.. انه ليس سوى عملية قتل، الانسان فيها هو الذي يتولى ذبح الثور ويفعل هذا على مشهد من ثلاثين ألف متفرج. عملية ترعاها الدولة وتنظمها وتدعو لها في كل أنحاء العالم ليأتي السياح آلافاً وأفواجاً وينفقوا الاسترليني والدولار وتمتلىء خزائن البنوك الخاوية، وفي أسبانيا بنوك كثيرة أكثر من البنوك في أي مكان آخر من العالم، ومع هذا فهي على حسب احصاءات هيئة الأمم المتحدة أفقر بلاد أوروبا. آلاف السياح وملايين الاسترليني و الدولارات التي تضل لأمر ما طريقها إلى جيوب الفقراء، وتتكدس في خزائن البنوك ولدى أصحاب البنوك وزبائنها وروادها، ويحدث هذا كله بثمن أن يقوم انسان يرتدي ملابس مزركشة وسط ضجة ومهرجان واحتفال وموسيقى

بذبح ثور وإسالة دمائه، ذبحاً مؤلماً أشد الألم يتأوه له الرجال ويكاد يغمى على النساء! الشاب الذي كان يجلس أمامي أخفى رأسه كالطفل المذعور بين ركبتيه، والأسباني جاري انهمك في مسح عرقه الذي مضى ينزف بغزارة، وجارتي الحسناء أخرجها المشهد من كل تصلبها الخجل وجمودها.. ومن الحمرة القانية شحب وجهها حتى أصبح في صفرة العلم الأسباني.. وبدأت أسنانها تصطك، بينا سيدة سمينة أمامي بصفين مضت تحملق في المشهد وهي في حالة استسلام كامل، بدا هذا واضحاً من طريقة مضغها للبانة حيث لم تتوقف عن المضغ، وكلما وجهت الطعنة إلى الثور ونخ بنصفه الأمامي ألماً، وتفجر الدم يبلل الرمال ويصنع منها طين الدم البني، ويلوث بعضه ملابس الميتادور الأنيقة، أطالت الفترة بين مضغة اللبانة والمضغة التالية، وبينما سيد مهذب جداً في نفس صفها يبتسم وعيناه لا تتحولان عن المشهد، وبالأصح كانت ملامحه قد توقفت على هيئة وجه مبتسم استغرقته المشاهدة وشغلته إلى درجة لم يجد لديه وقتاً أو بالاً لمجرد تغيير ملامحه.

مشهد لا يحرك إلا الألم البشع! يحركه استنكاراً وضيقاً واحتجاجاً عند أناس، وعند أناس آخرين يحرك المتعة بالألم.. أدنا الأحاسيس وأكثرها خسة وشذوذاً. . ذلك الاستعذاب للألم والرغبة في إطالته والاستزادة منه. وكل هذا بنقود كثيرة وبدعاية واحتفالات وتهليل، والشهيد في النهاية ثور، ذلك الثور مثلاً.. ذلك الذي لم يلبث تحت وقع الطعنات الكثيرة أن ارتمى على الأرض مجهداً

وحسبـوا أنه مـات، ولكنه مـا لبث أن وقف مرة أخـرى وكأنـه بسبعـة أرواح، وحاصروه وبدأ الميتادور يلوح بعبـاءته استعـداداً لجولـة طعن أخرى. وبدأ الجمهور يتأوه مقدماً وبصوت عال مسمـوع، ولكن الثور لم يلبث أن تهاوى على جانبه لآخر مرة، وبقي في مكانـه صَريعـاً لا يتحرك.

- ٨ -

ومن ساحة صامتة كئيبة مليئة بالخزي والتقزز والندم والاشمئزاز، وكأنما الجميع حتى المشاهدين قد ساهموا منذ هنيهة في ارتكاب جريمة خلقية شاذة، انسحب المصارعون كلهم حتى ذلك الذي ذبح الثور، فلا انتظار لتحية هذه المرة أو زهو. حسبه أنه سيخرج قبل أن يفطن اليه الجمهور وينفجر قاذفاً إياه بكل ما في متناوله. كان الجمهور لا يزال يحيا مع الثور المقتول وكأنما يقيم له جنازة تلقائية سريعة يتذاكر فيها كل ما أبداه خلال المصارعة من ألوان القوة، وبطريقته الخاصة.. الصمت.. يؤنبه.

وجاءت الخيول الأربعة وأحكم وضع الحبل على قرونه وبدأت تجره خارج الساحة، ومن أعماق الصمت المخيم اندفع فجأة مواء،هذه المرة عميق وحقيقي لا سخرية فيه ولا صفير، وظل يشيع جثة الثور حتى غابت بخيولها خارج الساحة. كان المواء استهجاناً لمقتله.. الطريقة الوحيدة التي يستطيع بها الجمهور في وقت كهذا أن يبدي سخطه ويصدر حكمه، الحكم بانتصار الثور الميت على الميتادور الحي، طريقة خيل إليّ من صراحتها وصرامتها وقسوتها ان

الميتادور لحظتها لا بد فضل ألف مرة لو كان هو الميت بهذا التمجيد على أن يكون هو الحي بكل ذلك الاستهجان. وأي انسان مكانه كان رغماً عنه يتمنى أن يصبح الميت المنتصر ولا يبقى للحظة واحدة ذلك الحي المهزوم.

ان الهزيمة علناً وأمام الملأ هكذا وبحكم جماعي يصدره الآلاف مرة واحدة ومباشرة، الهزيمة التي لا تقبل جدلاً ولا تملك أن تبررها حتى لنفسك، وما يصاحبها من ذل وخزي أكثر إيلاماً من أي شيء آخر على سطح الأرض.. أكثر إيلاماً من الموت نفسه. ان فقد الحياة أهون بكثير من الحياة مع معاناتها.

ويا للمصارع المسكين! انه إذا لزم جانب الحرص على نفسه ليخرج من المباراة سليماً معافى لم يرحمه الناس، واذا أراد ارضاء الناس واقترب كثيراً من الخطر لن ترحمه قرون الثور وأظلافه. للصدف جاءت وقفة الميتادور المهزوم وراء العارضة الخشبية القريبة مني، ولمحته يمسك بأعلى العارضة وكأنما يعلق أو يشنق نفسه منها، بينما جسده قد تراخى وتثنى ورأسه شبه متدل على صدره. كان يبدو كالمطعون سواء بسواء، طعنة قرون أقسى من قرون الثور وأمر، قرون جمهور غاضب أصابته في الصميم وجعلته يتألم، ليس ألم المجروح فلم يكن هناك جرح أو دم ولكنه ألم أشد وأعتى.. ألم الهزيمة!

كان ما يحدث وما أراه جديداً عليّ تماماً مروعاً، لكأني في عالم مسحور وبين قوم ذوي قيم وحياة غريبة على عالمنا تماماً، أو

على الأقل غريبة على بلادنا في شرق البحر الأبيض وجنوبه.

ان الحياة هنا لها معنى مختلف اختلافاً جذرياً. لقد ربينا على أن أصح وأهم ما يمكننا عمله هو أن نحيا ونظل نقاوم الظروف والأعداء كي نبقى على قيد الحياة.

ولعل الأمر كذلك في أسبانيا نفسها وفي كل الدنيا، ولكن هنا في هذه الساحة يحاول الناس أن يخلقوا عالماً آخر مختلفاً عن العالم في الخارج وفي كل مكان. عالم الهدف فيه ليس أن تحيا أو تحافظ على وجودك، الهدف أن تنتصر بحيث تحل كلمات النصر أو الهزيمة محل كلمات الحياة أو الموت، وبحيث تختلف كل المقاييس تبعاً لتغيير هذه القاعدة الأساسية من قواعد الوجود. وكأن الناس هنا لم يستطيعوا أن يغيروا هذه المقاييس في حياتهم العادية فابتكروا مصارعة الثيران أو تبنوها وجعلوا لها ساحة، و «أرينا» ومتحفاً وعالماً كاملاً يدخلونه ليحيوا ولو لبضع ساعات كل أسبوع بهذه المثل والقيم، وبدلاً من أن تقرأ كتاباً يروي لك قصة بطل لا يهمه الموت أو الحياة بقدر ما يهمه الهزيمة أو الانتصار، وبدلاً من أن تدخل داراً للسينما أو مسرحاً تطفأ فيه الأنوار وتعيش أو تقنع نفسك أنك تركت عالمك المليء بالضعف والانهيار وملايين الناس المتشبثين بحياتهم ـ وأنت منهم ـ تشبث المستميت، وأصبحت في عالم آخر عالم مخلوق من أناس أبطال لا يترددون أمام أي صراع أو خطر، يخوضونه وينتصرون فيه أو يهلكون دونه. بدلاً من هذا أوجد الأسبان لأنفسهم هذا المسرح الحي الذي يضم كائنات من الأحياء. مسرحاً

لا يخدعونك بتمثيل الصراع فيه ولكنك تجد نفسك أمام صراع حقيقي لا تمثيل فيه ولا تمويه. الجماهير المطحونة المهزومة في حياتها اليومية، المتمسكة بالحياة رغم تفاهتها تمسكاً مستميتاً لا يخلصها منها سوى قوة قاهرة جبارة كالموت، هذه الجماهير تدخل الساحة لتشهد أناساً يستخفون بالحياة إلى درجة السفة.. إلى درجة البطولة في سبيل أن ينتصروا. ولهذا فالمصارع لا ينظرون اليه نظرة تمجيد منفصلة عنهم، إن كلاً منهم يخوض الصراع المخيف من خلاله! ويرسل كل منهم خيطاً من ذات نفسه وروحه لتتجمع آلافها وتلتقي عند المصارع، وبنفسه وبها يخوض المعركة.. يخوضها أساساً لحسابهم وكأنهم أنابوه عنهم ليقوم بالعمل البطولي العاجزين هم عن القيام به. ولهذا أيضاً فما أشد نقمتهم عليه اذا لم يقم بعمله كبطل، اذا عمل حساباً لكيانه المستقل، ومحافظة عليه تهاون في القيام بالبطولة التي وكلوا اليه أمرها.

انهم لم يجيئوا ليتفرجوا على براعة شاب يصارع ثوراً في حدود أن يظل حياً ولو لم يصرعه، انهم جاءوا لينيبوا عنهم بطلاً.. بطولته أن يواجه المخاطر وينتصر عليها. ولهذا فمتعتهم الغامرة ليست هي أن ينقذ نفسه بتجنب المأزق الخطر، ولكن أن يضع نفسه في المأزق الخطر ويخرج منه سالماً، أن ينتصر على الخطر بمواجهته وليس بتجنبه.. فهم في حياتهم يفعلون هذا، هم دائماً يتجنبون الخطر ويهربون من المأزق مؤثرين أن يوصفوا بكلمة الجبن أو الرعونة مع النجاة أو البقاء أحياء، وهنا يريدون أن يفعلوا ما يحلمون

بفعله ولا يستطيعون، أن يوصفوا بالبطولة ولو كان فيها مواجهة متعمدة للخطر وتعرض أكيد للهلاك.

ولهذا فالمصارع في أسبانيا ليس مجرد نجم رياضي، انه أولاً وأساساً بطل شعبي وأداة الشعب للبطولة، وكما لا يمكن أن تقبل الناس من بطلها السياسي أن يساوم أو يهادن فهي أيضاً لا تقبل أبداً من مصارعها أن يقوم بعمل ليس فيه بطولة. يجب أن يرتدي أجمل الثياب ويبدي اعجابه علانية بأجمل السيدات وأن يتصرف دائماً وأبداً كبطل. هذه الوقفة التي ينفخ فيها صدره ويقذف برأسه إلى الخلف رافعاً ذقنه في ترفع وكبرياء مستفزاً الثور، هذه الوقفة التقليدية لم تأت عبثاً.. انها وقفة البطل. هذه المرارة القاتلة اذا هزم أو فشل في إظهار بطولته لم تأت عبثاً أيضاً، فهي ليست هزيمة شخص عادي.. إنها هزيمة بطل.

ومسكين ذلك الميتادور الذي كان لا يزال يعلق نفسه من ذراعه بحافة العارضة، حتى الإشفاق لم يكن يحظى به بل ولا نظرة التشفي. لم يكن هناك إلا الإهمال التام غير المتعمد وكأنه مسح من الوجود، وكأنه انتهى دون أن يخلف أثراً، كأنه مات.. بل حتى الموتى يبقى لهم بعض الأثر، أما هذا فلم يكن قد تبقى له عند الجمهور شيء، لا شيء بالمرة تبقى.

-٩-

ونفخ في الأبواق ودخل الثور الثالث..

كانت الأرينا لا تزال تعاني من حالة الركود المخزية، وظلت كذلك لا حيت الثور ولا حيت الميتادور، ومرت أدوار المصارعة الأولى كما يمضي الشيء الروتيني.. انتباه حقيقة وتحديق ومتابعة ولكن دون حماس شديد، أحياناً تتصاعد آهة اعجاب بحركة من حركات «الميوليتا» ولكنها أبداً لا تشمل الساحة كلها وتبقى دائماً داخل حيز محدود.

إلى أن حدث شيء لم يكن يتوقعه أحد.

كان الثور مقبلاً مهاجماً، وفي آخر لحظة أزاح الميتادور العباءة الحمراء كالعادة من جانبه إلى أمامه لينتهي الهجوم إلى لا نتيجة.. وكالمعتاد أيضاً بدأ يدور حول نفسه ليواجه الثور الذي كان قد توقف عن اندفاعه واستدار ليعود، في تلك اللحظة انزلقت قدم المصارع فوق الأرض الرملية التي تكفلت المصارعات السابقة بإثارة تربتها.. وسقط الشاب على الأرض.

وفي أجـزاء قليلة جداً من الثـانية حـدثت أشياء كثيـرة مهولـة، فعلى أثر سقطته تصاعـدت من الثلاثين ألف حنجـرة شهقة هلع تثيـر وحدها الهلع في القلوب، وكان الثور يستـدير، ومـا أن لمح خصمـه ملقى على الأرض على بعد أمتار قليلة منه حتى أقبل نحوه ككتلة شر عـاتية مـوجهة.. بينمـا من خلف العوارض الخشبيـة أسـرع أكثـر من ميتادور يلوح للثور الهائج المقبـل كي تتكاثـر أمامـه الألوان الحمـراء وتصرف انتباهه عن الزميل المطروح أرضاً، ولكنها محـاولات فشلت في صـرف انتباه الثـور. وفقط حين أصبح بينـه وبين الشاب أقـل من مترين كان الأخير بالكـاد قد نجـح في الوقـوف وتعريض العبـاءة له، وهكذا أنقذ في آخر لحظة بينما الجمهور لا يـزال واقفاً على أطـراف انتبـاهه وشعـوره هلعاً. وقبـل أن يصفق أحد لنجـاة المصارع أو حتى يعود إلى جلسته كان قد حدث شيء آخر!

فبعد مرة أو مرتين والثور يهـاجم والميتادور يتنحى، حـدث أن فقـد الشاب تـوازنه مـرة ثانيـة فتهاوى.. وقبـل أن يسقط على الأرض كـانت رأس الثور هنـاك إذ لم يكن قد ابتعـد. واعتقـد الجميـع أنهـا النهاية هذه المرة. وقبل أن تشيح أي سيدة بوجههـا ويزدرد أي رجـل ريقه كان الثور قد دفع الشاب برأسه ليـرفعه الى أعلى وليسقط أمـامه ويفترسه بعد هذا، ولكن بدلاً من أن يسقط الشاب الى الأمام، بدفعة حظ واهية سقط الى الخلف فوق ظهر الثور.. ومـا لبث أن انزلق إلى الأرض، إلى حيث استـدار الثـور وتجمـع الـزمـلاء في غمضـة عين يحيطون بالمصارع ويدرؤون عنه الخطر. ولكن الشـاب حين سقط ما

كاد يلامس الأرض حتى كان قد اعتدل وكأنما «بزمبرك»، وحتى كان ممسكاً بالعباءة في يده يحاور الثور مرة أخرى ويداوره وكأن شيئاً لم يحدث.

وارتجت الأرينا بتصفيق عال راعد وكأنما يتنفس الناس الصعداء تصفيقاً، وما لبث الحماس أن انتقل الى المصارع، ونجاته من ميتتين متتاليتين أذهبت عنه غشاوة الخوف من الموت، فمضى بكل إقدام يعرض نفسه الى مسافة شعيرات من القرون المخيفة، وينجو كل مرة في تفاديها والخروج من المأزق، وهكذا بعد السكوت الطويل مضت الساحة تجلجل «بأوليه» اثر «أوليه» نشوة واستحساناً.

وبدأت أدرك شيئاً وأكاد أضحك من نفسي.

فبالرغم من كل ما ذكرته عن الخطر والخطورة والحياة والموت، بالرغم من ادراكي أن مصارعة الثيران ليست لعبة أو رياضة، بالرغم من كل ما قلته وفكرت فيه ففي أعمق أعماقي كنت لا أزال غير مؤمن بجدية خطورتها. كنت أعتقد أن كل ما يدور أمامي ليس سوى استعراض للخطورة، أما الخطورة نفسها فهي شيء لم أكن قد أحسسته بعد أو لمسته أو رأيته رأي العين.

ما الذي يمنع أن تكون هناك احتياطات دقيقة وراء كل ذلك المظهر الخطر، بحيث يمكن في آخر وقت انقاذ المصارع ودفع الأذى الحقيقي عنه؟ وحتى حين كنت أرد على نفسي بما رأيته في المتحف وبقائمة الشهداء الموضوعة في مكان بارز، كنت أقول: لا

بد أن الأمر كان كذلك أيام زمان . . أيام البطولة الحقة . . أيام الفتوحات الأسبانية والأرمادا. أو حتى أيام المجد أيام لوركا والحرب الأهلية، أما الآن فلقد اخترقت البلاد طولاً وعرضاً دون أن ألمح بادرة بطولة غير عادية، فما الذي يجعلها تنحصر هنا فقط؟ لا بد أن التطور الذي حدث لرعاة البقر في أمريكا حيت تكفلت الأيام والحياة الحديثة بنقل بطولاتهم ومسدساتهم ومغامراتهم من الحياة والواقع الى الشاشة والقصص، لا بد أن شيئاً مماثلاً قد حدث لمصارعة الثيران هي الأخرى، وأصبح الخطر الحقيقي خطراً مفترضاً، والشهداء والأبطال مكانهم في المتحف وليس في الحلبة. وما يدور أمامنا الآن ان هو الا «تمثيل» متقن للعبة بحيث تحياه وكأنه حقيقة تقنع نفسك وتقنعك الدعاية والقصص والأخبار انها موجودة، في حين أنك لو دققت وأعملت عقلك لن تجد لها أثراً.

الحادثان اللذان وقعا من لحظات كانا قد تكفلا بقلب كيان أفكاري تماماً، فلقد أكدا لي ولكل من راوده الشك ان كان الشك قد راود أحداً، أن المسألة لا هزل فيها ولا خدعة، وانها مصارعة جادة حقيقية الخطر فيها ليس موجوداً فقط، أو له لحظات يتبدى فيها. ولكنه قائم في كل لحظة منها، ولدى كل حركة أو التفاتة، وتكفي حصاة صغيرة تنزلق فوقها القدم لتنتهي حياة المصارع في ومضة، وقبل أن يفيق هو أو يفيق أحد لما حدث.

ويا لغرابة الانسان، فمجرد انتقال ايماني بجدية ما يدور من

طبقة في اقتناعي الى طبقة أعمق، قلب الصورة في نظري كلية وتغير معنى كل شيء، وأصبحت لأشياء موجودة معان لم تكن موجودة ولا تصورت وجودها.

مسألة أربكتني وجعلت حمى قلق وانتباه تجتاحني، إذ الآن قد أصبح كل شيء أمامي خطراً ومصدر خطر.

حتى راكب الفرس الذي يطعن الثور وهو محتم خلف دروعه، يكفي أن ينطح الثور الفرس بطريقة يسقط معها الفارس إلى الداخل بدلاً من الخارج لكي يقتله الثور في الحال. يكفي التواء قدم المصارع أو تكفي عثرة، يكفي ألا تواتيه سرعة البديهة في الوقت المناسب كما حدث لذلك المصارع الذي يصدر التلويحة الأولى للثور حين لم يفطن إلى شدة سرعته، فكانت النتيجة أن الثور وصل اليه قبل أن يتمكن من الوصول إلى العارضة الخشبية التي يحتمي بها المصارعون. لم يكن هناك حل للموقف إلا أن يختفي المصارع من أمام الثور بطاقية اخفاء، أو تنشق الأرض وتبتلعه، ولو فكر لجزء من ألف من الثانية في الطريقة التي يختفي بها للقي مصرعه قبل أن يكمل التفكير، ولولا أنه بلا تفكير، وبقوة ورشاقة منقطعة النظير قفز قفزة أوصلته إلى حافة السور، و «بيلانس» آخر كان قد أصبح خارج الحلقة، لولا هذا لمزقته القرون تمزيقاً.. فقد وصلت الى السور ونطحته تقريباً في نفس اللحظة التي كان جسده يغادر خشب السور. حتى عملية غرس الأعلام، سنتيمتر واحد من الانحراف كفيل بضياع الفارس. وهذه الحركات التي يأتيها المصارع في مرحلة الميوليتا

ليثبت بها قدرته وفنه، مثل الركوع على ركبة واحدة وهجوم الثور عليه وهو على هذا الوضع، والأخطر منها النزول بركبتيه، أو ما هو أخطر وأخطر الثبات في مكانه ودورانه حول نفسه فقط ليتفادى من هجوم الثور كلما غير الثور من اتجاهه. أية أعصاب مدربة علمتها الارادة الحديدية والتمرين على الخوف ألا تفزع أو تأتي بحركة طائشة غير مسحوبة، والثور يهجم عليك وقد تكفلت أنت بتحديد مكانك له وآليت على نفسك ألا تبارحه، وفقط تتفادى من جسده المهاجم بالدوران ربع دائرة، لكي يمر الثور من المسافة الكائنة في الفرق بين مواجهتك للثور بعرضك وبصدرك، ومواجهتك له بجانبك، فرق لا يزيد على الخمسة عشر سنتيمتراً، بحيث لا بد أن تمسك قرون الثور وأكتافه، وتلوث الدماء الناتجة عن جرح الطعنة والأعلام المغروسة في ظهرة والدماء السائلة على كتفه ثيابك. وتفعل هذا بافتراض أن الثور سيندفع في خط مستقيم وسيبقي رأسه في أثناء المرور في خط مستقيم. ماذا لو كان الرأس معوجاً قليلاً اعوجاجاً يحرك القرن عن موضعه ثلاثة سنتيمترات مثلاً؟ ليس هناك سوى احتمال واحد لا احتمال غيره حينذاك.. أن ينفذ القرن في جسدك بدل أن ينفذ في الفراغ.

تغيرت الصورة أمامي تماماً، وتغيرت نظرتي إلى المصارعين والثيران. أما العقاب الرابض فوق الأرينا ينتظر اللحظة المناسبة ليعلن عن وجوده وينقض، لم أعد أحس به كافتراض من خلق الخيال.. أصبحت وكأني أراه، لم يعد بيني وبين رؤيته منقضاً سوى المفاجأة

التي تخفيها اللحظة التالية.. سوى حصاة تتحرك أو بقعة أرض تلين أو قرن يشتبك في قطعة دانتلا تزين ثوب.

أما الميتادورات الذين كانوا يتحركون وآخذ حركاتهم قضايا مسلماً بها لم أعد آخذها كذلك، أصبحت كل حركة من أيهم لها معنى وفيها صعوبة ومشقة، وليس سهلاً على أي انسان أن يقوم بها حتى لو بدت عادية لا مجهود فيها ولا بطولة أو فن، فهي حركات ليست في الهواء الطلق، انها حركات في قلب الخطر.. في فم الأسد، وتحت رقابة عشرات الآلاف من العيون التي لا ترحم، وتحت رحمة كتلة الحياة البدائية المدمرة التى لا تغتفر لحظة ضعف، والتردد أمامها معناه الموت.

حتى الجمهور في نظري تغير، لم يعد في رأيي خارج ساحة الصراع.. أصبح داخلها وجزءاً لا ينفصل عنها، ودوره فيها ليس دور متفرجين آدميين.. أصبح وكأنه جماعة شياطين، آلاف الشياطين! دورها في الصراع هو نفس دور ابليس والشيطان! عملها أن تزيد النار اشتعالاً فتظل تحتج على طعن الثور واضعافه حتى تبقي له كل قوته وضراوته، وتظل تموء وتهتف وتهيب بالمصارع وتوسوس له وتحرضه حتى يضع نفسه في أشد المواقف خطورة، محاصراً من كل اتجاه بمأزق الموت والحياة، مأزق الموت الأكيد والحياة شبه المستحيلة، فاذا حدث هذا تركته حينئذ يواجه مصيره وحده، فدورها ـ دور الأبالسة والشياطين ـ يكون قد أدى مهمته وانتهى، ليبدأ دورها كجماهير متفرجة همها الأوحد أن تنهل كل ذرة متعة وكل بادرة نشوة

من الموقف الذي خلقته شياطينها وحرضت عليه.

تغيرت نظرتي تماماً، وعرفت لماذا اجتاحت الأرينا موجة الحماس للمصارعة، وللمصارع الثالث الذي لم يدفعه الى هذا الموقف الذي واجه فيه الموت مرتين الا السلبية المطلقة التي استقبله الجمهور بها والتي ظلت هي المسيطرة طول الوقت.. سلبية ليست في الواقع إلا تحريضاً صامتاً يضع شرطاً للايجابية والتشجيع والمشاركة أن يريهم المصارع بسالته ويقف ولو مرة واحدة يواجه الموت، وجعلته حصاة صغيرة يفعل هذا، والحماس الذي تدفق جعل اقترابه الشديد من الثور يعرضه لموت ثان نجا منه أيضاً ونال المكافأة.. تلك الأوليهات التي ظلت تجتاح الأرينا في نوبات متعاقبة. لكم هي تافهة تلك المكافأة وكم هو غريب ذلك التكوين الذي ينشأ عليه الميتادور والذي يستعد معه عن طيب خاطر أن يعرض نفسه للموت الأكيد من أجل «أوليهة» اعجاب قد تكون آخر ما يسمعه، بل قد ينتهي قبل سماعها.

ولكنه الاحساس بالأهمية ذلك الذي يدفع الانسان ليقدم على أكبر حماقة في العالم كي يظفر به، انها ليست رغبة في البطولة للبطولة ذاتها أو للشخص ذاته، ولكن لإظهارها للآخرين وأمام الآخرين. انها كالتمثيل وفيها منه الشيء الكثير! الفرق أن الممثل هناك «يمثل» الدور وبمقدار اتقانه «للتمثيل» وتقمصه لشخصية البطل ينال اعجاب الناس، وهنا الممثل «يقوم» بالدور فعلاً، ويقوم به في مسرحية لا يتخيلها أحد إنما في واقع كأنه مسرح، في حقيقة كأنها

خيال، وبمقدار اتقانه للقيام بالدور وجعله الحقيقة تقترب من الخيال يحظى بالاعجاب. أجل! الفرق بين المسرح وحلبة الصراع أنهم في المسرح يحاولون أن يحيلوا الخيال إلى حقيقة يصدقها العقل، بينما في الحلبة يحاولون أن يحيلوا الحقيقة والواقع إلى أعمال خيالية لا يكاد يصدقها العقل! في المسرح يخلقون من الخيال حياة بطلة تدفع إلى كره الحياة الواقعة وتغييرها، وفي الحلبة يخلقون من الحياة العادية الخاملة نفسها حياة بطولة حقيقية تدفع إلى نفس الغرض، ولكنها تدفع اليه بقوة أعظم ومفعول أشد. ان الانسان في بحثه الدائب عن بطولة الحياة وحياة الأبطال مستعد أن يستخدم أية وسيلة، حتى تلك الملوثة بالدماء المقطرة بالجريمة. انه بحث أيضاً ولكنه يتم بطريقة نيتشوية عارمة القسوة لا يغفر لها إلا أنها عارمة المفعول في نفس الوقت.

ولو أن هذا الميتادور الثالث نفسه، حين جاءت ساعة القتل لم يتمكن من صرع الثور بالطعنة الأولى، ولا حتى بالثانية، إلا أنه كان قد قدم دليل البطولة وقربانها واضحاً لا شك فيه، وكان الجمهور رغم نهمه الى كل ما يثيره وضيقه بكل ما لا يؤدي الى غرضه ويصيب، على استعداد لأن يصفح عنه من أجل هذا الفشل ويغتفره ولا يموء والمصارع يستخرج السيف أكثر من مرة ليعود يطعن به. ويظل يفعل هذا إلى أن يخر الثور صريعاً لا من الاصابات المباشرة، ولكن بحكم النزيف الذي لا بد حدث داخله.

وهكذا انتهى الشوط الأول من المصارعة وبقي جزؤها الثاني

الـذي كان على المصـارعين الثـلاثـة أنفسهـم، وبنفس الـترتيب، أن يصرعوا فيه ثلاثة ثيران أخرى.

وفي أثنـاء الاستراحـة التي سويت فيهـا أرض السـاحـة ودخلت عربة رش سريعة خاصة انتهت من بخ الأرض بذرات الماء لكي تبلل فقط رمالها التي جفت، في تلك الأثناء وخلال عشرات ومئات وآلاف المناقشات السريعة التي دارت بين جيران وأصدقاء وأناس لا يعـرفون بعضهم بعضـاً، أجمعت التعليقـات على أن الثيـــران ليست بـالقــوة المفـروضة، وكـأن هناك مؤامـرة من وراء الستـار لاختيـارهم صغـاراً ضعافاً هكذا ليكونوا للمصارعين غنيمة سهلة.

وأجمعت التعليقات أيضاً أنه باستثناء المصارع الأول، صديقي الـذي سـرني سـروراً خفيـاً هـذا الاجمـاع على استثنـائـه وتفضيله، فـالجميع دون المستـوى المفروض. وبـدأت حناجـر أسبانيـة عجـوز معروقة تترحم على كبار المصارعين في الزمن الغابر، وتـذكر بـالخير بعض الشبان المعاصـرين أمثال بـاكوكـا مينو ودييجـو بورتـا وجواكين برنادو وجيم أوستوس وغيرهم. ولكن الأمر لم يعدم أصواتاً أكثر تفاؤلاً بدأت ترتفع وتدافع عن المصارعين اللذين كان أحدهمـا برتغـالياً من لشبونة وكان الآخر من أسبانيا الشمال من برشلونة وتقول ان ما حدث سببه الوحيد رهبة المواجهة الأولى، رهبة لا بد أنها زالت الآن تمامـاً وأنهم لا بد بسبيلهم إلى مشاهـدة عرض رائـع في الجزء الثـاني. وما لبثت آراء بقيـة المعلقين أن انساقت وراء هـذه التفسيـرات المتفـائلة مستسلمـة للرأي أو مفضلة في الحقيقـة أن تتفـاءل وتستسلم على أن

تظل على عنادها متشائمة.

وكان مكان جارتي الفتاة خاوياً، وقبل أن تذهب بي الظنون إلى أبعد من الساحة وجدتها قد عادت متأبطة باقة أزهار لا أعرف كيف وجدتها وبمثل تلك السرعة. ولكنها كانت تلهث وفي عينيها ذلك البريق الذي يفضح تصميمها على أمر ما. وكانت منفعلة تبدو كمن فقدت لتوها وربما لأول مرة في حياتها السيطرة على نفسها حتى انها فعلت ما لم أكن أتصور مطلقاً أن تفعله، بدأتني بالكلام لا أذكر كيف ولا في أي موضوع، ولكنا في دقائق قليلة قلنا أشياء كثيرة يأخذ الناس في العادة ساعات طويلة ليتمكنوا من قولها. وأغرب شيء أننا تحاشينا تماماً ذكر الحادثة التي سببت كل هذا وحيرتني، فقد كان شكلها أسبانياً ولكنها كانت تتكلم الانجليزية بطلاقة وكأنها لغتها الأولى، وتتكلمها بخناقة أمريكية واضحة.

وخمنت أنها ليست أمريكية ولكنها تحيا في أمريكا، فغير الأمريكان يبدون أكثر تمسكاً ونطقاً باللهجة الأمريكية من الأمريكان أنفسهم. والمفاجأة كانت حين أخبرتني أنها من كوبا، ولكي لا تترك ظلاً من الشك أردفت أنها ضد كاسترو وأنها لا تتمنى شيئاً في الدنيا قدر أن تراه مهزوماً كذلك المصارع الثاني مدحوراً.

ورغم أني أحسست أن حاجزاً سميكاً قد سقط بيننا فجأة، إلا أن الحديث لم ينقطع وعرفت أنها ابنة أحد كبار مزارعي الدخان الذين طردهم كاسترو. ورغم هذا فهي لم تكن تحيا في كوبا، كانت تعيش وتتعلم منذ طفولتها في ميامي حيث كان لأبيها فيللا يأتي اليها

مع العائلة بطائرته الخاصة من عاصمة كوبا «هافانا» ليقضي معهـا هو والعائلة نهاية الأسبوع. وقد جاء الأب ليحيـا معها بعـد أن «ذهب كل شيء»، أمـا لماذا هي في أسبـانيا فـالسبب قصة طـويلة حول ميـراث وقضية وأب أصابته الصدمة بانهيـار وأصبح العبء كله على عـاتقها، وليست هذه أول مرة تأتي فيها لمدريد، ولا المرة الأولى التي تشاهـد فيها المصارعة، ولم تكن أبداً ـ في حياتها تتوقع أن يحـدث لها شيء مثلما حدث.

كـانت تتكلم بلهجة التي تعـرف ما تـريـد ولا يمكن أن يثنيهـا شيء عن تحقيقه. كلام ولهجة وشخصية ما أكثر ما تقابلهـا في الجيل الأمـريكي الجـديـد، الجيـل الـذي لم يـزجـره أب ولا نصحتـه أم، المدلل الذي عودوه منذ الصغر أن تكون رغباته ونزواته قوانين تتـطوع الأسرة بتقديمها وهو طفل، ويفرضها بالقـوة وهو كبيـر. وكانت جميلة جمالاً لاتينياً متفجراً وان كانت الحيـاة في ميامي قـد شذبتـه وأمركتـه وصبغت أنـوثتهـا ـ كمعـظم الفتيـات الأمـريكيـات ـ بعنـاد الـذكـور وحقوقهم، وأحياناً بصفاقتهم وخشونتهم.. حقيقة تـدفعك للعجب أن تكون هي نفسها الفتاة التي تجمدت محمـرة خجلاً منـذ وقت قليل، فقد كان بادياً عليها أنها من صنف وجيل لم يعرف الخجل ولا جربه، ولا يستحي حتى من رغباته الخاصة جداً. اذ هو يعتبر أن كل ما يريده ويحس به قانوني وحلال. ثم لماذا الاحساس بـالخجل أمـام الناس، ولا أحد يقيم لهؤلاء الناس وزناً أو يعطيهم الحق في الحد من حريتـه وحرية تعبيره عن رغباته؟ ربما كانت هذه المـرة الأولى التي يدهمهـا

فيها احساس كهـذا وعلى تلك الصورة. وربمـا أيضاً.. ولأنـه الوحيـد الـذي استطاع أن يجبـرها على هـذا الموقف الأنثـوي الخالص.. لن تنسى أبـداً لهذا الميتـادور فعلته، بـل الـواضـح أنهـا بـدأت ، وقـد خرجت وعادت تحمل الزهور «تصرف أنثوي آخر»، بـدأت تنسى كل شيء.. مزارع التبغ وميامي والقضية وأبـاها وحتى كـاسترو، ويصبـح همها الوحيد في دنياها ـ هنا ـ معلقـاً بهذا المثلث الشـاحب الرشيق، بوجه صديقي الذي اخترته أنا الآخر ولأسباب أخرى كي أغـدق عليه اهتمامي وأرعاه رعاية الأب لابن ضال.

-١٠-

ودوت أصوات الأبواق عالية بحيث سمعها الجميع هذه المرة، ولفت أصداؤها أنحاء الأرينا. ورفع مراقب المصارعة السبورة الخشبية التقليدية التي يكتبون فيها اسم المصارع. كنت أعرف ومتأكداً هذه المرة أنه دور صديقي الميتادور، ولأنني أستغربت أن أكنّ له كل ما أشعر به وأنا لا أعرف مجرد اسمه، فقد حاولت أن أدير رأسي مع السبورة كي أقرأ الاسم من مكاني والمراقب يلوح بها في كل اتجاه، ولكني لم أستطع. وعرفت حينئذ أن عليّ أن أظل أجهل اسم ذلك الصديق حتى وهو يخوض للمرة الثانية مأزق الموت والحياة.

وبينما خلت الساحة تماماً من المصارعين الذين اختفى كل منهم وراء أقرب حاجز خشبي، دوت أصوات الأبواق مرة أخرى.

وفتح باب الممر المؤدي الى الحظيرة.

ودخل الثور هائجاً كالعادة، مندفعاً متفجراً.

ولكن دخوله قوبل بآخر ما كنت أتوقعه. فقد انفجرت في الحال

بقع احتجاجات متفرقة، وبدأت الصيحات تنتشر وتشمل مساحات أوسع من الجمهور.

كان واضحاً أن الجمهور لا يعجبه الثور، ويرى أنه أصغر سناً مما يجب وأقل قوة.

وكانت الصيحات تطالب بتغييره.

وبدأت معركة خفية بين المشرفين على «الفييستا» وبين الجمهور، المشرفون هدفهم الإسراع بالإجراءات التمهيدية لوضع الجمهور أمام الواقع، والجمهور يقاوم هذا بكل قوته ويطالب بتغيير الثور.

أما الثور فقد كان أمره يدعو للحيرة، فهو في أحيان يبدو قوياً يملك طاقة لا حد لها، وفي أحيان أخرى يتوقف فيظهر حجمه وسنه على حقيقتهما. وتتعالى صرخات الجمهور.. بل دفعته سرعته الرعناء التي يتحرك بها مرة الى أن يتعثر ويسقط على أطرافه الأمامية، ولكن الاندفاع الجبار الذي كان قادماً به جعله يحمل جسده كله ويقلبه الى أمام مرتكزاً على قرنيه ليعود ينقلب مرة أخرى ليقف معتدلاً وينطلق وبنفس السرعة إلى هدفه لا يلوي على شيء.

وبدأ المصارعون يبرزون ويلوحون، والجمهور يزداد تشنجه وصخبه.

وكمحاولة أخيرة من المشرفين دوى صوت الأبواق يأمر راكبي الفرس « البيكادورز» بالدخول. وكأنما كان هذا ليس فقط اشارة البدء

لدخولهم وإنما لاستماتة الجمهور أيضاً في رفض الثور. فقد شملت المدرجات كلها موجات متعاقبة متزايدة صاخبة من المواء والصفير والهدير الغاضب.

ولكن الباب كان قد فتح ودخل الفارسان وكل منهما قابض على حربته. ولم يلبث كل منهما أن مضى الى النصف الخاص به من الدائرة الرملية بحيث اذا اختار الثور أن يهاجم أحدهما انسحب الآخر.

وسكب دخولهما وقوداً جديداً فوق النار المشتعلة، وازداد الجمهور عنفاً، وبدأت القبضات تلوح وألفاظ السباب تسمع واللعنات من كل اتجاه تنصب على الفارسين اللذين تسرب الشحوب إلى وجهيهما. وبدأ أحدهما يلوح بحربته مهدداً الجمهور في حركة لا ارادية.. ولكنه تهديد الخائف الشاحب، خوف يدعو للتأمل، فيه! جمهور لا قرون له ولن يقتل غضبه، ولكن صيحاته.. جثيرة.. عداءه بعث في قلوب الفارسين رعباً دونه رعبهما من الثور والخطر الداهم بكثير.

ولم يكن هناك وقت لتأمل أكثر، في هذه اللحظة دوت أصوات الأبواق مرة أخرى.

حسبتها الغالبية أمراً للفارسين ببدء الهجوم.

ولكنه كان أمراً من رئيس الاحتفال وقاضيه الأعلى يطلب منهما

الانسحاب ومغادرة الساحة. وارتجت الأرينا بتصفيق كاصطفاق أمواج المحيط.

وفرح الفارسان وقد عادت الدماء الى وجهيهما بعد طول امتقاع.

وكذلك انسحب المصارعون بعباءاتهم الى ما وراء العوارض الخشبية.

وبقي الثور وحيداً وسط الدائرة الرملية.. واقفاً وقفة تحفز.. ينظر في ريبة إلى السكون المفاجىء الذي شمل الدنيا فجأة من حوله.

ولا بد أن الخطوة التالية كانت اخراجه من الساحة. والمشكلة العويصة التي وجدتها تحتل كل تفكيري هي كيف ومن الذي يجرؤ وأية قوة يمكنها أن تجبر هذا الكائن الجهنمي الطليق أن تجعله بطريقة أو بأخرى يعود الى دخول الباب الذي خرج منه؟

وكنت على يقين أن التراث الطويل للعبة قد أوجد حلولاً لمثل هذه المواقف، ولكن أي حل، ذاك ما رحت أفكر فيه وكأن الموضوع لغز عليّ أن أخمن له حلاً سريعاً قبل أن أرى الحل الصحيح أمامي بعد قليل.

وقد فكرت في طرق شتى ولكني أبداً لم أتصور أن يكون الحل الذي ابتكرته التجربة الطويلة والخبرة سهلاً وبسيطاً وعبقرياً الى هذه الدرجة.

الطريقة أنهم أدخلوا في الساحة ثلاث أو أربع بقرات من نفس الفصائل، وقد علقوا في رقابها علباً من الصفيح داخلها قطع معدنية تحدث ضجة كلما اهتزت. وقد كنت أحسب إناث هذا النوع لها نفس شراسة الذكر وطبيعته العدوانية، ولكن البقرات دخلت في هدوء وكأنها بقرات مستأنسة. وقد كنت أتصور أيضاً أن الثور سينقض عليها لحظة أن يراها مثلما يفعل بالحصان أو بالخشب أو بأي مما تقع عليه عيناه، ولكنه ما كاد يسمع أصوات الخشخشة حتى رفع رأسه مترقباً والأبقار تسرع الى وسط الحلقة حيث يقف، ليس إسراعاً أهوج متفجراً أحمق، ولكنه اسراع الإناث المتأني، إسراع الحياة الحريصة على استمرارها.. المعقولة.

وفي ثانية كان الثور قد اختفى بينها وأصبح فرداً من قطيعها، يتحرك معه اذا تحرك وبنفس سرعته، ويقف اذا وقف وتنطبق عليه كل قوانينه. وقد زال عنه توتره وتحفزه ورعبه، وأيضاً زالت تماماً كل رغبة لديه في المهاجمة أو الانقضاض وأصبح وكأنه الابن الضال الخائف المتوجس وقد عاد لأحضان أمهاته وخالاته وعماته، وزالت عنه صفات الشريد المجرم لتحل محلها وداعة أبناء الأسر.

وكان التغير سريعاً وحاداً وملحوظاً إلى درجة لا بد تصيب المتتبع له بذهول. لكأنما عصا ساحر أشارت فاختفى الثور المرعب في ومضة وحل محله ثور آخر مختلف في كل شيء عنه. أتراها الأمومة؟ أم هي سحر الجماعة والقطيع؟ أم هو الاحساس بالونس؟ أم هذا كله مجتمعاً؟.. إلى درجة لم أصدق فيها ما أراه حين دخلت

إلى الحلقة بعد هـذا فرقـة من ثلاثـة أو أربعة فتيـان غير مسلحين إلا بسياط تفرقع في الهواء، وبفرقعتين تحرك القطيع مسرعاً نـاحية بـاب الخـروج تحركـاً لا تستطيـع أبـداً أن تميـز فيـه الثـور المتـوحش من البقرات المستأنسات. وهكذا وفي مثـل لمح البصـر انحلت المشكلة التي خيل إليّ أنها ستستغرق أزماناً لحلها.

وأحسست بحاجتي أن يشاركني أحد فيما أفكـر فيه وأتصـوره، وليـأسي من جاري الأسبـاني وبيننا الخنـدق اللغـوي العميق، التفت إلى جارتي الفاتنة المحتضنة زهورها والسابحة في وديـان، ويبدو أني فعلت هذا في وقت مناسب جداً وكأنهـا هي الأخرى كـانت تهفو إلى من تشاركه، حتى خيل إليّ أني ألمح ألفـاظ الحوار المتـزاحـمة تكـاد تنزلق من تلقاء نفسهـا وتغادر طـرف لسانهـا. وكادت الانجليـزية التي أتقنهـا تخونني وأنـا أحاول أن أجسـد لها الخـواطر التي راودتني وأنـا أراهم يستعملون سلاح الأمومة للقضاء على وحشية الثور ورغبتـه في البطش.

ودون أن تعتـدل وجدتهـا تقول في اعتـداد كسول وبلهجـة من تعودت أن تقو ل رأيها ليصبح للآخرين منزلاً وقانوناً:

ـ لا أمومة هناك ولا شيء من هذا.. المسألة تدريب. لقد دربـوا الثور على أن دخول الأبقار وما يصاحبها من ضجة معناه الأمان ومعناه أن عليه أن يترك تحفـزه وبطشـه. نوع من الانعكـاس المشروط، ألا تعرفه؟ ألا تعرف الانعكاس المشروط الذي اكتشفه بافلوف؟.

أعرفه؟!.. لقد كان باستطاعتي أن أقضي اليوم بطوله أناقشها فيه. ولكن ما فائدة أن تناقش انسانة لا تناقش لتقتنع أو حتى لتظل على الحياد وإنما هي تناقش فقط لتقنعك، اذا فرض وتنازلت هي وقبلت مبدأ أن يستمر النقاش، هكذا بدت حتى وهي هادئة تائهة سرحانة.

وكان غريباً منها، وفي ظرف كالذي كنا فيه، وفي أحرج فترة.. تلك الواقعة بين إخراج الثور وإدخال الآخر الذي لا بد أنه أقوى وعورة وخطراً، خطورة حتماً سيتحمل وزرها وضراوتها صديقها الميتادور الذي خصها بعنايته والذي تحمل له الزهور. غريب منها في لحظات حرجة كتلك أن تستطرد سارحة أيضاً وتائهة لا لتكمل النقاش حول كيفية اخراج الثور وإنما لكي تسألني عن شيء خاص بي أنا.. عن جنسيتي. سؤال لم تصدق أني أقول لها الحقيقة مجيباً عنه. وبعناد غريب يضحك رفضت أن تقتنع أني عربي من مصر، وحمداً لله انها اكتفت بهذا الرفض ولم تشأ أن تفرض بمنطقها شديد المراس المدلل جنسية أخرى. والظاهر أننا كنا لا بد سنصل عاجلاً أو آجلاً الى الموضوع الذي تحاشيت دائماً أن نخوض فيه، فقد سألتني عن رأيي في كاسترو وثورته. وكأنما كانت تتوقع الاجابة فلم يبد عليها الامتعاض الكثير الذي توقعته، وإن شعرت أن مجرد نطقي بالرأي قد حدد الى درجة ما علاقتنا الى الأبد، وجعلها تنزل من ناحيتها حاجزاً سميكاً لا يمكن اختراقه أو تجاهله. ومن خلال الحاجزين.. ذلك الذي أسدلته من ناحيتي والذي أسدلته من ناحيتها.. بدا أن لا محل

ولا مجال لأية خطوة مقبلة نخطوها معاً. فالأمر عندها ليس خلافاً في الرأي أو سياسة. ليس هناك إلا واحداً من اثنين: إما أن تكون معها فأنت حينئذ صديقها، أو عليها وضدها لكي تصبح عدوها اللدود الذي لا تتورع عن محاربته بكل سلاح وأي سلاح! والناس بالتالي ليسوا في نظرها بشراً لهم حيواتهم ووجوودهم وآرائهم الخاصة، ولكنهم أيضاً إما معها أو ضدها. إما أعداء أو أصدقاء ولا وسط ولا حياد. والعداوة عداوة كاملة! والصداقة أيضاً ليس فيها درجات! فهي تبغضك اذا نسيت وتجاهلتها ولم تحبها.. تماماً مثل بغضها لك اذا قتلت أباها. عداوة وصداقة ليست بالعقل ولا بالمعقول ولا تخضع لمنطق أو حجج. فهي لا تستطيع أن تبرر لك عقلياً كرهها لكاسترو، وتجد أن من الاهانة لها أن تطلب منها تفسيراً لرأيها، اذ يكفي جداً أنها هكذا أرادت وعليك أن تقبل وليس على العالم الا أن يخضع لتلك الارادة، وإلا عادته وأصبح في نظرها هو ذلك العالم المقيت السخيف الذي لا معنى له.

وكم أحسست بنفسي موزعة مشتتة بين كلامها الذي يكشف عن شخصية جديرة بالدراسة والتفرج، وبين انشغالي الأعظم بالمصارعة وبالثور الذي خرج، وبصديقي الميتادور وغريمه الذي لا ريب سيدخل حالاً.. أريد أن أترك كل شيء وأسمعها ولا أستطيع إلا أن أهب نفسي تماماً للدقائق الرهيبة التي يضمني فيها ذلك العالم الجديد عليّ تماماً.

غير أن الواقع نفسه لم يلبث أن تكفل بضبط اهتمامي.

فقد تصاعد صوت الأبواق يعلن فتح الباب للثور الجديد.

واندفعت الكتلة السوداء داخله.. وأسكت دخول الثور الساحة تماماً وقضى على كل ما كان باقياً من همهمات. فقد اختير وكأنما ليفحم الجمهور الحاضر ويغلق أفواهه. بدا للآعين أضخم من كل ما سبقه من ثيران وأكثر قوة وشراسة. ولم يندفع إلى الحلقة في جري مراهق مجنون مثل سابقيه، ولا مضى بحمق وإسراف وبذخ يبعثر قواه في سباق موهوم لا طائل من ورائه، بدا وكأنه مدرب محترف لا حد لثقته بنفسه، يدخر قواه كلها الى اللحظة التي يلمح فيها هدفاً أو تتحرك أمامه عباءة. حينئذ وباندفاع ديناميتي صاعق، وفي أقل من غمضة عين يكون قد انطلق ووصل وانقض على الهدف مكتسحاً اياه بكل سرعته وكتلته، وما في جسده المحشو من طاقات، وكأنه «بولدوزر» خرافي كفيل بتحريك الجبل اذا اعترضه، بل كفيل بسحقه ونسفه وتحويله إلى هباء. ثور ما كاد يدخل ويلوح له بالعباءة مرة أو مرتين، ويقطع الدائرة الرملية منقضاً، ويبدأ الناس يمعنون فيه النظر ويتأملونه حتى تأكدت أن كلاً منهم لا بد قد أصيب بنفس القشعريرة التي أحسستها.. حتى وأنت واثق تماماً ومتأكد أنك بعيد عنه وأنه لن يقترب منك أبداً ومستحيل أن يهاجمك لا تملك إلا أن تحس بالخوف.. ذلك النوع من الخوف الذي نشعر به تجاه كل شيء مهول مطلق بغير حدود، تجاه كل ما ليس له ند، تجاه كل ما لا يمكن التصدي له أو مقاومته.

ولأول مرة أحسست بالقلق العظيم يتحول إلى خوف حقيقي،

خوف على صديقي الميتادور الذي كان عليه أن ينازل هذه القوة الغاشمة المطلقة. صحيح هو قد أثبت لي وللألوف الثلاثين ومنذ وقت قليل أنه بطل وأنه حاذق، وأن باستطاعته أن يصرع الثور في لمح البصر.

ولكن ما رأيناه شيء وما كنا نراه شيء آخر.

رحت أتأمل الثور وأعود أتأمل الجزء الظاهر من جسد صاحبي الدقيق النحيف، وما من مرة أعقد المقارنة إلا وأحس أني على وشك أن أصرخ طالباً منه أن يترك الساحة وينسحب. وكأنه سمع الصرخات التي لم تنطلق، ففي تلك المرحلة الأولى حيث يتناوب المصارعون محاورة الثور لدقائق قليلة لاختبار مدى قوته وإدراك نقط ضعفه ومعرفة طريقته في الهجوم ومبلغ تحكمه في جسده وأطرافه، خرج له صاحبنا يتحداه ويستفزه، بجسد بدا أنحف وأدق مما يكاد يتحول إلى مستطيل..

وانقض الثور بكل عنفه وقواه، وببساطة غريبة تحاشى الميتادور هجمته، وانقض ثانية وتحاشاه.. ومرة ثالثة استجمع كل البدائية والتوحش وانقض وتحاشاه، وتصاعد من الأرينا تصفيق كأنه علامة اطمئنان كبرى.

واسترجعت بعض انفاسي، وتضاءل خوفي ولكنه ظل هناك.

وبدأت مرحلة البيكادورز راكبي الأحصنة.. مرحلة الطعن للإضعاف. ولم يقدر للفارس الأول أن يفعل شيئاً، فبضربة واحدة من

قـرنيه أطـاح الثور بـالفرس وألقـاه كتلة لا تتحرك في نـاحيـة، وسقط الفـارس في ناحيـة أخرى. ضـربة من القـوة بحيث اعتقـد النـاس أن الفارس والفرس قضيا، ولكن كان لا يزال في عمرهمـا بقية، وتكفـل ثمـانية مصـارعين بشغل الثـور وقتاً أمكن فيـه إيقاف الفـرس المكـوم وإخراجه، وكذلك فعلوا بالفارس.

وبـوجه ليمـوني أصفر دخـل الفارس الثـاني وهالـة من إشفـاق الجمهور تحفه، الجمهور نفسه الذي لا يكره شيئاً قدر كرهه للفارس ودوره وقد قلب جبروت الثور عواطفه وموازينه.

والمفروض أن الثور لا يهاجم الفرس مباشرة، ولا يفعل هذا إلا بسلسلة من المحاورات يقوم بهـا المصارعون على التوالي ليـزحزحـوا الثور من مركز الدائرة الرملية في الوسط إلى ذلك الجزء من محيـطها الذي يوجد فيه الفارس. وفقط حين يحدث هذا ويلمح الثـور الفرس يبدأ في مهاجمته.. هذه المرة ومن مكانه في مركز الدائـرة لمح الثـور الحصـان وراكبه، ولم يحتـج الأمر منـاورة أو مـداورة فقـد أقبـل في زوبعة سوداء هائلة، ولولا أن الفارس تحرك بفـرسه قليـلاً وفي الوقت المناسب لحدثت كارثة، اذ بهذا الانحراف القليل تفادى من الصـدام المروع وانكشف له ظهر الثور، ولم يلبث أن غرس فيه بجمـاع قوتـه الحربة. وظل الثور يدفع الفرس برأسه، والفارس بكل ما فيـه من قوة ومـا تسلط عليه من رعب يـدفع الحـربة بين كتفيـه. الثور يـدفع وهـو يدفع. اللحظات نفسها التي يتأوه لها الجمور تقززاً وتألماً لم تحـدث شيئـاً من هذا الأثـر، فالثـور كان يبـدو للجمهور كمـارد عمـلاق غيـر

محـدود القوة لا يمكن أن يتـألم أو تؤثر فيـه طعنات. حتى حين خلع الفارس حربته ورشقها في النـاحية الأخـرى طاعنـاً إياه طعنـة ثانيـة، مصراً على إبقاء الحربة مغروسة في لحمه، ودفعها بأقصى قواه وطعنه، لم يتأثر الجمهور أو يتململ فقد كان على استعداد لتقبل طعنـة ثالثـة ورابعة.

ولكن الأبواق دوت معلنة انتهاء مهمة الفارس.

وكذلك دوت الساحة بموجة تصفيق ربما المرة الأولى والأخيرة التي يصفق فيها الجمهور لفارس على مهمته المقيتة وعلى نجاحه في أدائها.

وانسحب البيكادور وهو يحيي الجمهور ووجهه يطفح بالسعادة، وكان أقصى ما كان يتوقعه أن يخرج سالماً واذا به يخرج بطلاً أيضاً.

وجاء دور غارس الأعلام «الباندريللوس».

وأن تفعلها مع أي ثـور أمر قـد يكون معقـولاً، أما مـع هذا الثـور بـالذات فهـو انتحار لا شـك فيه. اذ قـد بدا من تحـركاتـه الأولى أنه يملك مقدرة هائلة على تكييف اندفاعـه وضبط تصويبـه والقدرة على إيقاف نفسه في الحال والاستدارة ثم الانـطلاق بنفس سرعتـه الأولى المخيفة.

ولكن المـرحلة تمت ودون أي حـادث، والجمهـور لا يكـاد يصدق وغارس الأعـلام نفسه كـأنه في حلم أو أنقـذ من موت محقق بمعجزة أو بأعجوبة.

هكذا كانت ملامحه تنـطق وتوزع ذهـولها على زمـلائه والثـور

والمدرجات. وبنفخة بوق طالت وامتدت أعلنت بداية مـرحلة الصراع الحقيقي «الميوليتا».

ومن خلف العارضة، وبقناع شامل من الثقة والشموخ، وبخطوات ارادية محسوبة تحرك صديقنا الميتادور آخذاً طـريقه داخل الدائـرة مقترباً من الثور.

ولا بد أن خطأ كان قد وقع أو حدث، فقـد سرت في المـدرجات همهمـة، ارتفعت داخلها أصوات سرعـان مـا لفتهـا نـوبـات دهشـة واستغراب.

وزادت دهشتي حين بـدأت الأنظار تتجـه إلى ذلك الجـزء من المدرج الذي كنـا نجلس فيه. حركة جعلتني أفيق من الأحـداث التي جرت وامتصت انتباهي وأعود أفطن إلى وجود جارتي اللاتينية الفـاتنة التى لا بد أن الأنظار تقصدها، وتقصدها لسبب ما.

ووجدت نفسي أقتحمها أنا الآخر بنظراتي.

كانت الحمرة هذه المرة ليست أبداً حمرة الخجل.. حمرة قـانية.. حمرة دم محروق لا يزيده الزمن إلا سواداً.. وكانت ملامحهـا جامـدة أيضـاً ثابتـة لا تتحرك، ووجههـا قـد انحـرف ينـظر إلى نـاحيـة. نفس صـورتهـا الأولى مـع فـارق أسـاسي واحـد أن السبب فيهـا لـم يكن الخجل، كان الغضب.. غضب المـدللين الجارف العنيـد. فقد كـان مفروضاً بعد هذه التحية التي تلقتها منه في المرة الأولى أن يـأتي إلى حيث تجلس هذه المرة ويحييها قبل أن يبدأ صراعـه مع الثـور، علناً

وأمـام الناس، ويقـذف لها بقبعتـه مهديـاً اليها عمله «الفني» الخـطير الذي يوشـك الإقدام عليـه. ولكن شيئاً من هـذا لم يحدث، فهـا هو يتجه إلى الساحة ومعه العباءة الحمراء دون أن يهـدي اليها أو يهـدي إلى أحد شيئاً، وها هي جماهير المتفرجين، حتى المتفرجين، تتذكر ما كان يجب عليه عمله وتلتفت اليها، بينما هو ـ وكأنما لم تكن ـ ولا حدث بينهما شيء.

كانت احدى يديها تقبض على باقة الزهور بشدة بينما الأخـرى تسحق زهرة اختارتها وأخرجتها من مكانهـا ومضت تمزقهـا بأصبعيهـا ووجههـا أسود بـالاحمرار والغيظ.. غيـر أن هـذا لم يـدم إلا للحـظة تمالكت نفسها بعدها، أو على الأقـل هذا مـا بدا، ووضعت الـزهور جانباً وارتكزت على الحاجز أمامها بكلتا ذراعيها وانصرفت تمـاماً، أو هكذا بدا أيضاً، الى التفرج ومتابعة ما يدور في الساحة.

كنت أتمنى لو استجابت للضعف الأنثوي مرة وأسقطت دمعة، اذ ليس أجمل من أن ترى العناد المدلل وهو يتحطم أمامك رغماً عنه وعن صاحبته.

ولكني لـم أشأ أن أضيع الوقت في انتظار ظهور دمعتها، وعدت إلى الساحة.

مرحلة الميوليتا بالذات، قمة اللعبة وأروع ما فيها، مرحلة لهـا كيانها المستقل وخصائصها. الميتادور يكون قد اشترك مع زملائه فيما قبلها من مراحل وخبر الثـور وعرف الكثيـر عنه. ولكنـه لا يبدأ يعـرفه

معرفة حقيقية إلا هنا، حين تخلو الساحة تماماً إلا منهما، حين تصبح عليه وحده مسؤولية مواجهته. ولهذا فدقائقها الأولى مليئة بالتوتر والأعصاب المشدودة وكل المظاهر المصاحبة لبداية العمل الخطير، ولكنها مظاهر وظواهر لا تبدو الا لعين خبيرة. فالمصارع يحرص بوعي شديد ـ ولعله العمل الواعي الوحيد الذي يقوم به المصارع عن ارادة وإدراك خلال تلك الدقائق ـ يحرص على إخفاء حالته تماماً في ثوب الكبرياء الذي يرتديه والبطء النسبي الذي يتحرك به.. لكأنه يقدم لغريمه أول مرة ويحرص على أن يبدو أمامه على هيئة المترفع المتعالي الذي يتنازل ويقبل مصارعته. هكذا يبدو الميتادور وهو واقف وقفته التقليدية معوج العنق، رافعاً ذقنه في شموخ، نافخاً صدره، متراجعاً برأسه إلى الوراء، داقاً الأرض بقدمه دقات تتلوها وتسبقها أصوات منادية مستفزة يتحدى بها الثور أن يهاجمه كاشفاً له الوجه الأحمر للعباءة ليثيره ويدعوه إلى الانقضاض.

والحقيقة لا تكون هناك حاجة لاستثارته أو دعوته، فهو المبادر دائماً بالحركة.. المندفع.. يهاجم في كل اتجاه، المثير في غريمه كل ذلك الاضطراب الأول، والتوتر وشدة الأعصاب.

وكل هجمة من الثور تزيد من اضطرابه وضعف ثقته بنفسه.

وكل حركة من المصارع يحشد لها كل طاقته المشتتة ويضع فيها كل حذقه ليرد بها على الهجوم، وكل حركة كهذه تصدر عنه ولا تظفر من الجمهور بتحية أو ترتفع لها «أولية» تزيد الموقف تعقيداً والأعصاب المشدودة توتراً.

يـظل الميتادور هكـذا واجف القلب فاقـدا الثقة ضـائعاً بـالكاد يستطيع التماسك والوقوف، خـائفاً من الثـور خوفـاً يضيف الى وجهه كل جزء من الثانية طبقـة صفرة جـديدة، يـظل هكذا إلى أن يحـدث ويأتي بحركة رد يخرج بها من مأزق وعر، فتفلت من الجمهور رغمـاً عنه آهة الاستحسان الأولى. فقط حين تتصاعد هذه «الأوليـة» الأولى وتصـاعدهـا بالمنـاسبـة ليس أمـراً سهـلاً، ففي دقـائق البـدايـة يقف الجمهور دائماً من الميتادور موقف المتحفظ الكـابح لجمـاح انفعالـه بحيث يظل بإرادته يؤجل إظهار استحسانه إلى حركة أروع وأخطر.

واذا ترك امر لإرادتـه فمن المحتمل جـداً أن تنتهي المصارعـة دون أن تـظهر بـادرة استحسان، ولأن اظهـارها أمـر مهم وهـو الـذي يجعل المصارعة تحمى والمصارع يقـوى وينتصر. بغيـر مشاركـة هذا العنصر المهم فلن توجد اللعبة أو قد توجد على هيئة محاورات باردة لا تثير أية متعـة أو انفعال. ولهـذا فصيحـة الاستحسـان الأولى تـأتي دائمـاً لا ارادية، أكثـر من هـذا، تـأتي رغم ارادة الجمهـور الكـابت لرغبته كلما انتابته الرغبة لإظهار الاستحسان.

هذه «الأولية» الأولى هي الشرارة التي تحدث وتضرم النيران.

فعلى أثرها تنتهي تماماً كل مظاهـر اضطراب البـداية ويتحـول المصارع من طرف سلبي همه أن يدافع عن نفسه ضد هجمات الثور حتى وإن بـدا أنه هـو الذي يستفـزه للهجوم، إلى الـطرف الايجـابي الذي يسيطر على المصارعة ويحركها ويزيد سرعتها ويبطئها. الـطرف الـذي يحرك الثـور في الاتجاه الـذي يريـد، فيضيق عليه الخنـاق أو

ينصب له الشرك، صاحب اليد العليا.

وهنا وحين تتخطى مرحلة الميوليتا هذا الطور الأول ينسى الميتادور شكله المتكبر المترفع الذي يحب أن يبدو به أمام الثور وأمام الناس، ويبدأ يتحرك بحرية وبلا أي تقيد بالمظهر وهمه كله أن يستغل قدرته على التحرك السريع وخفته كي يتغلب بها على شدة مراس خصمه وقدرته الجبارة على الجري والاندفاع.

وهكذا مضى صديقي الميتادور وكل أعصابي وانتباهي وتركيزي قد أصبحت جميعها معه وكأنني أخوض المعركة بجواره، مضى يحاور الثور الذي بدا، بارتفاع منطقة أكتافه الأمامية وعنقه ورأسه عن بقية جسده، كأسد بقري متوحش أحضر لتوه من الغابة.. أسد لم يتكفل جسده العاري من كل فروة أو شعر بتخفيف حدة مظهره أو كتلته، وكأنه مصنوع من صخر أسود كثيف ثقيل أو من حديد حي، الضخم ضخامة لا بد تبعث على الدهشة والذهول اذا قورنت بسرعته وقدرته على الاندفاع من الصفر إلى سرعة أكثر من المائة كيلو متر فجأة، وقدرته الأخرى الخارقة على التوقف فجأة أيضاً، والهبوط من المائة إلى الصفر مرة واحدة. وليس توقفاً فقط ولكنه التوقف والدوران دورة كاملة ثم معاودة الاندفاع من الصفر إلى المائة، وكل هذا يحدث في لمح البصر ويصدر عن هذه الكتلة الثقيلة الرهيبة الضخمة.

وفي مقابله كان صديقي الميتادور، عوده له مثل رشاقة ملامحه.. ليس فارع الطول ولكنك لا تحس به قصيراً، وساقاه تبدوان

في سـرواله الضيق الـلاصق بهمـا رفيعتين كنبـوتين من نبـابيت «الصعـايدة» عنـدنا ولكنهمـا أيضاً تبـدوان غير هشتين بـالمرة وكـأنما صنعتا من خشب الرمـان، سريعتي الحـركة بـطريقة لا تكـاد تراهمـا وهما تتحركـان حتى لتظهـرا وكأنهمـا ثابتتـان، ولا وجه للمقـارنة بين حجمه وحجم الثور. لا يكـاد حجمه أو وزنـه يعادل طـرفاً واحـداً من أطراف الثور الأربعة، ولعل هذا ما كان يدفع الثور إلى الجنـون وإلى الهجوم بجنون على ذلـك الشيء الصغير الـواقف أمامـه في الساحـة يتحـداه ويقف اذا هاجمـه ولا يهرب منـه أو يخاف، مستغـلاً الفـارق البسيط الذي ميزته به الطبيعة أبرع وأروع استغلال. فـالثور رغم كـل جبروته وضخامته يتحرك على أربع، مسألة قد تبدو غير مهمة اذا كان الثور منطلقاً في جريـه إلى الأمام، أمـا حين يتطلب الأمـر استدارة أو انحرافاً أو تغييراً للاتجاه تصبح الأطراف الأربعة كارثة معـوقة، ويبـدو الثور عندها وكأنه العربة بلا «دركسيون» اذا كان عليها أن تنحرف فلا بد أن تصنع قوساً كبيراً.

واذا كان عليها أن تستدير لا تفعل هذا بنقطة كما يفعل الانسان في الـطريق. انه يستـدير في دائـرة ويغير اتجـاهـه بمنحنى وينحـرف بقـوس ولا يملك كما لا يملك كـل بني مملكته إلا أن يفعـل هذا إلا اذا ملك القطار أن يتحرك بلا قضبان.

وعلى هـذه النقطة التي تبـدو بسيطة هينـة بنيت لعبة مصـارعـة الثيران بكل مهرجاناتها وتاريخها وآلاف السياح الذين يأتون من آلاف الأمكنـة وينفقون آلاف المـلايين من الدولارات لـرؤيتها. أجـل قدرة

الانسان على أن يستدير حين يريد في نقطة وعدم قدرة الثور على الاستدارة الا في دائرة.. هذا الفرق بين النقطة والدائرة، بين المركز والمحيط، هو الذي يصنع منطقة الأمان التي يحتمي بها المصارع ويضمن ضماناً أكيداً ألا يمسه الثور طالما هو داخلها لا يتعداها. وكل ما يفعله ليحقق هذا الغرض أن الثور حين يقبل مهاجماً وهدفه العباءة الحمراء يظل المصارع واقفاً في مكانه ثابتاً إلى أن يصبح الثور على مسافة نصف قطر الدائرة التي يصنعها الثور اذا دار حول محوره، أي الدائرة الكائنة بين ساقيه الأماميتين والخلفيتين. على المصارع أن ينتظر إلى أن يصبح الثور منه على هذه المسافة، لأنه لو تحرك والثور على بعد أكبر ففي استطاعة الثور أن يغير اتجاهه وينحرف ويصيبه. أما حين تكون بينهما هذه المسافة وينحرف المصارع، فإن الثور اذا انحرف فهو لا يستطيع مطلقاً أن يصل اليه أو يصيبه لأن الثور حينئذ يكون قد اجتاز المكان الذي انحرف اليه المصارع حتى أصبح المصارع يواجه منتصف بطنه. وبفرض أن الثور استطاع أن يوقف اندفاعه فوراً فهو لا يملك أيضاً أن يصيب الرجل، وعليه لكي يفعل أن يستدير ليواجهه برأسه.

ولو كان يستدير كالانسان في نقطة، أي هو واقف في محله، لأمكنه فعلاً أن يسدد اليه الاصابة. ولكنه لا يستطيع أن يستدير إلا اذا صنع بجسده دائرة كاملة، وحين يتم الدائرة ويتهيأ للانقضاض لا يجد المصارع هناك أيضاً، إذ يكون الأخير قد انتظر حتى استدار الثور ثم غير من موقفه بطريقة على الثور فيها أن يصنع دائرة كاملة أخرى حول

المصارع، دائرة المصارع مركزها، المصارع الذي ينتظره حتى يقارب إكمال الدائرة ليندفع بسرعة وخفة وينحرف جانباً مغيراً من مركز الدائرة مطالباً الثور أن يعود ليصنع دائرة جديدة وهكذا.

سلسلة من المواقف تكون سلسلة من الدوائر التي يدور فيها الثور محاولاً في كل مرة أن يواجه المصارع ليسدد له طعناته بينما المصارع لا ينيله غرضه، بحيث كلما قارب الثور اتمام الدائرة والهجوم غير المصارع من موقفه قليلاً لكي يتحتم على الثور أن يصنع دائرة أخرى ليواجهه، ولا يتحقق هدفه أبداً لأن المصارع يغير دائماً من موقفه في اللحظة المناسبة .

ذلك هو الأساس أو المبدأ الذي منه تتشعب المباغتة في المصارعة ويختلف الميتادور عن غيره، بحيث ان أبرعهم جميعاً هو ذلك الذي يجعل الثور يتحرك أكثر وأقوى حركة في مقابل أقل حركة ممكنة منه.

ولذا كلما انتظر الميتادور حتى اللحظة الأخيرة لإكمال الدائرة ليغير موقفه، أصبح على الثور أن يتحرك أكثر اذ لا بد أن يصنع دائرة كاملة ثانية. في حين أنه لو تحرك في وقت مبكر ففي استطاعة الثور أن يوفر الجهد فلا يضيعه في اكمال الدائرة الأولى ومن فوره يشرع في صنع الثانية. وكذلك كلما قربت المسافة بين موقف المصارع الأول وبين الموقف الذي ينتقل اليه، ، ضاقت الدائرة التي على الثور ان يصنعها، وبالتالي بذل جهداً أكبر كي يجعل كتلته الضخمة تلك تتحرك دائرة داخل هذا النطاق الضيق المحدود.

وهكذا يعتبر المصارع المثالي هو المصارع الذي يستطيع أن يتأخر في حركته الى أن يكاد الثور يلامسه، واذا تحرك مغيراً موقفه تحرك أقل مسافة، أو أروع وأروع حين لا يتحرك بالمرة وحين يظل واقفاً في مكانه بحيث تتضاءل المسافة التي يتحركها حتى تصبح الفرق بين مواجهة الثور بصدره ومواجهته له بجانبه.

ان الهدف من مرحلة الميوليتا كلها هو ارهاق الثور إلى درجة الاستسلام.

وهذه الحركات الدائرية المحدودة أشد ارهاقاً للثور من أي جري منطلق في أنحاء الساحة. ولهذا فبعد بضع حركات كهذه يبلغ الارهاق بالثور المطعون قبلاً، النازف اللاهث المغروس في ظهره ستة أعلام تنخر عظمه وتؤلمه، يبلغ الارهاق به إلى حد أن يكف عن الهجوم أصلاً ويقف في مكانه لا يتحرك، وحينئذ تصل ثقة الميتادور بنفسه وبما ألحقه بالثور من ارهاق حد أن يغادره مولياً اياه ظهره محيياً الجمهور الذي تدوي الساحة بهتافاته.

وكنت قد رأيت مرحلة الميوليتا تمر بهذه الخطوات أو معظمها. رأيت الثور يدخلها كتلة حياة تنفجر بالحركة والوحشية والنشاط، وبطريقة يبدو وكأنها ستظل هكذا إلى الأبد وكأن لا شيء هناك قادر على النيل منها. ويظل الأمر كذلك الى أن يدخل الثور فخ الدوائر اللانهائية، ولا تكاد تمضي بضع دقائق عليه فيها حتى ينقلب لهثه إلى فحيح مسموع وزبد، وحتى يمتد لسانه شبراً من فمه تعباً وإجهاداً، وحتى يكاد يسقط من تلقاء نفسه إعياء. بضع دقائق فقط

يتولى هو بنفسه قتل نفسه فيها تعباً وارهاقـاً، وتتكفل رغبتـه الغاشمـة البدائية في مهاجمة كل أحمر أمامه، تلك التي تدفعه للجري المهلك حـاشراً نفسـه داخل دوائـر أضيق فأضيق سـاعياً وراء سـراب العبـاءة الحمـراء، تتكفل هـذه كلها بـإحالتـه من كتلة حياة متفجـرة إلى حياة خـامدة، إلى مجـرد حيوان متعب لاهث لا فـرق بينه وبين الكلب أو الخنزير. رأيت هذا يحدث للثور الأول والثاني والثالث، أما هذا الثور الرابع ومع صاحبي الميتادور، فقد رأيت ما لا يكاد يصدق.

-١١-

كان الشاب ينصب فخ الدائرة بإحكام ويظل كأعتى ميتادور إلى آخر ومضة في اللحظة، إلى حين تمس قرون الثور العباءة وتشتبك بها أحياناً.. وأحياناً تمزقها قبل أن يتحرك جانباً ليتفادى من الهجمة من ناحية، وليصنع من نفسه هدفاً آخر لهجمة ثانية، وبالكاد لا يتحرك متبعاً في هذا أخطر القواعد مجازفاً بنفسه، متهوراً في اتباعها. وكل هذا ليستنفد طاقة غريمه بسرعة، وليجبره على التحرك بكتلته الضخمة داخل نطاق أضيق دائرة ممكنة الى درجة كان ضيقها يشل حركة الثور أحياناً، وهو يضغط نفسه ويقترب بنصفه الخلفي من نصفه الأمامي اقتراباً تتداخل معه أطرافه، وكل هذا ليصغر من حجمه كي يصنع بحجمه الصغير أصغر دائرة. انها ليست عملية إجهاد فقط.. إنها جهاد عارم القسوة والعذاب لكأنك تعتصر نفسك بجبروت ضاغطاً جسدك ليتداخل وتختصر حجمه، وتفعل هذا كي تنطلق وبأقصى سرعة تتحرك حركة دائرية يبلغ ضيق دائرتها حد أنك بالكاد تستطيع أن تتحرك، فما بالك أن تتحرك في سرعة وانقضاض.

ولكن الثور كان يفعلها، ويتحكم في حجمه الضخم كالرياضي

المدرب ويستمر يفعلها. ويلمح جسده المظلم الأسود بالعـرق، وتبرز عـظام أكتافـه رافعة مـا فوقهـا من لحم وعضـلات بـادية للعيـان في محـاولته ضم نفسـه وضغطهـا، ولا يتوقف عن الهجـوم لثـانيـة، ولم يكف مرة ولا احتاج للتلويـح والاستفزاز.. حتى تحـول جزء كبيـر من التصفيق والهتاف الذي كان يتوالى تحية للميتادور على براعته وحذقه ودوائر الخطر التي يتحـرك فيها بـلا خوف أو وجـل، تحول جـزء من التصفيق والهتاف إلى الثور الماضي في هجومه لا ينال منـه تعب ولا يؤثر في طاقته أي مجهود، حتى بدا الأمر محيراً.

ان العـادة جرت ألا تـزيد هـذه المرحلة عن دقـائق قليلة تنتهي بعـدها كـل طاقـات الثور.. دقـائق نادراً مـا تتعدى الخمس، وهـا قد مضت عشر دقائق وربع ساعة بأكمله والثور لـم تتغير قدرته إلا قليـلاً، من القلة بحيث يبدو التغير غير ملحوظ.

ولكنني كنت الوحيد تقريباً المشغـول بهذا الحسـاب قلقاً على صاحبي، أما جماهير المتفرجين فالصراع الدائر كان يستغـرقهم كلية، وانتباههم كله مركز في الحركة الحادثة امامهم فقط، في ذلـك الجزء من الصراع الذي يرونه بأعينهم الآن، وانفعالهم الشديد لا يـدع لهم فرصة استرجاع ما حدث من دقيقـة أو اعادة تـدبره، ولا مـا يمكن أن يحـدث بعد قليـل. وكذلـك لا تهمهم حالـة الثور أو حـالة الـرجـل، المهم أنهما لا زالا يتصارعـان صراعـاً قويـاً ممتعاً حـاداً من النادر أن يظفر به جمهور واحد في يوم واحد ولمدة طـويلة كهذه. الثـور شحنة الطاقة فيه خالدة لا تنفد، تدفعه وتثنيه وتفرده وتقبضـه وتشكله عشرات

ومئات الأشكال حسبما تقتضيه ظروف المعركة، جسوراً لا يني ولا يرحم ولا يتردد، كثيراً ما يتجاوز تقديرات الميتادور ويستدير بسرعة أكبر مما قدر وأكبر من أن تصدق، أو يختصر محيط الدائرة وكأن جسده استحال الى جسد ثعبان ليس أسهل من أن يستدير ويلتف، ويكاد يوقع كلما حدث هذا صاحبنا الميتادور في الفخ الذي أراده له. وكثرة المرات لا تنال منه بل تزيده قوة وهياجاً وإصراراً حتى تكاد تجعل له اليد العليا في الصراع، وتحيله إلى مطارد وتحيل الميتادور الى مجرد مدافع عن نفسه ليس أمامه إلا أن يهرب ويظل يهرب.. والميتادور هو الآخر في قمة نشاطه وصلاحيته، ان كان قد اعتمد في ضبط خطواته الأولى على رصيده السابق من البطولة وعلى الزهو الذي حصل عليه منذ وقت طويل لقتله الثور الأول في لمح البصر، فبمضي الصراع تناسى زهوه ورصيده وخاض معركته مستمداً منها نفسها الوحي والقدرة وحكمة التصرف. ولم يكن يستعرض، ولكنه في كفاحه الرهيب من أجل أن يقهر غريمه يقدم ألواناً من المصارعة قد لا يكون لها جمال ألوان الاستعراض الخارجي، ولكنها تحتوي على فن وخطورة لا تجدها في أروع الاستعراضات.

كان يستغل دقة حجمه إلى أقصى حد بحيث كان يرغم الثور على الدوران في دائرة لا تتعدى المتر أحياناً، حتى لتكاد تؤمن أن عظامه لحظتها تتهشم وتسمع قرقعتها. وكان يعمد إلى التغييرات السريعة في تكتيكه لإدراكه أن الثور حين يستمر على طريقة يتقنها بسرعة وذكاء غريبين على كائن مثله، فكان يغير من طريقة إلى طريقة

بحيث لا يترك لغريمه أي مجال للتعود والاتقان. وحين وصلا إلى طريقة الدوائر أخذ يضيق على الثور الخناق واستغرق في هذا إلى درجة لم يلحظ معها أن الثور أيضاً يضيق عليه الخناق حتى انه توقف في مكانه عن الحركة ليجعل الثور يدور حوله مكتفياً بتغيير اتجاهه لتغير وقفته والمركز الذي يدور فيه.. وكان صعباً أن تحدد في تلك اللحظة من منهما الذي يحاصر الآخر ويضيق عليه الخناق! ولكن بدا في اللحظات الأخيرة للحركة أن الثور هو الذي يفعل وأن أمام صاحبنا أخطر مشكلة، أن يتخلص فوراً من هذا الحصار. وربما لو فكر عاماً بأكمله وهو بعيد عن الساحة والموقف لما وصل إلى الحل الذي اهتدى اليه، وكأنما بالغريزة في نفس اللحظة التي وضح أن الثور في هجمته التالية سيصيبه دون أدنى شك.

والطريقة أنه غير فجأة من دورانه.. أي أقدم على مغامرة مجنونة. اذ بهذا التغيير أصبح الثور يواجهه بحيث لم يعد بينه وبين رأسه إلا أقل من متر، ولو قد فطن الثور إلى أنه سيفعل هذا لوفر على نفسه مشقة عمل دائرة أخرى ولطعنه بقرنيه في الحال. ولكنه يبدو أنه فعلها وهو متأكد تماماً أن الثور مستغرق في اللف بالطريقة التي اعتادها في الفترة القصيرة الأخيرة، وأنه لن يفطن اليه إلا بعد أن يكون قد ابتدأ في الدورة الجديدة، الا متأخراً بجزء على مائة جزء من الثانية. وحتى لو لم يكمل الدائرة الجديدة واتجه اليه من فوره فيكفيه هذا الجزء على مائة لكي يفلت من الحصار الخانق ويكسر الدائرة الرهيبة التي أرادها للثور فوقع فيها. وهو بالضبط ما حدث،

وما انتقل بعده هكذا في واحد على مائة من الثانية من انسان انتهى أمره إلى انسان حر طليق، الساحة كلها تحت أمره.

حركة أرعدت على أثرها المدرجات تصفيقاً وصياحاً كصياح من فقدوا العقول. ان أحداً لا يصدق ما حدث أمام عينيه، لا يصدق أن هذا الشاب النحيل قد أوتي وهو على وشك الموت هذه الشحنات القوية من الجرأة والذكاء وسعة الحيلة لكأنه لخص تاريخ اللعبة وتراثها والهدف منها.. اذ ذلك هو بالضبط ما أراده الذين ابتكروا المصارعة، وذلك بالضبط ما يريده الجمهور.. أن يخوض انسان بطل فيه كل مؤهلات الجانب الانساني الصراع ضد ثور بطل فيه كل مؤهلات الجانب البدائي الوحشي، ويظل الصراع بينهما سجالاً أو يكاد بحيث لا تحدث المواقف الفاصلة نتيجة ضعف أحد الطرفين، وإنما تنتج رغماً عن الاثنين معاً وبسبب تعادل قوتهما في الصراع. وحين يحدث ذلك الموقف الفاصل الاجباري ويصبح على الانسان فيه أن ينقذ نفسه فعليه ألا ينقذ نفسه كيفما اتفق وبأية وسيلة، وإنما عليه أن يختار أكثرها جرأة وحذقاً وذكاء، أن يختار الطريق البطولي بحيث لو نجحت وأنقذ بها نفسه استحق البطولة عن جدارة، وبحيث لو فشلت ومات اعتبرت ميتته ميتة أبطال وخلد ذكره.

وقد يكون هذا كله حقيقياً ورائعاً وجميلاً، وقد تربي أشياء كهذه الشعب وترسي فيه دعائم البطولة الانسانية كما يجب أن تكون في عصور أصبحت فيها هذه البطولة أثراً من آثار التاريخ لا تعثر عليها إلا في المتاحف والكتب. فهذه الأنواع من البطولة.. بطولة أن

يواجه الانسان الخطر بقلب جريء ويرى الكارثة أمامه تهدد حياته فيقتحمها غير هياب أو وجل. بطولات كهذه خلقتها وغرستها العصور التي كان المجتمع فيها يعتمد على الانسان الفرد ويهمه أن يمجده ويجعل منه البطل، عصور الآحاد القليلين الكبار. بطولات كهذه اندثرت وحلت محلها أنواع أخرى وأنماط، أنواع نابعة من مجتمعات ازدحمت ولم يعد الفرد فيها يواجه القدر أو الحظ أو العدو وحده. العداوات أصبحت جماعية، والمواجهات جماعية.. والعصور عصور الأفراد الكثيرين الصغار، وقوى الطبيعة المتعددة التي استؤنست على هيئة آلات كما استأنس الأجداد الحيوانات البرية والوحوش. عصور القوة التي لا تتركز في شيء واحد بعينه حتى لو كان فرداً نابغة عظيماً هرقلي القوة! القوة فيها موزعة متشابكة متعاونة أو متنافرة، قوة مستحيل أن تحددها أو تعزلها، ولهذا فمجال البطولة لم يعد أن يواجه الانسان وحده الغريم وببطولة يصرعه، اذ الغريم هو الآخر لم يعد فرداً او شيئاً بعينه، الغريم هو الآخر مجموع قوى منبثة في مجموعات من الكيانات. لمن يصفق الناس اليوم؟ لم يعودوا يصفقون لمن يصرع عدوه. فبالأمس كان يوجد متصارعان ومشاهدون محايدون.. اليوم لا يوجد متفرجون ولا حياد، وأي معركة تدور اليوم على سطح الكرة الأرضية لا بد أن تجد نفسك منضماً إلى أحد طرفيها. وحتى التصفيق اعجاباً لم يعد علامة اعجاب مطلق.

انها تصفق بإعجاب له هدف، تصفق لمن يقدم لها ببطولة المصلحة والخدمة العظمى. الرجل اليوم هو من يفيد الناس بطريقة

أو بـأخرى، من يسيـطر على أكبـر قـدر ممكن من مصـادر القـوى لا ليدخل بها معركة ضد خصوم ولكن ليستعملها ليحقق للنـاس مطالب وأعمالاً عجز غيره عن تحقيقها. وهي بطولة أرقى! ففي الماضي كان الشخص يقوم لنفسه ولمجده ولذاته فيصفق له الناس ويمنحونـه لقب البـطولة، ولكننـا في عالمنـا الحاضـر نمنح البـطولـة لمن يقـوى لنـا ولفائدتنا.

ولهـذا فأنت في مصـارعـة الثيـران تحس كلمـا حمي الصـراع هكذا وحدث التجاوب على تلك الصورة، تحس كلما اقتربت اللعبة من حقيقتها ومن الهدف الذي وجدت لأجله شعرت انك تنفصـل عن عالمنا هذا، انك ترتد إلى ماض تهب ريحه حـاملة معها أصـداء من زمن ذهب وقيم تغيرت. أي رجل في عصرنا الحاضر ممكن أن يفعل وهو مالك لكل قواه العقلية ما فعله صاحبنا الميتادور؟ أي رجـل على استعداد لأن يقف ليواجه قطاراً من العضـلات الوحشيـة القاتلة قـادماً تجاهه ليفاجئه ويجبره على الدوران؟ أي رجل في عصرنـا الحاضـر، حتى لو أراد هو، تطيق أعصابه ويطيعه قلبه وفكره وإلهامه وهو يـواجه الموت في وضح النهار وكل حـظه في الحياة متـوقف على أمل واهن غير مؤكد أن يفـاجأ الثـور بالحـركة فعـلاً وتنجح الخـطة؟ ماذا اذا لم يفاجأ؟ ماذا اذا استدار الثور في لحظة مناسبة أو انـزلقت قدمـك أنت وأنت تستـديـر بسبب حصـاة صغيـرة، حصـاة مـوجـودة في السـاحـة بالآلاف والملايين.

وكل هذا من أجـل تحية اعجـاب واعتراف بـالبطولـة؟. بمنطق

عالمنا الحاضر، وبمنطق الانسان الجالس على مقهى مع شلة من أصحابه، بمنطق سائقي التاكسي أو سكرتير النقابة، وحتى بمنطق المدله حباً في روايات طرزان ومغامرات رجال العصابات، بمنطق الأم والعمة والخالة، بمنطق عالمنا الحاضر، المسألة كلها سخافة وجنون وقلة عقل. شيء لا يمكن أن يقبل أو حتى يحلم بقبوله أي كائن عاقل معاصر أو حتى نصف عاقل. عمل لا يمكن أن يوصف بالبطولة ويقدر إلا في عصور كعصور عنترة بن شداد أو إيفانهو وروبين هود.. وذلك هو ما تحمله رائحة الماضي التي تهب من الساحة وعليها، ورغم أن الناس والأزياء والمصارعين والثيران وكل شيء عصري من عمل عصرنا ونتيجته، إلا أنك تحس بدوي الأبواق وظهور الموكب وملابسه وتقاليده الراسخة من قديم الزمان، تحس تماماً مثلما يحدث لك في السينما والمسرح. إن اطفاء النور والافتتاحية الموسيقية تنقلك من واقعك إلى واقع الرواية بحيث تجوز عليك الخدعة المتفق عليها وتعيش أحداث الرواية وكأنها حقيقة وليست أبداً من صنع الخيال.

الشيء نفسه يحدث في المصارعة، وتتكفل أبواقها وموكبها وإجراءاتها الأولى بنقلك أنت والساحة وكل ما عليها من الحاضر الواقع بكل قيمه وأنواع بطولاته إلى عالم مضى تحياه وكأنه حاضر، وكأنهم يحضرونه لك لتحياه على أنه ماض حاضر.. ولكن ليس في الأمر خدعة متفق عليها. الصحيح أنها حقيقة متفق عليها. صراع حقيقي يدور أمامك، من فرط صدقه واندماج أطرافه تندمج أنت

الآخـر وتتبنى الأسس التي يدور حـولها الصـراع وتتحمس للقيم التي تحدد أحكامك له أو عليه.

اندماج لا يحدث في العادة بسهـولة ولا يتم فجـأة أو ببساطـة، فهـو يستغرق زمنـاً وجـذبـاً بين أن تسلم وتصـدق وبين أن تستسخف وتكـذب. اندمـاج في الحقيقة لا يتم بـإرادتك أبـداً وانمـا أنت تجبـر عليـه، تجبرك عليـه الحراب والمـآزق والدم النـازف والخـطورة التي تحدق بالمصارع لدى كل خطوة. وأن ينادي شخص بمبدأ مـا بمجرد كلام ربما لا يدفعك هـذا للاقتنـاع به، ولكنـك لا بد تغيـر من رأيك حين تراه يخوض المعارك الدامية من أجل هـذا المبدأ فيعـرض نفسه لخطورة الموت ببساطة دفاعاً عنه.

وهكـذا بنفس منطق اللعبـة، بـالقـوة، تجـد نفسـك في ردة حضارية تحياها كاملة وتقتنع بها تماماً حتى لتبدأ تتحمس وتنفعـل لما كـان يتحمس لـه وينفعـل الأجـداد الأول، وتشمئـز ممـا كـانـوا منـه يشمئـزون، وتمنح البـطولة أو تقبضهـا على نفس الأسس والقيم التي كانوا بها يمنحون أو يقبضون.

ومعظـم الناس تنتهي ردتهم بـانتهاء المصـارعة، وحين يعـودون إلى حياتهم الطبيعية يزاولونها كمـا كانـوا قبلًا يفعلون بقـوانين العصر وتقـاليـده، بمقـاييس النـاس الكثيـرين الصغـار في عــالم يـومهم المزدحم. معظمهم يعرفون كيف يفرقون بين الساحة والحيـاة فينسون حماسهم الشديـد للبطولـة مـن أجل البـطولة على بـاب الأرينا، وهم أنفسهم الذين بحت أصواتهم هتافاً للمصارع وهو يضحي بحيـاته من

أجل أن يمجد قيمة أو يقوم بعمل من أعمال البطولة، هم أنفسهم الذين لا يتورعون عن الكذب في اليوم التالي والخداع واستجداء الشفقة وإزجاء الملق للرؤساء. هذه مسألة وتلك مسألة أخرى. هذه ساحة بطولة وأبطال وتلك ساحة حياة لا بطولة فيها ولا أبطال.

وهناك قلة من الناس تفشل في الاندماج والتصديق، يأبى خيالها الضيق أن يرتد وأن يتصور شيئاً آخر غير ما يزاوله في حياته ويؤمن به ويراه. من أجل هذا تغادر الأرينا كما دخلتها ساخرة من كل ما رأت ومن الدم الذي سال بينما تعليقاتها لا تتعدى الحاضرين والحاضرات، وعدد الفاتنات، وهل رأيت فلانة نجمة هوليوود، والشيء الوحيد الذي يؤلمها هو ثمن الدخول اذ بنفس قيمته كان من الممكن للواحد منهم أن يحتسي بضع زجاجات بيرة تعود عليه بالانبساط، أو يأكل أكلة ساخنة تغذي جسده غذاء حقيقياً مضمون الفائدة.

أما أقل القليل فهم أولئك الذين تتأخر عودتهم من تلك الردة التاريخية بعض الوقت، اذ تكون التجربة التي خاضوها شديدة الوقع عليهم وعلى تفكيرهم إلى درجة ليس من السهل أبداً التخلص منها.

أولئك الذين يغادرون الأرينا وثمة زلزال قد حدث لعقولهم، تحطمت على أثره أشياء في تفكيرهم وارتبكت أشياء. يخرجون وليسوا هم نفس الأشخاص الذين دخلوا! لقد دخلوا مجرد قادمين من عالم الناس الكثيرين الصغار حاملين قيمه ومواصفاته للبطولة، وها هم قد خرجوا وقد أتيح لهم أن يحيوا في عالم آخر ملك عليهم

تفكيرهم بحيث لا يستطيعون التخلص من أثره، وبحيث يقضون أياماً كثيرة بعدها طلاب بطولة على نسق التي رأوها، وباحثين عن أبطال ومخاطر وأعمال مجيدة تشيب لهولها الولدان. وكأن الأرينا بالنسبة اليهم اكتشاف في عالم هم يحتقرونه ويشمئزون من علاقاته البشرية ومخازيه الكثيرة وضعف الرجال فيه. ها هم يساقون إلى حيث يجدون في تلك الواحة التاريخية نموذجاً حياً صادقاً لعصر بطل، فتسكرهم النفحات ويتمنون أن يبقوا إلى الأبد هنا، أو حين يضطرون إلى مغادرة الساحة إلى إحالة عالمهم الحاضر كله ليصبح على شاكلة تلك الواحة.

ولكنها دفقات الانفعال الأولى والحماس، فما هو إلا يوم أو يومان وتبتلعهم الدوامة مرة أخرى واذا بهم يعودون آحاداً من ملايين الصغار الكثيرين الذين يزدحم بهم عالم اليوم الصغير. كل المجهود الايجابي الذي تقوم به اراداتهم تمسكاً بهذا العالم وحباً فيه ان نفوسهم بعد حين تبدأ تهفو وتلح مطالبة بعودة أخرى إلى عالم الساحة والبطولة، وشيئاً فشيئاً يصبحون زبائن المصارعة المستديمين.

غير أنه كما هي الحال في كل أمر مشابه، تجد هناك دائماً أشخاصاً نادرين أندر من أن تصدق وجودهم.. لا يفعلون كهؤلاء أو كأولئك. هذه القلة النادرة يبهرها عالم الأرينا ويستبد بها، وتجتمع عوامل كثيرة أولها ارادة وطبيعة ثورية غير مدربة على الخضوع بل متعتها الكبرى أن تعارض وتعير وتخرج عن الحد المرسوم.. وثانيها

علاقات واهية بالعالم المزدحم الصغير.. علاقات ليست من القوة بحيث تجذب وترغم وتكبح جماح الإرادة وتظل وراء الثوري حتى يقنع نفسه أن قمة الثورية هي الخضوع.. وثالثها استعداد طبيعي يأخذ شكل الرغبة الجامحة. هذه القلة النادرة تشاهد المصارعة مرة لتظل إلى الأبد تحياها وتحيا عالمها البطل بكل ما فيه من سحر وقيم. وسرعان ما تجدها قد انضمت إلى هذا المجتمع المحدود الضيق.. مجتمع المصارعين الذي لا يرحب كثيراً بالغرباء، والذي تجد كل ما فيه، أو بالأصح تجد معظمهم ونوابغهم متصوفين في محراب هذه الردة التاريخية.. ومنتهى أملهم في الوصول أن يكافحوا أنفسهم ونزواتهم والمغريات الصغيرة الكثيرة من حولهم لتتشابه حياتهم داخل الدائرة الرملية مع حياتهم خارجها. . لتكون حياتهم سلسلة متصلة الحلقات من اقتحام المخاطر وخوض الأهوال، من النخوة والشجاعة والمواجهة والإصرار على الانتصار.

وكثيرون منهم يفشلون. انهم جميعاً أبناء فقراء وأحياناً بلا آباء، خرجتهم طفولة محرومة وصدهم وعاداهم المجتمع صبية وشباباً، وفي المصارعة عثروا على أنفسهم.. على الوسيلة التي يستطيع بها الشاب النكرة اليتيم أو ابن الحرام الجائع العاطل أن يفرض نفسه على المجتمع بكل ملايينه وثرائه وطبقاته، وكما يأتي الانتصار ومن ثمة البطولة في المصارعة باختيار الموقف الأخطر ووضع النفس فيه ثم التغلب عليه بعد هذا واقتحامه، فهم أيضاً في سبيل فرض أنفسهم على المجتمع الذي حرمهم كل شيء يختارون الطريقة

الأخطر.. أخطر طريقة، العمل كمصارعي ثيران، ذلك الذي يعرضون أنفسهم فيه للموت الأكيد كل لحظة ثم لا يموتون، يقهرون الموت وينتصرون، وينحني لهم المجتمع معترفاً ومتحمساً ومصفقاً.

والفشل يلحق البعض بل الكثرة، متسللاً من نفس الطريق إلى المجد، من نفس الدوافع التى حدت بالشاب المحروم أن يمتهن المصارعة ليصبح بطلاً ويشبع بعض حرمانه. من نفس هذا الطريق يدب سوس الفشل، حين يسكر الميتادور بخمر البطولة وتصبح المصارعة عنده ليست غاية على استعداد من أجلها أن يصون نفسه وارادته ليصبح أقوى وأكثر قدرة على التحكم في ذاته، ولكن تصبح المصارعة بعد الوصول إلى القمة مجرد وسيلة لا تخدم نفسه بعد حرمانها الطويل.

واذا كان بعض النساء وبعض الخمر وبعض النقود تحفز همة نجم المصارعة إلى الصعود، فإن ما يهوي به هي جرعات أكبر من هذه العقاقير المحفزة نفسها، ولا بد أنه مثل صادق ذلك الذي يقول: ما كان قليله يحفز فكثيره يضيع ويفقد.

-١٢-

كانت المعركـة بين الثور وصـاحبنا ومحـاوراتهما قـد أخذتهمـا بعيداً عن مقاعدنا إلى الناحية الأخرى. والقرب والبعـد مسألـة مهمة، لا لإمكان متابعة الصـراع عن كثب وملاحظة كل تفاصيله ولكن لأن وجودك بعيداً عن الصراع يقلل من انفعالك به دون أن تشعـر، بحيث تراقبه وليس بينك وبينه مسافة متـرية فقط، ولكن مسـافة نفسيـة أيضاً تجعل الصراع يصلك وكأنه أخبار تنتقل اليك. أما وجودك على مقربة من المعركة فهو يجعلك رغماً عنك تشترك فيها وتحياها، تماماً مثلك حين تمر بخناقة بعيدة مهما بلغت قواها فلن يصل اهتمـامك بهـا إلى حد التوقف أو التوجه اليهـا، وحين تمر بـالخناقـة على نفس رصيفك فإنك رغماً عنك تتوقف وتصبح جزءاً منها.

وهكذا تكفلت المحاورات المتصلة بنقل مركـز الصراع بحيث أصبح في الجزء من محيط الـدائرة الـرملية الـذي يلاصق مقـاعدنـا، أصبحت المعـركة بـالنسبة لجمهـور مدرجـاتنا كله أكثـر جديـة ورهبة ووحشية. كان الثـور حين يقبل مهـاجماً نحس لقـربنا الشـديد انـه لا يصوب قرنيه إلى الميتادور وحـده ولكنه يصـوبهما الينـا أيضاً، وكـأن

الميتادور متفرج معنا متطرف المقعـد أو الوقفـة ليس إلا. وحين كانت المعركة بعيدة كنا نتفـرج ونتحمس أو يهبط حماسنـا تبعاً لمـا نراه من حركات.

ولكننا هنا فقدنا القدرة على التفرج، شلت أكفنا وحناجـرنا عن أن تصفق أو تهتف، أصبحنـا كصاحبنـا المصارع نتنهـد فرحـة كلمـا نجح في الإفلات من هجمة وتدق قلوبنا برعب حقيقي حينمـا يضيق عليه الثور الخناق ويقبل، وكأنما للمـرة الأخيرة التي جهـز فيها نفسـه على أن يضرب الضربة القاضية وقد أصبـح وجهه قـريباً بـاستطاعتنـا رؤية تفاصيل ملامحه.

يا لبشاعتها حين يقبل متخذاً بها سحنـة الضربـة القاضيـة. لقد اكتشفت وأنا أتأمل ملامحه وأفعل هذا ربما للمـرة الأولى في حياتي، ونادراً ما يحدث لنا أن نعيد تأملِ ملامـح أي كائن من الكـائنات التي تعودنا رؤيتها، نادراً جداً ما نلقي نظرة فاحصة واعية نراجع بها شكل القـطة في نظرنـا مثلاً. هـذا الثور، لقـد آمنت أنه أبشـع المخلوقـات شكلاً، وكل ما في ملامحه كتل كروية بشعة اللون والتكوين، كـرتان بارزتان من جانبي جبهته ثعبـانيتي اللون على هيئة عيـون، وكرة ذات فتحتين موضوعة على بعد كبير من الكرتين لتكون الأنف.. أي أنف.. وفم ليس سـوى شق واسع قبيـح يشطر ذلـك الشيء المستـطيـل بـلا معنى، المثلث بـلا هدف، إلى شـطرين وكـأنمـا هي كتلة خشب لا تصلح من بشاعتها لشيء قام نجار غبي بشقها بلا هدف أيضاً، ووسع الشق بـإسفين، هو ذلـك اللسان الممـدود، ناهيـك حين تنقلب هذه

الملامح البشعة تحت تأثير الهياج والرغبة البدائية الوحشية في التحطيم والقتل والتخريب، حين تتفتح على آخرها ثقوب الأنف وتنقلب حوافها إلى أعلى وترتعش منقبضة منبسطة. وحين تحمر كرتا العينين وينقلب الثعباني الأصفر إلى لون الدم، ويصبح الوجه المستطيل المغبى أكثر استطالة وغباءً وحمقاً، وشق الفم أكثر اتساعاً وإسفينه اللساني قد تدلى وارماً متضخماً يسيل منه اللعاب. لعاب كثير يسيل من اللسان ومن الفم والأنف وحتى من العينين، وتتساقط السوائل كغضب سائل، كنقمة ذلك الوحش الكاسر تلفظها عيناه، وتتفصد من كل عظمة وعضلة وظلف فيه.

كان المنظر يرعب حقاً ويدفع الفتاة الكوبية للتشبث بحديد السور وكأنما تستغيث مروعة استغاثات مكتومة، لا تحاول هي وحدها بل يحاول الجميع كتمانها كل على طريقته.

وكان الثور يلهث، وهو طوال الوقت يلهث، ولهثه كان أبشع من أي شيء سمعته أو تسمعه أذناك. لا، ليس خواراً ولا شخيراً وانما شيء كالشهقات المتقطعة المخنوقة التي تنبعث ليس من التنفس وانما من معاناة الألم العظيم. صوت خشن منخفض مكتوم متوال على هيئة لهث منتظم متزايد السرعة تقشعر له الأذن نفسها حتى قبل أن تنقله إلى مركز الاحساس العليا ليبعث القشعريرة في الجسد كله، صوت لا بد يذكرك لا بشيء سمعته في حياتك أو حياة آبائك وأجدادك، ولكن بأصوات المخاطر البدائية الأولى حين كنت انسان الغابة وحيث لا تزال بقايا عقلك البدائي تحتفظ بأمثال هذه

الأنات وبأصداها، وترتعش رعباً اذا استعادتها رغم ملايين السنين من التطور والتغير والتاريخ.

وكانت قد مضت عشرون دقيقة على بداية «الميوليتا» اعتبرها الأسبان المتناثرون حولنا في لحظات الراحة التي كانت تتم رغماً عنا، وبسبب فشل أجهزتنا وقوانا في القدرة على استمرار المتابعة وتركيز الانتباه مع الانفعالات الهائلة المروعة التي تصاحبه، لحظات راحة تتبدى على هيئة تعليق طال كبته، أو آهة مسموعة تنطلق بلا أوان، أو كلمة لا معنى لها تصدر عن صاحبها بلا وعي أو هدف. اعتبرها هواة اللعبة الأسبان رقماً يحطم غيره من الأرقام من ناحية الزمن، ومن ناحية القدرة اعتبروها معجزة. فلم يحدث في تاريخ اللعبة ـ أو على الأقل تاريخهم في اللعبة ـ أن رأوا ثوراً يستمر هذه المدة كلها يهاجم بلا توقف وبلا اجهاد يجبره على الاستسلام. وكذلك لم يحدث أن بقي مصارع وقتاً طويلاً كهذا حافظاً لقوته وخفته وتوازنه.

وكأنما الخاطر كان يدور في العقول كلها في آن واحد، اذ بلا مناسبة ومن غير داع ودون أن يحدث في المعركة ما يستحق، دوت الأرينا كلها وفي وقت واحد بموجة تصفيق مرتفعة مدوية تحس أنها ليست موجهة إلى طرف دون طرف، انها موجهة للاثنين معاً تحييهما وتحيي معهما البطولة التي جاوزا بها الحد المتعارف عليه، اذ لولا صمود كل منهما ما ظفر الآخر.. موجة تصفيق ما لبثت أن انحسرت وانتهت.

ففي تلك اللحظة انزلقت قدم الميتادور وسقط على الأرض، في نفس الوقت الذي كان الثور فيه يستدير ليواجهه.

وكعربات النجدة السريعة اندفع المصارعون المختبئون خلف العوارض الخشبية.

وتحرك الفرسان نحو باب الدخول، وطار إلى جزء السور القريب من المعركة صبيان الملعب بالحراب الطويلة.

وكانت قلوبنا ـ نحن الملاصقين للمعركة ـ تقفز من صدورنا إلى الساحة حيث تمنع الكارثة.

ولكن صاحبنا كفى الجميع مؤونة أية خطوة أو اجراء آخر، فما كاد يسقط ويلامس جسده الأرض حتى كان قد اعتدل، والوقت كان كافياً أمامه ليقف ويواجه الثور المقبل على قدميه، ولكنه شاء لست أدري لم؟ ربما ليزيل من النفوس لمحة الاشفاق التي صاحبت سقوطه، وربما ليستأنف المصارعة لا على نفس المستوى الذي سقط عنده وانما على مستوى أعلى وكأنما ليجعل من السقطة إلى أسفل سقطة إلى أعلى، ليمضي صاعداً باستمرار في أعين جمهوره.

شاء أن يواجه الثور وهو على ركبتيه نصف واقف.

ولكنه لم يجلب لنفسه سوى اللعنات، وما أغرب هذا الجمهور الذي يظل يطالب ويلح في المطالبة بالمواقف الخطرة، الجمهور الذي يحرض على اقتحام الخطر هو نفسه الذي يستنكر أن يقوم صاحبنا بحركة خطرة كهذه. ولكن يبدو أن الفترة التي قضاها صاحبنا

يصارع ذلكم الثور الجهنمي، ويبدي في صراعه آيات بطولة حقيقيـة دون أن ينتظر أحداً ليحرضه على اقتحام المخاطـر انما هـو من تلقاء نفسـه يقتحمها ليخـرج منها سليمـاً ظافـراً، هذا كله جعـل الجمهـور يؤمن أنـه أمام بـطل حقيقي من أبطال المصـارعة، أمـام بطل نـادر.. بـطل لم يحظ بإعجـابه فقط ولكن هـا هي ذات اللعنات التي تنصب عليـه تثبت أنـه ظفـر أيضـاً بمـا هـو أصعب من الاعجــاب بكثيـر، بالحب.. حب الجمهور له، الحب الذي وصل إلى درجة الاحســاس بالتملك والحرص، فها هو الجمهور الذي يحرض المصارعين الذين لا يعرفهم على تعريض أنفسهم للخطر مع احتمال أن يذهبـوا ضحية سهلة للتحريض، ها هو نفسه أصبح يحافظ على صاحبنا ويقلق على مصيره ويحرضه هذه المرة على المحافظة على نفسه.

استنتاج دفعني بنوع من الزهو، فها هو الشيء الذي قدرتـه من أول رؤيـة لصـاحبي، هـذا الشيء الـذي ربـطني بـه من أول دقيقــة ودفعني من أول دقيقة أيضاً كي أتابعه وأقلق عليـه وعلى مصيره، هـا هـو ذا تثبت صحتـه ويثبت أني كنت على حق. هــا هي الخيــوط، ثـلاثون ألف خيط تمتـد من ثلاثين ألف نفس وتـربطهم بـه، هـا هـو الاحســاس الـذي كنت أحسـه وحـدي يشــاركني فيـه آلاف، آلافهم جميعاً، حتى الفتاة الكوبية التي سود دماءهـا منذ هنيهـة، ها هي ذي تبـدو وكأنهـا نسيت كل شيء أو غفـرت وراحت باهتمـام يكاد يعـدل اهتمام كافة البشر تتابعه وتجن قلقاً عليه.

كـانت مواجهـة الثور على تلك الصـورة عملاً بـطولياً حقيقـة،

ولكنه يتطرف ليصبح نوعاً من البطولة المبالغ فيها التي هي والحمق سواء بسواء. فالثور لم يكن منهكاً أو فاقداً الكثير من طاقته، والصراع كان يدور سجالاً بينهما بحيث يبدو ألا حل للموقف إلا أن ينتهز أيهما أية فرصة أو ثغرة يقدمها الآخر، والركوع على الركب يعطي الفرصة كاملة للثور ويهبط بقدرة المصارع الى ما دون النصف بكثير، وهي حركة لا يجرؤ المصارعون على القيام بها إلا قرب نهاية النهاية وحين يكون الثور قد أصبح قاب قوسين أو أدنى من الموت تعباً واجهاداً.

وأقبل الثور بأسرع مما يتوقعه أحد، وكأنما غذت سرعته فرحة القرب من لحظة الفوز، وبدا الموقف خطيراً إلى أبعد درجات الخطورة، وكأنما الميتادور نفسه قد أدرك مدى خطورته وسخافة إقدامه على الحركة. وتصاعدت صيحات التحذير والتأوه والاستغاثة، ولمحت المئات يضربون جباههم بأيديهم تعاسة ويأساً واحساساً بالخسارة، ودقات القلوب، الثلاثين ألف قلب وهي تتلاحق وتتعالى مضت تنطق بما لم تكن الألسنة تجرؤ على البوح به، بأنه ضاع وانتهى. اذ أين المفر؟ وكيف النجاة؟ والثور ينقض ولا وقت للعدول عن الحركة ولا وقت للوقوف ولا أمل في النجاة.

شيء واحد فقط يطمئنني، أن إلهامي لم يهمس لي أنه سيموت.

دليل تافه وغير علمي وسخيف، ولكنه كان كل ما لديّ في تلك اللحظة لأتمسك به.

وانقض الثور على العباءة محنياً رأسه.

وانثنى الشاب بآخر ما يستطيع من مدى إلى ناحية انثناءة جعلت ساقه اليسرى تستقيم.

وهكذا مر الثور هذه المرة دون أن يصيبه بأذى.

ولكن هذا كان أمراً شبه متوقع، فالخطورة في الحركة التالية حين يستدير الثور في طرفة عين ويقبل مهاجماً من الناحية الأخرى، اذ حينئذ سيأتي الهجوم من ناحية ظهره بينما هو راكع على الأرض غير قادر على الحركة أو الاستدارة. ان الرد الوحيد أن يقف ويستدير ويواجهه ليستطيع أن يحدد اتجاه هجومه ويتنحى عنه، ولكنه رد مستحيل فالوقت الذي سيأخذه للقيام بكل هذه الحركات أضعاف الوقت الذي سيستغرقه الثور للاستدارة والهجوم.

هكذا كان يبدو الأمر للجمهور، وهكذا حدث لنا ذلك الصمم الغريب وكأن الآذان نفخت بهواء ساخن مضغوط.

ولم نعرف، ويبدو أننا لن نعرف إلى الأبد كيف حدث هذا، اذ في نفس اللحظة التي كان الثور يستدير فيها كان الميتادور الشاب قد وقف على ساقيه.. وهكذا حين أقبل الثور مهاجماً وجد أمامه المصارع محدداً خط هجومه مستعداً للتنحي في الوقت المناسب. خيل إليّ أنه في تنحيه الأول حين استقامت ساقه اليسرى وقد مر الثور ارتكز على اليمنى وحشد كل قواه حتى ارتفعت به عضلاتها وكأنها آلة رافعة إلى مستوى الوقوف. ولكنه مجرد فرض، فالقيام بحركة كهذه في حاجة إلى قوة عظمى تسري في الساق في تلك اللحظة، قوة خارقة كالمعجزة لا يمكن لإنسان ما مهما بلغت قوة

ارادته أن يستحضرها، لا بد لهـا أن تأتي ان كـانت ستجيء من تلقاء نفسها، كأي معجزة لا تواتي الانسان إلا في حالة الضرورة الحيـوية القصوى التى يستدعيها لانتشال نفسه من لحظة موت مؤكدة.

ولم تجتـح الأرينا كمـا توقـع الجميع مـوجة تصفيق عـارم، لم يتصـاعد هتـاف فالنـاس تصفق وتهتف للبطولـة، اما المعجـزة فالـرد الوحيد عليها هو الانبهار والذهول.

واستمرت الميوليتا.

-١٣-

عشر دقائق أخرى استمرتها بحيث لم يعد هواة الإحصاء يحسبون أو يعجبون، وبحيث كان الجمهور نفسه هو الذي أصابه التعب والإجهاد حتى كاد يلهث وهو يتفرج، بحيث شبع الناس من آيات البطولة ومآزق الخطر كجائع مضى يلتهم الطعام حتى أصيب بالتخمة وبدأت نفسه تعاف الطعام، ولم يعد يهمه الا أن تنتهي هذه المرحلة ويحين الوقت كي يغرس المصارع سيفه بين ضلوع الثور ويخلص عليه ويخلصهم منه.

عشر دقائق طويلة كالأبد والثور العنيد أمام المصارع العنيد وكلاهما لا يرحم الآخر، وكلاهما لا يمل أو يكل وكأنما يخجله أن يضعف في حضرة خصمه. والساحة قطعاها من المحيط إلى المحيط ولم يعد فيها مكان إلا وشهد مأزقاً أو خطراً أو حركة بالغة البراعة والبطولة.. ومنهما معاً.

لم يعد يربط الناس في الحقيقة إلى مقاعدهم وإلى المعركة اللانهائية الدائرة أمامهم إلا تلك الخيوط الخفية، آلافها المؤلفة التي تربط كلاً منهم وكأنما بطريقة شخصية محضة بصاحبنا المصارع،

والتي بمضي الثواني والدقائق كانت تقوى وتشتد حتى لقد ملوا المصارعة ولكنهم لم يملوا المصارع ولم تتخل عنهم لومضة متابعتهم له، أو غادرهم لثانية قلقهم الهائل عليه وعلى مصيره، حتى لقد انعكس ذلك الارتباط والاهتمام على نظرتهم للثور. قد يكرهونه أو يحقدون عليه فقد كان يحارب ببطولة هو الآخر وحذق، ولكنهم أيضاً لم يحبوه أو يشفقوا عليه. الحقيقة كانت عواطفهم تجاهه تنبت فجأة وتتغير فجأة وتختفي فجأة! فاذا حاصر المصارع وبدا أنه سينقض، ارتفع لديهم حقد مفاجىء عليه يبلغ الذروة، وينخفض حالاً إلى الصفر حين ينجح صاحبنا المصارع في التغلب على المأزق. وحين كانوا يرون الثور يبذل جهده المضني القاتل ويلهث لهثة المؤرق وهو يكافح ليستدير وليعود يهاجم، كانت تنبت له في أنفسهم شفقة ولكنها إلى حين. وأخيراً وكميل شمس يوم صيام طويل حار تشرخت له من الظمأ حلوق الصائمين، كميل شمس يوم كهذا للمغيب، بدا في النهاية أن التعب قد نال من الثور تماماً حتى أصبح يتوقف عن الحركة مرغماً.

وكاد الناس يتنفسون الصعداء لولا أنهم أدركوا أن المصارع هو الآخر كان قد هده التعب هداً. بدا هذا واضحاً من الجهد العظيم الذي كان يبذله لكي يولي الثور ظهره مبتعداً عنه، حين يكف الهجوم ليتلقى تحية الجمهور.

وكأنما بمعاهدة غير مكتوبة كثرت النوبات التي يتوقف فيها

الثور بلا حراك، والتي يتركه فيها المصارع ويستدير محيياً الجمهور في بطء.

وكذلك مضى الثور يستغرق مدداً أطول لكي يستعيد ويعاود الهجوم فترات ونوبات أتاحت للغريمين العنيدين أن يختلسا بضع لحظات يلتقطان فيها أنفاسهما استعداداً للمرحلة الحاسمة المقبلة.

وهكذا ودون أن يدوي نفير، أو يدل شيء على الحدث الخطير التالي، ، ترك المصارع الثور واقفاً وسط الدائرة الرملية لا يتحرك، واقترب من السور حيث استبدل بالقطعة المعدنية سيفاً من الصلب اللامع، وكذلك غير (الكابا) الحمراء بأخرى في لون الدم القاني.

ودارت محاورات أخرى.. الخلاف الوحيد بينها وبين ما سبقها أن المصارع كان يستعمل السيف في سند العباءة وفردها بدل القطعة المعدنية. المحاورات التي يأمل المصارع منها أن يصل الإنهاك بالثور حد التوقف عن الحركة، وأن يضمن توقفه هكذا لبعض الوقت بحيث حين يبتعد عنه وينشن بالسيف على المكان المناسب للطعنة ثم يندفع تجاهه، لا يتحرك الثور إلا قليلاً وبهذا يأخذ الطعنة إلى النهاية، إلى مقبض السيف.

وانتهت المحاورات بتوقف الثور وقد هد جسده واستنفذت قواه إلى آخر قطرة.

وحف بالزمن على قصره سكون مهيب تام.

وشملت «الأرينا» رهبة.. رهبة الموقف.. ورهبة الموت المقبل.

ان الموت دائماً وفي كل زمان ومكـان وبالنسبـة لأي كائن حي لحظته أبداً لا تمر عادية.

ان الحياة كل أنواع الحياة تكاد تسكن تجاهها حداداً وخشوعاً.

وهذه ليست ميتة عادية، انها ميتة بطل! وبطولة الكائنات تقربها كثيراً من جنس البشر، دليل آخر على غرور الانسان كأنما البطولة من صفاته وحده، وحتى لو كان البطل ثوراً فقد بز بني جنسه جميعاً وقام بما لم يقم به ثور.

وليست رهبة الموت فقط ولا رهبة الموت للبطل.

ولكنها أيضاً وأهم رهبة الموت المدبر، رهبـة القتل.. حتى لـو كان القتل تتويجاً لصراع فهو لا يزال.. أمامنـا قتلاً. هـا هو المصـارع يستعـد له ويتـرصد، ويتـراجع إلى الخلف ويسبق عمله بـالإصـرار، وينشن..

رهبة الاغتيال..

حين تؤخذ الضحية على غرة، فصحيح أن الثور يرى المصارع ويرى ما يقوم به من استعدادات ولكن إنهاكـه يشله ويحول بينـه وبين مهاجمته، غير أنه لو قدر له أن يعي أن هذه التحـركات نفسهـا ليست سوى مقدمات قتله ومصرعه لاندفع يهاجم خصمه ولو مـات إنهاكـاً، ولما وقف أبداً مستسلماً لتعبه أو كالمستسلم.

لحظة رهبة حقيقيـة ـ لا بطولـة فيها ولا يتحمس فيهـا الجمهور

لطرف أو لعمل، اذ هو لحظتها يكون مشغولاً بما هو أهم وأشمل وأخطر، بغريمه اللدود وبغريم كل كائن حي.. بالموت الذي يتاح له أن يراه وأن يعرف أنه سيقع حالاً، وأن هذا الكائن الحي المنتصب أمامه سيرقد بعد ثوان ميتاً.

يشغل الجمهور بالموت، بل تتعدى مشغوليته الكبرى إلى ما هو أخطر من الموت.. معرفة الموت قبل وقوعه.. والوقت الذي سيحدث فيه والكائن الذي سيموت. انها تجربة لا يحياها أي من الآلاف الثلاثين كل يوم، تجربة تمسه شخصياً هذه المرة وتستدعي إلى واعيته ألواناً وآلافاً من الخواطر.

وذلك هو الصمت الذي كان مستتباً وشاملاً، كان صمتاً من الخارج.

فهو من الداخل آلاف وملايين من الخواطر والهواتف والهواجس تتشابك وتتلوى وتصرخ كملايين الحيات الزاحفة ذات الأجراس داخل آلاف الجماجم والرؤوس.

وتحدث الحركة بأسرع مما يبرق البرق أو يلمع النصل ويغيب.

اذ هكذا ما كدنا نلمح المصارع وقد انتهى من تدبر موقفه وحركته القادمة واتجاهه، حتى رأيناه كإشارة ملوحة يندفع والثور يتحرك في نفس الوقت ولا يرى للتماس أو الاحتكاك أثر، وفقط حين ابتعد المصارع واندفع الثور يستدير لمحنا السيف وكأنما غرسته يد

أخف من يد حاو.ولكن الطعنة لم تكن قد وصلت بالسيف إلا لمنتصفه.

وليس هذا هو المهم فممكن أن تكون هناك طعنة ثانية وثالثة.

المهم أن الثور ما كاد يتلقى الطعنة ويحس بالنصل المعدني البارد قد اخترق صدره واقترب من صميم الحياة له، حتى حدث ما لم يكن في حسبان أحد، كأنما ضغط السيف بطرفه على زر التفجير، كأنما الطعنة فتحت أبواب مخازن طاقة كامنة هائلة لا تفتح إلا على كلمة السر تلك، كأنما الغدر الذي تمت به استدعى للوجود وحشية الوحش وأجداده وسلالاته أجمعين، كأنما حدث بهذه الحركة التي بالكاد لحظها أحد شيء طاغ عات، اذ جاء رد الفعل طاغياً عاتياً وحشياً أثار القشعريرة في البدن. فهذا الثور الذي كان الإعياء قد شله وأتى على كل قواه انتفض منه كائن آخر كأنما لا يمت اليه بصلة، كائن قل فيه ما شئت من صفات، مجنون غاضب سفاح مجرم! قل كل ما شئت فلن تستطيع وصفه أبداً ولن أستطيع، اذ المفاجأة التي تم بها التغيير، والسرعة التي تعاقبت بعدها الأحداث لم تدع لأحد وقتاً يتأمله ويدقق في صفاته، ومن يدقق في صفات البحر حين تندلع العاصفة؟ ومن يتأمل النار ساعة شبوب الحريق؟.

انطلق الثور في غضب أعمى يهاجم المصارع في قسوة وبهدف واضح صريح كأنما كتب على جبينه أن يقتله.

وكان ردة الفعل أن بدأ المصارع يجمع في ثانية شتات قواه

التي بعثرها صـراع عنيد طـويل، ودفعتـه الرغبـة في الحياة وصـرخة الدفاع عن النفس التي انـطلقت على نية الثـور الواضحـة وكأنهـا نية كائن بشري تظهر ملامحه مـا ينتويـه، ومضى يدافـع عن نفسه دفـاعاً كان في الحقيقة مرحلة أكثر يـأساً من الـدفاع عن النفس.. كـان فقط تأجيلاً للحظة الموت.

ومن خمود الشبعى المتخمين انتفضت آلاف الجماهيـر مستردة وعيها وانتباهها حاشدة قواهـا، تكاد تقف على أطـراف أصابعهـا قلقاً وذهولاً وخوفاً.

وفي هجمته المنتفضة الثالثة أو الرابعة اندفع السيف من تلقـاء نفسه طائراً في الهواء، وكأنما قذفه خارج الصدر بركان تفجر داخله.

وأصبح الثور أكثر انطلاقاً.

واندفع في اتجاه المصارع.

ولم يكن في العمليـة كلهـا سـواء من جـانب الثـور أو جـانب المصارع تكتيك أو أصول حساب وقـواعد. كـان الثور يهـاجم وحين يتفاداه الشاب يغير من اتجاهه ويستمر يهاجم، ولم يكن هاجم العباءة الحمراء وحدهـا، أصبح يهـاجم العباءة إن وجـدها وجسـد المصارع نفسه اذا كان أمامه. ومزقت قرناه العباءة أكثـر من مرة، وبـالكاد كـان يجد المصارع وقتاً أو مكاناً لاستبدالها.

وكان لا بد أن يحدث ما حدث.

ففي هجمته اشتبكت قرون الثور بثياب المصارع. ودفع الثور رأسه إلى أعلى، ولكن هذه الحركة البسيطة أطارت الشاب النحيف في الهواء وأسقطته على بعد أمتار. ولحظه الحسن جاءت سقطته قريباً من السور، واندفع نافذاً بجلده ليحتمي بالعارضة القريبة من الثور المقبل عليه، والكلمة المكتوبة على جبينه تتوهج وكأنما تحولت حروفها إلى نار. وحين خرج ستة مصارعين لتعطيله حتى يتمكن زميلهم من الوصول إلى العارضة، اندفع الثور يكتسحهم وبانقضاضة منه يدور عليهم مشتتاً شملهم بحيث يطلق كل منهم ساقيه للريح يبحث عن عارضة تحميه.

وفعل هذا كله دون أن ينسى غريمه، فقد أقبل على العارضة التي يختفي خلفها ولم يهمه أنها من الخشب فقد نطحها بقرنه أكثر من مرة، وحين لم يجد فائدة وقف أمامها لا يتحرك متربصاً لغريمه تربص قاتل صمم على الإجهاز.

أكدت الحادثة ان النية التى تحملها ملامحه وتتوهج نارية من عينيه نية حقيقية لن يتراجع إلا بتحقيقها، وأكدت هذا أول ما أكدته للمصارع نفسه، وبهذه الانقضاضة التى لولا ضربة حظ عشواء لأتت عليه. وفي الحال انقلب خط الدفاع عن النفس الذي كان قد اتخذه إلى غضب أحمق مجنون هو الآخر، وانقلبت عنده نية قتل الثور من نية قتل طلباً للبطولة إلى نية قتل غريم وعدو لدود، ألد الأعداء، قاتلك.

وهكذا لم ينتظر أن يغادر الثور مكانه ليدع له فرصة الخروج،

أشار إلى زملائه آمراً بنفس لهجة الغضب أن يلوحوا للثور بعباءاتهم ليبعدوه عن مكان الخروج. ولم يأبه الثور للتلويحات الأولى وكأنما هو قد حدد غريمه وطاعنه ولا يريد أن ينشغل للحظة واحدة عنه.

ولكن إصرار الزملاء وملاحقتهم دفعاه إلى التخلي عن موقفه والجري وراء العباءة.

وغادر صاحبنا مخبأه الاجباري والغضب الهائل لا يزال يجتاحه ويمتقع له وجهه كما لم يمتقع بالخوف أو رهبة الدفاع عن النفس.

وكان الجمهور أيضاً قد بدأ يغضب لغضبته، ويقف معه وان كان بالقلب وحده ضد غريمه المجرم الذي عقد العزم على الفتك به.

وبدأ جو ثان غريب يسيطر على الساحة، وخيم على الناس صمت كان له صوت لا أثر مادي له، ولكنه أعلى من كل صوت.

ولا أدري لماذا شعرنا جميعاً ونحن في مقاعدنا بتحفز مفاجىء.. لم تكن المحاورات والمناورات بين الثور والمصارع قد تغيرت، انها هي نفسها التي كانت دائرة قبل عملية الطعن الفاشل ولكن وقعها كان مختلفاً، وكان الثور يؤدي دوره بشراسة أكثر.. وبدا في رد المصارع نوع من فقدان الاعصاب، ذلك الذي ينتج حين تشد الأعصاب وتتوتر إلى آخرها حتى يبدأ بعضها يتمزق وتبدأ طاقات الصبر تنفذ واحدة وراء الأخرى.

وكذلك بدأ وجهه يصبح أكثر شحوباً وتصميماً.

ومن الصعب المستحيل أن أصف اللحظات القليلة التي سبقت ما حدث، فنحن لا يمكننا وصف ما يسبق الحادث إلا اذا كنا على معرفة سابقة بحدوثه أو على الأقل نتوقع حدوثه.. كل ما أستطيع قوله أن المحاورة ظلت دائرة، وكلما طال استمرارها ظهر التخبط الأعمى في حركات الثور والاضطراب الذي لا مبرر له في تحركات الميتادور. قال البعض انه التعب، لقد استنفذا كل قواهما وإلى آخر قطرة. قال آخرون ان الثور بسبب النزيف المستمر قد أصيب بالعمى وانه لم يعد يرى فقد أصبح يهاجم بلا سبب ويتوقف بلا سبب، وتطيش هجمته مرة ويرتد مرة أخرى فجأة وبلا توقع فيكاد يأتي على الميتادور.. ولكنه كان يفعل هذا كله بدافع بدا مختلفاً تماماً وكأنه الحقد.. الحقد الدفين المبيت.. الحقد الذي يشعل في الكائنات العليا نار الحرب ويجعل الأخ يذبح أخاه.

وفجأة، أجل فجأة! هكذا تحل الأحداث دائماً فجأة، فجأة! ولغير ما سبب معلوم أو مرئي انزلقت قدمه وسقط، لم يعرف أحد لماذا انزلقت قدمه أو السبب الحقيقي لسقوطه فقد وجدناه فجأة ممدداً على الأرض.

كان الثور قريباً منه ورأسه في اتجاهه أيضاً، ورغم أن سقطته المفاجئة أعقبتها في الحال وقفة مفاجئة منا، من الثلاثين ألف متفرج، وقفة خوف إلا أنه خوف يشوبه اطمئنان كثير فقد خدعتنا نجاته السابقة، واعتقدنا جميعاً وبلا استثناء واحد أنه لا بد سيحدث

كما حدث في المرة الأولى، وسيهب حالاً من وقفته ويستأنف الصراع. ولكن الثور في تلك اللحظات كان مقبلاً عليه إقبالاً أسرع من الزمن ـ هكذا بدا لنا ـ أسرع من خواطرنا، أسرع من حساباتنا، أسرع من أي شيء في الوجود، اذ كان له سرعة النكبة والكارثة والقضاء حين يحم.

ولكن سرعته تلك لا تنفي أبداً أنه لم يكن هناك وقت، ليس وقتاً كثيراً، ولكنه ذلك الحد الأدنى من الوقت، ذلك الذي تستطيع بالكاد أن تلمحه وتحس وجوده أو مروره، وقت كان يكفي على الأقل ليعتدل الشاب، ولو أوتى نفس قدرته الأولى لكان أستطاع أن يقف ويتفادى من الثور القادم.

ولكنه لم يقف ولم يعتدل ولا حتى رفع ذراعاً أو حرك ساقاً. رقدة ولو أنها لم تأخذ وقتاً إلا أنها أثارت استنكاراً، فقد أحس الجميع أنها رقدة استسلام غريبة للثور القادم المنقض، أو بالأصح لما وراء هذا الثور القادم المنقض، وكأنما بفعل صاعقة وجدانية شاملة مكتسحة. في ذلك الجزء من الوقت أحسست لفرط تآزري معه في معركته، لفرط تبنّي لموقفه، لقوة الخيط الذي يصل بيني وبينه والذي كاد يسحب مني الروح لتحل بجسده، أحسست وكأنما الشلل الذي انتابه قد شلني أنا الآخر وأصابني.. شلل لا تفسير له ولا تبرير، شلل ساعة حدوثه لا تستطيع أبداً تبينه أو ادراكه، لا تحس به إلا هناك حينما تجلس مثلي على مكتب تستعيد ما حدث وأمامك الوقت متسعاً للتأمل والتحليل والتبرير. لطالما سمعت عن تلك

اللحظة وقالها الناس أمـامي وسخرت من قـولهم، تلك التي يقولـون عنها ان «سهم الله» قد نفذ فيهم فأوقف التفكير وشل الجسـد وأعمى الروح. تلك التي تحدث لنا حين نواجه بغتة خطراً لا قبل لنـا به، أو قوة غاشمة عاتية لا يمكننا أبداً مقاومتها. انها آخر مراحـل وقوفنـا أمام تلك القوة. اننا أساساً كبشر لا نعترف بـوجود قـوة غاشمـة لشيء في الكـون لا قبل لـه به. وحين نـرى تلك القوة أو نلمحهـا وبيننا وبينهـا مسافة. مسـافة متـرية أو زمنيـة أو نسبية، مسـافة «أمن» نسبي، فـأول شيء نفكر فيه أن نقاوم تلك القوة ونعاديها ونحـاربها، هكـذا تلقائيـاً وغريزيـاً وبصفتنا كـائنات حيـة، حتى لو اضـطررنا للهـرب منها ففي الهرب معاداة وكـره، تمامـاً مثلما مـا في المواجهـة من معاداة وكـره. ونـظل في حرب معهـا، في احساس شـامل بمقـاومتهـا والرغبة في تحطيمها وتشتيتهـا حتى تنجح تلك القـوة في الاقتراب منـا وتهديـدنا وتخرق بهذا خط أمننا النسبي. حين يحدث هذا ونروع نحن بانـدحـار هذا الخط وبأن هذه القوة الغاشمة قـد اقتربت منـا ومن تهديـدنا إلى درجة أصبحنا معها تحت رحمتها، وبأن لم يعد هناك مفر ولا مهرب، وحينئـذ يبدو وكـأنما قـانون كقـوانين الجاذبيـة يطبق.. فكمـا يجـذب الجسم الكبير الأجسام الأصغر منه يحـدث أن تتحكم القوة الغـاشمة الأكبـر في قوتنـا الانسانيـة المحدودة وتفـرض عليها نفسهـا فلا تعـود أجسـامنا تتلقى أوامـرها من عقـولنا ووعينـا ولكنها تخضـع خضـوعـاً أوتوماتيكياً مباشراً لهذه القوة الغاشمـة الكبرى، وبـدلاً من أن تحدث المقـاومة بفعـل العقل والـوعي وغـريـزة الـدفـاع عن النفس يحـدث الشلل.. الشلل الكـامل الشـامـل بفعـل هـذه القـوة الأكيـد مبـاشـرة

وبأمرها، تلك اللحظة التي نسميها مرة أن سهم الله قد نفذ فيها أو أن القضاء قد حم والأجل قد انتهى أو التي لنا أن نسميها لحظة انهيار خط الأمن النسبي وتحكم القوة الغاشمة فينا.

والحدث كما وقع أمامنا تم ببساطة وكأنه دورة أخرى من دورات «الميوليتا». سقطة، وارتفعت على أثرها وقفة وشهقة جماعية مرعبة، شهقة كالصرخة.. كالطلقة، وكأنها العون السريع تقدمه يد الضعفاء الكثيرين غير المنظورة التي تمتد لتمنع عن الضعيف الواحد الذي انهار خط أمنه الأذى الغاشم الذي لا قبل له به. ثلاثون ألف يد غير منظورة امتدت لتساعده، ولكن كيف تستطيع أيد غير منظورة حتى لو كانت تعد بالملايين وملايين الملايين أن تمنع القدر الغاشم أن يقوم بعمله، فعلى أثر الشهقة تماماً، اذ الحدث لم يأخذ سوى الوقت الذي استغرقته الشهقة، كان الثور قد وصل اليه، وبغل أسود مجنون، وباندفاعه الأهوج الأعظم، نفذت قرونه من خلال صدر الشاب المزركش إلى رمال الأرض. وكانت الطعنة الأولى التي تبيناها، اذ على أثرها تداخلت الأحداث والأشياء والأزمان، تأوه أناس وكأنما هم الذين أصيبوا بالطعنة، وأشاحت سيدات بوجوههن وشاركن الرجال، وسقطت قلوب ودقت أرجل وأغمي على كبار. والخوف الأكبر، الخوف الذي كان يرهبه الجميع منذ أول لحظة، ذلك العُقاب القابع في مكان خفي من الأرينا، ثمة احساس جامح شامل أنه أخيراً وقع، أخيراً انقض وبمخالبه العزرائيلية يضرب ويطعن ويقتل أعز مخلوق. ألف ألف انفعال يجمعها كلها شعور عارم جارف

واحد أنه ضاع وانتهى، كأنما القوة الغاشمة قد اخترقت خطوط أمنهم هم الآخـرين أجمعين، ولم يعـودوا يملكـون سـوى شلل الحسـرة وانفعـالات الجامـدين. وكيف كان بـاستطاعـة أي منهم ـ باستـطاعتي أنا ـ أن يشيح بـوجهه أو يهـرب من مواجهـة المصير؟ ومن أين كـانت تواتيني الشجاعة أن أغمض عيني عما يحدث؟ انها المأساة، مأساتي في صـاحبي، صاحب اللحـظة الذي بـدا لي فجـأة وكـأنـه صـاحب العمـر. من أول دقيقة والهـاتف اللعين في خاطـري يؤكد لي أنـه في هذه المرة لن يفلت، وأنـاضله بجنون في انتـظار معجزة المعجـزات ولكنني بـدلاً منهـا أرى الـطعنـات، أرى رأس الثـور يـرتفـع كمقبض الخنجـر ثم يهوي ليغيب نصـلا القرنين فيمـا كنت أعتقد أنـه الأرض أحياناً، وفي ملابسه أحياناً أخرى، ليثبت لي بعد هذا بكثير أنهـا كلها كانت في جسده، في صدره وبطنه وجذر عنقه وتحت ابطه.

وماذا أقول؟ أأقول ان كل هذا لـم يستغرق زمناً ما وكأنه عاصفة هول هبت فجأة ودارت دورة سـريعة ثم اختفت، دورة أسـرع من أن يلحقها الميتادورات السبعة بعباءاتهم والقدر بمعجزة من معجزاته؟ بل أسـرع حتى من أن أتبين، مع أني كنت قـد تحولت بكلي إلى عينين جاحظتين، على وجه التقريب كنه ما حـدث؟ كان في رأسي من أول ومضة للأزمة طبل حـزين كبير مجلل بـالسواد مضى يـدق في سرعـة تشجب قدسية الحزن.. انه الثور هذه المرة.. القوة الغاشمة الجـاهلة الحمقاء هي التي تفتك، والضحية هي الكائن الانسان الراقي الشاعر المرهف الراقد تحت رحمة الوحش الذي لا يرحم. كم بدا لي البطل

ضعيفاً في تلك اللحظة، طفلاً، ضنى عزيزاً.. كم غلت في عروقي دماء أعمق وأقوى القرابات، ، قرابة الانسان البشري للانسان البشري تلك التي تدفعنا بلا وعي أو ارادة لنجدة المأزوم اذا استغاث وحتى اذا لم يستغث. . لم يكن ما كنت أحسه من هلع ليختلف كثيراً لو أن المطعون كان ابني أو أخي أو أبي، فقد كنت في أقصى درجات الهلع وأقصى درجات الغضب وبآخر ما استطيعه من حزن كنت أضيق، وبأقوى ما استطيعه من هلع كنت أحقد على عدو الميتادور وعدوي وعدو كل من في الساحة وعدو البشر.. القوة القاهرة العمياء الغاشمة ـ أية قوة عمياء غاشمة ـ وليس عليها هي بالذات ولكن عليها حين نراها أقوى بكثير منا وأقدر، حين نراها في انتصار عارم ملموس ونحن في هزيمة ساحقة باردة واقعة.

وأبعدوا الثور عنه، إلى أين؟ لم ير أحد. كانت العيون كلها هناك منصبة فوق رقدته التي لم تطل، فما لبث أن أقبل زميلان له ودون أن يرفعاه وقف ومعه وقفت أرواحنا وأنفاسنا ودقات القلوب.. أيكون ما رأيناه خداع بصر؟ ها هو ذا أمامنا وبعد كل تلك الطعنات يقف دون مساعدة من أحد.. لا بد انها لم تصبه.. لا بد انها جاءت عشواء وحادت عن الهدف، ولكنها آمال أيضاً لم تطل.. فقد حدث شيء.. اذ وكأنما كان قد استنفذ كل ما لديه من حلاوة الروح، انثنى فجأة برقبته وهو واقف على صدره، ووضع يده على ثديه الأيمن، وقبل أن يتهاوى كان زميلاه قد رفعاه فيما بينهما وبسرعة مضيا يعبران به الساحة تحت خيمة سكون مذهل مرعب.

وحين اقترب الموكب منا لمحت بقعة الدم في نفس المكان الذي وضع فيه يده على صدره، وجف ريقي وأحسست أن قلبي قد انتقل إلى رأسي ومضى ينبض في حيزها المحدود بقوة تسحق العقل.

وأدخلوه من باب يفتح على الساحة ومكتوب عليها «المستشفى»، ولم يمنعني ما كنت فيه من أن أدرك أني لم ألحظ وجود هذا الباب ووجود المستشفى نفسه قبلاً.

ورغم ما كنت فيه أيضاً وجدتني ألتفت فجأة إلى يساري حيث الفتاة الكويبية، وأكثر ما دهشني أني وجدتها لا تزال في مكانها. كنت أتوقع أن أجدها قد قفزت الحاجز وسبقته إلى باب المستشفى، ولكنها كانت هناك لا تزال منكفئة على حديد «الدرابزين» مخفية وجهها ممسكة الحديد بقوة أذهبت الدماء من يديها حتى بدتا شاحبتين كأيدي الموتى.

ولم يدم السكون طويلاً فما لبثت الهمسات الملحة أن بدأت تسري وتتساءل عن مصيره وعن مدى ونوع جروحه بلا اجابات تشفي غليلاً، اذ باب المستشفى كان قد أغلق عليه وحده ومعه الممرض والطبيب ولم يسمح لأحد بالدخول أو حتى مجرد الاستفسار.

ومرت بضع لحظات لا زلت لا أدري ماذا كان يدور بخاطري فيها، كل ما استطيع أن أؤكده أني كنت تائهاً مذهولاً.. ذلك النوع العميق المستمر من الذهول، مفجوعاً.. وكأني المفجوع الوحيد، أو كأن فجيعتي أكبر من فجيعة الآلاف الثلاثين مجتمعة.

لماذا؟ لم أكن أعرف أو أدري! كان إشفاقي على نفسي من ثقل ما أحمله من هم يدفعني لمحاولة التخفيف عنها بقولي إنه لم يصب إلا بجروح ومن المحتمل جداً أن يشفى، ثم حتى لو كان قد مات فماذا يحملك على هذه الجنازة الحالكة السواد التي أقمتها داخلك والتي تهدد بقبض روحك؟.

ولم تكن أقوال كهذه تدفع إلا لمزيد من الفجيعة والحزن.

غير أنه على سطح كل هذا كان يطفو احساس آخر بالانبهار. الحقيقة أني رغم كل ما قلت وأعدت كانت جدية المصارعة وما فيها من بطولة لا تزال عندي موضع شك، وإن كان بمضي الوقت كان يضعف إلا أنه أبداً لم ينعدم. لم ينعدم إلا في تلك اللحظة التي أدخلوه فيها المستشفى مشبعاً بالطعنات ودوائر الدم الناضحة من ملابسه الأنيقة تتسع وتتسع، ذلك الفتى الشهم الرقيق الذي كان يلف ويدور في الأرينا ممتلئاً بالحياة والقوة والصحة. لحظتها أدركت أن رسمه، ورسمهم جميعاً لعلامة الصليب قبل دخولهم الساحة أبداً ليس من قبيل التدين أو الفأل الحسن. لحظتها أدركت سر الصفرة المتعاظمة التي كانت تكسو وجهه ووجوههم جميعاً طول الوقت. انهم كانوا أدرى الناس بما يختفي وراء كل تلك «الأوليهات» والتهليلات والحشود من السياح والأسبان والملابس المزركشة والتقاليد العتيدة. اذ هناك يختفي الموت وعلى أبشع صورة.. الموت بالارادة، الموت بالحظ، الموت لأقل هفوة، الموت حتى ولو لم ترتكب هفوة.

وانبهاري كان سببه أني أدركت متأخراً ومفجوعاً مخنوق الأنفاس بالحزن أنهم أبطال، وأن صديقي هذا الذي اخترته من أول لحظة بطل. ليست البطولة التي تستدعي التصفيق والتهليل ولكنها البطولة التي تدفع للبكاء والدموع واحتقار النفس لما يمكن أن يكون مترسباً فيها من خوف الموت. ها هم كما رأيناهم، ها هو كما رأيناه، كان يدري بالخطر الأكبر الكامن ليس في هذا اليوم بالذات، ولكن في كل يوم، في كل مرة يطأ رمل الدائرة بقدمه، في كل حياته، ومع هذا لا يتراجع، ويقدم، ويلف ويدور ويواجهه حتى يسقط، سقطة حقيقية، سقطة في بحر من دمه.

كانت المصارعة والغربة واليوم والدنيا كلها قد انتهت تماماً بالنسبة اليّ. كل حماسي ورغبتي وقدرتي حتى أن افتح العين وأنظر وأعقل قد انتهت. كنت أحيا بجماع نفسي هناك على باب المستشفى داخل تلك الحجرة ذات الباب المنخفض التي نقلوه اليها. هل لا زال يتنفس؟ هل بدأ النزيف الداخلي؟ هل مات؟.

وكذلك كان الجميع إنصافاً للحق، كنا جميعاً هكذا وكأن الخيوط التي كانت تربطنا به قد قويت فجأة وتماسكت حتى جذبت منا كل الوعي والانتباه، والصمت أيضاً كان لا يزال هناك، والهمسات تخرج خافتة وتحدث خافتة

ولكني لم أتوقع ما حدث.

وازداد ذهولي عمقاً وأنا ألمح الأنظار قد بدأت تتجه شيئاً فشيئاً

إلى الثور الذي كان هناك لا يزال واقفاً، عليه ينصب حقد ستين ألف عين.

والسؤال المسيطر هو ماذا يمكن أن يحدث.

وما حدث هـو نفس ما يحـدث في كل مـرة، فليست تلك أول مرة يسقط فيها ميتادور وبالتأكيد لن تكون الأخيرة.

كان لا بد أن تستمر المصارعة.

واعتقـدت تمامـاً أنها ستستمـر بـلا جمهـور، فـالجمهـور كـان منصـرفاً عن السـاحة واهتمـامه كله قـد تركـز على البـاب المنخفض المغلق، وبقلبـه اذ هو لا يستـطيع ببصـره كان يتـابع لاهث الأنفـاس ذلك الصراع الآخر الذي لا بد يدور في تلك الدقائق داخل الحجرة، لا بين المصـارع والثور ولكن بينـه وبين مـا هـو أقـوى وأبشـع وأكثـر وحشية من كل ثيران الدنيا مجتمعة.

-١٤-

في تلك اللحظات، وبخطوات لا حماس فيها، وبرعب.. تقدم مصارع آخر، ذلك الذي فشل في قتل ثوره الأول الذي كانوا يسمونه البرتغالي، تقدم من الثور ومعه العباءة والسيف وقبل أن يتوسط الساحة كان الأخير قد انطلق نحوه مهاجماً.

ومع أني ظللت مشدوهاً بكلي إلى الصراع الأكبر داخل حجرة المستشفى، إلا أنه رغماً عني وبحكم وجودي وسط تلك الكتلة الحية الضخمة التي تكون جماهير الأرينا وجدت نفسي أتابع وبإهمال شديد وبلا حماس، لا ما يدور في الدائرة الرملية ولكن ما يحدث للجماهير. اذ كان ما يحدث شيئاً لم أستطع تصديقه ولا استطاع عقلي إلى الآن هضمه واستيعابه، بالتأكيد هم لم يولوا المحاورة الدائرة في الساحة أول الأمر اهتماماً يذكر، ولكن بعد دقائق قليلة كان قد بدأ اهتمام، وبعد دقائق أقل كان الاهتمام قد استحوز على عقولهم تماماً، ولم تكد تمضي خمس دقائق حتى تصاعدت أول «أوليه». كدت أقف صارخاً محتجاً لاعناً هذا الجمهور الجاحد مطالباً اياه بالعودة لتركيز ارادته وهلعه وانتباهه مرة أخرى إلى الشاب الراقد

في الداخل يصارع الموت من أجلهم، ولكن حتى لو كنت قد وقفت وصرخت ومزقت نفسي لما كان لما أفعله أثر، لكأني كنت أريد أن أقف بجسدي لأمنع ماء البحر من التدفق، أو لأوقف موجه العاتي لأرغمه أن يهدأ حداداً على سفينتي الغارقة. ان السكون حداداً معناه الموت، والحياة والبحر والموج لا بد أن تستمر، ولهذا كان لا بد أيضاً أن تستمر المصارعة وتستمر الصيحات تتعالى، ويستمر الصراع يمتص انتباههم، فقد كانوا هم الآخرين لا يزالون أحياء. صحيح كان الحقد الهائل لا يزال ينصب على الثور، وصحيح كل جزء كبير من المتابعة هدفه أن يشهد كل منهم في النهاية بعينيه مصرع ذلك الذي صرع بطله وحبيبه، ولكن هذا لم يمنع أنه في سبيل تلك المتابعة نسي تماماً بطله وحبيبه.

ومع أني كنت أتابع فقط بحكم الوجود والعدوى وبلا ارادة، إلا أن ما استرعى انتباهي حقيقة هو الرعب العظيم الذي كان مسيطراً على «البرتغالي»، والحقد العظيم أيضاً. كانت عملية أخذ بالثأر أكثر منها مصارعة، كان ثمة دم قد سال ولم تعد المسألة رياضة أو اثارة. هكذا في النهاية انكشفت اللعبة على حقيقتها العارية المجردة، وأصبحت عملية قتل، إما قاتل أو مقتول، هكذا بلا مواربة أو اخفاء للنوايا أو استعراض.

ومات الثور في النهاية. مات دون طعنة واحدة أصابته من البرتغالي. فجأة توقف عن جريه هنيهة ما لبث بعدها أن سقط كتلة واحدة على جانبه رافعاً ساقيه في الهواء لافظاً أنفاسه لا بد بتأثير

الطعنة التي كالها له الميتادور الأول، والتي كـانت السبب في هياجـه ومصرعه.

وبقلب مفعم بـالمرارة والـدهشـة رحت أتـابـع عـودة الاهتمـام بالبطل الصريع في فترة الاستراحـة، والمحاولات الكثيـرة التي بذلت لمعرفة مدى اصابنه. وتلفت، كانت الفتـاة قد اختفت ولـم أستـطع أن أقطع إن كانت قد مرت أمامي في طريقها للخروج، ولكني أحسست لاختفائها بنـوع من عرفـان الجميل، فعلى الأقـل في وسط الجمهور المتوحش الحاشد ها أنذا أعثر على إنسانة.

ولـم تسفر محاولات الاستفسار عن جديد، كان جميع الواقفين أمـام الباب المنخفض يكتفـون بهـز الـرؤوس وزم الأفـواه في صمت مبيت حزين.

وحين بـدأ الـدور الشـاني وانتهت الاستـراحــة، خيل إليّ من الأصـوات الكثيرة التي بـدأت تتصاعـد من الأرينـا والـزعيق والتحفـز الـذي قوبـل به دخـول الثور أن الحـادث قد خفت حـدتـه كثيـراً وأن بعضهم لا بد قد نسيه وآخرين لا بد قد أرغموا أنفسهم على نسيانـه، ربمـا لكيلا تفسـد ذكراه تمتعهم الكثيـر المقبل.. غيـر أني كنت على يقين أنهم إنما يفعلون هذا بقشـرة وعيهم الممتدة فـوق السطح، أمـا من الداخل فهـم أبداً لـم ينسوا ولن ينسوا.

وابتـدأ الشوط وانتهى، وكـذلك بـدأ الثالث، وفي لحـظة خيل اليّ أن أحداً من الجمهور لم يعد يذكر الشاب الصريع فمن أعماقهم

كـانوا يتـابعـون الأشـواط، وبكـل ذرة من كيـانهم اصبحـوا يلوحـون ويهتفون، وكذلك قل إلى درجة الانعدام الكـامل عـدد الواقفين أمـام الباب المنخفض.

وبمصـرع الثور الثـالث وبلا أحـداث أخـرى انتهت الفييستـا، وبدأ الناس.. أقليـة قليلة تتسابق للخـروج، والأغلبية تتلكـأ وقد عـاد الحـديث عن الميتادور الصـريع، وكله بـالطبـع أسف وحسرة وتـذكر لمواقفه وشجاعاته.

وعند الباب العاشر، أقرب باب إلى حجـرة المستشفى، تجمع جمهـور حوالي الخمسمـائة أو أكثـر قليلاً يهـدفون أن يـروا الميتادور حين تقبل عربة الموتى وتنقله، فـإلى تلك اللحظة لم يكن البـاب قد فتح ولا تسرب عنه خبر.

وأخيراً فيما يشبه الموجة انتشر بين الواقفين خبر، اذ كان الباب قد فتح وأطل منه رأس. الخبر كان أنه لا يزال حياً وإن كان يعاني من صدمة شديدة، وإن كان قد أصيب بسبعة جروح وكسر وتهتك. ومـا كاد الخبر ينتشر حتى كان قد انصرف لسمـاعه نصف الـواقفين، وبدأ الازدحـام يخف ولم يصبح ثمـة واجب كثيـر أمـام عسـاكـر البـوليس الأسباني الخيالة الذين كانوا يتولون المحافظة على النظام.

وما كادت ربع ساعة أخرى تنقضي حتى كان قد انصرف أغلب الـواقفين، ولم يعـد سـوى بعض المتسكعين وبعض من لا عمـل وراءهم أهم من مشاهدة خروجه.

وهنا وفي تلك اللحظة فقط لمحت الفتاة الكوبية واقفة بجوار أحد العمدان وبصرها مسدد إلى الباب، وهي دائبة النظر إلى ساعتها.

ودون أن أفكر كثيراً ذهبت إلى حيث تقف. وبلهفة قابلتني أنا الذي خفت أن تشيح بوجهها عني وسألتني وذكرت لها ما سمعت، ولم يزد ما ذكرته أو يقلل من لهفتها وتطلعها واضطرابها.

وفي الدقيقة التي مضت على وقوفي معها رأيتها تتطلع مرتين إلى الساعة.

وحتى قبل أن أسألها أجابتني أنها للحظ السيىء لا بد أن تسافر الليلة إلى لشبونة وأن طائرتها ستغادر المطار في الثامنة، وأنها لا بد أن تذهب قبل هذا لفندقها والساعة كانت السابعة إلا ربعاً. كانت حالتها تدعو للرثاء حقاً، تمد رأسها إلى آخر ما تستطيع ناحية الباب العاشر ثم ترتد إلى باب المستشفى ومنه إلى الساعة ثم إلى السيجارة تمتص دخانها بقوة وكمد وشراهة.

واندفعت مرة مسرعة إلى باب الخروج، ولكنها بعد بضع خطوات ترقفت وعادت إلى حيث كانت واستجمعت يدها ودقت العمود بقبضتها دقة رن لها خاتمها رنيناً مكتوماً وسقط فصه. وبضيق أشد تناولته وقذفته بقوة داخل حقيبة يدها.

وتمنيت أن تبكي ولكنها لم تفعل، وحينئذ قلت لها لماذا لا تذهب وتلحق بطائرتها؟ وهنا في ضوء الشمس المتبقية من العصر لمحت

عينيها تحمران ـ فقط كان احمراراً ـ واختنق صوتها وهي تقول

ـ من تظنني؟

وآثرت أن أسكت.

وظهرت عربة الاسعاف عند الباب، وجذبت من صدر عميقاً وألقت بسيجارتها. وعلى أطراف أصابعها شبت لتس ترى عبر الرؤوس الكثيرة التي تجمعت لا تدري من أير لتشهد عملية نقله إلى العربة.

غير أنه لا هي ولا أحد من أصحاب الرؤوس وصاحبا له أن يشهد شيئاً، فقد فتح باب حجرة المشتشفى ودخلت ال منتصفها، وظلت عشر دقائق على وضعها ذاك ثم مضت الزجاج لا يرى خلاله أحد شيئاً.

ولا أعرف إن كانت الغمغمة التي وصلتني وهي تندفع في أعقاب العربة كلمة وداع.

ولكنها في لمح البصر قد اختفت.

وبخطوات مثقلة وكأنما بحديد مضيت إلى الخارج. وكنت المصارعين أناساً يحيون بين العربات الفاخرة والسهرات والف فقد فجعت حقيقة وأنا أرى بعد عربة الاسعاف بدقائق سيا سيارات التاكسي قد وقفتا أمام الباب وشحن فيها المص

وصبيـانهم كل ستـة في عـربـة.. واعتقـدت أنهم ذاهبـون لا بـد إلى المستشفى، وخطر لي أن أستقل عـربة وأتبعهم لأعـرف أي مستشفى هو، لكن الفكرة بدت لي في لحظتها شاذة وغير معقولة.

وأنـا في الطريق من الحلبـة إلى الشارع الـرئيسي المؤدي إلى وسط المدينة وجدتني وجهاً لـوجه أمـام عوض.. كنت قـد تركتـه في المغرب وها هي الصدف المحضة تجمعنا في مدريد.

ولو كنت قد قابلته في فرصة أخرى لفرحت للقائه كما لم أفرح في سفـرتي كلهـا، فليس أحب إلى قلب الانســان من أن يصـادف صديقاً في غربة فما بالك اذا كان الصديق عوض أخف أهـل الأرض دماً وأكثرهـم مرحاً وتفتحـاً للحياة واستمتـاعاً بهـا. اذا غصت معه إلى الأعماق غاص معك وان شئت أن تعبث وتطفو إلى السطح سبقك.

سـألني عما بي وقـد رآني واجمـاً، ولكني لم أسـتـطع اجابتـه فالحقيقة لم أكن أعرف.

وابتلعتنا مدريد الهائلة بشوارعها وأناسها وسياحها وأمسيتها تلك وليلتهـا. ولم أستطع أبـداً أن أنسى، بل كـان يحز في نفسي أن كـل هؤلاء النـاس لا يذكـرون أن عوض مـرح وأنه يعتبـر مصارعـة الثيران عملاً وحشياً لا يليق بعالم اليوم عالم القرن الحادي والعشرين.

وافترقنا في الثانية صباحاً على موعد أن ألقاه في الصباح.

وحين أصبحت وحـدي في الحجرة الضيقـة التي عثرت عليهـا في ازدحام فنادق مـدريد بمثـل ما تعثـر على الابرة في كـومة القش،

حجرة مليئة بصورالقديسين، وهناك صورة كبيرة نوعاً للعذراء أسفلها مصباح كهربائي، ولكن بلاتينه الداخلي يضيء بنور أحمر خافت على هيئة صليب، جعل حركة رسم الصليب قبل الدخول إلى الساحة تعود تدق على ذاكرتي وتدق.. حين احتوتني الحجرة شعرت برغبة في البكاء، رغبة لا علاقة لها ألبتة بحادث اليوم، ولكنها مجرد شجن خاص وضيق. ولكنني استسخفت الرغبة، بل استسخفت المسألة كلها. ما هذا الجنون؟ ولماذا أحمل وحدي تلك الجنازة السوداء الخانقة في صدري؟ وهل أنا مسؤول عن أرواح الناس وما يحدث لهم؟ وماذا كان باستطاعتي أن أفعل ولم أفعله لأوقف الكارثة؟

إن ما حدث قد حدث، واذا كان الناس قد نسوه وتفرقوا بعد الاحتفال إلى لهوهم وحياتهم بينما مضت به وحده عربة الاسعاف بين الموت والحياة إلى المستشفى فتلك هي لا بد سنة الناس هنا، بل هي سنة الحياة! فليس مفروضاً أن تتوقف لأن أحدهم مات أو أصيب ولو كان الميت بطلاً.

خواطر وردود على الخواطر كنت أقولها لنفسي محاولاً أن أبعد شبح ما حدث عن تفكيري، محاولاً أن أبعد هذا الانسان النحيف الرقيق عن وعيي بلا جدوى، كانت الصور تعود وتصر على العودة كنتف متفرقة من فيلم طازج لا تزال عالقة به أملاح التحميض.. ونمت.

وفي الصباح صحوت، وكان أول ما فعلته بعد تناول الشاي في

المقهى القريب اني اشتريت الجرائد ورحت أقلب صفحات أولاها إلى أن وصلت إلى ما خيل إليّ أنه صفحة الرياضة، وأنا لا أعرف الأسبانية ولكني من جذورها المشتركة مع الانجليزية والفرنسية استطعت التعرف على الخبر، كان في ركن من الصفحة بعنوان على ثلاثة أعمدة ولم أجد فيه ذكراً لكلمة الموت.

وفي جريدة ثانية كان الخبر منشوراً على عمود في الصفحة الأولى ومعه صورة، ومرة أخرى عاودتني خيبة الأمل. كنت أتوقع أن أصحو فأجد الخبر قد عم المدينة ولا حديث للناس والجرائد إلا عنه، وها هم أناس يزدحم بهم المقهى يتناولون إفطارهم في صمت جاهل وقور.

«الفصل الأخير»

غادرت المكان تاركاً الجرائد ما عدا احداها، تلك التي ذكرت عنوان المستشفى الذي يرقد فيه، ومضيت أسير في الشوارع بلا هدف وقد قررت أن أخلف موعدي مع عوض.

كانت الشوارع مزدحمة بأناس كثيرين أيضاً.. آلاف الناس الصغار الكثيرين ماضين مكهربين مكربجين إلى أعمالهم دون كلمة واحدة عما حدث بالأمس وعن الميتادور الصريع.

وفجأة قررت أن أذهب إلى المستشفى، ورمقني سائق التاكسي بنظرة مستطلعة وأنا أشير اليه دون أن أنطق إلى العنوان المكتوب في الجريدة وقد وضعت تحته خطاً.. وفي الطريق قال كلاماً كثيراً بالأسبانية ممزوجاً ببعض كلمات انجليزية ـ لا بد علمه اياها التعامل مع الأمريكان ـ كلاماً فهمت منه أنه يعلق على ما حدث للميتادور ويريد رأيي.. واكتفيت بهز رأسي، وحين يئس غمغم ببضع كلمات خمنت انها لا بد سباباً.

وزعمت لبواب المستشفى أني طبيب مصري وأني أريد مقابلة

أستاذ الجراحة، وفي قسم الجراحة سألت الراهبة بالاشارة عن المكان الذي يرقد فيه الميتادور، وأشارت إلى ممر جانبي كانت تقف في نهايته مجموعة قليلة من الرجال بينهم سيدة عجوز وصبي لا يتعدى العاشرة، وحولهم وقريباً منهم كانت تتناثر بضع باقات.. واقتربت. كانت رؤوسهم منخفضة ولكن اقترابي دفع بعضها إلى الارتفاع.

كانت الحجرة مغلقة وعلى أكرتها لافتة معلقة لا بد كانت أمراً بمنع الزيارة.

ووقفت قريباً من المجموعة ذات العيون المستطلعة صامتاً مثلهم، منكس الرأس خجلاً، ففي لحظتها كنت قد أفقت على سؤال: ماذا أتى بي إلى هذا المكان، ومن أنا بالنسبة للجريح الراقد في الداخل؟ أو حتى بالنسبة إلى هؤلاء الناس؟

وفتح باب الحجرة وخرج طبيب سرت بجواره بضع خطوات وحييته، وأسعدني أنه يعرف الانجليزية، وزعمت له هذه المرة أني صحفي عربي وأني أريد أن أبرق بالخبر إلى جريدتي، وسألته عن حالة المصارع فقال:

- Grave.
- Internal hoemorrhage?
- Two, one in the chest and another in the abdomen.
- External ones too.
- Prognosis nil then.
- Scientifically yes ... unless.

- Unless what?
- Something happens, you know, a miracle for example!

وتوقفت عن السير، وتابع الطبيب طريقه.

وتحـرك واحد من المجمـوعة السواقفة كـان أكبرهم سنـاً ولكنـه أكثرهم صحة، حيـاني بـالأسبـانيـة، وهـززت رأسي، وبمـزيـج من الانجليزية والفرنسية والايطالية قدم إليّ نفسه. كان المحرر الـرياضي لجـريدة لم أهتم بمعـرفة اسمهـا، وكانت رائحـة البرانـدي الأسباني تفوح منه، وسألني عما قاله الطبيب وأخبرته بالحقيقـة. انه يعـاني من نزيف داخلي وخارجي في الصدر والبطن معاً وإنه علميـاً لا يمكن أن يعيش، ولم تبق على حد تعبير الطبيب ـ سوى المعجزة.

قال بازدراء غريب:

ـ ومن أين تأتي المعجزة؟

قلت:

ـ من السماء.

ورفع بصره إلى السقف وثبتـه بعض الوقت، ثم عـاد يواجهني وقال:

ـ قبل أن أعمل محرراً كنت مصارع ثيـران، وتحدثـوا في العلم والمعجزات كما يحلو لكم ولكنـه لحظة أن سقط أمـامي في الساحـة وشلته السقطة عن أن يحرك يداً أو ساقاً أمام الثور المقبـل عرفت أنـه انتهى ومات.

وكانت باقات أخرى من الزهور قد بدأت تفد فاستطرد:

ـ زهور وزهور. . كفنوه بالزهور. . دعوا الزهور تصنع المعجزة التي ينتظرها الأطباء.. من أي بلد أنت يا سنيور؟. أنا لا يهمني من أي بلد أنت ولكني أريدك أن تكون شاهداً على المأساة.. أنا لا أستطيع أن أكتب هذا في جريدتي وإلا فصلت، وأنا في حاجة إلى العمل لآكل وأنا قد جربت الجوع. أنا نشأت في ملجأ أيتام الفرنسيسكان وأعرف ما هو الجوع. أنا مصارع قديم.. بطل! أسبانيا كلها والمكسيك والبرتغال كانت تهتف جميعها لي، ولكنني أخيراً اكتشفت المهزلة، كذب كذب كل ما تقرؤه عن التقاليد الأسبانية في الفروسية وشجاعتهم التي خلقت مصارعة الثيران. ليس هناك شعب أشجع من شعب، قل لي إني شارب ومخمور ونحن الآن في.. كم الساعة الآن؟ التاسعة. اذكر كل ما تراه هنا ولا تنسه فأنت الشاهد.. شاهدي.. لقد كنت أحب هذا الولد أنطونيو.. كان ابني الذي لم أخلفه.. وكنت أعرف أنه سيموت. ان الكثرة منهم تعيش ولكن الشجاع الحق هو الذي يموت، وفي كل عام نفقد عدداً من الشجعان، أتعرف لماذا نفقدهم؟ انها لعبة كبيرة جداً.. لعبة عالمية ما تراه في الساحة هو الفصل الأخير فقط منها. وإذا لم تصدقني فتصور أسبانيا بلا مصارعة ثيران. من المجنون الذي يأتيها؟ ان احصاءاتنا الرسمية تقول ان بلادنا تستقبل في الصيف موسم المصارعة ربع مليون سائح يومياً أو ربما خمسين ألفاً، لا أذكر الرقم. لعنة الله على الأرقام! كذا ألف ينفقون كذا مليون دولار. ألـغ

المصارعة تلغ الدولارات، أقم حفلات المصارعة واستحضر ثيراناً متوحشة واجعلها تنفرد بالرجال، ماذا يحدث؟ الرجال يقتلون الثيران

ولكن لا بد أن تقتل الثيران بعض الرجال، وبغير أن تقتل الثيران بعض الرجال فلا لذة في المصارعة ولا متعة. أتصدق أن هؤلاء الناس الذين يجيئون من كل مكان إلى الأرينا يأتون لكي يروا الرجل ذا السيف يقتل الثور الأعزل؟ انها كذبة كذبة. انهم يأتون على أمل أن يقتل الثور المتوحش الرجل ذا السيف، وحبذا لو حدث القتل أمامهم انهم لا يجاهرون برغبة كهذه لأنها تبدو شاذة كريهة غير لائقة بالرجل المتحضر، ولكنها وأقسم لك الرغبة الكامنة في صدورهم. عرهم من ملابسهم ونفاقهم وتظاهرهم لتجدها ملتوية على نفسها كالثعبان هناك.. نحن نعرف هذا وأصحاب الفنادق يعرفون هذا، وشركة كوك تعرف هذا، ومصلحة السياحة عندنا تعرف هذا، والبنوك والحكومة والدولة والكنيسة تعرف هذا، كلها تعرف أن كذا رجلاً سيقتلون في هذا الموسم كذا ثوراً، وأن كذا ثوراً ستقتل على وجه التقريب كذا رجلاً. ولا أحد أبداً يفعل شيئاً لمنع هذا القتل، بالعكس إنها كلها تتعاون وتتسابق لكي يتم القتل على أكمل صورة. الحكومة تصنع الدعاية في الخارج وتدعو الناس من جميع أنحاء الأرض كي يحضروا إلى أسبانيا لرؤية المصارعة، أي لحضور القتل.. وشركة طيراننا تنقلهم، وأصحاب فنادقنا يصنعون كل ما في وسعهم لراحة المدعوين، وشركات السياحة تهييء لهم بجوار المشاهدة نزهات ونزوات، والبلدية تقيم الأرينا وتؤجر المقاعد.

والكل سعيد، السياح ينفقون بسعادة، ونحن نقبض بسعادة، والتفرج على المصارعة متعة العمر، وماذا يهم بعد هذا اذا كانت تلك السعادة كلها مقابل أرواح خمسة أو عشرة أو عشرين رجلاً كل عام؟وخاصة ونحن اذا مات أحدهم، أو أصيب بالعجز الكامل هللنا له وضجحنا وتوجناه بطلاً وعاملناه معاملة لا يحظى بها شهيد الواجب والجندي في الميدان. أنا لا أعرف من أين أنت قادم ولا يهمني أن أعرف، ولكني أرجوك أن تكون الشاهد، شاهدي وأن تنظر إلى ما وراء هذا الباب. فلو كان الأمر بيدي لوضعت على الحجرة أو على قبره لافتة مكتوباً عليها بالخط الكبير: هنا يرقد شهيد مصلحة السياحة الذي قضى وهو يؤدي الواجب المقدس، واجب تكديس النقود في أيدي شركات الطيران ومديري الفنادق وأعضاء المجلس البلدي والمؤسسات ومساهمي البنوك وأصحاب الكاباريهات وشركات السفر والسبا حة.. أنت لا تصدق.. اذا شعرت أني أكذب وأبالغ فحدق في هذه الباقات من الزهور واقرأ.. أليس هذا كارت لويجي كاستيللو نائب ومدير بنك سبيلا؟ أو ليست هذه باقة اتحاد اصحاب سيارات التاكسي؟.. انها أكبر من هذا. لا بد أيضاً أن تكتب: هنا يرقد شهيد المؤامرة العالمية لإلصاق مؤهلات ومميزات بطولية خاصة للشعب الأسباني، تمهيداً لتقبل الرأي العام المتمدين فكرة المصارعة بين الرجال والثيران، كمقدمة لا بد منها أيضاً لكي يتقبل ذلك الرأي العام نفسه فكرة أن يسمح في عصرنا هذا لثور متوحش أن يصرع انساناً ويمزقه بطريقة قانونية جداً وبطولية جداً وممتعة جداً.. جداً جداً.

لقد انفردت طويلاً بالكلام مع أني لا أريد الكلام، أريد البكاء! ولكني في حاجة لمعجزة كي أستطيع فقد تعلمت ألا أبكي، ولهذا أسكر. ولهذا أنا سكران وأريد أن أسكر أكثر، أريد أن أبكي على هيئة أن أشرب، فأنطونيو كان أعزهم، لقد رأيته وسنه خمسة عشر عاماً، وكان صغيراً ومن أول لحظة عاملته كابني ولكنهم اختاروه هذه المرة ليقتلوه.

لقد قرأت لا أذكر متى ولا أين ولا يهمني أن أذكر، أن في مصر عادة قديمة، أنهم في كل عام يختارون أجمل فتاة لديهم لتلقي بنفسها في نهرهم النيل ليكثر ماؤه ويفيض، ولكن قرون الثور فظيعة فظيعة! أنت لم تجربها، لم يصبك الرعب، ما هو أكثر من الرعب، تفكك العقل، وتشتت أجزائه هلعاً، لا من الطعنة في حد ذاتها ولكن من الفكرة، من الموقف، من الوحش الغاشم ذي العيون الواسعة البلهاء، وقرني الشيطان البارزين من رأسه، هنا في فخذي مسني الوحش فخرب ساقي، وهنا في صدري مسني الرعب منه فخرب روحي، لو أزحت ضلوعي يا صديقي لما وجدت وراءها شيئاً. أنا انسان مخرب وأنت شاهدي، أنت باستطاعتك في جريدتك أن تكتب، اكتبها.. المؤامرة، واترك لي أنطونيو فأنت لم تعرفه، أنت لم تره وهو يداعب القطة ولا هو ينتحي ركناً معزولاً من قاعة أي احتفال، ولا رأيت الخجل يعتريه حين يزلف لسانه وينطق الكلمة بلهجة تكشف عن أصله القروي المتواضع. أما أنا فأستطيع، سأفعلها مرة، وبدلاً من الأخبار سأكتب مقالاً، فقط يلزمني أن أكف ليلتها عن

الشراب، قسماً سأكف ليلتها عن الشراب من أجلك يا أنطونيو وبحبي لك يا أنطونيو وبحبي لك يا ابني الذي لم أخلفه ولم أتزوج أمه، قسماً سأفيق ليلة وأقول الحقيقة كلها يا أنطونيو.

تمت



حـادثـة شـرف

محطـة

في المحطة الأولى صعد الشاب ـ واحد من شبان هذه الأيـام ـ القميص «نص كم» ومفتـوح مـع أننـا لا نـزال في الشتـاء، وشعـرات الصدر القليلة بارزة من فتحتـه، والبلوفر مخلوع ومـربوط من أكمـامه حول العنق، والسلسلة إياها تارة ملفـوفة حـول ساعـده وأخرى دائـرة بين أصـابعـه، ونـوت المحـاضـرات راقـدة في إهمـال تحـت إبـطه . .

وفي المحـطة التاليـة صعـدت الفتـاة ـ واحـدة من بنـات هـذه الأيام ـ نحيفـة قمحية، حتى ابتسـامتها قمحيـة، شعرهـا ذيل حصان، وصـدرهـا لم يبلغ بعـد حب الـرمـان، ولكن (السـوتيـان) تكفـل بإنضاج حب الرمان. وكانت تمسك في يدها مندوب العائلة ـ أخـاها الصغير ـ الموفد لا بد لحراسة الحمل النحيف من قطعان الذئاب.

وأوتـوبيساتنا مزدحمة ودائماً مزدحمة، حتى ليخيل لي أننا لا نعتبر أزدحـامها مشكلة، ولكننـا نعده مفخـرة قوميـة كالأهـرام وأبي الهـول سنظل نحتفظ بها إلى أبد الدهر.

وكان الأوتوبيس مـزدحماً . . ومـزدحماً بـالرجـال الكبار، كلهم يرتدون السترات الغامقة وأربطة العنق الـوقورة. الجـالسون جـالسون

في أدب واتزان، والواقفون واقفون رغم تلاصقهم وازدحامهم في جدو حزم، حتى حين كان الأوتوبيس يهوي بالواحد منهم ويجعله يتأرجح كالدائخ ذات اليمين وذات اليسار، كان يفعل هذا في جد ووقار أيضاً وبوجه صارم الملامح والقسمات.

والسيد الجالس بجواري كان هو الآخر من هذا الصنف الوقور الحازم، بل كان واضحاً أنه أكثر الركاب جداً ووقار إذا كان هو الوحيد الذي يرتدي بالطو فوق بدلته، مع أن الصباح كان جميلاً مشرقاً يغري الإنسان بالمشي عارياً تحت أشعة الشمس.

وحين صعد الشاب مبتسماً، ولكن أحداً من الرجال الكبار لم يعبأ به أو بابتسامته.

وحين صعدت الفتاة صعدت مبتسمة، ورمقها الرجال الكبار ذوو السترات بنظرات سيئة النية، ولكنهم أطمأنوا حين وجدوا أنها في أعمار بناتهم أو دون ذلك وأنها لا تصلح للفراش بل لا «يليق» أن ترى مع أحدهم في الشارع، ولهذا سرعان ما صرفوا النظر عنها وعن ابتسامتها.

ولكن جاري أعلن رأيه بصراحة، فقد شعرت به يتململ دا البالطو حين صعدت الفتاة وما لبث أن عقد ملامحه وقال في سبه غمغمة مستنكرة:

ـ ودي إيه اللي يخليها تركب في الزحمة دي كمان.. قلة أدب!

وكدت أنا الآخر أصرف النظر عنها لولا أن حدث شيء، نفس الشيء الذي يحدث كلما صعد إلى عربة الأوتوبيس راكب جديد. فقد تقلقلت صدور واصطدمت بطون واستعملت الأكتاف للمرور، وتبودلت كلمات الاعتذار بالإنجليزية والفرنسية والعربية والبلدية، وحدثت حركة تنقلات وترقيات بين أصحاب الأمكنة وحاول كل منهم أن ينتهز الفرصة ويحتل المكان الذي طال حلمه به.

وكان من نتيجة تلك الحركة أن جاءت وقفة الشاب الصغير بجوار الفتاة الصغيرة، وجاءت وقفتها بجوار المقعد الذي أحتله أنا والسيد جاري.

ورمق كل منهما الآخر بنظرة سريعة لا هدف لها ولا معنى.. لم تغير من الابتسامة التي صعد بها كل منهما، بل لم يلاحظها أحد من ركاب العربة.

وكنت قد عانيت الأمرين من السيد جاري. فمنذ أن جلس بجواري وهو لم يكف أبداً عن الحركة ولا عن التعليق ولا عن إعطاء الأوامر الخاصة للسائق حين تدخل العربة في مأزق، أوامر يقولها بينه وبين نفسه: اطلع يا جدع. خد يمينك. سواق نيله.

وأنا لا أحب أن يناديني أحد بكلمة السيد لست أدري لماذا. تصور اسمك مقروناً بلقب السيد حتماً ستحس أن شيئاً قد تغير أو تجمد، أو أنك أحلت مثلاً إلى الاستيداع. ولكن هناك أناس تحس أن لقب السيد فلان يناسبهم جداً. وكان جاري من هذا

الصنف، لا تملك حين ترى طربوشه وتكشيرته ومعطفه والشعر الأبيض في ذقنه الذي يحلق يوماً بعد يوم إلا أن تقول له يا سيد.. وإن لم تقلها له غضب، ولهذا فهو الذي يبدؤك باللقب حتى لا تنسى أن تعيده إليه إذا حادثته.

كان واضحاً أنه يحب الأصول.. والأصول ألا يأخذ الناس على بعضهم بسهولة. ومع هذا فمنذ أن جلس بجواري وهو لا يعاملني بالأصول أبداً، فقد احتل وحده أكثر من ثلثي المقعد ومع هذا ظل كوعه مغروزاً في جنبي يكاد يخرق حجابي الحاجز، وكان قد قرأ من جريدتي أضعاف ما قرأته منها، وحين قررت حلاً للإشكال أن أعطيها له ألقى عليها نظرة سريعة ثم طواها وردها لي، وما كدت أفتحها حتى وجدت وجهه يتسلل من فوق كتفي ويعاود القراء ولعله لمح فيها دواء مقوياً «للأعصاب». ثم إن عينه لم تغفل عني لحظة، حدق في وجهي مرات ربما ليرى إن كنت أحمل شبه إحدى العائلات التي يعرفها. وحين أخرجت محفظتي لأدفع جرد كل محتوياتها بنظراته الجانبية واشمأنط حين وجدها شبه خالية، حتى حذائي لم يسلم من تحديقاته ربما ليعرف إن كان نعله جديداً أو ليدرك نوع جوربي وحالته الداخلية، ومن كثرة خجلي أدخلت قدمي تحت المقعد لأريحه وأريح نفسي.

ولم ينقذني من نظراته إلا مجيء الشاب الصغير والفتاة الصغيرة فقد تركني وتحول إليهما.

ولأنني كنت بعيداً عن النافذة لم يعد أمامي لكي أقطع الوقت إلا أن أنظر في وجوه الركاب. ولم تفلح هذه التسلية لقطع أي وقت فقد كفتني نظرة واحدة إلى الوجوه لكي أدرك أنها نسخ متفاوتة الإتقان من جاري العزيز. . وهكذا لم يعد أمامي إلا أن أراقب الشاب الصغير والفتاة الصغيرة.

وبدأت أجد في مراقبتهما تسلية عظمى.

فقد لمحت ابتسامة الشاب الطبيعية يرتجف سطحها قليلاً وقليلاً ويتغير شكلها ويصبح لها معنى خاص مضى يمسح به وجه الفتاة وشعرها وجسدها وحتى ملابس أخيها الصغير.

المسألة فيها إعجاب إذن.

وكان إعجاباً، مجرد إعجاب غير موجه إلى الفتاة بعينها، ولكن إعجاب أي شاب صغير بأي فتاة صغيرة. .

ولكن الأمور بدأت تتطور.

فقد اتسعت ابتسامته حتى شملت وجهه كله، وبدأت السلسلة تضطرب في يده وأصابعه تتجاذبها بلا وعي وفي عصبية.

وقلت في نفسي: عظيم! إنه يريد أن يكلمها.

وأن ينظر الشاب إلى فتاة مسألة سهلة، وأن يبتسم لها مسألة أسهل، أما أن يكلمها فتلك هي المشكلة. . المشكلة التي شغلت جيلنا كله أيام أن كنا طلبة في الكليات وشباناً حديثي التخرج. كنت

لا تجد شاباً منا إلا ولديه مشكلة من هذا النوع؛ وكل يوم ينتحي بك صديق من أصدقائك ركناً ويسوق مقدمات طويلة ويدعي أول الأمر أن المشكلة خاصة بشاب آخر، ثم ينفجر في النهاية قائلاً: أحبها يا أخي وأعبدها، وهي جميلة وأراها كل يوم وتراني، وأجلس بجوارها في المدرج أو في الأوتوبيس وأبتسم لها كثيراً، وأحياناً يخيل إليّ أنها تبتسم لي فدبرني ماذا أصنع؟..

وتجد أن الحل في غاية السهولة فتقول:

ـ كلمها يا أخي كلمها.

ولا بد أن يضحك مستشيرك ضحكة هستيرية مغتصبة ويقول:

ـ وجبت إيه من عندك؟ ما أنا عارف.. إنما إزاي.. إزاي أكلمها؟!.

ولا تظن أن مستشيرك هذا قد فتح صدره لك وحدك باعتبارك صديقه الحميم، فلست إلا واحداً من عشرات وربما مئات حدثهم وكاشفهم وخبط رأسه في الحائط أمامهم وهو يقول:

ـ المشكلة كيف أكلمها؟

وتظل المشكلة معلقة شهوراً طويلة وربما سنين. أحد زملائنا ظل يحب زميلة له خمس سنوات بأكملها دون أن يجرؤ على مخاطبتها، وحين جمع شجاعة الدنيا وذهب يحادثها ألقى على مسامعها الجمل الخمس التي كان قد جهزها، ثم استأذن منها وغادرها في الحال حتى قبل أن تفتح هي فمها وترد.

ونفس الـوضع لـدى الفتيات ولكنهن لا يمـلأن الدنيـا عـويـلاً وصراخاً كما يفعل الشبـان. هن يصمتن على نار والمشكلة تحيـرهن وصدورهن العذراء تحترق احتراقاً داخلياً لا تطفئه دموع ولا تنهدات، وتؤججه الأغاني والروايات. وكل جنس يريـد الآخر ويـراه ويلمحه، وليس بينه وبين الآخر مسافة.. ومع هذا فهناك حائط زجاجي سميك لا يدري أحد من أقامه ولا يجرؤ أحد على كسره.

ولكن جيلنـا أفاق.. فـوجدنـا إخوتنـا الصغار وأطفـال جيراننـا وأولاد المعارف، قد استطالت أجسامهم فجـأة واخضرت شـواربهم وكشفوا الصدور والسواعد وبدأت أصواتهم تتغير، وبدأت إذا حاولت أن تمنع الواحد منهم عن مناقشتك قال لك:

ـ إزاي؟ أنا مش عيل.. أنا راجل زيي زيك.

* ** *

وكـان الشاب لا يـزال يبتسم في غموض وحيـرة ويحرك رأسـه ليأخذ وجهـه أوضاعـاً مختلفة، وينـظر إلى قدمـه مرة ثم يسـرح فجأة ويتأمل سقف العربة، ويمسك بعامـود الأوتوبيس ويقبض عليـه بشدة ويتململ محرجاً ويعود ينظر إلى الفتاة تلك النظرات الخاصة.

وابتسمت.. كـان الشـاب الصغيـر في نفس المشكلة التي لم نجـد لها حـلاً. ترى هـل لم يجدوا لهـا هم الآخـرين حـلاً؟ ارتبـاك الشاب واضح، وأتحداه إن كان يستطيع أن ينجح فيما فشلنا فيه.

كان لا يزال يحاصرهـا بنظراتـه ورغباتـه الخرسـاء ويحاول أن

تلتقي أعينهما ليكلمها بعينيه. وكانت الفتاة واقفة بجواره تماماً ولكنها لم تكن تنظر إليه.. كانت عيناها مركزتين على رأس أخيها الصغير. ومع هذا كانت تبتسم بطريقة ما ابتسامة تحس معها أن الفتاة وإن كانت لا ترى نظرات الشاب الموجهة إليها وتدعي أنها لا تحفل بوجوده، ومع ذلك تحس من الطريقة التي تبتسم أنها تدرك وجوده وتشعر أنه يحاصرها بنظراته وأنه حائر مرتبك متردد، وكأن لها ألف عين غير مرئية تنقل لها بطريقة خفية كل ما يحدث عن كثب منها.

وبدأت أنفعل وكأني أشاهد مباراة للأشبال.

وبدأ قلبي يدق ويتمنى أن يبقى كل شيء على ما هو عليه، وأن يبقى الشاب مرتبكاً متردداً. وأن تبقى الفتاة صامدة كالقلعة الحصينة حتى ولو لم تكف عن ابتسامتها التي لم يكن لها أي مكان في أوتوبيس مزدحم كهذا.

واكتشفت أنني لست وحدي الذي يشهد الصراع فقد التقت نظراتي المتلصصة بنظرات السيد جاري وهي تؤدي نفس المهمة. وطبعاً كان اللقاء مخجلاً لكلينا، وعقد جاري ملامحه حتى أصبحت أكثر جدية وخطورة وادعى أنه ينظر أمامه دوغري لا يمكن أن يلومه عليها أحد. ولم يمنعه هذا طبعاً من أن يحرك عينيه في محجريهما خلسة ليشهد ما يدور هناك. وكذلك لم يمنعني خجلي من أن أجعل نظراتي تسترق الخطى هي الأخرى في دوريات استطلاعية متقاربة.. كنا فقط نتحاشى أن تلتقي أنظارنا، وإذا التقت ـ لسوء الحظ ـ طلى

كل منا وجهه بقشرة سطحية مبتسمة وادعى أنه فقط ينظر ببراءة إلى وجه الرجل الأفطس الواقف قريباً من الشاب والفتاة سابحاً في ملكوت من صنعه.

ظللت أنا وجاري نلعب لعبة «الاستغماية» هذه حتى حدث شيء. فقد وقف الأوتوبيس ثم تحرك. وكعادة الأوتوبيس إذا وقف ثم تحرك أن تحدث الاصطدامات التي لا بد منها بين كل جار وجار، والتقت الوجوه مبتسمة ومعتذرة.

وكذلك التقى وجه الشاب بوجه الفتاة وابتسم الشاب معتذراً.

وقبلت الفتاة اعتذاره باسمة.

وازدادت حركة الشاب، حتى حذاؤه كا يتحرك بتردد وعصبية وكأنما يحاول أن يجد له مكاناً بين الأحذية الضخمة الكثيرة المتراكمة حوله، ولم تكف عضلات وجهه عن التغير. تنقبض وتنبسط وترتجف، وأحياناً يبتسم فجأة بلا سبب ثم يلتفت إلى الفتاة وكأنه يهم بعمل شيء ولكنه سرعان ما يرتد وبه بعض الشحوب.

والفتاة كانت قد أمسكت بيد أخيها الصغير بعد أن كان هو الذي يمسك بيدها، وراحت تضغط عليها ضغطات منتظمة بينما وجهها قد اتخذ زاوية معينة لا يحيد عنها.

أما جاري فقد راح يتأفف من الحر، ولكن يبدو أنه أحس بأن الأمور سوف تتطور حالاً فقد ترك خجله مني جانباً واستدار بوجهه كلية إلى حيث يقفان. . ولم يرفع عينيه منذ تلك اللحظة عنهما أبداً.

وعلى حين بغتة استدار الشاب مرة وحمل وجهه ظرفاً كثيراً، وأعاد اعتذاره إلى الفتاة عن الصدمة السابقة في همس خافت بدا كأنه نجوى.

ولم ترد الفتاة هذه المرة.. ولكنها خفضت رأسها واحمر وجهها. وازداد اضطرابي.

وازداد أكثر حين عنّ لأحد الركاب الواقفين وكان سميناً ذا كرش عظيمة أن يغير من وقفته، فتحرك حتى أصبح جسده الضخم يحول بيننا وبينهما. وكان اضطراب جاري أفظع.. ورحنا نحن الاثنين نصوب للرجل وكرشه نظرات نارية ملتهبة تكاد تخرقه أو تذيبه لكي نستطيع العودة إلى متابعة المشهد.

ويبدو أن الرجل أحس من نظراتنا أننا نتهمه بتهمة أبشع من مجرد التستر، فقد وقف محرجاً مرتبكاً لا يدري ماذا يفعل ليرضينا.. وسرعان ما خف الجار إلى نجدته فقال له بصوت جاد آمر:

ـ ما تتفضل حضرتك تخش جوه فيه وسع جوه.. اتفضل جوه مضايق نفسك ومضايق الناس ليه؟ ما دام فيه وسع نضيق على أنفسنا ليه؟.

وتحرك الرجل وهو يشكر للجار نصيحته.. وعدنا إلى مسرح الأحداث وعاد وجه جاري يحفل بالاستمتاع والنشوة.

وخفت أن أكون قد عدت متأخراً كثيراً.. ولكن حمداً لله! كل ما كان قد حدث أن الفتاة رفعت رأسها وأن الشاب كان قد مد ذراعه

اليسري ليمسك عامود الأوتوبيس، فأصبحت ذراعه لصق شعرها.

ولمحت فمه يرتجف. . لا بد أنه يجرب كلمات ما قبل أن ينطقها. وأحسست بالارتياح. . هكذا كنا نفعل. ولكننا كنا حين نوجد في حضرة الفتاة تتسمر الكلمات على أفواهنا ولا تنطق.

ولكن الشاب هز نفسه وقال في همس ملح:

ـ أنا شفت حضرتك في الجامعة. . في الآداب؟ مش كده.

وما كاد ينتهي من آخركلماته حتى كان وجهها في حالة غضب كامل وحتى كانت قد استدارت إلى الناحية الأخرى في اشمئزاز ظاهر. بينما راحت يدها تتابع ضغطها على يد الأخ الصغير، والمسكين يحاول أن يخلص يده من يدها بلا فائدة.

وصحيح أني لم أسترح إلى الطريقة التي غضبت بها، فقد غضبت بسرعة غير عادية وكأنها كانت تتوقع أن تحدث محاولة كهذه. ثم لماذا تلك الضغطات العصبية على يد مندوب العائلة؟.

ومع هذا رحت أرمق الشاب الصغير في شماتة وتوقعت أن وجهه لا بد أن يحفل حالاً بالبياض والعرق، ففي أمثال هذه المناسبات كانت صدمتنا تمتد إلى أسبوع وربما أكثر.

ولكني لم أجد في وجهه شحوباً ما ولم أجد نقطة عرق باردة واحدة، وجدت ابتسامته لا تزال كما هي وكل شيء فيه كما هو، وكأنه هو الآخر كان يتوقع هذه الغضبة الأولى. وقلت لنفسي لا بد أنه من الصنف البارد التلم، ولكني أدركت أني ظلمته فلم يكن يبدو عليه

برود أو تلامة. كان شاباً عادياً جداً لا تحس به جريئاً ولا خائفاً ولا واسع الحيلة أو قليل الدهاء.

وفي أيامنا كانت تقتلنا ولا نستطيع أن نكرر المحاولة، وكنا لا نعمل شيئاًطوال أيام كثيرة إلا أن نستعيد دقائق ما حدث في المحاولة الأولى.. ونهوي إلى آبار خجل لا قرار لها، ونظل نؤنب أنفسنا ونلعن من أشار علينا ونسب الدنيا والحظ وأحياناً نفكر في الانتحار.

أما الشاب الصغير فقد اقترب مرة أخرى منها في إلحاح جديد:

ـ الله! مش المدموازيل في الآداب؟.

ولم تتحرك شعرة واحدة فيها وكأنها لم تسمع.

وبدأت أتفاءل.

ولو كنت مكانه لهبطت من الأوتوبيس في الحال، ولظللت أهيم على وجهي في الشوارع حتى أنسى مرارة الفشل. ولكنه قبل أن يختفي صدى الجملة الثانية كان قد اقترب بوجهه من وجهها للمرة الثالثة، اقترب كثيراً وهمس في عصبية:

ـ حضرتك رايحة هناك؟

وظل رأسها ثابتاً في مكانه ووجهها ثابتاً على وضعه ونظراتها مركزة على رأس الأخ الأصغر. شفتاها فقط اشتد ضغطها عليهما

حتى برزتا إلى أمام في شبه احتقار. وصحيح أني كنت أتوقع من فتاة غضبت في أول محاولة أن تصنع شيئاً أكثر من هذا في ثالث محاولة، ولكن من الطريقة التي ضغطت بها شفتيها أحسست أن صبرها قد فرغ وأن الويل له لو حاول مرة أخرى.

وحاول، اقترب منها كثيراً وكادت السلسلة تنقطع في أصابعه وهو يهمس بسرعة وفروغ صبر:

ـ لازم رايحة البيت؟

وكتمت أنفاسي في انتظار النتيجة.

وبدا أنه فشل في هذه المرة الأخيرة أيضاً، لولا.. لولا ذيل الحصان اللعين فقد لمحته يهتز، خيل لي أول الأمر أنه يهتز اهتزازاً طبيعياً ولكن أبداً كان اهتزازه عن عمد وعن سبق إصرار، وكانت تقول له:

ـ أيوه.

وفي الحال وقبل أن تغير رأيها قال بسرعة وانتصار:

ـ في الجيزة مش كده؟

وقالت هذه المرة بلسانها وقد انتقل الخجل من وجهها إلى ابتسامتها:

ـ أيوه.

وكدت أوجه لكمة إلى رأس مندوب العائلة الذي كان واقفاً

يتفرج على الشارع من خلال النافذة في بلاهة منقطعة النظير.

ولكني لم ألبث أنا الآخر أن رحت أتطلع مثله، وقد تركت جاري العزيز مستغرقاً في المشهد الذي يدور أمامه دون أن ينبس بحرف ووجهه لا يزال يحفل بالنشوة والمتعة!.

وحين عدت من رحلة يأسي كانت الأمور قد تطورت بسرعة، وكان الشاب يحادثها بصوت الواثق من نفسه.. بصوت الرجل الظافر حين يهتك حجب الخجل عن أنثاه في إصرار.

وكانت قد تركت يد الأخ الأصغر وراحت يدها اليسرى تقضم أظافر اليمنى وتعبث بها بينما الأخ يحاول أن يجذب يدها ليعود يمسكها بلا فائدة، وكان ذيل حصانها يهتز باستمرار اهتزازات أفقية ورأسية وبيضاوية ودائرية، وأحياناً يرتعش.. فقط يرتعش، شعراته المنضمة إلى بعضها في حزمة ترتعش وتتباعد قليلاً ثم تعود إلى الانضمام.

ولم أعد كثير الحماس لسماع ما يدور بينهما. جاري كان هو المتحمس، وكان من فرط حماسه قد مد رقبته على آخرها حتى كادت تصبح له أذن عند فم الفتى وأخرى عند فم الفتاة.

وحين عدت كان الشاب يتحرك كمن يستعد للنزول، فقال لها وكل عضلة في وجهه وذراعيه تنتفض وتشجعها:

ـ خلاص؟.

واهتز ذيل الحصان اهتزازات رأسية كثيرة متلاحقة.

وعاد وهو يقول:

ـ أوعي تنسي النمرة.

واهتز ذيل الحصان اهتزازات أفقية تنفي بها.

ـ طب كام؟

وواجهته بعيون مرتعشة وقالت:

ـ مش ٨٩٩؟

ثم سكتت وخجلت وأطرقت وبسرعة عادت تقول:

ـ ٨٩٩٥٩٢

وتهلل وجهه فرحاً وكاد يعانقها قائلاً:

ـ برافو! إيه ده؟ دا أنت هايلة.. ح تكلميني إمتى؟!

يمكن بكره.

ـ لأ النهار ده.

ـ أما شوف.

ـ النهارده.

ـ طب النهارده.

وخيل إليّ أنه يكاد لولا الناس يقبلها، بل لم أستبعد أن يفعلها فقد كان واضحاً أنهما لا يحسان كثيراً بكل ما حولهما.

وقال الشاب هامساً:

ـ بس حاسبي، أخويا صوته شبهي تمام.. أوعي تغلطي فيه ابقى اتأكدي أني أنا اللي برد.

ـ اتأكد إزاي؟

- لما أقول أنا أحمد ردي .

- اسمك أحمد.

- أيوه. وانتي؟!

وأطرقت وارتفع ذيل الحصان في الهواء كثيراً وكأنها ترفع راية الخجل، وغمغمت باسم لا يمكن أن يسمعه أحد ولكن الولد لقطه وسمعه، عرفت هذا حين قال:

- اسمك حلو قوي .

- ثم أردف بجرأة:

- زيك .

وسحب جاري رقبته الممتدة بسرعة وكأنما لسعته ولعة سيجارة أو كأنما أحس أن الشاب يغازله هو، غير أنه لم يلبث أن أعاد رأسه إلى وضعه في الحال حتى لا تفوته كلمة .

وكان الأوتوبيس يستعد للوقوف في محطة الجامعة وكان الشاب هو الآخر يستعد للنزول، وقبل أن يأخذ طريقه إلى الباب همس:

- لولا المحاضرة مهمة كنت وصلتك. خلاص؟

- خلاص .

- النهاردة؟

- النهاردة .

- فاكرة النمرة؟

- مش ح انساها

- طب كام؟

وخجلت من نفسي وأنا أحاول أن أنافس الفتاة وأجهد ذاكرتي لأتذكر الرقم، ولكني فشلت.

وقالت الفتاة بسرعة وكأنها جهاز تسجيل:

- مش ٨٩٩٥٩٢.

وقال الشاب في انبهار:

- برافوا أنا ح اقعد طول النهار جنب التليفون. . أوريفوار.

وتدفقت الدماء إلى وجنتيها ترد.

وهبط الشاب وبشعاع واحد من عينها ودعته واطمأنت على جمال مشيته، ثم عادت يدها تتسرب في وهن وهيام وتسمح ليد الأخ الأصغر أن تقبض عليها وتفعل بها ما تشاء.

ولست أدري كيف أدركت وهي في قمة حالتها هذه أن محطتها هي التالية، فقد وجدتها بعد قليل تجذب يد أخيها وتأخذ طريقها إلى الباب.

وما كاد جسدها النحيل يختفي في الكتلة البشرية المتزاحمة قرب الباب حتى أفاق جاري من نشوته في الحال، وما لبث أن إرتفع صوته وراح يضرب كفاً بكف وينظر إلى بقية الركاب يستنجد بهم ويشهدهم، ويقول في غضب حقيقي:

- أما كلام فارغ صحيح وقلة أدب! البلد خلاص باظت. . أنفلت عيارهم. . إيه ده؟ لازم يوقفوا في كل أوتوبيس عسكري من بوليس الآداب، لازم يقاومهم زي ما بيقاوموا النشالين. دي مسخرة دي. . دانا شايفه بعيني بيمد إيده عليها. مش كده يا أستاذ؟ والله لولانا كان

مد إيده عليها وهي ساكتة. دا إجرام ده.. مفيش بوظان بعد كده. دانا سامعة بودني بيديها نمرة تليفونه.. بودني. كده والـلا لأ يا محترم؟ كده والـلا لأ؟ وكل ده في محطة واحدة، دا لازم القيامة ح تقوم، والله يمكن قامت فعلاً.. لازم القيامة قامت!.

شيخوخة بدون جنون

في صابح اليوم كهذا مات عم محمد.

والذي ضايقني أن كل الناس يأخذون خبر موته على أنه مسألة مفروغ منها، مسألة لا تحتمل بكاء ولا تأثراً أو حتى مصمصة شفاه.

يومها بدأت العمل بالتصديق على شهادات الميلاد.. وكل يوم كنت أبدأ عملي بالتوقيع على هذه الشهادات حتى يصبح المولود من هؤلاء مواطناً رسمياً معترفاً به من الدولة. والواقع أن عملي كمفتش صحة طالما ذكرني بسيدنا رضوان، فإذا كان عمله هو حراسة الآخرة فلا أحد يدخل فيها إلا بإذنه ولا أحد يغادرها إلا بتصريح منه، فأنا الآخر أحرس الدنيا لا يدخل فيها أحد ولا يقيد وارد ومولود إلا بإمضائي، ولا يعتبر الواحد قد خرج من الدنيا ومات إلا إذا وافقت أنا على هذا. كنت أبدأ باعتماد الشهادات، ثم يقف سرب طويل من الأمهات أمامي لأكشف على أذرع أطفالهن وأرى إن كان التطعيم قد نجح أم لا.. نفس الأطفال الذين كانوا من فترة لا تتجاوز سنهم الأربعين يوماً مجرد شهادات ميلاد، الآن أصبح لهم عمر وبدأت لهم مشاكل.

والحق أني كنت رغم مضايقات العمل الكثيرة أحس بنشوة وأنا أزاول عملية «المناظرة» تلك. الأطفال كلهم صغار وفي عمر واحد كأنهم باقة من أزهار الفل الصغيرة السن أشمها كل صباح، كلهم صغار وكلهم حلوون، وصراخهم مهما علا فهو رقيق لا يؤذي السمع، وأيديهم بضة صغيرة، وأظافرهم دقيقة تحب أن تقبلها، ورفساتهم فيها كل نزق الحياة وروعتها. والأمهات ـ أمهاتهم ـ كلهن أيضاً حديثات الزواج وصغيرات، وكلهن فرحات بأطفالهن مبالغات في الحرص عليهم ولفهم في سبع لفائف، قادمات لا بد من الصباح الباكر إلى مكتب الصحة وقد تجمعن وارتدين أحسن ما لديهن، وخططن حواجبهن وتكحلن، ووجوههن صابحة تلمع بالنظافة، وكلامهن صاف لا ضغائن ولا نقار ولا خناق ولكنه أنثوي عذب فيه كل دلع المصريات المؤدب الذي لا يزيد عن الحد، وفيه كل خجلهن.

يقف الطابور أمامي وعلى ذراع كل أم صغيرة طفل صغير، ولا يستقيم الطابور أبداً فكل واحدة تنخلع منه لتختلس النظر إلى ملابس الأخرى أو لتقارن بين ابنها اسم الله عليه وحجمه وسمنته وابن التي أمامها أو خلفها.. مقارنة لا تحمل سوى حب الاستطلاع ووالله ليس فيها حسد، ومع هذا فكل واحدة تحاول إخفاء ابنها عن الأخرى مخافة العين، فتزيد من عدد اللفائف وتحيط عنقه الأبيض بالأحجبة وأسنان الذئاب، ولا بد أنها حين تعود إلى البيت ترقيه وتبخره. وحين تصل الواحدة أمامي ترتبك وهي تحاول أن تستخرج اليد الدقيقة من

الكم الدقيق، وكم هو جميل ذلك الكم ـ ويبدو أن كل شيء صغير جميل ـ ترتبك وهي تستخرج الذراع. . ذراع طولها طول الإصبع ولكنها مشاكسة وقبضتها مضمومة في إصرار وكأنما تتوعد الدنيا وتتحداها، ويرتفع الصراخ. . صراخ هذه المرة غاضب أحمق وحمقه حبيب، وكم كان يؤلمني الجرح الحادث من التطعيم، الجرح البشع السخيف الذي يشوه البشرة الناعمة البضة.

وينتهي الطابور وتنتهي المناظرة ويخف ازدحام المكتب، وتختفي أصوات النساء بكل ألوانها ولهجاتها ونبراتها لتبدأ ضجة أخرى تعلو وتعلو. . ضجة ليس فيها أنوثة النساء ولا رجولة الرجال، ضجة الفتيان الصغار والفتيات الذين كانوا من سنين قليلة مجرد أطفال على أذرع أمهاتهم في طابور المناظرة، ولكنهم قادمون على أرجلهم هذه المرة وبأنفسهم. إذ هم التلامذة الذين يريدون شهادات من المكتب لتقبلهم المدارس، والعمال الصغار والعاملات الذين جاءوا لإقرار أن سنهم تزيد على الاثني عشر عاماً لينطبق عليهم قانون تشغيل الأحداث وبهذا يمكنهم أن يبدءوا معركة العيش بعرق الجبين. وطابور هؤلاء لا ضجة فيه ولا صخب، فهم يقفون صامتين مستغربين عيونهم تحدق في الناس والأشياء بدهشة وذهول، وفي صدورهم خشوع الداخل إلى عالم ثان مجهول.

وقبل أن ينتهي طابورهم تكون ثمة ضجة أخرى قد بدأت تتجمع في الخارج، ضجة فيها زعيق وعصبية وأيمانات مغلظة وكلمات مكتومة تتناثر عن الظلم والعدل والإنسانية والحكومة والوقت

الضـائـع، ضجـة الـرجـال. . ضجـة لا تهـدأ حتى بعـد أن يـوقفهم التومرجي طابوراً وتنكمش قبضته الواسعة على النفحات الضئيلة التي يجـود بها البعض، ويهـز رأسه مئـات المرات وهـو يؤكد لهم أن كله بالدور وأنهـم حتماً سيأخذون الإجازات التي يريدونها وسينجحون بإذن الله في الكشف الطبي، وأن الدكتور خالـد طيب وابن حلال ومزاجه اليـوم عال العـال، وعلى العين والرأس أعمارهـم ستقدر وحـاجاتهم ستنقضي بس شوية صبر: والصبر يا إخواننا من الإيمان.

ويدخل طابور الرجال. . طابور عمره ما وقف طابوراً. طابور لا تلمـح فيه سـوى وجوه رجـال قلقـة تملؤها عجلة السبـاق المجنـون للاستحواذ على الرغيف وانتزاعه من أفواه الآخـرين، وجوه خـربشتها الحياة وخشنتها وجرحتها. . والجراح لا تزال يقطر منها الدم.

وحين تبلغ السـاعة العـاشرة أنتهي من عـالم الأطفـال والفتيـان والكبـار لأدخل في عـالم آخر عالم الموتى. وللأمـوات هم الآخـرين عالمهم ومشاكلهم، والميت لا ينتهي أمره أبداً بموته فقد يثير بـوفاتـه أضعاف المشاكل التي أثارها بحياته، فإذا كان عقاب أهل المولود إذا هربوه إلى الدنيا بلا تصريح أو شهادة ميلاد هو الغرامة جنيـه، فعقاب أهـل المتوفى إذا هـربوه من الـدنيا ودفنـوه بـلا تصـريـح هـو الحبس والسجن. وإذا كانت الحكومة لا يهمها كيف يعيش الإنسان طالما هو حي فهي توليه العناية القصوى إذا مات، والقانون لا يسـأل أبداً كيف عاش ولكنه يصرخ بأعلى صوته: كيف مات؟

وإذا كان المعروف أن بعض الظن إثم فالمشروع يرى أن كل الظن فضيلة عظمى، فأي إنسان يموت لا بد أنه مات مقتولاً ما لم يثبت عكس ذلك وأنا الذي كان يقع على عاتقي إثبات ذلك العكس، فعليّ أن أكشف على كل متوفى وأعاينه وأفحصه وأشمشم وأرتاب، حتى إذا ما اطمأن قلبي خمنت السبب التقريبي لوفاته وقيدت ذلك في الشهادة، وفي لحظتها فقط يصبح من حق الميت أن يدفن ويتوكل على الله إلى العالم الآخر.

في الساعة العاشرة كنت أبدأ عملي مع الموت، وأول من كنت أراهم في هذا العالم هم صبيان الحانوتية حين يدخلون ويتجمهرون أمام المكتب. وكان عم محمد أحد هؤلاء الصبيان، وأول الأمر لم أكن أستطيع تمييزه من بينهم فقد كانوا جميعاً متشابهين، وإذا كان الصبيان في العادة لا يمكن أن تتعدى أعمارهم مرحلة الصبا فأولئك كانوا أغرب صبيان، إذ إن أصغرهم لا بد قد تجاوز الخامسة والستين من زمن طويل. كلهم عواجيز.. وكبرهم ليس من ذلك النوع الصحيح السليم مثل الموظفين المحالين إلى المعاش مثلاً أو المتقاعدين الذن تجدهم قد ابيضت شعورهم حقيقة.. وتجد وجوههم فيها تجاعيد وظهورهم قد أصابها الاعوجاج، ولكنك تحس إذا نظرت إلى الواحد منهم أنه رجل كبير في السن ليس إلا. هناك نوع من الكبر يمسخ الكائن الحي ويحيله إلى هيكل هش مرتجف. هذا الوجه الإنساني المتناسق التقاطيع المرتب القسمات يستحيل إلى زبيبة.. مجرد زبيبة جافة مكرمشة لا يمكن أن تقول أبداً إنها كانت

حبة عنب حمراء مملوءة بالدم والحياة في يوم من الأيام.

كان صبيان الحانوتية كلهم من هذا الطراز، الطويل فيهم قد زاده الكبر نحولاً وطولاً، والقصير قد زاده العمر الطويل قصراً.

ودائماً وجوههم ضامرة غلبانة، جلدها خشن مجعد وذقونها بيضاء نابتة، ونظراتها كليلة والعين الواحدة لا بد مصابة بأكثر من داء. ولهم ملابس«شغل» جلابيب قديمة ممزقة قد تختلف أنواعها وألوانها ولكنها قصيرة كجلابيب التلامذة لا تتعدى الركبة، ولهم غطاء رأس واحد. . فلكل منهم عمامة عبارة عن خرقة ـ أي خرقة ـ ملتفة حول طاقية ـ أي طاقية ـ أو حتى يتعمم بها على اللحم.

كنت ما أكاد أراهم حتى يخالجني الضحك، فقد كانوا يبدون بأعمارهم تلك وعاهاتهم وملابسهم وعمائمهم ككائنات غريبة عن عالمنا هبطت لتوها من كوكب آخر كل ما فيه شائخ وعجوز.

وكان عمل هؤلاء «الصبيان» يبدأ من اللحظة التي تطلع فيها روح الميت تماماً كالملائكة، فإذا كان الملائكة يتولون حمل الروح إلى السماء كعابي أو على مراكب الشمس، فصبيان الحانوتية يتكلفون بالجثة حتى يغيبوها في باطن الأرض. وقد يبدو للبعض أن عمل الحانوتية أسهل ولكنه في الواقع أصعب مائة مرة من الصعود بالروح إلى السماء، وقد يبدو للبعض أنه عمل بغيض والواقع أنه ليس بغيضاً ولا يحزنون، إنه مجرد عمل كغيره من الأعمال. وإذا كنا

نعمل فقط من أجل أن نأكل فكل عمل بغيض وكل عمل شغل، وكل شغل كار وكل كار له أصول.

والأصول أن معلم الحانوت الكبير هو الذي يجلس في الدكان يتلقى بلاغات الوفاة ويقابل الزبائن ويقبض العربون، وفي أحوال نادرة يتولى بنفسه غسل الكرام.

أما الصبيان فهم الذين ـ حين يتم الاتفاق ـ يذهبون جرياً في جري إلى البيت المتوفى، ويتولون معاينته وخلع ملابسه، ثم يجري الواحد منهم إلى مكتب الصحة قبل فوات الميعاد، ثم يعود جارياً في جري مستصحباً الطبيب، ثم يجري إلى الحانوت. . وإلى الدكان أو العطار، وبأذرعه النحيلة يحمل الميت إلى المغسلة ويلبسه الكفن ويسخن الماء ويدلقه ويضع الميت في النعش، وقد يساهم بقسط كبير في حمل المتوفى إلى الجامع والمدافن، والنعش له ذراع خشبية طويلة غير ممسوحة أو مهذبة تستقر فوق عظمة الطوق العجوز التي لا يغطيها لحم فتكاد تقطعها، والنعش ثقيل والمسافة دائماً طويلة، وما أفظع الصيف. . والمصيبة الكبرى لو كان الميت من أصحاب الأوزان الثقيلة.

في الساعة العاشرة يدخل عليّ صبيان الحانوتية ويتجمهرون أمامي وتمتد أذرعهم الجافة العجوزة ببلاغات الوفاة، وكل منهم ينافس الآخر في إغرائي ، وكل منهم يحاول أن أذهب معه أولاً لأكشف على متوفيه وأصرح له بالدفن لينجز عمله قبل فوات النهار.

وكنت مـا أكاد أراهم حتى تنتـابني آلاف المشـاعـر والـرغبـات أقـواها جميعـاً رغبتي في أن أضحك. ولم أكن أدري بـالضبط لمـاذا يراودني الضحك. . ولكن شيئاً ما في تركيب صبيان الحانوتيـة هؤلاء كنت لا أكـاد أراه حتى أضحـك، لا من الصبيـان ولا من تـزاحمهم ولكن من الحياة نفسها، ذلك الشيء الرائع الجميل الـذي نتشبث به بكل ما نملك من قوة، تلك الحياة أحيـاناً تضحـك. وكنت لا أكتفي بالضحك بل كان لساني يتحرك، أحياناً يسخر وأحياناً يتفلسف وأحياناً يقول شيئاً تافهاً لا معنى له. وفي أغلب الأحوال كنت أقـول «للصبي» الـذي اكتسح زملاءه في سباق الأيدي وأصبح أمامي مباشرة:

ـ وأنت. . إن شاء الله حنكتب شهادة وفاتك إمتى؟

وكـان الصبي الشيـخ حينئـذ يضحـك. . وضحـكهـم ليس كضحكنا، فالواحد منهم ينـظر إلى الأرض ويمط رأسـه ويعض على نواجذه وتتسع عيناه قليلاً، ثم تخرج. . هه. . هه. تخـرج من حنجرة جافة شائخة لم تعد تقوى حتى على الضحك.

كانوا في العادة يضحكون كلما سألتهم ذلـك السؤال، غير أني قلت لأحـدهم شيئاً كهـذا مرة فلم يضحـك واستغربت، فـالعـادة قـد جـرت أن يضحك الجميع لكلامي سـواء أرادوا أم لـم يريـدوا إذ كل منهم كان يحاول إرضائي. استغربت وأمعنت النـظر في «الصبي» ولم أجده يختلف عن بقية زملائه في قليل أو كثير.

فقد كانوا جميعاً متشابهين كما يتشابه الأطفال حديثو الولادة في

طابور المناظرة، وكأنما يبدأ الناس متشابهين وينتهون متشابهين. كل ما استطعت أن ألحظه من فوق أن عينيه الاثنتين كانت عليهما غشاوة رمادية داكنة كسحب الشتاء. وقلت له:

ـ مالك؟!

كان لا بد أن في الأمر شيئاً فقال ووجهه إلى الأرض:

ـ يا ريت الواحد مات بداخلها.

ـ بدال مين؟

ـ مش بنتي تعيش أنا.

ـ ماتت.

ـ أيوه إمبارح. . هب فيها الوابور وماتت في المستشفى.

ولم أصدقه فقد قال هذا دون أن يتغير الانفعال الذي لا يبرح وجهه، وسألت (معلمه) لأتأكد. . ومعلمه لم يكن رئيسه فقط ولكنه يرأس ثلاثة صبيان شيوخ آخرين من صبيان حانوته. ولم يكن رجلاً ضخماً له شوارب كعادة(المعلمين). . كان شاباً في الثلاثين حليق اللحية والشارب لونه برونزي قاتم وملامحه شديدة الخطورة، ومع هذا كان فهلوياً مضحاكاً ورث الحانوت حين مات أبوه بعد أن لف ودار، وتجمعت له كل حداقة اللف والدوران. ومن حركاته وطريقة ابتسامه تحس أنه ولد لا تفوت عليه الواحدة، وإذا فاتت فبخاطره فقط ورضاه. ورغم صغر سنه فقد كان يرتدي الزي التقليدي للمعلمين الكبار. . . طربوشاً وجيهاً فاقع الحمرة، وجلباباً من الصوف تحته

قفطان من الحرير يبدو قيطانة الأسود من فتحة الجلباب، وحذاء أسود أنيقاً، وفي يده سبحة كهرمان.

سألته فأكد لي أن ما قاله الرجل صحيح وأن ابنته ماتت حقيقة في المستشفى، وقد أصبح بموتها وحيداً مقطوعاً من شجرة.

وصعب عليّ عم محمد جداً وهو واقف وقفته المنحنية المائلة وكأنما تجذبه الى الأرض قوة عاتية تستعجل اللحظة التي تواريه داخلها، واقف لا يبكي ولا يدمع ولا يهز رأسه ولا ينهار.

وقلت له:

ـ معلش يا عم محمد. . . البقية في حياتك.

وتنبهت وأنا أقول له هذا إلى أني أخمن فقط أن اسمه عم محمد وأنني لا أعرف اسمه الحقيقي، ولا أعرف إن كان محمداً أو علياً أو سمعان. . كنت أناديهم جميعاً بيا عم محمد، وكانوا من فرط تواضعهم وأدبهم يردون وكأن لم يعد مهماً لدى الواحد منهم أن يمتلك اسماً. ودغم عم محمد الكلمات وهو يردد ويقول:

ـ يا ريت الواحد كان مات بدالها.

ونحن كثيراً ما نسمع تعبيراً كهذا يردده الناس في مناسبات كهذه، ولكننا نأخذه على محمل التأثر الشديد لا غير، ولكن طريقة عم محمد في قوله كانت لا تقبل الشك وكان واضحاً تماماً أنه يعني ما يقول.

ومن يومها بدأت أهتم بالرجل.. بل بدأت أهتم بكل عم المحمدات من أمثاله، وعرفت السر في كبر السن الذي يبدو كأنه شرط أساسي من شروط العمل كصبي حانوت، فمعظمهم كانوا فراشين في مدارس أو سعاة في مصالح، أو عساكر بوليس أو خدمة سايرة، ثم أحيلوا الى المعاش والاستيداع بعد أن بلغوا السن وقضوا السنوات التي أعقبت الإحالة يزاولون أعمالاً أخرى. ثم حين تنهد قواهم تماماً ويبلغون من العمر أرذله ولا يعودون يصلحون لأي عمل آخر، لا يصبح أمامهم مجال لكي يأكلوا العيش إلا العمل كصبيان حانوتية.. هذا إذا ساعدهم الحظ وكان هناك محل خال، إذ هي صنعة لا تتطلب قوة كبيرة وأجرها ضئيل لا يرضي به أحد، لا يرضى به إلا عجوز على شفا الموت ضعفاً أو جوعاً.

ومع هذا.. ومع درجات العمر التي بلغوها.. وفي تلك السن التي لا يستطيع العجوز فيها أن يفعل شيئاً إلا أن يستلقي فوق فراشه وينتظر الموت، مع هذا فما أكثر ما كانوا يتعبون ويشقون.

وعشرات الرحلات قطعتها مع عم محمد.

وقبل أن تبدأ الرحلة لا بد أن تحدث المسرحية التي تتكرر كل أسبوع.. فعم محمد مستعجل ويريد أن ينتهي من أخذ تصريح الدفن بسرعة ليتفرغ لغيره من المشاكل، وليرضي المعلم ويريه كأي صبي شطارته. ولهذا فهو لا يريد أن أكشف على المتوفى لأن معنى الكشف أن أذهب الى بيته والرحلة تستغرق وقتاً طويلاً. هو يريدني أن أمضي له التصريح ونحن في المكتب، ولكن الأوامر هي الأوامر وعليّ أن أكشف على المتوفى قبل التصريح. ويتحمس عم محمد

جداً وهو يقسم بأغلظ الأيمان أن الوفاة طبيعية وألا جناية هناك ولا شبهة وأنه بنفسه قد خلع ملابس المتوفى وفحصه وجذب شعره وحملق في عينيه وتحسس عظامه، وأنه لا يريد سوى راحتي فقط. وأهز له رأسي علامة الرفض فيهز رأسه علامة اليأس، ويجري أمامي ويقول:

ـ على كيفك يا بيه.. اتفضل..

ونمشي قليلاً ثم يتوقف عم محمد ويعود يقول:

ـ والله يا بيه دا راجل كبير في السن وما فيه إلا شيخوخة بدون جنون.

و«شيخوخة بدون جنون» تعبير اصطلح على إطلاقه على سبب الوفاة حين يكون المتوفى كبير السن وليست هناك علامات مرضية أخرى تصلح سبباً للوفاة. وتضاف كلمة «بدون جنون» لأسباب قانونية تتعلق بميراث المتوفى والمشاكل التي تنشب بين الورثة حوله، هذا إذا كان قد خلف ثروة فعلاً وعقاراً.

وهذا الاصطلاح قد شاع وانتشر بين أطباء الصحة وموظفي المكاتب والحانوتية لدرجة أنه لم يعد من المستغرب أن يقترحها عم محمد كسبب للوفاة...

يتوقف عم محمد ويحاول محاولته الأخيرة تلك، ولا يجد لها صدى عندي فيعود يجري ويسبقني ليريني الطريق الى بيت المتوفى، والمنطقة آهلة بالسكان والبيوت والذباب وكل شيء قد يخطر على

البال، الناس أكثر من البيوت . . والبيوت أكثر من الفضاء . . والذباب بمعدل مليون ذبابة لكل قاطن . . والأشياء مكدسة مزدحمة وكأن من كومها فوق بعضها مستعجل لا وقت لديه .

وعم محمد رجلاه رفيعتان مقوستان وعرقه يسيل، وحجمه ضئيل أصغر من قرد عجوز يكافح ليلاحق خطوي، ويكافح ويكافح ليصبح أمامي، ويزيح الناس حتى يدبر لي مكاناً محترماً أمر فيه، ويصنع من نفسه عسكري مرور ويوقف عربات الكارو، ويأمر باعة الخضار بالكف عن تشويحات الأيدي والزعيق حتى يمر «البيه»، ويلهث ويحدثني ويسليني، ويلعن الخلق والزحمة ومن يخالفون أوامره ولا يفسحرن الطريق، ويقول إن الخير زال وأيام زمان كان الموتى على قفا من يشيل وكانت الأشياء معدن، ويلهث وأسأله وقد بدأت أنا الآخر ألهث عن المتوفي وبيته وهل لا يزال بعيداً، فيقول خطوتين بس. وأخطو عشرات الآلاف من الخطوات ولا يظهر بيت ولا ميت! وموكبنا الصغير يدلف من شارع الى زقاق ومن زقاق الى خندق وحارة . . أسوأ موكب، ما أن يرانا الناس حتى ترتفع الهمسات :

ـ يا فتاح يا عليم ع الصبح . . يا ترى مين مات النهارده؟

وعم محمد يجري أمامي ومن خلفي وعلى جانبي، خائف خوف الموت أن أزهد وأزهق فأؤجل الكشف الى ما بعد الظهر أو الغد وتكون الكارثة .

وأخيراً جداً نصل الى بيت المتوفى، وقبل أن نصل إليه يستميت عم محمد وهو يأخذ ثوبه في أسنانه ويضاعف من جريه ليسبقني ويوسع السكة.

وما أكاد أضع قدمي على الباب حتى تدوي عدة أصوات ينخلع لها قلبي، ثم يرتفع تعديد: جالك الحكيم يا ضنايا. وكأن القادم هو عزرائيل.. ولكن عم محمد لا يأخذ باله من هذا، يرتفع صوته خارجاً على ضعفه:

- وسعي يا بنت انتي وهيه.. اتفضل يا بيه.. يالـلا بلاش لكاعة.. يا خويا النسوان الكتيرة دي بتيجي من أنهى داهية.. اتفضل يا بيه.

وتتسلل أكوام السواد والملاءات التي كانت تملأ حجرة البيت، تتسلل الى اليمين والى اليسار تنقب في وجه الحكيم وتتأمله وتعلق.

ولا بد أن تأتي اللحظة التي تخلو فيها حجرة المتوفي ولا يبقى معه سوى القريب وعم محمد وأنا.

فيندفع عم محمد وهو لا يزال يلهث من المشوار والجري ويكشف عن الميت غطاءه ويقول وكأنه يريد أن يثبت لي براءته، وأنه كان على حق في أن الوفاة طبيعية:

- أهه يا بيه.. زي الفل اهه.. والله ما فيه جنس حاجة. آدي صدره اهه، وآدي بطنه، وآدي بقه اهه نضيف زي الصيني بعد غسيله، وآدي شعره اهه.

ويجذب عم محمد شعر الميت ليريني أنه لم يمت مسموماً، وإلا لتساقط الشعر في يده، يجذب الشعر بقوة وعصبية فهو يريد أن يخلص والظهر اقترب، ويقول له أهل المتوفى حاسب! فيقول:

ـ حاضر.. أحاسب غصب عن عين أبويا أحاسب. وآدي الرجلين يا سعادة البيه.

ويرفع ساقي الميت ويقول:

ـ والله ما في إلا شيخوخة بدون جنون، وآدي ضهره.

ويحاول عم محمد أن يقلب الميت لأرى ظهره، ويستعين بالسيدة والحسين وكل الأولياء ولكنه لا يستطيع، فيكش فيه المعلم ويهب قائلاً:

ـ اوع يا شيخ... جك تربة تلمك.

ولكن عم محمد لا يتنحى بل يظل في مكانه يساعد معلمه في قلب الميت ولو برفع ساق أو عدل يد.

وحين ينتهي الكشف ونخرج تبقى أنظار عم محمد معلقة بملامحي وكأنه ينتظر نتيجة امتحان، ولا يتنفس الصعداء إلا حين أمضي التصريح فيأخذه وكأنه نعمة هبطت لتوها من السماء.. ويعض على نواجذه وتتسع عيناه وكأنه يبتسم ويقول:

ـ مش برضه شيخوخة بدون جنون يا بيه؟. مش قلتلك؟ أنا كنت بس عامل على تعبك.

ثم تنطلق سيقانه المقوسة الرفيعة تجري وتسبقني الى المكتب.

ومرة لمحت في عين عم محمد دمعة.. دمعة صغيرة دقيقة وكأنها آخر دمعة في حصالة عينيه. وكانت على أثر قلم سريع خاطف ناله من المعلم. كان قد ارتكب خطأ ما إذ حين ذهبت لأكشف على متوفى لم يكن قد خلع عنه كل ملابسه. وقبل أن ألوم المعلم على هذا الإهمال أو أؤنبه كان هو قد هوى بكفه على صدغ عم محمد في صفعة سريعة خاطفة وكأنما ليقرر بها أن الذنب ذنب صبيه، ويريني أن العقاب قد أنزل ولم يعد هناك داع لكلمة لوم واحدة مني. وتولاني غضب جامح.. أما عم محمد فالعجيب أنه لم يثر ولم يحتج ولم يترك الغرفة، بل وقف ويده مثبتة فوق مكان الصفعة وعلى وجهه إحساس بالذنب، تماماً كما يفعل أي صبي صغير حين يخطىء ويعاقبه المعلم.

وذهبت الى المكتب مرة فوجدت حشداً كبيراً من العم محمدات. وكانوا يبدون إذا وقفوا معاً وسط ما يحفل به المكتب من نساء صغيرات وأطفال ورجال، يبدون كقبضة من قش الأرز في وسط باقة من الزهور. وكانوا إذا وقفوا معاً لا يتحدثون كما تفعل جماعات الناس بل يقفون ساكتين صامتين وكأنهم من طول ما تكلموا في أعمارهم الطويلة قد ملوا الكلام.

واستغربت إذ لم أتعود وجودهم في جماعات كبيرة كتلك. وما إن رآني المعلم الشاب حتى أقبل هاشاً باشاً متهلل الوجه مصبحاً

بالفل والياسمين والقشطة ومقبلاً الأيادي، ولم يسلم الأمر من ضحكة عريضة جوفاء رددها، ثم بدا عليه تأثر مفاجىء وضم قبضته على بطنه وقال:

ـ اسكت يا شيخ.

ـ إيه؟

ـ مش الراجل مات.

ـ راجل مين؟

قلتها وأنا أكاد أضحك، فقد كان من عادة المعلم أن يحدثني عن أشياء لا أعرفها وكأني أعرفها، ولكنه قال:

ـ الصبي بتاعنا..

ـ عم محمد؟..

ـ تعيش أنت.

وفي الحال اتخذت سيماه طابع العمل وقال:

ـ بس والنبي يا دكتور تخلص لنا تصريح الدفن بتاعه بسرعة.. انت عارف.. الدنيا صيف وده راجل عضمه كبير..

وضحكت فلم أصدق أن عم محمد مات حقيقة، فقد كان معي بالأمس يجري أمامي وخلفي وعلى جانبي، ثم لما تصورته ميتاً ضحكت لا لأني لم أحزن ولكن لأن هناك نوبات من الحزن تأتي على هيئة ضحكات. ثم إن معلمه كان يستعجل تصريح دفنه بنفس الطريقة التي يستعجل بها تصاريح الزبائن!.

وقال المعلم وهو يستحثني :

ـ هيه يا بيه . . قلت إيه؟

فقلت :

ـ بقى الراجل يعملها ويموت .

فقال المعلم :

ـ أيوم . . ولو ما ربنا بعت لنا صبي غيره كانت بقت وقعة النهارده . . .

ـ صبي غيره؟

ـ أهه . . تعال يا جندي .

وجاء جندي . . عجوز آخر في السن ولكنه لم يكن قد ارتدى الزي الرسمي بعد، فعلى رأسه كان ثمة طربوش قديم قد انهار وتكوم في كتلة لا شكل لها ولا معنى .

وقال المعلم :

ـ امضي لنا التصريح بقى يا بيه .

فقلت له :

ـ لا . . أنا لازم أروح أشوفه .

فعاد يقول :

ـ يا بيه هو غريب؟ . . ما أنت عارفه . . أنا بس عامل على تعبك . هو أنا ح اضحك عليك؟ دا راجل مسن، صرح لنا من هنا وخلاص . . شيخوخة بدون جنون والله ما في غيرها .

وتطوع أكثر من صبي من صبيان الحانوتية والواقفين بالرجاء

والإلحاف ومساندة المعلم. كانوا زملاء الفقيد قد جاءوا بلا ريب تدفعهم الرغبة لعمل شيء للزميل الراحل.

غير أني أصررت على الذهاب ولو لألقي على عم محمد نظرة الوداع، فللرفقة حق ولقد كان رفيق الطريق.

وبعد قليل غادرنا المكتب للكشف على عم محمد.

وكان موكبنا رهيباً.. كنت في المقدمة وبجواري المعلم وقد رفع ذيل جلبابه بيد وراح يحدثني بيده الأخرى وبأصابعه وهزات رأسه عن «خرجة» عم محمد وكيف سيخرجه هو على نفقته، مع أن الوقت غير ملائم والدنيا على كف عفريت.

وخلفنا كانت جمهرة العم محمدات.

وكان الموكب رهيباً إلى الدرجة التي كانت توقف الحركة في الشارع، وتدفع الناس إلى التساؤل عن الميت الهائل الذي يتطلب الكشف عليه هذا العدد من الحانوتية وصبيانهم.

وكان البيت الذي يقطن فيه عم محمد بعيداً في سفح الجبل، وعبارة عن حوش واسع في وسطه كومة هائلة من الزبالة وحولها حجرات أكثرها منهار، ومع هذا فلكل حجرة سكان وقاطنون.

ولم يثر مقدمنا ضجة ولا صراخاً ولا صخباً، كان كل شيء هادئاً وكأن لم يمت أحد. كل ما حدث أن بعض الكلاب هبهبت فصرخ فيها المعلم وأبعدها.

وكانت الحجرة مظلمة لا يضيئها غير النور الداخل من الباب،

وكان عم محمد راقداً بجوار الحائط ومغطى بأوراق جرائد ألمانية قديمة لا يدري أحد كيف جاءت إلى هذا المكان.

وزعق المعلم في «الصبي» الجديد:

ـ اكشف يا جدع.

وانحنى الصبي الشيخ بسرعة وأزاح الجرائد ويده تهتز وترتعش.. وبدا عم محمد ممدداً وميتاً ووجهه إلى الحائط كالتلميذ المذنب. كان ممدداً بنفس ملابس الشغل وجسمه الصغير يكاد يتكور على نفسه، وقدماه اللتان طالما لفتا الدنيا جرياً في جري كانتا مستكينتين وعليهما حذاء سميك من الطين الجاف والتراب.

وقال المعلم:

ـ أهه.. ما فيش حاجة بتاتاً.. اقلب يا جدع.. اقلبه على ضهره وريه للبيه.

ومد الصبي العجوز يديه وحاول قلب الجثة ففشل.

* * *

وحينئذ رأيت وكأن عم محمد ينبري له من ميتته وينتفض مستديراً بطريقته الخفيفة النشطة:

ـ أوعى يا جدع جك تربة تلمك.. أنا هه.. اتفضل يا بيه.. أنا اللي أقلب بنفسي.. بس كان لزومه إيه تعبك يا بيه؟. أنا هه نضيف زي الفل ما فياش صنف حاجة. آدي يا سيدي رجليه أهه.

ومد عم محمد رجليه، فبدتا كجريدتين رفيعتين من جرايد

النخل وقد نزع عنهما السعف.

ـ وآدى جسمي أهه.

وخلع ملابسه بسرعة، ووقف في وسط الحجرة عارياً كما ولدته أمه، وبدا جسده جافاً ناشفاً ليس فيه درهم واحد من اللحم. ويبدو أن الإنسان كالنبات يولد بذرة ويظل ينمو وتخضر أوراقه، ثم يزدهر في شبابه وتتفتح وروده، ثم ينضج وتتكون له الثمار في الرجولة، وبعدما يخلف ويؤدي رسالته في الحياة ويصبح عجوزاً يحدث له ما يحدث للنبات بعد قطف ثماره فيجف وتبرز عظامه ويتناقص لحمه، حتى ينتهي إلى شيء كعود القطن الجاف بعد جمعه.. ومضى عم محمد يقول وهو يستدير ليستعرض جسده:

ـ مش قلتلك يا بيه؟. عضمه كبيره، وآدى دراعه أهه..

وحاول عم محمد جذب ذراعه فلم يستطع، إذ يبدو أن الروماتيزم الذي كان يشكو لي منه دائماً قد جففها تماماً وجمدها، فتركها عم محمد يائساً وانتقل إلى رأسه:

وآدى الراس.

رأس قد صغر الكبر حجمه حتى استحال إلى جمجمة كروية صغيرة، فكها الأسفل يلتوي إلى أعلى والأعلى يلتوي إلى أسفل، وملامحها كلها تكاد تنشفط داخل الفم.

ـ وآدى الشعر اهه.

وجـذب عم محمد بكلتـا يـديـه الشعـرات القليلة المتبقيـة في رأسه.

ـ وآدي رجليه أهه.

ومد أقداماً شاحبة جداً وكأنها ماتت من عشرات السنين.

ويبدو أن المجهود الذي بذله في عرض نفسـه قد أنهكـه، فقد قال وهو يعود إلى رقدته ويعود إلى مواجهة الحائط:

ـ كنت ريحت نفسـك يـا بيـه.. مـا قلتلك.. والله مـا في إلا شيخوخة بدون جنون..

* * *

وعدت إلى نفسي على قول المعلم:

ـ هيه.. قلت إيه؟

فقلت له:

ـ غسل.

وفي الحـال بـدأت حـركـة هـائلة في الحجـرة، وخلع المعلم جلبابه الصوف ووقف كالقبطان تصدر منه الأوامر متتابعة.

وبعد قليل كان عم محمد قـد استقر في النعش، وكـان النعش محمـولاً على أكتاف الـزملاء «التـربيـة»، وكـانـوا يتمـايلون بـه وهم يغـادرون البيت بـلا صـوت واحـد يـدوي ويـودع عم محمـــد.. أو صرخة.

وما كاد المعلم يطمئن إلى أن كل شيء قـد انتهى وأنه قـد قام

بـواجبه وأخـرج صبيه على خيـر ما يـرام، حتى فوجئت بـه يتـراجـع ويجلس على قرافيصه بجوار الحائط ويخفي رأسه بين ركبتيه ويخرج صوته خشناً مكتوماً يتخلله البكاء:

ـ يا ولداه يا عم محمد.

وبعد أن ذهبت نوبة بكائه رفع رأسه وقال بعينين محمـرتين وقد تذكر الرسميات:

ـ مش مضيت له التصريح يا دكتور؟.

وهزت رأسي فعاد يقول:

ـ مش برضه..؟

فقلت:

ـ أيوه.. شيخوخة.

ومسح دموعاً تكونت في عينيه وهو يقول:

ـ بدون جنون.

فأجبته:

ـ أيوه.. بدون جنون.

طبلية من السماء

أن تـرى إنسانـاً يجري في شـارع منية النصـر فذلـك حـادث، فالناس هناك نادراً مـا يجرون. . ولمـاذا يجرون وليس في القـرية مـا يستحق الجري؟المواعيد لا تحسب بالـدقائق والثـواني. . والقطارات تتحـرك في بطء الشمس. قـطار إذا طلعت. . وآخـر حين تتـوسط السماء. . ومع مغيبها يفوت واحد. ولا ضجيج هنـاك يثير الأعصـاب ويدفع إلى التهور والسرعة. كل شيء بطيء هادىء عاقل، وكل شيء قانع مستمتع ببطئه وهدوئه ذاك، والسرعة غير مطلوبة أبداً والعجلة من الشيطان.

أن ترى واحداً يجـري في منية النصـر فذلـك حادث. . وكـأنه صوت السرينة في عربة بوليس النجدة فلا بد أن وراء جريه أمراً مثيراً وما أجمل أن يحدث في البلدة الهادئة البطيئة أمر مثير.

وفي يوم الجمعة ذاك لم يكن واحد فقط هو الذي يجري في منية النصر، الواقع أنه كانت هناك حركة جـري واسعة النـطاق. ولم يكن أحـد يعرف السبب. . فـالشوارع والأزقـة تسبح في هـدوئهـا الأبـدي وينتابها ذلك الركود الذي يستتب في العادة بعد صلاة الجمعة، حيث

ترش أرضها بماء الغسيل المختلط بالرغوة والزهـرة ورائحة الصـابون الرخيص، وحيث النسوة في الداخل مشغولات بإعداد الغداء والرجال في الخارج يتسكعون ويتصعلكون إلى أن ينتهي إعداد الغداء.. وإذا بهذا الهدوء كله يتعكر بسيقان ضخمة غليظة تجري وتهز البيوت، ويمر الجاري بجماعة جالسـة أمام بيت فـلا يـنسى وهـو يجـري أن يلقي السلام، ويردالجـالسون سـلامه ويحاولون سؤاله عن سبب الجري ولكنه يكـون قد نفـذ. حينئـذ يقفـون ويحـاولـون معـرفـة السبب وطبعـاً لا يستـطيعون، وحينئـذ يدفعهم حب الاستـطلاع إلى المشي ثم يقتـرح أحدهم الإسراع فيسـرعون ويجـدون أنفسهم آخر الأمـر يجرون، ولا ينسون أن يلقوا السلام على جماعات الجالسين فتقف الجماعات ولا تلبث أن تجد نفسها تجري هي الأخرى.

غير أنه مهما غمض السبب فلا بد في النهاية أن يعرف. ولا بد أن يتجمع الناس في مكان الحادث بعد قليل.. فالبلدة صغيرة وألف من يدلك، وقبل أن تلهث تكون قد قطعتها طولاً وعرضاً.

وهكذا لم يمض وقت طويل حتى كان قـد تجمع عنـد الجرن عدد كبير من الناس.. وكل من في استطاعته الجري قد وصـل، ولـم يبـق مبعثراً في الطريق غير كبار السن والعواجيز الـذين آثروا التمشي حتى يبدوا كباراً في السن، وحتى يبـدو ثمة فـرق بينهم وبين الشبان الصغار والعيال. ولكنهم كانوا أيضاً يسرعون وفي نيتهم أن يصلوا قبل الأوان وقبل أن يصبح الحادث خبراً.

ومنية النصر كغيرها من بلاد الله الواسعة تتشاءم من يوم الجمعة،

وأي حادث يقع فيه لا بد أنه كارثة أكيدة. . ليس هذا فقط، بل إنهم مبالغة في التشاؤم لا يجرءون على القيام بأي عمل في هذا اليوم بالذات مخافة أن يصيبه الفشل، وعلى هذا تؤجل الأعمال كلها إلى يوم السبت. وإذا سألت لماذا هذا التشاؤم قالوا لك لأن في يوم الجمعة ساعة نحس. ولكن الظاهر أن السبب الحقيقي ليس هذا. . والظاهر أن ساعة النحس هذه حجة ليس إلا ووسيلة يستطيع بها الفلاحون أن يؤجلوا عمل الجمعة إلى السبت وبهذا يصبح يوم الجمعة راحة، ولكن الراحة كلمة بشعة عند الفلاحين. الراحة إهانة لخشونتهم وقدرتهم الخارقة على العمل التي لا تكل. الراحة لا يحتاجها إلا أبناء المدن فقط ذوو اللحوم الطرية الذين يعملون في الظل ومع هذا يلهثون. الراحة الأسبوعية بدعة، إذن ألا يكون يوم الجمعة شؤماً وفيه ساعة نحس، وحينئذ فقط يكون من الجائز أن تؤجل الأعمال لتتم في يوم السبت.

ولهذا كان الناس يتوقعون أن يكون سبب حركة الجري هذه مصيبة كبرى حلت بأحد. ولكنهم حين يصلون إلى الجرن لا يجدون بهيمة فطسى ولا حريقاً قائماً ولا رجلاً يذبح رجلاً.

كانوا يجدون الشيخ علياً واقفاً في وسط الجرن وهو في حالة غضب شديد وقد خلع جلبابه وعمامته وأمسك بعصاه وراح يهزها بعنف. وحين يسألون عن الحكاية يقول لهم السابقون:

ـ الشيخ ح يكفر.

وكان الناس حينئذ يضحكون فلا ريب أن تلك نادرة أخرى من

نوادر الشيخ علي الذي كان هو نفسه نادرة. فرأسه كبير كرأس الحمار، وعيناه واسعتان مستديرتان كعيون أم قويق، وله في ركن كل عين جلطة دم. وصوته إذا تكلم يخرج مبحوحاً مكتوماً كصوت الوابور إذا انكتم نفسه وشحر. ولم تكن له ابتسامة فقد كان لا يبتسم أبداً. إذا إنبسط ونادراً ما ينبسط قهقه، وإذا لم ينبسط كشر. وكلمة واحدة لا تعجبه يتعكر دمه حتى يستحيل إلى مازوت وينقض على قائلها.. قد ينقض عليه بيده ذات الأصابع الغليظة كالصوامع أو قد ينقض عليه بعصاه.. وعصاه كان لها عقفة وكانت من خيزران غليظ وكان لها كعب من حديد، وكان يحبها ويعزها ويسميها الحكمدار.

أرسله أبوه ليتعلم في الأزهر وهناك أخطأ شيخه مرة وقال له: أنت بغل. فما كان من الشيخ علي إلا أن رد عليه وقال: إنت ستين بغل. ولما رفتوه وعاد إلى منية النصر عمل خطيباً للمسجد وإماماً. ونسي ذات يوم وصلى الجمعة ثلاث ركعات،ولما حاول المصلون وراءه تنبيهه لعن آباءهم جميعاً وطلق من يومها الإمامة والجامع.. ولأجل خاطرهم طلق الصلاة. وتعلم الكوتشينة وظل يلعبها حتى باع كل ما يملكه، وحينئذ حلف بالطلاق أن يبطلها. وكان محمد أفندي المدرس بالمدرسة الإبتدائية في البندر فاتحاً دكان بقالة في البلدة، عرض على الشيخ علي أن يقف في الدكان ساعات الصباح فقبل، ولكنه لم يعمل إلا ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع كان محمد أفندي واقفاً أمام الدكان يتصبب حلاوة طحينية. فقد اكتشف الشيخ علي أن محمد أفندي يضع قطعة حديد في الميزان ليطب وقال له الشيخ علي:

ـ إنت حرامي.

وما كاد محمد أفندي يقول:

ـ لايمها يا شيخ علي واسكت وخليك تاكل عيش.

حتى قذفه الشيخ علي بكتلة الحلاوة الطحينية.. ومن يومها لم يجرؤ أحد على أن يعهد للشيخ علي بعمل. وحتى لو كان قد جرؤ فالشيخ علي نفسه لم يكن متحمساً لأي عمل.

وكان هذا الشيخ علي قبيحاً.. ضيق الصدر لا عمل له، ومع هذا لم يكن في البلدة من يكرهه.. كان الجميع يحبونه ويعشقونه ويتداولون نوادره. وألذ ساعة هي تلك التي يجلسون فيها حوله يستفزونه ليغضب، وغضبه كان يضحكهم. كان إذا غضب واربدت ملامحه وانكتم صوته.. كان الواحد منهم لا يتمالك نفسه ويموت من الضحك.. ويظلون يستفزونه ويظل هو يغضب.. ويضحكون حتى ينفض المجلس. وعلى كل لسان كلمة: الله يجازيك يا شيخ علي. ويتركونه وحيداً ليصب جام غضبه على «أبو محمد» فقد كان يسمي الفقر «أبو أحمد» وكان يعتبره عدوه الوحيد اللدود.. ويتحدث عنه كما لو كان آدمياً موجوداً له اسم ولحم ودم. وكانت مجالسه تبدأ حين يسأله أحدهم:

ـ أبو أحمد عمل فيك إيه يا شيخ علي النهارده؟.

وكان الشيخ علي يغضب حينئذ غضباً حقيقياً، ذلك لأنه لم يكن يحب أن يحدثه أحد عن فقره.. إذا تحدث هو كان بها. أما أن يتحدث الناس عن فقره فذلك شيء يدفع إلى الغضب.. فالشيخ علي

كان خجولاً جداً رغم قسوة ملامحه وكلامه، وكان يفضل أن يبقى أياماً بلا دخان على أن يطلب من أحدهم أن يلف له سيجارة. وكان يحمل معه على الدوام إبرة وفتلة لرتق جلبابه إذا تمزق، وإذا اتسخ ذهب بعيداً عن البلدة وغسل ثيابه وظل عارياً حتى تجف. ولذلك كانت عمامته الوحيدة أنظف عمامة في البلدة.

كان حرياً إذن بأهل منية النصر أن يضحكوا من هذه النادرة الجديدة.. ولكن الضحكات كانت تموت في الحال والألسن تتراجع خائفة إلى الحلوق وكأنما لدغتها عقارب. فكلمة الكفر كلمة بشعة. والبلدة مثل غيرها من البلاد تحيا في أمان الله فيها كل ما تحفل به سائر البلاد: الناس الطيبون الذين لا يعرفون إلا أعمالهم وبيوتهم، واللصوص الصغار الذين يسرقون كيزان الذرة والكبار الذين ينقبون الزرائب ويسحبون البهائم من أنوفها بالخطاطيف، والتجار الذين يتاجرون بالمئات وتجار القروش، والنساء الملعبات غير المعروفات وأولئك المعروفات على نطاق البلدة كلها، والصادقون والكاذبون والخفراء، والمرضى والعوانس والصالحون.. فيها كل ما تحفل به سائر البلاد.. ولكن الجميع تجدهم في الجامع إذا أذن المؤذن للصلاة ولا تجد واحداً منهم فاطراً في رمضان. وثمة قوانين مرعية تنظم حياة الكل ويسمونها الأصول، فلا يتعدى اللص على لص، ولا يعير أحد أحداً بصنعته، ولا يجسر واحد على تحدي الشعور العام. وإذا بالشيخ علي يقف ويخاطب الله هكذا بلا إحم ولا دستور.

كانوا يضحكون قليلاً ولكنهم ما يكادون يسمعون ما يقوله حتى يتولاهم وجوم.

كان رأسه عارياً وشعره القصير يلمع بالعرق وبالشيب، والعصا الحكمدار في يمينه وعيناه تنفثان حمماً، وفي وجهه غضب أحمق شديد، وكان يقول موجهاً كلامه إلى السماء:

- إنت عايز مني إيه؟ تقدر تقول لي إنت عايز مني إيه؟ الأزهر وسبته عشان خاطر شوية المشايخ اللي عاملين أوصياء الدين. ومراتي وطلقتها. والدار وبعتها. وأبو أحمد وسلطته عليّ دوناً عن بقية الناس. هو ما فيش في الدنيا دي كلها إلا اني؟ ما تنزل غضبك يا رب على تشرشل واللا زنهاور.. مش قادر إلا عليّ اني؟ عايز مني إيه دلوقت؟ المرات اللي فاتت كنت بتجوعني يوم وباستحمل.. واقول يا واد كأننا في رمضان وأهو يوم وينفض. المرة دي بقالي ما كلتش من أول امبارح العصر، وسجاير ممعيش سجاير بقالي أسبوع. ومزاج حد الله ما دقته بقالي عشرة أيام، وإنت بتقول فيه في الجنة عسل نحل وفواكه وأنهار لبن. ما بتدنيش منهم ليه؟. مستني أما أموت م الجوع علشان أروح الجنة وآكل من خيرك؟ لا يا سيدي يفتح الله. أحييني النهارده وأبقى بعد كده وديني مطرح ما توديني. يا أخي ما تبعد عني أبو أحمد ده. ما تبعته أمريكا. هو كان انكتب عليّ؟ إنت بتعذبني ليه؟ آني ما حلتيش إلا الجلابية دي والحكمدار. عايز مني إيه؟ يا تغديني دلوقتي حالاً يا تاخدني حداك على طول. ح اتغديني والا لأ؟.

كان الشيخ علي يقول هذا بانفعال رهيب حتى تكوم الزبد فوق فمه، وطمه العرق، وامتلأ صوته بحقد فاض عن حده. وأهل منية النصر واقفون وقلوبهم تكاد تسقط من الرعب. كانوا خائفين أن يسوق

الشيخ علي فيها ويكفر. ولم يكن هذا فقط مبعث خوفهم فالكلمات التي يقولها الشيخ علي خطيرة.. قد تغضب الله سبحانه وتعالى، وقد تحل ببلدهم من جراء ذلك نقمة تأتي على الأخضر واليابس. كان كلام الشيخ علي يهدد البلدة الآمنة كلها وكان لا بد من إسكاته. وعلى هذا بدأ العقلاء يطلقون من بعيد كلمات طيبات يرجون فيها من الشيخ علي أن يعود إليه رشده ويسكت، وترك الشيخ علي السماء قليلاً والتفت إليهم:

ـ أسكت ليه يا بلد دون؟ أسكت لما أموت م الجوع؟ أسكت ليه؟ خايفين على بيوتكم ونسوانكم وزرعكم.. اللي حداه حاجة يخاف عليها، إنما أنا مش خايف على حاجة، إن كان زعلان مني ياخذني. إنما وديني وما أعبد، إن إيجه حد ياخذني إنشالله يكون عزرائين نفسه لمدشدش على رأسه الحكمدار. وديني ما ني ساكت إلا ما يبعت لي مائدة من السما حالاً. أنا مش أقل من مريم. هي مهما كانت حرمة إنما أنا راجل. وهي ماكنتشي فقيرة إنما أنا أبو أحمدطلع ديني. وديني وما أعبد ماني ساكت إلا أما يبعت لي حالاً مائدة.

والتفت الشيخ علي إلى السماء وقال:

ـ هه.. ح تبعتها دلوقتي والا ما اخلي ولا ابقي حدايا إلا ما أقوله؟ مائده حالاً. جوز فراخ وطبق عسل نحل ورصة عيش ساخن. على شرط عيش ساخن. وأوع تنسى السلطة. وديني لعادد لغاية عشرة وإن ما نزلت المائدة ماني مخلي ولا مبقي.

ومضى الشيخ علي يعد وقلوب منية النصر تعد معه مقدماً، والأعصاب قد بدأت تتوتر وأصبح لا بد من عمل شيء لإيقاف

الشيخ علي عند حده. واقترح أحدهم أن يلتف جماعة من شباب البلدة الأقوياء حوله ويوقعوه أرضاً ويكمموا فاه ويعطوه علقة لا ينساها.. غير أن نظرة واحدة ألقاها الشيخ علي من عينيه المشتعلتين بالغضب المجنون أذابت الاقتراح. فمن المستحيل أن ينالوا الشيخ علي قبل أن يخبط هو خبطة أو خبطتين برأس الحكمدار.. وكل شاب قد قدر أن الخبطة ستكون من نصيبه. والذي يهدد بدشدشة رأس عزرائيل كفيل بدشدشة رأس الواحد منهم، وعلى هذا ذاب الاقتراح.

وقال له أحدهم في فروغ بال:

ـ ما انت طول عمرك جعان يا راجل إشمعنى النهارده؟.

وأصابته نظرة نارية من الشيخ علي وأجابه:

ـ المرة دي يا عبد الجواد يا معصفر الحكاية طالت.

وزعق فيه آخر:

ـ طب يا أخي لما أنت جعان مش تقول لنا وإحنا نوكلك بدل الكلام الفارغ اللي إنت قاعده تقوله ده؟

وهب فيه الشيخ علي:

ـ آني أطلب منكم؟ آني أشحت منكم يا بلد جعانة، دا انتو جعانين أكثر مني أقوم أشحت منكم؟ آني جاي أطلب منه هو، وإذا ما ادانيش ح اقدر أعرف شغلي.

وقال له عبد الجواد:

ـ ما كنت تشتغل يا أخي وتاكل. يخفي وجهك.

وهنا بلغ الغضب بالشيخ علي منتهاه وتزربن وراح يهتز ويصرخ ووزع كلامه بين الجمع المحتشد عن بعد وبين السماء:

ـ وإنت مالك يا عبد الجواد يا بن ست أبوها. ما نيش مشتغل. مش عايز اشتغل. ما بعرفش اشتغل. مش لاقي شغل. هو شغلكو ده شغل ياعالم بقر؟ دا شغلكو ده شغل حمير وآني مش حمار. آني ما إقدرش يتقطم وسطي طول النهار، ما اقدرشي أتعلق في الغيط زي البهيمة يا بهايم. يلعن أبوكو كلكو ما نيش مشتغل. والنبي لو حكمت أموت م الجوع ما اشتغل شغلكو أبداً.

وكان غضبه شديداً إلى الدرجة التي جعلت الناس تضحك بالرغم منها، وبرغم الموقف الرهيب الذي كانوا فيه.

وانتفض الشيخ على انتفاضة عظيمة وقال:

ـ هه.. ح اعد لغاية عشرة والنبي أن ما بعت لي مائدة لكافر وعامل ما لا يعمل.

وكان واضحاً أن الشيخ علي حقيقة لن يتراجع وأنه ينوي أن يلبخ، ويحدث حينئذ ما لا تحمد عقباه.

وبدا الشيخ علي يعد وبدأت نقاط العرق تنبت على الجباه، وأصبح حر الظهر لا يطاق حتى أن بعضهم تهامس أن النقمة لا بد قد بدأت تحل، وأن ذلك الحر الفظيع إن هو إلا مقدمة للحريق الهائل الذي سوف ينشب ويأتي على كل القمح الواقف والمحصود.

وأخطأ أحدهم مرة وقال:

ـ ما تشوفوا لقمة يا ولاد يمكن يهبط.

ويبدو أن الكلمة وصلت إلى أذن الشيخ علي مع أنه كان يعد بصوت عال مرتفع، فقد استدار إلى الجميع قائلاً:

ـ لقمة إيه يـا بلد يا غجـر؟ لقمة من عيشكـو المعفن وجبنتكم القديمة اللي كلها دود؟ وده أكل؟ وديني ماني ساكت إلا أما تنزل لي المائدة لغاية هناهه وعليها جوز فراخ.

وسرت همهمة كثيرة في الجمع، وقالت ولية من الواقفات:

ـ آني طابخة شوية بامية حلوين يا خويا أجيب لك صحن؟

وصرخ فيها الشيخ علي:

ـ إخرسي يا مره. بامية إيه يا بلد كلها قـرون. دا عقولكـو بقت كلها بامية وريحة بلدكو زي ريحة البامية الحامضة.

وقال أبو سرحان:

ـ حـدانا سمـك صابح يا شيـخ علي شارييـنه لسـه من أحمـد الصياد.

وزأر فيه الشيخ علي:

ـ سمـك إيه بتـاعكو ده اللي قـد العقلة يا بلد «صيـر»؟ هـو ده سمك؟ وديني إن ما بعت جوز فراخ والطلبات اللي قلت عليها لشاتم وزي ما يحصل يحصل.

وأصبح الوضع لا يحتمل، إما السكوت وضياع البلدة ومن فيها وإما إسكات الشيخ علي بأي طريقة، وانطلقت مائة حنجرة تعزم عليه بالغداء، وانطلق صوته مائة مرة يرفض ويصر على الرفض ويقول:

ـ ماني قاعد على اللضى يا بلد بقى لي تلات أيام ما حدش عزم عليّ بلقمة، حليت العزومة دلوقتي؟ وديني ماني ساكت إلا أما تيجي المائدة من عند ربنا.

واستدارت الرؤوس تسأل عمن طبخ في هذا اليوم إذ إن كل الناس لا يطبخون كل يوم، وأن يكون لدى أحدهم(زفر) أو فراخ يعد حادثاً جللاً وأخيراً وجدوا عند عبد الرحمن رطل لحمة (بتلو) مسلوقاً بحاله فأحضروه على طبلية.. وأحضروا معه فجلاً وجوزين عيش مرحرح ومخ بصل، وقالوا للشيخ علي:

ـ يقضيك ده؟.

وتردد بصر الشيخ علي بين السماء والطبلية، وكلما نظر إلى السماء قدحت عيناه شرراً وكلما نظر إلى الطبلية احتقن وجهه غضباً.. والجمع يغمره السكون، وأخيراً نطق الشيخ علي وقال:

ـ بقى آني عايز مائدة يا بلد غجر تجبولي طبلية؟ وفين علبة السجاير؟.

وأعطاه أحدهم صندوق دخانه.

ومد يده وتناول قطعة كبيرة من اللحم، وقبل أن يتاويها في فمه قال:

ـ وحتة المرة فين؟!

فقالوا له:

ـ حقه إلا دي.

وهاج الشيخ علي وقال:

ـ طب هه. وترك الطعام وخلع جلبابه وعمامته وراح يهز عصاه ويهدد بالكفر من جديد. ولم يسكت إلا بعد أن أحضروا مندور تاجر المر، وبلبع له فصاً وقال له:

ـ خد.. خد يا شيخ مش خسارة فيك. أصلنا ما حد ناش نظر وما كناش عارفين بتنكسف تطلب، الناس تقعد وياك وتنبسط وبعدين تدلدل ودانها وتمشي وتسيبك واحنا لازم نشوف راحتك يا شيخ. هي بلدنا من غيرك أنت وأبو أحمد تسوى بصلة؟ إنت تضحكنا واحنا نأكلك.. إيه رأيك في كده؟!

وغضب الشيخ علي غضباً شديداً، وطار وراء مندور وهو في قمة الغيظ ومضى يهز الحكمدار وهو يكاد يهوي بها على رأسه ويقول:

ـ أنا اضحكوا؟ هو آني مضحكة يا مندور يا ابن البلغة؟ إمش داهية تلعنك وتلعن أبوك.

وكان مندور يجري أمامه وهويضحك، وكان الناس يتفرجون على المطاردة وهم يضحكون، وحتى حين طار الشيخ علي وراءهم جميعاً وهو يسبهم ويلعنهم كانوا لا يزالون يضحكون.

ولا يزال الشيخ علي يحيا في منية النصر ولا تزال له في كل يوم

نـادرة، ولا يـزال سـريـع الغضب، ولا يـزال النـاس يضحكـون من غضبه. . غير أنهم من يومها عرفوا له، فما يكادون يرونـه واقفاً وسط الجرن وقد خلع جلبابه وعمامته وأمسك بالحكمدار في يده وراح يهزها في وجه السماء، حتى يدركوا أنهم نسوا أمره وتركوا «أبو أحمد» ينفرد به أكثر من اللازم، وحينئذ وقبل أن تتسرب من فمه كلمة كفـر واحدة تكون الطبلية قد جاءته وعليها ما يـطلبه، وأحيـاناً بمـا قسم وأمره إلى الله.

اليد الكبيرة

هبطت من القطار في العصر. ودائماً أصل بلدنا في العصر والمحطة على ناحية من السكة الحديد وبلدنا على ناحية، والشمس صفراء وفي صفرتها هدوء وسكون ومرض، وبلدنا أيضاً تقبع صفراء ببيوتها المصنوعة من الطين وأشجارها حتى قمم النخيل كانت تظللها صفرة..

ورمقني نفر من دائمي الجلوس على كنبة المحطة إذ هي مكان صالح للجلوس الفارغ، لا أحد يطرد الجالس ولا يطلب منه الثمن. رمقني ذلك النفر بنظرة لا بد أنه كان فيها رثاء. ومشيت والقطار لا يزال واقفاً برأسه الأسود البشع السواد، والأصوات الخشنة القبيحة التي لا تكف عن الصدور منه، والعين الواسعة المدورة الحمراء التي تنفخ في داخلها بين الحين والحين وتنفث جحيماً أحمر، الرأس الذي طالما أخافنا ونحن صغار بأفظع مما كان يخيفنا رأس الغول. هذه المرة عبرت القضيب الحديدي من أمامه وأنا لا أحفل بشيء ولا أخاف الموت.

وكنت حين أصبح على المشاية الضيقة التي توصل إلى داخل

البلدةوإلى دارنا أحس إحساساً غريباً بأني أخيراً عدت، ودائماً كنت أصادف في طريقي ثلاثة أو أربعة من أهل بلدنا منتشرين في تلك البقعة وأقول لهم: سلام عليكم! ويجيبونني ويرحبون بي وهم يرمقونني ويرون ما أحدثته السنون فيّ من تغيير وأرى ما أحدثته السنون فيهم من تغيير. رأيتهم وأنا طفل ورأوني وهم شباب، واليوم لم أعد طفلاً ولم يعودوا شباباً. الزمن.. الزمن الغادر الذي لا أمان له لا يكف عن المضي ونحن لا نكف عن الكبر ولا نكف عن الاقتراب من النهاية. ونحن لا نحس بالزمن إلا إذا رأيناه، ونحن نرى ما أحدثه الزمن في الآخرين فنتوقع أننا لا بد أننا نحن الآخرين كبرنا..

وقريتنا دائماً هادئة، لا صوت.. لا زعيق.. لا شجار.. لا شيء، هواء يداعب ما على الأسطح من حطب، وقوافل الأوز ساكنة لا تكاكي، وكل شيء من الطين، والأرض فوقها تراب، وفي السماء دخان المواقد، والناس يتحركون في صمت ووجوم وبلا حماس كمن يدرك ألا داعي للعجلة مطلقاً ولا فائدة فيّ الحركة، الناس صامتون كأنما ينتظرون يوم القيامة ليتكلموا أو ينتظرون الموت.

وأعرف أني إذا وضعت قدمي على المشاية فسأرى بيوتاً على عتباتها نسوة. وتعودت من صغري أن أغض طرفي حين أمر، وتعودن أن يتهامسن بعد مروري يحدقون في وأنا قادم ثم يتهامسن.

والمشاية قطعتها عشرات الآلاف من المرات.. إلى الابتدائية ببنطلون قصير، وتعلمت فيها ركوب العجلة، وجريت فرحاً بنجاحي في الامتحان، وتزحلقت أيام المطر، ولعبت فيها مع الأولاد بالليل،

وفي آخرها بيتنا له سور وباب من الصاج، وأمامه مباشرة باب جارتنا بديعة وهي دائماً أمام الباب أطفالها حولها وهم صغار، والنسوة حولها لما كبر الأطفال. ودائماً تصنع شيئاً، تدعك النحاس أو تنشف الغلة أو تسأل عن فرخة ضائعة، ومن لحظة أن تراني هالاً من أول المشاية تلمحني وتفرح، ثم تنهمك فيما تصنعه فهي تريدني أن أقول لها العواف، تريدني فقد كنت من سنين طويلة طفلاً أعطش. إذا لعبت وجريت وأذهب لأشرب من عندها خوفاً أن تضربني أمي إذا ذهبت لبيتنا ورأت ما أنا فيه من إجهاد، وكانت خالتي بديعة تسقيني وتحميني وتخبئني عندها إذا غضبت وتحوش عني إذا ضربت، ولكني كبرت وتعلمت وأصبحت أفندياً طويلاً له بدلة، ترى ألا زلت أذكرها؟ ذاك بلا ريب ما كان يدور في خاطرها كلما رأتني مقبلاً من مصر ومعي الشنطة، والسنون قد جففت عودها وكرمشت جلدها ولكنها أبقت لها ابتسامتها الوديعة ذات الطيبة.

وقلت لها:

ـ العواف يا خالة بديعة.

ورفعت رأسها ولمحت الفرحة الدافقة على عينيها واضطراب يدها وهي تجلي الحلة بالتراب، وكادت تبتسم ولكنها عادت ورددت في صوت حنون راث رقيق، وهزني الصوت فلم تكن خالتي بديعة كذلك.. كانت ما تكاد ترد على عافيتي حتى تترك ما في يدها وتقوم هالعة وتفتح بابنا وتكاد تزغرد، وتقول:

ـ أهو جه.. أهو جه..

وتحدث حينئذ ضجة هائلة في بيتنا، فهم لم يروني من ستة أشهر أو سنة ودائماً في شوق إليّ، وكنت قد تخرجت صغيراً ومن يوم أن تخرجت لا أراهم إلا لماما، وكانوا يحبونني.

يفتح بابنا ويخرج أكثر من واحد من إخوتي حفاة وبجلابيبهم، وأحياناً بالفانلة والسروال، ويتعلق كل منهم في جزء من رقبتي وفرحتهم بأخيهم الكبير لا توصف، فرحة تتفجر على ألسنتهم صياحاً وتهليلاً ولا يقولون سوى: هيه.. هيه.. هيه..

وأعانقهم بكل قلبي وأذرعي، هم إخوتي وأنا أحبهم.. والمدينة التي أعيش فيها مليئة بالصراع وحياتي هناك مقبضة أدافع فيها عن الوجود، وجودي ووجود غيري، وأقف أمام قوات هائلة.. وقلبي وحيد، والناس لا أكرههم وأرثي لهم وأصدقائي كثيرون، ولكن مثل هذا الحب لا أتذوقه إلا هنا.. حب لا مقابل له ولا حدود، حب ملموس محسوس لا يخفيه أحد ولا يضن به أحد.

أعانقهم أبذل الجهود لأتخلص من أذرعهم الصغيرة الطفلة.. حتى أرى أبي فأنا دائماً مشتاق له.. أنا ابنه الكبير وحبيبه الكبير أيضاً. وكان وضعي يحتم عليّ أن أبدو كالرجال تماماً، وكنت أفعل ولكني كنت دائماً أحن إلى أبي.. إلى طفولتي.. إلى أن أنفض عني ثياب الرجال وأعود طفلاً أو كالطفل حتى أبدو ابناً، وحتى أحس أني ابن. وكنت أحب أبي.. أدخل من الباب فأجده قد أفاق مما كان يفعله على عجل، واقفاً يرتدي جلبابه ورأسه عار وصدره مفتوح وهو حائر فرحان يبحث هنا وهناك عن شيء يضعه في قدميه ليستطيع أن يسرع

ويقابلني . . فقد كان هو الآخر يحبني ، يحبني أكثر من أي شيء آخر في الوجود. ويقف على باب دارنا الكبيرة ويفتح يديه الاثنتين ويقول:

ـ أهلاً أهلاً . . اخص عليك يا شيخ .

وأندفع إلى حضنه ويندفع إلى حضني وكم حضنته وكم احتضنني ، وطول عمري كنت أريد أن أظل أحتضنه . كنت وأنا صغير لا أطول إلا ساقه فأحتضنها، ثم كبرت حتى أصبح في استطاعتي أن ألف يدي حول وسطه وكم كان يملؤني هذا بالغبطة . ثم كبرت حتى أصبحت طوله، وها أناذا أصبح أطول منه وأحبه أكثر مما أحببته وأنا لا أكاد أتعدى ساقه. أحتضنه وأقبله بلهفة، وألمح جلد رقبته وقد حفل بالتجعدات. أحب تجعيداته ، وشعر صدره وقد ابيض وأطل من فتحة الفانلة، ولون بشرته الداخلية الفاتح ، ووجهه الأسمر، وأنفه الهادىء الطيب، وعينيه الحافلتين بالخير والحب، وأقبله أكثر ويقبلني أكثر والدموع تكاد تأخذ طريقها إلى عينيه وهو يقول:

ـ اخص عليك يا شيخ وحشتنا . . خالص . .

وفي تلك اللحظات أصمت وأحس بالروح تعود إليّ ، أنا مضيَّع في المدينة الكبيرة وحيد، وهنا أبي ، هنا بيتنا، هنا أنا إنسان له أب ويعرف أصله وفصله والأرض التي شب عليها.

أبي لا يريد أن ينهي العناق، وإخوتي من حولي يتخاطفون مني الحقيبة ويتشبثون بملابسي ويعانقوق بعضهم بعضاً. وأمي أعرف أنها لا بد في تلك اللحظة متناومة تنتظر مني أن أذهب إليها وأنادي فلا

ترد عليّ وكأنها في أحلى نعاس، فأذهب إلى الفراش وأمسك يدها وأميل بجسمي كله وأقبل اليد البيضاء الخشنة، وحينئذ تفتح أمي عينيها وكأنها تستيقظ وتقول في حزن:

ـ الله يسلمك.

ولا أملك نفسي فأضمها وأقبلها في جبهتها فلا تملك نفسها هي الأخرى وتقبلني في وجنتي وصوتها ممدود شاك حزين، وتلك طريقتها في بث أشواقها إليّ إذ هي لا تظهر حبها أبداً.

ونجلس حول فراشها وكل أخ من إخوتي يزاحم الآخر ليجلس بجواري أو فوق رجلي، وأبي يبتعد عني ليوفر لهم المكان ولو كان الود وده لزاحم وما تركني، وأمي تشكو من الزكام والروماتزم ورأسها الذي يكاد يطير، وأبي فرحان فرحاً لا يوصف يخفيه بصمته وتهيئة وسائل الراحة لي فيضع وراء ظهري مسنداً، أو يجعلني أقوم من مكاني لأجلس في مكان آخر أكثر راحة. وهو من فرط فرحته قد نسي أن يرتدي في قدميه مداساً.. وأقدامه كبيرة كنت شغوفاً وأنا صغير أن أمسح وجهي في بطنها وألعب في أصبعها الكبير وأنا فخور بكبره وكبرها..

نجلس، عائلة تواجه الحياة ولكنها في صفو، ساعة تتبخر فيها الأحزان والمتاعب ولا يبقى سوى الحب والشوق والكلمات الصغيرة المبعثرة والضحكات.. ضحكات صافية، والعائلة صغيرة والحياة كبيرة والطريق شاق، ولكن لها هي الأخرى ساعتها، ساعة كتلك.. اللمبة الغاز مشتعلة والحجرة حجرة أرياف والسرير له ناموسية والكنبة تضيق بنا، وفي الصيف لنا جلسة في الفضاء أمام الباب، وأبي سعيد

بيننا كالإله، كلنا نحبه ونذوب في حديثه. ما أجمله حين يتحدث! في الحال نصمت كلنا ونترقب، ويبدأ حديثه بابتسامة تظل طوال الحديث، وحنجرته رنينها حلو وصوته ملآن وطريقته في الكلام تأسرنا وتخلب ألبابنا. يكون قد ذهب إلى المحكمة مثلاً وأدى الشهادة ويقص هذا علينا، ونحب قصته فهو يبدأ من اللحظة التي نريده جميعاً أن يبدأ منها ويقص علينا التفاصيل المثيرة الدقيقة ويسرح بنا ويدخل في حكاية أخرى، ولا نحس أن حكاية بدأت وأخرى قد انتهت إنما نحس أننا سعداء وأننا نحب أبانا ونعبده.

* * *

لم تقم خالتي بديعة وتترك ما في يدها وتعلن قدومي في هذه المرة. بل ردت تحيتي وخفضت رأسها وانهمكت تجلي الحلة. وتركتها واتجهت إلى دارنا. كان باب الحوش مفتوحاً والباب من الصاج والهواء يتلاعب به فتزيق مفاصله، ووراء الباب فرخة منكمشة على نفسها، وطفل يتبول. ودخلت. . الهدوء هو الهدوء، ولكن بيتنا ليس هو البيت فهذا أوسع وأكثر ارتفاعاً وفيه فراغ كبير. خطوت إلى الداخل بضع خطوات. . الفناء هو الفناء «الطلمبة» موجودة وحوضها من الحجرة والماء يتسرب من الحوض ويصنع قنوات، والأشجار متفرقة كعادتها، والنخلة قد نمت وقتلت ما حولها من نخيل صغير وأصبحت أطول من الحائط، وشجرة العنب ماتت لا ريب من كثرة الماء، وبرج الحمام في آخر الفناء أبيض وفيه خرابيش، وأوضة الفرن بابها مهبب أسود والظلام يشع من داخلها، والأرض عليها عفش

ومهملة والفناء كبير . .

ووجدت باب البيت مفتوحاً هـو الآخر ولا أحـد على الباب ولا أحـد في الداخـل ولا أحد ينتـظرني وكل شيء مهمـل، والدنيـا شتاء واصفـرار الشمس قد ازداد والنخلة الصغيـرة طول ظلهـا يمتد بـطول منزلنا . .

ودخلت البيت . . الصـالة الكبيـرة أكبر ممـا رأيتهـا آخـر مـرة، والسقف مرتفع وعروق السقف أكثر بـروزاً، والكنبة بيـاضتها متسخـة ومساندها نائمة، والحجرات مقفلة ولا صوت .

الحمام واقف على قمة الباب المؤدي إلى السلم يهدل هـديلاً ممدوداً قبيحاً، وكلبنـا نائم على فـروة الصلاة، وعصـافير غيـر مرئيـة تصفر، وشعاع شمسي قد اخترق بئر السلم وسقط على أرض الصالة فصنـع دائرة صغيـرة من الضـوء الأصفـر، وتعلقت بـالشعـاع مـلايين الذرات .

وأحسست أن بيتنا قد خرب .

وعدت إلى الخارج ثم إلى الشـارع، وما رأتني خـالتي بديعـة حتى قالت :

ـ عايز حاجة؟ .

قلت :

ـ هم فين؟

قالت :

ـ طلعوا على الجبانة .

قلت :

ـ وسايبين البيت فاضي؟

قالت :

ـ ما أنا هه .

ورأيت نفسي أمشي .

كان صدري فارغاً موحشاً كئيباً والدنيا من حولي لا تجذب انتباهي. ما قيمة أي شيء؟ ما قيمة أن أقول للناس: سلام عليكم. فيردون السلام وتفضل؟ إنهم أحياء وأنا حي، ولكن ما حدث قد حدث.

وتهت.. بدت لي بلدنا التي أعرف كل ركن من أركانها بلدة أخرى. كنت أمر في هذه الشوارع والحواري دائماً وأنا لا أحس لها وجوداً، وأنا آلفها وكأنها بيتنا. واليوم وأنا أمشي فيها كنت أراها لأول مرة، وكنت أعرف أناس بلدتنا وألفتهم من طول معرفتهم، ولكني كنت أمر بهم وأراهم فأحس أنهم رجال، وأنهم أغراب وأنهم متعبون. شيء لا بد قد حدث.. فأنا أحس الآن ببلدتنا وأناسها وكنت قبلاً آلفهم.. شيء ما لا بد قد حدث.

تهت، فخلال السنين التي كنت بعيداً عنها كبرت بلدتنا واتسعت وأنشئت بيوت جديدة. وكنت قبلاً أعرف طريق الجبانة فبجوارها كانت توجد وسعاية يقام فيها العيد. العيد؟ ترى لماذا لم يعد هناك عيد؟ لماذا لم نعد نحس به؟ يأتي ويمضي كأي يوم من الأيام. أين

اليقظة المبكرة، والكعكة والعيدية، وثياب الناس الجديدة الزاهية، والمراجيح، والمشبك والحلاوة الطحينية، و«الفردأبو فلة» الذي كان يفرقع ونخيف به جداتنا؟.

تهت، ولكني وصلت وأصبحت خارج البلدة.. ولم أجد الوسعاية. كانت قد تراكمت فيها بيوت أخرى مصنوعة من الطين. وكانت الجبانة هناك تطل قبورها من بين البيوت.

وكم كنا مغفلين!

فها هي القبور أمامي وحولي.. قبور فقيرة مهدمة لا شيء يرعب فيها ولا يخيف. ترى ما سبب الفزع الذي كنا نحسه ونحن صغار حين نلمح الجبانةمن بعيد؟ ترى أين قبر جدتي وأين قبر عمي وخالي؟ إن القبور مهدمة كلها ومبعثرة لا تكاد تفرق بين أحدها وآلاخر، وكل ما يميزها قد تآكلت أوراقها واستحالت إلى نسل.

جبت المكان بناظري فلم أجد أحداً، لا ريب أنهم كانوا قد غادروا الجبانة وعادوا إلى البيت، ولم أجد عناء كبيراً في العثور على القبر فقد كنت لا أزال أذكر أنه قرب شجرة الكافور، وها هي شجرة الكافور. لا بد أن هذا هو القبر.. ووقفت أمامه. كان الأسمنت لا يزال أخضر، ولم يكن البناء جيداً وأثر«المحارة» واضح، ومن الأمام لافتة مركبة كتب عليها: المرحوم.. وقرأت اسم أبي. وعدت أنظر حولي.. القبور مهدمة، وأشجار الكافور طويلة وحيدة جرداء، والشمس خنقها العصر الضيق، والغربان تتناحر عن بعد، وسوادها كثير.

أبي هنـا إذن تحت هذا القبـر! كل هـذه الكميـة من الحجـارة والتراب والأسمنت فوقه وهو الذي كان لا يحتمل إغلاق نافذة الحجرة ساعة. أبي هنـا نائم وملفـوف بالكفن التيـل المخطط وفـوقـه الكفن الأبيض وحوله كل تلك الوحشة، وعيونه مغلقة. أبي هنا لا يمكن أن يكون راقداً فقد كان لا يحتمل الرقاد الطويل. لا بد أنه جالس. . أجل إنه جالس. . جالس القرفصاء وكأنه يقرأ التحيات وقدمه الكبيرة مثنيـة تحته وأصبعه السبابة تتحرك وعيناه إلى أسفل وكأنه يصلي. ها هو قد ختم الصلاة.

وقلت: سلام عليكم.

ولم يرد. فقط نظر إليّ بعينيه الواسعتين ورأيت رقرقة الفرحة في عينيه، ولكنه لم يرد وكان حزيناً ويتمتم بختام الصلاة.

قلت له: أنا هنا يا أبي. . أنا حبيبك وقد عدت. لماذا لا تقول: أهلاً. . أهلاً. .

لماذا لا تقول: إخص عليك.

وقلب كفيـه حتى أصبح بـاطنهمـا الى أعلى ورفـع وجهـه الى السماء ودعا بشيء، ثم مسح بيديه على وجهه وتطلع إليّ، كان حزيناً ومتعباً ولم يتكلم.

فقلت: ألا تعرف أني أحبك؟

وأغمض عينيه، وشدد من إغلاق أجفانه وكأنما يقول نعم نعم.

قلت: وحبي لك لا يقدر؟!

وفتح عينيه وفيهما لمعة حزن.

فقلت: وأنت أحب إنسان إلينا جميعاً.

فعاد يغلق عينيه في ألم.

فقلت صارخاً: إذن لماذا تفعلها وتموت؟!

وفتح عينيه في دهشة وحدجني بنظرته القاسية الثابتة.

تلك النظرة التي كان يطالعني بها كلما ارتكبت خطأ عظيماً. وكنت أخاف من نظرته تلك وأنا صغير وأخافتني لحظتها كما لم أخف في حياتي. وخفضت صوتي حتى استحال الى همس وقلت: وحياة النبي الذي كنت تحبه، لماذا مت؟ لماذا تركتنا؟.

وكان أبي أسمر وله تجاعيد. تجاعيد كبيرة طيبة، وكنا نحبها وطالما لثمناها ولم يتغير منظره في أعيننا طوال السنين، كنا نكبر ونتفرق ونعود لنجده أسمر ذا تجاعيد كبيرة طيبة.

وأردت أن أقبله في تلك اللحظة فقد أحسست فجأة أني مشتاق إليه وحياتي قضيتها مشتاقاً إليه. وكلما عدت من غيبتي ورأيته أقسم لنفسي أن لا بد سآخذ إجازة لأقضيها معه فقط ولأشبع منه، فقد كنت أخاف أن يموت قبل أن أشبع منه.. أردت أن أقبله واندفعت ناحيته لأفعل ولكنه رفع يده من فوق ركبته كمن لا يود أن يقاطع وهو يصلي، وتوقفت وقلت:

ـ كيف تموت قبل أن أشبع منك؟

ولمحت دمعة صغيرة كرأس الدبوس تفر من عينه، وتذكرت لحظتها فقط ساعة أن وضعوا النعش بجوار الحفرة ثم فردوا ملاءة كبيرة

فوقها وأزاحوا غطاء النعش، وبالراحة حملوه وقد أصبح صغيراً في الكفن الأبيض، ووسطه قد سقط بين أيدي الرجال ويده اليمنى حين انزلقت وأطلت من الكفن. . كانت هي يده بلا ريب، نفس اليد الحبيبة الضخمة ذات الشعر والكف التي طالما ملست على رؤوسنا وباركتنا، اليد التي كنا نقبلها ونتأملها ونحن نقبلها، اليد التي طالما لعبنا في أصابعها الكبيرة وأحببنا لونها وخطوطها وضخامتها.

وعدت أقول له: لماذا لم تقل لنا إنك ستموت؟ وانتظرت أن يجيب فلم يفعل. . فنظرت إليه فوجدته لا يزال على جلسته ولكن عينيه مغمضتان ووجهه أصفر شديد الشحوب لا يتحرك. وجدته كشجرتنا المقطوعة حين هوت على طولها في الفناء ومضى على قطعها أيام واصفرت أوراقها وذبلت وتعرت الأغصان.

وعدت الى بيتنا.

لا يزال برج الحمام في آخر الفناء أبيض وفيه خرابيش، وأوضة الفرن بابها مهبب أسود وظلام يشع داخلها، والأرض عليها عفش كثير، والبيت واسع جداً وخاو فيه إلا المغرب والصمت والهواء الساكن الذي لا يريم. .

وفي نفس الحجرة التي كنا نجتمع فيها أصبحنا وحدنا. وجلسنا. . إخوتي يرتدون ملابسهم الكاملة وتكشيرة الحزن تبدو غريبه على وجوههم الصغيرة الشابة، وأمي متعصبة بمنديل وفي أنفها وفمها وعينيها ألم واحمرار ودموع.

جلسنا صامتين واجمين، ومصباح الغاز نوره أحمر كئيب وعلى الجدران ظلال رؤوسنا. . ظلال واجمة داكنة كقلوبنا تبهت وتغمق

كلما كبرت ذبالة المصباح وصغرت، جلسنا ساكتين وكأننا ننتظر شيئاً ما، ننتظر أن يدق الباب ونذهب جميعاً لنفتح لأنه قد عاد.. ضاحكاً طربوشه إلى الوراء كما تعود أن يفعل، فاتحاً ذراعيه وصدره ليسعنا جميعاً بكل مشاكلنا ومتاعبنا الصغيرة. أو هو في الحمام لا بد وحالاً سيخرج.. ويتنحنح ويكح كحته التي حفظناها وألفناها، كحته التي لا نتصور بيتنا إلا بها. أو هو في الفناء حتماً يحدث جارنا ويصلنا صوته من بعيد، وما أجمل صوته حين كان يصلنا من بعيد ونعرف أن هذا صوت أبينا، نعرفه من ألف صوت ونحبه دون آلاف الأصوات ونفرح به، فمعناه أن أبانا قريب وأنه قادم، وأننا سنكون بعد قليل حوله وفي حضنه وعلى مقربة من عينيه وحديثه وشعر صدره.

ولكن شيئاً مما انتظرناه لم يحدث. لا دق الباب ولا سمعنا صوتاً، وأفظع ما في الأمر أننا كنا متأكدين أن الباب لن يدق وأننا لن نسمع أصواتاً.

والمصباح يكاد نوره يختنق وغازه يفرغ، وظلالنا تبهت على الجدران وتتداعى، وإحساس غريب بدأت أحس به وأدرك أنني كنت أعانيه ولا أشعر، إحساس أكاد أتذوقه بطرف لساني وأحس بقبضته حول صدري، إحساس بأنني حزين حزَين.

وتطلعت في وجوه إخوتي.. وجوه مطرقة صامتة ذاهلة. وتطلعوا إلي

وفجأة وكأنما لسعنا خاطر واحد انفجرنا كلنا نبكي، فقد أحسسنا لحظتها فقط أن أبانا حقيقة مات وأنه انتهى من حياتنا إلى الأبد ولم يعد لنا أب. ما أبشع هذا! لم يعد لنا أب!.

تحويد العروسة

كون الشراقوة ـ بلدياتي ـ كرماء، مسألة لا نقض فيها ولا إبرام. أما أن يبلغ هذا الكرم حد التهور وحد «تحويد» العروسة فتلك مسألة أخرى كما يقولون. بل هي في الواقع عادة غريبة لم يبطل استعمالها في مديرية الشرقية إلا من سنتين تقريباً.

فمن المعروف أن البنت الريفية تتزوج في بلد غير بلدها يخرج أهلها في يوم الدخلة عن بكرة أبيهم لإيصالها الى بلد العريس. ونظراً لأن الأمن ـ أيام زمان طبعاً ـ لم يكن مستتباً في تلك المناطق الواسعة الشاسعة، فقد جرت العادة أن يخرج مع العروسة عدد كبير من أهل بلدها في أثناء الطريق، مكونين بموكبهم قافلة طويلة جداً على رأسها جمل العروسة الذي يقوده العريس في العادة، أو من ينوب عن العريس.

إلى هنا والأمر عادي يحدث مثله في كل مديريات القطر. أما الذي كان لا يحدث إلا في الشرقية وحدها فهو أن موكب العروسة كان حين يمر ببلد من البلاد أو بعزبة من العزب، يخرج أهل البلدة أو العزبة بأعيانها وشيوخها وشبابها ليعزموا العروسة وبلدياتها. ولكي

يثبتوا جدية العزومة كانوا يذبحون ويعلقون رأسها فوق نبوت أحدهم وينتظرون حتى يقترب الموكب، وحينئذ يتقدمون منه ويضعونه أمام الأمر الواقع قائلين:

ـ تفضلوا عشاكم جاهز والذبيحة ذبحت ومبيتكم الليلة عندنا . .

وطبعاً كان أهل العروسة يرفضون بشدة فالليلة ليلة الدخلة ولا وقت للعزائم أو مزاولة الكرم الشديد، ولكن العازمين لا يرضيهم هذا معتبرين أن الرفض إهانة خطيرة موجهة الى قدرتهم على استضافة العروسة وأهلها. ويشدد أهل البلدة في دعوتهم ويشدد أهل العروسة في رفضهم ويزداد كل طرف إصراراً. ويصل الأمر في النهاية الى حد الشتائم والتماسك بالأيدي . . ثم لا تلبث النبابيت أن ترتفع وتقوم خناقة كبيرة قد تسفر عن قتلى وجرحى، ولكنها لا بد أن تنتهي الى أحد أمرين: إما انتصار اهل العروسة ومواصلة طريقهم الى بلد العريس، وإما انتصار أهل البلدة واقتياد الموكب المهزوم واستضافته بالقوة . . .

وفي أغلب الأحيان كان أهل العروسة ينتصرون إذ الحمية كانت تأخذهم والمسألة بالنسبة إليهم مسألة كرامة وشرف ممكن الدفاع عنهما الى حد الموت. أما بالنسبة الى أهل البلدة فنادراً ما كانوا ينتصرون إذ المسألة بالنسبة إليهم مجرد إظهار لشدة كرمهم، وتلك قضية قد لا تدفع الإنسان الى التفريط في نفسه وإزهاق روحه . .

ظلت هذه العادة جارية قروناً طويلة حتى قضي عليها من وقت قريب . . وسبب زوالها أن إحدى بنات قرية كفر عزب كتب كتابها على

واحدة من بلدة أخرى بعيدة. وفي يوم الدخلة خرج أهـل القريـة عن بكرة أبيهم ليوصلوا العروس كالعادة.

وفي الطريق فوجئـوا بعملاق أسـود يخرج عليهم ومعـه ثلة من أتباعه وقـد رفع نبـوتاً أطـول من النخلة فوق رأسـه، ووقف في وسط الـطريق دون أن ينبس ببنت شفة. ومـا كاد أفـراد المـوكب يلمحـون الـرجل حتى بـدأ اضطراب شـديد يجتـاح صفهم الطويـل، ذلك لأن أهـالي كفر عـزب كان بينهم وبين الشجـاعـة عـدم استلطاف قـديم. كانت البلدة مكونة من عائـلات كبيرة تفتتت. فتتها الفقر وقلة الأرض وتحولت إلى كفر مزدحم بآلاف الأنفس المتناحرة التي يـأكل بعضهـا البعض ولا تبالي. كان أهل الكفر كلهم صغاراً في صغار، الملاك لا يمتلك الـواحد فيهم أكثـر من بضـع قـراريط كـل أمله في الحيـاة أن يجعلهـا فدانـاً بأكمله، والتجـار ـ إذا صحت التسميـة ـ مجـرد بـاعـة سريحة يلفـون البقج والأخـراج على أكتافهم يـوم السوق، وفي البلد أكثر من خمسين دكان بقالة لا يـزيد ثمن البضـاعة في أي منهـا على الخمسة جنيهات. .

وهناك عشرات يحتـرفون صنـاعة القهـوة والشاي، ورأس مـال الـواحد فيهم ليس أكثـر من بـراد شـاي وعشـة آيلة للسقوط يسكنهـا القهوجي. . والفقهاء ومقرئي القرآن ومن يصنعون الطعمية ويقفون بها على أبواب الجوامـع بعد الصـلاة، والقفاصـون والقصاصـون وصغار اللصوص والحرامية. . كل هؤلاء متوفرون بالمئات والعشرات والحمد لله! إذا خـلا منصب خفير تقـدم له أكثـر من مائـة وبذلـوا الوسـاطات والشفاعات، والذي يعمل منهم خولي دودة في موسم نقاوة القطن لا

بد أن أمه دعت له، ومع هذا الضيق الشديد في الرزق، بل يمكن أن يكون من أجل هذا الضيق الشديد في الرزق، فشكاوى بعضهم من بعض لا تنتهي، واللاغات التي تدعي الشروع في القتل والسرقة بإكراه وهتك العرض تنهال على المركز من كفر العزب باستمرار، والجدع هناك طبعاً هو من يكسب القرش الأزيد بلا أي اعتبار للطريقة التي جاء بها القرش. الرجل إذا نخنخ ووفر المليم شاطر، وشيخ الحصة إذا أخذ شلناً أو نص فرنك ليمضي على العرضحال شاطر، حتى العمدة شاطر. لأنه من التجارة في القطن (ثاني جمعة) اسماً، والمسروق من الحقول فعلاً، قد حاز نصاب العمودية.

وعلى هذا لم يكن غريباً إذا ذكرت لأحد من أهل كفر العزب شيئاً عن الجدعنة أو الشجاعة أن يلوي رقبته ويقول لك:

ـ ودي تسوى كام في يوم السوق يا حبيبي..؟

بل هم في الواقع لم يكلفوا خواطرهم، ولم يخرج المئات منهم لتوصيل العروسة في ذلك اليوم إلا وكل منهم يطمع في عشاء الفراخ الفاخر ذي البطاطس وأكوام اللحم المسلوق المغطاة بالأرغفة المخبوزة الطازجة، ولا تحسب الحلويات والفرجة المجانية، ثم من يدري؟ ألا يحتمل أن تفتح لأحدهم ليلة القدر ويظفر بسيجارة مكنة؟

ممكن إذن أن نتصور الاضطراب الشديد الذي اجتاح موكب العزابوة لدى ظهور المارد الأسود، وكيف علت همهمتهم وتقطع طابورهم الطويل وانخلعت الأفئدة وارتفعت الرؤوس تستكشف وتحاول أن تجد مخرجاً، وتتساءل:

ـ مين يتكلم يا ولاد مين؟

ذلك لأنه لم يكن للموكب زعيم أو رئيس، فالعزابوة يكرهون الزعامة لأن كلًّا منهم يريد أن يكون هو الزعيم، ولكن الزعامة هنا محفوفة بالمخاطرة ولهذا لا بد أن يتساءلوا ويتصايحوا:

ـ مين يتكلم يا ولاد مين؟؟.

ورشح بعضهم الشيخ رجب أبو شمعة لا لأنه كان يمتلك ثلاثة أفدنة بأكملها اشتراها سهماً سهماً ودبق ثمنها من حرمان نفسه وأولاده من لبن الجاموسة وبيعه، ولكن لأنه كان أكثرهم حكمة في موقف تعتبر الجرأة فيه نوعاً من الحمق وقلة الأدب.

ولم يقبل الشيخ رجب إلا بعد إلحاح.. بل كاد يصنع عين واعتدالًا.. أي أكثرهم خوفاً، ورجل كهذا تحمد زعامته في الحكمة ويعود وحده الى البلد، ولكن تحت وابل من الدعوات والألقاب والتضرعات قبل، وزعق في الموكب مخاطباً إياه من أوله إلى آخره طالباً السكوت التام. وحين تم له ما أراد لكز حمارته القصيرة ذات اللون البني الذي هو أقرب الى لون فئران الغيط منه الى لون الحمير، وتقدم ممتطياً صهوتها، غير أنه ما كاد يقترب من المارد الأسود وثلته حتى ترجل عنها احتراماً، وتقدم منهم قائلًا بلهجة معجونة بملق العزابوة الأصيل:

ـ دستوركم يا سيادنا.. سلامو عليكم.

ورفع إليه العملاق الأسود عينين يطق منهما الشرر وقال:

ـ لا سلام ولا كلام! حودوا على طول. .

وبلهجة أكثر ملقاً قال الشيخ رجب مدعياً البراءة التامة:

ـ على فين يا سيادتنا؟

ـ أنتم ضيوفنا الليلة. .

ـ ضيوف مين؟. .

ـ ضيوف السنديك بك. . احنا بتوعه وآني عنبر راجله. .

وحاول الشيخ رجب أن يتملص ويتخلص سائلاً الرجل عن رأس الذبيحة التي جرت العادة أن تكون معلقة فوق نبوته، مدعياً أن عدم وجودها يعطيهم الحق في رفض الدعوة. . ولكن الرجل أفهمه بطريقة لا تقبل النقاش أو الجدل أن الذبيحة ذبحت فعلاً وأنهم لا بد أن يعودوا الليلة مهما فعلوا وسواء بالقوة أو بالتي هي أحسن. . ويبدو أن كلامه هذا أثار بعض شبان العزابوة ولم تعجبهم طريقة الشيخ رجب، وأحبوا أن يظهروا شجاعتهم على الأقل أمام نساء بلدهم الموجودات في الموكب، فزمجروا وتصايحوا ورفعوا عصيهم الخيزران استعداداً للمعركة. ولكن الشيخ رجب رفع لهم يداً حاسمة غاضبة ولعن آباءهم جميعاً علامة الزعامة وأسكتهم، فقد كان يعرف حصة أهل بلده من الشجاعة، ويعلم نتيجة أية خناقة قد تنشب مع العزابوة، إذ ما تكاد الخناقة تبدأ حتى يخبط العزباوي من هؤلاء خبطتين فقط ليثبت وجوده ويقيد اسمه في سجل المتشاجرين، ولكن ما يكاد الضرب الحقيقي يشتغل وتصبح الحكاية جداً حتى يطلق ساقيه للريح، وعلى هذا قال للرجل الأسود:

ـ مختصر الكلام . . . انت عايز إيه يا عم؟

ـ تحودوا بالتي هي أحسن.

فقال الشيخ رجب وهو يلكز حمارته:

ـ بس كده؟ . . حاضر . . احنا ضيوفك الليلة يا سيدي ولا تزعل . . حود يا وله انت وهو.

ورفع عنبر العملاق الأسود حاجبيه علامة الدهشة وكأنما فجع بهذا التسليم المطلق بلا قيد ولا شرط . . وهو الذي كان يحلم بخناقة يتسلى ويفخر برواية تفاصيلها أياماً كثيرة، ولا بد أنه عجب من هؤلاء القوم الذين لا يقيمون للكرامة وزناً، ولكنه على أية حال أمسك بمقود جمل العروسة ومضى ميمماً وجهه شطر العزبة ووراءه ما لا يقل عن خمسمائةمن أهالي كفر العزب ما بين راكب وراجل . . وواضع ثوبه في أسنانه وحامل بلغته تحت إبطه . . أو مفضل أن يمشي بجوار دابته عملاً بالمثل العزباوي المشهور:

ـ هين نفسك ولا تهين بهيمتك.

وأهلّ الموكب الضخم على عزبة السنديك. وخرج البيه بشخصه يتفرج على فرح (الفلاحين) هذا، وإذا بالموكب ـ لدهشته الشديدة ـ يقف لدى سور حديقته ولا يتزحزح، والأغرب من هذا أن عنبر خادمه كان يقود الموكب.

وقال عنبر للشيخ رجب:

ـ استنوا انتم هنا واوعوا حد يتحرك.

وتحـرك هـو داخـلاً على سيـده دخـول طـارق بن زيـاد بعـد فتـح الأندلس، قائلاً بصوت القائد الظافر:

ـ حودنا العروسة يا سيدي البيك.

ونظر إليه البيك نظره الى مخبول ولم يفهم، وأخيراً بدا عليه أنه تذكر وأن أباه كان قد حدثه عن شيء كهذا. ولكن تلك المسائل كانت في الزمان الغابر في أيامه الأولى وأيام أبيه وجده الأكبر. . أيـام العز، الأيام التي يسمع أنه كان لديهم فيها ألف وخمسمائة فدان وأربعة آلاف رأس من الغنم. أين هو الآن من تلك الأيام؟ الأرض راحت والعز راح ومنزل الضيوف تهدم والمحصول يرهن لعدة بنوك قبل جمعه وحصاده، ولم يبق من مظاهر المجد القديم إلا عنبر آخر ما تبقى من عبيد العائلة أيـام أن كان للعـائلة عبيد. وإذا بعنبـر الأحمق هذا يحضـر لـه ذلـك الجيش من أهالي كفر العزب ليستضيفهم، جيش جائـع متهالـك كل واحد فيه لا بد قد أجاع نفسه لعشوة الفرح حتى غارت وجنتاه؟

وهكذا نزل البيـه شتماً وسباً ولعناً في خـادمه، وعنبـر مذهـول مدهوش من تصرف سيده فطالما حود عرائس له ولأبيه، وطالما فرحوا به وبانتصاراته وجازوه عليها خير الجزاء، وإذا بجزائه هذه المرة علقة؟ الظاهر أن الأسياد فسدوا هم الآخرين كما فسد الزمان وراحت السيادة مع العصر الذي ولى، وإلا فكيف يخاف البيـك من تحويـد العروسـة وكيف لا يفخر؟

وظل البيه يضيق الخناق على خادمه حتى خيره بين أحد أمرين:

إما صرف هؤلاء الناس كما أحضرهم وإما قتله رمياً بالرصاص. ولم يجد عنبر بدأً من اختيار الأولى، وعاد وقد تغيرت سحنته وخبا الشرر في عينيه وتدلدلت ملامحه وهو الذي سحب هذه المرة ناعماً للشيخ رجب ولف كفه في ملق كثير محاولاً أن يعتذر، ملقياً الذنب على نفسه ومقسماً بالله العظيم ثلاثاً أن سيده لم يكن له علم بما حدث.

ولكن سيده مين؟ اعتدل الشيخ رجب فوق حمارته وانجعص الى الوارء كما يفعل الأبطال المغاوير، واسترد الخمسمائة من أهالي كفر العزب أنفاسهم الهاربة ووقفوا وراءه ـ ربمالأول مرة في حياتهم ـ وقفة رجل واحد يؤيدونه ويحبذونه مصرين على أنهم ضيوف السنديك بيك تلك الليلة، ما في ذلك كلام أو سلام، وأن كرامتهم لا يمكن أن تسمح بأن يهانوا على تلك الصورة.. هي الحكاية إيه؟ لعب عيال؟.

وانقطع نفس عنبر وهو يجري رائحاً غادياً بين الشيخ رجب وبين البيك حاملاً رأي كل منهما إلى الآخر، مخفياً رأي كل منهما في الآخر آملاً أن تنجح المفاوضات. ولكن المفاوضات لم تنجح. ولما تأكد للبيك أنه ما لم يستضفهم فسيفضحونه في طول البلاد وعرضها وسيضحكون عليه طوب الأرض، قبل الضيافة وأمره إلى الله، وقضى ليلته حائراً واقفاً على أقدامه باحثاً عن الحفة وأطباق وطعام يسد به مئات الأفواه المفتوحة الجائعة.

وكان أول شيء فعله في الصباح أن استغنى عن خدمات عنبر الى الأبد، مفضلاً أن يتنازل عن آخر مظاهر العز ولا الحوجة للدواهي التي تأتي بها تلك المظاهر.

أما العزابوة فبعد أن شربوا قهوة الصباح ورشفوها بمزاج وأشعلوا السجائر أربعة وعشرين قيراطاً، توكلوا على الله وامتطوا ركائبهم واستأنفوا طريقهم الى بلد العريس، ودعواتهم تنهال على الشيخ رجب وحكمته، ومن كان منهم يشك في زعامته آمن وسلم وأصبح له أخلص المخلصين.. وزيادة في التكريم أخروا جمل العروسة وأصروا على أن يجعلوا الشيخ رجب وحمارته على رأس موكبهم.

وما كاد الموكب يبتعد عن عزبة السنديك قليلاً والضحكات والفرقعات الصاعدة من البطون الممتلئة ببلاش تتصاعد منه، حتى برز لهم عند الكوبري المتحرك جماعة من أهل الروضة:

ـ اقف عندك يا جدع انت وهو.. وقفوا.

وتقدم الشيخ رجب مصطنعاً البراءة يسأل، وما كادت كلمة «حودوا» تفلت من فم أكبرهم سناً حتى كان الشيخ رجب قد حود حمارته ناحية البلدةفعلاً، ويده تشير لبقية الركب أن يتبعوه.

ووقعت الروضة في حيص بيص إذ كان عليها لأول مرة أن تستضيف خمسمائة هي التي لا يتعدى أهلها المائتين، وقد حاولوا الاعتذار بقولهم إنهم لم يكونوا على الاستعداد ولكن الشيخ رجب كفاهم مئونة الخجل قائلاً:

ـ الموجود يا جماعة يسد

* * *

وهكذا ظل ركب العزابوة وعلى رأسهم الشيخ رجب أبو شمعة،

تودعه بلدة لتستقبله بلدة أو عزبة أخرى حتى ولو كـان الذي يعتـرض الـطريق رجـلاً واحـداً، وحتى ولـو كـان قـد قـال كلمتـه على سبيل المجاملة والترحيب لا أكثر ولا أقل.

ولم يصل الركب الى بلدة العـريس إلا بعد سبعـة أيام قضـاها العزابوة يأكلون ويشربون ويدخنون ويطعمون ركائبهم شعيراً وبرسيمـاً وفولاً.

ومن أيامها اضطر الشراقوة الى تخفيف حدة كرمهم، فتابوا عن تحويد العرائس وحرموا اعتراض مواكبها.

حادثة شرف

أعتقد أنهم لا يزالون يسمون الحب هناك «العيب». ولا بد أنهم لا يزالون أيضاً يتحرجون عن ذكره علانية، ويتغامزون به وإنما تلمحه في النظرات التائهة الحيرى، وفي وجنات البنات حين تحمر وتخضر وتنسدل عليها الأجفان.

والعزبة كأي عزبة، لم تكن كبيرة: بضع عشرات من البيوت المبنية بحيث تكون ظهورها الى الخارج وأبواب الدور تفتح كلها على حوش داخلي واسع، حيث الساحة الصغيرة التي يقيمون فيها الأفراح ويعلقون العجول المريضة إذا ذبحت لتباع بالأقة وبالكوم. والأحداث في العزبة قليلة ومعروفة.. النهار يبدأ قبل مشرق الشمس وينتهي بعد مغيبها، والمكان المفضل هو عتبة البوابة الكبيرة حيث الهواء البحري وحيث يستحب النوم ساعة القيالة ولعب (السيجة). الأحداث قليلة ومعروفة.. بل تكاد تعرفها حتى قبل أن تقع، وتعرف أن هذه البنت المفعوصة التي تلعب الحجلة ستكبر بعد عدد من السنين وسيصفو لونها الملبد، ثم يخرطها خراط البنات وتتزوج.. بالتأكيد واحداً من هؤلاء الصبية الذين يرتدون الجلابيب الممزقة على اللحم ويستحمون

في الترعة وينطون كالقرود المسلسلة من فوق الكوبري.

غير أنه أحياناً، تقـع حوادث لا تكـون معروفـة ولا يمكن التنبؤ بوقوعها، مثل ذلـك اليوم الـذي ترددت فيـه الصرخـات في الغيط. . الصرخات الغامضة الغريبة التي ينشق عنها فضاء الريف الواسع أحياناً فتـدوي بطريقـة مفاجئـة ومرعبـة ومستغيثة دون أن تعـرف مصدرهـا، ولكنك لا بد تدرك منها أن شيئاً مهولاً قد وقع، ولا بد حينئذ أن تفيق فتجد نفسك تجري لتنجد أو على الأقل لتعرف الخبر.

غيـر أنه في تلك المـرة لم يكن هنـاك مـا يستـدعي النجـدة أو المساعدة، بل أكثر من هذا كان العائدون الى العزبة يجـدون حرجـاً كثيراً حيت تسألهم النساء عما حدث.

ماذا يقولون؟ أيقولون إنهم وجدوا فاطمة في «الذرة» مع غريب؟

ماذا يقولون وفاطمة ليست غريبة وغريب ليس غـريباً. . فـاطمة أخت فرج وغريب ابن عبدون، والحكاية ليست تائهة، فالعزبة صغيرة والناس فيها عائلة واحدة. . ولا يعرفون بعضهم البعض معرفـة دقيقة فقط ولكن كل واحد يعرف عن الآخر أدق دقائقه وأخص أموره، حتى النقود القليلة التي قد يكتنزها أحدهم يعرفون مكانها بالضبط وعددهـا والطريقة التي يمكن أن تسرق بها. . ولكن أحداً لا يسرق من أحـد. هم إذا سرقوا يسرقون من محصول العزبة، وحتى هذه مجرد سرقـات صغيرة لا تتعدى ملء عب قطن أو حجر كيزان درة، أو يساهي أحدهم خفير الزراعة وينضح مصرف أرز ويأخذ سمكه له وحده دون أن يورد نصفه للناظر كما جرت العادة.

وفاطمة معـروفة وكـل شيء عنها معـروف، ولم تكن أبداً ذات سيرة خبيثة أو سلوك معوج. كل ما في الأمر أنها حلوة.. أو على وجه أصح كانت أحلى بنت في العـزبة. وليس هـذا هو الـوجه الصـحيـح للمسألة أيضاً فإذا كانت الحلاوة تقاس في الأرياف بـالبياض ففـاطمة كانت سمراء. المسألة لها وجه آخر خاص بفاطمة وحـدها، فلم يكن في استطاعة أحد في العزبة أن يعرف ماذا في هذه البنت بالذات دوناً عن بقية البنات. خدودها صحيح كانت حمراء سمراء شديدة الاحمرار تظن معه أنها لا بد تفطر كل يوم بعسل نحل وتتعشى بفراخ وحمـام، ولكنـك تـدهش إذا عـرفت أنه احمـرار قد صنـع من صحـون المش والفلفل المخلل وعروق البصل والفجل والسمك الصغير المحروق في الفرن. وعيونها كانت سوداء غامقة السواد، ذاك السواد اللامع الذي لا تراه إلا مشعاً ومضيئاً ودائم الحركة لا يستقر. العيون التي لا تحتمل أن تنظر إليها أو تنظر إليك لحظة. وحتى إذا قلنا إن شعرها كان أسود ناعماً، وثـوبها الحبـر الواسـع الذي تـرتديـه لا يفلح في إخفاء بـروز صدرها ونحول وسطها وامتلاء ساقيها، حتى إذا قلنا هذا قتلنا فاطمـة قتلاً. فآخـر ما كـان مهماً فيهـا هو جسـدها. أهم من هـذا كله كانت أنوثتها.. أنوثة حية نابضة دائمة التفجر والتدفق، أنـوثة لا تـدري من أين تنبع وأين تكمن. ابتسامتها ابتسامة أنثى، لفتتها الى الخلف لفتة أنثى. الطريقة التي تخبط بها على كتف زميلتها، إطراقها وهي تدعو أحد المارة ليساعدها في رفع بلاص الماء على رأسها، طريقة قضمها للقمة وإمساكها للرغيف، القلة في يدها، الماء حين ينسكب في فمها

نصف المفتوح، الزاوية التي تميل بها الكرة، قرطتها الخضراء الكرومبية الوحيدة حين تتعصب بها معوجة قليلاً الى اليمين مبينة بعض شعرها المسبسب الأسود، غمازتاها حين تظهران فجأة وتختفيان فجأة وتحددان أجمل ابتسامة يفتر عنها ثغر، ضحكتها وكيف تبدأ ثم بقاياها حين تنتهي، صوتها المصنوع من أنثوية سائلة وكيف تخرجه بمقدار وكيف أحياناً الى قطرات.. كل قطرة كلمة أو نبرة.. نبرة أنثوية مصفاة تكفي وحدها لتروي ظمأ عشرات الرجال.

وكانت فاطمة تثير الرجال، أو على وجه الدقة تثير الرجولة في الرجال.. وكأنما خلقت لتثير الرجولة في الرجال، حتى الأطفال. كانت تثير فيهم الرجولة الكامنة فيهم فكانوا إذا رأوها قادمة من بعيد أحسوا برغبة مفاجئة في تعرية أنفسهم أمامها، وكثيراً ما كان بعضهم يقدم على تنفيذ الرغبة فيرفع ذيل جلبابه ويتعمد المبالغة في رفعه. ولا يفلح ضرب أو زجر في نهيهم عن إتيان هذا الأمر فهم أنفسهم لا يدرون لماذا يعرون أنفسهم إذا رأوها..

لذلك ما كان أشد محنة فرج! كان فرج أخاها وكان مزارعاً وحدانياً فقيراً لا يملك سوى بقرته، ولا يعطيه الناظر إلا ثلاثة فدادين ليزرعها.. ومحاولاته كل عام ليزيد حصته نصف فدان كانت تبوء بالفشل الذريع. ومع هذا كان فرج رجلاً في عز نعنعة رجولته يأكل في الطقة ثلاثة أرغفة إن وجدت، ويأتي على قلة الماء في نفس واحد، وسمانة رجله في حجم الفخذ، وكان حائراً منغص العيش والسبب أخته، فقد كانت تحيا معه ومع امرأته، وامرأته ذات الأنف الفاطس والوجه الأصفر كانت طيبة وإن لم تكن طيبتها تمنعها أحياناً من لفت

نظر فرج الى صدر أخته الذي تدعي أنها تتعمد هزه حين تمشي، أو الى الكحل الذي لا يفارق عينيها، واللبان الذي توصي عليه كل ذاهب الى السوق. ولم يكن فرج في حاجة الى لفت النظر إذ هو يرى ويسمع ويفور دمه كلما رأى أو سمع، ولم يكن يستطيع تأنيب فاطمة على شيء.. كانت ترتدي نفس ما يرتديه البنات وتتكحل كما يفعلن وتمضغ اللبان كما يمضغن، ولم يلمحها أحد في موقف مريب ولا ضبطت مرة متلبسة بخطأ، وحتى حين ادعت زوجته أن السبب في احمرار وجنتيها أنها تحكهما بالورق الأحمر الذي تصنع منه صناديق الدخان الفرط، بلل عمامته يومها بلعابه وظل يدعك وجنتي فاطمة حتى كاد يدميهما ولم تحمر العمامة ولا حدث لها شيء. ولم يفعل شيئاً يومها أكثر من أن صوب إليها نظراته المحمومة المملوءة بالشك وراح يعنفها ويزجرها وفاطمة لا تعرف سبباً لنظراته تلك. فهي تعرف العيب تماماً وطالما حدثها فرج عنه وعنفها.. وهي لا تفعل العيب وليس في نيتها أن تفعله بل هي تفضل الموت على فعله، كل ما في الأمر أنها كانت تحس بالناس يدللونها ويحبونها فكانت تفعل كما يفعل أي محبوب.. تتصرف بحرية وبساطة ولا تعقيد. إذا أرادت أن تبتسم ابتسمت وإذا ابتسمت كان هذا عن رغبة حقيقية في الابتسام، وإذا أرادت أن تضحك ضحكت وخرج ضحكها بريئاً نابعاً من القلب. وكانت تعرف أن الناس يحبون جمالها فكانت تحرص على هذا الجمال فلا تخرج من عتبة دارهم بوجه غير مغسول أو بشعر مشعث منكوش، وإذا اشتغلت في الغيط لبست الجوارب التي تقترضها من أم

جورج زوجة الناظر والتي تصنعها على هيئة قفازات تقي بها يديها من الأفرع وحز الشوك والأغصان. وإذا تكلمت حرصت على أن يخرج كلامها جميلاً ليس فيه كلمة نابية أو تعبير قبيح. والناس جميعاً أحبابها وأصحابها، كلهم يحبونها وهي تحبهم كلهم، ويدللونها وتتدلل عليهم، ويريدونها غير عابسة فلا تعبس، ويريدونها ضاحكة فتضحك وكل أملها أن يضحكوا لضحكها ويسعدوا بابتسامتها ودلالها. فلماذا يعنفها أخوها ويزجرها؟ ولماذا هذه النظرات المشبعة بالسم منه؟

والحقيقة أن فرج لم يكن يدري لماذا.. كل ما في الأمر أنه مسؤول عن أخته وأنوثتها الصارخة، وكل عين تمتد الى أخته إنما تغور في لحمه هو وتدميه، وكل أمله أن تتزوج فاطمة وتنزاح بمسؤوليتها بعيداً عنه، بل بعيداً عن العزبة كلها. ولكن فاطمة لم تكن تتزوج فخطابها قليلون بل تكاد تكون بلا خطاب، فمن هو المجنون الذي يجرؤ على امتلاك كل تلك الأنوثة وحده؟ وإذا تزوج ماذا يفعل بها والناس في العزبة وما جاورها لا يتزوجون ليستمتعوا بالجمال ويقيموا حوله الأسوار، إذ هم أولاً لا يحيون لكي يستمتعوا بالحياة.. هم يحيون فقط لكي يبقوا أحياء، ويتزوجون لكي تعمل الزوجة وتنجب أولاداً يعملون. ولهذا ففاطمة باقية بلا خطاب.

والعزبة مليئة بالرجال والشباب، وفاطمة كأي بنت فيها تعمل كالرجال تماماً وتسرح الى الغيط وتروح مع الأذان، وهي ـ دوناً عن كل النساء والبنات ـ تثير الزوابع أينما حلت، ولهذا فإن قلب فرج مملوء بالخوف. وخوفه يجعله يضحك إذ هو الذي يملأ العزبة

برجولته الفارعة وطيبته ضحكاً، وهو الذي يملؤها حياة. . يبرطع وراء الرجال ويهزر معهم رغماً عنهم ويعلمهم التنازل عن وقارهم الكاذب والنزول له في «الباط»، ويسابق الشبان في العوم، ويخطف القفف من فوق رؤوس النساء حتى أكثرهن تحفظاً ويجري ويضحك ولا تشكو النساء، وفي الأفراح يلبس جلبابه الأبيض ويلف على رأسه الحزام السكروتة ويحلق شعره وذقنه بالمكنة الزيرو ويرقص للعريس، وينقط للعروسة وللناظر وللخولي وأهل العزبة، ينقط بالفلوس التي باع بها قطناً سرقه من المخزن أو جوالاً اختلسه وهو في طريقه الى الشحن، ويضرف ويفنجر ويملأ العزبة صخباً وضجيجاً. والكل رجالاً ونساء وشباباً يحبونه ويعزونه وتعتمل أشياء داخل صدورهم وأشياء، فأخته تكاد تثير طوب الأرض فتنة وأنوثة والرغبات في صدورهم تكاد تتفجر، وفرج يأسرهم بطيبته وصداقته وضحكه، فإذا مرت فاطمة خفضوا البصر، وإذا لم يحتمل أحدهم وتأوه لكزه جاره.

ولذلك ظلت فاطمة كالفاكهة الناضجة المحرمة لا يقربها أحد ولا أحد يدع الآخر يقترب منها، والقلوب تذوب حسرة، وأعصاب الرجال وحتى العواجيز ترتجف رغبة كلما مرت، ولكن فرج دائماً هناك لا بد أن يتردد في أذنك صدى ضحكة عريضة تأتيك من بعيد وتذكرك أنه هناك وأنه عيب، وتعود حينئذ الى صوابك فتذهب لتخطف العصر أو تتمشى لتشرب شاياً عند الدكان.

واليوم ضبطوها في الدرة مع غريب.

الحقيقة أنها لم تضبط يـومها فقط، مـا أكثر مـا ضبطت فـاطمة في الـدرة ووراء اسطبـل الوسيـة وتحت ماكينـة الدراس مـع رجـال، ولكنه ضبط مع إيقـاف التنفيذ ـ فـالأيام كـانت تثبت أنها شـائعات. . مجرد شائعات كان لا بد أن تنطلق وراء فـاطمة إذا مـرت كما تنـطلق الحسرات. وسكان العـزبة لـم يكـونوا أشـراراً ولا حاقدين ـ كانوا في الـواقع أنـاساً طيبين يحـرص كل منهم على الآخـر مثل حـرصه على نفسه، حتى أوزهـم كان طيباً لا خبث فيه تخرج جماعتـه من كل بيت في الصباح مكاكية مزغردة، وتتجمع قريباً من الجرن وتأخـذ طريقهـا الى التـرعـة في قـافلة ضخمـة، ويـظل الأوز يلعب ويستحم ويعلم أولاده العـوم حتى تثوب الشمس الى المغيب فتـأخذ مئـات الأوزات طريقها الى العـزبة، تـدخل من البـوابة ويتـوجه كـل أوز الى بيته من تلقـاء نفسه، وحتى لـو أخطأت أوزة غـريرة طـريقها وذهبت مـع أوزة الجارة، فما أسرع ما تجد بابـك تطرقـه الجارة ومعهـا الأوزة الضالـة حتى قبل أن تكتشف أنت أنها ضلت وضاعت.

وأمام فاطمة، أهل العزبة رعايا جمالها مدلهون بحبها، إذا كان الفرح حظيت باهتمام يفوق ما تحـظى به العـروسة. ولعـل هذا كـان السبب في خوفهم الشديد على فاطمة، كانوا خائفين عليها من العيب وكأنهم لا يصدقون أن أنثى جميلة مثلها ممكن أن تـوجد ولا تـرتكب العيب. بل إنهم من كثرة خوفهم عليها حددوا الشخص الذي يمكنـه أن يرتكب العيب مع فاطمة. . حـددوا غريب بـالذات، وغـريب كان ابن عبدون، وعبدون مع أنه كبير في السن إلا أن أحداً لا يقول له يـا

عم. . فقد كان رجلاً عصبي المزاج يدمن «المضغة» والقهوة السادة، وكلمة والثانية تجده طابقاً في خناقك. حتى الناظر كان يخاف منه ومن خلقه الضيق ويتجنب إثارته. وعمره ما قال لأحد كلمة حلوة ولكن شطارته كلها تظهر إذا حلت بالعزبة كارثة ما، حينئذ يقف كغراب البين على الترعة وقد أمسك بذيل جلبابه من الخلف ويمضي يشتم ويسب ويبصق مضغته ويشبع أهل القرية لوماً وتأنيباً وكأنهم هم المسؤولون عن وقوع الكارثة. غير أنهم كانوا لا يقيمون لعصبيته وسبابه وزناً فقد كانوا يعرفون أنه من الداخل أبيض، فقط طبعه هو الذي يغلب.

أما ابنه غريب فرجال العزبة كانوا لا يرتاحون إليه وكذلك نساؤها، فقد كان ولداً قليل الأدب فارغ العين يربي قصة من شعره ويظهرها مسبسبة من طاقيته الصوف البيضاء. وسبب ضيق الناس به أنه كان يغوي النساء، والأدهى من هذا أنه كان ينجح في الإيقاع بهن. . وفي هذا لم يكن يحترم جاراً ولا زوجة خال. كان أسمر فاتح السمرة وبالرغم من قبح خلقة أبيه كان وسيماً لا تمل العين رؤية ملامحه، وله طريقة لذيذة في نطق الكلام مع أنه كان قليل الكلام. كان صوته يخرج غليظاً بريئاً فرحان وكأنه هو مراهق حديث البلوغ. ولم يكن يبدو أهبل كمعظم شباب الأرياف. . كان ولداً حدقاً معتداً بنفسه سريع الفهم فهلوياً نظيف الجلباب يعمل كالمكنة طول النهار ويغني المواويل، وعنده عدة شاي ويعزم ويشدد في العزومة. فإذا جاء الليل لا يحتمل المبيت في دراهم ويؤثر النوم فوق كومة تبن

الـوسية العـالية حيث يـدفن نفسـه، ويـظل يتلمس أفخـاذه وصـدره، ويحكي لأصدقائـه الذين يبيتـون معه. . يحكي لهم عن أمور النسـاء التي هم أجهـل الجهال بهـا والذي هـو فيها صـاحب الباع الـطويل. وكان جريئـاً لا يخجل وعينـه فارغـة. . أول ما ينـظر الى المرأة يبـدأ بالنظر الى سيقانها. ونظراته كانت تربك ففيها لمعة سخريـة دائمة أو لعلها ضحكة لم تنطلق. كانت نـظراته هكـذا رغماً عنـه وليس له يـد فيها، ولكن المرأة كانت تحس إذا نظر إليها هكذا أنـه يفهـم ما يـدور بخلدها، فإذا كـان ما يـدور بخلدها عيبـاً وهذا هـو الحال في معـظم الأحيـان ارتبكت وخيل إليهـا أنه عـراهـا، وتحـاول حينئـذ أن تغـطي نفسها فترتبك أكثر، ومن كثـرة ارتباكهـا تقع ويكسبـه وقوعهـا اعتداداً أكثر، فتزداد لـمعة الجرأة الساخرة في عينيه ويزداد عدد من يقعن له.

ولا بد أن غريب كان فيه شيء غريب، شيء لـم يكن يوجد في بقية الرجال. لعله ذكورة زائدة أو لعله شيء آخر، فقـد كان يكفي أن ترى المرأة من نسـاء العزبـة قفاه أو (دكـة) سرواله وهو يعمـل حتى تشهق وكأنها رأت رجـلاً عاريـاً. . ولم يكن يبالي في وسـائله. . كل الـطرق الى المرأة كـانت عنده حـلالاً. في الفرح يحشـر نفسه بينهن فيجمدهن أمامه. . وفي ماكينة الطحين كل شطارتـه أن يحمل القفف للنسـاء ويدق لهن القـادوس. حتى المريضـة لم يكن يعتقها، ولـولا خوفه من بنـدقية أبـو جورج النـاظر لحـاول في الليل زيـارة الست أم جورج، وكان الناس إذا اشتكوا لعبـدون أبيه ثـار في وجوههم ولخبط خلقته وقال لهم بفظاظة:

ـ حـداكم إيـاه. آني متبـري منـه. اعملوا فيـه اللي تقـدروا تعملوه. .

كـانوا في العـادة لا يستطيعـون أن يفعلوا شيئاً. . فغـريب وإن كان قصير القامة إلا أنه كان قوياً كفحل الوسية يستطيع أن يرفع ترس الساقية الحديد بيد واحدة ويقطم رقبة الرجل باليد الأخرى، كل هـذا وعيناه تلمعان نفس لمعتها الساخرة.

كان هو أكثر الذكور ذكورة، وكانت فاطمة أكثر الإنـاث أنوثـة، ولهذا كان من الطبيعي جداً أن تقرن الشائعـات بينهما. ومـع هذا مـا كان أبعد ما بينهما. . ففاطمة كانت تتجنبه لشهرته بقلة الأدب وفـراغ العين وكان هو يخافها عن بعـد، فهو وإن كـان ند لخـادمة النـاظر أو شفيعة الأرملة أم العيال، ففاطمة ليست واحدة منهن. إنها فـاطمة. . كل النساء كوم وهي كوم.

كـان أحيانـاً يزعـم للشبـان الغارقين حـوله في التبن أنهـا تحبـه وترسل له المراسيل، ولكنه كان أول الساخـطين على نفسه من أجـل مزاعمه تلك. كان يعمل في الغيط كالرهوان ويكتسح النساء بنظراتـه وذكورته فتخر له النساء. . وزينة بنات العزبـة في الأفراح والأسـواق، ولكن أمام فاطمة كان عاجزاً كل العجز، وفاطمة من ناحيته خائفة كل الخوف. حتى إذا قال لها العواف ودق قلبه آلاف الدقات وهو يقـولها كان ردها يأتي مضغوطاً لا عافية فيه، هي خائفة منه خوفها من العيب وهـو خائف منهـا خوفـه من العجز، والعـزبـة سـادرة في إقـرانـه بهـا وإقرانها به، وفرج سادر في ضحكه وذر صـداقته في العيـون، وسادر

في اكتساب محبة غريب حيث يكمن خوفه الأكبر، وكل هذا يجري من تحت الى تحت أما في الظاهر فالناس لبعضها والعزبة صغيرة والناس فيها عائلة واحدة كبيرة، وبيت عبدون ثالث بيت الى يمين بيت فرج، وحتى حوادث ضياع الأوز قليلة.

ولكنهم كانوا جميعاً يتوقعون دائماً أن يحدث شيء ما، شيء لا بد أن يحدث.. مثل أن يستيقظوا في منتصف ليلة على طلقة! أو تأتيهم من الغيطان صرخة تقول: ضبطوها في الدرة مع غريب.

* * *

وقد حدث..

والغريب أن أحداً لم يفاجأ بما حدث ولم يستنكره.. كلهم أخذوا الأمر على أنه شيء مسلم به، إن كان بالأمس لم يحدث فها هو اليوم قد حدث. حتى أطفال العزبة ـ وللأطفال مجتمعهم هم الآخرين وإشاعاتهم وآراؤهم الصغيرة في الناس الكبار ـ حتى هؤلاء أحسوا أن فاطمة قد ارتكبت أخيراً ذلك الشيء المحرم الذي طالما حذرهم منه الآباء والأمهات.. ارتكبت العيب.

وعلى هذا حين وجدوا فرج قادماً من الغيط من بعيد، ورأوا عمامته مخلوعة ورأسه عارياً لأول مرة وصديريه مفتوحاً وسرواله ملطخاً ببقع الطين بينما وجهه مصفر وشاربه يرتجف وعيناه في لون الدم.. حين رأوه قادماً من بعيد هكذا انزووا في ظل حائط الاسطبل وهم يكادون يحسون بفطرتهم هول الكارثة التي حاقت به. وحين

دلف من بوابة العزبة ساروا وراءه عن بعد يتابعونه صامتين حتى وجدوه يدخل داره وينهر ابنه الذي كان يخبط على صفيحة صدئة، ثم وهو يطلب من امرأته في صوت خطير لا يكاد يسمع أن تأتيه بالجوزة، ثم وهو يتناولها ويعب من دخانها عباً وينفث من صدره سحباً كثيفة تصدر عن الفرن المبلل بالأحطاب.

وحين بدأ بعض الرجال يتسللون إلى الدار تشجع الأطفال وتسللوا هم الآخرين، ولكنهم وقفوا قريباً من العتبة يرمقون ما يدور في الداخل خائفين. ولم يكن يدور في الداخل شيء يخيف. . كان فرج جالساً أصفر لا يتكلم يرص كراسي الدخان ويشرب. وكان الرجال حوله ساكتين لا يعرفون ماذا يقولون، وحتى إذا تململ أحدهم وأهاب به ضميره أن يقول شيئاً يخفف به من حدة الهول فإن فرج كان يمد له غابة الجوزة ليشرب ويسكت، فالموقف ليس في حاجة إلى اكلام .افأخيراً جاء اليوم الذي توقعه فرج وظل طول عمره يتوقعه. . أخيراً حدث الشيء الذي كثيراً ما فكر فيه وغلى الدم في عروقه وهو يفكر فيه. كان كلما رأى جسد أخته يتلوى في الثوب الأسود الواسع المهلهل، أو كلما رأى قطعة من جسدها ظاهرة من ثقب الثوب، كلما رآها تضحك أو تتكلم أو حتى تأكل كان يحس بصدره يضيق فجأة ويختنق فيصوب إليها نظرات كالمسامير المحمية، أو يضحك ضحكه الواسع العريض الذي لا بد تلمح فيه خوفه الرهيب من شيء لا بد أن يحدث. بل كثيراً ما حسبها بينه وبين نفسه. . ترى ماذا يفعل لو حدث لا قدر الله أن. . . ؟

وكان شعره يقف كلما حسبها ويعود ينظر الى فاطمة نظرات تغور بها في سابع الأرض، وها هو الحادث قد حدث وأصبح عليه الآن أن يأخذ موقف الرجل الأخ، عليه الآن أن يقتلها ويقتل غريب. يقتل فاطمة أخته التي حملها وهو يعدي بها المصارف حين كانت صغيرة والتي قالت له أمه وهي تموت: وصيتك فاطمة يا فرج، ويقتل غريب.. الكلب الذي آواه وسقاه على حسابه واحتضنه، والذي طالما توقع أن يخونه وقد خانه..

أجل! الموقف ليس في حاجة الى كلام.. إنه في حاجة الى دم. كل ما في الأمر أنه لا بد من التثبت حتى لا تلتف خطيئتهما حول رقبته. إنه قادم على إضاعتهما وإضاعة نفسه وامرأته وأولاده فلا بد أولاً أن يتأكد، فليعب الدخان ويسكت ولينتظر قبل أن يمسك السكين. والقرار بارد لا رحمة فيه ولا أمل.. ففرج من أهل العزب وأهل العزب متهمون أنهم متساهلون في أخلاقهم عن أهل القرى، ولكنه سيريهم أن أهل العزب لهم هم الآخرين أصول وأنهم أعدى أعداء العيب..

أما فاطمة فسرعان ما هلت من بعيد على العزبة وحولها سرب من نسائها وبناتها في أثوابهن القديمة السوداء ورقعهن الملتفة حول رؤوسهن، مكونات كتلة غامقة من السواد لها عشرات الأذرع والرؤوس تتحرك صوب العزبة في تصميم خطير وتثير سحابة واطئة من الغبار.

وجرى الأطفال يستقبلون الموكب.. كانت فاطمة في الوسط

وكـان وجهها أبيض. لأول مـرة انقلبت سمـرتهـا الجميلة الى بيـاض شـاحب. ولم تكن تبدو فـاتنة كعـادتها، وكـانت تعقد رأسهـا بشالهـا الأسـود كالحـزانى ومـلامحهـا لا تتحـرك وكـأنمـا هي ميتـة أو حـالاً ستموت.

وحدثت ضجة لدى اقتراب الموكب من العزبـة وراحت النسوة يتناقشن في أصوات رفيعة حادة كمـا يتناقش الـرجال، والبعض يشيـر بتحويدها على بيت الخولي بينما الأخريات يتحدثن عن الأصول وعن أن مكانها الطبيعي هو بيت أخيهـا. وحدث الشـد والجذب والصـراع وأخيراً أدخلنها في بيت الخولي القائم في ركن العزبة، وبقي الأطفال في الخارج ينتظرون.

أما غريب فقد قالوا إنه طفش واختفى في المـزارع وإنه قـد لا يعود.

ولم يكن أحد في العزبة يدري ما يحدث بـالضبط.. كان جـو العزبة قد تعكر فجـأة ولم يعد يـرى في جوهـا العكر شيئـاً. الرجـال جميعاً كانوا صامتين، والنساء دعواتهن كانت تنهال على غريب ابتداء من يجيله ويحط عليـه الى طلبهن الملحّ من الله أن يختصـه بـداء لا يبرأ منه. ولكن حتى دعوات النساء الرفيعة هذه لم تستطع أن تحـرك قليلاً أو كثيراً من الوجوم الثقيل الذي حط على العزبة وكل من فيها، الوجوم الذي جعل كلابها تكف عن النباح.

وفي بيت الخولي كانت الحلقة مستحكمة حول فاطمـة والنساء ينهلن عليهـا بالأسئلة، وطبعـاً قبـل أن يسـألنهـا كن واثقـات أنهن لن يصدقن شيئاً مما تقول.

قالت إنها كانت ذاهبة تحمل القطار الى أخيها فرج في الغيط، وحين مرت على القناية الكائنة في حقول الذرة خرج لهـا غريب على حين بغتـة وحاول أن يمسـك يـدهـا ويجـذبهـا فقـاومت وصـرخت. وتسكت فـاطمة عن حـديثها التـائـه وتستحثهـا النسـوة على المضي، فتقـول إن النـاس جـاءوا على صـراخهـا وهـرب غـريب. ولكنهن لا يقتنعن ويطلبن المزيد فتقول لا مزيد. فيهززن رؤوسهن محاولات أن يترجمن حكاية اليد الممسوكة هـذه بكل مـا يتسع لـه خيالهن، بينمـا حمى لا ترحم قد ركبت كل واحدة فيهن لتعرف ما قد جرى وتتـأكد. وكلمـا سكتت فـاطمـة. . وكلمـا شحب وجههـا وبهت ازدادت حـدة الحمى واشتدت. حتى الرجال الجالسون حول فرج بعيداً عن فاطمة وحلقتها كأنما أصيبوا هم الآخرين بنوع خفي من تلك الحمى تلمحه في كلمة خارجة من فم طيب تقول:

ـ صبركم بالله يا جماعة. . ما يمكن ما فيش حاجة حصلت.

* * *

وشيئاً فشيئاً بدأ الشيء الذي حاول الجميع كتمانه قـدر طاقتهم يظهر وكأن سهم الله قد نفذ، الأذهان كلها كانت معبأة ومهيأة ومتوقعة كلهـاأنيحدث ما حدث:إذا انفرد رجل أي رجل بفاطمة فعليه العوض فيها فما بالك والذي انفرد بها غريب؟ من يعمل هنا حساباً لفاطمة أو لرأيها والمقاومة التي قد تبديها؟ إذا انفردت بغريب انتهى كل شيء. والمهم الآن هو التأكد من أن كل شيء حقيقـة قد انتهى. حتى فـرج. وهو يقرأ ما يعتمل في ضمائر النـاس الخفية كـان هو الآخـر يريـد أن

يعرف النتيجة، لا يعرفها ولكن ليتأكد أن فاطمة حقيقة لم تعد أخته وأنه أصبح حراً يستطيع أن يفعل بها ما يشاء.

والنساء ـ وبالغرابة هذا ـ أكثر جرأة في هذه الأمور من الرجال، ولذلك ما أسرع ما قالوها لأنفسهن ولزوجة فرج التي كانت قد تركت الدار وذهبت تعدد على فاطمة وتبكي، ولعمتها. وحين قالوا لفاطمة نفسها غضب وجهها وبهت بشدة وارتجفت فتحات أنفها وصدرت عن عينيها دمعات قليلة، أقل من محتويات الليمونة إذا عصرتها وهي خضراء، وصرخت فيهن أن شيئاً مثل هذا لا يمكن أن يحدث، وأنه والمصحف الشريف لم يلمسها. فقلن لها:

ـ ما دام خايفة من الكشف يبقى لازم حصل حاجة.

ومرة واحدة امتلأت خدود فاطمة بدفقة دم ولم تستطع النطق، هي التي كانت تظن نفسها ويؤكد لها الناس أنها لا تعرف معنى الخجل.

ولو أن هذا حدث في قرية لحاول الأهل أن يستروا على ابنتهم.. ولكن الأمر يحدث في عزبة، الكل يعرف كل شيء عن الكل ولا داعي للإخفاء. وهكذا أصبح هم العزبة من صغيرها لكبيرها أن تعرف إن كانت فاطمة قد جرى لها ما لا بد أن كان سيجرى لها. وداخت فاطمة حتى أنهم رشوا على وجهها ماء وشمموها بصلة. داخت من هول المسألة ومن إحساسها بأنها متهمة بأعيب عيب وأن جميع أهل العزبة يناقشون أعز خصوصياتها هي الأنثى الملكة الحلوة،

يناقشونه عياناً وبياناً وعلى مرأى ومسمع من أخيها وأهلها، وكل هؤلاء الذين كانوا يحبونها وتحبهم ويدللونها وتتدلل عليهم.

وطلبت من حلقة النساء أن يرحمنها.

وسكتن جميعاً ورحن يرقبنها بعيون ذابلة كان قد غادرها الشك وامتلأت بيقين كالعيون. . ذابل وحزين.

وحينئذ قالت فاطمة بوجه جامد متحجر بينما دفقة الدم التي تصاعدت إلى وجهها تنسحب وتسقط إلى أقدامها قالت:

ـ أنا مستعدة.

وفي تلك اللحظة كان فرج قد داخ من كثرة شرب المعسل على الريق، وكان رأسه منكساً ويده تسند جبهته ولولا أنه رجل لحسب الناس أنه أرملة تبكي وتنتحب.

ولم يكن في العزبة من يفهم في هذه الأمور إلا صابحة الماشطة وهي لم تكن ماشطة محترفة. كانت تمتلك ماكينة خياطة قديمة تدار باليد وكانت تخيط أثواب النساء والرجال على حد سواء. وكانت متقدمة في السن ولكنها تبدو صغيرة ووجهها أبيض وشكلها طيب حنون كشكل أي أم، ولكنها حين تتكلم يفضح صوتها ما تخفيه ملامحها فتحس أنها امرأة مجربة عركت الحياة بنسائها ورجالها على حد سواء. . وحينئذ لا تطمئن إليها.

وحين أبدت فاطمة استعدادها كان مفروضاً أن يبعثن في طلب صابحة الماشطة ولكنهن ترددن. فهن يردن معرفة الحقيقة. . وصحيح أن صابحة تفهم في هذه الأمور وستعرف حتماً كل شيء ولكنها قد لا

تقول الحقيقة إذ هي متهمة في نظر الرجال والنساء وحتى الأطفال. فهي صحيح الخياطة الوحيدة في العزبة وهي التي تفصل للجميع أثوابهم، إلا أن مسألة وجودك في منزلها حتى ولو رآك الناس وأنت تقيس الجلباب مسألة لا يستريح لها كل من يراك، إذ من المعروف أن صابحة ليس لديها مانع من أن تصنع من نفسها وبيتها ستاراً قد يلتقي وراءه الرجل بالمرأة حيث هناك سبب وجيه لوجود كليهما معاً، ولكن أحداً لم ير بعينيه شيئاً. وقد يكون هذا صحيحاً وقد يكون مجرد إشاعات باطلة، ولكن الثابت أن صابحة فيها شك وممكن أن تعرف ولا تقول، وممكن أن تقول خلاف ما تعرف.

وقالت امرأة فرج:

ـ ما فيش إلا الست أم جورج.

ووافقت النساء في الحال.. فأم جورج هي الست الوحيدة في العزبة، وهي أيضاً الوحيدة المتعلمة التي تجيد القراءة والكتابة. ثم إنها من البندر ولا بد أن أهل البنادر يعرفون كل ما لا يعرف فيه أهل العزب والقرى والفلاحين.

وتدافع الأطفال حول الموكب ووراءه حين خرج من بيت الخولي في طريقه إلى بيت الناظر، ومضى الموكب يتعثر في حزنه وحماسه في طرقات العزبة المليئة بأكوام الأتربة وقش الأرز، والدنيا نهار والشمس قريبة من الأرض منكسة.. وفاطمة في الوسط لا يزال وجهها متحجراً وعيونها مفتوحة كعيون العميان وقلبها غائص تحت أقدامها، كلما خطت خطوة أحست أنها تطؤه وتطأ معه كل خجلها

العذري وكل أحاسيسها الحلوة، أيام كانت طفلة وأيام كبرت وأيام كانت تغني في الأفراح وتحلم بأن يكون لها فرح وزفة وجلوة وليلة حنة حيث يترقب الجميع خروجها ترقبهم للملكة، واليوم هم يترقبون خروجها مئات العيون تنظر لها وتحملق فيها، مئات.. لا بل آلاف، الدنيا كلها عيون مفتوحة كالفناجيل لا تنظر إليها وإنما تنظر إلى أخص خصائصها بلا حياء وبوحشية، وتخترقه وتهتك شرفها ويسيل دمها ويقطر لدى كل خطوة تخطوها ولدى كل حجر تتعثر فيه وهي حافية عارية ذليلة لا يرحمها أحد.

وحاولت صاحبتها حكمت أن تجذب الشاش فوق وجهها وتغطيه، ولكن فاطمة أزاحت الشاش كاشفة وجهها. ما فائدة إخفاء الوجه وجسدها كله عريان؟

والموكب الحزين المتحمس ذو عشرات الأذرع والرءوس يمضي ووراءه ذيل من الأطفال والكلاب الجائعة، يمضي ويثير سحب غبار، ويشتت قوافل الأوز البيضاء، ويطير العصافير والحمام آخذاً طريقة إلى بيت الناظر.

* * *

في ذلك الوقت كان عم ضرغام خفير الجرن يجعجع ولا أحد يستمع إليه، فالناس قد تعودوا على جعجعته.. كان هو الصعيدي الوحيد في العزبة ومن يوم أن جاء وهو يخفر الجرن. وتعدى السبعين وهو لا يزال يخفره، رأسه ضخم أسود وملامحه غليظة دائمة التكشير وشاربه الأبيض طويل غزير كشوارب الكلاب وشعر رأسه أكرت أبيض، وعرقه يسيل على الدوام بطريقة تجعل وجهه الأسود

دائم اللمعان وكأنما يعرق زيتاً. وكان لا يتكلم إلا جعجعة لا يفهمها أحد وكأنها هبهبة كلب، ولا يجعجع إلا إذا اقترب أحد من الجرن حتى ولو بحسن نية، وقد عاش في العزبة ثلاثين عاماً لا يعرف أحداً ولا يأخذ على أحد. الكل يعرف اسمه وهو لا يعرف أي اسم، كل ما هنالك إذا كان الواحد منهم بعيداً عن الجرن فليس له شأن به، أما إذا اقترب أحد جعجع له حتى يبتعد.

ولم تنقطع جعجعة عم ضرغام فقد كان يجعجع لغريب. كان غريب قد عاد من هروبه واختبأ في «حلة» الذرة في الجرن ليرقب عن كثب ما يدور في العزبة ويتنسم أخبار فعلته الشنعاء ووجهه الأسمر قد أسود وطاقيته قد كبسها فوق رأسه بطريقة لا تظهر معها (قصته) وهو خائف جاد نادم متوجس وكأنما قد أفاق لنفسه بعد غفوة سنين، وأدرك أن قلة أدبه وفراغ عينه وغوايته للنساء كانت عيباً ما بعده عيب. ولمح فاطمة وموكبها وهو في طريقه إلى بيت الناظر وازداد وجهه سواداً، وبالغ في إخفاء نفسه داخل كومة الذرة الحطب وكف عن النظر. .

كان من فرط خوفه من فاطمة وبعدها في نظره قد ازدادت رغبته فيها، وكلما ازدادت رغبته ازداد بعدها عنه واستحالة وصوله إليها. ولم يكن يريد بها شراً ولم يكن يريد منها ،قليلاً أو كثيراً. كل مناه أن يقول لها العواف مرة فترد عليه بلهجة يحس معها أنها ترد عليه. . عليه هو غريب، ولكنها لم تكن تفعل، وكان يعزي نفسه بإيقاع نساء أكثر ومع هذا يزداد رغبة في أن ينال من فاطمة كلمة أو نظرة أو حتى لفتة تلقيها إليه عبر الكتف أو من تحت ثقل المقطف، ولم تكن تلك أول

مرة ينتظرها فيها غريب وهي في طريقها إلى غيط أخيها حاملة المشنة وفيها الإفطار تخب في ثوبها الأسود عايقة على رأسها وكأنها برنيطة، وريحها الحلو يهب على الغيط والشجر والخضرة والترع فيكاد يملأ الجو بعطر كعطر النسيم يوم شم النسيم. لم تكن تلك أول مرة ينتظرها فيها ويراها وهي لا تراه وهو خائف أن تراه، ولكنها كانت المرة الأولى التي يتمنى أن تراه فيها، المرة الأولى التي يتمنى أن يلتقي بها وكأن الأمر صدفة، ويفعل معها ذلك العيب الذي أرقه وأقض مضجعه فوق تبن الوسية، عيب أن تقول لبنت ليست أختك أو أمك: ازيك يا فاطمة. فترد عليك بخجل لا ترد به أمك أو أختك؟

ولكنها ما كادت تراه خارجاً من الذرة حتى تجمدت في مكانها وكأنها رأته عارياً.. كما ولدته أمه، وكأنها رأت العيب يخرج لها من الذرة.. العيب الذي كواها فرج بنظراته محذراً إياها منه، وإذا بالمشنة تسقط منها وإذا بها تصرخ بأعلى صوتها، وإذا بها بالدنيا تنقلب وإذا به يطلق لساقيه الريح ويهيم على وجهه في الغطيان

* * *

وعلى عكس ما توقعت العزبة رسمت الست أم جورج علامة الصليب على صدرها وأبدت أسفها البالغ ورحبت بأن تفعل ما في وسعهاالكشف الحقيقة مقسمة بالمسيح الحي أن تجعل زوجها يحبس غريب في النقطة ويسلط عليه الضابط ليربطه في ذيل الحصان ويعلقه على عامود التليفون. كانت الست أم جورج معروفة بصلاحها وتقواها وأدبها حتى ان أحداً لم يكن يعرف اسمها الحقيقي.. وكانت ترغم زوجها أبو جورج الناظر على أن يصحبها للكنيسة في البندر

القريب صباح كل أحد رغم تذمره من هذا العمل، وهو الذي يقضي مساء كل سبت يعب كاسات العرقي عند بنايوتي البقال في القرية المجاورة الذي أحال بقالته إلى خمارة. وأم جورج قصيرة بيضاء شاحبة البياض شعرها مفلفل بالشيب وفي منتصف ذقنها ثلاث نقط موشومة. وكانت تعرف فاطمة وتسمع عنها معجبة بجمالها، بل كثيراً ما كانت ترسل في طلبها لتأتي كي تساعدها في عمل صواني البسكويت الذي يفطر به أبو جورج ولا يرضى سواه. بل أحياناً كانت ترسل لها فقط كي تجاذبها أطراف الحديث وتأخذ من فمها الحلو كل أخبار العزبة النسوية وهي المحرم عليها أن تختلط بنساء العزبة. ولولا فارق السن لأصبحت صديقتها الصدوقة.

وأفظع خجل هو الذي أحسته فاطمة وهي تدلف إلى بيت الناظر لا مطلوبة ولا مرغوبة، وإنما شرفها معروض على الست أم جورج.. الست التي كانت بالأمس فقط تقبلها في شفتيها بطريقة غريبة وتقول لها إنه لولا الدين لخطبتها لأخيها الذي يعمل صرافاً في البحيرة.

تسمرت فاطمة في مكانها على العتبة ولكنهن دفعنها دفعاً لا مجاملة فيه حتى سقط الشاش من فوق رأسها. وتولت أم جورج طرد جورج من البيت وإغلاق الباب الخارجي وباب الحجرة الداخلي وشيش النوافذ وزجاجها، وكانت مقاومة فاطمة مقاومة الخجل الفطري ولكنهن تكاثرن عليها وأرقدنها على السرير بالضغط والجذب وتولت إحداهن تقييد يديها، وأمسكت امرأتان كل بساق من ساقيها، وامتدت أيد كثيرة.. أيد معروقة جافة.. حتى بقايا الملوخية التي عليها جافة،

وامتدت عشرات العيـون الصادقـة في بحثها عن الشـرف والمحافـظة عليه، امتدت كلها. . انغرزت وقلبت وتفحصت حتى وهي لا تـدري علام تبحث. وأم جورج وقد تولاهـا ارتباك عـظيم وكأنهـا المكشوف عليها لا الكاشفة،تنهر النسوة بلا فائدة وتطمئن فاطمة بلا فائدة أيضاً، والشـد والجذب والصـرخات المكتـومـة تـدور في صمت وفي همس مروع، وسكون التـرقب قد خيم على الحجـرة وامتد منهـا إلى البيت ووصل الصمت إلى رءوس الرجال حول فرج، وإلى المتناثرين قريبـاً من الدوار وعند المكنة وفي الغيط، الذين كانوا يتابعون كل شيء يدور داخل منزل الناظر حتى دون أن يروه.

كل شيء هدأ وسكت ما عدا جعجعة عم ضرغام التي لم يكن يحفل بها إلا واحد فقط. . عبدون أبو غريب الذي كان قد أخذ طريقه إلى الجرن وقد رفع ذيل جلبابه من الخلف آمـلاً أن يتحدث إلى عم ضرغام لينفس عن نفسه ويلعن فاطمة وابنه وأهل العزبة لكائن ما حتى لو كان عم ضرغام.

وفجأة انطلقت زغرودة من الحجرة الداخلية ترددت على أثرهـا الزغاريد في المنزل ثم في الخارج، والألسنة تردد:

ـ سليمة إن شاء الله والشرف منصان.

ولحظتها فقط رفع فرج رأسه المنكس، ولأول مرة كـان يجري فيها الدم، ولأول مرة نطق وقال:

ـ هاتوها.

وبعد لحظات ومع أن عم ضرغام قد كف عن جعجعته، إلا أنه ما كاد يكف حتى كانت العزبة تشهد أعظم ضجة قامت فيها، عند بئر الساقية القديمة العميق الذي يزيد عمقه عن أطوال ثلاثة رجال يقفون فوق رؤوس بعضهم. عند البئر كان عبدون يمسك ابنه غريب من زمارة رقبته ويحاول بكل قوته العجوزة أن يجذبه ليدفعه ويغرقه في البئر.. بينما عشرات الرجال يمنعونه ويحاولون تهدئة خواطره. وكان عبدون كلما جذب ابنه ووجد نفسه عاجزاً عن تحريكه من مكانه ازداد هياجه وغضبه وانصبت اللعنات من فمه كالحمم. وكل من كان يرى عبدون في موقفه ذاك كان لا بد أن يؤمن أنه حقيقة يريد إغراق غريب في البئر وأنه جاد في تنفيذ ما يريد. ولكن كان هناك شيء ما لعله في طريقة زعيقه، لعله في نوع الكلمات التي كانت ينتقيها ليشتم بها ابنه، كان هناك شيء ما لا بد تلمحه وتحس معه أنه في أعماق نفسه غير خجل من ابنه، بل أكثر من هذا ممكن أن يكون فخوراً أن ابنه هو الذكر وأنه هو المتهم بالفتك.

أما في بيت فرج فقد كانت هناك مذبحة.. كان فرج يضرب فاطمة بالتقصيرة التي يصحن بها اللبن، وكانت فاطمة تصرخ وزوجته تصرخ خوفاً عليه أن يقتلها ونساء الجيران يصرخن، والرجال كثيرون داخل البيت وخارجه يحاولون منعه بلا فائدة، وفرج كالوحش الهائج يريد حقيقة أن يخلص على أخته..

ولكن ربما في ضبط قوة الضربات التي ينهال بها على فاطمة، وربما في البريق الذي يملأ عينيه والذي لم يكن بريق غضب خالص أو فرحة خالصة، كنت تلمح شيئاً.. فصحيح أن فاطمة لم تخطىء

وشرفه منصان ولكنه لا بد أن يقوم بعمل ضخم كبير قاس يرد به على آلاف الخواطر التي لا بد قد دارت في الرؤوس وعلى كلام الناس، وكلام الناس كثير.

وطبعاً لم يغرق عبدون ابنه ولم يقتل فرج أخته. مالت الشمس للمغيب كما تعودت أن تميل، وعاد السارحون في تلك الغيطان يسحبون البهائم ويحملون عشاءها فوق الحمير، وبدأت الأدخنة ترتفع من أسطح البيوت الطين وشقوقها وهبت روائح التقلية والزيت المقدوح تفتح الأنفس للعشاء، وصلى الرجال المغرب، وانتهى صعود النساء وهبوطهن إلى السطوح، وفرغن من تبييت الدجاج وعلف البهائم. وما كاد العشاء يؤذن حتى كان الهدوء الهائل الخالد قد خيم على العزبة من جديد، وحتى كان كل ما يتعلق بما حدث قد نوقش وأعيد نقاشه حتى فرغت الجعاب وثقلت الرؤوس.. وبدأت ذبالات المصابيح تخفت وتتوارى، وبدأ النوم يزحف مع الظلام، وبدأت الأجساد تتمدد تعبة لا حراك بها.

وحين أصبحت فاطمة وحدها.. حين نام الجميع وبقيت هي محطمة مستيقظة بدأت تبكي. لم تكن تريد.. ولكن الدموع بدأت تسيل رغماً عنها صانعة قناتين لامعتين يصلان ما بين عينيها وأرض «البحراية» التي كان فرج قد حكم عليها أن تنام فيها بلا حصيرة أو غطاء، ثم بدأت تنشج وبدأ جسمها يهتز، بل بدأ قفص الفراخ الموضوع بجوارها يهتز ويهز الفرن والبيت والعزبة كلها ويكاد يوقظ النائمين. كانت تبكي بكاء من يتألم ألماً لا قبل له به، بكاء الذي

جرح جرحاً عميقاً وجاء الليل عليه فبدأ يحس بالألم. . الألم الكاوي الذي لا يرحم.

* * *

وحاول أولاد الحلال فيما تلا هذا من أيام أن يقنعوا فرج بقبول غريب عريساً لأخته، ولكن فرج رفض رفضاً مانعاً باتاً ملأهم باليأس.

أما غريب فقد كف حديثه عن فاطمة تماماً، بل كف من يومها حديثه عن كل النساء وحلق قصته وأصبح يصلي، ولكنه كان يضبط أحياناً وهو يحوم حول العزبة ويتوقف عند النافذة المفتوحة على بيت فرج.

أما فاطمة فقد حبسها فرج في البيت ومنع خروجها وشغلها رغم حاجته الشديدة إلى يوميتها. ولم يقلق فاطمة هذا في شيء. . كانت عازفة عن الدنيا لا تريد الخروج، والحيوية المتدفقة التي كانت تبرق في عينيها وخدودها ولفتاتها كأنها نضبت فجأة ولم يبق لها أثر وتحولت إلى حيوان بليد كخروف الضحية لا تبتسم وتكاد لا تتحرك، وكانت إذا تحدثت خرج حديثها ذليلاً فقد كبرياءه وحلاوته والأنوثة التي تقطر منه.

ولكن هذا لم يدم طويلاً. . فلم تبق فاطمة حبيسة البيت إلى الأبد، ولم تطل صلاة غريب، ولا استغنى فرج عن برطعته وضحكه. إذ بعد أسواق كثيرة وأسواق كان كل ما حدث قد وضعه أهل العزبة في خزينة النسيان وأغلقوا عليه بالضبة والمفتاح، وكان أولاد الحلال قد

تكفلوا بمصالحة عبدون وابنه على فرج فأصبحوا يتحادثون ويتبادلـون العمل ويتزاملون كالعادة. وربى غريب قصته وعـاد يحـدث أصحـابه عن النساء فوق تبن الوسية، ولم يكن حديثه. . يخلو من مرارة إذ كانت فاطمة قد عادت إلى الخروج جميلة كما كانت، معووجة المنديل رافعة ذيل الثوب، تخطر إذا مشت وتدوِّخ إذا تلفتت وتعافي كل من يلقاها، إلا هو- لا عن عمد ـولكن كأنها لا تراه، وكأنما قد محي من الوجود. .

عادت فاطمة تنظر وتتحدث وتبتسم وتطير العقول وكل شيء فيها لم يتغير. ولكن الناس كانوا يعجبون. . فلا بد أن فاطمة قد اكتسبت شيئاً جـديـداً لـم يكن لها، أو أنهـا لا بـد فقـدت شيئـاً أصيـلاً كـان لها. . الشيء الذي كان يلون وقفتها ومشيتها وضحكتها، الشيء الذي يجعلها تبدو ملكاً للجميع تحب الجميع ويحبها الجميع. الشيء الذي يكسبها شفافية ونقاء والذي كان يجعلك تحس إذا ابتسمت أنها حقيقة تبتسم وإذا غضبت أنهـا حقيقة غـاضبـة، كـانت قـد فقـدت بـراءتهـا وأصبحت تستطيع أن تنـظر دون أن تنظر، وتضحـك دون أن تريـد ، وتريد الشيء وتخفي رغبتها فيه.

بل أصبحت تستطيع إذا ما لمحهـا فرج خارجة ذات يوم من دار صابحة الماشطة وأخذها إلى بيته، وأغلق عليها باب القاعـة وأمسكها من ضفائرها وشدد عليها وسألها عما كانت تفعله عند صابحة. . .

أصبحت تستطيع إذا ما حدث هذا أن تقول:

ـ كنت بقيس التوب. اوع كده.

وتجذب نفسها وضفائرها من قبضته بعنف غريب، وتقف في الركن تعيد النظام إلى شعرها وتواجهه.. بعيون مشرعة حلوة، لا تنخفض ولا تخجل.

سره الباتع

- ١ -

لم تكن علاقتي بالسلطان تتعدى مجرد نظرة غير محبة للاستطلاع ألقيها عليه كلما مررت به في ذهابي وإيابي، نظرة سريعة كأنما لأطمئن بها فقط على وجوده هناك فقد كان علامة رئيسية من علامات البلد، مثله مثل محطة السكة الحديد وسراية آل ناصف والبقعة المسكونة التي قتل فيها سيد إبراهيم.

ولكني ذات يوم اضطررت أن أشغل نفسي بالسلطان، فقد فزت يومها بأول نجاح في حياتي ونقلت من السنة الأولى الابتدائية، وفرحتي بالنجاح يومها كانت أكبر من كل فرحة أحسست بها لأي نجاح حدث لي بعد هذا، فرحة تمنيت معها أن أعود من المدرسة إلى بيتنا على جناح طائر لأزف الخبر إلى جدي الأكبر والد جدي، وكان عجوزاً جداً له ظهر شديد الانحناء وتجاعيد تبدو من كثرتها وتناسقها وكأنه ولد بها.

وما كاد جدي يسمع الخبر حتى قال لي في صوته الجاد:

ـ أوف النذر حالاً

وكنت قد نسيت حكاية هذا النذر تماماً. . فقد حدث خلال العام أن انتابتني حالة يأس وأنا أذاكر واعتراني شبه يقين أنني مهما فعلت فلن أنجح أبداً، وكدت أبكي ساعتها ولكني ذهبت إلى جدي وصنعت له قهوة زائدة السكر كما يحبها، وحملتها له خلسة (إذ كان يحب القهوة، وكان جدي الأصغر ابنه يمنعه عن شربها فكان بيننا شبه اتفاق: أن أسرق له البن والسكر وننتحي مكاناً قصياً نصنع القهوة فيه مقابل أن يحدثني هو بعد أن يزن رأسه عن (زمان وأيام زمان الحلوة) يومها حملت له الفنجانل، وانتظرت إلى أن شربه كله شفطة شفطة ولحس كل البن المترسب في القاع، ثم سألته إن كان يعتقد أني سأنجح. . والشيء الغريب أني كنت متأكداً أن جدي الأكبر لا يعرف ما هي المدارس وما هو النجاح، ومع هذا فحين قال لي لحظتها إنني سأنجح بإذن الله أحسست أنني لا بد سأنجح وكدت أطير فرحاً. غير أنه اشترط لنجاحي يومها أن أنذر للسلطان حامد نصف دستة شمع أوقدها في ضريحه.

ولم يتركني إلا بعد أن نذرت النذر أمامه وأعدته مراراً حتى أطمأن إلى أنني لم أخطىء في قوله

ولم تكن مشكلة أن أحصل على ثمن الشمع، فقد كنت ناجحاً وطلبات الناجح خاصة في يوم نجاحه لا تلقى معارضة تذكر. .

ولم أغفر لنفسي أن الشيطان يومها راودني حين ذهبت إلى الدكان، وفي الحقيقة لم يكن هو الشيطان. . كان «البرطمان» الذي يحتوي

على كمية هائلة من «الكراملة» ويرقد على جانب البنك هو الذي راودني.

وقسمت العرب عربين كما يقولون، واشتريت بنصف ما معي ثلاث شمعات وبالنصف الآخر «كراملة».

وبينما كنت آخذاً طريقي إلى حافة «الجبانة» حيث مقام السلطان، كنت لا أزال أؤنب نفسي.. بل أحياناً كنت أتصور أن السلطان حامد سينتقم للثلاث شمعات التي اغتصبتها من نذره بأن يزورني في المنام مثلاً، أو يصيبني بداء الصفرة.

ولست أدري أكان هذا هو السبب في اضطرابي أم شيء آخر كان السبب، فقد بدأت أحس باضطراب شديد حين أشرفت على الجبانة ورأيت مقام السلطان حامد من بعيد. وشيء غريب هذا.. فآلاف المرات رأيت مقام السلطان حامد من بعيد دون أن أحفل به، حتى لون الضريح لم أكن أعرفه، ولا كان يهمني من السلطان في قليل أو كثير، ولكني مع هذا كنت مضطرباً حتى فكرت أكثر من مرة في أن أولي الأدبار وأطلق ساقي للريح عائداً إلى بيتنا، خاصة وأن مسألة النذر هذه لم تكن قد دخلت إلى عقلي. وأنا متأكد أن السلطان هذا ليس له أي علاقة بنجاحي، وأنه لم يساعدني في الإنجليزي ولا غششني في مسألة القسمة المطولة. والنذور والعفاريت وشم البصل يوم شم النسيم أشياء لم أكن أؤمن بها لا لأننا كنا قد أخذنا في المدرسة أنها بدع ورجس من عمل الشيطان، ولكن لأن الناس كلهم يأخذونها كالقضايا المسلم بها، فكيف أفعل أنا هذا؟ وما فائدة تعليمي حينئذ وبدلتي؟

ورغم شدة اضطرابي فلم أرجع لا خوفاً من جدي ولكن خجلاً من نفسي وخوفاً من أن أبدو أمامها كالجبان، والظاهر أننا ونحن أطفال نخجل من الفرار أيضاً مثلما يفعل الكبار.

وهكذا ظللت أخاف وأتحدى الخوف وأتقدم تدفعني الرغبة في القيام بتجربة جديدة، حتى وصلت إلى مقام السلطان حامد. كان قائماً في ركن من الجبانة وبجواره طريق مقطوع لا يمر به أحد. وكانت أول مرة أرى فيها الضريح عن قرب، ولم يكن ضريحاً بالمعنى المفهوم... كان أهل بلدنا يسمونه المقام ولهم حق، فلم يكن يشبه من قريب أو بعيد أضرحة أولياء الله في القاهرة، وكنت قد زرتها مع أبي ورأيت روعتها وسجاجيدها السميكة الفاخرة وشبابيكها المذهبة ونجفها الكبير والرائحة الغريبة الغامضة التي تملأ جوها وتوحي بالرهبة والخشوع والإجلال. أما مقام السلطان فقد كان عبارة عن حجرة قديمة وكأنها مبنية منذ الأزل، ذهب الطلاء عن كل جدرانها وبقيت الحجارة الحمراء بارزة متآكلة كضلوع الميت العجوز. ولم يكن يميز المقام عن بقية المقابر إلا أنه مبني من الحجر، إذ ان معظمها مبني من الطين، والأغنياء وحدهم هم الذين يطلونها بالجير ويكتبون أسماء موتاهم عليها، يكتبها لهم عم محمد البنا بطلاء الزهرة وبخطه العاجز الركيك.

ثمت فرق آخر بين المقام وبين القبور، فدوناً عنها كانت هناك أشجار كافور طويلة قد زرعت حول المقام. ويبدو أنها زرعت أيضاً منذ الأزل فقد كانت طويلة طولاً لا حد له وجذوعها سميكة لا يستطيع

عملاق أن يحتضنها، وكانت مزروعة بنظام حتى بدت كالسور العالي المهيب.

وكان كل شيء يدعوني إلى أن أنتهي من مهمتي بسرعة وأعود.. فالعصر يضيق والظلال تمتد بشكل مخيف، وحقول القمح واسعة كبحر أبيض لا شاطىء له، والناس فيها مجرد نقط غامقة صغيرة لا تكاد ترى.

ودرت حول المقام. لم يكن له سوى باب كالح قديم ونافذة واحدة يتيمة كانت لا بد هي النافذة التي حدثني عنها جدي. وتقدمت منها، ولكن قبل أن أصل إليها فوجئت ببحيرات وأنهار من الشمع المتجمدة قد ملأت الأرض. كان الشمع الذي سال من النذور على مر الزمن قد ملأ حافة النافذة وسال على الجدار حتى غطى أحجاره العارية، ووصل إلى الأرض.

وأدركت أن آلافاً قبلي لا بد قد نذروا للسلطان حامد، ومن يدري ربما ملايين (والملايين في لغة الأطفال لا تعني دائماً ملايين).

وكدت أضحك على سذاجة أهل بلدنا الذين ذابت نقودهم واختلطت بالرمال.. لأجل ماذا؟ لأجل هذا السلطان الذي لا خادم له ولا مسجد ولا متستجيرون.. ولا حتى ضريح يوحي بالاحترام؟

كدت أعود وأحتفظ بالشمع لنلعب به أنا وأصحابي في الليل ونوقده ونسهر حوله، وكم يكون مسلياً وجميلاً! بل أنَّبت نفسي لأنني أضعت القرش في الشمع ولم أشتر به «كراملة» هو الآخر، وسمحت

لنفسي أن تصنع مثلما يصنع أهل بلدنا الجهلة. . الذين لا يقرؤون ولا يكتبون.

ولكني يومها احتفظت بشمعة واحدة فقط وأوقدت الاثنتين، لست أدري لم؟ ربما تنفيذاً لتعليمات جدي ليس إلا، وربما رغبة في تقليد أهل بلدنا. . فقط في تقليدهم، بل لماذا لا اعترف وأقول إنني بعد أن قرأت الفاتحة ودعوت لجدي ولوالدي، نذرت للسلطان إن أنا نجحت في العام التالي أن أوقد له دستة شمع بأكملها؟

ورغم أنني قلت لنفسي وأنا عائد أنني نذرت الدستة فقط لتفاؤلي بمسألة النذر، إلا أنني من يومها بدأ السلطان حامد هذا يشغل عليّ تفكيري بشكل ما

كان أحياناً يصعب عليّ ذلك الولي الفقير المدفون في تلك البقعة النائية الموحشة، وأحياناً كنت أفكر في المؤمنين به الفقراء مثله الذين يتمنون أمنياتهم الصغيرة الطيبة، ويرفعون بصرهم إلى السماء وينذرون للسلطان حامد ويحقق السلطان أمانيهم، فيسرعون إلى نافذته ويشعلون شمعاتهم، وليلة وراء ليلة تضيء نافذة السلطان حامد بشمعة. . أمنية صغيرة تحققت وقلب فقير رأى لحظة سعادة ولو لليلة، وأحياناً كنت أفكر في الكمية الهائلة من الشمع المتجمد بجوار المقام كيف لم يسرقها أحد، كيف لا والسلطان ليس له خادم يحرسه والطريق إليه خال من المارة، والناس في بلدنا لا يتركون طوبة تنفع ولا حجراً إلا قلقلوها وحملوها إلى بيوتهم؟

أحياناً كنت أفكر في تجريد عصابة من أصحابي للسطو على الشمع، وأحياناً كنت أخاف، وأحياناً كنت أسمع اسم السلطان.. لم أكن أسمعه كثيراً ولا مسبوقاً بتكبير أو محفوفاً بتقديس خطير، وإذا جاءت سيرته لا يتوقف الواحد من أهل بلدنا عن الكلام مثلاً ويقرأ له الفاتحة بخشوع، ينفض الواحد منهم بلغته وهو يستعد للقيام ويقول:

ـ معلش.. أهه كله من عضم النهار.. شي لله يا سلطان حامد شي لله.

أو تتراجع الولية من الولايا أمام مقطف السمك وتقول لعم علي الصياد:

ـ بكام؟

فيقول:

ـ بعشرة.

فتعود تقول:

ـ وللسلطان حامد بكام؟

فيخفض عم علي حينئذ وجهه ويغلق عينيه وكأنما غلب على أمره ويقول:

ـ عشان السلطان بتمنيه وعشانك انتي بتسعة.

أو يرفع الرجل جوال الطحين على رأس زوجته ويقول وهو ينتعه:

ـ إيدك يا سلطان.

وكنت أعرف أهل بلدنا جيداً. . كانت لا تخيفني منهم وجوههم المكشرة على الدوام ولا ذقونهم التي تشوك أو نظراتهم التي تظن أنها خالية من الرحمة والشفقة. كنت أعرفهم تماماً وأعرف أنهم لا يقولون ما يعتقدونه إلا بينهم وبين أنفسهم، أما أمام العمدة أو الموظفين يقولون كلاماً عالياً كثيراً ويحلفون الأيمان المرتفعة المغلظة. وإذا سألهم الغريب عن شيء قالوا عكس ما يضمرونه. هم لا يخرجون ما في أعماقهم إلا رغماً عنهم. . في كلماتهم المتناثرة، في همساتهم الخافتة وراء ظهور موظفي الحكومة، في حديث الرجل إلى زوجته بعد العشاء حين يركن بظهره إلى الحائط ويمدد ساقيه على طولهما ويقول:

ـ ليلة امبارح يا بت حلمت خير اللهم اجعله خير، إن السلطان حامد جاني وقال لي انت نايم للظهر ليه؟ قوم الشمس طلعت، قوم. .

ـ ٢ ـ

وتعودت أن أرثي لأهل بلدنا هؤلاء، كنت قد زرت السلطان ورأيت مقامه عن قرب، ولم أحس برهبة ما ولا أقشعر جسدي أو وقف شعري أو ظهرت لي كرامة من كراماته. أربعة جدران قديمة تكاد تنهار. . ماذا فيها حتى يستقر صاحبها في أعماق صدورهم وحتى يتحدثوا عنه كما لو كان كائناً حياً ضخماً يحيا في مكان ما؟ ماذا فيه حتى يتحدثوا عنه بلا تكليف هكذا كما يتحدث الجار إلى الجار؟ وكنت أعرف خطورة هذا الحديث فالفلاحون لا يرفعون الكلفة إلا بصعوبة شديدة، وإذا خاطبوك بلا ألقاب وتحدثوا إليك كما يتحدث الجار إلى الجار كان معنى هذا أن احترامهم لك يرتفع إلى مرتبة التقديس.

والحقيقة بدأت تنتابني الغيرة من السلطان حامد.. بدأت أحسده على تلك المكانة التي يحتلها في قلوب الناس مع أنه لم يكن يملك لهم حولاً ولا قوة. هذه الكمية من الحجارة القائمة عند حافة الجبانة كيف يكون لها كل هذا الاحترام والتقديس؟

وقلت لنفسي ذات يوم: ربما أكون مخطئاً.. وربما هناك شيء داخل المقام هو السبب في تلك المكانة. ولم أكن ـ من شدة استخفافي بأمر السلطان ـ قد اهتممت بإلقاء نظرة على الداخل من خلال النافذة حين كنت أوقد الشمع.. وأنبت نفسي كثيراً لأني لم أفعل، وقررت أن أذهب وأرى المقام من الداخل. وحين خطرت لي تلك الفكرة لم أتحمس لتنفيذها في الحال فلم تكن حكاية السلطان حامد كلها تهمني إلى تلك الدرجة، كانت مجرد أفكار تعن لي إذا جاءت سيرته وتشغلني قليلاً ثم تمضي وأعود أنا إلى ما كنت فيه.

غير أنني في صباح يوم الجمعة سمعت امرأة ماشية في الشارع تندب حظها وتكاد تولول وهي تقص لكل من تستوقفها من النساء قصة ابنها المريض، وتختم قصتها كل مرة بدستة شمع للسلطان إن هو طاب. وكدت أخرج لها وألعنها وأفهمها أن سلطانها حامد هذا لا علاقة له بمرض ابنها ولا بركة فيه ولا يملك حتى أن يمنع البلى عن مقامه. ولكني لم أفعل بل سألت نفسي بصراحة لماذا يضايقني شيء كهذا، وما الضرر في أن تنذر له نذراً؟ هل سيمنع نذرها الشفاء عن ابنها إن كان سيشفى؟ وأدركت أن حماسي كان فقط لأنها ذكرت اسم السلطان حامد ولم تذكر اسمي مثلاً، حماسي كان مبعثه هو تلك

المكانة الهائلة التي كنت يوماً فيوماً أحس بالسلطان حامد يحتلها في قلوب أهل بلدنا. . كنت أخاف على نفسي منها، وأخاف أن يأتي اليوم الـذي أومن أنا الآخر بـه وأقـدسـه دون أن أعـرف سبب الإيمـان بـه وتقديسه.

وتأكيداً لاستخافي به قررت أن أذهب في الحال وأرى مقامه من الداخل وأرى السر المزعوم، وأشبع بعد هذا سخرية من السلطان وأهل بلدنا على حد سواء. .

ولكن لا أدري مـاذا حدث، فحين أصبحت قـريبـاً من المقـام ورأيت أنهار الشمع المجمد وبحيراتـه أحسست أني مقدم على شيء حرام، وكأنني ساعبث بشيء يخص أهل بلدنا أجمعين وهم غائبون. إحسـاس اقشعر لـه جسدي ولم أستـطع أن أتغلب عليـه وكـأنـك في اجتماع عام حافل وتهم أن تمزق علم المجتمعين، وعلى هذا وقفت في مكـاني متردداً وقـد أحسست لأول مرة أني في سبيلي إلى القيـام بعمل غير مشروع، وتلفت حولي مـراراً مع أني كنت متـأكداً من خلو المكان وأن أحداً لا يفكر في المجيء إليه خاصة في الصباح.

وخفت.

فقـد أدركت لحظتهـا فقط أن السلطان حـامـد هذا مـارد كبيـر، والبركة في أهل بلدنا الذين جعلوه هذا المارد الكبير. فمـع أني كنت واقفاً في مكاني لا أستطيع الاقتراب من النافذة إلا أنني لم أكن أتصور أن المسألة ممكن أن تبلغ هذا الحد وأنني فعلاً لا أجرؤ على الـدنو. وربما الخوف هو الذي دفعني إلى النظر إلى مكان السلطان حامد من

جديد. . كان كل شيء كما هو في المرة السابقة. . الحجرة البالية القدم والجدران البارزة الأحجار بغير طلاء، ولا شيء بالمرة يخيف وكل ما أراه يدفع إلى الاستخفاف، وتقدمت من النافذة متلصصاً. . كانت أعلى من قامتي وكان عليّ لأرى ما في الداخل أن أتشبث بحديدها وأرفع نفسي.

وأمسكت بالحديد. . كان ناعماً زلقاً من آثار الشمع المتجمد ومرة واحدة رفعت نفسي ثم في الحال هبطت وقلبي يدق. لم أكن قد رأيت شيئاً غير ظلام في ظلام ومع هذا خفت، فالظلام في النهار وفي داخل السلطان حامد شيء يخيف. .

وكنت لا أزال أمسك بالحديد في انتظار أن أجمع أنفاسي وألقي نظرة أخرى، ولم يكن لديّ أية فكرة عما يمكن أن أجده في الداخل، ربما المقام خال. . ربما لا شيء غير الظلام.

وبقوة رفعت نفسي رفعة عالية ودرت بعيني دورات سريعة مذعورة. . ووقف شعري من الرعب، ومن كثرة رعبي لم أستطع الهبوط وتجمدت يداي على حديد النافذة بينما أغلقت عيني عن أن تريا ورحت أصرخ في فزع وتركت نفسي أسقط على الأرض وأنا ألهث وأكاد أموت.

لقد رأيت السلطان حامد نفسه في الداخل. . كان ضخماً جداً أضخم من الجمل وله رقبة طويلة جداً وبارزة من جسده الضخم بطريقة مخيفة وتنتهي بكتلة خضراء كبيرة تلمع في الظلام. كان

السلطان بـاركاً في الداخل يتلمظ ويكـاد يمـد رقبتـه الـطويلة ويقضم رأسي .

ظللت مخفياً رأسي في حجري وعيناي مغلقتان وأنا لا أستطيع الجـري أو التفكير أو حتى قـراءة بسم الله الرحمن الـرحيم، وحـولي آلاف العفـاريت التي لم أومن بها قط. . وخـدام الفنـاجين وإبليس، وشقيقـاتي اللائي تحت الأرض وكـل ما ارتكبتـه من ذنـوب وكـل مـا سخرت به من معتقدات .

واعتقـدت أني حالاً سـأمـوت. . ولكني عجبت حين مـر وقت طويل ولم أمت، ثم ضحكت من نفسي لأني ظننت أني سأموت، ثم فتحت عيني ورأيت أشجار الكافور العاليـة والحقول الممتـدة البعيدة والناس الرائحين الغادين كنجوم النهار، وكل شيء غير خائف. . وكل شيء يسخر مني ومن خوفي .

والشيء الذي لم أكن أتصور مـطلقاً أن يحـدث وجدت نفسي أفكر فيه : لماذ لا ألقي على المقام نظرة أخرى؟

تطلعت إلى النافذة وترددت، ولم ألبث أن وجدت دافعاً أقـوى مني يدفعني للإمسـاك بحديـدها من جـديد، ربمـا الهلع وربما حب الاستـطلاع وربما الاستخفـاف بأمـر السلطان. كنا جيـلاً معفرتـاً كما يقول عنا آباؤنا وأجدادنا، والمسائل الغامضة مثـل العفاريت وخـلافها مسائل تدور على ألسنتنا فقط ونتذكرها ساعـة الغرق، ولكنـا لا نؤمن بها في أعماق قلوبنا. وكان آباؤنا يقولون عنا هذا لأننا لم نكن نخاف

مما يخافونه، وحتى إذا خفنا كان خوفنا يدفعنا الى السخرية بالشيء الذي نخاف منه، كنا جيلاً معفرتاً كف عن لعب الكرة «العميو» بيده وأصبح يلعب الكرة بقدمه. ويمضي فوق قضبان السكة الحديد المحرمة دون خوف أن يظهر له القطار فجأة ويدهمه، وحتى إذا ظهر له القطار كان فقط ينتحي جانباً وقد جهز له في يده زلطة يقذفه بها إذا مر ثم يعود يجري فوق القضبان

- ٣ -

وتبينت أني كنت على حق، فالذي كان باركاً في الداخل لم يكن هو السلطان حامد بل كان قبره، والرقبة الطويلة كانت رقبة القبر، والشيء الأخضر الذي يبرق كان عمامته.

بل أكثر من هذا كانت الكسوة الموضوعة على القبر كسوة قديمة باهتة لا تكاد تستطيع أن تتبينها من كثرة ما علاها من غبار. وكانت «القراضة» قد تولت نهش حروف الآيات القرآنية المكتوبة بالقماش فوقها، وكانت رائحة العطن تشيع من المكان، والظلام الرابض تحس أنه ليس ظلاماً ولكنه نور قديم من طول ما مكث مدفوناً تحول إلى ظلام.

وعدت أدراجي ومعي قطعة كبيرة من الشمع اقتلعتها من الأرض ونفضت عنها الرمال على أمل أن تصلح لشيء ما. ولكني حين عدت الى بيتنا احترت ماذا أصنع بها. صنعت منها كرة ثم قلة، ثم أفقت لنفسي فوجدتني أصنعها على هيئة قبر له رقبة طويلة وعمامة خضراء.

وأعجبني التمثال الذي صنعته للقبر الى درجة استخسرت معها أن أغيره أو ألقيه وأصبح كل همي أن أحتفظ به في مكان أمين، وظللت أفكر حتى وجدت أن أحسن مكان له هو طاقة من الطاقات التي تستعمل في برج الحمام.

وكنت أعجب لنفسي طوال اليوم وأستغرب لماذا لم أعد أفكر في السلطان حامد، ولماذا يرفض عقلي أن يخوض في مشكلته. كنت أحس به غريباً عن نفسي تماماً وكأنه لم يخطر لي أبداً وكأنني لا أعرفه ولا يهمني أن أفكر فيه. وأحياناً كان يدفعني العجب وأحاول أن أرغم نفسي على التفكير فيه فلا أستطيع.

وقلت لنفسي ربما أفكر غداً.

ولكن الغد جاء ولم أفكر فيه.

بل مضت مدة طويلة جداً، ربما عام وربما أعوام والسلطان حامد لا يخطر لي على بال.

أتأخذ عقولنا أحياناً كل هذا الوقت الطويل لكي تفكر في أمر هام؟.

لقد استيقظت ذات صباح وأنا أفكر في السلطان حامد وكنت أفكر فيه بطريقة أخرى.. فهل كان هذا السلطان واحداً من أهل بلدنا؟ ومن أي عائلة هو إن كان ومن هم أحفاده وذريته من بعده؟

ووجدتني أسأل كبار المعمرين في بلدنا هذا السؤال، وأجمعوا كلهم أن السلطان حامد بالتأكيد لا يمت بصلة الى أحد من بلدنا وربما يكون غريباً، ولكن أحداً على وجه الدقة لا يعلم.. كل ما

يعرفونه أن بلدنا والحمد لله لم ينشأ فيها ولي من أوليائه ولا بني لأحد من موتاهم مقام.

ولم يتصور أحد ممن سألتهم أية دهشة كانت إجابته تحدثها.

فإذا كان السلطان حامد غريباً فلماذا اختار بلدنا دون سواها ليدفن فيها؟ ثم بني له هذا المقام الحجري وكل قبور بلدنا من الطين؟.. ومن اشترى الكسوة؟ ومن صنع له تلك الرقبة الطويلة ووضع فوقها العمامة؟ ومن زرع هذا الكافور الطويل؟

أغرب شيء أن المعمرين في بلدنا كانوا يرون أسئلتي هذه ويسمعونها، وأحس أنهم يحسبونني مخبولاً لأنني أعجب من هذه الأشياء وكأنني أسأل عمن حفر البحر أو اختار اسم بلدنا أو حدد ميزان النقطة، لماذا أسألهم عن شيء كان موجوداً قبل أن يولدوا.. وشبوا فوجدوه قائماً.. ومن المحتمل أنه سيظل قائماً الى يوم الدين؟

وأنا بدوري كنت أعجب وأظنهم هم الخرفون المخبلون، إذ كيف لم يتبادر الى أذهانهم أبداً أن يعرفوا لماذا دفن السلطان حامد في بلدنا دون سواها، ولماذا يبنى له مقام؟

وكان النقاش بيننا يطول.. أنا بجلبابي الافرنجي ورأسي العاري ولساني الذي لا يقف عن الخوض في أي موضوع، وهم بلحاهم الطويلة ونظرهم القليل وعرفهم الذي يعرف حدوده ويعرف أين يقف ومتى يسير.. حتى جدي كم صنعت له فناجيل القهوة، وكم انتظرت حتى يزن رأسه وتعود الابتسامة الى وجهه، وما أكاد

أفتح فمي أسأل حتى يقول:

ـ قلت لـك ميت مـرة فكـر في اللي ينفعـك انت.. فكـر في كتبك. مالك انت ومال الحاجات دي؟

وإذا أحسست أني أوشـك أن أثيـر غضبـه أدعي أمـامـه أني اقتنعت، ولكن لم أكن أقتنـع.. فـالأسئلة التي كـانت تـراودني عن السلطان حامد لم يكن يستـطيع عـاقل أن يسكت عنهـا، كائن ضخم عمـلاق مثله لـه في كـل بيت جـدار، وذكـره على ألسنـة النـاس باستمرار، ومكانته لا يـرقى إليها أكبـر واحد من الأحيـاء أو الأموات، ومع هذا لا يعرف عنه أحد شيئاً ولا يـريد أن يعـرف عنه؟ أليس هـذا أمراً محيراً يدفع الى الجنون، أو بالقليل يدفع الى الغضب؟

ومـاذا يدفـع الى الغضب أكثر من أن أسـأل واحـداً من شبـاب القرية أو رجالها مثلاً، وأضع أمامه تلك المشكلة المحيرة فيقول:

ـ أهه شي لله يا أهل الله.

وبدأت أضيق بالسلطان حامد وأضيق أكثـر بأهـل بلدنا، وكـأنه جمع ثروة من حرام لا حق له فيهـا، وكأنهم تنـازلوا لـه عن قروشهم ليجعلوه غنياً، هكذا بكل سذاجة وعبط.

وذات مرة سألت الشيخ شلتوت صاحب الكتاب فلم أظفـر منه بطائل، وكنت أعرف أني لن أظفر من وراء سؤاله بطائـل، فما سـألته مرة عن شيء إلا وصاغ إجابته بـطريقة لا تسمن ولا تغني من جـوع. سألته لم يحتل السلطان حامد تلك المكانة الضخمة عند الناس فقال لي:

ـ لأنه كان رجلاً تقياً ورعاً.

قلت: إذن أنت تعرفه؟ لا بد أنك سمعت عنه.. قل لي!.

فقال: كل ما أعرفه أنه كان لا بد صالحاً وإلا لما كان له مقام..

قلت: ولكن مقامه فقير قديم كمقام السيدة زينب أو الحسين..

قال: المسألة مش بضخامة المقام يا بني، المسألة بضخامة المقام عند الله.

فقلت: ماذا أفعل إذن لأعرف سر السلطان حامد..؟

قال: بالوصول.. بذكر الله.

ووجدتني أفكر فيما قاله طويلاً مع أن ما قاله لم يشف غليلي، بل وجدت نفسي أتردد كثيراً على كتابه ومناقشاتي معه لا تقربني قليلاً أو كثيراً من أمر السلطان..

وقلت لنفسي ربما كان صحيحاً ما يقوله، وربما سر السلطان حامد لا يفتح إلا لبعض الناس.. للصالحين، وربما لو ذكرت الله ووصلت أصل إلى مكان أرى منه السلطان وأرى أمره بوضوح. وبدأت أتردد على حلقة الذكر التي يقيمها الشيخ شلتوت في بيته كل ليلة اثنين ولم أهضم ذهابي إلى هناك أبداً، وكنت أذهب سراً حتى لا يراني أحد زملائي ويسخر مني.. كنا نجتمع عشرة رجال أو أكثر

أنـدس بينهم وهم يرمقـونني بترحيب كبيـر، إذ إن حلقتهم قد ضمت أخيراً أحد المتعلمين، والمتعلمون كان بينهم وبين الـدين ـ على حد قـول الشيخ شلتـوت ـ بحر من سم ودم. كنـا نجلس على الحصيـرة ونستغرق في التفكير في الله، ثم نذكره في سرنا، ثم نجهر بذكره ثم نتمايل لاسمـه، ثم يدفعنـا الحماس إلى الوقوف، ويمسـك لنا الشيـخ شلتوت المجلس وقد حمي، وأصـوات الرجـال الخشنة تتصـاعد من صدورهم في تهدج باك يجأر في طلب العفو والشجاعة والتوبـة، وقد اندمجت أنفاسهم المتلاحقة في صرخة مبحوحة واحدة منغمة تقول: الله. الله. الله.

ولكني انقطعت عن الذهاب فجأة فقد أدركت أن استغراقي في الـذكـر لا يمكن أن يـوصلني أبـداً إلى حـل للمشكلة، وعليّ أنـا أن أحلها بنفسي إذا أردت لها حلاً.

ثم إنني كنت قـد فطنت إلى شيء.. فقـد أدركت أن السلطان حـامد ليس وليـاً من أولياء الله فـالأوليـاء يسمـونهم مشـايـخ، فلمـاذا يسمونه هو السلطان؟.

ورحت أعجب كيف لم أفـطن إلى تلك الحقيقة الـبسـيـطة الـواضحـة وضـوح الشمس من قبـل. صحيـح كيف لم أفـطن إليهـا ووقفت طويلاً أتأمل هذه النقطة وأعذر أهل بلدنـا الذين كنت أتهمهم بـالعبط لأنهم لم يحاولـوا أبداً أن يتسـاءلوا عن سـر السلطان حامـد. أحياناً يكون من الصعب بل المستحيل أن نفكر في أشيـاء تعودنـا ألا نفكر فيها وتعودنا أن نأخذها كما هي: فتعذيب الحيوانـات حرام أمـا

ذبحها حلال، والمرأة تطلق شعرها والرجل يحلق شعره، ولا تعامل الحافي بمثل ما تعامل به راكب العربة مع أن كليهما إنسان، وأن يبدأ الواحد في مراجعة إيمانه بالقضايا المسلم بها مسألة صعبة بل تكاد تكون مستحيلة.

واعتقدت أن لن يدلني على حل هذا اللغز إلا الأحمدي أفندي فهو يعرف كل شيء عن كل شيء، ولا بد أن يكون لديه تفسير لحكاية السلطان الذي له مقام مع أنه ليس من أولياء الله. كان الأحمدي أفندي أول من لبس البدلة والطربوش في بلدنا، وأول من ركب القطار وسافر الى القاهرة، وأول أفندي لم يعمل في الحكومة واشتغل رأساً في البنوك والشركات. وكان قد تعدى الثمانين وترك العمل نهائياً. وأقام في البلد على حس أفدنته القليلة، وكنا كثيراً ما نصادفه سائراً في البلدة بقامة معتدلة لا اعوجاج فيها ولا انحناء. وقد استبدل بالبدلة جلباباً أبيض نظيفاً له جيب على الصدر، ولكنه لم يتنازل عن الطربوش ولا عن ساعته ذات الكتينة التي تمد من عروة الجلباب وتنتهي في جيب الصدر.

وكنا نحن الصبية والأولاد إذا صادفناه ماراً ننتحي جانباً تأدباً ولا نجرؤ على النظر في وجهه إلا من بعيد.. وجه قد اكتسى من طول ارتداء البدلة والطربوش ملامح جادة متزنة، وشارب دقيق معتنى بكل شعرة فيه، وفم مطبق لا ينفك، وأصداغ غائرة لا تسندها أسنان..

وكل شيء فيه جاد، كلامه جد وزعيقه جد وهزله جد أيضاً، ولم يكن يضحك إلا إذا تحدث مع العمدة.

وكانت جرأة كبيرة مني أن أذهب وأسأله فلا يليق بمثلي أن يخاطب الأفندية كبار السن من أمثاله، تلك قضية أخرى مسلم بها في بلدنا.

وانحنى الأحمدي أفندي ليضع أذنه ذات السمع الذي بدأ يثقل بجوار فمي الذي كان يتكلم في تردد ولعثمة وخفوت.

وكلما ألقيت عليه السؤال قال:

- إيه؟ بتقول إيه؟

فأعيد السؤال. .

وأخيراً أدركت أنه سمعني فقد اعتدل في وقفته وأمسك بعصاه ذات العقفة بعناية، وحدق فيَّ بعينيه الضيقتين الغامقتين اللتين لو كانتا عينيّ لما استطعت أن أرى بهما أبداً. واشتد ارتباكي.

ولم أنظر الى غير كتينة ساعته التي أدركت أنها بفرعين وأن بينهما حلية ذات بلورة خضراء. .

حدّق فيَّ طويلاً حتى فكرت أن أتركه واقفاً في مكانه وأجري ولكنه قال:

- براوة عليك يا ولد! جدع اللي فكرت في دي. . أنت ابن مين يا شاطر؟

وازداد ارتباكي واضطرابي وأنا أشرح له ابن من أنا ومن أين جئت، وحينئذ قال:

ـ بتسأل السؤال ده ليه؟

قلت في تردد وهو يستعيد كلماتي كلمة.. كلمة:

ـ علشان أعرف هو سلطان والا ولي.

وقلب عصاه فوضع العقفة على الأرض وأمسكها من أسفلها وهو يقول:

ـ لا ولي ولا سلطان ولا دياولو، اوع تصدق الكلام الفارغ ده.. سلطان حامد إيه؟ أنا أعرف السلطان حسين سلطان مصر الله يرحمه ويحسن إليه، أعرف السلطان عبد الحميد خليفة المسلمين، أعرف السلطان الغوري أعظم سلطان في زمانه.. إنما سلطان حامد دا إيه؟ دا حتى اسمه ما ينفعش لواحد سلطان... ده تلقاه صعلوك ولا كان ولي ولا خلافه. دا أنا اسمع انه كان بيدي عهود للنسوان في أوضة ضلمة، وكان ما يديش العهد إلا وهو شارب قزازة كان بيملي نصها سبرتو ونصها خل علشان يبقى طينة مطينة. إنما أنا مبسوط منك.. أنت في الابتدائية؟ أخدتم انجليزي لغاية فين؟ وبتاخدوا أجرومية والا لأ؟ أنا مبسوط منك. انت باين عليك ولد نبيه. سلم على أبوك. قول له جدي الأحمدي أفندي بيسلم عليك.. ح تقول له جدي مين؟

ولم يتركني الأحمدي أفندي يومها إلا بعد أن سألني في

العربي والانجليزي والأشيا والصحة وأثبت لي أن علمنا لا يساوي قلامة ظفر بالقياس الى العلوم أيام زمان.. وفي النهاية أوصاني أن أطرد من عقلي حكاية السلطان وإلا فإنه سوف يشكوني الى أبي حين يقابله.

ولم أطردها من عقلي بل كبرت وأصبحت مشكلة عويصة. هذا الإنسان الغريب الذي ليس ولياً من أولياء الله، لماذا خصه أهل بلدنا بهذا التكريم؟ ولماذا بني له مقام؟ وكيف احتل تلك المكانة الهائلة في صدور الناس دون أن يعرفوه؟

هل هو السلطان؟

وإذا كان سلطاناً فعلى أي شيء كان سلطاناً؟ ثم إن كلمة سلطان كلمة كبيرة تكاد تساوي كلمة الملك.. فكيف يدفن سلطان كهذا في بلدنا، بلدنا الصغير الذي لا يعرفه أحد؟ لماذا بلدنا بالذات، وكيف يكون مدفن السلطان متواضعاً الى هذا الحد؟

ـ ٥ ـ

وعلى الرغم من غرابة المشكلة وضخامتها فإني لأعجب لنفسي كيف كنت أحياناً أنساها .كنت إذا فكرت فيها فكرت فيها،وإذا نسيتها نسيتها، وإذا فكرت فيها آليت على نفسي ألا أفكر في غيرها ما حييت، وإذا نسيتها ذهبت عن بالي تماماً وكأني لم أعرفها قط.

وأول الأمر كانت حين تخطر لي ولا أجد لها جواباً شافياً كنت أختنق بالضيق وأحس أني أريد أن أقتل نفسي، ففي تلك السن لا

نحتمل أبداً أن يبقى السؤال إذا عنّ لنا بلا جواب. ولكن الضيق إذا زاد عن حده ينقلب الى ضده. وكان ضيقي قد زاد عن حده حتى بدأت أنا الآخر أفضل طريقة أهل بلدنا وأكاد آخذ السلطان حامد كالقضية المسلم بها، ولا أهتم به أو بقضيته إلا كما يهتم أهل بلدنا بها، ولا يكاد يخطر لي إلا إذا مررت على الجبانة مثلاً ولمحت مقامه رمادياً وحيداً بعيداً، أو إذا وقع في يدي قرش مكتوب عليه ضرب في عهد السلطان حسين، أو كان أحياناً يخطر لي فجأة وبلا سبب وكأن عقولنا تجتر أحياناً ما تختزنه فتعيده إلى وعينا في ساعات لنكمل فحصه وطحنه.

ولكن ذات يوم عثرت على شيء مذهل غريب زاد المشكلة تعقيداً. فقد كان لنا نحن تلامذة بلدنا فريق محترم لكرة القدم. . فريق أول وفريق ثان ولم أكن في كليهما. كنت شغوفاً باللعبة ولكني كنت أفضل التفرج ومراقبة اللاعبين. . ولهذا كنت أرافق فريقنا إذا ذهب ليباري فريق بلدة أخرى. وكانت مباريات رسمية حقيقية، نرسل «باصة» مكتوبة وموقعاً عليها من رئيس الفريق ومدربه، ويأتي الرد مكتوباً أيضاً وفيه تحديد اليوم والساعة والمكان: وفي اليوم المحدد (غالباً صباح الجمعة) يخطط الملعب ويشترى اليوسفاندي والبرتقال للهافتيم، وترسل الأحذية القديمة منذ الصباح الباكر الى الجزمجي ليصلحها، وتنفخ الكرة عند العجلاتي بقرش وتطلى بحبة طماطم لكي تبدو جديدة، ونستعد للمباراة.

وفي يوم الجمعة ذاك كنا قد ذهلنا لنلاعب بلدة بينها وبين بلدنا

مشوار. وكالعادة كان المكان الذي اختاره فريقها للعب قريباً من الجبانة، فنادراً ما تجد في قرانا مكاناً فسيحاً مستوياً يصلح للعب إلا ذلك المكان الذي يقع على حافة الجبانة والذي يستعمل كجرن في أيام الدراس.

وشات أحد لعيبتهم الكرة شوتة «بوز» أرسلتها عالية بعيدة تخطت نطاق الملعب والجبانة واستقرت فوق بناية حجرية صغيرة كانت قريبة من المزارع. وفوجئت بأحد أفراد فريقهم يشتم اللعيب الذي شات وهو يقول:

ـ دلوقتي مين ح يجيبها من فوق السلطان حامد؟

وتركت تتبعي للمباراة نهائياً.. وما كاد يأتي الهافتيم حتى ذهبت أسأل أفراد الفريق الذي كنا نلاعبه. ومن كلماتهم المقتضبة اللاهثة عرفت أن بلدهم فيها سلطان حامد آخر له مقام يشبه الى حد كبير مقام السلطان حامد في بلدنا، وله أيضاً نافذة يسيل منها شمع أبيض متجمد ويصنع أنهاراً وبحوراً في الأرض، وهو الآخر تنذر له النذور ويستعان بيده وتخفض من أجله الأسعار، وسرعان ما اكتشفت خلال مباريات أخرى وأسئلة واستقصاءات بلا مباريات أن هناك سلاطين آخرين يكاد يكون لكل قرية في إقليمنا سلطانها الخاص.

وكان هذا أكثر من أن أستطيع أن أفكر فيه أنا وكل بلدنا مجتمعة.

وما قابلت إنساناً سواء كان من بلدنا أو من غيرها إلا وسألته..

والشيء الذي كاد يفقدني عقلي أنهم جميعاً كانوا يأخذون الأمر بهدوء وبساطة ويستطيعون النوم بعد أسئلتي، بل ويتناولون الطعام ويضحكون. . وكأن من الطبيعي أن يوجد لكل قرية سلطان له اسم واحد هو حامد، سلطان خاص بمقام خاص، سلطان لا يعرف أحد كيف دفن ولا من بنى له المقام، سلطان شيطاني استيقظوا ذات صباح فوجدوا مقامه منتصباً عند حافة جبانتهم ووجدوا مكانته سامقة في أذهانهم . .

كل ما ظفرت به كان إجابات غامضة تزيد من ثورتي وعجزي وهياجي، فمن قائل إن هذا حدث من قديم الزمان ولا أحد يعرف سره، ومن قائل إنه سلطان يمت بصلة القربى الى أبي زيد الهلالي سلامة، ومن قائل إنه سلطان واحد حقيقي ولكنه كتب في وصيته أن تصنع له مدافن في بلاد عدة يدفن في واحد منها فلا يستطيع أعداؤه أن يعثروا أبداً على جثته.

ومن قائل إن السبب في هذه اللخبطة كلها هي الحكومة وهي وحدها المسؤولة.

من أي ملة هو ومن أي دين؟

الله وحده يعلم.

لماذا تحبونه وتقدسونه وتنذرون له النذور إذن؟

من يدري ربما كان ذلك لحكمة تخفى على البشر.

ونحل جسدي وبدأت ألوان كثيرة تتابع أمام عيني إذا وقفت،

وأحيـاناً كنت أكلم نفسي، ونـظرت في المرآة يـوماً فكـدت لا أعرف نفسي.

وخفت ولعنت السلطان ولغزه واليوم الذي قدمت له فيه النذر. خفت أن أموت.. وأقسمت ألا أعود أفكـر فيه. جعلني أبي أقسم أن أمنع نفسي من التفكير حتى ولا بعد أن أخذني أبي الى الحكيم وقال لي الـرجل السمين الـطيب وهو يمسـك يدي النـاحلة بكفـه الـطريـة التخينة الدافئة:

ـ مالك يا بني؟

وخفت أن يعتبرني مجنوناً إن أنا قلت له ويرسلني الى السـراية الصفراء فقلت:

ـ ما فيش.

وفحصني فلم يجـد شيئاً، ولكني انتهـزت فـرصـة خـروج أبي وخفت أن أجن إن أنا لم أقل له، فترددت وأنـا أسألـه إن كان يعـرف حـلاً لهذا اللغـز، وسألني مـا هـو ذلـك اللغـز؟ وقلت لـه كـل شيء وختمت كلامي بأن ما أمرضني هو أني لم أجد حلاً ولا تفسيراً.

وأطرق الرجل بوجهه السمين حتى تفرطح لغد الدهن المتهدل من عنقه، ثم رفع رأسه ولم ألمح في وجهه استخفافاً ولا تكذيباً. كل ما حدث أنه رفع لي يده وقال بوجه جاد:

ـ دول إيه يا بني؟

وحرك أصابعه فقلت:

ـ صوابعك.

ـ كم صباع؟

ـ خمسة!

ـ أنت متأكد، عدّ تاني.

ومع أني كنت متأكداً تماماً إلا أني عددتها فعلاً ووجدتها حقيقة خمساً، فابتسم الرجل وقال:

ـ طب أوجد لي حل للغز ده. اشمعنى الواحد له في كل يد خمس صوابع بس؟ ليه مايكونوش ثلاثة وليه مايكونوش ستة؟ اشمعنى خمسة بس؟ جاوبني.

ولم أستطع إجابته. وكان أبي قد حضر فشيعنا الى الباب وهو يضع يده ذات الأصابع الخمسة على كتفي ويقول لي:

ـ يا بني فيه حاجات كثير في الدنيا دي مالهاش تفسير، فاشمعنى نقيت حكاية السلطان حامد عشان تموت نفسك عشانها؟.. علشان تلقى لها حل لازم تفكر وعشان تفكر لازم تكون عايش وعشان تعيش لازم تاكل.. كل.

وظللت آكل حتى أبطلت التفكير وحتى نما جسدي وكبرت، وتركت مدارس ودخلت مدارس ونسيت كل شيء عن حكاية السلطان كعادتنا حين ننسى إذا كبرنا كل ما أرّق تفكيرنا ونحن صغار.

- ٦ -

بعد سنين كثيرة وسنين كنت في إجازة في البلدة ذات صيف، وعدت الى البيت بعد المغرب فوجدت رجلاً غريباً جالساً في وسط الدار يلتهم لقم العشاء بسرعة وتوحش.

ولم أستغرب لوجود الرجل فقد قلت إنه لا بد واحد من ضيوف جدي الغريبين، وكان جدي رغم مضي كل تلك المدة لا يزال عجوزاً كما هو ولا يزال يزاول هوايتيه المحببتين.. شرب القهوة الحلوة خلسة واستضافة الغرباء. وكانت هوايته الأخيرة هذه مبعثها حبه الشديد للحديث.. كانت لذته الكبرى أن يجد مستمعاً ليحكي له أو يجد حاكياً ليسمع له. وكان ساخطاً على بلدتنا التي لم يعد فيها أحد يحسن الكلام. وفي النهاية إن من يحسنون فن الحديث قد ماتوا خسارة وتاواهم التراب وتركوا جيلاً كالبهائم المكممة لا يجيدون الكلام وكأنه بفلوس. ولهذا كان جدي شغوفاً بكل غريب يهبط الى بلدنا، وكان نادراً ما يهبط إليها غريب.

وما كان أسعده حين يتلفت للسلام بعد صلاة العشاء في الجامع فيلمح بين صفوف المصلين غريباً، فعادة الغرباء إذا هبطوا القرى أن يذهبوا الى الجامع حيث فرص الاستضافة أكثر، وحيث يمكن المبيت إذا لم يجدوا المضياف الكريم. وكان جدي ما يكاد يلمح أحدهم حتى يسحبه من يده الى بيتنا، وكم من المشاكل كانت تنشب ولكن كان لا بد أن توقد النار في النهاية ويتعشى الضيف،

وتوشوش كنكة القهوة على مهلها في النار، ويتكىء جدي على مسندين ويخرج صندوق «المضغة» ويروح يلوك أوراق الدخان التي قضى ساعات كثيرة من اليوم يدقها في الهون ويضيف اليها التوابل. ولا بد أن يحضر جدي للضيف كيفه ـ سجائر إذا كان يدخن ـ وجوزة إذا كان من كيفه المعسل ويبدأ بهذا الكلام.

وغريب أمر هؤلاء الناس الذين كانوا يفدون على بلدنا، إذ هم في العادة لم يكونوا يزورونها لقضاء عمل معين. هم فئة عجيبة من الناس تلف القرى وتقضي في كل قرية ليلة ومعظمهم لا يجيدون حرفة ما، أناس هائمون على وجوههم وهكذا أو كما يقولون سائرون بلاد الله لخلق الله، بعضهم لصوص تابوا وبعضهم عمال من المدينة عاطلون وبعضهم عندسم لوثة وكثيرون فلاحون أفلسوا من كار الفلاحة الشاق ولم يوفقوا الى عمل آخر، ولكنهم يتفقون جميعاً في أن لكل منهم قصة وقصة في أغلب الأحيان رهيبة دامية. أزواج عشقت زوجاتهم عليهم وطردتهم بعد ما جردتهم من كل ما يمتلكون، أناس يقولون إنهم محكوم عليهم بأن يظلوا تائهين في بلاد الله هكذا الى أن يحين أجلهم. وتسأل عمن حكم فيقولون هو، فتقول من هو؟ فيقولون: هو والسلام. أناس تلمح في عيونهم نظرة حائرة تائهة غير مستقرة.. نظرة كلب ضال.. نظرة من لا يعرف له بيتاً ولا أهلاً ولا أحداً وراءه يهمه أمره، نظرة من لا يعرف الى أين المصير ولا يهمه أبداً إن كانت الشمس ستشرق مرة أخرى.

ولعلني ورثت تلك الهواية عن جدي، ولكن متعتي الكبرى أنا

الآخر كانت أن أربض بجواره إذا جاء الغريب ولا تستطيع قوة في الأرض أن تنتزعني من مكاني أو تمنعني من سماع حديث الغريب أو تأمل هيئته أو قراءة ما يدور في وجهه.

تلك الليلة أيضاً جلست أحدق في الغريب الجديد. كان يرتدي جلباباً قديماً من العبك وعمامة حمراء فيها قطعة سوداء من الخلف، ولم يكن مظهره يدل على حيرة أو جنون. عيناه فقط كانتا مطبقتين على الدوام لا يفتحهما إلا حين يتكلم حتى إذا ما سكت أطبق أجفانه في الحال.

وكانت لجدي طريقة ساحرة في بدء الكلام وفك عقدة اللسان..

فهو يظل ساكتاً حتى يتعشى الغريب ويشرب شايه أو قهوته ويأخذ أنفاساً من الدخان، وغالباً ما كان الرجل يتكلم بعد هذا من تلقاء نفسه دون حاجة الى سؤال. ومعظم هؤلاء الغرباء إذا تحدثوا كانوا لا يبالغون ولا يكذبون وكأنهم يدركون أنها ليلة.. مجرد ليلة، وأن المستمع رفيق طريق.. مجرد رفيق طريق. ومهما كان في المبالغة والكذب من روعة فلا شك أن أروع شيء عند الإنسان أن يتاح له ذات مرة أن يقول الحقيقة دون أن يجر عليه قولها مسؤولية أو متاعب.

قال الرجل إنه من الفيوم وإنه ذاهب الى الشام في حب الله، وإنه سائر على قدميه خمسين يوماً وأمامه مسيرة مائة يوم بإذن الله. ولم

يكن حديثه مسلياً. كان يتكلم ثم يصمت ويغلق عينيه دون أن ينتهي الكلام.

وبدأ جدي يتثاءب، وكنت لا أستطيع الكلام فجدي كان قد نبه عليَّ ألف مرة ألا أفتح فمي إذا كان أحدهم يتكلم وأن عليَّ أن أجلس فقط وأستمع.

وكثيراً ما كان يؤدي الحديث الى سكوت.. ويطول السكوت والنار قد تحولت الى جمرات، والجمرات غطيت بطبقة رقيقة من الرماد، والليل ساكن ونقيق الضفادع يملأ الليل بنغمة منظمة عميقة كأنه شخير الأرض التي نامت وراحت في النوم.

وفي نوبة سكوت طويلة أطلقت السؤال الذي أرقني طويلاً فسألته:

ـ لماذا العمامة الحمراء ذات القطعة السوداء من الخلف؟

فقال:

ـ لبسنا كده.

ورأيت جدي يعتدل وينفض عن نفسه النعاس ويسأله باهتمام:

ـ أنت من أنهى طريقة وده لبس مين؟

وفتح الرجل عينيه وقال:

ـ احنا مش طريقة.. إحنا ولاد السلطان حامد مالناش طريقة..

وبدت لي إجابته عادية جداً لا تستدعي حتى مجرد التعليق.

ولكني في اللحظة التالية كنت انتفض.

وجلست قرافيصي وأمسكت الرجل من يديه وأنا أستحلفه أن يروي لي كل شيء عن السلطان..

واستمع لي الرجل وهو يحدق ناحيتي بعينيه المغلقتين حتى خيل إليَّ من طول ما جلس أنه بلا حراك، ولكن بعد أن انتهيت رفع رأسه وواجهني..

كانت عيناه محمرتين ولكنه لم يكن يبكي وصرخ فيَّ فجأة:

ـ وتتهجم على السلطان بالشكل ده ليه؟

وأفهمته بخفوت أني لا أتهجم، أنا فقط أسأل.

وعاد يقول بغلظة وغضب:

ـ وانت مالك وماله ما تخليك في حالك وتسيب الناس في حالها.

وأجفلت..

وقال جدي:

ـ ما فيهاش حاجة يا سيدنا دا بيسأل.. هو السؤال حرام؟ قول له.

وفجأة أيضاً سكت الرجل وسقط رأسه على صدره وهو يقول بصوت باك وكأنه يؤنب نفسه:

ـ أيوه أقول له. . أقول لـه. . أقول لـه على حبيبي السلطان دا كان يابني راجل مبروك.

فقلت بانفعال:

ـ مبروك ازاي؟ له معجزات؟

فقال:

ـ مبروك. . ما تعرفش يعني إيه مبـروك؟ أمال أفنـدي إيه بقى؟ اللي شتت العدوين ما يبقاش مبروك؟ بقى اللي هزم الكفار ما يبقاش مبروك؟ أمال انت اللي مبروك؟

فقلت وأنا ألهث:

ـ مين العدوين دول؟

فصرخ فيَّ:

ـ مانتش عارف مين العدوين؟ حد مـا يعرفش العـدوين؟ دا أبو باع طويل ومدد واسع هو اللي هزمهم. يا بو مدد واسع شالله! يا أهل الله شالله! يا سلطان حامد يـا هازم الكفـرة مدد يـا حبيبي يا سلطان. مدد على طول الماداد ماداد.

وكان صوته قد ارتفع حتى قارب الأذان ومضى يقول وحنجرتـه الكبيرة تتلاعب هابطة صاعدة بارزة كالورم من رقبته الطويلة:

ـ ماداد يا سلطان يا بو مدد واسع. . ماداد على طول المـدد. . ماداد يابو مقامات عالية في مصر وسوهاج وأشمـون وكل البـرّ، الناس

لها مقام واحد وأنت ليك ألف. يا حبيبي مداد.

ولم نجرؤ على قطع الروحانية التي انتابته وكان واضحاً أنه لا يهلوس كما يفعل المجاذيب في الموالد، كان يبدو صادقاً ويبكي بكاء حقيقياً.

وحين هدأ واطمأننت الى أن هدوءه دائم عدت أسأله.. وأدهشني أنه راح يجيبني كالمغلوب على أمره وبصوت يحفل بالندم والتوبة، ولكن إجابته لم تشف غليلي وقال شيئاً كهذا:

ـ لما الغزاة هجموا على مصر قام لهم السلطان حامد وأصحابه، وقال لهم والله ما تدخلوا إلا على جثتي.

بصوا العدوين لقوه بجلابية استهتروا به، طلع له واحد منهم ورفع عليه سيفه شد منه السيف وتناه. جه العدو يزقه فحس أن الجبل يتحرك وهو لم يتحرك عن مطرحه قيراط. طلع له عشرة يزقوا فيه ما ينزق. بص قائدهم لقى رجليه غارزة في تراب البر ورأسه محصلة عند عنان السماء وبيقول: والله لو جبتوا قد جيشكم ده آلافات ما تقدر جيوش الدنيا كليتها تلحلحني عن تراب البر. فضلم يفكروا يعملوا إيه في غريمهم ده. نط عجوز منهم وقال لهم أنا لقيت الطريق يا رفاقة وعرفت أجيب داغه. قالوا ازاي قال دا جسمه طاهر ما يأثر فيه السيف طول ما هو طاهر ما ياخد السلاح فيه إلا لما يتنجس. قالوا ازاي قال أنا الكفيل أنا ح بول لكم على رجله أنجسها والشاطر اللي ورا بولي يضرب السيف. وقف العجوز النجس يبول

على رجله ومن وراه سيف غدار ضرب ضربة طير الرِّجل. قال لهم سلطاننا حامد وإيه يعني. . دي رجل راحت ولسه ليه رجل. ورجع خطوة. وبالطريقة هيَّاها قطعوا له إيد، ضحك لهم وقال: مالسّه ليَّ إيد، والله يا كفار يا عدوين لاوريكم ولم أخلي فيكم إيد. وفضل العجوز النجس يتبول والسيوف وراه تندب، وجسمه الطاهر في كل بلد إن دارت فيها الحرب يتقطع واللي غفل عنه العدوين إن كل حتة انقطعت كانت بتكبر وتبقى راجل يحارب الكفرة ويهجم على العدوين ويقول أنا ابن أبونا حامد. . أنا السلطان. . أنا اللي ح وريكم نجوم حمرا في عز الضهر. وقطعوه قطع ملايين وكل قطعة بقت راجل، ولما حصلوا راسه كانوا حصلوا الشام وكانوا ولاده بقم آلافات قاموا الى العدوين، وكل واحد يتلم على واحد ويشيله من فوق راسه ويرميه في قاع البحر.

ولما خلص العدوين واتنضف البر قال نحمدك يا رب وطلع منه سر الإله على طول».

ونام الرجل فجأة.

وجدت رأسه يسقط على صدره وشخيره يتصاعد بلا سابق إنذار.

ولم أكد أستعيد حكايته لأفكر فيها وأستعيد التاريخ لأخمن من يكون «العدوين» حتى وجدت رأس الرجل ذا العمامة الحمراء وصاحبه يقول وكأنه يتكلم وهو نائم:

ـ وحد الله . . سيبك . . يا باسط! اللي يزرع الجميل عمره ما يحصد غدر. والناس ما بتنساش . . قدم لهم السبت تلاقي ألف حد قدامك. وكله فدا السلطان. ماداد يا سلطان يا حبيبي على طول المدد ماداد . . .

ـ ٧ ـ

هناك طريقة مشهورة لجعل السلحفاة تتحرك باستمرار وذلك بأن نربط على ظهرها عصا طويلة نضع في نهايتها طعاماً تراه السلحفاة فتتحرك للوصول إليه وبالطبع لا تصل إليه أبداً، ولهذا تستمر تتحرك.

نحن مثل هذه السلحفاة لا بد لكي نتحرك أن يكون ثمة أمل في متناول أبصارنا نحاول الوصول إليه. ولكننا أحياناً لا نرى الأمل، تخفيه عنا أحداث الحياة فنتوقف، لا يائسين ولكن لكي نبحث عن الأمل. ولا بد للبحث عن الأمل أن يكون لدينا «أمل» قوي في العثور عليه. فترات البحث عن الأمل هذه يسميها الناس اليأس. . بل ويغالون ويضعون اليأس كشيء رأسه برأس الأمل سواء بسواء مع أن الحياة كما نرى أمل متصل، وحركتنا مستمرة إما لتحقيق الأمل أو العثور عليه؛ بل فترات البحث عن الأمل هذه التي يسمونها اليأس. . فترات يكون فيها الإنسان أشد تفاؤلاً وأكثر حركة من المؤمل.

والباحث عن الأمل أو اليأس كما يقولون أشد حرصاً على الأمل ممن عنده أمل. . والذي لا يملك القرش أكثر حرصاً عليه

ممن يملكه. بل إن المؤمل قد يضيع منه الأمل أما الباحث عن الأمل فإنه لا يفقد الأمل أبداً في العثور على الأمل. اليائس أشد تفاؤلاً من المؤمل ولو كان أقل تفاؤلاً لمات في الحال أو لانتحر.

وطول هذه السنين التي كنت آكل فيها وأسمن ـ وقد تركت قضية السلطان ـ كنت في الحقيقة لم أيأس من العثور لها على حل. كل ما حدث أنني كنت أتحرك يحدوني أمل ما، ولكن الحكيم الطيب حين أراني أصابعه وسألني ذلك السؤال ضاع من أمام عيني الأمل.. وضياع الأمل ليس بالأمر السهل، لا بد له دائماً من أسباب في غاية المنطق والمعقولية.

وحاول أن تناقش «يائساً» ما فسوف تجد ليأسه أسباباً في غاية القوة ولكنك سوف تجده أيضاً يبحث عن الأمل. وأن يعثر الإنسان على الأمل مرة أخرى مسألة أحياناً لا تحتاج الى منطق ومعقولية، ولنأخذ حالتي مثلاً.

لم يكن كلام الرجل المجذوب معقولاً ولا منطقياً وليس له وجاهة كلام الطبيب، ولكن كم هي غريبة أمور الدنيا.. فبلا مقدمات أو علامات وجدت أشياء مكتومة في صدري ومختزنة قد تراخت وانعكست، وحفلت نفسي باتساع وتفتح لا حد لهما. وأحسست أن الأمر لا يحتمل أكثر من أن أمد يدي وآتي بحل لمشكلة السلطان.

كان كل شيء ما قد حدث بعد ما استمعت طويلاً الى

تخريفات المجذوب.. شيء وكأنني كنت أشك في وجود الله مثلاً ويحيرني أمره ولا أستطيع أن أجزم بوجوده أو عدمه، وفجأة عثرت على تلسكوب غريب ممكن أن أنظر منه فأرى السماء وأتحقق من وجود الله.

ولم آخذ تخريفات المجذوب على أنها تخريفات.. أخذتها من زاوية أخرى فلا بد أن السلطان حامد هذا من نوع ما، عاش ومات كما يعيش الناس ويموتون. ولكن أية حياة هذه، وأي رجل هذا؟ وترى ماذا فعله حتى يحتل من نفوس الناس تلك المكانة الرهيبة وحتى يجن أناس ويجذبوا حباً فيه وتنسج حوله الخرافات والأساطير وتقام له مئات الأضرحة في مئات البلاد وتضيء كل ليلة بعشرات الشموع مئات الليالي، وربما لمئات السنين؟

وأمر آخر، فأن تعمل طيباً مسألة قد تخصك أنت وحدك، ولكن أن يقدر الناس أعمالك وبالتالي يقدروك مسألة أخرى. فالدنيا حافلة بالطيبين الذين عاشوا للناس وماتوا من أجلهم فلماذا لا يقدرون كلهم؟ لماذا يقدر البعض دون البعض، وعلى أي أساس إذن يختار ملايين الناس من أعمالك ما يستحق التقدير وما لا يستحق؟ ولماذا يصبح بعض الناس من معبودي الجماهير كما يقولون بينما لا يكونون هم أشرف الناس ولا أطيب الناس ولا أكثر حباً للناس وتضحية من أجلهم؟

ولم أكن أدري وأنا أقلب هذه الأسئلة كلها في رأسي أنني

ممكن أن أجد الإجابة عليها عند روجيه كليمان . .

كنت قد عدت الى القاهرة من الإجـازة القصيرة وكلي تفتـح لا لمسألة السلطان حامد وحدها، ولكن للحياة نفسها.

وكم أدركت خطئي لأني ظللت فترة طـويلة من حياتي لا أفكـر إلا فيها وحدها، فكما يقولون قد تجد ما تفكر فيه فيما لا تفكـر فيه، وقد تجد ما لا تفكر فيه فيما تفكر فيه.

لا بـد أن هذه الحكمـة صحيحة الى حـد مـا، ولـو الى الحـد الـذي يجعلني أؤمن أن لقـائي بمـدام أنتـرنـاسيـونـال، كـان اسمهـا «جين». . ولم أعـرف الى الآن جنسيتها فـأحيـانـاً كـانت تقـول انهـا هولندية والباسبـور الذي معهـا كان من دوقيـة لوكسـومبرج وتقـول إن باريس هي محل إقامتها. وحين عرفتها كانت قادمة من جنوب إفريقيا في طريقها الى زوجها التشيكوسلوفـاكي الذي يعمـل مهندس منـاجم في بولندا، وبالشرف إني لا أبالغ فهي نفسها لم تكن تجد غـرابة في هذا. . كان تهز كتفيها ببسـاطة وتقـول: أنا أنتـرناسيـونال. أمـا كيف عرفتها فالمسألـة في بساطـة جنسيتها. الصـدف المحضة دفعتني لأن أزور الاسماعيلية عقب الاعتـداء على مصر، والصـدف المحضة هي التي دفعتني لأن أقابل أحد أصدقائي الأطباء في مطعم اللوكاندة التي كنت أنزل فيها. والصدف المحضة هي التي دفعت صديقي هذا لأن تتـولاه «نوبـة شهامـة» ويدعـوني لأن أقيم معه في حجـرته بمستشفى الاسمـاعيلية وكـان يعمل طبيبـاً مقيماً. وأنـا أحب جـو المستشفيـات

والملابس البيض الحسان، ورائحة اليزول إذا جاءت الى أنفي من بعيد وكانت لطيفة خفية.

وهناك عرفت مدام أنترناسيونال، كانت إحدى مرضى المستشفى وكانت موضوعة تحت الحراسة، فقد كانت أحد ركاب الباخرة «كارولينا» السويدية التي حجزها الاعتداء الغاشم في مياه القنال.

وكانت جين هذه ملحوظة لحسة منقطعة النظير.. فهي لم تكن مريضة ولكنها حاولت الانتحار في الباخرة وأنقذوها في أول لحظة، ولكنها ادعت أنهم جاءوا متأخرين بعدما سرى الأسبرين في جمسها وأن قلبها ما لم يعمل له «رسم» سيتوقف في الحال، وإذا عرفنا أن الباخرة لم يكن فيها جهاز رسم قلب كهربائي أدركنا أهداف مدام انترناسيونال. كان هدفها أن تهبط الى البر وتعيش في مصر، إذ كانت قد زارت تسعاً وثلاثين بلدة من بلاد العالم وكانت تريد أن تحكي لصديقاتها عما رأته في الأربعين.

وسألتها:

ـ ألست ذاهبة الى زوجك في بولندا؟

فقالت:

ـ لا، نحن نلتقي على الدوام في باريس فانا لا أستطيع أن أحيا في غير باريس.

وقلت لها مرة:

ـ لم لا تفكرين في هدف لحياتك؟

فقالت: كيف أفعل هذا وهدفي في الحياة أن أحيا بلا تفكير؟ .

ولو لم تقل ذلك بطريقتها البادية الصنعة لحسبتها فيلسوفة أو من المفكرين. وكان صديقي الطبيب لا يكاد يستقر في الحجرة في أثناء الليل أو النهار خلال الأيام الثلاثة التي مكثتها في المستشفى. ما تكاد تمضي دقيقة حتى نسمع دقاً: الخواجاية عندها مغص يا دكتور. . ويذهب صديقي فلا يجد مغصاً ولا إسهالاً . . ولا يكاد يعود حتى يعود الدق من جديد: الخواجاية عندها احتباس في البول.

وكنت كثيراً ما أذهب معه ولم يكن صديقي ضيقاً بها، كانت شيئاً جديداً في حياة المستشفى الروتينية وحياته. وكثيراً ما جلسنا نتحدث، وكثيراً ما حملنا الحديث بعيداً الى أبعد من جدران المستشفى ومأساة الحرب. وأخطأت مرة وذكرت لها حكاية السلطان، وكأنها كانت تنتظر طول عمرها أن يقول لها أحد شيئاً كهذا. فإلى أن انتزعت من سرير المستشفى انتزاعاً الى الباخرة كانت لا تزال تسألني وتحلف وتدقق وتروع للتفاصيل وتقول:

ـ أوه. . يا سلام! .

ويا سلام هذه هي الكلمة الوحيدة التي تعلمتها في أثناء إقامتها بالمستشفى.

ولم تكتف بعنواني المكتوب الذي أعطيته لها، ولكنها ظلت ترده حتى حفظته عن ظهر قلب.

وودعتني وهي تقول:

ـ حتماً سأكتب لك.

ولكن لم أتوقع أبداً أن تفعل.

وعدت الى عملي، والى القاهرة والى الساعات اليومية الثابتة التي كنت أقضيها في دار الكتب.

كنت قد أمسكت بخيط ما، وكان ترددي على الدار هدفه التأكد منه، فبحثت عن أسماء جميع السلاطين الذين حكموا مصر أو حتى من قدموا إليها غازين أو زائرين، بل حتى أسماء سلاطين آل عثمان راجعتها كلها، ولم أجد ظلاً ولا إشارة واحدة لسلطان اسمه السلطان حامد.

وحتى هذا الخيط الواهن انقطع، وبهذا فقدت كل أثر للسلطان.

غير أن حماسي لم يفتر أو يقل.

يومان في الأسبوع كنت أذهب الى مكتبة الجامعة ومن هنالك الى قسم التاريخ في كلية الآداب، وأخطىء إذا قلت إن جهودي كانت تذهب عبثاً، إذ خلال شهور طويلة كنت قد تعلمت أشياء عن تاريخنا لم أكن أحلم بمعرفتها، وكنت قد خرجت بعدة صداقات ليس أقلها صداقة متينة كانت بيني وبين «علي بك» القزم الذي لا يكاد طوله يزيد على المتر والذي يبيع الكتب القديمة رائحاً غادياً بين

العتبة والأزهر. وكانت الحكايـة قد تسـربت مني الى أصدقـائي والى معـارفهم حتى كنت أحيانـاً أجـد أنـاسـاً لا أعـرفهم يبتسمـون لي إذا قابلوني في مكان عام ويقولون:

هبه . . عملت إيه في حكاية السلطان؟

ونفس السؤال كنت أسمعه من شبان أهل بلدنا وطلبتها، وحتى الكهول. ومع أن الـوضع قـد انقلب وانتقلت من الطفـل السائـل الى الرجل المسؤول، إلا أن إجابتي كانت لا تكاد تختلف عن الإجابـات التي كنت أجن لها وأنا صغير.

وما أكثر ما كان يصلني من أفكار واقتراحـات، يضرب أحـدهم كتفي بشدة ويقول:

ـ وجدت لك كتاباً يصلح.

ويأخذني آخر بالحضن ويقول:

ـ خلاص. عرفت حكاية السلطان.

ويحكي، وإذا به سلطان غير السلطان. وكنت أتـوقع أي شيء إلا أن أفتح صندوق الخطابات مرة أخرى فأجد خطاباً راقداً في قاعـه وعليه طابع بريد أجنبي.

كان الخطاب من مدام أنترناسيونال.

ومـا كدت أفتحـه حتى تسـاقط منـه شيء، ولكني شغلت عنـه بقـراءة الخـطاب. ولم أكن أتـوقـع أن يكـون لهـا مثـل هـذا الخط

الجميل، ولم لا أقول إني ما كدت أعرف أن الخطاب منها حتى وجدتها تلوح في خاطري وأحس أني حقيقة افتقدتها. أحياناً يبدو الشخص المتعب جذاباً من بعيد.

وعلى عكس طريقتها في الكلام كتلك الطريقة التي تظن معها أنها لا تتحدث ولكنها تمثل، كان أسلوبها في الكتابة رزيناً حتى كدت أظن أنها أصبحت أرملة. والأغرب من هذا كانت تتحدث عن السلطان!

قالت إنها منذ أن تحركت بها الباخرة وغادرت قنال السويس وهي لا تفكر إلا بمشكلة السلطان، وقد أحست ـ وبنص كلامها ـ لأول مرة أنها وجدت شيئاً يستحق أن تفكر فيه. ولأسخر منها ما شئت ولكنها فعلت والنتيجة مرفقة بالخطاب.

وتأملت ما سقط من يدي حين فتحت المظروف، فإذا به صفحات من كتاب مطبوع.

وعدت أكمل قراءة الخطاب الغريب: لا تسل كيف عثرت على هذه النتيجة، فمنذ عودتي الى باريس وأنا وصديقاتي لم نسترح لحظة واحدة، ولم يكن لنا هم طول الوقت إلا البحث في مشكلة السلطان. وكنت أريد أن أحدثك بالتفصيل عن الجهود الكبيرة التي بذلناها لولا أني أوثر أن أخبرك بأهم شيء. ففي الشهر الماضي صدر عن إحدى دور النشر هنا كتاب يعتبر وثيقة تاريخية مهمة وهو عبارة عن مجموعة من الخطابات التي تلقاها المسيو جي دي روان من

صديقه روجيه كليمان. وروجيه كليمان كان أحد علماء الآثار الذين رافقوا حملة نابليون على مصر، ويقال إنه لم يعد وإنه استمصر وارتدى الملابس الوطنية وأقام هناك. وها أنذا أرسل لك مع خطابي هذا بعض صفحات منتزعة من الكتاب وهي تحتوي على الخطاب الأخير. ولعلمك أن الذي قام على تحقيق هذا الكتاب ومراجعته وتدوين الملاحظات عليه هو الدكتور س. مارتان عضو الأكاديمي فرانسيز. وبهذا تستطيع أن تطمئن تماماً الى سلامة كل ما ورد فيه. وأنا لا أعرف إذا كان ما جاء في الخطاب الذي أرسله العالم الفرنسي ما يكفي لحل لغز السلطان أم لا، ولكن لا أريد أن أمنعك من قراءة الشيء الذي انتظرته طويلاً وأظنك في شغف شديد للاطلاع عليه.

أرجوك.. اكتب حالاً وأخبرني بكل شيء.

عزيزتك

جين انترناسيونال

ملحوظة: هل عندكم حقيقة قرية اسمها «شطانوف»؟

وهل لا تزال موجودة الى اليوم؟ صفها إلى في خطابك أرجوك.

-٨-

والواقع أني لم أكن في شغف شديد لقراءة الصفحات.. كانت حالتي أقرب ما تكون الى الذهول. لم يكن ذهول الدهشة ولكنه كان ذهول الاطمئنان. فأنا لم أصارح أحداً برأيي هذا ولكني كنت كثيراً ما أفكر فيه. كنت أحياناً ينتابني خوف من نوع ما.. خوف

أن أكون قد ضخمت الموضوع أكثر مما هو في الواقع، خوف أن يثبت لي في النهاية أن السلطان حامد هذا ليس له لغز ولا مشكلة، وأنني أنا الذي صنعت اللغز وخلقت الإشكال، وممكن ألا يثبت أن هناك سراً وراءه ولا يحزنون.

ولو حدث هذا كنت أصبت حقيقة بالذهول.

لحظتها كنت أحس براحة غريبة.. راحة تمنعني عن الحركة وحتى عن محاولة معرفة الحل، وكأنه كان يكفيني أن أعرف وأتأكد أن هناك حقيقة سراً، راحة مضت تدفعني الى أن أفكر في أي شيء إلا التفكير في تصفح الأوراق.

وخطرت لي شطانوف.. لماذا لم أتذكر أن جدي الأكبر طالما حدثني عنها وطالما ذكرني أن لنا هناك أقرباء، وأن جدي الأعلى غادرها في أيام القحط واستقر في بلدنا؟ ولماذا لا يكون السلطان حامد قد أقام فترة في شطانوف في الزمن القديم، لماذا لا أكون من أحفاده؟

وقلت أرحم نفسي وأقرأ الخطاب.

ولكني وجدت الصفحات مكتوبة بالفرنسية وأن محصولي فيها ضعيف، ولذا أسرعت الى أحد الأصدقاء الضليعين فيها واشتركنا في ترجمته وهكذا كانت بدايته:

الخطاب رقم ١٠

هذا هو الخطاب الأخير في المجموعة وإن كان بعض الناس

يعتقدون أنه لم يكن الأخير، وأن الأستاذ كليمان أرسل بعده خطاباً الى صديقه المسيود دي روان ولكن الصديق مزقه عقب قراءته لسبب لا يزال مجهولاً.

أما مصير روجيه كليمان بعد كتابته هذا الخطاب فليس معروفاً على وجه الدقة. ومع أن بعض الثقات يؤكدون أنه عاد الى فرنسا في أخريات أيامه حيث وافاه الأجل فإنني شخصياً ضد هذا الرأي.

س. ماريشان

وها هو الخطاب...

القاهرة في ٢٠ يونيو سنة ١٨٠١

عزيزي جي

لا زلت لا أعرف إن كان خطابي الأخير قد وصل إليك أم ضل الطريق إليك، ولا أعلم إن كنت قد كتبت رداً عليه وفقد هو الآخر أم أنني لا أزال سيىء الظن بمصلحة بريدنا الموقرة.

على العموم وسواء ألقي خطابي هذا مصير سابقه أم وصل إليك سالماً فإنني أحس أني لا بد أن أكتب لك، حتى ولو كنت متأكداً أنه لن يصل إليك، فهناك أشياء كثيرة تحدث داخل نفسي وأريد أن أفضي بها لصديق، فكما تعلم أنا لا أجرؤ على أن أهمس لأحد هنا بما يدور في خلدي.. أعلم أنك ستسخر مني كعادتك، ولكن أرجوك حاول أن تفهمني فالناس هنا لا يريدون.

طلبت مني في خطابك الذي أرسلته منذ أكثر من ستة شهور أن

أحدثك عن مصر والمصريين، وذلك العشب الذي يحيا على ضفاف النيل. . ومشكلتي يا صديقي العزيز هي هذا الشعب.

إنني اعترف لك أنني لم أكن هكذا يوم جئت. أنا كما تعلم حياتي هي فرنسا وقد اشتركت في حمل جمهوريتنا على أكتافي. كنت وأنا أضع قدمي على أرض مصر أحس أني مقبل على بلاد افريقية مظلمة، أحمل لها شعلة الحضارة وأذيقها طعم الجمهورية التي تنهل منها بلادي. فإذا بي اليوم. . ماذا أقول؟ لقد شاهدت القوى الخارقة بعيني يا روان، لقد مسني سحرها ولكنك لن تفهم، لن أجد أحداً في العالم. . عالمكم يفهم ما أعني فلماذا أتعب يدي وقلمي؟

حسناً! ساصنع كما يصنع مرشدو الآثار وسأحدثك عن مصر، فأظن أن الحديث في هذا هو الذي يستهويك. المصريون يا صديقي ليسوا كما تقول. . فهم لا يرقصون حول النيران في الليل، وحريمهم أبعد ما يكون عن حريم ألف ليلة وليلة، وهم غير المماليك ـ وأظنك لا تعلم هذا ـ والمماليك انتهينا منهم أو من أمرهم في أولى جولاتنا معهم، جاءوا في صف طويل يرتدون الملابس الحريرية الهفهافة ويركبون الخيل المطهمة وخلف كل منهم عبد أسمر يجري. جاءونا كدون كيشوت شاهرين سيوفهم ويصرخون فينا أن نخرج لهم لتدور بيننا وبينهم الحرب ويبدأ النزال.

وكانت إجابة الجنرال (يقصد نابليون) عليهم حاسمة، فقد أطلق عليهم مدفعيته في الحال.

وطبعـاً سقطوا يتخبـطون ويصرخـون ويلعنون نـذالة الفـرنسيين ويترحمون على زمن الشجاعة والإقدام.

وبعد معركة أو معركتين كنا قد انتهينا منهم كما قلت لك.

أمـا المصريـون فبعضهم يسكن القـاهـرة والمـدن، ومعـظمهم يـزرعون الأرض ويسكنـون قرى سـوداء مبنيـة بـالتـراب في الأريـاف واسمهم الفلاحون.

وآه من هؤلاء يا جي!.

إذا رأيتهم عن قـرب ورأيت وجوههـم التي تبتسم لـك في طيبة وسذاجة وأدركت خجلهم الفطري من الغريب، ربما يدفعك هذا الى الاستخفاف بهم وتعتقد أنـك لو ضـربت أحدهم على قفـاه لما جـرؤ على أن يرفع لك وجهه، ولتقبل الإهانة بكل سعادة وخشوع.

حذار أن تفعل شيئاً كهذا يا جي.

فقد حاول الجنرال وكليبر وبيلو ذلك وندموا.

لا أحد يستطيع أن يسبر غـور هؤلاء الناس.. تلك القبيلة ذات الملامح المتشابهة التي هبطت ذات زمان بعيـد الى وادي النيل وآلت على نفسها ألا تتحرك من مكـانها أو تتفتت. والقبيلة التي تعلمت أن تحني رأسهـا لعـاصفـة الغـزاة ثم تمضغهم على مهـل. القبيلة التي تسكن واديـاً مفتحاً من كـل الجهـات تستـطيـع بـأي جيش صغيـر أن تغـزوه. والمشكلة ليست في الغزو أبـداً. المشكلة ما يحـدث بعـد الغزو.

وأتحدى التاريخ أن يثبت أن غازياً دخل هذه البلاد واستطاع أن يغادرها سليماً. لديهم آلة عجيبة - هؤلاء الفلاحين - يستعملونها لطحن الحبوب، حجر كبير يدور فوق حجر كبير ويوضع الحب من فوق لسيماً ليخرج من بين الحجرين أنعم من الدقيق.

لقد وجدنا الأتراك هنا قد أصبحوا دقيقاً من أزمنة طويلة مضت، وكان المماليك في طريقهم الى نفس المصير.. لست أدري أين تكمن قوتهم ولا كيف تتم تلك العملية، ولكن المؤكد أنها تتم.

وقصة حامد لا أقول إنها توضح ما أريد ولكن فسرها إن كنت تستطيع، لقد جئت هذه البلاد عدواً ولن أخدع نفسي وأقول - مثلما يقولون كلهم هنا - إنني جئت لأحرر المصريين من المماليك. جئت عدواً يا صديقي.. جئنا كلنا عدواً قوياً مسلحاً بأحدث ما وصلت إليه أوروبا من مخترعات وآلات دمار.. جئنا غزاة قادرين فإذا بنا اليوم في ورطة، وإذا بمشكلتنا هي كيف ننتزع أرجلنا لننجو بأنفسنا من طمي هذا البلد وأناسه الذين نحس بأنفسنا نغوص فيهم ونختفي.

ولا أزعم أني سأحسن الحديث عنهم، فليس في استطاعتي أن أفعل شيئاً كهذا، سأحدثك فقط عن حامد. فمنذ شهور كثيرة وهو الموضوع المفضل للحديث بيننا حين نملك الحديث، ويكفي أن تعلم أن القيادة قد أصدرت أمراً غير مكتوب بمنع الحديث عنه.

وحامد هذا ليس زعيماً من زعماء المصريين بل إنه الى شهور قليلة لم يكن أحد يهتم بحامد هذا أو يقيم له وزناً، فقد كان أحد

فلاحي قرية شطانـوف الواقعـة بين فرعي النيـل، وأظنك لا يمكن أن تعتقد أن اسم شطانوف هذا اسم فـرنسي. . ولكنه كـذلك. فـالقريـة كان اسمها في الأصل كفر شندي وكان بجوارها قلعة قديمة من قلاع المماليك. وحين غزونا الدلتا وطردنا المماليك هدمنا القلعة القديمـة وبنينا أخرى جديدة بخامات محلية وأسميناهـا شاتـو نيف (أي القلعة الجـديدة)، وكـذلـك غيـرنـا اسم البلدة وسمينـاه بـاسم القلعـة، ولا تحسبني أسخر حين أقول إن هذا كل ما صارت اليه رسالتنا تجاه بلاد إفريقيا المظلمة. . أن نغيـر اسماً بـاسم، ولكن الفلاحين غيـروا فيما غيرنا بطريقتهم الخاصة، فأطلقوا على القرية اسم شطانـوف بدلاً من شاتو نيف.

حـامد كـان من فلاحي هـذه القـريـة الـذين يـزرعـون الأرض ويصلون لله في الجامع، وظل هكذا الى أن جـاءت قواتنـا وعسكرت في القلعة الجديدة، وكانت القوات بقيادة الكولونيل بيلو الذي عانقته وأنت تـودعني في مارسيليـا، أتذكـر! والقلعة كـانت بالغـة الأهمية إذ كانت نقطة ارتكازنا الرئيسية في الدلتا كلها، وكانت في الـوقت نفسه قاعدة تخرج منها الدوريات لتفتيش المنطقة بانتظام.

وكـانت سياسـة بيلو منذ أن حـل في القلعة أن نتجنب مضـايقة الفلاحين أو التحرش بهم حفظاً لسلامة القاعدة، وليس لأننا أصـدقاء المصريين كما كـان يحاول الـرجل الـطيب أن يفهم الفلاحين، ليس هـذا فقط بـل كـانت سيـاسـة الجيش عـامـة أن يحـاول التقـرب من الوطنيين ويوطد علاقته بهم.

ولم نستفد من إقامة هذه العلاقات إذ كلما حاولنا أن نتقرب منهم ازدادوا نفوراً، وكلما حاولنا إفهامهم أننا أنقذناهم من ظلم المماليك، نظروا إلينا طويلاً وكادت نظراتهم تقول: جئتم لتنقذونا من المماليك، وجاء المماليك لإنقاذنا من الأتراك، وجاء الأتراك لانقاذنا من التتر، وجاء التترلإنقاذنا من الخليفة وجاء الخليفة لإنقاذنا من البطالسة، وجاء البطالسة لإنقاذنا من الإغريق.. لماذا تخصوننا بشهامتكم أيها السادة؟!

وما أقسى نظرات هؤلاء المصريين حين يوجهونها إلى عدو غريب! إنهم بينهم وبين أنفسهم يعاملون بعضهم كالديوك، طول النهار لا يتحدثون إلا شتائم، هناك أكثر من مائة لقب للأب تبدأ من المركوب وتمر بكل ما يلبس في الأقدام، وتغطي المملكة الحيوانية حتى الخنزير، وأي مكان في جسد الأم ممكن أن يصلح مادة للشتائم. شعب ثروة شتائمه لا تجدها عند أي شعب آخر، ولا يتكلمون إلا زعيقاً. ومع هذا فليجسر غريب - أي غريب - ويحاول أن يلمس أحدهم: ما إن يحدث هذا حتى تحدث المعجزة وإذا بهم يواجهونه وقد نسوا كل ما كان بينهم من شتائم وخلافات.

وكنا دائماً نحس بنظراتهم تكاد تلتهمنا، وما أقسى أن تعيش بين شعب لا يحاول أن يخفي عداوته. وهكذا ظلت الهوة تتسع حتى حدث عصيان القاهرة الذي حدثتك عنه، ومنذ ذلك الانفجار وأعصاب قواتنا في انهيار مستديم.

ورغم تعليمات بيلو وتنبيهاته اليومية فقد فَقَدَ أحد جنودنا

المعسكرين في شطانوف أعصابه ذات يوم وأطلق النار على فلاح كان يتتبعه بنظراته. . فقتله.

وأحدث هذا العمل أسوأ الأثر في القرية.

وذهب الفلاحون الغاضبون بزعامة شيخ البلد لمقابلة الكونيل بيلو. ولم ينتظر الرجل وذهب لمقابلتهم عند الباب وطلبوا منه أن يقتل القاتل أمامهم، فحاول بيلو أن يقنعهم أن القاتل سيحاكم وأنه سيلقى جزاءه، ولكنهم أصروا على أن يختار بين أمرين: إما أن يقتل القاتل أو يسلمه لهم لكي يقتصوا منه. ورفض بيلو كلا الأمرين وأمر الأهالي بالانصراف.

وصدعوا للأمر وانصرفوا. .

ولكن في اليوم التالي قتل أحد جنود القلعة وهو في طريق عودته إليها.

وذهب بيلو على رأس قوة كبيرة وقبض على شيخ البلد وأحضره الى القلعة، وطاف مناد في القرية يقول: ما لم يسلم القاتل نفسه قبل مغيب الشمس فإن شيخ البلد سيعدم رمياً بالرصاص.

وقبل مغيب الشمس توجه للقلعة أحد الفلاحين وقال إنه القاتل وطلب الإفراج عن الشيخ. وأخذ بيلو الموضوع كله ببساطة وقرر أن يشنق الفلاح بعد محاكمته على مرأى ومسمع من الفلاحين ليعتبر غيره بمصيره.

وكان هذا أسوأ قرار اتخذه بيلو في حياته.

ففي اليـوم التالي سيق المتهم الى ساحـة القـريـة الـرئيسيـة، وجمع كل من وجد في القرية من أهلها وأوقفـوا في الساحـة ليشهدوا المحـاكمـة. . وتكـونت المحكمـة من بيلو رئيسـاً والمـاجــور لسـال والسيرجنت جان بروميرجر عضوين، وكـان هنالـك ممثل اتهـام، أما الـدفاع فـلا تدهش إذ قمت أنـا به. . ذلـك أنني كنت قد وصلت في ذلك اليوم بالذات لأقضي بضعـة أيام في ضيـافة بيلو، ولأدرس حيـاة الفلاحين عن كثب.

وكـل ما كنت قـد عرفتـه عن المتهم أن اسمـه حـامـد وأنـه لا يختلف عن بقية الفلاحين في المظهر أو الشكل، كل ما يميزه أنه كل طويل القامة طـويل الأنف واسـع العينين،إصبـع يـده اليسرى البنصر مبتورة وعلى وجنتيه عصفورتان مـوشومتـان لتقويـة بصره كمـا قال لي الترجمان. . وطبعـاً لم أكن أريد أن أشتـرك في هذه المهـزلة، ولكن صديقي بيلو ألح عليّ لأؤدي هذا «الواجب» باعتباري الوحيد الموجود الذي حمل دكتوراه في القانون.

وطبعاً كانت مهزلة. . الفلاحون جالسون وواقفـون في الساحـة ينظرون لنا نـظرات كلغتهم لا نفهمها، والمحكمـة تتبادل التعليقـات الساخرة بصوت مرتفع، وثمة مترجم ركيك لا يجيد العربيـة ولا حتى الفرنسية.

وجـاء دوري لأدافـع عن المتهم، ولست أدري مـاذا كـان رأي بيلو في دفاعي الذي بدأته بـالحديث عن الثـورة الفرنسيـة وشعاراتهـا

المقدسة التي قامت من أجلها. . الحرية والإخاء والمساواة. كم كان مضحكاً أن أتفوه بها في ساحة شطانوف. . والحكم صادر ولا ينقصه سوى التنفيذ.

ولحسن الحظ ـ ولسوئه أيضاً ـ لم يتح لي أن أكمل مرافعتي. . فقد هجموا علينا. . لم نكن ندري من أين جاءوا ولكن امتلأت الساحة بتلك العصي اللعينة التي يسمونها النبابيت، وبالخناجر المتوحشة الرهيبة التي تصرخ لهكبر لهكبر. ولن أحدثك عن الرعب المجنون الذي انتابنا محكمة واتهاماً ودفاعاً وحراساً، فقد كنا لا نزال نعاني من فوبيا الفلاحين التي تكونت لدينا. فقد حدث بعد الاستيلاء على القاهرة أن أرسل نابليون جيشاً بقيادة مارتن ليحتل المنطقة الشرقية من الدلتا. . وخرج الجيش في الفجر، وما انتصف النهار حتى كانت قواته عائدة في حالة يرثى لها. الجنود يرتجفون وعيونهم تنطلق بالرعب المجنون وملابسهم في حالة تمزق كامل، وكل منهم يروي قصة مختلفة غريبة عن قوم متوحشين خرجوا عليهم مسلحين بالنبابيت والعصي والفؤوس والمناجل وكانوا يصرخون كأكلة لحوم البشر، وتخرج صرخاتهم كالرعد وهي تردد لهكبر لهكبر (ومعناها أن الإله أكبر من كل الأعداء) وجنوده كما تعلم هم صفوة الجيش الفرنسي المختارة، الصفوة التي فتح بها قائدنا العظيم نابليون النمسا وأسبانيا وبولندا وانتصر بها في سالزبورج وإيطاليا، الصفوة التي شتتت المماليك الشجعان الأقوياء في معركتين تصور هذه الصفوة المسلحة بالبنادق والمدافع تواجه قوة مسلحة بالعصي والمناجل فتفر مفزوعة

هالعة لا تملك حتى أن تطلق بنادقها أو تتجمع صفوفها (ولماذا أخفي عليك أن بعض جنودنا تبولوا على أنفسهم من شدة الرعب)؟ ولم يستطع أحد أن يفسر هذه الظاهرة أبداً، وهل هي راجعة لوحشية هجوم الفلاحين أو لأسباب أخرى غير معلومة.

وكان لهذه الحادثة نتائج رهيبة.. فقد كان لرجوع جنود مارتن بهذا الشكل الدرامي أسوأ الأثر على الروح المعنوية لجيشنا كله.

منذ ذلك التاريخ أصيب جنودنا بمرض الخوف من الفلاحين إلى درجة جعلت أحد أطباء الجيش يطلق على هذه الحالة(فلاحين فوبيا).

غير أن هذا المرض بدأ يزول تدريجياً حين تم لنا الاستيلاء على مصر، ورأينا الفلاحين عن قرب ولم نجدهم متوحشين ولا من أكلة لحوم البشر. وجدناهم حين عرفناهم طيبين جداً ومسالمين ويخجلون من الغرباء.. ولكنهم مطيعون. وأحيانا كنا نجدهم ساذجين حتى ليخيل للواحد منا أنه لو صفع أحدهم لما احتج ولما غضب. ولم نكن نستطيع أن نصدق أنهم هم الذين أفزعوا قوات مارتن حتى أحالوها إلى قطيع من الحيوانات المذعورة التي تبحث عن النجاة بأية طريقة.

ما كدنا نرى هذه العصي الرهيبة التي يسمونها النبابيت ونسمع لهكبر هذه حتى جرينا كلنا إلى القلعة لنحتمي بها. ولم تحدث في هذا اليوم خسائر.. كنا فقط قد خسرنا المتهم. إذ كانوا قد استطاعوا

في غمرة الارتباك الشديد الذي حدث أن يهربوه. وتولى بيلو غضب جامح وجمع قواته في فناء القلعة وألقى عليهم خطاباً يفيض بالتأنيب والتوبيخ، وقال لهم إننا سنخرج كلنا من القلعة ولن نعود حتى نكون قد قبضنا على حامد هذا وعلى عشرة غيره. .

وتركته هو يواصل جهوده المظفرة، أما أنا فقد أخذت طريقي عائداً إلى حفرياتي في منطقة الهرم. ولكن أخبار ما حدث بعد هذا كانت تصلنا من القاهرة باستمرار ولم أعرفها وحدي. . كان الجميع يعرفونها.

فقد خرج بيلو على رأس قوة القلعة كلها وحاصر شطانوف وفتش المزارع التي حولها وفتش كل البيوت ولم يعثر على حامد. فقبض على شيخ البلد وعلى عشرة من الأهالي، ونادى المنادي أيضاً بأنه ما لم يظهر حامد فسيعدمهم. . ولكن الشمس غابت ولم يظهر حامد. وخاف بيلو إن هو أطلق النار على الفلاحين الأسرى أن يزداد الشغب. . فأعطى أهالي شطانوف مهلة أخرى، ولما لم يظهر حامد غضب بيلو وأطلق النار على شيخ البلد واحتفظ بالباقين أحياء.

وكان لإعدام شيخ البلد دوي شديد في شطانوف والبلاد التي حولها، وسرت إشاعة تقول إن حامد الفلاح أقسم أنه سوف يقتل بيلو انتقاماً للشيخ.

ولكن بيلو لم يكن بالرجل الذي يخيفه التهديد، فقد استمر يخرج على رأس الدوريات التي تبحث عن حامد. . ولكنه خرج مرة

وعاد محمولاً على حصانه وجسده ممزق بالثقوب.

ولم ينم الجنرال ليلتها وأمر بتيسير القوات التي كانت تعسكر في شبراخيت إلى شطانوف، وعهد بالقيادة إلى الجنرال كليبر نفسه. وكانت مهمة القائد الجديد هي التنقيب في منطقة شطانوف وما حولها بحثاً عن حامد هذا، الفلاح ذي الإصبع البنصر المبتورة، والعصفورتين الموشومتين على وجنتيه.

ولم يكن الهدف من القبض على حامد هو إعدامه لرد اعتبار جيشنا فقط، ولكن كان الهدف هو القضاء عليه نفسه، إذ ان قتله لبيلو أكسبه شعبية هائلة في القرى المجاورة. وشعور الفلاحين لنا بإعتبارنا كفاراً وأجانب وأعداء قد بدأ يتبلور حول شخص حامد هذا، خاصة وقواتنا كانت لا تراعي المجاملة في الاستيلاء على الأطعمة وعلى الخيول بلا مقابل.

وضع كليبر خطة دقيقة حاصر بها منطقة وسط الدلتا كلها حتى أصبح وقوع حامد متوقعاً بين يوم وآخر. ولكنا يا صديقي كنا نواجه قوماً غريبين لا نعرفهم.. فقد وجد كليبر نفسه المحاصر وسط السحنات المتشابهة المتفاهمة التي لا يستطيع أن تعرف ما يدور خلف جبهاتها أبداً.

وكانت العلامة المميزة لحامد معروفة بالوشم على وجنته وإصبعه البنصر المبتورة فانظر ماذا حدث؟.

جميع حقول الذرة تركت بلا حصاد وانتزعت منها ثمراتها

وهي واقفة. ففي أرض مصر المستوية لا يمكن الاختفاء والاحتماء إلا في حقول الذرة، تلك الحقول التي يمكن أن يكون بينك وبين الشخص أمتار قليلة ولا تراه. وعرف كليبر عن طريق العيون الكثيرة التي يستخدمها أن كل قرية في الدلتا قد أعدت لحامد بيتاً وزوجة! وكانت الأنباء تجيء أن حامد سيكون في قرية كذا في يوم كذا. . وتهاجم القوة الفرنسية القرية وتحاصرها حصاراً لا تفر منه إبرة، ومع هذا تجد حامد ينزلق من بيت إلى بيت حتى يصل إلى حافة القرية ويبتلعه حقل ذرة قريب. وكان كل من يعثر عليه وعلى وجنتيه وشم العصفورتين أو إصبعه البنصر مقطوعة يقبض عليه فوراً. ولكن لوحظ أن عدد المقبوض عليهم يزداد بكثرة شديدة، وبعد البحث اتضح أن الفلاحين ـ لكي يخفوا حامد بعلاماته المميزة، رأوا أن يرسم أكبر عدد منهم وشم العصافير على وجناته ويقوم ببتر بنصره اليسرى حتى لا يصبح ممكناً أن تميز حامد من بينهم. وبعد أن كان وشم العصافير على الوجنات علاجاً لتقوية البصر أصبح عادة شعبية، وبتر الإصبع البنصر أصبح مجال تنافس بين رجال القرى وشبانها ومرتبة من مراتب الشجاعة والبطولة. وكان لا بد أن يحدث ما حدث يا صديقي، فشيئاً شيئاً بدأت عصابات صغيرة تتكون من مبتوري البناصر وواشمي العصافير وتهاجم وتقطع الطريق على قواتنا وتغتال أفرادها، وكان أفراد هذه العصابات يسمون أنفسهم أولاد حامد. . وأطلقوا على حامد اسم حامد الأكبر ثم سموه حامد السلطان (والسلطان هنا علامة للتبجيل الشديد). وبدأ اسم حامد يزعج كليبر

بشكل رهيب كلما مرت قواتنا في قرية صرخ وراءها الأطفال: حامد حامد. وكان المؤذنون الذين يستدعون الناس للصلاة في المساجد(أناس يقابلون أجراس الكنائس عندنا ولكن بدلاً من أن تدق يؤذن الشيخ) كانوا يقولون في آخر الأذان. إنصرني يا رب على أعدائي فإني لك حامد. وكانت قواتنا حين تمسكهم يقولون: إننا فقط نردد كلام الله وكلام القرآن. وأصبحت عملية القبض على حامد مستحيلة.. وعملية حصار وسط الدلتا لا فائدة منها. كان الرجل قد ذاب في الأجساد الخشنة التي تبدو ساذجة، وأصبح المهم هو ألا يقضى على شخص حامد.. ولكن المهم هو القضاء على اسمه الذي أصبح كالتميمة والسحر، بل أصبح أخطر من كل بنادق جيشنا فقد كان الفلاحون يطلقونه على قواتنا أنى رأوها. واسم كهذا إذا اتفق قوم كهؤلاء على ترديده وإطلاقه على آذان قواتنا كل يوم وكل لحظة وبشكل مستمر، يصبح أثره أقوى من الرصاص على معنوية قواتنا، ولهذا فكثيراً ما كانوا يفقدون أعصابهم ويبكون أو يقتلون من يكون أمامهم من المصريين.. وكلما قتل واحد منهم قتلوا واحداً منا.

وغزا اسم السلطان حامد كل أنحاء الدلتا، ثم دخل القاهرة وانتشر بين أهلها انتشاراً جنونياً حتى أصبحوا في حلقات الذكر يقولون بدل يا سلطان حامد«مدديا سلطان» ثم غزا الاسم مصر العليا وتكونت فرق أولاد السلطان حامد في كل مكان، وتلفت أعصابنا يا صديقي من هذا الاسم. كان العمال الذين أستخدمهم للحفر كلما

تحدثوا لا يقولون إلا حامد، وأحياناً كانوا يتكلمـون بغيرهـا ولكني لا أشك لحظة في أنهم يقولون شيئاً آخر غير حامد حامد حامد.

ووصلنـا إلى مرحلة لم نعـد نحتمـل فيهـا سمـاع هـذا الاسم بـالمرة، وكم استسخفت إيمـانهم بحامـد هـذا. . كـانـوا في نـظري كالأطفال حين يمسكون شيئاً، وكلما حاولت أخذه ازدادوا استمساكـاً به.

ولكن مهما كان استخفافي بهم وبإيمانهم فقد كنت أعجب بهم بيني وبين نفسي. فتصوروا كلمة واحدة مثل حامد حين تبنوها، كلمـة ـ مجرد كلمة ـ تحولت إلى قوة كبيـرة مخيفة يـا صديقي لمجـرد أنهم آمنوا بها. إنهم عجيبون هؤلاء الناس فإيمانهم ليس عن اعتقاد وتفكير ولكنه عن حب. يحبون الشيء إلى درجة الإيمان وإن لـديهم طاقـة حب هـائلة يا صـديقي. إنهم من كثـرة حبهم لبعضهم(رغم الشتـائم التي حدثتك عنها) لديهم أنـواع غريبـة من القرابـات. . فمحمد ابن خالة عمر. وإذا جاءت سيـرة واحد أمـام أحدهم وقـال لك: إنـه من نسائبنا فلا تظن أنه أخو زوجته بل يمكن أن تكون كل القـرابة بينهمـا أن أحد بلدياتـه متزوج من بلدة الـرجل الآخـر. إنهم ليسوا شعبـاً. . إنهم كتلة. وكتلتهم كـانت قد التفت تمـامـاً حـول حـامـد حتى غـدا الجنرال ـ مهما يكن الجنرال ـ قزماً بجواره. وانظر ما حدث. .

من شهور قلائل تلقت قواتنا خبراً رقصت له فرحاً. . أسعد خبر جاءها منذ أن غزت مصر. . فقد قتل حـامد! تصادف أن كـان أحد ضباطنا الذين حضروا محاكمته يمر بدوريتـه في السوق ولما رآه أطلق

عليـه النار في الحـال. ولولا أنـه فر هـو ودوريتـه في إبـان الارتبـاك الشديد الـذي عم السوق. . لكـانت الجماهيـر قد أكلتهم بـأظافـرها وأسنانها.

ولن أحدثك عن الغضب الجامح الـذي رج مصر من أقصـاها لأقصـاها. . ولا نتيجـة هذا الغضب. ويكفي أن كـانت إحدى نتـائج مصرعة أن حرقت قلعة شطانوف بكل ما فيها، وثارت القـاهرة للمـرة الثـانية، وأعلن المـماليك استقـلال الصعيـد، وأصبـح الـوضـع من الخطورة بمكان. وكثيراً ما رأيت في أحـلامي أيامهـا أننا نـذبح كلنـا على قارعة الطريق. . كنا نحيا فوق قمـة بـركـان نخاف أن يفتـح فاه الضخم ويبتلعنا.

وما كادت قـواتنا تتنفس الصعـداء ـ رغم كل الاعتـداءات التي حـدثت ـ بعـد مصـرع حـامـد السلطان حتى جـاءتنـا أنبـاء لم نكن ننتظرها، فالفلاحون لم ينقلوا حامد من المكان الذي لقي فيه مصرعه أبداً. ظل في مكانه لا يمسه أحد، وفي ظرف ثلاثة أيام كانوا قد بنوا فوقه ضريحاً ذا قبة عالية.

والذي جن له كليبر أن الناس بدؤوا يفدون لزيارة الضـريح في جمـوع لا يحصى لهـا عـدد. تتـوافـد كـل يـوم وتلتقي حـول الضريح كما تتجمع جيوش النمل حول كسرة الخبـز. جن كليبر لأنـه أدرك أن قتل السلطان حامد لم يغير شيئاً. كل ما حدث بعـد أن كان حامد اسماً تتناقله الأفواه أن أصبح حقيقة لها مكان وفوقها قبة عالية. تصور حين يصبح الشخص بموته أكثـر خطورة من كـل ما كانه أثناء

حياته. وتصور الجماهير الغفيرة حين تأتي من أماكن بعيدة ساحقة البعد فقط لتزور ضريح ميت، حتى ولو كان قاتله أحد الفرنسيين؟.

ماذا كان حامد هذا قد فعل ليتجمعوا حوله بتلك الطريقة المذهلة؟.. وهل لأنه قتل فرنسياً انتقاماً لمصرع زميله الفلاح يرفعونه إلى درجة كبيرة من التقديس؟.

أم لأنه تحرك في وقت كانت الناس في حاجة لأن ترى فيه واحداً يتحرك كي تنطلق من عقالها وتندفع في كل اتجاه؟.

قلت لأحد العمال الذين يعملون معي:

ـ هل تحب السلطان حامد؟

ـ أحسن من أولادي..

ـ هل أنت مستعد أن تموت من أجله؟

ـ لا أموت مرة واحدة، أموت مرات من أجله..

ـ لماذا..؟

ـ لماذا؟! هذه مسألة لا يصح فيها السؤال.

ـ هل تعرف عنه شيئاً؟.

ـ كل ما أعلمه أنني مستعد أن أفديه بروحي.

ـ من هو السلطان حامد يا محمد..؟

ـ يكفي أنه مات شهيداً..

ـ ولا شيء غير هذا..

ـ ولا شيء غير هذا..

لقد جئنا نغزو هؤلاء القوم بتفوقنا. بمدافعنا، وموسيقانا النحاسية، ومطبعتنا، وتفاعلات كيميانا، ولكن أنى لنا بقدرتهم الخارقة على التكتل والحب والبقاء؟ أنى لنا بإيمان كهذا؟ أنى لنا بالقدرة على أن نكون أفراداً إذا أردنا، وكتلة واحدة حين نريد؟

ممكن أن نكون قد أدهشناهم بحضارتنا، ولكن صدقني لقد روعوني بحامدهم.

ومسكين جنرال كليبر.

فقد كانت أنباء زيارات الآلاف للضريح تقلقه وتجعله يكثر من ابتلاع سلفات المانيزيا، وكل ما فعله بقتل السلطان أن أوجد أمام المصريين شيئاً ملموساً يجتمعون حوله ويرددون اسمه في صيحات صاخبة تجلجل تحت قبة السماء.

وكان أولاد السلطان حامد قائمين بنشاطهم الحاد على قدم وساق، فكان الناس يقبلون لزيارة الضريح وهم لا يعرفون لماذا هم مقبلون، ويعودون وهم لا يعرفون كل شيء عن الحرب التي دارت بينه وبين الكفرة، وعن قتله غدراً ومصرعه، وعن الانتقام.

ولم ينتظر كليبر حتى ينفجر البركان.. فقد هاجم الضريح بكل قواته وهدمه وانتزع الجثة من مكانها ولم تكد تمضي على وفاتها أيام، وألقاها في النيل.

وما كاد يستقر في ثكناته حتى كانت الجثة قد استخرجت من الماء بطريقة غير معروفة، وحتى كان قد اختير لدفنها مكان قرب

الشاطىء، وحتى كان قد بدىء في بناء ضريح آخر فوقها. وفي أيام كانوا قد انتهوا من إقامة ضريح بدا أكثر ضخامة من الضريح الأول. وقبل أن يتم البناء كانت جماهير الفلاحين وسكان المدن عرفت مكانه وبدأت تفد بالآلاف المؤلفة إليه.

وقال كليبر لأركان حربه: إن عليهم أن يقضوا على هذه الخرافة قبل أن تقضي هي عليهم. وتشاوروا طويلاً فيما يفعلونه.. ولو لم يكن كليبر كاثوليكياً لوافق على حرق الجثة. ولكنهم وجدوا حلاً وسطاً في تقطيعها قطعاً صغيرة وذرها في أنحاء البلاد، وليبحث المصريون حينئذ عن إله آخر يؤمنون به. أو خرافة أخرى يتمسكون بها ويتشبثون.

وفي الليل وكان لا يمكنهم تنفيذ شيء كهذا إلا تحت جنح الظلام، تسلل الجيش الجمهوري إلى ضريح السلطان حامد وسرق الجثة وقطعها.. ووزعت على فرق مضت تبذرها في طول البلاد وعرضها. ونام كليبر ليلتها أعمق نوم.

ولكي أكمل لك القصة لا بد أن أضيف أن كليبر نام نومه العميق ذاك لليلة واحدة فقط، فقد بدأت الأنباء تترى بعد هذا بأن المصريين قد بدؤوا يقيمون ضريحاً فوق كل مكان سقطت فيه قطعة من جسد السلطان.

وبعد أن كانت مشكلة كليبر سلطان حامد واحد أصبح لديه الآن مئات السلاطين. كل سلطان منهم تفد إليه الآلاف المؤلفة من

الجموع وتلتف حوله وترتج السماء بذكر اسمه، ويتخذه أولاد السلطان مركزاً للنشاط.

وهل تلومني بعد هذا حين بدأ أمر السلطان حامد يشغلني إلى درجة دفعتني أن أستبدل ثيابي الأوروبية بثياب وطنية، وأذهب لزيارة واحد من مئات الأضرحة المقامة له لأعرف سر هذا التعلق به، وأعرف لم وقع اختيارهم عليه ليرفعوه إلى مصاف الآلهة.

لقد فعلت ذلك بالأمس إذ كان يوم الخميس يوم زيارة الضريح، يوم يقبل الآلاف من أركان الأرض البعيدة وعليهم غبار الحقول ولفحة الشمس ليلتقوا عند صاحب المقام. وما أغرب ما رأيت.. ازدحام هائل وكأنه يوم الحشر، ورجال كثيرون في ثيابهم البيضاء المتسخة، ونساء كثيرات في أرديتهن السوداء، وأنوار كثيرة. أنوار المشاعل وأنوار الشوارع وأنوار لا تدري مصدرها وكأنها تتولد من زحمة الناس، ودفوف كثيرة تضرب فينخلع لها القلب، جباه يلمع فيها العرق، وعيون غامضة متطلعة، وأيدي تلوح، وعشرات الآلاف من الحناجر تخرج عشرات الآلاف من النداءات المبحوحة المستغيثة الآمرة.. «يا سيدي حامد» كلمة واحدة مكونة من ملايين الكلمات الخارجة من الصدور المتضاغطة، كلمة كبيرة ضخمة تتجمع فوق الضريح كسحابة مقدسة من موسيقى ضوئية راجفة تهتز وتنبسط على فرع الدفوف.

وأدركت أن ما تحت الضريح ليس هو المهم، المهم هو الأجساد الخشنة الغليظة الملتفة حول الضريح، المهم هو النداء

الواحد الصادر من عشرات الآلاف من الأفواه الواسعة الجائعة، المهم هو الوجه الآخر للوحش الخرافي الذي خلع قلوب جنودنا بضربة واحدة من يده، المهم هو ما تفرزه هذه الجموع ويتصاعد منها ويتجمع ويتداخل ويتبلور ويختلط بأضواء المشاعل وأنوار الشوارع وقرعات الدفوف واهتزازات الأجسام.

لقد وقفت مشدوهاً يا صديقي وكأني أرى هذا المزيج الهلامي المعلق بين الأرض والسماء، كأني أرى الإرادة المتجمعة، كأني أرى كل ما لدى الناس من حب وقد ضمته صرخة واحدة. كأن تلك الأجساد الخشنة الملوثة بالطين والتراب تفرز مادة أكثر سمواً من الأجساد الحية، أكثر سمواً من الحياة.. خلاصة الحياة.. جماع كل ما هو قادر فيها وقاهر.. وجماع كل ما لا يمكن مقاومته، القوة العليا الخارقة، سر الحياة.

وضريح حامد كان هو البؤرة التي تتجمع حولها الإرادات لتلتقي في بؤرة ترتكز الإرادة في الخلود وتسويها لتصبح اكسيراً سحرياً قادراً على تحقيق الخلود. ماذا أقول؟ لقد وقفت خاشعاً واجفاً أراقب الجموع وهي تفرز الإيمان وتشترك في خلقه لتعود تؤمن به، ويتصاعد النداء الواحد من القلب الواحد فيصبح حين يلتقي بغيره مادة سامية حية تعود تنسكب في كل قلب، تطهره وتقويه وتغذي فيه روح البقاء.

لقد أحسست يا صديقي أني أواجه القوى الخارقة. حقيقة

أحسست بهـذا . . أحسست به إلى درجـة كادت تـدفعني لأني أسجد لهـا وأطلب المغفـرة، أحسست بـالاكسيـر ينسكب في قلبي والنـور الموسيقي الراجف يملأ صدري ويمتزج بحناياي فأحس لأول مرة في حيـاتي بعظمـة الحياة وروعـة أن نكون بشـراً وآدميين نمتلك القـدرة المعجزة، قدرتنا على أن نتجمع ليصدر عن تجمعنا ما هو أسمى من حياة كل منا.

لن تـدرك ما أعني يـا روان، محال أن تـدركه من غيـر أن تراه وتحسه، ومشكلتي أني رأيته وأحسسته.

أنـا أكتب لك خـطابي هـذا من حجـرة في القلعـة ومن خـلال النـافذة ألمـح جنودنـا يقـومـون بـطوابيـر الـصبـاح وينـظفـون البنـادق ويستمعون إلى الأوامر ويتسلمون الذخيرة الجديدة ويزيتون المدافع، وها هو البروجي يعزف نوبة الجنرال. وإني أرثي لجنودنـا وجنرالهم. ما فائدة البنادق والرصاص؟ ألكي تخضع هؤلاء الناس بقتل بعضهم؟ وما فائدة القتل في قوم يحبون قتلاهم وموتاهم؟ في قوم يخلقـون من الميت الـواحـد مئـات الأحيـاء ويخلقـون لكـل حي بعـد هـذا آلاف الأولاد؟

إني خائف يا روان. . منـذ الأمس وأنا أحس بقـوى لا قبل لي بها تجذبني إلى هذا الشعب وتهيب بي أن أعرف سره. وسوف أقـول لنفسي إنها محاولة للدراسة ولكن لا تصـدقني فأنـا لا أصدق نفسي. إني أقـاوم بعنف. إن ثقافتي وتـراثي وعقلي تمنعني أن أنجـذب إلى كتلهم حين تتجمـع ولكني لم أعـد نفسي، لقـد غيـرت ليلة الأمس

أشياء كثيرة داخلي. إني خائف أن تنتهي مقاومتي.. خائف أن أنسل اليوم أو غداً وأذهب إلى ضريح من مئات أضرحة السلطان حامد الفلاح المبتور البنصر الذي اشتركت في مهزلة محاكمته، خائف خوف الموت أن أفعل له مثلما كنت أفعل للعذراء في الكنيسة عندنا فأضيء له شمعة وأضعها بجوار شمعات الفلاحين الفقراء لتنير قبره.

وصحيح أن شمعتي لن تكون شيئاً بجوار ما يحظى به السلطان من تكريم وتقديس، فما هي سوى شمعة واحدة.. شمعة من مئات الشموع التي أضاءت وستظل تضيء مئات أضرحته مئات الليالي، ومن يدري ربما مئات السنين!.

ولكن لا تعجب إذا أقدمت على هذا اليوم أو غداً أو في مساء قريب، فإني أحس بنفسي سائراً بلا إرادة إلى هذا المصير. أحس بمقاومتي تتلاشى وتنتهي.

النجدة يا روان!



آخر الدنيا

لعبة البيت

شب سامح على أطراف أصابعه ونط ودق الجرس. وسمع صوتاً طويلاً ممدوداً يقول: مين؟ فاحتار وخاف وسكت.

وفتح الباب، ووقفت على عتبته سيدة ضخمة مهيبة ترتدي قميص نوم خفيفاً جداً، لونه أصفر باهت كقشر الليمون. ووجم سامح وكاد يجري، ولكنه تماسك وعرف أن التي فتحت هي أم فاتن، رغم وجهها الخالي من المساحيق..

وقبل أن يحدث أي شيء ابتسمت له السيدة ابتسامة كبيرة، وانحنت ناحيته وقالت:

ـ يه.. هو انت يا حبيبي؟!.. أنا رخرة قلت مين اللي بيضرب الجرس ده ومالوش خيال.. عايز ايه يا حبيبي؟ عايز الهون.. ماما بتعمل كفته؟.

ولم يجب سامح في الحال.. مد بصره من خلال وقفة الأم العريضة وقميصها الشفاف وما بقي من الباب في فراغ، محاولاً أن يرى فاتن.. ولكنه لم يجد لها أثراً، لا في الصالة ولا في الحجرة

القريبة المواربة للباب، ولا بجوار الراديو تعبث بمفاتيحه . .

وقال بجرأة منقطعة :

ـ عايز. .عايز فاتن تلعب معايا . .

وضحكت الأم ، وانحنت وقبلته وقالت :

ـ كده؟ . طيب حاضر يا حبيبي . .

وانبسط سامح ، وانبسط أكثر حين التفتت إلى الخلف ونادت :

ـ فاتن . سيبي الغسيل أحسن تبلي هدومك . . وتعالي . . . تعالي علشان تلعبي مع ابن أم سامح . .

ثم التفتت إلى سامح قائلة :

ـ بس أوع تزعلها يا حبيبي . . لحسن مخليهاش تلعب معاك بعد كده أبداً . .

وقال سامح بحماس وعيون صغيرة ذكية تبرق :

ـ إن زعلتها ياتانت ما تخليهاش تلعب معايا تاني . .

فقالت أم فاتن وهي تتركه وتستدير :

ـ وما تنساش تسلم لي على مامتك وتقول لها ما بتزرناش ليه؟ .

ثم دخلت السيدة إلى الحمام وهي تهتز وتتدحرج . .

ووقف سامح يترقب ظهور فاتن ويتأمل الصالة، كان فيها طرابيزة سفرة مثل صالتهم، غير أن كراسيها قديمة موضوعة فوق الطرابيزة .

وكان هناك كرسي غريب الشكل مسنده عالٍ جداً يحتاج إلى سلم للصعود عليه، والكرسي ترقد فوقه قطة ذات ألوان جميلة: ملفوفة على نفسها ونعسانة. وظهرت فاتن فجأة وكأنما خرجت من تحت الأرض، ترتدي فستانها الأبيض القصير الذي يرتفع ذيله عن الركبة، وتوجهت إلى التسريحة الموضوعة في الصالة وانحشرت بينها وبين الحائط، ثم أخرجت سبتاً صغيراً مثل الأسبتة التي يباع فيها حب العزيز غير أنه مصنوع من البوص، وعلقت السبت في يدها واتجهت إلى الباب حيث يقف سامح، وابتسم لها سامح وسار في اتجاه السلم، وتبعته فاتن.

وفي منتصف السلم قال لها فجأة:

ـ إن كنت جدعة امسكيني قبل ما اوصل باب شقتنا.

وجرى أمامها فوق الدرجات، ولكنه حين لم يسمعها تجري خلفه توقف وقال:

ـ أخيه عليكي.. مش قادرة تجري ورايا يا خايبه..

فقالت وفي ملامحها ثبات وتأفف ورزانة:

ـ أنا محبش الجري ده..

وتضايق سامح قليلاً من تأففها، ووقف ينتظرها وهو معلق بدرابزين السلم ونصفه خارج عنه..

ودخلا الشقة من بابها المفتوح، وتأكد سامح أن أمه مشغولة

في المطبخ إذ كانت لا ترحب أبداً بإحضاره فاتن ليلعب معها. . وعبر سامح الصالة وفاتن وراءه وعيناها لا تغادران السبت المعلق في يدها.

وأصبحا في الحجرة الداخلية ذات السرير الحديدي القديم والدولاب والكنبة.

وقال سامح وهو يهلل ويشير إلى ما تحت السرير:

ـ أهو ده بيتنا. . أهو ده بيتنا. . ياالله بقى نعمل بيت. .

ورفع داير السرير الأبيض الذي يحيط به من كل الجهات ودخل تحت السرير ودخلت فاتن وراءه. . وبينما بقيت هي على رزانتها بدأ سامح يصنع زيطة كبيرة ويصرخ ويدور ويهلل، ثم أخدها إلى ركن السرير الداخلي حيث صندوق الشاي القديم الذي يحتوي على كل ممتلكاته والعابه الخاصة. . مجموعة كبيرة من علب السجائر الفارغة، وأغطية الكازوزة، وأرجل كراسي مصنوعة بالمخرطة، وعلب تونة وسالمون بمفاتيحها، وقطع صغيرة كثيرة من أقمشة جديدة متعددة الألوان سرقها من درج ماكينة الخياطة، وجر الصندوق وأخذ يستخرج محتوياته ويفرج فاتن عليها. . وبدأت الرزانة تغادر فاتن فجلست على الأرض وتربعت، وأخذت تخرج من (سبتها) لعبها هي الأخرى وممتلكاتها وتفرجه عليها. .

وفي هذه المرة أيضاً أعجب سامح بالحلة الألومنيوم الصغيرة، والوابور البريموس الصغير، وطرابيزة المطبخ التي في حجم علبة

الكبريت، واستكثر على فاتن أن تكون هي مالكة هذه اللعب الجميلة كلها. . ثم انتابته الخفة والحماسة فقام وأخذ ثلاثة ألواح خشبية كانت ساقطة من «الملة» القديمة، ومضى يضعها على حدها ويقسم بها ما تحت السرير إلى أقسام وهو يقول:

ـ دي أوضة السفرة. . ودي أوضة النوم. . وده المطبخ. وبدأت فاتن تنقل أشياءها إلى المطبخ، ووضعت الطرابيزة في ركن ووضعت فوقها الوابور، ثم وضعت الحلة فوقه وقالت:

ـ احنا تأخرنا قوي. . نطبخ ايه النهارده؟!

فقال سامح في حماس:

ـ نطبخ رز. . يالله نطبخ رز. .

وما لبث أن غادر تحت السرير في الحال وجرى إلى المطبخ حيث ادعى لأمه أنه يبحث عن كرته المفقودة في الدولاب، وعاد وقبضته الصغيرة مضمومة وموضوعة في جيب بنطلونه، وحين أصبح تحت السرير فتحها ووضع محتوياتها من حبات الأرز القليلة في الحلة. .

وقالت فاتن وهي تتنهد:

ـ انت تروح الشغل وأنا أطبخ. .

فقال سامح:

ـ أروح الشغل ازاي؟

فقالت:

ـ مش انت تروح الشغل.. وانا أطبخ؟

فقال:

ـ اييه.. انتي عايزة تلعبي لوحدك.. يا نطبخ سوا سوا يا بلاش..

فقالت فاتن:

ـ لا يا سيدي.. هي الرجالة تطبخ؟.. انت تروح الشغل وانا أطبخ.. يا كده يا بلاش..

فقال سامح:

ـ دي بواخة منك دي.. عايزة تطبخي لوحدك وتقوليلي روح الشغل؟. والله مانا رايح..

واحتقن وجه فاتن غضباً وقالت:

ـ طب هه..

وأنزلت الحلة من فوق الوابور ووضعتها في السبت.

فقال سامح بغضب:

ـ هاتي الرز بتاعي.. هو بتاعك؟

فأخرجت فاتن الحلة.. وقلبتها على الأرض.. وقالت:

ـ رزك اهه. جك قرف.

ونشبت خناقة حادة. . وكل يحاول أن يجمع حوائجه، هذه لي وليست لك. . وشتمته ولعنت أباه، وغضب سامح ودفعها فسقطت منها العروسة. . وأخيراً جمعت فاتن أشياءها ووضعتها كلها في السبت الصغير، وعلقت السبت في يدها ورفعت داير السرير واختفت.

واغتاظ سامح كثيراً وهو يراقبها، وتمنى لو يلحقها قبل أن تغادر شقتهم ويضربها. . بنت مثلها صغيرة ومفعوصة تريد أن تمشي عليه كلمتها. دائماً تغيظه هكذا كلما لعب معها، وكل مرة يلعب معها فيها يصمم إلا يعود للعب معها. . في المرة القادمة سيضربها بالقلم لو فتحت فمها. . ولكن لا. . لن تكون هناك مرة قادمة. . لن يلعب معها أبداً حتى لو أحضرتها أمها ورجته أن يلعب معها. . بنت مفعوصة ذات سن أمامية مكسورة تغضب لأتفه سبب، وما أسرع ما تعلق سبتها في يدها وتتركه. . هي حرة، وحتى هو ليس في حاجة اليها ليلعب. . يستطيع أن يلعب وحده ولا الحوجة اليها. .

وهكذا بدأ سامح يحاول أن يلعب لعبة البيت وحده، فراح يقيم الحواجز الخشبية التي هدمتها الخناقة، ويكلم نفسه بصوت عال وكأنه يريد أن يقسم نفسه إلى قسمين أو شخصين يلعبان معاً، أحدهما يتكلم والآخر يسمع. ومضى يقول:

ـ ودي أوضة السفرة، وده المطبخ. . نطبخ ايه النهارده؟

وأجاب على نفسه:

- رز.

ولكنه غير رأيه بسرعة وقال:

- لأ . . فاصوليا . .

وفكر أن يذهب ويسرق فاصوليا من المطبخ، ولكنه لم يجد لديه حماساً كافياً لتنفيذ الفكرة. . كان قد بدأ يدرك أنه يضحك على نفسه حين يقسم نفسه قسمين يلعبان مع بعضهما. . وبدأ يتبين أنه يلعب وحده فعلاً، وبدا حينئذ كل شيء ماسخاً وقبيحاً إلى درجة أنه لم يعد يصدق أن ما تحت السرير بيت كما كان منذ دقائق مضت. . بدأ يرى الألواح الخشبية مجرد ألواح، والدواية التي كان ينوي استعمالها حلة مجرد علبة ورنيش فارغة لم يعد ما تحت السرير بيتاً، ولا عادت الألواح الخشبية حجر نوم وجلوس وسفرة.

واغتاظ سامح . . فمن دقائق قليلة وحين كانت فاتن تلعب معه كان يعتقد فعلاً أن المطبخ مطبخ، والصالة صالة، وحجرة السفرة حجرة سفرة. لماذا حين ذهبت وأصبح وحده بدأ يرى كل شيء سخيفاً مختلفاً وكأن لعبة البيت لا تنفع إلا إذا لعبها مع الست فاتن؟

وفي غمرة غيظه غادر ما تحت السرير، بل غادر الحجرة كلها، ومضى يلف في الصالة يبحث لنفسه عن لعبة أخرى يتسلى بها. . وفي درج مكتب أبيه الأخير عثر على حنفية قديمة، استغرب كيف كانت موجودة طوال هذه المدة في ذلك المكان ولم يعثر عليها سوى اليوم. أخرج الحنفية ومضى يفتحها ويغلقها وينفخ فيها، ومضت في

ذهنه فكرة: لماذا لا يستعملانها هو وفاتن في لعبتهما فيركبها في رجل السرير ويصنع لها حجرة صغيرة وتكون هي الحمام؟ ألا يصبح حينئذ كالبيوت الحقيقية؟ ولكن.. لا.. إنه لن يلعب أبداً معها، حتى ولو جاءت من تلقاء نفسها وحاولت تلعب معه.. سوف يقول لها بكل احتقار:

ـ جاية هنا ليه يا باردة؟. روحي يالله على بيتكم..

وطبعاً هي لابد قادمة عما قليل، فهي الأخرى لن تجد أحداً تلعب معه.

وانتظر سامح أن تأتي، ولكنها لم تأت، وتذكر حينئذٍ كيف كانت غلبانة وهي تنحني وترفع داير السرير والسبت معلق في يدها.. كانت غلبانة صحيح. لماذا لا يذهب ويصالحها؟ وذهب إلى الباب وفتحه، وتلفت هنا وهناك ولكن الطرقة كانت خالية وليس فيها أحد..

وعاد مغموماً إلى الحجرة الداخلية، واتجه إلى السرير ونظر من الفرجة الكائنة بين الداير الأبيض والمرتبة.. بدا ما تحت السرير واسعاً جداً وخراباً، والألواح الخشبية ولعبه وأشياؤه المبعثرة شكلها كئيب، وليس هناك أبداً أي أثر لذلك العالم الصغير الذي كان أحب اليه من كل عوالم الكبار وسيماته ومباهجه.

وترك الحجرة متضايقاً وظل يدور في الصالة. وفجأة أحس أنه ضاق ببيتهم كله وأنه يريد الخروج منه والذهاب إلى أي مكان.. وهكذا وجد نفسه واقفاً في الطرقة خارج باب الشقة وحده، أمه تناديه

وهو يكذب ويقول إنه ذاهب ليلعب مع الأولاد في الحارة.

وفي الطرقة بدأ يفكر. . لابد أن فاتن ذهبت إلى أمها باكية، ولابد أن أمها أخذتها وأغلقت عليها الباب ولن تسمح لها أبداً باللعب معه مرة أخرى. إن أخوف ما يخافه لابد قد حدث. ياله من غبي سخيف! لماذا أغضبها؟ لماذا لم يقل لها: أنا رايح الشغل اهه، ويصل إلى باب الحجرة مثلاً ثم يعود ويقول لها: أنا رجعت م الشغل اهه. لماذا عاندها؟ وماذا يصنع الآن؟

وهبط درجات السلم تائهاً، محتاراً، متردداً بين أن يهبط ويحاول أن يجد طفلاً من أولاد الحارة يلعب معه اسخف لعب، فهو لا يريد إلا أن يلعب مع فاتن لعبة البيت بالذات، وفاتن ذهبت إلى أمها ولن تعود أبداً، أو أن يصعد ويدعي لأمه أنه سخن ومريض. وحتى لم يجد في نفسه أي رغبة أو حماس لكي يهبط أو يصعد أو يتحرك من مكانه أو أي شيء. كل ما أصبح يتمناه من قلبه وهو يهبط درجة ويتوقف درجات أن تزل قدمه رغماً عنه فيسقط ويتدحرج على السلم ويظل رأسه يتخبط بين الدرجات، وكل خبطة تجرحه وتسيل دماءه.

وحين وصل في هبوطه إلى باب شقة أم فاتن كان الباب مغلقاً ومسدوداً وكأن أصحابه سافروا أو عزلوا. . القى نظرة واحدة على الباب ولكنها جعلته يحس بالرغبة في البكاء، ويسرع بالهبوط.

وقبل أن ينتهي السلم عند آخر بسطة، توقف حزيناً حائراً،

وكأن شيئاً ثميناً جداً قـد ضاع منـه، وأخرج رأسـه من درابزين السلم وتـركه يتـدلى في يأس من حـديد الـدرابـزين. . ومضى يجلس على الأرض ويفرد ساقيه بلا أي اهتمام بملابسـه أو بما يلحقهـا، ثم يقف فجـأة وقد قـرر أن يكمل الهبـوط ولكنه يجـد نفسه قـد عاد للجلوس وإدلاء رأسه من حديد الدرابزين. وكلما تـذكر أنـه لولا عنـاده لكانت فاتن لا تزال تلعب معـه، وكلما تصـور أنه قـد حرم اللعب معهـا إلى الأبد، تمنى لو مرض فعلاً أو مات أو أصبح يتيماً من غير أب أو أم.

ولم يصدق عينيه أول الأمر، ولكنه كان حقيقة هناك ـ على آخر درجة في السلم ـ سبت فاتن الصغير نائماً على جنبه والحلة الألومنيوم ساقطة منه. وهبط السلالم الباقية قفـزاً، وتدحـرج وعاد يقفـز، وعلى آخر درجة وجد فاتن هناك. . هي بعينها جـالسة ورأسهـا بين يديهـا، وكانت تبكي ودموعها تسيل، وسبتها الصغير راقد بجوارهـا والحلة قد تبعثرت منه.

وأحاطها سامح بـذراعيه واحتضنهـا وراح يطبـطب عليها بيـديه الصغيرتين، ويقبلها في وجهها وشعرها ويقول لها وكأنه يخاطب طفلة أصغر منه بكثيـر ويصالحهـا، وهو فـرحان لأنهـا لم تذهب لأمهـا ولا اشتكت: معلش معلش معلش. .

وجذبها برفق لينهضها، ونهضت معـه بغير حمـاس ودموعهـا لا تـزال تتساقط. . دمـوع حقيقيـة. وأعـاد الحلة إلى السبت وعلقـه في يدها، ومضى يصعد بها السلم وذراعه حولهـا، وهي مستكينة اليـه لا تـزال تـدمـع وجسـدهـا ينتفض، ولكنهـا لا تقـاومـه ولا تتـوقـف عن الصعود.

الشيخ شيخة

بـلاد الله واسعـة وكثيـرة،وكـل بلدة فيهـا مـا يكفيهـا. . كبـار وصغار، وصبيان واناث، أناس وعـائلات، ومسلمـون وأقباط، وملك واسع تنظمة قوانين وتقض مضاجعه قـوانين، وأحيانـاً يخرج للقـاعدة شـاذ، كـالحـال في بلدنـا الـذي ينفـرد دون بـلاد الله بهـذا الكـائن الحي الذي يحيا فيه، والذي لا يمكن وضعه مع أناس بلدنا وخلقها، ولا يمكن وضعـه كذلـك مـع حيـوانـاتهـا. وأيضـاً ليس هـو الحلقـة المفقودة بينهما. . كائن قائم بذاته لا اسم له، أحياناً ينادونـه بالشيـخ محمد وأحيانـاً بالشيخـة فاطمـة، ولكنها أحيـان وللسهولـة ليس إلا، فالحقيقة أنه ظل بلا اسم ولا أب ولا أم، ولا أحد يعرف من أين جاء ولا من الورثة ذلك الجسد المتين البنيان. . أما أن لـه ملامـح بشريـة فقـد كانت لـه ملامـح، كـانت لـه عينـان وأذنـان وأنف ويمشي على سـاقين. . ولكن المشكلة أن ملامحـه تلك كانت تتخـذ أوضاعـاً عير بشـرية بـالمرة، فـرقبته مثـلاً تميـل على أحـد كتفيـه في وضـع أفقي كـالنبـات حين تـدوسـه القـدم في صغـره فينمـو زاحفـاً على الأرص يحـاذيها، وعينـاه دائماً عين منهمـا نصف مغلقة، وعين مـطبقة. ولم

يحدث مرة أن ضيق هذه أو وسع تلك. . وذراعاه تسقطان من كتفيه بطريقة تحس معها أنهما لا علاقة لهما ببقية جسده، كأنهما ذراعا جلباب مغسول ومعلق ليجف.

وبشعر رأسه القصير الكثيف الخشن كالفرشاة تبدأ مشكلة تسترعي الانتباه. . فليس فيه علامات أنوثة، وهو أيضاً يخلو من علامات الرجولة، وجسده ضخم ربع في سمك الحائط ومتانته، ولكن وجهه لا يحمل أثراً للحية أو شارب. وكان من الممكن أن يفصل صوته في نوعه ويضمه إلى دنيا النساء أو الرجال، ولولا أنه كان لا يتكلم ولا يتحرك إلا إذا أوذي أو تألم، وحينئذٍ يخرج منه فحيح رفيع لا تستطيع أن تعرف إن كان فحيح أنثى أم ذكر، أو حتى فحيح آدمي أصلاً. .

وكان نادر المشي، وإذا مشى سار في خطوات ضيقة جداً وكأنه مقيد وهوايته الكبرى أن يقف. . يظل واقفاً بجوارك أو أمام دكانك أو في حوش بيتك كالمذنب بلا ذنب، ساعات وساعات دون أن يخطر بباله أن يتحرك، ولا أحد يعرف كيف يأكل أو من أين، فالطعام إذا قدم اليه رفضه. . والبعض يؤكد أنه يقتات بالحشائش من الغيطان، وأن طعامه المفضل هو البرسيم، وأنه إذا شرب يشرب كالمواشي من الترعة. ولكنها أقوال، مجرد أقوال، ولم تبلغ الجرأة بأحد أن يزعم أنها رؤية عين.

وكائن كهذا لو وجد في أي مكان آخر لرأى الناس فيه ظاهرة جديرة بالدراسة والأبحاث، أو على الأقل ينشر صورته في الجرائد

والقيام معه بتحقيقات. . ولكن أهل بلدنا لم يكونوا يرون فيه كائناً شاذاً أبداً، كل ما في الأمر أنه كائن مختلف. وما دام يحيا بينهم لا يؤذي أحداً ولا يجلب شراً لأحد، فلا اعتراض لأحد على حياته ـ وحرام أن يعترضه أحد، أو يحملق فيه انسان، أو يسخر من وقوفه أو اعوجاج رقبته ساخر، فهكذا أراد الخالق. وإذا أراد الخالق فلا مناص من ارادته. . وليس على العبد أن يعترض على نظامه حتى إذا شذ النظام. . وكم شذ النظام حتى ليبدو الكون بلا نظام وكم من مجذوب مهفوف ومشوه ومجنون. . والكل يحيا ولابد أن يحيا الكل، ويضمهم ذلك الموكب الرهيب البطيء السائر بهم نحو النهاية حيث لا نهاية، كل ما في الأمر أن أهل البلد كانوا يعاملون الشيخ شيخة بنوع خاص من الرهبة، ليست فيها تلك القدسية الممزوجة بالسخرية التي ينظرون بها إلى المجاذيب والأولياء، وليست فيها تلك الشفقة الممزوجة بالاشمئزاز التي ينظرون بها إلى المشوهين والمرضى. ربما رهبة النظر إلى شيء مخالف شاذ، يكشف بشذوذه عن كنه النظام الهائل الذي يلف الكون والناس، رهبة من النظام أكثر منها رهبة من مخالفة النظام، كان إذا جاء على قوم جالسين تحاشوا النظر اليه وتعمدوا ألا يجعلوه يحس أنهم شعروا بوجوده. وقد يلقي عليه واحد أو اثنان نظرات عجلى مستطلعة، ولكن العيون لا تلبث أن ترتد، والألسنة لا تلبث أن تستمر فيما كانت فيه من حديث، بصرف النظر عن وقفته غير بعيد عنهم، وثبوته في مكانه ثبوت جذع نبت من الأرض فجأة. . وإذا جذب وقوفه الذي يطول انتباه الأطفال والتفوا

حـوله يتـأملونه بـلا رهبـة أو خشيـة من معصيـة الاعتـراض، نهـرهم الكبار، وتطوع واحـد بالجـري وراءهم حتى يغيبهم في شقوق البلدة وحواريها. . والـويل لهم إذا فكـر أحدهم في معـاكسته أو نغـره بعود قطن ليجعله يصدر ذلك الفحيح الغامض الرفيع.

وسنين طويلة قضاها الشيخ شيخـة في بلدنا على هـذه الحال، والناس قد أحلوه من كل واجبات الانسان والحيوان والنبات وتركوا له كل حقوقها. إذا شاء وقف كالنبات وتسمر، وإذا شاء فح كالحيـوان، وإذا شاء تحرك من تلقاء نفسه كانسان وإلى أي مكان يريد، لا يزجره أحد، ولا يعترض طريقه أحد. ويدخـل أي بيت ويظل قـابعاً في أي ركن فيه ما شاء من الوقت، دون أن يضايق وجوده أهل البيت أو حتى يحسوا له وجوداً وكأنه يصبح إذا حل. . جزءاً من المكان أو الزمان أو الأثير. تتعرى النساء أمامه وكذلك يفعل الرجال، وتتحدث العائـلات عن أخص شئـونها في حضـرتـه، وينـام الـرجـل مـع زوجتـه أو غيـر زوجته، وتدبر أمامه المكائد وتكتب البلاغات، ويقول الهامس اللآخر حين يـريد أن يـطمئنه كي يفتـح له صـدره: قول يـا أخي قول. . مـا تخافش. . هو فيه إلا أنا وأنت والشيخ شيخة. . قول.

***

كل ما في الأمـر أنه هنـاك بين كل بضـع سنين وأخرى تنـطلق اشـاعة، خـافتة واهنـة لا تكاد تصـل إلى الألسنة حتى تـذوب فوقهـا وتتبدد. . مرة يقولون إن ثمة علاقة مريبة تربـطه بنعسة العـرجه، فهي

كثيراً ما تشاهد وهي تبحث بعينيها في الليل عنه، وأحياناً تسأل عنه، وكثيراً ما رؤيت خارجة من الخرابة القريبة من الجامع حيث كان يقضي معظم لياليه. وهي لابد تعاشره.. في اشاعة، وفي اشاعة أخرى يقولون إنه ابنها، وإنه جاء هكذا لأنها حملت به سفاحاً من أب فاسد الدم من رجال البندر، حيث كانت تذهب نعسة لتبيع الجبنة واللبن وأحمال الحطب في الفجر.. ويتردد الناس ألف مرة في تصديق أيهما، فنعسة تكاد بطلوع الروح تحسب على جنس النساء، فهي صلبة العود كالرجال، جافة الأخذ والرد متينة البنيان، تدخل العركة وتعور الرجال، وتخرج سليمة لم يصب جلبابها تقطيع. مات عنها زوجها وهي صغيرة فتحزمت بحزام الكادحين واشتغلت، وتقلبت في الكثير من الأعمال التي يزاولها النساء، ولكن طبعها كان إلى الرجال أقرب، وهو الذي حال بينها وبين الزواج، وهو الذي جعلها تستقر آخر الأمر في عملها الذي رشحتها له عضلاتها القوية وعظامها العريضة.. حمالة أحطاب وتبن وطحين وكل ما لا يستطيع وما لا يليق بالرجال أن يحملوه. وكل عدة شغلها (حواية) صنعتها من أثواب بالية وخاطتها حتى أصبحت كالكعكة، وإذا وضعتها فوق رأسها تستطيع أن تحمل بها حمل جمل ولا تكل، وتمضي بحملها ثابتة الخطوة مختالة ترج الأرض، وتحدف عياقة بساقها فيرن خلخالها الذي لم تفرط فيه.. ربما ليظل العلامة الوحيدة على أنوثتها، تلك التي تلتهم الأحمال الوعرة والعمل الشاق علاماتها واحدة وراء الأخرى.. وعيبها الوحيد أنها كانت إذا مشت فاضية بغير أحمال لا تعرف كيف تمشي، وتنط كالجرادة، وتتذبذب خطواتها

بين هزات الأنثى ودغرية الذكر، ومن هنا سموها بالعرجة، سماها الرجل غيرة، وسمتها النساء استنكاراً، وسماها الكل ظلماً، أمن في مثل خشونتها يعاشر الشيخ شيخة؟ أو حتى يتصور أحد أنها كانت أماً لابن ذات يوم حتى لو كان الابن هو هذا المخلوق؟.

ولكنهم يؤكدون ويقولون إنها بعد ولادته أخفته في نفس الخرابة التي يأوي اليها في كبره، وظلت ترضعه خفية وترعاه بعيداً عن الأنظار، ولم يخرج منها إلا وهو كبير بأسنان!

وفي عام يكثر الحديث عن ميوعة النساء وفسادهن، ويبلغ الأمر بالبعض أن يدعي أن بعض الجائعات والقاطنات في أطراف البلدة لا يجدن ما يشبعهن فيلجأن إلى الشيخ شيخة وهن ضامنات صمته المطبق ولسانه الذي لن ينطلق.

ومرة سرت قصة تقول إن الشيخ شيخة ليس ابن رجل كبقية الآدميين ولكنه ابن قرد، وإن إحدى نساء بلدنا اللاتي أعياهن البحث عن الخلف لجأت إلى غجرية فوصفت لها «صوفة» تستعملها. واستعملتها ولحظها السيء كان فيها نطفة قرد جعلتها تحمل وتلد الشيخ شيخة، وتفزع منه ساعة ولادته فتعطيه للغجرية وتعطيها نقوداً ثمناً لسكوتها ولكفالتها له، وتأخذ الغجرية المولود وتلف به في بلاد الله، ثم تعود به وقد كبر فتتركه عند حافة البلدة وتمضي..

وفي العام التالي تسري قصة أخرى ضاحكة لتؤكد العكس. ولتهمس أن الشيخ شيخة ما هو إلا ابن عبده البيطار الذي يقص شعر

الحمير ويقلم حوافرها ويركب لها «الحدوات» الحديد، والذي يشاع ـ والعهدة على الرواة ـ أنه من عشاق أناثها، وبالذات حمارة الشيخ البليدي المأذون، وأن الشيخ البليدي هو الذي تخلص من المولود مخافة أن تلصق التهمة به، أو على الأقل بابنه الذي كانوا يشيعون أنه مصاب بنفس الداء.

أقاويل وقصص واشاعات هشة وخافتة ومتباعدة، ولكنها لا تنقطع وكأنما يؤكد بها الناس إصرارهم على محاولة تفسير هذا اللغز الحي، فلابد لوجوده بينهم من تفسير وسبب إذ لابد لكل شيء من سبب، حتى الشيء غير المعقول لابد لوجوده من سبب معقول، ولكنها اشاعات وحكايات لا تفسر ولا توضح.. وبعضها يقال للترويح هن النفس لا غير..

وكان من الممكن أن يظل الشيخ شيخة يحيا في بلدنا يمثل شخصية الحاضر الغائب والراكب الماشي والكائن غير الكائن، لولا أنه ذات ليلة من عام مضى جاء ولد من أولاد العبايدة يجري من ناحية الجامع ويلهث، وما كاد يجد الجمع الذي يسهر عند زقاق الطاحونة حتى انهار يجلس بينهم ويرتجف ويغمى عليه.. مالك يا ولد جرى ايه؟

قال بتهتهة العبايدة وحشرجتهم:

ـ انتم بالكم ايه!

قالوا:

ـ ايــــه؟

قال:

ـ دا اتبن الشيخ شيخة بيسمع وبيتكلم زي البربند. .

ـ ازاي يا ولد؟مش معقول. .دا من رابع المستحيل. .عرفت ازاي؟

والولد يقسم برحمة أبيه أنه كان فائتاً من ناحيـة الخرابـة فسمع اثنان يتكلمان بصوت منخفض ما لبث أن ارتفع، فاقترب وإذا به يجد الشيـخ شيخة يكلم العـرجة، كـلام مضبوط مثـل كـلام النـاس، ولم يصدق نفسه، فاقترب أكثر، ولكن نعسة كشت فيه فجرى وجاء يلهث ويرتجف ويروي الحكاية. .

***

وطبعاً لم يصدقه واحد من الجالسين ولا حتى من الذين سـرى لهم الخبر، كلهمم أجمعوا على أن كلام الولد تخريف في تخريف، وأنه لابد قد أرعبته الخرابة فتصـور ما تصـور، أو من الجائـز جداً أن المتحـدثين كانـامن الجان. . فهـو احتمال أقـرب كثيـراً من أن يكـون الشيخ شيخة يتحدث أو يتكلم أو يعقل الكلام. وهل من المعقول أن يخدعوا فيه كل هذه السنين الطوال؟ ثم مـا فائـدة أن يخدعهم ومـاذا يستفيد ولأي شيء يعذب نفسـه ويقف بالسـاعات وينـام كالحيـوانات ويحيا كالديدان؟

ولكن رغم قوة الحجج واستنكار الناس لصحـة أي حرف ممـا قاله الولد، فرغماً عنهم وبدون قصد راحت نظرتهم إلى الشيخ شيخة

كلما رأوه أو تسمر قريباً من أحد مجالسهم. . راحت نـظرتهم تختلط بتساؤل شاك بمجرد احتمال، ولو كان احتمـالاً غير معقـول: ماذا لـو كان كلام الولد صحيحاً وكان الشيخ طول عمـره يرى ويسمـع ويعقل كل ما دار ويدور أمامه؟

مـا ان يطرق التسـاؤل الـرؤوس حتى تنتفض رافضـة مستشبعـة فمصيبة كبرى بل فاجعة الفواجـع لو صـح القول. . هـذه السنين التي قضـاها يعـامل معـاملة الكائن المكـاني الذي لا يـرى ولا يسمـع ولا يعقل، جعلته يرى من كل قاطن في القريـة أحوالاً وأسـراراً لم تطلع عليهـا عين بشر. كـل انسان في البلدة يحيـا كالسفينـة جزء منـه فوق الماء ظاهـر للعيان وجـزء تحت الماء لا يـراه أحد، وحتى لـو شاهـد أقوياء الأبصار ما قرب منه إلى السـطح فمن المحال أن يـروا الأجزاء الخـافيـة العميقـة التي لا يمكن أن تصلهـا يـد أو عين أو أذن. . لا تصلهـا إلا إذا أخرجهـا صاحبهـا فهو وحـده العليم بهـا. . وإذا كـان الانسـان كائنـاً له أسـرار، ومن خواصـه كانسـان أن يخفي في نفسـه أجزاء ويحكم إخفاءها، فكذلك من خواصه الأزلية أنـه يخفيها رغمـاً عن نفسـه وتحت مقاومتـه، ويضـطر بـين كـل حـين وحـين لـلإذعـان فيخرجها ويظهرها ويتفحصها ربمـا بعد فـوات سنين، ولكن لا بـد أن يخرجها لنفسه مثلاً إذا كتبها، أو لأقرب النـاس إليه أو أحيـاناً أبعـدهم منـه. . ولكن لا بد أن يتـوسم فيه القـدرة على حفظ سـره. . والشيخ شيخة كان يمثل هذا الدور في أحيان لبعض الناس، وفي أغلب الأحيان رأى ما لم يره أحد وسمع مـا لم يسمعه أحـد بحكم أنه لم يكن أحـداً، كان كالحيوان المستأنس. . كقطط البيوت مثلاً وكلابها وما أمنع ما رأت

قطط البيوت وكلابها. وآه تكلمت قطط البيوت وكلابها! ربما لما استطاع أحد العيش، فهو لكي يعيش كفرد يضطر لإحاطة نفسه بجلباب وملابس تحفظ جسده وأسراره، ولكي يعيش كفرد في مجموعة يضطر لإحاطة بعض نفسه بأسوار. ويسمى هذا البعض أسراره، ففيها كيانه وفيها مفاتيحه نواياه الداخلية التي تفرقه عن الآخرين وتحفظ استقلاله.. والعائلة المكونة من أفراد تضطر لإحاطة نفسها ببيت ذي جدران بالغة السمك، فيكون لها هي الأخرى كيانها وذاتها واستقلالها.. والبلدة تضطر هي الأخرى لإحاطة نفسها بسور مفترض وحدود وجنسية وكلمة بلدي وبلدياتي لتحفظ كيانها من الضياع والذوبان.

كارثة كبرى لو صح الخبر، أو حتى لو كانت هناك شبهة في صحته، فقد لا يعد هذا هدماً لكل الجدران الداخلية التي تحيطهم وتقسمهم، ولكنه على الأقل فرجة صنعت في كل جدار. فرجة من الممكن أن ينتقل منها للغير كل ما يحويه الداخل، فيقوم حينئذ يوم الفوضى الذي هو أفظع وأبشع من يوم القيامة.

بدأوا يرمقون الشيخ شيخة إذن بنظرات مرعوبة حيرى تطوف حوله وحمى الشك تعشيها، والشيخ شيخة على ما هو عليه.. رقبته مثنية وجلبابه الأزرق ممزق متسخ إذا وقف ظل واقفاً، وإذا جلس لا يتحرك، وعينه على ربع إغماضها لم تتغير والأخرى على إغلاقها، وملامحه مثلما رأوها دائماً صلبة متجمدة لا تنفك، وواضح جداً أنها ما انفكت طول عمرها. حتى والشك يدفعهم للدوار حوله واستيقافه

ومخاطبته وتوجيه الأسئلة اليه لا تصدر عنه حركة ولا بارقة انفعال لمحها أحد تطفو على سطح هذه الكتلة المدكوكة من اللحم والعظم والشحم.

وكان أن بدأت الزوابع التي هاجت للخبر تهدأ وتؤوب إلى رضا واقتناع، والرعب الذي اكتسح كلاًّ منهم حين أدرك أنه من الممكن جداً أن تكون فرجة صغيرة قد صنعت في حائطه، وامتدت منها عين واعية وعرفت كل ما بداخله. هذا الرعب بدأ يتحول إلى اطمئنان وما صاحبه من شك يتجمد على هيئة يقين..

***

وكاد يصبح لما حدث نفس المصير الذي كانت تلقاه الشائعات لولا حادث آخر وقع. وهذه المرة لم يردده خائف أو ولد، ولكن رجالاً كباراً شهدوه بأعينهم وسمعوه بآذانهم وكانوا يقسمون على ما يقولون.. ففي ظليلة السعدني التي تحتل بطن الجسر ويصنع للوافدين عليها القهوة والشاي ويرص المعسل، كان الحديث يدور يوم السوق عن الحادثة التي رواها ابن العبايدة، وكان الشيخ شيخة واقفاً في الشمس فوق الجسر لا يتزحزح من مكانه، وعرق كثير يكسوه، حين جاءت بالطبع سيرة نعسة العرجة وانبرى أكثر من واحد يغمزها ويلمزها ويروي الهواجس على أنها وقائع وأخبار، حتى دفعت المزايدة الدائرة أحدهم لأن يقسم أنها راودته ذات يوم عن نفسه، وهنا فوجىء الجميع بصرخة، أو على الأصح شيء

كالصرخة، فلم تكن صرخة تلك التي سمعوها، ولا استغاثة، ولا عويلاً، وإنما انفجار كالهدير أو كالجمل حين يضرب بالقلة، ثم آهة، ثم الأهم من هذا كله كلمة سمعها البعض «أعوذ بالله» وبعض آخر «منك لله»، وأقسم هؤلاء وهؤلاء، ولكن الشيء المؤكد أنهم جميعاً سمعوا كلاماً بشرياً يتصاعد قربهم، وحين تلفتوا رأوا الشيخ شيخة يترك مكانه تحت الشمس ويتحرك بأسرع مما اعتاد، ولا يلبث أن يختفي في حقل الأذرة القريب ولا يظهر.

ورغم كل ما دار وكل ما أجمع عليه الحاضرون واتفقوا، فبعد يوم أو يومين كانت تلح على بعضهم كفرادي وتضيق الخناق وتستحلفه فيقول: الحقيقة ما اقدرش أحلف.. الله أعلم.. إنما إن ما كانش هوح يكون مين؟. الجسر؟

وياما أقسمت أيمان ورميت طلاقات وهاجت البلدة بالجدل، وقسم كبير يؤكد أنهم خدعوا في الشيخ شيخة أكبر خديعة وأنه ظل سنين يمثل عليهم دور الأصم الأبكم ليعرف أحوالهم وأسرارهم ويسرق مخبآتهم، وقسم كبير آخر أهون عنده أن يصدق أن الجسر قد نطق وتكلم من أن يصدق أن الشيخ شيخة هو الذي فعل.. ولكن هذا الجدل والخلاف كان يجري على أسطح الألسنة فقط، ففي أعماق الكل كان خوف حاد قد بدأ يتراكم، وكلما راجع أحدهم نفسه ليتذكر ما قاله في حضرة الشيخ شيخة وما فعله، ووجد أن ما قاله كثير وما فعله أكثر، انقلب خوفه إلى هوس ورعب، وازداد قلباً للبلدة رأساً على عقب باحثاً عنه محاولاً أن يراه. إذ ربما تعيد رؤيته، مجرد

رؤيته الطمأنينة إلى نفسه، ويصبح كل ما قيل ويقال كـذباً في كـذب وكابوساً رهيباً مزعجاً غمر البلدة ومن فيها. .

غير أن الشيخ شيخـة رغم كثرة البـاحثين عنه لم يعثـر له أحـد على أثـر، مما كـان له أسـوأ الـوقـع. . إذ تـراه أين ذهب؟ وإلى من يحكي الآن ويعدد؟

ولكن اختفاءه على أية حـال لم يطل، فبعـد أيام قليلة وجـدوه عائداً من البندر، وأغرب شيء أن نعسـة كانت تسحبـه من يده، ومـا كاد الخبر ينتشر حتى كانت البلـدة كلها بكبارها وصغارها، وبالأخص نسائها اللاتي كن يبدين هالعات يرتجفن من الغضب والذعر، ويكون بقعة كبيرة سوداء في الدائرة الآدمية المحكمة التي ضربت حول نعسة والشيـخ شيخـة ومضت أعينهـا تمتـد اليهمـا وتتفحصهمـا بحـدة وشراهة. . ولم يكن شيء قد تغير في الشيخ شيخة. . شـواله الأزرق على حاله، وشعره على قصره، كل مـا في الأمر أن رقبتـه المثنية كـانت قد بدأت تعتـدل، والأمر المحير كانت هـذه الضحكات التي تصـدر عنه كلما سأله أحدهم سؤالاً أو وجه اليـه كلمة، ضحكـة غريبـة تبدو كما لو كان يتكلمها ولا يضحكها.

أمـا نعسة فقـد ظلت ساكتـة لفترة، ثم وكـأنها ضـاقت فجـأة، انفجرت تسألهم عن سـر تجمعهم وتشتمهم وتلعن آباءهم جميعـاً من أكبر كبير لأصغر صغير. . يا غجر يا لمامة عايزين ايه؟. . ابني والـلا مش ابني مالكم ومالنا؟. . أخرس واللا بيتكلم عايزين منه ايه؟. كان عيان وداويته يا ناس ايه الجناية في كده؟. وحتى لـو ماكـانش عيان،

لو كان سليم وسمع وشاف. .يعني ح يكون شاف ايه وسمع ايـه؟. ما الحـال من بعضه. . واللي بيقـول في حق الناس كـلام بـطال بيتقـال عليـه كـلام بـطال. . واللي بيخبي العيب عن جـاره ح يـلاقي جـاره بيخبي عنه نفس العيب. . ح يكون شاف ايه وسمـع ايه. . أوع كـده أنت وهـو لحسن وحيـاة مقصـوصي ده اللي ح اطـولـه منكم ح اطبق زمارة رقبته ماني سيباها إلا بطلوع الروح.

***

استمـع الناس لكـلام نعسة مـذهولين حيـارى لا يعرفـون بماذا يردون. . يرون حماستها التي انبثقت فجأة وأسقطت عنها كل خجـل وحجـاب، واستعدت معهـا لأن تعترف مثـلاً أن الشيـخ شيخـة ابنهـا وتـذكر لـو لزم الأمـر اسم أبيه، وتصـك آذانهم الحمم الخـارجـة من فمها، ولا يملكون ازاء ما تقول تصرفاً أو حلاً. .

وكان لابد أن ينـفض الجمع، ويجيء الغد وبعد الغد. . ويبدأ الشيخ شيخة يخـرج وحده ويجـوب البلدة، ويقف موقفتـه المشهورة لدى جماعاتها الجالسة أو المنتحيـة ركناً، ولكن الحـديث كان يكف نوعاً ما لمقدمـه. وإذا استؤنف وبدأ متحـدث ما يتكلم، وتـطلع أثناء كلامه ناحية الشيخ شيخة، وفاجأة الشيخ بالضحكة الجديدة التي عاد بها، ولدت الضحكة في عقل الرجل كل الظنون وتلعثم وأجبر مرغماً على السكـوت. . إذن من يدري؟ ربمـا يضحك الشيـخ شيخـة منـه لكيلة القمـح التي لطشهـا أمامـه من الجرن يـوم التخزين، بينمـا هو جـالس الآن يتحدث عن السـرقة واللصـوص. وربما يضحـك لعلمه

بسر نقطة الدم التي لا تزال عالقة بـ يل جلبابه، وقد كان يومها واقفاً في نفس المكان. وربما هو يضحك منه لأنه بـ الأمس فقط كان في مجلس آخر وكان الشيخ شيخة هناك، وكان يتحدث بكلام غير الكلام.

حين جاء الغد وبعد الغد.. بدأ الناس يدركون أكثر وأكثر أن المحظور قد وقع، وأن ضحكة الشيخ شيخة هي الكوة التي فتحت في كل جدار، وأن محتويات مخازنهم الخفية السرية في خطر، وأنهم أمام الشيخ شيخة عرايا من كل ما يسترهم ويحفظ لهم الشخصية والكرامة والكيان.. وأنهم أبداً لا يستطيعون أن يحيوا في بلدة واحدة معه، مع انسان يعرف عنهم كل شيء.. ويواجههم بضحكته الغريبة البشعة أنى يكونون!

***

وكان لا بد أن يصحو الناس مذعورين ذات صباح على صراخ مدو صادر عن قلب يعوي ويتمزق ويقول:

ـ يا بني يا حبيبي..

وتسرع الأرجل هالعة إلى مصدر الصوت فيجدونه ينبعث من الخرابة، ويجدون نعسة صاحبته، ويفاجأون بها تقذفهم بوابل من الطوب والأحجار، وتبكي بحرقة وتلعنهم وتقول انه كان طول عمره أصم أبكم، وان الويل لهم منها، بينما الشيخ شيخة ممدد أمامها غارقاً في دمه ورأسه محطم بحجر..

«١» الأحرار

وقعت هـذه الحادثـة في مكتب احدى الشـركـات الكـائنـة في شارع سليمان، واحدة من الشركات ذات الأبواب الزجاجية المصنفرة والمكاتب الصاج الايديال والسعاة الذين يرتدون بدلاً رمادية ويضعون على جوانب صدورهم لافتات نحاسية دقيقة الحجم.

في الصباح، وفي الساعة الثامنة تماماً، الموظفـون جميعاً على مكاتبهم، والسعاة على الأبواب، والسكون مستتب مطبق رغم حفيف الأوراق وتكتكـة الآلات الكاتبـة والحاسبـة. بعد قليـل كـانت دوامـة العمل قد بدأت تدور، والأبواب الموصدة كثر فتحها واغلاقهـا، وبدأ الموظفون يتجرؤون على الصمت وينطقون، و الجو بدأ يحفل بدخان السجائر ورائحتها، غير أن هـذا كله كان يـدور أيضاً خـارج حدود لا يتعداها..

وفجأة، وفي حوالى التاسعة بدأت تصل إلى الآذان ضجـة غير عـاديـة صـادرة من حجـرة السيـد عبـد اللطيف سـالم رئيس قسم السكرتارية. وأن تسمع ضجة في حجرة السيد عبد اللطيف أمر عادي جداً، ولكن غير العـادي أن تحدث هـذه الضجة قبـل الحاديـة عشرة

صباحاً . . فالريس عبد اللطيف كان مريضاً بنوع غريب من الربو، وكانت أنفاسه ـ وبالتالي خلقه ـ لا تبدأ تضيق قبل الحادية عشرة بأي حال من الأحوال. لهذا كان لابد أن في الأمر سراً وليس خلف أبواب الشركة أسرار، فالسر الذي وراء الباب يعرفه الساعي الواقف أمام الباب، ومن ساع إلى ساع ينتقل السر حتى يصبح بعد ثوان قليلة خبراً. ولهذا سرعان ما عرف الجميع أن الريس عبد اللطيف يزعق لأحمد رشوان، وعلى هذا أصبح العجب مضاعفاً . . زعيق الريس قبل الحادية عشرة، والزعيق لأحمد رشوان الذي لم يسبق لأحد وخاصة الريس عبد اللطيف أن زعق له أو احتك به، فقد كان أحمد هذا شاباً مؤدباً جداً، بل ممكن أن يعد أكثر موظفي العالم أدباً . . وأدبه مقرون بمراعاة تامة للأصول وما يصح وما لا يصح . وكلمات مثل: من فضل سيادتك، وتسمح لي ولا مؤاخذة، وأشكرك شكراً جزيلاً (باللغة العربية الفصحى)؛ كلمات مثل تلك يستعملها أحمد آلاف المرات في اليوم الواحد، ثم انه لم يكن جميلاً ولا وسيماً لتكون لديه مركبات الوسيمين الجميلين مثل افتعال الحركات للفت نظر السيدات والآنسات من موظفات الشركة، أو المحافظة الزائدة على هندامه والعناية به. كان كما يقال دوغري وجد، ولكنك لأمر ما لا تستطيع كلما رأيته جاداً وقوراً أن تمنع نفسك من أن تسخر من جده ووقاره، ربما لأن له أنفاً طويلاً بارزاً مقوساً ومدبباً من أسفل وكأنه رأس خطاف، ربما لملابسه التي يحرص على اختيارها كلاسيكية جداً فيفصل الجاكتة طويلة وحشمة، والبنطلونات يجعلها

واسعة وقورة. وليس معنى هذا أن أحمد جاد طوال الوقت فهو أحياناً يهزر معك ويضحك، ويستمع إلى النكات الخارجة التي يلقيها زملاؤه، وقد يقرص الواحد منهم في جنبه، ولكنه يفعل هذا خلسة وكأنما يفعله من وراء نفسه الجادة الوقورة. ثم إنه شهم إذا كان معه نقود سلفك، واطمئن فإنه لن يقترض منك أبداً فهو في مسائل النقود حريص على أن يحيا في حدود دخله لا يتعداه بأي حال من الأحوال، وفوق هذا فهو لا يدخن ولا تعرف إن كان يرتاد السينمات أو لا يرتادها، ولكنه على أي حال فخور جداً بكونه خريج كليةالتجارة جامعة القاهرة. صحيح هو يعمل «تايبست» في الشركة، ولكن هذا لا يمنعه من الوعي الدائم بأنه أحسن من زملائه كتاب الآلات الكاتبة الذي لا تتعدى مؤهلات الواحد منهم حدود التجارة المتوسطة أو التوجيهية.

والشغل عند أحمد شغل، والرئيس رئيس، والزميل زميل. أما الزميلات فليس له بهن علاقة، إذ هو ضد أن تعمل المرأة إلا مدرسة أو ممرضة. ولا يزال إلى الآن يعتز برأيه هذا، وبأنه أبداه من عشر سنوات حين كان لا يزال طالباً لمندوب احدى المجلات الجامعية حين جاءه يسأل عن رأيه في التعليم المشترك.. يومها ظل قرابة الساعتين يمليه رأيه باللغة الفصحى وهو يتابع ما يكتبه الطالب المحرر ويصحح له أخطاءه الاملائية والهجائية والنحوية، ويؤكد له أن المرأة مملكتها البيت إذا خرجت منه فلابد أن تضل الطريق. لهذا لابد أن أحمد قد وجد نفسه في محنة حين عين بالشركة وعينت معه

زميلات له يؤدين نفس عمله. اكتفى حينذاك بأن أزاحهم من خاطره تماماً وكأنهن غير موجودات.

وبالتأكيد كانت هذه هي المرة الأولى التي يزعق له فيها الريس عبد اللطيف، فلابد أن سبب الزعيق مثير للغاية. ولهذا سرعان ما اكتشف بعض الموظفين أن هناك أوراقاً مستعجلة يجب امضاؤها من الريس في الحال، وما أسرع ما كان باب الريس يفتح للداخل والخارج، الداخل يكاد يكون حب الاستطلاع يقفز من عينيه، والخارج يضع يده في فمه يكاد يموت من الضحك. ذلك لأن سبب الزعيق كان أغرب سبب ممكن أن يخطر على البال، بل كان لا يمكن أبداً أن يخطر على البال.

الداخل كان يجد أحمد واقفاً مزرراً جاكتته، أنفه معقوف صارم جداً ورأسه منخفض في أدب وابتسامة لا معنى لها لا تبرح وجهه، والريس عبد اللطيف خلف مكتبه الكبير ذي السطح الزجاجي يداه تدفعان المكتب وكأنما تريدان قلبه على أحمد رشوان، وزعيق كثير يخرج من فمه ووجهه وعينين وحتى من صلعته الخفيفة.. يوزع قليلاً منه إلى اليسار، وقليلاً آخر إلى اليمين، والأغلبية العظمى يصبها على أحمد:

ـ قلنا ميت مرة الصورة لازم تنكتب زي الأصل تمام بالحرف الواحد بلا زيادة أو نقصان، قلنا ميت مرة كدة.

قالها الريس فعلاً أكثر من مائة مرة، وفي كل مرة يسكت منتظراً إجابة أحمد، حتى إذا ما هم أحمد بأن يجيب قاطعه الريس ومضى

يلقنه المحاضرة التي يجيدها تماماً عن العمل في الشركة وأصوله وقواعده.

وأنهى الريس محاضرته قائلاً:

ـ اتفضل. خد الجواب واكتبه بالضبط زي الأصل يا حضرة.. اتفضل يالله..

وخرجت كلمة من فم أحمد، ربما تكون قد خرجت قبل هذا ولكنها كانت المرة الأولى التي يسمعها فيها الريس.

قال أحمد رشوان:

ـ اسمح لي.. لأ.. مش ح اكتبه إلا كده.

وتحجرت عينا الريس وقال:

ـ أسمح لك ايه؟!

فقال أحمد:

ـ اسمح لي سيادتك مش ح اكتبه.

فقال الريس بصوت منخفض كصوت الزناد حين يجذب استعداداً لاطلاق النار:

ـ ليه بقى يا حضرة؟

والواقع أن أحمد تململ للسؤال.. فهو بالتأكيد كان قد جهز نفسه له، ولكنه وجد حرجاً كثيراً وكأنه متأكد تماماً مما ينطقه وهو يقول:

ـ لأني انسان يا أستاذ عبد اللطيف. أنا مش آلة كاتبة.

ـ ايه؟ أنت انسان مش آلة كاتبة؟! يعني ايه ده يا حضرة؟!

قالها الريس وملامحه تتسع فجأة كما ضاقت فجأة، وهو يمسك شفته السفلى باصبعين ويجذبهما إلى أمام ويحدق في أحمد..

وأول ما خيل للريس أن الجدع قد جن ولم يكن هذا في رأيه شيئاً مستغرباً، فقد كان لا يطمئن أبداً إلى أدب أحمد هذا الزائد عن الحد ومحافظته المبالغ فيها على الأصول، والجنون يمكن أن يكون نهاية طبيعية لإنسان كهذا.

وكأنما قرأ أحمد أفكار رئيسه فقد ابتسم ابتسامة اعتذار كبيرة، وكأن الذي سيقوله عيب ما بعده عيب وقال:

ـ ماتبصليش سيادتك على أني مجنون. أنا مش مجنون.. أنا انسان ولازم يكون فيه فرق بيني وبين الآله الكاتبة.. أنا.. أنا..

وإلى هنا انتهت حصيلة أحمد من الكلمات فقد كانت مهمته شاقة ومزدوجة، كان عليه أن يصوغ ما يدور في فكره إلى كلمات، ثم كان عليه أن يعيد صياغة هذه فيجعلها مؤدبة أصولية تصلح لكي يخاطب بها رئيسه. وإذا كانت المهمة الثانية سهلة فالمهمة الأولى أكثر صعوبة، إذ كيف يصوغ أحمد رشوان ما عن له بالأمس من أفكار، وكيف يشرح للريس عبد اللطيف العصبي الضيق الخلق كل ما حدث بالضبط، خاصة إذا كان لم يحدث شيء يذكر. كل ما

حدث أن نوبة أرق حادة انتابته في الليلة الماضية. . كان راقداً في فراشه غير المريح، وكاد ينام لولا أن أطار النوم من عينيه برغوث خبيث، صمم أحمد على أن يعثر عليه حياً وصمم البرغوث على أن يحاوره ولا يجعله يظفر به، كلما كاد يطبق عليه أصبح وكأنه فص ملح وذاب. وأخيراً غطس البرغوث ولم يظهر، ولكنه ترك أحمد يعاني من ذلك الاحساس المقلق، الاحساس بنهشات خفية وزحف أقدام دقيقة غير مرئية، ذلك الاحساس الذي يدفع الانسان إلى التأرجح بين الشك واليقين في وجود تلك الكائنات. وفجأة وبدون سابق انذار خطر لأحمد رشوان ذلك الخاطر الذي كاد يجعله يقفز من الفراش، فقد اكتشف أنه ليس كاتباً على الألة الكاتبة كما يظن نفسه ويظنه الناس، ولكنه هو نفسه آلة كاتبة. . كيف جاء الخاطر في ذهنه؟ لا أحد يدري. وكيف استطاع ذهن أحمد رشوان الأصولجي أن يجمع تلك المفارقة أو المتشابهة التي بدت غريبة كل الغرابة؟ لا أحد يدري أيضاً. . المهم أن الفكرة استحوذت عليه تمام حتى أنسته النوم والفراش وزحف الكائنات غير المرئية، ودون أن يستطيع أن يكبح جماح خياله وجد نفسه يوغل في التفكير ويوغل. . ما الفرق بينه وبين الآلة الكاتبة؟ هو صحيح خريج جامعة ومحترم ولكنه في عمله لا فرق بينه وبين الآلة الكاتبة التي يكتب عليها. . هو له أصابع وهي أيضاً لها أصابع. وهو يقرأ الأصل وتستحيل الكلمات خلاله إلى ضغطات، والمكنة تستحيل الضغطات خلالها إلى كلمات. وإذا كان هو يأمر المكنة بأصابعه أن تكتب، فالشركة تأمره بأصبع واحدة منها

أن يكتب. وإذا كانت المكنة لا تستطيع أن تغير ما يأمرها به إذا ضغط على حرف الميم فلابد أن تكتب ميماً، فهو أيضاً لا يستطيع أن يغير إذا قالوا له اكتب كذا فلابد أن يكتب كذا، أجل، ما الفرق بينه وبين الآلة الكاتبة؟ الواقع لا شيء، بل الحقيقة لا شيء مطلقاً.

وأول الأمر ضحك أحمد كثيراً، ضحك بلا وعي، ولم يكف عن الضحك إلا بعد أن فطن لنفسه فوجد أنه يضحك ضحكاً غريباً ماسخاً في الشقة المظلمة الخاوية «فأحمد رشوان كان قد تعدى الثلاثين ومع هذا كان لا يزال أعزب». . وآلاف الخواطر كهذه تعن لآلاف الناس آلاف المرات في اليوم الواحد، ولكنها لا تعلق بأذهانهم كثيراً. إنها كآلاف الأشياء التي تبرق في أرض الشارع المشمس يعبر بها الناس ولا يحفل ببريقها أي منهم، ولكن بريق أحدها قد يجذب أنظار عابر سبيل ليتوقف عنده مثلاً ويحدق فيه، بل ممكن أن ينحني ويتناوله ويتفحصه، وفي أغلب الأحيان يعود ليلقى به وهو يضحك من نفسه ومن البريق الزائف الذي شغله.

وكان ممكناً أن يحدث هذا لأحمد رشوان فيلقي بالخاطر من وراء ظهره ويعود إلى متابعة أفكاره أو محاولة النوم، ولكن ربما لفراشه غير المريح، وربما لأنه كان في حاجة ماسة إلى ما يشغله عن احساسه بالكائنات غير المرئية التي تقاسمه فراشه، ربما لهذا تلكأ عن الخاطر قليلاً. . وويل لأي منا إذا تلكأ عند خاطر فقد يغير التلكؤ مجرى حياته. ربما تتلكأ عند كلمة قالتها فتاة وأعجبتك طريقة نطقها لها فإذا بك بعد شهور زوج لهذه الفتاة، والتلكؤ عند واجهة

مكتبة قد يوقع في يدك كتاباً يغير شخصيتك تماماً. ونيوتن المشهور لم يفعل أكثر من أنه تلكأ ذات يوم أمام تفاحة سقطت من تلقاء نفسها على الشجرة.

أحمد رشوان هو الآخر تلكأ عند الخاطر ومضى يقلبه على وجوهه، أحياناً يحسب الأمر هزلاً في هزل إذ أمن المعقول تنعدم الفروق تماماً بينه وبين الآلة الكاتبة؟ ولكنه حين يحاول أن يجد فارقاً أساسياً ولا يستطيع يدخل الأمر في طور الجد، ويبدأ يخاف أن يكون التشابه حقيقة. بل بلغ به الوضع حد أنه كان أحياناً يحدق في أصابع يديه ويلعبها معاً في الظلام ثم يوقفها جميعاً ويلعب كلاً منها على حدة، وأحياناً يشيح بيده وكأنما يقول: غير معقول هذا.. غير معقول..

بل عنت له خواطر مضحكة للغاية، لم لا يكون الأمر عكس ما يتصور، وتكون الماكينة الكونتيننتال التي يكتب عليها أفضل منه؟ فهي على الأقل ضامنة بقاءها في الشركة مدى الحياة وهو غير ضامن بقاءه ولو ليوم واحد. وحتى المنضدة التي تستقر عليها منضدة أنيقة صنعت خصيصاً من أجلها وكلفت الشركة ما لا يقل عن العشرة جنيهات، بينما مقره هو عبارة عن كرسي ملقلق الساق اشترته الشركة في مزاد ووقف عليها ببضعة قروش.

وعشرات الأفكار المضحكة للغاية.

وكأنما كان طوال المدة التي قضاها يفكر ويسرح، كان يدخر

لنفسه خط رجعة مؤكداً، وكان ضامناً مائة في المائة أنه يملك الدليل القاطع على أن ثمة فرقاً كبيراً بينه وبين الآلة الكاتبة. فقط كان يحتفظ بالدليل ليفاجىء به أفكاره في الوقت المناسب.. وأخيراً لم يجد بداً وأخرج الدليل وقال لنفسه: الفرق بيننا أنها آلة جامدة صماء بكماء لا تستطيع التصرف وحدها أبداً، أما أنا فأنا ملك.. أنا انسان أستطيع أن أفكر وأتصرف بمطلق ارادتي.

قال هذا لنفسه وهو يسحب الغطاء فوقه وكأنما يكيل الضربة القاضية وينهي المعركة التي دارت وطالت في خياله.

ولكنه ما كاد يسحب الغطاء حتى دق شيء.. ومن كثرة تفكيره في المكنة خيل اليه أنها بالتأكيد هي التي تدق، بل ذراع واحدة فقط من عشرات أذرعها هي التي تدق باستمرار وكأنما علقت وتكتب: لا لا لا لا.

وبسرعة ثمانين كلمة في الدقيقة ـ وهي السرعة التي طالما حلم أحمد أن يكتب بها ـ مضت أذرع الآله ترتفع وتنخفض وتتداخل في الظلام وتكتب وترد عليه في تكتكة منتظمة: انت واهم.. من قال أنك تملك حق التصرف. أنت مثلي تماماً وحريتك في التصرف كحريتي والدليل موجود. الخطاب المشهود الذ كنت تكتبه لشركة الأسمنت ووجدت أن كلمة «شؤون» مكتوبة خطأ والهمزة موضوعة فوق الواو، وذهبت إلى الريس عبد اللطيف فرحاً تريه الخطأ وظننت أنه سيكافئك لفطنتك ونباهتك. أتذكر نظراته التي التهمك بها وهو يقول:

ـ اسمع يا حضـرة. أنت هنا مش على كيفـك يا حضـرة. اللي مكتـوب قدامـك انقله زي ما هـو يـا حضـرة. غلط مش غلط ملكش دعوة يا حضرة. ايه ح تعـدل ع الشركـة. الشركـة عايـزة الهمزة على الـواو تبقى الواو يـا حضرة. عـايزاهـا طـايـرة في الهـوا تبقى طـايـرة في الهـوا، فـاهم يـا حضـرة؟ اتفضـل على شغلك واعـرف مـركـزك كـويس. انت هنا كاتب يعني تكتب، يعني تفعـل مـا تؤمـر بـه. انت عارف المكنة؟ انت زي المكنة.. فاهم يا حضرة؟

الريس عبد اللطيف ذوالصدر المقفـع إذن هو الـذي أوحى اليه بـالخاطـر، وظل الخـاطر كـالقنبلة الزمنيـة في عقله حتى فجره الأرق اللعين في تلك الليلة الليلاء..

في نفس الوقت الذي اكتشف فيـه أحمد رشـوان السبب كانت أشياء كثيرة أخرى قد حدثت داخل عقله، وحدثت كلها معاً وبسرعـة مذهلة. فأولاً كان قد آمن ايماناً لا شك فيه أنه في نظر الشركة مكنـة لا أكثـر ولا أقل، وأن الـريس عبد اللطيف على حق، والمكنـة على حق وهو وحده المخطىء الواهم الذي كان يظن نفسه شيئـاً آخر غيـر هذا، شيئاً اسمه الانسان. وفي لحظة خاطفة تصور أحمد نفسه بـأنفه الذي يعتد به كثيراً، بالكتب التي كان يقرؤها أثناء دراسته ويتيـه على زملائه بقراءتها وإدراك حقائق عن الكون والحياة لا يدركونها، بكفاحه الرهيب من أجل الشهادة، بالشهادة، بحياته وكل أحلامه ، بكل هذا مجرد مكنة، آلة، حتى أقل من الآلة التي يكتب عليها!

للحظة خاطفة تصور أحمد هذا، ولكنها كانت كافية لأن تمـلأه

بالغضب. وغضب أحمد رشوان لأمثال هذه الأشياء. . غضب يعرفه عنه كل أصدقائه وزملائه. إذاً كانت المسألة مسألة مبدأ وحق ركبه الغضب وأبى أن يتزحزح عن موقفه قيد أنملة. حدث مرة في أثناء امتحان المحاسبة أن وقف أستاذ المادة في وسط خيمة الامتحان ولبخ في حق الطلبة واتهمهم بأنهم سفلة وأوغاد (إذ كان الطلبة قد أحدثوا ضجة بعد توزيع الأسئلة لصعوبتها)، فما كان من رشوان إلا أن ترك الاجابة وانتصب واقفاً يحتج على الأستاذ. وغضب الأستاذ وأصر على طرد رشوان من اللجنة وتقديمه لمجلس تأديب، ولكنه تحت إلحاح المدرسين زملائه اكتفى بأن قال إنه على استعداد للصفح عنه لو اعتذر عن تصرفه علناً أمام الطلبة، ورفض رشوان رفضاً باتاً أن يعتذر وفضل أن يغادر اللجنة ويرسب في المحاسبة على أن يهين كرامته.

كان لا يمكن أن يمر خاطر كهذا على أحمد رشوان مرور الكرام إذن، فالأصول أنه انسان، وخلافاً لكل الأصول أن يكون مجرد مكنة. وعليه أن يثبت لنفسه وللناس أنه انسان وأن ثمة فرقاً كبيراً بينه وبين المكنة، عليه أن يثبت هذا أو يهلك دونه.

***

وفي صباح اليوم التالي كان أحمد رشوان يأخذ طريقه إلى مقر الشركة في شارع سليمان وكأنه في طريقه إلى ساحة معركة أو لجنة امتحان. كان قد سهر كثيراً، وكان عصبياً وعلى وجهه تصميم خطير.

لم يكن لديه أية فكرة عما يمكن أن يفعله ولكنه كان مصمماً على أن يثبت لنفسه على الأقل أنه إنسان، انسان حقيقي، وليس مجرد آلة كاتبة.

دخل المبنى وألقى تحيات الصباح وتلقى التحيات، وبوجه غير صبوح صبح على الريس عبد اللطيف وتناول منه (الشغل) بلا ذيول شكر طويلة كما تعود أن يفعل.

وذهب إلى الحجرة التي يعمل فيها هو وزملاؤه. كان أكثرهم قد سبقوه وبين حفيف التحيات ونكات الصباح الخفيفة الطائرة جلس. وبينما كان يرفع الغطاء عن المكنة لم يستطع أن يمنع نفسه من القاء نظرة متشككة عليها، ومط شفتيه حتى التصقت شفته العليا بأرنبة أنفه المدببة، وذلك أنه وجدها فعلاً كتلة من حديد.. حديد في حديد يلمع.. وحديد مطفأ. وبرودة وسكون ولا حياة. مكنة صماء بكماء ذلك أمر لا شك فيه.

وقبل أن يبدأ في كتابة الخطاب الأول قرأ الأصل بإمعان.. وحين قارب على الانتهاء تهلل وجهه وابتسم، ذلك لأنه عثر على الشيء الذي كان يريد العثور عليه، فقرب نهاية الخطاب وجد في الأصل تعبيراً يقول:

«وحينئذ نكون أحراراً في التصرف بمقتضى ما تخوله لنا كافة حقوقنا كشركة مساهمة».

عند كلمة «أحرار» توقف أحمد رشوان. وهو نفسه لا يدري

لماذا اختارها بالذات وجعلها ضالته المنشودة وصمم على أن يحذف منها الألف ويكتبها «أحرار» فقط. ربما لأنه وجد موسيقاها هكذا تنسجم أكثر مع بقية الجملة، وربما لأسباب أخرى لا يعلمها إلا الله.

مضى يكتب الخطاب بحماس وهو يحس بنشوة لأنه يكتب شيئاً أراده هو ويملك التصرف فيه، يكتب وهو يرمق في شماتة أذرع المكنة وحروفها وهي ترتفع وتنخفض في طاعة بكماء عمياء، وهو الذي حين جاءت كلمة الأحرار راح يكتبها على مهل وكأنه يتلذذ بطعم كتابتها، ورمق الألف في الأصل ثم ازور عنها شامخاً بأنفه، وتابع الكتابة وكأنه يعزف على مفاتيح بيانو أو ثقوب ناي.

وكان أسرع خطاب كتبه بعد أن التحق بالشركة، بل وقبل أن يبدأ في غيره ذهب به إلى مكتب الريس ومعه الأصل والصورة وفي صدره حماس مستبشر دافق.

والذي حدث أن الريس عبد اللطيف ما كاد يلقي نظرة سريعة على الخطاب حتى أدركت عينه الخبيرة على الفور أن الأحرار مكتوبة بلا ألف، فنظر إلى أحمد رشوان طويلاً وكأنه يريد تجميده وقال:

ـ هي في الأصل أحراراً واللا أحرار يا حضرة؟.

ـ أحراراً.

ـ يعني بألف؟

ـ أيوه بألف.

ـ يعني شفتها؟

ـ شفتها يا ريس.

ـ طيب أمال يا حضرة ما كتبتهاش ليه؟.. روح يا حضرة اكتبها وهات الجواب تاني..

فقال أحمد رشوان بكل ثبات واطمئنان:

ـ مش ح اكتبها يا سيد..

والواقع أنه قال هذا وكادت تنتابه نوبة خوف، فالدهشة الشديدة المذهلة التي ارتسمت على وجه الريس عبد اللطيف كانت شيئاً يخيف، إذ كيف يعصي مرؤوس رئيسه هكذا في وضح النهار وعيني عينك وفي مسألة لا تحتمل النقاش؟!

دهش الريس عبد اللطيف وذهل ولم ينطق في الحال، وخلال ذلك الصمت كان أحمد رشوان في حالة أخد ورد مع نفسه، ذلك أنه في قرارة نفسه لم يكن شديد الايمان بما هو مقدم عليه. إن هي إلا نوبة حماس عنت له اثر خاطر حاد في الليل وكان لابد لها أن تثمر عملاً ما. وقام أحمد بهذا العمل، وكان على استعداد للتراجع بل لم يكن يعتقد أن المسألة ممكن أن تأخذ كثيراً من الشد والجذب.

وأخيراً تلكم الريس وقال:

ـ بتقول ايه يا حضرة؟

وفي أدب جم عاد أحمد يقول: أنا رأيي يا أستاذ عبد اللطيف

أنها تنكتب من غير ألف تكون أحسن.

ـ رأيك؟!

خرجت الكلمة كالرصاصة من فم الرجل، اعقبها بسرب دافق من القذائف.

ـ رأيك ده تلفه في ورقة وتبلعه على ريق النوم. رأيك ده تقوله لصاحبك وانتوع القهوة. رأيك هناك عند بابا وماما إنما هنا مفيش رأيك. هنا شركة ليها أوامر وقوانين. هنا تمشي تروح تكتب الألف ورجلك فوق رقبتك، ولولا عارف انك طيب كنت بهدلتك صحيح.. اتفضل يا حضرة..

وانتاب أحمد غضب وقال:

ـ أنا أحتج يا سيد عبد اللطيف على الإهانات دي..

ـ أنت مش تحتج، وديني لاخصم لك يوم كمان.. اتفضل روح اكتبها..

وهكذا وجد أحمد نفسه في قلب المعركة.. معركة للدفاع عن كرامته كإنسان.. لم يكن يعتقد أن الأمر ممكن أن يتطور إلى هذا الحد، وطبعاً كان واثقاً أن مسألة الخصم هذه تهديد ليس إلا والمشكلة ممكن أن تحل بإضافة ألف إلى الأحرار واعتذار لبق وينتهي كل شيء. ولكن كان أسهل عليه أن يقطعوا رقبته قبل أن يفعل شيئاً كهذا، فأهم شيء في نظره كان هو الثبات، فالمسألة لم

تعـد أحراراً بـألف أو بغير ألف، المسـألة كـرامته وشـرفـه، فلم يكن يعتقد أنه سيهان على تلك الصورة ويعـامل كمـا لو كـان آلة كـاتبة لا تحس ولا تغضب. .

كل هذا وصوت الريس يعلو أكثر وأكثر، وعناد أحمد يـزداد. . الريس يقسم أنه لن يتركه إلا إذا كتبها ورجله فوق رقبته، وأحمد يقسم أنه لن يكتبها ولو خرج له أبوه من التربة وأمره بكتابتها. والصراع قـد وصل قمته، والمسألة التي بدأها أحمد وهو غير مؤمن تماماً بها كانت قد تبلورت إلى درجه أنه لو قبل إضافة ألف لـلأحرار فمعنى هـذا أنه تنازل طائعاً مختاراً عن كرامته ورجـولته وشـرفه، وإذا كـان الناس في الصعيـد وفي كل مكـان يقتلون دفاعـاً عن كـرامتهم ورجـولتهم أفـلا يستطيع هو الصمود مهما كانت النتائج؟

وطبعاً لم يقف الزملاء مكتوفي الأيدي. . حاولوا تهدئـة الريس بلا فائدة، وحاولوا حمل أحمد على الإذعان بلا فائدة. بل كان يقابل هدهداتهم ورجواتهم باشمئزاز، إذ هم في نظره أكلة عيش منـافقون مداهنون لا يقدرون قيمة هذه الأشياء والمواقف، يلتقطون الخبـز من بين أقـدام الرؤسـاء بعد أن يلعقـوا تلك الأقدام. فليمت قتيـلاً ولكنه أبداً لن يكتب ألفاً للأحرار.

والعجيب أن قليلاً من زملائه الموظفين والكتبة هم الذين كانوا يضحـكـون بينهم وبين أنفسهم على المشكلة القائمـة. أما الغـالبيـة العـظمى فقد أخـذت الأمر على أنـه مشكلة من واجبهم حلها بـرجاء

هذا وممالأة ذاك أو حتى باقتراح حل وسط، إذ اقترح أحدهم أن يقوم هو بكتابة ألف الأحرار حسماً للنزاع، وقوبل اقتراحه برفض هائل من الريس وباستنكار حاسم من أحمد رشوان. .

وسرعان ما ضاق صدر الريس عبد اللطيف فهدر في جميع من بمكتبه يأمرهم بالخروج مقسماً بالله العظيم ثلاثاً أن سيكون جزاؤه على تلك الفعلة هو الرفت العاجل. . اليوم بلا أي تأخير. قال هذا وهو يعتصر قبضتيه ويصر على أسنانه ويجهز نفسه لكتابة مذكرة مستعجلة جداً لمدير عام الشركة يطلب فيها فصل أحمد رشوان فوراً إذ الجريمة في نظره أخطر جريمة. . عصيان واعتصاب، وإذا لم تعالج الأمور بحزم وبتر ممكن أن تسري عدواها إلى بقية الموظفين.

أما أحمد فقد أخذه الزملاء إلى حجرتهم وأحضروا له فنجان قهوة رفض أن يشربه، وظلوا يتحايلون عليه يحذرونه من العقاب ويقسمون له أن المشكلة الآن حلها بسيط وأن الريس عبد اللطيف عصبي صحيح ولكنه ابن حلال، فأقل اعتذار يرضيه. .

ولكن أحمد ظل يهز لهم رأسه باستمرار، بل كان حريصاً على أن تظل الابتسامة طوال الوقت فوق ملامحه حتى لا يعتقد زملاؤه أنه مهزوز مع أنه كان مهزوزاً. . كان قد صمم تصميماً نهائياً خطيراً على عدم التراجع، فقد كان يدرك أنه لو تراجع فلن يحترم نفسه بعدها، هو الذي يعتبر أن ميزته الوحيدة أنه يحترم نفسه. . بل سر حرصه على الأدب الجم في معاملة الناس أنه يريدهم أن يعاملوه بأدب، فإذا

فقد احترامه لنفسه فأي قيمة تبقى له كإنسان؟.

وسرى الخبر طبعاً في أنحاء المكتب.. وتلقفته الأفواه ضاحكة وساخرة ومعقبة، حتى أصبح الخبر نكتة تروى، وصار الموظفون الكائنون في الأجنحة البعيدة يتسابقون إلى حجرة أحمد رشوان ليتفرجوا على زميلهم العجيب الغريب الذي رفض أن يكتب ألف الأحرار، معتقدين أنه لابد قد أصيب بلوثة، يحدقون في ملامحه ويشاهدون كيف يتكلم وبأي ردود يجيب ليعرفوا مدى اصابته.. وكانوا يعودون إلى مكاتبهم وقد انقسموا على أنفسهم، بعضهم يؤكد أنه مجنون وبعضهم يؤكد أنه لابد تعبان شوية وآخرون يصرون على أن المسألة كلها لا تعدو أنه ابتلع ليلة الأمس قطعة حشيش لا يزال مفعولها سارياً في جسده، ويؤكدون قائلين:

ـ دامن شكله باين عليه حشاش..

***

وعن طريق الريس عبد اللطيف وصل الأمر إلى المدير العام، والظاهر أنه لم يكن لديه ما يشغله أو أنه وجد المشكلة غريبة ومضحكة في الوقت نفسه وأراد أن يتفرج على الموظف الأعجوبة هذا الذي رفض أن يكتب ألف الأحرار، الظاهر هذا لأنه بناء على المذكرة التي قدمها السيد عبد اللطيف كان باستطاعته أن يمضي قرار الفصل في الحال أو يخفض العقاب إلى خصم وانذار مثلاً..

وأن يطلب المدير العام موظفاً صغيراً معناه في العادة كارثة سوف تحل بالموظف أقلها أن يوقف أو يفصل أو يتهم في تبديد، وهكذا مضى أحمد يتلقى كلمات التعزية والتشجيع وهو يخطو إلى مكتب المدير العام بخطوات راعى أن تكون منتظمة ومتماسكة ووقورة . .

وكانت أول مرة يدخل فيها أحمد مكتب المدير العام، وخيل إليه حين أصبح في الداخل أنه لم ير في حياته مكاناً فيه كل تلك الفخامة والأناقة والروعة، حتى النتيجة المعلقة على الحائط مطلية بماء الذهب. وكل شيء في الحجرة مدير عام. المقاعد والستائر والهواء المكيف اللذيذ الذي يكاد يصيب الداخل بقشعريرة جنسية، والسكون التام المطبق الذي تحس فيه بدقات ساعة يدك عالية قبيحة بلدية . .

وما كاد أحمد يستجمع شعاعات نفسه الطائرة ويلتقط أنفاسه ويبدأ يبحث عن المدير العام في تلك الصالة الفخمة الواسعة حتى فوجىء بصوت نحيف يقول له :

ـ قرب يا شاطر . .

وتقدم أحمد بضع خطوات أخرى حتى بدأ يتبين ذلك الرجل النحيف جداً القابع وراء المكتب لا يظهر منه غير رأس دقيق كرأس الفأر، وبينما أحمد حائر ماذا يفعل أو يقول. جاءه الصوت مرة أخرى :

ـ ايه الحكاية؟ فيه ايه؟ مش عايز تكتب ألف الأحرار ليه يا شاطر؟

ووجد أحمد نفسه باندفاع ولا ارادة:

ـ عشان أنا انسان يا سيادة المدير. .

وضحك المدير وقهقه. . ضحك كثيراً جداً وظل كرسيه يدور به وهو يضحك ويعلو حتى كاد يصبح فوق المكتب. وعرق أحمد وتلجلج وأحس أنه قال كلمة سخيفة لا معنى لها إذ ما أدرى المدير العام بكل ما دار في عقله من خواطر؟ وبدأ يبتلع ريقه وأفكاره بسرعة ليبلل حلقه الجاف وعقله ويستطيع أن يتكلم، وتكلم. . وشرح للمدير كل ما عن له من خواطر. وكلما رأى الرجل يستمع كان يحس أنه رجل طيب جداً على عكس ما يتصوره الناس عن مديري العموم.

وحين انتهى فوجىء بالمدير العام يقهقه ويدور في كرسيه والكرسي يهبط به حتى كاد يصبح تحت المكتب. . واعتمد المدير رأسه على كفيه وقال:

ـ أمال انت فاكر ايه ياسمك ايه؟ دا مش انت بس اللي مكنة. . انت مكنة وعبد اللطيف رئيسك مكنة وأنا مكنة وكلنا مكن. مش أنا المدير العام أهه؟ رئيسي عضو مجلس الادارة المنتدب افرض قال لي اشترى ألف سهم من أسهم الشركة، أقدر أشتري ٩٩٩؟ لازم اشتري ألف، وإذا عملت كده أترفد وإلا لأ؟ طبعاً أترفد. يبقى أنا في الحالة دي ايه؟ انطق. أبقى ايه؟

وقال أحمد بصوت لم يصل أبداً إلى أذن المدير: تبقى سيادتك مكنة.

فقال المدير وهو يستديرفي كرسيه ويولي أحمد رشوان ظهره والمشكلة بالنسبة اليه قد انتهت:

ـ روح أحسن اعتذر لرئيسك. وأنا ح اكتفي بخصم يوم واحد من مرتبك. اتفضل! كلنا مكن يا مغفل.. كلما مكن.

وانتظر المدير قليلاً ليترك لأحمد فرصة الانسحاب، وبعد لحظة استدار مرة أخرى وإذا به يفاجأ بأحمد رشوان لا يزال واقفاً، بل فوجىء أكثر حين وجد أنه قد انتظر اللحظة التي يواجهه فيها ليقول:

ـ بس أنا انسان يا سيادة المدير.. أنا انسان.

ـ إنسان في عينك قليل الأدب ما تختشيش. ده جزا اللي يعاملكم بشفقة؟ غور من وشي ياللا غور.

ـ يا سيادة المدير أنا بكالوريوس تجارة، أنا مش..

ـ غور من وشي.

وقبل أن يفتح أحمد فاه مرة أخرى كان الباب قد فتح ودخل الساعي وجذبه من يده برفق وأخرجه وأغلق الباب.

ولكنه ما كاد يصبح في الطرقة حتى كان جرس المدير يدق، وحتى كان قد استدعي مرة أخرى للمثول في مكتبه.

ودخل أحمد بوجه شاحب كوجوه المنومين مغناطيسياً وكأنما هو مدفوع للمضي في الطريق الذي صمم عليه بقوى خفية أكبر منه.

والمدير العـام أيضاً كان متجهماً صارماً وكأنما قد نبتت له فجأة أنياب أظافر.

وخير أحمد بين الموافقة على كتـابة الألف فـوراً وخصم ثلاثـة أيام من مرتبه، أو فصله نهائياً من الشركة.

وما كاد أحمد يفتح فـاه ويقول: أنـا. . حتى كانت يـد المدير على الزر وحتى كان السيد عبد اللطيف داخل الحجرة وكأنما انشقت عنه الأرض. وكلمة واحدة قالها المدير لعبد اللطيف:

ـ ارفدوه.

ثم لم يلبث أن أردف:

ـ دلوقت حالاً. .

***

ورفدوه.

سلمه عبد الطيف الأمر الاداري بفصله وطالبه بتسليم العهـدة، ونصحه مدير المستخدمين بأن يرفع قضية على الشركة لعل وعسى.

والتف الزملاء حول أحمد حين عاد إلى الحجرة ليسلم مـاكينته الكـونتننتال وهي كـل عهدتـه. كان في وجـوههم أسى كثيـر ورثـاء، ولكنـه كـان في قـرارة نفسـه يـرثي لهم هم. كـان يحس أنــه وحـده الانسان وأنهم هم من فراشهم إلى مديرهم العام مجرد ماكينات كاتبة وحاسبة وكانسة ومفتشة. .

وبينما كان أحمد يعبث بأحرف المكنة ليتأكد من سلامتها، دق صدفة على حرف الألف ولكنه فوجىء بأن ذراعها لا ترتفع، ودق مرة أخرى ولم ترتفع الذراع.

واعتقد زملاءه أنه لابد قد جن حقيقة حين انطلق إلى حجرة الريس عبد اللطيف وهو يصرخ بطريقة مختلفة تماماً عن طريقته المؤدبة وبانفجار:

ـ الحق يا ريس.. اتفضل آهي الماكنة رافضة تكتب الألف. هيه! ارفدوها بقى هيه رخرة يا ريس.. أرفدوها.

فقال الريس عبد اللطيف وهو يكح:

ـ المكن يا بني لما بيرفض الكتابة ما بيترفدش، بيصلح.. ابقوا ودوها الورشة وصلحوها.

***

وغادر أحمد مبنى الشركة وأصبح في الشارع، ولكنه بعد قليل لم يعد يعرف في أي الشوارع يمشي فقد ظل يسير كالمفيق من حادث، كالحالم؛ كالمصدوم، يسير بلا وعي وبلا هدف أو وجهة. وأخيراً وجد نفسه مرة أخرى في شارع سليمان قريباً من لافتة الشركة ومبناها. ولم يستطع أن يمنع خاطراً صبيانياً خطر له وجعله يقرأ اللافته وكأنه يراها ويتأملها لأول مرة. وفقط حين كاد ينتهي من قراءتها أدرك أنه قد رفد اليوم وأنه فقد عمله وأن عليه أن يستعد لأيام

وربما سنوات عجاف، وأن سبب رفده أغرب سبب. اصراره على أنه إنسان.

ومرة أخرى نظر حوله.. الشارع يموج بالناس والعربات والدراجات والناس تسابق العربات والدراجات تسابق الناس وهو ماش ـ لا يسابق دراجة ولا تسبقه عربة، بلا هدف ولا وجهه. وفجأة أحس بشيء حار يندلع في حلقه، شيء جعله يقف في وسط الشارع ولا يشعر بنفسه إلا وهو يصرخ ويقول:

ـ أنا إنسان.

والتفتت رؤوس المارة مندهشة ناحيته، وأطلت من العربات وجوه، والقيت علية نظرات كثيرة مستغربة. وقال واحد:

ـ الناس باين عليها اجننت!

وضحك طفل وزأر كلاكس يأمر أحمد بإخلاء الطريق.

ولم يستغرق هذا كله إلا لحظة خاطفة، ثم لم تلبث الحركة أن عادت في الشارع إلى سابق عهدها وكأن شيئاً لم يحدث.

أحمد المجلس البلدي

أنى تذهب كنت تجد أحمد العقلة.. نجاراً تلقاه، حلاقاً تلقاه، تاجراً في مخلفات الجيش تلقاه. ثم هو بعد هذا يجيد شغل الآلاتية، وكي الناس للشفاء من الأمراض، وجس البهائم العشر، والقيام بأعمال الأبونيه وتعهدات فرق المزيكا والرقص، وإصلاح الكلوبات والبوابير في الأفراح، وحتى في «تلتيم الموتى» تلقاه.

ومع هذا كله فقد كان بساق واحدة.

أو على وجه الدقة بساقين: ساق خلقها الله وساق صنعها بنفسه على هيئة عكاز عظيم الشأن تفنن في مسحه وتنعيمه وتزويقه، وحفر الحمام والعصافير والنساء الممسكات بسيوف عليه.

وإذا كانت ساقه التي خلقها الله وسواها تمشي في أمان الله وبصوت غير مسموع، فساقه التي خلقها هو لها دبيب معروف وفي أي مكان من البلد يمكن أن تسمعه.. على الترعة، وعند المحطة، وفي القهوة، وفوق أسطح البيوت، وأحياناً في كل الأماكن مجتمعة. ساق يستطيع أن يعدي بها المصارف، ويقفز بها من فوق أكياس القطن،

وينـزل بهـا في «البـاط» لشبـاب البلد ويغلبهم، ويـدخـل معهم في مسابقات جري على السكة االزراعية. . والغريب أنه يفوز. .

وأحمد العقلة لا تستطيع أن تحدد له سناً أو هيئة أو حرفة حتى ولا قامة. . إذا أردته قصيراً وجدته، طويلاً وجـدته، أحيـاناً تبـدو لك عينه اليسرى عوراء عن بعد وسليمـة عن قرب، وتبـدو اليمنى أحيانـاً كـذلك، ولـه كتف أعلى من كتف، ووجه لا يـريك اياه، وإنمـا إذا حادثته ظل كالحمار الذي تحـاوره ذبابـة يخفضه ويعليـه، وينظر إلى جانب أو آخر كأنما يلهيك عن رؤية وجهه، ربما لعلمه أنه لا يخضع خضوعاً حرفياً لمقاييس الجمال المتعارف عليها. .

إذا ضحك لا يضحك، وإذا حزن لا يحزن، وإذا تكلم تهتـه. وهو كثير الأسفار كثير الغياب، كثير المشـاريع والتقـاليع، يبـدأ عملاً مـن الأعمال أو حرفة من الحرف وينجـح فيها، حتى إذا مـا بلغ قمة النجاح تركها فجأة وبلا مقدمـات إلى غيرهـا. قيل مـرة انه لـو حافظ على ما كسبه لأصبح من ذوي الأطيان، ويطير هـو دائماً وراء القـائل مهدداً اياه بعكازه، لاعناً أباه وأبا الأطيان.

تجده يوماً في البلد ويوماً في القاهرة ويومـاً في العريش ويـوماً جالساً على قهـوة بلدي في السلوم يروي لعـربي بعقال حـادثاً غـريباً وقـع له في عنيبـة على الحـدود بين مصـر والسـودان، ومقسمـاً بـالله العظيم وبرحمة أبيه أنه حدث. .

وإذا سافر سافر بالاكسبريس فهـو لا يطيق بطء القشـاش، وإذا

ركبه ركبه في الدرجة الأولى العليا أي فوق سطح القطار، وإذا أراد أن يهبط لا يهبط كبقية خلق الله في المحطات، بل يهبط بين محطتين والاكسبريس مارق بأقصى سرعة.

وكل شيء فيه يتحرك، ودائم التحرك. . يده تتحرك لتقص شعر واحد بطريقة مدهشة للغاية، أو تمتد إلى كيس خفي وتخرج منه ولاعة غريبة الشكل صنعها بنفسه لتفرجك عليها، أو تقبض على يد أخرى وتضغط عليها وتكاد تكسرها للهزل ليس إلا.

ولسانه دائم التحرك، يعدل حكاية رواها أحدهم ويكذبه فيها، أو يلقي اليك بخبر يذهلك، أو يخرجه لبنت حلوة يتصادف مرورها أمام الدكان.

وإذا حلق أحياناً لا يطلب من بعض زبائنه أجراً، وأحياناً يطير وراء الزبون من هؤلاء مطالباً بأجره مهدداً بضربة عظمى من عكازه. . وممكن أن تدخل دكانه فتجد نفسك وكأنك في متحف، فالدكان عشة من البوص أقامها بنفسه وطلاها بنفسه وبيضها بنفسه، ونقش أسفلها وأعلاها بنفسه أيضاً. واللمبة الغاز من صنع يده، بل هو أيضاً صانع البرنيطة التي تحجب ضوءها عن السقف. . وهو الذي دندشها بالرسوم والنقوش والآيات القرآنية. . ولابد أن يفتح لك صندوقاً من داخل الصناديق ويخرج لك ماكينة حلاقة جديدة تلمع ويقسم بالإيمان المغلظة أنه أرسل في طلبها من ألمانيا وأنها جاءت بإسمه رأساً. ولا تدهش إذا عثرت في ركن من أركان الدكان على تلسكوب أو

ميكروسكوب «يستعمل عدساته لإشعال السجاير من ضوء الشمس» أو مدفع مترليوز من مخلفات الجيش.

ثم قد تجد نموذجاً مصغراً لطنبور اخترعه أحمد العقلة، يديره أمامك ويفرجك عليه قطعة قطعة معدداً مزاياه التي تتلخص في أنه ينقل كمية أكبر من الماء ويمنع الفلاح من الاصابة «بالهاريسيا».. وتتفرج عليه، ولا تجد فيه أي شيء ممكن أن يميزه عن الطنبور العادي المستعمل فعلاً، وتقول لأحمد هذا فيبتسم دون أن يبتسم، ويقول لك: اتـه.. اتـه.. اتـه.. اش اش فـهـمـك ف ف الاختراعات.. ومع هذا فلو أعجبك الطنبور أو الميكروسكوب أو حتى ماكينة الحلاقة الواردة رأساً من ألمانيا، فلا تنزعج إذا ناولها أحمد لك وأقسم بالله العظيم أنها: ما ماما هي عادت تابعاه..

غير أن أهم شيء في أحمد العقلة أنه لم يكن يطيق رؤية الأعوج ولا يصلحه. إذا رأى أن الكوبري الذي يصل ما بين البلدة والمحطة مهدد بالانهيار، فسرعان ما تجده قد خلع جلبابه وأدار عكازه كالسيف الطائح في كل اتجاه، وأحضر أخشاباً وأسمنتاً وحجراً لا تدري من أين، وأصلح الكوبري. وإذا وجد كومة تراب تسد الطريق وتعاكس مرور العربات الداخلة إلى البلدة والخارجة منها، فستجده حالاً قد استعار فأساً من دار قريبة، ونزل في التل خبطاً وعزقاً حتى سواه. «كيف يستعمل الفأس وهو يرتكز على عكاز؟ مسألة أخرى». وإذا خربت طلمبة الجامع يضيق بمحاولات عم باز القاتلة البطء لجمع ثمن اصلاحها من المصلين، وستجده حتماً هو

الـذي لا يصلي ويتخلص بمهارة من المحـاولات التي تبـذل لحمله على الصلاة، ستجده قابعاً بجوارها يدق «قلبها» ثم يستمع، وأحيانـاً لا تفعل محاولاته أكثر من أن تزيد فسادها فساداً ولكنه في أحيان يظل يقاوح حتى يصلحها.

إذا احتجت طعماً لتصطاد السمك دلك على أحسن مكان تجد فيه الطعم، بل في أغلب الأحيان يستأذن منك دقيقة ثم يعود وفي يده كرة الطين المملوءة بالطعم. وإذا قلت إن نفسـك في الذرة المشـوية مثلاً، فثق أنه لن يهدأ حتى يسرق لك ملء حجـره ويشعل راكيـة نار ويشويها. وكل سعادته حينئذ أن يجلس يـراقبك وأنت تلتهم الكيـزان في نشوة، ووجهه قد احمر وسال منه العرق من كثرة مـا هفهف على النار ونفخ وقلب الكيزان، وإذا عزمت عليه أشاح بوجهه خجـلاً وقال لك بسعادة حقيقية: بل بل بالهنا والش ش ش فا. بالهنا والشفا.

وفي أي فرح لابد ستجد عكازه يرتفع وينخفض ويـزق وينزق، راقصاً مرة، حاملاً العريس على كتفه مـرة أخرى. وهـو الذي ينصب الدولاب والسرير، ثم هو الذي يعشي الناس، ويزكيه الجميـع ليقف على حلة اللحم المسلوق، وتلك علامة الثقة المطلقـة في أمانتـه.. وفي أغلب الأحيـان ينتهي الفـرح دون أن يتعشى. وقـد يسكت عن تضحيتـه هذه أيـاماً، ولكن سيرة الفرح لابـد ستأتي ذات يـوم فيفلت لسانه رغماً عنه ويقول: ود ود وديني ليلتها ما ما ما تعشيت..

وأحمد العقلة له مع ساقـه قصة مشهـورة بدأت في ذلـك اليوم

الذي جاء فيه مفتش الصحة للكشف على أحد المتوفين في البلدة، وانتظره أحمد حتى خرج وارتبك كثيراً وهو يحاول مواجهته والحديث اليه، فقد كان به ضعف من ناحية الأطباء، ويكن لهم بالذات احتراماً لا مزيد عليه، ربما من يوم أن بتر أحدهم ساقه.. سأله أحمد عن حقيقة الاشاعات التي يسمعها وتقول إن مستشفى القصر العيني يركب لمبتوري الساق أرجلاً صناعية مجانية، وأحس الناس من سؤاله أن الموضوع الذي كانوا قد نسوه تماماً لم ينسه أحمد للحظة واحدة. وأكد له الطبيب صحة الاشاعة ولكنه قال له كلاماً يثبط أقوى العزائم، فقد قال إن عمل ساق صناعية مسألة في حاجة لجهود كبيرة واقامة ووساطات لا قبل لأحمد بها ومن رأيه أن يريح نفسه ويوفر جهوده، ولم يفعل أحمد شيئاً أكثر من أنه ظل يهز رأسه ويقول: ك ك ك كتر خيرك.. كتر خيرك.. وانسحب من أمام الناس الذين التفوا حوله وحول الطبيب والاشفاق يجتاحهم وكأنهم قد أدركوا في تلك اللحظة فقط أنه ذو عاهة وأنه يستحق الرثاء، هو الذي كانوا يعاملونه باستمرار على أنه ند لهم فقط، ولكن على أنه جبار وقوي لا يستعصي عليه شيء.

وتلفتت البلدة ذات صباح فلم تجد أحمد، وقيل إنه سافر، وقيل إنه سيغيب.

وفعلاً غاب أحمد أطول مدة غابها، حتى بدأت سيرته تطرق الأحاديث، وتكاد مصمصات الشفاه تحدد له مصيراً تعساً مجهولاً. ولكن مصير مين؟ ذات عصر وجدوا أحمد نازلاً من القطار ماشياً على

رصيف المحطة كما يمشي الناس، بساقين، وجلابية بيضاء جديدة، وكادت البلدة كلها تجتمع بشملها حوله تستمع لقصته التي كان يرويها بكلماته التي يخرجها تحت ضغط كغطيان زجاجات الكازوزة، وتتفرج عليه بعد أن جاء من مصر وعلى ساقة الجديدة الصلبة كالحديد التي لا يستطيع الإنسان أبداً أن يعرفها من ساقة الأخرى. ومن تلقاء نفسه كان أحمد يردد الحكاية وهو فرحان. سافر طبعاً في أول قطار بأبونيهة الدائم فوق السطح، وذهب إلى القصر العيني وسأل وقطع تذكرة، وعرف اسم الطبيب الذي عنده الكشف، بل ذكر للناس أسماء جميع أطباء القصر العيني ورتبهم مضيفاً اليهم ألقاباً خاصة من عنده.. وسأله الدكاترة أين بترت ساقه؟ وبعشرة قروش أثبت لهم أنه عمل العملية في القصر العيني نفسه.. وقالوا له شهادات من الشئون الاجتماعية أحضر لهم شهادات، تعهدات جاء بالتعهدات، عفاريت زرق أحضر لهم العفاريت الزرق. وأخيراً وجدوا أن الطريقة الوحيدة للتخلص من الحاحه واصراره ومناكفاته أن يصنعوا له الساق، فبدأوا يتخذون اجراءات صنعها ولكنهم أنذوره أنها ستأخذ وقتاً طويلاً، ربما شهراً وربما أكثر، فقال لهم: على مهلكم قوي.. معاكم لحد سنة واتنين، وظل وراءهم حتى عملوها.. وها هي ذي. ولكن السامعين كانوا يتركون قصة الساق وتشغلهم أسئلة أخرى.. كيف وأين استطاع أحمد أن يقيم كل تلك المدة وهو الوحيد الساق في البلدة الكبيرة التي يتوه فيها الناس؟ فيقول أحمد ببساطة إنه كان ينفق على نفسه من متاجرته في

الـزجاجـات الفـارغـة التي كـان يبيعهـا للمتـرددين على المستشفى، وأحياناً كان يسرح بصندوق ببس أو برطمان هندي.

ويبقى سؤال آخر أين كان يقيم ويبيت؟

وتأتي اجابته:

ـ ف ف ف القصر ياولاد..

فيدهش الناس ويسألونه:

ـ داخلية يعني؟!

فيجيب وهو ضيق بغبائهم وبالسؤال:

ـ لا لا لا لا.. داخلية ايه! ع ع ع الباب.

***

وبـدأ أحمد يحيـا في البلدة مستمتعاً بسـاقه الأنيقـة الجديـدة. واضطر لشراء حذاء لقدمـه الأخرى فـالساق الصنـاعية مجهـزة بحذاء وجـورب.. وحين أصبح من ذوي الأحـذيـة وجـد أن من المحتم أن يتخلى عن كثيـر من الأعمال التي يقـوم بها.. لا جـري، ولا هزار، ولا طلوع نخل أو نزول ترعة، وهمه كله أصبح المحافظة على الساق الجديدة وإبقاء حذائها نظيفـاً، وإبقاء جلبـابه أكثـر نظافـة ليتلاءم مـع نـظافـة الحـذاء.. فـلا نـوم على الأرض، ولا حـلاقـة إلا للزبـائن النظيفين، بل حتى هؤلاء الزبائن أصبح عليه أن يحلق لهم فـوق كرسي

إذ لـم يعـد بوسعـه أن يتربـع خلف الـزبـون أو أمـامـه على الأرض. والسهم الأهوج المندفع الذي كأنه تضاءل وهبطت سرعته حتى أصبح يمشي كـالناس العـاديين وربما أبـطأ، محافـظة على سـاقـه وتمسكـاً بالوقار الذي تفرضه عليه، وحتى السفر أصبح المركز القريب هو آخر حدوده. وإذا سافر يركب كبقية المسافرين بتذكرة، وصعود على مهل وهبوط باتزان وأدب. . وأفكار غريبة أصبحت تتنـاثر من فمـه لزبـائنه الذين قل عددهم ومعارفه الذين قلت تحيتـه لهم وتحيتهم له، أفكـار بنعـل ورباط وحمـالات، أفكار عن فـانلات حمـراء بأكمـام لابد من اقتنـاءها، ومحفـظة تحفظ قـروشـه من الضيـاع، وبـدلاً من الفنجـرة والصرف على الأصحـاب والشـاي الـذي يعبـه طـول النهـار بغيـر حساب، لماذا لا يحاسب ويوفر ويبدأ في مفـاوضة الحـاج محمد على امتـلاك الأمتـار القليلة التي يقـوم عليهـا الـدكـان؟ وبـدل الشحـططة والمبيت كل ليلة في مكان، لماذا لا يبدأ يستقر ويبحث له عن زوجـة كبقية خلق الله وقد زالت العـاهة ولم يعـد يخشى أن تنظر امـرأته إلى غيره من الرجال؟ أفكار ومشاريع تكفلت بتعكير باله الرائق ومـزاجه، وتحويل ضحكاته العالية وقهقهاته إلى نوبات غضب وزعيق، والـطلمبة تخرب ويأتي عم باز يستعرضه يرجوه فيخجل ويقـول: حاضـر يا عم بـاز. ولا يـذهـب ويكسـل ثم يقـول لنفسـه أ اشمعنى أنـا يعني اللي أصلحها؟ مانا زي زي الناس. ومـا دام الناس يصلون ولا يصلحـون الطلمبة أو يرفعون الأكوام من طريق العربات، فليبدأ هو يصلي وليبدأ يفعل مثلما يفعـل الناس. والنـاس تأكـل وتلبس وتتزوج ويحيط كـل

منهم نفسه بما يحميه من ضربات الزمان، فلماذا يشذ هو ويبعثر جهوده وما لديه دون خوف من ضربات الزمان؟

بل المضحك أنه كان لا يغضب أبداً إذا عايره أحد بساقه المقطوعة أو أشار إلى عاهته على سبيل المزاح. كان يضحك ولا يحس أبداً أنه عوير أو أهين. من يوم أن ركب الساق وأقل اشارة اليه أو اليها تجرحه، حتى أصبح أشد ما يؤلمه أن يكون جالساً محترماً في مكان ويمد أحدهم يده خلسة ليتحسس ساقه، وكثيراً ما يتحسس السليمة فيشتعل أحمد غضباً ويثور حتى صار له في كل يوم خناقة وضرب وتحقيق

***

وفي يوم وجدته البلدة عائداً من غيبة فوق سطح القطار، ولم يهبط إلا بعد أن تحرك القطار. هبط هائجاً كالزوبعة يجري ويضحك ويطير وراء الناس كالمجنون، حتى بدأ البعض يتساءل إن كان قد فقد عقله حقيقة. ولكنه لم يكن قد فقد عقله، كان قد فقد ساقه الصناعية واستبدلها بعكاز من المشمش أيضاً وقد أضاف اليه تحسينات. . وكان سعيداً جداً وكأنما أفرج عنه بعد سجن أو خرج براءه من اتهام، يتطلع إلى البلد والناس وكأنه يراهم من جديد، وكأنه المسجون حين تفك عنه القيود. وانهالت عليه الألسنة تسأله عن ساقه وأين ذهبت؟ وقال أحمد يومها حكاية وعدل فيها ثم عاد ونفاها وروى حكاية أخرى، وإلى الآن لا يزال يروي عن ساقه في

كـل مرة قصـة مختلفـة. مـرة يقـول إنـه كـان جـالسـاً على قهـوة في المنصـورة واضعاً سـاقـاً فـوق سـاق، وكـانت السـاق الصنـاعيـة هي العليا. . استرعت انتباه واحد من الأفندية المحترمين الجالسين وسأله عنها وفصلها له بخمسة جنيهات ليشتريها لأخيه المبتـور الساق، ومن هنا لهنا أوصل سعرها إلى عشرة، ووجد أحمد الثمن معقولاً، ووجـدها فرصة فخلعها وقال: خذها مبروكة عليك!

ومرة يقول إن أولاد الحرام نشلوا الساق وهو نائم بهـا في منتزه في طنطا، وأنه حين ذهب إلى القسم ليشكو للضابط نشل ساقـه ظنه الضابط مجنوناً وكاد يحيله إلى مستشفى المجاذيب. .

ومرة يقول إن له صاحباً كان يعمل سواقاً في بلاد فوق وحدثت له حادثة بترت ساقه فيها واستعمل العكاز، ولكنه حين أراد أن يتزوج قصده ليستأجـر منه السـاق ليتواجـه بها أمـام العروسـة وأهلها، ولكن أحمـد رفض أن يؤجرهـا له وقـال: إذا كـان سلف معلشي. . إنمـا ايجار لأ. .

وهكذا أخذها الصاحب على سبيـل القرض وبـلا رهن، ولكنه بعد الفرح استحلاها وطمع عليها ولم يردها إلى يومنا هذا. .

أكثـر من قصة يـرويها أحمـد عن فقـد سـاقـه، وينهيهـا دائمـاً بضحكة عالية مدويـة وبقولـه: في داهية. . دا دا كـأن الواحـد كانت رجله مقطوعة.

ثم يترك السامعين مبهورين ويجري وراء واحـد سبه أو خـطف طاقيته أو ساهاه واستولى على الحقيبة الخشبيـة التي يحمل فيهـا عدة الحلاقة، يندفع عكازه كالقذيفة الموجهة طـائراً في الهـواء، ثم يتبعه بجسده في قفزات هائلة سريعة ترج الأرض.

شيء يجنن!

لست في حل من ذكر اسم المدينة التي يوجد فيها ذلك السجين العمومي، فالقصة لم تصبح بعد حكاية ولا تزال في حكم الخبر الذي يتناقله النزلاء وموظفو السجن وأقارب هؤلاء وأولئك. وعلى أية حال فالسجون العمومية ليست كثيرة والحمد لله، بالكاد يوجد منها سجن في عاصمة كل مديرية مخصص للمحكوم عليهم بالحبس أو السجن من المديرية نفسها وما يحيط بها من مراكز أو محافظات.

والبداية مثل فرنسي يقول فتش عن المرأة، ولكننا لن نجد امرأة واحدة في ذلك السجن العمومي فهو من النوع المخصص للرجال، والأنثى الوحيدة المسموح لها بالتجول في أنحاء السجن ليست امرأة ولكنها كلبة، أو على وجه التخصيص كلبة المأمور. وللمأمور في أي سجن عمومي منزل مقام داخل السجن لا تستطيع أن تفرقه عن بقية بناياته من الخارج ولكنه قطعاً فاخر المنظر من الداخل، ويحتل في العادة مكاناً قريباً من المدخل، وله باب خاص ولكنه محوط بالسور الرهيب الذي يحيط بالسجن من كل جانب.

ورغم أن «ريتا» (وهو اسم الكلبة) كانت تتمتع في السجن بحرية تحسد عليها، إلا أنها ظلت سيئة الحظ لفترة طويلة، لا لأنها الحيوان الوحيد الذي يحيا في مكان كل ما فيه من البشر ولكن لسبب آخر، فكونها في بيت المأمور داخل السجن كان يمنعها منعاً باتاً من الاختلاط ببني جنسها من الكلاب في الخارج، وبالذكور منهم خاصة. والظاهر أن المسكينة بعدما تعلقت بأهداب الصبر فترة طويلة لم تعد في النهاية تستطيع، وبدأت تفقد السيطرة على نفسها وأعصابها، وساءت أخلاقها، وأصبحت مصدراً لشكوى لا تنقطع من السيدة الشابة زوجة المأمور التي كانت تصغره بخمسة عشر عاماً على الأقل. مرة تهاجم النملية وتبعثر محتوياتها وتدلق صفيحة السمن على الأرز، ومرة ترفض الطعام ويظل لعابها يسيل بلا سبب واضح، وليالي بطولها تمضيها في عواء غريب كأنها قد انقلبت ذئبة، وأحياناً تضبط في حالة استكافة غير لائقة لمداعبة أحد المساجين، وأخيراً ذلك اليوم الذي هبهبت فيه بشدة في وجه الولد الصغير حتى اصفر من الهلع، وحتى اقترح المسجون العجوز الذي يخدم في البيت أن (يرشوا) له في المكان الذي روع فيه. في ذلك اليوم بالذات أصرت الزوجة الشابة على أن يختار المأمور بين أحد أمرين: إما أن يتخلص من الكلبة بالتي هي أحسن، وإما أن تترك له البيت والسجن بأسره. والمأمور مع أنه كان رجلاً شديد التدين أسمر البشرة سميناً ذا لغد و (شامة) دائرية في حجم القرش تحتل وجنته اليمنى، إلا أنه كان شديد التعلق بريتا ربما لأنها من النوع الأصيل الذي كان

يعتز المرحوم والده بتربيته (ووالده كان هو الآخر مأمور سجون، وتعلم هواية تربية الكلاب من رئيسه الانجليزي أيام كان الانجليز هم الرؤساء في كل شيء حتى في السجون) شديد التعلق بها إلى درجة كانت تدفعه لمناقشات بالغة العمق مع واعظ السجن حول نجاسة الكلاب وأين تكمن بالذات نجاستها، مناقشات كادت تدفعه لإيثار مذهب الإمام مالك على أبي حنيفة الذي يتبعه، لأنه سمع أنه مذهب في بعض الروايات يبيح تربية الكلاب إذا كانت للحراسة. . ومن تحصيل الحاصل أن نقول إنه كان أيضاً شديد التعلق بزوجته الشابة، ولا يمكنه بأي حال أن يفرط فيها. كل ما حدث أنه رأى أن المشكلة لا تستدعي أياً من الحلين، وحلها واحد لا غير. . أن يعقدوا الكلبة على كلب. وكان باستطاعة ريتا أن تحصل على عشرات الكلاب الذكور بحركة واحدة من ذيلها فقط لو فتحوا لها باب السجن وتركوها تجرب حظها بالخارج، ولكن المأمور كان لا يمكن أن يسمح لها بهذا العبث لخوفه أن يتلوث نسلها من ناحية، ولأنه كان يتمنى لو استطاعت ريتا أن تنجب ذكراً من أب أصيل حتى يستعيض بابنها عنها، إذ كان وجودها وهي الأنثى داخل السجن الرجالي الذي تتجول فيه كما يحلو لها قد بدأ يقلقه ويحس أنه وضع لا يمكن أن يرتاح اليه مأمور حمش مثله.

كان على ريتا إذن أن تبقى رهينة المحبسين (سجنها وحرمانها) حتى يقدر لها أن تظفر بكلب يعطيها نسلاً أصيلاً معروف النسب.

وشاء حظها الحسن ألا تبقى هكذا طويلاً، فقد كان بالسجن

موظف محكوم عليه في اختلاس اسمه فوزي واسمه المشهور به في السجن فوزي بك، وكان يعامل معاملة حرف ألف ويمضي طول النهار يتنقل بين مكاتب الموظفين بقامته الفارعة النحيفة وبدلة السجن التي فصلها له ترزي ونظارته السميكة، ووجهه المسحوب الطويل طولاً لا حد له حتى يكاد الناظر إليه يعتقد أنه إذا ابتسم لا بد أن يبتسم بالطول. وكانت عائلة فوزي بك هذا تأتي لزيارته زيارة خاصة مرة كل أسبوع تتم عادة في غرفة المأمور الذي كان ولوعاً بحضورها وبالاشتراك في أحاديثها ولو كانت عائلية أو خاصة، وبانتهاز الفرصة كلما سنحت الفرصة لقرص ابنة فوزي بك الكبيرة ذات الستة عشر عاماً في خدها، وخدها كان يشبه التفاحة شكلاً، ومن المؤكد أنه كان يشبهها طعماً. في زيارة من تلك الزيارات جاء كلب ضخم من نوع (الوولف) مع العائلة، ومن لحظة أن وقع نظر المأمور عليه أدرك أن ريتا قد حلت مشكلتها وأنه عثر لها أخيراً على فارسها. وبالمناسبة كان الكلب اسمه فارس، وإذا كانت الكلاب تقاس بما فيها من كلوبة فقد كان من الواضح أن فارس يتمتع بقدر وافر منها. وما كاد المأمور يعرض الأمر على فوزي بك حتى انه لم يوافق فقط، ولكنه أخذ يكيل للمأمور عبارات الثناء المنمقة على (بالغ عطفه) (وعظم تواضعه) وتنازله بإسناد هذا الشرف إلى كلبه المتواضع . .

وهكذا بعد الزيارة أخذوا «فارس» إلى مخزن الملابس والمهمات ليحتجزوه حتى يحضروا ريتا. وكان المخزن حافلاً بأكوام الملابس الجديدة والمستعملة والكهنة، ولا بد أن الكلب أخذ يسلي نفسه بالقفز

فوقها والتطلع من نوافذ المخزن العالية، إذ بعد قليل سمعه النزلاء والحراس ينبح نباحاً شديداً ويحاول دفع رأسه بين حديد النوافذ ليغادر المخزن. ولا يعرف أحد للآن على وجه الدقة ماذا رآه الكلب بالضبط وأثاره، فالمخزن كان يطل من جهته الخلفية على فناء السجن الداخلي حيث كان المسجونون حرف ب في حالة (طابور) أي في حالة فسحة. ربما مشهد المئات منهم ببدلهم الزرقاء ذات السراويل التي تقصر أحياناً فلا تكاد تصل إلى الركبة وتطول أحياناً حتى تجرجر على الأرض، والتي يبدون فيها على هيئة بشعة تكاد بشاعتها تبعث على الضحك، أو ربما تكون (الزيارة من خلال السلك) تلك التي يقف فيها مئات الأهالي في ناحية وعشرات المساجين في ناحية أخرى ويحشد كل منهم طاقته في صوته ليصرخ ويشتاق ويسلم لتصبح الزيارة مظاهرة مجنونة حافلة بالأيدي المشوحة والاستغاثات والدموع، ربما هو مشهد الخارجين للمحاكمة الجالسين القرفصاء ببدلهم القذرة على الأرض في تشابه لاتكاد تميز فيه شخصاً عن شخص ولا بدلة عن تراب، ربما هو الجو العام للسجن الذي يطبع كل شيء بطابع غريب مرير ويبدو فيه المساجين آلافاً من البقع الزرقاءوالبيضاء المنتشرة كالجراد البشري مرصوصة على الأرض تقطع الطوب، متعلقة بالحيطان تطليها وخالعة ملابسها تسلك المجاري وسائرة اثنين اثنين وبين كل اثنين جردل فيه ما فيه من ماء أو «يمك» أو قاذورات. أو لابد أن التي أثارت «فارس» هي القضبان. . في كل مكان قضبان وكل شيء بينك وبينه قضبان. .

بعض الناس قالوا إن الذي أفقد الكلب صوابه كان منظر أرغفة عيش السجن. وقال آخرون بل هو احساسه أن الباب أغلق عليه وأصبح أسير الجدران. المهم أن الكلب ظل نباحه يرتفع ولا يترك فرجة في المكان إلا وجرب فيها نفسه وجسمه حتى زرق من خلال فتحة التهوية في المخزن، وقفز المسافة الكائنة بينه وبين دور تسعة، ومنه إلى سور المسجد، إلى الخلاء. وحدث هذا قبل أن ينتبه أحد، بل دون أن ينتبه أحد . . فالحقيقة أنهم لم يكتشفوا هربه إلا حين ذهبوا يفتحون باب المخزن وقد أحضروا ريتا.

هاج المأمور طبعاً، وكادت الشامة اللاصقة بوجنته تقفز غضباً وتخترق عين السجان الذي ذهب يبلغه بما حدث. وأسرع فوزي بك يعتذر عن تصرف كلبه ويعد بإنزال العقاب به وتوصية الأسرة بحرمانه من الطعام. وظل طوال الأسبوع كلما قابل المأمور يعتذر، حتى حان موعد الزيارة التالية، وجاء الكلب مع العائلة، ونبه المأمور زيادة في الاحتياط بأن يحجز الكلب في احدى الزنازين الانفرادية التي يوضع فيها كبار المجرمين إذا عصوا أو أذنبوا، وخصص لحراسته أرذل سجان في العنبر. ولتسهيل المهمة أكثر وضعت ريتا في الزنزانة هي الأخرى حتى لا يضيع الوقت في البحث عنها. وأخذ فارس بعد الزيارة من صحبة العائلة إلى الزنزانة حيث أدخل فيها بخدعة وأغلقوا عليه الباب، ووقف السجان يراقبه من خلال (العين) الموجودة في الضلفة. وما كاد الباب يغلق على الكلب، ويدرك أنه أصبح سجين جدران أربعة حتى راح يهبهب دون أن يعير ريتا أقل

انتباه وكأنه لا يراها، ثم تحولت هبهبته إلى عواء، وما لبث السعار أن انتابه فمضى يقفز ويجري في اتجاه النافذة وينشب أظافره في الضلفة ويخربش الحائط، بينما علا نباحه حتى كاد يصم الآذان. وكلما أوغل في محاولاته انكمشت ريتا على نفسها وانكمشت واضعة ذيلها بين فخذيها محتلة من ركن الحجرة القصي أصغر مساحة يمكنها أن تحتلها، تاركة بقيتها لهذا البركان الهائج. ظل الشاويش يراقبه منتظراً أن يعقل ويهدأ بلا فائدة، كلما كان الوقت يمتد كان سعاره يزداد والزبد الذي حول فمه يتكاثر. وجرى الشاويش بالأخبار إلى المأمور، وسبه المأمور قائلاً إنه هائج لأنه لابد جائع، وأمره بأن يقدم اليه ثلاث قطع كبيرة من اللحمة التي يأكل منها المساجين، وعاد الشاويش مهرولاً لينفذ الأمر غير أنه ما كاد يفتح الباب ليلقي اللحم حتى فوجيء بقفزة هائلة من الكلب وثب فيها على أكتافه وألقاه أرضاً وبقفزة أخرى كان قد أصبح خارج العنبر، وبثالثة كان قد أصبح خارج السجن ومضى يجري ويجري مبتعداً لا يلوي على شيء.

ولم تكن السقطة وحدها هي كل الجزاء الذي حل بالشاويش، فقد أقسم له المأمور بشارب أبيه أنه لن ينساها له، وأنه سينتهز أول فرصة وينقله إلى سجن الواحات. بل شمل غضب المأمور فوزي بك نفسه، واستمع الرجل للتأنيب وهو صاغر، وحاول أن يعتذر فرفض اعتذاره، ولم يسمح له المأمور بفرصة إلا أن يرسل في طلب الكلب فوراً وإلا كان ما كان.

وأرسل أحد السجانة إلى منزل عائلة الرجل ليحضر الكلب

المارق. ولكنه عاد يقول إن الكلب لم يعد بعد، وإن العائلة تقضي وقتاً عصيباً في انتظار عودته. وأرجعه المأمور اليهم ليخبرهم بأن عليهم احضار الكلب متى عاد، وفي أي ساعة يعود ولو كان في منتصف الليل. ولم يعد الكلب للعائلة إلا بعد انقضاء يومين يبدو أنه ظل تائهاً فيهما في المدينة، وخضوعاً للأوامر أحضروه وكانوا قد استعدوا له هذه المرة، فأمر المأمور بإدخاله حين حضوره مع ريتا في الفناء الداخلي لسجن التأديب، وهو فناء تحيطه الزنازين من كل جانب، وسقفه مصنوع من القضبان، وبابه من حديد وقضبان أيضاً ولا يمكن أن يهرب منه أبداً. وكان على الكلب أن يبقى مع ريتا في هذا الفناء حتى يتم كل شيء على أن يقدم لهما الطعام والماء خلال المسافات الكائنة بين القضبان ثلاثة عساكر بالبنادق، على رأسهم شاويش التأديب المعروف بقسوته وجرأته.

وتم كل شيء تماماً وفق ما أراد المأمور، ولكن الكلب بدا كأنه فقد عقله نهائياً هذه المرة، فقد قضى يوماً بطوله ينبح ولا يكف عن النباح، وفي الليل لم يدع أحداً يغمض جفنه لا في فناء السجن ولا في بيت المأمور، وقرب الفجر أحس الديدبان بحركة في سقف فناء التأديب، وقبل أن يصرخ ويقول (م اللي هناك) كان الكلب قد أرغم جسده على المروق بقوة جبارة من خلال المسافة الصغيرة الكائنة بين حديدتين، وفي ومضة كان يقفز من سقف إلى سقف إلى خارج السجن.

ولم يعد لمنزل العائلة لا ليلتها ولا ما تلاها من أيام وليال، وبحثوا عنه في كل مكان فلم يجدوه أبداً، كان بلا ريب قد غادر المدينة كلها إلى غير رجعة.

آخر الدنيا . .

حين ذهبت شمس الشتاء الصغيرة وجاءت الشمس الكبيرة وهبت نسمات الحر تؤذن بقرب الامتحان . . كان أهم ما يشغل باله هو ضياع تلك القطعة الفضية المسدسة الأحرف ذات اللمعة الهادئة الوقورة والنعومة الخشنة التي يبعث ملمسها الفرحة والأمان .

وحين رجوعه إلى البيت وقد ضعضعته رحلة العودة وملأت جسده النحيف الأصفر بالعرق الصغير الأبيض، مد يده في جيب البنطلون وحين لم تلمسها كذب أصابعه وعاد يمدها، وكلما أكدت الأصابع أنها غير موجودة ازداد تكذيباً لها . . ولم يبدأ الخوف الأكبر ينتابه إلا حين فتش جيوب البنطلون كلها والجاكتة والجلباب ومكان وقوفه، وكل بقعة من أرض الغرفة المظلمة التي لا يأتيها النور إلا من كوة صغيرة قرب السقف . . لم يبدأ الخوف الأكبر ينتابه إلا حين فتش الحجرة وما فيها بحرص وإمعان وكأنما يفتش كفه . . ولم يجدها .

حينئذ فقط كانطلاق الاستغاثة في ريف ساكن، كالخبر القاصم للظهر . . كالمصيبة المفاجئة، أدرك أنها ضاعت ولم تعد في حوزته . . ووجد نفسه ينهار على الأرض نصف خالع لملابسه، وهو

لا يعـرف شيئاً ولا يفكـر في شيء ولا مايجب عليـه أن يفعل، وكـأن عقله قد ضاع منـه أيضاً. . وطـالت الجلسة وامتـدت وهو يحس بهـا وكأنها لم تبدأ وكأنها جريمة أن يتحرك. . لم يبـدأ يتحرك إلا حينـمـا بدأ صوت رفيع يعلو داخله ويقوى ويؤكـد له أنهـا أبداً لم تضـع وأنها لابد موجودة في مكان ما، وماعليه إلا أن يجد المكـان ليجدهـا، هنا فقط تحـرك وأكمـل خلع بـذلتـه وأكمـل ارتـداء جلبـابـه وعـاد يفتش الحجرة ومحتوياتها من جديد، ثم خرج إلى فناء الـدار الـواسع غيـر المنتظم، وصعد إلى السطح، وبعود من الحـطب عسعس فيما أمـام البيت من تراب، بل الكناسة أيضاً فرزها بالعود وبعينيه وبكـل قدرتـه على التمييـز. . ولكن بحثه في كـل تلك الأمكنة كـان نـوعـاً من أداء الواجب. . لم يكن قد فقد شيئاً قبل الآن. . فلم يكن أبداً قد امتلك شيئـاً. . ولهذا فهـو لم يجـرب أيضـاً أن يبحث عن شيء، ولا أحس أبداً بهذا المـزيج الغـريب من الأفكار التي تفـزعه، ويـطردها فتعـود أقـوى فيكـاد يبكي مخـافـة أن يكـون مـا يحـدث لـه هـو الجنـون الذي يرسلون من أجله الناس إلى السراية الصفراء. .

لا يهم الآن أين هـو أو ماذا يفعـل، ولا إن كان قـد قدر لـه أن يظل حياً إلى يومنا هذا فربما عاش واغتنى وبنى لنفسـه قصراً وأحس بـأهميـة أشيـاء كثيرة، ولكنـه أبداً لا يمكن أن يكـون قد أحس بمثـل الأهميـة التي أحسهـا يـومـاً مــا لتلك القـطعـة الفضيـة المسـدسـة الأحرف. . ليس لأنها أول نقـود أعطاهـا له أبـوه. . فأبوه كان دائمـاً يعطيه أشياء كلما جاء لزيارتهم. . والحقيقة أنه لم يكن يأتي كثيراً. .

كل بضعة شهور مرة. . يفاجأ حين يعود من المدرسة بصوته الحبيب يأتيه من وراء الباب قبل أن يفتح له الباب. .أو يكون الليل قد استتب وسكنت الأصوات كلها ثم مر قطار آخر الليل بصفيره الحزين النعسان. . ومرت بعده دقائق، وإذا بالقبضة تدق على الباب، وبالصوت أحب صوت يقول: افتحوا أنا فلان. . ولهذا فما مرة كان يعود فيها من المدرسة ويطرق الباب، وما من مرة يفوت فيها آخر قطار إلا ويستجمع نفسه استعداداً للمفاجأة، واستعداداً لما قد يعقبها من خيبة الأمل. .

وإذا جاء أبوه أخذه تحت ابطه واحتضنه وقبله قبلة سريعة في خده، ودس يده في جيبه وأخرج له شيئاً: حبة كراملة. . قلم رصاص جديد غير مبري، وأحياناً يدس يده ولا يخرج شيئاً ويحس بأبيه محرجاً فيفتعل سبباً ويختفي لينقذه من الاحراج. . وفي كل مرة يأتي يظن أنه قد استحوذ عليه أخيراً وأنه لن يفلت منه أبداً، وفي كل مرة يحدث ما يؤلمه فيعود من المدرسة أو من الخارج ليجد أن أباه قد ساهاه وذهب. يدور في أنحاء البيت ويصعد إلى السطح ويجري إلى الجامع يفتش صفوف المصلين الراكعين أو الواقفين. . أو حتى الساجدين الذين قد اختفت كل معالمهم ولم تبق لأيهم سوى قدم واحدة واقفة تسند الجسد، وبلمحة واحدة يلقيها على الأقدام كان يدرك أن أياً منها ليست قدم أبيه. .

ويلهث حينئذ إلى المحطة لعله في مكان ما في البلدة لم يسافر بعد ولابد سيأتي لركوب القطار، وتمر القطارات ذاهبة وآتية ولا

يظهر له أثر، حتى إذا مر قطار الرابعة تملكه اليأس الكامل وجازف بنفسه ومر من أمام «الراس» في طريقه إلى البيت يكاد يبكي . . وأحياناً يبكي ويحس أن البكاء لا يعبر أبداً عن ضيقه، وأن الحل الوحيد أن يساهيه القطار ويظل يدهمه ويدفعه حتى يوصله إلى بعيد. . أبعد بعيد. . آخر الدنيا.

ويصل البيت وتسأله الجدة أين كان. فيتخابث هو ويسألها أين أبي؟ . . فتجيبه بتلك الكلمة التي يحس بها كزلطة السكة الحديد حين تدق الرأس: سافر. لكم كره السفر وتمناه فهو الذي يأخذ أباه منه وهو أيضاً الكفيل بأن يذهب به إليه. . وكأنما تتذكر الجدة. . إذ لابد أن تعنفه على شيء حدث في أثناء زيارة أبيه. . ثوب متسخ، أو شحوب زائد عن الحد، أو كلمة شكوى تفوه بها، وبيد جافة معروقة تأخذ أنفه بين اصبعيها لتمسحه وتعلمه النظافة، وإن تململ ثبتته في مكانه بقرصة أذن، وإن قال: «يا اما» لكزته قائلة : اسكت يا ابن النجسة. . ويحس بالخجل الشديد كأنها عرته أمام الناس، ومع أنه يعلم تماماً أن جدته فظة المخارج فقط، وأن كلامها مع الجميع شتائم. .

ويحين العشاء. . والعشاء دائماً خضار من الغيط مسلوق أو أرز بالتقلية، والطبلية تزدحم بأيد كبيرة خشنة، وحتى النساء اللاتي يخجلن في حضرة الرجال لا يخجلن ساعة الطعام، ويروح الكل يأكل في نهم، والأيدي تتسابق بلقم كالفشوس تفرغ الغموس في ومضة، ويده صغيرة كيد القطة يمدها خلسة ويدعي الأكل، خائفاً

أن يدرك أحد أن الطعام لا يعجبه وأنه دلوعة وأنه طفل، فالجميع كبار يعاملونه كالكبير، ولا يمكن أن يجعلهم يتصورون أنه صغير، ولا تكون به حاجة للادعاء فلا أحد يفطن اليه والكل مشغول عنه، والقطط وحدها هي التي تهرب من القبضات الساحقة الزاجرة وتستهيفه وتتكاثر عليه، تمد يدها قبل يده فإن حاول سبقها زجرته وماءت في وجهه وأخافته.

. . وفي أحيان يضيق بالعشاء ويروح يتصور عشاء آخر مع عائلته الحقيقية وأخوته الصغار والكبار، فلابد أن له أخوة ولابد أنهم يتناولون الآن طعاماً أحسن وأبوه يأخذهم تحت ذراعيه ويهدهد عليهم، وأمهم ـ أمه ـ تدللهم وتطعمهم. . لابد هذا رغم كل ما تقوله الجدة وتقسم عليه، رغم تأكيدها بأنه لا أخوة له ولا أم. انه شيطاني. . مرة انتابه العناد وظل يبكي ويطالب الجدة أن تدعه يذهب إلى أخوته وأمه، وحين لم يفلح فيه زجر أخذته الجدة في حضنها وقبلته وقالت له وهو يرى الدموع في عينيها إن أمه سرقها حرامي ذات ليلة من أبيه، وأن لا فائدة من بكائه أو إصراره إذ لا أحد يعرف مكانها أو أين تقيم، وأنها هي أمه الحقيقية التي سيعيش معها إلى الأبد. . ليذهب كالشطار إلى المدرسة ويتعلم ويصبح غنياً وأفندياً كالبهوات. وحين حاول المحاولة الأخيرة وطلب أن يذهب إلى مدرسة من المدارس القريبة من أبيه، ضمته جدته وهي تخبره أن لا مكان له عند أبيه، إذ هو يعمل هناك بعيداً جداً بينهم وبينه أسفار وأسفار. .

ـ عند آخر الدنيا يا جدتي؟

ـ تماماً هناك يا بني. . مكانك معي هنا لتكون قريباً من المدرسة.

ورغم هذا فلم تكن المسافة بين بيت جدته والمدرسة تقل عن الأربعة كيلو مترات، يصحو لها من الفجر. . توقظه العمة أو زوجة العم التي يكون عليها الدور في جلب الماء من الترعة، وتصب عليه من أبريق فخار ذي ماء مرصرص يوقف شعره ويدمي فروة رأسه، ويظل لا عمل له طوال الطريق إلا النفخ في يده، ويجري حتى لا يتأخر والطريق مضبب نصف مظلم وطويل لا نهاية لطوله، ويقطعه وحيداً فزملاؤه لا يصحون في هذا الوقت المبكر، ومع هذا يسبقونه إلى المدرسة وقد أركبهم آباؤهم ركائب أو قطعوا لهم تذاكر بتعريفة في أول قطار. ودائماً يصل والطابور واقف، ولابد له كل يوم من خيزرانات أربع أو خمس. . للتأخر أو لقذارة الحذاء أو لعدم الحلاقة. . وبأيد صغيرة ورمها البرد وخدرها الضرب، وبأذن حمراء بالزمهرير وما تيسر من القرصات، وببدلة جرباء كالحة وركب مسلوخة وشبه حذاء، يدخل الفصل منكس الرأس، وربما لهذا كان يطلع الأول. . دائماً الأول، ودائماً هو أكثر التلاميذ انتباهاً. . ربما لكيلا ينتبه إلى نفسه ويخجل. في فسحة الغداء فقط يعود رأسه ينكس، حين يترك غيره يذهب إلى المطعم أو الكانتين ويذهب هو ليبحث هناك عند آخر السور على منديل الغداء الذي طبقوا له فيه الرغيف على قطعة الجبنة، والذي كان يخفيه بجوار السور ويتكفل لونه الذي لا

يختلف عن لون الأرض بحفظه من الضياع. وما أعمق الراحة التي كان يحسها حين يدق آخر جرس، إذ معناه أن تبدأ رحلة العودة.. نفس الطريق الذي قطعه لاهثاً مذعوراً يعود منه الهويني وبالهويني يحلم ما يشاء من الأحلام، وقد لا يحلم أبداً ويظل طول الطريق سعيداً يكاد يطير، فقط لإحساسه أنه هنا يستطيع أن يختار أي حلم ويحلم به.. وأي هدف ويحققه، هنا يستطيع أن يعثر على أمه ويستحوز إلى الأبد على أبيه، ويسافر إلى آخر الدنيا ويجد الكنز وخاتم سليمان ومصباح علاء الدين.

وفي نفس طريق العودة هذا فقد كنزه الحقيقي، القطعة ذات القرشين التي أعطاها له أبوه في زيارته الأخيرة.. وقبل أن يغيب غيبته التي طالت وأسالت دموع جدته مراراً، ويسمع الهمسات أنه لن يعود إلى البلدة مرة أخرى.. أشياء لم يكن يحفل بها فالهاتف الذي في نفسه يؤكد له أنهم جميعاً يكذبون عليه فمن المستحيل أن يتركه أبوه هكذا ولا يعود إليه. بل هو لا يعرف تماماً لماذا أبطل التفكير في أبيه ووضع همه في القطعة ذات القرشين... صحيح كان يدرك أنها نقود ولكنه يدرك بالسمع، فهو لم يشتر شيئاً ولم يبع ولا امتلك قرشاً أو مليماً في حياته ووضعه في محفظة أو كيس، بل لم يكن قد امتلك أبداً شيئاً لنفسه. .البدلة والكراريس والأقلام كانت أشياء يعطونها له ليذهب إلى المدرسة، والأشياء التي كان يعثر عليها أحياناً ويحفظها ويصنع لها صندوقاً ويضعها فيه كان يدرك من أعماقه أنها بغير قيمة

ويستغرب حرصه على إبقائها عنده واعتنائه بهـا، فهو لا يتحمس لهـا إلا حين تضيع أو يكتشف ذات مرة أن جدته تخلصت منها.

القطعة ذات القرشين أو «أم أربعة» كما كانت الجـدة تسميها، كانت شيئاً آخر. لأول مرة في حياته أحس أنه أصبح مـالك شيء ذي قيمة عظمى! إنها ليست نكلة أو ربع قرش أو تعريفه أو غير هذا من القطع التي كانوا يسمحون لـه بإمسـاكها في يـده أو التفرج عليهـا.. إنها قرشان بحالهما، في قطعة من الفضة، الفضة التي يسمع النـاس يتكلمـون عنهـا بـاحترام لا يعـادل إلا احتـرامهم للذهب.. أيـام أن أعطاها له أبوه لم يكن قد أحس بأهميتها، كان مشغولاً كالعادة بخوفه من أن يسافر وبالضيق الذي ينتابه حين يسـافر والأقـاويل التي أعقبت سفره، حين بدأ يفطن إليها وإلى أنها ملك خالص لـه لا يشاركـه فيه أحد كاد ينسى أباه والدنيا وكل ما في حياته.

وظلت معه طوال الشتـاء.. إذا عاد من المـدرسة كـان يضعها في كيس صغير خيطه بنفسه لأجلها ويحكم وضع الكيس في جيبه.. كلمـا خرج من البيت تحسسهـا.. كلما جـاء عليه الـدور في لـعبـة ـ ضربونـا ـ اطمأن لـوجودهـا. ولا ينام إلا إذا ملس عليهـا ويستعجل اليقظة ويصحو فـرحاً لأنـه من جديـد سيضغطهـا بين أصبعيه ويقلبهـا ويستمتع مرة أخرى بلمس خشونتها. إذا ارتدى البدلة نقلها إلى جيب البنـطلون، وقبـل أن يخلعـه يكـون أول مـا يفعله أن يعيـدهـا إلى الجلباب. وأغرب شيء أنها وهي معه ويتحسسهـا طوال الـطريق كان يحس بـالدنيـا دافئة وبخـطواته أسـرع، وحتى إذا نالـه على التـأخيـر

ضربات وتورمت يداه فقبل أن يدخل الفصل كان يناضل لكي تستطيع أصابعه التي فقدت حركتها وإحساسها أن تطبق عليها، وحين تنقل إليه الأصابع حجمها مبالغاً فيه ومضاعفاً وملمسها مخالفاً مغايراً وكأنما تورمت هي الأخرى. وفقدت الإحساس ونالت خيزرانات، حين يحدث هذا في التو كان يذهب الألم عن يديه والمهانة عن نفسه، وفي الفصل إذا استعصت عليه الإجابة استنجد بها، وإذا خانته الذاكرة وأخطأ وأحس بالمذلة تعزى بأنها على الأقل معه في متناول يده. وتركزت أحلامه في طريق العودة حولها.. أحياناً يتصور أن أناساً يعرضون عليه مائة جنيه ليأخذوها، ورغم إدراكه أن الجنيهات المائة مبلغ لاحد لضخامته فإنه كان إذا وصل في أحلامه إلى مرحلة التنفيذ لا تطاوعه نفسه فيرفض، ويرفض حتى مبلغاً أكبر.. ويقول الناس عنه إنه مجنون ويسألونه كيف لايقايض عليها بمائة جنيه وأكثر فيعجز هو عن تقديم السبب، إذ هو نفسه لا يستطيع أن يعرف لماذا يجبها كل هذا الحب ويفضلها على مال الدنيا كلها، وحتى على مصباح علاء الدين!

وحين يستعرض في الطريق مخازي اليوم، ودائماً كانت له كل يوم مخاز، ويتذكر نظرة مدرس الجغرافيا «الملظلظ» السمين ذي الحذاء البني الذي لم تر عيناه شيئاً في مثل لونه البني الجميل ولمعته التي تخطف البصر، ونعله الثخين السميك المحلى حين يتصل بالجلد بعدد لا نهاية له من الخطوط الدقيقة القصيرة المتوازية - أعظم ما كان يتمناه في حياته أن يرتدي حذاء بمثل تلك اللمعة والنظافة -

حين يتذكر نظرته إليه النظرة التي كلها اشمئزاز وكأنه ينظر إلى دودة أو بصقة ـ وكلامه عنه وعن أبيه، وبصيغة الجمع، وعن أبيه بالذات وفقره وفقرهم وكأنهم مصابون بداء منفر تتقزز له النفس اسمه الفقر ـ حين يتذكر ضرب التلامذة الكبار له وقذفهم الحبر على بدلته، وجاره ابن عامل تليفون هندسة الري الذي ترك له التختة وحده وذهب إلى تختة أخرى هامساً في أذن جيرانه بأنه لم يعد يطيق رائحة البصل والمش التي تفوح منه، حين يطارده لقب «أبو ضب» الذي أطلقوه عليه ظلماً حتى آمن به وبدأ يفكر في وسيلة لانتزاع أسنانه ـ حين يستعرض ويضم نفسه على نفسه وكأنما يريد أن يخفي نفسه عن نفسه، لا يبدأ ينسى ويعود يحلم ويسعد إلا حين يتذكرها ويدس يده كالملهوف ويطمئن عليها.

وفي ذلك اليوم حين خلع البدلة وعرف أنها ضاعت، وظل ما تبقى من اليوم منحنياً يبحث أو نائماً على بطنه يخترق الظلام بأنظاره ويتأمل، وأوى أخيراً إلى مضجعه بين الأجساد الكثيرة التي تحفل بها وبنفسها وشخيرها الغرفة، كان كل ما يشغل باله قبل أن تغمض جفونه أنه ـ بعد ـ لم يجدها. وحين استيقظ ومد يده مرة واحدة إلى الكيس عن بعد وتلمس جميع أطرافه، استعد لصرخة فرحة وأطبق يده مرة واحدة على الكيس ولكن يده لم تطبق إلا على الهواء وكان الكيس كالأمس لا يزال فارغاً، تورم قلبه وتمدد يحتل كل صدره ويكاد يوقف أنفاسه عن التردد. ما فائدة الصباح الباكر أو المدرسة أو أن يكون الأول ويصبح كالبهوات إذا لم يجدها؟.

ومضت أيام كثيرة . . خميس وجمعة وراء خميس وجمعة، وما فعله في اليوم الأول كان يفعل بعضه في الأيام الأخرى فيعيد تفتيش الدرج أحياناً أو يتأمل البقعة التي يقف فيها حارساً لمرمى فريق الكرة الزلط، أو يعيد تقسيم الحوش إلى مربعات جديدة يتفحصها اصبعاً اصبعاً. مضت أيام وعاد يضحك ويحزن ويلعب .(ضربونا)، ويعاني من خشونة الجدة وخيزرانات المدرسين ولكنه كان وكأن شخصاً آخر هو الذي عاد يفعل كل هذا، شخصاً لا يفرح ولا يحزن ولا يجد في الألم ألماً ولا في أحلام العودة سعادة، أما شخصية هو فقد ظل دائماً معها وكأنها كانت تمتلكه وحين ذهبت أخذته وأخذت انتباهه وكل احساسه. كلما فتح فمه ونطق شيئاً، كلما كف عن الحديث وسهم، كلما أحسن أنه يريد أن يفكر، كلما بدأ يضحك، كلما صادفته سعادة صغيرة. . حبة طماطم أو برتقالة أو استيكة يكافئه بها مدرس الحساب على معضلة، كلما أحس بالعضة وأدرك مفجوعاً أنها ضاعت وإنه لا يزال لم يعثر لها أثر، وهنا ومن جماع نفسه وبكل ما يمتلك من عناد وتصميم كان يهتف ويكاد يصرخ ويسمع الناس أنها لم تضع، أبداً لم تضع، فلا بد أنها موجودة في مكان ما من الدنيا تنتظر منه أن يعثر على المكان فيعثر عليها.

وفي يوم وقد مضى الشتاء وبدأت الدنيا تحفل بالشمس الكبيرة والحر ورائحة الامتحان، كان عائداً ما كاد يخلع الجاكتة ويلقيها ويلتقط أنفاسه من رحلة العودة حتى تذكر ـ هكذا ـ وكأن يداً لا يعرفها امتدت ووضعت الفكرة في رأسه ثم تلاشت، تذكر أنه في

اليوم الذي فقدها فيه تماماً كانت نفسه قد زينت لـه أن يحصل على بضـع كيـزان من التين الشـوكي المـزروع فـوق جسـر السكـة الحديد، وأنـه لأول مرة خـالف نصيحة أبيـه الذي كـان يوصيـه على الـدوام بـألا يصعـد إلى الجسـر أبـداً، وأن يمشي على النـاحيـة المحـاذية للخليـج من السكة الـزراعيـة بحيث إذا ميلت عليـه سيـارة قادمة يصبح بإمكـانه أن يخـوض في الخليج الضحـل، يومهـا خالف النصيحـة وصعـد إلى الجسـر وزاغ بصـره بين الكيـزان النـاضجـة الصفراء كالكهرمان وبين جلبـاب عم علي الأسود الذي يشتري التين من المصلحة ويحرسه ويبيعه. لا بـد أنه في خضم خـوفه واضـطرابه ومحاولته أن يحـاذر الشوك وأن يفـك ملابسـه بطريقـة يدعي بهـا لعم علي أنه يقضي حاجته فيما لو ظهر له فجـأة، لا بد أنهـا سقطت منـه في ذلك المكان ولا بد أنه لم يع وهو في حالته تلك بسقوطها.

ورغم أن الأمر كان مجرد فكرة بعيـدة الاحتمال، أبعـد منها أن تكون قد ظلت في مكانها تنتظره طوال تلك الأسابيع هي الجـديدة أو تكـاد، ذات اللمعة رغم هـذا، إلا أن الفرحـة التي اجتاحتـه أغـرقت بفيضـانها أي تـردد أو شك، فـرحة حقيقيـة جعلته يـدرك أنه لـم يكن يفرح، وحين انطلق يجري بالقميص والبنطلون قافزاً فوق جـدته التي كـانت تجلس على عتبة الغـرفة تلضم عقـود «البـاميـة النـاشفـة» أحس أيضـاً أنـه لأول مـرة يجـري أو يمشي أو يتحـرك، أو يهمـه الجـري والتحرك. ودون أن يعي كان قـد حدد لنفسـه ما يجب عمله، فـالتين الشوكي مزروع بطول الأربعة كيلو مترات التي يستغرقها الجسر، وهو

لا يعرف في أي بقعة بالذات قام بمغامرته.. ولهذا فسيمسك الجسر من الأول من محطة البندر إلى أن يجد البقعة. ولم يلتقط وعيه بنفسه ولم يبدأ ينظر إلى الشيء المحدد إلا حينما أصبح وكأنما بسرعة البرق عند محطة البندر. ونظر إلى الجسر الطويل واستعذب النظر ففي مكانه منه سيجدها، ولا يهم الطول فكلما طال البحث امتدت النشوة، وأيضاً لا يهم أنه للمرة الثانية يخالف نصيحة الأب وتحذيره بأن القطار لو فعل سيقطعه قطعاً قطعاً.. أكبر قطعة منها في حجم القرشين.. فهو للمرة الأخيرة يخالفها ولا خطر هناك، فالساعة بالكاد قد بلغت الثالثة وباقي على القطار القادم.. قطار الرابعة ساعة، والأمر لن يأخذ دقائق.

* * *

وقدما قدما فوق الفلنكات الخشبية مضى يتحرك ويتوقف ويجول بعينيه خلال الزلط الكثير، عشرات الزلطات ومئاتها وآلافها، ثم ينحني ويتفحص جذور التين وأوراقه الجافة ثم يعود للسير، ولكنه كان يدقق ويتفحص لأداء الواجب ليس إلا، فقد كان يعتمد على انفعال ما سينتابه حين يصبح عند البقعة التي قام فيها بمغامرته، إذ رغم أن تينها لا يختلف عن غيره في طول الجسر، وزلطها لا يختلف عن الزلط، إلا أنه متأكد أنه لو رأى ألواح التين وأوراقه وشجرته التي أخذ منها في الحال سيعرفها. وهكذا مضى يزحف قدما قدما ينظر أداء للواجب، ويتأمل الأوراق والبقع منتظراً أن تحدث له الاختلاجة التي يترقبها، وحين لا تحدث يتقدم خطوة أخرى فرحان فقط لأنه

أخيراً يعود للبحث عنها، سعيد بتضييق الخناق عليها، يود لو لم يحدث صوتاً حتى لا تحس به وتفر.

وترك السيمافور خلفه وعدى الكوبري، وبدأت أعصابه تتوتر وكأنها تستعد للاختلاجة الكبرى، وأصبح يدقق إلى الدرجة التي لا يرفع عينيه عن الزلط إلا حين يبدأ الزلط يسبح أمام عينيه ويدور، ولا يترك شجرة التين إلا حين يحس بأشواك أوراقها تكاد تلمس عينيه، وفجأة اختلج جسده وتوالت دقات قلبه وعرق وأحس بروحه تنسحب إلى أسفل وعاد يدير عينيه في البقعة ويزداد جسده اختلاجاً ودقاً وعرقاً. بالضبط.. هي البقعة! بقايا الكيزان التي انتزعها والورقة التي قسمها نصفين للا سبب معين. كان مفروضاً أن يبدأ بفحص الزلط والرمل والتراب وينحني ويدقق ولكنه لم يفعل شيئاً من هذا فقد وجدها، هكذا دون أن يبحث عنها، لفت نظره بريقها الفضي الوقور ينبعث من فوق حجر أبيض وكأنما وضعت هناك بفعل فاعل أو ظل يحرسها ملاك، تماماً كما هي بالعضة الصغيرة في حافتها، بملمسها، بالرجفة التي تعتريه حين يتحسس خشونتها الناعمة.

ظل زمناً طويلاً واقفاً في مكانه لا يفكر ولا يرى ولا يسمع ولا يعرف ماذا يجب عليه أن يفعل، وكان أول ما تحرك فيه يده، وتحركت لتزيد قبضته عليها، وخاف عليها من عنف القبضة فخففها، ثم سار ووجد نفسه يتوقف بلا سبب، وما كان يتوقف برهة حتى أحس بفرحة حلوة طاغية وأدرك أنه وجدها، حقيقة وجدها. وراح يقذفها بحرص لتعود تختلط بالزلط وينقض عليها، وتستميت قبضته

ليعود يفتحها ويقذفها ويفرح حين يجدها. ولكنه لم يلبث أن عدل عن إضاعتها، فقد خاف أن تساهيه كأبيه تذهب ويفتش ولا يجدها. خاف إلى درجة كاد يعتصر نفسه ويبكي، فهو خلاص لم يعد يريد أن يساهيه شيء ويذهب ويأخذ روحه معه، إلى درجة أصبح حلمه كله أن يستمر في هذه اللحظة إلى الأبد، فهو لم يعد يريد شيئاً، لا أب ولا مدرسة ولا جدة ولا حتى يوم آخر يستيقظ من أجله وينام في آخره.. لم يعد يريد إلا أن يظل يحس أنها عادت إليه وأنه عاد إليها وأنها ستبقى معه وسيقى معها دون أن يقطع هذا البقاء حادث أو ضياع.

وأنى له أن يدرك وهو على هذه الحال أن الثالثة كانت قد فاتت من زمن والرابعة حلت، وقطارها جاء وقام من محطة البندر، وتعدى السيمافور وأنه في تلك اللحظة بالذات خلفه يصفر له صفيراً متقطعاً مستغيثاً يأمره به أن يبتعد.

الستارة . .

كلما رأيت ستارة مسدلة فوق شباك، أو «بيشة» تغطي وجهاً، أو مشربية تحجب شرفة تذكرت بهيج. وكلما تذكرته وجدت نفسي أضحك بصوت عال لا لشيء في شخصيته أو سلوكه يستحق الضحك ولكن لأنه كان زوجاً من النوع المحترم، النوع الذي تجده لا بد خريج جامعة أو صاحب منصب ولديه مجموعة هائلة من «الكرافتات» والذي لا بد تجد مشكلته الكبرى أنه يخاف خوف الموت أن يأتي عليه يوم يصبح فيه آخر من يعلم.

وتسأل بهيج عن سبب لهذا الرعب المقيم فلا تجد. . الحقيقة تجد أسباباً أوجه. كانت كفيلة بمنع هذا الخوف عنه، فهو مثلاً قد تزوج عن حب وزوجته جميلة وديعة وتحبه إلى أقصى حد، حد يكلفها أحياناً أن تبكي إذا سافر وتبكي إذا عاد وتبكي إذا اسشتعرت انصرافه عنها وتبكي إذا أقبل عليها، وليس معنى هذا أنها مصدر نكد فالبكاء لدى النساء ليس دائماً علامة حزن، هو سلاح لا أكثر. . السلاح الذي لا يخيب. أكثر من هذا سنسن (وهو اسم التدليل لسناء) تملك قدرة عجيبة على ارضائه فتعرف متى تضحكه ومتى

تضحك عليه، وبنفس الرشاقة التي تختار بها ألوان فساتينها تختار أيضاً أنواع خصامها وأوقاتها، ولديها نبوغ خاص في تحديد أوقات الصلح، وديبلوماسيتها هائلة في املاء شروطه وقدرتها ساحرة في إحالة جلسة الصلح إلى لجنة تعويضات مهمة الزوج فيها أن يبالغ في التقدير، ومهمتها هي أن تناشده الرأفة بميزانيتهم والاقتصاد، وكفاية خمسة جنيه للشنطة.. هو أنا مجنونة اشتريها بستة.. بالاختصار هي زوجة حنون مطيعة مخلصة وإن كان هذا لا يمنعها أن تتحول أحياناً إلى نمرة مفترسة إذا امتدح زائرة مثلاً، أو تطلب الطلاق في الحال إن تأخر ساعة، فهي أحيان ليس إلا يسود بعدها الصفاء..

ترى لماذا إذن هذا الخوف المقيم من يوم تخونه فيه؟ لماذا الخوف من الإعصار والبحر هادىء أزرق وجميل؟ الحقيقة لا نستطيع أن نحدد سبباً واضحاً، فهو يثق فيها أي نعم، وفي حبها له أي نعم، ولكن شيئاً ما كان لا يجعله على تمام الثقة في قدرتها على حماية نفسها من ذئاب المجتمع وكلابه. شيء ما كان يفرض عليه أن يقوم هو بهذه الحماية، نفس الشيء الذي يفرض عليه مثلاً أن يحمل عنها حقيبة الملابس أو يجلسها في مقعد الأوتوبيس ليقف هو. شيء ربما السبب فيه أنها هي نفسها تطلبه وتنتظره وتعامله على أنه رجلها وحارسها وراعيها، وتشعره باستمرار أن لولاه ما كان باستطاعتها أن تحيا معززة مصونة الشرف والكرامة.. هو شبه الاتفاق الذي يرى أن المجتمع كله من حوله قد تواضع عليه وأخذه مأخذ الحقائق الثابتة.. اتفاق أن المرأة بمفردها غير قادرة على حماية نفسها بنفسها وأنها

ارتضت أن تكون المهمة للرجل، بل حتى ولو لم ترتض لما اطمأن الرجل على قدرتها على حماية نفسها ولبقي يؤدي دور الحارس اليقظ الأمين.

وبهيج رجل مجرب لم يتزوج إلا بعد أن عرك الحياة برجالها ونسائها وخرج من تجاربه وقد فقد الثقة في هؤلاء وأولئك، ثقته أن هناك قيماً قد تحول بين أي رجل وأي امرأة وأن لا وسيلة للحيلولة بينهما إلا بالقوة، القوة بأشكالها المختلفة. تعلم وقرأ وسافر وجال وآمن بالمساواة وديمقراطية الأجناس والأنواع واستقلال المرأة وحقها في العمل واختيار المهنة والزواج، حدث له هذا كله دون أن يؤثر في قليل أو كثير على القواعد التي درج عليها والتجارب التي ترسبت فيه وأصبحت جزءاً من كيانه وجعلته بعد الزواج لا يملك إلا أن يصنع كما يصنع الأزواج وإلا أن يصبح خوفه الأكبر يوماً يأتي عليه ويكون فيه آخر من يعلم.. ولهذا ظل في كل لحظة من حياته الزوجية يعمل لهذا اليوم ألف حساب وهو مؤمن ألا سبيل لمنعه إلا بمجهود خارق يقول به ليدفع عن زوجته المهالك والمزالق، ولعلمه أنها قد تأتي على أهون سبب فقد كان يستعمل كل ذكائه وحداقته وخبرته لشم الخطر ليتلافى أهون الأسباب. إذا أراد دخول السينما اختار مقعدين يجاور أحدهما الممر لتجلس فيه سنسن وليجلس هو بجوارها حائلاً بينها وبين الرجال، وإذا سافر أرهق ميزانيته وظل يطوف القطار حتى يعثر على ديوان خال تماماً أو على الأقل ركابه من العجائز أو النساء، وفي أي ازدحام تجده خلفها مباشرة يكاد لولا الحياء يطوقها بجسده

كله ويدفع الناس عنها وكأنها من زجاج، وإذا انتقل من مسكن إلى آخر ظل أياماً يدرس موقع المسكن الجديد ويتأكد من متانة معلوماته عن الجيران، أو على الأقل هذا هو ما فعله حين انتقل إلى منزله الجديد بإحدى العمارات الحديثة الكائنة في أول مصر الجديدة من ناحية روكسي.

* * *

ولقد ظلت الحياة تمضي به وبسنسن إلى اليوم الذي عزلت فيه الشقة التي تقابلهم من العمارة المواجهة والتي كانت تقطنها أرملة جافة نحيلة وأولادها الستة. يومها وطوال الأيام التي ظلت فيها الشقة خالية كانت أمنيته الخفية أن يبتسم الزمن له أخيراً وتقطن الشقة شابة حسناء، أرملة كانت أو غير أرملة، أمنية لم يكن يرى فيها بهيج ما يتنافى أبداً مع الاخلاص الزوجي إذ هو في الحقيقة مثل الأزواج لا يترك شاردة ولا واردة ولا مارة في الشارع إلا ويسلط أنظاره عليها تعاينها، وتهم بها أحياناً، وإن كانت الظروف مواتية فلا مانع لديه اطلاقاً، إذ لا يعقل ولا يمكن لشيء تافه عابر صغير كهذا أن يؤثر على حبه لزوجته أو تعلقه بها.

ولكن الظروف لم تكن هذه المرة مواتية، ونوافذ الشقة المقابلة تفتحت يوماً ورأى بهيج بعيني رأسه شاباً يطل منها، شاباً لا أحد معه، لا طفل ولا زوجة أو أم.. وكان واضحاً من نظراته الجريئة وطريقة تطلعه إلى الناحية المقابلة وإلى المارة في الشارع أنها طريقة

الحر الذي لا يخشى على نفسه مغبة نظرة ولا يحمل فوق كاهله مسؤولية ولا يعمل حساباً لإنسان وراءه كل مهمته أن يناقشه الحساب. كانت نظرات وتطلعات فرس بري غير مروض ذكرت بهيج نفسه بأيام ما قبل الزواج، ذكرته لا ليتحسر وإنما ليحس بهم مفاجىء بدأ يركبه.. الشاب واضح تماماً أنه أعزب وها هو ذا قد سكن أمامهم لا يفصلهم عنه سوى الشارع. وبهيج كان أعزب يوماً ويعلم أنه والعزاب جميعاً لا يتركون حولهم أو أمامهم طوبة من طوب الأرض إلا وأشبعوها فحصاً ولمساً لعله يثبت في النهاية أنها طوبة مؤنثة، وهو واثق طبعاً من نفسه ومن أن سنسن أشرف نساء الأرض، ولكن من قال إن أسلم أصحاء الأرض لا يمرض خاصة إذا ظل صباح مساء معرضاً للميكروب؟ لا ضمان هناك لأي شيء فأي شيء ممكن أن يحدث، فالمسألة ليست جلسة في أوتوبيس أو رفقة سفر.. المسألة إقامة دائمة وسكن.

أغلق بهيج باب البلكونة في ذلك اليوم وهو يفكر، وظل يفكر حتى بعد اغلاقها.. وإلى صباح اليوم التالي حين فتحها بنفسه ووجد بلكونة الجار مفتوحة هي الأخرى ووجده يغني وصوته القبيح يأتيه عبر الشارع عالياً.. أعزب... متحدياً.

* * *

وبدأ الجار الأعزب الجديد يصبح مشكلة، وبكثرة تفكير بهيج فيها بدأت تتشعب وتتعمق وتضاف إلى مشاكل حياته الرئيسية، خاصة

ن كـان يعود وقبـل أن يدخـل البيت يسرح ببصـره إلى أعلى ليجد
ونة الشاب مفتوحة وبلكونتهم أيضاً مفتوحة أو مواربـة، ولا يفصل
نتين سوى الشارع العريض.

وبدأ بهيج يفكر في حل حاسم للمشكلة.. وأضناه التفكير فقد
، في موقف لا يستطيع معـه أن ينتقل من البيت ويعـزل، وليس هو
لطان لكي يجبـر القاطن الجـديد على التعـزيـل. وهـو يـريـد أن
مي زوجته من الخطر الوافد في سرية تـامة وهـدوء ودون أن تشعر
لا يثق فيها أو يحميها.

ورغم هذا كله فقد كان مصراً على أن يجد الحل.

وقد وجده.

وعلى العشاء المقتبس بحذافيره من ركن المرأة، والـذي كانت
ج منه رائحة الاقتباس وطعمه الماسخ، بدأ بهيج يسوق المقدمات
حـدث عن الحريـات المنزليـة الأربـع. قـال إنـه بـدأ يـدرك أنهم
ـرومون في بيتهم من حـرية الحـركـة والعـري والحفـاء وارتكـاب
حماقات، وكيف أن المنزل لا يعد متعة أو بيتاً بمعنى الكلمة إلا إذا
رت له هذه الأركان وإلا لكان السجن أرحم. وهـو قد أدرك أيضـاً
د طول بحث أن سبب إهدار حريـاتهم تلك يرجـع إلى عامل واحد
غيـر، هـو البلكـونـة التي تفتـح على الصالـة وتتـوسط البيت
جـرحه وتجعله نهبـاً لأنـظار الجيـران القـاطنين عبـر الشـارع. وأن
طريقة الـوحيـدة لكي يصبح بيتهم بيتـاً هي أن يقيمـوا فـوق سـور
لمكونة ستـاراً عاليـاً، أعلى من قامتـه، يحجب كل مـا يدور داخـل

البيت عن الأنظار، وحين تبلورت المقدمة الطويلة في هذا الاقتراح بدأت الزوجة تسخفه وتعيب عليه أن يريد أن يخنقها ويمنع عنها الشمس والهواء، وكل هذا لأنه لا يثق فيها ولا يثق في نفسه، إلى آخر المحاضرة التي تعودت أن تلقيها عليه وتسخف بها أي اقتراح من اقتراحاته ربما لمجرد كونها اقتراحاته.

ولكنه لم ييأس.. استجمع كل ذكائه وقدرته على الإقناع ليدحض مزاعمها وليثبت لها أن ليس في الأمر شك فيها أو في الجيران، وأنه لا يريد سوى حقه في الاستمتاع ببيته وحجب الأنظار المستطلعة عنه. وأيضاً لم تبدأ الزوجة توافق إلا بعد أن تعهد بشراء طقم كراسي إيديال للبلكونة، ومضى يغذي أحلامها عن الجلسات المرتقبة وليالي القمر وأشجار الياسمين التي لا بد سيزرعونها.

ولم يأت الغد إلا ليجد بهيج قد اتفق مع المنجد والنجار، ولم يمض يوم آخر إلا وكانت الستارة معلقة عريضة تغطي البلكونة من جهاتها الثلاث، وترتفع فوق قامة الرجل.

واعتقد بهيج يومها أن دوره في حل المشكلة والمحافظة على بيته وزوجته قد أداه على خير ما يرام، ويحق له بعد هذا أن ينام ملء جفونه ويمدد رجليه ويشخر.

* * *

والحقيقة أيضاً أن دوره هو انتهى أو كاد، ليبدأ دور الستارة،

فقد أصبح همه الشاغل كلما عاد إلى البيت أو خرج منه أن ينظر إليها ويرى إن كانت مقفلة أو مفتوحة، وحين نبه على سنسن مرة ومرتين أن تراعي اقفالها باستمرار ولم تفعل عناداً منها لا أكثر، قرر أن يكون حمشاً ويفرض رأيه. وهكذا فوجئت به سنسن في اليوم التالي وهو في طريقه إلى المكتب، فوجئت به يصرخ فيها بلهجة غريبة باترة حاسمة أن لا تفتح الستارة أبداً لأي سبب كان، وأن عليها أن تقبل أمره هذا بلا نقاش.. وغير مهم المناقشة الشكلية التي تلت كلامه والتي لم يتزحزح فيها عن رأيه في أن من حقه كزوج أن يصدر أية أوامر يراها دون أن يكون مطالباً بتفسيرها، والتي لم تتزحزح فيها هي عن رأيها في أن لها الحق كل الحق أن تمتنع عن تنفيذ أي أمر صادر منه أو من غيره ولا تكون مقتنعة به، المهم أن تمسك كل منهما برأيه جعل الموقف يتوتر وجعل بهيج يفقد السيطرة على هدوئه وأعصابه، وجعله في نوبة غضب ينفجر لها بأن السبب الحقيقي لعمله الستارة هو الشاب الأعزب الذي احتل الشقة المقابلة ونظراته التي ضبطه وهو يوجهها بصفاقة وقلة أدب إلى بلكونتهم، ورغبته في أن يحفظ لبيته حرمته ويحميها من وقاحة جار مثله. وساعتها اتضح أن الزوجة هي آخر من تعلم بأخبار الجيران العزاب، فقد بدا واضحاً أن سنسن لا تعلم شيئاً عن تعزيل الأرملة العجوز، ولا عرفت أبداً بمجيء الأعزب، ولا طرق لها الموضوع بالاً.

ـ طيب.. أدي انتي دلوقت عرفتي.

ـ لا.. إذا كان كده يبقى خلاص.. أمرك يمشي.

ومشى أمره وأصبحت الستارة كحائط لا يتزحزح، كل ما في الأمر أن البلكونة قد تغير مركزها في البيت، وبدلاً من المكان غير المطروق الذي كانته والذي لم تكن سنسن تجسر على الظهور فيها إلا وهي بملابس الخروج أو بأكثر ملابس البيت حشمة، ولا تظهر فيها إلا وهي مضطرة، وإذا وقفت فيها نظرت إلى الشقق المقابلة والمجاورة بأدب وحساب حتى ينظر إليها أصحابها بأدب وحساب، بدلاً من هذا أصبحت البلكونة تحت حماية الستارة مكان سنسن المختار للجلوس تقضي فيه أي وقت تشاء بأية ملابس ترتديها وتقوم بأي عمل تراه. بل شيئاً فشيئاً بدأت سنسن تفطن إلى مزايا للستارة كانت خافية عليها أهمها بلا جدال ما يدور في شققهم ومطابخهم وحجرات جلوسهم ونومهم دون أن يكون باستطاعتهم هم أن يروها، فالستارة تحجبها عنهم وتتيح لها أن ترى ولا ترى، وهكذا بدأت نظراتها تفقد طابع النظر من خلال بلكونة مفتوحة وتتخذ طابع النظر من خلال الشقوق. وبعد أن كانت البلكونة تجعلها تعامل الآخرين بمثل ما تحب أن يعاملوها به وتجعل لعينيها دور المراقبة لغيرها ولنفسها، أصبحت مهمة عينيها أن تراقب الغير فقط وتتجسس عليه وتكشف أسراره وخباياه وهي ضامنة أن أسرارها في حصن حصين. ونفس التحول بعد بضعة أيام انتقل لتفكيرها فأصبح اهتمامها بما لديها، وأصبح الوقت الذي تقضيه تتفرج على ما يحدث داخل الشقق الأخرى أكثر بكثير من الوقت الذي تقضيه ترعى فيه شؤون شقتها.

وكذلك كان لا بد أن يواتيها الخاطر ولو مرة ويجعلها تفكر في رؤية هذا الجار الجديد الذي كلمها زوجها عنه، وترى كيف تطل الوقاحة من نظراته كما قال الزوج.

* * *

والمدهش أن الجار الأعزب لم يكن وقحاً أو قليل الأدب، كان في الحقيقة مشغولاً جداً فقد كان يعمل في الصباح في شركة ويدرس بعد الظهر في كلية ويقضي ساعتين كل ليلة يصحح الملازم في مطبعة. شاب من قراء سير العصاميين المؤمن بأن في استطاعته أن يصبح مثل روكفلر وعبود. الغارق في أحلامه هذه بطريقة لم يخطر على باله مرة أن يقف في بلكونته ويتطلع إلى بنات الجيران فضلاً أن يحاول معاكسة أحد. وقد كان من الممكن أن يظل غارقاً في مشغولياته وأحلامه تلك لو لم ير هذا الستار الذي صنعه السيد بهيج، فقد لفت نظره أن تنفرد تلك البلكونة المقابلة وحدها دون غيرها من بلكونات البيت وغيره من البيوت بهذه الستارة التي كان واضحاً أنها أقيمت حديثاً وأنها مسدلة باستمرار ولا تفتح أبداً. وهكذا منذ اليوم الأول الذي لاحظ وجودها فوق سور البلكونة، وهذه البلكونة بالذات بدأت تلقى منه عناية خاصة ربما لغرابة الظاهرة، وربما لأن منظرها هيج كوامن خياله وجعله يمضي يحلم ويتصور نساء ألف ليلة وليلة أو

فتياتها اللائي لا بد أقيمت ستارة كثيفة كهذه لتحميهن من العيون.

وربما لو كان قد رأى السيدة سنسن بكاملها وهي في الشارع أو في بلكونة مكشوفة لما استرعت انتباهه أو توقفت عندها نظراته، ولكان قد عاملها مثل العشرات غيرها من السيدات والفتيات اللاتي يراهن في نوافذهن وشرفاتهن ويتركهن جميعاً ليوجه انتباهه كله إلى الستارة المسدلة وإلى الحورية الرائعة الجمال التي لا بد تكمن خلفها، والتي لا بد أن يأتي يوم تظهر فيه أو على الأقل يبدو منها وجه أو ذراع.

بل لم لا نقول أن الستارة وما تحجبه كانت وراء تركه لعمله في المطبعة ورفعه حرارة النقاش الذي دار بينه وبين صاحبها إلى درجة أخرى والاستغناء عن خدماته؟ وعدم ضيقه البتة بما حدث بل فرحته به، إذ سيتاح له منذ اليوم أن يقضي ساعتين أخريين يتطلع فيهما إلى البلكونة ذات الستارة المسدلة، ويخمن ويحس بالحرمان ويهيج الاحساس أحلامه.

وبالتأكيد إذن كان لا بد أن يأتي اليوم الذي يدرك فيه وقلبه تتعانف دقاته، أن قماش الستارة يختلج اختلاجة أنثوية بلا شك وأنه ويا للهول بعد قليل انفرج فرجة صغيرة رفيعة ولكنها كانت كافية لأن يتأكد أنها فعلاً أنثى، وأن عينها ووجنتها التي اطلعت وتلصصت أجمل وأروع عين ووجنة رآهما في حياته.

حقيقة كان ذلك اليوم بالذات هو اليوم الذي قررت فيه سنسن

أن تتفرج على الجار الأعزب الوقح، ويبدو أن محاولتها البحث عن وقاحته قد امتصتها إلى درجة لم تفطن معها أنه لمحها من خلال قماش الستارة ورآها.

والواقع أنها لم تفاجأ كثيراً فقد وجدته كما وصفه زوجها تماماً.. وبالفعل كانت نظراته تحفل بالوقاحة وقلة الأدب، وبالفعل لم يحول ابصاره عن البلكونة طيلة الوقت الذي ظلت تراقبه فيه. أدركت حينئذ أن زوجها كان على حق في إقامته للستارة، فلولاها ما استطاعت أن تحمي نفسها من وقاحته ونظراته..

وانسحبت يومها من البلكونة وقد عاهدت نفسها أن تتجاهل وجود العازب وشقته وبلكونته.

ولكن الشاب لم ينسحب.. وقف مسمراً في بلكونته إلى ساعة متأخرة من الليل علها تظهر. وخيل إليه في الصباح أنه أخيراً أحب، ومن يدري قد تكون هي الأخرى أحبته. وهكذا قضى الجزء الأكبر من اليوم التالي ولا عمل له إلا التحديق في الستارة علها تختلج مرة أخرى وتنفرج. وكلما كان الهواء يداعب قماشها ويحركه كان الدم يسخن في عروقه ويعتقد أنها هي، ويركز بصره كله عله يستطيع أن يتبينها.

وفي نفس ذلك اليوم التالي لم يكن وحده الذي يحدق في الستارة المختلجة، كان بهيج الزوج عائداً من عمله يلقي ببصره كما تعود ناحية الستارة ليطمئن عليها أولاً، ثم يعود ليختلس نظرة خاطفة

إلى بلكونة الجار ليطمئن على خلوها منه.

وفي ذلك اليوم حين وجد بهيج القماش يتحرك لم يعلق على حركته أهمية، ولكنه حين وجد الأعزب واقفاً في البلكونة قد صوب نظراته المحمومة إلى الستارة المختلجة عاد ينظر بسرعة إلى حيث كان ينظر ويدوي أعنف دق قلبه وأيقن بلا أدنى جدال أن الستارة لا تختلج عبثاً وأن وراءها عينين تنظران وجسداً.. وراءها سنسن.

وفي لمح البصر كان قد أصبح في الشقة ولم يخل عليه أنه وجدها في المطبخ فلا بد أنها لمحته وفرت، وفي لمح البصر كان قد أطبق عليها طالباً منها أن تعترف. وحين حاولت الكلام أجابها بصفعة قوية من يده الأخرى أعقبها بأخرى مدوية من اليسرى. وامعاناً جرها إلى البلكونة وأزاح الستارة بغل ليريها الشريك الآخر واقفاً لا يزال يحدق.. الشريك الذي ما إن أزيحت الستار ورأى المشهد حتى اختفى في التو وذاب برعونة، وبكل جبن المذنب المتلبس.

وكانت الصفعتان إشارة البدء لعاصفة من تلك العواصف التي كثيراً ما تجتاح حياة الأزواج والزوجات تقتلع الضعيف منها وتهدد القوي، فقد تبعها كلام صارخ محموم عن شرفه وطعنات حادة قاتلة إلى شرفها، ونعوت بشعة ويمين طلاق ألقي. والزوجة تحاول الدفاع والاستشهاد بالخادمة، ويصرخ قائلاً إنه رأى الستارة بعينه تهتز، فتستنجد قائلة ربما الهواء فيعود يهم بصفعها أو ركلها وهو يقرنها بالهوى وبنات الهوى.

عاصفة قذفت بالزوجة تلك الليلة إلى بيت أبيها وقذفت به إلى الخمارة. . وهطلت آخر الليل دموع. وفي اليوم التالي تدخل الأهل والأصدقاء وبدأ الزوج يراجع نفسه قليلاً، وبعد أن كان رافضاً البتة أن يصغي أو يناقش بدأ يخفض رأسه ويستمع ويلمح حرقة الصدق في كلام كان الزوج في حاجة إليه، فحتى بعد أن رأى بعينيه كان أهون عنده أن يشك في عينيه ولا يشك فيها، فحياتهما معاً وعشرتهما واندماجهما بطريقة كادا معها أن يصبحا جسداً واحداً، بطريقة يعرف كل منهما عن الآخر أكثر مما يعرف الآخر عن نفسه، ويثق بالآخر أكثر مما يثق بنفسه. . هذا كله فوق التجربة التي قام بها وسطاء الخير وأعادوا تمثيل ما حدث أمام الزوج ونفخوا في الستارة لتختلج، وراقبها الزوج من أسفل ليعرف إن كانت اختلاجاتها تشبه اختلاجة الأمس، وليثوب إلى نفسه حينئذ ويطلب الصفح وتنتهي العاصفة نهاية لا يتوقعها أحد فوق فراشهما وهو يحتضنها ويقبل عينيها الدامعتين، وتصل حرارة الحب بينهما حد أن ينسيا تماماً ما حدث وسبب الحكاية، ويستمتعا باللحظة والسهرة وكأنها أول لقاء، وفي أحيان تصل العواطف بينهما حد معاودة الاعتذار. بل تأكيداً لندمه وتوبته وامعاناً في ثقته بها يعلن لها أنه خلاص قرر أن تفتح الستارة باستمرار، وحين تأبى هي يقسم هو ويلحف في القسم ويؤكد لها أنها بعد تلك اللحظة حرة في أن تدخل وتخرج وتغلق البلكونة أو تفتحها وتقف فيها أو تتطلع منها على أية هيئة وبأية ملابس ولأي وقت تشاء.

وبينما كان الدفء يشع من فراشهما كان الجار الأعزب في

فـراشه يـرتجف من البرد ومن بعض مـا تيسر من تـأنيب الضمير ومن خوف كثير على نفسه وحياته، وكان يتوج هذا كله بقـرار صارم أن لا يقف بعد هذا في بلكـونته أبـداً، ولا يتطلع إلى جـارة أو غير جـارة، وأن ينهمك مرة أخرى في مشاغله.

* * *

وجاء الصباح التالي لتعود الحياة سيرتها وقد تغيـر شكلها قليـلاً فـالستارة في بلكـونة بهيج قد فتحت على آخـرها وبلكـونة الأعـزب مغلقـة وكأنمـا دقت فيها مسـاميـر. ومـع هـذا فلم تـظهـر سنسن في البلكونة ولا حتى وجدت لديهـا حماسـاً لأن تفعل شيئاً آخر بـالمرة. كان ما حدث لا يزال سـاري المفعول في نفسهـا تأبى أن تصـدق أنه حدث، وإذا صدقته غامت عيناه بالدموع.

وحتى بعد أن مضت أيام وزالت كل آثار العاصفة ظلت سنسن غيـر شديـدة الحماس لكـل هذه الحـريات التي أصبحت تملكهـا.. تقف في البلكـونة فـلا تحتمل الـوقوف، تجـوب الشـارع وواجهـات العمـارات المقابلة بعيـون قد انـطفأ فيهـا البريق، أي متعـة للبلكونـة الواضحة المكشوفة بعد متعة اختلاس النظر من الشقوق؟ وبأي نفس تقبل المتعة وهي قد عاشت التهمة وذلها ونالت العقاب؟ الحقيقة كل ما كان يشغل بالها إذا وقفت في البلكونـة أن تواتيهـا الفرصـة لتدافـع هي عن نفسهـا وشرفهـا أمام الأعـزب الشاب، الشـرف الذي أهـدره زوجها وهو يدافع عنـه. كانت تـريد أن تلقي عليـه درساً وتـريه أنهـا

ليست كما ظن هو أو ظن زوجها. ولكن الفرصة لم تكن تواتيهـا ففي كل مرة تجد بلكونته مغلقة وتجده غير موجود.

ولكن مهما طال الزمن فلا بد أن سيأتي اليوم الذي يوجد فيـه. غير أنه حين جاء وخرجت هي إلى البلكـونة ووجدته واقفاً أمامها عبر الشـارع دق قلبها بـالانفعال. وللمـرة المائـة استعادت مـا كـانت قـد انتوته، فهي ستظل ساكتة إلى أن يبدأ يتطلع إليها حينئذ سوف تواجهه بقسـوة وتبصق في وجهه أو تقـذفه بمـا في يـدهـا ثم تـدخـل وتصفق وراءها الباب، ولكنها ظلت واقفة أكثر من ساعة دون أن يتطلع إليهـا أو يبدو أن في نيته أن يتطلع إليها. وكان من المستحيل عليها أن تقبل الهزيمة حتى لو أدى بها الأمـر لمحاولـة جذب انتبـاهه ورفـع صوتهـا تـطلب من الخادمـة أن تحضر لهـا شيئـاً، وحتى حين ضغـطت على نفسها وفعلت لـم يبد عليه أي اهتمام، أكثر من هذا بعد قليل وجـدته ينسحب إلى الداخل ويمد يده ويغلق الشيش.

وكان عسيراً عليهـا أن تصادفه واقفاً في البلكـونة خـلال الأيام التي تلت، ولكنها في كل مرة عثرت عليه كانت تحاول أن تفعل كـل شيء وأي شيء فقط لترفع بصره الذي ألصقه بأرض الشارع وأبى أن يرفعه. ولم تفعل محاولاتها المتعددة أكثر من أنها أنستها الهدف منها والدرس الذي كان في نيتها أن تلقيه عليه والحقـد الذي تكنـه له في قلبها، وأصبح همهـا كله ومنتهى أملها أن تنجـح فقط في رفع بصـره من فـوق أرض الشارع، وكـأنها إذا نجحت ونـظر إليها تكـون قد تم الانتقام واستعادت مكانتها وشرفها المثلوم.

ولو كان أحد قد أخبرها أنها ستضطرب كل هذا الاضطراب وستلهث ويجف لعابها ويتوقف قلبها عن النبض، لو كان أحد قد أخبرها أن هذا كله سيحدث لها حين تفاجأ ذات مرة وقبل أن تحاول شيئاً أنه قد رفع بصره إليها وثبت عينيه في عينيها لما صدقته بل ولما صدقت أبداً أنها لم تستطع أن تحتمل نظراته لثوان، وأنها هي التي انسحبت من البلكونة هذه المرة ترتجف وهي لا تملك قدرة على صفق باب أو فتح فم. كل ما حدث أنها استطاعت قبل أن تختفي أن ترسم بالكاد شيئاً فوق ملامحها يعبر عن الغضب.

وربما لو لم ترسم هذا الشيء.. ربما لو ظلت واقفة وكأنها لم تلحظه أو نالها اضطراب، ربما لو لم ترد أن تؤنبه وتعلمه الخلق الحسن، ربما لو حدث شيء من هذا لما قضى الشاب ذلك الوقت الطويل يفكر فيها، ولما شجعه ما حدث منها على المضي في التفكير وتدبير الخطط لما بعد التفكير.

أما هي فقد ظلت وقتاً طويلاً أيضاً تفكر وتستنكر اضطرابها وتستعذبه، وتنتوي العودة إلى البلكونة وتعدل عن نيتها، والإحساس العام الذي يتملكها أنها غير غاضبة على الشاب وأنها أصبحت ليس لديها مانع حتى أن يعود يوجه إليها نظراته.

وفوجىء بهيج عاد ذات يوم فوجد الستارة تنسدل وتحجب الشرفة وما فيها، واستغرب.. وسأل الزوجة فإذا بها تقول إن الستارة لازمة لحمايتها من نظرات الجيران المتطفلين، وإن لكل بيت حرمته

والستارة تحفظ الحرمة، وحاول أن يناقشها بنفس حججها القديمة ويتحدث عن الشمس والهواء ولكنها أفحمته حين قالت إنها كانت مخطئة في اعتقادها وإنها أخيراً اقتنعت برأيه.

* * *

واستمرت الستارة بعد هذا تؤدي عملها مع اختلاف بسيط، إذ كانت تستخدم لتحول بين بهيج وبين رؤية الشاب الأعزب إذا كان موجوداً في البيت، ولتحول بينه وبين رؤية الواقفة تحتمي بها لتستطيع أن ترى الشاب ويراها دون أن يلحظهما أحد وبالذات بهيج. وفي أحيان كان يتطلع بهيج من الشارع لسطمئن على أن الستارة مغلقة ومسدلة، ودائماً كان يجدها كذلك، وإذا تصادف ووجدها تختلج كان حينئذ يهز رأسه ويبتسم ويقول: الهوا.. لا بد أنه الهواء.. لعنة الله عليه..

الغريب . .

من كان يظن أن «الشوربجي» ذا الشعر الأصفر المجعد والوجه الخواجاتي الأحمر والملامح الجذابة الحادة له مثل هذه القصة المذهلة مع قتال القتلة وقاطع الطريق وسلطان الليل؟ أنا نفسي قبل أن يحكي لي كان من المستحيل أن أصدق أن الشوربجي زميل ثانوي العتيد الذي علمني ركوب العجل وكتابة القصص جعلني أدمن قراءة روايات الجيب.. لم أكن أعتقد للحظة أن في حياته جانباً بأكمله لا أعرفه، وكان مقدراً ألا أعرفه لو لا تلك المصادفة التي جمعتني به.. والمصادفة وحدها هي التي كانت تجمعني به. فعلى الرغم من أننا نعمل في نفس المدينة، في القاهرة، ألا أنني لم أكن ألقاه ألا صدفة، وفي كل مرة تأخذ العناوين ونضرب المواعيد ونحن نعرف سلفاً أننا لن نستعملها وإننا لن نلتقي إلا كما تعودنا اللقاء صدفة.. وأنا أعرف عن الشوربجي أشياء كثيرة، أعرف بلدهم، ورأيت أباه مرة، وأعرف ولعه بالنساء وضيقه الشديد بأننا على الرغم من أننا كبرنا وغادرنا ثانوي إلا أننا لا نزال نسميه باسم جده كما تعودنا أن نسميه، فاسمه في الحقيقة كان ولا يزال طبعاً عبد الرحمن صالح الشوربجي، ولكننا في ثانوي نضيق بالأسماء الأولى

المتشابهة، وهكذا عرفناه بالشوربجي، وعلى الرغم من ضيقه بالتسمية ظللنا نعرفه هكذا إلى اليوم، إلى حد أنني كنت أستغرب حين تناديه زوجته أمامي بعبد الرحمن. أعرف عنه أشياء كثيرة ولكني لم أكن أعتقد أبداً أن في حياته أناساً كالغريب أبو محمد وعم خليل وحياة الليل وسفك الدماء، هو الرائع الأدب الذى تخدش خجله الكلمة الخارجة حتى بعدما صار رجلا كبيرا وخلف ابناء، ولكنها الصدفة كما قلت، وربما الليلة والموضوع الذى طرقناه موضوع السفاح، والشوربجى ليس محدثًا لبقًا ولا راوية ممتازًا، وعلى الرغم من أنه علمنى كتابة القصص ولكنه يتحدث أجمل بكثير مما يكتب..

لا أعرف ماذا دعا الشوربجي ليكشف لي عن هذا الجزء من نفسه في تلك الليلة.. فربما الموضوع كما قلت، وربما الجلسة، [illegible]

نفسها، أو لعل السبب هو تلك اللذة الواضحة التي كنت أراه مستمتعاً بها وهو يغوص في نفسه ويحفر ويستخرج أشياء، وكأنما [illegible]

رغبة القتل في حـد ذاتها. . ولا تنهـك نفسك وتحـاول أن تبحث في طبك أو في كل علوم النفس الحديثة عن تفسيـر لهذه الـرغبة فـأنا لم أكن مريضاً أو شاذاً أو أعاني من مأساة عائلية، كنت تلميذاً عادياً جداً بالكاد تعديت الرابعة عشرة من عمري، وكنت أعتبر رغبتي هذه رغبة طبيعية جداً لا شذوذ فيها ولا انحراف وأنها لا تعن لي فقط ولكنها لا بـد موجـودة عند كـل الناس، ولا بـد قد استبـدت بهم يـوماً خـاصـة وهم يضعـون أقدامهم على عتبـة الرجـولة ـ أن يقـوموا بعمـل خـارق يحسون بعد القيام به أنهم قـد أصبحوا رجـالاً. . بعضهم يترك البيت مثـلاً ويحـاول البحث عن عمـل يتقـاضى عليـه أجـراً مثلمـا يفعـل الرجال الكبار ومثلما يفعل أبوه، وبعضهم يبدأ يسهر في الخارج ويعـود متأخراً ويصطدم بأهله ويقول لهم بأعلى صوته: «أنـا حر أسهـر على كيفي. . أنـا راجل»، وبعضهم يبـدأ بحمـل بنـدقيـة أبيـه على كتفـه وإطلاق النار فإذا اعترض أبوه على تصرفه هدد بقتل نفسه أو بقتل من يعتـرض طريقـه «يقصد أبـاه»، وبعضهـم يحلم بـامتـلاك مسـدس. . وكلهـا رغبات طبيعيـة الهدف منهـا أن يثبت كل لنفسـه أنه قـد أصبح رجلاً، ويثبت لها بطريقة الرجال الخشنة.

كل الخلاف بيني وبين من كانوا في سني أني غـاليت قليلاً في رغبتي وأردت أن أدخـل عالم الـرجال بـأن أقتل أحـدهم، وهي على العموم كانت رغبة دفينة لا أجـرؤ على إظهارهـا حتى لنفسي، ولكني أحس بـوجودهـا وأسعى إلى تحقيقهـا وكـأنمـا من وراء نفسي، ومن ورائهـا لأني كنت أخاف ألا أكتفي بقتـل رجل واحـد وأن أنسـاق في

هذا الطريق . . ولكني كنت أطمئن نفسي وأقول إن هذا لن يحدث.

وأدلل لنفسي على هذا بأن أستعرض ما كنت أفعله مع القطط وأنا صغير، إذ كنت وأنا طفل أخافها جداً، أخاف شواربها الطويلة وتكشيرتها ومخالبها البشعة، وكنت أرنو إلى اليوم الذي أكبر فيه وأستطيع أخافتها وأنتقم لكل ما سببته لي من رعب. . وارتبط الكبر في نفسي بقدرتي على إخافة القطط والكف عن الخوف منها ولهذا لم أكف عن مطاردتها أبداً، وهدفي أن أنجح ذات يوم في حصارها وإرعابها وإمتاع نفسي بمشهدها وهي خائفة مني . . وكم طاردت من قطط، وكم نجحت في اغلاق الأبواب والنوافذ لمنعها من الهرب، ولكني دائماً كنت أفشل في حصارها وتهرب. مرة واحدة فقط نجحت في حبس قطة في إحدى حجرات بيتنا. كانت قطة الجيران وكنا نكرههم وكنت قد اعتزمت في ذلك اليوم لا تخويفها فقط والاكتفاء بسعادتي لرؤيتها خائفة، ولكن على تمويتها أيضاً.

ظللت أجري وراءها حتى دخلت حجرة المخزن وكل نوافذها وفتحاتها محكمة الاغلاق، فدخلت وراءها مسلحاً بعامود حديد من عمدان نافذة قديمة، وأغلقت الباب واستمتعت أيما استمتاع بالورطة الكبرى التي حلت بالقطة، تقفز من الأرض إلى السقف ومن السقف إلى الأرض وتبحث في هلع عن مخرج وتصرخ صرخات مرعوبة متصلة وكل ما فيها قد وقف يرتجف ويرتعش، والباب من ورائي محكم الاغلاق وأنا أتقدم ناحيتها بخطى بطيئة والعامود الحديدي مرفوع فوق كتفي ومستعد لأخبطها به الخبطة الواحدة القاتلة . .

مضيت أتقـدم ببطء وأنـا أنعم بحـالـة الـرعب المميت التي تملكتها، وأستعيد كل ما قاسيته في صغـري من رعب وأسعد بنفسي وبكبري وبهـذا الانتقـام الضخم الـذي أتيـح لي أن أقـوم بـه. . وفجـأة توقفت في مكـاني، فـالقـطة كـانت قـد أدركت بعـد مجهـود هائل مريع أن لا مخرج لها من الحجرة وأنها هالكة لا محـالة. . ولا أعـرف إن كانت فعـلاً قد أدركت هـذا ولكني لا أزال أذكر صـرختهـا الأخيرة والركن المظلم الذي كنت قد أجبرتهـا على الانزواء فيـه، ثم كيف كفت عن صراخها العالي المذعور واستدارت لي تواجهني لأول مرة منذ أن بدأت مطاردتي لهـا، تواجهني بـل وبدأت تمـزق الأرض بمخـالبهـا وتتقـدم نحـوي. . و. . أعـوذ بـالله، نـظرتهـا. . عينـاهـا بـالذات. . لن أنسى مـا حييت الـرعب. . أقصى درجـات الـرعب، حدقتاها مفتوحتان على الآخر وأنيابها مكشوفة كلها حتى آخر الفـك، وهي تتقدم وقد بلغ رعبهـا درجة كنت متـأكداً معهـا أنها ستقفـز حالاً وتنشب أنيابها وأظافرها وشاربها والرعب المـطل من عينيها. . ستنشب هذا كله في وجهي وتمزق لحمى وتفقأ عيني وتلتهم زوري.

ونظرة واحدة فقط هي التي ألقيتهـا عليها، وهي التي سمـرتني في مكاني أنظر إلى رعبها اليائس المجنـون وتتفكك أوصـالي. . ولا أدري كيف أنقـذت نفسي في آخـر لحـظة وفـررت من الحجـرة وأنـا أجري خائفاً مرتعشـاً لا ألوي على شيء، أبحث عن أمي لأحتضنهـا وأرتعش وأخفي وجهي وعيني في صـدرهـا وأتمنى لـو استـطعت أن أختفي بكلي داخلها!!

* * *

ربما مغالاتي في إثبات رجولتي بقتل رجل سببها هذه المغالاة التي دعتني لأن أثبت أني تركت الطفولة وكبرت، بتحولي من خائف من القطط إلى مخوف لها. تلك العادة التي تركتها تماماً بعدما حدث لي مع القطة المرعوبة في المخزن، ولو كنت أعلم أن رغبتي هذه الثانية لإثبات رجولتي ستقودني لموقف أكثر رعباً وأشد بشاعة لترددت قليلاً وأنا أركب رأسي وأصمم وأبيت النية في صدري وأتكتمها وأسعى حثيثاً حثيثاً لتحقيقها!!.

أما لماذا عن طريق القتل بالذات فقد تقول انها استمرار لنزعتي وأنا صغير، ولكن الواقع غير هذا فالقتل في حد ذاته لم يكن هو ما يجذبني.. القتلة هم الذين كانوا يجذبونني.. هؤلاء الناس الذين يسمونهم في مديريتنا أولاد الليل، هؤلاء الذين يحكمون مملكة الليل ويقتلون من يعترض سبيلهم فيه.. في تلك السن كنت شديد الإعجاب بأولاد الليل هؤلاء إلى درجة أني في أحلامي لكي أصبح رجلاً كنت لا أريد ألا أن أصبح واحداً من الذين يقشعر لذكرهم العاديون القانعون بلقمهم وحياتهم.. كانت الرجولة في رأيي مرتبطة بأعمال غير عادية وبرجال غير عاديين، كانت الرجولة في رأيي هي رجولة أولاد الليل.. كنت أريد إذا أصبحت رجلاً أن أصبح واحداً من الذين يقشعر لذكرهم الرجال في بلدنا؟!..

بالاختصار كنت أريد أن أصبح بطلاً باعتبار أن الرجولة لا بد أن تكون بطولة، ومثلي الأعلى كان أولاد الليل.. ولهذا كنت دائم التتبع لتحركاتهم وأتفه ما يحدث لهم تماماً كما يتتبع شبان هذه الأيام

أبطال السينما ويتحرقون شوقاً إلى أخباهم.. وكان حلمي الدائم أن أتعرف بهم أو بأي منهم وأن يصاحبني ويعلمني حرفة أولاد الليل ويجعلني أقتل، وأصبح في النهاية رجلاً..

كنت في الرابعة عشرة كما قلت، نحيفاً شاحب الوجه هادىء الملامح عمري ما تشاجرت أو اشتبكت أو شتمت أحداً، حتى كان أبي وأمي وكل الناس يقولون عني إني طيب وابن حلال.. ولم يكونوا يعرفون أبداً أن في صدري بركاناً يريد الانفجار، وأن في رأسي أحلاماً وعالماً غامضاً غريباً مختلفاً تماماً عن العالم الباهت الراكد الذي كنت أحيا فيه، عالم آخر فيه شجاعة وجدعنة ومخاطرة وصدام.. عالم لا بد أنه لا يوجد إلا في الليل ولا يسمح بدخوله والحياة فيه إلا لرجل بطل.. لابن ليل!!

- ٢ -

ولم أترك طريقاً أسلكه ليوصلني لأولاد الليل إلا طرقته.. كنت أضيق بصحبة لذاتي من تلامذة البلدة وطلبتها وأجوب الغرز والقهاوي بحثاً عن أخبار سرقة أو جريمة، أو أملاً في العثور على رجل شاف أو رأى وجالس يحكي.. وكان منقذي الدائم هو عم خليل.. كان عم خليل يعمل خفير طماطم في عزبة قريبة مجاورة وكان عجوزاً تخطى الخمسين، ولكنه قضى شبابه كله وجزءاً من رجولته لصاً كبيراً وابن ليل، وربما من أجل هذا السبب اختاره صاحب العزبة وعينه خفيراً على المائة فدان..

كنت آخذ له باكو المعسل والسكر والشـاي ، والشاي بالـذات فقد كان كييف شاي، يضع الأوقيـة كلها في التلقيمة الواحـدة ويعمل الشاي من ثلاثة أدوار، الأول سادة، والثاني بخدشة سكر، ولا يسمح لي بـأن أشرب إلا من الـدور الثالث الحلو. . وكنت أجـد في صحبة عم خليل متعة كبرى. . فقد كان إذا تسلطن من الشاي والدخان بـدأ يحكي عن مغـامراتـه وعن كبار اللصـوص الذين عـرفهم وعن البهائم التي سـرقوهـا والجدران التي نقبـوها والمنـازل التي دخلوهـا، وكنت أحب منه عدم مبالغته في ذكر بطولاته الشخصية وتمجيد أدواره، كان دائماً يلعب لأي عصابة يعمل معهـا دور المراقب أو المشـاهد الـذي يحمي ظهر المهاجمين ويحذرهم. . وكان خليـل هو الآخـر يجد في صحبتي متعـة، فهو وحيـد عجوز تعـدى الخمسين يقبع طـول الليـل والنهـار في ذلك العش الـذي صنعه لنفسـه على رأس المـائـة فـدان المزروعة طماطم، وكان أعـور يغطي نصف وجهـه بمنديـل محلاوي متسخ بطريقة لا يبدو معها أنه يخفي عوره، وكان يحب الكلام ويحب أن يحكي عما فعله في الزمن الخالي. . وكان يجد فيّ خير مستمع، وكـان يقضي الساعـات يحكي ولا يمل، سـاعات يلتهب فيهـا خيالي البكر وأجد نفسي بقـوى أكبر مني مـدفوعـاً لا لكي أسمع فقط ولكن لكي أعمـل وأنضم إلى عصابـة مثـلاً وأشـاهـدهم وهم يشتبكـون. . وكنت حينئذ أسألـه إن كان يعـرف أحداً من أولاد الليـل المعاصـرين الذين كنا نسمع نتفاً متفرقة عن حوادثهم، كان حينئذ يقول بـاشمئزاز يكشف عن فكه الأسفل الأثرم ويهز بيده علامة اليأس ويقول:

ـ أولا دليـل إيه دول؟ . دول عيال . . أولاد الليل كانوا زمـان . . إنما دلوقتي . . يا شيخ . . دول شوية عيال . .

وكنت أصدق عم خليل، إذ من الحكايات التي كنت أسمعها. كـان واضحـاً أن عـالم البـطولات والأمجـاد قـد ولى بعـد أيـامـه وعصاباتـه. وكنت أتحسر حقيقـة ويملؤني الضيق لأني لم أوجد قبـل وجودي بأعوام وفاتني هذا الزمن القديم الحافل. .

شخص واحد فقط كنت إذا سألت عم خليل عنه لا يشيح بيده أو يشمئز وإنما يتولاه وجوم ويقوم :

ـ آه . . الغريب أبو محمد . . دا ماله ده؟ . . أهو ده اللي فاضل من أيام زمان.

ذلك أن الغريب أبو محمد كانت شهرته كابن ليل مدوخ بوليس قد بدأت تعم الآفاق. . وكان من غير الجيل الـذي يتحدث عنـه عم خليل، ولكني حتى وأنا في هذه السن كنت أستطيع أن أدرك بوضوح أن عم خليـل لا يستطيـع أن ينكر على الغـريب مكانتـه ولكنـه يفسـر جدعنته ورجولته بادعاء أنه الجزء الباقي من الماضي الغابر!

وحين كنت أطلب من عم خليـل وألح في الـطلب أن يجعلني أرى الغريب أبو محمد ولو مرة واحدة، كان يتنصل ويعتذر ويبدو عليه أنه أفاق من حالة التفتح الوجداني الذي كان سادراً فيه ويقول :

ـ مالك أنت يا بني ومال الناس دول؟ . . يكفيك شرهم . .

فلا يفزعني رده وأستنكر أن يكون هو نفس الشخص الذي كان

من هنيهة يشيد بأولاد الليل وحياتهم وأشخاصهم وأنه هو نفسه كان منهم، فيعود ويقول في صوته الخائف خوف الموت من العودة. . إن الله قد رضي عنه. . وإنه تاب وإن هذا كان زمان وأيام زمان. . أما الآن فإنه يصلي والحمد لله يصوم رمضان. والحقيقة أنه لم يكن يصلي أو يصوم وكنت أرى بعيني رجالاً يأتون إليه ليخفوا عنده أشياء ويعودون بعد أيام يستردونها. وأراهم وهم يغمزونه، وأراه وهو يعود إليّ وفيه اضطراب ويقول:

ـ آه. . أيوه. . احنا كنا بنقول في إيه. .

ويبدأ يتحدث فإذا بها نفس الحكاية التي قالها لي مرة، وأصبر قليلاً علها تكون مختلفة وإذا بها هي بنفس تفاصيلها، فأقول له هذا فينتقل إلى مغامرة أخرى لا جديد فيها فهي أيضاً قد سمعتها. ومع أني كنت قد اكتشفت أنه لم يعد لديه شيء جديد إلا أني لم أكف عن التردد عليه في عشته التي كان يسميها (الطيارة) ويراقب منها بعين واحدة كليلة عليها سحابة فدادين الطماطم الشاسعة. . لم أكف لأني في قرارة نفسي كنت عن طريقة أريد أن أعثر على الغريب، وكنت أعرف أنه خيطي الوحيد الذي لا أعرف سواه، وكنت أطمع أن يحدث هذا يوماً ما مهما كثرت الأيام، وكانت الإجازة الصيفية تنقرض وأيامها تسرع، وشغفي يزداد وأملي يكاد ينفد.

ولم أكن أتصور أن الإجازة لن تنقضي إلا وقد عرفت الغريب، وعرفته بطريقة لم أكن أيضاً أتصورها. .

- ٣ -

كانت الحرب العالمية الثانية على أشدها وروميل في العلمين، والناس يتحدثون عن الحاج محمد هتلر وإشهار اسلامه وبقدومه المتوقع ليخلصنا من الانجليز. أما عالم الليل في مركزنا فقد كان مشغولاً بأمر آخر لا يمت بصلة إلى هتلر أو روميل. أيامها كان ثمة أمر عسكري قد صدر بترحيل المجرمين المشبوهين إلى معتقل الطور، ونشط كل مأمور مركز ونشط كل عمدة ونشط الحاقدون ومحترفو كتابة العرائض، وفي كل بضعة أيام يتكون فوج من المجرمين فعلاً، والأبرياء الذين اغتنوا والأبرياء الذين زج بهم نكاية وزوراً، فوج يربط في سلاسل من حديد وكلابشات ويرحل إلى الطور. أما مركزنا فقد رزقه الله بمأمور كان قريباً لأحد رجال السراي الذين تتحدث عنهم الصحف، ولهذا رأى أن يفسر الأمر العسكري بطريقته الخاصة، وبدلاً من أن يتعب نفسه في عمليات الترحيل ومكاتباته واستماراته كان يتولى ترحيل المشتبه في أمرهم ليس إلى الطور ولكن إلى العالم الآخر، وبطريقة بسيطة للغاية لا سلاسل فيها أو كلابشات. كان إذا أفلح في القبض على أحدهم وجيء به إلى المركز لا يدخله السجن، وإنما يبقيه معه في حجرته يحدثه ويؤانسه ويقدم له الشاي والمزاج، ثم إذا هب الليل يدعوه إلى نزهة معه في (البوكسفورد) وهناك على حافة البحيرة أو أحد المصارف الكثيبة المؤدية إليها يوقف العربة، وينزل هو ويدعو ضيفه

للنزول، وبعدة طلقات ينتهي من أمره ثم يدفعه إلى البحيرة ولتظهر جثته بعد هذا أو لا تظهر، فلا أحد شاف ولا أحد درى، والحكومة أبداً غير حريصة على حياة المجرمين والمشتبه في أمرهم، ولا يمكن أن يثبت أي تحقيق يجري طرف مسؤولية عليه أو على أحد.

وبعدد هائل من هذه ـ الفسح ـ التي أصبحت بعد هذا معروفة ومشهورة، استطاع المأمور الهمام أن يتخلص من عدد لا بأس به من المجرمين السابقين والحاليين والمشتبه في سوابقهم أو لوائحهم، حتى أصبحت سيرة المأمور كقاتل أكثر سرياناً على الألسن من سيرة أي ابن ليل عتيد، وكان يصله ما يقوله الناس وكان يضحك ضحكاً يسمع من شباك مكتبة في المركز ويجلجل ربما كان يجد هو الآخر لذة في الخروج على القانون تفوق لذة تطبيقه.. المهم أنه كان في أحاديثه الخاصة ومجالسه وبين مرؤوسيه لا يكف عن ترديد أن كل ما حدث لا يعد شيئاً. وأن الفسحة الحقيقية التي لن يهدأ حتى يحققها هي فسحته مع الغريب أبو محمد عميد أولاد الليل في المركز بل في المديرية وربما في كل وجه بحري، ولم يكن راضياً أبداً عن مجهود مباحث المركز وعساكره ومخبريه.. في كل يوم كان يعقد لهم طابور توبيخ وتأنيب وتقريع، والعجيب أنهم كانوا يقولون إنه في طوابيره تلك يستعمل ألفاظاً لا يمكن أن يستعملها جامعو أعقاب السجائر رغم أنه كما يقولون أيضاً يستمد نفوذه من صلته بالسراي والملك عن طريق قريبه هذا ذي المنصب الكبير. ورغم الألفاظ والطوابير والتوبيخ فقد ظل الغريب مختفياً لا يقبض عليه، حتى حين وصل

الأمر إلى حد التحدي السافر وأصبح المأمور ينفق من ماله الخاص - وربماليس بالضبط من ماله الخاص - ويرصد المكافآت ويؤجر العيون ويلعب من بعيد على شلبي الذي كان معروفاً أنه ساعد الغريب الأيمن ويغريه - ويبدو أن هذا السلاح نجح، فقد فوجىء أهالي المركز ذات يوم بأن الغريب محبوس في المركز ينتظر مصيره المعلوم المحتوم، وأن القبض تم بالاتفاق مع شلبي، وأن شلبي قد قبض.

والمفاجأة التي لم يكن أي من أهل المركز وقراه يتوقعها هي تلك التي جاءت مع غروب الشمس، حين قالوا إن الغريب قد هرب في عز النهار، وإن الدنيا قامت وراءه ولم تقعد بعد، وإن وقعة من يخفيه أو لا يبلغ عنه أسود من شعر رأسه.

تلك كانت المفاجأة التي لم يفق منها أحد في المركز أو قراه والتي ظلت حديث الناس أياماً، والتي أصبح موقف الناس بعدها كموقف المتفرجين على عسكر وحرامية، ولكنها لعبة خطرة يشاهدونها ويتحدثون عنها في السر وبأصوات منخفضة، وينهر الجار جاره أو الصديق صديقه إذا رفع صوته وتحدث مذكراً إياه بالمخبرين الذين أطلقهم المأمور يتجسسون ويعدون الأنفاس ويتسلمون غبار الغريب.

حتى نحن شلة الطلبة والتلامذة الذين كنا نسهر على حائط الكوبري الأسمنت الناعم في ذلك المساء نتسامر ونتحدث عن المطاردة الخطرة ونحن مطمئنون تماماً أن لا مخبر بيننا أو بوليس. كنا

نتحدث في خوف وهمس ويستغرقنا الحديث تماماً حتى ننسى أنفسنا ولا نصحو إلا على تحذير صادر من أحدنا يقول . . إن لليـل آذاناً وإن من المستحسن أن نسد أفواهنا ونسكت.

وكنا نصمت ويبدأ خوفنا يطغي، فالدنيا كلهـا كانت قـد عرفت أن الغريب لم يبارح المركز أو قـراه زيادة في تحـديه للمـأمور، وأنـه يستعمل الأذرة الصيفي بعيدانها الطويلة وتشابكها الـذي يخفي الفيل لو أراد. . وكان حديثنا عن الغـريب خطراً من النـاحيتين، كنا نخـاف المأمور وعيونه من ناحية، والغـريب من ناحيـة أخرى، إذ من يضمن أننـا إذا تحدثنـا لن تفلت من أحدنـا كلمـة. . كلمـة قـد يشيـد فيهـا بالغريب فيغضب علينا المـأمـور ورجالـه وآه من غضبهـم! أو قد نشيـد فيها بالمأمور فيغضب علينا الغريب وآه من غضبـه هو الآخـر وسكينه التي كانوا يقولون إنه يربطها حول سمانـة رجله! . . بل أكثـر من هذا كانت جلستنا نفسها نوعاً من التهور سننال عليه بالتأكيد علقاً وتـأنيباً، فأهلنا وأهل البلاد كلها يحيون في حالة رعب من اللحـظة التي عرف فيهـا أن الغريب قـد هرب وأنـه يختفي في حقول الأذرة وأنـه يـظهـر بـالليل أحيـاناً ليغتصب الـطعـام والنقـود. . وكـان رعبهم هـو الآخـر مـزدوجاً، وكـأن كلاً منهم كـان يتصور أن المـأمور سيـوجه إليـه تهمة التستر على غريب هكـذا لله في لله ودون حتى أن يراه. ولهـذا كانت قرى مركزنا تشطب من المغرب والبهـائم تروح قبـل ذهاب الشمس، وتصبح الحقول والشوارع صحراء ليلية جرداء لا حياة فيها ولا حس، ليس فيها سوى دوريات رهيبة مسلحـة ومصفحة تجـوب ظلام الليـل

وصحراءه بحثاً عن الذئب المختفي في مكان ما منه.

ولأن كل هذا كان يدور في خواطرنا بسرعة إذا صمتنا فصمتنا كان لا يطول.. في الحال نجد أحدنا قد بدأ يتحدث والآخرين قد بدأوا يشاركونه، وإذا بالحديث يعود رغماً عنا سيرته الأولى ويعود كل منا يسأل الآخرين بينما هو في الحقيقة يسأل نفسه: ماذا يفعل الواحد منهم لو لقيه الغريب وهو في طريق عودته إلى بيته؟ وعاصفة خوف هي التي كانت تجتاحنا لدى إلقاء السؤال. خوف مبالغ فيه، إذ الواقع أن هاتفاً خفياً في قرارة كل منا كان يتمنى لو حدث هذا، ولكن يتمنى ماذا؟ كان مليون هاتف آخر يتصايحون فوراً في جوفه ويقتلون ذلك الهاتف الخافت، وبسرعة تتحرك دوافع الجبن لتأخذ من الشجاعة كل سماتها وأرديتها وتحتل المقام الأول. وتجعل من دوافع الشجاعة حيثيات تهور وجنون وقلة عقل..!

وفي تلك الليلة حين تكاثر الخوف حتى فض سامرنا ومجلسنا، نفس الخوف الذي كان يبقيه ويمنعنا من الحركة،وقام البعض يتشبث بزملائه ويحتمي بهم ويطلب منهم أن يوصلوه، وقام آخرون يختارون أسلم الطرق وأقربها إلى البيوت، وحين قمت بدوري لم أكن أعرف ولا كان حتى باستطاعتي لو أردت أن أتخيل أن الصدف اختارتني ليلتها ليخرج عليّ الغريب من بين عيدان الذرة، ويجفف الدماء من عروقي بمثل ما حدث..!!

- ٤ -

من الصعب عليّ جـداً أن أحدد إن كنت لم أستشعـر أبداً أني سألقاه، ولكنها لم تكن حاسة سادسـة أو إشارة من المجهـول. . كان شعوراً عاماً غمرني وجعلني لا أعتقد أن هناك فارقاً كبيراً بين أن ألقاه أو لا ألقاه. .

كان عليّ لكي أصل إلى بيتنـا أن أمشي على جسر التـرعة مـع بقيـة رفـاقي ثم نفتـرق، حيث يستمـرون هم في سيـرهـم إلى البلدة وأنحرف أنا في طريق ضيق يدور حـول طرف البلدة وتحـده المساكن من ناحية والأرض المزروعة من ناحية أخرى. . والعجيب أن الخوف انتـابني فقط وأنـا معهم. . أمـا حين أصبحت وحـدي فقـد تـلاشى الخوف فجأة، ومع هذا لم أعد إلى حالتي الأولى، اضـطراب عظيم وجدته يعصـف بي وكأن الخوف قد وصل إلى أن أصبـح فوق متنـاول حواسي ووعيي وانقلب إلى حذر عـظيم واستعداد جنوني للدفاع عن النفس، وحسـاسية مـطلقة لأخفت الأصـوات، والتهـاب الخيـال إلى درجـة يرى فيهـا أي بياض في الليـل جلبـابـاً وأي سـواد شبحـاً وأي حـركة طعنـة. . وكان لم يبق على انتهـاء حقل الأذرة الصيفي الـذي كنت أسير بحذائه إلا بضعة أمتار بعدها أمر بأرض القمح المنخفضـة حيث الاحتمـالات أقل والأمـان أكثر. . والأذرة في الليـل لها وشوشة تحدثها أوراقها الطويلة الحـادة كالمـوسى الخشنة كـالمنشار، خـاصة حين يفاجئك حـدها في جبهتـك أو يلسعك وهـو يصك يـدك. . وأنا

خائف أن أبطىء، وكل ثانية تمر قد تحدث فيها الكارثة، وجاءني شيء من خلف ظهري كالهبهبة حسبتها أول الأمر هبهبة كلب، ولكنها كانت كلمة. . «وله». . وبسرعة الومض خطر لي أنها بالتأكيد ليست هبهبة ولكنها كلمة. . أمر من إنسان. وخطوت خطوة ثانية. وجاءت هذه المرة واضحة أخرست وشوشة الذرة وأصمتت صراصير الليل وأزيزه. .

ـ وله. .

نفذت إليّ آمرة سريعة، فيها دعوة أحسست بعدها بصمم دافىء وكأن أحدهم صب ماء ساخناً في فتحات أذني. . ولم أعد أسمع ولا أتحرك أو أتنفس أو أفكر. . وفي عقلي شيء واحد يدق ولا يتغير:

ـ لقد حدث. . لقد حدث. . لقد حدث!

لحظة واحدة هي التي استغرفها كل ما دار ولكنها من اللحظات التي يجلس الإنسان بعدها ساعات ليستطيع أن يلم بكل ما حدث فيها ويرتبه ويجعله يخضع للمنطق والمعقول. . لماذا لم أجر وقد كان باستطاعتي أن أفعل؟. لماذا انكتم الصوت في حلقي الجاف ولم أصرخ؟. لماذا لم أكن أريد أن أجري أو أصرخ أو حتى أتنفس؟. لماذا التفت فجأة إلى الخلف في حركة مذعورة وقلت بتلك الحشرجة المرتفعة التي ملأت صوتي المراهق برنين أصوات الرجال وخشونته:

ـ أيوه. . عايزا إيه؟

ـ ما تخافش يا شاطر. .

هل معقول هذا؟. وهل يخضع الخوف أحياناً لـلأمر، أو لأمـر قادم من شخص معين بحيث إذا جاءك وجدت نفسك فعلاً قد كففت فـوراً عن الخـوف؟ ولكن إذا لم يكن هـذا صحيحـاً فبـأي شيء استطعت أن أدفع هذا الخوف وأجعـل ما أصـابني من خوف يتـلاشى وكـأنه ذاب؟. جسـدي فقط هـو الـذي تـولتـه رعشـة. . رعشـة بـلا خـوف. . وكأن الخـوف قد غـادر رأسي وصدري إلى الأبـد. وركب أطـرافي وأرعشها بـطريقة جعلت همي كله يصبـح أن أوقف ارتجافي الـظاهر هـذا وأستجمع إرادتي كلهـا لآمـر بهـا أطـرافي أن تكف عن خوفها. . بـلا جدوى، بـل بالعكس كلمـا أمرتهـا كانت تـزداد خوفـاً وارتعـاشاً. . والحقيقـة المالئـة رأسي لحظتهـا أني لا يجب أن يظهـر عليّ علامة خـوف واحدة حتى لـو كانت ارتعـاشة، ووجـدت السؤال ينطلق مني بلا تفكيـر إلا أن أوقف أسنانـاً تصطك وركبـاً تهتز. . بـلا تفكير إلا أن تمر اللحظة الحاضـرة، فقط تمر وبـأي ثمن، إذ لأمر مـا كنت أعتقد أنها لو مرت بسلام فسأملك أمر نفسي بعدها وسأنجح في التصرف. .

ـ من أنت؟

شخطة خرجت مني ولا شخطة المأمور. . أو الغريب نفسه إذا صـادف شحاذاً أو متسـولاً. . وبسرعـة وقبل أن تصـطك أسناني مـرة أخرى أعقبتها:

ـ أنت مين؟

وجاء الصوت الذي لم أكن إلى ذلك الوقت قد عـرفت من أين يجيء وهل يأتي من أمامي أو من خلفي. . أو حتى يخرج من بـاطن الأرض:

ـ إني غريب. .

وانـطلقت مرة أخـرى وكأنني مسـدس الخـائف حين لا يصبح همه إلا أن يطلق الرصاص. . ولا يكف إلا بعد أن يفرغ رصـاصه. . انـطلقت لأقول: أنت غـريب وإلا الغريب؟. . ولكن شيئـاً غـريـزيـاً أوقف الجملة الطلقة في حلقي وجعلني أقول:

ـ أنت الـ . . وبتقـول «وله» ليـه؟. . ما تقـول سلام عليكم يـا أخي. . ما تقول سلام عليكم. .

قلتهـا وانتهت طلقاتي وسكت. وسكت الصـوت الآخر. انتهى بعدها صمم أذني وعـاد إليها أزيـز الليل. . وبـدأت أنفاسي تتـلاحق وتعمق، ورحت أفكـر في أن أطلق ساقي للريـح وأجـري وأستغيث، ولكن شيئـاً كامنـاً في نفسي ظل يـردد لي أنني لن أفعل شيئـاً كهذا، وأن ليس باستطاعتي أن أتحرك من مكاني خطوة حتى لو أردت. .

وطـال الصمت أو ربما طـال في نـظري. . وخيـل إليّ أن كـل شيء قــد انتهى. . وأن صـاحب الصـوت لا بـد قــد ذهب، ولكن أبـداً. . احسـاس غمـرني وجعلني أحس أني أراقب، وأن عينين لا أراهمـا تـدرسـاني خلجة خلجـة، وأن أمـري وصغـر سني لا بـد سينكشفـان حالاً. . وستحين لحـظتي القـاضيـة. ويـا لـه من شعـور

أفزعني وأنا واقف عاري الرأس مخلوع الصندل، تحت سماء بدأ قمرها الجامد يختنق ويذوي وظلامها الكامل يطبق، والشعاعات غير المرئية تخرج لا بد من مكان داخل هذه الشجيرات المتكاثفة لتتفحصني على مهل وبتمعن. . أنا المتجمد في مكاني لا بقوة الرعب فقد ذهب الرعب، ولكن بقوة ما بعد الرعب، بقوة الشعور الذي يجمد الفأر في مكانه حين تنغلق عليه المصيدة، بحيث حتى لو فتحت له بابها لما استطاع أن يهرب منها. .

ومن الظلام المخفف بظلام العيدان سمعت ضحكة. . بالضبط لم تكن ضحكة ممكن أن يقاس نوعها وطولها. . كانت إذا قيست بالضحك الحقيقي حسبتها حبة من مسبحة. . أو قطرة من ماء. أو عينة من ثوب قماش. . وآخر ما كنت أتوقعه من نفسي هو أن أغضب لسماعها. . غضبت، بل أكثر من هذا أحسست أني أكظم غيظي، ولكني سكت. .

ـ أنت ابن مين يا شاطر. . ؟

وكاد غضبي يتحول إلى حركة وقول لدى سماعي السؤال وخاصة لدى كلمة «شاطر»، ولكني لا أعرف لماذا هدأت للسؤال وحل الاطمئنان في قلبي. . وقلت:

ـ أنا ابن فلان. .

ـ أبوك رجل طيب. .

والحقيقة لم أسمع بقية إجابته. . فقد وجدت العيدان تشخشخ

وتتأرجح ثم يبرز على أثر الكلام من بينها امرأة قصيرة القامة ترتدي ثوباً أسود وطرحة سوداء وبرقعاً ذا قصبة ذهبية لمعت بشحوب تحت شعاع القمر الأصفر. .

- ٥ -

من الممكن أن يعتقد البعض أنه كان حرياً بزيه هذا أن يبعث في نفسي السخرية والاستهانة بصاحبه، ولكن العكس بالضبط هو ما حدث. . فقد أحسست فعلاً بشعري يقف وقشعريرة ملتهبة تغمر فروة رأسي وأنا أرى الغريب قتال القتلة ومدوخ المديرية يرتدي ثوب النساء الأسود ويضع مثلهن البرقع. . وأن يظهر لنا العفريت كعفريت شيء يخيف، أما أن يظهر في صورة «عرسة» فشيء لا بد أن يبعث على الرعب المميت. .

وخطا الغريب بضع خطوات ناحيتي وهاتف الجري عند كل خطوة يعلو نداؤه وترجع رأسي صداه، ولكنه فجأة جلس وقال: أقعد. . وفي الحال قعدت، وإن كنت قد افتعلت البطء والتؤدة وأنا أجلس. . كانت حافة «القيد» الذي تروى منه الأرض والذي جلسنا عليه لأتهيىء مكاناً لجلسة مريحة، ولكن مشكلتي لم تكن في الجلسة. مشكلتي كانت فيما يريده الغريب مني، هو يريد الناس لقتلهم مثلاً أو ليعورهم أو ليأخذ منهم نقوداً، فماذا يريد مني وهو لم يقتلني، ولا يعقل أن يكون معي نقود، ويطلب مني أن أجلس!

جلست في صمت، وهممت أن أتكلم ولكني أمرت بالسكوت. أمرني ذلك الكائن الغريزي الذي يتولى أمرنا وحكمنا في أوقات كتلك، أوقات لا نعرف فيها نوايا وأهداف من نكون معهم. . خاصة إذا كانوا من زملاء الليل أو أمثال الغريب.

لم أكن حتى ذلك الوقت قد رأيته. . كنت قد لمحته وحدقت فيه، وكنت أعرف أنه أمام عيني وبجواري ولكني لم أكن قد رأيته. . السياج الرهيب الذي كان يحيط به. . الذين قتلهم والذين طاردهم والذين طاردوه، والحكومة التي يعاندها والحكومة التي تريده، وتاريخ طويل من القصص والروايات والأحاديث منسوجة وملونة ومحبوكة كانت تحيط به من كل جانب، ولا أستطيع معها أن أراه حتى وهو في ملابس النساء تلك، بل لم تفعل ملابسه أكثر من أنها أضافت للسياج الوهمي سياجاً حقيقياً، وتفاعل السياجان ليجعلاني أحس به موجوداً وغير موجود هو الجالس بجواري ويكلمني ولا يمكن أن يكون هذا شخصه أو الكلام كلامه. . أمعقول هذا؟ الغريب هو الجالس على حافة القيد يحادثني؟ كان يخيل لي في لحظة أن من أراه في تلك الثياب السوداء ليس سوى ظل لعملاق رهيب لا يزال كامناً في الأذرة، وفي أحيان يخيل إليّ أن الثوب خال من الداخل وأن الغريب ما هو إلا نقطة زئبقية داخلية لا يمكن إمساكها أو القبض عليها. .

وأخرج علبة الدخان من جيبه أو هكذا تمنيت، فأي حركة منه كانت ترعشني وتجعلني أنتفض مترقباً غرزة السكين المربوطة على

فخذه في صدري، وقال:

ـ تاخد سيجارة؟

قلت:

ـ كتر خيرك. .

قال:

ـ خد. .

قلت، وأيامها كنت أدخن خلسة سيجارة أو سيجارتين في اليوم. . قلت متصنعاً الأدب:

ـ ما بشربش. .

هز رأسه في سخرية وقال:

ـ بتشرب. . خد. .

وادعيت كأنما براعته قد كشفتني فقلت:

ـ علشان خاطرك حاخدها. .

مد لي السيجارة وأشعل عود الكبريت من علبة ذات ستين عوداً «ماركة الخيال» ومد العود ناحيتي قائلاً:

ـ ولع. .

وآليت على نفسي ألا أشعل سيجارتي قبله وأقسمت، ولم يفعل قسمي أكثر من أنه أطفأ العود وقرب رأسه ذات البرقع الذي كان قد رفعه ليشعل اللفافة مني، وأشعل الكبريت مرة أخرى، ولأمنع انطفاءه رقبت رأسي، وليمنع انطفاءه قرب رأسه، وانفجرت الشعلة تضيء ما بيننا، وتضيء ـ أعوذ بالله أعوذ بالله ـ وجهه، وكأنما أضاءت

وجه جنية عيونها مخططة بالطول، وكأنما أضاءت وجه نعجة شيطانية مجنونة ترتدي برقعاً . .

سقطة السيجارة من فمي هي فقط التي عرفتني أن فمي مفتوح وأني خائف جداً، وكأن كل ما فات من خوف لم يكن سوى التثاؤب الذي يسبق المرض. أما وأنا أحدق في وجهه فهو الخوف، المرض، الحمى الباردة التي تهد الجسد وتضعضع العظام، الحمى التي ترجفني، حمى الخوف التي أدركها بوعي محسوسة ملموسة.

ورغم هذا ما أعجب قدرتنا! ما أعجبنا نحن بني الإنسان! لو كنت حيواناً . . وأحسست بمثل ما أحسست لفقدت السيطرة على نفسي ولظللت أجري وأركض رعباً حتى لقيت حتفي، ولكنني في اللحظات التالية كنت بقدرة الخوف الخارقة قد ملكت السيطرة على نفسي تماماً، جلست بجواره أيضاً أدخن السيجارة العربي «الملكونيان» التي عزم عليّ بها، وأدوخ . . فقد كنت حديث العهد بالتدخين وبابتلاع الدخان، وأرد على أسئلته بثبات أو بمحاولات جادة يائسة الثبات غالباً ما كانت تنجح، وغالباً ما كانت أجاباتي تخرج مفهومة معقولة تكاد تبدو طبيعية . . سألني عن دارنا وأين هي من جلستنا، وسألني أين كنت ومع من وماذا قلت لهم وماذا قالوا لي وماذا يقول الناس عنه . . ولم يفتني وأنا في حالتي التي أتأرجح فيها بين «الهي والهوى» تلك أن ألاحظ غبطته الساذجة لكل كبيرة وصغيرة قلتها له نقلاً عن الناس بل وألفتها أيضاً، وما أيسر التأليف عليّ وأنا أحاول أن أرضيه وأجعل أقوالي كمرآة مكبرة يرى فيها حجمه مضاعفاً

وبطولاته أطول من المآذن وسعف النخيل.

وأنا آخذ آخر أنفاس سيجارتي كانت المشكلة لا تـزال تلسعني ولا أزال أريد أن أقول له كم حاولت أن أراه وألقاه، وأشهد عم خليل و«طيارته» غير بعيدة على أقوالي، وأتردد لا لشيء إلا لخوفي من أن يفسر رغبتي في رؤيته تفسيراً يجلب غضبه، وأخشى ما كنت أخشاه لحظتها أن أقول كلمة أو أقدم على حركة تثير غضبه بل كان يخيل لي أحيانـاً أنـه سيغضب فجأة من تلقاء نفسه كـالمجاذيب وأهـل الله . . وكأن أخلاف أهل الليل قريبة الشبه جداً من أخلاق أهل الله. ولكنني نسيت المشكلة تمـامـاً بـل نسيت نفسي والمكان والـزمـان في طـرفي الكمـاشة اللذين أطبقـا على بلبلة أذني وأنا أدفن بقـايا السيجـارة في طين القيد.

- ٦ -

أصـابع لا يمكن أن تكـون أصـابـع. . لا بـد أن عـظامهـا من الداخل كانت حديداً، والجلد فوقها قد جف من زمان وتحجز. خيل إليّ أن جسـدي كله يحمر للقـرصـة، ومـع هـذا فقـد كنت أحس بالأصابـع الكماشـة لا تقصد بهـا الجد والأذى بقـدر ما تـريد التنبيـه المغلف بهـزل. . وصوت يـأتيني من وراء البرقـع الذي أعيـد كقناع الديك الرومي إلى مكانه:

- وبتشرب سجاير ليه؟ . . مش عيب؟

ولم أتـأوه. . خوفـاً، وربما حسبهـا جدعنـة ولكنها كـانت والله

خوفاً، وحتى سكوني بعد هذا وهو يسألني هل أصلي مثل أبي المشهور بصلاحه. . ثم نطقى حين ازدادت الضغطة وقولي:

ـ لاه. .

وتزداد القرصة ويجيئني السؤال كلفحة النار الهادئة:

ـ ليه؟

فأقول:

ـ ح أصلي. . ح اصلي. .

وحينئذ أحس بجسدي يبرد وينتعش ويعود إلى الحياة إذ الكماشة كانت قد تركت أذني، ولكني ما كدت أتنفس حتى دوت خبطة أو خبطتان على ظهري كدق الساطور على جسد الذبيحة المنفوخ، والغريب لعنة الله عليه يقول:

ـ لا والله. . أنت واد جدع. . يحميك لأبوك. . لولا أنك جدع لغرزتك زرع بصل في القيد ده. . قف. .

ماذا أفعل؟ وقفت. . قرب هنا. . قربت. . هات ودانك. . أذني التي كنت لا أزال أحس بها حمراء كالجمر المضيء في ظلمة الليل هي نفسها التي قربتها، وهي نفسها التي سمعته. . سمعت قحة الغريب أبو محمد وهو يقول:

ـ آني جعان يا ولد. .

أقسم أن صدري لم ينشرح لكلمة سمعتها من إنسان بمثل ما شرحت صدري تلك الكلمة وأزالت كل ما تراكم فيه ليلتها من

اضطراب ورعب وارتجاف وهوس.. واستقرت في أعمق أعماقه وراحت تدوي، دوياً غريباً حبيباً، نداء.. النداء الذي تتجمع له النخوة والحب والرغبة العارمة في التضحية، وأسهلها التضحية بالنفس وبكل هذا، وبكل ما حدث فيّ وما انداح من صدري قلت في شبه هتاف:

ـ تحب تاكل إيه؟

ـ أي حاجة.. وإن كنت تقدر هات لي صندوق دخان وحجر بطارية وقلة ميه..

واستدرت لأجري ولكنني لم أتحرك، فيده المهولة كانت قد أمسكت بذيل جلبابي.. وعدت أواجهه فوجدته يرفع البرقع ويقول:

ـ كلام رجاله؟!

وجمت.. فقد أحسست أنه يهينني، وربما القمر الساقط على وجهي الشاحب اللاهث قد انبأه هو الآخر أني أكاد أبكي تأثراً، فترك الذيل ولكنني لم أتحرك.. ظللت واقفاً، وأيضاً لا أستطيع أن أتكلم.. كنت أريد أن أقول له أشياء كثيرة جداً، ولكني لم أكن أعرف كيف أقولها، ربما لأني لم أكن أعرف بالضبط هذه الأشياء الكثيرة التي أريد قولها، وربما لأني لدى كلمته هذه بدأت أفقد الحماس الدافق الذي أشاعه طلبه في صدري وبدأت أفكر في أن أذهب وأوقظ أبي والخفراء والعمدة ونمسكه.

وقفت حتى قال:

ـ روح.. ياللا..

قلت له:

- مش خايف مني؟

قال بهدوء آمر هامس ينفذ إلى النخاع:

- روح..

وبخطوات مضطربة مضيت أتخبط في الطريق إلى بيتنا القريب..

- ٧ -

قطع الشوربجي كلامه مرة ليقول:

- من كان يصدق أنني سأعود إليه بعدما نفذت بجلدي منه، ومن كان باستطاعته أن يصدق أن علاقة طويلة ستنشأ بيني وبين الغريب، علاقة أصبح فيها محل ثقته حتى ليأتمنني على زوجته الحلوة الصغيرة «وردة» أحلى وأجمل وأنضج من رأت عيناي؟

لا بد أن الإنسان هو الذي يتمتع وحده بتلك الخاصية المجنونة خاصية أن يرى الخطر ماثلاً أمام عينه أحياناً فلا يهرب منه كما تفعل الكائنات، ولكنه بكل طيش يواجهه ويسمي هذا شجاعة ويفخر بها.. لا بد، وإلا لما كانت هناك قوة في الوجود تستطيع أن تعيدني إلى حيث يختفي الغريب محملاً بكل ما استطعت العتور عليه في

بيتنا من طعام، وبقلة الماء المخصصة لأبي والتي كان لا يجرؤ أحد من أهل البيت على لمسها. .

* * *

تلك كانت قصة لقائي بالغريب لأول مرة والذي حدث أنها لم تكن الأخيرة، فلقد ظللت أياماً كثيرة أقابل الغريب وأحمل له الطعام والماء وكل المطالب الصغيرة التي يحتاجها اختفاؤه الكامل، ولم تكن المهمة سهلة فالطعام في القرى لا يباع أو يشتري، وكان لا بد من التحايل الكثير لإحضاره من بيتنا واختلاق الحجج للتزود ببعضه من بيوت أهلي وأقاربي. وكان الغريب أول الأمر يعاملني بحرص شديد فما ذهبت له مرة بالطعام ووجدته في المكان المتفق عليه، كنت أجد مكان الانتظار دائماً خالياً فأقف، وأظل أتأرجح بالشك والخوف حتى يخرج عليّ من حيث لا أدري وبعد أن يكون قد اطمأن إلى أني بمفردي. . وكنا لا نلتقي إلا ليلاً في تلك الفترة الكائنة بين المغرب والعشاء. . ورغم سني الصغيرة وغرابة هذه العلاقة فلم يطلب مني الغريب أبداً أن أبقي ما يحدث بيننا سراً ولكنني أنا كنت على استعداد لأن أموت قبل أن أطلع عليه أحداً. . وما أروع تلك الأيام القليلة التي عشتها أميناً على سر الغريب وصلته الوحيدة بالحياة. . كنت أحس طوالها أني أخيراً وبطريقة لم تخطر لي على بال قد استطعت أن أدخل ذلك العالم الذي عشت أحلم بالحياة فيه، وما أروع المرات التي شاطرته فيها الطعام أو التي طالت جلستنا فيها ودار الحديث. . حديث كنت أقوم

أنا بأغلبه تاركاً للغريب مهمة تشجيعي على المضي فيه أو قطع حبل استماعه بسؤال، وما أتفه ما كانت تبدو لي أحداث حياتي الكبيرة وأنا أحدثه عنها. . ما أتفه ما كانت تبدو خلافاتي مع الناس وخناقاتي واشتباكاتي وأنا أقولها للرجل الذي يقتل الناس لأي هفوة، وأحياناً بلا هفوة. .

وقد اقتضاني الأمر لقاءات كثيرة . وأحاديث ممتدة لأستطيع أن أراه رأي العين وأتعرف على ملامحه. كان أول ما يجذب انتباهك حين تراه شارب أسود كث بدأت تظهر له شعرات ناصعة البياض يمتد بعرض وجهه، وتحس به يبتلع ملامحه كلها ويستولي على عينيك ولا يدع لك اهتماماً آخر توجهه إلى أنفه الحاد الرفيع الذي ينتهي فجأة وكأنما بمطب عند شاربه، ولا عينيه الضيقتين اللتين تآكلت بعض رموشها واحمرت، وكان أعجب ما فيه يداه إذ كانتا صلبتين صغيرتين أصغر حجماً من يدي أنا وأقصر أصابع، وحتى «بلغته» كانت صغيرة تحس أنها فصلت لصبي أو أنها بلغة فتاة. . ومرة لاحظت أنه بالكاد يلاحقني في الطول إن لم أكن أنا أطول منه بقليل، وأنه حين ينهي ضحكه بشخشخة صوتية اعتادها ربما ليضفي نوعاً من الخشونة على ضحكه.

بعد ليال كنت قد أخذت عليه إلى درجة أني سألته مرة سؤالاً لا يوجهه إلا «عيل» مثلي ـ على حد رأيه ـ أو مجنون. سألته لماذا هو قتال؟ ولماذا لا يحيا كالناس الذي خلقهم الله وسواهم؟ وماذا دفعه في الطريق؟ ضحك للسؤال وشخشخت ضحكته وقال:

ـ الله يقطعك يا شيخ. . وأنت قد السؤال ده؟ طب اسأل حاجه تانيه.

ولكني وبطريقة صبيانية، وكأنما أتدلل على أبي ألححت عليه أن يجيب. . حينئذ فقط وبعد إلحاح سهم وشردت نظرته حتى خفت أن يكون مشغولاً بتتبع مصدر ما للصوت، إذ ما كان أرهف أذنيه لأقل الأصوات وأضألها! ثم قال:

ـ الحق الحق مش عارف، إنما اللي أقدر أقول لك عليه إني كنت كل مرة يا قاتل يا مقتول.

قلت مبهوراً وقد خيل إليّ أنه بدأ بعظمة لسانه يفتح لي أسرار عالم الليل الرهيب:

ـ ازاي؟ قاتل يا مقتول إزاي؟

ـ يعني يا كنت أقتل يا أتقتل، فكنت باقتل.

قلت وأنا أمد انبهاري وأطيله لأشعره به:

ـ كل مرة كده؟

ـ كل مرة كده. .

ـ حتى أول مرة. .

هنا سكت وعاد يسهم ثم قال:

ـ لا. . هي المرة الأولانية هي اللي صعبة. . كنت زارع عند واحد. . كلني، طالبته مرة واثنين وتلاتة وسقت عليه الناس مارضيش، قالوا لي بلغ فيه بلغت، حطوني أنا في المركز وضربوني. . وأنا في السجن صممت إني أقتله. ويوم ما طلعت تمام بعت العجلة

واشتريت بندقية وطخيته قدام باب بيته. حققم معايا وانحبست انما ما ثبتشى عليا، أهله راحوا أجروا واحد يقتلني وياخد بتاره. أستناه لما يقتلني؟ قتلته قبل ما يقتلني، وعليها يا سي عبد الرحمن.

قلت أقاطعه:

ـ يعني.. الـ.. الراجل ده.. ما. ما. ما زعلتش لما قتلته مثلاً يعني؟

ـ زعلت أمال ما زعلتش. قعدت شهر ما أدقش زاد ولا ميه وعييت، ما خلصنيش م العيا إلا أما عرفت أن أهله مأجرين على واحد يقتلني.

وسكت سكوتاً مفاجئاً جعل الاضطراب يدب في نفسي، والتفت إليّ مرة واحدة وقال بصوت عال رفيع:

ـ وأنت بتسأل عن كده ليه؟

فقلت له برهبة وصوت متهدج بالخطورة:

ـ أصلي عايز أقتل واحد.

ضحك وضحك حتى دمعت عيناه، ثم قال وهو لا يزال يضحك:

ـ تقتل واحد مين؟ قل لي عليه وأنا أقتله لك.

قلت له:

ـ مش واحد محدد، أي واحد.

قال بدهشة:

ـ أي واحد . . إزاي يعني أي واحد؟

قلت:

ـ أي واحد كده.

وكانت في الحقيقة مهمة صعبة أن أشرح له ما أريد، وأخبره بالتفصيل عن تلك الرغبة الخفية التي تراودني والتي جعلتني ألازم عم خليل وأتمنى أن ألقاه هو، والتي ما جرؤت أن أصرح بها لأحد سواه. نظر إليّ بركن عينه نظرة اكتشفت معها أنه حين ينظر بركن عينه يحول، وقال:

ـ بتتكلم جد؟

وقلت وكلي صدق ومن أعماق قلبي:

ـ والله بتكلم جد. أمال أنا بكلمك ليه؟

ـ بتكلمني ليه؟

ـ عشان أنت اللي ح تعلمني أقتل أزاي.

ضحك حتى كاد ينفجر، وقال وهو يخبط على كتفي:

ـ مش عيب يا أستاذ الكلام ده؟ أعلمك القتل إزاي، هو كوتشينة يا فندي؟

وأحسست أني أهنت خاصة لكلمة أفندي وهو ينطقها بطريقة ممدودة الحروف. مع إني لأمر ما كنت أعتقد أنه هو الوحيد الذي لن يسخر من رغبتي هذه لو حدث وقلتها له، بله أن يضحك عليّ وعليها كأي عابر سبيل أو زميل من زملاء الدراسة. أحسست أني أهنت،

ولم أشأ مجادلته مخافة أن يأخذها هزلاً ويضيع حلم حياة بأكملها . . وسكت.

وسكت هو الآخر، ثم وجدته بعد فترة يطبطب على كتفي وكأنما يصالحني ويقول:

ـ وإذا كان نفسك يا سيدي تقتل بخليك تقتل، المسألة بسيطة.

قلت وقد عاودني الأمل:

ـ والنبي؟

قال:

ـ بس على شرط ح أكلفك بمأمورية تقدر تعملها؟

ـ واعمل أبوها كمان.

ـ ٨ ـ

وحتى تلك اللحظة لم أكن قد نظرت للغريب أبداً باعتبار أنه إنسان مثلنا ممكن أن تكون له زوجة أو يكون من عائلة وله والدان، وقطعاً لم يدر بخلدي أن تكون له مثلاً زوجتان ومن يدري ربما أكثر. المشكلة أنه لم يترك لي وقتاً للتأمل أو الاندهاش، عليّ الفور مضى يحدثني عن تفاصيل المهمة التي تنتظرني والتي كان علي فيها أن أوصل للزوجة الأولى ورقة بخمسة جنيهات وأن آتي له بالثانية . . والأولى كانت في بلده القريب من بلدنا سمراء كالحدأة جافة رفيعة

كعود السنط الجاف، وأولادها على الأقل أكثر من عشرة وكلهم لهم نفس سمرتها وعودها الجاف. وطلعت عيني وهي تسألني عن كل كبيرة وصغيرة من أمر الغريب وتستريب، وتعود وتلح لتتأكد حتى تشهدت حين انتهت المهمة وأفرجت عني.

أما مهمتي الثانية فكانت لوردة أحدث زوجاته التي لم أكن أتخيل أنها على هذا القدر المذهل من الأنوثة والليونة والجمال. لم أكن قد ذهبت أبداً إلى العزبة التي وصفها لي الغريب، ولكني كنت أعرف أنها تقع في منتصف المسافة بين كيلو ١٤ وبين محطة الطلمبات التي ترفع مياه المصرف الكبير إلى مستوى ماء البحيرة.. واخترت أن أذهب في شيخوخة العصر حتى أعود بها والدنيا ظلام، وكنت مضطرباً خائفاً أتحاشى الناس وأتصور أنهم يعرفون وجهتي ويعرفون حتى (الأمارة) التي زودني بها الغريب لتؤمن (وردة) أني قادم من عنده.. ويا لها من أمارة، أمارة ما طلبت منه أن يأتي لها بقلم حواجب أسود، أمارة لم أستسغها أبداً ولا هضمت أن ينطقها الغريب بلسانه ويشغل نفسه بها إلى درجة أن يتذكرها.

حين وصلت كانت العزبة لا تزال خالية إلا من النساء العجائز والأطفال، وقوبلت بعاصفة نباح هائلة من كلاب كثيرة هزيلة يكاد يقتلها الجوع وظلت تطاردني حتى كدت أعود لولا الفلاحة الضخمة الملوثة الملابس بالطين والتي ظهرت في الوقت المناسب لتحول بينها وبيني.

ثم تقودني لبيت «وردة» وتتطوع من تلقاء نفسها بتعليل زيارتي فتسألني :

ـ أنت يا خويا من قرايبها بتوع المحطة؟

وكانت تقصد بالمحطة البندر حيث السكة الحديد وحيث درج الناس على تسميته بالمحطة. وهي أيضاً التي دقت الباب بيدها الملوثة ونادت على وردة وطلبت منها أن تفتح «للضيوف». . وأجابها من الداخل صوت حافل بزغاريد أنثوية رقيقة لكنها بندراوية راقية حلوة. . صوت بدا غريباً غير متوقع في ذلك المكان النائي الموغل في بعده عن كل ما يمت إلى الرقي والحلاوة بصلة. . وفتح الباب ولومضة خاطفة لمحت أجمل وجه وقعت عليه عيناي، وجه أبيض يكاد من بياضه أن يصبح شفافاً ومن وسامة تقاطيعه أن يتحول إلى صورة من الصور التي نراها على علب الحلوى والملبس. وكان واضحاً أنها انتهت تواً من استحمامها فشعرها كان قد صفف نصفه ولا تزال قطرات الماء تتساقط من نصفه الآخر. . ومضة رأيتها بعدها تختفي بحركة غريزية وراء الباب ثم تعود للظهور وقد وضعت فوق رأسها جلباباً أخفى الشعر وحاول فاشلاً أن يخفي الوجه. ولم يتح لي أن أرى أكثر فقد أسقطت رأسي في الحال فوق صدري خجلاً ولم أرفع عيني عن الأرض، وكدت آمر أذني ألا تسمع خاصة حين خرج صوت «وردة» مملوءاً بزغاريده الخافتة الداخلية يرحب بي ويطلب مني أن أتفضل، مع أنها لم تكن قد عرفت بعد من أنا ولماذا جئت.

ووجدت نفسي أزداد خجلاً وتعثراً وأنا أشرح لها أقل الكلمات

وأسرعها سبب مجيئي، وتحمر أذناي وتسخنان وأنا أذكر لها الأمارة. ولم يغير ما قلته شيئاً من ترحيبها أو لهجتها فمضت بنفس الروح ترحب بي وتطلب مني أن أدخل وأجلس. وحين ترددت وجدتها تجذبني إلى الداخل بيد بضة لا تزال مبتلة بالماء وتقول:

- خش يا حبيبي.. دا بيتك.. اتفضل اسم الله عليك اسم النبي حارسك.

ولم تترك يدي إلا حين أصبحت في حجرة داخلية كالمندرة، وإلا حين أمالت بيدها الأخرى «حصيرة» زاهية النقوش وفرشتها ووضعت فوقها مسندين وأصرت على أن أجلس على أحدهما وأستند إلى الآخر.

ولم أكد أبدأ ألتقط أنفاسي حتى كانت عدة الشاي أمامنا والشاي نفسه قد انتهى اعداده، وحتى كانت تناولني الكوب بنفس يدها التي بدت حمراء من كثرة بياضها ونعومتها، ثم تسألني عن رأيي فيه وتقول إنها راعت أن تجعله خفيفاً ليكون «شاي أفندية» يليق بي.

ومع رشفات الشاي الأولى بدأت أفيق، فحتى ذلك الوقت كانت مشغوليتها الشديدة في إكرامي والترحيب بي لم تدع لي فرصة أحدثها فيها عن سبب مجيئي بالتفصيل، أو حتى أذكر لها شيئاً عن كنه علاقتي بزوجها الغريب. وكلما طال الوقت يزداد اهتمامها بي، وكلما زاد اهتمامها ازددت خجلاً واضطراباً حتى بدأت أفكر في وضع الشاي جانباً وتهيئة نفسي لإعادة الرسالة عليها ولكني فوجئت بها

تقترب مني كثيراً وتقول:

ـ أنت مكسوف ليه يا حبيبي.. هو ده مش زي بيتكم والّلا احنا مش قد المقام؟ ما تنكسفش يا خويا اسم النبي حارسك وحاميك..

وأعقبت كلماتها الأخيرة بهدهدة حنونة عليّ، هدهدة كادت تأخذني معها تحت إبطها..

وكان لا بد أن ينتهي خجلي ولو للحظة وأرفع بصري إليها، إلى تلك التي تعاملني كصبي صغير أو طالب بينما هي لا تكبرني إلا بأعوام أقل من أن تعد، وحتى لو كانت أكبر مني بكثير فهي امرأة وأنا شاب غلظ صوتي وبرزت حنجرتي، ثم إنها ليست صغيرة فقط ولكنها حلوة بطريقة لا يتصورها العقل، بيضاء جميلة ملفوفة في فستانها الحرير المحبوك وكل ما فيها ناضج فائر يكاد يمزق الفستان. وحتى لو كان لها جسد رجل فيكفي ما في عينيها من سواد جميل يشع رغبات مجنونة تكاد تنطق وتصيح.. ولا تجد في هذا كله حرجاً من الطبطبة عليّ وأخذي تحت إبطها وإدارة وجهي ناحيتها كلما حاولت أن أغض الطرف أو أستدير، بل لا تجد حرجاً في أن تعزم عليّ بالدخان والمعسل وأي مكيف أريد. وأحياناً كثيرة تملس على شعري وتقول:

ـ الله.. شعرك أصفر وحلو زي شعر الانجليز. اسم النبي حارسك يا خويا وصاينك.

وتقـول أخويـا بطريقـة يقشعر لهـا الجسد بـطريقة لا تمت إلى الأخوة بصلة.

وظللت طـوال الوقت منبهـراً ممـا أراه وأسمعـه ومن احسـاسي الدائم أنها مع كل ما تفعله زوجة الغريب ذلك الجبـار الرابض ينتـظر عـودتنا وعلى فخـذه الأيسر سكين. ويبلغ انبهـاري قمته حين تتعمـد بين كل حين وحين أن تخبط على كتفي خبطة دلال وتأنيب وتقول:

ـ اطلع من دول.. دا زمـانك مقـطع السمكـة وديلهـا، حـاكم البنـات تموت في شعـرك ده.. يحميك يـا خـويـا لشبـابـك اسم الله عليـك.. أنت مش ح تبات هنـا إن شاء الله؟ والله مـا سيبـك تـروح لوحدك أبداً.

ويتولاني الضيق العظيم، ضيق الموفد في مهمة الذي يكتشف أنه هو الذي أصبح موضع الاهتمام وأن كل الـرسالـة التي يحملها لم يعد لها أهمية بالمرة وسط ازدحام الاكـرام الهائـل والأسئلة المتواليـة عنـه وعن شخصه ونفسـه والطبـطبة والأحضـان التي ظاهـرها عـطف خالص والتي يدوخ التفكير في باطنها.

ويبلغ الضيق بي أن أقوم أحياناً منتفضاً وكـأنني سأهم بـالجري فتحيطني بذراعيها فوراً، وأحياناً تمس شعـري بقبلة يقف لها شعـري وتسألني في دلال عما يدفعني للعجلة، وبأصبعها المكهربـة تتحسس وجهي وذقني وشاربي المخضر. ويزداد ضيقي وأنا أعامـل كاللعبـة التي لا رأى لها ولا اعتبار، وآمر نفسي أن تظل صـورة الغريب مـاثلة أمام

عيني لا تختفي لحظة تحول بيني وبين هذه المرأة البندراوية التي لا يوقفها خجل أو يمنع يدها حياء. امرأة تبدو كالمحرومة التي ما رأت في حياتها رجلاً. . تراه ماذا يفعل معها؟ ومن الواضح أنها لا تخافه أبداً ولا تعمل له حساباً قط. . .

وربما الضيق والاستنكار وغرابة الموقف هي التي دفعتني دفعاً لأن أجد نفسي أحس فجأة باحتقار هائل لوردة برغم جمالها الهائل وشخصيتها الطاغية المكتسحة.

الغريب بعيد عنها، والرجال يخافونها خوف الموت ولم يبق لها في منفاها البعيد عن الرجال إلا تلك الصدفة التي ساقتني إليها، من تحسبني تلك المرأة الداعرة؟ ومن تحسب نفسها؟

هكذا بدفعة بغض قوية خلصت نفسي منها وحدجتها بنظرات خلت من كل ما يخجل أو يربك، وأعدت عليها الرسالة كلمة كلمة وطلبت منها أن تصحبني. وكأنما صدمها تغيري فقد وجدت الاضطراب يملأ عينيها فجأة ويدفعها للحركة بلا هدف داخل محجريهما. ولكن ذلك لم يستمر إلا لهنيهة فقد وجدت بريقاً ما يعود يشع من نظراتها، ولم أحتج لذكاء كثير لأدرك أنها فسرت نفوري على أنه فشل لأنوثتها معي وأنها لكي تنجح عليها أن تعيد سن أسلحتها وتمضي في المعركة. وهكذا جذبني، وهذه المرة كانت أحضانها مكشوفة وإن حرصت على أن تسبقها بقولها:

ـ اسم الله عليك اسم النبي حارسك.

ووجدت نفسي أنا الآخر أبادلها البغض والنفور بطريقة مكشوفة ويغادر الخجل نظراتي ليغرق نظرتها هي، حتي ليدفعها لأن تقول:

ـ هو أنا مش عاجباك يا حبيبي؟

وإلى هنا وجدت نفسي أصرخ وأقول لها:

ـ أنا مالي ومالك؟.. أنا باعتني عم الغريب.. جايه والا مش جايه؟

ويبدو أنها قرأت في عيني أن الضيق قد بلغ بي منتهاه ولكنها لم تنسحب من الموقف فوراً، ظلت تحادثني وكأنما لتختبر احساسي الأخير تجاهها ولتزيل الجفوة التي حدثت، وفي النهاية قالت إن عليّ أن أعود للغريب وأخبره أنها لن تستطيع الذهاب إليه. أما لماذا فقد أبت أن تجيب وطلبت مني أن أبلغه ما قالته فقط وبلا أي تعليق، وبعد فترة قالت:

ـ وإذا كان عايز هو يشوفني.. خليه ييجي..

وكانت تقول هذا وكلانا مدرك أنه مستحيل، فمجيئه إليها خطر أكيد.

وحين لم أجد فائدة اندفعت خارجاً، ولكنها أمسكتني واستبقتني إلى أن حشت جيبي بفطيرة لفتها في غلاف مجلة وأصرت عليّ أن آخذها. ولا أدري لماذا حين أخرجتها في منتصف الطريق وأنا عائد وحاولت أن أقضم منها قضمة جزعت نفسي ووجدتني

أقذفها بكل قوتي في المصرف، وأتخيل المشهد الحافل الذي سيدور بيني وبين الغريب.

- ٩ -

وكان لقائي معه حزيناً لا أدري لم. كنت أحس من ناحيتي أني فشلت في مهمة كلفني بها وأن علاقتي البسيطة الواضحة به قد حدث فيها شيء عقد من بساطتها، الغريب الذي ما رأيته إلا كبطل يرى لا يمكن أن يربطه بأرضنا أو بحياتنا رابط فجأة اكتشفت أنه زوج، وزوج لوردة وأي وردة! اكتشاف جعلني أحس بالخجل.. وكأنه كان من واجبي ألا أعرف وكأنني ضبطته في موقف شائن أو لحظة ضعف.

أما الغريب فكل ما فعله حين رآني أنه قال:

- هيه.. ما جاتش؟

ولأول مرة في علاقتي به أدرك أني لكي أجيبه عليّ أن أكذب وكذبت. وحاولت أن أجد لها عذراً وأبرر ولكنه هز رأسه وقال:

- طيب.. هيه.. حصل خير. وحد شافك لما رحت؟

ومن توهانه عرفت أنه يريد أن يغير الموضوع ليس إلا. وضايقني أنه لم يثر ولم يغضب وينشب أظافره في عنقي أو قام من فوره إلى العزبة وانتزعها من مرقدها ونقلها. حتى حين حاولت أنا أن أعود إلى الموضوع وأستنكر موقفها استنكاراً خفياً لم يظهر عليه الضيق وراح يسألني عنها وعن صحتهاوماذا كانت تفعله بالضبط حين

وصلت. أسئلة كـان يبذل الجهـد لكي تبدو طبيعيـة كـأسئلة أي زوج غائب عن زوجته البعيدة. . ومع هذا فكل سؤال من أسئلته كان ينبت العـرق البارد تحت إبـطي مخافـة أن يكتشف الكذب في إجـابـاتي، وكنت لا أبـدأ التنفس بحريـة وأرتاح إلا حين يهـز رأسـه وينتقـل إلى سؤال آخر.

ولكني لا زلت أذكـر رأسه هـذا ذا الخمسين عامـاً حين ارتفـع فجأة من فوق صدره وارتفعت معه عينـان أخفى ظلام الليـل ضيقهما وتفاصيلهما وجعلهما تبدوان كما لو كانتا مجرد دائرتين مظلمتين على جانبي أنفه. . لا زلت أذكر ارتفاعة رأسه والـوضع الـذي اتخذه وهـو يصب على صمتـه، وكيف طـال الصمت حتى بـــدأت أقلق وأحـاول يائساً أن أخترق نظارة الظلام الغامقة الموضوعة فوق عينيه لأفتش عما يريده مني، حين قال فجأة:

ـ اسمع يا فتاي

إصغاء.

صاحبه قد مات، ومن خلال فم لا يكاد ينفرج جاءني صوته:

ـ أنت بتكذب عليّ يا فندي؟

ومت. . أقسم أني أحسست وكأني أسقط من حافة الدنيا إلى هاوية الآخرة، السقطة توقف القلب وتشل العقل وتجمد الأطراف ويدفع رعبها جلودنا لأن تفرز فزعها على هيئة عرق صغير ينبت. . عرق الرعب. وحاولت التثبث بالهواء وقلت:

ـ ليه؟

ومرة أخرى جاءني صوته وكأنه صوت الظلام إذا تكلم الظلام:

ـ بتكذب عليّ ليه يا أفندي؟

وابتلعت ريقي بصوت حاولت كتمه، وقبل أن أبتلعه مرة أخرى قال:

ـ أنت عملت حاجه مع وردة؟

ويبدو أنه لمحني أعتدل في مكاني ملسوعاً فوجدته يستطرد معدلاً السؤال:

ـ والا هي لعبت عليك يا أفندي؟

وفي جزء من الثانية كنت قد وطنت نفسي على أن أنهار أمامه وأقول له كل شيء، وإذا نفذت بجلدي أقطع صلتي به وبوردة وبتلك المشاكل التي لست نداً لها والتي ورطت نفسي فيها بصبيانية قد تضيع حياتي. ولكني في الجزء التالي من الثانية كدت أفقد وعيي

بتأثير دفقة الحياة القوية التي عادت إليّ مع أغرب وآخر ما كنت أتوقعه.. ضحكة عالية ضخمة صدرت عن الغريب وبددت عن الليل ظلامه وانتزعت عقلي من مكانه، ضحكة.. ويد قصيرة قوية امتدت تطبطب على كتفي، وصوت آخر كصوت النور إذا تكلم النور يأتيني من ملامح بدأت تتحرك وتنفعل وتعود إليها الحياة:

ـ أنت خفت يا أفندي؟.. الله يجازي شيطانك.. قول لي بقى.. وردة عملت معاك إيه؟

* * *

وأنى لي أن أعرف أن الغريب يعرف عن زوجته الجديدة وردة كل شيء، وأنها نقاوة عينه التي أخذها على عيوبها وأنه رآها تغني في الأفراح مع الفرقة الموسيقية فأعجبته وعشقها وتزوجها بما يشبه القوة، وأنه يضعها في العزبة النائية كالطائر في قفص مفتوح يتحدى الرجال بها ويتحداها وتتحداه، وأن العلاقة بينهما ـ على رأي عم خليل الذي شرح لي كل شيء ـ كالعلاقة بين الجني المارد والمرأة في ألف ليلة يضعها في قمقم مفتاحه معه، وتحتفظ هي بصرة فيها خواتم من خانته معهم رغم كل قمقمه وأقفاله وجبروته. غير أن وردة لم يكن لديها صرة خواتم، وواضح أن الغريب أقوى أثراً من الجني المارد وأكثر حباً، فهو يقتر على نفسه وزوجاته وأولاده ويصرف عليها ويعفيها من أن تخلص له أو تتصرف بشرف، ويقول لها:

ـ إذا استطعت أن تفعلي شيئاً فحلال لك أن تفعليه.

وربما يقول هذا عجزاً، وليبرر لنفسه خطأها إذا أخطأت، ونار الشك تأكل قلبه وعذابه لا ينتهي، والسؤال المضني يلح عليه: «تراها استطاعت وأخطأت أم لا تزال عاجزة؟».

ولا يزال اسمه المرعب يحول بينها وبين الخطيئة.. وكلما ازداد شكه فيها وازداد شكاً في نفسه اندفع يثبت لنفسه وللناس أنه قادر جبار، واندفع يضرب ويبطش ويبسط نفوذه على الجيرة وجير الجيرة ويجعل من اسمه ـ من الغريب ـ القمقم الرهيب الذي يحول بينها وبين الرجال ويحول بين الرجال وبينها. من أين لي أن أعرف أن الغريب اختارني بالذات ليرسلني لوردة لا لشيء إلا لأكون كالطعم الحي يمتحن به حالتها ويتحداها بي، وليريها أنه وهو بعيد قادر على أن يشل ارادتي أنا ويضحك عليها بي؟ ومن أين لي أن أعرف أن وردة كانت تعلم أني آجلاً أو عاجلاً سأنهار وأحكي للغريب كل شيء، وأنها فعلت كل ما فعلته معي وهي متأكدة أن الغريب سيعرفه؟. فعلته تحدياً ورداً على تحديه؟ أنى لي أن أعرف أني كنت كالرسالة الحية المتنقلة التي أرسلها الغريب يسألها فيها عن أحوالها ومبلغ خضوعها له، وأنها أرسلت اليه الرد مكتوباً على نفس الرسالة ـ عليّ أنا ـ ردها المعتاد المملوء بتحديه وثورتها عليه؟ أنى لي أن أعرف أن الغريب اختارني بالذات ليثبت لوردة أن نفوذه عليّ أشد أثراً من كل أنوثتها وجمالها، وأنها أرادت بما فعلته أن تثبت العكس؟

أنى لي أن أعرف هذا كله؟

***

أمـا ليلتها فكـل ما فعله الغريب وأنا أحكي لـه ما حـدث أنـه استمـع إليّ وهـو يضحــك، ضحكـات لا شخشخــة في آخـرهــا كضجحكات صبي مراهق سعيد بنفسه ورجولته.

وسألني حين انتهيت بقليل من الجد:

ـ طيب يا فندي دي لـو كانت مـراتك وعملت كـده كنت تعمل فيها ايه:

قلت بغضب حقيقي:

ـ كنت قتلتها من زمان.

فقال:

ـ كدهه.. هو القتل بالساهل كده؟

قلت بدهشة:

ـ بالنسبة لك على الأقل لازم يكون حاجة سهلة.

فقال وهو يعود يخفض رأسه:

ـ قتل الناس حاجة وقتل مراتـك حاجـة تانيـة.. مين عارف.. بيتهيأ لي أن كل واحد تلاقيه بيفكر ساعات يقتل مراتـه.. بس العيب انه ما بيرسيش على رأي.. ساعة تقول خلاص معدش فيها أمل يالله ادبحها.. وساعة تقول يا واد يمكن تصلح.. وتفضل متـردد بين كده وكده لغاية آخر يوم من عمرك.. لو كان الواحد بيرسي على رأي كان كل واحد زمانه قتل مراته من زمان..

ولم أفهم ما يريده بالضبط، كل ما فهمته أنه يريد مراوغتي وأنها ليست طريقته، وأني لأول مرة أراه يتساهل في أمر خاص به، فقلت:

ـ كان بيتهيأ لي انك مش كده.

فقال بنصف ارتفاعة من رأسه، وبصوت حائر بين الجد والهزل:

ـ بكره تكبر، وتعرف، وتقدر..

وعاد رأسه إلى الانخفاض، وأحسست به هذه المرة مدلدلاً ورقبته كالعلم الحائر المنكس، وكدت أشفق عليه وأضيق به وبالجلسة وأقوم واقفاً لأروح، لولا أنه فجأة شب من جلسته كالملسوع وكأنما استطالت أذناه وارتفعتا إلى فوق كأذني كلب أحس بالخطر، ثم وجدته يقول في صوت يلهث بغير جري:

ـ خد توبك في سنانك وطير.. وأوع تبطل جري إلا اما تحصل الدار.

ـ ١٠ ـ

وبينما كنت أقضي ليلة محمومة أتقلب فيها على لذع اضطراب غير مرئي أتساءل عما دعاه لأن يأمرني بالجري، وأحياناً أعود إلى الحديث الذي دار بيننا وأحاول أن أوفق بين صورة الغريب كما تصورته والغريب كما وجدته، الغريب القادر والغريب العاجز، الغريب الذي يخيف الدنيا والغريب الذي لا تخافه وردة أولى الناس منه بالخوف، بينما كنت في هذا كان الغريب يقضي ليلة من أتعس

لياليه كما علمت في اليوم التالي.. فقد كان إحساسه مضبوطاً، وكانت داورية مكبرة على رأسها المأمور بنفسه قد خرجت للبحث عنه وفي حقول الأذرة بالذات، ولو طال كلامنا قليلاً،أو لو كان سمعه أقل حدة لأطبقوا علينا.

وفي الليلة التالية ذهبت إلى الغريب ومعي البطيخة التي كان قد ذكر أن نفسه فيها وشققتها لتبرد وجلست أنتظر، وطال انتظاري دون أن يظهر. وأخيراً قنعت من الغنيمة بالتهام ما استطعته من البطيخة ودفن الباقي في الأرض، ثم عدت وأنا حائر أأفرح لانقطاع الخيط الذي كان يربطني به أم أحزن. كانت معرفتي به على الرغم من قصرها قد أشبعت قليلاً من نهمي لمعرفته، ولكنها ـ وهذا هو المهم ـ لم تكن قد حققت الشيء الوحيد الذي أردتها أن تحققه، إذ لم يعلمني الغريب القتل كما حلمت بل كدت أؤمن أنه هو نفسه لا يعرف كيف يقتل.

وانقضت أيام قليلة، ربما يومان ربما ثلاثة قبل أن أصحو ذات ليلة على طلقة مكتومة صكت الحائط المجاور لفراشي. انتبهت من نومي تماماً وأصخت السمع هنيهة وإذا بطلقة واضحة ثانية تأتي على هيئة حصاة صغيرة تأكدت أنها قد قذفت عن عمد لتصيب نافذتي دون سواها وتناديني. وتساءلت من تراه يكون فالغريب لا يعرف بيتنا على وجه التحديد، وحتى إن عرفه فكيف يعرف حجرتي والنافذة التي أنام بجوارها. اعتدلت برأس أفرغه الاضطراب الشديد من كل محتوياته فغدا كالصندوق الفاضي الذي يرن لأقل حركة أو خاطر،

وفتحت النافذة باحتراس، ومن شبه الظلام المخيم خارج البيت سمعت كلمة آمرة هامسة واحدة:

ـ انز ل.

ثم أعقبتها أخرى:

ـ وهات الطلياني.

كلمات لمع في الظلام فحيحها كنصل صوني حاد ثم اختفى، وكاد كل شيء في الخارج يعود إلى السكون المظلم الذي كانه لولا أني لمحت أكثر البقعات سكوناً وظلاماً تتحرك وتتشكل على هيئة شبح، ثم تمشي آخذة طريقها إلى الغيطان.

والواقع طغت فرحتي على كل شيء. على اضطرابي وإشفاقي أن يكون ما حدث قد أيقظ أحداً من أهل بيتنا، خاصة أبي ذلك الذي يستيقظ لأقل همسة. وكانت الفرحة لا تزال تعصف بي وأنا أتحسس طريقي إلى العشة الكائنة أسفل برج الحمام حيث أخفيت المدفع الايطالي الصغير الذي أعطانيه الغريب. كنت خلال الأيام القليلة التي انقطعت فيها صلتي بالغريب قد بدأت أعود إلى حياتي التافهة الخالية من الأسرار والليل والأحداث، وما أعظم ما بدا الفارق.. وما أكثر ما جبت الأذرة لعل الخيط يعود مرة أخرى ويصلني به، وها هو ذا قد عاد بنفسه وبصورة ألهبت خيالي..

طغت فرحتي على كل شيء، وفي غمضة عين كنت أقف أمامه حيث تعودنا أن نلتقي، ألهث وأحدثه عن البطيخة وأناوله

المدفع وأضع الظروف أمامه في الخزانة الفارغة كما علمني . . وحين سيطرت على انفعالاتي وبدأت أنظر اليه أدركت مشدوهاً أني أمام غريب آخر، أمام انسان قد انعدمت كلماته ولم نفسه وتجمعت شخصيته في بذرة ارادية واحدة، وكان في سحنته شيء لم أره من قبل . . حماس ربما جنون، روح جديدة تلبسته، شيء أسكت ثرثرتي مرة واحدة فأرغمني على أن آخذ دور الجندي الذي ينتظر أوامر قائده ويدرك أنها أوامر خطيرة بالتأكيد لها ما بعدها .

وبالفعل صح ما توقعته، فقد وجدته بلهجة حامية سريعة وخطيرة :

ـ تروح والا تيجي معايا؟؟

قلت بسرعة :

ـ آجي معاك . . بس على فين؟؟

ـ ما تسألش . . يمكن نقتل . . يمكن ننقتل . . تيجي معايا؟ .

قال هذا ودونأن ينتظر إجابتي فرق بيديه عيدان الأذرة ونفذ بجسده القصير بينها .

وكنت بعد ثانية تردد أتبعه .

ـ ١١ ـ

ولم أحاول مرة أن أجره للحديث أو أسأله، كان يبدو كالمقاد إلى هدف قوي بعيد يجذبه ويعيشه ولا يدع له وقتاً للكلام أو

الوقوف، ويتخطى بي كباري ويلف حول خلجان ويزحف على يديه في بطون أحواض وكأنما هو لا يراني أو يسمعني أو يحس أصلاً بوجودي. في الأحيان النادرة التي تكلم فيها كان يقول:

ـ ايه.. هيه.. بتقول ايه؟؟

فاذا حاولت استيضاحه أجابني بغمغمة أدرك معها أنه مستغرق في تفكير من العبث أن أحاول استخراجه منه. كان الليل هائلاً كبيراً كخيمة مأتم كللت بالسواد حداداً على وفاة النهار، وليس فيها سوى أنوار قمر شاحب ونجوم أضيئت لتهدي المعزين. وكانت الغيطان واسعة ممتدة أوسع من غيطان النهار.. نترك حقول القمح المحصود لندخل حقول الأذرة ونخرم وسط أقطان ونرقب خيالاتنا المعتمة في الأرض الغارقة بالماء تنتظر زراعة الأرز. أرض كثيرة شاسعة وممتدة، كل شبر منها مزروع ومعتنى به وعرق من أجله هؤلاء الغلابى الراقدون في بيوتهم وكأنما ناموا من الحزن، يتقلبون في انتظار أن يأتي النهار ويغترفهم بقبضته ثم بكل عزمه يبذرهم ليفرش بهم وجه الأرض فيقلبوا سوادها خضرة وخرابها عماراً وطميها خبزاً.. إلى أن يجيء الليل وبمنجله يحصدهم وبأسراره وخفاياه يخزنهم في صوامعهم الآدمية المصنوعة هي الأخرى من الطين. ما كان أبعدنا عن أولئك الذين يبذرهم النهار ويحصدهم الليل وتنبتهم الأرض ليعودوا ينبتونها، ما كان أبعدنا عنهم وهم نائمون، بعيدين ينعمون بطاعتهم الشاملة للكون وأرضه ونهاره وليله، ما كان أبعدنا ونحن نخترق عالمهم وجهدهم في استخدامه

وتجميله، الغـريب أمامي قصير صغيـر اليـد قـوي الـذراع . . الـذي ناضل حتى أفلت من قبضـة النهار ومنجـل الليل، ويـريد أن يخضـع الكـون لنواميسـه وليكـون لـه على النـاس سلطان الكـون ونـواميسـه فيخشونه كما يخشون الله والآخرة وبرد طوبة، وأنا وراءه أتأمل حجمه الصغيـر حتى المدفـع المعلق في كتفه، وأتـأمل حجم الليـل الكبيـر وأجده أحياناً أضأل كثيراً من أن يملك زمام الليل ويصبح سلطانه.

ولكنا لم نكن وحدنا. . كان يحـدث أن أسمع الغـريب يغمغم بخفوت ثم يقول:

ـ دستوركم يا رجالة.

وأتفرس حينئذ فيما حولي وبالكاد ألاحظ رجلين أو بضعة رجال قد انتحوا من الليل ركناً تحت كـوبري أو في مـدار ساقيـة، لا تدري لأي شيء هم جالسون ينتظرون، ولا لأي هدف يتحدثون في صمت ويتشـاورون، ولا ما الـذي جعلهم يتركـون هم الآخـرين مضـاجعهم ويسهـرون في تلك البقع المخفيـة ورغم هذا الليـل الشامـل البهيم؟ ولكني كنت أهز رأسي وأقشعر وأقول هم أولاد الليل الحريصون على تقاليد الليل حرص الغريب، والذين حين يحييهم تحيتـه تلك يأمنـون ويؤمنـونه، وكأنما القى عليهم كلمة السر ويردون عليه قائلين:

ـ دستورك معاك.

وفيهم أيضاً كرم الفلاحين فما أكثر ما كانوا يردفون:

ـ اتفضل.

وما أكثر ما كنت أفرح وأنتشي حين يلحظون وجودي ويقولون:

ـ دستوركم معاكم، اتفضلوا يا رجالة.

شيئاً فشيئاً وبعد توغل طويل في الليل وغوض أكثر في ظلامه ولقاء لأبنائه بدأت أرى الغريب بعين جديدة، بدأت أراه بعين الليل الذي نحن فيه فأحس أنه مع الليل أكثر انسجاماً وكأن كلاً منهما جزء متمم للآخر. . حتى ليستحيل على المرء أن يتصور الليل بغير الغريب والغرباء زملائه، أو يتصور الغرباء بلا ليل يحجبهم ويسترهم ويحيون في كنفه. . هؤلاء الهاربون من أبوة النهار الواضحة إلى أبوة الليل الخفية، هؤلاء الذين يجذبهم الليل بكل وضوحه وقانونيته، من يراهم ويرى ألفتهم مع الليل وترويضهم لوحوشه يخيل اليه أنه من المستحيل أن ينتهي أمرهم حتى ولو ملأ العمران كل الأرض، سيظل هناك أولاد ليل ما دام هناك ليل وما دام لليل سحره وجاذبيته التي لا تقاوم، فما ذنبهم؟ الليل هو الذي يجذبهم ويخلقهم وينتزعهم من النهار وسيظل الليل يخلقهم ما وجد هناك ليل وما ظل الماء يخلق السمك والصحراء تخلق الرعاة والغربة تخلق الحنين. منذ الأزل كان هناك الغرباء وإلى الأزل سيظلون. ومنذ الأزل وأشد العقاب ينزل بهم ويهلكهم ورغم العقاب يعودون يوجدون. فكلما فقد الليل غريباً جذب من أهل النهار آخر. . ربما لكي تظل الدائرة تدور ولكي يظل هناك أهل ليل وأهل نهار، ولكي يظل أهل النهار هم الكثرة وأهل الليل قلة، أو حتى ربما لنظل من أهل الليل أو النهار عن طواعية واختيار.

حين أوقفني الغـريب بـذراعـه وواجهتـه وراح يتفـرس فيّ. تساءلت بيني وبين نفسي ما الذي يمنع رجـلاً كهذا أن يقتلني والبقعة نائية، ولن يشهـد فعلته أحـد سوى الليـل الذي لا يـرى ولا يسمع ولا يفتن؟ والحجة موجودة ـ حكايـة وردة ـ بل حتى بـلا حجة، مـا الذي يمنعه من قتلي إلا أنه يعرفني؟ آلان بيني وبينه صلة هي التي تجعلني أحس بالأمان؟ من يدري؟ ربما لو عرف النـاس بعضهم بعضاً معـرفة وثيقـة ما جـرؤ أحد على قتـل أحد. . مـا خاف أحـد من أحد. كنت أفكـر في هذا حين سـألني الغريب بصـوت أجش قد خشنـه الصمت الطويل وبله الندى:

ـ انت خايف؟

قلت على الفور:

ـ لا.

قال:

ـ مستعد لأي حاجة؟

قلت على الفور أيضاً:

ـ أي حاجة ايه.

ولم يجب. . تأملني مرة أخرى وقال:

ـ شايف النار دي؟

ولم أكن قـد رأيت ناراً ولكني حين تلفت وجـدت قبضة بعيـدة كالجمرة تحسبها عين ذئب وحيد العين.

ـ عارف مين هناك؟

ـ مين؟

ـ شلبي .

ـ شلبي مين؟ .

ـ صاحبي وحبيبي ـ أنا جاي أقابله أصلي ما شفتوش من زمان ونفسي هفتني عليه .

وشرح لي الغريب المطلوب مني . قال إنه يريد أن يخيف شلبي والرجل الجالس معه أمام النار يشويان الأذرة وتملأ رائحتها الجو . كان عليّ أن آخذ المدفع معي وأمشي باحتراس حتى أصل منهما ثم أخرج عليهما فجأة وأقول :

ـ بتعمل ايه يابن الكلب انت وهوه؟ . .

وعليّ أن أطمئن فسرعان ما سيظهر هو ونضحك جميعاً على ما حدث ونجلس معهم نشوي الذرة ونأكلها . .

وفي الحقيقة ظل قلبي يخفق وكأنني ذاهب إلى حتفي والمدفع يرتجف في يدي حتى اضطررت لإمساكه بيديّ الاثنتين وأضغطه في كتفي ، وببطء شديد رحت أتقدم ، وخيل إليّ أن وقتاً طويلاً قد مضى قبل أن تصبح المسافة بيني وبينهما كافية لأن أراهما وأرى وجهيهما . كانا اثنين أحدهما شاب وسيم يرتدي طاقية صوف معوجة في عياقة على رأسه ، والآخر كان واضحاً أنه خفير نظامي فقد كانت بندقيته راقدة بطولها على ساقيه المتربعتين ، وهو مشغول بالهف على النار وتقليب الكيزان ، بينما الأول جالس وقد أحاط ساقيه بيديه وعلى وجهه علامات تفكير .

ولولا خوفي من الغريب لضربت فوقهما طلقة في الهواء، فقد كان المدفع معبأ في يدي يغري بالإطلاق.. وإطلاق الرصاص من بعيد أسهل بكثير من أن أواجههما.

ظللت أتردد وأرتجف حتى رأيت شبح الغريب يطل من باب الحظيرة خلفهما.. وحينئذ فقط ـ وكأنما أصدر لي أمراً غير مسموع، وجدت نفسي أنطلق كالثور الهائج أصرخ وأدوب بأقدامي وأخترق المسافة الكائنة بيني وبينهما في قفزات واسعة ألقتني في لمحة البصر أمامهما لا يفصلني عنهما إلا النار المحمرة الخافتة، والمدفع في يدي أصوبه بحماس بالغ مضحك.. ولكن الحيلة نجحت بأكثر مما توقعت فقد ارتدا إلى الخلف في جزع حقيقي، بل اندفع الخفير يصرخ وكأنما فقد عقله.. غير أن هذا كله استغرق.. لم يستغرق في الحقيقة أي زمن وكأنه لم يحدث بالمرة.. إذ في نفس الوقت تقريباً كان شيء آخر يحدث.. أفظع وأبشع شيء شاهدته أو سأشاهده في حياتي..

والكارثة التي لا خلاص منها أني شاهدته بعيني هاتين.. رأيته ولم يكن أمامي إلا أن أراه.. إلى هذه اللحظة بإمكاني أن أتذكر الغريب وهو يتقدم ليصبح خلفهما مباشرة، وبإمكاني أيضاً أن أتذكر يديه حين ارتفعتا عالياً فوق رأسه، ولكني لا أذكر أبداً أني رأيتهما تهويان. كل ما أذكره هو ذلك الصوت الذي لم أسمعه قبلاً والذي لا يشبه أي صوت من أصوات الوجود الأخرى، صوت كصوت كسر البيضة بالبيضة إذا كانت البيضة في حجم الرأس.. كصوت الحديد

المحمي حين يطش إذا وضع في الماء.. ما أذكره هو.. طس.. وإذا بالشاب العايق يقوم نصف قومة ولكنه لا يعود للجلوس، ترتفع ساق من ساقيه في الهواء ثم تبدأ تهبط على دفعات متقاربة وكأنها عقرب ساعة نطاط، وكذلك راح رأسه يهبط.. ولكنه لم يكن نفس رأسه، كان قد تحول إلى كتلة وقسم إلى قسمين بينهما شيء لامع أسود تنخلع قلوب أكثر الرجال شجاعة إذا عرف أنها بلطة قدغورت في الرأس ووصلت خلال إحدى العينين إلى الوجنة..

- ١٢ -

لم تستغرق العملية كلها سوى ثوان ولكنها أخذت من عمري سنين أستعيدها وأتأملها وفي كل مرة تخاطبني نفس الأحاسيس وأرتجف تحت وقع القشعريرة نفسها وأدوخ كما لو كنت أنا الذي شطرت البلطة رأسه..

ترى، أية قوة خفية تجعلنا نتألم إذا رأينا الغير يتألم؟ ونكاد نموت إذا رأيناه يموت؟ الشاب لم أكن أعرفه أو لي به صلة، ومع هذا فقد ظل مصرعه يطاردني ويعذبني.. وكأني أنا القتيل، بل كان يصل عذابي إلى درجة أكبر.. وكأني أنا القاتل!

وإذا كنت قد روعت مرة لما حدث للشاب ليلتها فروعي كان أكبر للدقائق القليلة التي أعقبت موته، وبالذات لرؤية وجه الغريب.. وجهه حين انتزع البلطة من مكانها الموغل في عمقه

وبشاعته ووقف يلهث ويستند اليها. . ويقلب نـظره بيني وبين الخفير الذي كان قد تمدد على الأرض لا نعرف إن كان اغماء أو رعباً أمـاته وأوقف قلبـه. . يا لـه من وجه!. . ويـا لبصابيص النـار حين أضاءتـه وجسدت خلجاتـه وجعلت قشعريـرتي تتحول إلى رجفـة مسموعـة لا يمكن ايقافها. .

عيناه. . عيناه الضيقتـان ما رأيتهمـا أبداً بهـذا الاتساع، بـل ما اعتقدت أبداً أن أي عين بشرية يمكن أن تتسع وتستدير وتصل إلى ما وصلت اليه عين الغريب. . لـو كان الغـريب هو المقتـول لما أوصـل الرعب عينيه إلى هذه الدرجة من الاتساع، ولما حدث لوجهه كل ما كان يعانيه من شحـوب. . وكأنمـا الضربـة التي فلق بها رأس الـرجل قـد فتحت باباً سرياً لـه منه مـارد أو جني ووقف قبالته يمسك هـو الآخر بلطة ويهم بتصويبها إلى أم رأسه. . لابد أنه كان يرى فعلاً شيئاً كهذا وإلا لماذا كان يسيطر عليه كل ما كان مرتسماً في عينيه ونظراته الزائغة من رعب؟. ولابد أنه كان في تلك اللحظة بالذات فاقد الإحساس بنفسه وبما يفعله، فقد كان يدير رأسه وينقل البلطة من مكان لمكـان ويلف ويدور ويفعل هذا بحركة شيطانية سريعـة ما عهـدتها فيـه وليست من خصائصه، وكأنه قد أصبح غريباً آخر غير الغريب الذي صـاحبني في رحلة الليل، أقسم أنه كان غريبـاً آخر. غـريباً لـم أستبعـد أن يرشق بلطته في رأسي بـلا سبب، أو يـرفعهـا ثم يهـوي بهـا على الخفيـر الممـدد فيقسمه نصفين. . كـان واضحاً أن بـاستطاعتـه أن يفعـل أي شيء وهـو في حالتـه تلك التي لا يـدري فيهـا بمـا يفعله، بـل كـان

واضحاً أنه وصل إلى درجة لا يمكن ايقافه عندها وإنما عليه أن يستمر يبطش ويقتل ويكسر الرؤوس، وكأنما ليدافع عن نفسه ضد هذا الشيء الخارق المهول الذي كان منتصباً أمامه يخيفه ويرعبه ويفقده من الرعب والخوف عقله . .

وباستطاعتي أن أقول إنني والخفير قد نفذنا من تحت بلطته ليلتها بمعجزة. لقد كاد يدفعني وعيي لأن أضغط على زناد المدفع كما علمني ولا أتركه حتى يفرغ في جسده كل رصاصه. . كنا أربعة كائنات حية تسيطر عليها أقصى درجات الرعب. . رعب القاتل لا يقل عن رعب القتيل. . ورعب الخفير الفاقد الوعي من الرعب لا يقل عن رعب الغريب. . ورعب القاتل المحترف لا يقل عن رعب الصبي الخام المغامر، وكلنا في حالة دفاع عن النفس. . أنا مستميت على المدفع والغريب مستميت على البلطة. . مستميت في البحث كالمجنون عن الشبح الذي يرعبه. . والخفير متشبث بإغمائه يحتمي به ولا يريد أن يفيق، ولو خير القتيل نفسه لاستمات على ميتته مفضلاً ألف مرة أن يموت مرة ولا يعود للحياة ليواجه ميتة البلطة مرة أخرى. . وحتى النار الموقدة كانت تقاوم الفناء بإحراق كيزان الأذرة وشيها. . والكيزان تقاوم النار ويدفعها الرعب عن المصير المحتوم لأن تئز وتشكشك وتفرقع حباتها أحياناً وكأنها تستصرخ النار بآخر رمق وتطلب النجدة. . رعب كامل من الموت وتشبث كامل بالدفاع عن النفس في وسط ليل قد اشتدت ظلمته في محاولة أخيرة للوقوف أمام النهار الطالع، والشاهد الوحيد المحايد قمر أفطس الأنف مخنوق

كالمشفق علينا مما نخوضه.. كالحزين على المصير.

حتى بدأنا نشم رائحة لحم آدمي مشوي تختلط برائحة الذرة المشوية وتملأ المكان..

***

وفجأة، بدأنا نتحرك..

وبدأت الحركة بضربة من قدم الغريب أعادت الخفير إلى صوابه وأوقفته.. وتعاون الرجلان على حمل القتيل وإطفاء النار التي كانت قد بدأت تسري في لحم ذراعيه وملابسه.. وحملت أنا المدفع والبلطة وسارا أمامي بحملهما.. ولم نذهب بعيداً فبعد بضعة أمتار وصلنا إلى ساقية مهجورة.. واحدة من تلك السواقي التي كانت تستعمل لاستخراج الماء من جوف الأرض حين يشح ماء النيل والتي بطل استعمالها من زمن ونبتت حولها الحشائش وأصبح ماؤها آسناً له لون الزيت المعدني ورائحته لتبدأ تدخل في حوزة الليل وأبنائه، تؤخذ عندها المواعيد وتخفى في مياهها المسروقات، وحتى ذلك الوقت لم أكن أعرف أنها تستخدم أيضاً كمقبرة لمن لا يستحب أن تحويهم المقابر.. مقبرة تلقى فيها الجثة بعد ربطها بحجر.. وتتكفل مياهها بالتهام لحمها وعظامها وما ترتديه في أيام!

وعدنا في موكب صامت، أنا في المقدمة والخفير وسطنا والغريب في المؤخرة.. وقد انتقلت اليه البلطة والمدفع. وسرعان ما

اختفى الخفير بعد أن تبادل معه الغريب همسات وأكملنا السير وحدنا . .

وظللنا فترة لا نتحدث، وكان الغريب أول من نطق، وبدأ كلامه بنبرة عادية وبلهجة حاول فيها أن يعتذر عن اضطراره لإشراكي في تلك اللعبة الخطرة، فقد كان لابد له من قتل شلبي . . ولم يكن أمامه من يستعين به سواي . .

وبكلمات أخرى قليلة حكى لي قصته مع شلبي الذي لم يكن مجرد مساعد له أو عضو في عصابته ولكنه كان صديقه وأخلص خلصائه، صداقة بدأت بخناقة في سوق الأربعاء . . واستمرت عشر سنوات، ووصلت إلى حد أن سلم له الغريب نفسه واسمه وماله وهو مؤمن أنه يسلمها لصديق . . صديق لم يشك في اخلاصه حتى ذلك اليوم الذي واعده فيه على اللقاء عند نفس الساقية التي تركناه فيها من هنيهة. والتي وجد نفسه بعدها محاصراً بخمسين بندقية ميري وبمسدس الضابط فوق رأسه، لم يداخله الشك ساعتها بل حتى لم يشك حين أخذوه هو في «البوكس» وتركوا شلبي . . أنى له أن يعرف أن الحسد كان يأكل قلبه طوال هذه السنين، وأنه ظل يدبر الخلاص منه ليستولي على العصابة، وعلى ما هو أهم من العصابة . . على وردة . . وأنه هو الذي اتصل بالمأمور ودبر معه الخطة؟ .

لم يكن الغريب يحكيها كحكاية . . كان كأنما ينزف أو يتألم . . وفي أحيان كان يسكت ثم يقول فجأة وهو يطحن أسنانه بأسنانه: دا الطاقية اللي كان لابسها ليلة الساقية طاقيتي، اشتريتها

باتنين جنيه من واحد عرباوي وعجبته فحلفت أن يأخذها . .

ويضحك فجأة ويقول:

ـ انت عايز الحق . . الحق مش هو اللي غلطان. أني الغلطان . . بقى عايز في صنعة اللي بيشتغلوا لصوص وقتالين قتلة تتوجد خلصانية والا صداقة؟ كفيش كلام من ده . . في الليل كل واحد ونفسه . . واللي يسلم دقنه لغيره ما يلومشي على اللي يصح له.

ثم يلتفت اليّ مرة ويحكي لي كيف دبر مقتل شلبي بنفس الطريقة التي دبر بها شلبي تسليمه . . وفي نفس المكان تقريباً . . وبنفس السلاح . . الصداقة والاخلاص . . فالخفير خفير العزبة التي فيها وردة، وقد اندفع شلبي لصداقته والإغداق عليه ليتركه يحوم حول وردة ويدبر معه أمر خطفها. تلك الليلة بالذات كانت موعد الاختطاف، وكان شلبي والخفير جالسين ينتظران مقدم رجلين آخرين من العصابة ومعهما المطايا لتنفيذ الخطة. والشيء الذي لم يعرفه شلبي أبداً أن الخفير باع سره للغريب . . والشيء الذي لم يعرفه الخفير أبداً أن الأمر سيحسم بالبلطة . .

وبينما الغريب يتكلم وأنا مندمج أسمع كلامه كان خاطر يلح عليّ إلحاح الناموسة: ترى ماذا يقول أبي الذي لا يفوته الفرض لو تكشف له الغيب للحظة وعرف ما أفعله ساعتها، وما شاهدته، والرجل الذي أسير خلفه، وبحديثه أغوص في ذلك العالم الشاذ

الغريب وألم بتفاصيل أتفهها يخلع القلب ويوقف الشعر؟ . .

وربما إلحاح الخاطر هو الذي شغلني عن أن أدرك أننا كنا طوال الوقت قريبين من عزبة وردة وأننا قد أصبحنا على أبوابها.

وربما هو أيضاً الذي صرف أنظاري عن الغريب بحيث لم أفطن إليه إلا وقد جلس وجذبني من جلبابي وقال:

ـ بص كده مش ده دم؟

وحين أمعنت النظر كانت يده بالفعل تقطر دماً، وكلما تحسس فخذه وأخرجها تكاثر الدم، وحين عراها ظهر الجرح . . جرح بشع متهتك وكأن شيطاناً مسعوراً قد نهش فخذه.

إحدى ضربات البلطة لابد قد أفلتت وأصابته وهو يخلص على شلبي . .

ـ ١٣ ـ

وعولج الجرح طبعاً . . قام بعلاجه الدكتور معروف الذي أخذ الطب بالممارسة . . والذي كان يعمل حلاق صحة اسماً . . بينما شهرته كطبيب ملء الأسماع، حتى كانوا يقولون إن يده النحيفة المعروقة التي تشبه في ليونتها ورقتها أيدي النساء أنجع من أيدي عشرات الأطباء الحقيقيين.

. . وقصة علاجه نفسها ودوري فيه قصة طويلة تصلح وحدها

رواية، يكفي أن أقول إنها تمت تحت الكوبري المتحرك حيث كان الغريب قد قرر أن يقيم إلى أن تشفى ساقه.. ولم أكن أتصور أن تحت الكوبري سيكون بهذا الأمان والاتساع.. وأن بإمكان الانسان أن يعيش شهوراً تحته دون أن يدرك المار فوق الكوبري من أمره شيئاً.. لم أكن أعتقد أن الأمر سينقلب إلى متعة وتجربة جديدة مثيرة يحياها الانسان وهو منحن كأنه يحمل الكوبري فوق كتفيه، ويحس بمشاعر غريبة والماء يجري بجواره وتحت هذا الارتفاع المنخفض، والأصوات ترن في مزيج من صدى الأرض والحديد ورخامة الماء.. أيام كثيرة قضيتها أحيا مع الغريب تحت الكوبري وقد انقطعت صلتي بالعالم وبدنياي وعائلتي، وكأن لم تكن لي في يوم من الأيام حياة أخرى غير تلك.. انقطعت هكذا من تلقاء نفسها.. ودون أي قرار مني أو نية.. وقد أصبح شفاء الغريب هو كل ما أحفل له وأحيا من أجله.. وما أعمق الصلة التي نشأت بيني وبينه في تلك الفترة وأنا أراه عن قرب ضعيفاً قوياً، عملاقاً ومتألماً، نادر الكلام وصاحب حكمة.. ما أكثر ما في صدره من أسرار وما أقل ما يفضفض بها!..

ولكني لا أزال أذكر من حادثة علاجه لحظة لا يمكن أن أنساها، تلك التي كان يتهيأ فيها الدكتور معروف لإعطائه حقنة المخدر الموضعي حين بدأ وجه الغريب يشحب أمام عيني وعرقه ينبت وعيناه تتسعان ونظراته تروغ..

تساءلت لحظتها لم كل هذا؟ حسبته أول الأمر من مضاعفات الجرح.. ولكن معروف حين نسأله:

ـ انت خايف والا ايه؟ ونفى الغريب بسرعة وبشدة أدركت ما لم أكن على استعداد لتصديقه أبداً. أن الغريب الهائل المهول بكل هيلمانه وجبروته خائف كأي طفل من الحقنة، أكثر من هدا حين هم معروف بغرز الابرة في جلده وجدته يستمهله ثم يشخط فيه ويأمره أن ينتظر حتى يلتقط أنفاسه، ثم يستسلم أخيراً ليعود يتراجع وينسحب إلى الخلف حتى يوقف حائط الكوبري انسحابه، ويستعمل معروف الإرغام حينئذ فيمسك بجلده بقوة ويغرز فيه الابرة.. ويا لها من لحظة روعت فيها بالغريب وقد انقلب شخصاً آخر، مجنوناً ربما، أو قطة تعاني من أقصى درجات الرعب على استعداد لأن تنقض وتغرز أنيابها وتنهش.. لحظة أعادت إلى ذاكرتي ما حدث للغريب عقب مصرع شلبي فعيناه فعلاً كانتا قد اتسعتا بطريقة غير بشرية، ونظراته قد أصبحت حمماً، والاصفرار لوّنه ولم يترك حتى أظافره وكأنه يرى مارداً هائلاً يهم بالانقضاض عليه والفتك به.. لحظة بلغ من بشاعتها أن الغريب حين انتفض مستديراً لمعروف عقب انتهاء الحقنة.. استدار بطريقة شيطانية مرعوبة حتى خلت أنه يستدير ليطبق على رقبة الرجل ولا يتركه إلا جثة هامدة.. لحظة طالت وامتدت وارتسم خيالها على الماء المتموج الجاري قريباً منا كلوحة خالدة مهتزة للانسان حين تقلبه أقصى درجات الرعب إلى وحش غاضب مخيف..

***

وفي ساعة راحة من الألم ناقشته في أمر وردة.. كان احتكاكي

بها قد ازداد في الفترة الأخيرة وازداد معه اشمئزازي منها حتى بدأ يتحول إلى اشمئزاز منه.. كنت أشكو له منها فيهز رأسه هزة من لا يبالي ولا يهمه الأمر.. ولم أكن أستطيع أن أهضم أن يصر رجل مجرب خبير مثله على الاستحواز على امرأة مثلها لا تليق به ولا تقيم لسطوته حساباً.. كان راقداً ينش الذباب عن وجهه بمنشة من الخوص صنعتها له فأغلق عينيه، وأحسست أنه خجلان مني ومكسوف ولا يجد ما يقوله ليبرر موقفه.. وماذا يقول؟.. ومن الواضح أنها لا تقيم لعلاقتها به وزناً ولا تحفل بطلباته ورسائله.. والمرة الوحيدة التي زارته فيها تحت الكوبري كانت بإلحاح شديد مني ولأجل خاطري أنا.. وبثمن آه لو عرفه الغريب.. أغلق عينيه طويلاً ثم فتحهما في النهاية ليقول لي انه خلاص قد انتهى من أمرها إلى قرار وانه سيطلقها ويدعها تذهب لحال سبيلها... ولكني من الطريقة التي قال بها «قراره» عرفت أنه قد يكون مخلص النية فعلاً. ولكن قراره هذا سيظل كلاماً في كلام ومع إيقاف التنفيذ..

لماذا يصر إنسان كالغريب صاحب السطوة والنفوذ على الاحتفاظ بإنسانة كوردة؟ أهو الحب كما يقولون؟ أم لكي تظل كالشاهد الحي على عجز نفوذه وعلى أنه هو الآخر له حدوده مثل أي إنسان؟

القرار في الواقع جاء من ناحيتها هي حين ذهبت اليها في اليوم التالي فلم أجدها، وقال أهل العزبة أنها أخذت ملابسها وكل ما يخصها وذهبت، إلى أين؟ لا أحد يعرف.

وبحماس الصبية نقلت له النبأ غير عابىء بما قد يحدثه فيه، ولم أعتقد للحظة أن سيكون للنبأ مثل هذا الوقع، وأني بعد ساعات سأجد في عيون الغريب آخر ما يتصوره العقل.. دموعاً حقيقية.

المهم.. كان الجرح قد قارب على الشفاء ورائحته بدأت تحتمل، والغريب تمالك نفسه بعض الشيء وأصبح في استطاعته أن يتسلى في النهار بالسنارة واصطياد السمك حين ظللت أدبر في نفسي أمراً طول اليوم وأنتظر حلول الليل لأواجهه به. كنت قد ألقيت نظرة تأمل على حياتي فوجدت أني فعلت كمن رقص على السلم فلا هو صعد أو هبط، ولا هو أصبح ابن ليل أو عاد إلى دنيا النهار. بكل تهور تركت حياتي وأهلي وانضممت للغريب أجري وراء أحلامي فماذا فعلت بنفسي أكثر من أني بددت حياتي الواقعة، وبددت كذلك أحلامي، ولم يعد لي سوى دور الخادم أو الصبي؟ كنت قد وصلت إلى قرار ورحت أنتظر على مضض اللحظة التي أعلنه فيها.

وأخيراً جداً وبعد لأي جاء الليل ولم يكد العشاء يولي والليل تتدعم أركانه حتى طلبت من الغريب أن يسمعني. وأدرك بذكائه الفطري أني أعاني من أمر لا يحتمل فاستمع لي وطال اصغاؤه وتركني افضفض وسألني في النهاية عما أريد. وببساطة قلت له ما أريد. قلت له اني أريد منه أن يكون أميناً معي وأن ينفذ وعده ويحقق لي الأمنية التي دفعتني لترك حياتي ووضع نفسي تحت أمره، استمع لي أيضاً ثم سألني ـ وكأنه لا يعرف ـ ما أريده بالضبط. فقلت:

ـ ما انت عارف . . عايز اقتل . .

ـ ما تقتل . .

ـ ما اعرفش إلا ما تعلمني . .

ـ القتل مش عايز علام . اللي عايز يقتل بيقتل . .

هنا بدأت ألمح أنه سيعود إلى مراوغتي فاعتدلت أكثر، وبلهجة جادة أعني كل حرف فيها رحت أعيد قولي وأطلب منه أن يساعدني على تحقيق أملي لأحسم موقفي وأنضم نهائياً له وأصبح ابن ليل بحق وحقيق. وإلا فمعنى هذا أنه يستصغر شأني ويضحك عليّ ويستبقيني لأقوم على خدمته . .

وعض شفلته السفلى تألماً وأغلق عينيه ثم عاد يفتحهما ويقول:

ـ طيب . . عايز تبقى واد ابن ليل يعني وتعمل حاجة ما يقدرش عليها أولاد الليل؟ . . اقتلني . . أنا بقولك جد . . أحسن ما المأمور يقتلني . . وإني خلاص زي ما قال سعد باشا اني انتهيت . . اقتلني ويبقى اسمك اللي قتلت الغريب . .

ولولا أني أحسست أنه لا يهزل وإنما يتكلم جاداً لترث وتركته في الحال، ولم لا أقول إني فكرت في اقتراحه للحظة؟

ولكني هززت رأسي هزة يائس . . وسكت مغيظاً لا أعرف ماذا أقول .

أما هو فقد ابتسم وطبطب على كتفي بغير خشونة، وكأنه

يطبطب عليّ بيد وردة وقال:

ـ طيب.. ما تزعلش.. ح نخليك تقتل زي ما انت عايز وتاخد الشهادة يا سيدي.. المدفع أهه.. وأول واحد بيجي ع الكوبري سوا من الناحيادي أو الناحيادي.. اقتله.

وانتفضت واقفاً من الفرحة انتفاضة خبطت رأسي في «كمرة» الكوبري الحديدية وكادت تفقدني الوعي، وهتفت والألم يعصف بي:

ـ بتتكلم جد؟

قال:

ـ ما دام بتتكلم على الجد فالحكاية معدش فيها هزار.. اني مبسوط منك لأنك أفندي كده ومتعلم وبتفهم كأنك ابني.. يمكن كان نفسي اني ابقى زيك واللا يبقى ابني زيك إنما ما دام انت عايز تبقى زيي أنا ومش عاجبك تبقى تلميذ، فخلاص معدش هزار.. يا ح تقتل أول واحد يفوت.. يا ح اقتلك أنا.. وده مش كلام أفندية.

ـ ١٤ ـ

وهكذا تركنا مجلسنا تحت الكوبري وزحفنا حتى بلغنا الحائط الذي يمتد من درابزينه، والمدفع الايطالي في يدي وكلانا قابع في وضع استعداد، وعيوننا تخترق الظلمة إذ كان القمر لم يطلع بعد لنلمح أول القادمين. وبهمس وبلهجة جديدة على أذني تماماً قال الغريب:

ـ لما تشوفه انس نفسك خالص وبص له هوه.. وما تنشنش إلا أما يقرب.. عند الشجرة اللي هناك دي.. وساعة التنشين اكتم نفسك خالص وخللي النيشان على وسط صدره.. ولما تضبط النيشان اضرب على طول.. اوع تتردد لحسن يقتلك هو.. لازم تعمل حساب انه مسلح وأنك إن ما أصبتوش ح يصيبك هو.. يا قاتل يا مقتول.. واذا خفت فكر ان بينك وبينه حاجة.. فكر ان ده اللي قتل أبوك حتى إن ما كانش أبوك مات.. فكر تمام كده وآمن بحق وحقيق انه هو اللي قتله.. واذا ما وقعش بعد الأولانية.. التانية على طول.. والتالتة.. وحتى لو وقع غير النيشان واضرب في المليان.

ولأول مرة في حياتي أجد نفسي أستمع لدرس يلقى عليّ وأنا متفتح كلياً لتلقيه، وآذاني تسمع وأصابعي تفهم وأنفاسي تعي ما يجب عليها أن تفعله، وروعة ما سيحدث قد طغت عليّ واكتسحتني.. وروعة ما يحدث تغرقني بنشوتها، فهاأنذا أخيراً جداً أتلقى أسرار أولاد الليل، وأتلقاها عن جدارة، فلولا ثقة الغريب فيّ وفي قدراتي لما رضي أن أصبح تلميذه، الغريب الرابض بجواري وقد بدأت تطرق صوته وحركاته ملامح الغريب الآخر، ملامح الغريب حين يقتل أو يهجم أو يقدم على أمر خطير. أما الشيء الذي لمحته وجعل العرق البارد ينبع من جسدي كله ورقبتي ويملأ بسريانه الملموس قناة ظهري، الشيء الذي رأيته وقلب نشوتي إلى رعب بارد لا رحمة فيه ولا هوادة، فهو البلطة التي لمحت الغريب يطبق عليها بيمينه ويخفيها عني بثيابه، البلطة التي أطاحت برأس شلبي

والتي تستعد قطعاً للإحاطة برأسي إذا فشلت فيما أنا مقدم عليه.

فجأة أحسست وكأني كنت أحيا طول الوقت بأحلامي في واد وجسدي في واد آخر، وأنه قد آن الأوان.. أتت اللحظة لكي أنقل جسدي وكياني لأرض أحلامي، وأن نحلم شيء وأن ننقل أجسادنا إلى أحلامنا شيء آخر، فما بالك إذا أصبحت حياتنا نفسها تتوقف على هذه الخطوة؟..

وقال الغريب:

ـ خد..

كانت سيجارة ملفوفة وكنت أرفض أن أدخن أمامه، ولكني أخذتها بيد ثابتة وأشعلتها ومضينا ندخن تدخين ند لند.. وأجبر نفسي على اعتقاد أنه تدخين ند لند..

وقال الغريب:

ـ بعد الحكاية ما تتم.. نمشي من هنا.

ثم صمت برهة وواجهني بعينين فيهما لمعة وقال:

ـ يمكن حظنا يبقى كويس ويطلع متريش.. على العموم بعد ما اتخلص عليه تروح ومعاك المدفع تفتشه وتجيب أي حاجة تلقاها وتمشي.. وأوعى تتلخبط ويقع منك انت حاجة وانت بتفتشه.

وهززت رأسي أطلب منه أن يطمئن..

ومر الوقت بطيئاً ونحن نمد أبصارنا بأكثر مما نستطيع علنا

نلمح ذلك القادم المجهول . .

وطال انتظارنا وأعصابي تزداد توتراً مع كل دقيقة منه حتى لم أعد في النهاية أستطيع، وهممت أن أقف أو أنفجر أو أصرخ لأخفف ما بي من بخار مضغوط، ولكني قبل أن أفعل وجدت يده الصغيرة تمتد إلى ذراعي وتضغط عليها، ووجدته يقول:

ـ الصبر . . طول بالك أمال . . قلت لك انس روحك خالص . . انت لما بيعلموك ركوب العجل بيقولوا لك ايه؟ مش بيقولوا بص لقدامك، بص لبعيد؟ . . وانت اياك تبص لروحك . . تضيع . . . خللي همك في اللي جاي . .

وكأن كلماته تحفل بالسحر فقد وجدت الضغط يخف، ووجدتني أهدأ وأعود أنظر أمامي . .

وطلع القمر ومضى نوره الأول الذي يشبه نور الشروق، وبدأت شعاعاته تبيض وقرصه الناقص يصعد قدماً في السماء حتى كاد يتوسطها، وكأنه «كلوب» علق من سقف الدنيا وكأنه شمس الليل أشرقت، فقد وجدنا ليل الليل يغيب ونهار الليل يحل والظلمة الكاملة تستحيل إلى نور غير كامل، والطريق الزراعي المؤدي إلى الكوبري، والطريق الممتد منه والزرع القريب والأشجار البعيدة . . وجدتها كلها تظهر نصف ظهور وتتضح نصف اتضاح . .

وطال تأملنا لكل ما حولنا ولكل ما حل بالكون من تغيير،

وكذلك طال ترقبنا لنلمح وسط هذا السكون الشامل حركة.. مجرد حركة..

وأول ما حدث أن دق قلبي دفعة دقات متتابعة سريعة أعقبها خفوت وصمت وكأن لم يعد يصدر عنه صوت، وأعقب هذا مباشرة صوت بعيد ساحق في بعده. ولكنه كان يغني..

وعاد قلبي يطلق دقاته من جديد.

وخيل إليّ أني انتظرت عاماً كاملاً حتى ظهر في أفق النهار القمري صاحب الصوت. بدا أول الأمر كنقطة بيضاء ساكنة ثم بياض متحرك، ثم كائن نصفه الأعلى أبيض والأسفل أسود، ثم ظهر أنه رجل يمتطي دابة ويغني.

انتظرت أن يتكلم الغريب ولكن لم يصدر عنه شيء، حتى خلت أنه ما رأى أو سمع.

وأيضاً ما تكلم الغريب أو نطق.. عيناه وكأنهما ضمتا إلى الرجل المتحرك بخيط ويده لا تزال مستميتة على البلطة. ولا ينطق حتى حين التفت اليه طالباً النجدة.. طالباً كلمة.

وعدت أنظر إلى الرجل من خلال العرق المملح الذي يسيل من جبهتي إلى عيني ويلسعها. ومسحت العرق، وسددت فوهة المدفع ليصبح الرجل و «ذبابة» الفوهة وشق جهاز التنشين على خط مستقيم واحد، وفي نيتي ألا أبدأ في إحكام التنشين والتسديد على منتصف الصدر تماماً إلا حين يصير الرجل القادم بحذاء الشجرة.

ومن أجـل هذا مضيت اتـابع حـركة الـدابة بحـركـة يسيـرة من الفوهة.. ورغمـاً عني رحت أتابـع الموال الـذي يغنيه الـرجل.. لم يكن صوته جميلاً أو يصلح للغناء.. ولكنه كان عالياً وقوياً وكان يقول «يـا ليل» وكـأنما يستحلف الليـل ويرجـوه أن يمنع عنـه شروره. ويـا «عين» فأتصور أنه يبكي ويرثي نفسـه وكأن مسعـاه لدى الليـل فشل. وكـان الموال يتحـدث عن بستان حبيبـه ومـا فيـه من مشمش ورمـان ونرجس، وكيف أنه سيدخله ويقطف من كـل أثماره.. وبـدأت أرى أن بينـه وبين الدابـة شيئاً.. كـان «زكيبة» لابـد أنهـا مـلأى بالـطحين ولابد أنه تأخر في «المكنة»، وكأن الغريب لا يزال صامتاً صمتاً لم أر مثله ولا يمكن أن يستـطيعه بشـر، صمتاً بلغ من عمقـه وصـدقـه أنـه جعلني أحس وكأنه غير موجـود معي بالمـرة، وكأنني أواجـه الموقف وحدي. الرجـل المجهول أمـامي والمدفـع في يدي ولا شيء سـوى الليـل معنا. ورغمـاً عني أحسست وكـأن شيئـاً ثقيـلاً قـد انـزاح عن صدري، فقد أحسست أن باستطاعتي أن أتصرف بمطلق ارادتي وأني حر لا يحد من حريتي وجود الغريب أو بلطته. لأول مرة بدأت أشعـر أني غير خائف أو مرغم.. وكلما اختلست النظر إلى الغريب ووجدته ساكناً سكون الموتى ازداد ايماناً بأني لا شريـك لي فيما أفعله. وأني سيد الموقف والمدفع معي والمفاجأة معي والليـل هو الآخـر معي.. لأول مرة أنفض عن نفسي رداء التلمذة وعقيليتهـاوأحس أني ابن ليل حقيقي وأني قادر.

وبكـل تلك الثقـة التي غـزتني عـدت أنـظر إلى هـدفي. كـان

الرجل قد اقترب حتى لم يعد بينه وبين الشجرة المعهودة سوى أمتار، وكان صوته واضحاً وألفاظ مواله ومعانيه منتظمة. وربما الغناء الذي بدأه وهو خائف قد عمل عمله.. وجعله يحس بالونس والطمأنينة.. فغناؤه كان قد بدأ يحفل بالنشوة وكأنه يغني للغناء ذاته، ويقول يا ليل مسبحاً بأبنوسية الليل وجلاله، ويا عين متحسراً على العين التي نامت وحرمت نفسها من جماله..

وكان عليّ أن أقتل هذا الرجل المنتشي بمواله وغنائه بعد أقل من دقيقة زمن. ففوهة المدفع تتحرك معه، وعند الشجرة تماماً سأحكم التصويب وأطلق الرصاصة.

وأقول كان عليّ أن «أقتله» فقط لمجرد القول. فالقتل ساعتها لم يعد له في نظري أي هالة أو بشاعة. كان قد أصبح شيئاً عملياً بحتاً. شيئاً لن يكلفني أكثر من مجرد كتم أنفاسي والتنشين وحركة صغيرة من سبابتي اليمنى أجذب بها الزناد.

واقترب الرجل كثيراً حتى لم يعد بينه وبين الشجرة سوى قصبة.

وكتمت أنفاسي، وبكل ما أملك من قوة حاولت أن أحمل يدي برصاص الدنيا كله حتى تكف عن ارتجافتها الرقيقة ويظل الخط الواصل من منتصف الصدر إلى جهاز التنشين قائماً ومستقيماً.. وفي ثانية تصورت أن أبي قتل في نفس الليلة وأن هذا الرجل قتله وقادم لتوه من هناك ولابد من قتله.. حركة واحدة من الزناد وينتهي كل

شيء فأدخل عـالم الليل من أرحب أبـوابه. . حـركة واحـدة، ضغطة صغيرة.

ولا أعرف ما حدث بعد هذا على وجه الدقة. .

كل ما أذكره هو ضـوء القمر، وجلبـاب الرجـل الأبيض الزاهي البياض، ومواله الذي بـدا جميلاً يكـاد من جمالـه يوقف الـطير على أشجارها تستمع، والشعور بـالأمان والـونس الذي كـان مسيطراً عليـه والـذي ظـل مسيـطراً عليـه حتى وهــو يحـاذي الشجـرة ويبـدأ في تجاوزها. . ربما لو كـان قد خـاف، ربما لـو كف عن غنائـه أو شعر بالخطر، ربما لو كنت قد آمنت ايماناً كاملاً أنه قتل أبي، ربما لو كان حـدث شيء خارج عن ارادتي وارادتـه، شيء خدش سيـاج التحريم الذي يحيطه ويتحرك معه ويتكفل بشل أي إنسان حولـه عن أن يلحق بـه أذى، ربما لـو كان قـد حدث شيء من هـذا لتغيـر كـل شيء. . ولتغير مجرى حياته نفسه، اذ لا أستطيع إلى الآن أن أعرف لمـاذا لم يتحرك اصبعي تلك الحركـة الصغيـرة الهينـة ويضغط على الزنـاد، وما سر هذا النداء الذي تصاعد من أعماقي، من أعمق أعماقي، من أقدامي وجوفي وأصابع يدي وقمم شعري. . نداء لم أسمعه قبلاً ولم أكن أتصـور وجوده ولم أعمـل له حسـاباً ولا اعتقـدت أنني ـ في آخر لحظة ـ سيتصدى لي هاتف من داخل نفسي يقول لي: حرام. . كلمة نتداولهـا ونقولها للغير ببساطة،ويقبلها الغير أو يـرفضها ببساطة أيضاً. أماأن أقولها أنا لنفسي وفي لحظة كتلك فهو ما حيرني وما جعلني إلى الآن أحتار، وما أنبت العرق الغزيـر من كل مكـان في جسدي، ومـا

جعله بحوراً في باطن يدي وباطن سبابتي بالذات. . تلك التي كان عليها أن تقوم بالعمل الحاسم في المهمة، عرق عزيز لزج كاد ينزلق معه المدفع من قبضتي ويجعل سبابتي تنزلق على الزناد كلما أرادات أن تضغط، وهو أيضاً لابد سبب انزلاق ارادتي كلما استجمعتها وقلت: الآن لأرد بها على النداء المتصاعد من داخلي يقول: حرام حرام! نداء ألعنه وأتساءل عن مصدره وأستنكر أن تذيب كلمة كهذه كل طاقتي على الارادة، ويصل ما تحدثه من شلل إلى آخر عقلة في اصبعي. .

نداء أدركت قرب النهاية مصدره. . كان الرجل مصدره. . كلما رأيته مطمئناً يغني ويرفع عقيرته وكأنما الوجود كله ملكه أحسست أنه لا يضمر شراً، ولا يتوقع شراً وكلما سمعت كلماته وتعرفت عليها ووجدت لها معاني، وكلما رأيت جلبابه الأبيض وعمامته، والدقيق الذي طحنه، أحسست أن المسافة بيننا تتلاشى، وأنه يغني لي مثلاً أو يحييني وأنه انسان، وأنه حرام. . حرام. . حرام. . كل غنائه وخبطاته بالعصا على ظهر دابته وهزات أرجله ورنات حنجرته، دون أن يقصد هو أو يعي كانت تصلني على هيئة نداء أمر واحد يقول حرام حرام. بل تكاثرت النداءات في النهاية إذ إن أي شيء كان يفعله كانسان كان يطلق نداء حتى جلسته الآدمية المنتصبة فوق الدابة كانت تطلق نداء. . تكاثرت النداءات حتى وجدتها في النهاية تصنع حوله سياجاً لا يمكن اختراقه، وكأنه أينما يتحرك تتحرك معه دائرة حرام واسعة لابد أنها احتوتني وشلتني،

والتي بلغ من تأثيرها أنه حين أصبح قاب قوسين أو أدنى من الكوبري ورآنا وألقى السلام، وجدت المدفع ينزلق من قبضتي ويسقط، ووجدتني أقول:

ـ سلام ورحمة الله . .

وحين حاذانا . وقال معتذراً عن مروره علينا راكباً:

ـ دستوركم يا رجالة . .

وتصاعد من جانبي صوت كنت قد نسيته تماماً يقول:

ـ دستورك معك . . أتفضل . .

بدأت أتذكر على وجه التحديد المصير الذي ينتظرني . . والعجيب أني فعلت هذا بلا خوف وبلا مبالاة تامة . . كنت على استعداد لمقاومة الغريب إن هو حاول قتل الرجل وإنجاز ما فشلت في إنجازه، مقاومته حتى ولو اقتضى الأمر أن أفقد حياتي .

ـ ١٥ ـ

ولكن الغريب لم يقتلني، وأيضاً لم يحاول قتل الرجل . وبدأت أتكلم وأحاول أن أشرح ما بدر مني أو على وجه أصح ما لم يبدر مني، ولكنه وضع يده على كتفي وقال:

ـ مفيش داعي . . البلطة دي كنت مجهزها ليك صحيح . .

وسألته لماذا اذن لم يستعملها؟ وفوجئت به يقول إنه كان ينوي

استعمالها حقيقة لو كنت قد أطلقت النار على الرجل وصرعته. . إجابة أذهلتني وجعلتني أستمع للكلمات التي قالها بانتباه عظيم، ولكنه على أي حال لم يتكلم كثيراً. . قال ما معناه أنه هو الغارق إلى أذنيه في عالم الجريمة والقتل كان لا يمكن أن يسمح لي بأن أتردى فيه حتى لو أردت، فلو كنت قد فعلتها لما كنت قد كففت أبداً عن فعلها ولأصبحت مثله، ولعشت الحياة المؤلمة الرهيبة التي يحياها، ولاضطررت دفاعاً عن حياتي لأن أجتث أعماراً وأيتم أولاداً وأملأ الأرض بشروري وآثامي، أتعذب وأعذب الناس، وأعاديهم إلى درجة الموت ويعادونني إلى درجة البغض، لأصبحت في النهاية ابن ليل غادر خؤون كشلبي. . إذا تعاملت بشرف فقدت حياتي، وإذا لم أشك في كل الناس حتى أخلص الناس. . ضعت.

ـ واخص على العيشة اللي لا تأمن فيها الناس ولا الناس يأمنوا لك. . ولا تصدق حد ولا حد يصدقك، ولا تخلص لحد ولا حد يخلص لك. . الموت أهون منها. . والمصيبة أنك فيها ما تقدرش تقتل روحك، تقتل كل الناس ولا تقتل روحك. . وعلشان كده كنت ح الحقك وارحمك وأخلص عليك، يا ريت ألاقي أنا حد يرحمني ويغلبني ويخلص عليّ.

وسكت برهة يتأمل القمر. . ثم قال وكأنما يحدث نفسه:

ـ وعلى أقل تقدير لو كنت قتلته كنت ح أعرف انك ما عدتش تنفع الواحد يأمن لك. . النفر لما بيقتل بيصبح زي الديبة ماعندهاش

مـانع تـاكل ولادهـا، بينسعر زي مـا يكون عقـر كلب مسعـور ويبقى مـالوش شغلة إلا أنـه يعض ويفضل يعض حتى صـاحبه وصـديقه.. وعلى أقل تقدير كنت ح اتبلغ عني.

وسكت مـرة أخرى وتنـاول مني المدفـع وراح يتفحصـه.. ثم استطرد:

ـ الظاهر اني لازم أفوق.. إني ح أوديك في داهية معاية.. إني عـذبتك قـوي.. وطـول المـدة دي كنت باتمنى أني أغمض وأفتـح الاقيني أبوك وألاقيني راجل طيب وألاقيك ابني.. إنما الـظاهر أبـوك الحقيقي أولى بك.. أصلب حيلك..

كنت سـادراً في إصغائي حين فـاجأتني كلمـاته الأخيـرة، فقـد قالها بلهجة مغايـرة تمامـاً وبصوت حـاسم باتـر لا تشوبـه ذرة تردد أو رحمة.. وحدقت فيه بعيون واسعة مدهوشة وبملامح صـارمة جـامدة قاسية لا تضطرب.. عاد يقول:

ـ فز قوم.. وما تبطلش جري إلا حدى بيتكم.

ودوى انفجار رهيب وفوق كتفي تماماً مـرت لفحة هـواء ساخن مضغـوط كادت تقتلع أذني، وأفقت على نفسي وأنـا أجري.. ودوى انفجـار بعيد آخـر، وفوق رأسي مـرت كتلة الـرصـاص تغلي وتـطش وتثقب الهـواء.. ولكني وحتى وأنا مستمـر في انطلاقي جـرؤت على القـاء نظرة ـ كنت أعـرف أنها الأخيـرة ـ على الغريب.. وربمـا كـان خداع بصر، ولكني شعرت وكأني أنا الثابت وكـأنه هـو الذي يجـري

ويتحرك.. بملامح بدت طاعنة في الكبر، وبأكتاف تنوء بما حملت، وبقـامة قصيـرة مضت تغوص مـع الليل وتختفي في أعمـاقه، وتنضم إلى كتله السوداء المتراجعة أمام كاشفات الفجر وشعاعاته.



أليس كذلك

الكنز

عبد العال مخبر بوليس طويل أسمر، وعلى ظهر يده اليمنى سمكة فمها مفتوح، وذيلها مشقوق، وعلى عينها نقطة.

عبد العال مخبر، ومع هذا فله عيلة وزوجة أحياناً تناكفه وأحياناً ترضى عنه، وأحياناً يحلف عليها يمين الطلاق، ونادراً ما يقع اليمين.

ولعبد العال ماهية عشرة جنيهات بما فيها كل ما ناله وما لم ينله من علاوات.

وعبد العال سعيد جداً بحكاية المخبر. إذا ركب الأتوبيس وجاء الكمساري قال: «بوليس». وأحس بأهميته وهو يقول بوليس، والناس يرمقونه ويضربون له بعيونهم السلام.

وعبد العال مثل كل الناس يحلم بالمستقبل. وهو لا يحلم حلماً عادياً مثل أن يصبح ضابطاً أو مساعد حكمدار.. هو في الحقيقة يحلم أن يكون وزيراً للداخلية. يا سلام! يصحى الواحد ويلاقي نفسه وزيرا له عربة وله حاجب ويقف على باب منزله عسكري على الأقل بشريطين. بسيطة! وليست على الله ببعيدة، فالذي خلق الأرض والسماوات من العدم، ألا يمكنه أن يخلق من

العسكري وزيرا؟ ثم لماذا لا يخلق منه وزيرا وهو دوناً عن رفاقه يجيد القراءة والكتابة، ويرطن أحيانا بألفاظ انجليزية، ويلتهم الصحف ويعرف كوريا، ويستطيع أن ينطق اسم همر شولد صحيحاً.

وعبد العال من مدة كان معه تحقيق وسين وجيم. فقد اشترك مرة في ضبط واقعة واستلم هو المضبوطات وأمضى بذلك. وبعد أيام جردت الأحراز فوجدوا حرزا ناقصا. وجاؤوا بعبد العال وسألوه وأنكر. وألحوا في السؤال وأغلظوا وتلجلج. وشك فيه الضابط وهدده بالتفتيش. ورأى عبد العال من عينيه أنه ينوي حقا تفتيشه، وحينئذ مد يده في جيبه وأخرج منها الحرز المفقود.

وكان الحرز هو الدليل المادي في القضية، فقد كان شيكا مزورا.. شيكا بمبلغ مائة ألف جنيه أتقن تزويره.

واستغرب الضابط.. وفتح محضرا وراح يسأل. وتوقف عند السين التي تقول: لماذا احتفظت بالشيك المزور معك؟ ولم يستطع عبد العال أن يدلي بسبب واضح.

وهمهم وغمغم وقال كلاما فارغا كثيرا لم يقنع الضابط، ولم يقتنع به هو.

وفي آخر النهار عاد عبد العال من القسم منهوكا محطم القوى. عاد وقد خصم من مرتبه نصفه، ونقل من المباحث وأنذر بالفصل.

عاد وهو حزين ساخط، ومع ذلك كانت في أعماقه طراوة رضا وسعادة.. فلا أحد قد فطن الى أنه كان قد احتفظ بالشيك المزور

ليستخرج له صورة فوتوغرافية طبق الأصل، صورة كلفته كثيرا ودفع فيها خمسة عشر قرشا.

ومضى اليوم، ومضت وراءه أيام، وذهب حزن عبد العال وسخطه، ولكن بقيت صورة الشيك المزور.

وللآن لا تزال أسعد لحظات عبد العال هي تلك التي يهرب فيها من زحمة الناس ويختلي بنفسه، ويطمئن إلى أن أحداً لا يلحظه أو يراه، ثم يخرج حافظة نقوده بعناية، ويستخرج من جيب مخصوص منها صورة الشيك ،ويحس بالرعد في أذنيه والتنميل في أطرافه وهو يرى شعار البنك والحروف المطبوعة، ثم وهو يقرأ الجملة الخالدة ويلمس عليها بأصابعه :

ادفعوا لحامل هذا مبلغ ألف جنيه مصري لا غير.

ويستمر يحدق في الشيك حتى تهجمع الزوابع التي في جوفه، ثم يطويه بعناية ويعيده الى جيبه الخاص في المحفظة ويتنهد، وكأنما قد انتهى من اعتراف أو صلاة، ثم يعود هو في بطء الى الناس وزحمتهم، يعود كما كان عسكريا طويلا وأسمر، وعلى ظهر يده اليمنى سمكة فمها مفتوح، وذيلها مشقوق، وعلى عينها نقطة.

الحالة الرابعة

انتهى العشاء وهب الدكتور مازن كي يقوم بنوبتجيته في الاستقبال .
كان عشاء بيت الامتياز سخيفاً في ذلك المساء كعادته كل مساء كان مكونا من بطاطس مفروض أنها محمرة، ولم تكن لا محمرة ولا مسلوقة ولا شيء من هذا القبيل، انما كتل لزجة متراصة من مادة البطاطس يفصلها زيت رخيص. . ثم أرز باللبن، أو بطاطس باللبن، أو حجارة وحصى و«زلط» باللبن، كله ماشي وكله لا يقيم أود مخلوق. كان العشاء محنة يضطر اليها الأطباء الذين لا يملكون سوى مرتباتهم، وحتى لا يملكونها كلها فجزء غير قليل منها يذهب الى عائلاتهم التي رأت المر كي تنفق عليهم وتجعلهم في نهاية الأمر أطباء«قد الدنيا». أما الدكتور مازن فلم يكن يحفل بالعشاء أو بالغداء أو حتى بطعام بيت الامتياز كله. كان أبوه أحد كبار الأطباء في وزارة الصحة، ومن صغره وهو يذهب الى المدرسة في عربة ويعود في عربة. وحين كان في كلية الطب لم يره زملاؤه الطلبة أبدا الا ثمة شيء جديد قد أضيف اليه، قد يكون جاكتة وقد يكون في أحلك الأحوال منديل صدر جديد. وكان العمل بالنسبة للدكتور مازن شيئا

مهماً حقا. اليوم الذي يأخذ نوبتجيته فيه كان يسبقه اعداد أيما إعداد. فلا بد أن يتفق مع اثنين من زملائه«الغلابة» على أن يأتوه ليسلوه في وحدة نوبتجيته. ويختارهم مازن بعناية، فأحدهم لا بد يجيد رواية النكت ويخلق من التفاهة فكاهة، والآخر لا بد أن يكون عليما ببواطن الأمور يحدثه حديث العارف عن الأسرار الرهيبة التي تدور داخل جدران المستشفى، وعن الزملاء الأطباء وعلاقاتهم الخفية مع الممرضات والحكيمات، وعن الفضائح. ثم لا بد أيضا من اعداد للعشاء.. فقبل الثامنة يرسل عبد الغني فراش بيت الامتياز الى جروبي أو الاكسلسيور ومعه قائمة معدة ومنتقاه بعناية لعدد كبير من الساندويتشات. ثم لا بد آخر الأمر من احضار عدد من المجلات المصورة الأمريكية والفرنسية، تحتوي على عدد من الوجوه والأجساد الجميلة يكفي للتفرج عليها ليلة بأكملها. كان لا بد من اعداد هذا كله في يوم النوبتجية حتى لا يحس مازن بأي سأم أو ملل، ومع كل هذه الاحتياطات، ولو فرض ووقع المحال وأحس بشيء من الملل والسأم فهناك التليفون، وهناك ثلاث فتيات وامرأة متزوجة تملك أجمل صدر في جاردن سيتي، مستعدات أن يقضين معه الليلة في كلام ودردشة وفكاهات.

هبط الدكتور مازن الى الممر الطويل، وكل شيء على أتم ما يرام.. البالطو أبيض ونظيف ومكوي، والبنطلون الأبيض حده كحد السيف، والسماعة معلقة في صدره يلمع معدنها، والحمام الدافىء الذي أخذه بعد إغفاءة الظهر يخدر وجهه ويجعل من خلاياه دوامات

صغيرة تدور بها السعادة. كل شيء حتى شكله كان قد ألقى نظرة طويلة على نفسه في مرآة التسريحة الحكومية الحادة في بيت الامتياز واطمأن ـ كعادته ـ الى الصورة التي سيكون عليها حين يراه الناس ـ جسده طويل رياضي لا انبعاج فيه، وسنواته لم تتعد الخامسة والعشرين، ووجهه أبيض حليق ناعم جميل، والشعر موزع توزيعاً أنيقاً على رأسه. . أربعة أخماسه تتموج إلى اليمين، والخمس الباقي يستكين إلى اليسار ولا تنفر منها شعرة واحدة.

كان الممر طويلا قد حل الفساد في بعض مصابيحه فانطفأت تنتظر الاستمارات ومصلحة المباني لاستبدالها، وكان النور يتسرب الى الممر من الأقسام التي على يمينه وعلى يساره فيضيء الممر بنور شاعري رقيق. وكان البالطو الأبيض يحف حفيفا خافتا كلما اصطدم بساقيه الطويلتين السائرتين، والكولونيا تدفع ببرودة ذات رائحة جميلة الى ذقنه، وكان جيب البنطلون على صغره يضيق بباقي الورقة ذات العشرة الجنيهات، والدنيا في نظره لحن جميل كأنغام الكمان في رقصة شهر زاد.

وكان يلقي التحيات ذات اليمين وذات اليسار، تحيات المساء كان يلقيها من أنفه إلى تلميذات الأقسام الساهرات، وكان دقيقاً في القاء تحياته فهو يعرف أنه جميل وغني ومن عائلة، وأن التلميذات لا بد يحلمن به وبابتسامة منه، ولكنه أعرف الناس بالبيئة التي ينشأن فيها، ويقبلن منها الى المستشفى تدفعهن الحاجة لأكل العيش والعمل وإهدار سيرتهن على الألسنة والأفواه. ولهذا لم يفكر أبدا في

مصاحبة احداهن أو حتى في التحدث معها. كان حديثه مع الواحدة منهن لا يستغرق لحظات وكله«حديث عمل» لا يزيد كلمة ولا ينقص كلمة. ولكنه لم يكن يحب أن يبدو متكبرا في نظر الناس، وكان عليه أن يحييهن.. ولكنها لا بد أن تكون تحية مضبوطة لا تغري بالألفة ولا تهبط بمستواه ولا ترتفع بمستواهن.

مضى في الممر المظلم الحالم يلقي بتحيات المساء بإيماءاته، ويحس أن الناس كلهم لا بد في مثل دقته ونشاطه، وأن الوجود لا يستحق ملليجراماً واحداً من التعاسة، والحياة لو أخذت هكذا سهلة بسيطة بلا احقاد أو تعقد لما أصبح للناس في الدنيا مشاكل.

ووصل الى قسم الاستقبال.. كان زبائنه كثيرين في تلك الليلة، وكانوا ينتظرونه لا بد من قبل أن تغرب الشمس. وعلى الرغم من كل شيء فالدكتور مازن كان يحب نوبة المساء.. كانت بالنسبة اليه فترة مستحبة لاتتملكه فيها عصبية النهار، ولا يقاسي من كثرة المرضى الذين يقفون أمامه في طابور لا أول له ولا آخر، ويقبلون إلى المستشفى مع الفجر.

وتصاعدت الهمهمات من الجمع الصغير لمقدمه، ولم يكن قد تمعن فيهم أو حتى ألقى إليهم تحية المساء. اكتفى بالتفاتة سريعة يعرف بها كم عددهم، وكان واضحا أنهم أكثر من العدد الذي وجده في النوبة السابقة وأحس لهذا بنوع من الزهو. وحين وقف أكثرهم

وأفسحوا له الطريق ودلف من بينهم تحفه التحيات والدعوات من الجانبين ملأه يقين بأهميته، ودون وعي أمسك بوق السماعة بأصابعه وازداد احساسا بضرورته، وشخط في التمورجية العجوز فقد وجد مقبض الباب لا يلمع وبقايا بصاق عالقة بالحائط. . وأسرعت المرأة بأعوامها الخمسين تجري ويطرقع قبقابها على البلاط، وتزيل البقايا وتلعن المرضى وقذارتهم.

ودخل الدكتور مازن الى غرفة الكشف، وكعادته أمر التمورجية بالوقوف على الباب والحيلولة دون دخول أحد الا لبناء على أمره وطلبه.

وانبعج الكرسي وهو يحتويه، وأمر بفنجان قهوة ـ سكر شوية ـ وأكد على التمورجية وتوعدها إذا لم تأت القهوة «سكر شوية». . ومضى يقلب صفحات مجلة«ومن» ويتوقف لدى كل صفحة.

وأخيرا جاء الفرج حين دق الجرس، وأشار للمرأة برأسه دون أن ينطق حرفا.

ودخلت الحالة الأولى تجار. وقبل أن تنطق كان قد عرف كل شيء، وكتب في التذكرة حقنة تداوي المغص كان يعرف أنها غير موجودة وأنها نفذت من الأجزخانة ولا زال طلبها من الوزارة جاريا. . وكان يعرف عن ظهر قلب ألفاظ المحاورة التي سوف تدور بعد قليل بينه وبين المريض حين يعود اليه خالي الوفاض من الدواء، والتي يعلم أيضا أنها تنتهي في العادة بطرد المريض وإدخال آخر.

ودخلت الحالة الثانية والثالثة.

وكان لا يزال مستغرقا في المجلة يتحقق في صورة ممثلة فرنسية ترتدي(مايوه) مصنوع من جلد رأس فهد، وبه ثقوب مكان العينين والفم، والثقوب تظهر أجزاء من جسدها ويخفي الجلد أجزاء، وهو منفعل يحاول أن يشغل خياله ليجد ما وراء الجلد أو يخمنه، كان كذلك حتى دخلت الحالة الرابعة.

ولم يتنبه ولم يعد من الوديان التي كان يمرح فيها خياله، ثمة سؤال صغير مضى يشغله.. ترى أهي حالة مغص أو تسمم؟ وكالعادة مضى يسأل دون أن يعنى بسماع الجواب.. اسمك ايه؟ وعاوزه ايه؟ وبيوجعك ايه؟.

ولم يعتدل الا حين خبط عسكري كان واقفا أمام مكتبه.. خبط قدميه في سلام عظيم، وقدم له أوراقا كثيرة يحتويها دبوس واحد.

ومر الدكتور مازن على الأوراق مرور الكرام.. اشارات ومكاتبات مكتوبة بسماجة لا طريف فيها ولا جديد.. ولم يقرأ منها ولا فهم حرفا.

وتطوع العسكري بالشرح، وقال ان الحالة التي يستصحبها امرأة مراقبة ليس لها منزل تراقب فيه، ولذلك تقضي الليل في القسم، وقد أبلغت الليلة أنها مريضة و..

ولم يدعه يكمل هذه السخافات، أشار اليه أن يصمت وتطلع

الى المرأة بحب استطلاع حقيقي. لم يكن في حياته قد رأى امرأة مسجونة أو حتى مراقبة، وكان يعتقد أن الواحدة منهن لا بد مجرمة طويلة عريضة تفوح منها القوة وينضج جلدها شراسة، ولها عين وقحة لا يطفئها الرصاص، وأخرى فيها دهاء الثعالب وسم الأفاعي.

ودهش! فأمامه وعلى الأرض المصنوعة من بلاط كانت تجلس المرأة وقد ضمت أجزاءها الناحلة، ووضعت رأسها بين ركبتيها، بينما راحت عيناها الخابيتان تطلان اليه في وهن القطة الجائعة المتعبة.

وأصيب بخيبة أمل.. كانت المرأة دودة صغيرة قد التفت حول نفسها لا قوة فيها ولا جبروت. ولا شراسة فيها ولا غدر، ولا يصدر من عينيها الا استسلام ذليل.

وهز الدكتور مازن كتفيه بعدم اكتراث وقد فشل في اقناع نفسه بإجرام الدودة التي أمامه. وارتسم على شفتيه الاحتقار. وبنفس الاحتقار هز لها رأسه، وأشار لها بيده أن ترقد وهو يحس في قرارة نفسه باشمئزاز مفاجىء.

وحدق برهة في جسدها الأصفر الشاحب، وفي بطنها الذي يتموج الجلد المشوه فوقه، وفي يديها الموضوعتين تحت رأسها وقد أغلقت عينيها وكأنها في سبات عميق، وكثر اللعاب في فمه وهو يطيل تحديقه.

ولو كان في النهار لما حفل بالكشف عليها، ولكنه الليل ومزاجه المعتدل، وهكذا أخذ يستمع الى أنفاسها ويعد نبضات قلبها

وهو حريص كل الحرص على لم معطفه حتى لا يلامسها أو يحف بثيابها . .

وسألها فى فتور وهو يأمرها بإدارة فمها بعيدا عنه، لماذا سجنوها؟

وكان وهو يسألها يعرف أنها ستنكر وتصر على براءتها وعلى أنها مظلومة مضطهدة، كلهم مجرمون كذابون يقتلون القتيل ويمشون في جنازته، ولكن المرأة قالت في هدوء قالت في هدوء غريب:

ـ مسجونة بحشيش.

وخلع الدكتور مازن السماعة عن أذنه كمن لسعه معدنها، وعبر جسدها بنظرة واحدة، وتطلع اليها، ثم عاد الى كشفه وهو مضطرب يكاد يخاف.

وقال لها:

ـ كحي! . .

فكحت، وانهجي! . . فنهجت، وصرخ فيها أن تتنفس بعمق ففعلت.

وانتهى الكشف.

وحين كانت الممرضة تصب فوق يده الكحول ليطهرها، مع أن يده لم تكن قد لامست المرأة ولا علقت بملابسها، وكان يفرك يديه

ضيقا بهؤلاء الناس الحمقى الذين لا يجدون الا الاجرام وسيلة لقتل أنفسهم.

وقال لها في تشف وكأنه يعاقبها، ويحس بالارتياح وهو يعاقبها:

ـ انتي عيانة؟

فقالت وهي ترتدي ملابسها وتتثاءب الكلمات:

ـ بإيه يا بيه؟

وضايقته الطريقة التي سألته بها. ان هؤلاء الناس لا يحسون. ان كلمة المرض كلمة مرعبة تبعث القشعريرة في الأوصال، فكيف بها تتلقاها دون أن تتحرك لها ساكن؟ ضايقته الطريقة فقال:

ـ انت عندك سل.

قالها وهو مقدر أنها ستشعل النار في رماد تلك المرأة فتنتفض وتصرخ، وتتوب عن لهجتها المتثائبة وتبكي وتلطم وجهها على الأقل، ولكنها أجابت وكأنها تحلم وتريد اغاظته:

ـ طب مانا عارفه.

وهم برش الكحول في وجهها وعينيها، ولكن هدوءها أعداه وتراخت يده القابضة على الزجاجة وتراخت معها أعصابه، وجلس على الكرسي وأشعل سيجارة، وبدأ ينظر الى المرأة من جديد. انه بالتأكيد ليس أمام حالة أخرى ليكش فيها وترتعد خوفا وهلعا. انه أمام مريضة من نوع جديد لا يفلح معها تهويشه. ثم إنها مريضة بالسل..

ومع أنه طبيب الا أن خوفه من السل ومرضاه كان لا يقل عن خوف غيره من الناس. وقال لها في لهجة رقيقة نوعا:

ـ وعرفت ازاي؟

وبانت لها سنة صفراء تلمح في فمها وابتسمت، أجل ابتسمت، وجهها الأصفر كالكهرمان تداخلت فيه أجزاء وتقلصت أجزاء وأفلح في رسم ابتسامة، وقالت انه ليس أول طبيب يراها، والمرض له قصة فهو قد داهمها في السجن في الأيام الأولى من سجنها..

وعبثت أصابعه بالسيجارة وضغط عليها بعصبية، وكانت سحب الدخان قد حملها الهواء بعيدا فبدت المرأة واقفة أمامه نصف مستندة الى الحائط، وكلامها ينساب في هدوء غريب محير، وملامحها لا تنفعل لكلامها كانما هي تتحدث عن كارثة أصابت انسانة أخرى.

وتحت وقع حديثها المنخفض اللين ترعرعت رغبته في معرفة حكايتها. لم يكن هذا طبعه فهو لم يتعود أبدا أن يأخذ ويعطي مع أحد من مرضاه، ولكنه لم يستطع المقاومة ونسي نفسه والمرضى المنتظرين، وسألها في طفولة أن تحكي قصتها.

ولم تعتدل أو تتنحنح أو تصطنع التذكر، انما وهي نائمة صاحية، والكلمات تجهضها شفتاها فتخرج ميتة لا حرارة فيها ولا انفعال مضت تقول:

ـ يا خويا ولا حكاية ولا حاجة.. أنا أصلي م الفيوم.. وأوعى

ألاقي نفسي شايله الشاي مع أبويا في الموقف.. ولما مات
بقيت أعمل أنا الشاي.. وحبني جدع سواق.. وحبلت..
مرات أبويا.. ولما ضاقت الفيوم في وشي جيت مصر.
الدنيا. هىء.. هىء.. هىء.. جيت مع سواق.. وم
لسواق اتبدل على الموقف لحد ما اتلميت على واد نشال بقى
فلوس.. وعلمني الصنعة.. أهه قلمك البالكر أهه
بحاجة.. هيء.. هيء.. والنبي نفسي أبوس شفايفك
الحمر دول.. يوه.. ما اطولشي عليك خدني الواد
وتحبست مرة.. وطلعت وراقبوني وتفتكر سكت؟ بقيت
برضك.. وتاجرت في الحشيش كمان.. وبقيت أكسب و
الدنيا. وليا رجاله.. ومشيت مع العسكري اللي كان
واتمسكت أنا وهوه.. وآدي انت شايف أهي عيشة..
النبي يزق.

كانت تتكلم كمن يحلم، غير حافلة بمن يسمع ك
مقيمة وزناً للطبيب وسماعته ومعطفه، ولا حتى ملقية بأي ا
العسكري الواقف بجانبها منتصباً كماسورة العادم. وكما
هدوء انتهى كلامها في خفوت حتى سكتت.

وطوال الحكاية كان وجه الطبيب كشاشة العرض تت
الألوان وتتبدل. كان يسمع أشياءخطيرة تقال هكذا بسهول

ممتلكـاتها وقيمتهـا. وكانت المـرأة تعتـرف بكـل شيء دون حيـاء أو خجل كأنها أستاذة تحاضر في علم النفس.

ورغم كل ما اعتراه وأذهله فقد كان عليه أن يقول شيئا يبـدد به الانتظار الصامت الـذي ساد الحجـرة، فسألهـا وهو يقهقـه ولا يدري لماذا يسأل أو لماذا يقهقه:

ـ وانت.. مالكيش أهل.. مالكيش أهل؟

فقالت وهي تريح رأسها على الحائط:

ـ ليّ..

ـ ايه؟

ـ بنت.

وعاد يسأل وهو لا يدري لماذا يسأل:

ـ ليه.. انت أجوزتي.. والا..

فقاطعته وهي تسبل عينيها:

ـ وح تفـرق ايه لمـا تكـون بنت العسكـري ولا المعلم.. أهم الاتنين أزفت من بعض.

ومضى في أسئلة التي كان يلقيها من وراء عقله:

ـ والبنت فين دلوقت؟

ولمح أولى دلائل الحياة في بريق لمع من عينيها وهي تقول:

ـ في المدرسة . .

ـ ايه؟

ـ بتروح المدرسه . . وبتطلع الأولى . . دي بت شاطره قوي تعجبك . .

ـ وبتصرفي عليها منين؟

ـ ربك ما ينساش عبيده.

وسألها وقد انتابه بعض الضيق:

ـ وموديا‌ها المدرسة ليه؟ . . انت ناقصه؟

وازداد البريق في عينيها الخابيتين وهي تقول:

ـ عايزاها تطلع دكتوره.

وأعقبت اجابتها بسرب من الضحكات الخليعة الميتة.

وتمتم في سره: جتك نيله.

وفي نفس الوقت عثر على السبب الذي من أجله كان يردد أسئلته التي بدت له سخيفة لا معنى لها ولا ليس وراءها طائل. كان عقله حتى تلك اللحظة يضرب أخماساً في أسداد ويفكر فيما يفعله من أجلها فهو لا يستطيع إدخالها المستشفى فليست هناك أسرة

خالية، ولا يستطيع رفع الرقابة عنها فليست له السلطة، وليس لها بيت. .

وقلب الأوراق التي أمامه بيد غير مستقرة، وتمتم وكأنما يحدث نفسه:

ـ طب وح اعملك ايه بس؟

وفوجىء بصوتها الهادىء يخترق حيرته كاليد الجريئة العابثة ويقول:

ـ لا تعمل لي ولا أعمل لك. . اديني الاجازة وخلاص.

وحملق فيها وكأنه يرى شبحا من الأشباح. وبدا له كأن المرأة مارد سيبتلعه، وأحس بضيق وتبدلت لهجته فجأة وأظلمت ملامحه وقال:

ـ طب اخرسي انت.

وأمسك بالقلم وحركه في الهواء مرات قبل أن يكتب الجملة التي لا يملك غيرها:

«حضرت وعمل لها اللازم، وتحتاج لإجازة من المراقبة قدرها عشرة أيام».

وخطت ناحيته متمايلة في ضعف، والتقطت البقية الباقية من سيجارته الثالثة التي كانت ترقد على الأرض، وأخذت نفسا ثم أخرجت دخانا كثيرا عاليا، ورنت منها ضحكة خافتة وهي تقول:

ـ مش برضه عشرة أيام يا دكتور؟

وكان أمامه رد واحد. . أن يصفعها، ولكنه خجل فليس هناك سبب واحد معقول يتيح له صفعها، وسكت. . وقالت وهي تأتي على الأنفاس الأخيرة من السيجارة:

ـ والنبي لطلع فاطمة دكتورة حلوة زيك كده. . والنبي. .

وكادت تسترسل لولا النظرات النارية التي تفجرت من عينيه، فقالت:

ـ سبتك بعافية بقى.

وفي هدوء بطيء ذهبت الى الركن وأخذت منه صرة ملابسها، وخرجت منحنية على نفسها وبقايا السيجارة تحرق أصابعها الجافة وذرات الدخان تشيعها.

وخبط العسكري الذي يحرسها قدميه في سلام صاخب، وأخذ الأوراق ومضى.

وجلس الدكتور مازن صامتاً وقد توقف تفكيره، وثمة غيظ يخنقه واحساس بالخوف. . خوف ميت بليد يزحف عليه من حيث لا يدري ولا يعلم. وتحسس بلا وعي سماعته وزرر البالطو ثم خبط المكتب فجأة بقبضة يده حتى قفز قلمه وسقط على الأرض وانقصفت سنه.

وجاءت التمورجية العجوز على الخبطة، ولم يكد يراها حتى

انفجر وراح يعيد توبيخها لقذارة المقبض والبصاق العـالق بالحـائط. ولم يكتف بهذا بل أقسم أنه سيكتب مذكرة للمدير لخصم ثلاثـة أيام من مرتبها.

المحفظة

من الساعة الثامنة وسامي يجلس على ذلك الكرسي الصغير في ركن الحجرة، وأمامه المنضدة والكتب والواجبات والجداول، وأمامه فوق هاته جميعاً المشكلة الكبيرة الضخمة التي كان قد حدد ليلتها بالذات ليحلها.

انه لم يعد يستطيع فليست هذه أول أو ثاني مرة. له شهر وهو يتفق مع صلاح وعبد المنعم على الذهاب إلى السينما، وفي كل مرة.. غداً أجل غداً. خلاص يا سامي، خلاص يا صلاح، الساعة تلاتة أمام شباك التذاكر.. الساعة تلاتة. ثم يأتي الغد ولا يذهب. لا يستطيع الحصول على الشلن ولا يستطيع حتى أن يري صديقيه وجهه ليبدي لهم عذره. وهذه المرة من أسبوع وهو يحاول. ان «المصروف» الذي يتناوله بين كل آن لا يكفي، والمطلوب خمسة قروش. قال لأبيه انه يريد كراسة وقال مرة ورق أشغال، ولم يحصل على ثمن لهذا أو لذاك. حاول مع أمه بلا فائدة. كلما ألحف عليها رفعت كفيها إلى السماء وطلبت من الله أن «يسبك» ما معها من نقود على عينيها إن كان معها نقود.

ما هي حكاية هؤلاء الناس؟ انه ما طلب منهم أبداً نقوداً وأعطوه. دائما والله ما معنا. وأبوه.. أبوه بطوله وعرضه وكرشه الودود وأصابعه الغليظة. أبوه كله لا يتورع عن القسم أمامه بأغلظ الأيمان

أن ليس معه ولا «خردة». وهل هذا معقول؟ أمعقول أن أباه مفلس تماما كما يحاول أن يفهمه؟ أبدا! غير معقول بالمرة. انه قادر على كل شيء. انه يستطيع أن يفعل أي شيء، فقط لو أراد. أليس هو الذي أدخله المدرسة بعدما دخل الأولاد كلهم ورفضت أوراقه هو؟ أليس هو الذي أقسم يومها أن لا بد من دخوله في اليوم التالي، وغاب عن المنزل طيلة ما بعد الظهر وأدخله في اليوم التالي؟ انه يستطيع أن يفعل المستحيل. مرضت أخته.. كانت أمه تقول انها ستموت وكانت تبكي وكان سامي يبكي. وكان أبوه هو الوحيد الذي لم يبك والذي قال انها لن تموت، وهو الذي أخذها الى الحكيم واشترى الدواء، ولم تمت سامية. أبوه هذا القادر على كل شيء قال له أمس وأول أمس واليوم أيضا انه مفلس. حدثه سامي عن اتفاقاته السابقة مع صلاح وعبد المنعم واتفاقه ذاك، وضحك أبوه الطيب وقال: خليك لأول الشهر. وأكثر من الطلب وأكثر أبوه من القسم.. والله ما معي يا بني. وهل هذا معقول؟ بيتهم كله اذن ليس فيه شلن؟. انهم يضحكون عليه. انهم يظنونه طفلا صغيراً من السهل خداعه. إنهم لا يعنيهم أبداً ذهابه إلى السينما ولا يقدرون قيمته لأنهم لم يجربوها ولم يذهبوا إليها. إن المسألة بالنسبة إليهم ليست خطيرة. إنها ليست كمرض سامية. ويعتقدون انه غر أبله يكفي أن يقسموا أمامه لكي يصدقهم؟!

لقد أحكم التدبير وكل لحظة معدة اعدادا دقيقا في رأسه. سيحصل على هذا الشلن بأسهل مما كنوا يتصورون. أيعتقد هؤلاء الناس أنه لا يعرف محفظة أبيه ومكانها وضخامتها وما تحتويه؟

أحسبوه مغفلا الى هذا الحد؟

الساعة العاشرة. أبوه وأمه واخوته كلهم نائمون في الحجرة الثانية. انه لا يخاف من أحد سوى أبيه. أمه لا تستيقظ أبدا في الليل. أبوه هو الذي توقظه كل حركة مهما بلغت تفاهتها. عليه أن ينتظر قليلا حتى يطمئن الى انهم جميعا قد استغرقوا في النوم إلى آذانهم.

وأراد أن يقضي الوقت في حل مسألة الحساب الباقية من الواجب، ولم يستطع. كان «ثمن الشراء» يقفز أمامه ويصبح«ثمن البيع». وكان يضع «العلامة العشرية» على يمين الرقم فإذا بها تساهيه وتتسلل وتصبح على يساره. ونفض يده من المسألة وراح يتأمل كالتائه محتويات الحجرة التي يذاكر فيها هو وأخته، والتي يأكلون فيها أيضاً ويستقبلون الضيوف وتناله الصفعات أحياناً.

وانتبه الى نفسه على صوت يأتي من الخارج، وأصاخ أذنيه. كان بيتهم كالقبر لا يسمع فيه خرير الماء القليل الذي يتسرب من الحنفية، وسرسعة الصراصير في المطبخ. وكان الحي بأكمله ساكنا سكونا أبديا لا يقطعه سوى ذلك الصوت.. صوت وحيد متهدج كأنما يعزي الناس على خيبتهم.

وأدرك سامي بعدما تسمع قليلا انه صوت المذيع يقول نشرة الأخبار.

ودق قلبه.

لقد حانت الساعة.

وغادر مكانه على أطراف أصابعه. واحتار أيطفىء نور الحجرة أم يبقيه؟ يبقيه. انه خائف والنور يونسه. وتوقف في الصالة الصغيرة التي تفصل حجرتي شقتهم. أبوه يشخر.. عظيم!

وتقدم من باب حجرة النوم وأدار«الأكرة». الباب يزيق كلما فتح. عليه اذن ان يفتحه مللي بمللي. ها هو قد أصبح في الداخل. الظلام ثقيل، انه لا يرى شيئا المرة. ماذا حدث لعينيه؟ شعاع واحد يتسرب من الباب الموارب. أبوه يشخر. أخته تقرض مثل الفأرة على أسنانها كعادتها حين تنام. انه يرتعش. لماذا يدق قلبه هكذا؟ اذا لم يهدأ سيوقظ أباه بدقه الملعون. ولماذا كل هذا العرق؟ تقدم يا ولد.. تقدم!

وتقدم سامي أكثر في منتهى الحذر. السرير الذي يرقد فيه والداه وأخته على يمينه، أخوه الصغير يرقد على«الملة» التي يشاركه فيها. الدولاب بعد خطوات قليلة على يساره. عليه أن يزحف بقدميه حتى لا يسهو ويصطدم بأخيه النائم ويصرخ وتكون الكارثة. كف عن الدق أيها القلب اللعين. شخر يا أبي شخر. ارفع من صوتك هذا الذي طالما أرق نومي.

وحدث أن توقف فجأة عن الشخير. وتوقف قلب سامي هو الآخر..

ولكن أباه عاد وجذب نفسا عميقا مصحوبا بشخير أعمق..

بسرعة ومد يده داخلها ولم يجد شيئاً. وقلبها وظل يرجها وسقط منه شيئان: نص فرنك ممسوح معضوض لا بد أنه كان لازقاً في طياتها.. والشيء الآخر كان غريباً عجيباً.. «زلطة» سوداء صغيرة مفلطحة شكلها لذيذ.. ماذا يفعل أبوه بتلك الزلطة؟ ولماذا يحافظ عليها ويضعها هكذا في أعماق المخفظة؟.. أفيها سر؟.. وهل يتقي بها العفاريت؟.. أو يستعين بها على جلب النقود إلى المحفظة؟..

ولم يلبث أن ترك الزلطة وأمسك بالقرشين.. قرشان؟.. كل ما معه من فكة لا يتعدى«النص فرنك».. وليته نص فرنك صالح للاستعمال، انه يشك كثيرا من إمكان تدواله.

ما هذه المصائب؟.. كل ما توقعه يصفى على قرشين؟!

وأخرج سامي كل ما في باقي جيوب المحفظة من أوراق وتفحصها جميعا بنظرة واحدة سريعة. ولمح من خلال الكومة التي أصبحت أمامه عشرة قروش تكاد تزهق روحها من كثرة ما تراكم فوقها.. وكان من المستحيل أن يصدق أنها كل ما في المحفظة من نقود. لا بد ان البقية يحتويها ظرف من تلك الظروف اذ كثيراً ما رأى أباه يضع فيها الأوراق الخضراء والصفراء..

ومضى يفتح الظروف ويستخرج محتوياتها. كانت رغبته العارمة في العثور على الشلن هي التي تدفعه أول الأمر الى فض المظاريف والبحث بينها، ولكن بعد لحظات غلبه حب الاستطلاع على أمره. كانت تلك أول مرة يتاح له فيها أن يطلع على مكنون

محفظة أبيه وعلى ما فيها من أوراق لا بد أنها مهمة جدا، لها أهمية غير عادية والا لما احتفظ بها داخل تلك الحوصلة الجلدية. كثيرا ما رأى المحفظة وهي خارجة داخلة إلى جيب أبيه، وهي مفتوحة ومطوية، وهي في مكانها المعتاد، ثم وهي ترقد تحت«المخدة» أحيانا.. كثيرا ما ألحت عليه الخواطر والهواجس تخمن ما تحتويه وتدفعه اليها دفعا.. ومحتوياتها كلها أمامه الآن، فأية فرصة ذهبية جاءته من السماء!!..

لم يكن يفهم ما يقرؤه تماما، ولكنه كان مسرورا قلقا، ذلك النوع الغريب من القلق البهيج الذي يعتري الانسان كلما أتيحت له معرفة سر من الأسرار بطريقة محرمة..

وجد خطابا من خاله.. يتكلم فيه عن ميراث.. وعن مبلغ.. ويسلم فيه عليه.. ترى لماذا لم يبلغه أبوه السلام؟.. ثم ما تلك الأوراق الصدئة المهرية التي لا تسمن ولا تغني من جوع؟.. ان حبرها من نوع أسود قديم لم يره أبدا، وخطها حلو، وهذا الشيء المرسوم عليه مئذنة وقبة.. قد صار زواج فاطمة بنت عبد الله.. من تكون ؟ أتكون أمه.. لا بد.. ولا بد.. أن يكون ابراهيم منصور أباه.. وهذه الورقة الحمراء؟.. ادارة الغاز والكهرباء؟.. نرجو عند الرد ذكر رقم ٢٨٤.. ايه ده؟.. واذا مش عارف ايه سنقطع التيار. ما هو ذلك التيار الذي سيقطعونه وبأي شيء سيقطعونه؟.. وهذا الظرف المكتوب عليه: قطعة من كسوة الكعبة الشريفة هدية من العبد الفقير الى الله تعالى الحاج مبارك محمد حسن، قطعة القماش

السوداء هذه التي في الظرف من الكعبة؟! ياه!! ان رائحتها صعبة .. أمسك ذاك أم عنبر؟.. هي السبب اذن في تلك الرائحة المقبضة التي تنبعث من المحفظة؟..

وكان ممكنا أن يظل سامي مستغرقا في نشوة الاضطراب الخفي تلك، ولكنه وفي خضم ما كان فيه وعت أذنه صوت السلام والراديو يذيعه وختم به برامج السهرة..

وفي الحال عاد الى نفسه مضعضع الحواس وكأنما ضبط متلبسا.. وأصبح همه في اللحظة التالية أن يعيد الأوراق كلها الى ما كانت عليه، بنفس ترتيبها ونظامها حتى تبدو وكأن لم يمسسها بشر. وفي الحق كانت مهمة صعبة ولكنها انتهت. وبقيت العشرة قروش راقدة أمامه على المنضدة منطوية على نفسها كالخرقة البالية. لم يرجعها الى المحفظة وكذلك لم يدسها في جيبه. وكان عليه أن يقرر أمرا من الاثنين ولم يكن القرار سهلا . اذا أخذها لا بد ستنكشف السرقة، واذا تركها فقد آخر أمل في الوفاء بالميعاد والذهاب الى السينما.

والعجيب أنه لم يفكر في واحد من الأمرين، كان قد أفاق من النشوة التي أتخم بها حب استطلاعه وامتلأت نفسه بالحنق الشديد. كيف لا يعثر الا على عشرة قروش مهرأة.. ونص فرنك ماسح معضوض؟.. هذا الأب الضخم الطيب الذي يصنع المعجزات ولا يقف أمام مقدرته شيء.. كيف لا يكون معه سوى مبلغ تافه كذاك؟..

هـذه خديعـة هذا ضحـك من نوع آخـر عليه. لمـاذا لم يعمل حسابه؟ لماذا لم يكن في المحفظة مبلغ كبير كما تـوقع؟ أين صـرف النقود؟ اين الماهية؟

وامتدت يده الغاضبة ودست العشـرة القروش في جيبـه. سوف يذهب الى السينما بخمسة ويصرف الخمسة الأخرى. يـأكل«بغـاشة» و«جيـلاتي» كما يـأكل كـل الأولاد، وليكن بعد ذلـك ما يكـون. وهو ماله؟ وما ذنبه اذا كانوا يرسلونه الى المدرسة ولا يعـطونه نقـودا، واذا سـألهم ضحكوا عليـه وأقسمـوا أن ليس معهم، واذا فتشهم لم يجـد سوى ورقة صغيرة بالية.

وحتى وهـو في طريقـه الى حجـرة النـوم ليعيـد المحفـظة الى الجيب الداخلي، كانت خطواته لا تزال تحفل بـالاستنكار والغضب. وحين فتح الباب وجد كل شيء كمـا كان، أبـوه يشخر وأختـه تقرض أسنانها والظلام مخيم.

ولـم يأخذ حذره هذه المرة ويقفل الباب وراءه، اذ لـم يعد يهمه وهو في قمة الغيظ ما يحدث. ودلف وراءه من الباب المفتوح شعـاع باهت من النور أضاء الحجرة قليلا وسقط على وجه أبيه.

وألقى عليه سامي نظرة وكأنما ليصب عليه جـام غضبه. ولكنـه تسمر في مكانه وظل يحدق فيه كـالأبله. كانت رأس أبيـه منزلقـة من فوق «المخدة» ومثنية على كتفه، وكانت عارية وقد سقطت عنها الطاقية التي يـرتـديها وهـو نـائم، وكـان شعـره خفيفـاً مشـوشـاً تلمـع من

تحت صلعته، وكان فكه مدلى وفمه مفتوحا والشخير يتصاعد منه في غير انتظام. وسامي دائما كان يرى أباه في النهار ضاحكا أو مبتئسا، راضيا أو ساخطا، ولكن ملامحه على أية حال كانت دائما فيها قوة وصحة وحياة تجعل أباه يبدو كالأسد الأليف الذي يوحي مرآه بالثقة، ولحظتها ورأسه منزلقة وفمه مفتوح وشعره مهدل مشوش وملامحه متراخية مستسلمة، لحظتها رآه طيبا جدا.. وغلبانا جدا.. ليس هذا فقط.. بل ان محفظته الكبيرة الضخمة ليس فيها كلها سوى قروش عشرة، وزلطة، ونص فرنك..

ظل سامي واقفا في مكانه يحدق في أبيه وكأنه يراه لأول مرة. كان من كثرة ما تعود رؤيته قد ألفه وألف أن ينظر اليه كأبيه، واذا به الآن يراه وكأنه ليس أباه، وكأنه قد أصبح انسانا مستقلا عنه، رجلا آخر، غريبا.. طيبا.. غلبانا. منفصلا عنه تماما.. له جسد ورأس وساق قد انكشف عنها ثوبه وبدت ضامرة مليئة بالشعر..

وأحس بألم حاد ينتشر في نفسه وشيء يريد خنقه، ثم أحس برغبة عارمة في البكاء، ثم أحس أنه يود أن يلقي كل ما بنفسه ويندفع الى الرجل الغلبان أمامه يعانقه ويضمه بشدة ويقبله، ويقبل فمه المفتوح الطيب ذاك وذقنه النابتة الخشنة وعيونه المغلقة فى استسلام.

ولم يكف أبوه طوال الوقت عن الشخير. يستريح وجهه لحظة، ثم تخرج الأصوات من أنفه وفمه.. أصوات ممدودة غلبانة هي الأخرى.. تكاد تقسم وتقول: والله ما معي ولا أمتلك..

لم يضحك عليه أبوه اذن ويخدعه، وهو ليس كما ظن سامي قادرا على كل شيء.. انه نائم.. مستسلم.. وطيب.. ولم يكن يخدعه..

وتململ الأب واضطرب شخيره.

وتحرك سامي والأحزان تملؤه. وأغلق الباب. وأخرج القروش العشرة من جيبه ودسها بغير حماس في المحفظة ثم اسقطها في الجيب الذي كانت فيه..

وبعدما أطفأ النور في الحجرة الأخرى رقد بجوار أخيه على «الملة».

وكان يحب تلك الفترة التي يرقد فيها وينتظر النوم، اذ كان يحلم فيها بالقلم الأحمر الذي رآه في المكتبة والخمسين من خمسين في الانجليزي أو يفكر في الحيلة الجديدة التي عليه أن يبتكرها ليحصل على قرش في الصباح.

ولكن أفكاره طوال الوقت لم تغادر الرجل الراقد غير بعيد عنه فوق السرير، وثمة احساس كبير يملؤه وكأنه كان يستند الى جدار واذا بالجدار ينهار من خلفه ويتركه مستندا الى الفراغ.

وكلما استعاد مشهد ملامحه ومحفظته أحس وهواتف خفية تنبثق في صدره وتهيب به أن يفعل شيئا.. لا بد أن يملأ محفظته بالنقود.. بمئات الجنيهات.. لا بد أن يجلب له كنزا.. لا بد أن يشتغل.. يعمل أي شيء.. وعلى الأقل يقبض عشرة جنيهات في الشهر يعطيها لأبيه قائلا: خذ ولا تزعل.. قم وانهض وغط ساقك،

واستعد ملامح الأسد. قم يا أبي.. ثم أنا لم أعد طفلا. أنا والله رجل. رجل كبير يا أبي لا تخف عليّ سأحميك ولن أطلب منك نقودا. ولن أحتال عليك لأحصل على القروش. وحياتك يا أبي لن أفعل هذا.

وتقلب أخوه وزأم كمن يحلم، ثم علا صوته، وغمغم.. عاوز أشرب.. هه.. عاوز أشرب.

وكثيرا ما يسمع أخاه يغمغم ويطلب الماء في الليل فيظل ساكنا على مضض ولا يتحرك حتى توقظ الضجة أباه فيقوم ويسقيه..

ولكنه ما كاد يسمعه هذه المرة حتى هدهد عليه وهو يقول:

ـ حاضر.

ثم قام في حماس زائد، وملأ له الكوب، وعاد به، وحده، في الظلام.

وقبل أن يغلق عينيه، اعتدل كمن تذكر شيئا، ومد يديه وراح يحبك الغطاء حول أخيه، كما يفعل أبوه تماما، وتأكد أن قدميه ملفوفتان في(البطانية)، ورأسه معدول فوق المخدة.

ثم أخذه في حضنه.

ونام.

الناس

كان في بلدنا «طرفة»، لم تكن كبيـرة ولا عاليـة أو ذات سيقان وفـروع، كانت ضئيلة الحجم قصيـرة قميئة ورقهـا كورق العبـل رفيع وأسطواني، ولونها أخضر قاتم، ولا تعرف ربيعاً أو خريفـاً فهي تورق على الدوام، ولا تعرف ضعفاً ولا قوة فهي لا تنمو ولا تصغر ولم يـزد حجمها أو ينقص طوال أجيال.

ولا يدري أحد كيف نبتت تلك الشجرة في بلدنا، اذ ان شجـر الـطرف نادر الـوجود في الأرض الـطمي فهـو لا ينمـو الا في منـاطق المستنقعات. وكذلك لا يدري أحد لماذا اختارت ناحيتنا بالذات.

كل ما نعلمه أن أهل بلدنا اعتقدوا فيها ونظرا لواحدانيتهـا حف بها نوع من التقـديس، وآمن الناس أن لا بـد وراء وجودهـا سر بـاتع وكبير.

ومنذ أجيال وأهل بلدنا لا يتبركون بها فقط ولكنهم يستخدمونها كـدواء لأمـراض العيـون. مـا من كـائن وجعتـه عينـه الا ووصف لـه أحدهم ورق الطرفة.. تذهب بعد الفجر الى الشجـرة وتنتظر الى أن يهبط الندى، ثم تأخذ عدة عقل من أوراقها وتكسرها فيسيل منها لزج

تقطر في العين الموجوعة منه قطرتان لا ثالث لهما. وبإذن واحد أحد يحـل الشفاء.

وأغرب ما في الأمر أن الشفاء كان يحل فعلا. صحيح أنـه في أحيان كثيرة لم يكن يحل الشفاء. . أحيـانا كـان يتضاعف المرض، وأحيـانا نـادرة كان يحـل العمى أو العـور، ولكن النـاس لم يكـونـوا يعزون بالفشل الى ورق الطرفة بقدر ما يعزونـه الى نجاسـة المريض مثلا أو أحد من أهله، أو أن المرض قد زاد واستمكن، أو انك لا بد قد أخطأت ولم تنتظر حتى يهبط الندى.

ووعينا نحن فوجدنا شجرة الطرفة من معالم بلدنـا الأزلية تحف بهـا القداسـة وتكتنفها الأسـرار، فكنا نخـاف منها ونـرهبها ونتخيلهـا بقامتها القصيرة وورقها الرفيع المسنون كعجوز شمطاء تقطع الـطريق إلى الترعة، أو كأنها خالتنا أم الغول.

وشببنا فوجدنا اعتقاد أهل بلدنا فيها لا يتزلزل أو يصيبـه وهن. غزا الطب الريف وافتتحت في البنادر عيادات رمد ومستشفيات، وهم مصرون على تلك الشجرة فخورون بها، يحمـدون الله على وجودهـا في بلدنـا دون سواهـا ويكنون لهـا أعمق التقديـر حتى ليكاد الـواحد منهم يقرأ الفاتحة اذا ما مر عليها.

والعجيب أن الاعتقـاد فيهـا كـان شـامـلا. الكـل يؤمن بهـا. الكبير والصغير، والفقير وصاحب القرشين، بل امتد هذا الايمان الى ما جاورنا من قرى، وأصبـح من المناظـر المألـوفة في بلدنـا أن ترى

أناسا جالسين بعد الفجر حول شجرة الطرفة، ينتظرون في صمت وفي رهبة هبوط الندى.

وأصبحنا تلامذة وتعلمنا، وعرفنا التاريخ والجغرافيا والهندسة والطب وقانون الغازات لبويل.

وبدأنا نكفر بشجرة الطرفة.

وكان أكثرنا حماسا ابن الصراف الطالب بكلية الزراعة الذي لم يكفه الكفر والإلحاد بالطرفة، بل راح يضيق بأهل بلدنا أنفسهم سخافتهم وعقولهم الجامدة الضيقة التي تحجرت على الايمان بشجرة لا حول لها ولا قوة.

ثم أصبحنا كلنا نجاهر بهذا الكفر، وما لبث ضيقنا وسخطنا أن تحول الى حركة ودعوة، وجاء اليوم الذي أعلنا فيه الجهاد وقسمنا أنفسنا.. فريق يخطب في المساجد ويقول: يا أهالي الطرفة تعمى كل ذي عينين. وفريق يلف على الناس والمصاطب ويقول: يا اخواننا الحكومة فتحت مستشفيات عليكم بها ودعوا الطرفة. وفريق وقف بجوار الشجرة يستقبل كل من جاء ويشرح له ويحاول أن يثنيه عن عزمه. وكان الناس ينظرون الينا ونحن نفتح أفواهنا ونخرج منها كلاما سريعا كثيرا، ويهزون رءوسهم ويقولون لبعضهم البعض: كلام حلو يا أخي.. كلام مضبوط.

واعتبرنا أن المسألة قد انتهت وأن عيون الناس قد سلمت على أيدينا وأننا نستحق على مجهوداتنا تماثيل شكر وآيات تكريم. ولكننا

لبعض جيرانه. قد تكون حلولا مثل تلك قد دارت في عقل
وهو يغادر المنزل.

* * *

ـ خلاص يا ستي ولا تحملي هم.

ولم يفت الزوجة وهي تبتسم له شاكرة أن تتأوه وتشكو
والوهن.

ولم يفته وهو يروي لها تفاصيل المعركة أن يبالغ.. ق
الأمر، ولما لم يجد لدى الزوجة مانعا ساق فيها وفتح باب
على مصراعيه..

وظنا ان المتاعب قد انتهت عند هذا الحد.

ولكنهما قضيا أتعس ليلة.

جدران البيت ظلت تردد نداء واحدا لا ينقطع.. ناو.
ناو..

كان الصوت غاضبا أول الأمر، قصيرا رفيعا كالسكين
حين تقطع في الجسد.

وكلما امتد الظلام والسكون كان الصوت هو الآخ
ويطول.. ناو.. ناو.. ناو.

ولم يعد الرجل يحتمل. اقتحم الصالة خارجا ورمى أن
كانت تروح وتجيء ولا تكف عن النونوة لحظة.. رماه

أستاذ في كليته وحكى له الحكاية، وطلب منه تحليل الأوراق.

وفوجئنا حين أثبت التحليل أن في الورق نسبة من كبريتات النحاس التي تصنع منها القطرة.

وأشعنا الخبر في البلدة، أشعناه ونحن نصفق ونهلل وكأننا اكتشفنا كنزا كان مجهولا. وقلنا للناس:

ـ لا ضير عليكم من استعمال الطرفة، ففي أوراقها قطرة.

وهز الناس رءوسهم بلا حماس وغمغموا:

ـ جالكو كلامنا؟

كل ما حدث انه حين مرت اعوام كثيرة، وعدنا الى بلدنا موظفين وخبراء ومحترمين، وجدنا أن شجرة الطرفة لم يعد لها ذلك التقديس القديم، وأنها هزيلة شاحبة لم يعد حولها منتظرون ولا تخيف كما تخيف أم الغول.

ووجدنا الناس قد كفوا عن استعمال أوراقها في علاج العيون، وحين كنا نسألهم عن السبب ونحن مذهولون، كانوا يهزون رءوسهم ويقولون:

ـ سيبك يا شيخ.. القطرة برضك أنضف..

الوجه الآخر

كان الواحد منا اذا عثر على «نص فرنك» وهو صغير طار من الفرحة. وحين كبرنا أصبح ما يفرحنا أن نعثر على انسان، أو كلمة طيبة..!

والحركة كما يقولون بركة، وأن تقص شعرك كل مرة عند نفس الحلاق شيء ممل حقا.. ولم أكن أستقر عند أحدهم، ولم أكن أطمع أن أدخل صالونا ذات صدفة فأجد صاحبه انسانا كالأسطى زكي. كان كل همي اذا دخلت عند الحلاق أن أعد نفسي لعملية التعذيب القادمة. وقص الشعر عملية تعذيب يؤديها الانسان كالواجب الثقيل المفروض، اذ ما معنى أن يجلس الواحد نصف ساعة أو أكثر، ورأسه مثني على وضع معين، وعروق رقبته متصلبة تكاد تنقطع، وكل هذا ليقص شعره بضعة ملليمترات، أو ليبدو وجهه أكثر وسامة..!

كان الأسطى زكي الذي أسلمته رأسي رجلا غريبا، فصوته رفيع كأصوات النساء، ووجهه أحمر كوجوه الأتراك، وهو قصير سريع الحركة كمخلوقات والت ديزني، وفي عينيه ذكاء. والأعجب

من هذا سيجار توسكانيللي لا يغادر فمه مطفأ ولا مشتعلا وكأنما ولد به. إذا أشعله يفعل هذا بثلاثة عيدان كبريت، ويكتم الدخان المتصاعد منه أنفاسي.. دخان ثقيل قابض كأنه مصنوع من ذرات رصاص. واذا انطفأ تركه بين شفتيه، وكلما نطق يتلاعب السيجار الى اسفل وأعلى وكأنما أصبح جزءا من تقاطيعه. وكان أكثر شعر رأسه أبيض منكوشا كشعر المذهولين، وهناك وجوه لا تحس بملامحها، وكنت تحس أن في وجهه أنفا. ولم يكن يرتدي البالطو الذي تعود الحلاقون ارتداءه. كان يرتدي قميصا وبنطلونا.. القميص من قماش لا يستعمل للقمصان ذو خطوط غامقة كثيرة وليس له ياقة، ومفتوح عند العنق يظهر بقعة من صدره فيها شعر كثيف أبيض، والبنطلون حائر في وسطه لا يعرف على أي جزء من كرشه المقوس الأملس يستقر. وهو كالمكوك لا يهدأ، في نفس الوقت الذي يقص فيه شعري كان مشتبكا في ثلاث مناقشات مع زملاء ثلاثة له، واحد دخل معه قافية حول البامية والقرون، والآخر يحدثه عن طريقة مبتكرة لعلاج المرارة، والثالث يضحك معه على الاثنين. وينثني فجأة ويهمس في أذني بتعليق أو كلمة ترحيب، ويسألني ان كنت في حاجة لجريدة. ولا ينتظر جوابي ويرتفع صوته باحثا عن«الاثنين» ولا يجدها ويشتم الصبي، ويجد أن«آخر ساعة» قد طارت، ويعود إليّ بالأهرام وعلى وجهه ابتسامة خجولة آسفة تكاد من برودتها تطفىء«ولعة سيجارة».

والمقص بين اصبعيه لا يكف عن الطقطقة به لحظة، وكأنه حاو

يقوم باستعراض أمام الناس ويريهم معجزة

ويبدو أنه كان مشهورا واسمه تتقاذفه الأفواه كالكرة الشراب، والداخل والخارج والزبون والزميل والجميع يعاملونه كما لو كان لعبة طيبة لطيفة مهما سخرت منها فلن تعقب، واللعبة تغري باللعب، وهكذا لم يكن احد يدعه على حالٍ، ولم يكن يبدو عليه الضيق بأمثال تلك المداعبات بل لعله كان مسرورا. كنت الوحيد المغيظ فرقبتي هي المثنية، والعبث كله على حساب رأسي وأعصابي، والرجل كان باديا انه تعدى الخمسين ولا يستطيع الانسان أن ينهره بسهولة.

وبلغ بي الضيق منتهاه، ومن كثرة ضيقي أمرت الصبي الواقف ينش عليّ الذباب أن يكف، فأن يحس الانسان بالعذاب لأنه يقضي نصف ساعة وهو جالس أمر قد يحتمل، أما أن يقضي صبي صغير في العاشرة من عمره اليوم بطوله واقفا في مكانه لا يتحرك، ولا يفعل سوى نش الذباب عن وجه الزبائن وكأنه آلة، فأمر لا يحتمل.

والظاهر أن الأسطى زكي لم ينتبه الى أني السبب في توقف النش، فقد نهر الصبي وأمره بمضاعفة جهوده في طرد الذباب. ولم يكن هناك الا ذبابتان، واحدة لا تتحرك من فوق المرآة، والأخرى تحوم حولنا، اذا نفث الأسطى زكي دخانه فرت واذا كف عادت.

وانتهزت الفرصة وانفجرت أطلب من الصبي أن يكف، وأقول للأسطى زكي:

ـ هذا تعذيب وقلة انسانية . . (الخ . . الخ) .

وابتسم ردا على غيظي وقال :

ـ أمال . . أمال . . ينش . . لازم . . !

وعدت أردد له ما قلته ، وعاد يقول وهو حائر بين الضحك والابتسام :

ـ أبدا . . أبدا . . إلا دي . . دا لازم يقف كده . . لازم كده .

ـ ليه؟ . .

ـ أمال . . أمال . . عشان يتعلم . . ينش ويتعلم . . لازم كده . . لازم يقف هنا عشان يشوفني وأنا بشتغل ويتعلم . . إلا دي . .

والى حد ما كاد رأيه يقنعني ، ولكن الصبي على أي الحالات كان يتعذب ، ورد على قولي بقوله :

ـ آه . . عذاب . . معاك عذاب . . انما . . اصول الكار . . يتعلم ازاي أمال؟ . . سيدنا أيوب كان صياد . . وسيدنا عيسى كان نجار . . أنا اتعلمت كده . . كلنا كده . . أصول . . الواحد لازم يكون له صنعة يأكل منها عيش . . إلا دي . . اللقمه اللي من غير تعب فكرك يبقى لها طعم . . إلا دي . . كارنا كده . . مش بالساهل . ح يتعلم ازاي؟ إلا كده . . نش يا ولد نش . . نش يا جنس كلب . . نش إلا دي . .

فقلت وأنا لا ازال ممتعضا :

ـ طيب. . ينش ينش. . لكن ضروري الشتيمة يعني؟

فأغرق في الضحك وقال:

ـ ضروري. . ضروري قوي. . يتعلم ازاي إلا بالشتيمة؟. . دا

جاي هنا غصب عنه. . فكرك هو عايز يتعلم الحلاقة؟. . إلا دي. . أبدا. . دا عايز يجري ويتنطط زي التلامذة. . يتعلم ازاي الا اذا خاف؟. . يخاف يتعلم. . وهي دي شتيمه؟. . أنا وأنا قده كان ابويا الله يرحمه يتلعن في تربته الف مرة في اليوم. . كنت أزعل. . أنا ما اغلطشي. . وكده اتعلمت. . هي دي شتيمة؟. . احنا كلامنا كده. . أصل لا مؤاخذة الصنعه الباردة كلامها بارد. . كلامنا كده. . ح نعمل ايه؟ يا واد حوش الدبانه دي. . الله. . انت عايزها تدخل بقي؟. . يعني لازم أوسخ يعني. . إلا دي. .

وفطنت وهو في منتصف كلامه الى شيء. . فهو لم يكن قد سألني رأيي في الطريقة التي أفضلها لقص الشعر، وعادة الحلاق أن يأخذ رأي الزبون. هو لم يكن يلمح رأسي أمامه حتى انهال عليه قصا وتوضيبا دون ان يحفل بسؤالي، فقاطعته ولا يزال غيظي لم يتبدد:

ـ تسمح؟. . والله أنا عايز التدريجه. .

فقاطعني هو قائلا:

ـ عـارف.. عارف.. سيـادتك بتحب تكـون متوسـطه.. مش كده؟.. إلا دي..

ودهشت قليلا وقلت:

ـ ايش عرفك..؟

فقال وهو يرفع عينيه عن رأسي ويعتدل وقد فتحت يده المقص وأخذ يطقطق على الفاضي.. والمشط في اليـد الأخرى، والسيجـار في منتصف المسافة:

ـ عرفت ازاي ازاي؟.. انا بعرف كده.. المسأله نظر.. نظرة واحدة للزبون اعرف هو عايز ايه.. إلا دي.. نظرة واحدة.. عرفت ازاي؟ كده؟.. بالفلهوة.. أمال الواحد بقاله اربعين سنة في الكار ده ازاي؟.. بنلعب.. إلا دي..

ثم عـاد الى العمل، وقصـر قامتـه القصيرة وركـز انتباهـه على نقطة لا بد كانت استراتيجية جداً من رقبتي، وراح يعمل فيها بـطرف المقص بكل دقة وحنكة، وعينه مزرورة ونار السيجار قد اقتربت جدا من أذني حتى لتكاد تلسعها، وأكمل من خلال فمه المضموم:

ـ النبي عليه الصلاة والسلام قال: اعمل لدنيـاك.. واعمل.. يعني اعملوا.. مش تهـزروا.. لازم الواحـد يتفهم النـاس.. شفت ازاي؟.. أهو حضرتك مش متزوج مثـلا.. لا مؤاخذة أنـا بس يعني

حبيت أوري سيادتك.. ح تقولي ليه؟.. كده.. بالفلهوة.. ح تقولي عرفتها ازاي؟.. أقول لك ما اعرفشي.. كل واحد بيبان عليه.. المتزوج بيبان عليه، والعازب بيان عليه، وكذلك الفقير.

وانقلب سخطي علَيه الى سخرية، ونحن لا نترك فرصة للتنكيت الا انتهزناها، فقلت:

ـ ايه.. انت بتقرا لي قفايا والا ايه؟

ولم يضحك، وحسبت السبب ان النكتة لم تعجبه لأني أنا شخصيا حين اعدت النظر فيها وجدتها نص نص، حسبت هذا لولا انه قال:

ـ بالظبط.. بالضبط كده.. أهي دي الفلهوة بقى..

وخربت بيته في سري.. وتركت عملية الحلاقة كلية والتفت الى هذا المخلوق القصير ذي الوجه الأحمر، ان لحسته قد زادت عن حدها كثيرا.. وقلت له وأنا أهز رأسي كمنٍ يهزه الى مخرف كبير:

ـ يعني سيادتك بقى بتقرا القفوات؟

فقال:

ـ لا.. مش قوي كده.. يعني.. إلا دي.. هي القفوات لا مؤاخذة فناچين والا كوتشينه.. الحكاية بالويم يعني..

فسألته ضاحكا:

ـ هيه.. طيب.. وايه تاني في قفايا؟

فابتسم في تواضع وقال:

ـ يو هوه.. حاجات كتير.. مثلا.. يعني سيادتك مثلا عليك اعصابك.. يعني لا مؤاخذة عصبي شويه.. ومع كده ابن حلال يتكتم..

وخربت بيته مرة أخرى في سري، فقد كان ما قال صحيحا بعض الشيء.

وهنا التفت للصبي وقال:

ـ المراية يا ولد..

وحين عاد الولد بالمرآة تناولها منه بعد ان شتمه لتلكؤه، ومسحها أولا بالفوطة، ثم أمسكها في وضع يسمح لي بأن أرى قفاي. وحركها وهو يقول:

ـ شوف سيادتك بقى.. تعجبك التدريجه.. كويسه.. كويس كده؟..

كان يقول هذا بصوت جاد وملامح متأملة وهو يتطلع الى رقبتي ويرقب نتيجة عمله، كما لو يتأمل الفنان لوحة انتهى منها..

ورحت بدوري أحدق في المرآة وأحاول أن أستشف ما في رقبتي من شذوذ أو بروز يكون قد اوحى للأسطى زكي بما قاله، ولكني لم أجد شيئا، وعبرت له عما يجول بخاطري فابتسم ابتسامة الحاوي العجوز، وقال وهو يضبط المرآة التي خلفي:

ـ بص سيادتك.. بص كويس.. شايف ايه؟.. رقبه.. مش كده؟.. وشعر.. الناس بتسميهم قفا.. انا بسميهم وش.. أنا عندي القفا وش بس من الناحية التانية.. بني آدم زي السكين بوشين فليه نسمي الناحيا دي وش والناحية دي قفا؟.. هنا وش وهنا وش..

وسكت فجأة وسهم وهامت عيناه، ثم نطق بصوت مضموم خيل إليّ انه يخرج من سيجاره الأسود:

ـ أما حتة وزن!

ورأيت طرف المرآة يطالعني بجزء من الحتة، كان نصف امرأة ماشية في الشارع طويلة سمراء وممتلئة ملتهبة، وكما هام فجأة عاد فجأة، وكان أول ما فعله أن شتم الصبي وأمره بنش الذباب، وكان الصبي ينش فعلاً ولا حاجة به إلى أمر أو سباب ثم استطرد:

ـ ليه ما ينفعش وش؟.. أنا وجهات نظري كده.. أنا بشوف ده واشوف ده.. طول النهار وشي في قفا الزبون.. بشوف فيه كل حاجة كأنه وش.

وكان يتحدث طوال الوقت بصوت سريع منخفض وكأنه يخاف أن يسمعه أحد غيري، ولكنه خفض صوته أكثر على حين بغتة وهمس في أذني:

ـ وبيني وبينك الوش الوراني ده أحسن من القدماني.

ولم استطع أن أعلق أو أسأل أو أوقفه لحظة. كان كاللعبة التي ملىء زمبلكها وانطلقت تتحرك وأصبح لا يمكن وقفها حتى

تفـرغ شحنتها، واستمـر يقول بصـوتـه الخـافت المتلصص الحـافـل بالحماس وكأنه نبي يبشر برسالته في السر:

ـ القدماني دهه حتى باظ.. بقى بترينه ما عدش ينفع.. اتعلم الحركات.. بقى يمثل وباظ.. الـواحد يبقى قلبـه شايـل الهم وشه بيضحك.. ويبقى وشه بيقـول لأ وهو من داخليتـه بيقول أهين.. إلا دي.. شوف يا أستاذ.. على قد ما تقدر قـول على الوش القـدماني دهـه.. دهه.. الله يلعنـه.. لا مؤاخذه مـا أقصدكش.. بـاردون.. الرك كله على القفا.. هو الوش المظبوط.. النضيف قفاه نضيف.. والعيـان قفاه عيـان.. والغنى قفاه ملظلظ.. هـو ده الوش اللي بحق وحقيق.. هنا هه.. كل حاجة هنا هه.!

وقاطعه صوت جاءنا من بعيد، كـان صوت زميـل له يسـأله عن البودرة، وحين هب الأسطى زكي من استغراقه في الكـلام معي ورآه زميله وهو في موقفه ذاك الضاحك وقال وهو يخاطبني:

ـ أظن قـاعد يقـولك عن القفـا يـا بيـه.. دا أصله دوشجي.. خللي بالك منه.. دا اسمه الأسطى قفا..

وامتـلأ الصالـون بالضحـك والقرقعـات، واحمر وجـه الأسطى زكي قليلا وبدا عليه حزن سريع، ولكنه التفت لزميله وقال:

ـ قفا قفا يـا سي أنور إلا دي.. قفـاك يملا حله.. قفـاك يملا حله.

ومرة أخرى دوى الضحك وانصرفت عنـه الأنظار فـانقض على

أذني من جديد. . ويبدو اننا لا نتأثر بمعنى الكلام فقط ولكن أيضا بالطريقة التي يقال بها. وأول الأمر كان زكي يضحك ويصبغ الهزل كلامه، ثم بدأ يتكلم وكأنما ليذهلني بما يقول. ثم تطرقت إلى صورته رزانة ووقار، وبعد أن كنت أسمع له ساخراً تطرقت الرزانة إلى سمعي أنا الآخر وبدأت أنصت:

ـ بيضحكوا. . والله بيضحكوا على أرواحهم. . داحنا في نومه والله. . دول بيضحكوا على بعض. . الراجل يبقى مزوق من قدام وقفاه زي الطين. . يبقى ده لا مؤاخذة راجل مش نضيف وعايز يقول للناس انه نضيف. . بيضحك على الناس. . كل الناس بتضحك على الناس. . تعرف سيادتك بيقولوا عليّ ملحوس ليه؟. عشان وشي زي قفايا. . تسمح؟

وخلع رأس الكرسي بسرعة وطلى وجهي بالرغوة، وسن الموسى ووضع السيجار جانبا بناء على طلبي، وبينما الموسى يعمل ويزحف فوق ذقني بخفة ومهارة، مضى هو يقول:

ـ أهو احنا كده يا ولاد العرب. . ثم تعالى هنا. . تعرف ان الناس ليهم طبايع غريبة، قلت لي ازاي؟ كل واحد يخلي وشه القدماني مختلف عن الباقيين، وكل واحد عايز وشه الوراني يخليه على قد ما يقدر زي الباقيين. ده يربي شنب قد كده، وده يخليه دوجلاس صغير، وده دوجلاس كبير وده يدوبك خط، وده يقول والنبي تخلي القصة طويلة، وده يقول خليها انجليزي وحياتك. كل واحد عايز وش لوحده. انما تيجي للقفا. . اللي رقبته قصيرة يقول

خللي التدريجة عاليه واللي طويلة يقول خليها واطية. ليه؟ علشان ما يبقاش مختلف عن بقية الناس.. عشان يبقى طبيعي.. اتأمل يا استاذ في أحوال الخلق.. التلميذ ولا مؤاخذة عايز يبقى وشه زي وش البيه، والصنايعي عايز يبقى وشه زي وش التلامذه، والفلاح عايز يبقى زي الأفندي، وكلهم عايزين قمواتهم تبقى زي بعض. بص للزباين والناس اللي ماشيين في الشارع. بص لهم كويس تلاقي لهم مليون وش وقفا واحد بس.. قفا واحد بس.

حكمته! ربنا حط في كل واحد عقل وقال له امشي.. قوم شوف. إلا دي.. يقولوا عليّ ملحوس، يقولوا حلاق، يقولوا اللي يقولوه.. انما والله العظيم تلاتة بالله العظيم الناس بتضحك على نفسها.. كل واحد بيضحك على نفسه، وكلهم ليهم قفا واحد. قول لي يا أستاذ، بذمتك قول لي.. ما دام قفاهم واحد ليه عايزين وجوههم مختلفين؟

فسألته وأنا في تفكير عميق:

ـ تفتكر ليه؟

فهز كتفيه وقال:

ـ والله ما اعرف.. كله مش داخل مخي. أنا يا عم كلهم عندي واحد وحياتك.. ما فيش حد أزيد من التاني. كلهم عندي قفوات. نش يا ولد نش.. نش جك وجع ينشك.

وكان قد انتهى من ذقني وأعمل يده وأصابعه في شعري

وسواه، ومضى يداعب الشعرات القليلة الناشزة ويحاول إخمادها.

وقلت وأنا أغادر الكرسي:

ـ يا أسطى زكي.

ـ نعم...

ـ نعم...

ـ نفسي تقول لي ايه اللي طلعت بيه من ده كله؟

ولم يجبني. كان قد لاحظ بضع شعرات في رقبتي أخطأتها ماكينته فرجاني ان أعود الى الجلوس، وانطلق بخطواته الكثيرة السريعة وهو يدفع هذا ويشاكس ذاك، وعاد ومعه ماكينة صغيرة.

وما ان بدأ يعمل حتى نتشت الماكينة الشعر بدل أن تقطعه، وسبب لي هذا ألما فقلت: أخ.. وما كدت أقولها حتى أغرق في الضحك، ضحك خاطف قصير، والتفت أرى ما يضحكه ولم أجد شيئا، وسألته فقال وهو ينفض الشعر عن ملابسي:

ـ بضحك ليه؟ أصلي هف عليّ الضحك ـ ما هي حاجة تضحك. انت مش بتسألني طلعت بإيه من الحكاية دي كلها؟

ولا حاجة وشرفك عندي.. ولا حاجة.. كل اللي طلعت بيه ان المكنة دي بقالها خمس سنين بتنتش، وحلقت بيها لييجي عشرة آلاف واحد وكل زبون كان لما توجعه النتشه يقول أخ. كلهم.. زي انت ما قلت. نعيما! شرفتنا.. ما اعطلكش.. نش يا ولد نش!

داوورد

لم يناقش أحد الفتوى التي تطوعت بها «الداية»، وكيف يناقشها أحد؟ العائلة كلها تلهفت شهورا واستعدت للحدث الضخم أيما استعداد. الأب ما كاد يرى المولود الجديد حتى أحس وكأن قلبه قد اختفى ـ برضاه ـ من صدره، وأصبح له صراخ وأنين، وانتفض حياة جديدة لفتها الداية في اللفائف، وكان ابنه الأول. والأم . . أم الولد ظلت تئن وتتلوى وهي حامل، وتلعن الحمل و«سنينه»، وتصرخ صراخ المستغيث من الحمل بالميلاد ساعة الميلاد، ولكن ما كادت تنفصل عنها«حتة اللحمة» وتراها في لونها الأبيض المشرب بحمرة، وتكشف لها الداية عورتها فتبلغ قمة السعادة بالولد، ثم يصرخ هذا الولد ويستغيث، وتعطيه ثديها وتحس بنغمشة حبيبة تسري في جسدها، والولد النونو العفريت يطبق بشفتيه الصغيرتين اللذيذتين على لحمها ويمتص منها اللبن في مهارة ودهاء، وكأنه تعلم الرضاعة خفية وهو لا يزال في بطنها. ما كاد هذا كله يحدث حتى انقلب الصراخ والألم الى محبة دافقة مفاجئة تغمر كيانها كلما مص الولد ثديها، أو أخذته في حضنها، أو رفض اللفائف بساقه الملظلظة

القصيرة التي لا تكاد تتعدى أصبع اليد. .

أجل. . كيف يجرؤ أحد على مناقشة الداية في فتواها، وقد دخلت تصيح على الأم بعد ان مضى على ولادتها يوم. وما كادت تجلس وتخرج علبة السجائر، وتشعل سيجارة وتأخذ نفسا وتبتلعه وتنفثه حتى قالت:

ـ بس أنا خايفه عليكي يا أم سمير(اذ كانت قطعة اللحم قد تحولت في يوم وليلة الى سمير). .

وأحست الأم بنغمشة حبيبة من نوع آخر تسري في نفسها ء نغمشة فرح واحساس بالمسئولية، تماما كتلك التي أحستها يوم أن اكتشفت لأول مرة وهي لا تزال بنتا انها أصبحت أنثى. ولهذا قالت في صوت واهن لم يكفها وهنه ولكنها أضافت اليه وهناً آخر دائما تتصنعه الوالدات:

ـ كفى الله الشر يا اختي. . ليه؟

فأجابت الداية وهي تنفخ نفس الدخان في ولعة السيجارة فتحمر الولعة كما يفعل عتاة المدخنين الرجال:

ـ بقى تبقي اسم النبي حارسك والدة. . وتخلي القطة قاعدة معاكي في بيت؟. انتي مش عارفه ادلعدي يا اختي انها ولدت هيه رخره؟.

ـ ولدت؟!

ـ أي والنبي يـا اختي . . لقيتها راقـده . . اسم النبي اسم النبي حارسك في وش العدو.

ـ والنبي آدي حد علمي . .

وأنـا يا ختي داخله من البـاب وألقاهـا راقدة رقـدة الندامـة في سبت الغسيل بتاعكو. . لأ يا ختي . . لازم تشوفولكم طـريقة . . انتي عايزة ولادها البعيدة، البعيدة عن البيت وصحابه، تكبسك؟ .

ـ يا نهار اسود . . طيب ادلعدي يا ختي يا تفسريش .

ـ دي مجربه من ايام حوا وآدم يا أم سمير(وكأنها بسـلامتها هي التي أشرفت على وضع أمنا حواء) . . الله يعـافيها بـالعافيـه بقى بنت أخت ألفت هـانم عملتها . . وبعيـد بعيد عن البيت وصحـابه جـرالها اللي ما يجرى لعدو ولا لحبيب . .

تم هـذا الحـديث في الصبـاح، وفي الـظهـر جـاء الأب من الخارج وقد قام بكل الاجراءات الواجبة التي يتخذها الوالد في أمثال هذه الحالات، فاقترض مبلغا محترمـا فك بـه ضائقتـه باسم الكـارثة التي حـدثت، وقام بـإبلاغ الخبـر الى كل الأهـل والأصدقـاء. وكـاد يوقف الناس في الشارع ويخبرهم انه رزق والحمد لله بمـولود ذكـر، وكذلك حصل على إجازة من عمله استطاع بها أن ينهي بعض المشاغل التي تراكمت عليه، وما كاد يضع قدمـه في الحجرة حتى فـوجىء بيا سيـدي أولاد القطة لا يمكن تقعـد في البيت، لماذا يـا ستي؟ الدايـة قالت كيت وكيت. يا ستي كله تخريف في تخريف. انا مالي! لا بـد

من إبعاد أولاد القطة حالاً. يا ستي ماليش دعوة.. أنا كوم وهم كوم يا أنا يا هم. حاضر يا ستي أمري إلى الله..

وقبل أن يختفي الأب لتنفيذ المهمة عن له أن يحيي القادم الجديد، فاقترب منه وأخذ يزغزغه باصبعه الكبير الخشن ويقول وهو يلعب حواجبه ويقوم بأنفه وفمه وعينيه بحركات بهلوانية:

ـ سما الله عليكي.. سما الله عليكي.. زقزق زقزق.. سما الله عليها.. توتو توتو توتو.. عوعو عوعو..

وكانت الأم تراقبه في ضيق وكأنه ينتزع منها شيئا يخصها، ولكن ماذا تقول؟ هو الأب على كل حال. ولكنها حين وجدت ان ابنها بدلا من ان يضحك أو يبتسم فتح فمه الصغير وضم ساعديه وانبعث منه صراخ لا ينبعث عن بالغين، دفعت يد الأب في عنف وضمت الولد اليها وأخرجت «حلمتها» بحركة تلقائية، وفرضتها على فم الصغير فرضا وهي تقول:

ـ امشي يا بعبع.. تعالى يا حبيبي.. تعالى يا ضنايا.. تعالى يا حتة من كبدة قلب أمك يا خويا..

ولدهشة الأب سكت الولد قليل الأدب، بل اندفع يتلوى جذلا كالدودة الصغيرة وهو يمص الثدي بصوت مسموع..

وخرج الأب من الحجرة كالبعبع المكسور الخاطر..

* * *

وبحث عن القطة كثيراً إذ لم يكن يدري أين سبت الغسيل، بل هو بصراحة لم يكن يدري في أعقاب ذلك الميلاد وجهه من قفاه. وكان لا يمكن أن يجدها لولا المواء الخافت الذي جاء فدله على السبت والقطة. ووجد الماكرة راقدة في تلافيف المربس ووقف يراقبها من عل. كانت نائمة على جنبها تكاد تبدو بلونها البني المطعم بالأسود كفستان مكور من فساتين امرأته، وكانت تصنع برقدتها قوساً يكسوه من الداخل شعر بطنها الأبيض النظيف، ويحفل التجويف الذي يصنعه القوس بثلاث قطط صغار. كانوا صغاراً جداً.. حلوين وكأنهم لعب أطفال مصنوعة من قطط حية.

وكان من الممكن ألا يقف الأب هكذا طويلاً يراقب القطة وأولادها، ولكنه لم يدر السر الذي جعله يقف جامداً هكذا يراقب هذه الكتلة الحية المكومة في جانب من السبت. كان أولاد القطة يتناوبون الرضاعة ولا يكفون عن الحركة. ويدفع الواحد منهم الآخر برأس مغمض ليأخذ نوبتجيته على الثدي الصغير، حتى إذا ما اكتشفت أن أخاه قد شطب عليه انتقل إلى ثدي آخر وأعمل فيه فمه الأحمر الدقيق..

وكانت الأم متكئة على ما يجاورها من ملابس تراقب الأولاد بعيون وسنانة نصف مفتوحة، وشواربها مهدلة على جانبي فمها غبطة، وكان يبدو انها في قمة السعادة. وكانت أحيانا تبقى على وضعها ذاك، وأحيانا تنقل رأسها فقط دون جذعها وتدفنه بين أولادها، فيصبح وكأنه قطة رابعة هو الآخر، وأحيانا تلعقهم بلسانها

النظيف، وأحيانا تدفع الواحد منهم عن ثديها في رفق لتعطي الفرصة لآخر..

كان الرجل واقفا فوق رأسها في وضع لا تراه فيه. واقفا وقد ذهب عنه التحفز الذي جاء به، وتراخت ذاكرته وذكرياته وتعددت ألوان القطة في عينيه وتاهت. لم تكن القطة هكذا يوم جاءت. كانت شاحبة عجفاء يوم جاءت! لقد استيقظوا يومها فوجدوا في المطبخ كارثة.. كانت امرأته قد أبقت حلة الطبيخ مكشوفة بعد أن غلتها حتى لا تحمض، واذا بهم يفاجأون بحدثين خطيرين.. اختفاء قطع اللحم التي كانت في الحلة كلها، ومواء قطة في الشقة.

ويومها أمسكت امرأته فردة القبقاب وظلت مدة طويلة تحكم النيشان ثم قذفت بالفردة.. ولولا أن القطة تحركت في الوقت المناسب لكانت قد أصبحت في ذمة التاريخ.. ذي الذمة الواسعة. وظلت بعد هذا تتحرك وتزوغ بطريقة لولبية من كل الفرد والمداسات وقطع الأخشاب والزجاجات وأيدي المقشات، وأثبتت بهذا أن القطط ليس لها سبعة ارواح، وإنما لها روح واحدة طويلة مصنوعة من مطاط يلين ولكنه لا ينقطع.

والمثل يقول: ما محبة الا بعد عداوة. وهكذا وحين لم تفلح الزوجة في اصابة القطة أو اجلائها عن الشقة التي وجدت فيها كل تلك الكمية من اللحم، سلمت امرها لله واتخذت الاحتياطات اللازمة لتأمين الطعام. ثم ما لبثت أن أدركت أن صراصير المنزل

تتناقص باستمرار، وأن الفأر المرعب الذي كان يطلع ويبصبص لها بذنبه قد اختفى، وحينئذ ادركت أن لون القطة جميل وشعرها ناعم، واذا شبعت أصبحت لطيفة مؤدبة بنت حلال دمها زي الشربات. وحينئذ، وحينئذ فقط أنعمت عليها الزوجة باسمها وصارت معها مثل اللبن على العسل. أنيسة عيب، أنيسة اطلعي بره، أنيسة عمى في عينيك. بل انها أحيانا كانت تشكو لها متاعبها وتأخذ رأيها في كثير من المشاكل. والحقيقة أن أنيسة أثبتت في كثير من الأحيان أن لها نظراً بعيداً، على الأقل أبعد من نظر الزوج. .

والذي حدث أن أنيسة شحمت ولحمت وصارت حلوة على مر الأيام، ولا بد أن جودة طعامهم كانت هي السبب، ومع مقدم الدفء والربيع بدأت أنيسة تكثر من حك نفسها في الزوج وأحيانا في الزوجة وتكثر من الأزيز والسرحان. ثم جاء اليوم الذي بدأت فيه تموء مواء غريبا عجيبا يكاد ينطق ويقول: داوود. . داوود. .

ان الرجل يذكر هذه الآونة تماما. . فامرأته هي الأخرى لم يرها أجمل ولا أروع مما رآها في تلك الأيام. . كانت خدودها الشاحبة قد أصبح فيها خوخ وتفاح، وعيونها امتلأت بأشياء وأشياء، وهي كلها قد حدث فيها حادث غيرها وحلاها وجعل منها سنيورة جديدة في نظره. ولكن العجيب انه بالقدر الذي احلوت به ملامحها فسدت طباعها. . المشاحنات أصبحت لا تنقطع، وثمة غيرة جديدة طرأت عليها لم يكن يدري من أين جاءت، وكان يأتيها المرض الشهري قبل ذلك وهو لا يكاد يحس به، فاذا به أصبح لا يجيئها الا

وهي راقدة تتلوى وتتأوه. فاذا أفاقت من المـرض ظلت تذكـره، واذا غاب عنها ذكره اختلقت شجارا، وخاصمته وتبغددت وهي تصالحـه، وأكثـرت من شروط الصلح. ثم حكـاية وجـع ظهرهـا الـذي كـان لا يلازمها الا في أوقات معينة، ولا يحلو لها الشكوى منه الا في الليل، في عز الليل وهو نائم، تظل تشكو بصوت مسموع وتتبـاكى من الألم حتى يستيقظ، فـاذا تناوم جـذبت من فوقـه الغطاء لتسنـد به ظهـرهـا الموجوع.

بالضبط انه يذكر تلك الأيام التي بدأ فيها مواء القطة وعواؤها، اذ طالما صحا من نومه على داووود وهي تجلجل في سكـون الليل. وكانت امرأته تصحو هي الأخرى اذا لم تكن صاحية، ويتأملان النداء ويلعنانه كثيرا ثم يناقشانه في خجـل، ويتفقان على انهـا لعوب تجـأر في طلب الذكر، ويدلفان أخيرا الى سجال أكثر امتاعـا يهيجه العـواء الأنثوي الذي لا ينقطع..

ومـا أكثر مـا جره العـواء من متاعب، اذ استجـاب لـه ـ لسـوء الحظ أكثر من ذكر. وكـانوا ـ لسـوء الحظ أيضا ـ كثيـرا ما يقبلون في وقت واحـد وتقوم المعـارك.. معارك حـادة لا رحمة فيهـا ولا هـوادة كثيرا ما أفسدت ضجتها النقـاش الآخر الـذي كان يـدور بين الرجـل وامرأته..

والأدهى من ذلـك أن المعركـة وصلت ذات يـوم الى الحجـرة

التي ينامان فيهـا، ووصلت في لحظة حـاسمة من لحـظات النقاش. وكف الزوج عن الجـدل في الحـال وراح يشخط ويهـدر في القـطة وصاحبيها. واكتفى بالشخط من بعيد لبعيـد فالقـطان كانـا غريبين لم يرهما قبل ذلك وفي عيونهما شر مستطير، وكان الـواحد منهمـا يزعق في الآخر فيقابل الآخر زعيقه بزمجرة لا تقل عنهـا قسوة، يعني حـالة يستحسن فيها الابتعاد قدر الطاقـة عن أرض المعركـة. وكانت أنيسـة واقفة ترقب العراك بعينين فيهما تهافت وحور. . وكلما آذنت المعركة بـالانتهاء ارتفـع صوتهـا الأخنف داوورد. . داووورد. وتستعـر نيـران المعركة من جديد. والغريب انها كانت مثل المعارك التي تنشب بين المصريين. . كل قط واقف بعيدا عن الآخر يرعد فيه ويلعن سنسفيل أجداده، ويحاول اخافته وإرسـاء الرعب في قلبـه ليتراجـع فيظفـر هو دون اراقة قطـرة دم، والطيب أحسن! ولكن حدث أن تطور أحدهمـا على الآخر. وهذا الذي تطور كان يبدو أصغر من الآخر سنا فاقتـرب من العجوز وقذفه بصرخة مرعبـة، ولم يتراجـع العجوز وكـأنما أدرك بحكمته ان المسألة تهويش لا أكثر ولا أقل. وحينئذ فقد صغير السن والخبرة أعصابه ورفع كفه الأمامية وأهوى بها على وجه غريمه هكـذا بسرعة متهورة غاضبة. وما كـان من العجوز إلا أن كفـ عن الصـراخ في الحال وحدق في ضاربه برهة، ثم ألقى عليه نظرة احتقـار هائلة، واستدار في عظمة نمر وغادر الحجر وكاد يصفق الباب خلفه.

وتحركت أنيسة، واقتربت من المنتصر وحكت كتفها في كتفه قائلة

بصوت خافت آثم: داوووود. وغمغم القط في وقار الفائز كأنمـا يقول لها: صبرك بالله يا وليه أما القط نفسي.

وكان الزوج في وحدته البعيـدة مع امـرأته، كلمـا شهد معـركة كتلك يحمد الله على ان امرأته انسانة تزوجها بالحلال وعلى سنة الله ورسوله، وحجزها لنفسه بقسيمة. وليست قطة كان عليه الفوز بهـا ان يصارع الذكـور الآخرين ويمـوت قلبه من الـرعب في كل مـرة، وقد تناله صفعات الجيل الجديد.

ومـع كر الأيـام جاء اليـوم الذي عـاد فيـه السـلام الى البيت، فانقطعت أرجل الذكـور وانقطع مـواء أنيسة وانقـطع الوجـع الظهـري والخـلافات المـزعومـة، وكذلـك انقـطع المـرض الشهـري وحملت زوجته.

وابتسم الـرجل والتـاريخ يـوقفه عنـد تلك الأيـام، لعله اعتقـد لحظتها أن أنيسة وداوودها كانا السبب في سمير أو على الأقل عجـلا بقـدومه. فبعـدما انتفـخ بطن انيسـة، وبدأت زوجتـه تتوحـم وتـطلب النادر. ثم وضعت أنيسة أربعة قطط جميلة احتكرت امرأته تفريقهـا على أقاربها، ثم بدأت أنيسة تعوي مرة أخرى، وانتفخ بطنها وها هي ذي تلد للمرة الثانية، وتجيء هذه المرة قبل ولادة سمير بأيام.

وفي النهاية كان لا بد أن يمد يده ويتناول القطط الصغار وينفذ المهمة.

وحدث فعلا أن مدها، ولكنه جذبها بسرعة وقد أصابته لسعـة

طويلة حادة فوق ظهر يده تفجر على أثرها الدم . وبهت الرجـل كمن طعن . ونظر الى انيسة نظرة المروع المستنكر. كان هذا آخر ما يتوقعه منها بها اليفة أنيسة . .

وما أن مرت الصـدمة حتى امتـلأ قلبه بغضب جـامح ، وكـأنما استنكر على القطة ان تخدعه بذلك الهدوء المزيف ثم تنشب أظافرها فيه . وانشب عينيه فيها وكلها غضب .. وكان فى عينيه خـوف أيضا ، فـأنيسـة كـانت قـد انتفضت واقفـة ووقفت كـل شعـرة في فـروتهـا، وانتصبت شواربها المتهدلة ، واكتسى وجهها تعبيرا بشعا مخيفا.

وليس هذا كل شيء، فافظع ما في الأمر كانت عيونهـا . . أجل عيـونهـا، فقـد خيـل اليــه ان وجههـا يحفـل لا بـزوج من العينين المتنمـرتين الواسعتى الحـدقات، وانمـا بعشـرات من العيـون كلهـا مفتوحة على آخرها وكلها تبرق وتلمع وتتملظ ولا تبشر بأي خير.

واسقط في يده.

كانت القطط الصغيـرة قد انـدست بطريقـة ما تحت بـطن أمها وكفت عن الرضاعة ، وانكمشت على نفسها وكأنها استشعرت الخطر. وكان الوصول إليها دونه تلك الأم المخيفة ذات الآلاف فن المخالب والعيون والأسنان.

ولم ينشب الرجل عينيه فيها طويلا، لا عن فروغ بال وانما عن خوف. ان التحفز ولو كان من قـطة يخيف. خوف حقيقي أصـابه من العينين. . هـاتان البليتان الصغيـرتـان الخضـراوان كـانتـا قـد التهبتـا

وانطلقت منهما شعاعات لا ترى وانما ترسل الرعدة في أشجع الرجال.

دلدل الرجل ناظريه ولم يملك الا أن يتسم، فقد واتته ـ دون ان يدري ـ صورة أنيسة الحائرة على نفسها الطرية كالخرقة المبتلة وهي تجأر في استغاثة خنفاء قائلة.. داوود.. داوووود.. أجل.. شتان بينها ساعتذاك وبينها الآن!

واستأنف الهجوم. ولكنه ما لبث ان تراجع حالا اذ ما كادت تراه يقترب حتى قالت: نو! ولم تك ناواً عادية ابدا، خيل اليه ان جسمها كله قد استحال الى صفارة انذار اطلقت ناواً حادة راجفة حامية تقشعر لهولها الأبدان. وفي نفس الوقت اندفع الى وجهها سيال لافح من الانفعالات اخرج حمما من عينيها، وكهرب شواربها، وأبرز اسنانها فبدا فمها كفوهة حية ضخمة من نوع الكوبرا.

ودق قلب الرجل.

دق مرات من الخوف.

ومرات أخرى حين تذكر ان عليه الا يخاف.

وجمد قلبه.

واشمعنى هوه يعني؟

ان له حنجرة هو الآخر.

وأطلق من حنجرته صوتا عاليا.

امشي!

وزأرت أنيسة.

واختلطت ناو ناو وامشي. هو يشخط وهي تزأر وكلاهما ثابت في مكانه لا يريم.

وأعمل الرجل عقله.

وهكذا جاءت المقشة.. ومدها على قدر ما استطاع ودفعها في وجه انيسة. وتراجعت القطة الى الوراء وهي تزأر زئيرا متصلا ترتعش له طبلة اذن الأصم.

ولكنها لم تغادر السبت أبدا.

وكان لا بد مما ليس منه بد.. ورفع الرجل المقشة وأهوى بها. وقفزت أنيسة جانبا فلم تصبها الضربة ولكنها انقضت على رأس المقشة وضبعت فيها بأظافرها. وما كاد يحاول إعادة الكرة حتى كانت اسبق منه، وحتى بادرته قافزة ناحيته صارخة صرخة متوحشة لا تمت أبدا الى أنيسة ولا الى القطط أجمعين.

وبلا وعي قفز هو الآخر متراجعا، قفز بشكل لا يمت اليه ولا الى الجنس البشري كله، اذ في قفزتين اثنتين كان قد عبر الصالة وفتح باب الحجرة التي ترقد فيها زوجته واستقر بجوار فراشها يلهث.

ـ خير كفى الله الشر.

وكان لها كل الحق، فقميصه مفتوح وعرقه يسيل ونظراته

زائغة والشحوب قد غمر وجهه.

وحاول أن يرد، ولكنه كف عن المحاولة اذ ماذا يقول؟

كل ما قاله كان«ولا حاجة».. قالها وهو يعود خارجا باحتراس شديد ويتفقد الصالة ليطمئن، ويطمئن، فأنيسة كانت قد عادت إلى السبت وأمسكت بواحد من أولادها بين أنيابها.

أه.. تريد بلا ريب أن تحمل أولادها وتهاجر الى مخبأ آخر. ولكن حيلك يا ست أنيسة.

كانت المقشة في مكان بعيد عن خط النار، فتناولها من جديد ولجأ الى الحيلة فرفعها وأهوى بها، وحين قفزت أنيسة بعيدا عن السبت مد المقشة وظل يجذبه وهي واقفة في مكانها تصرخ حتى أصبح في متناول يده.. وحينئذ تناول القطط الثلاثة واحتواهم بين كفيه..

وكان يتوقع مثلا أن تقفز عليه وتشبعه خربشة وعضا، أو تنهش وجهه وتدمي عينيه، وكان قد جهز نفسه لكل ذلك.

ولكنها ظلت واقفة في مكانها بنفس تحفزها تصرخ وتنكمش على نفسها وتنقبض، وتكاد لا تدري ماذا تفعل.

ووقف الرجل أيضا لا يدري ماذا يفعل.

كان خائفا ان يتحرك فتتحرك وتنقض.

وتحرك ببطء أول الأمر.

ولم تغادر أنيسة مكانها حتى حين وصل الى الباب وخرج.

ماذا حدث؟

ألا تدري الغبية أنه قد أخذ أولادها؟

أم أنها خافت؟

أو هي تـدافـع عنهم فقط اذا كـانـوا في حـوزتهـا تحسهم بشعـراتها، وتلمسهم بلسـانها، حتى اذا مـا صـاروا في حـوزة الغيـر أصبحت المسألة اعقد من ان تستطيع حلها؟

وهل هي تستطيع الدفاع فقط ولكنها لا تستطيع الأخـذ عنوة أو الاغتصاب؟

وهل الدفاع هو الغريزة الأصيلة، والاغتصاب هو التفكير الشاذ الذي يحتاج الى تدبير وتفكير وغدر؟

قد تكون اسئلة مثل تلك قد دارت في عقل الرجـل وهو يغـادر البيت، وقـد لا تكون قـد خطرت لـه بـالمـرة. في تلك الأثنـاء كـان يستمتـع بلذة الانتصـار فقط. . وحين لاحت لـه مشكلة التخلص من القطط وهو سكران بخمرة النصر ومغرور، وجد حلها امـرا سهلا فمـا عليه سوى القائهم في اية حارة.

وأسكت الانتصـار غروره وحين هـدأ قليـلا وأذهب عنـه خمـر الغرور بعض الجوع للثقة في نفسه، جاءته الانسانية. وقرر أن يهبهم

لبعض جيرانه. قد تكون حلولا مثل تلك قد دارت في عقل الرجل وهو يغادر المنزل.

* * *

ـ خلاص يا ستي ولا تحملي هم.

ولم يفت الزوجة وهي تبتسم له شاكرة أن تتأوه وتشكو من الألم والوهن.

ولم يفته وهو يروي لها تفاصيل المعركة أن يبالغ.. قليلا أول الأمر، ولما لم يجد لدى الزوجة مانعا ساق فيها وفتح باب المبالغة على مصراعيه..

وظنا ان المتاعب قد انتهت عند هذا الحد.

ولكنهما قضيا أتعس ليلة.

جدران البيت ظلت تردد نداء واحدا لا ينقطع.. ناو.. ناو. ـ ناو..

كان الصوت غاضبا أول الأمر، قصيرا رفيعا كالسكين الحادة حين تقطع في الجسد.

وكلما امتد الظلام والسكون كان الصوت هو الآخر يمتد ويطول.. ناو.. ناو.. ناو.

ولم يعد الرجل يحتمل. اقتحم الصالة خارجا ورمى أنيسة التي كانت تروح وتجيء ولا تكف عن النونوة لحظة.. رماها بفردة

الحـذاء، ولـم تحاول هي ان تتجنب القـذيفـة فـأصـابتهـا وأوقعتهـا، وقامت واستأنفت غدوها ورواحها ولم تسكت، بل أضيفت الى النـاو نغمة جعلتها تبدو أكثر حـزنا ووقعهـا يبدو أكثـر مرارة، كمـا لو كـانت السكين التي تقطع في الجسد قد تلمت حافتها فأصبح صوتهـا بطيئـا قاسيا له أزيز وأنين.

وبـدأ الصوت يتغيـر ويتبـدل. . ويصيـح آي. آي منفـردة وآي متصلة طويلة تكاد تنطق مخارجها وتتجسد حـروفها. . آهـات حقيقية كأنها متصاعدة من صدر آدمي ممزق.

ولم يكن في استطاعة الـرجل ان يفعـل شيئا. الحـذاء ورماهـا بـه، وصوتـه قد بـح من الكش فيهـا ومطاردتهـا. كـان عليـه فقط ان يستلقي على الكنبـة ويستمع الى امتعـاضات امـرأته وتعليقـاتهـا على نباح القطة. .

وقالت له الزوجة بغتة في الظلام.

ـ أبو سمير.

ـ مالك؟!

ـ أنا خايفه.

ـ ليه يا ستي؟

ـ القطة. . دي بتبكي زي البني آدمين.

فقال ليفحمها:

ـ شورتك.

فأجابت:

ـ امال يعني عايز الولد يموت.. عايزني انكبس.. آه يا ميلة بختي!

وانطلقت تئن وتتوجع، ثم سكتت طويلا حتى خيل اليه انها نامت ولكنها قالت فجأة:

ـ أبو سمير.

ـ مالك؟

ـ تروح تجيب لها أولادها.

فأجاب الرجل في غيظ:

ـ انتي عايزه الولد يموت. ثم أجيبهم ازاي دلوقتي؟

وحل سكون آخر ختمته الزوجة بمفاجأة، اذ راحت تنهنه وتبكي. وأصبحت القطة تئن في الخارج وتعوي، وهي تبكي وتستجيب وتعدد.

* * *

وفي الصباح كان العواء قد خبا، ووجدوها ملفوفة على نفسها في الصالة نائمة على البلاط الرطب. وقدموا لها الطعام فلم تتحرك لها شعرة. واشتروا لها نصف رطل من اللبن لأول مرة فلم تعره أنيسة

أي التفات. بقيت مغلقة عينيها لا ترى ولا تحس، تزوم وتئز وتحيا في سكوت ذاهل آخر.

ومضت ايام..

تحركت أنيسة وطلبت الطعام بنفسها، وعادت تصطاد الصراصير وتغتالهم. ثم بدأت صداقة غريبة بينها وبين الرضيع. لا يدري أحد كيف اكتشفته، فقط لاحظت الأم انها تفضل النوم بجواره في الليل، فاذا أصبح الصباح داعبته.. أحيانا تضع بوزها فوق قدمه، وأحيانا تفتح فمها وتكاد تقضم اصبعه الكبير(كده وكده). ثم تقوس ظهرها وتلعب ذيلها وتحك شعرها في وجهه. وكان الرضيع يصرخ أول الأمر ويستغيث، وكانت الأم تصرخ هي الأخرى مخافة ان يقتل هذا العبث(بطريقة ما) ابنها. ولكن الرضيع وأمه أدركا أخيرا ان الأمر لا يتعدى حدود المداعبات البريئة.

ولم يستمر الوضع هكذا فقد مرض الطفل. وحاولت الداية علاجه والداية لا تكتفي بتوليد الأطفال وانما هي تعالجهم بعد مولدهم وترعاهم، وتطاهرهم حين يكبرون، ثم تخطب لهم وتزوجهم اذا شبوا، وأحيانا هي التي(تلتمهم) وتغلق عيونهم اذا واتاهم الأجل المحتوم. حاولت الداية علاجه ولم ينفع علاجها، وزادت شدة المرض. وفي طابور الأمهات المنتظرات أمام شباك التذاكر في مستشفى(رعاية الطفل) مات الطفل.

وانقلبت الشقة الى مأتم، وجاء المعزون أقارب وأصدقاء

وعمـات وخـالات وأشكـالا وألـوانـا. ولبست الأم السـواد وتعصبت بمنديل.

وجلس الأب بعد ان فرت من عينيه بعض الدموع. . جلس في وقار يتلقى التعازي ويحكي قصة المرض والوفاة ألف مرة، ويستمع إلى الدنيا على دي الحال، وشد حيلك، وقالوا يا جحا عـد موج البحـر، قـال الجيات أكثر من الرايحـات، ويا اخي انت شبـاب شم نفسك، وهات لنا عشره.

وخـرب المرض بيت الـرجل، وجـاء المعزون فقضـوا على ما تبقى فيه من بن وسكر وملاليم.

وبعد ان انصرف الجميع جاء الزوج ليرقـد بجوار زوجتـه على السرير وقد انتهى عهد الكنبة، وبكت الزوجـة وشهقت من اجل هـذا المجيء. وحين جاءت أنيسة كـالعادة تتلصص لتـرقد بجـوار الطفـل تشبثت بها الأم وظلت تعوي وتبكي وتتساقط دموعهـا على أنيسة التي أخذت هي الأخرى تنونو نونوات خافتات.

وهدهد الزوج. . وغالت الأم. . ثم كفت. ودار حـديث، الأم تقول ان ابنها مات من الكبسة. فقد مكث أولاد أنيسة يوما بطوله بعد الميلاد تمت اثنائه عملية الكبس وطار الولـد. والأب يقول. . أبـدا، السبب مستشفيات الحكومة والاهمال. لو كان عندنا فلوس كنـا رحنا لحكيم متخصص في الأطفال، السبب الفقر، الله يلعن أبو الفقر.

وجادلت الزوجة وبكت. وحينئذ قـال الزوج. . قسمـة ونصيب

هو المكتوب. الأعمار بيد الله.

وغالت الأم وجادلت، فقال الأب وقد تروحن.. هو الحي الباقي، هو المعز المذل القادر، الأطفال لهم الجنة ونحن لنا الجحيم. أجسامنا قد صنعت من المعاصي. لنا النار والعذاب ولهم الجنات والخلد. ليتنا متنا ونحن أطفال! ليتنا متنا وكنا ترابا!

وفي الصباح كان الأب جوعان، ولو كان الود وده لأكل. ولكن الأم رفضت أن تلمس الطعام حين ألح عليها، ولم يتناول هو الآخر الافطار اذ لا يصح أن يبدو أقل منها حزنا.

وحين عاد في الظهر كانت تبكي، وفي العصر تثاءبت ونامت، وفي المغرب كان عندها صداع.

* * *

ومرت أيام وأكلت الأم، ولكن الحياة لم تعد كما كانت. ظل البيت يسوده الوجوم وتهب عليه نوبات نواح ذكرى الولد في الحديث العابر.

وكان الشتاء قد مضى وبدأ الدفء يحل. وفوجىء الأب ذات ليلة بصوت أنيسة يلعلع في ظلام الشقة.. داوود.. داوود..

واستمر العواء أياما.

وبعد وفاة الولد كانت الأم تشكو من الصداع الذي ينتابها بين الحين والحين.

ثم بدأ الصداع يزحف الى أسفل ويصيب الرقبة وفقرات الصدر، وما كادت الزوجة تمد يدها ذات ليلة وتجذب الغطاء من فوقه لتسند به الظهر الذي بدأ الوجع ينتابه، حتى تنبه الرجل تماما وصحا ولم ينم.

وهكذا لم تستمر مطالبات الزوجة بالفستان الحرير للصيف طويلا، ولا المناكفات أو المهاترات، اذ سرعان ما جاء اليوم الذي عاد فيه الهدوء الى البيت فانقطعت أرجل الذكور، وانقطع عواء أنيسة، وانقطع الوجع الظهري والمطالبات التي لا تنتهي.

وكذلك انقطع المرض الشهري..

مارش الغروب

كانت الصاجات تخرج صاخبة زاعقة وعلى دفعات كهدير الديك الرومي، وكنت تستطيع أن تسمعها من بعيد حتى اذا ما وصلت الى كوبرى شبرا البلد عثرت على مصدرها.. على بائع العرقسوس.

كان الرجل مسنا كمعظم بائعي العرقسوس ويرتدي زيهم التقليدي.. فوطة حمراء قديمة نظيفة لفها حول وسطه، وفانلة بمبة بأكمام، ولا شيء غير هذا يستر الجسد خلا السروال الطويل الذي يترك الساقين عاريتين.

وكان للبائع لحية طويلة ولكنه لم يكن سنيا، كان واضحا انه يطلق لحيته كنوع من عياقة الكبار، أو لإحاطة نفسه برهبة مصطنعة، أو على أقل تقدير ليوفر ثمن حلاقتها كل يوم.

كان واقفا في وسط الكوبري تماما وهو وإبريقه يكادان يسدان الطريق، فالابريق كان ضخما قديما وكأنه هو الآخر عجوز مقعد كتب على البائع أن يحمله فوق صدره مدى الحياة، وكانت له بوز رفيعة

ممتدة وملتوية عند آخرها وكأنها يـد العجوز التي عـوجها الشلل حين تمتد لتستجدي.

وكانت يدا الرجل مـدلاتين خلفه ويـده اليمنى لا تكف عن دق الصاجات، ويخرج صوتها له ضجة وصراخ. وكان يدق على دفعات كل دفعة دقتين متتاليتين ثم يصمت برهة، ويعود الى الـدق ويقول«يا منعنش» وكان ينطق منعنش بلهجة لا نعنشة فيها ولا حماس، فالدنيا كـانت شتاء، والشمس غـابت من هنيهة، والكـون يعبق بذلـك الجو المـريض الـذي يتبـع مغـرب الشمس ويسبق حلول الـظلام. وكـان الناس يمضون فوق الكوبرى صامتين مسـرعين. . في اسراعهم كـآبة يوم يموت، وبرودة شتاء.

كـان الناس يمضـون ولا أحـد يلتفت الى البـائع أو تستـرعيه دقاته، فالدنيا شتاء، ومن يشرب عرقسوسا في الشتـاء؟! . . من يفكر حتى في فتح فمه أو التلكؤ لأخذ شفطة؟!

ورغم هذا استمرت الصاجات تعمل وتهدر بزعيقها المتـوالي، وكلما حدق البائع في الكون ورأى الناس يختفون من حوله ويتسربون وكـأنما تبتلعهم مخـابىء سريـة. . وكلما رأى الجـرح المدمم الـذي أحدثته الشمس الغائبة في السماء حين اخترقتها الى عالم الـظلام. . كلما رأى هذا قصرت المسافة بين الدقات وأصبح صوتها أعلى وأكثر حـدة، وانطلقت حنجـرته تعضـد الدقـات وتقول يـا منعنش، تقولهـا حنجرتها متقلصة مثنية على نفسها وكأنما انحنت تستخلص «منعنش»

وهي عاصية في قاع حنجرته لا تريد أن تخرج، فالابريق كان لا يزال راقداً فوق صدره كالمصيبة الثقيلة، ولا يزال ممتلئاً وكل مـا باعـه منذ الصباح كان لم يتعد بضعة قراريط لا توقد مصباحاً ولا تغمس لقمة.

والدقائق تمضي بسرعة، والـوقت يتسرب تسـرب الناس كـأنما أصابه البرد هو الآخر.

وتـدق الصاجـات عاليـة صـاخبـة هستيـريـة تـريـد أن تتحـدى وتستوقف الأسماع، والظلام يتكاثر وتصبح له دنيا كبيرة، وبرد السماء يطبق على الأرض، والناس يصغـرون ويصغرون، وكـل شيء تصبغه رمادية زرقـاء ويبرد ويصبـح لا حياة فيـه. وتزأر الحنجـرة يا منعنش، وتخرج منعنش حادة تكمل صخب الدقات، وبين كل آن وآن يقـول: يا كريم سترك. ويمد الكاف وكأنه يصنع منها حبلا رفيعـا يمده فـوق الكوبرى ليـوقف الناس، ويتبعهـا بسترك مقتضبـة خارجـة من الصدر وكأنما يسترضي الناس بعد هديره ويصالحهم بها.

والناس رائحة غادية، ميتانة، سقعانة، ناشفة، وجوههم شاحبة فيها غضون، وعيونهم ذابلة فيها شتـاء، ولا يريـد أحد ـ رغم وجـوده في وسط الكوبرى ـ أن يلقي عليه نظرة.

وأطلق الـرجل يـا منعنش وأتبعهـا بيـا كـريم سـتـرك، أطلقهمـا عاليتين صاخبتين مدويتين كاستغاثات أخيرة لسفينة تغرق.

وأيضا لم يلتفت أحد.

والـوقت يمضي، والمارة يقلون، والسمـاء تـزداد إطبـاقـاً على الأرض، وعالم الظلام يكبر ويكبر، والجـرح الذي في السمـاء يلتئم وتذهب حمرته وشفقه، والناس يتحولون من كائنات الى أشباح.

وبـدأت دقات الصـاجات تنخفض، ولـم يعـد الرجـل يقول يـا منعنش، كان فقط يردد يا كريم سترك. وكان يقول يا كريم متضرعـا، يقولها لكل شيء حولـه، للأرض والسمـاء وعربـات النقل والكـارو، وحتى لصاحب الغرزة الجالس هو الآخر يرتعش ويستعد للرحيل.

وكـان ما في صـوته من ضـراعة ينتقـل الى نحاس الصـاجـات فتخرج الدقات متتابعـة نغم، وعلى دفعات، ولكن فيهـا بحة، وكـأنه يـريد أن يـرجو النـاس فقط أن ينظروا اليـه. . فقط ينـظرون اليـه ولا يشتـرون. لماذا يـزورون عنه ويشيحـون بوجـوههم يتهربـون وكـأنهم يفرون من واجب ثقيل؟ ماذا عليهم لو فقط يلتفتون؟

ولم تفلح الدقات ولا أفلح النداء في جلب نظرة.

وهنا كست وجه العجوز تكشيرة طيبة فيها يأس، وتهدل حاجباه فوق عينيه في عتـاب صامت. وكـانت يداه لا تـزالان مدلاتين خلفـه ولكن الـدقـات همـدت حـدتهـا وتبـاعـدت وأصبحت كـدقـات قلب المشـرف على الموت، تسكت طـويلا ثم تبـرق فجأة وكـأنهـا تقـاوم الفنـاء. وبين الحين والحين يلقي الـرجـل نـظرة على القـراريط التي بـاعهـا وآلاف القـراريط التي لم يبعهـا، ثم يتمتم من بين شفتين ترتجفان بالبرد: يا كريم سترك.

وظل الرجل واقفا هكذا وكأنما ينتظر شيئا ما، معجزة تحدث وتفرغ الابريق وتملأ جيبه. ثم خفت القدم، وخطا الكوبرى عله يرزق. ولم يرزق، ووقف على جانب يحدق في الأرض والسماء والأضواء البعيدة والقريبة. . ولا شيء يحدث ولا معجزة تهبط.

وهبط عليه يأس كامل فارتفع حاجباه المتهدلان، ومضت التكشيرة الى غير رجعة، وانبسطت ملامحه، وبدأت الدقات المتباعدة تتقارب وتتآلف، ولكنها اتخذت طابعا غريبا. . فلم يكن لها ضجة الهدير المتتالي الذي يشبه صراخ الأوزة المذعورة. تآلفت الدقات وصنعت نغمة أخرى. . نغمة خافتة راقصة حزينة. ظل الرجل يدق بيديه دون وعي، وتخرج النغمة دون وعي أيضا، وتخرج هامسة تتستر بالظلام ولا أحد يسمعها، حتى فطن الرجل إلى ما تحدثه أصابعه فأنصت برهة وابتسم، ورفع حاجبيه وكأنما أعجبته النغمة وجاءته على الوجع فأوغل فيها، ومضى يضبطها ويحسنها وهو الخبير بدق الصاجات حتى استحالت الى همسات فيها بحة تخلع القلب وترهف الأنفاس. وأطربته النغمة الى الدرجة التي راح يهز رأسه هزات خفيفة وقورة على وقعها، ثم ما لبثت الاهتزاز أن وصل الى شعيرات ذقنه فأخذت تتأود وتتراقص.

وقف طويلا يرمق الناس والدنيا بلا مبالاة تامة، ويده اليمنى تهمس بالنحاس الى النحاس، والطرب قد وصل الى الابريق وبوزه فأخذ يرتعش هو الآخر ويتمايل، ولا أحد يسمع سواه، وهو منتش

لأن أحـدا لا يسمع سـواه ولا أحد يلتفت اليـه، والنغم يخرج حنـونـا دامعا حلوا في سكون المساء.

ظل واقفاً إلى أن أحاله الظلام المتكاثر إلى شبح من الأشباح.

ثم بدأ الرجل يتحرك مروحا في اتجاه شبرا البلد.

تحرك بطيئا يائسا مثنيا الى الـوراء، ويداه خلفـه. والصاجـات تـدق وهو يتحـرك على وقع نغمتهـا الهامسـة، كل خـطوة بهمسـة.. همسة موجوعة ثكلى، وكـل خطوة بـدقة.. دقـة ناعمـة فيها شجن. ويـذوب شبحه في الليـل حتى يختفي تمامـا، ولا تعـود الأذن تسمـع سوى همس النحاس الى النحاس وهو ينخفض ويشف وينخفض.

والدنيا كبيرة كبيرة، والظلام كثير كثير.

ليلة صيف

العشـاء ولى، والتبن بارد وكـومته عـالية، والـدنيا ليـل. . ليـل مفضض، فهناك قمر عليه سحابـات كمناديـل الحبايب البيض تعـافيه بالعافية، وتمضي وبلدتنا راقدة، قريبة منا، كقنفـذ له أشـواك وأحزان وأشجار. وكنا نحن جالسين نتحدث ـ لا نفعـل كالكبـار ونخوض في متاعب النهار ـ كنـا نتحدث عن أنفسنـا. . كنا قـد بدأنـا نحس بشيء جارف عارم يتدفق في أجسامنا ويغيرها، ونحس بالتغييـر يحدث كـل يوم وكان ذلك يسعدنا ويدهشنا، ونردد ونحن فرحانين: احنا بلغنا. .

كنا لا نخوض في حديث المتاعب مع كثرة متاعبنا في النهـار، كنا نشقى كالرجال تمـاما، بـل في العادة أكثـر من الرجـال، فالكبـار دائمـا كسالى يعشقـون الظل ويتـركون لنـا الشمس، يرجـوننا أحيـانـا وأحيـانا أخـرى يأمـرون، ونحن في كلتا الحـالتين سعداء، فـالعمـل رجولة ونحنِ ظامئون الى الرجولة، وأن نكلف به معناه أننا قد أصبحنا كبـارا يعتمد علينـا وأننا شبـاب، وأن لنا غـدا لا بد قـريبا نتـزوج فيه ونخش ويكـون لنا زفـة وليلة حنة. كنـا نعمل طـوال اليـوم كـالنحـل النشيط، ونـأكل كثيـرا. . نأكـل كـل مـا نعثـر عليـه في الغيط أو في

البيت، وأمهاتنا سعيدات يدركن بغريزتهن أننا نكبر وأننا في الطريق الى النضج، فيدسسن لنا قطع الجبن والبيض واللحم من وراء آبائنا واخوتنا وكأننا بط يزغطنه أو أوز. وكانت أجسامنا تستجيب وتشتعل وتنفض عنها صفرة طفولة طالت، وشحوب السنين العجاف وما فيها من قصر، وتنمو.. تنمو بسرعة وكأنما تعوض في أيام كل ما فاتها من سنين. وكانت وجوهنا هي الأخرى تتغير، وتستدير، وتأخذ لون الأرض الخصبة ذات الطمي، وتمتلىء سيقاننا، وتبرز حناجرنا، وتغلظ منا الأصوات.

كنا جالسين فوق كومة التبن نغمغم ونحكي ونتحدث، والليل يقشعر بأصواتنا وبما فيها من رجولة وافدة جديدة، وأجسامنا تنتفض بقوى لا تجعلنا نستقر، ولا تجعلنا نحلم كما يفعل الصغار، أو نكبتها في حكمة كما يكبت الكبار.

كنا نجلس، وفي الحقيقة لم نكن نجلس، كنا ندفن أنفسنا في كومة التبن وكأنما نود أن تلمسنا الدنيا ونلمسها، ويضغط التبن علينا فنستعذب ضغطاته..

وكنا نتحدث.. كنا نفرغ تلك الحمى المتأججة في كلامنا، وكنا نختار مجلسنا بعيدا عن البلدة وبعيدا عن الناس، وكأننا نحس بما يدور في خلدنا ونعتبره شيئاً قبيحاً لا يصح، فنختار للخوض فيه مكاناً بعيداً..

ولم يكن حديثنا مرتبا ولا منمقا.. كان يبدأ دون أن نعرف،

ونستمر فيه ساعات ونحن لا ندري عن أي شيء نحكي. كنا نتكلم والليل وحده يسمعنا، بل لولاه ما تكلمنا. كنا نحب أن يشهد الليل حديثنا، بل نكاد ونحن نتكلم نوجه إليه حديثنا. ونحب الليل.. نحبه وكأننا نرى في سواده وهدوئه وحنانه امرأة جميلة ذات نسمات ودم خفيف وسمرة أبنوسية تهيج كامن أعماقنا. ونكره النهار.. نكرهه وكأنه رجل خشن غليظ القلب والقول لا يرحمنا ولا يسمح لألسنتنا أن تدور.

كان الحديث يبدأ بالطول، كل منا يحاول أن يثبت للآخر أنه أطول منه. وتقوم بيننا المراهنات، ويدعي الخاسر ان في أعلى فخده ورما وألما ويريه للباقين، فيطمنه الباقون فالورم معناه طول جديد وعليه ألا يحزن. ثم ندلف الى الأحلام ونتفنن في رواية كيف حدثت، ثم نقارن بين الأصوات، ويمد كل منا يده ويتحسس حنجرته ويرى مقدار ما حدث فيها من بروز.

ثم يحوم الحديث حول النساء. وكانت نساء بلدنا كبيوتها سودا لا أرداف لهن ولا صدور أو شرفات. كن كالرجال أو هن أقرب.. كانت نساء البيوت البيضاء هن من يملأن علينا الحديث. وفي القرى بيوت سوداء كثيرة، وقليل من البيوت لها طلاء أبيض. ولا بد في كل بيت أبيض امرأة حلوة سهلة، والا لماذا خلقت دون النساء حلوة؟

وكان التبن يضج بحديثنا، ونهيج أحيانا ونقذف بعضنا بأحفنته ونثير العواصف، وينطلق منا من يعوي كالذئاب ويقول:

ـ روحوا يا ولاد!

ويخرسه الباقون لئلا يعثر علينا أحد ونحن لا نريد أن يطردنا من مجلسنا خفير أو كبير، اذ إننا نتفرق بعدها الى بيوتنا ويرقد الواحد منا فوق ظهر فرن، أو في(بحراية)، ويكظم وحدته وحيرته وضيقه بالعفاريت التي تكهرب جسده وتحرمه النوم. هنا فقط ـ ونحن جماعة ـ يخيل الينا أن العفاريت تسكن، وأننا حين نتحدث نرتاح، والحديث عذب حلو يا هوه، نريده ونطلبه وليس لنا سواه. .

وما كان لجماعتنا قيمة بغير محمد. كان أكبر منا وحائرا مثلنا، ولكنه كان أكثر منا خبرة. كان قد خرج من بلدنا وذهب الى البندر ويعمل فيه وله قصص ومغامرات. وكانت له بالنساء معرفة، وما من أحد فينا كان قد اطلع على النساء. كنا نراهن من بعيد ونخشاهن، ونتمناهن ويتملكنا خجل قاتل اذا انفرنا بهن. وكان محمد عزاءنا يقص علينا مغامراته بالتفاصيل ونرتشف ما يقوله رشفا. وكنا نحبه. . ونحب شاربه الخفيف الحديث، وكان في استطاعته أن يربي شعره فآباؤنا كانت تجتث شعورنا أولا بأول ولا حق لنا بعد نمرة تلاته. وكان لمحمد(قصة) صفراء يطليها أحيانا بالفازلين الذي يشحته من ناظر المحطة، وان لم يجد فبالزبدة، وكانت بقية رأسه قصيرة الشعر وكان يحلو له أن يلبس الطاقية الصوف ويرجعها الى الخلف فتظهر(قصته) ناعمة لامعة مسبسبة، ويحسب الرائي ان شعره كله لا بد ناعما لامعا مسبسبا. وكان بشفته العليا شق يجعل الانسان يعتقد أنه شرس ويكرهه، ولكنه لم يكن شرسا. كان يضحك كثيرا، ولا يغضب منا، ويطير وراءنا اذا ضحكنا عليه. وكان قمحيا لم تسوده

شمس الغيطان. كان يزرع، وذهب الى البندر مرة، وما أن تذوق عيشه وطعميته حتى أقسم الا يعود الى المحراث أبدا. وكان يخيل الينا ونحن جالسون معه أنه ليس من بلدنا، وأنه واحد من سكان المدينة المتنورين اللئام الناصحين الذين نرهبنم ونخشى أذاهم

وكان جريئا. . كنا نخاف الحرام جدا ولكنه طمأننا، وعلمنا كيف نملأ حجورنا بالتراب وندخل به منازلنا، ثم نرمي التراب ونملأ حجورنا بالغلة أو الأذرة أو القطن ونخرج فلا يشك فينا أحد.

وكان هو الذي يتولى بيع ما نجلبه، ويختصر من الثمن برضانا، ونشتري بالباقي حلاوة طحينية ويوسف أفندي وعصي خيزران نتقمع بها في الأسواق.

في تلك الليلة جلسنا، حفنة من أولاد بلدنا أرجلهم خشنة مشققة لا يزال يطمسها طين جاف، وملابسهم مهرأة، ووجوههم لا تكاد تعرف فيها الشعر الأصفر من الشعر الأسود من سمرة الجلد، وروائح العشاء تتصاعد من أفواههم. . بصل ومش وفلفل مخلل وسردين وكرات، والهدوء تام من حولنا، والقمح يغمرنا من كل جانب. . قمح واقف تموج به الغيطان ويتلون بحركة الريح وشعاعات القمر كما يتلون حرام من القطيفة البنية، وقمح محصود ومكوم في أكوام صغيرة متباعدة لها صفوف كصفوف مصلين راكعين في العراء يطلبون الرحمة، وقمح يدرس، وقمح مدروس ومدرى، وأكوام تبن وقصلية، ونورج واقف كجمل بارك وعليه (شبرية) عروس، ورائحة المحصول الجديد تملأ الجو وتختلط برائحة التراب بلله الندى،

ورائحة عشائنا وعرقنا الذي كان قد أصابه التحول هو الآخر وأصبحت له نكهة ذكرية خاصة.

وفي مثل تلك الليالي يحلو حديث محمد. كان صوته لا يتأرجح مثل أصواتنا، كانت رنة الرجولة فيه قد استقرت، وكانت طريقته في الرواية توقف الشعر، وبلاد كثيرة يحدثنا عنها.. بلاد قريبة رآها بعضنا وبلاد بعيدة ما رأيناها ولا نعتقد أن محمد هو الآخر رآها، بلاد لها أسماء غريبة ترن في آذاننا رنينا ولها في خواطرنا ألوان وأشكال وأفندية وسكك حديد.

كنا نبقي حديث محمد للآخر. نستهلك أولا كل ما يمكننا قوله عن بلدنا ونسائها، ونعيد ما قلناه، ويقص كل منا كيف نظرت له فلانة وكيف وقف يتبصص على علانة.

ثم نحلى بحديث محمد.

وعرفنا في تلك الليلة من بدايات حديثه أنه يود أن يحكي قصة المرأة العرباوية التي عرفها في السوق. فقاطعناه وصنعنا ضجة، كان قد بدأ يغالطنا ويحكي لنا أشياء رواها من قبل. وكنا نريد شيئا لم نسمعه اذ لم تعد تنطلي علينا مراوغاته. وكان محمد أحيانا يروغ ويحرن ونتذلل اليه ونستحلفه ونعده بالقمح والذرة والبيض، ولكنه في ليال كان يحرن تماما ولا ندري لسكوته سببا.

وقال لنا محمد وعيونه تبرق:

ـ اسمعوا يا ولاد؟

قلنا:

ـ ايه؟

قال:

ـ أقول لكم على حاجة حصلت لي بس أوعوا تجيبوا سيرة لحد.

قلنا:

ـ مش ح نجيب سيرة لحد.

قال:

ـ تحلفوا على الربعة الشريفة؟

قلنا:

ـ وحياة الربعة الشريفة.

قال:

ـ والبخاري؟

ولم نكن نعرف ما هو البخاري، كان لا ريب شيئا أعتى من المصحف.

فقلنا:

ـ وحياة البخاري.

قال:

ـ واللي يرجع في كلامه؟

قلنا:

ـ يبقى مرة.

قال:

ـ مرة وبس؟

قلنا:

ـ وابن ستين في سبعين.

قال:

ـ وحياة الشمسة الحرة؟

قلنا:

ـ وحياة الشمسة الحرة.

قال:

ـ كنت مرة رايح المنصورة في طلب.

قلنا:

ـ انت كداب.. انت عمرك رحت المنصورة؟..

قال:

ـ وحياة المصحف الشريف رحت.

وصدقنا ولم نملك أنفسنا ووحوحنا. الحكاية ستحدث في المنصورة؟ والمنصورة كانت لا تبعد عن بلدنا كثيرا. كان القليل منا هو الذي رآها وهو صغير، وكلنا سمعنا عنها، وكلها أسماع محمومة براقة تغشي وتذهل.

وكانت في نظرنا لا بد شيئا كبيرا كالجنة، وفيها خواجات لا يحصى لهم عدد، وبنات كاللبن الحليب، ونساء أفرنج لهن ملايات لف حريرية تلمع وتلعلط، وقصب براقعهن لا بد صغير دقيق مثل عقلة الاصبع. وأنوفهن لا بد كحبة الفول، وأجسامهن لا بد مصنوعة من لحم طري وليس فيها عظام، وانما هي كالملبن تجذبه فينجذب معك وتلحسه فيسيل لعابك من حلاوته، والرجال هناك طريين لا يشبعون نساءهم، والنساء يمضغن اللبان فيطرقع في أفواههن الحلوة الضيقة، ويطلبن الرجال.. رجال مثلنا فلاحين خناشير كفحول الجاموس.

وقلنا لمحمد مبهورين:

ـ وبعدين؟

ومضى محمد يحكي.. قال انه نزل من القطار وقضى طلبه، وبقيت لديه ساعات على موعد القطار التالي فاشترى رغيفا خاصا وأكله ومضى يتفسح في شارع المحطة. وكان الشارع ممتلئا ببيوت كبيرة لها بلكونات، وكانت الدنيا في العصر الضيق وكانت البلكونات

ممتلئة بالستات، ستات لو وزعن على رجال بلدنا لناب كل واحد طورة وفردة خربة. ومر ببلكونة كانت واحدة واقفة فيها ترتدي(روبا) أحمر.

واستخرجنا أنفسنا من التبن وسألناه ما هو الروب الأحمر؟ فقال انه شيء كالعباءة. وتشككنا في صحة كلامه فقد كنا نسمع له كالقضاة نتأرجح بين التصديق والتكذيب. كنا نخاف دائما أن يكون ما يقوله مجرد حكاية يخترعها ليضحك بها علينا، ولهذا كان الشك يغلبنا ونرجح في الغالب كفة الاتهام.

ومضى محمد يروي ويقول انه مر من تحت البلكونة فابتسمت له المرأة.

وتلاصقنا حوله وارتجفنا.

وظن انها تبتسم لواحد غيره، ولكن الشارع كان خاليا من الرجال وليس هناك أحد غيره. ونظر اليها فعادت تبتسم.

وأمسكنا بجلبابه وتشبثنا نستأنيه ولم نعد نصدق أو نكذب، كنا نود أن نسمع، وقلنا له:

ـ حاسب. أوعى تسيب حاجة.

فقال:

ـ مش ح أسيب حاجة. هي ابتسمت تاني يا ولاد وأنا قلبي دق وجنوني طارت، وقلت في سري دي فرصة جتلك من السما يا واد.

عملت اني مش واخد بالي وبصيت لها تاني فضحكت، فقلت في سري ما ينفعش الا واحد زبيب.

وسألناه:

ـ اشمعنى الزبيب يعني؟

قال:

ـ يعني كونياك يا ولاد.

قلنا:

ـ وايه الكونياك؟

قال:

ـ خمرة.

وخفنا. محمد يشرب الخمرة؟.. النسوان معلهشي.. انما الخمرة.. أعوذ بالله! المقصود. تغتفر لمحمد.

ـ وبعدين يا محمد؟

ـ مشيت، لقيت واحد خواجه فاتح. قلت يا خواجة، قال نعم. قلت اديني زبيب زحلاوي والمزه خيار.

قلنا:

ـ ايه المزه دي يا محمد؟

قال:

ـ خيار.

وخفنا أن نعيد السؤال. . كنا نستعجل ما بعد ذلك وما هو أهم.

ـ شربت الزبيب يا ولاد دمي غلي وطلعت الخمره على قلبي بقى زي الحديد. قول اجل الاطمئنان رقعت واحد تاني ورجعت على شارع المحطه.

وسألناه:

ـ وفت تاني؟

قال:

ـ فت.

قلنا:

ـ ضحكت لك؟

قال:

ـ ضحكت ضحكة ترد الروح يا ولاد. مره حلوه زي الكمتري ولابسه. . كانت لابسه ايه يا محمد؟ لابسه قبقاب مشغول وجسمها باين كله من الروب وبتضحك. بصيت لها وضحكت. ضحكت تاني.

قلنا:

ـ اشمعنى ضحكت لك تاني يا محمد؟

قال:

ـ يا ولاد كنت لابس الحته الزفره وكان عندي طاقية وبر جمل وجزمه لميع وكوفية حرير على كتفي، وشباب في عز نعنعة شبابه. غمزت لها بعيني فراحت داخله جوه، وطلعت لابسه روب تاني.. روب سواكبيس أخضر.. رحت وجيت من قدام البيت فشاورت لي وقالت بإيدها اطلع. اطلع يا ولاد؟

فقلنا بعزم ما فينا:

ـ اطلع يا محمد..

فقال:

ـ طلعت والواحد متاخد. اني غريب وده بيت وداخل على حرمة. افرض حد مسكني والا حاجه أقول ايه؟ افرض لها أهل. المقصود لولا الاتنين الزبيب يا رجاله لما كانوا يقطعوا رقبتي ما كنت أعتب بيتها أبدا.

وسألنا:

ـ ودخلت؟..

فقال:

ـ صبركم عليّ شويه. ضربت الجرس يا ولاد؟

قلنا:

ـ ضربته ازاي؟

قال:

ـ الجرس كان له زر.

قلنا:

ـ والأجراس بأزرار؟

قال:

ـ أيوه يا فلاحين اتمدنوا الأجراس بأزرار. فتحت لي الباب وقالت اتفضل. وطلع صوتها يا ولاد زي السكر المعقود زي حب النعناع.

وقلنا:

ـ ودخلت.. ادخل.

قال:

ـ الله! ما تحكوا انتم أحسن. ح تسكتوا واللا لا..

قلنا:

ـ ح نسكت.

قال:

ـ وقفت على الباب خايف. سندت على الباب وقالت لي ما تخافش جوزي مسافر. قلت يا واد هي موتة والا اتنين. قلت لروحي تدخل يا وله.

قلنا له:

ـ ادخل يا محمد يخرب بيتك.

قال:

ـ دخلت وقعدت في أوضة الجلوس. كراسي مدهبه يا ولاد. ومرايات بنور الحيطان ولعاليب وشخاليل في كل ركن من الأركان. وبعد شويه بصيت لقيتها داخله عليّ بفستان كحلي بياكل من جسمها أكل. وكانت جايبه معاها ازازه وكاسين. قالت لي: اسمك ايه يا شاطر؟ قلت لها: خدامك محمد. قالت: دانت سيدي.. تسلم لشبابك. تحب تقعد على الكرسي يا سي محمد ولا تخليها على البساط أحمدي.

قلنا:

ـ أقعد على الكرسي يا عبيط.

قال:

ـ لا، قلت انا مش واخد على قعدة الكراسي يمكن أدوخ. وقلت لها: اسم الكريمة ايه؟ قالت لي: فيفي. قلت لها: وانت فيفي صحيح. قالت لي: انت بتشرب يا سي محمد؟ قلت: اشرب تاني يا ولاد؟

قلنا:

ـ اشرب يا أخي.

قال:

ـ وقعدنا نشرب يا ولاد. واحد في التاني في التالت أنا اتخدرت والأوضة لفت بي. قالت لي: انت اتاخدت؟ قلت أبدا. قالت أجبلك حاجه تفوقك؟ فانكسفت أقول هاتي.

قلنا:

ـ يا خايب تنكسف ليه؟ وجابت لك؟

قال:

ـ جابت لي؟ دانا بصيت لقيتها داخله عليّ بصينية أكل.

قلنا:

ـ فيها ايه؟

قال:

ـ ديك رومي يا ولاد محشي من جوه حمام، وبطاطس ولحمه ضاني.

قلنا:

ـ يخرب بيتك يا محمد. وأكلت؟

قال:

ـ أنا بقيت داري عن روحي. أهو فضلت تطعمني..

قلنا:

ـ مش عيب؟

قال:

ـ عيب ايه يا ولاد؟ مـا عيب الا العيب. أني كنت بقيت ألسطه قوي وعلى الآخر. فمديت ايدي عليها.

قلنا:

ـ من غير ما تغسل؟

قال:

ـ يا باي ا غسلت. انتوح تطهقوني.

ورجوناه الا يطهق وما كان في حاجة الى رجاء، كـان يبدو هـو الآخر منسجما لا يستطيع أن يوقفه شيء. ومضى يقـول مديت ايـدي عليها يا ولاد تقولوش عجميه.

قلنا:

ـ وشها كان أبيض؟

قال:

ـ أبيض من القطن المندوف.

قلنا:

ـ وشعرها كان ازاي يا وله، كان أسود؟

قال:

ـ ومحصل لغاية ركبتها .

قلنا :

ـ قول والنبي قول بس أوعى تفوت حاجه .

قال :

ـ كان جسمها ناعم نعومية يا ولاد، أنعم من بذر الخروع . قلت لها أنا في عرضك . . أنا خلاص. قالت طيب تعالى . وخدتني على السرير ونزلت الناموسية . . ناموسية بمبى والنبي . ومدت ايدها طفت النور.

قلنا :

ـ حاسب على مهلك قوي .

قال :

ـ وبعدين لقيت الناموسية بتبرق يا ولاد. أنا قلت القيامه قامت : أتريها ولعت نور تاني في الناموسيه، واتبن كان في سقفها لمض صغيره حمرا وخضرا وزرقا وصفرا. وبصيت لقيتها قدامي يا ولاد حاجه تهبل . . حته منها لون والتانيه لون كأنها جنيه .

قلنا :

ـ وبعدين؟

قال :

ـ وبس يا ولاد، وشفت معاها ليله ولا ألف ليله . .

فعدنا نقول:

ـ أبدا ما ينفعشي . وبعدين في عرضك؟ وبعدين؟

قال:

ـ ولا قبلين .

قلنا:

ـ يا أخي ما تقول، يا أخي ارحم، وحياة رحمة أبوك وبعدين؟

وجاد علينا بالقليل ولم يشف غليلنا أبدا. وتركنا ولعة كالنار الموقدة. وبدلا من أن يهدئنا حديثه زادنا اشتعالا . وقال واحد منا:

ـ سيبوكو منه يا ولاد. ده مش كله فتش .

وقال آخر:

ـ طيب تحلف إن ده حصل

وأقسم محمد وازددنا ثورة ولم نصدق.

وأقسم بتربة أمه. وقلنا:

ـ كداب انت بتضحك علينا.

فقال:

ـ أبدا والله هذا ما حصل .

قلنا:

ـ كذاب .

قال :

ـ يا ولاد أنا عمري ما كدبت عليكم .

قلنا :

ـ انت كداب .

قال :

ـ انتم أحرار.

فقلنا

ـ يعني لو رحنا المنصورة تودينا البيت؟

قال :

ـ أوديكم .

ـ تودينا؟

ـ أوديكم .

وانتفض واحد وقال :

ـ ما تيجي نروح المنصورة يا ولاد .

وهللنا . . قال كل واحد كلمة . وصدرت عنا أصوات وتعانق أكثرنا. كانت عقولنا كالقاعة الضخمة الفارغة أقل الأصوات يحدث فيها أعظم الرنين. وهجنا هياجا شديدا حتى اتنين منا أمسكا

بمحمد، واحد من رأسه والآخر من ساقيه وظلا يؤرجحانه بينهما حتى ألقياه على التبن. وصرخ واحد وقال:

ـ يا رازق الفرخة وديكها.

ثم اندفع الى النورج يجره ويدور به فوق(رمية) القمح المعدة للدراس. والنورج ثقيل جداً لا تكاد تستطيع البهيمة سحبه.

وقال واحد:

ـ ولاد. . ولاد. . اسمعوا يا ولاد. ولاد اسمعوا يا ولاد.

وظل يصرخ حتى سمعنا. فقال:

ـ تيجوا نروح المنصورة؟

وعاد الهياج بحماس أكثر، وتعالت سحب التبن فملأ عيوننا وأجسامنا وعفرنا ترابه.

وكنا قد غادرنا الكومة وأصبحنا في وسط الجرن، وكل منا مشغول بشيء أو مشتبك مع الثاني في مصارعة، والشاطر من يوقع الآخر.

وقال محمد:

ـ تيجوا نلعب يا ولاد ضربونا لما عمونا.

وهجنا من جديد ووجدنا أنفسنا نزعق ونقول:

ـ عايزين نروح المنصورة.

ووجدنا لها نغمة فعدنا نغنيها. . عايزين نروح المنصورة.

وتصاعد صوت يقول:

ـ الدنيا ليل يا ولاد.

ورددنا عليه جميعا:

ـ عايزين نروح المنصوره.

وهرش واحد وقال:

ـ حدانا عزيق بكره. . .

فقلنا:

ـ يا محني ديل العصفوره، عايزين نروح المنصورة.

* * *

وأفقنا لأنفسنا فوجدنا أننا قد قطعنا شوطا كبيرا. كنا قد غادرنا بلدنا وحدودها وغيطانها وأصبحنا نمشي في طريق زراعي يقطع زمامات بلدة أخرى. ولحظتها فقط بدأنا نعي أننا مقدمون على شيء، وأننا ذاهبون فعلا الى المنصورة. وكان سبب يقظتنا أننا شممنا رائحة الأرض الغريبة. في بلدنا كنا نحس بالألفة لكل شيء ونتصرف بحرية ولا نخاف. كل نخلة كنا نعرفها ولا بد طلعناها وأكلنا منها بلحا وجمعنا من تحتها رطبا. كل غيط طرقناه ورأيناه في طفولتنا وصبانا. كل بيت نعرفه ونعرف أهله كما نعرف أهلنا. والشجرة أي شجرة نعرف فروعها بالفرع الواحد. وكل منا يستطيع وهو مغمض

العينين أن يفــرق بين تــراب بلدنــا وأي تــراب آخــر. ولم نفق الا لإحساسنا أننا قد غادرنا أرضنا وأصبحنا في بلاد الناس.

وانتـابنا خـوف حقيقي حين أيقن كل منـا أن الدنيـا ظلام وأنـه يسلك طريقا لا يعرف له نهاية، وانه لم يعد في بلده ولا يستـطيع أي منا أن يصرح بما يدور في خاطره، كانت جماعتنا تتحرك وكـانت لها رهبـة وكـأنهـا أصبحت عمـلاقـا كبيـرا لـه عشـرات الأذرع والأيـدي والرءوس، حتى بدا ما يفكر كل منا فيه صغيرا تافها يخيفه هو وحده. وأصبح هم كل منا حينئذ أن يلتصق بالآخرين أكثر حتى يذوب خـوفه ويختفي في جسد ذلك العمـلاق الكبير. وبعـد أن كنا متنـاثرين على الطريق تقاربنا وتشابهت خطانا، بل وتشابكت أيـدينا، وتـولانا وجـوم وسكوت ونحن نستغرب من سيرنا المندفع الـذي لا يتحكم فيه عقـل ولا يتوقـف. كان في صدورنا هدير لا يرحم والمنصورة تجذبنا، كلمة ولكنها أصبحت تعني بالنسبة الينا شيئـا كالحيـاة أو أغلى من الحياة، تيار عارم كان ينبع من صدورنا ويقودنا ويدفعنا رغما عنا.

ولم يعد يسمع سوى وقع خـطواتنا على الـطريق، وقع هـامس خافت كأننا قافلة جمال. فقد كنا حفاة ومن كان يرتدي في قدمه شيئا خلعه ووضعه تحت ابـطه، وكنا نلهث، ووجـوهنا تلمـع، وغبار قليل يثـور، والليل من حـولنا كبيـر أكبر من أي شيء في الـدنيـا، وأسـود ومخيف ومليء بـالهمهمات والأسـرار، والـزرع كثيـر محيط كـالبحـر المالح الذي ليس له بر، والنبات واقف ميت تحركه النسمات فيتحرك معهـا حركـة ميتة بـطيئة، وأصـوات سواقي تـأتي من بعيد كـأصـوات

النائحات النادبات في الجنائز حزينة على الزرع الميت، وطلقات بنادق متباعدة لا يعرف من ضاربها وأين يضربها والى من تصوب، وديكة تصيح قبل الأوان، ونباح كلاب يأتي من بلاد مجهولة، وهواء واسع يحف بأرض واسعة فتهمهم الأرض وتقشعر الرياح، وهمسات الظلام تنبثق في أماكن غير مرئية.. همسات خفية لئيمة لا تنقطع كأنها تصدر عن حيتان هائلة لا ترى تسبح في بحر الظلام وتتقلب.

ومد واحد يده وزغزغ الذي في جانبه، وانزعج الآخر انزعاجا عظيما وقفز في الهواء وصرخ، وضحكنا.. لم نضحك ضحكا عاديا متنا من الضحك. ورحنا نزغزغ بعضنا ونموت وتتقطع أنفاسنا من الشهقات.

وقال واحد لمحمد وهو يلكزه:

ـ ورجليها يا محمد.. زي رجلينا كده؟

فقال محمد:

ـ هي رجليكو دي رجلين.. دي قحوفة نخل.

وعاد السائل يسأل:

ـ أمال رجليها ازاي؟

فقال محمد:

ـ زي الجمار.

ـ زي رجلين صفيه الغازيه يا وله؟

ـ صفية مين يا حمار؟ دي ولا تيجي في ضافر رجلها الصغير.

ـ وبطنها يا محمد. . داقه عليها سمكه؟

ـ سمكة ايه يا جدع؟ . . ايه شغل الفلح ده؟ . .

ـ أمال داقه ايه؟

ـ ولا حاجه. . هي دي بطن يندق عليها. . دي زي العجين يا وله.

ـ وكانت حاطة أحمر وأبيض يا محمد.

ـ والله ما خدتش بالي.

ـ ما خدتش بالك ازاي. ودي حاجة تتنسي؟

ـ كانت حاطة.

ـ وبتتكلم بندراوي ولا فلاحي يا محمد؟

ـ بندراوي مكشكش يا وله.

وهصنا، وطرنا وراء بعضنا، واختفينا من بعض في الأذرة الصيفي وقد أصبحت المرأة شديدة الوضوح في ذهن كل منا، حلوة، تماما كما يريدها الواحد منا، ملموسة، وكأنها أمامه وكأنه قضى معها ليالي كثيرة.

ومضينا ونحن نتدافع ونتجاذب ونسرع، وضحكنا، وتحدثنا، وقهقهنا ونحن نستمع الى تخميناتنا عن المسافة الباقية على المنصورة

واحـد يقول ألف ألف متر وآخر يقـول أربـع محـطات. وتشعبت بنـا التخمينات.

وتنبهنا فجأة فلم نجد محمد بيننا.

وكـأنمـا انـدكت سكين في قلب كـل منـا. ودون أن نتعقـل أو نتشاور انطلقنا نجري في كل اتجاه لنمسك به. كـان قد زال عنـا كل شك في صدقه وتأصل ما قاله في مخيلة كل منا وحفرت تفاصيله في عقـولنا حفـرا، وأصبحت المرأة ذات الـروب الأحمـر والازازة ليست مجرد امرأة أخرى من اللاتي تعـود محمد أن يحكي عنهن، أصبحت امرأة كل منـا، يكفي أن يصل الى المنصـورة ويريـه محمد بيتها ذي البلكونة الحديدية، ونطلع واحدا وراء الآخر حتى تمـوت من السعادة وتسر، ويمكن تعطي كل منا جنيهـا، فالـواحد منـا ولد، ولـد عترة لا يعادله أولاد المنصورة كلها وشربين، واذا بالخنزير يساهينا ويهرب.

كنـا ونحن نجري نصـدر الأوامـر لبعضنـا.. روح انت نـاحيـة التـابوت، دور تـاني بر السكـة الحديـد، اطلع انت على الكوبـري. وبهذا تفرقنا في شبكة واسعة لا يستطيع كائن من كان أن يهرب منها. وكـان الواحـد منا لا يملك منـع نفسه من التفكيـر: ماذا لـو لم نجـد محمـد؟ هل نعـود الى بلدنا بـأيدي وراء ـ وأيـدي من أمام؟ وكـانت إجـابتنا جميعـا: ان لا.. لا.. لن نعـود. يكفي أن نصـل فقط الى المنصـورة اذ لا بد ان نعثـر هنـاك على بغيتنـا، لا بـد أننـا واجـدون عشرات من نساء افرنج بملايات لف، نساء كاللبن يؤكلن أكلا. نساء

حلوين يـا وله، أحلى من العسـل النحل والقشـطة. وسمعنا صـرخـة تأتي من بعيد:

ـ أهه يا ولاد.. محمد أهه يا ولاد.. لقيته.

وكالريح المندفعة العاتية اتجهنا الى الصرخة، ووجـدنا محمـد قـد دفع صـاحب الصوت دفعـة وجرى، وجـرينا وراءه وتبلور كـل ما نطلبه من الله في الامسـاك به، ولم يكن عسيـرا أن نقبض عليه. ولم يسكت.. مضى يتفلفص ويضربنا وكانت ضرباته غريبة جـامدة قـوية كضربات الرجال، وتفادينا الضربات وتحملنـا الى ان كتفناه وأحـطناه كما تحيط جماعة نمل صغيرة بكسرة خبز، وحاول المقـاومة وفشـل، وحاول وفشل، وأحس أننا أقوى منـه فاستسلم. وخلع واحـد جلبابـه وربطنا به ذراعيه. وقال بلهجة وقحة جافة:

ـ انتم عايزين ايه دلوقت؟

قلنا:

ـ عايزين تورينا بيت المره.

فقال:

ـ مش موريكم.

قلنا:

ـ غصب عنك ح تورينا.

قال:

ـ بالعافية؟

قلنا :

ـ بالعافيه

قال :

ـ ح اوريكم يا نسوان .

قلنا :

ـ ابقى ورينا .

قال :

ـ بالعافيه يعني .

قلنا :

ـ بالعافيه . . ياللا .

وعترس في الأرض فجررناه بالقوة، ومشى معنا والغيظ يخنقه . ثم تمتم وقال :

ـ المنصوره بعيدة يا ولاد وح نتوه .

قلنا :

ـ ملكشي دعوة .

قال :

ـ ذنبكم على جنبكم.

قلنا:

ـ على جنبنا.

ومشينا صامتين وقد تكهرب الجو. ولكن الصمت لم يدم طويلا. تكلمنا وقلنا نغني. ولم نكن نحفظ أية أغنيات، البنات وحدهن هن من يحفظن الأغاني ولهن في هذا باع ومقدرة، كنا لا نحفظ الا مطلع موال: أقوم من النوم أقول يا رب عدلها. غناه واحد فخرج صوته قبيحا فأسكتناه، ومضى كل منا يغنيه كما يحلو له.

وهللنا مرة هللولة كبيرة، وتضارينا وتعانقا وعفرنا بعضنا بعضا بالتراب، وخلع واحد جلبابه ورماه، ثم عاد وارتداه، وتبادلنا حدف الطوب فقد بدت في الأفق أضواء صغيرة منتشرة كعيون الجراد حين تلمع في النور.

كانت اضواء المنصورة.

كانت المسافة بيننا وبين الأضواء تبدو قصيرة جدا، مشوار صغير ونصبح في قلب المنصورة. ولكنا ظللنا نجري ونرغم محمد على الجري حتى لهثنا.. وبدأنا نمشي، ومشينا حتى لم يعد في استطاعتنا المشي، ومع هذا لم تقترب الأضواء الا مسافة قليلة وكأننا كلما اقتربنا غارت في الظلام وابتعدت.

وقال محمد:

ـ يا ولاد نرجع .

فانفجر فيه :

ـ اخرس .

وقلنا :

ـ مدوا يا جماعة الوقت اتأخر .

واستجمعنا كل ما تبقى لنا من عافية وواصلنا المسير .

وفجأة لعلعت في الظلام قهقهة عالية ، والتفتنا فوجدنا محمد هو الذي يضحك . ولما رآنا قد استدرنا اليه مضى يفتعل الضحك افتعالا وينثني ويقوم ويضحك وهو يقول الجملة التي نقولها في بلدنا كثيراً حين يفلح واحد في خداع الآخرين وسبك الكذب عليهم ، ويتطوع آخر الأمر بكشف نفسه :

ـ هيه . . ضحكت عليكم . . هيه . . يا هبل ضحكت عليكم .

فسألناه :

ـ ضحكت علينا ازاي؟

قال :

ـ وأنتوا صدقتوا؟

قلنا :

ـ ايه . .

قال :

ـ داني كنت بضحك عليكم.

ـ تضحك علينا ازاي؟

ـ علشان أنتو هبل.

ـ يعني مش شفت المرة في المنصورة

ـ ولا عمري رحت المنصورة.

ـ أنت كداب.

ـ والنبي يا ولاد عمري ما شفت المنصورة بعيني.

ـ أنت ابن(. . . .).

ـ أنتو اللي عبطا.

وهلّ علينا صمت ثقيل، رحنا في أثنائه نتلفت الى أضواء المنصورة وقد أصبحت قريبة نكاد نمد أيدينا فنقطفها، والحق اننا ما كنا نرى فيها أضواء ومدينة. . كانت المنصورة كلها قد استحالت في نظرنا الى امرأة مثل العجمية، تطل من بلكونة، ولها روب ولها ابتسامة، وتدعونا. ومضينا نتلفت الى الأضواء ونعود الى محمد لنجده واقفا مائعا يصطنع الضحك ويسخر منا.

وقال واحد:

ـ دا بيضحك علينا يا ولاد. . هو مش عايز يورينا المره. . دا بيضحك علينا يا ولاد. . هو مش عايزنا نروح.

وتنبهنا. صحيح أنه يضحك علينا. وشخط محمد وقال:

ـ بضحك عليكو ايه يا حلاليف؟

فصرخنا فيه نلعنه ونقسم أننا لن نتركـه حتى يرينـا بيت المرأة. فعـاد يقهقه ويتهمنـا بالعبط وانـا مهابيـل. وعدنـا نقسم أننـا لن ندعه يخدعنا ويحتفظ لنفسه بالمرأة من دوننا. وأمرناه أن يـواصل المسيـر. ورفض أن يسير. فجررنـاه. فرفـع ساقـه ورفص واحداً منـا في بطنـه وهـاج فينا. وانفجـرنا وجمعنـا كل مـا فينا من غيظ وانقضضنـا عليه وأوقعنـاه وانـدفعنـا نكيـل لـه الصفعـات واللكمـات، وراح يضـرب بالروسية وينطحنا ويدفعنا بسيقانه، وتكاثرنا عليه حتى ربطنا ساقيه معاً بقميص، وجرى واحد إلى الخليج وأحضر مـلء يديـه طيناً وطلى بـه وجه محمد وملأ فمه وبصق عليـه. وحاول محمـد أن يصرخ فكتمنـا أنفـاسه وسكت، وخفنـا أن يموت، فـرخرخنـا أيدينـا وتنفس، وقـال واحد:

ـ نجره الى الغيط ونكويه بالنار.

فقلنا كلنا:

ـ نكويه.

وجررناه الى الغيط وبحثنا عن كبريت ولم نجد. فقلنا:

ـ نصنع شرارة بزناد من الزلط.

وبحثنا عن الزلط وعثرنا عليه فوق السكة الحديد وقلنا:

ـ يلزمنا مسمار أو حديدة.

وهمنـا نبحث عن حديـده ولم نجد الا صفيحـة. وبـرك واحـد

على صدره وأجرى الصفيحة على ساقه وقال:

ـ ح تقول على بيت المره فين والا نموتك؟

ولم يعترف فأخذنا ننشب أظافرنا في جسده ونقرضه ونعضه ونطلب منه أن يدلنا على البيت

وأدركنا آخر الأمر ان لا فائدة، وأنه كذاب.

فجننا أكثر. وانهلنا عليه ضربا من جديد، وحز ماسك الصفيحة في ساقه وقال له:

ـ طب قول أنا مره.

ولعن محمد آباءنا جميعا ورفسنا.

وقال واحد:

ـ لا ينفع الا الكي.

ورحنا نتبادل الزناد والزلط ونحاول أن نحدث الشرر، وفي كل منا جزء صغير معجب بمحمد لأنه لم يقل انه امرأة وجزء كبير حانق على اللئيم الذي خدعنا.

وحدثت الشرارة واحمرت قطعة القطن وهللنا، ونفخنا فيها واشتعلت النار وملأتنا دهشة فقد كان لونها شاحبا جدا. ونفخنا فيها وشحب لونها أكثر وأكثر. وعدنا ننفخ بلا فائدة.

وتبينا ان النار ليست وحدها الشاحبة كان كل شيء يشحب

ويصفر، ثم بدأت النار والأشياء من حولنا تبيض، ثم صفر شيء في آذاننا كالاستغاثة وأدركنا مروعين أن حادثا جللا قد وقع ـ ومضى كل منا ينظر في وجوه الآخرين ويستعجب ويفيق. كانت وجوهنا معفرة كلها خدوش، وأجسادنا يكسوها التراب، وذباب، ذباب كثير لزج لا يهدأ ولا يكف عن الطنين.

ومن أين جاءنا ذلك الألم؟ وماذا يقول أهلنا؟ سيضربوننا بالتأكيد ويشنقوننا، وآه من شتائمهم. كلها ألفاظ حامية تجرحنا وتصيب رجولتنا الصغيرة الحساسة في الصميم. كان على بعضنا أن يقوم في الفجر وكان لا بد من تعليق توابيت وتتريب زرائب. وكنا لم ننم. . لم ننم أبدا وعيوننا حمر، هل مرضت؟ وهـه طلعت الشمس أيضا في بلدنا؟ وأشكالنا مالها فيها ذهول واجرام وتوبة؟ مالها فيها(قشف) و(قوب)، وحفر غائرة وحب شباب ونقاط سود؟ لماذا نحس الآن فقط أننا غلابة فقراء، وان بيوتنا ليس فيها سوى صيحات كلاب وجعير آباء وأمهات ودخان المواقد الخانق؟

وروعنا، ونسينا كل شيء ومضينا نتحسس أجسامنا وملابسنا ونرى مدى ما أصابها من تمزيق، ونرى أنفسنا في وضوح بشع شديد نخاف معه أن نرى أنفسنا.

وكان محمد راقدا جلبابه ممزق وجسده ممدد كالخرقة البالية والذباب يعف عليه بكثرة، والجروح تشوه جلده ودماء متجمدة فوق أنفه وعلى جانب فمه وتملأ الشق الذي في شفته، نائما مستسلما

كالذبيحة الفاطسة، كالمرأة بعد ليلة حافلة.

وفككنا عنه الأربطة بلا حماس، وتألم وأحسسنا بألمه يحز في قلوبنا ويجرحها.

ووجدنا أنفسنا بعد حين هائمين على وجوهنا ـ عائدين إلى بلدنا من نفس الطريق ـ تدفعنا قوة قاهرة، عائدين نعرج ونتساند ونئن ونفكر في النهار. النهار الذي داهمنا بغتة وخلق أمامنا الأرض وحملنا بهموم الدنيا. النهار الحار الجاف الخشن الذي كنا نراه رؤى العين منتصباً أمامنا كرجل عملاق قامته أعلى من قامة الشمس، ولا رحمة في قلبه ولا خرقة فوق جسده وفي يده هراوة ضخمة، منتصباً هكذا ينتظرنا ويتوعدنا وتقدح عيناه بالشرر، ونحن متجهون إليه خائفون خاشعون عالمون تماماً أننا لن ننفد من يده.

أليس كذلك

لن يضيرك أن تعرف اسمي. حقاً اسمي هـ. ك. تيموشلاي!

هندي أي نعم، من الهند. أرجو عفوك! أسمي متعب لكنه هندي مائة في المائة. متعب؟! تيمو يعني شيء كالجوهرة.. نعم شيء كالجوهرة. هذا الترام ذاهب إلى الأهرام؟؟! حسن، حسن جداً، نفس الطريق؟ وتجيد الانجليزية؟! حسن. حسن جداً جداً. أستطيع أن أعبر عن نفسي الآن. لا، لست ذاهباً لمشاهدة الأهرام. أنا لم أشاهدها لا هي ولا المتحف وليس لديّ وقت لمشاهدتها.

غريب هذا الكلام؟ كل الأجانب يأتون فقط من أجل رؤية الأشياء القديمة هذه؟ أتظن أن مصر القديمة هي التي أغرتني بالمجيء الى مصر؟؟ أبداً! أتعلم شيئا؟ أنا جئت لأرى مصر الموجودة.. مصر التي في الشارع وليست تلك الموضوعة خلف ألواح الزجاج.

أنا أعرف مصر، نحن في الهند نسمع عنها كثيرا، ولكنكم اليوم حديث العالم. ألا تعرف هذا؟ كل العالم ايجيبت ايجيبت. أتعلم أين أنا ذاهب الآن؟ أنا ذاهب لوداع صديق. أتدري من؟

فتاة.. فتاة كباريه! أرجوك لا تسىء فهمي. نحن أصدقاء جدا. وأنا سأرحل غدا. جئت لأقول لها وداعا. فقط لأقول لها وداعا. أتعلم أين رأيتها؟ في نفس الكباريه الذي أنا ذاهب اليه الآن. أرجو عفوك.. أنا رجل صريح، وأحب الناس أن يتحدثوا معي بصراحة، بصراحة. لقد حدث فيّ شيء ما منذ أن وضعت قدمي في بلدكم. أتعلم ما اسمها، اسم الفتاة؟ باهيا. اسم جميل؟ أليس كذلك؟ يا له من اسم! باهيا! مجرد نطقه يملأ صدرك بالراحة. عرفتها من ثلاثة أيام. أنا هنا من اسبوع. تصور سوء حظي.. فقط من اسبوع. كنت داخلا الكباريه لأتفرج. كنت أريد أن أرى كل مكان فيه ناس في مصر. وأنا غادرت بلدي لأتفرج على الناس. في الهند أنا عضو في البرلمان.. أجل عضو في البرلمان. ولكني هنا لست الا متفرجا فقط. أيدهشك أني عضو في البرلمان وأنا صغير السن هكذا؟ ولكني لست صغير السن. هل أبدو حقا في العشرين؟ كما ترى.. أنا قصير ولا لحية لي ولا شارب، ولكن أتعلم أني في السابعة والثلاثين؟ سأبلغها في أكتوبر ١٩ أكتوبر، ولي ولد ـ ابني ـ يبدو إذا مشيت بجواره أكبر مني سنا. اسمه لال.. لال تيمو شلاي. لال يعني صغير. ابني هو تيمو شلاي الصغير، وأنا شلاي الكبير. أفهمت؟ ومع ذلك فتيمو شلاي الكبير أصغر من تيمو شلاي الصغير. نهرو؟

ومن في الهند لا يحب نهرو؟ بيني وبينك بعضهم لا يحبه ولكني أحبه. أنا مثله اشتراكي.. اشتراكي على طريقتنا.

أنا مثلا علمت نفسي. ان أبي لم يعلمني، وأنا أعلم لال تيمو شلاي ابني، ومع هـذا يقول عني أحيـانا اني يميني متـطرف.. أكثر يمينيـة من أتلي، وأحتفظ بها سـرا. أحيـانـا يكـون على حق. أرجـو عفـوك. أنا أتكلم كثيـرا؟ أأنا ثـرثار؟ ولكن أتعلم شيئـا؟ أنا أحب أن أتكلم كثيـرا، وأحب أن يكلمني النـاس كثيـرا، اذ بـالكـلام نصبـح أصدقاء، وبهذه الطريقـة نجحت في مصادقـة عدد كبيـر منكم. هذه الفتاة.. ذهبت الى الكباريه وجلست على مائدة. الكباريـه قريب من الهرم. وأنت تعرف فتيات الكباريهات.

انهن مثل الكباريهات متشابهات في كل أنحاء العالم. وجـدت فتـاة قريبـة من مائـدتي. وطبعا تعـرف فتيات الكباريهات. عملهن أن يجلسن مـع الرواد مقـابل مشـروب.. مشـروب دائمـا بـاهظ الثمن. دائمـا أنت مضطر للدفـع، وثمن مشروب كهـذا كثير عليّ. فـأنا وان كنت عضوا في البرلمان الهندي وهو مركز مهما كان ذا صبغة رسميـة الا أني لست غنيا. أنا رجل فقير، ومع هذا فالناس يحبونني جدا في حيدر اباد. حيدر اباد هي ولايتي. لا بـد أن تأتي يـوما وتـلقي نـظرة على الهند وترى حيدر اباد. ولا بـد ان تتصل بي حين تـأتي. لا بد! أنا كما ترى عضو في البرلمان.. يعني أشغل مركـزا رسميا وأستـطيع أن أريك أشياء لن تراها وحدك. أنا متأكد أنـك ستحب بلدي. هناك نحن نحاول أن نبني، ولهذا فليست لدينا خلافات كثيرة. اذا اختلف الناس قل لهم ابنوا شيئاً وحينئـذ لا بد أن يتفقـوا. أتعلم شيئاً؟ يجب أن يتزاور الناس لا ليعـرفوا بـلاد غيرهم فقط، ولكن ليعـرفوا بـلادهم

هم. هنا أحس بالهند أكثر، وحين تأتي أنت ستحس بمصر أكثر، ترامكم بطيء مثل ترامنا، ولكنه سيسرع، سنسرع به أكثر؟ اليس كذلك؟ وحتى هذا الجو الحار يجعلني أحس كأني في بيتي. أتعلم ما حدث؟ أنا سعيد جدا بالقدوم الى هنا. أتعرف لماذا؟ لقد وجدت كل شيء هنا يستيقظ وينمو. . حتى نيلكم يفيق ويحاول أن يختزن ماءه المبعثر. أتعلم لماذا نحن فقراء؟ لأننا نائمون. ابني يقول هذا عن هذا يمينية ولكنها حقيقة. في بلدي حيث عملت فلاحاً لفترة طويلة كنت أحب جدا أن أرى الزرع. . الزرع الصغير الأخضر وسيقانه النامية تدفع عن نفسها التربة وتبدو فوق سطح الأرض. أحب جدا أن أرى العجل الصغير وهو لا يستطيع الوقوف على سيقانه ساعة ولادته، ثم حين يستطيع بعد هذا الوقوف والجري، ثم وهو يكبر ويكثر شحمه. وأنا أحب أن أرى الشمس وهي تشرق. . لا بد أن منظر الشمس وهي تشرق في مصر رائع. أتعلم ما هو أجمل شيء في الدنيا؟ الحياة. أتعلم ما هي الحياة؟ النمو.

أرجو عفوك! لقد استرسلت. كنت أود جدا كما أخبرتك أن أتحدث مع الفتاة، ولم يكن معي من النقود ما يكفي الا للضروريات. أحيانا تحس بحاجتك لمحادثة انسان ما. ألا تحس ذلك أحيانا؟ ولم يكن معي من النقود. . فأشرت لها وابتسمت فجاءت وهي تبتسم. أتعلم شيئا؟ انكم شعب الوف. منذ أربعة أيام كنت ماشيا في الشارع ومعي سيجارة غير مشتعلة، ولم يكن معي كبريت وأنا أدخن كثيرا كما ترى. وكلما قالت لي زوجتي هذا أدخن أكثر.

انت تعرف. . عناد. زوجتي بنت عمي، تزوجنا ونحن لم نبلغ العشرين، وكنت أيامها لا أدخن. وبالمناسبة لم تعجبني سجائركم المصريةرغم شهرتها العالمية. مسألة مزاج. أليس كذلك؟ هل تعتقد ان التدخين يسبب السرطان حقيقة؟ من ناحيتي لا أعتقد هذا. أتعلم شيئا؟ يبدو أن كلامي أكثر من اللازم حقا. كنت أقول اني كنت فجأة ماشيا في الشارع ومعي سيجارة غير مشتعلة.

وفجأة، أتعلم ما حدث؟ وجدت شخصا يتوقف أمامي ويخرج من جيبه علبة كبريت ويشعل السيجارة. تصورا دون ان أسأله! ان هذا لا يحدث في أي بلد من بلاد العالم. أتعلم شيئا؟ انكم أول شعب أراه يحب أن يعطي حتى ولو لم يأخذ. كل الناس تعطي وتأخذ. انتم دائما على استعداد للعطاء. . هذه هي قمة الانسانية. هذا هو ما كنت أبحث عنه طول عمري. ما ديني؟ أتعلم شيئا؟ في كل مكان يسألونني ما ديني. حين كنت صغيرا كنت أعبد البقرة. ولكنني الآن أعبد الصداقة. أتعلم شيئا؟ ولي صلواتي أيضا. أنا أحس وأنا أتحدث معك أن بذور صداقتنا تنبت. ذاك ما أعنيه. عبادتي أن أزرع بذور الصداقة وأنميها.

أنا أحس الآن أني أصلي! اكسب صديقا تخسر عدوا! أليس كذلك؟ تعلم شيئا؟ لقد أعجبني الرجل الذي أشعل سيجارتي وتكلمت معه. كان يعرف فقط نعم ولا بالانجليزية. (ييس) و(نو) فقط. . وكان رائعاً. رائعاً أن تراه وهو يحاول أن يرحب بي ويبثني عواطفه بجمل انجليزية مكونة فقط من نعم ولا، ولكنه ينطقها بطريقة

تجعل للكلمتين آلاف المعاني ، وتناولت معه الغداء . دعاني .

أتريد نصيحة؟ . . لا ترفض الدعوة أبدا . كل دعوة تقبلها لا بد ستخرج منها بأصدقاء . أتعلم شيئاً؟ إن سكان العالم أكثر من العداوات التي فيه . هذه حقيقة أقسم لك . أكلت يومها طعاما مصريا حقيقيا . أجل طماطيه . أوه! نعم نعم طاميه . لا لا . طعمية . نعم نعم . لقد قضوا معي وقتا طويلا يلقنونني كيف أنطقها . وكان غداء جميلا ، تصورا . . أحببت جدا بيت الرجل وأولاده ، مصريون سمر صغار لا تملك إلا أن تحبهم . وزوجته وشبحها يظهر ويختفي من بعيد ، وخجلها الشرقي يمنعها من الجلوس معنا ، وهي تنادي على زوجها بصوت خافت حتى لا أنتبه أنها تطلب شيئاً أو أنهم ينقصهم شيء . وضحكات الرجل ، أتعرف؟ ضحككم عجيب يغري بالضحك كرائحة الشواء التي تغري بالتهام الطعام . وتصورا رأيت الرجل وهو يعمل . وهو يعمل رفا ، ابرته صغيرة هكذا ولكنه يعمل بها في حذق شديد ، كم كان هذا كله رائعا . أتعلم شيئا؟ لقد جئت مصر لأتفرج على شعبها وأراه حين أصبح حديث العالم ، ولكني اكتشفت شيئا آخر . انظر ما حدث . تأتي لترى شيئا واذا بك تجد شيئا آخر . جئت أتفرج عليه فاذا بي أحبه . كم كنت غبيا! قضيت أربعة أسابيع بعد انتهاء المؤتمر في كلام فارغ . . كنت أتفرج على بلاد لا تهمني في شيء . كان يجب أن آتي الى هنا مباشرة ، هنا قلب العالم . هل أبالغ؟ أنا لا أبالغ . هنا قلب العالم . أتعلم ما سوف أقوله حين أعود الى الهند؟ سأقول الحقيقة . أتعرف ما هي الحقيقة؟

انني غبي. كـان يجب أن آتي الى هنـا مبـاشـرة، وليس هـذا كـل شيء.. قابلت كونستـابل ـ أنت تعـرف؟ ـ كونستـابل الـذي اذا رقى يصبح ضابطا. من اللحظة الأولى صـرنا أصـدقاء عـظاما. . أعـطاني صورته انظر! أين ذهبت؟ ها هي ذي، يبـدو كالهنـود؟ آه! كنت أقول هـذا.. أتعلم شيئا؟ كـان ينطق الانجليـزية مثلي. هـل لاحظت أني أنـطق أل(ال) وال (دي) في فرقعـة مكتومـة؟.. كل الهنـود ينطقـون الانجليزية هكذا، ينطقونها بلكنـة أردية، كـانوا يقـولون لي هـذا في وارسو. أجل! وارسو في بولندا.. أجل بولندا. كنت هناك في مؤتمر لدراسة مشـاكل الشبـاب. أنا وان كنت لا أعتبـر نفسي شابـاً إلا أنني مهتم جـدا بدراسـة مشاكـل الشباب. أتعلم لمـاذا؟ لأني أهتم دائمـا باليوم الذي سيجيء. والشباب. هم الأيام الآتية. تعـرف شيئا آخـر؟ لقـد وجدت أن مشـاكل الشبـاب في وارسـو هي نفس مشـاكلهم في دلهي!! قابلني هناك شاب صغير يناقشني في الموقف العالمي تمامـا كما يناقشني لال تيمـو شلاي ابني.. نفس المنـطق ونفس الحجج، ولكنه طبعا لم يقل اني يميني متطرف. سـأكتب كتابـا عن انطبـاعاتي حين أعــود.. أجـل! كتــابـا من حــوالي ٣٠٠ صفحـة من الحجم المتوسط وغلافه بالألوان. عفوك! صديقي الكونستابل لقد أعجبت به جدا. أتعرف انه دعاني لـزيارة قـريته؟ انهـا قريبـة جدا من القـاهرة، تأخذ الأتـوبيس الأصفر وبعـد ١٥ دقيقة تكـون هناك. لقـد ذهلت.. أتعلم شيئـا؟ لم أكن أتوقـع هذا فتصـورا لكـأنني عـدت الى قـريتي تاتورا في حيدر اباد. أعجب شيء أني اكتشفت أن فقركم يشبه فقرنا

تمام، تصور الوقت الذي أضعته أتفرج على بلاد لا أعرفها.

أنا هنا لا أتفرج. . أنا أتغير. أتغير كل دقيقة. أنتم تستيقظون والحوادث تجري بسرعة. . كل دقيقة يحدث شيء. أن تصبح بلادنا بلادنا ليس بالأمر السهل يا صديقي، ليس بالأمر السهل. تصور تأميم القناة. كنت وأنا بعيد أرى أنها خطوة كبيرة لا يحتملها الموقف في العالم، ولا يحتملها شعبكم نفسه. ولكن انظر ما حدث. . حين أصبحت هنا بينكم تغير رأيي. وتصورا فتاة كباريه التي حدثتك عنها تكلمت معها في تأميم القناة، نعم تكلمت معها. أعجب شيء وجدتها متتبعة كل ما يحدث. أنتم شعب رائع! تصور اسمها باهيا، قلت هذا من قبل. يبدو أني أكرر نفسي. . هذه كارثة. فتاة سمراء طويلة واسعة العيون حواجبها مزججة كما تفعل نساؤنا في الهند. تكلمت معها كثيراً. . أنت تعرف أني أحب أن أتكلم مع الناس كثيراً. وتصورا لقد حسبتني أيضاً في العشرين. كل من يراني يحسبني في العشرين ولست أدري لماذا؟ كانت تتكلم معي بالانجليزية ولكنها كانت تخطىء باستمرار. سألتها كيف تعلمتها؟ أنا لا أخجل من توجيه الأسئلة، أنت تعلم. أن تدعي الجهل خير من أن تدعي العلم. . أليس كذلك؟ سألتها كيف تعلمتها؟ أتعرف شيئا؟ لقد اكتشفت أننا تعلمنا الانجليزية من نفس المصدر. تصور أين أنا وأين هي وتعلمناها من نفس المصدر. هي من البحارة والضباط الانجليز في الاسكندرية، وأنا من عملي في الجيش الانجليزي في الهند. اشتغلت معهم طوال الحرب. كانوا يدفعون جيدا ولكن

العمل كان شاقا. تصور هذا. الانجليز علموا المصريين والهنود الانجليزية، أرادوا هزيمتنا بتعليمنا لغتهم فاستعملنا لغتهم في التفاهم بيننا. أليس هذا أروع؟ أو تعرف شيئا آخر؟ لقد تحدثت معها في مشاكلها فأنا كما ترى مهتم بمشاكل الشباب، وهي لا تزال شابة. ومن ليلتها أصبحنا أصدقاء كبارا. وبيني وبينك باهيا هذه جريئة جدا.. سألتني أسئلة كثيرة حتى خجلت أنا الرجل. تصور أنا خجلت. كانت تبدو شريرة جدا.. أي انسان يراها لا بد يخاف. أنا خفت، ولكن أتعلم شيئا؟ قلبها كان من الداخل أبيض مثل الساري الأبيض. أخ، يا لي من ثرثار. تصور أنا بدأت أتكلم معك لأقول لك أغرب ما حدث لي مع باهيا، ولكني طول الوقت كنت أتحدث في أشياء أخرى.. انه أغرب ما حدث لي في مصر كلها، واذا بي أشط وأنسى. انه شيء مذهل يا صديقي لن تصدقه ولكنه حدث.. حدث لي مع باهيا. أتعلم لماذا قبلت الجلوس معي دون أن أطلب لها المشروب الباهظ؟ حدث الأمر هكذا.. حين اقتربت مني قلت لها يا فتاتي الطيبة أنا لست سائحا. أنا رجل فقير وأود أن أتحدث معك قليلا. هل أستطيع أن أفعل هذا دون أن أطلب لك شيئا؟ قالت مستحيل، أنت تعرف أن هذا ضروري. قلت لها اني أحب أن أتكلم معك. أنا هندي من الهند وجئت أزور مصر، وأحب جدا أن أعرف الناس وأتحدث معهم ولكن ليس معي الا ما يكفي السفر. صحيح أنا عضو في البرلمان ولكني رجل فقير. هل هذه جريمة؟

وانظر ما حدث.. قالت:

ـ انت هندي؟

قلت:

ـ نعم.

قالت:

ـ كيف حالك؟

وسلمت عليّ فسألتها:

ـ لم هذا الترحيب المفاجىء؟

فقالت:

ـ لأني أحب الهنود. أتعلم لماذا؟ لأنهم يقفون بجوارنا ضد الانجليز. أرأيت هذا؟

سألتني:

ـ اذا حاربنا الانجليز هل تحارب معنا؟

قلت لها يا فتاتي الطيبة. أنا مستعد أن أفقد رأسي من أجلك. ليس من أجلك أنت بالذات ولكن من أجل شعبك.

طبعا ليس من أجلها بالذات فأنت تعرف أني رجل متزوج ولي ابن يبدو أكبر مني سنا.

قالت:

ـ صحيح تحارب معنا؟ قل الحقيقة تحارب معنا؟

أليس كذلك

قلت:

ـ انني وشعبي كله مستعدون أن نفنى ونحن ندافع عنك. أقصد ليس عنك أنت بالذات وانما عن شعبك.

وكنت أقولها وأنا مؤمن بما أقول ايمانا عميقا. ولكن انظر ما حدث؟ هللت فرحا وتحمست جدا. وأنا أحب الناس اذا تحمسوا، انهم لا يكذبون حينئذ هكذا كان يقول أبي. تحمست جدا وشدت على يدي بقوة جعلتني أهتز كلي. أنت ترى أنا صغير جدا ومن السهل أن أهتز. شدت على يدي وقالت:

ـ أجبشيان هند سوا سوا.

أتعرف شيئا؟ لم أكن أعرف معنى سوا سوا ولكني أحسستها لأن قلبي ارتعش وهي تنطقها. أجل بشرفي دق قلبي هكذا دب دب كاللحظة التي يرى فيها العريس عروسه. انفعلت جدا.. تصور! الشرق شرقنا، الأرض الواسعة ذات الشمس والفقراء الطيبين الأقوياء بلادنا العزيزة. الصيحة وصلت الكباريه، وباهيا الطويلة السمراء الواسعة العيون ذات الأسئلة الجريئة والوجه الشرير، باهيا تأثرت جدا، ايد سمراء من الخارج ومن الداخل بيضاء بيضاء. وتصور! أتدرك هذا؟ حين فقط تصافحنا بأيدينا صار لنا عشرون اصبعاً. نعم عشرون أصبعاً متزاحمة.. أصبع أسمر بجوار أصبع أسمر. الطويلة ذات الوجه الشرير باهيا، أتعلم شيئاً؟ لقد كدت أفقد وعيي من الفرحة. وقلت لها:

ـ انظري هنا يا فتاتي الطيبة، أنـا لست من رواد الكباريهـات، أنـا رجـل متـزوج ولي ابن يبـدو اذا مشيت بجـواره أكبـر مني سنـا، وأشغـل مركـزا رسميا في بلادي ولكن سوف أتشـرف حقيقة اذا قبلت صداقتي.

وكنت أعنيهـا أجل تشـرفني. أتعلم شيئا؟ من لحـظتهـا صـرنـا أصـدقاء. أتعلم شيئـا آخر؟ لقـد ظللت أردد لها اسمي خمس دقـائق دون أن تلتقط منه حرفا. نعم اسمي أرجو ألا تكـون نسيته. لا، ليس كيمـورانجو. لا، تيمـو. تيمو شـلاي. هـ. ك تيمو شـلاي، أنت تعلم؟ لقد أخبرتك تيمو يعني شيء كالجوهـرة. اسم متعب.. أليس كذلك، ولكنه هندي مائة في المائة.

المستحيل

حدثت الضجة المعهودة خارج الحجرة، وتعالت أصوات وضحكات وتشنجت حنجرة ثم دخل المجنون ومعه مرافقوه.

وإن يرى الانسان مجنونا في الشارع مرة شيئا قد يكون مثيرا، أما أن يكون عمله هو الكشف على المجانين وإدخالهم مستشفى الأمراض العقلية فشيءيجعله يفقد حب استطلاعه، ويصبح الأمر بالنسبة اليه مسرحية مكررة لا جديد فيها ولا طريف.

ولهذا فحين دخل المجنون الجديد لم ألق اليه بالاً كثيرا. كنت قد تعودت رؤيتهم ومعاملتهم، ولم يعد جنونهم أو شذوذهم يزعجني أو يثير عجبي. وكان المريض الجديد هو الآخر داخلا مواصلا كلاما لا يعلم سوى الله متى بدأ:

ـ اسمك ايه؟

ودون أن يغير طريقة كلامه أو النغمة التي يتكلم، مضى يقول:

ـ يسرقوني ليه؟ أنا عملت فيهم ايه؟ اسمي محمد شحاته علي، والمجرم صالح الشهاوي نتش مني أربع صفايح سمنة.

ورحت أجيب الايجار من السكان فزعوا عليه بالسكاكين عايزين يدوني نكلة في الشهر ايجار الشقة. هو انا شحات؟ أنا راجل صاحب عمارات ثلاثة في شبرا السمك وأربعة في أبو الريش و. .

ونظرت إليه. .

السحنة واحدة لا تكاد تتغير. . سحنة ضامرة وأشداق مشفوطة وذقن لا بد نابتة وشعرها نام بجنون هو الآخر، تكاد الشعرة تلتوي عند نهايتها وتنقض على جارتها وتعضها، وملابس مهما اختلف لونها مهرأة وممزقة ومربوطة أحيانا بحبال.

لم يكن أكثر ولا أقل من مجرد مجنون فقير آخر.

وكل من كنت أراهم كانوا مجانين فقراء. . وكم هو عسير على النفس أن ترى غيرك مجنونا، أن ترى الانسان ذلك الكائن الحي الذكي الذي تشير له فيفهمك، وتقول النكتة فيضحك، وتصادقه فيحبك، ويؤمن فيضحي بحياته في سبيل ايمانه، وتريه الشيء فيتعلم. . أن ترى ذلك الانسان وقد تحول الى كتلة بشعة من اللحم والملابس الممزقة والتصرفات الشاذة والصرخات، كتلة لا تعي ولا تحس ولا تستجيب ولا تملك حتى أن تسقي نفسها الماء.

كان العسكري الذي يصاحبه قد وقف على يمينه وقريبه الذي جاء معه بجانبه وعلى يساره، والمجنون بينهما قصير أقصر منهما، وشعره أسود وأكرت ومهوش، والمجنون وملامحه شائخة، ولكن ليس في رأسه شعرة بيضاء واحدة. وكان حافيا ومع هذا يرتدي طربوشا قديما لا زر له ولا هيكل.

ومنذ أن دخل ووقف لم يغير وضعه أبدا، فيداه مضمومتان أمامه أحداهما قابضة على الأخرى تكاد تخنقها، ورأسه ينظر الى الأرض بزاوية، وعيناه مصوبتان الى قدميه، وكان باديا أنه لا يرى حتى قدميه وانما يخترق ببصره الأرض الواقف عليها وما وراء الأرض، ويهيم في شيء بعيد مجهول. وكذلك لم يتوقف عن الكلام وكان يبدو انه لا ينوي التوقف أبدا، وصوته يخرج لا حماس فيه ولا حرارة، ولا يرفعهولا يخفضه مهما تغير ما يقول كأنه شريط مسجل لا يتوقف دورانه، واذا سئل لا ينتظر ليعرف السؤال ولكنه يواصل كلامه ويخرج عن الموضوع الذي يتكلم فيه قليلا ليجيب، ثم يعود بسرعة الى شريطه المسجل الذي لا يتوقف، وحين عدت أستمع اليه كان يقول:

ـ يمضوني على عقد البيع أونطه؟ كنت اتهبلت أنا عشان أبيع تلات عمارات بتلاتة صاغ ونص فرنك شركة؟ أطلب منهم الأجرة يضربوني ويدوني نكلة، والبواب عايز ألف جنيه في الشهر وشركة الميه ليها عداد..

مرة أخرى حديث عن العمارات والثروات الموهومة التي كون الناس أجمعين عصابات لاغتصابها.

وأعدت السؤال:

ـ بتقول اسمك ايه؟

ومرة أخرى سكت. ونظر إليّ نظرة لامعة فيها بريق مخيف،

ثم غاد يكمل حديثه ذا النغمة الواحدة وكأنما كان سكوته خللا أصاب الشريط للحظة ثم عاد إلى الدوران.

وكانت نظرات الجنون في عيون المرضى تخيفني أول الأمر، اذ فيها ذلك الوميض المفاجىء المريع وكأن عقولهم تحترق داخل رءوسهم، وعيونهم تنفث شرر الحريق. نظرات تجعل الانسان يخاف من الجنون. ونادرا ما يخاف الانسان من انسان ولكن نظرة واحدة من تلك النظرات كفيلة بأن تجعله يخاف.. وأفظع خوف هو خوف الإنسان من الإنسان. وأول الأمر أعاملهم مثل غيري من الناس باحتراس الخائف، ولهذا كانوا دائما يرتكبون حماقات فيحاول أحدهم أن يعضني مثلا، أو يبصق على وجوه الواقفين حوله، أوتنتابه لوثة ويهم بإلقاء نفسه مِن الشرفة. وكان هذا يزيد من احتراسي وخوفي فقد كنت أحس على الدوام أني أمام آلة خطرة لا ضابط لها ولا رابط، كالبندقية المعبأة التي قد تنطلق من نفسها في أية لحظة وتقتل وبمضي الوقت رأيت منهم مئات، وبمضي الوقت ألفت تلك النظرات والألفة تزيل الخوف، وحارس الأسد لا يخاف من الأسد، وهكذا فقدت حيطتي وأصبحت أعاملهم وكأني لا أعامل مجانين، فأفك عنهم القيود وأعطي الواحد سيجارة وأدعه يشعلها بنفسه ويدخنها، ولا أضحك من غرابة ما يقول، وأعجب شيء أنه ما من أحد منهم عاملته بألفة وحاول ايذائي. وأيقنت آخر الأمر أن النظرات النارية التي يطلقها المجنون من عينيه وتخيف ليست في الحقيقة سوى نظرات خائف، نظرات رعب من العالم والناس يبلغ حد

الجنون. انه يؤذي غيره لخوفه من أن يؤذيه غيره، ويتوحش لاعتقاده أن الناس قد تحولوا الى وحوش.. والواقع اننا كثيرا ما نتحول الى وحوش. اننا اذا رأينا شذوذا في تصرفات انسان لا نغفر له ونعامله بقسوة وكأنا نعاقبه على شذوذه، وبهذا تصبح تصرفاتنا شاذة في نظره ويزيد حينئذ شذوذه، وقد يكون الأمر في مبدئه حبة فنصنع منها قبة، ويكون التصرف الشاذ بسيطا فنقلبه الى جنون مطبق، ونصف المجانين مجانين لأنهم مرضى، والنصف الآخر لأننا أرغمناهم على الجنون.

ولم أكن في حاجة الى فحص كثير لكي أدرك أن الرجل الواقف أمامي تنطبق عليه كما تقول اللائحة، أحكام المادة كذا من قانون الأمراض العقلية.

ولكن كان لا بد من بضعة أسئلة أخرى تعذبني وأنا ألقيها وأسمع الاجابة عنها، فالانسان منا اذا وقع نظره على عين أعور أو أعمى أو ساق مبتورة اقشعر وأحس بألم ممزوج بالخجل وكف عن النظر، فما بالك حين يحادث الانسان شخصا ذا عاهات متعددة ليس باستطاعته أن يرى أو يسمع أو يفكر، وإذا كان من المؤلم أن تقول للمشلول إجرِ، فمن المؤلم أكثر أن تسأل فاقد العقل وتطلب منه أن يجيبك ويفكر، ومع هذا كان لا بد أن أسأله، فقلت له كالعادة:

ـ عارف النهارده ايه؟

وبنفس الهمهمة المستمرة التي لا تنقطع مضى يقول:

ـ شافوني داخل مسكوا في خنـاقي، النهارده أول الشهـر وبقى لهم ثـلاثة أشهـر مـا دفعـوش الإيجـار، والمحضـر سـاكن في البيت والثلاث عمارات يتباعوا والبيع لازم يحصل النهاردة.

وهـززت رأسي لا أدري مـا أقـولـه، والـرجـل ذو الـطربـوش المزعزع فوق رأسه واللحم الجاف الشاحب الظاهر من خرقه يتحدث عن العمارات وبيعها، وقريبه واقف ينظر بمرارة وقلق وتحت ابطه لفة لا بد فيها طعـام رفض المريض أكله، ووراء وجـودهما أمـامي لا بد قصة.. قصة طويلة حافلة، فـأن يجن واحد في العـائلة مأسـاة، واذا كانت العائلة فقيرة فالمـأساة أفـظع اذ لا بد قبـل أن تعترف السلطات بصحـة الخلل الـذي طرأ على قـوى الشخص العقليـة، أن يـرتكب حـادثـة أو أكثـر ويحـاول قتـل نفسـه على الأقـل مـرة، ويصبـح وجوده(خطرا على أرواح الأهالي وممتلكاتهم). بعـد هذا وليس بـأي حـال قبله، يصبح في استـطاعـة أهله أن يقـدمـوا بـلاغـا الى القسم والقسم يتحرى، وبعد أن يتم التحري يرسل عسكري، ويعـود الأهل اذا كانوا محظوظين آخر النهار الى الحارة أو الـزقاق ومعهم عسكـري ويؤخذ المريض الى القسم عنـوة ويضرب زفـة، وهناك يفتـح محضر وسين وجيم، ثم يـرسـل المـريض بخـطاب وفضيحـة الى مفتش الصحـة. واذا كان حظ المـريض من نـار ظهـر الخلل واضحـا أمـام مفتش الصحة، فاذا اقتنع بمرضه أحاله الى القسم مرة أخـرى، والى أن تـأتي عربـة المستشفى يـوضـع المـريض في السجن على انفـراد ومكتفا لا يستطيع حراكـا، ولا تأتي العـربة في العـادة الا بعد يـوم أو يومين أو اذا آن الأوان، واذا جاءت ظلت ترفعه وتهبده، ، والتومرجية

في المستشفى يرفعونـه ويهبدونـه حتى تصعد البقيـة الباقيـة من عقله الى بارئها.

لا بد أن يحدث كل هذا قبل أن يصبح من حق المريض بعقله ان يستلقي فوق سرير المستشفى الكالح.

ولا بد أن كل هذا قد جرى ويجري لمحمـد شحاتـة.. على الواقف يتحدث أمامي حديث خالي البال عن العمارات وأصحابها.

وإذا كان الفقر في حد ذاته يهد كرامة الإنسان وآدميته فما بالك إذا جن الفقير؟

قلت له لأسهل الأمر عليه:

ـ لأ يا عم محمد النهارده الأربع، ويبقى بكره ايه؟

ودون ان يغير طريقته قال:

ـ ان شـاء الله بكـره السبت، بكـره سـوق السبت أبيعهم في السوق بالمزاد العلني، واللي ما يشتري يتفرج والفرجة بقـرش واللي حاضر.

وكنت أعتقد قبلا أن الجنون حالة كالموت يتساوى فيهـا الناس اذا فقدوا عقولهم ويصبح كل مجنون نسخة من الآخـر، واذا بي أجد أن الأمـر غيـر هـذا بـالمـرة. فهم ليسـوا قـطيعـا واحـدا من فـاقـدي العقـول.. كل منهم كـائن مستقـل بـذاتـه وقصتـه ومسلكـه الغـريب الخـاص به، حتى الكـلام لكل طـريقته المعينـة التي لا يحيـد عنهـا والدائرة التي يدور حولها كلامه لها نصف قـطرها الخـاص به والـذي قد يكون عمـارة، وقد يكـون عصابـة، وقد يكـون غضبه من أهـل أو

حبيب.

كانت حالة الرجل واضحة.. وكان ممكنا أن أكتفي بالأسئلة القليلة التي وجهتها وأملأ خانات الاستمارة وانتهي من(الحالة)، ولكننا أحيانا تخطر لنا خواطر فتقودنا الى اكتشاف آفاق لم نكن نستطيع الوصول اليها بالتدبير والتمعن والتفكير، والخاطر الذي خطر لي لم يكن من قبيل الصدفة اذ لم أكن أنظر الى المريض على أنه مجرد(حالة) أخرى، كانت مشكلة العقل البشري تحيرني وتجبرني على التفكير. هذا العقل.. هذا الجهاز المذهل الكامن في تجويف الرأس المزدحم بالأفكار والحوادث والغرائز والمشاعر والذكريات.. هذا الساحر الصغير القادر على أن يحيل الحجر إلى ماس والخاطر إلى اختراع والغريزة الدنيا إلى غريزة سامية عليا، تلك البوصلة الرائعة في دقتها التي تحدد الشرف وتقيس المعقول، وتربط ألف فكرة بألف فكرة، وتخرج بنتيجة وتصنع من النتائج أحكاماً وقوانين، هذه المعجزة التي تحل أعقد الطلاسم وتتذكر أدق التفاصيل وتحس وتفرق بين الأحاسيس، هذه المساحة المتناهية الصغر التي تخلق وتضع الخطط العميقة، وتبتكر ملايين الكلمات والتعبيرات وتحوي كل هذا وتحفظه، هذا العقل الذي يحتوي الدنيا كلها بما عليها ولا يضيق، ترى ماذا يحدث له حين يختل وتشب فيه النار؟ ما هو الأصيل الذي يبقى، وماذا فيه يستحيل إلى دخان؟ وعم محمد شحاتة علي الواقف أمامي لم يغير وقفته، ترى ماذا طار من عقله وماذا لا يزال كامناً مقدساً في أخاديد تفكيره؟!.

والمسألة نسبية لا ضابط لها ولا رابط، فقد لا يكون بعضهم يعرف اليوم الذي هو فيه ولكنه يرفض أن تتعرى أجزاء جسمه، وقد لا يعرف اسمه ولكنه يخنقك اذا شتمته.

وكنت أحب ذلك الحوار الذي يدور بيني وبين المريض، فاذا كان الانسان العادي له عقل بالغ التعقيد فالمجنون بسيط والمشكلة التي تحيره واحدة ويقول ما يريده على الفور وبصراحة، وتستطيع أن تقرأ تفكيره بسهولة وتعرف ما احترق في عقله وما لا يزال سليما.

وسألته:

ـ ايه اللي مضايقك يا عم محمد؟ . .

وكان لا يزال على نفس وضعه، لم يرفع بصره مرة وينظر حوله وسيال حديثه مستمر وكأنه يتحدث الى كائنات أخرى لا نراها ولا تتبرم بحديثه، يتحدث وكأن لا زمان هناك ولا مكان، ولا يهمه إن كان هناك زمان أو انسان أو مكان، والبقية الباقية في رأسه تطحن الكلمات والجمل فتخرج كالدقيق الناعم المستمر لا انفعال فيها ولا ادراك. وحين سألته كان لا يزال ماضياً في قوله:

ـ سلطوا عليّ نسوانهم بالشباشب هانوني . . تعبوني قوي . سكان متعبين وبيدفعوا في الشقة نكلة ايجار قديم، ولازم أبيع العمارات حالا قبل ما يهدوهم . . الجدع ده سلط عليّ مراته قلعتني الهدوم في الليل وسرقت المحفظة . .

وتدخل قريبه الذي كان واقفاً:

ـ ما تصدقوش والله العظيم ما حد عمل فيه حاجة .

وتطلعت اليه.. سحنة ضامرة أخرى، ولحية نامية، وملابس مهلهلة لا تكاد تفترق عن ملابس المجنون حتى كدت أسأله هو الآخر عن اسمه واليوم الذي نحن فيه، وربما لو كنت سألته لما كان قد عرف. وتلك ظاهرة غريبة فلا بد أن يكون مع المجنون قريب، ولا بد بطريقة أو بأخرى أن يخرم المريض على أقربائه ويتهمهم أي اتهام، والأغرب من هذا أن القريب لا بد يدافع عن نفسه بحرارة، وكأن الاتهام صادر عن عاقل أو كأنه صحيح.

وأشرت للقريب أن يسكت ولكنه لم يفعل، بل مضى يدلل ويروي على مسامعي كل ما قام به المريض من أفعال خارقة وكأنما ليثبت لي أنه حقا مجنون وكلامه فارغ، وبينما هو يتكلم بحرارة كان المريض يقول:

ـ كلهم حرامية ما تصدقوش دول كدابين. بيقول كده عشان يوديني في داهيه وياخد هو حق العمارات.. قال لي امضي على بياض عايز ينهبني. دول على ذمتي تلات عمارات يسووا ١٥٠ قرش وأبيعهم بنص فرنك؟ حرام أنا يتيم.

وقاطعته وسألته:

ـ انت عارف ده مين؟

ودون أن ينظر اليه استمر:

ـ يتيم، أمي ماتت السنة اللي فاتت وده حرامي ابن حراميه.

وكادت تفر دمعة من عين قريبه وهو يقول:

ـ أنا حرامي يا محمد؟ الله يسامحك يا محمد يا بن أمي وأبويا، تقول عليّ حرامي يا محمد وأنا أخوك؟!

وسألت المريض:

ـ عارف بلدكو اسمها ايه يا عم محمد.

ـ عايزين ياكلونا بالحيا.. بلدنا بلد الفقر والعنطزة هناك ع الترعه وعندها محطه وسبيل. والعمارات ٤ في باب الحديد و ٣ في ستنا نفيسة وعقد البيع جاهز على الامضا، ومش ممكن أقل من خمسة صاغ الواحدة.

وسألته:

ـ انت متجوز يا عم؟

واستمر:

ـ ويجيني المشتري لحد عندي.. كتفوني امبارح وحطوني في شوال وقالوا تجوز أمك يا تتنازل عن العمارات.

وتدخل قريبه:

ـ عيب كله الا أمك يا محمد.

ثم التفت إليّ وأكمل:

ـ ده مجوز ومخلف رجاله وسيبينه كده، وأنا اللي بصرف عليه وحياة الحسين.

وعدت أسأله:

ـ لك أولاد صحيح يا عم محمد؟

واستمر يهمهم

ـ أتنازل ازاي؟ ما اتنازلش. . أنا مليش أولاد، أنا لي عمارات بس، ولازم ابيع النهارده واقبض التلاته صاغ كاش! . .

وأخرجت الاستمارة من درج المكتب استعدادا لملئها.

وفي العادة كنت اذا وصلت الى هذا الحد وتأكدت من المرض، تنتابني موجة من اليأس فأهاود المريض على عقله وأمزح معه وأحدثه بأي كلام قد يخطر لي على بال، وكأني أعتذر له سرا لأني سأثبت في الاستمارة حالا انه مجنون.

ومع عم محمد أيضا قلت:

ـ انت عايز تبيع العمارات صحيح؟

فأجاب على طريقته:

ـ منهم لله عايز أبيعهم كلك على بعضك بيعه وشروه بالوقه، وأنا أصلي . .

قلت:

ـ تبيعهم للعسكري ده؟

فاستمر:

ـ وانا اصلي أبيع . .

ـ تبيعهم لأخوك أحسن؟

ـ وانا اصلي أبيع . .

ـ والا تبيعهم لي وتكرمني؟

ـ وانا اصلي أبيع .

ـ أقول لك يا شيخ . . بيعهم للانجليز واخلص .

ـ وانا اصلي أبيع ، لا الانجليز . . لا انجليز . . ما انجليز من رابع المستحيل . .

وفوجئت برفضه فسألته وانا أستغرب :

ـ ليه اشمعنى الانجليز لأ؟

وعاد الشريط يدور:

ـ لأ لأ كده الله الله ع الجد أبيع لربنا حتى والكمبيالات جاهزة والمستندات تحت الطلب واللي ما يشتري يتفرج، والانجليز لأ .

التمرين الأول

كان عجيبا هذا الاحساس المفاجىء الذي أصاب طلبة(ثالثة رابع) وجعلهم يستمرون في أداء التمرينات الرياضية بعد انتهاء الحصة، وأيضا أثناء الفسحة التي بين الحصتين ثم يأخذون خمس دقائق أخرى من الحصة التالية.

كان هذا عجيبا، اذ طوال أيام الدراسة كانت أمنية كل منهم أن يصحو من نومه فيجد المدرسة قد نسفها طوربيد أوابتلعها بركان.

كانوا، كغيرهم من الطلبة، يكرهون المدرسة كرها لا يعرفون له سببا، ويبدأ ذلك الكره مع بدء كل يوم، بل قبل أن يبدأ اليوم. فالطالب لا يستيقظ من نومه الا مقروصا أو معضوضا أو مطروحا أرضا، ثم يدفع الى المدرسة دفعا، ودائما في وداعه شيء.. دعوة عليه، شتمة، أو فردة شبشب. وينسل الى الشارع ويظل يجري ويجري ملتصقا بعامود ترام أو مهرولا فوق رصيف، والشتاء بارد والصبح أبرد.. أبرد من الحصص الاضافية، والرعب يملأ قلبه مخافة أن يصل متأخرا ويجد باب المدرسة مغلقا ويضيع اليوم، ويقيد غائبا ويروح في داهية.

وما يكاد يصل الى المدرسة ويجدها قد امتلأت بالأشباح المقرورة من أمثاله التي تبحث عن الشمس، فالشمس ليست مثلهم تلميذة في مدرسة. انها لا تصحو ولا تضيء صباح الشتاء الا في العاشرة أو ما بعدها. ما يكاد يصل وما تكاد المدرسة تفتح ذراعيها وتضم تلك المجموعة الضخمة من الفتيان، وما تكاد جدرانها تهب من رفادها الطويل الوحيد وتشارك الطلبة مرحهم وتردد لهم أصوات زعيقهم وضحكاتهم، ويتلمظ حصى الفناء منتشيا وهو يستقبل الأقدام الصغيرة الشابة ويلثمها وقد طال شوقه اليها.. وما تكاد الأشجار تهفهف بأوراقها وتشقشق سعيدة بجري الطلبة حولها وجذب شعورها وأغصانها.. ولا تتألم حتى حين يحفرون أسمائهم عليها، ما يكاد الطلبة يحسون انهم كائنات حية لها أماني ورغبات وأحلام وأحاديث، ما يكاد هذا يحدث حتى يدق الجرس.. تتم. تتم. تتم.

وفي الحال تهمد الحركة وتخرس الألسنة وتتجمد الرغبات، اذ ما يكاد الجرس يدق حتى يغلق الباب.. باب لا بد ضخم متين كأبواب السجون. وما يكاد الباب يغلق حتى يفطن الطلبة الى وجود السور.. سور لا بد عال هو الآخر ومزود بالأسلاك الشائكة ان أمكن..

ومع دقة أخرى من الجرس يزحفون صوب مكان الطابور مطاطئي الرؤوس وقد تضاءلت أمانيهم وانكمشت، وأصبح الواحد منهم مجرد تختة أو دواية أو قلم بسط رخيص عليه أن يكتب ويكتب ولا ينقصف سنه أبدا.

تلك التمتمات الثلاث تعني أن اليوم الدراسي قد ابتدأ، وويلهم من اليوم الدراسي حين يبتدىء! حتى الجرس الذي يبدأ به اليوم جرس كالح قديم عليه صدأ أزرق، وله بلبلة أضخم من حجمه واقفة في وسطه كما تقف اللقمة في الزور. حتى صوت الدقات يخرج وفيه من الأنين أضعاف ما فيه من رنين، أنين يعلوه الصدأ هو الآخر. . صدأ أزرق كالح كئيب.

حتى الفراش الذي يدق الجرس لا بد أن يكون عجوزا خطير الملامح، ولا بد أن يكون له شارب كث يخيف، ولا بد أنه يحس أنه نابليون زمانه أو اسرافيل عصره وأوانه، ولا بد له ساعة. . أخطر من أية ساعة في الدنيا هي التي تحرك عقاربها المدرسة كلها، ولهذا لا بد لها من مخلاة سوداء صغيرة يضعها فيها مبالغة في الحرص عليها، ولا بد أن تجده واقفا تحت الجرس ينتظر ممسكا بالساعة محدقا فيها، حريصا عليها في يده كل الحرص وكأنها قنبلة زمنية اذا حركها ستنفجر. وقبل أن يحين الحين يقبض على سلسلة الجرس. . سلسلة لا بد قديمة أو موصولة بدوبارة، ثم تأتي اللحظة فيجذب السلسلة، يجذبها بتؤدة وتقل وكأنه يفرغ الحكمة العليا في تمتماته الثلاث. .

وأول ما يسمع بعد الجرس من الأصوات هو:

ـ اخرس. . بطل كلام.

وبهذا الأمر تقطع كل صلة للطلبة بأنفسهم ويخرسون، ويبدأ

المدرسون الذين يفتشون على الطابور في الكلام، ويخرج كلامهم طازجا على الصبح ومنتقيا بعناية بحيث لا تندس بينه أبدا كلمة حلوة، يفرغون فيه كل ضيقهم باليوم الذي أصبحوا فيه مدرسين، وبالمهنة الصعبة التي اختاروها لأكل العيش، وينتقمون من مشاكل الكادر والأمس وشتائم الحماة ومرض الطفل وارتفاع أسعار الصوف..

ثم يظهر الناظر..

يطل على الطابور الصامت بوجه لا صباح فيه ولا خير.. يحدق في الطلبة فيموت الطلبة، وفي المدرسين فينكمش المدرسون، وفي الصمت فيقشعر الصمت..

ولا بد أن تكون لدى الناظر مفاجأة لا بد لها من مقدمة شتائم طويلة، ثم حديث عن النظام مثلا، وكيف أنك لكي تدخل الجنة.. اذا أردت دخول الجنة فعليك أن تبدأ السير في الطابور بالساق اليمنى، وأن تسير اثنين اثنين، وكيف أنه.لكي تحل مسألة الجبر لا بد أن ترتب ملابسك بنفسك في دولابك الخاص، وكأن لدى كل طالب ملابسه الخاصة بل دولابه الخاص.

أو يتحدث عن الطالب الذي ضبط وهو يسرق البيض من المطعم، وأحيانا لا يكتفي بالحديث فيخرج الطالب نفسه ليريه للجميع، ويجعل منه أمثولة وعبرة.

أو ينبه تنبيهاً صارماً قاطعاً أن كل من لم يدفع المصاريف عليه بمغادرة الطابور، ومن ثم المدرسة كلها في الحال.

ووجهه طوال حديث الصباح جامدا عابس. والطلبة واقفون الدقائق الطوال كالخشب الخائفة المسندة لا يعرفون سببا لذلك الرعب المفاجىء، ولا سرا للعبوس الشديد في وجه الناظر، هل مات له قريب؟ غير معقول هذا، فهو كل يوم عابس وليس معقولا أن يموت له كل يوم قريب، عسى أن يموت له كل يوم قريب!

ثم يدور الطابور الى اليمين أخيرا والى اليسار، وكل يبتلع ريقه ويتحسس رقبته ويتنفس الصعداء. . فقد نفذ هذه المرة ولم يكن الطالب الذي سرق البيض، ولم يخطىء ويبدأ المشي بالساق اليسرى، ولكن تراه كيف ينفذ في المرات القادمة؟.

ومن خلال ممرات كئيبة طويلة متشابهة يدلفون الى الفصول. . فصول مكررة حيطانها طويلة هيفاء عالية، ولونها تصر الوزارة على اختياره حشمة لينظر الناظر اليه ويرسي في قلبه الوقار.

وما تكاد الحياة تدب في الفصل وتتحرك التخت والمقاعد ويذهب عنها الروماتيزم الذي يصيب مفاصلها كل ليل، حتى يقبل المدرس فجأة، لا بد أن يقبل المدرس فجأة ـ وكأنه ضابط مباحث في طريقه الى ضبط واقعة ـ لعله يسعد ويحس بالسلطة حين يحدث ظهوره المفاجىء سكوتا مفاجئا، يقبل ولا ينفرج وجهه مخافة أن تضيع الهيبة.

ـ قيام!

واذا بالفصل كله يتلكأ ويقوم، ولا يدري لماذا يقوم.

ويحدق المدرس طويلا في تلاميذه وكأنهم يحرزون مواد ممنوعة وهو يفتشهم بعينيه تفتيشا دقيقا. فاذا عثر على الهفوة كان بها، والا فإنه يقول:

ـ جلوس!

يقولها قرفانا وكأنه يمن عليهم بفضل من عنده.

وتتوالى الحصص ويتوالى المدرسون وكل منهم كالجهاز المعبأ الذي يفرغ شحنته بمقدار، اذ هو الآخر ليس أكثر من موظف حكومة له عمل يؤديه ثم يمضي. وكل ما يسمعه الطلبة أوامر تترى، وأشياء غريبة تخرق أسماعهم وتتفجر كالصواريخ في عقولهم. سمّع يا ولد ما قاله الكميت في وصف ناقته. اذكر ثلاثين شرطاً من شروط الصلح في معاهدة واق الواق، وإذا نسيت شرطاً فبعصاية ما اسم البلاد التي تزرع الشوفان؟ (والمدرس نفسه لا يعرف ما هو الشوفان). تخيل انك على خط عرض ٢٣ وتريد أن تسافر إلى خط طول ٨٥ بطريق البر فأي الطرق تسلك؟ أعرب أبيت اللعن، ما هي حالة الطواريء التي يصح فيها رفع المستثني بإلا؟ تكلم على لسان طائرة تريد أن تفاخر السيارة وتتيه عليها فماذا تقول؟.

ومع توالي الحصص وتنوع الدروس تتنوع الشتائم وتتنوع كذلك لغتها، فهناك شتائم فرنسية رقيقة، وشتائم نحوية فصحى، وشتائم كيميائية مركبة ومخلوطة، وأقل ما فيها؛ نزل ايدك يا ولد. وشك في الحيط يا أحمق. اطلع بره يا صعلوك. التفت يا لوح. حل المسألة يا أغبى مخاليق الله. وأحيانا يفيض الكيل ولا يعود ثمة بد

من المواجهة السافرة فتنطلق الكلمات: مـا تنحرق انت وهـوه. اتنيل يــا شيـخ. اتلهي. انتم تنفعـوا انتم؟ انتم بـلاوي. انتم رمم. انتم جايين هنا ليه. انتم مالكم ومال المدارس؟ روحوا لموا سبارس.

حتى الكراريس، كانت هي الأخرى تشاطر الناظـر والمدرسين وجلدتهـا مملوءة بالأوامـر والنواهي. لا تبلع الـطعام. لا تمضـغ. لا تستنشق الهـواء. لا تـمش. لا تجلس. لا تتحدث. عليـك بـالحلم. عليك بالطاعة. عليك بإمساك نفسك ساعة الغضب.

ورغم هذا النظام الصارم، ورغم أن المدرسـة كانت على حـد قول الناظر تمشي كالسـاعة، ونسبـة الحضور أعلى النسب، وأحـذية الطلبة كلها تلمع، والحوش الواسع خال تماما من الأوراق.

ورغم أن الأولاد ـ على حـد قول قـول أولياء الأمـور ـ كانـوا لا يلعبون، ويذاكرون، اذ هم واقفون لهم بالمرصاد. ما تكاد المدرسـة تتـركهم حتى يتسلمهم الأولياء، والـويل للتلميـذ اذا تأخـر بـره أو لم يقض الساعات منكبا على كتبه يتلو ويذاكر. رغـم هـذا الا ان الطلبـة كانوا لا ينجحون، ويفشلون بالمئات والعشرات، ويقـابلون الدراسـة باستهتار، وينـامون في الحصص، وإن واتـاهم الأرق أقامـوا حفلات تـرفيه، وتبـادلوا القـرصات والـزغدات والضـرب على القفا، وكتـابـة الخـطابات المملوءة بـالشتائم، وتكـوين العصابـات وشرب السجـائر وسب المدرسين، ومزاولة العادات في السر والعلن.

وكان الطلبة أيضا ورغم كل شيء يتساءلون هم الآخرون لمـاذا

يرسبون؟ ولماذا يكرهون المدرسة؟ ولماذا يعاكسون المدرسين؟ ولماذا يقضون أتعس الأوقات مع انهم يسمعون الناس تقول إن أحلى أيام العمر هي الدراسة؟

كان الناظر والمدرسون يحاولون تفسير الأمر ويقولون: إنهم طلبة هذه الأيام ومساخرهم وتفاهتم.

وكان أولياء الأمور يقولون: هي حكمة الله الذي يرزق من يشاء بغير حساب. وكان الطلبة يقولون: بل هو الحظ، بضربة حظ تنجح، وبضربة أخرى تفشل، يا رب كثير من الحظ يا رب.. كثر من الحظ.

وذات يوم أتيح لطلبة ثالثة رابع أن يمروا بتجربة.

كان مدرس الرياضة البدنية عملاقا ضخما رهيبا، كتفه تهد الجبل وزنده في حجم الفخد وقبضته تحيل الرءوس الى جماجم، ولم يكن في حصته مكان للترفيه أو العبث. فقد كان طلبة ثالثة رابع كغيرهم من الفصول يخافونه، ويخافون اذا عنّ لواحد منهم أن يعبث في حصته ألا يرسله كالعادة الى المشرف أو يخرجه من الفصل مثلا، وانما يتولى العقاب بنفسه وقد يتولاه بقبضته، والكف عن العبث بالتأكيد أسلم نتيجة من عقاب يتولاه مدرس الألعاب بقبضته.

كان يأتي، وقبل أن يدخل الفصل يكون الفصل واقفا كله، وبإشارة منه يخرج الطلبة عن الأدراج، وبإشارة أخرى يصطفون ويهبطون السلالم دون أن ينبس أحد ببنت شفة، وفي سكون تام

يخلعون الجاكتات، ثم يتسلمهم العملاق بتمريناته. ثني مد. رفع. ضم. افتح سدرك. شد وسطك. اخبط الأرض بدماغك. وشك فدق. عايز الجزمه تطلع شرار.

وهكذا الى نهاية الحصة، حتى تتدلى الألسنة من الأفواه وتتجمع الرغاوي.. وتتشقق الحلوق وتتقطع الأنفاس، ولا يجرؤ واحد أن يقول آه أو لا.

عقل سليم جسم سليم، هكذا كان يقول. رياضة يعني رياضة. عايزين رجالة مش حريم. دلع مش عايز دلع. كلمة واحدة أقطم رقبتك. بص قدامك. لم نفسك. تخشب. التمرين الأول ابتدى.

وكان الطلبة حين تنتهي الحصة يقضون بقية اليوم في ترميم أنفسهم والتماس النقاهة. ويقضون بقية الأسبوع في تمن أن ينسف الطوربيد مدرستهم على الأقل قبل حلول حصة الألعاب التالية..

وفوجىء الطلبة ذات يوم بخبر نقل مدرس الألعاب ومجيء مدرس جديد. ولم يتحمس الطلبة للخبر فكل المدرسين كانوا لديهم سواء.. كلهم رجال كبار حكماء معصومون من الخطأ وأذكياء جدا ومتعلمون بغزارة، وبعيدون عنهم تماما هم الصغار الحمقى الجهلاء الذين تكمن فيهم كل العيوب والذين لا يفعلون سوى ارتكاب الأخطاء تلو الأخطاء..

وجاءت حصة الرياضة البدنية..

ودخل الحصة شاب لا لحية لـه ولا شارب، ولا يـرتدي ربـاط عنق وانمـا وضع يـاقة القميص فـوق الجاكتـة وفتـح صـدره. وعـادة المدرسين أن تكون الياقة منطبقة على العنق وعلى ربـاط العنق تمام الانطباق.

وغادروا الفصل وهبطوا السلالم وخلعوا الجاكتات، ووقفوا كما كـانوا يقفـون وراحـوا يؤدون التمـرين الأول كمـا كـانـوا يؤدونـه أيـام المدرس السابق.

غير أنه لم تكد تمضي دقيقة واحـدة حتى طلب منهم المدرس أن يتوقفوا. وفعلوا هذا مستغربين وقال المدرس:

ـ اسمعـوا يا جمـاعة. . أنـا أحب الصـراحـة وانتم واضـح من حـركاتكم ان مـا عندكـوش أي حماس للعب. فبصـراحـة مين فيكم يحب يلعب؟ اللي عايز يلعب يرفع ايده.

لم يكن المدرس نفسه يعلم ماذا دعاه لإلقاء هذا السؤال، لعله خاطر عنّ له. . لعله لم يقصد. .

ورفع الطلبة كلهم أيديهم مخافة أن تكـون خدعـة مقصود بهـا كشف الـذين لا يـريـدون، فمـدرس الفـرنسـاوي عـودهـم أن يبتسم للواحد منهم ويعطيه الزيرو.

وفوجئوا بالمدرس ينقبض وجهه ويقول:

ـ أنـا لا أحب الكذب أبـدا، وغيـر معقـول أن كلكم عـايـزين تلعبوا. أنا أحب العلاقة بيننا يكون أساسها الصدق. اللي عايز يلعب

من فضلكم يرفع ايده.

بدا الأمر جدا لا هزل فيه. . ان المدرس يريد حقيقة أن يعرف رأيهم وكان هذا غريبا. . فهم لم يعتادوا أبدا أن يؤخذ رأيهم في شيء. انهم منذ ولدوا وثمة قوى تدفعهم دفعا لا يعرفون الى أين، ولا يسألهم أحدا ماذا يحبون أو ماذا يكرهون. كل الناس تقول: هذا لمصلحتهم، ولا أحد يخطر له أن يسألهم عن رأيهم في مصلحتهم.

ونظر الطلبة بعضهم الى بعض وتولاهم شيء غير قليل من الاستهتار، ماذا يحدث؟ لقد سألهم رأيهم فلماذا لا يقولون الحقيقة؟

وأنزل الطلبة كلهم أيديهم، كلهم ما عدا واحد أو اثنين من هؤلاء الطلبة الذين يقضون العمر خائفين من العقاب ومن احتمالاته. ولكنهم وجدوا الكل لا يريدون أنزلوا أيديهم هم الآخرون خوفاً من العقاب الطلبة لهم هذه المرة.

وعادت الابتسامة الى وجه المدرس وقال:

ـ برافو! أهو كده. . أنا أحب الصراحة.

برافو! لا بد أن ذلك المدرس مجنون أو به هفة، قال الطلبة هذا لأنفسهم وهم يحسون بفرحة غامرة وعيونهم تكاد تدمع. والحقيقة أن فرحتهم كان لها سبب آخر، كانوا وهم يتبادلون النظرات وينزلون أيديهم يرتعشون من الخوف، فقد كان كل منهم يعبر عن رغبته وكان يحس أنه يرتكب اثما عظيما، فاذا بالمسألة لا جريمة فيها واذا بالارتباك يزول واذا بالفرح يعصف بهم، فقد استطاعوا آخر الأمر أن يقولوا شيئا، يقولوا لا ولا يشنقون، فلا بد أن المدرس مجنون ولا

بد أن به لوثة.

وسكت المدرس قليلا ثم عاد يقول:

ـ غريبه! اجماع رهيب على كره الرياضة. ليه؟ أمال بقية العلوم بتكرهوها ازاي؟

وتطوع أكثر من طالب بالاجابة والتفسير. وكانوا يتحدثون بنبرات لا اضطراب فيها ولا وجل. كانت ثمة ثقة قد ملأت صدورهم وأحسوا ربما لأول مرة أنهم آدميون لهم الحق في الكلام.

واندفع ثلاثة طلبة أو أربعة يطلبون اللعب، كان ما يدفعهم في الحقيقة هو حماسهم للمدرس الشاب ذي الابتسامة، وليس رغبة في مزاولة اللعب.

وقال المدرس لبقية الطلبة وهو يضحك:

ـ افرنقعوا..

وهلل الطلبة وكأنهم أفرج عنهم بعد طول سجن. ودون وعي راحوا يضحكون ويتعانقون ويتضاربون، وانسحبت أقلية ضئيلة الى المظلة ورقدت على الدكك قائلة وآدي نومه!..

وجرى طالب وراء آخر وشنكله.

ووقفت الأغلبية وقد ارتدت ستراتها تتبادل اللكمات الخفيفة، وتتفرج على المدرس وهو يؤدي التمرين الأول مع المجموعة الصغيرة التي أرادت اللعب.

وقفوا يتفرجون بكل استهتار، يضحكون على المدرس وعلى الأخطاء التي يقع فيها زملاؤهم ويدردشون.

كانوا يحسون بانتعاش وكأنهم يشمون أيدروكسيد أمونيوم حديث التحضير.. أن يحس الانسان أنه ليس مرغما.. أن يكون في وسعه ألا يفعل، أن يصبح في استطاعته أن يختار.. أشياء ما كانت تخطر لهم على بال.

وحين كانوا يصعدون السلالم بعد انتهاء الحصة كانوا لا يزالون غير مصدقين أن ما حدث كان حقيقة، وأنهم استطاعوا ولو لمرة واحدة في العمر أن ينفذوا من حصة الألعاب.

ومضى اليوم ولا حديث لهم الا عن المدرس الظريف الشاب الذي أصابته لوثة أنقذتهم من الرياضة والأشغال الشاقة.

وطوال الأسبوع ظل كل منهم في شغف حلول حصة الألعاب التالية ليعفى من الألعاب.

وجاءت الحصة.. وجاء المدرس حليقا مبتسما وياقته مفتوحة أيضا. وقبل بدء التمرين الأول أكثر من ابتساماته وقال؛

ـ هيه يا جماعة.. اللي عاوز يلعب يرفع صباعه.

ورفعت أقلية ضئيلة أصابعها. بينما وقفت الأغلبية في أماكنها لا ترفع أيديها ولا تتحرك، وكل منهم يريد أن يعرف ما سوف يفعله الآخرون.

ولما طال الوقوف قال طالب لآخر وهو يدفع عنه يده التي قد امتدت تهوشه:

ـ أنا ح العب يا عم.

وسرت همهمة. تعالت ثم تبلورت في رأى:

ـ وايه يعني؟ نلعب وإذا ما عجبناش نبطل لعب. هو مش قال كده؟

وهكذا ارتفعت أصابع الأغلبية.

وما كادت تمضي دقيقة حتى تثاءب واحد وقال:

ـ أنا تعبت.. كفايه بأه.

وانسحب، ولكنه لم يذهب بعيدا بل وقف يتفرج، وحين وجد أن أحدا لم يتبعه تردد برهة، وتثاءب مرة أخرى ثم عاد الى مكانه.

ولم ينسحب بعده أحد. بل كلما أحس أحدهم أن في استطاعته أن يتوقف إذا أراد، كلما أحس بهذا ازداد حماسة وشعر بطاقات هائلة تنفجر من جسده.

وبلغ التنافس أشده.

وتعالت أصوات تهيب بالمدرس أن ينتقل الى تمرين أعنف.

وانتهت الحصة ودق الجرس والحماس لا يفتر.

٦٧٥

وتأخرت ثالثة رابع عشر دقائق في الحوش بعد الحصة.

ووقف الناظر في ذلك اليوم يلعن ويزمجر ويوبخ، ويتساءل مغيظا عن سر ذلك الحماس المفاجىء للرياضة البدنية.



أرخص ليالى

أرخص ليالي

بعد صلاة العشاء كانت خراطيم من الشتائم تتدفق بغزارة من فم عبد الكريم فتصيب آباء القرية وأمهاتها، وتأخذ في طريقها الطنطاوي وأجداده.

والحكاية أن عبد الكريم ما كاد يخطف الأربع ركعات حتى تسلل من الجامع ومضى في الزقاق الضيق وقد لف يده وراء ظهره وجعلها تطبق على شقيقتها في ضيق وتبرم، وأحنى صدره في تزمت شديد وكأن أكتافه تنوء بحمل (البشت) الثقيل الذي غزله بيده من صوف النعجة.

ولم يكتف بهذا بل طوى رقبته في عناد وراح يشمشم بأنفه المقوس الطويل الذي كله حفر سوداء صغيرة، ويزوم، وقد أطبق فمه فانكمش جلد وجهه النحاسي الأصفر، ووازت أطراف شاربه قمم حواجبه التي كانت ما تزال مبللة بماء الوضوء.

والذي بلبل كيانه، أنه ما ان دخل إلى الزقاق حتى ضاعت منه ساقاه الغليظتان المنفوختان، ولم يعد يعرف موضع قدميه

الكبيرتين المفلطحتين اللتين تشقق أسفلهما حتى يكاد الشق يبلع المسمار فلا يبين له رأس.

ارتبك الرجل رغم القسوة التي ضم بها نفسه لأن الزقاق كان يمتلئ بصغار كالفتافيت يلعبون ويصرخون، ويتسربون بين رجليه، ويسرح واحد من بعيد وينطحه، ويشد اخر (البشت) من ورائه، ويصيبه شقي بصفيحة في اصبع قدمه الكبيرة النافرة عن بقية أصابعه.

ولم يستطع إزاء هذا كله إلا أن يسلط عليهم لسانه، فيخرب البيوت فوق رؤوس آبائهم وأجدادهم، ويلعن الداية التي شدت رجل الواحد منهم، والبذرة الحرام التي أنبتته.

ويرتعش عبد الكريم بالحنق وهو يسب ويمخض ويبصق على البلد الخائب الذي أصبح كله صغار في صغار. ويتساءل، و(بشته) يهتز، عن معمل التفريخ الذي يأتي منه من هم أكثر من شعر رأسه. ويزدرد غيظه وهو يطمئن نفسه أن الغد كفيل بهم، وان الجوع لا محالة قاتلهم، و(الكوريره) سرعان ما تجيء فتطيح بنصفهم.

وتشهد عبد الكريم وهو يشعر براحة حقيقية حين خلف النحل وراءه في الزقاق وأصبح يشرف على الواسعة التي تحيط بالبركة في وسط البلد.

وانبسط الظلام الكثير أمامه حيث تعشش البيوت المنخفضة الداكنة، وترقد أمامها أكوام السباخ كالقبور التي طال عليها

الإهمال، ولا شيء بقي يدل على الأحياء المكدسين تحت السقوف إلا مصابيح متناثرة في الدائرة المظلمة الواسعة وكأنها عيون جنيات رابضات يقدح منها الشرر! ، ويأتي نورها الأحمر الداكن متبختراً من بعيد ليغرق في سواد البركة.

وتشتت بصر عبد الكريم في الظلام الفاضي، ودار برأسه هنا وهناك، ورائحة الماء الصديء في المستنقع تتلوى مع تقوس خياشيمه. وفي الحال شعر بالضيق يكتم فتحات أنفه، فشدد من قبضة يده، وزاد انحناءه، وكاد يرمي (بالبشت) على حافة البركة.

وكان ما ضايقه وكتم أنفاسه شخير الأرانب أهل بلده، وهو يمتد مع انتشار الظلام، ولحظتها كان ما يلهلب سخطه أكثر هو طنطاوي الخفير، وكوب الشاي (الزردة) التي عزم عليه بها في حبكة المغرب، والتي لولا دناوته، وجريان ريقه عليها ،ما ذاقها.

وتمشى عبد الكريم في الواسعة وأذنه لا تسمع حسا ولا حركة، ولا حتى صيحة فرخة، وكأنه وسط جبانة وليس في رحاب بلدة فيها ما فيها من خلق الله.

وحين بلغ منتصف الواسعة توقف. وكانت لوقفته حكمة، فهو إذا أطاع ساقيه ومشى، أصبح بعد خطوات قليلة في قلب بيته. وإذا أغلق دونه باب الدار، كان عليه أن يخمد أنفاسه وينام. وهذه اللحظة لم تكن في عينيه قمحة واحدة من النوم، بل كان مخه أروق من ماء (الطرمبه)، وأصفى من العسل الأبيض، ولا يهمه السهر ولو

لهلال رمضان.

وكل هذا بسبب دناوته، وسواد الشاي في الكوب، وأفعوانية طنطاوي وبسمته الزرقاء، ودعوته التي لم يفكر في رفضها..

ليس هناك نوم؟.. طيب.

ورجال البلدة الخناشير قد انكفأوا يغطون من زمان، وتركوا الليل لصغارهم الملاعين! فماذا يفعل عبد الكريم؟.

يسهر؟ وأين يسهر؟..

صحيح؟!.. أين يسهر؟..

هل يلعب (الاستغماية) مع الأولاد؟..

أو تزفه البنات وهن يقلن: يابو الريش.. إنشا الله تعيش؟

صحيح.. أين يسهر وهو أنظف من الصيني بعد غسيله، وليس معه قرش صاغ واحد حتى يذهب إلى (غرزة) أبو الإسعاد ويطلب القهوة على البيشة، ويتبعها بكرسي الدخان، ويجلس ما شاء بعد ذلك على ريحة القهوة والكرسي، يراقب حريفة (الكوتشينة) من صبيان المحامين، ويستمع إلى ما لا يفهمه في الراديو، ويضحك ملء قلبه مع السباعي، ويلكز أبو خليل وهو يقهقه، ثم ينتقل إلى مجلس المعلم عمارة مع تجار البهائم، وقد يشارك في الحديث عن سوقها التي ركدت ونامت..

ليس معه قرش!.. جازاك الله يا طنطاوي!..

وهو لا يستطيع أن يخطف رجله إلى الشيخ عبد المجيد،

حيث يجده متربعا والمدفأة أمامه، والكنكة النحاسية تغلي وتوشوش على مهل، والشيحي جالس بجواره، يقص بكل ما في صوته من رنين، ما حدث في الليالي التي شاب لها شعره، والأيام التي انقضت وأخذت معها بصاغته من عقول الناس القدامى الفارغة الطيبة، وجعلته يتوب عن النصب والسرقة وقلع الزرع على أيدي النماردة من سكان هذا الجيل.

لا يستطيع أن يتنحنح ويطرق باب الشيخ عبد المجيد لأنه، أول الأمس فقط، دفع الرجل من فوق مدار الساقية فأوقعه في الحوض، وأضحك عليه الشارد والوارد، لما دب الخلاف بينهما على مصاريف إصلاح الساقية. ومن ساعتها ولسان الشيخ لا يلافظ لسانه.

كان الشيطان ساعتها شاطرا.. ولكن طنطاوي بدعوته أشطر.. الله يخرب بيتك يا طنطاوي..

وماذا عليه لو سحب عصاته (المشمش) ذات الكعب الحديد ومر على سمعان، وانطلقا إلى عزبة البلابسة، فهناك سامر، وليلة حنة، وغوازي، وشخلعة، وعود، وهات إيدك..

وإنما.. من أين يا عبد الكرم (النقطة)؟ ثم.. المساء قد دخل ويجوز أن سمعان ذهب يصالح امرأته من خالها والطريق خائنة، والدنيا كحل..

يا ناس!.. لماذا هو الخائب الساهر وحده؟ وطنطاوي لا شك

قد استنظف مصطبة رقد عليها في (دركـه)، وراح في النوم. . نامت عليه البعيد أثقل حائط.

ومـاذا يحـدث لـو عاد إلى بيتـه هكذا كـالناس الـطيبين، ولكز امـرأته فـأيقظهـا، وجعلها تنيـر المصباح، وتمسـح زجاجتـه، وتشعل الموقد، وتسخن له رغيفا وتحضر الفلفل الباقي من الغداء، وحبذا لو كان قد بقي شيء من الفطيرة التي غمزتها بهـا أمها في الصبـاح، وآه لـو صنعت له بعـدها كـوزا من الحلبة، وجلس كسلطان زمـانه يـرقع الثـلاثة مقـاطف التي بـليت مقاعـدها ويصنـع لها آذانـا وقد تملصت آذانها؟ . .

ماذا يحـدث بالله إذا كان هذا؟ . .

هل تنتقل المحطة من مكانها؟! . .

هل يعمل العمدة ليلة لوجه الله؟ . .

وهل تنطبق السماء على جرن القمح؟ . .

أبدا . . لن يحدث شيء من هذا . .

ولكنه أعرف النـاس بامـرأته، وأعـرف من شمهورش بـرقدتهـا كزكيبة الـذرة المفـروطـة وقد تبعثـر حولهـا الصغار الستـة كالكـلاب الهافتة، ولن تصحو حتى لو نفخ إسرافيل في نفيره، وإذا تفتحت ليلة القدر وقامت فماذا تفعل؟ . .

أهو يحاول الضحك على نفسه؟ . .

وهل الذي يزمر يغطي ذقنه؟..

المصباح بالعربي ليس فيه (جاز) إلا ما يملأ نصفه، والمرأة في حاجة إليه كله لتعجن وتخبز طول الليلة الآتية إذا عاش أحد. ثم الأولاد لا ريب قد جاعوا ساعة المغرب، وأكلوا الفلفل وبآخر رغيف في (المشنة).

وهل تبقى فطيرة الصبح لتنتظر سهرته؟.. وعليه أن يطمئن نفسه، فلك الحمد، ليس في داره حلبة ولا سكر، ولا يحزنون..

ولن يستطيع طول عمره أن يحظى بكوب مثل التي لحسها لحسا عند طنطاوي..

الله يجحم روحك يا طنطاوي يابن زبيدة!..

* * *

ولو أن أحدا عنَّ له أن يقضي حاجته في الواسعة، رأى عبد الكريم في وقفته، مزروعا كزوال المقاتة أمام وجه البركة الداكن، لظن في التو، أن الرجل مسه شيطان أو لبسته شيخة!

وعبد الكريم معذور، فالحيرة التي كان فيها أوسع منه، والمسألة أنه رجل على نياته، لا يقرأ الليل ولا يكتبه، والجيب خال، والليلة شتاء، والشاي يكوي رأسه، وجهلة السهر من أمثاله قد غيبهم النوم من سنة مضت في سابع أرض.

طالت من أجل ذلك حيرة الرجل، وطال وقوفه، وأخيرا فعلها وقر قراره.

وقطع الباقي من الواسعة في استسلام وقد رأى أن يقضي ليلته كما اعتاد قضاء البارد من لياليه . .

وأخيرا استقر في وسط داره، وقد أغلق الباب بالضبة وراءه. وتخطى أولاده وهو يزحف في الظلام على قبوة الفرن حيث يتناثرون. ومصمص بشفتيه وهو يئن منهم ومن الظلام، ويعتب بينه وبين نفسه على الذي رزقه بستة بطون تأكل الطوب.

وكان يعرف طريقه، فطالما علمته ليالي البرد الطريق. وعثر آخر الأمر على امرأته. ولم يزغدها، وإنما أخذ يطقطق لها أصابع يديها، ويدعك قدميها اللتين عليهما التراب بالقنطار ويزغزغها في خشونة بعثت اليقظة المقشعرة في جسدها.

وصحت المرأة على آخر لعنة أصابت طنطاوي في ليلته. وسألته في غير لهفة وفمها يملؤه التثاؤب عما جناه الرجل حتى يسبه في عز الليل.

فقال وهو ينضو ثيابه، ويستعد لما سيكون:

ـ هـه . . الله يخرب بيت اللي كان السبب . .

* * *

بعد شهور كانت النساء كالعادة يبشرنه بولد جديد، وكان هو يعزي نفسه على السابع الذي جاء في آخر الزمان، والذي لن يملأ طوب الأرض بطنه هو الآخر . .

وبعد شهور وسنوات كان عبد الكريم لا يزال يتعثر في جيش النمل من الصغار الذين يزحمون طريقه في ذهابه وأوبته وكان لا يزال يتساءل كل ليلة أيضا، ويداه خلف ظهره، وأنفه يشمشم حوله، عن الفتحة التي في الأرض أو السماء، والتي منها يجيئون! . .

نظــرة

كـان غريبـا أن تسأل طفلة صغيـرة مثلها إنسـانـا كبيـرا مثلي لا تعرفه في بساطة وبراءة أن يعدل من وضع ما تحمله، وكان ما تحمله معقدا حقا. ففوق رأسها تستقر «صينية بطاطس بالفـرن». وفوق هـذه الصينيـة الصغيرة يستـوي حوض واسـع من الصاج مفـروش بالفـطائر المخبوزة. وكان الحوض قد انزلق رغم قبضتها الدقيقة التي استماتت عليه حتى أصبح ما تحمله كله مهددا بالسقوط.

ولم تـطل دهشتي وأنا أحـدق في الـطفلة الصغيـرة الحيـرى، وأسـرعت لإنقاذ الحمـل. وتلمست سبلا كثيـرة وأنـا أسـوي الصينيـة فيميـل الحـوض، وأعــدل من وضـع الصــاج فتميـل الصينيــة. ثم ضبطهمـا معا فيميل رأسـهـا هي. ولكنني نجحت أخيرا في تثبيت الحمل، وزيادة في الاطمئنـان، نصحتها أن تعـود إلى الفرن، وكـان قريبا، حيث تترك الصاج وتعود فتأخذه.

ولست أدري مـا دار في رأسها فمــا كنت أرى لهـا رأسـا وقـد حجبه الحمل. وكل ما حدث أنها انتظرت قليلا لتتأكد من قبضتها ثم مضت وهي تغمغم بكلام كثير لم تلتقط أذني منه إلا كلمة (ستي)...

ولم أحول عيني عنها وهي تخترق الشارع العريض المزدحم بالسيارات، ولا عن ثوبها القديم الواسع المهلهل الذي يشبه قطعة القماش التي ينظف بها الفرن، أو حتى عن رجليها اللتين كانتا تطلان من ذيله الممزق كمسمارين رفيعين.

وراقبتها في عجب وهي تنشب قدميها العاريتين كمخالب الكتكوت في الأرض، وتهتز وهي تتحرك ثم تنظر هنا وهناك بالفتحات الصغيرة الداكنة السوداء في وجهها، وتخطو خطوات ثابتة قليلة وقد تتمايل بعض الشيء، ولكنها سرعان ما تستأنف المضي.

راقبتها طويلا حتى امتصتني كل دقيقة من حركاتها، فقد كنت أتوقع في كل ثانية أن تحدث الكارثة.

وأخيرا استطاعت الخادمة الطفلة أن تخترق الشارع المزدحم في بطء كحكمة الكبار.

واستأنفت سيرها على الجانب الآخر وقبل أن تختفي، شاهدتها تتوقف ولا تتحرك.

وكادت عربة تدهمني وأنا أسرع لإنقاذها. وحين وصلت كان كل شيء على ما يرام، والحوض والصينية في أتم اعتدال أما هي فكانت واقفة في ثبات تتفرج، ووجهها المنكمش الأسمر يتابع كرة من المطاط يتقاذفها أطفال في مثل حجمها، وأكبر منها، وهم يهللون ويصرخون ويضحكون.

ولم تلحظني، ولم تتوقف كثيرا، فمن جديد راحت مخالبها الدقيقة تمضي بها. وقبل أن تنحرف، استدارت على مهل، واستدار الحمل معها، وألقت على الكرة والأطفال نظرة طويلة.

ثم ابتلعتها الحارة.

الشــهادة

مـا كدت أضـع قدمي في قـطار حلوان حتى استـرعى انتبـاهي رجـل جالس في آخر العربـة، منهمك في مطالعة جريدة.

وتـوقفت لحظة، وفي ثـانية واحـدة كان كـل شيء أعـرفـه عن الـرجل قـد بدأ يبـرق في ذاكرتي كـالأنوار الخـافتة البعيـدة. وأمسك وعيي بخيـوط واهية تـربطني بجـزء قديم من حيـاتي، وراح يجذبهـا برفق. وفي كل جذبة كنت أستعيـد يوما، وأيامـا، وسنوات غيـر قليلة قضيتهـا في مدرسـة دمياط الثـانويـة وأستعيـد معهـا أحـلام صبـاي، وسحـرية دميـاط تتقاذفهـا وتلهو بهـا، وأماني مـراهقتي وهي تـدفعني وحيـدا، غريبـا، في عالم البلدة الـذي يكسوه ضبـاب شـاعـري يلف الناس والوحدة والسكون..

وتـراجعت بي الأيـام إلى مبنى المـدرسـة الكبيـر، وحـوشهـا الـواسع، وأطفـال وشبان صغـار يلهـون فيـه بـطرابيشهم التي فقـدت معـظم خيوط أزرارهـا، وتثنت جـدرانهـا، وتعـود الأيـام إلى الفصـل الضيق، ومقعدي في أول الفصل، والحفني أفنـدي مصطفى مـدرس الكيميـاء يكـاد يحتـل كـل مـا بقي في الفصـل من فـراغ، بكـرشــه

الضخم، ورقبته الغامضة المختفية وراء شحم كثير ينسدل من تحت فكه، ووجهه السمين ذي التجاعيد الغليظة، وسترته التي حال لونها، والتي كانت أصغر بكثير من جسده، وسرواله الذي يحشو فيه ساقيه المنتفختين حشوا فيبدو كشراب طويل، وكلماته البطيئة التي تفصلها فترات حزق طويلة وهو يشرح، حتى إذا ما أخذه الحماس، واستطرد مسرعا في شرحه تتلاحق أنفاسه لاهثة، ويمد يده يخرج منديله المنكوش يمسح به العرق الذي يقطر من حواف تجاعيده.

ومع أن تلاميذ الفصل كان لهم هدوء أهل دمياط إلا أنهم ما كانوا يستطيعون أن يتمالكوا أنفسهم في حضرة الحفني أفندي، وكان المخضرمون الجالسون في أواخر المقاعد هم أحسن من يقلدونه، وأول من يضحكون عليه إذا أدار ظهره، والبادئين برش الحبر من ريشهم على سرواله حين يمر بين التخت، وهم الذين يلصقون له ذيول الورق الملون في سترته إذا ما هم بمغادرة الفصل، وما كان يكتشف ما حدث له عادة إلا في الحصة الثانية حين يدخل، وفي وجهه صرامة عسكرية، وعلى خدوده احمرار فاقع، وفمه لا ينطق بحرف، وإنما يزغر لنا كلنا ونحن واجمون صامتون، ويختار أي تلميذ، وغالبا ما يكون من الجالسين في الصفوف الأمامية، ويلعن أباه، ثم يهدأ الحفني أفندي.

ومع ذلك كان يعاملنا كالرجال الكبار، وكثيرا ما كان يقطع الدرس ويحدثنا عن متاعبه، فقد كان يقيم وحيدا في لوكاندة وكانت عائلته في مصر، فيكلمنا عن الجزار الذي خدعه، وباع له رطل

اللحم ثلاثة أرباعه عظام، وخادم اللوكاندة الذي أكل من الباقي قطعتين كبيرتين حين أرسله يشوي اللحمة، وكيف أصبح ذات مرة فوجد حافظته قد اختفت وفيها اثنان من الجنيهات..

ويحدثنا عن ابنه الذي يغوي البنات في مصر، والذي رسب ثلاث مرات في السنة الواحدة من أجل هوايته، وعن امرأته التي تأبى أن تسكن دمياط، والتي يرسل لها في أول كل شهر معظم ماهيته.

كنا نسمع منه هذا، ونضحك في بعض الأحيان، ونتظاهر بالحزن في بعضها، وهو لا يشاركنا في كليهما، وإنما كان وجهه يحفل بالاشمئزاز والاشمئناط كمن يعاني من مغص دائم.

وما كان الرجل يلقى تقديرا من أحد، فتلاميذه يعبثون به، وزملاؤه يسخرون منه، والناظر يتجهم في وجهه ويلذعه كلما رآه بالنقد، والمفتشون يكتبون عنه أزفت التقارير بل لا يتورعون عن تجريحه أمامنا في الفصل.

وكنت من المجتهدين الجالسين في أول الصفوف، الذين تهدد اللعنة في أي وقت آباءهم.

وكنت أكره (الشرز) الواحد الذي يرتديه صيف شتاء حتى كان يخيل إليّ أن زغبه الخشن ينغرز في جسدي أنا، وكنت أكره رباط عنقه الذي يلقيه على ناحية نائية من ياقته، وأكره أصابعه الملفوفة القصيرة، وهو يهرش بها كرشه المنبعج، وأكره أسنانه الصفراء بغير دخان، ومنديله المتكرمش المتسخ حين يخرجه من جيبه ويدعك به

أسنانه في وسط المعادلة التي يشـرحها ثم يعيـد المنديـل، ويستأنف الدرس، وكأن شيئا لم يحدث.

مـع أني كنت أكره كـل هـذا منـه إلا أنني كنت أحبـه ،فـوراء جسـده التخين القصير، ومشيتـه المتطـوحـة، وصـراحتـه، ونـظرتـه المـمغوصة، وطربوشه الملقى إلى الخلف في قلة اكتراث، كان وراء هذه طيبة كنـا نتحسسها بقلوبنـا الصغيرة، فنحبـه، ولكن حبي له مـا كـان يمنعني من المشاركـة في الضحك عليـه، ولا من سترتـه وقـد أغرتني ذات يوم فعلقت له فيها ذيلا.

ولا أنسى يـوم دخل علينـا الفصل، وتـرنحنـا ونحن نقف لـه، وتناول من تحت إبطـه أوراق إجاباتنـا في امتحان الفترة، وسكتتنا فقد كـان كل مـا يمت إلى سيرة أي امتحـان كفيلا بـإشاعـة الرهبـة فينا. وأفسـح له سكـوتنا واديـا متراميـا راح يندد فيـه بخيبة تـلاميـذه، وقلة نفعهم.

وبعد أن التقط أنفاسه الكثيرة اللاهثة التي تعقب حماسه، أشار إليّ ،وأشاد بإجابتي، وأخرج ورقتي وتلاها كنموذج للإجـابة. وأقـول الحق سرت في بدني فرحة عظمى أعادت إليّ ذكـرى اليوم الجليـل في حيـاتي، يـوم رأيت نمـرتي بين الأرقـام النـاجحـة في امتحـان الابتدائية.

ولقبني بعـدهـا زعيم الكيميـاء، وسقت أنـا فيهـا رغبـة في

الاحتفاظ باللقب، مضيت أذاكر كالآلة حتى انتقل الحفني أفندي إلى مدرسة أخرى.

وكان وداعنا له حافلا..

كان كل ما تذكرته مجرد قبضة واحدة سريعة من ذكرياتي، مرت بخاطري، فأشعلت النار في رماد حياة بأسرها، عشتها، ونسيتها، وأصبح بيني وبينها ما زيد على عشر سنين.

وما أن انتهى الوهج الذي خلفته القبضة حتى كنت قد عبرت ممر العربة، ووجدت نفسي أقف في آخرها أمام الرجل الذي في يده الجريدة.

وجلست على المقعد المقابل، وسألته في كثير من التهتهة إن كان يذكرني.

ونظر إليّ الرجل بنفس نظرته المشمئزة الممغوصة، ولم يقل شيئا، فاستطردت ألحم الكلام في الكلام، وأدخل الثالثة فصل أول في المعادلات وقانون الغازات، وأنبوبة الاختبار التي انفجرت ذات مرة، والرفاعي والدغيدي وأحمد مسلم من شطار الفصل.

وبعد كثير بان على الرجل أنه تذكرني، أو بالأحرى تذكر صبيا صغيرا يشبهني كان من تلاميذه. ولم يظهر عليه أنه سر لهذه الذكرى فلا ريب أنه استعاد أذيال الورق الملون، وتأنيب الناظر، وعبث الجميع به.

ولكني انطلقت أحدثه عن الأيام التي مضت، والسنين التي لم تغير في مظهره، ولم تضف إلى علامات العمر فيه علامات جديدة، وحدثته عن الكلمات الصغيرة السريعة التي كان يغمرني بها، والتي أصبحت علامات بيضاء دفعتني قويا في طريق الحياة وعن التقدير الذي أختزنه له من زمن..

وتعجب قليلا، وبعد أن كان واضحا أنه يضن بالكلام، وبدأ يحدثني حديث الإنسان عن المدارس التي تنقل فيها، وعن الوزارة التي تضن عليه بالدرجة، وعن زملائه الذين أصبحوا نظارا وهو لا يزال مدرسا، وعن امرأته التي طلقها، ونفقتها التي تستغرق مرتبه، وابنه الذي ترك المدارس وذهب يمثل في السينما.

وسألته عن طلبة هذه الأيام وأنا أضحك، فلم يجبني، وإنما أخرج منديله العتيد من جيبه، ودعك أسنانه ثم بصق من النافذة.

وذكرته بحكاية زعيم الكيمياء فابتسم لأول مرة، وأخذ ينصت باهتمام حين قصصت عليه كيف دخلت مسابقة الكيمياء وكنت الأول، وكيف التحقت بكلية الطب وتخرجت، ولي سنين وأنا طبيب..

وحين وصلت إلى هذا الحد، انفجر في ضحكة طويلة اهتز لها كل أرجاء جسده، وزغدني في كتفي وهو يقول:

- يا شيخ اتلهى!.. اتلهى!..

وحتى حين أطلعته على بطاقتي الشخصية وأنا أقول له:

ـ كل ده بفضلك . .

بان عليه حرج كبير وضرب كفا بكف وهو يقول:

ـ في المدة القصيرة دي . . تبقى دكتورا . . دكتورا! . .

فقلت مرة أخرى:

ـ كل ده . . بفضلك .

وكنت أقولها في حماس الصبي الذي كان في دمياط، وفي رهبة الفتى أمام أستاذه، وفي تلعثم المبتدئ حين يقابل الفنان الذي وصل .

وطول المدة التي أمضاها في مدرستنا ما رأيت الحفني أفندي سعيدا أبدا، ولذلك تفرست في ملامحه وقد بان فيها تعبير بدائي عن سعادة تطرق وجهه ربما لأول مرة .

وأخذ يفرك كفيه، ويطبطب على فخذه، ثم يروح بالجريدة عن وجهه الذي احتلته ابتسامة واسعة بانت لها أسنانه وقد أسود صفارها القديم .

وبين الفينة والأخرى يردد:

ـ والله عال . . أهو واحد من دمياط نفع . . والله عال . . واحد نفع . .

وأقول له اننا كلنا نفعنا، ولكنه لم يكن معي، وإنما كان يستغرقه شعور قوي يشيع فيه أحاسيس لا عهد له بها.

وجاءت المعادي، وكاد ينسى أنها محطته، وشد على يدي بحرارة وهو يشكرني بأنصاف كلمات. ولا أدري على أي شيء كان يشكرني، وودعته حتى باب العربة وابتعد القطار بي، وهو يلوح بيده، وفرحة كبيرة تقلقل خطواته، والابتسامة تتموج في وجهه، وسعادة غامرة تطفح من عينيه..

كان كالطفل الذي نجح لتوه في الشهادة الابتدائية.

على أسيوط

ـ يا سيدي.. والنبي يا سيدي.. يا ناس.. يا ناس حرام عليكم.. دانا جي من أسيوط.. جي ماشي يا ناس.. على رجلي.. ويقالي هنا أسبوع.. سبع ليالي بايت.. نايم على الرصيف قدام المستشفى.. دانا مريض.. مريض يا عالم.. غلبان يا هوه.. ورجلي ما عنت طايق ريحتها.. المدة ضربت في وركي.. دا محرام.. والنبي دا حرام.. واللي خلق النبي دا ما يخلصوش..

وقبل أن تمتد أذرع «التومرجية» القوية تنتزعه، وتعيده من حيث جاء، تململ الطبيب في كرسيه، وقطع الحديث الدائر بينه وبين الحكيمة، واستدار إلى المناكف الجديد..

وعبر الطبيب على الوجه الصدئ الذي أمامه، والذي كله شعرات وفجوات وغضون.. عبر في سرعة وفي ملل، فالمترددون على المستشفى كلهم ملبدو الوجوه بغيوم الحاجة والمرض. ولكن الطبيب توقف قليلا، متفرجا، عند ملاءة السرير القديمة التي أسود لونها الأصفر الباهت، وامتلأت بالبقع والخروق، والتي عمم الرجل

بها رأسه، وتدلى طرفها بجانب وجهه كذيل ملطخ بالوحل لكلب عجوز.

ورمق الطبيب في قليل جدا من الدهشة رجله الملفوفة في عدد كثير من الخرق والأشرطة والجوارب القديمة من مختلف الألوان والأحجام، وقد كست رجله من قمة أظافرها إلى مفرق فخذيه، فضخمت الرجل وكبرتها حتى أصبحت كصبي مستقل صغير يرتكز عليه الرجل في ناحية، ويستند في الناحية الأخرى إلى فرع شجرة غليظ ملتو غير مشذب.

انتهى الطبيب من استعراضه في لمح البصر؛ واستقرت عينه على الشيء الذي يهمه من كل هذا.. على ورقة المستشفى البالية المتسخة، وقد استماتت قبضة الرجل عليها. وفي الحال شد منه الورقة، وقلبها في اشمئزاز، ثم انفرجت أساريره فجأة، وزأر في الرجل:

ـ يا بني آدم.. أنا مش محولك من أسبوع لعيادة الجراحة.. ايه اللي جابك هنا تاني؟.. هنا يا مغفل حاجة اسمها الاستقبال بس.. فاهم..

وقفز «التومرجي» يشاطر في الزئير ويقول:

ـ دا مكتوب له.. يحول في عربة كمان.. أما ناس ما بتختشيش..

وكاد الرجل أن يبتسم لولا أن وجهه خانه فبدأ يغمغم:

ـ يا خيه يا سعادة البيه.. ما الجراحة حولت الباطنية.. وباطنية حولت لسرية.. وسرية حولت لجلدية.. وآديني رجعت تاني.. وبقالي أسبوع يا سعادة البيه بارقد على الرصيف.. وآخـ..

ورد الطبيب بسرعة وغضب:

ـ طاب.. وحاعملك إيه؟.. وانا مالي يا أخي؟.. أنا ملزوم؟.. أنا ملجأ؟.. أنا لوكانده.. اسمع.. مش عايز دوشه.. أنا حاحولك الجراحة تاني.. في عربية برضه.. إنما وشرفي لو شفت وشك بعد كده..

ورفع الرجل يده الفارغة، وأمال جسده حتى كاد يلمس المنضدة التي يجلس إليها الطبيب، واندفع يقول ولا شيء يوقفه:

لا.. لا.. لا والنبي يابيه.. أنا مش عايز علاج واصل.. والنبي يابيه دانا..

وانفجر الطبيب كالبركان:

ـ أمال عايز ايه؟!..

وكان انفجاره هو إشارة البدء لأيدي «التومرجية»، لكي تلتف في جبروت حول الرجل وتقتلعه من الغرفة، فناضل بكل ما يملك ضعفه من قوة يحاول تخليص نفسه. وقال في وهن ومسكنة:

والنبي يابيه.. والنبي.. وحياة والدك.. مش عايز الجراحة.. حولني على بلدي.. حولني على أسيوط..

أبو سيد

الدنيا كلها سكون، والصوت الوحيد الذي يتسرب إلى الحجرة كان ينبعث من «وابور الجاز» وهو يون في ضعف مستمر واهن وكأنه نواح طفل عنيد مسلول، ولا يقطع الون الشاحب البعيد إلا زحف «الكوز» على أرض الحمام، ثم صوته وهو يبتلع الماء ويصبه بعد ذلك في ضوضاء مكتومة . .

واستمر الوابور يون، والكوز يزحف ويبتلع وينصب ماؤه، وصفيحة الماء تقرقع، استمرت الأصوات كلها تتضارب وتحلق كالوطاويط في سماء الحجرة، حتى جاد الوابور بآخر أنفاسه، وانطفأ، وعاد المكان إلى سكون الدنيا الثقيل.

ومضى وقت طويل قبل أن يفتح باب الحمام، ويسمع رمضان نقيق «القبقاب» على البلاط وهو يقترب، ويعلو وهو يقترب، حتى دلفت امرأته إلى الحجرة، وأحس بنفسها الذي ليس غريبا عليه يملأ الجو.

وظل «القبقاب» رائحا غاديا، وضوء المصباح ينتقل من مكان إلى مكان، وهمهمة حزينة خافتة تنحدر وتعلو من فم امرأته مع

اقتراب الضوء وابتعاده. . ظل هذا يدور ورمضان مغلق عينيه، ومصر على إغلاقهما، ولم ينتفض ويفتحهما إلا على قطرات من الماء البارد تلسع وجهه.

وجمده قليلا مشهد امرأته وقد وقفت منكوشة الرأس، والمشط الخشبي في يدها، تدكه بين غزارة شعرها الأكرت، ثم تشده بكل ما تستطيع ليحرث طريقه بين الجذور والسيقان، وقد زمت وجهها السمين الخمري اللامع، وارتسمت دقائق التجاعيد حول أنفها السهل الفاطس، وبان النور من عينيها اللتين ضيقتهما في فروغ بال، بينما رذاذ الماء تدفعه جذبة المشط فيتساقط هنا وهناك، وعلى ثوبها الشيت النظيف ذي الورود الكبيرة الباهتة.

وانتهى جمود رمضان، ثم عاد إلى نومته وقال في شيء من التحدي وهو يغلق عينيه:

ـ مش تحاسبي يا وليه. . قزازة اللمبة حطق من الميه. .

وردت المرأة بكلام مضغوم لم يفسره، ولم يهتم به، فقد عاد يتنفس بعمق، ويكن رجله ثم يفردها، ويشخر بمطلق إرادته، ثم قرر أن ينام.

وحين كان يجذب اللحاف فوق أكتافه، وارب عينيه، وألقى نظرة أخيرة على زوجته التي كانت يدها تمتد إلى المصباح تمسيه، وشعرها قد تم نظامه، وازدادت لمعته، ووجهها قد أبيض حتى كادت

تختفي تجاعيده في تلك الابتسامة الكبيرة الرائعة التي احتلت وسطه..

وارتعش رمضان، وأسرع يصفق عينيه في عنف، فقد كان يعرف من زمان سر هذه الابتسامة.. فاليوم يوم الخميس.. والليلة ليلة الجمعة..

وأحس الرجل بالسرير ذي الأعمدة الرفيعة يهتز، ويزيق، ثم بامرأته تستوي على السرير، وتدخل تحت الغطاء، وعبقت في الدنيا التي يصنع اللحاف سماءها رائحة المرأة مختلطة برائحة ثوبها الشيت، ورائحة الصابون الرخيص الذي دعكت به جسدها.

وكح رمضان وكان لا يريد أن يكح. وطال سعاله وقالت امرأته ووجهها إلى الناحية الأخرى في صوت حنون ذليل:

ـ مالك ياسي رمضان..

ثم سكتت قليلا قبل أن تقول في همس خافت مليء بالاثم:

ـ أوعى سيد يكون صاحي..

ولما لم يرد، تنهدت في حرقة تصاعدت من كبدة قلبها، واهتزت أعمدة السرير وهي تستدير لتكمل آهتها، حتى أصبح وجهها يتدفأ بكثير من الحرارة والخشونة المنبعثة من رمضان.

وكان الرجل ساعتها يلهق، ولفح أنفاسه يحملها بعيداً.. إلى حيث لا يراهما أحد، ثم يلوكها في نشوة ويدغدغ ضلوعها في حنان، ومدت يدها وملست على جبهته اللزجة بالعرق، ثم أرسلت

أصابها تتحسس رقبته الغليظة النافرة العروق، وقالت في صوت خنقته وأطالت فيه حتى غدا كمواء قطة جائعة:

ـ اسم الله عليك يا خويا. . اسم النبي حارسك يا ضنايا.

وكح رمضان، وكان لا يريد أن يكح ، وزام من خلال فمه المطبق، ثم اهتز السرير وهو يستدير ليعطيها ظهره. .

وما كانت هذه أول ليلة يستدير فيها، ولا كانت هذه أول مرة يكح فيها ويزوم ويعبس. وهو لا يذكر كم شهرا مضت، وهل بدأت المسألة عقب أيام العيد الصغير أم قبله، وهناك ضباب كثيف بينه وبين البداية، فما فكر في الأمر أبدا ولا اعتبر ما حدث ـ يوم حدث ـ بداية لأية نهاية. . تماما كما لم يتبين جاره سي أحمد الكمساري في شركة الأوتوبيس أن السخونة التي أصابت ابنته يمكن أن تكون البداية لنهاية يعزيه فيها الناس على البنت.

والناس على هذه الحال، وكذلك ورد ما أصابه في تلك الليلة إلى نوبة البرد التي ألمت به، ومرت أيام. وراح البرد من جسده، وحين استيقظ ذات صباح، ووجد العافية قد ردت إليه، قرر أن يفعلها في نفس المساء.

وانشرح خاطره لقراره ومضى إلى الميدان يردد في انتعاش مطلع الموال الوحيد الذي يعرفه. وتسلم صرة الميدان كما تركها، ووقفت العربات لإشارته كما اعتادت أن تقف، ويده قوية في قفازها الأبيض القديم كما كانت طول عمرها، ويدلته بزرائرها الصفراء

اللامعة محبوكة عليه، تبرز أكتافه، وتضيق فوق كرشه فتكوره وتجعله كالبطيخة أمامه، وقبعته يلمع فوقها الدهان الذي لا يفلح في إخفاء كل ما فيها من قذارة وبلى، وقلمه الثابت الثقيل في يده يلتقط نمرة العربة في سرعة الواثق من يومه وأمسه وغده يدونها بخطه الواضح الذي كان يفخر بجماله.. كانت الدنيا هي الدنيا.. الدنيا التي هنا، والتي هو ملكها، كانت لا تزال بخير، ولا يزال يتربع على عرشها، ويحكمها بصفارته، ويعز من يشاء، ويذل من شاء فقط متى لوح بقفازه..

وحين كان يكتب أول مخالفة كان عقله سارحا في الليلة التي سينفض فيها عن نفسه خمول المرض الذي لازمه أسبوعا، ولكن أمور اليوم شغلته، وعيونه الزائغة هنا وهناك تنقر المخالف من تحت حافة القبعة، هذه العيون ألهته عن الخاطر، ولم يتنبه له إلا هناك.. حين كان يجاهد في خلع حذائه الميري الثقيل وقد ألقى بجسده المنهوك على «الكنبة» وامرأته تلقي إليه بتحيتها الوادعة، ثم تتربع على الأرض وتقول في حماس أطفأت العادة جدته:

ـ عنك أنت.

وطوقت يدها اللينة قليلاً سمانة رجله بينما مقدمة حذائه أصبحت مدفونة بين أثدائها، وحينئذ نقر الخاطر فوق رأسه.

ولم يعتبر ما جاء في باله عملا صبيانيا، فراح يزغزغ المرأة بحذائه الثقيل العريض، وهي تضحك، وتنهره، وتدفعه، وتميل إلى

الوراء، ثم على جانبها حتى تكاد تلمس الأرض، وتشـدد من قبضتها على عضـلات رجله، وتـرخي القبضـة في بطء، وهـو قـد استمـرأ اللعبـة، وانتشى وهـو يعب من صـوت امـرأتـه التي كـانت تمـطه، وترفعه، ثم تحيله همسا، ونصفها يضحـك، ونصفها يتـدلل، وكلهـا تريد وترغب. .

* * *

في ضبـاب البدايـة يذكـر رمضان هـذه الليلة ولا ينساهـا، فقد حاول في كل دقيقة منها وسالت عليه بحور العرق، وقـد أصم شعوره عن العالم، وأصبح هو وامرأته والفراش كل دنياه وتفكيره.

وأزاحتـه المرأة مـرات ومـرات، ولعن أبـاهـا آلاف المرات، والمعـركـة تـدور وتـدور لا تهبط إلا حين يتململ الصبي حتى يكـاد يستيقظ، وتبدأ حين يعود إلى غطيطه ويعـود اللعاب يسيـل من جانب فمه. .

وهجعت المحـاولات قـرب الفجـر، ونـامت المـرأة، ولم ينم رمضان.

وليلتها مضت، وليلة أخرى جاءت، وصراع جديد نشب، وثقة رمضان في نفسه ورجولته تستميت وهي تـدافع عن نفسهـا، والواقـع وما يحدث يسلب هذه الثقة كل ما تملك.

وأخيـرا سلم رمضان بعـد ليـال، وقـال لنفسـه في صبـاح يـوم بصوت لا يدري أكان مسموعا أم غير مسموع:

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله. . واللا ضعت يا رمضان واللي كـان كان. .

ولم تكن أول مـرة يتحاشى فيهـا امرأتـه وهي تقدم لـه الفطار، وإنما كان يود أن يزيحهـا في هذا اليـوم من أمامـه، ثم يسرح ويخبط رأسـه في الحائط عله ينفلق. كـان شيء غريب يـدور فيـه، فبـالقـوة والعـافية والعـرق والليالي الـطويلة كان عليـه أن يصـدق أنـه لم يعـد رجـلًا. وكان هو يأبى أن يصدق، ويكابر هذه الحقيقة وهـو مكسوف خجل كما لو كانوا يزفـونه في البلد فـوق الحمارة وهـو عاري الجسـد وعلى رأسه كومة طين.

ويعود من جديـد يقول وكـأنه يتلو آيـة الكرسي ليـطرد جنية من الجان:

ـ واللا ضعت يا رمضان، والـلي كان كان.

ويصمت ثم يقـطع لقمـة كبيـرة مـن الـرغيف ولا يـأكلهـا. . ويقوم، وينظر من النـافذة ثم يكـح ويبصق بصقة كبيـرة على العشش التي فوق السطوح أمـامه ويعـود إلى جلسته أمـام الطبليـة ويسرح في صمت طويل آخر وهو يحـدق في الطعـام ويمضغ صمتـه حتى يشبع فيـرتدي البـدلة وكـأنـه يخلع مـلابسـه ثم يتسلل من البيت كحـرامي النحاس، وجسده هارب منه، وأطرافه لا يعثر عليها. .

وحين يقف وسط الميدان، والعربـات تزدحم حـوله، والأرض والسماء تتحرك، وهو وحده الـواقف الهامـد الضائـع. . حينئذ يشعـر

بتفاهة هذه المملكة التي له، ويضايقه القفاز الأبيض، ويحس بالقبعة وكأنها حجر الطاحونة يكتم أنفاسه.. ويومها لا يقيد محضرا واحدا، وماله هو والمحاضر والمخالفات، فليدع من يخطئ يخطئ، ومن يتحطم يتحطم، ومن يقتل يقتل.. وهل هو الذي ينظم الكون.. لعن الله العربات وأصحاب العربات، والمرور وكل ما يمت إلى خلية النحل التي يلسعه ودويها وصرخاتها.

ولأول مرة في حياته كره بيته، ووجه امرأته النحس، ولم يعد تواً إليهما..

وفي خطوات لا يهمه وقعها، ولا أين تقع راح يدق الشارع بحذائه الثقيل، وقد كفأ القبعة فوق جبهته، وامتلأت أخاديد وجهه بالاشمئزاز واليأس، وفك حزامه العريض، وتمنى أن ترحمه عربة نقل وتأكله. ووصل أخيراً إلى باب الإنسان الذي لا يصادق في المدينة إنسانا سواه. وطرق الباب ـ ونادرا ما كان يطرقه ـ ولم يفاجأ طنطاوي، وإنما رحب به وسأله عن الصحة وكالمعتاد عن البلد والقرايب والنسايب والذي مات والذي عاش ومن تزوج. ولكنه فوجئ فعلا حين قطع رمضان أسئلته وقال في جد:

ـ اسمع يا واد يا طنطاوي.. عايزين تعميره..

ولم يكن رمضان يشرب الحشيش كثيرا، ولكنه شرب هذه المرة حتى ان طنطاوي لم يأتمن الطريق عليه فأصر على مرافقته. ولم يرفض رمضان، ولم يقبل، ولم يرد على أسئلة صاحبه عن السر

الذي يكمن وراء سكوته.

وفي الطريق سرح رمضان بعيدا، وأوغل في الزمان والمكان، حتى وصل سكينة جارتهم في بيتهم القديم على الترعة، ثم السنوات القليلة التي أعقبت بلوغه.. وكان رمضان يتوقف عن السير، ولا يدري لماذا، ثم تجذبه ذراع طنطاوي فيمشي، ويسرح ثم يتوقف، حتى خطر له خاطر قاله في انبهار:

ـ يكونشي ياولاد الحشيش ينفع!؟.

وانفجر ضاحكا وقد كف عن المشي، وغمغم الطنطاوي وهو يهز رأسه في رثاء:

ـ الجدع انسطل والنبي..

وهم رمضان أن ينطق، وكادت الكلمة تغادر فمه، ولكنه لحق نفسه، وابتلع الكلمة، وابتلع معها ريقه الجاف. وحين جره الطنطاوي من يده عاد حذاؤه يقرع الطريق مرة أخرى.

* * *

ـ ولم ينفع الحشيش... أبداً.

وعاش رمضان بعد لياليها صامتا.. لا يتحدث إلا حين يمد إنسان يده فيستخرج من جوفه كلاما كالعصارة الفاسدة لا نكهة له ولا معنى، وإنما هو مزيج من الضجر والتبرم يعكره سخط غامق بليد، وامرأته تتكلم، وتكثر من الكلام، وهو لا يتحرك. وعمله في الميدان

أصبح علقما يشربه في بطء الساعات التي يقضيها نصف واقف، وتحيته التي طالما انتفض بها لرؤسائه في مرورهم تضاءلت ووهنت وأصبح ينتزعها من جسده كما ينتزع الناب الفاسد. وأصبح يتخبط في حبل طويل من الأكاذيب التي يقصها على الطبيب فيمنحه اليوم أو اليومين إجازة يقضيها حيث لا يقضيها.

وعمره ما عاد لبيته إلا ويده مشغولة بشيء، ولو بربطة فجل فصار يعود ويده خاوية تتأرجح بجانبه وكأنها ليست من جسده.

وفي ذات عودة، سلم على حماته وكانت قد حضرت لتوها. وتندى جبين امرأته لبروده وعدم مبالاته، وأكلت النيران قلبها وحديثه لأمها لا يخرج عن: إزيك.. سلامات، ثم صمت طويل من صمته البارد، تعقبه سلامات أخرى حتى ضاقت الضيفة فلم تكد تلهف صلاة العشاء حتى تمددت على السرير وهي تئز بآهاتها وتشكو من مفاصلها.

ولم تمض ساعة حتى كان ممددا بجانب ابنه وامرأته على الحصيرة تحت أقدام الفراش.

وأيقظته حماته حين عثرت به لما قامت تتوضأ قبل الفجر. وحين كانت تخطئ كعادتها وهي تقرأ الفاتحة بصوتها الخشن، كان يسأل نفسه بعدم اكتراث، ترى ما الذي جاء بها؟..

وكان الجواب ينتظره في المساء حين تنحنحت الحاجة بعد العشاء وقد تربعت على الأرض وأسندت ظهرها إلى الحائط

وانتهت من إحاطة نفسها ورقبتها وصدرها بالمحرمة الكبيرة البيضاء، وبدأت تقول بصوتها المبحوح:

ـ بقى يا بني ما خبيش عليك..

والحق أنها أخفت عنه الخطاب الذي أرسلته لها ابنتها من ورائه، وإنما راحت تسوق له القصة في حنكة العجائز، وكان صمته هو الذي شجعها على أخذها دور أمه وأخته ثم ناصحته حين قالت:

ـ وكل عقدة وليها يا بني حلال.. ألف حلال..

عقدة ماذا؟ وحلال ايه؟! وماذا جاء بك ؟! ومالك أنت وما أضناك يا ابنة المركوب؟! وبدأت اللعنات التي تنهال من داخله إلى داخله تصنع بصابيص النار التي ألهبت ثورته. فحتى هذه اللحظة لم يكن قد أدخل امرأته في المسألة، ولم يعترض وجودها وشعورها ورأيها طريقه وهو يترنح في الخرابة وحده، إنه ليس وحده.. ومن يدري كم معه الآن؟.

وشبت الثورة في حريق هائل قلب الطبلية وأطفأ المصباح وسمع الجيران طقطقة حطبها حين علا صوته في زئير مرتفع:

ـ عليَّ الطلاق ما انتي نايمة في بيتي..

وباتت الحجة وابنتها عند الجيران وقبل الشروق كان القطار يحمل الأم وحدها إلى البلد، ولو كان للبنت مكان في دار أخيها لحملها هي الأخرى..

كان رمضان في نفس الوقت يتسرب من الحارة وهو يتلفت حوله حتى لا يراه أحد، وحين قابله أبو سلطان وصبح عليه غمغم بتحية قصيرة، ورأسه منكس، وأقدامه تسعى في عجلة حتى يتوارى عن الأنظار. وكذلك فعل مع عبد الرازق بائع الجرائد، والحاج محمد الفوال، وكل الوجوه التي يعرفها والتي لا يعرفها. كانت أقل حركة فيها سره، والكلمة الواحدة فيها إشارة واضحة ،والضحكة فيها سخرية منصبة عليه. . وكل الناس يعرفون حتى الواقف بجانبه، المتعلق معه في عامود الترام، حين زغر له بعينه والترام يميل، كان يعرف هو الآخر.

ومضى إلى صرة الميدان كالريح وهو يتمنى أن يشف ويشف حتى لا يراه أحد.

ومن لحظتها بدأ يحس أنه واقف في الوسط كالواجهة الزجاجية يتطفل عليه كل غاد ورائح. ويحاول كل محدق وناظر أن ينكش سره الباتع. وخيل إليه وهو يحاول ضم ضفتي نفسه ليحكم إغلاقها أن الناس يضعون عيونهم وأنوفهم بين ضفتيها حتى تبقى مكشوفة مفتوحة. ودعاه فشله إلى صب جام غضبه على الناس. وقضى اليوم بطوله يدون المخالفات ويهدر بأوقح الألفاظ ويزور مركز البوليس جانيا ومجنيا عليه. وكان يومه حافلا. .

* * *

وتلقف الميدان من ساعتها رجلا كئيبا غريبا!، لا يفك وجهه الأسمر الجاف إلا ليعقده، ولا يتكسر صمته بكلمة تائهة عابرة إلا ليعود إليه الصمت يلون سمرته، ويرتعش له شاربه الذي نماه وشوشه حتى غدا كحزمة متنافرة من عشب شيطاني.

وميدانه تحول ميدان رعب، وهو أصبح «بعبع» السائقين تخفق قلوبهم وهم يمرون أمامه ـ وما أقل ما يمرون ـ ويتندرون بينهم وبين أنفسهم على الجاويش الأسمر أبي شوارب. وخشونته وسلاطة لسانه، وحقده المرير على كل امرأة سولت لها نفسها أن تقود عربة أو حتى تعبر الميدان.

ثم امرأته..

آه من امرأته!..

لقد أضناه التفكير فيها.. وماذا كانت تفعل يا ترى حين عاد مرة إلى البيت ولم يجدها.. قالت له يومها إنها كانت عند أم حميدة.. أم حميدة.. أم حميدة الصعيدية.. وأخوها مهني.. الولد الذي يلبس السكروته المكوية التي تظهر أفخاذه ويعقص الطاقية.. ماذا كانت تفعل عند أم حميدة؟..

ويوم أن ضبطها تطل من الشباك بلا منديل.. بنت الكلب.. وبلا منديل!..

وهكذا اعتاد التأخر في العودة بعد أن أدمن على باب طنطاوي وعاد مرة في شيخوخة الليل وارتدى جلبابه الأبيض وأحكم طاقيته

الصوف فوق رأسه، وفرش جسده المنهك المخدر فوق السرير، وأصوات اليوم تطن في أذنه.. وحديث طنطاوي ينبثق في مخيلته ثم يختفي..

وتبين بعد أن خف الطنين وغاب طنطاوي أن امرأته لا زالت مستيقظة.. ليس هذا فقط، بل إنها تنهنه بنحيب مبتل، وكان رمضان ليلتها قد بلغ به الأمر منتهاه، ووصل إلى حافة مقاومته، فظل بكاء المرأة يتساقط على الحاجز الجامد الذي وضعه بينهما فيلعقه، والحاجز يرق، حتى لم يعد يفصله عنها إلا اللحاف. وظل ينصت لبكائها، وهو لا يملك إلا الصمت حتى انهار، وقال وكل جزء من جسده ينشج بغير دموع:

ـ بس قوليلي يا نعيمة.. أعمل ايه..

ولم ترد، وإنما كانت تحملها شهقة وتضعها شهقة وقد انخرطت في بكاء عال..

وهزها رمضان في حنان ذليل وعاد يسألها. وما كان ينتظر منها شيئا وإنما ألحف في سؤالها ليغلب عجزه ويشرك إنسانا على الأقل في حل لغزه.

* * *

وبدأ البحث عما يفعله الناس، وبدأ السؤال، وفتح رمضان الكتاب، والتمس حل عقاله عند أصحاب الحل والربط، وزار أسياد البلد كلهم، وأطعمته نعيمة الحمام والمنجة من توفيرها، ومص

زعازيع القصب، وترنح على دفة الطار في الزار، واستيقظ مع الفجر مرات ليرمي العمل في البحر، وسوت له امرأته الفطير مختلطا بدمائها، وتجرع من العطار كل ما عند العطار. .

وفي كل مرة كان يعود وكأننا يا بدر لا رحنا ولا جينا. .

ثم عرف رمضان الطريق إلى المستشفى السري، وتعرف في طابور المرضى على رفاقه، وآنسته الصحبة بقدر ما امتلأ الكيس الذي خيطته له نعيمة بزجاجات الدواء، وفرغ الكيس وامتلأ، وانغرزت الإبر فيعروقه وفي عضلاته، ودخل المستشفى وخرج. .

وجاءت حماته ومعها بعض النقود، وراحت النقود كما راحت غيرها، ولم تفرغ مشورات الحماة ونصائحها ولا آراء الأهل وأطراف الأهل. .

واستمر رمضان يفتش عن رجولته في كثير من اليأس، سائلا كل من يلقاه، جاريا وراء كل مشير، متتبعا كل اصبع، وحديثه أثناء ذلك لا يدور إلا عن البحث الذي وهب له نفسه. والحديث يدور في صلاة الجمعة، وعلى القهوة، وفي سوق السمك، وعلى محطة الترام، ومع تومرجي المستشفى، وحتى مع حضرة الضابط. كل هذا. . والحال مثل الحال. .

* * *

كان الحديث يدور بين رمضان ونعيمة فوق السطح والشمس تدفئهما في ذلك اليوم من أيام الشتاء. وكأحاديث الضحى الدافئ

كان الكلام يشرق ويغرب في كسل هادئ، والوقت يمضي ،ورمضان في يوم راحته لا يسأل ولا يسأل، ونعيمة قد اشترت «سردين» الغـداء من الصباح، وتمددت في استسلام فاتر. ودار الحديث ودار. وكانت لهجة رمضان أرق ما يكون، فلعله فكر كثيرا في امرأته. وأنب نفسـه كثيرا حين فكر، فاختار هذا اليوم بالذات، وهذه الساعة نفسها ليقول كل ما يثقل ضميره. . .

واقترب مما يريد، وطأطأ كلامه وكـأن حديث الضحى لا يـزال يدور وهـو يقول:

ـ اسمعي يا نعيمة. .

ـ خير. .

وتـردد رمضان ثم أسلمـه تردده إلى سكـون راح يخلص نفسه من حرجه ويتملص منه ليقول:

ـ مش. . مش أحسن أخلص ذمتي ومن الله و. .

وحين نـظرت إليه في كسـل وبشائـر ضحكـة تكـاد تهب منهـا لحديثه المتعثر. . استمر هو يتهته:

ـ أحسن. . أحسن. . أطلقك يا نعيمة. .

واعتدلت المرأة حتى واجهتـه ودبت على صدرهـا وقد اربـدت ملامحها وبان فيها عتب كثير:

ـ يـا عيب الشوم يـا رمضان. . ايـه الكـلام ده. . دانت أبـويـا

وخويا وتاج راسي.. دانت في عيني من جوه.. هو أنا أسوي الأرض اللي بتمشي عليها.. دانا خدامتك يا حبيبي.. بقى ده كلام.. مقصوصي شاب.. وشعرك أبيض.. ونعمل زي العيال.. دا.. دا.. يصح.. يابو سيد.

ولم يسكتها إلا موجة البكاء التي أوقفت لسانها، وسحبت المنديل من فوق رأسها وضمدت به دموعها حين قامت هالعة تهبط السلم وهي تتعثر على درجاته.

وتركت وراءها رمضان يتحسس تجاعيد وجهه، ويملس على رأسه التي كادت تخلو من الشعر، ويمر بيده على بطنه المتكور ويشد شعر رجله الكث الذي ابيض أكثره، وينظر إلى ابنه سيد.

وتأمل الصبي وكأنه يراه الأول مرة منذ سنوات!..

كان سيد يرقد أمامه وقد غطى رأسه بكراسة الحساب. وظل الرجل يلتهم الولد بعينيه ويتوه، ثم يعود إليه غير مصدق..

لا حول ولا قوة..

أيكون قد نسي سيد في زحمة البحث عن رجولته؟..

أيكون قد نسي حتى ان له ابنا؟..

أبو سيد ينسى سيد ولا يذكر من الدنيا إلا نفسه!..

كيف حدث هذا؟! كيف؟..

سيد.. يا سيد.. تعال يا سيد.. اقعد هنا جنبي.. أيوه

كده . . يابني يا حبيبي . . باسم الله ما شاء الله . . وكبرت يا سيد . . بقيت طولي . . خليني أبوسك يا سيد . . هه . . وكمان مرة . . يا بني . . أنت كنت فين . . وأنا فين . . وكبرت يا سيد . . وحتبقى راجل . . وأجوزك يا سيد . . سيد . . حجوزك واحدة . . حلوة . . لأ . . أربعة . . أربعةحلوين عشان خاطرك . . وتبقى راجلهم . . فاهم . . فاهم يعني ايه راجلهم يا سيد . . معلهش . . بكره حتفهم . . وتخلف . . سامع يا سيد حتخلف . . وأشيل خلفتك يا سيد . . بإيدي دي . . فاهم ياسيد . .

ع الماشي

كان ما ضايق الأستاذ وهو عائد من الإسكندرية في الأوتوبيس الصحراوي أن جاره في العربة عرف أنه محام. وكان لا يخاف في الدنيا شيئا أو يعبس لشيء قدر خوفه وعبوسه إذا حدث في مكان ما وعرف الناس أنه محام فهو يعلم تماما أن الأسئلة حينئذ تنهال عليه، وتنهال معها الاستفسارات ولا يهم أن يكون هو متضايقا أم غير متضايق، مستريحا أم غير مستريح فهم لا يفرقون بينه كإنسان، وبينه كمحام، إنما يرونه دائما وفي كل وقت محاميا.

جلس الأستاذ في العربة وهو يستعيذ بالله خائفا أن يبدأ الجار حديثه، ولهذا راح ينظر من النافذة وقد ترك أفكاره ترعى على مهلها في الصحراء الجدبة الممتدةوتمرح فيها من أقصاها إلى أقصاها.

ولم ينفع هذا، إذ سرعان ما أحس بلكزة خفيفة أعادت أفكاره من انطلاقها وسمع جاره يقول:

ـ دي فرصة سعيدة يا أستاذ والله! . .

فقال الأستاذ وهو يزوم:

ـ مرسي . .

وأقبلت فتـرة صمت كان قلب الأستـاذ فيها كـالريشـة في مهب الريح ، فـقـد كان يعلم أن جـاره سوف يتحـوقل بفمـه ويتبسمل بعـد قليل ثم يفتح باب الكلام ويا ويله لو فتح الباب . .

ولـم يخب ظن الأستاذ إذ ما أسرع ما قال الجار:

ـ ألا من فضلك يا أستاذ؟ ! . .

فقال المحامي في اشمئناط :

ـ نعم ! . .

ـ حضرتك بقى مدني والا جنائي . . والا مخدرات؟ . .

فرد المحامي على البديهة وكأنه محام :

ـ كل حاجة . . كله . . كله . .

ومن تجاربه السابقة مع أمثال ذلك الجار كان الأستاذ يعرف أن المتحدث يسكت هنا، وتبدأ فترة صمت أخرى .

وفعلا أغلق الرجل فمه المبتسم قليلا ثـم فتحه قائلا :

ـ أهلا . . وسهلا . . تشرفنا . .

واستطرد بعد هنيهة :

ـ حضرتك لازم تعرف بقى الأستاذ (. . .) المحامي . .

وتردد الأستاذ قليلا ثـم استخار الله وقال:

ـ لا والله . . متأسف . . معرفوش . .

واستنكر الجار:

ـ متعرفوش ازاي . . دا أشهر من نار على علم! . .

فقال الأستاذ بفروغ بال:

ـ أهو اللي حصل . . قسمتي كده! . . والله وديني وما أعبد ما أعرفه . .

ـ دا راجل جبار. ناصح تمام . . ياما دوخ قضاة ومحاكم .

ـ يا سلام؟! . . بقى كده؟! . .

وسكت الجار ولم يرد . . وخاف الأستاذ من هذه السكتة فقد كان يعرف ما وراءها إذ بعد قليل قال الجار:

ـ يعني المدني حضرتك تفهم فيه برضه؟ . .

ـ طبعا . . طبعا . . أمال ايه!! . .

قال الأستاذ هذا ولم يسأل عن السبب مخافة أن يحدث ما لا تحمد عقباه . .

ولكن الجار تفوه بلهجة من لا يهمه الأمر:

ـ دا بس أصل فيه حكاية كده .

وأطبق الأستاذ فمه لا يود فتحه وكأنه ليس هنا . .

ولم يثبط هذا من همة الرجل فسرعان ما أردف:

ـ حكاية كده غلبوا فيها المحامين.. هو مش حضرتك بتدافع في المدني برضه.. أصل أنا خايف أضايق حضرتك!..

وأصر المحامي على صمته ولم يرد..

ومع هذا تنحنح الجار وقال:

ـ والحكاية غلبوا فيها كتير.. اوعى تكون حضرتك مضايق والا حاجة.. شوف يا سيدي.. بقى أصل في سنة ١٩٢٥ كان لي بيت وارثه عن أبويا، وكان فيه ورثة تانيين..

وبدأ الجار يروي القصة بحذافيرها من يوم أن كانت إلى يومنا هذا، ويشرح ما مرت به، والجلسات، والنقض، ونقض النقض والأستاذ قد انشوى واستوى وهو يصغي، ومضطر أن يصغي وكانت العربة في هذه الأثناء قد وصلت «الرست هاوس» فنزل المحامي والرجل وراءه، وأكمل القصة وهما يتناولان القهوة وينفضان ما عليهما من أكوام التراب.. ودفع المحامي الحساب والجار مستمر في الرواية، وفي الطريق إلى العربة كان الرجل قد انتهى أو كاد فسأل بلهجة لا تخلو من حداقة:

ـ وايه رأي سيادتك بقى؟!..

ولا بد للأستاذ أن يكون له رأي.. أمال أستاذ ازاي؟!..

وقال المحامي رأيه، وحينئذ مط الجار ابتسامته على آخرها وقال:

ـ طيب لو سمحت بقى ولو فيها مضايقه بس تكتب لي مذكرة . . الكلمتين اللي قلتهم سيادتك دلوقتي كفاية قوي . . أصل الحكاية عقدة وصعبة . . دوخت المحامين . . والنبي أنا خايف أكون بضايقك . . طب بذمتك؟ وحياة والدك مانتاش مضايق؟! لا . . لا . . متتعبشي نفسك يا أستاذ . . القلم أهه وآدي الورقة يا سيدي . . متشكرين قوي . . متشكرين خالص . . عاجزين عن الشكر . . يا سلام . . دي فرصة سعيدة . . بيقولوا رب صدفة خير من ألف ميعاد . . بقى حضرتك ما تعرفش الأستاذ «. . .» . . ياه . . دنيا . . دا كان أعز أصحابي .

وكتب الأستاذ المذكرة وهو يفور ويمور وينفخ . .

واعتزم أن يترك المقعد الذي كان يجلس فيه، وأن يبحث له عن آخر بعيد كل البعد عن هذا الجار حتى لو اضطره الأمر أن يتخلف عن العربة . .

وأفلح الأستاذ في اغتصاب مكان . . وظل قلبه مع هذا في مهب الريح مخافة أن يكون الجار الجديد أحد المتحدثين الذين سواء عرفوه أم لم يعرفوه . فأسئلتهم لا تهدأ ولا تنتهي . . ولكن الجار كان رجلا طيبا صموتا ما فتح فمه، ولا حتى ألقى ناحيته بنظرة ولو على سبيل المجاز . .

ورغم أن الدنيا كانت قيظا، والعربة أصبحت كالفرن الذي ليس له مدخنة، والغبار من كثرته صار له لسع الناموس وأزيز

الذباب، والمقاعد عليها بحور عرق في وسطها ناس، ورغم هذا فقد استراح الأستاذ لصمت الجار الراحة كلها، وأحس بقلبه ينعنشه ثلج بارد.

وراحت العربة تئن وهي تقطع الطريق الملتوي الطويل.. وشعر الأستاذ بعد قليل أنه يود معرفة الساعة التي ستصل العربة فيها، وكان ممكنا أن يسأل جاره ببساطة ولكنه لم يشأ هذا حتى لا ينبش الجار فيفتح فمه ولا يقفله أبدا.

ولكن.. في مطب من المطبات الكثيرة مال الأستاذ على الجار فكاد يوقعه وكلمة من هنا واعتذارات من هناك تعرفا، واتضح للأستاذ أن جاره دكتور.. واكتفى الأستاذ بالذي كان فأغلق باب الحديث وأحكم الإغلاق..

وانتهت المطبات، وسارت العربة كالريح والأستاذ صامت وجاره صامت أيضا، ولكن بعد وقت تذكر المحامي شيئا ونسي قراره فابتسم وقال لجاره:

ـ إلا حضرتك بقى دكتور في الطب.. والا في..

وحين وصلت العربة إلى القاهرة وغادرها الركاب كان الأستاذ لا يزال يقول للطبيب:

ـ لا.. لا.. متتعبشي نفسك.. بلاش روشته.. آدي القلم والورقة.. اسند هنا على ضهر العربية.. بس والنبي عايز دوا يقضي

عليه. . دا مغلبني قوي الصداع ده. . زي ما قلت لحضـرتك. . من سنـة ٣٦. . والروشتـات أهيه. . أوعى أكـون ضايقتـك يـا دكتـور. . والنبي؟!. . متشكـرين. . متشكرين قـوي. . بقى حضرتـك بتشتغل في إسكندرية. . يا سلام عالصدف السعيدة . . يا سلام!!. .

الهجـــانة

قـال البعض إن السبب هو نصف فـدان القـطن الـذي اقتلعت شجيراته في الليل من أرض البرنس.

وقـال آخرون إنـه النقب الذي حـدث في إصـطبـل الابعـاديـة المجاورة.

ورد بعض ثالث وكاد يقسم أن السبب هو الحريق الـذي اجتاح الساقيتين القبليتين في وقت واحد.

يختلف النـاس دائما أبـدا على السبب ولكنهم يذكـرون تمامـا عصـر الجمعـة الـذي جـاءوا فيـه، وتمشت مـع مجيئهم الهمهمـات تزحف في القرية وتقول:

ـ الهجانة وصلوا..

كان الرجال يزومـون بها ثم تتشعب أصـواتهم مملوءة بالخـوف والتشاؤم تارة، وتارة تحفل بغبطة ساهمـة، فإن جـديدا سيحـدث في القرية، وما أقل ما يحدث في القرية من جديد.

وكـان الصغـار يتلقـون الكلمـة من أفـواه آبـائهم، وتـرتعش

أجسادهم وبالخوف من الغربـاء الذين لـم يسمعـوا عنهم أو يروهـم ثم تنبسط وجوههـم بالفرح لأنهم سيرونهم. .

وأصبـح لا حديث للنسـاء إلا عن العبيد الـطوال السمـر ذوي الأرجل الرفيعة الجافة والكرابيج المسقية بالزيت. .

ولم يراهـم أحد حين دخلوا القـرية، ولا حين تسـربوا إلى دوار العمدة وكأنهم وصلوه من جـوف الأرض. ولكنهم ما ان استقـروا في الـدوار حتى حفـل الشـارع الـذي بجـواره بـأنـاس يتبصصـون على القادمين، ويتسمعون ما يجد من الأخبار، وحينئذ تميل الرؤوس على الرؤوس، وتخرج الإشاعات رائحة غاديـة مخترقـة البلدة من أقصاهـا إلى أقصاها.

ومن غير أن يلفـ مناد أو ينبه خفير، سرت الأوامر تحملها آذان إلى أفـواه، وأفواه إلى آذان.

وعرفـ الناس في غمضة عيـن أن الويـل لمن يخطي عتبـة داره بعـد المغرب، وعليهم إرجـاع المواشي قبـل حجة الشمس، وعليهم بعد هذا ألا يوقدوا نارا أو يشعلوا مصابيح ثم ليتعشوا ويصلوا وينـاموا في الظلام، والويل لمن لا يعجبه الحال.

وكمـا يعم الصمت ساعـة الإفطار في رمضـان، سكتت الألسن فجـأة في الحلوق على أثر هـذه الأنـبـاء، واهتـزت الـرؤوس تجتـر الأوامر السريعة المتلاحقة على مهل وفي وجوم.

وشعر كل واحد أن الأمر أكثر من أن يفكر فيـه وحده، فتقـارب

الجيران مذهولين في حلقات، وامتلأت القهوة الوحيدة بالناس وقد أصبحت مصدر التخمينات.

وعلى قدر ما أذهلهم ما سمعوه فقد استنكروه وأبوا تصديقه.

* * *

ولم يستطع مخبول أن يتصور أن القرية كلها قد نامت من المغرب، والليل انقضى دون أن يسمع للعشاء أو للفجر أذان. لم يتصور مخبول حدوث هذا..

ولم ينتظر واحد منهم أن ينصت له آخر، فراحوا كلهم يتكلمون في انفعال واضح وقد علت الأصوات، واهتزت الأيدي وكلما ارتفع الجدال وازدحمت القهوة كثرت آذان النساء والبنات الملتصقة بالنوافذ، تلتقط ما استطاعت التقاطه ثم تطير به إلى المتحفظات القاعدات أمام الأبواب يتبادلن الآهات والحسرات.

وكان من المستحيل أن تستمر الحال على هذا المنوال، فشيئا شيئا كلت الأصوات، وهدأت المحاورات، ولف الحاضرون أيديهم حول كوبات الشاي والقرفة فقد كان هذا آخر عهدهم بالقهوة التي ستغلق أبوابها بعد اليوم ويبحث محمد أبو حسين صاحبها لنفسه عن عمل ثان. هكذا قالت الأوامر..

وسرعان ما بددت الجماعة الوجوم الذي أدى إليه النقاش، واستطاع جمعة أن يرفع صوته الأخنف حتى يسمع الموجودين ما كان يود قوله من زمن:

- والنبي لماشي في نص الليل.. واللي يقابلني حتف في وشه..

ورد عليه حامد الصعيدي الذي يعمل الطعمية أيام السوق بصوته اللزج قائلا:

- يا شيخ اتلهى.. دانت لو دقت كرباج..

وضحك الجمع، واستمروا يضحكون وشعبان مقاول الأنفار يدق بيده على صدره ويقول:

- بذمة محمد أنا آكل عشرة من الكتربنت السود دول..

وساهاه عبد الفتاح الخفير، وهو في جموة كلامه، ودلق بعض الماء في قفاه، وانتفض شعبان ملسوعا خائفا. ولعلعت القهقهات.

وقال الخفير بعد أن شبع ضحكا:

- انتو عارفين ايه ياولاد.. دول بنادقهم هندي من أم حداشر طلقة، مش زي الممغوصة بنادقنا الأرمنتوه..

وأخذ بعد هذا يشرح، في لهجة العالم، الفرق بين الهندي والأرمنتوه، وعدد قليل يسمع، بينما الباقي قد تفرق يتهامس ويتحدث في شؤون العيش.

وساعتها كان نفر من الأعيان جالسين يستنشقون الهواء في الخلاء على مقاعد محطة القطار ومعهم العمدة. وتلقفوا الأنباء باهتمام قليل، وأنصتوا إلى العمدة وأشداقه تضخم الكلمات ثم

تفرطها على دفعات وهو يقول ان البلد تلفت، والخلق باظت والذمم خربت، والناس تخاف ولا تخجل، ولا يصلحها إلا الكرابيج الغريبة . .

وكان الأعيان يموءون وهم يوافقونه على كل ما يقول، بل تمنى واحد منهم لو كان الود وده ليبقى الهجانة تسوق الناس أمامهم كالنعاج أعواما وأعواما .

* * *

واصفر العصر . .

وكانت البلد قد أفرغت ما لديها من كلام ، وعرفت كل الأخبار والشائعات ، ورويت من السخرية بنفسها ومن إخافة بعضها بعضاً .

. . .

وحين رأى الناس خيالاتهم تطول وتمتد، تذكروا المغرب وما ينتظرهم فيه .

وتحرك المصدقون والمكذبون والمتفكهون في كل اتجاه حتى أصبحت القرية كعش النمل . وأسرعت النسوة إلى الغيطان يستعجلن الأزواج ويروين ما حدث .

وازدحمت الأطباق والأذرع الملحة أمام الدكاكين، وتصاعدت أدخنة كثيرة من المواقد والأفران وقد تكهربت تنجز الطعام والخبز .

وفي النهاية قطعت الأرجل من الشوارع وتجمع الناس في

استغراب وسخرية حول الطبالي يحاولون ابتلاع العشاء، والشمس ما زالت طالعة.

وراح الآباء والأمهات يعدون الأولاد ويرون من الغائب، ويوصونهم ويخيفونهم من الشياطين السود من مغادرة الدور.

واختفت الشمس وراء نخيل الحوشة وحدها، ودون أن يراها أحد، فقبل المغرب كانت الأبواب قد أغلقت كلها، والناس رابضين في الدور وفوق السطوح.

ولم ينم الناس، وكيف ينامون، وانطلقوا يتحدثون داخل المنادر والقاعات، وغير مقتنعين بالذي حدث ولا مقيمين له أي اعتبار..

وجاء قطار الثامنة يتهادى، وسمع الناس صفيره فانقطعت الأحاديث واستعدت الآذان كلها لسماع ما يجري للعائدين من البندر في القطار، الذين بلا شك لم يعلموا بما جد ولم يهيئوا أنفسهم له.

وارتجت قلوب كثيرة، وبكت نساء، ونهنهت عجائز، والآذان تشرخها الصرخات التي عمت القرية، ولسعها أصوات الاستجارة والهرولة والركض.

وأعقب الضجة سكون أغرق الليل والظلمة والناس، ما كان يقطعه إلا دبيب الأحذية الميري الثقيلة وهي تحف بالأرض بين الحين والحين، والصوت الرفيع ذو اللكنة البربرية الغريبة يقول وكأنه مطواة تقطع.

ـ مللي هناك . .

ولا يرد عليه أحد، وقد ينبح كلب بعيد، ثم يعود الصمت الغامق .

وبات الناس ليلة طويلة أكثرها خوف ويقظة، والقرية قد لفها جو خطير محير.

وأدرك الناس في حسرة حينئذ أن المسألة جد لا هزال فيها . وأن الذي يقع ستزهق روحه وتسلخ الكرابيج جثته .

* * *

وطلع الصبح . .

وتفتحت الأبواب، وانطلق الخلق كالدجاج الذي ضايقته زحمة القفص . وكانوا حين يتبادلون تحية الصباح يقولونها بقلوب متورمة، وأرواح حخجلة . كانوا كالذي فقد شيئا، ولكنه لا يدري كنه ما فقد .

وتناقل الناس وهم يتفرقون وراء رغيف الخبز ما حدث للعائدين من البندر، وكانوا يتناقلونه في فتور خافت، وحين علموا أنهم ربطوا بحبل، وقضوا الليلة في الدوار بعد علقة نصفها الموت، كانوا يهزون رؤوسهم ولا يقولون شيئا، أو ينطق الواحد بكلمة لا معنى لها ثم يسكت .

وبدأ يوم طويل كغيره من الأيام . . ومضى النهار في تلكؤ يخنق

الأنفاس وحين عاد الرجال في الظهر وما بعد الظهر منهكين مشتتين التقت الجماعات فوق المصاطب وأمام الدور وقد أغلقت القهوة. وكان كلامهم كثيرا لا روح فيه ولا فائدة كثرثرة النساء، وكل منهم يغرق في رواية تفاصيل ما سمعه من دبيب أثناء الليل، ويقص نفس الحكاية عما حدث بعد قطار الثامنة.

وحين مج الناس الكلام والعودة إليه، تحول الحديث الدائر على مصطبة المعلم عمر إلى ناحية أخرى لما عنَّ لعبد الغني الجمل أن يطيل لسانه. وعبد الغني هو المنقذ دائما من الحديث الممجوج فهو لا يعدم نكتة يرنها على الحاضرين فينسوا كل شيء وتستغرقهم فكاهات عبد الغني. وكان هو نفسه فكاهة، بقامته القصيرة التي تطاولها قامات الصغار، ورأسه التي مثل حبة البطاطس، وطاقيته الصوف المنطبقة بحذافيرها على جبهته، والتي حولها المنديل المحلاوي القديم ملفوفا ومربوطا بعقدة خبير حتى لا يبين شعره. وما كان له شعر. فتحت طاقيته كانت قرعته حمراء راشحة. وكان الناس إذا لم تسعف النكتة عبد الغني يجدون في رأسه المتنفس، ويجذب الجريء منهم طاقيته فتفج الحمرة من رأسه، وتنهال عليها البصقات.

غير أن ما حدث وجد فيه عبد الغني ثروة ما بعدها ثروة، فراح يقلد الأسطى عبد الخالق الحلاق السمين الطويل ذي الشوارب، وهو ممسك بحقيبته الخشبية التي فيها العدة في يده، ورافعا باليد الأخرى ذيله، والكرابيج تنهال عليه، ولا يستطيع الجري أو حتى التحرك وإنما يقول في تهتهة عاتبة مختنقة بالبكاء:

ـ ما يصحش يافندي . . يافندي مايصحش . .

وينفلت عبد الغني في براعة إلى عمك دعدور بائع السردين الذي نظره شيش بيش والذي يصر دائما على التحدث بالمنطق والحجج والقانون، وعلى فلسفة كل ما يدور في البلد من حادثات. وعبد الغني كان حين يغمز دعدور لا يخلو فؤاده من بعض الحقد، فقد كان الناس يضحكون لفلسفة دعدور الساذجة أكثر من ضحكهم لنكات عبد الغني المفتعلة التي يدافع بها عن نور رأسه.

وعلى غرة وجم الجالسون والواقفون وكفوا عما هم فيه حين همس الشحات في صوت آمر:

ـ هس يا جدع . . أهم جم . .

وما انتهى حتى كان الثلاثة يمرون من أمامهم. وكانت هذه أول مرة تقع عليهم الأبصار في وضح النهار. وسن كل واحد عينيه محاولا أن يلتهمهم بنظراته. كان فيهم واحد طويل رفيع ملفوف كعامود التليفون يبدو أبو عوف الجمال طفلاً إذا وقف بجواره، وكان الثاني أقصر منه إنما له شلاضيم أعوذ بالله منها يبرز بينها ضب من الأسنان اللامعة البيباض وكأنها أصابع المذراة، وكان ثالثهم مبطط مربعا وعيناه يقدح منهما الشرر، وكانت وجوههم في سواد الهباب وحلكة ليالي آخر الشهر، ويقطع سوادها تشريطات. وعلى كتف كل منهم بندقية، وفي يده كرباج طويل تلتف حوله أسلاك نحاسية صفراء تنتهي بعقد غليظة، العقدة منها تطلع بقطعة لحم.

ومروا بلا سلام أو كلام وكأنهم فائتون على جبانة، وما كاد دعدور يفتح فمه يعلق على الموقف بعدما ابتعدوا حتى أقفله ثانية وأحكم الإقفال. فقد عاد الثلاثة وفي عيونهم شر مستطير. ودون سابق إنذار ارتفعت الكرابيج مرة واحدة، ثم دوت، بينما لكنتهم تقول في حقد:

ـ على بيتك.. يا بنت الكلب..

وكان الشاطر هو الذي أخذ ثوبه في أسنانه، وقال اخلولي الطريق.. وفي غمضة عين لم يكن في الشارع كله إنس واحد. وجرى الثلاثة وراء الناس كالنحل الفائع وكانت وقعة الذي يقابلهم أسود من شعر رأسه.

ويومها نامت البلد من العصر.

* * *

ومر يومان وثلاثة وخمسة، ولا حديث للناس خلال الساعات التي يستطيعون فيها الحديث إلا عن الهجانة وما فعلوه. فالليلة دخلوا على الحاج مصطفى وهو يتعشى، وقلبوا الطبلية وضربوه ثم تسلقوا السطح وراء الحاجة فألهبوها وهي تجأر بالصراخ.

وفي الغد تتناقل الألسن ما حدث لعبد الحميد وامرأته حين أشرفت على الوضع وخرج غصباً عنه يحضر أم مخيمر الداية، وكيف ظلوا يضربونه حتى قال: إني مره..

وليلتها بات في الدوار ووضعت امرأته وحدها واستمرت تنزف

إلى أن جاءتها الإسعاف في الصباح . .

والا يوم قابلوا شيخ البلد وجف ريقه ووقف لسانه وهو يردد:

ـ أنا الشيخ . . أنا الشيخ . . أنا الشيخ . .

يقولها ويرددها حتى والكرابيج تنهال عليه والهجانة تقول:

ـ شيكه ايه يا هراميه . . خش بيتك . .

وكل حديث من الأحاديث كان يزيد انكماش الواحد في جلده، فأصبح لا هم لكل إنسان إلا أن ينهي ما في يده حتى يلزم داره. أما الذين كانوا يعملونَ في البندر ويجيئون في القطار فقد استغنى أكثرهم عن عمله، وداروا في القرية بلا عمل، والباقي فضل ألف مرة أن يبيت على أي وجه في البندر ولو على الرصيف.

وفي يوم السوق كانت قصة تحكي ويعقبها استنكار كثير. فقد ضربوا ليلتها مرسي أبو إسماعين. وصحيح أن مرسي لم يكن يملك قيراطا واحدا وليس في حوزته فدان إيجار، إنما كان ولدا ولا كل الأولاد، كان ابن ليل قتل وسرق ونهب، وفي صدره العريض الراسخ ترقد قصص تشيب لهولها الولدان ومع هذا ففي البلد كان يعيش في حاله، وأدبه في معاملة الناس مضرب الأمثال، كان يعود المريض ويعزي في الميت ويساعد الضعيف وينتقم للمظلوم ويقف لكل صغير وكبير وكانت البلد تفخر به إذا جاء مجال الفخر بين أبطال البلاد، ويروون عنه كيف لوى سسيخ الحديد وكسر المسمار ورفع كيس القطن وحده على الجمل. وعلى حسه كان الناس يتركون محاريثهم

ومواشيهم في الحقول. . وبعد هذا كله تضربه الهجانة؟ وتطلق عليه النار إرهابا حين حاول المقاومة؟ ثم تدك صدره بعد ذلك بدبشك البنادق وكعوب الأحذية؟ .

واضطر الناس في النهاية أن يصدقوا حين كانوا يقاربون السوق، ويمرون بالمركز، ويشاهدون أبو إسماعين قابضا على حديد النافذة كالأسد الجريح .

وعادوا يومها من السوق وكل يقول لنفسه: ابعد عن الشر وغني له.

* * *

وكما تتهادى مياه الترعة لا يقلقها إلا موجات خانعة لا تكاد تشب حتى تموت، عاش الناس وقد رضوا بما كان وسلموا بما حدث، وما قد بقي في قلوبهم من استنكاف زال وانمحى، ولم يعد بها إلا تسليم ذليل، حتى العمدة الذي كانت كل بادرة تصل إليه، فيسمعها، ويجعل أذناً من طين وأخرى من عجين، قابلوه ذات ليلة فقال لهم أنه العمدة فردوا عليه:

ـ ولو. . خش بيتك .

ودخل بيته، وأغلق الباب بالضبة والمفتاح دون أن يقول ثلث الثلاثة كام.

وبلغت الحكاية الناس، وضحكوا في سرهم على العمدة، وتشفوا فيه!، وعرفوا أنه غلبان مثلهم ولا حول له ولا قوة، وأنه لم يعد الحاكم الناهي في البلد..

وتطلع الناس إلى الحكام السود الجدد وبدأوا يتعرفون أسماءهم ويخلطون بين حسن الطويل وجاسر القصير، وسلطان الذي له عيون الذئب، ومضوا يتحسسون أخبارهم ويعدون عليهم كل ساكنة، وواردة، ويعرفون يوما بيوم من عند من سيأكلون، ومن أي بيت من بيوت الأعيان سيحمل لهم عبد الفتاح الخفير الصينية الحافلة فوق رأسه..

وكان الصغار سباقين إلى تتبع ما يدور في غرفة الهجانة، فكانوا يدسون أنظارهم خلال نوافذها ثم يزهقون من التطلع فيجرون وراء بعضهم وهم يقلدون أصوات العساكر ومشيتهم ويستعيضون عن الاستغماية أثناء الليل بالجري بالأطواق أثناء النهار، ويلحون على آبائهم حتى يشتروا لهم كرابيج مثل التي مع الهجانة وحين لا يجدون في إلحاحهم أملا يصنعونها هم من ذيول البهائم التي يذبحها أبو أحمد الجزار وكذلك من أجزاء أخرى.. وبدلا من الزجر الذي كانوا يلقونه من الآباء في أول الأمر، تساهل الآباء، بل تعدى الأمر حدود التساهل، وتدخلت سيرة الكرابيج فيما كان يدور بين الرجال من أحاديث لا تنتهي حول صنعها وحول البلاد التي تصنعها وهل هي مصر أم السودان.

وكان الطلبة والتلامذة الذين يقضون إجازتهم بالبلدة يسمعون

الأحاديث، ويسخرون من الجهل الذي يسودها، ويتفضل واحد منهم ويصلح ما أفسده الجهل. ويتطرق الكلام إلى الهجانة أنفسهم، ويصغي الناس في شيء من الإكبار إلى الأفندية وهم يسخرون بالحكام السود، ويتفكهون عليهم، ثم ينقلبون بجراءتهم على البلدة الجبانة التي تتمسح في أحذية عساكر ثلاثة، لا يساوي الواحد منهم مليما أحمر.

وكان الناس يعرفون سر سخط التلاميذ فقد منعت الأوامر الجديدة طوابيرهم التي كانت تجوب القرية رائحة غادية، وكذلك سهراتهم إلى نصف الليل على الميزانية الحجر، وجريهم وراء بعضهم في دروب البلدة النائمة، وتربصهم بالبنات.

وكان الناس يسمعون الكلام ويسكتون. فالمتاعب لا تنقصهم ولكن كان بعضهم لا يسكت، فالبدراوي محترف كتابة العرائض والبلاغات مضى عليه أسبوع ،وله كل يوم عريضة وكل صبح بلاغ، يفند فيها ما صنعه العساكر بالبلد. ولكنه حين عرف أن الهجانة قد علمت بأمره، نفض يده من الكتابة، واندفع يتقرب إليهم ويتلطف معهم، ويرجع بنسبه إلى دنقلة حيث جاءوا ،ويتطوع بإبلاغهم سرا ما يحدث وراء ظهورهم. ولم ينفعه كل هذا حين قابلته الهجانة التي لا تعرف عربي ذات ليلة وقد اطمأن إلى صداقتهم فجعلوه يعض الأرض وهو يستعرض تربة أجدادهم . .

وكانت البلد حين يسلمها يوم كئيب إلى آخر أشد منه كآبة

يزداد شعورها بأنها كانت في نعمـة، وزالت، وأن الخراب قـد حل، ويكاد محمد أبو حسين صاحب القهـوة يخبط رأسه في الحـائط على رزقه المقطوع، وتجار الكيف معه ساخطون، والخفـراء يصرون على أسنـانهم ويكتمون وهم في أعمـاقهم يتمنـون مصيبـة عـاجلة تـطيح بالهجانة وقد أصبحـوا هم وشيخهـم وعمدتهم دلاديـل، وصار لـزاما عليهم أن يقضـوا الليل بـطوله سـاهرين، والـدكاكين وقفت حـالهـا، والعـاملون بالبنـدر لا يجدون الخبـز، ولا صلاة ولا عبـادة أو سهـر، وإنمـا ضرب وإهـانة ومسخـرة وكأنمـا البلد بـأنـاسهـا عـزبـة أبيهم، والحكايات تترى عن ركنتهم في زقاق مبروكة، ومبروكة تاجرة البيض العازبة كـانت الركنـة في زقاقهـا حدثـا تتلاعب لـه الحواجب وتغمـز العيون.

والنـاس في صبرهم كـالجمال، تشهـد وتسمـع وتقـاسي حتى تـحين اللحظة.

وقد حانت..

* * *

كان مرسي أبو سماعين قد مضت أيام على خروجه من الحجز ولكنـه لم يمكث في البلد إلا يومـا واحدا، ثم غـادرهـا إلى حيث لا يعرف أحد. يـومها كـان الناس يتـدبرون في ملل مـاذا يطبخـون ليلة النصف من شعبان. وفوجئ الذين خلفهم النهار في البيوت بالهجـانة وهي تجري هنا وهناك هالعة. وما أثار جريانهم الخوف بقـدر ما أثـار

الاستغراب. فما كانوا يرتدون بدلهم أو أحذيتهم الثقيلة وليس في أيديهم كرابيج، وإنما حفاة عراة وقد نكشت شعورهم السوداء الغامقة.

وحسب الناس أن شيئا خطيرا قد حدث أو أن حريقا شب، فلم يتمالكوا أنفسهم وجرى البعض وراءهم. غير أن الخبر عرف في النهاية، واتضح أن عبد السلام النجار هو الذي وقف لهم على رأس الشارع، والورداني هو الذي أحضر السلمين وربطهما معا ثم صنع منهما قنطرة وصلت حائط الدوار بحائط بيت أبو حسين، وبقية الرجال كانوا على السطح وكان مع عبد المجيد سكينة طويلة بحدين، ومع الورداني بلطة، ومع صالح بندقية ميزر، وكان مع أبو حمد شمروخه الذي ما ورفعه مرة إلا وكسر به رأس.

والمهم أن مرسي أبو إسماعين الشارب من لبن أمه هو الذي تسلل وحده إلى الغرفة التي ينام فيها الهجانة في النهار وخرج حاملا بنادقهم.

وقص الرواة وشهود العيان ما جرى بعد هذا. وكيف تذلل الطغاة إلى العمدة وكادوا يقبلون مداسه، وكيف بكى جاسر وهو يستعطف الرجل ويرجوه أن يعثر لهم على البنادق حتى لا يروحوا في ألف داهية. واختلفت الروايات في رد العمدة ولكنها اتفقت على أن الرجل استعبط عليهم وأفهمهم أن الأمر قد خرج من يده، مع أنه يعرف، وكل الناس يعرفون من هم أولاد الحلال الذين فعلوها.

ويسكت الرواة، فالبقية قد شاهدها كل الناس، حين انقلب المركز، والنيابة، وجاء ضباط من المديرية، وارتبكت الدنيا، ولم يتوقف التليفون عن الرنين.

وانتهى اليوم وقد سيق الهجانة محروسين.

وحين أقبل الليل كان عشرة من أهل البلد قد غيبهم المركز، والمباحث تقص الأثر وراء أبو إسماعين، والقهوة لا تزال مغلقة، والناس تتساءل في قلق عما يحدث غدا، وهل يجيء هجانة آخرون، أم يكتفي الحكام بالذي مضى.

ورغم هذا فقد أوقد الناس المصابيح، ورأوا النور في الليل وقد اشتاقوا إلى النور، وأذن المغرب والعشاء وامتلأ الجامع بالمصلين، وانطلقت الضحكات لأتفه الأسباب، وبلا أسباب، ولعب الطلبة والتلاميذ الكرة في ضوء القمر، وانتشرت مواكب الصغار تجوب القرية مهللة فرحانة وأحدهم يهتف بأغنية خارجة عن الهجانة والباقون يردون، حتى الصبايا، لم يخجلن، فرحن يرددنها هن الأخريات، وتتوقف المواكب عند السامر الذي أحياه عبد الغني، وقد تحزم بمنديله، وكشف رأسه عن عمد فبانت حمرتها، وهو يرقص، وعمك دعدور يطبل له على طشت النحاس، والشاعر قد ازدحم بالضاحكين المصفقين وهم يردون على عبد الغني ويقولون:

أهي ليلة يا جميل..

أهي ليلة والسلام..

الحـــادث

ذات عام كان عبد النبي أفندي والست حرمه في مصر، وكانت الدنيا صيفا، وعبد النبي أفندي يمشي بجوار امرأته بجسده الذي هـو طويل حقـاً ولكنه ذلك النوع من الطول الذي لا يبدو له عـرض ، فلا سمنة تبرزه، ولا أكتاف ممشوقة تنسيك رفعه، وإنمـا شيئان هـاكعان مضمومان تتعلق عليهما سترتـه كأنهـا معلقة على شمـاعة. . ومـع أنه كان يرتـدي بدلـة، إلا أنك كنت تستـطيع أن تـدرك للتو أنـه لم يعتد ارتـداءهـا، فقـد كـان يخـطر فيهـا وكـأنـه لا يـزال يخـطر في الجبـة والقفـطان، ويمـد يـــده وكـأنهـــا لا زالت طليقـة في الكم الـــواسـع الهفاف. . وكنت تستطيع أن تقسم أن نار المكوى لم تلسع بدلته منذ أن وجـدت وكـذلـك لا تقـدر أن تخمن متى وجـدت، ومـــع ذلـك فالمحافظة على الملابس كانت في دم عبد النبي أفندي، ولهذا كان يضع منديله النص نص الأبيض بين رقبته وبين ياقة سترتـه حتى يمنع عنهـا العرق الـذي ينضحـه قفـاه الأسمـر، وكـذلـك كـان يفعـل في طربوشه. . والغريب بعد هذا أن ياقة السترة، وحافة الطربوش، كانتا دائمـــا من أمتـع الأمكنـــة التي يحلو للعـرق والتـــراب البقـاء فيهـــا واستعمارها. .

وبالقياس إلى وجه عبد النبي أفندي الذي قدمت سحنته حتى اسودت، وتناثرت تجاعيده في طيبة قبيحة ولكنها طيبة والسلام، بالقياس إلى وجهه، كان وجه امرأته الماشية بجواره حلوا أبيض فيه احمرار، ليس هذا فقط، بل إنها كانت ترتدي ثوبها الحرير الأحمر الذي دخلت به، وفوقه الفستان الشفاف الأسود، وكانت تضع فوق شعرها الطويل البري قبعة ذات ريشة، كان عبد النبي أفندي قد اشتراها لها أيام (مودة) القبعات. . ولم تنس الست تفاحة أن تسدل فوق وجهها البيشة الكحلية التي تثنت أطرافها ولمعت أجزاء منها، وتلاصقت من كثرة ما وضعتها على وجوه أطفالها حين كان يصيبهم الرمد.

وكان عبد النبي أفندي وهو يهم بخطوه ليلاحق امرأته، كان في لحظة من تلك اللحظات التي يحس الإنسان فيها أن الدنيا عال، وكل شيء جميل، ولم تكن هذه السعادة لأنه في مصر، فقد زارها مرات قبل هذه المرة ليسعى حتى لا تنقله الوزارة من المدرسة الالزامية التي هو مدرس فيها، زارها قبل الآن مرات، وعرف العتبة وكوبري عباس والمعرض وشارع المبتديان الذي فيه بيت حافظ أفندي وترام ٤ الذي يروح السيدة.

لم يكن سعيدا إذن لأنه في مصر، ولكنه كان عامرا بالنشوة لأن تفاحة معه هذه المرة، هادئة بجواره كالحمل الرضيع، لا تعايره كعادتها بكبره وصغرها ولا تركب رأسها وتمتطي لسانها وتسخر منه ومن علمه ومن (حتة) المدرس الذي لا طلع ولا نزل، وإنما هي

صامتة مدهوشة ذاهلة وهو يفرجها على مصر، ويريهـا ولو مـرة واحدة في حيـاته، أنـه يعرف أكثـر منها ولـه نفـع أكثـر من نفعهـا في بعض الأحيان.

وكان هذا ثاني يوم لهما في القاهرة وكذلك آخر يوم، وكان عبد النبي أفندي قد أتى بها في طراوة العصر ليريهـا البحر، وكـانت هي في ذهـولهـا لاهيـة عن كـل شيء إلا عن نسـاء مصـر، ولحمهن المكشوف، وعيونهن التي تحـدق في قحة وفجور ناحية الرجـال دون أدنى خجـل أو كشوف. . وكـانت إذا مرت بهـا واحدة لا تستـطيع أن تكتم مـا في نفسهـا، فتبعث وراءهـا بسلسلة طـويلة من الشتـائم واللعنات. .

وحين انتهى عبـد النبي أفنـدي بهـا إلى مكـان على الشـاطئ توقف، ومضغ ملء فمه فرحا قبل أن يقول:

ـ شايفه يا تفاحة. . أهو دا النيل اللي بيقولوا عنه. .

وردت تفاحة وقد فاجأها البحر فتاهت في ملكوته ونسيت عيون النساء:

ـ ياه. . يا خرابي يا عبد النبي.

ولهثت قبل أن تستطرد:

ـ دا والنبي يبلع طوره زي بحر مويس. .

وانتظر عبد النبي أفنـدي متلذذا وامرأتـه تهضـم انبهارهـا، وقلبه

يرفرف بالفرحة وهو فخور بالنيل الذي أدهش تفاحة ـ وما كان شيء يدهشها ـ وكأن ذلك البحر نيله، والقاهرة بحالها إحدى ضياعه . .

وقبل أن تستيقظ تفاحة من غفوة الدهشة التي انتابتها، عسعس عبد النبي أفندي بلا وعي في جيبه فعثر على حبة حمص كانت باقية فألقى بها بلا وعي أيضا في فمه، وخلع طربوشه نهائيا وأمسكه في يده فبان شعره الخفيف المنكوش الذي لا يفلح في إخفاء صلعته، وقال بصوته الفرحان، وهو يحاول نفخ كرشه المتواضع، ويمد الكلمات ويجد السعادة في مطها والركون عند أواخرها:

ـ وآدي . . يا ستي . . قصر إسماعين باشا . . . .

وابتلع عبد النبي أفندي ريقه، وأخذ يحرك حافة الطربوش بين أصابعه وكأنها مسبحة ،ومصمص ما تبقى من الحمصة في ضرسه الوحيد الذي نخره السوس، واستعد للشرح . . وفعلا بدأ يتكلم . . ولكن تفاحة كانت قد رأت لحظتها الكوبري العريض الذي تمر عليه عربات بأكملها، ثم يسع الناس بعد ذلك أيضا. ولم تنتظر ما يقوله وإنما انطلقت كالمشدوهة ناحية الكوبري، ولحقها عبد النبي أفندي وهو يداري سخطه غير يائس، ولم يتوقف لتسأله وإنما انطلق من نفسه يروي لها قصة الكوبري، ويشير إلى الأسدين الرابضين والتمثال الذي في نهايته، ويمسح رذاذ كلامه بالمنديل ثم يعود يضعه حول ياقة سترته، ويدق بعصاه ـ وكانت له عصا ـ على الأسفلت ليريها متانته، وتنحني، فينحني معها على الحاجز ويستمر يتكلم وهو يريها الماء الذي يمور ويفور ويتموج . .

وأخيرا نطقت تفاحة، سألته:

ـ اللا يا عبده.. صحيح البحر ده مالوش قرار؟..

وأجاب عبد النبي أفندي أنه بالتأكيد له قرار، فلم تصدقه، بل وتاهت عن نفسها وعنه وخيل إليها وعيناها تتابعان الموج في شغف أن الكوبري يتحرك بها ويتراجع، وعادت تحدق في الكوبري وقصر النيل، واطمأنت إلى أن كل شيء ثابت في مكانه لا يسير، وتعجبت أكثر، ثم تاهت مع الماء مرة أخرى..

وفجأة، جأرت بكلمة سمعها عبد النبي أفندي صرخة، فارتاع، ووقف ينظر إليها ضائع العقل.. وإستمرت هي تصرخ وتقول:

ـ الحق.. حوش يا جدع..

ولم تسعفها الكلمات، فلكمت كمية الدهن القليلة التي تصنع جنب عبد النبي أفندي، وقد تشنج فمها وتصلبت أطرافها، وودت من صميمها أن ينفذ لها عبد النبي ما تريده قبل أن يرتد إليها رمشها..

وكان هذا ما يضايق عبد النبي فيها فما أكثر ما كانت تدفعه وتصيح فيه، وتشده، طالبة منه أن يفعل شيئا دون أن تقول ما هو ذلك الشيء، ويقف عبد النبي لحظتئذ حائراً نافد البال، وكأنه أعمى يريد أن يلضم إبره..

ـ يا شيخ اتحرك.. الله.. الحق يا عبد النبي.. يا ستار يا رب.. يا رب استر.. استر يا رب..

ودبت على صدرها وابيض وجهها وكاد يصفر..

وعلى قدر ما استطاع اتجه عبد النبي ببصره إلى حيث كانت تنظر، فما وجد شيئا غير ماتوقع أن يجد، ولكن إلحاح زوجته وقرصاتها ودفعها، جعلته يكذب نفسه، وتتقارب أجفانه، ويتلاصق حاجباه العريضان الخفيفان صانعين تجعيدة مفرطحة فوق أنفه، محاولا أن يجد ذلك الشيء الذي أرعب تفاحة فأرعبته..

وكان صبر الزوجة نفد فنطقت أخيرا وقد عذبها فهمه الحميري!..

ـ حوش يا راجل! .. الولد!.. فين ايه!؟!.. يا باي عليك ..أهه يا أعمى!..

وحدق عبد النبي أفندي مستغربا في الماء، وهناك في وسط النيل رأى الحادث.

كان العصر قد بدأ يشحب وينتهي، وكانت الشمس الذاهبة التي في السماء والشمس الغارقة المدفونة في الماء.. كانت شعاعاتها تصطدم على سطح الموج الصغير المتراقص فتتفتت الشعاعات إلى ملايين من ذرات ماس تتناثر في كل اتجاه.. وفي وسط هذا البريق العائم كان هناك قارب أبيض صغير يكاد يبلغ حجمه حجم القوارب التي يصنعها العابث بالورق.. وكان في

القارب طفل.. طفل دقيق يرتدي بذلة البحارة البيضاء وكان الهواء يداعب شعره الأصفر في عنف رقيق وكأنه ما يهب إلا ليداعب شعره .. وكان الصغير جالسا في أتم الهدوء وفي اتزان الكبير المالئ يده من قوته، وذراعاه الصغيرتان البضتان تمسكان بالمجاديف في ثقة وتعملان بلا وهوادة..

وكان ممكنا أن تمر ساعة بأكملها قبل أن يقتنع عبد النبي أفندي ويسلم بحقيقة ما يراه، ولكن المسألة لم تأخذ وقتا طويلا، فبعد أن حملق من هنا ثم أحكم وضع الطربوش وأدلى رأسه على قدر ما استطاع وحملق من هناك، وثنى رقبته مرة إلى اليمين ومرات إلى اليسار. بعد هذا كله أغلق عينيه وقال بصوت فيه تأنيب:

ـ جرى ايه يا شيخه؟ طربتيني!..

وانتفضت امرأته تقول وغيظها يشتد:

ـ جرى ايه ايه؟! مانتاش شايف؟! حوش يا راجل..

ـ بس لو تطولي بالك.. لازم أبوه وأمه هنا والـلا هنا.. أمال!.. لازم!.. الله!.. هي لعبة؟.. واللامش معقول يا سيدنا لفندي؟.

وسيدنا لفندي الذي توجه عبد النبي إليه بالخطاب لم يكن واحدا وإنما كان كثيرين.. وكان بعضهم قد وقف يتفرج على تفاحة وعبد النبي وقد أعجبه مرآهما ثم مضى بعد أن أشبع فضوله.

وكان البعض قد رأى الطفل فعلا فاسترعى الطفل انتباه الجزء

الأكبر من تفكيره ثم لما علا صوت تفاحة واشتد حماسها بدأ يوزع انتباهه بين الطفل وبين المرأة ذات الزي الغريب، وما تقوله والرجل الذي معها. .

وكان بعض ثالث قد أخذ الأمر على محمل الهزل فمضى يلعق بلسانه ثوب تفاحة وبيشتها، وطربوش عبد النبي أفندي وحذاءه، دون اكتراث لما يحدث داخل النيل. . ولم يعدم الأمر أن يكون هناك أفندي واحد عاقل راح يتطلع إلى الطفل ويتابع القارب بناظريه وقد امتصه المشهد كله، ولم يتبين أحد إن كان يحدث نفسه أو يرد على عبد النبي أفندي حين قال:

ـ يا سلام! . . أما ناس صحيح! . .

وأسرع عبد النبي أفندي يلحم الحديث حتى لا ينقطع:

ـ دا لازم خواجه. . مش معقول ده ابن عرب. .

وردت أصوات تقول:

أيوه دا لازم ابن جنية. .

وعقبت أصوات أخرى:

ـ أيوه يا سيدي. . الفرنجة اللي على أصلها بأه! . .

أما تفاحة فقد كان همها طول الوقت مركزاً في إنقاذ الولد . . فقد كانت متأكدة أنه حالا سيغرق في ذلك البحر الواسع الذي لا قرار له. .

ولذلك، وحين لم يسعفها عبد النبي استدارت تقول في إلحاح عصبي ولم تكن تدري لمن تقول:

ـ الله!.. حوشوا يا جماعة!.. هو مافيش خير؟!.. والنبي لو كنت راجل..

وكانت الجماعة في شغل عنها بالدوامات الصغيرة من النقاش التي أخذت تلف وتدور حول القارب، والطفل، وأبويه وأحيانا حول لون شعره، والملابس التي يرتديها.. ولمح الأفندي ابن الحلال الواقف تفاحة في عصبيتها وذعرها فرمقها بنظرة فيها سخرية متنكرة في ابتسامة ورثاء وقال على مهله:

ـ يا ست متخافيش.. دا الولد بيتفسح..

وأسعد الرأي الجديد عبد النبي أفندي الذي كان واقفا لا رأي له ولا حول، فانضم إليه في التو، وقال مجيبا على دهشة امرأته واستنكارها:

ـ أيوه!.. أمال؟.. بيتفسح!!..

وردت تفاحة على عجل وهي لا تصدق:

ـ يالهوي.. وأهله سايبينه كده؟..

وفي هذه اللحظة تهلل وجه الأفندي ابن الحلال وقد اشتد إعجابه بما يجري وقال وهو يبتسم في تؤدة ويشير إلى الشاطئ الآخر:

ـ أهم! . . أهم! . .

وأقلعت العيون كلها صوب الشاطئ الثاني حتى التقت بشبحين بعيدين ممدودين يرتديان أبيض في أبيض، وفوق رأس أحدهما (إيشارب) أخضر وهما يلوحان بأيديهما، والطفل يلوح لهما هو الآخر بذراعه القصيرة في نشاط وغبطة.

وقال عبد النبي أفندي في جذل أبوي:

ـ دول لازم يا عيني أبوه وأمه . .

وتحدثه تفاحة وهي لا تصدق قائلة:

ـ بقى يعني هم سايبينه صحيح يتفسح؟! . .

فرد عبد النبي أفندي وقد أفاق من جذله وأصبح من رأيها:

ـ أمال ايه؟! . . مجانين! . . فرنجه كدب . . ضلال . .

وكانت تفاحة تغلي. فليكن الولد في فسحة أو في مصيبة، ولكن أي أب مجنون هذا؟ . . وأية أم ملحوسة؟ . . وكيف يجلس هذا الشحط ممددا جسده على الحشيش بينما ابنه يكاد الماء يطبق عليه؟! وكيف تحتمل هذا المرأة أن تلوح بيدها للولد هكذا في رقاعة؟! ألا تستحق بالذمة قطع هذه اليد؟.

أهذه مصر؟ وآباء مصر وأمهاتها؟ . .

ـ تفوه علادي بلد . .

قالتها تفاحة وهي تبصق في حقد وشدة محاولة دفع البصقة

حتى تصل إلى الشاطئ الآخر، ولكن الريح الطيب تكفل بردها كاملة غير منقوصة إلى وجه عبد النبي أفندي.. وفوجئ المسكين، وبهت، ولكنه سرعان ما تناول منديله يمسحها، واهتز جسده كله وهو يقهقه ويمزح مع امرأته قائلا:

ـ اخصى عليكي هبلة ماتختشيش.. كدهه؟..

واستدارت تفاحة دون اكتراث لما حدث ومشت وهي تتمتم:

ـ قال ايه؟!.. قال بيتفسح!!.. والنبي لو كان عيل من عيالي كنت دبحته.. أنهي مغفل يأمن على كبده؟..

وأسرع وراءها عبد النبي أفندي محاولا أن يهدئ من ثائرتها ولكن غضبها لم ينفثئ وظلت ما تبقى من النهار وبوزها شبرين..

وعند رجوعها إلى اللوكاندة في سيدنا الحسين وعبد النبي أفندي جالس يراجع الكشف الذي كتبه بالأشياء الواجب شراؤها من مصر قبلما يجيئون، وتفاحة تصلي على النبي مرات لتستطيع أن تتذكر شيئا راح عن بالها أن تمليه، وحين يئست من تذكره، قطعت يأسها قائلة:

ـ أما عجيبة.. صحيح.. اللي يمشي يشوف أكتر..

واستخلص عبد النبي أفندي نفسه وألقى نظرة على ركاب الترام قبل أن يقول وهو لا يزال سارحا بما في الكشف:

ـ يشوف ايه؟!..

وأيضا لم ترد عليه، وإنما مضت تحدث نفسها وتقطع الكلمات:

ـ قال بيتفسح قال!! يخي يلعن..

وفي آخر قطار وهما عائدان إلى البلد مدفونان في زحمته، جاءت جلسة تفاحة بجانب عجوز كانت نازلة في قليوب.. ولم يكن مستحيلا أن يبدأ الحديث.. وغادرت الولية القطار في قليوب وهي الأخرى لا تصدق ما روته جارتها عن الطفل وسنه التي لا تزيد عن الأربع سنين، والقارب والبحر..

ولما وصلا البلدة والليل قد تأخر، وعلمت أن الأولاد قد انتهزا فرصة غيابها واستحموا كما كانوا يريدون في الترعة، لم تستطع الانتظار فأيقظتهم واحدا وراء الآخر، ولهلبت كلا منهم بعلقة..

ومع الصباح توافدت النساء يسألنها عن مصر وعن الفاتحة التي أوصينها بقراءتها في السيدة، وعما طلبنه منها ووعدت بإحضاره.. ولم تذكر تفاحة من كل زيارتها إلا حكاية المفعوص الذي طوله شبر، والذي كانت أحيانا تقول أنه غرق أمام عينيها، وأحيانا أخرى لا يطاوعها قلبها فتروي أن مراكبيا أنقذه، وعلى أي الحالين كانت تلعن أباه وتسب أمه..

ولم يبرح الولد مخيلتها أسابيع طوالا.

أما عبد النبي أفندي فمع أنه كان ينسى كل ما يمر به من حادثات مهما كانت الحادثات إلا أن هذه الواقعة بالذات كثيرا ما

كانت تراوده، وحينئذ كان يتذكر جمال الولد وصفرة شعره وثباته واطمئنانه وثقته، ويده الصغيرة البضة وهي تدفع المجداف، وفي الحال كانت ترتسم أمامه صورة ابنه الكبير محمد، الداخل باسم الله على عامه العاشر، ويده الخشنة الماسكة طول النهار بلقمة العيش المغموسة في العسل الأسود، والعسل يتساقط منها على الأرض وفوق جلبابه وداخل صدره، والذي يضع رأسه خجلا بين فخذيه إذا أقبل ضيف، وما أن يبدأه أحد بالكلام ـ أي كلام ـ حتى يتراجع خائفا، قائلا بصوت كمواء القطط:

ـ يا اما. . ياما تفاحة. .

كانت ترتسم أمامه صورة ابنه فيخطط الدوائر على الدرج الذي أمامه بقطعة الطباشير التي في يده، ويمصمص ضرسه المثقوب بصوت مسموع، ثم يتنهد وهو ينساب في حلم يقظان جميل فيرى محمدا راكبا ذات يوم قارباً وحده عابرا النيل في ملابس بيضاء نظيفة، وقد استوى شعره ولمع، واحمر وجهه وابيض، وهو غير خائف من الماء، ولا مقيم وزناً للبحر العريض.

رهــــان

كان يومها من أيام الصيف الحلال، والطريق الزراعي الطويل ليس فيه ذبابة ولا غراب، والدنيا ظهر، والحر يكتم أنفاس السكون، ويكفن صغار النسمات ويجعل من «غرزة» الشرقاوي جنة وحيدة على جانب الطريق الذي يتلوى بالقيظ والنار.

وكان في «الغرزة» ساعتها أربعة من زبائنها الدائمين، الذين تسرب موسم القطن إلى محافظهم، فجعلها تمتلئ بالبرايز والقروش والخمسات. وكانوا يتحدثون بكلام فاتر ممدود. وفيما عدا هذا كان صالح بائع التين الشوكي يتربع بجانب قفصه، وقد مال فوقه، وغرق في صمت حزين وهو ينش الذباب عن تينه وأحيانا عن وجهه. والشرقاوي صاحب المكان استغرقه الصراع مع النوم وأمامه «وابور» الجاز مطفيا، ولا يصغي إلى فرج، عامل رش الطريق، المتربع بجوار عامود من الأعمدة التي تحمل سقف الغرزة، والذي كان يطلب في إلحاح تتخلله فترات صبر طويلة أن يأذن له الشرقاوي فيشرب على «الجوزة» كرسياً من الدخان.

ودخل القادم الغريب. .

كان أعرابيا طويلا ناشف العود، يرتدي قميصا من البفتة القديمة يكشف عن ساقيه اللتين التصق جلدهما بالعظام، وحول وسطه حزام عريض من الصوف يشد ظهره، وفوق رأسه شال في لون التراب، وعقال باهت تقطعت خيوطه، والعرق قد صنع فوق وجهه المدبب بحورا وأنهارا، وعيناه يكاد الدم يسيل منهما . .

ورد الجالسون سلامه، ووضع من فوق كتفه خروفاً صغيرا كان يلهث ، وحين سأل عن الماء أشار الشرقاوي إلى الزير المدفون في الأرض. وشرب الرجل كل ما كان في قاع الزير، ثم أخذ مكانه فوق المصطبة وقد انتقل الماء في سرعة من بطنه إلى وجهه . .

ولم تكن الألسنة تستطيع احتمال الغفوة وفي حضرتها غريب وسرعان ما دار الحديث، وعرف الجالسون من أين هو قادم وإلى أين هو ذاهب، وما لبث الاستخفاف أن انزلق إلى الألسنة حين أدركوا أن الرجل لا ناقة له ولا جمل، ولا نقود معه ولا حشيش

وفي الوقت الذي كان الملل قد بدأ يتسرب إليهم، كان صالح قد بدأ ينشط، ويكف عن نش الذباب، ويساهم في الحديث بنصيب وافر، ويتغزل في التين وطراوته التي تنزل على القلب فتحييه .

وأصبح صالح وحده هو الذي يتكلم، ولعاب الباقين يتحرك لكلامه . .

واستفتح واحد منه بخمسة (كيزان) واستكثر الباقون الخمسة

عليه، وأهمل هو استكثارهم، وأعلن أنه يستطيع التهام القفص كله..

وضحك الموجودون، وسألوا (شيخ العرب) عن رأيه وهم يضحكون. وتوقفوا حين قال العربي في صوته المؤدب الخافت: أنا آكل ميه..

واستكثروا الرقم، بل لم يتصوروا أبدا أن الثور نفسه يستطيع أن يأكل مثل هذا العدد.

وحاوروه وداوروه وهم يسخرون ولكنه أصر على الرقم، وقدم الخروف الصغير ضمانا لكلمته.

وأخرج واحد محفظته وقد قبل الرهان، واستعد لدفع ثمن المائة إذا أكلها الرجل.

وكاد صالح يطير من الفرح وهو يقشر، والعربي يأكل، والباقون في نفس واحد يعدون.

وتحرك فرج من جلسته، ونسي كرسي الدخان، وانضم إلى صالح يقشر معه.

وكان الاثنان لا يلاحقان فم الرجل، وهو يتأوى (الكيزان) واحداً وراء الآخر في سهولة وسرعة وكأنه يقذفها في بئر لا قرار لها.

وحملق الشرقاوي في الرجل وقد غادره النوم إلى غير رجعة، وراح يهمس وهو يعد مع زبائنه ومع صالح وفرج.

وعند الأربعين فك الرجل حزامه . .

وحوالي الستين طلب الرجل ماء، فأسرع الشرقاوي يجري ويملأ الكوب من الترعة . .

وفي التسعين طلب الرجل ماء للمرة الثانية، ودفعه في جوفه ثم تكرع طويلا، وفي بطء وثقة أتى على المائة، وأكل بعدها كوزا آخر من أجل الحاضرين . .

وما أن انتهى حتى ألقى نظرة على وجوه الموجودين التي كلها صمت ودهشة، وانتظر برهة يلتقط أنفاسه. ثم حمل الخروف، وفي هدوء ألقى عليهم السلام ومضى.

وقبل أن يختفي عن الأنظار أسرعت العيون كلها تحدق في بطنه، ثم بدأت الجماعة تستعيد ألسنتها.

وقال الشرقاوي وهو يهز رأسه: ان الرجل من عرب الغرب ولا بد أنه عزم على التين وحضر الجن قبل أن يأكله. قال ذلك وتلفت يمنة ويسرة ثم سمى وهو يبصق في عبه.

وقال صالح: إن في بطنه دودا كان يبتلع التين أولا بأول.

وتنحنح فرج وقال: إن العرب كالجمال لهم معدتان.

وأكد رجل من الذين انتفخت حافظهم أن العربي سينفجر بعد قليل ويموت، وأنهم لا ريب سيعثرون عليه بعد يوم أو يومين طافيا فوق ماء الترعة، أو مكوما تحت الكوبري . .

وكثرت الأقاويل، وبعدت التخمينات والتفسيرات، وكادت تنشب معركة. .

أما الرجل فقد مشى في الطريق، وبدايات المغص تلوي أحشاءه وكل ما يهمه أنه تغذى، وسكتت عنه ولو هنيهة مسامير الجوع، وليكن بعد ذلك ما يكون.

٥ ساعات

كنت أجلس على المقعد ذي المسند العالي، وأمامي المكتب المتهالك وقد ملأه الأطباء الذين عملوا قبلي بأسمائهم التي حفروها عليه، والحجرة قديمة قدم القصر العيني، وكل شيء فيها قد رأيته مرات ومرات حتى ارتويت. كل شيء حتى بقايا القطن والشاش والدماء الجافة المتناثرة فوق الأرض، والترموتر المكسور الذي وارته الممرضة لتوها في ركن الغرفة. . كل شيء حتى الأنات الصادرة من الكمساري الراقد هناك وقد انتهيت من إعطائه حقنة لم تستطع بعد أن تخدر المارد الجبار الذي كان يعتصر كليته.

وفجأة. . دق جرس الإسعاف. .

دق في قصر مرتفع مبتور. .

ولهذا الدق عند كل الناس معنى، معنى يحمل في طياته رهبة تشرخ قلوبهم، ورعشة تنتفض لها أعصابهم، فإنه يعني إنسانا يموت أو سيموت. أما عند الأطباء فإنه يحمل في طياته عملا، ويبعث في تفكيرهم بالخيط وقد لضم في الإبرة، والجلد وقد تعقم، ورائحة

المخدر وقد تصاعدت مختلطة برائحة صبغة اليود، وحشرجة إنسان يتعذب . .

ودق الجرس مرة ثانية . .

وتوقفت، وتوقف التومرجي عن سرحانه، واستدار ليلقي ببقية سيجارته خلسة، ثم عاد ينظر إليَّ من جديد وقد زال الحرج الكثير الذي شعر به طيلة أنفاسه المختلسة.

وسادت فترة صمت كنا نتسمع خلالها عويل عجلات (الترولي) وهو ينساب قادما إلينا عبر الممر الطويل.

ودلف رجل الإسعاف إلى حجرة الاستقبال، وقال وهو يكاد يلهث:

ـ حالة ضرب نار يابيه! . واحد ضابط اغتالوه في الروضة!

ضرب نار! . . ضابط! . . اغتيال! . .

لم أعد نفسي حينئذ لصبغة اليود وماسك الأبر والخيط، فقد اختفى من شخصيتي تماما عامل الحياة، وطفحت تلك الكلمات القلائل فوق ذهني يدفعها بركان يخترنه شعوري عن الاغتيال والظلام وضرب النار.

وقبل أن أستعيد نفسي، انساب (الترولي) إلى الحجرة في نفس اللحظة التي مزقت فيها سكون المستشفى كله صرخة مدوية طويلة صادرة من الأدوار العليا.

وغادرت المقعد في لهفة وانكببت على الجريح أراه وأرى النار التي أتت عليه.

والحق أنني لم أر ما حدست رؤيته، فقد كان الرجل يرقـد في ثقة وقد أسبل عينيه وشبك ذراعيه فـوق صدره وزم شفتيـه واسترعتني ملامحه.. كانت فيها مصرية.. مصـرية من ذلـك النوع الـذي يوقظ فيـك مصريتـك ويجعلك تعشقهـا من جـديـد. وكـان أسمـر. . تلك السمرة التي إذا ما تمعنت فيهـا وجدت في صفـائها تـاريخ شعـاعات الشمس المجيـدة التي صنعت الحضـارة على جـانبي النيـل. وكـان شاربه الأسود الكث يلون تلك السمرة، وتشف منه رجولـة.. رجولـة تبعث القشعـريرة في الـرجال.. وكـان جسده صلبـا شاهقـا، وعنقـه ممتلئا غليظا كان يضج بالحياة والفتوة.. ومع هذا يقولون مضـروب بالنار.

وقفت أحدق فيه ولا أتحـرك، ولم أعد إلى نفسي إلا حين هم بـالكلام، إذ ملت عليـه ألتقط الكلمـات، وإذا بي أقـول في صـوت متنكر هامس:

- ايه؟!.. قتلوك؟!..

ومضى في نفس صوته المملوء المنخفض الرنان يقول:

- قتلوني.. في الضلمـة.. ضـربـوني بـالنـار.. هنـا.. في ضهري..

وسألته وأنا ملسوع دهش:

ـ مين . . مين هم؟! . .

فقال وهو مسترسل بنفس صوته الذي كان يجذبني إليه بقوة وعنف:

ـ المجرمين . . ورئيسهم . . العصابة . . كلهم . . أولاد الكلب . .

ثم توقف لحظة، وحدق بعينيه السوداوين الواسعتين وكأنه يخترق سقف الحجرة إلى ما وراءها من سماء:

ـ كده يا فاروق . . تقتلني؟! . .

وتلقف الواقفون كلماته . . وسرت الهمهمة من داخل الحجرة . . إلى الخارج . . إلى الشارع . . إلى البلد كله . . إلى التاريخ .

وأحسست بنفسي أنفعل وكأن نارا قد شبت فيّ . كنا أيامها تحت حكم فاروق . . وكانت هناك أحكام عرفية . . وكان الظلام والسخط يخيم على مصر ويعشش في قلوب الناس .

وكان لا يحمل إليّ إلا ضحايا العربات وعجلاتها، وصرعى الترام، وعتاة المتشاجرين، وكان ذلك أول جريح أراه مضروبا بالرصاص . .

ولم أعد أتمالك نفسي . .

تناسيت أني طبيب، وتناسيت ما عليَّ من واجب، ولم أعد

أفكر إلا كمصري يختنق بالظلم ثم يرى الظالم صرع أخاه.

وغمغم الرجل المسجى أمامي..

كان وجهه يصفر ويصفر، وكانت تقاطيعه المفتولة تتراخى تحت وابل من نقط العرق الصغيرةوهي تتجمع فوق جبهته وعلى وجنتيه كقطرات الندى تتجمع على زهرة تذبل. وتلمست جسده فوجدته باردا.. ولم تكن برودة الثلج.. إنما كانت برودة ممر طويل في نهايته الفناء والضياع,.

وقفزت إلى ذهني في قوة الانفجار تلك الكلمة التي طالما استبشعتها:

ـ صدمة!..

نطقت بها غير شاعر أني أنطق، ومددت يدي أتحسس ذراعه مرة أخرى لأرى نبضه، وصدرت من بين شفتيه التي كانت قد ازرقت تماما أنة طويلة عميقة تعوي وتتلوى. وجمدت يدي مكانها..

ـ آخ.. آه.. دراعي.. دراعي مخلوع..

والتقط بضع أنفاس لاهثة..

وكنت أعرف الألم الذي لا يطيقه بشر حين تتحرك الذراع المخلوعة، إنه الألم الذي يصدم، ويقتل، ويميت. ومع هذا فقد

كان عليَّ أن أرى الإصابـة، وكان عليَّ أن أديـره، وأوقفت شعوري، وأوقف الـرجال المـوجودون أنفـاسهم ورنات آهـاتـه وآلامـه تخـرسنـا جميعا.

واستقـر بصري على أربـع دوائر سـوداء وحـولهـا ظـلام الجلد المحترق. وكنت أعرف مـا يؤدي إليه السـواد والظلام. . فقـد كـان يؤدي إلى ثلاث قطع محمية من الرصاص استقـرت داخل الصـدر، وقطعة نفذت واخترقت الرئة وسال من منفذها الدم!

وقلت وكأنني أستنجد بشيء غامض ولكنه قادر:

ـ الإسعاف السريع! . .

كـان في هذه الكلمـات، إذا احتاج الأمـر أن أقولهـا، مـا يـرد لهفتي دائمـا ولهفة المـريض في بعض الأحيان، وهـرج التـومـرجيـة والممرضات في كليهما. . كان فيها معنى النجدة. . كانت تصور لي ظلام الريف الـواسع المفتوح، وإنسانا يستغيث في لهفة راجفة، فإذا بلهفته ترد إليه، ورجفته يعقبها طمأنينـة، حين يسمع من بعيـد، ومن أغوار الظلام، ذلك الصوت المغيث، تردده فتحات الفضاء:

ـ جايلك يا واد. . جايلك. .

* * *

وعلى نفس السرير الذي مات عليه عبد العليم الطالب الصغير الذي أصيب بخبطة هوجاء في رأسه أثناء المـظاهرات، والـذي مات عليه صديق ابن العربجي الذي مرت فوق صدره عربـة أبيه فتهشمت

ضلوعه، والذي مات عليه شعبان وصالح وعبد اللطيف ومحمد.. على نفس هذا السرير رقد عبد القادر الجريح وحوله أسطوانات الأكسجين، وأجهزة نقل الدم، وأوعية الماء الساخن، وطلاء الحجرة الأبيض الناصع، وأزيز غلاية الماء، وحفيف البخار المتصاعد، ومجموعة من الأطباء، وممرضة، وصمت ترعشه أنات عبد القادر.

وما كادت آخر قطرة من أول لتر من الدم تأخذ طريقها إلى قلبه حتى اختفت قليلا تلك الصفرة التي علت وجهه، وخفتت حركات عينيه حتى تركزت حدقتاه عليَّ، وظل يحدجني ببصره طويلا كالذي يتحفز لفعل شيء دون أن ينطق بحرف. وعجبتِ لهذا التحديق، ثم زاد عجبي وأخذت دوائر صغيرة من القلق تنداح في صدري..

وفي اللحظة التي بدأ الخوف يأخذ طريقه فيها إليّ تحركت شفتاه، وتغيرت ملامحه، ثم استقرت تقاطيعه على ابتسامة كانت أجمل ما رأته عيناي ليلتها..

ولست أدري ما ارتسم على وجهي لحظتها، فقد أحسست بفرحة غامرة دق لها قلبي.

وطالت ابتساماتنا، وامتدت، وحتى قلت له وكأنني أقولها متأخرا جدا:

- ازيك؟.. ازيك دلوقت؟..

ونطق بهمسة لاهثة:

ـ أحسن. . أحسن كتير. .

وشيئا فشيئا بدأت ابتسامته تتلاشى وراء غيوم. ثم اختفت، وأظلمت ملامحه، وتقاربت تقاطيعه، وانطلقت من سواد عينيه أشعة تبرق. فقلت وأنا قلق:

ـ مالك؟!. . فيه حاجة؟!. .

وتوترت أنفاسه اللاهثة واندفع يقول كالذي يخنقه كابوس:

ـ أيوه. . عليّ. . عليّ. . الندل. . يجرني للضلمة. وأنا صاحبه. . صاحبه. . الخاين. . بس لو أروق له؟. . وأروق لهم؟. .

وتعبت تقاطيعه، وخفت البريق، وأصبح سواد عينيه أكثر سوادا، وتلألأت فجأة تلك القطرات الصغيرة الشريرة من العرق على جبهته وعلى وجنتيه.

ولعل الابتسام هو ما كان يحاول فعله فلا تطاوعه قسماته حين قال في صوت خافت غير مهتز:

ـ ميه!. . عاوز أشرب!. . عطشان!. .

وكانت يدي أسبق من يد الممرضة أمدها إليه بقطعة القطن وقد بللتها بالماء لأمسح بها شفتيه ولسانه. وطاوعته القسمات في النهاية فابتسم وهو يقول:

ـ متشكر. . متشكر يا دكتور. . كمان. . كمان. . عطشان. . يا ناس. . عاوز أشرب. .

وكانت يدي أسبق من يد الممرضة لتمنع عنه الماء هذه المرة.

وسمعت نقرا على الباب. وحين فتحته وجدت الممر الطويل يضيق بالناس والهمسات والتوجس. واندفعت العيون نحوي ولمحت في كل العيون تساؤل.. ورجاء.. رجاء في أمل.

ودخل كاتب الاستقبال، صامتا على غير عادته، ولا تستقر نظراته كالذي يبحث عن شيء ونسي ما يبحث عنه. واتجه إلى الركن الذي وضعنا فيه أشياء عبد القادر.. بذلة في ظهرها ثقوب.. وقميص أبيض لا تهتم لبياضه بقدر ما تقشعر للدائرة الحمراء البشعة على صدره الأيمن.. وعلبه فيها ثلاث سجائر.. ومنديلان.. وقطعة حلوى.. وحافظة نقود فيها فوق ما فيها من أوراق صورة قديمة تثنت حوافها لطفل صغير.

وتلكأ الكاتب قليلا بعد أن انتهى من مهمته، ودار ببصر ذاهل في أرجاء المكان، واستقرت عينه بعد تردد على عبد القادر ثم غادر الحجرة تاركا خلفه أصداء همهماته المكتومة.

وأغلقت الباب..

* * *

وكان الوقت قد تأخر، والمصابون الذين يتطلبونني قد انتهوا وأو كادوا، والليل قد عم أرجاء المستشفى، والظلام في الخارج واسع واسع لا حدود له، والنور في الداخل ساطع يلمع له كل شيء، والغلاية تزن، والممرضة تتثاءب، والتومرجي واقف قد ألصق

ساقيه بحافة السرير، والهواء أصبح لزجا ثقيلا . .

وأحسست أول الأمر أن أشياء كثيرة حولي تلهث . .

ثم شعرت بالحجرة كلها تزفر وكأنها رئة محموم . .

والتفت حول قلبي أصابع رفيعة غامضة وشددت قبضتها .

ووجدت نفسي أقف، وأتمشى في الحجرة، ورفعت «كوبس» الغلاية، وأعدت برباط «محلول الملح» وما كان في حاجة إلى رباط . .

ومع هذا بقيت الحجرة كلها تلهث كرئة المحموم . .

وعلى حين بغتة عرفت ما حدث . .

ووقفت أرقب صدر عبد القاردر الصاعد الهابط وأتمعن فيه وهو يجاهد ليستخلص الهواء فتتقبض كل جارحة من جسده، ويصبح وجهه كالقمر المخنوق، ثم يناضل ويتألم وهو يناضل، حتى يدفع القليل الذي استخلص ويستعد للأقل الآتي . .

كان يتنفس وكأنما حجر ضخم يجثم فوق صدره ولا يستطيع منه فكاكا . .

واحتار السبب في رأسي قبل أن يجد الجواب . .

وأملت نفسي قليلا أرى الجانب الأيمن . .

ورأيت الدم . . الدم لا كما اعتدت رؤيته يلون جرحا أو يخضب رأسا وإنما الدم المندفع في نافورة حمراء وقد أغرق

الملاءات وشبعت منه المرتبة ومضى يتساقط عبر حديد السرير الأبيض نقطة وراءها نقطة، وسربا وراءه أسراب. .

لقد بدأ النزيف. .

وبحثنا جميعا عن كل ما استطعناه من قطن وشاش نكتم به الدم المتصاعد الوهاج.

واحمر القطن الأبيض وامتلأ. واعتصرناه ثم وضعناه فعاد يمتلئ ويتسرب منه الدم بإصرار وعمد إلى أرض الحجرة.

وأفلحنا أن نسد الثقب المتربص تحت الثدي الأيمن كالعدو المبين. . وألصقنا عليه المشمع طبقة فوقها طبقة. ولم أثق في المشمع فوضعت يدي فوقه أكتم بها النزيف.

ووقع بصري على يدي، فوجدتها كلها دم جف وآخر لم يجف.

ولم يكن هذا أول دم أراه، كانت رائحة الدم تملأ أنفي دائما منذ أن عملت في الاستقبال، الرائحة التي لها دفئه. . الدفء الخالق القابض، والتي تلمح خلالها زفارة كعفن الموت. . الرائحة التي تذكرك بالمذبوحين والمبقورين ومن في صدورهم سل. .

ولكن في تلك الليلة، كنت كلما رأيت دم الجريح المغتال يجف فوق يدي، وينكمش حين يجف، كلما أوغلت في تأملي للجريح الذي لا بد كان رجلا ككل الرجال. . نمى من طمي وادينا. . ومضغ قمحنا. . وارتدى قطننا. . وصنعت أذرتنا خلاياه. .

وكلما أوغلت في تأملي!، كلما همت أستعيد ما فات، وأرى الأجداد والآباء والشهداء الذين لهم أسماء فوق الرخام، والشهداء الذين بلا أسماء ولا رخام، وأرى الناس ونفسي، وكل من له عرق، وكل من له خال، وكل أولئك القانعين بالألم.

أهيم ثم أعود إلى يدي التي فوق صدر الجريح.. إلى الأصابع التي تحاول عبثا أن تمنع موتا جديدا.. وأي موت؟..

عدت مرة لأجد اللاصق الذي وضعته قد انتزعه الدم الساخن المتصاعد، والنافورة قد بدأت..

وضغطت يدي، وأجلت بصري أراقب بقايا الزجاجة الخامسة من الدم وهي تسيل من الجهاز إلى شرايين الجريح، وتدفعها الشرايين إلى الثقب الذي ما كانت يدي تستطيع أن تفلح في سده، وينتهي الدم إلى خيط النقط الغليظ وهي تتساقط على أرض الحجرة الصلبة.

وفرغ كل ما في المستشفى من دماء صالحة.

ولم يفرغ الدم المنبثق.

وكنت وزميل جاء يساعدني تتقابل نظراتنا ثم تتباعد لتغيب عقولنا..

وكان لا بد من دم آخر..

وانتهت دورة الزميل على مستشفيات القاهرة كلها وقد عاد

بلتر واحد. . آخر لتر من الدم في البلد. . وآخر ما نتعلق به، وقد يئسنا، من الأمل.

وكنا قد يئسنا. .

فصدره الصاعد الهابط كان قد بدأ يخرخش، والفقاقيع التي تكونت في كرات حول فمه، وسمرته أخذت مكانها رمادية لا تمت إلى الأحياء.

وكثيرا ما رأيت أناسا. . ورأيت جرحى. . ورأيت جرحى يموتون. . ولكن كان صعبا على أن أصدق أن عبد القادر سيموت. وكان قد أقبل في أول الليل فما أحسست أن في صدره رصاصا. وقضيت بجواره ساعات. . خمس ساعات. أسمع حديثه اللاهث. . وأرى فتوته تنكمش وتنكمش، والعملاق الذي كان يضمر ويضمر، وجسده الذي كان قد ابتلع الجروح فما ظهر لها أثر، وأصبح كل ما فيه الجروح. . وكنت أكثر الوقت معه وحيدا. . وكان هو خائفا من الموت. . وكنت خائفا عليه. . وكان كلانا عنده أمل. وكنت أستمد أملي من الزجاجات والمورفين وحمام الكهرباء، وكان يستخلص أمله من أملي، ويناضل وهو يستخلصه كما يقاتل وهو يستمد الهواء.

وكان يقول لي في أول الليل: يا دكتور، وكنت أقول له يا كابتن، ثم ناداني باسمي وناديته باسمه. . وكان الوقت يمضي. . في بطء ثقيل. . وكانت الأحداث كثيرة. . تكاد تستغرق عمرا بأكمله. . وكنت أحس طوال العمر الثقيل أنه مضروب في ظهره، وأنه مغتال،

وأنه مظلوم، لأننا كلنا مظلومون. .

وما كنت وحدي الذي حدث له هذا. .

كنت والممرضة والتومرجي قد ألف بيننا ذلك العمر، وهدتنا الخمس ساعات، وصاحبنا عبد القادر في رحلته فعزت علينا الصحبة، وأصبحنا كالأسرة الواحدة ذات الجرح الواحد.

وكان اليأس هو أمض ما نستطيع ابتلاعه. .

وكان اللتر الأخير الذي جاء به الزميل أهم حدث في ليلتنا.

ورحنا نعالج وضعه وإحكامه بحرص، ونكل في البحث عن وريد نضع فيه إبرة، وقد اختفت كل الأوردة، فلا تومرجي أو حكيم، إنما مجموعة من البشر تكافح من أجل إنسان. . إنسان قد أصبح عزيزا عليها. .

وسرى الدم الجديد. .

وتقاربنا حول الفراش نرقب النتيجة، ونخفي وجلنا ونحن نرقب رجلنا وهو يئن بلا فم ويتلوى ويرفع ساقه ويدفعها، وتنقبض أيديه وتنبسط بقوة، وجسده يصارع النزيف الداخلي.

وهدأ الجسد بعد هنيهة، واستمر الأنين الخافت المتواصل الأنين الذي يثير فيك كامن أشجانك فتذكر كل ما مر بحياتك من أحزان، وتبكي على كل من مات.

وحدسنا أن الأزمة قد مرت، والدم الأخير قد أفلح.

ولكن كان الهدوء الذي ساد جسده لا يطمئن. وكان الخرخشة التي في صدره تزداد حتى أصبحت كـأصوات المنشـار وهو يغـور في الخشب.

وكانت الساعة تبتعد عن الثالثة. .

وفجأة. . توقفت أنفاسه. . واشرأبت أعناقنا. . ولكنه عاد يفتح شفتيـه ليبصق ملء فمـه. . دما أحمـر. . نفس الدم الـذي كـان منـذ هنيهة في الزجاجة.

واحمر القطن من جديد وهو ينضح الدم.

وتباعدت أجفانه التي كانت مسدلة من أمد بعيد، وسقط الضوء على عينيه وهما تحدقان في لا شيء، وتحدقان في ضعف وكأنهما لا تـريان شيئـا. . تباعـدت أجفانـه، وانساب من حلقـه صوت لا يكـاد يسمع وهمس:

ـ ميه. . عطشان. .

وبللت فمـه بالماء. . بل أقـول الحق جعلته يـرتشف ما شـاء من كوب الماء المثلج الذي أحضرته له.

وفتح فمه بعدها مرة، ومرة، ومرات ليبصق الدم.

وأصبح الجرح الذي في جانبه أوسع من فمـه، وما يجيء منـه أغزر. .

ثم راح في غيبوبة. .

ورحنا في صمت . .

وتلفت حولي لأجد الحجرة قد وقف ما فيها من هواء، ومصابيح النور حولها دوائر لها ألوان . . والجدران تردد حشرجة أنفاس تتباعد وتطول . . والوقت أبطأ من بطئه حتى لكأن بين الثانية والثانية عام . . وزميلي يكاد يقف على أطراف أصابعه وقد أمسك بالسرير وسمر عينيه على زجاجة الدم . . والممرضة راحت عيناها تعدو بين الفم الذي أصبح كالجرح، والجرح الذي أصبح كالفم، والتومرجي قد أمسك بمفتاح أسطوانة الأكسجين واستمات عليه.

كنا جميعا نتحفز ونستعد. كنا نحس بشيء غامض مخيف يحوم حولنا. وكانت قلوبنا وسواعدنا وعقولنا متشابكة متلاحمة تحاصر رجلنا وتمنع عنه الحائم المخيف.

وتباعدت الثواني، وضاقت الحجرة، حتى ما عدنا نستطيع التنفس . .

واندفعنا نحوه كما نقذف بأنفسنا في خضم البحر لانتشال غريق . . وتصببنا مياها ونحن ندفع الهواء إلى رئتيه، ونخترق صدره بإبرة طويلة حتى تصل إلى قلبه فيحركه العقار، وننفخ في الزجاجة ليذهب الدم جميعه مرة واحدة إلى عروقه، ونفتح أسطوانة الأكسيجين على آخرها ليعلو صدره . .

وحاربنا عدواً قوياً لا نراه . .

كنا نكز على أسناننا ونبذل طاقاتنا كلها ونحس أننا نستطيع دك

الجبل، وهز السماء وإرجاف الأرض. .

ولكن الحقيقة كانت تلاحقنا. .

وخفنا أن نصدق، ورحنا نراوغها ونسابق بعضنا بعضا في المراوغة والهروب. . ونسرع في اعتصار أنفسنا، وضم قوانا ويزداد إيماننا بخداع الحقيقة. .

وجاءمنا من الركن نحيب الممرضة المكتوم.

واقشعرت أجسادنا من النحيب وانتفضنا نبذل ما في وسعنا من جرأة اليائس ومقدرته.

وعلا نحيبها فأصبح كدوي الطبول.

ودفع التومرجي أسطوانة الأكسجين جانبا، وارتمى فوق عبد القادر وهو ينهنه ويبكي، ويقتلع النفوس ببكائه الرجالي الخشن ويقول:

ـ آه يا حبيبي يا خويا. .

وأفقت على قول زميلي والدموع تغص حلقه:

ـ البقية في حياتك. .

وتسربت إلى نفسي من خلال كلماته تلك اللحظة التي نعرفها جميعا، والتي نحس فيها أننا أوهن من الضعف، وأتفه من العجز، وأننا مضيعون. . تلك اللحظة التي لا نملك معها إلا البكاء فيحملنا البكاء إلى بكاء.

وجال بخاطري أن أعانق زميلي وأضم ما في صدري إلى ما في صدره وأخفي ما أحس به من خجل إزاء فشلنا أمام الموت، أخفيه فيما يحس به من خجل. .

ولم أفعل. بقينا بلا زمن، راجين، نتأمل الرجل المسجى. وتحز الخسارة في قلوبنا، وأعيننا ثابتة في مكانها لا تغادر وجهه الوديع الذي كان يلمع بالعرق. . آخر عرق. . وملامحه التي استراحت في هدوء دائم.

وحين واريناه تحت الغطاء كان الشك في موته لا زال يملأ منا النفوس. .

الأمنيـــة

كان (البرعي) يتساءل في غبطة وحيرة عن الوجه المليح الـذي طالعه في ذلـك الصباح، فمـا كان يعتقـد أبدا أن اللحـظة التي داخ وهو ينتظرها قد تأتي هكذا فجأة وبمثل السهولة التي جاءت بها.

ومع أن «أوضة» التليفون كانت خالية تماما، ودوار العمدة ليس به إنس، والخفير ذهب يفطر وأوصاه بـالحجرة خيرا، مع هـذا كله، خاف أن يراه أحد، فأطـل برأسـه من الباب، ونـظر هنا وهنـاك، فلم يجـد إلا قـوافـل الأوز والبط وهي تـروح وتنقنق وتجيء في الشـــارع الضيق، وديكين نـافرين يتعـاركان، وكلب ابن عمـه الأجـرب راقـــد يتصيد الذباب على مهل مطمئن.

ووارب البـرعي الباب، ولف حـول المائـدة الكبيـرة الـوحيـدة بالحجرة وقد تشقق سطحها وامتلأ بدوائر الحبـر السوداء. ولم يتـردد وهو يجلس على الكرسي المتهالك الذي سقط معظم خيزران قاعـه. وضايقته الجلسة حتى اضطرته أن يعقص ظهره إلى الوراء كثيرا، وأن يمد رجليه الحافيتين تحت المائدة.

وذكرته جلستـه التي لم تخل من عـظمة بـالشيخ عبـد المعطي

عامل (التلافون) وهو قاعد على الكرسي، وقد وضع رجلا فوق الأخرى، وخلع العمامة عن صلعته التي لها نعومة الخيار، وأسندها إلى دفتر الأحوال القديم الذي صنع له جلدا من ورق اللحمة الأصفر..

ولم يسترسل البرعي في سرحانه، فالأمنية كانت تلهبه، وصندوق «التلافون» المثبت في الحائط أمامه كان يجذبه بمغناطيس لا يستطيع مقاومته. وهز البرعي رأسه في غبطة فلا شيء الآن يحول بينه وبين رغبته، ولا أحد موجود في الدنيا كلها إلا هو و«التلافون».

وتمطى في دلال وهو يقف، واقترب من الصندوق، وتملى فيه برهة، ودقق في سلكه الفيراني الطويل وهو ينتهي في الزجاجتين المملوءتين بشيء غريب.

ومد البرعي يده في قليل من الوجل ونقر على الصندوق. وكاد يضحك وهو يتوقع أن يرد واحد من داخله ويقول: مين. وابتسم وهو يرجع إلى أيام بلاهته وصغره حين كان يسميه «اللفلفون»، ويعتقد أن في داخله بني آدم صغير أوضعته الحكومة ليكلم الناس.

ولم يضيع وقتا أكثر من هذا في السخرية بنفسه وإنما مضى يلمس على الصندوق الناعم، ويتحسس البوق الذي يبرز من مقدمته كما تبرز شفاتير حسن العبد، وتصل أصابعه إلى الأجراس الموضوعة كأجراس العجلات، فينقر عليها بأظافره، وتنحدر يده إلى السماعة المعلقة بجانب الصندوق، فيلف قبضته حولها، ويمر بيده فوق

الحبل الذي يتدلى منها، ويمل هذا، فيرتد إلى الناحية الأخرى، ويلعب بيد التلافون الحديدية السوداء، ويكاد يديرها..

وقبل أن يفعل شيئا آخر، اتجه إلى الباب، واطمأن من جديد إلى خلو الطريق، وعاد إلى التلافون، وأمسك السماعة بقوة، ثم رفعها قليلا قليلا في حرص شديد. واستغرب حين وجدها ثقيلة كرطل الحديد، وكلما ثقلت يده بها، دق قلبه، وسال العرق من يده، ونسي الابتسامة التي لا يدري متى علقها فوق وجهه.

وأصبحت السماعة أخيرا في حوزة قبضته بعيدة عن الصندوق فقلبها على ظهرها وبطنها أمام عينيه، وأعجبه الثقب الذي في أسفلها، ووضعها تحت طاقتي أنفه وشمها، فلمح فيها رائحة عرق الشيخ عبد المعطي التي يعرفها جيدا، وتعرفها معه كل بلدهم ميت غنيم..

ثم.. ثم وضع السماعة فوق أذنه حتى التحمت بها، وحملق في الحائط الذي تساقط طلاؤه وهو يسمع هديرا عجيبا كدوي وابور الحرث البعيد. وبعد أن زالت صدمته الأولى تسربت إلى أذنه من وسط الهدير أصوات كنقيق الضفادع، فكز على أسنانه، ونقل السماعة بسرعة إلى أذنه الثانية، وكتم أنفاسه حتى لا يفوته شيء.

وانتشى..

فقد استطاع بعد جهد إن يميز صوتا يقول: أيوه يا سيدي، وأصوات كثيرة أخرى ترد عليه، ثم تبعد كلها، وتختلط، ولا يربطها

في رأسه إلا دوي وابور الحرث الذي بدأ يدير رأسه، ولا ينعشه إلا صوت رفيع ممدود يقول بين الحين والحين: ألـووه . . يا أخينا ألوووه.

وتبين بعد عناء كبير، وبعد أن تلاحقت أنفاسه وابتلع ريقه مرات أن نقيقا يقول من بعيد جدا: يا مركز. فيرد عليه آخر له بحة كحشرجة أم سليمان.

وما اهتم البرعي بمسألة في حياته قدر اهتمامه بمعرفة كل ما يقولون فأمسك السماعة بكلتا يديه وضمها بشدة إلى أذنه.

وكاد يقهقه وكأن الأصوات تزغزغه، وأحس أنه سعيد، وأنه يستطيع عمل أي شيء، وأنه هو الآخر ممكن أن يمط صوته، ويطيل عنقه، ويقول:

ـ يا مركز. .

وقالها فعلا في سره، ثم همس بها بينه وبين نفسه، وكأنها الفاتحة يقرؤها.

وحين اطمئن إلى أن حادثا لم يحدث بعد همسه، اجتاحته نوبة عاتية من الجرأة السعيدة، وزعق وقال:

ـ طب هه. . يا مركز. . يا واد يا مركز. .

وكما تقرع طبلة السحور، وجد أذنه يخرقها صوت أجوف عال تبين بعد وقت أنه يقول:

ـ أيوه يا ميت غنيم . .

وشعر أنه وقع، وأصبح قلبه في أطراف أقدامه، وسقطت طاقيته فلم يعبأ بها.

ومأما وفأفأ وأذنه قد ماتت على السماعة

ومأما وفأفأ وأذنه قد ماتت على السماعة التي تطبل كل لحظة وتقول:

ـ أيوه يا ميت غنيم . .

وأصبح لا شيء في عقله، ولا شيء على لسانه إلا أن يردد مرة أخرى:

ـ يا مركز. .

فيجيئه الجواب غاضبا:

ـ أيوه يا جدع . .

ـ يا مركز. .

ـ أيوه يا محروقة يا ميت غنيم . .

ـ يلعن . . يلعن أبوك يا مركز. .

قالها، ورمى السماعة بقوة وهو يحس بكل ارتياح . .

ثم اندفع إلى الخارج كالريح .

أم الدنيــا

كان مطعم الدرجة الثالثة في آخر عشاء يسوده جو غريب، ومع أن الضوء كان قويا باهرا، ودقائقه تتساقط في عدد لا نهاية له على كل شيء فتبدو وجوه الجرسونات الحليفة الناعمة، والمفارش البيضاء والملاعق، والأكواب الزجاجية النظيفة، تبدو كلها لامعة أنيقة وكأنها طليت بماء النور. .

مع هذا إلا أن المسافرين كان حديثهم همسا خافتا، يدور معظمه حول الوصول إلى الإسكندرية في الصباح الباكر، ثم نهاية الرحلة بعد الظهر في بيروت، وكان بعض الحديث يدور حول البحر ودواره وصرعاه في اليومين السابقين الراقدين لا يستطيعون التحرك أو حتى العشاء. .

وأثناء الهمسات والابتسامات كان كثير من المسافرين يجولون بأبصارهم في أرجائه، ويودعون كل شيء بأعينهم ويودعون بعضهم بعضا وقد أحسوا بلذعة إذ سيتركون وجوها قد اعتادوا عليها وألفوها. . بل بدا الجرسونات أكثر ورقة، والناس ينادون بعضا منهم

بأسمائهم وقد عرفوها، ويتبادلون معهم فكاهات سريعة وهم يـوزعون الطعام . .

وكان المسافرون أنفسهم خليطا متنافرا . . بعضهم سـائحون . . وبعضهم أجانب عائدون . . ولبنانيون . . وأروام .

ثم كـان هناك بعض مصـريين . . سبعـة من المصـريين الـذين جمعتهم الرحلة ولا شيء سواها . .

وصحيح أن الرسام العائد من إيطاليا والذي كان جالساً في ركنه المعهود يمضغ الطعام على مهل تائه لم يكن يبدو عليه أنه مصـري ، إلا أنه كان كذلك، بـل من حي الحسينية بـالتحديـد. وكان في آخـر عشاء أيضا لا زال منطويا على نفســه، ولا زال يحدق في الفتـاة التي خلبت لبه وجعلته يمضي الأيام الأربعة التي استغرقتها الرحلة يلتهمها بنظراته، ويراها، وكمـا رآها أول مـرة، أجمل فتـاة في الوجـود، فلم تقع عينه أبدا على شبيه ولو من بعيد لذلك الجمال. . جمال الجهــاز الدقيق، الرائع الدقة، الجمال الـذي ليس فيه وجـه كالقمـر، وعينان مثـل عيون المهـا، وشفتان كـحبـات الكريـز، وصدر بـارز، وسيقان ملفوفة، وإنمـا ذلك الجمـال الذي لا تنبـع الروعـة من أجزائـه مهمـا بلغت من سحر، إنما هو كاللحن المـوسيقي الفريـد، بحس الإنسان بما فيه من عبقرية إذا اسمع إليه كله، واستوعبه كله وعاش فيه .

هكذا رآها أول مرة . .

وهكـذا أحس بهـا، ثمينـة في دقـائقـهـا ، حتى ليخـاف على

ملامحها من نظراته، رائعة في كلها، حتى لتروي ظمأ البشر أجمعين إلى الجمال.

وثيابها كانت بسيطة.. بل كان الجمال في بساطتها، بنطلون واسع وبلوزة، وحول عنقها إيشارب بنفسجي عقدته في إهمال بسيط مثير، كان يعبث به الهواء فيتطاير، ويبهت لونه، ويتلاشى وكأنه يستحيل إلى عطر وبنفسج..

ولم يكن أول ما وضع قدمه في الباخرة يحلم برؤيتها، بل ما كان يفكر حتى في دخول المطعم ولا العشاء، كان يومها مثل بقية المسافرين يحس بالانتقال المفاجئ من المدن والجبال والشاطئ إلى البحر والطبيعة الجديدة التي احتوته ولهذا كان يشعر بقلق غامض يمور في صدره ويدفعه للبحث عن شيء لا يدري كنهه، فراح يجوب الباخرة، ويقف ولا يدري لماذا يقف، ثم يسير ولا يدري أين يسير، ويتفرج على كل شيء. حتى على الفرشة التي ينظف بها البحار ظهر الباخرة، ويفكر في كل شيء ..حتى في شيال محطة نابولي الذي لا ريب قد استغفله، ويتلكأ ليسمع حديث البحارة الايطاليين، وتعجبه نغمة دقات العشاء وهي تخفت وتعلو وتبتعد، ويذهب هكذا وبلا إرادة إلى المطعم وهناك يراها، وحينئذ يدرك كنه ما ظل يبحث عنه، ويحس بالقلق الغامض يهدأ ويصبح كالراحة الأبدية في صدره.

ولم ير شيئا سواها طيلة الأيام الأربعة، وقنع بالتحديق فيها من بعيد لبعيد وهو يحس بها إحدى معجزات الكون، وينتشي برؤيتها، كما ينتشي برؤية السحاب المضيء، وأنوار القرى المبعثرة

على جانبي مضيق مسينا وهي تبرق في الليل كنجوم الأرض، والبحر العميق الذي لا يهجع.

لم يحاول حتى أن يعرف اسمها، ولا من أين جاءت أو مع من تقيم. ورآها ترقص (الدبكة) مع اللبنانيين وسمعها تتحدث بالفرنسية مرة والانجليزية مرة أخرى وأحب انجليزيتها تماما مثلما أحب الفرنسية وهي تنساب في رقة من بين شفتيها.

وظل يعبدها هكذا بنظراته إلى آخر عشاء..

وبينما الرسام في هذا كان هناك مدرس مصري آخر عائد من البعثة مشغولا كالعادة بمزاولة هوايته في التعرف إلى الناس ومحادثتهم، وفي ذلك الوقت كان يتحدث باهتمام مع جار جديد له تعرف عليه قبل العشاء بدقائق، وكان سعيدا جدا بالفرصة التي انتظرها طويلا، فالرجل قد أتعبه وحيره أمره وهو يراه لا يغير ملابس الكشافة التي ركب بها الباخرة، ولا يكل عن التجول فوق ظهر المركب برأسه القليل الشعر، ووجهه الأحمر الشديد الحمرة، والشعر الأصفر القليل الذي حول ركبتيه المكشوفتين، والكتاب الأزرق الذي لا يتركه من يده..

حيره الرجل طويلا حتى أتيحت له الفرصة في آخر عشاء فعرف أنه سائح ألماني في طريقه إلى مصر، وأن الكتاب الذي في يده هو عن آثارها..

وكان بيترو هو أسهل من تعرف إليه من الناس. إذ بعد أن

وضع حقائبه في الكابينه، وصعد إلى البوفيه، وتلفت فلم يجد إلا وجوها متعبة. . عجوزا ممسكة بمجلة، وفوق عينيها نظارة، ورجلان سمينان مالت رأساهما وراحا يتهامسان وراهبة شديدة البياض ساهمة تحدق.

وعانس كان يبدو أنها انجليزية جالسة ترمق الموجودين باشمئناط، ولا شيء غير هؤلاء سوى المقاعد التي تنزلق وتتخبط كلما تمايلت الباخرة فوق صدر الموج الصاعد الهابط.

ولم يجد حينئذ ما يغريه، فاتجه إلى البوفيه وابتسم لبيترو الجرسون الواقف يعد القهوة وكأنهما صديقان قديمان، وقال له هاشاً باشاً بالايطالية:

ـ بونا سيرا. .

فقال بيترو:

ـ بونا سيرا سنيور. .

وهكذا انتهى كل ما يعرفه من الايطالية، وبدأ يستعين بالانجليزية التي ذهب إلى إنجلترا يتخصص في تدريسها وعاد يعد الماجستيراه. ولاحظ أن بيترو يجاهد بأدبه الكسول ليلم أطراف إنجليزيته ويجيب على أسئلته الكثيرة.

ومع هذا طال حديثه مع بيترو.

وعجب المدرس لذلك الإنسان الذي له بيت وزوجة وأولاد في

فينيسيا والذي لا صديق له سوى البحر وقد عمل فيه ثلاثين عاما، وأصبح لا يطيق ساعة واحدة يقضيها في البر حتى ولو قضاها في بيته وبين أولاده.

وعلى مائدة العشاء لم يكلفه الأمر أكثر من ابتسامات أربع أصبح بعدها يعرف كل شيء عن الأربعة الجالسين بجانبه إلى مائدة العشاء.

وكان الأمس فقط هو أكثر أيامه ازدحاما، فقد عرف فيه أكثر من ثلاثين مواطنا لبنانيا عائدين من المهجر.

وكان أغرب من عرفه حقا هو اليوناني العجيب الذي ليس في رأسه شعرة واحدة سوداء، والذي لم يصدقه أبدا وهو يروي كيف ذهب إلى العراق شابا قبل الحرب الأولى ليعمل في حقول البترول هناك، وكيف ظل يعمل ويكدح حتى انتهت الحرب الثانية. ولما أحس بالكبر وأراد أن يستريح باع كل ما يمتلكه، وعاد إلى اليونان هو وزوجته.

والذي أضحكه بحق أن اليوناني العجوز قال إنه لم يحتمل البقاء في اليونان، ولم يرتح إلى معاشرة مواطنيه وقد مات أصدقاؤه وتفرق معارفه، وانه أحس فعلا بالغربة في بلده، وامرأته ضاقت بلداتها اليونانيات، وكانت تبكي دائما حين يتهمنها بأن الصحراء قد خشنت طباعها وغيرتها. ولهذا قرر بعد شهور قليلة قضاها في اليونان أن يعود إلى العراق وهو وزوجته، فقد اشتاق إلى الماء هناك، وإلى

البيت الذي على نهر الفرات والذي طالما حلم به.

ويقهقه المدرس كلما تذكر العجوز وهو يتنهد ويقول بلكنته العراقية الأجنبية:

ـ وين أنت شيخ جابر؟.. وين أنت جافري؟.. وين كلكم؟ كلكم؟..

وبينما كان المدرس في آخر عشاء منهمكاً في حديثه مع الجار الجديد الذي تعرف به.. ومنهمكاً في مناقشة ما يحتويه الكتاب الأزرق عن مصر، ويتحمس وهو يعطي للسائح نمرة تليفونه ويعرض عليه مرافقته طوال فترة إقامته.

بينما هو في هذا، كان أربعة مصريين آخرين يحتلون المائدة التي بجواره، وكانت العين لا تفلت مصريتهم وحول المائدة طربوش وجلباب، ووجوه سمراء وأفواه فيها طعام، وضحكات، وقبضات تدق، وظهور مائلة إلى الوراء كثيرا، ومائلة معها المقاعد، ونكت تترى، و(قافية) قد انهالت على الجرسون الطلياني، وهيصة، وكلام.

وكان الأربعة خدم أمير مصري قضوا معه الشتاء في نيس، ثم أرسلهم يسبقونه إلى مصر.

وكان الأوسطى شرف الطباخ مرحا على غير عادته، وكان يرتدي نفس جلبابه الافرنجي الذي له جيب ساعة على الصدر، والذي فيه ساعة لها (كتينة) غليظة. وعلى رأسه كانت طاقيته البفتة وذيلها محبوك على جبهته. وكان جالسا على راحته بجسده الضخم

الـذي في ضخـامتـه طيبـة وعنقـه الغليظ السمين ووجهـه المنتفـخ الأشداق الوديع القسمات، وشاربه الكث الـذي تناثـرت فيه شعـرات بيضاء قليلة. وكان الأوسطى يرف بعينـه إلى المرأة الـرومية البـدينة، ويقشعر جسده فيخفي القشعريرة بضحكة عالية تتردد بين أشداقه.

ومنذ حادثـة البوفيـه والمرأة تكهـربه كلمـا رآها. فهـو قد ركب الباخرة بعد أن قضى في بلاد الناس شهورا طويلة عانى في أثنائها مـا عـانى من الحنين إلى امـرأتـه فـردوس وسـروالهـا البمبي المشغـول بالدانتلا والذي يصل إلى الركبـة وكان أحيـانا يضعف، ولكنـه كان لا يطيق أبدا أن يرتكب الفحشاء، ولو بالنظر، وحين احتوته الباخرة كان لا يزال عند تصميمـه الأكيد. ولكن تلك المـرأة ذات الأرداف! أعوذ بـالله.. هل سلطها الشيطان عليه؟!. لقد كان جالسـا في أمان الله في البوفيه يومها يلعب (الولد يقش) مع عوض أفنـدي، ومن حيث لا يدري ولا يعلم وجدها واقفة بجواره تبتسم، وحدث أن مالت الباخرة فجعلت المرأة تكاد تلتصق بـه، أو على وجه التحـديد جعلت ردفهـا الأيمن يلطشه في جانبه، ومن ساعتهـا وكلما رآهـا وقف شعر رأسـه، بل وقف شعر جسده كله.

وكان عوض أفندي كالعادة جالسا بجواره وعينه لا تفارق الطبق الذي أمامـه، وطربـوشه محكم الـوضع على رأسـه، ووجهه الأسـمـر هـادئ لا اضـطـراب فيــه، ولا يلمـع منــه في الضـوء إلا مكــان العصفورتين اللتين كانتا مرسومتين على جانبي وجنته ثم أزالهما بمـاء النـار وبقي مكانهمـا أبيض يلمع. وكـان عوض أفنـدي هو المختص

بقهـوة الأمير وتقـديمهـا وهـو الـذي عليـه انتقـاء البن وتـذوقـه وضبط السكر.

وكان ابن حلال لا يعرف لفاً ولا دورانا وقـد قضى أيـام الرحلة كلهـا يقـرأ في المصحف الــذي يحمله معـه دائمــا حتى كـاد يختم الربعة. وكان هناك شيء خطير يشغله ويربكه ويسـد نفسه، فهـو كان يصلي على ملاءة السرير. وظـل يصلي عليها طوال الرحلة وما أدراه أن المـلاءة طاهـرة والناس الـذين فـي الباخـرة لا يعرفـون طهـارة أو يحزنون؟..

والأدهى من هذا أنه لا يجد أحدا على الباخرة يفتيه، وكل من عليها فسقة لا يصلون.

أما الأوسطى حـامد الجـالس ووجهه في الحـائط المقابـل فقد كان سائق الأمير الخاص.. وكان لهذا أتعسهم جميعا. وكانت العربة الجـديدة سبب تعاسته، فقـد اشتراهـا الأمير من أوروبـا، وكـان على حامد أن يتـولى شحنها على نفس البـاخرة، وقـد فعل هــذا على ما يرام ولكنها أصيبت بخدش واضح..

ولم يفكر حامـد أثناء المجيء كله إلا في ذلـك الخدش وكيف يـداويه، وهـل يفلح في إخفائـه عن عين الأمير الـذي شغف بالعـربة وجن بها، خاصة وهو الآن لا ريب قد وصل مصر من زمن وينتظرهـا عـلى أحـر من الجمـر.. ولم يفكـر إلا في هـذا، ولم يـر إلا وجـه الأمير الغاضب وعقله الصغير، ولسانه وهو يرطن بالتركية ويرفده.

وعلى عكسه، كانت الدنيا لا تسع سعد الله السفرجي وقد اشترى بكل ماهيته بدلة، أول بدلة في حياته، ولم يلبسها من ساعة أن اشتراها وإنما تركها في صندوقها الكرتون الكبير وكل ليلة كان يفتح الصندوق ويخرج السترة ويتلمسها وأحيانا يرتديها ويخطر بها أمام المرآة ثم يخلعها ويطويها ويعيدها إلى مكانها في الصندوق، وقضى الرحلة كلها وهو سعيد بملمسها الدافئ وبجيبها الداخلي الصغير الذي توضع فيه الفكة، ولا يستطيع أن يتخيل بالمرة أنه سيرتديها يوما ويصبح أفنديا.

أما السابع فقد كان ينزوي في آخر عشاء في ركنه المعهود لا يعجبته ضجيج مواطنيه وتشمئز له نفسه، وتنتابه موجات الضيق وهو يشاهد مواطنه الآخر المدرس الذي لا يمل الاحتكاك بالناس ولا التظرف إليهم. وكان السابع عائداً من البعثة كالمدرس والرسام بعد أن أخذ الدكتوراة في قانون القوانين. وكان مفروضاً أن يعود في الدرجة الثانية ولكنه آثر أن يحصل على الفرق ويعود في الثالثة. . وكانت مشاغله أكثر من أن تسعها الثانية والثالثة معا. . أربعة وثلاثون طردا معه، فيها هدايا وتحف وأشياء، عانى في نقلها العذاب الأليم، ومن قبل أن تبدأ الرحلة وهو مهموم يدبر كل تصرفاته يوم الوصول، وكم يأخذون في الجمرك، أو هل يعدونه يا ترى تاجرا .

وكان على العشاء الأخير يحدج مواطنيه ويَحسدهم على قلوبهم الخالية وضحكاتهم التي لا هم فيها.

* * *

وانتهى العشاء . .

وتسلل المسافرون إلى الشرفة التي أمام المطعم . .

واستند بعضهم إلى الحاجز، ومشى البعض متلكئا، وجلس آخرون . .

وكانت الدنيا رائعة . .

ظلام ليس أجمل من النجوم تملؤه، ونجوم ليس أجمل من الظلام يحيطها، وهدير البحر يتدفق إلى الآذان وكأنه آت من حناجر ملايين معذبة تعيش في أماكن مجهولة وراء الليل، واهتزازات موتور الباخرة التي يرتج لها كل شيء لا تنقطع، والطلاء الأبيض الذي يلون حتى الحبال، والأضواء الكثيرة التي تحيل الباخرة إلى نجفة كبيرة عائمة في الظلام .

وتوقف الرسام لا يتحرك وقد بلغت به النشوة حد السكون والاستسلام . . وأحس بخياله يمضي على موقع دقات المحرك واهتزازاته، ويجتاز ذلك الحاجز الرقيق الذي يفصل بين حياته وأحلامه فيعيش وكأنه يحلم، ويحلم وكأن أحلامه حياة . .

وصحا على قبلة عبرت بأحلامه، فدق الحاجز بيده كما لو كان يثور، وأخذ طريقه إلى الفراش وهو ساخط على نفسه وضعفه واكتفائه بمشاهدة الفتاة وكأنها طبيعة صامتة، لا حياة فيها ولا حياة فيه . . ولما احتواه الفراش لم ينم، ولكنه راح يتقلب ويثور ويؤكد لنفسه ما استقر عليه عزمه . . وكان قد قرر أن يبقى في الباخرة حتى

تنجلي الزحمة ثم يذهب إلى الفتاة ويحدثها ويطلب منها بلباقة في آخر الحديث أن تقضي معه بضع ساعات في الاسكندرية حتى يحين ميعاد إقلاع الباخرة.

ونام أخيرا وهو يرقب المحادثة التي سوف تدور وينتقي كلماتها بل ويجرب نفسه حين ينطقها . .

والتهم المدرس عشاءه كالموهوم ومضى حالا إلى فراشه، فقد عرف من أحد جيرانه أن وكيل وزارة المعارف مسافر في الدرجة الأولى على نفس الباخرة، وكان عليه أن يتعرف به، إذ من يدري؟ ربما؟! ربما أقنعه بكفاءته؟! وجائز جدا أن يقتنع، وجائز أن يعينه ناظر مدرسة أو على الأقل مدرسا أول في القاهرة! وفكر ثانية واحدة في الغد، وكيف سيجد المنيرة؟ لا بد أن أحداثا كثيرة قد وقعت. لا بد أن البواب العجوز قد مات، وصبي موقف التاكسي قد أصبح سائقا. وما لبث أن عاد الوكيل. وظل يفكر ويرتب الأمر بكل دقة حتى أصبحت كل خطوة كاملة العدة في عقله، وأحس بعقله المتعب يرتاح وتثاءب . .

وفي نفس الوقت كان الأوسطى شرف راقداً في الفراش، ونار موقدة تحت ظهره ويده تعبث بشاربه وتزن باتسامة المرأة الرومية البدينة التي لوحته بها على العشاء ويديرها على كل وجه، وقال وهو ينفث زفيره بحرقة:

ـ آه لو الواحد يقنيها . .

وقطع عوض أفندي صلاته وسلم وسأله عما يقول. .

ولم يجبه الأوسطى شرف فلحظتها كان بالتحديد في ليلة الدخلة، والباب موصد عليه وعلى ذات الأرداف. . ثم وجد نفسه يستعيذ بالله من فكرة كانت تحوم حوله وتلح ولا ينفع فيها نش، وكان آخر ما رأته عيناه ازدحام الناس الشديد، وتدافعهم والمرأة أمامه. . وداهمه النوم قبل أن يطرد الفكرة أو يستعيذ بالله. .

واستأنف عوض أفندي صلاته وهو يقضي فروض الأيام التي مضت وقد أدرك أخيرا أن الملاءة التي اعتاد الصلاة عليها غير كاملة الطهر. .

ولما انتهى وقبل أن يطفئ النور جاء حامد. . وكن قد ذهب للمرة المائة يرى الخدش، ووجد أنه أخطر مما كان يحسب، وأن رفته لا جدال فيه ولا شك.

وسأله عوض أفندي عن الساعة. فأجابه حامد وهو يتسلق سرير الأوسطى شرف ليصل إلى فراشه. . وعاد عوض أفندي يسأله ويكذب ساعته. . وبعد إصرار ومناوشات أدرك عوض أفندي مرغوبا أنه نسي تقديم ساعته فظلت دائرة بتوقيت أوروبا. . ومعنى هذا أن كل ما فات من صلاته باطل. .

وفيما كان حامد يريح جسده المنهك برقت في ذهنه فكرة جهنمية. فماذا يحدث لو طلى الخدش بورنيش حذائه ليداريه؟ وبعد أن يمر أول يوم يصلحه على حسابه؟ وهل إذا فاتت على الأمير تفوت

على الوكيل؟ كل شيء محتمل ولكن ليس لديه خيار. وحين جاء النوم كانت البطالة وأيامها السود تجذبه من ناحية، والأمل يداعبه من ناحية أخرى. ولكن على أي الحالين كان طلاء الخدش أول ما يجب عليه في الصباح.

وأطفأ عوض أفندي النور والحزن يأكل قلبه على الفروض الضائعة، وحين كان يقرأ آية الكرسي ويلف يده حول رأسه كان قد صمم على أن يقضي الفروض كلها قبل مغادرة الباخرة، فيصلي الفجر. وينوي بعده للقضاء. ونام وهو يتمتم: إن شاء الله . .

وفي ذلك الوقت كان دكتور القانون يبحث عن طرد ناقص ووجده أخيرا تحت الفوطة، وابتسم للطرحة السوداء والفستان الحرير التي يحتويها الطرد، والتي أحضرها لأمه، ورأى نفسه دون أن يدري في قريتهم، والناس يقولون يا دكتور، ويسألونه عن أوروبا، والتهاني، وبابهم الكبير المفتوح، وأمه تحاول من فرحتها أن تزغرد وهو يخجل ويمنعها . .

وعاد إلى نفسه وراح يحسب كل دقيقة من ساعات الصبح، ويحدد أين يقف، وعدد الشيالين، ويوصي نفسه بالمحاسبة على طرد البللور، ويخمن المبلغ الذي سيسكت به موظف الجمرك، وتعب عقله ونام. ومع هذا كانت تتصاعد منه بين الحين والحين غمغمات تدور كلها حول الطرود.

وكان سعد الله السفرجي آخر من أوى إلى كابينته، فليلتها

ذهب كما تعود إلى بيترو، وعب من خمره التي بلا ضرائب أو جمارك حتى ارتوى وفضفض كل ما عنده من انجليزية وعربية وسريانية، واستمر يبحث عن الممر المؤدي إلى الكابينة حتى عثر عليه الخادم السهران فقاده إليها، وما أن دخل حتى تهاوى جالسا على الأرض وأتعبه الجلوس فتمدد لا يلوي على شيء، وعثرت يده حين فردها على صندوقه الكرتون، وفي داخل الصندوق ملست أصابعه على صوف البدلة الخشن ورفت بذهنه المدووش ومضات . . النادي النوبي . . أبو عفان . . الواقفة تحت المصباح في ميدان سليمان والواحد مبسوط . . البدلة . .

ولدى ذكرها راق مخه تماما وأقسم أنه لن ينزل من الباخرة إلا وقد ارتداها . . ووضع يده في جيب بنطلونه . .

* * *

واستيقظ السبعة . .

وكان الواحد منهم حين يفتح عينيه ويرى الضوء منتشرا على غير العادة، يتولاه خوف داهم وكأنه تلميذ صحا بعد فوات الامتحان ولا تكاد دقيقة واحدة تمضي عليه إلا ويكون مندفعا إلى ظهر الباخرة كالسهم وهو لا يدري ما الذي يدفعه؟ .

حتى عوض أفندي الذي كان أول من صحا، لما ذهب ليتوضأ، أحس بشيء كالهاتف يأمره، فترك الوضوء وأسرع إلى فوق . .

وكان دكتور القانون هو الوحيد الذي وقف على باب الكابينة يحرس الطرود، ويروح ويغدو وثمة قلق ينهش خطواته.

وكان الصاعد إلى الظهر يذهله السكون المستتب، وفالباخرة تنساب بنعومة فوق البحر الذي هدأت أمواجه، والدنيا فيها سكون الصبح المبكر، والناس كثيرون متشبثون بالحاجز ويفتشون بأنظارهم الأفق ولا يجدون شيئا، ومع هذا يزدادون تشبثا وتصطبغ ملامحهم بترقب عظيم كالذي يتوقع أنباء هامة أو يتطلع إلى معجزة. .

وكانت طيور النورس هي الوحيدة التي تحدث ضجيجا صغيرا مفاجئا حين تنقض على سطح الماء وترتطم به.

وأظلم الأفق قليلا، ثم أشرق على خط رمادي طويل. .

وسرت همهمة. . هي. . مش هي دي سحابة. . لسه بعيد.

وأطلقت الباخرة صفارة لها ضجيج ومبحوح مرتعش. .

وأبطأت من سيرها وانخفض أزيز المحرك. .

وصفت زرقة السماء حتى أصبح لا يعادلها إلا زرقة البحر.

ومن بين الزرقتين أهل موكب الشمس وظهرت طلائعها، ثم بدأ القرص الأحمر الكبير والهيبة تحيطه يتقدم في بطء وجلال. .

ومضت الباخرة في حرص هادئ كالحبيبة حين تتسلل إلى لقاء الحبيب، والناس فوقها يرقبون تعاقب الألوان والمشاهد وكأنهم يتابعون أحداثا مثيرة على شاشة عرضها السموات والأرض. .

ومن حيث لا يتوقع أحد ارتفع صوت نسائي لـه رخامـة الصبح المبكر يقول:

ـ ماريا.. فرانشسكا.. لينا.. سيلفانا..

وتعـالى صخب أربـع بنـات صغيـرات كـأنهن جئن في بـطن واحدة، واستطرد الصوت الرخيم يقول:

ـ كويستا ايجيتو ماريا! كويستا الساندريا ..

وتحـولت العيـون إلى مكـان الصـوت حيث كـانت تقف أم إيـطالية على صنـدوق قديم حـائرة مـوزعة بين بنـاتها الـلائي حملت واحـدة منهن، والباقيـات يصرخن ويجـذبنها من ثـوبها، ويقـرصنها، وبين رغبتهـا في رؤية الخط الـذي عند نهـاية الأفق وهـو يتحول إلى أرض..

وأيقظت ضجة الصغيرات الناس من ترقبهم وانبهارهم..

وخبط الأوسـطى شرف حـامـد على كتفـه ثم ضمـه وهـو يهتـز ويقول:

ـ واد يا حماده.. ولا يا حماده.. وصلنا يا واد..

وسكت قليلا ولما تبين أن التي على مرمى البصر أرض حقيقية انتابته الخفة:

ـ والنبي هيه.. بلدنا أهـه.. يا سلام يا جدعان..

وكان سعد الله يقول لعوض أفندي:

ـ وصلنا يا عم عوض؟!..

ـ وصلنا يا أبو السعود..

ـ ودي مصر يا عم عوض؟!..

ـ والنبي مصر يا خويا..

ـ وعشنا وشفناها؟..

ـ وشفناها..

ـ أم الدنيا؟!..

ـ أم الدنيا؟!..

ـ ووصلنا؟..

وتلفت عوض أفندي إلى الواقفين غير مصدق وأحس بنفسه يستعيد عنفوان شبابه وكل ما فيه مرح وهو يسمع الأفواه تردد.. مصر.. ايجيبت.. ايجيتو.. ليجيبت.. السانـدريا.. كايرو.. ألكس..

وغير بعيد كان يدور بين المدرس والرسام أول حوار لهما على الباخرة، وهما واقفان كتفا إلى كتف وعيونهما عند الشاطئ البعيد:

ـ يا أخي ليها وحشة..

ـ ياه.. الواحد نفسه في قرص طعمية سخن..

ـ الله.. دي فعلا ليها.. الله.. الواحد قلبه بيدق..

ـ بقى هي دي اللي الواحد سابها قرفان. .

ـ بذمتك مش شامم الريحة؟ . .

ـ شوف الراجل ومراته لازقين في بعض وعمالين يبصوا إزاي؟! . .

ـ صحيح! . . ريحة! . . والنبي مصر لها ريحة. . بذمتك مش شامم. .

ـ يا ترى أخبارك ايه يا مصر؟ ومين مات ومين عاش؟! . .

وعاد المدرس بأنظاره إلى الناس ورأى الراهبة واقفة متجهة إلى حيث تتجه العيون ووجهها أبيض قد كسته حمرة طارئة، وشفتاها تتمتمان بشيء وكأنها تستقبل المذبح. .

ورأى كذلك اليوناني العجوز الذاهب إلى العراق فقال له بصوت لا ضابط له:

ـ أم الدنيا أهه يا خواجه. .

وابتسم العجوز وقال:

ـ لا خبيبي. . لا. . أنا واحد أمي هناك. . عند الفرات. .

وضحك المدرس أطول وأعمق ضحكة جرؤ عليها من أربع سنين. .

ولم يعد يحتمل الدكتور وهو يسمع المولد المنصوب على ظهر الباخرة ولا يرى شيئا. . وما كاد يلمح أحد البحارة حتى أوصاه

بالطرود على عجل ثم طار إلى الظهر . .

ودوت صفارة الباخرة طويلة ممدودة هذه المرة . .

وأقبل لنش بخاري فيه بحار، وفيه عساكر وضباط، وحين كان اللنش يدور حول نفسه ليرسو خلع قائد اللنش طربوشه ولوح به قائلا بترحيب طيب، لا ادعاء فيه:

ـ حمد الله عالسلامة يا جماعة . . حمد الله عالسلامة . .

واندفع الأوسطى شرف يقول بصوت كالرعد:

ـ الله يسلمك . . ميت فل عليك . .

وسكت يستجمع أنفاسه ثم انفجر بكل ما يملك:

ـ تحيا مصر يا جدعان . . والنبي تحيا مصر . . الله . . هو احنا لنا غيرها يا اخوانا . . والنبي لولا بركتها ما نساوي بصلة! . . الله دي بلدنا! . . دي بلدنا يا رجاله . . والا ايه؟!

وتهدج صوته حتى ظن الناس أنه يبكي . .

وأصبحت الاسكندرية تملأ الأفق . . وبدت كبيرة لا تحدها الرؤية ،وبدت الباخرة إلى جوارها كالسردينة الميتة الطافية . .

وبعد هذا نسي السبعة أنفسهم، ولم يعوا وهم يختمون الجوازات، ويحضرون الأمتعة، ويتعاونون على حمل طرود الدكتور وقد انتابتهم خفة الأطفال في يوم العيد . .

وعلا الضجيج حتى أصبح الصارخ لا يسمع نفسه . .

ولاح الرصيف . .

المرجيحـة

لم تكن الضجة التي يثيرها الصغار تهم عبـد اللطيف في ذلك اليـوم، لا هي ولا غيرهـا من مهام الحيـاة أو توافههـا، فقد كـان يوم الـعيـد. . العيد الكبيـر. . اليوم الـذي انتـظره شهـرين كـاملين وهـو يحسب لـه ويعـد ويختلف مـع امـرأتـه في العـد والحسـاب. . حتى جاء! . .

وخيـل لعبد اللطيف وقـد طال انتـظاره أن اليـوم سيـأتي فجأة، كبيـراً، واسعا، عريضا. . ولكنه عندما جاء لم يكن كـذلك أبـدا. . أشرق فجره ثم نما صبحه وكبر ضحاه في بساطة وبـلا تهليل، تمـاما كما يدفع هو بيده (المرجيحة) لترتد إليه بعـد ذلك متبخـترة متمايلة، فيها ما فيها من الأطفال وقد اندس بينهم بعض الكبار! كان اليـوم في بساطة قدومه كالزمن وهو يدفع (مرجيحة) الحياة بيـده القويـة فتذهب أيامنا وتجيء ليالينا هكذا في يسر وبـلا ضوضـاء، وإنما نحن الـذين نصخب ونحن الـذين نصرخ ثم نحن الـذين نلعن الـزمن بعـد ذلـك ونسخط على الأيام.

وقف عبـد اللطيف يدفـع المرجيحـة بيده ويمـد يـده الأخـرى

يتحسس الملاليم التي تتلاصق في جيبه، ويفركها بأصابعه ويرنها في راحتـه، ويحس بنشـوة كتلك التي يحسهـا حين يعب أول نفس من الجوزة في الصباح. . فلم يكن يرى فيها ملاليم، ولم يكن يرى فيهـا أنها لا تساوي ورقة صغيرة من ذات العشرة قروش وإنما كان يرى في ملمسها غير الناعم حلما بأكمله ظل يعيش فيه شهرين طويلين كثيبين.

ولا يتركه إحساسه بجيبه وقد امتلأ، إلا حين يسلمه إلى ذكريات أيامه. . أيام كان يكسب مـلء جيوبـه قروشـا وعشرات ثم لا تـذهب بعيدا. . فقـد كان يضيعها على كيفه ومزاجه. ولا يندم، فهو صاحب كار متين وهو أحد أفراد عائلة النجارين. العـائلة التي عن لجدهـا أن ينفض يـده من الزراعـة، وقد زهـق منهـا، فتعلم النجارة بعـد عنـاء وأورث أولاده وأحفـاده الحرفـة حتى حذقـوها واحتكـروها ثم تفـرقوا وتناثروا في أرجاء البلدة وما جاورها من البلاد. .

وعبـد اللطيف لا يكذب على نفسـه فليست النجارة في القـرية في حاجة إلى فن وحـذق وبقدر مـا هي في حاجـة إلى قوة وسـاعد، ولم يكن عبـد اللطيف يملك كليهمـا. . كـان مـريضـا. . تسـربت البلهـارسيا إلى مثانته حتى أفقـدتـه القـدرة على التحكم في نفسـه. وتناثر مرضه حوله وتهـامس الناس بـه وتهامسـوا معه بـاللقب الجديـد الـذي أطلقوه عليـه. . (الطاجن) المشـروخ. ولم يلبث هو أيضـا أن اعتـرف بينه وبين نفسـه أنه مشـروخ وأنه مـريض وأنه لن يكـون أبدا كجـودة ذي الساعـد الممتلئ الغليظ الذي تنفـر عضلات يـده عندمـا يمسك بالقـدوم كأنهـا جذع نخلة (حيـاني)، ولن يكون كـأبي خليل

الذي يوقف الساقية الحديد وحده وهو يضحك فتردد الساقية الجوفاء رعدات ضحكه.

إنه ضعيف مسلوب القوة. وكان يرقب ـ من خلال وهنه وعجزه ـ نصيبه من سنويات القرية وهو يصغر ويصغر. . كان يرقبه في مرارة معتلة وحقد ضعيف واهن، فالناس ما عادوا يأتمنون قوته على سواقيهم ومحاريثهم وفؤوسهم، وإنما يلجأون لغيره من أفراد العائلة القوية، ويلجئونه معهم إلى أن يترك بدوره صناعة المحاريث وإصلاح السواقي إلى عمل الطبالي الصغيرة ومفاتيح الأبواب الخشبية، وإلى أن يسعى إليه الناس حين يلم بهم عرس حتى يركب الدولاب أو ينصب السريرا . .

وكان نتاج هذه جميعها والحمد لله يكفي أن ينعم عبد اللطيف وامرأته وابنه وابنته بالرطل والنصف من اللحم كل يوم ثلاثاء. ويكفي أن يشتري حصيرة يرقدون عليها كل سنة، وأن يضيف إلى سقف وسط الدار المكشوف قطعة خشبية جديدة كل ستة أشهر. ولكنه لم يكن يكفي أن يسد مطالب الأفواه اللاصقة برقبته، فلا هو يقفل فم امرأته على قطعة لبان ولا يطبق فم ابنته على فص برتقال، ولا يكفي ابنه. . لعنة الله على ابنه. . هذا القزم الذي ظن يوم بشرته به الحاجة صباح، أنه سيكون قوته المسلوبة وجذع النخلة الذي ينقصه، فإذا به ينشأ هكذا أصفر عليلا معوج الجذع والساق.

ـ كده يا محمد ماشوفش فيك يوم راجي . .

كانت هذه الكلمات على لسانه طول اليوم. كان يتوقع من ابنه الكثير ولا يرحم ابنه حين لا يستطيع إلا أقل القليل. إنه لم يعلمه كيف يمسك الكماشة ليقتلع بها المسمار إلا بعد أن أصابه بأربعة جروح ما زالت بيضاء في رأسه، وبعد أن قذف به في الترعة مرتين. ومع ذلك فلم يستطع أن يمسك بها أبدا، على الأصول!.

كان عبد اللطيف يجتر كل هذا ثم يكز على أسنانه ويطلب من امرأته في جفوة أن تحضر له العدة والجوزة.. ويرتشف في نهم من كوب الشاي الأسود، ويعب الدخان الكثيف الأزرق من الكرسي، ويشد الحزام الصوف إلى وسطه ثم يفك حصره مرة أو مرات ويستنزل اللعنات على أجداد ابنه ثم يبصق في يده ويمسك القدوم ويعمل على مهل وفي اشمئزاز ضعيف مقهورا..

يعمل على مهل وامرأته الحلوة تختلس النظرات إليه من تحت أهدابها الطويلة وقد ربطت رأسها بالقمطة الحمراء وسببت شعرها الأسود المجعد اللامع حتى يبين طرفه من القمطة ومدت رجلها البيضاء الممتلئة فبان قدمها النظيف الذي قضت وقتا طويلا في حكه بالحجر..

تختلس النظرات إليه وهو لايدري أهذا الذي في وجهها ابتسام أم هو براعم ضحكة ستنفجر بعد حين. وعندما يكل ساعد عبد اللطيف ـ وما أقرب ما يكل ـ ينظر لها بعين فيها حمرة خابية، وفيها حيرة.. وبوجه تائه مشحون ويكاد يقول: آه يانبوية يا قتلاني..

والحق أنها كانت تقتله وكانت تدفعه تحت جنح الظلام إلى الفص الأسود يغتصبه من تاجر الأفيون وهو يقول له في غيظ:

ـ بكرة يا أخي أديلك. .

كانت تقتله لأنه كان يأكل ويستحلب لعاب شهيته وهو يمضغ حتى يستطيع أن يجرع كوب الشاي. وكان يقبض على الكوب بيده وتترنم أذنه بالنغم الذي يصدره وهو يحتسي السائل الأسود اللزج، ليتبعه بأنفاس الدخان.

وكان يأكل ويشرب الشاي ويذيب الفص ويلتهم الدخان ليقضي الليل بطوله ويده تعبث بشعر امرأته الأسود المسبسب بينما قمطتها قد انحلت وتاهت في المخدة. .

ولم تكن المشكلة تنتهي بانقضاء الليل، ولا بمضي الليالي، وإنما كان يراود عبد اللطيف السؤال الحائر: ترى هل نبوية قانعة بما يقدمه لها؟ . .

وإذا راجع أخماسه وأسداسه واقتنع أو استطاع بوسيلة ما أن يضحك على نفسه ويقتنع فإنه يسأل نفسه مرة أخرى وفي سؤاله شك مرتجف: وحكاية الطاجن المشروخ هذا، ترى هل وصلتها هي الأخرى؟ وهل إن كانت وصلتها قد أسقطته من عينها؟ تلك أسئلة كانت تدور بخلده وإنما كان ينهيها بعينيه الحائرتين ترمقان نبوية في شك وفي لهفة وهما تقولان مرة أخرى:

ـ آه يا نبوية يا قتلاني . .

* * *

اليوم يوم العيد . .

وعبد اللطيف قد اطمأن على نفسه بعد أن اختطف نظرة إلى هندامه في مرآة الدولاب القديم الذي دخل به ورأى شاربه الرفيع متهدلا حول فمه كما يحب أن يراه، ورأى وجهه الأصفر النحيل قد اجتز منه الأوسطى عبد السميع شعيرات ذقنه فبدا ناعما ورغم ما به من حفر قديمة، بل بدت خيوط من حمرة باهتة صنعتها الموسى تتبعثر في وجهه كما يحمر شفق يوم مغبر حين يظهر القمر . .

اليوم يوم العيد . . اليوم الذي تناسى عبد اللطيف ضعفه، وتناسى وعاءه المشروخ، وتناسى زحمة الحياة بين النجارين التي دفعته إلى نصب المرجيحة في العيد، وأن يقف بجوارها هكذا حليق الذقن مرتديا ثوبه الأبيض الجديد الذي اشتراه من ثلاث سنوات، واحتفظ به للمناسبات! تناسى هذا كله. ولم يعد يذكر إلا الملاليم التي تعمر جيبه والا المرجيحة التي نصبها جودة، ثم لم يكسب من ورائها شيئا . . كان جودة عملاقا قويا ولهذا لم يفز بنصيب من ثروة الصغار، فقد كانوا يخافونه ولا يطمئنون أبدا إلى يده الضخمة حين تدفع المرجيحة فتقذف بها إلى كبد السماء. ولهذا كانوا يستريحون لعبد اللطيف، ولعبته القديمة، ويده النحيلة التي لن تعلقهم أبدا بين الأرض والسماء! . .

وأسعد هذا عبد اللطيف. . أسعده أن يرى نفسه قد انتصر ولو ساعات قليلة كل عام. أسعده أن يتجمع الأطفال حوله وأن يشخط هو فرحا ويصرخ منتشيا. وكان أول ما فكر فيه حين سرت النشوة في جثته أن يغني. . ويغني بأعلى صوته حتى يصل غناؤه إلى أسماع جودة. . يغني ويرد الصغار عليه ويحمسهم هو ويطيل في أشواطهم حتى يرفعوا عقيرتهم أكثر وأكثر لينفجر جوده. .

وكان الأطفال دائما مع المنتصر، وكذلك كانوا يتجمعون حول عبد اللطيف وحول قطع الأخشاب الأربع التي تمسك بمرجيحته العتيقة. .

وكان هذا التجمع الكثير من أطفال معظمهم يشاهد العيد ويحضر المراجيح لأول مرة في حياته. كان هذا السبب في الصرخة المدوية التي انبثقت من راكبي المرجيحة، وفي الصدمة القوية التي سبقت الصرخة، وفي سالم ابن العمدة وقد تكوم على الأرض لا حراك به، والدم يندفع في غزارة من جرح عميق في رأسه بعد أن صرعه مقدم المرجيحة وهو واقف يشاهد هبوطها وصعودها في سذاجة وبلاهة.

ـ مات. . مات ياولاد. . ابن العمدة مات. . يا خرابك يا عبد اللطيف.

وكان يكفي لخراب عبد اللطيف أن يشتم ابن العمدة. . أو لا يقف إجلالا للعمدة. . فما بالك وقد جرح سالم جرحا لم يقتله وإنما

سالت له دماؤه في كثرة . .

وحين جروه إلى المركز وسألوه كثيرا قبل أن يلقوا به في الحجز المظلم، وكان هو قد شبع من كل إحساس حتى استوى فوق غيبوبة من شعوره فلم يهمه ان ذبحوه أو خنقوه . . وماذا يأخذون منه هو الراقد فوق بلاط السجن وقد ساب على نفسه، واصفر جلده وراح في دنيا غير دنيانا؟! . .

ولم يمكث عبد اللطيف في السجن كثيرا لأنه مات. ويحكون أنه قال قبل أن يذهب :

ـ البركة فيك يا محمد . . يابني . .

ولم تحل البركة بمحمد وإنما حل به المرض وامتلأ بطنه بالماء، وأطلق عليه رفاقه لقب محمد الزير. وكان ثقل بطنه يضطره إلى الرقاد أياما كثيرة في دارهم، تاركا الطبالي والمحاريث والفئوس تتكوم وراء الباب، حتى يأتي أصحابها وقد يئسوا من إصلاحها فيأخذوها بعد أن يتبادلوا الألقاب مع أمه نبوية .

وجاء اليوم الذي خلا فيه كل ما وراء الباب .

وكان محمد في خلال رقداته الكثيرة الطويلة يتساءل في عجب وفي دهاء مريض : من أين يأكلون؟ . .

ولم تكن إجابة السؤال تهمة أو تهم أخته أو أمه، ولكن أهل القرية وعائلة النجارين خاصة كانوا يهتمـون، وكانـوا يقضون الليالي الطوال في منـاقشة المصـدر الذي يبقيهم أحيـاء. . وفي المنـاقشـات تـدلف طاقية المعلم أحمد الوبـر و(لاسته) الحـريريـة، وحذاؤه (الاجلسيـه) اللامع. .

والمعلم نمر كبير. . تنمر يحمل في جيبـه علبة فيهـا الحشيش مقطعا وملفوفا في ورق شفاف، وفيها الأفيون يرقد في أبنوسية العنبر. ويحمل بجانب العلبة محفظة تمتلئ دائما بالأوراق الخضـراء. وفوق العلبة والمحفظة أكتافه العـريضة، ومن أعلى أكتـافه تبـرز رأسه التي تعرف من أين تفتح الأبواب.

وكان عبد اللطيف قبل موتـه قد ارتكب هفـوة صغيرة فقـد مات وعليـه لأحمـد حسـاب. وكـان المعلم يعـرف كيف يحيـل الحسـاب الصغير بدراية وخفة وفهلوة إلى قبضة رقيقة متلصصـة يطرق بهـا باب المرحوم فتفتح له نبوية وفوق فمها ابتسامة.

وكان محمد في رقدته فوق الفرن يتسـاءل في مكر أيضـا، بينه وبين نفسه، عن قمطة أمه الحمراء النـظيفة، وعينيهـا اللتين كثيرا مـا زارهما الكحل، وخدودها الملتهبة، وكعوبهـا التي يقفز منهـا الدم. . كل هذا ولم يمض على وفاة أبيه شهـران، يتساءل محمـد ثم لا يهتم

بالاجابة فقد كان ينظر إلى بطنه العالي، وقد أخفى الدنيا عن عينيه ولم يعد يربطه بالوجود إلا يد أمه البضة وهي تحمل له كوب الشاي العلقم وتقول في رفق ونعومة:

- خد يا خويا.. خليك تخف..

ولم يتحمل يوما كل هذا..

كانت أمه قد فرغت من الخبيز وأرقدته فوق الفرن الملتهب حتى تصبب عرقا وحمت عظامه، فقال لها بصوت جعله أضعف ما يستطيع:

- ألا يا أما المعلم أحمد بييجي كتير ليه؟..

واحمرت خدود أمه، وابتسمت، ثم تضاحكت وقالت له وقد بانت أسنانها البيضاء الحلوة:

- يعني ما انتاش عارف ليه؟..

فقال في سذاجة حقيقية:

- لا والنبي..

فغمزت بعينها وقالت هامسة وهي تشير إلى الغرفة:

- أصله بيتكلم على أختك..

وبردت عظام محمد، وذهب العرق عنه، وانزاح عن خاطره هم كثير.. وصدق هذا، بل لم يجد مانعا لديه أن ينام أحمد في بيتهم، بل يكاد يقيم في النهاية معهم حين قرأ فاتحة أخته.

وكان محمد ينام كثيرا فليس له عمل إلا النوم. وكان لا يشعر بالحياة وهي تمضي إلا حين يخف الظلام فيعرف أن النهار قد حل وانتشرت معه ذرات الغبار التي تثيرها أخته حين تكنس أرض الدار. ولا يشعر بحياة من حوله إلا حين تسقيه أمه الشاي، أو تحضر له أخته الغذاء أو يغمزه المعلم أحمد بقرش الحلاوة الطحينية.

ومع هذا فمن خلال الطاقة الضيقة المعتمة التي يطل منها على الحياة.. لم يفته أن يراعي التنافس الذي استوى على أقدامه بين أمه وأخته في جلي الكعوب وتسريح الشعر وقرص الخدود حتى تحمر. ولم يفته أيضا أن أمه وأخته أصبحتا وكأن لا هم لهما إلا إرضاؤه والتنافس على تلبية إشاراته ورغائبه. وكان المعلم أكثر منهما.

وفي يوم تناول محمد إفطاره من اللبن الرائب ثم تقيأه ولم يكف عن القيء إلا الظهر حين غاب عن الوعي.

وزار البيت في هذا اليوم عدد كبير من الناس. وانعقدت مجالس وفضت مجالس ودار الشاي مرات ومرات.. وأخرج المعلم في كل مرة علبته من جيبه ليحلي أقداح القهوة. وكان آخر المجالس ذلك الذي دارت فيه الجوزة وانتشت الأكواب واستمر إلى ما بعد منتصف الليل.

واستقر الرأي بعد هذا كله على ذهاب محمد إلى طبيب البندر في الصباح.

ومن الفجر دارت نبوية تقرع الأبواب لتستعير حمارا يوصل

ابنها. وقرعت الأبواب مرات كثيرة دون جدوى. وما كان للحمار أن يأتي إلا من خلال المعلم ومن تحت أهداب علبته. وقد جاء . .

وراه الطبيب، وبعد كلمة من هنا وجنيه من هناك، حجز محمد في مستشفى المركز.

وغاب محمد بعد هذا عن وعي الناس والقرية، وشيئا فشيئا عن وعي المعلم وأمه ثم أخته . .

* * *

كانت الأحاديث على ظهور الأفران أو فوق المصاطب تبدأ بأمشير وما فعله في الأرض والناس، والسكر الذي تأخر صرفه، وتقاوى القمح الفاسدة، ثم تنتهي بفاتحة البنت التي قرأها المعلم.

وكان يعقبها أو يسبقها قصة شعر أمها المسبسب، وشبشبها العالي واللبانة التي تطرقع في فمها، ثم حداقة المعلم وفهلوته.

وقد يتحد الناس ويأتلفون حول أي شيء، ولكنهم ينقسمون دائما ويختلفون على من يقع عليها الاختيار، وهل يتزوج المعلم البنت أو أمها.

وتستمر الاشاعات رائحة غادية، تعيد قصة المرجيحة التي كان ينصبها عبد اللطيف كل عيد، ويظل المعلم هو الآخر يروح ويجيء بينهما فلا يستقر عند البنت أو حتى عند أمها.

المـأتـم

وقف أبو المتولي على باب الجامع، وشمس الضحى تنصب على وجهه (الأشعل) فتعذبه، ويتوهج لها شعر رأسه الناصع البياض كشعر الأرانب، وتزداد كذلك حمرة أجفانه الخالية من الرموش، المضمومة بإحكام حتى تمنع الضوء من التسرب إلى مقلتيه. .

وقف يحاور الشمس وتحاوره، ولم يستطع أن يرى ما أمامه إلا بعد أن مد رقبته، وأدخل رأسه في ظل الجامع بينما بقي جسده خارج الباب، وحينئذ راح يطوف بعينيه الصغيرتين الضعيفتين داخل الجامع حتى عثر على بغيته جالسا يغالب النوم بجوار عمود، فنادى بصوته الأخنف الهادئ:

ـ يا شيخ محمد.

وكانت همهمة الناس الكثيرين الذين يحفل بهم الجامع لا تفنى حين تغادر أفواههم، ولا تتبدد، وإنما تبقى، وتنتشر كالنحل في كل اتجاه، وتظل تتخبط بين جدران المسجد الوقورة العالية الملساء، فتصنع بتخبطها رنينا عريضا أجوف يدوي به المكان. .

ولم ينفع صوته الأخنف الهادئ فقد ضاع نداؤه في هالة الرنين، ورفع صوته أكثر وكافح ليرفعه حتى احمر وجهه وأصبح كعرف الديك. .

وأخيرا سمع الجالس بجوار العمود، فأدار برأسه كمن كان يتوقع النداء، وأسرع بعينيه إلى الباب، ثم لم أجزاءه وأسرع بنفسه. .

وأحس أبو المتولي بالراحة حين سمعه الرجل فذلك كان يعني انتهاء مهمة عينيه الشاقة، فأغلقهما ولم يبق إلا شعاعا رفيعا كافيا لأن يتحسس به ما حوله. .

ـ غبت ليه يا مبروك؟

ولم يرد أبو المتولي أو يضيع الوقت في سلام أو كلام مع الشيخ محمد. . ووضع اللفافة التي كان يحملها فوق يديه على المصطبة البارزة من باب الجامع. . وكان في اللفافة رضيع ميت ملفوف بحرام أجرب باهت. . وقال:

ـ صلي يا شيخ محمد. .

وتلكأ الشيخ قليلا، وتغمز وتلمز بعينيه اللتين يغطي مقلتيهما سحاب أزرق، وحرك رقبته وبص إلى اليسار، ثم استدار إلى اليمين، وابتسم ابتسامة كلها مكر ساذج، وهم أن يقول شيئا، ولكن أبو المتولي الحانوتي كان فارغ البال، ناشف الريق، فشدد الضغط على أجفانه، ورفع وجهه إلى فوق وكأنما يتحدى الشمس والشيخ

محمد معا وقال:

- يوهوه.. بس صلي الأول!..

وأكمل غضبته بخبطة على جلبابه، ثم استدار وبحركة لا إرادية ثبت كفا فوق عمامته من أمام، وكفا أخرى من الخلف وجذب العمامة بقوة ليحبكها ربما للمرة العاشرة منذ الصباح.

ولم يتحرك من مكانه إلا بعد أن نوى الشيخ، وبعد هذا مضى يراقب الخناقات الصغيرة الناشبة بين البائعين والمشترين - وما كان أكثرهم - حول الجامع وأمامه . ثم أتعبته الشمس فاتجه بعينيه إلى الظل حيث كانت حلقة تذكر قائمة على قدم وساق.. وكانت الحلقة تضم جمعا قليلا متنافرا من الناس، وعلى رأسهم شيخ مجذوب له (شرف) أحمر وقد علق في كتفه (مخلاية) لا يعلم ما فيها إلا الله.. وكان الشيخ يمسك بمجلس الذكر على دقات مسبحته فوق عصاه المصنوعة من ماسورة حديدية، وأثناء هذا ينشد ويوشح، وكان صوته أقبح من وجهه..

ولما جاء بائع العرقسوس، ورنت صاجاته وصيحاته، تذكر أبو المتولي ريقه الجاف ولم يستطع أن يقاوم إغراء الضباب المثلج الذي يحيط بزجاج الإناء والذي ترد رؤيته الروح.. فمد يده بنصف قرش اللرجل، وأزاح الرغاوي المتجمعة على سطح الكوب بنفخة واحدة من زفيره.. ثم سمى ومضى يجرع.. وأعجبته (الشوية) فمد يده اليمنى من خلال فتحة جلبابه وهو يشرب وانتزع من جيب الصديري

تعريفة أحمر، وأعطاه للبائع . . وتلاعبت حنجرتـه التي لا تكاد تـظهر من رقبته وهو يتاوي الكوب الثاني . .

وتكرع ، وحفل جسده بالعرق . .

ورمق بائع جميـز بربـع عين، ولم يعجبه الجميـز، فرجـع إلى الباب ليجد أن الشيخ محمد قد انتهى من الصلاة .

ـ السلام عليكم ورحمة الله . .

قالها الشيخ محمد وهو يحملق ناحية الحانوتي ، وقالهـا بصوت مرتفع منغم وكأنما يوبخ أبو المتولي ويؤنبه . . ثم انخفض صوته حتى أصبح حوقلة وهمسا، وانخـرط في ختم الصلاة . .

وألقى عليه الحانوتي نظرة فيها شك وعدم اطمئنان وسأله :

ك ـ بقى ودينك يا شيخ . . الواد على القبلة مظبوط؟ .

ورفع الشيخ محمد صوته بختام الصلاة وكأنما يرد عليه :

ـ اللهم صلي وسلم وبارك . .

ولم يجز هذا على الحانوتي فعاد يقول:

ـ بقى بذمتك أنت على وضوك يا شيخ محمد؟

ـ على سيـدنا محمـد وعلى . . يـا أخي هـو مـافيش إسـلام . . وعلى آله وصحبه وسلم . .

وهمهم أبـو المتولي بكـلام لم يفهمه هـو نفسه، ثم مـد يـده

وحمل اللفافة فوقها.. وكان الشيخ قد أنهى الختام على عجل فقال وهو يمسح وجهه بكفيه ويقبلهما:

ـ يبقوا كام بقى يا عم متولي؟

وتوقف الحانوتي وقد عاوده ملله، وازدادت عصبيته وكأنه يحمل فوق يديه أرطالا من حديد.. وصمت لحظة صمت اليائس فقد عمل كل ما في وسعه ليتجنب الخوض في مثل ذلك الكلام ولكن ما باليد حيلة.. وببطء قال:

ـ بدهه يا شيخ محمد.. يبقوا سبعه..

ـ سبعه؟! سبعة ايه؟! وحياة الست مسكة وأم هاشم وأولية الله ثمانية يا مبروك..

ـ سبعة يا شيخ محمد والله العظيم سبعة!

ـ دانت صاحب عيال يا عم متولي.. وحياة سيدي.. الله أدحنا فيها.. الواد اللي جبته من الحنفي الصبح.. واحد.. والبنت بنت عمك..

ـ اسمع يا شيخ محمد.. عليَّ الطلاق سبعة!

ـ أ.. أ.. أ.. لا حول ولا قوة إلا بالله.. مش يا مبروك.

ـ عليَّ الطلاق سبعة!

ـ أف. وزمتك يا شيخ.. الله وكيلك..

ـ وصلك كام يا شيخ محمد؟!

ـ حته بعشرة يا مبروك . .

وانتظر الحانوتي حتى يحسب الحسبة ثم قال:

ـ يبقى باقيلك من حساب السبعة أربعة ساغ .

ـ بس . . بس . . يعني . .

ـ بس ايه . .

ـ بس وأنت سيد العارفين يا عم متولي . . النهارده رطل القوطة بكذا . . والبامية بكيت . . ولا ليالي ولا مياتم . . والحالة كرب . . والولية امبارح اشتريت لها سبرين . .

ـ طماطم ايه! . . وهباب ايه! . . يا شيخ اصطبح وقول يا فتاح! الصيف أهو طالع . . والنزلة جاية ومش حتلحق تحوش عن قفاك . . خليها على الله . . خد!

وتردد الشيخ محمد وهو يكن يده ثم يفردها، ولكنه توكل على الله، وتناول ما في قبضة الحانوتي وتحسس الشلن الورق وأدخل رقبته في الجبة القديمة، وفرفط غمزاته ولمزاته، وفركه بين أصابعه، وطبقه، وكاد يرده، ولكنه سحب ناعما، وحدق من خلال الضباب الذي أمام عينيه وقال:

ـ طب هات ساغ كمان يا مبروك .

ولم يسمعه أحد، فأبو المتولي كان قد اختفى باللفافة في زحمة الناس . .

٤/١ حوض

الفكــرة شيء انساني عجيب، فهي دائمــا تتـطلب عمــلا وجهدا، وأحيانا تخطر للانسان فكرة فيظل يستضعفها ويملها وهو كاره ما وراءها من عمل حتى يقتلها، وأحيـانا تخـطر له فكـرة فيها جـدة، وفيها روعة ولـذة، فتقلب هدوءه رأسـا على عقب، وتنفخ فيـه أطنانـا من النشاط. .

واسمـاعيل بيـه الماحي واتتـه فكرة. . وكـان لا يدري من أين جاءته، ولا أي وحي هبط عليه بها، وكل الذي يدريه أنه كان ممـددا في فراشه في الحجرة الزرقاء البحرية من(الفيلا) أو على الأقل هكذا وجد نفسه حين استيقظ. وهـو لم يستيقظ مرة واحـدة كخلق الله انما استيقظ مرات. . وكان في كل مرة يراود نفسه : فهـل يصحـو أم ينـام كما كان؟ واذا صحا فماذا يفعل، وماذا وراءه؟ .

وفي هـذا اليوم لم يكن وراءه شيء أهم من النـوم، ومن أجـل هـذا كانت استشاراته لنفسـه لا تستغـرق وقتـا طـويـلا يعـود بعـدهـا لتستضيفه الملائكة. .

واستيقظ مـرة، وساءل نفسـه كالعادة ثم قرر ان ينام. . ولكن

قراره كان خيالاً على وهم، فإن جسده كان قد تشبع ولم يعد فيه مكان لذرة نوم واحدة. .

ولم يكن هناك حل الا أن يتناوم، ويقنع نفسه بأنه في أحلى نعاس وفهو في أتم يقظة، وجازت الحيلة على جسده وفوتها على نفسه، انما عيناه لم تحتملا أجفانهما المضمومة طويلا فسرعان ما أزاحتا الأجفان وخرجتا الى النور.

وسلم لعينيه المفتوحتين، وجابهته حينئذ مشكلة عويصة، فهو لم يكن يعرف الوقت، وساعته التي على((الكومودينو) بجانبه واقفة لا حراك بها، والضوء في ذلك الريف اللعين لا يعتمد عليه، فشعاعات الشمس قاسية فظة تنفذ من أسمك(شيش) وتجعل السادسة تبدو كأنها الثانية بعد الظهر. .

وتلوى في الفراش قليلا وتثاءب، وماء، وشد على جسده ملاءة السرير الزرقاء الرقيقة وأرخاها، وعرى ساقه فأحس بنسمة من البرودة تغطيها، وعرى حينئذ الثانية. .

وما كاد يستريح الى البرودة التي تلامس أطرافه حتى جذب الملاءة، فقد سمع أزيز ذبابة، ثم رآها، وجاءت وراءها واحدة ثانية. .

وخلقت له الذبابتان مشكلة أعقد، فمن أين يجيء الذباب؟ وكيف يقتحم الناموسية؟ أيكون فيها ثقب؟ أتكون قد بليت؟ وما

يدريه انهما اثنتان فقط؟ ألا يجـوز أن ثالثتهمـا قد حـومت حول فمـه وهو نائم؟!

وانقبض لهذه الخطرة ،وانصرف عن المشكلة كلها الى الوقت الذي لا يعرفـه، كان عليـه ليعلم الساعـة أن ينادي على عبـده، وفي النـداء مشقـة، وقـد لا يسمعـه أحــد أو قـد تـرد الست تلومـه على كسله، أو قـد يضطر للنهـوض من الفراش، واذا نهض كـان عليه أن يغتال الذبابتين بالمرة، وهذه مشقة أخرى . .

من أجــل هـذا انصــرف عن مشكلة الــوقت أيضــاً، وقنــع بـالتحديق في أرجـاء الحجرة، وكـان الـظلام المضيء المنتشـر فيهـا يـشع غموضا أعجبه، ويصنع من زرقة حيطانها ضفافا لبحيرة هادئـة، وراح يسبح في البحيرة على زوارق من أحلامه . .

وفجأة واتته الفكرة . .

وفي التــو اعتــدل، ثم جلس في الفــراش، وأزاح المـلاءات الرقيقة الهفهافة، وخرج من الناموسية، وأصبح على السجادة وغــادر الحجرة وهو يقبض ذراعيه وينفضهما بقوة . .

وكـانت الست هي أول من رآه، وقبل أن تفتـح فمهـا،سـألهـا بلهفة :

ـ الساعة كام؟

ـ حـداشر ونص يا سيدي . .

ـ ياه . . .

وتركها قبل أن تفتح فمها مرة أخرى وأسرع الى الحمام . ولم يمكث به سوى بضع ضقائق وخرج ـ وكان عبده يتلكأ في الممر منتظرا أن يسأله عما اذا كان يحب الفطار في الفراش أو على السفرة . . وفوجيء عبده بالبيه وهو يأمره بصوت عاجل أن يحضر القبعة ـ . وأسرع عبده يتلكأ ويحضرها ،وسمعت الست الأمر فجاء صوتها من بعيد وهي في الصالة الثانية .

ـ على فين؟

واحتار البيه ثم قرر أن يقول :

ـ آه . . مفيش . . نازل تحت . .

فردت عليه مستنكرة :

ـ دلوقت . . ليه؟ . . فيه ايه؟ . . من غير فطار؟ . . وبالبيجامة؟!

ـ ماليش نفس . .

ـ طيب . . خد الشاي بس . .

ـ لا . . أنا راجع أفطر . .

وتناول القبعة من عبده وهو على أول درجة في السلم، ثم نزل مهرولاً وزعقات الست تتبعه وهو يرد عليها، وكلاهما لا يهتم بما يقوله الآخر . .

ولمحه عم عبد الله الجنايني وهو يخطو أولى خطواته داخل

الجنينة، فجاء مهرولا بجسده القصير المنحني ووقف وبينه وبين البيه بعد غير قليل، وابتسم، وتجعد شعر ذقنه النابت الأبيض، وأطلت سنتاه الوحيدتان المهددتان في كل لحظة بالانهيار، أطلتا من سعة فمه، وانطلق صوته يقول بارتعاشة فيها زمن طويل:

ـ الجنينة نورت يا سعادة البيه.. دا احنا من زمان..

ورد عليه إسماعيل بك والنوم ما زال يهدج من صوته:

ـ اسمع.. أنت عزقت حوض الياسمين بتاع امبارح؟..

وابتسم عم عبد الله بسنتيه الأماميتين قائلا:

ـ أمال يا بيه..

ـ طيب.. وريهولي..

ومشى إسماعيل بك فوق (المشاية) كلها بينما اكتفى عم عبد الله بالقناة التي بجوارها فراح يخوض في قاعها المبتل، ويبتسم بين الحين والحين ويقول:

ـ من هنا يا بيه.. اتفضل.. الناحيادي.. لا مؤاخذة.

ووصلا أخيرا حوض الياسمين، وتفحصه البيه بعيني صقر ونصف وجهه تظلله القبعة والنصف الآخر تلسعه الشمس، ودار حول الحوض وعم عبد الله يراقبه ببسمة طيبة فخورة كلها ثقة وكأنه فنان يباهي بما صنع.. وضاعت ابتسامته حين توقف البيه عند ركن الحوض، وتملى في أرضه ثم أشار إلى ناحية منه قائلا في اتهام:

ـ دي . . هنا . . ده عزيق يا راجل . .

واقترب عم عبد الله، وحدق هو الآخر بنظره الذي على قده ثم قال:

ـ آه . . دي ريشة الحوض يا سعادة البيه . . ما تتعزقش.

ـ مين قالك . . مين علمك، ايش عرفك . .

وسكت عم عبد الله وهو لايدري بماذا يجيب. وتدلى فكه على قدر ما سمحت به عضلاته المستهلكة وهو يسمع البيه يقول للمرة الثانية:

ـ أيوه . . هات فاس . .

ـ العفو يا بيه . . داحنا . .

ـ ياللا . .

ـ إنما . . دا تعب على سعاد . . .

ـ تعب ايه يا راجل انته . . دي رياضة . . ياللا روح . .

وانطلقت من إسماعيل بيه كلمة (روح) كما تنطلق البندقية وفي أعقابها انطلق عم عبد الله.

والبيه بينه وبين نفسه لم يكن في حاجة لأن يكهرب الرجل هكذا ليستطيع تحقيق الفكرة التي واتته . . وكان ممكنا أن يطلب الفأس ببساطة ويعزقا، ولكنه فعل ما فعل من قبيل التسلية، فمزاجه

يـومهـا كـان رائقـا، وإذا لـم يتسـل على عـم عبـد الله فعلى من غيـره يتسلى؟ .

وعاد عم عبد الله يجري وفي يده الفأس. وقبل أن يتناولها البيه تردد الرجل لحظة ثم تهته قائلا:

ـ عن . . عن إذن . . سعادتك . .

ولم ينتظر الإذن، واندفـع يجري، وعـاد وقد غسـل يد الفـأس وأزال ما علق بها من طين خشن جاف.

والتقط البيه الفأس في رشاقة كما يلتقط عصا (البليـاردو) وقد أحس بخفة تكاد تطير بـه، وشعر بـالريف، والصبـاح، وجو العـزبة، تعيده في سرعة سحرية من السابعـة والثلاثين حيث هـو إلى السابعـة عشرة، بل تكاد تصل به إلى السابعة.

وزرر سـروال (البيجـامـة) ثـم رفـع الفـأس. وكـانت ـ ككـل الفئوس التي في عزبتـه ـ جافيـة فظة لهـا حد عـريض ورأس غليظ. وأنزل البيه الفأس فنزلت على طول حافتها فلم تغور في الأرض قليلا أو كثيرا.

وحـاول عـم عبد الله أن يتنحنح فلم يستطع، وقنع بأن يقول في صوت يريد كتمه وابتسامة كبيرة تطل منها سنتاه الطيبتان:

ـ مش كده لا مؤاخذة يا بيه . . لا مؤاخذة اعوجها شوية.

وجاءه الرد من بين ساقي البيه وقد انحنى وظهره إليه:

ـ اسكت أنت. . أنت مالك. .

وارتفعت الفأس، وهوت وقد اعوجت إلى ناحية. وغورت في الأرض هذه المرة. وسر البيه، وتحمس، ورفعها بسرعة وأنزلها، أخذه الحماس. .

ووقف عم عبد الله يتفرج غير مرتاح، فقد كانت هذه أول مرة يرى فيها البيه منحنيا، ويرى فيها سترة (بيجامته) وقد تهدلت، وتهدل ما تحتها، فبان جلده أبيض كاللبن الحليب. ولم يطل حرجه فسرعان ما انفرج فمه، وهز رأسه وتوقف لبرهة ثم عاد يبتسم ويكاد يضحك ويهز رأسه من جديد.

وتنبه عم عبد الله بعد مدة أن وقفته خلف البيه فيها شيء من قلة الذوق فتحرك ليواجهه. وأدرك وهو يدور أن البيه ولو أنه لم يخبط إلا بالكثير عشرين خبطة، قد تعب، فالفأس كانت تغيب حتى يقتلعها من الأرض، وتغيب حتى يقتلعها من الهواء. ولم يعجب عم عبد الله أبدا حين أصبح أمام البيه فألفى وجهه قد صار قطعة من الدم، والعرق يسيل بحورا فوق حمرته، ورأسه لا يقل دما وبحورا عن وجهه، والقبعة كان قد ضاق بها فرماها، وأنفاسه تلهث وهي تسابق بعضها البعض.

وضيق عم عبد الله جفونه الأربعة، وانكمشت التجاعيد في وجهه فاتسعت زميلاتها عند جبهته، واتخذت سيماه طابع الجد. وتقدم خطوتين فأصبح أمام البيه تماما وقال وهو ينحني ويمد يده ناحية الفأس:

ـ عنك يا سعادة البيه . . عنك . . ودا كلام . .

وتسمر في مكانه حين جاءه جواب البيه كالرعد:

أوعى . . امشي . .

ولم يكن لديه وقت ليمشي فيه أو يختفي، وكذلك ما كان لديه وقت يستغرب فيه من لهجته، فقد رفع البيه الفأس وهو ينتزع النفس بكل قواه، ثم تعلقت الفأس فوق رأسه لا تريد أن تهبط . . وشيئا فشيئا تراخت يده، وقذف بالفأس إلى ناحية. وجلس مرة واحدة.

ولم يستطع الصبر على جلسته فمدد جسده غير حافل بخشونة الأرض وما فيها من قلاقل وطوب، وعثرت أصابعه الممتدة في كل اتجاه على شجيرة ياسمين نابتة فاقتلعها وهو يجاهد ليملأ رئتيه بالهواء.

وكان عم عبد الله في ذهول تام، فالذي حدث كان كثيرا عليه أن يواجهه، أو يصنع شيئا حين يواجهه. وكان لا يمكن أن يصدق أن العشرين خبطة التي خبطها البيه يمكن أن تفعل مثل هذا في بني آدم.

وذهل أكثر حين لهث البيه ونفس يحييه ونفس يميته.

ـ آه . . ياه . . هنا . . قلبي . .

ـ كفا الله الشر يا سعادة البيه . . خير . . خير إنشاء الله .

واقترب حتى أصبح بجواره تماما، وانحنى وأمسك يد البيه في

وجل، واستمر يتمتم ويقول:

ـ خير. . خير إنشاء الله.

وكانت طراوة اليد التي يقبلها ويشد عليها غريبة على يده، وجزع عم عبد الله حين رأى ما أحدثته الفأس فيها من فقاقيع انفجر بعضها واختلط سائلها الأبيض. .

وأسبل البيه جفونه وقال في ضعف لاهث:

ـ اندهلي. . اندهلي. . الست. . حـ. . حالا.

واندفعت ساقا عم عبد الله تلفان على بعضهما وتجريان. ولم يكن جري عم عبد الله سريعا، فالرجل قد شاب وتلخلخ وجاوز السبعين من زمان.

ولما رجع لم تكن معه الست وحدها، بل جاءت معها الست الصغيرة، وعبده، وأم حياة الطباخة وكاتب الأنفار. وكانوا كلهم يهرولون، وعم عبد الله يحاول أن يريهم الطريق. ووجدوا البيه مطروحا لا حول له ولا قوة، وعيناه مغمضتان، ويده على قلبه والعرق يغطيه.

وكانت أصواتهم عالية مختلطة تسأل عما حدث وتخمن، وأحس بهم البيه ففتح عينيه وضغط برفق على قلبه وأزاح وجهه إلى الناحية الأخرى وكان لا يزال يلهث حين قال:

ـ آه. . ذبحة. . ذبحة صدرية يا نعمت. . خلاص.

وبهتت الست، وبدأت ذرات العرق تخترق الكريم الـذي فوق وجهها، واقشعرت شفتاها وهي تقول محاولة دون جدوى أن تبتسم:

ـ اخص عليك يا سمسم.. ذبحة ايه يا شيخ..

ورد عليها بصوت ضعيف كليل:

ـ وحياتك ذبحة.. آه.. قلبي.. جنبي.. دراعي منمل..

وأجابت الست في لهفة:

ـ دي لازم يا شيخ ذبحة كدابة..

وكانت الست الصغيرة تقول في نفس الوقت:

ـ ما تقولشي كده يا بابا.. دانت تعبان بس.. دي لازم

وقال البيه في تبرم خافت:

ـ أبدا يا ناس.. أبدا.. بزي الشمال.. الحقوني.. هاتوا دكتور.. بسرعة.. الحقوني..

وأسرعت الست الصغيرة إلى الفيللا بينما أشارت الست الكبيرة

وكان صوت الست يرتفع قائلا:

ـ وطي صوتك.. اسكت.. الله.. اسكت..

أما عبده وكاتب الأنفار وأم حياة فكانوا واجمين وكأن على رؤوسهم الأسى.

وخلف الموكب وراءه عم عبد الله والذهول لا يزال مستحوذا عليه، والخواطر تذهب به إلى اليمين ثم تسرع به إلى أقصى اليسار،

ـ هـه . . قـال بهوات قـال . . أمال احنـا ما بتخـدناش الـدبحة ليه . . دا كان زمان الواحد ادبح . . وشبع دبح .

وهوى بالفأس في ضربة قوية مزقت الأرض . .

مشــوار

كـانت «مصر» إذا جـاءت سيرتهـا في حديث عـابر يـرتج على الشبراوي، ويرى أنه غير عائش، ويتحسر على ساعة واحـدة يقضيها في القبيسي أو عنـد المعلم أحمد في التـرجمان، ويجتـر شوقـه إلى حفلة من حفـلات النهار في السينمـا الأهلي ويرتـد عقله بسرعـة إلى الأيـام الخوالي التي قضـاها في الجيش حـيث كان يـذرع مصر من مشرقها إلى مغربها كل أسبوع . .

وغالبا ما كان ينهي الشبراوي لهفته وحسرته وشوقه بـأمنية ليس كثيرا على الله أن يحققها، فيهيئ له ظرفا مناسبا، وقرشين حتى يشـد الرحال إليها ويستعيد يوما من أيامه.

وأصبحت الجملة التي يعرفه بها زملاؤه من كثرة ترديده لها:

ـ أبيع عمري على ساعة فيكي يا مصر. .

ولكنـه لم يضطر إلى بيـع عمره، فقـد أتى الفـرج من حيث لا يـدري، ومن باب لم يعمـل له حسـابا قط. فهـو جالس في المـركـز جلستـه منذ أربـع سنوات وإذا بجمـاعة حـافلة تدخـل، وبعـد سؤال

وضجيج اتضح أنها امرأة مجنونة من كفر جمعة ومعها أهلها وأقارب الأهل والجيران، وملأ الصراخ المكان فالتمت الناس وضاق المركز.

ودق قلب الشبراوي في أمل بين ضلوعه فلا مناص من إرسال المرأة إلى مستشفى الأمراض العقلية في مصر مع (مخصوص)ومن غيره ينفع أجدع مخصوص؟..

ولم تكن ثمة حاجة إلى وساطات أو شفاعات للمعاون. فقد تنصل كل العساكر من المهمة ومن مسئوليتها. وحين تقدم هو إلى المعاون طائعا مختارا انتهى الأمر.

وفي الحال أرسل الواد عنتر صبي البوفيه إلى امرأته يخبرها بسفره وبأن تجهز له لقمة في منديل، وترسل الخمسين قرشا الصحيحة بأمارة ما هي موضوعة في كيس المخدة.

ومضى نصف ساعة..

وأصبح كل شيء جاهزا، وخطاب مفتش الصحة معدا، واستمارات السفر مكتوبة، وليس باقيا إلا أن يضع رجله في القطار ليكون بعد ساعات في قلب مصر.

ولم يكن هينا أن يصدق الشبراوي أن ما حدث كان حقيقة، وأن الأمر انتهى هكذا بسهولة ونعومة، وأنه صحيح سيرى مصر مرة أخرى، ويتفسح فيها، ويركب الترام ويقابل الإخوان والأصحاب، ويتعشى نيفة عند المعلم حنفي.

لم يكن ذلك هينا، ولكنه مضى بخطوات تضطرب بفرحة لا

يصدقها إلى المحطة ومعه ما يزيد على المائة نفر، وكلهم يوصونه بزبيدة وبأن يكون صبورا معها.

وغمزه أبوها بريال، وأعطاه زوجها بريزة، وهز الشبراوي رأسه كثيرا، وابتسم باستمرار، وهو يؤكد لهم أنها في عينيه، وأن يطمئنوا عليها، ويعتبره أخاها من أمها وأبيها.

وكان الموكب وهو يخترق البلدة يسترعي انتباه الناس ويجدون الشبراوي على رأسه فيسأله الذين يعرفونه أين هو ذاهب، وكان يجيب في تواضع:

ـ لحد هنا..

فيعود السائل يتمحك:

ـ لحد فين..

فيجيب الشبراوي وهو يزيد من قلة اهتمامه:

ـ كده لحد مصر..

وكثيرا ما كان يأتيه الجواب:

ـ هنيالك يا عم..

وتنمل السعادة في أحشاء الشبراوي..

وبعد انتظار كثير جاء قطار الدلتا. وركب هو وزبيدة، وجلست هادئة ساكنة، وتحرك القطار في أمان الله.

وتحسس الشبراوي الأوراق للمرة الثالثة وقد وضعها بعناية في جيبه الداخلي، ولما رأى أن لا متاعب هناك وأن الحال مثل القشطة، فك حزامه البوليسي العريض، واستراح، وكاد ينسى زبيدة.

وانتهى قطار الدلتا من ركناته وسرحاته ومحطاته التي لا تفرغ، ثم دخل المنصورة كالدودة السوداء الطويلة، وعبر الشبراوي الكوبري، وزبيدة في يده، وهو لا يني عن ترديد:

ـ بركاتك يا سيدة زينب. .

وسأل عن قطار مصر فوجده رابضاً ينتظره، وركب وأجلس زبيدة بجوار النافذة. وجاء بائع الليمون فشرب منه كوبتين في نفس واحد، ومد الثالثة إلى زبيدة، ولكنها دفعتها في تبرم وحنق، وهدهد عليها وهو يتبع الكوبة زميلتيها.

وتحرك القطار والناس فيه آمنون مطمئنون، وزبيدة تنظر من الشباك كالطفلة الصغيرة وعلى فمها ابتسامة نيئة، والشبراوي تطقق له السعادة أصابعه.

وقبل السنبلاوين استدارت زبيدة فجأة، ثم دبت على صدرها في عنف وقالت وهي تنظر إليه في اتهام غريب:

ـ يا لهوي. .

ونزل الشبراوي مهرولا من جنات سعادته، ورد عليها في انفعال:

ـ مالك ياختي . . مالك يا زبيدة . .

ولم تجبه، وإنما وضعت كفها تحت أنفها، وبأقصى قوتها أطلقت زغرودة خالية من كل هم.

وأعقبتها بسرب طويل من الزغاريد.

والتفت الركاب إليها، وصمتت العربة كلها في دهشة عظمى، وتخلخل الشبراوي وداخ قليلا فلم ينطق بحرف . .

وبعد أن حاول ابتلاع ريقه فلم يجد له ريقا طبطب على زبيدة، ومعلشي ياختي، حقك عليَّ، طولي بالك، اعملي معروف، بلاش فضايح، وكلمتين من كلماته الهادئة، وسكتت زبيدة.

ولكن الركاب لم يسكتوا، بل انطلقت ألسنتهم تعلق همسا على ما حدث. ثم ارتفعت الأصوات. كل هذا والعيون لا تتحول عنه أو عنها.

وسمع بأذنه واحدة تقول:

ـ دي لازم مراته يا ضنايا . .

ورنت ضحكة في آخر العربة، وتنحنح الرجل الجالس أمامه وهو يفيق من غفوته، ووقف طفلان فوق المقاعد يتفرجان . .

وعرق الشبراوي حتى نفذ العرق إلى بذلته الصفراء ومد يده ولم المنديل الذي كان قد فرده ليغير ريقه، ثم عقده كما كان.

وسأله جار لم يعجبه الحال:

ـ هي الست مالها يا شاويش؟ . .

وقال الشبراوي وقد استرد لسانه وإن لم يسترد مفاصله :

ـ أبدا . . ولا حاجة . .

وسكت قليلا ثم أضاف :

ـ أصلها

وضم أصابع يمناه ثم حركها في دائرة بجوار رأسه، وهز الرجل جسده كله يؤمن على ما قال الشبراوي وكأنه قد اكتشف شيئا عويصا .

ولم يكن الشبراوي قد كف عن تحريك يده حين استدارت إليه زبيدة وتكلمت بأعلى صوتها ومعالمها مدببة مشحوذة :

ـ ولا حاجة إزاي . . إزاي يا جدع ولا حاجة . .

ونظر الشبراوي إليها في جزع حقيقي وهي تقترب بخلفتها من وجهه، وتراجع برأسه حتى ألصقها بخشب العربة واضعا المنديل بما فيه بينه وبينها .

ولكنها أنهت اقترابها منه فجأة، وانتصبت واقفة ثم فتشت سقف العربة بعينين زائغتين وزعقت بكل ما تستطيع :

ـ ولا حاجة إزاي . . يسقط عمدة بلدنا إبراهيم أبو شعلان . . يسقط عمدة بلدنا . . يعيش جلالة الملك . . يعيش جلالة الملك الريس محمد بيه أبو بطة .

وطقت زغرودة فائرة . .

ووقفت العربة على رجل، وطار النوم من عيون النائمين، وأخذ الرجل الجالس أمامه المقطف من تحت المقعد ثم مضى مسرعا. وفي ثانية أصبح لزبيدة والشبراوي نصف العربة، بينما انزوى كل الركاب في النصف الآخر متوجسين شرا.

وغادر العربة نفر قليل من المسافرين بينما أبقى حب الاستطلاع معظمهم.

وأصبحت بدلة الشبراوي كالمغسولة بعرقه. ومد يده يرغم زبيدة على الجلوس وينهي الموقف، ولكنها خبطته على يده، وتأودت وهي تزغرد وتقول:

ـ يسقط عمدة بلدنا.. يعيش جلالة الملك الريس أبو بطة.

وانطلقت ضحكات بائعي الكازوزة والفول السوداني، وجرت وراءها ضحكات المسافرين، ولم يجد الشبراوي مانعا من ضحكه هو الآخر، ولكنه لم يضحك طويلا، فقد فوجئ بالمسألة تنقلب جدا ولاهزل فيه، وروعه من زبيدة أنها مدت يدها، ورفعت ذيل ثوبها تريد أن تخلعه. وكانت ترتدي ثوبها فقط، وهجم عليها يوقفها، ودفعته وهي تزغرد، وقامت معركة.

ولو أنه تغلب عليها آخر الأمر فأقعدها بالقوة وربطها بكوفية تبرع بها واحد من المسافرين، مع هذا إلا أنها كانت قد فعلت شيئا أفقده صوابه، فقد قذفت بطربوشه من نافذة القطار. الطربوش الذي ظل فوق رأسه من يوم أن دخل الخدمة، وبقيت فروته عارية

بيضاء إلا من شعره القليل القصير.

ولم تهدأ زبيدة حتى بعد أن فعلت هذا، وظلت تطلق الزغاريد وفي كل مرة يسقط العمدة ويعيش الريس.

وقرابة بلبيس كان الهدوء قد أخذ طريقه إلى عقلها وسكتت حتى بدأ بعض الجريئين من الركاب يعودون إلى أماكنهم وكان الشبراوي يمنع نفسه منعا عن قذفها من القطار فقد كان يغلي على طربوشه الذي ضاع أمام عينيه.

واستمر يغلي حتى دخل القطار محطة مصر..

وانتظر الشبراوي حتى نزل كل الناس ثم شدها بعنف، ولف ذراعه حول ذراعها وجعلها لاصقة بها كالكماشة. ولكنها لم تكن في حاجة إلى كل هذه الشدة فإنها كانت تمشي معه كالحرير المطاوع.

وبهره ميدان المحطة، ولكن الظروف لم تكن متاحة أمام الذكريات لتشغل باله.

وعلى الفور ركب الترام وهي معه أعقل ما تكون، ونزل في العتبة، وخرم على شارع الأزهر واشترى طربوشا بالريال وهو يلعن زبيدة وأباها وفلوسه الحرام.

ولم يسترح إلى الطربوش الجديد فوق رأسه وأحس أنه ثقيل كقطعة الدبش.

وعقد العزم على أن يجعل زبيدة تغور من وجهه أولا،

ويتخلص من مسئوليتها ثم بعد ذلك تكون مصر كلها له وهولها. واستراح لهذا القرار، وركب الترام والناس فيه فوق بعضهم، وغرق يراجع ما فات من متاعبه وما سيجيء. ولكنه صحا في نصف الطريق يطمئن على زبيدة فوجدها لاصقة بأفندي من الراكبين وفكها قد تدلى في بلاهة راضية، والأفندي منسجم غاية ما يكون الانسجام، ومتشاغل بقراءة جريدة يحملها. وزغدها الشبراوي وهو يشدها بعيدا. وانقلب الرضا الذي على وجهها غضبا وزغردت وسقط العمدة وعاش الريس أبو بطة.

وأوقف الكمساري الترام بلا محطة وأنزل الشبراوي وهو يشبعه لوما وتريقة وتقريعا على ركوبه ومعه واحدة لها هذه الخطورة.

ووجد الشبراوي أنه من المستحسن أن يأخذها كعابي إلى المحافظة. ومشت زبيدة على يمينه وقد صممت ألا تكف عن زغردتها، والتأم شارع محمد علي كله وراءهما وبجوارهما، وكلما كثر الناس علا صوت زبيدة، بينما راح الشبراوي في غيبوبة ووجهه لا يرتفع عن الأرض.

ورأى العسكري الواقف أمام باب المحافظة هذا الجمع مقبلا وفيه زغاريد وأصوات فتوقع حدثا مثيرا. ووقف الشبراوي في يسأله عن طبيب المحافظة. وعرف العسكري الحكاية بخبرته ورثى له فالساعة كانت قد جاوزت السادسة ولا أحد هناك.

وسأله الشبراوي بلهفة:

ـ طيب وبعدين؟ . .

ـ فقال العسكري بكل هدوء؟ . .

ـ تعال بكره . .

ـ بكره؟ . . بكره إزاي؟ . .

ـ بكره الصبح . .

ثم أعقب العسكري جوابه بشخطة فرقت الناس وفي جعبتهم أكثر من نادرة.

وتوسل إليه الشبراوي وهو يسأل إن كان ممكنا تركها إلى الصباح في المحافظة.

وحدجه العسكري بعينيه دون أن يتكلم، وفهم الشبراوي فسحب زبيدة ومضى. ومن هذه اللحظة بدأ يطرق عقله طرف المشكلة، وبدأ يفكر كيف يبيت ومعه هذه الداهية. ولكنه كان متعبا مهدودا، وله ساعات لم يدخل جوفه طعام.

ودخل أقرب قهوة في باب الخلق حيث جلس وأجلسها بجانبه وكتفه في كتفها. ولم يعبأ أبداً بتحديق الجالسين فيه وفيها ولا بما يقولون. وطلب شايا وتعميرة، وشربهما، وأحس بالخدر يتمشى لذيذا في جسده. وأفاق من خدره على شيء حدث داخله فجعله يتململ ويرتد إلى أقصى الخلف ثم يتلوى إلى أقصى الأمام. وقدر أنه لن يستطيع الاحتمال وعليه أن يبحث في التو عن المكان الذي

يقضي حوائج الناس، وسأل الجرسون وعلى وجهه ألم. وأشار الرجل إلى مكان لا يبعد كثيرا.

ولكن.. زبيدة..

وتلفت حوله، ولم يكن صعبا أن يبدأ حديثا سريعا مع جاره الذي كان يرتدي بالطو وجلبابا بلديا. وعرف منه أنه مخبر في المحافظة. واضطر الشبراوي أن يقص الحكاية من طقطق إلى سلام عليكم، وأن يختمها راجيا المخبر أن يأخذ باله من زبيدة حتى يعمل مثل الناس ويعود، وما كاد الرجل يقبل بغير ترحيب حتى اندفع الشبراوي وكأنه طلقة..

وحين عاد كانت القهوة قد انقلبت إلى مولد تحييه زبيدة.

وجرها الشبراوي في غلظة بعد أن ألحف في الاعتذار للمخبر ومشى وهو لا يدري أين يذهب. وكان الوقت يمضي والشمس غابت، والأضواء القوية تزغلل عينيه محاولة تذكيره بالذي مضى.. ولكنه كان في عالم آخر.

وظل يبحث في ذاكرته حتى عثر على قريب له من بعيد طالب في الزراعة في الجامعة. وعثر أيضاً في ذاكرته على مكان بيته.

وتاه في الجيزة ساعات فقد كان يعرف البيت في النهار فقط.

وأخيرا استدل عليه. ودق الباب وفتح قريبه، وسلم عليه بحرارة، وأنت فين يا أخي، والله زمان، وإزاي الجماعة.

وقبل أن يدخل في الموضوع زغـردت زبيدة بحماس وكانت ما فتحت فمهـا طول الوقت.

ونظر إليها الشبراوي وتمنى لو كان معه سكين ليذبحها.

ولم يدخل في الموضوع أبـدا، وإنما انسحب في سكـون وهو يروي لقريبه نتفا متفرقة من الحكاية.

وحين احتواه الشارع قال لزبيدة وهو يضغط على ذراعهـا يريـد كسرها:

ـ حاتسكتي واللا أروح فيكي مؤبد.

واستمر يهدد ويتوعد وهي ماشية بجـواره كالأوزة لا تلوي وزي ما تيجي..

وذكره المـؤبد، الذي يريد الرواح إليه بـالقسم. ووجد أنـه حقا أصلح مكان يأويها ويأويه في تلك الليلة السوداء.

والأوتـوبيس، وفي خطوتين كـان أمام الشـاويش النبـطشي في قسم السيدة.

والحكاية أعادها وقد تمرن عليها وحبكها..

وهز الشاويش رأسه في بطء وهو يقول:

ـ دي مسئولية يا حبيبي.. وأنت سيد العارفين.

ورد الشبراوي وغيظه يحترق:

ـ طب حطنا في الحجز. .

وفي بطء قال الشاويش:

ـ برضه مسئولية. .

وحين غادر القسم كان يلعن كل ما يمت إلى المسئولية والسائلين بصلة ويكاد يضرب نفسه وهو يلومها على هذه المسئولة التي اندب فيها كالرطل.

وحين كان يسترد أنفاسه لاحت له فكرة اللوكاندة، ولكنه نبذها في الحال فهما اثنان، وزبيدة حرمة، وخطرة، والحسبة فيها بالراحة خمسون ستون قرشا، والحكاية على الله.

ولم يبتعد الشبراوي كثيرا فقد تربع أمام جامع السيدة وجذبها حتى تهاوت بجانبه، والحياء يمنعه من البكاء فلم يكن يعتقد أن إنسانا آخر في العالم له مثل تعاسته، وبؤسه. وكان مجاذيب الست حولهما كالنمل، وحين زغردت زبيدة ضاع صوتها في تمتمة الشيوخ وبسملتهم وزقزقة النساء ودوامات الذكر. .

وسر الشبراوي لهذا وانبسط، فلم يعد فيما تفعله زبيدة غرابة أو شذوذا. وفي الواقع كان هو الغريب الشاذ بين هذا الجمع وكان هو التعس الوحيد كذلك. وتمنى أن يفقد عقله حتى ينجذب ويسعد ويستريح مثلهم.

ورغما عنه بدأ يخرج من نفسه ومن آلامه وغيظه ويرمق ما يدور حوله. وكان ما يدور مسليا، فلا أحد يسأل الآخر ماذا يفعل أو ينهاه

عن فعله. وانصرف الشبراوي بكليته إلى الشيخ الذي بجواره والـذي كان ممددا مسترخيا في مـوازاة الحائط وقـدأسنـد رأسـه إلى ساعـده وراح يـرقب الناس الغـادين الـرائحين بـلا أدنى مبـالاة، وفي وجهـه اكتفـاء واستمتـاع، وكـأنـه ملك العصـر والأوان. . وكـان بين الحين والحين يخفض رأسه ثم يرفعها بعد مدة ويحدق في الشبراوي ويقول في صوت ممدود عميق ساخر:

ـ وحد الله. .

فيوحد الشبراوي في سره. .

ثم يغيب الشيخ ليعود ينظر إليه نظراته التائهة الطويلة.

ومر واحد من فـوق الرصيف ورمى بعقب سيجـارة وجاءت في متناول الشيخ. وفي اتزان واطمئنان وثبات مد الشيـخ يده والتقـطها، وشد منها نفسا عميقا وأخرج دخانا كثيرا من جـوفه وهـو ناعـم ملتـذ، وأطل بنظـرة سعيـدة على الشبراوي وحلقـات الدخـان تلهو في بطء حول وجهه وقال بكل ثبات:

ـ وحد الله. .

ولم يتمـالك الشبـراوي نفسه. وضحـك. وتمنى أن يرقـد مثل رقـدة الشيخ، وأن يكـون خـالي الهم والمسئوليـة مثله. وحين مـرت المسئولية على لسان وعيه التفت ناحية زبيدة فوجدها تتثاءب. .

وكاد يرقص من الفرحة. .

ولم يطل بها التثاؤب وشيئا فشيئا مضى جسدها يثقل ويستكين، ثم راحت في النوم.

ولأول مرة تملى الشبراوي في وجهها، لم تكن حلوة، ولكنها كانت بيضاء، وكانت صغيرة وأقدامها فيها طين وجروح وخلخال غليظ. وكانت في نومتها لا تفترق عن العاقلين.

ولاحظ الشبراوي أن ثوبها مشقوق وفخذها بائن منه. وخفض من بصره وهو يلم الثوب ويغطيها.

ثم انخرط في تخريف لا يعرف له أول من آخر مع الشيخ حتى نام..

وحين تقدم الليل، وسكنت الدنيا، وتكوم محاسيب الست يغطون بجوار الحائط كالقرود التي أنهكها يوم مشحون بالرقص والنط، كان هو يتساءل عما أزال الغضب منه فلا يجيبه إلا الشخير الذي كاد يقلق السيدة في مقامها.

وصمم أن يسهر الليل بطوله ولم يكن هذا سهلا فالنهار قد هده والسفر أخذ منه ولم تبق لديه عافية بعد أن امتصت المشغولية وطول التفكير عافيته.

وطال عليه الليل وهو نصف نائم يرنو إلى ساعة الميدان ويستعجل الوقت الذي يتهادى في بطء ثقيل الدم.

وما جاءت السابعة حتى كان في المحافظة ينتظر الطبيب وينش الناس من حولهما كما ينش الذباب وزغاريد زبيدة تلعلع بلا انقطاع.

وأخيرا جاء الطبيب، وبعد كثير كان هو وزبيدة أمامه، وقلب الرجل الأوراق ثم قال وهو يؤشر عليها:

ـ خذها القصر العيني عشان تتحط تحت الملاحظة. .

وأخذها الشبراوي مستسلما وخرج، ومن ترام إلى ترام وصل القصر العيني. وسأل واحدا فلم يجبه، ونظر آخر إلى زبيدة ثم مضى، ودلته تمرجية عجوز على الاستقبال.

واستمع الطبيب إلى زبيدة وهي تهتف بسقوط العمدة وحياة الريس، وضحك كثيرا وهو يسألها فتجيبه وتهلوس وهي تجيب، وكان حين يضحك يرتاح الشبراوي أيما ارتياح، ويطمئن. ولكن الطبيب اتخذ في النهاية طابع الجد وأخبره أن لا مكان لها في قسم الملاحظة. وكتب هذا على الأوراق.

وسأله الشبراوي وروحه تحت لسانه:

ـ وأعمل ايه؟ . .

ـ روح المحافظة تاني . .

ـ تاني !! . .

ـ أيوه تاني . .

وكان وهو خارج يحمل الدنيا فوق قرنه، وفعلا راودته نفسه أن يقتل زبيدة ويقتل الأطباء كلهم ثم يعمل مجنونا وينتهي. ولكن الأمر لم يتعد حدود المراودة البريئة.

وعاد إلى المحافظة وهو يلهث. وقرأ الطبيب ما كتب الطبيب وقلب الأوراق مرة أخرى ثم فاجأ الشبراوي بسؤاله إن كان قد أحضر أحدا من أقاربها. وأحس الشبراوي بغصة وهو ينفي أنه أتى بأحد.

وأخبره الطبيب أن هذا ضروري لملء استمارة المستشفى، وأن عليه العودة ببساطة من حيث جاء.

وبهت الشبراوي واصفر وهو يقول:

ـ أرجع الدقهلية بيها . .

ـ أيوه . .

وضربها الشبراوي في عقله فوجد أن هذا أحسن حل . .

ولكنه تنبه إلى أمر ذي بال فقال للطبيب:

ـ مش ممكن يا بيه . . دانا معايا استمارة رجوع واحدة بس . . بتعتي . .

ـ يابني لازم حد من قرايبها . .

ـ أنا في عرضك يابيه . .

ـ يابني دي مسؤولية ما اقدرش أتحملها . .

وكانت مرارة الشبراوي قد انفجرت من هذه المسؤولية. وقبل أن تتولاه ثورة يحطم معها كل ما أمامه قطعت زبيدة الحديث بزغرودة رطبة، وفي أقل من لمح البصر خلعت ثوبها المهلهل، ثم اندفعت خارجة فجأة، وجرت في حوش المحافظة والكل مذهول قد عقدت

الدهشة أيديه وأرجله.

وكان الشبراوي هو أول من جرى وراءها بكل ما يملك من قوة. وحلق الناس والمساجين والعساكر عليها، وأفلح الشبراوي في الامساك بها فتملصت منه وهي تهتف بسقوط العمدة، وعضته، وصرخ الشبراوي ثم هوى على وجهها بكفه وسال الدم من فمها وأسنانها. وأعيدت إلى غرفة الحكيم وهي تهتف وتتمرد وتزغرد.

وجاء قميص الكتاف وتعاون أربعة على إدخالها فيه.

وتدحرجت زبيدة على الأرض وهي تحاول التخلص والدم يسيل فيلون أسنانها ووجهها وشفتيها، واللعاب يصنع الزبد حول فمها.

وحرر الطبيب الاستمارة على عجل، ووقف الشبراوي مبهوتا يرقبها، وينتفض بدنه مما تفعله في نفسها..

وذهل وهو يكتشف بعدما وضعت زبيدة في قميص الكتاف أنها مجنونة، وأنها لا تفقه مما تقول حرفا، وليس لها ذنب فيما قاساه، ثم انها لم تأكل ولم تشرب وهي معه ولا حتى حين كانت في البلد.

وشعر بشفقة غريبة تدب في نفسه وهو يراها تتدحرج وتخبط رأسها في الأرض وتتلوى.

وقال له الطبيب: خلاص..

وانتهت بذلك مهمة الشبراوي ومسئوليته.

وكان يخيل إليه أنه سيحيي ليلة لوجه الله إذا انتهت مهمته، وتخلص من زبيدة ومصائبها، ولكنه تلقى الخبر وكأن غيره هو الذي يعنيه الخبر.

وجاءت العربة وأركبوا زبيدة فيها وهي تزغرد وتهتف بحياة جلال الريس والناس كلهم يضحكون.

وتحرك الشبراوي كالمطعون ورجا السائق أن ينتظر دقيقة، ثم جرى واشترى رغيفا من الفينو وحلاوة طحينية، وأعطاها للعسكري الذي يرافقها وهو يقول له في رجاء حار:

ـ والنبي توكلها وتخلي بالك منها.. اعمل معروف وحياة اللي ماتو لك تتوصا بها..

ومضت العربة..

وتسلل الشبراوي من المحافظة إلى المحطة مباشرة وقد شبعت نفسه من مصر ومن الدنيا.. وبين الآونة والأخرى كان يلمح كفه التي ضرب بها زبيدة فيقشعر جسده بخجل لم يحسه في حياته..

بصـــره

ـ آه . . أهو جه . .

ـ ليلتك سودة يا مليم . .

ـ أما حتبقى حتة ملعبة . .

ـ دي حتبقى مدعكه . .

ـ شد حيلك يا حمودة وهات لنا أجله . .

ـ أهو دلوقت تحلى الفرجة ياولاد . .

ومضى الجالسون في القهوة يتقاذفون التعليقات وهم يتسمعون إلى الضحكات العالية التي تترى من الخارج، وقرقعة الصفائح الفارغة، ودبيب الأقدام الثقيلة التي تجري وكأنها أقدام فيل .

وظهر (مليم) السقا في النهاية، ومقهقها صاخبا لاعنا أبا الدنيا ومن تهمه الدنيا كعادته، ووضع صفيحتي (الجاز) الفارغتين والعصا التي فيها الخطاطيف فوقهما، وضحكت عيناه لكل الموجودين في سخرية خالية من الهم، ثم انتحى كرسيا نائيا جلس عليه، ووضع

ساقا فوق ساق، وصفق بيديه كأحسن زبون، فتعالت الضحكات لجلسته وتصفيقه.

وجاء نبقة (الجرسون) يلبي الطلب في احترام مصطنع، وزغده المليم وهو يأمر بواحد شاي بالحليب وكرسي دخان.

وعوى فيه وهو يقول: خلي بالك من الكرسي.. فاهم..

ومضى نبقة عنه سريعا وهو يغني في صوت روتيني ممدود:

ـ صلي عالنبي.. تكساب..

وكأن جلسة مليم قد حلت عقد الألسنة كلها فانهالت عليه لاذعة متفكهة، بادئة بقدميه الكبيرتين العريضتين على قصر وقد جمعتا كل ما استطاع حفاؤهما جمعه من طين، وصاعدة إلى ساقيه العاريتين الوارمتين بالعضلات وكأنهما فخذا كندوز، ثم قميصه الذي كان هو كل ملابسه وقد تحزم عليه بقطعة بالية من شبكة صيد فجعل له (عبا) تدلى له القميص فوق ركبيته الخشنتين المشققتين. ولا تهدأ الألسن حتى تتمرغ فوق صدره الموشوم عليه فتاة تمسك بيديها سيفا وتختنق تحت غزارة شعر صدره الكثيف الشائخ. وتمتد اللذعات إلى وجهه واصفة إياه بالرغيف المحروق، وقعر الحلة الأسود، ثم تصل إلى صلعته التي كانت الشيء الوحيد الأبيض الماسخ فيه.

كل هذا ومليم جالس لا تخدش النكات جارحة فيه، وإنما هو حكم عدل بينها، يستعذب الحلوة ويستملحها، ويفرق بين السخيف والجديد فيها، ولا يسب صاحب البائخة، ولا يمدح قائل الجديدة،

إنما يضحك فقط إذا أعجبته النكتة. وكانت ضحكاته من نوع فريد.. كانت فيها طبول ودفوف وقرقعة صفائح ثم ذيل طويل رفيع يختمها به..

ولما بدأ ضحك الجالسين يهمد، وقلت نكاتهم وقدمت، لجأ مليم إلى الحيلة التي يلجأ إليها دائما ليضحكهم، فوضع قروشا في حلقه حتى وصلت زوره، ولا يدري أحد كيف كانت تصل إلى زوره، ثم دق على رقبته فشخشخت القروش، وضحك، ولم يملك الناس حينئذ أنفسهم..

وأخيرا هدأت العاصفة التي أثارها مليم بدخوله، وكان المغرب قد حل، وبدأت العربات المارة في الشارع تضيء مصابيحها، وكان نبقة قد رش ما أمام القهوة بالماء، وفتح الراديو على آخره ليجتذب الزبائن، وأشعل الكلوب وعلقه، واستوت شالية النار في الخارج فأدخلها وكلها بصابيص متوهجة ووضعها بجوار (النصبة) وغطى نارها بالرماد لتعيش وتكفي السهرة. وكان المعلم قد اتخذ مكانه أمام البنك وطلب فنجال القهوة السادة، وأمر نبقة بتغيير ماء (الجوزة) ليستطيع أن يشرب كرسي المغرب.

وكان حمودة جالسا بجوار المعلم وقد أمال جسده قليلا في حفز، فمنذ الصباح والكل يتحدث عن اللعبة التي ستقوم الليلة بينه وبين مليم، والكل يستعد ويتنبأ.

وقال له المعلم وهو يمد الغابة إليه، فتناولها، وجذب نفسا قصيرا، وأخرج الدخان، ثم أراح ظهره على ظهر الكرسي محاولا

بجهد أن يلد واحدة من ابتساماته، وكان يستعمل ابتساماته دائماً لإخفاء ما به من تعب. وهو في الحقيقة كان يتعب، ومع أنه كان رجلا طويلا عريضا إلا أنه كان يعمل صبيا لموقف العربات. وكان ينغرز اليوم بطوله في الشارع، والشمس في نافوخ رأسه العالي المهدل الشعر، وعينه الحولاء التي فيها بياض كثير زائغة هنا وهناك علها تلمح راكبا، وحنجرته الراقدة كالقبوة لصق عنقه تهتز وتتعالى وهو يجأر قائلا:

ـ اللي رايح شبين.. شبين والكفر. بتلاتة ساغ لشبين.

وكان يقضي اليوم هكذا ينادي على الناس ويشحن العربات، ويتشاجر مع السائقين على (الفية)، ويسب الركاب والموقف والعفاريت الزرق، ثم يخرج آخر النهار بصوت ما عادت البحة تؤثر فيه، وبجاكتته التي كانت قميصا من مخلفات الجيش وقد ارتداها فوق جلبابه الذي كان له لون ذات يوم، وبجيب القميص الذي على صدره وقد عمر بالقليل من النقود. ويخرج آخر النهار بهذا كله إلى القهوة، وقد يخرج إلى المركز، وقد يسافر في عربة ليشحن دور الفجر في شبين، وقد لا يخرج بشيء على الاطلاق..

سأل المعلم حمودة عن الحال. وسكت حمودة قبل أن يقول انها مثل اللبن، وحاول المعلم أن يقيس ما في سكتته من طول ليعرف ما في جيبه من نقود، ولما اطمأن المعلم قال وهو (يخمن) الكرسي:

ـ الواد مليم بيتحنجل..

وابتسم حمودة، وحدق في المعلم بعينه الحولاء وقال في اشمئزاز:

ـ دابن (. . .) هو مش حيسكت إلا أما أدبوا عشرتين. .

وجاء الدور على المعلم ليبتسم فتبين سنته الأمامية المطلية بالبلاتين ونفض ما علق في بلغته من تراب وهويقول:

ـ حلو. . آدي الجمل وآدي الجمال. .

وكانت أسماع الجالسين حول المعلم قد اجتذبها الحديث، وأصاخت، فاستعذبت الحديث، وعلا صوت حمودة وترددت صيحته بين جنبات القهوة وكأنه ينادي على الركاب قائلا:

ـ والنبي لما يكون ابن جنية. . دانا أكله. . دانا مضيع عليها شبابي. .

وتلفت الجالسون يبحثون دون وعي عن مليم فلم يجدوه، وارتفعت همساتهم تتساءل. وأراحهم المليم حين أقبل بعد قليل وقد ملا دور الماء للقهوة. وتحولت الأنظار إليه وهو يتمخطر تحت عبء الصفيحتين الممتلئتين واحدة تجذبه بثقلها والأخرى تدفعه، ورجلاه تنتفخ عضلاتهما وهما تأخذان طريقهما بين الصفيحتين في حنكة وخبرة وقوة.

وقهقه مليم لما رأى نفسه محطا للأنظار، ورقص بالصفائح.

وأعجب نبقة رقصه فاتخذ البوفيه طبلة وراح ينقر، وساح

المليم رقصا وقد ترك العصا ترتكز وحدها على مؤخرة عنقه بينما يده قد ارتفعت إلى فوق، والأخرى قد وضعها في وسطه.

وابتسم المعلم، وانفرجت أسارير حمودة، وانهالت اللعنات والألسنة تهري مليم، ثم سكتت الضجة قليلا حين علا صوت المعلم:

ـ اسمع يا واد يا مليم.. فيكشي عشرتين بأربعة صاغ..

ورد مليم وهو لا يزال يرقص:

ـ أربعة ساغ.. أربع برايز.. أربع وقات.. أربعة النينو كوانينو. كله ماشي يا معلم.. ما يهمكش.. ملعون أبو الدنيا وملعون أبو. ملعون أبويا.. هأوو..

وتوالت الأحداث مسرعة..

فحالا أعدت أحسن منضدة أمام حمودة، وكانت هي الوحيدة التي لها سطح من الأبلكاش الناعم لولا بعض الحفر السوداء التي صنعتها بقايا السجائر والبصابيص فيه. وتولى الجالسون أمر الصفيحتين فأنزلوهما وأفرغوهما في الزير الراقد بجانب النصبة.. وتولى آخرون دفع المليم وهو يتدلل ويصدر كل الأصوات التي تجيء على خاطره من فمه ومن أنفه على حد سواء، والكل يعرف أنه في لحظته تلك أسعد خلق الله لأنه سيلعب وما أدراك ما هو المليم حين يلعب؟..

وما أن استوى مليم في مكانه حتى تلفت حوله ثم دق المنضدة

بجمع يده وهو يقول كالأسد :

ـ أجدع كوتشينه يا وله . .

وعاد نبقة مسرعا بالكوتشينة الوحيدة الجديدة في القهوة، وما كانت جديدة، بل كان المعلم يحضرها من نادي الموظفين حيث يلعبون بها البوكر ليلة أو ساعة من ليلة ويتركونها جديدة أو تكاد ليشتريها المعلم وأمثال المعلم .

وألقى نبقة الدستة بدراية فجاءت كما أرادها وسط المنضدة تماما . وسرعان ما امتدت إليها يد المليم فأخرجها من العلبة، وقبلها وهو يلعن أباها ويقهقه، ثم يبلل إبهاميه بالكثير من لعابه وعدها بطريقته الغريبة السريعة والأنظار كلها بين أصابعه، ثم فنطها وجعل وسطها في طرفيها، ثم جعل طرفيها في وسطها ووضعها وهو يدق المنضدة في قوة ويقول لحمودة في تحد :

ـ اقطع . .

وكان حمودة ينظر إلى حركاته في اشمئزاز ظاهر وليس بينه وبين صفعه إلا قراريط معدودة، وقبل أن يرد على تحديه وقف نبقة كالزوال ووضع يده فوق (الكرت) قائلا :

ـ عايزين ايه . .

وطلب حمودة شيشة، وطلب المليم كازوزة بالثلج، ولم يتحرك نبقة إنما قال :

ـ كمان طلبين تانيين . . دي الكوتشينة الجديدة يا عالم .

وحدق فيه الاثنان دون أن ينطقا بحرف، واستدارت نظراتهما

إلى المعلم تستنجده ولكنه هز رأسه مؤمنا على كل كلمة قالها صبيه، وفي استسلام طلب كل منهما مشروبا آخر.

وأيضا لم يتحرك نبقة إنما قال في لهجة حاسمة:

ـ ايدكو عالتأمين..

وفي تهور أخرج مليم قرشين من ظرف جواب قديم كان يضع فيه كل ما يملكه من نقود، وكان يدسه دائما بين طيات حزامه.

وفي بطء وامتعاض استخرج حمودة شلنا ورقا من جيب قميصه ورماه بقلة اكتراث على الطرابيزة.

وفرق مليم..

وبدأ اللعب..

* * *

بدأ اللعب في هالة من الصمت الجاد لفت اللاعبين ثم اتسعت حتى قتلت كل الهمهمات التي كانت تنبعث ممن حولهما. ولم يكن هؤلاء كثيرين، وكانت نفس الوجوه التي يسيل عرقها كل مساء ويلمع تحت سطع الكلوب وهي تحملق في الأوراق التي على الطرابيزة، والتي في أيدي اللاعبين. وكان الجالس على يمين مليم، والواضع كتفه فوق كتفه حتى ليكاد ينحيه عن كرسيه، كان عبد الودود، وهو رجل لا هشة له ولا نشة، له ثلاثة قراريط يزرعها فجلا وطماطم، ومزاجه الذي يؤرقه أن يجلس في القهوة يراقب اللاعبين،

ويزجر هذا في لطف وضعف لأنه يغالط، ويناصر صاحب الحق ان كان هناك صاحب حق. وكان كعادته يلوك في فمه متلذذا حبة نعناع فهو لا يدخن ولا يحشش ولا يشرب الجوزة إلا معزوما، ومع ذلك فقد كان حريفا كبيرا، ولكنه تاب عن لعبها حين أقسم من عام مضى بالطلاق ألا يلعبها، ولم يحنث في قسمه، واكتفى أن يجلس جلسته تلك إذا ما انتصب المجال، ويهتف في فرح للعبة الحلوة ويمصمص حبة النعناع لكل لعبة تفلت.

وكان مصيلحي يجلس بجوار محمد ويزاحمه محاولا أن يجد له منفذا إلى المنضدة، ومصيلحي كان تلميذا في المدارس، صغيرا إذا ما قورن بالكبار الجالسين حوله، ولكن ذلك لم يمنعه أن يكون أكثرهم نقودا في بعض الأحيان ولم يحل بينه وبين أن ينازل واحدا منهم في كثير من الأحيان، وكأنه كان يجد في الكوتشينة والقهوة سحرا خاصا يجذبه بعيدا عن أصدقائه ولداته من التلاميذ أمثاله، فكنت لا تراه إلا جالسا في القهوة بجلبابه النظيف، لاعبا إن كان هناك مجال للعبه أو متفرجا متحمسا إن عز المجال.

ثم كان هناك الشافعي وأبو الخير وعبد ربه وهم أنظف الموجودين من كل ما يمت إلى المعاملة بصلة. كان لا عمل لهم في القرية فموسم العمل قد انتهى فكانوا يأتون كل يوم إلى البندر علهم يجدون عملا، وكانوا لا يجدونه، فتلمهم قهوة المعلم بلدياتهم، وكثيرا ما كان يزجرهم، وغالبا ما كان يتركهم حين كان يجد لأكتافهم البلوطية وأذرعهم البرية عملا عنده، وكفاهم ثمنا أن يجلسوا على

القهوة.

وكانوا هم الآخرون يزاحمون ويبحلقون، وتعلموا الكوتشينة من كثرة ما زاحموا وبحلقوا، وكان حلمهم الأكبر أن تفضي دستة قديمة تآكلت أوراقها وتمزقت حتى ينتحي بها أبو الخير وعبد ربه جانبا ويلعبا، ويعد لهم الشافعي الأبناط، فمع أنه كان أضعفهم بنية إلا أنه كان الوحيد الذي يستطيع أن يعد حتى يصل المائة.

وانتهت العشرة الأولى..

ومع أن الأولى ليست دائما بذات قيمة، وكل واحد يحاول فيها أن يختبر حظه ويتعرف مهاوي زميله ويريح التوتر الذي في أعصابه والذي سبق اللعبة، مع هذا إلا أن المليم حمرق، وأصر على أنه هو الغالب.

وسواء كان غالباً أو مغلوباً فقد كان له إصرار عجيب على أنه الغالب حتى يلومه الموجودين كلهم ويقنعوه بأنه المغلوب. وكان يوافق حينئذ على مضض كأنه مظلوم مهضوم.

وهكذا لعب مليم، فمع أنه كان حريفا لا بأس به، ويجيد (الدق) والاستدراج والتفنيط إلا أنه كان يعتمد، أكثر ما يعتمد، على الضجة التي يصنعها، والإهانة التي لايني عن توجيهها لخصمه، ومع هذا فقد كان الكل يعجبون لخارق عاداته، كان يكفي أن يضع أوراقه بين سبابته وإبهامه ليعرف كم زوجا ناقصا على أخذ الورق، وكان ماهرا في دس الأولاد والعشرة الطيبة والورق الثمين لتكون من

نصيبه. وكان يفعل هذا ويخفيه بزعيقه وغلبته، وهزة وسطه، وملايين الصلاة على النبي، ووحدوه، التي يجأر بها بين كل لحظة وأخرى.

ويا سلام لو جاءته بصرة.. كان يقف نصف وقوف ويزغرد أو أن كان متحمسا يستعجل فيصرخ، ثم يدب الورقة بكل ما يملك من قوة على الطرابيزة قائلا: بصره.. شاهدين..

وغالبا ما كان هذا يدفع الغضب إلى زميله، ويشوش تفكيره، فلا يستطيع أن يحسب ما فات من أوراق أو أن يخمن ما سيجيء، وحينئذ يضطرب ويلقي له بأي ورقة فإذا بها بصرة ثانية..

وكان حمودة أتعس خصم لمليم، فهو ليس صاحب كلام كثير، وإذا تكلم خرج كلامه سريعا موجزا كأنه طلقات مدفع سريع، وما أقرب ما يغضب، فيمط وجهه حتى يصبح طويلا كاللبانة الممدودة، وتتنافر عيناه، ثم تتوالى الطلقات من فمه، ويثور.. كان هذا حمودة على طبيعته، أما حين كان يلعب مع مليم فكان حينئذ لا يتكلم، ويكسو وجهه قناع متحفظ جامد، فقد كان يرى أنه بلعبه مع مليم انما ينزل عن مستواه، فهو ابن عيلة، ومليم هذا لا يعرف أحد كيف جاء إلى البلد ولا من أين جاء، فقد أصبحوا يوما ووجدوه بينهم، وما زال .كما كان يوم جاء صائعا هلفوتا، يملأ صفائح الماء للمحلات من حنفية المجلس البلدي، كل صفيحة بمليم، وينام حيثما اتفق، في القهوة حينا وفي الخرابة التي وراءها حيث يقوم السوق حينا آخر. صحيح أنه يقول أنه من الغربية، ويهدد كل يوم بترك البلدة والذهاب إلى أهله في بلاد العز، ولكنه لم ينفذ تهديده أبدا..

ثم ان حمودة متزوج وله بنتان أما هذا فلا زوجة له ولا ولد وإنما هو يلف تارة مع فيفة السبارسية وأخرى مع أم الشحات العجوزة صاحبة الغرزة.

وحمودة كان يرى نفسه متعلما فقد قضى عاما في المدرسة الالزامية، أما مليم فأين تعلم.. انه أمي جاهل لا يجيد إلا الرقص والدق على عنقه حتى يشخشخ.

من أجل هذا كان حمودة يعامله بحرص، وإذا ضايقه مليم بصراخة وجعجعته كان يلقي عليه نظرة بجانب وجهه الذي فيه عينه، ويكز على شفته ثم يسكت..

وعلى هذا اشتد الخلاف على العشرة، وكان المتفرجون يقولون ان حمودة هو الغالب، وكانوا يقولونها في قسوة ليست غريبة عليهم، فهم يخذلون المغلوب مهما كان المغلوب، ويشيع فيهم سرور وحشي وهم ينهشون كل ما يبذله الخاسر من محاولات يائسة للنيل من انتصار زميله. واستسلم مليم في النهاية بقحة غاضبة وهو يزأر ويموء غير موافق، وطالب أن يولوا الحساب واحدا له ذمة. واقترح الجالسون «الأستاذ» مصيلحي، ووافق اللاعبان وكل منهما يمدحه بكلمة. وانتشى مصيلحي وقد أسعده أن يرتضوه حكما وأمينا..

ودار اللعب..

كان مليم يمسك الأوراق متقاربة ويكاد يلصقها في صدره، ولا

يفتحها إلا بحساب. وكان يراقب حمودة في دقة وحذر وهو يفرق، ويفتش الورق في كل مرة (يقش) فيها حمودة ولا يطمئن إلا إذا رأى الولد بعينه.

وكان لا يكتفي بتفنيط حمودة فيمسك الدستة ويكاد يمزقها تفنيطا لولا زغرات المعلم التي توقف كل شيء عند حده.

وعلى النقيض، كان حمودة يمسك أوراقه مفرودة مبعثرة في غير اعتناء فيعطي مليما الفرصة لكي يعرف أوراقه بنظراته المختلسة المتلصصة. وكان لا يجاري مليما في شكوكه وظنونه السوداء، إنما كان مخه هو الذي يعمل فقط، فهو يحسب كم ثمانية تبقت، وهل انتهت السبعات أم بقيت الكومي، وساعات كان يغلبه طبعه فإذا بدا أن العشرة سيخسرها كان يتصنع الغباء، ويبدأ في العد من جديد، ويناكف ويغالط ولكن بغير ضجة أو ضوضاء.

وكسب مليم العشرة الثانية . .

وتنهد الجالسون في ارتياح، فمعنى هذا أن تستمر اللعبة.

وسكت حمودة فلم ينطق بحرف، ولم يهدأ مليم فقام ورقص هنيهة وهو يزعق بملء صوته ثم جلس.

وعلى ذلك أصبح كل منهم مغلوبا في عشرة، وبدأوا يلعبون عشرة أخرى ليتخلص أي منهم من غلبه ويصبح الثاني مغلوبا في العشرتين.

وهكذا بدأ التطبيق . .

ومعه بدأ الحماس، حماس المتفرجين، فالتطبيق يكون عادة أحمى من العشرات الأولى، ففيه سينجلي من يتحمل الحساب وحده.

وكذلك بدأ حماس اللاعبين، وإن كان يشوبه بعض الاطمئنان فعلى فرض أن أحدهما خسر العشرة، فله أن يلعب عشرتين «فرق»، ولا يستطيع الجالس أمامه أن يقوم إلا إذا غلبه مرتين متتاليتين. .

وهكذا، فالأمل ممدود، واللعبة بدأت تزهو، والليل طويل، ولا شيء يعدل ما هم فيه من لذة محمومة.

ودور في الثاني في الثالث راحت العشرة، وأصبح اللعب كله عند مليم، ولم يحزن، ولم يثر، وكذلك لم يضحك أو يرقص، بل اندفع على الفور يقول بصوت هادئ وفي عينيه ألف عفريت:

- الفرق. .

وابتسم حمودة ابتسامة صفراء وهو يقول بصوت فيه نخوة وعدل:

- اديك فرق زي مانتا عايز. . أصول لعب. . والـلا ايه يا اخوانه. . ماتقولوا. .

ويزوم الإخوان، وتتمشى بينهم موجة أمل وفرح، وتصبح الموجة عاصفة حين يقول مليم وهو يطلب المشروبات على الفرق:

- أنا مش عايز حاجة. . شوف الرجالة يشربوا ايه يا نبقة.

ولا يتخلف حمودة بل يسرع قائلا:

ـ هات لي كرسي دخان.. وهات للأستاذ حاجة.. والمعلم تعميره..

ويتهلل الجالسون المتفرجون وقد حانت لحظتهم، ويطلبون، وينتقون ويوصون، ويعرفون أن فائدة الفرجة قد هلت..

ويبدأ اللعب في عشرتي الفرق..

ولهذا تنظف المنضدة. ويزيح حمودة عبد الودود الراقد فوق كتفه، وتتخلخل الكراسي وتتباعد، ويتقارب بعضها، ويسود غير قليل من الهرج والمرج..

ويغمز المعلم لنبقة، ويأتي نبقة كالزوال، ويمد يده، ويلعب أصابعه دون أن ينطق حرفا..

ويدق مليم على زوره وهو يضحم ورقبته تشخشخ، ثم يخرج من فمه أربعة قروش..

ويبدأ اللعب وقد قل الضحك، وزاد التربص، واشتدت رقابة مليم على أصابع حمودة، بينما الأخير قد أدرك أن مليما يرى ورقه فحاول أن يحتفظ به مضموما مخفيا، وسرعان ماسها عن محاولاته فعادت أوراقه إلى ما كانت عليه..

* * *

كان الراديو قد انتهى، وعزف السلام ومضت بعد هذا ساعة،

وكان نبقة قد أتى بالمقاعد من الخارج ورصها صفوفا بجوار الحائط، ثم لم ضلف الباب الأربعة وأغلق ثلاثا منها. وكان الكلوب ما زال يوش ويهمس وإن كان نوره قد ضعف، وكان مليم وحمودة جالسين جلستهما، والورق مفروشا أمامهما، والمتفرجون قد تسرب النوم إليهم فقاموا ولم يبق إلا الأستاذ ماسك الحساب. وعند البنك كان المعلم يحاسب نبقة، وكانت هناك خمسة قروش ناقصة، وكان الصبي رابضا على الأرض عند قدمي المعلم مسندا ظهره إلى الحائط محاولا أن يلم في رأسه كل الطلبات «الشكك» التي أخرجها، وأن يجد بينها الخمسة قروش. وكان المعلم مريحا رأسه على البنك ووجهه إلى نبقة، ويكاد يغرز الماشة التي أمامه في عينيه، منتظرا نتيجة محاولاته على جمر خبيث..

والذي حدث أن نبقة لم يتذكر، وإنما فوجئ هو والمعلم بصوت مليم يوقظ القهوة من سكوتها، ويهتف كأنما زال عنه الطاعون:

- راحت..

- راحت ايه يا حلوف.

وقبل أن يتحرك المعلم كانت المنضدة قد قلبت، وبعثرت الكوتشينة على الأرض، وكانت يدا حمودة حول رقبة مليم ضاغطة عليها.

ولم يتحرك المعلم، وإنما حدق كالصقر وقال:

ـ بس يا بهيم أنت وهوه . .

وفي نفس واحد، وفي كلمات ملتهبة متلاحقة، قص كل منهما قصة تختلف عن الأخرى تماما، ولم ينس كل واحد منهما أن يستشهد بالأستاذ . .

ولم يقل المعلم شيئا إنما ظلت عيناه محدقتين في ثبات مريع. وسكت الاثنان، ثم انحنيا يجمعان الأوراق المبعثرة ويعيدان المنضدة والكراسي إلى حيثما كانت، وفي هدوء ساكت جلس مليم وقد أقر بغلبه، وكان معنى هذا إن اللعب قسم، ومعناه أيضا أن هناك «تطبيقاً» على كل اللعب، وأن هناك فرقا بعد التطبيق.

وأخيرا غض المعلم من بصره، وقال ولهجته ونظراته وبهتان ابتسامته تعني جميعها عكس ما يقول:

ـ ما كل واحد يشيل النص . . وننتهي يا سيادنا . .

وهب الاثنان في نفس واحد يرفضان. كان عند كل منهما الأمل أن يخرج من اللعب سليما، وأن يقضي السهرة ويسقي المشاهدين وأصحابه على جيب الآخر، ثم يتندر بانتصاره أمام الرواد أسبوعا أو أسبوعين . .

وقال المعلم وقد انفثأ غضبه وكأنه يسلم بالقضاء والقدر:

ـ على كيفكو . أنا معاكو يا سيادنا لآخر الطريق . . أما نشوف . .

ثم أكمل وكأنه كان ناسيا:

بس ايدكو عالتأمين..

وأخرج مليم كل ما معه وأحصاه فوجده ينقص عن التأمين نصف قرش، واحتار قليلا ثم أخرج علبة سجائره من عبه وأخذ منها السيجارتين الباقيتين وأكمل بهما التأمين.

أما حمودة فلم يكن قد بقي معه شيء فأخرج من جيبه مطواة لها سلاح طويل، وناولها للمعلم. وأخذها الرجل وتفحصها، وفتحها وقفلها وعين حمودة تبرق وهي ترقبه بينما مليم هاجع ساكن.

وقال المعلم وهو يهز المطواة في يده: ما تكفيش..

ـ ودين النبي أنا شاريها من طنطا بخمستاشر ساغ يا راجل حرام..

وقال المعلم مرة أخرى: ما تكفيش..

وخلع حمودة قميصه، واكتفى المعلم..

واستأنفا اللعب..

كان نور الكلوب قد شحب كثيرا، وكان «الأستاذ» ليس في عينيه ذرة نوم، وحماسه لم يفتر لا للعب، فما كان هناك لعب، إنما للعمى الذي أصاب اللاعبين فأصبح كل منهما يسرق سرقات ساذجة مكشوفة ومع ذلك لا يراها زميله، وكل منهما يرمي البصرة ولا

يلحظها الآخر أو يشعر بها. وكان «الأستاذ» عن كل هذا ساكتا لا يفتح فمه.

وانتهى المعلم من حساب نبقة وخصم القروش الخمسة من يوميته، وانتحى ركنا وجلس يلتهم العشاء الذي أحضرته له امرأته من المغرب بعد ما عزم بفتور على الجالسين. وبعد أن غسل يديه جلس ينتظر نهاية اللعبة ويسمع ما يدور. .

كان حمودة إذا سبق يشم نفسه ويقول:

ـ العب يابو صفايح يا نتن. . والنبي مانا مخليك تعرف وشك من أفاك. . والنبي لمتوبك عن مسكها. .

وكان مليم إذا اجتاز حمودة بأبناط قليلة يصرخ، ويزغزغ نفسه، ويقلد الديكة والمعيز والحمير، ولا يرد إلا بقوله:

ـ كله ماشي. . كله عال. . صلي على سيدك. . أهي دي تاكل دي. . ودي تروح مع دي. يا سلام يابو الملاليم. . والنبي حقيتك تبقى نص ريال. . بصرا. .

يقولها ملء فمه، وملء قوته، ولا يسكت إلا حين يناوله المعلم كلمتين كاللكمات.

ولما قاربت العشرة على الانتهاء جاء الرجل بنفسه وجلس يشهد ويراقب ويحكم.

وخسر مليم فأمسك بالمنضدة في قسوة وأربدت ملامحه وقال:

- إزاي . . إزاي . . احسبوا تاني . . مش معقول . . احسب ياسي أستاذ.

غير أن شهادة المعلم الواثقة الخافتة المطمئنة جعلت غير المعقول معقولا .

وبانت الهزيمة على مليم حين قال بصوت غليظ :

- العب الفرق يابن (. .) .

وكان الفرق يعني تأمينا جديدا. وقال مليم للمعلم بصوت منخفض متوهما أن حمودة لا يسمعه :

- خلي التأمين بأجرة الشهر الجاي . .

وهز المعلم رأسه قائلا :

- ما ينفعش . . هو حد عاش . .

وكأنما أهان رده مليما، فقال بكبرياء ضعيفة مجروحة :

- يكفيك الصفايح يا معلم . . خدهم . .

- الاثنين بستة ساغ . .

وبحلق فيه مليم ولم يقل شيئا، ولكنه مد يده يفرق. ولكي يخلص المعلم ذمته من الله أخرج من جيبه ثلاثة قروش هي كل ما تبقى بعد التأمين ووضعها أمام مليم.

وأشار المعلم لنبقة حتى يحضر الطلبات، ولكنه توقف في

منتصف إشارته وقد تذكر شيئا فقال وهو يبتسم:

ـ ايه رأيكو ياولاد.. فيه سمك ورز.. تاخذوا الفرق منه.

ووافقا في التو فقد كانا جائعين، وقد أصابهما غثيان من كثرة ما عبا من قهوة وشاي ودخان.

وأحضر نبقة بقايا عشاء المعلم..

وفي دقائق اختفت البقايا..

ومن جديد فنط حمودة الكوتشينة..

وبعد أن ألقى بتعليماته لنبقة، وهمس له أن لا يدعهما يلعبان إلا عشرتين فقط، خرج وقفل الباب وراءه.

* * *

قبل شروق الشمس، كان المعلم يأخذ طريقه إلى القهوة وهو يتمتم بختام صلاة الصبح، ويده ترفع ثوبه من خلفه، ويده الأخرى تحرك مسبحته الكهرمان في رزانة وخشوع.

وحين فتح الباب بمفتاحه كانت القهوة يسودها ظلام تخرقه خيوط من ضوء ما قبل الشروق التي تنفذ من الثقوب الكثيرة في نافذتيها، وفي حائطها نفسه. وكان هواؤها ثقيلا فيه دخان وله رائحة، وكان الكلوب مطفيا، والأرض عليها أكوام من تفل الشاي، وقشر السوداني، وورق المعسل الفارغ، وفيها برك صغيرة من ماء أسود حالك.

وكـان نبقة راقـدا يشخر على كنبـة طويلة وقـد تعرت سـاقـاه وتعلقت إحداهما في الهواء.

وعلى المنضدة الأبلكاش، كان هناك مليم وحمودة وقد ألصقـا رأسيهما ليستطيعا رؤية الأوراق على ضـوء اللمبة «أم سـاروخ» ولهيبها يتلاعب وينفث هبابه فيسود وجهيهما، ويلتهم ما شاء من شعر حمودة النافر في كل اتجاه. وكان الأستاذ هناك أيضا وقـد ربع يـديه ووضـع فوقهما رأسـه، مـائـلا إلى اليمين ليلمح أوراق حمـودة ثم مرتـدا إلى اليسار ليرى ما عند مليم.

ويبدو أن أحدا لم يحس بمقدمه، أو ان كانوا قد شعروا فـإنهم لم يبـالوا بـالقادم ولا بمن يكـون. ولكنهم أفاقـوا تمامـا على صـوت المعلم وقد عادت هامته إلى الارتفاع، وجحظت عينـاه على آخرهمـا في غضب واستنكار ودهشة:

ـ يا فتاح يا عليم.. هو أنا حقلبها قمار.. هو انتـو موظفين يـا ولاد الكلب يـا جعانين.. واد يـا مليم.. واد يـا حمـودة.. فـز أنت وهوه عمى في عينك منـك له.. أصـل العيب مش عليكو. العيب على الصايع دهـه..

وشـد المعلم نبقـة من رجله المعلقـة في الهـواء فـرمـاه على الأرض، وصحا الولد شاهقا هالعا، ولكنه لم يمهله فانهال عليه بكفه ومسبحته وبلغته وقدميه..

وهنـا فقط تحرك الثـلاثة الـذين كـانـوا واجمين مسمـرين على

مفاجأتهم الأولى وكأنهم ضبطوا متلبسين ولا أمل لهم في نجاة. كان أولهم الأستاذ الذي انسل كالنسمة مغادرا القهوة، وتبعه مليم وحمودة وكل منهما يجر نفسه جرا وعيناه مطفأتان محمرتان فيهما تعب مريض، وقد تجمعت نقط بيضاء جافة على أركانهما، ووجهه ممتقع أصفر يختلط فيه الإنهاك بهباب المصباح. وليس في رأسيهما إلا طوابير من العشرات الطيبة والأولاد ومئات البصرات. وامرأة حمودة وبناته وصفائح مليم والغربية بلده.

ومضيا على غير هدى في الضوء الرمادي الباهت.

المكنــة

كانت ادارة(مكنة) الطحين، مثل كسوف القمر، ووهج البرق، احدى الطلاسم التي لا يفهمها أحد، ومع هذا فالناس كانوا ينتظرون ادارتها بصبر فارغ، ويحسبون ليوم الطحين ألف حساب، ويحمدون الله أن هيأ لهم مكنة قريبة من البلدة.

ولم يكن أحد يدري متى بنيت ولا كيف أحضرت عدتها مع أن الشيخ الهادي العجوز يزعم أنه رأى بعينه(الونش) الذي حملها، ولكن الجيل الحديث لا يطرق باله هذا الزعم ولا يصدقه فمن يومه وهو يراها هكذا قائمة ثابتة كالجميزة الطاعنة، ترسل دقاتها مثل القلب النابض بنغم منتظم رتيب.

وكان الناس حين يمرون فوق السكة الضيقة المؤدية الى الطريق الزراعي، ويرون باب المكنة مفتوحا، وشبح الاوسطى محمد يروح ويجيء داخلها يدركون من فورهم انها سرعان ما تدور، فيلقي كل مستعجل نظرة خاطفة الى الباب، ويتلكأ من ليس وراءه عمل، وقد يجلس البعض فوق كومة السباخ القريبة. يحدث هذا من بعيد لبعيد، ولا يجرؤ أحد على الاقتراب، حتى الأولاد الذين كان الطفل

منهم مستعدا أن يتنازل عن الرغيف الذي في يده أو الجلباب الذي يرتديه على اللحم ليستطيع مشاهدة ما يدور في الغرفة المظلمة المصنوعة من الصاج. . حتى هؤلاء الصغار كانوا غير راغبين في المجازفة بأعمارهم والاقتراب، فالكل يعلم أن الاوسطى محمد هناك وانه الآن في أتعس حالاته، ولو وضع انسان عود كبريت على طاقة أنفه في هذا الوقت لاشتعل العود.

والذي يرى الاوسطى محمد في غيظه وحنقه يعجب حين يشاهده يدخل المكنة في الصباح، يربت على العدة القديمة المهروشة المتآكلة بيده ويطمئن الى سلامتها، والى أن ذارت الدقيق الناعم لم تتسرب من حجرة الطحين ولم تفسد خضرة دهانها الذي لم يبلى. ويدور الأوسطى محمد حولها، ويفرغ وعاء الزيت، ويعمر الوابور ثم يشعله، ويضعه في مكانه من العدة حتى تسخن(طاستها)، ولا يتوقف أثناء هذا عن دق أشياء بداخلها، وتلمس أشياء، وتجربة مسالك ومقابض حتى يرى بينه وبين نفسه أن الوقت قد حان، فيضع رجله في(الحدافة) الكبيرة الضخمة، ويستند بذراعيه القويتين الى الحائط، ثم يستعين بالسيد البدوي ويدفع العجلة.

وقد تقوم(المكنة) في ساعة، وقد لا تقوم، فيسب لها الاخضرين. وقد تعمل مرة، ويتصاعد صوتها الحبيب الى نفسه من المدخنة الحديدية ولكنه لا يلبث أن يتلاحق وقعه، ويهبط حتى يموت ليعود الى اشعال الوابور وتسخين الطاسة.

ونـادرا ما كـانت تقوم قبـل العصر بعـد أن يكون الاوسـطى قد هدهد عليها وهو حانق، واستعطفها وهو يكاد ينفجر، وتحايل عليها، وداعب(البستم) ونغمش «الشناير» بأصابعه.

وحين يتم قيـامها كـان الاوسطى ينتـظر قليـلا ليـطمئن أنهـا لن تفعلها معه وتقف، وان العادم تمام، و«البوبينات» شغالة بالمضبوط.

وكان حينئذ ينفض يده منها، ويمسحها بقطعـة«الاصطبـة» وهو يقول بكل الحقد الرؤوف الذي في قلبه عليها:

ـ الله يلعن أبو أصحابك..

وكان وهو يستدير لا يستطيع اخفاء شبح ابتسامة راضية يداريها عن المكنة وهو يخرج. وكان يغادر الباب المـظلـم وعليه غبـرة وزيت وشحم، وهو لا يني عن مسح الجاز والعرق الذي في وجهه وذراعيـه وصدره بقطعة«الاصطبة» ثم يضعها في حرص بجوار الحائط الصاج.

ويمشي إلى الخليـج القريب حيث يغمـر كل مـا هو بـائن من جسده بـالتراب ويـظل يـدعكـه حتى يتحـول إلى طين أسـود يغسله فينـداح الزيت والجاز على سطح الماء في حلقات.

ويعـود بعد هـذا الى جلستـه المختـارة تحت شجـرة الخـروع بجوار حائط المكنة وفي مواجهة بابها، وتكون الادوات جاهزة فيتربع ويشعـل النار في الاصطبة من الـولاعة النحـاس التي صنعهـا بنفسه. ويغلي الماء في الكوز الـذي له يـد طويلة من السلك المبـروم ويظل يغلي الشاي حتى يستوي ويخرط مرات.

ولا يستطيع انسان أن يحدثه قبل أن يرتشف في بطء حكيم وفي خبرة الكييف القطرات الأولى من الشاي ذي الكيان الأسود.

وكان الناس يقولون ان في شايه رائحة الجاز، وانه يلقط من الزيت الذي لا تخلو منه يده، ولكن كل من شاركه مرة كان يؤكد ان الجاز، ان كان هناك جاز، يضفي على الشاي نكهة ذات مزاج لذيذ، ويجعل له مذاق العنبر.

وكان الاوسطى محمد لا يتحدث كثيرا، واذا تكلم فإنما لينفض متاعبه، ويروي كيف حرنت(مكنة) الطحين، أو كيف انزلق السير عن الطارة، أو ضبط ذات مرة امرأة من حاملات المقاطف تحاول دخول غرفة العدة، وهم ببعثرة ما تحمله لولا تدخل الناس.

وكان اذا انحرف الحديث وخرج عن المكنة، ينطق بكلمة أو كلمتين، وكان كلامه في المليان فهو لا يعجبه الحال المائع، ولا الثرثرة التي لا فائدة منها.

وكان مستمعوه، القليلون، وهم دائما قليلون، ينظرون الى وجهه الذي احترق الجزء الأسفل منه وبقي الجلد مكانه سميكا لا ينبت فيه شعر ذقنه التي كثيرا ما يتركها تنبت وتترعرع، ولا تفلت العيون شاربه الذي لا هو بالكثيف أو الخفيف وانما منفوشة نهاياته ومتفرقة، ذائبة في لحيته النامية.

كان مستمعوه ينظرون اليه ثم يهزون رؤوسهم موافقين وقانعين بالسكوت فإنهم يعرفون أن لا نتيجة من وراء جداله، وانه اذا قال

شيئا لا يتحول عنه ولو أعطوه مال قارون.

ولم تكن لهجته تتغير حتى حين يكلم الحج طه، والحج كان يستأجر المكنة من صاحبها الذي له في البندر بيوت وماكينات ولم يكن الحج أول مستأجر ولا صاحبها أو صاحب. ففي خلال أعوام كثيرة تقلبت من يد الى يد، وانتقلت من بائع الى مشتر ورهنت مرات وفك الرهن، والاوسطى محمد يتنقل معها ويلف، وليس بينه وبين مستأجرها كلام أو سلام، فالحج جالس في غرفة الطحين يزن المقاطف والاجولة على (الطبلية)، ويحاول مغالطة الزبائن في كيلة، أو نصف كيلة، ويحاول الزبائن الجور عليه، واستعطافه واستجداءه اذا لم ينفع الجور أو يجدي..

والاوسطى محمد ليس له داع بما يحدث فالعدة هي كل دنياه. لم يكن له زوجة، فقد ماتت من أمد طويل بعد أن خلفت له شحاته. وما تزوج بعدها أو فكر في الزواج، وانما علم شحاته، وكان يطمع أن يرثه في صنعته، ولكن الولد خاب وفسد، وبعد أن رأى الويل في تعليمه أصول الكار ذهب واشتغل صبيا على عربة نقل في البندر، وكثيرا ما كان يبيت هناك فلا يراه أبوه أو يسمع عنه.

ولم يكن الاوسطى محمد ساخطا على ابنه أو غاضبا منه، وكان اذا جاءت سيرته أو حكى واحد انه رآه، يصمت وتتعمق ملامحه ثم يقول:

ـ خليه يشوف اللي شفته..

وأهل البلد كلهم كانوا يعرفون الاوسطى ويسلمون عليه ويحيونه، الا أنه لم يكن يعرف منهم، مع طول اقامته بينهم، الا القليلين. ولم يكنن يسهر اذا عن له السهر الا مع عائلة الهواشمة التي تصنع الاقفاص، فكان يضمهم سطح منزلهم، ويجلسون بين أكوام الحطب، وتدور كراسي الدخان الحاف، ثم يتركهم الاوسطى ويذهب لينام في بيته ذي الغرفة الواحدة التي لها طاقة صغيرة عالية، وكان قد استأجر البيت يوم جاء بخمسة قروش في الشهر من نعسة أم هاشم. وماتت نعسة وتركت له بنتها التي تذهب اليه كلما قرصت الحاجة زوجها، وعلى كل ثدي من أثدائها ذباب وطفل معلق، تطالبه بالقرشين.

وكان يدفع لها على مضض، ووجهه معقود، فأجره كان ضئيلا، ومع هذا فما طالب بزيادة أبدا، فقد كان يضن بكرامته أن تخدش اذا رفض الحج طلبه، وكان قانعا بالمكنة، واضعا فيها كل همه، حتى قطعة الأرض الفضاء الصغيرة التي أمامها ظل يرشها ويرويها ويزرعها حتى أصبحت جنة، وحجرة المكنة كانت كالعروسة، وكان يضن بدنياه المحدودة أن يرشقها واحد بنظرة أو يستحل لنفسه التطلع اليها أو الجلوس فيها.

وكان الناس يعزون انطواءه على نفسه ومكنته الى انه مصاب بداء الكبر ولهذا فأنفه دائما في السماء، بل كان يذهب الذاهبون الى انه مريض بالسل، وأنه السبب في اعتداده وفي وجهه الذي لا ينفك.

وذات يوم حدث شيء لم يتوقعه أحد. .

فقد فاجأ الاوسطى محمد ابن الحج طه داخل غرفة العدة وهو يحاول أن يلمس الحدافة الضخمة الدائرة. ورأى الاوسطى أن السير يكاد يلهف ثوبه ويقطعه، فعلق الولد من أذنه وهو يفركها في غيظ بين أصابعه، ثم سحبه الى الخارج كالعنزة العاصية.

وذهب الولد باكيا منتحبا الى أبيه، وفار دم الرجل وجاء مسرعا الى حيث كان يجلس الاوسطى تحت الخروعة يصنع الشاي. وقال له بوجه أصفر عليه قطرات صغيرة من العرق، وبعينين زائغتين، وشفاه مرتجفة:

- يا أوسطى محمد. . شوفلك شغلة تانية. .

ولم يتحرك الاوسطى أو يثور، وانما ظل ممسكا بالكوز، رافعا بصره الى الحج، محدقا فيه، ثم قال بعد برهة وبعد أن جاهد ليبتسم حتى أعوج شاربه:

- بس كده. . حاضر. .

وشرب شايه على مهله، ثم قام وأوقف المكنة، ولم أشياءه، ومضى. .

خرج الاوسطى محمد من هنا، وبدأ الناس يتقاطرون على الحج طه الذي كان لا يزال يرتعش، ويحاولون ارجاعه عن قراره. واستمرت المحاولات دون فائدة، ودون أن يلين قلب الرجل أو يتحرك له ضمير. وانقلب الناس الى الاوسطى محمد يلحون عليه أن

يستسمح الحج، ولكنه كان يرد عليهم وهو ساهم في تصميم أكيد:

ـ والنبي لما أحلق فردة من شنبي وأسيب فردة.

ويئس الناس الطيبون من محاولاتهم، فتركوا ما يحدث يحدث وأمرهم الى الله.

وتناقش أهل البلدة كثيرا فيما كان وانتشرت الاقاويل تلوم الحج وتؤنبه، وتقول انه لو لف الأرض سبع مرات فلن يجد أحدا مثل الاوسطى محمد. وكان الاوسطى يسمع الكلام ويبتسم فهو أدرى منهم بقيمته، فما كان انسان يعرف مثله أسرار المكنة، فقد رباها على يده، وعرف متى تعصي وكيف تلين، وما هي الدفعة التي تديرها والضغطة التي تلف حدافتها ثم الغمزة التي توقفها. كان يعرفها أكثر من نفسه ويعرف مزاجها وضعفها مثلما يعرف مزاجه وضعفه. واثقاً أن الحج سيأتيه حالاً وهو صاغر ويسوق عليه الناس كي يرجع.

في ذلك اليوم وقفت المكنة طول النهار، وفي اليوم التالي، رجع الحج من البندر وفي جعبته أوسطى آخر قضى ساعات كثيرة، يلهث ويعرق ويستريح، وحين غابت الشمس ضرب الجنيه الذي أخذه بعد مساومة في جيبه وانصرف دون أن يتكتك للمكنة صوت.

وطالت السهرة على سطح الهواشمة، وامتد الحديث عن خيبة الاوسطى الجديد.

ولم ييأس الحج فغاب عن البلدة قليلا ثم عاد ومعه ثلاثة من

الأسطوات. وهلكت امرأته وهي تعد لهم الطعام والشاي كل يوم وهم يتخبطون ويختلفون.

وكلما طال تخبطهم كان الاوسطى محمد يسعد غاية ما تكون السعادة حتى انه ما كان ينتهي ضحكه، وحتى أصبح الناس يأنسون اليه فيكلمهم، ويهزر معهم، ويلكزهم أحيانا.

وكان انفراج وجهه بعد طول تكشير وتقطيب بالنسبة اليهم فاكهة في غير أوانها، فذهب ما كانوا يشعرون به من رهبة تجاهه، وأحسوا انه انسان مثلهم من دم ولحم، وانه ليس مريضا أو متكبراً، وإنما طبعه حلو، ودعابته رائقة.

ومع أن الناس وحشهم صوت المكنة، وانقطع عنهم دقها القوي المكتوم، ولم يعد هناك طحين أو بياض أرز، وفرغ الفضاء الذي حولها من الحمير والجمال، وانتهى زعيق الرجال أمامها وزحمة النساء، وراح الناس يقترضون من بعضهم الدقيق. . مع كل هذا الا انهم كانوا مع الاوسطى محمد، وكانوا على أتم استعداد لقضاء أيام كثيرة دون أرز أو طحين.

وكانوا يسخرون بالحج وبالاسطوات الذين يأتي بهم ويتنبأون معه بفشلهم وبأنهم سيرجعون كما جاءوا ووجوههم مثل قفاهم.

وأثناء هذا لم يقطع الناس الطيبون محاولاتهم الملحة للصلح، ولكن الحج أبى الا أن ينفذ كلمته ولو صار فيها ضرب نار. وحين

زهق ركب القطار إلى مصر وعاد في ذات اليوم ومعـه أوسطى يـرتدي عفريتة زرقاء.

وتهامس الناس وهم ينـظرون الى صغر سنـه، وذقنه الملسـاء، وبشرته التي ليس فيها خشونة ثم تنبأوا له بالفشل الذي لحق بسابقيه.

وكان الاوسطى محمد ساعتها جالسا على جسر الترعة يتحدث الى الناس، ويتحدث الناس اليه، ويشرق الحديث ويغرب ولا محور لـه الا الاوسطى الـذي جاء من مصـر، والذي يـرتدي عفـريتـة آخـر الزمان.

وكان الاوسطى محمد يؤكد للحاضرين أن هذا الصبي لو حاول ادارتها فستنفضه وتلقيه في الخليج.

وكان يتحدث في ثقة وايمان كما لو كان يتكلم عن نفسه.

وعلى حين فجأة انبعثت تكتكة عنيفة ثم انقطعت.

* * *

وانتهى الحـديث في التو، وصمت المـوجودون وكـأن ألسنتهم ربطت الى أوتاد. وتحـولت الانظار كلهـا الى الأوسطى محمـد الذي كان صامتا، وفي صمته دهشة غير قليلة وفي أعماقه يغلي قلق استحوذ عليه ولم يغب عن الانظار. ورغم أن ثقته في نفسه وفي المكنة كانت لا حد لها الا أن الفار بدأ يلعب في عبه، فقام دون أن ينطق بحرف أو يسأله الحاضرون أين هو ذاهب. وتمشى على الجسر واضعاً يديه خلف ظهـره، ورأسه مـائلة على صدره، وعقله يتـأرجـح بين الشـك واليقين.

وقادته قدماه غصبا عنه الى المكنة. وجلس على حافة المصلي القريبة وعيناه مصوبتـان إلى بابهـا، وأذنه تتسمـع دوي الوابـور، وهو يسخنها، وثمة ابتسامة واثقة غير مصدقة حائرة على شفتيه. .

واتسعت ابتسامته وهو يشاهد الاوسطى الصغير يستعين بالحـج على ادارة الحدافة. ولكن البسمة غاضت تمـاما من وجهـه حين رأى البستم الملعـون يلف ويـدور ولا يقف، والحـدافـة قـد انـطلقت من نفسها كالمجنونة وقد أخفت السرعة هيكلها وابتلعتـه، بينما المـدخنة اندفعت تنفث حلقات الدخان في نظام لا تشوبه شائبة.

ولم يحتمل الاوسطى محمد، ففر من جلسته واقفا وهو يكذب مـا يراه ومـا يسمعه وشيء لاسـع ينهش صدره وهـو يلمح الاوسـطى الصبي يغـادر الحجـرة وعلى سيمـاه بشـر كثيـر، والنـاس يتجمعـون حوله، ويسلمـون عليه، ويـرحبون بـه، ويدخـل بعضهم يتفرج على المكنة الدائرة ويهنىء الحج ويشد على يده.

وقف الاوسطى محمد وحيدا مزروعا في مكانه، والناس رائحة غادية من أمامه لا يلحظونه ولا يلحظهم. وقبل أن يغادر مكانـه انتزع من صدره تنهدة حارقة طويلة، وغمغم باشمئزاز، وكأنـه الزوج يضبط امرأته متلبسة بخيانته:

ـ الله يلعن أبو صحابك. .

ثم بصق ملء فمه.

شغلانة

كان عبده في حاجة الى قرشين..

ولم تكن هذه أول مرة يحتاج فيها عبده، فقد أمضى عمره باحثاً عن القرشين..

كان في الأصل طباخا، تعلم على يد الحاج فايد الشامي وأتقن الصنعة، حتى أن طبق(الدمعة) كان حين يخرج من يده محبوكا محوجا يحظى بإعجاب المعلم نفسه.

ولكن الحال لا تدوم على وتيرة واحدة، وهكذا اشتغل عبده صبيا في الورشة التي بجوار المطعم ثم طرده صاحب الورشة فعمل بوابا فترة من الزمن وأشرف وحده على عمارة من عشرة طوابق، ثم أسلمه عوده الفارغ وساعده القوي الى عربات النقل فأصبح شيالا حتى أصيب بالفتق.

وعبده كان له صوت، وصوته، لم يكن جميلا، ولكنه كان قويا طازجا، وحين كان يبيع الخيار والشمام والعنب كان يلفت الشارع كله الى بضاعته بنداء واحد

وقد عمل عبده ذات مرة سمسارا، وكان يجوب الأزقة ليل نهار بحثا عن حجرة خالية، وكان يجدها، ويجد معها العشرة قروش، ثم

استطاع أن ينفذ الى كهنوت السماسرة، فيقبض القروش العشرة بلباقة من الزبون ولا يجوب الأزقة أو يجد الحجرة. .

وعبده في شغل القهاوي عجب، وكان أيام عزه يقف في أرضية القهوة وحده ليلة العيد فلا يؤخر طلبا أو يكسر كوبا.

وكانت له زوجة، يسكن واياها حجرة وحولهما الجيران. ورغم المعارك الصغيرة التي كانت تنشب بين نسائهم وامرأته، فقد كانوا على العموم أناسا طيبين، يواسونه ويقرضونه اذا لم يعمل ويدعون له وأحيانا يقترضون منه اذا وجد العمل، والدنيا ماضية به وبهم تبيع لهم العيش بالميزان، وتنقص كل يوم في الميزان، وانما هي الدنيا والسلام.

كان عبده في حاجة الى قرشين. .

وهذه المرة كانت حاجته قد طالت، ولم يكن هناك أمل في نهايتها، ومعارفه القدامى حفيت قدماه وهو يلف عليهم ويدور، ويعود من لفه ودورانه بنفس وجهه المقطب العابس ويديه الخاويتين ويدق الباب فتفتح امرأته فلا يحييها، ولا تحييه، وينام على الحصيرة، ويسد أذنيه عن لغط نفيسة ودوشتها وهي تجره جرا الى الذي يحدث كل يوم، والى تهديد صاحب البيت، وأنصاف الارغفة الحاف وأرباعها التي يتصدق بها الجيران، والعيد القادم، وأقة الخوخ التي نفسها فيها وتتوحم عليها، وابنته التي ماتت، وابنه الذي في الطريق والخوخة التي سيولد بها.

وطالت هذه المرة على غير عادتها، وعلا صوت نفيسة حتى لم يعـد يحتمله، وأصبح لا يـطيق النـظر الى وجـوه جيـرانـه ورءوسهم المهتـزة الآسفة على شبـابه وقلة بختـه، أو تمنياتهم التي لا يمضغهـا تحت أسنانه أو يستر بها جسده نفيسة.

وفي يوم وعبده عائد، قالت له نفيسة أن طلبة قد أرسل له.

وأحس عبده بفرحـة فإن أي سؤال في مثـل حالـه يعني الأمل، وليكن أملا كاذبا أنه أحسن من لا شيء على أية حال.

وفي التـو ذهب الى طلبة، وكـان سيد القـاطنين في البيت بـلا جدال، فقد كان يعمل تمورجيا في المستشفى، وكان كذلـك أحدث القاطنين.

ورحب به طلبة، وابتسم عبده لترحيبه في خجل. وما كاد طلبة يسأل عن الحال حتى قص عبده الحكاية، وكان عبده يشعر بـالراحـة وهـو يقصهـا ويتحـدث عن أيـام مجـده وذكـريـاتـه، كـان اذا أحس بالنظرات تقشعر وهي تعبر جلبابه المهلهل لا يستريح حتى يتكلم عن حرفه، وعن الناس الذين عرفهم وعمل معهم، وكـأنه يـداري خروق جلبابه، وحين يتكلم عما فات كان صوته يمتلىء ونفسه تكبـر ويشعر بأنه كان رجلا، ثم يخفت حديثه وتتبـرم لهجته، ويسخط على الـدنيا والـزمان والنـاس، ويتشوق الى الخيـر الذي ضـاع ويشمئز من الشـر الذي ملأ القلوب. ثم كانت كلماته تصغر، وصوته يضعف وابتسـامة خجلة تأخذ طـريقها الى وجهـه، وهو يتحـدث الى جليسه عمـا صار

اليه، ويسأله، بعد أن يفرغ كل الضعف الذي في صوته، وتنتهي كل الاستكانة التي يهمس بها، يسأله ان كان يعرف له الطريق الى عمل.

واستمع طلبة، وقاطعه كثيرا وهو يستمع ثم أخبره في النهاية بأن هناك عملا ينتظره.

ورجع عبده وكأن ليلة القدر فتحت له.

وحدث نفيسة كثيرا عن طلبة وترحيبه وطيبته، وأمرها أن تذهب في الغد بعدما ترجع من عند الطلبة الذين تغسل لهم الى امرأته وتساعدها، وتسليها..

ومن الفجر كان عبده مستيقظا، وقبل شروق الشمس كان هو وطلبة أمام قسم نقل الدم في المستشفى.. وانتظر. وجاء أناس مثله وانتظروا، وفتح الباب في العاشرة.. ودخلوا.. وأخذ عبده بالمكان الذي كله سكون وصمت.. ونفذت الى أنفه رائحة كالفنيك تملأ الجو، وجعلت معدته تطفو حتى تصل الى حلقه. وأوقفوهم طابورا وسألوه وهو كالذاهل واستجوبوه وعرفوا اسم أمه وأبيه، وكيف مات خاله وعمه، وطالبوه بصورة وبحث عبده فلم يجد الا صورته الملصقة على تحقيق الشخصية الذي يحمله دائما خوفا من الطوارىء والعساكر.

ودفعوا ابرة في وريده، وأخذوا منه ملء زجاجة من الدم الأحمر. وقالوا: بعد اسبوع.

وخلال الأسبوع كان عبده لا يزال في حاجة الى القرشين، ولا

يزال غاديا رائحا يبحث، وأنصاف الارغفة وأرباعها كادت تفرغ، بل فرغت. وفي الميعاد تماما كان أمام القسم. وفي العاشرة فتح الباب. وقالوا للذي قبله في الطابور: لا . .

وحين تصلب الرجل في مكانه أزاحوه وهم يقولون؛ دمك فاسد . .

وخفق قلب عبده . .

ولكنه كف عن الخفقان حين قالوا له: أيوه . .

ولما تثاقل في مكانه أزاحوه وهم يقولون: حناخد منك . . النهاردة . .

وكاد عبده يركب رأسه، ويمضي في الطابور مهللا مقهقها كما كان يفعل في عز شبابه، ولكنه كان جائعا، ففرح على مضض وانتظر . .

وبعد قليل نادوا عليه، وأدخلوا ذراعه في ثقب لا يسع الا ذراعه. وخاف عبده ولكنه اطمأن حين وجد على يمينه واحدا وعلى شماله آخر. وأحس بذراعه كلها يغمرها شيء بارد وكأنها وضعت في لوح من الثلج. واندست فيها بعد برهة مسلة، وتأوه، ثم لم يعد شيء يضنيه فسكت. وأتاح له سكوته أن يتفرج على المكان، وأن يرفع رأسه ويشب ويختلس النظرات خلال الزجاج الفاصل فيلمح فتيات كالورد يرحن ويجئن في صمت وليس لهن ضب امرأته، ولا ثوبها الاسود، وأدرك عبده بعد برهة انهم ليسوا كلهم فتيات، وانما

بينهن بعض الرجال ولكن وجوههم هي الأخرى كانت بيضاء كالقطن المندوف ولامعة كالحرير. وراح عبده يحسد ذراعه والرجال الذين في الداخل، ويتمنى أن تطول ذراعه وتطول حتى بدأ حتى تصل أصابعه الى قناع واحدة من الفتيات فيشده، ويقرص وجهها الحلو.

واستمر عبده يشب ويتأمل الوجوه المقنعة ويخلط بين الرجال والفتيات حتى بدأ الزجاج الفاصل يضيء وينطفىء أمام عينيه، والوجوه الحلوة تغطيها الأقنعة ثم تنحسر عنها. .

وأحس أنه تعب. .

وشعر بذراعه تبرد، ثم شعر بها تسخن وتبرد. .

وسأل الذي عن يمينه: هم حياخدوا قد ايه. .

وأجاب الآخر وهو يغمغم وكأنما ينوي ليتوضأ: أنا عارف. . بيقولوا نص لتر. .

وانتهى الحديث. .

ودقوا على ذراعه وهم يقولون: خلاص. .

ومشى عبده وهو غير ثابت وسأل عن القرشين. . وقالوا له انتظر. . .

وانتظر. . .

ودفعوا له جنيها وفوقه ثلاثون قرشا. وخصموا الدمغة. . وكانوا كراما فأفطروه. . .

وقبل أن يرجع الى البيت مر على الجزار فأخذ رطل اللحمة، وفات على الخضري فاشترى البطاطس، ودق باب الحجرة وهو يبتسم . .

وحين فتحت نفيسة ووجدته محملا ردت تحيته، وحملت عنه ما في يده وقد انتابتها خفة، وكادت ـ لولا الحياء ـ تقول انها تحبه وتموت فيه.

وطبخت نفيسه، وشاعت رائحة(التقلية) في الحجرة، وتسربت الى أرجاء البيت، وشمشم الجيران، وابتسم بعضهم، وتحسر آخرون وهم واجمون.

وأكل عبد اللطيف حتى ملأ بطنه، ثم تهور واشترى بطيخة . .

وفي الليل لم يسمع لامرأته زعيق، ولا نصبت الزفة، وانما دار بينهم همس كحديث الحبايب . .

وانتهى الاسبوع، وقبل أن ينتهي كان عبده قد صرف كل ما أخذ . .

وفي الميعاد ذهب الى المستشفى، ومد ذراعه، وأخذوا منه ما أخذوا ، وأعطوه ما أعطوه، ولم ينسوا فأطعموه.

وارتاح عبده الى العمل الجديد فليس فيه امارة معلم أو شخطة أوسطى ولا تمحيكة عسكري، وليس عليه الا أن يذهب كل اسبوع الى هذا المكان النظيف الذي كله أبيض في أبيض، ويعطيهم نصف لتر من دمه، ويناولونه الثمن، وتدبر امرأته عيشهم بما يأخذه، ويكون

جسده قد دبر الدم، حتى اذا ما انتهى الاسبوع يعود ليعطيهم الدم ويناولونه النقود.

كان عمله(ألسطة)، وحساده كثيرين..

وكانت حال امرأته معه على كف عفريت، فحين يقبل وفي يده ما في يده تبسم له وتكاد تزغرد، وحين ينام طيلة الاسبوع لا تدعه ينام وانما تحدثه عن رجليه الرفيعتين، ووجهه الذي يصفر، وتقص عليه في كلمات مبتورة عابرة، ما تقوله نساء(الحتة) عنه، وكيف عايرتها حميدة حين تشاجرت معها بزوجها الذي يبيع دمه. وأحيانا كانت تهدهد عليه وتشفق وكأنها أمه، وتغطيه في الليل وتثقل في الغطاء ولا تجعله يتحرك من مكانه أثناء النهار وانما دائما بين يديه تلبي كل اشاراته وكأنه طفل مريض.

وكان عبده يلمس هذا، ويشعر بالمرارة وهو يلمسه، ولكن ماذا يهم..

صحيح انه كلما أخذوا منه الدم يدوخ وينام بجوار حائط المستشفى حتى العصر.

وصحيح أن الناس تتكلم، وكلام الناس كثير، ولكن المهم أن وابورهم والع، وايجارهم مدفوع، والذي لا يعجبه هذا فليشرب من أوسع بحر.

غير أن عبده ذهب يوما الى المستشفى، ولم يجلسوه أمام الثقب وانما نادوا عليه وقالوا له: لا..

ـ ليه؟ . .

ـ . . أنيميا . .

ـ أنمية ايه؟ . .

ـ . . فقر دم . .

ـ وماله؟ . .

ـ . . ما ينفعشي . .

ـ وبعدين؟ . .

ـ . . لما تقوى . .

ـ أنا قوي أهه . . أهد الحيطة . .

ـ هبوط في القلب . .

ـ مالكوش دعوة . .

ـ . . تموت . .

ـ أنا راضي . .

ـ . . صحتك . . الانسانية . .

ـ ودي . انسانية يا جدعان؟! . .

ـ مش ممكن . .

٩٠٠

ـ يعني ما فيش فايده؟ . .

ـ . . ولا عايدة . .

وفي هذا اليوم نسوا فلم يطعموه . .

ومن جديد أصبح عبده في حاجة الى قرشين . .

مظلوم

كان لنا صاحب اسمه عبد المجيد، وكنا لا نذكره إلا ونذكر الحشيش، فهو من رواده الأول القلائل، وله فيه صولات وجولات، وله معه تاريخ حافل طويل.

وكنا لا نراه إلا (مسطولاً) ونكون واثقين حينئذ أن في جيبه بقية.

ومرت علينا أيام كان لا حديث لنا فيها الا عن عبد المجيد ونوادره. كانت كل كلمة من كلماته نكتة، وكل رد من ردوده قفشه، وكان لا يجيء ذكره الا ويحكي كل منا عشرات مما حدث له مع عبد المجيد، وعشرات مما حدث لعبد المجيد.

وكان عبد المجيد يعمل طبيبا في مستشفى كبير، والناس يعتقدون أن الطبيب لا بد أن يكون قصيرا، سمينا له كرش وعنق غليظ، وعلى عينيه نظارات، وفوق ملامحه بسمات طيبات . .

ولكن عبد المجيد كان على عكس هذا، فهو طويل رفيع، نحيف، شاحب الوجنات.

ولا أريد الاسترسال في الحديث عن عبد المجيد، فالحديث عنه طويل، وسيرته كسيرة الحيات اذا وجدت لها بداية فلن تستطيع العثور لها أبدا على نهاية.

المهم انه في ليلة كان عليه نوبتجية الاستقبال، وكان لا بد ان يسهر الليلة كلها استعدادا لما تتمخض عنه المدينة من أحداث. وكان لا يمكن أن تمر مناسبة كهذه دون أن يستعد لها ويبالغ في الاستعداد. ودخن عبد المجيد حتى أصبحت عيونه ليست حمراء تماما ولا هي بيضاء، انما لها وردية البين بين. وجلس على مكتبه في حجرة الاستقبال، وبدأت أسراب الموجوعين والممغوصين تفد اليه صارخة.

وفي أعقاب هذه الاسراب جاءته احدى المعضلات، اذ دخل ضابط ومعه اثنان من العساكر يحرسان رجلا قصيرا محنيا ذا خدود غائرة. ووضع الضابط أوراقا كثيرة على مكتب الطبيب وقص عليه الحكاية بالاختصار، وقال له انهم هاجموا(غرزة) ففر كل من فيها واستطاعوا امساك هذا الرجل، وحين فتشوه عثروا معه على قطعة حشيش، وفيما هم مشغولون بمتابعة الهاربين غافلهم وابتلعها، وانه حاضر اليه ليعمل للرجل غسيلا للمعدة ويستخرج ما فيها من حشيش..

وأعجبت المعضلة صاحبنا عبد المجيد، وقد وجد فيها لذة، ولحلها جدة تختلف كل الاختلاف عما جرت به الليلة من أولها الطويل..

ونظر الى الرجل الواقف والحديد في يديه، وسأله بلهجة خبير، وبحنكة ناب أزرق:

ـ انت يا واد بلعتها والا رميتها..

وأجاب الرجل في ذلة ذليلة، وضعف ضعيف، وبراءة دونها براءة الأطفال:

ـ أنا يا بيه؟!.. بلعت ايه؟!.. والله معرف حتى شكله! والنبي مظلوم!.. يا ناس مظلوم!..

ونظر له عبد المجيد وقد كبر في عينيه وابتسم وكأنما يقول له:

ـ لا والله جدع يا واد!.. يحميك!..

ولم يكفه التشجيع الصامت فأصر على أن يفك الحديد من يديه. وبعد مناقشة قصيرة اقتنع الضابط ذو الوجه الأحمر والشارب الاصفر والعيون الزرق..

والمفروض أن الطبيب هو الذي يقوم بعملية غسيل المعدة، ولكنها ليست عملية أو شيئا من هذا القبيل، انما هي اجراء يستطيع أن يقوم به أي ممرض. ولذلك أمر الطبيب عبد السلام أن يعد الغسيل. وذهب الرجل وفي صحبته العسكريان الى الحجرة الأخرى، وبقي الضابط والطبيب وحدهما في المكتب.

وكان من المستحيل أن يظلا ساكتين، وبدأ الحديث بالفتاة المرسومة على مجلة كانت في يد الطبيب، ثم تشعب الحديث

واكتشف الاثنان أنهما كانا ذات عام في مدرسة ثانوية واحدة، وأنهما يموتان في أغاني أم كلثوم، وان الضابط يسكن في العباسية، ولعبد المجيد شلة أصدقاء فيها، وان الاثنين لم يأخذا بعد اجازتهما الاعتيادية، فالرؤساء يحتجون بزحمة العمل. وقبل أن تمضي سلسلة الاكتشافات الى نهايتها، قال الضابط:

ـ يا أخي حاجة تعكنن بصحيح!.. داحنا كنا قاعدين حتة قعدة في روف واحد نعرفه في مصر الجديدة.. والليلادي كان لنا صاحب لسه جاي معمر من فلسطين.. وحليت القعدة.. وأم كلثوم بتغني هلت ليالي القمر. ولسه يدوبك بنبدي، والواحد بدا يتنعنش ويحس انه صح تمام الا ومخبر جايني ومعاه أمر التفتيش.. أعمل ايه؟.. رحت قاطع القعدة وقايم معاه.. الله يلعن أبو دي عيشة!.. بذمتك مش حاجة تعكنن؟!..

ووافقه الطبيب ان هذا شيء يعكنن، وافقه وهو ينظر الى عيني الضابط الجميلتين وقد غرقت حبتاهما الزرقاوان في بحيرة، ليست حمراء تماما، ولا هي بيضاء، انما لها وردية البين بين..

وقبل أن يوافقه أكثر، ويحكي له فصلا مماثلا حدث له في احدى لياليْ سلطنته، دخل عليه عبد السلام التومرجي قائلا بفرح وتهليل وكأنه اكتشف أمريكا:

ـ الحتة أهه يا بيه.. الراجل نزلها.. دي تطلع قرشين..

فرد الاومباشي:

ـ قرشين ايه؟!.. أقطع ذراعي إن ما زادت عن ربع وقية خروبتين..

وهز العسكري رأسه هزة خبير وقال:

ـ لأ.. وحته حلوه.. باين عليها غباره يا بوي..

وعلى عجل غادر الطبيب والضابط المكتب، والتفوا كلهم حول الرجل القصير الراقد فوق المنضدة العالية يستخرج كل ما في جوفه من خير ومن شر. وشخط الطبيب في عبد السلام يأمره بوضع القطعة مع بقية الغسيل في حرز ويختمه بالشمع، وتلألأت عين الضابط الوردية بالفرح، وقد ثبتت الجريمة، وأصبح جسدها في حرز حصين. واقتيد الرجل في النهاية وقد أعيد الحديد الى يديه ومشى بين حراسه يقول في صوته الضعيف الثائر:

ـ مظلوم يا ناس!.. والله مظلوم!..

في الليل .

كانوا قد تجمعوا كما اعتادوا التجمع كل ليلة وكان الملل قد بدأ يتسرب إليهم، وأملهم في ظهوره راح يتأرجح .

وجاء واحد وقال انه رآه عند الجامع .

وتهلل الجالسون والواجمون . .

كان بعضهم قد مدد رجليه في إعياء وملل، وكان آخرون قد تربعوا، والباقون قد أراحوا ظهورهم على الجدار ليريحوا ما فيها من ألم ممض، وكانت أجسادهم كلها ليس فيها موضع لتعب آخر، وقد أتوا بعد العشاء كالاشباح الناحلة السمراء قد اختلط في وجوهها العرق بالرماد، وطالت لحاها، واحمرت منها العيون .

وجاء قادمون جدد . .

وتبادلوا تحية المساء مع الجالسين، تبادلوها في فتور، وكان الواحد منهم ما يكاد يجلس حتى تزحف ذرات التعب الذي لاقاه طول النهار كجيوش النمل آخذة طريقها الى رأسه، فيتخدر جسده لزحفها، ويسكر، ويحس بالراحة تتصاعد من جوفه فتلطف جفاف

حلقه وكأنها حبات نعناع .

وقال واحد وهو يناجي نفسه أكثر مما يخاطب الآخرين :

ـ يا سلام . . الدنيا ضلمة يا ولاد . . والعتمة حلوة .

وما كان الليل جميلاً لما فيه من سكون أو نجوم ، وإنما كان جميلاً لأن ليس فيه عمل، ولأن فيه راحة وجلوسا ، ولأنهم يستطيعون فيه الحديث ويحسون اذا جلسوا واستراحوا وتحدثوا أنهم بشر مثل سائر البشر.

ومع أن الليل كان هناك، وكانوا جالسين مرتاحين الا انهم ملوا ما راحت أفواههم تلوكه من تافه الأخبار، وسرعان ما مات الكلام على أفواههم وتجمد.

وتبادلوا نظرات متثائبة، في تثاؤبها تساؤل، وفي تساؤلها قلق غامض.

ومرة أخرى راحت أسئلتهم تترى عنه .

وقبل أن يعودوا ويملوا السؤال، جاءهم الصوت الرطب الواضح الخارج، الحلو، المملوء بالرنين، يقول :

ـ مساء الخير يا رجاله . . .

* * *

وتحركت ألسنتهم وقد طال سكوتها :

ـ مساء الخير يا عوف . . ليلتنا ندا يا عبده . . انت فين يا

أخي . . يا ميت ندامة على اللي حب ولا طلشي . .

وبينما الجماعة قد علتها ضجة الترحيب به، لم يتمالك بعض منها نفسه وهو يرى الابتسامة الحائرة التي تود الظهور على وجه عوف فيمنعها أدبه، لم يتمالك نفسه وهو يقارن وجهه الجاد بالهزل الذي قاله، والذي سوف يقوله، فانطلق يضحك.

ولم ينتظر عوف أن يهدأ الهيجان، وانما انسل في رقة وأدب، وركع في سرعة على ركبتيه قبلما يقوم له أحد، ومد يده في خجل مؤدب وسلم عليهم واحدا واحدا بحرارة وهو يقسم ألا يتعبوا أنفسهم ويقوموا، واندفع الذين لم يضحكهم أدبه، فضحكوا على حرارة سلامه وغلظ قسمه.

وأخيرا جلس، بينما تنحى أناس، واعتدل آخرون، وامتدت أذرع تصلح أوضاع الجالسين، وتوسع الحلقة.

وتلاقت العيون والاسئلة كلها عليه وقد تربع ووضع قبضيته متلاصقين في حجره كما اعتاد أن يفعل، ولمعت بشرته السمراء والابتسامة ما زالت تتردد قبل ظهورها على ملامحه.

كانوا يودون سؤاله مثلا ان كان وجد عملا. وآخر عمل كان يقوم به عوف كان مع تجار البهائم، اذ كان عليه أن يوصل بضاعتهم من المواشي الى الأسواق قبل الفجر، وحين ينفض السوق يعود بما بقي دون بيع، وما جد بالشراء، وكان لا يعود قبل حلول الظلام.

وانتهى موسم التجارة، ووقف سوق البهائم، وأصبح عوف مرة أخرى بلا عمل.

وكانوا يودون سؤاله أيضا أين كان طيلة ما بعد العشاء، اذ لا ريب أنهم كانوا لا يعرفون كيلة الاذرة، وما جرته عليه من مصائب، ولا ما أجبرته عليه من سؤال وهمس وإلحاف.

وما استمر السكون الذي صنعه قدوم عوف طويلا، اذ سرعان ما رفع رأسه، وحدق فيهم جميعا دون أن ينطق حرفا، وأدار رقبته، وشمشم بطاقتي أنفه، وتابع الموجودون حركاته وهم صامتون يخمنون ويستعدون. وظل عوف برهة يحاور عيونهم ويلاعبها، ثم جعل ابتسامته تضحك ضحكتها القصيرة الخاطفة وأتبعها بقوله وكأنه يستنكر:

ـ واللا هاو آريو يا رجاله! . .

وانفجر الجمع ضاحكا. .

ولم تتحمل الصدور ما فيها من ضحكات، فسعلت، وضحكت، ثم سعلت. واستلقى بعضهم على ظهره ليضحك أكثر، وانثنى البعض حتى لاصق وجهه الارض وهو يضرب بيده على فخده وقد تشنج ضاحكا.

لم يكن ما قاله عوف يستحق كل هذا الانفجار، بل ما كان قوله غريبا على أسماعهم، ولكنهم كان يكفي أن يروه أو يسمعوه، أو حتى تأتي سيرته ، لتنساب منهم الضحكات. كان هو التميمة القادرة

دائما على فتح أفواههم وقد سمرها طول النهار.

ولم تكد الموجة الأولى تنحسر، ويبدأ الضحك يتحول الى همس ضاحك، حتى قال عوف بصوته الذي فيه بحة رنانة يذوبون فيها:

ـ كيلة الدرة يا ولاد! . .

ودون أن يعرفوا ما هي الحكاية قهقهوا بكل ما يملكون من صدور. .

واستطرد عوف القهقهات تترى من حوله:

ـ أني سايب الوليه من غير عشا يا جدعان! . .

ولعلعت الضحكات، ووضع البعض أيديهم على بطونهم حتى لا تتمزق بينما تعبت بطون الآخرين.

ولما لم يجز عليهم ما في وجهه من جد ولا ما في ابتسامته المؤدبة من تردد، ولا ما في ملامحه من حزن وتأثر، هز رأسه في يأس ووسع ابتسامته على قدر ما استطاع، وتلفت حوله وهو يدير رقبته في استسلام، وعلى يمينه كان هناك جالس قد استحوذ عليه النعاس رغم كل تلك الضجة، وراح يفقر، ورأسه تهوي على صدره ثم تنتفض عائدة الى مكانها فوق رقبته.

ومضى عوف يتأمل الرأس الصاعدة الهابطة عن يمينه وقد ران عليه تفكير عميق وكأنه أمام معضلة لا حل لها. وكان الجالسون ينظرون اليه، ثم الى النائم ولا يستطيعون بعد هذا أن يملكوا زمام

أنفسهم فيضحكون. وبدا على عوف أنه قد وجد الحل، فقرب فمه من أذن النائم ثم قال بأعلى صوته وكأنه يهش على جدي كبير:

ـ سك.. سكك دبحه!..

وثارت عاصفة ضحك عاتية، واستيقظ النائم على ثورتها نصف مذهول واسترد وعيه وهو يضحك، ثم أسرف في الضحك حتى قهقه، ولما رأى العاصفة مستمرة قام، وخلع طاقيته الصوف ورماها وداس عليها بقدمه الغليظة ثم سب أبا الدنيا وقعد وهو يبتسم في سذاجة وذهول.

ونسي عوف نفسه وسوق الماشية والكيلة وما بعد العشاء، وقد أعجبه ما أشاعه فيهم من ضحك وحياة، بل إنه أحس بشيء غير قليل من الفخر والتيه وهو يرى كلماته تتلاعب بعقولهم فتحركها أنى تشاء.

ونسي الحاضرون أنفسهم هم الآخرون، ونسوا حياتهم.

وما كان يأتيهم النسيان الا بعد عناء.

وبدأوا يضحكون حقيقيا..

وأيضا ما كان يأتيهم الضحك الا بشق الأنفس.

كانوا يضحكون أول الأمر وهم فقط يقلدون من يضحكون.

ثم يحسون أن ما هم فيه يستحق الضحك فعلا فيضحكون.

ثم يرون أن ما أمامهم فرصة ينعمون فيها بضحك لا ثمن له،

وهم ما اعتادوا أمثال تلك الفرص. . فيضحكون لحاضرهم ويختزنون ضحكات أخرى للمستقبل. .

ثم كانوا يتذكرون ما قاسوه في النهار، وما سوف يبذلونه في الغد المقبل فيتشبثون بما هم فيه من ساعة أنس، ويضحكون ويغصبون على أنفسهم ويضحكون أكثر وأكثر.

ولا يدوم هذا الى الابد. .

فسرعان ما يمسح عجوز منهم الدمعة الضاحكة عن عينيه ويقول بصوت فيه رنة ندم وكأنه اقترف اثما:

ـ اللهم اجعله خير يا ولاد. .

* * *

وفي لحظة من لحظات السكوت نادى واحد وطلب شايا لعوف. .

وأحس الموجودون كلهم أنهم غفلوا عن شيء خطير، وأنهم أخطأوا في حق الرجل وقد منعهم الهرج من القيام بالواجب، ولذلك راحوا يتنافسون، وكل منهم يصر أن شاي عوف سيكون على حسابه. وعوف قد جلس جلسته المتربعة المؤدبة الخجلة يتمتم من بين شفتيه الوادعتين:

ـ خلي عنكو يا رجاله. . خلي عنكو. .

ولكن الرجال لم يخلوا عنهم، بل وطلب كل منهم لنفسه طلبا

وكأنهم يجلسون في أحسن قهوة، والمكان ما كان حتى غـرزة، وانما هو فضاء صغير تحده البيوت الداكنة المنخفضة، وفي وسـطه حفرة، فيها نار، وعلى النار براد كبيـر، رأى صاحبـه أن يجلس، ويضحك، وأيضـا يعمـل، فكـان يصنـع لهم القهـوة والشـاي، ويـرص لهم الكراسي . .

وسرعان ما وزعت الاكواب على الـذي معه والـذي ليس معه، فما كان لحظتها مهمـا من الذي يـدفع، وقـد أصبح مـا في جيب كل منهم ليس هـو محط تفكيـره وبؤرة اهتمـامـه، ولكن أصبـح مـا في الجيب آخر ما يفكر فيه، وإخـراجه أسهـل، والندم الـذي يعقبه أقـل وأوهى .

وراحت أفواههم التي عليها بقايا ضحكات وابتسامـات ترتشف ما في الاكواب، وأحسوا لأصوات رشفاتهم، وحشرجة شفطهم ترنيمة رائقة تتصاعد في جوف الليل الساكن الساجي وكان القـدح الذي في يـد عوف مجمـع أنظارهم فقـد كان ممسكـا ايـاه بـطريقتـه الـرشيقـة ويـرتشف منه بفمـه الذي ضيقـه ودقق من فتحتـه بينمـا لمعت سمـرة وجهه بعرق خفيف أشاعه دفء الشاي . .

وأخـذ واحـد منهم رشفـة ذات نغم طـويـل ثم مصمص حلقـه وقال :

ـ ازاي الحال . .

ولم ينتظر ليرد عوف وانما مضى يسأله :

ـ ازاي الحال دلوقتي؟! . .

سأله وهو يبتسم. وفي تؤدة واتزان قبل عوف باطن يده ثم قبل ظهرها ونظر اليه بعينيه التائهتين السارحتين وقد ضيق المثلث الضاحك الذي فيه شاربه وقال:

ـ عال. . نحمده. . أنضف من الصيني بعد غسيله. . والاشيا معدن. .

وسخسخ الحاضرون ضاحكين، وتساقط بعض ما في الاكواب على أيديهم فلسعها، وتساقط على أثوابهم فما سألوا فيها، بينما اصطدمت الضحكات الخارجة من أفواهم بالرشفات الداخلة، فاحتقنت الوجوه وشاعت فيها حمرة غريبة على ما كان فيها من شحوب، ولم يرحمهم عوف وانما استطرد:

ـ هو طول ما انت فيها يا أبو وش يملا كنكه احنا حنشوف طيب. .

وانهال عليه بلسانه. .

وكان المضحوك عليه أول الضاحكين، فما تأثر أو اربد، بل أسعده في الحقيقة أن يتخذه عوف هدفا للذعاته. وما كان أحد يستطيع أن يزعل من عوف أو يتأثر من كلامه. كانوا كلهم قد أجمعوا على حبه رغم أنه كان أفقر رجل في القرية ورغم أن حياتهم كانت جدباء صعبة لا يستطيع الحب أن يجد له مكانا فيها، ولا يستطيعون العيش الا اذا كرهوا وحقدوا وتخاطفوا. كانوا ككل من في القرية يودون الحياة، ولا حياة هناك الا بالصراع، ولا بقاء الا للأقوى.

وفور فيهم ما احتسوه من قهوة وشاي نشاطا، وتلمظ عوف ووجهه يلمع، وبحث فيهم بعينيه التائهتين، ثم توقفت ابتسامته وقتا غير قليل على واحد منهم وأشار اليه بطرف ابتسامته وقد ضيق احدى عينيه وقال في أدبه وخجله:

ـ الا معاكشي حتة ألف يا عويد؟..

ولم يملك الرجل يده فامتدت للتو في جيبه وأخرج علبة صغيرة غمس فيها عود كبريت وقدمه لعوف وعليه سنة أفيون وحين كان يرجع العلبة الى جيبه وقد عاد كما كان ينظر الى الرجال حوله، لمح في عيونهم رغبات، ومرة أخرى لم يستطع أن يملك يده، فاستمر عود الكبريت رائحا غاديا بين العلبة وبين ألسنتهم وقد أخرجوها من أفواههم ومدوها على قدر ما يستطيعون.

وعلى رشفات الشاي مصمصها عوف والألسن حوله تتحرك في الأفواه المقفلة فتنبعج لحركتها الاشداق. وفي جرعات أخرى من الشاي ابتلعوا ما أذابوه، وبدأ الانسجام.

وأحسوا جميعا بريقهم يجف وحلوقهم تطلب الكثير من الدخان. ودارت الجوزة التي لا شيء عليها، وراح الرجال يعتصرون صدورهم ويجذبون الأنفاس، وتزدحم عروق رقابهم النحيلة بما في أجسادهم من دم قليل وهم يجذبون ويجذبون، والجوزة تكركر وتجأر كعربة نقل ينوء محركها بما فوقها من أحمال، وغامت الجلسة بسحابات الدخان الرمادي الرخيص وهي تنعقد وتنفض فوق الرؤوس.

وقال عوف وكلماته تصنعها دفعات الدخان التي ينفثها:

ـ عارفين الحرب التي قامت ليه يا رجالة؟..

وانتبهت العقول كلها، وصمت القليلون المتحدثون، فقد كانوا يتوقعون هذا السؤال أو مثله من زمن، ويأملون وقد طال بهم الانتظار أن يتحفهم عوف بحكاية.

ولم يجب عوف مرة واحدة، انما بكلماته التي كان ينتقيها بخبرة وروية ثم يقطعها وينغمها ويمثلها، وبملامح وجهه التي يملك زمامها كلها ويستطيع أن يقول بها ما شاء دون حاجة الى كلام، وبحنجرته التي تخرج منها الاصوات لها بحة الناي الحزين الذي يضحك حزنه، بهذا كله بدأ عوف في رواية القصة فتنحنح ثم قال:

ـ انتو عارفين جدكو عامر يا ولاد؟..

وضحكوا قبل أن يقول حرفا آخر. اذ ما كادوا يتصورون الجد عامر العجوز الذي ترك وراءه التسعين وبدأ يتطلع الى المائة والذي قضى حياته لا يعرف الا الزرع والصلاة، والذي كانوا أول الأمر يجعلون من كلامه حكما يرددونها في المناسبات، لا لشيء الا لأنه عجوز وشعره أبيض كله. ما كادوا يتصورون الجد عامر وعوف يردد نفس حكمه بنفس كلماته فيدركون مدى سخفها، وكثرة ما فيها وما في حكم الكبار كلهم من تخريف.

ما كادوا يتصورون هذا حتى ضحكوا وأغرقوا في الضحك، واستمر عوف يقول وهو يغالب ابتسامته:

ـ كان مرة جدكو عامر هو وأبوكو اسماعين قاعدين يشمسوا في ضهر الزريبة. وانتو عارفين الاتنين ولله الحمد خبراء من الدرجة الأولى في الفقر وقلة البخت. وبعدين السياسة حزقت أبوكو اسماعين قوي، قام قال:

ـ ألا بذمتك يا جد مخيمر. . وحياة الله يرحمها دنيا وآخرة جدتي أم عاشه. . وحق من أماتها يا شيخ. . عارفشي الحرب قامت ليه؟. . قام جدكو عامر هرش ضهره في الحيطة وقاله: بقى يابن أم خرزه ما نتاش عارف ليه؟. .

قال له: والله أهو أني عارف كل زقاق في السياسة الا المدعوقة دي. .

قام جدكو عامر اتنهد وقالوا ايه: أما عقلك فارغ صحيح. . دا يا واد الحكاية بسيطة قوي. . الالمان قالوا للانجليز طيابيركو ما تمشيش مع طيابيرنا في سكة واحدة. الانجليز قالوا رأسنا وألف سيف. . وهب. . راحت قايمه. .

وما كانت تلك أول مرة يرويها، ومع هذا فقد ضحكوا لها وأسرفوا في الضحك، فالحكاية من فمه كانت لها لذة، وروايته لها وتمثيله اياها كانت تضفي عليها رونقاً جديدا.

وانتهت القصة ولم تنته القهقهات التي انبعثت وراءها والتي كانت تتصاعد حية مليئة بالحياة والرغبة فيها، تتصاعد من أعماق القرية الراقدة كقبعة سوداء كبيرة من الصمت القتيل.

وأعادت ضحكاتهم الكثيرة كل ما جار عليه الزمن من إنسانيتهم وانتشوا وهم يحسون أنهم مثل الافندية تماما، لهم قعدة ومجلس، وتحكى من أجل ايناسهم القصص.

وتعالت الاصوات تطلب من عوف المزيد وقد هضموا كل ما فات..

وتمنع عوف أول الأمر ككل فنان، ثم انطلق يحكي عن أبيه وكيف كان لا عمل له الا الصيد بالسنارة، وكيف كانوا يتعشون كل يوم سمكا.

ويحكي عن لسان أبيه وطوله، وخاصة ساعة الطبلية، وما كان يتبادله هو وأبوه من قفشات حتى ينقلب عشاؤهم آخر الأمر الى سامر يتجمع له الناس ويتسمعون من وراء الباب. ثم يذهبون بعيدا ويضحكون.

والمرة التي طلعت لأبيه في السنارة فردة حذاء، والمرة التي رأى فيها الجنية وكاد يتزوجها..

ولا تفرغ قصص عوف..

وكانوا يحبون كلهم حكاية ذهابه الى المولد وهو صغير والثلاث ورقات والملحمة الكبيرة التي قامت ليلتها واستوعبت كل ما في المولد من شماريخ وخيزرانات وحلاوة ورجال.

ولا يستكن لسان عوف.

كـان يسخر من كـل شيء. . من الناس. . ومن نفسـه. . ومن الحياة التي يحيونها. .

كان قد لف مصر من أولها الى آخرها، ودخل السينما، وشاهد المتـاحف وقام بـأنواع لا أول لهـا ولا آخر من الاعمـال، وعـاش في القاهرة وعرف مخابىء الاسكندرية أيـام الغارات وتعلم هـاو آريو من الجيش الانجليـزي حين كـان فيـه. وكـان يـدور دورتـه ويعـود الى القرية:

ألاقي أبوك الحجعلي لسه بيقول للفحلة. . عاه يا بنت الانيته، وخـالتك أم بـركة لسـه بتـدور على فـرن خـابـز تشحت منـه رغيف، والعمـدة لسه متنـك على قرمـاية الخشب وأبـوك مخيمـر واقف جنبـه لابس حتة العباية اللي ما تساويش تلاتـه أبيض، ودي بنت مين اللي فايته يا مخيمر؟ يقوله. . دي بنت فـلان يا عمـدة اللي اجوزهـا علان واللي طلقهـا تلتان. . حـاجة تفلق اللي مـا ينفلقش. . الدنيـا تنشـال وتنهبد وبلدنا ولا هي هنا. . يا رب لا اعتراض ولا مانع. . انما ادنته شايف.

وحين كانوا يسمعونه يشـرق ويغرب ويقـول كل مـا عنده كـانوا يهـزون رؤوسهم ويضحكون وهم يـوافقـون، ويحسـون بفـرحـة وهم يوافقون، ويزدادون بكل حكاية من عوف ايمانا بأن حياتهم لا جديـد فيها ولا طريف. . حتى الموت ما كان فيه من جديد، وانما كان عودة حزينة لحزن قديم. . الناس تولد وتكبر ثم تمـوت، والبقرة تـدور في السـاقية مغمـاة لا تدري أين تسيـر، وعيون السـاقية تغتـرف الماء من

بـاطن الأرض، وتمتليء بـه، ثم تصبـه العيـون، ليعــود إلى الأرض وباطنها. . لا جديد في حياتهم ولا طريف. .

* * *

وفجـأة سكت عـوف عن كـلامـه، وسكت النـاس لسكـوتـه، وتحولوا ينظرون حيث ذهبت عيناه، ومن بعيد أقبل شبح أسود طـويل عرفوا فيه امرأته وكلها سواد في سواد حتى وجهها قد غطته، زيادة في الحياء، بشاشها الاسود الذي لا يخلو من ثقوب.

وكانت تمسك بمفتاح ضبة بابهم الخشبية وتتلاعب به.

ومن بعيد أيضا جاء صوتها رفيعا كقوامها، طَوِيلا كطولها:

ـ عبد الرحمان. .

وارتـج على عوف ومـأمأ بـرأسه، ثم خفضهـا وهو ينحني حتى أصبحت بين فخـذيـه. . وقــال في همس مملوء بـالخـوف الـذي يضحك:

ـ ولاد. . اني مش هنا. .

وسمعوها تغمغم بكلام لم يسمعوه، ثم نادت بعد برهة بصوت يائس وقد نفد صبرها:

ـ يـه. . شوفـوا الراجـل يا خـواتي واني لفيت عليـه البلد حتـة حتة. . عبد الرحمان. .

وأفلح البعض في كتم ضحكاته، ولم يفلح. آخرون، ولعلها لمحته وهو منحن وقد قارب الارض فإنها صرخت قائلة:

ـ وطي كمان وطي. مانتاش مكسوف والنبي عليك.. سايب الدار على الحميد المجيد وجاي تنصب السامر بتاع كل ليلة.. عبد الرحمان..

ولم يجد عوف بدأ من الظهور فاعتدل شيئا فشيئا وهو يقول لمن حوله هامساً:

ـ أهي قلبت بغم يا رجاله!..

ورفع صوته جادا لا أثر للهزل فيه وقال:

ـ روحي يا بت..

وتعالت الضحكات لجده وامارته..

وردت المرأة وقد عيل صبرها:

ـ والنبي يا شيخ؟!.. اسم الله عليك وعلى حواليك!.. مش تلايمها شوية.. فين يا راجل حق كيلة الدرة اللي انت قايللي دقيقة واحدة وحاجيبه؟!.

وبنفس الصوت الجاد قال عوف بعصبية أكثر وقد تذكر كل شيء:

ـ روحي يا بت اختشي..

وضحكوا كما لم يضحكوا في ليلتهم بل في أعمارهم كلها.

وأغاظت ضحكاتهم المرأة فقالت وهي تكاد تصرخ:

ـ والله ماني منقولة الا أما تجيب حق الكيلة.. دا صاحبتها قاعدة في الدار ما المغرب.. سامع والا لأ..

وأجاب عوف بصوت عال:

ـ لا مش سامع..

فقالت وهي مغيظة:

ـ عنك ما سمعت.. هه.. وآدي قعدة..

وحاولوا مرة أخرى أن يتأدبوا ويكتموا الضحكات، والمرأة تنتقي لنفسها مجلسا فوق كومة سباخ عالية. ورفع عوف رأسه ونظر اليها وهي ممتطية الربوة كأم قويق، وسكت برهة، ثم قال بصوت نصفه ضاحك، ونصفه جاد:

ـ روحي يا بت يام وش زي وش السلندر.

ومع أنهم ما كانوا يعرفون ما هو السلندر الا انهم انثنوا وتمايلوا مقهقهين وعيونهم قد شدت الى عوف الجالس لا يعرفون ان كان هو جاداً في كلامه أم هازلا..

ولم تسكت المرأة وإنما قالت على الفور:

ـ والنبي ماني مروحة يابو رأس أنعم من البريزة الماسحة.

واستمرت الضحكات تترى بلا انقطاع..

وقال عوف وهو يزيد النصف الضاحك من صوته:

ـ والنبي ان ما روحتي لقايم فاتح بطنك ومطلع منه طعم. .

وما عاد الحاضرون يتمالكون أنفسهم ولا يعرفون ان كانوا يضحكون أو لا يضحكون. .

وبينما هذا يحدث كان بعضهم يفكر فيه من ناحية أخرى، وتمنى أكثر من جالس أن يمد يده الى محفظته الكالحة ويستخرجها ثم يسقط في يد عوف ثمن الكيلة. ولكن أمانيهم بصيرة، وأيديهم قصيرة ـ جد قصيرة.

وكان عوف هو الآخر يضحك بقلب، ويحلم بقلب آخر. . أن تمتد يد في حجره وتدفىء أصابعه بالثلاثين قرشا التي داخ عليها من المغرب. وبقيت أصابعه باردة في حجره. .

وشخط عوف في المرأة قائلاً:

ـ عليّ الطلاق ان ما روحتي. .

وعلى الفور نزلت المرأة واستدارت عائدة بشبحها الأسود الطويل. .

وقال عوف وقد سره ما أحدثته الشخطة واستعاد لسانه الحاد:

ـ شايفين يا ولاد. . والنبي رجل مراتي اليمين بتنفس. .

واختلطت القهقهات بالأصوات وسمعوا ضحكة تفلت من المرأة المبتعدة رغما عنها.

وكانوا قد تعبوا وما عادوا يستطيعون الضحك فسكتوا. وسكت الليل. وسكت كل شيء وأصبح لا صوت هناك الا نقيق الضفادع وتنهدات البعضر والماء وهو يغلي في البراد ويفور.

حتى عوف كان قد أرخى رأسه على صدره وكأنه يفكر.

واستمر الصمت زمنا لم يقطعه الا عوف حين رفع رأسه وقال وهو يستغرب منهم السكوت، ويحدق فيهم:

ـ والله هاو يا رجاله . .

وانفجروا يضحكون، واستمرت الضحكات تنفجر وهي لا تريد أن تنتهي وكان يبدو أنها لن تنتهي لولا أنهم سمعوا همهمة لم يألفوها وحمل اليهم الظلام جعجعة شيخ الخفراء المعهودة ونبراته القاطعة الحادة:

ـ واد انت وهوه . . انتو عاملينها غرزه يا ولاد الكلب. قوم قامك عفريت منك له . .

وكان أول من تسلل لا يلوي على شيء هو خالي الوفاض منهم، أما الذي في حافظته قرش أو يتدفأ جنبه بورقة فقد تكاسل قليلا وهو يقوم، ولما وقف تثاءب كثيرا وتمطى ثم مضى في خطوات وئيدة وهو يلقي بالسلام الى من حوله، ويشدد على عوف باللقاء في ليلة ثانية، وكلهم يحسون ان الليلة قد انتهت وما كان يريد لها أحد أن تنتهي.

واستوقف شيخ الخفراء عوف، وقال له بعد أن اطمأن الى ذهابهم جميعاً:

ـ واد يا عوف. . ازيك؟ . .

وفهم عوف ما يريد، فقال له وكأنه يؤدي فرضا عليه:

ـ هاو آريو يا شيخ الغفر. .

وقهقه الرجل، وظل يقهقه ويتلوى وعوف يأخذ طريقه الى داره. .

ومضى الليل. .

* * *

وقبل شروق الشمس الجديدة كانوا جميعا يأخذون طريقهم الى النهار، وكانوا يأخذون طريقهم اليه ووجوههم باسمة وأطياف من الليلة التي مضت تلوح لهم وتظل عالقة بخاطرهم تخفف ما في نهارهم من حدة. .

وكان عوف يتسلل هو الآخر كالعصفور المبتل، مؤدبا وخجولا، ليستأنف همسه وسؤاله عن ثمن الكيلة.

المحتويات

رقم الإيداع : ١٩٥٨ / ١٩٩٠
الترقيم الدولى : ٢ ـ ٤٠٥ ـ ١٤٨ ـ ٩٧٧

مطابع الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسنى ـ هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ ـ ٣٩٣٤٨١٤
بيروت: ص.ب : ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣

يوسف إدريس

القصص القصيرة 2